تاريخ

# فرنسا الحديث

تاليف

## سليم البستاني

يتضمن تاريخ الامبراطور نابوليون الاول وينتهي بوفاتهِ . جمع جناب الشيخ خطار الدحداح نحو مائة صفحة من اوله هذبها المولف وبيضها ونقحها . واما سائر صفحاتهِ فمن قلم المولف لما كان لهُ من السن ٢٥ سنة بلا تبييض من تراكم الاشغال

لاريب ان من طالعهُ يشهد بجزيل نفعهِ وكبير فائدتهِ وبانهُ لا مثيل لهُ في تواريخ العالم جُمعت فيهِ اعظم المنافع السياسية والادارية والتدابير الحربية

GHARZOUZI LIBRARY

طبع في بيروت في مطبعة المعارف سنة ١٨٨٤

٤/٢/١٢
١٠١٨٤٥

## مقدمة الكتاب

بعد حمد الله تعالى وبمعونتهِ قد عزمت بالاستحسان على طبع تاريخ فرنسا الحديث اجابة لطلب كثيرين من اولي الخبرة والاطلاع ومن المعلوم ان هذا التاريخ يعدّ من اجلّ التواريخ المتاخرة لما بهِ من الفائدة العمومية عقليًا وحسيًا ادبيًا وماديًا علمًا وصناعةً ولا سيما من جهة السياسة الدولية لانهُ تضمن على الخصوص سيرة رجل من اكابر رجال الدنيا المشهورين بالدراية والتدبير والسياسة والذوق وهو نابوليون بونابرت وقد عظم شان هذا التاريخ باشتمالهِ على كل حياة هذا الرجل الشهير وانتهائهِ بانتهاء حياتهِ في جزيرة سانتاهيلانة واذ كانت سيرة نابوليون المنشورة بين ايدي القوم ليست بمستوفية روابط كل الحوادث المتعلقة بتاريخ نابوليون خصوصًا وتاريخ الدولة الفرنسوية عمومًا كان نشر هذا الكتاب مما يجب الالتفات اليهِ وقد علمت اشتياق كثيرين من رجال المعرفة الى الاطلاع على مثل هذا التاريخ بالضبط والدقيق والاستيفاء المقتضى في صدد مثل هذا الصدد فنحن نحث كل ذي رغبة في الاطلاع على اهم التواريخ المتاخرة بان يوجه اليهِ افكارهُ لانهُ لا يمكن ان يكون تاريخ في بابهِ اكمل ولا ادق منهُ وباختيار الاطلاع عليهِ يتحقق الجمهور صحة رايناهِ فعلى الله الاتكال وبمعونتهِ بلوغ الامال



## مقدمة التاريخ

اصطلح المؤرخون على تقسيم ازمنة التاريخ بحسب السنين التي كانت تاتي بحوادث خطيرة موثرة تغير هيئة الجنس البشري السياسية وغيرها وتاتي بعادات واخلاق واصطلاحات جديدة. فقسموا تاريخ العالم العام الى اربعة اقسام. الاول التاريخ القديم ابتداؤهُ من الخليقة وانتهاؤهُ سنة ٤٧٦ للميلاد وهذه السنة هي التي سقطت فيها الدولة الرومانية الغربية بزحفات البرابرة الذين كانوا قاطنين في شمال اوربا. والثاني تاريخ الازمنة المتوسطة ابتداؤهُ من السنة التي ينتهي بها التاريخ القديم وهي سنة ٤٧٦ وانتهاؤهُ سنة ١٤٥٣. وقالوا ان هذه السنة هي نهاية الازمنة المتوسطة لان السلطان محمدًا العثماني الفاتح فتح فيها مدينة القسطنطينية فسقطت الدولة الرومانية الشرقية. وفي سنة ١٤٩٢ اكتشف خريستوفورس كولمبوس قارة امركا واكتشف فاسكودا غاما راس الرجاء الصالح فاتى ذلك الزمان الواقع بين اواسط القرن الخامس عشر وبين اخرهِ بالتقلبات الكثيرة التي غيرت هيئة العالم ووسعت دائرة تجارتهِ ولذلك قالوا ان سنة ١٤٥٣ للميلاد هي بداية تاريخ الازمنة المتاخرة وهو يبتدئ من سنة ١٤٥٣ للميلاد التي ينتهي بها تاريخ الازمنة المتوسطة وينتهي سنة ١٧٨٩ للميلاد. وقالوا ان هذه السنة هي نهاية تاريخ الازمنة المتاخرة لان الثورة الفرنسوية العظمى حدثت فيها وهذه الفتنة هي موضوع ابتداء التاريخ الذي شرعنا في تاليفهِ ولا يخفى ان تلك الثورة لم تؤثر تاثيرات سياسية وادبية ومادية وغيرها في فرنسا فقط بل اتت سائر العالم بعصر جديد يفتخر بهِ اهلهُ. وسياتي بيان ذلك بالتفصيل

واما القسم الرابع فهو التاريخ العصري اي تاريخ الازمنة الحالية ابتداؤهُ من سنة ١٧٨٩ للميلاد وهي السنة التي ينتهي بها تاريخ الازمنة المتاخرة واما نهاية هذا القسم فلم تتقرر بعد في التاريخ لانهُ يتضمن حوادث الزمان الجاري في مرور الدهور الحاضرة واذ كانت الثورة الفرنسوية المذكورة فصلاً لزمان من ازمنة التاريخ كان الاطلاع على تاريخها من الامور التي تهم جدًا اهل عصرنا هذا. ولما كانت فرنسا اقرب الممالك الينا للعلاقات التجارية واللغوية الجارية بينها وبين الشرق قد اخترنا هذا الموضوع للتقرير ونشرناهُ تعميمًا للفائدة التي ياتي بها فن التاريخ الجميل الذي هو من اجل الفنون الاساسية التي تبنى عليها الادارة السياسية والاعمال والمشروعات العامة. فنسال الله التوفيق الى المقصود وهو حسبنا واليهِ ننيب

## تمهيد

### في تاريخ فرنسا منذ الازمنة القديمة الى ابتداء الازمنة الحديثة

لا بد قبل الدخول في الكلام على تواريخ الازمنة الحديثة في فرنسا من ذكر ملخص تاريخها منذ الازمنة القديمة الى ابتداء الازمنة الحديثة مع ذكر لمحة جغرافية عنها فنقول

ان فرنسا كانت تسمى في الازمنة القديمة غلية (Gaule) وهذه البلاد لا تزال متصلة الى الان عن بعض اراضيها الواقعة داخل الحدود الطبيعية التي تصلح ان تكون حدوداً لها . فان تخومها الاصلية كانت من جهة الجنوب البحر المتوسط وجبال برنات الفاصلة بينها وبين اسبانيا ومن الغرب الاوقيانوس الاتلنتيك ومن الشمال البحر الشمالي ونهر الرين ومن الشرق نهر الرين بطوله من مخرجه الى مصبه وجبال الالب . واما الان فليس لها من التخوم ما كان لها في ذلك الزمان لانها في سنة ١٧١٥ للميلاد وفي سنة ١٨٧١ فقدت حدودها الطبيعية في الجهة الشمالية والجهة الشرقية . والفاصل بينها وبين بلجكا في الجهة الشمالية وبينها وبين المانيا في الجهة الشرقية هو خط صناعي اقامته يد السياسة ومع ذلك لا تزال فرنسا كما قال العالم استرابون عنها اجمل ارض سياسية وتجارية

اما مساحة بلاد فرنسا من الشمال الى الجنوب فهي ٩٨٠ كيلو متراً (الكيلومتر عبارة عن الف متر والمتر عبارة عن ذراع ونصف تقريباً) فتكون مساحتها نحو ١٢٠٦٦٦٩ ذراعاً . ومساحتها من الشرق الى الغرب ٩٢٥ كيلو متراً وذلك مع الالزاس وبعض اللورين اللتين اخذتهما المانيا وهو عبارة عن ١٢٤٦٦٦ ذراعاً . اما مساحتها المربعة فهي ٥٤٧ الف كيلو متر وهو عبارة عن ٨٢٩٢٢٢٢٢ ذراعاً . اما عدد اهلها قبل سنة ١٨٧١ فكان نحو ٣٨٢٨٢٠٠٠ نفس . اما الان فهو ٣٦٩٤٠٤٠٠ هذا اذا طرحنا عدد سكان الالزاس وخمس اللورين وهو نحو ١٤١٦٨٠ ومن املاك فرنسا في اوربا جزيرة كورسيكا وجزائر بيرفي الجهة الجنوبية من البحر المتوسط وجزائر اوليرون ووسان وبل ايل وايل دبو في الجهة الغربية من الاوقيانوس الاتلنتيك

وقد ملكت فرنسا بعض البلاد في غير قارة اوربا منها في قارة اسيا فرضة بوندبشري وكاريكال وماهي ويانان وشندرنغر في الهند وجنوبي كوشين صين وقصبتها سايكون . وفي افريقية بلاد الجزائر في الجهة الشمالية وولاية سنغال وملحقاتها في الجهة الغربية وجزائر ريونيون اي الاجتماع وسنت ماري ومايوط وخلافها في الجهة الجنوبية الغربية من افريقية . وفي امركا جزائر كثيرة من جزائر انتيلة اشهرها جزيرة غواد لوب ومرتينيك وقسم من ولاية غويانة في الجهة الشمالية الشرقية من امركا الجنوبية وجزائر سان بيير وميكلون وفي الاوقيانوس جزيرة كاليدونيا الجديدة وجزائر



مركيز ولها حماية جزائر مارتين وبعض ارخبيلات مجاورة لها

اما امة الغيلة اي الفرنسويون الاقدمون فكانوا على جانب عظيم من الشجاعة والبسالة ومحبة الحرية فانهم لم يكونوا يطيقون الذل والعبودية حتى ان الدولة الرومانية التي وطدت اركان سطوتها في العالم الذي كان معروفاً في عصرها لم تتمكن من قهر امة الغلية التي كثيراً ما كادت تهدم اركان المملكة الرومانية الا بعد ان صرفت سنين كثيرة في اجراء استعدادات عظيمة ولم تتمكن من التغلب عليها الا سنة ٥٨ قبل الميلاد . وكانت الدولة الرومانية تفرغ الجهد لنوال مآربها بالتغلب على الغيلة . ولما فتحها يوليوس قيصر القائد الروماني منحته الدولة الرومانية هبات وانعامات كثيرة ورفعت قدرهُ وشانهُ . ومع ذلك لم تقدر المملكة الرومانية ان تستولي على هذه الامة الا مدة قصيرة . وهي الامة الاولى التي خلعت طاعة الرومان واعلنت الاستقلال وذلك لما اتت الغلية قبيلة من القبائل الشرقية التي هاجرت من اسيا واتت اوربا ودخلتها من الجهة المجاورة لالمانيا . وهذه القبيلة التي اتت فرنسا هي المسماة بالقبيلة الافرنكية (ان الشرقيين يسمون كل الاوربيين افرنكاً اي افرنجاً مع ان هذا الاسم هو اسم قبيلة واحدة) وكانت هذه القبيلة مقسومة الى فصائل كثيرة على كل منها امير وجميع هولاء الامراء كانوا تحت إمرة امير واحد قيل انهُ كان يسمى فارامون وحكم هذا الامير سنة ٤٢٨ للميلاد . وفي سنة ٤٤٨ تقدمت قبائل الافرنك ودخلت الغلية الشمالية وطردت الحكام الرومانيين ووطدت اركان حكومتها في البلاد وذلك تحت قيادة اكبر امرائهم ميروفيوس وهو اول امير دعا نفسهُ ملكاً . وعندما تغلبت قبيلة الافرنك على بلاد الغلية وتنصر ملكها المسمى كلوفيس اختلطوا بالاهالي الاصليين وتغلب اسم الافرنك على كل امة الغلية فدُعيت بلادهم فرنكاً . وبعد ذلك ببعض سنوات بدلوا الكاف لخنة في لغتهم فصار اسمها فرنسا واسم اهلها فرنسي

## الفصل الاول

### في دول فرنسا القديمة

اصطلح المؤرخون على ان يسموا كل ملوك الافرنك الذين خلفوا ميروفيوس من عائلتهِ بالملوك الميروفيين او ميروفنجيين نسبة اليهِ . وهذه العائلة الميروفية هي الدولة الاولى التي تبوأت تخت مملكة الافرنك . على ان المؤرخين لا يؤرخون ابتداء مملكة الافرنك الا منذ عهد الملك كلوفيس بن شلدريك بن ميروفيوس وذلك في سنة ٤٨١ للميلاد لانهُ تغلب على جميع قبائل الافرنك الذين هو منهم واخضعهم لسطوتهِ وفتح قسماً كبيراً من بلاد الغلية وطرد الرومانيين من جميع الاقطار التي كانوا فيها . وكانت الديانة المسيحية قد انتشرت قبل ذلك بمدة طويلة في تلك البلاد فتنصر الملك كلوفيس سنة ٤٩٦ هو وعائلتهُ وجنودهُ واكابر دولتهِ . وكان هو الملك المسيحي

الوحيد في ذلك الزمان لان غيرهُ من الملوك كانوا قد تبعوا بدعة آريوس فعرفوا بالاريوسيين فحاز ملوك فرنسا التقدم الديني على غيرهم من الملوك الكاثوليكيين

وتبوأت الدولة الميروفية تخت فرنسا منذ سنة ٤٤٨ للميلاد الى سنة ٧٥٢ فتكون مدة ملك الدولة الاولى الفرنسوية ٣٠٤ سنوات وعدد الملوك الذين ملكوا منها ٣٤ ملكًا وهذه الدولة هي التي وطدت اركان المملكة الفرنسوية وسنّت لها قوانين ونظامات موافقة لروح ذلك العصر ومقتضيات احوالهِ . ومن اشهر تلك القوانين القانون المسمى عندهم بالقانون الساليكي (نسبة الى ساليك اسم قبيلة ميروفيوس) وهذا القانون لا يرخص للنساء ان يتبوان تخت فرنسا وان توفي ملك من ملوكها بدون عقب ذكر يتبوأ تخت ملكهِ اقرب اقاربهِ اليهِ من الذكور

وانقرضت الدولة الميروفية سنة ٧٥٢ للميلاد بدون ان يطرأ عليها ثورة ولا انقلاب ولا غير ذلك مما يتعلق بالعصيان . وسبب انقراضها هو بلاهة شلدريك الثالث ملكها الاخير فان كبير وزرائهِ بيبن كان على جانب عظيم من الحذق والنشاط والاقدام وكان من اكابر امراء فرنسا فوضع الملك شلدريك في دير وتبوا تخت الملك بلا مانع ولا معارض . وتسمى هذه الدولة الثانية بالكارلوسية او كارلوفنجية نسبة الى كارلوس مرتلوس بن بيبن الاول غير ان اشهر ملوك هذه الدولة واعظمهم هو كارلوس الكبير ابن بيبن الثاني بن كارلوس مرتلوس ويسميهِ المؤرخون شارلمان وكان معاصرًا لهارون الرشيد اشهر خلفاء العباسية من العرب . واشتهر شارلمان جدًّا في بلادهِ وغيرها ورغب في ترقية اسباب تقدم المعارف والفنون كما رغب فيها هارون الرشيد في الشرق وفتح اكثر اواسط اوربا واخضعها لسطوتهِ وتوفي سنة ٨١٤ للميلاد . اما ملك خلفائهِ فلم يثبت زمانًا طويلاً بعد وفاتهِ بل انقرضت دولة عائلتهِ سنة ٩٨٧ وعدد الملوك الذين تبوأوا تخت فرنسا من العائلة الكارلوسية ١٦ ملكًا . ولما كان لويس لودوبونير بن شارلمان ضعيفًا جدًّا غير قادر ان يقوم بحق سياسة كل الممالك التي فتحها والدهُ قسم قبل وفاتهِ مملكتهُ المتسعة بين اولادهِ الثلاثة فملك البكر منهم في المانيا والثاني في فرنسا والثالث في ايطاليا . ولما كان القاسم ابًا والمقسوم عليهم اخوة لم يعين لودوبونير حدودًا مناسبة لفصل فرنسا عن المانيا . ولكنهُ اعطى ولدهُ البكر الذي ملك المانيا بلادًا في الجهة اليسارية من نهر الرين مع انها كانت من اراضي فرنسا بحسب الحدود القديمة والفواصل الطبيعية . ولما كان هولاء الملوك الثلثة غير اهل للقيام بحق ادارة ممالكهم المقسومة كما كان يقوم بحقها جدهم شارلمان شرعوا في اتخاذ تدابير غير مناسبة ظانين انها توطد اركان ممالكهم وسنوا قوانين انتت البلاد بعدهم بنوائب كثيرة ورزايا عظيمة . اما الترتيبات المضرة التي اقاموها فهي اعطاء الذين يحسنون خدمتهم القابًا عالية وامتيازات لهم ولنسلهم منها ان يتولوا على قطائع من المملكة ويتصرفوا بها في ما يتعلق بالارث والادارة تصرف المالك بالملك ولم يكتفوا بذلك



بل اجازوا لبعض هولاء القوم ان يعطوا من شاءوا قطائع ليستندوا اليهم عند مسا تمس الحاجة . اما الضرر الذي وقع من ذلك على المملكة فهو القوة التي حصل عليها هولاء الحكام على تمادي الايام فانهم نموا حتى جاهروا بالعصيان على ملوكهم واستقلوا وشرعوا يحاربون بعضهم البعض ويخربون البلاد وصار زمام السلطة بيدهم وعصا بعضهم على الملك فضعفت المملكة والامة سنين كثيرة

ثم انقرضت تلك العائلة سنة ٩٨٧ كما ذكرانا ولم يبقَ منها غير مالك صغير السن سخيف العقل ضعيف العزائم ففعل بهِ وزيرهُ الاول ما فعلهُ سلفهُ الاول بآخر ملوك العائلة التي كانت مالكة قبلهُ اي انهُ وضعهُ في دير وتبوأ تخت ملكهِ . واسم هذا الوزير هوغ كابت وكان من اعظم امراء فرنسا واقواهم واكثرهم املاكًا واوسعهم قطائع . وقبض على زمام المملكة سنة ٩٨٧ وقام من نسلهِ كثيرون من اهل الحذق والدراية . فملكوا في فرنسا زمانًا اطول من زمان العائلتين السابقتين وتفرعت عائلتهُ الى فروع كثيرة منها امراء كابت وامراء فالوا الاولون وامراء فالوا الثانيون وامراء البوربون وامراء اورليان . وسادت دولتهم من سنة ٩٨٧ الى سنة ١٧٨٩ اي مدة ثمانمائة سنة وسنتين . وسنة ١٧٨٩ حدثت انقلابات عظيمة في فرنسا سياتي الكلام عليها . واشهر الذين ملكوا من هذه الدولة هوغ كابت موسس دولتهِ وفيليب اغسطوس وفيليب الملقب بالمجيد ولويس التاسع ولويس الحادي عشر وفرنسيس الاول ولويس الثاني عشر وهنريكس الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر وعدد الذين ملكوا فرنسا منهم ٣٤ . وكان لويس السادس عشر مالكًا سنة ١٧٨٩ وقد اطنب المورخون في مديحهِ وقالوا انهُ كان تقيًّا ورعًا محبًّا للشعب راغبًا في تقدمهِ ونجاحهِ . على انهُ كان ضعيف العزيمة لا يحب الركون الى نفسهِ . وفي ايامهِ حدثت الثورة الفرنسوية . وهي بداءة تاريخ فرنسا الحديث الذي اخترناهُ موضوعًا للكلام وسنذكر اسباب هذه الثورة وعواقبها في فرنسا والدنيا قاطبة من جهة التمدن والمعارف وغيرها وقد اجمع المورخون على ان الامة الفرنسوية تفوق غيرها بالحماسة والحدة وشدة التصور والشجاعة والمبادرة الى القيام بالامور الخطيرة واللطف وهي من سلامة النية والحذق وقوة العقل والكرم والسخاء على جانب عظيم . وربما قال المورخون انها مفطورة على الخفة والتقلب لانها لا تتردد عن رفض ما لا يقع منها موقعًا حسنًا بل ربما اهملت ما باشرتهُ من الاعمال العظيمة وشرعت في غيرهِ

وطالما افتخرت الامة الفرنسوية بقدمتها وبلغتها الحسنة التي اصبحت اللغة العامة والسياسية واهل بعض القرى يتكلمون لغة غير صحيحة يسمونها لغة الباتوا . وبعض الاهلين يتكلمون فضلاً عن اللغة الفرنسوية لغات اجنبية وذلك في الاماكن المجاورة لحدود المملكة لاختلاطهم بامم اخرى ففي الجهة الجنوبية الغربية يتكلمون الاسبانيولية لمجاورتهم اسبانيا وفي الجهة الجنوبية الشرقية

يتكلمون الايطالية لمجاورتهم ايطاليا وفي الجهة الشمالية الغربية يتكلمون الانكليزية لقربهم من انكلترا وفي الجهة الشرقية يتكلمون الالمانية لقربهم من المانيا . فاذا قلنا ان الجهة الشرقية من فرنسا هي بلاد المانية لان سكانها يتكلمون اللغة الالمانية فضلاً عن الفرنسوية فلا بد ان نقول ان الجهات المجاورة لايطاليا هي ايطالية وهلمَّ جرًّا . وقد برهنت فرنسا بالحوادث الاخيرة على ما قيل عنها وهو ان حفظ ميزانية اوربا السياسية انما يكون بها ولهذا نقول ان الامم لا تشتهر عبثًا

## الفصل الثاني

### في ابتداء الثورة من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٨٩

توفي الملك لويس الخامس عشر في ١٠ ايار (مايس) سنة ١٧٧٤ وانتهت بوفاتهِ تلك السياسة التي اضعفت قوة المملكة واوقعت المالية في عسر وضيق وقطعت العلاقات بين فرنسا واسبانيا ونابولي وهذه السياسة هي التي نكست شرف فرنسا واذلتها في عين انكلترا وروسيا . لان الحكم المطلق كان قد بلغ حدهُ في فرنسا والفساد طرأ على كل نظامات المملكة فيئست الامة من الحصول على ما يرفع عنها ذلك الظلم ويصلح الفساد الذي كان عمَّ البلاد فباتت السلطة هدفًا للاحتقار وامسى الجميع ينتظرون زمان الشروع في الاصلاح . ولو طالت حياة الملك لويس المذكور مدة لابتدات الثورة في ايامهِ . ولكن الذي اخر حدوثها خمس عشرة سنة هو ركوب خليفتهِ تخت الملك لانهُ كان يحاول اصلاح الاحوال بتشييد اركان الدولة بالاشتراك مع المجلس العالي وهو مجلس المبعوثين الذي كان قد نقضهُ سلفهُ . فهذا امر باجتماعهِ مستندًا الى مساعدة الوزراء الذين كان قد جدد انتخابهم من مشاهير الامة وربما تاخرت الفتنة لمطالبة من الامراء من ترك بعض الحقوق التي اثبتتها لهم العلاقات القديمة والحرب التي فتنها وانتصر بها ومكن الامة من تعويض ما كانت قد فقدت من الناموس . اما الامرا وخدم الدين فكانوا ينظرون الى اصلاحاتهِ واجراآتهِ بالغيظ والحنق وكانوا قاعدة لحزب ليس بقليل من الامة . ويظهر بذلك فساد النظامات التي لم تمكن ملكًا مستقيمًا كخليفة لويس الخامس عشر من اجراء اصلاحات كان يجب ان يجريها لعلمهِ ان الاحوال لا تصلح الا بها .

وخلف لويس الخامس عشر لويس السادس عشر فتبوأ تخت الملك في ١٠ ايار (مايس) سنة ١٧٧٤ ولما بلغ العشرين أُبعد عن البلاط وعن مشاهدة تصرفات جدهِ الفاسدة . فاضر بهِ الانفراد لانهُ حجب عنهُ منافع مشاهدة اجراآت الاحكام والادارة . فكان يعيش عيشة بسيطة محبًّا للعمل عالمًا ان في الاعمال التي كان مزمعًا ان يستلمها اثقالاً كثيرة . وكان غيورًا ولكنهُ كان جبانًا لا يدرك كنه الامور وبواطنها وعواقبها انيسًا غير مهيب ولا وقور متقلب الاراء محبًّا للشعب



يخاف القلاقل جامعًا بين المبادىء الحكمية والتقوى . فامسى مترددًا بين الاعمال المبنية على السلطة المدعوة سلطة الملوك الموروثة بامر الله وبين الكب على اصلاح الهيئة الاجتماعية التي كان يرى احتياجها الشديد الى الاصلاح . واحب الخير كل ايام حياتهِ التي كانت كحياة ناسك ولكن لم يكن لهُ من القوة والحزم ما يمكنهُ من اجراء الافعال الخيرية . ومنذ ركوبهِ تخت الملك شرع في تغيير سياسة جدهِ الملك فعزل رجال دولتهِ وهم موسيو موبو وتيراي وديكيلون ولكنهُ لم ينصب موسيو كوازيل لانهُ كان يكرههُ لاحتقارهِ والدهُ لما كان وزيرًا . واحتار في من يلقي اليهِ مقاليد الوزارة خصوصًا لان ايام جدهِ لم تات برجال ذوي معارف واقتدار سياسي فعزم على تنصيب الكونت موريبا وزيرًا اول . وكان الكونت المذكور رجلاً مسنًّا ولم تكن لهُ السجايا اللازمة لمن يتقلد هذا المنصب ولكنهُ كان فصيحًا قادرًا على استعمال الدسائس ولم يكن من اصحاب الفضل والاهلية . وفي ايام لويس الخامس عشر عزل بامر مادام بومبادور . وبعد ان تقلد الكونت موريبا الوزارة الاولى اقام وزيرًا في العدلية مير وميسنيل وفي وزارة الحرب سن جرمن وفي البحر سرتين وفي الخارجية فرجين وفي المالية طوركو

وكان طوركو تلميذ روسو المشهور وكان يعد رئيسًا في الاقتصاد السياسي واكتسب شهرة عظيمة بتاليفهِ وحسن التدبير لما كان متوليًا ادارة اموال ولاية ليموج في زمان الملك السابق . وكان ذا عقل ثاقب وصدر رحيب ثابتًا نشيطًا عالمًا ذا افكار سامية ولا سيما في ما يتعلق بحقوق البشر والانسانية خبيرًا بامبال الناس وبالسياسة . وكان الفرنسويون يعتبرونهُ فريد ذلك العصر . ولو امكن اصلاح احوال فرنسا في ذلك الزمان بجنود الاقلام والقوة العقلية لتمكن طوركو من اصلاحها بحسب مقتضى احوال الزمان . فانهُ دوَّن في رسالتهِ كل الاصلاحات التي كانت البلاد مفتقرة اليها . وكانت سببًا للثورة بعد ذلك وهي الغاء امتيازات الامراء والاعيان وابطال السخرة وقيام الاعمال العامة والغاء الامتيازات المتعلقة بتوزيع الاموال الاميرية واطلاق الحرية للاديان والمطابع والتجارة والصناعة وابطال النذر الراهبي واصلاح القوانين المدنية وقانون الجزاء وضبط المكيلات والموازين في كل المملكة لتكون واحدة الى غير ذلك من الاصلاحات النافعة . على ان اجراءها تعذر لان صاحب السرير لم يكن رجلاً ثابت العزم قادرًا على مقاومة الصعوبات

اما الملك فلم يتجاسر ان يسلك السبيل الذي اشار بسلوكهِ وزيرهُ طوركو لاقامة الاصلاحات الجديدة وكان الوزير الاول موريبا يمتنع عن اجرائها لقصورهِ عن ادراك تاثيراتها الحسنة وهكذا لم يرض الملك لويس السادس عشر ووزيرهُ الاول باجراء قوانين موسيو طوركو وعزم الملك على طلب تجديد اجتماع مجلس المبعوثين الذي الغاهُ سلفهُ . وقد تقدم اختلال هذا المجلس الذي لم يكن يستحق

ان يدعى مجلس مبعوثي الامة لان اعضاءهُ كانوا من الامراء وخدم الدين وكانت اجتماعاتهم متوقفة على ارادة الملك وعلى حقوق اصحاب الرتب والنسب لا على صوالح البلاد العامة . فانقطع الامل من الحصول على الاصلاح المطلوب بذلك المجلس . وهذه هي زلة اولى اتت الملك لويس السادس عشر بكل البلايا التي طرأت عليهِ بعد ذلك . اما المجلس المذكور فاجتمع ولم يكتفِ بمنع وضع نظامات وقوانين جديدة بل اقام الحجة على اصلاحها لانهُ لم يكن مساعدًا للامة ولا محاميًا عن الحرية ولكنهُ كان مقاومًا للملك ومحاميًا عن اصحاب الامتياز . وعوضًا عن الاقتصار على مقاومة الحكومة عند محاولتها القبض على زمام السلطة المطلقة قاومها شديدًا لانها رغبت في الغاء القوانين القديمة لترقي صوالح الامة . فابتدأت المشاجرة بين المجلس والحكومة من ذلك الوقت واشتد النزاع بينهما . وتوغل المجلس في المضادة لتوهمهِ ان اجتماعهُ كان بارادة الشعب ولتردد الحكومة عن التشديد في مقاومتهِ . فامسى المانع الاكبر للحكومة عن اجراء الاصلاحات وحرض الامة على مقاومة ذلك

ولما تقلد طوركو وزارة المالية كانت خزينة الدولة في عسر شديد . وكان دينها ١٠٠ مليون سالفة وحالية . فدفع طوركو بعد تقلدهِ الوزارة المالية بسنتين ٢٤ مليونًا من الدين المتاخر و٢٨ مليونًا من السلفيات و٥٠ مليونًا من الدين المقرر . ووضع صندوقًا لقطع الاوراق المالية واقتدى بهِ بنك فرنسا وهو اول من اخترع القطع . والغى الاخرجة غير القانونية التي كانت الحكومة تاخذها من اصحاب الثروة وابطل السخرة لاصلاح الطرق وكان الذي لا يريد ان يشتغل بيدهِ يدفع بدلاً ماليًا وكان مجموع البدل ٤٠ مليونًا كل سنة . والغى ٣٢ خراجًا من الاخرجة التي كانت توخذ من الشركات النافعة للبلاد وهكذا رفع كل هذه الاثقال عن الصناعة والزراعة . وكانت افكار طوركو ونواياهُ كافكار سيلي ونواياهُ وهو وزير الملك هنريكس الرابع احد ملوك البوربون وكان يقول ان المرعى والزراعة هما القوتان اللتان تقومان بمعاش الامة . وكانت اراؤهُ المتعلقة بالصناعة اوسع دائرة من افكار كولبير وزير الملك لويس الرابع عشر وكان يقول ينبغي ان يكون كل انسان حرًا في اشغالهِ . ولتقرير موقف جديد للزراعة والصناعة ينبغي ان نضع ثلثة نظامات جديدة . وهي اولاً منح الحرية لتجارة الحبوب . وبعد ان كانت الحكومة قد سمحت بذلك مرتين امرت بمنعهِ . ثانيًا الغاء رياسة الحرف . ثالثًا المساواة في توزيع الاموال الاميرية على كل الاملاك . وكان الامر الثالث سببًا لسقوط الوزير طوركو

فتحرك الحسد القبيح في قلوب كل الامراء واصحاب الامتيازات السياسية وحملهم على بغض موسيو طوركو وكان موريبا الوزير الاول يحسدهُ لشدة ميل الملك اليهِ وانقيادهِ الى رايهِ . وكان اهل البلاط يخشون عواقب الاقتصاد الذي كان شارعًا فيهِ . اما الامراء فكانوا يبغضونهُ جدًا



لانهم كانوا يرون ان الحكومة سالكة سبيلاً يصل بها الى سلب كل امتيازاتهم وحقوقهم غير العادلة . وكان موسيو سن جرمن وزير الحرب شرس الطباع متكبرًا لا يعتبر الناس فطعن في الامراء والغى رتبًا ومصالح كثيرة كانت في يدهم في البلاط وكانوا ياخذون للقيام بها اموالاً كثيرة . اما موسيو سرتين فنجح في ابطال افضلية الاسطول الحربي على التجاري

ولما تقلد موسيو مالرب صديق موسيو طوركو وزارة دار الملك اخذ في اجراء الاصلاحات المتعلقة بقوانين المراسلات وطلب ابطال قوانين مراقبة المطابع وكان راغبًا في تجديد معاهدة نانت التي كان قد عقدها الملك هنريكس الرابع ملك فرنسا لمنح بروتستانت فرنسا حرية القيام بفروض ديانتهم وربطهم بشروط ومنع اضطهادهم . وعقدت هذه المعاهدة في مدينة نانت الواقعة في غرب فرنسا في ١٣ نيسان (افريل) سنة ١٥٩٨ . والغاها الملك لويس الرابع عشر في ٢٢ تشرين الاول (اوكتوبر) سنة ١٦٨٥ وكان الغاؤها سببًا عظيمًا لضعف المملكة الفرنسوية . فاتفق الامراء والرؤساء الدينيون والصيارفة والقضاة على اجراء ما ياتي طوركو بالويل واتحد معهم في ذلك موريبا نفسهُ وافرغ جهدهُ في حمل الملكة ماري انطوانت زوجة لويس السادس عشر على الاشتراك معهم في مقاومة طوركو واضطهادهِ . اما الملكة المذكورة فهي بنت امبراطور النمسا وكان اسم امها ماري تريزا وهي التي اشتهرت في حسن المداخلات السياسية والاعمال الدولية . وكانت ماري على جانب عظيم من الرقة واللطف فتاقت بها بنات جنسها على انها كانت جاهلة ذات كلمة نافذة في زوجها لا تبالي بالامور الخطيرة . وكان اعوانها وحاشيتها يخدعونها بالتمليقات فيقولون لها انها عاقلة حكيمة كوالدتها فمن الواجب عليها ان تنفذ المملكة مما كانت فيهِ بحسن ادارتها وسياستها

ولما امر الملك بجعل تجارة الحبوب حرة بادر الوزير طوركو الى اتخاذ الوسائط الفعالة لمقاومة ما كان يقصد اعداؤهُ ان يجروهُ لابقاء البلاد في مهالك القحط والجوع . ولم يدرك شر اولئك الاخصام وخبثهم . ولما شهر امر الملك المذكور شرع المقاومون في استعمال الوسائط لالقاء البلاد في القحط والجوع . فاهاجوا الاوباش فنهبوا مخازن الحبوب واحرقوا المطاحن ورموا الحبوب في الانهر ثم ارسلوهم ليصرخوا امام قصر الملك في فرسايا طالبين اليهِ ما يقوم بمعاشهم . فعجب الملك من هذا الاضطراب وارتبك جدًا فخرج من قصرهِ وكلم الجمهور واعدًا بتعديل اسعار الخبز ولولا الحاح وزيرهِ لما سمح لهُ ان يبدد شمل هولاء المشاغبين ويقطع تعدياتهم بالقوة الجبرية . فارتاب في اصابة مشروعاتهِ الجديدة

ولما راى الوزير طوركو ان الامراء واصحاب الامتيازات تكاتفوا على مقاومتهِ طلب الى مجلس المبعوثين بامر الملك ان يصدق على النظامات التي تمنح كل انسان الحرية التامة في ما يختار لنفسهِ من

الاعمال . اما المجلس فلم يصدق على ذلك . فالح طوركو على الملك بان يامر المجلس بالتصديق عليهِ . فاجاب على غير انتظار القوم لضعف عزيمتهِ . وكان لويس السادس عشر يقول لا يحب احد الشعب الا انا وموسيو طوركو . وكان يتوهم انهُ لا عوائق تحول دون تنفيذ مقاصدهِ التي كانت تاتي الامة بالخير والنجاح . اما المجلس فكان يقاوم الحكومة كما كان يقاومها في ايام لويس الخامس عشر . اما الملكة واعوانها فكانوا يلومون الملك على وضع قوانين تمس بالحقوق الملكية . وكانوا يقولون لهُ ينبغي ان يترك لابنهِ تخت الملك مشرفاً كما تركهُ لهُ اسلافهُ . اما موسيو مالرب فلم يقدر ان يحتمل تلك المقاومات الدنية التي كانت تعوق نفوذ مقاصدهِ الخيرية فاستعفى وتنحى . واما موسيو طوركو فلم يسمح لهُ حبهُ لوطنهِ وللملكِ بالاعتزال عن سياسة المملكة واما الملك فحملهُ ضعف عزائمهِ على ان يطلب الى موسيو طوركو الاستقالة وذلك سنة ١٧٧٦ . وكتب طوركو في الرسالة التي طلب بها الاستعفاء ما ياتي ان نهاية الملوك الذين ينقادون الى كلام اعوانهم وغليقانهم انما تكون كنهاية كارلوس الاول ( ان كارلوس كان ملكاً من ملوك انكلترا فثار الشعب الانكليزي عليهِ وحدثت في ايامهِ فتنة شديدة وتبين من افعالهِ انهُ على جانب عظيم من ضعف العزم فكان يحاكي في ذلك الملك لويس السادس عشر ثم قتلهُ الشعب في ٩ شباط (ففريه) سنة ١٦٤٩ ) هذا وقد عرفنا ان الحكومة الملكية في فرنسا كانت قد حادت عن سبيل النجاح وتركت ما كانت قد باشرتهُ من الاصلاحات فكان لسان حالها يعلم الشعب ان لا يركن اليها في ما يأول الى ترقية اسباب نجاحهِ بل يبادر بنفسهِ الى اجراء ما تقتضيهِ الحال من هذا القبيل

وقام موسيو كليني في منصب موسيو طوركو فكان يفسد كل ما كان قد اصلحهُ سلفهُ في المدة القصيرة التي تقلد فيها الوزارة وكان يرجع ما كان قد الغاهُ طوركو من القوانين والعادات القديمة غير المناسبة فعزل كليني سنة ١٧٧٦ وخلفهُ موسيو نيكير وكان من مشاهير الصيارفة

وكانت مداخلاتهُ حسنة مع رجال الدولة والعلماء فظن الجميع انهُ وحدهُ قادر على اصلاح مالية الدولة . وكان من الحذق والدراية على جانب عظيم . على انهُ اقتصر في اعمالهِ على توقيف الاحوال المخلة لا على استئصال اسباب التاخر والتشكي . فجذب اليهِ الجميع بفطنتهِ وامانتهِ وجودة عقلهِ وادارتهِ وعلى الخصوص في ما اجراهُ من الاصلاحات القليلة المتعلقة بالاقتصاد السياسي ولم تكن الدولة تنشر حساب دخلها ونفقتها . وكانت نفقاتها تزيد عن دخلها وكانت عارفة بذلك على انها لم تسمح لموسيو نيكير ان يجري التغييرات التي اشار بها موسيو طوركو كابطال النفقات التي لا تجدي الدولة نفعاً لان جهل رجالها وغباوتهم كانا يحملانهم على الظن بان عظمتها ونفوذها وقوتها تقوم بالمظاهرات المالية الباطلة . فالتزم موسيو نيكير ان يستدين مبلغاً وافراً من النقود لسد احتياجات الدولة الناشئة عن العزم على فتح حرب لتوسيع دائرة تجارة البلاد ومنافع الامة وكانت



الدولة راغبة في استغنام الفرصة عند وقوع الخلاف بين الدولة الانكليزية ورعاياها في امركا الشمالية لترفع عن فرنسا العار اللاحق بها بعقد معاهدة باريس في ايام لويس الخامس عشر بعد الحروب التي يسميها المؤرخون حروب السنين السبع وللحصول على حريتها البحرية . ولولا صبت موسيو نيكير الطيب لما قدر على عقد القرض المذكور

وقبل الكلام على الحرب التي انتشبت نيرانها بين فرنسا وانكلترا نذكر بالاختصار اسباب محاربة الدولة الانكليزية لرعاياها في قارة امركا الشمالية فنقول ان اكثر قارة امركا الشمالية كانت من املاك الدولة الانكليزية فهاجر اليها كثيرون من الانكليز لجمع الاموال في بلاد غريبة ومحبة الحصول على الحرية السياسية والدينية وذلك في اوائل القرن السابع عشر وكانت انكلترا حينئذٍ غائصة في بحار الاضطرابات ومنع الاهلين عن التمتع بالحرية السياسية والدينية . وكان يسمى الحزب المضاد للحكومة الانكليزية في تلك السياسة غير الحسنة بالحزب اليبريتيني فنزح اكثر هولاء القوم الى امركا وهولاء هم سلف اكثر الامة المعروفة الان بالامة الامركية . ومهاجرتهم الى امركا لم تمكنهم من الخروج من التبعية الانكليزية ولكنهم حصلوا على رخصة بممارسة فروض ديانتهم بالحرية . فاخذوا في التقدم والنمو في الاعمال التجارية والسياسية وغيرها وعلى الخصوص في الحرية المطلقة بحسب الاصول الجديدة التي كان قد ابتدا في نشرها موسيو لوك وقررها روسو . وكانت الدولة الانكليزية قد سرت لخروج الذين كانوا يعارضونها في تقرير اصول الديانة التي كانت تستخدمها لتوطيد اركان سياستها قاطعة النظر عن امور اخرى خطيرة . فتركت هذه البلاد البعيدة تتقدم وتنجح بلا مساعدتها غير متداخلة في اعمالها فكان هولاء القوم النازحون يسوسون انفسهم ويقيمون حكومات جمهورية لتسوس البلاد بحسب اصول الاحكام العامة وكانوا ينشرون بين الشعب التعاليم المبنية على اركان الحرية الموطدة لسلطة الشعب . واكتفت الحكومة الانكليزية بان تثبت الاعمال العامة التي كان يشرع الاهلون بها والقبض على زمام السلطة الادبية واقامة جيوش وحكام في المدن لا فائدة لهم الا مراقبة املاك فرنسا واسبانيا في تلك القارة . فهذه هي الوسائل التي مكنت اولئك القوم من النمو في القارة الامركية فكثر اهلها واصبح فيها ثلث ولايات عدد سكانها ثلثة ملايين وكان عددهم يتضاعف كل عشرين سنة

لما كانت معرفة الشيء متوقفة على معرفة سببهِ كان لا بد لنا قبل الكلام على حوادث الثورة الفرنسوية من ذكر الحوادث والاعمال التي نشات عنها ومهدت لها السبيل فنقول ان فرنسا اخذت بالتاخر السياسي والادبي بعد وفاة الملك لويس الرابع عشر المعروف بلويس الكبير وتفاقم الامر في مدة لويس الخامس عشر . فان هذا الملك كان مشتغلاً بشهواتهِ الفاسدة وطلب الملذات الدنية

فاحاطت بهِ نساءٌ يخجل المورخ ان يصف اعمالهنَّ وفسادهنَّ وكنَّ يقمنَ في بلاطهِ في مدينة فرسايا . فبات عنان المملكة في ايديهنَّ وامسى زمام ادارة المهام وسياسة العباد في اكف اميالهنَّ وشهواتهنَّ واغراضهنَّ فكنَّ يعزلنَ الوزراء وارباب الخطط قاطعات النظر عن صوالح البلاد والرعايا مهتمات بما يانيهنَّ وياتي اقاربهنَّ واعوانهنَّ بالمال والسطوة والمجد وتنفيذ المآرب الفاسدة واشهر اولئك النساء المركيزة دو بومبادور ومادام دومبادي التي خلفتها في ما كان لها من الشان والتقرب من الملك . وفي دولة الملك لويس الخامس عشر كان الموسيو كوازول على جانب عظيم جدًّا من حسن السياسة فتقلد وزارة الخارجية ثم الحربية وافرغ الجهد في اصلاح قوة فرنسا البحرية فانشا عمارة بحرية تحاكي عمارة انكلترا قوة فاخذت البلاد تتقدم بحسن سياستهِ ودرايتهِ وحذقهِ ولكنهُ عُزِل ونزِل عن رتبتهِ لانهُ لم يقع موقعًا حسنًا من اللواتي كنَّ قابضات على زمام الملك لانهُ كان يحول دون مرامهنَّ . وفي اواخر ملك لويس المذكور امست السياسة الداخلية في ارتباك واضطراب عظيم . وفي زمانهِ صار طرد الرهبان اليسوعيين من فرنسا فنشا عن طردهم شغب وهياج لشهرتهم ونفوذهم وكانت قد اقيمت عليهم الحجة في روسيا بالتداخل في الامور السياسية فطردوا منها سنة ١٧١٧ ومن برتغال سنة ١٧٥٩ . فشرع المجلس الفرنسوي يذم اليسوعيين لشدة كرههِ لهم . ثم اقام الدعاوى عليهم سنة ١٧٦٢ وامر بطردهم . وبعد ذلك بسنة صدق الملك على حكم المجلس بطردهم وامر باخراجهم من فرنسا وكان ذلك بمداخلة مادام دو بادي واعوانها واقتدت اسبانيا ومملكة نابولي بفرنسا لان ملوكها كانوا من العائلة البوربونية المالكة في فرنسا وطردوا من اسبانيا ونابولي سنة ١٧٦٧ . اما موسيو كوازول فروج طرد اليسوعيين وساعدهُ على ذلك المجلس على انهما لم يحصلا على ما كانا يرغبان فيهِ من النظامات والتراتيب لسقوطهما . ففي سنة ١٧٧٠ عزل موسيو كوازول وفي سنة ١٧٧١ امر الملك لويس الخامس عشر بالغاء المجلس العام المذكور ونفي اكثر اعضائهِ . وهذا المجلس لم يكن يفيد البلاد لان اعضاءهُ كانوا من خدم الدين والامراء فلم يهتموا الا بصوالحهم الشخصية لا بتقدم الامة ونجاحها . الا ان الدولة اخطأت اي خطإٍ بالغاء هذا المجلس وفعلت ما يضر بصوالحها ونفوذها . لانها كانت تخدع الامة بالاستناد بالاسم فقط الى مجلس خالٍ من كل فائدة لتوهمها انهُ يحامي عن حقوقها وصوالحها فلما سقط امست اعمال الحكومة وسياستها هدفًا لانتقاد الامة وتفنيدها وشرع الشعب يتنقد اجراآت الدولة ويظهر رغبتهُ في الوقوف على نواياها . وكان بغض الشعب للامراء يشتد بالتدريج لانفرادهم في القبض على زمام السياسة وادارة المملكة وتمتعهم بخيرات البلاد وملذاتها وتحميل الشعب اثقال الخدمة وسياتي ذكر ذلك في مكانهِ . وكانت هذه الامور ترمي الدولة بالضعف حال كون الشعب مسرعًا في التقدم والتقوي بالاداب . لان علماء فرنسا ومؤلفيها وكتابها وحكماءها اذاعوا افكارهم الحرة ونشروها في ايام



الملك لويس الرابع عشر ومنها تآليف فوبان وفنلون مولف كتاب تليماك الذي كان يعد منتقدًا لاعمال الدولة وتآليف بايل ومنتيفريون وفولتير الذي اشغل بقصتهِ وكتاباتهِ هذا القرن فادهشت رواياتهُ ومبادئهُ الحرة الجمهور فسجن في قلعة الباستيل ثم هاجر الى انكلترا واعجبهُ نظامها وكتب كتابًا عنوانهُ معنى النظامات وبيَّن فيهِ حالة نظام الدول واطنب في مدح نظامات انكلترا وقوانينها . اما فساد فرنسا فلم يكن في نظاماتها فقط بل ايضًا في حالة الامة وفي الهيئة الاجتماعية فكتب روسو طاعنًا في الدولة وفي الهيئة الاجتماعية ونشر كتابًا اخر اسمهُ الكونتراسوسيال اي روابط الهيئة الاجتماعية وصدرهُ بهذه الكلمات وهي خلق الانسان حرًّا . فاتى بنتائج كثيرة لانهُ بيَّن حقوق الشعب المتعلقة بالسلطة والاحكام . واشتهر كثيرون غير هولاء في نشر مبادىء الحرية واخترعوا الاختراعات الحسنة التي آلت الى تقدم الامة ومنهم موسيو كورناي والطبيب كوسناي وهما اللذان اخترعا علم الاكونومي بوليتيك اي الاقتصاد السياسي . وممن برعوا في هذا العلم موسيو ادام سميث سكوتلندي الاصل . فانهُ جمع منهُ اكثر من غيرهِ في اسفارهِ في املاك فرنسا وانكلترا الخارجية فتحقق ان الصنائع والزراعة ترفع الامة الى معالي الغنى والثروة ولذلك طلب تحرير العبيد والترخيص لكلٍّ من الامة ان يتعاطى من الاشغال ما يستحسن واظهر ايضًا بالامتحان فائدة التعاون بالاعمال التي تقلل النفقات وتقصر الوقت . وبين بالامتحان انهُ اذا تعاضد عشرة رجال في عمل الدبابيس يعملون كل يوم ٤٨ الف دبوس ولكن اذا عمل كل منهم الدبوس كلهُ بلا معاونة لا يقدر عشرة رجال ان يصنعوا في النهار اكثر من اربعمائة دبوس . وكتب كتابًا عنوانهُ البحث في اسباب ثروة الامم وذلك سنة ١٧٧٦ فاثرت جدًّا كتاباتهُ في الشعب اذ شعر بالافتقار الى النظام وعلى الخصوص ما كتبهُ عن حرية الاعمال ونظام اعمال الصيارفة ( البنكات ) وسياسة املاك الدول خارج بلادها الاصلية

وكانت المعارف لا تزال مقصرة عن بلوغ الشأو الذي بلغتهُ في القرون الاخيرة ومع ذلك ظهر رجال برعوا في العلوم وخلَّد التاريخ ذكرهم ولذلك كان مستحسنًا ذكرهم هنا سواء كانوا من الفرنسويين او من غيرهم لانهم تعاونوا على اتمام اعمالهم الادبية وهم الفيلسوف ديكرت وبسكال ونيوتون وليبنتس على ان اعمالهم العظيمة وتآليفهم النفيسة لم تحصل على الشهرة التي ينبغي ان تحصل عليها لقلة الذين كانوا قادرين على فهمها وادراك اسرارها . ومن الذين اشتهروا باتقان العلوم الرياضية اويلر ولاكراغ وكيلروت ود الامبير ومونج والذين تضلعوا من العلوم الفلكية هم لابلاس ولالند ولاكيل وبايلي وبرادلي والي باريس وهرشل وفي العلوم الطبيعية فرنكلين وفولتا وكلفاني وهولاء هم الذين كشفوا القوة الكهربائية التي زاد العلماء عليها اكتشافات كثيرة فيما بعد . وريومير هو مخترع ميزان الهواء ومونكولفيه هو الذي اخترع المركبات الهوائية وكثيرون غيرهم لا يسعنا

المقام ان نذكرهم جميعًا . واكثر هولاء الادباء كانوا من الامة الفرنسوية . وشرع غيرهم من الفرنسويين في السفر في البحار لاكتشاف جزائر الاوقيانوس واكثرهم استندوا في ذلك الى مساعدة الملاحين الانكليزيين والهولنديين . والمقصود من ذكر هولاء العلماء الافاضل وما قرروهُ من العلوم واكتشفوهُ من البلدان والجزائر انما هو ايضاح التغييرات الادبية التي طرأت على الهيئة الاجتماعية واظهار المبادىء التي اخذت في الرسوخ في عقول اهل ذلك القرن في فرنسا خصوصًا وفي اوربا عمومًا . وهذه المبادىء والافكار هي التي كانت تضاد كل المضادة نظامات الدولة المقررة لان الامة كانت تقرا خطب اولئك المصلحين وكتاباتهم وتبدي الاعتراضات على القوانين والعادات غير المستقيمة التي كانت توافق الدولة والبلاد في الازمنة التي امست في خبر كان وكانت تضر باهل ذلك العصر لكونها دون احتياجات الامة والبلاد لعدم سيرها على قدم الاصلاح والتقدم كالامة فاصبح بون عظيم بينها وبين قوانينها ونظاماتها . وكان الشعب يسمع من كل الجهات المناداة بالمساواة بين اعضاء الامة وان الله خلق العالم اجمع متساويًا في الفطرة ومن ثم في الحقوق المدنية وغيرها وكان العلماء يحرضونهم على تشييد الحرية مبينين سعادة الامة التي تتمتع بها . ولما كانت الامة تخاف ان تجاهر بتشكياتها اخذت تتشكى سرًا من الامتيازات ومن سياسة الدولة المطلقة ومن خلو النظامات من روح العدالة ومن شدة التعصب ومن الفاقة العامة التي كانت تزداد على الدوران الى غير ذلك مما لا نقدر ان نحمله امام فتح عينيها نور المعرفة والعلم

وكانت الدولة الملكية الفرنسوية جامعة ادارة كل الولايات في قبضة يدها فقررت وحدة المملكة واجتماعها وتمكنت من اخضاع امراء البلاد لسطوتها وعلى الخصوص اصحاب القطائع منهم . على انها لم تلغ امتيازاتهم وسطوتهم الغاء تامًا . فامست البلاد في ارتباك شديد وهي محتجبة ببراقع النظامات والترانيب . لان الامراء واصحاب القطائع كانوا يتذكرون دائمًا مجدهم السابق ومع انهم كانوا يظهرون الطاعة للملك وهم في فرساليا عاصمة المملكة كانوا عند خروجهم منها يتشامخون عتوًا وتكبرًا ويحملون الامة اثقالاً كانت تكدر راحتها وتسلب ثروتها بالامتيازات التي كانوا يتمتعون بها بالقوانين المقررة . فامسى كل شيء مما يتعلق بالامة وبنفس الحكومة بلا ترتيب ولا نظام لان اكثر قوانين الدولة كانت غير مكتوبة ولم تكن لها نظامات اساسية مبينة . فكان الملك ووزراؤهُ يسوسون الشعب بالطريقة التي كان يخال لهم انها موافقة وبحسب ما تسلموا نقلاً عن اسلافهم . فكانت الملوك تعتبر الامة كانها ملك من املاكها وما قاله المارشال فيلير والملك لويس الخامس عشر وهو يشير الى الجمهور الذي كان مجتمعًا في بستان قصر التويلري هو برهان واضح على ذلك وهذا ترجمتهُ



« يامولاي هذا الشعب اجمع هو ملك لك » . وفضلاً عن ذلك كانت دوائر الوزارات الست غير مكتفية باقتسام سياسة فرنسا كلها بل اخذت كل دائرة منها قسمًا من المملكة وخصصت ادارتهُ بنفسها نشأ عن ذلك قلاقل كثيرة . وكان لدوائر الحكومة الثانوية ادارات وقوانين مخصوصة ومن هذه الدوائر دائرة الدين والاعيان ومجلس المالية ودار الضرب ومجلس الملك السرّي . ولم يكن في المحاكم محامون للدعاوى . وكانت الاحكام تجرى بالوسائط الجبرية البربرية منها الربط بالحبال والصلب بعد عذابات شديدة فكانوا بعد ان يحكم على رجل بالقتل يعلقونهُ على صليب ثم يكسر الجلاد عظام ذراعيهِ وفخذيهِ ورجليهِ وصدرهِ بعصي ثقيلة ثم يرفعونهُ وهو مصلوب ويرفعون راسهُ نحو السماء ليموت وهو على تلك الحال . وفضلاً عن كل هذه المظالم والتعديات الفاحشة كانت الدولة تجمع الاموال الاميرية جميعها بالالتزام . فكان الملتزمون يجمعونها بواسطة مستخدمين ذوي مطامع فحملت الامة بذلك اثقالاً لا تطاق وتوفرت ثروة الملتزمين فكانوا يعطون حصة من هذه الاموال المجموعة بالظلم والعدوان لاعوان الملك ووزرائهِ والنساء اللواتي كنَّ مالكات عواطفهُ حتى للملك نفسهِ . وكان توزيع الاموال على الولايات بلا مساواة ولا عدل ولم تتبصر الحكومة قبل ان تلزم الولاية في ما يتعلق بتقدمها المادي او تاخرها فكانت كل ولاية ملزومة بدفع ما كان قد تعين عليها منذ الازمنة القديمة مع قطع النظر عما ربما كان قد طرا عليها من التاخر والخسران . وكان من جيوش فرنسا فرق كثيرة انفارها من الاجانب وكانت الخدمة العسكرية بالاستجار . اما في الولايات فكان الرجال يدخلون الخدمة العسكرية بالاقتراع فيستثقل جدًا اهل القرى وغيرهم لان الاعيان واصحاب السطوة كانوا يحصلون على امتيازات ترفعهم عن حالة العامة وفضلاً عن ذلك كانت المصالح والرتب تعطى لطالبيها بالمبايعة اي ان الذي كان يدفع منهم اكثر من سواه رشوة وهبات كان يفوز بالمراتب . وهكذا كان الامراء يحصلون على رتب القيادة اما الشعب فلم يكن قادرًا على بلوغ درجات عالية ولو كانوا اهلاً للقيام بحق مهامها . اما خدم الدين فكانوا منهمكين في مقاومة التعاليم البروتستانية ومبادىء العلماء ولم يلتفتوا مطلقًا الى اصلاح القوانين والنظامات وكان التفاوت عظيمًا بين الابرشيات فكان بعض خدم الدين على جانب عظيم من الثروة فان رئيس الاساقفة في مدينة تولوز مثلاً كان يجمع من ابرشيتهِ دخلاً سنويًا نحو ١٧٨ الف ليرا على ان بعضهم كان على جانب عظيم من الفقر . اما عدد خدم الدين في ذلك الزمان في فرنسا فكان ١٠٣ الاف وكان مجموع دخلهِ من العشور التي كان يجمعها كل سنة نحو ١٢٥ مليون فرنك ( عبارة عن نحو ٢٠٧ ملايين فرنك من نقود ايامنا هذه )

وكلما كان الشعب يتذمر من هذه الاثقال ويتكدر منها كان الامراء يتوغلون فيها . ولما

كانت قوانينهم تعطي كل الميراث للابن البكر كان اولاد الامراء الثانويون يلتزمون ان ينخرطوا في سلك العسكرية او خدم الدين طلباً للمراتب ليعوضوا ما كانوا يخسرونهُ من الثروة الادبية والمالية التي كان يرثها البكر . فاصبح الامراء قابضين على زمام ادارة الدولة المدنية والعسكرية وعلى سياسة الدين . وكانت فرنسا تفتخر باتحادها وانضمامها الظاهري على ان من كان يدقق النظر في احوالها كان يرى ان هذا الاتحاد كان بالاسم فقط. لان نفوذ الدولة وسطوتها وسياستها لم تكن واحدة في كل الولايات اذ كانت لكل ولاية قوانين وشروط وامتيازات مخصوصة بها . اما سطوة الامراء فكانت قوية في كل البلاد وكانوا يلزمون الرعايا في القرى ان يدفعوا لهم مالاً كانوا يسمونهُ حق الامراء وان يدفعوا العشر ويقوموا باعمالهم بدون اجرة وبنفقات الرجال الذين كانوا يجمعونهم للخدمة العسكرية وبنفقات الجنود التي كانت تمر في اراضيهم . وكانت الجيوش غير منظمة فكان جولانها يلحق اضراراً كثيرة بالمحلات التي كانت تمر فيها

اما التجارة والصناعة والحراثة فكانت في تاخر عظيم لان ارباب الخطط كانوا يعوقون تقدم ذلك بتصرفاتهم غير العادلة ومطامعهم التي لا حد لها . فشاركوا اصحاب هذه الاعمال في ارباحهم بدون ان يشاركوهم في اتعابهم والمخاطر التي كانت تطرا عليهم قبل نوال الربح . وكانت الامنية مفقودة ولذلك امست حراثة الارض في تاخر عظيم وكانت بعض الطرق تسد ثمانية اشهر من السنة . فضعف الفلاح ولم يكن الامراء يعتنون باصلاح املاكهم وتحسين حالتها فتضعضت الامة وهبطت جداً . حتى ان القوت كان ينقص احياناً عن احتياجات الشعب فينشا عن نقصهِ اضطراب وتذمر كثير فتصرخ الامة طالبة ما تسد بهِ احتياجاتها . وكانت الغلال تكثر احياناً في ولاية وتقل في اخرى فيموت بعض الاهلين جوعاً بسبب منع نقل الغلال من ولاية الى ولاية . واحضر دوك اورليان ( ابن عم الملك ) الى احدى الجمعيات رغيفاً من طحين دني ووضعهُ على مائدة من قاعة الملك وقال لهُ مولاي هذا هو الخبز الذي تقتات بهِ رعاياك . وهكذا امست الامة مقسومة الى ثلث طبقات او ثلث امم في طي امة واحدة . وكانت الاحكام مختلة والقوانين مرتبكة والاموال الاميرية غير معينة المقدار . وكان جمعها بحسب اهواء الجباة وصولجهم وكانت السياسة تفضل بعض الامة على بعضها لاختلال المساواة في القضاء وارتقاء المناصب المدنية والعسكرية وكانت الامنية مفقودة من الاعمال العامة كالتجارة والصناعة وكانت الامة تكره الامراء وكرههم الملك نفسهُ لانهم كانوا يمنعونهُ عن تنفيذ مآربهِ فكان من صالح الملك ان يعضد الامة ويساعدها على نوال غايتها من المساواة والحرية . فعوضاً عن ذلك كانت الدولة تساعد الامة تارةً على نوال مطاليبها وطوراً تصدها وتمنعها فتبين انهُ لا اقتدار لها على تنفيذ الامر الاول ولا على اجراء الثاني



ولما راى وزير انكلترا الاول انهُ لا يقدر ان يضع خراجاً جديداً في نفس انكلترا حاول الابتداء بهِ في امركا . على ان سهمهُ اخطأ الغرض لان الامركيين الذين كانوا من رعايا انكلترا كانوا اشد تعلقاً من اخوتهم سكان البلاد الانكليزية بحرية التمتع بقوانينهم الجديدة التي كانت اكثر حرية من قوانين بلادهم الاصلية فقاوم الامركيون رعايا انكلترا مقاصد الوزير ليس لان الخراج كثير يعجز الاهلون عن دفعهِ لكن لكرههم امتياز اخوتهم الانكليز المقيمين في انكلترا فلم يرضوا ان يعاملوا معاملة لا حق لهم بالمساواة هذا فضلاً عن تعديات ارباب الخطط وسد الحكومة اذانها دون شكواهم من فساد احكامهم واعمالهم ومطامعهم فتحققوا ان الحكومة تحاول معاملتهم كالهنود الامركان . فاخذوا يترقبون سنوح الفرصة لقطع العلاقات السياسية الجارية بينهم وبين انكلترا والحصول على الاستقلال

وسنة ١٧٧٣ اتى مركب الى بوستن في امركا شاحناً مقداراً كبيراً من الشاي . وكان الاهلون قد اتفقوا على رفض البضائع الانكليزية فالقوا الشاي في البحر وكان هذا ابتداء الحروب بين انكلترا وامركا . ولم تشتهر بينهما الا سنة ١٧٧٥ لما اذاع الامركيون اعلاناً رسمياً مصرحين استقلالهم ونجحوا بعد ذلك في بعض معارك تحت قيادة منقذهم الشهير الجنرال واشنتون وارتبطت الثلث عشرة ولاية بعضها ببعض بالاتحاد واجتمعت دولة واحدة مستقلة واقامت وكلاء لوضع نظامات الامة وقوانينها وعقدوا اجتماعهم الاول في ٤ تموز (جوليه) سنة ١٧٧٦ وهو اليوم الذي لا يزالون يتذكرون فيهِ استقلالهم وسمي مجتمع هولاء الوكلاء كونكرساً اي مجلساً ودعيت الدولة الولايات المتحدة الامركية وهي المعروفة في الشرق باسم دولة امركا

ولما ذاع في اوربا صنيع الامركان مال الناس اليهم واظهر كل ملوكها كرههم لسياسة الملك جورج الثالث ملك انكلترا وقالوا انهم يحبون ان يروا الامركان في نجاح وحرية . اما فرنسا فلم تكتف بذلك لانهُ لا ينفعهم مادياً فصرحت انها تميل الى امركا وشرع شبانها يتاهبون للذهاب اليها لينطوعوا في خدمتها ويساعدوها على نوال الحرية والاستقلال . اما الامركان فكانوا يرغبون في الحصول على مساعدة دولة اوربية ففي سنة ١٧٧٧ ارسلوا الى فرنسا مستر فرنكلين المشهور في العلوم وفي اختراع قضيب الصاعقة ليطلب مساعدتها فقابلهُ الفرنسويون بالترحاب واجتمعوا اليهِ واخذ الجميع حتى رجال البلاط يطلبون الى ملك فرنسا لويس السادس عشر فتح الحرب على الانكليز ومساعدة الامركان . اما الشعب الفرنسوي فكان يقصد بهذه الحرب كبح الظلم ومنح الامة الحرية . اما امراء فرنسا فكان قصدهم في فتح الحرب خفض شان الدولة الانكليزية بسلخ ثلث عشرة ولاية عنها فيرفعون العار الذي لحق بفرنسا بحرب السبع السنين . اما التجار فخافوا شبوب نيران الحرب لئلا تضر بتجارتهم ومع ذلك كانوا

يحبون قتال الانكليز لانهُ يفتح لهم بلاداً واسعة لتجارتهم وراى رجال الدولة ان هذه الحرب واسطة لرجوع سلطة الملك والدولة في فرنسا فمال الفرنسويون الى اقامة الحرب على انكلترا لانقاذ قسم كبير من الجنس البشري من نيرهم

وفي ٩ شباط (فغريه) سنة ١٧٧٨ عقدت فرنسا مع الامة الامركية معاهدة اتحاد وتجارة . اما رجال انكلترا فاختلفوا على مسئلة امركا فان حزب الوكز تظاهر بالمحاماة عن الامركان وكانوا يضادون سياسة اللورد نورث وزيرهم الاول وهو من حزب الطوري (الوكز والطوري حزبان قديمان في انكلترا) ولكن لما صممت فرنسا على مساعدة الامركان اتحد الحزبان الانكليزيان لمقاومتها . اما الملك لويس السادس عشر فلم يرَ مسوغاً لمحاربة انكلترا فامر جيوشهُ ان لا تهاجم الانكليز الاَّ اذا هاجموها . ولما راى ان مراكب انكلترا الحربية شرعت تضر بسفن فرنسا التجارية امر ان تصير مهاجمتهم بحراً . فخرج اسطول فرنسا من بريست في الاتلنتيك تحت قيادة الاميرال دورفيليه وكان ٢٢ بارجة . وفي ٢٧ تموز (جوليه) سنة ١٧٧٨ التقت العمارة الفرنسوية بالانكليزية بين جزائر وسّان وسورنيك وكانت عمارة انكلترا تحت قيادة الاميرال كيبيل وعددها كعدد العمارة الفرنسوية وبعد قتال شديد افترق المتحاربون . اما الانكليز فاعتبروا هذه المقاتلة قهراً لهم لانهم راوا من قوة العمارة الفرنسوية ما راوا بعد ان تعددت خسائرها في حروب السنين السبع وكانوا يظنون انهم اعدموها قوتها البحرية . وخرجت عمارة ثانية فرنسوية من طولون في جنوب فرنسا تحت قيادة الكونت ديستين وذهبت الى امركا واتت بوغاز ديلافار في جنوب الولايات المتحدة الامركية والزمت الجنود الانكليز الذين كانوا يحاصرون مدينة فيلادلفيا ان يرحلوا عنها . وكانت قد اتفقت مع الامركان على مهاجمة جزيرة دور ايلند ولكن حدثت زوبعة شديدة الزمتها المسير الى جهة اخرى فاتت جزيرة سنت ليسي واطلقت عليها المدافع ولكن لم تفتحها . ثم ذهبت الى جزيرة مرتنيك الفرنسوية لانهُ كان قد بلغها ان العمارة الانكليزية البحرية تحاول الاستيلاء على جزائر انتيلة الفرنسوية فاغتاظ الامركان من ذلك في اول الامر لانهم كانوا يرغبون في الحصول على مساعدة الفرنسويين ليحملوا عنهم اثقال تلك الحرب . اما الانكليز فاسرعوا الى مهاجمة الولايات الجنوبية لان كثيرين من اهلها كانوا يتحزبون لهم ففتحوها وعينوا مدينة سفانا مركزاً لاعمالهم . ولما كانت انكلترا تحب اشغال فرنسا عن مساعدة الامركان اخذت حسب عادتها تهيج دول اوربا لتنشئ حرباً في البرينها وبين فرنسا وكانت سياسة المانيا في ذلك الوقت تجعلها تومل بالحصول على المرام . على ان حكمة موسيو فيرجين وزير خارجية فرنسا هزمت جيوش السياسة الانكليزية ونجح هذا الوزير الحاذق بسياسته وجعل دولة اسبانيا تتكاتف مع فرنسا فارسلت اسبانيا عمارتها البحرية تحت قيادة الاميرال دورفيليه الفرنسوي لمحاربة انكلترا في بحر



المانش الواقع بين فرنسا وانكلترا للانتقام من هذه الدولة لاختلاسها من الاسبانيين بوغاز جبل طارق وجزيرة منورقة (في الجهة الشرقية من اسبانيا في البحر المتوسط) وارسلت ثلاثين الف جندي لحصر قلعة جبل طارق والاستيلاء عليها . اما فرنسا فجهزت اربعين الفاً من جنودها واقامتهم عند شاطئ بحر المانش في الجهة الشمالية وتاهب الاميرال دورفيليه للسفر الى انكلترا ولم يكن في استطاعة انكلترا حينئذٍ دفعهُ لانهُ لم يكن لها في ذلك البحر غير اربعين بارجة اما الاميرال دورفيليه فكان معهُ ست وستون بارجة فرنسوية واسبانية . وكان الانكليز قد امتحنوا قوة دورفيليه قبل ان ينضم اليهِ الاسبانيول على ان القوات الطبيعية فعلت في بوارج فرنسا ما لم تكن انكلترا قادرة ان تفعلهُ . وهبت ريح شديدة شتتت شمل بوارج دورفيليه والزمتها بان تلجأ الى فرض فرنسا . فسكن جاش الانكليز . وقال احد مشاهير خطبائهم انهُ لو نزل الفرنسويون في بلادنا وصدمناهم لدارت الدائرة علينا

وفي اثناء هذه الحوادث الاوربية هاجم الكونت ايسين جزيرة سن فنسان في امركا وجزيرة لاكريناد وفتحهما . ثم حارب العمارة الانكليزية التي كانت تحت قيادة الاميرال بيرون وقهرها واستولى على بحر انتيلة وتقدم الى الحدود الجنوبية من الولايات المتحدة وحاصر مدينة سفانا مركز اعمال الانكليز . ولكنهُ رجع عنها بعد ان فقد من جنوده ١٢٠٠ رجل واتى مرتنيك من اعمال فرنسا وقسم بوارجهُ الى ثلث فرق وابقى فرقتين في مياه الانتيل للمحافظة على املاك فرنسا هناك . اما الفرقة الثالثة فارسلها لمطاردة السفن الانكليزية عند شطوط الولايات المتحدة . وفي غضون ذلك استولت فرنسا على بلاد سنغال من افريقية وكانت من املاك انكلترا واستولى الاسبانيول على ولاية فلوريدا الواقعة بين المكسيك والولايات المتحدة . واخذ مستر بول جونس الامركي في مطاردة سفن انكلترا التجارية والاستيلاء عليها فاضر بها كثيراً . اما اجراآت الانكليز فنجحت لما حضر الاميرال رودينه منجداً قلعة جبل طارق وجزيرة منورقة وحارب بوارج اسبانيا وكسرها وتمكن من المرور في بوغاز جبل طارق والسفر الى امركا لمحاربة العمارات الفرنسوية والاسبانية . ولم ينجح في مسعاهُ لان عمارة فرنسا كانت لا تزال تتقدم وتسير من امركا الى اوربا وبالعكس وكانت سفنها التجارية تسافر مع السفن الحربية التي كثيراً ما اسرت سفناً انكليزية تجارية فيها اموال غزيرة محمولة الى الهند فغنمتها واسرت منها اربعة الاف جندي . اما الامركان فضعفوا بعد ان رجع الاميرال ايسين عن حصر مدينة سفانا خصوصاً بعد ان فشلوا في المعارك التابعة واختلفوا لانهم لم يضحوا شيئاً من الخصوصيات حباً بصوالحهم . وكانوا يتجنبون حشد الجنود للحرب لانهم كانوا يخافون ان تنتهي الحرب ويبقى المتجندون قادرين على تنفيذ مآرب لا توافقهم . وكانت كل من الولايات تحسبان لا تنفق مالها وان لا تخاطر برجالها . وكانت افكار العموم

الدنية تقاوم مقاصد مجلس الكونكرس وحب الكسب يميت حاسيات ناموس الشعب. اما جنرالهم البطل الفريد واشنتون فكاد يقطع الامل من النجاح واخبر فرنسا بانها اذا لم تبادر الى ارسال جنود برية لاعانة الامركان ومالاً لنفقتهم ينقطع امل نجاحهم وكان رسولهُ البرنس لافاييت الفرنسوي. فاجابت فرنسا هذا الطلب وارسلت الى امركا سبع بوارج كبيرة وعشرة الاف جندي من جنود البر وعشرة ملايين من الفرنكات وكثيرين من الطوعيين وعلى الخصوص شبان الامراء الذين اتوا امركا تحت قيادة الكونت روشامبو فجعل نفسهُ وجنودهُ تحت قيادة الجنرال واشنتون

ودامت الحرب بين الفرنسويين والامركان والانكليز برًّا وبحرًا الى سنة ١٧٨٣ وانزلت سفن فرنسا بسفن انكلترا ضررًا كبيرًا واستولت على جزائر ومدن كثيرة من املاكها في الخارجية اما الانكليز فصبموا سنة ١٧٨٣ على عقد المصالحة بينهم وبين الامركان وعلى الاعتراف باستقلالهم لانهم كانوا يعلمون ان الشعب الامركي هو شعب تجاري مؤسس اعمالهُ على القناعة وانهُ ينسى قريبًا مساعدات فرنسا وملكها لان اللغة والعادات والاصطلاحات كانت لاتزال تربط هذه الامة الجديدة باختها الامة الانكليزية. فتخلى وزير انكلترا الاول واخلى مكانهُ لوزير جديد من حزب الوكز فطلب هذا الوزير الجديد حالاً مداخلة النمسا وروسيا لعقد الصلح مع فرنسا فتم ذلك في ٣ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٨٦ وتقررت معاهدة اسمها معاهدة فرسايليا واعترفت انكلترا باستقلالية الولايات المتحدة وارجعت الى مملكة هولندا ما كانت قد اخذتهُ منها من البلاد والى اسبانيا جزيرة منورقة وولاية فلوريدا في امركا واعطت فرنسا جزيرة قوبا في امركا وولاية سنغال في افريقية واملاكها في الهند ونقضت بند معاهدة اترخت المتضمن التزام فرنسا بهدم فرضة دونكرك الواقعة مقابل املاك انكلترا

فسرت فرنسا بهذا الصلح سرورًا لامزيد عليهِ لان الفرنسويين كانوا قد اوقعوا ضررًا كثيرًا بالانكليز ونكسوا سطوتهم واوقفوا سريان تعدياتهم البحرية وبرهنوا ان انكلترا ليست سلطانة البحر كما كانت تدعي وعضدوا الامركان واسبانيا وهولندا. وكان هذا السرور يحجب عن نظرهم حالتهم المالية التي وصلوا اليها بالنفقات الكثيرة التي تكبدوها بفتح هذه الحروب وهي ١٤٠٠ مليون من الفرنكات فازدادت مالية فرنسا ارتباكًا عوضًا عن ان يسهل امرها فاتى هذا الارتباك بازدياد في القلق وعجل الثورة. والجنود الذين رجعوا من حرب امركا مالوا الى الحرية ومراعاة الامم في حقوقها ووضع نظاماتها بحسب مقتضيات الاحوال والازمان وتقرير المساواة بين اعضائها كافة لانهم نقلوا ذلك عن الامركان الذين احتملوا من المصائب والمشقات والضيقات ما يعجز القلم عن وصفهِ لنوال هذه الامور المحبوبة جدًّا عندهم. فحركت في الامة الفرنسوية مطامع عظيمة وقوتهم على مقاومة الحكومة والنظامات القديمة فطلبوا ذلك على رؤوس الاشهاد



اما موسيو نيكير وزير المالية فاراد ان ينشر دفترًا متضمنًا دخل الدولة ونفقاتها مع تبيين الوسائل التي تخلص الخزينة من بعض ارتباكها فوافقهُ الملك على ذلك في اول الامر ولكن لم يلبث ان عدل اتباعًا لراي رجال بلاطهِ وامراء دولتهِ الذين كانوا يخافون ان يقوم الوزير نيكير بمشروعات سلفهِ طوركو فعزلهُ الملك في ٢٥ ايار (مايس) سنة ١٧٨١ لانهُ ظن انهُ جلب العار على الملكية باظهار حالتها المالية

فقبضت الملكة على زمام المملكة واستخدمت رجالاً تضاد اعمالهم ميل الشعب وتوافق اغراض رجال الحكومة فخلف موسيو جولي دوفلوري موسيو نيكير فازداد ارتباك الخزينة في وزارتهِ القصيرة ثم خلفهُ موسيو اورمبسون وحاول بعض الاصلاح ولم ينجح ثم استلم موسيو كالون وزارة المالية وكان عاقلاً جسورًا ولكنهُ كان من الطيش والاعوجاج على جانب عظيم ولم يكن ذا صيت حسن يرضي الشعب. وقبل ان تبوأ منصب الوزارة كانت لهُ مداخلة مع الكونت دوارتوا شقيق الملك لعضدهِ الامراء الذين كانوا يكرهون وضع نظامات جديدة وكان يقاوم كل ما ياول الى تغيير القوانين. وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨٣ شرع في ادارة الاعمال بالطيش والحدة فبذر واسرف ووهب الاموال لارباب الدولة ولدار الملك واستقرض مبالغ وافرة من محلات مختلفة للقيام بالنفقات الوافرة وكان يحاول ان يجعل الحكومة تتوهم ان حالتها المالية حسنة بوسائل لم يسبق اليها. واستمرت الحال على هذا المنوال ثلث سنوات وهذه هي المدة الاخيرة التي تمتعت بها الحكومة ببعض الراحة. اما الشعب فكان ينظر الى اعمال الدولة الداخلية ويقابلها بما وقف عليهِ من احوال امركا وحوادثها بعد امتداد القواعد الحرة الواسعة الجوانب التي بثها فولتير وامثالهُ بين كل الشعب مع اختلاف درجاتهِ بطريقة جعلت الذين كانوا يضادون تلك القواعد المؤسسة على الحرية والمساواة يسرون بمطالعة تآليفهم النفيسة المبينة لكل انسان حقوقهُ ومنافع الحرية ولزومها. وكان فولتير وريدير وغيرهما قد ماتوا ولكن ما نشروهُ من التاليف الحسنة (مع قطع النظر عما يتعلق بالامور الدينية) كان لايزال حيًّا يبث حياة الحرية بين الامة. فشرع الشعب يهتم باصلاح سياستهِ فاصلح عاداتهِ وقد انشات فيهِ الحمية والحماسة الاعمال التي كانت تأول الى ترقية الصوالح العامة ومساعدة اهل القرى على حرث اراضيهم وعقد شركات لافادتها وتقدمها فشعرت البلاد بلذة التقدم والثروة وفي هذه السنة اتى موسيو بارمانتير فرنسا بنبات البطاطة وعلم الامة زرعهُ وكان الشعب يحب خدَمَ الدين وعلى الخصوص الذين كانوا يخدمون اهل القرى منهم فشرعوا يعمرون املاكهم الكثيرة ارضاء للاهلين الذين كانوا ينتفعون من ذلك وحذا الامراء حذو خدم الدين باهمال املاكهم فكان يقال لا تسال من يملك الاملاك الخربة اذ لا بد ان تكون لخدَم الدين وللامراء. ولما امر الملك لويس السادس عشر بالغاء السرف (السرف

اهل القرى الذين كانوا بحسب نظامات تلك الايام كانهم ملك لصاحب القرية التي كانوا يسكنونها او الحقل الذي كانوا يزرعونهُ ) من املاكهِ الخاصة اتباعاً لراي وزيره نيكير وراي فولتير اقتدى الامراء بهِ في ذلك

وكان كلما تقدم الشعب في المعارف والمبادىء الحرة الجديدة يزداد كرهة للامراء وللعائلة الملكية . وكان الملك وعائلتهُ السبب في ذلك لغوصهم في بحر الاسراف وانهماكهم بالملذات والملاهي وسبقوا في ذلك قوم الملك لويس الرابع عشر . فبلغت نفقة البلاط السنوية ٣٦ مليوناً من الفرنكات زيادة عن راتبهِ وهو ١٨ مليوناً من الفرنكات . وكانت خزينة الامة تلتزم ان تفي كل سنة ديون الكونت دوارتوا المسرف وثمن الجواهر والحلى ارضاء للملكة . اما الملك فلم يثقل على الخزينة لنفع نفسهِ لنزاهتهِ وفضلهِ ولكن الملكة ورجال دولتهِ كانوا يبذرون ولم تكن سلطتهُ نافذة في عائلتهِ . وكانت الملكة صالحة انيسة محبة للملك والشعب على انها كانت شديدة الميل الى الملاهي والافراح والملذات والى ارضاء الجميع اذ ظنت انهُ لابد لها من ادارة اشغال المملكة بسبب ضعف عزم الملك . وكانت مخدعة بتمليقات اصحاب الغايات فكان تصرفها سبباً لاقاويل وتهمات كثيرة تضر بناموسها وناموس الملكية وهجاها البعض بالاغاني واتهمها الاشرار بميل معيب الى الكونت دوارتوا شقيق الملك وقالوا ان حبها للدوكة دوبولينياك انما كان لمقاصد خفية . وتعاظم هذا الامر سنة ١٧٨٣ باقامة الحجر على الكردينال دوروهان لاكتساب ميل الملكة بهدية قيمتها ١٦٠٠٠٠٠ ليرا فدعي الكردينال الى المجلس . فمن شان اشاعات كهذه ازدياد قحة اخصام الملكة وبغضهم لها . ولم يكن ريب في براءتها كيف لا وهي ماري انطوانت ) على ان الامة ابغضتها وكرهتها وتيقنت ان حكم المجلس العام ببراءة الكردينال زور وبهتان . ودوام حال كهذه من المحال فاخبر موسيو كالون الملك ان دين الحكومة قد تعاظم فزاد في اثناء وزارتهِ اي في ثلث سنوات ٨٠٠ مليون من الفرنكات وانهُ لا سبيل الى اصلاح الخزينة الا بالغاء حقوق اصحاب الامتيازات وبالمساواة في جباية الخراج . واظهر للملك لزوم الاسراع الى اجراء هذه الاصلاحات لوقاية المملكة من الانقلاب والقلاقل . والوزير كالون حذا بذلك حذو سلفهِ الموسيو طوركو متوهماً انهُ لا يصادف الصعوبات التي صادفها اذ دعا اصحاب هذه الامتيازات الى التكاتف معهُ على الاصلاح وسال الملك ان يفوضهُ بعقد جمعية من الامراء للنظر في ذلك

وهذه الاصلاحات هي التي كانت تسر الشعب لما كان يباشرها طوركو ولكنهُ كان لا يقبلها حين يباشرها كالون المستند الى مساعدة الامراء لوضع النظامات الجديدة فلم يلتفت الامراء اليهِ ولا الى نعمهِ التي كانوا يتمتعون بها فنشات عن اجتماعهم قلاقل كثيرة وقيل للملك ان امراء المملكة يقبلون ما يرغب ملكهم في وضعهِ من النظامات اذا كان مصدرها رجلاً غير كالون فتنحى كالون وحكومة



الكردينال دوبريز وكان متكبراً متقلب الراي جاهلاً جامعاً نقائص اسلافهِ دون فضائلهم

وفي ٤ نيسان ( افريل ) سنة ١٧٨٧ تبوأ الكردينال المذكور الوزارة وخاصم المجلس العام حالاً ولم يتمكن من اجراء شيء لاصلاح البلاد والحكومة . وكان الشعب معتاداً ان يعد المجلس العام محامياً عن حقوقهِ فعاضدهُ وساعدهُ على قهر الوزير الجديد حال كون مقاصدهِ مضرة بالامراء اعضاء ذلك المجلس نافعة للشعب . والسبب في ذلك غفلة الشعب وتعودهُ الانقياد الى اصحاب القطائع والامتيازات . وكان الجميع ينظرون بعض الاصلاحات ظانين ان الملك يقوم بها او المجلس العام . وخاب املهم فيها فاشار البعض باستعمال طريقة ثانية كان ملوك فرنسا يستعملونها احياناً وهي ان تدعو الحكومة اجتماع جمعية الايتاجينيرو ( وهو اجتماع يجتمع فيهِ وكلاء الشعب من كل ولاية ومدينة وكل امراء البلاد وخدم الدين فيها ) اما الحكومة فاضطربت من ذلك فامر الملك المجلس العام بان يصدق على بعض قوانين جديدة فرفض فنفضهُ ونفاهُ الى مدينة تروا . ثم سال مجلس المحاسبات ومجلس الاعانة التصديق عليها ففعلا وقالا انهما صدقا بالجبر . وكرر الملك طلب اجتماع وكلاء الشعب للحصول على تصديق الامراء والمجلس العام على ذلك واعداً بتخفيف ما يخشونهُ من تخفيض امتيازاتهم . وكانت الحكومة غير قادرة ان تثبت على حالة واحدة فارجعت المجلس العام الى باريس وفتح المجلس الجلسة بنفسهِ وتلا وزير الاختام خطبة الملك المتضمنة بعبارات لطيفة ما كان يدعيهِ من السلطة المطلقة ثم وعدهم بان يتبصر في تعيين وقت اخر لاجتماع وكلاء الامة كاجتماع المجلس العام الا ان عدد اعضائهِ يكون اكثر ويكون تحت رئاسة الملك وامرهِ ثم طلب ذلك الكردينال الى المجلس التصديق على ما ياتي اولاً تفويض الحكومة بعقد قرض متتابع باربعمائة وعشرين مليوناً . ثانياً منح الحرية الدينية للبروتستانت الذين طردهم من فرنسا لويس الرابع عشر . فاختلفت اراء اعضاء المجلس وتباحثوا ثم تناقشوا وتجادلوا فرغب في توقيف المفاوضة وجمع اراء الاعضاء بالورق على ان الملك امر بفض الجلسة وقال لا بد من التصديق على الامرين المذكورين وتقييدهما في قيود النظامات وان لم يصدق عليهما المجلس فنهض البرنس دورليان واقام الحجة على تقييد القانونين المذكورين وكان الفرنسويون ينسبون اليهِ اموراً كثيرة مما جرى في ايامهِ وهو ابن البرنس فيليب شقيق لويس الرابع عشر ووصي لويس الخامس عشر . ولما خرج الملك قال المجلس ان تقييد القانون باطل . وفي اليوم الثاني نفى الملك الدوك دورليان الى مدينة فيليربويتريه وسجن اثنين من اعضاء البارلمان في قلعة الباستيل . فبلغ المجلس الحكومة ان هذه الاعمال غير موافقة وكشف لها عن سوء عواقبها فحاولت اجراء بعض امور جبرية مؤملة اضعاف ميل الامة الى الانقلاب فوزعت الاوامر المتعلقة بذلك

على كل القواد في كل المملكة . فعرف موسيو ديسيز ومينسيل بذلك واخبر به المجلس العام فهاج اهل باريس وماجوا فالقت الحكومة القبض على المذكورين في المجلس العام في ٨ ايار (مايس) ودعت الامراء والقضاة الى عقد جمعية في فرسايليا . فتلا الملك في هذه الجمعية خطبة مبيناً رغبته في اجراء ما يأول الى صالح الوطن والامة وقال في صدر الخطاب ان المجلس نهج منذ سنة منهجاً معوجاً فمن فروضي الشخصية والوطنية والعائلية منعه عن ذلك . ومن المعلوم انه لا يكون لدولة واحدة غير ملك واحد ونظام واحد ومجالس مربوطة بقوانين معروفة ومجالس عالية للنظر في الامور الخطيرة ومجلس لمراقبة انفاذ القوانين وتسجيلها والامة تدعى فضلاً عن ذلك الى عقد مجلس عند ما تمس الحاجة فهذه هي الاصلاحات الناشئة عن حبي الشديد لشعبي . ثم نهض كاتم اسرار الملك وقرأ امره بتقرير ما ذكره والغاء ما كان الشعب يكرهه ولو امر الملك بهذه الاصلاحات قبل لانت بالنتائج المطلوبة . وكان هذا الابطاء السبب في ذم كثيرين للملك لويس السادس عشر لجهله مقتضيات زمانه ومطالب قومه قبل حدوث ما يوضحها له فكانت اعماله تتاخر عن الاوقات الموافقة وتذهب سدى ولما راى الكردينال انه لا امل بالنجاح اشار على الملك بجمع الامة في ٥ ايار (مايس) سنة ١٧٨٩ وامر رؤساء المملكة والعلماء ان يهيئوا تقاريرهم لايضاح مطالبهم وحقوقهم ولم يكن في الخزينة مال كاف للنفقات الضرورية الى ان يتم هذا الاجتماع فاعتزل الكردينال بريين وخلفه موسيو نيكير في هذا المنصب المتعب في ٢٥ اب (اوغسطوس) سنة ١٧٨٨ . ومن اسباب كره الامة للملك الحروب التي كانت قائمة في اوربا وقسمة النمسا وبروسيا وروسيا لمملكة بولونيا وضمها الى ممالكهم واستبداد انكلترا وبروسيا في هولاندا دون مراعاة ميل فرنسا وارادتها وتقصير فرنسا بالمحاماة عن حليفاتها . ولم تنل الحكومة مرادها بارجاع موسيو نيكير الى الوزارة واعظم الموانع التي حالت دون ذلك القحط في تلك السنة من محل المزروعات . فالتزمت الحكومة ان تتكبد خسائر غير عادية مع عسرها لسد احتياجات الشعب الى ان يجتمع مجلس المبعوثين في ايار (مايس) سنة ١٨٧٩

وكانت الامة الفرنسوية مهتمة جداً باجتماع وكلاء الشعب لانها كانت مقسومة الى ثلثة اقسام وهي الامراء (نوبل) وخدم الدين (كلبرجه) والعامة (تيبرانيا) ومعناها حرفياً الفئة الثالثة . وكانت اعنة السياسة اوانئذ في ايدي الامراء وخدم الدين . اما العامة فلم تكن لها يد فيها ولا كان لها حق في المراتب ولا في الادارة . وكان عند اجتماع وكلاء الامة يامر الملك بجمع اراء الامراء وخدم الدين دون وكلاء العامة وكان عددهم اقل من عدد وكلاء الامراء . وكانت الامة الفرنسوية قد تمدنت قليلاً وادركت حقوقها وشعرت باحتياجاتها فاخذت الجرائد والكتب تبحث في اجتماع مجلس الامة وعواقبه وفي جمع الاراء وعدد وكلاء العامة . فنشا عن ذلك



مشكل وهو هل يكون عدد وكلاء العامة كعدد وكلاء الامراء وخدم الدين وهل تجمع الاراء بالافراد او بحسب الرتب . فاشغل هذا الامر بال اهل المملكة فاضطرب المجلس العام لما راى حب الحرية المنغرس في قلب الامة وقرر ان حقوق المجتمعين في الجمعية العامة ونظامهم تكون كحقوقهم ونظامهم القديمة . فظهرت بذلك مقاصد المجلس العام واسباب مقاومته لما كان يرغب الملك فيه من الاصلاح . اما موسيو نيكير فرام ان يكون عدد وكلاء العامة ضعف عدد وكلاء الامراء وخدم الدين ورضى الملك بذلك فجعل عدد الوكلاء قاطبة الفاً وعدد وكلاء العامة ضعف عدد وكلاء الامراء وخدم الدين . فشكرت العامة الملك على ذلك وباشروا انتخاب الوكلاء . فتم بلا قلاقل ولا اضطراب الا في الجهة الغربية اذ وقع خلاف بين العامة والامراء الذين كانوا يحافظون على عاداتهم القديمة . وفي الجنوب رفض الامراء ان يعينوا الكونت ميرابو وكيلاً عنهم لرداءة سيرته فعرض نفسه للشعب ليقيمه وكيلاً عنه فقبله بسرور لانه كان من افصح رجال عصره

وكان ياتي باريس كثيرون ولا سيما العامة من الولايات طلباً للقوت لان الجوع كان مشتداً والبرد شديداً فامسى الشعب في قلق دائم واضطراب عظيم وكانت الامة تخشى الفتن . وقيل ان الدوك دورليان ابن عم الملك الذي ذكرنا نفيه واللورد بت وزير انكلترا الاول بهيجان الشعب بالاموال بامل ايقاع الخلل في المملكة وكانت الجرائد والكتب تبين حقوق العامة وتذم اعمال الامراء واختلاسهم بعض حقوق لاطائل تحتها حال كون العامة ينبوع الثروة والقوة فيحق لها الاعتبار والرعاية . فامر الشعب وكلاءه ان يسلكوا بحسب القوانين المعروفة باسم كابه (دفاتر) وهي ينبغي ان يعتبر وكلاء الشعب انفسهم نواباً عن كل الامة لا نواب بعضها فقط وان يرفضوا المباحثة ما لم يظهر كل وكيل من الوكلاء راية واذا امتنع اصحاب الامتيازات عن الاتحاد معهم في ذلك فعليهم ان ينزلوا انفسهم في منزلة مجلس الامة ويهتموا وحدهم في النظامات الاساسية لاصلاح السياسة والهيئة الاجتماعية بحسب راي روسو في تاليفه وبالتصريح بالحرية والمساواة

اما الامراء واصحاب القطائع فلم يطلبوا الى وكلائهم السلوك بحسب القوانين العامة النافعة للامة قاطعين النظر عن الصوالح الشخصية ولكنهم وافقوا العامة على الغاء الامتياز في الجبايات وابطال سلطة اصحاب القطائع بعد دفع مبلغ من النقود لاصحاب الامتياز الملغى . ولم يتساهل الامراء بغير ذلك واجتهدوا في تقرير اصول وقوانين لاعتبار الشعب لهم

اما خدم الدين فطلبوا وضع نظامات ملكية فتكون سياسة المملكة في يد مجلس عام اعضاؤه الامة قاطبة وسن نظامات للمساواة في القضاء واصلاح ادارة الكنيسة والزام الشعب بتعليم جميع الاولاد وانشا مدارس ابتدائية في كل الولايات لتعليم الاحداث نفقاتها من الدولة ووضع قوانين

اساسية مرعية في كل البلاد على حدٍ سوى . ولم يضاد هذه الامور الا وكلاء الامراء . فانتهت الانتخابات وكان عدد النواب ٣٩٠ منهم ٩١ نائباً عن خدم الدين و٢٧٨ نائباً عن الامراء و٥٧٨ عن العامة . وكان من نواب العامة كاهنان و١٢ اميراً و١٢٠ قاضياً لانهم تركوا قومهم وانضموا اليها . وفتح هذا المجلس العام جلسته الاولى في ٥ ايار ( مايس ) سنة ١٧٨٩ ولم يقم له مثيل منذ مدة طويلة . وعزم على ابطال العادات والاصطلاحات القديمة وهذا اليوم المخلد الذكر هو ختام الدور التاريخي السابق وتاريخ حكومة فرنسا المعروفة بالفيودالية اي حكومة الامراء وكلامنا من الان وصاعداً يكون على تاريخ فرنسا الحديث اي الحوادث التي حدثت بعد ٥ ايار ( مايس ) سنة ١٧٨٩ وهو يوم عقد نواب الامة الجلسة الاولى كما سترى

## الفصل الثالث

فتح مجلس الامة في ٥ ايار (مايس ) سنة ١٧٨٩ وما حدث فيه الى ٢٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩١

فتح المجلس العام في قصر فرساليا باحتفال لا مزيد عليه فتوطدت الامال بتحسين الاحوال وتمكن علاقات الالفة والمحبة بين الامة . فقيل ان تاثيرات السرور التي اظهرها الناس كانت فوق الوصف فكانوا يتصافحون ويبعدون اسباب الخلاف ويتحدثون بما سيكون لفرنسا من المجد والشرف بالاصلاحات التي كان المجلس عازماً على اجرائها استناداً الى استعدادات الامة واشراق نور التمدن . وكان الامراء يتظاهرون باهمال عاداتهم القديمة لاقامة الصوالح العمومية ومما وطد الامال الخطاب الذي تلاهُ الملك في الجلسة الاولى وكان مما قالهُ (لا بد من ان تطلبوا مني اجراء كل ما يمكن طلبهُ من ملك يحب شعبهُ اشد محبة وكل ما يقدر الانسان ان يترصد حدوثهُ حباً بخير الامة وسعادتها وسترون انني ساجيبكم الى طلبكم)

غير ان الثورة التي انتشبت نيرانها بعد ذلك بمدة قصيرة هدمت اركان الهيئة الاجتماعية والعادات التي كانت مقررة منذ قرون وغيرت احوال ذلك الجيل وبعض اعتقاداتهِ الدينية واميالهِ . وكانت المعارك التي جرت من اغرب ما ذكر في صفحات التاريخ لان الاعمال انحصرت في يد الشعب لعجز الحكومة عنها مع انها كانت تسعى منذ القرن الثاني عشر في ما باول الى ترقية اسباب صوالح الامة وصرفت كل جهدها في تمهيد الافكار لقبول المبادىء الحرة وجمعت كل فرنسا تحت سلطة الملك وحدهُ والغت بعض حقوق الامراء ومع ذلك لم تقدر على مقاومة الامور حينئذٍ فامست هدفاً لسهام اصحاب الغايات الخصوصية ولعبة في ايدي الحوادث والراي العام . ويؤيد ذلك تبديلها للوزراء ثم جمعت الشعب وجعلت لهُ الحق بان يكون عدد نوابهِ ضعف عدد نواب الامراء وخدم الدين . ولما فتح الملك لويس السادس عشر المجلس المذكور كان الجميع منتظرين تبيين التسهيلات التي تكون محوراً للنظامات الجديدة على مقتضى



احوال البلاد لان الملك كان يعرف تمسك الامراء بعاداتهم وامتيازاتهم وعزم الشعب على طلب تغيير نظامات البلاد واستلام ادارة مهامها بالاشتراك مع الامراء . فكان عليهِ ان يحكم بتوفيق الطرفين حتى ظن انهُ عازم على خلع تاجهِ امام نواب الامة ليلبسوهُ اياهُ ثانية وكان يعتضد باراء جماعة كان رئيسهم شقيقهُ الكونت دوارتوا فلم يظهر منهُ الا كلام مبهم ولم يتكلم وزراؤهُ الا بما يتعلق بالخزينة فكان اجتماع نواب الامة اجتماعاً غير عادي دليلاً على وقوع الثورة وكانت الحكومة عارفة بذلك لكن كانت تحسب ان النواب انما اجتمعوا لمساعدتها في اجراء مقاصدها لا لمشاركتها في الادارة والسياسة لانها كانت تدعي ان الخلل واقع في المالية فقط لا في النظامات . فكانت نتيجة ذلك تسليم ادارة المجلس الى ذوي الاغراض فتقووا وكان الشعب يزعم ان الملكية كانت تميل اليهِ فتطوح في مطالبهِ حتى خرج عن حدود الاعتدال . وكان الناس يسيئون الظن في بواطن الحكومة اذ سلكت مسلكاً خالياً من الحكمة . فقبض وكلاء العامة على زمام الادارة واخذوا في تهييج الثورة

وذكرنا فيما مضى ان الامة الفرنسوية كانت مقسومة الى ثلثة اقسام فالقسم الاول الامراء والثاني خدم الدين والثالث الشعب وكان للامراء وخدم الدين امتيازات خاصة . ولما اجتمع نواب هولاء الاقسام الثلثة اختلفوا في فحص اوراق كل قسم منهم ولم يكن هذا الخلاف جوهرياً ولكنهُ اتى بخلاف اخر . وكان نواب الشعب كثيرين فكانوا يجلسون في قاعة الاجتماع العمومي فارسلوا الى نواب الامراء ونواب خدم الدين وكانوا في قاعتين قريبتين من القاعة العمومية بانهم ينتظرونهم لكي يتم فحص الاوراق . فاجاب الامراء قائلين بما ان الامة مقسومة الى ثلث رتب فنواب كل رتبة من هذه الرتب تؤلف جمعية مستقلة ولذلك لا لزوم للاجتماع لفحص الاوراق . فان كل رتبة من النواب تفحص اوراقها . وبادر الامراء الى فحص اوراقهم وقرروها ثم اعلنوا ان اجتماعهم قانوني

واما خدم الدين فاجابوا نحو هذا الجواب لكن لم يفحصوا اوراقهم بل اشاروا باقامة لجنة من الاقسام الثلثة تتولى فصل هذه القضية فقبل الجميع هذا الراي وكانت النتيجة ان نواب الامراء وخدم الدين ارتضوا بترك حقوقهم الخاصة بشرط ان يتميزوا هم وخدم الدين عن العموم بامر من الامور . وكان هذا الراي بدسيسة الملكة والكونت دوارتوا لالقاء الشقاق بين النواب واما نواب الشعب فطلبوا ان تسمى هذه الجمعية جمعية الامة وان لا يتميز قسم من النواب عن القسم الاخر بشيء . فلم يقبل الامراء بذلك فاجتمع نواب العموم في ١٧ حزيران ( جون ) سنة ١٧٨٩ واعلنوا ان جمعيتهم انما هي جمعية نواب الامة الحقيقية ولذلك دعوا انفسهم مجلس الكومون اي وكلاء عموم الامة وبعد ذلك سموا انفسهم الجمعية الوطنية وبعد هذا بيومين وافق اكثر خدم الدين على طلب

نواب الشعب واشتركوا معهم في الجلسة التي اقيمت حالاً وحرر النواب تقريرًا ارسلوا بهِ الى الملك يخبرونهُ عما حدث واوضحوا لهُ ما يرغبون ان يجروهُ ونشروا اعلانًا باسم الامة بالتغييرات التي احدثوها على مشتهاها . وبعد ذلك حلف النواب يمينًا بالمحافظة على المبادىء الجديدة وقرروا تقريرًا جديدًا بخصوص جمع الاموال الاميرية

فلما رات الدولة جساريهم واصرارهم على تنفيذ مطالب الامة خافت جدًّا فشرع الامراء وعلى الخصوص الملكة والكونت دوارتوا في اقناع الملك بسوء عواقب هذه القحة وموسيو نيكير توهم ان ما تشاءموا بهِ سيحدث فاشار على الملك ان ياتي المجلس المذكور ويفتح الجلسة بنفسهِ ويمنح من تلقاء نفسهِ كل الاصلاحات التي تطلبها الامة ويامر باجتماع النواب من الرتب الثلث معًا بدون ان تتميز احداها عن غيرها وان يسمى هذا المجلس مجلس نواب الامة وذلك ليتضح للامة ان الملك منح ذلك برضاهُ التام دفعًا للاضطراب والفتن . فقبل الملك بذلك ولكن لم يسرع بهِ فمضت ثلثة ايام بعد ان اعلن قصدهُ وكان رجال الدولة يزعمون ان سبب هذه المطاولة هو ما كانوا شارعين في اعدادهِ من اسباب الاحتفال الذي يجب ان يقام للملك عندما ياتي قاعة الاجتماع . اما مقاصد الحكومة الحقيقية فكانت المطاولة لتتمكن من زمان كافٍ لاستخدام الوسائط اللازمة لقهر مقاوميها ومنع اتحاد نواب خدم الدين مع نواب الشعب . وعرف موسيو باليي رئيس نواب الشعب مقاصد الحكومة فبادر الى المجاهرة بالعصيان على اوامر الدولة وطلب الاجتماع فاتى هو ونواب الشعب قاعة المجلس وطلبوا الدخول اليها فمنعهم الخفراء وذلك في ٢٠ حزيران ( جون ) سنة ١٧٨٩ فاقام النواب الحجة على هذه الاهانة واجتمعوا في شارع من شوارع المدينة فاحاط الاهلون بهم واتحدوا معهم في اقامة الدعوى على ما اجرتهُ الحكومة . واما الامراء ورجال الدولة فكانوا ينظرون اليهم من نوافذ قصورهم ويسخرون بهم

وبعد ذلك طلب البعض الذهاب الى مارلي حيث كان الملك مقيمًا وطلب الاخرون الاجتماع في السهول امام قصر الملك وبينما هم على تلك الحال قال رجل هلموا نذهب الى قاعة جودوبوم ( قاعة للالعاب ) فوقع هذا الراي موقعًا حسنًا من الجميع فذهبوا الى القاعة المذكورة غير مبالين باوامر الحكومة واقام الشعب خارجًا يحرسهم . ثم صعد المنبر موسيو مونيه احد وكلاء ولاية دوفينه وقال (لما راينا الاهانة التي لحقت بنا وعرفنا مقاصد رجال الحكومة الخبيثة في مقاومة نواب الامة القانونيين كان لا بد لنا من ان نعتصب عصبة واحدة للقيام بخير الوطن والامة وذلك انما يتم بان نحلف يمينًا باننا لا ننفصل لانهُ معلوم ان نواب الشعب لا يسمون كومونًا من الان فصاعدًا بل يحق لهم ان يدعوا نوابًا للامة لانهم ينوبون عن اكثر الشعب لان نسبة موكليهم الى غيرهم من الامة هي نسبة الخمسة والتسعين الى الخمسة في المائة ولذلك نتعاهد الان بالقسم اننا لا ننفصل



بل نجتمع حيثما يتيسر لنا الاجتماع الى ان تتقرر قوانين المملكة وتصطلح نظاماتها وتتوطد ) فرفع النواب ايديهم نحوهُ وقالوا نحلف

فلما راى رجال البلاط ذلك خامرهم الخوف وارسلوا الكونت دوارتوا ليستاجر قاعة جودبوم حتى يمنع النواب من الاجتماع فيها مرة ثانية . واما النواب فاجتمعوا في كنيسة سان لويس في ٢٢ حزيران ( جون ) وانضم اليهم ١٤٨ من نواب خدم الدين ومن نواب الامراء وبعد ان اجتمعوا افترقوا منتظرين حدوث ما عزمت الحكومة على اجرائهِ في غد يوم اجتماعهم وهو اليوم الذي تعين لدخول الملك الى الجمعية ليفتح الجلسة بنفسهِ . اما الحكومة فاقامت الجنود والمدافع في القصر وحول قاعة الاجتماع وغيرها من الاماكن العمومية فحضر الملك مارًّا في وسط هذه الصفوف والاسلحة المخيفة ودخل قاعة الاجتماع وذلك في ٢٣ حزيران ( جون ) وتكلم كلامًا مبنيًّا على التظاهر بالقوة والصرامة وشدة العزائم التي لم يكن متعودها وقال انني اوصي بحفظ الامتياز المقرر بين رتب شعبي الثلث واقرر ان النواب المجتمعين الان هم عبارة عن ثلث جمعيات ممتازة بعضها عن بعض تبحث في الامور بحسب رتبها ولا يسوغ لها ان تشترك معًا في الاجتماع الا بموجب رخصة مخصوصة من الملك ولا يطلق عليها اسم الجمعية الوطنية الا عند ما تكون مجتمعة بموجب الامر المذكور . وبناء على ذلك اوصي بابطال كل ما قررهُ وكلاء العموم لانهُ مناف للقوانين المقررة وللعدالة واوصي ايضًا بان يمتنع الوكلاء عن المباحثة في ما يتعلق بحقوق اولئك الذين عاداتهم واصطلاحاتهم مقررة منذ سنين كثيرة وعما يقرر من النظامات واملاك الامراء وحقوقهم . ثم ختم كلامهُ بتعيين الامور التي يجب ان يتباحثوا بها مصدقًا على ما يتعلق بها من الاجراآت الجديدة وهي تصديق وكلاء الامة على الاموال الاميرية وعلى ما ربما كانت الحكومة محتاجة الى استقراضهِ وعلى اظهار حساب سنوي لدخل الدولة ونفقتها وعلى الغاء الامتيازات المتعلقة بتوزيع الاموال الاميرية وعلى اعطاء الحرية الشخصية والحرية للمطابع وعلى اقامة مجالس في الولايات والغاء السخرة والرسومات في الداخلية وغير ذلك . وبعد ان عين هذه الاصلاحات قال يسوغ لي ان اقول انهُ لم يسبقني ملك الى فعل ما قد فعلت باعطاء التسهيلات والمنح التي منحتها لشعبي فاعضدوني في اتمام ما شرعت بهِ والا فساشرع وحدي في اجراء ما ياول الى ترقية اسباب خير امتي فانني اعتبر نفسي نائبًا حقيقيًّا عنها . الى ان قال واوصيكم ان تفترقوا حالاً وتذهب غدًا كل فئة منكم الى القاعة المخصوصة بها وتنظروا في القيام باعمالكم . ولما خرج الملك خرج وراءهُ الامراء وبعض خدم الدين اما وكلاء الشعب فاقام كل منهم في مكانهِ وكانوا متكدرين مما سمعوهُ من الملك . فنهض ميرابو وقال ايها السادة ان ما سمعتموهُ ياتي الوطن بفوائد كثيرة لو كانت مواعيد اصحاب الجور والظلم صادقة لان من ينظر حول هذه القاعة يعجب من كثرة الجنود والاسلحة فهي الغاية يا ترى

منها لو اريد لكم الخير. فمن هو هذا الآمر لنا اليس في امره مرد اوليس من فروضه ان يخضع لارادتنا نحن وكلاء الامة لان سعادة امة عددها نحو ٢٥ مليونًا متوقف علينا ولا يجرى شيء الا بارائنا ورضانا فاطلب اليكم القيام بحق الحلف الذي حلفناه وهو ان لا نفترق قبل اصلاح الوطن وعلى كلٍّ منا ان يعرف ان الامة دعته لينوب عنها وانه ما من سلطة تقدر ان تمنعنا عن القيام بحق دعوتنا

فرجع وزير تشريفات الملك الى قاعة الاجتماع وقال للنواب ايها السادة لقد سمعتم ما امر به الملك فاجابه ميرابو قائلاً لقد سمعنا ما طلب الى الملك ان يفعله. واما انت فليس لك ان تكون الوسيط بين الملك وجمعية الامة ولا ان تجاسر بيننا ولا ان تتكلم في هذا المكان الحافل فاذهب وقل لسيدك باننا مقيمون هنا بحسب ارادة الشعب فلا نخرج الا بقوة حد السيف. فصاح كل النواب قائلين نعم تحالفنا وعقدنا الخناصر. ثم قال موسيو سايس لاحنث في يميننا وقد تعاهدنا على اصلاح نظامات المملكة ومن لذلك ان لم نباشر نحن اعمالنا كما باشرناها امس. فصوّب النواب هذا الكلام وقرروا بينهم على مداومة الاجتماع واتمام الاعمال التي شرعوا بها وحكموا ان النواب غير خاضعين للقوانين فلا محاكمة عليهم. فاوغر ذلك صدر الحكومة فشرعت تعد اسباب العقوبة ولكنها لم تنجح فغضب الشعب على الملك وعلى رجال دولته غضبًا شديدًا ولما بلغ اهل باريس ان الملك امر بابطال ما قصد نواب الامة ان يجروه غضبوا جدًا وقصدوا في اول الامر ان يزحفوا على فرسايا فخاف الملك واعوانه الامراء واخذوا في تجميع الجنود حول فرسايا

وسقطت بذلك سطوة الحكومة الادبية وارتفعت سطوة نواب الامة ثم انضم اكثر نواب خدم الدين الى الجمعية الوطنية وفي اليوم الثالث انضم اليها بعض نواب الامراء وفي ٢٧ حزيران (جون) امر الملك بما يناقض ما كان قد امر به في الاجتماع العمومي وهو ان ينضم النواب جميعًا مع قطع النظر عن رتبهم بعضهم الى البعض ويقيموا جمعية واحدة. فاضطر الامراء الى طاعة الحكومة ولم يشتركوا اشتراكًا فعليًا في اعمال المجلس لانهم كانوا يقولون انما هذا الانضمام موقت

واما الملكة والكونت دوارتوا واعوانهما فاقنعوا الملك ان يحاول الانتقام من الجمعية الوطنية فصدرت الاوامر بجمع الجيوش حول باريس فاجتمعوا وكان عددهم نحو ٤٠ الفًا منهم ثماني فرق من الجنود الاجنبية اي المستاجرين. ووضعت الحكومة المدافع والمهمات الحربية في القرى والطرق المجاورة للعاصمة وكانت هذه الجيوش تحت قيادة الكونت دو بروكلي واقامت جيشًا ثانيًا في نفس باريس في المكان المعروف باسم شان دومارس وكان تحت قيادة البارون بيزينفال. ولكن لما كانت اعمال الحكومة خالية من الحكمة شرع اعوان الملك باجراء هذه الاستعدادات جهارًا



فتيقظت الامة والجمعية الوطنية. وزاد ارتباك العاصمة بالمجاعة الشديدة التي حدثت في تلك السنة الردية وكان الباريسيون يجتمعون في ساحة البالي رويال ويتباحثون في سوء حالة الشعب وسوء نوايا الحكومة ومقاوماتها لمطالب الجمعية الوطنية وكانوا يتبصرون في الوسائط التي من شانها امالة الجنود الى الامة ليتركوا التحزب للحكومة. وكانت الجمعية الوطنية تشترك مع الباريسيين في اظهار الارتباك والخوف من مقاصد الدولة واجتماع الجنود في فرسايا وحول باريس ولما كان لا يمكن دوام هذا الحال شهرت الجمعية الوطنية عرضًا باسم الملك تطلب اليه ابعاد الجنود عن باريس لتتمكن من مداومة اعمالها السياسية فاجاب الملك انه انى بالجنود الى هناك لمنع حدوث القلاقل وانه اذا كانت جمعية العموم تتشوش من ذلك فهو مستعد ان ينقل الجنود الى مدينة سواسون وهذا هو ابتداء الثورة ابتداء فعليًا. وكانت الحكومة سابقة في مباشرة القتال. اما موسيو نيكير الذي كان قد رجع الى الوزارة كما تقدم فتمنع عن الحضور الى الجمعية في ٢٢ حزيران (جون) لما اتاها الملك بالهيئة الاحتفالية فشق ذلك على الاشراف وطلبوا عزله فتردد الملك عن ذلك على انه لما صمم على الشروع في مهاجمة الامة امره ان يخرج سرًا من فرنسا ويذهب ليلاً الى بروسل عاصمة بلجكا. وذلك ليبعده عن الشعب لانه كان يحبه جدًا. فاجاب نيكير طلب الملك في ١٢ تموز (جوليه) من تلك السنة. ولما شاع ذلك اجتمع الباريسيون مع الاقوام الكثيرة التي اتت العاصمة من كل الولايات الفرنسوية ونهض شاب حديث السن يدعى كاميل ديمولين وبيده غدارة وقال ايها الاهلون ان الزمان عزيز لان ابعاد موسيو نيكير هو برهان كاف يحملنا على الاعتقاد ان الجنود عتيدة ان تخرج من سهول شان دومارس لتقاتلنا ولذلك كان من فروضنا ان نتقلد اسلحة المدافعة. فصرخ الجميع قائلين السلاح السلاح وحملوا صورة موسيو نيكير وصورة الدوك دورليان وطافوا بهما في الشوارع علامة لميلهم اليهما. اما الجيوش فحاولت منع هذا الاجتماع بالقوة واطلقت فرقة البرنس لمبسك الرصاص على الجموع وهي مقيمة في مركزها في التويلري فقتلت وجرحت كثيرين فهاج الشعب وماج وازبد غضبًا وقرع اجراس الحزن في كل انحاء المدينة وهجم على معامل الاسلحة وخرجت جنود اخرى من القصور التي كانت قد انزلتها الحكومة فيها ومنعت الجنود الاجنبية عن التقدم في شوارع المدينة. فطلب البارون دو بيزينفال الى الجنود الذين في شان دومارس ان يجدوه ليتمكن من حفظ موقفه في شانزيليزي فلم يجيبوا طلبه فالتزم ان يرجع الى الوراء امام جموع الشعب وجنود الحرس. وفي تلك الاثناء اجتمع المنتخبون في ساحة اوتل دوفيل وسعوا في اخماد نيران هذه الفتن وفي التبصر في ما يؤول الى انقياد الثورة الى رايهم فاتفقوا على اصدار الاوامر باجتماع الجمعيات من كل ولاية وقضاء وناحية وسلموا الى عموم الشعب اسلحة دار الاوتل دوفيل وزعموا ان اجتماعهم موقت بصفة مجلس بلدي

تحت ادارة وكيل التجار فليسبل وامروا بتنظيم جنود جديدة تدعى بالحرس القروي وان يكون عددها ٤٨ الفاً رايتهم راية باريس القديمة وهي حمراء . وزرقاء وفي غد ذلك اليوم تنظم هذا الحرس الجديد وضمَّ اليهِ الحرس الاصلي وجنود المحافظة ووضعوا في الشوارع جنوداً متطوعة للاحتفاظ وشرعوا في قلع بلاط الشوارع ليبنوا بهِ حواجز وطفقوا يجمعون الاسلحة

واما الباريسيون فهجموا على قلعة الباستيل وهي قلعة في وسط المدينة كانت الدولة تسجن فيها العصاة وطلبوا الى القائد الذي فيها ان يسلمها اليهم فابى فانتشب القتال بينهُ وبينهم حتى فتحوها وقتلوا القائد وثلثة ضباط ثم قصدوا اوتل دوفيل ففتحوها وقتلوا موسيو فليسبل مديرها لانهُ كان يحاول خداع الشعب ثم قتلوا الجنرال سالبري وكثيرين من الجنود . ولما سمع الملك بما حدث وبفتح الباستيل صرخ قائلاً ما هذا العصيان فقال لهُ الدوك دوليانكور هذا ابتداء فتنة عظيمة . فنهض الملك حالاً واتى وحدهُ ماشياً الى قاعة اجتماع الجمعية الوطنية ولما دخلها استقبلهُ الاعضاء بالدعاء فقال لهم الملك انكم ختم اما انا فاثق بكم وبعد ان تكلم معهم قليلاً خرج فتبعهُ جميع اعضاء الجمعية مشاة ورافقوهُ الى ان وصل الى قصرهِ . ثم اتى دار اوتل دوفيل واقام موسيو بايي حاكماً على باريس وقلد لافاييت قيادة جيش الحرس الوطني وكانت رايتهُ راية باريس القديمة فضم اليها لافاييت اللون الابيض لتتم بذلك الموافقة بين ارادة الامة وعادة العائلة الملكية لان الراية الفرنسوية في عهد دولة البوربون كانت بيضاء وعليها رسم زهرة الزنبق وبعد ان اتم عمل هذه الراية المثلثة الالوان اعطاها للجيش المذكور بحضور جمهور غفير وقال لهم ان هذه هي رايتكم التي ستطوف العالم

ولما سمع سكان داخلية فرنسا بما حدث في باريس هاجوا وماجوا ونهضوا للانتقام من اصحاب النطائع وشرعوا في مهاجمة دور الولاة وقصورهم ولم يمتنعوا عن مهاجمة الاديرة فارادت الجمعية الوطنية ان تمنع سريان هذه التعديات فاجتمعت في مساء اليوم الرابع من شهر آب (اوغسطوس) وقرر قرارها على نشر النظامات الجديدة المؤسسة على الغاء كل الامتيازات . واول من طلب الى الجمعية الغاء حقوق الامراء حباً بخير الامة والمملكة وتنازل عن حقوقهِ القديمة وامتيازاتهِ الدوك دونوايل والدوك اكيلون ووافقهما في ذلك بقية الامراء وخدم الدين ووكلاء المدن الذين كانت لهم امتيازات وانعامات خاصة دون غيرهم من وكلاء المدن . وحاصل الكلام انهُ لم يصبح الصباح حتى اجمع راي الجمعية على ما ذكر وامرت بتلقيب الملك لويس السادس عشر محبي الحرية الفرنسوية لان ذلك كان في ايامهِ

ثم اجتمع وكلاء الشعب وقرروا حقوق الامة والمساواة بين اعضائها واتفقوا على تقرير حقوق مجلس الامة ومتعلقاتهِ الا انهم اختلفوا على كيفية جمع آراء اعضاء المجلس في تقرير ما يقع الخلاف



عليهِ فرفعت المسئلة الى الملك وطلب اليهِ المجلس تصديق كل ما قررهُ مع قطع النظر عن مقاومة وكلاء الامراء . فاطل في ذلك فزحف اهالي باريس ثانية على فرسايا رجالاً ونساء وكانوا يصرخون ويطلبون خبزاً لتضايقهم . فارسل الملك قوماً من اعوانهِ واخذوا يلاطفون الشعب بالكلام ويعدونهُ باستخدام الوسائط الفعالة لتحسين حالتهِ . فعند ما جنَّ الليل ذهب كل من الاهالي الى مكانهِ . اما لافاييت فلم يقدر ان يمنع الباريسيين عن الذهاب الى فرسايا ولكنهُ تبعهم بجيشهِ عن بعد لانهُ كان يخاف حدوث امر مخلٍّ عند ما يدخلون قصر الملك ولم يتمكن من مقابلتهِ الا بعد ان انصرفت تلك الجموع وذلك عند نصف الليل وذهب في الصباح الى منزلهِ ليستريح من اتعاب المساء وعند وصولهِ بلغهُ ان الشعب هجم على قصر الملك وما ياتي هو تفصيل تلك الهجمة

في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول (اوكتوبر) الساعة السابعة صباحاً زحف على قصر الملك جمهور غفير من الرجال والنساء ودخلوا عنوة ساحة القصر ثم دخلوهُ وشرعوا في مصادمة الخفرا المقيمين على ابوابهِ فابتدأوا بضرب الخفير المقيم عند باب القصر الداخلي ثم اخرجوهُ الى خارج وقطعوا راسهُ . وفي غضون ذلك نزل خفير عن سلم قاعة الملكة فهجموا عليهِ فاطلق عليهم بندقيتهُ وقتل رجلاً منهم فاطلق كثيرون من الشعب بنادقهم عليهِ وقطعوا راسهُ وعلقوهُ مع راس الخفير الاول في راس حربة وطافوا بهما في شوارع المدينة . وبعد ذلك ازداد الجمهور جسارة وهجم على قصر الملك وقاعتهِ الخصوصية . فلما رات الملكة ذلك ارتعدت فرائصها خوفاً والتجأت الى قاعة الملك . اما الحراس فدافعوا عن قاعة الملك مدافعة شديدة ومع انهُ قتل منهم كثيرون لم يبايعوا مواقفهم وكذلك فعل حراس قاعة الملكة . وهكذا ابتدأ اولئك الاوباش ينهب ما في قاعات القصر . على انهُ قبل ان يتمكنوا من تنفيذ مقاصدهم اتى لافاييت وخلص من القتل ١٧ رجلاً من الحراس الذين كانوا قد القوهم على الارض ليذبحوهم . فاطلق احد هولاء الاوباش بندقيتهُ على لافاييت فلم يصبهُ الرصاص فامر لافاييت بالقاء القبض عليهِ فقتل الشعب ذلك المتعدي اظهاراً لخضوعهِ لاوامر لافاييت . ثم دخل لافاييت الى القصر واخرج القوم منهُ . اما الشعب فاجتمع في ساحة القصر واخذ يصرخ طالباً ذهاب الملك الى باريس فالتزم ان يخرج ويقابل الجمهور ووعدهُ بانهُ سيذهب الى العاصمة فصرخ الجمهور قائلاً فليجئ الملك لكنهُ كان يشتم الملكة . وكانت الملكة تحب ان تذهب مع الملك الى باريس لكن كان في ذهابها خطر عظيم . فدنا منها لافاييت وسألها عن المقصود من ذهابها الى باريس فقالت من فروضي ان اموت عند اقدام الملك وبين اولادي الاعزاء . فطلب لافاييت الى الملكة ان تذهب معهُ فاجابت طلبهُ ولكن تمنعت لما رات انهُ يروم ان يذهب بها الى مكان مقابل للساحة التي كان الشعب

مجتمعاً فيها وقالت لهُ كيف اقابل الشعب وحدي اما رايت الحركات التي كانوا يظهرونها ضدي . ولا يخفى ان ما اظهرهُ الشعب من البغض للملكة كان امراً يحق لها ان تخافهُ فالح عليها لافاييت باجابة طلبهِ وقال لها لا باس من خروجك الى هذا المكان فخرجت معهُ ووقفت مقابل ذلك الجمع الغفير. ولا يخفى انهُ كان يصعب على لافاييت ان يبلغ كل هذا الجمهور افكارهُ ويخبرهُ عن مقاصد الملكة الحسنة فاستخدم واسطة حسنة للوصول الى المقصود وهي انهُ جثا على ركبتيهِ وقبل يد الملكة فلما راى الجمهور ذلك صرخ بصوت واحد قائلاً فلتعش الملكة وليحي قائد جيوشنا . وهكذا توطدت الامال باتمام المصالحة بين الامة والعائلة الملكية وسار الجمع كلهُ امامها وكان يظهر فرحهُ بالانتصار بواسطة الغنا والاعمال المنافية للاداب . وامسى الملك من ذلك الحين كانهُ اسير في وسط العاصمة ورعاع اهالي باريس وفرنسا عموماً تحيط بهِ . اما الجمعية الوطنية فتبعت الملك الى باريس ونزلت في قصر مانج قرب التويلري وشرعت في اتمام تقرير النظامات الجديدة وبعد اشهر قليلة غيرت نظامات الملكية القديمة لانهُ عوضاً عن ان تكون حكومة مطلقة اصبحت حكومة مقيدة كل التقييد حتى انهم منحوا مجلس الامة سلطة تفوق السلطة المطلقة التي كانت للملك وذلك خوفاً من ان يقوى الملك ويلغي هذه القوانين واخذت بعد ذلك في الاهتمام بترتيب داخلية المملكة واجراآت الاحكام . وكانت المملكة حينئذٍ مقسومة الى اربعين ولاية ليس بينها ارتباط فقسمتها الجمعية الى ٩٣ ولاية وقسمت كل ولاية الى اقضية كثيرة وكل قضاء الى عدة مديريات وكل مديرية الى دوائر وتم ذلك في ١٥ كانون الثاني (ديسمبر) سنة ١٧٩٠ . وحدث بعد ذلك تغيير في تقسيم بعض ولايات كبيرة الى ولايات صغرى فصار عدد ولايات فرنسا ٩٦ ولاية . ثم قررت امراً اخر وهو ان من بلغ من السن ٢٥ سنة يتمتع بحقوق الامة . وبعد ذلك قررت الامر بالتسوية بين اصحاب جميع المذاهب والاديان وهكذا تمكن البروتستانت والاسرائيليون من ممارسة دياناتهم بدون ان يصادفوا اضطهاداً او معارضة . وبعد ذلك قررت الجمعية الوطنية ان يصير عقد الزواج في المحاكم بحضور شهود وفتحت دفاتر جديدة لتقييد اسماء الذين يولدون والذين يموتون والذين يتزوجون ودعت هذه الدفاتر دفاتر الحالة المدنية وهكذا تقرر امر المساواة في هذه الامور . وفي ١٩ حزيران (جون) سنة ١٧٩٠ اجتمعت الجمعية الوطنية والغت حقوق الامراء وامتيازاتهم وبادرت الى تنظيم الاحوال السياسية بالمساواة ومقتضيات الاحوال فالغت المجلس العام وغير مجالس وفصلت بين احكام القضاء واحكام الاجراء وامرت باقامة مجالس صلح في كل مديرية ومجالس مدنية في كل قضاء ومجالس جنايات ومحاكم قانونية في كل ولاية ومجلس عالٍ تستانف اليهِ الدعاوى استئنافاً نهائياً . وكان من اعمال هذا المجلس ان يميز حقوق الرعايا وصفات الدعاوي وانواعها ولم يكن لهُ مداخلة بالحكم الذي تصدرهُ



المحاكم وكان يصير انتخاب القضاة كانتخاب غيرهم من ارباب الخطط ثم اقيم مجلس محاكمة عالٍ لفصل الدعاوى التي تقام على المامورين العظام وعلى الذين يتهمون بمضادة الحكومة

ومن المعلوم ان الذي حمل الفرنسويين على فعل ما فعلوا انما هو عدم انتظام مالية الدولة وفراغ الخزينة من النقود ومنذ اجتمع مجلس المبعوثين في ٥ ايار (مايس) سنة ١٧٨٩ الى ١٩ حزيران (جون) سنة ١٧٩١ لم تتمكن الجمعية الوطنية من فرصة مناسبة للاهتمام باصلاح ذلك مع انهُ هو السبب الذي اجتمعت للنظر في ايجابهِ في اول الامر . فلما شرعت الجمعية المذكورة لاصلاح ذلك رات انها غير قادرة ان تقوم بحقهِ لانهُ كان من المقتضى ان تهتم في وقت واحد في ايفاء الديون السابقة وسد الاحتياجات الحالية وتقرير ما يتكفل بتحسين المالية في المستقبل . فامرت اولاً ان يجمع ربع مداخيل الاهلين كرسم موقت لسد الاحتياجات الحالية وذلك اجابة لطلب موسيو نيكير وموسيو ميرابو . ولما كان ذلك غير كافٍ التزمت ان تامر بضبط الاوقاف فاصدرت امراً في ٢ ت٢ (نوفمبر) مآلهُ ان هذه الاوقاف هي ملك الامة لكن تعسر بيعها في وقت واحد لان الامة كانت في ضيق شديد وكانت الامنية قليلة نظراً للتقلبات التي ربما كانت تطرأ على الحكومة فالتزمت الجمعية ان تحمل سكان كل ولاية ثمن اوقاف تلك الولاية فولجت مشايخ الدوائر باجراء ذلك واستدانت مبلغاً وافراً وحولتهُ على هولاء المشايخ فدفعوا قيمة هذه التحاويل من ثمن مبيعات الاوقاف وهكذا تمكنت الجمعية من ايفاء الدين الماضي واصلاح احوال الخزينة . وبعد ذلك شرعت في اجراء ما يتكفل بضمانة احوالها في المستقبل فوزعت الاموال الاميرية على الامة بالمساواة ووضعت خراجاً على تحرير صكوك العقارات وغيرها وخراجاً على مداخيل الاغنياء وعلى الامتعة المنقولة وفصلت صندوق خزينة الدولة عن صندوق خزينة الملك الخصوصية وعينت لهُ راتباً ٢٥ مليوناً من الفرنكات كل سنة وكذلك عينت راتباً لخدم الدين الكاثوليكي وامرت بنشر تقارير عن حالة المالية حيناً بعد حين وفي ١٦ شباط (فنريه) سنة ١٧٩١ الغت الامتيازات التي كانت لاصحاب المعامل والتجار وسمحت لكل من اراد بانشاء المعامل وتعاطي الاشغال التي يرغب في معاطاتها على انها حافظت على امتيازات المخترعين وفوضت لكل مخترع ان يختم ما يخترعهُ بختم لا يسوغ لغيرهِ ان يقلدهُ وذلك في ٧ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٧٩١ ثم امرت بان تكون مكيلات المملكة ومقاييسها وموازينها من نوع واحد والغت الاخرجة التي كانت توخذ على البضائع في داخلية البلاد ووضعت خراجاً على الاشياء التي تخرج من البلاد وتدخلها فقط . وامرت باقامة مامورين عند حدود المملكة لقبض ذلك ثم وضعت خراجاً جديداً يدفعهُ التاجر او الصانع عند ما يفتح باب عملهِ وتمَّ ذلك في ٧ ايار (مايس) سنة ١٧٩١ وبعد ذلك بمدة قصيرة تداخلت في امر جلب عليها لوم التاريخ واتى البلاد باعظم الرزايا وهي النظامات التي حاولت

ن تجريها مما يتعلق بخدم الدين فانها اعلنت انها تقرر بان الديانة الكاثوليكية هي ديانة المملكة الفرنسوية وان الحرية مطلقة لسائر الاديان لكنها تمنعت عن الاقرار بهذا الامر الضروري في ١٢ شباط (افقريه) سنة ١٧٩٠ وبعد ذلك شرعت في اجراء ما جلب عليها لوم اللائمين وتهمات الاهلين الذين قالوا ان اعضاءها من اهل الكفر ومن هذه الاجراآت الغاء النذر الرهباني وابطال كل الرهبنات والجمعيات الدينية خلا التي تهتم بخدمة المرضى فخرج كثيرون من الرهبان والراهبات والعباد من اديرتهم فاتى ذلك بشرور وبعد ذلك ارادت ان تقيم في كل ولاية اسقفاً مخصوصاً بنخبة الشعب عموماً لا روساء خدمة الدين مع رئيس الاساقفة بحسب العادة التي كانت جارية حينئذٍ . وهكذا امسى في يد الشعب حق الانتخابات السياسية والدينية . ولا يخفى ان هذا القانون يخالف على خطٍ مستقيم القوانين الكنيسية ويضاد سلطة الحبر الروماني لانهُ يقطع كل المواصلات التي كانت جارية بين رومية والاساقفة . والذي حرك الجمعية الى ذلك الحزب الجنسيني القديم الذي يبغض جداً خدم الدين فنتج من ذلك انشقاقات كثيرة ومع انهُ صار تقرير هذا القانون في ١٢ تموز (جوليه) سنة ١٧٩٠ لم يعرض على الملك ليصدق عليهِ الا في ٢ ك ١ (دسمبر) . اما الملك فسأل حضرة البابا سراً عن ذلك فمنعهُ عن تصديقهِ فحدثت مشاجرة قوية حتى ان الملك لم يقدر ان يرضي بعملهِ الجمعية الوطنية التي كانت تطلب تصديقهُ على هذا النظام ولا الاساقفة الذين كانوا يطلبون اليهِ ان يرفضهُ حالاً . فاجتمع روساء الاساقفة والاساقفة واعلنوا بانهم لا يذعنون لهذا النظام وان كل اسقف يسام بحسب هذا القانون الجديد لا يكون اسقفاً قانونياً ولا يعرفهُ رئيس الاساقفة وانهُ اذا حاولت الجمعية عزلهم واقامة غيرهم فلا يتركون مراكزهم الا بالقوة الجبرية واعلنوا بهذا الخصوص اعلانات كثيرة ونشروها في كل فرنسا فهاج الشعب وحمل بعضهم السلاح فغاظت هذه المقاومة الجمعية الوطنية فرغبت في ملاشاتها وبذلك جرت غلطاً فوق غلط لانها قررت قانوناً جديداً مآلهُ انهُ من المقتضى ان خدم الدين يحلفون جهراً في كنائسهم الخصوصية امام شعب الدائرة بانهم ينقادون الى اوامر الجمعية والى النظامات الجديدة التي تقررت بخصوص تعيين خدم الدين ومن لم يقم بحق هذا القسم لا يعتبر من المتوظفين في الخدمة الدينية ثم امرت بان تكتب في قائمة في كل مكان اسماء خدم الدين الذين يطيعون واسماء الذين يمتنعون . فتمنع اعضاء الجمعية الذين هم من خدم الدين من التصديق على النظام خلا ٦٤ قسيساً منهم فانهم صدقوا عليهِ فعزلت الجمعية الذين لم يصدقوا على ذلك وعينت عوضهم قوماً من الذين خضعوا لما امرت بهِ فانقسم خدم الدين في فرنسا الى قسمين فقوي حزب الذين كانوا يقاومون الثورة لانهُ انضم اليهِ روساء خدم الدين وعمدهم وكل الذين يلوذون بهم فاشتد الخصام بين الفريقين فاتى ذلك باضرار كثيرة فانتشبت نيران الحروب في كل الولايات وكانت النصرة للجمعية الوطنية



فصدق الملك على قرار الجمعية على كره منهُ . واما البابا فنشر حرماً ضد هذه النظامات والذين يجرونها

هذا ولا يخفى ان روح الثورة الفرنسوية كان قد انتشر وتقدم في الدنيا حتى ان اكثر شعوب ممالك اوربا اقتبست هذا الروح فنهضت الامم ضد ملوكها في بولونيا وبلجكا حتى في نفس لندن وطلبت الحرية وتقرير القوانين النافعة فاشتدت الثورة في بلجكا ورفض الشعب الخضوع لامبراطور النمسا لان بلجكا كانت من ممالك النمسا في ذلك الوقت فارسل مجلس بروسل سفراء الى الجمعية الوطنية الفرنسوية وطلب اليها المساعدة فلما رات ذلك دولة النمسا وانكلترا وبروسيا وروسيا اتحدت معاً وشرعت في اجراء ما يخمد نيران العصيان في ممالكها

اما الملك لويس السادس عشر فكان يتظاهر مرةً ببغض المقتنين واخرى بالتصبر والتسليم وتارة تلوح عليهِ لوائح الخوف وطوراً يشتد فيهِ الامل وذلك منذ اجتماع مجلس المبعوثين في ٥ ايار (مايس) سنة ١٧٨٩ الى ذلك الوقت حتى انهُ عند ما وضع امامهُ نظام تقسيم الولايات ليصدق عليهِ تصفحهُ بسرور واتى قاعة الجمعية الوطنية وقال اني انتهز هذه الفرصة الحسنة لاوكد لوكلاء الامة باني ارغب في اجراء كل ما يأول الى ترقية اسباب راحة الشعب ولذلك تروني مستعداً ان اصدق على ما تقررهُ الجمعية الوطنية من هذا القبيل والمامول ان الذين لا يزالون متمسكين بالعادات القديمة يتركونها وانا اجزيهم على ذلك بحبي وامتناني والمامول لا يكون لنا غير صالح واحد وعمل واحد وهو التمسك بالنظامات الجديدة والرغبة في ترقية اسباب سلامة فرنسا وسعادتها . فدعت الجمعية الوطنية للملك . ثم حلف الملك اليمين الاتي . وهي اني احلف بان احافظ بامانة على صوالح الامة وقوانينها ونظامات الملك وسافرغ كل الجهد للمحافظة على القوانين التي تقررها الجمعية الوطنية والتصديق عليها . وتجددت هذه اليمين في العيد الاحتفالي الذي تعين لذكر هذا الاتفاق وذلك في ١٤ تموز (جوليه) فحلف الملك واعضاء الجمعية الوطنية والحرس الوطني وستون الفاً من الجنود واربعمائة الف من الاهلين الذين اتوا باريس من اقطار فرنسا واجتمع هولاء القوم في ساحة شان دومارس من باريس وبعد اتمام الحلف قدمت الملكة ابنها الى الامة فسرَّ الجميع وظنوا ان ذلك النهار انما هو ختام الخلاف والقلاقل والانقسام والفتنة

اما الملك فرجع الى ما كان عليهِ من التردد بعد مدة يسيرة لما كان يراهُ من تجاوز الجرائد حدود الاعتدال في الكلام وتوغل الاجتماعات في الحرية فكان يخشى سرعة مسير هذه الامور واشترك معهُ كثيرون بهذا الخوف حتى ان موسيو ميرابو الذي كان يبغض الملك جداً مال اليهِ وقصد توقيف الثورة في المكان الذي وصلت اليهِ وربما نجح بذلك لو بقي حياً ولكن مات في ٢ نيسان (افريل) سنة ١٧٩١ فحزن الجميع لفقدهِ وكان خطيباً فصيحاً قادراً على جذب السامع

الى رايهِ فاصبح الملك بلا عضد وطلب الخروج من فرنسا سرًّا اقتداء باكثر الاشراف واخوتهِ فجعل احزابهُ يعددون مايلزم ليمكنوهُ من ذلك فخرج لويس السادس عشر من صرحهِ في التويلري في ٦ حزيران (جون) سنة ١٧٩١ وكان معهُ الملكة وابنهُ وابنتهُ واختهُ اليصابات ولما وصلوا الى باب سان مرتين ركبوا عجلة كانت معدة لهم وساروا في طريق وانيدي . اما الكونت دويروفنس احد اخوة الملك فسار في طريق بلجكا مجانبة لوقوع بعض محذورات فساروا براحة بدون ان يصادفوا كدرًا ولم يرهم احد لكنهم لم يصلوا في الوقت المعين الى المكان الذي كانت تنتظرهم فيهِ جيوش الجنرال بواليه فخاف الجنرال من تشويش افكار الاهلين اذا اطالت الجيوش اقامتها هناك فذهب بها . ولما مرت عجلة الملك في مدينة سانت مين هولد عرف ابن مدير البريد الملك ولكنهُ لم يتحققهُ فسار مسرعًا الى مدينة فارين فسبق العجلة واخبر الحكومة المحلية بقدوم عجلة وبادر الى اقامة حواجز فوق جسر النهر المزمعة ان تمر عليهِ فانتشر هذا الخبر في المدينة كلها واجتمع الحرس الوطني واتى الاهلون من القرى المجاورة وكان كل ذلك ليلاً . اما داروي وهو ابن مدير البريد المذكور فانزل الركاب من العجلة واخذهم الى بيت رئيس مجلس البلدية فعرف الجميع الملك واهانوهُ وصرف المجلس البلدي تلك الليلة في المخابرات بينهُ وبين الملك . وفي غضون ذلك رجعت الجيوش التي كانت منتظرة قدومهُ ولكنها لم تقدر ان تدخل المدينة لسبب الحواجز التي كانت قد اقيمت في مدخلها . ولما عرف الجنرال بواليه ذلك ركب جوادهُ واسرع طالبًا انقاذ الملك على ان الاخبار كانت قد ارسلت الى باريس بهذا الخصوص وورد جواب من الجمعية الوطنية مآلهُ ارسال الملك الى باريس ولم يصل بواليه الى فارين حتى كان الملك بالقرب من باريس ففرَّ بواليه الى المانيا . وذهب قوم من اعضاء الجمعية الوطنية لملاقاة الملك وهم دورمان وبيثون وباترناف فجلس بيثون في مقدمة العجلة بين ابنة الملك واخيهِ وجلس باترناف داخلها بين الملك والملكة وكان ابن الملك يجلس تارة عند ابيهِ وطورًا عند امهِ وبعد ان ساروا ثمانية ايام بلغوا باريس وكان باترناف يظهر كل الشفقة والحنو على الملك وعائلتهِ

ولا يخفى ان هرب الملك قلل اعتبارهُ عند الشعب والجمعية الوطنية وجعل مضادي الملكية يشددون طلب اقامة الجمهورية ولذلك اسرعت الجمعية بتقرير النظامات وعرضها على الملك بعد رجوعهِ طالبةً اليهِ ان يصدق عليها فتمنع فقررت الجمعية انهُ لا لزوم لتصديق الملك وعزمت على اجراء تلك النظامات وعند نهاية كل ذلك امرت الجمعية بارجاع الملك الى منصبهِ وفي ١٤ ايلول (سبتمبر) جاء قاعة الاجتماع وحلف بانهُ يحفظ النظامات بحسب العادة وفي ٣٠ منهُ قررت الجمعية بانها انهت شغلها ففض اجتماعها على انها اخطات بحق الوطن لانها اتخذت قرارًا مضرًا وهو انهُ لا يجوز انتخاب احد اعضائها ليجلس في المجلس الجديد الذي



يصير انتخابهُ فاصبحت تلك النظامات الحسنة التي قررها هدفًا لاسهم قوم لا اختبار لهم في احتياجات الوطن والامة بل كانوا يرغبون في هدم كل ما لم يشتركوا في بنائهِ

## اقامة المجلس القضاءي

وانفضت الجمعية بعد ان قررت النظامات الجديدة ووفقت بين الملك والامة وظن الجميع ان الثورة تنتهي بنهاية ايلول (سبتمبر) ولكن اذ كانت تلك النظامات مخالفة لاراء كثيرين من الامة ولافكار الملك وبلاطهِ كان لابد من احتمال مشقات كثيرة قبل التمكن من توطيد مبانيها . فشرع الامراء بالخروج من فرنسا واتوا ملوك اوربا وحاولوا ان يهيجوهم ضدها اما خدم الدين فانفردوا في القرى والجبال ليتمكنوا من تحريض اهاليها على مقاومة الذين شرعوا في هذه الاصلاحات . اما ملوك اوربا فكانوا يعتبرون ما جرى على لويس السادس عشر كانهُ جار على كل واحد منهم فاتحدوا لمقاومة الثورة الفرنسوية وحملوا اصحابها على التطوح في الاعمال السيئة . وكان الشعب هائجًا ضد الامراء وخدم الدين فكان ينتخب اعضاء للمجلس الجديد من الذين يمقتون الامراء وخدم الدين فتم انتخاب اعضاء هذه الجمعية وسموها الجمعية القانونية او القضائية وكان عدد اعضائها ٧٤٥ عضوًا اكثرهم ممن يهيجون الثورة وسموا باسماء مختلفة بحسب تحزبهم فمنهم الفويلان وهم اعضاء اليمين والجاكوبيون وهم اعضاء اليسار . والاولون هم الذين كانوا يرغبون في المحافظة على النظامات الجديدة مع دوام الدولة الملكية واشهرهم مانيادوماس وجيراردين وليمونتي ورامون وباستوديت وغيرهم وكان يسندهم قوم من غير المنتظمين في الجمعية منهم موسيولا فابيت والاخرون الذين يرغبون في اقامة الجمهورية وكانوا مستعدين لخرق النظامات الجديدة اذا اقتضى الحال ليتمكنوا من تنفيذ مآربهم وكانوا يبغضون الامراء وخدم الدين والملك بغضًا شديدًا واشهرهم فيرنيو وكادي وجينسوني وهولاء هم من وكلاء لاجيروند ولذلك اطلق عليهم وعلى غيرهم من المتحزبين لهم اسم جيروندين وكان يسندهم من الاعيان الذين هم من غير اعضاء الجمعية بيسيون وكان نافذ الكلمة ومشهورا بحب الجمهورية . وكان قسم من اعضاء اليسار في طرف القاعة على مجالس عالية تشبه التل فسموهم باسم مونتان اي جبل وكان هولاء من حزب الجيروندين غير انهم لم يكونوا يرغبون في اقامة الجمهورية الا اذا كانت مطلقة فتقبض الامة بواسطتها على زمام السلطة . ومن اشهر اعوان هولاء الذين كانوا خارج الجمعية روبسبير ودانتون اما الاعضاء المتوسطون بين اليمين واليسار فكانوا على جانب عظيم من الجبن ولذلك كانوا يخافون اهل اليسار ويميلون اليهم فامست احزاب الملكية في الجمعية الجديدة قليلة العدد ضعيفة العزائم وبالعكس احزاب الجمهورية والبرهان الاعمال الابتدائية التي شرعت فيها الجمعية الجديدة فانها قررت في اول الامر وجوب ابطال بعض الفاظ كانوا يستعملونها اعتبارًا للملك منها سير (مولاي مخصوصًا

بالملوك) وماجسني (جلالة) ثم قرقرارها على ان تامر برجوع جميع الامراء وخدم الدين الذين هاجروا فرنسا واذا لم يرجعوا في المدة التي عينتها الجمعية تحجز املاكهم وتباع بامر الحكومة ويفقدون جنسيتهم ثم اخذت الجمعية تراقب اعمال الملك لانها كانت تقول ان بينهُ وبين اخوتهِ الذين كانوا خارج المملكة والامراء وخدم الدين علاقات ومواصلات وربما كان ذلك صحيحاً . اما الملك فكان يتوقع الحصول على فرصة تمكنهُ من الخروج من مركزهِ القبيح وكان يامل بالنجاح على ان املهُ كان ضعيفاً فكان تارةً يجري الدسائس مع بعض اعضاء الجمعية وتارةً يظهر انهُ مرتضٍ بالتقلبات السياسية التي طرأت عليهِ على انهُ كان يغض النظر عن المواصلات التي كانت بين اعوانهِ وبلاطهِ وبين الامراء الذين كانوا في الخارج فكانوا يطلبون اليهم ان يهيجوا ملوك اوربا ضد فرنسا وينقذوا ملكها مما كان فيهِ ويرفعوا شرف الملكية من العار الذي وقع فيهِ . فالزمت الجمعية الملك ان يبدل وزراءهُ ويقيم عوضهم وزراء من اعضاء الجمعية وهذه هي اسماؤهم بولان وكلافيير ودورانتن ودوميريه وكانوا جميعاً من حزب الجيرونديين المذكور فهولاء لكي يسوقوا الملك الى مآثارة نيران الثورة حملوهُ على فتح الحرب . اما الدول الاجنبية فخافت جداً من نتائج الفتنة الفرنسوية وتجاوزها حدود الاعتدال وعلى الخصوص بعد ان رات ما حدث عند ما القي القبض على الملك لما هرب من فرنسا ولذلك اتفق امبراطور المانيا وامبراطور النمسا وملك بروسيا على عقد معاهدة بلينتس وهي مدينة المانية في صكسونيا وذلك في ٢٧ آب (اوغسطوس) سنة ١٧٩١ ومآل هذه المعاهدة هو ان الدول تعتبر ما هو جار على ملك فرنسا كانهُ جار عليها جميعاً وانهم مصممون على المداخلة بين الملك والجمعية القضائية معلنين ان امبراطور المانيا وملك بروسيا يعدان بمساعدة والي بلاد تريف ومايتس واستف سبير (وهي بلدان المانية واقعة عند حدود فرنسا) ومساعدة الفرنسويين الناجين على الاجتماع وشرع النمسويون في حشد جيوشهم عند حدود فرنسا الشمالية وذلك في جهة بلجكا . وهو معلوم ان بلجكا ومملكة هولاندا هما في جهة فرنسا الشمالية وجهة المانيا الغربية وكانتا من مملكة النمسا ولما تبوا الامبراطور فرنسيس تخت امبراطورية النمسا في اول اذار (مارس) سنة ١٧٩٢ عوضاً عن الامبراطور ليوبولد الذي كان احكم من خلفهِ وادرى منهُ اشتد غيظ النمسويين على الثورة الفرنسوية . ولما طلبت فرنسا الى الامبراطور الجديد ان يرفع عساكرهُ من تخومها اجاب انهُ لا يرفعها الا اذا عادت الملكية بحسب القوانين التي قررها الملك في ٢٣ حزيران (جون) سنة ١٧٨٩ وارجع النظام بحسب رتب الشعب الثلث اي ترجيع امتيازات الامراء وخدم الدين وترجيع املاكهِ . فاغتاظ الفرنسويون كل الغيظ من جرى ذلك وغضب الملك ايضاً لانهُ كان يحب المحافظة على النظامات التي كان قد صدق عليها من تلقاء نفسهِ وعند ذلك ذهب الملك مع وزرائهِ الى دار الجمعية الوطنية وحكم بوجوب فتح



الحرب على المانيا فصدقت الجمعية على ذلك فمال الجميع الى الملك ولكن كانت مدة ميلهم اليهِ قصيرة وحدث هذا في ٢٠ نيسان (افريل) سنة ١٧٩٢ فانتشبت نيران تلك الحروب الشديدة ودامت ثمانياً وعشرين سنة ونالت بها فرنسا الفخر الاكليل المجد والنجاح وصدمت تعصبات القبائل القديمة وادعاءات ملوكها ونشرت في العالم مبادىء الحرية الحقيقية والغت كل القوات الجبرية والظالمة وسياتي تفصيل هذه الحروب في مكانهِ ان شاء الله

اما اوربا فاندهشت مما رات من جسارة الفرنسويين لانهم شهروا الحروب والقلاقل متمكنة في بلادهم فحاول الفرنسويون دخول بلجكا اولاً لانها كانت دائمة الاضطراب والمتاعب وهي تحت حكومة النمسويين فزحف جيش الفرنسويين الذي كان تحت قيادة الجنرال ربوري بعد ان قسمهُ الى ثلثة اقسام فسار قسم الى فورن وقسم اخر الى طورني والثالث الى مون (مدن بلجيكية) وسار الجنرال لافايت بجيش اخر من جهة سفيناي قاصداً مدينة نيور واما الجيش الذي كان ذاهباً الى طورني فلما قابل جيوش الاعداء رمى سلاحهُ وولى هارباً وصارخاً لقد خانونا وترك مدافعهُ فقُتِل قائدهُ ودخل مدينة ليل (في شمال فرنسا) وهو على تلك الحال . واما الجيش الذي ذهب الى مدينة لون تحت قيادة الفريق بيرون وكان عددهُ عشرة الاف جندي فاقام القتال على النمسويين بالقرب من مدينة جيماب وكان عدد النمسويين ستة الاف جندي فقط فانهزم الجيش الفرنسوي في اول القتال مدعياً ارتكاب قوادهِ الخيانة ولما شاعت هذه الاخبار تاخر الجيش الذي كان ذاهباً الى فورت عن المسير وكذلك جيش الجنرال لافايت فتوطدت امال الفرنسويين النازحين والامراء بسهولة قهر اعداء الملكية في فرنسا نظراً لما شاهدوهُ من ضعف الجيوش الفرنسوية : فاجتمع الجمهوريون في باريس وقالوا ان ما فعلتهُ الجنود انما هو صادر من فساد احزاب الملكية فطلبت الجمعية الجاكوبية اذناً بقتل ٥٠٠ من الفرنسويين الملكيين لاجل توطيد الراحة والسلامة في البلاد وكان رئيس هذا الاجتماع رجلاً اسمهُ يسبون فاخذ لنفسهِ ولاحزابهِ علامة تميزهم عن غيرهم وهي الطربوش الاحمر فاطلق عليهم من ذلك الحين اسم الحمر فامرت الجمعية بالغاء الحرس الملكي وبطرد خدم الدين الذين لم ينقادوا الى النظامات الجديدة المتعلقة بهم وامرت ايضاً بان يقام جيش بالقرب من باريس للمحاماة عن العاصمة وان يكون عدد هذا الجيش الجديد نحو عشرين الف جندي . اما الملك فتمنع عن ان يصدق على اكثر هذه الامور التي قررتها الجمعية القضائية وعزل كل وزرائهِ الذين هم من حزب الجيرونديين فالزمتهُ الجمعية ان يصدق على قرارها وهيجت الشعب وحملتهُ على الهجوم على قصر التويلري وذلك في ٢٠ حزيران (جون) فهجم الشعب على القصر المذكور فعرف الملك مقاصد الشعب فارسل السويسريين الذي كانوا من جيوش الحرس الى ناحية كوربفوا من نواحي باريس لمنع حدوث شيء مكدر بينهُ وبين الشعب

الذي كان عازماً على الهجوم ولم يبق عندهُ غير فرقة من جنود الحرس الوطني ولذلك لما هجم اعوان الجمهوريين الذين كانوا من رعاع الامة على القصر لم يصادفوا ممانعة فصعدوا اليهِ ودخلوا جميع قاعاتهِ وفي مقدمتهم سينتير وليجواندر . فامر الملك بفتح باب قاعتهِ ولم يكن معهُ غير وزرائهِ وبعض ضباط جنود الحرس الوطني فدخل عليهِ هذا الجمع فنهض ببسالة وقال ماذا تريدون فاحاط بهِ الضباط المذكورون تحرزاً فلما كثر الازدحام في القاعة حمل الملك خدامهُ واوقفوهُ على مائدة كانت في زاوية من زوايا القاعة ووقف حولهُ بعض ضباط الحرس فصاح الشعب طالباً اليهِ تصديق ما قررهُ المجلس القضائي وارجاع الوزراء الذين عزلهم واجراء النظامات المتعلقة بخدم الدين وجمع الجيوش بالقرب من باريس . فاجاب الملك قائلاً انهُ لا يفعل ما يخالف نظامات المملكة الجديدة فاعطوهُ الطربوش الاحمر فلبسهُ ثم كاس خمر فشربها ثم البسوا ابنهُ الطربوش الاحمر وانصرفوا وكان دخولهم الى القصر الساعة الرابعة وفي الساعة الخامسة حضر بيسيون والي باريس وقال للملك لا تخف فانك في وسط شعبك فخاطب بيسيون الذين كانوا لا يزالون مجتمعين من الشعب مادحاً اياهم على رغبتهم في المحاماة عن حقوقهم وقال لهم ان الملك لا يجبر على ما تريدون ولم يزل بهم حتى خرجوا من القصر

وكان ما حدث سبباً لزيادة جسارة احزاب الجاكوبيين وهم الحمر ولمعرفة المحامين عن الملكية المقيدة التي قررت نظاماتها الجمعية السابقة بان سطوتهم قد سقطت لان الجنرال لافاييت برجوعه السريع من اطراف المملكة الى باريس للمحاماة عن تلك النظامات لم يقدر ان ينفع الملك بشيء . ومما هيج غضب الحمر وعجل سقوط سطوة احزاب الملكية نجاح جيوش المانيا وروسيا ودخولهم الى فرنسا وقد حمل ذلك نائباً من نواب المجلس القضائي الحمر على القول في الجمعية ان الاعداء تهاجمنا للانتصار للملك وقصارى مرغوبهم تخليص الملك ومساعدتهُ . ولا يخفى ان معنى هذا الكلام هو ان الملك هو سبب المهاجمات الواقعة فعلينا بالتخلص منهُ . فنشر المجلس القضائي اعلاناً مورخاً في ٥ تموز (جوليه) مآلهُ افادة الامة بان الوطن في خطر وفتح في كل الولايات دفاتر لتقييد اسماء من يتطوعون في العسكرية لانقاذ الوطن فتطوع عدد غفير جداً وعلى الخصوص حين انتشر في باريس اعلان الدوك دوبرونسفيك وهو قائد كل الجيوش الالمانية ومآلهُ ان امبراطور المانيا وملك بروسيا لم يقيما الحرب الا لازالة الثلاثة من فرنسا ومنع التعديات الواقعة على الملك وعلى الديانة وارجاع سلطة الملك الى ان قال متهدداً القوات المدنية والعسكرية انهُ لا بد من سرعة خضوعهم الى مولاهم الملك القانوني ومن يقبض عليهم جنود الحرس الوطني وهم متقلدون الاسلحة يعاملون كالعصاة وكل من حاول القتال يقتل ويحرق منزلهُ وان جميع اعضاء المجلس القضائي ومجالس الولايات والالوية مسئولون عما يلحق بالملك او بعائلتهِ من التعدي والاهانة وان حضرة



امبراطور المانيا وملك بروسيا يتهددان باريس باشد العقاب اذا حدث شيء من ذلك . فاغتاظت الامة الفرنسوية من هذا الاعلان وقادها غيظها الى ارتكاب الاعمال الفظيعة وصرحت الامة كلها شاجبة الملك لانهُ نشر اعلاناً يحرض بهِ الامة على التجند لمصادمة العدو وذلك ليبرهن انهُ لا علم لهُ بذلك الاعلان وانكر انهُ في ضيق وقال انهُ لا يرغب في مداخلة الاجانب بينهُ وبين شعبهِ . على انهُ لم يركن احد الى صحة هذا الكلام بل طلب الباريسيون عزل الملك وقدم بيسيون رئيس الحمر تقريراً الى المجلس القضائي اقام بهِ الحجة على الملك واتهمهُ بانهُ قد خان الوطن وطلب اقامة جمعية ثانية سميت الاتفاق الوطني . فاخر المجلس القضائي البحث في هذه المسئلة الى ٩ آب (اوغسطوس) . ومع ان الاخطار كانت تحيط بالملك من كل جهة كان غائصاً في غفلة الاطمئنان مع ان اصحابهُ في كل الجهات كانوا يطلبون ان ينجدوهُ فكان يابى واخيراً عرض عليهِ لافاييت الخروج من فرنسا وسهل لهُ طريقة حسنة بالاتفاق مع قوم من اصحاب الاقدام فتحقق الملك الخطر واراد ان يهرب من فرنسا غير ان الملكة قاومت تسليم العائلة الملكية الى الذين كثيراً ما اضروا بصوالحها وقالت الاوفق ان نموت هنا مع قطع النظر عن الاخطار التي تتهددنا وهذا رأي دوبرونسفيك فانهُ قد اخبرنا انهُ مصمم على الاتيان الى باريس لانقاذنا

وكان اهل الثورة لا يزالون يعملون على تنفيذ امرهم فساقوا الشعب الى مهاجمة قصر التويلري مرة ثانية في ١٠ آب (اغسطوس) فاظهر الملك شجاعة غير عادية واراد ان يدفع القوة بالقوة وكانت الملكة تثبتهُ في هذا العزم واتاهُ بعض الامراء وعرضوا عليهِ مساعدتهم فاستعدت جنود الحرس السويسري واقيمت المدافع في القصر وعاهد قائد الحرس الوطني الملك على الامانة وتعهد الجنرال مندان بمهاجمة مؤخرة العصاة بينما تهاجم الجنود السويسرية مقدمتهم مع بعض الحرس الوطني . الا انهُ ورد طلب الى مندان ان ياتي دار الاوتل دوفيل فسلم الامر لابنهِ وذهب . فراى ان المجلس البلدي اي الكومون قد تبدد واقيم عوضاً عنهم مجلس اخر كل اعضائهِ من الحمر وهم اشر اهل فرنسا فلاموهُ على تصرفهِ وصرفوهُ وعند خروجهِ وثب عليهِ قوم من الشعب وقتلوهُ عند باب الدار المذكورة . فلما سمع الملك بقتلهِ خارت عزائمهُ حينئذٍ زحف اهل قرية سان مادسو وسنت انطوان على العاصمة وفي مقدمتهم رجل من السفلة اسمهُ دانتون وكان اميّاً ولكنهُ كان يعرف كيف يهيج الشعب . وكان الملك قد نزل بنفسهِ الى ساحة قصر التويلري ليفحص حالة جنودهِ الامناء . وفي غضون ذلك هجر خدمة الملك فرقتان من عساكر المدافع وانضمتا الى الشعب فاضعف ذلك آمال الملك فاشار عليهِ احد اعوانهِ الامناء وهو موسيو ريديري ان يذهب حيث كانت الجمعية القضائية ويسلم نفسهُ الى وكلاء الامة وذلك حباً بحجب الدماء فسألت الملكة موسيو ريديري المذكور قائلة هل تكفل عدم وقوع الضرر على الملك او على اولادهِ فاجابها

حالاً اني اتعهد لك بانني اقتل بجانبكم وما عليّ اكثر من ذلك . فاستصوب الملك رايهُ وخرج في الساعة السابعة من الصباح واتى هو وعائلتهُ محل اجتماع الجمعية الوطنية فلما صار في شوارع باريس بين الجماهير المزدحمة شتمهُ الشعب ولولا الحرس الوطني لقتلوهُ فوصل الى قاعة الجمعية وخاطب الاعضاء قائلاً انني اتيت هذا المكان احتراساً من ارتكاب اثم فظيع واظن انهُ لا امنية لي على نفسي الا بينكم ولما كانت الجمعية لا تستطيع مداومة البحث في اعمالها بحضور الملك ادخلتهُ هو وعائلتهُ الى غرفة كاتب الجمعية وارسلت خمسة عشر عضواً من اعضائها ليسكنوا الشعب وسمع الملك اطلاق البنادق حول القصر فقال للجمعية انني امرت الجنود قبل خروجي ان لا يطلقوا بنادقهم على الجمهور وكان يزداد اطلاق المدافع فالتزم الاعضاء الذين ارسلتهم الجمعية ان يرجعوا لان الشعب كان يتهدد الجمعية ايضاً ويقصد الهجوم على محل اجتماعها . وهاجم الشعب قصر التويلري فصادمتهم الجيوش السويسرية واطلقت عليهم بنادقها وشتتت شملهم فهاجموا القصر من الجهة الثانية واطلقوا عليهِ المدافع فثبت السويسريون بالدفاع فاشاروا عليهم بالتسليم وامنوهم على انفسهم فسلموهم بعض مهماتهم فشرع الشعب الكثير بالدخول الى القصر ناكثين عهدهم فتجدد القتال وكانت ساعة هائلة ودخل القصر رعاع القرى المجاورة لباريس واخذوا في قتل جنود الملك وكل الذين وجدوهم في القصر فقتلوا كل الرجال عن اخرهم وعفوا عن النساء فقط . وفي الساعة الحادية عشرة فاز الشعب بالنصر وغلب القوات الملكية وذهبوا الى مكان اجتماع الجمعية مسرورين بنجاحهم طالبين الى الجمعية توقيف الملك وبناء على ذلك اصدرت قراراً انهُ لكون الخطر المحيط بالبلاد شديداً وناتجاً عن عدم ركون الامة الى الحكومة الاجرائية ولم يمكن الجمعية تلافي الامر اقتضى ان تقيم الامة الفرنسوية جمعية الاتفاق الوطني وان يتوقف رئيس الحكومة الاجرائية اي الملك من الان فصاعداً عن معاطاة الاحكام الى ان تجتمع الجمعية المذكورة فتقرر النظامات لتنظيم حقوق الشعب والمساواة وان يقيم الملك وعائلتهُ في قصر لوكسمبرج تحت محافظة القوانين وان يعزل جميع الوزراء الحاليين ويتعين غيرهم موقتاً وان تغير النظامات التي قررتها الجمعية وتكون بتصديق الملك مرعية الاجراء وان الجمعية تعلن بانها تداوم الاجتماع الى ان تجتمع الجمعية الجديدة . وبعد حدوث ما حدث في ١٠ آب (اوغسطس) سنة ١٧٩٢ رحل من باريس كل سفراء الدول ووردت اخبار ما كاد دخول جيوش بروسيا الى البلاد الفرنسوية وذلك في ١١ آب وكان ذلك الجيش قد سار من مدينة كوبلنس في ٣٠ تموز (جوليه) تحت قيادة ملك بروسيا ودخل اراضي فرنسا في ١٥ اب (اوغسطوس) مارّاً في لوكسمبرج وقاصداً مدينة لونجفيل وكان قصدهُ تشتيت جيش فرنسا المقيم في شالهاو من ثم ياتي فيردون وشالون ثم يهاجم باريس بسهولة على انهُ ابطأ في المسير وكان عددهُ نحو ٦٠٠٠٠ مقاتل وكان متقدماً لنجدتهِ من الجهة اليمنى عشرون الف



جندي من النمسويين الذين كانوا قاصدين مهاجمة مدينة سينتاي ومن جهة اليسرى خمسة وعشرون الفاً منهم وكانت تزحف الى جهة تيونفيل ومونيدي وكان في بلجكا ٢٥٠٠٠ من عساكر النمسا و ٢٥٠٠٠ على تخوم الرين و ١٢٠٠٠ من الفرنسويين الذين هجروا بلادهم في زمان الثورة فكان مجموع الجيش الذي كان يهاجم فرنسا نحو ١٦٠٠٠٠ مقاتل . اما جيوش فرنسا فكانت مولفة من جيش الشمال تحت امرة لافاييت وينقسم الى قسمين . الاول جيش الموز تحت قيادة لافاييت نفسهِ وعددهُ ٢٠٠٠٠ جندي والثاني جيش الشمال وكان تحت قيادة الجنرال ديموريه وعددهُ ١٨٠٠٠ مقاتل وجيش الالزاس وكان تحت قيادة بيرون وكوستين وعددهُ ٤٠٠٠٠ جندي مجموعها كلها ٩٦٠٠٠ جندي وكانت حديثة التنظيم وقوادها غير متعودين القتال وغير عارفين بفن الحرب ولا يحسنون الادارة ولا يركنون الى جنودهم ولا تركن جنودهم اليهم وكانوا مختلفين في الاراء وعلى الخصوص بعد ان حدث ما حدث من التقلبات في باريس منذ ١٠ اب (اوغسطس) . وكان الجنرال لافاييت في مقدمة الذين كانوا يضادون الثورة فجمع جيشهُ وحلفهُ يميناً بالمحافظة على النظامات المقيدة التي قررتها الجمعية الوطنية الاولى وصدق عليها الملك واتفق هو ولوكيند قائد الجيش الشرقي على الذهاب الى باريس بجيوشهما ليلزما الجمعية الجديدة ان تلغي التغييرات الحديثة . ولما علمت الجمعية بذلك حكمت بان لافاييت خائن ومستحق اللوم فاسعفها في ذلك الجنرال ديموريه . واما الذين كانوا قد وعدوا لافاييت بالمساعدة فصاروا يهجرونهُ ففر هارباً وخرج من فرنسا هو واصحابهُ لانورمو بورج وبيرو ولاميت وذلك في ١٩ اب (اوغسطس) . فلما دخلوا الممالك الاجنبية صار القبض عليهم وسجنوا خمس سنوات . فلما راى ذلك اهل الثورة في فرنسا وان الذين يحامون عن الملك وحقوقهِ ويرغبون في اقامة الحكومة الملكية المقيدة عوضاً عن الملكية المطلقة يصادفون سوء المعاملة التي صادفها لافاييت واصحابهُ تيقنوا انهم سيصادفون معاملة مثلها اذا ظفر الاجانب بهم ودخلت جيوشهم فرنسا . وتمكن الامراء الفرنسويون الذين كانوا في مقدمة جيوش المانيا وبروسيا من الانتقام منهم فلدفع هذه الاخطار اقامت الجمعية ديموريه قائداً على الجيش الشمالي عوضاً عن لافاييت وكيلرمان قائداً على الجيش الشرقي عوضاً عن لوكنير . وبينما كان دموريه مهتماً في المسير لمهاجمة بلجكا في الجهة الشمالية كانت الجيوش المتحدة على محاربة فرنسا قد اتت مدينة لونجفل وبعد ان حاصرتها خمس عشرة ساعة فتحتها وذلك في ٢٣ اب (اوغسطس) ثم هاجمت فيردون وتيونفيل فسلمت فيردون في اول ايلول (سبتمبر) وبعد ذلك اخذ جيش المتحدين في الاستعداد للدخول الى ولاية شمبانيا ليذهبوا منها الى باريس فلما راى ذلك الكومون الباريسي جمع جيشاً جديداً للدفاع عن العاصمة ثم امر بان تصب اجراس الكنائس مدافع وآنية الفضة دراهم وحديد النوافذ حراباً ثم امر بسد

كل الشوارع ومنع مسير المركبات وارسل اعوانهُ للبحث في كل البيوت وجمع الاسلحة التي فيها وكتابة اسماء كل الذين ليسوا في بيوتهم لخروجهم من فرنسا والقاء القبض على كل من يظن انهُ من حزب الحكومة السابقة وسجنهم . وبعد ذلك اخذ الاهلون يشيعون اخبارًا بيا لغون فيها عن نصر البروسيين ويخبرون العامة بان الامراء وخدم الدين سيسلمون العاصمة الى الاعداء ولذلك طلب الاهلون اهلاك الاعداء الذين هم من الفرنسويين قبل وصول الاعداء الاجانب وطلبوا الى الجمعية اذنًا بقتل المسجونين الذين من احزاب الملكية وكان يحرضهم على ذلك دانتون ويقول لهم تشجعوا واثبتوا في الاصرار على تنفيذ طلبكم . وفي ٢ ايلول (سبتمبر) عند الظهر اطلق مدفع فاجتمع الباريسون في ساحة شان دومارس وكان الجميع يعتقدون ان الالمانيين والبروسيين ياتون ضواحي العاصمة بعد ذلك بثلثة ايام ولذلك اجتمع اهالي تلك الضواحي في المدينة وشرع بعضهم في حفر الخنادق حولها واقامة الحواجز وتحصين الاسوار وذهب بعضهم لنجدة الجيوش وفي غضون ذلك دخلت باريس اربع عجلات ومرت في وسط ساحة شان دومارس وكان فيها خدم الدين الذين كانوا قد القوا في السجن وذهبت بهم الى الدير ومع ان جنود الحرس كانوا يسيرون امام هذه العجلة لم تقدر ان تمر الا بصعوبة كثيرة لان الازدحام كان شديدًا وكان الاهلون يشتمون هولاء القسوس ويتهددونهم وكلما تقدمت هذه العجلات الى جهة بون نوف كان يزداد ازدحام الجمع حولها وقد اخبر القس سيكارد الذي نجا وحدهُ من هولاء القسوس انهُ عند ما وصلوا الى الدير وجدوا فيهِ جمهورًا كثيرًا من سفلة الامة فحاول احد القسوس الفرار فرمى بنفسهِ من العجلة فالقى الشعب القبض عليهِ وخنقهُ حالاً فاقتدى بهِ قسيس اخر وكاد ينجو من بين هولاء القوم على انهُ هجم عليهِ قوم منهم وقطعوهُ اربًا اربًا وهكذا فعلوا بالقسيس الثالث والرابع فظن الشعب انهُ لم يبقَ احد في تلك العجلة لانهم قتلوا منها اربعة قسوس فانقضوا على الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة وقتلوا الذين كانوا فيها ومجموعهم واحد وعشرون قسيسًا فصرخ مليارد قائد هولاء الجزارين القساة قائلاً لم يبقَ لنا شغل هنا فهلموا نذهب الى دير الكرمل وكان فيهِ ١٦٠ قسيسًا مسجونين من بضعة ايام فذهبوا اليهِ وقتلوهم عن اخرهم وكان معهم رئيس اساقفة مدينة ارل ثم قتلوا كل جنود سويس والقس تياريا البروتستانتي وخادم قاعة الملك ولم يعفوا عن موسيو دوسومبريال رئيس محل اصحاب العاهات الا بشفاعة ابنتهِ التي حملها حبها لابيها على ان تتشجع وتطرح نفسها بين هولاء القوم الاشرار وتطلب العفو عنهُ فاجابوا طلبها على انهم اشترطوا عليها بان تشرب كاس خمر ممزوجة بدم القتلى ففعلت ثم توجهوا الى سجن لافورس وهناك افحشوا في اعمالهم فانهم اتوا بالاميرة دولامباول صديقة الملكة ماري انطوانت واوقفوها امام جماعة منهم ليحاكموها فطلبوا اليها ان تحلف يمينًا بانها تحب الحرية والمساواة وتبغض الملك والملكة فقبلت



بالاول وامتنعت من الثاني فساقوها حالاً الى قاعة القصر وقطعوا راسها وعلقوهُ على حربة وبعد ذلك مزقوا جثتها وقطعوا لحمها وطافوا براسها في شوارع باريس واتوا الى امام قصر التامبل التي كانت مسجونة فيهِ العائلة الملكية ورفعوا راسها امام القاعة التي كانت جالسة فيها الملكة فاحزن ذلك جدًا العائلة الملكية . اما الاميرة دولامبال المذكورة فكانت حديثة السن من اجمل نساء فرنسا بل اجمل نساء اوربا وكانت على جانب عظيم من التهذيب واللطف والظرف فكان يضرب بها المثل وهكذا اطلقت الايدي في سفك الدماء في باريس من ثاني ايلول (سبتمبر) الى الخامس منهُ فقتلوا نحو الفين من الامراء وخدم الدين والاعيان ذكورًا واناثًا وكانوا جميعًا من محبي المحافظة على القوانين التي قررتها الجمعية الوطنية الاولى ومحبي ملكهم القانوني وارسل هذا الكومون كتابات الى جميع الولايات وطلب الى اصحابهِ في جميع المدن ان يقتدوا بكومون باريس فوافقهم البعض فان كومون مدينة ريمس قتل ثمانية اشخاص وكومون مدينة مو قتل اربعة عشر وفي ليون قتلوا احد عشر وفي اورليان ثلاثة . وفي اليوم السادس من ايلول (سبتمبر) قرر كومون باريس تصديق ما اجراهُ رفاقهم من القتل والنهب وعين مبلغًا من النقود يتوزع عليهم جائزة لهم على موافقتهم

اما جيوش بروسيا فبعد ان فتحت مدينة فيردون اقامت فيها ثمانية ايام عوضًا عن ان يسرع قائدها الدوك دوبرونسفيك في المسير الى باريس فتمكن ديموريه اذ كان قد عدل عن فتح بلجكا من المجيء الى سيدان حيث كان جيش لافاييت فوجدهُ في ارتباك من جرى فرار قائدهِ . فجمع روساء الجيش المذكور وتفاوضوا بخصوص الحرب فقرر رايهم على الرجوع الى ما وراء نهر المارن وان يجمعوا هناك جيش الشمال والشرق ويتحصنوا الى ان تاتيهم النجدة على ان ديموريه لم يقبل معهم بذلك بل اخذ الخارطة وشرع في تدقيق النظر في هضاب اركون (اسم الولاية التي كانوا فيها) وكانت كثيرة الادغال والمياه ولها خمسة مسالك فقال ان هذه المسالك الضيقة تنفع فرنسا كما نفع اليونان مضيق كرمبيك ومن ثم عزم على مهاجمة العدو على شاطىء نهر موز ولكنهُ لم يتمكن من نوال مقصدهِ لوجود جيوش بروسيا في هذه المسالك والمسافة بينهُ وبينهم طويلة . فاخذ اقرب الطرق وكانت مقدمتهُ تسير تحت قيادة الجنرال ديلون وعددها ٨٠٠٠ جندي فدخل هذا الجيش بحسارة مدينة ستيناي وطارد العدو الى ما وراء نهر موز ووصل بسرعة لا مزيد عليها الى مضيق اسليت وتمكن منهُ واقام جيوشًا كافية في مضيق شالات قرب اسليت ووراء هذه الفرقة سار ديموريه نفسهُ ومعهُ ١٥ الف مقاتل واقام في كرانبري وتحصن بين نهر اركون وبسن واقام حواجز في مضيق لاكروالا اوبوا بالقرب من المكان الاول ثم اقام اربعة الاف من الجنود في مضيق طريق ريمس مع ١٨٠٠ من جنود الحرس الوطني وباقل من ٢٠ الف جندي امسك كل مسالك اركون وقسم جيوشهُ الى ثلثة اقسام نصفها في القلب وثمانية الاف في الميمنة

وستة في الميسرة ثم ارسل الى الجنرال كيليرمان ان ياتيهُ باثنين وعشرين الف مقاتل سالكاً طريق مدينة بارلودوك ومدينة ليني ومارًّا بالقرب من معسكر البروسيين لينضم الى جيشهِ في نواحي مدينة سانت من هوالد وامر ايضاً الجنرال بارنيونوسال ان يذهب الى مدينة وشل ومعهُ ١٦ الف مقاتل واذا استحسن يذهب من هناك الى كرازي و بعد ذلك اقامت كل الجيوش المطوعة التي خرجت من باريس لتنجدهُ تحت قيادة الجنرال برفات في موسكو شالون وريمس ومو وهكذا اصبح الجيش نحو مائة الف مقاتل وكان ممتدًّا من اركون الى العاصمة وكان يخرج كل يوم من العاصمة نحو الفي رجل بمهامهم لنجدة هذه الجيوش التي كانت تركن حق الركون الى دراية الجنرال ديموريه

وعرف البروسيون انهم غلطوا بعدم صدهم جيوش ديموريه حتى دخلت اركون فصمموا على الفتك بهم واخذ المراكز الحسنة التي اتخذها ديموريه فابتدات جيوشهم بالمهاجمة واستولوا على بعض المراكز التي كانت للفرنسويين. ولما راى ديموريه انهُ لا اقتدار لهُ على الثبات في جميع مراكزه لان جنودهُ كانوا لقلتهم غير قادرين ان يثبتوا امام جنود بروسيا المتعودة القتال وخوض المنايا تركَ لهم طريق شالون ورحل بجيشهِ ليلاً وعبر نهر اين واقام معسكرهُ بالقرب من مدينة منهولد وتحصن في راس طريق شالون من الجهة الثانية فصار عن يمينهِ نهر رين وعن يسارهِ بحيرات وكان مستندًا الى مدينة منهولد والى جيش الجنرال ديلون الذي كان نازلاً في راس مضيق اسليت فطلب القائد ديموريه الى الجنرال ديلون المذكور ان يثبت في مركزهِ الى المنتهى. ومضى هو بجيوشهِ قاصدًا باريس فكان البروسيون قادرين ان يهاجموهُ وهم متجهون الى جهة الرين لو لم يكن ذلك مناسبًا للفرنسويين وهذا التدبير هو من اغرب التدابير واحسنها. ثم اتى الجنرال بيرنونفيل وجنودهُ لنجدة القائد ديموريه وكان منتظرًا وصول الجنرال كيليرمان ومعهُ ٧٠ الف مقاتل ثم امر باقامة جيشين الواحد في شالون والاخر عند نهر السويب وكان كل جيش من هذين الجيشين مولفًا من عشرة الاف جندي تاتيها كل يوم جنود من باريس

وعبر البروسيون نهر اين بالقرب من مدينة فوزير وساروا بالقرب من مجرى النهر وفي طريق شالون وعوضًا عن ان يهاجموا هذه المدينة ذهبوا الى المكان الذي كان فيهِ ديموريه ظانين انهُ لا يزال باقيًا هناك وانهم قد احاطوا بهِ وانهُ سيلتزم ان يسلم وكانوا عازمين على اقامة معركة شديدة ليمنعوهُ من التخلص من الشرك الذي كانوا يظنون انهم قد نصبوهُ لهُ اما الفرنسويون فلم يكونوا قاصدين الاستيلاء على طريق شالون وكانوا لا يزالون مستولين على طريق فيتري الذي سلكهُ كيليرمان بجيوشهِ لما اتى لنجدة ديموريه في ١٩ ايلول (سبتمبر) وفي غد ذلك النهار اطلق الفريقان المدافع لكن بلا نتيجة فارسل الدوك دو برونسفيك البروسي ثلث فرق من جيوشهِ



لمهاجمة جيوش كيليرمان المقيمة عند طاحون. فلما راى الفرنسويون ان البروسيين اضطربوا امرهم كيليرمان قائدهم ان يهجموا حالاً على البروسيين ويقاتلوهم بالسيوف والحراب واخترط سيفهُ وهجم امامهم صارخًا فلجيَ الفرنسويون فلتعش الامة فانقض وراءهُ جيشهُ كلهُ صارخًا صراخًا كاد يمزق كبد السماء قائلاً فلتعش الامة فارتدَّ البروسيون الى الوراء ورجعوا الى مراكزهم وملأ الخوف كل المتحدين ضد ثورة فرنسا ووقع اعتبار اولئك الجيوش وقوادهم موقعًا عظيمًا منهم مع انهم طالما سخروا بهم فقتل من الفريقين باطلاق المدافع نحو ٩٠٠ رجل ومع ذلك ملأ السرور قلوب الفرنسويين وتاكدوا الفوز وعلى الخصوص لان ذخيرتهم كانت كافية ولم يبالوا ببرد الشتاء وكانوا بانتظار نجدة. وكتب ديموريه الى الجمعية القضائية في باريس ما ياتي "مركزي حسن وسانتصر على الاعداء كيفما ذهبوا" فتردد قواد البروسيين عن التقدم وعلى الخصوص بعد ان دفعت مدينة تيونفيل الجيوش الالمانية التي كانت تحاصرها ووقع الدوك دو برونسفيك في الياس لانهُ كان ظانًا ان انقسامات الفرنسويين الداخلية تسعفهُ في الوصول الى العاصمة ولكن لانتصار اصحاب الثورة على احزاب الملكية كما مر وبما ان روسيا كانت قد اخذت في مهاجمة بلاد بولونيا في الجهة الشمالية طلبًا لالغاء نظامات سنة ١٨٩١ ودخلت بجيوشها الى تلك البلاد بالاتفاق مع دولة النمسا عوَّل ملك بروسيا على اخراج عساكرهِ من فرنسا وهذا بالحري هو الذي حملهم على ذلك حذرًا من امبراطور المانيا. فارسل ديموريه الجنرال كيليرمان فطاردهم وانزل بهم ضررًا كثيرًا ورجع ديموريه قاصدًا فتح بلجكا وقد رشقهُ الجميع بسهام الملامة لانهُ لم يعتنِ في مطاردة البروسيين عند ما رحلوا ليتمكن من تشتيت شملهم وعلى الخصوص لان جيوش المانيا كانت قد اخلت جهة الرين لتنجد الجيوش التي كانت تحاصر تيونفيل فاستغنم الجنرال كوستين قائد جيوش الالزاس تلك الفرصة وهاجم بلاد المانيا واستولى على مدينة اورج ومدينة سبير وذلك في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ثم فتح مدينة ماينس نفسها فاسرع البروسيون الراجعون من فرنسا بالمسير ليتمكنوا من الوصول الى مدينة كوبلنتس ليعبروا نهر الرين لانه لم يكن لهذا النهر جسر الا في تلك المدينة. اما الجنرال كوستين فلم يحاول فتح كوبلنتس بل سار قاصدًا جهة فرانكفورت والبلاد الواقعة عند شطوط نهر مين ليهيج الالمانيين الى القيام على ولاتهم. وبينما كانت هذه الامور جارية في الجهة الشمالية والشرقية اقام المتحدون مقاتلات شديدة عند التخوم الفرنسوية في جهة بلجكا وجبال الالب ففي بلجكا طرد النمسويون الفرنسويين من معسكر مولد في ٢٤ ايلول (سبتمبر) ونزلوا مدينة ليل ولكن عوضًا عن ان يهاجموا هذه المدينة اطلقوا الكرات عليها ١٢ يومًا وبعد ان احرقوا منها ٧٠٠ بيت رحلوا عنها وذلك عند ما عرفوا ان ديموريه قادم من اركون لينجدها فرجعوا في ٨ تشرين الاول (نوفمبر) وعند الالب هجم الجنرال مونتسكيو

على ولاية سافوا التي كانت تخص مملكة الساردو فقبلهُ الاهلون بالترحاب لانهم فرنسويو الاصل واللغة والميل . وفي نفس ذلك الزمان استولى الجنرال انسلم الفرنسوي على امرية نيس في ٢٨ ايلول وقلعة مونتاليان وفيلفرنش وعلى ما فيها من الذخيرة والزاد الكثير وعلى مائة مدفع وبعض بوارج حربية فمن نتائج هذه الحرب فتح ولاية سافوا ونيس والدفاع الذي اقامتهُ مدينة ليل وتيونفيل وفتح مدينة مايتس وكل ذلك بتدبير القائد ديموريه الفرنسوي الذي اوقع الرعب في قلوب كل سكان اوربا فاخذ اهالي تلك القارة ينظرون الى ثورة فرنسا بعين تختلف عن العين التي كانوا ينظرون بها اليها اولاً فتبين لها محبون كثيرون في اماكن كثيرة وصار الفرنسويون الذين هاجروا بلادهم يقطعون الامل من النجاح ورجع الاهلون الى انفسهم وراوا انهم يقدرون ان يركنوا الى ذواتهم وقوتهم ونسوا المشقات الكثيرة الداخلية والخارجية وعلقوا كل امالهم على الجمعية الجديدة التي كانت مجتمعة في باريس عوضاً عن الجمعية القضائية وكان اجتماعها في اليوم الثاني من معركة فالمي ودعيت هذه الجمعية بالاتفاق الوطني

## الفصل الرابع

### في الكلام عن جمعية الاتفاق الوطني

قامت هذه الجمعية من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٧٩٥ وكان الاجتماع الاول في ٢١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٢ وقررت باتفاق اعضائها الغاء الملكية وقبضت على زمام السلطة الاجرائية والنظامية وللوصول الى تسهيل اجراء المهام قسمت نفسها الى دوائر حربية ونظامية ومالية وكانت هذه الدوائر في يد الحزب الجيروندي . وكانت مجالسهم في ميمنة قاعة الجمعية وكانوا اصحاب الاهمية في الجمعية السابقة ولذلك كانوا يعدون انفسهم بانهاء الثورة في ١٠ آب (اوغسطوس) كما كان حزب المحافظين قد علق امالهُ بانتهائها في ٢٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩١ وكان في مقدمتهم فيرنيو وكاريت وجنسوني وايسنار وباربارو وجميعهم من ذوي المعارف والبلاغة والحمية غير انهم لم يكونوا من اهل الجسارة والاقدام وكانوا يظنون انهم بعد الغاء الملكية واقامة الجمهورية يفوزون بالمرغوب ويتمكنون من جنى لذات التمتع بالجمهورية المنتصرة . وكانوا يستندون الى الولايات ويطلبون اليها عضدهم في نوال هذا المرغوب واستظهر نواب باريس وكومونها على نواب الولايات وتقدمت العاصمة على غيرها من مدن فرنسا وكان من نواب باريس روبسبير وادنتون وبيلوفارين ودرويت ودوك دوارليان المدعو ايكاليته وهو ابن عم الملك لويس السادس عشر فخانهُ وانضم الى مقاوميهِ ومنهم ايضاً كوتون وسن جوست وكولوت دبربوا ومارا وكانوا يلقبون جميعاً بلقب مونتانيار اي جبليين لانهم كانوا يجلسون في قاعة الاجتماع على مجالس مرتفعة . وتوسط بين هذين الحزبين الجيروندي والجبلي كثيرون من الاعضاء وكانوا يلقبون بلقب بلين اي سهل لانهم كانوا



متوسطين بين الحزبين المذكورين وكانوا يميلون الى حزب من الحزبين ويخافون الحزب الاخر ولما كانوا متاخرين عن الاجراء والعمل ودائمي التردد في الامور لقبوا بلقب ترجمتهُ المد والجزر ولم يحسن الحزب الجيروندي السياسة لانهُ لما راى النصر لهُ انهمك في النظر في امور ثانوية واهمل الامور الاولية فتمكن الحزب الجبلي من القبض على زمام الاعمال بقوتهِ العادية وسياتي ذكر ذلك في مكانهِ . وفي تلك الاثناء اتى الجنرال ديموريه باريس وخابر الحكومة بشان فتح بلجكا والاستيلاء على تخوم فرنسا الطبيعية وهي التخوم التي كانت لها فاستحسنت الجمعية رايهُ والكيفية التي وضعها لقيام المحاربة فذهب وقلد الجنرال انسلم والجنرال مونتسكيو والجنرال بيرون قيادة الجيش الاحتياطي وامر كوستين ان يهاجم حدود الرين وكيليرمان جهة تريف الى مدينة كوبلنتس ويلتقي هناك بالجنرال كوستين وفي غضون هذه المهاجمات يهاجم هو اي الجنرال ديموريه بجكا ويعضدهُ الجنرال كيليرمان في طرد جيوش المانيا واجبارها على تخلية كل المحلات الواقعة عن يسار الرين فشرع ديموريه بالمهاجمة ونجح في تنفيذ مقاصدهِ بعد ان اقام معارك كثيرة وطرد الالمانيين من بلجكا ومن كل المحلات الواقعة عن يسار الرين واظهرت الجنود الفرنسوية ما لا مزيد عليهِ من الاقدام والبسالة وسرعة الحركة في محاربة جيوش المانيا التي كانت ذات شان واقتدار فسرت الحكومة الجمهورية الفرنسوية بهذا النجاح واعلنت وجوب الغاء المظالم الناتجة عن وجود الملوك في كل اوربا ونشرت اعلاناً مالهُ انها مستعدة ان تساعد الامة التي ترغب في خلع ملكها طلباً للحرية واعلنت ايضاً انها ستقيم سلطة الامة وتلغي السلطة الملكية من كل البلاد التي تدخلها جنودها وتبطل كل عادات الملوك ومظالمهم وتلغي الحجز على املاك خدمة الدين والامراء قياماً بحق مصاريف الحرب وتقيم مجالس ودوائر جديدة وتكون هذه حكومة الامة وكان ذلك في ١٥ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٧٩٢

### في محاكمة لويس السادس عشر ملك فرنسا

ذكرنا انفاً ان الجمعية القضائية وضعت الملك وعائلتهُ في قصر لوكسمبرج تحت محافظة الحرس الوطني واما جمعية الاتفاق فامرت بنقل العائلة الملكية الى دار التمبل واعضاء العائلة حينئذٍ الملك وامراتهُ وابنهُ وابنتهُ وشقيقتهُ اليصابات وخادمهُ الامين كليري وفوضت الجمعية امر المحافظة عليهم الى كومون باريس فانزلوا الملك في جهة من الدار وعائلتهُ في جهة اخرى وكان الملك يجتمع بعائلتهِ في النهار بضع ساعات وكان كليري الخادم الامين ينهض من النوم باكراً ويجدُّ في خدمتهِ وكانوا يتناولون الطعام الساعة التاسعة افرنجية في غرفة الملك ويجتمعون في غرفة الملكة الساعة العاشرة وكان الملك في تلك الساعة يهتم بتعليم ابنهِ فكان يعلمهُ بعض قصائد من نظم راسين وكورنيل ومبادي علم الجغرافية وكانت الملكة تعلم ابنتها ثم تاخذ هي وشقيقة الملك في اصلاح ثياب العائلة وترفو ما بلي منها وكان الكومون يسمح لهم ان يخرجوا معاً الى بستان دار التمبل ليتنزهوا بعد الظهر

بساعة وكانوا يخرجون في اوقات حسن الهواء تحت مراقبة الجنود . وكان الملك والملكة يخرجان للتنزه في ذلك البستان على غير رضاهما حباً بخير ولديهما فقط لانهما كانا يسمعان في اثناء وجودهما في ذلك البستان اقوالاً تنفر منها الطباع السليمة لانهُ كان ياتي ذلك المكان قوم من السفلة قاصدين اهانة العائلة الملكية بالكلام غير ان تعزية الملك كانت في مشاهدة كثيرين من الامناء الذين كانوا ياتون المنازل المجاورة لذلك المكان ويقفون في نوافذها ليتمكنوا من مشاهدة ملكهم ولو عن بعد وكانوا يتناولون الطعام المرة الثانية الساعة الثانية بعد الظهر وبعد ذلك كان الملك ينام برهة وفي زمان نومهِ كانت الملكة وشقيقتهُ تشتغلان وكان الخادم كليري يمرّن ابن الملك بالعاب تناسب سنهُ وبعد هذا كانوا يقرأُون قراءة عمومية ثم يتناولون الاكل مرة ثالثة ثم يدخل كل منهم غرفتهُ . فكان الملك يقرا الكتب النفيسة ومن جملتها كتاب الاقتداء بالمسيح فقرا وهو في دار التمبل ٢٥٠ مجلداً وكان حراسهُ يتعجبون من اعمالهِ وتسليمهِ امرهُ الى العناية الالهية واحتمال المصائب التي طرات عليهِ بالصبر الجميل

• واما الكومون فكان يخشى ان تفر العائلة الملكية او ان ياتيها مساعد يساعدها على الخروج من فرنسا ولذلك كان يشدد المراقبة ولم يسمح لحراسها ان يغضوا الطرف دقيقة واحدة عن مراقبة كل عضو من اعضائها وعند ما كانوا ينامون كان ينام على باب كل غرفة من غرفهم حارس خصوصي وكان ياتي الجنرال سانتير قائد ضباط الكومون مع اعوانهِ كل يوم للنظر في حالة الدار والتقرير للكومون عما يراهُ فيها . وسمح الكومون للعائلة الملكية ان تستعمل الة الكتابة في اول الامر على انهُ منعها عن ذلك بعد ان اسرها بمدة قصيرة وكذلك منعها عن استعمال كل الات القطع الصغيرة والكبيرة حتى انهُ منعها عن استعمال المقص وما شاكل ذلك فقصرت يد الملكة وشقيقة الملك عن الالات اللازمة للخياطة والرفو لان الكومون لم يعط العائلة ثياباً جديدة منذ انزلها في دار التمبل والتزمت امراة سفير انكلترا ان ترسل ثياباً وغيرها من الامتعة للملكة وبعد مدة طلب الملك من الكومون ثياباً فتنازل الكومون واجاب هذا الطلب وكانت هذه العائلة المنكودة الحظ غير متمكنة من الوقوف على اخبار الحوادث اليومية لان الحراس لم يسمحوا لاحد ان ياتيها بالجرائد غير انهم سمحوا بدخول الجرائد التي تنشر اخبار انتصار الجيوش الفرنسوية على الدول ليحملوا الملك على اليأس من الحصول على المساعدة الخارجية . وكان كليري قد تمكن بمساعدة خادم اخر كان ماذوناً ان ياتيهُ بالزاد من استخدام دلال ياتي في ساعة معينة كل يوم وينادي رهو واقف تحت نوافذ دار التمبل معلناً اخبار الحوادث اليومية ولما كان كليري يدخل غرفة الملك ليرتبها عند المساء كان يقص عليهِ اخبار ما جريات ذلك النهار وهكذا كان هذا الخادم الامين يقوم بحق الخدمة لسيدهِ المنكود الحظ

واقامت جمعية الاتفاق لجنة للنظر في اعمال الملك واجراآتهِ السابقة فقدمت في ٧ تشرين



الثاني (نوفمبر) تقريراً عما وقف عليهِ فآل الامر الى محاكمة الملك وترجم التقرار الى لغات كثيرة وطبع ونشر في اوربا وقررت الجمعية ان المباحثة بهذا الخصوص تقام في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) فتعجب الناس لان القوانين التي قررتها الجمعية الوطنية الاولى كانت قد قررت بان الملك يكون مالكاً بالارث ويكون من العائلة المالكة ويكون غير مسئول لانهُ يملك ولكنهُ لا يسوس لان السياسة تكون منوطة بالوزراء وهذا من نظامات الممالك المفيدة . وبعد ان كان الملك لويس قد حاول الهرب والخروج من فرنسا قررت الجمعية المذكورة بانهُ اذا اتحد الملك مع الاجانب ضد وطنهِ لا يحاكم بحسب القوانين العمومية بل يحكم عليهِ بالعزل لكن جمعية الاتفاق لم تسلك بموجب هذه القوانين ولذلك انقسم اعضاء الجمعية في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) الى قسمين قسم منهما منع محاكمة الملك والقسم الثاني اجازها وطال الشقاق وكثرت المفاوضات بهذا الشان فكان حزب اليمين يحامي عن الملك وحزب اليسار يطلب محاكمتهُ وفي غضون هذه الامور اصيبت فرنسا بمجاعة شديدة ونهض اهل الولايات الغربية لمقاومة الحكومة الجديدة والمحاماة عن الملكية وديانة اجدادهم . وكانت الجمعية واقعة في اضطراب شديد من جرى الصعوبات التي كانت تطرا عليها في فض المشاكل فنهض روبيسبير من اعضاء اليسار وقال للجمعية ان انقاذ الوطن من جميع الاخطار والارتباكات انما يكون بالحكم بقتل الملك لويس لان ذلك يقطع امل مضادي الجمهورية من النجاح . وفي ٢ كانون الاول (دسمبر) جرت مباحثة ثانية لجهة محاكمة الملك وقدم الحزبان خطباً كثيرة بهذا الخصوص وكان الحزب الجيرونديي يحامي عن الملك لكن لم يغلب الحزب الذي كان يقاومهُ مع ان اعضاءهُ كانوا من اهل العلوم والمعارف والصدور الواسعة وكانوا يعرفون القوانين حق المعرفة اما اخصامهم فكانوا على جانب عظيم من الجهل والحماقة والقحة وحدة الطباع فنجحوا في عملهم وحملوا الجمعية على ان تصدر قراراً بموجب عدد الاراء بموجب محاكمة الملك فصدر القرار في ٣ كانون الاول (دسمبر)

وفي ٤ منهُ قررت الجمعية ان كل من يرغب في ترجيع الحكومة الملكية يقتل وبعد ذلك شرع النواب في تحضير الاوراق التي كانوا قاصدين ان يطلبوا الى الملك ان يعطي عنها جواباً وابتدأت اللجنة في فحص الاوراق التي وجدت عند موسيو لابورت وفي خزانة قصر التويلري وكانت تتضمن المخابرات التي جرت بين الملك واخوتهِ وبينهُ وبين الملوك الاجنبيين وحوت صورة الاتفاق الذي جرى بين الملك وميرابو قبل موتهِ بمدة قصيرة ثم طلبت الجمعية الى اللجنة ان يكتب ملخص الدعاوى المقامة على الملك ويقدم الى رئيس الجمعية ليحاكمهُ بموجبهِ ويطلب منهُ جواباً عن كل امر على حدتهِ وبعد حضورهِ امام الجمعية يعطيهِ فرصة يومين للاستعداد لتبرئة نفسهِ وفي اليوم الثالث تصدر الجمعية حكمها بحسب عدد الاراء . وصدرت الاوامر اللازمة للحكومة الاجرائية لتتخذ الوسائل الفعالة لحفظ

الراحة العمومية بمدة اقامة الحجة على الملك وكان ذلك في ٩ كانون الثاني (جانفيه) . وفي ١٠ من الشهر المذكور قدمت اللجنة ملخص الدعاوي المقامة على الملك الى الجمعية فحكمت بحضور الملك اليها في ١١ كانون الثاني

وكان الخادم كليري عارفاً بجميع ما تقرر في الجمعية لجهة سيده الملك فلم يستصوب تبليغهُ اياهُ راساً ولكنهُ اخبر بهِ شقيقتهُ فاخبرت بهِ الملك فلم يضطرب بل كانت لوائح الصبر الجميل تلوح على وجههِ وبلغهُ بعد ذلك ان الكومون امر بفصلهِ عن عائلتهِ في مدة المحاكمة . وكان كليري مزمعاً ان يقيم مع الملك في تلك المدة فاتفق هو وشقيقتهُ على انهُ يرسل اليها منديلاً اذا اصاب الملك مرض او اعتراهُ ضعف . وفي ١١ كانون الثاني (جانفيه) امر الكومون بتسليح كل فرق الضابطة وازدياد قوة جميع المحافظين والخفراء في كل الدوائر وبان يوتى بالجيوش الاحتياطية التي كانت في المدن المجاورة لباريس لتقيم في مراكزها التي اقاموا فيها المدافع وان فرقة من احسن الجيوش ترافق المركبة التي تاتي بالملك الى الجمعية

وفي صباح ذلك اليوم نفخ البوق في باريس واعلن ابتداء الاعمال غير العادية واقيمت الجيوش حول دار التمبل وحدثت حركة غير اعتيادية في العاصمة وكثرت قعقعة الاسلحة وضجيج الجنود وكانت هذه الاصوات تطرق مسامع العائلة الملكية الحزينة لكن كانت تتظاهر بعدم معرفة ما سيجري عليها . وفي الساعة التاسعة ارادت العائلة الاجتماع في غرفة الملك بحسب العادة فمنعها حراس الكومون فتوسل الملك اليهم ان يسمحوا لهُ بابقاء ابنهِ عندهُ فلم يجيبوا طلبهُ فبقي وحدهُ نحو ساعتين وبعد ذلك دخل عليهِ والي باريس ووكيل الكومون وعرضا عليهِ امر الجمعية بحضورهِ اليها وكانت تدعوهُ في ذلك الامر لويس كابت فقال الملك انني لا ادعى لويس كابت وان كان احد اسلافي قد دعي بهذا الاسم . ثم نهض وركب مركبة والي المدينة المعدة لهُ وسار حولها ستمائة جندي وامامها ثلثة مدافع وكذلك وراءها وعدد غفير من الفرسان كان يسير امامهُ ووراءهُ . واكثر الباريسيين ينظرون الى ذلك بعين الانفة لانهم كرهوا ان يعامل الملك تلك المعاملة . ولما وصلوا بهِ الى دار الجمعية الخارجية وقفوا بهِ فيها منتظرين اوامر الجمعية اما النواب فاتفقوا على انهم لا يتكلمون بشيء في مدة وجود لويس السادس عشر بينهم ولا ان يظهر احدهم ميلهُ اليهِ ولا عليهِ ولكي يظهروا للملك انهم لم يكونوا مكترثين بهِ شرعوا في الكلام عما يتعلق بالفرنسويين الذين هاجروا بلادهم ثم دخل قاعة الاجتماع الجنرال سانتير قائد ضباط الكومون وهو من الذين انخرطوا في اعمالهم في تلك الثورة وقال ان لويس السادس عشر قد اتى فاجاب باريز رئيس الجمعية فليحضر ثم قال للنواب ان اوربا تنظر اليكم والمستقبل سيحكم عليكم فاسلكوا مسلك القضاة العاقلين والبسوا ياب الرزانة وقابلوا لويس بالصمت التام كما قابلوهُ عند ما رجع من فارين لما حاول الفرار



ولما دخل الملك لويس هو ووالي باريس وسانتير وفينينكوف في الساعة الثانية ونصف كان جميع النواب جالسين في مجالسهم صامتين وكان منظر هذا الملك وهيئتهُ ولوائح العظمة والاداب والرقة التي كانت تلوح على وجههِ تحمل الناظر اليهِ على الشفقة ولم تبدُ عليهِ علامات الذل فما رثى لهُ النواب حتى روبسبير . واكثر الذين كانوا يبغضونهُ تعجبوا لما راوا منهُ ما راوا مع ان بغضهم كان يخيل لهم انهُ دون الانسانية لا يستحق ان يكون بين الناس

فقال رئيس الجمعية للملك اجلس واصغِ لما تسمعهُ واجب عما تسالك فجلس وقرىء امامهُ ملخص الدعاوى المقامة عليهِ وهذه الدعاوى هي توقيف اجتماع الوكلاء في ٢٠ حزيران (جون) سنة ١٧٨٩ وعقد جمعية خصوصية واصدار اوامر في ٢٣ من نفس هذا الشهر واقامة ولائم كثيرة لروساء الحراس ليمكنهم في خدمتهِ واحتقار الراية الاهلية المثلثة الالوان والتمنع عن تصديق القوانين التي قررتها الجمعية القضائية السابقة ونسبوا اليهِ جميع الحوادث التي نتجت عنها . منها ما جرى في ٥ و٦ حزيران (جون) والحنث باليمين التي حلفها في ١٤ تموز (جوليه) لجهة قبول القوانين المقيدة والاتفاق مع تالون وميرابو على اجراء الاعمال التي تقطع اسباب الثورة واعطاء الدراهم للنواب لكي يحزبوا لهُ واجتماع الامراء في ٢٨ شباط (فقريه) سنة ١٧٩١ والفرار الى فارين واطلاق الاسلحة في ساحة شان دومارس وعدم المجاوبة عما يتعلق بمعاهدة بيلنس والتردد عن اعطاء الامر لجهة الحاق ولاية افينيون بفرنسا والحوادث التي جرت في نيم ومونتوبان ومبند وجاليس وعدم قطع المرتبات المالية من الذين هجروا بلادهم والغاء الجيوش المقيدة واقامة المواصلات السرية بينهُ وبين الامراء الذين هجروا البلاد وقلة الجنود المقيمة في التخوم وعدم تجهيز القلع والتاخر عن الافادة لجهة هجوم البروسيين على الوطن واقامة الجمعية السرية في باريس واجراء فحص الجيوش السويسرية في ١١ اب بعد ان جرى ما جرى في ١٠ منهُ وتكثير جنود الحرس السويسري ودعوة والي باريس الى قصر التويلري واعطاء الجواب عن الدم الذي سفك بسبب هذه الامور . وكان كلما تلا الناري ملخص دعوى من الدعاوى المذكورة يوقفهُ رئيس الجمعية عن القراءة ويسال الملك قائلاً هل تجيب بشيء عن ذلك . فكان الملك يجيب وهو على جانب عظيم من الرصانة والسكينة وكان يدحض بعض التهم وينسب بعضها الى وزرائهِ ويبين سواغية بعضها بحسب النظامات الجديدة التي قررتها الجمعية الاولى باتفاق جميع النواب وقال انهُ لم يتجاوز تلك القوانين . ولما سالهُ الرئيس عما يجيب عن سفك دم الشعب في ١٠ اب (اوغسطوس) صرخ بصوت عالٍ انني لم اسفكهُ فلست انا الذي سفكهُ وبعد ذلك اطلعوهُ على جميع الاوراق التي كانت عند موسيو لاورد وفي خزانة الحديد في التويلري فانكر بعضها وانكر الخزانة الحديدية المذكورة وطلب صورة الشكوى وصور الاوراق التي تصدرت عليهِ هذه الشكوى بموجبها وطلب ان يسمحوا لهُ ان يعين من يرغب

في تعيينو ليساعدهُ في المحاماة عن نفسو . ثم خرج من الجمعية فذهبوا بهِ الى القاعة الخارجية واتوهُ بمشرب ثم قادوهُ الى دار التمبل كما اتوا بهِ ولم ياذنوا لهُ بمواجهة عائلتهِ بل قالوا لهُ ان الكومون يمنعهُ عن ذلك مدة المحاكمة وكان ذلك جورًا في دولة تدعي انها حكومة حرية . ووقع الخلاف بين نواب الجمعية فكان بعضهم يحب اعطاء الملك كل ما طلب من المساعدة وينفي ذلك البعض الاخر فحكمت الجمعية باعطاء الملك كل ما طلبهُ واخبروهُ انهُ يقدر ان يختار من يشاء لمساعدتهِ في الدفاع عن نفسو فاتى رسول وبلغ الملك ذلك فطلب اليهِ ان يقدم للجمعية طلبهُ وما لهُ انهُ يطلب الى موسيو طارجه ان يساعدهُ في المحاماة عنهُ واذا تعذر فموسيو ترونشه وان امكن فكلاهما وطلب ايضًا ورقًا وحبرًا واقلامًا ليكتب ما يلزم وطلب الرخصة بان يشاهد عائلتهُ فسمحت لهُ الجمعية بكل ذلك وبمقابلة عائلتهِ فاعتذر طارجه قائلاً انهُ لم يدخل المحاكمة منذ سنة ١٧٨٥ واما ترونشه فاجاب حالاً بالقبول وبينما كان الملك والجمعية مهتمين بايجاد مسعف آخر للملك وردت رسالة من شيخ كان قد بلغ سن السبعين وهو مالرب رفيق طوركو ووزير لويس السادس عشر الاول الذي كان في منصب الوزارة قبل الثورة وقد ذكرناهُ فيما مضى وكان من احسن قضاة فرنسا وما ياتي هو نص الكتابة التي كتبها هذا الشيخ الموقر وبعث بها الى رئيس الجمعية . قد دعيت مرتين الى الجلوس في ديوان شورى ذلك الذي كان سيدي ومولاي وكان الجميع يتمنون الحصول على هذه الوظيفة فلم اقبلها حينئذٍ على انني اقبلها الان وارضى بان اكون مشيرًا لهُ في وقت احتياجهِ الى مشير ولا يجد من يجاسر ان يقبل هذه الوظيفة فاطلب اليك ان تعلم لويس السادس عشر بذلك . وطلب كثيرون نفس هذا الطلب فقدمت الجمعية اسماءهم للملك فشكرهم جميعًا ولم يقبل غير ترونشه ومالرب وفتشهما الحراس حتى التفتيش قبل دخولهما دار التمبل خوفًا من ان يكون معهما شيء مما لا يحبون ان يحصل الملك عليهِ . ولما راى الملك مالرب نهض لاستقبالهِ فجثا ذلك الشيخ عند اقدام الملك وذرف دموعًا سخينة فانهضهُ الملك وتعانقا مدة طويلة ثم شرعا في الاستعداد للمدافعة وكان معتمدو الجمعية يحضرون الى دار التمبل كل يوم ويطلعون الملك ومساعديهِ على الاوراق التي تقدمت ضدهُ ليسمعوا جوابهم ولم يسمح الكومون للملك ان يقابل عائلتهُ خلافًا لاوامر الجمعية على انهُ سمح لهُ بمشاهدة ولديهِ بشرط ان لا يعودوا الى والدتهما مدة المحاكمة بطولها فلم يقبل الملك بذلك اكرامًا للملكة

وفي غضون ذلك كانت الجيوش الفرنسوية غير ناجحة في حدود الرين ووقعت في اخطار من عدم اهلية قوادها فازداد ارتباك الجمعية واشتد بغض النواب بعضهم لبعض بسبب محاكمة الملك وطلب بعضهم الحكم بنفي عائلة الدوك دورليان ابن عم الملك وهو الذي



قلنا انهُ خان الملك وانضم الى حزب الجمهورية . وكان هذا الدوك في مقدمة الحزب الذي يضادهُ الملك فحكمت الجمعية بنفيهِ ونفي ذريتهِ من فرنسا غير انها حكمت ايضًا بتاخير اجراء هذا الحكم . وطلب مالرب وترونشه الى الجمعية ان تسمح لهما بانتخاب مسعف اخر من الذين لم تضعفهم الشيخوخة ليسرع في تحرير صورة المحاماة لان الوقت كان قصيرًا وكانت دائرة الشغل واسعة فاجابت الجمعية طلبهما فانتخبا الافوكاتو ديسيز فدخل دار التمبل واشترك معهما في المحاماة عن الملك فاشتغلوا ليلاً ونهارًا وفي ٢٦ كانون الثاني (جانفيه) قبل الظهر ذهبوا بالملك ومساعديهِ الى دار الجمعية كما ذهبوا بهِ في المرة الاولى وكان الضباط يتعجبون من عدم مبالاة الملك بالاخطار التي كانت تتهددهُ وكان يتكلم مع جميع الذين كان يراهم عن مواضيع علمية ويسالهم عن قضايا عامة . ولما وصلوا الى الدار الخارجية بعث الى مساعديهِ الثلاثة الذين احملوا اثقالاً كثيرة لاجلهِ كلام الامتنان والشكر ولما دخل الجمعية جلس بالقرب منهم فصعد موسيو ديسيز على المنبر وشرع في تلاوة البراهين التي تكذب التهم المقامة على الملك وكان لويس السادس عشر جالسًا ينظر بعين رصينة الى كل الاعضاء الجالسين في مجالسهم . والظاهر انهُ كان يرغب في الوقوف على التاثير الذي كان يوثرهُ فيهم كلام وكيلهِ وكان في بعض الاحيان يكلم ترونشه ومالرب بصوت منخفض وتبسم . وبما ان تقرير ديسيز مستطيل جدًا فلا نذكر منهُ غير مقدمتهِ وختامهِ غير اننا نقول انهُ يصعب على فقهاء القرون السالفة والمستقبلة ان يقرروا دفعًا اقوى من ذلك الدفع وافصح منهُ وما ياتي هو ترجمة المقدمة

ايها النواب الكرام

لقد اتى الوقت الذي سمح فيهِ للويس ان يتكلم بعد ان اقامت عليهِ الامة الفرنسوية الحجة فيبين لها بواسطة المحامين الذين اقيموا لهُ بناء على القوانين العادلة البراهين التي من شانها دفع ما القي عليهِ من التهم وذلك صادر عن سلامة قلبهِ وهو يوضح جهارًا على مسامع عموم الامة نواياهُ الخيرية التي طالما انهمك فيها وبما اراهُ من الصمت والهدو في هذا المكان الحافل يحملني على الاعتقاد ان العدالة قد قامت مقام الهيجان والقلاقل وان ما نحن شارعون فيهِ ليس عملاً باطلاً وان زمان الحرية هو زمان الاستقامة والميل عن الغرض والسلوك بحسب القوانين المفروضة وان الانسان الذي يكون تحت المحاكمة يقدر ان يستدعي اهتمام الجميع مع قطع النظر عن رتبتهِ لان لويس الان من عامة الناس لانهُ قد بات بلا سلطان ولا وقار وغير قادر على اجراء شيء وما من احد يهتم بهِ وبناء على ذلك اقول ان احوالهُ الحاضرة هي ما يستدعي انصافكم ومعاملتكم بالرقة والمساهلة ويا حبذا لو امكن فرنسا كلها ان تصغي لصوتي في هذا الوقت ويا حبذا لو اتسعت هذه القاعة بحيث يتمكن كل ابناء الامة من دخولها . هذا وانني عارف ان مخاطبتي النواب تكون كمخاطبتي الامة جميعها على انهُ يسوغ للويس ان يتاسف لان كثيرين من الفرنسويين متاكدون بانهُ قد ارتكب

الذنوب المنسوبة اليهولا يقدرون ان يسمعوا الان البراهين التي تحملهم على تغيير اعتقادهم . اما الان فقصارى مرغوبهِ وغاية اهتماماتهِ تبرئة نفسهِ ومع انهُ يعرف ان اوربا تنتظر بفروغ صبر الحكم الذي ستصدرونهُ لا يهتم الا بما يتعلق بفرنسا وهو يعلم ان القرون الاتية ستقرر تواريخ هذه المحاكمة وتحافظ عليها فانها قد اقيمت بين امة ورجل ولكنهُ لا يهتم الا باهل عصرهِ وكل اهتمامهِ مصروف في ان يبرهن لهم الحقيقة وكذلك نحن لا نحب الا ان نحامي عنهُ وان نبين انهُ بريء ونغض النظر عن اوربا التي تنظر الينا كما غض هو عنها نظرهُ وكذلك نصرف النظر عن القرون الاتية وما ربما كانت تحكم بهِ علينا ونحصر نظرنا في الزمان الحاضر واهتماماتنا بلويس وما اسعد اليوم الذي فيهِ نتمكن من اتمام الفروض بالتصريح بانهُ بريء

وبعد ان فرغ من المقدمة شرع في بيان البراهين التي تدفع التهم الملقاة عليهِ ودفعها شيئاً فشيئاً وتهمة فتهمة وبما ان ذلك هو اكثر مما يسمح لنا المقام بتقريرهِ ضربنا صفحاً عن ذكرهِ وما ياتي هو ترجمة الختام القصير الذي ختم بهِ ذلك الشاب الحاذق خطابهُ البليغ

انني انظر لارى بينكم قضاة ولكنني لا ارى غير محاجين فاسمعوا ماذا يقول تاريخ القرون الاتية ان لويس تبوأ عرش الملك لما كان لهُ من السن عشرون سنة وكان يسلك وهو في هذا السن امام اعين الامة مسلك الادب ويتجنب النقائص والافعال التي من شانها افساد الاداب العمومية وكان يكره الاسراف عادلاً مستقيماً محباً لامتهِ ولما راى ان الامة ترغب في ابطال بعض العادات القديمة المتعلقة بالغاء بعض الرسومات غير العادلة وغير ذلك اجاب الى مرغوباتها وابتدا في الغاء ذلك في املاكهِ الخصوصية وكان كانهُ يسير في مقدمة اميال الامة واحتياجاتها ولما عرف ان الشعب يرغب في اصلاح السجن وتخفيض القصاصات الصارمة وقانون الجزاء اجاب الى ذلك حالاً ولما عرف ان الامة تحب تقرير المساواة في ما يتعلق بنسبتها الى القوانين ليتمكن كل الفرنسويين من ان يتمتعوا بحقوق واحدة وطلبت الامة الحرية منحها مطاليبها حتى انهُ من تلقاء نفسهِ كان يمنحها اكثر مما كانت تطلب ومع ذلك يطلب في هذا النهار بالنيابة عن هذه الامة نفسها . . . . ياسادتي انني لا اتجاسر على ان اذكر نفس ما يطلب . . . ولكنني اقف امام التاريخ والتمس منكم ان تعرفوا بانهُ سيحكم على ما تحكمون بهِ الان وان حكمهُ يكون حكم القرون الاتية . انتهى

ثم قال الملك لمجلس النواب لقد وقفتم على البراهين المتقدمة فلا فائدة في اعادتها واقول لكم في هذه المرة التي ربما كانت المرة الاخيرة التي اخاطبكم بها ان ضميري لا يوبخني على اجراء شيء من الامور المغايرة وقد قرر وكلائي الحقيقة ولم اخف ان اجعل اعمالي موضوعاً للفحص على انني حزنت جداً اذ رايت ان الذين اقاموا عليَّ الشكوى قد نسبوا اليَّ سفك الدماء التي سفكها



الشعب فيما مضى وعلى الخصوص في ١٠ آب ( اوغسطوس ) مع ان البراهين الواضحة التي بينتها لسان حال تصرفاتي توضح باجلى بيان ان محبتي للامة لم تضعف لان الجميع يعرفون انني عرضت نفسي للمخاطر حباً بالمحافظة على سلامة الشعب . وبعد هذا سال رئيس الجمعية الملك قائلاً هل ترغب ان نقول غير ما قلت فاجاب لا فطلب اليهِ ان يخرج فاخذوهُ هو ووكلاءهُ الى قاعة اخرى فكانت اهتماماتهُ مصروفة في ملاطفة موسيو ديسيز فاحضر لهُ ما ينعشهُ من المشارب لانهُ كان متعباً من طول الخطاب الذي خطبهُ في المجلس ثم رجع الملك في المركبة الى دار التمبل

اما نواب الامة فاخذوا في المفاوضة والمباحثة في ما يتعلق بالملك فافضى بهم الامر الى المشاجرة وكان الخطباء يصعدون على المنبر ويخطبون عما يتعلق بالحكم على الملك اولهُ وكان الذين من الحزب الجيروندي يجهدون انفسهم بالخطب البليغة والبراهين القوية في سبيل تبرئة الملك واقناع النواب بان يحكموا عليهِ بالعزل والنفي فقط وذلك بحسب القوانين المقررة . اما رجال اليسار وهم حزب الجاكوبين فكانوا يجهدون انفسهم في مضادة الحزب الجيروندي وكانوا ياتون بالبراهين التي تحمل الجمعية على الحكم على الملك ودامت الحال على هذا المنوال من ٢٦ كانون الاول ( دسمبر ) سنة ١٧٩٢ الى ٧ كانون الثاني ( جانفيه ) سنة ١٧٩٣ . وكان بعض رجال اليمين يطلبون الى مجلس النواب ان يحيل مسألة الحكم على الملك بالقتل او بغيرهِ الى الامة لرفع المسئولية عن المجلس لان القوانين المقررة في النظامات الاولى قد قررت ان الملك لا يكون تحت القوانين وصدقت الامة على هذه القوانين . اما المجلس فقرر راية في ١٤ كانون الثاني ( جانفيه ) سنة ١٧٩٣ ان يبحث عن الامور الاتية المتعلقة بالملك ويصدر القرار الاخير بحسب تلك الامور . وفي اليوم المذكور اتى المجلس جمهور غفير ليقف على القرار الذي ستقررهُ الجمعية . والامور التي كان قد عزم المجلس على البحث فيها والحكم بموجبها هي اولاً . هل لويس مذنب لانهُ حاول سلب حرية الامة وفعل ما يسلب حرية كل الامة . ثانياً هل يجب ان يحال الحكم الى الامة عموماً مع قطع النظر عن كيفيتهِ . ثالثاً ما هو العقاب الذي يجب ان يعاقب بهِ

ثم قرر النواب ان كل عضو من اعضاء المجلس يبدي رايهُ بهذا الخصوص بان يصعد المنبر ويبين الاسباب التي حملتهُ على ما يحكم بهِ ثم يكتب ذلك ويمضيهِ ومن غاب من النواب بلا داعٍ قانوني يستوجب اللوم ومن اتى المجلس من الاعضاء بعد نهاية ابداء الاراء فلهُ ان يبدي رايهُ ايضاً . وفي ١٥ كانون الثاني شرع المجلس في ما ذكر وكان عدد الغائبين بسبب الامراض ثمانية والذين قلدهم المجلس مامورياتٍ مخصوصة ٣٠ نائباً والذين حكموا بان لويس السادس عشر مذنب ٢٧ وقدموا لذلك عدة اسباب لكن قالوا انهُ لا يحق لهم ان يحكموا عليهِ بشيء لان النظامات التي عقدت بين الامة والملك تمنعهم عن ذلك وانهم لا يرغبون ان تحكم الامة عليهِ الا بما تقتضيهِ الحكمة لصيانة الامنية

والذين حكموا عليهِ بدون ان يقدموا اسباباً ٦٨٢ وكان عدد النواب ٧٤٩ وبعد تلاوة مجموع هذه الاراء حكم رئيس الجمعية بان لويس كابت مذنب بمحاولتهِ سلب حرية الامة والراحة العمومية. ثم تباحثوا في احالة الحكم الى الامة عموماً مع قطع النظر عن كيفيتهِ. وكان الغائبون ٢٩ فحكم بذلك ٢٩١ منهم وامتنع ٤٢٢ واستصوبهُ ١١ تحت شروط واما الخمسة الباقون فلم يبدوا رايهم بشيء فقال رئيس المجلس انهُ لا تصح احالة الحكم الى الامة بل يكون الحكم لمجلس النواب وطلب بعض النواب الحكم باكثرية الاراء فقال موسيو ليهاردي ان الاكثرية تعتبر اذا اتفق ثلثا النواب على راي واحد فخالفهُ في ذلك دانتون وقال ان الاكثرية تكون بزيادة راي واحد فاستصوب المجلس هذا الراي وفي ١٨ من الشهر المذكور الساعة ٧ مساء تباحثوا في ما يكون عقابهُ فحكم بعض النواب بالقتل وبعضهم بالنفي او بالسجن الى ان يعقد الصلح وبعضهم بالقتل بشرط ان لا يصير اجراء الحكم الا بعد زمن طويل وهكذا بات الاعضاء في تردد وارتباك تلك الليلة واليوم السابع عشر من الشهر المذكور حتى المساء ومن المستغرب ان الدوك دورليان ابن عم الملك لويس كان من الذين حكموا عليهِ بالقتل. وطلب وكلاء الملك قبل النهاية ان يوذن لهم بالدخول الى المجلس فلم يجب المجلس طلبهم وقرأ وزير الخارجية خطاباً ورد اليهِ من سفير دولة اسبانيا مآلهُ عقد معاهدة بين فرنسا واسبانيا لمساعدة فرنسا على تمكين الالفة بينها وبين غيرها من الدول بشرط ان تعفو عن لويس السادس عشر فكدر ذلك حزب الجمهورية وطلبوا الى المجلس بالحاحة ان يقرر وجوب فتح الحرب على اسبانيا لانها تجاسرت وطلبت هذا الطلب وبعد ذلك تلا الرئيس مجموع الاراء فكان كما سياتي حكم ٢٨٦ بالسجن او بالنفي وقرروا بعض ملاحظات واثنان بالسجن المؤبد و٤٦ بالقتل بعد ابراز الحكم بمدة طويلة وربما قصدوا بذلك تخليص الملك بعد تقرير النظامات الاساسية وحكم على ٢٦ بالقتل بشرط ان تصير المباحثة في تاخير اجراء الحكم وحكم ٢٦١ بالقتل بلا شرط ولا ملاحظات. فعند ذلك رفع الرئيس صوتهُ وقال اني باسف لا مزيد عليه احكم على لويس كابت بالموت

وبعد ذلك دخل وكلاء الملك الى المجلس وصعد ديسيز على المنبر وقال ان موكلي يرفع دعواهُ الى الامة لتحكم بما حكمت بهِ الجمعية. استند بذلك الى ان الاكثرية انما كانت براي واحد فقط. وكذلك ترونشه رفيق ديسيز قال انهُ من الواجب ان تصير المحافظة على القوانين التي قررت بان الاكثرية انما تكون باجماع ثلثي الاراء على امر واحد ثم صعد مالرب الشيخ العاجز وقال بصوت يخللهُ البكا ولوائح الكآبة والحزن تلوح على وجههِ اطلب ان تسمح لي الجمعية ان ابدي رايي وافكاري في الغد فتاثر النواب لما راوا ذلك الشيخ المحترم على تلك الحال وقال الرئيس لوكلاء الملك ان المجلس يمدحكم لانكم تمتم بحق الفروض التي تعهدتم بها فاقبلوا تشكراتهِ وبعد ذلك شرع النواب يتباحثون في امهال الملك لاثة ايام ثم حكم المجلس باكثرية الاصوات انهُ لا تعطى لهُ فرصة وفي



٢٠ من الشهر المذكور امر المجلس الحكومة الاجرائية ان تخبر لويس كابت بالحكم الذي صدر عليهِ فذهب كارات وزير العدلية ومعهُ سانتير الى دار التمبل وكانت الساعة ٢ بعد الظهر وذهب معهم جمع غفير ولما سمع الملك بقدومهم خرج الى باب غرفتهِ ووقف بكل رزانة وشجاعة فقال لهُ كارات انهُ جاء ليبلغهُ قرار المجلس ثم شرع بروفيل كاتم الاسرار في قراءة الحكم الصادر وهو مقسوم الى اربعة اقسام الاول يحكم بان لويس كابت مذنب لانهُ كدر الراحة العمومية والثاني يحكم عليهِ بالقتل والثالث بابي احالة الحكم الى الامة والرابع يحكم باجراء الحكم بعد تبليغهِ باربع وعشرين ساعة وبعد ذلك نظر الملك الى الحاضرين واخذ صورة الحكم من بروفيل ووضعها في جيبهِ ثم قرأ على كارات رسالة باسم الجمعية يطلب بهِ اليها ان تمنحهُ ثلاثة ايام ليستعد فيها للموت وان تسمح لهُ بان يحضر اليهِ كاهناً ليساعدهُ في الصلاة في اخر حياتهِ وان تسمح لهُ بمقابلة عائلتهِ وتاذن لها بالخروج من فرنسا فوعدهُ كارات باعطاء هذه الرسالة للجمعية وقال لهُ انهُ يرغب ان يحضر اليهِ الكاهن الفلاني ثم رجع بكل سكينة الى غرفتهِ وجلس عند المايدة واكل حسب العادة وبعد ذلك اتى الغرفة الثانية وجلس منتظراً جواب تحريرهِ بالصبر والسكينة

فرفض مجلس النواب ان يمنحهُ اكثر من اربع وعشرين ساعة ولم ياذن بخروج عائلتهِ من فرنسا وسمح لهُ بباقي المطاليب واحضر كارات الكاهن المطلوب وهو الاب ايدفورت واخذهُ بعجلة الى دار التمبل فدخل كارات على الملك واخبرهُ بما جرى ورجع مندهشاً مما راهُ من اعتصام الملك بالصبر الجميل ومصادمة تلك الرزايا الكثيرة بشجاعة لا مزيد عليها حتى انهُ كاد يتوهم انها اصابت غيرهُ لانهُ لم يرَ لوائح الخوف على وجههِ. فدخل الاب ايدفورت وانطرح عند اقدامهِ فاخذهُ الملك بيدهِ وانهضهُ وعانقهُ واذرف دموعاً سخية ثم سالهُ عن رئيس اساقفة باريس وعن حالة الكنيسة العمومية في فرنسا وطلب اليهِ ان يقول لنيافة رئيس اساقفة باريس انهُ سيموت وهو مشترك معهُ اشتراكاً دينياً. وبعد ذلك عند الساعة الثامنة نهض الملك وطلب الى الكاهن ان ينتظرهُ قليلاً لان تلك الساعة كانت الساعة المعينة ليقابل فيها عائلتهُ المقابلة الاخيرة

وكان الكومون قد امر حراس الملك ان يمكنوهُ من مقابلة عائلتهِ المنكودة الحظ في قاعة الاكل وان يسمحوا لهُ ان يغلق الباب وكان من زجاج وان يقفوا امام الباب ليتمكنوا من النظر الى العائلة الملكية عندما يودعها الوداع الاخير فدخل الملك القاعة قبل ان دخلها غيرهُ وطلب الى خادمهِ كليري ان ياتيهُ باناء فيهِ ماء وذلك ليستعملهُ اذا اغمي على احد من عائلتهِ عند ما يخبرها بالحكم الذي صدر عليهِ والمصائب المزمعة ان تحل بها. فاتى كليري بالماء ووضع الاناء على المائدة واخذ الملك في التمشي في القاعة الى ان اقبلت العائلة وعند الساعة الثامنة ونصف فتح الباب فدخلت الملكة وهي آخذة بيد ولدها الحزين ثم دخلت شقيقة الملك وهي آخذة بيد بنت اخيها.

ولما دنوا من الملك عانقوهُ جميعًا واذرفوا دموع الحزن والويل فاغلق كليري الباب . ووقف هو والحراس والكاهن ايدفورت خارجًا ينظرون ذلك المرأى المحزن . وما ياتي هو ما قالهُ الخادم كليري بهذا الشان قال ثم جلس الملك وجلست الملكة عن يساره وشقيقتهُ عن يمينهِ وابنتهُ جلست امامهُ اما ابنهُ فوقف بين يديهِ وكانوا جميعًا مصغين الى كلام الملك وكثيرًا ما عانقوهُ وبقوا على تلك الحال ساعتين الاربع ساعة ولم يتمكن احد من استماع حديثهم على ان الذين كانوا واقفين خارجًا كانوا ينظرون انهُ عند ما كان الملك ينتهي من الحديث كانت الملكة واختهُ وابنتهُ يستغرقن في البكا وبعد بضع دقائق يشرع الملك في الكلام فعرف الناظرون انهُ اخبر عائلتهُ بالحكم الذي صدر عليهِ . وبعد الساعة العاشرة بربع ساعة قصد الملك الخروج من القاعة بعد ان وعد عائلتهُ بانهُ سيقابلها مرة ثانية وربما كان الذي حملهُ على الخروج شعورهُ بضعف القوى وكانت الملكة ممسكة احدى يديهِ واختهُ قابضة على اليد الثانية اما ابنتهُ فكانت ممسكة وسطهُ وكان ابنهُ امامهُ ممسكًا والدتهُ باليد الواحدة وعمتهُ باليد الاخرى وطلبوا جميعًا بكل الحاح ان يرجع اليهم فوعدهم بالرجوع . وعند ما وصل الملك الى باب القاعة وهو قاصد الخروج اغمي على ابنتهِ فوقعت على الارض فحملوها وذهبوا بها الى غرفتها ودخل الملك غرفتهُ هو والكاهن ايدفورت وقد احزنتهُ جدًا مقابلتهُ لعائلتهِ على انهُ بعد برهة قصيرة رجعت قواهُ اليهِ واعتصم بالصبر الجميل كما كان فيما مضى . انتهى كلام كليري . ثم اختلى مع الكاهن المذكور نحو ثلث ساعات وهو يستعد ليقابل خالقهُ الديان العظيم ثم طلب اليهِ ان يقيم لهُ قداسًا اذ كان غير متمكن من استماع القداس منذ دخل دار التمبل وبعد محاورات طويلة جرت بينهُ وبين الكومون سمح الكومون للكاهن ان يقيم القداس المطلوب فاحضر الكاهن كل ما يلزم لذلك من الكنيسة المجاورة ونام الملك عند نصف الليل بعد ان اوصى كليري ان يوقظهُ في الصباح قبل الساعة الخامسة وطرح الكاهن ايدفورت نفسهُ على فراشهِ لانهُ كان متعبًا جدًا حزينًا . اما كليري فبقي واقفًا عند راس سيدهِ متعجبًا من شدة صبرهِ ومتأملاً في رقادهِ المستكن الذي كان يبين لهُ ان الملك غير مبالٍ بما كان مزمعًا ان يحل بهِ في الغد . وفي نفس تلك الليلة هجم رجل من الذين كانوا يحبون الملك وهو من اهالي باريس على رجل من اعيان فرنسا ومن اعضاء المجلس الذي حكم بقتل الملك وكان هذا العضو يا كل في بارجة فسالهُ الهاجم قائلاً أانت بالبيلينتيه الشقي الذي امضى الحكم بقتل الملك فاجابهُ نعم ولكنني لست بشقي لانني حكمت بالحق فقال لهُ الهاجم ولذلك اجازيك شرًا على عملك قال هذا وضربهُ بالسيف فقطعهُ شطرين وهرب ولم يقدر احد ان يلقي القبض عليهِ وهذا العمل حمل الكومون على اخذ الاحتياطات اللازمة لحفظ الراحة العمومية ومنع وقوع ما ربما كان يمكن الملك من النجاة وفي صباح ٢١ كانون الثاني ( جانفيه ) نهض الملك من رقادهِ الساعة الخامسة ودعا اليهِ كليري وشرع



يلبس ثيابهُ بهدو تام . وكان مسرورًا لانهُ شعر برجوع قوتهِ بالرقاد فاضرم كليري النار وجعل احدى الموائد كالمذبح فلبس الكاهن الملابس الروحية واقام القداس وكان كليري يخدم الكاهن فيهِ والملك جاثيًا على ركبتيهِ ورعًا ثم تناول القربان المقدس من يد الكاهن . وبعد استماع هذه الصلاة نهض بكل شجاعة مستعدًا للموت وطلب مقصًا ليقص شعرهُ بيدهِ فلا يتمكن الجلادون من قصهِ امام الشعب . على ان الكومون منعهُ عن ذلك وعند الساعة الثامنة نفخ بالبوق في جميع انحاء المدينة فاتت كل الجنود التي تعينت للمحافظة على الراحة . اما الباقون من الباريسيين فاقاموا في بيوتهم واغلقوا ابوابها ونوافذها منتظرين نهاية تلك الافعال غير العادية . وشاع في باريس ان اربعمائة الى خمسمائة رجل مستعدون ان يهجموا على عجلة الملك ليخلصوهُ من القتل . وكانت جمعية الانفاق ومجلس الكومون وغيرهما من المجالس منعقدة وشارعة في اعمالها . ثم اتى دار التمبل سانتير المذكور قبلاً هو والبعض من الكومون واعضاء المجلس الجنائي . ولما سمع الملك صوت قدومهم نهض ولاقاهم الى الباب ولم يكن راغبًا في مواجهة عائلتهِ مرة ثانية قيامًا بحق وعدهِ لانهُ خاف ان يضعف الحزن قواهُ عند ما يتاكد مباينة اعزّ قوم عندهُ فطلب الى كليري ان يودعها عنهُ واعطاهُ خنمهُ وقليلاً من شعرهِ وغير ذلك ليعطيها لعائلتهِ ثم ودع كليري وشكرهُ على ما اظهرهُ من الامانة فانطرح كليري عند قدميهِ وطلب اليهِ السماح عما ربما كان قد اخطا بهِ اليهِ فامسك الملك يدهُ وانهضهُ واوصاهُ ان يودع عنهُ كل من احبهُ من الفرنسويين . وبعد ذلك فتح الباب وطلب الى رجل من اعضاء الكومون الذين اتوا مع سانتير ان ياخذ الوصية التي كان قد كتبها في زمان المحاكمة وكان هذا الرجل من الكهنة الذين تركوا مهنتهم وتوغلوا في الشرور فاجابهُ بقساوة انني اتيت لاذهب بك الى العذاب لا لاحمل رسالتك وكان اسم هذا الرجل المتوحش جاك روس . فتقدم احد اولئك القوم وقال للملك انهُ مستعد ان يجيبهُ الى طلبهِ فسلمهُ الملك الوصية وغيرها من الاوراق بعد ان شكرهُ . ثم التفت الملك الى سانتير وقال لهُ هيا بنا نذهب ولما وصل الى باب دار التمبل ركب الملك والكاهن ايدفورت عجلة وسار امامها قوم من الجنود قيل انهم كانوا مفوضين بقتل الملك اذا حاول المتحزبون لهُ تخليصهُ من ايديهم . فسارت العجلة بين صفوف الجنود التي اقامها الكومون في جميع شوارع العاصمة وعلى الخصوص في الشارع الذي سارت فيهِ العجلة الحاملة الملك وكان الملك جالسًا في المركبة يقرا في كتاب الصلاة الذي كان للكاهن ايدفورت ولوائح الشجاعة تلوح على وجههِ ولم يكن متعلقًا بهذا العالم الفاني . وبعد الساعة العاشرة بعشر دقائق وقفت العجلة فنزل منها لويس السادس عشر بكل شجاعة وكان مجتمعًا في مكان وقوفها جمع غفير من اعداء الملكية وجيش جرار ومدافع كثيرة وعند ما انحدر الملك من العجلة تقدم اليهِ ثلاثة من الجلادين ولم يسمح لهم ان

يدنوا منهُ ولكنهُ خلع هو ثيابهُ ولما راى انهم قاصدون ان يربطوا يديهِ اظهر لهم الغضب الشديد وربما كان قاصداً ان يدافع عن نفسهِ بالقوة على ان الكاهن ايدفورت قال لهُ بصوت مرتفع ياسيدي اتوسل اليك ان تحمل هذه الاهانة التي انما هي مقابلة حسنة بين عظمتك وبين الاله الذي سيجازيك خيراً عن قريب

فعند ذلك سمح لهم ان يربطوا يديهِ فربطوها وصعدوا بهِ على المقتلة وهي آلة معروفة عند الفرنسويين باسم كيلوتين توضع على شيء يرفعها بحيث يتمكن كل الحاضرين من النظر الى المحكوم عليهِ بالقتل عند ما يقطع الجلاد راسهُ ولها شفرتان من فولاذ الواحدة ثابتة من تحت والاخرى فوقها والشفرة العليا تسقط بواسطة الة يحركها الجلاد على عنق المحكوم عليهِ بعد ان يكون قد وضع عنقهُ على الشفرة السفلى فينقطع الراس بسرعة قبل ان يشعر الرجل بالم وقع الشفرة وفعلها . ولما بلغ الملك لويس اعلى المكان المرفوع بعد عن الجلادين وتقدم قليلاً الى جهة الساحة وقال مخاطباً الشعب بصوت مرتفع لا يرتجف (ايها الفرنسويون انني اموت بريئاً مما اتهموني بهِ واسامح من رغب في قتلي واسال المولى ان لا يحمل فرنسا مسئولية سفك دمي) . وكان يرغب ان يطيل الحديث على انها صدرت الاوامر بضرب الطبول والالات الموسيقية العسكرية وهكذا لم يقدر احد ان يسمع صوت الملك . وعند ذلك دنا منهُ الجنرال سانتير وقال لهُ انني اتيت بك الى هذا المكان لاذيقك كاس المنون لا لتخطب على الشعب ثم سافرهُ الى المذبح فصرخ الكاهن ايدفورت قائلاً يا ابن القديس لويس اصعد الى السماء (ذلك لان لويس التاسع هو من الذين اثبتت قداستهم الكنيسة الكاثوليكية) وفي ٢١ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٧٩٣ بعد الساعة العاشرة بعشرين دقيقة انتهت حياة ذلك الملك الشهيد وعند ما جرى دمهُ اسرع البعض من سفهاء باريس الى مكان قتلهِ وغمسوا سيوفهم ومناديلهم في دمهِ ثم طافوا شوارع المدينة حاملين السيوف والانسجة الملطخة بدمهِ صارخين فلتحيَ الجمهورية

## الفصل الخامس

### في ما جرى بعد وفاة الملك

واحدث الاشقياء بعد وفاة الملك في فرنسا شغباً عظيماً وكان القتال مشتداً خارج المملكة وداخلها وكانت البلاد في ذلك الوقت كانها قبر معدٌّ لدفن البشر حتى ان نهاية حياة الجلادين ومرتكبي هذه الافعال كانت على هذه الطريقة . وبقتل لويس السادس عشر انفصلت حالة فرنسا عن ماضيها انفصالاً تاماً ووقع ابناؤها في الحرب الطويلة التي اتت بها بعد قتل الملك لان جميع الدول تحالفت على محاربة الفرنسويين وابادتهم واقتسام مملكتهم . وكان في مقدمة هذه الدول النمسا وبروسيا وفضلاً عن ذلك الحرب الاهلية التي اثارها اهالي بلجكا



وولاية فاندى بسبب سياسة جمعية الاتفاق الخالية من الانصاف . وفي ٨ شباط (ففريه) سنة ١٧٩٣ فتح مجلس الاتفاق الحرب على انكلترا وهولندا وسائر دول اوربا الا دولة الدانمرك واسوج والدولة العلية والبندقية

ولم تكن فرنسا تخشى باس اعدائها بل كانت تتكل على قوتها وتتذكر انتصاراتها التي لم يكن قد مضى عليها سوى مدة يسيرة وكانت الحرية قد اسكرت اهلها وعلى الخصوص عدد جيشها وكان ثلثة ملايين من الشبان الذين يحسنون حمل السلاح . وكان عندها ثمانية مليارات من النقود للنفقات . ومما يوطد آمالهم في ذلك المشروع ظنهم ان جميع الشعوب تقتدي بهم وتنهض على ملوكها ولذلك امر مجلس الاتفاق بان تكون فرنسا كلها تحت السلاح مستعدة للحرب وعند ذهاب الجنود الى القتال والدفاع عن الوطن قرر حزب الجبليين في جمعية الاتفاق انهُ يجب تشكيل لجنة كمجلس جنائي للحكم على الذين تقع منهم الخيانة او شبهها بالنظر الى الجمهورية وما يحكم بهِ هذا المجلس لا يرفع لغيرهِ واقيمت ايضاً لجنة مولفة من اعظم اشرار ذلك الوقت لمراقبة جميع ماموري العسكرية والمدنية وكان من فروضهم ان يقرروا لهذه اللجنة عمن يشتبهون امانتهِ

وكانت جيوش فرنسا العاملة نحو ٢٧٠ الف مقاتل منها ٥٠ الفاً في الجنوب على حدود جبال البرنات و٤٠ الفاً في الشرق في جبال الالب و٨٠ الفاً على حدود الرين و٢٠ الفاً على حدود الموزيل و٨٠ الفاً في بلجكا ولكن جيش بلجكا لم يكن لهُ ما يكفيهِ من الزاد والمهمات . فاخذ في ارتكاب الاعمال المغايرة فانكر اهل بلجكا هذا على الذين اتوا لخلاصهم من رق عبودية النمسويين فاتى الجنرال ديموريه قائد هذا الجيش باريس يشكو سوء تصرف جنودهِ الجديدة التي بعثت بها اليهِ جمعية الاتفاق . فلم تصغِ لهُ الجمعية لانها لم تكن تركن اليهِ لعلمها ميلهُ وحبهُ للدوك دورليان وانهُ يروم ان يرقيهُ الى تخت الملك فرجع ديموريه واخذ يتاهب للقتال لانهُ كان عازماً على طرد النمسويين والبروسيين الى ما وراء الرين وكانت الجنود التي زحفت لمهاجمة فرنسا نحو اربعمائة الف مقاتل منها ٨٠ الف ايطالي واسبانيولي اتوا من جهة الالب والبرنات و١٠٠ الف بروسي اتوا من جهة ماينس و٧٠ الف نمسوي اتوا في طريق مايستريك و٢٥ الفاً ايضاً اتوا الى جهة لكسمبرج و٤٠ الف انكليزي وهولندي كانوا معسكرين في هولندا . فاشتعلت نار الحرب في كل فرنسا وكان ابتداؤها في بلجكا مع جيش ديموريه في ٢٠ شباط (ففريه) سنة ١٧٩٣

فانكسر الفرنسويون في بلجكا والموزل ومابنس وما يستريك والتزم ديموريه ان يخلي بلجكا . ولما كان قصد هذا الجنرال كان اقامة الدوك دورليان ملكاً اخذ في تجميع جنودهِ عند تخوم

فرنسا الشمالية فتحزبت الجنود على اقامة الدوك دوشارتر ابن الدوك دورليان ملكًا حال كونهِ كان قد اشتهر في معامع القتال ولم يكن لهُ من الاعداء ما كان لابيهِ (ان الدوك دوشارتر هو الذي ملك بعد ذلك بمدة طويلة تحت اسم لويس فيليب كما سياتي ان شاء الله) فاعلم القائد ديموريه بقصدهِ البرنس كوبورج قائد جيوش النمسويين وعقد معهُ هدنة ليمكنهُ من الهجوم بجنودهِ على باريس. اما جمعية الاتفاق فلم يخفَ عليها مقاصد ديموريه وما حل بجيوش فرنسا في الشمال فامر المجلس حالاً بتوقيف ديموريه عن عملهِ وباحضارهِ للمحاكمة وارسل اليهِ وزير الحرب مع اربعة معتمدين من قبلهِ ليبلغوهُ الاوامر وليحضروهُ جبرًا. اما ديموريه فبعد ان قرا الاوامر القى القبض على وزير الحرب ومعتمدي جمعية الاتفاق وارسلهم الى مدينة تورني حيث كان معسكر النمسويين. ثم قصد باريس فلم تطعهُ الجنود وجاهر بعضهم بالعدوان لهُ فذهب الى معسكر النمسويين مع امراء اورليان وبعض اخصائهِ وعاش بعد ذلك نحو ٢٠ سنة وتوفي بعيدًا عن وطنهِ. فلما علم مجمع الاتفاق بذلك ارسل عوضهُ دمبيير قائدًا للجيش بالجكاو بعد ذلك اعلن كومون باريس لجميع الولايات الخطر الذي يتهدد الامة والبلاد وطلب تجند جميع الفرنسويين ففرر حينئذٍ حزب الجاكوبيين بان حزب الجيروندين يكره الجمهورية ويرومر الملكية فبناء على ذلك امر مجلس الاتفاق بان الذين تقع عليهم شبهة الخيانة يحق الجمهورية يحاكمون ولو كانوا من اعضاء الجمعية نفسها. ثم امر بالقاء القبض على الدوك دورليان وعائلتهِ وارسلهم الى مرسليا وحينئذٍ اشتد الخصام بين الجاكوبيين والجيروندين وفي تلك الاثناء فضلاً عن كل الاخطار التي كانت تتهدد فرنسا نشر اهل الفاندي راية العصيان على الجمهورية طالبين ارجاع الملكية واقامة ابن لويس السادس عشر ملكًا واعادة حقوق الامراء وخدم الدين وهكذا اخذت الحروب الاهلية تنتشب في الولايات الغربية حيث كان سكانها يدافعون عن ملكهم وعن اصول الدين ببسالة سارت مثلاً عند الافرنج. وكان ابتداء هذه الحرب في ١٠ اذار (مارس) سنة ١٧٩٣ ففازت سكان تلك الولايات بالنصر على جنود الجمهورية وانتقلت جميعها الى ما وراء نهر اللوار وشاع في باريس قدومهم نحو العاصمة فاخذ مجمع الاتفاق وكومون باريس يرسلون الجيوش لردع الثائرين ففعلت هذه الجيوش افعالاً عظيمة باخوانهم الفرنسويين لانهم لم يسلموا بما يرغبهُ المجمع من الاعمال الردية. وهكذا اصبحت فرنسا فريسة للحروب الاهلية والخارجية وكادت مهاجمة الدول الاوربية ومحاربة الاهلين تزعزع اركان الجمهورية. لكن هذه الدول لم تستغنم فرصة اشتغال الجنود الفرنسوية باخماد نيران العصيان وعوضًا عن ان تداوم مسيرها صرفت كل قوتها بحصار ماينس والالب والبرنات واكتفت هناك بقهر الجنود الفرنسويين ولكنها لم تسرع بالدخول الى اراضي البلاد



الداخلية وذلك لان الدول نفسها اختلفت في ما يتعلق بمستقبل فرنسا. لان الدول الثانوية كانت تود ارجاع الملكية. اما الدول الكبيرة فكانت تحاول الاتفاق على الاستيلاء على فرنسا واقتسام اراضيها فكان البروسيون يحاولون اخذ ماينس والنمسويون ستراسبورج ولكسمبرج والانكليز مدينة دونكرك وهلمَّ جرًّا ولذلك لم تكن انتصاراتهم ذات اهمية مع ان ملك بروسيا نفسهُ ركب في طليعة جيوشهِ وحصر ماينس ثم زحف جيش اخر قاصدًا داخلية فرنسا وعبر نهر الموزل وكان الجنرال كوستين الفرنسوي لايحسن التدبير ولذلك امسى الجيش الفرنسوي الشرقي في موقف خطر جدًّا. اما في جهات اخر اي في جهة الالب والبرنات فكان القتال سجالاً بين الفريقين وباتت العاصمة في اضطراب شديد خوفًا من تقدم البروسيين لظهور انتصارهم وكذلك كانت تخاف من نجاح سكان غربي فرنسا الذين كانوا قد جاهروا بالعصيان على الحكومة الجمهورية وكانوا يتقدمون الى العاصمة ناجحين وعبروا نهر اللوار. فاشتد خوف باريس وقلقها وشرع النواب يتهم بعضهم بعضًا بالخيانة. فكان حزب الجاكوبيين يقيم الحجة على حزب الجيروندين وبالعكس. واقام هذا الحزب الحجة على مارات العاتي وكان من الجاكوبيين وصدر الامر بارسالهِ الى المحاكمة في المحكمة غير العادية التي كانوا قد اقاموها لمحاكمة الذين تقام عليهم الحجة من النواب وسبق الكلام عنها فنهض حزب الجاكوبيين وانكر ذلك على حزب الجيروندين وهكذا اخذت سطوة حزب الجيروندين في السقوط وتمكن اخصامهم من القبض على زمام السلطة المطلقة في المجلس وكان في مقدمتهم دانتون ومارات وروبسبير فاتوا بقوم من اوباش مرسيليا الى العاصمة ومن اوباش الولايات الشمالية فاتى هولاء الاوباش المجلس متسلحين طالبين اقامة الدعوى على النواب الجيروندين الذين باتوا بلا عضد في باريس على انهم كانوا مستندين حق الاستناد الى الولايات. فلما بلغ اهل الولايات خبر التعدي الذي كان واقعًا على نواب هذا الحزب اشتدت الحرب الاهلية وانضم كثير من الولايات الى الولايات التي كانت قد جاهرت بالعصيان فصار عددها سبعين ولاية وكان مركز الثورة في الشمال مدينة كابن وكان اهالي تلك الانحاء يبغضون الحكومة الجمهورية بغضًا شديدًا ويكرهون حزبها حتى ان فتاة من نساء مدينة كابن المذكورة اتت العاصمة لتنتقم من حزب الجاكوبيين ودخلت على مارات وهو يستحم وقتلتهُ لانهُ كان يطالب الى جمعية الاتفاق ان تامر بقتل سبعماية او ثمانماية رجل زاعمًا ان قتلهم يرجع الامنية الى البلاد. وكانت هذه الفتاة على جانب من الجمال ورقة الاخلاق ولم يكن لها من السن اكثر من خمس وعشرين سنة

فتشدد الملكيون وكثرت جيوشهم وانضمت اليهم ولايات جديدة ومدينة ليون العظيمة وجندت جيشًا جرارًا وقصدت مهاجمة باريس. واحزاب الملكية الجنوبيون سلموا مدينة طولون

وميناءها وحصونها الى الجنود الانكليزية مومليين ان يحصلوا على نجدة من الانكليز لمقاومة الجمهورية .
وكان البروسيون قد فتحوا مدينة ماينس واستولوا عليها وعلى مدينة كوندة وفالانسين في
مدة ثلاثة اشهر وكان المال يكاد ينفد وكذلك الزاد فكان اكثر الاهلين يقولون ان الجمهورية
قد بلغت اجلها . اما جمعية الاتفاق فلم تبال بهذه المصائب العظيمة التي كانت تتهددها من كل
الجوانب ولكنها صدمتها بالتجلد والثبات والحزم وامرت بتجنيد ١٤ جيشاً واقامة اثني عشرة كرة
من الجنود للمحافظة على حدود المملكة . وللتخلص من الضيقات المالية امرت بفتح قيود للحكومة
تدوّن فيها الاموال التي تستدينها بدون ان تتعهد بدفعها في وقت مخصوص بل بحسب
الاوقات والاحوال وامرت باخذ اخرجة متساوية بعد ان وضعتها في قانون متساوٍ ومنعت
دخول كل الانسجة والمصنوعات الانكليزية وشرعت في تكميل النظامات التي كانت قد ابتدات
في تقريرها دفعاً للقلاقل والمنازعات الداخلية . وكانت هذه النظامات ذات شان الا انها لم
تكن معتدلة في ما يتعلق بمداخلة الشعب في الاحكام ومنها ان اعضاء مجلس النواب ينتخبون كل سنة على
انها مراعاة للاخطار الحالية التي كانت تتهدد البلاد امرت بتاخير اجراء هذه النظامات الى ان
يتقهقر العدو الاجنبي ويزول العصيان الداخلي وبناء على ذلك قررت انها تسلم كل
سلطانها الى عدة تسمى كوميته دوسالو دوبوبليك معناها جمعية السلام العام . وكان اعضاء هذه
الجمعية الجديدة من حزب الجاكوبيين اي من الجمهوريين غير المعتدلين وهم الحمر فقبضوا على
زمام السياسة وقسموا كل الدوائر ولم يكن لهم رئيس ولكنهم كانوا يجرون الاعمال بالمداولة السرية .
ومن نظاماتهم ان اتفاق ثلاثة منهم كاف لاجراء ما يتفقون عليه وكان من اردإ هولاء الرجال
واظلمهم واخبثهم روبسبير الشرير الذي تولى ادارة الجمعية ورياستها بعد قيامها بمدة قصيرة
ومن ذلك الوقت كان ابتداء الحكم المعروف عند الفرنسويين بالحكم المرعب لان الناس لم
يكونوا يستامنون على دمهم ولا عرضهم ولا مالهم . وفي ٢ تموز (جوليه) سنة ١٨٩٣ قررت الجمعية
المذكورة ما ياتي لجهة عائلة الملك لويس وكانت لم تزل في سجن دار التامبل تكابد اشد العناء
بعد فقدان راسها وكانت الملكة وولداها وابنت حميها يصرفون الليل في البكاء والصلاة مسلمين
امرهم الى تدبير العناية وحاول بعض المتحزبين للملك ان يخلصوا الملكة ولو رغبت في الذهاب
بلا ابنها لتمكنت من الفرار ولكنها لم ترد ان تتركه . والقرار المذكور انه ينبغي ابعاد ابن لويس
كابت عن والدته فدخل اعضاء المجلس على العائلة الملكية ولما عرفت الملكة بقدومهم نهضت هي
وولداها والاميرة اليصابات لاستقبالهم فقراوا عليهم القرار المذكور فلما سمع ذلك الولد الصغير
طرح نفسه بين ذراعي والدته وصرخ قائلاً ياماه ياماه فدافعت عنه والدته وصدت الجنود حين
ارادوا ان ياخذوه من بين يديها وقالت لهم لا امكنكم من اخذه الا ان تقتلوني وكانت اخته



وعمته تبكيان بكاء مرًّا وتتوسلان الى هولاء القوم الاشرار ان يعاملوا بالرحمة ولداً وحيداً محبوباً
هو وحدهُ تعزية امهِ وبقيت الحال على هذا المنوال نحو ساعة . فقال اعضاء المجلس الملكة اذا لم
تسلمينا ابنكِ نقتله امامكِ فالتزمت الملكة ان تخضع لاوامر المجلس وشرعت تلبس ابنها ثيابهُ ثم
ودعتهُ وقبلتهُ قبلة لا يعرفها الا من ودع ولداً وحيداً في صغر سنهِ وهو عالم بانهُ الوداع الاخير .
فاخذهُ اولئك القوم ولهُ من العمر ثماني سنوات فامرت عمدة الحكومة بتسليمهِ الى رجل اسكاف
من باريس اسمهُ سيمون وفوضوا اليهِ امر تربية ولد كان ولي عهد ملك فرنسا وهكذا شربت
تلك الملكة المنكودة الحظ كاس المصائب كلها . وفي اليوم الثاني من شهر اب (اوغسطس) قررت
عمدة الجمهورية القرار الاتي لجهة الملكة وهو منقول عما كتبتهُ ابنة الملك نفسها وما ياتي هو كيفية
تنفيذ ذلك القرار

انهُ في ٢ آب (اوغسطوس) الساعة الثانية صباحاً اتى الحارس وقرع باب منزلنا فنهضنا جميعاً الا من
الرقاد فدخلت جنود الحكومة المكان وقراوا علينا امراً صادراً من الجمعية مآلهُ ان الحكومة قد امرت
باحضار ماري انطوانت ارملة لويس كابت الى محل الغفر لمحاكمتها . فلم تضطرب والدتي لما
سمعت ذلك فطلبت انا وعمتي ان يسمحوا لنا ان نذهب معها فلم يجيبوا طلبنا فغيرت ثيابها بحضور
الحراس لانهم لم يريدوا ان يبتعدوا عنها ثم اخذت ثوباً ثانياً معها وودعتني بعد ان عانقتني واوصتني
ان احفظ وصية والدي وان اطيع عمتي وان اتدرع بالشجاعة واعتصم بالصبر الجميل ثم ودعت عمتي
الحزينة واوصتها بالاعتناء بولديها ثم خرجت . انتهى . اما الجنود فذهبوا بماري انطوانت الى
محل الخفر وسجنوها في اسطبل لا يصلح للبهائم فقاست في ذلك المكان عذابات كثيرة وفي ٢ ايلول
(سبتمبر) سنة ١٧٩٣ اتى اثنان من اعضاء العمدة الجمهورية وقراا على الملكة التهم التي اتهموها بها
ودونا جوابها وكانت الحكومة تجتهد كل الاجتهاد في ايجاد سبب يوجب قيام الدعوى على الملكة
ولكنها لم تتمكن من ذلك . وفي ٣ تشرين الاول (اكتوبر) امر رئيس العمدة مجلس الجنايات ان
يهتم بمحاكمتها بوجه السرعة فاجتمع المجلس في ١٢ من الشهر المذكور وشرع في محاكمتها سراً . ولما
دخلت الملكة المجلس قال لها الرئيس أانتِ هي التي علمت لويس كابت ان يخدع
الشعب . فاجابت الملكة نعم ان الشعب بات مخدوعاً ولكني لم اخدعهُ انا ولا خدعهُ
الملك . فقال لها الرئيس انكِ كنت لا تزالين تحاولين تنكيس الحرية لتتمكني من الرجوع الى
عرش الملك ولو عرفت انهُ يقتضي لذلك المرور فوق جثث الشعب . فاجابت الملكة انا لم
نطلب شيئاً غير سعادة فرنسا ولم نكن محتاجين الى الصعود على العرش لاننا كنا عليهِ . ثم سالها
الرئيس قائلاً هل اعددت من يحامي عنكِ في المحاكمة جهاريًّا . قالت لا . فاشار عليها الرئيس
ان تعين موسيو سومولاكار وموسيو ترولسون ديكدوري . وفي ١٤ من الشهر المذكور اقيمت

الدعوى عليها جهاريًا ولما كانت الحجج التي اقيمت عليها غير صحيحة كانت تستسهل الدفاع عن نفسها غيرانهُ لما اقام عليها اولئك الاوباش حجة يخجل ان يقيمها كل من تختلج في صدره الشعائر الانسانية وهي انها قصدت في وقت مامضاجعة ولدها امتنعت عن الجواب . ولما اعيد السوال صرخت صوتًا عاليًا ونظرت الى الجهة التي كانت النساء اللواتي حضرن لاستماع المحاكمة جالسات فيها وقالت انني لا اجيب على هذا الكلام لان الطبيعة تسد اذانها على استماع حجة كهذه . غيرانني اسال جميع الوالدات في هذا المكان هل يمكن ان يصير ارتكاب فواحش مثل هذه . فضج الجمع مصدقًا على كلام الملكة وتبين من الارتباك الذي وقع فيهِ القضاة انهم خجلوا . ودامت تلك المحاكمة ثلاثة ايام فحكموا عليها بالقتل مع ان المحاميَين عنها بذلا جهدهما في الدفاع عنها . وفي ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) اتى الحراس وارباب المجلس وقراوا على الملكة الحكم الصادر بقتلها فسمعت قراءتهُ وهي معتصمة بالصبر الجميل ودون ان تلوح عليها لوائح الخوف وبعد ذلك كتبت رسالة الى اليصابات شقيقة زوجها ذكرت فيها محاكمتها والحكم بقتلها وفي ختامهِ وصيتها وهذه ترجمتها

« هذه هي المرة الاخيرة التي اخاطبكِ بها ايتها الاخت العزيزة فاخبرك انهُ قد حكم عليَّ بالموت وهذا الحكم ليس هو كالحكم الذي يصدر على الذين يقتلون بالذل كمجرمين وقريبًا يذهب بي الى حيث ذهب اخوكِ الحبيب وبما انني بريئة مثلهُ ارجو ان يكون لي ما كان لهُ من الثبات والجسارة في احتمال ما حكم عليَّ بهِ وانا مطمئنة البال كمن لا يبكتهُ ضميرهُ على شيء وعندما ارى انني سأترك ولديَّ العزيزين اموت كمدًا وانتِ تعلمين انني لم احيَ الا لاجلهما ولاجلكِ انت ايتها الاخت المحبوبة لان محبتك لنا اوصلتك الى ان تضحي حياتك حبًا بنا واذا رأى الحالة التي اتركهما بها اصرخ صرخة الحرب والويل وقد علمت من ماجريات محاكمتي ان ابنتي المنكودة الحظ قد أُبعدت عنكِ فياويلاه وكنت ارغب ان اكتب اليها ولكن هل يصل اليها كتابي ولا اعلم هل رسالتي هذه تصل اليك ايضًا فارجوكِ قبول بركتي بالنيابة عن ولديَّ واملي انهما بعد ان يكونا قد بلغا اشدهما يقدران ان يجنيهما بكِ ويتمتعا بعنايتك وانا اوصيهما بان يتذكرا ما طالما كنت اقولهُ لهما وهو ان المبدا الاول في هذه الحياة انما هو الثبات في اجراء المبادى الصحيحة وتقيم الفروض وان سعادتهما انما تكون بالمحبة والثقة الاخويتين المتبادلتين وعلى ابنتي ان تعرف فروضها نحو اخيها لانها اكبر منهُ سنًا وعليها ان ترشدهُ برايها وبما تكون قد عرفتهُ بالاختبار . ومن الواجب على ابني ان يعرف حقوق اختهِ المنكودة الحظ وعليهما ان يعرفا انه كيفما كانت الحال لا يقدران ان يكونا سعيدين الا بالاتحاد وعليهما بالاقتداء بنا لانهُ كم من تعزية اتانا بها خلوص الحب لما كانت تطرا علينا المصائب والرزايا وان كان الانسان سعيدًا فلا



يكون مغبوطًا الا اذا تمتع بتلك السعادة مع اصدقائهِ واي صديق اقرب من الانسباء . واوصي ولدي ان لا ينسى وصية ابيهِ الاخيرة واذكرهُ بها الان وهي ان لا يحاول الاخذ بثارنا . واطلب اليكِ يا محبوبتي ان تسامحي هذا الفتى عما ربما كان قد غاظكِ بهِ لانهُ صغير السن وانت تعلمين ان الولد يتكلم بما لا يدرك ولكن لا بد من ان ياتي يوم يعرف فيهِ شدة حبك لهُ ولاخيهِ . هذا ولم يبقَ عليَّ غير ان اقرر افكاري الاخيرة ويا حبذا لو كتبتها وبعثت بها اليك منذ ابتدات محاكمتي ولكن لم يمنعني عن ذلك منعهم اياي عن الكتابة فقط لكن السرعة التي جرت فيها المحاكمة حتى انني لم اتمكن من الاعتناء بغيرها . اما الان فانني اقول انني ساموت في حضن الديانة المسيحية الكاثوليكية الرسولية الرومانية ديانة اباءي التي ربيت بها ولم احد عنها يومًا واحدًا وبما انني الان لا اقدر ان احظى بتعزية دينية بالحصول على مساعدة قسيس ولا اعلم هل يوجد قسوس بعد في باريس ان فرضنا وجود بعضهم فلا امل لي بتمكن احد منهم من الوصول الى المكان الذي انا فيهِ . ولذلك اطلب من صميم الفواد الى الخالق سبحانهُ وتعالى ان يغفر كل الاثام التي ارتكبتها منذ وجدت في هذا العالم وارجو رحمتهُ الالهية قبول توبتي وان يقبل روحي بالرحمة والحنو واطلب الى جميع الذين كنت اعرفهم ان يسامحوني واخصك بهذا الطلب ايتها الاخت الحنونة وارجوك ان تسامحيني عن كل ما غظتك بهِ على غير قصد وانني اسامح اعداءي عن كل ما اتوني بهِ من الشرور واودع انسباءي واخواني واخواتي جميعًا . هذا وانني حزينة جدًا من جرى الكدر الذي يلحق باحباءي بسبب موتي فاطلب اليهم ان يعلموا بان محبتي لهم قد حملتني على ان احزن لحزنهم في اخر حياتي واودعك ثانية ايتها الاخت الشفوقة واسال الله ان يمكن هذه الرسالة من الوصول اليكِ واعانتك واعانة ولديَّ المحبوبين عن بعد وارجوك الدعاء . . . . ما امر فراق البنين . فمالي ولذلك فانني قد عولت على الاعتصام بالصبر الجميل وقد اخذت في الاهتمام بما يتعلق بنفسي فقط واظن انهم ياتون اليَّ بقسيس من قسوس الحكومة لانني لست حرة في اعمالي (وكان القسوس الذين صدقوا على النظامات التي قررتها الحكومة الجمهورية لجهة الديانة واقعين تحت الحرم الكنائسي وكان الاساقفة قد رفضوهم) غير انني اقول الان صريحًا بانني لا اخاطبهُ بكلمة واحدة واعتبرهُ اعتبار انسان اجنبي عن الدين (انتهى) . وبعد ان فرغت من الكتابة شعرت بتعب شديد فطرحت نفسها على فراشها وهي لابسة اثواب الحداد وفي الساعة السابعة من الصباح حضر مامورو الحكومة واخبروها بانهُ قد صدر الامر بتنفيذ الحكم الذي حكم عليها بهِ . فشرعت حالاً في نص شعرها بيدها ورفضت ان تقبل مساعدة القسيس الذي بعثت بهِ الحكومة اليها لانهُ كان من الذين خالفوا رؤساءهم ثم تقدم الجلادون وربطوا يديها وراء ظهرها واركبوها مركبة كمركبات البضائع وركبوا معها هم والقسيس واتوا المكان الذي كانت فيهِ آلة القتل . ولما وصلوا الى الساحة المعروفة

بساحة لويس الخامس عشر انزلوها من العجلة ولما قربت من المذبحة جثت على ركبتيها وصرخت صوتاً مرتفعاً قائلة يا الهي اسالك ان تسامح قاتلي ويا ولديَّ المحبوبين اودعكما عن بعد فانني ذاهبة الى والدكما . ثم نهضت فساقوها الى المقتلة وقتلوها وذلك في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٩٣ الساعة واحدة بعد الظهر ودفنوها في مقبرة لامادلين في القبر الذي كانوا قد دفنوا فيه زوجها الملك قبل ذلك بتسعة اشهر . ثم شرع احزاب الجاكوبيين الذين كانوا قابضين على زمام الاحكام بمحاكمة النواب الجيرونديين الذين كانوا مسجونين ثم حكم عليهم جميعاً بالقتل وسيقوا الى الذبح ثم اقيمت الحجة على نفس الدوك دورليان الذي كان قد خان الملك ابن عمه واتحد مع رجال الثورة موملاً الحصول على الملك وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) حكم عليه بانه خان الجمهورية فقتلوه في نفس المكان الذي قتلوا فيه الملك قبل ذلك بعشرة اشهر . وكان هذا الدوك واعوانه يناظرون على قتله ولم تتم هذه الاجراآت في باريس فقط ولكن كان يقام بها في اكثر الولايات لان عمدة الجمهورية كانت قد ارسلت اعوانها واقامت عمداً كثيرة فيها وكانت هذه العمد تبرز احكامها الشريرة وتسفك دماء العباد . وفتحت جنود الحكومة مدينة ليون واعملت السيف في اهلها ونجح الجنرال هوش قائد جيش الشرق وغلب المنسوبين والبروسيين وردهم الى الوراء وكذلك في الجهة الشمالية وكان ذلك في ختام سنة ١٧٩٣ . وعند ذلك سكنت جمعية الانفاق غضبها على مضاديها من اهالي فاندي والولايات الغربية وبعثت بالجنرال هوش اليهم فظفر بهم وشتت شملهم في المعارك التي اقيمت في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) بالقرب من مدينة شولة فرحلوا الى ما وراء اللوار وغلبوا في معارك اخرى كثيرة وكان قواد جيوش الجمهورية ينهبون القرى والمدن في كل تلك الولايات ويعاملون الاهلين شرَّ المعاملة وبعد ان هلك اكثر اشداء هذه الولايات سلم الشيوخ والاطفال فانتهت هذه الثورة بواسطة الاهالي البربرية الفاسية في ٢٢ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٧٩٣

اما روبسبير فلكي يميل بالشعب اليه امر بنهب الكنائس والاديرة وباضطهاد جميع خدمة الدين واباح قتلهم فلم يخالف امرهُ وبعد ذلك امر بتقرير تسق جديد لحساب الاشهر والسنين وكان قصدهُ ابطال جميع الاصطلاحات السابقة وقرر اول التاريخ منذ قيام الجمهورية في ٢٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٢ وغير اسماء الاشهر والايام مبتدئاً من شهر ايلول وما ياتي هو الاسماء الجديدة . فاندمير اي شهر جني العنب وهو من ٢١ ايلول الى ٢٢ تشرين الاول وبروميير اي شهر الغيوم وهو من ٢٢ تشرين الاول الى ٢١ تشرين الثاني وفريمير اي شهر الجليد من ٢١ تشرين الثاني الى ٢٠ كانون الاول ونيفوز اي شهر الثلج من ٢١ كانون الاول الى ١٩ كانون الثاني وبلوفيوز اي شهر المطر من ١٩ كانون الثاني الى ١٩ شباط وفنتوز اي شهر الارياح من ١٩



شباط الى ٢٠ اذار وجرمينال اي شهر النبزير من ٢١ اذار الى ١٩ نيسان وفلوريال اي شهر الازهار من ٢٠ نيسان الى ٢٠ ايار وبريريال اي شهر الربيع من ٢٠ ايار الى ١٩ حزيران وميسيدور اي شهر الحصاد من ١٩ حزيران الى ١٩ تموز وترميدور اي شهر الحر من ١٩ تموز الى ١٧ آب وفروكتيدور اي شهر الاثمار من ١٨ اب الى ١٦ ايلول

وقسم الاسابيع الى عشرة ايام وغير اسماء الايام فسمى يوم الاحد الاول والاثنين الثاني وهلمَّ جرّاً وكان كل شهر ثلثين يوماً واضاف الى اخر اشهر السنة ستة ايام . وبعد ان تمكن من القاء الشقاق بين احزاب الجمهورية من النواب شرع في مساعدة كلٍّ من المتخاصمين وهكذا نجح بحيلهِ وخبثهِ المشهور في حمل المجلس على الحكم بقتل الرجال المتخاصمين من ذلك الحزب واصبح وحدهُ قابضاً على زمام الامور . ولما راى انهُ نال ما طالما تمنى شرع في نشر تعاليم فولتر وروسو اللذين كانا قد هيجا حب الثورة في قلوب الفرنسويين بكتاباتهم . ففي ٢٢ بريريال (١٠ ايار) سنة ١٧٩٤ امر روبسبير بالاتفاق مع اعوانهِ بابطال الديانة المسيحية وغيرها من الاديان واعلن انهُ من الواجب ان يقر الانسان بوجود الخالق وخلود النفس وامر ايضاً بقتل خدم الدين وكل الذين يتحزبون لهم ففاز هولاء الاشرار بالمطلوب منهُ ولم ينسَ روبسبير شقيقة لويس السادس عشر وهي مسجونة في دار التمبل فاقام الحجة عليها في مجلس الجنايات فاتت المجلس في ٩ ايار (مايس) سنة ١٧٩٤ فسالها القاضي قائلاً ما هو اسمك فاجابت بدون تردد وبكل جسارة ان اسمي هو اليزابت دوفرنس شقيقة ملككم وبعد ان تكلموا بما يتعلق بها مدة قصيرة حكم عليها بالموت فقتلوها ظلماً في نفس ذلك النهار واظهرت من الشجاعة ما يحاكي شجاعة الابطال وثباتهم وبعد ذلك بمدة ليست بطويلة اقيمت الدعوى على روبسبير نفسهِ وعلى اعوانهِ فحكم عليهم بالموت على انهُ معلوم ان الانذال يموتون موتاً ذليلاً فانهُ لما صعد ذلك الذي خضب ارض فرنسا بدماء اولادها هو واعوانهُ على المذبحة اظهروا من الجبن والخوف ما يعيب الرجال فكانوا يبكون كالاطفال حتى ان بعضهم ماتوا من مجرد النظر الى قتل رفاقهم وكان ذلك في ٩ و ١٠ ترميدور من السنة الثانية للجمهورية اي في ٢٧ و ٢٨ تموز (جوليه) سنة ١٧٩٤ . وكان اعضاء الانفاق الذين اهلكوا حزب الجاكوبيين بقتل روبسبير واعوانهِ من حزب الجبليين قد اعادوا من كان لا يزال حياً من النواب الجيرونديين ومنعوا اجتماعات الشعب وامروا بمحاكمة من كان باقياً من اعضاء عمدة الجمهورية وكانت جيوش الحكومة قد طردت جيوش اعدائها من فرنسا واسترجعت مدينة طولون من الانكليز عنوة بعد ان حاصرتها مدة وفتحتها تحت ادارة قائد شاب لم يحضر في المعارك قبل حضورهِ في ذلك الحصار وكان قائد المدفعيين وهو بونابرت المشهور . وبعد ذلك امرت بجمع اسلحة الاهالي الناطقين في القرى المجاورة

لباريس واخرجت من سلك الحرس الوطني الجنود الذين كانوا غير محمودي الخصال وهكذا رجعت الراحة الداخلية في وقت قصير. غير انهُ بعد حدوث ما قد حدث تجددت قوة حزب الملكية وكادت تفوز بالمرغوب لان هذا الحزب تمكن من جيش عددهُ نحو اربعين الف مقاتل فسار هذا الجيش قاصدًا العاصمة وفتح بعض انحائها وكاد يلقي القبض على اعضاء جمعية الاتفاق. ولكن الجنرال باراس الذي كان قائد الجيوش الجمهورية دعا اليهِ الجنرال بونابرت الشاب الذي كان اقد اشتهر في حصار مدينة طولون وقلدهُ قيادة الجيوش وامرهُ بمحاربة حزب الملكية. فسار ذلك الشاب بجيش لم يكن اكثر من عشرين الفًا من الجنود وبدد جيوش هذه الثورة وهكذا نجت جمعية الاتفاق. وفي هذه الاثناء توفي ابن لويس السادس عشر بعد ان عذبهُ الاسكاف اشد العذاب كما أُمر وكان نحيف الجسم فلم يحتمل تلك القساوة ومات في ٨ حزيران (جون) سنة ١٧٩٥ وكان عمرهُ عشر سنوات. وفي نفس تلك الاثناء تمكن الجيش الشمالي من طرد الاعداء من الشمال وفتح بلجكا ثانية فامرت جمعية الاتفاق بالحاق بلجكا بفرنسا وعفت عن جميع الذين قاوموا الحكومة خلا الذين كانوا خارج البلاد ثم اعلنت انها منفضة لانها كانت قد تممت كل ما كانت قد دعيت للقيام بهِ ثم انفضت في ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٥

## الفصل السادس

### في قيام الحكومة المعروفة بالحكومة الادارية في ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٥ الى ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٩٩

انهُ بناء على النظامات التي قررتها جمعية الاتفاق السابقة صار ضم ثلثي اعضائها الى النواب الحديثين الذين انتخبوا ليكونوا اعضاء في الجمعية الجديدة فانتخب ٥٠٠ عضو من الاعضاء السابقين و٢٥٠ عضوًا جديدًا وقسم الاعضاء الى قسمين بحسب سنهم فاكبرهم سنًا وهم مئتا عضو اقاموا في قصر التويلري وكانوا يدعون مجلس الشيوخ اما الباقون فاقاموا في دار المانج وهي دار بالقرب من التويلري وكانوا يدعون مجلس الخمسمائة لان عدد اعضاء هذا المجلس كان خمسمائة. ثم انتخب مجلس الخمسمائة مائة وخمسين عضوًا وعرضهم على مجلس الشيوخ فانتخب مجلس الشيوخ خمسة اعضاء منهم واقامهم مديرين للحكومة الاجرائية وهذه هي اسماؤهم موسيو لارفيليير ليبو وموسيو ريفيل وموسيو كرنوت وموسيو ليتورنيور والجنرال باراس ولذلك دعيت حكومتهم بالادارية وكانت جمعية الاتفاق قد عقدت الصلح مع بروسيا واخذت منها كل الاراضي الواقعة على شاطئ الرين الايسر اي التي في جهة فرنسا وعقدت الصلح مع ممالك المانيا الثانوية ومع اسبانيا وايطاليا ولم يبقَ لها محاربة بين دول اوربا غير النمسا وانكلترا وكانت سطوة هذه



الحكومة عظيمة جدًا عند ارتقاء الحكومة الجديدة الى الرياسة وعلى الخصوص لانها كانت قد خمدت نيران كل الحروب الاهلية واخذت الحكومة الجديدة في اجراء النظامات في الداخلية. وكان من فروض ديوان الخمسمائة سنُّ النظامات والقوانين وكان يسنها ويحولها الى ديوان الشيوخ ليفحصوها واذا صدقوا عليها كانوا يقررونها تقريرًا يصيرها قانونية وبعد ذلك كانت تبلغ الى الحكومة الاجرائية ليعمل بموجبها وفي نفس تلك السنة طلبت الحكومة الجمهورية الفرنسوية الى النمسا ان تطلق الاسرى الذين سلمهم اليها الجنرال ديموريه وهم معتمدو جمعية الاتفاق فاجابت النمسا هذا الطلب غير انها طلبت الى الحكومة الفرنسوية ان تعطيها بدلاً عنهم ابنة لويس السادس عشر وكانت باقية في سجن دار التمبل فقبلت بذلك الحكومة الفرنسوية وامرت باطلاق سبيلها وذلك في ١٨ كانون الاول (نوفمبر) سنة ١٧٩٥ وارسلوها الى مدينة بال حيث سلموها الى معتمدي النمسا وتسلموا الاسرى المذكورين وذهبت هذه الاميرة الى خالها امبراطور النمسا ثم اتت عمها الكونت دو بروفنس وكان منفيًا في مدينة البندقية ثم رحل الى لندن. وكان احزاب الملكية يدعون هذا الكونت لويس الثامن عشر وذلك بعد ان توفي ابن الملك لويس السادس عشر الذي كانوا يدعونهُ لويس السابع عشر وكانت دولة النمسا وانكلترا لاتزالان تهيجان دول اوربا على محاربة فرنسا ولذلك استصوب المديرون الخمسة ان تزحف الجيوش الفرنسوية وتحارب النمسا في اراضيها وهكذا حمت فرنسا نفسها من غزوات عدوها فامرت الحكومة الاجرائية الجنرال بونابرت ان يذهب الى مدينة نيس في الجنوب ويتسلم قيادة الجيش الموجود هناك ويغزو املاك النمسا في ايطاليا. ومن اللزوم هنا ان نذكر تاريخ هذا الجنرال الشاب قبل تفصيل ما يتعلق بحروبهِ لما يعلم من شانهِ العظيم في تاريخ فرنسا

## سيرة نابوليون الاول وعائلتهِ

ان عائلة بونابرت هي عائلة ايطالية كانت تسكن في الايام القديمة في مدينة تدعى سانميناتو من بلاد توسكانا من اعمال ايطاليا وهي عائلة ذات شهرة تاريخية وكان منها في الازمنة القديمة ولاة كانوا يتولون ترينفيس وفلورنسا وكانوا يحسبونها من العائلات المشهورة كعائلة امراء روسيني ومديشي ولوميليني وقد كتب احد هذه العائلة تاريخ الحصار الذي اقامهُ الامبراطور شارلكان على مدينة رومية تحت قيادة الكونتابل دو بوربون واحدى عائلة بونابرت هي والدة البابا نيقولاوس الخامس وقد ثبتت الكنيسة الكاثوليكية طوباوية راهب كبوشي من العائلة البونابرتية وكانت ايطاليا مقسومة الى قسمين متخاصمين وهما حزب الكولف وحزب الجيبلن. فحزب البونابرتيون

مولد نابوليون بونابرت



الحزب الاخير ولما فاز اخصامهم بالغلبة التزموا ان يخرجوا من ايطاليا وان يلتجئوا الى جزيرة كورسيكا وكانت تابعة لولاية جنوا الايطالية واقاموا في تلك الجزيرة محافظين على شرفهم دون ان يكون لهم امتيازات خصوصية في وطنهم الجديد وانتسبوا الى العائلات الشريفة المقيمة في الجزيرة وبعد ذلك حدثت حروب بين الكورسيكيين وحكومتهم الجنوية فبعثت فرنسا جنودها وفتحت تلك الجزيرة وضمتها الى بلادها وكان البونابرتيون من الذين رغبوا في الانضمام الى فرنسا خلافاً للحزب الذي انضم الى انكلترا وكان في مقدمة هذا الحزب الجنرال باولي. اما رئيس العائلة البونابرتية فكان اسمه شارل بونابرت وكان اسم امرأته لتيتزا مولينو وكان هذا الرئيس من المشهورين في الجزيرة وكان مقيماً في مدينة اجاشيو عاصمتها وكان له ثمانية اولاد خمسة منهم ذكور وهم يوسف ونابوليون ولوسيان ولويس وجيروم وثلاثة منهم اناث وهن ليزا وبولينا وكارولينا. اما نابوليون فولد في مدينة اجاشيو في ١٥ اب (اوغسطوس) سنة ١٧٦٩ بعد ان استولت فرنسا على تلك الجزيرة بشهرين.

وكان يتقدم في الاداب تحت ادارة والدته التي كانت على جانب عظيم من التهذيب والتقوى والمعرفة والحذق ومحبة الترتيب وتوفي ابوه شارل بونابرت وهو ابن ٣٥ سنة فقام بامر عائلته اخوه لوسيان وكان رئيس شمامسة وكان يخصص ابن اخيه نابوليون بالاعتناء لانه كان يرى فيه علامات النجابة ولما احتضر هذا الشماس اقترب منه اولاد اخيه جميعاً فقال لهم مخاطباً كبيرهم وهو يوسف انك انت اكبر اخوتك سناً غير ان نابوليون هو اكبركم معرفة فلا تنس كلامي ولا يفتقر الى اعتناء احد في المستقبل فانه قادر ان يعتني بنفسه ولما بلغ سن العشر سنوات وضعته قومه في مدرسة حربية في مدينة بريين فاقام فيها اربع سنوات واشتهر في الانصباب على المطالعة واقتباس العلوم وعلى الخصوص العلوم الرياضية وكان شديد الميل الى مطالعة التاريخ وعلى الخصوص تواريخ الذين نالوا قصب السبق في القرون السالفة ولم يكن راغباً في ما دون الرياضيات من العلوم.

وكان حاد الطباع غير انه كان يحب ان يحافظ على قوانين المدرسة حتى ان جميع رفاقه كانوا يقتدون به وكان قليل الكلام والحركة كثير التفكر وقليل اللعب وكان يحب مطالعة فن الهندسة وعلى الخصوص ما يتعلق منها بهندسة القلاع والحصون وكان يخرج ما يتعلمه من القوة الى الفعل ولذلك كان في فصل الشتاء يقيم هو ورفاقه الالعاب الحربية فكان يقسم التلاميذ الى قسمين في ساحة اللعب ثم يامر كلاً منهما ان يقيم حصناً من الثلج في تلك الساحة وكان هو يرسم للتلاميذ كيفية بناء ذلك الحصن وبعد ان يتم البناء تحت ادارته كان ياخذ القسم الواحد في الهجوم على الاخر وذاك يدافع عن نفسه ويدفع المهاجمين وكان نابوليون يدبر القسمين وهكذا كان يصرف كل اوقات اللعب وكان شديد الاحساس نزيه يتجنب العار وكان احد معلميه قد فرض عليه قصاصاً وهو ان ياكل راكعاً في قاعة الاكل فلما وصل الى المكان المعين للركوع

وقع على الارض مغشيًا عليهِ فاتى الرئيس ووبخ المعلم لانهُ قاص بصرامة احسن التلاميذ ولما بلغ سن الاربع عشرة سنة انتقل من بريين الى مدرسة باريس ولم يقدر ان يدخلها الا برخصة مخصوصة نالها نوالاً غير عادي لانهُ لم يكن قد بلغ السن المعين لتلامذة تلك المدرسة لان الكافلير كرالو الذي كان فاحصًا للمدارس مكنهُ من الدخول الى مدرسة العاصمة قبل الوقت المعين لما راى منهُ من الحذق وقوة العقل وبين بونابرت قوة عقلهِ في المدرسة الجديدة وكان الاول بين طلبة العلوم الرياضية وقال عنهُ معلمهُ في التاريخ ماياتي ان هذا الكورسيكي سيتقدم كثيرًا اذا ساعدتهُ التقادير. اما موسيو رومبرون معلمهُ في البيان فكان يقول ان عبارتهُ في الانشاء شديدة التاثير ومن طالع الخطب التي خاطب بها الجنود في ايطاليا ومصر يتحقق ذلك

وفي اول ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٨٥ نال بونابرت شهادة المدرسة ورتبة وكيل قائمقام في الجندية وانتظم في فرقة دولافير ولم يبقَ فيها غير مدة قصيرة فارسلوهُ الى الفرقة التي كانت مقيمة في مدينة فانس فرقوهُ حينئذٍ الى رتبة قائمقام وكان مصاحبًا وهو هناك للاربيواسيير وسوريير اللذين ارتقيا الى رتبة نظارة خدمة المدافع ولما كانت مادام روكولا مبير ذات شهرة وسطوة عظيمتين في تلك المدينة نظرًا لجودة عقلها ومعارفها كان لها تداخل كثير مع الجميع فتمكنت من ان تدرك قوة عقل بونابرت وحسن استعداداتهِ فعرفتهُ بكثير من اشهر عيال مدينة فانس وفتحت لهُ سبيلاً يمكنهُ من الدخول الى الاجتماعات العائلية المهذبة فجنى بونابرت من ذلك افادات كثيرة ومال عن كثير من عاداتهِ وعلى الخصوص عن محبة الانفراد وقلة التكلم فصار شابًا لطيفًا انيسًا محبًا للاجتماع بالناس من اهل الادب والسلوك الحسن وكانت مادام روكولا مبير تبشرهُ بحسن مستقبلهِ لما كانت ترى منهُ من لوائح سمو العقل

وبعد ذلك بسنتين سافر الى باريس وتعرف بالخوري رينال الشهير وهو الذي اهداهُ بونابرت كتابًا قد جمع فيهِ تاريخ كورسيكا . ولما ابتدات الثورة سنة ١٧٨٩ كان بونابرت في مدينة فانس ومع ان كثيرين من المامورين والقواد كانوا يخرجون من الخدمة العسكرية ومنهم من خرج من فرنسا ثبت بونابرت في مامورتهِ وقبل بالثورة وبالتغييرات التي اتت بها . وفي سنة ١٧٩٠ كتب رسالة وهو في اوكسيون وبعث بها الى موسيو بوطافوكو نائب جزيرة كورسيكا في جمعية الامة في باريس ولامهُ فيها على تعصبهِ للامراء حفظًا لحقوقهم وسلبًا لحقوق الشعب وبعث بونابرت بصورة هذه الكتابة الى جزيرة كورسيكا فاجابهُ رئيس جمعية الاهالي في اجاشيو برسالة قائلاً ان الجمعية في اجاشيو امرت بطبع رسالتهِ وامرت ان يدعى بوطافوكو نذلاً

اما باولي رئيس الحزب الكورسيكي الذي كان يريد ان يضم الجزيرة الى انكلترا فهرب الى لندن بعد ان تمكنت سلطة فرنسا في تلك الجزيرة وبعد ان ابتدات الثورة في فرنسا اتى باولي



المذكور من لندن الى باريس وقابلتهُ جمعية الامة بالاكرام وبعد ذلك بسنة رجع الى جزيرتهِ وتقلد رياسة الفرقة التي تحافظ على الجزيرة . وكان بونابرت حينئذٍ في جزيرتهِ باذن موقت وراى ان الكورسيكيين لا يزالون منقسمين الى قسمين حزب منهما يحب ان تبقى الجزيرة منضمة الى فرنسا وحزب يحب حصولها على الاستقلالية . اما بونابرت فلم يتردد عن اظهار ميلهِ الى فرنسا فجعل حالاً قائدًا للفرقة التي اقيمت في الجزيرة للمحافظة على الامنية وزحف بها على العاصين وكانوا مجتمعين في مدينة اجاشيو مع جنود الحرس الاهلي وهذه المعركة هي الاولى التي حضرها بونابرت . وفي تلك الاثناء اقام الشكوى عليهِ الجنرال بيرالدي وكان من اعداء العائلة البونابرتية وما لها ان نابوليون بونابرت هو الذي هيج الاضطراب في الجزيرة مع انهُ مامور بالمحافظة على الامنية فصدر الامر بحضور بونابرت الى العاصمة فاتاها وبرأ نفسهُ من كل ما اتهمهُ بهِ ذلك القائد

وراى بونابرت اوباش فرنسا يهجمون على قصر التويلري في باريس والاهانة التي اوقعوها على الملك لويس في ٢٠ حزيران (جون) سنة ١٧٩٢ وراى ما حدث في ١٠ آب (اوغسطوس) والحالة التي امسى فيها الملك وكان هذا كلهُ يوثر في افكارهِ تاثيرًا رديئًا لجهة الثورة واعمال الثائرين وبعد ذلك بمدة قصيرة رجع الى وطنهِ وطد الحب والالفة بينهُ وبين باولي وكان بونابرت يحب باولي لانهُ كان قد اشتهر بالشجاعة والبسالة عند ما كان يدافع عن وطنهِ ويخبرهُ بحوادث الايام الماضية التي كان يجريها هو وابوهُ شارل بونابرت . وبعد ذلك بمدة قصيرة وقف على مقاصد باولي الخفية وهي الاجتهاد في مقاومة فرنسا وانفصال الجزيرة عنها فحزن جدًا والتزم ان يقطع كل المواصلات التي كانت بينهُ وبين باولي . ولما أرسل مع شبان الجزيرة لفتح جزيرة سردانيا تحت قيادة الاميرال تروكه سنة ١٧٩٣ تقلد قيادة الجيوش التي ارسلت لفتح الجزائر الصغيرة الواقعة بين كورسيكا وسردانيا فلم يتمكن من النزول الى البر لان الرياح كانت شديدة فرجع الى كورسيكا فوجد باولي في مقدمة الاحزاب التي كانت تضاد فرنسا وكان مجتهدًا في تهييجهم الى العصيان . فاغتاظ بونابرت جدًا لما راى من خيانة باولي . وشرع يستعد لمناومة واقامة الحزب الفرنسوي قائدًا للجيوش فانتشب القتال بين الفريقين ومع انهُ اتت نجدة حزب الفرنسويين لتساعدهم على اعدائهم لم ينجحوا في عملهم ولم يقدر بونابرت ان ينجو برجالهِ الا بعد ان قاسى اتعابًا ومشقات كثيرة فخسر كل املاكهِ واحزابهِ وامرهُ الحزب الذي كان يضادهُ ان يرحل الى فرنسا فاتى هو وعائلتهُ وسكن في قرية بالقرب من طولون واقام فرقتهُ بالقرب من مدينة نيس وذهب الى باريس . وكان ذلك في اثناء الاعمال الغريبة التي عملتها جمعية الاتفاق في انتشاب الحرب الاهلية في فرنسا ومناومة الدول الاجنبية للجمهورية الفرنسوية فعرضت جمعية الاتفاق على بونابرت الذهاب لمحاربة اهالي فاندي

الثائرين عليها فلم يقبل وبما ان الجنرال كارتو كان قد فتح مدينة ليون التي عصى اهلها على الجمهورية أمر بفتح مدينة طولون ايضاً وكان احزاب الملكية قد سلموها الى الانكليز والاسبانيين فارسلت الحكومة الجمهورية بونابرت الى طولون ليكون مامورًا على المدافع . فذهب اليها في ١٢ ايلول (سبتمبر) ووجد جيش كارتو بلا مهمات تمكنهُ من فتح مدينة حصينة كتلك المدينة فباشر حالاً ما يلزم وبمدة هي دون ستة اسابيع اقام اكثر من مائة مدفع من المدافع الكبيرة والتزم ان يضاد رئيسهُ الجنرال كارتو الذي كان على جانب عظيم من التغفل وسوء الادارة . فلم يستحسن راي بونابرت من جهة كيفية حصر المدينة وفتحها فاقام بونابرت الحجة عليهِ امام وكلاء جمعية الاتفاق الذين كانوا قد اتوا معسكر كارتو فبلغوا كلامهُ ورايهُ الى الجمعية في باريس فاطنب احدهم وهو كاسباردين في مدح هذا الراي وحكم بانهُ الاصح فعزلت الجمعية كارتو واتى عوضاً عنهُ دوبي . وكان هذا القائد على جانب عظيم من الجبن فلم يامر باجراء الرسم الذي كان قد خططهُ بونابرت فعزلتهُ الجمعية واقامت عوضاً عنهُ ديكوميير فراى هذا القائد ما في راي بونابرت من الاصابة والموافقة ودليل جودة الراي والعقل فقلدهُ رياسة اقامة الحصار فبادر بونابرت الى اقامتهِ . وبعد ان حاصرها زمانًا قصيرًا فتح القلعة التي كان يقول الانكليز انهُ ما من احد يقدر ان يفتحها اذا كانوا هم يدافعون عنها فهزم الفرنسويون الانكليز والاسبانيين ودخلت جيوش الجمهورية تلك المدينة منتصرة . وعند ذلك امر وكلاء جمعية الاتفاق بما لم يشترك فيهِ معهم بونابرت لانهُ كان من متعلقات الحكومة المدنية لا من متعلقات العسكرية وهو نهب المدينة وقتل اهلها . فاعمل الفرنسويون السيف بالقوم اي اعمال فهلك كثيرون وفر كثيرون طالبين النجاة في السفن الانكليزية والاسبانية التي كانت هناك وعددهم نحو عشرين الفًا واحرق الانكليز قبل ان خرجوا من المدينة كل مخازنها وتسع بوارج حربية واربعة مراكب فرنسوية من نوع الفرقاطة اما الاسبانيون فلم يوافقوا الانكليز على ذلك ولم يحرقوا السفن التي كانوا قد اخذوها من اسطول فرنسا عند ما دخلوا طولون

اما ديكوميير فكتب اخبار فتح المدينة وبعث بها الى جمعية الاتفاق وما ياتي هو ترجمة صدر الرسالة المتضمنة الاخبار المذكورة وهو قد فتحنا مدينة طولون بعناية رئيس الطوبجية بونابرت وبسالتهِ الى ان قال في ختام تلك الرسالة انني التمس اليكم ان تتبصروا بما يتعلق باكرام بونابرت واظن انهُ من اللازم ان تعتني الحكومة بترقيتهِ والا فيرقي نفسهُ رغماً عن الجميع . فاجابت الجمعية هذا الطلب ونظرت اليهِ بعين الاعتبار وامرت بترقيتهِ الى رتبة فريق وتم ذلك بعد فتح طولون بستة اسابيع . ثم امرتهُ الحكومة الفرنسوية ان يذهب ويفحص حال سواحل المملكة عند البحر المتوسط ويرمم ما يلزمهُ ترميم ويحصن ما يلزمهُ تحصين وان يعلم الحكومة بالاماكن



التي تصلح ان تكون مرافئ للمراكب الكبيرة وبعد ان تم ذلك امر بان ينضم الى الجيش الذي كان ذاهبًا لمهاجمة ايطاليا تحت قيادة الجنرال ديبريبون وعند ما اتى المعسكر الذي كان في مدينة نيس شرع في البحث عن حالة ذلك الجيش وامرهُ الجنرال ديبريبون ان يضع رسم القتال بحسب استحسانهِ ففعل وبعد ان فحص ذاك الرسم مجلس اعضاؤهُ النواب ريكور وابن روبيسبير والجنرال ديبريبون وماسينا وروسكا قرروا انهُ موافق وصمموا على السلوك بموجبهِ وكان الجنرال ديبريبون مريضًا فسلم قيادة الجيش الى الجنرال ماسينا فشرع في مهاجمة مدينة اونيل وكان الانكليز قد دخلوا ميناها واستلموها ثم سار في بلاد جمهورية جنوا وهاجم جيش بيامونت الذي كان متحصنًا في ساورجيو فكتب الجنرال ديبريبون ان الجنرال بونابرت مكننا من الانتصار بدرايتهِ لانهُ هو الذي خطط رسم القتال . وفعل بونابرت امورًا كثيرة في ايطاليا تستحق الذكر وهو تحت قيادة الجنرال ديبريبون فانهُ جعل جيشهُ في مركز حسن واقام كل ما يمكن لمنع الانكليز عن الرجوع الى تلك الشطوط وحرك الايطاليين الى القتال وفي ١٤ نيسان (افريل) من ذلك الزمان اتفقت دولة انكلترا والنمسا وبروسيا وسردانيا على اقامة الحرب على فرنسا وكانت دولة انكلترا قد دفعت الى دولة بروسيا نحو ستين مليون ليرا وتعهدت دولة بروسيا بان تجهز ستين الف جندي للقتال . وفي ١٩ نيسان (افريل) تجددت المعاهدة في مدينة لاهي بين انكلترا وبروسيا وهولاندا وكانت اوربا تنظر الى فرنسا كانها مما يحق لها ان تذللها وتسلبها حقوقها وحرروا في ختام المعاهدة المذكورة الجملة الاتية ترجمتها وهي . انهُ بعد نهاية الحرب تتبصر الدول المتحابة في ما يتعلق بتقسيم البلاد التي تفتحها وتقسمها بحسب الموافقة وبناء على ذلك لا بد من قطع المواصلات التي كانت بين جمهورية جنوا والنمسا وسردانيا والانكليز . وكان الجنرال بونابرت منتبهًا الى ذلك فاقام جيش الجنرال ديبريبون حاجزًا بين جنوا وجيش النمسا وجيش الساردو لانهُ كان قد استولى على مركزين مهمين وهما سنجاك ومونتينوت وفادو ولما اتى ولاية بورميدا خاف جيش النمسا ورحل فتحصن ديبريبون في المراكز الجديدة التي استلمها واقام المواصلات بين جنوا ومرسيليا ومراكزهِ وهكذا حافظت جمهورية جنوا على الحيادة وكان ذلك من اخطر الامور لفرنسا والذي مكن الجيش من ذلك دراية الجنرال بونابرت وحسن ادارتهِ وشهد بذلك نفس الجنرال الذي كان سائدًا عليهِ

ولما رات الانكليز ان سفنهم الحربية لا تقدر ان تدنو من البر اقلعوا واتوا جزيرة كورسيكا وفتحوها في ٢٠ تموز (جوليه) سنة ١٧٩٤

وفي ٢٧ منهُ انتشبت نار فتنة في باريس وسقط روبسبير وكوتون وسن جوست وكثيرون غيرهم من رجال الحكومة وتبوا كرسي الادارة غيرهم من الذين كانوا يبغضون بونابرت فاقام الحساد

عليهِ الحجة وا بهموهُ بالخيانة لانهُ اعطى والي مرسيليا عند ما اتاها نقودًا لبناء حاجز يحمي قلعتها من مهاجمات الاهلين اذا هاجموها . فصدرت الاوامر الى بونابرت بالمجيء الى باريس ليبرئ نفسهُ من التهمة التي اتهموهُ بها وكان اصدقاؤهُ يخافون عليهِ لانهم كانوا عارفين بان الحكومة التي قبضت على زمام السلطة ربما كانت مصممة ان تحكم عليهِ بالخيانة لانهُ كان خادمًا للحكومة التي سبقتهم وربما كان هلك لولا هجوم عساكر الاعداء التي كانت تزحف قاصدة جهة فرنسا الجنوبية . وكان كاسبرين وكيل جمعية الاتفاق في تلك الجهة من اصدقاء بونابرت فكتب الى باريس وطلب من عمدة الحكومة ان تعدل عن احضار بونابرت الى باريس وان تسلمهُ ادارة خدمة المدافع والهندسة العمومية لطرد العدو من البلاد . ثم اقيمت عليهِ حجة اخرى وهي انهُ خلص قومًا من المهاجرين المسموح بقتلهم عند ما رجع الى طولون وانهُ منع الاهلين عن نهب المخازن والدور في مرسيليا فجددت الحكومة طلب اتيانهِ الى باريس على ان التقادير لم تسمح بهلاكهِ لانهُ قبل ان اتى العاصمة انتشبت ثورة جديدة وتولجت عمدة اخرى ادارة الاحكام وكان رئيسها احد رفاق بونابرت واسمهُ اوبري . وكان هذا الرجل يحسد بونابرت لانهُ اكتسب من الشهرة ما اكتسب وهو في جيش ديبريبون فامرهُ ان ينفصل عن جيش ديبريبون وطلب اليهِ ان يقود فرقة من جيش غرب فرنسا الذي كان يحارب الفرنسويين الغربيين وقد ذكرنا شيئًا عن ثورتهم على الحكومة . فاتى بونابرت وتوسل الى اوبري ان يبقيهُ في منصبهِ ولكنهُ لم يجب طلبهُ بل قال لهُ انك شاب وليس لك من الاختبار ما يلزم لمن يكون في هذا المركز الخطير

فاجابهُ بونابرت قائلاً ان الانسان يشيب سريعًا في المعامع وها انا اتٍ من ساحة القتال . ومع ذلك لم يجب ذلك الرجل طلبهُ فرفض قبول المصلحة التي طلب اليهِ ان يتقلدها واقام في باريس بلا عمل فاستاجر هو وصديقاهُ اللذان اتيا معهُ الى باريس وهما سبستياني وجينو منزلاً في شارع ميكوديبر واقاموا فيهِ . غير انهُ فرغ ما كان معهم من الدراهم بعد ذلك بزمان قصير فضاق عليهم الحال جدًّا والتزم بونابرت ان يبيع ما كان قد اشتراهُ من الكتب النفيسة المتعلقة بفن الحرب وهو في مرسيليا وقد قيل انهُ خطر لهُ في ذلك الزمان ان يخرج من فرنسا ويأتي الشرق ويدخل في خدمة دولتنا العلية غير انهُ عدل عن ذلك عندما حدث ما حدث في فرنسا

ولو طال زمان تنصيب اوبري لطال زمان ضيق بونابرت ولكنهُ انعزل وتقلد منصبهُ رجل اسمهُ دولسه . ولما علم بان بونابرت في باريس دعاهُ اليهِ لانهُ كان قد سرَّ كل السرور بما قررهُ في جمعية الاتفاق في رسالة كان قد بعث بها اليها الجنرال نفسهُ وكان فيها رسم القتال الذي رسمهُ عند ما كان عازمًا على فتح بلاد ايطاليا واقامة هذا الوزير الجديد في اللجنة وكانت الاحزاب الملكية تقوى كثيرًا في باريس بسبب التغييرات السياسية التي اتت بها جمعية الاتفاق



حبًّا بتخفيف اثقال الحكم المطلق وارجاع اسباب الراحة حتى ان الجمهورية كادت تسقط لان الملكيين جمعوا جيشًا ليس بقليل وهجموا على جمعية الاتفاق واستولوا على بعض انحاء العاصمة ولم تقدر جيوش الجمعية ان تردعهم ولا ان تثبت في القتال امامهم فان قواد الملكيين كانوا متاكدين النصر حتى انهم في غد اليوم الذي استولوا فيهِ على بعض المدينة طلبوا الى الجمعية ان تسلم اليهم وكانت قد صرفت ذلك الليل بطولهِ في البحث عما يقتضي ان يجرى ولما تاكدت انهُ ليس لقوادها الاهلية الكافية دعت اليها الجنرال بونابرت وطلبت اليهِ ان يدير الاعمال الحربية وقاية للجمهورية فاتى الجنرال الموما اليهِ واجاب طلب الجمعية غير انهُ اشترط عليها ان تسلمهُ رئاسة الجيش وقال انهُ لا يرغب في خدمة قواد لا يعرفون فنون الحرب فتمنعت الجمعية عن ان تجيب طلبهُ خوفًا من حدوث ما كان بعض اعضائها يخافون وقوعهُ غير ان الجمعية كانت مضطرة الى قائد حاذق فالتزمت ان تقيم الجنرال باراس صديق بونابرت قائدًا على كل جيوشها . اما الجنرال المذكور فدعا اليهِ الجنرال بونابرت وسلمهُ كل السلطة التي استلمها من الجمعية لانهُ كان يجهل فن الحرب ولما استلم بونابرت ادارة الجيوش بادر بنشاط الى اجراء ما يلزم وارسل على الفور الجنرال مورات مع فرقتهِ ليستولي على المدافع التي كانت مقامة في ساحة سابلون في باريس فذهب مورات المذكور واخذها ولو تاخر برهة قصيرة لامست هذه المدافع في ايدي العصاة ومكنتهم من قوة كانوا محتاجين اليها . وفي الصباح اقام بونابرت صفوفًا من المدافع في جميع الشوارع اي على الجسر المسمى بون لويس وسينر بام وعلى الجسر الاخر المسمى بون رويال وفي شارع سنتونوري وفي بونتورنان والشوارع التي تؤدي الى قصر التويلري وكان عدد الجيش الذي كان تحت قيادة بونابرت نحو ٨ الاف جندي فقط غير انهم كانوا جميعًا من الجيوش المجربة والعارفة بفن الحرب

ومع ان الجمعية اخذت كل هذه الاحتياطات لم تقدر ان تتخلص من الخوف وكانت جيوش احزاب الملكيين مقيمة في محلة سنروك ومحلة التياترو وفي محلة بون دومولين . وكانت فرقة من جيوشهم قد تقدمت الى محلة بون نوف واستولت على بعضها مع ان بونابرت كان قد اقام فيها فرقة من جيوشهِ تحت امرة الجنرال كارتو وهو الذي قد مرَّ ذكرهُ وكان قائدًا للجيوش في حصار مدينة طولون ولم يخضع لارادة بونابرت بالهجوم على المدينة فعزل عن منصبهِ . وفي هذه الاثناء تقدمت فرقة اخرى من الجيوش المتحزبة للملكيين قاصدة الاستيلاء على محلة بون رويال فامر بونابرت باطلاق الرصاص عليها فانتشب القتال بينها وبين عساكرهِ في الساعة الرابعة بعد الظهر وبعد ان تقاتلوا مدة قصيرة استظهر عليهم بونابرت بدرايتهِ وحذقهِ وغلبهم مع ان عددهم كان اكثر كثيرًا من عدد جيوشهِ . فارتفع شان الجنرال بونابرت واقامتهُ جمعية الامة قائدًا اول للجيش الذي كان يحافظ على الداخلية وهكذا تمكن من ان يظهر

للشعب مرارًا كثيرة اصابة رايهِ وحزمهُ ونشاطهُ باعمالهِ وخطبهِ

وكانت الجمعية قد امرت بجمع اسلحة الاهلين في ذلك الزمان المضطرب خوفًا من تجديد الثورة فجمع بونابرت سلاحهم بكل سهولة وبدون ان يصادف معارضة · وكان جمع السلاح واسطة لاجتماع بونابرت بالمراة المسماة جوزفين فانهُ بينما كان يجمع الاسلحة اتى ولد لهُ من السن ١٢ سنة وطلب الدخول عليهِ فاذن لهُ فطلب اليهِ ان يرد لهُ سيف والدهِ الذي كان قد قتل في زمن الحكم المعروف بالمرعب وكان اسم هذا الولد اوجين بوهارني فسر بونابرت لما راى من هذا الولد من الجسارة والحذق ورد اليهِ سيف والدهِ . فاتت بعد ذلك والدة هذا الصبي وهي جوزفين ارملة بوهارني وشكرتهُ لانهُ عامل ولدها بالحسنى · ولما رآها بونابرت مال اليها غير انهُ لم يظهر لها حبهُ حينئذٍ بل كتمهُ الى وقت اخر ولما تحقق انها تميل اليهِ كميلهِ اليها عقدَ عقدَ الزواج عليها في ٩ اذار (مارس) سنة ١٧٩٦ وشهد بذلك الجنرال باراس احد اعضاء الحكومة الادارية وموسيو تاليين من اعضاء المجلس القضاءي والقاضي كابليه وموسيو ليمار وا معاون حرب للجنرال بونابرت وكان لهُ من السن ٢٧ سنة وكانت جوزفين المذكورة اكبر منهُ ببضع سنوات

وقبل ان انفضت الجمعية كلفت الجنرال بونابرت ان يصلح احوال جنود الحرس الوطني وكان اكثرهم ينتسب الى احزاب الملكية دون ان يكون بالفعل منهم فاصلحهم ورتب في باريس جيشًا منظمًا متقنًا ونظم بعد ذلك جيش الحكومة الادارية والمجلس القضاءي وكانوا جميعًا يحبون جدًا الجنرال بونابرت وهكذا كان كل من يحمل سلاحًا في باريس يحب الجنرال المذكور. وهذا نهاية ما رغبنا في كتابتهِ عن حياة هذا الجنرال قبل ان يدخل حرب النمسا في ايطاليا . وما ياتي هو اخبار اعمالهِ في المملكتين المذكورتين

ان الحكومة الجديدة قلدتهُ قيادة الجيش الجنوبي ليحارب بهِ النمسا في البلاد التي كانت لها من ايطاليا ولذلك تدعى هذه الحرب فتح ايطاليا . وكانت الحكومة الفرنسوية قد غيرت قواد هذا الجيش مرتين لانهم لم يحسنوا ادارتهُ الحربية وكانت لاتزال دولة انكلترا والنمسا بيامونت ونابولي وباقاريا وغيرها من دول المانيا الثانوية وايطاليا متحدة معًا في محاربة فرنسا . وكانت دولة النمسا من اعداء فرنسا الالدّاء ولذلك كانت فرنسا قاصدة ان تحاربها في ايطاليا وفي الرين فاتى بونابرت مدينة نيس ليزحف بالجيش الذي كان هناك على بيامونت ليفتحها ويلزم عساكر النمسا ان تخلي تلك البلاد وتلتجي الى املاكها الايطالية . وكان فتح بيامونت وقهر جنودها والاستيلاء على حصونها ومهماتها من اعظم اعمالهِ التي سلمتهُ الحكومة الفرنسوية القيام بها بحسب الرسم الذي وضعهُ سنة ١٧٩٣ وقدمهُ الى الجمعية وهكذا كان قد تسلم اجراء ما كان يجب ان يجريهُ قبل ذلك بزمان طويل وساعدهُ في الوصول الى المطالوب



الجنرال باراس والجنرال كارتو . ولما اتى بونابرت مدينة نيس صادف صعوبات كثيرة لانهُ كان صغير السن ورئيسًا على قواد شيوخ صرفوا حياتهم في المعارك ولذلك كان صعبًا عليهم ان يحاربوا تحت اوامر قائد فتى لم يكن قد حضر الا معارك قليلة . ومن القواد المشهورين الذين كانوا تحت امرتهِ في ذلك الجيش القائد ماسينا وهو الذي كان قد قهر العدو في موقعة لونو والجنرال اوجيرو الذي كان قد اشتهر في كاتلوز والجنرال فيكتور الذي اشتهر في حصار غولون ولاهرب وسيرو ريه وجوبير وسيرفوني وهم الذين اشتهروا في حروب الجمهورية . ولم يكن لبونابرت شيء يفتخر بهِ غير اعمال قليلة حسنة كان قد قام بها حتى القيام في ادارة خدمة المدافع وفي رسم الهاجمات · ومما كان يعوق بونابرت عن القيام بماموريتهِ الخطيرة حق القيام هو الحالة التي وجد جيش نيس عليها بعد ان كان قد اخبرهُ وزير الحرب ان عدد الجيش هناك هو نحو مائة الف رجل وان لهُ ما يلزمهُ من الاسلحة والمهمات مع ان عددهُ كان ٣٠ الفًا فقط وكان معهُ ٣٠ مدفعًا لاغير · غير ان بونابرت كان يستعيض بحزمهِ وحسن درايتهِ عن ذلك النقص وكان يستند الى بسالتهِ وحماستهِ والنجاح الذي كانت قد عودتهُ اياهُ اجراآتهُ السابقة . ولكن كان يرى انهُ لايقدر ان يتقدم الى ساحة النزال وليس لجيشهِ ما يلزم من الزاد والملابس والدراهم والاسلحة الضرورية وكانت الجيوش نافرة تكره الانقياد الى روسائها بعد ان امست في ما امست فيهِ وهي منقادة اليهم وعلى الخصوص عند ما رات قائدها صغير السن ليس لهُ من الاختبار ما يتكفل لها بالنصر والفلاح وكانت عارفة انهُ لاسبيل الى الاصلاح لان الخزينة كانت فارغة والنقود الورقية التي كانت قد دفعتها الحكومة للجنود لم تكن مقبولة عند الاهلين وبناء على ذلك راى بونابرت انهُ لاسبيل لهُ الى نوال المراد الا بارضاء الجيش لينقاد اليهِ انقيادًا يمكنهُ من الانتصار . واذ راى عدم امكانهِ على الاقدام على العمل دون دراهم اقام المخابرة مع بعض تجار جنوب فرنسا واستدان مبلغًا واشترى بهِ بعض المهمات التي لايمكن الاستغناء عنها ومن امعن النظر في ما وزعهُ من الدراهم على القواد الذين كانوا تحت امرهِ يمكنهُ ان يعرف سوء حالة هذا الجيش وعدم انتظام حالة الدولة بالاجمال فانهُ اعطى كل واحد من القواد المذكورين اربع ليرات فقط فماذا يكون المبلغ الذي اعطاهُ للقواد الثانويين وللجنود

وجمع بونابرت الجنود قبل ان ذهب من نيس الى مدينة البينكا فاصطفوا متقابلين الاسلحة ووقف بونابرت وخطب عليهم قائلاً

ايها الجنود . انكم في احتياج شديد الى الزاد واللباس ولكم على الحكومة دين كثير ولكنها لا تقدر ان تعطيكم شيئًا . وهوذا العالم ينظر منذ هلاً الى ما تكبدتموهُ من الثبات والشجاعة على ان هذا لايلبسكم ثياب الفخر ولا يخلد لكم الذكر الجميل ولذلك قد صممت ان اقودكم اليوم الى

من الساردو كانوا تحت قيادة الجنرال برفيرا دلاتور والجنرال كولي النمسوي وكان مع الجيش الاول ١٤٠ مدفعاً ومع الثاني ٦٠ مدفعاً وكانوا ينتظرون نجدة من نابولي عدها ١٠ الاف جندي فيكون عدد هذا الجيش كلهُ ثمانين الفاً

اما جيش الجنرال بونابرت فكان مقسوماً الى اربعة اقسام من المشاة وكان متقلداً قيادة هذه الاقسام الجنرال ماسينا واوجيرو ولاهرب وسيبريه وكان عددهُ نحو ثلثين الفاً فقط وكان معهُ الفان وخمسمائة فارس و٣٠ مدفعاً فقط ولم يخف ان يهاجم بهِ ايطاليا ويحارب تلك الجيوش الكثيرة التي كانت قد اجتمعت لتحامي عنها . وكان بونابرت عازماً ان يدور حول جبال الالب وان يدخل ايطاليا من المكان الذي تلتقي فيهِ جبال الالب بجبال ابنين وذلك ليتوسط بين جيش النمسا وجيش الساردو والذي كان يحملهُ على ذلك قلة عدد جيشهِ فانهُ كان لايقدر ان يصادم بهِ الاعداء في السهل . فمر في جبل سنجاك وهو اصغر جبال الالب وارسل فرقة الجنرال سيبريه الى جهة كاريسبو ليراقب حركات جيش الساردو الذي كان نازلاً في سيفا ثم امر فرقة لاهرب ان تقترب من مدينة جنوا لتتهدد من بها وفي الوقت نفسهِ تهاجم فرقة اوجيرو وفرقة ماسينا جيش لوانو وفينال وسافون وتم ذلك بحسب المرغوب غير انهُ لم يات بكل النتائج التي كان بونابرت يتمنى الحصول عليها

اما الجنرال النمسوي بوليو فخاف من اقتراب الفرنسويين من مدينة جنوا فرحل الى نوفي وقسم جيشهُ الى ثلثة اقسام واقام فرقة تحت قيادة الجنرال ارجنتو في ساسيلو وكان هذا الجنرل قاصداً المرور في مونتينوت وذهب بونابرت نفسهُ بالفرقة الثالثة الى جهة فولتري عن طريق بوسيتا وعزم ان يهاجم فرق الاعداء الثلاث وهي منقسمة وان يمنع فرقة بوليو عن ان تنضم الى فرقة كولي

اما بوليو فركب في طليعة ميسرة جيش النمسا والساردو واتى المواضع التي كان يحافظ عليها الفريق سيرفوني الفرنسوي ولما راى سيرفوني نفسهُ محاطاً بجنود سيبونتدورف وبيتوني وواقعاً هدفاً لكرات مدافع البوارج الانكليزية التزم ان يلتجيء الى الجهة التي كان الجنرال لاهرب مقيماً فيها وكان الجنرال ارجنتو قد اتى من جهة ثانية ليطارد الجنرال لاهرب فسلك طريق مونتينوت وما اون وسافون فصادف جنرال الساردو النجاح الذي كان يطلبهُ في المهاجمة الاولى لانهُ تمكن من اخذ بعض الحواجز التي اقامها جيش لاهرب للمدافعة عن مركزهِ وحاول ان يستولي على الحاجز الثالث الذي اقامهُ لاهرب لسد طريق الجيوش النمسوية خوفاً من ان تغدر بميمنة جيشهِ فهجم ارجنتو بجيشهِ على هذا الحاجز ثلث هجمات فطردهُ الفرنسويون بكرات المدافع ونيران جيوش المشاة وبصدمات بزعزع الجبال الرواسخ فرجعت عساكر النمسويين والساردو الى

(قد صممت ان اقودكم اليوم الى اخصب اراضي العالم)

اخصب اراضي العالم فستحصلون على بلاد غنية ومدن عظيمة وتصادفون فيها فخراً وشرفاً وغنى فهل يقال ان الجيش الزاحف على ايطاليا ليس لهُ شجاعة وثبات

ولا يخفى ان هذا الخطاب الذي تلي بصوت مرتفع وحماسة ليس فوقها حماسة اشغل افكار كل الجنود واثر فيهم تاثيراً شديداً يحاكي تاثير القوة الكهربائية ولذلك صح الجيش كلهُ متهللاً وكان ذلك ابتداء علاقات الحب التي كانت دائماً ممتدة بين الجنرال بونابرت والجيوش التي انتصرت وهي تحت قيادتهِ انتصارات ادهشت العالم كلهُ

وكان جيش النمسا والساردو تحت قيادة الجنرال الاكبر بوليو وكان ٤٥ الفاً من هذا الجيش تحت قيادة الجنرال ارجنتو وميلاس وفيكاسوفتش وليبناي وسيبونتدورف و٢٥ الفاً

روكافينا . وبعد ان اجتمعت جيوشهم وتقوت هجموا على معسكر لاهرب هجمة شديدة جداً ارتجفت لها الارض ولم يرتدوا حتى استولوا على الحاجز الثالث المذكور وانقطع امل الفرنسويين من ترجيعها وعلى الخصوص بعد ان كانت قد فرغت مهماتهم الحربية . وعند ذلك صرخ القائد راميون الذي كان يحافظ على هذه الحواجز بجيشهِ صرخة الاقدام فاقسم له الجيش بانهُ لا يرتد حتى يطرد العدو فثبت هذا الجيش في مواقفهِ الليل بطولهِ وكان يدافع عن تلك الحواجز ببسالة وثبات وجسارة لا مزيد عليها وفي اليوم الثاني تحقق ارجنتو النمسوي ضعف جنود القائد الفرنسوي المذكور واراد ان يهجم عليهِ بجنودهِ وان يفتك بهِ بالسيف والحراب وكان الجنرال بونابرت متيقظاً مراقباً لكل اعمال الجيوش فعرف صعوبات جنود راميون فارسل حالاً الجنرال لاهرب الى جهة مونتيجنو فاتى راميون بنجدة ومهمات حربية فلما هجم العدو عليهم صدموهُ بكرات المدافع ورصاص البنادق وكانت فرقتا المشاة تمنعانهِ ان يسير الى جهة ميسرة الفرنسويين وميمنتهم . ولما صادف النمسويون هذه الصدمات التي لم يكونوا ينتظرونها وقفوا مرتبكين ثم ولوا مدبرين بدون ان يعلموا سبب انكسارهم . وكان جيش اوجيرو في ذلك الوقت ذاهباً الى جهة كيرو فمر في وادي بورميدا وكان جيش ماسينا قد اتى تلال البار وكان بونابرت قد سبق بجيش اخر جيش ماسينا وزحف على كاركار ليشتت شمل ميمنة جيش ارجنتو ويسحق بهجمة واحدة جيش المتحدين قبل ان يتمكن الجنرال بوليو قائدهم العام من المجيء لنجدة جيش ارجنتو

وكان ارجنتو قد جدد القتال بعد ان تقهقر امام مونتي جينو وكان ماسينا قد تمكن من الوصول الى قمم جبال ابنين بواسطة مساعدة النجدة التي بعث بها اليهِ الجنرال الاول بونابرت فاستولى على مركز بريك مينو المهم جداً ثم زحف في طريق مونتينوت انفريور على موخرة جيش العدو فدافعت جيوش الدول المتحدة كل المدافعة وثبتت في مراكزها الى ان وصل كل جيش ماسينا وقاتلهم بالسيف فتقهقر جيشهم وجرح الجنرال ارجنتو والجنرال روكافينا وانهزم الجيش الى قرب ساسيلو وتشتت شملهُ ولو كان جيش فرنسا اكثر مما كان لاوقع باعدائهِ ضرراً يزيد كثيراً عن الضرر الذي اوقعهُ بهم وقتل من الجيوش المتحدة الف وخمسمائة رجل واسر الفرنسويون منهم الفي رجل واخذوا رايات ومدافع . فهذه هي موقعة مونتينوت التي عرف بها الجنرال بوليو وهو في فولتري وسمع ايضاً بدخول الفرنسويين الى مملكة الساردو تحت قيادة الجنرال بونابرت

فرحلت جنود النمسا الى جهة ديكو وجنود الساردو الى جهة ميليزيو وكان الجيش الفرنسوي مقسوماً الى ثلث فرق بتبع اثارهم . وكانت فرقة اليسار تحت قيادة الجنرال اوجيرو فتبعت فطاردت جيوش الساردو وفرقة القلب تحت قيادة ماسينا فطاردت النمسويين



وفرقة اليمين تحت قيادة لاهرب فاتت قمم تلال كيرو فمر اوجيرو بفرقتهِ في ممر ميليزيو واستولى ماسينا ولاهرب عنوة على مدينة ديكو وعند ذلك سلم بروفيرا الجنرال هو وجيشهُ الذي كان قد التجأ الى قلعة كوساريا واسر الفرنسويون كثيرين من الساردو ومن النمسويين في موقعة ميليزيو وديكو واخذ منهم و٢٥ مدفعاً و٨ رايات وقتل منهم كثيرون ونجح جيش فرنسا في هذه المعارك نجاحاً غير هذا وهو فصل جيش النمسويين عن جيش الساردو فرحل بوليو الى ولاية لمبردبا وتحصن في مدينة اكي وقصد الثبات فيها للمدافعة عن تلك الولاية الايطالية التي كانت من المملكة النمسوية ورحل الجنرال كولي الى جهة الساردو للمدافعة عن مدينة تورين عاصمة مملكة الساردو وتحصن في مدينة سيفا

وبعد ذلك بايام قليلة حدثت معركة جديدة في مدينة ديكو فان جيوش الجنرال واكسوفيتش النمسوي التي كانت قد اتت من فولتري هاجمت جيش الفرنسويين وهو في ديكو وهزمتهُ منها فاتى بونابرت الجيوش المهزومة بنجدة مكنتها من استرجاع ديكو وتشتيت شمل العدو . غير ان الفرنسويين خسروا في تلك المعركة القائد كوس فانهُ مات بعد ان جرح في ميدان الحرب وهو يهاجم اعداءهُ فحملهُ الجنود واخرجوهُ من ساحة القتال فراى وهو في الطريق الجنرال بونابرت فطلب الى الجنود الذين كانوا معهُ ان يدعو اليهِ القائد العام ولما دنا بونابرت منهُ قال لهُ بصوت ضعيف يا ايها الجنرال هل استرجعنا ديكو فاجابهُ بونابرت نعم قد استرجعناها فقال كوس فاذاً اموت فرحاً . ثم قال هذا القائد الامين الذي كان في حالة النزع ولوائح السرور تلوح على وجههِ فلتحيَ الجمهورية وبينما كان بونابرت ينظر الى القتال في هذه المعركة راى في طليعة فرقة صغيرة رجلاً يفعل افعال بسالة وشجاعة ودراية فسر منهُ وفي نهاية القتال قبل ان تلقي الجنود عنها سلاحها لتستريح دعاهُ اليهِ وشكرهُ ورقاهُ الى رتبة فريق وهذا الرجل الباسل هو الفريق لانّ الذي دعي بعد ذلك اشجع الشجعان

وبعد ذلك ترك بونابرت لاهرب في مركزهِ لمراقبة حركات جيش بوليو وذهب ليهاجم جيش الساردو ولما وصل جيشهُ الى قمم تلال مونتي زينتو راى جبال الالب الشامخة التي كانت عن جانبيها فسر جداً بمرآها فقال مفتخراً ان الجنرال انيبال جاز قبلنا جبال الالب اما نحن فقد درنا حولها . ولا يخفى ان هذه هي من اعمال بونابرت الغريبة نظراً لسرعة المسير والتزم كولي الذي قلنا انهُ كان قد تحصن في مراكز سيفا للمحاماة عن تورين ان يبارح المراكز التي كان يظن انها تحميهِ من الجنرال اوجيرو الذي ارسلهُ بونابرت لقتالهِ فتبع بونابرت اثرهُ وادركهُ بقرب مدينة موندوني وقاتلهُ وشتت شمل جيشهِ فتقهقر الى ستورا فقتل من جيش كولي ثلثة الاف واسر الف وخمسمائة منهم ٢ قواد واخذوا منهم ٨ مدافع و١٠ رايات وهكذا لم يمض اكثر من ١٥ يوماً منذ

ابتدات الحرب حتى انتصر الفرنسويون في جميع المعارك التي حدثت بينهم وبين جيوش النمسا والساردو وكانت اكثر من ثمانين الفًا وكان لها كل ما يلزمها من المهمات ولم يكن مع بونابرت الا ٣٠ الف جندي ومدافع قليلة كما تقدم

وبعد موقعة موندوفي جعل بونابرت مركزهُ في شيراسكو وتحصن فيها فوجد فيها مهمات كثيرة وبعض مدافع فصار عندهُ نحو ستين مدفعًا فسر الفرنسويون عندما بلغهم اخبار اجراآت بونابرت ومع ان الرجال كانوا يحسبون الانتظام في سلك جيش ايطاليا كالانتظام في سلك المنفيين اخذوا بالمجيء اليهِ بعد حروب بونابرت المذكورة لانهم راوا ان جيش ايطاليا هو جيش الغلبة والنصر وعند ذلك تلا بونابرت الخطبة الاتية وهي

ايها الجنود

لقد انتصرتم ست نصرات في خمسة عشر يومًا واخذتم ٢١ راية وخمسين مدفعًا وفتحتم مدنًا وحصونًا كثيرة واستوليتم على احسن املاك بيامونت واسرتم ١٥ الف اسير وقتلتم وجرحتم نحو ١٠ الاف جندي وكنتم تحاربون لتذبوا عن اماكن مقفرة لا خير فيها للوطن اما الان فقد حاكت بسالتكم بسالة جيوشنا المقيمة في هولندا والرين ومع انكم كنتم في احتياج الى كل ما يسد عوزكم قد اصبحتم مستغنين عن كل شيء وقد انتصرتم هذه النصرات بدون مدافع وعبرتم الانهر دون جسور وقطعتم الجبال وسرتم على الصخور حفاة وتمتم في خيامكم بدون ان يكون لكم مشروب. وكثيرًا ما بتم بلا خبز فمن يقدر ان يحتمل كل ذلك غير الجنود الفرنسوية ولذلك اشكركم على ما ابديتموهُ فاعلموا ايها الجنود المحبوبون ان الوطن مديون لكم بما نالهُ من النجاح بواسطتكم واذا قلنا ان انتصاراتكم في حصر طولون كفلت لكم ماتبعهُ من الانتصار المجيد نقول ان هذا الانتصار هو كفالة ثانية تكفل لكم انتصارات اخرى اعظم من تلك وهوذا جيشا الاعداء اللذان كانا يتهددانكم قد امسيا منهزمين امامكم لابسين اثواب الخجل والعار. وقد وقع في الارتباك والحيرة اهل الغايات الفاسدة الذين كانوا يفرحون عندما كانوا يرونكم في ضيق موملين بحصول العدو على النصرة عليكم. هذا ولا يسوغ ان نخفي عنكم شيئًا لا يزال مطلوبًا منكم لانكم ما دمتم ترون انهُ من فروضكم القيام بعمل واحد لا يسوغ ان تقولوا انكم قد عملتم شيئًا فانكم لم تفتحوا بعد مدينة تورين (عاصمة بيانوث) ومدينة ميلان (عاصمة لمبردبا) ولا تزال قيود الابطال الذين قهروا تركوين في ايدي اولئك الانذال الذين قتلوا سفيرنا باسفيل في رومية (وهم النمسويون) ولا يخفاكم انهُ لم يكن لكم مهمات وزاد في ابتداء هذه الفتوحات اما الان فعندكم اكثر من احتياجكم فان المخازن التي اخذناها هي كثيرة وقد اتانا ما يلزمنا من المدافع لقيام الحصار والنزال في السهل. ايها الجنود انهُ يحق للوطن ان يطلب الكم اجراء اعمال غير عادية فهل يخيب املهُ بكم لا فانكم قد تغلبتم على اكثر الصعوبات. ومع



ذلك لا يزال من فروضكم القيام بحق القتال في معارك عظيمة فلا بد من ان تحتملوا صعوباتها وان تفتحوا مدنًا عظيمة وتقطعوا انهرًا كثيرة فهل يضعف نشاط احدكم وهل يرغب احدكم في الرجوع الى الوراء الى جبال الالب والابنين ويحتمل استهزاء وتهديدات جنود الاعداء لا ليس ذلك شان الابطال الذين فازوا بالنصر في مواقع مونتينوت وميليزيمو وديكو وموندوفي فانهم جميعهم مشتغلون بجد للوصول الى الاماكن البعيدة لتعظيم شان الشعب الفرنسوي. وكلكم ترغبون في اذلال اولئك الملوك الذين كانوا يتآمرون على قهركم. وجميعكم تحبون ان تنالوا صلحًا مجيدًا ياتي الوطن بما يعوض عليهِ النفقات الكثيرة التي تكبدها وكل منكم يحب ان يقول عندما يرجع الى وطنهِ مفتخرًا انني من جيش ايطاليا الفاتح

ايها الاحباء انني ابشركم بنوال الفتح غير انني اشترط عليكم شرطًا واحدًا وهو ان تعتبروا الامة التي اتيتم لتنقذوها وان تمنعوا النهب والتعدي الذي هو عمل الاشرار الذين يحملهم عليهِ اعداؤكم والا فتحسبون بلية الامة لا منقذيها ولا تكونون فخرًا للامة الفرنسوية فيسوغ لها ان تنكركم فيذهب سدى انتصاركم وشجاعتكم ونجاحكم ودم اخوتكم الذين يقتلون في المعارك حتى ناموسكم وافتخاركم وسايبت انا والقواد الذين تركتوني اليهم في خجل اذ اننا نكون قد قدنا جيشًا غير منظم لا يخضع للقوانين ولا ظفر بغير سلطة القوة. اما انا فساجري ما يجعل مبغضي النظام يحترمون مبادئ الانسانية والناموس بناء على ما خولتني اياهُ الامة من السلطان وتوفيقًا للعدالة والقوانين لانني لا اطيق ان ارى من قطاع الطريق قومًا يدنسون نصراتكم بسوء اعمالهم ولذلك سانفذ بكل صرامة القوانين التي قررتها وهي قتل كل ناهب وقد اجريت شيئًا من ذلك وسررت جدًا بما رايت من اقدام الجنود الصالحين على انفاذ هذه القوانين الحسنة

يا ايها الايطاليون. لقد اتى الجيش الفرنسوي لينقذكم من قيودكم فاعلموا ان شعب فرنسا يحب كل الشعوب فهلموا الينا ولا تخشوا ضيرًا لاننا نحترم املاككم ودياناتكم وعاداتكم واننا نحاربكم محاربة خصم كريم الاخلاق لا يقصد الا ان يخلع عنكم نير الذين يظلمونكم

ومن قرأ هذا الخطاب يرى ما كان لبونابرت من الاقدام والاستعداد للقيام بالاعمال العظيمة في المستقبل بنوع يرفع شان الامة الفرنسوية ويأتي جنودها بالفخر لان من ترقب ماجريات هذه الحرب يرى انهُ في ٢٦ اذار (مارس) خرج بونابرت بجيشهِ من نيس قاصدًا محاربة جيش النمسا في بيامونت وكان عندهُ من المهمات والزاد الكثير ما يصعب وصفهُ محصنًا بجبال الالب والابنين ومع ذلك قهرهُ بونابرت في ٢٨ نيسان (افريل) وتغلب على كل الموانع التي كانت تصدهُ وذلك في ١٥ يومًا فبلغتهُ الحكومة الادارية خمس مرات تشكراتها بالنيابة عن الامة على ما اولاها من النصر والفخر

ثم اتى بونابرت واقام بعسكره في شيراسكو وكان قاصداً مهاجمة تورين فطلب اليه ملك بيامونت ان يعقد معهُ صلحاً فتمنع وقال ان هذا هو من متعلقات الحكومة في باريس فهادنهُ ليتمكن هذا الملك من ارسال سفراء الى باريس طالباً عقد الصلح ومن شروط الهدنة ان تسلم دولة بيامونت الى الجنرال بونابرت حصونها في الاسكندرية (غير اسكندرية مصر) وكوني وتورنون وكل المخازن والمهمات التي فيها وان تفتح طرق بيامونت لتمر فيها الجنود الفرنسوية وهكذا انفتحت الطريق من فرنسا الى شطوط نهر بو (في ايطاليا) وهي طريق قصيرة جداً. ومن الشروط ان يقيم جيش بيامونت في محلات بعيدة عن منازل الفرنسويين وعن الطرق التي يمرون فيها بحيث يستامنون من الغدر وتم تصديق شروط الهدنة في شيراسكو حيث كان بونابرت معسكراً بجيشهِ في ٢٨ نيسان (افريل) سنة ١٧٩٦

وبناء على هذا الاتفاق ارسل حالاً ملك بيامونت سفراءهُ الى باريس ليعقدوا شروط الصلح النهائي وسلم الى بونابرت الحصون وكل المحلات المذكورة وهكذا تم ما وعد بونابرت جيوشهُ بهِ لما قال لهم ان اخصب الاراضي ستصبح في ايديهم. ولما كثر زاد الجيش ارجع بونابرت قوانين الجيش ونظامهُ واحسن اجراءها حتى اشتهر صيتهُ بين الجنود وبين اهل البلاد التي كان مقيماً فيها فرغب ابن ملك بيامونت في مقابلتهِ فزارهُ هو ووزير ابيهِ الكونت سن مارسان فقابلهما بمزيد التكريم والاعتبار واظهر للوزير المشار اليهِ المنافع التي تحصل عليها بلادهُ اذا اتحدت مع فرنسا وانهُ لا خير لها في الانضمام الى النمسا لانهُ لا غرض لفرنسا في بلاد تفصلها عنها جبال الالب ووعد الوزير بان فرنسا تساعدهُ اذا رغب هو ومولاهُ الاتحاد معها فذهب الوزير مسروراً

وعند ما ذهب سفير بيامونت الى باريس ارسل بونابرت معاوناً من معاونيهِ الى باريس ليقدم للحكومة بالاحتفال ٢١ راية كان قد كسبها من الاعداء وبعث اليها معهُ باخبار كل نصراتهِ والهدنة التي عقدها مع ملك بيامونت وكل شروطها فقابلت الحكومة هذا المعاون وهو الجنرال مورات بكل اكرام واستلمت الرايات بكل احتفال وسر الجميع عند ما بلغهم خبر تلك النصرات العجيبة التي انتصرها جيش فرنسا في ايطاليا وشرعت الامة تتحدث بعظائم افعال ذلك الجنرال الشاب الذي لم يكن قبل ذلك مشهوراً وقرر المديرون الخمسة وهم رؤساء الحكومة ان جيش فرنسا في ايطاليا مستحق المدح وشكر الوطن وعززت هذه النصرات شان الحكومة الجمهورية وعقدت معاهدة الصلح بينها وبين ملك بيامونت في ١٦ ايار (مايس) ومن شروطها ان تبقى حصون الاسكندرية وكوني بيد الفرنسويين اما قلع سوزو وبرونيتا وابكسيل فاشترط هدمها وهكذا خضع ذلك الملك للجمهورية الفرنسوية ومن ذلك الوقت اخذت اوربا تنظر بعجب الى اجراآت ذلك الفتى الغازي لانهُ في ١٥ يوماً فتح مملكة محصنة بجبال الالب وبقلاع وحصون منيعة ولها جيشان متعودان



هما وقوادهما خوض المعارك

وبعد ان اخضع بونابرت ملك بيامونت لم يبقَ عليهِ الا ان يطارد النمسويين ويتقدم بجيشهِ لفتح ايطاليا واغتاظ الايطاليون من نصرة الفرنسويين ولذلك كان بونابرت ملتزماً ان يصادم الايطاليين فضلاً عن مصادمة جيوش النمسا وكانت ايطاليا مقسومة الى ممالك كثيرة لا بد من ذكرها بالتفصيل ليتمكن المطالع من الوقوف على ما يلزم معرفتهِ فنقول ان بلاد ايطاليا هي شبه جزيرة على هيئة حذاء طويل الساق يحدها شمالاً المانيا وسويسرا وجبال الالب وشرقاً بحر الادرياتيك وجنوباً وغرباً البحر المتوسط. ولما دخل بونابرت ايطاليا التزم ان يقطع جبال الالب الفاصلة فرنسا عن ايطاليا وكانت تلك البلاد مملكة بيامونت اي الساردو وعاصمتها تورين وهي من احسن ممالك ايطاليا وكان عدد سكانها ١٢٥٠٠٠ وعدد جيشها عشرين الفاً واراضيها مخصبة وكان اهلها اكثر تمدناً من سائر الايطاليين. ويمر في هذه المملكة قسم من جبال الالب يعرف بالابنين وهذه الجبال تجتاز ايطاليا من الشمال الى الجنوب. ومن دول ايطاليا جمهورية جنوا وكانت اكثر نظاماً من كل ممالك ايطاليا وتجارتها واسعة واقامت على الحيادة عند ما انتشبت حروب الجمهورية الفرنسوية وسكانها نحو مائة الف رجل وعدد جيشها نحو اربعة الاف مقاتل. وفي الجهة اليمنى من جمهورية جنوا بلاد توسكانا مقسومة الى دولتين احداها جمهورية وكان اسمها جمهورية لوك وكان عدد سكانها مائة واربعين الف نفس والاخرى دوقية توسكانا وكان يحكمها قبل ذلك الزمان الارشيدوق ليوبولد وكان حاكمها في تلك المدة الارشيدوق فرديننذ وكان اهل هذه البلاد متمدنين ومع ان دوقهم كان من اقارب امبراطور النمسا لم يتردد عن ان يعترف بالجمهورية الفرنسوية قبل ان اعترف بها غيرهُ من الامراء وكان عدد سكان هذه الدوقية نحو مليون وعدد جيشها ستة الاف مقاتل. وعند حدود هذه الدوقية كانت مملكة الكنيسة التي كان يملكها البابا وعاصمتها رومية العظمى وكانت هذه المملكة ممتدة في جانبي جبال ابنين يحدها شرقاً بحر الادرياتيك وغرباً البحر المتوسط وكان البابا حينئذٍ بيوس السادس وكان عدد سكان مملكتهِ نحو مليونين ونصف وعدد جيوشهِ من الاربعة الى الخمسة الاف جندي ولا يخفى ان البلاط الروماني كان شديد البغض للثورة الفرنسوية وللاعمال البربرية التي صدرت منها وعلى الخصوص لانها ابطلت المذهب الكاثوليكي من فرنسا وامرت بطرد خدم الدين وقتلهم اذا اقاموا فيها وضبطت الاديرة والكنايس والاوقاف وحاولت محو اسم الدين وكانت تفعل ذلك في كل البلاد التي يدخلها جيشها ولذلك كان البلاط الروماني يكره جمهورية فرنسا ويحرض الملوك الكاثوليكيين وغيرهم على محاربتها وابطال التعاليم التي كانت تعلمها. وكانت الامة الرومانية اي التابعة لملك البابا تبغض الفرنسويين كما كان خدم الدين يبغضونهم حتى ان الشعب هاج في يوم من الايام وهجم على منزل سفير فرنسا موسيو باسنيل وقتلهُ

وجرى ذلك بتحريضات احزاب النمسا

وكانت مملكة نابولي واقعة في الجهة الجنوبية من مملكة البابا وكان بعضها من ايطاليا والبعض الاخر جزيرة صقلية وكانت اعظم ممالك ايطاليا وملكها من العائلة البوربونية وكان ضعيف العزم محبًا للصيد تاركًا ادارة المملكة لزوجتهِ وهي شقيقة ملكة فرنسا ماري انطوانت . وكان ملك نابولي وامرائهُ يبغضان فرنسا كل البغض بعد حدوث ما حدث من التقلبات . وكان لدولة انكلترا سطوة عظيمة في بلاط نابولي وكانت تحثهُ على بغض الفرنسويين وربما كان الانكليز يحبون ان ياخذوا بلادها من تلك المملكة ليكون لهم مركز تجاري في تلك الجهة لانهم لم يكونوا قد تمكنوا من الاستيلاء على جزيرة مالطه وكان عدد سكان نابولي نحو ستة ملايين وعدد جيشها نحو ستين الفًا ولكن لم يكن لهم من النظام ما كان لجيوش بيامونت

فهذه هي حالة البلاد الايطالية التي كانت واقعة على ميمنة جيش بونابرت عند ما كان داخلاً اليها وكان امامهُ في وسط شمال ايطاليا دوقية بارما وبليسنتيا وكواستلا وكان عدد سكانها نحو مائة الف نفس ومن الجيوش ثلثة الاف وكان حاكمها من العائلة البوربونية وفي الجهة اليمنى من هذه الدوقية دوقية موريين وريجيو ومراندول وعدد سكانها اربعمائة الف نفس وجيوشها ستة الاف جندي وحاكمها امير من احدى عيال ايطاليا الشريفة القديمة تعرف باسم عائلة ايست وكان رعاياهُ يكرهونهُ كل الكره

وبجانب هذه الدوقية وراء نهر بو ولاية لمبرديا وكانت منضمة الى الامبراطورية النمسوية ووالها ارشيدوك من النمسا وعاصمتها مدينة ميلان وكانت مخصبة غنية جدًا واهلها اشدّاء يبغضون النمسويين كل البغض ويحبون ان ينفصلوا عن امبراطوريتهم وكان عدد اهلها نحو مليون ومائتي الف نفس

ثم جمهورية البندقية وعاصمتها مدينة البندقية على شاطي الادرياتيك وكان عدد سكانها نحو ثلثة ملايين وكان لها عند الاقتضاء نحو اربعين الف جندي وكانت تجارتها واسعة جدًا واهلها اغنيا غير انها كانت قد خسرت كثيرًا من عظمتها السابقة

وكان اكثر الايطاليان يطلبون اصلاح النظامات الداخلية واتحاد كل هذه الامم الايطالية معًا تحت راية واحدة ولم يكن بونابرت قادرًا ان يرضي الامة الايطالية لان حكومتهُ امرتهُ ان يفتح لمبرديا ويستولي عليها ويعطيها للنمسا بدلاً عما كان لها من الاملاك في شمال فرنسا اي في بلجكا وهولندا التي كانت جيوش فرنسا قد فتحتها كما ذكرنا آنفًا

وبعد ان اطمان بونابرت من جهة بيامونت ومن جهة جمهورية جنوا التي كانت على الحيادة التامة ومحاطة بجيوش فرنسا عزم ان يغزو ولاية لمبرديا ويفتح مدينة مانتوا الحصينة لانهُ كان يعلم



انهُ بالاستيلاء على تلك المدينة يتمكن من فتح كل الولاية ومن طرد النمسويين من ايطاليا فيمسون بلا ملجا الا داخل اسوار عاصمتهم فينا . ولم يكن مع بونابرت من الجيوش غير ثلثين الفًا وكان جيش بوليو القائد النمسوي بعد انفصال جيوش الساردو عنهُ ستة وعشرين الفًا فقط وكان قد التجا الى الجهة اليسرى من نهر بو وتحصن في مدينة فالجو منتظرًا اجراآت بونابرت حيث صمم ان يخدع بوليو ليبيت غير عارف بمقاصدهِ وحركاتهِ ولذلك كان قد كتب في المعاهدة التي انعقدت مع الساردو شرطًا وهو ان يصير السماح لجنود فرنسا ان تعبر نهر بو عند مدينة فالنيزا وامر الجنرال بونابرت الجنرال ماسينا ان يسير بجيشهِ الى جهة فالنيزا ليخدعوا بوليو فيتاكد ان الفرنسويين قاصدون اجتياز النهر من تلك الجهة . فاتت فرقة من جيش ماسينا الى كامبو وكان الجنرال بونابرت قد ذهب من تورتون ومعهُ عشر فرق من المشاة وكل الفرسان و٢٤ مدفعًا قاصدًا مدينة بليسنتيا وسار مسرعًا قاصدًا ان يعبر نهر بو بالقرب من تلك المدينة . فعبر الجنرال لان الفرنسوي النهر المذكور في القوارب وكانت معهُ طليعة الجيش وذلك امام مدينة مونتيبيلو واقام الجنرال لاهرب مع فرقة من الجيش امام ايبتري بين نهر بو وشطوط فوميو ثم عبر كل الجيش النهر وعرشهُ في المكان الذي اجتازوهُ نحو ٢٥٠ باعًا

ولما عبر بونابرت نهر بو كتب الى باريس ما ياتي

عبرنا نهر بو وابتدانا بالغزو الثاني وامسى بوليو في ارتباك عظيم لانهُ يسهل علينا ان نخدعهُ بظواهر حركاتنا وربما كان قاصدًا ان يقاتلنا غير اننا بالنصرة الالهية سنستولي على كل ايطاليا . وقد صارت احوالنا حسنة لانني اقدر ان ارسل اليكم بعض ملايين من الفرنكات فانكم في احتياج اليها لسد عوز جيش الرين . وفي ذلك الزمان اتى دوق بارما بونابرت وعقد معهُ هدنة واعطاهُ هدايا كثيرة من المصنوعات القديمة الثمينة ودفع لهُ بضعة ملايين من الفرنكات فارسلها بونابرت جميعها الى باريس واخذ منهُ الف وستماية حصان ومخازن مملوءة زادًا ومهمات وماكلاً للخيل وحنطة وبعض امور للمستشفيات العسكرية واخذ من مدينة بليسنتيا اربعة الاف حصان لجر العجلات والمدافع وبعد ذلك اتاهُ سفراء من لدن دوق دومودين وطلبوا اليهِ عقد هدنة ودفعوا اليهِ على ذلك عشرة ملايين ليرا منها مليونان ونصف ثمن مشارب للجنود ومهمات حربية

اما الجنرال بوليو النمسوي فلما بلغهُ ان بونابرت خرج من تورتون سار بجيشهِ قاصدًا المدافعة عن بليسنتيا والنزول بالقرب من قلعة نوميسيو حيث كانت فرقة نمسوية تحت قيادة الجنرال ليبني . اما بونابرت فلم يمكن النمسويين من التحصن في قلعة فوميو وهاجمهم وشتت شملهم واستولى على فوميو قبل ان يصل بوليو اليها واسر الفرنسويون من النمسويين في هذه المعركة ٢٠٠٠ رجل واخذوا منهم مدافعهم ورواياتهم فانهزموا واتوا مدينة بيزيكيتون المبنية وراء نهر بو وبعد ان اجتازوا النهر رفعوا

جسره لئلا يعبره الفرنسويون . وكان الجنرال لاهرب مقيماً بفرقته للمحافظة على طريق بافه ولودي ولمراقبة النجدة التي كان بونابرت يظن انها تاتي للنمسويين . وكان لاهرب خارج المعسكر فاراد ان يرجع اليه من طريق اخرى ولم يكن الحراس عارفين انهُ جنرالهم فرموهُ بالرصاص وقتلوهُ ظانين انهُ من جند الاعداء ولما بلغ الخبر بونابرت حزن جداً وكدر فقدهُ كل الجيش لانهُ كان قائداً شجاعاً .

وسار جيش بونابرت قاصداً مدينة لودي ليهاجم الجنرال بوليو فصادف بالقرب من مدينة كازيل فرقة كثيرة العدد والعدد من جيش بوليو الاحتياطي وكانت مقيمة هناك للمحاماة عن طريق تلك المدينة فحاربها محاربة شديدة وهزمها فسارت نحو المدينة فسار وراءها ودخلها معها وبعد ذلك عزم ان يعبر نهر ادا ليقاتل بوليو وكان هذا القائد النمسوي قد ضم جيشهُ المنهزم كلهُ الى الجيش الذي كان معهُ وصف ٣٥ مدفعاً عند الشاطي وصوبها الى جسر ذلك النهر . اما بونابرت فاقام ٣٥ مدفعاً مقابل مدافع بوليو المذكورة وصمم ان يعبر النهر قاطعاً النظر عن كل الصعوبات التي كانت تحول دون قصدهِ لانهُ كان مجتهداً في منع انضمام جيش الجنرال كوبي والجنرال واكالومنتيش الى جيش الجنرال بوليو وكان هذان الجيشان آتيين ليتحدا الجنرال بوليو فاقام بونابرت فرسانهُ على يسار نهر الادا على بعد نصف ساعة من الجسر مع تسعة مدافع صغيرة وذلك ليشغل جيش النمسا من جانبهِ . ولما رأى انهُ قد نجح في تدبيرهِ هجم الجيش الذي كان مستعداً للهجوم وعبر جسر النهر بشجاعة غير عادية وانصب على مدافع العدو واخذها فتقهقر النمسويون وانهزموا راجعين الى مدينة كريما بعد ان اسر منهم ثلثة الاف رجل واخذ رايات كثيرة وكل مدافعهم وارتبك الجنرال بوليو النمسوي كل الارتباك مما طرأ عليهِ وعلى جيشهِ فغفل عن اقامة المحافظة اللازمة على عاصمة لمبرديا فحال جيش بونابرت بينها وبين جيش بوليو وبعد ان انتصر بونابرت في لودي بزمان قصير اتى اعيان ميلانو واعضاء مجلس بلديتها وسلموا مدينتهم اليهِ وهكذا مكنتهُ معركة لودي من ان يخضع كل ولاية لمبرديا لفرنسا

وكان بونابرت يحب ان يغزو المانيا من جهة طريق التيرول في ايطاليا ليدخل الجيش الثاني الى المانيا من جهة الرين وبناء على ذلك كتب الى الحكومة في باريس ما ياتي وهو انني ربما احارب مدينة مانتو في هذه الاثناء واذا فتحت هذه المدينة لا يمنعني شيء عن الدخول الى بافاريا وفي عشرين يوماً ادخل اواسط المانيا . الا تقدرون ان تجعلوا جيوشكم الباقية تقاتل للوصول الى هذا الامر . اما انا فاقدر ان اقيم القتال الان في شطوط الرين ولكن اذا طالت الهدنة يمسي جيش ايطاليا في ضيق شديد واذا ابتدا جيشا الرين بهذا العمل الحربي ارجوكم ان تفيدوني عن احوالهما وتقدمهما وعما تظنون انهما يقدران ان يفعلا فان ذلك يحملني اما على الدخول الى المانيا واما على الثبات في حدود الادج ولا يخفى انهُ فخر للحكومة الجمهورية الفرنسوية ان تعقد الصلح في وسط بافاريا او في وسط بلاد النمسا



نفسها واذا صممتم ان تجعلوا جيشي الرين يدخلان المانيا فادخلها انا قبل ان يخطر ذلك لامبراطورها ببال

فاجابتهُ الحكومة وشكرتهُ على فتح مملكة بيامونت وعلى شروط الهدنة التي عقدها وعلى الخصوص لانهُ استشار قبل ان اجرى ذلك معتمد الحكومة موسيو ساليسيتي واخبرتهُ الحكومة بهذه الرسالة انها مصممة على شطر جيشهِ الى جيشين ليقيم احدهما في لمبرديا تحت قيادة الجنرال كيليرمان والاخر تحت قيادة بونابرت ليفتح باقي البلاد الايطالية والمدن المبنية على شطوط البحر المتوسط كليكورنا ورومية ونابولي . وهذا مما يضعف قوة الفرنسويين في ايطاليا ويأتيهم بالخسائر والضرر فلم يستصوب بونابرت هذا الراي فكتب رسالة وبعث بها الى الحكومة في باريس وهذه ترجمتها

انني متاكد ان انقسام جيش ايطاليا مضر وليس من صالح الحكومة قيام قائدين في ايطاليا اما فتح ليكورنا ورومية ونابولي فهو امر ثانوي ينبغي ان نقوم بحفظ الجيوش الاحتياطية التي تركتها في الاماكن التي فتحتها لتكون قادرين على جمع قوتنا كلها لردع النمسويين اذا حاولوا مهاجمتنا بجيوشهم الجرارة فمن اللازم ان يكون قائد واحد للجيش كلهِ وان لا يكون لهُ ما يعوقهُ عن اجراء ما يلزم ان يجريهُ من حركاتهِ الحربية وها قد فعلت ما فعلت في هذه الحروب بدون ان استشير احداً وربما كنت تاخرت عن فعل ما فعلت لو كنت ملتزماً ان انتظر ورود مشورة رجل اخر وقد انتصرت على قوات كثيرة دون ان يكون معي من القوات ما يضاهيها وبما انني كنت معتقداً انكم تثقون بي كل الثقة كنت ارغب ان افعالي تسبق كلامي واذا الزمتموني بالقيام بما ياتيني بموانع كثيرة وما يلزمني ان اكون مستنداً الى راي معتمدي الحكومة وخاضعاً لاوامرهم خضوعاً يلزمني ان اطيعهم اذا عارضوا حركاتي الحربية وارادوا ان ياخذوا من جيوشي الذين يرغبون ان ياخذوهم منها او ان يضيفوا اليها الذين يريدون ان يضيفوهم فلا تنتظروا مني القيام باعمال عظيمة في ما بعد . هذا وانني اقول انكم ستضيعون فرصة حسنة جداً تمكنكم من ان تعقدوا مع ايطاليا الصلح الذي يوافقكم اذا اضعفتم بالقسمة قوتكم فيها . الى ان قال في الجنرال كيليرمان كل الاهلية ليقود الجيش كما قدتهُ انا وربما كان قادراً ان يقودهُ احسن مني لانني اعتقد ان ما نلتهُ من النصر في هذه الحرب انما هو نتيجة بسالة الجيش غير ان اجتماعي بكيليرمان في ايطاليا يكون سبباً لهدم كل ما بنيناهُ واظن ان قائداً واحداً في مكان واحد انسب من قائدين ولو كان غير حاذق لانهُ يقتضي للحرب ما يقتضي للحكومة وهو وحدة العمل . انتهى . وهذا كافٍ ليبين اصابة راي بونابرت وحذقهُ

وفي ١٢ ايار ( مايس ) نزل بونابرت في قصر ميلانو والجنرال اوجيه في مدينة بافه والجنرال سبريه في مدينة لودي وكريمون وجيش لاهرب تدموولو زانو ولوكو وبيزيكتونو . وفي ١٥

يار ( مايس ) عقدت شروط الصلح بين فرنسا وبيامونت في باريس ومنها الحاق سافوا ونيس وولاية طان بفرنسا وتسليم كل قلع بيامونت الى جيش فرنسا في ايطاليا وفي نفس ذلك النهار اقيم الاحتفال في ميلانو لدخول بونابرت وجيشهِ اليها وعند دخولهِ خاطب جنودهُ بما ياتي

ايها الجنود

لقد اندفقتم من قمم جبال ابنين كما تندفق المياه منها الى الاودية وسحقتم تحت ارجلكم كل الموانع التي كانت تحول دونكم وشتتم شملها وها مملكة بيامونت قد خلصت من ربقة النمسويين واخذت تهتم في صوالحها الخصوصية واقامت علاقات الالفة بينها وبين فرنسا وباتت ميلانو في ايديكم وهوذا راية الجمهورية تخفق في كل انحاء المملكة اللمبردية وقد اصبح دوك بارما ودوك مودينا شاكرين لافضالكم وجميلكم لانكم ابقيتموهما على ما كانا عليهِ وقد بات الجيش الذي كان يتهددكم بفجة مهزوماً دون ان يتمكن من الالتجاء الى مكان يقيهِ من بسالتكم ولم تقدر الانهر الكبيرة كنهر بو وبيزين والادا ان تعوقكم عن المسير يوماً واحداً وهكذا قد امست كل هذه الموانع الصعبة التي طالما افتخرت بها ايطاليا ساقطة النفع لانكم قد قطعتموها واتت انتصاراتكم الكثيرة الوطن المحبوب بالفرح والسرور . وقد امر نوابكم بان يصير قيام الاحتفالات والافراح تذكاراً لانتصاراتكم فانهم يفتخرون بكم ويحق لهم ان يفتخروا . ايها الجنود اني اقول انكم قد فعلتم افعالاً عظيمة جداً تستحق ان يقام لها الذكر الجميل في كل مدن الجمهورية ومن يقدر ان يبين لكم شدة الفرح الذي ملأ قلوب والديكم واهلكم واقربائكم ونسائكم ومحبوباتكم عندما سمعوا ما فعلتموهُ وحق لهم ان يفتخروا بكم وبانتسابهم اليكم لانكم قد عملتم اعمالاً عظيمة . لكن هل انهيتم كل اعمالكم وهل يقال عنا اننا عرفنا كيف ننال النصرة ولكننا لم نعرف كيف نجني ثمارها وهل توبخنا القرون الاتية قائلة اننا نحب الرخاء والراحة كما وبخت انيبال القرون التي لحقت قرنهُ . لا فانني ارى انكم تطلبون الان ان تتقلدوا السلاح وتتذمروا من حياة الراحة فانكم تعلمون اننا نخسر كل يوم يذهب بدون ان ننتصر فيهِ وهذه الخسارة تلحق بناموسكم . فيا ايها الجنود هلموا بسرعة لنقهر الاعداء الذين لا بد من قهرهم فلترتعد فرائص هولاء الاعداء خوفاً فانهم هم الذين اضرموا في بلادنا الحروب الاهلية وهم الذين احرقوا اسطولنا في طولون وهم الذين سببوا قتل سفرائنا وقد دنا زمان الانتقام غير اننا نطلب الى الاهالي ان لا يخافوا لاننا اصدقاؤهم ونحبهم جميعاً وعلى الخصوص اولئك الذين نحسب انهم من نسل سكيبيون وبروتوس ( من اكابر رجال الرومان القدماء ) ومن نسل الابطال الذين نحب ان نقتدي بهم . ولا ريب ان اعظم فخركم يكون بارجاع قصر الكابيتول الروماني وارجاع تماثيل الابطال الذين كان يفتخر بهم وان تحرضوا الامة الرومانية على خلع نير العبودية التي غاصت بها منذ قرون . وكل ذلك يخلد ذكر اعمالكم ويمكنكم من ان تفتخروا بما لا يزول فخرهُ اذ انكم تكونون قد غيرتم حالة احسن ممالك اوربا وهكذا



يتمكن الشعب الفرنسوي الذي اصبح حراً ومعتبراً ان يمنح اوربا السلم العظيم الذي ينسيها ما احتملتهُ من الشدائد والمشقات منذ سنين كثيرة . وفي ذلك الزمان تكونون في منازلكم مع عيالكم وابناء وطنكم يقولون عند ما يرون احدكم هذا كان من جيش فرنسا في ايطاليا

وكان الجيش يصغي كل الاصغاء لخطب الجنرال بونابرت وينقاد اليها كل الانقياد وكانت الجنود تحبهُ كما يحب الاولاد اباءهم وهذا كان سبب النجاح الذي صادفهُ في المعارك التي اقامها وكان قد حصل جيشهُ على كل ما يلزمهُ من المهمات والاسلحة واسباب الراحة وكثرت عندهُ النقود لانهُ كان ياخذ الغرامة من البلدان التي كان يفتحها فدفعت ولاية لمبرديا وحدها عشرين مليوناً من الفرنكات

وبعد ذلك بمدة قصيرة رحل بونابرت من مدينة ميلانو قصبة لمبرديا واتى جهة لودي قاصداً نهر الاديج واقام في مدينة لودي ثمانية ايام ليمكن جنودهُ من الراحة التي كانوا مفتقرين اليها واهتم حينئذٍ في تنقيح الشروط التي كان مزمعاً ان يطلبها من حضرة البابا وملك نابولي وفي انجاز المعاهدة التي اراد ان يعقدها مع دوك بارما ودوك مودينا وفي تنظيم الجيوش التي كان مزمعاً ان يبقيها للمحافظة على الولايات الايطالية التي فتحها . غير انهُ حدثت ثورة في لمبرديا فالتزم ان يرجع مسرعاً اليها لانهُ عند ما خرج من ميلانو اخذ احزاب النمسويين يشيعون الاراجيف موكدين للامة ان جنود النمسا زاحفة لنجدة جيش الجنرال بوليو ولانقاذ لمبرديا من يد الجنرال بونابرت وان البرنس كونده زاحف بجيش اخر من جهة سويسرا وان الجيش الفرنسوي في ارتباك عظيم وانهُ ربما كان يهلك عن اخرهِ في ايطاليا . فاثرت هذه الاشاعات في عقول العامة ولاسيما اهل القرى وتجمع الاهلون وزحفوا على الفرقة الفرنسوية التي كانت لا تزال تحيط بالقلعة التي كان جيش النمسا محصوراً بها في مدينة ميلانو وخرجت هذه الجنود المحصورة لمحاربة الفرنسويين في الوقت نفسهِ ولكن الفرقة الفرنسوية لم تبالِ بالخطر الذي كان محيطاً بها ولكنها شتتت شمل الاهلين الثائرين عليها وصدمت الجيش النمسوي والزمتهُ ان يرجع الى القلعة وهكذا انتهت هذه الثورة على ان الاهلين الثائرين في مدينة بافه استظهروا على الفرقة الفرنسوية التي لم يكن عددها اكثر من ثلثمائة جندي وغدروا بقائدها واسروهُ فسمع بونابرت بهذه الاخبار وهو في لودي فركب في ثلثمائة فارس وفرقة من المشاة وستة مدافع وزحف على ميلانو وبعد ان تاكد ان جنوده نجحوا هناك وان الامنية قد توطدت سار قاصداً مدينة بافه ومعهُ رئيس اساقفة ميلانو . ولما بلغ مدينة بيناسكو صادف فرقة من الاهالي الثائرين فامر الجنرال لان ان يهجم على المدينة ويفتحها ففعل واحرق بعض بيوت الاهلين ليخاف اهالي مدينة بافه وبعدلوا عن المدافعة عن انفسهم ويعولوا على التسليم دون حرب لان بونابرت كان يعرف انهُ لا يقدر ان يفتح مدينة عظيمة كمدينة بافه بفرقة صغيرة كالتي كان فيها وكان ملتزماً

ان يرجع بسرعة ليركب في مقدمة الجيش الذي كان قد تركهُ في شطوط الاوكليو ولذلك رغب ان يسرع باخماد هذه الثورة فبلغ ظاهر مدينة بافه عند العصر ولذلك لم يات بعمل ولما خيم الظلام علق الاعلان الاتي على ابواب المدينة

ايها الناس

ان قوماً لا امل لهم بالنجاح يخدعون الامة ويحملونها على محاربة جمهورية فرنسا وجيشها المنصور الذي قهر الملوك والولاة وهذه الاعمال الخالية من النفع توجب الاسف لان من نتائجها خدع الامة وسوقها الى الهلاك وبناء على ذلك قد عزم قائد الجيش الفرنسوي العمومي قياماً بحفظ مبادىء امتهِ ان يتجنب محاربة الاهالي ولذلك يرغب قبل الابتداء بالعمل ان يفتح باباً يمكن الاهلين من الرجوع عن غيهم والتسليم اليهِ اما الذين لا يسلمون اسلحتهم قبل مرور اربع وعشرين ساعة فيعاملهم معاملة العصاة ويحرق قراهم ومنازلهم وكفاهم عبرة ما اصاب قرية بيناسكو فان معاملتهم تكون كمعاملة القرية المذكورة . انتهى

وفي الصباح اطلقت المدافع على المدينة وهجم المشاة على الاسوار فدكوها ودخل الجنرال لانُ المدينة وعزم بونابرت على نهب المدينة وجمع اسلحة اهلها واحراق المنازل غير ان رئيس اساقفة ميلانو وكل خدم الدين تشفعوا اليهِ ان يعفو عنها فعفا وجمع السلاح واسترهن بعض الاعيان وارسلهم الى فرنسا

وبعد ذلك اقام الحجة على فرقة من جيشهِ كان قد تركها في بافه للمحافظة لانها سلمت الى الثائرين من الاهلين دون ان تحاول المدافعة عن نفسها وكان قد تقرر لهُ ان بعض هولاء الجنود خانوا فرنسا واشتركوا في الثورة مع الاهالي فاقام محاكمتهم وكان قاصداً ان يقتل الثلاثمائة غير انهُ عدل عن ذلك واكتفى بقتل القائد ونشر اعلاناً بهذا الخصوص توبيخاً لهذه الفرقة وما ياتي هو من جملة الاعلان

ايها الانذال لقد امنتكم على مركز تتعلق بهِ نجاة جيشنا او هلاكهُ فتركتموهُ وسلمتموهُ الى رعاع القوم دون ان تدافعوا عنهُ

وكان الجيش في تلك الاثناء يسير متقدماً الى الاديج تحت قيادة الجنرال برتيه وكانت ادارة اركان الحرب في مدينة سونسينو فذهب بونابرت مسرعاً الى هناك واستعد لمطاردة جيش بوليو وكانت قد اتتهُ نجدة عظيمة وتحصن وراء نهر المينسيو ليمنع بونابرت عن محاصرة مدينة منتوا الحصينة التي امست وحدها موضوعاً لاجراآت بونابرت . وكانت جيوش النمسا تزحف من كل جهة من بلاد النمسا لنجدة هذه المدينة وكثر جداً عدد الجيش الذي كان محافظاً عليها وكانت الحصون الجديدة تقام بكل سرعة حول حصونها القديمة وكان نهر المينسيو العظيم حصناً منيعاً يعوق الفرنسويين



عن الدخول اليها

اما بونابرت فاخذ في اجراء ما يخدع بوليو لكي لا يعلم المكان الذي كان جيش فرنسا مزمعاً ان يعبر منهُ النهر كما فعل عند ما اجتاز نهر بو ونهر ادا وعوضاً عن ان يعبر النهر امام بشيرا حيث كان الجيش النمسوي الاحتياطي مقيماً عبرهُ عند مدينة بورغيتو وكان هناك نحو ثلثة الاف من الفرسان النمسويين واربعة الاف من المشاة فهاجمهم الجنرال مورات الفرنسوي واسر الفي جندي منهم واخذ تسعة مدافع ورايتين وفي اثناء ذلك دخل الجنرال كاردان الفرنسوي مدينة بورغيتو وتمكن بيسالة عجيبة من بناء جسر النهر . وكان النمسويون قد احرقوهُ وعبر الجيش كلهُ نهر المينسيو وسارت فرقة اوجيرو نحو بشيرا وفرقة سيربريه نحو مدينة ڤيلا فرانكا وتقدم الجنرال بونابرت باركان جيشهِ العام الى مدينة فالاجيو قبل ان يتم عبور فرقة الجنرال ماسينا التي كان عليها ان تقيم في هذه المدينة . ولما كانت فرقة ماسينا متاخرة ورأى النمسويون انهُ ما من مانع يمنعهم عن مهاجمة فالاجيو التي كان بونابرت فيها دخلوها . ولو لم يسرع احد رفاق بونابرت باقفال باب المنزل الذي كان فيهِ لأسر النمسويون بونابرت لكنهُ لما شعر بالخطر الذي كان يتهددهُ ركب جواداً وهرب من بستان كان بالقرب من منزلهِ ولما بلغ هذا الخبر فرقة الجنرال ماسينا بادرت حالاً الى مهاجمة هذه المدينة وفتحتها بعد تشتيت شمل النمسويين . ولما كان ذلك مما يحمل القوم على ان يتنبهوا الى الخطر الذي تمسي فيهِ فرنسا اذا اسر العدو قائدها العمومي قر القرار على ترتيب فرقة من الفرسان الذين يكونون قد صرفوا عشر سنوات في الخدمة العسكرية ليكونوا دائماً مع القائد العام فتعينت هذه الفرقة واقيم الفريق بيسير رئيساً عليها . ولم يقصد بونابرت بذلك ان يقيم حراساً لنفسهِ خوفاً من القتل لانهُ كان يطرح بنفسهِ في حومة الوغى تحت الاخطار دون ان يبالي بها غير انهُ جعل هذه الفرقة معهُ دائماً ليستخدمها عند ما تمس الحاجة للقيام باجراآت غير عادية

وكان لا يقدر ان يحاصر مدينة منتوا بدون ان يفتح مدينة فيرون التي كانت من اعمال جمهورية البندقية ما لم يخالف القوانين المرعية الاجراء بين الدول لان البندقية كانت على الحيادة غير انهُ اذ كان الجنرال بوليو قائد النمسويين لم يراع حقوق هذه الحيادة بل استولى على مدينة بشيرا وتحصن فيها ساغ لبونابرت بالنظر الى النمسا ان يستولي على فيرون وبناء على ذلك استولى عليها . فارسلت اليهِ حكومة البندقية سفيراً وهو الجنرال فوسكاريل وتشكت من استيلائهِ على مدينة فيرون حال كونها محافظة على الحيادة ولم ينجح هذا السفير فارسلت اثنين اخرين فلاطفهما بونابرت اكثر مما لاطف الاول وطلب اليهما ان تتعهد حكومتهما بتقديم المهمات والذخائر اللازمة لجيش فرنسا وعند نهاية الحرب تدفع ثمنها الحكومة الفرنسوية ووعد حكومة البندقية بانهُ سيقيم بينها وبين فرنسا الالفة والاتحاد . فخرج السفيران من عندهِ مندهشين من حذقهِ السياسي الذي كان يفوق حذقهُ في فن

الحرب وبعثا برسالات الى حكومتهما ما آلها تقرير ما حدث والكلام الذي جرى بينهما وبين بونابرت وما ياتي هو ختام الرسالة ان هذا الانسان اي بونابرت سيحصل في المستقبل على سطوة عظيمة في وطنهِ . وكان ذلك في ٥ حزيران (جون) سنة ١٧٩٦

وعند ما ارتاح بال بونابرت من جهة مهمات جيشهِ وذخائرهِ واستولى على الاديج حوّل افكارهُ الى ما يلزم اجراؤهُ للاستيلاء على مدينة منتوا وموقعها بين ثلث بحيرات من مياه المنسيو وهي متصلة بالبر باربعة او خمسة جسور ففتح قرية سن جورج بجوار تلك المدينة واقام فيها الفرقة الاولى من جيشهِ وفرقة الجنرال اوجيرو ونزلت في باب سيريز . وبعد ان رحل النمسويون من بياتولا دخلها الجنرال سيربريه بفرقتهِ وهكذا اصبحت الاماكن الاربعة التي تصل مدينة منتوا بالبر في يد الفرنسويين . وكان على الجنرال اوجيرو ان يحافظ بفرقتهِ على جهة الاديج الجنوبية وعلى الجنرال ماسينا ان يراقب مذاهب التيرول اما الجنرال سيربريه فاحاط بمدينة منتوا وحصرها باربعة الاف جندي فقط مع ان الجيش الذي كان في قلاعها كان نحو ١٤ الف جندي نمسوي . ولكن مدافع بونابرت كانت قليلة ودون الاحتياج فكان لا يقدر ان يشدد الحصار فاقتصر على قطع المواصلات الخارجية عنها لانهُ لم يستولِ الا على الجهات الاربع التي تصلها بالبر اما الجهة الخامسة فكانت لا تزال في يد النمسويين . وكانت دولة النمسا تعرف ان العواقب تكون مضرة لها اذا تمكن بونابرت من الاستيلاء على تلك المدينة ولذلك عزلت قائد جيشها الذي كان في ايطاليا وهو الجنرال بوليو وارسلت مكانهُ الجنرال ميلاسن موقتاً وامرت الجنرال فورمسير قائد جيشها في جهات الرين ان ينجد المدينة بجيش جرار ويرفع الحصار عنها ويتقلد قيادة الجيش الاولى . وكانت الحكومة الفرنسوية قد ارسلت جيشين الى جهة الرين ليفتحا المانيا من ناحية نهر مين ونهر الدانوب وفي الوقت نفسهِ كان بونابرت يقصد فتحها بجيش فرنسا الذي كان في ايطاليا وكان على الجيشين المذكورين الجنرال مورو والجنرال جوردان غير ان حالتهما كانت كحالة جيش بونابرت عند دخولهِ ايطاليا وكانت الحكومة عاجزة عن ان تاتيهما بالمساعدات اللازمة ولذلك كانت حركتهما بطيئة جداً ولم يكن لقوادها من التوفيق ما كان لبونابرت وهكذا تمكنت دولة النمسا من ان ترسل قائدها فورمسير بجيش جرار لينجد جيشها في ايطاليا

وفي ذلك الزمان ورد الجواب الى بونابرت من حكومتهِ بانها عدلت عن قسمة جيش الرين اتباعاً لرايهِ الذي سندهُ بقولهِ في رسالتهِ للحكومة انهُ اذا اصرت على قسمة الجيش يستعفي من القيادة وفوضت اليهِ الحكومة اجراء كل ما يراهُ موافقاً وعند ذلك اخذت تنتشر تلك السطوة العظيمة التي ستقف عليها في كل اعمالهِ الحربية والسياسية

وكان لا يقدر ان ياتي جيشهُ بكل المدافع التي اخذها من الساردو لانهُ استخدمها لحصر ميلانو



وكان يخاف قدوم الجنرال فورمسير اذ سمع بانهُ آتٍ اليهِ فبادر الى تمهيد المصاعب والقلاقل التي كان يراها في جميع ممالك ايطاليا ودوقياتها التي كانت لا تزال تحب النمسويين وعلى الخصوص عند ما عرفت بان الجنرال فورمسير قادم اليها . فشرعوا يعدون انفسهم بالتمكن من قهر الفرنسويين معلنين بان جيش بونابرت الذي كان عددهُ ٤٠ الف جندي لا يقدر على النجاة لان جيش النمسا في ايطاليا يصير بعد ان ينضم اليهِ جيش فورمسير ٧٠ الفاً على ان بونابرت لم يبالِ بكل هذه الاخطار لما لهُ من الدراية والشجاعة في الاعمال الحربية التي مكنتهُ من الاستيلاء على مدينة ليكورنو في توسكانا وعلى السفن الانكليزية التي كانت في مينائها والاموال التي كانت قد اتت بها لتقوي الاحزاب المضادة لفرنسا في ايطاليا ومن استلام اموال جميع تبعة الانكليز الذين كانوا فيها . وكان قد اقترب من جزيرة كورسيكا فهيج فيها ثورة على الانكليز الذين فتحوا الجزيرة غدراً واقام اجراآت في دوقيات ايطاليا ومدنها من شانها منع الاهالي عن التظاهر ضد الفرنسويين ثم فتح قلعة ميلانو فتسهل لهُ حصر منتوا . فلما اصبح كل شمال ايطاليا في يدهِ ارسل اليهِ ملك نابولي وفداً يطلب عقد هدنة وقاية لاملاكهِ وهذا كان من توفيقات بونابرت لان انكلترا بهذه الهدنة خسرت مساعدة سفن نابولي الحربية المولفة من خمس بوارج كبيرة ومراكب متوسطة كثيرة وكانت تعوق ملك نابولي عن ان يرسل جيشهُ لمحاربة الفرنسويين وكان عددهُ نحو ٥٠ الفاً

ولما اتت بونابرت نجدة من جنود الالب اقام منها ١٥ الفاً امام منتوا وامام قلعة ميلانو و٣٠ الفاً المحافظة على الاديج وركب في فرقة وذهب بها الى جهة بولا لاتمام مقاصدهِ في جنوب ايطاليا . فذهب بنفسهِ لحصر قلعة ميلانو وامر الجنرال اوجيرو ان يعبر نهر بو ويدخل مدينة بولونا واشار على الجنرال فوبوا ان يتقدم بفرقتهِ من تورنون الى جهة موريتا وكان ينتظر بفروغ صبر انخفاض مياه نهر بو الطاغية حينئذٍ ليامر قوادهُ بالدخول الى مملكة نابولي . وفي تلك الاثناء اتاهُ البرنس بيلمونتي بينياتيلي سفيراً من تلك المملكة وقال لهُ ان حكومة نابولي مستعدة ان تصالحهُ . فقال لهُ ان عقد الصلح من متعلقات الحكومة في باريس غير انهُ عقد معهُ شروط هدنة موقتة لانهُ لم يكن من مصلحة بونابرت ان ياتي بجيوشهِ اواسط بلاد نابولي لعلمهِ بقدوم جيش النمسا الجديد لمحاربتهِ ولذلك كان من مصلحتهِ الموقتة ان يفصل نابولي عن الاتحاد مع اعداء فرنسا وان يقيم خلافاً بينها وبين رومية . وكانت هذه المملكة من اكبر ممالك ايطاليا الصغيرة فلم يقدر بونابرت ان يحملها شروطاً صعبة ومن الشروط المذكورة تعهدها بفتح ثغورها للتجارة الفرنسوية وبارجاع بوارجها الحربية التي ارسلتها لنجدة الانكليز وارجاع الفرسان الذين ارسلتهم لنجدة الجيش النمسوي وعددهم الفان وبرعاية فارس وان تبقي هذه الجنود تحت امر بونابرت ليستاسرها اذا خرقت نابولي شروط الهدنة . وكان بونابرت عالماً ان الحكومة الفرنسوية لا ترتضي بهذه الشروط السهلة ولكنهُ اكتفى بها

لضرورة الحال وعلى الخصوص لان البابا يمسي بذلك غير قادر ان يدافع عن نفسهِ بعد ان تعقد الشروط بين فرنسا وبينها وهذا يمكن بونابرت من نوال ماربهِ في تلك الجهة ومن الرجوع حالاً الى معسكرهِ في الاديج لمحاربة النمسويين الذين كانوا آتين ليهاجموهُ . وبعد ان عقد هذه الهدنة ذهب قاصداً جهة بولكي يعبرهُ ويدخل املاك حضرة البابا وكانت جنوا عندهُ ذات شان لانها كانت محافظة على طريق فرنسا الجنوبية وكان عازماً على ان يطلب الى حكومتها طرد جميع النمسويين والنابوليين الذين كانوا قاطنين فيها غير انهُ كان يخاف من حدوث ثورة فيها فاكتفى بان يرسل كتاباً الى مجلس تلك الجمهورية مآلهُ طلب قصاص والي نوفي لانهُ ساعد قطاع الطرق وطرد سفير النمسا من جنوا وما ياتي هو بعض ما كتبهُ في الرسالة المذكورة هل تقدرون ان تقطعوا من بلادكم تعديات اللصوص وقطاع الطرق ام لا . فاذا كنتم عاجزين عن ذلك فاخبروني لاجري بوجه السرعة ما يتكفل بقطعهِ باحراق المدن والقرى التي يدخلها هولاء اللصوص ولكي اعاقب بكل صرامة الحكام الذين يسمحون بوقوع ما هو من هذا القبيل لانهُ من الواجب ان يوثر قتل فرنسوي واحد في كل الناحية التي يقتل فيها وكان سبب طلبهِ ذلك تعدي الاهلين على موخرة جيشهِ ومنعهم وصول المهمات التي ترسل اليهِ من فرنسا وكانوا بعد التعدي يخفيشون في الادغال

وبعث بونابرت بهذه الرسالة مع معاونهِ الجنرال مورات وامرهُ ان يقراها على المجلس واخبر بذلك سفير فرنسا المقيم في جنوا وقال لهُ في رسالة هذه احسن طريقة لنوال المرام من اولئك القوم وافضل من ان نخابرهم بحسب الاصول السياسية وارسل في ذلك الزمان الجنرال لان مع فرقة عددها الف ومئتا جندي ليعاقب القطائع الامبراطورية في ايطاليا فاحرق قصر اوكوستين سبينولا وامر بقتل الاهلين بعد ان القى القبض عليهم وهم متقلدون الاسلحة . فلما راى ذلك مجلس جنوا وبلغتهُ رسالة بونابرت ارتعدت فرائصهُ خوفاً وامر بعزل والي نوفي وطرد سفير النمسا من بلادهِ ووعد باقامة الجيوش للمحافظة على الطرق وارسل الى باريس موسيو فنسان سبينولا لعقد اتفاق مع الحكومة على الامور الواقع عليها الخلاف المتعلقة بالمطلوب دفعهِ كتعويض عن المركب مورسيتا وبطرد العيال النمسوية والنابولية وارجاع العيال التي نفيت سابقاً . وبعد ذلك ذهب بونابرت قاصداً مودينا ودخلها في ١٩ حزيران (جون) وفي الوقت نفسهِ دخل جنرالهُ اوجيرو مدينة بولونا . اما اهل مودينا فاستقبلوا بونابرت بالسرور وطلبوا اليهِ ان يمنحهم الحرية ويخلصهم من ربقة الدوقية فوعدهم بذلك بعد حين لانهُ كان يروم تسكين الحال لجمع جيشهِ كلهِ لمحاربة النمسويين بعد وصول فورمسير . ثم اتى بولونا وعرّج على مدينة اوربين من املاك البابا وكان فيها قلعة فطلب الى قائدها ان يفتح لهُ ابوابها ففعل وكان فيها ستون مدفعاً وبضع مئات من الجيوش فارسل تلك المدافع لحصار منتوا . ودخل مدينة بولونا



فاستقبلهُ الاهلون بالفرح والسرور . وكانت هذه المدينة ومدينة فيرارا من املاك البابا وكان من الداعداء الجمهورية الفرنسوية ولذلك لم يتردد بونابرت عن ان يجيب طلب الاهلين في هاتين المدينتين ومنحهما الاستقلال والحرية التامة ونظم لهما حكومة خصوصية ووعدهما بان البابا يعترف باستقلالهما عندما يعقد الصلح معهُ

فخاف البلاط الروماني من سوء العواقب وارسل حالاً رسولاً الى بونابرت يطلب اليهِ عقد اتفاق مع البابا وكان هذا الرسول سفير اسبانيا في رومية وهو موسيو دازارا المشهور بالحذق وحب فرنسا ولذلك طلب اليهِ البابا ان يقوم بهذا الامر وكانت العلاقات بين فرنسا واسبانيا في ذلك الزمان ودادية وكان هذا السفير قد عقد الصلح بين بونابرت ودوك بارما فاتى مدينة بولونا وخابر بونابرت في عقد الصلح بينهُ وبين رومية فاجاب طلبهُ على غير رضى حكومتهِ نظراً للاسباب التي مرَّ ذكرها مع ان حكومة فرنسا تحب اتمام ذلك فعقد هدنة مع حضرة البابا وطلب ان تكون مدينة بولونا وفيرار مستقلتين وان تقيم جيوش فرنسا في مدينة انكونا وان تدفع حكومة رومية ٢١ مليوناً من النقود وان تعطيهُ ما كلاً ومواشي وان تعطي حكومة فرنسا مائة صورة او تمثال من صور رومية القديمة الشهيرة فقبلت رومية بهذه الشروط

وفي ٢٦ حزيران (جون) قطع بونابرت جبال الابنين بفرقة فوبوا ودخل بها بلاد توسكانا فخاف منهُ دوق تلك البلاد وارسل اليهِ رسالة فامنهُ دون ان يخبرهُ عن مقاصدهِ وذهب بسرعة لامزيد عليها الى مدينة ليكورنا ودخلها بسرعة واستولى بها على ادارة تجارة انكلترا الجارية بينها وبين الهند والقى القبض على الوالي وارسلهُ الى دوق توسكانا مولاهُ وكتب اليهِ ان يقاصهُ لانهُ كان يضطهد تجار فرنسا في تلك المدينة وان بونابرت لم يقاصهُ بيدهِ اكراماً لخاطر الدوق المذكور وهكذا كانت كل الدول الايطالية تخاف بونابرت وكان يقول لحكوماتها انهُ عالم بما سيجري فيها من الحوادث

ثم اتى فلورنسا فاستقبلهُ دوقها بالتعظيم وذهب منها قاصداً روفيربيلا وهي مكان اعظم اعمالهِ الحربية وهكذا تمكن من اخضاع ايطاليا الجنوبية بمدة عشرين يوماً واطمأن من جهة محاربة جنود النمسا التي مع القائد فورمسير

ومع ذلك لم توفر ممالك ايطاليا الصغيرة المعاهدات التي عقدت مع بونابرت لان جمهورية جنوا كانت لاتزال سامحة لسفير النمسا ان يقيم في بلادها مع انها كانت قد تعهدت بطردهِ لانهُ هيج الاهلين على الفرنسويين وكذلك كانت جمهورية البدقية تتظاهر بالحيادة مع انها كانت اخذة في تجهيز يدل على فتح حرب ولما كانت هذه الحالة حالة تلك الدول التي كانت تكره فرنسا كان من مقتضيات السياسة ان يلاطف بونابرت الشعب الايطالي خلافاً لارادة حكومة

فرنسا ولذلك ارسل الى باريس كتاباً طويلاً بين فيهِ عدم موافقتهِ السلوك بحسب راي الحكومة نظراً للاحوال المار ذكرها ويقال انهُ نهج منهجاً مضاداً لذلك . ثم اوضح للحكومة رسم المحاربة التي كان مستعداً ان يقيمها بجيشهِ القليل على فورمسير وجيوشهِ الجرارة ووعد الحكومة بالفوز وكان لهُ ٤٠ امدفعاً امام منتوا . وفي ٢٢ تموز ( جوليه ) انهى نظامات لمبردبا الداخلية وعقد المعاهدة مع الساردو وباقي دول ايطاليا وهكذا كانت ايطاليا جميعها خاضعة لفرنسا او حليفة لها بالسيف او الهدنة او عقد المعاهدات التي جعلت معها كل البلاد من جبال الالب الى بوغاز مسينا في جنوبي ايطاليا ولم يكن من يقاوم فرنسا في تلك البلاد الا مدينة منتوا المحصورة والجنرال فورمسير فاتى لينجدها

وكان جيش فرنسا بفوز ذلك الفوز العظيم ويلبس اكاليل الفخر والمجد وكان جيشا مورو وجوردان اللذان ذكرناهما قبلاً ثابتين في مراكزهما ولم يقدرا ان يتوغلا في المانيا لانهُ لم يكن عندهما ما يحتاجان اليهِ من المهمات الحربية . اما النمسا فعوضاً عن ان تبادر الى مهاجمة هذين الجيشين ودفعهما ومطاردتهما في بلادها شرعت تستعد للقتال واضاعت فرصة خطيرة جداً مع ان جيشها كان اكثر من جيش فرنسا واحسن نظاماً منهُ . غير ان نجاح الجنرال بونابرت في ايطاليا الزمها ان تنفصل ثلاثين الف جندي عن جنودها في الرين وترسلهم تحت قيادة الجنرال فورمسير الى ايطاليا عوضاً عن الجنرال بوليو وهكذا تمكن جيش فرنسا ان ينفع وطنهُ نفعاً كثيراً وان يزيل بعض الموانع التي كانت تعوق جيشي فرنسا في الرين عن التقدم بذهاب الجنرال فورمسير وكان الجنرال كارنوت احد رجال الحكومة الادارية في باريس قد بعث الى الجنرال مورو والجنرال جوردان رسماً للقتال فذهب الجنرال مورو الى جهة الرين الاعلى وذهب الجنرال جوردان الى جهة الرين الاسفل وكان جيش فرنسا والنمسا متعادلين في العدد . اما جيش النمسا فكان ممتداً من مدينة بال الى جوار مدينة ريسلدورف وكان عددهم نحو ١٥٠ الف جندي وهذا عدد الفرنسويين ايضاً وعدد فرسان النمسويين نحو ٢٨ الف فارس مع انهُ لم يكن عدد الفرنسويين منهم الا نحو ١٧ الف فارس . وهذه القوة كانت تساعد النمسويين كثيراً في حركة جيشهم والذي مكنهم من ان تكون حالتهم احسن من حالة الفرنسويين شيء اخر انهُ بعد ذهاب الجنرال فورمسير الى ايطاليا اصبح جيشهم كلهُ في الرين تحت امرة قائد واحد وهو الارشيدوق شارل وكان صغير السن لكن اشتهر انتصارهُ في معركة توركوان وغيرها وكان الجميع يثنون عليهِ . وكان جيشا فرنسا منقسمين الى قسمين احدهما تحت قيادة مورو والاخر تحت قيادة جوردان لكن كان احدهما يقاوم الاخر وكانا يسلكان بحسب اوامر الجنرال كارنوت وهو في باريس وفي ٢٠ ايار ( مايس ) سنة ١٧٩٦ باشرت الجنود الحرب واول معركة كانت مع



جيش الجنرال جوردان في جوار مدينة ماينس حتى مدينة روسيلدورف . وكان امامهُ بعض جيش النمسا تحت امرة امير ورتمبرج فارسل جوردان الجنرال كليبر ومعهُ ٢٥ الف جندي لطرد النمسويين فواقعهم في ٤ حزيران ( جون ) وطردهم الى مدينة التينكرشن وجاز البلاد بين اراضي بروسيا المحافظة على الحيادة ونهر الماين ولما بلغ بفرقتهِ تلال نيوفيل واستلم طريق الوادي عبر الجنرال جوردان نهر الرين بفرقة ثانية من جيشهِ واتى مركز الجنرال كليبر وهكذا اصبح عدد الفرنسويين في ميمنة الرين نحو ٤٥ الف جندي ووضع جوردان امام ماينس نحو ٣٠ الف مقاتل تحت قيادة الجنرال مارسو . ولما عرف الارشيدوق شارل النمسوي ان الفرنسويين تقدموا زحف ليصادمهم فتاخر جوردان عن مهاجمة جيش امير ورتمبرج يوماً واحداً واضاع الفرصة الحسنة وامسى في اليوم الثالث يدافع عن نفسهِ فان النمسويين كانوا يهاجمونهُ بالقرب من مدينة فيتزلار فالتزم ان يرجع بجيشهِ اذ راى انهُ لا سبيل الى مقاتلة الارشيدوق

اما الجنرال مورو فكان من اعظم قواد عصرهِ فقصد ان يعبر نهر الرين بالقرب من مدينة ستراسبرج وكانت لهُ الوسائط اللازمة لذلك من مهمات وغيرها وكان جيش النمسا مشتغلاً في جهة الرين الاسفل بمقاتلة الجنرال جوردان . وفي ١٤ حزيران ( جون ) امر مورو قائداً من قوادهِ ان يهاجم معسكر النمسويين امام ما نهيم ليخدع الجنرال لانور النمسوي فلا يعرف مقاصدهُ ثم اخذ يجمع الجنود من كل الجهات ويرسلها الى ستراسبرج واشاع انها ذاهبة الى ايطاليا لتنجد الجنرال بونابرت ثم ارسل معتمدين ليهيئوا للجنود زاداً في ولاية فرانشكونته على طريق ايطاليا ليتحقق النمسويون صحة الاشاعة التي اشاعها وبعد ان اجتمع الجيش كلهُ في ستراسبرج في ٢٢ حزيران ( جون ) نهض ليلاً وعبر النهر بالقوارب وطرد الجنود المقامة هناك للمحافظة ولما وصلت بقية الفرق هجمت على قلعة كهيل وفتحوها بالسيف ثم حولوا المدافع على جيش النمسا وهو يزحف لمهاجمتهم من جهة فيلستيت وارجوعوهم الى الوراء ثم اقام المهندسون الفرنسويون جسراً ثانياً من كهيل الى ستراسبرج وفي اليوم الثاني اجتاز كل الجيش وذلك في ٢٥ حزيران ( جون ) وعبور هذا النهر لا يخلو من الصعوبة

فنال مورو ما يستحق من الفخر غير ان عملهُ لم يكن فوق العادة لان جيش النمسا كان ممتداً من بال الى ماينهيم ولم يكن منهم في كل مرحلة غير قليلين ولذلك لم يتمكنوا من المدافعة عن شطوط النهر ولو كان لمورو من الحزم وسرعة الاجراء ما كان للجنرال بونابرت لعبر النهر وبادر الى مهاجمة مراكز النمسويين المتفرقة وهذا مما كان يمكنهُ من ان يشتت شمل جيش النمسا المقيم على الرين الاعلى قبل ان يتمكن قائدهُ العام الارشيدوق شارل من ان ينجدهُ وهذا يبين ان النصر انما يتم بحسن التدبير فالراي قبل شجاعة الشجعان فينبغي ان

يكون قائد الجيش عارفاً بالامور السياسية والحربية

اما مورو فكان ذا عقل ثاقب وراي صائب غير انهُ لم يكن لهُ من البلاغة وقوة الاقناع ما كان للجنرال بونابرت فان جنودهُ كانت تفعل وهي معهُ ما لا تفعلهُ مع غيرهِ . ومن ٢٥ حزيران (جون) الى ٢٨ جمع مورو فرق جيشهِ في الجهة اليمنى من الرين وكان عددها نحو ٥٢ الف جندي وكان منتظراً وصول فرقة الجنرال سنسير التي تركها في مانهيم . وفي ٢٨ حزيران (جون) هجم على معسكر النمسويين بالقرب من رانشان واعمل فيهم السيف واسر منهم ثمانماية اسير فتقهقر الباقون وانضموا الى جيش الجنرال لاتور الذي كان في الجهة اليمنى من النهر . وفي ٣٠ من الشهر المذكور وصلت فرقة سنسير وانضمت الى جيش مورو فاصبح عدد جيشهِ نحو ٧١ الف مقاتل فاقام الجنرال ديسيز في الميمنة والجنرال فيرينو في الميسرة والجنرال سنسير في القلب وكان معسكره في حضيض مونتان نوار وكان قاصداً ان يجتاز بجيشهِ هذه الجبال لكي يتمكن من دخول وادي نيكير الواقع بين نهر الدانوب جهة الرين . اما جيش المانيا الذي هو من ولاية السواب وجيش كونده فكانا يذهبان الى جهة سويسرا قاصدين منع مورو عن اجتياز مونتان نوار وكان الجنرال لاتور اتياً من مانهيم ليستولي على الطريق الاخرى في حضيض الجبال المذكورة بالقرب من راستاد . وكان مورو قادراً ان يصادم الجنرال لاتور بكل جيشهِ ويتمكن من دخول وادي نيكير غير انهُ حال دون ذلك خطر بسبب قرب جيش كونده والسواب فامر الجنرال فيرينو ان يهاجم جيش كونده والسواب والجنرال سنسير ان يداوم المسير في وسط البلاد صاعداً الى جهة مونتان نوار ليستولي على قممها ثم اتى هو حضيض الجبال المذكورة وانحدر الى القرب من مدينة راستاد فاصبح امام الجنرال لاتور النمسوي . وكان ذلك في ٣٠ حزيران (جون) وسار سيراً متواصلاً الى ٢ تموز (جوليه) وكان قادراً ان يناز لاتور . وينتصر عليهِ لان الارشيدوق شارل كان لا يزال بعيداً عنهُ لكن قصد ان يتقدم متجنباً مقاتلتهُ بقدر الامكان لان فرقة سنسير وفيرينو كانتا بعيدتين عنهُ

والتزم ان يقاتل لاتور في ٥ تموز (جوليه) وكان هذا القائد النمسوي قد اقام بجيشهِ بين نهر مورك ومدينة كيرنسباك فهجم مورو الفرنسوي عليهِ مع ان جيشهُ كان جراراً وفرسانهُ ومدافعهُ كثيرة وانتصر عليهِ وعبر نهر مورك واستولى على مدينة راستاد وانهزم لاتور . اما مورو فانتظر قدوم سنسير اليهِ الى ٦ تموز (جوليه) ولم يطارد لاتور قبل ان اتاهُ الارشيدوق بنجدة عددها ٣٥ الف جندي وبعد وصول هذا الارشيدوق تهيأ الفريقان لتجديد القتال اما مورو فصمم على ان تكون مواقف جيشهِ في الجبال وفي السهول المجاورة لها لان اكثرهُ كان من المشاة وكانت فرسان العدو كثيرة

اما الارشيدوق شارل فاتمام الاستعدادات الكافية لتجديد القتال واصلح ما كان قد اتى بهِ سوء



تدبير الجنرال لاتور بتقسيم فرق جيشهِ ثم استعد لمهاجمة جيش مورو في ١٠ تموز (جوليه) . وكان هذا الجنرال الفرنسوي عارفاً مقاصد الارشيدوق النمسوي فهاجمهُ في ٩ من الشهر المذكور وهو على غير استعداد وقام الجنرال سنسير باعمال عظيمة في ذلك القتال كانت سبب نجاح الفرنسويين . فتقهقر البرنس شارل مع اقتدارهِ على تجديد القتال ولم يكن ذلك خالياً من الخطر فتفضل التصرف بالحكمة ورجع عن حدود المانيا التي كان غير قادر ان يدافع عنها قاصداً حدود الدانوب ملتجئاً الى قلعتي ألم ودانيسيون . فاصبح الارشيدوق في مركز حسن لانهُ كان في بلادهِ مستنداً الى نهر عظيم وحصون منيعة وكان قادراً ان يدفع هجمات العدو ولو كانت شديدة . اما العدو الذي ياتي اليهِ ليهاجمهُ فيمسي في موقف غير حسن لانهُ يكون بعيداً عن وطنهِ مقيماً بين الجبال والانهر العظيمة محاطاً بالمخاطر الكثيرة . وقام هذا الارشيدوق باعمالهِ قياماً حسناً ورجع بجيشهِ الى الوراء وكان عددهُ نحو ١٠٢ الاف جندي خلا الجنود التي تركها في الحصون والقلع . اما مورو فتبعهُ وطلب الى الجنرال جوردان قائد جيش الرين الاسفل ان يقطع الرين ثانية ويطارد جيش الارشيدوق في جهة نهر الماين وكان مورو يطاردهُ الى جهة وادي نيكير . ولما وصل هذا الجنرال بجيشهِ الى طريق وادي نيكير التزم ان يقاتل جنوداً من جنود الاعداء وقطع سلسلة جبال فاصلة وادي نيكير عن الدانوب واتى وادي الدانوب في اواخر تموز . اما جوردان فبعد ان قطع من شطوط نهر لهن الى شطوط نهر الماين وحارب النمسويين في فريد برج اقام امام مدينة فرانكفورت وتهددها بضرب الكرات المحشوة اذا لم تسلم حالاً فسلمت بعد يومين في ١٦ تموز (جوليه) واخذ منها غرامة حرب وتقدم الى ما وراء نهر الماين واستولى على مدينة فورتز بورج في ٢٦ الشهر المذكور ثم قطع الى ما وراء جبال سواب عند شاطي نهر نياب الذي يصب في الدانوب وكان معسكرهُ شمالي معسكر مورو ووصل الى هناك في اول شهر آب (اوغسطوس) فطلبت ولايتا سواب والسكس عقد هدنة مع فرنسا وارسلتا رسلاً الى باريس واقامتا على الحيادة وارجعتا جيشيهما وعددهما ١٢ الفاً عن جيش الارشيدوق شارل وهكذا في اواسط فصل الصيف كانت جيوش فرنسا من الجهة الواحدة مستولية على كل ايطاليا ومن الجهة الثانية على نصف المانيا الى الدانوب وكانت تتهدد باقي اوربا وكانت الحكومة الادارية قد انهت الحروب الاهلية في داخلية فرنسا في ولاية فاندي واخضعت جميع الاهلين في الولايات الغربية وهكذا فرغ خمسون الف جندي من الحروب الداخلية وكانت الحكومة قادرة ان ترسلهم حيثما شاءت . وكان الجميع في فرنسا يمدحون قواد عساكرهم وهم الجنرال هوش قائد جيش فاندي ومورو وجوردان والشاب بونابرت وتعاظمت كثيراً سطوة فرنسا في الخارج

وكانت حالة فرنسا الداخلية في اواسط سنة ١٧٩٦ غير حالتها في الخارجية لان اهل باريس

كانوا يكرهون جدًّا الحكومة الادارية وعلى الخصوص بعد ان القت القبض على بابوف الباريسي الذي كان الشعب يحبهُ جدًّا وعلى دوريه وغيرهما من اهل الفضل والشهرة وكانوا لا يتمنون النجاح لعساكرهم لانهُ يقوي تلك الحكومة ويثبتها وكان اعداء الثورة من الفرنسويين يستغنمون فرصًا كهذه الفرص لاظهار ما في بواطنهم من البغض لتلك الانقلابات حتى ان الذين فازوا بالثورة وارتقوا اعلى المراتب كانوا يتظاهرون بانهم غير مرتضين من نتائج تلك الثورة ولا من الاحوال التي كانت جارية حينئذٍ والسبب في ذلك شعور الامة بالاحتياج الى الراحة لانها كانت تعرف ان الحكومة ايضًا قد امست متعبة من الحروب ولا سيما خزينتها التي باتت فارغة فامست في احتياج شديد الى التوفير . ومع ذلك كان كثيرون من الفرنسويين يمدحون نتائج تلك الانقلابات السياسية وكانوا يفرحون جدًّا عند ورود خبر انتصار الجيوش ويشرعون في مدح القواد والعساكر وعلى الخصوص ذلك القائد الشاب الذي فتح ايطاليا غير مبالٍ بالصعوبات التي كانت تحول دون المرام . غير ان الحسد القبيح لا يترك مكانًا خاليًا من اكداره مرتاحًا من اتعابهِ فحسد كثيرون بونابرت وقصدوا حمل الحكومة على تنزيل رتبتهِ فشرعوا يشيعون بالجرائد ان الحكومة عازمة على ارسال الجنرال هوش بجيشهِ بعد ان اخضع الاهالي في الولايات الغربية الى ايطاليا ليلقي القبض على بونابرت وكانوا يتهمونهُ بالخيانة ويحاولون ان يبرهنوا صحة اكاذيبهم بالتصرف الذي تصرفهُ بونابرت مع ملوك ايطاليا وامرائها لانهُ كان يعقد معهم عهود هدنة وصلح بدون ان يستشير الحكومة المركزية في باريس وقالوا انهُ رسل نقودًا الى قواد الرين راسًا لا بواسطة الحكومة . غير ان الحكومة لم تكترث بهذه الاشاعة ولكنها بعثت برسالة الى بونابرت مدحت فيها اعمالهُ الغريبة وفوضت اليهِ السلطان المطلق ان يفعل ما يراهُ حسنًا كذلك الجنرال هوش صديق بونابرت بعث برسالة جوابية تكذيبًا لما نسب الى بونابرت من المقاصد ونشرت الجرائد الرسالتين المذكورتين وكانت الحكومة الفرنسوية تحب ان تثبت قوادها في اجراآتهم وان لا تجري ما يتعبها ويوقعها في ارتباك لتتمكن من ان تصرف كل قوتها في اصلاح ماليتها في الداخل وايجاد النقود اللازمة لسد نفقاتها الكثيرة . وكانت الامة غير محتاجة الى النقود كاحتياج الحكومة اليها لان الراحة كانت قد رجعت بعض الرجوع في الداخلية وكانت الحكومة قد عقدت عهود صلح مع بعض الدول الاجنبية فبادر التجار الى القيام باعمالهم العادية بهمة ونشاط ولذلك كان الاهلون في رغدٍ ويسر وكانت الحكومة غير قادرة ان تقوم بمعاش جيوشها وان تسد احتياجات المستشفيات وتشتري الملابس اللازمة فامست الجيوش في الداخلية في اسوإ حال وقصرت عن القيام بحق المحافظة فكثرت قطاع الطرق واللصوص وفقدت الامنية وكانت الجنود غير قادرة ان تنتقل من مكان الى مكان ولم يكن للحكومة من المال ما يكفيها للقيام بنفقاتها في نفس العاصمة فضلاً عن المبلغ الذي بعثهُ اليها بونابرت من



ايطاليا وقدرهُ ثلثون مليونًا من الفرنكات ومائة حصان للاحتفالات الرسمية واسباب ذلك المعاملة الورقية التي كانت جارية فعزمت الحكومة على الغائها فبعثت اوامرها في ١٦ تموز (جوليه) بابطال تلك المعاملة والاباحة لكل انسان ان يتداول النقود التي تناسبهُ وانهُ يصير قبض الاموال الاميرية بموجب الاسعار التي تقررها الحكومة وتنشرها في جرائدها الرسمية اليومية . وهكذا تمكنت الحكومة من ايجاد النقود مع انها وضعت رسومات كثيرة وجمعت ما مكنها من القيام بنفقاتها الضرورية . وكان المتحزبون للملكية والجمهورية المطلقة في باريس يتشاورون لجهة قلب الحكومة الادارية فهجموا في ذات يوم على معسكر الجيش الذي كان بالقرب من باريس غير انهم انفشلوا وتفرقوا بعد ان صار القاء القبض على روسائهم وعاملت الحكومة جميع الذين اقاموا هذه الثورة بصرامة لا مزيد عليها واقامت مجلسًا حربيًا لمحاكمة الثائرين . فهذا هو تاريخ الحوادث الداخلية التي حدثت في ذلك الوقت وجيوشها في الخارج اخذة في الاستعداد لتجديد القتال وكانت الحكومة مجتهدة في اقامة المخابرات مع اكثر الدول التي كانت قد صالحتها ولكن لم يكن لها حليفة . اما الذين كانوا يزعمون عند ابتداء قيام الجمهورية في فرنسا انهُ ما من دولة من دول اوربا تعترف بهذه الجمهورية فكانوا يقولون بعد ان راوا ان اكثر الدول اعترفت بها انهُ ما من دولة ترغب ان تتحد معها ولذلك كانت الحكومة الادارية مجتهدة في الاتحاد مع الدول الجنوبية اي اسبانيا والشرقية في ايطاليا والباب العالي لتضاد الدول الشمالية . فلما عرفت النمسا وروسيا وانكلترا بذلك امست في قلق لان هذا الاتحاد يجعل البحر المتوسط في قبضة هذه الدول فينفع كثيرًا جيش فرنسا في ايطاليا . وكانت اسبانيا ترغب جدًّا في الانتقام من انكلترا لانها اهانت مراكبها البحرية في حصار طولون وتعدت على حقوقها واستولت على اكثر املاكها في امركا وعلى بعض محلات من بلادها في اوربا . فاتحدت مع فرنسا وعقدت معها عهدًا في ١٩ آب (اوغسطوس) مآلهُ ان فرنسا واسبانيا تتحدان في الدفاع والهجوم ومن واجبات كل دولة منهما ان تنجد الاخرى بجيش عددهُ ١٨ الف جندي من المشاة و٦ الاف فارس وبخمس عشر بارجة حربية و١٥ مركبًا حربيًا محمول كل منها ٧٤ مدفعًا وست بوارج من نوع الفرقاطة واربع من نوع الكورفيت وامرت حكومة فرنسا سفيريها في الاستانة العلية والبندقية ان يجتهدا في اقناع المملكتين المذكورتين في الاتحاد مع فرنسا . ومع ان الحكومة الفرنسوية كانت منهمكة في هذه الاعمال الكثيرة صممت بعد ان خمدت الحروب الاهلية من داخليتها ان تغزو بلاد ايرلاندا التابعة لمملكة انكلترا . وكان الجنرال هوش قائد ذلك الجيش يحب جدًّا ان يتقلد قيادة هذه الغزوة وكان يقول ان بغض اهل ايرلاندا الكاثوليك للانكليز يمكنهُ من ان يقيم حربًا اهلية في انكلترا وبناء على ذلك شرعت الحكومة الفرنسوية في جمع بوارجها الحربية في مينا برست في غرب فرنسا واشاعت الحكومة انها قاصدة ان تبعث بجيشها الى املاكها

في امركا والهند وكان الانكليز يخافون سوء العواقب كل الخوف واضطرب التجار اضطراباً شديداً الان موانى فرنسا واسبانيا كانت لا تدخلها المراكب الانكليزية فاخذ كل الانكليز يشكون من سياسة وزير الدولة الاول اللورد بت وعلى الخصوص لما راوا ان دولة النمسا التي كانت متحدة كل الاتحاد مع انكلترا على فرنسا امست في ضنك شديد بعد ان عقدت مملكتا بادن وورتمبورج الصلح مع فرنسا . ولم تسعف كاترين امبراطورة روسيا النمسا بشيء غير انها ضمنت لها حفظ الراحة والهدو في بولونيا النمسوية عندما تكون عساكرها مشتغلة في ايطاليا تحت قيادة فورمسير وفي الدانوب تحت قيادة الارشيدوق شارل وهكذا تمكنت النمسا من ارسال كل جيوشها الى المحلين المذكورين

## الفصل السابع

### في ما جرى في ايطاليا بعد مجيء الجنرال فورمسير

ولما اتى الجنرال فورمسير النمسوي ايطاليا كان بونابرت قد قسم جيشهُ اقساماً وما ياتي هو بيانها

كان الجنرال سيروريه وثمانية الاف جندي امام منتوا وبقية الجيش في شاطي الاديج اي بجيرة كاردا وكانت فرقة الجنرال اوجيرو وعددها ثمانية الاف جندي نازلة في ميمنة الجيش في محلة لنياكو وكان الجنرال ماسينا نازلاً بفرقتهِ في الوسط في مدينة ريفولي ومدينة فيرون وكان عددها خمسة عشر الف جندي والجنرال سوره وفرقتهُ في يسار الجيش في محلة سالو وعددها اربعة الاف جندي وكانت الفرقة الاحتياطية نازلة بين ميمنة الجيش وقلبهِ وعددهُ ستة الاف جندي ولم يكن اكثر من اربعة اخماس هولاء الجنود قادراً على القتال

وكان جيش النمسا سبعين الف رجل منقسماً الى ثلثة اقسام عدد كل من القسمين الاولين عشرون الفاً تحت قيادة الجنرال دافيدوفتش والقسم الثالث ٣٠ الف جندي تحت قيادة الجنرال فورمسير . فزحف في اواخر تموز ( جوليه ) سنة ١٧٩٦ من مقاطعة التيرول الايطالية مهاجماً اكثر مراكز جيش فرنسا ونجح في ذلك لانهُ الزم الجنرال ماسينا الفرنسوي ان يخرج من مدينة ريفولي واستولى على مدينة بريشيا ومدينة سالو بعد ان هزم منها الجنرال سوره بعد دفاع شديد وتقدمت جيوش النمسويين الى تلال فيرون عند شاطي الاديج الايسر وكانت تراقب منها ميلانو وكريمون ومنتوا . وانكسار الفرنسويين في هذه المعارك مكن بونابرت من ان يعرف الكيفية التي كان النمسويون عازمين ان يقاتلوهُ بها . وكان جيشهُ قليلاً فلم يكن قادراً ان ينازل جيش النمسويين في معركة كبيرة فاجتهد ان يحاربهم وهم متفرقون كمحاربتهِ عساكر الاعداء منذ دخولهِ ايطاليا فكان من اعظم مقاصدهِ ان يمنع انضمام عسكر الجنرال كسدانوفتش



الذي كان في شاطي نهر المينسيو الى عسكر الجنرال فورمسير فاقام لاتمام ذلك اجراآتهِ بعزم وسرعة ونشاط تكاد تكون فايقة قوة البشر لانهُ ارجع عسكرهُ عن حصار منتوا مع انهُ كان قد تقدم كثيراً فيها واخذ ١٤٠ مدفعاً وامر الجنرال سيروريه ان يحرق جميع العجلات والمهمات التي كانت معدة للحصار وان يطرح براميل البارود وغيرها في النهر وان يعطل مدافعهُ ويدفن كراتها في الارض ففعل وانضم بعسكرهِ الى الجيش . وكان الجنرال كسدانوفتش قد قاتل بجيشهِ وعددهُ ٢٥ الف رجل الجنرال ماسينا الذي لم يكن معهُ الا خمسة عشر الف جندي فلم يستطع ان يثبت امامهُ فرحل عن لوناتو راجعاً الى الوراء فبادر بونابرت الى نجدتهِ بنفسهِ واستلم قيادة الجيش المذكور وهاجم النمسويين واستولى على الاماكن التي كانوا قد تمكنوا منها ففروا هاربين

وكانت هذه النصرة مقدمة لنصرة اخرى اعظم منها في كاستيليون وكان فورمسير قد ذهب لقتال سيروريه عند منتوا فلم يجدهُ فتاخر برجوعهِ الى كاستيليون وكان بونابرت قد تحصن فيها . وبعد ان اخبر حالة اعدائهِ رجع مسرعاً الى اوناتو ليسوق جيوشهُ كلها الى كاستيليون وكان يسير مهاجماً فرق النمسويين فكانت تلتزم ان تسلم اليهِ وعرفت فرقة من فرق جيش فورمسير الخاص ان بونابرت دخل لوناتو وانهُ لم يكن فيها الا الف مقاتل فرنسوي فاتت المدينة المذكورة وبلغتها عند دخول بونابرت اليها فبعثت اليهِ رسولاً وطلبت اليهِ بلسانهِ ان يستسلم هو والذين معهُ فعرف بونابرت انهُ لا يقدر ان يحارب النمسويين في لوناتو وكان جيشهُ بعيداً جداً عنهُ فامر حالاً القواد واعوان الحرب الذين كانوا معهُ ان يركبوا وامر باحضار الرسول فلما حضر تعجب من كثرة القواد والضباط وظن ان الفرنسويين كثيرون . فقال لهُ بونابرت اما تعلم يا منكود الحظ انك تكلم القائد الاول للجيش الفرنسوي وانهُ هنا هو وكل جيشهِ فارجع وقل للذين ارسلوك اليَّ انني امهلهم خمس دقائق فقط ليسلموا اسلحتهم اليَّ والا فاذيقهم كلهم كاس المنون قصاصاً على جسارتهم ثم امر باقامة المدافع لاطلاقها على الفرقة النمسوية التي كانت مستعدة ان تهجم على المدينة . فرجع الرسول وقص على قومهِ ما سمعهُ واخبرهم بما راهُ فسلمت الفرقة النمسوية الى بونابرت وكان عددها ثلثة الاف مقاتل وكان معها اربعة مدافع مع انهُ لم يكن مع بونابرت غير خمسمائة رجل واربعة مدافع . وقاتلت حينئذٍ فرقة من جيش بونابرت الجنرال كسدانوفتش النمسوي في كسنارادو وكسرتهُ وكان معهُ خمسة عشر الف رجل وكان مجموع جيش فرنسا في تلال كاستيليون ٢٥ الف جندي . وكان بونابرت قد امر الجنرال سيروريه ان يسير الليل بطولهِ ليتمكن من ان يهاجم مؤخرة جيش فورمسير في الصباح وعند طلوع الفجر كان سيروريه وراء فورمسير وابتدأ باطلاق مدافعهِ عليهِ فارتبك النمسويون لعلمهم انهم لم يتركوا جيشاً فرنسوياً وراءهم وعند ذلك انقض بونابرت عليهم بجيشهِ وطردهم حتى عبروا نهر المنسيو وتقدم الجنرال اوجيرو من الجهة الثانية قاصداً

بوركوته وتقدم ماسينا الى جهة بشيرا التي كانت محاطة بجيش النمسا فهجم عليهم الجنرال موشه وطردهم بعد ان غنم ١٨ مدفعاً . وطارد بونابرت النمسويين الى ان وصل الى مدينة فيرون التي نزلها فورمسير فدخلها عنوة واسر فيها عدداً وافراً من النمسويين . ورحل فورمسير منها وتحصن في مونته بلدو فهاجمه ماسينا واخرجهُ من هذا المكان . وهكذا التزم قايد النمسويين الاول ان يرجع الى الوراء ويدخل ولاية التيرول بعد ان هلك واسر من جيشهِ في مدة ١٢ يوماً اربعون الفاً منهم ١٠ الف اسير وخسر سبعين مدفعاً غير انهُ كان قد تمكن من ترك فرقة من جيشهِ لمساعدة الجيش الذي كان يدافع عن منتوا داخل قلعتها . وجيش بونابرت لم يقدر ان يعوض ما كان قد خسرهُ بسبب الحصار في هذه المدينة فصمم ان لا يهاجمها وعزم على حصرها بالجنود لمنع المواصلات بينها وبين البلاد وعين الجنرال سيروريه ليقوم بذلك فاخذ من النمسويين الذين كانوا في منتوا بعض الاستحكامات التي كانت لهم خارج المدينة والزمهم ان يقيموا في اسوارها المنيعة وهذا هو حصار منتوا الثاني

اما ما نالهُ الجنرال فورمسير من الفوز عند دخولهِ ايطاليا في مدة ثلثة ايام فكان مما مكن بونابرت من ان يمتحن صدق الحكومات التي صالحها وهادنها فلما رات ان النمسويين قد نجحوا اظهرت ما كان يختلج في صدورها من البغض للفرنسويين ونقضت حكومات رومية ومودينا وجنوا والبندقية العهود التي عقدتها مع بونابرت وكذلك مملكة نابولي فانها شرعت تجمع جيشاً لترسلهُ عن طريق مملكة رومية لنجدة النمسويين واسعاف السفن الانكليزية التي كانت تحاصر مدينة ليكورنا ولم يحافظ على صداقة بونابرت غير اهل مدينة بولونا وفيرار وريجيو ومودينا وبارما . ولما اتت فورمسير نجدة جديدة عددها نحو ٢٠ الف جندي صمم على المسير الى منتوا بعد ان ترك الجنرال دافيدوفتش ومعهُ ٢٠ الف مقاتل فاناها ورفع الحصار عنها ومر في وادي لابرنيتا وباسانو والاديج اما بونابرت فلم تاتهِ نجدة غير ستة الالاف جندي وكان قد عرف ما في قصد عدوهِ فبادر الى محاربتهِ بقطع مواصلاتهِ مع الجيش الذي تركهُ وراءهُ فان دافيدوفتش ارسل فرقة عددها ثلثة الاف جندي فقط للدفاع عن الجيش الذي كان يحاصر مدينة منتوا من جهة الاديج ثم حصن مدينة فيرون ومدينة لينا كو ثم امر باقامة الاعمال الاتية وهي ان يسير فوبوا نحو مدينة تريدنتي عن طريق الوادي على ميمنة نهر كيبزا وماسينا في يسار النهر المذكور واوجيرو في الطريق تنسو لجهة الجبل فاستولت طليعة فرقة فوبوا على جسر ساركو وطليعة فرقة ماسينا على مراكز سار افالي . وفي ٤ ايلول (سبتمبر) ابتدات موقعة ريفوريدو ودارت الدائرة من كل جهة على النمسويين وتفرقوا فطاردهم جيش بونابرت الى مضيق كاليانو الحصين جداً فاقام فيهِ بقية جيش دافيدوفتش وكان فيهِ مدافع كثيرة غير ان الفرنسويين هجموا عليهِ هجمة الكواسر ودفعوا النمسويين عن مراكزهم المنيعة



واستولوا على المضيق وساروا الليل بطولهِ واصبحوا امام مدينة تريدنتي فامسى دافيدوفتش منهزماً في جميع الاماكن التي اقام فيها واسر الفرنسويون منهم سبعة الاف رجل في هذه المعركة واخذوا ٢٥ مدفعاً و ٥٠ صندوقاً من المهمات الحربية و٧ رايات وقطعوا المواصلة بين فورمسير في ايطاليا وجيوش النمسا في التيرول

وفي الليل الثاني عرف الجنرال كيلمن ان فورمسير آتٍ لنجدة منتوا وانهُ بلغ ظاهر مدينة فيرون وهو يحاول فتحها وان اقوى جيش فورمسير كان في باسانو وانما موخرتهُ في بريولانو محافظة على معابر وادي لابرنيتا فقصد بونابرت ان يسير حالاً ليمنع فورمسير عن التقدم غير انهُ قبل اتمام ذلك عزم ان يحرض الاهالي في بلاد التيرول على قبول النظام الذي كان عازماً على اجرائهِ في بلادهم وما ياتي هو ترجمة الاعلان الذي نشرهُ

ايها التيروليون

انكم تطلبون حماية جيش فرنسا فيجب ان تسلكوا مسلكاً يوهلكم لان تحصلوا عليها ولما كان اكثركم يميل الى اجراء ما فيهِ صالحكم كان عليكم ان تحملوا الباقين على اداء الطاعة لان مجلسهم الخالي من الحكمة يتصرف تصرفاً ياتي وطنهم بالحرب والدمار . ولا يلزم ان نبين ما نحن عليهِ من النجاح والنصر . اما الذهب الانكليزي الوضاح فيجعل وزراء الامبراطور على اهمال اموره غير مبالين بما ياتي البلاد من الرزايا ولذلك كانت كل اعمال الامبراطور المنكود الحظ كاعمال من يخبط خبط عشواء . انكم ترغبون في نوال السلم وجيش فرنسا لا يحارب الا لينالهُ ولم نات ربوعكم الا لنجعل دولة النمسا تصغي لصوت اوربا المتوجعة وتسمع صراخ شعوبها وما قصدنا توسيع بلادنا لان الطبيعة قد رسمت لنا حدوداً مشهورة في جبال الالب ونهر الرين كما رسمت حدود امبراطورية النمسا في حدود التيرول . ايها التيروليون اقطعوا النظر عن تصرفكم السابق واصغوا الى الصواب وارجعوا الى منازلكم واتركوا راياتكم التي لا تقدر ان تفيكم بعدما طرأ عليها من الفشل ما طرأ ولا يخشى الذي انتصر في الالب وفي ايطاليا زيادة جيش اعدائهِ بانضمام بعض الاهلين اليهِ غير ان غيرتهُ تحملهُ على ان يتحاشى سفك الدماء ومع اننا اصبحنا لا نبالي بالقتال وامسى الجميع يخافون باسنا لا نزال نحب ان نلاطف الذين يقومون بضيافتنا

وبعد ان امر بازاعة هذا الاعلان على جميع الاهالي خرج باكراً من مدينة تريدنتي في ولاية التيرول قاصداً باسانو في ايطاليا ليصادم الجنرال فورمسير وكانت المسافة بين هاتين المدينتين نحو عشرين ساعة . وفي صباح اليوم الثاني تصادمت طليعتا الجيشين ولم يكن احد يقدر ان يثبت امام هجمات الفرنسويين لان عدد جيش عدوهم كان نحو ٢٠ الف مقاتل خلا ما انضم اليهِ من العساكر التي كانت في بريتا فاضطربت ميسرتهُ بفرقة الجنرال اوجرو

الفرنسوي وميمنته بفرقة الجنرال ماسينا فتقهقر من كل الجهات والتزم ان يلتجئ الى مدينة باسانو. وكما فعل بونابرت في لودي فعل في مهاجمة هذه المدينة فانهُ قطع جسر النهر الذي كان يفصل المدينة عن ساحة القتال حالاً بعد ان عبرهُ جيش النمسا قبل ان تمكن العدو من هدمهِ وهجم الفرنسويون على الاسوار وبعد ثلث ساعات فتحوا المدينة واسروا منها نحو ٦ الاف اسير واخذوا نحو ثلثين مدفعاً وكمية وافرة من المهمات والزاد والمركبات مع كل ما يلزمها فضلاً عن المهمات الكثيرة المخصوصة ببناء الجسور فبات فورمسير بلا مهمات حربية . ولولا ضعف الجنرال الفرنسوي الذي كان قائماً بالمحاماة عن جسر الاديج في مدينة لينا كرحتى تمكن فورمسير من الاستيلاء على ذلك الجسر والعبور بجيشهِ عليهِ والدخول الى منتوا لبات اسيراً هو وجيشهُ القليل الذي بقي معهُ لانهُ لم تبق لهُ الالات اللازمة لاقامة جسر يمكنهُ من اجتياز النهر . وكان الجنرال كسدانوفتش لا يقدر ان يسعفهُ لان جيش بونابرت كان فاصلاً بينهما وهكذا هجم بجيشهِ على الفرنسويين الذين كانوا في سيريز ولم يقدر بونابرت ان يصدهُ مع انهُ بادر الى نجدة تلك الفرقة الصغيرة وكاد يبيت اسيراً وبعد ذلك استولى فورمسير على مراكز فيلا امبرنتا ودوي كاستيلي والسبب كثرة فرسانهِ وقلة عدد الفرنسويين في جميع المراكز المذكورة . فشددت هذه النصرات القليلة والمتوالية فورمسير وصمم على الاستعداد لمهاجمة بونابرت فاخرج جيش منتوا ولم يبقَ فيها الا نحو ٥ الاف مقاتل واقام معسكرهُ بين قلعة منتوا وقرية سن جورج فصار جيشهُ ٢٥ الف جندي وجيش بونابرت ٢٤ الفاً وبعد مدة قصيرة تصادمت هذه الجيوش فتاخرت ميسرة الفرنسويين وكادت ميمنتهم ايضاً تتاخر لو لم يبادر الجنرال ماسينا الى مهاجمة قلب جيش فورمسير وايقاع الارتباك فيهِ فاخذ النمسويون في طلب الفرار وسموا هذه المعركة معركة سن جورج فتقهقر جيش فورمسير تاركاً للفرنسويين ثلثة الاف اسير وثلث رايات و٢١ مدفعاً والتجأ الى قلعة منتوا . وبعد ذلك بيومين استولى فورمسير على قرية سيراكليو المبنية بين منتوا ونهر بو وتمكن من اقامة جسر فوق ذلك النهر وادخل الزاد والمهمات اللازمة الى المدينة . وفي ٢٥ ايلول (سبتمبر) قصد ان يخرج مرة ثانية ليهاجم الفرنسويين في جهة الاديج في كوفيرنولو ولكنهُ تقهقر وخسر نحو الف جندي وستة مدافع وتقدم الفرنسويون واخذوا المراكب التي كانت لهم في سيريز وبراديلا بالقرب من منتوا ولذلك بات فورمسير غير قادر ان يخرج من منتوا وهكذا تمكن الفرنسويون مرة ثالثة من ان يحيطوا بكل المدينة ويشتتوا عسكر النمسا الثالث الذي كان قد اتى ليخلص ايطاليا من ايديهم تحت قيادة فورمسير . وكان عدد هذا الجيش النمسوي في اول حزيران (جون) شبعين الفاً ولم يبقَ منهُ الى ان حصرت منتوا المرة الثالثة الا نحو ١٦ الفاً فيها مع القائد الاول و١٠ الاف مشتتين في محلات مختلفة من بلاد التيرول تحت قيادة الجنرال دافيدوفتش وكسدانوفتش و١٤ الفاً اسرى عند الفرنسويين والبقية اما مرضى في المستشفيات واما هلكى . وخسر هذا الجيش كل



مهماتهِ الحربية و٢٢ راية و٢٠ جنرالاً . وارسل بونابرت الرايات التي اخذها من النمسويين الى الحكومة في باريس مع معاون حربهِ الجنرال مارمون . وبعد ان رايناما رايناه من اعمال الفرنسويين في هذه الحرب نقول ما لا ينكرهُ احد عليهم وهو انهم قادرون على القيام باعمال فوق العادة اذا جمعت قوادهم بين حسن الادارة ومعرفة فنون الحرب وابوابها . ولما بلغ فرنسا خبر اعمال بونابرت سرت جداً وكذلك ولاية لمبرديا الايطالية لانها كانت تحب ان تتخلص من حكم النمسا . اما بقية ممالك ايطاليا ودوقياتها فكانت تتمنى النصر للنمسويين

وبعد ذلك طلب بونابرت الراحة مدة قصيرة وقسم جيشهُ كما ياتي . ١٠ الاف مع الجنرال فوبوا في جهة نهر لافيس وجعل ادارة الحرب في مدينة تريدنتي و١٠ الاف مع ماسينا في باسانو للمحافظة على طريق لابيافا و١٠ الاف مع اوجيرو في شطوط الاديج و٨ الاف مع الجنرال كيلمين ليقوموا بحصار منتوا

واذ لم يتمكن بونابرت من منع فورمسير عن الالتجاء الى منتوا واسرهِ شتت شمل جيشهِ كل التشتيت ولم يبقَ منهم غير قليلين تحت قيادة الجنرال دافيدوفتش والجنرال كسدانوفتش في التيرول . فاصاب الجيش الثالث الذي ارسلتهُ دولة النمسا لمحاربة بونابرت ما اصاب جيش بوليو وجيش فورمسير الاول الذي دخل بهِ ايطاليا وتشتت المرة الاولى في سهول كاستيليون ثم على شاطئ لابرنتا . ولم يكن هذا كل النصر الذي فازت بهِ الجنود الفرنسوية فانها انتصرت في مونتينوت ولودي وبوركيتو ولوناتو وروفيزيدو وباسانو وسن جورج . وما من تاريخ يقرر اخباراً تحاكي هذه الاخبار الا في ما ندر اذ انهم اسروا كثيرين واخذوا من المدافع والمهمات والرايات ما لا يكاد يحصى . فسر اهل لمبرديا في ايطاليا واهل مودينا وبارما وبولونا بهذا الفوز اما بقية ممالك ايطاليا فتكدرت منهُ

ولما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجري في ايطاليا كانت حوادث ليست باقل اهمية منها تجري عند شواطئ نهر الدانوب . فان الجنرال مورو كان قد طارد الارشيدوق شارل فوصل في اوائل شهر اب (اوغوسطس) الى النهر المذكور وكان جوردان في جيشهِ عند نهر الناب الذي يصب في نهر الدانوب

وفي ١١ آب (اوغسطوس) تمكن الارشيدوق من مرامهِ بارسال فرقة من جيشهِ لاستلام طرق بوهيميا ثم اراد ان يقيم القتال بينهُ وبين مورو وبعد ان فرّق جيشهُ عند شواطئ نهر الدانوب للمحافظة على طرق كثيرة تمكنهُ من الانضمام الى جيش جوردان عند ما تمس الحاجة . فهاجم الارشيدوق مورو في مراكزهِ دفعة واحدة وتمكن من الاستيلاء على المراكز التي كانت بينهُ وبين جوردان ومن ان يفصلهُ عنهُ ثم صمم ان يستخلف الجنرال لاتور في فرقة من الجيش امام جيش

مورو لمراقبتهِ وان يهاجم باكثر جيشهِ جيش جوردان وينزل بهِ الويل والفشل ثم يفعل في جيش مورو ما فعلهُ في جيش جوردان لانهُ كان اضعف من عسكر مورو . وعندما يتقهقر عسكر جوردان يمسي مورو غير قادر ان يثبت في مراكزهِ فيلتزم ان يرجع الى الوراء . واصاب الارشيدوق بهذه الاجراآت وهي مشابهة لاجراآت بونابرت الناشئة عن الحذق والجسارة . وفي ١٦ اب (اوغسطوس) خرج الارشيدوق من اينكولستاد وكان جوردان مقيمًا بين مدينة نابورج وشيفلندورف عند نهر ناب غير مترصد حلول ما كان مزمعًا ان يحل بهِ . وكان قد اقام فرقة من عسكرهِ تحت قيادة الجنرال بيرنادوت وانزلها في مكان يبعد عنهُ قليلاً للمحافظة على الطريق التي بينهُ وبين مورو وكان ذلك خطأً لان الجيوش كانت قليلة غير قادرة ان تثبت في مراكزها . فلما هاجم الارشيدوق جوردان صادف بيرنادوف قبل الجميع ومع انهُ دافع حق الدفاع التزم ان يتقهقر ويمر في طريق الجبل الذي مر فيهِ الجيش كلهُ وهو اتٍ من وادي نهر المين قاصدًا الدانوب . وبعد ان ارسل الارشيدوق فرقة لمطاردتهِ هاجم جوردان وهو عازم على الرجوع الى ما وراء الجبال حين عرف ما اصاب بيرنادوفر . فعندما اراد ان يرجع هجم عليهِ من الجهة الواحدة عسكر الارشيدوق ومن الجهة الثانية فرقة الجنرال فارنسين وحدثت موقعة شديدة في مدينة امبرج وفقد جوردان طريقهُ فامسى مشتت الشمل هو وعسكرهُ ومهانهُ ودام على تلك الحال ثمانية ايام وقام باعمال صعبة جدًا ووصل الى نهر الماين في ٢٩ اب (اوغسطوس) في شيفنفور وقصد مداومة المسير نحو فورزبورج ليستريح فيها مدة ويجمع شمل الجيش ثم يجدد القتال

ولما كان الارشيدوق كان قد ترك لانور امام مورو ومعهُ ٣٢ الف مقاتل فقط كان مورو قادرًا ان يتاثر الارشيدوق ويوقعهُ في الارتباك لانهُ يبيت بين عسكر مورو وعسكر جوردان غير ان ذلك مخالف لاوامر الحكومة في باريس لانها اعطت مورو وجوردان رسم القتال المناسب لفتح الاماكن التي نقصدها ولم يكن للجنرال مورو ما كان لبونابرت من الاقدام والاقتدار على اجراء ما يوافق الحال دون تفويض فلم يقم بذلك مع علمهِ انهُ يكون للفوز والنجاح فصرف اياماً كثيرة في شاطئ نهر الدانوب يتجسس احوال تلك البلاد ولم يكن عارفًا بان الارشيدوق اتى جوردان . ولما عرف بذهابهِ خاف ان تحل العواقب السيئة بجوردان فرجع الى الوراء وهاجم بلاد بافاريا ظنًا منهُ ان ذلك يحمل الارشيدوق على المبادرة الى نجدتها فاخطأ ظنهُ لان الارشيدوق لم يرجع عن جوردان بل ترك لانور وحدهُ لمصادمة مورو فدارت الدائرة في المانيا على الجنود الفرنسوية لان جوردان انهزم وتقهقر امام الارشيدوق ولم تات اجراآت مورو بالنتائج المطلوبة لان انتصارهُ على الالمانيين كان يضر جدًا بالفرنسويين لبعدهِ عن عسكر جوردان وهو محتاج الى مساعدتهِ وكان عسكر مورو من احسن العساكر الفرنسوية فكان يستصعب الرجوع الى الوراء



بدون ان يقاتل الالمانيين ولذلك بلغ مورو وجوردان اوامر الحكومة في باريس وهي ان يثبت في فرنكونيا وكتب اليهِ بانهُ قد دخل بافاريا وسيبادر الى نجدتهِ فحاول جوردان ان يقاتل عدوهُ خوفًا من ان يبيت مورو في ارتباك اذا تركهُ في بافاريا ورحل من فرنكونيا دون ان يجدد القتال فاستولى على المراكز التي كان يظن انها تمكنهُ من قتال العدو قتالاً موافقًا في مدينة فورزبورج وجوارها . وفي صباح اليوم الثالث من ايلول (سبتمبر) تقدم ليقاتل الالمانيين فدارت الدائرة عليهِ وانهزم وعبر نهر لاهن في ١٠ ايلول ولم يفقد من عسكرهِ في هذا المسير السريع الا نحو ٦ الاف جندي وقتل قائد من قوادهِ المشهورين وهو الجنرال مارتو . ولم يتمكن الفرنسويون من تخليصهِ عندما انجرح فبقي عند الالمانيين فطبهُ الارشيدوق حق التطبيب فلم يشفَ ولما مات دفنهُ بالاكرام اللائق . وكان مورو وراء الدانوب منتظرًا ورود خبر من جوردان واتت الجنرال لانور النمسوي نجدة فرغب في مهاجمة ميسرة عسكر مورو فدفعهُ مورو . ولما تيقن مورو انهُ لا يقدر ان يثبت في موقفهِ بعد ان طرأ على عسكر جوردان ما طرأ عزم على الرجوع الى الوراء وفعل بذلك فعل الابطال الحاذقين لان جيوش الاعداء كانت تحيط بهِ وكان عددها اكثر من عدد عسكرهِ اذ كان عسكر لانور ٢٠ الف مقاتل وكان مورو يخاف ان يصادف عسكر الارشيدوق وهو سائر في معابر جبل نوار فساريدون ان يعرف عسكرهُ بما كان يخافهُ . ولما اتى مدينة بيبراك وذلك في ٢ تشرين الاول (اكتوبر) وفيها ادغال وتلال واودية كثيرة حاول لانور ان يصدهُ عن المسير فانتشب القتال بين العسكرين فهجم عسكر مورو على عسكر لانور من كل الجهات ودفعهُ الى واد يسمى لاريس واسر من عسكرهِ نحو اربعة الاف اسير فاتت هذه النصرة الجيش بنتائج ادبية حسنة . وسار نحو الرين قاصدًا الدخول الى فرنسا غير ان الارشيدوق وقوادهُ كانوا قد اسرعوا واستولوا على الطريق التي كان مورو مزمعًا ان يسير بها لياتي ستراسبرج . فغير مورو الطريق وسار في طريق اطول ودنا من شاطئ الرين وبعد ان قاتل قتالاً قليلاً بعض عسكر الارشيدوق الذي كان متفرقًا هناك عبر الرين ودخل قلعة كهيل ومدينة ستراسبرج وذلك في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) وهكذا انتهت هذه الحرب المشهورة ورجع مورو رجوعًا اكسبهُ شهرة عظيمة . وبعد ان حل ما حل بجيش جوردان وعسكر مورو اصبحت دولة النمسا قادرة ان تجمع كل عسكرها لمحاربة عسكر فرنسا في ايطاليا . ولم تقصد حكومة النمسا ان تسترجع ما كان لها من الاراضي في الجهة اليسرى من الرين ولكنها صممت على مهاجمة جيوش بونابرت لتسترجع لمبرديا وترفع الحصار عن مدينة منتوا وتحمل ملوك ايطاليا على المجاهرة بعدوان فرنسا . وكان الجنرال فورمسير النمسوي محصورًا في قلعة منتوا فارسل النمسويون الجنرال الفينتزي وهو من القواد الذين كانوا تحت قيادة الارشيدوق شارل وكان معهُ ٤٠ الف جندي فدخل بلاد التيرول وجمع ما بقي من عسكر دافيدوفيتش وهو نحو ١٨ الف مقاتل فتقدم

الجنرال الفينتزي واستولى على مدينة فربول ثم رحل عنها وسار نحو كونكليا وكان امامهُ في مدينة باسانو الجنرال ماسينا الفرنسوي وكان الجنرال فوبوا نازلاً بفرقتهِ على شاطي لافنزبو للمحاماة عن مدينة تريدنتي وكان بونابرت في فيرون مع فرقة الفرسان التابعة فرقة الجنرال اوجيرو وكان الفينتزي قاصداً ان يجتمع بجيش دافيدوفتش من جهة مدينة فيرون ومن ثم يذهب ليرفع الحصر عن مدينة منتوا فيخرج منها عسكر فورمسير فيصير عدد الجيشين النمسويين نحو ٩٠ الف مقاتل فيتمكنون من قهر الفرنسويين . وبناء على ذلك تقدم الفينتزي وقسم جيشهُ ثلث فرق وسار في طريق لابرنيتا بعد ان اقام جسرين فوق نهر لابيافا وكان ماسينا يجب ان يعرف قوة النمسويين فاوهمهم انهُ قاصد ان يتعرض لهم ثم رجع من باسانو الى فينانس فصادف فيها بونابرت والجيوش التي ذهب بها من فيرون وفي صباح اليوم السادس من تشرين الاول (اكتوبر) ابتدات معركة لابرنيتا فدفع الجنرال ماسينا طليعة عسكر النمسويين وثلث فرق منهم الى الوراء والزمهم ان يعبروا النهر بعد ان هلك كثيرون منهم غير ان النمسويين انتصروا في جهة نهر لافيزو حيث كان الجنرال فوبوا الفرنسوي فاستولوا على مدينة تريدنتي ولو تاخر الجنرال جوبير عن ان ينجدهُ ويمنع النمسويين عن مطاردتهِ لانكسر كسرة اردا من هذه الكسرة فتمكن فوبوا من ان يعبر نهر الادج ويأتي بجيشهِ الى مواقف كورونا وريفولي . ولما بلغت هذه الامور بونابرت اتى حالاً مدينة فيسانا والزم الجنرال الفينتزي ان يصادمهُ بكل عسكرهِ . ولما اتى تلال ريفولي غضب جداً على فرقة الجنرال فوبوا لانها لم تقم بالقتال حق القيام فخاطبهم بخطاب مكدر وما ياتي هو ترجمتهُ

ايها الجنود اني لست بمسرور منكم لان اجراآتكم الحربية كانت خالية من النظام والثبات فسلمتم الى الاعداء كل المواقف التي كانت لكم وانهزمتم منها مع انها حسنة ولو كان فيها قليلون من الجنود الابطال لدفعوا اقوى عسكر ولذلك اقول ياجنود فرقة ٣٩ و٨٥ انكم لستم جنوداً افرنسوية فيا ايها القواد اعضاء اركان الحرب اكتبوا على رايات هاتين الفرقتين هذه الكلمات وهي ان هاتين الفرقتين لا تعدان من جيش ايطاليا . فاثرت هذه التوبيخات تاثيراً شديداً في الجنود فابلت الفرقتان المذكورتان بعد ذلك بلاء حسناً . اما الفينتزي فكان قد نجح في عملهِ لانهُ تمكن من الاستيلاء على جميع بلاد التيرول ومن الانضمام الى عسكر دافيدوفتش واستولى على البلاد الواقعة بين نهر الادج ونهر دولابرنيتا وكان يرغب في فتح مدينة فيرون ليتمكن من الانضمام الى دافيدوفتش انضماماً لا يكدرهُ خطر في المستقبل . اما بونابرت فتحصن كل التحصن في مونته بالدو ورغب في الاستيلاء على مراكز كالديارو الحصينة وبعد ان قاتل قتالاً قليلاً اقام في حضيض الجبل وانتشب القتال في اليوم الثاني . اما الجيشان فثبتا في موقفهما غير ان النمسويين تمكنوا من ان يتقدموا الى قرية سن ميشل مع ان الفرنسويين امسوا غير قادرين ان يجددوا القتال واستولى النمسويون على مسالك التيرول وقلعة



كالديارو وكان عسكر منتوا يخرج من القلعة ويهاجم الجيش الذي كان محاصراً لهُ وكان عدد الفرنسويين حول منتوا ثمانية الاف فبات الفرنسويون في قلق شديد وابتدأوا يشعرون بصعوبة مركزهم في ايطاليا . اما بونابرت فاجتهد في تنشيط الجيش وخاطبهم بكلام مشجع فتشجعوا حتى المرضى والجرحى الذين كانوا لا يزالون في المستشفيات فاسرع من كان قد شفي منهم بعض الشفاء الى نجدتهم والجنرال لان كان قد جرح في معركة كوفيرنولو فاتى الى الجيش قبل ان تشفى جراحهُ . وامر بونابرت الجنرال كيلمين ان ينفك عن حصار منتوا وياتي بالفي جندي للمحافظة على فيرون وامر عسكر فيرون وكان عددهُ عشرين الف مقاتل ان يجتاز نهر الادج ويأتي ميمنتهُ وحدث ذلك دون ان يسبق الاخبار عنهُ ولذلك كان مسير الجيش كجيش مكسور وكان قد رفع الحصار عن منتوا فامست فتوحات الفرنسويين في ايطاليا كانها لم تكن وكان الايطاليان الذين كانوا قد اظهروا انهم يحبون فرنسا يراقبون حركات عسكر بونابرت بخوف لا مزيد عليهِ وكان مسير الفرنسويين في الليل مسيراً محزناً . وبعد ان سار بونابرت برهة بجيشهِ امر طليعتهُ ان تسير الى الجهة اليسرى عوضاً عن ان تداوم التقدم نحو بيشيارا وقبل الصباح كان الجيش في ظاهر مدينة رونكو وكان اندريوسي وهو قائد اربعة الاف قد اقام جسراً وعبر النهر وحينئذٍ عرف الجيش مقاصد القائد بونابرت فانهُ سار الى هناك ليأتي وراء قلعة كالديارو لانهُ لا يقدر ان يقاتل الفينتزي بثلثة عشر الف جندي حال كون عدد عسكرهِ كان نحو ٤٠ الفاً ومراكز كالديارو كالمراكز التي اقام فيها البروسيون فصار النصر للذين يحسنون القتال

وكان عسكر النمسويين يسير منقسماً الى ثلث فرق وكانت الاولى في ناحية فيرون في طريق بورسيل والثانية في ناحية فيلانوفا في طريق اركول والثانية في ناحية الباريد وفي طريق وادي الادج . وكان القائد النمسوي لا يخاف مهاجمة الفرنسويين من هذه الجهة لان مياهها ووحولها كثيرة فلم يقم جيوشاً فيها للمحافظة على الاماكن الواقعة بين اركول والادج . على ان عسكر بونابرت كان يسير وراءهُ واتى الجنرال ماسينا واستولى على طريق اليسار واستولى اوجيرو على طريق اركول فانتشب القتال بينهما وبين عسكر الفينتزي فتقهقروا في اول الامر فطاردهم النمسويون في ذينك المضيقين . وعندما راى الفرنسويون انهم انخدعوا بانكسارهم ارتدوا عليهم واعملوا فيهم السيوف واسروا كثيرين وكسبوا بعض مدافعهم وكان بونابرت مع فرقة اوجيرو فاراد الاستيلاء على مدينة اركول فدفعهُ النمسويون عنها دفعة شديدة ومع ذلك امر جيشهُ ان يهجم على الاسوار هجمة قوية وركبه هو في طليعة الجيش

بونابرت يزحف بجيشهِ لفتح مدينة اركول

ولما راى ان العدو قد احاط بفرقة المشاة ورماها بجبرة وارتباك وانها قد اخذت تتقهقر نزل عن جوادهِ واخذ الراية من يد حاملها وهجم امام الجنود عابرًا جسر النهر وصرخ بصوت عالٍ قائلاً السنم انتم الذين صادمتم العدو في لودي فاتبعوني فتبعهُ كل من كان قريبًا منهُ ولا سيما الضباط الذين كان عليهم اعتمادهُ وكانوا قد تعودوا خوض بحار القتال والمعارك وبعد ذلك صاروا من القواد العظام . وكان بونابرت سائرًا بين الرصاص والكرات المحشوة وكان الجنرال لان يجتهد دائمًا ان يكون امام بونابرت لكي يحميهُ من رصاص العدو وكذلك الجنرال موبرون قتل امام بونابرت وهو يناضل عنهُ وكانت هذه الفرقة قد اقتربت من الجسر لما هجم الفرنسويون مرة ثانية عليها ودفعوها الى الوراء . اما الجنود الذين كانوا بالقرب من بونابرت فحملوهُ مبتعدين عن ساحة القتال فعزم بونابرت ان يرجع بجيشهِ الى ميدان القتال غير انهُ لم يتمكن من ذلك لشدة اطلاق بنادق العدو

دخول بونابرت على سيرويه وكلينو بغير ملابسهِ الرسمية

فتشتت عسكرهُ متقهقرًا الى الوراء وسقط هو نفسهُ في الوحل فغرق الى وسطهِ فصرخ حالاً اعوانهُ هلموا ايها الجيوش لتخليص قائدنا فصرخ الجيش مراجعًا ما قالوهُ وهجموا على النمسويين والزموهم ان يتقهقروا ويولوا مدبرين . وكان الجنرال كوبي قد وصل عن طريق اخر الى اركول من الجهة

الثانية فانتشب القتال في تلك الناحية لكن الفينتزي تمكن من الخروج من اركول وانهزم بجيشهِ . ولم يقدر الفرنسويون ان يتمموا نصرتهم في ذلك النهار لان الفينتزي كان قد استتر ولكن يحق لهم ان يفتخروا لانهم قهروا فرقتين كاملتين من عساكر النمسا والزموها ان تتركا مدينة كالديارو ومدينة فيرون الحصينة وبعد ما استولى بونابرت على قلعة اركول وقام بمقاتلات شديدة عزم ان يباغتها ويزحف بجيوشهِ على رونكو وامر بايقاد نيران كثيرة على شاطىء النهر لكي لا يعرف الجنرال الفينتزي بخروجهِ واخذ يسير ليلاً وكان منذ الصباح مستعدًا لان ينازل كلاً من فرق العدو الثلث فاختار اقواها وكانت تحت قيادة الفينتزي نفسهِ وكان في قرية رونكو . فاخذ بونابرت في مهاجمتهِ فعبر الفرنسويون الجسر وصادموا العدو صدمة قوية وطردوهُ الى الوحل الكثير عند جانب النهر بعد ان اخذوا منهُ مدافع ورايات واسرى كثيرين وفي اليوم الثاني تجدد القتال بالقرب من الوحل ولم يات بنتيجة كافية غير انهُ قتل من النمسويين نحو ثلثة الاف وكان بونابرت عارفًا بانهُ كان قد هلك من النمسويين ٢٥ الفًا وبان عددهم لا يزال اكثر من عدد جيوشهِ ومع ذلك صمم على محاربتهم في السهول مرة ثالثة . وابتدأ في القتال الساعة الثانية بعد الظهر وكان النمسويون في طريق فيسانس واشتد القتال جدًا وكان عسكر بونابرت يقاتل في السهل بشجاعة لا مزيد عليها فدعا ضابطًا وامرهُ ان يذهب بقليلين من الجنود الى ميسرة النمسويين وان يدخلوا الاجام وبعض الذين يضربون الالات الموسيقية وان يضربوا الالات الموسيقية عندما يدنون من المكان الذي كانت فيهِ الجيوش النمسوية مشتغلة في القتال . اما الفرقة التي كان قد اقامها في مدينة ليناكو لتقاتل موخرة الجيش فكانت تطلق على تلك الموخرة الكرات المحشوة فلما اقترب اولئك القوم من الجيش النمسوي في الغابات وضربوا الالات الموسيقية توهم النمسويون ان الفرنسويين قد احاطوا بهم من كل الجوانب فخافوا خوفًا عظيمًا وطلبوا الفرار قاصدين الالتجاء الى فيسانس فطاردهم بونابرت الليل بطولهِ فهلك كثيرون منهم فعرج بونابرت بجيش المشاة على مدينة فيرون ليستريح من اتعاب القتال وارسل الفرسان لمطاردة الفينتزي وعسكرهِ وكان هذا الجنرال ينهزم دون انقطاع . اما بونابرت فعزم ان يرجع ليحارب الجنرال دافيدوفتش وينهر عسكرهُ الذي كان لا يزال باقيًا في ولاية التيرول . وكان هذا الجنرال يجهل ما اصاب الجنرال الفينتزي منذ ثلثة ايام مع ان النمسويين كانوا قد خسروا في هذه الايام الثلثة نحو ١٨ الف قتيل و ٦ الاف اسير و ١٨ مدفعًا و ٤ رايات . فعاد الجيش الفرنسوي الى مدينة فيرون منتصرًا فتعجب الاهالي مما فعلوا من الاعمال العظيمة وترك بونابرت عسكرهُ يستريح في تلك المدينة وذهب الى مدينة ميلانو وعرف هناك ان حكومة البندقية عازمة ان تقاومهُ وان تساعد الجنرال الفينتزي النمسوي سرًا مع انها كانت قد اعلنت انها على الحيادة . ولم يكن ذلك شانها وحدها بل شاركتها جميع ممالك ايطاليا ودوقياتها فانها كانت تترقب الفرصة المناسبة للنهوض



على بونابرت وبناء على ذلك جعل النمسويون حكومة البابا في رومية تتظاهر بكره بونابرت ليلتزم ان يجعل قوة عسكرهِ في اواسط ايطاليا وبناء على ذلك شرع الجيش الروماني في ولاية رومانيا في التاهب ليساعد عسكر الجنرال فورمسير المحصور في منتوا وكانت الجيوش الاتية من الخارج تلزم الفرنسويين ان يرفعوا حصار المدينة المذكورة وارسل النمسويون جيشين منفصلين لانقاذ منتوا وفتح الطريق للجيش المحصور فيها وكان عددهما ٦٥ الف مقاتل . فتقلد الفينتزي قيادة قسم منها وعددهُ ٤٠ الف مقاتل ورحل من باسانو الى روفيرو وتقلد الجنرال بروفيرا قيادة الباقين واقام في مدينة بادوا ليتمكن من الاعمال الحربية في وادي الاديج . ولم يكن عسكر بونابرت اكثر من ٣٥ الف مقاتل منهم عشرة الاف محاصرون منتوا ليمنعوا الجيش المحصور عن الانضمام الى الجيشين المذكورين ومع ذلك التزم ان يصادم الجنرال الفينتزي والجنرال بروفيرا وان يلزم حكومة رومية ان تحافظ على الحيادة وذلك في ثلثة اسابيع . وفي اوائل شهر كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٧٩٧ هجم عسكر الجنرال بروفيرا النمسوي على فرقة الجنرال ماسينا في قرية سن ميشل فصادم ماسينا النمسويين وطردهم الى كالديارو واسر من عسكرهم نحو ٩ مائة اسير وبعد ذلك دعاهُ بونابرت اليهِ وسالهُ عن استعدادات النمسويين ثم وردت اليهِ افادة من الجنرال اوجيرو ماكما ان الجنرال بروفيرا سائر بجيشهِ الى جهة وادي الاديج وكتب اليهِ الجنرال جوبير بما صادفهُ من النجاح في قتال العدو في ناحية كورونا فكتب اليهِ بونابرت ان يثبت في مواقفهِ مهما كانت قوة العدو التي تهاجمهُ وانهُ قادم اليهِ بنفسهِ . وكان الفينتزي يومل بالنصر على جوبير وفرقتهِ غير ان نابوليون كان قد اتى لنجدتهِ في ريفولي فوجد ان جوبير في ضيق شديد وكان وصولهُ في الليل فاخذ ينظر عن بعد بضوء القمر الى حالة عسكر النمسويين وعددهِ فخمن انهُ ٤٠ الف جندي في ثلث فرق الواحدة تحت امرة الجنرال كرانوفتش والثانية تحت قيادة الجنرال الفينتزي . واما فرقة الجنرال فكاسوفتش فكانت في عبر النهر فعرف بونابرت انها لا تقدر ان تضربهُ فوضع رسمًا للقتال ووزعهُ على قواد جيوشهِ وامر بابتداء المهاجمة باكرًا في الصباح وهجم جوبير على النمسويين في المواقف التي كانوا قد اخذوها منهُ في الامس واشتد القتال فتطاعن الجنود بالحراب وتضاربوا بالسيوف وكان النمسويون اكثر من الفرنسويين فكادوا يكسرونهم ويردونهم عن مواقفهم في اول الامر . فلما راى بونابرت ذلك نزل عن جوادهِ وحمل راية الجيش وسار امامهُ فارتدت العساكر الفرنسوية وسارت وراءهُ وكرت على النمسويين بالحراب والسيوف ولم يرتدوا حتى ولى النمسويون الادبار فاعملوا فيهم السيف ودام القتال شديدًا ١٢ ساعة . وقتل في هذه المعركة اربعة افراس تحت بونابرت وجرح تحتهُ غيرها اما فرقة الجنرال فكاسوفتش التي في عبر النهر فلم تقدر ان تنجد الجيوش النمسوية وبعد ان فاز بونابرت وشتت شمل الفرقتين المذكورتين الى هذه الفرقة

واحاط بها وبعد ان دافعت قليلاً عن نفسها سلمت سلاحها فاسرها . اما بروفيرا فكان يسير في ٣٠ الفاً على الدوام وكان قاصداً ان يتجد قلعة منتوا وذلك في ١٤ كانون الثاني (جانفيه) فكتب اوجيرو الى بونابرت بوصول بروفيرا الى مدينة انكياري وبانهُ اقام جسراً على الاديج ليجتازهُ ويتمكن من الدخول الى منتوا . وبعد ان تاكد بونابرت ان النمسويين انكسروا في ريفولي امر قواد جيشهِ ان يطاردوا الفينتزي وركب في فرقة الجنرال ماسينا وخرج من ريفولي قاصداً منتوا وكان بعيداً عنها نحو ٣٦ ساعة وكان بروفيرا امامهُ مسافة ٢٤ ساعة . وسار بونابرت بجيشهِ مسيراً سريعاً فبلغ روفير بيلا عند ما بلغ بروفيرا قرية سان جورج امام منتوا وكان مومِلاً ان يفتح تلك القرية لانهُ كان يعرف ان الفرنسويين الذين يحافظون عليها هم الف وخمسمائة مقاتل فقط وفي اليوم الخامس عشر من الشهر المذكور هجم بروفيرا على القرية المذكورة فدافع عنها الجنرال ميوليس الفرنسوي جهدهُ . وكان بروفيرا قد ارسل قارباً في النهر وادخلهُ الى منتوا واخبر الجنرال فورمسير المحصور فيها انهُ قادم وطلب اليهِ ان يهاجم الفرنسويين في الغد من جهة المدينة المحصورة اما بونابرت فوصل ليلاً واقام الجيوش التي اتى بها بين عسكر بروفيرا وقلعة منتوا وامر الجنرال سيرو ريه وهو محاصر منتوا ان ينتبه ويحسن مقاتلة فورمسير اذا هاجمهُ من جهة المدينة . وفي ١٦ الشهر المذكور هجم فورمسير على سيرو ريه هجمة شديدة فدفعهُ سيرو ريه والزمهُ ان يدخل المدينة وكان بونابرت قد ابتدا يقاتل بروفيرا وقبل ان طال القتال طلب بروفيرا ان يسلم واستسلم هو وعسكرهُ وسلم عسكرهُ للجنرال ميوليس . وكان عدد جيشهِ ستة الاف واخذ منهُ بونابرت مدافع كثيرة ومهمات وافرة ورايات شتى . اما الفينتزي فانهزم بجيشهِ الى تريدنتي في ولاية التيرول وكان يهلك كثيرون من جيشهِ كل يوم بسبب مطاردة الفرنسويين لهُ وبعد مدة استولى جوبير على تريدنتي واستقر فيها هو وفرقتهُ واقام اوجيرو في مدينة تريفتر وماسينا في باسانو ورحل كل النمسويين الى وراء نهر لابيافا . وهكذا في عشرين يوماً خسرت دولة النمسا ٣٥ الف جندي منهم ٢٥ الف اسير وخسرت ستين مدفعاً و ٢٤ راية ارسلها بونابرت الى باريس مع القبطان بيسير الذي كان قد قلدهُ قيادة الفرقة التي تعينت لتسير دائماً مع بونابرت كحرس مخصوص وبعد انكسار عسكر الفينتزي امست قلعة منتوا بلا نصير وشدد المحاصرون الهجوم عليها وكان المحصورون قد اكلوا الخيل لنفاد زادهم وكان في المستشفيات نحو عشرة الاف مريض فارسل بونابرت رسولاً الى فورمسير وطلب اليهِ ان يسلم فاجابهُ ان زادهُ يكفيهِ سنة غير انهُ بعد ذلك بايام قليلة بعث الجنرال فورمسير معاوناً من معاونيهِ وهو الجنرال كلينو الى الجنرال سيرو ريه الفرنسوي قائد الفرقة التي كانت تحصر المدينة وطلب اليهِ ان يعقد معهُ شروط التسليم فاخبر سيرو ريه بونابرت بما كان وكان كلينو النمسوي وسيرو ريه الفرنسوي يتجادلان في بعض شروط التسليم فدخل بونابرت عليهما



وهما يتباحثان . ولم يعرفهُ الجنرال النمسوي فجلس برهة دون ان يشترك معهما في الحديث ثم اخذ قرطاساً وكتب عليهِ واعطاهُ لكلينو وقال لهُ لو كان عند فورمسير من القوة ما يقوم بمعاشهِ ومعاش عسكرهِ ١٨ او ٢٠ يوماً وطلب الاستسلام لما استحق مني مراعاة اما الان فارتضي بان اعتد معهُ الشروط الاتية احتراماً لشيخوختهِ وبسالتهِ

فاذا فتح لنا ابواب المدينة نهار غد او بعد ١٥ يوماً او بعد شهر لا تتغير الشروط ولذلك يمكنهُ ان يبقى محصوراً الى ان ياكل جيشهُ الرغيف الاخير فاذهب واخبر سيدك بما اخبرتك بهِ . اما انا فذاهب الى جهة رومية . فاندهش كلينو لما راى ما راى من حذق بونابرت وصدقهِ واقر انهُ ليس عندهم من الزاد ما يكفيهم اكثر من ثلثة ايام ثم رجع الى المدينة فشكر فورمسير بونابرت على ما ابداهُ من حسن التصرف وكرم الاخلاق فبعث اليهِ رسولاً يقول لهُ انهُ سمع بذهابهِ الى رومية ولذلك يعرض عليهِ ان يدخل المدينة ويعبر نهر بو على الجسر الذي داخلها قبل الاستسلام الرسمي لان الطريق المذكورة هي اقرب جداً من سائر الطرق التي تودي الى رومية . اما بونابرت فتمنع عن قبول ذلك خوفاً من ان يكدر المارشال الذي خانتهُ حوادث الحرب . وفي ٢ شباط (فنريه) سنة ١٧٩٧ سلمت منتوا للفرنسويين وسلم فورمسير سيفهُ للجنرال سيرو ريه لان بونابرت اسرع بالذهاب قاصداً رومية نادباً منهُ لانهُ لم يرغب ان يلزم فورمسير الشيخ ان يسلم سيفهُ لقائد شاب . اما عدد النمسويين الذين استسلموا في منتوا فكان ١٢ الفاً خلا المرضى ووجدوا فيها ٢٥٠ مدفعاً وهذا النصر هو نهاية اعمال بونابرت العظيمة في ايطاليا

## الفصل الثامن

### سنة ١٧٩٧ للميلاد

فبهذه الفتوحات العظيمة رجعت لفرنسا السطوة التي كانت قد خسرتها فاخذت الدول تنظر الى الحكومة الادارية بعين الاعتبار وصار الفرنسويون يميلون بعض الميل اذا لم نقل كلهُ الى الحكومة المذكورة ولكن لا يخفى انهُ يصعب على خمسة رجال من ذوي رتب متساوية ان يتفقوا مدة طويلة في كل الاعمال . وكان رجال الحكومة المذكورون يختلفون وكان اختلافهم مصدراً للشقاق والنزاع والخلاف الداخلي ولذلك كثر الشقاق في فرنسا فقوي عزم احزاب الملكية في البلاد فاجتمعوا وجاهروا بالعصيان على الحكومة المذكورة وشرعت الجرائد المتحزبة للملكية تطعن في اعمال الحكومة الادارية . فالتزمت هذه الحكومة ان تبادر الى ردعهم بالقوة فشتتت شملهم . غير انهم اخذوا في الاجتماعات السرية لكن لم يات ذلك بفائدة للملكية بل ازداد قلق الامة بسبب تجديد انتخاب رجال المجلس العالي . وكان مضادو الحكومة يقلقون انكار القوم باراجيفهم التي لم تجدهم نفعاً . وكانت هذه الامور واسطة مكنت الحكومة من توطيد سطوتها في الداخلية

اما قواد فرنسا فكانوا مشتغلين في تلك الاثناء بالاستعداد لتجديد الحرب لينهوا الحروب التي كانوا قد شرعوا فيها وكانت فرنسا قد تمكنت من عقد عهود اتفاق بينها وبين اسبانيا وهولاندا . اما بروسيا والدانمرك واسوج ونروج وسويسرا فاقامت على الحيادة التامة . واما النمسا وانكلترا فثبتتا عزمهما على محاربة فرنسا وكانت النمسا قد تمكنت من ان تجعل روسيا تعقد معها معاهدة لجهة اسعافها في محاربة فرنسا غير ان الامبراطورة كاترين الروسية ماتت بعد عقدها فخلفها الامبراطور بولس الاول وتمنع عن القيام بتلك المعاهدة وشرع يعامل الفرنسويين الذين اتوا بلادهُ احسن معاملة . وكان يميل جدًّا الى فرنسا ويتعجب من نشاط جنودها وبسالتهم واجتهد ان يجعل انكلترا والنمسا تنفكان عن محاربة فرنسا غير انهُ لم ينجح في ذلك وهكذا لم يكن لفرنسا اعداء غير انكلترا والنمسا . وامست خزينة انكلترا في ضيق شديد وكانت لا تركن الى قوة النمسا بعدما اصابها في ايطاليا . وكذلك دولة النمسا لم تنجح النجاح التي كانت تومله عندما فتحت قلعة كهيل المبنية بالقرب من الرين لان خسارة منتوا كانت عظيمة . اما جيش جوردان الذي قلنا ان الحكومة سلمت قيادتهُ الى الجنرال هوش وهو الذي كان قد اخضع العصاة في غرب فرنسا فدعي جيش سمبرو موز فاصبح بعد ان انضم اليهِ جيش الغرب نحو ثمانين الف مقاتل وبادر هوش الى السعي للحصول على كل ما كان في احتياج اليهِ من المهمات وبعد مدة قصيرة جدًّا اضحى هذا الجيش على احسن حال اما جيش مورو الذي كان في شمالي الرين فلم يكن على ما كان عليهِ جيش سمبرو موز لان مهماتهِ كانت قليلة ولم تتمكن الحكومة من ان تبعث اليهِ بالنقود اللازمة لابتياع ما كان مفتقرًا اليهِ ولذلك طلب مورو قائد هذا الجيش الى الجنرال بونابرت في ايطاليا ان يسعفهُ ببضعة ملايين من الفرنكات ليبتاع المهمات اللازمة لجيشهِ لكي يقدر ان يجدد القتال فاجابهُ بونابرت انهُ لا يقدر ان يجري ذلك الا بعد ان يكون قد انهى اجراآتهِ في ولايات البابا وكان هذا سببًا لتوقيف اعمال الجيشين في البلاد المجاورة لنهر الرين . ولما رات الحكومة ذلك وانهُ ما من جيش من جيوشها الثلثة قادر ان يبادر الى القتال الا جيش الجنرال بونابرت وكان هذا الجيش محتاجًا الى النجدة امرت بان تنضم اليهِ فرقة من جيش الجنرال هوش المسمى بجيش سمبرو موز وفرقة الجنرال دولما من جيش شمالي الرين الذي كان تحت قيادة الجنرال مورو وعدد الفرقتين نحو ثلاثين الف مقاتل وذهبوا عن طريق الرين وجبال الالب قاصدين الانضمام الى جيش ايطاليا والانتظام تحت قيادة ذلك البطل الصنديد الذي اعيا جيوش النمسا الجرارة بواسطة درايتهِ وحسن ادارتهِ فانهُ كان احذق من اعظم القواد الذين صرفوا سنين كثيرة في المعارك وسلمت قلعة منتوا قبل ان انضمت هذه الجنود الى جيش بونابرت وكان هو قد رحل مع اركان حربهِ من امامها تاركًا الجنرال سيروريه وحدهُ وهذا ناتج عن كرم اخلاق بونابرت . فسار مسرعًا الى بولونا من املاك حضرة البابا في نفس الليلة التي



عقدت فيها معاهدة تسليم منتوا . واندهش الجنرال فورمسير النمسوي لما راى في اليوم الثاني الجنرال سيروريه وحدهُ فسلمهُ سيفهُ وسلاح جنودهِ والقلاع والحصون وخرج الجيش الذي كان في المدينة مارًّا امام الجيش الفرنسوي .

وكان بونابرت يريد تاديب حكومة رومية لا الاساءة اليها لانها كانت قد نكثت عهدها بانقيادها الى النمسويين واصغائها الى مواعيدهم وكانت شارعة في اقامة الاستعدادات اللازمة لتجديد القتال . فاراد بونابرت ان يعقد معاهدة مع حضرة البابا ليتمكن من منع وقوع الخلاف في المستقبل ومن المحافظة على شروط المعاهدة التي عقدها مع البلاط الروماني سنة ١٧٩٦ في ٢٢ حزيران (جون) في مدينة بولونا . ولما زحف المارشال الفينتزي ليجد منتوا ويقاتل بونابرت ظن البلاط الروماني ان النجاح للنمسويين فتظاهر بانهُ يميل اليهم فشرع في الاستعداد لمحاربة بونابرت واصدر منشورات الى جميع روساء الاساقفة والاساقفة والكهنة ليحثوا الشعب الخاضع لارادتهم على محاربة بونابرت . ولما طلب بونابرت بواسطة سفير فرنسا في رومية الى البلاط الروماني ان يخبرهُ عما حملهُ على نشر تلك المنشورات اجابتهُ حكومة رومية ان حضرة البابا يجب ان يكون شعبهُ متيقظًا فقط وانهُ لا يقصد غير ذلك . اما بونابرت فكان يجب ان ينهي الحروب الايطالية فكتب الى صديقهِ الكردينال مانيا الذي كان والي ولاية فيرار التابعة حكومة رومية التحرير الاتي وهو

ايها الكردينال المحترم . انك تعلم انني اقود جنودًا نشيطة قادرة وانهُ لا يلزمني لا تمكن من هدم سلطة البابا الزمنية الا الارادة . فاذهب الى رومية وقابل الاب الاقدس وبين لقداستهِ حقيقة صوالح الكرسي الرسولي واجعلهُ يبتعد عن الانقياد الى مشورات لاناتيهِ الا بالضرر فافعل عاجلاً قبل ان ترفع الحكومة الفرنسوية يدي من العمل فابيت عاجزًا عن تسوية الخلاف الواقع بينها وبين البلاط الروماني . وانت تعرف الويل الذي تاتي بهِ الحروب الامم وعلى الخصوص اذا بتنا مكسورين فاسرع الى منع وقوع اضرار كثيرة على حكومة البابا . هذا ولا يلزم ان اقول لك انني ارغب صرف هذا الخلاف بالحب لانهُ ليس لي في الحرب فخر في الاحوال الحاضرة

وبعد ذلك كتب الى موسيو كاكو سفير فرنسا في رومية ما ياتي وهو . احب جدًّا ان يقال انني حافظت على سلطة البابا الزمنية اكثر مما احب القول انني سلبتها . فاذا عرف البلاط الروماني صالحهُ لا يتاخر عن مسالمتي وهذا يمكننا من ارجاع السلام الى مملكة هي احسن بقعة من اراضي ايطاليا الحسنة . انتهى

فهذه هي السياسة التي عوّل عليها بونابرت في معاملتهِ البلاط الروماني الا انهُ راى كتابات من الكردينال بوسكا وزير خارجية حكومة رومية الى الكردينال الباني سفيرها في فينا وعلم منها ان

وزير الخارجية المذكور اخذ في مخابرة النمسا لعقد معاهدة معها لجهة محاربة بونابرت حتى انهُ يطلب اليها ان ترسل قواداً ليقودوا الجيش الروماني هذا عندما كان بونابرت يبين لهُ رغبتهُ في المحافظة على العهود المعقودة بين فرنسا والمملكة الرومانية . ولما عرف بونابرت بذلك كتب الى سفير فرنسا في رومية وهو الجنرال كاكو بان يخرج من رومية وباتيهُ ولما عرف الكردينال بوسكا ان الستار قد انكشف وظهرت اعمالهُ قال للجنرال كاكو سفير فرنسا متهدداً انهُ سيهيج اهل ايطاليا على جيش فرنسا . وقبل ان يجري بونابرت شيئاً ضد حكومة رومية بعث الرسالات التي وجدها الى الكردينال مانيا وكتب اليهِ بان الذين يسوسون البلاط الروماني هذه السياسة سيلقونهُ في ويل وهوان . اما حكومة رومية فارسلت منشوراً الى جميع ولاياتها تحرض بهِ الاهلين على الدفاع عن الوطن وعن الاستقلالية ووعدتهم بالحصول على مساعدة النمسا . وكان قد اتى رومية جنرال نمسوي اصلهُ ايطالي واسمهُ كولي واستلم الجيش الذي كان في انكونا . اما بونابرت فنشر الاعلان الاتي على جيشهِ ليبين لهُ السبب الذي حملهُ على تجديد القتال مع حكومة رومية وهذا ترجمة الاعلان المذكور

اولاً ان البابا نقض شروط المعاهدة التي كان قد عقدها مع بونابرت . ثانياً ان حكومة رومية لاتزال تتجهز وتحث الاهالي على القتال بواسطة اعلاناتها . ثالثاً قد اقامت المخابرات مع دولة النمسا لضرر فرنسا . رابعاً قد سلم البابا قيادة جيوشهِ لقواد بعث بهم اليهِ امبراطور المانيا . خامساً تمنع عن ان يجيب سفير فرنسا في رومية عما طلبهُ منهُ رسمياً ولذلك امست الهدنة التي عقدت مع حكومة رومية منقوضة الخ . وفي ٣ شباط (ففريه) سنة ١٧٩٧ ذهب بونابرت من مدينة بولونا الى مدينة ايمولا واقام في قصر المطران شيازا موني الذي اقيم بعد ذلك بابا وتسمى بيوس السابع وكان جيش رومية قد زحف لمصادمة بونابرت واجاب الاهالي دعوة الكردينالية وخدم الذين جميعاً وحملوهم على مقاتلة الفرنسويين للذب عن وطنهم ومذهبهم وكان الكردينال بوسكا في مقدمة جيش الاهالي وكان نازلاً في شاطي نهر سينيو ليمنع الفرنسويين عبورهُ وكان معهُ ثمانية مدافع وكان في الجهة الاخرى مقابلهُ فرقة الجنرال فيكتور الفرنسوي . وقبل ان يعبر الكردينال النهر ليصادم الفرنسويين بعث رسلاً الى الجنرال فيكتور وطلب اليهِ ان يرحل والا فيطلق عليهِ الرصاص فمنع بونابرت هذا الجنرال عن ذلك وفي الليل ارسل فرقة عبرت النهر من مكان اخر وسارت الى ان بلغت موخرة جيش رومية وكانت هذه الفرقة تحت قيادة الجنرال لان . فاصبح جيش رومية بين فرقتين من الفرنسويين وعند ذلك هاجمهُ بونابرت وفي اقل من ساعة تشتت شمل الجيش الروماني المذكور واسر بونابرت كثيرين منهُ واتى الجنرال فيكتور بفرقتهِ مدينة فايانترا ودخلها عنوة . وعند الظهر جمع بونابرت جميع الاسرى فوجد اكثرهم من الفرنسويين الذين هاجروا بلادهم بسبب الثورة وكانت الحكومة الجمهورية قد حكمت عليهم بالقتل ما لم يرجعوا الى وطنهم ولذلك كانوا



جميعاً يظنون ان بونابرت سيامر بقتلهم غير انهُ اطلق سبيلهم فتعجبوا من مروءتهِ ومنع الجيش عن نهب المدينة وكان الجميع شاكرين لهُ وجمع امراء رومية الفتيان الذين اسروا . واظهر لهم الرغبة في المحاماة عن ايطاليا وعن الكرسي الرسولي وبعث بهم الى رومية آمنين . ولما بلغ هولاء القوم اوطانهم تعجب الجميع عندما راوهم وسمعوا ما نالوهُ من الالتفات والملاطفة ومن ذلك الوقت اخذت مدن ايطاليا تفتح ابوابها للفرنسويين دون قتال . فخافت رومية واراد البابا الخروج من عاصمتهِ الى نابولي اما بونابرت فدعا اليهِ رئيس الرهبان الكالدول وهو من الذين كان البابا يركن اليهم وارسلهُ الى رومية ليبين للبابا انهُ يميل اليهِ ميلاً ودادياً ويسكن قلقهُ فوصل هذا الرئيس الى رومية عند ما كان البابا عازماً على ركوب العجلة للخروج منها . وفي تلك الاثناء اتى بونابرت مدينة تولنتينو واشار الى جنرالهِ فيكتور ان يزحف بفرقتهِ لمحاربة الجنرال كولي النمسوي في انكونا وكان هذا الجنرال قد امتحن قوة الفرنسويين عند ما دخل بونابرت ايطاليا فخاف ان ينتظر الى ان يدنو منهُ ليهاجمهُ فركن الى الفرار هو والبعض من رفاقهِ القواد وترك جيش البابا دون قائد . فاتاهم الجنرال فيكتور واستاسرهم واستولى على انكونا بدون مانع ووجد فيها خمسة الاف بندقية و١٢٠ مدفعاً ومخازن مملوءة من المهمات الحربية . اما رئيس الكالدول فاقنع البابا بعدم لزوم خروجهِ من رومية وجعلهُ يرسل من لدنهُ رسلاً الى معسكر بونابرت في تولنتينو ليطلبوا اليهِ عقد عهود صلح واعطى حضرة البابا الرسل المذكورين كتابة هذه ترجمتها

ايها الابن العزيز السلام والبركة الرسولية تشملكم

اننا نحب ان ننقطع الخلاف الواقع بيننا وبين جمهورية فرنسا قطعاً حبياً وذلك انما يكون بخروج الجيوش الكائنة تحت قيادتكم من اراضينا وقد ارسلنا اليكم وكلاءنا المفوضين بسلطاننا التام وهم الكردينال مانيا الذي تعرفونهُ حق المعرفة ونياقة المونسنيور كاليبي والدوق دون لويس براسكي ابن اخينا والمركيز ماسيمي وفوضناهم ان يعقدوا معكم شروطاً عادلة ونومل انكم لا تبخلون علينا بها . ونحن نتعهد بتقرير ما تتفقون عليهِ تقريراً رسمياً ليصير العمل بموجبهِ في كل وقت وبناء على ما اظهرتموهُ من الميل الينا قد عزمنا على الاقامة في رومية وهذا يبين لكم اننا نركن اليكم منتهزين هذه الفرصة لنا كيد اعتبارنا لكم ولاهدائكم بركتنا الرسولية

من رومية في ١٢ شباط (ففريه) سنة ١٧٩٧ وفي السنة الثانية والعشرين من حبريتنا

(الامضا) بيوس السابع

ولما اتى الرسل مدينة تولنتينو واعطوا بونابرت كتاب حضرة البابا اجابهُ بالرسالة الاتية ترجمتها وهي

من المعسكر العام في تولنتينو في اول شهر فنتوز (١٩ شباط) السنة الخامسة سنة (١٧٩٧)

ايها الاب الاقدس

اني اشكر قداستكم على ما تكرمتم بهِ من العبارات اللطيفة المقررة في الشفقة التي تنازلتم وارسلتموها اليَّ وقد عقدت شروط المصالحة بين قداستكم وجمهورية فرنسا وسررت جدًّا اذ كنت الواسطة لحصول قداستكم على الراحة والتمس منكم ان لا تركنوا الى اصحاب الغايات المقيمين في رومية لانهم يفضحون صوالح الكرسي الرسولي حبًّا بصوالح دولة اجنبية تحارب فرنسا ودابهم السلوك في سبل تودي الى الخراب. اما اوربا كلها فتعرف حسن صفات قداستكم وحبكم السلام والمامول ان جمهورية فرنسا ستكون من اخص اصدقاء رومية. وقد ارسلت الجنرال مورات معاون حرب ليعرض لقداستكم ما عندي من الاعتبار وعظم الاحترام لشخصكم الموقر وارجوكم ان تتاكدوا اشتياقي الى ان اقدم بكل فرصة تاكيد واجبات الوقار والاحترام اللذين يشغلان فواد خادمكم المطيع

بونابرت

وفي ٢٤ شباط (فنريه) قرر حضرة البابا معاهدة الصلح ومن شروطها اخذ ولاية افينيون وولاية فينيسين من الكرسي الرسولي وضمها الى جمهورية فرنسا مع ولاية بولونا وفيرارورومانيا ومدينة انكونا وجوارها وتعهد البلاط الروماني باطلاق اسرى الحرب وبدفع ١٦ مليون فرنك وهي باقية مما تعهد بدفعهِ البلاط الروماني بموجب معاهدة الهدنة الاولى وبدفع ١٥ مليون فرنك علاوة عليها وباعطاء فرنسا عددًا وافرًا من الصور والتماثيل التاريخية الموجودة في خزائن رومية وتعهد حضرة البابا بعهد منفصل عن المعاهدة العمومية بان يرسل الى باريس وكيلاً ليلوم عن لسانهِ اولئك الذين قتلوا سفير فرنسا موسيو باسفيل في رومية وبدفع ثلثمائة الف فرنك لعائلة المقتول المذكور ولم يات بونابرت رومية احترامًا لحضرة البابا ولكنهُ ذهب الى منتوا. فلله درهُ من شهم قلما يجود الزمان بمثلهِ فمن يفعل ما فعلهُ اذا كان في احوالهِ فانهُ كان يحرم نفسهُ لذة مقابلة القواد الشيوخ الذين كان يقهرهم احترامًا لشيخوختهم وقد جمع بين الشجاعة والحذق واللطف والحشمة

وبعد ان انهى بونابرت وحكومة رومية الاعمال التي دوناها رجع قاصدًا الادج واتى منتوا وشرع في الاستعداد لمحارب النمسا في نفس البلاد النمسوية. وكانت الدولة المذكورة تعرف انهُ لا نجاة لها ولو كانت الحرب في نفس بلادها بعد استيلاء الفرنسويين على منتوا وبعد فقدان الجنود الكثيرين الذين قتلوا واسروا في حروب ايطاليا وبعد ان كانت مومِلة بالدخول الى فرنسا بعد ان فتح جيشها الذي كان في الرين قلعة كهيل التزمت ان تامر البرنس شارل الذي لم يقدر احد غيرهُ من النمسويين ان يصادم الفرنسويين ان يرجع من ضفات الرين وياتي حدود ايطاليا ليحارب بونابرت فاجتمع البرنس المومأ اليهِ بجيشهِ في ضفات تكليا منتوا وهذا هو الجيش الخامس الذي بعثت بهِ دولة النمسا لمحاربة بونابرت وكان قبل الشروع في الاعمال العظيمة التي صمم



عليها نشر اعلانًا على جيشهِ قال فيهِ انهُ قاصد غزو بلاد النمسا ليحملها على مصالحتهِ بعد ان احتملت من الرزايا ما كانت قد احتملت. وكان عدد جيش بونابرت نحو ٣٧ الفًا وكان مقسومًا فرقًا فرقة تحت قيادة الجنرال ماسينا وفرقة تحت قيادة الجنرال برنادوت والثالثة تحت قيادة الجنرال سيروريه والرابعة تحت قيادة اوجيرو وترك تحت قيادة الجنرال جوبير سبعة عشر الفًا في التيرول ومع الجنرال فيكتور نحو ٢٠ الفًا في ايطاليا المراقبة حكومة البندقية وغيرها من دول ايطاليا الصغيرة اما الارشيدوق شارل فكان عدد جيشهِ نحو ٢٥ الفًا في فربول وفي التيرورومنهم ١٠ الاف من بلاد تيرور وكانوا يعرفون حق المعرفة كيفية المحاربة في الوعور والجبال وكان بونابرت يعرف انهُ لا بد لهُ من الاسراع الى مهاجمة النمسويين قبل ان ترد اليهم النجدة التي كان عارفًا بانها اتية من المانيا فيصير عدد جيشهم ٩٠ الف جندي وفي ١٠ اذار (مايس) سنة ١٧٩٧ زحف الجيش الفرنسوي على جيش النمسويين وابتدات فرقة الجنرال ماسينا التي كانت في ميسرة الجيش في القتال فشتتت شمل النمسويين واسرت قائد الفرقة التي هاجمتها واسمهُ الجنرال لوزبنيان واستولى على فيلتر وبيلون وكدور. اما الجنرال برنادوت فعبر بفرقتهِ نهر اليافا واستولى الجنرال سيروريه على كونيكليانو وسار ماسينا بعد ان استولى على طريق ولاية كروماسيا الى جهة ترفي وهو المكان الذي كان نازلاً فيهِ الارشيدوق النمسوي فاشتد القتال. وكان الارشيدوق يعرض نفسهُ للخطر دون مبالاة غير انهُ لم يقدر ان يثبت فاخلى ترفي فدخلها الفرنسويون. اما فرقة الجنرال برنادوت فسارت قاصدة فتح مدينة كراديسكا الحصينة فتمنع الجنرال النمسوي عن التسليم غير انهُ لما راى ان فرقة الجنرال سيروريه كانت قادمة لنجدة الفرنسويين من جهة اخرى سلم هو وفرقتهُ وعددها ٢٠٠٠ جندي. وكان بونابرت قد اتى الى كورينز فبعث بالجنرال برنادوت حالاً ليطارد النمسويين وهم مهزومون. وفي اليوم الذي استولى فيهِ ماسينا على ترفي فتح الفرنسويون مدينة تريستة فاجتهد النمسويون ان يثبتوا في كيوزا غير ان ماسينا هاجمهم من الجهة الثانية وازاحهم من موقفهم واسروا من جيش الارشيدوق شارل ٥٠٠٠ جندي واخذوا ٢٣ مدفعًا و٤٠٠ عجلة من عجلات المدافع والامتعة واسر ٤ جنرالية. وعبر بونابرت نهر لادرف في القوارب واقام اركان حربهِ في كلاجينفور وكسر فرقتين نمسويتين كانتا قد اتتا من الرين لنجدة الارشيدوق المذكور وبعد ان اقام بونابرت في ذلك المكان نشر اعلانًا على اهالي كريستي والكرينيول والايستري ملخصهُ ان انكلترا قد خدعت الامبراطور وحملتهُ على مداومة محاربة فرنسا فلذلك الاوفق ان نبقى واياكم اصدقاء وان كانت نية انكلترا ردية وادارة وزراء الامبراطور غير حسنة اما الحقوق التي تقررت لفرنسا على بلادكم بعد ان فتحتها فستاتي نهايتها بعد ان نعقد العهود التي هي التمنع عن الاشتراك في حرب لا تحبون انتم ان تقوموا بها ومن واجباتكم تقديم ما يلزم للجيش اما انا فساحافظ على املاككم ولا احملكم غرامة

حرية . وعقد بونابرت بينهُ وبين الاهالي هذا الاتفاق وحافظ عليهِ الفريقان حق المحافظة . اما الجنرال جويير الذي كان في التيرول ليقوم بمحاربة الجنرال كيربان ولودف اللذين كانا نازلين في شواطي نهر الادج فكان منتظرًا ورود اوامر الجنرال بونابرت فعند ورودها هاجم حالاً فرقة كيربان فقهرهُ وطردهُ الى ان اسر من جيشهِ ٤٠٠٠ جندي وقتل ٢٥٠٠ . وكان الجنرال كيربان النمسوي في كلوران منتظرًا قدوم جويير فوردت اليهِ نجدة من جيش الرين فتمكن من هزم جويير والزامهِ بالالتجاء الى ميتفالي . ولما اتى هذه المدينة صادف جنودًا نمسوية قادمة لنجدة عدوهِ فحاربها وشتت شملها ثم خرج من مدينة ستيرسين واتى البلاد التي وراء برنيبردون ان يصادف فشلاً فنزل في مدينة بريكسين فورد اليهِ امر من بونابرت مآلهُ ان يرجع اليهِ فرجع حالاً غير مبالٍ بالاخطار التي كانت تتهدهُ . وكان معهُ ٧٠٠٠ اسير مع ان عدد فرقتهِ لم يكن اكثر من ١٢ الفًا ولما ذهب جويير راى الجنرال كيربان النمسوي ان الطريق مفتوحة فسار قاصدًا الانضمام الى جيش الارشيدوق شارل . وكان في ذلك الوقت الجنرال لودون النمسوي سائرًا في وادي الادج قاصدًا الذهاب الى البندقية اذ كانت قد ابتدات فيها ثورة عظيمة على الفرنسويين وكان بونابرت قد احتسب من ذلك فاغذَّ السير قاصدًا فينا الى ان وصل الى مكان يبعد عنها ٦٠ ساعة لا غير وكان جيشهُ قد صار نحو ٥٠ الف مقاتل . اما جيش الارشيدوق فكان قد فقد منهُ نحو ٢٠ الف جندي و٥٠ مدفعًا فبات غير قادر ان يصد مسير بونابرت نحو العاصمة . ولما بلغ اهالي فينا خبر قدومهِ هاجوا غضبًا واضطربوا خوفًا واخذوا في الاستعداد للخروج من العاصمة وركبت العائلة الامبراطورية السفن وسارت في الدانوب قاصدة المجر . اما بونابرت فكان عارفًا بخوف الاهالي والدولة واضطراب فينا فقال في نفسهِ هذا هو الزمان الموافق الذي ترتضي النمسا ان تعقد فيهِ صلحًا للمحافظة على وجودها ومع انهُ كان منصورًا كتب من كلاجينو كتابًا مورخًا في ٢١ اذار (مارس) بعث بهِ الى الارشيدوق شارل قائد الجيوش النمسوية وما ياتي هو ترجمتهُ

ايها الجنرال . ان الجنود الباسلة تقتح الحرب وهي مشتاقة الى السلم وهذه الحرب ابتدأت منذ ست سنوات وقد قتلنا عددًا كافيًا من الناس واتينا الجنس البشري بمصائب تكفيهِ ولذلك يقيم الحجة علينا في كل الجهات ومع ان كل اوربا كانت قد اشتركت في محاربة فرنسا في اول الامر قد تركت كلها سلاحها الا دولة النمسا والان يكون اهراق الدماء اكثر من الماضي وهذه هي الحملة الثالثة التي شرعنا فيها وقد اتاكم اولها بوبال عظيم وكيفما كانت النهاية لا نكسب شيئًا ولكننا نخسر الوفًا من جنودنا فنلتزم ان نتصالح لانهُ لا بد لكل شيء من نهاية ولو كان من الشهوات وقد اعلنت الحكومة الادارية الى حضرة الامبراطور انها راغبة في عقد الصلح لانهاء هذه الحرب التي تضر بالامتين ولكن المانع هو حكومة الانكليز فانها لا تحب ان نتفق معنا ولماذا يصر بعضنا على مقاتلة البعض الاخر



لقيام صوالح امة بعيدة عن ساحة القتال اطلب الى سموكم ايها القائد الاول ان تفعلوا ما ياتيكم بلقب منقذ المانيا والجنس البشري فانكم من اقرب اقارب الامبراطور فلا تبالون بشي مخسيس ولا تظنوا اني اتوهم فيكم عدم المقدرة على انقاذ وطنكم بالسيف ولكن اذا فرضنا انكم قادرون على ذلك افما ياتي النصر نفس المانيا بالويل والخراب . اما انا ايها القائد الاول فانني احسب نفسي سعيدًا اذا تمكنت من توقيف الحرب ومن حجب دم جندي واحد من جنودي وافتخر بالسلم اكثر مما افتخر بالنصر الذي احصل عليهِ بالفتوحات والحروب

فاجابهُ الارشيدوق بما ياتي

ايها الجنرال . انني اتمنى الصلح واحب ترقية اسباب السلام ولو كنت من الذين يقومون بالاعمال الحربية ويمارسون فنون القتال . وانني مثلك اتمنى السلام والراحة حبًا بخير الجنس البشري ولكن لما كان ليس من متعلقاتي قطع النزاع بين الامتين لان مولاي الامبراطور لم يفوض اليَّ هذا الامر كان لا بد من ان تعذروني اذا تمنعت عن مخابرتكم بهذا الشان غير انني انتظر ورود الاوامر السامية المتعلقة بذلك وانني ارجوك مع قطع النظر عن الصلح والحرب ان تتاكد احترامي العظيم لك واعتباري لشخصك الممتاز (الامضا) شارل

بونابرت يعقد الصلح

اما بونابرت فاسرع الى اقامة القتال وفي ٢ نيسان (افريل) تقدم عسكر الجنرال ماسينا الى ظاهر مدينة كلاجينفور واقاموا قتالاً شديداً على النمسويين وارجعوهم الى المدينة ودخلوا اليها في اثرهم ثم طردوهم منها ولحقوا بهم الى نيومارك وكان الارشيدوق فيها مع بعض جنوده المتقهقرة . وكان قد تمكن من جمعهم هناك مع اربع فرق اتته من عسكر الرين وكان قاصداً ان يقاتل بونابرت بهم غير ان بونابرت لم يمكنهُ من ذلك فان الجنرال ماسينا شرع في محاربته مع فرقة بونابرت و بعد ان تقاتلوا مدة قصيرة انهزم النمسويون ونزل الفرنسويون في مواقفهم واسروا منهم ٢٠٠٠ اسير ودخلوا هم والنمسويون المنهزمون الى نيومارك واسروا منهم الفاً ومايتين واخذوا مدافع . وكان الارشيدوق يرغب ان يوقف تقهقر عسكره فطلب الى بونابرت ان يهادنهُ ليتمكن من التبصر في الرسالة التي بعث بها اليهِ في ٢١ آذار (مارس) فاجابهُ بونابرت ان ذلك لا يمنعهُ عن مداومة القتال وانهُ لا يعقد هدنة الا بعد ان يصل الى فينا غير انهُ اذا اراد ان يعقد الصلح في الحال لا يتاخر عن عقد الهدنة وسار جيش بونابرت الى الشفلينك وهو يبعد اربع ساعات عن المكان الذي ابتدأ فيهِ القتال واقام اركان الحرب الفرنسوي هناك نحو يومين ثم شرع بونابرت في التقدم نحو كنفيلد مع ان الحصون والحواجز المقامة في جانبي الطريق كانت كثيرة جداً وحدث قتال شديد في مسالك هوندسمارك فتقهقر النمسويون بعد ان هلك كثيرون منهم ودخلت طليعة الفرنسويين مدينة كوبان وسار بونابرت بجيشهِ الى ان نزل في جوار انبرج وهي تبعد نحو ٣٠ ساعة عن فينا وعند ذلك اتاهُ جواب الكتاب الذي كان قد بعث بهِ الى الارشيدوق شارل في ٢١ اذار (مارس) ودفعهُ اليهِ الفيلد مارشال بيلكرزرس وهو من اركان حرب الارشيدوق والكونت ميرفيلد جنرال ماجور ومايأتي هو ترجمة ذلك الجواب

ايها الجنرال . ان حضرة الامبراطور يرغب في عقد الصلح حباً براحة اوربا ومنع حلول الرزايا بالامتين المتحاربتين وقد خاطبتم بهذا الشأن سمو الارشيدوق شارل في الكتاب الذي بعثتم بهِ اليهِ من كلاجينفور فارسلنا مولانا الامبراطور اليكم لنتفق معكم على امر خطير جداً و بعد مخابرتكم وتاكدنا جميعاً بانكم ترغبون في انهاء هذه الحرب المهلكة بطلب الارشيدوق شارل قبل كل شيء ستة ايام لنتمكن من المخابرات لنوال المقصود ولرفع كل العوائق التي تنشأ عن الحرب فلا يبقى شيء يمنع عقد الصلح بين الامتين العظيمتين (الامضا) ميرفيلد ونيكرد

فاجاب بونابرت ان عقد هدنة في الاحوال الحاضرة يضر جداً بالجيش الفرنسوي غير انهُ اذا كانت الهدنة تمهد طريق الصلح فلا اتمنع عن عقدها فان جمهورية فرنسا قد قالت اكثر من مرة انها ترغب في انهاء هذه الحرب المضرة والمأمول انهُ بعد هذه المخابرات تتمكن من عقد صلح بين جمهورية فرنسا وحضرة الامبراطور



وفي مساء ذلك النهار عقدت الهدنة ٥ ايام وقال بونابرت لوكلاء النمسا وهو يخابرهم بشروط الصلح الابتدائية ان حكومتكم قد ارسلت لمحاربتي جيوشاً كثيرة لكنها كانت جميعاً بلا قواد اما الان فقد بعثت لمحاربتي قائداً بلا جيش وقصد بذلك ان يبين حذق الارشيدوق شارل ونشاطهُ ومعرفتهُ فنون الحرب وابوابها . ومن شروط الهدنة ان ينزل جيش بونابرت في مدينة كراتز في التيرور اما هو فاقام مركزهُ الخصوصي في سيوباف وطليعة جيشهِ في بروك وكان الجيش الذي كان نازلاً في تلال سيمبرنك يرى عن بعد اعالي كنائس فينا واراد ان يريح افكار الاهالي فنشر اعلاناً قال لهم فيهِ انهُ لا ياخذ منهم شيئاً دون ان يدفع ثمنهُ وهكذا جرى فعلاً ولم يخالفهُ احد من جيشهِ المنصور

ولما تم عقد الهدنة بين بونابرت والنمسا واطمان فكرهُ من جهة المانيا حول نظرهُ الى ما كانت تجريهِ حكومة البندقية مع انهُ كان يجري كل ما يسهل الاتحاد بينها وبين فرنسا واذ كان لا يزال زاحفاً بعساكرهِ الى فينا وهو يحارب النمسا عقدت البندقية معاهدة مع دولة النمسا على محاربة بونابرت وقبل ان صار عقد هدنة بين بونابرت و بلاط فينا اهاجت احزاب الاشراف في البندقية ثورة على الجيش الفرنسوي الذي ابقاهُ بونابرت للمحافظة على ما كان قد تركهُ وراءهُ من الاماكن بعد ان دخل المانيا فقتل كثيرون من الفرنسويين في مدينة فيرون وكيوزا وكستيليونه وفيلاجيو . ولما بلغ ذلك الجنرال فيكتور المقيم في رومية للمحافظة على الفرنسويين في فيرون زحف بفرقتهِ الى البندقية غير انهُ لم يصل الا بعد ان امسى الفرنسويون عرضة لانتقام الاعداء وهلك منهم كثيرون وفضلاً عن ذلك صادفت سفينة فرنسوية صغيرة اسطول النمسا في بحر الادرياتيك ففرت هاربة من امامهِ والتجأت الى ميناء ليدو التابعة لجمهورية البندقية وكان التجاؤها الى ذلك الميناء نفس ضررها لان القلعة المقابلة لها اطلقت عليها المدافع وقتلت رئيسها فاكرمت الحكومة مامور القلعة وكل الجنود الذين قتلوا ملاحي السفينة ولما علم بونابرت بذلك ارسل الكولونل جونو احد اركان حربهِ الى الدوج رئيس جمهورية البندقية واصحبهُ بالرسالة الاتية وامرهُ ان يقراها عليهِ بحضرة مجلسهِ وهذه ترجمتها

من بونابرت اول قواد جيش فرنسا في ايطاليا الى حضرة دوج جمهورية البندقية

لا يخفاكم ان كل رعايا البندقية المقيمين في البر قد تجندوا ضد الفرنسويين واهلكوا عدداً وافراً منهم وكنتم تحثونهم على هذا الامر وتحرضونهم عليهِ ولا يمكنكم ان تدعوا بانكم تجهلون ذلك غير انكم ربما كنتم تجهلون ان القوة التي مكنتني من الاجتياز بجيشي الى اراضي المانيا تقدر ان تمكنني من الاجتياز الى كل ممالك العالم فلا تتوهموا ان جيش ايطاليا يحتمل تعدياتكم فتيقنوا اذاً ان دم اخواني الذي سفك بادنى الخيانات يحملني على الانتصار لهم والتقدم للانتقام وسيتم جيشنا هذا

الامر بفرح لامزيد عليهِ لانكم لم تعاملونا كما عاملناكم وبناء على ذلك قد اتخذت هذه الطريقة لمخاطبتكم وها انني ارسل اليكم احد اركان حربي مصحوباً بما يجعلكم تختارون اما الحرب واما السلم. اما هذا فلا يتم الا اذا كنتم لا تتاخرون دقيقة واحدة عن فض كل الاجتماعات المقامة في بلادكم غير انكم اذا كنتم متمنعين عن القاء القبض على كل الذين اشتركوا في قتل الفرنسويين وتسليمهم اليَّ فما ينصف بيننا غير الحرب وما يبين لي نواياكم هو التجهيزات التي شرعتم فيها مع انهُ ما من عدو يتهددكم ولذلك اعطيكم فرصة ٢٤ ساعة بها تقدرون ان تصرفوا جيوشكم المجتمعة ولا تفتكروا انني اذا حاربتكم تتصرف جنودي تصرف اللصوص الذين تجمعوا تحت رايتكم وتهدم منازل الاهلين وتعطل اراضيهم لانهم اذا ذهبوا للحرب لايذهبون الا لمحاربتكم انهم واعوانكم اما الشعب فيكون تحت حمايتي الخصوصية ولا شك انهُ يكون في اسعد حال لاننا ننقذهُ من رق العبودية ونهبهُ الحرية. (من المعسكر العمومي في جود انبرج في المانيا في اول نيسان (افريل) سنة ١٧٩٧.

(الامضا) بونابرت

فذهب الرسول وقرأ رسالة بونابرت على مسامع الدوج ومجلسهِ فوقعت الرعبة في قلوبهم وعلى الخصوص لما بلغهم ان دولة النمسا طلبت الهدنة بعد انتصارات بونابرت الكثيرة في المانيا وتاكدوا عدم صحة ما شاع عن تاخر جيش فرنسا في الرين فارسلت حينئذٍ حكومة البندقية رسالة اليهِ قالت فيها انها لم تجمع الجيوش لنية سيئة وانها لم تقصد بذلك سوى تسكين المقلقين من رعاياها فرضي بونابرت بذلك موقتاً الى ان تكون قد انتهت اعمالهُ مع النمسا. اما البندقية فاذ كانت تومل انهُ بنهاية مدة الهدنة بين النمسا وبونابرت تجدد الحرب بينهما وكانت الهدنة قد انتهت مدتها بعد زمان وجيز اثارت القتال على فرق جيش بونابرت المشتتين في مدنها وابادت منهم عدداً وافراً واشتدت حينئذٍ غيرة ماموري حكومتها على تهييج الاهالي في كل جهة على الفرنسويين الا ان البندقية لم تتمكن من تنفيذ ما ربها الان دولة النمسا عقدت هدنة جديدة مع بونابرت ولما بلغ ذلك حكومة البندقية ارسلت نواباً الى باريس واصحبتهم بجانب عظيم من النقود ليستميلوا بعض رجال الدولة اليها ويوقفوا بونابرت عن ان يغزو بلادها وارسلت كذلك رسلاً الى بونابرت تعتذر اليهِ عما بدا منها. اما بونابرت فلم يصغِ لذلك بل فتح الحرب على البندقية غير منتظر ورود اوامر حكومتهِ اما مجلس البندقية ورئيسهُ فاذ رايا انهما قد امسيا في خطر مبين وانهُ لا منقذ لهما ولا محيد اجتمعا وقررا اعتزالهما عن وظيفتهما واقاما ديواناً مولفاً من عشرة اشخاص من شيوخ القوم فارسل هذا المجلس الجديد يطلب الصلح من بونابرت فاجاب طلبهم بشرط ان يتعهدوا بابطال نظاماتهم القديمة وان يعطوا فرنسا الجزائر التابعة لهم في بحر الادرياتيك وسفنهم الحربية وعددها ١٢ بارجة محمول كل منها ٦٤ مدفعاً و١٢ سفينة حربية غيرها. فبادروا الى اجراء كل ذلك وارسلوا السفن الى



طولون في فرنسا وارسل بونابرت الجنرال جنبلي والياً على جزائر الادرياتيك وجعل مقامهُ في جزيرة كورفو

وبعد ذلك ذهب بونابرت الى ميلانو في ايطاليا واخذ في ترتيب ادارة الجمهوريات التي انشاها هناك فانهُ اقام جمهورية في لمبرديا واخرى في رومانيا ودعا جمهورية اخرى باسم سيسبدان وغيرها باسم ترنسبدان اما جمهورية جنوا فانهُ اكتفى بتغييرها وصيرها جمهورية ليكوريين ودعا جمهورية خلافها باسم سيسالبين وهلم جرا ثم انهُ في ١٤ تموز (جوليه) اقام عيداً احتفالياً تذكاراً لقيام الثورة الفرنسوية وانتصاراتهِ في ايطاليا والنمسا

ولما كان التعب في الحرب قد اخذ من دولة النمسا كل ماخذ وكانت قد عقدت هدنة مع بونابرت لترسل وكلاءها الى جمعية خصوصية لعقد الصلح امست انكلترا وحدها عدوة لفرنسا. فارسلت نائباً ليطلب عقد الصلح مع جمهورية فرنسا فتعينت مدينة ليل في شمال فرنسا مقراً لاجتماع وكيلي انكلترا اللورد مالسبري وموسيو اليس ووكيلي فرنسا موسيو لتورينير وموسيو بيلفيل الذين تعين مكانهُ بعد مدة موسيو ماريت. اما انكلترا فكانت ترغب رغبة حقيقية في عقد الصلح مع فرنسا حينئذٍ وما ذلك الا لتصلح حالة مالیتها وجنودها فتصبح قادرة على تجديد القتال ولذلك اجتهد وكلاؤها في التسليم بارجاع كل ما كانت انكلترا قد استولت عليهِ من املاك فرنسا الخارجية في امركا واسيا غير انها كانت مصممة على ان لا تترك ما استولت عليهِ من املاك اسبانيا وهولندا اللتين كانتا متحزبتين في الحرب لفرنسا ولما كان لا يناسب شرف فرنسا ان تضحي صالح حليفتيها حباً بصالحها الخصوصي كان لا بد من طول مدة المخابرة بين الوكلاء المذكورين وكان قد تعين اليوم السادس والعشرون من ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٧ لاجتماع وكلاء النمسا ببونابرت في مدينة ليوبان لعقد شروط الصلح الاخيرة بين الدولتين

اما الحكومة في باريس فكانت في ارتباك لما طرا عليها من القلاقل الداخلية بسبب تغيير النواب في المجلس العالي وتحزب كثيرون ضد الحكومة فكان الجميع يخشون تجديد الثورة التي كانت قد خمدت ووقوع الاختلاف بين النواب الحديثين واعضاء مجلس الحكومة الادارية الذي لم يكن يخلو من الانقسام لان اثنين منهم وهما كرنوت وبرتلي تحزبا مع النواب وكان الجميع ضد الحكومة ما عدا الجنود وقوادها ففي تلك الاثناء كتب بونابرت رسالة الى الحكومة من ايطاليا مآلها انهُ مستعد ان يساعدها على مقاومة الاحزاب الداخلية غير ان الحكومة كان يداخلها ريب من جهة بونابرت لانها كانت تعرف انهُ يحب السلطة المطلقة ولذلك حولت نظرها عنهُ وطلبت مساعدة الجنرال هوش قائد جيش سمبر وموز الذي كان مقيماً في الجهة الشرقية فاجاب طلبها واخذت الحكومة تستعد لالقاء القبض على النواب الذين انتخبوا حديثاً وعلى العضوين المذكورين وابعادهم

عن البلاد وشيت الحكومة الحالية

فارسلت الحكومة جواباً الى بونابرت تطلب اليهِ ان يرسل احد القواد الموجودين تحت امرهِ الى باريس لتسلمهُ قيادة جيوش تلك العاصمة فارسل الجنرال اوجيرو لانهُ لم يكن يحبهُ وهكذا كان انشقاق الحكومة والمجلس سبباً للخلاف بين كل الشعب وطمع انكلترا والنمسا اللتين كانتا ترغبان في هدم اركان الجمهورية من فرنسا ولذلك كانتا ترغبان في اطالة مدة المخابرة في عقد الصلح غير انهُ لما تم كل شيء بحسب مرام المديرين الثلثة اجتمعوا في ٤ ايلول (سبتمبر) من السنة المذكورة وامروا بالقاء القبض على رفيقيهم والنواب الحديثين الذين كان قصدهم تغيير حالة الحكومة فهجمت جنود العاصمة تحت قيادة اوجيرو والقت القبض على الجميع ليلاً . وكان الجنرال هوش قد ارسل حالاً كثيرين من جنودهِ لنجدة الحكومة وهكذا تم كل شيء على حسب مرام الحكومة وصار القاء القبض على كل مضاديها خلا القليلين الذين تمكنوا من الفرار . فرجعت الراحة وتاخر مضادو الحكومة في الداخلية وراقت الكاس في كل فرنسا فاقام المجلس مديرين عوضاً عن المديرين اللذين صار نفيهما ودعوا الامة لانتخاب نواب عوضاً عن النواب الذين نفوا . اما الحكومة فرغبت حينئذٍ في مجازاة الجنرال هوش ولذلك جعلتهُ قائداً عاماً على جيش سمبروموز الذي كان تحت امرتهِ وعلى جيش الجنرال مورو الذي كان يدعى بجيش الرين وضمت الجيشين جيشاً واحداً ودعتهما باسم جيش المانيا فاصبح الجنرال هوش قائداً لجيش عظيم لم يسبق لهُ مثيل لكثرة عددهِ غير انهُ لشدة ما قاساهُ الجنرال المذكور من الاتعاب اعتراهُ مرض عجل حلول اجلهِ وهو في عنفوان الصباء فحزنت عليهِ فرنسا وكل الجيش واتي بجثتهِ الى باريس ودفنت باحتفال عظيم حضرهُ رجال الحكومة والمجالس والجيوش والاهلون . وكان والد المتوفى سائراً امام هذا المحفل العظيم متوكئاً على عصا الشيخوخة

اما دولة النمسا فاذ بلغها ان الحكومة قد فازت بمرامها في ٤ ايلول (سبتمبر) قطعت الرجاء من تغيير سياسة فرنسا ولذلك اسرعت في ارسال وكلائها في ٢٦ منهُ الى مدينة اودين وهم الكونت كوبنتزيل والمركيز دوكالو والكونت هيرفلد والبارون انجيلمان وكان بونابرت هو وكيل فرنسا الوحيد فكان اهم الشروط التي عقدت حينئذٍ . اولاً ان نهر الرين يكون حداً لفرنسا وفاصلاً بينها وبين المانيا وتكون مدينة مايس الحصينة ومدينة كوبلنتز مدينتين فرنسويتين . ثانياً ان تكون حدود نهر الادج في ايطاليا لامبراطور المانيا والنمسا . ثالثاً ان تكون مدينة منتوا وحدود نهر الادج الشمالية لجمهورية سيسالبين الايطالية . اما الكونت كوبنتزيل فكان يرغب ان يضم حدود المنشيو الى املاك الامبراطور عوضاً عن حدود الادج واصر على طلبهِ كل الاصرار فحنق بونابرت حينئذٍ ونهض قائلاً للكونت المومأ اليهِ قد فرغ صبري وها انا ذاهب لتجديد القتال واعلم ان زمان الهدنة



قد انتهى وساسحق دولتكم في فصل الخريف القادم كما اسحق هذا الاناء الخزفي وعند ذلك اخذ بيدهِ اناء من خزف ورماهُ على الارض ومضى . وقيل ان بونابرت لم يفعل ذلك الا لان الكونت النمسوي تهددهُ بانضمام جيش روسيا الى جيش النمسا اذا بقي مصراً على عدم تقرير هذا الشرط فارسل بونابرت حالاً قبلما ركب في المركبة واعلم الارشيدوق شارل قائد الجيش النمسوي انهُ سيصير تجديد القتال بعد ٢٤ ساعة . اما الكونت كوبنتزيل فارسل حالاً المركيز دوكالو الى بونابرت مصحوباً بامضائهِ بالتصديق على الشروط التي طلبتها فرنسا واجتمع الوكلاء المذكورون عند بونابرت في غد ذلك اليوم اي ١٧ تشرين الاول (اوكتوبر) وامضوا شروط الصلح في باسيريانو ودعيت تلك المعاهدة بمعاهدة كمبوفورميو نسبة الى القرية المجاورة لمكان اجتماعهم الاول وفي تلك المعاهدة تقرر وجوب اجتماع وكلاء النمسا وفرنسا في رادستاد في المانيا حيث يصير اجتماع وكلاء دول المانيا الثانوية ليمضوا الشروط الاخيرة وهكذا امست النمسا مجبورة بعد حروب كثيرة ان تعترف بان الرين هو حد فرنسا وجبال الالب في الشمال والشرق وبانها مالكة جزائر الادرياتيك وبانشاء جمهوريات ايطاليا واستقلالينها واستولت النمسا بطريق المبادلة على ولاية ايستري ودلماسيا البندقية والاراضي الايطالية الى نهر الادج . فارسل بونابرت صورة هذه المعاهدة الى الحكومة في باريس مع الجنرال برتيه رئيس اركان الحرب والدكتور مونج . ففرح الجميع في باريس فرحاً عظيماً عند ما وصلت هذه المعاهدة اليها وعزم بونابرت في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) على مبارحة ايطاليا بعد ما اتم كل اعمالهِ فيها والذهاب الى رادستاد ليشاهد كيفية سير المخابرة الاخيرة لعقد الصلح النهائي وقبل ذهابهِ نشر الاعلان الاتي على الجيش وهذه ترجمتهُ

ايها الجنود . لا يخفى عليكم اني ذاهب الى رادستاد وما من شيء يعزيني على مفارقتي اياكم الا امل الاجتماع بكم عن قريب بقصد المدافعة عما طرأ علينا حديثاً من الاخطار واعلموا انهُ سيتضح بعد مدة بان جيش ايطاليا من اعظم الجيوش التي ساعدت على توطيد الحرية وشرف اسم فرنسا مهما كانت المصالح التي تطالب الحكومة الى جيش ايطاليا ان يقوم بها واذا تحدثتم ايها الجنود عن الملوك والحكام الذين قهرناهم في ايطاليا والمانيا فقولوا في حديثكم باننا سنفعل اكثر من ذلك في حربين اخريين ثم توجه الى رادستاد وكان الجميع يقابلونهُ باحتفال عظيم في كل المدن التي مر بها ولما وصل الى المدينة المذكورة قابل وكلاء فرنسا والنمسا وسائر دول المانيا الثانوية وبعد ان مهد بعض المصائب التي كانت توقع الخلاف بين الوكلاء المذكورين واقام الاتفاق النهائي في كيفية تسليم مدينة مايس وحصونها الى فرنسا وتسليم البندقية الى النمسا اذهب الى باريس متخفياً ليستريح من اتعابهِ فوصل في ٥ كانون الاول (دسمبر) ونزل في محلهِ في شارع شنتيرين ولما بلغ ذلك المجلس البلدي قرر بان ذلك الشارع سيدعى شارع النصر وعينت الحكومة الادارية عاشر كانون الاول

(دسمبر) لاقتبال بونابرت رسمياً في قصر لكسمبرج واستلام شروط الصلح التي امضتها النمسا وصار تحضير القاعة العظيمة وتزيينها لهذه الغاية واحضار فرقة من الجيوش لاقامة الاجراآت الرسمية وعند الساعة المعينة تم حضور كل رجال المجالس وسفراء الدول فتقدم الجنرال جوبير والجنرال اندروسي حاملين رايتين اعطاهما اياها المجلس العالي وكان مكتوباً على هاتين الرايتين عدد المعارك التي اقامها بونابرت في المانيا وايطاليا وهي ٦٧ معركة واقيم في وسط تلك الساحة هيكل عليه تمثال الحرية والمساواة والسلم وفوق المكان الذي كان فيه مديرو الحكومة كانت الرايات التي اخذت من العدو فدخل بونابرت مصحوباً بموسيو تاليريان وزير الخارجية و بعض اركان حربه وتلا وزير الخارجية خطاباً امام رجال الحكومة الخمسة اطنب فيه بمدح اعمال بونابرت وخلوص حبه لوطنه و بعد ان اتم وزير الخارجية كلامه قال بونابرت ما ياتي

ايها السادة

ان رغبة الشعب الفرنسوي في الحرية حملته على محاربة الملوك ورغبته في توطيد اركان نظامات يسلم بها الذوق السليم حملته على محاربة المبادىء التي رسخت منذ ١٨ قرناً في عقول الجنس البشري وقد استولت هذه المبادىء على اوربا منذ زمان طويل اما الان فنورخ زمان ابتدا الحكومة المقيدة منذ تاريخ معاهدة الصلح التي امضيتموها الان وقد عزمتم ان تنظموا هذه الامة العظيمة بنظامات حسنة وامست واقفة عند الحدود التي اقامتها لها يد الطبيعة وها اني اقدم لكم الان معاهدة الصلح التي وقع عليها الامبراطور وهي توطد اركان حرية الجمهورية الفرنسوية ومجدها ونجاحها ولا ريب ان اوربا لا تصبح حرة الا متى ناسست الجمهورية الفرنسوية على احسن قانون ونظام

ففاه رئيس المديرين بكلام مستطيل اطنب به بمدح بونابرت واعماله واعمال جميع القواد وعلى الخصوص الجنرال هوش ثم انفض ذلك المحفل العظيم وكان الباريسيون يقيمون الافراح والولائم ليلاً ونهاراً اكراماً لبونابرت اما هو فكان يحب الانفراد في منزله الحقير ويتجنب التردد الى ساحات المدينة ثم امرته الحكومة بعد مدة ان يذهب الى رادستاد فتمنع عن ذلك . ولما قطعت الحكومة الفرنسوية المخابرة مع انكلترا في مدينة ليل كما ذكرنا انفاً نظراً لما رأته من عزم انكلترا على اختلاس املاك هولاندا واسبانيا امرت بونابرت بالذهاب الى جهات فرنسا الغربية ليعدّ ما يلزم لفتح مملكة انكلترا اما بونابرت فقال مبرهناً باقوى البراهين ان احسن واسطة لقهر الانكليز فتح مصر والتوصل من هناك الى الهند واذ ذلك الح على الحكومة لترسله لفتح بلاد مصر فحسن ذلك في عين الحكومة واخذت في تجهيز ما يلزم لذلك من السفن والجيوش في ميناطولون وارادت فرنسا ان تعمل ذلك سراً فذهب بونابرت الى غرب فرنسا ليوهم الناس بانه قاصد الذهاب الى انكلترا وبعد مدة وجيزة صار تجهيز عسكري في طولون عدده ٣٠ الفاً و ١٠ الاف من الملاحين



و٢٧ بارجة و ٤٠٠ سفينة لنقل العساكر والمهمات . ولم يكن احد يعلم الى اين يتوجه هذا العسكر . اما قواد هذا الجيش فكانوا من الذين اشتهروا بمحاربة النمسا وايطاليا والمانيا مع بونابرت وهم من اعظم رجال الحرب في فرنسا . اما رئيس العمارة البحرية فكان الاميرال بروي ومعه فيلنوف ودوكلا وبعد ما تم كل ذلك توجه بونابرت الى تولون ليستلم قيادة الجيش واخذ معه عدة من علماء فرنسا وكان مدة اقامته في باريس قد وضع رسم مسير الاسطول والجنود وكيفية نزوله من مصر والقتال الذي يحدث هناك وعرض ذلك على الحكومة فصدقت عليه ثم استلم الامر بالذهاب لفتح مصر واشترط على الحكومة الفرنسوية بانها سترسل موسيو تاليريان وزير الخارجية بمامورية فوق العادة الى الاستانة العلية لحمل الباب العالي على الاتحاد مع فرنسا على محاربة الهند و يعلمه ان فرنسا لم تات مصر الا لهذه الغاية و بناء على ذلك اتى بونابرت مدينة تولون في ١٩ ايار (مايس) سنة ١٩٧٨ فالتقاه الجنود والقواد الذين كانوا ينتظرون قدومه بفروغ صبر باحتفال عظيم

## الفصل التاسع

### في ذهاب بونابرت الى مصر وسورية

بعد ان وصل بونابرت الى تولون نشر اعلاناً على العسكر الذي لم يكن عارفاً الغاية من تلك التجهيزات التي كان يقيمها قائدهم وما ياتي هو ترجمة الخطاب المذكور

ايها الجنود

انكم بعض العسكر الذي سيهاجم انكلترا ليفتحها وهكذا بعد ان حاربتم في ايطاليا وقطعتم الاودية والجبال والسهول ستخوضون البحار للقيام بحروب بحرية . ان الجيوش الرومانية التي كنتم تفتدون بها احياناً دون ان تمكنوا حتى الان من ان تفعلوا افعالها كانت تحارب قرطاجنة في هذا البحر وفي سهول مدينة زاما (مدينة في افريقية خربة) وكانت تلك الجنود تصادف فوزاً دائماً وتعتصم بالصبر الجميل عند احتمال المشقات والاتعاب محافظة على القوانين الجندية والاتحاد الافرادي والاجمالي

ايها الجنود . ان اوربا تنظر اليكم ومن فروضكم القيام باعمال عظيمة وفتح حروب مهلكة ومعارك تروج فيها سوق الموت وستبيتون محاطين بالاخطار والاثقال وستاتي هذه الاعمال بلادكم بمنافع تزيد على المنافع التي اتت بها اعمالكم الماضية وطنكم والبشر عموماً وكلتكم بالمجد . ومن الواجب عليكم ايها الجنود والفرسان وجنود المدافع البرية والجنود البحرية ان تكون علامتكم في يوم النزال الاتحاد واعلموا ان انفع شيء في ذلك النهار ان يستند بعضكم الى البعض الاخر . ولا ريب في انكم لم تنالوا بعد الجزاء الحسن الذي يحق لكم ان تنالوه جائزة على اعمالكم الماضية . على اني اخبركم بان

كل عناية الحكومة متجهة نحوكم والمأمول انكم تكونون اهلاً لتحسبوا من العسكر الذي انتظمتم فيهِ . اما مبادىء الحرية التي نشرتها فرنسا وتمكنت بها من ان تتسلط على كل اوربا وان تكون رئيسة عليها فتريد ان تتسلط بها على البحار والامم البعيدة . انتهى

فهاج العسكر عند ما طالع هذا الاعلان واشتد فيهِ الشوق الى فتح الحروب وخوض بحر المنايا واخذ ينتظر يوم المسير بفروغ صبر مع ان كلام بونابرت لم يمكنهُ من ان يعرف المكان المقصود وفي صباح ٢٠ ايار (مايس) سنة ١٧٩٨ اقلعت البوارج والسفن الحربية وكان عددها نحو خمسمائة وكانت حاملة ذلك القائد الفرد وجيشهُ . وكان بونابرت راكباً هو وامبرال البوارج واركان الحرب في البارجة الكبيرة المسماة اوريان (مشرق) وكان محمولها ١٢٠ مدفعاً وكان الشرقيون يدعونها مركب نصف الدنيا . وعند خروج هذه البوارج من مينا تولون حدث نوء شديد اخرها عن المسير بعض التاخير واضر جداً بالبوارج الانكليزية التي كانت قد ارسلت تحت قيادة الكوميدور نلسون لتراقب البوارج الفرنسوية فالتزم الكوميدور المذكور ان يسير ببوارجه الى جهة جزائر سنير وهكذا لم يتمكن من مراقبة البوارج الفرنسوية ولكنهُ التزم ان يندفع الى الوراء بدون ان يعرف المكان التي كانت البوارج الفرنسوية تقصدهُ . اما بونابرت فالتزم في اول الامر ان يسير مسيراً بطيئاً لتتمكن كل البوارج والسفن من ان تسير معاً وكانت كلها شراعية لانهُ لم يكن البخار من القوات العاملة في البحار في ذلك الزمان عملهُ في ايامنا هذه . وفي ٧ حزيران (جون) دنت تلك البوارج من جزيرة صقلية جنوبي ايطاليا فكانت كانها مدينة عظيمة على وجه المياه . فلما راها اهل الجزيرة المذكورة اضطربوا وخافوا فبعث بونابرت رجلاً من اعوانهِ في سفينة صغيرة ليومن سكانها ووالياها . وكانت تلك البوارج تسير مسيراً مرتباً ثلثة صفوف وكان عسكر البر يمارس التعلم العسكري ثلث مرات كل يوم وكان الجميع مسرورين فيها والهواء معتدلاً والفلك صافياً وكل شيء جميلاً فان هذا السفر كان في شهر حزيران (جون) . وفي ٨ من الشهر المذكور اقلعت السفن من صقلية وفي ٩ منهُ اشرفت على جزيرة مالطة وكان بونابرت قاصداً فتحها ليجعلها مركزاً لبوارج فرنسا لان موقعها جيد جداً فانها في ٣٥ درجة و ٥٤ ثانية من العرض الشمالي وفي ١١ درجة و ١٠ ثوان من الطول الشرقي في الطريق الذي يفصل صقلية عن افريقية وتبعد عن مينا تولون نحو ٢٦٠ ساعة ولذلك كان بونابرت يرغب ان يستولي عليها . وكانت تحت حكومة تدعى فرسان مالطة وهم من الرجال المسيحيين من جميع ممالك اوربا وكانوا قد خصصوا انفسهم للدفاع عن صوالح النصرانية في الحروب التي انتشبت بين اهل اوربا والعرب عند ما دخلوا المملكة اليونانية . وكان اسمهم في اول الامر فرسان رودس ولما فتح السلطان سليمان العثماني جزيرة رودس المذكورة



اعطاهم الامبراطور شارلكان جزيرة مالطة وكان من فروضهم محاربة لصوص بحر افريقية ووقاية السفن والمسافرين فيها من النصارى . وتمكنوا من جمع ثروة كبيرة وتملكوا في فرنسا والمانيا وغيرها وكانت النصارى تحسن اليهم بذلك غير ان منافعهم انحصرت في انفسهم في اخر الامر فضبطت جمهورية فرنسا املاكهم في فرنسا وايطاليا . ولما كان بونابرت يحارب النمسا في ايطاليا شرع في مخابرة هولاء الفرسان طالباً اليهم ان يسلموهُ جزيرة مالطة وتمكن من ان يميل بعضهم اليهِ . ولما دنت بوارجهُ من الجزيرة خاف اهلها اما هو فطلب الى رئيس اولئك الفرسان ان يسمح للبوارج الفرنسوية من ان تاخذ ما يلزمها من الماء من الجزيرة فتمنع هذا الرئيس عن اجابة طلب بونابرت وكان اسمهُ موسيو هوميك فلام بونابرت هذا الرئيس على ذلك . وفي ١٠ حزيران (جون) انزل فرقة من العسكر الفرنسوي الى البر فحاصرت مدينة لافاليت قصبة الجزيرة وكان عدد اهلها نحو ٣٠ الف نسمة وهي قلعة حصينة جداً . فاقام الفرنسويون مدافعهم وشرعوا في اطلاقها عليها فابتدا الفرسان المذكورون يدافعون عن انفسهم وقتل كثيرون منهم في وقت قصير واسر الفرنسويون كثيرين منهم فخاف جداً الاهالي والفرسان حتى ان الفرنسويين منهم تمنعوا عن ان يقاتلوا ابناء جنسهم . ولما راى رئيسهم ذلك طلب ان يسلم وارسل فارساً فرنسوياً من قومهِ الى بونابرت يطالب اليهِ قبول تسليمهِ وعند ذلك عقدت معاهدة بينهما كما ان الفرسان يسلمون الى فرنسا الجزيرة وما حولها من الجزائر الصغيرة . اما بونابرت فوعدهم ان يتوسط امرهم في جمعية رادستاد الدولية التي ذكرناها قبلاً لتعطي رئيسهم امارة في المانيا او تدفع لهُ معاشاً ثلثمائة الف فرنك كل سنة حياتهُ بطولها وللفرسان ستمائة الف فرنك تعويضاً واعطى بونابرت كل فرنسوي منهم سبعمائة فرنك ومن كان قد تجاوز منهم الستين سنة الف فرنك ووعدهم بان فرنسا تتوسط لهم رد الاملاك التي كانت تخصهم في كل البلاد التي هم منها . وهكذا استولى على هذه القلعة الحصينة الواقعة في وسط البحر المتوسط . ولولا سطوتهُ وشهرتهُ لما تمكنت فرنسا من فتح هذه الجزيرة دون حرب مهلكة . واقام بونابرت الجنرال فوبوا في الجزيرة المذكورة ومعهُ ثلثة الاف جندي . واقام موسيو رينيو ردوسن جان دانجلي والياً بعد ان افهمها عن السياسة التي يقتضي ان يجريها ثم اقلع حالاً قاصداً القطر المصري بعد ان اقام في مالطة عشرة ايام فقط . وكان قد عرف ان الكوميدور نلسون الانكليزي جمع بوارج كثيرة بسرعة ومشى في اثرهِ وبلغ جزيرة صقلية في اليوم الذي خرج فيهِ بونابرت من مالطة وكان الفرنسويون مستعدين كل الاستعداد لمحاربة الانكليز اذا ادركوهم وكانوا يسيرون بكل راحة دون خوف وكان بونابرت يجتمع كل يوم عند المساء بالعلماء واهل الفنون والصنائع الذين اتى بهم معهُ ويحادثهم في المشروعات العلمية والصناعية التي ينبغي ان تقام بمصر وهكذا كان يهتم بكل امر لانهُ كان ذا عقل ثاقب ونشاط لا مزيد عليهِ . ومرت بوارج الانكليز

بالقرب منهم دون ان تراهم ودون ان يروها واتى نلسون الاسكندرية قبل وصول الفرنسويين اليها وعند ما دخل المينا بعث بقارب الى حاكم المدينة وطلب اليهِ ان يقابلهُ فاتاهُ ناظر ادارة رسومات اسكندرية السيد محمد كريم الذي كان مقاماً رئيساً بامر الامير مراد بك وعند ما قابل الكوميدور الانكليزي قال لهُ ماذا حملك على ان تاتي بلادنا . فقال لهُ انهُ طالب بوارج فرنسا ليمنعها عن ان تدخل مينا الاسكندرية فلم يصدقهُ السيد محمد كريم بل ظن ان ذلك خداع فاجابهُ انهُ لا غرض للفرنسويين عندنا ولا عداوة بيننا وبينهم ولذلك لا ياتون بلادنا وان اتونا فنردعهم ونطردهم وبناء على ذلك لا يلزم ان تبقى بوارجكم هنا ما لم تكونوا طالبين الحصول على الزاد والماء . فقال لهُ انك لم تذق مرارة حروب الفرنسويين وسيندم المصريون لانهم لم يحبوا ان نبقى عندهم . وبعد ذلك اقلع نلسون وسار ببوارجهِ قاصداً بوغاز الدردنيل لانهُ كان يخاف ان يذهب الفرنسويون الى ذلك المحل . وكان ذلك في ٢٨ حزيران ( جون ) ورجع السيد محمد كريم محارًا فبعث واخبر الامير مراد بك في القاهرة بما كان . وبعد ذلك بيومين ظهرت مقابل الاسكندرية البارجة العظيمة المسماة اوريان وهي التي كان بونابرت فيها فدنت من المدينة وانزلت قاربًا وطلبت قنصل فرنسا فاجتمع قوم وعقدوا مجلساً ومنعوا القنصل عن النزول . فاشار عليهم رئيس البارجة العثمانية التي كانت في الاسكندرية ان لا يمنعوا القنصل عن الذهاب الى المركب . فاتى وعند الغروب اقبلت تلك البوارج الكبيرة وحجبت ما وراءها من البحر عن اعين سكان المدينة فخافوا خوفاً لا مزيد عليهِ وبعث السيد محمد كريم بكتاب الى الامير مراد بك يخبرهُ بهِ عن حضور هذه البوارج وما ياتي هو ترجمة تحريره

سيدي . ان الاسطول الذي حضر الى مينا الاسكندرية يتالف من مراكب كثيرة ليس لها اول يعرف ولا اخر يوصف لله ولرسولهِ داركونا بالرجال

وارسل ١٢ رسولاً الى مراد بك في نفس تلك الليلة اما ونابرت فعرف ان القوم قاصدون ان يمنعوهُ عن النزول الى البر ولذلك امر بان ينزل الجيش في مكان يبعد عن المدينة نحو ساعتين اسمهُ العجمة وهو راس صغير يبعد عن الاسكندرية نحو ستة اميال الى الجهة الغربية وهو امام جزيرة صغيرة فيها برج اسمهُ برج المرابطين وعند الافرنج برج العرب

وقبل الكلام عن دخول جيش الفرنسويين الى هذه البلاد يلزم ان نكتب شيئاً عن حكومة البلاد المصرية في ذلك الزمان عن شعوبها ولا نذكر شيئاً عن مركز مصر الجغرافي لانها بلاد مشهورة . غير اننا نقول ان عدد اهلها في ذلك الزمان كان نحو ثلثة ملايين فقط مع ان المورخين الصادقين يقولون ان عدد اهلها كان نحو عشرين مليونا عند ما فتحها الرومان في عهد اوكتافوس سنة ٣٠ قبل المسيح وكذلك عند ما فتحها عمر بن الخطاب

نقش لطف الله ارقش

سنة ٦٢٨ للميلاد — الجنرال كليبر

وكانت حكومة البلاد المصرية عند ما اتاها بونابرت في يد المماليك وملخص تاريخ وصول الحكومة الى يدهم هو ما ياتي . لما فتح السلطان سليم الاول العثماني البلاد المصرية سنة ١٥١٧ ظن انهُ لا يقدر ان يضبط سياستها حق الضبط لانها بعيدة عن مركز الدولة العلية وكانت الوسائط لنقل الجنود والمهمات قليلة وبطيئة ولذلك قلد المماليك حكومتها وهم من بلاد الشركس وقسمها الى قطائع وقلدهم ادارتها واقام فيها نائباً من وزراء الدولة العلية ليبلغ اوامرها وينفذها بواسطة اولئك المماليك وعددهم ٢٤ مملوكاً وكان ذلك الوزير يقبض الاموال المختصة بخزينة الدولة ويرسلها الى الاستانة العلية . واقام السلطان المشار اليهِ في البلاد تحت امر الوزير الموما اليهِ جنوداً من الانكشارية ليستخدمهم في تنفيذ تلك الاوامر وصيانة البلاد . وقصد السلطان سليم بتسليم البلاد الى المماليك والى ذلك الوزير منع حدوث عصيان على الدولة العلية غير ان المماليك المذكورين اقاموا مجلساً اعضاؤهُ من اكابرهم وتمكنوا بالاتحاد من ان يتسلطوا على البلاد تسلطاً مطلقاً ولم يخشوا السلطان سليماً لانهم كانوا من صنائعهِ فاستبدُّوا بالامر وتسلطوا على وزير الدولة وكانوا يعزلونهُ عند ما يرغبون في عزلهِ وبناء على ذلك نقول ان سلطة الدولة العلية في مصر كانت في ذلك الحين اسمية

وفي سنة ١٧٦٦ طلب وزير الدولة العلية الى علي بك الغاز ضغلى ان يدفع الاموال المعينة لخزينة الدولة فتمنع عن دفعها وطرد الوزير من مصر واخذ يضرب النقود باسمهِ وجعل شريف مكة يسميهِ سلطان مصر وخاقان البحرين وكان الوزراء الذين ياتون مصر بعد ذلك يخضعون كل الخضوع للمماليك فيعزلون هولاء الوزراء وينفونهم بدون استئذان الدولة العلية

اما الذين خلفوا علي بك من المماليك فكانوا احكم منهُ فانهم كانوا يتظاهرون بالخضوع لاوامر الدولة العلية ويعظمونها غير انهم لم يكونوا ينفذون شيئاً منها وكانوا يمتنعون عن دفع الاموال المرتبة لخزينة الدولة ويدعون على الدولة بانهُ يحق لهم ان ياخذوا اموالاً كرواتب وغير ذلك

وفي سنة ١٧٨٦ وردت الى فرنسا تشكيات كثيرة من التجار الفرنسويين الذين كانوا مقيمين في مصر مآلها ان ابراهيم بك ومراد بك اللذين كانا متسلطين على البلاد المصرية كلها كانا يعاملانهم بالظلم والعدوان ويسلبان اموالهم فبلغت حكومة فرنسا هذه التشكيات الى الباب العالي وذلك سنة ١٧٩٥ فاجاب الباب العالي بان المماليك قوم عصاة وكانت فرنسا تحب ان تستولي على الديار المصرية لتتمكن من الاستيلاء على طريق الهند وتقلل سطوة الانكليز وبناء على ذلك الح بونابرت على الحكومة في باريس قبل ان اتى مصر بان ترسل موسيو دوتالريان وزير الخارجية الى الاستانة العلية ليجعل الباب العالي يعقد محالفة مع فرنسا وليفهمهُ عن غاية فرنسا من فتح بلاد مصر

ومع ان الريح كانت شديدة والبحر مضطرباً امر بونابرت ان يصير اخراج الجيش الى البر في المكان المذكور وذلك في مساء النهار الذي بلغت فيهِ السفن ميناء الاسكندرية وهو اول تموز (جوليه) سنة ١٧٩٨ . ونزل هو من المركب الى القارب قبل الجميع وكان معهُ الجنرال كليبر وتزاحمت اقدام الجنود الذين كانوا يطلبون ان يركبوا القوارب ويسرعوا الى البر لئلا ياتيهُ قائدهم قبلهم ومع ان شدة النوء كانت تجعل القوارب في خطر دائم في ذلك النهار بلغ البر فيهِ نحو خمسة الاف جندي . ومع انهم قليلون صمم بونابرت ان يهاجم بهم الاسكندرية قبل ان يتمكن القوم من اقامة الاستحكامات فاخذ الجيش المذكور يسير في الرمل وكان بونابرت يسير معهُ ماشياً لانهُ لم يكن معهُ شيء من الخيل في البر وعند طلوع الفجر اقبلوا على الاسكندرية . ولما راى الاهلون الجنود مقبلة خافوا كل الخوف غير انهم تشددوا وعزموا على الدفاع ونادوا قائلين اليوم يوم الغزو والجهاد . غير ان المدينة كانت غير مستعدة للقتال ولمصادمة جيش معهُ مدافع وبنادق جيدة وكل الات الحصار فان قلاعها كانت فارغة من المهمات والزاد والبارود الذي كان فيها لاينفع . وعند طلوع الشمس امر بونابرت جيشهُ ان يهجم على اسوار المدينة فانقضوا عليها انقضاض



الطيور الكاسرة والاسود الضارية وبعد هجومهم بنحو ساعتين فتحوها ودخلوها عنوةً وذلك قبل ان تمكنت المدينة من ان تطلب التسليم وانتشب القتال داخل اسوارها فبعث بونابرت رجلاً من الاتراك الذين كانوا قد دخلوا في خدمتهِ الى مشايخ المدينة وعلمائها يطلب اليهم ان يسلموا ويكفوا القتال والا فيحرق المدينة بما فيها . فسلموا ودخل بونابرت بعد ان كانوا قد اتوا لاستقبالهِ ونزل في دار قنصل فرنسا . ولما كان ماراً في شارع من شوارع الاسكندرية مرت رصاصة بندقية ماسة حذاءهُ فصعد الجنود الذين كانوا يحافظون عليهِ الى الدار الذي أُطلق منها الرصاص فوجدوا رجلاً من الاتراك جالساً في مخدعهِ وامامهُ ست بنادق محشوة فقتلوهُ . اما السيد محمد كريم مدير الاسكندرية المذكور فرحل برجالهِ الى برج الفنار وهو منارة الاسكندرية المشهورة واستعد للدفاع في البرج المذكور غير انهُ ارسل في الصباح وطلب الى بونابرت ان يقبل تسليمهُ فقبلهُ بونابرت بكل ترحاب وقال لهُ هل تريد ان تخدم الفرنسويين في اجراء مقاصدهم في مصر وهي ان يقرضوا حكومة المماليك الظالمة ويرجعوا البلاد المصرية الى الدولة العلية . فعاهدهُ محمد كريم على ذلك واقسم لهُ بانهُ يخدمهم بامانة امام امراء الجيش وجمع غفير فابقاهُ بونابرت في الرتبة التي كانت لهُ وهي ولاية الاسكندرية تحت ادارة الجنرال كليبر الذي التزم ان يقيم في الاسكندرية الى ان يبرا من الجرح الذي اصابهُ في الهجوم على المدينة . واقامهُ بونابرت قائداً عاماً للجيش الثاني في الاسكندرية ووالياً عليها ولم يقتل من الفرنسويين غير قليلين . فامر بونابرت بان يصير دفنهم بجانب تمثال بومبيوس وحفر اسماءهم في التمثال المذكور لتخليد ذكرهم وجرى ذلك بحضور الجيش فانهُ اتى البر جميعهُ . وشاهد هذا الامر كثيرون من المصريين فتعجبوا من اعتناء الفرنسويين بالذين يقتلون وهم يخدمون وطنهم وكانوا يتعجبون كل التعجب عند ما كانوا يشاهدون ما بين لهم حب الجنود لقائدهم بونابرت وانقيادهم اليهِ . اما عدد الذين قتلوا من الاهلين في ذلك النهار فهو نحو مائة رجل . وكان بونابرت يستغنم كل الفرص المناسبة لينشط جنودهُ ويحرضهم على الثبات والقتال وكان ينشر خطباً تهيج كل واحد منهم ولو كان بليداً وما ياتي هو صورة الخطاب الذي نشرهُ عليهم قبل ان خرجوا من المراكب واتوا البر

ايها الجنود

ان الشعب الذي ستصبح بينهُ هو من المسلمين واساس اعتقادهم مقرر في كتابهم وهو لا اله الا الله ومحمد رسول الله فلا تعارضوهم وعاملوهم كما عاملتم الاسرائيليين والايطاليين واكرموا علماءهم وقضاتهم كما اكرمتم روساء الاديان في ايطاليا ولا تتعرضوا بشيء للاحتفالات الدينية ولا تحتقروا الجوامع فان الجنود الرومانية كانت تحترم كل الاديان وتحامي عنها في البلاد التي كانت تفتحها (لايخفى ان اكثر الفرنسويين كانوا قد كفروا بجميع الاديان) ومن فروضكم ان تحترموا عادات

البلاد والاهلين التي تختلف كثيرًا عن عادات اوربا وان تسلكوا بحسبها وعلى الخصوص في ما يتعلق بالنساء فان عادة الشعب المصري تختلف كل الاختلاف عن عادتنا في هذا الامر واعلموا انهُ مقرر في قوانين جميع البلاد ان من يغصب امراة يعدُّ من الانذال ولا يخفاكم ان النهب والسرقة لا تغنيان احدًا وتكونان مصدرًا لقيام عداوة شديدة بيننا وبين امة يهمنا جدًّا ان نسالمها . اما المدينة الاولى التي نمرُّ فيها فهي الاسكندرية التي بناها اسكندر الكبير وستصادف كلما تقدمنا خطوة من الاثار القديمة ما يستحق ان يكون سببًا لتهييج غيرة الفرنسويين . انتهى

وبعد ان دخل بونابرت الاسكندرية وامَّن اعيان البلد واكابرها اختار منهم سبعة منهم العلامة الفاضل الشيخ محمد المسيري والسيد محمد كريم وقلدهم زمام احكام المدينة وفوض اليهم النظر في ما تحتاج اليهِ البلاد من النظام والترتيب وامرهم ان يجتمعوا مرة كل يوم ليتقاضى اليهم الشعب وقال لهم ان من مبادئ الحكومة الجمهورية الفرنسوية ان يسوس الامة عقلاؤها لان البشر عند الله متساوون فلا يفضل انسان على انسان الا بما يفضلهُ عليهِ عقلهُ وما في صدرهِ من المعارف والعلوم . ثم امر باقامة المطابع الكثيرة التي اتى بها معهُ وان تشرع في طبع اوامرهِ واعلاناتهِ في اللغة الفرنسوية والعربية والسريانية وغيرها . وقد ذكرنا ان بونابرت كان قد اتى بقوم من العلما ليتمكنوا من البحث في اثار البلاد ومعادنها وغير ذلك لان المرجح ان مصر هي اقدم العالم تمدنًا ولن اثارها كثيرة . وكان بونابرت قاصدًا ان يفتح سورية وبلاد العرب والهند بعد فتح مصر لانهُ كان يعرف ان هذه البلاد غنية جدًّا وفيها اثار ومعادن وغيرها مما يحتاج الى بحث العلماء واصحاب المعارف وهكذا نرى ان بونابرت لم يغفل عن الامور العلمية مع انهُ كان مشتغلاً بادارة امور حربية

وبعد ان اصبحت مدينة الاسكندرية في راحة وطمانينة شرع في جمع اسلحة اهلها فجمعها دون ان يصادف صعوبة ومانعة وجهز كل ما يلزم لجنودهِ ثم اخذ بمساعدة السيد محمد كريم الذي سلك في خدمتهِ مسلك الامانة في اول الامر في جمع الافراس التي كان الجيش محتاجًا اليها والجمال اللازمة لنقل المهمات والزاد . ولم يكونوا قادرين ان يحصلوا على ذلك الا من البدو الذين كانوا في البلاد وكان هولاء البدو قد اسعفوا اهل الاسكندرية في محاربة بونابرت فارسل السيد محمد المذكور ودعا اليهِ بعض شيوخ قبائل البدو المذكورين وعاهدوهُ بانهم لا يتعدون على ابناء السبيل بين الاسكندرية ودمنهور سواء كانوا من الاهالي او من الفرنسويين وانهم ياتون قائد الجيش الفرنسوي بعد ذلك بثمانية واربعين ساعة بثلثمائة فرس وخمسمائة هجين بثمن وقع الاتفاق عليهِ ووعدهم بدفع الثمن نقدًا عند تسليم الحيوانات المذكورة وان يقدموا الف جمل لنقل مهمات الجيش الفرنسوي ومعها الف رجل ليسوقوها ووعدهم بدفع اجرة هذه الجمال وهكذا صار بونابرت قادرًا ان يذهب الى الداخلية بعد عقد هذا الاتفاق بزمان قصير فانهُ كان مصممًا على الاستيلاء



على البلاد وفتح مدينة القاهرة وبعد ذلك نشر الاعلان الاتي باللغة الفرنسوية والعربية والتركية ووزعهُ في كل البلاد وما ياتي هو ترجمتهُ

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله . لا ولد ولا شريك لهُ

من الجمهورية الفرنسوية المبنية على اساسات الحرية ومن امير الجيوش الفرنسوية الجنرال بونابرت . اننا نقول لجميع اهالي مصر

ايها المصريون

طالما عامل الحكام المصريون التجار والرعايا الفرنسويين بالظلم والاحتقار فانهم كانوا يتعدون عليهم ويغتصبون اموالهم فهذه الساعة هي ساعة قصاصهم . وقد طال زمان تسلط قوم من هولاء المماليك الذين اتوا من بلاد الشركس على احسن بلاد من الدنيا وطال زمان تجرعها كاس ظلمهم وجورهم . اما الان فقد حكم الذي يقضي على الملوك والسلاطين بانقراض دولتهم . يا ايها المصريون لا تصغوا لمن يجتهد في خداعكم ويقول اني اتيت لابطل دينكم فان ذلك كذب محض فقولوا لمن يرغب ان يخدعكم في ذلك اني اتيتكم لانتصر لكم واحامي عنكم وانتقم من ظالميكم ومختلسي حقوقكم . اما انا فاعبد الله واكرمهُ اكثر من المماليك واحترم رسولهُ محمدًا والقرآن الشريف وقولوا لهم ان جميع الناس عند الله متساوون ولا فرق بينهم عندهُ الا بما يمتاز بهِ الواحد عن الاخر بالعقل والمعارف . وما هو الفرق في العقل والمعارف بين المماليك وغيرهم من الناس حتى يحق لهم ان يملكوا كل ما تقوم بهِ سعادة الانسان في الدنيا فان كل الاراضي المخصبة هي لهم وكل النساء الجميلات لهم والملابس الثمينة والقصور الفاخرة هي لهم فان كانت ارض مصر ملك المماليك فعليهم باظهار الحجة التي سلمهم اياها الله سبحانهُ وتعالى . اما الخالق فراوف عادل وما من احد ينكر ذلك وان شاء الله لا نستثني احدًا من الاهالي في ما يتعلق بتقلد المناصب السامية والمراتب العالية فالعقلاء والعلماء منهم سيدبرون الامور السياسية والاحكام بين الجمهور وهكذا يصطلح حال الامة كلها وتنمو تجارة مصر وترجع مدنها الى عظمتها السابقة بعد ان كانت لخدمة المماليك وسد شهواتهم فانهم هم الذين ازالوا كل الوسائط النافعة التي كانت لكم . يا ايها القضاة والشيوخ والايمة والاعيان قولوا للمسلمين ان الفرنسويين مسلمون والبرهان انهم حلوا في ايطاليا وهدموا سلطة البابا الذي يحرض المسيحيين على ان يحاربوا المسلمين ثم اتوا مدينة مالطة وازالوا تلك الجمعية المسماة بجمعية الفرسان التي تدعي ان الله اقامها لمحاربة المسلمين . ولا يخفى عليكم ان الفرنسويين منذ القديم حلفاء حضرة السلطان العثماني واعداء اعدائهِ . اما المماليك فقد تمنعوا عن طاعة السلطان وعصوا اوامرهُ الا في ما فيهِ خير لهم . فالامان والسعادة للذين يتفقون معنا من المصريين فتصطلح حالتهم وترفع مراتبهم وكذلك الذين يقيمون في بيوتهم محايدين

فانهم يتمكنون من مشاهدة اعمالنا والوقوف على مقاصدنا وبعد ذلك يبادرون الى الاتحاد معنا . والويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في محاربتنا فانهم لا ينجون ولكنهم يصادفون هلاكاً . ومن الواجب على كل قرية تبعد ثلث ساعات او اقل عن الطريق التي يسير فيها الجيش الى الداخلية ان ترسل الينا عمدة وتفيدنا ان تلك القرية هي مطيعة للجمهورية ومنقادة الى امرها وانها قد نشرت الراية المثلثة الالوان الفرنسوية . وكل قرية تحاول ايقاع الضرر بالجيش الفرنسوي تحرق وعلى كل قرية دخلت في الطاعة ان تنشر مع الراية الفرنسوية علم السلطان العثماني المتحد معنا ادام الله بقاءهُ وعلى شيخ كل بلدة او محلة ان يضبط بيوت المماليك وارزاقهم واذا فقد شيء منها فهم المسئولون . اما القضاة والايمة والمشايخ فعليهم ان لا ينفكوا عن اعمالهم وكل من الاهالي ينبغي ان يقيم في منزلهِ مستكناً ومطمئناً وان تقام الصلوات في الجوامع حسب العادة وعلى المصريين ان يشكروا الله تعالى على انقراض دولة المماليك قائلين بصوت واحد ادام الله اجلال السلطان العثماني وادام الله تعالى اجلال الجيش الفرنسوي ولعن الله المماليك واصلح الله حال الامة المصرية . كتب في ١٢ من شهر مسيدور . السنة السادسة للجمهورية الفرنسوية في ٢ تموز (جوليه) سنة ١٧٩٨ مسيحيه) الموافق لغاية شهر محرم سنة ١٢١٩ هجرية . ثم نشر اعلاناً ثانياً على جيشهِ وما ياتي هو ترجمة بعضهِ

اعلموا ايها الجنود ان البلاد التي نحن في سبيل فتحها هي بلاد تاتينا بمنافع كثيرة يتسع بها المتجر وينتشر التمدن والعلوم وفضلاً عن ذلك فتح هذه البلاد يذيق انكلترا امر كاس قبل حلول الوقت الذي يسمح لكم الله فيهِ بابادتها . وقبل الشروع في ذكر اعمال بونابرت في مصر نذكر ما حدث في فرنسا وسائر اوربا في مدة غيابهِ وهي ٤٣ يوماً

ان انكلترا لم تكن عارفة ان بونابرت عزم على فتح مصر غير انها كانت تعلم ان فرنسا شارعة في تجهيز جيشين عظيمين في غربها وفي جنوبها لفتح البلاد الانكليزية ولذلك كان اللورد بت وزير انكلترا الاول يفرغ الجهد في تكدير السلام في اوربا وحمل النمسا وايطاليا على اقامة الحرب ثانيةً على الامة الفرنسوية لوقاية البلاد الانكليزية من مكايد بونابرت . فكانت النمسا تتجهز سرًّا وتتاهب وكان وكلاؤها في جمعية رادستاد يمتنعون عن تخلية املاك النمسا الواقعة في يسار الرين وعن ان يحدثوا تغييراً في نظام العصبة الالمانية وامست الجمهوريات التي اقامها بونابرت في شمال ايطاليا وعند حدود فرنسا في خطر عظيم من مطامع الملوك الكثيرين الذين لم يرتضوا باقامتها خوفاً من ان توثر المبادىء الجمهورية في ممالكهم وحالتهم الداخلية لان هذه الجمهوريات كانت تابعة فرنسا وفي هولندا اخذ المضادون لفرنسا في القبض على زمام الامور وكذلك في جمهورية سيزالبين . فالتزمت الحكومة الفرنسوية ان ترسل جيشاً الى تلك البلاد لترجع

ذهاب بونابرت وجيشهِ بعد موقعة الرحمانية الى الشامة

بها الى ربقة الطاعة . ولم يحسن الفرنسويون السياسة في رومية فان معتمديها والجنرال ماسينا قائد الفرقة التي كانت مقيمة هناك كانوا ينهبون دار الاثار القديمة في رومية ويسلبون اموال الكردينالية ويتركون الجنود في اسواء حال فعصت العساكر روساءها حال كون الرومانيين كانوا يكرهون الفرنسويين . واساءت الحكومة الفرنسوية التصرف مع جمهورية سويسرا وشرع مامورو

الحكومة هناك في اجراء اعمال بربرية ومع كل ذلك خاب مسعى اللورد بت لانهُ لم يتمكن من ان يجعل دولة من دول اوربا تقيم الحرب على فرنسا . وفي تلك الاثناء سلمت النمسا البلاد الواقعة في يسار الرين الى فرنسا التي لم تستطع دولة من الدول ان تعارضها في امر من الامور وحدث ذلك جميعهُ لما ذهب بونابرت ليفتح بلاد مصر . اما بونابرت فكان قد اختبر الامور حق الاختبار حين فتح بلاد ايطاليا والنمسا ولذلك عزم ان يهدم سلطة المماليك قبل ان يتوغل بجيشهِ في البلاد المصرية (وكان لهُ مسوغ يسوغ لهُ ذلك وهو تعدياتهم على التجار الفرنسويين الذين كانوا مقيمين في مصر) وان يمتنع من اجراء كل ما يوقع الخلاف بينهُ وبين الباب العالي وعزم ان يحترم حقوقهُ ظانًّا انهُ قادر على الاتفاق معهُ على ضم مصر الى فرنسا باعطائهِ موضعًا اخر او بابقاء مصر على ما كانت عليهِ في ايام حكومة المماليك وتكون فرنسا فيها كما كان المماليك . وكان بونابرت يعلم انهُ لا بد لهُ من ان يميل اليهِ الجنس العربي لانهُ اكثر الاهالي عددًا وذلك باكرام شيوخهم والمحافظة على امتيازاتهم وحقوقهم وارجاع الملك اليهم وذلك كما فعل في ايطاليا فانهُ جعل الايطاليين يوملون بجعل ايطاليا مملكة واحدة وكان يعلم انهُ لا بد من المحافظة على الامنية وصيانة املاك الاهالي بعد فتح البلاد فان ذلك يحمل القوم على الارتضاء بالحكومة ومدح عدلها بعد ان كان حكامهم يملكون على الارض وما عليها . وعلم ان اعتبار اديان الاهالي وعوائدهم هو من الوسائط الفعالة التي تاول الى استعطاف خواطرهم . وكان الفرنسويون قد كفروا بكل الاديان ولذلك لم يتردد بونابرت عن ان يتظاهر بالاسلامية فهذه هي المبادىء السياسية التي عول عليها بعد ان فتح الاسكندرية وقبل ان خرج منها بعث الى وزير الدولة الذي كان يقيم في القاهرة بكتاب هذه ترجمتهُ

دولتلو افندم حضرتلري

ان جمهورية فرنسا عزمت ان ترسل جيشًا عظيمًا لقطع اعمال المماليك المخلة في مصر وانقاذها من يدهم وقد فعلت نفس هذا الفعل مرارًا كثيرة في تونس والجزائر ومع انكم انتم السايدون والسلطة لكم قد امسيتم بواسطة سلطة المماليك كالاسرى بلا نفوذ ولا قوة فلا بد من ان تسروا بمجيئنا الى هنا . وانتم تعلمون ان لحضرة السلطان في اوربا حليفة واحدة وهي فرنسا وانا لم نات لنضر القرآن ولا السلطان فبناء على ذلك هلموا الى ملاقاتنا والعنوا معنا المماليك وقومهم (الامضا) بونابرت

وبعد ان اقام بونابرت الاستعدادات التي ذكرناها وقرر الاحكام في الاسكندرية امر بان يصير وضع مهمات الجيش وزادهِ في سفن تسير في النيل والجيش يسير مقابلها على ضفتهِ وامر ان تنتظر السفن المذكورة وصول الجيش اليها في الرحمانية . وفي ٦ تموز (جوليه)



خرج بونابرت من الاسكندرية قاصدًا مدينة القاهرة وكان يخشى فيضان النيل فافرغ الجهد في الاستيلاء على البلاد قبل فيضانهِ فلم يسر في الاراضي الخصبة الماهولة قاصدًا الرحمانية لانها طويلة ولكنهُ سار في طريق اخرى قصيرة غير انها في وسط قفر دمنهور وكان الجنرال ديسيز يسير في طليعة الجيش الذي كان عددهُ بعد طرح ما ابقاهُ منهُ في سلطة وفي الاسكندرية نحو ٢٠ الف جندي . ولما رات الجيوش الفرنسوية ذلك القفر الواسع والرياح تثير فيهِ الرمال وشعروا بحرارة الشمس المحرقة وعرفوا انهُ ما من ماء فيهِ وما من ظل يستظلون بهِ ولا اشجار غير قليل من النخل وما من بشر غير فرسان قليلين من العرب الذين كانوا يظهرون ثم يستترون وراء تلال الرمال ليفتكوا بالمتاخرين من الجيش الفرنسوي وقع الخوف في قلوب الجنود واغتاظوا وتكدروا فانهم كانوا يحبون ان يحصلوا على الراحة بعد ان احتملوا ما احتملوا من المشقات في حروب ايطاليا . وكانوا قد انقادوا الى قائدهم في هذا السفر البعيد لانهُ قيل لهم ان مصر ذات خصب ورخاء فاصبح الجنود يوملون بالحصول على قسم كافٍ من السلب . ولما راوا ذلك القفر وقعوا في ياس وعلى الخصوص لما وجدوا ان البدو كانوا قد عطلوا الابار الموجودة فيهِ ووعدهم قوادهم بانهم سيصادفون في مدينة دمنهور ما يريحهم من اتعابهم و يشفي غليلهم فلم يروا فيها غير اكواخ قليلة من طين ولم يجدوا خبزًا ولا خمرًا بل قليلاً من العدس والماء . وشرع الجيش يسير في ذلك القفر المهلك ومات كثيرون منهم ظمأ وتعبًا ومن حرارة الشمس حتى ان الجنرال لان والجنرال مورات اظهرا غيظهما ومزقا رايات فرقهما وطرحاها على الارض وداساها بارجلهما . اما بونابرت فصبر على كل ذلك وكان يجول بين صفوف الجيش مشددًا عزيمة شبانهِ وصبرهِ العجيب وكان الجنود يحبون قائدهم بونابرت جدًّا ولذلك لم يرشقوهُ بسهام اللوم ولكنهم كانوا يقولون ان الحكومة ارسلتهم الى بلاد بعيدة قفرة لكي تمكن العلماء الذين كانوا سائرين بجانب الجيش من الوقوف على اثار مصر القديمة وتخطيط رسمها وكشف احوالها وانها عرضت حياة جيش برمتهِ للاخطار حبًّا بنوال هذا المقصد . وبناء على هذا الاعتقاد كان الجيش يلوم هولاء العلماء كل اللوم كلما كانوا يوقفونهُ عن المسير ليدققوا النظر في الاثار التي كانوا يصادفونها وكانوا يشتمونهم وعلى الخصوص العالم كفرلي فانهُ كان كثير البحث وشديد التدقيق ذا نشاط غريب مع انهُ كان اعرج ولهُ رجل من خشب فكانت الجنود تقول انهُ لا يجب ان يرجع الى بلادهِ لانهُ دفن رجلهُ فيها . وبعد ان تكبد العسكر تلك المشقات الكثيرة اربعة ايام وصل الى شاطي النيل في ١٠ تموز (جوليه) . فسر جدًّا عند ما راى مياه النيل فبادرت الجيوش والقواد الى الاستحمام فيهِ ونسوا كل الاتعاب التي تكبدوها ونام العسكر والضباط في تلك الليلة تحت اشجار الجميز واخذوا ياكلون البطيخ ويشربون ماء النيل واقاموا في الرحمانية اربعة ايام صرفوها بالسرور والحبور . اما الجنرال ديسيز فكان قد هزم بعض

فرسان العرب الذين ارسلهم مراد بك الشجاع ليشنوا الغارة على موخرة العسكر الفرنسوي ويراقبوا حركاته الى ان يتمكن من جمع عسكر لمصادمة المهاجمين . وبعدما وصل العسكر الفرنسوي الى المكان المذكور وصلت اليه السفن الحاملة المهمات الحربية والزاد وكل مقتضيات الحرب وكان بعضها حاملاً المدافع لمقاتلة سفن مراد بك فانه كان قد اعد سفناً لمصادمة بونابرت واتت الى هناك فرقة الجنرال دوكا بعد ما استولت على مدينة رشيد بدون حرب لان الاهلين فتحوا له ابوابها بلا دفاع لخوفهم مما سمعوا عن فتح الاسكندرية . واقام بونابرت الجنرال مينو والياً على تلك القطائع الى ان يشفى من جراحاته . وقبل خروج بونابرت من الاسكندرية اهتم باجراء ما يحمي البوارج الفرنسوية التي اتت به وبعسكره الى تلك البلاد من غدر البوارج الانكليزية التي كان عارفاً انها كانت تراقب حركاته على الدوام وكان ميناء الاسكندرية واسعاً لكن رقيقاً لا تسير فيه البوارج الكبيرة ولذلك لم يدخله من البوارج الفرنسوية الا السفن الصغيرة لنقل الزاد والمهمات وبعض بوارج ثانوية . اما دليل الميناء فقال ان البوارج الباقية خارج الميناء هي كبيرة لا يحملها الماء . فطلب بونابرت الى الاميرال بروي رئيس الاسطول الفرنسوي ان يسبر البحر ليعلم صحة ما قاله الدليل وان يذهب في اثناء ذلك الى مينا ابي قير التي تبعد عن الاسكندرية نحو ٩ ساعات واذا راى انه لا يقدر ان يدخل كل السفن الى ميناء الاسكندرية يامره بان يذهب حالاً الى جزيرة كورفو او الى بوغاز تولون ليأتي بالفرقة المقامة لنجدة عسكر مصر ولم يتمكن بونابرت من ان يراقب بنفسه اجراء ما امر باجرائه ولولا ذلك لما حدث ما سنذكره وهكذا خرج بونابرت من الاسكندرية واقامت البوارج في مينا ابي قير

وكان السيد محمد كريم قد اخبر مراد بك بقدوم العساكر الفرنسوية ودخولها البلاد ولما قرأ مراد بك المذكور الكتاب غضب غضباً شديداً ورمى به الى الارض وهاج وماج وسار الى منزل ابراهيم بك واجتمع به مدة وشاع الخبر في كل القاهرة فهاج الاهلون وخافوا وتاسفوا واجتمع الامراء والاعيان في قصر ابراهيم بك وحضر باكر باشا وزير الدولة العلية من القلعة السلطانية واجتمع كل قواد المماليك والاعيان هم وابراهيم بك الكبير ومراد بك الكبير ومصطفى بك الكبير ومراد بك الصغير وسليمان بك ابو ذئاب وعثمان بك الشرقاوي ومحمد بك الالفي ومحمد بك المنوفي وعثمان بك البرديسي وعثمان بك الطوبجي وقاسم بك المسكوبي وقاسم بك ابو يوسف وقاسم بك امين البحر والامير مرزوق بن ابراهيم بك الكبير وعثمان بك الطويل وشروان بك ومن العلماء الشيخ محمد السادة والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ خليل البكري والسيد عمر نقيب الاشراف والشيخ العربي والشيخ محمد الجوهري وكثيرون غيرهم من العلماء والشيوخ والبكوات والامراء ووزير الدولة العلية وعقدوا ديواناً في قصر ابرهيم بك حضره



القواد وكثيرون من اهل الحذق من الاهلين واخذوا يتفاوضون بامر الفرنسويين ومجيئهم الى ارض مصر وفتحهم مدينة الاسكندرية وكانوا يستغربون هذا الامر جداً . اما مراد بك فكان يعلم ان الدولة العلية كانت مغتاظة منه ولذلك قال لوزيرها ان الفرنسويين لم يدخلوا هذه الديار الا باذن الدولة العلية ولا ريب ان حضرة الوزير يقدر ان يخبرنا شيئاً عن ذلك غير انه لا بد من ان تسعفنا العناية على الاثنين فاجابه الوزير قائلاً يا ايها الامير لا يليق بك ان تتكلم هذا الكلام لانه لا يمكن ان تسلم الدولة العثمانية لدولة نصرانية بان تستولي على بلاد اسلامية فدعوا عنكم هذا المقال وانهضوا جميعاً كالابطال وصادموا الذين اتوا ليفتحوا بلادكم . وبعد ذلك قرر رايهم على ان يسجنوا قنصل فرنسا المقيم في القاهرة وجميع التجار الفرنسويين خوفاً من الخيانة فسجنوهم في قلعة الجبلية وصمم مراد بك ان يسير بالعساكر لملاقاة العسكر الفرنسوي عند دمنهور وان ابراهيم بك وباكر بك ووزير الدولة يقيمون مع بقية العساكر في المدينة . اما البعض فقالوا لا بد من قتل النصارى المقيمين بيننا قبل الذهاب الى محاربة الفرنسويين فمنعهم عن ذلك وزير الدولة وابراهيم بك وقالا لهم ان النصارى المصريين هم رعايا حضرة مولانا السلطان ولا يسمح بسفك نقطة دم من دم رعاياه مع قطع النظر عن مذاهبهم . اما المسجونون في القاهرة فخافوا جداً لان المسلمين كانوا يتهددونهم بالقتل والسلب وكان الجهلة منهم ينادون في الاسواق بكلام التهديد ولما سمع بذلك ابراهيم بك والوزير امرا بان ينادي منادٍ في الشوارع والاسواق بحماية الرعايا النصارى وعدم التعرض لهم وكانا يرسلان اليهم في كل يوم سليمان اغا كبير الانكشارية ليؤمنهم على دمائهم واموالهم . اما مراد بك فركب في عسكر جرار يفوق العشرين الف مقاتل وجمع غفير من فرسان الغز والبدو وسار بهم الى ارض الرحمانية بالقرب من الرشيد وكان قد ارسل المهمات والذخائر مع عسكر كريد في النيل تحت قيادة عالي باشا الجزائري ونصيف باشا العظم وسار مراد بك على شاطئ النيل امامهم

وكان جيش بونابرت يسير براً وقوارب زاده ومهماته تسير بجانبه في النهر وهبت ريح شديدة في ذلك النهار فسبقت القوارب الجيش نحو ساعة فبانت مقابل مراكب مراد بك وانتشب القتال بينهما فالتزمت القوارب الفرنسوية ان تصادم المراكب المصرية وجيش المماليك البري الذي كان يصادمها اشد الصدام . اما الكونترامبرال بري رئيس القوارب الفرنسوية فقاتل قتالاً شديداً ودبر تدبيراً حسناً وعلى الخصوص فرقة الفرسان الفرنسويين الذين كانوا راكبين القوارب لانه لم يكن لهم افراس يركبونها وكانوا يترصدون انتشاب الحرب بينهم وبين المماليك ليكتسبوا خيولهم . ولما سمع بونابرت صوت اطلاق المدافع عرف انه قد انتشب القتال بين قواربه وجيش المماليك فاسرع في المسير ووصل الى الرحمانية . ولما راى جيش المماليك الجيش الفرنسوي مقبلاً ارتد عن محاربة القوارب وانقض على جيش بونابرت وكان عددهم نحو الفي فارس ولما راوا ان الفرنسويين جميعهم

مشاة تيقنوا بان الفوز لهم فانهم كانوا يظنون ان المشاة لا يقدرون ان يحاربوا الفرسان واخذ كل منهم يقول في نفسهِ لا بد من قطع ستة او سبعة رووس من رؤوس هولاء الافرنج . اما بونابرت فقسم جيشهُ الى خمس فرق وتهيأ للقتال وكان مع مراد بك نحو الفي فارس من العرب خلا الفرسان المار ذكرها وصرف الجيشان برهة من الزمان في الاستعداد للقتال واندهش العسكر الفرنسوي لما راى حسن ملابس جنود المماليك وسلاحهم المنضض وملابس خيولهم الذهبية وكانوا ينظرون الى ملابسهم اي الى ملابس الفرنسوية ويضحكون عليها لانها كانت بسيطة بالنسبة الى ملابس عسكر المماليك . وقبل ابتدا القتال في البر فتكت القوارب الفرنسوية بالقوارب المصرية واحرقت السفينة التي كانت فيها المهمات فهلك من فيها ومن كان قريباً منها فانكسرت اكثر المراكب المصرية وغرق بعضها . ثم اندفعت كرة محشوة من البحر الى محل المهمات المصرية في البر فاحترقت ايضاً فحزن المصريون وايقنوا ان الدائرة ستدور عليهم

الجنرال مورات والي اقليم القليوبية



وعند ذلك امر مراد بك فرسانهُ ان يهاجموا الفرنسويين فانقضوا عليهم انقضاض الكواسر وصرخوا قائلين اليوم هلاككم ايها اللئام . وعندما اقتربوا من الجيش الفرنسوي اطلق الفرنسويون عليهم مدافعهم وبنادقهم وغداراتهم فقتل منهم كثيرون ومع ذلك لم يرتدوا بل تقدموا الى ان صادفوا سوراً منيعاً من الجنود فاستقبلهم الفرنسويون بالحراب فتفرقوا وتشتت شملهم ولم يتمكنوا من ان يجتمعوا فاتوا مكاناً يسمى الجسر الاسود واقاموا هنالك في حيرة بعد ان كانوا موقنين انهم سيكسرون الفرنسويين ويغتنمون الغنائم . فتبعهم الفرنسويون بجد وغنموا كثيراً من خيلهم وذخائرهم واسروا بعضهم وقتل من جيش مراد بك في ذلك النهار نحو ٣٠٠ فارس واستفاد الجيش الفرنسوي من هذه المعركة كيفية قتال اعدائهِ . وبعد ذلك شرع الجيش في المسير قاصداً القاهرة وكان مسيرهُ بجانب النيل واشتد الحر جداً واخذ الجيش يتذمر ثانية وكان القواد ايضاً يتذمرون ولولا سطوة بونابرت لعصوهُ لامحالة . وكانت القوارب تسير في النهر بجانب الجيش فان الزاد كان فيها وكذلك الجرحى والمرضى . وكفت الجنود عن اهانة العلماء لانهم راوا منهم في المعركة التي حدثت بين القوارب شجاعة لامزيد عليها . اما باكر باشا الوزير وابراهيم بك الكبير اللذان بقيا في القاهرة فبعد خروج مراد بك منها اتيا بولاق ونصبا الخيام فيها وشرعا في بناء الحواجز والحصون عند شاطئ النيل . ولما سمعا بما حل بجيش مراد بك خافا ووقعا في الحيرة . وعند ما بلغت تلك الاخبار القاهرة هاج الاهلون وتقلدوا الاسلحة وشرعوا يتهددون النصارى قائلين اليوم يوم هلاككم يا ملاعين . اما ابراهيم بك فكتب الى مراد بك بان ياتي الى امبابة وهي قرية مقابل بولاق في ميسرة النيل وبان يبني الحواجز على شاطئهِ ويقيم المدافع مقابل معسكرهِ المقيم في بولاق فيكون النيل فاصلاً بينهما فان اتى الفرنسويون النيل يصادمهم ابرهيم بك واذا اتوا براً يصادمهم مراد بك . وفي ١٦ صفر (٢٠ تموز (جوليه) سنة ١٧٩٨) يوم الجمعة صعد العلماء والائمة الى القلعة السلطانية واتوا بالراية النبوية باحتفال عظيم الى بولاق واقاموا الدعاء وصعد الخطباء على المنابر وحرضوا الجميع على القتال والدفاع . اما الوزير فاتحد مع ابرهيم بك معرضاً عن كتابات بونابرت ومواعيدهِ . ولم يكن لابراهيم بك شجاعة مراد بك وكان مقيماً في بولاق مع جيوشهِ ونسائهِ وكانت اموالهُ في السفن الكثيرة وفعل ذلك ليتمكن من الفرار الى سورية اذا انكسر في الحرب . وفي ٢١ تموز (جوليه) اقبل جيش بونابرت على القاهرة براً ونهراً فاندهش الفرنسويون عند ما راوا تلك المدينة العظيمة المبنية في الجهة اليمنى من نهر النيل ومآذنها العالية وابراجها الشاهقة وعن يسارها ذلك القفر الواسع وفي اولهِ اهرام الجيزة العجيبة . وكان بونابرت راكباً حمادهُ امام جيشهِ ولوائح الابتهاج والسرور تلوح على وجههِ ولما اشار الى الاهرام قال لجنودهِ اعلموا ان اربعين قرناً تنظر اليكم من فوق هذه الاهرام . وكان مراد بك الشجاع ومعهُ ٤٠ مدفعاً وجيش

عزم فيه عشرة الاف جندي من المماليك و ٢٠٠٠ الفًا من الغزّ و بعض الوف فرسان من العرب في الجهة الواحدة من النيل وابراهيم بك وجيوشه البرية والنهرية في الجهة الثانية و باكر باشا الوزير مع جيش ثالث عدده عدد جيش مراد بك في المدينة للمدافعة عنها من وراء الاسوار . اما بونابرت فقسم جيشهُ الى ٥ اقسام كما فعل في الرحمانية وأقام الجنرال ديسيز والجنرال رينيه في الميمنة الى جهة القصر اي في الجهة الغربية من القاهرة واقام الجنرال مينو والجنرال بون في الميسرة والجنرال دوكا في القلب وانتظمت كل فرقة من فرق هذه الجنود الانتظام المعروف في فن الحرب بالقلعة اي ان تصطف الجنود صفوفًا مربعة قادرة ان تدفع العدو من الجهات الاربع وسارت هذه الفرق وهي على هذا النظام الى ان دنت كل الدنو من الجيوش المصرية وراى بونابرت بالنظارة ان مدافع جيش مراد بك الذي كان اقرب اليه من غيره لم تكن على دواليب وتاكد انها ثابتة لايقدر جنودها ان ينقلوها من مكان الى اخر ولذلك امر الجيش ان يميلوا الى الميمنة في المسير ليبتعد عن مدافع مراد بك ولم يخشها لانها ثابتة والمشاة المصريون لا يتجاسرون ان يمنعوا الفرنسويين عن المسير ومتى عبر بونابرت بجيشه معسكر مراد بك لايبقى امامهُ غير عسكر المماليك الفرسان . وكان مراد بك من اهل الدراية ولذلك عرف قصد بونابرت وانهُ اذا تمكن من مآربهِ ينوز فوزًا تامًا ولذلك صدم فرقة الجنرال ديسيز بفرقة من الفرسان عددها نحو ١٠٠٠ فصدمت الفرنسويين صدمة شديدة حتى كادوا ينكسرون غير انهم تشددوا وثبتوا في مواقفهم وصدموا العدو صدمات موثرة . وكان فرسان المماليك يهجمون هجمة شديدة ثم يرجعون وبعد ان هجم هولاء الفرسان على فرقة ديسيز هجموا على فرقة الجنرال رينيه التي كانت قد انتظمت قلعة وتمكنت من ان تدافع عن نفسها حق الدفاع . ولما راى المماليك ما راوا من ثبات الفرنسويين ودفعهم لصدمات خيولهم وانصال نيران اسلحتهم ظنوا ان بعضهم مربوط بالبعض الاخر . وكان مراد بك في مقدمة الفرسان الشجعان وكان يحاول ان يدور حول الفرق الفرنسوية من الجهة الثانية ليتمكن من خرق صفوفها غير انهُ صادف وراءها من الدفاع ما كان يصادفهُ امامها وهكذا امسى مراد بك وفرسانهُ بين الفرقتين الاوليين وفرقة الجنرال دوكا وكان بونابرت معها فقتل كثيرون من المصريين فعزموا ان يفتحوا طريقًا ليتمكنوا من الفرار وينضموا الى الجيش فصدهم الفرنسويون عن ذلك فالتزم مراد بك ان يفر الى الجيزة بمن كان معهُ وهكذا امسى منفصلاً عن جيشهِ الذي في امبابة لان فرقة الجنرال رامبون حلت في الطريق الواقعة بين الجيزة وامبابة . وبعد ذلك سار الجنرال بون بفرقتهِ قاصدًا مهاجمة معسكر امبابة ولما راى الغز الذين تركهم مراد بك للمحافظة على المعسكر ما حل بالمماليك انهزموا الى اليسار وفر كثيرون منهم في القوارب وغرق كثيرون منهم في النهر . ولما دخلت الجنود الفرنسوية المعسكر شددوا الحرب على المصريين وارجعوهم الى الوراء فامسوا بين هولاء الجنود



وفرقة الجنرال رامبون التي منعتهم عن المسير الى الجيزة وعند ذلك قتل كثيرون منهم وكانت ساعة هائلة

وطلب بعض الفرسان النجاة من الموت فجازوا امام فرقة من الفرنسويين فقتل اكثرهم ولم ينجُ من العشرة الالاف الذين كانوا مع مراد بك غير الفين وخمسمائة فارس واستولى بونابرت على معسكر المماليك في امبابة ووجد فيهِ اربعين مدفعًا واربعمائة جمل وكل مهمات المماليك وزادهم وغنائم كثيرة فانهم كانوا يعيشون عيشة رخاء وتنعم وكانوا من افرس فرسان الشرق واشدهم باسًا واكثرهم ميلاً للتظاهر بالعظمة . فاحرق مراد بك السفينة العظيمة التي كان قد وضع فيها امواله وخزائنهُ خوفًا من ان يستولي عليها الفرنسويون وقتل من اكابر فرسان المماليك في ذلك اليوم الكثير الويل ايوب بك الدفتردار ذلك واختفى اثرهُ . بعد ان قاتل قتال اشد الفرسان وهو في طليعة الجيش . ثم سار الفرنسويون الى الجيزة في اثر مراد بك والذين طلبوا الفرار معهُ من قومهِ ففر الى الصعيد فتبعوهُ مسافة ثم رجعوا الى الجيزة واستراحوا قليلاً من اتعاب هذه المعركة العظيمة فنزل بونابرت في منزل مراد بك ولم يقتل من الفرنسويين في هذه المعركة غير مائة رجل . اما ابراهيم بك فانهزم من بولاق الى القاهرة واخذ اهلهُ واموالهُ الكثيرة وسار هو وباكر باشا قاصدين الديار الشامية . فوقع الرعب في قلوب الاهالي وفي الصباح اجتمع القاضي والاعيان وقالوا لا فرج بعد فرار حكامنا الا التسليم الى من خضعت لهُ فنون الحرب وفتح البلاد عنوةً . فاتفقوا على هذا الراي وارتاوا بقنصل فرنسا والتجار الذين كانوا قد سجنوهم في قلعة الجبل وطلبوا اليهم ان يسيروا معهم الى بولاق ليطلبوا الى بونابرت ان يقبل تسليمهم ويومنهم . فاشار عليهم القنصل بان يرسلوا اثنين من التجار الفرنسويين والكاتب الاول عند ابراهيم بك فاجابوا . ولما اتوا بونابرت قابلهم باشًا وامنهم على اموالهم وانفسهم وطلب اليهم ان يرسلوا اليهِ بعض القوارب لينقل بها فرقة من جيوشهِ لتدخل المدينة وتمنع تعدي رعاع القوم عن المنازل . فرجعوا واخبروا العلماء والاعيان بما كان فبعثوا حالاً بالقوارب الى برامبابه فركبها فرقة الجنرال دوبوي وذهبت الى بولاق وكان العلماء والاعيان فيها فاجتمعوا بالجنرال فامنهم فساروا امامهُ الى المدينة بالمشاعيل فان دخولهم كان في الليل وكان المنادي ينادي امامهم قائلاً الامان للرعية جميعها . فنزل الجنرال دوبوي في تلك الليلة في منزل ابراهيم بك الصغير وارسل بعض الجنود الى القلعة فاستولوا عليها . وكان اللصوص والاوباش قد اضرموا النار في منزل مراد بك فبادر الجنرال دوبوي الى اطفائها وفي الغد قرأ الاهلون الاعلان الذي نشرهُ عليهم بونابرت بواسطة الجنرال دوبوي وكان ملصقًا على جدران الشوارع وما ياتي هو ترجمتهُ

يا اهالي القاهرة . سررت بتصرفكم فانكم قد احسنتم فعلاً بعد ان حاربتموني فانني اتيت

لاهلك المماليك واساعد التجار والاهلين وبناء على ذلك اطلب الى من كان خائفاً ان يطمئن ومن كان غائباً ان يرجع الى منزله وليقم العلماء والايمة الصلاة حسب عادتهم السابقة فلا تخشوا ضرراً لا انتم ولا عيالكم ولا تخافوا على منازلكم ولا على املاككم واطلب اليكم ان لا تظنوا انه يقع تعدٍ على ديانة النبي الذي احبه واكرمه . حفظ الراحة هو من الامور الضرورية فسيجتمع مجلس اعضاؤهُ سبعة وسيكون اجتماعهم في الجامع الاكبر ويكون منهم اثنان عند الجنرال قومندان المدافع . اما الباقون فسيهتمون بتوطيد الراحة العامة وملاحظة الضباط . انتهى

وفي غد ٤ تموز (جوليه) الموافق لليوم التاسع من صفر وهو نهار الاثنين ابتدات العساكر في الانتقال من الجيزة وامبابة الى القاهرة ثم اتى بونابرت ولما عرف الاهلون بقدومه نهضوا جميعاً وخرج امامهم العلماء والاعيان من مسلمين ونصارى لملاقاته فكان يقابلهم باشاً ويكرمهم ويعدهم خيراً وكان اهل القاهرة يتعجبون من رقة الفرنسويين وبساطة ملابسهم واسلحتهم بالنسبة الى المماليك . فنزل بونابرت في منزل محمد بك الالفي بالازبكية ونزلت الجيوش في منازل بكوات المماليك الفسيحة الجميلة واستراحت من المشاق التي تكبدتها في مسيرها في القفر وامر بونابرت الناس بان يضعوا علامة الجمهورية على صدورهم وهي نسيج من الحرير الابيض والكحلي والاحمر فوضع القوم جميعهم هذه العلامة ونادى بونابرت ان كل من دخل المدينة بلا هذه العلامة يقع تحت القصاص ثم امر الجيش بان يكف عن نهب منازل الغز والمماليك فاقام كل انسان في منزله مطمئناً

وبعد ان خرج ابراهيم بك وباكر باشا من مصر سارا قاصدين مدينة بلبيس . اما مراد بك فسار بمن معهُ من الغز الى الصعيد ذليلاً بعد ان خسر ماله وافترق عن عياله فحزن المماليك والغز على خسران مصر فجاءوا فلانسهم الصفراء وصاروا كعامة الناس

اما بونابرت فقبل الاشتغال بتتبع اثارهم اشتغل في ترتيب البلاد على الوجه الاتي وهو انهُ اتى بخمسة من العلماء وهم الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ سليمان الفيومي واتى برجلين من رؤساء الجنود وهم علي كتخدا باشي ويوسف جاويش باشي وبرجل من التجار وهو السيد احمد المحروقي وعين لهم مكاناً مخصوصاً واقام معهم موسيو فانتور وهو فرنسوي عاش اربعين سنة في الشرق وكان يعرف العربية والفرنسوية ثم امر بانشاء مجلس اخر اعضاؤهُ سبعة رجال من التجار ومعهم موسيو ماكالون وكان قنصل فرنسا في الاسكندرية مدة طويلة وكان هذا المجلس ينظر في الدعاوى التجارية . اما المجلس الذي رتبهُ في اول الامر فهو مجلس المحاكمة الكبير . واقام مجلساً في كل اقليم وعين المجلس المذكور الذي اقامهُ في القاهرة مجلس استئناف لجميع المجالس الاقليمية . واقام مجلساً ثالثاً سماهُ مجلس الادارة وكان اعضاؤهُ من علماء مصر وايمتها ومشايخ واعيان النصارى واقام مجلساً مثلهُ في كل اقليم للنظر في مصالح ذلك



الاقليم ثم رخص لكل مجلس من هذه المجالس الاقليمية ان تبعث بعضو من اعضائها الى مجلس الادارة العالي في القاهرة وهكذا تالف هذا المجلس من وكلاء كل اقليم وكان من اعماله ادارة البلاد والامة . واتى بمحمد كتخدا المسلماني واقامهُ رئيساً على الانكشارية واقام رجلاً اخر رئيساً للمحاسبات ونصب علي اغا حاكماً على القاهرة . وامر بتعيين مكان مخصوص عند الازبكية لوضع المطابع التي اتى بها من رومية وهي تطبع كتباً في جميع اللغات الشرقية والغربية . وقسم المدينة الى انحاء واقام والياً فرنسوياً في كل ناحية وكان هولاء الولاة يعتنون بقطع التعدي وتوطيد اسباب الامنية في الداخل وفي الخارج فانقطعت اللصوص وقطاع الطرق بين بولاق والجيزة . وامر بكنس الشوارع كل يوم ورش الماء لتقليل الغبار وترطيب الهواء وان يشعل كل بيت وكل دائرة من الابنية مصباحاً في الليل بوضع امام الباب واجتهد في المحافظة على ما لكل امة من الحقوق الدينية واكرم المسلمين كثيراً واقام اميراً لخدمة الحج الشريف عوضاً عن باكر باشا وامرهُ ان يباشر ما يلزم للحج من اسباب الراحة ولام باكر باشا لانهُ فر مع المماليك وقال للاغا الموما اليه انهُ لم ياتِ مصر الا باذن السلطان سليم فتحير الاهلون عندما راوا من بونابرت تلك الملاطفة والمودة والشجاعة وحسن التدبير . وامر بانشاء مستشفى للمرضى والجرحى في نفس القاهرة فاقام لذلك قصراً مبنياً على شاطىء النيل بين القاهرة ومصر القديمة اسمهُ قصر العيني وانشأ صيدليات واقام رئيساً للاطباء ورئيساً للجراحين . وامر مصطفى اغا امير الحج ان يكتب الى باكر باشا بالرجوع الى القلعة السلطانية بامورتهِ فينال الاكرام . وامر بان تضرب النقود في القلعة السلطانية باسم السلطان سليم حسب العادة . وبعد ان قسم البلاد الى اقاليم اقام على كل اقليم منها والياً من الجنرالية الفرنسويين الذين معهُ . فاقام الجنرال ديسيز والياً على الصعيد وكان مراد بك واعوانهُ لا يزالون فيهِ . والجنرال مورات على اقليم القليوبية والجنرال لانوس على المنوفية في الغربية . والجنرال دوكا على اقليم المنصورة . والجنرال فيال على اقليم دمياط وبعث معهُ ثلثة الاف جندي . فلما اتاها استقبلهُ العلماء والاعيان فامنهم وبعد ذلك بزمان قصير اصبح الاقليم المذكور في امان وراحة . واقام الجنرال ديبوي والياً على القاهرة وكان نشيطاً شجاعاً وحاز الامتياز في معركة الجيزة وامبابة وكان الجنرال كليبر لا يزال والياً على الاسكندرية ثم اقام موسيو بوسلنج رئيساً للمحاسبات وفوض اليهِ ضبط مداخيل الاقاليم المصرية وعين لهُ منزلاً ببيت الشيخ البكري في الازبكية وكان المصريون يسمونهُ وزير الجمهورية الفرنسوية وكان عارفاً في الحسابات وفي ضبط ادارة المالية واقام امين صندوق الجمهورية الفرنسوية موسيو استينو وكان من الذين يعرفون فن الحساب حق المعرفة وفوض اليهِ فض المشاكل المتعلقة بالامور الحسابية . وانزل العلماء الذين اتوا معهُ من فرنسا في بيوت حسن بك وقاسم بك وما حولها من البيوت الواقعة عند باب الناصرية . ثم اشتغل في تخصيص

فارس ارسلهُ بونابرت الى الاسكندرية ليخبر الاميرال بروي بفتح مصر ويلح عليهِ بالذهاب بالاسطول الى تولون

اماكن في كل اقليم لبناء محلات التحفظ من سريان الامراض الوبائية كالطاعون وغيرهِ واقام محل التحفظ في مصر في ناحية بولاق . وارسل الى كل اقليم محاسباً مخصوصاً من الفرنسويين ومعهُ مامور من الاقباط لضبط مداخيل كل اقليم على حدتهِ ولارسالها الى رئيس المحاسبة في مصر فجرى ذلك بدون ارتباك ولا اهمال

وبعد ان تم بونابرت هذه الاجراآت اخذ في النظر في ما يوطد سلطتهُ في مصر فراى انهُ لا بد من قهر المماليك وطردهم من كل البلاد . اما مراد بك واعوانهُ فكانوا لا يزالون في الصعيد وكان يعسر على الفرنسويين ان ياتوا الاقليم المذكور قبل انخفاض ماء النيل فنزل والي الصعيد الجنرال ديسيز وجيشهُ في حدود مصر العليا وهي الصعيد لمراقبة حركات مراد بك وجيوشهِ وليغتنم الفرصة الاولى المناسبة ليقاتلهُ اي بعد انخفاض ماء النيل وتمكن القوارب من المسير فيهِ . اما ابراهيم بك فكان نازلاً في بلبيس هو وجيشهُ وباكرباشا وهذا المكان لا يبعد عن القاهرة اكثر من عشر ساعات وكان بونابرت يرى في حركاتهِ ما حملهُ على الاعتقاد انهُ قاصد مهاجمة القاهرة ليسترجع ما كان قد خسرهُ ولذلك عزم بونابرت على ان يحاربهُ بنفسهِ وبناء على ذلك خرج من القاهرة في



٨ اب (اوغسطس) الموافق شهر صفر وركب في عشرة الاف مقاتل تحت قيادة الجنرالية ليكلرك ومورات ودوكا ودنيير وعند ما اقترب من مدينة بلبيس بلغهُ ان باكرباشا وابراهيم بك انهزما بقومهما وانيا الصالحية فتبعهم الى ان التقت فرسان القومين وانتشب القتال واشتد الويل والوبال ولم تقدر الفرسان الفرنسوية ان تقهر فرسان الغز فرجعوا عنهم بعد ان قتل منهم عدد ليس بقليل . ولما عرف بونابرت بذلك اسرع في المسير غير ان الغز لم يتجاسروا ان ينتظروا وصولهُ ليصادموهُ بل فروا واتوا مدينة غزة التابعة لسورية . اما بونابرت فشرع في بناء مخازن لوضع المهمات والزاد لجيشهِ وفي بناء حصن منيع لاقامة فرقة من الجيش للمحافظة على تلك المهمات ولمنع رجوع المماليك الى البلاد واقام مديراً لتتميم بناء ذلك الحصن وتلك المخازن الجنرال رينيه وفوض اليهِ سياسة اقليم الشرقية ومركزهُ الصالحية وعاد بونابرت منتصراً الى مصر وذلك في ١٤ اب (اوغسطس) سنة ١٧٩٨ . وفي هذه الاثناء شرع ابراهيم بك بكاتب الاقاليم المصرية ويحرض الناس على ان يعصوا بونابرت وكان يبعث اليهم برسالات مهيجة من احمد باشا الملقب بالجزار والي ايالة عكا ومن باكرباشا الوزير وكان الغز يهيجون البدو والفلاحين على العصيان فدعا بونابرت اليهِ اعضاء المجلس المذكورين قبلاً وافهمهم عما حملهُ على المجيء الى مصر واخبرهم ان ذلك كان باتفاق الدولة العلية لانهُ كان معتقداً ان موسيو تاليريان اتى الاستانة العلية بحسب الاتفاق الذي سبق خروجهُ من فرنسا وبين للباب العالي الاسباب التي حملت فرنسا على ارسال جيشها الى مصر . وقال بونابرت للاعضاء المذكورين ان فرنسا تساعد الباب العالي في قهر روسيا ومنعها عن فتح الاستانة العلية وانهُ لا بد من ترجيع ما استولت عليهِ من البلاد العثمانية وكتب اليهم كتابات وطلب اليهم ان يطبعوها ويوزعوها في الاقاليم المصرية تحت اسمائهم ففعلوا . وما ياتي هو ترجمة الكتابات المذكورة

اننا نخبركم يا اهل المدن والامصار وسكان الارياف والابحار كباراً وصغاراً ان ابراهيم بك ومراد بك وغيرهما من دولة المماليك بعثوا بكتابات كثيرة الى جميع الاقاليم المصرية لتهييج الفتن بين الخلق مدعين ان مصدرها حضرة مولانا السلطان ووزرائهِ مع ان هذا كذب وبهتان وصادر عن الكدر الذي شعروا بهِ من جرى فقدان سلطتهم الظالمة وعن الغيظ الشديد من علماء مصر ورعاياها لانهم لم يوافقوهم على الخروج معهم من بلادهم وترك عيالهم واوطانهم وهم يرغبون ان يشبوا نيران الشرور بين الاهالي والفرنسويين لخراب البلاد واهلاك الرعية فانهم مغتاظون كل الغيظ من خسارة مملكة مصر المحمية ولو كانت هذه الاوراق من حضرة مولانا الاعظم لوردت الينا جهاراً مع معتمدين مخصوصين . ونخبركم ان الفرنسويين بخلاف غيرهم من الافرنج يحبون المسلمين ويكرهون المشركين وهم حلفاء حضرة مولانا السلطان وقايمون بنصرتهِ وعاملون على المحافظة على مودتهِ فيحبون من يحبهُ ويكرهون من يكرههُ . وبين الامة الفرنسوية والامة الروسية عداوة شديدة لان الروسيين

اعداء المسلمين ويرغبون في الاستيلاء على الاستانة العلية والممالك المحمدية واخذ المساجد الاسلامية وجامع اجيا صوفيا وجعلها كنائس للعبادة العيسوية . والامة الفرنسوية تعين حضرة مولانا الاعظم على فتح البلاد الروسية ان شاء الله فلا نترك لهم اثرًا . ولذلك ننصحكم يا اهالي الاقاليم ان تبعدوا عن الهيجان وان تحذروا من معارضة الجيش الفرنسوي لان ذلك ياتيكم بضرر عظيم . ولا تصغوا الى كلام المفسدين ولا كلام المحرضين على ارتكاب الشرور فان فعلتم تندمون . وعليكم بدفع الخراج المطلوب منكم لتكونوا سالمين وعلى اموالكم وعيالكم امنين فان حضرة رئيس العساكر الفرنسوية بونابرت قد اتفق معنا بانهُ لا يعارض احدًا في دينهِ ولا في الاحكام ويرفع الظلم عن الجميع ويقتصر على اخذ الخراج ويبطل الرسومات التي قررها الظالمون . فلا تعلقوا اماكم بابراهيم ومراد وارجعوا الى مالك الممالك وخالق العباد فقد قال رسولهُ الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم فعليهِ افضل الصلاة والسلام (الامضاآت)

| | | |
|---|---|---|
| الداعي لكم الفقير السيد | الداعي لكم الفقير | الداعي لكم الفقير |
| خليل البكري نقيب الاشراف | عبد الله الشرقاوي | مصطفى الصاوي |
| عفي عنهُ | عفي عنهُ | عفي عنهُ |
| الداعي لكم الفقير | الداعي لكم الفقير | الداعي لكم الفقير |
| محمد المهدي الخنفساوي | محمد الامير المفتي المالكي | احمد العريشي |
| عفي عنهُ | عفي عنهُ | عفي عنهُ |
| الداعي لكم الفقير | الداعي لكم الفقير | الداعي لكم الفقير |
| سليمان الفيومي المالكي | محمد الدواخلي الشافعي | موسى السرسي الشافعي |
| عفي عنهُ | عفي عنهُ | عفي عنهُ |

الداعي لكم السيد مصطفى الدمنهوري

عفي عنهُ

وكان بونابرت يعتني كل الاعتناء في ترقية اسباب التجارة وصيانتها ولذلك كتب الى جميع قناصل فرنسا المقيمين في ثغور شمال افريقية بان يخابروا ولاة تلك البلاد اي بلاد طرابلس الغرب وتونس والجزائر (ولم تكن حينئذٍ الجزاير من املاك فرنسا) ومراكش بانهُ قد عين اميرًا مخصوصًا للقيام بخدمة الحج الشريف حسب العادة وان الحجاج يصادفون في مرورهم في مصر امنية وراحة وكل الوسائط التي تسهل ذهابهم الى المدينة المنورة . ثم كتب الى باكر باشا بعدان فر الى سورية مع ابراهيم بك وكتب ايضًا الى احمد باشا الجزار في عكا والى والي الشام بان الفرنسويين هم حلفاء حضرة مولانا السلطان . واما هذه الكتابات لم تأتِ بالنتائج المطلوبة لان



اولئك الوزراء لم يصدقوا ان الباب العالي يكون حليف من يفتح احسن ممالكهِ . اما المصريون فكانوا يتعجبون جدًا من تصرف بونابرت لمعرفتهم انهُ يطل عنيد في حومة القتال يخوض المنايا بقلب كالصخر الاصم ورجل حليم لطيف على بساط السياسة فادهشتهم صفاتهُ فدعوهُ ابن الرسول وحبيب الله وكانوا يمدحونهُ باحسن القصائد وكان بونابرت يتخذ جميع الوسائل التي من شانها استمالة الاهالي اليهِ ولذلك اقام معهم احتفال فيضان النيل . لان هذا اليوم عندهم يوم عظيم . وفي ذلك النهار وهو ٨ اب (اوغسطس) امر بونابرت بخروج العساكر بالسلاح وان يصطفوا صفوفًا ودعا اليهِ علماء المدينة واعيانها من مسلمين ونصارى وركب من منزلهِ بالازبكية وخرجوا جميعًا معهُ وكان موكبًا عظيمًا جدًا وفرق في ذلك النهار امولاً غزيرة وضربت الطبول واطلقت المدافع من القلعة الكبيرة فرحًا وحبورًا لما اعلن احد المشايخ ان مياه النيل المباركة بلغت الدرجة الوافية وعرف القوم ان سنتهم سنة اقبال وعند ما فاضت المياه اطلقت المدافع الفرنسوية دفعة واحدة وسارت القوارب متسابقة في النهر وفي مساء ذلك اليوم اقام الفرنسويون زينة عظيمة جدًا ودعا بونابرت اليهِ علماء المدينة والايمة واهل المجالس والحكام والمامورين ليتناولوا الطعام في منزلهِ وكانت ليلة ذات بهجة وافراح والالعاب النارية الفرنسوية ادهشت الاهالي لانهم لم يروا مثلها وكانت الامنية سائدة في كل مكان فخرج الرجال والنساء والاولاد بلا خوف فسر بذلك القوم وشكروا لبونابرت . واقام مولد النبي بالاكرام نفسهِ واصطفت الجنود داخل المدينة باسلحتها وطبولها واطلقت المدافع واقيمت وليمة في منزل الشيخ خليل البكري حضرها بونابرت وجميع القواد والعلماء الفرنسويين والاعيان والمتوظفين . ثم قلد الشيخ خليلاً المذكور منصب نقابة الاشراف عوضًا عن السيد عمر مكرم النقيب السابق لانهُ كان قد فر مع الغزالي الديار الشامية . ثم توجه بونابرت الى الجامع الكبير وجلس على بساط هناك بجانب المشايخ وشرع في تلاوة آيات من القران الشريف متخشعًا فتعجبوا لانهم راوا بونابرت على جانب عظيم من التقوى ويحترم الديانة الاسلامية كل الاحترام . فهذه هي الوسائط التي كان يستعملها الجنرال ليميل بالشعب المصري اليهِ ويوطد سلطتهُ وكان مهتمًا باظهار اعتبارهِ لدين الامة التي كان يحكمها ولعبادتها وبانشاء جمعية علمية سماها انستيتو ايجبت اي جمعية علماء مصر واعضاؤها العلماء الذين اتى بهم من فرنسا وضم اليهم بعض قواد الجيش الذين كانوا من اهل المعارف . فنظم هذه الجمعية وعين لها مبلغًا وافرًا من النقود للقيام بنفقاتها واعطاها منزلاً من احسن منازل القاهرة . وقصد في انشاء هذه الجمعية النافعة جدًا ايجاد الوسائل التي من شانها ترقي اسباب التمدن والاداب الجديدة وان يمكنها من اكتشاف الاثار القديمة ونشر كل الكتابات المحتوية على افادات تاريخية عن المصريين القدماء ومعارفهم . وكان عدد اعضاء هذه الجمعية التي اشتهرت جدًا عند

المورخون في جميع اقطار الدنيا وبينت فضل موسسها نحو ٤٨ عضواً وقسمها الى اربع دوائر كالجمعية العلمية في باريس . فالدائرة الاولى دائرة المعارف والعلوم الرياضية . والثانية دائرة المعارف الطبيعية . والثالثة دائرة الاقتصاد . والرابعة دائرة الاداب والفنون . وفي ٢٥ اب (اغسطس) عقدت هذه الجمعية جلستها العمومية واقيم رئيساً عليها موسيو مونج ونائب رئيس بونابرت وكاتم اسرار موسيو فوريه . وكانت ابوابها مفتوحة لدخول كل من يروم الحضور فيها من الاهالي فكانوا ياتونها من كل الجهات ليسمعوا احاديث هولاء العلماء وخطبهم . وسالها بونابرت في ابتداء العمل مسائل كثيرة وطلب اليها ان تتبصر فيها وكانت ما ياول الى تحسين حالة البلاد المصرية وتقدمها وسعادة اهاليها وراحة الجيش الفرنسوي . وعند ما انتهت الحرب بين الفرنسويين والماليك والبدو وخضع الجميع لبونابرت تمكن اولئك العلماء من الانتقال من محل الى اخر لاقامة المخابرات بينهم وبين كل البلاد واخذوا في الاهتمام في اشغال جديدة وشرعت كل دائرة منها في الاشتغال بما يتعلق بها . فابتدا المهندسون برسمون رسوم البلاد المصرية رسماً واضحاً منصلاً و يولفون الكتب المسهبة في اراضيها ومتعلقاتها واخذ بعض المهندسين في اجراء ما يقتضي لتتمكن المراكب من المسير في نهر النيل في كل ايام السنة و بعضهم في البحث عن المكان الموافق لفتح برزخ السويس للوصل بين البحر الاحمر والبحر المتوسط وعند وقوفهم على ذلك شرعوا في رسم ترعة جديدة . اما الفلكيون فاخذوا يحددون بلاد مصر تحديداً جغرافياً وعلى الخصوص الابنية القديمة المشهورة ليوفقوا بين جغرافية مصر القديمة والجغرافية الحديثة . واخذ علماء الطبيعة يجمعون كتباً متعلقة بنباتات مصر ومحصولاتها ودونوا الملاحظات اللازمة والفوائد العميمة وبتربة البلاد والهواء والنصول . وشرع علماء الاثار التاريخية في حفر الارض في بعض الاماكن طلباً للاثار القديمة المدفونة التي تحقق التاريخ وتوسع دائرة المعارف فيه . اما المصورون والذين يعرفون فن الرسم فصوروا كل ما يدل على عوائد المصريين القديمة والحديثة . فنرى ان بونابرت كان مهتماً في وقت واحد في فتح مصر وتنظيم اقاليمها وقهر اعدائه وطرد المماليك وتحسين حالة الجيش وتوسيع دائرة المعارف والعلوم بواسطة البحث في الاثار القديمة فنقول انه كان واسطة عظمى للاكتشافات العلمية والحقائق التاريخية بانشائه تلك الجمعية العلمية

مراد بك

وتمكن بونابرت من فتح بلاد مصر السفلى والوسطى باقامة حروب قليلة على الغزّ والبدو . اما ابراهيم بك فلما عرف بقدوم بونابرت لقتاله في بلبيس خرج منها واتى الصالحية ثم اتى سورية . وكان الجنرال ديسيز ينتظر قدوم فصل الخريف ليزحف بجيشهِ من الجهة الثانية على مصر العليا وهي الصعيد لمقاتلة مراد بك . والظاهر انهُ لم يتم حظ بونابرت في اعمالهِ لانهُ طرأ عليهِ ما يصعب على انسان غيروان يصادفهُ ويحافظ على مركزهِ . وما ياتي هو خبر المصيبة التي حلت بهِ وهو لما خرج من الاسكندرية اشار على الاميرال بروي رئيس البوارج البحرية الفرنسوية التي اتى بها بونابرت الى مصر ان يدخل بالسفن الى مينا الاسكندرية او ان يذهب بها الى كورفو او الى تولون والح عليهِ ان لا يبقى في مينا ابي قير وقد ذكرنا ان الاميرال المذكور كان قد دخلهُ ببوارجهِ الكبيرة ليحميها من شر البوارج الانكليزية التي كان يعلم انهُ لا بد من ان تحاربها . وكان بونابرت يقول للاميرال انهُ اسهل عليك ان تحارب البوارج الانكليزية وبوارجك سائرة من ان تحاربها وهي في المينا . ولما تاكد الاميرال الموما اليهِ انهُ لا يقدر ان يدخل ببوارجهِ الكبيرة الى مينا الاسكندرية صمم على الذهاب الى جزيرة كورفو غير انهُ كان يحب بونابرت جدًّا فرام ان ينتظر خبر دخولهِ الى القاهرة وفتحهِ البلاد المصرية وكان ذلك سببًا لهلاك هذا الاميرال وخراب الاعمال العظيمة التي اتى بونابرت الشرق لاجلها . وكان الاميرال المذكور في مينا ابي قير وهي على شكل نصف دائرة وكانت البوارج الفرنسوية مصطفة فيها على شكلها اي نصف دائرة وعددها ثلث عشر بارجة عظيمة . فلكي يحمي بوارجهُ من غدر الانكليز جعل الطرف الواحد من هذا الصف بالقرب من جزيرة صغيرة هناك تدعى جزيرة ابي قير لانهُ كان يظن ان بوارج الانكليز لا تستطيع ان تمر بين تلك الجزيرة وسفنهِ لتهاجم موخرتها ولذلك لم يقم في البر غير صف واحد من المدافع عددها ١٢ مدفعًا ليمنع العدو من النزول اليهِ . وكان يظن ان مركزهُ حصين جدًّا في الجهة المذكورة فاقام فيها صف بوارجهِ الصغيرة وكان يخشى فعل العدو في الجهة الاخرى من الصف المذكور لانهُ كان معتقدًا ان البوارج الانكليزية تقدر ان تسير بين البر ومراكبهِ ولذلك اقام في تلك الجهة اكبر بوارجهِ واقواها واحذق روساء الملاحين . واصبح مرتاح البال لان موقفهُ في الجنوب والهواء لا يهب هبوبًا يوافق دخول المراكب الانكليزية مع ان الريح كانت تهب من الشمال موافقة جدًّا بوارج الانكليز . وهكذا كان مرتكبًا الغلط مرتاحًا منتظرًا بفروغ صبر ورود الاخبار عن نجاح صديقهِ بونابرت مصمًّا على الذهاب الى كورفو او الى تولون بعد الحصول على الاخبار المنتظرة . وكان بونابرت يخاف سوء العواقب اذا اقامت البوارج في ذلك المكان وكان يعرف ان الاميرال يحبهُ حبًّا شديدًا فبعث اليهِ رسول مخصوص يبشرهُ بدخولهِ القاهرة ويطلب اليهِ ان يذهب حالاً الى كورفو او الى تولون



وقد قيل ان الرسول قتل وهو في الطريق لان ارسالهُ كان قبل ان تمكن بونابرت من تنظيم البلاد ومنع تعديات قطاع الطريق من البدو وغيرهم . وبعث الى الاميرال المذكور برسول اخر ولكنهُ لم يتمكن من الوصول اليهِ

وكان الكوميدور نلسون الانكليزي يطلب البوارج الفرنسوية بلا فتور ولا ملل فذهب الى الارخبيل الرومي ثم الى الدردنيل وبحر الادرياتيك ثم رجع الى نابولي وعرف هناك بتاكيد ان بونابرت ذهب ببوارجهِ وجيوشهِ الى مصر قاصدًا فتح البلاد المذكورة فخرج من هناك قاصدًا الاسكندرية مصمًّا على كبس البوارج الفرنسوية وارسل بارجة من نوع الفرقاطة لتسير امامهُ ترى البوارج الفرنسوية وحالتها . فوجدت البارجة المذكورة البوارج الفرنسوية في مينا ابي قير وتمكنت بالنظارات من معرفة ترتيبها وحالتها ثم عادت واخبرت الكوميدور نلسون بما رأتهُ بالتفصيل . ولو كان الاميرال الفرنسوي الذي كان قد ادخل مراكبهُ الصغيرة الى مينا الاسكندرية متيقظًا لاقام بارجتين او اكثر خارج المينا لمراقبة سفن العدو ومطاردتها عند ما تاتي مستكشفة احوالهُ وتمكن بذلك من منع البارجة الانكليزية المذكورة من الوقوف على حقيقة حالهِ ومن ان يعرف بقدوم مراكب الانكليز عليهِ . ولما علم نلسون حالة البوارج الفرنسوية ومقامها سار اليها راسًا الى ابي قير ودنا منها في اول اب ( اوغسطوس ) سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة صباحًا . وكان الاميرال بروي الفرنسوي يتناول الطعام عند ما بلغهُ خبر دنو المراكب الانكليزية منهُ فاشار على النور الى بوارجهِ بان تتاهب للقتال غير ان الفرنسويين لم يكونوا ينتظرون قدوم العدو فكان اكثر ملاحي بوارجهم في البر فبعث الاميرال قوارب لتاتي بهم ليتاهبوا ولترجع بالذين كانوا قد ذهبوا ليرسلوا زادًا للجيش البري وكان هذا الاميرال يظن ان الكوميدور نلسون لا يحاربهُ في تلك الليلة ولكنهُ يوخر المهاجمة الى اليوم الثاني وان هذا يمكنهُ من الحصول على المساعدة المنتظرة

اما نلسون فعزم ان يهاجم البوارج الفرنسوية حالاً من الجهة اليسرى اي من جهة جزيرة ابي قير الصغيرة المذكورة وكان قاصدًا ان يعبر بسفنهِ بين تلك الجزيرة وسفن الاميرال بروي ولم يخف ان يكون الماء قليلاً ولا صعوبات المرور . وكان عدد سفن الفريقين متعادلاً وعند الساعة الثامنة مساء ابتدا نلسون بمهاجمة عدوهِ ولكنهُ لم ينجح في اول الامر لان البارجة الاولى التي حاولت المرور بين الجزيرة والسفن الفرنسوية انكسرت بالصخور لقلة الماء . اما البارجة التي مرت بعدها فنجحت وعبرت الى وراء السفن الفرنسوية ولكن اشتداد هبوب الريح دفعها الى مقابل السفينة الثالثة الفرنسوية ومرَّ بعد هذه البارجة اربع بوارج انكليزية وسارت بين البر والسفن الفرنسوية . ولما وصلت السفينة الثامنة شرعت في القتال مع ميسرة البوارج

الفرنسوية ومع قلبها . اما بقية السفن الانكليزية فاخذت في التقدم حتى امست السفن الفرنسوية بين صفين من السفن الانكليزية اما البوارج الفرنسوية فلم تكن تنتظر ان تحاربها في الجهة البرية ولذلك لم تكن مدافعها حاضرة للمحاربة في تلك الجهة فلم تستطع ان تطلق المدافع الا من جهة واحدة فقط فتعطلت سفينتان من السفن الفرنسوية في ابتداء القتال . واما البوارج الفرنسوية التي كانت في القلب وعلى الخصوص البارجة الكبرى المعروفة بنصف الدنيا فاضرمت نارًا محرقة وضايقت السفن الانكليزية كل المضايقة حتى ان سفينة الانكليز الكبيرة التزمت ان تنزل رايتها بعد ان انكسرت سواريها وتعطلت جدًا . ومن اصول القتال بحرًا انه عند ما تنزل البارجة رايتها تشير الى انها مسلمة والتزم غيرها من السفن الانكليزية ان تبتعد لانها لم تقدر ان تثبت . وكان لا يزال كثيرون من الملاحين الفرنسويين الذين كانوا في البر خارج بوارجهم . وكان الاميرال بروي يومل بالفوز على عدوه ولو اسرع روساء السفن الذين في الميمنة الى تنفيذ اوامر الاميرال التي بلغها بالاشارات العادية لتمكن من الفوز . هذا ولا يخفى ان الانكليز اقاموا القتال بينهم وبين ميسرة البوارج الفرنسوية وقلبها وكانت في ميمنتها خمس من احسن سفنها واقواها ولم تقترب منها بارجة من بوارج العدو . اما بروي فكان يشير الى هذه السفن بان تنشر شراعاتها وتسير الى وراء السفن الانكليزية وتطلق عليها المدافع ولو تم ذلك لامست البوارج الانكليزية من الجهة الواحدة بين صفين من المراكب الفرنسوية غير ان دخان البارود الكثير حجب عن قواد تلك البوارج الرايات التي اشار بروي بها اليهم ومع ذلك كان من واجبات روساء البوارج المذكورة ان يبادروا الى اسعاف بقية البوارج لان بقيمها على الحيادة . اما الكونترامیرال دوفيلنوف وهو رئيس البوارج الخمس المذكورة التي كانت في الميمنة فكان يتردد بين المبادرة الى نجدة رئيسه الاميرال بروي وانتظار صدور امره ولذلك اقام في مكانه دون ان يفعل شيئًا فباتت ميسرة الفرنسويين وقلبهم بين نارين . وكان الاميرال الموما اليه واعوانه يقاتلون بشجاعة لا مزيد عليها مدافعين كل المدافعة عن شرف الراية الفرنسوية وانكسرت بارجتان فرنسويتان وبارجتان انكليزيتان وكانت نيران المدافع الفرنسوية اشد فعلاً واكثر تاثيرًا من نيران المدافع الانكليزية غير ان الاميرال بروي جرح جرحًا بليغًا ومع ذلك لم يخرج من ساحة القتال ولكنه قال لاعوانه الذين كانوا يطلبون اليه بالحاح ان يخرج انه من الواجب على كل اميرال فرنسوي ان يموت وهو في موقفه وبعد ان قال ذلك ببرهة قصيرة جدًا اصابته كرة وهو على كرسيه فقتلته . وفي الساعة الخامسة اضطرمت النار في نفس السفينة الكبيرة فاحترقت وتوقف القتال برهة بهذا السبب واقامت بقية السفن الفرنسوية القتال ببسالة طول ذلك الليل . وكانت السفن المقيمة في الميمنة قادرة ان تسعف بقية السفن وكان نلسون يخاف جدًا من ذلك لان اكثر سفنه كانت قد تعطلت ولم تكن قادرة على اطالة القتال مع سفن لم يصبها ضرر .



ولم يحدث شيء من ذلك لان دوفيلنوف نشر شراعات مراكبه وسار مع اقتداره على الظفر لكن ظن ان سفنه لا تقدر على الثبات امام سفن نلسون وصار قاصدًا مالطة بعد ان اخرج الى البر ثلثًا من سفنه الكبيرة وبقي معه سفينتان كبيرتان ودام ذلك القتال نحو ١٥ ساعة واظهرت العساكر الفرنسوية البحرية شجاعة عظيمة وهكذا تكسرت كل البوارج الفرنسوية التي كانت في ابي قير ولم ينجُ منها غير السفن التي فر بها دوفيلنوف . اما الكوميدور نلسون فتعب جدًا من القتال وبعض بوارجه تكسر كل التكسير وبعضها تعطل حتى انه لم يتجاسر ان يطارد السفينتين الفرنسويتين الهاربتين مع دوفيلنوف . فهذه هي معركة ابي قير المشهورة التي لم تصادف البوارج الفرنسوية مقاتلة مثلها وانت هذه المعركة بسوء العواقب لان البوارج التي اتت بجيش بونابرت الى مصر وكانت قادرة ان تجهزه بالعساكر او باسعافه عند قتال الثغور امست مكسرة . وكان ينتظر منها ان تجعل الباب العالي يقطع النظر عن كلام الانكليز المتعلق بمضادة بونابرت وتمكن الفرنسويين من الرجوع الى فرنسا اذا لم يتمكنوا من الثبات في مصر . ولم يبق منها بلا تكسير او اسر او فرار غير المراكب الصغيرة التي كانت في مينا الاسكندرية وكانت لا تقدر ان تقاتل بوارج الانكليز . فشاع هذا الخبر في مصر بسرعة البرق ، وحمل بعض الفرنسويين على ان يقطعوا الامل من الرجوع . اما بونابرت فكان من الذين لا يبالون بالاخطار والشدايد فسمع هذا الخبر دون كدر واجاب اعوانه الذين اتوه عندما بلغهم هذا الخطب ان ما حدث يحملنا على معرفة فروضنا وهي الموت هنا او الخروج بعد ان نبلغ باعمالنا عظمة القدماء الذين سلفونا في هذه الديار . وكتب الى الجنرال كليبر في الاسكندرية ما ملخصه ان ما حدث في ابي قير يحملنا على ان نجري اعمالاً اعظم من الاعمال التي شرعنا فيها ولذلك لا بد من الاستعداد . وكان كليبر من نظاير بونابرت في الشجاعة والشهامة فاجابه على الفور بما ملخصه نعم انه من الواجب علينا القيام باعمال عظيمة وها انني مستعد لذلك . وشجاعة بونابرت هي التي حملت الجيش على ان يعتصم بالصبر الجميل بعد ان عرف بتلك البلية العظيمة ومنعت تسلط الجبن والخوف عليه . وشرع بونابرت في امور تلهي الجيش عن النكبة العظيمة المعروفة بمعركة ابي قير فتهيأ للافراح بتذكار تاسيس الجمهورية الفرنسوية وحفر على عمود بطليموس في الاسكندرية اسماء الاربعين جنديًا الذين قتلوا في المعركة الاولى بعد نزولهم الى البر وعند حلول عيد الجمهورية الفرنسوية نشر الاعلان الاتي على جنوده

ايها الجنود . اننا نقيم في هذا اليوم الذكر السابع لانشاء الجمهورية الفرنسوية ومنذ خمس سنوات كانت استقلالية الامة الفرنسوية تحت الخطر غير انكم فتحتم ترلون وكان ذلك ابتداء قهر اعدائكم وبعد سنة قهرتم النمسويين في معركة ديكو وبعد عام صعدتم على قمم جبال الالب . ومنذ

سنتين هجمتم على اسوار منتوا المنيعة وانتصرتم على النمسويين ذلك النصر العظيم في قرية سان جورج وفي السنة الماضية كنتم عند ينابيع نهري درافا واليسونتزو راجعين من فتح المانيا . ولم يخطر لاحد انكم تكونون في هذا النهار عند شاطىء النيل واعلموا ان كل امم الدنيا من اقاصي اوربا اي الانكليز حتى البدو سكان القفار الشرقية تنظر اليكم . يا ايها الجنود اعمالكم جميلة وانتم بشجاعتكم انكم اهل للقيام بما دعيتم اليهِ ولابد لكم من ان تموتوا موت الابطال الذين حفرت اسماؤهم على الاهرام او ترجعوا الى اوطانكم باكاليل الفخر والنصر بعد ان تصبحوا موضوعاً لافتخار الامم . واعلموا اننا خرجنا من الوطن ولا يزال ابناء وطننا يعتنون بنا ويلتفتون الينا واعلموا ان اربعين مليوناً من اولاد جنسنا يقومون باحتفالات هذا النهار فانهُ ابتداء الاحكام المفيدة وخواطر هولاء الاربعين مليوناً متجهة اليكم وكلهم يقولون عنكم في اجتماعاتهم اننا مديونون لهم بما حزناهُ من السلم العام والراحة والثروة والتجارة والحرية العمومية

وذكر بونابرت ملخص اعمال الجيش لينهض همتهم ويحملهم على الاستناد الى قوة فرنسا وصادف هذا العمل نجاحاً لان الجيش كان يركن الى حكمتهِ ويحبهُ كما يحب الولد والدهُ . ولما راى ان تكسير البوارج الفرنسوية التي كان مستنداً اليها جعلهُ في مقام الخطر فلا يقدر على تنفيذ مقاصدهِ في الشرق تنفيذاً موافقاً للاحوال عزم ان ينهج منهج الحكمة كما هو شانهُ في الاعمال العظيمة ولو صادف غيرهُ هذا الويل لبات في ارتباك عظيم وحيرة ربما اخرت اعمالهُ . فشرع في اتخاذ الوسائط اللازمة لتقرير السطوة الفرنسوية في الديار المصرية لمعرفتهِ ان فرنسا تجني منافع كثيرة تجارية وسياسية بالاستيلاء على تلك الديار الواقعة بين اوربا وبلاد الهند فشرع يقوي جيشهُ بادخال شبان مصر من سن ١٦ الى ٢٤ في سلك العسكرية وضم الى الجيش ثلثة الاف جندي من الملاحين الذين نجوا من معركة ابي قير البحرية وسماهم الفرقة البحرية وكان يخاف ان تفرغ مهماتهُ الحربية بعد انقطاع المواصلات بينهُ وبين فرنسا بسبب تلف البوارج فامر اثنين من اهل الصناعة الحربية ان يقيموا معملاً في مصر لعمل البارود والرصاص والكرات المحشوة وهكذا تمكن من ان يحصل على مهمات كثيرة جداً وكان يظهر للمصريين بانهُ غير مبالٍ بما حل بالبوارج وانهُ ما من شيء يحملهُ على الخوف من سوء العواقب وامر جميع الولاة الذين اقامهم في الولايات ان يسلكوا سلوكاً عادلاً مطابقاً للقوانين وان ينصفوا بين الاهالي ويجتهدوا في استمالتهم الى الفرنسويين بالملاطفة والعدالة والامنية والراحة وغير ذلك من الوسائط الحسنة التي تجعل الشعب يفرح بالخضوع للدولة التي تستخدم في سياستها الوسائط الحسنة فاصبح الاهلون في سعادة ورفاهية . وكان يلاطف المسلمين ويتظاهر بالاسلامية ويحبها ومع ذلك كانوا يترصدون حلول فرصة مناسبة ليطردوا الفرنسويين من بلادهم . واما الجمعية العلمية المصرية ودوائرها



فباشرت الاعمال التي ارادها بونابرت ونشرت جريدتين في القاهرة جريدة علمية لنشر ما يتعلق بمعرفة الاقتصاد و تدبير المنزل وكانت تنشر مرة كل عشرة ايام وجريدة للحوادث السياسية . وفتحت في القاهرة المعامل والمخازن وقاعات للاجتماعات العامة وراجت احوال تلك المدينة رواجاً لم تر مثلهُ قبل تلك الايام . وكان بونابرت يعرف منافع اعمالهِ ويعلم ان الاهالي لا يزالون يضمرون لهُ الشر لانهم كانوا يضرون الفرنسويين كلما مكنتهم الفرصة من ايقاع الضرر بهم وهم على انفراد . واقام بريداً بين القاهرة وغيرها من المدن يسير في قوارب في النيل . غير انهُ لما راى ان اصحاب القوارب المسلمين يقتلون الجنود الفرنسويين الذين كان يرسلهم لنقل البريد ويلقون جثثهم في النهر اقلع عن ذلك وارجع البريد البري واقام لخدمتهِ قوماً من الاهالي

وبعد ان فتح الاسكندرية قلد السيد محمد كريم حكومتها تحت ادارة الجنرال كليبر فظهرت كتابة كان قد بعث بها الى مراد بك في الصعيد مالها تحريضهُ على المجيء الى الاسكندرية ليسلمهُ اياها . فدعا بونابرت السيد محمد كريم الى القاهرة وسالهُ عن تلك الكتابة فانكر فاقيمت محاكمتهُ فاقر عند ما راى خطهُ فحكم المحكمون بقتلهِ فاخذ شيوخ القاهرة وعلماؤها يتشفعون بهِ عند الجنرال بونابرت فقال لهم انا وانتم خاضعون للقوانين ولذلك لا اقدر ان امنع اجراء النظام . فالحوا عليهِ بالعفو عنهُ فامر باحضار السيد محمد المذكور الى حضرتهم فاتي بهِ فاظهر لهُ الكتابة التي بعث بها الى مراد بك وسالهُ عنها على مسمع من المحكمين فاقر بانهُ هو الكاتب فقادوهُ الى سجنهِ وبعد ان انصرف اولئك القوم خرج الجنود بالسيد محمد الى ساحة الرملة ليقتلوهُ وكان يسير بين صفوف الجنود في وسط المدينة وهو ينادي بالقوم قائلاً اليوم قتلي وفي الغد قتلكم وحزن المصريون جداً لقتلهِ واشتد بغضهم للفرنسويين وشرعوا يتعدون عليهم في كل مكان . فقتلوا كثيرين منهم في المنصورة والارياف وغير اماكن فبادر بونابرت بهمتهِ المعهودة الى معاقبة الذين قتلوا من جنوده بلا رحمة فسكن القلق ووقع الخوف في قلوب القوم وذهب بونابرت الى الجيزة ليرى الاعمال الجارية في ذلك المكان

وفي ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) اجتمع الناس في شوارع القاهرة وساحاتها وطلبوا الى المجلس العالي الغاء الاخرجة التي التزم ان يقررها على الاملاك والاعناق للقيام بالنفقات الكثيرة التي كانت تلزم لبناء الحصون ولتتميم المشروعات الجميلة التي شرعوا فيها لتحسين حالة البلاد . فذهب اعضاء المجلس المذكور الى الجيزة ليخبروا بونابرت بما كان ويروا ماذا يريد ان يفعل لارضاء القوم وكان العلماء والشيوخ ينادون على المنابر في مصر محرضين الامة على الجهاد في الفرنسويين وطردهم من البلاد ونشر الشيوخ صورة اعلان قالوا انهُ صادر من الباب العالي وما ياتي هو ملخصهُ

قد ضرب الله الامة الفرنسوية والبسها الذل والعار وهي امة كافرة عنيدة ما من احد يقدر ان يرضيها . فانها لا تحترم القرآن الشريف ولا تعتقد التوراة والانجيل . فدونكم هذه الامة يا ايها الابطال المدافعون عن الاسلامية وعن الديانة المحمدية انتم الذين تعبدون الاله الصمد الواحد الاحد وتعتقدون برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم . فاجتمعوا وازحفوا طالبين محاربة هولاء اللئام وتيقنوا ان الله سبحانه وتعالى سينصركم . وبحوله تعالى سيوفكم باترة ورماحكم فاتكة وفي حربكم الويل ومدافعكم كالصواعق القاصفة . وبعد برهة قصيرة تجدكم جيوش جرارة وبوارج كثيرة . ولا ريب في انكم بعونه تعالى ستردون انقراض الفرنسويين وهلاكهم عن اخرهم فلا يبقى منهم من يبلغ اخبار ويلاتهم الى بلادهم ولا يبقى لهم اثر في بلادكم والحمد لله على هذه المنة . انتهى

واستحسن المصريون ان يهاجموا الفرنسويين في ذلك الوقت في القاهرة لان بونابرت كان غائبًا ولانهم كانوا يعلمون ان خواطره كانت مشغولة بتكسير البوارج وان قسمًا كبيرًا من جيشه كان في الصعيد تحت امرة الجنرال ديسيز لمحارب مراد بك وسياتي ذكر ذلك في مكانه ان شاء الله . وبناء على ذلك هجم المسلمون في القاهرة على الفرنسويين قبل رجوع المجلس من الجيزة وقتلوا الجنرال ديبوي والي المدينة وهو الذي دخلها قبل جميع القواد الفرنسويين وقتلوا كثيرين غيره في الشوارع والمنازل وغيرها واجتمع القوم في بعض الاسواق واقاموا فيها الحواجز وتحصنوا في الجوامع الكبيرة وناهبوا لمحاربة الفرنسويين وكانت اصوات المحرضين في المآذن تملأ الاسواق وهكذا انقطع امل الفرنسويين الذين كانوا في القاهرة من ان يفوزوا وعلى الخصوص بعد قتل الجنرال ديبوي وكان القوم يظنون ان بونابرت مشتغل في محاربة مراد بك في الصعيد وان الجنرال مينو والجنرال دوكا امسيا في قلق بسبب الثورة في ولايتهما والحاصل بعد ان عرف المصريون بما حل بالبوارج في ابي قير صمموا على عمل السيوف في الفرنسويين واهلاكهم عن اخرهم وقدم البدو لنجدتهم وكانت البنادق تطلق الى الساعة التاسعة قبل الظهر واذا ببونابرت مقبل من الجيزة . فلما عرفوا بقدومه اسرعوا الى باب من ابواب المدينة ليمنعوه عن الدخول فالتزم ان يدور حولها ليدخلها من باب اخر . وكان ذلك النهار نهار ويل عليه ولو كان من الذين يخافون لاضطرب من شدة الخوف والارتباك فان الاخبار المكدرة كانت ترد اليه من كل جهة . فاخبره الجنرال ديسيز ان مراد بك يقاتله قتالاً شديدًا في الصعيد وان جيوشه تستصعب ان تسير في تلك الاراضي واخبره الجنرال دوكا والجنرال مينو انهما في ضيق وخوف لان الاهالي كانوا يستعدون لجاهروا بالعصيان واخبر بان البدو نهضوا وهم يحرضون الفلاحين على قتال الفرنسويين ويأتون لينجدوا اهل القاهرة وان العلماء والشيوخ يحثونهم على العصيان والقتال حتى ان بعض اعوان الجنرال بونابرت قال قد حل اجل كل فرنسوي دخل البلاد



المصرية

اما بونابرت فدخل القاهرة من باب بولاق وجمع جيشه القليل المقيم في المدينة واقام الجنرال بون واليًا عوضًا عن الجنرال دجبوي ثم اقام عوضًا عنه الجنرال ديستنك وكانت فرقة من الفرنسويين اتية الى المدينة من الصالحية ومعها نحو عشرين جنديًا من المرضى فهاجمهم البدو وقاتلوهم ففر الجنود الفرنسويون وقتل المرضى عند دخولهم المدينة ولم يقدر بونابرت ان يجول فيها لان الاهلين قطعوا الطرق واقاموا الحواجز ودامت الحال على هذا المنوال الى المساء . وكان الاهلون يقوون استحكاماتهم ويمكنون الوسائط التي اقاموها للدفاع وكانوا يوملون بالحصول على مساعدة البدو وان مراد بك يتمكن من قهر جيش الجنرال ديسيز وياتي القاهرة فينضم اليه الاهالي ويتمكنون من ان يهلكوا الفرنسويين وصرف الشيوخ تلك الليلة وهم يحرضون القوم في الجامع الازهر على قتال الفرنسويين وقالوا لهم ان من يقتل في هذا الجهاد يموت شهيدًا . اما بونابرت فصرف الليل في التاهب والتجهيز والتدبير والتدريب لاخماد الثورة واخبر ان سبعمائة بدوي اتوا من بولاق ليسعفوا الثائرين فارسل الكولونل سيلكوفسكي وهو من اعوان حربه ومعه مائتا فارس فقاتل البدو المذكورين وكسرهم فهربوا قاصدين القفر ولم يبق احد منهم في جوار القاهرة وقتل كثيرون منهم . وعند ما رجع صادمه اهل باب النصر وكان حصانه متعبًا جدًا فسقط وتمكن القوم من قتله بالحراب وكان ضابطًا بولونيًا محبوبًا جدًا عند قومه وعند الجنرال بونابرت لانه كان عالمًا بحسن صفاته وشجاعته . وفي نصف الليل اقام الجنرال دومارتين رئيس خدمة المدافع صفًا من المدافع على تل امام القلعة يشرف على الجامع الازهر وبعد تاهب الجيش الفرنسوي بعث بونابرت الى الشيوخ والاعيان في الجامع الازهر وطلب اليهم ان يصالحوه ووعدهم بالعفو عن المذنبين اذا صالحوه بلا قتال . فظن الاهالي ان الخوف حملة على طلب الصلح فتمنعوا عن اجابة طلبه فامر اربع فرق من الجيش الفرنسوي ان تحيط بالجامع الازهر فلا يتمكن احد من الذين فيه من الفرار فيعاقب الذين خالفوه وقاتلوا عساكره وبعد ذلك امر جنود القلعة وجنود المدافع التي ذكرناها قبلاً باطلاق المدافع على الثائرين على الحكومة وحدث ذلك في ٢٢ من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٨ الساعة ١٠ ونصف من النهار . وامر باطلاق المدافع على مكان المقاومين بلا انقطاع وكانت اصواتها شديدة فارتجت الارض وكانت الكرات كانها مطر هاطل فوق الجامع والاماكن القريبة منه وكان الغيم كثيرًا في الجو وهذا نادر في بلاد مصر وكان ذلك الغيم كثيفًا مظلمًا وصوت الرعد القاصف يزيد اصوات المدافع الفرنسوية تاثيرًا فاثر في الاهالي وملأ الرعب قلوبهم وخافوا سوء العواقب وعلى الخصوص في الذين يعتقدون ان الامور التي تحدث في الجو هي ذات معان تدل على ارادة

الخالق تاثيرًا نافعًا للفرنسويين والمظنون ان ذلك هو السبب في امتناع سائر انحاء المدينة عن ان يقاتلوهم كما قاتلهم اهل ناحية الجامع الازهر . وبعد ذلك بساعتين بعث القوم الى بونابرت يطلبون اليوان يعفو عنهم وعاهدوهُ بالانقياد والطاعة . فاجابهم بونابرت انكم لم تجيبوا طلبي في اول الامر ولكنكم شرعتم في التعدي فمن الواجب عليَّ ان اتمم ما شرعت فيهِ . ولما سمع الثائرون جواب بونابرت تيقنوا انهُ لاسبيل الى النجاة الا بالهجوم على الفرنسويين وخرق صفوفهم فهجموا عليهم هجمة عنيفة غير ان الفرق التي كان بونابرت قد اقامها حول الناحية المذكورة صدتهم فتقهقروا بعد ان قتل كثيرون منهم . وعند ذلك سار الشيوخ والعلماء الذين كانوا قد هيجوا الشعب الى جهة طليعة الجيش الفرنسوي بلا سلاح وطلبوا مواجهة الجنرال بونابرت وكانوا يطلبون الى الجنود كف القتال قائلين انهم في طاعة الجنرال الفرنسوي فاتى الجنود بهم الى بونابرت فتهددهم ثم وعدهم بالعفو ثم امر بتوقيف القتال اي بانقطاع الجنود الفرنسوية عن قتل الثائرين وسلم الباقون منهم . وفي صباح ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) رجعت الراحة الى القاهرة واقام بونابرت مجلسًا للفحص عن الذين هيجوا القوم الى ذلك والقى القبض على كثيرين منهم والباقون فروا هاربين وصارت المبادرة الى محاكمة الذين القي القبض عليهم . وفي ٢٤ من الشهر المذكور حكم عليهم بالقتل فقتلهم بونابرت في نفس ذلك اليوم ووجد ان اثنين منهم هم من اعضاء المجلس العالي فبعد قتلهما امر بالغاء المجلس وباقامة الحكومة الجندية عوضًا عن الحكومة المدنية في القاهرة وحمل الاهالي غرامة قدرها ملايين كثيرة من الغروش وهكذا انتهت هذه الثورة العظيمة التي كان القصد منها اهلاك جميع الفرنسويين . ثم نشر علماء مصر وشيوخها اعلانًا بعثت الحكومة بصورته الى جميع انحاء مصر وعلق على جدران القاهرة لتحريض المصريين على الاقلاع عن العصيان وتبليغهم ما حل باهل القاهرة . وبعد ذلك شرع بونابرت في بناء الحصون في الاماكن التي راى انها تمكن الثائرين من الثبات في محاربتهِ . ثم حفر خندقًا بين مصر وبولاق واقام الحواجز حولهُ لاقامة المدافع وبنى جسرًا فوق النيل من الشاطىء الايمن الى جزيرة الروضة وشاد حول تلك الجزيرة سورًا منيعًا . وكانت مدينة القاهرة تسير في سبيل التقدم مسيرًا يمكن اهاليها من الحصول على الراحة والرفاه . فان المهندسين شادوا الطواحين المائية والهوائية وانشاوا فيها القاعات العمومية للملاهي والتنزه والمكاتب والجرائد . ثم ارسل بونابرت فرقة من الجنود الفرنسوية للتطواف في الاقاليم المصرية والقفر القريب من القاهرة لطرد اللصوص من البدو والغز الذين كانوا يسلبون الامنية وراحة الاهالي وفي زمان قصير قطعوا تعدياتهم من جميع البلاد خلا الصعيد فتوطدت الراحة والامنية واستقامت الاحكام

وبعد طرد بونابرت ابراهيم بك وباكرباشا من البلاد المصرية فاتيا سورية بعث موسيو



شارل الذي كان قنصل فرنسا قبل فتح البلاد الى الصعيد ليخابر مراد بك بالاتحاد مع الجنرال بونابرت وانهُ اذا دخل في طاعة الحكومة الفرنسوية وخضع لقائدها بونابرت يقلدهُ سياسة احسن ولاية في مصر فيرتاح ويمكن الاهالي من ان يرتاحوا . وكان مراد بك صديق القنصل ولذلك قابلهُ بالفرح والترحاب وكان للقنصل في ذمة مراد بك مبلغ وافر من النقود . فسالهُ البك عن احوال مصر فاخبرهُ عن اعمال بونابرت ثم قال لهُ ان بونابرت قد ارسلني اليك لاقيم بينك وبينهُ علاقات الوداد لحجب دماء العباد والمحافظة على راحة الاهالي فان دخلت في طاعة فرنسا يقلدك ولاية الصعيد ويجعل مركز ولايتك مدينة جرجة فتحصل على الاعزاز والاكرام . فتحركت الغيرة والشهامة في احشاء مراد بك وتنفس الصعداء وقال لهُ ارجع الى مولاك وقل لهُ ان يجمع عساكرهُ ويرجع بها الى الاسكندرية بعد ان يقبض منا عشرة الاف كيس وهذا اوفق من اراقة دماء العباد وتجديد الكفاح والنزال . فرجع القنصل الى مصر واخبر بونابرت بجواب مراد بك فغضب وامر الجنرال ديسيزيان يتاهب هو وعساكرهُ لمحاربة مراد بك . فهذا ما كان قد حدث ولا بد من ذكر تاثيرات الحملة الفرنسوية في مصر وفي اوربا وغير ذلك مما يتعلق بموضوع كلامنا ثم ندون اعمال الفرنسويين في الصعيد

## الفصل العاشر

### مضادة دول اوربا لفرنسا بعد ان فتح بونابرت بلاد مصر وذلك سنة ١٧٩٩ للميلاد

ان اسباب المخابرات والانتقال في ذلك الزمان لم تكن كما هي في القرن التاسع عشر لفقدان القوة البخارية والبرقية في اعمال الانسان فلا يتعجب القارئ اذا سمع ان دول اوربا لم تعلم المكان الذي كان بونابرت قاصدًا الذهاب اليهِ الا بعد ان سار من تولون بمدة طويلة . ولما سمعت الدول بانهُ فتح مالطة خافت جدًا وامتد صيت بونابرت الى جميع اقطار اوربا لانها كانت حصينة جدًا وكانت الدول تعتقد ان القوة البشرية غير قادرة على فتحها ثم شاعت اخبار نزول بونابرت بجيشهِ في الاسكندرية وجهره في داخلية البلاد بعد فتحها والاستيلاء عليها واخبار معركة الرحمانية ومعركة اهرام الجيزة . وكانت اعمال بونابرت تكبر بالنقل وتعظم كلما طالت المسافة فارتعدت فرائص الامم خوفًا من فرنسا وامست كلها تتجنب قوتها وفتكها . واعمال بونابرت في ايطاليا والنمسا اعظم كثيرًا من اعمالهِ في مصر ومع ذلك كانت ملوك اوربا تتعجب منها وتشتغل في البحث عنها وفي الوقوف على تفاصيلها وكان بعضهم يعتقد ان لبونابرت مقاصد سياسية ذات شان في فتح مصر وانهُ بعد الاستيلاء عليها بفتح سورية ثم بلاد العرب ومنها يذهب الى الهند او يذهب من سورية الى القسطنطينية ويستولي على كل تلك البلاد الخصبة المشهورة . وكان

معتمدو انكلترا يذهبون من بلاد الى بلاد في اوربا يهيجون الملوك الى الاتحاد على قهر فرنسا لكن لم يتمكنوا من الحصول على غاياتهم الا بعد معركة ابي قير البحرية فانها منعت الفرنسويين من الحصول على النتائج التي كانوا يوملون بالحصول عليها بفتح مصر وحملت الدول الاوربية على الاستخفاف بفرنسا وعلى ان يوملوا بالتمكن من قهرها . وعند ما شاع خبر المعركة المذكورة اجابت الدول طلب انكلترا واتى بعض اولئك المعتمدين الاستانة العلية وطلبوا الى الباب العالي فتح الحرب على فرنسا لانها ارسلت جنودها لتفتح احسن بلد من ممالك الدولة العلية . وقد ذكرنا ان بونابرت لم يخرج من فرنسا الا بعد تاكده ان موسيو تالريان وزير خارجية الجمهورية الفرنسوية كان عاقدًا العزم على الذهاب الى الاستانة العلية ليبرم اتحادًا بين الباب العالي وفرنسا بعد ان يبين ما لفرنسا من المقاصد في فتح بلاد مصر وانها لاتقصد الاجحاف بحقوق الدولة العلية . اما موسيو تالريان فلم يات الاستانة العلية والوكيل الذي ارسلهُ لينوب عنهُ لم يتمكن من مواجهة حضرة مولانا السلطان الاعظم ولم ينل المقصود من الباب العالي . فاصبح سفراء انكلترا وحدهم في الاستانة وقرروا للدولة العلية ان مطامع فرنسا كثيرة ولايقدر احد ان يكفيها وانها اقلقت البلاد الغربية وسلبت راحتها ثم اتت الشرق لتسلب راحتهُ والبرهان فتحها احسن قطر عثماني مع انها صديقة للدولة العلية . ولا ريب انهُ لولا تكسير بوارج فرنسا في معركة ابي قير لما نجحت انكلترا لانهُ لو دخلت بوارج فرنسا بوغاز الدردنيل تحت امرة بروي لما تمكنت انكلترا من الحصول على مقاصدها وبناء على ذلك شهر الباب العالي الحرب على فرنسا في ٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٩ بالاتفاق مع انكلترا وروسيا

وهذه هي المرة الاولى التي انتشبت فيها الحرب بين الدولة العلية وفرنسا لانهُ منذ استواء آل عثمان على تخت القسطنطينية لم تتكدر العلاقات التي كانت جارية بينهم وبين فرنسا . ولم يكن للدولة العلية غيرهم من المحالفين في اوربا . والباب العالي لم يخسر شيئًا بالفعل بفتح الفرنسويين البلاد المصرية لان المماليك لم يكونوا يمكنونهُ من الانتفاع بالبلاد المذكورة ومع ذلك امر المرحوم السلطان سليم بتجهيز جيش جرار لمحاربة بونابرت في مصر واخذ البلاد منهُ . وهذا التغيير في السياسة اوقع الفرنسويين في مصر في ارتباك شديد وجعلهم في مركز صعب لانهم كانوا مقطوعين عن فرنسا بتكسير بوارجهم ومنع البوارج الانكليزية عن اقامة المخابرات بين مصر وفرنسا ومنع وصول المهمات والنجدة . وكانوا يعلمون ان جيشًا جرارًا من العرب وغيرهم من الشرقيين صمم على مهاجمتهم ولايخفى ان جيشًا عرمرمًا ذا مهمات لاتحصى لا يقدر ان يقوم بما كان على الجيش الفرنسوي القيام بهِ في مصر

وبعد انتصار الكوميدور نلسون الانكليزي في معركة ابي قير على الفرنسويين ذهب ببوارجهِ المكسرة الى مدينة نابولي وكان يفتخر كل الافتخار بانتصارهِ فاستقبلهُ ملك نابولي وزوجتهُ



بالترحاب والتعظيم ولاقياهُ الى البحر ومعهما كل شعب نابولي قاطعين النظر عن العهود المعقودة بين نابولي وفرنسا ومنها ان نابولي لا تقدم شيئًا من الزاد وغيرهِ للبوارج الانكليزية التي تاتي ثغورها وفتح الملك المذكور مخازنهُ ومعامل سفنهِ لخدمة نلسون ودعاهُ البطل منقذ البحر المتوسط . وشرع الناس يقولون ينبغي ان ينبه انتصار امير البحر نلسون الانكليزي الدول الى فروضها ويحملها على النهوض من غفلتها وعلى الخصوص بعد ان بات جيش فرنسا وقائدهُ محصورين في مصر . وشرع الانكليز واعداء فرنسا يهيجون حكومتي توسكانا وبيامونت في ايطاليا قائلين لها ان استغنام تلك الفرصة من شانهِ قيام صوالحها بالانضمام الى نابولي لمحاربة الفرنسويين واهلاكهم جميعًا . ثم اخذوا يحثون دولة النمسا على مقاتلة الفرنسويين لتتمكن دول ايطاليا من طردهم من بلادها وكانوا يقولون لها ان بذلك يمكنها من ترجيع ما فقدتهُ وان هذا هين لان بونابرت بعيد عن الادج وهكذا كانوا يحرضون امبراطورية المانيا على الانتقام من الفرنسويين بعد ان كانت قد اخذت منها حدود الرين وكانوا يجتهدون ان يجعلوا دولة روسيا تترك الحيادة التي كانت قد حافظت عليها وان يحملوا الامبراطور بولس الاول امبراطور روسيا على مضادة فرنسا وارسال جيش لمحاربتها قيامًا بوعد والدتهِ الامبراطورة كاترين الثانية . على ان ذلك جميعهُ لم يات بالنتائج التي كانت اعداء فرنسا تقصدها لان مضادة فرنسا كانت ذات شان عند الدول المجاورة لها دون غيرها لحملها اثقالاً كثيرة بسبب قربها منها . وكانت الامبراطورة كاترين الروسية قد تركت لابنها الامبراطور بولس سياسة واضحة وهي تكدير اوربا ليتمكن من اجراء مقاصدهِ في بولونيا وتوطيد سلطانهِ فيها . وهذه السياسة هي التي تنقاد روسيا اليها بالطبع وهذا هو الذي حمل الامبراطورة كاترين الحاذقة على وعد الذين كانوا قد نزحوا من فرنسا بسبب قيام الجمهورية بفتح الحرب على فرنسا وحرضت دول اوربا على ذلك دون ارسال جندي واحد من جنودها . اما وريثها الامبراطور بولس فاحسن تلك السياسة ولكنهُ لم يثبت فبعد قولهِ انهُ لا يبالي بالمعاهدة التي عقدتها والدتهُ مع انكلترا والنمسا سمح للكونت دوبروفنس وريث البوربون ملوك فرنسا وهو الذي سمي لويس الثامن عشر بعد ذلك ولغيرهِ من الامراء الفرنسويين النازحين بالفتنة الى بلادهِ ولفرسان مالطة بالقيام عندهُ بعد ان كان بونابرت قد فتح مالطة واستولى عليها . ولم يكتفِ الامبراطور بذلك بل قال انهُ مصمم على الدفاع عن حقوق الاعيان واصحاب القطائع الذين سلبت الجمهورية حقوقهم وامتيازاتهم وبناء على ذلك قال لامبراطور المانيا انهُ مستعد ان يساعدهُ في محاربة فرنسا وهكذا نالت انكلترا غاياتها في بطرسبرج كما نالتها في الاستانة العلية وجعلت دولتين من اكبر دول اوربا تتحدان على محاربة فرنسا مع انهما كانتا عدوتين لاتنفك احداهما عن محاربة الاخرى قبل ان ضمهما الصالح اما بروسيا فثبتت على الحيادة التي كانت عليها لان مجلس

امبراطورية المانيا كان يحب توطيد السلام وكذلك دول ايطاليا لانها كانت تخاف اقتدار جمهورية فرنسا وغضبها وكانت منتظرة الوقوف على نوايا النمسا لتتمكن من اظهار نواياها ثانياً . واما النمسا فكانت تخاف الحرب وسوء عواقبها وعلى الخصوص بعد ان كلت الامة وضجرت من القتال وامست البلاد في احتياج شديد الى السلام والراحة وكانت كجاري عادتها لاتسرع في ابرام الامور وتتكدر كلما تذكرت املاكها المفقودة في ايطاليا وتحب ان تحصل على ما يعوض عليها ما فقدتهُ ولذلك طلبت الى جمهورية فرنسا عقد جمعية في مدينة سيلتز للتبصر في ذلك مع ان جمعية رادستاد التي كان فيها وكلاء لفرنسا والنمسا وكل المانيا كانت لاتزال تجتمع . فاتى موسيو فرانسوا دونيوشاتو معتمد فرنسا وموسيو كوبانتزيل معتمد النمسا مدينة سيلتز . واخذت النمسا تطلب بدل ما اخذتهُ فرنسا من الاراضي في ايطاليا وسويسرا . اما معتمد فرنسا فطلب الترضية لان سفير فرنسا الجنرال برنادوت كان قد اهين في فينا وطلب تغيير وزير النمسا وكان معتمد النمسا يقول ان الاهانة التي لحقت بسفير فرنسا لحقت بهِ على غير رضى الدولة ثم يرجع الى التكلم عن مسألة اعطاء املاك للنمسا في ايطاليا عوضاً عن البلاد التي اخذتها فرنسا منها وعرض ذلك المعتمد على فرنسا رسماً يبين وجوب تقسيم بلاد ايطاليا بين النمسا وفرنسا . اما معتمد فرنسا فلم يقبل بها لانها لم تناسبهُ فافترقا دون اتفاق وبات القوم ينتظرون تجديد الحرب . غير ان النمسا اجتهدت بايجاد من يتحد معها قبل ان تفتحها وبناء على ذلك ذهب موسيو بونتزيل الى برلين ومنها الى بطرسبرج ليساعد سفراء انكلترا على حمل روسيا وبروسيا على محاربة فرنسا . وارسل امبراطور روسيا احد مشاهير دولتهِ وهو البرنس رينين الى برلين ليجعل هو ومعتمد النمسا ملك بروسيا يتحد معهما في محاربة فرنسا . وارسلت الحكومت الادارية الفرنسوية موسيو سيبس وهو من مشاهير رجال السياسة الى برلين فلم يسر ملك بروسيا بمجيئهِ اليهِ خوفاً من الانكليز والنمسا وروسيا وكان يخاف ان يجبر على الانقياد الى الدول الثلث . وكانت هذه الامور جارية في المانيا وحكومة نابولي في ايطاليا تحرض على الدوام دول ايطاليا على الاتحاد معها . وكانت جمعية رادستاد لاتزال معقودة . وبعد ان تمكن نواب فرنسا من ان يجعلوا نهر الرين بطولهِ فاصلاً بين فرنسا والمانيا داخلهم الطمع وطلبوا ان يضم الى فرنسا بعض الاماكن الواقعة في ميمنة نهر الرين المذكور قبالة ستراسبرج وماينس وغير ذلك مما يتعلق بحرية تجارة البلدين واشياء اخر لا يحق لفرنسا ان تطلبها وطلبوا ايضاً ان ما يلحق اراضي الرين في الميسرة من الديون الدولية يتوزع على البلاد الواقعة في ميمنة النهر لكي لا ينضم دين الى خزينة فرنسا مع البلاد التي تضمها اليها وبعد محاورات كثيرة اتفق وكلاء الدول في الجمعية المذكورة ان يكون نهر الرين الفاصل بين البلدين وان يصير رفع الاخرجة عن السفن التي تسير في الرين ولكن دولة النمسا كانت



تحرض وكلاء امبراطورية المانيا سرًّا على عدم تسهيل السبيل لعقد الصلح . اما بروسيا فكانت تفرغ الجهد في عقد الصلح . ودامت الحال على هذا المنوال الى اواخر الصيف من سنة ١٧٩٨

وحدثت في اثناء الحوادث التي ذكرناها ثورات في الجمهوريات الخمس التي اقامتها جمهورية فرنسا عند حدودها وتحت ادارتها . فالتزمت فرنسا ان تتداخل في اعمال تلك الجمهوريات الداخلية للمحافظة على النظام وحملتها هذه المداخلة اثقالاً كثيرة وهيجت حسد الدول وجعلتها تخاف مطامع فرنسا . اما الحكومة الجمهورية الفرنسوية فعرفت ان دول اوربا العظيمة اضمرت لها الشر فشرعت تتاهب لتدفعهم وتكبحهم . وكان الجيش يتشكى من الخدمة ويطلب الرجوع الى منازلهِ فاشار الجنرال جوردان على الحكومة الفرنسوية بان تغير نظام الجيش وتقرر ان مدة خدمة الجندي العسكرية محددة وان جمع الشبان يكون بالقرعة فقوبل رايهُ بالاستحسان وصار اجراء العمل بموجبهِ . غير انهُ تقرر في القانون المذكور انهُ يحق للحكومة ان تجمع

بونابرت يبحث في الاثار

الامة كلها لحمل السلاح اذا مست الحاجة وصار وضع هذا القانون في ٥ ايلول ( سبتمبر ) سنة ١٧٩٨ . وفي ٢٢ منهُ جمعت الحكومة بالقرعة مائتي الف جندي لتكميل عدد الفرق التي نقص عددها ثم طلبت ٢٢٥ مليون فرنك لاصلاح البوارج وابتياع المهمات البرية لتتمكن من ردع شر دول اوربا . وفي غضون ذلك بعثت الجنرال هومبر ومعهُ خمسمائة جندي وبعض البوارج الى ايرلاندا وهي من املاك الانكليز في اوربا ليهيج الاهالي ويحملهم على العصيان لتخويف انكلترا او حملها على الاقلاع عن تهييج دول العالم ضد فرنسا . وبعد ذلك اشتغلت بتجهيز جيش اخر عددهُ ستة الاف جندي ليذهب الى ايرلاندا وينجد فرقة الجنرال هومبر على انهُ صار تاخر في ذلك وبعد ان حارب هذا الجنرال بالخمسمائة نفر مدة كافية لوصول النجدة اليهِ التزم ان يسلم . ثم اتت البوارج الانكليزية وانزلت بعض الجنود في مينا اوستند في شاطىء فرنسا لجهة الاوقيانوس الاتلانتيك فهاجمهم الفرنسويون واهلكوهم عن اخرهم . وكانت حكومة نابولي قد شهرت الحرب على فرنسا وامرت جنودها بان يخرجوا من رومية واقامت الجنرال ماك النمسوي قائداً عمومياً لجنودها . وكان الجنرال شامبيني قائد الفرنسويين في ايطاليا . فحارب ماك المذكور وكسرهُ مع ان عدد جيشهِ كان ستين الفاً واستولى على مدينة نابولي نفسها والزم ملك نابولي وامرأتهُ والوزراء ان يركبوا سفن الكوميدور نلسون ويلتجئوا الى جزيرة صقلية وعند دخول الجنرال شامبيني الى نابولي قرر الحكومة الجمهورية في تلك البلاد ودعاها جمهورية بريتونيين وكانت القلاقل والاضطرابات غير منقطعة من مملكة بيامونت فالتزمت فرنسا ان تطلب الى ملكها ان يعتزل عن الملك وسمحت لهُ ان يقيم في جزيرة سردانيا التي كانت تابعة لمملكتهِ السابقة واصدرت امراً بالحاق بيامونت بفرنسا موقتاً . وهكذا بات ملك نابولي وملك بيامونت وهما كبيرا ملوك ايطاليا مخلوعين وكلٌّ منهما قاطناً في جزيرة . ولم تفعل فرنسا شيئاً لجهة توسكانا لانها كانت منتظرة اجراآت النمسا . وحدث ذلك جميعهُ في اوائل سنة ١٧٩٩ وكان الجميع ينتظرون فتح الحرب بين فرنسا ودول اوربا العظيمة وعلى الخصوص بعد ان وضعت الاحكام الجمهورية في كل اقطار ايطاليا . اما جيش روسيا فاتي بلاد مورافيا في النمسا غير ان افعال جنود فرنسا في نابولي في مدة قصيرة اوقعت الخوف والرعب في قلوب جميع اهالي اوربا فانها انتصرت ثلث دفعات على جيوش اكثر منها عدداً فاخرت دول اوربا فتح الحرب على فرنسا الى ان تكون قد جمعت كل قواتها وقامت بالتجهيزات اللازمة . ولا يخفى ان حكومة فرنسا كانت تعتمد على قوتها مع ان احسن جيوشها كانت في مصر وفي ايطاليا ولم يكن عندها في فرنسا اكثر من مائة الف جندي ولم يمكنها قصر الزمان من ان تعلم جنودها الجديدة تعليماً كافياً مع انها كانت قد اعدتها لمحاربة جيوش النمسا وروسيا عند الرين وكانت تترصد هجوم جيوش انكلترا او بوارجها عليها من جهة اخرى وكان اعظم قوادها غائباً



وخزينتها كادت تفرغ لانهُ لم يتيسر لها جمع ٢٢٥ مليون فرنك كما كانت عازمة . وكان بعض الجيوش يتردد دون عن الانقياد الى روسائهم وفضلاً عن ذلك كان بعض الملكيين والجمهوريين يهيجون الثورة لنوال مآربهم . وعند ذلك شرعت الحكومة الادارية توطد السلام في الداخلية وتخمد اسباب الفتن بواسطة الاستعداد لمحاربة الدول الاجنبية المذكورة . وامتد روح العصيان على الحكومة حتى ان بعض قواد الجيش في ايطاليا تمنعوا عن الانقياد اليها . فامرت الحكومة المذكورة بعزل الجنرال شامبيني الذي فتح نابولي ثم استعفى الجنرال جوبيرلانهُ لم يخضع للقوانين الجديدة التي رسمتها الحكومة . والجنرال برنادوت لم يقبل ان يخلف الجنرال جوبير لانهُ امتنع عن الخضوع للقوانين المذكورة ومع ذلك لم ترجع الحكومة عن تنفيذ اوامرها وقوانينها فتمكنت من الحصول على المراد فقلدت قيادة جيش ايطاليا للجنرال مكدونال وامرتهُ ان يتاهب لمحاربة النمسا في شمال ايطاليا . واقامت الجنرال ماسينا على الجيش الذي ذهب ليراقب معابر سويسرا وكان من القواد المشهورين . وقلدت قيادة جيش الدانوب الذي كان قد اقيم لمحاربة النمسا وروسيا في نفس ايطاليا للجنرال جوردان . وجعلت برنادوت قائداً لجيش الرين والجنرال برون قائداً للجيش الذي ارسلتهُ الى هولندا لدفع الانكليز والروسيين عن تلك البلاد . ولما كانت البلد التي التزمت حكومة فرنسا ان تفرق جيشها فيها واسعة جداً وبعضها بعيداً عن البعض الاخر كان لابد من ان تقيم قائداً واحداً عاماً ليدبر كل هذه الجيوش وادارة منظمة لئلا يضر احدها بالاخر فتاتي اعمالها بنتيجة واحدة غير متباينة في المقاصد . فكان بونابرت هو القائد الذي يقدر ان يقوم حق القيام بالادرة المذكورة غير انهُ كان في مصر

اما دولة النمسا فجمعت جيشاً اكثر من جيش فرنسا وقلدت قيادتهُ للارشيدوق شارل وكان في بلاد بافاريا ومعهُ جيش عددهُ نحو ٥٤ الفاً من المشاة و٢٤ الفاً من الفرسان . وكان قد نقل الجنرال هوتز من شواطىء الرين الى بحيرة كونستنس ومعهُ ٢٤ الفاً من المشاة والفان من الفرسان . وفوض الى الجنرال بيلكارد ( ومعهُ ٤٦ الف جندي منها الف فارس ) لاقامة الحرب في التيرول وبعث الى حدود الادج في ايطاليا الجنرال كري ومعهُ ٦٤ الفاً من المشاة و١١ الف فارس . واما جيش روسيا فكان مصمماً على مساعدة الجنرال كري في ايطاليا وهذا هو الجيش الذي قلنا انهُ اتى بلاد مورافيا

اما القواد الفرنسويون فكانوا يعرفون ان جنودهم قليلة وانها غير قادرة ان تصادم جيوش الاعداء الجرارة وعلى الخصوص لانهُ لم يكن لها ما يلزمها من المهمات فاخبروا بذلك الحكومة الفرنسوية في باريس فكانت تجيب انهُ من اللازم ان يشرعوا في القتال حالاً وكانت ان فرنسا والدول الاجنبية تتاهب للقتال قبل ان شهرت الحرب وكانت الجمعية في رادستاد لا تزال

مشتغلة في تقرير مبادىء الاتفاق والصلح . ولما حاولت احدى قطائع سويسرا الانضمام الى النمسا ودخلتها النمسا واستولت عليها امرت الحكومة الفرنسوية الجنرال ماسينا قائد جيشها الذي كان بالقرب من تلك البلاد ان يدخل القطيعة المذكورة و يطرد النمسويين منها ثم حررت رسالتين و بعثت باحداهما الى حكومة النمسا و بالثانية الى جمعية رادستاد ومالها طلب توقيف الجيش الروسي الذي كان سائرًا لينضم الى جيش النمسا في ايطاليا وانهُ اذا لم يتوقف تشهر الحرب وعينت لاتمام ذلك ثمانية ايام . ثم امرت الجنرال جوردان ان يعبر نهر الرين و يدخل المانيا اذا لم يتوقف الروسيون عن التقدم بعد مضي الزمان المذكور . اما وكلاء الدول في جمعية راستاد فكان اكثرهم يجبون عقد الصلح وكذلك امراء المانيا وملوكها على انهم كانوا يخافون باس النمسا فلم يجيبوا فرنسا بشيء وكذلك النمسا فاخذ الجنرال جوردان في اول شهر اذار (مارس) يعبر نهر الرين اما البرنس شارل فعبر ترعة الليك وهي ترعة من نهر الرين وكان قد تقرر انها تكون في تلك الجهة الفاصلة بين فرنسا والمانيا وتم ذلك في ٢ اذار (مارس) وهكذا جاز جيش فرنسا وجيش النمسا الحدود التي كانت قد عينت بين البلدين . وكانت الحكومة الفرنسوية قد امرت الجنرال جوردان بدخول بلاد النمسا وان لا يهاجم الجيش النمسوي بل ينتظر مهاجمتهُ ليقرر مجلس نواب فرنسا وجوب فتح الحرب.

وفي تلك الاثناء تمكن الجنرال ماسينا من الاستيلاء على مقاطعة كريزون السويسرية التي اختلسها النمسويون وطردهم منها بعد ان انتصر عليهم في جميع المعارك . وفي ١٢ اذار (مارس) سنة ١٧٩٩ ارسلت الحكومة الادارية الى الجنرال جوردان صورة اعلان فتح الحرب ليرسلهُ الى النمسا وامرتهُ ان يبادر الى مهاجمة جيش الارشيدوق شارل . فتقدم الجنرال جوردان بجيشهِ وكان مستندًا الى جيش ماسينا في سويسرا وجيش برنادوت في الرين فانهما كانا مستعدين ان يسعفاهُ عند ما تمس الحاجة وذلك لانهُ كان عالمًا بان جيش العدو كان اكثر من جيشهِ عددًا . فاخذ يسير في البلاد الواقعة بين بحيرة كونستنس ونهر الدانوب وجعل مركزهُ وراء نهر اوستراك ونهر آك فالاول يصب في الدنوب والثاني في البحيرة . واقام الجنرال سنسير قائدًا للميسرة في سنجن والجنرال سوهام قائدًا للقلب في مدينة بفولندورف والجنرال كيرنيو قائدًا للميمنة في باريندورف والجنرال دونيول قائدًا لفرقة النجدة والجنرال ليفيفر قائدًا للطليعة في اوستراك . اما الارشيدوق شارل قائد جيش النمسا فقسم جيشهُ بحسب مقتضيات المكان غير انهُ لما عرف كيفية تقسيم الجيش الفرنسوي جعل اكثر جيشهِ في الجهة التي لم يكن فيها منهم غير تسعة الاف جندي . وانتشب القتال في ٢٢ اذار (مارس) صباحًا واشتدت الحرب واظهر الفرنسويون في هذه المعركة من الشجاعة والثبات ما ليس لهُ مثيل حتى ان الارشيدوق شارل قال انهُ متعجب مما يراهُ منهم . غير ان اتساع ميدان الحرب وقلة عدد



الفرنسويين الزما الجنرال جوردان ان يضطرب امام جيش الارشيدوق شارل لانهُ قطع الوادي الذي كان الفرنسويون يدافعون عنهُ فرجع الجنرال جوردان بجيشهِ الى الوراء ونزل في مدينة سنجن وكو تلنجن ولم ينجح في المعركة الاولى ومع ذلك اقام القتال ثانية في ٢٥ اذار (مارس) لظنهِ ان الجنرال ماسينا قادم لنجدتهِ فلا بد ان يتقدم جيش الرين في البلاد الالمانية . فالتقى الجيشان في اليوم المذكور وانتشب القتال واشتد الويل وكانت الجبال ترتجف من كثرة اطلاق المدافع وكثرة القتل ومع ان النمسويين كانوا اكثر كثيرًا من الفرنسويين لم يقدروا ان يثبتوا امامهم . وتاكد الجنرال جوردان انهُ قد انتصر فامر الجنرال سنسير الذي كان مقيمًا بفرقتهِ في مكان اخر ان يرسل اكثر جنودهِ الى الطريق القريب من الجبل لكي يقطع السبيل عن جيش النمسا عند ما ياخذ في الانهزام . غير ان ذلك سبب هلاك الجيش الفرنسوي لان الارشيدوق شارل كان من القواد الذين يعرفون فن القتال مثل بونابرت فلما راى ان جوردان امر فرقة الجنرال سنسير ان تذهب لتسد الطريق على النمسويين وعرف انهُ اخطأ بذلك اغتنم الفرصة وهجم باكبر فرق جنودهِ على الجهة التي ضعفت بانفصال فرقة الجنرال سنسير عنها وتمكن من الوصول الى قلب الجيش الفرنسوي واعمل السيف فيهِ ولم يقدر الفرنسويون ان يثبتوا في مواقفهم فانهزموا قبل ان يصل سنسير الى المكان الذي قصدهُ فبات في خطر عظيم بعد ان انكسر جوردان وجيشهُ . غير انهُ تمكن بواسطة علومهِ من ان يرجع وينضم الى الجيش دون ان يصادف معارضة . اما جوردان فعوضًا عن الذهاب الى جهة سويسرا لينضم الى جيش ماسينا المنتصر رجع الى جهة الرين ليمنع الارشيدوق شارل عن الهجوم على التخوم . وكان عدد القتلى والجرحى من الفريقين تقريبًا واحدًا . اما جوردان فاقام في معابر فوري نوار وقلد قيادة جيشهِ رئيس اركان حربهِ وهو الجنرال ارنول وسار قاصدًا باريس ليبين للحكومة سوء حالة جيشهِ الذي كان محتاجًا الى المهمات لما ابتدا بالقتال ولولا مداخلة مجلس امبراطورية المانيا الحربي في اعمال الارشيدوق شارل لانزل الويل والهوان في جيش جوردان غير انها منعتهُ عن التقدم . وفي اثناء حدوث هذه الامور في بلاد سواب من المانيا كان الجنرال ماسينا ينتصر على الالمانيين في كل المعارك التي اقامها عند ينابيع الرين وبحيرة كونستنس ولكنهُ انكسر في معركة واحدة لثبوت الالمان في مواقفهم وهذه هي المعركة الاولى . اما الجنرال شيربر الفرنسوي قائد جيش ايطاليا فكان قد ابتدا في مقاتلة النمسويين والروسيين في جهة الاديج وبعد ان انتصر عليهم في معركة ٢٦ اذار (مارس) اقام ثلثة ايام دون ان يطاردهم ثم هاجمهم في ٢٩ من الشهر المذكور فدارت الدائرة عليهِ فتقهقر بعد معركة مانينو المهلكة واخذ الجيش يتذمر من سوء تدبير قائدهِ والتزامهِ ان يتقهقر تاركًا البلاد التي فتحها بونابرت . وبعد فتح الحرب المذكورة بنحو شهر امست جنود فرنسا مكسورة في المانيا وفي ايطاليا ولم تفز الا في سويسرا تحت قيادة

الجنرال كليبر



الجنرال ماسينا . ولما راى هذا الجنرال انهُ بعد انكسار جيش المانيا وجيش ايطاليا الفرنسويين بات بين عسكر النمسا وروسيا في ايطاليا وجيش النمسا في المانيا خلا الجيش الذي كان يقابلهُ عزم على الرجوع الى الوراء خوفاً من ان يصيبهُ ما اصاب غيرهُ بسبب كثرة جنود الاعداء . وكان الجنرال ارنول وكيل الجنرال جوردان فكان يعرف ان مركزهُ غير حسن ولذلك هرب بجيشهِ الى الرين . وتمكن ماسينا من ان يثبت في قلب بلاد سويسرا

فامست جمعية رادستاد في ظروف ردية وعلى الخصوص بعد ان انفصل عنها اكثر وكلاء ممالك المانيا وبقي فيها وكلاء فرنسا وبعض وكلاء المانيا وبروسيا وعندما خرجت الجنود الفرنسوية من رادستاد دخلها النمسويون فوقف الاجتماع وقال نواب فرنسا انهم عازمون على الذهاب الى ستراسبرج فحين يرغب وكلاء المانيا في تجديد المخابرة يبادرون الى الرجوع الى رادستاد . فارسلوا وسالوا الجنرال النمسوي هل في اقامتهم في رادستاد خطر عليهم فاجاب انهُ لا بد من خروجهم منها في ٢٤ ساعة ولا خطر عليهم في الطريق . وكانت دولة النمسا قد اضمرت السوء لوكلاء فرنسا المذكورين لانهم قالوا لوكلاء المانيا ان النمسا سلمت باعطاء مدينة ماينس لفرنسا حبًّا بقيام صالحها الخصوصي وكانوا قد طلبوا شروطاً صعبة واصروا على الحصول عليها ولذلك امرت باجراء ما يعيبها . اما الوكلاء المذكورون فخرجوا من رادستاد في ٢٨ نيسان (افريل) سنة ١٧٩٩ في ثلث عجلات ومعهم عيالهم وكان معهم في عجلة اخرى وكلاء حكومة ليكوربين في ايطاليا وماموروا سفارة فرنسا في المانيا وكانوا يسيرون في ظلام الليل . وبعد ان ابتعدوا عن المدينة هجم عليهم بعض فرسان جيش النمسا وهم من الجيش الذي قال قائدهُ للوكلاء انهُ ما من خطر عليهم في الطريق واوقفوا العجلات وفتحوا باب الاولى وكان فيها موسيو ديبري وقرينتهُ واولادهُ فسالوهُ عن اسمهِ فاخبرهم فانزلوهُ من المركبة وضربوهُ بالخناجر والسكاكين ثم خنقوهُ وفعلوا بركاب الاخرى كذلك وتمكن الباقون من الفرار والجنود مشتغلون بقتل الوكلاء المذكورين . غير ان موسيو ديبري لم يمت ولكنهُ رجع الى نفسهِ بعد برهة وتمكن من الرجوع الى رادستاد واخبر وكلاء المانيا بما حدث فعقدوا حالاً جمعية ونشروا اعلانات في كل اوربا مآلها انهم يشجبون جيش النمسا لانهُ فعل ذلك الفعل الذي لا يسلم بهِ اهل التمدن ويجلب العار على فاعلهِ واسعفوا موسيو ديبري بما خفف عنهُ اثقال التعديات وكذلك اسعفوا عائلتي المقتولين . ولما سمعت دول اوربا بهذا الخبر تكدرت ولامت النمسويين حتى ان الارشيدوق شارل كتب الى الجنرال ماسينا انهُ امر باجراء قصاص قائد الذين فعلوا ذلك الفعل القبيح قاصداً رفع التهمة عن نفس دولة النمسا ولكن ضعف كتابتهِ بين عجزهُ عن اثبات براءة الدولة . ولما رات الامة الفرنسوية ما رات غضبت جداً من افعال النمسا والحكومة الادارية لان جيوشها باتت متفرقة في ايطاليا وفي المانيا وكانت تقول

ان اعضاء هذه الحكومة وهم خمسة مكنوا دول اوربا من الاتحاد لمحاربة فرنسا باجرآتهم في رومية وفي نابولي وافعالهم المضادة للنمسا جعلوا الدولة العلية تفتح الحرب على فرنسا بواسطة ارسال بونابرت الى مصر وعندما اطمأن بال روسيا من جهة الباب العالي تمكنت من ارسال ستين الفًا من جنودها ليحاربوا فرنسا في ايطاليا وان الحكومة المذكورة نفسها هي التي اشارت بقتل الوكلاء ليجعلوا الامة الفرنسوية تكره النمسا وتنهض للمحاربة . ولا يخلو ذلك من المبالغة واكثرهُ غير صحيح . وكان القوم يلومون الامة بسبب سياستها الداخلية ولم يكونوا يحبون غير موسيو باراس احد اعضاء الحكومة المذكورة مع انهُ قصر في القيام بفروضهِ اكثر من بقية الاعضاء الاربعة وحدثت قلاقل في ذلك الزمان بسبب انتخاب اعضاء مجلس النواب وصار عزل موسيو ربفيل احد الاعضاء واقيم عوضًا عنهُ موسيو سيس وكان ذا شهرة فانهُ كان يحسن الادارة السياسية . وجعلت الحكومة الجنرال ماسينا قائدًا عامًّا لجيش سويسرا ولجيش المانيا الذي كان تحت قيادة الجنرال جوردان لانهُ اقيم في مجلس النواب وكان ذلك من احسن اعمال الحكومة وكذلك الجنرال شيربركان يطلب بلجاجة السماح لهُ بتسليم قيادة جيش ايطاليا الى الجنرال مورو

اما الجنرال ماسينا فاستلم قيادة الجيشين وقام بالاستعدادات اللازمة لمنع تقدم جيش النمسا وتمكن من الاستيلاء على المراكز الموافقة لهُ في المانيا بالقرب من الرين واخذ ينتظر وهو مطمئن حركات الارشيدوق شارل . اما حالة الجيوش الفرنسوية في ايطاليا فكانت ردية لان الجنرال سوفادوف الروسي كان قد تمكن من الانضمام الى جيش النمسا واستلم قيادة الجيشين وكان عددها نحو تسعين الف جندي وكان القوم يلقبون سوفادوف بالمنصور فانهم كانوا يعتقدون انهُ من النواد الذين لا يكسرون لان الظروف كانت قد مكنتهُ من الفوز على الفرنسويين بسبب سوء تدبير الجنرال شيربر . وعند ذلك اعتزل الجنرال الموما اليهِ عن القيادة العامة في ايطاليا وسلمها الى الجنرال مورو . ومع ان الجيش قارب الانكسار وكانت الحكومة الفرنسوية اساءت الى الجنرال مورو في نصرفها قبل ان يتقلد قيادة الجيش وهو في حالة ردية رجع اليهِ حبًّا بوطنهِ وصوالحهِ وفي غد يوم تقلدهِ القيادة شرع في الرجوع الى الوراء بكل همة ونشاط ليلتجيء الى حصون منيعة لان جيشهُ كان قد قل واضحى عشرين الف جندي مع ان عدد النمسويين والروسيين كان تسعين الفًا فلم يهاجموهُ ولكنهم كانوا يسيرون وراءهُ . وبعد ان اقام في ميلانو مدة قصيرة اتى مدينة الاسكندرية في بيامونت وقاتل الجنرال سوفادوف وتصرف تصرفًا ممدوحًا جدًّا اظهرت بهِ براعتهُ وحكمتهُ ولكنهُ لم يثبت في تلك المواقف خوفًا من كثرة جيش اعدائهِ ومن عصيان الاهالي على جيش فرنسا فسار بهِ قاصدًا جنوا ولما اتاها تشجع الجيش لانهُ راى في مينائها بوارج كثيرة فرنسوية تحت قيادة وزير البحر



الاميرال بروبس وكان قد خرج بهذه البوارج من مينا بريست في غرب فرنسا وضم اليهِ بوارج اسبانيا وسار قاصدًا محاربة البوارج الانكليزية في البحر المتوسط وفتح طريق مصر لمساعدة بونابرت . وفي تلك الاثناء هجم جيش الارشيدوق شارل على جيش فرنسا بالقرب من بحيرة كونستنس تحت قيادة ماسينا فتقهقر النمسويون بعد ان قتل كثيرون من جنودهم . ولما سمع بذلك جيش ايطاليا الفرنسوي تشجع وبادر الجنرال ماكدونال قائد جيش نابولي الى المسير بعساكرهِ الى جيش الجنرال مورو قاصدًا الانضمام اليهِ بعد ان خلف بعض الجنود للمحافظة في نابولي ورومية . فصدمهُ الجنرال سوفادوف في الطريق فانتشب القتال بينهما ففاز ماكدونال في اول الامر ثم دارت عليهِ الدائرة فبادر مورو الى نجدتهِ ولولا ذلك لبات اسيرًا هو وجيشهُ . وكانت القلاقل لا تزال تاتي داخلية فرنسا بالاضطراب لان اخصام الحكومة الادارية كانوا يقصدون القبض على زمام الاحكام ليدفعوا عن البلاد المخاطر التي كانت تتهددها ويصلحوا المالية . وطلب مجلس الخمسمائة الى الحكومة المذكورة ان تبين اسباب القلاقل الداخلية واعلن المجلس المذكور بالاتحاد مع مجلس الشيوخ بانهما غير منفصلين ولا يسوغ الغاؤهما والذي حملهما على ذلك ما راياهُ من تصرف الحكومة ووقع الخصام بين رجال الحكومة المذكورة فباتوا في قلق واضطراب . ثم عزل تيلار احد اعضاء الخمسة . ثم اعتزل منهم موسيو لاريفلير وموسيو ميرين ولم يبق منهم غير باراس وسيس . وتكدر الفرنسويون من اعتزال موسيو لاريفلير لتحققهم انهُ من اهل الحكمة والدراية . واقيم عوضًا عنهم موسيو كوبه وموسيو روجيرايكوس وموسيو مولين . اما موسيو روجيرايكوس فكان من حزب الجيروندبين ويحب جدًّا موسيو سيس ومن اهل الاستقامة . اما موسيو مولين فكان من جنرالية الجيش ومن الجمهوريين غير المعتدلين وكان مشهورًا بحبهِ لوطنهِ . وبعد ان تقررت الحكومة على هذا النسق اخذت تسلك مسلكًا مخالفًا لتقريرات الاعضاء السابقين وغير واكثيرين من ماموري الحكومة الملكيين والعسكريين واقاموا جمعية مخصوصة اعضاؤها ١١ رجلاً للنظر في ما يجب ان يجرى لردع جيوش الاعداء التي كانت تحاول الدخول الى فرنسا . فقررت اللجنة المذكورة باجماع الاحزاب وجوب تجنيد الامة كلها وجمع قرض اجباري قدرهُ مائة مليون فرنك . ولما كانت الحكومة تقول ان سبب الاضطراب الذي حدث في بعض الولايات الفرنسوية انما هو العلاقات التي كانت جارية بين بعض الذين كانوا لا يزالون في تلك الاماكن وبين اقاربهم واصدقائهم الذين نزحوا من البلاد بسبب تحزبهم للحكومة الملكية امرت بانهُ عند حدوث اضطراب كهذا الاضطراب يصير اخذ بعض رجال المتحزبين النازحين رهنًا لمنع حدوث الثورات . وبعد اجتماع الجنود الجديدة انجدت جيوش فرنسا في سويسرا وايطاليا والمانيا فانتشب القتال في جميع هذه الاماكن بين الفرنسويين والروسيين والنمسويين وغيرهم من الالمان . اما الجنرال

ماسينا فكان لا يزال متمكناً من الثبات في مواقفهِ في سويسرا وتمكن من الاستيلاء على جبال الالب الفاصلة بين المانيا وايطاليا وقطع المواصلات التي كانت جارية بين جيش النمسا وجيش روسيا في ايطاليا وبين جيوشهما في المانيا . غير ان موروو وجوبير لم يتمكنا من منع تقدم جيش روسيا والنمسا ولكنهما كانا لا يزالان يتقهقران امامهما حتى ان القائد سوفادوف الروسي تمكن من حصر مدن ايطاليا الحصينة التي استولى عليها الفرنسويون منها منتوا و بنيارا و بيزيكتون وقلعة ميلانو وقلعة تورين واسكندرية بيامونت فتكدرت فرنسا لما عرفت ان هذه القلاع امست في يد النمسويين وان جيش الجنرال كري الجديد وعددهُ عشرون الفاً قد انضم الى جيش سوفادوف . وحاول جوبير الرجوع الى جبال ابنين ولكن سوفادوف امسك عليهِ الطريق والزمهُ ان يحاربهُ . فصرف الفريقان تلك الليلة في الاستعداد للمحاربة في الصباح . وفي ١٥ اب ( اوغسطوس ) سنة ١٧٩٩ انتشب القتال ومع ان الفرنسويين قاتلوا قتالاً شديداً لم يتمكنوا من النجاح فان عدد جيش اعدائهم كان ضعف عدد جيشهم واظهر الجنرال جوبير من الشجاعة ما لا مزيد عليهِ وكان يجول بين صفوف جنودهِ فاصابتهُ رصاصة وقتلتهُ وكان الجنرال مورو واقفاً بالقرب منهُ عند ما قتل فاستلم قيادة الجيش واتى بالعساكر لمحاربة النمسويين ودفعهم الى الوراء غير ان النمسويين والروسيين هجموا هجمة واحدة واطلقوا مدافعهم دفعة واحدة . وعند ذلك تيقن مورو انهُ لا نجاة لهُ الا بالتقهقر فرجع بارتباك وقتل كثيرون من الفريقين وسميت هذه المعركة باسم المدينة المجاورة وهي مدينة نوفي . وعند نجاح اعداء فرنسا في ايطاليا وفي المانيا بعثت دولة انكلترا ودولة روسيا جيشاً من جيوشهما في بوارج انكلترا فنزل في هولندا في جهة البحر الشمالي وكان ذلك نتيجة معاهدة جديدة عقدتها انكلترا وروسيا وما آلها مضادة فرنسا اما عدد الجيوش التي نزلت في ذلك المكان فكان ٤٧ الف مقاتل منها ٣٠ الفاً من الانكليز و١٧ من الروسيين وارسلوا الى هناك ليفتحوا هولاندا التي كانت من املاك فرنسا . وكان فيها الجنرال برون الفرنسوي ومعهُ سبعة الاف من الفرنسويين وعشرة الاف من الهولنديين ومع ان جيشهُ كان قليلاً لم يخف جيش اعدائهِ الكثير فشرع في الاستعداد لمحاربتهم غير ان البوارج الهولندية خانت الفرنسويين وانضمت الى البوارج الانكليزية . فبلغت هذه الاخبار واخبار حوادث ايطاليا باريس في وقت واحد فاضطربت الحكومة وهاجت الامة وصرخت حسب عادتها قائلة بالخيانة فغيرت الحكومة بعض ماموري وزارة الحرب وغيرهم والقت القبض على بعض كتاب الجرائد الذين كانوا يهيجون الامة ضدها فامست البلاد في اسوإ حال وكثر تبديل الوزراء وصرخ الجمهور قائلاً اين بونابرت اين ذلك الذي فتح ايطاليا والمانيا لم ترسلهُ الحكومة الى مصر لا ليهلك في بلاد غريبة . ولم تكن الامة تركن الى القواد الذين كانوا مستلمين قيادة جيوشها ومنهم موروو وجيروو وماسينا وجوردان و برنادوت لانهم غُلبوا في معارك كثيرة . وكان الشعب يقول



ماذا يفيدنا فتح مصر وسورية ما دام وطننا في خطر . اما اعداء بونابرت فكانوا يشيعون اخباراً كاذبة عنهُ منها انهُ انكسر في حروبهِ في مصر وانهُ مات ماسوراً على ان الاكثرين كانوا يكذبون تلك الاشاعات ولم يكتفوا بتكذيبها ولكنهم كانوا يقولون انهُ فتح مصر وسورية ووادي الفرات وانهُ سيرجع الى باريس بعد ان يفتح الاستانة العلية وكل البلدان التي يحاول فتحها . اما الحكومة فكانت قد ارسلت امراً مآلهُ وجوب رجوعهِ الى فرنسا وجمعت في البحر المتوسط بوارج كثيرة وضمت اليها وابرج اسبانيا وكانت قاصدة الذهاب الى مصر لترجع بالجيش الفرنسوي وكتب اخوة بونابرت اليهِ بان يرجع واخبروهُ بما حل بفرنسا على ان القوم كانوا يظنون ان هذه الرسالات لا تصل الى مصر لان الانكليز كانوا قاطعين الطرق بين مصر وفرنسا

## الفصل الحادي عشر

### حال بونابرت في الشرق

سبق القول ان الجنرال ديسيز نقلد حكومة الصعيد وان بونابرت امرهُ ان يهاجم مراد بك وكان مع الجنرال المذكور اربعة الاف مقاتل . اما مراد بك فكان قد جمع عدداً غفيراً من الهوارة والغز والفلاحين والبدو في المنية وهي تبعد عن القاهرة ثلثة ايام وصار عدد جيشهِ اكثر من عشرين الفاً واجتمع اليهِ بعض المماليك الذين فروا الى الصعيد وانضم اليهِ حسن بك الجرداوي وعثمان بك من اتباع علي بك الكبير وكان الغز قد طردوهما . وعند ما تقابلوا تصالحوا واتحدوا وعزموا على القتال وصاحوا قائلين ياغيرة الدين ونصرة المسلمين الله اكبر على هولاء الكفار الفاتحين وتاهبوا كل التاهب لقتال الفرنسويين . وصرف مراد بك جميع ذلك الزمان في تحصين مواقفهِ في الصعيد وكان يصعب على الفرنسويين ان يسيروا في تلك الاراضي لفيض النيل واشتداد الحر واتساع الثغر وفي ٢٢ اب ( اوغسطوس ) سار الجنرال ديسيز قاصداً محاربة مراد بك فركب بعض جنودهِ القوارب وساروا في نهر النيل والباقون كانوا يسيرون عند شاطيهِ و بعد ان سار الفرنسويون خمسة ايام وصلوا الى البهنسى وبها مراد بك . ولما بلغهُ خبر قدومهم ذهب الى الفيوم فصعب الدنو جداً لانها محاطة بالبحيرات والترع . ومع ذلك سار ديسيز في طلبهِ وفتش عليهِ خمسة اسابيع دون ان يقف لهُ على خبر . وفي ٤ تشرين الاول ( اكتوبر ) رات طليعة الفرنسويين فرقة من جنود مراد بك في قرية بنكية . ولما اقترب الفرنسويون منهم انهزموا من امامهم وصادفوهم في اليوم الثاني ففعلوا كما فعلوا في اليوم الاول وهكذا كان مراد بك ينهزم من امام الفرنسويين دون ان يحاربهم قاصداً ابعاد ديسيز وجيوشهِ عن السفن التي كانت تسير امامهم في النيل وفيها المهمات والزاد غير ان ديسيز علم بغايتهِ . وفي ٨ تشرين الاول ( اكتوبر ) عرف ان مراد بك تحصن في قرية سيد

يمان عند حدود القفر بالقرب من ايلاخون في اول تخوم بلاد الفيوم وانهُ مستعد لمحاربة الفرنسويين في ذلك المكان لانهُ كان يركن الى كثرة عدد جيوشهِ وشجاعة فرسانهِ لان الغز كانوا من افرس الفرسان فسار ديسيز الى المكان المذكور ورتب جيشهُ ترتيباً موافقاً وهو المعروف بالقلعة اي ان يكون الجيش مربعاً والنار تطلق من كل جهة ثم ضربت الطبول وانتشب القتال وهجم الغز والبدو هجوم الاسود الضارية التي لا تهاب الموت وجردوا سيوفهم الهندية واطلقوا اسنة رماحهم السمهرية وهم راكبون افراساً عربية تسابق الرياح في الركض وانقضوا على الفرنسويين كالطيور الكواسر واندفقوا عليهم اندفاق البحور من وراء التلال والنجاد حتى ان الناظر كان يظن انها صارت فرساناً ورماحاً . ولم يتمكن الفرنسويون من اطلاق بنادقهم عليهم لانهم دنوا منهم بافراسهم فاخذوا يصادمونهم بحراب بنادقهم واخذ الجنرال ديسيز يزبد ويعربد واُطلقت عليهم بنادق صفوف لم يهاجموها فهلك اكثرهم ثم هجم الفرنسويون على بقية جيش مراد بك وتبعوهم الى الحواجز واستولوا على بعضها غير ان مراد بك الشجاع جمع جيوشهُ المكسورة وهجم على الفرنسويين هجوماً شديداً فارجعهم عن مواقفهم وجدد القتال ببسالة لا مزيد عليها وانقض عليهم بفرسانهِ وعند ذلك اطلق الفرنسويون بنادقهم ففعلوا افعالاً عجيبة وقتلوا كثيراً من المماليك فانهزم مراد بك فظن الفرنسويون انهُ انكسر وبعد ان رجع مسافة ظهر وراءهُ صف من المدافع فاطلقها دفعة واحدة على الفرنسويين فان فرسانهُ كانوا قد عجزوا عن خرق صفوفهم واتى بالنتيجة المطلوبة وكانت مهمات الفرنسويين قد فرغت وامسوا في خطر مبين . اما ديسيز فلم يرتبك ولكنهُ تدرع بشجاعتهِ غير العادية وامر جيشهُ ان يهجم على مدافع مراد بك بالسيوف فضربت الموسيقى الحربية اشارة الى تنفيذ ذلك فصرخ الجيش الفرنسوي صراخاً ارتجت منهُ تلك الارض وهجموا على مدافع المصريين واخذوها وقتلوا جنود المدافع في مراكزهم وادارواافواه المدافع على المماليك فانهزموا خائفين مضطربين جزعين لانهم لم يكونوا يظنون ان الفرنسويين يقدرون ان يفعلوا هذه الافعال الغريبة . وهذه اشد المعارك التي حدثت في الديار المصرية فانفصل البدو عن المماليك وتمكن الفرنسويون من فتح اقليم الفيوم واقام فيهِ ديسيز بجيشهِ في مدينة المنية وحصنها ومكن جيشهُ من ان يرتاح فيها مدة ثم كتب الى الجنرال بونابرت بما فعلهُ وطلب اليهِ ان يرسل اليهِ نجدة ليطارد مراد بك في نهاية الصعيد فاجاب بونابرت طلبهُ وبعث اليهِ بثلثمائة جندي والف ومائتي فارس وستة مدافع وذهب مع العساكر بعض العلماء من اعضاء الجمعية العلمية للبحث في الاثار الكثيرة الموجودة في تلك البلاد وبعد وصول هذه النجدة بثلثة ايام سار الجنرال ديسيز قاصداً ان يقاتل مراد بك . وكان الفرنسويون يسيرون في اشد الاراضي خصباً واكثرها جنات وازهاراً ومحصولات فان الصعيد هو احسن البلاد المصرية واكثرها عمراناً . ومع انهُ كان قد انضم الى مراد



بك قوم من البدو من نواحي ينبع ومكة كان يتجنب مصادمة الفرنسويين ويسرع في التقهقر قاصداً اراضي الصعيد . وفي ٢٠ كانون الاول (دسمبر) وصل الفرنسويون الى مدينة المنية المبنية على شاطي النيل (وهي مدينة كبيرة جميلة) . وفي ٢١ منهُ اتوا مدينة ملاوي العريش وهي اجمل من المنية وبالقرب منها اثار مدينة هرموبوليس القديمة فبادر العلماء الى البحث فيها بالتدقيق فان ابنيتها كبيرة جداً وعلى الخصوص حجارتها . وفي ٢١ منهُ وصلوا مدينة اسيوط واسمها القديم ليكوبوليس اي مدينة الذئاب وعلى القبور القديمة فيها تماثيل الذئاب والثعالب وغيرها من الحيوانات وهي مدينة جميلة الجنائن وكثيرة الحمامات ثم اتوا مدينة جرجيس من بناء النصارى فانهم سموها باسم القديس جرجيس الذي يعتقدون انهُ شفيعهم وهذه المدينة بعيدة نحو مائة ساعة عن القاهرة ولم تكن بين الفرنسويين ومراد بك الا معارك صغيرة كانت تنتشب بين طليعة جيش الفرنسويين وموخرة جيش مراد بك . وقصد ديسيز ان يريح جيشهُ مدة في مدينة جرجيس ويعطيهم الملابس اللازمة وعلى الخصوص الاحذية فانهم باتوا في احتياج شديد اليها وكانت جميعها في السفن التي كانت تسير في النيل وامست متاخرة مسافة نحو عشرين ساعة لان الريح كانت تضادها . ولما عرف مراد بك بذلك عزم على الاستيلاء على السفن الفرنسوية قبل ان تبلغ مدينة جرجيس فارسل احد اعوانهِ المشهورين بالنشاط والحذق واسمهُ عثمان بك فسار في القفر لئلا يراهُ الفرنسويون ومرَّ بين اسيوط وجرجيس وقطع الطريق بينهما وهيج الاهلين وحملهم على محاربة الفرنسويين وعلى الخصوص عند ما بين لهم المكاسب التي يحصلون عليها من السفن المذكورة . وكان مراد بك يظن انهُ عند ما يسمع الجنرال ديسيز تلك الاخبار يرجع بجيشهِ للمحاماة عنها فيهاجمهُ فيمسي بين الثائرين من الاهالي وجنود عثمان بك وبين جنودهِ . اما ديسيز فلم يخف بل ثبت في جرجيس وارسل الجنرال دافوت ومعهُ الف ومائتا فارس وستة مدافع ليخمد الثورة في الاماكن الواقعة بين اسيوط وجرجيس فنجح في ذلك وشتت شمل عثمان بك وادخل الاهلين في سلك الطاعة وارجع امنية الطرق ورفع التعدي عن السفن حتى بلغت جرجيس في ١٧ كانون الثاني (جانفيه)

ولم يكف مراد بك عن القتال وصمم ان يرجع الى وراء عدوهِ ليستولي على مدينة جرجيس المذكورة بعد ان يخرج الفرنسويون منها للتحصن بها ولذلك اقام في القفر في اعلى الصعيد ولما خرج ديسيز بجيشهِ من جرجيس وذلك في ٣٠ كانون الثاني (جانفيه) عرف ان جيش مراد بك في قرية سمنود وذلك في ٢٢ منهُ وكان جراراً فانهُ انضم اليهِ كثيرون من البدو واهل المغرب وغيرهم فانتشب القتال واشتد الويل ودارت الدائرة على المصريين فتقهقروا وطاردهم فرسان الفرنسويين وقتلوا منهم كثيرين حتى ان مراد بك كاد يبيت اسيراً وتمكن الفرنسويون من الاستيلاء على

جميع الصعيد وتشتت شمل المماليك واعوانهم دون ان يتمكنوا من الاجتماع وسار مراد بك الى جهة ينبوع النيل وكان الفرنسويون يتبعونه . وفي ٢٣ كانون الثاني (جانفيه) بلغوا مدينة دندرة المشهورة بهيكل عظيم لالهة المصريين القدماء . فشرع العلماء في البحث في اثارها . وفي ٢٤ من الشهر المذكور سار الجيش على شاطىء النيل الى ان راى ما ادهشهُ من اثار عظيمة واهرام مدهشة وابنية مرتفعة وقصور كثيرة واعمدة منقوشة من الرخام منها ما كان لايزال قائمًا ومنها ما كان ساقطًا على الارض . وراى ذلك عند غياب الشمس فوقف مندهشًا ومتعجبًا فعلم قائدهُ سبب ذلك وقال لهُ

ابوليون يقطع النفر هو وفرقة ركاب الهجين



ايها الجنود انكم ترون امامكم اثار مدينة عظيمة وهي من المدن القديمة التي كانت ذات فخر وشهرة ومجد ولم يبقَ منها غير ما ترون فانها امست كلها كالقبور ولكن فيها اثارًا عظيمة مدهشة فمن المفروض على الجيش الفرنسوي ان يسلم على اثار مدينة طيبة واشار الى الطبول فضربت وسلم الجيش بحسب عادة الجنود على تلك الاثار ثم دخل بينها وصرف الليل فيها واقام العلماء الليل بطولهِ يبحثون في تلك الاثار ويرسمونها . وفي صباح ٢٥ من الشهر المذكور سار الجيش الى مكان يدعى مضيق الجبلين وفي اثناء فتح ديسيز الصعيد وطرده مراد بك وجيوشهُ منهُ واهتمام بونابرت بنشاطهِ المعلوم وهو في القاهرة في تقرير نظام البلاد المصرية وراحتها تمكنت الدولة الانكليزية من ان تجعل الباب العالي يفتح حربًا على الفرنسويين فصدرت الاوامر بتجهيز جيشين عظيمين احدهما في جزيرة رودس والاخر في سورية وكان عدد كل منهما خمسين الف مقاتل . وصممت الدولة العلية ان تسيرهما معًا في شهر حزيران (جون) سنة ١٧٩٨ لمقاتلة الجنرال بونابرت في مصر اي ان ترسل جيش رودس بحرًا الى ابي قير او دمياط وجيش سورية الى القاهرة عن طريق العريش . وفي اوائل سنة ١٧٩٩ ارسل الباب العالي اربعين مدفعًا ومائتي صندوق من الذخائر الى يافا وارسل اليها مقدارًا وافرًا من الزاد ومن الانية اللازمة لنقل الماء ليحمل بها الجيش ماء وهو يقطع القفر الواقع بين سورية ومصر وارسل مهمات اخرى الى الرملة وغزة وكان والي سورية احمد باشا الملقب بالجزار قد ارسل اربعة الاف مقاتل واستولى بهم على قلعة العريش المبنية في وسط القفر المذكور وذلك تحت قيادة عبد الله اغا وجعل مركزهُ مدينة غزة . فاقام فيها هو وثمانية الاف مقاتل ما عدا الاربعة الالاف التي كانت تحت قيادتهِ . وكان ينتظر قدوم عشرة الاف مقاتل من دمشق وثمانية الاف من القدس وعشرة الاف من حلب وعشرة الاف من العراق . ولما سمع بذلك مراد بك وقومهُ المماليك تمنعوا عن الاتفاق مع الفرنسويين والانقياد اليهم مع ان مراد بك كان قد صمم على الانقياد الى بونابرت بعد الحروب التي انتشبت بينهُ وبين الجنرال ديسيز في الصعيد . غير ان فتح الباب العالي الحرب على الفرنسويين شدد عزمهُ وحملهُ على الثبات في مقاومتهم وعلى الخصوص بعد ان وعدهُ احمد باشا الجزار بارسال جيش جرار الى مصر ليصادم بهِ الفرنسويين

وكان بونابرت في مركز صعب في مصر بعد قطع اسباب المواصلات بينهُ وبين فرنسا بتكسير بوارجهِ وتمكن الانكليز من الاستيلاء على طريق البحر فان بوارجهم كانت تذهب من مكان الى مكان في موانى السواحل السورية والمصرية وكانوا ينتظرون مهاجمات جيوش الدولة العلية بمساعدة الانكليز مع ان عددهم اي عدد الفرنسويين لم يكن اكثر من ثلثين الف مقاتل وكانوا متفرقين في جميع الاقطار المصرية للمحافظة عليها ومنع عصيان الاهالي ومع ذلك لم يضعف عزم بونابرت بل عزم ان يهاجم جنود الدولة العلية قبل ان تهاجمهُ فقصد الذهاب الى سورية في فصل

الشتاء لان جنوده كانت تستصعب قطع القفر في حر الصيف وكان يروم الحصول على مهمات الدولة العلية التي كانت في شواطىء سورية فيتمكن من غلبة عساكرها قبل ان تتمكن من ان ينضم بعضها الى البعض الاخر فانها كانت لا تزال متفرقة فتلتزم الدولة العلية ان ترسل جيشها الذي كان في رودس لنجدة جيش سورية عوضاً عن ارساله الى مصر وهكذا يقدر بونابرت ان ياتي بجنود من جنوده التي في مصر لاسعافه في سورية وكان يومل بان ذلك يمكنه من فتح سورية وضمها الى مصر وبانه يقدر ان يضم اليه شعوب سورية المختلفي المذاهب والمشارب وان يضم معهم البدو بوعدهم بتجديد السطوة العربية وبان ذلك يحمل الباب العالي على الاتفاق معه فيعقد معاهدة صلح ثم يذهب الى الهند وبواسطة مساعدة تيبو صايب وهو من روساء الهند المشهورين الذين كانوا يضادون الانكليز ومساعدة غيره من القبائل الهندية يفتح تلك البلاد ويطرد الانكليز منها . هذا ولا يلزم ان نقرر شيئاً لجهة امكان ذلك على اننا نقول ان بونابرت كان يسلك سلوكاً غايته الوصول الى النتيجة المذكورة

وبناء على ذلك اخذ في الاستعداد للذهاب الى سورية بعد ان وطد الراحة في الديار المصرية وعزم ان يركب في ثلثة عشر الف جندي وقسمهم الى اربع فرق الفرقة الاولى من المشاة جعلها تحت قيادة الجنرال كليبر ومعه الجنرال فيردير والجنرال جونوت . والثانية تحت قيادة الجنرال ديسيز ومعه الجنرال لكرنج والثالثة تحت قيادة الجنرال لان ومعه الجنرال فد والجنرال روبين والجنرال رامبو والرابعة تحت قيادة الجنرال بون ومعه الجنرال فنيال والجنرال رامبون . وجعل فرقة اخرى عددها نحو الف ومائتي فارس تحت قيادة الجنرال مورات . اما جنود المدافع فاقام قائداً عليهم الجنرال دومرتين . وعلى فرقة المهندسين الجنرال كفاريلي دوفالكا واخذ معه ٥٢ مدفعاً ومهمات كثيرة ووضع في البوارج التي كانت في مينا الاسكندرية المدافع الكبيرة والمهمات اللازمة للحصار وكان لا يقدر ان ينقلها براً مع انه كان يعلم انه سيحتاج اليها لفتح مدينة يافا وعكا فنقلها في البوارج وسلمها الى الاميرال بيريه

وفي ٢٠ شباط ( فبراير ) اجتمع جيش الفرنسويين عند قلعة العريش وشرعوا في حصرها قبل اجتماع الجيوش بنحو عشرة ايام . وانشا بونابرت فرقة من الجنود لتركب اللجن وتحارب عليها وذلك لمحاربة فرسان الغز والبدو فانه كان يخشى ان يتعدوا على جيشه وهم سائرون في القفر . واقام كليبر رئيساً للجيش الذي كان مزمعاً ان يفتح سورية ودعا اليه علماء ديوان مصر ومصطفى كتخدا الذي كان قد جعله اميراً للحج والاغا والوالي والمحتسب وقال لهم ان المماليك والغز وجدوا ماوى في سورية واحمد باشا الجزار والي ايالة عكاء تعدى على حدود مصر بتحصين قلعة العريش وهو قاصد مهاجمة البلاد المصرية فيجعل الاهالي في ارتباك فعزمت على محاربته



وما جعلته عبرة للناظر بقطع اثارهم من تلك الديار . واقمت الجنرال دوكا نائباً عني فكونوا مطيعين لاوامره فاطلب اليكم ايها العلماء ان تحرضوا الاهالي على الانقياد اليه وامرته ان يطلق المدافع ويهدم المدينة اذا تظاهر اهلها بالعدوان ثم امر العلماء ان يكتبوا اعلانات ويبعثوا بها الى جميع اقطار مصر وما ياتي هو ترجمة الاعلان الذي كتبوه

من محفل ديوان مصر الخصوصي الى جميع الاقاليم المصرية

نخبركم انه نهار امس الواقع في اليوم الخامس من شهر رمضان توجه حضرة الدستور المكرم السر عسكر الكبير بونابرت امير الجيوش الفرنسوية وسيغيب نحو ثلثين يوماً لمحارب ابراهيم بك الكبير وغيره من المماليك المصريين لتعم الراحة التامة البلاد المصرية بواسطة كبح هولاء الاعداء الظالمين الذين لا راحة لاحد في دولتهم . وقد وصلت مقدمة الجيش الفرنسوي الى العريش وبعد برهة قصيرة ترد اخبار غلبة ابراهيم بك ومن معه من المماليك كما وردت اخبار غلبة اخيه مراد بك ومن معه في اقليم الصعيد فينقطع القال والقيل والاخبار الكاذبة التي ينشرها اوباش القوم . ونخبركم ايضاً ان نية حضرة السر عسكر المشار اليه الخيرية تجدد كل يوم فانه مصمم على اجراء الشفقة والرافة وهكذا يكمل السرور في كل الاقطار المصرية ونقام الافراح بواسطة المتسلط عليها بونابرت بمشية الله الذي مكنه فيها ونصره على من ظلم فيها من المفسدين المماليك فلا يتم خلاصهم فتنجو البلاد من دولتهم الردية ثم يبذل الهم بتكميل تنظيمها واتقان زراعتها وتجارتها فتكثر فيها بحسن تدبيره التحف والحرف والصنائع فيتجدد فيها ما اندثر من اعمال الحكماء الاولين ويرتاح في دولته الفقراء والمساكين فعليكم يا اهل الارياف والفلاحين بحسن المعاملة والادب وتجنبوا في غيابه كل الكذب والقبائح فيرى بعد رجوعه في نهاية الشهر انكم قد احسنتم المعاملة وسلكتم مسلك الاستقامة فيسر بكم ويرضى عليكم وينظر اليكم بعين الشفقة وان اتيتم بغيابه بخلل يحل بكم الويل فلا ينفعكم الندم . واعلموا ان انقراض دولة المماليك بقضاء الله ونصرة سلطانكم امير الجيوش هي قدر الله والعاقل يخضع الى احكامه ويرضى بمن ولاه والله يوتي ملكه من يشا والسلام عليكم ورحمة الله

| | |
|---|---|
| الداعي لكم الفقير عبد الله الشرقاوي | الداعي لكم الفقير السيد محمد المهدي |
| رئيس الديوان الخصوصي | الحنفاوي كاتم سر واول كاتب الديوان |
| عفا الله عنه | عفا الله عنه |

اما الجيوش التي سارت في طريق دمياط تحت قيادة الجنرال كليبر فضلت عن الطريق وتاهت في قفر السويس ثلثة ايام دون زاد فالتزمت ان تاكل لحم الخيل والجمال وبعد ذلك بلغت العريش وكان بعض جنود احمد باشا الجزار اتية الى قلعة العريش بزاد ومهمات . فلما ارت الفرنسويين قادمين انهزمت وتركت الزاد والمهمات فاخذها الفرنسويون وفرحوا بها فرحاً

عظيماً . وبعد ذلك بثلثة ايام اتى بونابرت ذلك المكان مع فرقة من الجيش وحصر القلعة وكان فيها ثمانمائة مقاتل ومعهم احمد كاشف الكبير تابع عثمان بك الاشقر وابراهيم بك كاشف الحبشي وجميعهم من المماليك . وفي غد ذلك اليوم طلب اليهم بونابرت ان يسلموا فمنعوا فامر باطلاق المدافع على القلعة فدام الحصار ثمانية ايام ففرغ زادهم ومهماتهم فطلبوا الى بونابرت الامان فامنهم واشترط عليهم ان يخرجوا من القلعة بلا سلاحهم فلم يجيبوا . وبعد ذلك بيومين انتهم نجدة مع قاسم بك الملقب بالمسكوني . وكان يحاول دخول القلعة في الليل . غير ان بونابرت كمن له في الطريق وكبسه ليلاً وقتله هو وكثيرين من جنوده ومن المماليك وغنم ما معه من الزاد والمهمات . ولما بلغ ذلك الذين كانوا محصورين في القلعة باتوا في خوف وحيرة وطلبوا الى بونابرت ان يسمح لهم بالخروج من القلعة بسلاحهم فسمح لهم بذلك وخرجوا الى امامه فاطلق سبيلهم بعد ان عاهدوه بانهم لا يقاتلونه الا بعد مضي سنة فذهب كل منهم الى بلاده . اما احمد كاشف وابراهيم كاشف وقومهما فطلبوا اليه ان يسمح لهم بالرجوع الى منازلهم في مصر فاذن لهم بذلك وادخلهم مع بعض الجنود لوقايتهم فدخلوا بهم الى القاهرة فاجتمعوا بوالي المدينة الجنرال دوكا وحضر الناس اليهم وراوهم على ما كانوا عليه من الذل فان ثيابهم كانت رثة . وبعد ذلك بثلثة ايام مات احمد كاشف حزناً وبعد ان فتح بونابرت قلعة العريش اقام فيها فرقة الجنرال رينيه للمحافظة وسار في ٢٣ شباط (فبراير) قاصداً مدينة غزة وكتب الى نائبه في مصر بنصرته وبان يجعل الديوان في مصر يعلن ذلك الخبر في الاقاليم المصرية وما ياتي هو صورة ذلك الاعلان

من علماء الديوان الى الديار المصرية

لا اله الا الله المالك الحق المبين ومحمد رسول الله الصادق الوعد واليقين . نعرف اهل مصر وسائر الاقاليم انه معلومكم توجه الفرنسوية الى بر الشام وقد حاصروا قلعة العريش في عشرة من رمضان الى ١٧ منه ووقعت مقاتلة عظيمة خارج القلعة وكان فيها نحو الف وخمسمائة نفر غير من قتل خارجها ولما طال عليهم الحصار وتهدمت اسوار القلعة من ضرب المدافع وتيقنوا بالهلاك طلبوا الامان فامنهم حضرة السرعسكر وسافر منهم نحو ثمانماية عن طريق القفر الى بغداد وانعم عليهم بالحياة كما يفعل اصحاب المروة وبعض الكشاف والمماليك طلبوا اليوان يسمح لهم بالرجوع الى عيالهم ومنازلهم في مصر فسمح لهم وحضروا الى وكيله في مصر وهم مقيمون في منازلهم وامر وكيله باكرامهم ان حافظوا على عهودهم والا فينزل بهم شر العقاب . وامر الجنرال دوكا ان يامر بذهاب القوافل التجارية الى بر الشام تسهيلاً للاشغال التجارية ولاصحاب الحرف وارسل يخبرنا ويخبر وكيله بما وجده في قلعة العريش من الغنايم والذخائر والزاد وثلثمائة من الخيل الجياد والجمال والحمير الكثيرة فيا اخواننا لا تعارضوا الملك المتعال واتركوا انفسكم من القيل والقال واشتغلوا في اصلاح دينكم



والسعي في معاش دنياكم وارجعوا الى الله الذي خلقكم والسلام عليكم ختام (الامضاوات)

| | |
|---|---|
| الفقير عبد الله الشرقاوي | الفقير محمد المهدي |
| رئيس الديوان حالاً | كاتم سر الديوان حالاً |
| عفي عنه | عفي عنه |

الفقير السيد خليل البكري

نقيب السادة الاشراف عفي عنه

وفي ٢٢ شباط (فبريه) انتقل الفرنسويون من العريش الى خان يونس وفي ٢٤ منه سارت مقدمة الجيش الى غزة . وكان عسكر عبد الله باشا قائد جيوش الدولة العلية الذي كان مزمعاً ان يهاجم بونابرت في مصر نازلاً في مكان يبعد نحو ساعة عن الخان المذكور وانضم الى هذه العساكر جنود ابراهيم بك التي كانت في خان يونس وانهزمت عند وصول الفرنسويين اليه . اما بونابرت فامر كليبر بان يبتدي في مهاجمة ذلك الجيش دون تاخر على ان عبد الله باشا لم يمكنهم من ذلك فانه نهض باكراً ورجع بجيشه الى مدينة غزة تاركاً وراءه اكثر زاده ومهماته فغنمها الفرنسويون وباتوا تلك الليلة في المعسكر الذي كان فيه عبد الله باشا

وقوع بونابرت في خطر الغرق في البحر الاحمر

وفي ٢٥ من الشهر المذكور نهض الجيش الفرنسوي مسرورا بما صادفهُ من طيب الهواء بعدان احتمل حمارة الحر في القفر بين سورية ومصر . وبعد برهة قصيرة بلغوا ظاهر مدينة غزة وكان عبدالله باشا نازلاً في ظاهرها فظن الفرنسويون انهُ مصمم على دفعهم ومنعهم عن الدنو من المدينة فشرع الجنرال كليبر في التاهب لمحاربتهِ وكذلك الجنرال مورات قائد الفرسان فانهزمت جيوشهُ الجرارة ثم اتى شيوخ المدينة واعيانها وسلموا بونابرت مفاتيح بلدتهم وطلبوا اليهِ الامان فاجاب ووعدهم بمنع جنودهِ عن ضررهم ودخل المدينة وبات فيها تلك الليلة ووجد فيها مخازن كثيرة فيها زاد وشعير واربعمائة قنطار من البارود و١٢ مدفعا ومخزنا كبيرًا فيهِ خيام وكرات فغنمها . ثم خرجوا من غزة وساروا قاصدين يافا وفي اول اذار (مارس) وصلوا اشدود وفي ٢ منهُ وصلوا الرملة وهي تبعد عن القدس نحو سبع ساعات واتوا مدينة يافا في ٧ من الشهر المذكور وحصروها . وقبل الابتداء في اطلاق المدافع عليها بعث بونابرت برسول الى حاكمها وقائد جيوشها السيد ابي صعب ليطلب اليهِ ان يسلم وان يومنهُ على مال سكانها ونسائهم . فاجاب الوالي بما هو غير جارٍ في البلاد المتمدنة فانهُ قطع راس الرسول وامر بوضع راسهِ على طرف حربة واقامها في برج من ابراج المدينة المرتفعة ليتمكن الفرنسويون من ان ينظروهُ ولما راوهُ تهيجوا جدًا واخذوا في اطلاق المدافع عليها وبعد مضي بضع ساعات فتحوا نوافذ في الاسوار ورفعوا السلالم وصعدوا عليها فدافعت الجنود المحصورة عن الاسوار مدافعة شديدة جدًا غير ان ثباتهم كان يزيد غضب الفرنسويين فدخلوا المدينة ودام القتال بينهم وبين جنود المحافظة مدة طويلة ولم يرتضوا بالتسليم وعند ذلك اشتد القتال وكثرت القتلى بنوع تقشعر منهُ الابدان فان فتح يافا كان بعد سفك دماء كثيرة ودام القتال يومين وهما اليوم السابع والثامن من شهر اذار (مارس) سنة ١٧٩٩ وكتب بونابرت في التقرير الذي بعث بهِ الى الحكومة في باريس بهذا الشان ما ترجمة بعضهُ . انهُ لم يظهر لي شر الحروب كما ظهر في فتح يافا . وغنم في يافا ستين مدفعا وثلثة قناطير من الارز وخمسمائة قطعة من الخبز اليابس المعروف بالبتسماط و١٥ سفينة تجارية فيها حنطة من عكا وفي بعضها مهمات حربية واسر نحو ثلثة الاف جندي فامر باطلاق سبيلهم بعد ان عاهدوهُ بانهم لا يحاربونهُ مدة سنة تامة . اما الذين عاهدوهُ في العريش بان لا يحاربوهُ وهم ثمانمائة رجل فوجدهم يقاتلونهُ في يافا ولذلك امر بقتلهم بالرصاص

وبعد ان فتح يافا كتب الى الجنرال دوكا وكيلهِ في مصر يخبرهُ بانتصارهِ وطلب اليهِ ان ينشر خبر ذلك الانتصار بكتابات من الديوان بحسب العادة وما ياتي هو ترجمة تلك الكتابة

بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل في ملكهِ ما يشاء سبحان الحاكم العادل الفاعل المختار صاحب القدرة والقوة . هذا خبر تمليك الله سبحانهُ وتعالى جمهور الفرنسوية لثغر يافا من



الديار الشامية . اننا نعرف سكان مصر واقاليمها من جميع الطوائف والاجناس ان العساكر الفرنسوية انتقلت من غزة في اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان ووصلت الى الرملة في اليوم الخامس والعشرين منهُ براحة وسلام . وعند ذلك راوا عسكر احمد باشا الجزار هاربًا بسرعة فغنمت من مدينة الرملة واللد غنائم كثيرة من الخبز اليابس والشعير والف وخمسمائة اناء لنقل الماء . وكان احمد باشا المذكور عازمًا ان ياتي باشرار البدو الى ديارنا المصرية ليسفك الدماء ولكن الله منعهُ عن نوال مرامهِ فان ظلمهُ وكبرياءهُ مشهوران فهو من الذين تربوا عند المماليك الظالمين ولم يعلم من ضعف عقلهِ وسوء تدبيرهِ ان الامر لله وكل شيء بقضائهِ وتدبيرهِ . وفي ٢٦ رمضان وصلت طليعة الجيش الفرنسوي الى يافا واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وطلبوا الى حاكمها وكيل الجزار ان يسلمهم المدينة قبل ان يحل الهلاك بهِ وبجنودهِ على انهُ ضعيف العقل قليل التدبير فلم يجب ولكنهُ قتل الرسول الذي حمل اليهِ ذلك الطلب خلافًا للاصول الحربية فاغتاظ الجنرال بونابرت وفي اخر النهار المذكور وصل كل الجيش الفرنسوي الى امام يافا وانقسم الى ثلث فرق فسارت الاولى الى مكان يبعد ٤ ساعات عن يافا الى جهة عكا وفي ٢٧ منهُ امر حضرة رئيس العساكر الجنرال بونابرت ان يصير حفر الخنادق حول المدينة لاقامة الحواجز وغيرها من وسائط الحصر قيامًا موافقًا لفن الحرب لان المدافع الكبيرة كانت كثيرة في يافا وعساكر الجزار فيها غزيرة . وفي ٢٩ منهُ دنت الخنادق من السور ولم يبقَ بينها وبينهُ غير ٥٠ خطوة فامر رئيس العساكر بان تقام المدافع على المتاريس ويصير تحكيم وضع مدفع الهاون وان يقام مدفع للمحافظة على الذين يشتغلون في خرق السور من جنودهِ وامر باقامة مدفع اخر عند البحر ليمنع الذين يخرجون ليهاجموهم من المراكب في المينا فان الجزار كان قد اعد مراكب ليهرب فيها عسكرهُ اذا مست الحاجة . ولما راى عسكر الجزار ان الفرنسويين قليلون لان بعضهم كان مستترًا بالخنادق ووراء الحواجز انتظروا الفوز وفتحوا طريقًا في القلعة وساروا مسرعين ظانين انهم يتمكنون من غلبة الفرنسويين . فهجم الفرنسويون عليهم وقتلوا كثيرين منهم والزموهم ان يدخلوا القلعة . وفي يوم الخميس وهو غاية رمضان اشفق رئيس العساكر على الناس فانهُ كان يخاف عليهم من فتك عسكرهِ اذا فتحوا المدينة عنوةً فامر احد الجنرالية وهو الجنرال اسكندر رئيس اركان حرب حضرتهِ ان يكتب اليهم بالتسليم وان يخبرهم بان جيوشهُ قد احاطت بمدينتهم ولذلك يخاف عليهم من سوء العواقب اذا دخلوها عنوةً وانهُ يصبر ساعة من الزمان لوصول جوابهم فاجاب اولئك الحمقى بقتل الرسول وذلك خلافًا للشريعة المطهرة فاشتد غضب رئيس العساكر وامر باطلاق المدافع على المدينة وبعد ذلك بساعة تعطلت مدافع يافا المقابلة لمدافع الفرنسويين وغُلب عسكر الجزار وعند الظهر فتحوا نافذة في السور فامر الجنود بالدخول الى المدينة وفي اقل من ساعة دخلوها واستولوا عليها وعلى

القلعة وقتلوا كثيرين من المحاربين وسلبوا الاهالي . وفي الغد وهو غرة شوال عفا رئيس العساكر عن القوم فانهُ اشفق على اهل مصر الموجودين هناك وامنهم وامرهم بان يرجعوا الى اوطانهم مكرمين وامر اهل دمشق بان يرجعوا الى اوطانهم واظهر لهم كل شفقة وذلك عندما بين لهم قدرتهُ وامر بقتل بعض جنود الجزار لانهم خانوهُ ولم يقتل غير قليلين من جيشهِ وجرح بعضهم وما ذلك الا من حسن ادارة الرئيس المشار اليهِ . وغنم الفرنسويون مهمات كثيرة واموالاً لا تحصى واستولوا على المراكب التي كانت في الميناء . فاستقيموا ياعباد الله وارضوا بقضاء الله ولا تعارضوا احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يوتيهِ من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله

| | |
|---|---|
| الفقير محمد المهدي | الفقير السيد خليل البكري |
| كاتم اسرار الديوان بمصر | نقيب الاشراف في مصر |
| حالاً عفي عنهُ | حالاً عفي عنهُ |

الفقير عبدالله الشرقاوي
رئيس الديوان بمصر حالاً
عفي عنهُ

ومن المعلوم ان دخول الجنود الفرنسوية الى مدينة كان اهلها قد رفضوا التسليم وقتلوا الرسول لم يكن بلا نتائج فان الغيظ تمكن منهم وحملهم على دخول المدينة من النافذة التي فتحوها وهم مهيجون اشد الهيجان فان شدة الحر وعناد المحاصرين اضر بالفرنسويين وحملهم اثقالاً شديدة . فلما دخلوا المدينة حدث فيها ما تقشعر الابدان من ذكرهِ فان القتال الذي جرى في اسواق يافا كان قتالاً لا يسوغ ان نسميهُ بشرياً فان الشياطين لا نقدر ان نقوم بشر اعظم منهُ . من اعظم شرور العالم وويلاتهِ دخول جيش مهيج الى مدينة بعد ان يكون قد اهاجهُ الغضب فان ادنى ابناء البشر واشدهم شراً ينتظمون في سلك العسكرية ومن يقدر ان يتصور هجوم عشرة الاف انسان كل منهم شر من شيطان الى مساكن فيها نساء واولاد ومرضى وعاجزون . ولما راى بونابرت الشرور التي كانت تحدث والويلات التي كانت تجري اقشعر بدنهُ وتكدر وارسل اثنين من اعوان حربهِ ليخمدا هيجان الجيوش فيمنعون عن الفتك والقتل فسارا قاصدين اخماد الشر الى ان وصلا الى منزل كبير فوجدا فيهِ جنوداً من عسكر الجزار ملتجئين من شر الفرنسويين الذين كانوا قد احاطوا بذلك المنزل واخذوا يقتلونهم باطلاق الرصاص ويطلقون المدافع على الابواب ويضرمون النار تحتهُ يحرقوا كل الذين فيهِ . وكان اولئك الجنود يدافعون عن انفسهم دفاع الذين باتوا في ياس فانهم هم الجنود الذين قد ذكرنا انهم سلموا في العريش واطلق بونابرت سبيلهم بعد ان تعهدوا بالانقطاع عن محاربتهِ وكانوا قد طلبوا ان يسلموا مرة اخرى اذا وعدهم الفرنسويون بالامان . اما المعاونان



المذكوران فلم يقدرا ان يخلصاهم من ايدي الجنود المهيجين الا بعد مشقات كثيرة ثم قاداهم الى المعسكر الفرنسوي وكان عددهم نحو الفين . ولما قربا بهم من المعسكر كان بونابرت يمشي امام باب خيمتهِ . وفي اقل من لحظة راى انهما جملاهُ في اسوء حال فلاحت لوائح الكدر على وجههِ وقال بكدر لا مزيد عليهِ ماذا تريدان ان افعل بهولاء الرجال الا تعرفان انهُ ليس عندي من الزاد ما يقوم بمعاشهم ولا مراكب لنقلهم الى مصر او الى فرنسا . لماذا فعلتم ذلك . اما المعاونان فاعتذرا قائلين انهُ ارسلهما ليمنعا الجنود عن القتل والفتك . فاجاب بحزن انني ارسلتكما لذلك على ان المقصود انما هو منع قتل النساء والاولاد والعاجزين وجميع الذين لا يقاتلون الا الجنود المسلحة التي تحارب فكان اولى بكما ان تموتا قبل ان تاتياني بهولاء الرجال المنكودي الحظ فماذا تريدان ان افعل بهم

وعند ذلك جمع بونابرت مجلس حرب لينظر ماذا ينبغي ان يفعل باولئك الاسرى فاجتمع ذلك المجلس واطال البحث والمفاوضة في الامر على انهُ انفض بدون ان يصدر حكماً . واجتمع في اليوم الثاني ودعي جميع قواد الفرق اليهِ واقاموا مفاوضة دامت ساعات كثيرة اشتد فيها اهتمام المجتمعين فانهم كانوا يحبون من كل قلوبهم ان يجدوا واسطة لتخليص اولئك المنكودي الحظ من القتل فان تذمرات الجيش الفرنسوي كانت قد اشتدت وجعلت بونابرت يخاف سوء العواقب وكان موضوع تذمراتهم التشكي من اعطاء زادهم القليل للاسرى المذكورين ومن اطلاق سبيل رجال يكنوا عهودهم واقاموا قتالاً هلك بواسطتهِ كثيرون من رفاقهم . واشتد تذمرهم حتى ان الجنرال بون قال ان كدر الجيش شديد عام ولذلك يخاف من عصيان في مصر ما لم يجر شيء لمنع ذلك . ومع ان المجلس الحربي راى ان الجيش بات في خطر من القلاقل انفض دون ان يصدر حكماً لجهة الاسرى . وكان بونابرت ينظر الى البحر فانهُ كان يحب ان يرى مركباً فرنسوياً اتياً ليذهب باولئك الرجال الى فرنسا ولكن لسوء حظهم لم يرَ شيئاً . وكان كلما يطول زمان تاخير صدور الحكم تشتد تذمرات الجيش حتى ظهر انهُ لا بد من تقرير الامر دفعاً لسوء العواقب . وكان الفرنسويون يعلمون ان اطلاق سبيل اولئك الاسرى يحملهم على الرجوع الى جيش احمد باشا الجزار ولو تعهدوا بالامتناع عن محاربتهم لانهم لم يكونوا يقومون بتعهداتهم وان رجوعهم اليهِ يقوي الجزار ويضر بالفرنسويين . اما احمد باشا فلم يكن يعفو عن الاسرى الفرنسويين فان جنودهُ كانوا يقتلون كل الذين كانوا ياسرونهم بعد ان يعذبوهم عذابات كثيرة وبناء على ذلك وعلى ما تقدم حكم ذلك المجلس بقتل الاسرى . اما بونابرت فامضى الحكم بعد ان تردد كثيراً . وهكذا قيدوا وهم صامتون صمت الذين يقعون في الياس وقادوهم باغلال قوية الى التلال الرملية الواقعة عند البحر وقسموهم افواجاً صغيرة واطلق عليهم الرصاص دفعات متوالية وبعد ذلك ببرهة قصيرة امسوا جثثاً بالية

ولعل كثيرين من الكتاب وغيرهم يقولون ان ذلك من شر اعمال بونابرت وانهُ جلب عليهِ عاراً لم تجلبهُ عليهِ اعماله الاخرى ولذلك من الانصاف ان نقرر هنا ما قالهُ بونابرت مدافعاً عن نفسهِ بهذا الشان عندما كان في جزيرة سانتا هيلانه وهو انني امرت باطلاق الرصاص على الف او الف ومائتي جندي فانني وجدت بين الجنود الذين قاتلوا في يافا جنوداً من جيش احمد باشا الجزار وهم الذين كنت قد اسرتهم قبل ذلك بمدة قصيرة في العريش واطلقت سبيلهم ليذهبوا الى بغداد بعد تعهدهم بانهم لا يحاربونني الا بعد مرور سنة من زمان اسرهم وارسلت معهم فرقة من عسكري لتحرسهم فذهبت بهم مسافة ٢٦ ميلاً الى جهة بغداد ولكنهم لم يذهبوا البهابل اتوا يافا ودافعوا عنها الى النهاية وقتلوا كثيرين من جنودي الابطال . وكنت قد بعثت اليهم براية سلام قبل ان حاصرت المدينة وبعد وصول الرسول ببرهة قصيرة رايت راسهُ مرفوعاً على عمود فوق السور فلو عفوت عنهم وركنت الى تعهداتهم لذهبوا الى عكا وفعلوا فيها ما فعلوهُ في يافا . ولما كان من فرضي ان احافظ على فرساني كما احافظ على نفسي لان قائد الجيوش هو بمنزلة الاب لجنودهِ وهم بمنزلة الاولاد لهُ لم اقدر ان اسمح بحدوث ذلك وعلى الخصوص لانهم كانوا قد قتلوا كثيرين من عسكري ولم اكن قادراً ان ابقي بعضهُ للقيام بالمحافظة عليهم

ولو فعلت غير ذلك اي لو عفوت عنهم لعرضت عسكري لخطر ربما كان يأتيهِ الهلاك التام وبناء على ذلك سلكت مسلكاً موافقاً لقوانين الحرب التي تسوغ قتل الاسرى الذين يكونون في مثل تلك الظروف . هذا مع قطع النظر عن الحقوق المسوغة لذلك من فتح المدينة عنوة والقيام بالنار فان عسكر الجزار كانوا يقتلون اسرانا . وقد عفوت عن بقية الاسرى ولم يكونوا قليلين ومن المعلوم انني ساعيد هذا العمل في الغد اذا بت في الظروف نفسها وكذلك يفعل الجنرال ولنكتون الانكليزي وغيرهُ من القواد الذين يسون في ما امسيت فيهِ . انتهى

فمهما قال العالم عن عمل بونابرت فلا سبيل الى اتهامهِ بحب سفك الدم فانهُ راى ان ضرورة الحرب التي لا مفر منها الزمتهُ ان يفعل ما فعل والحروب شر مصدرهُ القساوة والجهل فان الجنود تدفع الكرات المحشوة على المدن المحصورة فتنفجر في اخدار الفتيات اللطيفات وفي اسرة الاطفال والحروب في تلك الظروف لا تلاحظ حالة اولئك المنكودي الحظ الذين لا يأتون بجرم ولا يفعلون شراً . واذا قلنا انهُ كان من الواجب على بونابرت ان يطلق سبيل اولئك الاسرى تكون قد قلنا انهُ كان من الواجب عليها ان يجعل جيشهُ في خطر الهلاك وان يرجع البلاد التي احتلها الى حكامها ويمكن انكلترا والنمسا وروسيا من ان يلزموا فرنسا بقبول الدولة البوربونية التي كانت مبغضة عندها بغضاً شديداً . فان انكلترا كانت تحاصر المدن الفرنسوية وتطلق الكرات عليها لتلزم امة عظيمة ان تخضع على غير رضاها لملك مخلوع لا يناسبها ولذلك التزم الفرنسويون ان يدافعوا عن انفسهم



ولم يكونوا قادرين على مهاجمة انكلترا لانها جزيرة وهي في البحر اقوى من فرنسا فساروا قاصدين مهاجمتها في الهند ليحموا انفسهم من عدوانها ومن المعلوم ان الذنب في ذلك هو ذنب المتعدي لا ذنب الامة التي كانت تحامي عن نفسها لمنع مداخلات اجنبية مضرة . ومما يبرهن صحة ما اوردناهُ وعدالة جمهور غفير من الامة الانكليزية وان كثيرين من اعضاء المجلس العالي الانكليزي ومن الامة نفسها كانوا يحبون الاصلاح والحرية ويشتركون في الحاسيات مع الامة الفرنسوية ويفهمون الحجة على الحرب التي اثارتها انكلترا على فرنسا ويقولون انها ظلم وسوء سياسة . على ان الملك والامراء طلبوهم ولما راوا ان الفرنسويين لم يخضعوا لهم دون استعمال القوة طرحوا العالم في بحر من الدم . وقال اليسون المورخ الانكليزي المشهور بخصوص الاسرى الذين امر بونابرت بقتلهم كان من اسهل الامور اخذ اسلحتهم واطلاق سبيلهم وهذا الكلام لا يليق بمورخ عظيم كالمورخ المذكور لانهُ مدرك عارف وعالم ان كلامهُ لا يوافق الحقيقة . والمفهوم منهُ انهُ من فروض فرنسا الانقياد الى انكلترا في ذلك . وياحبذا لو قال ذلك المورخ ان من اسهل الامور على انكلترا ترك فرنسا تنتخب لنفسها الحكومة التي تناسبها . وقد حكمت الامة الانكليزية بعدم سواغية اجراآت اسلافها بالمحافظة على التنحي التام ومجانبة كل مداخلة في ما يتعلق بانتخاب فرنسا حكومتها بعد الحرب الاخيرة التي انتشبت بينها وبين المانيا . والذي كان يحمل انكلترا على مضادة فرنسا تلك المضادة الشريرة هو خوف ملكها وامرائها من امتداد ثورة الامة الفرنسوية الى بلادهم امتداداً يبطل كل الامتيازات ويقرر المساواة التامة

واما بورين وهو الكاتب الذي عزلهُ بونابرت فصار عدوهُ مع انهُ مخلصهُ وعند ما تبوأ لويس الثامن عشر تخت فرنسا بعد بونابرت واقامهُ واستوزرهُ كان من الملقين المقربين اليهِ ولذلك كتب في تاريخ بونابرت مناظر الملوك العظيم ما لا يوافقهُ . قال في ختام كلامهِ عن قتل الاسرى ما ياتي

اني قررت الصدق دون ان اترك شيئاً منهُ فانني حضرت كل المباحثات والمفاوضات بهذا الشان ولكن لم اكن ذا راي فيها ومن الواجب عليَّ ان اقول انهُ لو كان لي حق اعطاء الراي لحكمت على الاسرى المذكورين بالقتل فان نتيجة المفاوضات وحالة الجيش هي التي كانت تقودني الى ذلك . فالحرب تاتي بامور نادرة كتلك الامور وقد حكم العالم كلهُ بان الصوالح الخصوصية ستبيت فيها بلا اعتبار لان التفضيل انما يكون للصوالح العمومية . وياحبذا لو انحصرت شرور الحروب في ذلك ومنها قطع النظر عن حقوق الانسانية عند الوقوع في احوال كتلك الاحوال . والقرون الاتية ستحكم بامر خطير وهو هل بات بونابرت في احوال كتلك الاحوال . اما انا فاعتقد كل الاعتقاد انهُ امسى في مثلها وعلى الخصوص بعد ان اجمع اعضاء المجلس الحربي الذي اقامهُ على ذلك

فامر بقتل الاسرى بناء على حكمهم . واقول ان بونابرت لم يرض بذلك الا على رغم انفه وربما كان من الذين شاهدوا قتل اولئك القوم بحزن لامزيد عليه . انتهى

وكذلك السار ولتر سكت الذي لسوء الحظ لم يقدر ان يمنع نفسهُ عن الميل الى الجهة التي لم يكن لاثقا به ان يميل اليها لكونهِ من المورخين فلم يقدر على ستر الحقيقة وقال عن قتل اولئك الاسرى ان ذلك الفعل الدموي يجلب عارًا شديدًا على اسم بونابرت الى الابد ثم قال ولكن لا ننظر الى ذلك كما ننظر الى عمل ناشئ عن محبة الشر والقساوة وليس في اعمال بونابرت ما يدل على انهُ كان يحب الشر واشياء كثيرة تدل على انهُ كان راوفًا شفوقًا انتهى

وبعد استيلاء الفرنسويين على يافا فشا بينهم الطاعون لان الحر كان شديدًا وكانوا قد احتملوا مشقات كثيرة لما قطعوا القفر بين مصر وسورية لان الجنود لم يراعوا حقوق النظافة وهم في بلاد حرها اشد من حر بلادهم . وكان الطاعون في تلك السنة في سورية فشا فاصيب بهِ في سبع ساعات نحو ثمانمائة جندي فرنسوي . وكان الفرنسويون يجهلون رداءة ذلك الوباء المهلك فلم يبالوا بهِ فاخذوا في الاعتناء بالمصابين بهِ ومعاونتهم ولكن لما عرفوا انهُ الطاعون خافوا فاخذ الاصحاء يتجنبون المرضى ويهملونهم . ولما اشتد المرض وتعاظم الامر الخطب جدًا انقطع امل الاصحاء من النجاة لتحققهم انهم يصابون كما اصيب رفاقهم فاشتد خوف اولئك الابطال الذين لا يبالون بالموت في حومة القتال . ولو كان عدد مقاتليهم اربعة اضعاف عددهم وسرى ذلك الخوف الى نفس الاطباء لما راوا شدة امتداده بالعدوى فتركوا المرضى واهملوا فروضهم فكانت الجنود تموت دون الحصول على المساعدة الطبية اللازمة . وعند ما راى بونابرت ذلك تكدر وبادر الى منع حدوثهِ فدخل المستشفيات التي كان فيها المصابون بالطاعون هو والجنرال برتيه والجنرال بيسير والطبيب ايجينيت والجراح لاري واخذ يزورهم ويجلس بجانب المطعونين ويمسك ايديهم الحارة بالحمى بيديهِ ومكان الطعنة بانامله ويسالهم عن حالهم ويشجعهم بكلمات تقوي املهم وتنفي الخوف وكان الجنود المطروحون على فراش المرض عند قرب حلول اجلهم ينظرون الى قائدهم البطل الحنون باعين تتلالا فيها ادمع الشكر والثناء ويقولون بارك الله عليك . فاتى ذلك بالنتائج المطلوبة فتشجعت الجنود وحملت الاصحاء على الاعتناء بالمطعونين . ولما كان واقفًا بالقرب من مطعون قد اشتد عليهِ المرض حتى عدمت منهُ الحركة قال لهُ ذلك المطعون لقد اصبت باقلت عن المرض فان ابطال جيشك لم يخلقوا ليموتوا في المستشفيات اي انهم خلقوا ليموتوا في ميادين الحرب . اما الاطباء فلما راوا ما فعلهُ بونابرت خجلوا ورجعوا الى



اعمالهم وكذلك الجنود وكان ذلك من اسباب منع امتداد المرض وزيادة الاعتناء بالمرضى . وفي اثناء ذلك دنا طبيب من بونابرت ولامهُ لانهُ عرض نفسهُ لخطر الموت بذلك الوباء بلمس المطعونين في نفس موضع الطعنة فاجابهُ بونابرت بقولهِ ان ذلك من فروضي فاني قائد هذا الجيش

وكان بونابرت مصممًا ان يفتح عكا لانها هي القلعة الوحيدة الحصينة التي تقدر ان تمنع تقدمهُ فاذا فتحها يصبح مالكًا كل سورية . وفي الايام الماضية كان الحكام يظلمون الرعايا ظلمًا لا تسلم بهِ حقوق الانسانية وعلى الخصوص لانهُ ناشئ عن مراعاة خيرهم الذاتي او طمعهم او حبهم للانتقام من الذين يميلون الى مناظريهم فكانت الحرب دائمة الشبوب بين الحكام والامراء واصحاب القطائع وليس المقصود انهم كانوا يتقاتلون بالاسلحة ولكن كل امير كان يحاول ايقاع الضرر بمن يناظرهُ وبجميع اعوانهِ ولو كانوا تابعين لهُ بمجرد الميل ولذلك كان يهجر كثيرون من الاهالي اوطانهم خوفًا من الذين كانوا يفوزون من الحكام وعلى الخصوص من اهالي جبل لبنان النصارى والدروز ولما كان كلٌّ من اولئك المظلومين يحب تغيير الحكام لينال الراحة برفع جورهم عنهُ سرَّ كثيرون من الدروز والنصارى المظلومين بقدوم الفرنسويين املاً بالخلاص من الظلم فتمكن بونابرت من الاتحاد معهم ومحالفتهم والحصول على معونتهم . وهذا من الامور التي لا تنجح بها الدول التي تغفل عنها فان ظلم الرعايا او ظلم بعضهم هو اقامة اعداء للدولة في نفس بلادها . ففي زمان الحروب يتسنى لهم ان يضروا بها اذا كانوا الفًا اكثر مما يقدر ان يضرها عشرة الاف من الاعداء ففي احوال كهذه على الحاكم ان يكون يقظًا لكن باشا الجزار والامراء في تلك الايام لم يكونوا متيقظين لان السياسة عندهم كانت على غير نظام . وكثيرًا ما كان بونابرت يجتمع بالقوم في خيمتهِ ويسمعهم يطلبون الى الله ان يفرجهُ ليخلصوا من ظلم حكامهم . اما الجزار فكان قد هيج البلاد ضد الفرنسويين وجمع من المهمات والجنود ما يكل القلم عن وصفهِ من الشام ومن بقايا المماليك الابطال وفرسان البدو وغيرهم وكانوا جميعًا مستعدين ان يهجموا على عسكر بونابرت هجمة الهلاك

وفي ١٤ اذار (مارس) سنة ١٧٩٩ سار بونابرت في عسكرهِ من يافا قاصدًا عكا وذلك في طريق سهلة وتقدمهُ فيها الجنرال كليبر . وفي ١٥ منهُ سار في طريق الجبال فانهُ سمع باجتماع عساكر الجزار في ناحية قاقون وكانت جنود الجزار والاهالي كامنين في الوادي هناك وهو صعب المسالك وفيهِ اجام واسعة . وعند الظهر صادف الفرنسويون بعض فرسان من طليعة عسكر اعدائهم ثم راوا جنودهم في قمم الجبال فشرع بونابرت برتب فرسانهُ وقسمهم الى فرق بحسب الاقتضا وهجم عليهم هجمة واحدة من جميع الجهات فكسرهم وطاردهم الى ان ابعدهم عن طريقهِ

حتى انقطع خوفنا من هجومهم عليه وقتل في هذه المعركة من جنود الجزار واهالي نابلس نحو اربعمائة رجل وجرح منهم نحو خمسمائة . فحل الفرنسويون في تلك الليلة في مكان يسمى العيون الصغار . وفي اليوم الثاني ساروا الى ان وصلوا وادي الملك وهي تبعد نحو ثلث ساعات عن حيفا . ولما سمع الجزار بقدومهم نقل المهمات التي كانت فيها . وحين اقترب الفرنسويون من المدينة خرج اهلها وسلموا بونابرت مفاتيحها والقلعة فاكرمهم وامنهم ودخلها بجيشه واسر من ميناها سفينة انكليزية صغيرة مع نوتيتها ووجد في المدينة ذخائر كثيرة لم يتمكن احمد باشا الجزار من نقلها . ثم اخذ يفحص ميناء عكا فراى فيها سفينتين انكليزيتين تحت رياسة الكوميدور سدني سميث وكانتا قد دخلتاها قبل ذلك بيومين اتيتين من الاستانة العلية

وفي نفس تلك الليلة بنى جسرين فوق نهر المقطع الذي يجري بين حيفا وعكا وفي اليوم الثاني انتقل بجيشه الى مقابل مدينة عكا وضرب الخيام في مكان يقال له ابو عنبة وامر ببناء المتاريس واقامة المدافع . وكان الجيش شديد الامل بالحصول على الفوز وعلى الخصوص بعد ان بانت له قلعة عكا كانها قلعة يافا التي لم تقدر ان تثبت في دفاعها . وفي ١٩ من الشهر المذكور شرع بونابرت والجنرال كفاريلي المهندس والجنرال دومارتين يجولون حول المدينة ليقفوا على حالة الاراضي حولها ثم اقتربوا من المدينة بقدر الامكان ليفحصوا اسوارها . ثم نشر اعلانًا على اهالي ايالة عكا هذه ترجمة ملخصه

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الله يوتي النصر من يشاء ولا يعطي حسابًا لاحد عما يفعل ولذلك لابد من انقياد الشعوب الى اوامره . ولذلك هو يعاقب الظالمين ويحكم بزوال دولة الجزار . والذي حملني على المجيء الى هذه الايالة رغبتي في معاقبته فانه قد تعدى علي فلا خوف عليكم ايها الاهلون فاقيموا في منازلكم امنين ومن خرج منها خوفًا فليرجع اليها فانني اؤمنكم جميعًا على اموالكم وانفسكم واملاككم واروم ان يبقى قضاتكم شارعين في فصل الدعاوى واحقاق الحق وان يصان الدين ويقوم المسلمون بفروضهم الدينية والاجتماع في الجوامع . ومن اللازم ان تعلموا انه ما من قوة بشرية قادرة على معارضتي لانه لابد من اجراء كل ما اشرع فيه . فمن كان معي يصادف فوزًا ومن عصاني يذوق مرارة الموت . وما جرى في يافا وحيفا يحذركم فانني عاملت بالصرامة الذين حاربوني وبالشفقة والحنو الذين اتحدوا معي وعلى الخصوص الاهالي . انتهى

وبعد ذلك اخذ شيوخ بلاد صفد وبلاد بشارة يأتون اليه هم واعيان الاهالي . ومن الذين جاءوه الشيخ عباس بن ظاهر العمر واخبره عما هو جار بينه وبين الجزار فترحب به وقلده سلاحًا وخلع عليه ووهبه عشرة اكياس من النقود وكتب اليه بان يكون حاكمًا في البلاد التي



كان عليها ابوه . واتاه شيوخ المتاولة فاقامهم حكامًا في بلادهم وساروا الى مدينة صور وبعثوا اليه بالذخائر والمهمات واستلموا القلعة التي كانت لاباءهم . وبعد ذلك اتاه رجل من جبل الشيخ اسمه مصطفى بشير فاكرمه وامره ان يجمع جنودًا من اهل تلك البلاد ويذهب الى مدينة صفد . وبالجملة نقول ان شيوخ تلك البلاد واهلها سروا بقدوم بونابرت واقامة الحصار على عكا لشفاء غليل غيظهم والانتقام من احمد باشا الجزار الذي كان يضرب المثل في سورية بظلمه ولا يزالون يعدون الظالم جزارًا الى يومنا هذا . وكان ظلمه سببًا لحمل الاهالي على الاتحاد مع بونابرت واسعاف الفرنسويين اسعافًا عظيمًا فان اهل صفد وبلاد بشارة اخذوا ياتون معسكرهم بالزاد ليبيعوه لهم . وقيل ان بونابرت كتب الى الامير بشير عمر شهاب الملقب بالكبير وكان حاكمًا لجبل لبنان يحثه على تقديم الرجال والذخائر ووعده بان يثبته حاكمًا مستقلاً ويخلصه من خدمة الجزار وان الامير تمنع عن الجواب منتظرًا نهاية حصر عكا . واتهمه الجزار بارسال الخمر والزاد الى الفرنسويين والمرجح ان الامير واصل بونابرت وبعث اليه بزاد وخمر فان بعض شيوخ الدروز الذين كانوا اعداء له كمنوا في وادي صور واخذوا ما بعثه الى بونابرت وذهبوا بذلك الى الجزار وهذا هو سبب العدوان بين الامير بشير والجزار

قلنا ان بونابرت كان قد وضع في البوارج المدافع الكبيرة والمهمات العظيمة التي كان يعلم انه يحتاج اليها لفتح عكا وفعل ذلك قبل ان خرج من مصر وامر الاميرال بيريه ان يذهب بها بحرًا الى شواطئ سورية وكان ذلك الاميرال يعلم ان البوارج الانكليزية في بحر سورية وانها اقوى كثيرًا من بوارجه الصغيرة ومع ذلك سار دون ان يبالي بها . فوضع كل المدافع الكبيرة والمهمات العظيمة في السفن الصغيرة وقال لروسائها ان يسيروا بالقرب من الشاطئ على قدر الامكان وانه يسير في بارجة كبيرة بعيدًا عنه ليحميها من البوارج الانكليزية ويمنعها عن الدنو منها . فاقترب من مدينة حيفا دون ان يعلم باستيلاء بونابرت عليها فلم يتجاسر ان يدنو منها . وكان ذلك في ١٨ اذار (مارس) فرأته البارجة الانكليزية المسماة تيكر وكانت في ميناء عكا فبادرت الى مطاردته واطلاق الكرات على تلك البوارج الصغيرة وكان عددها تسعًا فنجا الاميرال ببارجته وببارجتين غيرها . اما السبع الباقية فاخذها الانكليز كانت المدافع والمهمات فيها ولولا ذلك لفتح الفرنسويون عكاء بسهولة لان عدم وصول المدافع الكبيرة والمهمات لقيام الحصار اضرّ بهم فاتى الانكليز بهذه المدافع الى عكا واقاموها على اسوارها لمحاربة الفرنسويين . وفي اثناء ذلك امر بونابرت بفتح الخنادق حول سور عكا واقامة الاستحكامات كما فعل حين حصر يافا . وفي ٢٠ من الشهر المذكور اقام المدافع عليها . وفي ٢٥ منه امر الجنود باطلاق المدافع على المدينة فانتشب القتال وبقي ٢٤ ساعة وكان شديدًا جدًا فان الفرنسويين كانوا يطلقون

الكرات والبنادق على المدينة والمدينة تطلق عليهم اسلحتها وكذلك مراكب الدولة العلية والبوارج الانكليزية التي كانت في مينا عكا حتى ظن الذين كانوا يسمعون اصوات اطلاق الاسلحة انهُ لم يبقَ في عكا حجر على حجر. فخاف الجزار من ذلك واتى مراكبهُ قاصداً الهرب فعارضهُ الكوميدور الانكليزي سدني سمث وهو الذي اتى بالبوارج الانكليزية لمضادة بونابرت وقال لهُ لا تخف فانني قد سلبت من عدوك ما يمكنهُ من فتح المدينة اي انهُ اخذ المدافع والمهمات التي كانت اتية في البوارج الفرنسوية وكان قد اقام لها الكوميدور المذكور جنوداً من عسكرهِ ليطلقوها وهذا قوى دفاع عكاء وتأكد ان بونابرت يعجز عن فتح المدينة بعد تلك المعركة والذي اسعف الجزار والكوميدور سمث الجنرال فيليبو الفرنسوي الشهير في معرفة ادارة المدافع وكان رفيق بونابرت في مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٣ و ١٧٨٤ . اما سبب خروجهِ من فرنسا عند حدوث الثورة الكبيرة ودخولهِ في البوارج الانكليزية فهو بغضهُ للجمهورية وتعلقهُ بالملكية . وهو الذي كان يدبر المدافع فان سمث لم يكن ذا اختبار في ادارتها برًّا

وبعد معركة ٢٥ اذار (مارس) تيقن بونابرت انهُ لا يقدر ان يستولي على المدينة الا بعد اتعاب ومشقات كثيرة فامر بتوسيع دائرة الخنادق وجرى ذلك في ٢٨ و٢٩ و٣٠ اذار دون مبالاة بهاجمات عساكر الجزار . وفي اثناء ذلك بلغ بونابرت ان جيوشاً جرارة اتت لنجدة عكا وان عددها ثلثون الف رجل منهم ١٢ الف فارس من الابطال المجربين الذين لا يهابون الموت . فان حكومة البلاد لم تغفل عن تحريض الاهالي على الاجتماع لتخليص البلاد من ايدي الاجانب الذين حملوا عليها فاجتمع الوف من الشام والمماليك والغز ورجال كثيرون من اماكن مختلفة وجاءوا قاصدين الهجوم على الاعداء وتخليص عكا من الحصار . واما عدد الجيش الذي كان في ظاهر عكا مع فكان بونابرت ثمانية الاف جندي وبهم حصر عكا فكانت تدفعهُ بجنودها الجرارة وملاحي الانكليز والبوارج العثمانية والانكليزية . ولم يكن عندهُ من المدافع والمهمات ما يلزم للقيام بعمل عظيم كهذا العمل ولصد تلك الجيوش الجرارة التي كانت قادمة من الداخلية لترفع الحصار عن المدينة . ومع ذلك لم يقع في ارتباك بل بادر الى اجراء ما يلزم بهمة وسرعة . وكان قد بلغهُ ان فرسان الجزار وابراهيم بك نازلون في ميسرة الاردن وطريق الشام بانت في يدهم . وان اهالي نابلس تجمعوا ليقوموا بثارهم ويرفعوا عار معركة فاقون عنهم والجزار كتب الى والي الشام بان ياتي بجيشهِ الى الاردن وينضم الى جيش نابلس في مرج ابن عامر ليتمكن من قطع الصلة بين مصر ومعسكر الفرنسويين . وكان الشيخ عباس بن ظاهر العمر يخبر بونابرت عن جميع حركات اعدائهِ واستعداداتهم ويأتيهِ باخبار موكلة عن الناهبات التي كانت جارية في الشام . واعانهُ جداً في اعمالهِ وحافظ على صداقتهِ الى النهاية وهو الذي قرَّب اليهِ البدو



والاكراد فانهُ كان ذا سطوة عظيمة بينهم وبناء على الافادات التي بلغهُ اياها قسم جيشهُ الى اربعة اقسام لكي يمنع جنود البلاد عن عبر الاردن وجعل القسم الاول تحت قيادة الجنرال لبير للمحافظة على جبل الكرمل وسهل ابن عامر والسواحل البحرية وطرق نابلس والثاني تحت قيادة الجنرال جونو في قلعة الناصرة للمحافظة على طرق الاردن . والثالث تحت قيادة الجنرال مورات في قلعة صفد للمحافظة على طرق الاردن فوق بحيرة طبرية وجسر يعقوب . والرابع تحت قيادة الجنرال فيال للمحافظة على طرق جبل سارون وطرق مدينة صور . وبعد ذلك بزمان قصير وردت افادة من الناصرة وصفد مآلها ان جيوش البلاد اجتمعت وعبرت الاردن عند جسر يعقوب . ثم اخبر الجنرال جونو ان والي الشام حضر وقطع الاردن عند جسر المخانية واقام مهماتهِ في طبرية . وفي ٨ نيسان (افريل) نهض الجنرال جونو من الناصرة ليحارب جنود اعدائهِ فانهُ لم يبالِ بكثرة عددهم فالتقى بمقدمتهم في سهل كنعان بالقرب من الناصرة وكان عددها نحو خمسة الاف جندي . فانتشب القتال بينهم واشتد عليهم حتى طلبوا الفرار مع ان عدد فرقة الجنرال جونو كان اقل من الف جندي . ولما سمع بونابرت بتلك المعركة كتب الى الجنرال كليبر والجنرال مورات ليبادرا الى نجدة الجنرال جونو . وفي ١٥ نيسان (افريل) اقبلت فرقة الجنرال مورات على تل يشرف على جسر يعقوب وكان عسكر والي الشام هناك . فانتشب القتال اولاً بين الفرنسويين وطليعة الجيش المذكور وامتد الى ان صار عاماً . وبعد ابتداء القتال بمدة قصيرة طلب جنود والي الشام الفرار فقتل كثيرون منهم وغرق كثيرون في النهر مع انهم كانوا اكثر كثيراً من الفرنسويين فتركوا لهم خيامهم وزادهم ومهماتهم . وتعجب الفرنسويون لما راوا منهم ما راوا وعلى الخصوص بعد ما علموا انهُ لم يقتل منهم غير قليلين قبل ان طلبوا الفرار . اما الفرنسويون فلم يجرح احد منهم ولا قتل احد . فبات الجنرال مورات تلك الليلة في معسكرهم وفي ١٧ من الشهر المذكور ذهب الى طبرية . وكان سورها متيناً وفيها مهمات كثيرة ولذلك كان يصعب على الفرنسويين ان يفتحوها عوة لكن لم يتجاسر جنود البلاد ان يثبتوا فيها بعد ان راوا ما راوا من فعل الفرنسويين فخرجوا منها فدخلها الفرنسويون وغنموا ما بها

اما الجنرال كليبر فكان قد سار من عكا الى الناصرة في طريق اخر وعند وصولهِ اليها سمع ان الجنود الذين حاربوا الجنرال جونو في ٨ نيسان (افريل) لا يزالون في لوبي فسار ليطاردهم منها . وفي ١١ من الشهر المذكور هزمهم ودفعهم الى شواطئ نهر الاردن غير انهُ لم يتمكن من منع جيوش والي الشام التي كانت تجتمع هناك عن ان ينضم بعضها الى البعض الاخر ولا عن ان تنضم الى جيش النابلسيين وتم ذلك في ١٢ و١٣ من الشهر المذكور . وفي ١٤ منهُ سار هذا الجيش وحل في سهل جبل طابور وكان عددهُ ثلثين الف مقاتل منهم عشرون الف فارس فكتب الجنرال كليبر بجميع

ذلك الى بونابرت وطلب اليه ارسال نجدة لانهُ قصد ان يسير ليلاً في ١٥ و١٦ من ذلك الشهر الى جيش البلاد ليكبسهُ في السهل الواقع بين جبل طابور ونهر الاردن . فاستصوب بونابرت راي كليبر غير انهُ كان يخشى من عجزهِ عن نوال المرام بسبب قلة جنودهِ وكثرة جيوش العدو فعزم على نجدتهِ بجميع الجنود التي يقدر ان ياخذها بدون اضعاف حصار عكا فنهض بفرقة الجنرال بون وثمانية مدافع والفرسان الذين كانوا باقين في المعسكر . وسار في ١٥ نيسان ( افريل ) بعد الظهر وطول الليل ونزل عند بير البدوية وفي الصباح سار بالعساكر الى ان اشرف على مرج ابن عامر

اما الجنرال كليبر فسار قاصداً كبس الجنود وبعد ان قطع وادياً ضيقاً بالقرب من جبل طابور بلغ سهلاً واسعاً وذلك في صباح اليوم السادس عشر من شهر نيسان ( افريل ) وكانت الشمس طالعة فراى تلك الجيوش الجرارة في ذلك السهل الواسع فابهر منظرهم ابهج عينيهِ فانهم كانوا رافعين رايات الافتخار معممين بعمامات الجلال متقلدين الاسلحة اللامعة ومنهم ١٢ الف فارس من اشجع فرسان العرب راكبين على خيل كريمة تسابق الرياح في الركض يجولون من جهة الى جهة في ذلك المرج وكانت ملابس افراسهم الكريمة تبين عظمة راكبيها ومع ذلك سار كليبر بفرقته الصغيرة . ولما دخل ذلك السهل بهاجم ذلك الجيش العرمرم وطلب الفتك والانتقام اما الفرنسويون فلا يسمح لهم افتخارهم وبسالتهم ان ينتهزوا عندما يرون عدد عساكر عدوهم اكثر من عددهم فشرعوا يتجمعون ليصيروا قلعة من تلك القلاع البونابرتية التي لا يقدر احد ان يدنو اليها ولا ان يخرق صفوفها على انها قبل ان اكملت الانتظام هجمت الفرسان المذكورة مجردة الصوارم اللامعة صارخة كالاسود عادية كهبوب الرياح وصدمتها صدمة تزعزع الجبال الرواسخ . اما الجنود الفرنسويون فكانوا يعلمون ان نجاة كلٍ منهم متوقفة على ثباتهِ في هذا النزال ولذلك كان كل منهم يقف بجانب رفيقهِ كانهُ صخرة لا تتزعزع . ومن المعلوم ان الفارس لا يقدر ان يهجم بحصانهِ على الحراب لانهُ يعلم طبعاً ان ذلك يضر بهِ ولذلك كانت الخيل تجمح ولو اعملت الركاب في شواكلها . ولما اقترب ذلك الجيش الجرار من الفرقة الفرنسوية اطلقت عليها بنادقها طلقات متوالية تحاكي اندفاع نيران عظيمة من فوهات البراكين وكان صوت هجوم اولئك الفرسان كصوت رعود قاصفة فاضرت تلك النيران بالهاجمين وقتلت كثيرين منهم فكان الفرسان يتجندلون ونيران البنادق تندفع من الجهات الاربع فان هذه الفرقة كانت كانها قلعة مربعة حية لا يقدر احد ان يدنو منها من شدة دفاعها وسرعة اطلاق رصاصها ولذلك لم يتمكن ذلك الجيش الجرار من ان يخرق صفوفها . ودام ذلك القتال المهلك ست ساعات مع ان عدد الفرنسويين كان قليلاً جداً وعدد مقاتليهم كثيراً وكانت مدافع ذلك الجيش تدفع كراتها



العظيمة الى وسط تلك الفرقة وتهلك كثيرين منها . ولكن دون ان يؤثر ذلك فيها وكانت الفرسان قد احاطت بها من جميع الجوانب واخذت تصادمها صدمات تزعزع الجبال دون ان ترجعها او ان تحملها على طلب الفرار . وكانت نيران اسلحتها غير منقطعة شديدة جداً مهلكة وبعد ابتداء القتال بمدة قصيرة اجتمع حولها سور من جثث الذين قتلتهم من الجنود المهاجمين وافراسهم فاستترت بهِ وثبتت في ذلك النزال . وكان كل فرنسوي يقاتل اكثر من ثلثين من اولئك الجنود والفرسان الابطال وهم وراء ذلك السور المبني من اجساد الموتى لا يبالون بالويلات التي كانت تحل بهم ولا المشقات التي كانوا يتكبدونها ولا المخاطر المحيطة بهم . وثبتوا على تلك الحال ست ساعات والقتال شديد جداً الى ان اشتد حر الظهر وزادت اتعاب تلك الفرقة التي كادت تكل من شدة النضال والقتال وكانت مهماتها تكاد تفرغ . ومع انها قتلت من اعدائها عدداً غفيراً جداً كانت ترى انهم لم يقلوا لانهم كانوا كثيرين . ومن المعلوم ان قتالاً كهذا لا تطول مدتهُ ومع ذلك ثبت الفرنسويون ثباتاً ادهش الذين كانوا يحاربونهم ومع انهم راوا ان ثباتهم كاد يبلغ النهاية لم تضعف عزائمهم بل كانوا يقاتلون كأنَّ اعداءهم اقل منهم لانهم كانوا قاطعين الامل من النجاة وصمموا ان يموتوا موت الابطال وهم يقاتلون حتى الهلاك وبينما هم على تلك الحال بلغ بونابرت بعد الظهر بساعة الاماكن المرتفعة المشرفة على السهل الذي كان القتال منتشباً فيهِ وهو يموج بالجنود والفرسان وفوق رووسهم دخان كثيف من البارود يكاد يحجبهم عن عينيهِ . ولولا انتظام طلقات بنادق الفرنسويين وسرعتها لما عرف مركزهم ولما راها في وسط ذلك الجيش الجرار ونار الطلقات تندفع منها دون انقطاع وهي في دائرة ضيقة لانها قليلة العدد عرف الخاطر التي كانت تحيط بها . ولا يخفى ان بونابرت كان سريع الخاطر فكان يبرم الراي بسرعة تحاكي وميض البرق ففي اقل من لحظة قسم فرقتهُ الصغيرة الى قسمين وجعل كل قسم فرقة مربعة وسار بهما ليجعلهما مع فرقة كليبر التي كانت تقاتل في وسط ذلك الجيش على شكل زاوية والجيش المحلي في وسط تلك الزاوية . وهكذا نرى ان بونابرت لم يخف من ان يقدم بستة الاف جندي على ثلثين الفاً من اشد جنود العالم بسالة واقداماً ومنهم من الفرسان ابطال لا تبالي بالموت وتسابق الرياح . فسارت الفرقتان الصغيرتان المذكورتان دون ابداء ما يبين بلوغها ذلك المكان واسرعتا طالبتين تخليص رفاقهما من بين ذلك الجيش العظيم فلم تبديا ما يبين قدومهما الا عندما بلغتا السهل واستعدتا للقتال وعند ذلك امر بونابرت باطلاق مدفع اي قبل ان دخلوا السهل بمسافة قصيرة وكان على تل فسمعت الفرقة التي كانت في وسط ذلك الجيش صوت المدفع فكادت تطير فرحاً لانها عرفت صوت مدفع بونابرت وانهُ آتٍ لنجدتها بعد ان احتملت ما كانت قد احتملت وكلت من الصدام والقتال فصرخت بصوت واحد مرتفع هوذا

بونابرت هوذا بونابرت وكان ذلك الصوت يدل على سوء حالتها واعتمادها الى ذلك الاسم العظيم الذي كان سنداً لكل فرنسوي . فملأت الدموع اعين اولئك الابطال المتعبين واشتدت عزائمهم ولم يرتضوا ان يبقوا على ما كانوا عليهِ من الدفاع بل تشددوا وهجموا على اعدائهم الكثيرين وهكذا هجم الفرنسويون على ذلك الجيش من ثلث جهات في وقت واحد . ولما راى ثبات العدو قطع الامل من النجاح ووقع في ارتباك بسبب تلك الهجمات الشديدة فطلب الفرار بدون ترتيب ولا نظام في ذلك السهل الفسيح . وبينما هو على تلك الحال صدمتهُ فرقة من الفرقتين المذكورتين صدمة مهلكة وصدتهُ عن المسير فرجع الى الوراء باضطراب مخيف وارتباك يصعب وصفهُ . وعند ذلك اشتد الويل اشتداداً لا يقدر القلم ان يصفهُ . فان ذلك الجيش بات لا يقدر ان يجولان . بونابرت امسك كل طرقهِ فارتد بعض الجيش على بعضهِ والفرسان على المشاة وبالعكس وكلاهما على المهمات والمدافع وكانت الفرق الفرنسوية تطلق بنادقها طلقاً متوالياً فكانت نيرانها كالبروق الخاطفة ومدافعها كالرعد المتواصل ونقل منهم مئات وهم مجتمعون كانهم جبل كبير من البشر واسلحة الفرنسويين تهدمهُ من جهات كثيرة في وقت واحد . وكانت اسلحتهم تقطر دماً فانهم كانوا يطلقون المدافع ويعملون السيوف ويطعنون بالحراب . وكان الجنرال مورات هناك هو وفرسانهُ الابطال وهو الذي قال نابوليون عنهُ انهُ ربما كان اشجع اهل العالم في المعارك . وكان طويل القامة لابساً الملابس العسكرية الفاخرة راكباً فرساً من اكرم الخيل العربية سائراً في وسط فرقتهِ وهو ارفع منها كلها وعند ذلك هجم مورات بين جيوش اعدائهِ الجرارة التي كانت قد اشرعت الاسنة وجردت السيوف وعند بلوغ صفوفهم المضطربة وقف فرسهُ القوي على رجليهِ ودخل بينهم دفعة واحدة فامسى في وسطهم والسيوف تحيط بهِ فاشتد القتال هناك . ومن يقدر ان يسمع ما قالهُ ذلك الفارس الشجاع المثاني بلا تعجب وهوانهُ لما كان القتال مشتداً اشتداداً لم يسبق لهُ مثيل وانا في ذلك السهل بين اولئك القوم تذكرت المسيح وتجليهِ منذ نحو الفي سنة في نفس المكان الذي كنا نحارب فيهِ فاشتد عزمي وقوتي زادت عشرة اضعاف . ولا يخفى ان القتال يقسي القلوب ويحمل الانسان على فعل ما يضاد الشفقة والانسانية ومن هذا القبيل ما حدث في تلك المعركة بين جندي فرنسوي وجندي من المماليك فان الفرنسوي كان قد جرح جرحاً بليغاً لا امل لهُ بالشفاء منهُ وكان قد اقترب زمان حلول اجلهِ ومع ذلك سار على يديهِ ورجليهِ الى ان وصل الى الجندي المذكور وكان مجروحاً ومطروحاً يتمرغ في التراب فاخذ الفرنسوي يحاول خنقهُ . فراهُ ضابط فرنسوي وقال لهُ كيف تقدر ان تفعل ذلك وانت على ما انت عليهِ . فاجاب ذلك الجندي انك تتكلم كما تشاء فانك غير مجروح اما انا فلا بد لي من ان اجني من ثمار اللذة ما اقدر ان اجنيهِ قبل حلول الاجل فاني قد وصلت الى حالة النزع



وكان انتصار الفرنسويين في هذه المعركة تاماً لان الجيش المحلي كاد يبيد عن آخرهِ وعند نزول شمس ذلك النهار التي كانت محجوبة بالدخان وراء الجبال كانها كرة من النار اختفى ذلك الجيش العرمرم الذي قيل انهُ لا يعد ولا يحصى وانهُ اتى لطرد الفرنسويين من سورية ومن مصر . واستولى الفرنسويون على معسكرهم واربعمائة جمل مع مهمات كثيرة وغنائم لا تحصى . وهكذا تمكن بونابرت من ان يكسر ثلثين الفاً من الفرسان والمشاة الابطال بستة الاف جندي من جنودهِ في معركة اقيمت في السهل دون ان يكون محصناً في الحصون . فكيف يقدر التاريخ ان يقرر اخباراً كهذه بلا تعجب . وبعد ان امن من جهة الداخلية رجع قاصداً عكا ليشدد الحصار عليها لانهُ كانت تخطر ببالهِ امور عظيمة جداً لا تمكنهُ من الحصول عليها ابادة جيش واحد ولو كان عظيماً . وفي ذات ليلة كان واقفاً هو وكاتبهُ على تل اسمهُ عندهم تل ريشاركور دوليون وهو ملك انكليزي من الصليبيين فبعد ان نظر ما حولهُ من اثار الحروب الدموية ومن الخراب والدخان وتامل فيها برهة صامتاً قال يا بوريين (اسم الكاتب) هذه القلعة المنكودة الحظ قد حملتني خسائر كثيرة ولا نقدر ان نرجع عنها دون محاولة فتحها ثانية بعد ان فعلنا ما قد فعلنا . فان نصيب الشرق متوقف على نصيب عكا فانها مفتاح القسطنطينية ومفتاح الهند فان نجحنا في فتح هذه المدينة المحتقرة احصل على خزائن الباشا وعلى اسلحة تكفي ثلثمائة الف جندي وعند ذلك اهيج كل اهالي سورية فانهم قد احتملوا من ظلم احمد باشا الجزار ما يحملهم على العصيان وعلى ان يتوسلوا الى الله ان يكسرهُ . وبعد ذلك سأذهب الى الشام وحلب . وساقوي جيشي كلما تقدمت بتنظيم كل الذين هم غير مرتضين من حكامهم . وساخبر الاهالي بانفكاك قيودهم بالغاء حكومة الباشوات الظالمة اما الدروز فلا ينتظرون غير سقوط عكا ليتحدوا معي . وقد اتاني من عرض عليَّ تسليمي مفاتيح الشام وسابلغ القسطنطينية بجنودي واقلب الدولة الحاضرة واقيم في الشرق دولة جديدة قوية تخلد ذكري في القرون الاتية . انتهى . على ان الله احبط اعمالهُ

وبعد ان انتصر بونابرت تلك النصرة في ذلك السهل بعث فرقة من جنودهِ لتحرق قرى نابلس لانها لم تسلم اليهِ وهكذا انتهت هذه المعركة المعروفة بمعركة جبل طابور . ثم ذهب الى الناصرة ونزل فيها في دير اللاتين وهو للرهبان الفرنسيسكانيين . ثم طلب الى الرئيس ان يقيم الصلاة رسمياً ليشكر الله على النصر في تلك المعركة العظيمة فدخل الكنيسة وجثا على ركبتيهِ كل زمان الصلاة

وكان قد ارسل مصطفى بشير الصندي الى صفد فاتاها وفتح قلعتها فتركها جنود الجزار وساروا الى دمشق . اما ابن عقيل وهو من اعيان تلك البلاد فجمع جنوداً واتى صفد ونهبها واقام الحصار على مصطفى بشير وجنودهِ الذين كانوا قد استلموا القلعة باسم بونابرت وكان يعرف ان المحصورين

قليلون فهاجمهم مهاجمة شديدة غير انهم كانوا يدافعون بشدة وباس فهلك من المهاجمين عدد غفير وخرج رجل من القلعة المذكورة وهجم على عسكر الشام وقتل حامل الراية بالرصاص واخذ رايته ورجع الى القلعة ولما سمع بونابرت بان ابن عقيل اتى صفد بعسكر الشام ارسل الجنرال مورات بخمسمائة فارس الى المحل المذكور فلما سمعوا بقدومه رحلوا ونزلوا عند جسر بنات يعقوب فلما دخل مورات المدينة عرف انهم رحلوا فسار في اثرهم ولما بلغ الجسر قيل له انهم ذهبوا الى الشام . وبعد ذلك اتى مصطفى بشير الى بونابرت فاكرمهُ فاخبرهُ عما فعلهُ ذلك الرجل الشجاع مع الراية فامر بان يعطى مبلغًا من النقود جائزة ثم طلب الى مصطفى المذكور ان يستاجر رجالاً وان يعين معاشًا لكل منهم ٢٠ بارة في النهار فاجاب طلب بونابرت وجمع رجالاً وسار بهم الى جسر بنات يعقوب وكان الجنرال مورات لايزال هناك فاقامهُ للمحافظة على الجسر المذكور ورجع الى عكا وكان الجنرال كليبر لايزال في الناصرة ومعهُ الجنرال مينو فبلغهُ ان عسكرًا من البلاد لايزال في طبرية فركب في ثلثمائة فارس ومعهُ الشيخ صالح والشيخ عباس اولاد الشيخ ظاهر العمر ولما اقترب من طبرية خرج عسكر الجزار لمحاربتهِ وعددهُ نحو الفي مقاتل فانشب القتال بينهما وانكسر عسكر الجزار . وقبل ان الجنرال كليبر تبع فارسًا من فرسان الجزار في تلك الموقعة وضربهُ بسيفهِ فشطرهُ وقتل من العسكر المذكور اكثر من مائتي رجل ودخل الفرنسويون طبرية فوجدوا فيها مخازن واسعة فيها حنطة وذرة وشعير وغيرها مما يكفي كل الجيش الفرنسوي مدة طويلة فقرر لبونابرت عن ذلك فامرهُ بان يطحن قسمًا منها ويرسلهُ الى عكا فان بونابرت كان قد عاد اليها في ١٩ نيسان . (افريل) وفي ذلك اليوم وصل الاميرال بيريه الى يافا ببعض مهمات من ايدي الانكليز وتكدر بونابرت من وقوع المهمات والمدافع في ايدي العدو لانهُ كان منتظرًا وصولها ليفتح بها عكاء . وفي تلك الاثناء اتى حيفا بارجتان عليهما العلم العثماني ودخلتا مينا حيفا فانهما كانتا تظنان انها لاتزال في يد الجزار وكانتا اتيتين بمهمات لجيش الجزار ودخل رئيساهما المدينة فالقى الفرنسويون القبض عليهما وحجزوا البارجتين واخذوا مدافعهما ومهماتهما و٣٦ الف دينار من الذهب . وبعد الحصول على هذه المهمات مع المهمات التي خلصت من الانكليز صدر امر بونابرت بتشديد الحصار وبالثبات لفتح المدينة وكان يعتقد انهُ سيبلغ مستقبلاً عظيماً ولذلك كان يشدد الحصار . غير ان البوارج الانكليزية والروسية كانت في مينا عكا . وكان قواد الانكليز والمهندسون الفرنسويون الذين هم من المضادين للجمهورية والجنود الاوربية والعثمانية واقفين وراء اسوارها المنيعة ليدفعوا المحاصرين بحسن المعارف والتدبير والكثرة والبسالة . وبعد ذلك اشتد الحصار . ويصعب وصف المعارك التي كانت تحدث فان القتال الشديد كان متصلاً وبقي اسابيع كثيرة حتى ان اسوار عكاء باتت كانها ردم من الحجارة السوداء . اما شوارعها فباتت

بونابرت والجنديان والكرة المحشوة

محفرة وحيطانها مثقبة والبيوت مهدومة بالكرات المحشوة والغير المحشوة . وكان الرجال يهجمون بعضهم على البعض الاخر كانهم خيالات سود يقطر الدم منها وملابسها ممزقة ومسودة بدخان البارود وكانوا يتطاعنون بالحراب المضرجة بالدماء وبالسيوف المحمرة وكان الصراخ المخيف يعلو اكثر من دمدمة مدافع الويل والخراب وكان الضجيج والصراخ والدخان الكثيف يجعل النهار كانهُ ليل مظلم مخيف ونيران طلقات المدافع والبنادق تصير ذلك الليل نهارًا ذا نور ساطع وكان هيجان المتقاتلين شديدًا جدًا فانهم كانوا ينظرون في وسط تلك الضوضاء كانهم اشباح شياطين يهجم بعضهم على البعض الاخر وترتفع من بينهم اصوات الطبول وصراخ الهجوم واصوات المتوجعين والمصابين وتنهدات المتألمين فكان الناظر يظن ان ذلك المكان جهنم والناس الشياطين والقتال منشب بينهم . ولم يتمكن المحاربون من دفن القتلى فارتفعت رائحة الاجساد البالية في مكان

كانت شمسهُ محرقة وزاد ذلك ويلات القوم ولو انام احد سكان عالم خالٍ من الشرور ورآهم على تلك الحال لقال ان الانسان يستحق كل عقاب ومع ان الانسان كثيرًا ما يرى ويلات كهذه ويحكم برداءتها لاينفك عنها ويلتذ بمطالعة اخبارها وقصص ابطالها وما ذلك الا دليل سقوط جنسنا وكانت المعارك تنقطع برهة ليجدد المتقاتلون قوتهم فيجددوا قتالهم المهلك وكان المحاصرون يحفرون حفرًا عميقة تحت اساسات الاسوار والابراج ويضعون فيها مئات من صناديق البارود ويشعلونها فتهدم كل ما فوقها من البنيان وتقتل الناس وتكسر المدافع وتزلزل تلك الارض من اساساتها. وكان الفرنسويون يهجمون حال كون دخان هذه الاعمال وغبارها يغطيان السماء وهم مجردون السيوف المخضبة ورافعو البنادق وهجوم الفرنسويين اعتبر فوق اقتدار البشر ودفاع المحصورين دفاع جنود باسلة ثابتة لاتخاف الموت. والسار سدني سميث الانكليزي يناظر على الدفاع وتحت قيادتهِ الجنود الانكليزية والعثمانية المتحدة ويقوم بذلك بحذق لا مزيد عليهِ ويستخدم جميع وسائط الدفاع باحراق القطران والكلس وبالقاء الحجارة عليهم من السطوح والاسوار ومدافع الفرنسويين تدفع الكرات على المدينة كانها مطر هاطل وبالجملة نقول ان اعمال ذلك الحصر كانت غير عادية وبسالة المتقاتلين لايقدر ان يقوم القلم بوصفها. ولم يكتفِ السار المذكور بذلك ولكنهُ كان يعلم ان الفرنسويين يحبون ان يرجعوا الى بلادهم وان عساكر بونابرت وقعت في ياس بعد تكسر بوارجهم وانهم قطعوا الامل من الرجوع الى الوطن ولذلك نشر اعلانًا بينهم مالهُ انهُ يرجع بسلامة الى فرنسا كل جندي يترك خدمة بونابرت ويأتيهِ ونشر نسخات كثيرة جدًّا من هذا الاعلان بينهم رماها من فوق الاسوار بين الجنود الفرنسوية. ومن المعلوم ان ذلك طغيان عظيم ومع ذلك لم يسمع بان جنديًا واحدًا اجاب طلبهُ لان اولئك الجنود كانوا يفضلون الموت على مخالفة قائدهم ونشر بونابرت اعلانًا على جنودهِ لمضادة اعلان السار سدني سميث وقال فيهِ انهُ من المؤكد ان الكوميدور الانكليزي قد اصيب بداء الجنون. فغاظ ذلك الكوميدور المذكور حتى انهُ طلب اليهِ ان يبارزهُ. فاجاب بافتخار اذا ارسل اليَّ السار سدني مار لبورو من القبر ليبارزني اجعل البراز موضوعًا للتبصر واذا اراد في اثناء ذلك ان يظهر بطشهُ وقوتهُ ساعين مكانًا عند الشاطئ وارسل اليهِ احد الجنود الطوال القامات ليقاتله

واشد الهجمات كانت في ٢٤ نيسان (افريل) فكانت الكرات تنحدر على عكاء كانها الويل والجنود تهجم على اسوارها كانها لاتصادف الويل والموت في هجومها وقتل في هذا اليوم عدد غفير من جنود الجزار والانكليز وعلى الخصوص من الذين خرجوا من الابراج والحصون لدفع الفرنسويين وهدمت الكرات اكثر الابراج والحصون غير ان جنود الجزار كانت تجدد بناءها في وقت الكفاح. وامر هذا الباشا بان تخرق بيوت المدينة لفتح طرق قريبة لاقامة الدفاع



بسهولة في وقت قصير للحصول على ما يلزم وفتح فيها نوافذ لان ما راهُ من شجاعة الفرنسويين وبطشهم جعلهُ يخاف دخولهم ويقيم الاستعدادات اللازمة لمقاتلتهم في وسط المدينة. وكانوا لايبالون بالويلات التي كانت تحل بهم ولا بكثرة عدد مدافعهم وقلة عددهم ولذلك سيقام لاعمالهم في ذلك اليوم ذكر مؤبد يتعجب البشر عند وقوفهم عليهِ. وقتل فيهِ الجنرال كفاريلي رئيس فرقة المهندسين وكان من النابغين في المعارف ومن المشهورين في معرفة فن الهندسة. وكان ذا رجل واحدة فان الرجل الاخرى كانت مصنوعة من خشب ولذلك سماهُ المصريون ابا خشبة. فاصبتهُ كرة في كتفهِ في تلك المعركة فشرع الجراحون يطببونهُ فقال لهم هل اشفى في مدة قصيرة فقالوا اذا قطعنا يدك من الكتف فقال اقطعوها لانني لااقدر ان اطيل مدة الانفصال عن القيام بخدمة وطني فقطعوها وقبل ان ينال الشفاء التام خرج واخذ يجول بين الحواجز ليدبر اعمال جنود المدافع ويدلهم على الاماكن التي ينبغي ان يطلقوا كراتهم عليها فالتهب جرحهُ من حرارة الشمس فمات وخسرت فرنسا مهندسًا من اعظم المهندسين واحذق المدبرين. وفي ذلك النهار قتل الجنرال بون الفرنسوي وكان من اشجع الابطال وابسلهم فانهُ صعد على السور وتعلق بهِ ورمى ببرنيطتهِ الى داخلهِ فخافت عساكر الجزار لما رات هذا العمل وشرعت تغمس اللحف بالزيت والقطران وتشعلها وترمي بها على الفرنسويين فضلا عن الكرات الكبيرة والرصاص ومع ذلك لم ينفكوا عن الصعود على الاسوار وكان المحاصرون يلقون الحجارة عليهم من السطوح وكان وقوع الجنرال بون عن السور بوقوع حجر كبير على راسهِ فوصل الى الارض ميتًا فحملهُ اعوانهُ. وقتل في ذلك اليوم وما يليهِ عدد غفير من الفرنسويين ومن ضباطهم. ولولا النجدة التي اتت عكا بحرًا قبل ذلك بيومين لدخلها الفرنسويون. لان كثرة عدد المحصورين مكنتهم من ان يبنوا ليلاً الاسوار التي كان الفرنسويون يهدمونها نهارًا

ومن الامور الغريبة محبة جنود بونابرت لهُ مع انهُ كان يحملهم من المشقات والاتعاب ما لايوصف ومع ذلك كانت لهُ سطوة عظيمة عليهم فانهُ لما التهب جرح رئيس المهندسين المذكور مرض ١٨ يومًا وكان بونابرت يحبهُ محبة شديدة فكان يزورهُ مرتين كل يوم وكان احيانًا يجنُّ في هذيان الحمى غير انهُ لما كان يسمع ذكر اسم بونابرت كان يرجع الى نفسهِ ويتكلم كلامًا مرتبًا. وكانت جنود بونابرت تعرض نفسها للقتل لتخلصهُ. وكان في ذات يوم يصدر الاوامر لاقامة الحصار فسقطت كرة عظيمة جدًّا محشوة عند قدميهِ وهي ملتهبة ومنفجرة انفجارًا مخيفًا فلما رآهُ جنديان على تلك الحال دنيا منهُ بسرعة وضماهُ وستراهُ بجسديهما من فعل القطع الحديدية والمعدنية التي كانت تندفع من تلك الكرة المنفجرة ففتحت تلك الكرة حفرة في الارض يقف فيها فرسان ومركبة بضاعة فسقطوا جميعًا في هذه الحفرة فباتوا مغطين بالرمال والحصى. فجرح احد الجنديين جراحات

بليغة . اما بونابرت فنجا لكن جرح جراحاً خفيفة وفي الساعة رفع رتبة ذينك البطلين وجعلهما ضباطاً وقال لم تحب جنود قائدها قدر ما احبتني جنودي فان الكولونل موريون حماني بنفسهِ في اركولا فوقعت عليهِ الضربة التي كانت مزمعة ان تقع عليَّ لانهُ غطى جسدي بجسدهِ فسقط عند قدمي وخرج دمهُ حتى وصل الى وجهي . ولم تقم جنود بخدمة انسان كما قامت جنودي بخدمتي فانهم كانوا يصرخون قائلين فليعش بونابرت واخر نقطة من دمهم تخرج من جراحهم

وبعد ان اقام الحصار اكثر من ستين يوماً فقد من جنودهِ نحو ثلثة الاف جندي بالسيف وبالطاعون وامتلات المستشفيات بالجرحى والمطعونين ومع ذلك لم يضعف عزمهُ بل قال ان الفوز للذي يثبت مع انهُ كان قد اطلق كل كراتهِ ولم يبقَ عندهُ شيء منها . وحصل على ما يلزم بحيلة لطيفة فانهُ ارسل قوماً من الجنود الى الشاطىء ليتظاهروا بالابتداء باقامة حواجز فلما راهم السر سدني سميث هناك اقترب بمراكبهِ واطلق عليهم مئات طلقات . وكان الفرنسويون يعرفون المقصود من تلك الحيلة ولذلك كانوا يبادرون ضاحكين الى اخذ الكرات التي كانت تتساقط حولهم . وصدر امر بونابرت بدفع ريال عن كل كرة كان الجنود ياتونهُ بها بهذهِ الواسطة . وبعد ان فرغ ما كان قد حصل عليهِ بهذهِ الواسطة ارسل عجلات وجنوداً ليوهم الانكليز بانهم قاصدون ان يقوموا بعمل جديد فاطلقوا عليهم مئات من الكرات وهكذا حصل بونابرت على ما مكنهُ من مداومة الحصار

وفي ذات يوم من شهر ايار (مايس) راى المحاصرون والمحصورون بوارج كثيرة قادمة الى عكا فاخذوا يراقبونها وكان الفرنسويون يخافون ان تكون انكليزية او عثمانية ويوملون انها فرنسوية وبالعكس الجزار والانكليز وعند ذلك خرجت البوارج الانكليزية من ميناء عكا لتقابل تلك البوارج مقابلة اصدقاء او اعداء . ولما راى الفرنسويون ان البوارج الانكليزية والعثمانية اتحدت وسارت معاً تكدروا جداً فان البوارج الجديدة كانت عثمانية وفيها نجدة عددها ١٢ الف جندي ومهمات كثيرة . وكان بونابرت يعلم انهُ اذا لم يفتح عكا قبل دخول النجدة اليها ينقطع امل فتحها وكان يعرف ان دخولها الى المدينة لا يكون باقل من ست ساعات فشرع في مهاجمتها فخرج من وراء الحواجز جيش اسود كثير وسار باقدام ثابتة قاصداً المكان الذي فتحهُ كراتهُ . اما المحصورون فكانوا يعلمون انهم اذا تمكنوا من الثبات ساعات قليلة ينجون ولذلك دافعوا بكل نشاط دون ان يخطر لهم ببال غير القتال الى ان يدخل الجيش الجديد . وعند ذلك انتشب قتال مخيف . وكانت الجنود الجديدة تخرج بكل سرعة من البوارج وتسير قاصدة البر في القوارب لتسعف الجنود المدافعة . وسار السر سدني سميث بنفسهِ الى المكان الذي كان الفرنسويون عازمين ان يدخلوا المدينة منهُ امام ملاحي المراكب . ومع ان الفرنسويين صادموا



مصادمة عظيمة تمكنوا من الصعود على ما كان مجتمعاً من الحجارة المهدومة هناك وبعد ذلك وصل بعضهم الى بستان احمد باشا الجزار . غير انهُ اندفع عليهم كثيرون من جيش الانكشارية بالسيوف والخناجر فبات الذين دخلوا دفعة واحدة في وقت قصير اجساداً بلا رءوس لان اولئك الجنود لم يكونوا يعفون عن الذين كانوا يمسكونهم من الفرنسويين بل كانوا يقتلونهم بلا شفقة . وكان احمد باشا الوالي الملقب الجزار في قصرهِ يدفع جائزة عظيمة لكل من اتاهُ براس من جنود بونابرت وكان ينظر الى الرءوس الكثيرة التي جمعت حولهُ متبسماً . ومن المعلوم ان سدني سميث كان يخجل احياناً لرومية اعمال بعض الجنود غير المنظمة التي كان يحارب معها وعلى الخصوص لانهُ كان يجتهد في مضادة الحربية ويستخدم الجنود العثمانية لتسعفهُ في ذلك . واشتد الخطب في اليوم المار ذكرهُ وكانت المدافع تطلق من البر والبحر وانتشب القتال خارج الاسوار وداخلها فان الفرنسويين وصلوا الى الجامع الكبير فتقوت جداً جنود الجزار واكثروا من الصراخ واضرموا النيران بالزيت والقطران فالتزم الفرنسويون ان يرجعوا عن المدينة بعد ان اخذوا الانية النحاسية من سبيل الجامع وسلبوا بعض امتعة المدينة . وبقي منهم في الجامع مائة وعشرون جندياً انفصلوا عن الجيش بسبب القتال فسدت الطريق وراءهم فاحاط بهم جيش الجزار الكثير ومع ذلك لم يسلموا بل ثبتوا ببسالة تكاد تفوق طاقة البشر وبعد ان فرغ بارودهم دافعوا بالحراب والسيوف وكانوا يجعلون جثث الذين يقتلونهم بمثابة متاريس لهم . وكانت الجنود العثمانية تطلب اليهم ان يسلموا فلم يفعلوا . وبعد برهة اتاهم الكوميدور سدني سميث وقال لهم باللغة الفرنسوية لا سبيل الى النجاة فسلموا سلاحكم فاننا نحن الانكليز قد سددنا عليكم طريق البحر فانصحوا قائدكم ليمنعك عن القتال لان روساء الجمهورية الفرنسوية يقصدون اهلاككم في هذه الاقطار البعيدة . اما نحن فنضمن لكم الرجوع سالمين الى اوطانكم . فسلموا اليهِ وسار بهم امين ولم يتمكن الفرنسويون من دخول المدينة

وفي تلك الاثناء جاء الاسكندرية مركب صغير من جزيرة كورسيكا فيهِ رجل من باريس معهُ رسائل باسم بونابرت بعث بها اليهِ بعض روساء الجمهورية الذين كانوا يحبونهُ وقال لهُ ان الروساء الاخرين مرادهم هلاكهُ بمنع ارسال المهمات والزاد والذخائر والنجدة اليهِ . وان الانكليز قد هيجوا ملوك اوربا على فرنسا ليحاربوها واسترجعوا الاقاليم التي فتحها في ايطاليا ووادي الرين فاذا لم يسرع الرجوع اليهم يذهب تعبهم سدى وتخسر فرنسا كل ما اكتسبها . وبعد ورود هذا الخبر بلغهُ ان البوارج العثمانية تجهزت وسارت قاصدة مصر وانها ستصل اليها بعد ذلك بزمان قصير تحت قيادة السر عسكر مصطفى باشا كوسا وفيها الجيش العثماني الذي اجتمع في جزيرة رودس . وان بوارج روسيا اقامت الحصار على جزيرة كورفو في الادرياتيك وتمكنت من اخراج الفرنسويين منها . فلما

بلغتهُ هذه الاخبار تاكد ان العالم اتحد لمضادتهِ واذا اطال الاقامة في سورية يلتزم ان يحارب دول اوربا مع الدولة العلية بجيشهِ القليل لكنهُ لم يضطرب ولاخاف بل تجلد ودعا الجنرال كليبر واخبرهُ بذلك . وبعد المفاوضة صمما على المهاجمة الاخيرة التي ذكرناها . ورأى بونابرت انهُ لا سبيل الى فتح المدينة ودفع الجنود الجرارة التي اتت لمحاربتهِ بجيشهِ القليل وعلى الخصوص بعد ان هلك كثيرون منهُ بالقتال امام عكا وبالطاعون هناك وفي يافا . وعلم ان العسكر العثماني الاتي الى مصر من رودس صيانتها ببوارج انكليزية وروسية تسعفها في تلك الاحوال . فالتزم ان يسير لمصادمة ذلك العسكر بسرعة لا مزيد عليها ولولا مساعدة سدني سميث وحادثة ابي قير لتسهل لهُ فتح عكا وغيرها من الفتوحات العظيمة . وكدرهُ جداً رجوعهُ الى مصر دون ان يبلغ مرامهُ في سورية وكان عازماً ان يقيم في الشرق امبراطورية ذات عظمة وشان . ولا يخفى ان رجلاً لم يدرك من السن اكثر من ٣٩ سنة لو تيسر لهُ اقامة امبراطورية مشرقية وتخليص شعوبها الكثيرة من الذل الذي كانوا فيهِ ونشر لواء العدل والمساواة وترويج التجارة واصلاح جميع الامور لعدَّ لهُ فضل جسيم ومجد اثيل وفخر ليس لهُ نظير

ومن المستصعب على المورخين اذا صدقوا في ذكر الاعمال ان يدركوا حقيقة نوايا رجال الزمان . ومن قراءة تواريخ الرجال المسيحيين الذين شانهم مسالمة الاعداء لا بد ان نرى في اعمالهم الحسنى مقاصد تستحق اللوم لكن في تاريخ بونابرت لا يرى لذلك اشارة مع انهُ لم يتعلم التعاليم المسيحية بل تعلم الفنون والمعارف في زمان انكرت فيهِ فرنسا كل الاديان . ولم يقصد عمل الشرّ رغبةً في تعظيم نفسهِ وتخليد ذكرهِ وتفوقهِ على ملوك الارض . وكل فاتح ذي طمع شانهُ فتح البلاد المتمتعة بالراحة والسلام واخضاع اهلها بالسيف والنار لكي يجعلهم في ربقة الجهل والويل ليسلب اموالهم بالمصادرات المختلفة ويحمل الوفاً منهم اثقال الاشغال الشاقة والتعاسة لجعل هو واعوانهُ الادنياء على الرفاهية والتنعمات والملذات فهولاء هم الملوك الذين يستحقون ان يبيتوا بلا ملك . اما بونابرت فلم يكن ذلك الشان شانهُ لانهُ سار ليفك قيود الظلم والعبودية لا ليستعبد الامم ويحملها اثقالهُ فانهُ كان حاملاً في يدهِ نور الحرية والمساواة والانصاف ليمحو بهِ ظلام الظلم والعبودية ويرفع شان الامم بتبديد عسكر الجهل وفتح ابواب الثروة والمعارف والصناعة والتجارة والزراعة في الشرق باحتمالهِ مشقات توصيلها الى السعادة

وبعد حصر عكا بعشرين سنة تكلم بونابرت عن مقاصدهِ وهو في اول حياتهِ فقال لو اخذت عكا لسارت الجيوش الفرنسوية مسيراً يسابق الرياح الى الشام وحلب ومن ثم الى الفرات فنصل الى هناك في اقل من لحظة وينضم اليَّ مسيحيو سورية والدروز ومسيحيو ارمينية فيضطرب كل اهل الشرق . وبعد ان قال ذلك قال لهُ احد الذين سمعوهُ فاذاً كان يسهل عليك ان تضم مائة الف



جندي من اهالي البلاد الى جيشك . فقال قل ستمائة الف جندي لاني لو تمكنت من مرامي فمن يقدر ان يعرف ما يكون فانني كنت مصمماً على الوصول الى القسطنطينية والهند واضمرت ان اغير تقسيم سطح الارض

والكدر الذي بنهُ من الياس يكون بقدر الفرح بنوال المامول ومامول بونابرت كان عظيماً جداً ومع ذلك لم يظهر عليهِ شيء من لوائح الياس وكان هذا شاهداً على ما قالهُ عن نفسهِ وهو الظاهر ان الطبيعة عرفت انني ساحتمل مصائب كثيرة فاعطتني عقلاً كالصخر الاصم فلا توثر فيهِ رعود الويلات ولو كانت قاصفة فان سهامها تمر عليهِ فيشعر بوجودها دون الشعور بالامها . ولم يقدر اخص اصدقائهِ ان يروا ما يدل على كدرهِ وتذمرهِ ولعلهُ اعتقد انهُ ليس من نصيبهِ انشاء امبراطورية عظيمة في الشرق فاطلب اعمالاً اخرى دون تذمر . وقال عن السار سدني سميث ان ذلك الرجل هو الذي خسرني نصيبي

ومن صفات بونابرت الممدوحة الاعتراف بحسن سجايا اعدائهِ ونشاط الشيطين منهم ولم يكن يحب الانتقام من السار سدني سمث الانكليزي مع انهُ منعهُ عن الحصول على امر كان احب الامور اليهِ . وكان يقول عن الجنرال ورمسر الذي اقام بينهُ وبينهُ قتالاً شديداً جداً في ايطاليا انهُ على جانب عظيم من الشجاعة والبسالة وكرم الاخلاق . وعند ما استظهر عليهِ عاملهُ معاملة لا يعامل بها اعز اصدقائهِ . وكان يقول عن البرنس شارل النمسوي الذي قاتلهُ مرات كثيرة كما مرَّ انهُ انهُ رجل يستحق المدح اي انهُ حاصل على الصفات الحسنة ولا يعمل عملاً معيباً . وقال عن عدوهِ النشيط السار سدني سميث الذي منعهُ عن اقامة الامبراطورية العظيمة في الشرق انهُ قائد باسل اظهر حذقهُ في تقرير المعاهدة بخصوص خروج الفرنسويين من مصر وبين من الاستقامة ما يستحق كل المدح بتبليغهِ كليبر حالاً رفض الحكومة الانكليزية تقرير تلك المعاهدة وكان تبليغها في الوقت الواجب ان تتبلغ فيهِ سبباً لتخليص الجيش الفرنسوي لانهُ لو كتم ذلك سبعة ايام او ثمانية لدخل العثمانيون القاهرة والتزم الجيش الفرنسوي ان يسلم الى الانكليز وانهُ عامل بالدعة والشفقة وكرم الاخلاق جميع الفرنسويين الذين اسرهم . وانهُ نشيط نبيه ذو حيل وعزم لا يكل ولا يتعب . لكن يظن انهُ لا يخلو من جنون . واعظم اسباب عجزهِ عن فتح عكا تمكنهُ من اخذ الات هدم الاسوار التي كانت في مركب صغير من المراكب التي امسكوها قبل ان وصلت الى عكا ولولا ذلك لفتحت عكا رغماً عنهُ . اما اعمالهُ فكانت اعمال اشجع الابطال وبعث اليهِ برسالة يطلب اليهِ ان يبارزهُ مع ضابط حامل راية هدنة فاستهزأ بذلك واجابهُ انهُ اذا بعث بما لبورو ليبارزهُ لا يخرج للمبارزة وانهُ مع ذلك يحب صفاتهِ فانهُ ذو سجايا حسنة وبما انهُ عدو قديم يحب ان يجتمع بهِ

ولا يخفى انهُ اذا دقق النظر في هذا الكلام من يعرف انتقاد كلام البشر ليقف بهِ

على صفاتهم يرى ان كلام بونابرت المذكور لا يدل على انهُ مستند الى مبادي حديثة عندهُ لان قلب الانسان لا يقدر على النظر الى اعمال كهذه بعدم المبالاة اذا كان مقتنعاً بعدالة وصفو او ظلمو . ولكن اذا دققنا النظر في اعمال بونابرت نرى انهُ كان يقاتل عدوهُ في ميدان الحرب كما يغالب الانسان ضدهُ وهو يلاعبهُ بالشطرنج . فان حروبهُ كانت مقاتلات شديدة جارية بين الاهالي وملوكهم ولذلك لم يتكدر لان الملوك ثبتوا في الدفاع عن صوالحهم . وليس المقصود انهُ لم يشعر باضطراب في بعض الاحيان على ان ذلك كان موقتاً فكان يعلم ان من فروض الفوز على اعدائهِ لا لومهم وتوبيخهم . والظاهر ان بونابرت لم يجرِ اعمالهُ قياماً بفروض ادبية كان يعتقد التزامهُ بالقيام بها فان عدالتهُ وكرم اخلاقهِ كانا نتيجة فطرتهِ الحسنة ولم تكونا صادرتين عن الاعتقاد ان ذلك من الواجب عليهِ . ولا نرى في اعمالهِ ما يدل على انهُ كان ذا ضمير شديد التوبيخ فان ذلك ينشأ عن تربية لم يحصل عليها . وكان يعتقد ان الذي يحملهُ على اجراء اعمالهِ يحمل اعداءهُ على اجراء اعمالهم . وكان يكره المبارزة ومنع الجنود عنها . ففي ذات ليلة اجتمع في مصر بعض الضباط في مادبة فتكلم الجنرال لانوس تنديداً بحالة الجيش . وكان القائد جونو هناك فنهم ان المقصود لوم بونابرت وكان يحبهُ محبة شديدة جداً فاغتاظ وقادتهُ الحدة الى ان يقول للانوس انهُ خائن فاجابهُ قائلاً انهُ من الادنياء فجردا سيفيهما ونهضا واقفين . فقال جونو للانوس انني قلت لك خائن مع انني اعلم انك لست بخائن وانت قلت انني دني مع انك تعلم انني لست بدني ومع ذلك لا بد من البراز فانني ابغضك لانك اهنت الرجل الذي احبهُ واعتبرهُ كما احب الله واعتبرهُ . اذا لم اقل اكثر منهُ فلا بد من ان يموت واحد منا وجرى ذلك في ليلة مظلمة فذهب الحاضرون الى اخر البستان الذي كانوا فيهِ وهو عند شاطىء النيل بعد ان اشعلوا المصابيح واخذ القائدان المتنازعان في القتال فشج جونو راس لانوس وجرح جونو جرحاً عظيماً كادت تخرج احشاؤهُ منهُ . فسمع بونابرت بما حدث في الصباح . فاغتاظ جداً وقال هل صحا ان يهلك احدهما الاخر . هل التزما ان يذهبا الى شاطىء النيل ليتقاتلا حيث تتقاتل التماسيح الم يكتفيا بمقاتلة العرب والمماليك وباحتمال الطاعون ثم قال مخاطباً جونو وهو غائب عنهُ ياجونو تستحق بعد الشفا ان تسجن شهراً

وعندما صمم بونابرت على الرجوع عن عكا نشر اعلاناً هذه ترجمتهُ

ايها الجنود . قد قطعتم القفار الواقعة بين افريقية واسيا بسرعة تحاكي سرعة مسير جيش من العرب وبددتم الجيش الذي كان ذاهباً ليهاجم مصر واسرتم قائدهُ واغتنمتم مدافعهُ وجمالهُ ومهماتهِ واستوليتم على كل الاماكن المقامة للمحافظة على ابار القفار . وقهرتم في جبل طابور الجيوش الجرارة المجتمعة من جميع انحاء اسيا بامل نهب مصر اما الثلثون مركباً التي رايتموها منذ ١٢ يوماً داخلة ميناء عكا فكانت ذاهبة الى الاسكندرية ولكنكم الزمتموها ان تاتي هذا المكان لتخلص عكا ولا ريب في ان



رايات كثيرة من رايانها ستزين صفوفكم عند دخولكم فائزين الى مصر . وبعد ان اقمتم الحرب ثلثة اشهر في قلب سورية وانتم قليلون جداً واخذتم اربعين مدفعاً وخمسين راية وستة الاف اسير وفتحتم قلعة غزة ويافا وهدمتم عكا ستذهبون الى مصر لانهُ من اللازم ان نذهب اليها فان الاعداء مصممون على مهاجمتها وها نحن في الاستعداد للرجوع . ولو بقيتم هنا اياماً قليلة ايضاً لتمكنتم من اسر الباشا وهو جالس في قصره . على ان قلعة عكا الان لا تستحق تضيع ثلثة ايام ولا خسارة اولئك الجنود الباسلين الذين يقتلون في فتحها وعلى الخصوص لاننا محتاجون اليهم للقيام بما هو اعظم شاناً . يا ايها الجنود لا يزال من المفروض علينا القيام بخدمة متعبة ذات خطر لانهُ ربما كنا نلتزم ان نجهد انفسنا لاقامة خدمة في الغرب بعد ان نكون قد دفعنا المخاطر عنا في الشرق . انتهى

وفي ٢٠ ايار سنة ١٧٩٩ الموافق ١١ من ذي الحجة سنة ١٢١٣ للهجرة اخذ في الرجوع عن عكا فامر ان تطلق المدافع من الخنادق بدون انقطاع الى ان تتم الاستعدادات اللازمة للرجوع عن المدينة المذكورة . واخذ القوم في نقل المرضى وبعض المدافع الى المؤخرة لئلا يتبين للاعداء ان الفرنسويين يتاهبون للسفر . وكان ذلك بعد ان قتل من جيش بونابرت الفا جندي ومات منهُ الف بالطاعون وغيرهِ

وكان في المستشفيات الف ومئتا جريح ومريض . فعمل اسرة لنقلهم وعين لبعضهم افراساً . وبما ان خيلهُ كانت قليلة اعطاهم فرسهُ وكان يسير ماشياً في الرمال المحرقة بجانب ادنى الجنود . ولما سمع الدروز وغيرهم من الذين كانوا يحبون ان يخلصوا من ظلم احمد باشا الجزار ان الفرنسويين راجعون عن عكا تكدروا جداً فانهم كانوا يعرفون ان احمد باشا سينتقم منهم ولم ينجوا من ظلمهِ فانهُ انفذ فيهم ما تمكن من انفاذهِ من الانتقام والظلم . وبعث بونابرت باوامر الى الجنود الفرنسوية التي كانت في صفد وطبرية والناصرة فاجتمعت اليهِ وسارت معهُ ولما دخل مدينة حيفا امر باحراق مخازن القطن التي فيها وهي للجزار . ثم ساروا الى يافا ودخلوها في ٢٥ ايار

وعندما شرع في الاستعداد للخروج من يافا وجد ان سبعة من المرضى الكثيرين الذين كانوا معهُ كانوا قريبين من الموت بالطاعون ولذلك لم يكن يقدر ان ينقلهم . فدخل دون خوف الى مستشفى الطاعون وجال فيهِ كلهِ وكان يكلم المطعونين بكلام تعزية وشفقة . وكانت اعين الذين في حالة النزع تنظر اليهِ وتتبعهُ من مكان الى مكان وهو يجول بينهم وقلوبهم تخفق حباً وحنواً . وعندما اقترب من السبعة الذين اشرفوا على الموت وانقطع الامل من شفائهم اخذ يتامل فيهم بشفقة فانهُ لم يكن قادراً ان ينقلهم ولم يكن يقدر ان يتركهم لتحققهِ ان الاعداء لا يعتنون بهم ولا يطببونهم قياماً بحق الانسانية ولكنهم يعذبونهم الى ان يموتوا فانهم كانوا يقتلون بالعذاب جميع الاسرى . وبعد اطالة التفكر قال للطبيب انهُ من اللازم ان نسقيهم

قليلاً من الافيون ليموتوا بعد مدة قصيرة وينجوا من عذاب الاعداء الذين لا يرحمونهم . فاجاب ذلك الطبيب بما يستحق الثناء عليهِ وهو ان الواجب عليَّ ان اشفي لا ان اقتل . فتامل بونابرت برهة في هذا الكلام وترك خمسمائة جندي مع اولئك المرضى ليحرسوهم الى ان يموتوا عن اخرهم . ومن المعلوم ان كثيرين من المورخين لاموا بونابرت لوماً شديداً لانهُ طلب الى الطبيب ان يعجل موت المرضى المذكورين . ولا نقول ان ذلك مطابق لفروضهِ الدينية ولحقوق الانسانية على انهُ لا يسوغ ان نقول انهُ يدل على طبيعة وحشية ولا على قساوة لا تليق بابناء البشر لان الذي حملهُ على طلب ذلك انما هو الشفقة وحبهُ لاولئك المنكودي الحظ الذين باتوا في حالة النزع فامسى لا يقدر ان ينقلهم مع الجنود ولا ان يتركهم وحدهم لانهُ كان يعلم ان الاعداء يميتونهم بعد ان يعذبوهم . فلو كان من الذين لا يبالون بمصائب غيرهم لما اهتم بهم بل كان تركهم ليصادفوا المنية التي ينصر القلم ن وصفها . وكتب بهذا الخصوص محامياً عن نفسهِ ما ياتي . لا اظن ان تجريعهم الافيون ذنب لكنني اظن انهُ فضيلة وعندي ان ترك بضعة رجال لا امل بشفائهم ليموتوا بعذاب شديد بواسطة اعدائهم هو شر وقساوة . ومن واجبات القائد ان يعامل جنودهُ المعاملة التي يرضى بها لنفسهِ . ومن لا يفضل ان يموت بشرب الافيون قبل وقت حلول اجلهِ بساعات قليلة على الموت بعذاب قوم لا يعاملون الاسرى معاملة متمدنين . فلو كان ابني في نفس هذه الظروف لطلبت الى الطبيب ان يعجل موتهُ بذلك وعندي انني احب ابني بقدر ما يحب الاباء ابناءهم ولو امسيت انا في تلك الظروف لاصررت على ذلك اذا كان لي من القوة والتمييز ما يمكنني من الاصرار عليهِ . ولما رايت انني اقدر ان اترك حراساً ليحرسوهم تركتهم لهم لاننا لم نبت في ظروف ضيقة . ولو رايت انهُ لا مفر من سقيهم الافيون لجمعت مجلساً حربياً وقررت ذلك قانونياً ونشرتهُ في الاخبار الجارية . لانهُ ما من شيء يحملني على كتمهِ ولو كنت اسقي جنودي سماً سرّاً بنوع يجعل فعلي ذنباً او افعل افعال البرابرة بسوق مركبتي فوق جثث الموتى واجساد الجرحى التي تتطرد مما لما دافع عني جنودي مدافعة لم يسبق لها نظير . ولو جرى ذلك مرة لما تمكنت من ان اعيدهُ لان الجرحى الذين يقدرون ان يطلقوا غدارة يقتلونني اذا راوني على تلك الحال . انني لم ارتكب ذنباً في كل اعمالي السياسية . وهذا مما اقدر ان اقولهُ في الساعة الاخيرة من حياتي . ولو ارتكبت ذنباً لما كنت هنا ( في جزيرة سانتاهيلانه ) الان فان اول ذنب يوافقني ارتكابهُ قتل البوربون فلو اظهرت ارادتي في ذلك لهلكوا . وكثيراً ما تاملت في هذه الامور . واذا تعمقنا في التامل فيها نقول الاوفق في كل الاحوال ان نترك الانسان يسير الى نصيبهِ من تلقاء نفسهِ مهما كان ذلك النصيب . وقد حكمت بذلك عند ما رايت احشاء صديقي دورو تندفق امام عيني فانهُ صرخ اليَّ اكثر من مرة طالباً ان اخلصهُ من ذلك العذاب فقلت لهُ ياصديقي انني اشفق عليك ولكن لا سبيل الى تخليصك



ولذلك لا بد من ان تحمل اوجاعك الى النهاية . انتهى

وقال السار روبرت ولسون المورخ الانكليزي ان ذلك الوحش الذي لا يشفق على احد ويحب سفك الدماء وهو بونابرت سقى سماً لخمسمائة رجل من المرضى والجرحى في يافا ليتخلص من اثقال الاعتناء بهم . فانتشر هذا الخبر في اوربا واميركا وصدقهُ اهل العالم ولا يزال الى هذه الايام من يحكم على بونابرت الحكم الذي ينقادون اليهِ بواسطة اخبار كهذه . وفي نهاية الامر اقتنع السار روبرت بانهُ اخطا فصار من اصدقاء بونابرت . وفي ذات يوم طعن رجل على مسمع بونابرت بالسار روبرت لانهُ نشر ذلك الخبر الكاذب المضر فاجابهُ بونابرت انك لا تعرف كثيراً عن الرجال وعن المطامع التي تقودهم الى اعمالهم . فماذا يجعلك تقول ان السار روبرت ليس من اهل الغيرة والاقدام اما تعلم انهُ نشر خبراً كان يعتقد صحتهُ او لا تعلم انهُ ربما كان قد بات مخدوعاً فتكدر الان لانهُ كتب ما قد كتب . وما ادرانا انهُ لا يتمنى لنا الان الخير من كل قلبهِ كما كان يتمنى لنا الشر الى ان قال ومن الصحيح انني لم ارتكب ذنباً في كل اعمالي حتى انهُ لم يخطر ذلك لي ببال . فانني جعلت افعالي على الدوام مطابقة لافكار خمسة او ستة ملايين من الرجال . وكثيرون طعنوا بي ولكن لا اخاف على صيتي . فان القرون الاتية ستنصف في الحكم عليَّ بوقوفها على الحقيقة وستقابل الخير الذي فعلتهُ بسقطاتي وهذا يجعلني لا اخاف العاقبة

وكان البارون لاري رئيس الاطباء في جيش بونابرت وقال بونابرت عنهُ لاوميرا انهُ اشد الرجال امانة وشفقة وغيرة على الجنود من جميع الرجال الذين صادفتهم فانهُ كان يخدم الجرحى بلا كلل وكان يدخل ساعة القتال بعد ان يقام في جهة من جهات ميدان الحرب ومعهُ قوم من الجراحين ويشرع في اعانة الجرحى وفحص الاجساد الملقاة على الارض ليرى هل فيها حياة . وكان لا يسمح لاعوانهِ بان يستريحوا بل كان على الدوام يلزمهم ان يبقوا في مراكزهم وكان يعجز الجنرالية ويلزمهم بالخروج من اسرتهم ليلاً ليعطوهُ ما كان يحتاج اليهِ لراحة الجرحى والمرضى . وكانوا جميعهم يخافونهُ لعلمهم انهم اذا تاخروا عن اجابة طلبهِ يشكوهم اليَّ لا محالة

ولما رجع لاري الى اوربا نشر كتاباً طبياً وجعلهُ هدية لبونابرت لانهُ كان يعتني على الدوام بالمرضى والجرحى . وقال الطبيب اسوليني المشهور ان بونابرت عظيم في كل الضيقات فانهُ كان لا يبالي بالطاعون . وقد رايتهُ في مستشفيات يافا يفحص دوائرها ويتكلم مع المطعونين دون مجانبتهم . وهذا العمل الذي لا يعملهُ غير الابطال شجع الجيش وقوى المرضى وعزاهم ونفع خدام المستشفيات بعد ان باتوا جميعاً في خوف واضطراب من فعل المرض وامتدادهِ وشدة العدوى

وكان الجيش يسير في تلك القفار المحرقة وهو متالم من حرارة الشمس وطول المسافة واتعاب المسير فيها وهلك كثيرون من المرضى والجرحى . ولم تنحصر الشدائد فيهم فان الجيش كلهُ تالم المًا شديدًا وكان الف ومائتا رجل من الذين اضعفتهم شدة الامراض او من الجرحى الذين كانوا متالمين من انكسار عظامهم او التهاب جراحاتهم محمولين في تلك القفار على ظهور الخيل . واشتدت اوجاع كثيرين منهم وضعفهم فكانوا لا يقدرون ان يثبتوا في السروج فربطوهم اليها فسارت الخيل بهم تهز عظامهم المكسرة والمفتتة وجراحاتهم الملتهبة . وكان مسير الجيش مخططًا بجثث الموتى الذين كانوا يموتون في الطريق من جرى مشقتها فيتركونهم وراءهم . وكانت الخيل اقل من المرضى والجرحى مع ان بونابرت وقواد جيشهِ كانوا يسيرون ماشين وامر بترك كثير من المدافع بين تلال الرمل ليستخدم الخيل التي كانت تحملها او تجرها في حمل الجرحى والمرضى . ولذلك التزم ان يترك كثيرين منهم ليموتوا من الاحتياج الى ما ينقلهم والى الاعتناء . وكان كثيرون منهم يسيرون مترجرجين في ذلك الرمل المحرق لانهم لم يجدوا افراسًا وكانوا يعلمون انهم اذا تاخروا يموتون بالاوجاع وكانت دماؤهم تخرج من جراحاتهم فيحتملون اوجاعًا لا يقدر الانسان ان يصفها . وكانوا يتوسلون الى رفقائهم ان يسعفوهم توسلاً تتفتت لهُ الاكباد لكن بدون نتيجة لان الشدائد تمحو من قلب الانسان الحنو الانساني . فكل واحد كان مشتغلاً بنفسهِ وكان مسير الجيش ٢٥ يومًا في تلك الرمال مما يظهر شرور الحروب وويلاتها اظهارًا يكاد يكون بلا مثيل . وتكدر بونابرت كدرًا لا مزيد عليهِ لما راى حولهُ ما راى من الويلات والشدائد . وفي ذات يوم كان ماشيًا متعبًا في الرمال في مقدمة فرقة وكانت الشمس تضرب باشعتها المحرقة راسهُ وهو بلا مظلة والمرضى والجرحى والذين هم في حالة النزع حولهُ فاشتد حزنهُ . وعند ذلك راى ضابطًا صحيح الجسم راكبًا ومتمنعًا عن ان يعطي فرسهُ للجرحى . فاشتد غيظهُ لما راهُ على تلك الحال فجندلهُ على الارض بضربة واحدة بقفا سيفهِ فبات مطروحًا على وجههِ على الارض . ثم امسك يد جندي مجروح واركبهُ مكانهُ فلما رات الجنود ذلك ضجوا جميعهم ضجة الاستحسان والثناء . ومن يقدر ان يطالع هذا الخبر ولا يتحرك في قلبهِ شكر جميل وشفقة تحملهُ على الثناء على بونابرت والتعلق بحبهِ

ومن المعلوم انهُ لا يحق للمورخ ان يستر ويلات الحروب ولو كان لا يجب ان يقرر ما تضيق بهِ نفس المطالع فانهُ ملزوم ان يبين كل شرور الحروب واعمالها البربرية خدمة للجنس البشري . والقتال يقسي القلب فلا تتعجب عندما تسمع ان الجنود الاصحاء كانوا يتمنعون عن مساعدة المرضى والجرحى . وكانوا يخافون ان يكون كل مريض مطعونًا وكان الجنود يضحكون حين يرون العساكر التي وصلت الى حالة التلف تقع على الارض من خوار العزم



ثم تنهض وتقع ولا تقدر ان تقوم . ولما راى احد الجنود جنديًا يقع ويقوم قال انهُ قد صفى حساباتهِ فقال اخر انهُ لا يتقدم كثيرًا . ولما وقع ذلك المنكود الحظ الوقعة الاخيرة التي لم ينهض منها قالوا قد فاز بالحصول على منزلهِ . وكانوا يتكلمون هذا الكلام بلا شفقة ولا حنو كان الاجسام التي كانوا يرونها معذبة ذلك العذاب الشديد كانت لا تشعر بالالم كالصخور او كاغصان الاشجار التي يحركها الهواء . وكان فرسان البدو يتعدون على اطراف الجيش . فكان يدافع عن نفسهِ ويحرق القرى والمزروعات وكانت الجنود تتبع العذارى والنساء المتزوجات الصارخات الخائفات كانهم وحوش هائجة . وهذه الاعمال هي غالبًا مرافقة للجيوش وهي تسير فان شر البشر واشقاهم واقلهم ناموسًا ينتظمون في سلك العسكرية ويتعاطون تلك التجارة الدموية . وكان بونابرت يتاسف عند ما يرى شر الوسائط التي يستخدمها للحصول على مقاصدهِ . وليس لهُ غير عذر واحد وهو عذر كل الذين كانوا يثيرون الحروب في تلك الايام والذين يقيمونها في ايامنا هذه وهو انهُ وان كانت الحرب مجلبة لكل ويل فانها شرٌّ لا غنى عنهُ . وكانت الجنود تسر ان تطلق عليها البنادق من نوافذ البيوت لان ذلك كان يفتح لهم بابًا للدخول اليها ولفعل افعال الوحوش في غرفها . وكان المطعونون يسيرون على مراى من الجيش لكن بعيدًا عنهُ وكانت منازلهم في الليل منفصلة كل الانفصال عن منازل الجيش والجنود التي كانت تهجم على صفوف المدافع بدون مبالاة ولا خوف كانت تخاف ان تدنو منها . اما بونابرت فكان يضرب خيمتهُ على الدوام بالقرب من خيمهم . وكان يزورهم كل ليلة ليرى بعينيهِ انهم حاصلون على كل ما يلزم لهم . وكان كل صباح ياتيهم كما ياتي الاب اولادهُ ليراهم يسيرون . وحنو ذلك الانسان الفريد الذي كان ذا شهرة مالئة كل الدنيا كان يجعل قلوب الجنود تتعلق بهِ لانهُ يستحق حبهم . وكل اهل هذا القرن الراشدين الذين ذهبوا الى قصر المبعوثين في باريس راوا قليلين من الذين طالت حياتهم وراوا ما يبين لهم شدة محبتهم لبونابرت عند ذكر اسمهِ مع انهُ مات منذ زمان طويل . ولا ريب في انهُ لم ينل انسان ما نالهُ من حب جنودهِ وصداقتهم . وكانت محبة اهل زمانهِ لهُ تشتد كلما طالت معرفتهم لهُ

وفي ذات يوم من ايام مسيرهم في الجيش انتهم قبيلة من البدو وطلبت الى بونابرت ان يستخدمها لتدلهُ على الطريق . وكان ابن شيخ هذه القبيلة راكبًا هجينًا وعمرهُ ١٢ سنة فسار بجانب بونابرت واخذ يتكلم معهُ تكلم صديق قديم فقال لهُ يا ايها السلطان الكبير بما انك راجع الى القاهرة اشير عليك بامر مناسب لك . فاجابهُ بونابرت قائلاً ياصديقي تكلم بما بدا لك فان استصوبت مشورتك عملت بها . فقال لو كنت انا انت لدعوت اليَّ اعظم تجار السراري عند وصولي الى القاهرة وامرتهُ ان ياتيني بعشرين جارية من اجمل الجواري . وبعد ذلك ادعو اليَّ اغنى اصحاب الجواهر وامرهم ان يعطوني قسمًا من جواهرهم وهكذا لانهُ ما الفائدة من الملك اذا لم يجمع الانسان

يومالاً جزيلاً ويحصل على الرفاه والنعيم . فقال نابوليون اما تظن ان الكريم يجب ترك هذه الاشياء ليتمتع بها اصحابها . فتحير ذلك الصبي لانهُ لم يكن يفهم المقصود من كلامهِ . وقال بونابرت انهُ كان كريمًا نبيهًا يقود جنودهُ بانتظام وجلال

وبعد ان غاب بونابرت ثلثة اشهر عن القاهرة رجع اليها ودخلها باحتفالات عظيمة . على انهُ تكدر لما راى ان الجيش غير مرتضٍ فانهُ كان قد غاب عن فرنسا سنة . وانقطعت الاخبار عنهُ ستة اشهر لانهُ لم يتمكن مركب فرنسوي من ان يقطع البحر المتوسط في تلك المدة بطولها فلما راى بونابرت انهُ لم ينجح في تنفيذ مقاصدهِ في الشرق اخذ يوجه افكارهُ الى فرنسا ولكنهُ عرف ان في رودس جيشًا عثمانيًا وبوارج انكليزية وروسية وان ذلك الجيش وتلك البوارج كانت مستعدة ان تاتي مصر لتحارب الفرنسويين فيها ولذلك لم يرد ان يترك الجيش في مصر ليرجع الى فرنسا الا بعد ان يخلصهُ من اولئك الاعداء الالداء الاقوياء . ولم يكن يعرف زمان وصولهم الى شواطىء الديار المصرية ولا المكان الذي صمموا ان يحلوا فيهِ فالتزم ان ينتظر وصولهم ففي ذات يوم من تموز (جوليه) كان يتمشى مع صديق لهُ في ضواحي القاهرة في ظل الاهرام فراى عن بعد فارسًا من العرب يسير بسرعة وقد غشيهُ الغبار . وكان مع هذا الفارس رسائل من الاسكندرية مآلها ان بوارج كثيرة قوية دخلت مينا ابي قير . ونزل الى البر منها ١٨ الف جندي عثماني من الابطال الذين لايخافون الموت وان كلاًّ منهم متقلد بندقية وغدارة وسيفًا . ومعهم مدافع كثيرة وقوادها من الانكليز الحاذقين والبوارج الانكليزية والروسية متحدة على عضد هذا الجيش ومهماتهِ ومراد بك ومعهُ جيش عرمرم من المماليك قطع القفر لينضم الى هذه الجيوش وتلك الجنود العثمانية ففتحت قرية ابي قير وقطعت حراسها اربًا اربًا والزمت قلعتها بان تسلم . وهكذا تجددت الحرب في الديار المصرية

فعند ما وقف بونابرت على هذه الاخبار دخل خيمتهُ وصرف الى ما بعد نصف الليل بثلث ساعات وهو يملي الاوامر التي بعث بها الى القواد عن تقدم الجيش وفروض الحراس الذين كان مصمًا ان يبقيهم في القاهرة وفي المراكز الاخرى الحربية . وبعد نصف الليل باربع ساعات ركب فرسهُ وسار في الجيش قاصدًا ابا قير . وكان ملتزمًا ان يفرق جيشهُ فبعضهُ كان في الصعيد وبعضهُ عند الحدود لمنع تعديات السوريين وبعضهُ في الاسكندرية ولذلك لم يقدر ان يركب الا في ثمانية الاف جندي وكان يسير بهم ليلاً ونهارًا والشمس ذات حرارة تكاد تكون كحرارة النار والغبار يعمي الابصار والمسير في الرمال متعبًا والزاد والماء قليلين . ومع ذلك كانوا كانهم حديد لايشعرون بالمشقات والاتعاب او كانهم يسيرون بقوة بخارية لاتكل ولا تتعب حتى وصل بهم الى خليج ابي قير في سبعة ايام ومن يستغرب قولنا ان العالم بات متعجبًا ومتحيرًا لما سمع ان بونابرت



قطع تلك المسافة البعيدة المتعبة في سبعة ايام

وفي نصف الليل في ٢٥ تموز (جوليه) سنة ١٧٩٩ وصل هو وستة الاف رجل الى مكان يقدر ان يرى منهُ معسكر الجيش العثماني محاطًا بالاستحكامات القوية والخنادق الواسعة . فانهم اقاموها ابين تلال الرمال المرتفعة عند الخليج فصعد بونابرت الى مكان مرتفع ودقق النظر في اعدائهِ وكانوا حينئذٍ نائمين . وراى بواسطة ضو القمر البوارج الكثيرة في البحر وعرف باختبارهِ هذه الامور عدد جيش اعدائهِ مع فرسانهم ومدافعهم وهم نائمون امامهُ . وكان يعلم ان ذلك الجيش كان منتظرًا قدوم جيش المماليك القوي من سورية وقدوم جيوش ومهمات كثيرة من عكا ومحلات اخرى . وكان كليبر لايزال متاخرًا هو وفرقة عددها الف جندي . ومع ذلك صمم بونابرت ان يهاجر عدوهُ حالاً ولو كان عددهُ ١٨ الفًا . وهذا امر غريب : فان الجيش العثماني كان من الانكشارية الباسلين الاقوياء الذين لايخافون الموت وكانت قوادهم من الانكليز ومهندسوهم من الفرنسويين . وكان بونابرت قد نزل في ذلك المكان قبل هذا بسنة . وراى المكان الذي كانت فيهِ بوارج الانكليز والروسيين منتخرة بكونها كسرت البوارج الفرنسوية القوية . ولذلك كان بونابرت شديد الرغبة في القيام بالثار . ولما كان واقفًا صامتًا ينظر الى ما امامهُ والجنرال مورات بجانبهِ خطرت ببالهِ اهمية نتائج هذه المعركة فانهُ اذا انكسر ينحط شانهُ الى الابد ويبيت لايقدر ان يخرج من مصر قاصدًا فرنسا بدون ان يخسر كرامتهُ واذا انتصر يقدر ان يخرج من مصر خروج رجل لايكسر تاركًا جيشهُ ليحافظ على البلاد التي فتحها وان دخولهُ الى فرنسا في تلك الايام التي لم تكن فيها الاحوال مستقرة يمكنهُ من الوصول الى ارفع درجات المجد والعظمة . وكانت هذه الافكار عندهُ كامر مقرر لاريب فيهِ ولذلك قال لمورات على هذه المعركة يتوقف نصيب العالم . فلم يفهم مورات مقصد بونابرت لانهُ لم يكن عارفًا باتساع دائرة مقاصدهِ وامالهِ ولا بالاعتبار الذي كان يعتبر اعمالهُ بهِ ولذلك قال لهُ اذ لم يكن نصيب العالم متوقفًا عليها يكون نصيب هذا الجيش ثم قال مورات ان كل فرنسوي يعرف انهُ لابد من الموت او الفوز واعلم انهُ اذا كانت كثرة هجمات الفرسان في الدنيا قد تمكنت في معركة من معاركها من ان تضايق على المشاة لاتكون تلك المضايقة تحاكي المضايقة التي ستحل بالعثمانيين نهار غد بواسطة هجمات فرساني . وعند طلوع الفجر اجفل الجيش العثماني بصوت تقدم الصفوف الفرنسوية وباطلاقهم في وسط خنادقهم مئات من الكرات المحشوة دفعة واحدة وبعد ذلك شبت نيران معركة ليس لها مثيل في معارك الدنيا . فان حذق بونابرت لم يات بنتائج تحاكي النتائج التي اتى بها في ذلك اليوم الذي جرت فيهِ الدماء انهارًا وكان واقفًا على تل صامتًا ومستكنًا كانهُ لايجري حولهُ شيء ذو اهمية وهو يدبر الحرب بحذق يكاد يفوق حذق البشر فكان كانهُ مصدر قوة تفعل بدون ان يراها الانسان . وكان هجوم الفرنسويين على ذلك الجيش

الجرار كهجوم الذئاب الضارية ولذلك لم يقدران يثبت امامهم وكان الفرنسويون يعلمون ان بوارجهم امست مكسرة في ذلك الخليج وانهم لا يقدرون ان يمحوا عنهم العار الذي لحق بهم الا بواسطة الانتصار على اعدائهم في ذلك المكان انتصاراً اعظم من نصر البوارج الانكليزية على بوارجهم وان ملوك اوربا كانت قد اتحدت لتنكس جمهوريتهم وتبطلها . وانهم سنة الاف جندي مع ان اعداءهم عشرون الفاً وهم جنود الدولة العلية وانكلترا وروسيا ومدافعها جميعاً و بوارجها ولذلك كانوا يقاتلون بعزم وثبات لا مزيد عليهما . فاوقعت شدة هجماتهم وحسن انتظامها جيش اعدائهم في اضطراب وارتباك فبات بعضهم يندفع عن البعض الاخر بلا ترتيب . وكان الفرنسويون متعودين حشو بنادقهم بسرعة لا مزيد عليها ولذلك تمكنوا من ان يطلقوا الرصاص عليهم بلا انقطاع و بسرعة عجيبة فكان يقع عليهم كانه برد كثير منحدر من السماء وكان ذلك سبباً لازدياد خوفهم وارتباكهم حتى ان الفرنسويين كانوا يمزقونهم بالحراب والسيوف ويدوسونهم بارجل حديدية فضايقوهم اشد مضايقة واوقعوا في قلوبهم خوفاً حمل الوفاً منهم من المشاة والفرسان على ان يدخلوا البحر ويحاولوا النجاة بالوصول سباحةً الى المراكب ولو لم يضعف الخوف عقولهم لما فعلوا ما فعلوا لان المراكب كانت بعيدة عن الشاطي مسافة ثلثة اميال . اما بونابرت فكان يدير ذلك القتال بهدوء وعند ما راى الجنود في البحر امر بان تطلق مدافعه الكثيرة على ذلك الجيش العظيم الذي بات اكثره في المياه فاطلقت بعد ان حشيت بمئات من الكرات الرصاصية والحديدية فكانت تصيب اولئك المنكودي الحظ وهم في المياه وتقتلهم مئات مئات . وكان ذلك الجيش مقيماً في طرف راس داخل في البحر فلم يكونوا قادرين ان ينجوا ولم يرتضوا ان يسلموا فعرف بونابرت حقيقة الحالة التي باتوا فيها ولذلك عزم بعد ان راى ما راى من فوزه العجيب ان ينتصر انتصاراً في ابي قير يمحو العار الذي لحق بفرنسا بسبب انكسار بوارجها هناك ويجعل الفوز في ذلك المكان للفرنسويين . اما الجنرال مورات فلم يقصر بوفاء الوعد الذي وعد به بونابرت قبل انتشاب القتال فهجم وهو راكب على جواده الكريم وخرق تلك الصفوف الكثيرة المرتبكة ومر في الاماكن التي كان القتال فيها مشتداً جداً وسار غير مبال بالمخاطر التي كانت تحيط به الى ان وصل الى وسط ذلك الجيش حيث كان مصطفى باشا قائده واعوانه واقفين . وكان ذلك الباشا جسوراً متكبراً فلما راى مورات امامه اطلق عليه غدارته ولكنه قبل ان تبدد دخانها تمكن من ضربه بسيفه على يده التي كانت الغدارة فيها فقطعها بالقرب من المعصم فحمله الفرنسويون وذهبوا به الى بونابرت مسرورين . اما مورات فجرح برصاصة مصطفى باشا جرحاً خفيفاً جداً . ولما قابله بونابرت وراه مضطرباً جداً اراد ان يسليه بالملاطفة وحسن المعاملة فقال له اني ساخبر السلطان بالشجاعة التي اظهرتها في هذه المعركة ولو كان النصيب قد مكنني من الانتصار عليك فيها . فاجاب مصطفى باشا بجسارة لا



تكلف نفسك ذلك فان مولاي يعرفني اكثر منك . وقبل ان مضى اربع ساعات بعد الظهر فني جميع ذلك الجيش ولم ينج منه غير عدد قليل جداً واسر منه الف جندي كانوا في القلعة اما الباقون فغرقوا في البحر وقتلوا في القتال في البر والسار سدني سميث الانكليزي هو الذي جعل الجيش العثماني يحل في ذلك المكان وكان يكاد يقع في يد الفرنسويين الا انه بينما كان ذلك القتال الشديد المخيف قائماً على قدم وساق تمكن من ان يركب قارباً و يرجع الى بارجته فامسى على وجه مياه خليج ابي قير اكثر من ١٢ الف جثة من جثث اولئك الجنود واحمر ماؤه وهذا بعد ان هلك فيه منذ برهة ليست بطويلة نحو ١٢ الف فرنسوي عند ما كسرت البوارج الانكليزية البوارج الفرنسوية ولم يرد في التواريخ خبر قتل جيش جرار عن اخره قبل خبر معركة ابي قير

وعند المساء انتهى كل شيء وسادت السكينة في ذلك المكان الذي كان قبل ذلك كانه جهنم فوقف بونابرت في باب خيمته واخذ ينظر الى المكان الذي غاصت فيه جيوش اعدائه بغتةً ببسالته وشجاعته وحسن ادارته . وعند ذلك وصل كليبر ومعه فرقته التي لم يرتض بونابرت ان ينتظر وصولها وعددها الفا جندي . وكان كليبر من الابطال المشهورين يحب بونابرت حباً شديداً ويتعجب من اعماله واجراآته فلما راى الفوز العظيم الذي حصل عليه بونابرت قبل وصوله اشتد فرحه وهاجت الحمية في صدره فاعتنق بونابرت وقال له اسمح لي بان اقبلك يا قائدي فانك عظيم كالدنيا . وهكذا باتت مصر في هدو وسكينة فان بونابرت بدد شمل كل اعدائها ولم يبق الا ادارة مهمات المستعمرة الجديدة الصغيرة وهذه الادارة هي من الامور السهلة التي يقدر ان يقوم بها حاكم متوسط

ومن المعلوم ان المصائب التي طرات على الفرنسويين بسبب انكسار بوارجهم جعلت فتوحات بونابرت العظيمة في الشرق قليلة الاهمية مع انها كلفت فرنسا مصاريف كثيرة واهلكت كثيرين من رجالها ولم يكن الجيش الفرنسوي بعد انقطاع الاتصالية بينه و بين فرنسا قادراً ان يذهب لمهاجمة الهند . ولم تكن مصر ذات نفع لفرنسا بعد ان باتت مقطوعة عنها بالبوارج الانكليزية الكثيرة والبوارج العثمانية والروسية وكان ذلك واسطة لمنع الفرنسويين عن ركوب البحر والرجوع الى وطنهم . وهكذا نرى ان فوز الفرنسويين العظيم في الشرق مكنهم من ان يقيموا لانفسهم سجناً يقدرون ان يدفعوا عنه اعداءهم ولكنهم لا يقدرون ان يخرجوا منه . اما بونابرت فلم يكن من الذين يرضيهم الحصول على مملكة كمصر . ولذلك كان يعتقد ان نصيبه لم يمكنه من ان يقيم امبراطورية في الشرق تقوده الى ان يقيم مثلها في الغرب . وانقطعت اخبار اوربا عن بونابرت عشرة اشهر . غير ان السار سدني سميث بعد معركة ابي قير بعث اليه بجرائد كثيرة ليلاطفه كما يليق بالذين هم اصحاب اخلاق كريمة واما ليكيده بارسال جرائد فيها اخبار ردية بخصوص فرنسا . وبعد ان بات ذلك

الجيش العرمرم مدفونًا اما في رمال ابي قير واما تحت مياهه اقلعت البوارج التي اتت به وسارت . اما بونابرت فلما اخذ تلك الجرائد صرف الليل بطوله في مطالعتها فراى بها ما بين له الاضطراب الذي وقعت فيه فرنسا . وان الحكومة الادارية كانت تحكم بدناءة وجهل ولذلك باتت الامة تحتقرها وان الاختلافات والفتن كانت مالئة فرنسا . وتعجب لما سمع انها جددت محاربة ملوك اوربا وان النمسويين استرجعوا ايطاليا والزموا الفرنسويين بالتقهقر الى وراء جبال الالب وان جنود ملوك اوربا الكثيرة المتحدة اخذة في الاجتماع عند حدود الجمهورية المضطربة . فقال لكاتبيه بورين اه قد جرى ما كنت اتوقعهُ فان اولئك الحمقى خسروا ايطاليا واضاعوا اثمار انتصاراتنا فيها فلا بد من مبارحتي مصر لتعوض ما خسروهُ ونخلص فرنسا من الخراب . ومن مزايا بونابرت التي فاق بها غيرهُ من اعظم رجال العالم ان عزمهُ ناتج عن قوة غريزية لا عن مفاوضات وتبصر في الامور فان افكارهُ كانت تزن الامور في لحظة وتحملهُ على ادراك النتيجة والشروع في العمل بعزم . وكانت آراؤهُ اكثر اصابةً من ان تصدر عن تاملات طويلة ومفاوضات كثيرة لا تتم باقل من بضعة اسابيع فكان لا يقع في ارتباك لحظة واحدة ولو كان في وسط معركة عظيمة كثيرة الابواب والتقلبات . ولم يكن يتردد بين امرين بل كان يبرم الامر حالاً ويقوم بالعمل بحزم وسرعة عجيبة . وكان ذلك سرًّا من اسرار قدرته العظيمة لم ينحصر في امر واحد . ولم نرَ شيئًا يشابه سرعة خاطره في ابرام الامور الاَّ سرعة اجراآتهِ . وهكذا كان يفعل في بضع ساعات ما لا يقدر غيرهُ ان يفعلهُ في ايام كثيرة . وبناء على ذلك لم يعق بالتاملات والمفاوضات عن التصميم حالاً على الرجوع الى فرنسا وبسرعة عجيبة قرر في فكرهِ كل ما يلزم بخصوص ادارة الجيش في غيابهِ وسياسة البلاد والذين سياخذهم معهُ فدعا اليهِ بورين وبرتيه وكانتيوم واخبرهم بذلك وامرهم بان يكتموا الامر كل الكتم لئلا يصل الخبر الى الاعداء . وامر كانتيوم ان يجهز بارجتين ومركبين صغيرين ويضع فيها زادًا يكفي اربعمائة رجل شهرين . وبعد ذلك رجع بالجيش الى القاهرة ودخلها في ١٠ اب (اوغسطس) دخول منتصر لا يقدر احد ان يكسرهُ . والهى جيشهُ عن محاولة الوقوف على مقاصدهِ بتهيئة قوم لفحص احوال مصر . فقال يومًا انهُ يريد الذهاب الى مصب النيل ليفحص الدلتا فسار في قوم من اعوانهِ وقطع القفر بسرعة عظيمة فوصل الى الاسكندرية في ٢٢ اب (اوغسطس) وعند ما خيم الظلام خرج منها ومعهُ ثمانية من اعوانهِ المتنكرين وبعض حراسهِ الامناء فساروا صامتين مسرعين الى جهة لا ياتيها احد من المينا وكان اعوانهُ يتعجبون لانهم لم يعرفوا المقصود . ولما بلغوا المكان المذكور راوا بارجتين وبعض قوارب صيادين . وعند ذلك قال لهم انهم ذاهبون الى فرنسا . ففرحوا جدًّا . ونزلوا عن افراسهم وتركوها ترجع من تلقاء نفسها الى الاسكندرية وركبوا القوارب وساروا الى المراكب فنشرت شراعاتها وقبل ان اصبح الصباح توارت عن شواطىء مصر



قلنا ان بونابرت لم يكن من القواد الذين يكتفون بالقيام بالاجراآت الحربية وفتح البلاد وكسر جيوش الاعداء للاستيلاء عليها ولكنهُ كان يهتم في الامور العلمية والتجارية والصناعية وكل ما من شانهِ توطيد نتائج الفتوحات بتثبيت اسباب رفاهية الامم وتقدمها . وذكرنا كلامًا طويلاً بهذا الشان في ذكر فتحهِ البلاد المصرية ولم يكتفِ بها فانهُ كان مهتمًّا بفتح برزخ السويس لوصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر ليقرب الهند واقاصي الشرق تقريبًا يجمع بين نفع السياسة والتجارة . فذهب الى البرزخ المذكور بنفسهِ ليسبرهُ ويتفحص ما يلزم لفتحهِ قبل ان ذهب بجيشهِ لفتح سورية . فامر بتشييد ابنية لتتوية مينا السويس باقامة خدمة بحرية وفي ذات يوم ركب في كثيرين من قومهِ وسار الى المكان الذي يقال ان بني اسرائيل عبروا منهُ قديمًا وكان الجزر قد بلغ غايتهُ فقطع ماشيًا على اماكن مرتفعة في البحر . واخذ يتفرج على امور كثيرة متعلقة بالجغرافية والتاريخ وغيرها فلم يقفل راجعًا الا عند العصر او بعدهُ . فغابت الشمس قبل وصولهِ الى ارض مصر وخيم الظلام بسرعة فضلوا عن الطريق وتاهوا في تلك الرمال خائفين لان المد كاد يغرقهم واحاطت بهم المياه مرتفعة بالتدريج حتى وصلت بطون الخيل فكادوا يأسون من النجاة . وكان بونابرت لا يرتبك عند حلول النوائب فلم يضطرب وجمع رجالهُ نصف دوائر وادار وجه كل فارس منهم الى جهة ظاهر الدائرة وامرهم بان يتقدموا فكان اذا دخل فرس دليل الدائرة في مكان عميق يبتديهُ يسبح فيرجع فرسان الدائرة عن ذلك المكان ويتبعون دائرة اخرى . وهكذا تمكنوا جميعهم من النجاة ولم يصلوا الى الشاطىء الا عند نصف الليل وكانت المياه قد بلغت رقاب افراسهم فانها ترتفع بالمد ٢٢ قدمًا في ذلك المكان . فقال بونابرت لو هلكت غرقًا كنفرعون لجعلني الواعظون المسيحيون عبرةً اخرى

## الفصل الثاني عشر

### خروج بونابرت من مصر

ان ذهاب الفرنسويين الى مصر لفتحها ومضايقة الانكليز في الهند من اعظم الاعمال التي خطرت لمخلوق . ورجوع بونابرت الى باريس بعد حدوث ما حدث يبين سمو افكارهِ وعظمة مقاصدهِ تبيينًا يظهر ان ما ساقهُ الى ذلك اعظم مما ساقهُ الى الشرق . ولولا انكسار البوارج في ابي قير لنال ماربهُ واحدث تغييرًا عظيمًا في المشرق . واذ راى الجيش محصورًا في بلاد مصر وامداداتهُ مقطوعة ولا يقدر ان يسعفهُ بالاقامة في مصر قصد فرنسا لارسال ما يلزمهُ من النجدة والذخيرة وما ذلك الا لشدة حبهِ لجنودهِ . وخروجهُ من البلاد سرًّا كان من شانهِ التكفل بنجاحهِ . لانهُ لو عرف القوم بذلك لبلغ الانكليز وساروا بكل اجتهاد في طلب المركب الذي سافر فيهِ . وكانت بوارجهم في البحر المتوسط كثيرة فلو سارت في طلبهِ لادركتهُ . وكل من يسمع بجسارة بونابرت في ركوب البحرين المخاطر

يتعجب منهُ ويثني عليهِ وعلى الخصوص لانهُ كان ذاهبًا الى بلاد حالتها غير مرضية واما لهُ تحملهُ على النظر الى مستقبل سعيد . فان فرنسا صرفت عشر سنوات باضطراب مخيف وهيجان مزعج . ولم يبقَ خارجها شيء من شرور العالم الا دخلها دخولاً يقصر القلم عن وصفهِ . فتورطت في الرذائل والفواحش انقيادًا للطبيعة الساقطة فكانت نتائجها وخيمة وشرورها مهلكة . ودمرت النار قصور الاغنياء وضرجت بدماء الاباء والاخوة والاقارب الحدائق التي كانت منتزهًا للكبار والصغار ذكورًا واناثًا امهات وبنات . وكان السلب شان الاهالي وافة البلاد فانهم سلبوا كل ما تيسر لهم سلبهُ من الاملاك والارزاق فبات الوف من المنكودي الحظ خارج بيوتهم في عناء وفقر حتى ان كثيرين منهم ماتوا كآبة وهمًّا واحتياجًا . والشهوات والفحشاء جعلت فرنسا الجميلة منزلاً وخيمًا للتعديات والفساد . وصارت القوانين فيها تحت ارادة اهل الثورة الذين كانوا يتهددون القضاة والمجالس بالويل والهوان اذا تمنعوا عن تقرير ما كانوا يطلبون واقاموا الات لقطع رووس الذين كانوا يخالفونهم في المبادىء والاراء فكان دم الاهالي جامدًا عليها على الدوام . وكانوا يقيمون اليوم نظامًا ثم يبطلونهُ غدًا ويقيمون غيرهُ بحساب مقتضيات صوالحهم . وكان ملوك اوربا متحدين ينظرون الى حوادث فرنسا بعين الخوف والرعبة ولذلك شرعوا يحيطون بها بجيوشهم وبوارجهم ليقيموا فيها ملكية طالما حملت اثقالها . فان الملوك والامراء كانوا قد استعبدوها قرونًا كثيرة الى ان ملت من الاستعباد لهم . فكان الاهالي يقولون لهم اننا نحن ملايين فلا نقدر ان نخدمكم كما خدمنا شهواتكم وكبرياءكم . فاجابوهم انهُ لابد من دوام الحال السابقة . فاجابهم البلاط الفاتيكاني بانهُ لابد من رجوعكم الى الحالة التي خرجتم منها وكذلك بلاط فينا والباب العالي حتى ان نفس انكلترا المملكة المقيدة النظامية التي تحب الحرية كانت تقول لهم لا بد من ان تقيدوا في الاغلال التي قطعتموها . وهكذا باتت فرنسا كجبل نار هائج واوربا مجاري سوائلهِ المحرقة . فحل بها الياس واغمضت الامة طرفها عن كل الامور وهي مشتغلة في الدفاع عن نفسها . فامست قصور الامراء اثارًا للملاهي والمظالم والعبودية . وكانت العامة المضطربة تصرخ صراخ البغض وهي تدك الحصون وتعيث في البلاد . فامست قصور الملوك التي كانت ميدانًا لملذات الملوك المحرمة قرونًا كثيرة اشارة الى القيود التي كسرها الشعب ليخلص من ثقلها . وهكذا انتقلت فرنسا بخطوة واحدة من الظلم الملكي الى مظالم تعديات الجمهور . فان الملك الظالم اللابس اكليل الذهب المرصع والحامل الصولجان الثمين والمحاط بالثروة والتنعمات والامراء صار ذكرهُ لديهم مخيفًا وركب سريرهُ كثيرون من اهل الشقاء والتعدي الذين يحبون سفك الدماء والرذائل وهم الذين كانوا يخرجون من معامل الصنائع وحفر المعادن ومنازل الشر والفحشاء ليتمتعوا بما طالما تمنوه فكانوا باعمالهم كمردة الجن في الحكايات . فان فرنسا خلعت الملكية ومظالمها ولكنها لم تنتقل منها الى الجمهورية المنظمة المرتبة بل الى سلطان السفلة



من اهل الثورة . وكان بونابرت يكرهُ من كل قلبهِ ظلم الملوك كما انهُ كان لا يطيق سياسة السفلة الفاسدة غير المنظمة الخالية من العدل والانصاف والمقامة على اساسات مبنية بالدم والسلب وكان يفضل الملكية ولو كانت ظالمة على هذه الجمهورية التي هي فساد الجمهوريات وبناء على ذلك قال مرات كثيرة اذا خيرت بين ظلم البوربون واضطرابات العامة وظلمهم غير المرتب لاخترت الاول وهكذا بقيت حالة فرنسا نحو عشر سنوات فخارت قوة الامة فطلبت الراحة . فان البلاد كانت بلا امنية ولا راحة ولم يكن فيها رجل واحد قادر ان يقود الامة الى ارادتهِ وكانت تسخر بالحكومة وتحتقرها . ولما امست فرنسا في هذا الضيق كان كثيرون يقولون اين بونابرت فانجا ايطاليا فانهُ وحدهُ قادر ان يخلصنا . وهكذا كان بونابرت يجذب اليهِ الامة بشهرتهِ العظيمة وهو بعيد عنها

فهذه هي الامور التي القى بونابرت نفسهُ فيها وكان قبل ذلك بثلث سنوات من الضباط الخاملي الذكر وكان مصممًا ان يقلب الحكومة الردية التي كانت تسوس البلاد بالارتباك والظلم والاغراض ويخمد نار الفتن الداخلية ويدفع المهاجمات الخارجية ويخلص ثلثين مليونًا من الظلم والويل والهوان . فمن يتامل في تلك الخطوب والصعوبات والموانع ولا يتعجب من عظمة مقاصدهِ وجسارتهِ وحسن نواياهُ ومنافع اجراآتهِ . وكان مزمعًا ان يصادف عدوين قويين احدهما ملوك اوربا المتحدة والاخر عامة باريس واوباشها . ومن اغرب اعمال حياتهِ العجيبة واجراآتهِ غير العادية شروعهُ في تلك الاعمال الخطيرة وهو واثق باقتدارهِ الشخصي فانهُ لم يذهب بجيوش جرارة ليدفع المضادات العظيمة ولم ينتظم في سلك موامرة سرية واسعة الدوائر كثيرة الفروع بل اتكل على قوة عقلهِ وعلى ميل الامة اليهِ وسار ومعهُ اثنان من رفاقهِ ليجمع في يدهِ ازمة السطوة المشتتة الشمل ولم يخبر رفيقيهِ بنواياهُ . وسار في البحار والمخاطر الكثيرة تحيط بهِ ولم يبت حياتهُ بطولها في مخاطر كالتي بات فيها وهو ذاهب من مصر الى فرنسا فان بوارج انكلترا وروسيا والدولة العلية وبوارج كل اوربا المتحدة كانت تملأ البحر لمضادة فرنسا واحباط اعمالها والقاء القبض على بوارجها فكيف ركب البحر وعرض نفسهُ لما كان يعلم انهُ ينجو منهُ . وكيف تجاسر ان يدخل فرنسا بتلك النوايا وحدهُ وآلة قطع الرقاب حمراء بدم كل الذين كانوا يضادون الاوباش وكيف خطر بباله ان يسير الى نفس مركز تلك القوة ليحاربها فمن يهاجر الاسد في عرينهِ

ففي ٢٢ اب سنة ١٧٩٩ ركب بونابرت البارجة موبرون قاصدًا فرنسا . وكان معهُ ثمانية جنود من الحراس وثمانية من اصحابهِ . وكان في المركب خمسمائة جندي . وكان يستتر بردائهِ والنجوم في افق سورية تتلألاء وامواج البحر المتوسط تتلاطم تحت اشعة نورها اللطيف . وعند ذلك نشرت البوارج شراعاتها وكان بونابرت صامتًا يتمشى على ظهر المركب وهو غائص في التاملات ينظر الى

شواطىء البلاد المصرية وهو يبتعد عنها . اما رفاقهُ ففرحوا بالعود الى فرنسا بعد ان غابوا عنها زمانًا طويلاً . واما بونابرت فلم يظهر ما يدل على فرحهِ وكدرهِ لكن لوائح الهدو والراحة كانت تلوح على وجههِ وكانت تاملاتهُ دائمًا عظيمة . وكان يزور جنودهُ وهم جالسون في المعسكر يكلمهم بلطف ودعة كانهُ واحد منهم ومع ذلك كانوا يحترمونهُ فاجمع لهُ في قلوبهم الحب والوقار ولم يظهر شيئًا مما يدل على الكبرياء الا انهُ كان يظهر انهُ ارفع منهم جميعًا . وفيما كانوا يتكلمون عن الالعاب والخمر والنساء الجميلات كان هو يشغل افكارهُ بتاسيس الممالك والشهرة وتنظيم احوال مستقبل الامم فلم يكونوا يعدونهُ رفيقًا ولكنهم كانوا يعتبرونهُ سيدًا يجبون ان ينفذوا اوامرهُ لتاكدهم انهُ يقودهم الى الغنى والشهرة والسعادة ولم يكن هو يعتبرهم رفاقًا مساوين لهُ ولكن كالات لتنفيذ مقاصدهِ

وكان عندهُ مورات بمثابة عشرة الاف فارس مستعدين على الدوام ان يهجموا هجمات لا ترد ولان بمثابة جيش من المشاة لا تقدر ان تخرق صفوفهُ المدافع ولا جيوش الفرسان وكذلك اوجيرو فهولاء هم اعضاء جسد بونابرت وهو مقام الروح منهُ يامر الاعضاء فتطيع ويديرها بحذق عجيب ويقودها الى اعمال تفوق قدرة البشر . ولم يكونوا شركاء افكارهِ بل خدمة ارادتهِ . والذين كان بعدهم شركاء في الحاسيات والصداقة كانوا قليلين جدًا

وفي اول الامر كان بحسب الفطرة البشرية دنية جدًا ولذلك كان كثير العفو عن الزلات والهفوات . وقال مرة ان الصداقة اسم بلا مسمًى . وانني لا احب احدًا حتى اخوتي الا اخي يوسف فاني احبهُ لانهُ اكبر مني سنًا . واحب دوروك ايضًا لحسن صفاتهِ فانهُ متانٍ ومتيقظ ثابت العزم اما انا فاعلم انهُ ليس لي صديق مخلص . ومادمت على ما انا عليهِ يكون لي من الذين يدّعون محبتي عدد لا يحصى . وقيل انهُ لم يبكِ قط وكان يقول ان ضعف القلب مختص بالنساء . واذا لم يكن الرجال ذوي قلوب صبورة وعزم ثابت فلا يستحقون ان يتداخلوا في الحروب والاحكام . ولست من الذين يجعلون انفسهم محبوبين ولكنني عادل . وكان قد ذكر هذا المعنى عندما بات في احوال صعبة من شانها تليين جانب الانسان جوابًا على لاكاسا حينما لام الذين تركوا بونابرت في ساعة شدتهِ . فقال انك لا تعرف احوال الرجال ويصعب على الانسان ان يعرفها اذا حاول ان يحكم عليها بالعدل فمن يقدر ان يعرف احوال نفسهِ حق المعرفة . فلو بقيت على ما كنت عليهِ لما خطر ببال الذين تركوني ان فيهم نقصًا يحملهم على تركي في ساعة الشدة فمن النقائص ومن الفضائل ما يكون متوقفًا على الاحوال . اما ضيقاتنا الكثيرة فحملها فوق استطاعة البشر فقومي لم يخونوني بل تركوني وذلك دليل على ضعف العزم لا دليل على الخيانة كما انكر المسيح بطرس . فربما كانوا مستعدين ان يتوبوا وهم اسنون وفي اي تاريخ نرى ذكر رجل اصدقاؤهُ اكثر من اصدقاءي ومن من الناس احبهُ قومهُ اكثر مما احبني قومي . ومن تكدر اصدقاؤهُ عندما اصيب بالهوان اكثر مما تكدر اصدقاءي . وكان لاكاسا من



الذين اقاموا مع بونابرت في جزيرة هيلانة وقال عنهُ ما ياتي

انهُ ينظر الى احوال سقوطهِ نظرًا عاليًا ولا ينسب الى اعدائهِ شيئًا منهُ ولم ار منهُ دليلاً على كره الذين اضروا بهِ جدًا ولا ما يبين انهُ يحب الانتقام منهم وكان يذكرهم بتانٍ دون حدة وينسب اعمالهم على الغالب الى الاحوال المرتبكة التي باتوا فيها والى ضعف الفطرة البشرية . وكان لاكاسا يلوم مارمون لانهُ سلم باريس الى جنود اوربا المتحدة التي كانت تحارب فرنسا في اواخر الامبراطورية الاولى . فقال لهُ بونابرت ان الكبرياء سبب سقوطهِ وسيبيت ملومًا في التواريخ القادمة ومع ذلك يكون لجودة قلبهِ ذكر احسن من ذكر اعمالهِ السياسية والحربية . وقال لهُ لاكاسا ان حبك لبرتيه كان سببًا لتعجبنا فانهُ كان مدعيًا متكبرًا . فاجاب ان برتيه لم يكن خاليًا من الحذق فلا انكر عليكم حذقهُ ولا شدة ميلي اليهِ ولكنهُ كان متقلب الاراء . فقال لاكاسا انهُ كان فظًا متظاهرًا بما ليس فيهِ . فاجابهُ ياعزيزي لاكاسا ان الضعف الذي يبين لصاحبهِ انهُ مستند الى القوة هو اشد اسباب التظاهر الا تعرف شان النساء . وكان برتيه قد سلك مسلك الادنياء وترك ولي نعمتهِ وركب في صدر مركبة الملك لويس الثامن عشر لما دخل باريس فائزًا باتحاد كل اوربا على فرنسا وقال بونابرت انني احب ان يكون القيام بثاري مشاهدة برتيه المنكود الحظ لابسًا ثياب قبطان في حرس لويس . وقال بورنيه كاتب بونابرت الذي طرده من خدمتهِ ان بونابرت لم يكن من الظالمين القاسين ولا من الحقودين محبي الانتقام . فلا يقول انهُ كنيرون الروماني الا من اعماهُ الغرض والغيظ . واظن انني قد بينت اغلاطهُ وصفاتهِ غير الحسنة تبيينًا خاليًا من الغرض واذا قطعنا النظر عن السياسة نرى انهُ كان لطيف الحاسيات شفوقًا يحب الاولاد والانسان الشرير لا يحبهم وكان في اعمالهِ غير الرسمية كريمًا جدًا يسبل ذيل المعذرة على ما كان يعدهُ نتيجة ضعف الفطرة البشرية . وليس في كلامي مبالغة . واظن ان البعض يعتقدون غير ذلك فلا اقدر ان اغير افكارهم بكلامي . وربما قام من يكذبني فقررت ما قررت حبًا بالحق فانني عشت معهُ مدة ولم يكتم عني شيئًا الى ان بلغت سن ٢٤ سنة فلا اكتب شيئًا غير محقق عندي فهذا كلام رجل طردهُ ونابرت من خدمتهِ وخدم البوربون بعدهُ وصار من اكابر رجال بلاطهم . وشهادتهُ شهادة عدو منصف

اما خروجهم من مينا الاسكندرية فكان ليلاً ليقطعوا البحر حيث كانت البوارج الانكليزية تراقبهم قبل ان يصبح الصباح . غير ان الريح عكست عند نصف الليل ولم تكن البوارج في ذلك الزمان بخارية فخافوا من ان ياسرهم الانكليز فقال بعضهم الاوفق الرجوع الى الاسكندرية . فقال لهم بونابرت لا تخافوا فاننا نجتاز ذلك المكان ولا نصادف وبلاً وكان الاميرال جانتيوم رئيس البوارج الفرنسوية التي كانت ذاهبة مع بونابرت يجب ان يذهب الى فرنسا قاطعًا اقرب الطرق .

اما بونابرت فلم يقبل بذلك وامرهُ ان يسير بالقرب من شواطئ افريقية الى ان يتجاوزوا جزيرة صقلية وقال لهُ اذا طاردتنا بوارج انكليزية نتقدم الى البر ونسير نحن ورجالنا القليلون بالمدافع القليلة التي معنا الى وهران او تونس ومنها الى فرنسا . وهكذا كان يسير في وسط المخاطر دون ان يبالي بها وكان اقرب المخاطر منهم وارداها الوقوع في ايدي الانكليز والاقامة في اسرهم . وبقيت الرياح مضادة لهم عشرين يومًا حتى انهم لم يقطعوا في تلك المدة ثلثمائة ميل . فخاف كثيرون من الذين كانوا في تلك البوارج وطلبوا العود الى الاسكندرية . اما شان بونابرت فكان التحمل بالصبر والبشاشة في مقام الضيق فصرف تلك المدة بلا تذمر ولا اظهار كدر وكان يقول للمتذمرين من رفاقهِ اننا سنصل الى فرنسا سالمين . وقد عزمت على مداومة المسير مع قطع النظر عن المخاطر وعندي ان سعدنا لا يتركنا

وقال بورين كاتبهُ ان الذين رافقوا بونابرت من مصر الى فرنسا كانوا يتكلمون عن مرافقة السعد لانسان من الناس دون مرافقتهِ حياتهُ بطولها . اما انا فلا اعتقد ذلك ولكن عند التامل في خلاص بونابرت من مخاطر كثيرة في المشروعات التي اقامها وفي نجاتهِ من ضيقات لا تحصى ارى الاسباب التي تحمل الناس على القول بالسعد . وقد اطلت التامل في احوال ذلك الانسان العجيب (اي بونابرت) ورايت ان ما كان القوم يسمونهُ سعدًا انما هو حذق ودراية وان نجاحهُ كان نتيجة اصابة حكمهِ في الامور المستقبلة وصحة ارائهِ السريعة واعتقاده ان الشجاعة في احوال كثيرة هي عين الحكمة . مثلاً لو لم يصر على المسير في طريق مخالفة للطريق العادية التي كان رئيس البوارج يطلب السير فيها وهو ذاهب من مصر الى فرنسا لما تيسر لهُ ان ينجو من المخاطر . ولو نجا منها لكان ذلك من خوارق العادة . فهل يقال ان ذلك نتيجة الصدفة . انتهى

وكان بونابرت يصرف وقتهُ في مطالعة كتب مختارة كان يستصحبها دائمًا معهُ ويكتب ويحل المشاكل الهندسية ويبحث في الامور الكيماوية ويصرف وقتًا طويلاً في الحديث مع اهل المعارف المشهورين الذين معهُ . وهكذا كانت افكارهُ غائصة في بحار العلوم . وشرع يطالع التوراة والقرآن ويقابل بينهما مقابلة اهل الحكمة والمعارف . وكان يحب ان يقرأ موعظة المسيح على الجبل فانهُ سرَّ بها وكان يدعو رفاقهُ وهم مشتغلون بلعب الورق ليقراها عليهم ليسروا بالاداب التي تضمنتها وبنصائحها

فقال لهُ احد رفاقهِ الكفرة انك ستصير من اهل الدين بعد زمان قصير . فقال لهُ ياحبذا لو صرت منهم فان التعاليم المسيحية هي تعزية عظيمة للذين لا يرتابون في صحتها . وفي ذات يوم تامل في المشاق التي يحملها النصارى والضيقات التي يانون بها انفسهم طلبًا للخلاص وفي الدين الاسلامي وقال ان دين المسيح وعيد ودين محمد وعود . مع انهُ لو بحث في النصرانية متعمقًا ونظر



الى العلاقات التي تقرر في الانجيل امتدادها بين الله والذين يحفظون وصاياهُ لقال ان النصرانية كالاسلامية وعود . وفي ذات ليلة اجتمع جمهور من الضابطين على ظهر المركب واخذوا يتكلمون عن وجود الله . وكان كثيرون منهم لا يومنون بهِ . وكان البحر مستكنًا والسماء صافية والنجوم ترسل اشعتها الى البحار وتكذب اولئك الجاحدين . وكان بونابرت يتمشى بالقرب منهم دون ان يشاركهم في الحديث وظواهره تدل على انهُ غائص في بحار التفكر . فلما سمع بعض حديثهم وقف بغتة امامهم وقال بصوت طالما حمل السامع على اعتباره اذا كان ما تقولون صحيحًا فمن صنع كل تلك العوالم التي نسير فوقنا بعظمة . من يقدر ان يجيب . فلم يكن من مجيب . ثم اخذ يتمشى وشرع اولئك الضابطون في الكلام عن امور اخرى

وكان بونابرت من اهل التعقل الذين ينظرون بعين المساواة الى جميع اهل العالم مع قطع النظر عن اديانهم واعتقاداتهم فان اعمال الانسان وصفاتهِ كانت مصدر اعتبارهِ لهُ او احتقارهِ اياهُ اما مطالعتهُ للكتب المسيحية فجعلتهُ يستحسن الدين النصراني فانهُ راى في الانجيل من المبادىء الادبية والخيرية ما ادهشهُ وحملهُ على اعتقاد فضلهِ . غير ان ذلك لم يكن واسطة لتضعيف مبادىء المساواة عندهُ لانها مقررة في ذلك الكتاب تقريرًا يجمل الذي يحقق وصاياهُ على ان ينظر بعين المساواة الى جميع البشر وان يتمنى الخير والاصلاح لعدوهِ . وقال لمونتولون وهو في جزيرة هيلانة انني اعرف الناس فاقول لك ان يسوع المسيح ليس بانسان فان دينهُ سريقوم بنفسهِ وهو صادر من عقل ليس بشريًا ونرى فيهِ ما يميزهُ عن غيرهِ بكلام وقواعد لم تكن معروفة قبلهُ . فانهُ لم ياخذ شيئًا عنا وجعل نفسهُ مثلاً لقواعدهِ . وليس هو من الفلاسفة فان براهينهُ معجزاتهُ ولذلك عبدهُ تلاميذهُ منذ البداية . ومن المعلوم ان المعارف والحكمة لا تنفع الانسان في الخلاص . فاتى المسيح العالم ليظهر اسرار السماء ونواميس الروح . انني انا والاسكندر وقيصر وشارلمان انشانا ممالك وبنينا ملكنا على القوة . والمسيح وحدهُ هو الذي بنى مملكتهُ على المحبة والان نرى ملايين من البشر يرتضون ان يموتوا في سبيل دينهِ . اما انا فساموت قبل الزمان الذي ينبغي ان اموت فيهِ فادفن واصير ماكلاً للدود وهذا هو نصيب الذي دعي نابوليون الكبير . فبين شفاهي الشديد ومملكة المسيح الابدية بون عظيم فانها محترمة محبوبة منتشرة في كل العالم . فهل يسوغ ان نقول مات من اسس مملكة كهذه المملكة . اما هو حي . فموت المسيح هو موت اله . ولما فتح مصر كان ينظر الى جميع الاديان بعين واحدة ومع انهُ كان يعتقد ان النصرانية هي اشد سلامة وحبًا لم يعتقد ان في العالم دينًا الهيًا . وقال في سياق الكلام عن اجراآتهِ في مصر ان ما فعلتهُ كان موافقًا لميل الجيش . ولم اكن اقدر ان اجعلهُ يصغي للكلام عن الدين ما لم اتكلم عنهُ بالاستحقاق واجعل النصارى والاسرائيليين والمطارنة والحاخامية في درجة واحدة . ولم يكن اعتنائي للاسلامية من الامور المستبعدة لانهُ لو

اقتضت الاحوال لاسلمت . ولا يحملني على ذلك غير تاكيدي امكان بلوغ الفرات . ومن المعلوم انهُ لا يعذر من يغير دينهُ لصالح خصوصي . لا لقيام صوالح خطيرة عظيمة سياسية . وقال الملك هنري الرابع الانكليزي ان باريس تساوي اكثر من قداس . (اي انهُ يكون قد حصل عليها ببدل قليل اذا التزم ان يقيم الصلاة في كنيسة من كنائسها لمجاراة اهلها) فهل يسوغ ان نقول ان الاستيلاء على الشرق او على كل اسيا لا يساوي عمامة وسروالاً (اي تبديل الثياب الافرنجية بلبس العمامة والسروال اي ان اعتناق الدين الاسلامي وعاداتهِ هو قليل اذا حصل بذلك على الشرق ) وكنا قد وضعنا لذلك قراراً . فان الشيوخ كانوا قد قرروا ما يسهل علينا الامر وسلموا لنا بشرب الخمر وبالفروض المتعلقة بالجسد وحصروا ذلك في ترك ثيابنا الضيقة وبرانيطنا

وكان يلوم روسو الكافر ويقول انهُ رجل شرير جداً لكونهِ مصدر الثورة في فرنسا . فقال لهُ احد الحاضرين لم اكن اظن انك من الذين يقولون ان الثورة الفرنسوية هي شر محض . فاجاب المقصود من كلامك انهُ لولا الثورة لما حصلتم عليَّ . ومع ذلك اقول ان فرنسا خسرت من سعادتها بواسطة تلك الثورة . ولما دعاهُ قوم ليروهُ منزل روسو المذكور ولباس راسهِ ومائدتهُ وكرسيهُ قال لهم انني لا احب هذه الامور التي تدل على الحماقة اروها لاخي لويس فانهُ يحبها (روسو من مشاهير كتاب فرنسا وهو الذي غير افكار الامة الفرنسوية بكتاباتهِ وهدم القوة الملكية والاميرية وقوة خدم الدين فيها وهو ينبوع الثورة الفرنسوية)

ومن اعظم فروض المورخ ان يبين اعتقاد الذين يقررون اخبارهم لان المطالع يجب الوقوف على ذلك قبل كل شيء وما نكتبهُ بهذا الشان ليس كلامنا ولكنهُ كلام بونابرت نفسهِ وناقل الكفر ليس بكافر

وكتب بونابرت عن نفسهِ وهو في سانتا هيلانة ما ربما كان يبين افكارهُ الدينية قال الدين ينبوع تعزية عظيمة فلا بد ان يكون عطية الله وهو عون لنا في الحياة ويحق لي ان انتظر ثواباً عظيماً بعد ان قمت باعمال متسعة الدائرة وصرفت حياة كثيرة الاضطراب والقلاقل دون ارتكاب الخطا فاقف يوم الدينونة امام عرش الله منتظراً حكمهُ بلا خوف البتة اذ ليس في ضميري توبيخات من ارتكاب القتل وسم البشر واهلاك قوم بنصب شرك لقتلهم مع ان هذه امور في دولة الذين حياتهم كحياتي . اما انا فطلبت السطوة لفرنسا والعظمة والمجد . وصرفت في هذا السبيل جميع اجتهاداتي وقوتي . فمن يقول ان ذلك خطأ وهو عندي فضيلة . ومن يقدر ان يصف فرحي لما ارى ان سعادة المستقبل الابدي تتقدم اليَّ لتكلل بامل الفوز نهاية وجودي . انتهى

وصمت برهة متاملاً ثم قال ولكن كيف نقدر ان نفتح طريقاً ليمر بها الاعتقاد الى قلوبنا حال كوننا نسمع كلاماً باطلاً من اكثر الذين من فروضهم انذارنا وارشادنا وفضلاً عن ذلك نرى



اعمالهم الشريرة . فانني محاط بكهنة شبانهم الادعاء بان مملكتهم ليست من هذه الدنيا ومع ذلك يسلبون كل ما يتمكنون من سلبهِ . فالبابا هو رئيس الدين الذي هو من السماء . اما البابا الحالي فهو بلا ريب حسن السيرة قديس ومع ذلك لم يستصعب ان يعرض كل ما يقدر ان يعرضهُ للتمكن من الرجوع الى رومية . وهو متساهل بادارة الكنيسة والاساقفة ليتمكن من ان يرجع الى ملكهِ الزمني . انتهى . وبعد ذلك صمت برهة غائصاً في بحر من التامل ثم قال من الامور التي لا ريب فيها انني نفعت الامم التي حكمتها بما كان عندي من ضعف الايمان ولولا ذلك لما قدرت ان انظر بعين المساواة الى طوائف متنازعة ولا تمكنت من المحافظة على استقلالية افكاري واعمالي وانا تحت سلطان من اكون ملتزماً ان اعترف لهُ وهو حاكم عليَّ بالخوف من جهنم . انتهى . ثم طلب ان يولى بالانجيل فاخذ يقرأ من اولهِ بصوت مرتفع فقرأ حتى عظة المسيح على الجبل . وقال بعد ان قرأ المعجزة هي طهارة ذلك الكلام وعلو درجتهِ وصفاء ادابهِ . انتهى

وكانت الرياح تهب مضادة للمراكب التي كان بونابرت وقومهُ ذاهبين فيها من مصر الى فرنسا وبقيت على تلك الحال اربعين يوماً . وفي اول تشرين الاول (اكتوبر) بلغوا جزيرة كورسيكا والتجأوا الى مينا اجابو . فسمع اهلها ان بونابرت وصل الى جزيرتهِ اي مسقط راسهِ وانتشر الخبر بسرعة فاجتمع السكان عند الشاطىء ليروا ابن وطنهم المشهور . فقال بونابرت الظاهر ان نصف اهلها وجدوا بيني وبينهم علاقات قرابة . انتهى . مع انهُ قبل ذلك بسنين قليلة نهب القوم بيت مادام لوتيسيا وطردوا كل العائلة البونابرتية من بيوتها فالتزمت ان تطلب الامان بالهرب ليلاً بقارب صغير . وكانوا جميعاً يفتخرون بهِ لما اتاهم طائر الصيت ولم يذكرهم باساءتهم ولا حفل باستقبالهم لانهُ كان من الذين لا يبالون بالطعن ولا يفرحون بالمدح ما لم يكونا ناشئين عن مبدا صحيح . وبعد ان حصلت المراكب على الزاد المطلوب اقلعت وسارت محاطة بمخاطر كثيرة في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) . ففي مساء اليوم الثاني عند الغروب راى بونابرت وقومهُ بعيداً عنهم في الجهة الغربية بوارج انكليزية . اما الاميرال فعرف باشارات تلك البوارج انها راتهُ فطلب الى بونابرت ان يرجع الى كورسيكا والح عليهِ بذلك فكان متحققاً ان العود يوقعهُ في اسر الانكليز فقال للاميرال ان الذهاب الى هناك يصل بنا الى انكلترا اما انا فطالب فرنسا فانشروا جميع الشراعات واقيموا كل مامور في مامورينهِ واذهبوا الى الجهة الغربية الشمالية وبعد ذلك خيم عليهم الظلام وكانت الرياح تهب هبوباً موافقاً لهم وبوارج بونابرت تتقدم بسرعة الى شواطىء فرنسا في وسط بوارج الاعداء حتى اشرفوا على الياس . فصرف جميع الذين كانوا في البوارج الفرنسوية ذلك الليل بخوف ورعدة وقلق غير ان بونابرت لم يبالِ بشيء . وكان عازماً ان يركب قارباً ويسلم نفسهُ للبحار في وسط الظلام اذا ضايقهُ العدو ورأى انهُ لا امل لهُ بالنجاة . فامر بتهيئة القارب الطويل وانتخب

الذين كان يجب ان يذهبوا معهُ وجمع الاوراق التي كان يروم ان تبقى معهُ واجرى كل ذلك دون ان تظهر على وجههِ علامات الاضطراب او الخوف . وصرف النوم تلك الليلة ولم يغمض لهم جفن لانهم باتوا في ضيق شديد وظروف مكدرة بعد ان اقتربوا من فرنسا وعلقوا الامل بالاجتماع بعيالهم بعض بضع ساعات . وكان الاضطراب عامًّا ولكن لم يرَ احد على وجه بونابرت علامات اضطراب او قلق . وعند طلوع الفجر راوا جبال فرنسا وفي الجهة الشمالية الشرقية البوارج الانكليزية بعيدة عنهم وهي تغيب عن ابصارهم . فلما ايقنوا بالنجاة ضجوا وهللوا . اما بونابرت فكان ينظر بهدوء ورزانة الى فرنسا المحبوبة عندهُ وكان لون وجههِ مشربًا اصفرارًا ولا يظهر عليهِ شيء من علامات التاثر من جرى الاقتراب من بلادهِ وفي الساعة الرابعة من الصباح القت المراكب الاربعة مراسيها في مينا فريجو الصغيرة في اليوم الثامن من شهر تشرين الاول (اكتوبر) . وهكذا صرف بونابرت خمسين يومًا في البحر المتوسط محاطًا ببوارج انكلترا والدولة العلية وروسيا . ولما نتشر خلاص بونابرت اندهشت اوربا واخذ القوم في الاستهزاء بالذين كانوا يراقبون البحر المتوسط ورسموا لذلك صورة مضحكة مشخصة لنجاتهِ قيل انهُ لما راها بونابرت ضحك حتى استلقى على اقفاهُ . فان اللورد نلسون وهو الاميرال الانكليزي كان من اشجع الابطال واحذقهم لكن كان فيهِ نقص عظيم وذلك ترك امراتهِ الفاضلة وحب امراة السار وليم هاملتون سفير انكلترا في نابولي فجلب عليهِ ذلك العار وثلم صيتهُ وكانت امراة المذكور غير عفيفة وكانت ملكة نابولي تحبها حبًّا لا مزيد عليهِ لانها كانت قليلة الحشمة مثلها . فصور الانكليز الاميرال نلسون المذكور يرقب بونابرت فدخلت عليهِ محبوبتهُ فاشتغل بها عن كل شيء ونسي ما عليهِ فاستغنم بونابرت الفرصة وهرب خارجًا من بين رجليهِ . وهذا هو الواقع فان الفوز الذي نالهُ نلسون في ابي قير اسكرهُ وحملهُ على ان يصرف وقتهُ مع محبوبتهِ بالتنعمات والملذات في بلاط ملوك شانهم التنعم والملاهي . وقال بونابرت بهذا الصدد ما من احد يقدر ان يسلم نفسهُ الى سلطان الغرام دون ان يخسر شيئًا من المجد الذي يمكنهُ تحصيلهُ لولا الاشتغال بهِ

ولما دخلت المراكب مينا فريجو رفعت علامات فهم منها الحاكم ان بونابرت آتٍ . فانتشر الخبر في المدينة واشتدت حركة اهلها وقيل ان المراكب لما القت مراسيها خرجت قوارب كثيرة واحاطوا بها وصعد الناس وهم يضجون ويهللون خارقين قوانين التحفظ من الامراض لانهم كانوا تعبوا من الظلم ويخافون سوء عواقب هجوم النمسا عليهم فاسكرهم فرحًا رجوع الذي كان قد خلصهم من الضيقات الماضية . ولما قيل لهم ان المراكب خرجت من الاسكندرية منذ زمان ليس بطويل وان الطاعون ربما كان يدخل بلادهم بسبب مخالطتهم لهم قالوا ان دخول الطاعون احبُّ اليهم من دخول النمسويين وهكذا داسوا القوانين واقتربوا من بونابرت ونقلوهُ بالقوة الى القوارب



وذهبوا بهِ فرحين الى الشاطىء . وانتشر الخبر في القرى كما ينتشر في هذه الايام بالبرق واخذت الاقوام تجتمع في تلك المدينة من جميع الجهات . حتى ان المجروحين في المستشفيات خرجوا من اسرتهم واتوا الشاطىء ليروهُ وازدحمت الاقدام ولو لم يفتح لهُ الجمهور طريقًا في وسطهِ لما تمكن من المرور فكان يسير بينهم وهم يضجون قائلين فليعش فاتح ايطاليا وفاتح مصر ومخلص فرنسا . وبقي برهة قصيرة اصبح ثغر فريجو في هيجان عظيم فان الاجراس كانت تقرع والمدافع تطلق من القلاع الى جهة البحار والى جهة الجبال وكان صراخ الذين يترحبون ببونابرت يملأ الفضاء . وانتشرت اخبار انتصار الفرنسويين في معركة جبل طابور وفي ابي قير عند دخولهِ اليها فسر الفرنسويون هذا لانهم كانوا قد باتوا في كدر وكابة من انكسار جيوشهم مرات كثيرة في اوربا في زمان غيابهِ عنها . ولما دخل الثغر المذكور اخبر بوصولهِ بالبرق اهل باريس وهي تبعد عنها ستمائة ميل . فوصل اليها هذا الخبر في ٩ ت ١ (اوكتوبر) وكانت جوزفين امراتهُ في وليمة في بيت موسيو كوهيه رئيس روساء الجمهورية الفرنسوية . وكان هناك جميع رجال الدولة الكبار ومشاهير العلماء . فانتشر الخبر بينهم واثر فيهم جميعًا تاثيرًا شديدًا فان الذين كانوا يتمتعون بالسطوة والمناصب لنفع انفسهم خافوا سوء العواقب لعلمهم انهُ من احذق القوم واشدهم اقدامًا واشهرهم فكانوا يخافون ان يثير فتنة ويعزلهم . اما الذين كانوا يحبون وطنهم فسروا بهِ قائلين ان العناية الالهية انقذتهُ اليهم في ساعة الضيق ليخلص بلادهُ مما باتت فيهِ . وكان احد النواب غيورًا جدًّا حزينًا من البلايا المحدقة بالجمهورية فلما سمع برجوع بونابرت مات فرحًا . اما جوزفين امراتهُ فلم تكن منتظرة هذا الخبر فاضطربت وخرجت من البيت الذي كانت فيهِ وسارت الى بيتها وعند نصف الليل ركبت عجلتها هي ولويس بونابرت اخو زوجها وهورتنس ابنتها من زوجها الاول وهي التي تزوجها لويس المذكور وسارت لتلاقي زوجها بونابرت ولم تنم ساعة واحدة . فخرج بونابرت من فريجو في الساعة التي خرجت فيها امراتهُ من باريس . فكان يسير والامة تلاقيهِ في كل مكان بالسرور والفرح وتضرم نيرانًا في السهول والجبال وتقيم قباب النصر . وكانت صنوف طويلة من العذارى يفرشن طريق عجلتهِ بالازهار ويقابلنهُ بتبسم الترحاب والفرح وكان يحيط بهِ قوم كثيرون فرحين متهللين . وكان الولاة والحكام يلاقونهُ ويقابلونهُ في عجلتهِ باكرام عظيم . فوصل مساء الى ليون فابدت السرور باشعال النيران والمصابيح وغير ذلك ولما قابلتهُ حكومتها في العجلة ترحبت بهِ وكان حاكمها قد كتب خطابًا طويلاً ليقراهُ عليهِ وعلى القوم ولكن بونابرت كان راغبًا في الوصول حالاً الى باريس فاشار الى القوم بيدهِ فسكتوا فقال لهم يا سادتي بلغني ان فرنسا في خطر فتركت جيشي في مصر واتيت لاخلصها . وعزمت ان اباينكم فاذا شئتم ان تجتمعوا بي بعد بضعة ايام اكون قادرًا ان اقابلكم . وفي اثناء هذا الكلام ربطت افراس جديدة بمركبتهِ فسار مسرعًا .

ولم يسر قاصداً باريس في الطريق العادية بل في طريق قلما يسير احد فيها والسبب في ذلك لا يزال مجهولاً

فلما وصلت جوزفين الى ليون تكدرت جداً لانها سمعت بخروجه منها قبل وصولها اليها بساعة فانها سلكت غير الطريق التي سلكها وكانت تحبهُ وصرفت اشهراً كثيرة ولم تحصل على رسالة منهُ لان البوارج الانكليزية كانت تحجز الرسائل التي بعث بها اليها ان كثيرين من الذين يحسدونها على وصولها الى ما وصلت اليهِ اشاعوا ثلم صيتها وكانت تعلم ان اولئك الاعداء يحيطون ببونابرت عند وصولهِ الى باريس مستغنمين فرصة غيابها ليهيجوا غضبهُ عليها ويلقوا الخلاف بينهُ وبينها . اما ليون فتبعد عن باريس ٢٤ ميلاً وكانت جوزفين قد قطعت السهول والجبال نهاراً وليلاً بلا راحة لتصل الى زوجها المحبوب . ولما قيل لها انهُ خرج كاد يغمى عليها لخوفها من اجتماع اعدائها بهِ قبل ان تقابلهُ ويكون ذلك سبباً لمفارقتها الى الابد . ولم ترَ بداً من الرجوع بسرعة عالمة ان وصولهُ الى باريس يكون قبل وصولها اليها بيوم او يومين فكانت في اضطراب شديد ووقع ظنها موقعهُ لانهُ بلغ بونابرت بعض اراجيف عن امرائهِ . ومن يقدر ان يسبر اسرار الحب الذي يجمع في قلب واحد وفي وقت واحد بين اشد البغض واشد الحب ولا قوة لارادة الانسان في ذلك لان قوة الحب غير محدودة . وكان بونابرت يحب جوزفين محبة لا يتصور اشد منها فكان متفرداً في ذلك كما كان متفرداً في الاعمال العظيمة ولم تكن هذه المحبة عرضية ولا ضعيفة بل ثابتة موسسة في اعماق قلبهِ . وكان يهتم من الدنيا في شيئين وهما المجد وجوزفين وكان للمجد المحل الاول عندهُ وفي المحل الثاني الملاصق للمحل الاول حبها والاهتمام بها . وكانت نساء كثيرات من نساء اعيان باريس اللواتي كن يفتخرن باصلهن اكثر من افتخار جوزفين باصلها يحسدنها على التقدم الذي حازتهُ في وقت قصير . لان الجميع كانوا يعلمون مالها من السطوة على بونابرت ولذلك كان الفلاسفة ورجال السياسة والقواد طالبو التقدم يجتمعون اليها للحصول على رضاها لعلمهم ان كلمة توصية منها تفتح لهم ابواباً للمجد والمال . وهكذا كانت وهي في قاعات باريس تعكس اشعة المجد التي كانت تنبعث اليها من زوجها . فافرغت الجهد في توطيد اركان الصداقة بين زوجها والذين يقدرون على نفعهِ في المستقبل وكانت تجتهد في استمالة اعيان البلد بقدر اجتهادهِ في فتح البلدان . وكانت على جانب عظيم من اللطف والرقة والحذق والنباهة وحسن الاداب وكان صوتها رخيماً يطرب السامع فكانت تميل اليها بذلك الفلاسفة ورجال السياسة والابطال . وكانت قاعاتها لا تخلو من الضيوف واعظم رجال العاصمة والسياسة يحضرون مآدبها ويقصدونها اينما كانت مجدّ وبين اليها بقوتين قوة لطفها ومحاسن صفاتها ومعارفها وقوة طلب المجد بواسطة سطوة زوجها المشهور . فتعاظم حسد مناظراتها من الاميرات وربات الامتياز لانهُ يصعب عليهن ان بنت رجل



كان يعيش بمحصول القطن في الجزائر الهندية الغربية تكتسب الرتبة الاولى في باريس حال كونهن في مراتب عالية وذوات حذق وجمال وكانت زوجة مورو تعد تقدمها اهانة فانها كانت تعتقد ان الجنرال مورو يستحق من المجد ما يستحقهُ بونابرت وحملها هذا الحسد المقيم المتعد على جعل زوجها يعصي بونابرت ونشأ عن ذلك سقوطهُ وكان بعض اخوة بونابرت واخوانهِ يحسدونها على السطوة التي بلغتها ويرغبون ان يشاركوها فيها فهمس كثيرون في اذني بونابرت ما غاظهُ منها وحملهُ على ان يعتقد سوء تصرفها . وكان هولاء الاعداء يشتدون عزماً وقحة حتى قالوا لهُ انها تسبتك واشتغلت بالاباطيل النسائية والافتخار الذي يقود الى تجاوز الحدود في مجالسة الرجال وبالتالي اتهموها بالخيانة . ولم يصل اليهِ من مكاتيبها ولا اليها من مكاتيبهِ غير القليل . ولم يصدق كل ما نسب اليها غير انهُ كان كقيصر الروماني الذي قال مفتخراً ينبغي ان لا تكون امراة قيصر متهمة . واشتغلت افكار بونابرت بهذه الامور في الاشهر القليلة التي اقامها بمصر ففي ذات يوم كان جالساً وحدهُ في خيمتهِ في بادية العرب بعد مضي اشهر كثيرة منذ بلغهُ كتاب من زوجتهِ وكان لا يعلم بانهُ يجتمع بها بعد مدة قصيرة ودخل عليهِ جينو بعد استلام رسائل من فرنسا من قوم يحسدون جوزفين ويحبون ان يلقوا البغض بينها وبين زوجها . فشرع في تبليغهِ كل ما حوتهُ بتانٍ وتيقظ . ومما قالهُ انها وجدت في حب غيرهِ ما عوض عليها ما خسرتهُ بغيابهِ وان حولها قوماً من الذين يحبونها وهي مشتغلة على الدوام باللهو والخلاعة وداست ناموسها وسلمت نفسها الى الشهوات . ولما سمع بونابرت ذلك اضطرب اي اضطراب ثم نهض واخذ يتمشى في خيمتهِ بسرعة كانهُ اسد في قفص ويقول لماذا أُحب تلك المراة محبة شديدة . لماذا لا انني حبها من قلبي . لا بد من نفيهِ وتطليقها حالاً على مراى كل العالم ثم كتب اليها لائماً وقال لها انها تمتع نصف العالم بمجالستها وغنجها ولم يقع هذا الكتاب بيد الانكليز بل وصل اليها فلما قرأتهُ شعرت ان قلبها الامين غار في احشائها . فهذا هو ملخص ما جرى بينهما في مدة لم تكن اقل من سنة ونصف ولذلك كانت تحب ان تجتمع بهِ قبل ان يوافيهُ اعداؤها لكن خاب املها ولما تيقنت انهُ لا سبيل الى ذلك اشتد عليها الامر وعظم الخطب ولم تكن قادرة على الوصول اليهِ الا في يومين او ثلاثة

وكانت عجلة بونابرت تدنو من عاصمة فرنسا بسرعة والقوم يضيئون سبيلهُ في الليل باسهم نارية ومشاعل ومصابيح وكان يسمع كيفما توجه قرع الاجراس واطلاق المدافع وضجات القوم وتهاليلهم . ومع ذلك لم يتبسم تبسم الفوز والسرور ولكنهُ كان على الدوام غائصاً في بحار التفكر لاعتقادهِ انهُ راجع الى بيت فارغ مما يعزي قلوب الرجال ويريحهم وينسيهم همومهم ومتاعبهم ومشقاتهم فتسلط الكدر على قلبهِ . ولما دخل باريس سار الى منزلهِ ولم يجد امرأتهُ فظن ان ذنوبها جعلتها تخاف من مواجهتهِ وما من قلم يقدر ان يصف نصف احزانهِ وويلاتهِ لما بات على تلك الحال

فعند دخوله احاط به اعداؤها الالداء مستغنمين فرصة غيابها ليزيدوا هيجان غضبه وقال له احدهم ليوطد تصميمه على الانفصال عنها ان جوزفين ستقترب منك وهي مسلحة بسلاح لطفها وجمالها ودلالها وستوضح لك اموراً بهتانية فتسامحها فترجعان الى ما كنتما عليه من الاتفاق والحب . فاجاب بونابرت ان هذا محال وكان يتمشى في القاعة وشفتهُ ترتجف وهو يدمدم ثم وقف بغتة ونظر في وجه الذي كان يكلمهُ نظرة من يكاد يجن وقال له انك تعرفني لو لم اكن مصمماً على طلاقها لمزقت قلبي وطرحتهُ في النار

ومن اغرب الامور احوال الرجال فان بونابرت ذهب بعد وصوله بساعتين عقب هذا الكلام المقلق الى قصر لكسمبرج ليزور روساء الجمهورية ويجد الوسائط التي تمكنهُ من قلب تلك الحكومة . وكان لونهُ اصفر ولوائح التفكر والكدر تلوح على وجهه ومع ذلك لم تضعف همتهُ التي كانت تقويها مطامعهُ . اما جوزفين فكانت موضوع حبهِ وغرامهِ واحب الناس عندهُ فبعد ان اجتمع به الاضداد تغيرت حاسياتهُ فكان يشعر تارة انهُ عازم على ضمها الى صدرهِ وان يقبلها الف قبلة لما عندهُ من الوجد والشوق ثم تتحرك الغيرة في فؤاده ويشعر انها اذا دنت منهُ يطردها عنهُ كاشتى النساء واشرهن . اما المجد عندهُ فكان في المحل الاول فحاول ان ينسى شقاءه الداخلي بالاجتهاد في طلب العظمة والفخار . ولما اخذ في الصعود على سلم القصر المذكور راى بعض الجنود الذين كانوا معهُ في ايطاليا وكانوا يحرسون في ذلك القصر فضجوا قائلين فليعش بونابرت فملا صوتهم قاعات ذلك القصر ودمدم صداهُ فيها كانهُ هزيم رعد وسمعهُ روساء الدولة ونشاءموا . فلما سمع الاهالي هذا الصوت صرخوا فليعش بونابرت وكان ذلك يمتد من شارع الى شارع . وعند ذلك اوقف اصحاب قاعات التشخيص تشخيص رواياتهم واصحاب قاعات الاغاني اغانيهم ليخبروا القوم ان بونابرت وصل الى باريس فكان الناس يثبون واقفين عند استماع هذا الخبر ويرفعون اصوات الفرح رجالاً ونساء واولاداً . وهكذا باتت كل باريس في حركة وجميع الاهالي يتكلمون عن بونابرت وابتدأوا يشعلون المصابيح في اماكن مختلفة وفي برهة قصيرة عم التنوير المدينة . وفي اثناء ذلك ابتدأ القوم في قرع جرس ثم قرع جرس اخر وهكذا حتى قرعت كل الاجراس . ثم اطلق مدفع شديد فارتجت لهُ المدينة وبعدهُ اطلقت كل الحصون والقلاع مدافعها فكان ذلك المساء كيوم الدينونة اذا لم يرافقهُ خوف الجحيم . وانتشر خبر معركة ابي قير وجبل طابور بدخوله الى المدينة فاخذ الفرنسويون يذكرونها ويكتبون بالانوار ابو قير وجبل طابور وهكذا اصبحت باريس في اقل من ساعة في فرح شديد ظاهر وقامت بولائم عظيمة وبتزيين مدهش مع انها لم تكن مستعدة قبل لشيء من ذلك

وكان لحكومة فرنسا خمسة روساء ويسمى المجلس العالي مجلس الشيوخ ومجلس نوابها مجلس الخمسمائة وقد مر تفصيل ذلك . فاما الروساء الخمسة فكانوا يتنازعون على الدوام لان كلاً منهم



كان يحب ان يسبق الاخر في السطوة . ولم يقدر الملكيون الحمر والجمهوريون المعتدلون ان يتفقوا على سياسة البلاد فان كلاً منهم كان يقاوم الاخر ولذلك باتت الادارة خراباً واضطراباً . وكان الاب سياس احذقهم ومن المتحزبين للامراء واصحاب الامتياز ويحب قهر العامة واستعبادها وحكى بونابرت عنهُ ان هذا الاب كان قبل الثورة كاهناً لاحدى البرنسات ففي ذات يوم اقام لها قداساً حضرتهُ هي وخادمتها وجمهور غفير فحدث ما الزمها ان تخرج من محل اقامة القداس . فتبعها اعوانها الامراء والاميرات ارضاء لخاطرها لكون ذلك عندهم في المحل الاول والدين في الثاني وكان ذلك الاب منهمكاً في اقامة القداس فلم ينتبه الى خروجهم الا بعد ان خرجوا بمدة ولما راى ان البرنسس والامراء والاميرات خرجوا ولم يبقَ غير العامة نزل عن المنبر مكدراً وقال انني لا اقيم قداساً للعامة وخرج من الكنيسة قبل اتمام القداس

وكان دخول بونابرت الى باريس في ١٧ ت ١ (اوكتوبر) سنة ١٧٩٩ ولم تقدر جوزفين ان ترجع اليها الا بعد وصوله بيومين . وفي ٩ من الشهر المذكور عند نصف الليل دخلت مركبتها عرصة دارها وكان ابنها اوجين مع بونابرت في مصر فاخذ ينتظر وصولها فلما دخلت البيت اعتنقها وسلم عليها . اما بونابرت فعرف بمجيئها ولم يخرج من غرفتهِ وكان من عادتهِ ان يلاقيها الى العجلة ولو كانت راجعة من التنزه في الصباح ولو كان مشتغلاً باعظم الاعمال او كان عندهُ اعظم الضيوف . وكان يترك كل شيء ليسمعها في النزول من عجلتها ويدخل بها الى البيت . وكان عازماً على ان يفاصلها ويفرغ كاس غضبهِ عليها فانتظر دخولها عليهِ في القاعة والغيرة تضرم نيراناً في احشائهِ والاصفرار قد صبغ وجههُ وذلك بعد ان فارقها سنة ونصفاً . وكادت تلك المراة الامينة تسقط من التعب الناشيء عن طلب الاجتماع بهِ قبل ان يصل الى البيت . وكانت في اضطراب مخيف واعضاء جسدها ترتجف وفرائصها ترتعد وقلبها يخفق شديداً . فاسمعتها اوجين في الصعود على السلم لتدخل قاعة صغيرة طالما اجتمعت فيها مع زوجها وصرفت وقتاً لذيذاً بملاطفتهِ ومحبتهِ واعتبارهِ ودخلت هورتنس معها وهي ابنتها من زوجها الاول . ففتحت بابها بيد مرتجفة ورات فيها بونابرت واقفاً كانهُ صنم غير متحرك متكئاً ويداه مكتوفتان على صدرهِ . فلما دخلت نظر اليها نظرة الكدر وقال لها بصوت شق قلبها مادام اطلب اليكِ ان تذهبي حالاً الى مالميزون . فلما سمعت ذلك تضعضت ولولم يعضدها ابنها لوقعت على الارض فبكت بكاء شديداً ورجع بها اوجين الى قاعتها . اما بونابرت فاضطرب اضطراباً شديداً فانهُ لما راها تحركت في قلبهِ محبتهُ الشديدة ولكنهُ كان يعتقد انها لم تكن امينة على محبتهِ اثناء غيابهِ وجلبت عاراً على نفسها وعلى زوجها . ولم يقدر ان يحتمل ذلك فكان يتمشى في القاعة بسرعة مجتهداً ان يزيد غضبهُ لان بكاء جوزفين كان قد اضعفهُ وحرك فيهِ الشفقة حتى تمنى ان يضمها اليهِ ولكن الكبرياء حملتهُ على الامتناع . وكانت

من اطوع النساء وهذه هي الصفة التي كانت تمتاز بها فصممت على انفاذ امرهِ بالذهاب الى المكان المذكور

وحدث ذلك عند نصف الليل بعد ان صرفت اسبوعًا في عجلتها بلا نوم مع اكل شيء قليل وكان مالميزون يبعد عن باريس ١٥ ميلاً . اما بونابرت فلم يظن انها تنفذ امرهُ قبل الصباح فتعجب لما سمع صوت نزولها هي واوجين وهورتنس عن السلم قاصدين العجلة . وكان غضبًا على انهُ لم يقدر ان يجرد نفسهُ عن الشفقة وهو الذي قال ان قلبي لم يخلق ليرى دموعًا دون ان تحرك الشفقة فيهِ . فنزل الى غرفة الدار بسرعة غير انهُ لم يتكلم مع جوزيفين لان كبرياءه امسكت لسانهُ عن ذلك فقال لاوجين ان يرجع بها وباختهِ ليرتاحوا وينالوا طعامًا ويشربوا شرابًا منعشًا . وكانت جوزفين تنفذ امرهُ في كل شيء بلا ابطاء فصعدت على السلم وهي تكاد تسقط تعبًا والقت نفسها على فراشها في خدرها وكان بونابرت حزينًا مثلها فرجع الى غرفتهِ وصرفا على تلك الحال يومين دون ان يكلم احدهما الاخر مع ان كلاً منهما كان يحب الاخر محبة لا توصف وما دام الحب في القلب يغلب على جميع الموانع التي تطرا عليهِ فان غيظ بونابرت كان شديدًا ولم يخمد في مدة قصيرة ولكنهُ لم يقدر ان يغلب الحب فالتزم ان يخضع لهُ هو والكبريا والغيرة . ففي اليوم الثالث دخل بونابرت مخدعها وكانت جالسة عند مائدة صغيرة مغطية وجهها بيديها وفي قلبها جيش من الاحزان والاكدار لانها كانت تحبهُ ولا تحتمل صدهُ وكانت الرسائل التي بعث اليها بها من مصر موضوعة على تلك المائدة مفتوحة لانها كانت قد قراتها . اما هورتنس ابنتها فكانت واقفة عند نافذة ولوائح الكدر والحزن تلوح على وجهها . وكان قد فتح باب المخدع شيئًا فشيئًا فلم ترياه لما دخل فاخذ يتقدم مترددًا الى جهة امراتهِ ولما دنا منها قال بكدر وحنق يا جوزفين فلما سمعت ذلك الصوت المعروف عندها والمحبوب منها اجفلت ورفعت عينيها المقرحتين بالدموع وقالت بكدر يا صديقي (مون امي) فانها لما كانت تناديهِ هكذا كانت تحب اظهار شدة حبها لهُ فلما سمع بونابرت ذلك الكلام تذكر حلاوة الماضي وحب امراتهِ العاقلة فبات مغلوبًا فمد اليها يده فطرحت نفسها بين يديهِ والقت راسها الموجع على صدرهِ واشتد عليها الفرح بعد اشتداد الحزن والكدر فبكت بكاء شديدًا وبعد ذلك بينت لهُ الاحوال واوضحت الحقائق فراى انهُ ظلمها فتصالحا ولم يبقَ في قلبهما كدر ولا غيظ ولم يختلفا فيما بعد

## الفصل الثالث عشر

### احوال سياسية وانقلابات وامور جديدة

وبعد ان انقطع الخلاف بين جوزفين وبونابرت ارياح بالهُ وسكن بلبالهُ وتفرغ للاجراآت التي كان يحاول بها ادراك المعالي وتخليص فرنسا من الظلم الذي وقعت فيهِ . وكان يعلم انهُ قادر ان



يحكم الامة بانتظام وضبط . وان اكثر الامة تحب ان يقبض على اعنة الامور وانها لا تتردد عن سلوك السبيل الذي يطلب اليها ان تسلكهُ . على ان قلب الخمسة الرجال اصحاب الحكومة الادارية لم يكن من الامور السهلة وكذلك امر مجلس الانسيان (القدماء) ومجلس الخمسمائة . ولذلك كان ما يخطر ببالهِ من اصعب الامور واشدها خطرًا . وبعد وصولهِ كان يتجنب الخروج بين الناس فخلع عنهُ الثياب العسكرية ولبس لبسًا بسيطًا كلبس اعضاء جمعية المعارف . وكان يتقلد حينًا بعد حين سيفًا عربيًا جميلاً . فكان الذين ينظرونهُ لابسًا الملابس البسيطة والسيف العربي يذهبون بتصوراتهم الى ابي قير وجبل طابور والاهرام . وكان يطلب على الدوام الاجتماع باهل المعارف وكان يدعو اشهرهم ليأكلوا معهُ . ويتجنب المفاوضة السياسية مقتصرًا على الكلام في المعارف والعلوم . وكان يخاف قائدين كانا من مناظريهِ وهما مورو وبرنادوت فبعد ان وصل الى باريس بيومين قال لكاتبهِ مورين اظن ان مورو وبرنادوت سيضادانني غير اني لا اخاف الاول لانهُ ليس من اهل الاقدام ويفضل المناصب العسكرية على المناصب السياسية ولذلك سنحصل على مساعدتهِ اذا وعدناه باننا نقلده قيادة . اما برنادوت فدمهُ عربي وهو جسور ذو نشاط ولا يحبني ولذلك لا ريب في انهُ سيقاومني فانهُ يقحم اشد المخاطر والصعوبات . وليس من الذين نقدر ان نجعلهم يرجعون الينا وهو حاذق على اننا لا نقدر ان نعلم ماذا ينبغي ان نفعل الان فاننا لم نصل الاَّ منذ يومين

ولم يهيج ثورة ولا عقد موامرة سرية ولا اقام كمينًا لقتل اصحاب المناصب ولم يظهر لاحد مقاصدهُ ولكنهُ بحث وحدهُ عن الاحوال وادرك كنهها وعرف ابواب الوصول الى المطلوب دون مساعدة احد وكان سيه من اهل الحذق والسطوة الذين كان بونابرت يخاف مقاومتهم . اما الاب الديني وهو من رجال الحكومة الخمسة فكان ينظر الى بونابرت بعين الخوف فكان كلٌّ منهما ينظر الى الاخر عن بعد . وكانا عند الاجتماع في الولائم لا يقترب احدهما من الاخر لان كلاً منهما كان لا يريد ان يتنازل ليبتدىء بالسلام على الاخر ومع ذلك كان بال كل منهما مشتغلاً بالاخر . فكانا يجتمعان في مكان واحد وينفصلان بدون ان يتكلما . فقال سيه لاحد الحاضرين هل رايت ذلك الرجل القليل التهذيب الصغير الذي لم يكن عندهُ من الانضاع ما يحملهُ على ان يحيي احد اعضاء الحكومة التي لو انصفت لقتلتهُ . اما بونابرت فقال لاحدهم ماذا يا ترى حمل الحكومة على ان تدخل هذا الكاهن بين روسائها مع انهُ من الذين قد رشتهم بروسيا وجعلتهم يميلون اليها فان لم تنتبهوا باعكم . وتناول الطعام هو ومورو عند كوهيه احد روساء الحكومة فجرى الحديث الاتي . على انهما عندما اجتمعا في المرة الاولى وعرف احدهما الاخر بواسطة صاحب المكان لم يتكلما . لكن لما كان بونابرت يعرف انهُ يفوقهُ في كل شيء وكان يحب ان يحصل على مساعدتهِ ابتدا

في الكلام وقال له بلطف واكرام انه كان يحب جداً ان يجتمع به ويعرفه . فاجابه انك رجعت من مصر منتصراً اما انا فرجعت من ايطاليا بعد ان كسرت كسرة عظيمة . وسبب كسرنا وخسائرنا ضياع الشهر الذي صرفه الجنرال كوبر بعد ان تزوج في باريس فان ذلك مكن جنود الدول المتحدة من فتح منتوا واستخدام الجيش الذي كان يحاصرها في مقاتلتنا ومن المعلوم ان الكثرة تغلب القلة . فقال بونابرت هذا هو الصحيح فان الجيش القليل يغلب على الدوام الجيش الكثير فقال كوهيه اما انت فطالما غلبت جيشاً كثيراً بجيش قليل . فاجاب بونابرت انني لم اتمكن من ذلك الا بسوق الكثيرين على القليلين لانني لما كنت ابيت مقابل جيش عدده اكثر من عدد جيشي كنت اجمع جنودي القليلين واهجم بهم بسرعة تحاكي وميض البرق على احد جوانب جيش العدو فاكسره فيقع الارتباك في كل الجيش فاستغنم الفرصة واهاجم بكل جيشي جانباً اخر وهكذا اكسر قسماً بعد قسم من الجيش بجيشي كله . فالانتصار العظيم الذي ينتج عن ذلك انما هو برهان صحة ما قاله الجنرال مورو من ان الكثيرين يغلبون القليلين . وهكذا تمكن بونابرت من ان يبين انه يفوق مورو بالحذق والنشاط بكلامه بدون ان يفتخر فتمكن ذلك في عقول القوم . وبعد اجتماعه بمورو بيومين بعث اليه بخنجر جميل جداً مرصع بالجواهر ثمنه نحو خمسين الف غرش وقال له ان ذلك من علامات الصداقة الجارية بينهما فاخذه واصبح من المتحزبين له . وبعد ذلك اقام بونابرت وليمة فاخرة غير انه لم يدع اليها غير قليلين من اصدقائه العظام وكان منهم موسيو كوهيه فتكلموا عن العادة الجارية في الشرق وهي ربط العمائم . فنهض من كرسيه واتاهم بقطعتين من الحلى مرصعتين بجواهر ثمينة فاعطى كوهيه احداهما والاخرى لسيه وقال ان هذا شيء صغير يسوغ لنا نحن الجمهوريين ان نهدية بدون ان نتجاوز اصولنا . فسر كوهيه بهذا الكلام ولم ير وجوباً للتمنع عن قبول الهبة فاخذها وصار من المتحزبين لبونابرت

وكانت الجمهورية قد امست محاطة بجيوش الملوك الذين كانوا يضادونها . وكان بغضهم لها شديداً جداً وكانوا اقوياء حتى ان بونابرت كان يرى انه لابد من ان تكون فرنسا مستعدة على الدوام لدفع الهاجمات التي ربما كانوا يفاجئونها بها . فقال لكوهيه هل انت من الذين يحبون عقد صلح مع الذين يحاربوننا . الا تعلم ان هذا خطأ وانه من اللازم ان لا تستريح الجمهورية من الحروب لتقوية العنصر الحربي في الامة . وربما كانت تربية بونابرت الحربية واشتغاله منذ الصغر فيها والظروف التي كانت جارية مما حملة على ان يقول ما قاله . وكان لوفقر قائد حرس المجلسين العاليين وكان بونابرت يعلم انه لا يقدر ان يستغني عن مساعدته ولذلك دعاه اليه ليجتمع به وقال له انك بالوفقر من عمد الجمهورية فهل تتركها في ايدي اولئك الرجال الذين



لا يعرفون غير القوانين . وعند ذلك نقل السيف الذي كان متقلده من جنبه الى جنب لوفقر وكان سيفاً جميلاً ثميناً جداً وقال له ارجوك ان تقبل مني هذا السيف فانه السيف الذي كنت متقلده في معركة الاهرام وهو لك مني علامة للاحترام والركون . فسر بذلك وبركون بونابرت اليه وقال له قد اصبت فمن الواجب ان نغرقهم في النهر . وبعد ذلك بمدة قصيرة اجتمع بونابرت ببرنادوت ثم قال لبورين كاتبه ان برنادوت قال لي لما اجتمعنا اننا جميعنا نكاد نبيت في هلاك . واخذ يتكلم عن اعداء في الخارج واعداء في الداخل وعندما قال ان لي اعداء في الداخل تفرس في عيني برهة وتفرست انا ايضاً في عينيه . وبناء على ذلك اقول لك انه لابد من الاصطبار فاذا اصطبرنا ننال المرغوب من اتحاده . ولام بونابرت الجمعية الجاكوبية وقال انها غير معتدلة الاراء وان اعمالها مخالفة للنظام فاجابه برنادوت المذكور ان اخوتك هم الذين اسسوها فكيف تلومني اذا كنت من الذين يسلمون بصحة ارائها . وعندي ان الاضطراب الحالي هو بسبب مقاصد انسان لا اعرفه

فقال بونابرت افضل السكنى في الاجام على الاقامة بين قوم قوانينهم لا تصون الانسان من العدوان . وكان هذا الحديث وسيلة لتقوية العلاقات بين هذين الرجلين العظيمين . اما برنادوت فكان من ذوي الشجاعة والاقدام والحذق ولكن كان من الحاسدين . واجتمع ببونابرت المرة الاولى عندما كان بونابرت قائداً لجيش ايطاليا فنظر كل منهما الى الاخر نظر البغض . وقال برنادوت انني رايت رجلاً عمره ٢٦ او ٢٧ سنة يفعل افعال من بلغ الخمسين واظن انه لا ينفع الجمهورية . اما بونابرت فبعد الاجتماع به راى انه ذو راس فرنسوي وقلب روماني . وكان في فرنسا بعد رجوع بونابرت اليها ثلثة احزاب وهم الملكيون القدماء الذين كانوا يحبون ان يرجعوا الدولة البوربونية المخلوعة . والديمقراتية الراديكال وهم الجاكوبيون ورئسهم باراس وهولاء هم غير المعتدلين في الاراء وكان استنادهم الى اوباش باريس . والجمهوريون المعتدلون ورئسهم سيه . وكان كل من هذه الاحزاب يضاد الحزبين الاخرين ويخالفها فلما رجع بونابرت الى فرنسا بادرت جميعها الى اكرامه طالبة مساعدة يده القادرة . فصمم على الانضمام الى الجمهوريين المعتدلين لعلمه انه لا سبيل الى ترجيع الدولة البوربونية . وقال عن الجاكوبيين لو اتحدت معهم لما عرضت نفسي لخسارة شيء ولكن لا غنى عن اخضاعهم بعد ان اخضع بالاتحاد معهم بقية الاحزاب فجمهور مثلهم لا يخضع لرئيس واحد يحتاج الى رئيس كلما اشتد فيه ميل من اميالهِ غير المرتبة . ومن المعلوم ان الاتحاد مع حزب لنوال مارب ثم المبادرة الى مضادته بعد نوال ذلك المارب انما هو خيانة ولو كانت المسوغات خطيرة وهذا مما ينافي الحق . انتهى

وفهم بونابرت وسيه المقصود ورايا ضرورة اتحادهما اذ بانا في اضطراب عظيم . وقال

سيه لاتجو الا بامرين وهما الحذق والصدق . وكان بونابرت جامعًا للامرين في نفسهِ . وبعد خروجهِ من الفريجوز بخمسة عشر يومًا هيأ كل ما يلزم لتنفيذ مراده كاتمًا ذلك عن القوم . واتحد معهُ جميع الذين كان محتاجًا اليهم وكانوا يرغبون في طاعتهِ فاصبح كقائد في ميدان الحرب تحرك بامرهِ الصفوف وينشب القتال . وعزم على الذهاب بنفسهِ لقلب الحكومة على انهُ استحسن استعمال القوانين لتنفيذ مقصده اي انهُ لم يكن يحب السلوك الا في سبيل الحق ولا ان يقال انهُ تجاوز القوانين والنظام . ومن المعلوم انهُ لم يقم احد بعمل ذي شان كهذا العمل بسهولة كما قام بهِ نابوليون فلا يقدر احد على ذلك ما لم تكن صفاتهُ كصفاتهِ وقواهُ العقلية كقواهُ

وكانت باريس في هياج شديد فعلم اهلها انهُ لابد من اجراء شيء عظيم . وكان بونابرت عازمًا على اجرائهِ ولكن لم يكن احد يعرف الزمان ولا الوسائل ففرغ صبر الناس . اما اكثرية مجلس الانسيان وهو مجلس الاعيان فكانت تروم المحافظة على الحالة الحاضرة صيانةً للراحة . وكانت قد رات عند اشتداد الثورة فواحش الجاكوبيين وشرورهم فرامت ان تجتمع تحت راية قائد كبونابرت ليحميها من اعادة تلك الويلات فصمم الاعضاء على انفاذ ما يطلب اليهم انفاذهُ . اما مجلس النواب اي المبعوثين وهو مجلس الخمسمائة فكان يحب التغيير وكان فيهِ كثيرون من الجهلاء الاشرار يحاولون القبض على عنان السلطة . وكان بونابرت قد فاز باتحاد كارنو رئيس مجلس الشيوخ وكان معهُ لوسيان بونابرت اخو نابوليون بونابرت خطيب ذلك المجلس فاجتمع المجلسان في قصر التويلري وفي النظام انهُ يحق لمجلس الشيوخ ان يعين مكان اجتماع المجلسين . وطلب جميع قواد حرس باريس والقواد المشهورين مواجهة بونابرت . فافاد الجميع بالسنة اعوانهِ دون اعلان عام انهُ يقابل كلاً منهم على حدتهِ في صباح اليوم التاسع من شهر نشر بن الثاني (نوفمبر) . وكانت الجيوش في باريس قد طلبت ان تعرض على بونابرت القائد المشهور والمنتصر العظيم فقيل لهم انهُ سيصير عرضهم عليهِ في صباح اليوم التاسع من الشهر المذكور وهو نفس اليوم الذي عينهُ لمقابلة القواد وجمع مجلس الشيوخ وهو مجلس الانسيان الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم اي قبل الظهر بست ساعات . وتعين مجلس الخمسمائة وهو مجلس النواب قبل الظهر بساعة واحدة وهكذا كان ذلك اليوم ابتداء الحوادث العظيمة . وتعينت تلك الاجتماعات بحكمة ودراية فلم ينتبه القوم اليها . ولم يخبر بونابرت احدًا بالوسائط التي كان عازمًا ان ينال بها مطلوبهُ بلا اراقة نقطة واحدة من الدم

وكان الجو في صباح اليوم المذكور صافيًا جدًّا وسمعت اصوات مسير الجنود والفرسان وجر المدافع والات الموسيقى الحربية في شوارع المدينة عند ذهابها الى البولفار لتعرض على ذلك القائد العظيم الذي فتح ايطاليا ومصر فاصبحت المدينة كلها في هيجان عظيم حال كون



بونابرت في مخدعهِ لا يقوم بعمل ظاهر . وقبل الظهر باربع ساعات اجتمع كثيرون من اكابر رجال السياسة والقواد في منزلهِ بملابسهم الرسمية الفاخرة وملأ الضيوف جميع قاعاتهِ وازدحمت اقدام القوم في الشوارع بالقرب منهُ . وفي تلك الساعة قرر مجلس الانسيان القرار الذي طلبهُ بونابرت وهو ان يصير اجتماع المجلسين في سان كولو وهو مكان يبعد عن باريس بضعة اميال وان يقام بونابرت قائدًا عامًّا لجميع الجيوش الفرنسوية للمحافظة على الراحة . اما نقل المجلسين الى المكان المذكور فكان لتنفيذ الامر بلا اراقة دم وتخليص الاعضاء من تعديات اوباش باريس وتقرر ايضًا ان يبادر رئيس مجلس الانسيان الى تبليغ هذا القرار الى بونابرت . فسار قاصدًا منزلهُ ومر في وسط الجماهير المجتمعة ودخل عليهِ وبلغهُ القرار . وكان بونابرت منتظرًا ذلك فخرج الى رواق يطل على الشوارع وهو في منزلهِ وخرج معهُ جميع الذين كانوا عندهُ من اكابر رجال الدولة والقواد وقرأ قرار المجلس بصوت مرتفع واضح وقال لهم ياسادتي هل تسعفوني في تخليص الجمهورية . فجرد القوم سيوفهم وصرخوا جميعًا بصوت واحد قائلين اننا نحلف باننا نسعفك . وهذا هو عين الفوز فان بونابرت اصبح قائد الجيوش الامة الفرنسوية . وشرع في اجراء ما يمكنهُ من تتميم عملهِ الخطير وبات اعداؤهُ بلا قوة لانهم باتوا غير قادرين على الاجتماع . فبعث رسلاً على الفور ليتلوا القرار المذكور على الجيوش التي كانت مجتمعة لتقابل بالاكرام والتحيات ذلك الذي كان الجيش يحبهُ جدًّا . فلما سمعوا قراءة القرار ضجوا وتهللوا حتى ارتجت الارض . وركب بونابرت جوادهُ في القوم الذين كانوا قد اجتمعوا حولهُ بحسن تدبيره وصحبتهُ الف وخمسمائة جندي كان قد امرهم بان ينتظروهُ امام باب منزلهِ وسار قاصدًا قصر التويلري . ولما راهُ الاهالي على تلك الحال تعجبوا لانهُ كان على غير انتظار . وهذه هي المرة الاولى التي خرج فيها في موكب . وكان لابسًا ملابس بسيطة كالاهالي راكبًا جوادًا كريمًا وكانت ابصار الجميع شاخصة اليهِ وكان الذين حولهُ بالملابس الرسمية الفاخرة وعليهم الرايات المطرزة بالذهب والفضة فمالت ابصار القوم اليهِ فدخل مجلس الانسيان دخول ملك ذي سلطان واقتدار فاندهش المجلس عندما راه على تلك الحال . فصعد على المنبر وخطب وحلف يمين المنصب وقال لهم انكم الامة ومن متعلقاتكم اتخاذ الوسائل اللازمة لتخليص الجمهورية . وقد اتيتكم بالقواد لاعرض عليكم مساعدتنا وساقوم بالفروض التي حملتموني اياها بالامانة . ولا يلزم ان تنظر الى الماضي لتقيس عليهِ الحاضر فانهُ ليس في التواريخ ما يحاكي حوادث القرن الثامن عشر . ولا يجرى فيهِ ما كان يجري حينئذ . انتهى

وعند ذلك ارسل رسولاً الى قصر لكسمبرج ليخبر الروساء الخمسة وهم الحكومة عن القرار . وكان سيه ودوكو وهما من الخمسة الروساء قد وعد بونابرت بالانقياد اليهِ فلما سمعا ذلك

الخبر استعفيا وسارا على النور الى قصر التويلري . اما باراس وهو منهم فاضطرب وتحير وارسل كاتبهُ ليضاد ما كان يجري فلما بلغ ذلك بونابرت وقد فاز بالحصول على النفوذ قال لهُ بغضب اين فرنسا التي تركتها لكم زاهية زاهرة . تركت لكم سلامًا ووجدت حربًا . تركتكم منصورين فوجدتكم مغلوبين . تركت لكم ملايين ايطاليا فوجدت اثقال الخراج والفقر . اين المائة الف رجل رفاقي في المجد . قد هلكوا . فلا يدوم ذلك لانهُ يقودكم الى الويل . انتهى .

فلما سمع باراس ذلك خاف واستعفى وهكذا لم يبقَ من الروساء الخمسة غير اثنين فبانا بلا قوة . وكانا يخافان الانتقام بعد النوز . فذهبا الى قصر التويلري ليقابلا بونابرت فدخلا عليهِ وهو محاط بسيه ودوكو وحراس كثيرين . فقابلهما بالاكرام وقال لهما قد سررت بمقابلتكما ولا ريب عندي في انكما ستستعفيان فان حبكما للوطن يحملكما على عضد القلوب . فقال احدهما بحدة انني لم اقطع الامل من النجاح في تخليص الجمهورية بمساعدة رفيقي مولن . فقال لهُ بماذا تخلصها بالنظام الذي بات بلا قوة وعند ذلك دخل رسول وقال لروساء الحكومة ان سانتر الذي اشتهر في الثورة الدموية بالتعدي وهو رئيس الجاكوبيين كان يهيج الاوباش ليقاوموا ذلك فقال بونابرت لمومه انك صديق سانتر فقال لهُ انهُ اذا اثار فتنة ولو قليلة اقتلهُ بالرصاص . فارتبك واعتذر . فقال بونابرت ان الجمهورية في خطر فلا بد من تخليصها وقد استعفى سيه ودوكو وباراس ولم يبقَ غيركما وقد بتما بلا سلطة فاشير عليكما بالاقلاع عن المقاومة . فلم ينقادا اليهِ ولذلك ارسلهما الى قصر لكسمبرج وسجن كلاً منهما في مكان . وكان فوشي وزير الضابطة ولم يكن من الذين يركن بونابرت اليهم ومع ذلك كان يجب ان يحصل على رضاهُ فاتاهُ وقال لهُ ان قد سدت الطرق ومنع الجولان . فقال لهُ بونابرت ان ذلك حماقة فبادر الى فتحها حالاً الا تجري ما يوافق الامة وتستند اليها فلا تعارض الاهالي ودع كل ما حدث

وقبل الظهر بساعة اجتمع نواب مجلس الخمسمائة محتارين مندهشين فقرأ عليهم لوسيان اخو بونابرت قرار مجلس الانسيان بخصوص عقد اجتماعاتهم في سان كلو ولذلك توقفوا عن اقامة الجلسة وجمع بونابرت السلطان العسكري في يدهِ وكانت الجيوش تحبهُ جدًّا وهذا كان كافيًا ليبين لاعداء بونابرت انهُ لا امل لهم بالفوز بالمقاومة . وتمكن من ان يقيم ذلك العمل العظيم باربع ساعات وعند الظهر سقطت الحكومة الادارية واقيم رئيسًا لجميع الجنود الذين كانوا يسيرون في الشوارع صارخين فليعش بونابرت وكان مجلس الانسيان في قبضة يدهِ وكثيرون من مجلس الخمسمائة . وكان صامتًا مفتخرًا عارفًا بانهُ يفوق جميع اهل زمانهِ بالقوة العقلية فكان ينظر الى القواد حولهُ ورجال السياسة كما ينظر الرجال الى الاولاد . وبعد ذلك صعد على سلم قصر التويلري وهو قصر ملوك فرنسا كانهُ صاعد على سلم بيت ورثهُ من ابيهِ . واتحدت اكثر الاحزاب معهُ فاطلقت



مدافع باريس سرورًا بذلك الرجل الذي كان الله قد وهبهُ القوة والنصر فكانت الجنود تنقاد اليهِ . وكان من اهل المعارف فسر اهل المعارف بارتقاء رجل يعرف قدرهم ويسعفهم في اعمالهم . كان ذلك الزمان في فرنسا زمان فساد وفواحش وكفر وتعديات وكان بونابرت عفيفًا صادقًا ولا يتدنس بالرشوة ولو كانت ملايين ولم تكن بنات التيه والهوى قادرات ان تحولن افكارهُ عن اهتماماتهِ والقيام بما يتندبهُ حبهُ لوطنهِ الى القيام بهِ ولم يكن من الذين يمكنون المسكرات من ان توثر فيهم فانهُ كان من اهل الادب الذين كانوا قد سئموا الفساد الذي جعل قصور البوربون منازل الفواحش . ولم ينحصر ذلك فيها ولكنهُ امتد الى كل باريس وصيرها ميدان الشهوات الفاسدة والملذات المعيبة فمال الناس الى ذلك الرجل الذي كان يحافظ على العفة اللائقة بالمتزوجين والامانة اللائقة باهل المناصب وكانت فرنسا قد ضجرت من حكومة الظلم وتخاف ان تجري آلة الذبح فيها انهار دماء تحاكي الانهار التي جرت في ابتداء الثورة . فطلبت الوالدات والعذارى الى الله ان يبارك بونابرت فانهن كن يعتقدن انهُ بعثهُ اليهم ليخلصهم من ويلاتهم وضيقاتهم

وبعد الظهر من ذلك اليوم وفي الليل كانت اقدام الاعيان والقواد تزدحم عند ابواب قصر التويلري ليهنئوا بونابرت ويعرضوا عليهِ مساعداتهم . ولم يقع اضطراب من جرى ما كان يحدث من الانقلاب ومن لزوم المبادرة الى مداركة الاحوال فانهُ اصدر اوامرهُ بتانٍّ واصابة ليصير اجراؤها في اليوم الثاني . فسلم الجنرال لاني قيادة فرقة من الجنود لتحرس قصر التويلري اما مورات المشهور الذي كان قد قال في ابي قيران ان بونابرت لا يغلب فاقيم هو وفرسان كثيرون في سان كلو وكان كانهُ صاعقة في يد بونابرت وكان الويل نصيب القوم المتعنتين يدفعها عليهم واقيم مورو مع خمسمائة رجل ليحرس لكسمبرج وسجن الرئيسان اللذان تمنعا عن التسليم واقيم سوريه في مكان مناسب للدفاع عندما تمس الحاجة . وارسلت فرقة من الجنود لتحرس بارا وقال لهُ انهُ حرس اكرام والواقع انهُ بعثهُ معهُ ليمنعهُ عن الضرر لانهُ لم يكن من اهل الثبات والصدق وامر بونابرت باقامة استعدادات حربية لمنع المضادين عن التمكن من الاجتماع ونشر اعلانات في جميع الشوارع حرض بها الاهالي على صيانة الراحة والسلام وذكر فيها ان بونابرت مجتهد في تخليص الجمهورية من السقوط وكانت تلك الاستعدادات لائقة ببونابرت ومع اعتقادهِ بشيء من النصيب كان يحتاط لمنع نجاح المضادات وتنفيذ المآرب فنجح في جميع ذلك ولم يحدث ما يكدر الراحة مع ان باريس كانت في اضطراب شديد ولم يكن الملكيون ولا الجمهوريون ولا الجاكوبيون يعرفون ما كان مصممًا على فعلهِ ولكنهم كانوا يعلمون انهُ عازم على اجراء امر عظيم . وكان قد عرف ان الحزب الجاكوبي في مجلس الخمسمائة عامل على مضادتهِ في اليوم الثاني . وكان سيه يعرف احوال الثورات فطلب اليهِ ان يلقي القبض على اربعين من اكابر الحزب المذكور لتسهيل الوصول الى

المراد ولم يقبل بذلك وقال انني تعهدت بالمحافظة على نواب الامة في هذا الصباح فلا انكث بعهدي في المساء . ولو كان ذلك المجلس مجتمعاً في باريس لتحزب الاوباش لهُ تحزباً شديداً واستندوا الى القوة فتجري انهر من الدماء غير ان نقلهُ الى مكان يبعد بضعة اميال عن باريس قطع اسباب اهراق الدما . والقوة الحربية في سان كلو مكان اجتماعهِ منعت الاوباش عن الوصول اليهِ فماذا يقدر الاوباش ان يفعلوا حال كون مورات ولاني وسيرو ريه مستعدين لدفعهم وصدهم وهم تحت ادارة بونابرت الذي ليس عليهِ امر عسير . ومن الامور التي تدل على تيقظهِ وحنوهِ ولطفهِ وحبهِ لزوجتهِ اهتمامهُ بها في ذلك اليوم الشديد الاضطراب فكان يكتب اليها سطراً كل ساعة يخبرها عن الحوادث التي كانت تجري مع انهُ لم يكن عالماً هل هو صاعد على سلم يدرك بهِ الملك او يهبط الى الهلاك باللالات التي كانوا قد اخترعوها للقتل . فمن يتعجب من حبها الشديد لهُ وكانت حينئذٍ في منزلها في شارع شانترين . وفي نهاية السهرة سار الى بيتهِ وبلغهُ كانهُ لم يقم بعمل فان لوائح راحة البال وراحة الجسم كانت تلوح على وجههِ . فاخبر جوزفين عن حوادث النهار بالتفصيل ثم القى بنفسهِ على مقعد لينام هنيهة وفي صباح اليوم الثاني ركب جوادهُ في حشم واعوان وصار قاصداً سان كلو . وكان قد هيئ في ذلك المكان ثلث قاعات احداهن لمجلس الانسيان والاخرى لمجلس الخمسمائة والثالثة لبونابرت . وكان يعلم ان الامة تميل اكثر بنها الى ذلك اما الجاكوبيون فاستعدوا في الليل لمقاومة عنيفة جداً فبات بونابرت في موقف خطر عظيم لانهم عزموا ان يحكموا عليهِ بالخيانة والموت عقاب الخائن . اما سيه ودوكوهما الرئيسان اللذان تحزبا لهُ فهيأ اعجلتين يجر كلاً منهما ستة افراس ليطلبا الفرار فيهما اذ مست الحاجة . وكان كثيرون من القواد الذين كانوا يطمعون في الارتقاء يحبون ان يقودوا القوم الى مضادة بونابرت وكان برنادوت من اقوامهِ . فاصدرت الاوامر بقتل كل من يحاول ايقاع الاضطراب بين الجيش وكان بونابرت راكباً في طليعة تلك القوة العسكرية بلا خوف ولا اضطراب مع علمهِ حالة العامة وتقلباتها وانها ربما دعت لهُ بطول الحياة اليوم وسعى الغد تطلب صلبهُ . فاجتمع المجلسان في المحل المذكور وكان هيجان مجلس الخمسمائة مخيفاً . لان الاعضاء كانوا يصرخون قائلين حطوا الذي يحكم حكماً مطلقاً اقتلوا الخائن فليعش النظام وهكذا بات اصحاب بونابرت في ضيق وضعف لانهم لم يقدروا ان يصدوا مقاومات اولئك القوم . وطلبوا ان يحلف كل عضو يميناً ثانية بانهُ يعضد النظام الموضوع . ولم يتجاسر احد من الاعضاء ان يعرض نفسهُ للهلاك برفض قبول ذلك حتى ان لوسيان اخا بونابرت التزم ان يحلفهُ . ولما راى اعضاء مجلس الانسيان ثبات اعضاء مجلس الخمسمائة وجسارتهم حال كونهم نواب الامة خافوا واخذوا ينقادون اليهم فتمكنوا من ان يقرروا ان بونابرت خرق النظام . اما اصدقاؤهُ فتذكروا شرور الاوباش واعمالهم السابقة الدموية فباتوا في خوف وضعف وكادوا يتيقنون انهم



باتوا مغلوبين وان الفوز تحول الى انكسار وهلاك . اما بونابرت فكان مستكناً متانياً كجاريهِ عادتهِ في احوال كهذه وفي مبدا الحرب عندما يرى ان اعداءهُ يكادون يفوزون عليهِ . وكان بذلك التاني وحسن التدبير يتمكن من ان يحول الغلبة الى انتصار . فسار الى محل الاضطراب بقواهُ العقلية وحسن ادارتهِ ليجد قومهُ ويمكنهم من الفوز بعد ان كادوا يغلبون . فدنا من باب قاعة الاجتماع ببعض حشمهِ وقوم من الجنود فلاقى برنادوت وهو ذاهب اليهِ . فقال لهُ انك سائر الى المذبحة فقال لهُ بونابرت ان الزمان يبين هل انت مصيب او مرتكب خطأً . ولما بلغ باب مجلس الانسيان اوقف الجنود الذين كانوا معهُ عند الباب ودخلها وصعد على المنبر فصمت الاعضاء فقال لهم بونابرت ياسادتي انكم جالسون على جبل نار . انكم قلتم ان الجمهورية في خطر فدعوتموني لاساعدكم فاطعتكم . اما الان فامسيت موضوعاً لطعنكم الشديد . فتسمع القوم يذكرون قيصر وكرمول ( الذي اقام جمهورية انكليزية ) ويتكلمون عن حدوث المظالم بالقوة العسكرية مع انهُ ما من شيء في الاعصر الماضية يحاكي الاعصر الحالية . ولا يخفى عليكم ان المخاطر تحيط بنا والخراب يزداد يومياً وليس لنا حكومة فان الروساء قد استعفوا . ومجلس الخمسمائة بات في اضطراب وقد شرع بعض المهيجين في تهييج اهالي باريس فان محبي الفتن يتمنون ان يرجعوا بزمان الثورات . على انني اقول لكم لاتخافوا فاني ساحميكم بمساعدة رفاقي الجنود . اما انا فلست راغباً في شيء ولذلك احلف بانني ساحامي عن الحرية والمساواة اللتين اشتريناهما بثمن غال . فقال احد النواب وماذا تقول عن النظام . ولم يذكر النظام عن قصد لانهُ كان يحتقرهُ ويحاول قلبهُ . فصمت برهة ثم قال انكم بتم بلا نظام اساسي فانكم اوقعتم الخلل فيهِ عندما تعدت الحكومة الاجرائية على حقوق المجلس النظامي وحين حاول هذا المجلس سلب حقوق تلك الحكومة واوقعتم الخلل فيها عندما تعدت الحكومة الاجرائية والمجلس النظامي على حقوق الامة بالغاء انتخاباتها . وهكذا امسى النظام عندكم موضوعاً للهزء فان الجميع يطلبون مراعاتهُ . وما من احد يراعيهِ

ولما راى اصدقاؤهُ انهُ لم يخف سوء العواقب وانهُ وبخ المجلس بجسارة نقوول فنهض ثلثة ارباع اعضائهِ وبينوا لهُ ركونهم اليهِ وتصميمهم على ان يعضدوهُ . وفي تلك الدقيقة وردت اخبار من مجلس الخمسمائة ماكلها ان ذلك المجلس كان يحاول بالتهديد ان يجعل لوسيان شقيق بونابرت يلقي قرعة امام المجلس على ان بونابرت من العصاة . فمن المفروض عليهِ ان يبادر الى تخليص نفسهِ لئلا يحل بهِ الويل قبل ان يشرع في دفعهِ عنهُ لانهُ لو تقرر ذلك لما تمكن بونابرت من ان ينجو . وقال بونابرت بعد ذلك يهون عليَّ بذل مائتي مليون من الفرنكات لاحصل على الجنرال في ليساعدني في دفع تلك المخاطر . انتهى

وبعد ذلك الخبر قال لاعضاء مجلس الانسيان اعلموا انهُ اذا اخذ خطيب من الذين باعوا

انفسهم للاجانب في التكلم عن تقرير عصياني ساستند الى مساعدة رفاقي الجنود الباسلين الذين ترون ريش ملابس رووسهم يلوح امام الباب . واعلموا ان ملاك السعد وملاك الحرب يسيران معي . انتهى

وبعد ذلك خرج من مجلس الانسيان وسار في فرقته العسكرية الى مجلس الخمسمائة فصادف اوجيرو في الطريق وكان اصفر اللون مرتجفًا فانهُ ظن ان بونابرت سقط في وهدة الهلاك . فقال لهُ بكدر شديد واضطراب انك طرحت نفسك في خطر مبين . فاجاب بنانّ انني صادفت مقاومة في اركولا اشد من المقاومة التي ربما اصادفها في مجلس الخمسمائة . فلا تقع في اضطراب ففي نصف ساعة تتغير الاحوال . انتهى . وكان يسير وجنودهُ الباسلة تسير وراءهُ الى ان وصل الى مجلس الخمسمائة ودخلهُ فجاةً . اما الجنود فاقامت خارج بابهِ . فقطع وحدهُ نصف القاعة قاصدًا المنبر . واشتدت عليهِ المخاطر في تلك الساعة اشتدادًا لا يضعفهُ غير حذقهِ وقوة عقلهِ واقدامهِ . فان الاعضاء كانوا يصرخون صراخًا شديدًا من جميع الجوانب قائلين ماهذا . اهلكوا الظالم اخرج اخرج . وقال بونابرت بهذا الشان ان الرياح التي تخرج دفعة واحدة من كهف اولوس ليست الاَّ جزءًا من عواصف الغيظ الذي كان يحيط بي في تلك الساعة . انتهى . فحاول ان يخاطبهم ولكن لم يصمتوا لشدة هيجانهم ولم يقدر ان يبلغهم كلامهُ لانهم لم يكونوا يريدون ان يسمعوهُ . ونهض الاعضاء من مقاعدهم واحاطوا بهِ بتهديداتهم . ولما راى الجنود الذين كانوا خارج باب القاعة الهلاك الذي كاد يحل بقائدهم دخلوا القاعة مسرعين ليخلصوهُ من ايدي اعدائهِ . وضربهُ احد القوم بخنجر في صدرهِ فتلقى احد الجنود الضربة بيدهِ فخلصهُ . ودفعوا الاعضاء ببنادقهم واحاطوا ببونابرت وخرجوا بهِ من تلك القاعة . وقبل ان يبتعد عن المجلس المذكور قيل لهُ ان اخاهُ لوسيان بات محاطًا بالاعضاء الذين كانوا يحاولون اهلاكهُ . فقال للكولونل دومولن خذ فرقة من الجنود وبادر الى تخليص اخي . فسار بجنودهِ فهجموا على قاعة المجلس ودفعوا القوم الذين كانوا مجتمعين ودنوا من لوسيان قائلين اننا اتينا لنخلصك بامر اخيك وخرجوا بهِ سالمًا . وكان بونابرت راكبًا جوادهُ ولوسيان بجانبهِ وكانا سائرين امام الجنود وعند ذلك قال لوسيان للاعضاء انهُ قد فض مجلس الخمسمائة وانا هو الذي فضهُ . فان القتلة قد استولوا عليهِ . ولذلك اطلب اليكم اي الى الجنود ان تدخلوا وتخرجوهم . وعند ذلك قال بونابرت ايها الجنود هل اقدر ان استند اليكم . فصرخوا جميعًا قائلين فليعش بونابرت . فسار مورات في فرقة من الجنود الى باب المجلس ومن المعلوم انهُ عند مسير مورات في الجنود لا يكون القتال ضعيفًا فانهُ كان من الفاتكين الذين لا يرجعون خائبين . فلما وصل الى الباب قال بنانّ بلا اضطراب ولا اهتمام قوموا ببنادقكم وسيروا . فضربت الطبول وسار صف من الجنود باسلحتهِ اللامعة كانهُ سور من الحديد فخاف النواب خوفًا لا مزيد عليهِ واخذوا



يقفزون فوق المقاعد ويتزاحمون عند الابواب والنوافذ ويخرجون منها بسرعة وكان بعض اثوابهم يسقط وهم فارون . ولما كانوا هاربين في حديقة المجلس قال احد الضباط لبونابرت ينبغي ان نامر الجنود باطلاق الرصاص عليهم . فقال بونابرت لا اسمح بذلك لانني احب تتميم مقاصدي بلا اراقة قطرة واحدة من الدم . وكان بونابرت يحب المحافظة على النظام على قدر الامكان فجمع المجلسين النظاميين في المساء فلم يحضر الا الذين كانوا يرغبون في اسعافهِ على ادراك المارب . فقرروا باجماع ان بونابرت فعل ما يحمل البلاد على الركون اليهِ والتولوا الحكومة الادارية واقاموا روساء للحكومة الاجرائية بونابرت وسيه ودوكو ودعوهم قناصل (اخذوا هذا اللقب عن الرومان فانهم سموا رئيس حكومتهم قنصلاً في الزمان القديم وليس المقصود القناصل الذين يلاحظون صوالح دولهم التجارية في بلاد اجنبية) واقاموا لجنتين كل منهما فيها ٢٥ عضوًا من اعضاء المجلسين المذكورين لتوضعا مع القناصل الثلثة نظامًا جديدًا . وشاع في باريس في المساء ان بونابرت لم ينجح في مشروعهِ . فخاف القوم خوفًا لا مزيد عليهِ . فان اهلها كانوا قد تعبوا من الثورات والاضطراب فطلبوا الراحة والسكينة . وكانوا يعلمون انهُ لا يقدر احد ان يرجحهم غير بونابرت . وعند الساعة التاسعة مساء نشر اعلانًا فيهِ من الفصاحة والاصابة ما يناسب عظمة اعمالهِ فقراهُ الاهالي في كل باريس وفرحوا بهِ فرحًا عظيمًا . وفي الساعة الثالثة افرنجية من الصباح ركب بونابرت عجلتهُ وسار قاصدًا باريس ومعهُ بورين . وكان غائصًا في بحار من الافكار فقطع تلك المسافة بدون ان يفوه بكلمة واحدة . وفي الساعة الرابعة من الصباح نزل من عجلتهِ امام باب بيتهِ في الشارع المسمى شانتريين . وكانت جوزفين جالسة في النافذة تنتظر رجوعهُ بخوف واضطراب . فان بونابرت لم يكن قادرًا ان يبعث اليها بسطر واحد عن احوالهِ في ذلك النهار التي جرت فيهِ تلك الاعمال العظيمة واحاطت بهِ اخطار لا تحصى . فاسرعت لملاقاتهِ فضمها الى صدرهِ واخبرها بالاختصار عما جرى في ذلك اليوم وقال لها انهُ منذ حلف يمين القيام بمهام وظيفتهِ بامانة لم يتكلم مع احد لانهُ كان يريد ان يكون صوت جوزفين المحبوب عنده الصوت الاول الذي يسمعهُ تهنئهُ بالوصول الى رياسة الامة الفرنسوية . ومن المعلوم ان جوزفين كانت تعرف قدر هذه الملاطفة والمحبة وقيمتها وتاثيراتها فلا ريب في قولها ان بونابرت اشد الرجال اقتدارًا على جذب القلوب اليهِ . وكان قد بلغ البيت بعد نصف الليل باربع ساعات وكان عالمًا انهُ عند الصباح سيبتدئ في اجراء امور خطيرة متعبة بتنظيم الجمهورية ولذلك القى نفسهُ على مقعد طالبًا ان يرتاح بالنوم برهة قصيرة وقبل ان نام قال لامراتهِ اودعك يا جوزفين اننا سننام في الغد في قصر لكسمبرج . وتمت هذه الامور قبل ان بلغ بونابرت سن الثلثين ومع ذلك كان يركن الى قوتهِ العقلية والادارية ركونًا جعلهُ يحمل مسئولية ثلثين مليونًا من الامة الفرنسوية

الفلقة بلا تردد لحظة واحدة . وهذا العمل من اعظم اعمالهِ التي بينت حذقهُ واقدامهُ تبيينًا يعسر على القلم وصفهُ ولا يتفق الناس في الحكم على هذه الاجراآت فمنهم من يلوم ومنهم من يمدح والظاهر ان المادحين سيغلبون بمرور الزمان . فقال قوم انهُ تعدى القوانين والحرية وقال اخرون ان ذلك من الاعمال الضرورية التي قطعت الظلم والعدوان والارتباك . ولا ريب في ان ما فعلهُ كان مطابقًا لارادة اكثر الامة الفرنسوية اذا لم نقل كلها والنادر كالعدم . ومن الامور المقررة ان الجمهورية فيها كادت تسقط . وقال بونابرت عن هذا العمل انني لم افعل شيئًا ما لم يكن خطيرًا فانني بلغت الرياسة بجمع الذين كانوا راغبين في زيارتي في وقت واحد من الصباح وبالمسير امامهم الى ان ادركت المرام . فانني سرت بهم من باب بيتي الى ذلك الفوز بدون ان اطلعهم على مقاصدي . وسرت في وسط صفوفهم البهجة الى منبر مجلس الانسيان لاشكرهُ لانهُ اقامني رئيسًا مطلقًا . ومن المعلوم ان علماء القوانين قد اختلفوا على اجراآتي وسيبقون مختلفين زمانًا طويلاً فان منهم من يقول اننا تعدينا النظام وارتكبنا ذنبًا ومنهم من ينكر عليهم صحة قولهم مع ان ذلك انما هو من الامور التي يجب ان تتغلب على الضروريات . وحكم الذين يلومونني حكم الذين يلومون ملاحًا اذا طرح في البحر عمودًا من اعمدة المركب ليخلصهُ من الغرق . ومن المعلوم انهُ لولا افعالنا لامست البلاد في سقوط ونحن خلصناها . ومن فروض الذين قاموا بهذا الانقلاب العظيم ان يجيبوا الذين يلومونهم بقول الروماني المفتخر نحن نعلم اننا خلصنا بلادنا فهلموا بنا نشكر الهتنا . انتهى

وجميع الاحزاب سرت بهذا الانقلاب خلا الجاكوبيين . اما الاهالي فكانوا قد تعودوا هذه الامور فلم يلوموا الذين قاموا بها اي الذين كانوا يقلبون الحكومات ولكنهم كانوا يحكمون عليها بحسب نتائجها . واكثر الفرنسويين فرحوا بما جرى . فان النظام غلب الاضطراب بلا اراقة دم وبالقاء القبض على قليلين وبنفع كثيرين من الذين باتوا مظلومين وخلصوا بحكمتهِ وانصافهِ ولم تطل مدة سجن الذين القي عليهم القبض ولذلك يقال انهُ ادرك تلك الدرجة العليا بدون تحميل احد اثقالاً دائمة . وفازبما يحق للعالم ان يفتخر بهِ فوزًا اثبت من فوز السيف والنار

وبعد ان خلعت فرنسا ملوك البوربون اقامت دولة جمهورية ولم تنجح لان الاهالي لم يكونوا متعودينها وتمكنت فيهم بواسطة كتابهم وظلم حكامهم مبادئ مضرة بالهيئة الاجتماعية وهم في حالة الجهل لعدم انتشار المعارف بينهم . والامة التي تخضع قرونًا كثيرة لحكومة مطلقة تتعود الانقياد والذل فلا تقدر ان تصير امة واحدة حرة دفعة واحدة . وانحصرت القراءة والكتابة في واحد من كل ثلثين نفسًا وباتت الديانة عندهم من الامور السخيفة المحتقرة . ولم يكونوا يعرفون ان ابداء الراي من الامور التي يجب فيها مراعاة الذمة وان من فروض الاقلية الخضوع



للاكثرية فانهم كانوا عند فوز حزب الاكثرية في الاراء تبادر الاقلية الى تنفيذ ماربها بالقوة ومن الامور الاساسية في الجمهوريات ان تخضع اقلية القوم الى اكثريتهم ولو كان الفرق قليلاً جدًا خضوعًا ناشئًا عن احترام النظام ومراعاة الصوالح للحصول على الراحة والامنية . ولم يكن الفرنسويون يراعون ذلك فان اغراضهم كانت تسوقهم الى تجاوز حدود الاعتدال . فامست الدولة عندهم في ارتباك دائم والانقلابات بلا انقطاع . وبات الفوز للقوي والسطوة بالقتل وضبط الاملاك والنفي لاضعاف الاضداد والاستبداد في السياسة لتنفيذ الغايات الناسدة وبقيت فرنسا عشر سنوات في هذه الحال فاشتد ضيق الامة وطلبت الراحة . ولم يكن فيها من يقدر ان يمتعها بها مثل بونابرت فان قواهُ العقلية وحذقهُ ونشاطهُ واقدامهُ مكنتهُ من ان يفوق جميع ابناء بلادهِ بل جميع اهل عصرهِ ومن القبض على ازمة الامور وادارة البلاد على رغم الاعداء ادارة موافقة لها جامعة بين الراحة الداخلية والمجد في الخارج . ولا يسوغ القول انهُ كان مختلسًا لتقلدهِ المنصب الذي قلدتهُ اياهُ الامة ولا يلحق بهِ عار اذا قلنا انهُ كان يحب الحصول على السلطان وان المجد كان من اعز مطلوباتهِ والمطامع المنزهة عن الدناءة والشر من الاميال المغروسة في قلبهِ . وشتان ماينهُ وبين غيرهِ من الفاتحين الذين شادوا الممالك لمجدهم وللتمتع بالملذات ولتنفيذ غاياتهم الدنية بالحاق الضرر بغيرهم فان حبهُ للوصول الى اعلى درجات السلطان كان واسطة لرفع شان بلادهِ وجعل اسمها فوق اسماء جميع الممالك وكان يستخدمهُ في رفع شان العامة وترقية اسباب تقدمها ونجاحها وفي تعميم الراحة والمعارف ونفع التجارة والزراعة والصناعة والمشروعات النافعة وبالجملة نقول انهُ كان يطلب مجد الامة وتقرير تلك المبادئ العمومية تقريرًا معتدلاً يحميها من تجاوز حدود الاعتدال ومن الخروج عن دوائر الصواب

وفي صباح اليوم الذي قلبت فيهِ الحكومة الادارية واقيمت دولة القناصل اجتمع القناصل الثلثة في قصر لكسمبرج وهم نابوليون الاول بونابرت وسيه ودوكو . اما سيه فكان من فحول رجال السياسة . وكان يظن ان كبر سنهِ وجلال منظرهِ وقوتهُ الادبية تؤهلهُ لان يكون الاول . وان حصول بونابرت على قيادة الجيوش يرضيهِ ويكفهُ عن طلب الاشتراك معهُ في بقية الاعمال . فعند ما دخلوا القاعة جلس بونابرت في الكرسي الاول بدون تردد ولا اضطراب في مناظرتهِ لرفيقيهِ سيه . فتكدر سيه من ذلك وقال باسيديّ من منا يجلس في الكرسي الاول . فاجاب دوكو انهُ لبونابرت بلا ريب وقد جلس فيهِ فانهُ هو وحدهُ يمكنهُ ان يخلصنا . فقال بونابرت لقد احسنتما فاجلسا لنشرع في الاعمال . فاضطرب سيه وعرف انهُ لا فائدة من مقاومة رجل لهُ من القوة ما لبونابرت وكان يحب الذهب . اما بونابرت فكان يحب المجد فقط . فبعد ان جلسوا اشار سيه الى صندوق صغير في جانب القاعة وقال لرفيقيهِ الانتظار

ما اجمل هذا الصندوق . وكان بونابرت يحب المصنوعات الجميلة ولذلك نظر وتامل فيهِ وكان من الصناديق الكبيرة التي فيها صناديق صغيرة تنفخ بالجر . فقال سيه انني ساطلعكم على امر مجهول عندكما . فلما كنا اصحاب الحكومة الادارية خشينا الطرد من وظائفنا والفقر فوضعنا في هذا الصندوق مبلغًا من النقود اخذناها من صندوق الحكومة وفيهِ الان نحو مائتي الف ريال فهذا المال لنا . فظهر لبونابرت من ذلك فساد الحكومة التي قلبها وخلفها وكان قد رفض قبول ملايين فيسهل عليهِ رفض الوف محافظة على ناموسهِ . فقال لرفيقيهِ بتانٍ اذا عرفت بانكما اقتسمتما ذلك المال اجعلكما تردانهِ الى الخزينة ولكن اذا اقتسمتماهُ دون ان تخبراني فلا اعارضكما فانكما من الحكومة المقلوبة ويسهل عليكما ان تقتسما المال . وعليكما بالاسراع فان اخرتما القسمة الى الغد تخسران المبلغ . ففهما المقصود واقتسما المال فطمع سيه واخذ اكثر من النصف فشكاهُ دوكو الى بونابرت فقال لهُ اتفقا بلا مداخلتي ولا تتنازعا فان عرفت بذلك اخسركما كل المال . انتهى

فمحافظة بونابرت على كرامتهِ وناموسهِ مكنتهُ من ان يفوز على رفيقيهِ وان يكون رئيسهما لانهما اظهرا دناءتهما وخيانتهما وخسرا بذلك الاولية التي كانا يطلبانها واخضعا نفسهما لبونابرت . وتم تقرير الدولة القنصلية الموقتة مع تقرير اقامة عمدتين عدد اعضاء كل منهما ٢٥ لتشتركا مع القناصل المذكورين في وضع نظام اساسي للدولة يقدم الى الامة لتقررهُ او ترفضهُ . ولما اجتمع بونابرت مع رفيقيهِ الاجتماع الاول للمفاوضة في ذلك تعجبا واندهشا لانهما رايا منهُ ما لم يكونا ينتظران من الحذق والمعارف غير المحدودة والاختبار وفي مساء يوم ذلك الاجتماع تناول سيه الطعام في بيت احد اصدقائهِ الذين هم من المتحزبين للجمهورية . فقال للحاضرين ياسادتي قد سقطت الجمهورية وماتت فانني تكلمت اليوم مع انسان من اعظم القواد الذين يعرفون كل ابواب السياسة ويقدرون على اجراء كل ما يخطر ببالهم ان يجروهُ . فانهُ لايحتاج الى مشيرين ولا الى مساعدين . ويعرف السياسة والقوانين وفن الادارة كما يعرف ان يقود جيشًا وهو فتى شديد العزم فاقول ان الجمهورية قد انتهت . فقال احدهم ان كان ظالمًا نستعين بسيف بروتوس عليهِ اي انهم يقتلونهُ غدرًا . فقال لهم سيه ان فعلنا ذلك نقع في ايدي البوربون فالثبات على حالتنا اوفق من ذلك

اما بونابرت فاجتهد كل الاجتهاد في اصلاح احوال الحكومة والقيام بالادارة . فكان يشتغل ليلاً ونهارًا كمن لا يشعر بالتعب ولا بالضجر والملل . وكان يتكلم عن كل الامور كمن يعرفها كلها ويجعل الاعمال المالية وقوانين الضابطة والسياسة وادارة الجيش والبحرية وكل ما يعود نفعهُ على فرنسا موضوعًا لمباحثاتهِ واجراآتهِ وكان جميع ذلك مع متعلقاتهِ معروفًا عندهُ



وكانت الحكومة الادارية قد القت القبض ظلمًا على كثيرين من اقارب الذين هاجروا البلاد بسبب قلب دولة البوربون وقيام الجمهورية وسجنتهم رهنًا عندها . وكانوا يسجنون النساء ويجعلونهن مسئولات في اعمال ازواجهن المهاجرين والبنين والاخوة في افعال والديهم والاباء في اجراءات اخوتهم وبنيهم . فبادر بونابرت الى اطلاق سبيلهم وابطال تلك السياسة الظالمة وارسل مامورين الى جميع جهات فرنسا ليطلقوا سبيلهم من سجنها . وذهب هو بنفسهِ الى المكان المسمى تمبل ليطلق بيدهِ المنكودي الحظ الذين سجنوا فيهِ مع انهم ابرياء . ولما رجع من ذلك المكان قال ان اعضاء الحكومة الادارية كانوا حمقى فانهم جعلوا قوانيننا كالعدم وداسوا نظامنا . فانني وجدت المسجونين في حالة يرثى لها وسالتهم وسالت السجانين عن احوالهم لاننا لانقدر ان نعرف شيئًا عنها من الرؤساء . ولما كنت في السجن افتكرت بالملك لويس السادس عشر البوربوني فانهُ كان رجلاً ذا خصال حميدة غير انهُ لم يكن يوافق البشر لان صلاحهُ لم يكن يوافق شرهم . وطلبت اليهم ان يروني المكان الذي كان السارسدني سميث مسجونًا فيهِ ولو لم يتمكن من النجاة منهُ لفتحت عكا . واذ حدثت في ذلك السجن حوادث كثيرة مكدرة اردت هدمهُ وطلبت الى السجان ان ياتيني بسجلهِ وعند الوقوف على اسماء المسجونين امرتهُ بان يطلق سبيلهم وقلت لهم ان قانونًا ظالمًا القاهم في السجن ولذلك من الواجب عليَّ اطلاقهم

وكان الفرنسويون قد اضطهدوا خدم الدين اضطهادًا عظيمًا ولم يكونوا يرفعونهُ عنهم ما لم يحلفوا يمينًا تضاد تعهداتهم الدينية . فبات كثيرون منهم في السجون . وطلب كثيرون منهم الفرار وذهبوا الى بلدان اجنبية فقراء مهلين . فرفع بونابرت الاضطهاد عنهم وحماهم بقوتهِ وعدلهِ . واطلق سبيل الاسرى ودعا المنفيين ليرجعوا الى اوطانهم . وقرر انهُ لابد من مراعاة حرية الضمير اي الحرية الدينية . فرجع عشرون الفًا من المنفيين المنكودي الحظ ونشروا في جميع المدن والقرى الثناء على عدل القنصل الاول ورافتهِ . اما اهل فرنسا المقيمون في الولايات التي لم تنتشر المعارف فيها والمبادئ الجديدة ففرحوا فرحًا لامزيد عليهِ برجوع الكهنة فكان احقر القوم واعلاهم يشكر بونابرت لانهُ ارجع لفرنسا كل ما كان اهلها يحتاجون اليهِ

وكان بعض المهاجرين الفرنسويين قد تقلدوا اسلحة من انكلترا ورجعوا الى بلادهم للانضمام الى الملكيين في مايون ليسعفوهم في الحرب الاهلية لترجيع البوربون . فكسرت الانواء مركبهم عند شواطئ كالي فاسروا جميعًا . والقي القبض عليهم وفي ايديهم اسلحة لمحاربة ابناء وطنهم فحكم عليهم ان يقتلوا بالالة التي اخترعها الفرنسويون . فاراد بونابرت ان يخلصهم . وقال ليس من متعلقاتنا ان نبحث عن مقاصدهم فاننا نعلم ان الانواء دفعتهم على سواحلنا فهم رجال مصابون فعلينا ان نعاملهم معاملة ضيوف وان نراعي القوانين الدولية ونحميهم من كل ضرر

فسمح لهم بان يركبوا مركبًا ويرجعوا عن فرنسا سالمين . وكان بعضهم من اهل الشهرة فجذبهم اليهِ بونابرت بهذا العمل فاصبحوا من مساعديهِ وعاضديهِ

وكان حكام الثورة قد اقفلوا ابواب المعابد ومنعوا البطالة يوم الاحد وعينوا يومًا كل عشرة ايام للراحة والسرور والحظ ووضعوا جزاء نقديًا على الذين يقفلون دكاكينهم يوم الاحد او يظهرون انهم يعتبرون الدين . اما بونابرت فعزم على ترجيع الدين المسيحي الى فرنسا وكان يعلم انهُ لابد من الانتباه خوفًا من ان يتكدر الفرنسويون الذين كانوا يكرهون الديانة وقوانينها فقرر تمهيدًا انهُ لا ينبغي معاقبة احد بسبب الدين واعماله المتعلقة بهِ فصادف مضادة قوية لان باريس كانت لا تومن بالدين المسيحي واكثر اهلها لا يعتقدون شيئًا من الاديان وانكر كثيرون منهم واجب الوجود . وكان القواد ورجال السياسة واهل الحكمة يسخرون بالدين فقاوموا بونابرت ولكنهُ كان ثابت العزم . وتحزب اكثر العامة لهُ فتغلب عليهم وانتخب رجالاً من اهل الادارة ليقلدهم المناصب العظمى وكان يقلد المناصب لاربابها . فقال انني محتاج الى رجال ذوي عقول اثقب من عقول الرجال الموجودين والسنتهم اقصر فاشغل الجميع بلا انقطاع وكان يناظر على اعمالهم جميعهم لعلمهِ بكل ابواب السياسة . وكان وزير المالية يلتزم ان يجتمع بهِ ثلث مرات في الاسبوع للتفاوض فظهر الفساد السابق وانقطعت اسبابهُ . ولما تقلد رياسة الحكومة وجد المالية في اسوإ حال فان نقودها كانت نافذة والمطاليب كثيرة . فشرع في اصلاحها . وكانت الجيوش في احتياج الى الماكل وكادت تجاهر بالعصيان . فالقى عليها خطابًا قصيرًا لطيفًا معزيًا مقويًا وكانت بلا ملابس ولا ماكل ومع ذلك رجعت عن العصيان الى الطاعة بكلام ذلك الانسان العجيب وفي ايام قليلة اخذت العجلات تاتي من جميع الولايات الى الثكن حاملة ما يلزم من الماكولات والملابس . اما البوارج فكانت محصورة في الثغور وهي في اسوإ حال فلما تقلد رياسة الحكومة اقيمت الاعمال فيها في كل النواحي وصار الشروع في التاهب لارسال نجدة الى الذين في مصر . وكانت اشغالهُ سائرة على قدم النشاط ولم يسبق لها نظير في اعمال البشر . فشعرت كل فرنسا في الرواج الناشيء عن ذلك . وكان يهتم بجميع هذه الامور وامور اخرى كثيرة لا تقدر ان نعددها لا يقوم بها اقل من رجلين وكان يجتمع برفيقيهِ في الحكومة وبالعمدتين ليتباحثوا في ما يتعلق بنظام جديد

وكان رئيسًا للجمهورية محاطًا باعدائها جميعهم من الكهنة الذين كانوا يفرغون جهدهم في ترجيع البوربون لترجيع نفوذهم ومن الامراء الذين باتوا منفيين ومن اصدقاء الدولة المخلوعة كان هولا الاعدا يخافون عواقب ثبات دولتهِ لعلمهم انهُ قادر على ضبط الاحكام فتثبت الجمهورية او حكومة غيرها فتبعد دولة البوربون فبات بونابرت في خطر دائم من ان يقتلهُ الذين كانت



قوتهم المستندة الى جيوش دول اوربا ورجالها لا تتورع عن اختراع وسائل لخراب الجمهورية عالمين ان ارتقاء بونابرت الى رياستها يكون علة ثباتها . اما سيه فكان يخاف جدًا معاملة بونابرت اعداء الجمهورية بالحلم وقال ان المهاجرين سيرجعون افواجًا افواجًا فيقتوى الملكيون وينهضون على الجمهوريين ويقتلونهم . وكان يخال لهُ على الدوام ان المؤامرات جارية والقتلة يحيطون بهِ حتى انهُ كان يحلم بذلك . ففي ذات ليلة ايقظ بونابرت بعد نصف الليل بثلث ساعات ليخبرهُ بان اعداءهم قد عقدوا مؤامرة مخيفة لاهلاكهم وان الضابطين اكتشفوا عليها وقص عليهِ الخبر . فرفع بونابرت راسهُ عن وسادتهِ بعد ان سمع ما قالهُ وقال لهُ هل تمكن الاعداء من ان يرشوا حرسنا فيحملونهُ على الخيانة قال لا قال فالاوفق ان ترجع الى فراشك واتركهم لانهُ لا ينبغي ان نهتم بالفرار قبل ان يهاجموا الحراس فانهُ يبقى لنا عند ذلك زمان كافٍ للفرار . وكان بونابرت حليمًا جسورًا . وكانت شجاعتهُ الركن الوحيد الذي يستند اليهِ

وفي نحو ستة اشهر تهيأ النظام الجديد ليعرض على الامة لتقبلهُ او ترفضهُ وكتب سيه في مسودة ذلك النظام ينبغي ان يكون السلطان الاول في يد رجل يعرف بالمنتخب الاكبر يبقى في منصبهِ حياتهُ بطولها ويقبض راتبًا سنويًا خمسة ملايين فرنك ويسكن قصر فرساليا محفوفًا بعظمة واراد سيه ان يجعلهُ ملكًا بالاسم والعظمة لا بالسلطة منوهًا ان ذلك يرضي بونابرت فلما راى بونابرت هذا محاهُ وقال لسيه هل تظن من كان ذا اهلية ونباهة يرضى بمنصب يتعهُ بما يجعلهُ سمينًا كالخنزير بغزارة المال الذي يقبضهُ من بيت مال البلاد حال كونهِ بلا سلطة ونفوذ . ووضعوا النظام الاتي وهو يكون لبونابرت السلطان الاول ويلقب القنصل الاول ويعين قنصلان اخران دونهُ وهما كامباسرو ولبرو يكونان مشيرين للقنصل الاول ووظيفتهما امدادهُ بالراي وعلى هولاء القناصل وضع القوانين وطرحها امام مجلس يدعى التريبونت فيبحث فيها ويقررها او يرفضها . فان قررها تحال الى مجلس اخر اسمهُ لاجسلاتور وعليهِ ان يسمع قراءتها بدون ان يبحث فيها ويعين ثلثة رجال ليعضدوها بخطبهم وثلثة غيرهم ليضادوها لاظهار ما هو غير مناسب منها ثم يبادر المجلس الى تقريرها بلا مفاوضة او الى رفضها بالاراء وان تكون حكومة القناصل مقيدة لا ينفذ شيء من اعمالهم الا بعد تقريرهِ في مجلس التريبونت وقراءتهِ في مجلس اللاجسلاتور . وقال سيه بهذا الشان ان النظام بناية كالاهرام والامة اساسها . وجاء في هذا النظام ان كل رجل فرنسوي يبلغ سن ٢١ ويدفع خراجًا للحكومة يكون ذا راي . فبلغ عدد الذين لهم حق الانتخاب في فرنسا خمسة ملايين ينتخبون خمسمائة الف وكيل . وينتخب هولاء الوكلاء خمسين الف رجل منهم وهولاء ينتخبون منهم اي من الخمسين الف رجل خمسة الاف رجل وهولاء الخمسة الالاف هم الذين يصير انتخاب اهل الخطط منهم فتقرر ان جميع ارباب المناصب يكونون منتخبين باراء الراشدين

وجاء منهُ ان بونابرت يكون القنصل الاول عشر سنوات ويكون راتبهُ خمسمائة الف فرنك وان كامباسرولبر ويكونان قنصلين معاونين راتب كل منهما ثلثمائة الف فرنك في السنة . وان هولاء القناصل مع سيه ودوكو ينتخبون من الخمسة الاف رجل المذكورين ومجلس الاعيان السناتو واعضاؤهُ ثمانون لا يعزلون وراتب كل منهم ٢٠ الف فرنك . وان هذا المجلس ينتخب ثلثمائة رجل من الخمسة الاف رجل المذكورين ليكونوا مجلس اللاجسلاتور وراتب كل منهم عشرة الاف فرنك في السنة وينتخب ايضاً مائة رجل منهم ليكونوا مجلس التريبونت وراتب كل منهم ١٥ الف فرنك . فهذا هو النظام او القانون الاساسي للدولة في ابتداء ايام بونابرت . ولو كان رجلاً عادياً لاصبحت الدولة قانونية مقيدة ولكن حذق بونابرت جعلهُ يتسلط عليها ومكنهُ من ان ينفذ ارادتهُ . فكان يطلب اجراء امور جلية الفائدة فلم تقدر المجالس المار ذكرها ان تضاد شيئاً من مطالبهِ فتسلط على افكار الاعضاء والروسا فلم يكونوا يقدرون ان يخالفوهُ لحذقهِ ونباهتهِ وحسن تدبيرهِ فاجابوا اكثر مطلوباتهِ بل جميعها

وكان راغباً في تعظيم فرنسا وبذل اعظم صوالحهِ في هذا السبيل لعلمهِ ان وصولهُ الى اعلى درجات المجد لا يتم الا بذلك . وكان لا يخضع للرشوة ولو كانت ملايين من الليرات ولا ينقاد بالميل الى ما يجعلهُ يحيد عن السعي للحصول على تلك الغاية . ويبادر الى تحصيل ما يرقي صوالح فرنسا . فجمع حولهُ احذق رجال اوربا ليستخدمهم في الوصول الى المطلوب وكانوا جميعاً بالنسبة اليهِ كالاولاد بالنسبة الى الراشدين . وكان يكد ويجد في طلب غايتهِ فقال الناس متعجبين ان جسمهُ لا يشعر بالتعب وقوة عقلهِ لا تعرف الملل . ولم يحاول احد مخالفتهُ وكان جميع مامورييهِ يجتهدون في اجراء ارادتهِ . فلم يمكن انشاء نظام قادر ان يمنع تنفيذ ماربهِ . وكان اعوانهُ يقولون انهم باتوا متحيرين مما يرونهُ من نتائج قواهُ العقلية وحذقهِ متعجبين من عدلهِ وسرعة خاطرهِ في فض المشاكل وقالوا بتنا في زوبعة من الاعمال اللازمة كلها لخير فرنسا

وبعد ذلك عرض ذلك القانون على الامة الفرنسوية لتقررهُ او لترفضهُ . فانهُ اطلق لها الحرية فتقرر برأي ثلثة ملايين و ١١ الفاً وسبعة اراء والذين ضادوهُ ١٥٦٣ فقط . فاقيم بونابرت قنصلاً اول لفرنسا باكثرية لم يحصل غيرهُ عليها . والذين اساس اعمالهم ارادة الامة لا الحقوق الملكية الموروثة يسلمون بان انتخاب بونابرت كان قانونياً وهو اثبت حق يتولاهُ بهِ رياسة الامة الفرنسوية . فلم يحتسبها اختلاساً وقال مفتخراً باصابة لم اختلس التاج ولكني وجدتهُ مطروحاً في الوحل فالتقطتهُ فوضعتهُ الامة على راسي . انتهى .

ولا نعجب من اختيارها لهُ لعدم وجود من يقوم بادارتها مثلهُ . فانتقل بونابرت وامرأتهُ من قصر اللكسمبرج الى قصر التويلري فالاول حقير بالنسبة الى الثاني . وكانت الحكومة قد اصلحت



قاعاتهِ الجميلة التي عطلت عامة باريس بعضها وصورت على حيطانها علامة الجاكوبيين وهي من ملابس الراس وعلى برنيطة لويس الرابع عشر الحريرية الراية المثلثة الالوان . فقال بونابرت امحوا هذه الصور فلا ارضى باعمال خيانة . ثم أُصلح القصر وزيد في عظمتهِ فصار احسن مما كان عندما كان منزل الملوك

وكان الملك لويس الفرنسوي محب الامراء فانهم هم الذين رفعوهُ الى العرش فكان يراعي صوالحهم وفتح لهم وحدهم ابواب المجد والثروة فباتت العامة في حالة العبودية والجهل والفقر لينسى للملك والامراء ان يعيشوا بالتنعم والرخاء . اما بونابرت فكان رئيس الامة ولم يكن من الامراء ولم يرتفع شانهُ بانتخابهم وكان يفتح لهم ابواب التقدم والنجاح ولم يكن يعتبر غير رجال الاقدام والعقل والحذق . ولم يرض بامتيازات موروثة ولا برتب لم تنل بالاهلية والاستحقاق . وكانت القوانين نافذة في الجميع وكل الامة تتقاضى الى محاكم واحدة وتخضع لقوانين واحدة ووضع الخراج على الارزاق بحسب مقدارها والغيت الامتيازات التي كانت لها . وكانوا يسمون بونابرت القنصل الاول ولم يكونوا يعتبرون اللقب لعدم استناده الى الفعل . وكانت الامة تحب ان يكون رئيسها اعظم من ملك الامراء واقوى منهُ وتقوم بما يرفع شانهُ ودرجتهُ . فان مجدهُ كان مجدها . وكانت تسر جداً بان تراهُ يفوق ملوك اوربا في العظمة والقوة . وفي ذات ليلة خرج بونابرت متخفياً هو وبورين الى شارع روسان او نوري واخذ يشتري بعض اشياء ويكلم الناس عن القنصل واعمالهِ . فقال لبعضهم في حانوت يا ايها الناس ماذا يقول القوم عن بونابرت فاجاب صاحب الحانوت بالثناء عليهِ ومدحهِ جداً . فقال لهُ بونابرت لا بد من مراقبتهِ والمامول ان لا نبلى برئيس ظالم بعد الحكومة الادارية الظالمة وما النفع من بدل ظالم بظالم . فغضب صاحب الحانوت واهان بونابرت فخرج هارباً مسروراً ضاحكاً

وفي ١٩ شباط (فبريه) سنة ١٨٠٠ للميلاد اصبح سكان باريس منتظرين دخول الرئيس الذي انتخبوهُ قصر التويلري الذي كان داراً لملوكهم المخلوعين . اما القنصلان اللذان كانا يشاركان بونابرت في رياسة الحكومة فبانا بلا ذكر لان شهرتهُ وشجاعتهُ ومعارفهُ واجتهاداتهِ جعلت اعمالهم في زوايا النسيان فامسيا بلا نفوذ لان الامة جعلت عنايتها في مخلصها العظيم . اما سيه فادرك نتيجة هذه الحال ورفض ان يكون القنصل الثاني محافظة على كرامتهِ ومدحة القوم وبعد ان اجتمع مرتين ببونابرت راى انهُ لا سبيل الى مشاركة من كان ذا حذق واقدام ونفوذ مثلهُ في الاحكام . وقال بونابرت ان سيه اخطأ في ما فعل لان القناصل الثلثة لم يكونوا متساوين فالقنصل الاول كان نظاماً الرئيس والقنصلان تابعين لهُ ولا سبيل الى خوفهِ من الفشل بسبب الخلاف الذي كان ينتظر وقوعهُ بينهُ وبين القنصل الاول ولو كانوا متساوين واحسن بما فعل . انتهى . واصاب بونابرت بما قال لانهُ

لم يكن بشر قادرًا على مقاومة اقتداره على التسلط

وامر بتهيئة القسم الملكي من ذلك القصر لنزول بونابرت فيه اما القنصلان الاخران فاقيما في القسم الاخر وهو دون الاول واسمهُ بافليون دوفلورا وكان القنصل كامبسز يعرف مقامهُ فامتنع عن الدخول الى قصر الملوك وقال للقنصل الثالث واسمهُ لوبرن ان نزولنا في قصر التويلري خطا فانهُ لا يوافقنا . اما انا فلا ادخلهُ فانهُ بعد زمان قصير يصبح الجنرال بونابرت راغبًا في التفرد فيه فنلتزم ان نخرج فالاوفق ان لا ندخلهُ

ومن صفات بونابرت المحافظة على الوداد وعلى صداقة الذين دونهُ فكان يتذكر اصدقاءهُ القدماء مع ان اعظم المهام كانت تشغلهُ وكان قد ارتفع عنهم درجات كثيرة . ومن اولئك الاصدقاء صاحب قاعة صغيرة للقراءة في ناحية بالي رويال وكان وهو في سن الفتوة يقرأ الجرائد ويستدفئ بنارها بدفع مبلغ قليل من الدراهم وكان وقتئذٍ بلا اصدقاء ولا بيت ولا مال . فلما رات امراة صاحب تلك القاعة انهُ على جانب من التعقل والرزانة منصب على المطالعة وقع لهُ عندها اعتبار فكانت تدعوهُ ليشرب كاسًا من المرق معها . فلما وصل الى الدرجة العليا التي بلغها تذكر جميلها وقلد زوجها وظيفة . وبعد ذلك طلب رجال دولتهِ بالحاحة قفل قاعات القراءة في باريس لمنع الاجتماعات السياسية فقال لا اقفلها فانني اعلم ان نفعها العظيم لكثيرين من الذين ياتونها

والوقوف على اخبار بونابرت يلذ كل انسان ويصبو اليهِ كل عاقل فلم نقتصر في هذا التاريخ على ذكر الحوادث العمومية وطلبنا الكلام على امورهِ الشخصية لان في الوقوف على كلامهِ واعمالهِ فائدة عظيمة وقال الامبراطور نابوليون الثالث لابنهِ في وصيتهِ تامل جميع اعمال بونابرت واقرأ كل اقوالهِ واجعلها في ذهنك لتكون دليلاً لك في السياسة

ونام في صباح اليوم الذي كان مزمعًا ان ينتقل فيهِ الى قصر التويلري الى ما بعد الساعة التي كان يستيقظ فيها قبل ذلك دخل بورين قاعة نومهِ قبل الظهر بخمس ساعات وكان لا يزال نائمًا فاستيقظ وقال لهُ يا بورين اننا سنام في التويلري . اما انت فسعيد جدًّا لانك غير ملتزم ان تجعل نفسك واسطة لظهور العظمة والافتخار فتدخلهُ كما تشاء . اما انا فلا بد من دخولي في موكب عظيم . ولا احبهُ ولكن لا مفر منهُ فانهُ يسر الامة . ولا يخفى عليك ان الحكومة الادارية كانت مجردة عن العظمة فلم يعتبرها الناس فالتجرد عنها في الجيش موافق . ولكن لا يوافق في مدينة عظيمة وفي قصر مشهور لا بد لرئيس الامة من جذب الابصار اليهِ بجميع الوسائط ومع ذلك لا بد من التيقظ اما جوزيفين فستترى الموكب من بيت القنصل لوبرن

فركب بونابرت عجلة فاخرة جدًّا وجلس بين القنصلين فكانا كانهما من خدمهِ او حراسهِ . وكانت ست افراس بيضاء كريمة تجرها وهذه الافراس هدية بعث بها اليهِ امبراطور النمسا بعد



عقد معاهدة كامبوفورميو . وسار في ركابهِ كثيرون من القواد والضباط لابسين افخر الملابس واثمنها وستة الاف جندي من نخبة الجيش . وصف في الشوارع التي كان مزمعًا ان يسير فيها نحو عشرين الف جندي بهماتهم الحربية وكل ما هو من اسباب التظاهر بالقوة والعظمة الحربية . واجتمعت جماهير لا تحصى من المدينة ومن البلاد وملات الطرق والمنتزهات والشرف والطيقان والسطوح . فان الامة الفرنسوية اجتمعت لتعظم الذي جعلتهُ رئيسًا لها بارادتها وهو الذي كان يكاد الجيش يعبدهُ لتظهر ميلها اليهِ وفرحها بجلوسهِ على سرير ملوكها القدماء ودخولهِ الى قصرهم المشهور . ولما راى الجمهور تلك العجلة ضج قائلاً فليعش القنصل الاول فارتجت الارض وتوهم السامعون ان السماء تهبط عليها . ولما وصلت العجلة الى سلم القصر الاول خرج وركب فرسهُ ليعرض لهُ ذلك الجيش العظيم المصفوف في الشوارع

وسار الجنرال مورات عن يمينهِ ولانزعن يسارهِ وحولهُ جمهور من الابطال شهدت بشجاعتهم وجوههم المجرحة وآثار اشعة الشمس فيها كآثار اجناد القتال في حومة الوغى . وكان بين الجيش ثلث فرق حاملة الرايات التي كانت في معارك لودي وريفولي واركولا . وكانت هذه الرايات مسودة من دخان البارود ممزقة بالرصاص فلما دنا منها بونابرت رفع برنيطتهُ احترامًا لتلك الاثار الدالة على الشجاعة والظفر . فاستحسن القوم هذه الحركة اللطيفة وضجوا وهللوا . ثم رجع الى القصر ودخل قاعة الاستقبال فشخصت ابصار الجميع فيهِ ونسي القوم القنصلين فبانا كانهما خادمان سائران معهُ ليعظماهُ ويمجداهُ

اما الحلات التي اعدت لجوزفين زوجتهِ فكانت قاعتين عظيمتين بجانبها غرف كثيرة . وفي المساء اجتمع جمهور غفير من الزائرين العظام في قاعات ذلك القصر . ودخلت جوزفين القاعات المزينة الفاخرة آخذة بيد تاليرند لابسة اثوابًا موافقة للذوق فاثنى الحضور عليها ومدحوها . واقيمت الافراح واسباب البسط والانشراح في تلك الليلة الى الفجر . وبعد ان خرج المدعوون اخذ بونابرت يتمشى في القاعة وهو غائص في بحار من الافكار ولوائح الكدر تلوح على وجههِ ثم قال لكاتبهِ بورين لقد دخلنا قصر التويلري فلا بد من البقاء فيهِ . فمن يسكنهُ الم يكن منزلاً للصوص وهم اعضاء الحكومة المتحدة وهذا بيت اخيك الذي حصر منهُ لويس السادس عشر السليم الطوية في هذا القصر ثم قيد الى الاسر . ولا ينبغي ان نخاف حدوث ذلك ثانية فمن يتجاسر على اعادة تلك الافعال فليتقدم اليَّ . انتهى . وفي صباح الغد قال لبورين انظر نتائج اجتهاد الانسان لبلوغ نتيجة يطلبها فمنذ سنتين عزمنا على الاقامة في هذا القصر . فهل تظن اننا اخطانا في ادارة اعمالنا اما انا فمرتضٍ كل الارتضاء من النتيجة واما الاعمال التي اجريناها في الامس فنجحت جدًّا هل تظن ان جميع الذين زاروني امس من الذين يخلصون الوداد لي . من الموكد انهم ليسوا جميعًا من

الاصدقاء ولكن فرح الامة كان قلبيًا فانها تدرك الصواب . فاقطع النظر عن هذه الامور وانظر الى حالة الامة بالميزان العام المضبوط اي ميزان المالية . فان اسهمها كانت في ١٧ من هذا الشهر بسعر ١١ فارتفعت في ٢٠ الى ١٦ واليوم بلغت ٢١ . وهذه الاحوال تجعلني لا اخاف اطلاق عنان اليعقوبيين ولكن لا اسمح لهم ان يرفعوا اصواتهم بما يكدر الامة

ثم شرع في انتخاب رجال الدولة واجاد واصاب . فجعل تاليرند وهو من رجال السياسة الحاذقين وزيرًا للخارجية فقال لبونابرت انت قد استامنتني على ادارة المهام الخارجية فاخدمك بامانة ولا استشيرسواك في الاعمال لانه لا سبيل الى ادارة فرنسا ادارة حسنة الا باتحاد الاعمال فلا بد ان تكون ادارة الفصل الاول عمومية فتبيت في يدِ ادارة الداخلية والخارجية والضابطة والحربية والبحرية . اما الفصل الثاني فهو من العارفين بالقوانين فمن الموافق ان يدير العدلية والفصل الثالث المالية فيشتغلان ويرضيان وتتمكن من مرادك وهو اصلاح فرنسا بادارة اعظم اعمالها . فاصغى بونابرت اليهِ ولم يجب بشيء . ولما خرج قال لكاتبهِ بورين ان تاليرند اشار علي بما انا عازم عليهِ وهو احذق الرجال ومن يسير وحدهُ يسير سريعًا . وضاد احد الرجال تنصيب تاليرند في وزارة الخارجية وقال انهُ سريع التقلب . فقال بونابرت ربما صح قولهُ ومع ذلك هو انسب الرجال لادارة الخارجية وساجعلهُ يفرغ جهدهُ في القيام بمهامها . وقال اخران كارنو من الجمهوريين فلا يوافق ان يكون وزير حرب . فقال بونابرت ان كان جمهوريًا او غير جمهوري فهو اشد الفرنسويين بغضًا لوقوع فرنسا في الشقاق فينبغي ان نغتنم سنوح الفرصة للانتفاع بخدمتهِ . وقال اخران فوشي منافق ذو وجهين ولسانين فلا يصلح لادارة وزارة الضابطة . فقال بونابرت انهُ وحدهُ قادر ان يدير تلك الوزارة فانهُ متفرد بمعرفة اسرار الانشقاقات والحيل التي اوقعت فرنسا في الويل . ولا نقدر ان نخلق رجالاً فلا بد من استخدام الذين نجدهم . وتغيير صفات رجل حاذق اسهل من قيام خلف لهُ . وقيل لبونابرت يوافق ان يكون موسيو ابرايل وزيرًا للعدلية وهو من امراء فرنسا . فقال لهُ بونابرت عند مقابلتهِ انني لا اعرفك يا ابن الوطن ابرايل وقد بلغني انك اصدق رجال القوانين واكثرهم استقامة فجعلتك وزيرًا للعدلية

ومن اعمال بونابرت الاولية ابطال تذكار قتل الملك لويس السادس عشر وقال ان اقامة الافراح في ذلك اليوم عمل بربري يجلب عارًا على الامة المحافظة على حقوق الانسانية . وفي ذات يوم قال سيه الملك لويس من الظالمين فقال بونابرت لهُ اخطات فانهُ لم يكن ظالمًا ولو كان كذلك لكنت انا اليوم قبطانًا من المهندسين وانت في كنيستك تقوم بفروض الكهنوت

والحرب التي التزمت فرنسا ان تقوم بها حملتها نفقات كثيرة فكانت الحكومة الادارية تجمع المال بالقوة من الاهالي لسد احتياجات بيت مال فارغ . فلما تقلد بونابرت الرياسة ابطل ذلك



وجمع سبعين رجلاً من اغنى اهل باريس في غرفتهِ وبيّن لهم بوضوح مبادىء الحكومة الجديدة وانهُ ينبغي ان تكون موضوعًا لركون الامة فاقنعهم بعد مفاوضات قصيرة وملئت قلوبهم فرحًا بامل الحصول على حكومة عادلة ثابتة فقرضوا الحكومة عشرة ملايين فرنك . وهذا المبلغ لم يكفهِ الا بضعة ايام ومع ذلك نفع الحكومة جدًا ثم وضع خراجًا على الاملاك لسد تلك الاحتياجات . وكان عادلاً فدفعهُ الناس عن طيب خاطر . وكان يكره الذين يريقون الدماء ابان الثورة ويلوم اشد اللوم الذين حكموا بالقتل على الملك لويس . وكان يتاسف لالتزامهِ ان يستخدم بعض الذين كانت لهم يد في تلك الاعمال وكان كامبسز منهم ولكن ضاد قتل الملك بعد ان حكم بالقبض عليهِ . ففي ذات يوم اجتمع بونابرت بهِ وامسك اذنهُ ممازحًا وقال لهُ انت عالم بانهُ لا بد لي في الثورة البربرية ولكنك انت يا صديقي كامبسز لك اياد فيها فاذا عاد البوربون الى كرسي الملك فلا بد من ان يقتلوك شنقًا ولم يسر كامبسز بهذا المزاح فتبسم تبسمًا دل على كدرهِ . وقال بونابرت لكاتبهِ بورين عند تنظيم مجلس فرنسا العالي لست بعازم على معاقبة الذين قاموا بالاعمال البربرية ولكن ساظهر افكاري بشانهم . اما تعلم ان تارجت رئيس هذا المجلس العالي الجنائي تمنع عن ان يكون محاميًا عن لويس السادس عشر لما كان من المحامين فصممت على عزلهِ وتعيين ترونشه خلفًا لهُ لانهُ دافع عنهُ بغيرة تدل على كرامة اخلاقهِ وشهامتهِ وحبهِ للحق مع انهُ كان محاطًا بالمخاطر وصممت على اجراء ذلك قاطعًا النظر عن كلام بعض القوم بهذا الشان

وكان يهتم بالجيش اهتمامًا رد اليهِ حماستهُ وحميتهُ ورغبتهُ في خدمتهِ فاهدى مائة جندي من الذين امتازوا بالشجاعة مائة من السيوف الجميلة واحدهم كان قائد ٥٠ في الجيش فاذن لهُ قائدهُ بان يكتب الى بونابرت شاكرًا . فكتب بونابرت اليهِ بخط يديهِ ما ترجمتهُ يا رفيقي الباسل قد ورد الي كتابك حال كوني متذكرًا شجاعتك فانك ابسل جندي في الجيش ولم يقم مثلك فيهِ منذ موت بنز بني الشجاع . قد اخذت سيفًا من السيوف التي وزعت على مائة من الجنود واجمع القوم على انك تستحق تلك الهبة اكثر من جميع الذين حصلوا عليها . اني اود ان اراك فوزير الحرب يبعث اليك بامر لتاتي الى باريس . انتهى . فانتشر هذا الكتاب على الجيش وشدد عزم الجنود وانهض غيرتهم . وكانوا يقولون ما اوضع بونابرت الم تروا انهُ كتب الى قائد خمسين من الجيش بانهُ رفيقهُ الباسل حال كونهِ رئيس الامة الفرنسوية واشهر قواد فرنسا . اما بونابرت فكان على الدوام يفعل ما يسر العامة ويجذب قلبها اليهِ . وما ياتي يبين افكار ذلك الرجل العظيم وهو كلام جرى بينهُ وبين طبيبهِ اوميارا عن الملاحين الانكليز قال اوميارا لهُ ان حالة الملاحين في الفتاء احسن من حالة ضباطهم . فسالهُ بونابرت عن السبب . اجاب انهم يقدرون ان يقتربوا من النار لينشفوا ثيابهم ويصطلوا . فقال بونابرت لماذا لا يقترب الضباط منها كما يقترب الملاحون . اجاب لعدم

الموافقة فلا يوافق الضباط ان يجالسوا الملاحين كانهم من رتبة واحدة . قال بونابرت ما اجهل الذين يجعلون بين البشر هذا الامتياز فانني كنت اجالس احقر جنودي واكلمهُ كما اكلم احد اقراني . وانتم الانكليز اشد الامم محافظة على الامتيازات الموروثة . وانا افتخر باني رجل العامة وقد خرجت منها وكنت ارفع اصحاب الاهلية مع قطع النظر عن نسبهم وحسبهم وانتم تلتفتون الى اهل الحسب والنسب وعندكم ان كل ما هو حسن يليق بهم دون غيرهم وتعاملون العامة معاملة العبيد . الا تعلمون ان اردأ اعمالكم اجباركم الرجال على الانتظام في سلك الملاحين فانكم ترسلون قواربكم الى الشاطئ لالقاء القبض على جميع الذين يقدرون ان يلقوا القبض عليهم فاذا وجدوا انهم من الفقراء يذهبون بهم الى البوارج . ومع ذلك تقيمون الحجة على ادخال الرجال في سلك العسكرية في فرنسا بالقرعة . والسبب تاثيرها في افتخاركم ووقوعها على الامراء والاعيان كما تقع على العامة . فانكم لا تقدرون ان تحكموا بصوابية جعل ابن رجل ذي شان ادبي او مادي يتقلد السلاح ويدافع عن وطنهِ كما يتقلدهُ ابن الرجل الفقير ويدافع عنهُ كانَّ تعريض جسد لحر القتال حطة في شانهِ وانتم تضادون ذلك مع انكم تعلمون ان الله خلق كل البشر متساوين فلا بد من ان تقوم العامة عندكم بالثار . والقرعة التي حملتكم على الكدر هي مؤسسة على حقوق المساواة . فان كلاً من اهل البلاد ملزوم ان يدافع عن بلادهِ . فقرعة فرنسا ليست كادخالكم الرجال في سلك البحرية اذا كانوا من الفقراء فانها تدخل كل الرجال في سلك العسكرية وهي اعدل واسطة لجمع الجيوش لان اساسها المساواة وهي التي جعلت الجيش الفرنسوي احسن جيوش العالم . ولما ركب بونابرت البارجة نورثمبرلند الانكليزية احبهُ الملاحون الانكليز جداً وقال عن ذلك اظن ان الملاحين في تلك البارجة كانوا اصدقاء لي فانني كنت اجلس بينهم واكلمهم ملاطفاً واسألهم سوالات تدل على التواضع فتعجبوا لما راوا ذلك مني اذ لم يعودهم ضباطهم تلك المعاملة . فقال احد السامعين انهُ من الواجب امتناع القواد عن مخالطة الملاحين في المراكب للمحافظة على اعتبارهم . فاجاب لا اظن ذلك من الامور اللازمة . فان انفراد الضباط في الاكل والشرب وعدم تجاوز حدود الاعتدال في المداخلات هو كاف . فان كل الرجال متساوون . ومن عادتي الاختلاط مع الجنود والتكلم معهم واستماع اخبارهم وملاطفتهم واستفدت كثيراً بذلك . وكان بونابرت يفعل ما يدل على انهُ لا يعتبر مركز الانسان ومع ذلك لم يكن خالياً من تفضيل اصحاب المراكز بالنظر الى اهليتهم او مركزهم بين الناس فان الانسان ينقاد على رغم انفهِ الى ميل الجمهور ولا يقدر ان يخالفهُ ما لم يعرض نفسهُ لاتعاب ومشقات . والشاهد طلب الجنرال مورات الاقتران بكارولين شقيقة بونابرت وحدث ذلك عند ارتقائهِ كرسي رياسة الامة الفرنسوية فلما بلغهُ طلب مورات قال في نفسهِ ان مورات ابن خاني فلا اقدر ان ازوجهُ اختي بعد الوصول الى الدرجة العالية التي بلغتها . ثم تفكر برهة وقال لا



شيء يحملنا على التسرع في الامر بسرعة فالاوفق ان نتبصر فيهِ . وكان احد اصدقاء مورات يلح على بونابرت باجابة طلبهِ بانيًا كلامهُ على المحبة الشديدة التي كانت جارية بين شقيقة بونابرت المذكورة والجنرال مورات وعلى شجاعتهِ وحبهِ لهُ وخدمتهِ الصادقة وعلى الخصوص في معركة ابي قير . فقال ان مورات فاق الجميع في تلك المعركة وقد ارتضيت بمصاهرتهِ بعد التامل بكل الامور وعندي انهُ كفوء لها ومصاهرتهُ تمنع القوم عن القول انني من محبي الامتيازات الموروثة فاطلب مصاهرة اهل الامتياز الموروث . واذا زوجت اختي بامير يتذمر اليعقوبيون ويحاولون اثارة نار فتنة اخرى . ولا بد من الاسراع بتزويجها لان الزمان قصير فاذا ذهبت الى ايطاليا للحرب ينبغي ان يكون مورات معي . وكان بونابرت ذا سلطان غير محدود قادراً ان يجمع ملايين من النقود ومع ذلك كان فقيراً بالنسبة الى مركزهِ فلم يقدر ان يهب شقيقتهُ عند عقد زواجها غير ثلثين الف فرنك واخذ من زوجتهِ جوزفين قلادة ثمينة جداً واعطاها اياها وكانت تلك القلادة افخر حلاها فلم تتذمر بل وهبتها اياها بسرور

وفي اثناء ذلك وردت اخبار وفاة جورج واشنطون المشهور وهو الذي خلص الولايات المتحدة الاميركية من الانكليز وتبوا رياستها ثماني سنوات ووضع قانونها الاساسي . فكتب بونابرت اعلاناً واذاعهُ على الجيش وهذه ترجمتهُ . توفي واشنطون وهو الرجل العظيم محارب الظلم جالب الحرية الى بلاده فلا بد ان يقام لهُ تذكار دائم عند ابناء الحرية في الدنيا القديمة وخصوصاً عند الجيش الفرنسوي الذي حارب مثلهُ لتوطيد دعائم الحرية والمساواة . ولذلك صدر امر القنصل الاول اعتباراً للتوفي بان يعلق منسوج اسود مع رايات الجمهورية عشرة ايام . انتهى . وقال بونابرت عن هذا الامر ان الذين يريدون ان يبقوا الامة في جهل هم الذين يرومون التسلط عليها مراعاة لصوالحهم مع انهُ بازدياد معارفهم يزيد شعورهم بمنافع القوانين ولزوم الدفاع عنها والنتيجة سعادة الهيئة الاجتماعية ونجاحها والمعارف لا تلقي الامم في خطر ما لم تكن الحكومة مضادة لما فيهِ صالحها فتبيت في موقف فاسد او تمسي العامة في ضيق من عدم الحصول على ما تحتاج اليهِ فالمعارف في هذه الحال تحملهم على الدفاع عن صوالحهم والقوانين التي سنتها افادت فرنسا اكثر من القوانين الكثيرة التي سبقتها لانها بسيطة وواضحة . اما المدارس التي انشأتها واسباب اذاعة المعارف التي اسستها فانما هي ليضيء نور المعرفة على اهل القرون المستقبلة وهذا هو سبب قلة الذنوب في ايامي . اما الجنايات عند جيراننا الانكليز فكانت على ازدياد دائم وهذا كاف للحكم بمناسبة الحكومات وعدمها . فانظروا الى دولة امركا تروا ان احوالها تسير على قدم الانتظام بلا استعمال قوة ظاهرة فكل من اهلها سعيد راضٍ لان صوالح الامة هي المحركة للقوانين والحكومة . فاذا ساست تلك الحكومة الامة سياسة لا توافق صوالحها وارادتها يقع الخلل والهيجان والاضطراب فتكثر الجنايات . وقد تمنى القوم عند وصولي الى اعلى منصب ان

اصير كواشنطون . والكلام لا يكلف صاحبهُ شيئاً . فالذين كانوا يتمنون ذلك لم يكونوا عارفين بما تقتضيهِ احوال الزمان والمكان والامم . فلو كنت في امركا لتمنيت ان اكون كواشنطون دون ان افتخر كثيراً بذلك لانهُ لا مهرب من نهج سبلهِ في تلك البلاد . ولو كان واشنطون في فرنسا محاطاً بالاضطراب الداخلي والمهاجمات الخارجية لما قدر ان يكون على ما كان عليهِ في امركا . ولو حاول ذلك لارتكب خطأ لا يرتكبهُ العقلاء لانهُ يطيل زمان الويل . اما انا فلا اقدر ان اكون في فرنسا كواشنطون باضافة التاج . فانني لم اكن قادراً على الاعمال في جمعيات الملوك وبين ملوك مغلوبين او طالبين التسليم للقوة الغالبة . وكنت في تلك الاحوال دون غيرها قادراً ان اقتدي بواشنطون بالقناعة والتجرد عن الصوالح الخصوصية والحكمة . انتهى . وقال لافايت لما تبوأ لويس فيليب تخت فرنسا اظن ان نظام امركا احسن نظام الدنيا ولكن لا يناسب حالة فرنسا فاننا في احتياج الى ملك محاط بنظام جمهوري

وكان بونابرت مجتهداً جداً ان يقيم في قصر التويلري ما يدل على العظمة الملكية فان الامة الفرنسوية كانت محتاجة الى الملاهي لتشتغل بها عن غيرها والى التظاهر بما تقدر ان تفخر بهِ فاقام في قاعات القصر اعواناً وخداماً وحراساً لابسين الملابس الثمينة ومآدب فاخرة وكانت امرأتهُ جوزفين رئيستها وكانت قادرة على ارضاء ضيوفها بلطفها وجلالها . وكثرت مآدب الرقص والروايات التشخيصية وقاعات الغناء فسر الباريسيون بذلك لحبهم الشديد للملاهي . اما بونابرت فلم يسر بهذه الامور لان كل قواهُ كانت متجهة الى رفع شان فرنسا . وذكر التغيير الذي حدث في فرنسا في ايامهِ فقال ان الملاهي تلهيهم عن الكلام الفارغ على سياستي وهذا من اجل مطلوبي فاحب ان اراهم مشتغلين بالحظ والرقص لا يتحرشون لاعمال الحكومة . وهذه الامور تزيد نفقات العاصمة فتروج التجارة ولا اخاف اليعقوبيين لان الناس لم يظهروا ميلهم الى قبلاً كما اظهروهُ اخيراً ومن يقول ان الصواب محصور في الامور الجديدة يخطئهُ . فافضل فتح قاعات للرقص على اقامة المعبود الذي نصب في زمان الثورة وسمي التمييز

ولا يخفى ان الفرنسويين في اثناء الثورة التي ذكرناها اتوا بفتاة بديعة الجمال مشخصة مغنية رقاصة تجاوز حدود الحشمة في ملابسها واقاموها على مذبح نوتردام المشهورة في باريس وقالوا للجمهور الغفير المجتمع بها هذه معبودة التمييز اي العقل . فقال شومت وهو اكبر رجال الثورة يا ايها البشر السائرون الى الفناء لا ترتجفوا بعد الان عند استماع رعود غير مضرة نسبتموها الى اله خلقتهُ مخاوفكم ( العياذ بالله ) فانهُ لا اله فلا تعبدوا غير التمييز . فهذا هو ( اشار الى تلك الفتاة ) رمزهُ الانقى والاشرف فلا تعبدوا غير معبودات مثلها . انتهى . ولما سمع الجمهور هذا الكلام سجدوا لها وخرجوا ليغوصوا في ما يخجل القلم ان يدونهُ . فهذه هي الامور التي كان يخافها بونابرت فكان يفرغ جهدهُ



في الهاء الامة عنها فقال افضل ان ارى الناس مشتغلين في قاعات الرقص على ان اراهم ساجدين لمخلوقة لا ناموس لها ولا عرض

وكان بونابرت مشتغلاً بتطهير الهيئة الاجتماعية في فرنسا وتنظيفها وباصلاح الجيش وتقوية البوارج وادارة السياسة الخارجية ولم يكتف بذلك فشرع في اصلاحات عظيمة في الداخلية . وكان قد رضع مع اللبن حب العظمة البنائية واشتد فيهِ ذلك لما راى اثار ايطاليا ومصر القديمة المشهورة . فانشأ ابنية ستبقى شاهداً يشهد باقتدارهِ وعظمتهِ واهتمامهِ بصالح فرنسا فكانت تشاد الابنية في باريس وتحفر الترع في سائر البلاد وتقام الجسور وظهر الانهر بمشروعات كثيرة لا لزوم لذكرها بالتفصيل واصبح رجل واحد يرجع الى فرنسا حياتها الادبية والمادية بهممهِ العالية واقدامهِ الغريب وحذقهِ الذي حير اهل السنين الماضية ويحير ابناء البشر الى الابد . واعداءها الكثيرون اخترعوا ما قدروا على اختراعهِ لثلم صيتهِ وضررهِ ومع ذلك لم ينكروا انهُ رفع فرنسا من ويلها الى قمة المجد والعظمة وان اقتدارهُ كاد يفوق اقتدار البشر . وفي ذات يوم قال للجنرال اوجيرو اننا شارعون في ايجاد عصر جديد فينبغي ان تتناسى شر الماضي وتذكر ما حسن منهُ . فاطلب اليك ان تثبت باعمالك انك لست من المشتركين في الشقاق الغربي الذي فرق قوة فرنسا منذ عشر سنين . وقال بونابرت بعد ذلك انني عالم بالسطوة التي تثقل على البلاد وهذا هو الذي حملني على الابتعاد عن التحزب والغرض . فان زمان الفتن هو كالمعارك في الظلام فان الارتباك يحمل الجندي على طعن رفيقهِ . وعند رجوع النور والراحة يسمع كل انسان عن الاضرار التي لحقت بهِ على غير قصد . ولا اقول انهُ كان من المحال حدوث ما يحملني على مهاجرة الاوطان وان كنت بالطبع مائلاً الى الاقامة فيها وربما خرجت منها لو وجدت نفسي قريباً من الحدود او كنت صديق احد المهاجرين او مستخدماً عند احدهم فان للصدفة اقوى سلطان على البشر والبرهان ما صادف سيروريه وهيدونفيل فانهما كانا سائرين ماشيين قاصدين اسبانيا فمنعتهما قوة عسكرية وكان هيدونفيل الاصغر والاقدر فتمكن من اجتياز حدود فرنسا قبل ان يقدروا عليهِ فسر وظن نفسهُ سعيداً فعاش فيها بالاقلال . اما سيروريه فرجع حزيناً مكدراً ولكن رجوعهُ كان سبب ارتقائهِ الى رتبة المرشالية العالية . فالانسان لا يقدر ان يهيء المستقبل لنفسهِ

وكان الملكيون قد اجتمعوا في ولاية من اكبر ولايات فرنسا واكثرها سكاناً وهي ولاية فندي واقاموا جيشاً واثاروا حرباً اهلية وكانت انكلترا ترسل اليهم بمراكبها نقوداً ومهمات واسلحة وتمدهم بنجدة من الذين كانوا يهاجرون فرنسا لاسباب سياسية فاجتمع فيها جيش عددهُ ستون الفاً . وكانت الحكومة الادارية قد افرغت الجهد في سبيل اخماد ذلك العصيان ولم تنل المرام وكانوا يقومون وجنود الحكومة الادارية باعمال وحشية . اما بونابرت فبعد ان وجد نفسهُ ثابتاً في كرسي

الرياسة دعا اليهِ روساء اولئك الملكيين وطلب اليهم الاجتماع بهِ في باريس ووعدهم بالرجوع سالمين . فاجابوا جميعًا دعوتهُ فاجتمع بهم في قاعة الاستقبال ولاطفهم وقال لهم ان غايتهُ انما هي تخليص فرنسا من الويلات التي كانت تقع فيها وترجيع السعادة والراحة والسلام اليها الى ان قال بفصاحة وبلاغة هل تقاتلون للدفاع عن انفسكم . فاذا كان هذا هو المقصود من القتال فلا يلزمن تحاربوا لانني لا اتعدى عليكم وساحمي جميع حقوقكم . او تقاتلون لترجعوا الملوك القدماء الا تنظرون ان الامة قد اجمعت على عدم قبولهم . هل يسوغ لاقلية لا تستحق الذكر ان تحاول اخضاع الاكثرية العظيمة الى ارادتها بقوة السلاح . انتهى . وكان لسان بونابرت قوة تحاكي قوة سيفهِ . فان اولئك الروساء خضعوا لهُ وسلموهُ سيوفهم وعلاوة عليها قلوبهم . ولم يخالفهُ غير واحد منهم اسمهُ جورج كارول وكان ضخم الجثة ولوائح شراسة الاخلاق تلوح على وجههِ فنضل المعيشة بالنفي والعصيان على التمتع بالسلام والراحة . فاجتمع ببونابرت منفردًا ولما راهُ الحراس خافوا ان يفتك بهِ . فكلمهُ بونابرت بدون ان يخافهُ وطلب اليهِ مراعاة حقوق الانسانية وحب الوطن ولكنهُ لم يجب طلبهُ بشيء من ذلك وطلب تذكرة المرور فاعطيت لهُ وخرج من باريس . وندم لانهُ لم يخنق بونابرت وهو مجتمع بهِ على انفراد لانهُ كان ينظر الى ضخامة جسمهِ وقوتهِ بالنسبة الى صغر جسم بونابرت ويقول بالينني خنقتهُ عندما كنت قادرًا على ذلك . وسار الى لندن واقام مؤامرات كثيرة لقتل بونابرت واسر في فرنسا بعد ذلك وقتلتهُ الحكومة باطلاق الرصاص

## الفصل الخامس عشر

### اجتهاد بونابرت في تاييد السلام في اوربا

وبعد ذلك انتهت الحروب الاهلية في فرنسا واصبحت الامة فرحة بحكومة القنصل الاول . ويظن كثيرون ان بونابرت كان يحب الحرب وفي اخبارهِ الصحيحة ما يبين انهُ كان يكرهها لانهُ كان يحب العمران لا الخراب . وكان يود ان يدعى مخلص الجنس البشري لا مصدر وباهُ لعلمهِ ان ذلك هو الخير الصحيح والمجد العظيم . وجميع الحروب التي قام بها حروب دفاع لا حروب عدوان ففتح مصر كان لمنع الد اعداء فرنسا وهي انكلترا عن تهييج امم الارض ضدها لا لالزامها بقبول دولة كانت قد حملتها من الاثقال والمظالم ما يكل القلم عن وصفهِ . اما بونابرت فاصبح قويًا لان جميع فرنسا اتحدت تحت رايتهِ وصار قادرًا ان يفعل ما يشاء بجيشها ومالها . ومع ذلك اتخذ الوسائل اللازمة لتقرير السلام في اوربا وهذا دليل حبهِ لهُ وللراحة فكتب راسًا الى ملك انكلترا والى امبراطور النمسا وطلب اليهما مصالحتهُ مبينًا بذلك كرامة اخلاقهِ وحسن مقاصدهِ ولو كان مستعدًا للكبرياء الباطلة مفضلاً المجد الفارغ على المجد الصحيح لما طلب اليهما المصالحة قبل ان يطلباها لانهما شرعا بالحرب وهذه ترجمة كتابتهِ



ان الامة الفرنسوية اقامتني رئيسًا لها واجلستني على الكرسي الاول في جمهوريتها فمن الاصابة ان اخاطب جلالتكم راسًا فاسالكم هل من اللازم ان تبقى الحرب التي قد صبت ويلات الخراب على العالم منذ اربع سنوات قائمة على قدم وساق الى الابد اما يمكن عقد صلح يوافقنا . كيف تقدر الامتان الاوربيتان اللتان بلغتا من التمدن ما لم يبلغهُ غيرهما ان تضحيا الصوالح التجارية والنجاح الداخلي وسعادة العيال وراحتها لحصول على مجد باطل حال كون كل منهما بالغة من القوة درجة تفوق الدرجة اللازمة للمحافظة على استقلاليتها فكيف لا تشعران بان السلام هو الزم الامور كما انهُ ارفع المجد . وعندي ان جلالتكم تشعرون بهذه الامور وانكم تحكمون امة حرة لمقصد واحد وهو تمكينها من الحصول على السعادة ويبين هذا الطلب لجلالتكم ميلي الشديد الناشيء عن جودة القلب الى السلام العام وانا غير مرتبك بالقيام بالامور التي تقوم بها الدول الضعيفة لستر ضعفها ولكن لا ارتضي بها فاذا جعلتها الدول القوية اساسًا لسياستها تبين انها راغبة في الخداع والمخاتلة واذا اساءت فرنسا وانكلترا استعمال قوتهما تقدران ان توخرا كثيرًا زمان فراغ قوتهما وذلك يجلب على الامم الويل والهوان . ونصيب العالم المتمدن متعلق بنهاية حرب قد شبت نيرانها في الدنيا . انتهى .

فلما قرأ ملك الانكليز هذه الرسالة المؤسسة على السلام والصوالح العمومية حكم بانهُ لا يوافقهُ ان يجاوبهُ باسمهِ فكلف بالجواب اللورد غرانفيل وهو من اسلاف اللورد غرانفيل الحالي فكتب الى بونابرت كلامًا موعبًا طعنًا وقذفًا فهاجت فرنسا لما بلغتها العبارة الاتية من ذلك الجواب وهي

اذا كانت فرنسا ترغب في الصلح فضمانة رغبتها وثباتها ترجيع الملوك الذين حكموا الامة الفرنسوية قرونًا كثيرة بالنجاح في الداخل والاعتبار في الخارج فان ذلك يكون سببًا لرفع الاسباب المانعة للمخابرات المتعلقة بالسلام . انتهى

وهذا جواب غليظ لطالب لطيف ومع ذلك رد عليهِ بلا حدة ولا طيش بقلم وزير خارجيتهِ موسيو تاليرند وهذه ترجمة الجواب

ان فرنسا لم تكن سبب فتح الحرب وقالت منذ ابتداء الفتن انها راغبة في السلام لانحب الفتوحات تحافظ على استقلالية جميع الدول . واشتغالها في ذلك الوقت في احوالها الداخلية كان يجعلها تميل الى الاعتزال عن امور اوربا والمحافظة على ما تحب المحافظة عليهِ . ولكن الجهة الاخرى كانت عاملة على خرابها فعند ابتداء الثورة الفرنسوية اتحدت اكثر اوربا على خرابها . وابتدات مضادتها قبل ان اشتهر امر تلك المضادات . فاهاجت المقاومات الداخلية وقابلت بالملاطفة والمساعدة اعداء الثورة وكانت تعضدهم في ادعاءتهم واهانت الامة الفرنسوية باهانة سفرائها وانكلترا هي الدولة التي ابتدات بذلك بطرد سفير الجمهورية الفرنسوية من بلادها وتعدت تلك الدول

على استقلالية فرنسا وناموسها وامنيتها قبل اعلان الحرب بزمان طويل فيحق لفرنسا ان تنسب المضار التي لحقت بها وباوربا الى تلك الاجراآت المقامة لتفسيها واخضاعها وخرابها . ولما كانت الجمهورية تهاجَم من كل الجوانب كان لا بد من المدافعة عن نفسها ولولا الاخطار التي طرات على استقلاليتها لما دعت قوتها واولادها للدفاع عنها . فان كانت فرنسا لم تبين من اعتدال الطلب قدر ما اظهرت جنودها من الشجاعة وهي في وسط الارتباكات العظيمة التي جلبتها عليها الثورة والحروب نقول ان السبب انما هو اعمال انكلترا التي تنفق قوتها في سبيل تدمير فرنسا وتنكيلها . واذا كان جلالة ملك انكلترا راغبًا في عقد الصلح مع الجمهورية الفرنسوية وتقرير السلام فلماذا نشتغل في الاعتذار عما حملنا على فتح الحرب عوضًا عن الاهتمام باخماد نارها . ولا ريب ان جلالة ملك انكلترا يعترف بانهُ يحق للامم ان تقيم الحكومة التي تناسبها لانهُ بانتخاب امتهِ يملك عليها . ولكن الفصل الاول لا يفهم كيف انهُ بعد التسليم بهذا الامر الاساسي يبادر حضرة الملك الى المداخلة بامور متعلقة بداخلية الجمهورية مع ان ذلك اساس النظام في الهيئة الاجتماعية . فتلك المداخلات المتلفة لا تضر بفرنسا اكثر ما تضر بانكلترا اذا دعيت الامة الانكليزية الى الرجوع الى النظام الجمهوري الذي اقامتهُ انكلترا في اواسط القرن الماضي او الى ارجاع العائلة التي تستحق ذلك بالارث والتزمت ان تنزل عن سرير الملك بقوة الثورة . انتهى

فلم تات هذه الرسالة بالتاثير المطلوب في لندن فان اللورد غرانفيل تجاوز حدود الاعتدال وانقاد الى الغضب والحدة فاجاب برسالة ضمنها طعنًا ولومًا وتنديدًا اشد من طعن الرسالة الاولى ولومها وتنديدها وقال فيها ان انكلترا تحارب للمحاماة عن جميع الدول وتخليصها من تعديات الجاكوبيين الفرنسويين ولذلك ستبادر الى القتال والمضادة بعزم ثابت ولا ترجع الا بعد بلوغ المراد . اما بونابرت فلم يتكدر من نتيجة هذه المخابرات ولا خاف سوء عواقبها لانهُ وان كان راغبًا في السلام كان لا يخاف خوض بحار المنايا في ميادين الحروب وسريرهِ جدًا لعلمهِ ان العادلين من جميع الامم يحكمون لهُ بالحق ويلومون انكلترا وان سلطان الحق اشد السلاطين بطشًا وكان يعلم ان اجوبة انكلترا المشحونة بالكبرياء والتعدي ستحمل الامة الفرنسوية على الاتحاد للدفاع عن حقوقها . وقال انني فرحت جدًا بذلك الجواب ولا يمكن الحصول على جواب احسن منهُ فان انكلترا طلبت فيهِ الحرب فستنال مطلوبها . انتهى . ولم يكن قادرًا على مجانبة القتال فلا يلام والامة دعتهُ وهي في حالة الضيق الى تبوإ كرسي الرياسة ليخلصها بيمينهِ القادرة من بلاياها التي جلبتها عليها اوربا المتحدة ضدها لانها خلعت عنها نير العبودية ورفعت راية الحرية . والمساواة لم تكن في انكلترا كما كانت في فرنسا لان ملكها وغنى اساقفتها وثروة امرائها كادت تقع في ما وقع فيهِ ملك فرنسا وخدم دينها وامراؤها فراوا انهُ لا بد من المضادة الشديدة محافظة على تلك الامتيازات



التي كادت تسقط بسقوط امتيازات خدم الدين والامراء في فرنسا . وحكومة انكلترا في ذلك الاوان كادت تكون محصورة في الملك والاساقفة والامراء فثورة فرنسا اوشكت تقلبهم عن كرسي السلطان فلا نبالغ في لومهم على فتح تلك الحروب المهلكة التي حملت خزينة انكلترا دينًا يزيد عن الستمائة مليون ليرا انكليزية ولا نعذرهم لانهُ كان من المفروض عليهم مراعاة حقوق الانسانية والعدل بعد مصادفة المضادة التي صادفوها وبعد مرور زمان كاف للتامل في امر خطير وقد اجمع القوم على تخطئتهم ودوّن لومهم في بطون التاريخ وسياستهم الان تبين عدم موافقة سياستهم المذكورة . وكان يزداد خوف الملوك والامراء وخدم الدين بما كانوا ينظرون في ايامهم فان الوفًا من الامراء والاساقفة والاعيان ومن العائلة الملكية الفرنسويين بانوا في اوربا في فقر بعد ان كانوا يركبون عجلات العظمة والراحة ويسكنون قصور التنعمات ويمرحون في قاعات الملاهي والملذات صاروا يتمنون ان يستدفئوا بنار الفلاح الفقير وان يملاوا بطونهم الجائعة بخبزهِ الاسود فكانت عيون ملوك اوربا وامرائها وخدم دينها لا تقدر ان تنظر الى حالتهم التعيسة ولا ان تسمح بان يبقوا عليها خوفًا من ان نجاح الذين اوقعوا بهم ما اوقعوا يحمل عامة امتهم على الاقتداء بهم . فداسوا العدل والانصاف وتسلحوا بالكذب مجتهدين ان يغرسوا في قلوب الامة الانكليزية وسائر اوربا كراهة المبادىء الفرنسوية الحسنة وغير الحسنة خوفًا من سريانها بين بقية الامم فتعود وبالاً على الملوك وخدم الدين والامراء فانها تخسرهم امتيازاتهم وسلطانهم ووجهوا سهامهم الى بونابرت لكونهِ عضد المساواة والحقوق العمومية وفوز الاهلية فاخذوا في اذاعة ما يثلم صيتهُ ويجعل العامة تكرههُ وبينوا لها انهُ عامل على فتح الحروب لغزو الامم وفتح البلدان واكتساب المجد وانهُ يدوس جثث عشرات الوف من القتلى للوصول الى صالح شخصي دنيء حياة انسان اثمن منهُ واكثر فائدة فاضر ذلك ببونابرت في حياتهِ ولكن عدل التاريخ حكم لهُ بالحق وعلى اعدائهِ بالعدوان فلبس تاج مجد لا تسلبهُ منهُ كرور الايام ولا طوارق الحدثان ولبس اعداؤهُ ثوب العار . فمن يحكم بانهُ من المفروض على الامة الفرنسوية التي كان عددها ثلثين مليونًا ان تستاذن انكلترا وعدد شعبها ١٥ مليونًا بتبديل نظام حكومتها . وكانت انكلترا قد اتحدت هي وملوك اوربا على ترجيع عائلة مخلوعة لذنوبها . اما جمهورية فرنسا فكانت فتية واشتدت المضادات عليها في الداخل وفي الخارج فاخذت في السقوط من الاحتياج الى النقود والاتحاد . فبادرت الامة الى اقامة بونابرت وسلمتهُ سلطانًا يكاد يكون مطلقًا ليخلصها . ولم يكن لها امل في غيرهِ . وكان يعلم انهُ ذو قوة واقتدار ومع ذلك لم يمتنع عن طلب عقد الصلح لوقاية اوربا من الدمار ولحماية الوف من العيال من الفقر بخسارة رجالها فالشفقة حملتهُ على ذلك فلم تجب انكلترا طلبهُ العادل بل عاملتهُ بالاحتقار والاهانة وبينت عزمها على مداومة الحرب وتحت بوق جمع الجنود من نهر التيمس في انكلترا الى الطونه في النمسا وحصرت

البوارج الانكليزية ثغور فرنسا بقوة بحرية لا تغلب وكانت تكسر بوارج الجمهورية القليلة وتدمر ثغورها وتسلب بضائعها واموالها . واجتمع عند حدود فرنسا جيش عدده ثلثمائة الف جندي لدخول البلاد والمسير الى باريس منصورًا ليلزم اهلها بحد السيف وقوة المدفع بالخضوع لملك بوربوني مكروه عندهم . فلم يكن بد من مبادرة بونابرت الى الدفاع عن بلاده . ولم يتأخر عن ذلك بل اقتحمه بقلب اسد وشهامة تستحق كل الثناء . وتوهم الانكليز ان ذلك الزمان مناسب لمداومة الحرب وتشديدها فان النمسا كانت قد استرجعت ايطاليا وكان جيشها وعدده ١٤٠ الفًا يهاجم سافوى ويجول عند نهر الرين . وكان الانكليز فرحين بنجاحهم في عكا وفي معركة ابي قير البحرية عالمين ان الامة الفرنسوية امست فقيرة تحب الراحة ويوملون بان يقيموا اتحادًا بين الجمهوريين والملكيين لينزلوا بونابرت عن الرياسة فيسهل على اعدائه الانتصار عليه

وعند وقوف اهل اوربا على المخابرات التي جرت بين بونابرت والحكومة الانكليزية صار له عند المنصفين منهم قدر وشان واصبح كثيرون من اهل اوربا اصدقاء له ومحامين عنه وبادر كثيرون من اعضاء مجلس انكلترا العالي الى مضادة الحكومة في مداومة تلك الحرب وكان روساء تلك المضادة مستر فوكس ومستر شريدون واللورد ارسكن والدوك دوبدفورد ولورد هولاند ولم يتحزبوا لبلادهم تحزبًا اعمى ولكنهم كانوا يقولون اننا سنتحزب لها اذا كانت مصيبة وان اخطأت فنحاول اصلاح خطائها . وهذه المضادة من اشهر مضادات المجالس واصوبها واقواها . وكان مستر فوكس مناظر بت وزير انكلترا الاول محبًا لبونابرت يتعجب من اقتداره وتعقله وهو رئيس لتلك المضادة . ووصف بونابرت هذين الرجلين العظيمين قائلاً ان قلب فوكس يلقي حرارة الحنو في تعقله وتعقل بت يميت حنو قلبه . وقال للحزب المضاد في المجلس العام الانكليزي ما ياتي انكم تسالون من افترى . فالنا ولذلك الان . فتقولون ان فرنسا اعتدت وفرنسا تقول انكلترا ومع ذلك نرى الامة التي تتهمونها بالعدوان تعرض عليكم عقد الصلح . فهل تبقى الحرب قائمة الى الابد لتفصل امرًا متعلقًا بالتاريخ . قلتم انه لا فائدة من مخابرة فرنسا ومع ذلك خابرتم الحكومة الادارية وخابرتها بروسيا واسبانيا ولم تتشكيا منها . انكم تتكلمون عن شرور فرنسا مع ان نابولي المتحدة معكم تجني شرورًا ارد أمن شرورها ولا عذر لها في الهيجان العمومي . انكم تلومونها اذ تتهمونها بالطمع مع ان روسيا وبروسيا والنمسا قد اقتسمت بولونيا والنمسا متسلطة على ولايات ايطاليا . وانتم استوليتم على الهند وعلى بعض اسبانيا وعلى جميع مستعمرات هولاندة فمن هو اقل شرًا من غيره . فان كنتم ترغبون في مخابرة الجمهورية الفرنسوية بالصلح فالزمان الحاضر هو اوفق زمان

وفي اثناء الكلام على ترجيع البوربون الى سرير فرنسا نشرت الجرائد الانكليزية رسالة من وريث عائلة استوارت المخلوعة والمنفية طالبًا الى الملك جورج الثالث ملك انكلترا



مملكة اسلافه . ولم يكن سبيل الى دفع هذه الدعوى لان الملك جورج الثالث كان قد سلم بانه اختلس تخت الملك فانه كان لعائلة الستوارت . فالنواب الذين كانوا يضادون الحكومة في المجلس سروا جدًا بالحيرة التي بات فيها المضادون لهم وهم رجال تلك الحكومة بسبب طلب الوريث القانوني الرجوع الى سرير اسلافه . فقال الوزراء الانكليز ان عقد الصلح مع فرنسا وهي جمهورية يجعل جميع ممالك اوربا في خطر . لان القنصل الاول وهو بونابرت اخذ في اجراء مبادىء الثورة باقدام عظيم وهي سيادة الشعب . واذا صالحناها نكون قد سلمنا قوة الدفاع الى العدوان . فان فرنسا لا تزال تحافظ على الاميال التي كانت لها عند ابتداء الثورة . فانها كانت تحب التغيير اي ابدال نظام الدولة بنظام جديد ولا تزال كذلك . واثارت الحرب على الملوك ولا تزال تحاول اهلاكهم . انتهى . ومن المعلوم ان هذا الكلام لا يخلو من الحقائق لان بونابرت لم يكن غير معتدل الاراء في ما يتعلق بتغيير النظام ولم يكن يحب ان يسلم ادارة السياسة الى كل الامة فانه كان يقول ان الامة الفرنسوية لم تكن حاصلة على المعارف والفضائل التي توهلها لادارة مهام سياستها . وكان يقول باوضح العبارات ان الجمهورية لم تنجح في فرنسا وانه لا بد لتلك البلاد من ان تصير ملكية . واقتنعت الامة بان ما قاله هو الصواب . فان اكثر الفرنسويين لا يطلبون الحرية ولكنهم يطلبون المساواة . وقال بونابرت في ابتداء الثورة كنت من اشد الناس حبًا للجمهورية ولكن حبي لها اخذ يضعف بسبب ما كنت ارى من الاعمال السياسية المضحكة ومن تجاوز حدود الاعتدال في مجلس القضاء وزال ركوني الى الجمهورية عند ما تعدت الحكومة الادارية ارادة الشعب في زمان معركة ابي قير . انتهى

ولم تكن فرنسا راغبة في الحصول على ملك من الملوك الذين يحصرون العظمة والمناصب والثروة في الامراء وكانت لا تزال تبغض ملوكها القدماء . وتحب الحصول على حكومة عمومية لها ملك يحب الامة ويراعي صوالحها ويفتح ابواب التقدم والمجد والثروة لجميع الاهالي مع قطع النظر عن نسبهم وحسبهم . فوجدوا مطلوبهم عند بونابرت فعظمته الامة حتى كادت تسجد له . وكانوا يقولون انه امبراطورنا ولذلك سنجعله اعظم الملوك والامراء وسنسكنه قصورًا اجمل من قصورهم ونعين له راتبًا اكثر من راتبهم ونزيده عظمة بدخول بناتنا بلاطه وانخراطهن في سلك حشم امراته ويدخل بنونا قصور التويلري وفرساليا وسان كلو ويتقلدون وظائف المارشالية فبونابرت اصاب بقوله انه كان مهتمًا بتنفيذ مبادىء الثورة واعماله كانت مؤسسة على المساواة في الحقوق وعلى سيادة المصالح العمومية . فملوك اوربا قاوموا ملكًا لسياسته تلك المساند كما قاوموا الحكومة الجمهورية . وفي ٢ شباط (فقريه) سنة ١٨٠٠ طلب مستر دوندس احد اعضاء المجلس الانكليزي العام وهو البارلمان استحسان سياسة الوزارة الانكليزية لامتناعها عن عقد الصلح وضاده مستر ويتبرد ومستر كانن

ومستر ارسكن الذي صار لوردًا ولاموا الوزارة جدًا لانها رفضت طلب بونابرت المبني على الاخلاص ومراعاة حقوق الانسانية وردت عليه بكلام مهين وعضدهم مستر فوكس وكان من اعضاء المجلس المذكور . وقال مستر دوراس ياسيدي لابد من ان اشارك جميع الذين يحبون السلام باظهار الكدر من كلام الوزارة المرسل ردًا على الفرنسويين الذين طلبوا عقد الصلح . واجوبتهم يحسبها اهل السياسة خالية من كل حكمة فلا يسلّم بصحتها ولما كنت من الذين يحبون السلام اقول كما قال اللورد سالسبوري اننا لا نحصل على المساواة والسلام بالتوبيخ والاهانات . واعبر عن ميل اعضاء هذا المجلس واكثرية الاهالي حين ابين الكدر الذي اشعر به بسبب اهانات لا لزوم لها لانها تعوق تسوية هذه الامور . ولا ازال معتقدًا ان هذه البلاد هي التي ابتدأت بالعدوان فلا اكتم اعتقادي ولا اغيره ما لم اسمع ما يحملني على ذلك من البراهين القاطعة الجديدة التي لم يظهرها بعض اعضاء هذا المجلس المحترمين في هذه الجلسة . ومن يقول ان النمسا وبروسيا لم تبدئا بالعدوان . فلا فائدة من اطالة الكلام لاظهار تعديات فرنسا الابتدائية حال كون الاوراق والبراهين الواضحة تبين انها لم تجاهر بالعدوان ولا لزوم لتدقيق النظر في الكلام المفصل الطويل الذي اسمعنا اياه مستر دونداس المحترم بشان ابتداء فرنسا بالعدوان . فاهالي البلاد الذين تاملوا في تلك الاحوال لا يجهلون ان النمسا وبروسيا ابتدأتا بمحاربة فرنسا بلا داعٍ فانهما سلكتا مسلكًا ليس اردأ منه في مضادتها الم نقولا لفرنسا ان اعمالها الداخلية لا الخارجية هي التي حملتها على الاتحاد في محاربتها . ودليل ذلك الاعلانات التي اذاعتها في اول الامر لتبيننا انهما فتحتا الحرب بسوغ . فلم نقولا انهما تخافان مطامعها ولا فتوحاتها ولا الاتعاب التي توقعها على جيرانها ولكنهما قالتا انهما غيرت نظام حكومتها ولم تذكرا شيئًا عن فتوحاتها في الخارج ولكنهما لامتاها بسبب جمعياتها الباريسية . اما ترجيع العائلة البوربونية الى تخت فرنسا فهو من مرادي اذا كان من مرام الامة الفرنسوية . ويحق للفرنسويين ولجميع الامم ان تقيم الحكومات التي توافقها وترغب في اقامتها ولا يسوغ ان تجعل هيئة الحكومة واسطة للامتناع عن التخابر وعقد الصلح ولما كنت انكليزيًا يجري دم الانكليز في عروقي كنت لا احب رجوع العائلة البوربونية الى فرنسا . ولا ارغب ان اكون واسطة لتفاقم مصائب عائلة منكودة الحظ واشاركها في الشعور ببلاياها واشاهد بالكدر ضيقاتها . واحب انكلترا فلا احب رجوع السلطان لانهم لم يتصرفوا به بحكمة واعتدال . ولم انس ان تاريخ القرن الماضي انما هو اخبار الحروب والمصائب التي نتجت عن مطامع العائلة البوربونية وحيلها ونكثها لعهودها وقد قلتم انكم لم ترفضوا المخابرات ولكن قبلتم بها عند رجوع العائلة البوربونية تخت الملك . وانكرتم ان ذلك باطل . وذكرتم في كتابتكم الجوابية الخالية من المعاني ولم افهم المقصود من بعضها انكم ربما قبلتم بالمخابرة عند حدوث امور



محدودة ولو لم ترجع العائلة البوربونية الى الملك . على انكم لم تذكروا تلك الامور وهذا كاف ليبين ان كلامكم بلا فائدة واين فائدته اذا لم يعرف المقصود منه بذكر الامور التي تنادون بها الى المخابرة . الا تعلمون ما هو موضوع مباحثات هذه الجلسة انه طلب استحسان المجلس لسياسة الوزارة لرفضها مخابرات مستندة الى الاخلاص والاعتبار ومساعدتها على مداومة الحرب . فقد اظهرت ارائي وعندي انه كان ينبغي ان تبعثوا الى فرنسا جوابًا لطيفًا اصوليًا واضحًا لانها طلبت اليكم اقامة مخابرة عادلة . فلو قلتم انكم تحبون اقامة مخابرات عمومية بالاشتراك مع المتحدين معكم في محاربتها لتقرير سلام عام لاصبتم . وكان اولى بكم اجابة بونابرت بذلك ولكن ختم ان يقبل به . انتهى

فرد وليم بت وزير انكلترا الاول على هذا الكلام بفصاحة وبلاغة محاولاً ان يبرهن ان المبادىء العمومية في فرنسا هي كمبادىء الجاكوبيين الظالمين وانها احاطت بالمخاطر جميع ممالك اوربا . والح على المجلس برفض طلب بونابرت عقد الصلح وتقرير وجوب القتال الى النهاية . وقال اننا بالثبات والجد في الاحوال الحاضرة ننال غايتنا . واذا خابت امالنا الوطنية نربح بمداومة الحرب اكثر مما نخسر . ومع طول الزمان تضعف القوة الجاكوبية المهلكة فنقوى نحن بالاستثمان من مخاطرها التي تحدق بنا فاقول انه ليس من مصلحتنا اجابة فرنسا الى اقامة مخابرات لعقد السلم انتهى

وبعد هذه المحاورات قرر المجلس طلب الوزارة بمائتين وخمسة وستين رايًا ضدها ٦٤ رايًا . وهكذا رفضت اكثرية مجلس انكلترا العالي دواعي بونابرت السلمية باحتقار . وبعد ذلك اخذ اولئك الوزراء يشيعون ان بونابرت يحب الحروب وسفك الدماء فيجري انهارًا من الدماء في اواسط اوربا وان الطمع هو المحرك الاول الى ذلك . وكان ذلك مخالفًا للواقع ومع هذا نرى الوفًا في نفس هذا الزمان في اوربا وامركا يعتقدون صحة تلك التهمات الكاذبة الناتجة عن شر المقاصد ولا تطول غفلتهم لان اهل التهذيب من الجيل الجديد قد طالعوا الحقائق وعرفوا ان بونابرت من اعدل البشر واعظمهم واحبهم للمساواة والانصاف وياليت اهل زماننا انصفوه ومتعوه بلذة استماع مدحهم عوضًا عن ان يكدروه باستماع لومهم وطعنهم المبني على كذب اصحاب الغايات والاغراض

وفي اليوم الذي طلب فيه عقد الصلح بعث برسالة اخرى الى ملك النمسا وما ياتي هو ترجمتها

رجعت الى اوربا بعد ان غبت ثمانية اشهر فوجدت الحرب منتشبة بين الجمهورية الفرنسوية وبين جلالتكم ولا احب المجد الباطل فارغب في حجب دماء العباد وجميع الادلة تبين ان في الحرب القادمة ستلتقي جيوش جرارة تحت قيادة قواد ماهرين فيضاف الى الذين هلكوا بعد تجديد القتال ثلثة اضعاف عددهم . واعرف حقيقة صفات جلالتكم فلا ارتاب في ميلكم الباطني فاجيبوا دواعيه بعقد الصلح بين الامتين . وحصلت على اعتبار جلالتكم عند اقامة المخابرات بيني وبينكم .

فاطلب اليكم ان تروا بهذا الطلب رغبتي في مقابلة ذلك الاعتبار بما يليق به وفي تبيين احترامي العظيم لجلالتكم . انتهى

فاجابت النمسا باللطف وقالت انها لا تقدر ان تشرع في عقد الصلح بدون ان تشاور انكلترا حليفتها ولم ينجح بونابرت في عقد السلم وكان منتظراً ذلك لعلمهِ ان الملوك لا يتعبون من محاولة قلب حكومة عمومية مباديها المساواة ومنع ادخال ديمقراطية في سلك اخويتهم الملوكية المستندة الى الامتيازات الموروثة

فلم يجد بونابرت بدًّا من مصادمة اعدائهِ . وكانت اوربا تعلم ان الهجوم على فرنسا وهي مستندة الى جيش تحت قيادة بونابرت ليس سهلاً فان شهرتهُ ملأت العالم فباتت الفرائص عند من ذكر اسمهِ فبذلت الملوك المتحدة لمحاربة فرنسا جهدها في جمع جيوش جرارة ذات اسلحة حسنة لمهاجمتها من جهات كثيرة في وقت واحد . اما الارشيدوق شارل الذي كان عارفاً بهم بونابرت وحذقهِ فكان يلح على تلك الدول بمصالحة فرنسا لانهُ كان قد جرب صدمات بونابرت في ايطاليا ولكن انكلترا والنمسا كانتا تعتقدان ان جيوش فرنسا باتت مشتتة الشمل وباتت خزينتها فارغة فلا تقدر على حرب جديدة

## الفصل السادس عشر

(مخابرات بخصوص ترجيع البوربون واجراءات بونابرت وغير ذلك)

اما البوربون وهم العائلة التي كانت فرنسا قد خلعتها عن كرسي الملك فاخذوا يحاولون ارشاء بونابرت ليرجع اليهم الملك . وكان الكونت دوبروفنس (وهو الذي صار الملك لويس الثامن عشر) في لندن فكتب الى بونابرت ما ياتي يا ايها الجنرال انك تعلم منذ زمان طويل اعتباري العظيم لك فان كنت مرتاباً في تصميمي على مكافاتك فعين الوظيفة التي تناسبك واذكر الخطط التي تحب تمكين اصدقائك من الحصول عليها . ومن المعلوم ان الذي انتصر في لوري وكاستيليوني واكولا لا يقدر ان يفضل الفخر الباطل على المجد الحقيقي ولكن اراك تضيع اثمن الاوقات ويسهل علينا تقرير سعادة فرنسا . قلت يسهل علينا لا عليَّ لعلمي انهُ لا غنى لي عن بونابرت للوصول الى المطلوب وبونابرت لا يقدر ان ينالهُ بدون مساعدتي . ان اوربا ناظرة اليك والمجد ينتظر وصولك اليهِ . قد بت لا اقدر ان اصبر عن ترجيع السلام الى شعبي . انتهى

فبعد ان قرأ بونابرت هذه الرسالة لم يحولها الى احد وزرائهِ ليجاوبها كما فعل ملك انكلترا لما كتب بونابرت اليهِ ولكنهُ اجاب ملاطفاً بخط يدهِ وما ياتي هو ترجمة جوابهِ . اخذت كتابكم فاشكركم على ما ضمنتموهُ من الشكر لي وينبغي ان تبعدوا عنكم امل الرجوع الى فرنسا لانكم لا تقدرون على



ذلك الا بدوس جثث مائة الف جندي فرنسوي فاجعلوا صوالحكم ضحية لراحة بلادكم وسعادتها فيكون جزاؤكم شكر التاريخ . ولست من الذين لا يشعرون بالضيقات التي طرأت على عائلتكم ولذلك احب ان اسعى بحصولكم على جميع الوسائط التي تمكنكم من الراحة في مكان اقامتكم . انتهى

فلما راى البوربون ان تلك الكتابات لم تات بالنتيجة المطلوبة اخذوا في استخدام الاغراآت النسائية لنوالها . فارسلوا الى بونابرت الدوقة كويش المشهورة بالجمال واللطف والحذق لتحاول الميل بهِ الى جهة البوربون بشراك جمالها ودلالها وفصاحتها وغير ذلك مما يطغي الرجال . اما جوزفين امراة بونابرت فكانت قد احتملت ضيقات كثيرة في زمان الثورة الفرنسوية وكانت لها علاقة بالبوربون اذ كانت من حزب الملكية . وكانت تخاف ان يحل بها وبزوجها وبل فاحبت افراغ الجهد لترجيع البوربون لتصونهُ من كيدهم . فكانت تعاملهم بالحسنى فاحبوها فلم تصادف الدوقة المذكورة صعوبة في مقابلة جوزفين . وفي ذات يوم قالت وهي تتناول الطعام في الصباح انني منذ بضعة ايام كنت عند الكونت دوبروفنس في لندن فسالهُ احد الحاضرين اذا ارجع بونابرت البوربون الى فرنسا فماذا تكافيهِ . فقال باعظم منصب وبكل ما يرغب فيهِ وسانصب لهُ تمثالاً عظيماً في المحل العمومي امثلهُ بهِ واضعاً اكليل الملك على راس البوربون . ودخل بونابرت بعد ان فرغنا من مناولة الطعام فاخبرتهُ جوزفين بكلام الدوقة فقال لها الم تقولي لها انهم سيجعلون جثة القنصل الاول بعد ان يقتلوهُ اساس مملكتهم . وكانت الدوقة معهما فاخذت تهاجم بونابرت بتبسماتها وغنجها وجمالها الفتان وتمليقاتها ولما رات جوزفين حركاتها المتجاوزة حدود الاعتدال وجمالها البديع ولطفها العظيم تحركت الغيرة في قلبها . اما بونابرت فلم يبالِ بجميع تلك الاسلحة فامر الدوقة بالخروج من باريس حالاً وفي الصباح خرجت من فرنسا تحت مناظرة الضابطة . وقيل ان بونابرت طلب الى البوربون ان يرجع لهم حقوقهم في الملك . وقال بونابرت ان ذلك محال فانني كنت مالكاً بالمبادىء التي سببت طردهم من البلاد وهي سيادة الامة فكيف احاول الحصول على حقوق محصورة فيهم اي في حقوق شخصية لا تراعي ارادة الامة . فمن يصدق ان لذلك اصلاً حال كونهِ يرى ما يدلهُ على انهُ كذب مضحك ربما يقودنا الى الخراب . فلم احاول ارجاعهم مطلقاً . انتهى . وربما كان اصل تلك الاشاعة الصلات الودادية التي كانت جارية بين بروسيا وفرنسا فسالت حكومة بروسيا بونابرت هل يتكدر اذا سمحت للامراء البوربون بالاقامة في بلادها فاجاب انهُ لا يتكدر . فهذا القبول السريع شدد عزم حكومة بروسيا فسالت هل يقبل ان يعين لهم معاشاً . فاجاب انهُ يعين لهم معاشاً بالرضى التام اذا تكفلت بروسيا بمحافظتهم على الراحة وتمنعهم عن المداخلة في ما يلول الى تكدير راحة فرنسا ولعل هذه المخابرات الاصل الاول للاشاعة المذكورة

و بعد ان ارسل لويس الثامن عشر الدوقة محاولاً الحصول على ملك فرنسا بواسطتها كان بونابرت يتمشى مع بوربن في حدائق ماليزون فرحًا ومسرورًا الان دولاب الاشغال كان يدور بانتظام ونجاح فقال لبوربن هل تكلمت امراتي معك عن البوربون . قال لا . قال رايت انك عند التكلم معها تميل الى اراءها بعض الميل فاخبرني لماذا ترغب في رجوع البوربون فلا مصلحة لك في رجوعهم ولا امل لك بنوال شيء منهم فانك لا تقدر ان ترتقي درجات عالية معهم بل تلتزم ان تبقى في دولتهم في مرتبة ثانوية فان الاستحقاق والاهلية وحدهما لا يرفعان شان الانسان عند الملوك . اجاب بوربن اسلم بما قلت من انني لم انل حظًا من البوربون ولا اومل بالوصول الى رتبة عالية بدولتهم . ولكنني اراعي صوالح فرنسا واعلم بانك ستبقى قابضًا على زمام السياسة الفرنسوية ما دمت حيًا وما دامت جوزفين زوجتك لا تعلق الامل بان يولد لك منها ولد . فماذا تصنع بعد موتك وماذا يحل بفرنسا وانت قلت غير مرة ان اخوتك لا . . . فقطع بونابرت الكلام وقال اصمت فاذا لم اعش ثلثين سنة الى ان اكمل اعمالي تنشب بعد موتي الحروب الاهلية لان اخوتي لا يوافقون فرنسا فيتنازع اكابر القواد الملك ويخال لكل منهم ان حق خلافتي له . فقال بوربن لماذا لا تبادر الى قطع اسباب تلك الشرور . فاجابه هل تظن انه لم يخطر ذلك ببالي . فاذا تاملت في الصعوبات والموانع ترى الاسباب التي توخرني . فان ارجعنا البوربون فماذا يصيب الذين اقاموا الثورة وكيف نقض مشكل الاراضي المحجوزة التي بيعت وماذا يطرأ على التغيرات التي جرت في الاثنتي عشرة سنة الماضية . فقال بوربن اما تذكر ان لويس الثامن عشر بعث اليك بمكتوب يكفل عدم حدوث شيء من تلك الامور . وانت قادر ان تلزمهم بان يقبلوا بالشروط الموافقة . فقال بونابرت اذا رجع البوربون يعتقدون انهم استردوا ارثًا كان محجورًا عليه فيحق لهم ان يتصرفوا به كما يشاؤون فان التعهدات الواضحة والوعود الجلية تبيت عدمًا عند هجوم القوة . اما تعلم ان العقلاء لا يركنون اليها وقد صممت على ان لا اسلم بذلك فالاوفق قطع هذا الحديث واعلم ان النساء يعجزنك بهذا الخصوص فالاوفق ان يلتفتن الى عمل الجوارب ويتركن الاشغال للرجال

وكانت شهرت بونابرت نتيجة اعمال عظيمة غير مستندة الى امور دينية ولا الى تعصبات العامة الجاهلة فكان يقوم بالاعمال بحسب مبادئه الظاهرة وقال بهذا الشان على الملك ان يخدم امته بجلال وعدل لا ان يفرغ جهده على الدوام في اجراء ما يرضيها . فافعل اسباب اكتساب حبها انما هو القيام بما يعجبها ويأتيها بالسعادة . واذا ساس الملك الامة بالتمايق يوقع نفسه في خطر لانها اذا لم تنل ما تروم تهيج وتظن انه نقض وعوده . فان لاقت مقاومة عند الهيجان والكدر يشتد بغضها وتتوهم صحة ظنها وتميل قبل كل شيء انفاذ ارادة الامة وقلما تطلب ما ترغب فيه .



فلا تعرف احتياجاتها باستماع كلامها كما تعرف بالنظر الى قلب حاكمها لانه يعرفها اكثر مما تعرف نفسها انتهى . وينبغي ان يكون نظام الحكومة موافقًا لروح الامة . وهذا من الكلام الذي يبين مبادئه السياسية الحسنة . وكانت فرنسا في احتياج الى حكومة قوية فانها امست فيما امست فيه الجمهورية الرومانية في الازمان القديمة حين سلمت امورها الى حاكم مطلق يخلصها من المخاطر التي كانت محدقة بها . فالانكليز كانوا قد تمكنوا من عقد محالفة بين الملوك بذهبهم لمضادة فرنسا وقلب الجمهورية فباتت فرنسا غير قادرة على المدافعة عن نفسها الا بالحصول على رئيس يستلم زمام الامور ليتصرف بقوات البلاد تصرفًا سريعًا موافقًا لما تقتضيه الاحوال

وقال بونابرت لم افتح بلدًا الا بالدفاع عن فرنسا لان اوربا لم تنقطع عن محاربة فرنسا ومقاومة مباديها فالتزمنا ان نفتح البلاد لنخلص بلادنا من الفتح . وامسيت بين الاحزاب التي كانت توقع فرنسا في الاضطراب كراكب فرس جموح يشرد عن الطريق فيردهُ باللجام . وينبغي ان تكون حكومة بلاد كفرنسا حكومة ذات قوة ونشاط لخروجها من ثورة والاعداء الاجانب يتهددونها وفساد الخائنين يكدرها . فلو لم املك في اوقات الاضطراب لقطعت ملكي المطلق بانقطاعه واقمت الملكية المقيدة . وملكت بلا انقطاع المضادات السرية والعلنية ومع ذلك كانت المساواة في ايام دولتي في فرنسا اكثر مما في سائر اوربا . ومن مقاصدي الخطيرة تعميم التعليم فانشات مدارس مجانية او ذات اجرة قليلة فاصبح الفلاحون قادرين على نفقاتها وفتحت المعارض لجميع الشعب وكنت مجتهدًا في تنوير عقول الشعب لا تسلط الظلام عليها بالجهل والخرافات . اما الامة الانكليزية التي تحب الحرية فستندم وتقول ليتنا لم نفز في معركة واترلو فانها اضرت بحرية اوربا كما اضرت معركة فيليبي بحرية الرومان فانها اوقعتها في ايدي ظلمة اتحدوا على الجور والاعتساف . انتهى

وكان بونابرت يعرف انه لا مندوحة عن نفوذ القوانين ومع ذلك كان يسر بتخليص المحكوم عليه بقوة العفو المعطاة له . وقال بوربن بهذا الشان ان بونابرت كان يسر جدًا بتخليص المحكوم عليهم بالقتل من نفوذ الحكم اذا لم يرَ ان الضرورة السياسية تلجيء الى المعاقبة وربما شكر المذنبين لانهم كانوا واسطة لحصوله على لذة العفو عنهم . انتهى

وكان الموسيو دوفو من المهاجرين الفرنسويين الذين القي القبض عليهم وهم متسلحون لمحاربة فرنسا فمن كان مثله يعاقب بالقتل وكانت له علاقة باعظم عيال اوربا فطلبت العفو عنه بالحاح فقال بونابرت لا سبيل الى العفو فان الذي يحارب بلاده كالولد الذي يحاول قتل امه . ولم يرتض الشفعاء بهذا الجواب وبينوا سوء حالة عائلته واحتياجها الى الشفقة والتاثيرات الحسنة التي تنتج عن ذلك . فلما سمع بونابرت كلامهم قال اكتبوا ان التنصل الاول امر بتاجيل تنفيذ الحكم

على موسيو دوفو. فكتبوا حالاً فوقع بونابرت على الامر وارسله الى سن حيث كان ذلك الرجل المنكود الحظ مسجونًا. وفي صباح الغد دخل بورين قاعة القنصل الاول فقال له بونابرت لا احب ان اجعل العمل ناقصًا فاكتب ان القنصل الاول امر باطلاق سبيل موسيو دوفو فان قابل الحسنى بالكنود يجلب السوء على نفسه. واطلب اليك يا بورين ان لا تتاخر عن مخابرتي في امر من هو كهذا الرجل فان تمنعت عن العفو فلعجزي عن منحه. انتهى. وكان بونابرت من اهل الثبات واللطف فاذا راى لزومًا للثبات يثبت ولو اشتدت المقاومة مع ملاطفة الذين لا يجيب شفاعتهم وما ياتي يبين صدق ما ذكر وهو ان اميرًا غنيًا عمره ثلثون سنة تزوج فتاة عمرها ١٦ سنة على غير ارادتها لانها لم تكن تحبه فساقها اقاربها جبرًا الى موقف عقد الزواج وزوجوها. ثم داخلته الظنون واشتدت غيرته فقتلها بلا اثبات خيانتها. فالقي القبض عليه وحوكم وحكم عليه بالقتل. ولما كان من اكبر عيال فرنسا وله اصدقاء من اهل السطوة افرغ الجهد في سبيل الحصول على العفو عنه فشرع الشفعاء يشفعون فيه عند بونابرت فقال لهم لماذا اعفو عنه الا تعلمون انه استخدم ماله ليجذب اليه حب فتاة جذبًا دنيًا فلم ينجح بذلك فغار عليها ولم تكن غيرته ناشئة عن الحب بل عن الحسد فلا يستحق العفو. والظاهر ان الاغنياء يظنون انهم يخلصون من فعل القوانين بنوم الغنى مجنًا مقدسًا. الم تروا ان ذلك الرجل ارتكب ذنبًا فظيعًا فلا بد من ان يعاقب فان عفوت عنه تبيت حياة كل امراة متزوجة في خطر من غيظ زوجها. فالقوانين تمكن الرجل الذي تتعدى امراته على حقوقه من معاقبتها فلا بد من ان تحمي المراة من نتائج كره زوجها وغيظه او حبه لغيرها واذا كانت بلا حماية يبادر الى قصاصها او قتلها ولا يخاف سوء العواقب. انتهى

وكان حوجوزيفين يغلب احيانًا قوة عقلها فكانت تشفع اليه بالبعض بالحاح. وكان كثيرون من اقارب هذا الرجل من اعز اصدقائها فقالت له لم اطلب اليك منذ وصولك الى ارفع رتبة في البلاد جميلاً غير هذا الجميل ولذلك لا بد من ان تجيب طلبي. فاجابها اني لا اقدر على ذلك ولا يخفى عليك انه عندما يعلم القوم بان شفاعتك انت غير مقبولة عندي عندما تطلبين اليّ ان احيد عن محجة العدل يمتنعون عن ان يشفعوا اليّ في رجال مذنبين كهذا الرجل. انتهى

تقدم ان انكلترا والنمسا وروسيا وغيرها من دول اوربا الصغيرة كانت متحدة على مضادة فرنسا. وكان الامبراطور بولس الروسي قد جمع جيشًا جرارًا ليسعف جيوش الملوك المتحدة في مضادة الجمهورية الفرنسوية. وكانت قد جرت حروب بينهم وبين الفرنسويين عندما استرجعوا ما فتحه بونابرت في ايطاليا وغير ذلك فاسروا جنودًا كثيرين من الفرنسويين والفرنسويون كانوا قد اسروا عشرة الاف رجل من الروسيين. فكان يحب بونابرت ان يبدلهم فطلب الى النمسا ان تسلمه قدرهم من الجنود الفرنسويين الماسورين عندها وتستلمهم فتمنعت



وقالت انها لا ترغب ان تبدل اسراها الا بالنمسويين الماسورين عند فرنسا. ولما طلب الى الانكليز ان يبدلوهم قالوا ان بدل اسراهم باسرى غير انكليز مضاد لمباديهم ولا يخفى ما في جواب الدولتين المذكورتين من حب الذات والخطاء فقال بونابرت لحكومة الانكليز هل تمتنعين عن تخليص الروسيين الذين كانوا يسعفونك في الحرب وكانوا يقاتلون في صفوف جيشك تحت قيادة جنرالك الدوق اوف يورك. وقال لحكومة النمسا هل تمتنعين عن ان ترجعي الرجال الذين مكنوك من النفوذ الى بلادهم حال كونهم هم الذين نصروك في ايطاليا وتركوا في اسرك عددًا غفيرًا من الفرنسويين. ان ظلمًا كهذا الظلم يحرك الغيظ في احشائي. انتهى. والظاهر ان ما كان يسميه دناءة عند الدولتين المذكورتين كان يوثر فيه تاثيرًا شديدًا ويحرك كرامة اخلاقه ولذلك قال انا سارجعهم الى امبراطور روسيا بلا بدل ليرى اني اعتبر الشجعان. انتهى. وكان بونابرت يباشر الاعمال العظيمة مباشرة تليق بالعظمة الملوكية فامر على النور برد سيوف الضباط الروسيين ويجمع الاسرى المذكورين في اكسلا شابل وكان عددهم عشرة الاف رجل فالبسهم جميعًا ثيابًا جديدة هيئتها كملابس الفرق الروسية التي اسروا منها وقلدهم اسلحة من احسن الاسلحة الفرنسوية وامر ضباطهم بان ينظموهم جيوشًا وفرقًا وبعد ذلك سمح لهم بالرجوع الى صفوف الجيوش الجرارة التي كانت مجتمعة عند حدود فرنسا لمهاجمتها وتسلب حريتها ويسر كريم الاخلاق بان يسمع ما نشأ عن كرامة اخلاق بونابرت من المكافاة الحسنة من امبراطور روسيا. فانه تكدر من جرى حب النمسا وانكلترا لصالحهما دون صالح الدولة التي كانت تسعفهما في نوال مآربهما وتعجب مما راه من شهامة بونابرت وحسن تصرفه فبادر الى الانفصال عن الاتحاد معهما واقام بينه وبين بونابرت موادة صادقة اتحادًا ملتحمًا فكتب الى بونابرت القنصل الاول بخط يده ما ياتي. ايها القنصل الاول. انني لا اكتب اليك للبحث عن حقوق الرجال والاهالي فيحق لكل بلد ان تقيم لنفسها الحكومة التي توافقها ولكن حين ارى رجلاً رئيس امة عارفًا بان يسوس ويحارب يجذب قلبي اليه. فقد كتبت اليك لاخبرك بانني تكدرت من انكلترا التي تتعدى القوانين الدولية فانها لا تنقاد الا الى حبها لنفسها ولصالحها فاروم الاتحاد معك لاقطع الاجراات غير العادلة التي تجريها تلك الحكومة. انتهى

وهكذا انفصلت روسيا عن الاتحاد مع الدول التي كانت تحارب فرنسا وارسلت سفيرًا الى باريس واعترفت بالحكومة الجديدة اي بحكومة بونابرت. فبعث بونابرت بسفير الى بروسيا ليحاول توطيد الصلات الودادية بينه وبينها والسفير هو القائد دورو فانه كان لطيفًا عارفًا بالمداخلات السياسية قادرًا على ارضاء الذين يجتمع بهم بصفاته الحسنة. وكان فردريك غليوم ملك بروسيا من الذين يحبون اهل الدراية الحربية ولما كان دورو في حرب ايطاليا ومصر كان ينص عليه اخبارًا

كثيرة عن اعمال الابطال وحسن ادارة الحركات الحربية . فاجتمع على انفراد مع ذلك الملك الاجتماع الاول وبقي معهُ نحو ساعتين . وفي اليوم الثاني دعاهُ ليتناول الطعام معهُ وكانت النتيجة اعتراف دولة بروسيا بحكومة بونابرت القنصلية

وبلغ بونابرت اعلى درجة من العظمة والمجد دون تغيير عاداتهِ الخصوصية البسيطة وكان ينظر في المهام ويحافظ على صداقة الذين كانوا اصدقاء لهُ . فكان ينهض من الرقاد قبل الظهر بخمس ساعات ويلبس ملابس نظيفة مرتبة وفي اثناء لبسها يسمع قراءة جرائد الصباح ثم يدخل غرفة اشغالهِ ويقرأ الرسالات ويكتب اجوبة بخط يدهِ او يمليها على كتابهِ الى ما قبل الظهر بساعتين . ثم يتناول الطعام هو وجوزيفين وابنتها هورتنس وكان يدعو غالبًا للاكل معهُ بعض اعوانهِ ورجلاً او رجلين من اهل المعارف وعند الفراغ من الاكل كان يجتمع بمجلس الوزراء الخاص او يرد زيارات رسمية او يدخل دوائر الوزراء للبحث عن المهام . ويرجع الساعة الخامسة بعد الظهر ليتناول الطعام مرة ثانية وكان يصرف ربع ساعة في تناولهِ ما لم يكن معهُ قوم مدعوون من الغرباء وكان بعد الاكل يدخل الغرف في القسم المخصص بجوزيفين فيزورهُ هناك الوزراء واعيان المدينة . وكان مصمماً على ابطال العادات المتجاوزة حدود الحشمة التي كانت قد امست منذ قرون في قصور الملوك الفرنسويين وساقت فرنسا الى عادات معيبة . فكان يعامل بالصرامة الشديدة النساء اللواتي كن يحاولن تحويل ابصار الرجال اليهن بتجاوز حدود الحشمة في الملابس او الحركات وكن على الغالب من اللواتي يدعين انفسهن نساء الاعيان . فقال على الرجل ان يحضر مع امرأتهِ في اجتماعات البلاط وكان ذلك من الامور غير المألوفة عندهم

وكان من عادة النساء الاتيان الى تلك الاجتماعات مع الذين كن يرغبن في المجيء معهم . اما بلاط ملوك فرنسا الذين سبقوا الثورة فكان مدنسًا بالفواحش فسارت الامة في اثرهِ . وكان بونابرت متيقنًا انهُ يمنع دخول ما يخل بالادب والناموس الى بلاطهِ ويرجع بالامة الى الادب بالقدوة الحسنة وقال الاخلال بالتهذيب هو بلا ريب من داء عيوب الملوك فانهم ينشرون ذلك بين رعاياهم بالقدوة الردية فيسلكون السبل المعوجة استرضاءً لهم . فتقوى الرذائل وتضعف الفضائل وهي وبالا يتفشى بسرعة بل هي ويل الامة . انتهى . وفي ذات يوم استاذن احد الاعيان ورجال الدولة بونابرت بادخال كنتهِ الى بلاطهِ وكانت بارعة الجمال ولوائح بساطة القلب تلوح على وجهها ومع ذلك كانت من اجمل بنات حواء . فدخلت البلاط باذنهِ وكانت ترافق قوم البلاط الى جميع الاماكن وكانت حيثما تذهب تقترب من بونابرت وتتفرس فيهِ بعينيها الجميلتين الفاتكتين وتتنهد وتتكلف الحياء . وكانت تطيل الوقوف امام صورهِ وتتظاهر بالغوص في بحار الدهشة



والتأمل متنفسة الصعداء . فقال حموها انهُ متكدر من ذلك وشكا وقوعها في شراك حبهِ وقال انها غير قادرة على التخلص منها . اما زوجها الذي مال عن طريق الناموس والكرامة فكان يتظاهر بعدم المبالاة باعمال امرأتهِ ويتجاهل مقاصدها . اما حماتها فاشغلت نفسها في ترويج الحال وقالت انها لا تلومها على حب رجل كبونابرت . وطالت هذه الحال وكان بونابرت يتظاهر بجهل حيلهم فتحدث اهل البلاط بذلك فرأى بونابرت لزومًا لاجراء ما يمنعهُ . ففي ذات ليلة اجتمع بالوزراء ثم انفرد بكامبسز وقال لهُ ان مدام . . . . تفعل ما هو غير مقبول عندي واعمال اقاربها ادنى من افعالها فحموها بلا كرامة وزوجها بلا ناموس ولا عرض وامها محتالة لا تستحي فلم تخدعني بحيلها . فالمرأة الفاجرة التي تبيع ناموسها علانية اعف من المرأة المرائية التي تدعي الحب الشديد للحصول على مكافاة مادية ببيع ناموسها فارجوك ان تدعو اليك حماها وهو من اعواني واخبرهُ انني استغنيت عن خدمتهِ سنة ومر امرأتهِ بان لا تدخل بلاطي الا بعد ست سنوات . وقل لتلك المرأة وزوجها احب ان امكن كلاً منهما من الوقوف على صفات الاخر فاسمح لهما بان يقيما سنة اشهر في نابلي وسنة اشهر في فينا وسنة اشهر في مدينة اخرى من المانيا . انتهى

وكتب ضابط الى بونابرت طالبًا الترقي . وكانت تلك الايام ايام كفر وارتكاب الفواحش فقال في ختام رسالتهِ ان ابنتيَّ الجميلتين تحبان ان تطرحا نفسيهما عند قدمي الامبراطور ( اي بونابرت ) لتشكراهُ على المنافع التي منحهما لابيهما . انتهى . فلما قرأ بونابرت هذه الرسالة غضب وقال لماذا لا ارسل هذه الرسالة لتحفظ في سجلات فرقة ذلك الضابط . فبحث عنهُ فعرف انهُ من القتلة في الفتنة واعظم اصدقاء روبسبير فعزلهُ . ولما راى ان بنتيهِ اللطيفتين الحاذقتين غير عالمتين بعمل ابيهما الدني ابى ان تعاقبا بذنبهِ فعين معاشًا لكل منهما مشترطًا خروجهما من باريس واقامتهما في مدينتهما

وكانت الامة تحب بونابرت جدًا لعلمها انهُ صديقها وحاميها . وكتب المورخ روبرتسون الانكليزي مقابلاً بين بونابرت الحامي عن الحقوق العمومية والحكومات الظالمة قال نقدر على وصف حالة اوربا بكلام قليل فان الملك كان من بوربون اسبانيا . وقياصرة الرومان بينوا ان الملوك والامراء يتجاوزون حدود الاعتدال في الفساد متى سلكوا سبلهُ . وبينت العائلة البوربونية ما ظهر باعمال القياصرة من فساد الاداب حتى تحط قواهم العقلية ويفقد تهذيبهم . وكان فرديننذ ملك نابلي كسائر ملوك عائلتهِ يحب الصيد ولا يلتفت الى غيرهِ وامرأتهُ جمعت في نفسها فساد عائلتها فكانت تطلب ملذاتها لما كان زوجها الملك يطلب الصيد قاطعين النظر عن ادارة المالية . وكان بلاطها يراعي خواطر الاصدقاء والاصحاب والمقربين والمحبوبين فخامر اعمالهُ فساد ظاهر معيب يعجز القلم عن وصفهِ وامتد الى جميع دوائر الحكومة الكبيرة والصغيرة . اما اهالي نابلي فحافظوا

بالمعارف على ما هو افضل من ذلك وكانت المخابرات الجارية بينهم وبين بلاد اجنبية حالتها احسن من حالتهم تقوي ذلك فيهم . فعند ابتداء الثورة الفرنسوية علقوا الامل بالحصول على مساعدة فرنسا لوضع نظام جديد ولم ينقطع املهم بالثورة واصابوا بحكمهم بان الدول لا يمكن ان تكون اردأ من دولتهم . وكان جميع الذين يحاولون تغيير دولهم في ذلك الزمان يسمون جاكوبيين وهذا خطأ وكانت انكلترا تبغض الجاكوبيين الذين كانوا في الممالك الواقعة في اواسط اوربا بغضاً لا يستحقونهُ . ولم يطرأ شيء مضر بصوالح انكلترا اكثر من الاتحاد مع ملوك اواسط اوربا الذين كانوا يخرجون في اعمالهم عن دائرة الصواب والعدل . فبات رعايا اولئك الحكومات الذين كانوا يطلبون الحرية اعداء لانكلترا . انتهى

وكان مسترسوني من محبي امراء انكلترا ومع ذلك التزم بان يقر بخطاء الحكومة الانكليزية . اما بونابرت فكان يميل الى العامة المظلومة ويحب ترقية اسباب الاصلاح ولكن راى من الفتنة غير المعتدلة ما كدرهُ وكان يروم حماية حقوق الاهالي ومنحهم ما هو حقهم وحمايتهم من تعديات الاوباش . وكان ذلك اساس اعمالهِ . فكان يضاد ادعاءات الامراء وتعدياتهم ومظالم الظلمة . فاتحد الملوك والاوباش عليهِ فاستند الى الملايين الذين يحبون صيانة الحقوق بالمساواة والعدل . ولما كان في مصر حاول الجمهوريون من نابلي قلب دولتهم وتعاظم جورها وظلمها فنجحوا في ابتداء الامر واملوا بخلاص وطنهم . ولكن انكلترا وروسيا ونابلي جمعت جيوشها وهاجمت الجمهوريين فقهرتهم . فلجأ قوم منهم الى قلعة فحاصرتهم وضايقتهم فارادوا التسليم وكانوا عالمين ان نابلي لا ترحمهم وروسيا لا تطيق اهل الحرية فظنوا ان انكلترا تحميهم اكثر منهما فطلبوا قائداً انكليزياً وسلموا اليهِ بعد ان تعهدت لهم انكلترا بنقلهم هم وعيالهم ومقتنياتهم بامان الى فرنسا لعلمهم ان اهل الجمهورية فيها ياخذون بيدهم ويقومون بنصرتهم . ووقعت الدول الثلث على هذه المعاهدة ففتحوا ابواب القلعة وسلموا سلاحهم . اما الذين وقعوا عليها فمنهم الكردينال روفو نائب مملكة نابلي وكرنادي وكيل امبراطور روسيا والقبطان فوت وكيل ملك انكلترا . وبعد ذلك دخل نلسون ببوارجهِ المنتصرة مرفأ نابلي ومعهُ في بارجتهِ الخاتون هملتون محبوبتهُ الدنسة وملك نابلي وملكتها المشهوران بالفحشاء والاهمال . فقال لا بد من الغاء تلك المعاهدة لانهُ لا يقبل من العصاة الا تسليماً غير مشروط . فاقام الحجة الكردينال عليهِ وقال ان ذلك انما هو نقض الوعد والعهد وطلب تنفيذ المعاهدة فلم يجب طلبهُ فقبض على اولئك الجمهوريين المبغضين وقيدهم اثنين اثنين وسجنهم في بوارجهِ . اما ملك نابلي فلم يحتمل النظر الى عذابهم فخرج من البارجة واتى قصرهُ وترك نلسون والملكة امراتهُ والخاتون هملتون يفعلون ما يحبون . وقال اليسون انهُ قتل كثيرين منهم على الفور فكانوا يقودون الشيوخ والفتيان والنساء الى القتل وينفون الاولاد الذين لم يتجاوزوا ١٢ سنة . وكان الجمهوريون



يموتون موت الابطال بلا تذمر فنسي الذين شاهدوا عذابهم عصيانهم باشتغالهم بالحزن عليهم . وكان الاميرال كاركيولي من اكرم اهل بلادهِ واحسنهم صفة ومن روساء الجمهوريين فالقي القبض عليهِ قبل الظهر بثلث ساعات وحوكم في البارجة الانكليزية الساعة العاشرة وحكم عليهِ بالموت الساعة الخامسة بعد الظهر ثم قطع الحبل وطرحت جثتهُ في البحر . وقبل موتهِ طلب الى الاميرال ان يسمح باعادة المحاكمة لان قصر الزمان لم يمكنهُ من المدافعة عن نفسهِ فلم يجب طلبهُ . فتوسل اليهِ بالحاح ان يقتلهُ باطلاق الرصاص قائلاً لا اقدر ان احتمل عار الموت شنقاً . فلم يجب التماسهُ . فطلب الى الليوتنان باركنسون الذي كان مسلماً اليهِ ان يسال الخاتون هملتون الشفاعة بهِ عند اللورد نلسون فامتنعت عن مواجهة الليوتنان وهو ضابط وصعدت هذه المراة الفاجرة على ظهر البارجة لتتمتع بالنظر الى ذلك الاميرال الجمهوري المنكود الحظ وهو يتحرك حركة الموت . فاجاز بلاط نابلي هذا اللورد على هذه الاعمال الوحشية بسيف ذي قبضة مذهبة وبلقب دوق برونت وبراتب ١١٥ الف ريال في السنة

وقال اليسون الانكليزي لا نعتذر عن اعمال الاميرال نلسون في نابلي فانها قاسية خارجة عن دائرة الاعتدال . وقال المورخ سوني اذا حاولنا الاعتذار عنهُ يذهب تعبنا سدًى واذا قلنا ان اعمالهُ عادلة نشاركهُ في الشرور التي ارتكبها فلا بد من تدوين هذه الاخبار المعيبة بالحزن والخجل . انتهى . فلو فعل بونابرت افعال نلسون لرمي بلوم كتاب اعدائهِ وطعنهم الشديد لانهُ هجر امراتهُ المنكودة الحظ وصاحب امراة عاهرة منقاداً اليها انقياد الاسير الى الاسر . وفضلاً عن ذلك داس اصرح المعاهدات وسجن بعض الذين تركوا ملكهم في نابلي وشنق البعض الاخر وسلم الرجال والنساء والاولاد الى القتل بايدي اوباش مهيجين ومع ذلك شادت لهُ الحكومة الانكليزية ابنية تذكاراً لجدهِ محاولة جلب العار على بونابرت . فهل يسلم التاريخ بذلك ويسكت عنهُ الكتاب العادلون

## الفصل السابع عشر

### تجهيزات وحروب

ولما راى بونابرت ان اجتهادهُ في حمل انكلترا والنمسا على مصالحتهِ ذهب سدًى شرع باقدامهِ وعالي همتهِ في التاهب لدفع جنود الدول المتحدة على فرنسا وكان جالساً على كرسيهِ في قصر التويلري واصوات مدافعهم تطرق اذنيهِ من جميع الجهات . فكانت بوارج انكلترا في المضيق الواقع في شمال فرنسا وفي غيرهِ تخرب التجارة الفرنسوية باسر مراكبها والتعدي على بضائعها وناتي فرنسا الذين هجروها ليكدروا راحتها محاولين اعادة الملوك الذين خلعوا وتمدهم وغيرهم من العصاة بالاموال لتثير الحروب الاهلية وتطلق المدافع على جميع الثغور غير الحصينة . وكان المارشال كري النمسوي عند حدود فرنسا الشمالية في ١٥٠ الف جندي حاملين رسل الموت قاطعين الادغال ليانوا ضفات الرين ويفتحوا ولايات فرنسا الشمالية . وكان مع هذا الجيش الجرار

القوي اسلحة جيدة ومدافع كبيرة فخال للناس انهُ لا يقهر. وكان المارشال ميلاس النمسوي في ايطاليا في ٤٠ الف جندي واكثر القوة الانكليزية البحرية حاملة على حدود جمهورية فرنسا الشرقية والجنوبية. وكانت الجيوش الفرنسوية تبصر هذه القوات العظيمة حاملة عليها بعد ان كادت تقع في الياس لانكسارها بعد ذهاب بونابرت الى مصر فركنت الى الفرار مجتازة جبال الالب. وبات بعضها محصوراً في المدن باكل لحوم الخيل ويحتمل اشد بلايا الحرب. وكان اهل السواحل الفرنسوية يرون من اكثر نجادهم بوارج انكليزية سوداء تجول حول ربوعهم متعدية على تجارتهم. ومن لا يسر اذا شرع في عمل يعلم اقتدارهُ على اتقانهِ وكان بونابرت عالماً انهُ ذو اقتدار حربي عجيب فكان كالاسد الذي تبين لهُ قوتهُ انهُ ملك الحيوانات. فعزم على تخليص فرنسا بالقوة بعد ان حاول تخليصها بعقد الصلح واقام باعمال ستذكر في اماكنها حتى الزم اعداءهُ ان يلقبوهُ بالمائة الف جندي لانهم عدوا قوتهُ وحدهُ كقوة مائة الف عسكري فاذا صدم مائة الف من اعدائهِ بخمسين الفاً من جنودهِ يقولون ان عدد جيشهِ مائة وخمسون الفاً. والمظنون انهُ لم يسبقهُ بشر الى ذلك فسبحان مصدر كل قوة واقتدار. ونشر في فرنسا اثناء تلك التجهيزات هذا الاعلان

ايها الفرنسويون. رغبتم في الحصول على السلام ورغبت حكومتكم فيهِ اكثر منكم فجدت واجتهدت للحصول عليهِ ولكن الوزارة الانكليزية اظهرت اسرار سياستها الشريرة وهي ايقاع الشقاق في فرنسا وابادة تجارتها وانقراضها او جعلها دولة ثانوية. وهي تروم اضرام نار الحرب بين جميع امم اوسط اوربا لتستغني بسلبها وتتمكن من حصر تجارة الدنيا في نفسها فتبذل ذهبها وتكثر من وعودها وخداعها. انتهى

فلما سمعت فرنسا هذا الخطاب هاجت وماجت وبادر ابطالها الى تقلد السلاح. وكان بونابرت مشتغلاً بما يرفع مجد فرنسا ويقويها فنسي نفسهُ ومجدهُ وجمع ١٥٠ الف جندي من رجال فرنسا المجربين بالحروب الذين خاضوا عباب مئات من المعارك وسلم قيادتهم الى الجنرال مورو مناظرهُ الفريد. فمن يفعل ذلك. ولم يكتف بونابرت بهذا العمل الناشيء عن كرامة الاخلاق وحب خير فرنسا ولكنهُ وضع رسماً للهجوم مناسباً لاقدامهِ وجسارتهِ وهمتهِ وسلمهُ الى مورو ليجعلهُ دليلاً لهُ في حركاتهِ الحربية. ولم يتجرأ الجنرال مورو ان يقوم بهِ فوضع رسماً اخر ربما كانت نتائجهُ كنتائج رسم بونابرت ولكنهُ ليس عظيماً مثلهُ ولا يكون تاثيرهُ كتاثيرهِ ولو عول مورو على رسم بونابرت لانتشر ذكرهُ في الافاق. وفي اثناء ذلك قال احد رجال الدولة الفرنسوية لبونابرت وهو من اصدقاء مورو ان الرسم الذي وضعتهُ اعظم من رسم مورو واسلم عاقبة منهُ غير انهُ لا يناسب مورو الذي يقوم بالاعمال بالتاني والتحذر اما انت فاعمالك الحربية مخصوصة بك وهي تفوق الاعمال البشرية واعمال مورو مخصوصة بهِ وهي دون اعمالك. فاتركهُ يفعل ما يشاء فان حاولت ان



تقودهُ الى افكارك تغيظهُ وتبعدهُ عنك. وكان بونابرت يعرف احوال البشر وعواطفهم وقلوبهم فاجاب لقد اصبت فان مورو لا يقدر ان يجري على هذا الرسم الذي وضعتهُ فاتركهُ يفعل ما يشاء واقوم انا بالرسم الذي يفهمهُ ولا يتجاسر ان يقوم بهِ في جهة اخرى من ميدان الحرب. فساجري في جبال الالب ما خاف ان يجريهُ في نهر الرين وسيتاسف على خسارة المجد الذي تركهُ لي. واذا قابلنا هذا الكلام بنتائج الافعال التابعة نقول ان معرفة بونابرت لقوتهِ حملتهُ على التنوه بكلام يكاد يكون نبوة مع انهُ قلد مورو قيادة الجيش الفرنسوي المجرب حال كونهِ مناظراً لهُ وبين لهُ كيفية الوصول الى اعلى درجات المجد. وقال انني ساقلد مورو قيادة ١٥٠ الف جندي من اعرف جنود فرنسا وانظمها فانها مجربة منتصرة في مئة معركة فهم ابطال الحرب واسود الوغى واقودها اثنا ستين الفاً من الفتيان الذين دخلوا العسكرية مجدداً ومن بقايا الجيوش التي هلكت واسير بهم لاصدم عدواً قوتهُ بقدر قوة العدو الذي يلاقيهِ مورو في ١٥٠ الفاً من المجربين

وفرق المارشال ميلاس النمسوي جيشهُ وهو ١٤٠ الف جندي في حصون ايطاليا وحمل على حدود فرنسا بهمة ولم يسر بونابرت بجيشهِ القليل الجاهل فنون الحرب ليصدم طليعة جيش ميلاس المنتصر فصعد على قمم جبال الالب المرتفعة جداً الصعبة المسالك لينحدر من بين الغيوم كانحدار الزوابع ويصدم مؤخرتهُ. ولم يظن احد ان قطع ذلك الجبل الذي هو من ارفع جبال الدنيا مع صعوبة مسالكهِ ما يقدر عليهِ جيش كذلك الجيش. وكان ملتزماً ان يتاهب سراً لئلا يعرف النمسويون مقصدهُ فيتحصنون في قمم الجبال ويمنعون الفرنسويين عن الصعود عليها. وكان الجواسيس الانكليز والنمسويون كثيرين في فرنسا يبلغون الاعداء اخبار حركات الجيوش الفرنسوية وكان من اصعب الامور جمع ذلك الجيش في مكان لجمع الملبسات اللازمة لاجتياز الجبال والاودية بصعوبة يكل القلم عن وصفها. وجعل بونابرت مدينة ديجون مكاناً لاجتماع جيشهِ. وخدع عدوهُ باعلان مقاصدهِ فقال ساقطع جبال الالب لاهجم على مؤخرة ذلك الجيش فلم يصدقهُ قواد الاعداء وقالوا انهُ احمق يشيع تلك الاخبار ليخدعهم ويجعلهم يحولون قوتهم الى جهة لا يخطر ببال مخلوق انهُ يهاجمهم منها. وكان كلما عظم استهزاءهم بهِ لظنهم انهُ يخادعهم يشدد بونابرت الاوامر باجتماع فرق قليلة في ديجون وقالوا ان غاية بونابرت غشهم. واخذت جرائد لندن وفينا تملأ اعمدتها بوصف جيش ديجون وتستهزيء بهِ وسخر الانكليز جداً بهِ وسروا لما سمعوا انهُ قاصد اجتياز الالب وكان اعداء فرنسا يظنون ان الجمهورية بذلت كل قوتها في سبيل جمع جيش مورو فلا تقدر على جمع جيش اخر. وقالت جريدة ان الجيش الفرنسوي عبارة عن صبي لابس اثواب ابيهِ ويدهُ بندقية يستصعب حملها وقطعة من الحلوى وعن رجل شيخ بيد واحدة واحدى رجليهِ من خشب. وكان بونابرت يسر بذلك لانهُ يجعل عدوهُ يستخف بهِ. وكانت لوائح الهم تلوح على وجوهِ فنوهم المقربون منهُ

انهُ مكدر على ان السرور ملأ قلبهُ من عظمة اعمالهِ وجهالة اعدائهِ

اما جبال الالب فعند تخوم فرنسا الشرقية وعند حضيضها سهول مخصبة فيها كروم حسنة وبقاع جميلة وكانت قمم الجبال تنطح السماء والغيوم حولها والثلج دائم عليها . اما طريق هذه الجبال العظيمة فهي طريق سان برنار والمسافرون الذين كانوا يجتازونها كانوا يلتزمون ان يركبوا بغالاً ويستاجروا دليلاً ويعبروا ذميلاً في تلك الوعور والمسالك الضيقة المطلة على وهاد اذا زلت قدم الانسان يسقط الى اعماق يصاب بالدوار من يشرف عليها . وكانوا يلتزمون ان يدوروا حول قمم مرتفعة في طرق صعبة عالية تطير فوق قممها النسور وتاوي اوجارها الوحوش البرية . وكانت الماعز تستصعب سلوكها لضيقها ووعرها . ووصفها بعيد عن الحقيقة خصوصاً عند هبوب الزوابع وارتفاع جبال الثلوج فوق قممها المخيفة . وقد هلك مئات فيها ودفنت جثثهم بالثلج . ولا يبلغ المسافر اعلى تلك الطريق الا بعد يومين فيرى نفسهُ اوانئذٍ في قمة تعلو عن سطح البحر ثمانية الاف قدم حولها قمم اخرى اعلى منها . ويكدرهُ منظر ما يحيط بهِ فانهُ وحشي خالٍ من علامات الحياة يطل على دير اسمهُ دير سان برناربي في هذا المكان القفر وهو اعلى نقطة مسكونة في اوربا وفيهِ منذ الف سنة رهبان حرموا انفسهم لذة العيش وطيب الراحة وسكنوا بين تلك الصخور والثلوج ليخدموا خالقهم بتخليص المسافرين المتعبين من الهلاك بجيوش الزوابع والعواصف التي تجاربهم عند الوصول اليها . وطريق الانحدار من قمة تلك الجبال الى سهول ايطاليا اكثر خطراً من طريق الصعود اليها من سهول فرنسا الخضراء المخصبة لا يقول فيها ولا اشجار فان الصخور والثلوج من محصولاتها ولا انسان هناك غير اولئك الرهبان الذين يلبسون الملابس الثقيلة السميكة ويحملون عصيهم ويسيرون في العواصف والثلوج لتخليص القليلين الذين يجتازون الجبال . والحطب الذي يحرقونهُ ليستدفئوا بنارهِ يحملهُ الرهبان على اكتافهم من اماكن بعيدة ليأتوا بهِ ديرهم بعد مقاساة اتعاب كثيرة . فهذا هو وصف بعض صعوبات الجبال الذي صمم بونابرت على قطعها بجنود غير متعودة احتمال مشقات المسير في اماكن كهذه ليهجم على مؤخرة النمسويين الذين كانوا يحاصرون جنوا ليهدموا اسوارها ويضايقون مسينا ويسيرون منتصرين عند ابواب مدينة نيس . فما اعظم اعمال ذلك الرجل الذي عزم ان ينقل جيشاً في طريق يكاد يعجز البغل عن اجتيازها بمدافعهِ الثقيلة والوف الوف من قناطير كراتهِ ومهماتهِ الضخمة . ولا نعجب من استهزاء اهل انكلترا والنمسا . وكان بونابرت حاذقاً في ترتيب الامور الصغيرة كالامور العظيمة . فصمم على المسير في اربعين الف رجل من جيشهِ في طريق الجبال المذكورة وعلى ارسال فرق منهُ في طريق سان كوثار وطريق سان برنار الصغير وجبل سنس ليجير النمسويين ويتمكن من جمع ٦٥ الف جندي في سهول ايطاليا بغتة كانهم انحدروا من الغيوم على مؤخرتهم . وهذا العمل يوقع الرعب الشديد في قلوب اعداء



فرنسا فانها تقطع الصلات بين النمسا وجنودها وتبين لهم قوة فرنسا وحذق رئيسها السياسي والحربي

فاجتمعت الجنود الفرنسوية في اماكن مختلفة بالقرب من ديجون واصبحت مستعدة عند صدور الامر لتجتمع بسرعة تحير العقول وجمع سراً في محال مختلفة في مخازن كثيرة القمح والخبز اليابس المعروف بالبقسماط وارسل مبالغ وافرة من النقود لاستئجار الفلاحين القاطنين في اودية تلك الجبال مع بغالهم لنقل المهمات . واقيمت مراكز لعمل الالات بسرعة سحرية في طرق تلك الجبال لتصليح العجلات وغيرها واقيم فيها صناع من احذق صناع فرنسا واستعدوا لتفريق العجلات والالات ليصير التمكن من نقلها على ظهور البغال عندما تمس الحاجة وتصير الطرق صعبة لا يقدر ان يمر بها غير البغال وصنعت صناديق صغيرة لا تحصى لوضع المهمات فيها ونقلها من العجلات الى ظهور البغال . وارسلت فرقة اخرى من صناع الآلات مع الاتها وكل ما يلزم لها مع طليعة الجيش لتقيم معاملها في الجهة الاخرى عند سهول ايطاليا لتصلح ما تكسر من العجلات وترجع المدافع الى عجلاتها وتهيء كل شيء للقتال والنزال . واقام بونابرت على كل من جانبي ذلك الجبل العظيم مستشفى واسعاً فيهِ جميع اسباب الراحة للمرضى ومعالجتهم . وارسل مقداراً وافراً من الخبز والجبن والخمر الى ذلك الدير . فعند وصول كل جندي الى القمة بعد محاربة الزوابع والصخور والمشقات الكثيرة يفرح براهب يناولهُ خبزاً وجبناً وكاساً من الخمر المقوية في ذلك المكان البارد . وكان بونابرت يهتم بهذه الامور الاولية والثانوية والدنية وهو مهتم بامور كثيرة كافية لتشغيل عشرة رجال لاصلاح الهيئة الاجتماعية في فرنسا . فان كان الكد ثمن العظمة يكون بونابرت قد اشترى عظمتهُ باغلى الاثمان . ومع ذلك كان لهُ من قوة العقل وقوة الجسم ما كان يجعل كدهُ وسهرهُ لذة عندهُ . وبعد تلك الاتعاب حلت الساعة المعينة لخروجهِ من قصرهِ الى الحرب ففي اليوم السابع من شهر ايار ( مايس ) سنة ١٨٠٠ ركب عجلة في قصر التويلري قائلاً اودعك يا محبوبتي جوزفين لا بد من الذهاب الى ايطاليا انني لا انساك ولا اطيل مدة الغياب

وعند صدور امرهِ بكلمة واحدة تحرك ذلك الجيش مع تلك المهمات العظيمة فقطع فرنسا بسرعة عجيبة الى ان وصل الى حضيض تلك الجبال فوصلت الجنود اليهِ مع كل مهماتها وملحقاتها في الساعة المعينة فشرع في فحص الجيش بتدقيق وتأنٍ ففحص احوال كل فارس وكل جندي من المشاة وكان يامر بتغيير ما كان يراهُ غير موافق من الاحذية والملابس وكانت كلماتهُ تشعل نار الحمية في قلوب جيوشهِ كما كانت مشعلة في فؤادهِ . فاصبح كل رجل يجهد نفسهُ في القيام بفروضهِ . وكانت انظارهُ في كل مكان وصوتهُ المقوي يهيج الجنود الى اجراء ما يكاد يفوق القوة البشرية . وكان قد ارسل مهندسين حاذقين ليفحصا حال الطريق ويعملا ما يتيسر لهما لرفع الموانع فرجعا اليهِ فسالهما هل من الممكن قطع الطريق . فقالا مترددين ربما كان قطعها من الامور الممكنة . فقال بونابرت

عند ذلك هلموا نذهب بهمة وسرعة

وعين حملاً لكل جندي علاوة على سلاحهِ زاد بضعة ايام و بارودًا ورصاصًا . وكانت الطريق ضيقة جدًّا فالتزموا ان ينصلوا العجلات عن دواليبها وان يعلقوا الدولاب بعمود من خشب فيحملهُ رجلان . ومع ذلك كانت اتعاب الجنود المشاة اقل من تعب الفرسان الذين كانوا يلتزمون ان يصعدوا بجد قائدين افراسهم . وكانت طريق الانحدار اكثر خطرًا من الصعود وكان كل فارس ملزومًا ان يقود فرسهُ وراءهُ فان عثرت قدمهُ يدفعهُ ويقع معهُ الى وهاد لا يظهر لها قرار وهلك كثيرون من الفرسان وافراسهم بهذا السقوط . اما نقل المدافع فجرى بقطع جذوع اشجار وتفريعها ووضع المدفع فيها بعد تجريدهِ من الدواليب ثم ربط ذلك الغلاف المدفعي في حبال وتعليقها ببغال كثيرة فكانت البغال تسير وتجر المدافع وراءها و بعد برهة عجزت البغال فبادر الرجال الى القيام مقامها بسرور دون تذمر فكان كل مائة رجل يجرون مدفعًا منها . ودفع بونابرت خمسة الاف غرش الى بعض الفلاحين لينقلوا مدفعًا واحدًا كبيرًا فلم يقبلوا . وكان كل نصف ساعة يبدل المائة رجل الذين كانوا يجرون مدفعًا بغيرهم وكانوا يحملون المشقات مسرورين لان قائدهم كان يضرم نار الحمية في افئدتهم وكانوا على تلك القمم الشاهقة باسلحتهم كالجن الطيارة ولم يخطر ببال احدانهم يقدرون على ارتقائها بهماتهم ومدافعهم . فامست النسور طائرة اوطى منهم . وكان ينفخ البوق عند وصول طليعة الجيش الى مكان صعب جدًّا فيمتد صدى صوتهِ من واد الى واد ومن شق الى شق فينقوى الجنود على الصعوبة و يحملون عليها مبددين شملها كانها جيش عدو فعرض بونابرت على الجنود الذين كانوا يجرون المدافع ما عرض على الفلاحين اي خمسة الاف غرش لكل جماعة منهم فابوا لان حمية قائدهم كانت مشتعلة وقالوا اننا لا نكد لنوال المال ولكن للحصول على رضاك ومشاركتك في مجدك فبونابرت واصغر رجالهِ كانوا يحتقرون الذهب بعد الحصول على ما يقوم بالحياة و يجعلون المجد غرضهم وغاية اعمالهم

وكانت اعمال بونابرت تصيب جدًّا لمعرفتهِ اسباب الاصلاح فاصلح خدمة المدافع اصلاحًا اتى بنتائج عظيمة . فالذين كانوا يديرون جر المدافع بالافراس او غيرها لم يكونوا من الجيش ولكنهم كانوا كخدامين لا ينالون شيئًا من المجد الذي كان يحصل عليهِ الجنود فلم يكونوا يراعون الناموس وكانوا عند الوقوع في الخطر يقطعون رباطات المدافع و يطلبون الفرار تاركينها في ايدي الاعداء . فقال بونابرت ان الجندي الذي يدير جر المدفع هو كالذي يحشوهُ و يطلقهُ لانهُ يعرض نفسهُ لخطر كالخطر الذي يعرض الثاني لهُ فجعل الذين كانوا يديرون جرها كالجنود والبسهم ملابس الفرق التي هم منها . فبلغ عددهم ١٢ الف فارس كانوا يفتخرون بجر المدافع الى الاماكن الموافقة لها بامن وسرعة بقدر افتخار اولئك باطلاقها وتحكيمها وكان ديدنهم الاعتناء بها فكانوا يحبونها



جدًّا مع انها الة هلاك . وكانوا يلقبونها بما يظهر حبهم لها مع انها من نحاس لامع مصنوع لانزال الويل والهوان في العالم . فما اعجب احوال الانسان لانهُ يحب شيئًا قد يكون في ادنى الدرجات . فكان اولئك الجنود المضرجة ايديهم بدم ابناء جنسهم المنغمسين في الاثام والرذائل كالوحوش يحبون تلك الالة القاتلة و يقولون لها عند اطلاقها متوهمين صوتها كلامًا حديثيًا بما يدل على حبك لنا . فاصبحت المدافع معشوقة الجنود الذين كانوا يجرونها فكانوا يقبلونها و يفضلون الموت على تركها في ايدي العدو وكانوا يعمدونها بدم الاعداء و يسمونها باسم فتاة يحبونها فمنهم من سماها ماري او اما او لزي او غير ذلك . وعند قطع تلك الجبال دخل الليل وخيم الظلام وكان قوم يجرون مدفعًا في الثلج المرتفع للوصول الى مغارة ناشفة فعجزوا ولم يرتضوا بتركهِ في الثلج وحدهُ فاعتنقوهُ كانهُ اخ او اخت وناموا بجانبهِ . فحذق بونابرت اكتشف القوى الطبيعية المستترة في الانسان واستخدمها لنفعهِ . وقال رجل لبونابرت ان ذلك انما هو قوة التصور لا غير . فقال بونابرت نعم انهُ قوة التصور وهي التي تحكم على العالم

ولما وصلوا الى القمة اندهشوا اذ راوا ان عناية بونابرت اقامت لهم اسباب الراحة في تلك القمم المرتفعة فعوضًا عن ان يقعوا في الاضطراب بعد بلوغ القمة حافظوا على الترتيب لان متعلقاتهم كانت مرتبة وسطوة بونابرت نافذة في الجميع فكان كل جندي يتناول قطعة من الخبز والجبن ويجرع كاسًا من الخمر بدون ان يقف عادًّا الوقوف عارًا وعيبًا . وكانوا اذا لاقوا صعوبات في الطريق يقطعونها ولو هلكوا لئلا يقع صف الجنود الذي كان طولهُ ٢٠ ميلاً في ارتباك . وكان الانحدار عن الجبل اشد خطرًا من الصعود عليهِ ولكن طالع السعد كان غالبًا فان الصحو والهواء الطيب سهلا الهبوط ففي اربعة ايام اجتمع جيش بونابرت اجمع في سهول ايطاليا سالمًا قويًّا . وكان قد ارسل امامهُ برثيه ليستقبل طليعة الجيش في السهل و بقي هو في المؤخرة لعجلة فقطعة الجيش قبلهُ فكان هو اخر الذين بلغوا السهل وهو راكب بغلاً ومعهُ فلاح يدلهُ على الطريق فصعد على تلك الجبال المقفرة متاملاً متمهلاً . وكان لابسًا الثوب الكبير الذي كان يلبسهُ على الدوام في اسفارهِ . وكان الفلاح يسير امامهُ غير عارف بانهُ دليل رجل عظيم . وصرف اكثر الطريق صامتًا متفكرًا بالاعمال العظيمة التي كانت تجريها يمينهُ القادرة ومع ذلك وجد وقتًا ليشارك دليلهُ في حاسياتهِ بعد ان حملهُ على ان يبين لهُ اسرار قلبهِ . وكان ذلك الفلاح صادقًا عفيفًا يحب فتاة جميلة من بنات الجبال وكانت هي تحبهُ ولكن كان فقيرًا لا بيت لهُ ولا ارض وكان بونابرت موجهًا كل قواهُ العقلية الى قهر النمسا وانكلترا والمحافظة على راحة فرنسا ونظامها ومنع اضطراب احزابها وكان سائرًا ليقاتل ١٤٠ الفًا بستين الفًا بعد مقاساة تلك المشقات ومع ذلك تمكن من جعل ذلك الفلاح يركن اليهِ و يطلعهُ على غرامهِ وميلهِ . وفي نهاية الطريق صرف بونابرت دليلهُ واجازهُ وقبل مفارقتهِ اخرج من جيبهِ

قلم رصاص وقرطاسًا صغيرًا وكتب عليهِ بضعة اسطر وقال لهذا الفتى الدليل خذ هذه الرسالة الى مدير اعمال الجيش في الجهة الاخرى فذهب بها ولما اعطاهُ اياها تعجب لما قال لهُ انك كنت دليل بونابرت وقد كتب اليَّ بان اعطيك بيتًا ورضاهية . فتمكن الدليل من الاقتران بالفتاة التي كان يحبها ومن الحصول على ما كان يشتهيهِ قلبهُ . ولولا كرامة اخلاق بونابرت وحنوهُ لما اشغل افكارهُ بمساعدة فتىً فلاح للحصول على محبوبتهِ . ومات هذا الرجل وهو متمتع بالراحة والدعة في الحقل والبيت اللذين اعطاهُ اياهما ذلك الذي فتح اكثر الممالك المتمدنة

## الفصل الثامن عشر

### حروب وتقلبات

وبعد بلوغ الجيش سهول ايطاليا سار بسرعة على شاطئ نهر الاوسطا في وادٍ جميل جدًّا فيهِ من الخضرة والمياه ما يروق للعين . وكان النمسويون يسيرون مسرعين قاصدين حدود فرنسا غير عالمين بالويل الذي جمعهُ بونابرت في موخرتهم . وكان الفرنسويون يسيرون بفرح وسرور مستندين الى دراية قائدهم الذي مكنهم من القيام بعمل لم يسبقهم احد الى القيام بمثلهِ . وكان ذلك الوادي يضيق بالتدريج وكانت الجبال ترتفع حتى بلغوا مكانًا ملأ النهر فيهِ الوادي الاَّ مكانًا ضيقًا . وبعد ان ساروا برهة في ذلك الوادي الضيق بلغوا مكانًا فيهِ قلعة قائدهشوالما راوها وراوا مدافعها مرتبة قادرة ان تمنع تقدم الجيش فوقفوا عن المسير فامتد هذا الخبر بسرعة من طليعة الجيش الى موخرتهِ فاسرع بونابرت الى الطليعة وصعد على الجبال في شعب حرج وطرح نفسهُ على الارض واستتر بشجرة ملتفة عن اعين العدو واخذ يفحص احوال القلعة وجوارها بنظارة فراى مكانًا مرتفعًا عن القلعة يمكن ان يقام فيهِ مدفع ويطلق عليها بلا مانع . وراى ايضًا في المكان المرتفع المقابل القلعة مكانًا ضيقًا جدًّا وراى ان رجلاً مفردًا يقدر ان يمر فيهِ فامر بان يسير الجيش صفًّا واحدًا فسار الجيش ومر بافراسهِ التي تعودت المسير في الاماكن الضيقة من قطع جبال الالب في مكان ضيق لم تسر فيهِ افراس قبلها وربما كان لا يسير غيرها فيهِ . وتكدر النمسويون الذين كانوا في تلك القلعة لما راوا اكثر من ٣٥ الف جندي من الفرنسويين يمرون مقابلهم بافراسهم ومهماتهم الكثيرة بدون ان يقدروا ان يضروهم بشيء او يصيبوهم بالمدافع والرصاص لبعدهم وصعد بونابرت على هذا المكان المرتفع بعد ان فعل التعب فيهِ فانهُ صرف ليالي كثيرة بلا نوم والقى نفسهُ في ظل صخر ونام واخذ الصف الطويل يمر وكل من الجنود يحرص رفيقهُ على ان يمر متسللاً لئلا يستيقظ قائدهم المحبوب . ومن اجمل المناظر ان يرى الانسان اولئك الابطال والجنود الفتيان يمرون بالقرب من قائدهم الراقد وينظرون الى جسدهِ الصغير ووجههِ الاصفر وعلامات التعب والمشقات ظاهرة فيهِ . ولم يكن بونابرت قادرًا على جعل مدافعهِ تمر من ذلك المكان والجيش بلا مدافع كالجندي



بلا سلاح . وكتب قائد القلعة النمسوي الى القائد ميلاس بانهُ راى جيشًا عددهُ ٢٥ الف راجل و٤ الاف فارس مارين مقابل القلعة في مكان يصعب على الماعز ان تمر فيهِ . وبانهُ لا يمكن ان يمر مدفع واحد من هناك . وكان يكتب هذه الرسالة وبونابرت ينقل نصف مدافعهِ من الطريق الواسعة المارة تحت مدافع تلك القلعة . وكان قد امر بعض الذين يركن اليهم ان يذروا تبنًا في الطريق عندما يخيم الظلام وان يلفوا نسجًا حول دواليب عجلات المدافع والمهمات ويزيتوا مخالبها فقام اولئك الرجال بذلك قيامًا متقنًا جدًّا وتمكنوا من ان يجروا بايديهم كل المدافع في طريق بعيد عن افواه مدافع القلعة اقل من نصف طلق غدارة ففي ليلتين مروا بكل المدافع والمهمات وبعد ذلك بايام قليلة التزمت تلك القلعة ان تسلم لهم

فانتبه ميلاس القائد النمسوي وراى نفسهُ في خطر مبين لا مهرب منهُ فخاف جدًّا فان بونابرت القائد المخيف قطع جبال الالب بقوة عجيبة وقطع عنهُ الامدادات وخط الرجوع الى بلاد النمسا فاحتار في امرهِ وعدل عن المسير لفتح باريس وعن فتح فرنسا وحول كل قواهُ الى فتح طريق بينهُ وبين النمسا وبات في اضطراب محزن مخيف وبعد ان بلغ اعلى درجة من الانتصار بات في ويل وانكسار

وبات بونابرت في احوال صعبة وخطر مبين فانهُ كان مزمعًا على مهاجمة ١٤٠ الف جندي من الجنود النمسوية المتعودة خوض المنايا واقتحام الخطوب ومعهم كل ما يلزمهم من الالات الحربية والمهمات مع ان عدد جيشهِ كان ٦٥ الفًا فقط واكثر من ثلثيهِ من الشبان الذين لم يتعودوا الحروب وكان ملزومًا ان يمنع رجوع ذلك الجيش الجرار الى بلاد النمسا مع انهُ كان قادرًا ان يمر في طرق كثيرة بعضها بعيد عن البعض الاخر ولا بد لهُ من ان يقسم جيشهُ الصغير الى اقسام كثيرة ليتمكن من المحافظة عليها كلها وهذا يوقعهُ في خطر اذ انهُ ربما كان جيش العدو كلهُ يهاجم قسمًا واحدًا من تلك الاقسام وينزل بهِ الويل والهوان قبل ان يتمكن من نجدتهِ فاشتغل بالافكار والتدبير عن الاكل والنوم والراحة فكان يصرف الليل والنهار راكبًا اصفر اللون ولوائح التفكر وضعف القوى تلوح على وجههِ وكان قد بعث جواسيسهُ الى كل الجهات وحول قواهُ الى مراقبة حركة الاعداء . فقطع بلاد لمبرديا بسرعة ودخل ميلان منتصرًا . اما ميلاس القائد النمسوي فاضطرب وخاف وشرع يجمع جيشهُ ليخرق بالقوة صفوف الجيوش التي كانت قد احاطت بجيشهِ وصرف جهدهُ في اجراء ما يخدع بونابرت ليكتم عنهُ المكان الذي صمم ان يهاجمهُ فيهِ وعند ذلك نشر بونابرت هذا الاعلان على جنودهِ

ايها الجنود . لما شرعنا في المسير كان العدو مستوليًا على ولاية من ولايات فرنسا فبات جنوب الجمهورية الفرنسوية في خوف شديد من فتوحاتهِ . اما انتم فتقدمتم فالزمتم العدو ان يخرج

الاراضي الفرنسوية فخالف السرور والامل الخوف والاضطراب في بلادنا وبات العدو يطلب الوصول الى بلاده بفرائص مرتعدة وقد اخذتم مستشفياته ومخازنه . وهكذا انهيتم اعمال الحرب الاولى فان ملايين من الرجال يثنون عليكم ويمدحونكم . فهل ينبغي ان نكتفي بذلك العمل ونمكن العدو من ان يدوس اراضينا ويخرق حرمتنا بدون ان نجازيه هل تسمحون للجيش الذي ملأ قلوب عيالكم بالخوف ان يخرج بدون قصاص . انكم لا تسمحون بذلك فتقدموا لنحمل عليه واسلبوا منه المجد الذي حازه وبينوا للناس ان الويل نصيب الذين يخرقون حرمة الامة العظيمة اما نتيجة اجتهاداتنا فتكون مجداً لامتنا وسلاماً دائماً . انتهت

ويوم خروج بونابرت من باريس بلغها دسي الذي كان في مصر وكان صادقاً كريماً من القليلين الذين كان بونابرت يحبهم محبة شديدة وكان تقرر في عقل دسي ان بونابرت اعرف منه واحذق وان الفرق بينهما في ذلك عظيم جداً وكان يحبه محبة قريبة من العشق . وكان بونابرت يعرف ذلك فبات موثراً جداً بحبه كانت مكافاته له بالركون اليه في كل شيء واخلاص الوداد له ولما وصل دسي الى باريس وجد رسالات من بونابرت متروكة له فيها وكانت سرية فقراها متعجباً مما ظهر له فيها مما يدل على ان بونابرت غير حاصل على السعادة الحقيقية . فقال في نفسه واسفاه ان بونابرت قد نال كل ما يمكن نواله ومع ذلك لا يزال غير سعيد فلا بد لي من الاجتماع به

فقطع جبال الالب بسرعة ووصل معسكر بونابرت قبل معركة مارنجو بايام قليلة فتحدثا الليل بطوله عن احوال مصر ومتعلقات فرنسا واماطا . وشعر بونابرت بازدياد قوته بوصول صديقه دسي الامين فقلده قيادة فرقة من الجيش . وقال ان دسي مرساة مركبي . وفي صباح اليوم الثاني قال بورين لبونابرت اطلت الاجتماع بدسي . قال نعم ولا بد من ان اجعله وزير الحرب عند الرجوع الى باريس لكي يكون معاوناً لي على الدوام ولو قدرت لجعلته برنساً فانه كابطال الازمان الماضية . وكان بونابرت يعلم انه سيقوم قتال شديد . فان ميلاس كان يجمع جيشه بسرعة فكتب الى القائد لاني والقائد مورات الفرنسويين بما ياتي

اجمعا جيوشكما عند نهر استرادلا وفي ٨ الشهر الجاري او ٩ يجتمع امامكما ١٥ او ١٨ الف جندي نمسوي فاصدماهم وبددا شملهم فان ذلك يقلل عدد الجيش في القتال الاخير بيننا وبين كل جيش ميلاس . انتهى

واصاب في ذلك بالفعل فان جيشاً نمسوياً عدده ١٨ الفاً كان يتقدم في ذلك المكان فلاقاهم القائد لاني الفرنسوي في سهول فونتنبلو وكانوا في استحكامات مكنتهم من التسلط على كل السهل . وكان من اعظم مقاصد بونابرت منع هذه الفرقة النمسوية عن الانضمام الى جيشها الجرار



وكان عدد فرقة لاني ٨ الاف جندي فالتزمت ان تثبت في صدام تلك الفرقة المحصنة بضع ساعات خارج الاستحكامات ليتمكن القائد فيكتور الفرنسوي الذي كان متاخراً عنه بضعة اميال من الانضمام اليه وكانت الجنود الفرنسوية عالمة بانها ستقاتل جيشاً محصناً قوته اكثر من ضعف قوتها فتبيت عرضة لهلاك مبين ومع ذلك هجمت عليهم صارخة صراخ الابطال فاطلق النمسويون عليها المدافع المحشوة رصاصاً صغيراً فخرقت صفوفها . وقال قائدها لاني اني كنت اسمع صوت انكسار عظام جنودي كصوت الزجاج عند سقوط البرد عليه . ودام ذلك القتال الشديد والهلاك المخيف تسع ساعات من قبل الظهر بساعة الى ما بعده بثماني ساعات وبعد ان قتل ثلاثة الاف من الجنود الفرنسوية الابطال هرب النمسويون تاركين في ساحة القتال جثث ثلاثة الاف من قتلاهم وستة الاف اسير . وكان بونابرت يسير بسرعة الى محل القتال ليتجد قائده ولكن لم يبلغه الا بعد ان انتصر الفرنسويون فسار الى حيث كان القائد لاني فراى ذلك البطل الصنديد واقفاً بين تلال من القتلى وسيفه في يده الكالة يقطر دماً ووجهه اسود بالبارود والدخان وملابسه الرسمية خرقاً مقطعة . فلما راه تبسم مفتخراً وسماه الدوق دوفونتنبلو ولا تزال عائلته مسماة بهذا الاسم الى هذا اليوم

وهذا الفوز قوى الفرنسويين وطرح النمسويين في ياس فصمم ميلاس القائد النمسوي ان يفرغ كل جهده في خرق صفوف الجيوش التي كانت قد سدت المسالك عليه وكان بونابرت يراقب حركاته بدقة لانه كان لا يزال جاهلاً نتيجتها وفي ١٤ حزيران (جون) عند الفجر دنا جيش ميلاس من جيش بونابرت بعد جمع اربعين الف رجل منهم ٧ الاف فارس ومعهم مائتا مدفع وهجم هجوماً عنيفاً على الفرنسويين في سهول مارنجو وكانوا عشرين الفاً فقط وكان دسي بعيداً نحو ٣٠ ميلاً عن السهل المذكور ومعه اكثر من ٦ الاف جندي ولكن لم يكن قادراً على بلوغ محل القتال قبل نهاية ذلك النهار فبات الفرنسويون في خطر مبين لان النمسويين كانوا قادرين على الايقاع بهم قبل ورود نجدة . وكان دسي متيقظاً فسمع صوت المدافع كهزيم الرعد البعيد وهو متكئ على فراشه فوثب واخذ يتسمع فعرف من اصوات المدافع المتصلة ان جيشاً يصدم جيشاً وهو في موقف كموقفه فخاف لحوق الضرر برئيسه بونابرت فايقظ فرقته حالاً وساروا مسرعين لنجدة اخوتهم وارسل بونابرت رسولاً بعد رسول الى تلك الفرقة وجيوشه ثابتة في قتال مهلك ومدافع اعدائهم الذين كانوا اكثر من ضعفهم تخرق صفوفهم وتهلك الوفاً منهم . ولما طالت هذه الحال على الفرنسويين واشتد الخطب عليهم وعظم الامر طلبت فرق كثيرة من الجيش الفرار بلا ترتيب صارخة قد خسرنا كل شيء فلينج بنفسه من يقدر على النجاة . وحدث من الارتباك والاضطراب ما يكل القلم عن وصفه فان الهاربين ملاوا السهول والنمسويون يدفعونهم كانهم

هباء امام الريح . اما بونابرت فثبت هو وبعض فرق من جيشهِ وكان يرجع بهم بالتدريج الى الترتيب والانتظام حال كون ٢٠٠ مدفع تصب كرات الهلاك عليهم وكانوا كلما يرجعون ذراعاً يتركونهُ مغطى بالقتلى ووقع ذلك بعد الظهر بثلث ساعات . وكان قد اهلك التعب ميلاس ولما راى انهُ فاز فوض المطاردة الى الجنرال زاخ ورجع الى سرادقهِ وارسل رسلاً الى جميع انحاء اوربا مبشراً بنصرهِ العظيم في مارنجو . فقال احد الابطال النمسويين الذين كانوا قد حضروا معارك بونابرت في اركولا وريفولي ان ميلاس قائدنا عجول فمن الموكد ان القتال لم يبلغ النهاية فلا بد من ان يصدمنا بونابرت بجيش احتياطي . وعند ذلك شاهد بونابرت صفوف دسي الثابتة داخلة في السهل فسار دسي الى حيث كان بونابرت ولما ابصر ارتباك الفرنسويين والهلاك المحيط بهم قال بكدر ارى الفوز للاعداء فلا اقدر ان اسعفكم الا بترتيب نفهقركم . فاجابهُ بونابرت كيف هذا . انما الفوز لنا فاهجم بفرقتك من وراء الجنود الفرنسوية المرتبكة فترجع الى الترتيب امام عساكرك ولفظ بونابرت هذه العبارة بهدو ولوائح راحة البال تلوح على وجههِ فالذين سمعوهُ ظنوا انهُ في متنزه فهجم دسي بفرقتهِ وعددها نحو عشرة الاف جندي على النمسويين المنتصرين وارسل بونابرت امراً الى كلارمان قائد فرسانهِ بان يهجم على جناح النمسويين وفي برهة قصيرة جداً تغيرت الحال . وسار بونابرت الى الصفوف التي كانت تنفهقر وقال يا اصدقاءي قد نفهقرنا مسافة كافية وحان زمان الهجوم الا تذكرون ان من عادتي النوم في ساحة القتال . ولما سمعوا كلام قائدهم المحبوب وراوا الجهة رجعوا الى الانتظام وهجموا في مقدمة فرقة دسي الجديدة فارجعوا النمسويين واوقعوهم في اضطراب وصبت عليهم بنادق فرقة دسي كرابها كانها مطر مهلك فاطلق النمسويون بنادقهم على تلك الفرقة فخرقت رصاصة صدر دسي فتجندل وقال قولوا للفصل الاول ايجلبونابرت انني اكره الموت لسبب واحد وهو اني هلكت قبل فعل ما يجعلني ذكراً بعدي . ثم مات وكانت جنودهُ تحبهُ حباً شديداً فلما راوهُ ساقطاً هجموا هجمات المجانين قياماً بثاره . فانتقل الارتباك والصراخ والصياح والياس من صفوف الفرنسويين الى صفوف النمسويين وباتوا بعيد هزيمة منكسرين غب ان كانوا منتصرين . ولما كان بونابرت في وسط هذه المعركة المخيفة دنا منهُ احد معاوني الحرب وقال لهُ مات دسي فلما سمع هذا الخبر امسك راسهُ بيديهِ وقال بحزن واسف كيف لا انوح . الفوز بهذا الثمن غالٍ جداً

ولما فاز الفرنسويون ضجوا وهللوا فارتجت الارض من اصواتهم وملا الياس والاضطراب والويل صفوف النمسويين وفروا بلا ترتيب امام اعدائهم الذين كانوا يطاردونهم بلا شفقة . ودامت هذه المعركة ١٢ ساعة ولما غابت الشمس عن ساحة القتال تركت منظراً يحزن قلب شر الشياطين فان اكثر من عشرين الف رجل باتوا مطروحين على الارض قتلى او في حالة



النزع او في حالة التالم والتوجع فمنهم من كان لا يميز راسهُ من كتفهِ وصدرهُ من بطنهِ او ظهرهُ فان الكلل غيرت منظر اجسادهم وكانت الافراس مطروحة منها بلا بعض اعضائها ومنها ميت كفرسانها وقطع السيوف والاسلحة والعجلات مالئة تلك السهول وكان يسمع صراخ مرتفع فوق انين الجرحى المالئ الفضاء وهو صراخ الذين اشتد توجعهم وكانت اجتهادات الجراحين المصروفة في سبيل تطبيبهم وتقلهم اقل مما تقتضيهِ الحال فامسى كثيرون يتمرغون في التراب متوجعين ومات كثيرون منهم على تلك الحال

ورسخ في العقول ان للحرب مجداً وفخراً فكيف لا يرسخ فيها ان لها ويلاً يعجز القلم عن وصفهِ وهواناً لا يدرك مقدارهُ فان الفتيان والشيوخ يبيتون في ميدانها يتمرغون في غبارهِ وكلل الحروب لا تشفق على الوحيد ولا تراعي الجمال ولا الفتوة ولا الشيخوخة فتقلع العين وتمزق الخدود وتكسر الاحناك وتغير هيئة الوجه الجميل فيصير قبيحاً بعد ان كان جميلاً لا يقدر الانسان ان يراهُ بدون ان يتشعر بدنهُ . وكم من شاب رجع من معركة مارنجو مغير الهيئة فلم يعرفهُ ابواهُ فقضى عمرهُ في ذل وهوان وضيق وحزن . وفي ميادين الحروب الرحمة اسم بلا مسمى فان فرس الحرب الجموح يدوس بحوافرهِ المحددة اجمل الوجوه وتقع في الجراح الملتهبة لتزيد اوجاعها واوجاع العظام المكسرة والمهيضة بلا اشفاق على الاوجاع والالام . وكم من فتى مجندل في حومة النزال يبيت تحت دواليب المدافع وصناديق المهمات مولماً وهو يفتكر بوطنهِ وبامهِ وبابيهِ واخيهِ ثم يصبح متالماً ثم يتنهد ثم يموت . فياتي الاوباش الذين يبيعون الجيوش ويسلبون ملابسهُ عن جسده ثم يصير وضع قليل من التراب فوق جثتهِ المجرحة فتبيت ماكلاً للكلاب والطيور والوحوش فيثوي منسياً الى الابد ومع ذلك رسخ في العقول ان ذلك هو المجد والفخر . فالذين يحبون الحروب لحبهم لمجدها وفخرها من اجهل الناس وشرهم والذين يكرهون الحرب ويفرغون جهدهم في سبيل مجانبتها ويكدون للتخلص منها ويذهب تعبهم سدى يلتزمون ان ينجوها لحماية ذمار ودفع اخطار عن وطنهم ونفع ابناء جنسهم فهولاء هم الابطال واهل المجد ولو هلكوا . ولا لوم على بونابرت لانهُ قام بحرب مارنجو ولكن اللوم على انكلترا والنمسا وهما اللتان حملتا ثقل مسئوليتها . فبونابرت افرغ جهدهُ لحجب دماء العباد وابعد عنهُ الكبرياء والتمس من عدو متكبر عقد الصلح ولكن توسلاتهِ ذهبت سدى . وتبعها حمل ثلثمائة الف رجل على فرنسا ليلزموها بقبول ملك مكروه عندها وليس من المفروض عليها الخضوع لهم فجرد بونابرت سيفهُ ليدفع الاعدا المهاجمين عنهُ ويحمي ذمار وطنهِ فاولاهُ الله انتصاراً والبس اعداءهُ خزياً وعاراً . فما احسن ما قيل من انهُ لو كانت سياسة انكلترا في ذلك الزمان كسياستها الان اي التنحي وترك الشعوب تقيم الحكومات التي توافقها لما صار بونابرت ما صار لانها هي فتحت لهُ ابواب المعالي والمجد بمضادتها الامة الفرنسوية ومحاولتها وضع حكومة فيها

كانت تكرهها

ومن يلوم بونابرت اذا افتخر بهذا الانتصار العظيم حال كونهِ عالمًا ان العالم سيحكم بان معركة مارنجو من اعظم اعمالهِ وامجدها . ولما سمعت الدول المتحدة بخبر انكسار النمسويين هناك ذلوا وتكدروا جدًّا خصوصًا بعد ان بات القائد ميلاس النمسوي وجيشهُ عرضة لهجماتهِ وتيقنوا انهُ بعد هذا الفوز يقدر ان يطلب الشروط التي تناسبهُ لعقد الصلح . ومع ذلك لم يسر ولكنهُ ركب جوادهُ وسار في ميدان القتال بعد نهاية النزال وعلامات الكدر ظاهرة في وجههِ واخذ ينظر الى الويل الذي كان يحيط بهِ نظر حزين . وكان يسير سيرًا ذميلاً بين تلال القتلى وهو غائص في بحار التامل فراى عجلات كثيرة فيها كثيرون من الذين جرحهم الرصاص وكسر عظامهم واسال دمهم وجعل التهابًا اليمًا في اجسادهم وغير هيئات كثيرين منهم تسير فوق ارض غير مستوية تميل وتندفع وتحرك العظام المكسرة والجراح الملتهبة وتحمل اولئك المنكودي الحظ آلامًا لا توصف وتجعلهم يصرخون صراخًا تنفتت لهُ الاكباد . فاوقف فرسهُ ورفع برنيطتهُ عن راسهِ الى ان مرت عجلات الويل والاوجاع . وكان معهُ رفيق فالتفت اليهِ وقال تتاسف لاننا لم نبلَ بجراح كهولاء الرجال التعساء لنشترك معهم باوجاعهم . انتهى . فمن يسمع هذا الكلام الموثر ولا يقول لم يدون في الكتب كلام يدل على العواطف كهذا الكلام . ومن يتهمهُ بالرياء لا يعرف بالاختبار حاسيات قلب ذي كرم وحنو . فان هذا الكلام الصادر عن محرك محسوس لا يكون لغايات سياسية . اما بونابرت فعرض نفسهُ الى كل المخاطر في هذه المعركة بلا خوف فخرق رصاص البنادق ثيابهُ مرات كثيرة وكانت كلل المدافع تقع بين رجلي فرسهِ وتغطيهِ بالتراب وصدمت كلة مدفع طرف رجلهِ فاخذت بعض حذائهِ الايسر وقليلاً من جلد رجلهِ فانجرح جرحًا خفيفًا بقي اثرهُ الى ان مات . وقبل ان سار الى القتال افرغ جهدهُ في عقد الصلح وبعد هذا الفوز على عدوهِ كتب طالبًا المصالحة بالحاح قبل خروجهِ من ساحة معركة شتت بها جيشًا جرارًا وتركهُ كانهُ هباء منثور وقبل انقطاع انين الجرحى وزوال اثار الدخان لم يكتب كقائد يراعي الاصول فقط ولكنهُ كمن يتمنى من صميم الفواد نوال مطلوبهِ وكان المخاطب امبراطور النمسا فكتب اليهِ

ايها المولى . اكتب اليكم وانا محاط بالوف من المتوجعين والمتالمين من جراحهم في ميدان حرب فيهِ ١٥ الف قتيل فاتوسل الى جلالتكم الاصغاء الى دواعي الانسانية ومنع امتين قويتين عن القتال لقيام صوالح لا تتعلق بهما . وعليَّ ان الح على جلالتكم باجابة طلبي لانني في ساحة الحرب وقد اوجعت بلايا الرجال قلبي اكثر من قلبكم لانكم بعيدون عنها . فلماذا تضرمون نيران الحرب هل تضرمونها في سبيل الدين فان كان هذا هو السبب فافتحوا حربًا على الروسيين والانكليز فانهم اعداء ايمانكم . هل ترغبون في منع سريان مبادىء الثورات الا تعلمون ان هذه الحروب هي



التي نشرتها في اكثر من نصف اواسط اوربا بفتوحات الجيش الفرنسوي . ودوام الحرب يوسع دائرتها . هل تحاربون للمحافظة على ميزانية القوة في اوربا الا تنظرون ان الانكليز قد تعدوا تلك الميزانية اكثر من فرنسا واصبحوا اصحاب التجارة وظلمتها وابتعدوا عن الاماكن التي يمكن ان يقاوموا فيها . هل تحاربون لصيانة صوالح العائلة الملكية النمسوية فاذا كان هذا سبب الحرب فانفذوا معاهدة كامبوفورميو فانها محتوية امورًا كثيرة لتعويض خسارتكم في بلاد نثرلاندة ( هولاندة وغيرها ) والتعويض يكون من ايطاليا وهذا جل ما ترغبون فيهِ . فارسلوا سفراء ليخابرونا بالصلح حيثما شئتم فنضيف اليها ما يصون الممالك الثانوية اذ قيل ان الجمهورية الفرنسوية هدمت مبانيها وهذه الشروط سبيل السلم اذا كنتم راغبين فيهِ فاسمحوا بعقد هدنة عمومية للشروع في مخابرات المصالحة حالاً . انتهى

فبعث الرسالة مع رسول الى فينا . وفي المساء هنأهُ بورين بالنصر العظيم . فقال ما امجد هذا اليوم . اجابهُ انهُ مجيد جدًّا لو تيسر لي تقبيل الجنرال دسي بعد المعركة وكانت لوائح الحزن الشديد تلوح على وجههِ . وفي نفس اليوم والساعة التي فيها قتل دسي هجم بدوي على الجنرال كليبر الفرنسوي قائد الجيش في مصر وقتلهُ بخنجر فمات هذان الرجلان العظيمان في يوم واحد فالتقيا في عالم الارواح بعد ان قاما بحروب جرى بها دم الرجال كالانهار . فما اثخن الستار الحاجب عالمهم عن عالمنا فنتمنى الوقوف على احوالهم ولكن لا سبيل الى ذلك وبونابرت قطع الفاصل ووصل العالم الاخير فمن يعلم هل يفوق اهلهُ بالعقل والحذق كما فاق اهل هذا العالم وهل يجتمع قوادهُ حولهُ مجذوبين اليهِ بسحر نباهتهِ وقوتهِ العاقلة وحبهِ . ومن يعلم هل ارتفعت روحهُ الى مساكن النور والسعادة او هبطت الى ظلام الياس والشقاء . ولا تبدو لنا هذه الامور الا بعد ان تزيح ارواحنا ذلك الستار فالتعاليم الدينية لا تبين التفاصيل التي نطلب معرفتها والنور المنبعث من عالم الارواح قليل فلا يكفي بصرنا الضعيف

قال بونابرت وهو في جزيرة سانتا هيلانة ان الجنرال دسي والجنرال كليبر من احذق قوادي ولا سيما دسي فكليبر كان يحب المجد للحصول على الثروة والملذات . اما دسي فكان يحب المجد لانهُ كان عندهُ رفيع المنزلة وكان يحتقر المال والملذات ولا يعتني بها . وكان اقصر مني بقيراط اسمر اللون بسيط الملابس يلبس احيانًا الثياب الرثة لا يبالي بالاتعاب ويستخف بالراحة . وكان يلتف بعباءة وينام تحت مدفع مرتاحًا كانهُ نائم في افخر القصور . اما التنعمات فكانت مكروهة عندهُ وكان امينًا مستقيمًا في اعمالهِ فسماهُ العرب في مصر السلطان العادل . فخسارة فرنسا للقائدين المذكورين كانت من الخسائر العظيمة

فلنرجع الى الكلام عن القتال الذي جرى بين الفرنسويين والنمسويين فنقول ان القلم عاجز

عن وصف ما خامر قلوب النمسويين من الخوف والاضطراب واليأس بعد تلك الكسرة التامة فانهم باتوا منقطعين عن طريق الرجوع واصبح بونابرت قادرًا ان يفعل بهم ما يريد . فعقد النمسويون مجلس حرب في الليل واجمعوا على انهُ لا سبيل الى الامتناع عن التسليم فبعثوا في صباح اليوم الثاني راية هدنة الى معسكر بونابرت وطلبوا اليهِ ان يأذن لهم بالعود الى بلادهم بدون اسر فاذا اجاب طلبهم يخلون لهُ ايطاليا فلاطف الرسول واكرمهُ وبلغهُ الشروط التي توافقهُ وذلك بلا تردد وهذا يدل على امتيازهِ بالحذق وشروعهِ بالاعمال بعد ان يتصورها كلها فترسم في ذهنهِ فلا يضيع الزمان بالتفكر فقال للرسول اسمح للجنود النمسوية بالعود الى النمسا بدون معارضة اذا اخليتم كل ايطاليا . فبلغ الرسول القائد ميلاس شرط بونابرت فردهُ اليهِ بامل الحصول على شرط اوفق وكان هذا القائد النمسوي قد بلغ الثمانين . فقال بونابرت للرسول ياموسيو ان شروطي لا تتغير ولم افتح الحرب بل انتم فتحتموها وانا عالم باحوالكم كما تعلمونها انتم فان المرضى والجرحى يثقلون عليكم ويوقعونكم في ارتباك وقد نفد زادكم وبتم محاطين من كل الجوانب ولولا احترامي لشيب قائدكم وشجاعة جنودكم لطلبت شروطًا اصعب وانسب لي وهكذا قد تحققتم انني لا اطلب غير ما يحق طلبهُ فافعلوا ما تريدون فلا ارجع عن طلبي

فرجع الرسول بالخبر فكتبت الشروط وعقدت هدنة الى ان يرد التصديق من فينا قاعدة النمسا . وكان خروج بونابرت من باريس في ٧ ايار (مايس) وقاتل في مارنجو القتال الذي عقبتهُ هدنة ١٤ حزيران (جون) فقطع صعوبات جبال الالب بستين الف جندي اكثرهم من الذين لم يتعودوا الحروب وشتت شمل مائة وعشرين الفًا من النمسويين واسترد ايطاليا وكل ذلك في خمسة اسابيع . فلما سمع العالم المتمدن بهذا الخبر تحير وتعجب واصبح كل فرنسوي مسرورًا بالافتخار والمجد واجمعت فرنسا على مدح قائدها ورئيسها المشهور فاسس سلطتهُ في اعماق قلب امتهِ وثبتت تلك الاساسات حتى تمكن احد عائلتهِ من ان يتولى امبراطورية فرنسا ١٨ سنة بعد موتهِ بزمان ليس بقصير . ثم دخل بونابرت مدينة ميلان الايطالية فائزًا مجيدًا واقام فيها عشرة ايام مهتمًا ليلاً ونهارًا في اصلاح حالة ايطاليا السياسية وظهرت افكارهُ الصحيحة واميالهُ الدينية بما كتبهُ الى القنصلين الثانويين في باريس بعد تلك المعركة باربعة ايام قال انني ذاهب رسميًا الى كنيسة ميلان لاقامة صلاة الشكر فيها قاطعًا النظر عما يقول الكفار عنا

وكلما ارتفع شان الانسان وعظمت اعمالهُ تكثر حسادهُ ويشتد حسدهم فاراد قوم من المؤرخين المغرضين ان ينسبوا ذلك الفوز الى هجوم الجنرال كلارمن الفرنسوي على جناح النمسويين فكتابتهم لا تستحق جوابًا منفصلاً وكفانا اظهارًا لفضلهِ ما نعلمهُ عن هذه المعركة فانهُ جمع جيشًا سرًّا بسرعة ادهشت اوربا وعجبتها لظنها انهُ لا يمكن جمع جيش من فرنسا وتمكن بحذقهِ من ستر مقاصدهِ



عن اعدائهِ مع انهم افرغوا الجهد ليقفوا على حركاتهِ وسارهِ قاطعًا جبال الالب ناقلاً كل زادهِ ومهماتهِ ومدافعهِ في سبيل يصعب على الانسان ان يسلكهُ ماشيًا وانحدر كالعاصفة من قممها الى سهول ايطاليا الناظرة اليهِ بتحير وتعجب لانها لم تنتظر ان تشاهدهُ هناك ثم احاط بالنمسويين مع ان عددهم ضعف جيشهِ وحصرهم في دائرة لم يكن سبيل الى خروجهم منها وقاتلهم قتالاً شديدًا فشتت شملهم كانهم ريش في عاصفة . والذين اسعفوهُ في ذلك هم قوادهُ الذين حصلوا على الترقي والسطوة باتخاذهِ وتعلموا الفنون الحربية منهُ . ولولاهم لما نال ذلك الفوز ولولا الجيش لما ثبت لحظة وحدهُ امام ١٢٠ الفًا . ومسعوهُ هم الجنرال ماسينا الذي دافع عن جنوا دفاعًا لم يسبق لهُ مثيل والجنرال مورو الذي صد جيش الرين والجنرال لان الذي ثبت كالجبل الراسخ في جبل مونتبلو والجنرال دسي الذي بادر الى نجدتهِ لما سمع المدافع في مارنجو والجنرال كلارمن الذي هجم على جناح النمسويين بفرسانهِ هجوم الاسود . ومن يقدر ان يقلل فضل بونابرت اليس هو الذي رتب اعمال جميع تلك الجيوش وحكمها وعين مواقفها بحذق وتدقيق يتعب العقل بمجرد التفكر بعظمتهِ وصعوبتهِ اما هو مهيج الحمية في قواد جيشهِ وصدور الجنود او ما هو الذي جعل قلب كل جندي كقلب الاسد بقدوتهِ ومقابلتهِ المخاطر بعزم ثابت وبسالة تكاد تفوق بسالة البشر فهذه هي القوات التي كانت تخرج من بونابرت وتتوزع في الجيش فيقوم بتلك الاعمال العظيمة المدهشة

ثم انضم الى جيش بونابرت عشرون الفًا فصار ثمانين الفًا فسار بهِ سير الانتصار وحل في وادي بو المخصب الجميل وسلم قيادتهُ الى البطل ماسينا وامر بهدم الحصون والقلاع التي بين فرنسا وايطاليا وغيرها لئلا يستلمها الاعداء او الاهالي فهدمت بالبارود ثم صار قاصدًا باريس في ٢٤ حزيران (جون) ولما كان سائرًا لقطع جبال الالب من سني صادف عجلة امراة الجنرال كلارمن وكانت ذاهبة الى ايطاليا لتجتمع بزوجها فامر بتوقيف عجلتهِ ونزل منها وهنأها بشجاعة زوجها وحسن تدبيرهِ في معركة مارنجو . وكان بورين كاتبهُ معهُ فاخذ يتكلم عن شهرة القنصل الاول اي بونابرت وقال لهُ انك قد اكتسبت بمدة قصيرة شهرة عظيمة جدًا . فاجابهُ بونابرت اصبت واذا قمت بعمل اخر كالعمل الذي قمت بهِ في هذه المعركة فربما تخلد اسمي قال بورين قد فعلت ما يخلد ذكرك اجاب انك محب لي هل تظن انني فعلت ما هو كاف انني فتحت القاهرة وباريس وميلان في اقل من سنتين واذا مت غدًا لا يخصص اكثر من نصف وجه من التاريخ العمومي لذكر اعمالي

اما رجوع بونابرت الى باريس بالمرور في ولايات فرنسا فكان سببًا لاحتفالات دائمة اينما سار فان سرور الاهالي كاد يحملهم على الطيران فكانوا ينورون في كل الطريق ويقرعون الاجراس ويرسلون السهام النارية ويطلقون المدافع . وكانت اجمل الفتيات والطفهن تجتمع صفوفًا مستطيلة في جوانب الطريق فيمر في وسطهن فيتيمن لهُ ويطرحن الازهار في طريقهِ فبلغ باريس

عند نصف الليل من اليوم الثاني من تموز (جوليه) بعد ان غاب عنها ثمانية اسابيع فقط . اما الباريسيون فرحوا بقدومهِ على تلك الحال فرحاً عظيماً واقاموا الولائم والمآدب والافراح ليلاً ونهاراً باتصال واحاط بقصر التويلري جمهور غفير كانوا يتمنون ان يروا عن بعد مخلص فرنسا وكانت لجن الجمعيات تهنئهُ بسرور وامتنان . وكانت الاجراس تقرع والمدافع تطلق والاسهم النارية ترتفع والانوار تسطع والموسيقى تعزف واهالي باريس في حدائق التويلري وغيرها من محلات الاجتماع يضجون متهللين فرحين . ولما وقف بونابرت في شرفة القصر وراى هذه الافراح الدالة على شكر الامة لهُ وسرورها بهِ قال ان استماع هذا المدح والشكر والثناء لذيذ كاستماع صوت جوزفين فما اسعدني فانني اصبحت محبوباً عند امة كهذه الامة ثم شرع الناس في الاستعدادات اللازمة لاقامة تذكار لذلك الانتصار العظيم فقال بونابرت لا ترفعوا قناطر النصر باسمي فان نصري رضى الامة ومن يعجب باشتداد فرح الفرنسويين وبونابرت هو الذي رفع فرنسا من دركات السقوط والخراب الى اعلى درجات المجد والفوز في اربعة اشهر وبدل الظلم بالنظام والقوانين وخلو خزينة الامة باليسر والكسر بالنصر العظيم والتذمر العام بالرضى التام . وفضلاً عن ذلك دفع المهاجمين عن فرنسا وقطع اتحاد الدول المتحدة عليها وبين للامة التي بانت متعبة من كثرة الحروب بان زمان السلام قد دنا فلا تلبث ان تتمتع ببركاتهِ

وكان بورين كاتبهُ قبل معركة مارنجو قد دخل عليهِ مرة وهو في غرفتهِ في التويلري فراهُ جالساً باسطاً رسم ايطاليا امامهُ على الارض فراى الدبابيس مشكوكة فيهِ وعلى راس بعضها شمع احمر يشخص بهِ الجيش الفرنسوي وعلى راس البعض الاخر شمع اسود يشخص الجيش النمسوي وكان بونابرت يجعل بعضها قبالة البعض الاخر كانها صفوف وقفت في ساحة القتال . فنظر بورين اليهِ صامتاً وهو يحركها على الرسم وبعد وضعهِ الدبابيس ذوات الرؤوس الحمراء في الاماكن التي عينها لجيشهِ ووضع ذوات الرؤوس السوداء في الاماكن التي عرف بحذقهِ ومعارفهِ ان النمسويين يجعلونها مواقف لم نظر الى بورين وقال لهُ هل تظن انني اغلب ميلاس القائد النمسوي اجاب لا اعلم . قال ممازحاً باضعيف العقل انظر فاذا قلنا ان ميلاس بالاسكندرية (من اوربا) وسيبقى فيها الى ان تسلم مدينة جنوا وفيها مهماتهُ ومستشفياتهُ ومدافعهُ وعساكرهُ فان جزت جبال الالب من هنا (قال هذا وشك دبوساً في مكان رسم دير سان برنار) انحدر على موخرة الجنرال ميلاس فاقطع المواصلات بينهُ وبين النمسا فالاقيهِ في وادي بورميدا . ثم شك دبوساً في رسم سهل مارنجو . فكان بورين ينظر اليهِ ويسمعهُ ولوائح الارتياب تلوح على وجههِ فعرف بونابرت انهُ لم يحق الركون الى كلامهِ فقال لهُ ممازحاً انت ضعيف العقل والراي ثم لف الرسم . وبعد ذلك بعشرة اسابيع وجد بورين نفسهُ في شاطئ بورميدا يكتب ما كان يمليهِ بونابرت عليهِ عن معركة مارنجو . فتعجب لما



راى ان حرب الدبابيس تمت بالفعل وقال ان قوة ادراكك وحذقك ادهشتني فتبسم بونابرت لما راى صحة ادارتهِ وتعديلاتهِ . وقبل ان بلغ خبر المعركة المذكورة فينا بيومين عقدت انكلترا معاهدة مع النمسا لتشديد الحرب على فرنسا وان انكلترا تقرض النمسا خمسين مليون فرنك بلا فائدة مدة الحروب وتعهدت النمسا بناء على ذلك بان لا تصالح الا برضى انكلترا فلما سمع امبراطور النمسا بهذه المعركة عظم عليهِ الامر وكبر الخطب لكرههِ ان ينكث عهودهُ بعقد الصلح على غير ارادة انكلترا وخوفهِ من بونابرت الذي لا يغلب فصمم على محاولة اضاعة الزمان بالتخابر ليتمكن من التاهب فارسل سفيراً الى باريس فلما بلغها سلم بونابرت رسالة من الامبراطور موداها اطلب اليكم ان تحفظوا الركون الى قول الكونت جوليان بالوكالة عني فانني ارضى بما يفعل . انتهى . وكان بونابرت سريعاً بالاعمال فامر بوضع شروط للصلح فوقع عليها وزير فرنسا وسفير النمسا وكان بونابرت جاهلاً بالمعاهدة المعقودة بين النمسا وانكلترا فلما بلغ الخبر وزارة النمسا اغتاظت من السفير لانهُ لم يمطل ويحاول وتمنعت عن التصديق على المعاهدة الابتدائية وعزلت الكونت جوليان ونفتهُ واخبرت بونابرت بالمعاهدة التي تمنع النمسا عن عقد الصلح بلا قبول انكلترا وقالت لهُ ان انكلترا تروم مخابرتهُ بالصلح والحت عليهِ طالبة انشاء مجلس دولي في لونغفيل تبعث اليهِ كل دولة من الدول الثلث المتحاربة سفيراً . فاغتاظ بونابرت من هذا الخداع ولكنهُ ضبط نفسهُ وقبل بمخابرة انكلترا وطلب عقد هدنة في البحر فتمنعت قائلة انها تمكن فرنسا من ارسال جنود الى مالطة ومصر لاسعاف جيوشها هناك وكانت انكلترا قد حصرتهم فيها . وكان من مصلحة فرنسا عقد هدنة بحرية ومن مصلحة النمسا وانكلترا عقد هدنة برية لتتمكن النمسا من التاهب . فلما تيقن بونابرت ان انكلترا تضر بغيرها ولا يلحق ضرر بها وانها مصممة على منع النمسا عن الصلح قال للنمسا انهُ يخابرها وحدها بالصلح لان قبول انكلترا بالمجلس الدولي انما هو للمطل ثم منع الصلح . فتمنعت النمسا

## الفصل التاسع عشر

واستمرت هذه المخابرات المكدرة شهرين وفي اول ايلول (سبتمبر) راى بونابرت انهُ افرغ جهدهُ في سبيل المصالحة وكان يرغب فيها جداً بعد اكتسابهِ كل المجد الذي يتسنى للبشر احرازه بالفتوحات وكانت فرنسا محتاجة جداً الى الترتيب والتنظيم وتثبيت اركان سلطانهِ ونحو ذلك مما لا يستغنى عنهُ . واستحال امرهُ كان سبب خوف انكلترا لانهُ عبارة عن رسوخ الجمهورية في بلاد قريبة جداً منها فيهيج الانكليز ويطلبون اصلاح احوالهم فعملت على منعهِ حرصاً على حقوق الملكية والامبرية وكان رئيس وزرائها وليم بت زعيم الامراء فصمم على مداومة الحرب لان فرنسا كانت عاجزة عن الاضرار بانكلترا وانكلترا قادرة على ازالة تجارة فرنسا من البحار ببوارجها القهارة . اما مستر فوكس الانكليزي واعوانهُ فكانوا يضادون الحرب ببلاغة وفصاحة . غير انهم لم ينجحوا . ولم تنتفع الحكومة الانكليزية

والامراء بثلم صيت بونابرت عند العامة باقوال فارغة لاعتقادها انهُ محب لها فكانت تحبهُ . وقال بونابرت ان بت كان سيد السياسة الاوربية قابضاً على اعنة الامم الادبية غير انهُ لم يستعمل سطوتهُ استعمالاً حسناً فاثار نيران الشقاق في العالم فسيكتب اسمهُ في التواريخ في صحف ضوضاء الحروب ونيرانها ودموعها ونوحها فهو سبب الحروب التي انتشبت ٢٥ سنة والشقاق الكثير الذي قوى سيرها وثورة اوربا وخرابها واراقة دماء الامم ودين انكلترا المخيف ونظام القروض المتعب فسيحكم العالم بانهُ ويل وهوان فلا بد ان يبيت الانسان الذي مدحهُ ابناء وطنهِ وعظموهُ مذموماً منهم ملوماً لانهُ اصل شرور كثيرة . ولا اقول انهُ يفعل الشر عمداً ويتوهم انهُ بنهج الطريق المستقيم ولكن كثيرين يفعلون الشر وهم معتقدون صوابية اعمالهم وفضلها وكثيرون يعتقدون انهم يرضون الله سبحانهُ وتعالى باضطهاد غيرهم ولا دليل على انهم فعلوا ذلك مرتابين باصابتهم فان التمييز البشري ضعيف جداً . وسيقع اشد اللوم في القرون المستقبلة على بت لانهُ وضع اساساً لسياستهِ خالية من الاداب موسسة على حب الذات وعلى عدم مراعاة العدالة وسعادة البشر . اما الامراء في اوربا فسيقيمون لهُ ذكراً مؤبداً اما لانهم راوا من عظيم فعالهِ ما يستحق المدح والشكر واما لانفاق صوالحهم وصوالحهِ وصفاتهُ صفات سيلا فان اعمالهُ اضرت صوالح العامة ومنحت الفوز للامراء . اما فوكس فلا يلزم ان نبحث لنجد لهُ مثيلاً بين القدماء فانهُ سيكون مثالاً لغيرهِ ولا بد من فوز مبادئهِ في العالم بعد زمن قصير اوطويل . اما موتهُ فمن اعظم المصائب التي فاجاتني ولو فسح الله في اجلهِ لغير احوال العالم لاقتداره على جعل الفوز لمصالح الشعب وهذا يفتح لنا ابواباً لتاسيس اعمال جديدة في اوربا . انتهى

وكانت النمسا راغبة في السلام خوفاً من ذهاب جيش بونابرت الى فينا ومن عواقبهِ اكثر من خوفها من نتائج تثبيت سطوتهِ في اوربا ولكن كانت مقيدة بانكلترا بالدين والمعاهدات . فتيقن بونابرت ان النمسا تستهزىء بهِ فانها كانت تمنع نجاح المخابرات بالصعوبات التي كانت تلقيها في سبيلها واستغنمت سنوح فرصة الهدنة لما شعت جيشها المذعور لتحمل على فرنسا بكل قوتها في اخر فصل الشتاء . ودامت الحال على هذا المنوال الى تشرين الثاني ( نوفمبر ) وكانت الثلوج مغطية الجبال وانتهت الهدنة حينئذٍ . فطلبت النمسا اطالتها وكان بونابرت عالماً بمقاصدها فلم يقبل بخداعها ولكنهُ قبل باطالتها ٤٨ ساعة بشرط عقد معاهدة الصلح فيها فرفضت ولم يخطر ببالها ان رجلاً عاقلاً يدخل المانيا بجيش في قلب الشتاء لاقامة حرب وكانت معتقدة ان الزمان الباقي كاف لاستعدادها . فامر بونابرت جيوشهُ بان تنهض قاصدة فينا فسارت حالاً . وكان امبراطور النمسا قد اصلح جيشهُ في تلك الفترة وزارهُ ليقويهِ و يشجعهُ وسلم قيادتهُ الى اخيهِ الارشيدوق جون وسار جيش بونابرت بسرعتهِ العادية . ولم يكن قادراً على الخروج من باريس هذه المرة مراعاة لامور



سياسية داخلية . فعقد للجنرال برون لواء القيادة وامرهُ بمهاجمة النمسويين في ايطاليا على ضفات نهر منسيو وبالتقدم السريع الى فينا . فقطع الجنرال ماكدونلد جبال الالب في قلب الشتاء وكان النصر يسير تحت راياتهم . وابتدأ مورو يحرب شتوية على شواطىء الرين . وبين نهر اسر وآن اجمة واسعة جداً كثيرة الشقوق . ففتح طريقان عظيمان في وسطها خلا طرق الحطابين الصغيرة الكثيرة وفي وسطها قرية صغيرة فيها بيوت قليلة حقيرة اسمها هوهنلندن فالتقى ستون الف جندي من جيش مورو الفرنسوي بجيش الارشيدوق جون وعددهُ سبعون الفاً من النمسويين في ليل ٣ كانون الاول ( دسمبر ) سنة ١٨٠٠

ونصف الليل من ذلك اليوم المخيف سار كل من الجيشين قاصداً كبس الجيش الاخر وكانت العواصف شديدة والامطار هاطلة والليلة حالكة الادم والثلج يسقط في الاجمة ويعوق جر المدافع الثقيلة . ووقع الجيشان في الاشجار الملتفة في الظلام الحالك ومع ذلك كانت الجنود تسير حتى التفت طليعتاهما في اماكن كثيرة من الاجمة في وقت واحد وانتشب قتال يعجز القلم عن وصفهِ واجتمع الظلام والثلج والمطر والرعود والبروق السموية والمدفعية وصراخ المصابين وسقوط القتلى في تلك الاجمة التي التقى فيها مائة وثلاثون الف مقاتل . وناهت الافراس من بعد قتل فرسانها في وسط اشجار يصعب على الانسان ان يسلكها ماشياً وعدا عن الصراخ والضجات والانين والرعود والبروق كانت مئات من الموسيقات الحربية تعزف فتزيد القتال هولاً ربما لم تر الارض مثلهُ . وكان المقاتلون لا يعرفون الصديق من العدو من ظلام الليل وسقوط الثلج الذي كاد يعمي ابصار المتقاتلين بالمواقف . فكانت نيران الاسلحة المتقذفة غرض بنادقهم وكانت تختلط فرق المحاربين بين تلك الاشجار فيتطاعنون ويتضاربون ويحملون وهم على تلك الحال حملات الاسود بهيجان واضطراب يكل القلم عن وصفهِ وكانت الجنود حينئذٍ من شر الناس وادناهم واشدهم ارتكاباً وتعدياً وان كان ضباطهم من اهل الادب والرقة والناموس . وكانوا يحملون ويرجعون ثم يتركون الوفاً من الجرحى المنكودي الحظ على تلال الاجمة وفي شقوقها على الثلج الذي صبغ بدمائهم يئنون عليهِ ثم يموتون من الجراح والبرد . ومن يقدر ان يتصور تلك الاجمة في ذلك الظلام والامطار والانواء والثلوج وابناء البشر يصبغونها بدمائهم فترتفع انائهم المتتابعة متظلمة الى الله سبحانهُ وتعالى الذي يكره الشر والحروب ويحب الصلاح والسلام . وعند طلوع الفجر اشتد القتال بعد ان تجندل على الثلج نحو ٢٠ الف قتيل وكان الثلج قد علا وجوههم وكسا اجسادهم ثوباً ابيض واخيراً انتصر الفرنسويون في كل الجهات فبعد ان قتل وجرح واسر من النمسويين ٢٥ الفاً وخسروا مائة مدفع وعدداً وافراً من عجلات المهمات ركبوا الى الفرار بلا انتظام فركضوا في وادي الدانوب فتبعهم جيش مورو يطلق المدافع على مؤخرتهم والكتل المحشوة في وسطهم .

فاصبح الفرنسويون المنتصرون بعيدين عن فينا ثلثين ميلاً فقط فاضطربت وقلقت . فبعث الامبراطور رسولاً ملتمساً عقد هدنة . فاجابهُ بونابرت انهُ كان يحارب ليصالح ولم يطلب بونابرت غير الشروط التي طلبها قبلاً تسهيلاً لبلوغ السلم وحجب دماء العباد فما اكرم اخلاقهُ فانهُ طرح النمسا عند اقدامهِ وجيوشهُ الفائزة في اماكن ترى منها اعالي ابنية فينا ومع ذلك لم يزد شروط الصلح ولم تكن للنمسا قوة كافية لدفع المخاطر العظيمة عن عاصمتها ولا عن امبراطورتها ولو اراد بونابرت لالزمها باصعب الشروط فاخذ بعض القواد من معاوني الجنرال مورو يحرضونهُ على الحمل على فينا فقال الاوفق ان نقف هنا مكتفين بالسلام فاننا نحارب لعقد الصلح فالتزم امبراطور النمسا ان يخابر بعقد الصلح بلا مخابرة انكلترا فاتى جوزف بونابرت شقيق بونابرت الى لونفيل سفيراً من فرنسا واتاها الكونت كوبنتزل سفيراً من النمسا فتقررت شروط الصلح في وقت قريب فصالحت فرنسا كل العالم خلا انكلترا وكتب في المعاهدة ان نهر الرين حد فرنسا والاديج حد النمسا في ايطاليا . وان على النمسا اطلاق كل الايطاليان المسجونين عندها لاسباب سياسية وعلى كل من الدولتين الامتناع عن المداخلة في امور الجمهوريات التي انشئت في ايطاليا . وقال السار ولترسكوت عن هذه المعاهدة انها لم تكن اوفق لفرنسا من معاهدة كامبيو فورميو . واعتدال شروط الفصل الاول بونابرت من ادلة حبهِ للصلح واعتبارهِ لحمية النمسا وقوتها . وقال نيرون الانكليزي ان تلك الشروط لم تختلف عن الشروط التي طلبها قبل الهدنة وهذا مستغرب بعد الفوز العظيم الذي فازهُ في مارنجو وهوهنلندن ومنسيو . انتهى

ومن يطالع هذه الاخبار بعد دفع فرنسا الغرامة لبروسيا ولا يعجب من كرامة اخلاق بونابرت ورغبتهِ في تشييد السلم . واقام بونابرت حروب ايطاليا الاولى طلباً للسلام ففازبهِ في معاهدة كامبيو فورميو فوزاً موافقاً لفرنسا وللنمسا . فلما رجع من مصر وجد ثلثمائة الف جندي من النمسو بين حاملين على فرنسا فالتمس اليها والى انكلترا المصالحة باسم الانسانية بتجديد شروط كامبيو فورميو فظن اعداؤهُ ان طلبهُ ناشئ عن ضعفهِ وخوفهِ فاستخفوا بهِ وشددوا الحمل على الجمهورية الفرنسوية فقطع بونابرت جبال الالب وادهش العالم بافعالهِ وشتت شمل الاعداء في مارنجو كانهم اوراق الاشجار في الخريف ثم كتب من ميدان الحرب والدم جارٍ والدخان منتشر واصوات انين الجرحى يملأ القلوب حزناً وكدراً ملتمساً المصالحة واودع كتاباتهِ من ادلة كرههِ للحروب وبلاياها ما يحمل اقسى القلوب على ان تلين وتشفق فلم يجب طلبهُ بل حاول اعداؤهُ خدعهُ ليستعدوا للحرب فكسرهم كسرات كثيرة وفاز عليهم فوزاً عظيماً واكتفى بالصلح بحسب شروط كامبيو فورميو فعظم الامر على امبراطور النمسا لما سمع مدافع الفرنسويين وهو في قصرهِ في فينا واشتد عليهِ الخوف من ذل طلب الصلح فالتزم ان يطلبهُ فاجاب بونابرت هو غايتي الوحيدة



فلا احارب طمعاً بمجد الفتوحات فارتضى بصلح مبني على معاهدة كامبيو فورميو

وصالحت فرنسا اوربا كلها الا انكلترا فكانت تحارب بلا غاية معلومة . وكانت قوة فرنسا البحرية ضعيفة بالنسبة الى قوة انكلترا فلم تقدر ان تضرّ بها . وقال السار ولترسكوت الانكليزي ان البوارج الانكليزية افسدت تجارة فرنسا في كل مكان وقللت دخلها وحصرت حصونها

وفي ٩ شباط ( ففريه ) سنة ١٨٠١ عقدت معاهدة لونفيل . وكان بونابرت لا يزال متكدراً من عدوان انكلترا فقال في الاعلان الذي نشر فيهِ خبر عقدها لماذا لا تكون هذه المعاهدة لصلح عام ففرنسا راغبة فيهِ وطلبتهُ باجتهاد لكن عبثاً . وكانت اوربا عالمة بان وزير انكلترا الاول يحاول منع الصلح . فلم يحفل بكلام فرنسا وقال ان انكلترا لا تترك حليفتها النمسوية ولما التزمت بالمصالحة بدون مشورتها اعتذرت بامور اخر وادعت بحقوق تمس حقوق الامم وكرامتها فانها حصرت في يدها تجارة اسيا وتجارة مستعمرات لا تحصى ولم يكتفِ طمعها فطلبت ان تكون كل البحار خاضعة لسيادتها . انتهى . ولما بلغ وليم بت وزير انكلترا الاول انكسار النمسا قال بكدر اطبقوا رسم اوربا ولا تفتحوهُ الا بعد عشرين سنة

وفي اثناء هذه الحوادث الخطيرة كان بونابرت مشتغلاً بتنظيم البلاد العظيمة التي اصبحت تحت رئاستهِ فحير العقول باعمالهِ وقوتهِ وحذقهِ فكان يوجه افكارهُ كلها الى امر واحد ثم ينتقل دفعة واحدة الى اخر بلا اضطراب ولا اشتغال بال كانهُ لم يكن مشتغلاً الا بامر واحد . وكان يلتذ بالجد والكد بلا انقطاع وقال ان الشغل عنصري فانني خلقت لهُ ووجدت حداً لقوة رجلي وحداً لامتداد نظري ولم ار حداً لاقتداري على الاعمال . وظهرت قوات بونابرت الادارية والتنظيمية اجلى ظهور فانهُ نظم مداخيل الامة ورتب الخراج ترتيباً حسناً ارضى الناس ونظم بنك فرنسا وقواهُ وبذل ملايين من الفرنكات لانشاء خمس طرق عظيمة من باريس الى الحدود . وكانت اللصوص وادنياء الجيوش المصروفة تقطع الطرق فسلبت الامنية من كل البلاد فقال بونابرت لقومهِ اصبروا شهراً واحداً او شهرين فلا بد من الفوز بعقد الصلح في الخارج قبل معاقبة الذين يقطعون الطرق

وشرع في حفر ترعة واسعة جداً بين فرنسا وبلجكيا فاختلف المهندسون على اوفق جهات الحفر في النجاد بين الواز والسوم . فسار الى هناك وفصل الخلاف بسرعة واصابة واجتهد بتتميمها . وبنى ثلثة جسور جديدة جميلة على السين في باريس ومهد الطريق الجميلة النافعة في الالب واسمها طريق سمبلون وهي سهلة واسعة تبقى قروناً شاهدة لهُ بالفضل والاقتدار وحب الاعمال النافعة

ومرّ ان رهبان دبرسان برنار الكبير نفعوا جيشهُ بخدمتهم لما قطع الالب فاجازهم ببناء دبرين اخرين لمساعدة المسافرين احدهما في جبل سنيس والاخر في سمبلون وجعلهما مسعفين لديرهم .

ولم يكتف بهذه الاعمال فوضع القوانين الجارية الان في فرنسا . فدعا اليه احذق فقهاء اوربا وجمع لجنة منهم تحت رئاسته للبحث عن كل قانون والتامل فيه قبل وضعه . فتعجب الفقهاء لما راوا ان بونابرت عالم بدقائق القوانين واصولها كعلمه بدقائق الفنون الحربية والسياسية

وقال بورين وردت ذات يوم رسالة من مهاجر فرنسوي يقال له الجنرال دور وزل وكان مهاجرًا الى جزيرة جرزي فقراهُ على بونابرت وموداهُ . ايها الجنرال اظن انك لم تنس احتياج والدك الى النقود باخراج اخوتك من مدرسة اوتون فطلب اليَّ حينئذٍ ان اقرضهُ ١٢٥ ريالاً فقرضتهُ المبلغ بفرح . ولم يتسن له دفع المطلوب بعد رجوعهِ ولما خرجت من اجاثيو ارادت والدتك بيع بعض مقتنياتها لتفي الدين فلم ارض ان اضايقها . ولم تقدر على دفع المطلوب قبل الثورة . ولولا عسري الان واحتياجي الشديد الى هذا المبلغ لما ثقلت عليك بطلبهِ . وقد بلغت سن ٨٦ وخدمت وطني ستين سنة ومع ذلك التزمت بالمهاجرة الى هنا وان اعيش براتب قليل تدفعهُ حكومة انكلترا الى المهاجرين الفرنسويين . فانا مهاجر على رغم انفي . انتهى

فلما سمع بونابرت هذا الكلام قال لبورين انهُ خطير جدًّا فارسل على الفور عشرة اضعاف مطلوبهِ واكتب له بانني محوت اسمهُ من دفتر المهاجرين ما اعظم ضرر اولئك الحكام اللصوص . فلا اقدر على ازالتهِ كلهِ . وكانت لوائح الكدر تلوح على وجههِ . وفي المساء سال بورين هل انفذ اوامرهُ

وكان اعداء القنصل الاول اي بونابرت يحاولون قتلهُ بكل قوتهم . وكانت فرنسا مجتمعة حول رايتهِ شاكرة له منقادة اليهِ ومع ذلك كان بعض الجاكوبيين غير المعتدلين والملكيين يبغضونهُ لاعتقادهم انهُ مانع لتقدمهم . ففي ٢٤ كانون الاول ( دسمبر ) سنة ١٨٠٠ كان ذاهبًا الى قاعة التشخيص يشاهد رواية الخليفة التي لم تشخص قبلاً . وكان يود ان لا يذهب ولكن جوزفين الحت عليهِ فاجاب طلبها ارضاء لها فالتزم بالمرور في شارع ضيق فيهِ عجلة بضاعة مقلوبة معلق تحتها صندوق فيهِ بارود ورصاص وحديد ومواد اخر مهلكة . ومرت عجلة بونابرت بالقرب منها وبعد مرورها بهنيهة سمعت باريس كلها صوت احتراق بارود قوي وارتجت ابنيتها فقتل ثمانية رجال في الحال وجرح نحو ستين مات منهم بعد ذلك نحو عشرين . وتزلزلت البيوت على جانبي الطريق على مسافة طويلة وكاد بعضها يسقط اما عجلة بونابرت فمالت كانها في بحار هائجة . وكان بونابرت قد لاقى اخطارًا عظيمة ولم يكن يخشى صوت البارود ولا يبالي بهِ . فقال بدعة ورزانة لقد دفعونا الى الهواء ليهلكونا وخاف احد رفاقهِ جدًّا فاخرج راسهُ من كوة العجلة وامر سائقها بالوقوف فقال له بونابرت لا تقف

ودخل بونابرت قاعة التشخيص ولم يرَ الناس في وجههِ علامات الخوف والاضطراب . ولكن



المجتمعين فيها اضطربوا جدًّا وخافوا عليهِ وكانوا يحبونهُ كانهُ معبودهم . فلما راهُ القوم ضجوا فرحًا وحبورًا فارتجت القاعة شاهدة بمحبة الاهالي لهُ . ثم دخلتها جوزفين وكانت في عجلة خصوصية فالتفت اليها بونابرت وقال لها بهدوء وتانٍ ان اولئك الاشرار حاولوا اهلاكي بالبارود ثم سالها عن اعلان الرواية واقام برهة وجيزة ثم خرج وسار الى القصر ووجد امام بابهِ جمهورًا غفيرًا من الاهالي المجتمعين للفحص عن احوالهِ فانهم سمعوا بما جرى وخافوا عليهِ من سوء العاقبة . وكان هذا العدوان الناشيء عن الدناءة والمطامع سببًا لاشتداد كره عاضديهِ وتعاظم حب بونابرت في قلوبهم . واخذت الناس في باريس والولايات يهنئونهُ بالنجاة وظن القوم في اول الامر ان المكيدة جاكوبية . وكان في باريس نحو مئتين من قواد ذلك الحزب المشتهرين بسفك الدماء والتعدي من اعضاء جمعية تقوية اعضائها من اوباش الذين يحاولون على الدوام قلب حكومة بونابرت وقتلهُ . وكانوا مكروهين جدًّا فسر الاهالي بحدوث ما يكون سببًا لنفيهم اما المجالس وجميع اعضاء الحكومة فاغتاظوا جدًّا وحكم المجلس القضائي بلا ادلة كافية بنفي مائة وستين منهم . ورام كثيرون ان يعاقبهم بونابرت بسلطانهِ المطلق . وكان صيت بونابرت الحسن يجعل الامة تصوب اعمالهُ كلها فكانت تنفذ اوامرهُ بلا تردد . ولكنهُ ابى وقال ان المجالس القانونية تحاكم المذنبين فالقناصل وهم رؤساء الامة غير مسئولين ولكن الوزراء مسئولون . فاذا وقع وزير على امر غير قانوني يعرض نفسهُ للمحاكمة فلا ارضى بتعب احد لخدمتي . والقناصل لا يعلمون ماذا يحدث واما انا فلا اخاف من ان يدعوني احد الى المحاكمة واذا قتلت فلا اضمن سلامة رفتيَّ القنصلين . ثم التفت الى كامبسرز متبسمًا وقال له اذا قتلت تلتزم انت ان تقوم بمهام الادارة وانت عالم انك لم تثبت اقدامك على بساطها فالاوفق ان نضع قانونًا للحاضر والمستقبل وبعد مفاوضات طويلة حول على ان يحكم المجلس العالي بالاسباب والقنصل الاول يوقع على الحكم ثم يحال الى المجلس العالي ليرى هل هو منطبق على القوانين . وكان بونابرت يتصرف بحكمة ودراية . ولم تكن القوانين عادلة وكان اولئك القوم جانين الوفًا من الذنوب العظيمة ومع ذلك حكم ببراءتهم من محاولة قتل بونابرت فارتبك بونابرت ولم يكن راغبًا في اثبات اختراع تلك الالة عليهم بالشبهة وقال نعتقد انهم مذنبون ولكننا لم نتاكد ذنبهم ولا بد من نفيهم بسبب غير هذه الذنوب فحكم المجلس العالي بنفيهم . وتقوى بونابرت بميل الناس اليهِ وبات الجاكوبيون ضعفاء لا يخشى مكايدهم فلم ينفذ القرار وسمح لهم بالاقامة في فرنسا وهم عالمون بان الضابطة تراقبهم

وقال بونابرت لا احاول الانتقام لنفسي فان السعد الذي حماني مرات كثيرة في ميدان القتال يحميني منهم . فلا ابالي بصالح نفسي ولكنني مهتم بالراحة العمومية فان من فروضي توطيد اركانها وتخليص ناموس الامة من العار الذي لحق بها بسببهم

قلنا انهُ وردت تهاني كثيرة على بونابرت فاجاب ان ادلة الحب التي ظهرت في باريس اثرت فيَّ تأثيرًا حسنًا وقد نلتها بالاستحقاق لان هي رفع شان فرنسا وتعظيم مجدها فاذا رايت الاوباش يحاولون قتلي اجعل القوانين تعاقبهم وتعريضهم اهل العاصمة لخطر عظيم لاهلاكي جريمة ينبغي ان تقاص بصرامة وسرعة

ولما تاكد بونابرت ان احزاب البوربون هم المعتدون تعجب جدًّا خصوصًا لان كثيرين من رجال الملكية المشهورين في فرنسا اشتركوا في ذلك . فقال استحق شكرهم لانني خلصتهم من عدوان الجاكوبيين . وخالف اصحابهُ بالعفو عن مائة وخمسين الفًا من المهاجرين الملكيين والسماح لهم بالعود الى اوطانهم . واجتهد برد املاكهم المحجوزة عليهم . وعاونهم في كل شيء حتى لم يصدق انهم الذين حاولوا اهلاكهُ الا بعد ظهور الامر كالشمس في رابعة النهار بدراية فوشي فقبض على روساء المتعدين وقتلوا باطلاق الرصاص . وكتبت جوزفين الى وزير الضابطة بهذا الشان ما اثبت صفاتها الحسنة وشفقتها وسجايا بونابرت وهو ماياتي . لاتزال فرائصي ترتعد من الحادث المخيف واسفي يزيد على الذين يعاقبون خصوصًا لانهم من عيال اصدقاءي القدماء فعلى والدانهم وشقيقاتهم ونسائهم اللواتي لايجدن تعزية عن مصائبهم ان يطلبن مداخلتي لنوال العفو وعلى اسف مني ارى احيانًا انني عاجزة عن نوال العفو الذي اروم نوالهُ . واعلم ان القنصل الاول من اهل الرحمة ويحبني جدًّا ولكن الخطر لم يلحق بهِ وحدهُ فلا يرى مندوحة عن معاقبة المذنبين بالصرامة . فاطلب اليك بالحاح ان لاتتجاوز الحدود بالبحث عن المتعدين لمعرفة جميع الذين اشتركوا بالعدوان فتبيت فرنسا التي طالما تحملت مخاوف القصاص بالقتل متنهدة من مصائب جديدة . فعند معرفة روساء المكيدة الشريرة اجعل الحلم يغلب الصرامة فربما قيدوا الى المؤامرة باكاذيب ذات خطر واراء غير معتدلة . وانا امراة وزوجة ووالدة ادرك حاسيات النساء والزوجات والوالدات عند وقوعهن في المصائب فاشاركهن في بلايا هن وهن . فاطلب اليك ايها الوزير ان تنعل ما يقلل عدد الذين يحتملون العقاب القانوني . انتهى .

ومن العجب نجاة بونابرت من الشراك الكثيرة التي نصبها اعداؤهُ لهُ فان احزاب البوربون كانوا يظنون انهُ اذا سقط بونابرت ترجع الملكية الى فرنسا لان درايتهُ العظيمة ومعارفهُ الوافرة وادارتهُ الحسنة مكنت فرنسا من الفوز على جميع اوربا المتحدة عليها . فمونهُ يتركها بلا قائد فتتمكن جيوش الدول المتحدة من فتح باريس بعد اراقة انهار من الدماء ومن ترجيع العائلة البوربونية الى سرير الملك وان كانت الامة الفرنسوية تكرههم جدًّا . وكانت فرنسا عالمة بذلك فاحترمت بونابرت احترام معبود فوجه حزب الملكية تواهُ الى قلب حكومة بونابرت . واظهرت الضابطة الفرنسوية اكثر من ثلثين من الذين حاولوا قتل بونابرت بتلك الالة الشيطانية . وكانت لندن



ينبوع تلك المؤامرات ومن جملة اعمالهم محاولة اطلاق الرصاص على بونابرت من بنادق هوائية . وحاولوا قتلهُ بالخناجر مرات كثيرة . واخترعوا كلة محشوة ثقلها ٤٥ اوقية وعزموا على طرحها في عجلتهِ من كوبها فبسقوطها تنفجر وتقتل كل الذين حولها . ولم يكونوا يبالون باهلاك مئات من ابناء وطنهم ليتمكنوا من قتلهِ . والذين صنعوا الالة التي احترق بارودها لما كان ذاهبًا الى قاعة التشخيص سلموا زمام الفرس الذي يجرها الى فتاة عمرها نحو ١٥ سنة ولم يجد القوم من جسدها غير رجليها فان البارود افناها فهذه اعمال البرابرة . ولما كثرت التعديات غضب بونابرت وقال سأُري البوربون اني لست كليًا يسهل عليهم قتلهُ بالرصاص

وبعد ذلك بزمان طويل كان بونابرت يلبس ملابسهُ ولاكاسا ينغرس فيهِ فقال لهُ بونابرت ماذا تتامل سعادتك وتبسم . قال يامولاي قرات كراسًا مطبوعًا منذ برهة قصيرة فيهِ ان جلالتكم تلبسون درعًا تحت ثيابكم تدفعوا المخاطر عنكم . فقال بونابرت ان هذا خبر من الوف اخبار كاذبة اذاعها الاعداء وهو اغربها وجميع المقربين اليَّ يعلمون انني لا ابالي بالمخاطر فلا اتحفظ وتعودت منذ بلغت سن ١٨ سنة تعريض نفسي لكلل المدافع ولا تدفع الدروع اضرارها فسلمت نفسي الى التقادير ويهون عليَّ ان افرض بعد ارتقاء كرسي الرياسة انني لا ازال في ميدان الحرب وعدوان الذين يحاولون قتلي كلل تناساقط حواليَّ . فتوكلت على سعدي وتركت التحفظ لمنع حلول الخطر الى الضابطة . وكنت الوحيد بين امبراطوري اوربا بالمسير بلا حراس لايمنع احد عن التقرب مني ولاتصدُّ صنوف الجنود التي تحيط بالملوك . اما ماريا لويزا فتعجبت لما رأتني بلا حراس وقالت ان اباها امبراطور النمسا يحاط بالجنود على الدوام واعداءهُ نصبوا لقتلهِ اكثر من ثلثين شركًا عرفت بها ومن يعرف عدد التي لم تظهر . وبعض الملوك يدعون وقوع العدوان عليهم وكنت احيانًا اكتمهُ وتتاقمت المخاطر عليَّ بين معركة مارنجو وعدوان جورج كادودل وقتل الدوق دونجين . انتهى .

تقدم ان اللصوص وقطاع الطرق اتعبوا الفرنسويين فتوعدهم بونابرت فشرع يمنع تعدياتهم ويعاقبهم بعالي همتهِ فقطع دابرهم وعمت الامنية البلاد . اما الجيوش العاصية المجتمعة في فندي وعددها مائة الف رجل فكانت مولفة من الاشرار والاوباش من جميع الاجناس . فلما دخل روساوهم في سلك الطاعة تفرقوا غير ان كثيرين منهم تعودوا التعدي والشر فقطعوا الطرق وتعدوا على الاهالي فتكاثروا حتى سلبت الامنية وباتت الحكومة ملزومة بان ترسل مع عجلات السفر الخارجة من باريس جنودًا يحرسونها . فانشاء بونابرت مجالس مولفة من ثمانية قضاة لتدوين التعديات وارسال فرق من الجنود الى جهات مختلفة من البلاد فكانت تسير بسرعة منقذة البلاد منهم وكان يحاكم اللصوص الذين يقبض عليهم ويقتلهم باطلاق الرصاص بعد ثبوت تعدياتهم . فعادت الامنية في زمان قصير . ولم تخف الامة سوء عواقب السلطان المطلق الذي سلمتهُ الى

بونابرت لعلمها انها في احتياج شديد الى قائد قادر على قطع الاضطراب والارتباك والتعدي ورات بالامتحان ان بونابرت هو الرجل القادر على ذلك فمنحته السلطة الكافية ولسان حالها يقول انت عالم بما يوافقنا فمرنا لننفذ امرك . فاصبح ذا سلطان بدون محاولته الحصول عليه فان الاحوال قادته اليه فكانوا يدعونه القنصل الاول ولكن سلطانه كان انفذ من سلطان قيصر الرومان وبلغ هذا المقام العالي بعد وصوله الى الفرجوز بستة عشر شهرًا فقط . فما اعجب اعماله فانه تمكن في تلك المدة القصيرة من تبوء كرسي الرياسة وارجاع النظام والامنية فنهضت البلاد وتقدمت وتسنت له مصالحة روسيا بحكمته وكرامة اخلاقه وكسر النمسا واجبرها على الصلح . فاستحق شكر ابناء بلاده وقام باعمال عظيمة جدًا خطيرة ومع ذلك نرى فيها نتائج الحسد وقال عن نفسه بعد ذلك بزمان طويل لا اخاف ان يثلم صيتي فالقرون الاتية ستعدل بالحكم وستقابل الخير الذي فعلته بالاغلاط التي ارتكبتها . ولو نجحت الى النهاية لمت والعالم يقول انني اعظم رجاله . فانني كنت مجهول الاسم كالعدم بالنسبة الى اهل الشهرة فاجهدت نفسي فصرت اقوى ملوك العالم بدون ارتكاب ذنب . وكانت دوائر مطامعي متسعة ولكنها موسسة على راي الامة . فانني من الذين يقولون بان السيادة من الامة فالامبراطورية التي انشاتها كانت جمهورية عظيمة . ودعني الامة الى تخت الملك فوضعت لنفسي قاعدة وهي التقدم بالاهلية لا بالحسب . فابغض اهالي الامتياز . والاهلية والحذق يرفعان الانسان في انكلترا الى ارفع الدرجات فكان على الانكليز ان يفهموا مقاصدي . اما الثورة الفرنسوية فكانت مضادة عظيمة لقهر اصحاب الامتياز الموروث . فان الامراء لم يكونوا يحملون اثقال الحكومة مع ان مراتبها ومجدها ومنافعها كانت محصورة فيهم . فهدمت الثورة تلك الامتيازات وقررت المساواة في الحقوق واصبحت ابواب المراتب والمناصب والتقدم مفتوحة لكل ذي حذق واهلية بلا مراعاة حسب ونسب فالامة الفرنسوية اقامت الامبراطورية واجلستني على سريرها مع ان هوغ كابت وصل الى تخت الملك بمساعي بعض الاساقفة والامراء . فالسرير الامبراطوري اعطي لي بارادة الامة كلها . انتهى

وجوزف بونابرت هو شقيق نابوليون بونابرت القنصل الاول وكان ذا حذق سياسي فخدم شقيقه خدمة نافعة . وقال واصفًا اخوته واخواته انني اظن ان عائلة غير عائلتي لا تقدر ان تسلك سلوكًا اوفق من سلوك عائلتي في الاحوال التي باتت فيها . وينتظر ان يكونوا جميعًا من رجال السياسة فلا يتيسر لكل انسان ان يكون سياسيًا وقد جمع كل من اخوتي في نفسه صفات ربما كانت متناقضة من بعض الوجوه فكانوا يرون انهم اقوياء لا ينقادون كل الانقياد الى واحد منهم مع انهم كانوا غير قادرين على الاستقلال في اعمالهم . واذا تاملت فيهم تاملاً عامًا ارى فيهم ما يجعلني افتخر بهم . فان جوزف كان قادرًا على تحسين الهيئة الاجتماعية بصفاته . ولو سيان كان موضوعًا لافتخار كل



مجلس عالٍ انتظم في سلكه . وجيروم كان يكتسب الصفات الحسنة اللائقة بالملوك بتقدمه بالسن ولو ليس يسهل عليه الاشتهار في كل عمل يتعاطاه . اما شقيقتي اليزا فعقلها كعقول الرجال واظن انها كانت تسلي نفسها كالحكماء عند وقوعها في المصائب اما شقيقتي كارولين فهي حاذقة جدًا . اما شقيقتي بولين فربما كانت اجمل نساء عصرها وهي الطف الناس وتبقى الطفهم الى نهاية حياتها . اما والدتي فتستحق كل اعتبار . واية عائلة يستحق كل اعضائها الاعتبار كاعضاء هذه العائلة فاذا قطعنا النظر عن تباين اراائنا السياسية . نرى ان كلامنا يحب الاخر فكنت احبهم جميعًا محبة اخوية وكانوا يحبونني ولو احتجت الى مساعدتهم لفعلوا ما اثبت محبتهم . انتهى

ولم يكاف امراء فرنسا المتكبرون بونابرت مخلصهم من مصائبهم بما يدل على كرامة اخلاقهم وشهامتهم مع انهم كانوا منفيين فسمح لهم بالرجوع وكانت ارزاقهم واموالهم محجوزة فردها عليهم وما ذلك الا لانهم كانوا طالبين ترجيع الدولة البوربونية لتعود ايامهم السعيدة الماضية لما كانت كل الوظائف العالية والمراتب والامتيازات محصورة فيهم وفي اولادهم وكانت الامة حطابة وسقاءة لهم . وكانوا يحشدون الى قاعة استقبال القنصل الاول في الصباح بالتماساتهم طالبين الاحسان والاسعاف حال كانوا يتمنعون عن زيارته في المساء فكانوا يذكرون جوزفين باحتقار ويستهزئون باجتهادها بالتاليف بين جميع الاحزاب . وكانوا يفندون افعال بونابرت ولكن لم يلتفت الى تذمراتهم ولا عاقبهم بعدم الالتفات وقال قولاً يدل على اتساع الصدر وكرامة الاخلاق وهو احب ان اقتدي بالله سبحانه وتعالى بمعاملة الذين هم تحت سلطاني بالحلم والعفو وكان يهتم بصوالح الكنود كانه من اصدقائه وكان يجد في سبيل اعظم المجد ليس بالانتقام من اعدائه ولكن بتعظيم شان فرنسا ونجاح احوالها واستقامة سياستها

وكان منزل بونابرت في ذلك الزمان في قصر التويلري كمنزل رجل غني جدًا ليس كمنزل ملك ظالم عاتٍ . وكان جونو احد اعوانه مصممًا على تزوج مادموازل برمون وكانت امها من بنات الامراء المتكبرين جدًا وكانت تتكلف احتقار بونابرت لانه لم يكن من نسل الملوك وعين مساء ثاني يوم الزفاف لاجتماعها بجوزفين فبعد ان حضرت تشخيص رواية سارت الى قصر التويلري قبل نصف الليل بساعة . فلما سمع اوجيني صوت العجلة نزل الى ساحة القصر وانزلها منها وساربها الى قاعة كبيرة واوجيني هو ابن جوزفين من زوجها الاول . وكانت تلك القاعة جميلة جدًا فيها اثمن اثاث فكانت جوزفين جالسة فيها مشتغلة بالتطريز وكانت هورتنس ابنتها جالسة بالقرب منها وبونابرت واقفًا بجانب جوزفين ويداه وراء ظهره يكلم امراته وابنتها الجميلة . فلما دخلت العروس القاعة نهضت جوزفين حالاً وامسكت يديها وقبلت وجهها قائلة انني صديقة جونو منذ زمان طويل فلامراته محل صداقة في فوادي خصوصًا لانه اختارك انت . فهمس بونابرت في اذن

امراته قائلاً قد تجاوزت الحدود فما ادراك ان هذه الفتاة الصغيرة تستحق المحبة . ثم التفت الى العروس وقال لها ياماداموازل لولو (ارايت كيف اني لا انسى اسماء اصدقاءي القدماء فانني اعرف اسمك الاصلي) الا تتكلمين كلمة معي . وفي اثناء هذا الكلام امسك يدها وادناها منهُ . فوقعت في ارتباك عظيم ومع ذلك اجتهدت في ان تحافظ على مركزها الموروث فاجابت قائلة وهي تتبسم يا ايها الجنرال انهُ ليس من حدي ان ابدأ بالكلام . فقال بونابرت مازحًا ان هذا غير صفة امها . ثم قال كيف حال امك مادام برمون . اجابت اشتد مرضها فاشغلت بالنا منذ سنتين قال كدرني هذا الخبر ولم اظن انها مريضة فسلمي عليها . وهي ذات اراء ونفس متعظمة ولكنها ذات اخلاق كريمة وقلب محب للناموس والمامول الاجتماع بك مرات كثيرة فانني مصمم على ان اجمع حولي عائلة كبيرة اعضاوها قواد جيوشي ونساوهم الفتيات فيصرن صديقات لامراتي جوزفين وابنتها هورتنس كما ان رجالهن اصدقاءي ولا تنتظري الاجتماع بمعارفك الامراء القدماء فلا احبهم لانهم اعداءي والبرهان اعمالهم على ثلم صيتي

وكان هذا الكلام فجر نهار عظمتهِ الامبراطورية التي ابهرت اعين اعظم ملوك اوربا واقدرهم اما هورتنس فكان عمرها حينئذٍ سبع عشرة سنة ثم تزوجت لويس بونابرت شقيق بونابرت وهي ام لويس نابوليون امبراطور فرنسا الثالث الذي قلبت امبراطوريتهُ بعد معركة سيدان في حرب فرنسا والمانيا سنة ١٨٧٠ وقالت مادام جونو المذكورة عنها انها كانت غضة لطيفة زاهية زاهرة كالورد . واتهم بونابرت اعداءهُ بانهُ احب هورتنس المذكورة وهي بنت امراتهِ محبة غير لايقة وانتشر هذا الخبر في كل العالم . وقال بورين ان بونابرت لم يحبها غير محبة الوالد للولد فانهُ احبها كابنتهِ بعد ان تزوج امها . وشاهدت اعمالهم الخصوصية ثلث سنوات ووقفت على اسرارهم فاقول انني لم ارَ ما يحملني على اتهامهِ باقل الاشياء المذكورة . فينبغي ان نضيف هذه التهمة المعيبة الى تهمات حسودين يسرون بثلم صيت الرجال الذين يرتفع شانهم ويشتهر امرهم فيصدقها العالم بلا فحص . اما الان فقد مات بونابرت فعلى المؤرخ العادل ان يذكر حقيقة الحوادث ان كانت مناسبة لهُ او غير مناسبة فلا يسوغ للمؤرخ العادل ان يرميهُ بتلك التهمات . فانهُ كان محافظًا على مبادئهِ ولم يخطر لهُ ببال شيء من الفساد الذي نسب اليهِ لانهُ كان مضادًا لمبادئهِ ولذوقهِ . انتهى . وفي ذات يوم اخذ في مطالعة كتاب نشرهُ اعداؤهُ وعنوانهُ غرام بونابرت وكان حينئذٍ في جزيرة سانتا هيلانة فتبسم عندما قرأ بعضهُ وقال انني لا اعرف اسماء اكثر النساء اللواتي ذكرهن هذا المؤلف وندوين ذلك حماقة فان الجميع يعلمون ان اشغالي الكثيرة لم تبق لي من الزمان ما يمكنني من الاشتغال بالفساد انتهى



# الفصل العشرون

## معاهدات سلمية واخبار

صمم بونابرت لما قبض على اعنة السياسة على تقرير السلام بين فرنسا واوربا فتصبح بلادهُ مسالمة لكل العالم بعد ان كلت من الحروب وامست محتاجة الى الراحة لتضمد جراحها بعد اضطراب الفتن واضرارها . وكان بونابرت عالمًا بذلك اجمع فافرغ الجهد في سبيل الحصول على الغاية المطلوبة وكانت الحكومة الادارية التي سبقت حكومتهُ قد غاظت حكومة الولايات المتحدة الامركية باجراآتها الظالمة . فشرع في ملافاة الحال بالمخابرات السياسية وتمكن من ترجيع الصداقة الى مجراها في زمن قصير وقبل عقد معاهدة لونغفيل بزمان قصير عقد معاهدة بينهُ وبين امركا . وعند التوقيع عليها اقيمت افراح عظيمة في مصيف جوزف شقيق بونابرت الجميل الفاخر الذي اشتراهُ بعد ان جمع ثروة اعظم من ثروة اخيهِ الفنصل الاول بالاقتران بفتاة غنية جدًا وكان اسم ذلك المكان مورفونتان . وسار بونابرت اليهِ في قوم من اعوانهِ وقابل السفراء الامركان فيهِ . واقاموا اجمل التزيينات في بساتين القصر رمزًا الى اتحاد فرنسا وامركا . وفي اثناء الوليمة شرب بونابرت قائلاً انني اشرب على ذكر الفرنسويين والامركان الذين ماتوا في ميدان الحرب في سبيل حرية العالم الجديد (كانت فرنسا قد اتحدت مع امركا في محاربة الانكليز لحصول امركا على الاستقلال) . اما موسيو لوبورن الفنصل الثاني فشرب قائلاً اشرب على سر اتحاد امركا مع الدول الشمالية لتقرير حرية البحار . ثم شرب كامبسز الفنصل الثالث قائلاً اشرب على سر خلف واشنطون . وهكذا كان بونابرت يجتهد للحصول على صداقة الولايات المتحدة

وفي تلك الاثناء توفي البابا بيوس السادس واجتمع الكرادلة لينتخبوا خلفًا لهُ . وكان بونابرت قد عامل البابا باحترام وعاون المهاجرين من الكهنة في حربهِ الاولى في ايطاليا مخالفًا الحكومة الادارية التي كانت تضطهد الكهنة وتهينهم فاثرت اعمال بونابرت تاثيرًا حسنًا جدًا في حضرة البابا والكرادلة . وكان العالم الكاثوليكي يعتبر اسقف ايمولا لكونهِ من فحول العلماء ومن اهل الفضائل . وعندما اتحدت دائرتهُ الكنسية مع جمهورية سالبين وعظ عظة مشهورة وذكر الفرنسويين ذكرًا جميلاً جدًا واثنى عليهم ثناء ارضى بونابرت . ولما كان بونابرت قد وصل الى اعلى درجات القوة ارادت رومية ان تصافيهُ . فقال الكردينال كونسالفي ان فرنسا مصدر اضطهادنا في السنين العشر الماضية وربما تكون ينبوع منافعنا في المستقبل فان السائد فيها اليوم شاب ذو

قوة غير عادية ولا تحكم الان حكماً قاطعاً بصفاتهِ . وسطوتهُ تمتد قريباً الى ايطاليا فتذكروا بانهُ حمى الكهنة سنة ١٧٩٧ واحتفل بجنازة البابا بيوس السادس . انتهى . ولا يخفى ان ذلك الكلام دليل حذق المتكلم ووقع عند الكرادلة الحاذقين موقعاً حسناً . وكانوا يرغبون في الحصول على رضى بونابرت فانتخبوا اسقف ايمولا بابا فدعى نفسهُ بيوس السابع

اما نابلي فكانت من الدّ اعداء فرنسا وكانت ملكتها ابنة ماريا ثريزا وهي ام امبراطور النمسا وملكة فرنسا ماريا انتوانت المنكودة الحظ وكانت متكبرة ذات صيت مثلوم . ولا نلومها اذا ابغضت ثورة ساقت شقيقتها وزوجها الى السجن ثم الى المذبحة . وكانت نابلي ضعيفة جدًّا فلما بات امبراطور النمسا غير قادر على اسعافها في محاربة فرنسا بسبب المعاهدة التي عقدها امست في اضطراب وقلق خوفاً من انتقام بونابرت فصممت الملكة على الذهاب بنفسها الى بطرسبرج لتلتمس مساعدة امبراطور روسيا . وكان محبًّا للتمليق فقيد بتوسلات الملكة الجميلة وبادر الى مساعدتها فارسل سفيرًا الى بونابرت طالبًا اليهِ ان يعامل نابلي معاملة لطيفة . وسر بونابرت جدًّا بهذه المداخلة فانها فوز لهُ فاجاب طلب ذلك الامبراطور حالاً بلطف . وكان اساس سياستهِ في ذلك الزمان ترقية احوال فرنسا بمنع امتداد مبادىء الثورة وتاسيسها على الراحة والنظام ومصافاة الملوك المجاورين لهُ لمجانبة اثارة الفتن في ممالكهم وكان قادرًا ان يسوق ملك نابلي وملكتها بكلمة واحدة الى النفي ويجعل مملكتهما جمهورية ولكن تمنع وعضد ملك نابلي في سريرهِ

وكان الدوق دو بارما شقيق ملك اسبانيا قد حصل على مبادلة دوقيتهِ بولاية تسكانا الجميلة بمداخلات بونابرت وجعل تلك الولاية مملكة اترروريا وبها مليون من الاهالي . اما دوق دو بارما شقيق ملك اسبانيا فكان متعصبًا جاهلاً مبغضًا لجميع الاصلاحات وزوج ابنهُ بابنة اخيهِ ملك اسبانيا وكان بونابرت قاصدًا ان يجعل مملكة اترروريا الجديدة للعروسين المذكورين . واصبح بونابرت يشيد الممالك ويقيم الملوك قبل ان بلغ سن الثلثين . وكان العروسان يرومان الحصول على الملك حالاً ولكن لم يكن سبيل الى ذلك الا بعد وفاة الدوق والد الزوج او تنحيهِ ولم يرتضِ بالاعتزال . وكان بونابرت راغبًا في الانتفاع بتاثير ادبي في باريس باقامة ملك فيها فغاظهُ عناد الاب فابقى دوقية بارما بيدهِ الى موتهِ ليمكن ابنهُ من تبوء تخت ملك اترروريا . وكان راغبًا ان ترى الدنيا ان فرنسا الجمهورية شارعة في اقامة ملك وكان يومل ان يقرب ملوك اوربا من فرنسا باظهار غير ما كان قد تقرر في عقولهم من انها عاملة على قلب الملوك وتشييد الجمهوريات وهذه دقة سياسية لولا حذقهُ وانقياد الامة اليهِ لما تمكن منها . فطلب الى العروسين ان ياتيا باريس ليتوجها بيديهِ فسارا من مدريد عاصمة اسبانيا الى قصر التويلري في باريس لينبوآ تلك المملكة بواسطة قنصل فرنسا الاول . وكان لذلك العمل غايتان عظيمتان وهما مضادة ميل الفرنسويين



من جهة كرههم للملوك واثبات ان فرنسا لا تذيع مبادىء الثورة في الممالك . اما لسان حالها فكان خزي الملوك ويستفاد منهُ وجوب الانضاع والخضوع على الملوك لاقتدار بونابرت على تنصيب ملوك مثلهم . وكان بونابرت عالمًا بان مجدهُ رفعهُ عن الدولة القديمة التي خلفها فاقام للعروسين استقبالاً عظيماً . اما الباريسيون ففعلوا فعل قوم وضعوا في زوايا النسيان فتنتهم التي دامت ١٢ سنة حال كون انهر الدماء تجري فيها واسرة الملوك تتقلب بها وبادروا بزهائهم العادي الى الفرح بنتائج انتصاراتهم فكانوا يصرخون قائلين فليعش الملك . اما الملكيون فكانوا يقولون في قلوبهم في ذلك اليوم فلتتقلب اسرة الملوك . فسبحان الذي يغير ولا يتغير . ومن لا يعجب من مشاهدة الجمهوريين يفعلون ما يضاد مبادئهم وكذلك الملكيون فما اغرب صفات الامة الفرنسوية التي لا تثبت على حال لانها تساق بالتهيج والحمية الى فعل ما ينافي قواعدها

وتقرر ان العروسين يزوران بونابرت في اليوم الاول وفي اليوم الثاني يرد لهما الزيارة . فقابلهما بونابرت ومعهُ اعوانهُ الحربيون في ملابسهم الفاخرة وعاملهما معاملة والد شفوق ولاطفهما واكرمهما وكان يظهر في حركتهِ انهُ يفوقهما في السلطان والمجد . واقيمت لهما ولائم كثيرة فاخرة في قصر تاليروند في نابلي فبقيت باريس شهرًا مشتغلة بولائم واحتفالات متواصلة وكانت المهام السياسية تمنع بونابرت عن انفاق اوقاتهِ في الولائم فسلم امرها الى وزرائهِ . ونصح العروسين نصحًا مفيدًا وتعجب من ضعف عزم الملك فلم يكن يهتم الا بالتنزه والملاهي وكان مشغوفًا بالملاعب فتحقق بونابرت انهُ لا يقدر ان يقوم بالملك فقال لاحد وزرائهِ الم ترَ انهما من نسل الملوك فكيف تقدر امة ان تسلم قومًا منهم ازمة المملكة . ولا يخفى عليك انهُ من مصلحة فرنسا ان تراهما تتجدد في ذهنها حالة البوربون فهل تقدر الدول القديمة ان تقوم بسياسة الامم في عصر بانت السياسة فيهِ محاطة بالصعوبات . ولما خرج الملك من باريس قاصدًا مملكتهُ الجديدة قال بونابرت لاحد اصدقائهِ لا ينبغي ان نقلق رومية فلا خوف عليها من مهاجمتهِ وارسل بونابرت احد قواده ليكون سفيرًا لهُ على انهُ كان سفيرًا بالاسم ونائبًا للملك من قبل بونابرت بالفعل . وكان ذلك الملك الضعيف العقل يحب الحصول على الرتبة الملوكية مع عظمتها وان يتخلص من همومها واشغالها . واقام بونابرت لهُ من اعظم اعمالهِ الناتجة عن العظمة والسلطان وحب الافتخار

وكانت مادام دومنتيسون محبوبة الدوق دورليان جد الملك لويس فيليب ولم تكن تخجل بهذا الفساد وعلى الخصوص في تلك الايام الكثيرة الفساد . وكانت تفتخر بشرها لحصولها على حب امير من العائلة الملوكية القديمة وكانت من اعضاء تلك العائلة فظنت انهُ من فروضها ان تدعو الملك والملكة الجديدين في باريس الى مادبة متوهمة انهما يسران بالتفات امراة من العائلة الملوكية فدعت كثيرين من اعيان رجال الدولة وعائلة القنصل الاول . ولم يخبروا بونابرت بهذه الدعوة

لعلم اعوانهِ انهُ يحتقر اهل الفساد ولو كانوا من المراتب العالية . فعرف الخبر في اليوم الثاني فلام جدًّا الذين هياوا الوليمة من اعوانهِ وقال لهم ان دخول الفساد بين اهل المراتب العالية عار عظيم

وقال موسيو سفاري الذي كان من المدعوين ونالوا نصيبهم من لوم بونابرت انهُ لولا شفاعة جوزفين التي طالما تشفعت بالناس لعاقب بونابرت تلك المراة

وبعد عقد الصلح مع دول اواسط اوربا حوَّل افكارهُ الى انكلترا ليلزمها بالانكفاء عن عدوانها وقال ان فرنسا لا تجني ثمار السلم الا بعد عقد الصلح مع انكلترا ولكن حكومتها لا تعتبر حقًّا . وظلمها لم ينحصر في الامة الفرنسوية ولكنهُ امتد الى جميع دول اواسط اوربا والحكومة الظالمة قصيرة الدولة وعلى جميع حكومات اواسط اوربا ان يجعلوا انكلترا ترجع الى سبل الاعتدال والانصاف

وكان العدوان جاريًا بين الدولتين ومع ذلك كانتا تتخابران بلطف ففي اوائل شهر كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨٠١ بعث بونابرت الى جمعية لندن الملوكية هبة كتبًا كثيرة ثمينة مجلدة تجليدًا فاخرًا وارسل مع تلك الهبة رسالة لطيفة مكتوبًا فوق امضائهِ فيها رئيس الجمعية الوطنية وقنصل فرنسا الاول . واشار الى مبادئهِ بتصوير صورة كرمة صغيرة وهي عندهم رمز الحرية وهي موضوعة في صدفة سابحة على وجه البحار وبالقرب منها ما ترجمتهُ حرية البحار

وكانت انكلترا تدَّعي بحق فحص كل مراكب الدول فاذا تمنعت المراكب التجارية عن القبول بذلك كانت بوارجها تاسرها وتستملكها مع شحنها وقالت ان الحصر انما يكون بعد اعلان التصميم عليهِ ووضع مركب يسير امام المكان المحصور وبناء على هذا الادعاء منعت مراكب الدول كلها عن الدخول الى ثغور فرنسا مدعية انطباق ذلك على القوانين البحرية . اما الدول المتحابة فقالت ان ذلك عدوان قامت بهِ انكلترا بالقوة وهو غير موافق لعرف الدول ولا لقوانين البحار فان المراكب الحرة تجعل ما فيها حرًّا والراية تصون البضائع ولا يتم حصر الثغر الاَّ اذا كانت بوارج الدولة الحاصرة كافية لاذية المراكب الداخلة اليهِ وتعديات انكلترا في البحار سهلت لبونابرت سبل تحويل قوة العالم المتمدن الى مقاومتها . فبعد ان اتحدت كل دول اوربا لمضادة فرنسا جمعهم بونابرت كلهم بالحب لقطع ادعاءات انكلترا التي اصبحت سيدة البحار لان قوتها البحرية كانت اعظم من قوة سائر دول اوربا . وكانت وزارة انكلترا تفعل ما يمنع الدول عن مناظرتها في البحر . وكان بونابرت يتكدر جدًّا عند ما يرى في بلادهِ الواسعة امة عددها اربعون مليونًا خاضعة لامة كان عددها ١٥ مليونًا ساكنة في تلك الجزيرة الضيقة البعيدة لانها اقوى منها في المياه فتسنى لها ان تسود سيادة مطلقة في البحار الواسعة

والانكليز طالما حصلوا على اعتبار عظيم لانهم اهل سلطان وشجاعة وثروة وذكاء وصفات حسنة وفضائل وثبات واقدام ومع ذلك لم يحصلوا على محبة امم اخرى . والامة الانكليزية الان من اعظم



امم الدنيا واكثرها اعتبارًا واقلها تمتعًا بمحبة الناس . وربما كان ذلك من عدل الله فان خلق الانسان والامة من النقص كمال وهو لله . وقد قال بونابرت هل يبدل الفرنسويون مجدهم الباطل بشيء قليل من صيانة جلالهم ومركزهم وشبههم

وصالحت حليفات انكلترا فرنسا ولم تنفك انكلترا عن الحرب فربما لم ترتضِ ان يقول الناس انها جرَّت الى الصلح على رغم انفها . والصحيح انها لم تغلب وضربات بونابرت المخيفة التي هدمت قوة حلفائها لم تدرك بوارجها المهلكة فكان حذق بونابرت يغطي البر بظلهِ وحذق بت وزير انكلترا الاول كالعواصف في البحار . فباتت فرنسا بلا تجارة بتعدي الانكليز على السفن الفرنسوية والصيادين فتاخذ شباكهم حين لا تجد ما تلتهي بهِ عنهم بالتعدي على المراكب الكبيرة

وكانت انكلترا قد اعلنت انها محاصرة لفرنسا فقطعت كل العلاقات التجارية الجارية بينها وبين العالم وكانت بوارجها التي لا تغلب سائدة على كل البحار متسلطة عليها . فكانت تطلق كرة على المركب التجاري الذي تصادفهُ مع قطع النظر عن جنسيتهِ لمنعهِ عن المسير . فان لم يطع تبادر الى اطلاق صفٍ من مدافعها عليهِ ثم تاسرهُ وتستولي عليهِ وعلى مشحوناتهِ . واذا اذعن الرئيس واوقف مركبهُ يبادر رئيس البارجة الى ارسال ضابط شاب في قارب الى المركب التجاري فيدخلهُ ويطلب الى رئيسهِ ان يريهُ اوراقهُ ثم ياخذ في فحص المركب والبحث فيهِ . فاذا وجد بضائع يحال لهُ انها مرسلة الى فرنسا يغنمها . واذا وجد مهمات حرب يغنم المركب ايضًا وما فيهِ . ولم يكن اولئك المامورون الشبان منطبعين على الملاطفة فكان كثيرون منهم يعاملون روساء تلك المراكب بالخشونة والاهانة . وكانت حكومة انكلترا تقول ان ذلك كلهُ مطابق لقوانين البحر

وكانت انكلترا تفعل ذلك بعد ان صالحت فرنسا كل امم اوربا خلا انكلترا فتذمرت منها قائلة ان فحصها لمراكبها ظلم وعدوان فاتحدت روسيا وبروسيا والدانمرك واسوج وهولاندة وفرنسا واسبانيا على مضادة انكلترا وسبب هذا الاتحاد حذق بونابرت وادراكهُ . وكان الامبراطور بولس امبراطور روسيا من اشد الناس حبًّا لبونابرت فاتحد مع تلك الدول اتحادًا قلبيًّا فانفردت انكلترا وامست اوربا ضدها . فلم تضعف همم وزارة انكلترا ولكنها جمعت قواها لمقاومة جميع تلك الدول ولكن اكثر اهالي انكلترا العارفين بالحقائق والوقائع اخذوا يتذمرون ويضادون الحكومة فنهض النواب المضادون لها في مجلس المبعوثين بعزم لان الحكومة حملت الامة اثقال مئات ملايين من الليرات بمضادة فرنسا . وكان ناموس الحكومة الانكليزية يمنعها عن عقد الصلح عندًا يظهر انها سيقت اليهِ على غير ارادتها . وكانت عالمة بقوتها البحرية التي لا تغلب فلم تخف عدوان العالم باسرهِ

وكانت عارفة بان ابواب تعويض خسائرها كثيرة وبناء على ذلك استمر سلطانها نافذاً في البحار وكانت تستولي على مهاجر الدول واحداً بعد الاخر ولما اتحدت تلك الدول امرت حكومة الانكليزية بان تغتنم بوارجها جميع مراكبها اينما وجدتها . وفي برهة قصيرة ملأت بوارجها ومراكبها الافرادية البحار واخذت في اغتنام الغنائم بدون شهر الحرب قانونياً فتراكمت الخسائر على تجارة اوربا قبل ان عرف التجار لان بوارج انكلترا قادت الوفاً منها الى ثغورها غنيمة فاستملكت اكثر من نصف المراكب التجارية المختصة بالدول الشمالية

وكانت لروسيا والدانمرك واسوج مراكب كثيرة في بحر البلطيك فارسلت انكلترا بوارج قوية لتكسرها . وكان الاميرال نلسون رئيسها وهو الذي كسر البوارج الفرنسوية في ابي قيروما اظهرهُ في تلك المعركة من الحذق والبسالة لم يكن قدر نصف ما اظهرهُ في معركة البلطيك المعروفة بمعركة كوبنهاغن قاعدة الدانمرك . وبعد وصول البوارج الانكليزية الى بحر المدينة المذكورة انشبت الحرب بينها وبين بوارج تلك الدول واشتد القتال وكثر النوح والبكاء في عاصمة الدانمرك فان الوفاً من شبانها الاشداء الباسلين باتوا قتلى او جرحى . وقال الاميرال نلسون الانكليزي حضرت اكثر من مائة معركة ولم ارَ معركة اشتد ويلها وخطوبها كمعركة كوبنهاغن . انتهى

واشتد اطلاق المدافع وعظم البلاء وكان الاميرال نلسون الانكليزي يمشي بسرعة على ظهر بارجة من بوارجه وكال المدافع تتساقط حولهُ وتمر فوق راسهِ وصبغ ظهر المركب بدماء الذين كانوا يصابون بالكلل والرصاص وعدد الذين كانوا يتجندلون كان اكثر من الذين ينقلون الى اماكن الجرحى ويطرحون في البحار من القتلى . فاصابت كلة كبيرة الصاري الاول فكسرتهُ وانتشرت قطعهُ حول الاميرال نلسون فنظر الى الويل الذي كان محيطاً بهِ متبسماً وقال ان عملنا حارٌ ولعل هذا النهار اخر ايامنا ولا ارتضي ان اكون في غير هذا المكان ولو اعطيت الوفاً من الذهب . انتهى . وهذا دليل شجاعة نلسون ولكن لا يبين حبهُ للانسانية والذي حملهُ على ان يفوه بذلك هو حب الحرب لا حب الانسانية

ولما راى رئيس بوارج الدول المتحدة كثرة الهلاك واشتداد الحرب حتى لا تحملها القوة البشرية رفع راية المتاركة . فلما عرف نلسون بذلك اضطرب وقال لاحد رفاقهِ انني اعور فلا ارى ما لا يوافق ان اراهُ ثم رفع النظارة الى عينهِ الكفيفة وقال لا ارى راية المتاركة فابقوا راية تشديد القتال منشورة فمن عادتي ان اجيب راية المتاركة براية تشديد القتال فصمروا رايتي في صاري البارجة . انتهى . والبشر مفطورون على حب الشجاعة والصبو الى استماع اخبار الباسلين . وكان ولوس من الفتيان الدانمركيين الذين لا يهابون الموت مع انهُ لم يكن متجاوزاً حدود السبع عشرة سنة . فركب سفينة صغيرة كالطوف فيها ستة مدافع و ٢٤ ملاحاً وسار فيها الى البارجة العظيمة التي كان



الاميرال نلسون فيها . وكان الملاحون الانكليز يطلقون عليها الرصاص والذين فيها مكشوفون وفي برهة قصيرة قتل اكثر ملاحي الطوف وبات الفتى القائد غائصاً في الدماء حتى ركبتيهِ ثابتاً على اطلاق مدافعهِ الى نهاية المعركة . وفي اليوم الثاني راهُ نلسون في الوليمة في قصر ملك الدانمرك وقد ادهشتهُ شجاعتهُ واقدامهُ فدنا منهُ وقبلهُ قبلة بطل سر بشجاعة بطل اخر وقال لولي عهد ملك الدانمرك يستحق هذا الفتى ان يصير اميرالاً . فقال لهُ ولي العهد لو اردت ان اجعل كل الباسلين من ضباط بوارجي اميرالية لباتت بوارجي بلا ضباط ثانويين . انتهى .

وكانت تلك المعركة البحرية سبباً لكسر شوكة اتحاد اوربا . وفي اثنائها تآمر الامراء الروسيون وقتلوا الامبراطور بولس الروسي في قصرهِ وخلفهُ ابنهُ الاسكندر . ولما سمع بونابرت بقتلهِ صرخ قائلاً يا الهي . وقيل لم يسمع ذلك منهُ قبلاً . وقال ان قتلهُ مصيبة عظيمة على فرنسا والعالم . وكان يفعل ما ربما لا يفعلهُ بعض المجانين وكان يحب بونابرت جداً . اما امراء روسيا فتكدروا من المساواة التي وطد اركانها بونابرت في بلادهِ فقتلوا امبراطورهم وجعلوا ابنهُ عوضاً عنهُ بعد ان تعهد بمخالفة سياسة ابيهِ . فخرج الامبراطور الجديد من الاتحاد الحربي في البحر لقطع مطامع انكلترا وصالحها . وظواهر هذه الامور تدل على انها مضرة جداً بفرنسا ولكنها كانت سبباً لابطال الحرب . فان الامة الانكليزية ضجرت من قتال لم ترَ قرب نهايتهِ واغتاظت من جري انهار الدماء فالحت طالبة الصلح . وكان ذلك في زمان يتيسر للحكومة الانكليزية ان تصالح فيهِ بدون ان تمس كرامتها

وكان بونابرت مهتماً بارسال المهمات الى الجيش الفرنسوي في مصر ويقول ان بقاء مصر في يد فرنسا من الامور اللازمة لاثبات عظمتها البحرية وكان يحب ان يبين للعالم انهُ لم يذهب بستة واربعين الف جندي الى تلك البلاد بدون الحصول على فائدة . وكانت مراكب من جميع الانواع وبوارج حربية تخرج يومياً من ثغور هولاندة وفرنسا واسبانيا وايطاليا حتى من شواطئ الغرب فيها مهمات وزاد وجرائد . وتمكن الانكليز من اسر كثير منها ونجا كثير منها وبلغ مصر وبينت للفرنسويين فيها ان الفتصل الاول مهم جداً بامرهم . وكان يجتهد بارسال تلك المهمات كل يوم وفي اثناء ذلك امر باقامة استعدادات لارسال نجدة . فانتخب سبعة مراكب من اسرع المراكب الفرنسوية وجمعها في برست وجعل الظواهر تدل على انهُ مرسلها الى جزيرة سان دومينيكو لا الى مصر ووضع فيها خمسة الاف جندي ومهمات كثيرة من التي كانت الجنود في احتياج اليها في مصر . واصدر امرهُ بان يكون في كل مركب من كل شيء يحتاج الفرنسويون اليهِ في مصر وان يكون ما في احدها في كل منها حتى اذا اسر الانكليز بعضها ينجو البعض الاخر فتصل المهمات اللازمة الى محلها . وقام باستعدادات كثيرة كهذه الاستعدادات في محلات اخرى والمقصود من ذلك ان تبيت انكلترا في حيرة فتلتزم ان تقسم قوتها البحرية لصيانة كل الاماكن التي يخال لها

ان الفرنسويين قاصدون الذهاب اليها . وفي اثناء حيرتها يرسل البوارج الى مصر فيصل بعضها اليها بلا ريب . وحدث بعد ذلك ما بين انهُ لو اطاع الروساء البحريون اوامر بونابرت لفازوا

وفي اثناء ذلك حدث ما نسميهِ ظلم القنصل الاول بدون ان نعجب من خضوع الفرنسويين لظلمهِ فكتب الى وزير الضابطين بالامر الاتي . ايها الوزير . اطلب اليك ان تبعث باعلان قصير الى مديري الاربع عشرة جريدة مآلهُ الامتناع عن نشر جمل من شانها اظهار اقل شيء متعلق بحركاتنا البحرية ما لم ينقلوا الاخبار عن الجريدة الرسمية لئلا يكون العدو من معرفة ما هو جارٍ . انتهى . وكان بونابرت قد الغى كل جرائد باريس قانونيًا بالمجالس خلا ١٤ جريدة . وكان العالم يعجب كيف خضعت فرنسا لهذا الظلم بلا تذمر . اما سبب خضوعها فهو تحققها ان نفوذ السلطان نفوذًا مطلقًا كان من الامور اللازمة للقيام بالحرب وان كل اعمال بونابرت نتيجة حكمة موسسة على حب الوطن الخالص . فكانت ترضى بخسارة حرية جرائدها لتفوز على اعدائها

اما انكلترا فبانت في اسوإ حال فان اكثر العالم المتمدن كان مضادًا لها . وكانت مزروعاتها قد امحلت ووقعت في مجاعة مخيفة . وكانت العامة الجائعة تثور على قصور الامراء الفاخرة وتنهبها وتدخل شوارع المدن متعدية على اهاليها . وكان الجياع المنكودو الحظ في ايرلاندة وانكلترا يكادون يهلكون جوعًا ويتذمرون طاعنين في بت الوزير الاول حتى انهم قالوا انهُ سبب جميع مصائبهم وانهُ حمل الامة اثقال ديون كثيرة وبالتالي وضع عليهم اضربة لا يقدرون ان يقوموا بها وبالاصرار على محاربة فرنسا حمل دول اواسط اوربا على مضادتهِ ومقاومتهِ فمنع عن الاهالي الزاد من تلك البلاد حال كونهم لا يقدرون ان يستغنوا عنها . اما النواب الذين كانوا مضادين لبت فلما راوا ان سلطانهُ متزعزع الاساس شددوا عليهِ المضادة وضايقوهُ . فاخذ روساء النواب المضادين يعترضون عليهِ ومنهم فوكس وتيراني وكري وشريدان وهولاند وغيرهم . فقالوا لهُ لماذا لم تصالح فرنسا لما طلب اليك القنصل الاول ان تصالحهُ قبل معركة مارنجو ولماذا لم تقبل ان تعقد الصلح حين طلب القنصل اليك ان تعقدهُ بعد فوزهِ في تلك المعركة . ولماذا رفضت ان تخابرهُ بدون مشاركة سائر الدول مع ان بونابرت قبل بذلك مع بقاء الحرب في البحر . ثم قابلوا بين تعاسة انكلترا ونجاح فرنسا وقالوا ان فرنسا حصلت على حكومة جيدة ووطدت السلم بينها وبين اوربا وقد ثبت انها محبة للانسانية حكيمة مرتاحة لمعاملة الذين تعلمهم بالحلم والعفو . الى ان قالوا ماذا نقول عن الشاب بونابرت الذي طالما قلتم انهُ فتى غير متأنٍ وان ثباتهُ قصير المدة فانهُ سيسير في سبل اسلافهِ فلا يستحق المخابرة . انتهى . وبالجملة نقول ان بت بات مغلوبًا بكثرة اعدائهِ وتذمرات امة حل بها جوع مهلك . ومع ذلك كان عنفوانهُ يمنعهُ عن تغيير سياستهِ . وكان يعيد كلامهُ وهو لولا مضادتهُ لثورة فرنسا لامتدت الى انكلترا . وكان عنادهُ في غير محلهِ فحصولهُ على



النفوذ وثباتهُ يدهش الناس فانهُ احتمل صدمات عالم متفطح لمقاومتهِ . وقال عن مطاليب الدول المتحابة ان الاستنار برايتنا والهلاك بالمجد في اعماق البحار خير لنا من ان نسلم بدخول المبادىء التي تطلب الدول المتحابة ادخالها الى القوانين الدولية المتعلقة بالبحار

وكانت اكثرية المجلس العالي مع بت ومع ذلك شعر بضعف موقفهِ لما جاهرت الامة بمضادتهِ فلما بات في هذه الاحوال ورأى ان الامراء يحبونهُ محبة لا مزيد عليها وان اهل الحرية يبغضونهُ ويسبونهُ استغنم سنوح تلك الفرصة للاستعفاء من منصبهِ العالي . فلما ذاع الخبر بين الناس قالوا جميعًا لما رأى ذلك الوزير المشهور انهُ لا بد من عقد الصلح تنحى موقتًا عن السياسة ليعقد بواسطة غيرهِ . ولم يتنح بالفعل عن الاعمال فانهُ اقام خلفًا لهُ رجلاً اسمهُ مستر ادنكتون وهو من المشاهير المنقادين جدًا اليهِ . اما ملك انكلترا فكان ضعيف العقل على انهُ كان ذا فضائل براعي الضمائر فلم يكن قادرًا على القيام بسياسة ذلك الزمان المضطرب وكان قد اصيب بما يعد جنونًا فوقعت اثقال الادارة كلها على الوزير الاول بت فضلاً عن اعمالهِ الخطيرة واستمر على تلك الحال ١٧ سنة فكان هو ملك انكلترا ومستر ادنكتون المذكور وزيرهُ الاول

وفي تلك الاثناء اعلن بونابرت تصميمهُ على محاربة انكلترا الى ان يلزمها بالانكفاء عن محاربة فرنسا . وكان عالمًا بانها اقوى منهُ في البحر فقال انهُ يعبر المضيق الواقع بين انكلترا وفرنسا بجيش جرار الى لندن ليلزم وزارة الانكليز بمصالحتهِ . وذلك من المشروعات العظيمة جدًا وعند البعض انهُ يهدد انكلترا بهِ دون ان يقصد تعريض نفسهِ لمخاطر القيام بامر خطير كهذا . ولم يرَ بونابرت غير ذلك السبيل للحصول على الصلح لعلمهِ انهُ لا ينجح بمحاربة انكلترا بالبحر . وكان نلسون رئيس بوارج ذلك المضيق ولم يكن يسمح لقارب فرنسوي بالخروج من ثغور فرنسا وكان بونابرت يرغب في جذب الانكليز اليهِ وقلوب جميع الامم الاوربية . فكان يكتب بيدهِ جملاً كثيرة في جريدة المونيتور من افصح الجمل وابلغها وكان جميع قرائها يندهشون باصابتها ودقتها . وكتب عن الوزارة الانكليزية الجديدة كتابة حسنة جدًا وقال انها مؤلفة من رجال ارباب حذق واستقامة ونوايا صالحة . وكان يبين لاوربا انهُ لا مطامع لفرنسا قائلاً انها تترك ما فتحتهُ وقابل بين ذلك وبين محافظة انكلترا على املاكها الواسعة في الهند وجزائر البحار . وكان يتجنب غيظ الامة الانكليزية فقال لا سبيل الى الصلح الا بالحمل على انكلترا مع انهُ عالم بشجاعة الانكليز وقوتهم والمخاطر الكثيرة التي يعرض نفسهُ لها . ولكن الضرورة تلجئهُ الى ذلك فاذا رات فرنسا ان الوزارة الانكليزية مصممة على مداومة الحرب الى ان تفنى احدى الامتين يبادر كل فرنسوي الى اجراء ما يقدر عليهِ لتكون بها بنها مجد فرنسا . الى ان قال ونعم القول ماذا يلجئنا الى ذلك الامر الصعب لماذا الا تنهي ضيقات البشر . لماذا نعرض نصيب امتين عظيمتين للسقوط حال

كوننا نعلم ان السعادة هي للامم التي تدرك درجات النجاح العالية وهي حاصلة على حكومات حكيمة لا ترتضي بتعريض منافع كثيرة لخطر السقوط دفعة واحدة. انتهى . وكانت الجمل السياسية التي كان يكتبها في الجرائد ذات تاثير عظيم في عقول الناس لصحة نتائجها وفصاحة عبارتها ودقة معانيها وكان اثناء ذلك يقيم تاهبات عظيمة جدًا عند شواطىء المضيق الفاصل فرنسا عن انكلترا فجمع في شمال فرنسا بالقرب من بولون مائة الف جندي من الفرنسويين ليفتحوا انكلترا . وجمع عددًا لا يحصى من القوارب لتعبر الجنود الفرنسوية المضيق عليها. وقيل انهُ بعد تفرق بوارج انكلترا من المضيق بسبب النوء تقدر جنود فرنسا ان تعبرهُ بقوة تمكنها من الاستيلاء عليها بعد سكون البحر قبل تمكن البوارج المتفرقة من الرجوع اليهِ . ولما رات انكلترا عملهُ تيقظت ولكنها لم تحقق انهُ يقوم بهِ واخذت في تمرين جنود الحرس الوطني فاصبحت البلاد معسكرًا . وانشات الحكومة عجلات لنقل الجنود بسرعه الى محل الاقتضاء فهذه هي حملة سنة ١٨٠١ واسمها حملة معسكر بولون

قلنا ان الامة الانكليزية تيقظت لخوفها من فوز بونابرت المنتصر في ابتداء الحرب . لان الجوع كان يفعل في البلاد والاشغال في وقوف والضرائب كثيرة جدًا وكانت ايرلاندة تكاد تجاهر بالعصيان وعامة الامة الانكليزية تحب بونابرت وتميل اليهِ وان كانت الحكومة الانكليزية تفرغ جهدها في حملها على بغضهِ لعلمها انهُ عدو الامتيازات الاميرية وصديق العامة ليمكنها من الوصول الى حقوقها . وكان الاميرال نلسون يحرس المضيق الواقع بين فرنسا وانكلترا ببوارج لا تغلب ولم تكن سفينة فرنسوية تقدر على الخروج من ثغورها بدون ان ياسرها وكان تيقظهُ متجاوزًا حدود الاعتدال لرغبتهِ في فعل ما يرفع عنهُ لوم العالم واستهزاءهُ بهِ الناشىء عن خلاص بونابرت من يدهِ لما سار من مصر الى فرنسا حين كان نائمًا في حضن امراة . ولم يكن احد من ابطال البحر يضبط نفسهُ من الضحك عند التامل في اسباب تقصيرهِ الذي عجز عن محو اثارهِ . وكان لفرنسا سفن كثيرة صغيرة حربية فاعتنى بونابرت بتسليحها ووضع فيها رجالاً من اهل الشجاعة والاقدام وكانت في بولون . ففي ٤ اب (اوغسطس) دنت بوارج نلسون منها بعظمة واطلقت عليها كرات من المدافع والبنادق . وكان بعضها مربوطًا بالبعض الاخر بسلاسل حديدية وكلها مربوطة بالشاطي فلم يتمكن من ان ياسر واحدة منها فالتزم ان يرجع فشلاً منهددًا بالرجوع بعد بضعة ايام لينتقم منها . اما ملاحوها الفرنسويون ففرحوا جدًا بتمكنهم من الثبات في معركة حربية امام البوارج الانكليزية فكانوا ينتظرون رجوعهُ اليهم وكانوا قد نقوا بثباتهم الماضي فعزموا على المدافعة الشديدة وبعد المعركة الاولى باثني عشر يومًا اي في ١٦ اب (اوغسطس) راوهُ يتقدم ببوارج كثيرة . وفي ظلام الليل انزل قوارب بوارجهِ الى البحر واقام فيها اقدر رجالهِ واشجعهم وهذه الحملة من اشد الحملات خطرًا وليس في التواريخ ذكر حملة مثلها . وقسم تلك القوارب المسلحة الى اربعة اقسام وامرها بان



تدنو من السفن الفرنسوية الحربية بعد فعل ما يمنع ارتفاع اصوات المجاذيف . ولما دنت القوارب من السفن الفرنسوية انتشب القتال بالسيوف والنؤوس والحراب واطلاق البنادق وكانت معركة مخيفة فان المتقاتلين كانوا يهجمون ويدافعون ويحملون غير مبالين بالمخاطر وكانوا كانهم جماد لا تفعل بهِ الاسلحة . وكانت انكلترا تحارب لاسباب مجهولة عندها . اما فرنسا فكانت تدافع عن ذمارها . ودامت تلك المعركة المخيفة في ذلك الظلام الدامس اربع ساعات فقتل الوف من الفريقين ولم يقدر الانكليز ان يثبتوا فارتدوا في كل الجهات ورجعوا مكسورين . ولما سمعت الامة الانكليزية بنتائج المعركتين المذكورتين ضعف ركونها الى اقتدار نلسون على تخريب تاهبات بونابرت للحمل على انكلترا وقالوا ربما تمكن الفرنسويون من مهاجمتنا في بلادنا

وقال بونابرت بهذا الشان صممت ان اقيم في ستراسبرج عجائب مصر فانني اقمت في البحر اهرامي وشرعت في انشاء بحيرة ماريتوس . وكنت عازمًا على جمع كل قواتي البحرية فتكثر في مدة قصيرة وبعد ذلك يهون عليَّ الهجوم على العدو وكان المقصود الاقتراب من الامة الانكليزية ونتيجة ذلك ظاهرة فان فرنسا ٤٠ مليونًا وانكلترا ١٥ فانهي القتال بمعركة كمعركة اكتيوم . انتهى

وكانت موانع عقد الصلح بين الامتين المذكورتين تزول بالتدريج . فشرع الانكليز يطلبون الى بونابرت عقد الصلح فاجاب طلبهم بسرور وملاطفة قائلاً يهون علينا عقد الصلح اذا كانت انكلترا راغبة فيهِ . قال مستر انكرسول ان بت وزير انكلترا الاول حارب مبادىء الجمهورية لما تمكنت الحكومة الجمهورية القنصلية من ضمد جراح تلك البلاد فانها ارجعت انتظام المالية ونظمت التعليم العمومي وارجعت اكثر الذين هاجروا من الملكيين واعادت الديانة وشرعت في استعداد عظيم للاصلاح لوضع نظام موافق . وكانت الجمهورية الفرنسوية انجح من انكلترا في كل شيء خلا التجارة الخارجية والصناعة وكانت الامة الفرنسوية اكثر ارتضاء من الانكليز . ويصعب جدًا على الوزارة منع المصالحة في احوال موافقة لتلك الاحوال حال كون الجرائد والمفاوضات العمومية حرة

وفي ٢١ تشرين الاول (اوكتوبر) مساء وُقّع على شروط الصلح الابتدائية في لندن وفيهِ خرج بريد من لندن حاملاً الى فرنسا ذلك الخبر المفرح فوصل الى ماليزون في اليوم الثاني بعد الظهر باربع ساعات وكان ذلك المكان محل نتره بونابرت وكان القناصل الثلثة مجتمعين يتفاوضون في الامور السياسية . ولما بلغهم فرحوا جدًا وابطلوا اعمالهم وتعانقوا فان كلاً منهم كان يهنىء الاخر بذلك النجاح العظيم . ولم يقدر بونابرت ان يمنع نفسهُ عن اظهار فرحهِ فاظهرهُ وكان قد قام باعمال يفتخر بها ففي سنتين اجهد نفسهُ في ترقية اسباب مصالح فرنسا فارجع الراحة الداخلية ومكن العالم من التمتع بسلام عام . فقال القنصل كامبسز نجحنا في مصالحة انكلترا فمن اللازم ان نعاهدها تجاريًا فنزيل كل اسباب الخلاف . فاجاب بونابرت على الفور لا ينبغي ان نسرع باتمام ذلك فانهُ

عقد الصلح السياسي فعلينا ان نتمتع بهِ ونعقد المعاهدة التجارية اذا تيسر عقدها فانني لا ارتضي بتحميل الصناعة الفرنسوية اثقالاً للحصول عليها فلا ازال اتذكر ويلات سنة ١٧٨٦ . انتهى

اما حكومة انكلترا فكتبت هذا الخبر المفرح ٢٤ ساعة ليشيع في باريس ولندن في وقت واحد ففرحت الامتان جدًّا لانهُ راحة اواسط اوربا وفتح الدنيا قاطبةً لتجارة كل الامم فالحرب تبسط ظلام الويل والشقاء والتعس والسلام يشرق نورا النجاح والثروة والراحة . فقام الاهالي بالتنوير فرحًا في كل مكان حتى ان ارصن الرجال كانوا يتعانقون سرورًا وحبورًا . اما عامة الانكليز فسلمت نفسها الى تاثيرات الفرح الشديد لانها كانت تحب الفرنسويين وتميل الى البطل الصنديد والحكيم الحاذق الذي بدل الحرب بالصلح وساس فرنسا بالعدل والتيقظ فكانت تسير في شوارع لندن صارخة فليعش بونابرت . وكانت المركبات التي تخرج من لندن ترفع رايات مكتوبًا عليها مصالحة فرنسا . واخذ اهالي لندن يهرعون الى بيت سفير فرنسا المرسل لعقد المعاهدة ووصلوا اليهِ وهو يركب عجلتهُ ليذهب الى وزير خارجية انكلترا ليسلمهُ المعاهدة التي وقعت عليها حكومة فرنسا ويستلم منهُ المعاهدة التي وقعت عليها حكومة انكلترا فهجمت العامة على عجلتهِ وفكت افراسها وجرتها بايديها الى وزارة الخارجية ضاجة متهللة ولما راى اللورد فنسنت ازدحام الاقدام واشتداد الهيجان خاف من حدوث ما يكدر الراحة فسار امام القوم الفرحين وهم يجرون عجلة السفير من وزارة الى وزارة

ثم اولمت الولائم فرحًا بالصلح فحدث ما يدل على بساطة قلب الملاحين الانكليز وثباتهم وحسن نواياهم وهو ان منزل موسيو اوتو سفير فرنسا في لندن كان مزينًا بابهى زينة فراى ذلك جمهور من الملاحين فاجتمعوا ليتفرجوا على جمال التنوير فيهِ فقراوا كلمة كونكرد باحرف نورية ومعناها الاتفاق والاتحاد ولم يكونوا يعرفون القراءة جيدًا فظنوا انها كونكرد ومعناها مغلوب ومكسور والفرق بين الكلمتين في الكتابة وفي اللفظ قليل فتكدروا وتذمروا وهاجوا وماجوا وتهددوا السفير بالاهانة . فخرج ملاطفًا لهم وبين الامر فلم يجدِ ذلك نفعًا فالتزم ان يستبدلها بكلمة امبني اي الصداقة . فسروا جدًّا وضجوا ثلث مرات وساروا في طريقهم فرحين . هذا والامم لا تقدر ان تفرح اشد مما فرح الانكليز بالصلح وقيل ان سرور فرنسا كان اشد . واصبحت الامة الفرنسوية تحق الركون الى حكمة بونابرت وحبهِ لوطنهِ وحذقهِ فلم تكن تمنع عنهُ السلطان الذي يطلبهُ فبانت الامة بين يديهِ واصبح سكان اواسط اوربا يدعونهُ البطل الذي جعل السلام يسود في اوربا . ومع ذلك كان اعداؤهُ كثيرين لان الامراء كانوا يكرهونهُ . وكان الفرنسويون يعضدونهُ لما كان ينفذ سلطانًا لا ينفذهُ غير الملوك المطلقين لعلمهم ان في ذلك صالحًا لهم وراحتهم ورفع شانهم . وقال ان اصحاب الامتيازات الموروثة القديمة ووزراء دول اوربا يبغضونني اكثر مما كانوا يبغضون روبسبير . انتهى . وكان مستر بت وزير انكلترا الاول المستعفي واصدقاؤهُ يسمعون المدن



والقرى تهج مادحة بونابرت ويتمرمرون خصوصًا بعد ان راوا ان حرية مسير المراكب في البحار جعلتهُ يوجه عنايتهُ الى تعظيم فرنسا بالوسائط التجارية وبالقوات البحرية . وكان وزير انكلترا عالمًا ان اقدام بونابرت واقتدارهُ العظيم يمكنانهِ من جمع البوارج بسرعة سحرية فكدرهُ صلح سبق اليهِ على غير رضاهُ بميل الامة الانكليزية لعلمهِ انهُ لا يفيد سيادة انكلترا البحرية

واتفقت الدول على اجتماع السفراء الذين كانوا مزمعين على وضع الشروط النهائية في اميان وهي مدينة بين باريس ولندن . فعينت حكومة انكلترا اللورد كرنوالس سفيرًا لها وهو من الابطال المشهورين الشفوقين الحاذقين . فقال قد انتهى زمان بلايا العالم بالصلح . وكان بونابرت يعتبرهُ ويحبهُ وعين اخاهُ جوزف بونابرت سفيرًا نائبًا عن فرنسا فان لين عريكتهِ ولطفهُ وحلهُ وسياستهُ الموسسة على مبادىء الحرية وادابهُ ومبادئهُ الدينية جعلتهُ في ذلك الزمان الذي كان زمان فساد اهلاً للمصالحة

وكان من شروط تلك المعاهدة خروج الجنود الفرنسوية من مصر لحجب الخطر عن املاك انكلترا في الهند . وكان الفرنسويون في مصر قد قبلوا بالجلاء عنها وعاهدوا قواد انكلترا على ذلك ولكن التعاهد في اميان سبق خبر اتفاق مصر . وتفاوض السفراء بامر جزيرة مالطة فان الامة المتسلطة على مالطة المنيعة تتسلط على البحر المتوسط . فقال بونابرت لا بد من منع انكلترا عن الحصول عليها وكانت قد فتحت جبل طارق واستولت عليهِ فحق لبونابرت ان يطالب جلاءها عن مصر وكان يسوغ لهُ ان يعترف بملكية انكلترا في جبل طارق ويطالب اعترافها بملكية فرنسا في مالطة . وكانت انكلترا تطمع في الحصول على المكانين . فلم يرضَ بونابرت ومع ذلك قبل حرصًا على السلم بتسليم مالطة الى دولة محايدة . فالتزمت انكلترا ان تقبل فاخرجت جنودها وسلمتها الى ابطال سان جون . ووضعت شروط واضحة وهي ان جنود ملك انكلترا تخرج من جزيرة مالطة وما يتبعها بعد المعاهدة بثلثة اشهر . وتمكن بونابرت بجدهِ واجتهاده الدائم وحكمتهِ من ترجيع السلام الى اوربا التي كادت تغرق بطوفان من الدماء

وقال بورين في تاريخهِ بعد عقد الصلح بشروط مناسبة جدًّا لناموس فرنسا بات جميع الاحزاب يوملون انتهاء الحروب الدموية التي كانت البلاد مشتغلة بها فتضع فرنسا النظام الموافق لها . غير ان المجد الذي حصلت فرنسا عليهِ بذلك الصلح اهاج حسد جيرانها وحرك فيهم حاسيات مضرة براحة الامم . وفي ذلك الزمان كان السلطان التنصلي بالغًا اشدهُ ومؤملاً بالحصول على نتائج عظيمة ومن الامور المؤكدة ان بونابرت القنصل الاول كان راغبًا في تقرير السلام وتمكين فرنسا من الحصول على الراحة

وقال بونابرت عن اصحاب الاهلية حال كونهِ اعظم رجال العالم ان اللورد كرنوالس هو

الانكليزي الاول الذي حصل على اعتباري العظيم للامة الانكليزية وبعدهُ المستر فوكس ومع ان بهما الكفاية لذلك اقول ان امير البحر الحالي مالكوم هو من الذين جعلوا عندي اعتباراً عظيماً لصفات الامة الانكليزية . اما كرنوالس فكان ذا اهلية وجود وامانة . ومن الشواهد الناطقة على ذلك انهُ عند عقد المعاهدة في اميان صار الاتفاق على الشروط فوعد بالتوقيع عليها في اليوم الثاني في ساعة معينة . فعاقهُ امر عظيم ففي المساء اتاهُ رسول من انكلترا حاملاً تنقيحات الشروط قبل التوقيع على المعاهدة . فاجاب بانهُ وقع عليها واتى على الفور الى محل الاجتماع وانفذ وعدهُ . وكان يفهم مقاصدي كما كنت افهم مقاصدهُ . وكنت قد جعلت تحت امرهِ فرقة من الجنود فكان يسر بما كان يراهُ من حركاتها . فتمكن حبهُ في قلبي واصبح لهُ عندي احسن ذكر . ولو طلب اليَّ انفاذ امرٍ لاعتنيت بهِ اكثر من طلب ملك . وعرفت عائلتهُ بحبي لهُ فطلبت اموراً باسمهِ فمنحتها اياها على الفور . واتى فوكس اميان بعد المصالحة . وكان مشتغلاً في تاليف تاريخ عائلة ستوارت واستاذني بالوقوف على اوراق الدولة السياسية فامرت بان توضع كلها تحت امرهِ . وقابلتهُ تكراراً الان شهرتهُ شهدت باهليتهِ وحذقهِ وكان من محبي الحرية الكرماء الاخلاق الاذكياء فعددتهُ زينة الجنس البشري واحببتهُ جداً . وستة رجال كفوكس وكرنوالس يقدرون ان يغرسوا في الامة اداباً ترفع شانها . ويهون عليَّ الاتفاق مع رجال كهولاء مع مراعاة العدل وتكون لذلك نتائج حسنة لا تنحصر في تمكين فرنسا من مصالحة امة تستحق كل الاعتبار ولكنهُ يمكنها من القيام باعمال عظيمة بالاتحاد معها

## الفصل الحادي والعشرون

### اصلاحات

اما الصلح المشهور المذكور في الفصل السابق فاسمهُ صلح اميان . ولما تم صمم بونابرت على اقامة افراح عظيمة وتزيينات مدهشة . فعين اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني ( نوفمبر ) سنة ١٨٠١ لذلك وهو اليوم الذي صار فيهِ الفصل الاول . ولما عقد الصلح بين انكلترا وفرنسا بعد حروب استمرت سنين كثيرة تقاطر كثيرون من الانكليز الى باريس لان الناس كانوا يتمنون ان يروا فرنسا خارجة بسرعة عجيبة من الفتن الى انوار السياسة البونابرتية الساطعة وان يشاهدوا الرجل العظيم الذي ادهش انكلترا والعالم . وكان بونابرت دقيقاً في الاعمال لطيفاً فمنع العجلات كلها عن الخروج الا عجلة اللورد كرنوالس وذلك ليتساوى الناس ويمنع اسباب الخلاف . فكانت تسير عجلتهُ في الشوارع والباريسيون المزدحمو الاقدام فيها يشقون صفوفهم لتسير عجلة نائب جيوش انكلترا في وسطهم وهم يضجون فرحاً . وجاء مستر فوكس معهُ ليزور بونابرت فاكرمهُ ولاطفهُ واجلَّ وفادتهُ . ولما مر مع قرينتهِ في مكان التماثيل اشارت امراتهُ الى تمثالهِ الموضوع بجانب تمثال واشنطون محرر اميركا



وبروتوس الروماني . وكان كل الذين يجتمعون بالقنصل الاول في ذلك اليوم يخرجون فرحين بما كانوا يرونهُ من لين جانبهِ ومحاسن صفاتهِ

وفي تلك الاثناء عينت جمهورية سويسرا تسعة رجال من احذق رجالها وارسلتهم ليجتمعوا ببونابرت ليبحثوا معهُ عن تنظيم ولاياتها . وكان قد عين لهم وقتاً للمقابلة فدخلوا غرفة فيها مائدة طويلة عليها غطاء اخضر . وذكر هذا الاجتماع الدكتور جونس من برستول وكان من اعز اصدقاء كثيرين من اولئك النواب . قال ان القنصل الاول دخل الغرفة ومعهُ اثنان من وزرائهِ وبعد ان سلم عليهم جلس في صدر المائدة وجلس وزيراهُ عن جانبيهِ ثم جلس اولئك الوكلاء فبسط امامهم رسماً كبيراً من سويسرا ثم قال احب ان اسمع اعتراضكم على رايي وان اراكم غير متجنبين معارضتي في ما ترون انني اخطات بهِ . فاعترضوا في اول الامر كثيراً فرد عليهم بسرعة ووضوح فاقتنعوا وتيقنوا اصابة ارائهِ وبعد ان تفاوضوا عشر ساعات قالوا انهُ اعرف منا باحوال الدوائر السويسرية وبما يناسب وطننا ويوطد راحة اهلها وسعادتهم . اما وزراء بونابرت فلم ينوهوا بكلمة واحدة . ثم قال النواب السويسريون حكمنا قطعاً ان بونابرت احذق رجل رايناهُ واعظم الرجال الذين طالعنا اخبارهم الخطيرة في التواريخ . وكان منهم موسيو كوتسنفان وموسيو سيسموندي وكانا يعرفان بونابرت حق المعرفة فقالا عنهُ لم نرَ في رجل اخر ما رايناهُ فيهِ من سرعة الخاطر والادراك واصابة الملاحظات والفصاحة الخالية من كل تكلف وتصنع وخلو الغرض مع الاصغاء لكلام الذين يباحثونهُ . انتهى . وقال لهم بونابرت ان دواعي صوالحكم هي اولاً المساواة في الحقوق في الدوائر الثماني عشرة ( وهي قطائع ) . ثانياً مبادرة جميع الامراء والشيوخ الى ترك امتيازاتهم الموروثة . ثالثاً نظام اتحادي لتصبح كل دائرة من دوائر البلاد منظمة نظاماً موافقاً للغتها ودينها وعاداتها وصوالحها . اما الحكومة المركزية فينبغي ان تنظمها ولكنها غير خطيرة كالنظام في القطائع وبلادكم على قمم الجبال الفاصلة بين فرنسا وايطاليا والمانيا فاقتبستم من خصال اهل تلك البلدان وعاداتهم . ولم تجمعوا جيوشاً عاملة ولا ارسلتم نواباً سياسيين الى عواصم البلدان الاجنبية . فينبغي ان تحافظوا على الحيادة التامة وعلى تجارة نامية وادارة داخلية متقنة لتفوزوا بالنجاح وترقوا اسباب صوالحكم . وما تصنعون من النظام المضاد لمصالح فرنسا يضر باعظم اموركم . انتهى

واشار عليهم بان يقيموا في بلادهم نظاماً اتحادياً كنظام جمهورية اميركا وحذرهم من ضرر حصر السطوة في مركز واحد . ومن ينكر على بونابرت اصابة الراي في ما عرضهُ لقطع اسباب الاضطراب من سويسرا . وقال المورخ اليسون ان تلك الشروط التمهيدية ارضت جميع اهل سويسرا . انتهى ولما شرع في وضع نظام سويسرا تلا بونابرت خطاباً نفيساً بليغاً مصيباً ومنهُ ان اعادة الانتظام الى المقاطعات التي تحب ان يكون للاهالي مرجع الحكومة وقوة وضع النظام والقوانين من انسب

الامور لكم ولي . وهي قطائع ذات حكومة مخصوصة بها فتنظر اوربا اليها كلها بالاهتمام ولولا امتياز نظامكم المبني على اشتراك كل الاهالي بالاحكام لما كان عندكم شيء غير موجود عند غيركم . فاحذروا من ان تخسروا ذلك الامتياز . ولذلك النظام العمومي متاعب كثيرة ولكنها اصبحت مالوفة عندكم وقد ثبتت قرونًا كثيرة ومصدرها احوالكم ومركزكم وعادات الاهالي الاولى واستعداداتهم موقعكم فلا تقدرون ان تحيدوا عنها بدون تعريض انفسكم للمخاطر . ومن الخطاء سلب حقوق امة لهيئتها الاجتماعية حقوق نافذة ومن الحكمة السياسية تنظيم تلك الحقوق العمومية تنظيمًا يريح البلاد . اما في رومية القديمة فكان اصحاب الراي بحسب رتب الاهالي وكان جميع الفقراء من الرتبة الاخيرة وفي الاولى عدد قليل من اصحاب الاملاك الاغنياء

اما الدول الاوربية التي كانت تناظر فرنسا في ذلك الزمان فكانت تحسدها جدًا على السطوة الادبية التي اكتسبتها في سويسرا . وقال المورخ اليسون عن اعمال بونابرت فيها انهُ نظم سويسرا بمعرفة دقائق الامور واعماقها وبحذق ولين وتساهل . ولم يفز اهل سويسرا بالتعزية عن خسارة حريتهم الا ببناء مفاوضاتهِ على اسس الحكمة والانصاف . انتهى

اما الانكليز الذين اتوا باريس بعد عقد الصلح فكانوا يتعجبون بالنجاح والتقدم فيها . لانهم راوا فرنسا على غير ما كانوا يقراون عنها في جرائدهم التي كانت تقول انها باتت في خراب ودمار وكانت انكلترا مقسومة الى حزبين وهما حزب الوزير بت وحزب الاهالي . فبت واصدقاؤهُ صالحوا على غير رضاهم لعجزهم عن مضادة الراي العام اي ارادة الاهالي الذين سروا جدًا بالسلام وقال المورخ اليسون ان السرور بانقطاع اراقة الدماء في الحروب كان للعامة التي لا تعرف الحقائق وتقاد الى ما تراهُ في الحاضر بدون التبصر في العواقب لجهلها وعجزها عن التمييز بين الغث والسمين . وكان كثيرون من اهل المدارك في كدر من شروط الصلح فقالوا انهُ لا يكون ثابتًا والحرب انقطعت بغتة بدون الحصول على شيء من اسباب فتحها وان تلك الاسباب انما هي قطع مطامع فرنسا ومنع امتداد مباديها الحرة . انتهى

فهولاء القوم كانوا يلحون على وليم بت ليلاً ونهارًا بنقض الصلح لعدم مناسبتهِ . واظهر المورخ سارولتر سكوت المشهور اراء اولئك القوم قال ربما كان فرح عامة انكلترا عند عقد شروط الصلح الابتدائية وجرهم عجلة سفير فرنسا موسيو لورستون في اسواقها وصراخهم الدائم داعين لبونابرت ما خدع حاكم فرنسا وحملهُ على الظن بان الصلح مما يحتاج اليهِ . ومن المستغرب توهمهُ ان ميل عامة الامة الانكليزية انما هو ميل اعيانها . انتهى

وقال مبغضو بونابرت ان الذي حمل انكلترا على الحرب انما هو ضم جزيرة البا وبلاد بارما الى فرنسا والمداخلة في احوال سويسرا بالسلاح لان ذلك يدل على ان بونابرت لم يكن يحب



السلام مع ان رئيس سفارة المصالحة قال انهُ اخبر اللورد كرنوالس سفير انكلترا تكرارًا بقرب حدوث امر يغير في نسبة ايطاليا الى فرنسا فانكلترا كانت عالمة بتلك التغييرات فلم تكن سبب نقض الصلح وانكلترا هي التي اشارت على سويسرا بترك حيادتها والتداخل في حرب عمومية من مبادئها ان تبتعد عنها وعن غيرها

وبعد الصلح شرع بونابرت بترجيع الدين الى فرنسا . ولا يفهم ذلك الا الجسور بعد ان فعلت فرنسا ما فعلت للتخلص من سطوة خدم الدين ومن دين اجدادها وكان كل قواد الجيوش خلا قليلين جدًا من الكفار الذين يحتقرون الاديان . وكان العنصر الديني متسلطًا على بونابرت بالطبع وكان من اهل الجد والتفكر والتامل . وكانت افكارهُ النيرة تبحث عن اسرار الماضي وتحاول كشف اسرار الاستقبال . وكان قد تعلم في بلاد قليلة المعارف اهلها زراعون يتبعون التعاليم الدينية وكانت امهُ قد ربتهُ تربية امراة تقية وغرست في ذهنهِ ما كان بجملهِ على ان يعتبر ذكرها وكانت علامات الدين تجيء في تصوراتهِ امور الصغر . وكان قد دقق البحث في الانجيل وهو راجع من مصر الى فرنسا فادهشتهُ ادابهُ . وكان يباحث موسيو مونج ولاكرانج ولابلاس وهم من الحكماء الكافرين وكان يحبهم ويعتبرهم وكان يفحمهم بقوة براهينهِ . وكان ذلك حين باتت فرنسا لا تعتبر تعاليم الانجيل ببراهين فولتير والفساد المطلق العنان . فكان اصدقاءهُ القنصل الاول وعاضدوهُ يضادونهُ في ترجيع الدين قائلين ان ترجيعهُ سيادة الخرافات . اما بونابرت فكان يعتقد ان صوالح فرنسا تدعوها الى الايمان بالله سبحانهُ وتعالى واحترام المذهب المسيحي . وفي ذات يوم قال بونابرت لمونج الحكيم اسمع ياموسيو مونج انني لا اعتقد ما اثبت لك انني اعتقدهُ اعتقاد مجذوب ولكن بالاقتناع . فديني بسيط جدًا لانني انظر الى هذه العوالم الواسعة جدًا العظيمة المدهشة فاقول ان الصدفة لا تاتي بها فهي عمل قوة غير مدركة غير معروفة لا نعلم مقاصدها والفرق بينها وبين الانسان كالفرق بين احسن آلة من صنعة البشر والعوالم غير المتناهية . فابحث في كتب الحكماء فتجد ان هذا اقطع الادلة ولا تقدر على نقضهِ . والانسان لا يكتفي بذلك فيطلب ان يعرف عن نفسهِ وعن العالم اسرارًا كثيرة لا تتسنى لهُ معرفتها . فاترك الدين يبين لهُ ما يشعر بالاحتياج الى الوقوف عليهِ واجعلهُ يعتبر تبييناتهِ

وفي ذات يوم تفاوض مجلس الدولة عن ارجاع الدين الى فرنسا فقال بونابرت كنت امشي في اجمة امس لا ارى حولي غير الجوامد المخلوقة فسمعت قرع جرس كنيسة بعيدة فشعرت على رغم انفي بتاثر ناشيء عن عادة الصبوة فانها مؤثرة جدًا . فقلت في نفسي ان كان لها هذا الفعل فيَّ فما اعظم فعلها في العامة . فليجب اهل الحكمة منكم على ذلك اذا قدروا على الاجابة . فاقول لا بد من دين للامة . وربما قيل انني بابوي . لكن لست كذلك . ولو روجت المذهب البروتستانتي لانضم

اليهِ قسم عظيم من فرنسا ولكن الاكثرية تحافظ على الكثلكة ونضاد الانقسام المذهبي . لانهُ يرجع حروب هيكونو ويلقي خصامًا ربما كان بلا نهاية . وبارجاع مذهب كان سائدًا في البلاد وباطلاق العنان لحرية الدين نرضي الجميع

وقال بورين ان صوت الاجراس كان يوثر في بونابرت تاثيرًا لا اقدر على وصفهِ فكان يصغي اليهِ مسرورًا . ولما كنا في مالميزون نمشي في الطريق المودية الى رول قطعت اصوات الاجراس اخطر حديث كان بيننا . فلما سمعها وقف لئلا يكدر صوت المشي اصواتها وتكدر لانني لم اكن اشعر بما كان يشعر بهِ عند استماعها . وفي ذات مرة اشتد تاثيرها فيهِ فقال بصوت مرتجف تذكرت الايام التي صرفتها في برلين وكنت سعيدًا . ورايت بونابرت موثرًا من قرع الاجراس اكثر من عشرين مرة . وقال بونابرت ان الاعياد الكثيرة تكاد تحملني على الامتناع من ارجاع الدين الكاثوليكي فالعيد يوم كسل وانا اكره التكاسل فلا بد للاهالي من ان يشتغلوا ليعيشوا . فلا اقبل باكثر من اربعة اعياد في السنة فاذا لم يرتضِ رجال رومية فليخرجوا من البلاد . انتهى

اما الحبر الروماني فكان يحب بونابرت محبة ناشئة عن الاشتراك في الحاسيات . وكانا قد التقيا في حروب ايطاليا قبل ان تبوأ كرسي الحبرية حين كان اسقف ايمولا . فلما راى في بونابرت القائد الجمهوري الطاهر الصيت من اللطف والحذق وشدة التامل والصفات الحسنة وطهارة القلب والحنو ومنع الجنود عن تجاوز حدود الاعتدال في مضادة الدين واعتبار الكنائس تعجب جدًا واحبهُ . وكان بونابرت يتكلم اللغة الايطالية بفصاحة وبلاغة وكانت اعمالهُ جليلة منتظمة لطيفة لا كافعال الذين كانوا يحيطون بهِ فاثرت هذه الامور الحسنة في قلب ذلك الاسقف ولم تخ منهُ حين صار رئيس الكنيسة . واشد الاشياء تاثيرًا في الانسان العدل وكرامة الاخلاق والذين ينسبون الاعمال الناشئة عنها الى صالح فاعلها هم ادنى البشر . فارسل حضرة البابا المشار اليهِ سفيرًا الى باريس . فقال لهُ بونابرت قل للاب الاقدس ان يحق الركون اليَّ وان يجعل نفسهُ في يدي فاكون للكنيسة في هذا الزمان كما كان لها شارلمان في الزمان الماضي

وجمع بونابرت مكتبة من انفس كتب تاريخ الكنيسة ونظامها ونسبتها الى الدول ونسبة الدول اليها وامر بترجمة كتابات بوسوي اللاتينية ليتمكن من فهمها وكان يطالعها في الفرص الصغيرة التي كان يسترقها من ساعات الاهتمام بامور السياسة وكان يفهم كلام المولفين في لحظة ويظهر الفاسد منهُ ويحفظهُ بذاكرة عجيبة وكانت قوى عقلهِ غير العادية تمكنهُ من استعمال ما كان يعيهِ في ذهنهِ فادهش الناس بمعارفهِ المذهبية . وكان من عاداتهِ مفاوضة العارفين بالامور ليكتسب منهم ويعول على ارائهِ بالاستناد الى البراهين الواضحة المقنعة وبغض النظر عن الاراء الكثيرة التي كانت تبدى لهُ خطاً وكان رجالهُ يجتهدون ان يبينوا انهُ اذا صمم على ترجيع الكنيسة ينبغي ان تكون فرنسوية غير متعلقة



بكنيسة رومية . فقال هل تطلبون ان اصير رئيس كنيسة مهتمًا بنظامها وتعاليمها وانا رجل حرب وقتال فاحب ان اخمد نيران الفتن في فرنسا وفي سائر الدنيا فهل يليق ان ابتدع طائفة منشقة جديدة ابعد عن الصواب من التي سبقتها واخطارها اعظم . فلا غنى عن بابا يقرب اراء الرجال ولا ياتي الشقاق بينهم فينقض اتحادهم ويجعلهم للحكومة الناشئة عن الفتنة بدلاً من الحماية التي ينالها منها فلا استغني عن البابا الحقيقي الكاثوليكي الرسولي الروماني الجالس في الفاتيكان واتسلط عليهِ بالجيوش الفرنسوية وبجاراتهِ قليلاً وصوالحهُ في المحافظة على راحة الكنيسة تجعلهُ ينفذ ارادتي عندما اشيد المذابح واحيي الكهنة واعولهم واعاملهم معاملة خدم دين في كل البلاد . فيبادر الى اخماد هيجان الافكار وارجاع الاتحاد وتسليم الرجال اليَّ والا فيدوم الشقاق المهلك الطارى علينا وذلك وبال عظيم

وكان سفير حضرة البابا يطلب الى بونابرت امورًا يصعب على الامة الفرنسوية ان تسلم بها فقال لهُ عليك بجذب الامة الفرنسوية الى الدين بالحسنى لا بما يجعلها تنفر . فان قلنا ان الدين الكاثوليكي دين الدولة لا يمكنا ان نجعلهُ كذلك بالفعل لمضادتهِ للاراء السائدة في البلاد فالاصوب ان نقول ان الدين الكاثوليكي دين اكثرية الفرنسويين ولا غنى عن حرية الدين التامة لان قاعدة حكومتي اتحاد جميع الحكماء والامناء من جميع الاحزاب فينبغي انفاذها في الكنيسة كما في السياسة فانها الطريق الوحيدة لنهاية مصائب فرنسا فلا انفك عنها

اما مجلس الدولة العالي فبحث عن ترجيع الكنيسة بحثًا مدققًا طويلاً وكان البعض يضادون ارجاعها فقال لهم بونابرت انكم مخدوعون فخدم الدين لا يزالون ما دامت الامة تميل الى الدين والميل الى ذلك غريزي وقرانا عن جمهوريات وحكومات مبنية على المبادىء غير المعتدلة ولكن التاريخ لم يذكر حكومة منها بلا دين . الا تفضلون تنظيم العبادة وحالة الكهنة على بقاء ذلك خارجًا عن سلطان الدولة . فخدم الدين الان يعظون ضد الجمهورية على رؤوس الاشهاد لانهم لا ينتفعون منها فهل ننفيهم . لا . لان اساس سلطانهم عند وقوعهم في خراب ومصائب محافظتهم بامانة على مبادىء كنيسة اسلافهم فحلول الويل عليهم يزيد ذلك ولا يضعفهُ . وربما هان عليكم ان تنفوا الانكليز والنمسويين اذ لا علاقة لهم بالبلاد ولكن لا تقدرون على نفي الفرنسويين اصحاب العيال ولا ذنب لهم الا المحافظة على ارائهم الدينية . اما ابطال ارائهم فتعجزون عنهُ . ولا سبيل الى نوال المطلوب منهم باستمالتهم الى الجمهورية . واذا جعلت المذهب البروتستانتي مذهب الدولة يتبعهُ نصف الامة الفرنسوية والنصف الاخر يبقى كاثوليكيًا فتضرم عندنا حروب هيكونو . ويبيت الشقاق بلا نهاية ولا نطلب شيئًا من خدم الدين فالامر سياسي والراي الذي ابديتهُ اوفق راي واسلمهُ عاقبة . ثم جمعت اراء اعضاء المجلس العالي المسمى تريبون فوافق منهُ بونابرت ٧٨ عضوًا

وضادهُ ٧ اعضاء . وفي المجلس الثاني العالي المسمى كورجسلانيف وافقهُ ٢٢٨ وضادهُ ٢١ فراى بونابرت انهُ حصل على مصالحة عامة في اوربا ووطد اركان السلام الديني في فرنسا وكان جميع اهالي القرى الزراعيين يتمنون استرجاع كنائسهم وكهنتهم

وفي دولة الحكومة الادارية التي سبقت الدولة القنصلية نقل تمثال مشهور حسن خشبي من تماثيل العذراء من كنيسة لوريتو الى احد معارض باريس واقيم فيهِ للفرجة فالكاثوليك الاصحاء الايمان تكدروا جدًا واضطربوا وعدوا هذا العمل عدوانًا ولما عرف القوم في فرنسا وايطاليا ان بونابرت بعث برسول الى حضرة البابا ليرجع ذلك التمثال فرحوا جدًا فانهم كانوا يعتبرونهُ ويحترمونهُ لانهُ يرمز الى المسيح وحمل الرسول شروط الاتفاق بين فرنسا ورومية وقررت . والمعاهدة الدينية التي عقدت بين حضرة البابا وفرنسا في ذلك الزمان تسمى كنكوردانو . اما قوة حضرة البابا الزمنية فكانت كالعدم بالنسبة الى قوة فرنسا حينئذٍ لاقتدارها على ادخال الوف من جنود لا تغلب الى املاكهِ

ولما خرج سفير فرنسا من قصر التويلري في باريس سال بونابرت بان يبلغهُ اوامرهُ فقال لهُ اكرم البابا واعتبرهُ كانهُ صاحب مائتي الف جندي . انتهى . اما الصعوبات التي منعت اتفاق فرنسا ورومية فكثيرة جدًا فان جيش فرنسا كان كافرًا واكثر القواد الاولين ورجال السياسة الذين كانوا حول بونابرت كانوا يبغضون النصرانية ويحتقرونها ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية حاصلة على الاختبار الكافي فلم تمل الى ترك شيء من مطالب لم يكن بونابرت قادرًا على الارتضاء بها فلم يتم الاتفاق الا بعد ان بذل بونابرت كل حكمتهِ وكرامة اخلاقهِ وسعة صدرهِ . وكان شقيقهُ جوزف بونابرت الجامع بين لطف الظاهر ورقة الجانب والاستقامة وصفاء الباطن موكلاً اخوهِ القنصل في جميع المخابرات السياسية

وبعد وضع الشروط الاولية اتت سفارة حضرة البابا بيت جوزف بونابرت المذكور وفي ١٥ تموز ( جوليه ) سنة ١٨٠١ للميلاد ابرمت المعاهدة فاخبر بونابرت المجلس العالي باتمام الامر بخطاب تلاهُ في ساعة ونصف فتعجب السامعون من اصابة افكارهِ واقدامهِ وبلاغتهِ وسمو عقلهِ . واجمع القوم على انهُ من ابلغ الخطب . ولكن الحكماء الذين قالوا ان ابطال جميع الخرافات هو مجد الفتنة اي ابطال كل دين سمعوا كلامهُ صامتين خاضعين لقوة كانوا غير قادرين على دفعها وهولاء هم الاقلية بالنسبة الى الملايين الذين عضدوهُ

ثم نشر بونابرت اعلانًا على الامة الفرنسوية اظهارًا للمعاهدة التي عقدت بين حضرة البابا وفرنسا مبنيًا على الحرية وكرامة الاخلاق وهذا موداهُ

ان سياسة مختلة حاولت اثناء الفتن اخماد نار الشقاق الديني تحت ردم المذبح اي تحت رماد الدين نفسهِ . فلما سمع صوتها انقطعت اعمال التقوى التي كان بعض الاهالي يدعوها



البعض الاخر دعوات اخوة يحبون المساواة بينهم امام الله وامسى الملقى على فراش الموت وحدهُ في الامهِ غير سامع الصوت المعزي الذي يدعو المسيحيين الى عالم افضل من هذا . وظهر ان الناس نفوا ذكر الله سبحانهُ وتعالى من وجه الارض . فيا ايها الذين يخدمون دين السلام اسدلوا على شقاقكم ومصائبكم وعيوبكم ستار النسيان واجعلوا الدين الذي يجمعكم يربط بعضكم ببعض برباطات لا تنقطع متعلقة بصوالح بلادكم . وعلموا الصغار من مبادئكم ان اله السلام هو اله الجنود وانهُ يستر بجنوحهِ الذين يقاتلون عن حرية فرنسا . يا ايها الاهالي الذين يتبعون المذهب البروتستانتي ان النظام قد مد يديهِ لصيانة صوالحكم . فاجعلوا الاداب الصافية المقدسة المبنية على اساس الاخوية تقيم اتحادًا بينكم وبين امتكم واعتبار قوانينهِ . واجعلوا في المحل الاول منع المجادلات في التعاليم التي تضعف المحبة العمومية التي يغرسها الدين ويامر بالقيام بها . انتهى

ولما رات الدول الاجنبية ان فرنسا اخذت في الرجوع الى الدين من تلقاء نفسها سرت جدًا واستدلت بذلك على ثبوت السلام والراحة فبادر امبراطور روسيا وملك بروسيا الى اعلان سرورهما وقال امبراطور النمسا انهُ نفع حقيقي لاوربا كلها . اما المتمسكون بالدين في كل العالم فقالوا ان رجوع فرنسا من تلقاء نفسها الى الدين اعظم فوز للايمان المسيحي فلا تقدر الامة ان تعيش بدونهِ

وفي ١١ نيسان ( افريل ) سنة ١٨٠٢ احتفل بترجيع الدين الى فرنسا في كنيسة نوتردام وبذلت الاموال اللازمة لجعل الاحتفال جميلاً جليلاً . وكان كثيرون من القواد ورجال الدولة يترددون عن الاشتراك ومع ذلك لم يتعرضوا فان شهرة القنصل ونفوذ سلطانهِ حملاهم على الانقياد اليهِ . اما العامة التي كانت تسر بالانقلابات العمومية ففرحت . ولكن الجنرال راب اصر على التمنع عن حضور ذلك الاحتفال . وكان يعلم ان حبهُ الشديد المشهور للقنصل الاول يخلصهُ من القصاص فقال وهو معاند كالابطال اني مصرٌ على التمنع عن حضور الاحتفال واذا لم تجعل اولئك الكهنة معاونيك او طباخيك فاجعلهم ما تشاء . انتهى . وفي اثناء استعداد بونابرت للذهاب الى الكنيسة دخل كامبسز مخدعهُ . فقال لهُ بونابرت وهو يفرك يديهِ سرورًا اننا ذاهبون الى الكنيسة في هذا الصباح فماذا يقول اهل باريس . اجاب ان كثيرين يحضرون القداس الاول ليرفعوا في الكنيسة اصوات الاستهزاء اذا لم يروا فيهِ ما هو كافٍ ليلهيهم . فاجاب بونابرت اذا استهزأ احد اطردهُ من الكنيسة بقوة ابطال الحرس القنصلي . فقال كامبسز ماذا تفعل اذا استهزأ الابطال انتهم بالكاهن . اجاب لا اخاف ذلك فان جنودي ذوي الشوارب القديمة يذهبون الى كنيسة نوتردام هنا كما ذهبوا الى الجامع في القاهرة ويقتدون بي فاذا راوني متخشعًا يتخشعون

ولما انتهى القداس كان الجنرال دلماس واقفًا بجانب بونابرت فقال لهُ ماذا تقول في هذا الاحتفال . فاجاب انهُ خداع جميل واتى حسب المراد ولكن لا يزال ناقصًا شيئًا واحدًا وهو

المليون من الرجال الذين هلكوا في سبيل هدم ما قد ارجعت . انتهى . فاشتد عزم بعض الكهنة برجوع الدين المسيحي واشتدت فحتهم فاتت فتاة مشهورة من الرقاصات في قاعات التشخيص بدون ان تتمم الفروض الدينية فمنع كاهن سان روش عن ادخال جثتها الى الكنيسة وعن القيام بجنازتها فعرف بذلك بونابرت فاغتاظ جداً ونشر في اليوم الثاني الجملة الاتية في جريدة المونيتور

ان كاهن سان روش تمنع عن القيام بالجنازة عند دفن مادموازل كامبرو وهذا خطاء عظيم ولكن احد الكهنة فعل كالعقلا وقام بالجنازة في كنيسة سان توماس فربط رئيس اساقفة باريس كاهن سان روش ثلثة اشهر ليتذكر بان يسوع المسيح اوصى بان نصلي لاجل الجميع وليرجع الى دائرة فروضه ويعلم ان جميع تلك الامور الخرافية هي من نتائج عصر ذي تصورات جنونية وانقياد اعمى الى تصديق امور مضرة بالدين الحقيقي وقد ابطلت بالاتفاق الجديد المتعلق بالكنيسة الكاثوليكية . انتهى .

ورام خدم الدين ان يجعلوا بونابرت يتناول القربان جهاراً لعلمهم ان قدوته تسوق كثيرين الى حضن الكنيسة . فاجابهم انني لا اومن ايماناً كافياً لانتفع به وما عندي من الايمان كاف لان يمنعني عن ان اهينه . وقد وصلنا الى درجة موافقة فاكتفوا فلا ارضى بان اكون مرائياً فاقنعوا بما كسبتم . انتهى

وفرح فلاحو فرنسا بقرع اجراس الكنائس في صباح يوم الاحد وبفتح ابوابها واجتماع القوم باسمين ولوائح الفرح تلوح على وجوههم وبالتمتع براحة يوم الاحد . وقال بونابرت التزمت بان اخمد نيران هيجان فاخماد براكين دينية يكون بالماء لا بالزيت . ولو اقمت الدين البروتستانتي في امبراطوريتي لما لاقيت الصعوبات التي لاقيتها لما ارجعت الدين الكاثوليكي

اما ارباب الخطط في باريس فلما راوا من منافع ادارة بونابرت ما راوا طلبوا اليه ان يرخص باقامة تذكار لفوذه وان تكون نفقته خمسمائة الف فرنك فاجابهم اشكر ارباب الخطط في باريس على ما ابدوه من الحب وقيام تذكار للذين يخدمون الامة خدمة نافعة من الامور الممدوحة . وانا قابل بما عرضتموه من اقامة تذكار لي فعينوا المكان واتركوا اقامة التذكار للاجيال الاتية فتقوم به اذا استصوبت ما تنسبونه اليّ من النفع . انتهى . فمن يدخل المكان المعروف بالانفاليد في باريس يرى اموراً كثيرة تدل على افكار فرنسا من جهة خدمة بونابرت

وكان بونابرت ذا قوة جاذبة يشعر بها الذين يقابلونه ولم يكن في غيره منها ما كان فيه فبعض القواد اغتاظوا منه في ابتداء تسوده واتفقوا على تبيين غيظهم له وكتب احدهم واصفاً مقابلتهم بونابرت انني لا اعلم سبب القوة الجاذبة للقلوب الموجودة في ذلك الانسان (اي بونابرت) ولكنني عالم بانها فيه ولا اقدر على وصفها . فلا احبه ولا كره السلطان الذي ادركه ولكن لا اقدر ان امنع



نفسي عن القول ان فيه ما يبين انه خلق ليكون متسلطاً . فاننا ذهبنا اليه مصممين على ان نبين له افكارنا بحرية تامة وان نباحثه الى ان يزيل سبب كدرنا . فاستقبلنا بما جذب قلوبنا فغير عزمنا في لحظة ولم ننه بكلمة واحدة مما عقدنا النية عليه واطال الحديث معنا بفصاحة مبيناً وجوب ثباته في العمل الذي شرع فيه . ولم يضادنا بكلمة ولم نتجادل ومع ذلك رد على ارائنا رداً افحمنا فخرجنا بدون ان نفاوضه بكلمة خصوصاً عن البحث الذي قصدناه معه وسمعنا براهينه وحكمنا حكماً موقتاً اذا لم نقل دائماً انه مصيب واننا اخطانا . انتهى

ولاقى تجار روان منه ما لاقاه اولئك القواد لما ارادوا ان يضادوه في امر تجاري فانه غلبهم باظهار البواطن وبصدق النية واصابة الراي فخرجوا قائلين ان القنصل الاول اعلم منا بصوالحنا

وقالت الامبرة موركان ان الرجل (اي بونابرت) الذي اصبح رئيساً لامبراطورية عظيمة قادر ان يقوم باشغال عظيمة جداً تدوم اثارها في العالم وعلى فتح البلدان وقهر الامم حال كونه يعرف ان يتكلم عن امور فلكية وعن الروايات والموسيقى والتصوير والادبيات والفصاحة وعن كل العلوم فنقول انه ليس من الرجال العاديين . انتهى . وكان بونابرت يفرغ جهده في سبيل رفع شان فرنسا فكان ينتش على اهل الحذق ويقويهم اينما كانوا . وكان يعتني بجميع الذين كانوا اهلاً للحصول على عنايته فصب انهراً من النعم والجوائز على المولفين والمتفننين . ووجه عنايته الى تعليم الاولاد ونشر المعارف واعتنى بتحسين احوال العوارج والمراكب التجارية والتجارة والزراعة والصناعة والالات . وكان يجتهد اجتهاداً يعجز القلم عن وصفه ليبطل العادات غير الموافقة للمبادىء الادبية التي تحط شان الرجال ولا توافق مراكزهم وفروضهم او ينفر منها الذوق السليم وكانت قاعات التشخيص اعم الملاهي الفرنسوية فكان يضاد التشخيص المخل بالاداب ويلوم الذين يسمحون به ويروج التشخيص الادبي المضاد للعادة الردية . ولم يكن يلتذ الا في عظمة التشخيص المحزن وكان يحافظ في منزله على ما يحافظ عليه الذين دابهم نهج سبل الادب والتهذيب والبساطة في المعيشة والكد والجد ولم يكن بين اهل فرنسا وعددهم اربعون مليوناً اكثر اعتدالاً منه ولا اكثر شغلاً وجداً ولم يكن يحب المسكرات فلما كان يشتغل ليلاً ونهاراً كان يشرب كاساً من عصير الليمون الحامض لينعش جسده ويقويه وكان محباً لعائلته واصدقائه وتجاوزوا حدود الاعتدال في محبته حتى كادوا يعبدونه ولم يتمتع انسان بحب كالذي حصل عليه فان الوفا كانوا يرضون ببذل انفسهم في سبيل خدمته ولم يفقد ذلك السحر بموته ولكنه عاش بعده واتى بالامبراطورية الثالثة ولما سقطت ذلك السقوط العظيم سنة ١٨٧٠ كرهتها اكثرية الفرنسويين على ان بعضهم لا يزال يحبها وهذا الحب من بقايا حب الامة لبونابرت مع ان معاصريه ماتوا ولم يأت خلفه بما اتى به . وقال مولف مشهور لو لم يشتهر بالخدمة العسكرية لاشتهر بالتاليف او بالشعر او بفصاحة الخطب او غير ذلك

من الامور التي تشهر الانسان وتميزهُ عن الاخرين فانهُ كان بارع اللسان والقلم فتاكًا جامعًا بين الفصاحة والبلاغة كما يظهر من خطبهِ الشفاهية وكتاباتهِ من بداية امرهِ الى نهايتهِ

## الفصل الثاني والعشرون

### سلام واعمال

واصبحت فرنسا مسالمة لكل العالم واجمع الناس على ان ذلك السلام النافع انما هو بونابرت العظيم فاثنت فرنسا عليهِ وكادت تكرمهُ تكريم الوثنيين لاصنامهم . وكانت عامة اوربا تعدهُ صديقًا لها محاميًا عن حقوقها لكونهِ عدو اختلاس اصحاب الامتياز الموروث لحقوق غيرهم واعظم مسعف لمبادىء المساواة وبسياستهِ انقطع الفرنسويون عن طلب الحرية بعد ان ذاقوا مرارة سني الوبال ورغبوا في الحصول على حاكم قادر يعتني بهم ويسوسهم ويصونهم من الظلم ويحكم فيهم بالمساواة . فاصبح بونابرت اقوى ملك في اوربا مع ان لقبهُ كان القنصل الاول وفرنسا كانت جمهورية بالاسم . وكان عرشهُ مؤسسًا على قلوب ٤٠ مليونًا من الاهالي . فكانت كلمتهُ النظام والقانون

وكانت جوزفين امرأتهُ تشاهد العظمة التي ادركها باهتمام شديد لما رأت ان سلطانًا مطلقًا امسى في يدهِ وكانت تعلم برغبتهِ في الحصول على وريث يرث اسمهُ ومجدهُ وان كثيرين يقولون ان راحة فرنسا تدعو الى تعيين وريث دفعًا لتنازع اكابر رجال دولتهِ والاحزاب بعد موتهِ فتقع فرنسا في وبال الحرب الاهلية . وسمعت بان كثيرين يشيرون بطلاقها مراعاة للضرورة . وفي ذات يوم كان بونابرت مشتغلاً في مخدعهِ فدخلت عليهِ بهدو وجلست على ركبتيهِ بخفة ودلال وادخلت اصابعها بين شعرهِ وقالت لهُ بلطف عظيم اتوسل اليك بالمحبوبي بان لاتجعل نفسك ملكًا فلوسيان يلح بذلك فلا تصغ لهُ . فنظر اليها متبسمًا وقال هل اصبت باجوزفين بداء الجنون فلا تصدقي هذه الاراجيف وهي حديث الارامل من الاميرات . لقد اوقفتني عن شغل خطير فاتركيني . انتهى . وكانت احيانًا تضطرب جدًا خوفًا من المصيبة التي كانت تخافها . وكانت على يقين ان زوجها يحبها جدًا وان مطامعهُ بلا حد . ولم تقدر ان تغض النظر عن احتياج فرنسا لوريث لبونابرت . وان عقد الزواج في فرنسا يحل بسهولة . والامة التي انقادت الى تلك العادات ترشقها بسهام اللوم وتحكم بحبها لنفسها حبًا مفرطًا اذا تمنعت عن القبول بالطلاق مراعاة لصالح يعود على فرنسا بالراحة ويخلص اوربا من حروب كثيرة . فتعاظم همها وكبر الامر عليها

فاذا قطعنا النظر عن فروض الدين المسيحي وتاملنا في مقتضيات الحال نحكم ان من الواجب على بونابرت وجوزفين ان ينفصلا ليقترن بغيرها للحصول على وريث . وكان لجوزفين ابنة من زوجها الاول اسمها هورتنس وكانت جميلة لطيفة جدًا وبلغت سن ١٨ واحبت دورو احد اعوان بونابرت حبًا شديدًا جدًا وكان لطيفًا عاقلاً حسن السيرة . وكانت جوزفين تحب ان تزوجها



للويس بونابرت اصغر اخوة بونابرت . فقالت يومًا لبورين . ان شقيقي زوجي هما عدواي وانت ترى حيلهما وتعرف الم الذي اوقعاني فيهِ فتزويج هورتنس ابنتي بدورو يجعلني بلا سند ولا عضد . فدورو بلا مركز وهو كالعدم بلا صداقة بونابرت فلا شهرة لهُ ولا مركز ولا مال . ولا يقدر ان يسعفني على شقيقي بونابرت فلا استغني عن عضد . وزوجي يحب لويس جدًا فاذا زوجت ابنتي بهِ يتوازن الميزان بالنظر الى طعن شقيقي زوجي بي واضطهادهما لي . انتهى . فاخبر بورين بونابرت بكلام جوزفين وقال ان جوزفين تتعب باطلاً فان دورو وهورتنس حبيبان فينبغي ان يتزوجا وانا احب دورو فانهُ من عائلة كريمة وزوجت شقيقتي كارولين بمورات وبولين بلوكلرك فماذا يمنع تزويج هورتنس بدورو فانهُ مقدام باسل حاذق وهو كاللذين ذكرتهما وفي يدهِ قيادة فرقة . ولا بد من تنفيذ مقاصدي المتعلقة بتزويج لويس وهي غير مقاصد جوزفين . انتهى . وسكن التصور لاتحمي القلب من دخول الحزن والفرح اليهِ فحالتهُ هي كحالتهِ في اكواخ الفقراء . وفي اثناء انتظار عقد الزواج ارسل دورو لتهنئة الامبراطور اسكندر الروسي بتبوإ العرش . وكان يراسل هورتنس فلما يهمس الكاتب الخصوصي في اذنها خبر وصول رسالة . وهي في عظمة القصر ومقابلاتهِ وافراحهِ تذهب حالاً الى خدرها وتعود وآثار دموع الحب والفرح في عينيها . وكانت جوزفين تومل بان زواج هورتنس بلويس ياتي بذكر يكون ولي عهد زوجها وتسميهِ بونابرت ويكون دمهُ بونابرتيًا من هورتنس التي كانت كابنة بونابرت لفرط حبهِ لها فتخلص من الطلاق وافرغت الجهد في اتخاذ الوسائل للحصول على المراد

وكان لويس شقيق بونابرت مجتهدًا لتحصيل المعارف ومن اصحاب التفكر والتصور القوي والادب ولكن لم يكن ذا عزم ثابت . وكان قد ذاق مرارة خون الحب فضجرت نفسهُ من العالم فانهُ لما بلغ سن ١٩ سنة احب فتاة فرنسوية راها في باريس وهي ابنة امير مهاجر فاشتد عليهِ الغرام فبات لا يفتكر الا بها . وكان بونابرت حينئذٍ في وسط النفوذ العظيم الذي اوصلهُ الى عرش فرنسا وكان يخاف ان يضر زواج اخيهِ بابنة من العائلة الملوكية بصوالحهِ . فقلدهُ مامورية عسكرية واثناء غيابهِ زوج تلك الفتاة برجل اخر بسلطانهِ القوي النافذ . فوقع في اليأس واشتدت عليهِ خيبة الامل وكدرتهُ حال كونهِ شديد الاحساس . فاحب التنحي وانكب على المطالعة لمجانبة عظمة الملك وكان حصول غيرهِ على تلك الفتاة واسطة لضعف كل مطامعهِ . ولم يكن بونابرت عالمًا بحبهِ الشديد فتكدر لما راى انهُ جرح اخاهُ جرحًا بليغًا فافرغ جهدهُ في سبيل التعويض عليهِ بالالتفات ورفع الدرجة والملاطفة وغير ذلك . وكانت هورتنس جميلة لطيفة ومن الجلال والنباهة على جانب عظيم . فانقاد بونابرت الى راي امرأتهِ جوزفين من جهة تزويجها لاخيهِ لويس وعزم ان يزوجها ويمنحها من اسباب العظمة ما يتمنيانهِ . ولم يجب لويس طلب اخيهِ الا بعد مراجعات

طال امرها لان عواطفهُ كانت لا تزال تميل الى حبيبتهِ الاولى ولذلك لم يمل الى الاقتران بغيرها ولو انقطع املهُ من الحصول عليها . ولم يكن كهورتنس ولم يقدر ان يثبت على مضادة ارادة اخيهِ وامرائهِ فالتزم ان يسلم امرهُ اليهما بعد ان بينا لهُ انهما قد ازالا جميع الموانع فتقرر تزويج فتاة تحب عظمة العالم والتمتع بافراحهِ ومجدهِ بشاب يكره ما كانت تحب ويميل الى المطالعة والتامل . فكل من العروسين لم يقبل بنصيبهِ قبولاً تامًا وكانت هورتنس اقرب منهُ الى الارتضاء لان عمها بونابرت وهو زوج امها وعدها برفع درجتها وتمكينها من ثروة ومجد عظيمين وقبل لويس ان يسلم امرهُ الى نصيبهِ معتقدًا انهُ لا حظ لهُ في الدنيا بعد خسارتهِ محبوبتهُ الاولى . وكانت افراح العرس فاخرة جدًا . ولويس نابوليون بونابرت امبراطور فرنسا الثالث هو ابن لويس وهورتنس المذكورين ولم يعش بعدهما غيرهُ من اولادهما

وكان بونابرت قد اقام في وسط ايطاليا جمهورية فيها نحو ٥ ملايين من الانفس ولم تكن قادرة على ملاقاة مضادات ملوك اوربا بلا مساعدة فرنسا . وكان بونابرت محاطًا بملوك مضادين لهُ راغبًا في اقامة امة تميل الى فرنسا وتشابهها بنظامها واحوالها في ايطاليا لعلمهِ ان ذلك من مصلحة فرنسا . ولم يكن الايطاليان متعودين سياسة انفسهم فكانوا يطلبون الى بونابرت ان يضع لهم نظامًا لاعتقادهم انهُ مخلصهم من جور ملوكهم وسوء حالتهم فارسل ثلثة رجال من جمهورية سيزلبين الايطالية الى باريس ليشاوروا بونابرت الفصل الاول بتنظيم بلادهم فبارشاداتهِ وضع نظامًا موسسًا على الحرية موافقًا للامة الايطالية والسطوات الملكية التي كانت تحيط بتلك الجمهورية اي ان الحرية التي جعلت لها كانت موافقة لتلك الاحوال ومن النظام المذكور ان ينتخب رئيس ونائب رئيس ونكون مدة الرياسة عشر سنوات ويقام مجلس عال فيهِ ثمانية اعضاء ومجلس نواب فيهِ ٧٥ عضوًا وصار انتخاب اولئك من ثلثمائة من اصحاب الاملاك ومائتين من التجار ومائتين من مشاهير اهل المعارف وخدم الدين فاجتمع في ذلك المجلس اعضاء من اخص الاهالي . وكان اهالي ايطاليا في ذلك الزمان كجميع اهالي اوربا مقسومين الى ثلثة احزاب الاول الملكيون الذين كانوا يحبون رجاع الملكية مع امتياز الملوك والامراء . والحزب الثاني الجمهوريون الذين كانوا يرغبون في تقرير حكومة ثابتة لانفاذ القوانين بالمساواة والمحافظة على الراحة العمومية . والحزب الثالث الجاكوبيين وهم الذين كانوا يرغبون في ابطال الامتيازات وان يقسموا الاملاك ويحكموا بارادة العامة العمياء . اما ايطاليا فكانت قد خضعت زمانًا طويلاً لسلطان النمسويين القهري وانقادت الى تعاليم خدم الدين الدينية . فالعبودية الطويلة افسدت اخلاق الاهالي فباتت البلاد غير قادرة على الاتيان برجال سياسة قادرين ان يقبضوا على زمام الامور في زمان كثرت فيهِ القلاقل والاضطرابات وهذا هو الذي حمل بونابرت على ان ينتخب هو لرياسة الجمهورية فيسلم بعض الامور الى احسن



الايطاليان ويحفظ ادارة اعظم الاعمال في يدهِ الى ان يقوم بينهم من يقدر على الادارة . وقال موسيو تيرس ان الذي حمل بونابرت على طلب ذلك ليس هو الطمع ولكنهُ اصابة الراي فان الاراء التي ابداها بهذا الشان خالية من الاغراض ودقيقة جدًا . انتهى . والدليل على قوة بونابرت العاقلة العجيبة وركونهِ الى اقتدارهِ مبادرتهُ بلا تردد الى تنظيم امة عددها خمسة ولو ملايين من السكان فضلاً عن ادارة امة عظيمة . وكان ذلك سنة ١٨٠٢ وعمرهُ ٣٣ سنة فقط . ولو سلم بونابرت الى السلطان النمسوي اولئك الايطاليان الذين اتحدوا مع فرنسا حين كانت محتاجة الى اتحادهم لفعل ما يقال لهُ خيانة ولو تركهم ليديروا انفسهم مع ضعفهم وحوط المبادىء الجاكوبية والحيل الملكية بهم لاندثروا . فراى لزوم القبض على عنان الادارة العمومية وعضد الجمهورية بسلطانهِ ورايهِ وتسليم الامور الثانوية الى احسن الايطاليان فانهُ ربما اثبت اركان الجمهورية واراح الاهالي ولم يكن يتيسر لبونابرت ان يذهب الى ميلان من تراكم الاشغال في فرنسا فجعل اجتماع مجلس تلك الجمهورية في ليون وهي في وسط المسافة الواقعة بين باريس وميلان عاصمة الجمهورية لتسهيل تقرير النظام الاساسي . وهكذا صار انتخاب ٤٥٢ نائبًا ايطاليًا فقطعوا جبال الالب في كانون الاول (دسمبر) وكان الثلج يغطيهم . وهيأ لهم بونابرت بحذقهِ وتيقظهِ اسباب الراحة في الطريق وفي ليون وعين قاعات جميلة فيها افخر الاثاث لنزولهم واجتماعهم وذلك لما رجع جنود مصر بعد احتلال خرشمس افريقية والبسهم ابهى الملابس العسكرية واقامهم في ليون ليزيدوا بهاء الاحتفال باولئك النواب وجعل شبان المدينة جيشًا من الفرسان

وفي ١١ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨٠٢ اتى ليون ومعهُ جوسفين . واصبحت اهالي البلاد المجاورة لها في جانبي الطريق منتظرين مرورها بفروغ صبر . وفي الليل اضرمت نيران كثيرة في السبل . وصح الناس قائلين فليعش بونابرت وكان وصولهُ مع جوزفين الى ليون في اخر السهرة والانوار مشعلة فصار ليلها نهارًا ومرت عجلتهُ تحت قنطرة نصر عليها تمثال اسد نائم يرمز الى فرنسا ونزل في اوتيل دوفيل المهياة لهُ بالفخر زينة وكان الايطاليان يحبون بونابرت حتى كادوا يعبدونهُ وكانوا يفتخرون بشهرتهِ لحسبانهم اياهُ منهم . ولما قيل للنواب المار ذكرهم ان بونابرت رئيسنا ضجوا متهللين واثبتوا رئاستهُ حالاً بفرح عظيم . وانفذ اليهِ وفد حالاً ليخبرهُ بان مجلس نواب جمهورية سيزالبين انتخبهُ باجماع وفرح رئيسًا للجمهورية . وتم ذلك في المجلس والجيوش تعرض على بونابرت وهي التي حاربت معهُ في ايطاليا ومصر . وكانت العناصر تعظمهُ فان الجو كان صافيًا والشمس لامعة والهواء منعشًا فاجتمع في الشوارع جميع اهل ليون وجوارها و يعجز القلم عن وصف سرور اولئك الابطال المجربين بمشاهدتهِ راكبًا قبالة صفوفهم التي طالما قادها الى النصر والظفر . فضجوا الجنود وهللوا تهليلاً يدل على الفرح واضطرام نار الحمية فيهم . فلما سمع

الجمهور المجتمع تهاليلهم ضج ايضاً كباراً وصغاراً ذكوراً واناثاً فكان صوتهم كهزيم رعد قريب ثم بعيد . وكانت النساء واقفات تلحن بمناديلهن ورواياتهن ودموع الفرح تنحدر على وجناتهن . وكم من ضمة من الزهور طرحت من النوافذ لتغطي بجمالها الارض تحت حوافر فرسهِ واثر ذلك في بونابرت تاثيراً شديداً وعرف بعض الابطال الذين كانوا قد بلغوا سن الكهولة في العسكرية فدعاهم اليهِ وكلمهم ملاطفاً وسالهم عن جراحاتهم واحتياجاتهم . وكلم كثيرين من القواد الذين كان قد رآهم يخوضون معهُ بحار المنايا عند تصادم الجيوش واضرام نيران الموت الاحمر وكان ياخذ ايدي بعضهم ويهزها فهاجت الافئدة من هذه الاعمال وتذكرت الرجال المعامع فتحركت حميتهم واشترك مع اولئك الابطال بالامتنان الجمهور المجتمع حتى سكروا جميعاً بخمرة لطفهِ . وبعد العرض رجع الى المنزل المذكور فقابل هناك وفد النواب فرفعت اليهِ القرار والحت عليهِ بقبول رئاسة تلك الجمهورية فاجاب ووعدهم بالاجتماع بالنواب في الغد

وكان صباح الغد زاهياً جداً فزينت كنيسة متسعة جداً ليحتفل فيها بقبولهِ الرئاسة فدخل وجلس في مكان مرتفع وجلس حولهُ اعضاء عائلتهِ والوزراء الفرنسويون وعدد غفير من اكابر القواد ورجال السياسة . وخطب في القوم باللغة الايطالية بفصاحة وبلاغة اذهشتا السامعين كانهُ انفق حياتهُ في ارتجال الخطب الايطالية ففاق جميع الخطباء . وقال انهُ قبل الرئاسة وادرك الوسائل اللازمة لنجاح تلك الجمهورية ليصح ان يقال لها الجمهورية الايطالية . وكان كلما تكلم برهة يضج السامعون ابتهاجاً لعبارات جميلة ومعاني بليغة فاقام في ليون عشرين يوماً وكان منفقاً اوقاتهُ في الاشتغال بالمهام وكان يكتب كل يوم الى باريس لوضع اساس الحكومة الفرنسوية وفي بعض الرسالات الخصوصية التي ارسلها الى باريس ما يدل على بعض نواياهُ ومقاصدهِ وغاياتهِ ومنها اقوم باعمالي بالتدريج والقسم الاول من النهار يقضى بمقابلة وفود الولايات المجاورة . ومن المحقق ان فرنسا تقدمت في السنتين الماضيتين فعدد اهالي ليون زاد اكثر من عشرين الفاً . وقال لي جميع اصحاب المعامل ان اعمالهم في رواج عظيم والظاهر ان الحمية اضرمت نارها في الجميع . والحمية لا تقلب الدول ولكنها توطد اركانها وتنجحها وتغنيها . واطلب اليك عزل جميع الاعضاء الذين لا يخضعون للنظام فان الامة تروم ان لا تمنع الحكومة عن الامور التي تعود على الجمهور بالخير . اما افعال سيه فتدل انهُ اشترك في قلب كل نظام وضع منذ سنة ١٧٩١ ويحاول الان قلب النظام الجاري فينبغي ان يشعل مصباح لسيدتنا لتخلصهُ من الصعوبات الوخيمة التي وقع فيها . وكلما تقدمت في السن ارى ان كل انسان مجبور بان يقوم بما قضي عليهِ ولتحقق هل ارسل الزاد الى سان دومينغو واظن انك عملت على هدم الشاتيلي واذا احتاج وزير الحربية بوارج ملك نابلي فدعهُ يستعملها . اما الجنرال جوردان فقد رفع اليَّ تقريراً مرضياً عن بيامونت . واروم ان يرسل رويه الى الفرقة



السادسة عشر ليفحص حسابات مدير محاسباتها وان يعين كرويه لفحص حسابات محاسب الفرقة الثالثة عشرة والرابعة عشرة . اذ يقال ان امناء صناديق المال فيها يؤخرون دفع المرتبات وكذلك الصيارفة فامناء الصناديق والصيارفة يكدرون الدولة . امس ذهبت الى معامل كثيرة فسرني ما شاهدتهُ فيها من الاجتهاد ومن اسباب التوفير . واذا بقي البرد شديداً في هذا الشتاء لا تكون الخمسة وعشرون الف ريال المعينة للحسنات في وزارة الداخلية كافية فاضيفوا خمسة الاف ريال اليها للمواد الاستدفائية في الكنائس وسائر الابنية الكبيرة . انتهى

وفي ٢١ كانون الثاني (جانفيه) رجع بونابرت الى باريس وكان قد تجدد انتخاب النواب واعضاء المجلس القضائي فعزل الذين ضادوا ترجيع الديانة المسيحية الى البلاد ووضع القوانين المدنية الجديدة وانتخب غيرهم من الذين يعضدونهُ فاصبح قادراً على تنفيذ كلمتهِ بلا معارضة ولما عاد طلب رجال الدولة الاجتماع بهِ وهنأوهُ بما بوافق عظمة اعمالهِ ومشروعاتهِ . فحصل على نفوذ لم يكن غيرهُ من روساء دول اوربا حاصلاً عليهِ . ولم يكن قاصداً غير تنظيم فرنسا ورفع شانها فوجه كل عنايتهِ واجتهاده الى ذلك وكان يعد مجدها مجدهُ وسعادتها سعادتهُ وثروتها ثروتهُ فكان يعتني بها اكثر من اعتناء الاباء بالبنين فلم يكن يبالي براحتهِ وانشراحهِ ولا بالملذات والملاهي بل كان يطمع في رفع شان فرنسا وانمائها وتنجيحها . وكان توفيقهُ العظيم يعظم تلك المطامع ويقوي املهُ الواسع . ولم يحاول رفع شان فرنسا بخراب امم اخرى ولكن يجعلها مثالاً للكمال ودليلاً لكل امة على الفلاح والمعارف والسعادة . فما اجل هذه المطامع وانفعها ولم تكن مما يبغي فرنسا مساوية لسائر الشعوب فانهُ صمم على رفعها الى المحل الاول ولم يكن يحاول سلب سعادة تلك الامم لتحصل فرنسا على السبق لان اعمالهُ كانت موسسة على مراعاة حقوق الانسانية بتثقيف العقول ونشر الاداب والتهذيب وتقدم الصناعة وتوسيع دائرة التجارة والاعمال العمومية العظيمة فتصبح الامة الفرنسوية سابقة للامم السائرة في سبل التقدم . ولم تناظرها في ذلك الميدان الا انكلترا . وكان في فرنسا نحو اربعين مليون نفس وفي انكلترا نحو ١٥ مليوناً ولكن مهاجرها في كل قارة وبوارجها سائدة في جميع البحار فقال بونابرت ينبغي ان يكون لفرنسا بوارج . فقال رجال انكلترا اذا مكناها من ذلك ربما امسينا دولة ثانوية سطوتها نافذة فيها . انتهى . وهذا صحيح . وكانت انكلترا اقوى دولة في البحر واستبدت فيهِ وتجاوزت الحدود في اعمالها واهانت سائر الدول ولا تلام لانها رامت صيانة مصالحها ولا تلام فرنسا لانها حاولت انشاء المهاجر وتوسيع تجارتها ومصافاة الدول وبناء البوارج لتحميها من العدوان في البحار والثغور وكان بونابرت يتكلم باعتبار على قوة اعدائهِ ولو نفذت فيهِ فلم يكن يستر الحقائق لحسد او غرض ولم يكن اعداؤهُ مثلهُ من هذا القبيل وكانت فئة منها محقة والاخرى متعدية والحكم لاحدها صعب ليكون الحكم عادلاً من كل الوجوه ولو لم

تكن الدنيا دار شقاء وويل لما راينا في تواريخها اخبار كهذه . فما اشقى الانسان

وكانت انكلترا تشاهد تقدم فرنسا العظيم السريع بخوف واضطراب وقلق لظنها ان قوة بونابرت الفصل الاول فائقة القوة البشرية لدلالة اعماله على حكمة عظيمة وقوة غير عادية ولما بلغها انتخابه رئيساً لجمهورية ايطاليا رات انه اضاف الى بلاده خمسة ملايين نفس حين شرع في انشاء مهجر البا . وكان يرسل البوارج والمهمات لتنظيم مهجر سان دوميكو . فتعاظم قلق انكلترا وارتباكها وخوفها خصوصاً لما بلغها انه اشترى لويزيانا من اسبانيا وصمم ان يملأ وادي نهر ميسيسبي المخصب بمهاجرين وشاهدت فرنسا كلها في اشتغال بانشاء المعامل وتمهيد الطرق واقامة الجسور وحفر الترع وبناء الحصون . وكان لبناء البوارج صوت يسمع في اكثر ثغورها . وكانت الامة الانكليزية تشاهد هذه المشروعات والاعمال العظيمة بدهشة وحيرة ورجال سياستها بخوف واضطراب

وكان بونابرت مشتغلاً بهذه الامور العظيمة الصعبة وبوضع نظام عام نافع لتعليم اولاد الامة الفرنسوية فكتب بخط يده نظام المدارس وعين التدريس . وشادها على اساس التربية الحربية لعلمه ان فرنسا محاطة بممالك وامبراطوريات مضادت لنظامها فتحتاج الى تعميم الفنون الحربية . وعين كهنة للتعاليم الدينية وقواداً من الشيوخ الذين خرجوا من الخدمة العسكرية لتعليم الفنون الحربية واعلم رجال اوربا لتعليم العلوم . ولم يحصر اعتناءه في تلك المدارس ولكنه اهتم في انشاء مدارس للاناث ومن اقواله ان فرنسا في احتياج شديد الى امهات قادرات على تربية حسنة لانها من اعظم اسباب اصلاح حالها وقطع فسد رجالها . انتهى . وعين مليون ريال لانشاء اماكن لعرض الامور على التلاميذ مجاناً وانشأ عشر مدارس لتعليم القوانين والنظام . وتسعاً للطب ومدرسة لصناعة الالات وهي احسن مدرسة في فرنسا ولا تزال تنفعها نفعاً عظيماً جعل اصول المساواة في جميعها وابواب التقدم مفتوحة لكل طالب . وقال هذا هو اول العمل وسنتقدم بالتدريج

وانشأ الرتب المعروفة برتب اللجيون دونور ولاقى مقاومات شديدة فان من قواعد الثورة ابطال القاب الامتياز وان يقال لكل انسان عظيماً كان او حقيراً غنياً او فقيراً سيتويان . ولم يكن مرتضياً بذلك للزوم مكافاة الذين يقومون بالاعمال المستحقة الامتياز بالحصول على ما يبين نفعهم لبلادهم وبعد الصلح دخلها كثيرون من الاجانب . وكانت العامة تتبع اولي الرتب والامتياز وكانت الاقدام تزدحم في الساحة امام قصر التويلري عند مرور الاجانب لابسين الملابس الرسمية وعلامات الامتياز وخطب بونابرت في مجلسه الخاص بهذا الشان خطاباً بليغاً قال تاملوا في الاباطيل التي يحتقرها اهل التعقل فالعامة لا تستخف بها لحبها الاثواب الملونة كما تحب الاحتفال في الكنيسة فالحكيم الجمهوري يقول انها اباطيل تدل على الكبرياء . وهذا هو الصواب ولكنه مصطلح



عليها عند البشر وربما قوت القوم وانت بمنافع كثيرة منها يقوم الابطال . فالعبادة نتيجة العواطف الدينية ولعواطف المجد امتيازات ظاهرة . ولا يوافق الافراد ان يتفردوا في الاعمال ولا الامم مخالفة كل الناس وهذه المخالفة تصنع لا يمدحه ذو الذوق السليم المعتدل الاراء . فعلامات الامتياز في جميع البلدان فلنستعملها في فرنسا لانها توطد الصداقة بيننا وبين اوربا . فجيراننا يعطونها لاهل الامتياز الموروث . اما انا فساعطيها لاصحاب الاهلية الذين يمتازون باعمالهم العسكرية او الملكية والذين يشتهرون بالتاليف والاعمال . انتهى

فقال مضادوه ان انشاء نيشان اللجيون دونور هو الرجوع الى الامتياز الموروث الملغى بالثورة فقال شتان بينهما فنيشاننا يحصل عليه صاحب الاهلية دون غيره وينتهي بموته فهو عكس الامتياز الموروث والنظام القديم الملغى بالثورة لا يزال اقوى مما تظنون فان المهاجرين متكاتفون على صالحهم والفنديون منتظمون على سلك الدفاع عن الامور القديمة سراً وبواطن خدم الدين لا تحبنا . وربما نهض الوف من الاهالي اذا دعوا الى ترجيع الملك الاصلي . وينبغي ان يكون للرجال الذين قاموا بالثورة رباط الاتحاد فلا يبيت وجودهم السياسي متعلقاً بالمصائب التي ربما كانت تقلب رئيساً واحداً . ومنذ عشر سنوات لم نشتغل الا بالتخريب فعلينا بالبناء والاختلاف بيننا وبين اوربا لم ينته ولا بد من الرجوع الى النزاع الماضي . انتهى . واشار بعض رجال الدولة على بونابرت بحصر الرتب في العسكرية فقال ان ذلك خطاء مبين فانه لا يسوغ حصر المجازاة بالجنود فان جميع الفضائل اخوة . فشجاعة رئيس المجلس عند مضادته العامة كشجاعة كليبر عندما هجم على اسوار عكا . ومن الانصاف ان يكون للاعمال المدنية الحسنة مجازاة كما للخدمة العسكرية اما الذين يضادون ذلك فهاتون ببراهين كبراهين البرابرة . فانهم يطلبون الينا ان نثبت قواعد القوة الوحشية مع ان للذكاء والمعارف المحل الاول وللقوة المحل الثاني لان القوة بدونهما كالعدم ومن عادات البرابرة ان يجعلوا اطولهم قامة واقواهم جسداً رئيساً عليهم . اما عندنا فقائد الجيش اعرف الشجعان واحذقهم . ولما راى مراد بك فنوننا الحربية عرف الاسباب التي جعلتني انا دون غيري القائد العام فحصر الرتب في العسكرية هو من ذلك القبيل . فاذا ذهبتم الى خيامهم وسمعتم اخاديثهم هل تسمعون ان اطول رجالهم ارفعهم مكانة عندهم وهل تظنون ان لاشجع الرجال عندهم المحل الاول من الاحترام . لا . فانه لاحذق الرجال واعرفهم ولهم الاسبقية عندهم على المحصور فضلهم بالشجاعة ويحتقرون الجبناء وهل تظنون انني حاكم فرنسا لاكتسابي شهرة قررت في عقول الامة انني قائد عظيم . لا . فانني احكمها لحصولي على الصفات اللازمة لرجال السياسة والقضاة . وفرنسا لا تخضع لسلطان السيف فلا تخضع له الا بعد الخضوع لاثقل العبودية والظلم خمسين سنة فناموسها وحذقها يجعلانها لا تقبل بالخضوع للسلطان الماضي فلا بد من ان تحترم الناموس والمعارف والفضائل

والصفات الحسنة المدنية ومن ان تجعل لكل منها جائزة كسائر الامور الحسنة . انتهى

وروح الجمهورية الصحيح انما هو المساواة في الحقوق لا المساواة في المراتب ودرجات الاعتبار الامتياز المؤسس على الاستحقاق . وكان بونابرت مصماً على منح رتب اللجيون دونور الى جميع الذين يمتازون بالحذق والمعارف والجد وصدق الخدمة فيتمكن اصغر الفلاحين من نوالها بالاستحقاق . وكانت فرنسا لا تزال تكره ما يشابه امتياز الامراء ولو قليلاً فلاقى مقاومة شديدة ولو كانت الاكثرية موافقة لهُ . فتعجب بونابرت وقال لبورين لقد اصبت فان القوم ما برحوا يضادوني وكان ينبغي ان انتظر ولكن قد نفذ الامر وبعد مدة قصيرة ترى ما يبين لك ان ميل القوم الى تلك الامور لم يبحَ جميعهُ فانهُ من الفطرة البشرية ولا بد من ان ياتي بنتائج غير عادية . انتهى

وتقرر ان يعين لتلك الرتبة ستة الاف عضو وقسمت الى اربع درجات . وعلامتها قطعة صغيرة من المنسوج الاحمر . وجعل للرتبة الاولى خمسة الاف فرنك سنوياً وللثانية الف فرنك وللثالثة الف وللرابعة ٢٥٠ ريالاً فينال هذا الامتياز الجندي المجد الشجاع وصاحب المعارف المشهور والصانع الحاذق فكنت ترى هذه العلامات على صدور القواد والامراء والملوك . ومما أيد مناسبة ذلك لفرنسا ولذوق اهلها النيشان بقاء هذا مع كثرة التقلب . وقال موسيو تيرس انهُ حديث العهد ولكنهُ معتبر عند الفرنسويين كانهم تعودوهُ منذ قرون كثيرة لكونهِ جائزة بينة للشجاعة والمعارف ولكل فعل يحق لصاحبهِ ان يجاز عليهِ . واعظم ملوك اوربا وعظماؤها الذين يفخرون بحسبهم ونسبهم يتمنون الحصول عليهِ . ومن اصولهِ حلف يمين عند الحصول عليهِ وهي اقسم بناموسي اني اقف نفسي في سبيل خدمة الجمهورية والمحافظة على استقلال اراضيها والدفاع عن حكومتها وقوانينها والاملاك الكائنة تحت حمايتها وبان اقوم بالوسائط العادلة الصحيحة القانونية لترجيع نظام السيادة الملكية مع القاب وامتيازات متعهداً بتفاني لصيانة الحرية والمساواة . انتهى . وعند انشاء الامبراطورية غيرت بعض هذه اليمين

وطار صيت بونابرت في الافاق . وكانت الامة تحب ان تقدم للقنصل الاول علامة شكرها لهُ وما يليق بالرجل العظيم المقدمة لهُ وبالامة الكريمة التي تقدمهُ . وفي اثناء ذلك خطب رئيس المجلس قائلاً اجمعت كل الامم على منح علامات شكرها للذين باعمالهم العظيمة رفعوا شان بلادهم فمن يحق لهُ ذلك غير الجنرال بونابرت فانهُ بشجاعتهِ وحذقهِ خلص الامة الفرنسوية من ظلم الافراط وبلايا الحروب . وفرنسا عظيمة كريمة لاتقبل خدمة كهذه بلا مكافاة . انتهى . فانتخبت لجنة على الفور لمخابرة بونابرت بهذا الشان . وفي غد ذلك اليوم قابل اللجنة في التويلري وحولهُ القنصلان الاخران وعظماء الدولة وسمع باصغاء التقرير الذي قرانهُ وهو المنطوي على ذكر اعمالهِ العظيمة وكانت لوائح التواضع تلوح على وجههِ وقال بعد تلاوتهِ عليهِ اشكر جداً المجلس ولست



بطالب مجداً غير مجد القيام بفروضي وحب اخوتي في الوطن مكافاتي . واسر اذا وجدت انهم يعدون مصائبهم مصائبي . وان حبي للحياة انما هو لخدمة بلادي . واذا قضيت نحبي بعد توطيد اركان الجمهورية ومجدها فلا اشعر بمرارة الموت . انتهى

وتحيروا في مكافاتهِ لعلمهم انهُ ليس للمال عندهُ اعتبار فان ملايين من الليرات وصلت الى يدهِ فوهبها لخزينة فرنسا ولم يكن يحب الراحة ولا التنعم . وقالوا اذا اقمنا لهُ تذكاراً عظيماً يقول عندي ان هذه وسائل لنوال غايات . وكان يروم الحصول على النفوذ المطلق ليقوم بالاعمال النافعة لنوال شهرة لاتمحى . وكاد يكون مطلقاً . فان النواب والوزراء وارباب الخطط كانوا يساعدونهُ في تنفيذ ارائهِ المصيبة . وانتخب للقنصلية الى عشر سنوات وبعد التامل وجد القوم انهُ يسر باطالتها عشر سنوات اخرا ويجعلها دائمة لهُ . فسالوهُ تروم الامر الاول او الثاني . ولم يرض ان يفوهُ بكلمة واحدة بهذا الشان . وفي اثناء ذلك ذهب مبعوث الى كامبسز القنصل الثاني وقال لهُ ماذا يرضي الجنرال بونابرت هل يرغب ان يصير ملكاً قل لهُ ان يصرح بارادتهِ فيقرر المجلس ارجاع الملكية عن طيب خاطرهِ لانهُ يستحق هذه المكافاة . انتهى . واصر على الامتناع عن بث رايهِ فالمقربون اليهِ كانوا يجهلون ارادتهُ . ثم سالوهُ فقال لم اعلق املي بشيء فاقل الادلة على ركون الامة اليَّ يكفيني ويرضيني . انتهى . فبحثوا عن مناسبة اطالة رئاستهِ عشر سنوات او تثبيتها الى ان يموت . وكان كامبسز يعلم انهُ لا حد لمطامع بونابرت المجدية وان سلطاناً محدوداً لا يوافق مقاصدهُ فقال لهُ اذا تمنعت عن اظهار ارادتك تغلط لان بعض المجلس العالي عدوك مع انك خدمت البلاد اعظم خدمة وربما استغنموا فرصة تمنعك عن اظهار ارادتك لتنفيذ غاياتهم . فقال لا تعارضهم فان اكثرهم يفعل اكثر من المطلوب . وفي مساء اليوم الثامن من شهر ايار (مايس) سنة ١٨٠٢ قرر المجلس العالي اطالة رياسة الجنرال بونابرت عشر سنوات فوق السنين الاولى . وربما لم يرض بونابرت غير انهُ بعث بجواب لطيف جداً وقال لا اقبل باطالة زمان رئاستي الا بقرار عام من الامة وهذا نصُّ جوابهِ

ان برهان اعتباركم المشرف المؤرخ في ٨ الجاري سيبقى مرسوماً في قلبي الى الابد . والسعد خدم الجمهورية في السنين الثلث الماضية . غير ان السعد لا يثبت وهل اطال حياة كثيرين من الذين صب انعامهُ عليهم . والظاهر ان صوالح مجدي وسعادتي قد صيرت زمن حياتي العمومية زمان سلام العالم ومجد احد الاهالي وسعادتهُ بالتزمان ان يصمتا عندما تدعوهُ اليها صوالح الامة والمصالح العمومية . هذا وقد حكمتم بانني مديون بدين جديد للامة فساقوم بهِ اذا امرت الامة بما فوضتموني بالقيام بهِ بقراركم . انتهى

ثم خرج من باريس وسار الى مالميزون وهو قصر جميل يبعد عنها نحو ١٢ ميلاً . وكانت

جوزفين قد اشترت هذا المكان البهج باشارة بونابرت لما كان في حرب ايطاليا الاولى . وبعد ذلك صرف مالاً جزيلاً في توسيعهِ واصلاح اراضيهِ حتى صار احب منزل عندها اما كامبسز فجمع مجلس الشورى اجتماعاً غير عادي وبعد مفاوضات طويلة تقرر ان يسالوا عموم الامة السوال الاتي وهو هل يقام نابوليون بونابرت قنصلاً حياتهُ بطولها . ثم قرروا قراراً اخر وهو هل يعطى للقنصل الاول سلطان انتخاب خلفهِ . وهذا عبارة عن ترجيع الملكية تحت اسم الجمهورية . وبعد ان تقرر ذلك سار كامبسز الى مالميزون ليقدم القرارين المذكورين لبونابرت . فقبل بالاول ورفض تعيين خلفهِ فتحير الناس وتعجبوا وقال لهم من اعين خلفاً لي . هل اعين اخوتي . هل ترتضي فرنسا ان يحكمها جوزف او لوسيان كما ارتضت ان احكمها انا . هل اعينك انت يا كامبسز هل تجاسر على القيام بذلك فاذا كانت الامة لم ترتضِ بانفاذ وصية لويس الرابع عشر فهل ترتضي بانفاذ وصيتي فان الميت هو عدم مهما كان عظيماً وهو حي . انتهى . والح القوم عليهِ بالقبول فابى والاسباب التي حملت بونابرت على هذا الامر غير المنتظر لا تزال مجهولة قيل انها تعليق املهِ بانشاء الامبراطورية والخلافة وانهُ اراد ان يبقي ذلك بدون تقرير ليكون علة لتغيير اخر عند سنوح الفرصة . وقيل انهُ كان يخاف ان تقع المناظرة بين اخوتهِ واقاربهِ بسبب الحصول على هبة عظيمة كرئاسة فرنسا وليس على المورخ محاولة اظهار ما عقدت عليهِ النوايا . فنقول ان بونابرت سلك سبيل الرشاد بالامتناع عن قبول ذلك . فالمسالة الاولى قررها ٣ ملايين و٥٦٨ الفاً و٨٨٥ رجلاً ومنعها ٨ الاف وبضع مئين ولم تقم حكومة باكثرية كهذه . فنال سلطاناً ثابتاً صحيح المباني وكتب لافايت فوق توقيعهِ انني لا اختار حكومة كهذه الا بعد الحصول على ضمانة الحرية العمومية وحينئذٍ انتخب لرئاسة الحكومة نابوليون بونابرت . انتهى . ثم اجتمع ببونابرت فقال لهُ اروم الحصول على حكومة حرة انت رئيسها . وقال بونابرت ربما كان لافايت مصيباً بالنظر الى الراي بلا عمل وهو بلا فائدة لانهُ حلم بالنسبة الى البشر ولعلهُ توهم انهُ في امركا وان الفرنسويين امركان فهو جاهل لاحتياجات هذه البلاد . وعين يوماً لحفلة عظيمة وولائم لاقتبال تهاني العظماء والسفراء . وصفت الجنود بين التويلري ولكسمبرج لابسة افخر الملابس العسكرية وجلس القنصل الاول في عجلة عظيمة جداً تجرها ثمانية افراس وسار في موكب فاخر وكان اهالي باريس مجتمعين في الشوارع التي كان يمر فيها يضجون ويهللون . وعند ما هنأهُ مجلس النواب بذلك قال ان حياة الوطني انما هي لبلادهِ والامة الفرنسوية تروم ان تكون كل حياتي لفرنسا فخضعت لارادتها فيا ايها النواب المامول استمرار اجتهادات اني ومساعدتكم ومساعدة اولياء الامور وركون هذه الامة العظيمة وعضدها لصون الحرية والمساواة ونجاح فرنسا وصونها من طوارق الحدثان وتقلبات الازمان . وهي افضل الامم واسعدها وتستحق سعادتها فانها تمتد منها الى سائر اوربا



وافتخر بان احكم بصوت ذلك السلطان الذي هو علة كل شيء لارجع النظام والعدل والمساواة الى الارض ففي الساعة الاخيرة من حياتي اموت بلا خوف من اراء الاجيال القادمة . انتهى

وفي اليوم الثاني طرح في المجلس النظام الجديد لهذا التغيير . وكان المجلس تحت رئاستهِ فقرا كل مادة من النظام على حدة وفسرها مبيناً اسبابها وعللها بفصاحة وحذق عظيم وفيهِ انهُ على بونابرت ان يعين خلفهُ لمجلس النواب . ولم يقبل بذلك في اول الامر ثم قبل بهِ فاصبحت فرنسا في سعادة وسكون بعد الاضطراب والتعب وارتاح بال جوزفين لظنها انهُ زال الخوف من انشاء ملكية . على انها باتت مشغلة البال بمن يجعلهُ خلفاً لهُ وكان بونابرت فرحاً مثلها بقرب ولادة ابنتها هورتنس زوجة شقيق بونابرت فانهما كانا يقولان ان هذا المولود يكون وريثاً لرئاسة فرنسا . وفي ١٥ اب (اوغسطس) احتفلت باريس بتذكار ولادة بونابرت بحسب العادة الملكية . فزارهُ جميع الروساء الروحيين والسياسيين والسفراء وهنأوهُ والظهر اقيمت الصلوات في كل كنائس باريس شكراً لله على منح فرنسا رجلاً كبونابرت . وفي الليل نورت المدينة وكانت العادات الملكية ترجع وكان الذين داسوا تيجان الملكية تحت ارجلهم وهي مضرجة بالدماء يرقون اسبابها بسرور وفرح . وبعد ذلك بمدة قصيرة نزل بونابرت في قصر سان كلو بعد ان اصلحهُ . وكان كل يوم يحضر الصلاة هو وقرينتهُ جوزفين واقتدى بهما اكثر اعضاء البلاط فرجعت الامة الفرنسوية الى الديانة التي وحدها تصون البشر من ارتكاب الشرور التي يرتكبها الكافرون . وكان بعد الصلاة يقابل الذين ينتظرونهُ في القصر . وكانت فصاحتهُ وقوة عقلهِ وبرهانهِ تجعل القوم يقابلونهُ باحترام ومهابة ويصغون الى كلماتهِ بتامل عظيم وكانت ابصار جميع الذين في المحلات التي يكون فيها تشخص اليهِ دون غيرهِ ولم يفقهُ احد من ملوك الارض في التسلط والاعتبار والذين كانوا حولهُ كانوا يحبونهُ من صميم قلوبهم وكانوا يرون بلاطهُ مثالاً للاداب والاحتشام . وكان لاخيهِ لوسيان منزل جميل بالقرب من نوبلي . ففي ذات يوم دعا بونابرت وجميع اهل قصر مالميزون ليحضروا تشخيصاً خصوصياً في منزلهِ . وكان لوسيان وشقيقتهُ اليزا يشخصان بعض رواية فكاهية . وراى بونابرت انهما تجاوزا الحدود في حركاتهما وتظاهراتهما ولم يراعيا الحشمة في ملابسهما فتكدر جداً وقال بعد التشخيص ان هذا معيب ولا يليق ان اسمع بهذه الامور المخلة بالحشمة فاقول للوسيان انني لا اسمح بذلك . انتهى

ثم لبس لوسيان ملابسهُ العادية ودخل قاعة الاستقبال فكلمهُ بونابرت على مسمع من جميع المدعوين وطلب اليهِ ان يمتنع عن تشخيص روايات مخلة بالحشمة وقال انني احاول ترجيع العادات الموافقة للاداب والتهذيب فكيف اسمح لاخي واختي ان يبرزا في موقف التشخيص كانهما عريانان . ان ذلك اهانة . انتهى

وكان بوريين كاتب بونابرت ذاهبًا من مالميزون الى رويل فاضاع ساعتهُ في الطريق فوضعها باعلان وبعد ذلك بساعة جلس ياكل فاتاهُ ولد من الفلاحين بالساعة فسمع بونابرت فسال عن الولد وعن عائلتهِ فسمع اخبارًا جيدة عنها فوظفهُ مع اخوتهِ واجاز الذي اتى بالساعة . وقال بوريين ان الشفقة من اشهر صفات بونابرت

واذا راجعنا بالاختصار اعمال بونابرت بعد ان عاد من مصر نجد في تواريخ العالم ما يشابهها فانهُ لم يقم بشربما قام بهِ في زمان قصير . ففي ٨ تشرين الاول (اوكتوبر) سنة ١٧٩٩ وصل الى الفريجس من مصر وفي اب (اوغسطس) سنة ١٨٠٢ اقيم قنصلاً اول لفرنسا حياتهُ بطولها اي رئيسًا وبعد وصولهِ الى فريجس سار وحدهُ الى باريس وقلب الحكومة الادارية وقبض على زمام الامور وارجع النظام الى ادارة الاعمال ووضع نظامًا جديدًا حسنًا جدًّا لجمع الضرائب وارجع الامنية المالية وسد احتياجات جيش كان قد بات في ضيق شديد . وبعد اجتهاد عظيم قطع الحروب . ولم يانف ان يبيت متوسلاً الى اوربا بان تعقد الصلح . ولكن اوربا فضلت الحرب . فقام باعمال حربية تحير العقول فبعث بالجنرال مورو بجيش جرار الى الرين وقوى ماسينا حتى قام في جنوا باشد الحروب . ثم جمع جيشًا بسرعة سحرية وجعل فيهِ من الرجال والمهمات ما حمل الاعداء على الاستهزاء لان رجالهُ كانوا يجهلون فنون الحروب ثم صعد بمدافعهِ وافراسهِ ومهماتهِ على قمم الالب الكثيرة الثلج وانحدر منها الى سهل مارنجو كانهُ زوبعة قاتلة . وفاز بالنصر مع ان جيشهُ كان اقل كثيرًا من جيش اعدائهِ . وفي اعظم ساعات السرور بنصرهِ العظيم كتب طالبًا الصلح . فاعداؤهُ الذين باتوا تحت رحمتهِ بعد انكسارهم العظيم استغنموا سنوح الفرصة ووعدوهُ بالمخابرة ولكن كانوا عاملين على خدعهِ طالبين اكتساب الزمان لحشد العساكر فارسل مورو الى هوهنلندن والزم ملوك اوربا بان يصالحوهُ وهو تحت اسوار فينا . اما انكلترا فلم تنقطع عن الحرب وبدرايتهِ اكتسب صداقة الامبراطور بولس الروسي وحب بروسيا والدانمرك واسوج وعقد اتحادًا عموميًا لمضادة انكلترا سلطانة البحار . وكان يهتم بهذه الامور وهو يدفع دين البلاد وينشي بنك فرنسا ويشتت شمل اللصوص وقطاع الطرق ويرجع الامنية الى جميع الولايات . وانشأ طرقًا جميلة جدًّا فوق الالب وبنى مستشفيات في قممهِ وحصن المدن المحتاجة الى التحصين وحفر الترع وبنى الجسور ومهد طرقًا عظيمة وابتدا في تاليف تلك القوانين التي ستبقى الى الابد شاهدًا على اجتهاداتهِ . وارجع الدين المسيحي مع مضادة اصدقائهِ لهُ في ذلك واطلق حرية الضمير . وانشأ اعمالاً عمومية في كل مكان لترويج الصناعة ومدارس عالية وابتدائية . واجاز اهل الاستحقاق من جميع البشر . وفي باريس قام باصلاحات عظيمة ونظف الشوارع . وكان فضلاً عن ذلك يدافع عن فرنسا بمحاربة اقوى امة في الدنيا وتاهب لجمع جيش جرار ليحارب انكلترا في داخليتها لامتناعها عن مصالحتهِ . وكانت الحكومة



الانكليزية والامراء ينشرون عنهُ اخبارًا كاذبة ومع ذلك كانت الامة الانكليزية تحبهُ لانتصارهِ للحرية حتى ان كثيرين من مشاهير رجال السياسة الانكليز كانوا تحزبوا لهُ ودافعوا عنهُ فالتزم عدوهُ العظيم وليم بت وزير انكلترا الاول ان يستقيل من الوزارة لعقد الصلح وحينئذٍ رتع العالم في سلام تام . ولاقى في اثناء القيام بهذه الاعمال العظيمة المدهشة صعوبات ومشكلات واضطرابات لا تعد ولا تحصى . وقال يقال ان القنصل الاول لم يكن عليهِ الا ان يجري العدل فاقول في من يقتضي ان ننفذهُ . هل نعدل في معاملة اصحاب الاملاك الذين سلبت املاكهم بالثورة لانهم كانوا امناء لملكهم وللمبادىء التي ورثوها من اسلافهم او معاملة الذين اشتروها ودفعوا اثمانها بالاتكال على قوانين قررت في مجلس لا يحق لهُ ان يقررها او معاملة الجنود الذين هاجروا ليدافعوا عن ملكية قديمة العهد حلفوا بعضدها واخلاص الوداد لها او جنود كانوا يبذلون دماءهم في سبيل المحافظة على الحرية ومنع اعداء بلادهم الكثيرين عن الدخول اليها ليقيموا فيها ملكية كرهوها . وكان البعض يحبون خدم الدين والبعض يبغضونهم . فبات بونابرت في اصعب المواقف فان الامة الفرنسوية كانت مقسومة الى احزاب كثيرة وكل حزب كان لا يرتضي بما ينفع الحزب الاخر فاية حالة اصعب من حالتهِ وهو في رئاسة امة لها من الاحوال ما كان للامة الفرنسوية . وقال موسيو تيرس ان بونابرت تصرف في اموره باعتدال لا مزيد عليهِ بعد ان فاز بانتصار عظيم واخذ يقوم باعمال اعظم الفقهاء واثبت انهُ قائد عظيم محب لاصلاحات السلام بعد ان فاق الجميع باعمال الحروب حتى انهُ وقع في فرنسا وسائر البلاد ارتياب من جهتهِ . فان قليلين من الذين كانوا يجالسونهُ كانوا قادرين على معرفة الاستقبال بادلة الحال وكانوا يخافون عليهِ من سوء العواقب وهم متعجبون من قوة عقلهِ وجدهِ اللذين لم يعرفا الكلل ولا الملل وراوا من قوة ادارتهِ ما حير عقولهم . وكانوا يرتجفون خوفًا حين يقوم باعمال الخير والنفع لانهُ كان ينفذ غاياتهِ بفروغ صبر موسعًا دائرة اعمالهِ وكان تروشو العاقل الحكيم يحبهُ ويعجب من عظم فعالهِ ويقول انهُ مخلص فرنسا وقال لكامبسز بحزن هذا الشاب مبتدي كما ابتدأ قيصر فاخاف ان تكون نهايتهُ كنهايتهِ . انتهى . وقال الدوق دوكاتيا لما قبض بونابرت على زمام الامور كان مهتمًا بامر واحد وهو توطيد اركان الجمهورية في فرنسا لانهُ راى انها لم تنجح عندنا فان تجاوزها الحدود في الاعمال كان لا يزال يشغل افكار الامة وكدنا نقع في مهالك كمهالك الثورة الاولى واعظم منها لما سيقت فرنسا الى يد الرجل الوحيد القادر على تخليصها من المظالم والفتن ولكن هل يقدر ان يتسلط زمانًا طويلاً بحذقهِ الممتاز على الاميال الفاسدة التي تهدد النظام . ونظام الجمهورية ساد في امركا ولكن اين حالها الطبيعية والادبية من حال فرنسا فان امركا بلد جديد اهلهُ قليلون بالنسبة الى اراضيهِ وعاداتهم قاسية وهو منفصل عن ملوك اوربا بالاوقيانوس فلا يخافون امتداد قواعد حكومتها في ممالكهم

ولكن لاترتاح خواطرهم اذا حدث ذلك في بلاد مجاورة لها من قوة الموضع ما لفرنسا . فاتحدت كل اوربا لتدوس الجمهورية وهي في سن الطفولية . ولما قبض بونابرت على زمامها كادت تمسي تحت ارجلهم . فهذا يبعد امل المحافظة على الجمهورية الناشئة عن الثورة وهذه الموانع كافية لمنع انشاء ملكية تحت ادارة قائد مشهور من العامة . فان ملوك اوربا الذين هم من عيال قديمة يهيجون عليهِ حروبًا لابد لهُ من مقاومتها ولا تنقطع الا بالانتصارات . وسر بونابرت بتقريب نظام فرنسا بحسب الامكان من نظام حكومة انكلترا القديم مومِلاً بان تتمتع الامة باخص الامور العمومية التي حصلت فرنسا عليها بثمن غالٍ وترجع الى بعض النظام الذي تعودتهُ واضعاف عدوان ملوك اوربا . انتهى . والذين يتاملون في حالة فرنسا بخلو غرض يدركون اصابة اراء ذلك الدوق . وبونابرت قبلها بنية صافية والامة الفرنساوية ارتضت بها

## الفصل الثالث والعشرون

### بونابرت والانكليز

لما راى اكثر ملوك اواسط اوربا ان بونابرت جعل قنصلاً مدى الحياة سروا لعلمهم ان ذلك يضعف شوكة الجمهورية فانهم كانوا يخافونها . وقال مستر ادنكتون وزير انكلترا الاول لسفير فرنسا ان حكومة انكلترا سرت كصديقة لما بلغها خبر تعيين بونابرت قنصلاً مدى حياتهِ لان ذلك يوطد اركان الراحة في فرنسا . وبادر ملك بروسيا وامبراطور روسيا والارشيدوق شارل النمسوي الى تهنئتهِ حتى ان كاترين المتكبرة ملكة نابلي ام امبراطور النمسا كانت في فينا عند ورود ذلك الخبر فقالت لسفير فرنسا اظهارًا لسرورها ان الجنرال بونابرت من اعظم رجال الدنيا والضرر العظيم الذي الحقهُ بي لايمنعني عن الاعتراف بحذقهِ وتعقلهِ . وقد نفع اوربا بقطع الاضطراب والفتن من فرنسا وقبض على ادارة بلادهِ لانهُ اكثر الناس استحقاقًا . وكل يوم ابين للفتيان من امراء العائلة الامبراطورية وجوب الاقتداء بهِ واحرضهم على الوقوف على احوالهِ واعمالهِ ليتعلموا سياسة الامم ويحتنوا نير السلطان على اهل التعقل والجد . انتهى

وقال بونابرت اذا اردنا ان تكون معاهدات الصلح المعقودة بيننا وبين الدول المجاورة لنا ثابتة فمن اللازم ان يكون نظام حكوماتها كنظام حكومتنا او ان نقرب نظامنا من نظامها فلا بد من عدوان بين الملكيات القديمة والجمهورية الجديدة وهذا اصل الخلاف الاوربي . انتهى . وكان المخاطب الدوق دوكاليتا فقال ان كلام المتصل الاول يشف عن الامور التي كان يطلبها اكثر من كل كلام (اي ترجيع الملكية) وعن الاسباب التي كانت تحملهُ على اعمالهِ فتحقق ان ذلك هو الواسطة الوحيدة لثبوت السلام . انتهى . وكانت اسباب الخلاف بين انكلترا وفرنسا تتكاثر



يوميًا . وكان الانكليز في كدر عظيم لان بضائعهم لم تلاق الرواج المامول والمصنوعات الحديدية والقطنية كانت مصنوعات انكليزية . وكان بونابرت معتنيًا جدًا بترويج مصنوعات وطنهِ فروج تلك التجارة بمنع دخول المصنوعات الغريبة الى فرنسا . اما وليم بت وزير انكلترا الاول السابق وحزبهُ فكانوا الايزالون اصحاب نفوذ وكانوا ينظرون اسراع بونابرت الى بلوغ السلطان بحسد فنشروا في الجرائد جملاً المقصود منها اتهام فرنسا بمطامع كثيرة . وكان اكثر الملكيين الذين هاجروا بلادهم لامتناعهم عن الخضوع الى الحكومة التي خلعت الملكية ساكنين في لندن متحزبين للبوربون واتحدوا مع انكلترا في الحرب الطويلة التي انتشبت بينها وبين فرنسا فلم تقدر الحكومة الانكليزية ان تمتنع عن مشاركتهم في الشعور بمصائبهم ومن المفروض عليها مشاركتهم في ذلك قيامًا بكرامة الاخلاق فكان كثيرون منهم يقبضون رواتب من خزينتها حال كونهم يعقدون مؤامرات دائمة لقتل بونابرت حتى انهم كانوا يرسلون من كان يحاول قتلهُ . وفي ذات يوم غضب بونابرت من تعدياتهم وقال سايين لاولئك البوربون انني لست من الذين يطلق الرصاص عليهم كما يطلق على كلب . وتشكى جدًا من الذين يحاولون قتلهُ وهم في انكلترا يقبضون الرواتب من حكومتها . فان الضابطة الفرنسوية كانت تكشف كل يوم اعمال اولئك المهاجرين الذين يحاولون قتل بونابرت . وكان في انكلترا رجل اسمهُ بالتيه من كتاب الجرائد الفرنسويين البوربون فاذاع اخبارًا كاذبة لتلم صيت بونابرت وامرائهِ واولادها واخوتهِ واخواتهِ ناسبًا اليهم اعظم الاثام والذنوب . فانتشرت تلك الاخبار في انكلترا وامركا واثرت جدًا في الامم . وكان كثيرون يسرون بها ترويجًا لصالحهم بفتح حرب جديدة . فشكا بونابرت امرهُ الى انكلترا فاجابت ان الجرائد حرة ولا سبيل الى معاقبتها الا باقامة الدعوى في المجالس الانكليزية وكان يرى ان تلك الاراجيف تؤثر في الامم وتقرب حروبًا تجري الدماء بها كالطوفان فلا يقطع النظر عن امور كهذه

وكان عرب الجزائر متسلطين على قسم عظيم من البحر المتوسط بمراكبهم يتعدون على جميع مراكب الدول النصرانية وانكسر مركب فرنسوي عند شاطئ الجزائر فاسروهُ وكانوا قد اسروا مركبين فرنسويين تجاريين ومركبًا نابليًا وساروا بها الى الجزائر . فلما سمع بونابرت بهذه الامور غضب جدًا فكتب الى صاحب الجزائر بان يطلق الاسرى ويرجع المراكب بالحال مع التعهد باحترام راية فرنسا وايطاليا والا فيرسل بوارج وجنودًا لينزلوا بهِ الويل والخراب . وكان صاحب الجزائر قد سمع باعمال بونابرت في مصر فخافهُ جدًا وارجع الاسرى والمراكب والتمس منهُ العفو وامر بقتل الذين اسروا المراكب تنفيذًا لامرهِ . ولكن سفير فرنسا شفع فيهم وخلصهم من القتل . وعند ذلك قام بونابرت بعمل عظيم يدل على رغبتهِ في مصافاة حضرة البابا لانهُ لم يكن قادرًا ان يحمي شواطئ مملكتهِ من تعديات اولئك اللصوص فانتخب بونابرت بارجتين

جميلتين من البوارج التي كانت في تولون وسلحهما باحسن سلاح وملاهما بالزاد والمهمات وسماهما القديس بطرس والقديس بولس واهداهما الى حضرة البابا وبعث بسفينة لترجع بالملاحين الفرنسويين الذين ذهبوا بهما الى ثغر رومية لئلا يرجعهم بمالهِ . فسر حضرة البابا جداً واصر على اخذ الملاحين الفرنسويين الذين اتوهُ بهما الى رومية فاكرمهم واجل قدرهم واراهم كنيسة القديس بطرس ومتعهم بالتفرج باعظم الاحتفالات الدينية المدهشة ورجعوا الى فرنسا ومعهم من الهدايا ما يصعب وصفهُ والسنتهم قاصرة عن اداء الشكر للاكرام الذي فازوا بهِ

وكان قد كتب في معاهدة اميان ان على فرنسا وانكلترا ان تخرجا من مصر وان تسلم انكلترا مالطة الى حكامها الاصليين . لانها كانت محصنة غاية التحصين . وكان بونابرت يرضى بتركها بشرط ان يتركها الانكليز . واعظم شروط المعاهدة المذكورة تسليم مالطة الى دولة محايدة فبادر بونابرت الى القيام بعهودهِ . ووقعت موانع على غير رضى انكلترا اخرت خروج جنودها من مالطة . وبقيت انكلترا سنة في مالطة بعد تلك المعاهدة وزالت كل الموانع ولكنها لم تخرج جنودها من مصر ولا من مالطة . واخذ مجلس انكلترا العالي وجرائدها تبحث عن وجوب قيام انكلترا بتعهداتها حال كون فرنسا تجمع قوة تخشى عواقبها . اما فوكس من روساء احزاب مجلس انكلترا العالي فقال انني متعجب من هذا الكلام واسف اكثر من اصدقاء مستر بت ورفقائهِ المحترمين لما ارى من عظمة فرنسا التي تمد قوتها كل يوم في اوربا وانكلترا . وفرنسا هي التي رشقناها بتهمة المداخلة في اعمال الاخرين مع اننا نحن حملنا عليها لنلزمها بقبول حكومة لا ترتضي بان تخضع لها وبقبول العائلة البوربونية حال كونها قد رفعت نيرها عن عنقها . وتمكنت من دفع الحاملين عليها وسيحرض التاريخ الامم على الاقتداء بها ويحفظ لها تذكاراً دائماً . ونحب مصلحة انكلترا جداً ومع ذلك اشتركنا على غير اختيار بالحاسيات مع الثورة العظيمة الدالة على حب الحرية ولا نكتم الواقع . وفرنسا عظيمة وهي اعظم مما يحب الانكليزي المحب لوطنهِ ان يراها ولكن عظمتها لا تسيغ التعدي على معاهدات معقودة . فان تعدينا على معاهدات عقدناها لاننا راينا فرنسا في حالة عظمة تفوق المنتظر وامتنعنا عن تسليم مالطة مثلاً نجلب على انكلترا عاراً بارتكاب خيانة دنية ولو كان في باريس مجلس كالمجلس المجتمعين نحن فيهِ الان للمفاوضات بخصوص سلطان انكلترا النافذ في البحار كما نتكلم نحن الان على جيوش فرنسا وتسلطها على اليابسة . انتهى

ومن المؤكد ان بونابرت كان يحب السلم لانهُ شرع في اعمال متسعة عظيمة لحسن البلاد وينفعها . وكان الوف من الفعلة يشتغلون في انشاء طريق فوق جبال الالب . وكان ينتظر بفروغ صبر نهاية التحصينات وحفر الترع بعد فوزهِ بسلطان مطلق وكل قومهِ ينظرون الى اعمالهِ بدهشة وتعجب حال كونهِ متمتعاً بالمجد الذي يفوز بهِ من يخمد نيران الحروب في اوربا بعد ان اضرمت



سنين كثيرة . وكان قد اطلق سبيل جيوشهِ المجتمعة وحول مال البلاد الى ترويج الصناعة فافرغ كل جهدهِ في سبيل المحافظة على السلام ومجانبة الوقوع في ويلات الحروب واضرارها . وقابل اللورد هوبنورث سفير انكلترا في فرنسا باكرام عظيم وكانت امرأتهُ الدوقة اوف دورست تلاقي احتراماً عظيماً وتقام لها ولائم كثيرة ومآدب فاخرة في التويلري وفي قصر سان كلو . وكان القنصلان الاخران يعتنيان بهما كل الاعتناء ومع ذلك لم يتمكن بونابرت من ان يصافي حكومة انكلترا لانها كانت لا تزال مستولية على مالطة ولم يكن قادراً على تركها في يدها لانها موقع خطير . وفي نهاية المخابرات طلبت انكلترا بحسارة خروج الفرنسويين من هولاندة وتسليم مالطة تسليماً نهائياً الى دولة الانكليز . فغضب بونابرت لما سمع هذا الطلب وقال لقد مضت ايام بومبادور ( وهي امراة كانت محبوبة الملك لويس الخامس عشر وكانت تقوم باعمال مخلة بنفوذ كلمتها عند الملك ) وايام دو باري (وهي امراة اخرى فاسدة الاخلاق احبها ذلك الملك بعد الاولى) فان الفرنسويين يحبون السلام من كل قلوبهم اذا كان موافقاً لناموس الرجال الكرام . انتهى . وعزم بونابرت على مواجهة سفير انكلترا ليوضح لهُ نواياهُ وافكارهُ بلا تكلف ولا تصنع . ففي مساء اليوم الثامن عشر من شهر شباط ( فنريه ) سنة ١٨٠٢ اجتمع بذلك السفير في قصر التويلري وكان في وسط الغرفة التي اجتمعا فيها مائدة كبيرة للكتابة فطلب بونابرت الى السفير ان يجلس عند طرف منها وجلس هو عند الطرف الاخر وقال لهُ احببت ان اخاطبك بنفسي لاقنعك بحقيقة اراءي ومقاصدي . انتهى . ثم اخذ بونابرت يقص عليهِ ما جرى بينهُ وبين انكلترا من البداية الى النهاية بفصاحة وبكلام موثر جداً وقال لهُ انهُ عرض الصلح لما صار قنصلاً ولكنهُ لم يقبل ثم جدد المخابرات بهذا الشان عند سنوح الفرصة وارتضى بامور كثيرة كان من مصلحتهِ ان لا يرضى بها للحصول على صلح اميان . الى ان قال ولكن اجتهاداتي المصروفة في سبيل سلامة انكلترا لم تقابل بمثلها فان الجرائد الانكليزية تنشر العدوان وجرائد المهاجرين الفرنسويين يسمح لها بان تطعن فيَّ طعناً لا يسلم بهِ نظام انكلترا وقد عينت حكومتكم رواتب لجورجي واعوانهِ الذين يحاولون قتلي . والمهاجرون ينالون حماية في انكلترا ولذلك يانون فرنسا بطمانينة ويهيجون الفتن والامراء البوربون يعاملون باحترام يليق بالملوك وقد أرسل نواب الى سويسرا وايطاليا ليوقعوا فرنسا في الصعوبات والمشاكل فلا تهب ريح من انكلترا الا وفيها اهانة وبغض . وقد بلغنا موقفاً ينبغي ان نخلص انفسنا منهُ فهل ترتضون بمعاهدة اميان . فانا انفذتها وهي التي الزمتني باخراج الجنود الفرنسوية من نابلي وتارنتو والاملاك البابوية في ثلثة اشهر . وفي اقل من شهرين خرجوا منها كلها . وقد مضى عشرة اشهر منذ عقدت المعاهدة ولا تزال الجنود الانكليزية في الاسكندرية ومالطة ولا فائدة من محاولة خدعي . فماذا تختارون الحرب او السلم . فاذا كنتم تطلبون الحرب فقولوا فاننا نقوم بها حالاً واذا كنتم

راغبين في السلم فعليكم باخراج جنودكم من مالطة ومن الاسكندرية . اما صخرة مالطة التي اقيمت عليها حصون كثيرة فهي في البحر خطيرة ذات شان عظيم عندي من وجه اخر فان ناموس فرنسا متوقف على جلاء جنودكم عنها . فماذا يقول الناس اذا راونا ننقض معاهدة راهنة الا برنابون في اقتدارنا فقد صممت على انفاذ الامر وافضل ان اراكم مالكين قم مونمارتر ( من باريس ) على ان ارى مالطة في يدكم . واذا كنتم في ارتياب من جهة حبي للسلم فاسمعوا واحكموا فانني وان كنت لا ازال صغير السن حصلت على سلطان وشهرة يصعب على الانسان ادراك اعظم منهما . فهل ارضى بخسارة هذا السلطان والشهرة في حرب ذات خطر . فان حاربت النمسا اعرف السبيل المودية الى فينا عاصمتها وان حاربتكم ساخسركم كل حلفائكم في اواسط اوربا فتبادرون الى حصري بحرًا فاحصركم انا بعد ذلك برًا فتجعلون اواسط اوربا سجنًا لنا وانا اجعل البحار سجنًا لكم ولكن الحرب لاتنتهي الا بوسائط اخرى اشد فعلاً اذ تقتضي الاحوال جمع مائة وخمسين الف رجل وسفن كثيرة ومحاولة قطع البوغاز الواقع بين فرنسا وانكلترا وربما دفنت بذلك في قاع البحار سعدي ومجدي ونفسي . ياسيدي ان الحمل على انكلترا جسارة مخيفة

وكان سفير انكلترا يسمع كلام بونابرت مندهشًا متعجبًا خصوصًا لما عدد بوضوح وفصاحة مخاطر الحمل على انكلترا وصعوباته والتجهيزات العظيمة برًا وبحرًا اللازمة له وصعوبة التخلص من البوارج الانكليزية . ثم قال ان الهلاك بالهجوم على انكلترا اقرب من الفوز . ومع ذلك ارى انه لا بد من تعريض انفسنا لهذا الويل العظيم اذا الزمتموني ان اعرضها له . فلا اتردد عن ذلك لا انا ولا جيشي واقدر على ما لا يقدر عليه غيري . فهل يسوغ لمن كان مثلي متمتعًا بالنجاح والسلطان والسلام ان يعرض سلطانه ونجاحه وسلامه للتهلكة . الا ترى ان كلامي خالٍ من التكلف والتصنع حينما اقول ان مرادي السلام . فمن مصلحتكم ومصلحتي ان نبقى ضمن حدود العهود . فاخرجوا جنودكم من مالطة واعدلوا عن حماية الذين يحاولون قتلي فاذا وافقتم ان اهان بكلام الجرائد الانكليزية فلا باس ولكن لا يسوغ التسليم باهانتي باعمال المهاجرين الادنيا الذين يتعدون على حقوق الحماية التي تمنحونهم اياها حال كونه تقرر في نظامكم انه يسوغ طرد المتحدين معكم من بلادكم . فعاملوني بالحب والصداقة فاعاملكم بهما فتاملوا في ما تحرز من النفوذ في الدنيا بالاتحاد . فبوارجكم لا اقدر ان اني بمثلها ولو بذلت كل مداخيلي عشر سنوات . وعندي خمسمائة الف جندي يسيرون وراءي كيفما توجهت بهم . فان كنتم سادة البحر فانا سيد البر فمن مصلحتنا الاتحاد والا لنة لا فتح الحروب فنسوس الدنيا كما نشاء . فاذا اتحدت فرنسا وانكلترا تقدران على فعال ما تقتضيه حقوق الانسانية . انتهى

فرفع سفير انكلترا كلام بونابرت بالتفصيل الى حكومته ولكنها لم ترض باخراج جنودها من



مالطة وتعاظمت الوحشة بين الحكومتين واخذتا تتاهبان للحروب واغضب ذلك بونابرت وكان يظهر غيظه حينًا بعد حين وقال ان مالطة تمكن مالكها من التسود على البحر المتوسط . ولا ارضى بتسليمه الى انكلترا لاخوفًا منها بل لاني اخسر بحار العالم واحترام اوربا . ولذلك صممت على القتال الى ان تنهك قوتي وهذا افضل من خسارة البحر المتوسط واذا بلغت مدينة دوفر (في عبر البحر) ينقضي امر ظالمة البحار . وفضلاً عن ذلك لابد من محاربة امة لا تطيق عظمة فرنسا فالاسراع اوفق من الابطاء ولا ازال في الشبيبة والانكليز مرتكبون خطأً ربما لا يقعون فيه بعد الان فالاصابة في تسوية الامور في الحال فلا ارضى باستيلائهم على مالطة . انتهى . ومع ذلك خابرهم بان يحتلوا جزيرة اخرى في البحر المتوسط وقال لا اعارضهم اذا اخذوا ثغرًا تلجأ اليه بوارجهم ولكن لا اسمح بان يكون لهم جبلان كجبل طارق في البحر المتوسط احدهما عند المدخل والاخر في الوسط . ولم تقبل انكلترا بذلك . ثم طلب بونابرت ان توضع جزيرة مالطة في يد امبراطور روسيا امانة الى نهاية المخابرات وكان ذلك لما عرض امبراطور روسيا على الدولتين وساطته لمنع الحرب . فرفضت انكلترا مدعية ان روسيا لا تقبل به . وطلبت انكلترا حينئذٍ الى سفيرها في باريس بان يسال فرنسا بقاء مالطة بيدها عشر سنوات فتعترف انكلترا بالجمهورية الايطالية . فلم تقبل فرنسا فطلب سفير انكلترا اوراقه وسافر واخذت البوارج الانكليزية تهاجم المراكب الفرنسوية التجارية اينما وجدتها فوقعت الدنيا في الحروب . وعند المورخين ان فتح هذه الحرب فنشا عن معاهدة اميان فلا يتعلق ببونابرت . وقال بونابرت ثبت عندي في اميان ان احوال فرنسا واوربا واحوالي توطدت ورسخت ولكن وزارة انكلترا استانفت اضرام نيران الحرب فهي علة بلايا الدنيا وكنت مصممًا على توجيه كل قوتي الى اصلاح احوالي الداخلية وكنت قادرًا على القيام باعمال كالمعجزات . ولو تم لي ذلك لما اضعت شيئًا من المجد بل كنت احرزت فخرًا عظيمًا بالانتصار على اوربا اديبًا وتغيير ارائها بالسلام عوضًا عن الانتصار عليها بالحروب التي نشات عن معاهدة اميان وسلبتني مجدًا عظيمًا فقال اعدائي انني احب الحروب مع انني انفقت زماني في المدافعة عن نفسي . الم اطلب عقد الصلح بعد كل انتصار . ولم اكن حرًا باعمالي لعجزي عن انفاذ مقاصدي فكنت قابضًا على الازمة بيد قوية ولكن الامواج المتلاطمة اضعفت عزمها فافلتت منها فكنت اخضع بالحكمة متفضلاً بالخضوع على الغرق بالمضادات . ولم اكن حرًا في اعمالي لان الاحوال كانت بيدي ولما سالني اصدقاءي في ابتداء امري ما هو مطلوبك ليعرفوا مطلوبي ويعاونوني عليه اجبتهم انني لا اعلم . فتعجبوا وربما اغتاظ بعضهم مع انني اطلعتهم على الحقيقة في ايام الامبراطورية لما قلت وسائط التقارب وكان لسان حال كثيرين يسالني ما هو مرامك فاجيب كالاول . ولم اكن حرًا في اعمالي لانني لم احب نفسي محبة احمق يطلب انفاذ ارادته في كل امر . فانني كنت ادبر الامور بحسب الاحوال . فتوهم

الناس انني غير ثابت في بعض الاعمال . انتهى

وقال العالم تشارلز انجرسول المشهور ان الباريسيين قالوا لما راى الانكليز ان معاهدة اميان اذلتهم وكذلك نجاح جمهورية فرنسا عزموا على استئناف الحرب واسبقية حزب التوري في لندن كانت متوقفة على ذلك مع رجوع بت الى رئاسة الوزارة . وان بونابرت كان عالمًا ان حكومة انكلترا عازمة على تجديد الحرب فتحاول اضرام نارها لتجديدها . انتهى . وقال موسيو تيرس المشهور لا تلام فرنسا على تجديد الحرب فان القنصل الاول نهج هذه المرة طريق الامانة والصدق . وكان في انكلترا حزب ضعيف يحب السلم ولكنهُ كان يخشى بطش الحزب الانكليزي الذي كان يحب اثارة الحرب فلما سمع عن احوال سويسرا خاف وامر ان لا تخرج الجنود الانكليزية من مالطة وهذا خطا عظيم . فسقط حينئذٍ اساس السلام لانهُ حين يتيسر لمطامع انكلترا ان تحصل على غنيمة كمالطة . لا يعود ممكنًا ابعادها عنها ولما رات الحكومة الانكليزية اعتدال المداخلات الفرنسوية في سويسرا وسرعتها وان الصعوبة الناشئة عن ذلك امست في خبر كان رغبت في الخروج من مالطة ولكن لم تتجرأ ان تخرج . فطلب اليها القنصل الاول بالعدل وبالكبرياء انفاذ معاهدة اميان فغاظها . انتهى . وقال المورخ وليم هازنت ان انكلترا شهرت الحرب على فرنسا في ١٨ ايار (مايس) سنة ١٨٠٢ وهو زمان مهلك لا تنساهُ اوربا . فانهُ زمان ابتداء ويلات جديدة لا ينساها الناس . فالحرب السابقة لم تات بالمقصود فاثرت بمحاولة محو نتائج الفتن باعظم الوسائط واكثرها خطرًا مع ان تلك الفتنة قلبت دولة مكروهة عند الفرنسويين وان كانت قديمة العهد وكانت قد تغلبت على اسباب تاخيرها الداخلية والخارجية . ومن اعظم الاكاذيب المخترعة لستر شر هذه الحرب ادّعاء انكلترا بانها نصيرة العدل والانسانية . ولم تستخدم الوسائل الاقناعية الخطيرة فاسندت الحرب بادعاءات اقوى واكثر متانة واما الادعاء بان مالطة هي سبب الحرب فهو كاذب فأُدّعي بان تعديات فرنسا وامتداد سلطانها مما يضرُّ املاكنا في الهند ( هذا المؤرخ انكليزي ) فلا غنى عن مالطة لازدياد امنيتنا . وكنا قد وسعنا املاكنا في الهند اثناء تلك الحوادث . فلو جعلت فرنسا ادعاء كهذا واسطة لاثارة الحرب بعد السلام لما سلمنا بان ادعاءها في محلهِ . على اننا لا نخضع للقوانين التي نطلب الى غيرنا ان يخضعوا لها . انتهى . وقال السار ولترسكوت الانكليزي وهو من الامراء المؤرخين ان الوزارة الانكليزية ارتضت بان تبقي مالطة في يدها عشر سنوات بعد ان كانت قد طلبت ان تبقى لها دائمًا . اما بونابرت فلم يرتض بان يقع تغيير في معاهدة اميان ولما كان قد رفض تسليمها الى حرس من نابلي عرض على الانكليز ان يوضع فيها حرس من جنود النمسا او روسيا فابت انكلترا . فخرج اللورد هوبتورث سفيرها من باريس في ١٨ ايار (مايس) سنة ١٨٠٢ وشهرت انكلترا الحرب على فرنسا . فالحرب الدموية التي حدثت بعد صلح اميان صادرة عن الكبرياء والحسد والخوف



ولم يكن للحرب سبب ظاهر يمكن ازالتهُ بتوضيح او اعتذار او بالتسليم بحقوق . انتهى . وقال مستر لوكهارت المؤرخ في ١٨ ايار (مايس) شهرت انكلترا الحرب وكان قد سبق أمر باسر المراكب الفرنسوية اينما كانت . قيل انهُ قبض على مائتي مركب قبل وصول خبر شهر الحرب الى باريس مشحونة بضائع قيمتها ٣ ملايين ليرا انكليزية واذا كان اغتنام البضائع المختصة بالناس موافقًا للقوانين او غير موافق لها فلا ريب انهُ موافق لعرف قديم مرعي عند الانكليز في احوال كهذه وصار قسمًا من القانون الاوربي الحربي . وقال السار ارشيبلد اليسون الانكليزي اذا بحثنا في اسباب تجديد الحروب بالتأني نرى ان الحكومة الانكليزية رغبت في تجديدها فهي المتعدية . انتهى . ولما بلغ بونابرت تجديد الحرب قال لوزرائهِ ان الانكليز يرغبون في الزامنا ان نقفز فوق حفرة لا بد لنا من اجتيازها . وربما فازوا باخذ بعض بوارجنا وبعض مهاجرنا ولكن ساحمل الويل الى شوارع انكلترا . واحذرهم بقولي انهم يندمون على ما فعلوا ويذرفون دموعًا دموية . والوزراء جعلوا ملك انكلترا يكذب على مسمع من اوربا . فان فرنسا لم تكن مشتغلة بالتجهيزات ولا بالمؤامرات ولم ترسل اليهِ كتابًا واللورد هوبتورث سفيرها لا ينكر الواقع ومع ذلك تحاول حكومة انكلترا تهييج الافكار بدعاياتها الدنية . وقد اهانتني جدًّا في الشهرين الماضيين . فتركتها حتى طفحت كاس اهاناتها . وقد نسبت ذلك الى الضعف وتعاظمت قحتها حتى ان سفيرها كان يقول لي افعل كذا وكذا والا اذهب بعد سبعة ايام . وطلبت اليهِ ان يكتب فقال لا اكتب لان حكومتي امرتني بان ابلغكم ذلك شفاهًا . فهل سمعتم بمخابرات جارية على هذا المنوال اما هذا دليل عزمها على المواربة والمحاولة فتفعل ما يبدو لها وتعود بدون ان تترك شاهدًا على اعمالها وشانها تكذيب الوقائع . واذا توهمت انها تضع النظام والقوانين لاربعين مليونًا تخدع نفسها . واوهمها الناس انني اخاف الحرب لانها تضعف سلطاني والواقع انني قادر على جمع جيش عددهُ مليونان عندما تمس الحاجة . ونتيجة الحرب السابقة كانت تكبير فرنسا باضافة بلجكا وبيامونت اليها . ونتيجة هذه الحرب ستكون رسوخ نظامنا الاتحادي اما رباط الاتحاد بين امنين فلا يكون غير العدالة والمحافظة على العهود . ولا ينبغي ان تسمح الدولة التي يقع التعدي على المعاهدات المتعلقة بها بوقوعهِ والا فتمسي محتقرة . فاذا خضعت مرة لذلك تفقد اعتبارها وعلى الفرنسويين ان يفضلوا حمل نير العبودية باقامة عرش لملك انكلترا في باريس على الخضوع لادعاءات حكومتهِ ومطاليبها غير العادلة . فتطلب يومًا الى بوارجنا ان تسلم عليها وفي اخر تطلب الينا ان لا نتجاوز حدودًا معلومة وحدتنا على تنظيف ثغورنا وتجديد قوتنا البحرية التجارية وطلبت الينا ان نقدم لها ما يضمن عدم اضرار ذلك بها . ومنذ مدة قصيرة سار نائب الاميرال ليسفنر ببارجتهِ الفرنسوية الى مالطة ولم يكن معهُ بوارج فوجد ١٥ بارجة انكليزية هناك فطلب الروساء الانكليز اليهِ ان يبتدئ بالسلام عليهم بالمدافع فابى . ولو سلم لهم بذلك

لاركبته حمارًا وجعلته يطوف في الشوارع فان ذلك تصاص اصعب من القتل بالة القتل . ولما ارتضت انكلترا بعقد الصلح ظنت انهُ يمزق بعضنا بعضًا بالحروب الاهلية اي ان القواد يلقوننا في الاضطراب وافرغوا جهدهم في هذا السبيل ولم ينجحوا فان كل انسان اشتغل بتعويض خسارتهِ ومن المعلوم ان تجديد الحرب بيننا وبينها مما لم يكن عندنا ريب فيهِ . ولم نكن نعلم الزمان الذي تجدد فيهِ فالاوفق تجديدها في الحال قبل ترجيع تجارتنا البحرية . انتهى

ولما بلغت تلك الحوادث المجلس التشاعي خطب موسيو فونتن قائلاً ان فرنسا مستعدة لان تحمي نفسها بتلك الجيوش التي فتحت اوربا وهي لاتفتح الحرب غير انها تجيب دعوة غيرها اليها بدون خوف وتعلم ماذا ينبغي ان تفعل لعضدها بقوة وبلادنا رجعت الى ان تكون مركز اوربا المتمدنة فلا تقدر انكلترا ان تدعي بما كانت تدعيهِ من انها آخذة في المحاماة عن مبادىء الهيئة الاجتماعية التي لابد منها اذ انها باتت متزلزلة حتى اساساتها . فاذا تجددت الحرب يحق لنا ان ندعي تلك الدعوى . فان المحاماة عن حقوق الانسانية والامم يكون مسلمًا الينا بدفع تعديات حكومة تقيم المخابرات لتتمكن من الخداع وتطلب السلام لتستعد للحرب وتمضي المعاهدات لتبعدها فاذا اشير الى فرنسا بان تنهض تجتمع باتفاق حول البطل الذي تحبهُ ويكون شان كل الاحزاب التي يجمعها حولهُ بانتظام المسابقة الى اظهار الغيرة والشجاعة فان الجميع يشعرون بالافتقار الى حذقهِ ويعترفون بانهُ هو وحدهُ قادر على تاييد عظمة احوالنا الجديدة . انتهى

وكان الدوق دوكاتيا احد روساء شورى بونابرت وقال في تاريخهِ ان بونابرت افرغ الجهد في ترقية اسباب السلام والدول المتحدة كانت تشيع بانهُ مهيج الحروب وتحاول ثلم صيتهِ . انتهى . وكان بونابرت يرغب جدًّا في عقد الصلح غير انهُ لم ينجح . ولما كان في وسط المخابرات التي كان يؤمل ان تكون واسطة لتثبيت السلام قال مستر دروندس وزير خارجية انكلترا لمامور فرنسا موسيو اونو ان ملك انكلترا قد صمم على تجديد الامر باسر سفن الصيد الفرنسوية وتكسيرها واسر ملاحيها . ولما سمع القنصل الاول وهو بونابرت بذلك امر سفير فرنسا بالخروج من لندن وان يرسل الى الحكومة الانكليزية الرسالة الاتية قبل خروجهِ منها وهي

ارسلت الى حكومتي قرار وزير انكلترا المتعلق بمطاردة الصيادين الفرنسويين واسرهم وقد صار اسر سفن وقوارب كثيرة بناء على ذلك القرار فراى القنصل الاول انهُ لا بد ان تكون الحرب شديدة بسبب قرار الحكومة الانكليزية المخالف لعادات الامم المتمدنة وللنظام الذي تخضع لهُ حتى في زمان الحرب ولابد ان يشتد الغيظ والهيجان الى درجة لا مثيل لها فيبعد زمان السلم فلا اقدر ان ابقى في بلاد ليس فيها ميل الى الصلح ولكن تعاقب فيها التعدي على قوانين الحروب وعرفها ولذلك أُمرت بان اخرج من انكلترا اذ لا فائدة من الاقامة بها وبان اقول ان الحكومة الفرنسوية اظهرت



رغبتها في ترقية اسباب السلام وان مرادها تقليل ويلات الحروب على قدر الامكان فلا تسلم بان يبيت الصيادون المساكين عرضة للعدوان . وهذا هو الذي يحملها على التمنع عن اخذ الثار بمعاملة الصيادين الانكليز كما تعامل انكلترا الصيادين الفرنسويين وبناء على ذلك امرت بوارجها الفرنسوية ان لا تعارض الصيادين في شيء . انتهى

وفي ٢٠ ايار (مايس) اعلن بونابرت ابطال صلح اميان وقال التزمنا ان نحارب لدفع العدوان وستكون الحرب مجيدة . واذا كان ملك انكلترا مصممًا على ابقاء مملكتهِ في حالة الحرب الى اعتراف فرنسا بان من حقوقهِ المحافظة على المعاهدات او التعدي عليها واهانة الحكومة الفرنسوية بالكتابات الرسمية والخصوصية غير سامح لها بالشكوى فلابد من ان نندب سوء حظ الانسانية ونحب ان نخلف لاولادنا الاسم الفرنسوي غير مثلوم ولا مهان . فنترك لانكلترا الابتداء بالتعدي على استقلال الامم وسلامها واهانتها مبينين لها عدالة اعمالنا والابتعاد عن الطمع فان ذلك وحدهُ يضمن سلام الهيئة الاجتماعية والسعادة العمومية . انتهى

وقال بونابرت عن ذلك التعدي انني في السنين الاربع الماضية جعلت اتحادًا بين الاحزاب التي الفت فرنسا في الشقاق قبل ان قبضت على زمام الامور . فاطبقت دفتر المهاجرين بعد ان نقحتهُ ثم محوت بعض اسمائهِ ثم منحت عفوًا لجميع الذين كانوا يرغبون في الرجوع الى فرنسا بلادهم وارجعت لهم كل املاكهم التي كانت لاتزال موجودة بدون بيع خلا الغابات ووضعت ترتيبًا لريعها . ولم يبقَ بين المهاجرين غير الذين يخدمون الامراء البوربون الذين لم يقبلوا بالانتفاع بالعفو العام . ورجع الوف من المهاجرين الى فرنسا واكتفيت بان يحلفوا بالصداقة للجمهورية فاصلحت الاعمال العمومية غير انهُ نتج عن تلك القوانين تقوية اعداء الحكومة القنصلية والحزب الملكي واعداء الاجانب لانها موسسة على الحلم . انتهى

ولما قبض بونابرت على زمام الرئاسة رفضت الحكومة الانكليزية ما عرضهُ عليها من الصلح باهانة ثم التزمت بان تصالحهُ مترددة بسبب تذمرات العامة الانكليزية التي كانت ترغب فيهِ . وكانت تترقب سنوح الفرصة لتجديد الحرب فتعدت على شروط معاهدة اميان واسرت مائتي مركب فرنسوي فيها ٧٥ مليون فرنك وشرعت في تخريب التجارة الفرنسوية قبل وصول اعلان الحرب الى باريس ولم تكتف بذلك ولكنها حاولت ثلم صيت الرجل الذي هيج اهل بلادهِ الى الدفاع عن انفسهم فملات العالم بصراخها وتذمراتها وهي تقول ان طمع بونابرت غير المحدود وحبهُ لاراقة الدماء حملاهُ على فتح الحرب . ومن لا يلوم الذين يقومون باعمال كهذه

## الفصل الرابع والعشرون

### معسكر بولون

اجمع المورخون العادلون على ان الحكومة الانكليزية هي التي نقضت صلح اميان ولم يكن بونابرت يامل بالانتفاع بالحرب بل كان يخاف عواقبها . ولم يكن قادرًا على الحمل على عدوه القوي الا باجتياز البحر وكان عالمًا ان ذلك انما هو القاء نفسهِ وجيوشهِ في تهلكة وكانت انكلترا سيدة البحار لا تقدر قوة بحرية على الدنو من بوارجها . فاضرت بفرنسا من كل جهة وكسرت مراكبها التجارية في جميع الاماكن وحصرت التجارة في يدها . ولم تكن تلك الحرب خالية من النفع لها لانها كانت تفتح ابوابًا لتعطيل تجارة امة طالما خشيت مناظرتها فان مسيرها في تقدمها جعل الانكليز يخافون نجاحها وفوزها فلو لم ترَ وزارة انكلترا ان من مصلحتها تجديد الحرب لما فتحتها . والقت على عاتق الجنس البشري بلايا عظيمة لقيام مصلحتها فتعدت على المعاهدة وبقيت في مالطة بعد ان وعدت بالخروج منها واستانفت الهجوم على فرنسا وقبل اعلان الحرب بزمن قصير كتب بونابرت الى المجلس القضاءي الفرنسوي قائلاً ان في انكلترا حزبين يتنازعان السلطان فاحدهما عقد صلحًا والثاني يبغض فرنسا بغضًا شديدًا وهذا هو سبب عدم ثبات الامور فتارة تصادف معاملة سلمية وطورًا تهديدات . ففي هذه الاحوال لابد من جمع خمسمائة الف رجل للدفاع عن الوطن ومنع الاهانات . وهذا امر غريب فان المطامع التجارية هي سبب لحرب مهلكة والواجب ان نحافظ على السلام والحب مراعاة لاتفاق الصوالح والمآرب والصواب تعليق الامل بما هو اوفق لعلنا نسمع من وزارة انكلترا ما ينطبق على الحكمة وحقوق الانسانية . انتهى

وكان مستر فوكس من عظماء رجال انكلترا ومن اعضاء مجلس المبعوثين صديق بونابرت ففي وقت الصلح اتى باريس وسار الى قاعة لوفر وهي مكان عرض النفائس وكان هناك بونابرت وغيرهُ من القوم فاخذ في التفرج على كرة عليها رسم الارض وكان حجمها كبيرًا ليس في العالم اكبر منهُ . فقال احد الحاضرين انظروا ما اصغر المكان الذي فيهِ رسم بلاد الانكليز . فقال مستر فوكس وهو يدنو من الكرة ويحاول ان يضمها بذراعيهِ ان انكلترا جزيرة صغيرة ولكنها تحيط العالم بسلطانها . انتهى . ولا يخفى ان مستر فوكس لم يكن يفتخر بالباطل حينئذٍ فان املاك انكلترا كانت في كل مكان



في اسبانيا والبحر المتوسط وجزائر الهند الغربية والشرقية وفي اسيا وافريقية وامركا وفي جزائر تكاد لا تحصى . ورومية في اعظم ايامها لم تملك ما ملكتهُ انكلترا . وكان بونابرت يستصغر تشكي امبراطورية عظيمة كانكلترا من جمهورية فرنسا الحديثة وعلى الخصوص لما كانت تقول ان فرنسا طرحت العالم في خطر من مطامعها التي كانت تحملها على محاربة دول اوربا المضادة لها وذلك لانها حصلت على نفوذ في بيامونت وفي جمهورية سبساليين وفي دوقية بارما الضعيفة وجعلت جزيرة البا مستعمرة لها . ولم تكن تقدر ان تجيب على براهين بونابرت الا باصوات مدافع بوارجها لانها كانت قاطعة عادلة ولم يكن العدل يوافقها . وما ياتي هو فحوى جدالها فالاعتراض الاول على بونابرت هو انهُ جلس على عرش ملك البوربون المنفيين فكان بونابرت يجيب ان ملككم جالس على عرش ستوارت المنفيين . فاجابت انكلترا ان بونابرت لم يكتفِ بذلك ولكنهُ ضم اليهِ رئاسة جمهورية سبساليين . فرد بونابرت بان ملك انكلترا هو رئيس هانوفر . فقالت انكلترا ان جيوش فرنسا في سويسرا . فقال بونابرت ان جيوشكم في اسبانيا وقد تحصنوا في جبل طارق . فاجابت انكلترا انكم من اهل المطامع وقد شرعتم في انشاء مهاجر فاجاب ان لنا مهجرًا واحدًا ولكم عشرة مهاجر فقالت انهُ معلوم عندنا انكم راغبون في ضم مصر اليكم . فقال انكم قد ضممتم اليكم الهند . فلما رات انكلترا انهُ اقوى منها بالجواب اشتد غيظها ودعت رئيس بوارجها قائلة يا نلسون هلم اذهب بالبوارج ودعت قائد جيوشها وقالت لهُ ياولنكتون سر في الجيش فلا بد من دوس هذا الرجل (اي بونابرت) فان مطامعهُ القت حرية العالم في خطر . وكان بعض المورخين الانكليز يكتبون ان بونابرت المختلس الملك قد اغرق اواسط اوربا بطوفان من الدماء بتعدياتهِ وفحوهِ .

ولما خرج سفير انكلترا من باريس وقبل خروج سفير فرنسا من لندن شرعت انكلترا في الهجوم على فرنسا بدون اعلان الحرب بالاعلان الاصولي . وكانت مراكب فرنسا التجارية لا تحسب حسابًا للخطر فكانت مشحونة بالبضائع الثمينة سائرة في اكثر الاماكن فاسرتها بوارج سلطانة البحر التي لا تغلب حتى في ثغور انكلترا . وهاجمت بارجتين فرنسويتين واسرتهما . فهذه الاخبار المكدرة كانت الواسطة التي بلغت بونابرت خبر فتح الحرب . فلما سمع بها اشتد غيظهُ وبادر الى اخذ الثار واجرى عملاً يحسب من اصرم الاعمال ولم يكن اعظم من عمل انكلترا التي ابتدأت في التعدي فانهُ في نصف الليل دعا اليهِ وزير الضابطة وامرهُ بان يلقي القبض على كل رجل انكليزي في فرنسا سنهُ بين ١٨ و ٦٠ سنة . وامر بان تصير المحافظة عليهم في الاسر مقابلة للاسرى الذين اسرتهم انكلترا من الفرنسويين في البحر . فلما بلغ هذا الخبر انكلترا وانتشر فيها حزنت بيوت كثيرة كانت تعيش بالراحة والسلام فان الوفًا من السياح الانكليز كانوا قد خرجوا من بلادهم للسفر في فرنسا

لانهم لم يكونوا يترصدون وقوع الحرب بعد عقد الصلح بزمان قصير . فهذه من ويلات تلك الحرب المهلكة التي بات العالم الاوربي فيها بعد ان استراح برهة قصيرة . والقلم يقصر عن وصف الاحزان التي حلت في قلوب الوف من بيوت الانكليز عند بلوغ هذا الخبر الى عيال المأسورين فان اكثر اولئك السياح كانوا من اهل الاداب والمعارف فمنهم من كان زوجاً ومنهم اخاً او ابناً او ابناً وكان سفرهم طلباً للتنزه والتفرج وبقي اولئك المنكودو الحظ ١٢ سنة في الاسر فهلك كثيرون منهم فيه حتى ان اولاداً كثيرين صاروا رجالاً في انكلترا لا يعرفون اباءهم الذين اسروا وهم صغار وكم من امراة لم تكن تعلم زوجها أحي هو ام ميت وكم من فتاة صبرت على فراق اب او شقيق او محب او زوج الى ان انقطعت حبال اصطبارها فوقعت في اليأس وماتت وهي تحسر وتتنهد . وبات كثيرون من رجال فرنسا في اسر الانكليز وما قلناهُ عن اولئك يصح في هولاء اما الوبال الذي حل في السواحل فهو مما يصعب وصفهُ ونشأ ذلك اجمع عن تلك الحرب . فوقوع الشدائد كان على الابرياء والانسان لا يتصور هذه الاعمال المضافة الى ويلات القتال بدون ان يئن ويضطرب

وهذه الاعمال من وليم بت وكان من اعقل اهل زمانهِ واحذقهم ولكن كان خالياً من الحاسيات اللطيفة والعواطف التي تزين الانسان اذ لم يكن والداً ولا زوجاً فلم يكن عندهُ من الشفقة ما يقلل اعماله المضرة بالصالح ولما تعدت انكلترا على مراكب فرنسا بدون شهر الحرب نشر بونابرت هذا الاعلان في جريدة المونيتور

لما كانت حكومة الجمهورية قد سمعت وزير البحرية والمهاجر بقرا رسالة من الرئيس البحري في برست يستفاد منها ان بارجتين انكليزيتين اسرتا مركبين تجاريين في خليج اوريو بدون ان يسبق ذلك شهر الحرب وكان ذلك مخالفاً للقوانين الدولية كان من الواجب ان يقبض على كل الانكليز الذين في فرنسا من سن ١٨ الى ٦٠ سنة ويجعلوا اسرى حربهم وجميع المتقلدين الخطط الانكليزية مقابلة للذين اسروا من تبعة الجمهورية الفرنسوية بتعديات بوارج جلالة ملك الانكليز او رعاياه قبل شهر الحرب

(التوقيع) بونابرت

واكرم بونابرت الذين اسرهم من الانكليز ولاطفهم ولم يلقِ في السجن الحربي الا الذين كانوا في الخدمة العسكرية والباقون تعهدوا له بانهم لا يهربون فعين لهم اماكن حصينة ليقيموا فيها ومنحهم حرية ليست بقليلة . اما الانكليز فوضعوا الاسرى الفرنسويين في مراكب بدون صوار فان من عاداتهم القديمة ان يستخدموا مراكبهم القديمة التي لا تصلح للسير سجوناً وكانوا يضعون كثيرين منهم في مكان صغير فتضايقوا واشتد عليهم الامر جداً وخطر لبونابرت ان يعامل الاسرى الانكليز كمعاملة الانكليز للاسرى الفرنسويين ليلزم الانكليز بتحسين معاملة الفرنسويين المأسورين عندهم



ولكنهُ كان شفوقاً يراعي حقوق الانسانية فلم يقدر ان يتعداها فنجا الاسرى الانكليز من المضايقة والتشديد وذلك من توفيقات بونابرت . ولما بلغ وزارة انكلترا ان بونابرت قبض على المسافرين الانكليز الذين كانوا في فرنسا احتجت عليهِ فاجابها بانك قد اسرت المسافرين في البحار حال كونهم مستأمنين على انفسهم فنالت انكلترا من العادة ان تغتنم كل ما يخص العدو في البحار فيسوغ ان نأسر الفرنسويين الذين اسرتاهم . فاجاب انني اجعل العادة الجارية عندكم في البحار جارية في البر فتصير حقاً . ثم انقطعت المخابرات بهذا الشأن ولكنها لم تنفع الاسرى الابرياء الذين كانوا يهلكون في مراكب انكلترا القديمة ولا الذين كانوا يتيهون حول حصون فرنسا ثم طلب بونابرت الى انكلترا بدل السياح الذين اسرتهم في البحار بالسياح الذين اسرهم في البر واحداً بواحد فابت قائلة ان قبولها بذلك تصديق على اسر السياح في البر وتركت اولئك الاسرى المنكودي الحظ في ضيقهم رافضة طلباً موسساً على حقوق الانسانية . فقال بونابرت للاسرى الانكليز انهُ يأسف من اسرهم ولكن نوالهم الحرية التامة ورجوعهم الى بلادهم امر متعلق بحكومتهم فعليهم ان يطلبوا اليها ان ترحمهم . وكان يسهل على انكلترا ان تقبل بذلك البدل مراعاة لحقوق الانسانية وتقيم الحجة على سواغية اسر السياح براً . وقال بونابرت للانكليز بعد نهاية الحرب بزمان ليس بقصير ان وزراءكم تذمروا لاني اسرت السياح الانكليز في فرنسا مع انهم اسروا السياح الفرنسويين في البحر بالقبض على المراكب التي تمكنوا من القبض عليها واسر الذين فيها وهي في وسط البحار او في الثغور قبل ان شهروا الحرب وقبل ان اسرت رجلاً انكليزياً في فرنسا . فقلت لهم اذا كنتم تأسرون السياح الفرنسويين في البحار لاقتداركم على فعل ما تروون فانا اقبض على السياح الانكليز في البر فان سطوتي فيهِ كسطوتكم في البحار . ثم طلبت اليهم ان يطلقوا سبيل كل الاسرى الفرنسويين مع امتعتهم المستغنمة لاطلق سبيل الاسرى الانكليز فابوا . ومن عاداتهم ان لا ينشروا كل الحقائق الا عندما يرون انهُ لا سبيل الى كتمها وان يكتموا الامور او يجعلوا لها التأويلات المناسبة لهم . انتهى . فهذه هي نتائج الحرب ولو كان المتحاربون من امتين متمدنتين محبتين للانسانية كالامة الانكليزية والفرنسوية . وهذه هي الافات الانتقامية التي لا غنى للامم عنها عند شبوب نيرانها . وهذه هي عادات الحروب وشؤونها ولا تنفك عنها الى الابد فانها توقع بلاياها على الابرياء الذين لا علاقة لهم بها . وكان قد وقع على بونابرت بلاء عظيم فاوقع باعدائهِ بسرعة موافقة للاحوال وبعد ذلك اشتد هيجان الامتين وشرعتا في توجيه كل اجتهاداتهما الى القتال . اما سلطان فرنسا وتدبيرها فكانا في يد رجل واحد عظيم وصل الى رئاستها براي الامة فتحولت الحرب من حرب عمومية الى حرب لمضادة رجل واحد وهو بونابرت لان سلطان كل الامة وتدبيرها كانا في يدهِ . ولم تكن فرنسا متأهبة للحرب فان بونابرت كان قد انفق قوتهُ المالية والادبية في الاصلاحات الداخلية وصرف قسماً عظيماً من

الجيش وجعل عددهُ موافقًا لزمان السلام . على ان فرنسا كلها ثارت ونهضت باجتهاد بونابرت الذي لم يكن يسكن لحظة . وملك انكلترا هو حاكم (منتخب) بلاد هانوفر ايضًا وكانت لهُ فبعد ان اطلق الانكليز مدفعهم الاول باقل من عشرة ايام حمل جيش فرنسوي على بلاد هانوفر وعددهُ عشرون الفًا فاسر جيشها وعددهُ ١٦ الفًا وغنم اربعمائة مدفع وثلثين الف بندقية وثلثة الاف وخمسمائة فرس واحتل البلاد . فلما بلغ ملك انكلترا خسارة بلادهِ الموروثة اضطرب جدًّا وبعد ذلك ارسل بونابرت رسلاً الى انكلترا طالبًا المصالحة وقال انهُ فتح هانوفر ليس ليتولاها ولكن لتكون ضمانة تضمن خروج الانكليز من مالطة واجراء معاهدة اميان . فاجاب وزير انكلترا رسل بونابرت بان الملك سيطلب الى الامبراطورية الالمانية بان تساعدهُ وقال بونابرت اذا عقد صلح اجعل اهل اوربا يعرفون ميلي الى الحقيقة فاصير موطد المبادىء المعتدلة في اوربا . فان فرنسا ذات تمدن عال حال كونها خالصة من السطوة الاميرية فتقدر ان تعدل مبادىء الحزبين السائدين في العالم بالسلوك المعتدل فتمنع اضطرابًا عامًا لا نعلم نهايتهُ ولا يتم ذلك في اقل من عشر سنوات ولكن اهل السلطان الاميري في انكلترا لا يسمحون بذلك

فساق الانكليز بونابرت الى الحرب على رغم انفهِ وهاجموا دول اوربا الى مقاومتهِ . فالتزمت فرنسا ان تصير معسكرًا وجعلت بونابرت حاكمًا مطلقًا ولولا اتساع الاوقيانوس الاتلنتيك لوقعت امركا عند مجاهرتها بالجمهورية في ما وقعت فرنسا فيهِ باتحاد دول اوربا الملكية والامبراطورية على مقاومتها . وكان بونابرت يروم ان يكثر مهاجر فرنسا لترويج تجارتها وتوسيع دائرتها فاشترى ولاية لويزيانا من اسبانيا وكان مصمماً على انشاء مهجر فرنسوي على شاطىء نهر مسيسيبي فامست غرضًا لهجمات انكلترا بعد فتح الحرب الاخيرة ولم يضع بونابرت دقيقة واحدة بل سعى لتخليصها ببيعها لحكومة امركا . وبعد فتح هذه الحرب بات الفرنسويون في كل مكان عرضةً لحملات البوارج الانكليزية ولتعدياتها فتوفرت مصائبها لان ثغورها امست محصورة ومدافع الانكليز تطلق الكلل عليها فاستولت على مهاجرها وخربت تجارتها وكانت تنتصر في كل مكان والحمل على انكلترا صعب لانها جزيرة تحميها بوارجها القوية فكانت في راحة وطمانينة تصب نيران الويل والهوان على اعدائها في جميع الاقطار . وقال بونابرت لسفير انكلترا في باريس الحمل على انكلترا جسارة مخيفة جدًّا . انتهى . ومع ذلك راى ان لا مندوحة لهُ عن المدافعة فاخذ يتاهب لذلك العمل العظيم بحذق واجتهاد مراعيًا الامور الاستقبالية وكان الناس ينظرون الى عملهِ العظيم بتعجب ودهشة ووقع الخوف في قلوب الانكليز وبين انكلترا وفرنسا مضيق من البحر عرضهُ ٢١ ميلاً فلا يبلغها الا بقطعهِ حال كونها اعظم دولة في البحر وكانت وحدها اقوى من جميع الدول وكان يتاهب على شاطىء ذلك المضيق تاهبًا لم تر الدنيا مثلهُ قاصدًا قطع المضيق والحمل



على انكلترا . فجمع ثلثمائة الف رجل بسرعة تحاكي حكايات الجن . وبنى في مدة قصيرة التي قارب يحمل كل منها مدفعًا واحدًا صغيرًا وجمعها في بولون لينقل مائة وخمسين الف رجل وعشرة الاف فارس واربعة الاف مدفع من ساحل فرنسا الى ساحل انكلترا . وكانت كل معامل فرنسا مشتغلة في صنع المدافع الصغيرة والكبيرة والاسلحة واقدامهُ سرى الى كل ولايات فرنسا وجعل قوة الاهالي فوق القوة البشرية وكان يعتني باصغر الاعمال ويعتقد المقدر الذي يجري كل الامور بحكمهِ ومع ذلك لم يكن يترك شيئًا يجري من تلقاء نفسهِ فاحتاط بما يمنع حدوث ما ربما كان يحدث من الموانع والتقصيرات واشتد هيجان الفرنسويين وتحركت فيهم حميتهم باجماع واتفاق وراوا انهُ لا سبيل الى دفع ذلك العدوان الا بالمعاجلة فتمنى لبونابرت ان يجمع جيشًا من المتحزبين للملكية الذين كانوا قبل ذلك بيرهة قصيرة يحاربون جمهورية بلادهم وهذا تاكيد ركونهِ الى اتحاد فرنسا وحبها لوطنها

وحرب كبيرة كهذه تستهلك نفقات كثيرة فالتزم بونابرت ان يزيد الاخرجة فكان الاهالي يدفعونها بلا تذمر وكثيرون من المتمولين وهبوا الحكومة مبالغ وافرة ليسعفوها على الدفاع عن الذمار فتبين بذلك حبهم لبونابرت وركونهم اليهِ وانهم يحاربون على غير رضاهم دفعًا لعدوان جارتهم . وبنت احدى الولايات بارجة كبيرة من مال الاهالي وسلحتها وارسلتها هدية للحكومة . وكان الاهالي يتسابقون الى تقديم عطاياهم وعضد الحكومة . فكانت المدن الصغيرة تهديها قوارب ذات قعر مبسوط والمدن المتوسطة تهديها بوارج من نوع الفرقاطة والمدن الكبيرة بوارج عظيمة جدًّا . فاهدتها باريس بارجة محمولها ١٢٠ مدفعًا وليون بارجة محمولها مائة مدفع وبوردو ٤٨ ومرسيليا ٧٤ وجمهورية ايطاليا اهدتها مليون ريال اظهارًا لالتحام الصداقة لتبني بارجة بها . وكانت كل المحلات التجارية المتمولة والشركات العمومية تهديها مبالغ غير قليلة . ووهبها مجلس النواب بارجة محمولها ١٢٠ مدفعًا . فمجموع الهدايا الاختيارية كان اكثر من مليونين ونصف مليون ليرا فرنسوية . اما بونابرت فاقام في بولون يصرف قسماً من وقتهِ في البحث عن حالة الشواطىء وتغيرات البحر وتنظيم الامور للقيام بتلك الحملة المخيفة . وكان الاقتصاد جاريًا في اعمال الحكومة كلها مع الانتظام التام . وانتشاب حرب كهذه بين فرنسا وانكلترا يجر دولاً اخرى الى ساحة القتال . فاقام الامبراطور اسكندر الروسي الحجة تكرارًا على تجديد الحرب في اوربا وطرحها في بلاء وخراب وطلب الى الدولتين ان تمكناهُ من المداخلة لتسوية الخلاف فاجاب بونابرت حالاً انهُ راضٍ بان احكم الامبراطور اسكندر لفصل الخلاف وانعهد كتابةً بتنفيذ حكمهِ مهما كان . انتهى . اما انكلترا فلم ترتضِ بالمداخلات السلمية . فاستعملت روسيا وسائط لحسم الحرب . فقال بونابرت لا ازال قابلاً بحكم امبراطور روسيا الشخصي فانهُ براعي صيتهُ فيحكم بالعدل ولا اقبل بالخضوع

لمخابرة صادرة من وزارة روسيا اذ ليس هناك شيء يدل على الصداقة لفرنسا . الى ان قال في ختام الجواب ان القنصل الاول افرغ جهدهُ في سبيل المحافظة على السلم ولكن ذهب تعبهُ سدى فيرى ان الحرب مقدرة فيقوم بها بلا تردد امام امة متكبرة قدرت ان تجعل كل امم الارض تجثو امامها عشرين سنة . انتهى

وصمم بونابرت على الذهاب الى بلجيكا والى ولايات الرين وكانت جوزفين معهُ . فقابلهُ الاهالي في كل مكان بفرح عظيم واكرموهُ اكرام الملوك . فكان حضورهُ بين القوم يحملهم على اظهار حبهم لهُ وبغضهم للانكليز وميلهم الى محاربة عدو فرنسا . وكان يدقق البحث في اماكن بناء المراكب ومخازن المهمات وغير ذلك وكان يصرف كل ساعاتهِ في الشغل فلم يكن يلتذ الا بالكد والجد ثم عاد الى بولون ولم يكن بونابرت مصمماً على قطع المضيق المذكور من اضيق جهاتهِ بل من جهة كالي وكان عرض المضيق هناك ثلثين ميلاً وكانت البوارج الانكليزية العظيمة تملأهُ . وامل باجتيازهِ على رغم انف تلك القوة الانكليزية باربعة امور . الاول سكون الهواء احياناً ٤٨ ساعة فلا تقدر البوارج الانكليزية على المسير لانها كانت شراعية فتتمكن قوارب فرنسا المبسوطة الفعر من قطع المضيق ولو كانت البوارج الانكليزية ناظرة اليها بدون ان تكون قادرة على منعها . الثاني تخييم الغيوم على المضيق في فصل الشتاء فيعبرهُ بالسكون تحت ستار السحاب . الثالث النو الشديد الذي يحدث احياناً فتلتزم البوارج ان تخرج منهُ خوفاً من ان تنكسر فتجتاز القوارب قبل رجوع البوارج بعد النو . الرابع اجتماع بوارج فرنسوية كثيرة بغتة ومحاربة البوارج الانكليزية فتمر القوارب مستندة اليها . فصرف بونابرت ثلث سنوات في التاهب للقيام بهذا العمل المخيف عالماً بانهُ ذو خطر عظيم وقال الاميرال ديكري الذي يعظم الامور خوفاً من عواقبها انهُ يغرق مائة قارب وهلاك عشرة الاف جندي ربما كسرنا بوارج الانكليز وعبرنا المضيق . انتهى . وقال بونابرت ان هلاك عشرة الاف في الحروب كثير الحدوث والنتائج التي نحصل عليها عند وصول جيوشنا الى انكلترا تفوق كل خسارة . انتهى

ومن الصعب تصور الاشغال والمهام المتراكمة التي كانت تثقل على افكار بونابرت في ذلك الحين . فكان يهتم بجميع مشاكل سياسة اوربا . وكانت اسبانيا تدعي صداقة فرنسا مع انها كانت مواطئة اعداءها على مضادتها . وكان اسم ملكها كارلوس الرابع وربما كان ادنى رجل وضع التاج على راسهِ وكانت امرأتهُ لا تخجل بالفحشاء . وكان كودوي محبها الشرير وشريكها في فسادها ضعيف العقل ومع ذلك اصبح زمام الدولة الاسبانية في يدهِ وكان لقبهُ امير السلام والصحيح انهُ امير الفساد . فاقام بونابرت الحجة على خداع اسبانيا وتشكى من الاضرار التي لحقت بفرنسا بسببها . فاجابهُ كودوي جواباً يدل على دناءتهِ وشرهِ وفسادهِ ورياءهِ . فلما سمع بونابرت الجواب هز راسهُ وقال ان



هذا كلهُ سينتهي برعد قاصف . انتهى . ولم يكن بونابرت ينقطع عن الاعمال الدالة على كرامة اخلاقهِ وهي التي كانت تجذب اليهِ قلوب الناس . وفر ملاح انكليزي شاب من سجن داخلية فرنسا وتمكن من الوصول الى بولون وصنع سرّاً طوفاً ضعيفاً من اغصان الاشجار ومع ذلك صمم على اجتياز المضيق بهِ بامل الحصول على مساعدة مركب انكليزي فقبض عليهِ وهو يحاول عبر المضيق فعرف بونابرت بهِ فتعجب من جسارتهِ وشجاعتهِ وامر بالاتيان بهِ اليهِ . فأُتي بهِ فقال لهُ هل كنت قاصداً ان تصادم مخاطر الاوقيانوس على ذلك الطوف الصغير الضعيف . قال اذا سمحت اركبهُ امامك واسير بهِ في البحار فقال بونابرت انك عاشق وتحب ان ترى معشوقتك ولولا ذلك لما طرحت نفسك في تلك المخاطر . قال اروم ان ارى امي فانها مسنة ضعيفة فقيرة فتحركت الشفقة في فواد بونابرت وقال لابد ان تراها . فاعطها مني هذا الكيس الذهبي والوالدة التي ربتك هذه التربية ليست كسائر النسا وفي الحال امر بان تعطى للملاح كل اسباب الراحة وان يرسل بسفينة مخصوصة عليها راية هدنة وامر رئيسها بان يمكنهُ من ركوب المركب الانكليزي الاول الذي يصادفهُ . ومن لا يتاثر حينما يرى مركبي عدوين يلتقيان برايات هدنة للقيام بامورية ناشئة عن الشفقة وحب الانسانية حال كون الذين قاموا بتلك الاعمال هم الذين يضرمون نار الحروب وينزلون ويلاتها على الارض وربما كان المركبان اللذان اجتمعا ليوصلا فتى الى والدتهِ المسكينة الفتيا في معركة وتقاتلا واهلكا اولاداً واباء ومحبين بكراتهم التي لا تشفق على الشاب ولا على ضعف الشيخ ولا ترحم الوجه الجميل ولا تحترم الوجه المخضب بالشيب

وكانت اشغال بونابرت في ذلك الزمان كثيرة جداً فكان يكتب الى وكلائهِ في كل فرنسا والى سفرائهِ في كل اوربا فكان يشغل ثلثة كتاب على الدوام . وكان لاحد هولاء الكتاب راتب ستة الاف فرنك في السنة مع اكلهِ ونومهِ في القصر . ولكن لسوء حظهِ وقع تحت اثقال الدين وكان الدائنون يكدرونهُ بتكرار طلب دينهم وكان عالماً ان بونابرت لا يحب وقوع ارباب الخطط في ارتباك فخاف ان يبلغهُ الامر فيطردهُ . وفي ذات يوم سهر الليل بطولهِ فخرج باكراً الى مكان الشغل ليلتهي بالاعمال عن همومهِ وكان بونابرت قد سبقهُ فلما مر امام الباب ذاهباً الى الحمام سمع ترنم ذلك الكاتب بصوت مختنق . ففتحهُ ونظر الى كاتبهِ الشاب متبسماً عن رضى وقال كيف تبدأ بالشغل باكراً اني شاكر لك راض عنك فكم راتبك . اجاب ستة الاف فرنك . قال كافٍ لمن هو في سنك واظن انك تاكل في القصر وتنام فيهِ . قال نعم . فقال هذا هو الذي يحملك على الترنم فلا بد ان تكون سعيداً جداً ولا عجب . قال واحسرتاه اني مهموم . قال لماذا لا تكون سعيداً . قال لان كثيرين من الانكليز يعذبونني وابي طاعن في السن وضرير وشقيقتي عزبة وانا اقوم بمعاشها . قال بونابرت يا موسيو ان هذا واجب عليك ولم افهم كيف يعذبك

الانكليز .قال الكاتب الانكليز هم الذين قرضوني مالاً ولا اقتدار لي على ايفائه فكل المديونين يسمون الدائنين انكليزًا . قال بونابرت كفى فهمت انك مديون .فكيف تقع تحت اثقال الدين وراتبك كاف .لا احب ان يكون بالقرب مني قوم يلتزمون الى ذهب الانكليز فقد عزلتك فاستودعك الله ياموسيو .ثم سار الى غرفته .فوقع ذلك الشاب في ياس .وبعد برهة قصيرة دخل احد معاوني بونابرت ودفع اليه رسالة من بونابرت .فاخذها ويداه ترتجفان لتاكده انها اثبات فصلوفاذا فيها قصدت عزلك لانك تستحق الفصل ولكن تاملت في حالة ابيك الاعمى وشقيقتك فعفوت عنك . وسوء تصرفك يجلب عليهما الشقاء فبعثت اليك بعشرة الاف فرنك ورخصت لك بان تغيب عن عملك يومًا واحدًا لتفي دينك وتخلص من كل الانكليز الذين يتعبونك واملك من الان وصاعدًا سلوكًا لايسوقك الى الوقوع بين ايديهم واذا خالفت ذلك اعطيك فرصة لانهاية لها . انتهى

وبنى بونابرت كوخًا لنفسه صغيرًا على الشاطىء في بولون وكان المطر والامواج تكدر الذين كانوا يجلون هناك .وكان يخرج من قصر سان كلو ليلاً بعد صرف النهار بالكد والجد ويقطع بالسرعة مائة وثمانين ميلاً .فيبلغ ذلك المكان في وسط النهار ويفحص الاعمال كانه لايشعر بالتعب وكان الانكليز يفرغون جهدهم في تعطيل مشروع بونابرت العظيم .فكانت بوارجهم تسير بالقرب من محل الاشغال على الدوام وتطلق النيران بلا انقطاع وكللها تمر فوق الشاطىء المرتفع وتنفجر في الثغر وفي المعسكر الكثير الجنود .وكان النعلة يرون بونابرت بينهم فيتشجعون ويقومون بالاعمال مترفعين غير مبالين بكلل العدو المتساقطة . وراى بونابرت لزومًا لعمل ما يحميهم منها فبنى اماكن عظيمة لوضع مدافع كبيرة تدفع كللاً ضخمة ثلثة اميال فالتزمت البوارج الانكليزية ان تبتعد .ولو وصفنا كل الاعمال العظيمة الجارية في بولون لاقتضى لنا مجلد .ولم يهمل بونابرت من الاهتمام براحة جنوده وصحتهم .فكان يدفع اجرة كافية ويلبسهم ملابس حسنة ويطعمهم اطعمة مغذية وقسم المعسكر الى اقسام طويلة مرتبة احسن ترتيب فكان كمدينة منظمة احسن نظام .وصان الجنود بهذه الوسائط فحسنت حالتها وانبسطت وكانت كلما شاهدت بونابرت تضج منهللة طالبة الى الله ان يطيل عمره

وكان مرفا بولون متسعًا ومع ذلك لم يتيسر لبونابرت ان يدني من اليابسة كل القوارب التي كان مزمعًا ان يجعل الجنود تعبر عليها البحر لتهجم على انكلترا فاقام صفًا من القوارب مركبًا من تسعة منها فكان الاخير ملاصقًا للبر والثاني ملاصقًا له وهكذا الى نهاية التسعة . وكانوا ينقلون الخيل باحاطتها برباط ورفعها ونقلها وهي مرفوعة تسع مرات من قارب الى قارب فيتمكنون من توصيل الفرس في اقل من دقيقتين الى القارب التاسع وكانوا يقومون بذلك بسرعة عظيمة



وباتقان يحير العقول . وكانت القوارب الفرنسوية تخرج في الصيف والشتاء الا في النو للتمرين على مرأى من بوارج الاعداء . وكانت تمرن الجنود في اكثر الايام بالانتقال من القوارب الى الشاطىء وتطلق المدافع على الشاطىء من القوارب باتصال ثم تدنو من الشاطىء وتخرج اليه ثم تخرج الحيوانات والاسلحة والذخائر وقام بونابرت بتدابير لصيانة جنوده من المخاطر عند الدخول الى بلاد الانكليز الا من نيران حصون الاعداء واستحكاماتهم فانهم كانوا قد تعودوا الهجوم بدون المبالاة بها .وكان بونابرت يشاهد اكثر هذه التمرينات المهيجة .وكان الجنود ينظرونه راكبًا عند الشاطىء وهو ينظر بافتخار الى اقدامهم واجتهادهم العظيم .ثم يرونه يسير راكبًا بسرعة ثم يركب قاربًا ويذهب ليهاجم مركبًا انكليزيًا ويقيم قتالاً صغيرًا .وكان يعرض نفسه لمخاطر عظيمة . وفي ذات يوم اشتد النو فقلب القارب فطرح ملاحوه انفسهم في البحر وحملوه في وسط الامواج الى ان اوصلوه بالسلامة الى البر ولا يعجب من ابصر ملوك فرنسا يبذرون اموال المملكة في سبيل الملاهي والفساد من حب الفرنسويين لبونابرت .وفي ذات يوم كان بونابرت واقفًا على شاطى بولون والفلك صافيًا فراى عن بعد عند منتهى النظر شيئًا من سواحل انكلترا .فهاج وكتب الى رفيقه كامبسز رايت اليوم قسمًا من سواحل انكلترا من قمم امبلوتوز كما يرى الانسان قمم الكالفادي من قصر التويلري حتى انني رايت البيوت والحركة فيها . وما بيننا غير حفرة يقدر الانسان ان يقطعها قفزًا اذا تجرأ على القفز .انتهى

وكان بونابرت جسورًا جدًا في اعماله ومع ذلك كان متانيًا حكيمًا . وكان قد هيأ امورًا لم يطلع احد عليها وهي ان يجمع في وقت واحد بغتةً كل البوارج الفرنسوية التي كانت في ثغور طولون وفرل ولا روشل لتسعف القوارب .وقال ان ٨ ساعات من الليل تحكم بنصيب الدنيا

ولما رات انكلترا عظمة تلك الاستعدادات بهتت متحيرة خائفة وكانت متوهمة ان جزيرتها المحاطة بالبحار في امن من كل هجوم .فرات في مكان لايبعد عنها اكثر من ثلثين ميلاً مائة وخمسين الف جندي من انظم الجنود وابسلهم واكثر من الفي قارب في كل منها مدفع وهي مستعدة لنقل تلك الجنود ومعها عشرة الاف فارس واربعة الاف مدفع مجنازة المضيق وان بونابرت اعظم رجال الحرب واحذقهم يسوق ذلك الجيش على لندن .ومائة وخمسون الف جندي تحت قيادة بونابرت ترتجف منها اقوى الامم .وقال روساء البوارج الانكليزية انه لايمكن منع الفرنسويين عن احتلال سواحل انكلترا اذا ساعدهم سكون البحر او طول ليل الشتاء او ظلام اجتماع السحاب وجرت مباحثات طويلة خطيرة في المجلس الانكليزي العالي بخصوص اسباب الدفاع . وفوض ذلك المجلس الوزراء بان يجمعوا كل الرجال الانكليز من سن ١٧ الى سن ٥٥ للدفاع عن وطنهم حتى ان الاهالي كانوا يجتمعون كل صباح في مراكز الحكومات في الولايات للتمرين وعرضت

الجيوش الجديدة على الملك جورج الثالث المسن ومعهُ الامراء البوربون المنفيون والطالبون الرجوع الى العرش الذي طردهم الاهالي منهُ بقوة اجنبية جبرية ورتب الانكليز علامات من مصب نهر التمس الى جزيرة ويت تعلن وصول الفرنسويين ورتبوا لليل انوارًا . وصنعوا عجلات لسرعة نقل الجنود . ووقعت النساء في انكلترا السعيدة في خوف تفي النوم عن اعينهن فان لبوث الدماء كانت قد أُفلتت باعمال انكلترا . ووقعت عليها اثقال عظيمة معاقبة على ذنبها ولا تزال تئن منها وهي الاخرجة الكثيرة الموضوعة عليها بسبب حروبها المستطيلة ولم يخف الانكليز بلا داع لان بونابرت صمم على اجراء ما تسوغ الحرب اجراؤهُ لانهُ قيد الى ذلك بتعدي الانكليز على الشروط فقام بتاهبات لم يرَ العالم مثلها . وقال الدوق اوف ولنكتون الانكليزي فحصت تكرارًا كل الشواطىء الواقعة بين نورس فورلند وسلسي بل بالقرب من بور تسموث فرايت ان الرجال تقدر ان تحتل اينما ارادت منها الا تحت مدافع قلعة دوفر ولا تجد طريقًا تودي الى الداخلية الا بعد قطع خمسة اميال . وفي تلك الشواطىء سبعة ثغور صغيرة او هي مصبات انهر غير حصينة فيهون على العدو ان يحتلها ويستولي عليها ثم ينقل افراسهُ ومدافعهُ الصغيرة والكبيرة ويقيم علاقات مستمرة بينهُ وبين فرنسا . انتهى . وكانت حكومة انكلترا تسعف المتآمرين الملكيين في مؤامرتهم لقتل بونابرت . وتدفع اليهم نقودًا وكانت مراكبها تنقلهم الى شواطىء فرنسا . وكان جورج كادودل المشهور بالاثم وبالاشتراك بالمذابح الجهنمية بواسطة الالة الشيطانية عائشًا مع المهاجرين الفرنسويين بالاموال التي كانت الحكومة الانكليزية تهبهم اياها . ومن الذين اشتركوا في محاولة قتل بونابرت الذي جعل انتخاب الاهالي عمومًا واسطة للوصول الى الرئاسة العمومية الكونت دوارتوا الذي صار شارل العاشر وابنهُ الدوق دو بري وقريبهما الدوق دوانجين وغيرهم من الذين كانوا متحزبين للبوربون . وقرروا استعمال الوسائط الموصلة الى المطلوب ولو كانت دنية معيبة . والحكومة الانكليزية كانت تعطي اولئك الرجال مبالغ وافرة من النقود لتمكنهم من انفاذ مآربهم بدون مراعاة حقوق الضمير واما الدوق دوانجين ابن الدوق دو بوربون فكان جنديًا جسورًا . وكان عمره حينئذٍ ٣٤ سنة . وكان قد حل في اتنهيم وهي قرية من بلاد غراندوقية بادن موقعها في مكان قريب من نهر الرين وكان بينهم وبين ستراسبورج المدينة الفرنسوية الواقعة عند الحدود ١٩ ميلاً فقط . وكان في المراكز الواقعة عند الحدود الفرنسوية وكلاء كثيرون للحكومة الانكليزية مستعدون على الدوام للاتحاد مع الذين كانوا يحاولون اسقاط بونابرت . وكان عندهم مبالغ كافية من النقود ليسعفوا المهاجرين الفرنسويين الذين كانوا يقبضون الرواتب الانكليزية وهم عدد النجوم الفرنسوية يحاولون اهلاك بونابرت . وقاموا بمؤامرات كثيرة لقتلهِ والضابطة الفرنسوية اكتشفت اكثر من ثلثين مؤامرة ففرغ صبر بونابرت لعلمهِ ان انكلترا كانت تدفع رواتب للذين



كانوا يحاولون قتلهُ . واغتاظ جدًا لان الامراء البوربون كانوا يعاملونهُ معاملة رجل مجرم ويحاولون قتلهُ كمذنب هارب مع ارتقائهِ كرسي الرئاسة بانتخاب الامة الفرنسوية كلها فقال بغيظ ليس دمي ماء حفرة . فساوقع بالبوربون ما لا ينسونهُ في زمان قصير

## الفصل الخامس والعشرون

### مؤامرات

وعقد الكونت دوارتوا مؤامرة في لندن بمساعدة غيرهِ من المهاجرين الفرنسويين جعلوها ذات دائرة متسعة . وكان الكونت دوليزل ويقال لهُ احيانًا الكونت دوبروفنس وهو الذي صار الملك لويس الثامن عشر في وارسو . فبلغوهُ الامر فابى ان يشاركهم ونفر لزوم بذل ملايين من النقود وصممت الحكومة الانكليزية على دفعها . وكان مستر هاموند مستشار وزارة خارجية انكلترا وسفراؤها في هس وستتغار وباتافيا يخابرون الذين لم يكونوا مرتضين في فرنسا لتهييجهم الى حرب اهلية . وكان ثلثة رجال من اكابر المهاجرين الفرنسويين يخدمون الحكومة الانكليزية متقلدين الاسلحة لمحاربة بلادهم وهم البرنس دوكوندي وابنهُ وحفيدهُ . وكان الدوق دوانجين حفيده في دوقية بادن منتظرًا عند ضفة الرين الاشارة ليدخل فرنسا . وكان يحب فتاة من قرية اتنهيم المذكورة فباتيها وهي البرنسس دوروهان . واما المؤامرة فكانت ان يدخل فرنسا خفية مائة رجل من الاشداء تحت قيادة جورج كادودل المقدام القدير وان يكمنوا لبونابرت وهو ذاهب الى مالميزون ليبددوا حراسهُ العشرة ثم يقتلوهُ وكان المتآمرون يخففون ذنبهم بقولهم ان هذا ليس بغدر ولكنهُ قتال جهاري . وقالوا بعد قتلهِ يستغنم سنوح الفرصة الناشئة عن الارتباك لترجيع البوربون الى الملكية فراوا انهُ لا سبيل الى النجاح بمساعدة الجيش . قال اوميرا قلت للقنصل الاول ان وزراء انكلترا كانوا يجهلون عمل جورج المذكور ولكنهم عالمون بالمؤامرة . فاجاب بونابرت لا اظن ان وزيرًا من وزراء انكلترا قال لجورج المذكور اقتل بونابرت ولكن الانكليز كانوا يعلمون ان قتلي هو النجاح وكانوا يعطونهم اموالاً وعينوا لهم مراكب لتنقلهم الى فرنسا فوزراء انكلترا شركاء القتلة . ولو حوكموا امام مجلس انكليزي لحكم عليهم بذلك وحاول احد اللوردية الانكليز اقناع سائر الدول ان الحكومة الانكليزية غير عالمة بمقاصد اولئك القوم اي قتل بونابرت وكتب ان الحكومة الانكليزية نقلت رجالاً كثيرين الى فرنسا لقلب حكومتها وانكر تتمة العمل على ان دول اواسط اوربا لم تصدقهُ . ولا تستحسن هذه الاعمال لانها تعرض كل ملوك اوربا لخطر

القتل . وحدثت مستر فوكس الانكليزي عن ذلك فانكر اشتراك الوزارة الانكليزية بمحاولة القتل وبعد ان سمع كلامي لام جميع الذين تداخلوا في هذه المؤامرة . انتهى

واعظم برهان على ضعف الفطرة البشرية حسد الرجال العظام الناشيء عن امور صغيرة . وكان الجنرال مورو يحسد بونابرت . وكانت امرأته ضعيفة العقل حسودة متكبرة فلم تطق ان يكون زوجها ادنى رتبة من بونابرت فافرغت جهدها باقناع زوجها المتقلب بان الذي فاز في معركة هوهنلندن وهو زوجها يستحق اعظم العطايا التي تقدر فرنسا ان تهبها لانسان وفي ذات يوم زارت جوزفين امراة بونابرت وبالاتفاق طُلب اليها بان تنتظر بضع دقائق في قاعة خارج قاعة جوزفين الاستقبالية فاغتاظت جداً . وكان الجنرال مورو زوجها يميل الى الغيظ من امور كهذه . فامتنع عن قبول نعم كثيرة من القنصل الاول . ثم امتنع عن مرافقته عند عرض الجيوش . فلم يدعهُ بونابرت الى وليمة الاحتفال بتذكار انشاء الجمهورية وتعاظم الخلاف وصار عدواناً . فاغتاظ مورو جداً وتنحى وسار الى ارزاقهِ في كروسيوا وكان يتمتع بالتنعمات والراحة وهو يراقب اعمال رجل اوهمتهُ الكبرياء انهُ مناظر لهُ . فظن المتآمرون انهُ يهون عليهم ان يستميلوهُ اليهم فيحصلون على مساعدة الجيش بواسطتهِ . فاتفقوا ان ينهض الملكيون في كل فرنسا عند قتل بونابرت وهو ذاهب الى مالميزون ويهجم المهاجرون من جميع الجوانب على البلاد بواسطة الاسلحة والنقود التي حصلوا عليها من انكلترا . وناهب الجيش الانكليزي والبوارج لاسعافهم . فهذه هي المؤامرة البوربونية الدنية . وحال دون رائهم صعوبة فان مورو كان يفتخر بانهُ جمهوري حتى انهُ ضاد انشاء القنصلية الدائمة قائلاً ان ذلك ميل الى الملكية . ومع ذلك ظنوا ان الحسد يحملهُ على تغيير عزمهِ ومعاونتهم على حطّ القنصل الاول . وكان الجنرال بيشغرو مشهوراً بالمعارف وعلو المقام واشد الناس تحزباً للبوربون وصاحب كلمة نافذة عند الملكيين والجمهوريين . وكانت الحكومة الادارية قد نفتهُ الى فيافي سينامري فهرب منها واتى لندن وسكنها . فجذبهُ المتآمرون اليهم وجعلوهُ واسطة لتبليغ ارائهم الى مورو . وبعد ان رتبوا هذه الامور خرج جورج كادودل من لندن في قوم من اهل الشجاعة والاقدام بعد ان تقلدوا الاسلحة وحصلوا على مبالغ كافية من النقود من خزينة انكلترا وساروا قاصدين باريس . وكان في شاطيء نورمنديا في مكان مرتفع الصخور معبر لم يكن يعرفهُ غير الذين يهرّبون الامتعة من الرسم . وكانوا يصعدون عليهِ بسلم تقام في مكان مرتفع عن سطح البحر نحو مائتي قدم فاستاجرهُ جورج كادودل ليمر فيهِ هو وقومهُ . وعينوا اماكن مخصوصة لنزولهم بين ذلك المكان وباريس وبعضها منازل الامراء ليبقى امرهم مستوراً وكانوا يقدرون ان يسيروا من ذلك المكان الى باريس بدون المرور في الطرق العمومية او بالخانات وكان القبطان ريت من ضباط البوارج الانكليزية جسوراً



حاذقاً في فن البحر فاركب المتآمرين مركبهُ وانزلهم عند السبيل السري ولم يدريهم احد . وسار جورج كادودل مع بعض رفاقهِ سراً من منزل الى منزل حتى بلغوا ظاهر باريس . ونزل في مكان غير معروف مختبئاً وارسل الرسل بذهبهِ الكثير الى جميع اقطار فرنسا طالباً الى الملكيين بان يتهيأوا . وتكدر جداً لما راى ان بونابرت ذو صيت حسن محبوب حتى ان الذين كانوا قد تحزبوا الملكية ارتضوا بان يستريحوا متمتعين بمنافع حكومتهِ وكان خدم الدين يحبونهُ لانهُ خلصهم من اشد الاضطهادات . ففي شهرين تمكن من جمع ثلثين رجلاً فقط ببذل الدراهم الكثيرة وهم الذين ارتضوا بان يعرضوا انفسهم للمخاطر اذا لم يرجعوا الملك للبوربون . وكان بيشغرو ووكلاؤهُ يستكشفون الجنرال مورو وبعض الجمهوريين . وتمكنوا من استمالة لاجولي اليهم وهو من ضباط جيش مورو السابقين فعرف ان مورو مغتاظ راغب في قلب الحكومة القنصلية بما تيسر من الوسائل ولم يخبر مورو بتفاصيل المؤامرة ولكنهُ سار مسرعاً الى لندن في طريق همبورغ لئلا يعرف وقال للذين كان يخدمهم ان مورو راضٍ بالاشتراك معهم وكانت تعقد جمعيات في لندن اعضاءها من المتآمرين والكونت دوارتوا زعيم البوربون انقاد بالحماقة والجهل الى قبول رئاسة الجمعية فالذي كان يدعي بملك فرنسا اصبح رئيس جمعية قتلة . ولما قال لاجولي ان مورو راضٍ بالاشتراك مع بيشغرو عند وصولهِ اليهِ كان الكونت دوارتوا يقول بسرور وبهجة اذا اتحد قوادنا ارجع الى فرنسا بالحال . انتهى . وقرروا ان بيشغرو وريفير وغيرهما يذهبون الى ظاهر باريس لينضموا الى جورج كادودل وعند بلوغ الامر الدرجة الموافقة يسير الكونت دوارتوا وابنهُ وهو الدوق دوبري ويدخلان فرنسا ويشتركان معهم في ذلك العمل المعيب . اما بيشغرو وقومهُ فركبوا مركب القبطان ريت وفي الليل نزلوا عند السبيل المذكور . فهولاء القتلة المشهورون صعدوا على تلك السلم وساروا من مخباء الى مخباء حتى انضموا الى جورج كادودل الشجاع في ظاهر باريس . اما مورو فاتفق مع بيشغرو بان يتقابلا ليلاً في شارع مادلين فتقابلا في ليلة مظلمة باردة من ليالي شهر كانون الثاني ( دسمبر ) سنة ١٨٠٤ وهما قائدان مشهوران احدهما فاتح هولاندة وصاحب الانتصار في هوهنلندن وعرف احدهما الاخر باشارة اتفا عليها وذلك بعد مضي سنين كثيرة منذ وقف احدهما بجانب الاخر وهما جنديان في جيش الرين . ووقعا في ارتباك عند المقابلة اذ انهما كانا من اهل الناموس ولم يكونا متعودين القيام باعمال تخل بهِ . وبعد ان سلم احدهما على الاخر ببرهة قصيرة اجتمع اليهما جورج كادودل فانهُ هو الذي دبر طريقة اجتماعهما وكان مصمماً على معرفة نتيجتهِ . فتكدر مورو ولما راى انهُ مع رجل كجورج المذكور وامتنع عن المناوصة وعين وقتاً اخر لمواجهة بيشغرو في بيتهِ ورجع عنهما . ثم اجتمعا وتفاوضا ملياً . وكان مورو قابلاً بمحاولة قلب السلطان البونابرتي القنصلي وطلب ان يفوض الامر اليهِ لا الى البوربون فتكدر

بيشغرو وقال للرجل الذي ركن اليه ليدله على بيت مورو ويرجع به الى مخبإه ان هذا الرجل من اصحاب المطامع يروم ان يحكم فرنسا فما اجهله فانهُ لا يقدر ان يسوسها ٢٤ ساعة ولما عرف جورج كادودل بنتيجة ذلك الاجتماع قال بكدر اذا كان لا بد من مختلس فاني افضل بونابرت الف مرة على هذا الرجل القليل العقل . وبات الذين كانوا يتآمرون على بونابرت في حالة قريبة من الياس . وتعجبوا لما راوا ان ما سمعوهُ في انكلترا عن بونابرت كذب فان الفرنسويين كانوا يحبونهُ ويفتخرون بهِ فلم يكن سبيل الى جمع جمهور لمضادتهِ . وفي ذلك الزمان حدث ما حمل بونابرت على الظن بعقد المؤامرة لقتلهِ وان سفراء انكلترا الثلثة في هس وورتمبرغ وبافاريا يشتغلون باجتهاد لاثارة فتنة في فرنسا لمقاومتهِ . وسفير انكلترا في بافاريا رشا رجلاً فرنسويًا ليجعلهُ جاسوسًا ولكنهُ حمل كل كتابات ذلك السفير المتعلقة بمضادة بونابرت الى بونابرت فقرأ في رسالة منها ينبغي ترويج المؤامرات المقامة لمضادة القنصل فان المقصود قتل الحيوان مع قطع النظر عن قاتلهِ وان تكونوا جميعًا في حقول الصيد . انتهى . فارسل بونابرت تلك الاوراق الى المجلس الفرنسوي العالي ومكن من مطالعتها كل من رامها من رجال السياسة . وكانت الحكومة الفرنسوية قد قبضت على بعض الجواسيس وقتلتهم بالرصاص ولما ساقوا احدهم الى المقتل قال انهُ يعلم امورًا خطيرة ثم اقرَّ انهُ من اصحاب جورج كادودل واظهر مؤامرات ذلك الرجل فقبض على جواسيس اخرين . ومنهم موسيو لوزيه وكان من اهل المعارف والاداب وافاد ان مورو ارسل الى المتآمرين الملكيين في لندن احد ضباطهِ طالبًا ان يكون رئيس مؤامرة لترجيع الدولة البوربونية واعدًا بان يهيج الجيش الى الانحياز اليهم . وانهُ لما وصل المتآمرون الى باريس بناء على وعدهِ غير افكارهُ وطلب ان يجعل خلفًا للقنصل الاول . فلما سمع بونابرت باشتراك مورو بتلك الذنوب كذب الخبر فجمع وزراءهُ وفاوضهم سرًّا في الليل في قصر التويلري . وكان مورو عدوًا قويًا وكان بونابرت يحسب لهُ حسابًا من حب الجيش لهُ فاذا بطش بهِ يحمل اصدقاء مورو والكثيرين الاقوياء على القول انهُ بات ضحية حسد القنصل الاول . فقال بعض الوزراء من الاصابة ان لا يطالب مورو بشيء . فقال بونابرت ان ذلك يوهم الناس انني اخافهُ فلا ارضى بهذا القول وكنت من ارحم الناس ولكن عند مس الحاجة اكون من اشدهم فتكًا وساضرب مورو كما اضرب غيرهُ لانهُ اشترك في مؤامرة ذات مقاصد شريرة مع قوم مذمومين فصم على القبض على مورو حالاً وكان كامبسر متضلعًا من المعارف القانونية فقال ليس من متعلقات المحاكم العادية فحص هذا الامر والح على مجلس الوزراء بان يامر بمحاكمتهِ في مجلس حربي يولف من كبار القواد . ومحاكمتهُ فيهِ تنطبق على النظام الفرنسوي فقال بونابرت هذا غير موافق لئلا يقال ان عاقبتهُ بمحاكمتهِ في مجلس اعضاوهُ من حربي . وفي صباح اليوم الثاني قبض عليهِ وسيق الى سجن التامبل ولما شاع خبر سجنهِ هاج الباريسيون . واخذ اصدقاء



مورو يقولون انهُ لا وجود للمؤامرة وان جورج كادودل وبيشغرو ليسا في فرنسا . وان ما شاع هو كذب خلق ليتمكن القنصل الاول من ان يخلص من مناظرهِ لاقتداره على الاضرار بهِ وكان بونابرت يجتهد في صيانة صيتهِ من الثلم وكان غرضهُ ان يشيد لنفسهِ عرشًا في قلوب الفرنسويين بقولهم انهُ مخلص عظيم فتكدر من تلك التهمات وقال من اصعب الامور ان يكون الانسان معرضًا لمؤامرات مخيفة ومع ذلك يتهم بخلقها وشر الحسد يوثر فيَّ فكيف انهم بمحاولة قتل غيري وشر الوسائل تبذل في سبيل قتلي . انتهى . فهاجت فيهِ الحمية ووجه كل اجتهادهِ الى دفع التهم وابطال لوم اللائمين باظهار المؤامرة كلها . وكان قد اشتد غيظهُ من الملكيين . ولم يكن سبب خلع البوربون فانهُ وجدهم مخلوعين وفرنسا في ظلم وفتن والملكيين في فقر في المنفى . فافرغ الجهد في تحسين حالة الملكيين وعاملهم بالعفو والحلم وخلصهم من ضيقهم ونفعهم بكل قوتهِ . وخالف افكار كل الامة وارادة اصدقائهِ بترجيع المهاجرين وارجع ما تيسر لهُ ان يرجعهُ من املاكهم المحجوزة وسلمهم اعمالاً عظيمة ومنحهم من الهبات والانعام ما حمل الناس على ان يتهموهُ بترجيع ملكية البوربون . وكان الملكيون يكافئونهُ على اعمالهِ الحسنى باختراع الة شيطانية لقتلهِ وهو سائر في الطرق . وكان يشفق على مورو ويروم ان يعفو عن ذنبهِ . ثم اتخذ الوسائل الفعالة للقبض على المذنبين وكان الضابطون يقبضون يوميًا على بعض المتآمرين . واقر اثنان منهم بان اعظم امراء البوربون كانوا متداخلين في المؤامرة وان اميرًا ممتازًا من البوربون قريب ومستعد لان يتقلد رئاسة الملكيين عند قتل بونابرت . فاغتاظ بونابرت وقال يتوهم البوربون انهم يقدرون ان يريقوا دمي في الطرق كاني وحش مفترس مع ان دمي عزيز كدمهم ولا بد من مجازاتهم على الخوف الذي يرومون ان يلقوهُ في قلبي واعذر مورو لان اغلاطهُ الناشئة عن الحسد قادتهُ الى ذلك وساقتل بالرصاص من يقع في قبضة يدي منهم بدون ان اشفق عليهم فاريهم فعل الانسان الذي يحملونهُ على اعمال كهذه . انتهى . وعلم من اقرار الذين القي القبض عليهم ان اميرًا فتى كان يشترك احيانًا بمؤامراتهم وكانوا يحترمونهُ جدًّا وستفوض رئاسة الفتنة اليهِ وافرغت الضابطة جهدها في البحث عن جورج كادودل وبيشغرو وغيرهما من روساء المؤامرة ولم تفز بالقبض عليهم . وكان قد ثبت انهم في باريس فقرر المجلس العالي باجماع ان جميع الذين يخبئونهم يعاقبون بالقتل ومن يعلم بمقامهم ولا يظهرهم يقاص بالسجن ست سنوات . واقيم حرس اياما كثيرة عند ابواب باريس لمنع الجميع عن الخروج وفوض باطلاق الرصاص على جميع الذين يحاولون الفرار من الاسوار فبات جورج كادودل وبيشغرو وغيرهما من المتآمرين في اضطراب عظيم . وكانوا يتيهون في الليل من مكان الى مكان والتزموا بدفع الف ريال او الفين ليحصلوا على ملجا بضع ساعات . وفي ليلة وقع بيشغرو في الياس وهم ان يقتل نفسهُ بغدارة غير ان احد اصدقائهِ منعهُ . وفي ليلة اخرى ساقهُ الياس الى ان يفوق حدود

الاعتدال بالشجاعة فاتى منزل موسيو ماربوا احد وزراء بونابرت وتوسل اليهِ ان يحميهُ . وكان الوزير ماربوا يعلم انهُ وزير بونابرت وكان كريم الاخلاق . فتكدر لما طلب اليهِ ذلك الرجل التائه ملجاً ولكنهُ لم يمتنع عن ان يسمح لهُ وهو صديق قديم لهُ بان يتيم في بيتهِ برهة قصيرة بدون ان يخبر احداً عنهُ . واخبر بونابرت فيما بعد بما جرى . فسر بونابرت بكرامة اخلاق وزيره وتعريضهِ نفسهُ للخطر لاسعاف صديقهِ وكتب اليهِ يشكرهُ على فعلهِ وكرامة اخلاقهِ لانهُ مكن صديقاً قديماً من ان يلتجئ اليهِ وان كان قد ارتكب ذنباً وبعد برهة عرف مكان بيشغرو وكان نائماً وقد وضع سيفهُ وغداريتهِ بجانبهِ ليدافع عن نفسهِ الى ان يهلك . فدخلت الضابطة غرفتهُ ووثبت عليهِ وكان مقتدراً جداً فحاول التخلص بقوة عجيبة غير ان الكثرة غلبتهُ فاعتقل وسيق الى سجن التامبل . وبعد ذلك بمدة قصيرة القي القبض على جورج كادودل وهو في عجلة صغيرة فهجم عليهِ ضابط وامسك لجام فرس العجلة فوجه جورج عليهِ غدارة واطلقها عليهِ فمات في الحال . ثم انحدر من العجلة وجرح ضابطاً اخر كان يحاول القاء القبض عليهِ وحاول الفرار ماشياً في ظلام الليل فاحاط الناس بهِ والقوا القبض عليهِ . وعند وقوفهِ امام فاحصهِ لم تظهر عليهِ لوائح الخوف والاضطراب لانهُ كان شجاعاً متعوداً القاء نفسهِ الى التهلكة ووجدوا معهُ خنجراً وغدارات و١٢ الف ريال من النقود واوراق بنك فاقر بجسارة انهُ كان مصمماً على قتل القنصل الاول بالاشتراك مع الامراء البوربون . وبعد ظهور هذه الامور تاكد الناس عند مؤامرة لقتل بونابرت فارسل المجلس العالي الفرنسوي كتاب تهنئة الى القنصل الاول لفوزهِ بالنجاة فاجاب بونابرت انني منذ زمن طويل قطعت الامل من التمتع بملذات المعيشة الخصوصية فان كل ايام حياتي مشغلة بالفروض التي وضعتها على عاتقي ارادة الامة الفرنسوية . فالسماء تحرس فرنسا وترسل الفشل الى مؤامرات الاشرار فلا ينبغي ان يخاف الاهالي فان حياتي تصان ما دامت نافعة للامة واحب ان ابلغ الفرنسويين ان الحياة بدون التمتع بركونهم وحبهم خالية من كل تعزية ومن النفع لهم . انتهى . واشفق بونابرت فعلاً على مورو وبيشغرو وكان يود ان يخلصهما من الموت المعيب الذي استوجباهُ . فبعث الى مورو برسول وقال لهُ بلغ مورو انهُ اذا اقر بما فعل اعفو عنهُ واعيدهُ الى منصبهِ . والحصول على عفو بونابرت كان اسهل من قبول مورو لعفوهِ لانهُ كان متكبراً جداً . وكان بونابرت يتامل في حالة بيشغرو بحنو وافتخار وحين راى ان ذلك الجنرال العظيم المشهور سيحاكم ويقاص كمذنب قال لموسيو ريال ما اقبح نهاية فاتح هولاندة ( اي بيشغرو ) . وليس من الصواب ان يهلك بعض رجال الثورة البعض الاخر وقد طالما خطر لي ان اقيم مهجراً في كايين . وبيشغرو من الذين نفوا الى ذلك المكان وبعرفهِ وهو اقدر قوادنا على اقامة مهجر هناك فاذهب اليهِ الى السجن وقل لهُ انني عفوت عنهُ ولا اعامل بالصرامة رجلاً مثلهُ او مثل مورو . واسالهُ عن المبلغ الذي يلزم لهُ لينشئ مستعمرة في كايين



وعن الرجال الذين يحتاج اليهم . فاعطيهِ ما يلزم ليذهب الى هناك ويعوض ما خسرهُ من حسن الصيت بالقيام بخدمة عظيمة نافعة لفرنسا . فلما سمع بيشغرو ذلك تاثر جداً واحنى راسهُ وبكى فان كرامة اخلاق الرجل الذي كان يحاول قتلهُ اثرت فيهِ جداً . فغلب بونابرت بالحسنى ذلك الرجل المشهور

وكان بونابرت مكدراً لانهُ لم يفز بالقاء القبض على احد امراء البوربون الذين طالما حاولوا قتلهُ وكانوا يطرحون الاخرين في مهالك ويفوزون بالنجاة منها . وفي ذات يوم كان في مكتبهِ فسال تاليرند وفوشي عن اماكن سكن امراء البوربون . فاجاباهُ بان لويس الثامن عشر والدوق دوانجو ساكنان في ورسو والكونت دوارتوا والدوق دوبري في لندن وفيها ايضاً البرنس دوكوندي واما الدوق دوانجين فانهُ في اتنهيم بالقرب من ستراسبورغ وهو اقوى الامراء واكثرهم اقداماً وجعل سفراء انكلترا الثلثة وهم تيلور وسمث ودريك تلك الجهة ميدان مؤامراتهم على بونابرت . فخطر لهُ بان الدوق دوانجين المذكور عند حدود فرنسا ينتظر الوقت المعين للاشتراك بالمؤامرة فبعث ضابطاً الى اتنهيم ليسال عنهُ فرجع وافاد انهُ في ذلك المكان مع اميرة دوروهان التي كان يحبها حباً شديداً وكثيراً ما كان يخرج من اتنهيم ويذهب مختفياً الى ستراسبورغ ويقبض راتباً من حكومة انكلترا فهو جندي يحارب بلادهُ وقد وردت عليهِ اوامر من وزارة انكلترا بان يذهب الى شواطئ الرين ليكون مستعداً لاستغنام الفرص عند سنوحها للهجوم على فرنسا . وهذه خيانة عظيمة فاستنغ بونابرت ان خروجهُ من اتنهيم انما هو ليجتمع بالمتآمرين ويتفاوض معهم وعرف ايضاً ان معهُ رجلاً محترمهُ جداً اسمهُ المركيز دوثامري . وفي ١٠ اذار ( مارس ) قرر احد اعوان جورج كادودل انهُ كانت قد عقدت مؤامرة اخرى رئيسها برنس . فربما بلغ ذلك البرنس فرنسا او يبلغها بعد زمان قصير فرفع هذا الخبر الى بونابرت يوم وصول تقرير الضابط الذي ارسلهُ فاثر هذا الاتفاق جداً في عقل القنصل الاول وتاكد ان رئيس المؤامرة هو نفس الدوق دوانجين ومصاحبة الجنرال دوموريه لهُ تثبت الخبر . وتاكد انهُ لا سبيل الى حضور ذلك البرنس من لندن لان المضيق محروس بضبط . فتاكد بونابرت بذلك ان المؤامرة قائمة على قدم وساق . ومن مقاصدها بعد قتلهِ وصول الكونت دوارتوا من نورمنديا ومعهُ بيشغرو والدوق دوانجين الى فرنسا بطريق الالزاس ومعهُ دوموريه فيتمكن الامراء البوربون بجيوش اجنبية من ترجيع العرش البوربوني بقتل القنصل الاول وتشييدهِ على خربات الجمهورية . وكان ذلك قصد المتآمرين فان الدوق دوانجين كان منتظراً ورود اوامر اليهِ بالمسير وظهر بعد ذلك انهُ لم يكن مشتركاً بالمؤامرة المتعلقة بقتل بونابرت بل بالقسم الثاني منها . فارتكب الخيانة ولكنهُ لم يكن شريك القتلة ومع انهُ خان وطنهُ لا يرضى القلب الشريف ان يحكم عليهِ حكماً قاسياً . وربما شاركهُ البعض بالحاسيات لانهُ كان

مشتغلاً باسترجاع العرش المفقود ولو كان ذلك بواسطة جنود اجنبية . وكان بونابرت يشاركهم في الحاسيات ويظهر ميلهُ الى تخفيف بلاياهم ولو لم يتحقق ان الدوق دوانجين كان يحاول قتلهُ لما قبل بالقبض عليهِ . وما احسن ما قالهُ موسيو تيرس في تاريخهِ ان عقل القنصل الاول القوي الصافي لم يقدر ان يتصور وقوع اتفاق كالذي وقع بدون ان تكون النتيجة بحسب تخمينهِ . فتقرر ذلك عندهُ . ولا يتصور الانسان سرعة وصول العقل الى الحكم في امور كهذه ما لم يرَ اناسًا مشتغلين بمثلها خصوصًا اذا مالوا ولو قليلاً الى تصديق الاخبار وذلك يبين منافع العوائق النظامية والقانونية فانها تخلص الناس من ان يساقوا بالحكم السريع باتفاق الاحوال . انتهى . وجمع بونابرت مجلس الوزراء ليشاورهُ فاختلفوا . فقال بعضهم ينبغي ارسال قوة سرية لتلقي القبض على الدوق وتاتي بكل اوراقهِ وشركائهِ في المؤامرة الى باريس . اما كاجسرز فخاف تعدي فرنسا على اراضي المانيا بدخول مامور بها اليها وان القاء القبض على برنس فيها يلقي الوحشة بين الامتين فضاد هذا الراي فاجابهُ بونابرت بلطف وثبات انني عالم بما يحملك على المقاومة فهو حبك لي . فاشكرك . ولكن لا اسمح بان اقتل بدون ان ادافع عن نفسي فسالقي الرعب في قلوب اولئك القوم واعلمهم بان يحافظوا على الهدو فامر بانفاذ ثلثمائة فارس الى ضفات نهر الرين ليجتازوا النهر ويسيروا الى انتهيم ويحيطوا بالبلدة ويلقوا القبض على البرنس وعلى اعوانهِ وحشمهِ ويرجعوا بهِ الى ستراسبرغ . وامر بونابرت الكولونل كولنكور بانهُ عند القاء القبض على الدوق دوانجين يذهب الى كراندوق بادن ويعتذر اليهِ بالنيابة عن القنصل الاول اذ ان جنودهُ تعدوا على حقوقهِ بدخولهم اراضيهِ وقبضهم على الدوق وان يقول لهُ ان اجتماع كثيرين من المهاجرين المضادين لحكومة فرنسا في اماكن قريبة جدًّا من الحدود سوغ لها بان تقوم بما يصونها وان الضرورة الزمتها بان تقوم باجراآت سريعة عوضًا عن اتخاذ وسائل اخرى . فارتضى دوق بادن بهذا الاعتذار

وفي ١٥ اذار (مارس) سنة ١٨٠٤ سار الفرسان الفرنسويون بسرعة عظيمة وتمكنوا من ان يحيطوا بالمدينة قبل ان عرف الدوق دوانجين بقدومهم فدخلوا اليهِ وهو في فراشهِ واركبوهُ عجلة قبل ان لبس كل ثيابهِ وساروا بهِ سريعًا الى ستراسبرغ ثم الى قلعة فنسن بالقرب من باريس وعقد هناك مجلس حربي اعضاؤهُ ضباط القلعة ورئيسهُ الجنرال هوان واتوا بالدوق الى امام ذلك المجلس . وكانت لوائح الهدو والكبرياء تلوح على وجههِ لانهُ لم يكن عالمًا بما سيحل بهِ . واقاموا الدعوى عليهِ وهي انهُ خائن لمحاولتهِ اهاجة فتنة ومحاربة فرنسا وانهُ كان في شواطئ الرين فقال الدوق اعتبر الجنرال بونابرت كرجل عظيم ولما كنت برنسًا من العائلة البوربونية نذرت بان اكون مبغضًا لهُ الى الابد . ومن كان مثلي لا يقدر ان يدخل فرنسا ما لم يكن متسلحًا . فمولدي واراءي تجعلاني عدو حكومتكم الى الابد . انتهى . وفي نظام الجمهورية ان الفرنسوي الذي يضاد



فرنسا يرتكب ذنبًا من اعظم الذنوب . ولكن بونابرت لم يصم على انفاذ ذلك القانون في الدوق الا بعد ان تحقق انهُ مشترك بالمؤامرة فينبغي ان يحمي نفسهُ من القتل بالقاء الرعب في قلوب البوربون وطلب الدوق الى المجلس ان يمكنهُ من مقابلة القنصل الاول فابى ولو قابلهُ لنجا من القتل . وكان بونابرت قد ارسل موسيو ريال الى فنسن ليفحص الدوق ولو دخل اليها قبل حلول اجل الدوق لقرر بناء على الحوادث ما نجاهُ من القتل وكان قد تعب من المشقات التي احتملها ليلاً ونهارًا فدخل فراشهُ ونام بعد ان امر خادمهُ بان يمكنهُ من ان ينام كفاءتهُ . وقال الدوق دوانجين لذلك المجلس الحربي انهُ لم يكن مشتركًا بالمؤامرة المتعلقة بقتل بونابرت واقر بافتخار انهُ نقلد السلاح لمحاربة الجمهورية الفرنسوية ودخل ستراسبرغ مرات كثيرة بدون ان يكون قاصدًا القيام بخيانة . فاقرارهُ بتقلد السلاح لمحاربة جمهورية فرنسا كافٍ للحكم عليهِ بالقتل قانونيًا وفي قانون اخر من قوانين الجمهورية ان الذين يدخلون فرنسا من المهاجرين يرتكبون ذنبًا يعاقب بالقتل فلم يتعدَّ المجلس الحربي القوانين بحكمهِ على الدوق بالقتل ولو حكم عليهِ بعقاب اخر لقصر . اما امر بونابرت بتوجيه موسيو ريال لفحصهِ فلم يصل الى يدهِ الا الساعة الخامسة من الصباح وذلك بعد فوات الفرصة لان المجلس الحربي المذكور حكم بالقتل بسرعة وساق الدوق بنور المصابيح الى فسحة عند القلعة فراى فيها بنور الفجر صفًا من الجنود واقفًا لقتلهِ . فقطع بعض شعرهِ بيدهِ وسكينة واخرج ساعتهُ من جيبهِ وطلب الى ضابط ان يتوسل الى جوزفين بان تقدمها هي والشعر الى البرنسس دوروهان علامة للحب . ثم نظر الى الجنود وقال انني اموت في سبيل خدمة ملكي وفرنسا . ثم امرهم باطلاق الرصاص فاطلقوهُ فسقط وقد اصابهُ في سبع محلات من جسدهِ . ومن المؤكد ان بونابرت تكدر جدًّا من قتلهِ وتبين ان الاجنبي الذي كان المتآمرون وغيرهم يقولون انهُ رفيق الدوق هو يشغرو لا القائد . فلما عرف بونابرت بذلك تكدر جدًّا وتاسف وقال حزنت لانني سمحت بالقبض على الدوق . ومع ذلك لما كتب تاريخهُ حمل مسئولية تلك الحوادث وقال انني القيت القبض على الدوق دوانجين اضطراريًا لحماية الامة الفرنسوية وصوالحها وناموسها لما كان في خدمة الكونت دوارتوا ستون رجلاً من القتلة . واكرر هذا العمل في احوال اخرى واجري ما قد اجريتهُ . انتهى

ومن لا يحزن من تلك الحوادث الدموية فان الزمان كان زمان ظلم وثورات ومؤامرات وحروب . وكانت البوارج تطلق المدافع على المدن وتهلك عشرات الوف في ميدان الحرب في يوم واحد كانَّ الناس حيوانات وكانَّ اخذ الثار بالقتل او الحجر من الامور القانونية عند المتحاربين واحيط بونابرت بهذه الامور منذ الطفولية ولما كبر كان يحمل الكبرياء الاميرية وادعاآت الذين كانوا يتهمونهُ بالاختلاس مع انهُ منتخب امة . ومن المستغرب انهُ انفق حياة عجيبة محاطة بالتجارب وفي يدهِ اعظم سلطان بدون ان يستبد كثيرًا . فقتل دوق من عائلة الملوكية غاظ دول اوربا .

حتى ان عدة منها عاملت سفراء فرنسا بما دل على كدر عظيم بل على اهانة . فارسل الامبراطور اسكندر الروسي رسالة لوم الى بونابرت فحملهُ على ان يكتب اليهِ جوابًا عنيفًا لانهُ كان يحرر جملاً ككرات محشوة وكان الامبراطور جالسًا على عرش مضرج بدم ابيهِ الامبراطور بولس لان القتلة قتلوهُ واقاموهُ عوضًا عنهُ بدون ان يقاص واحدًا منهم . فاجابهُ بونابرت ان فرنسا فعلت كما تفعل روسيا في احوال كهذه فانها لو عرفت ان الذين قتلوا الامبراطور بولس اجتمعوا في مكان يبعد مسافة يوم عن حدودها لبادرت الى القاء القبض عليهم مهما كلفها ذلك . انتهى . وليس هذا الجواب من الاجوبة اللطيفة التي تخمد نيران الغضب فغاظ الامبراطور اسكندر . وكان بونابرت مشتغلاً بهذه الامور فلم يتمكن من الاهتمام بالذين لسرهم من المتآمرين . وكان يشغرو منهم فلم يسمع شيئًا جديدًا عما عرضهُ عليهِ القنصل الاول من انشاء المهجر وبلغهُ خبر قتل الدوق دوانجين فحكم بانهُ هو ايضًا هالك لامحالة . وكان متكبرًا فلم يكن يحتمل المحاكمة جهارًا ففي ذات ليلة قرا كتابًا عن الانتحار فوضع الكتاب بجانبهِ وخنق نفسهُ برباط قميصهِ الحريري فوجدهُ حراس السجن في الصباح ميتًا في فراشهِ . ثم شُرع بمحاكمة المتآمرين . وكانت الامة مهتمة جدًّا بامر مورو لانهُ كان من اشهر قواد الجمهورية فحكم عليهِ بالسجن سنتين وعفي عنهُ وسمح لهُ بالذهاب الى امركا . اما اهالي فرنسا فكانوا يحبون بونابرت ويستحسنون كل الاستحسان سياستهُ وادارتهُ وانتظام حكومتهِ وكانوا يثنون عليهِ اذ انهُ اعاد الراحة والانتظام الى الجمهورية واتاهم بنجاح عظيم بجدهِ وكدهِ واصابة اعمالهِ وعلو همتهِ فكان اعضاء المجالس العالية واهالي باريس والجنود وامهات المدن والولايات يطلبون تتويجهُ لان نصيب فرنسا كان متوقفًا على سلامتهِ وتحقق الناس بالاختبار ان ميل الامة الفرنسوية لانوافقهُ الجمهورية وان غايات الثورة كانت قد تمت باصلاح الامور بقطع التعديات عن الحقوق وابطال النظام السابق البعيد عن التسوية وبتجديد السلطان الملكي وان راحة فرنسا وعظمتها تستدعيهم الى ان يجعلوا في يد بونابرت السلطان الملكي ليكون مساويًا في الرتبة للملوك المجاورين لهُ . وكان ميل فرنسا الى ذلك ظاهرًا جدًّا . وكان موسيو فوشي من اهل الغيرة فكان اول من بلغ بونابرت ميل الامة واظهر لهُ مرات كثيرة وجوب قطع اضطراب افكار فرنسا بالرجوع الى الملكية التي ربما كانت تخمد عدوان الامم المجاورة وتزيد عظمة بونابرت وتقرر اعمال الثورة . كانت الامة الفرنسوية في سرور شديد من جرى تعليق الامل بتبليغ بونابرت منصب الامبراطورية حال كونهِ حاصلاً على حب الامة وميلها الشديد . فاخذت الخطابات ترد اليهِ بكثرة من جميع الجهات ومآلها التماس قبول المنصب الامبراطوري . فدعا اليهِ لوبورون وكامبسز ليخابرهما . وقال لهما انهُ يميل الى تبوء عرش الامبراطورية لان كل الفرنسويين يميلون الى الحصول على ملك وان الامة الفرنسوية كانت تبعد في كل يوم



عن احوال الثورة غير المعتدلة . وانشاء الامبراطورية في فرنسا يرضي اوربا فيتمكن من ترقية اسباب صوالحها بدون ملاقاة الموانع التي كان يلاقيها حال كون الجمهورية قائمة فيها . وكان بونابرت على جانب عظيم من الحكمة فشاور اكثر دول اوربا وكانت انكلترا تحارب فرنسا فلم يكن سبيل الى مخابرتها . اما روسيا فاظهرت عدوانًا بعد صداقتها فلم يشاورها لان ذلك لايليق فشاور النمسا وبروسيا واسبانيا والدول الثانوية والصغيرة . وكانت اكثرية دول اوربا تعلم انهُ لايتيسر ترجيع البوربون الى الملك في فرنسا فسرت جدًّا بانشاء الامبراطورية فكتب ملك بروسيا بيدهِ الى سفيرهِ في باريس بانني افوضك بدون تردد بان تستغنم الفرصة الاولى لتبين لموسيو تاليرند بانني بعد ان رايت السلطان الاول يد القنصل اسر جدًّا ان ارى النظام العام مقررًا بحكمتهِ واعمالهِ العظيمة بواسطة تقرير الحقوق الارثية في عائلتهِ وانني لااتردد عن ان اعترف بذلك . انتهى . وكتب ذلك بعد قتل الدوق دوانجين بخمسة عشر يومًا فالظاهر ان قتلهُ جعل دول اوربا تتاسف ولكنها رات ان الاحوال التي قتل فيها كانت خطيرة . اما امبراطور النمسا فاجاب حالاً موكدًا بانهُ يعترف بالتغيير اذا جرى في فرنسا ولا بد ان تسريهِ الدول المجاورة لها . وهذه كانت اراء سائر دول اوربا . وفي ذات يوم كان بونابرت يحدث بورين كاتبهُ فقال لهُ ظننت انهُ لايتيسر حمل ملوك اوربا الذين هم من عيال قديمة على ان يعترفوا بامبراطوريتك . فقال بونابرت اذا امتنعوا اخلعهم جميعهم فاصير اقدم ملك

وصمم الجنرال مورو المنكود الحظ على بيع املاكهِ فامر بونابرت بان تشترى باغلى الاثمان ودفع ايضًا اجرة سفرهِ الى برشلونة استعدادًا لذهابهِ الى القارة الجديدة . وحكم على جورج كادودل وبولينياك وريفر وكثيرين غيرهم بالقتل . ولما راى بونابرت من عزم جورج كادودل وثباتهِ واقدامهِ ما راى رام ان يخلصهُ من الموت . وقال انني متاسف على قتل واحد من المتآمرين وهو جورج كادودل فان عقلهُ رفيع الدرجة ولو كان معي لقام باعمال كثيرة عظيمة . واعتبرت ما عندهُ من الثبات ولو كان في يدي لجعلت لهُ المقام المناسب . وامرت ريال ان يقول لهُ اذا انقاد اليَّ لا اكتفي بالعفو عنهُ ولكنني اسلمهُ قيادة فرقة ولا اكتفي بذلك لاني مصمم على جعلهِ من اعوان حربي . فاني لانهُ قطعة من حديد فماذا افعل فلا بد من مجازاتهِ بما يستحق فان ابقاء رجل مثلهِ في الحزب المضاد محفوف بخطر عظيم . وفي مساء اليوم الذي عين لقتلهِ طلب الى السجان بان ياتيهُ بقنينة من النبيذ فشرب وكانت من نوع غير جيد فتشكى قائلاً انهُ لايرضى بهذا النبيذ فاجاب السجان ببربرية انهُ يوافق وبشًا مثلك . فلم يضطرب ولا هاج ولكنهُ ارجع سدادة القنينة ورمى السجان بها فاصابت راسهُ فسقط ميتًا عند رجليهِ . وفي الغد قتل هو وكثيرون من المتآمرين

اما جوزفين فكانت عند بونابرت كملاك رحمة فزارتها امراة بولينياك واخذت تتوسل اليها

بدموع الكآبة والحزن بان تشفع لها عند بونابرت بزوجها المحكوم عليهِ بالموت . ولما رات حزنها وكآبتها تحركت الشفقة في قلبها الشفوق واخذت تشفع بهِ عند زوجها . وحاول بونابرت ستر ماشعر بهِ من الحزن والكدر واظهر ثبات عزمهِ على القصاص فقال لها انك لاتزالين تهتمين بامر اعدائهِ مع انهم جميعهم مذنبون خالون من الحكمة فان لم يقع التاديب عليهم يرجعوا الى مؤامرتهم ويكونون سبباً لبلية الاخرين . فكررت التشفع وهي تكاد تقع في الياس . وعلمت ان بونابرت يمر في مكان من القصر فدعت مادام بوليناك وسارت بها الى ذلك المكان وطرحتا انفسهما على بونابرت باكيتين . فنظر الى جوزفين نظرة موبخ ولكن قلبهُ المملو من الحنو لم يكن يقدر ان يمتنع عن اجابة ذلك السوال فامسك يد مادام بوليناك وقال انني تعجبت اذ رايت سيلي مؤامرة على قتلي ارماند بوليناك رفيقي في صغري في المدرسة الحربية غير انني امنحهُ العفو اكراماً لدموع امراتهِ واومل ان اجابة سوالك لاتكون سبباً يقويهِ على فعل جديد . فيامادام اشد الناس ذنباً هم اولئك الامراء الذين يعرضون حياة خدامهم الامناء للمخاطر بدون ان يشاركوهم فيها . وكان الجنرال لاجولي من الذين حكم عليهم بالموت لاشتراكهِ بالمؤامرة وكان عمر ابنتهِ الوحيدة ١٤ سنة وكانت بديعة الجمال . فلما عرفت بالحكم على ابيها بالقتل تضايقت وتحيرت . ففي صباح يوم سارت ماشية الى قصر سان كلوولم تعلم احداً بمقاصدها . فلما بلغت باب القصر تمكنت من جعل الحاجب الشفوق ياخذها الى غرفة جوزفين وهورتنس بواسطة فتونها وجمالها ودموعها وحزنها . وكان بونابرت قد قال لجوزفين لايلزم ان تعرضيني لكدر مشاهدة اقارب الذين يصدر الحكم عليهم بالقتل ومن يروم العفو فليطلبهُ كتابة . ومع ذلك تحركت الشفقة في قلب جوزفين وهورتنس لما شاهدتا كآبة تلك الفتاة المنكودة الحظ فذهبت بها الى مكان كان بونابرت مزمعاً ان يمر بهِ هو ووزراؤهُ فلما رأتهُ هجمت عليهِ وهي تكاد تموت كدراً وطرحت نفسها عند قدميهِ وقالت العفو يامولاي العفو لوالدي . فتعجب بونابرت لانها فاجأتهُ وقال بكدر قلت انني لا اسمح بامور كهذه فمن تجاسر واتى بك الى هنا مخالفاً اوامري فاتركيني يافتاة . واراد ان يسير ويتركها ولكنها طرحت نفسها على قدميهِ وامسكت ركبتيهِ والدموع تتساقط من عينيها السوداوين ولوائح الحزن الشديد تلوح في كل معنى من معاني جمال وجهها المرفوع الى بونابرت فصاحت وهي على تلك الحال العفو العفو لوالدي اطلبهُ . فقال لها بشفقة من هو ابوك ومن انت . قالت انا مادموازل لاجولي قد حكم على والدي بالموت . فتردد بونابرت برهة ثم قال يامادام موازل ان هذه هي المرة الثانية التي عقد ابوك فيها مؤامرة على الدولة . فلااجيب طلبك . قالت واحرباه ياسيدي انني عالمة بذلك ففي المرة الاولى كان بريئاً واليوم لا اطلب المعاملة بالعدل ولكن اسالك الرحمة والعفو فاحزن هذا الكلام بونابرت فرجفت شفتاهُ وملات الدموع عينيهِ وامسك يد الفتاة الصغيرة في يديهِ وشد عليها بشفقة وقال يا ابنتي



عفوت عنهُ اكراماً لك فانهضي واذهبي . فاغمي عليها وسقطت على الارض كانها ميتة فنقلوها الى غرفة جوزفين فرجعت الى نفسها في وقت قصير وكانت قد ضعفت قواها ومع ذلك سارت الى باريس وكان هناك موسيو لافلت معاون حرب بونابرت فرافقها هو وامراتهُ الى سجن ابيها ليبلغوهُ البشارة المفرحة فلما دخلت السجن المظلم طرحت نفسها على عنق والدها وناحت باضطراب شديد ثم يبس جسدها وجمدت عيناها وسقطت بين يدي مادام لافلت وهي غائبة عن الصواب . ولما استفاقت جنت وفي المساء اُخبر بونابرت بمصابها فاحنى راسهُ صامتاً واظهر كدرهُ ومسح دمعة من عينيهِ وسمعهُ القوم يقول بصوت منخفض انها منكودة الحظ مسكينة فالاب المذنب الذي لهُ ابنة كهذه البنت يتعاظم ذنبهُ انني ساعنني بها وبامها . وعفا عن ستة اخرين من المتآمرين . فانتهت المؤامرة التي عقدها البوربون لقتل بونابرت . وقالت الانسكلوبيديا الامركية ما ترجمتهُ معلوم عند كل باحث خالي الغرض ان بونابرت لم يكن قاسي القلب فلم يسد اذنيهِ عن الذين كانوا يسالونهُ العفو والرحمة اذا مكنتهُ الصوالح الفرنسوية العظيمة من اجابة سوالهم فعفا عن اكثر الذين عقدوا المؤامرة المنسوبة الى جورج وعن برنس هاترفيلد واراد ان يعفو عن استابس الشاب القاتل في شوبزون وبالجملة نقول انهُ كان شفوقاً . واخبار كثيرين من الذين كانت لهم علاقة بقتل الدوق ترفع مسئولية قتلهِ عنهُ . وقال سافاري دوق دودوفيجو في تاريخ القنصل الاول ان القنصل سمع عن قتل الدوق بتعجب وكدر شديد . وشهد بذلك الكونت ريال حاكم باريس . وقال بتاكيد في امركا على مسمع من جوزف بونابرت والكونت دوسور فاليه ومستر دوبنسو والجنرال لالياند والقبطان ساري وغيرهم لم يعرف بونابرت بقتل الدوق دوانجين الا بعد ان قتل وسمع بهِ بتعجب بلسان سافري وكان مصمماً على اطلاق سبيلهِ . انتهى . وهذا ينطبق على الخبر الاتي وهو ان يوسف شقيق القنصل الاول وجدهُ بعد تلك النازلة متكدراً جداً مغتاظاً من الذين سببوها . وتاسف جداً لانهُ اضاع فرصة حسنة للعفو والرحمة . وبعد ذلك بمدة طويلة كان يتكلم مع اخيهِ فذكر تلك الحادثة المكدرة مرات كثيرة وقال ان العفو عن برنس مؤامر عليَّ حال كونهِ يفعل ما يفرضهُ عليهِ مقامهُ هو من الاعمال الشريفة . وكان شاباً يمكنني ان اضمهُ اليَّ بانعاماتي فيقف على احوال فرنسا فيساق الى الدخول في خدمتي واحب ان يكون معاون حرب لي من نسل كوندي العظيم وهذا الكلام مدون في كتابات لاكازا . ولكن كلام بونابرت في وصيتهِ مخالف لذلك اذ قال فيها امرت بالقبض على الدوق دوانجين وبقتلهِ مراعاة للامنية ولصالح فرنسا وناموس الامة واكرر هذا الفعل لو وقعت في احوال كهذه فسبب موتهِ اولئك الذين كانوا يتآمرون عليَّ في لندن وهم الذين قصدوا ادخال الدوق دوبري الى فرنسا بطريق بيفيل والدوق دوانجين بطريق ستراسبرغ . وسافري من الذين شاهدوا تاسف بونابرت من جرى قتل ذلك الدوق وقد وضح

سبب التناقض في كلام بونابرت وكتاباتهِ وهو ان بونابرت فضل وهو على فراش الموت ان يحمل مسئولية قتل الدوق على ارتياب الناس في نفوذهِ وكتب ذلك مراعاة للعظمة الملكية التي تخطئ اذا تمتعت بمجد الامور الحسنة التي تجرى باسمها والقت لوم الخطا على عاتق الاخرين ولو جرى ذلك باسمها بلا علمها. فقال بونابرت مات الدوق دوانجين لانني اردت ان يموت ومعنى هذا الكلام انهُ لما كنت مالكًا لم يخطر لاحد ان يتصرف بحياة الاخرين او حريتهم . وربما تيسر خدعي ولكن التعدي على سلطاني كان ضربًا من المحال ومن الموكد انهُ كان في موقف محفوف بالخطر يسير على جبال من النيران التي تهيج باقل الاسباب فلم يناسبهُ ان يتوهم الناس امكان القيام بعمل كهذا بدون ارادتهِ وكان من اسباب راحة فرنسا في ذلك الزمان ان يعتقد الاهالي نفوذ كلمتهِ فصوالح فرنسا جعلتهُ يحمل مسئولية كل عمل يجري باسمهِ . وقال بينون كتب بونابرت كتابًا ولا يزال بدون نشر فيهِ عبارة عن الدوق دوانجين وهي اذا كان مذنبًا فقد اصاب المجلس الحربي بالحكم عليهِ بالقتل واذا كان بريًا فكان ينبغي ان يطلق سبيلهُ فلا يسوغ للحاكم ان يخالف ضميرهُ

هذا والواقع ان الدوق دوانجين ارتكب خيانة بقبض راتب من انكلترا ونقلد سلاحًا لمحاربة بلادهِ . وكان في الحدود على همة دخول فرنسا بجيوش مهاجمة . ومع ذلك كانت كرامة اخلاق بونابرت تجعلهُ يميل الى صرف النظر عن الخيانة بالنظر الى حالة العائلة البوربونية لانها كانت واقعة في بلايا عظيمة . ودليل اشتراك الدوق بالمؤامرة قاطع . ومع ذلك صمم بونابرت على محاكمتهِ والعفو عنهُ ظانًا ان عملاً ناتجًا عن الحلم يبين شفقتهُ على البوربون وانهُ غير قاصد تعظيم بلاياهم ولكن القي القبض على الدوق واقيمت الدعوى عليهِ بانهُ خائن وحوكم فثبت ذنبهُ فحكم عليهِ بالقتل واجري الحكم عليهِ قبل ان تمكن بونابرت من المداخلة بالعفو عنهُ . فقتل بالحكم القانوني العادل فتاسف بونابرت عليهِ واشتد اسفهُ لما عرف انهُ اقرّ بالخيانة ولكن اشتراكهُ بالمؤامرة غير موكد . ومع ذلك امتنع عن الاعتذار الى البوربون لانهُ لم يرضَ اظهار امور موافقة لهُ اذا كانت غير عادلة بالقاء التهم على الذين يحكمون بها

## الفصل السادس والعشرون

### انقلابات سياسية وغير ذلك

ان مؤامرة امراء البوربون لقتل بونابرت القنصل الاول انهضت همم فرنسا الجمهورية وايقظتها وجعلتها توطد اركان الحكومة الجديدة . وقتل الدوق دوانجين غاظ ملوك اوربا وشدد بغضهم لفرنسا وكرههم لفوز حكومة الاهالي . وكان الملكيون يعدون بونابرت المانع الوحيد لنوال مآربهم



اما مجلس الاعيان في فرنسا فقرر باجماع اقامة نابوليون بونابرت امبراطورًا وان يستلم حكومة فرنسا الجمهورية بصفتهِ الامبراطورية واشتد فرح هذا المجلس وهو السنا بذلك فعزم على ان يذهب الى سان كلو ليقدم قرارهُ ويسلم على بونابرت بصفتهِ الجديدة الامبراطورية . وفي ١٨ ايار (مايس) سنة ١٨٠٤ سارت عجلات كثيرة ومعها حراس من الجنود وفيها اعضاء ذلك المجلس الى المكان المذكور وكان الطقس معتدلاً والارض مزينة بازهار الربيع واستعد بونابرت للقائهم بلا اضطراب فانهُ كان على الدوام مستكنًا . اما امرأتهُ جوزفين فوقفت بجانبهِ ولوائح الاضطراب الشديد تلوح على وجهها خوفًا من الاستقبال ولكنها سرت بارتفاع شان زوجها . اما كامبسز فكان رئيس ذلك المجلس وهو رفيق بونابرت في حكومة القنصلية فاصبح بونابرت مولاهُ ومع ذلك انحنى جدًا امام امبراطوره الجديد وقال

ايها المولى . منذ اربع سنوات سيقت الامة الفرنسوية بحبها وشكرها الى تسليم جلالتك ازمة الحكومة ونظام الدولة جعل في يدك انتخاب خلف لك . اما اللقب الذي يعطى لك الان وهو اعظم من اللقب الاول فهو لرفع شان الامة وللقيام بفرض جديد اظهارًا لاحترامها المتعاظم وحبها الذي يزداد كل يوم فكيف تتامل الامة الفرنسوية بالسعادة التي فازت بها منذ ساقتها العناية الالهية الى طرح نفسها بين يديك بدون فرح شديد وسرور عظيم . فلما ظهرت جلالتك كانت جنودنا مكسورة وماليتنا في ضياع والامنية العمومية مسلوبة وبقايا عظمتنا القديمة واقعة تحت منازعات الاحزاب وقواعد الدين والاداب في ظلام فارجعت النصر الى راياتنا ووطدت الانتظام والاقتصاد في النفقات . فرات الامة ان الممالك ركنت الى مداخيلها وحكمتك اخمدت هيجان الاحزاب والدين شاهد رجوع مذابحهِ ثم قمت باعظم معجزاتك بحذقك وتدبيرك فانك حملت الامة على محبة سلطان اقيم لراحتها ومجدها وعلى احترامهِ بعد ان كانت بعيدة عن التقييد مبغضة لكل سلطان بالتهيجات المدنية . انتهى

فلما انتهى هذا الخطاب ضج القوم في ذلك القصر قائلين فليعش الامبراطور . فلما سمع ضجتهم الجمهور المجتمع في فسحة القصر والبساتين ليرى ما يجري ضج ايضًا . فاجاب بونابرت ان ما يأول الى رفاهية البلاد متعلق بسعادتي فاقبل اللقب لتولكم انهُ ينفع مجد الامة تاركًا لها وضع نظام الارث والمامول ان لا تندم فرنسا على منح عائلتي هذا الشرف . ولا تكون روحي مع نسلي في اليوم الذي لا يستحق فيهِ حب الامة العظيمة وركونها . انتهى

ثم خاطب كامبسز الامبراطورة جوزفين مهنئًا فلم تجب الا بالدموع وكان بونابرت يحب ان يحيط عرشهُ الجديد بما يجعلهُ ثابتًا فصمم على جعل حضرة البابا يتوجهُ في باريس . وكان البابا بيوس السابع صديق بونابرت شاكرًا لهُ على منح الكنيسة امتيازات كثيرة . ولم يسبقهُ احد من

البابوات الى التنازل بالخروج من رومية لتتويج ملك . ولما طلب بونابرت اليهِ المجيء الى باريس اجاب حالاً لانهُ كان يرغب في ارضاء صديقهِ العظيم . وكان ذلك في شهر ايار (مايس) وكان بونابرت يروم ان يحمل على انكلترا قبل ان يتوّج خصوصاً بعد ان تحققت تاهبا تهُ نجاحاً حملهُ على ان يتاكد الفوز فسار الى كل معسكر في الشاطىء وفحصهُ وفحص القوارب ليرى هل هي مجهزة جيداً فوجد ان جميع الاشياء مرتبة كما يروم . واقام استعدادات عظيمة للاحتفال بتوزيع نيشان اللجيون دونور على مراى من البوارج الانكليزية . فجلس على عرش عظيم على الشاطىء واجتمع جيشهُ الجرار المنظر على شكل نصف دائرة وضجات مائة الف رجل تمزق الهواء وطلقات الوف من المدافع ترسل صداها الى سواحل انكلترا . فاثر ذلك في الجميع . واثناء هذا الاحتفال العظيم دنت بعض البوارج الانكليزية وهاجمت بعض القوارب الحربية الفرنسوية التي كانت تدنو من بولون على مراى من ذلك الجمهور الغفير المحيط بالامبراطور نابوليون وهو المتصل بونابرت . وكان الامبراطور مشتغلاً بتوزيع النياشين ومع ذلك كان يوجه نظارتهُ حيناً بعد حين الى البوارج والقوارب . وبعد برهة دخلت القوارب المينا سالمة فتعاظم السرور في ذلك النهار

ثم شاهد بونابرت قتالاً ثانياً جارياً بين قواربهِ الحربية والبوارج الانكليزية في ٢٦ اب (اوغسطس) بعد الظهر بساعتين وهو يبحث عن احوال قوارب المدافع فدنت ٢٠ بارجة انكليزية من الشاطىء واقتربت احداها من القوارب الفرنسوية مستكشفة الاحوال وهي تطلق مدافعها فسارت بعض القوارب الفرنسوية وحملت على البارجة . فلما راى الانكليز ذلك ارسلوا بارجة اخرى وبعض السفن الحربية لنجدتها . وكان بونابرت في سفينة حظ ومعهُ الاميرال بروبز فامر الملاحين بان يدخلوا بسفينتهِ الى وسط القوارب التي كانت تحارب وان يدنو بالسرعة الممكنة من البارجة وكان يعلم ان الملاحين والجنود الذين كانوا يشاهدون شجاعتهُ في البر يقولون في انفسهم هل هو شجاع في البحر . فاراد ان يبين لهم الواقع . وكانت سفينتهُ مزينة بالرايات فاقتربت من البارجة الانكليزية بسرعة . ولاح للانكليز ان فيها راكباً عظيماً عزيزاً فلم تطلق الكل عليها ولكنها استعدت لاطلاقها دفعة واحدة لتتاكد هلاك عدوها الالدّ فادرك الاميرال الخطر الذي حف بهِ بونابرت فامسك الدفة ليغير مسير السفينة فاشار بونابرت اليهِ بان لا يغيرهُ فاستمرت السفينة سائرة وبونابرت ينظر بنظارتهِ الى العدو . وعند ذلك اطلقت صفاً من مدافعها دفعة واحدة فانصب الرصاص والحديد حول سفينة بونابرت كالمطر في الزوابع فاضطربت مياه البحر ولم يصب احداً ضرر . فدنت القوارب الفرنسوية بسرعة من البارجة وحملت عليها وهي تطلق الكرات والرصاص فلحق ضرر عظيم بها فالتزمت ان تنشر شراعاتها وتفر . ولحقتها السفن الانكليزية الحربية بعد وقوع ضرر عظيم عليها وغرقت احدى البارجتين . فسر بونابرت جداً



بنتيجة هذا القتال فكتب الى المارشال سولت ان المعركة التي حضرتها اثرت تاثيراً عظيماً في انكلترا واوقعت الرعب في قلوب الانكليز ومدافع القوارب فعلت فعلاً ذريعاً . وعرفت بالاخبار الخصوصية انهُ قتل من العدو من ١٢ الى ١٥ رجلاً وجرح ستون ولحق بالبارجة ضرر جسيم ولم يقتل منا غير رجلين وجرح سبعة رجال . انتهى

وباتت دولة الانكليز في خوف شديد وشغل لعلمها ان الهجوم على انكلترا صعب ولكن شاهدت من استعداد بونابرت وتجهيزاتهِ العظيمة ما يغلب الصعوبة . وفرحت فرنسا واستعدت للاحتفال بالتتويج . وشاع ان حضرة البابا آتٍ ليتوج بونابرت وكان المتدينون من الاهالي يسمعون ذلك بتعجب وسرور . ولكن مجلس الشورى ضاد اتيانهُ واتى ببراهين كثيرة تبين عدم موافقة الرجوع الى التتويج بيد حضرة البابا حال كونهِ أُعطي الى بونابرت بارادة الامة وانتصارات الجيش ولكن بونابرت كان قوياً في مجلس الشوري كما كان قوياً في ميدان الحرب . وكانت براهينهُ مؤثرة ككل مدافعهِ المحشوة وقال في ختام كلامهِ ياسادتي تتفاوضون بباريس في قصر التويلري فافرضوا انكم في لندن في المجلس الخاص الانكليزي وانكم وزراء ملك انكلترا وبلغكم في هذه الدقيقة ان البابا اخذ في قطع جبال الالب ليتوج امبراطور الفرنسويين فهل تعدون ذلك فوزاً لانكلترا او لفرنسا . انتهى . وانتهت الاعتراضات بهذا الكلام . واصاب بونابرت بما فعل لعلمهِ ان الحصول على بركة حضرة البابا عند اوربا الكاثوليكية توطد اركان امبراطوريتهِ فيصبح امبراطوراً نظامياً ولا يستعاض عن ذلك بامر اخر فكتب الى حضرة البابا بما ياتي

ايها الاب الاقدس . ان التاثيرات الحسنة الظاهرة في صفات شعبي وادابهم من ترجيع الدين تحملني على ان ارجو قداستكم بان تاتوا ببرهان جديد على ميلكم الى دولتي والى هذه الامة العظيمة في احوال من اخطر احوال العالم . فارجوكم ان تاتوا لتكون صفة دينية لاعظم عمل وهو مسح الامبراطور الاول الفرنسوي وتتويجهُ . والاحتفال يكتسب رونقاً جديداً اذا قمتم قداستكم بالتتويج وستسكب على حضرتكم وعلى شعبنا بركات الله الذي بنواميسهِ تدار الامبراطوريات والعيال وقداستكم تعلمون حبي لكم الشديد القديم العهد فتقدرون ان تدركوا سروري الشديد بالتمكن من تاكيدهِ . فيا ايها الاب الاقدس اسال الله ان يبقيكم في قيد الحياة لتديروا بامن الكنيسة المقدسة وتتولوا امرها

ابنكم المطيع

نابوليون

وكان حضرة البابا يتجنب استهزاء الاعداء لانهُ يوثر فيهِ فتكدر جداً من ان يقال انهُ خوري نابوليون فتردد عن اجابة بونابرت برهة ولكنهُ لم يلبث ان اجاب طلبهُ

اما جوزفين فكانت ترتجف من علو المقام الذي ادركهُ زوجها خصوصاً حين يقال ان

الضرورة السياسية تدعو بونابرت الى ان يكون مؤسس دولة جديدة فلا غنى لهُ عن خلف ولذلك سيطلقها ليحصل على ولد يخلفهُ فتمنت بان تتوج مع زوجها ليكون لبس التاج رباطاً جديداً يربطها بهوضمانة تبعد الطلاق الذي كان يقلقها و يسلب راحتها . وكان بونابرت يحبها جداً ويعلم ضرورة عقد زواج جديد مراعاةً لامور سياسية . وحدث بينهما حينئذٍ ما غلب بونابرت بقلق زوجتهِ المخيف وحبها وحزنها فقيد بمناعيل الحب الى ان ضمها بيديهِ وقال لها انهُ مهما اقتضت الاحوال السياسية لا يكتسب قوة كافية للانفصال عن امراة يحبها جداً وقال لها انها ستتوج معهُ وتنال بركة البابا

وفي غاية تشرين الثاني (نوفمبر) تمت الاستعدادات في كنيسة نوتردام وخرج حضرة البابا بيوس السابع من رومية قاصداً باريس وكان يلاقي في كل مكان اكراماً عظيماً . وعندما وصل حضرتهُ الى فونتنبلو بحاشيتهِ لاقاهُ بونابرت راكباً فرساً ومعهُ جمهور غفير من الاعيان والاعوان فلما دنا منهُ نزل عن جوادهِ واستقبلهُ وركبا عجلة واحدة واكرمهُ بونابرت وعظم وفادتهُ واجلسهُ عن يمينهِ في العجلة . ولما بلغا قصر فونتنبلو قوبل باحتفال عظيم ادهشهُ وملأ قلبهُ سروراً . وكان البابا وديعاً تلوح على وجههِ لوائح كرامة الاخلاق والجلال فجذب اليهِ قلوب الجميع . وبعد ان ارتاح ثلثة ايام في القصر ركبا العجلة وسارا الى باريس وانزل حضرة البابا في جهة البافليون فلورا من قصر التويلري وكانت قد اعدت لهُ على انظم ترتيب وافخر نوع . وكان بونابرت يراعي اموراً لا يراعيها الناس فوجد حضرة البابا المكان المعد لهُ كمنزلهِ في الفاتيكان بترتيبهِ واثاثهِ . وكان اهالي باريس يجتمعون كل يوم تحت طبقان التويلري طالبين خروج حضرة البابا اليهم فان خبر كرامة اخلاقهِ ودعتهِ ملأ العاصمة فخرج مرات كثيرة لمقابلة الجمهور وكان بونابرت يخرج معهُ فيضجون ويهللون ويجثون امامهُ على ركبهم طالبين بركتهُ . فما اغرب هذا التغيير فانهُ قبل ذلك باقل من عشر سنين كانت عامة باريس تطارد خدم الدين في اسواق باريس و تقتلهم بالرصاص بدون رحمة ولا شفقة

وعند عقد زواج بونابرت وجوزفين كان الزواج الكنائسي ملغىً فكانا مربوطين بعقد مدني فقط . وفي مساء يوم تتويجهما اقيم احتفال عقد زواجهما كنائسياً سراً في كنيسة التويلري وكانا مسرورين جداً وتغلبت عند ذلك الحاسيات الحبية على جوزفين وشواهد انفعالها ظهرت في الصباح باحمرار عينيها من اذراف دموع الفرح والسرور

وبيوم الاحد في ٢ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٤ اشتغل الباريسيون بالاستعداد لمشاهدة تتويج الامبراطور . وزينت كنيسة نوتردام ابهى زينة وكانت اثمن الاستار المخملية والحريرية مسدولة على جدرانها واقيم عرش عظيم جداً لبونابرت وجوزفين في الجهة الغربية من الكنيسة لهُ



عشرون درجة . وخرج بونابرت من القصر في عجلة لابساً اثواباً بحسب ذوق اشهر مصوري العصر وكان يسير وضجات جماهير لا تحصى تصحبهُ وسرَّ الناس طرّاً بارتقاء الذي كادت الامة تعبدهُ الى عرش الامبراطورية . ودخل بونابرت الكنيسة وعلى جبينهِ الكريم اكليل من الذهب شخصت الابصار فيهِ وخمسمائة من اصحاب الالات الموسيقية يضربون الانغام . فمسحهُ حضرة البابا وبارك سيفهُ وصولجانهُ ولما دنا منهُ ليتناول التاج امسكهُ بونابرت بثبات وجلال بيديهِ ووضعهُ هو (اي بونابرت) على راسهِ فاثر ذلك في الجمهور تاثيراً حسناً جداً . ثم اخذ التاج المعد للامبراطورة ودنا من جوزفين وهي راكعة امامهُ ووضع التاج على راسها ولوائح الحب تلوح على وجههِ . فشخصت ابصارها في وجه زوجها العظيم المشهور برهة ونظر اليها نظرة حب فتغلبت عواطفها عليها فاحنت راسها و بكت فضج الجمهور الغفير المجتمع في كنيسة نوتردام واخذت رعود مدافع كثيرة ترسل صداها الى شوارع باريس اعلاناً بصيرورة بونابرت امبراطوراً اصولياً على فرنسا . ولما عاد الامبراطور والامبراطورة الى القصر كان ظلام الليل قد خيم على قصر التويلري والانوار حولهُ جعلت الليل نهاراً . وكانت جوزفين قد تعبت باعمال النهار وتاثيرات تلك الاحتفالات فدخلت حجرتها وجثت على ركبتيها وطلبت الى ملك الملوك ان يرشدها . وكان بونابرت يكره تلك الاحتفالات والتظاهر بالعظمة ولولا لزوم ذلك ليجعلهُ مؤثراً في الجمهور لما قام بهِ فبعد ان دخل القصر سار الى غرفتهِ بسرعة وقال لاحد اعوانهِ بفروغ صبر ازل عني هذه الرباطات المتعبة فخلع عنهُ الثوب وطرحهُ في زاوية من الغرفة ثم خلع الثوب الاخر الكبير وطرحهُ في زاوية اخرى وهكذا خلص نفسهُ من اثقال ملابسهِ وقال انهُ لم يشعر بزمانهِ بتعب اعظم من تعب ملابسهِ

وكان بلاط ملوك فرنسا قد اظهر للامة قروناً كثيرة اعمالاً مخالفة للاداب بعيدة عن الفضائل وسترول اقبح العادات بالعظمة والمجد . اما الامبراطور نابوليون الاول وهو بونابرت فصمم ان يجعل بلاطهُ مثالاً للاداب الصافية وان لا يستخدم الا من كان صيتهُ طيباً . وكانت الدوقة دوكوبليور قد استغنمت فرصة سهولة الطلاق وتخلصت من زوجها واقترنت باخرين في زمان بانت فرنسا فيهِ متخلصة من تقييدات الاداب . وكانت جوزفين في ايام ضيقها قد نالت منحاً من تلك الدوقة فارادت ان تكافئها بقبولها في بلاطها . فلم يرضَ بونابرت فكتبت اليها انني مكدرة جداً لان اصدقاءي القدماء يظنون انني قادرة على اجراء ما اريد و يتوهمون انني نسيت الماضي وهذا هو غير الواقع فان الامبراطور اغتاظ من التعدي على الاداب و يخاف امتداد ذلك فصمم ان يجعل الامور في القصر الذي يعيش فيهِ منظمة موافقة لاصول الدين ويزيد الكنيسة التي ارجعها قوةً فلا يغير النواميس التي وضعتها وعزم على ان لا يقرب من بلاطهِ الذين استغنموا نوح الفرصة وطلقوا زوجاتهم وهذا هو الذي جعلهُ يمنعني عن تقريبك مني فتكدرت جداً وهو ثابت

في عزمهِ فلا امل بعدولهِ عن رايهِ . انتهى

ولم يكن حضرة البابا قادرًا على العود مجتازًا جبال الالب من غزارة الامطار وشدة البرد وتمكن الامبراطور نابوليون بلطفهِ واخلاصهِ وعنايتهِ من اكتساب حب حضرة البابا الشديد فاصبح من الذين يعجبون باعمالهِ. ومن اسباب العدوان الذي وقع بين فرنسا الجمهورية والملوك المتحدين خوفهم من انتشار القواعد الجمهورية في بلدانهم. وتعليق نابوليون املهُ بالحصول على الصلح الدائم بتغيير الجمهورية من الاسباب الاولية التي حملتهُ على تغيير الحكومة الجمهورية بانشاء الامبراطورية وغير هيئة الحكومة ولكن اعمالها كانت عمومية كالجمهورية . اما الملكية الفرنسوية القديمة فكانت علة ظلم لا يحتمل واقع على الشعب لنفع اصحاب الامتيازات وكانت عضد الحقوق الموروثة والاميرية النافذة السطوة توجه الوظائف لارضاء الرجال وتوسيع دائرة الادبرة وتكثير ثروتها ووضع المالية تحت امر ملك غير مسئول . اما امبراطورية نابوليون فكانت على غير ذلك فانها كانت تصون حرية الافراد وحقوق التملك ونظمت الاخرجة واطلقت حرية الاديان وصانت حقوق كل الناس مع قطع النظر عن مذاهبهم حتى الاسرائيليين الذين طالما كانوا عرضة للظلم ورتبت المالية وجعلت نياشين اللجيون دونور لجميع اهل الاستحقاق وهكذا كانت امبراطورية جمهورية حتى ان كل العارفين بالاحوال الا النادر قالوا ان هذه الامبراطورية اوفق حكومة لفرنسا وشادتها اكثرية عظيمة من الامة فلا يلام بونابرت على تغيير هيئة الحكومة لانهُ لو ابقى الجمهورية بدون عضدها بعهد الامبراطورية لما قدرت ان تثبت كما ثبتت امبراطوريتهُ

## الفصل السابع والعشرون

### عرش ايطاليا

تقدم ان الامبراطور نابوليون وهو بونابرت علق الامل بان انشاء الامبراطورية في فرنسا يحمل دول اوربا على مسالمتها والارتضاء باحوالها خصوصًا بعد ان اظهرت اكثر الدول المجاورة لها سرورها بتحويل الجمهورية الى امبراطورية واما انكلترا فاصرت على عدوانها وظن الامبراطور نابوليون ان انشاء الامبراطورية في فرنسا يرضي انكلترا ويقربها برباط الحب من فرنسا . وكان ميلهُ الى المصالحة شديدًا جدًا فلم ينثنِ عن مخاطبة تلك الدولة الغنية مع انها كانت قد اهانتهُ مرات كثيرة باجوبتها فان مقصدهُ انما كان حجب دماء العباد فكتب بيدهِ الى ملك انكلترا بعد ان صار امبراطورًا بما ياتي

سيدي واخي . دعيت الى عرش فرنسا بالعناية الالهية وباتخاب مجلس الشيوخ والامة والجيش



فارغب المصالحة قبل كل شيء . وربما كانت فرنسا وانكلترا تتعديان على حقوق التقدم وتصرفان قوتهما في الحروب اجيالاً ولكن هل تقوم حكوماتها بفروضها بهدر دماء كثيرين لانهُ لا امل بالحصول على فائدة ولا ببلوغ النهاية . ولا ارى ابتداءي بطلب المصالحة وحجب الدماء مما يجلب العار عليَّ . وقد ابنت للعالم بوضوح انني لا اخاف عواقب الحرب . هذا والسلام هو غايتي مع ان الحروب لم تات بما يمس مجدي فاستحلف جلالتك بان لا تحرم نفسك سعادة من يرجع السلام الى العالم . فلا توخر الحصول على ذلك لتبقي ذخرًا لاولادك لان الاحوال الحالية اوفق الاحوال والساعة انسب ساعة لقطع المطامع والقيام بما يقتضيهِ التعقل وحقوق الانسانية . فاذا اضعنا هذه الفرصة فماذا نسمي هذه الحرب التي لم يتيسر لي قطعها . وفي عشر سنوات ربحت من الثروة والاراضي اكثر مما تحتويهِ اوربا كلها وقد بلغت امتك اعلى درجات النجاح فماذا تربح بالحروب والعالم واسع يكفي الامتين وبالتعقل نقدر ان نجد وسائط لتقرير ذلك جميعهِ بالتسوية . وقد قمت بفروض مقدسة عندي فارجوك ان تركن الى خلوصي وصفاء مقاصدي وشدة رغبتي في اثبات صحة كلامي . انتهى

ومن يقرا هذه الرسالة ولا تحرك الشفقة في قلبهِ غير ان وزارة انكلترا سدت اذنيها دون تلك التوسلات القلبية وارسلت جوابًا خاليًا من الشفقة وهو ان جلالة ملك انكلترا يتمنى ترجيع السلام الى امتهِ ولكن لا يجيب ذلك الطلب بدون ان يشاور دول اواسط اوربا ولا سيما امبراطور روسيا . انتهى

والمقصود من هذا الجواب ان نوًا حربيًا جديدًا كان يجمع قوة في الشمال ونصيب فرنسا لا يقرر الا بعد حروب جديدة . اما الجمهورية السيسالبينية فشاهدت تحويل جمهورية فرنسا الى امبراطورية بسرور عظيم وارادت ان تقتدي بها . وايطاليا من البلاد التي تسر بالعظمة الموروثة فكانت تقول ان نابوليون ايطالي فصممت على ان تكللهُ بتاج لومبرديا فجاء وفد من جمهورية سيسالبين الى باريس يشاور الامبراطور نابوليون في الامر ويقدم لهُ التاج فقابلهُ الامبراطور مقابلة عمومية فاخبرهُ بان مجلس الشيوخ واهالي ايطاليا اجمعوا على تحويل حكومة وطنهم الى مملكة وان يجعلوهُ ملكًا . وكان يسمع كلام الوفد بسرور فاجاب ان فصل تاج فرنسا عن تاج ايطاليا من الامور الضرورية في الاستقبال اما الان فالاخطار كثيرة لاننا محاطون باعدا اقوياء واصدقا غير ثابتين وطالما احببت ايطاليا فارضى بان احمل الثقل الجديد والمسئولية العظيمة لان ركونهم اليَّ حملهم على هذا الطلب وساحافظ على ذلك الى ان تسمح صوالح ايطاليا بوضع التاج على راس من هو اصغر مني وستكون سياسة خلفي كسياستي فينصب على الاصلاح الذي شرع بهِ ويرضى بان يبذل صوالحهُ الخصوصية وحياتهُ في سبيل خدمة الامة التي تدعوهُ العناية ونظام البلاد

وارادتي الى ان يملك عليها . انتهى

وقال نابوليون لرفيقه القديم في المدرسة وهو بوريان بحرية واخلاص بعد ثمانية ايام اخرج قاصداً لبس تاج شارلمان الحديدي وما ذلك الا الدرجة الاولى من الامور العظيمة التي صممت على ان امتع ايطاليا بها فلا بد من ان تصير مملكة شاملة البلاد الواقعة وراء جبال الالب من البندقية الى الالب البحرية . واتحاد ايطاليا وفرنسا لايكون غير موقت . والان هو لازم ليعود الايطاليان الخضوع لقوانين واحدة عامة . فان اهالي جنوا وبيادمونت وميلان والبندقية وتسكانيا ورومية ونابلي متباغضون . ورومية عاصمة ايطاليا الطبيعية بمركزها وعظمتها التاريخية . وذلك لايتم مالم ينحصر سلطان البابا بالامور الروحية واجراء ذلك الان محل بالسياسة واذا ساعدتنا الاحوال فربما اجريناه بلا صعوبة . والان لااعلم ماذا ينبغي ان افعل ولكن المامول جلاء الامور بعد برهة . ولما كنت انا وانت رجلين كسلانين نسير الهوينا في اسواق باريس حدثتني نفسي بالفوز يوماً بالتسود على فرنسا وجعلت اعمالي منطبقة على هذا المرام . ومن الحكمة ان يهيئ الانسان نفسه للاستقبال وهذا شاني الان فلايمكن ان نجعل ايطاليا دولة واحدة خاضعة لقانون ونظام واحد فاشرع بجعلها فرنسوية . فتتعود ممالكها الصغيرة غير النافعة الان الخضوع لقوانين واحدة . ثم تنقطع المنازعات المحلية فتصبح مستحقة شهرتها الماضية فامكنها من استرداد استقلالها ولا يتم ذلك في اقل من عشرين سنة ومن يحق الركون الى الاستقبال وقد ابنت اموراً طالما كتمتها ولعلي اقص حلماً نهائياً . انتهى

وبعد ذلك ببرهة سار الامبراطور نابوليون الاول والامبراطورة مع حضرة البابا من باريس قاصدين ايطاليا فوقفوا في بريان وهو المكان الذي تعلم نابوليون فيه . فتذكر اموراً كثيرة كانت تخطر له وهو هناك بسرعة غريبة وبفرح وبكدر وتعجب لما راى انه لايزال يتذكرها ثم قطعوا جبال الالب . ووضعت جوزفين يدها في يد نابوليون واستندت عليه وهي تتفرج على العجائب التي كانت تحيط بهما وهي معجزات طبيعية خلقها الله القادر . وكانت تسر جداً حينما كان زوجها يشير الى مواقع اعماله العظيمة ويقص عليها اخبارها . ولما بلغا تورين ودعا حضرة البابا بعد ان اظهرا له وبيّن لهما من الاعتبار والحب ما دل على صدق الوداد وصفاء النوايا . ثم سار الامبراطور باعوانه الى سهول مارنجو وكان قد جمع فيها ثلثين الفاً من الجنود لتعرض عليه عرضاً عظيماً لترى جوزفين بتقليد الحرب الوقائع المخيفة التي جعلت تلك السهول غرقى بطوفان من الدماء وجرى ذلك في ٥ ايار ( مايس ) واقيم هناك عرش عظيم ليجلسا عليه وينظرا منه كل ما كان يجري . ولبس نابوليون في ذلك اليوم الاثواب التي كان لابسها في تلك المعركة والبرنيطة التي كان الرصاص قد خرقها والثوب الذي كاد يتمزق بالعواصف والرياح ونقلد سيفه الطويل الذي



ثقله في وسط مذابح ذلك اليوم المخيف وويلاته وهوانه . وكان بين اولئك الجنود كثيرون من الابطال الذين قاتلوا في ذلك اليوم . وظهر الامبراطور والامبراطورة للجنود في عجلة تجرها ٨ افراس فاخرة جداً فضج ثلثون الف رجل بصوت واحد مترحبين بهما . وكانت ملابس القواد الثمينة ومناظر الافراس الكريمة واصوات الموسيقات الكثيرة الحربية ولمعان الذهب والفولاذ واصوات المدافع والبنادق المتصلة تملأ الهواء بصوت واحد مدهش ودخان البارود الكثيف يغطي السهول ويحجب اشعة الشمس فهذه الاحوال كلها اثرت في الذين شاهدوا ذلك المنظر تاثيراً لا يمحى منهم حياتهم بطولها

وفي ٢٦ ايار ( مايس ) لبس بونابرت في ميلان تاج شارلمان الحديدي وهو دائرة من ذهب وحجارة كريمة موضوعة على دائرة حديدية زعموا انها مصنوعة من مسمار من المسامير التي استعملت عند صلب المسيح وان ذلك التاج بقي بدون لبس الف سنة في كنيسة مونزا . فأتي به ليلبسه بونابرت وكانت عظمة ذلك الاحتفال نظير عظمة الاحتفال لما لبس تاج فرنسا . ودخلت الامبراطورة في اول الامر لابسة ملابس فاخرة جداً والجواهر تغطيها فضج القوم مترحبين بها اي ترحب . ثم دخل الامبراطور نابوليون وهو لابس ملابس امبراطورية من المخمل الاحمر والذهب وعلى راسه تاج وفي يده تاج شارلمان وصولجانه . فوضع التاج على راسه بيده وهو يقول ما قاله سلفه عند لبسه وهو ان الله قد اعطاني اياه فالويل للذي يمسه . وصرف في ميلان شهراً وهو يقوم باصلاحات عظيمة جداً . والايطاليان لايزالون يقولون ان ملك الامبراطور نابوليون عليهم احسن ايام تاريخهم الحديث وامجدها . وحدث حينئذٍ ما بين اجتهاد نابوليون في ترقية سعادة الناس فخرج يوماً الامبراطور والامبراطورة من مكان العظمة والاشغال وذهبا الى جزيرة صغيرة في بحيرة من البحيرات الواقعة في تلك الجهات ودخلا كوخ امراة فقيرة . ولم تكن تعلم من هما فسالاها عن احوالها فاخبرتهما بالتفصيل عن مشقاتها وضيقاتها واهتمامها باولادها اذ انه كثيراً ما كان زوجها يعجز عن الحصول على اشغال . فسر نابوليون بما راى من انها ليست من الجاهلات الغبيات فقال لها ما هو المبلغ الذي يلزم لك لتصيري سعيدة . قالت هو وافر . قال عينيه قالت ٨٠ ريالاً ولكن من اين افوز بها . فقال الامبراطور لاحد اعوانه التي في حضنها نحو ٦٠٠ ريال ففعل . فكانت تتساقط وهي تلمع والمراة تنظر اليها مندهشة حتى انها انقطعت عن الكلام برهة . ثم قالت اه ياسيدي وياسيدتي ان هذا كثير غير ان الظاهر انكما تريدان ان تضحكا على امراة فقيرة . فقالت لها جوزفين بلطف لاتضحك فان كل هذا المال هو لك فيمكنك ان تستاجري ارضاً وتشتري قطيعاً من الماعز والحاصل من ذلك يمكنك ان تربي اولادك بالراحة . وكان بونابرت يعرف بحذقه من يستحق الرحمة والمساعدة استحقاقاً لايحصر نفعه في نفسه . وقبل ان

خرج من ميلان وردت اليهِ رسالات ضمنها كتابات من السار اورتار ولسلي الانكليزي وهي كتابات تمكن الفرنسويون من حجزها فقراها نابوليون فوجد فيها تفصيلات بخصوص الفتوحات العظيمة المتسعة التي فازبها الانكليز في الهند . فاخذ بونابرت يتكلم عن ذلك كلامًا قاسيًا ضد الانكليز اذ قال ان وزارة انكلترا تحاول اقناع اوربا لخرابها بان مطامع امبراطور فرنسا هي بدون حدود لانهُ يحاول ان يقوي نفسهُ لمضادة الممالك المضادة لهُ حال كونها محيطة بهِ بعقد عهود حبية واتفاق بينهُ وبين الدول التي يتمكن من استجلابها اليهِ بحذقهِ . حال كون نفس تلك الوزارة الانكليزية قد امرت بتوسيع دائرة المملكة الانكليزية في بلاد مساحتها تكاد تكون قدر مساحة اوربا واهاليها قدر اهاليها . ففي هذه المهاجمات العدوانية التي قامت بها لاتقدر ان تعتذر بانها مخلصة قد اجابت دعوة امة ولا انها اخذة في القيام بالفتوحات بحرب دفاعية . وبالحقيقة انهُ اسهل علينا ان نرى القذى في عين جارنا من ان نرى الجسر في عيننا . انتهى . وخرج الامبراطور والامبراطورة من ميلان وسارا قاصدين جنوا . وكان بونابرت نشيطًا جدًّا حتى لم يكن يصبر على الخيل في المسير مع انها كانت تجري بسرعة عظيمة فان العجلات كانت تسير من محل الى محل بسرعة وكان يصب ماء على الدوام على الدواليب لئلا تحترق وكان ينادي سائق المركبة قائلا اسرع اسرع . وقوبل في جنوا مقابلة احتفالية عظيمة واقيمت في الخليج الظريف جنينة جميلة جدًّا من البردقان اكرامًا لجوزفين واتى اعيان الاهالي اكبر كنيسة واظهروا طاعتهم للامبراطور والامبراطورة . ثم رجعا قاصدين اجتياز جبال الالب فانحدر نابوليون من العجلة وسار ماشيًا امام قومهِ فالتقى بامراة فلاحة فقال لها الى اين تذهبين في هذا الصباح . قالت لاشاهد الامبراطور فانهُ يسلك هذا الطريق اليوم . قال لماذا ترغبين في مشاهدتهِ الم تبدلوا ظالمًا بظالم فالبوربون ظلموكم ونابوليون يظلمكم الان . فارتبكت ثم قالت ان نابوليون ملكنا اما البوربون فكانوا ملوك الامراء . واخبر بونابرت احد قومهِ بذلك وقال هذا تعريف الحالة الجارية

واستناب الامبراطور نابوليون اوجين بوهرني في مملكة ايطاليا وعاد الى باريس حاملاً اثقال تاجين عظيمين بلا تشك ولا تعب واخذ يقوم بالاعمال بلا انقطاع . وكان يعيش بترتيب واعتدال . ففي الصباح كان يامر باعمال النهار ويقابل الذين كان يحق لهم ان يواجهوهُ ويتناول الطعام قبل الظهر بثلث ساعات في ٨ او ١٠ دقائق . ثم يعود الى غرفتهِ ويشتغل ويواجه الوزراء الذين كانوا ياتونهُ باشغالهم الى الساعة السادسة بعد الظهر . ثم يبسط الطعام فياكل غالبًا هو والامبراطورة ولم يكن يشرب غير خمر خفيفة جدًّا من الخمر الفرنسوية ممزوجة بالماء . وكان ياكل مساء في ثلث ساعة . ثم يعود الى قاعة الاستقبال فياتيهِ خادم بفنجان من القهوة . ثم يعود



الى غرفة الشغل فلم يكن يبقي للغد ما كان يتيسر اجراؤهُ في يومهِ . اما الامبراطورة فكانت تذهب الى غرفتها فتجد معيناتها ينتظرنها هناك . وكان نابوليون يخرج احيانًا من قاعة الجلوس بعد ان يتناول القهوة ويذهب الى غرفة جوزفين ليصرف بضع دقائق في التكلم مع النساء هناك . وكان يتكي على ظهر كرسي ويتكلم بحرية واخلاص كان يجذب بهما قلوب الذين كان يكلمهم . وفي المساء كان يجمع بعض الضباط ويبلغهم اوامرهُ لينفذوها في الغد . فكان امبراطور الاهالي لاينفك عن الشغل . والفرق عظيم جدًّا بين معيشتهِ ومعيشة الملوك الذين كانوا يصرفون اوقاتهم بالتنعمات والكسل والتهاون والملذات في قصور فرنسا . وكانت اعمالهُ في بيتهِ لطيفة جدًّا مبنية على مراعاة حاسيات الذين حولهُ مع انهُ كثيرًا ما كان يبيت مشغول البال بالمهام فياكل بدون ان يلفظ كلمة واحدة

وبعد ان تتوج امبراطورًا على فرنسا اقام الملك لويس الثامن عشر حجتهُ مدعيًا بحق الملك فسمح بونابرت بطبع دعواهُ في جريدة المونيتور لتتمكن كل فرنسا من قراءتها وكان هذا جوابهُ الوحيد الجميل . ولما قراهُ قال بهدو وسكينة ان حقي هو ارادة فرنسا وما دام سيفي معي اصونهُ . وطرح تقرير الامبراطورية بالارث في عائلتهِ امام الامة الفرنسوية فالذين قرروهُ اكثر من ثلثة ملايين ونصف مليون رجل والذين ضادوهُ نحو الفي رجل ولم تجمع امة على نصرة حاكم كما اجمعت الامة الفرنسوية على نصرة بونابرت

وكانت الوزارة الانكليزية ترتجف خوفًا من حملات الفرنسويين الذين كانوا يتهددون سواحلها وكانت الاخطار المحدقة بهم تزداد يوميًا فنهضت انكلترا قاصدة عقد اتحاد جديد لمقاومة فرنسا فبينت للدول ما كانت تسميهِ تعديات نابوليون فانقادت اليها النمسا وروسيا واسوج فتحالفت على اسقاط امبراطور الاهالي الفرنسوي وتعهدت انكلترا باكثر النفقات . وهجوم جيوش الدول الشمالية على فرنسا يحول افكار نابوليون عن الهجوم على انكلترا بذلك الجيش الجرار . وكان نابوليون عالمًا بتلك المقاومات يراقب الاحوال سرًّا بدون ان يعلم الناس انهُ عالم بها فهذه الاحوال وتعسر اجتماع البوارج الفرنسوية في المضيق جعلت نابوليون يميل تارة الى مصادمة اعدائهِ في جهة وطورًا في جهة اخرى . وبعد ان تامل طويلاً قال صممت على امر . فان بوارجي توارت عن مرتفعات راس ارتغال في ١٤ اب ( اوغسطس ) فان بلغت المضيق اسير الى لندن بجيشي واقطع فيها اسباب التحالف عليَّ واذا لم ينجح امير البحر بسبب سوء عملهِ او عدم ثباتهِ اضرب المعسكر من المضيق وادخل المانيا بمائتي الف جندي ولا اقف الا بعد نوال المطلوب من فينا وافتح البندقية وافصل مدن ايطاليا عن النمسا واطرد البوربون من ايطاليا ولا امكن الروسيين والنمسويين من الاجتماع فابدد شملهم قبل ان يجتمعوا . وبعد توطيد السلام في اواسط اوربا التفت الى

توطيدهِ في البحار . انتهى . وكان نابوليون قد هيأ كل شيء للهجوم على الاعداء وينتظر وصول البوارج وارسل ضباطًا الى جهات مختلفة من السواحل لينظروا بنظاراتهم الى البحار ويخبروهُ عما راوا . وصرفوا ثلثة ايام على هذه الحالة ولكن البوارج لم تات لان الاميرال فلينوف حاد عن سبل فروضهِ وعكس كل مقاصد نابوليون فتكدر كدرًا لم ينسهُ حياتهُ بطولها فاضطرب جدًّا لانهُ لم يطق ذلك الفشل واخذ يطعن في القواد البحريين ويقول انهم ليسوا من اصحاب الاهلية والاقتدار وقال انهُ سُلم الى يد اعدائهِ بالجبن وندب بالاسف الشديد خراب اعظم اعمالهِ واشهرها وسكن اضطرابهُ دفعة وحدة بعد حدة طويلة وكان ذلك من الامور الغريبة فيهِ . وبعد ان كانت افكارهُ مهتمة بالحمل على انكلترا وقطع البحار حول مقاصدهُ بسهولة الى ملاقاة الجيوش التي كانت في الشمال للهجوم على فرنسا واخذ في تدبير الامور اللازمة لذلك وصرف ساعات كثيرة متتابعة في تقرير معركة اُلم ومعركة اوسترلينس فانتهت على هذا النمط حملة انكلترا . وملاقاة الجيوش الشمالية كان عملاً خطيرًا من اعظم اعمال حياتهِ وان كانت نتيجة تدبيرهِ بضع ساعات

ولم تقم امة بحرب دفاعية بدون ان تتعدى العدل اكثر مما تعدى نابوليون عليهِ لما شرع في دفع اولئك الاعداء الذين لم يكونوا يرتضون بالرجوع عن الحرب بعقد الصلح . وكتب نابوليون عن تغيير حكومة فرنسا بعد هذه الاحوال ما ياتي

ان غايتي انما كانت قيام النظام الامتيازي الذي قررهُ شارلمان فاقمت امراء من الاهالي ليبتلعوا اصحاب الامتياز القدماء وعندي ان الاهلية بالحذق والمعارف فجعلت ابن الفلاح او الصانع دوقًا او مارشالاً وطلبت ذوي الاستحقاق الصحيح واجتهدت في تنظيم المساواة ورغبت في جعل كل فرنسوي قادرًا ان يرتقي بالاهلية المراتب السامية ليكون اقتدارهُ على القيام بالاعمال واسطة كافية لادراك المناصب وكنت راغبًا في محو اثر الحقوق الامتيازية الموروثة القديمة لاقيم حكومة قادرة ان تقبض على زمام الاحكام حال كونها من العامة . فعرفت حكومات اوربا المبنية على الامتيازات بمقصودي فاثارت انكلترا عليَّ حربًا . فان الامراء في لندن وفي فينا يظنون ان تقلد الخطط الخطيرة وادارة الاموال والتمتع بها من حقوقهم وعندهم ان نسبهم يقوم مقام حذقهم واهليتهم فيكتفون بان يكونوا اولاد امراء ليكونوا اهلاً لادارة اعظم المناصب وارفعها . وهم كالملوك يرتعون في التنعم بحق الهي وعندهم ان الاهالي كانهار ذات لبن فلا يعتنون بصوالحهم ما دامت الخزينة ملاى والتاج عليهِ جواهر كافية . وناسبني لدولة ارثية نشأ عن ثلثة مقاصد اولاً ان اجعل فرنسا كسائر البلاد ثانيًا للتوفيق بين فرنسا القديمة وفرنسا الجديدة . ثالثًا لقطع الامتيازات في اوربا بتعميم المناصب . وكانت اوربا كلها تحت حكومة الامراء الذين كانوا مضادين للامة الفرنسوية وهم الذين قاوموا انتشار القواعد الفرنسوية . فرايت لزومًا لقلب ذلك السلطان ومنع رجال الدولة القابًا



مناسبة لانعامهم

ولحياة الامبراطور نابوليون اخبار كثيرة تدل على صفاتهِ الممتازة وفي تلك الاخبار ما يثبت انهُ راعى حقوق الانسانية والشفقة وكرامة الاخلاق وابتعد عن الامور الدنية والابطال المعوهون ( الانفاليد ) بباريس يعرفون عنهُ اخبارًا مثبتة لما تقدم والذين اشتغلوا معهُ في الحروب او في الوزارة او في القصر يهيجون حين يذكرون صفات سيدهم الممتازة وشفقتهُ ويكرمونهُ اكرام معبود

وقال البارون لنكون ان اولاد الجيل الاتي الذين يرون في عروش الملوك رجالاً لم يفوقوا رجال جيلهم كما فاقهم بونابرت لا يقدرون ان يفهموا الحاسيات التي كانت تتولد فينا باعمال الامبراطور نابوليون الاول فان العناية الالهية لم تمنحهم ما منحتهُ وهذا فخرنا ومجدنا وفزنا بان نقابلهُ وجهًا لوجه وباستماع صوتهِ وبالشعور بتاثيراتهِ في قلوبنا وبالتمتع بالنظر الى جلالهِ وعظمتهِ . ولم تكن نسبتهُ الينا نسبة امبراطور الى رعيتهِ فاننا اعتبرناهُ كمخلوق فاق الجنس البشري بعظم افكارنا المتعلقة بعظمة الخالق . وكان كوالدنا وسيدنا حتى كنا نتوهم ان نسبتهُ الينا نسبة الصنم الى عابديهِ . وكنا نحن الفتيان نحبهُ محبة البنين لاباءهم ونطيعهُ كاطاعتهم لهم . وكانت عواطفهُ وعواطفنا في اشتراك فكنا نقوم باعمال لو قام بها الفرنسويون في هذا الزمان لقالوا اننا عبيد ارقاء . انتهى

وفي ذات يوم انتحر احد حراسهِ من فعل الحب فنشر نابوليون الاعلان الاتي ان الجندي كوبان انتحر من الغرام ولولا ذلك لكان من الجنود المعتبرين وانتحر اثنان في شهر واحد بسبب العشق . فامر القنصل الاول ( بونابرت ) بان يكتب في قيود الجنود انهُ من فروضهم ان يتغلبوا على مفاعيل الميل المضر يثبتوا لدفع المهاجمات الميلية كالثبات في القتال وخضوعنا للكدر بدون دفاع وقتلنا انفسنا للخلاص من المصائب انما هو كانهزامنا في ميدان الحرب قبل ان نفوز بالنصر . انتهى

وكان نابوليون يجول في المعسكر ومعهُ ضابطان فراى امراة جميلة لطيفة تنوح نوحًا شديدًا ومعها ولد صغير عمرهُ خمس سنوات . ولم تكن تعرفهُ الا بالاسم فلما راها اوقف جوادهُ وسالها عن سبب بكائها . ومنعها حزنها الشديد عن الجواب فاجاب ولدها ياسيدي امي تبكي لان ابي قد ضربها . قال اين تركت اباك . قال انهُ قريب منا وهو من حراس الذخائر . فسال نابوليون المراة عن اسم زوجها . فامتنعت عن ان تخبرهُ عنهُ اذ انها ظنت ان نابوليون من الضباط وانهُ مصمم على ان يقاصهُ . فقال لها ان زوجك ضربك ومع ذلك تخافين من ان تجلبي القصاص عليهِ فلا تخبريني عن اسمهِ وهذا تناقض والظاهر ان الذنب ذنبك والضرب تاديب لك . فقالت واسفاه يا ايها الضابط انهُ ذو الف صفة جيدة غير انهُ ذو صفة واحدة ردية جدًّا فانهُ غيور متجاوز

درجة الاعتدال في الغيرة واذا غضب لا يقدر على ضبط نفسهِ من التعدي وانا احبهُ لانهُ زوجي ووالد ابني العزيز . وبعد ان قالت هذا القول قبلت ابنها بحب فقبلها نقيلاً اظهر شدة حبهِ لها فاثر ذلك في نابوليون جدًّا وان كان حاملاً اثقال الامبراطورية فانهُ كان قادرًا على قطع النظر عنها ليعتني بكدر امراة جندي . ثم قال لها اذا كنت تحبين زوجك اولا وهو يحبك اولا فلا اسمح بان يضربك فاخبريني عن اسمهِ لارفع الامر الى الامبراطور . قالت لو كنت الامبراطور لما اخبرتك لعلمي انهُ لا بد من معاقبتهِ . قال انك سخيفة العقل فان قصدي ان يعاملك بالحسنى حسب استحقاقك ثم ذكر عناد النساء وسار في طريقهِ وهو يقول لرفقيهِ ماذا تظنان عن حب تلك المراة ليس في قصر التويلري نساء كثيرات مثلها فالمراة التي هي مثلها انما هي كنز لزوجها . وارسل في الحال احد معاونيهِ وامرهُ بان يدعو اليهِ قائد حراس الذخائر فسالهُ بتدقيق عن المراة المذكورة وزوجها وابنها . فاجاب ان تصرفهُ حسن ولكنهُ شديد الغيرة بدون داع . فقال لهُ نابوليون اسال عنهُ فاذا وجدت انهُ لم يرني قبل الان فادعهُ اليَّ . فوجد القائد انهُ لا يعرف نابوليون فاتى بهِ اليهِ فوجد انهُ شاب جميل المنظر عمرهُ نحو ٢٥ سنة وانهُ دخل الجيش منذ برهة قصيرة . فلما اجتمع نابوليون بهِ قال لهُ لماذا تضرب امراتك فهي شابة جميلة وسلوكها حسن وسيرتها جيدة فهذا يجلب العار على الجندي الفرنسوي . فقال زوج المراة اذا صدَّق الناس ما تقولهُ النساء يحكمون لهن على الدوام . وذنبي انني منعت امراتي عن التكلم مع كل الرجال فلم تمتنع . فقال لهُ نابوليون هذا هو غلط عظيم فانك تمنع امراة عن التكلم وتحويل مجرى نهر الدانوب ليس اصعب من ذلك . فاسمع مشورتي وانقطع عن الغيرة واسمح لامراتك بان تتكلم وتفرح فلو اذنبت لتكدرت فاطلب اليك ان تمتنع عن ضربها فان لم تنفذ امري اخبر الامبراطور بامرك . فاذا عاقبك فماذا تفعل فاضطرب وتكدر من المداخلة في احوال عائلتهِ فقال يا ايها الجنرال ان امراتي هي لي ويحق لي ان اضربها اذا شئت ان اضربها فاهتم انت بامر العدو واتركني اهتم بامر امراتي . فلما سمع نابوليون هذا الكلام ضحك وقال لهُ يا ايها الرجل الصالح انك تكلم الامبراطور . فاندهش واضطرب وارتبك جدًّا واحنى راسهُ وقال اه يا مولاي قد تغيرت فاني اطيع امرك . فاجابهُ نابوليون لقد اصبت وقد سمعت عن امراتك اخبارًا جيدة جدًّا فان الجميع يمدحونها فانها منعتني عن قصاصك وعرضت نفسها لكدري منضلة ذلك على تاديبك فاحسن معاملتها مكافاة لها وقد رفعت قدرك وجعلتك قائد خمسين . واذهب الى المارشال الاول فيدفع لك مائة ريال فتقوم بشغل يمكن امراتك من تكثير ارباحك . اما ابنك فهو ولد نبيه ولا بد من الاعتناء بهِ في الاستقبال ولكن لا ارضى بان تضرب امراتك فاذا سمعت بذلك يحق لي ان اضربك ضربات قوية . وبعد هذه الحادثة بسنين كثيرة كان الامبراطور مع الجيش في الخارج



وكان ذا ذاكرة قوية فيعرف الانسان بعد سنين ولو راهُ مرة واحدة فراى المراة وابنها فدنا منها قائلاً ايتها المراة الصالحة كيف حالك هل وفى زوجك بوعدهِ . فلما سمعت منهُ هذا الكلام اذرفت دموعًا سخية وطرحت بنفسها عند قدميهِ وقالت يا مولاي انهُ منذ ساقني طالع السعد الى حضرتك اصبحت اسعد النساء . فقال لها الامبراطور ان من واجباتك ان تكافئيني بان تكوني افضل النساء وبعد هذا الكلام وضع في يدها بعض ليرات وسار فضج الجيش كلهُ قائلاً فليعش الامبراطور

وبعد هذه الامور بزمان طويل جرت المفاوضات بين نابوليون ولاكازا بخصوص حملة انكلترا فقال هل خاف الانكليز حملتي . اجاب لا اعلم ولكننا كنا نسخر بهذا الفكر في قاعات باريس قال ربما سخرتم بذلك في باريس غير ان بت وزير انكلترا الاول لم يسخر بهِ في لندن فانهُ عرف المخاطر التي كانت تحدق بهِ ووضع حملاً على ظهري لما رفعت يدي لاضربهُ فانني اتخذت وسائل تحميني من التقصير عن الوصول الى البلاد الانكليزية بجيشي وهذا الجيش هو احسن جيش في العالم وكفاني افتخارًا بالقول انهُ جيش اوسترلتس وفي اربعة ايام كنت قادرًا على بلوغ لندن ودخولها لا كمنتصر لكن كمخلص لتصيبي على ان اكون كوليم الثالث وعزمت ان ابعد نفسي عن حب الذات اكثر منهُ ونظمت جيشي تنظيماً تامًّا فيتصرف في لندن كما في باريس . ولم اعتقد النية على الزام الانكليز بدفع غرامة ولا خسارة صالح ولكن على الاقتراب منهم لا كفاتحين لكن كاخوة اتوا ليردوا عليهم حقوقهم وحريتهم . ولو بلغت انكلترا لجمعت الانكليز وابنت لهم وسائل اصلاح احوالهم بعد ان ابتداوا بالادارة المجلسية واقررني عقولهم بالاعلانات ان مقصودنا هو الفرح بسعادتهم ونجاحهم . ففي بضعة اشهر نصبح الامتان المتحاربتان صديقتين كامة واحدة ذات قواعد وصوالح واحدة . ثم اخرج من انكلترا لاصلح اوربا من الشمال الى الجنوب تحت الراية الجمهورية لانني كنت حينئذٍ قنصل جمهورية وهو الاصلاح الذي كدت اقوم بهِ بعد ذلك تحت الراية الامبراطورية . فالجمهورية والامبراطورية توافقان للاتيان بنتائج واحدة وتصلحان بالثبات والاعتدال والصدق . فلو انفذت ذلك لتخلصت اوربا المنكودة الحظ من ضرر عظيم وقعت فيهِ وهذا اوفق مشروع لترقية صوالح التمدن مع خلوهِ من الغايات . والسبب في عدم نجاحي لم يكن عمل انسان ولكنهُ فعل العناصر . فالبحار هي التي اوقعتني في الفشل في الجنوب وحرق موسكو والثلوج وغزارة الامطار في الشمال فالماء والهواء والنار عناصر طبيعية ضادت الاصلاح العمومي الذي كانت تطلبهُ الطبيعة نفسها فاسرار العناية لا تعرف . انتهى . ثم غاص نابوليون في بحار من الافكار برهة وقال ظن الناس انني قمت بتهديد لجهلهم حصولي على الوسائط اللازمة لاجراء ما صممت عليهِ . وكنت قد بنيت نواياي على اساسات متينة لم يعرفوا بها . فغرقت البوارج الفرنسوية

واخذت البوارج الانكليزية تطاردها من مكان الى مكان وامرتها بان تعود بغتة وتجتمع عند الشواطئ الفرنسوية فيجتمع سبعون او ثمانون بارجة فرنسوية واسبانيولية في المضيق بين فرنسا وانكلترا وحسبت انني اقدر على الاستيلاء عليهِ في شهرين وهيأت ثلاثة او اربعة الاف قارب لتقوم بالعمل عند الاشارة . وجعلت مائة الف جندي يتمرنون يوميًا على قطع المضيق فضلاً عن تمرنهم العادي وكانوا على جانب عظيم من الشجاعة والحماسة يتمنون ملاقاة الاعداء وعرفت ان معركة واحدة في انكلترا تكفي للحصول على المطلوب وطبيعة بلاد الانكليز لا توافق لقيام حرب متواصلة ونوال المرام يتوقف على اعمالي فان الشعب الانكليزي كان يئن من جور ارباب السياسة فينضم الينا ويحسبنا امة متحدة معهُ اتت لتخليصهِ وتنفذ كلمتنا فيهِ بكلمتين توثران فيهِ كالسحر وهما الحرية والمساواة

## الفصل الثامن والعشرون

### معركة ألم

لايزال كثيرون من المورخين ينقلون عن التواريخ الانكليزية اخبار نابوليون حال كون اعظم الغايات حملتهم على الطعن فيهِ فلا يقدرون على رفع لوم الناس عن حكومة انكلترا الا بالاكاذيب وغرقت اوربا في طوفان من الدماء سنين كثيرة . والسبب هو الاتحاد الذي كانت حكومة انكلترا تعقدهُ لتدوس الامبراطور الفرنسوي صاحب المبادي الموسسة على المساواة فاذا حمل انكلترا على القيام بما قامت بهِ هل هو الطمع او محبة صالح الجنس البشري اترك الجواب لحكم العالم . اما مورخوها فيحامون عنها باجتهاد وغرض . وفي فرنسا طعن بنابوليون كما طعن بهِ في غيرها لان البوربون خلفوهُ ولم يكونوا يقدرون على تثبيت حق الملكية في عقول الامة الا بقولهم ان نابوليون ظالم مختلس . ومع ذلك طردت الامة الفرنسوية البوربون من العرش ثانيةً وملكت الفرع الاورليانى . وكانت مقاصدهم الخطيرة تحملهم على الطعن في نابوليون فالملك لويس فيليب كان يرتجف عند ذكر اسم نابوليون والمورخ الذي كان يتجاسر على اظهار سجايا نابوليون كان يعرض نفسهُ لغيظ الحكومة ولوم البلاط في فرسايليا وسان كلو وباريس وكان داب ملوك اوربا جميعهم الطعن فيهِ ترويجًا لمصلحتهم . لانهُ كان المحامي العظيم عن حقوق العامة لدفع ضرر تعدي الملوك الظالمين والامراء المتكبرين واثر ذلك في عقول الناس كل تاثير واكثر الذين بلغوا الشيخوخة يعتقدون ان نابوليون مصدر الشرور والمظالم والتعديات فاذا انصف مورخ يقال ان الغرض اعماه فحاد عن الصواب . وما برحت ملوك اوربا تخاف اثار ذلك الامبراطور زمانًا طويلاً ولكن العامة عالمة انهُ صديقها وقال عن نفسهِ



لاخاف على صيتي فالناس سيعدلون بالحكم اما معركة ألم ومعركة اوسترلتس فيتذكرهما العالم الى الابد . والواقع ان نابوليون كان مشتغلاً بحرب دفاع ليدفع شر انكلترا بعد ان طلب المصالحة لعلمهِ ان السلام ينجح فرنسا ويزيد ثروتها بترويج التجارة والزراعة والصناعة وكانت الحرب واسطة لخرب اسطولهِ في طفوليتهِ وسلب مستعمراتهِ واخراج الفلاحين من حقول الزراعة الى ميادين الدماء والهلاك ولم تكن انكلترا ترضى بنمو فرنسا لاقتدارها على التسلط على كل بحر ببوارج لاتغلب فاستغنت بسلب البلاد الفرنسوية واستولت على تجارة كل البلدان . وكانت تروم مداومة الحرب فنقضت اعظم المعاهدات وابتدأت في القتال بدون ان تحذر فرنسا فالحقت ضررًا بالمدن غير المحصنة وخربت تجارة لم تمكنها من ان تحتاط فغضب نابوليون ولم يضعف عزمهُ ونهض بهمة عالية ليدفع التعديات . فتعجبت انكلترا لما رات اجراآتهِ العظيمة واضطربت واخذت تحاول التخلص من سوء العواقب بجعل ملوك اوربا يساعدونها فنجحت لان روسيا والنمسا واسوج خافت القواعد الحرة التي انتشرت في فرنسا فقبلت بفرح الاموال التي دفعتها انكلترا لها لجمع الجيوش والحمل على فرنسا . فحشدت خمسمائة الف مقاتل سرًّا وصممت على مهاجمة فرنسا من جهات مختلفة وتعهدت انكلترا بدفع ثلاثين مليون فرنك كل سنة عن كل مائة الف جندي . وحصرت بوارجها ثغور فرنسا وثغور حلفائها ولم تكن اقل من خمسمائة بارجة وخربت بالمدافع كل المدن غير الحصينة وكانت انكلترا تمد سلطانها غير المحدود في الهند ومصر وشواطئ البحر المتوسط وكل البحار من قطب الى قطب حال كون روسيا واضعة يمينها على نصف اوربا موسّعةً املاكها كل سنة في اسيا . واستولت النمسا على قسم عظيم من ايطاليا واشتركت هي وروسيا وبروسيا في قسم مملكة بولونيا ومع ذلك كانت تلك الدول تقول ان مطامع نابوليون لاتحتمل لانهُ ضم الى فرنسا جنوا وبيامونت وجزيرة البا وقبل تاج لومبرديا . وقد اقر نابيار المورخ الانكليزي بصحة ما تقدم بقولهِ ان حروب فرنسا كانت دفاعية الى ان عقد صلح تلسيت والحروب الدموية التي اوقعت اواسط اوربا في ويل سنين كثيرة لم تكن حروبًا ناشئة عن المناظرة على الاسبقية ولا منازعة ناتجة عن الاستيلاء على بلاد ولكنها حروب مهلكة بين الامبرية وحقوق العامة اي بين المساواة والامتيازات في اوربا . انتهى . فمن يلوم نابوليون على محاربانهِ ولو لم يحاول محالفة دول لتعاونهُ اقول انهُ احمق لان قوات الظالمين كانت محدقة بهِ محاولة اسقاط سلطانهِ . فهل يجلس في قصر التويلري متفرجًا على مهاجمات الاعداء السابقة اعلان الحرب ويرضى بان يطرد بفجة من عرش جلس عليهِ باجماع راي الامة الفرنسوية او ان يسلم اولاد وطنهِ الى دولة مكروهة عندهم لظلمها وتعدياتها وكانت الدول المتحدة على فرنسا مؤملة بان تهاجمها قبل ان يتاهب نابوليون للدفاع فلم تنشر اعلان الحرب فبقي سفير النمسا في باريس وحاولت خدع نابوليون بوسائل كثيرة لتفاجئهُ بالجيوش

الجرارة ويتيقن الناس انهُ يسقط بالحروب لعجزهِ عن دفع مئات الوف من عساكر دول قوية متحدة مستندة الى خزينة غنية كخزينة انكلترا . اما جيوش النمسا وكان عددها ثمانين الفًا فتقدمت سرًّا تحت قيادة الجنرال ماك قاصدة الحدود الفرنسوية وكان الامبراطور اسكندر الروسي يسير بسرعة في بولونيا لينضم الى الجيوش النمسوية بجيش عددهُ مائة وستة عشر الفًا . وكانت الدول تتوهم ان نابوليون مشتغل باعمالهِ عند المضيق على بعد الف ميل عنهم غير عالم باحوالهم واعمالهم . ولكنهُ كان يترقبهم . وكان الجيش النمسوي معلقًا املهُ بالفوز القريب فاخذ يدنو من فرنسا بسرعة فابلى في بافاريا بلاء شديدًا لانها كانت متحدة مع نابوليون وحاول اكراه ملكها على الاتحاد معهم على فرنسا فاستولوا على مونيخ القاعدة وألم ودخلوا الغابة السوداء وتحصنوا في كل مواقف الهجوم المودية الى وادي الرين وكانت الجيوش الروسية تسير بافتخار وسرعة قاصدة الانضمام اليهم . وسر النمسويون لتوهمهم ان حملتهم على عدو متيقظ كبونابرت تكون سرّية . ولم يكن خدعهُ سهلاً فانهُ انحدر على اعدائهِ العتاة كصاعقة منحدرة من اعالي الجو فملأ قلوبهم بالتعجب والخوف . وتعاظم اضطرابهم وارتباكهم لما عرفوا ان بونابرت عبر نهر الرين والطونه لكن بسرعة البرق واصبح في موخرتهم قاطعًا عنهم الذخائر والزاد واسباب اتصالهم ببلادهم النمسوية فانقطع املهم من الحصول على الفرج بمساعدة الروسيين . ولو انحدرت عليهم جيوش من الغيوم لما وقعوا في اضطراب اشد من الاضطراب الذي وقعوا فيهِ لما عرفوا المواقف التي اصبح الفرنسويون فيها . وهجم نابوليون على موخرتهم وباتوا يهربون من جهة الى جهة والخوف قد ملأ قلوبهم ولم يفوزوا بالنجاة لوقوعهم في كل مكان في الفخاخ التي نصبها نابوليون بحذقهِ بسرعة عجيبة وباصابة حيرت العقول فايئسوا ورموا بسلاحهم والفرنسويون يستولون على عجلات الذخائر والمدافع والبنادق والخيول والرايات . وراوا ان القتال لا يجدي نفعًا لان نابوليون قام بتدبير جعل كل فرقة نمسوية محاطة بجيش يزيد عددهُ عن عددها ولو دافعت لوقعت في هلاك مبين وهذه الاعمال مكنتهُ من فوز عظيم وجعلت الناس يندهشون من جسارتهِ واقتدارهِ

ولما سمع نابوليون وهو في بولون ان اعداءهُ صمموا على مهاجمتهِ جعل الجرائد والاسلاك البرقية تنقطع عن نشر الاخبار المتعلقة باجراآتهِ . وهيأ عشرين الف عجلة لنقل جيشهِ الى شواطئ نهر الرين وكان يسميهِ الجيش العظيم لانتظامهِ وترتيبهِ فجمع جنودهُ واخبرهم بتعدي الدول المتحدة وهجومها على فرنسا بدون داعٍ . وان الضرورة تجعلهُ يذهب الى المانيا ففرح مبينًا انقيادهُ بالرضى والسرور الى اوامر امبراطورهِ وقائدهِ العظيم . وفي ساعة سار الجيش . وربما شغل نابوليون بالهُ هذه المرة اكثر مما في السابق . وكانت نتائج اعمالهِ العظيمة وحكمتهِ الفائقة ظاهرة في سهل مساحتهُ مئتين من الاميال لان كل شيء كان يشهد لهُ بانهُ لم يكن مثلهُ بين القواد . وكان



يكتب الى قوادهِ بدقة وحذق واصابة عجيبة . وعين مسير كل فرقة ومحلات الراحة بضبط ودقة واجتاز فرنسا مائتا الف رجل بسرعة البرق وعبروا نهر الرين والطونه وقطعوا عن جيش العدو اسباب اتصالهِ ببلاده وخط الرجوع قبل ان عرف بانهُ خرج بجيشهِ من بولون . ولما سار الجيش ذهب نابوليون الى باريس وجمع مجلس الشيوخ وقال لهم ايها الاعضاء ينبغي ان ابث لكم افكاري في حالة اوربا الحاضرة اذ عزمت على الخروج من عاصمتي لاقود الجيش واساعد المتحدين معي حالاً لادافع عن اهم صوالح شعبي . فان اعداء اواسط اوربا نالوا مرادهم بفتح الحرب في وسط المانيا وقد اتحدت النمسا وروسيا مع انكلترا ووقع هذا الجيل مرة اخرى في ويلات الحروب ومنذ بضعة ايام كنت معلقًا املي بمنع الحرب ولكن جيش النمسا هاجم مونيخ وطرد منتخب بافاريا من عاصمتهِ وانقطع الامل من دفع البلاء . انتهى

ولا يتيسر القيام بحروب كهذه الا باموال غزيرة وحذق نابوليون كان قادرًا على تحصيل ما تقتضيهِ الحال . وكان موقفهُ ثابتًا جدًّا في قلوب ابناء وطنهِ وكان يسهل عليهِ ان يستقرض ملايين بالقاء اثقال رسوم كثيرة على عاتق فرنسا كالاثقال التي القاها بت وزير انكلترا الاول على بلادهِ ولكن لم يرضَ بذلك وكتب الى موسيو ماربوا قائلاً مادمت حيًّا لا اصنع نقودًا ورقية

اما جوزفين امراة نابوليون فرافقتهُ الى ستراسبرغ فوجد ان جيشهُ انفذ اوامرهُ وسلك السبل التي عينها فكتب الى نابليون ان النمسويين في الغابة السوداء فاطلب الى الله ان يبقوا هناك ولا اخاف الا من ان تلقي في قلوبهم خوفًا عظيمًا فان مكنوني من التقدم بضع خطوات اكسرهم وابددهم فلا تسمح للجرائد ان تذكر حركات الجيش واجعلها تعدهُ كانهُ غير موجود . انتهى . وكان الامبراطور نابوليون قائدًا جيشًا يحق لاعظم القواد ان يفتخر بهِ وكان مولفًا من ١٨٦ الف مقاتل في قلوبهم حمية شديدة حال كونهم على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والنشاط وكلهم ينتظرون اوامر الامبراطور لينفذوها وكان معهُ ٣٨ الف فارس يسيرون كهبوب الريح . وكان مع هذا الجيش ٢٦٤ مدفعًا جنودها يصيبون اغراضها اصابة تحير العقول وكان عدد جيشهِ اقل كثيرًا من عدد جيوش الاعداء الذين كان يسير ليدفعهم عن فرنسا وكانوا خمسمائة الف رجل منهم ٢٥٠ الف رجل من النمسويين ومائتا الف من الروسيين وخمسون الفًا من الانكليز والاسوجيين والنابلي . واتفقت الدول على ان مائتي الف من الجنود البروسية تنضم اليهم بعد انكسار الفرنسويين مرة ولما بلغ نابوليون مقدمة جيشهِ ضج تكرارًا فليعش الامبراطور فخاطبهُ بحسب عادتهِ بكلام يضرم فيهم نار الحمية وهذه ترجمتهُ . ايها الجنود ابتدأت حرب الاتحاد الثالث وقد نقضت النمسا تعهداتها وهاجمت المتحد معنا وطردتهُ من عاصمتهِ . ولا نعقد صلحًا بعد الان بدون الحصول على ضمانات كافية فلا ينبغي ان نجعلنا كرامة الاخلاق ننسى فروضنا المتعلقة بها صوالحنا وما انتم

غير طليعة الامة العظيمة وربما كنتم تلتزمون ان تسيروا مسيرًا سريعًا وان تحتملوا مشقات واتعابًا غير اننا سنتغلب على ذلك جميعهِ ولا نذوق الراحة ما لم تخفق راياتنا في بلاد العدو . انتهى

وبلغت الامور الحربية غايتها فان الجنرال ماك النمسوي وجيشهُ باتوا في وسط الجيش الفرنسوي . وكان نابوليون يناظر على كل شيء بنفسهِ ويأتي كل مكان منقطعًا عن النوم والراحة راكبًا ليلاً ونهارًا طائفًا من مكان الى مكان كهبوب الريح . وفي ذات ليلة اشتد النو وغزرت الامطار واشتد البرد وهبت ريح باردة ومع ذلك صرف الليل حتى الفجر راكبًا فرسهُ متجولاً والوحول تغطيهِ والمياه قد بلت جسمهُ فلاقى فرقة من جيشهِ تسير بمشقة وعناء وكاد الرجال يهلكون من التعب واستمر ذلك بضعة ايام فطافت فروع نهر الطونه . ولما ذاب الثلج عجز الناس عن ان يسلكوا الطرق ومع ذلك كان جيش نابوليون يسير سريعًا بدون تذمر والجنود تجر مدافعها الثقيلة في الوحول متغلبة على جميع الصعوبات . وجمع نابوليون الجنود حولهُ على شكل دائرة في ذلك الظلام المخيف والزوابع والامطار وبين لهُ مواقف العدو والحركات التي تمكن من ان يحيط بهِ بواسطتها وكان يكلمهم كاب يكلم اولادهُ فلما سمع الجنود كلامهُ وراوا ركونهُ اليهم اسكرهم الفرح والحمية وضجوا وهللوا . ثم فارقهم ولما توارى عنهم بالظلام ضجوا وغلبت ضجاتهم اصوات الرياح وكان كلامهُ كافراس لذلك الجيش التعبان فتشدد وسار بنشاط غريب . وصادفت اجراآت نابوليون العظيمة كل نجاح فاحاط بالنمسويين فقطعوا الامل من النجاة وفي عشرين يومًا شتت شمل ثمانين الفًا منهم بدون انتشاب القتال بمعركة عظيمة ولكنهُ اقتصر على حروب صغيرة ادارها بحذق عظيم ولم يتمكن من الفرار غير بعض فرق تملصت من يد المنتصرين وفرت في الاودية فاسر ثلثين الفًا منهم بدون ان يقتل من الجنود غير قليلين وحصر في ألم ٣٦ الفًا منهم ولم يصدقوا ان نابوليون ادركهم فجأة واصبح جيشهُ كلهُ في موخرتهم واستولى على مواقفهم وكسرهم واسرهم فوقع الرعب في قلوبهم حتى ان مائة من النمسويين سلموا لضابط فرنسوي وجنديين . وفي ذات يوم مر في وسط جمهور من الاسرى النمسويين فقال احد قوادهم اتعجب من امبراطور الفرنسويين لان ثيابهُ ملطخة بالوحول مبللة بالمطر فمنظرهُ كمنظر ابسط الجنود . واقام نابليون في ذلك الزمان ثمانية ايام بدون ان يغير ثيابهُ او يخلعها ليلاً وبدون ان يخلع حذاءهُ مع ان المطر كاد يكون متواصلاً ولم ينم على فراش طلبًا للراحة فاخبرهُ معاون حرب بما قالهُ الضابط النمسوي فقال لهُ ان سيدك ( اي امبراطور النمسا ) الزمني بان اكون جنديًا والمامول ان العرش والارجوان الملكي لم ينسياني مهنتي العسكرية . انتهى . اما اتعاب الجنود ومشقاتها وضيقاتها في تلك الايام الباردة الشديدة المطر والكثيرة الثلج فكانت مخيفة لا يقدر القلم ان يقوم بوصفها . فكانوا يجيون الليل على الارض المبللة وينهضون في الصباح ويسيرون النهار بطولهِ بدون ان ياكلوا غير شيء



قليل وكانوا احيانًا يغوصون في الوحول الى ركبهم . ومع ذلك كانوا حين يبصرون الامبراطور تشتد عزائمهم بعد ان تكون قد خارت ويضجون داعين لهُ كانهم في راحة ورغد اما القواد النمسويون فتعجبوا مما شاهدوا من حب الجنود للامبراطور ونسيانهم اتعابهم وعناءهم عند مشاهدتهِ . فقال نابوليون قد اصابوا لانني احملهم هذه الاتعاب لاحجب دماءهم وفي ذات يوم اشتدت العواصف والامطار وكان نابوليون راكبًا جواده وسائرًا فراى عجلة سائرة فيها امراة تبكي فسال عن سبب حزنها فاجابت ياسيدي ان فرقة من الجنود سلبت ما عندي وقتلت المستخدم في بستاني وها انا ذاهبة الى امبراطوركم لاطلب اليهِ ان يعطيني حرسًا فانهُ يعرف عائلتي التي فعلت ما جعلهُ شاكرًا لها . فقال ما هو اسمك . قالت انني بنت موسيو ماربوف حاكم جزيرة كورسيكا (مولد نابوليون) السابق قال ياسيدتي اسربان تتسنى لي خدمتك فانا الامبراطور ولكل عضو من اعضاء تلك العائلة حق عليَّ . فاعطاها حراسًا من حرسهِ ولاطفها وجابرها وعوض خسائرها وردها الى بيتها شاكرة مسرورة

ثم بعث بالجنرال سيجور ليطلب الى حامية ألم بان تسلم وكان الليل مظلمًا والبرد شديدًا والرياح تمزق الفضاء والمطر يهطل غزيرًا . وكان بين المعسكر الفرنسوي والمكان المذكور محلات كثيرة عميقة فيها مياه مجتمعة وكان الحراس الفرنسويون قد لجاوا الى اماكن مختلفة من المطر والعواصف فلم تضرم نار حرس وكانت اماكن المدافع متروكة . وبعد البحث وجد ضارب طبل متمددًا تحت عجلة في المياه والوحل فدعي ليذهب مع ذلك الجنرال ليطلب الدخول الى المدينة بواسطة بوقهِ فان نابوليون لم يكن يتوقف عن اعمالهِ بالظلام والبرد والزوابع وكان مستعدًا للهجوم على ألم فبعث بذلك الجنرال ليطلب التسليم ويجنب دماء الرجال . وكان وراء سور هذه المدينة ٣٦ الفًا من النمسويين الذين باتوا في خوف شديد وذل عظيم . وكان نابوليون يدبر بنفسهِ اعمال الهجوم وفي كل ساعة يضيق الدائرة التي تحيط اولئك الجنود ووضع مدافعهُ على التلال المشرفة على المدينة وكان يطلق كل ساعة كرة محشوة توقع الرعب في قلوب الاهالي فراى الجنرال ماك النمسوي ان لانجاة الا بالتسليم . ففي صباح الغد أرسل البرنس موريس الى نابوليون فاغمضوا عينيهِ وساروا بهِ الى نابوليون بحسب العادة الجارية في الحروب عند دخول رسول معسكر العدو للمخابرة بالصلح وغير ذلك ولما ازاحوا العصابة عن عينيهِ وجد نفسهُ امام الامبراطور نابوليون وكانت العواصف لا تزال شديدة والبرد قارصًا والثلج يسقط ويذوب على ارض مر عليها الوف من الجنود والافراس والعجلات فامسى المسير فيها صعبًا جدًا . وكان نابوليون يقاسم جنودهُ المشقات والاتعاب لقيام الاعمال العظيمة . فوجدهُ ذلك البرنس سفير النمسويين في خيمة عتيقة تدخلها الرياح والمياه وتحت رجليهِ الواح خشبية ترفعهما عن الماء والوحل فطلب البرنس التسليم بشرط ان

يسمح نابوليون برجوع الجنود الى بلاد النمسا فتبسم نابوليون وقال ماذا يحملني على اجابة هذا الطلب فبعد اسبوع تمسون في يدي بدون شروط فانني عالم باحوالكم وانتم تنتظرون قدوم الروسيين ولم يبلغوا بوهيميا واذا سمحت لكم بالذهاب فما هي الضمانة التي تضمن عدم انضمامكم الى الروسيين لمحاربتي ثانية وقد خدعني قوادكم بوعودهم . وسمحت لميلاس بان يخرج بجنوده من اليسندريا في مارنجو وبعد ذلك بشهرين التزم موروان بحارب الرجال الذين عفوت عنهم وكانت حكومتكم قد وعدت بعقد الصلح فبعد هذا الفعل لا اركن الى عهد فاضرم نار الحرب وهي عاقبة نقض العهود فارجع الى قائدك وقل له انني لا اجيب طلبهُ بل امكن الضباط من العود الى النمسا والجنود يبقون في الاسر . واطلب الجواب حالاً لئلا تفوت الفرصة

وفي الغد زار الجنرال ماك نابوليون فلاطفهُ وجابرهُ واكرمهُ بحسب عادتهِ عند مقابلة اعدائهِ الساقطين واظهر لهُ اخطار موقفهِ وانسداد ابواب النجاة وان الدفاع لا يجدي نفعًا واطال وصف البلايا التي تنشأ عن فتح المدينة عنوة وتوسل الى الجنرال بالنيابة عن حقوق الانسانية بان لا يلزمهُ باطلاق المدافع على مدينة ازدحمت فيها اقدام الاهالي وتعريضهم لفعل السيف والنار. فقبل الجنرال ماك بالتسليم بكدر ففرح نابوليون جدًّا لانهُ فاز على اعدائهِ بدون اراقة دماء وكان غد ذلك اليوم ذا فلك صاف وحدث فيهِ ما لم يحدث مثلهُ في ذلك الزمان فتعجبت اوربا ودهشت لان ٢٦ الفًا من الجنود النمسوية خرجوا من ابواب ألم وطرحوا اسلحتهم امام ذلك المنتصر العظيم . وكان نابوليون واعوانهُ مع عظمتهم واقفين في مكان مرتفع بالقرب من نار مشبوبة وصفوف ذلك الجيش تمر امامهُ ولوائح الكدر تلوح على وجوههم فافتخر ولكن لم تظهر عليهِ علامات الفرح والسرور واسمع قواد الجيش المنكسر كلامًا لطيفًا اذ قال

يا ايها السادة ان للحرب احوالاً وانتصرتم مرات كثيرة فلا بد من الكسر احيانًا . ان سيدكم اقام عليَّ حربًا غير عادلة والصحيح انني لا اعلم لماذا احارب ولا اعلم مراده . ورغب ان يذكرني بان كنت جنديًا فسيرى انني لم انس مهنتي الاصلية انني لا اطلب شيئًا من اواسط اوربا ولكنني طالب الحصول على مراكب ومهاجر وتجارة وهذا يفيدكم كما يفيدني . انتهى

ثم كلم بعض القواد النمسويين والاسرى وهم يمرون امامهُ وقال لهم انني لا انف من مشاهدة رجال من اهل الناموس والشهرة يقيمون قتالاً ويبيتون ضحية وزارة غير متعقلة تقوم باعمال لا يقام بها وكانها خطا ان تهجم عليَّ بدون اعلان الحرب . وهذا الذنب لا يذكر بالنسبة الى ذنب ادخال جيش جرار من البرابرة الى اوربا والسماح الى لدولة من دول اسيا بان تتداخل في منازعتنا . وكان من الواجب على المجمع ان يضم جنودهُ اليَّ لندفع القوة الروسية . فهذا الاتحاد قبيح فانهُ اتحاد كلاب وذئاب لمقاومة الخرفان فلو انكسرت فرنسا لما طال الزمان حتى تروا غلطكم . وفي تلك الدقيقة



ذكر احد الضباط الفرنسويين جملة مهينة سمعها من الجنود عن الاسرى النمسويين فوبخهُ نابوليون توبيخًا شديدًا وطلب اليهِ ان يخرج وقال لهُ انك لا تعتبر نفسك ولو اعتبرتها لما اهنت رجالاً قد ذلوا بمصيبة . وكان فرح الفرنسويين متجاوزًا حدود الاعتدال ولم يسمعوا بنصرات كهذه بلا اراقة دماء غزيرة فتعاظم حبورهم وحبهم للامبراطور وانقيادهم اليهِ وكانوا يقولون ان امبراطورنا اكتشف فنًّا جديدًا للحرب فيستخدم رجليهِ اكثر من سيوفنا . ونشر نابوليون اعلانًا بعد ذلك النصر كان لهُ تاثير عجيب مدهش في اوربا وهذه ترجمتهُ

ايها الجنود من الجيش العظيم في خمسة عشر يومًا قمنا بحرب تامة ووفينا بوعدنا اذ طردنا جنود النمسا من بافاريا وارجعنا المتحد معنا الى املاكهِ . فالجيش الذي دنا من حدودنا بادعاء وقحة اضمحل ولكن انكلترا لا تبالي بذلك لاننا قد خرجنا من بولون . وكان الجيش النمسوي مائة الف رجل اسر منهُ ستون الفًا وسيقومون مقام جنودنا في الاشغال وقد غنمنا منهم مائتي مدفع وكل ذخائرهم وتسعين راية . ولم ينجُ من ذلك الجيش الا اقل من خمسة عشر الف جندي . يا ايها الجنود انني اخبركم بمعركة عظيمة على انني اشكر اغلاط العدو اذ فزت بالربح العظيم بدون ان نعرض انفسنا لخطر ومن الامور العجيبة التي لم نسمع بمثلها الفوز بتلك النتيجة الخطيرة بدون ان ينقص عددنا الا نحو الف وخمسمائة جندي . يا ايها الجنود ان هذا الفوز العظيم هو نتيجة ركونكم الى امبراطوركم وصبركم على الاتعاب والمشقات وثباتكم . ولا نرتاح هنا وقد رايت انكم مهيجون في طلب قتال اخر فذهب انكلترا ساق الينا جيشًا روسيًا من اقاصي الارض وسنسقيهِ نفس الكاس التي سقيناها للنمسويين . ولكن ليس فيهِ من قواد يزيد مجدي بالانتصار عليهم وساعتني بان افوز بسفك دم قليل فان جنودي هم اولادي

وقال بورين ان نابوليون كان يتواضع حين كان ينتصر ويقابل المغلوب بلطف واكرام ولم يكن من فخر مستور بالرياء فانني متاكد انهُ كان يشفق على عدوهِ وسمعتهُ يقول ان القائد بعد الانكسار يستحق الشفقة . ولما اراد بلاط النمسا ان يغيظهُ بان ينتقم ظلمًا من الجنرال ماك الذي انتصر نابوليون عليهِ تداخل ليخلصهُ من المحاكمة بمجلس حربي . وبعث الى المجلس العالي الرايات التي اخذها من العدو وقال لهُ برسالة ان الغاية الابتدائية من هذه الحرب نلناها وهي ارجاع منتخب بافاريا الى عرشهِ وقد ضربنا المهاجمين ضربة كجلول الصواعق وعلقت املي بالفوز على كل اعدائي بمعونة الله في وقت قصير . وكتب اعلانًا باسم كل الاساقفة في الامبراطورية طالبًا اليهم ان يرتلوا شكرًا لله في كل الكنائس . وقال في ذلك الاعلان ان النصرات المدهشة التي فزنا بها على اتحاد عقد بذهب انكلترا وبغضها لنا يحمل شعبي بالضرورة على ان يشكر اله الجنود على ما مضى وان يتوسل اليهِ ان يوفقهُ ويباركهُ فيما باتي

وقبل تسليم جيش النمسا في ألم ببرهة قصيرة بعث نابوليون بالقبطان برنار وهو ضابط شاب من المهندسين ليتجسس الامور في محل خطير فقام بحق ماموريتهِ بحذق وتقدم حتى كاد يبلغ فينا عاصمة النمسا . ولما رجع فحصهُ نابوليون بنفسهِ وسر جداً بجوابهِ واخبر بان سوق الجيش الفرنسوي على فينا يفيد بالمرور بالاماكن الحصينة وانهُ اذا فاز نابوليون بالاستيلاء على فينا يتمكن من اخضاع كل الامبراطورية النمسوية . فاجابهُ نابوليون موبخاً قائلاً لهُ انك تجاوزت حدودك وادعاؤك طويل عريض فانك ضابط صغير فكيف تتجاسر ان تطلب اليَّ بان اقوم باعمال حربية فاذهب وانتظر اوامري . فعندما خرج ذلك الضابط الشاب التفت نابوليون الى الجنرال راب وقال لهُ ان هذا الشاب من اصحاب الاهلية فانهُ اصاب برايهِ فلا اعرضهُ للقتال الخطر ولا بد من ان احتاج اليهِ فقل لبارثيه بان يامرهُ بالذهاب الى ايليريا ثم ارتقى الى ان صار من اعوان نابوليون ومن اشهر المهندسين في العالم . وعند انتهاء دولة مولاه امتنع عن قبول ماموريةٍ عند دول اوربا التي طلبتهُ فسار الى اميركا وتقلد فيها رياسة فرقة المهندسين وقام باعمال هندسية اصلاحية وحربية ستبقى الى الابد شاهداً على حذقهِ

هذا ومن الخبر الاتي نرى كيف طلب نابوليون الى قومهِ بان يطيعوهُ طاعة تامة فانهُ في ٢٥ ايلول (سبتمبر) وصل الى ستراسبورغ وكان قد امر جميع فرق الجيش العظيم بان تجتمع في عبر الرين باجتياز جسر كهل فانها كانت قد سارت في طرق مختلفة وامر القواد الاولين بان ينتظروهُ عند اول الجسر المذكور قبل الظهر بست ساعات . فقبل الوقت المذكور بساعة بلغ نابوليون الجسر وكان الظلام لا يزال مخيماً والمطر غزيراً والبرد شديداً . وكانت الصنوف لا تزال تقطع الجسر وتنتظم في عبره . وكان نابوليون راكباً جوادهُ وواقفاً والمطر يهطل فاجتمعت بركة صغيرة تحتهُ وتعطلت برنيطتهُ وكان يناظر على مسير الجنود بهدو وسكينة بدون ان يظهر انهُ مكدر من الامطار او من شيء اخر وبعد ذلك ببرهة قصيرة اجتمع القواد حولهُ صامتين فقال لهم ايها القواد قد ربحنا ربحاً عظيماً على عدونا بقطع المسافة الطويلة التي قطعناها . ثم نظر اليهم بسرعة وقال اين فاندام هل مات . فلم يجب احد بشيء وبعد برهة قصيرة قال الجنرال شاردون يامولاي ربما كان الجنرال فاندام لا يزال نائماً لاننا شربنا امس مساء كثيراً من الخمر على سر جلالتك وربما كان . . . . . فقاطعهُ نابوليون بالكلام وقال لهُ موبخاً يا ايها الجنرال اصبتم بشربكم على سري وقد اخطا فاندام اليوم لانهُ نام وهو عالم بانني انتظره . فاراد الجنرال شاردون ان يرسل احد اعوانهِ ليوقظهُ . فقال لهُ نابوليون اتركهُ فربما استيقظ من تلقاء نفسهِ . وفي تلك الدقيقة حضر فاندام مضطرباً اصفر اللون ولوائح الارتباك تلوح على وجههِ فنظر اليهِ نابوليون نظرة موبخ وقال لهُ يا ايها الجنرال الظاهر انك قد نسيت الامر الذي انفذتهُ



فاجابهُ يامولاي لم انصر قبل هذه المرة وبالحقيقة كنت امس منحرف المزاج لان . . . . فقال نابوليون لانك كنت في الامس سكران كالالماني فاذهب وحارب تحت راية ملك وارتمبرغ لتعلم الالمان كره السكر اذا كان ذلك ممكناً . فذهب فاندم مهاناً وفي ذلك اليوم انضم الى جيش ورتمبرغ وقام في تلك الحرب القصيرة باعمال حربية مدهشة وبعد تسليم ألم راهُ نابوليون وشكرهُ على خدمتهِ وارجعهُ اليهِ وقال لهُ يا ايها الجنرال لا تنس ابداً انني اعتبر الشجعان غير انني لا احب الذين يتامون وانا انتظرهم فلنقطع الحديث عن هذا الامر

وفي ذات يوم وقع قائد فرقة في نهر فغرق فراهُ جندي كان قد وبخهُ القائد لاخلالهِ بالنظام فغاص وراءهُ وخلصهُ من الغرق فسمع نابوليون بذلك فدعا الجندي اليهِ بالحال وقال لهُ انت شجاع فان قائدك ادبك بحق على انك بتخليصهِ من الموت اظهرت ان لا حقد في صدرك فهذا صنيع اهل الكرامة فقد عفوت عن ذنبك وهذا لا يكفي فقد رفعتك درجة ومنحتك نيشان الكافليرية وهذا من انعام قائدك فاذهب واشكرهُ . فاعمال نابوليون العادلة جذبت اليهِ القلوب وجعلتهُ محبوباً جداً فانهُ قاص اعظم قوادهِ لانهُ اهمل انفاذ امرهِ وكافأ اصغر جنودهِ حين استحق المكافاة

وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سار نابوليون راكباً ٤٢ ميلاً بلا راحة ثم طرح بنفسهِ على عشب يابس وهو لابس حذاءهُ وثيابهُ ليستريح ساعة بالنوم في مذود وكان استف اوكسبرغ قد هيأ لهُ غرفة فاخرة وفراشاً ناعماً لينام عليهِ في مكان لا يبعد اكثر من ميل عن المكان الذي نام فيهِ فلم يرتض بان يستريح في قصر وجنودهُ تحت المطر وفي الماء على الارض الموحلة

## الفصل التاسع والعشرون

### حروب

سلمت ألم في ٢٠ تشرين الاول (اوكتوبر) سنة ١٨٠٥ وكان فوزاً عظيماً لنابوليون ومع ذلك لم يدفع عن نفسهِ الخطر العظيم المحدق بهِ لان مائة وستين الفاً من الجنود الروسية كانت تجتاز سريعاً سهول بولونيا تحت قيادة الامبراطور اسكندر الروسي لتهجم عليهِ والجنود النمسوية تسير في كل جهة قاصدة الانضمام الى جيش الروسيين . وعزموا على اهلاك عدوهم بكثرة جيوشهم واثناء ذلك سار الامبراطور اسكندر الروسي الى برلين عاصمة بروسيا وافرغ جهدهُ في اقناع بروسيا بالاتحاد معهُ ومع النمسا على محاربة الفرنسويين بارسال مائتي الف جندي الى القتال . وكانت ملكة بروسيا جميلة طماعة مفتخرة فرامت بان تجعل زوجها يتحد مع امبراطور روسيا بمحالفة لا تمحى بكرور الايام . وفي ليلة اتحد امبراطور روسيا وفردريك وليم ملك بروسيا الى مدفن فردريك الكبير ملك بروسيا المعظم ولم يكن فيهِ غير مصباح واحد ووقفا عند قبر ذلك البطل المشهور

وتحالفا بان يعضدا الملوك المتحالفين لابطال الامور الناتجة عنها حرية العامة التي كانت تتهدد عروش ملوك اوربا . اما انكلترا فارسلت ثلثين الف جندي الى هانوفر وامرتهم بالذهاب الى ميدان القتال وظن الناس ان نابوليون يرجع بجيشهِ القليل بالنسبة الى تلك الجيوش او يحصن نفسهُ في مواقف موافقة منتظرًا هجوم الاعداء عليهِ فاندهشوا لما راوهُ يتقدم في وسط تلك المخاطر البينة . وكان جيشهُ المنتصر يسير سريعًا في وادي الطونه كانهُ طوفان لا يبالي بشيء فلم يكن يعاق بالانهر والحواجز والجيوش المضادة فان روح نابوليون القائد كانت تختلج في صدر كل جندي وكان ذلك الجيش كانهُ من حديد لا يخاف ولا يبالي بالاتعاب والمشقات . وفي ثلثة ايام دخل نابوليون مونيخ قاعدة مملكة بافاريا فاقيمت فيها تزيينات وتنويرات كثيرة وكان اهلها يضجون مترحبين بمنقذهم القادر . ولم يسترح نابوليون ساعة واحدة اذ صمم ان لا يمكن اعداءهُ المذعورين من دقيقة واحدة ليلموا شعثهم فامر جيشهُ بالمسير حالاً الى فينا قاعدة النمسا فسارت تلك العساكر الفائزة الباسلة بفرسانها ومدافعها وذخائرها . وملأ الخوف قلوب النمسويين في كل مكان وفر الامبراطور فرنسيس من قاعدة امبراطوريتهِ واشتد الرعب في قلوب اهل فينا وكان جيش فرنسا الباسل يدنو كل يوم منها فرات ان الدفاع لا يجدي نفعًا . وكان النمسويون والروسيون يتقهقرون امامهُ طالبين الانضمام الى الجيش الجرار الذي كان امبراطور روسيا يقودهُ ليخلصهم بهِ بعد ان تدور الدوائر عليهم . وفي صباح اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سمعت ابواق جحافل نابوليون في التلال المحيطة بفينا ونظرت اسلحتهُ تلمع في شمسها . وكان من ايام الشتاء الباردة ولا غيوم في الجو . فقدم اليهِ نواب من قبل اهل فينا وسالوهُ الرفق . فقال لهم بانهُ يصونهم ولم يكن الروسيون يحافظون حق المحافظة على راحة الاهالي فكانوا يتركون البلاد التي يمرون فيها خربة . واما الفرنسويون فلم يخلوا بالانتظام ولا تعدوا على الناس وكانوا يعاملونهم بالعدل والحلم واللطف حتى ان العامة كانت تعدهم مخلصيها ومنعهم عن التعدي على الاملاك وضرر الناس واقتصر على غنم خزائن الحكومة ومعاملها ووجد فيها ذخائر حربية كثيرة ومائة الف بندقية والفي مدفع وغيرها . وهذه غنيمة كبيرة . وسار نابوليون بجيشهِ من الاوقيانس الى نهر الرين في عشرين يومًا وفي اربعين يومًا سار منهُ الى فينا وبدد شمل اعدائهِ كانهم اوراق اشجار تتلاعب بها الرياح في فصل الخريف . وكان لا يزال في مواقف محفوفة بخطر عظيم وحكم اهل اوربا بهلاكهِ لابتعادهِ عن قاعدة ملكهِ في فصل الشتاء البارد الكثير الثلج بجيش صغير بالنسبة الى اعدائهِ الكثيرين وامسى في وسط امبراطورية من اقوى امبراطوريات العالم واشدها تكبرًا وتعظمًا وهي الامبراطورية النمسوية وكان الارشيدوق شارل النمسوي يتقدم الى الجنوب سريعًا ومعهُ سبعون الف جندي . وكان امبراطور النمسا يجمع جيشًا من المجر عددهُ ثمانون الفًا . وكان امامهُ مائة الف جندي من



الروسيين حال كون مؤخرتهِ عرضة لهجمات مائتي الف من عساكر روسيا . فقال الناس سيخصن نابوليون في مواقف مناسبة فاخطاوا فانهُ تقدم الى فينا مارًا في وسط جيوش جرارة والمخاطر تحدق بهِ من كل جانب ولم يغفل عن القيام بما يتيسر لدفع المخاطر فانهُ كان يلقي نفسهُ في المهالك بشجاعة عجيبة وبيقظة وحكمة . وقال اخوهُ لويس اذا قلنا ان نابوليون كان يتكل على سعدهِ في اعماله العجيبة المحفوفة بالخطر نقول انهُ لم يفق احد بالاحتياطات . وقبل حروبهِ المهلكة في موسكو لم يغفل عن الاحتياطات فانهُ كان يستعد لملاقاة جميع المخاطر وقام باعماله كلها دون ملاقاة فشل يستحق الذكر . انتهى

وكانت رياح الشتاء الباردة تهب في السهول وتكسو الثلوج التلال بثوب ابيض وكان جيش نابوليون يتقدم حتى توارى عن ابصار فرنسا في زوابع الشمال المظلمة . ولاقى نابوليون اعداءهُ في سهول اوسترلتس التي تبعد عن باريس الف وخمسمائة ميل . وكان عددهم مائة الف جندي تحت قيادة امبراطور روسيا وامبراطور النمسا . فلما لاقاهم تيقن انهُ لا يفوز اذا اضاع ساعة واحدة فان عدد جيشهِ كان سبعين الف جندي حال كون جيوش جرارة كانت تسير في كل الجهات قاصدة الانضمام الى اعدائهِ

وفي صباح اليوم الاول من شهر كانون الاول (دسمبر) التقى جيش نابوليون بالجحفل الروسي والنمسوي . وقال انهُ فرح جدًّا لما شاهد صفوفهُ الكثيرة تسير بالقرب منهُ مبينة ان ساعة القتال قريبة فراقب حركاتهم وعرف حالاً جهة هجومهم . فايقن ان الفوز لهُ وقال اقبض على هذا الجيش غدًا قبل ان يخيم الظلام . وصرف النهار راكبًا يذهب من صف الى صف يقوي عساكرهُ ويفحص الارض ويهيء اسباب معالجة الجرحى . وكان من عادتهِ ان لا يكتفي باصدار الامر فكان يهتم بانفاذهِ وكانت العساكر كلما رأتهُ تفرح فليعش الامبراطور . واسدل الليل ستارهُ وهو يطوف ويتاهب للقتال في الصباح . وفي نصف الليل اخذ احد الجنود عشبًا يابسًا واشعلهُ لان ذلك اليوم كان تذكار جلوسهِ على تخت الامبراطورية . فاقتدى بهِ كل الجيش وبدت برهة قصيرة اضرمت النيران في كل الصفوف على مسافة اميال كثيرة فان الجنود رفعوا العشب اليابس الذي اعطي لهم لينامو عليهِ واحرقوهُ . فراى اعداؤهُ الانوار ووقعوا في خوف وحيرة وهاج الجيش الفرنسوي وضج ضجات شديدة كصوت مياه كثيرة مضطربة فسمعتهُ جنود الدول المتحدة كهزيم رعد مدمدم خرق الظلام وحل بينهم . فاوقف نابوليون جوادهُ واخذ ينظر الى ذلك المنظر البهج صامتًا ويسمع بسرور ضجات سبعين الف رجل . ثم سار الى خيمتهِ وكتب خطابًا وهو

يا ايها الجنود . وقف الجيش الروسي قبالتكم ليقوم بثار الجيش النمسوي المغلوب في اُلم وهم نفس الرجال الذين غلبتموهم في هولابرون وسرتم في اثرهم وهم يطلبون الفرار بسرعة فمواقفنا

حسنة فعند هجومهم على ميمنتي يعرضون جناحهم لهجماتكم . ياايها الجنود انني سادير فرقكم بنفسي على انني ابعد قليلاً عن نيران الحرب اذا قاتلتم كعادتكم واوقعتم الاضطراب في صفوف الاعداء ولكن اذا ارتبت في النصر دقيقة واحدة يعرض امبراطوركم نفسهُ للطعنات الاولى فلا بد ان يكون النصر لنا . انتهى

ولم يسبق احد من القواد نابوليون الى اظهار ماصمم على القيام بهِ للفوز بالنصر لجنودهِ قبل انتشاب القتال . فلو خانهُ جندي واحد واظهرهُ للعدو لالحق بهِ ضررًا عظيماً وكان عالمًا انهُ يكلم جيش فرنسا الذي يفديهِ بدمهِ لا جيشًا اخر . ولم يسبقهُ احد الى اضرام الحمية في جنودهِ بقولهِ انهُ يبقى بعيدًا عن الخطر اذا قاتلوا بشجاعة وفازوا والا فيناصبهم بتعريض نفسهِ للخطر . ولا نظن انهُ يقتدي بهِ قائد من قواد القرون القادمة لعدم بلوغهِ من السيادة على القلوب ما بلغهُ نابوليون . ومن يقف على هذه الحقائق ويقول ان نابوليون كان فاتحًا طماعًا محبًا لسفك الدماء خاليًا من الشفقة . فاعمالهُ وتلك الجملة التهديدية اللطيفة تظهر انهُ كان صديق كل من السبعين الف رجل الذين كانوا في جيشهِ وانهُ كان صديقًا شفوقًا وبذلك تملك قلوب الناس . وكان ذلك الليل شديد البرد صافي الفلك ولكن الضباب غطى الفرنسويين واعداءهم . وكانت نيران الاعداء عند منتهى النظر كنجوم لامعة ممتدة اميالاً كثيرة . وبعد ذلك ببرهة قصيرة اطفئت النيران واظلمت تلك الربوع وخلف السكون ضجات الوف كثيرة برقادها . وبعد نصف الليل باربع ساعات ركب نابوليون فرسهُ وسمع ضجات غير مرتبة بدون ان يرى احدًا بسبب الضباب فعرف بان الجنود الروسية تسير لتكبسهُ بحسب انتظاره بالهجوم على جناح جيشهِ فيضعف قلب جيشهم ويعرض لهجوم كل جيش نابوليون عليهِ فانهُ كان قد استعد لذلك . فنفخ البوق ونهض الفرنسويون باقدام وهمة عن الارض المجللة التي كانوا نائمين عليها واصطفوا للقتال بسرعة مدهشة محيرة للعقول فكأن قوة السحر كانت تسعفهم . وكان كل جندي يعرف المطلوب منهُ وينتظر القتال بفروغ صبر . وكانت النجوم تضيء في الفلك قبل طلوع الفجر . واخذت تغيب بالتدريج والنور يظهر الى ان طلعت الشمس لامعة في فلك صاف . فطلوعها بتلك العظمة والجمال اثر تاثيرًا شديدًا في نابوليون الذي كثيرًا ما كان يقول ان الشمس طالعهُ . وكان القواد العظام حول نابوليون ينتظرون بفروغ صبر امرهُ بالهجوم . فقال نابوليون للمرشال سولت بكم من الزمان نقدر ان نصل الى قمم بروتزن . وهي قمم كانت في وسط جيش اعداء نابوليون الذين اخذوا يتركونها ليهجموا على جناح جيشهِ . فاجاب المرشال المذكور اكون هناك في اقل من عشرين دقيقة فان جيشي في الوادي ويعلوهم دخان نيرانهم والغيم والعدو لا يراهم . فقال نابوليون فلننتظر عشرين دقيقة لانهُ ما دام العدو يتحرك حركة غير صحيحة لا يجب ان نكدره لئلا ينتبه . وبعد برهة



قصيرة سمع صوت المدافع وعرف ان الروسيين شرعوا في هجوم شديد على جناح الفرنسويين الايمن فقال نابوليون هذه هي الساعة فسار المارشالية وهم القواد الاولون مسرعين كل منهم قاصدًا جيشهُ وسار نابوليون سريعًا بجوادهِ الى الصفوف الاولى ومشى امام الصف وقال ياايها الجنود ان العدو حاد عن الطريق الحكمة وعرض نفسهُ لهجماتكم فستنتهي هذا القتال بسرعة تحاكي وميض البرق . فهجم الفرنسويون على قلب جيوش المتحدين وقد ضعفت بهجومها على جناح الفرنسويين فقامت الحرب على قدم وساق وقتل كثيرون ولم يمنع تقدم الفرنسويين الباسلين فشطروا المتحدين اي الروسيين والنمسويين والذين معهم وداسوا فرسان اعدائهم ومشاتهم بافتخار فامتلات الحقول بالوف من الجنود التي طلبت الفرار بياس وخوف وكان فرسان الحرس الامبراطوري الفرنسوي يطاردونهم ويقتلونهم بالسيف بدون شفقة . وترك نابوليون فرقًا قليلة ليمنع الجناح الايمن عن تخليص الايسر وهجم باكثر جيشهِ على الجناح الايسر وبددهُ ثم حمل بكل الجيش حملاً مخيفًا على الجناح الايمن وببرهة قصيرة بات ذلك الجناح في خبر كان . واجتمعت الوف كثيرة من الجيش المنهزم من الفرسان والمشاة حاولت النجاة باجتياز بحيرة علاها الجليد وبمدافعها وذخائرها فوقعت بعض كلل فرنسوية على ذلك الجليد فانكسر وغرق بمن عليهِ وارتفع من الذين وقعوا في ذلك البلاء صراخ مخيف سمع في وسط رعد المدافع واصوات البنادق فارتد الجليد وسد ذلك المدفن الرهيب . وكان امبراطور روسيا وامبراطور النمسا ينظران ما حل بجنودهما من مكان مرتفع والتزما بان يفرا مع جيشهما المنكسر هم والحشم القليل الذي كان معهما . وفي ظلام الليل الثاني تنهفرا مع قليلين من اتباعهما قاطعين سهول مورافيا وهكذا انتهت معركة اوسترلتس وهي من اعظم نصرات نابوليون . وانتشر صيتهُ بعدها انتشارًا زاد مجدهُ وعظم شانهُ . وقتل وجرح من جنود الدول المتحدة خمسة عشر الفًا . وأُسر عشرون الفًا وغنم نابوليون ١٨٠ مدفعًا و٤٥ راية وذخائر كثيرة ولم يستعمل نابوليون فرق الاحتياط الا في امور لا تستحق الذكر فالذين فازوا بذلك الفوز هم ٤٥ الفًا من الفرنسويين ولا اكثر فغلبوا جيشًا جرارًا من الروسيين والنمسويين

ونعجز عن وصف ما حل من الاضطراب والارتباك والويل في صفوف الجيوش المغلوبة وكان يظهر حذق نابوليون في الحروب عند مطاردة عدو منهزم . وكان الروسيون وهم مهيجون باليأس يصرخون ويضربون بالقرى التي كانوا يمرون بها بلا شفقة . وكانت فرق نابوليون تطاردهم من كل الجهات وتترك جثثهم في الوحل . ولما راى امبراطور النمسا انهُ خسر كل شيء ولا امل بالتعويض بالقوة بعث بالبرنس جون الى نابوليون يسالهُ المهادنة وكان ذلك عند منتصف الليل . فوجد هذا البرنس نابوليون في ميدان الحرب يسعف الجرحى بيدهِ ويعزيهم بكلامهِ اللطيف فانهُ لم يكن يستريح الا بعد نوال الجرحى اسباب الراحة المتيسرة في ساحة القتال

وكان كثيرون من الجنود المطروحين على الارض في حالة النزع ينظرون اليهِ باعين تدمع طالبين الى الله ان يباركهُ . وكان يسقيهم المشروبات المنعشة بيدهِ والحمى تكاد تحرق اكبادهم وكثيرًا ما كان ياخذ ملابس القتلى ويغطيهم بها من فعل برد شتاء الاقطار الشمالية . ولما اجتمع البرنس بنابوليون قابلهُ بلطف واكرام وقال لهُ انهُ يجب عقد الصلح وان يجتمع في الغد بامبراطور النمسا ثم امر بمطاردة العدو بجد وكان لا يزال في موقف ذي خطر عظيم فان ملوك اوربا اتحدوا عليهِ وكان جيش اخر روسي يسير من الشمال والمجر متسلحة والبرنس فردينند يدنو من فينا ومعهُ ٨٠ الف جندي وفي موخرتهِ بروسيا بمائتي الف جندي وكان يعلم المخاطر المحيطة بهِ ويعلم اقتدارهُ

وفي صباح الغد نشر نابوليون هذ الاعلان

يا ايها الجنود . ارضيتموني فانكم قمتم بما انتظرت منكم في معركة اوسترليتس بشجاعتكم . وقد زينتم رايتكم بمجد ابدي فان جيشًا من الروسيين والنمسويين عددهُ مائة الف جندي تحت امبراطور روسيا وامبراطور النمسا فني وتبدد في اقل من اربع ساعات . فشتتم شمل الاتحاد الثالث في شهرين . اما السلام فليس ببعيد . ولكن لا اعقد صلحًا ما لم يضمن السلام في الاستقبال ومكافاة الذين اتحدوا معنا . وعند تقريرما يلزم تقريرهُ لسعادة فرنسا ونجاحها اعود بكم اليها فيراكم شعبي مرة اخرى بسرور وكفى كلاً منكم مجدًا القول اني من الذين حضروا معركة اوسترلتس فان كل ابناء وطنكم يقولون عند استماع ذلك هوذا بطل . انتهى

وفي صباح اليوم الثاني سار امبراطور النمسا ومعهُ حرس قليل الى المكان الذي عين لاجتماعهِ بنابوليون وركب عجلة تجرها ستة افراس . فوجد نابوليون واقفًا عند نار مشبوبة للاستدفاء وبجانبهِ طاحون هواء تمنع عنهُ رياح الشتاء الباردة . فلما وقفت عجلة امبراطور النمسا نزل منها فحياهُ نابوليون وهو نازل وقال لهُ انني اقابل حضرتك في القصر الذي سكنتهُ منذ شهرين فقال انك قد احسنت باستخدام ذلك المنزل وقد جعلتهُ منزل سرور لك . وجرى حديث بينهما ساعتين واتفقا شفاهًا على شروط موافقة . اما امبراطور النمسا فخجل من عملهِ واراد ان يلقي اللوم على انكلترا وقال ان الانكليز امة تجارية يحاولون ان يضرموا نيران الحروب في اواسط اوربا لحصر وانجارة العالم في ايديهم . وقبل نابوليون بشروط لم يكن يحق لامبراطور النمسا ان ينتظرها فشرع يتكلم عن حليفهِ امبراطور روسيا . فقال لهُ نابوليون ان جيش روسيا بات محاطًا بجيشي ولا يقدر احد منهُ ان ينجو من يدي فاذا وعدت بانهُ يعود الى روسيا بجيشهِ امنع عساكري عن التقدم فتعهد امبراطور النمسا بشرفهِ ان امبراطور روسيا يرجع حالاً . وبعد ذهاب امبراطور النمسا اخذ نابوليون يتمشى عند النار المشبوبة ويداه وراء ظهرهِ وبعد ان استمر على هذه الحال برهة ليست بقصيرة سمعهُ البعض يقول قد اخطات فاني قادر ان اكمل انتصاري واضع في يدي كل الجيوش النمسوية والروسية



فانها كلها تحت سلطاني . ولكن لا باس فان الصلح يمنع اذراف دموع كثيرة

فارسل نابوليون الجنرال سفاري الى معسكر امبراطور روسيا ليرى هل يقبل بالهدنة فقال الامبراطور للجنرال سررت بمقابلتك والاحوال منحتكم مجدًا عظيماً . هذا اليوم يزيد الشهرة التي اكتسبها سيدك في معارك كثيرة اما انا فلم احضر غير هذا القتال . واعترف بان سرعة حركاتهِ الحربية جعلتني غير قادر على صون الجهات التي كان يهجم عليها وكنت اراكم في كل جهة ضعف عددنا . فاجابهُ الجنرال يامولاي جيشنا اقل من جيشكم والفرق ٢٥ الف جندي ولم يتداخل كلهُ في النزال . ولكن حركاتنا كانت كثيرة ففرقة واحدة من فرقنا قاتلة في جهات عديدة بهذه الحرب والامبراطور نابوليون حضر اربعين معركة من المعارك الكبيرة فيعرف هذه الامور حق المعرفة ولا يزال مستعدًا بان يهجم على الارشيدوق شارل اذا لم نقبل حضرتك بالشروط . فقال امبراطور روسيا ما هي الضمانة التي يطلبها مولاك وما هي الضمانة التي تضمن بان عساكركم لا تستمر حاملة عليَّ اجاب هي ان تتعهد بناموسك بقبول الشروط وقد امرني بان امنع الجيش عن مطاردة جيوشكم عندما تتعهد بذلك . فقال امبراطور روسيا اتعهد بسرور واذا اتيت بطرسبرج اجعل قاعدة ملكي موافقة لك . انتهى

ثم انقطعت الحروب وسارت بقايا الجيشين المغلوبين بدون ان يلحق ضرر جديد بها بمطاردة الفرنسويين حتى وصلت الى منازلها

وبينما كان نابوليون راجعًا الى فينا لاقى عجلات كثيرة فيها جرحى عديدون من النمسويين كانت الحكومة قد امرت بنقلهم الى المستشفيات في فينا . فانحدر من عجلتهِ وكشف راسهُ وقال فلنمجد الشجعان وهم في المصائب . وفعل حشمهُ كفعلهِ . ووقف صامتًا متاملاً وبرنيطتهُ بيدهِ وعجلات الجرحى والذين في حالة النزع تمر بهِ . وقلب الانسان يتاثر بمشاهدة الرجال على هذه الحال فانهم اراقوا دماءهم في محاربة نابوليون ولما راوا منهُ ما راوا زال بغضهُ من قلوبهم وصاروا محبين لهُ شاكرين اعمالهُ

وكانت الدول المتحدة قد اكثرت من التعدي على فرنسا فالتزمت بان تدفعها عنها فانفقت ملايين من النقود الذهبية وكدرت كل اسباب السلام وقتلت سبعة الاف من الفرنسويين . فصمم الامبراطور نابوليون على ان يقوي موقفهُ لتخافهُ الدول وتمتنع عن الهجوم عليهِ . ولم ياخذ ارضًا من املاك محاربيهِ ولكنهُ الزم النمسا بان تدفع نفقات الحرب وجعل منتخب بافاريا وورتمبرغ ملكين واضاف الى الاول مليونًا من الاهالي والى الثاني ١٨٢ الفًا حتى ان بلاد بادن الصغيرة اكتسبت ١١٢ الف نفس . وهكذا كافأ حلفاءهُ وقوى الفواصل الواقعة بين فرنسا ودول اوربا الثلث الغربية وهي روسيا والنمسا وبروسيا واراد ان يبعد النمسا عن حدودهِ الشرقية فضم بلاد البندقية

الى مملكة ايطاليا واعطى النمسا عوضاً عنها بلاد سالسبورغ وهذا الانقلاب ليصون فرنسا من حملات جديدة . ولو قبل باقل من ذلك لارتكب خطاء مبيناً ولو طلب اكثر لما اتهم بالظلم فانهُ اراد ان يجعل دولاً ثانوية صغيرة محبة لفرنسا متوسطة بينها وبين اعدائها الالداء ومن العدل ان يحمي وطنهُ من تعديات دول حاسدة

ولما كتبت شروط الصلح نشر الامبراطور نابوليون هذا الاعلان على جيشهِ

عقد الصلح بيننا وبين امبراطور النمسا . اما انتم ففي الخريف الماضي قمتم بحربين ورايتم امبراطوركم مشتركاً بمشقاتكم واتعابكم ومخاطركم وارغب ايضاً ان تروهُ محفوفاً بالعظمة والافتخار اللذين يستحقهما امبراطور الامة الاولى في الدنيا . ولذلك ستكونون جميعاً هناك . وسنقيم احتفالاً اكراماً لاولئك الذين قتلوا في ميدان الناموس والشرف . وسيرانا العالم في استعداد دائم لنحقق امنياتهم . وسنفعل اكثر مما فعلنا ليسلم شرف امتنا الرفيع هذا اذا مست الحاجة الى ذلك او الى دفع عدوان الذين لاينكفون عن ان يكونوا اعداء السلام في اواسط اوربا . ولا يتيسر وصولكم الى فرنسا الا في ثلثة اشهر فتصرفوا تصرفاً يليق ان يكون نموذجاً للجيوش . فلا نطالبكم الان بالشجاعة والثبات ولكن بالمحافظة على النظام . فتصرفوا تصرف اولاد عائلة . انتهى

وبعد ذلك امر الجيش بالعود الى فرنسا قاطعاً مسافات قصيرة كل يوم وسار الى باريس مسرعاً دون التمتع بالاحتفالات التي اعدها الاهالي لهُ في طريقهِ . وهيأت حكومة باريس احتفالاً عظيماً لتكرمهُ بهِ عند وصولهِ . فدخل ليلاً بلا حرس . وفي الغد زارهُ حاكمها وغيرهُ من ارباب الخطط وخاطبوهُ مهنئين وبينوا كدرهم لانهُ لم يمكنهم من اظهار شكرهم لهُ بسبب خدمتهِ للوطن . فاجابهم بهذا الكلام الجميل لو كسرت لدخلت في موكب لابين لاعدائنا احتفال الاهالي بي عند انكساري وان حبهم لايتوقف على توفيقي او نجاحي فلو غلبت يعتبرون صوالحهم وصالحي واحداً ورجوعي منصوراً جعلني اتجنب فعل ما يوهم الناس انكم تملقوني كما يملق العبيد مواليهم

فالاتحاد الذي بدد نابوليون شملهُ واذهبهُ ادراج الرياح هو نتيجة سعي وليم بت وزير انكلترا الاول فلما بلغهُ انكسار المتحدين في اوسترلتس نظر طويلاً بحزن في رسم اوربا ثم حول وجههُ عنهُ وقال فلنطو هذا الرسم نصف قرن . وكان جسمهُ يضعف يومياً وفي ٢٢ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨٠٦ توفي وهو يقول وا اسفاه بالسوء حظ بلادي وكان عمرهُ حينئذٍ ٤٧ سنة وقال اليسون المورخ الانكليزي انهُ عند ظهور الثورة الفرنسوية اصبح وليم بت روح كل المؤامرات والاتحاد التي اقيمت لابطال مباديها . وكان عضد الحرية الثابتة وعدو الحرية التي تطلب تغيير كل شيء ولم يوجه مضادتهُ الى فرنسا ولكنهُ وجهها الى جمهورية فرنسا . انتهى

وصنع نابوليون نياشين كثيرة تذكاراً لموقعة اوسترلتس وفي صباح احد الايام جاء موسيو



دينون الى نابوليون في سان كلو ويدهِ رسوم كثيرة لصنع نياشين كواحد منها وكان على احدها صورة نابوليون في جهة وفي جهة اخرى صورة نسر قابض بمخالبهِ على نمر فسالهُ نابوليون ما معنى هذا قال دينون يامولاي ان هذا نسر من علامات فرنسا وفي مخالبهِ نمر يخنقهُ فان النمر من علامات انكلترا . فقال نابوليون باحتقار بعد ان رمى بالنيشان كيف تقول ان النسر الفرنسوي يخنق النمر الانكليزي ولا تقدر اصغر السفن الفرنسوية على الخروج من ثغور فرنسا بدون الوقوع في اسر الانكليز فالنمر الانكليزي يخنق النسر الفرنسوي فاكسر هذا النيشان ولا تاتني بشيء كهذا بعد الان . وعامل نابوليون جيشهُ بكرامة اخلاق فانهُ تبنى اولاد جميع الذين قتلوا في الحرب وقام بمعاشهم وعلمهم بمال الحكومة وجعلهم كاولادهِ وسمح باضافة اسم نابوليون الى اسمهم وعين لارامل القواد الكبار راتباً سنوياً ستة الاف فرنك ولارامل القواد الصغار الفين وخمسمائة فرنك ونصف ذلك للذين هم دونهم وللملازمين ٧٥٠ فرنكاً ولارامل الجنود مائتي فرنك اما الجرحى فانعم عليهم بنعم وافرة

وكان يكتب الى جوزفين من ميدان الحرب غالب الايام . واكثر رسائلهِ كتبها على طبل صغير في مكان نزولهِ او على سرج فرسهِ وكلل مدافع اعدائهِ تتساقط حولهُ وكانت مختصرة جداً رديئة الخط من السرعة فكانت جوزفين تفرغ جهدها لتتمكن من قراءتها وهي تدل على ما انطوى عليهِ زوجها وتبرهن ان قوة عقلهِ غير العادية لم تمحُ العواطف من فوادهِ وهذه ترجمة بعض رسالاتهِ

في ٢ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٠٥ الساعة ١٠ قبل الظهر

لا ازال متمتعاً بصحة جيدة . هذا المساء اذهب الى ستنغرد وابيت هناك . الحركات الحربية العظيمة قد ابتدات واتحد جيش ورنبرغ وبادن مع جيشي وانا في موقف جيد واحبك (الامضا)

نابوليون

في ١٢ تشرين الاول اكتوبر) الساعة ١١ من الليل

دخل جيشي مونيخ وانكسر العدو . وكل شيء يبين ان هذه الحرب تكون من اقصر الحروب التي قمت بها وانجحها . وانا متمتع بصحة جيدة . اما الهواء فمضطرب اضطراباً مخيفاً واخلع ثيابي مرتين كل يوم فان المطر متواصل . وانا احبكِ واقبلكِ

نابوليون

في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر)

ياجوزفين امسيت متعباً جداً فانني صرفت اسبوعاً كاملاً مبلولاً بالمطر حتى ان رجليَّ كادتا تجلدان من شدة البرد . وقد مرضت قليلاً من ذلك اما الان فقد حصلت على بعض الراحة وتممت مقاصدي وبددت شمل الجيش النمسوي بالمسير فقط . اسرت ستين الفاً منهُ وغنمت ١٢٠ مدفعاً وتسعين راية واسرت اكثر من ثلثين جنرالاً وشرعت في مهاجمة الروسيين وقد وقعوا في

الشرك . وانا مرتض من جيشي ولم اخسر منهُ غير الف وخمسمائة رجل ومنهم كثيرون لم يصابوا الاَّ بجراحات خفيفة . اودعك ياجوزفين واكلمك بالف كلمة حب نابوليون

في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) الساعة ١٠ ليلاً

انني سائر بالجيش سيرًا سريعًا والهواء بارد جدًّا وارتفاع الثلج فوق الارض قدم فهو متعب لكن لحسن الحظ مسيرنا في الاجام . صحتي جيدة واحوالي جارية جريًا مرضيًا جدًّا ينبغي ان يكون بال اعدائي مشغلاً اكثر من بالي . انني راغب جدًّا في الاستماع عنكِ لاعرف انك غير مشغلة البال اودعكِ يامحبوبتي لانهُ لابد لي من ان انام نابوليون

في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) الساعة ٩ ليلاً

خرجت من فينا منذ يومين يامحبوبتي وشعرت بتعب قليل . لم ارَ بعد المدينة في النهار فانني مررت فيها ليلاً واكثر عساكري قطعوا الطونة وقد اخذوا يطاردون الروسيين اودعكِ ياجوزفين . وعندما ارى مكانًا موافقًا ابعث اليكِ لتاتي الى هنا . اكلمكِ الف كلمة محبة

(نابوليون)

في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر)

كتبت اليكِ لتاتي حالاً الى بادن ومنها الى مونيخ بطريق ستتغرد . فاحضري معكِ هدايا للخواتين وارباب الخطط الذين يخدمونك فلا تفتخري ولا تتظاهري بالصلف واقبلي كل خضوع فان كل شيء واجب عليهم لك وليس عليكِ الا ملاطفة القوم . اما امراة منتخب ورتمبرغ فهي بنت ملك انكلترا وهي امراة لطيفة فعامليها باللطف ولكن بدون تكلف وتصنع . اسرجدًا بان اراك عندما تسمح اشغالي بذلك . سرت حالاً الى طليعة الجيش فالتوء شديد ومخيف والثلج يسقط على الدوام اما اشغالي فناجحة . اودعكِ يامحبوبتي نابوليون

في ٢ كانون الاول (دسمبر)

ارسلت لوبورون اليكِ من ميدان الحرب . وقد كسرت الجيوش النمسوية والروسية التي تحت قيادة الامبراطورين فتعبت قليلاً وقد نزلت ثمانية ايام في الفضاء ليلاً . وساقضي هذا الليل في قصر برنس كونتز وانام فيهِ ساعتين او ثلث ساعات . ان جيش روسيا لم ينكسر فقط بل تبدد شمله . اقبلكِ نابوليون

في ٥ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٥

عقدت هدنة اجابة لتوسل الروسيين وانتصاري في اوسترلتس اعظم فوز حصلت عليهِ فاننا غنمنا ٤٥ راية و ١٥٠ مدفعًا و ٢٠ قائدًا وقتل اكثر من عشرين الفًا فهذا منظر مخيف والامبراطور اسكندر بات في باس . قابلت امس عند مكان نزولي امبراطور المانيا فتكلمنا ساعتين واتفقنا على



عقد الصلح في الحال والتوء شديد . رجعت الراحة الى اواسط اوربا فلنومل بانها تمتد الى كل الدنيا فان الانكليز لايقدرون ان يستظهروا علينا . انني انتظر بسرور الساعة التي اقابلكِ فيها اودعكِ يامحبوبتي . صحتي جيدة وانا راغب في تقبيلكِ نابوليون

في ١٠ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٥

منذ زمان طويل لم اسمع خبرًا عنكِ . اما احتفالات بادن وستتغرد ومونيخ الجميلة فتجعل الجنود المساكين الغائصين في الوحل والدماء تحت المطر منسيين . انني ذاهب في الحال الى فينا وقد ذهب الروسيون ورجعوا الى بلادهم مكسورين مذعورين مذلولين . اتمنى من كل قلبي الرجوع اليكِ . اودعكِ يامحبوبتي نابوليون

وانقطعت الامبراطورة جوزفين مدة عن مكاتبة زوجها نابوليون اثناء تلك الحروب فبعث اليها بهذه الرسالة

في ١٩ كانون الاول (دسمبر)

ايتها الامبراطورة المعظمة . منذ ذهبت من ستراسبورغ لم ترد اليَّ رسالة منكِ . قد دخلت بادن وستتغرد ومونيخ بدون ان تكتبي كلمة فهذا بعيد عن الحب واللطف . ولا ازال في برون . قد خرج الروسيون وعقدت هدنة . فتنازلي من علو مجدكِ لتعتني قليلاً بعبدكِ نابوليون

## الفصل الثلثون

### اتحاد وغير ذلك

عند نصف الليل دخل نابوليون ومعهُ جوزفين شوارع باريس بعد ان رجع من فينا وسار الى قصر التويلري وصعد على السلم سريعًا ودخل غرفتهُ وقبل خلع ثيابهِ والراحة دعا اليهِ وزير المالية وصرف الليل كلهُ بالبحث عن حالة بنك فرنسا . فراى الارتباك الذي وقع فيهِ . وكان قد كتب عنهُ الى وزير المالية من معسكر بولون وهو مشتغل بالاستعدادات العظيمة ليذهب الى ألم واسترلتس حيث جرت المعارك المار ذكرها . وهذه ترجمة بعض ما كتبهُ نابوليون الى وزير المالية بهذا الشان . ان اصدار اوراق البنك في الغالب ليس هو بالاستناد الى راس مال صحيح لكن الى راس مال موهوم . وهذا عبارة عن سك نقود زائفة . ورايت اخطار ذلك فارتضي بقطع معاشات جنودي ولا ارتضي بدوام هذه الحال واتاسف جدًّا من احوالي فانها تلزمني ان اعيش في المعسكر وانفق زماني في حروب بعيدة فلا اهتم بما ينبغي ان يكون موضوعًا لعنايتي وهو

نظام جيد ثابت لترقية صوالح البنكات والمعامل والتجارة · انتهى

وفي الغد قبل الظهر بساعة جمع نابوليون مجلس المالية واشغله بدون انقطاع تسع ساعات فقام باصعب الاشغال قياماً لا مثيل له فانهُ كان يسر بالتعمير لا بالتخريب ولم يكن يحب مذابح الحروب ولا مشاهدة المدن المحترقة ولا ضرر مسير الجيوش الى القتال . وكان يميل جداً الى الاشتغال في غرفتهِ لتشييد اعمال عظيمة ثابتة ويكره قيادة الجيوش الى القتال وقطع انهر الدماء والويل جائعاً برداناً مبللاً نائماً تحت السماء على ارض مبيضة بالثلوج . ولم يكن يطرب بتنهدات الجرحى وانين الذين في حالة النزع ويتكدر جداً ويحزن حين يجول في ميدان الحرب بعد القتال ليقابل بلايا الجرحى ويرى القتلى والمصابين بمصائب تفتت الاكباد . ولسوء حظهِ الزمهُ اعداؤهُ بان يوجه نصف قواهُ الى دفع هجماتهم وتعدياتهم . وبعد تلك المعارك تغلب عليهم جميعاً والزمهم بعقد الصلح الا انكلترا . فان حكومتها لم تنثك عن محاربة فرنسا بجد واجتهاد مع ان قسماً عظيماً من اهلها كانوا يضادون محاربتها وتبديل اسم وظيفة نابوليون من قنصل الى امبراطور لم يحملها على ترك سياستها لعلمها ان قواعد حكومتهِ القنصلية وحكومتهِ الامبراطورية واحدة وهي حكومة الشعب . وكان من سياستهِ ابطال تعديات الامراء وتعزيز شان الاهالي لتكون حقوقهم مساوية لحقوق اولي الامتياز الموروث

وبعد وصول نابوليون الى باريس ببرهة قصيرة قام بالتدابير اللازمة ليرجع جيشهُ الى بلادهِ بعد انتصاراتهِ الكثيرة بدون تعب فامرهُ بان يقطع كل يوم ١٢ ميلاً فقط وامر ايضاً بان يخلفوا جميع اسباب الراحة للمرضى والجرحى لينقلوا في الربيع الى فرنسا . وامر الضباط بان يبقوا معهم ليناظروا عليهم ويقدموا كل ما يلزم لهم . ولم يسبق احد نابوليون الى افراغ الجهد في الاعتناء بالمرضى وقد اجمع المورخون على ذلك

وكان مشتغلاً بالاعمال الحربية وبالاشغال العسكرية الخطيرة وبالمخابرات السياسية ولم يشتغل انسان بها مثلهُ ومع ذلك كان يسر جداً بترقية الفنون واسباب المنافع العمومية . وكان يذهب الى اقطار مملكتهِ المختلفة ساعات الفراغ لينتقدها ويقيم فيها اعمالاً نافعة ولم يات مكاناً بدون ان يقصد انشاء مآثر اصلاحية وامور تنمي الثروة والمعارف وتوطد الراحة العمومية . ولا تزال اثارهُ في كل باريس وفي ابعد ولايات فرنسا تشهد بحبهِ لراحة الناس ولحكمتهِ واقدامهِ وحذقهِ . ولما راى ان سان دنيس مقام ملوك فرنسا القدماء في حالة الخراب رممهُ افخر ترميم واعادهُ الى عظمتهِ الماضية وكذلك كنيسة سانت جنيفاف كان بعضها متهدماً فارجعها الى عظمة تفوق عظمتها الاولى . وهو الذي بنى عمود فندوم العظيم من نحاس فاخر وكتب عليهِ معارك ألم واسترلتس وكل من براهُ يتعجب ويخصهُ بالجيش العظيم وصنعهُ من المدافع التي غنمها من الاعداء



وافرغ جهدهُ في توطيد اركان السلام ونال مرامهُ بالحروب المار ذكرها فاراد ان يضع على اعلى ذلك العمود المثال الذي يشخص السلام ولكن الامة الفرنسوية حكمت بكرامة اخلاقها بانهُ ينبغي ان يقام عليهِ تمثال نابوليون فانهُ هو الذي اتى بالسلام وان يكون ذلك المثال لابساً الملابس الامبراطورية . وهو الذي جعل قصر التويلري واللوفر قصراً واحداً من افخر قصور العالم ولم يجعلهُ لتنعم الملوك وراحتهم بل جعل اكثرهُ لنفع الاهالي بوضع نتائج الفنون والصنائع وانشاء قنطرة النصر في الكاروسل وقنطرة ثانية في الحقول الاليسية وابتدا بهما في تلك السنة . وانشأ في باريس ١٥ ينبوعاً جديداً واقام الات اقوى من الالات الاولى لرفع الماء من نهر السين فجعل ثمانية ينابيع تتدفق ليلاً ونهاراً · وانشأ متنزهات جميلة على شاطىء النهر وتم بناء جسر كان قد شرع فيهِ وسماهُ جسر اوسترلتس وابتدا في بناء جسر اخر اسمهُ جسر جنوا . وما هذه الا بعض المشروعات الكثيرة التي قام بها في عاصمة البلاد الفرنسوية . وكانت اعمالهُ تبلغ ابعد اقسام الامبراطورية لانهُ فتح ترعاً عظيمة كبيرة جداً ومكن فرنسا من الانتفاع بالمياه وشرع في انشاء طرق عظيمة عمومية لا يزال المسافر ينظر اليها متعجباً . ومنها طريق سيمبلون المشهورة في الدنيا والطريق في وادي الموزل والممتدة من روان الى ليونز والممتدة من نيس الى جنوا والطرق المارة فوق جبل سنيس وجبل جينفر . وعلى شواطىء الرين واشغال انتورب المدهشة هي اثار تبقى شاهدة على اقدام نابوليون ورغبتهِ الشديدة في تحسين بلاده ونفعها . فهذه هي الاشغال التي كان يسر بها . والشهرة التي كان يرغب في الحصول عليها هي شهرة القيام بمنافع عمومية كتلك المنافع وقد فاز بشهرة ابدية فانهُ ترك في اواسط اوربا اثار جود ومنافع لا تزول بمرور الازمان . على ان اوربا كانت ضدهُ فالزمتهُ بان ينفق اموالاً جزيلة على اربعمائة الف جندي مجهزة للحرب ليمنع هجوم اعدائهِ على بلادهِ ولم يشغلهُ ذلك عن الاعمال العظيمة

وكان من اهل الجد الشديد والميل الى اعتبار الاديان وتنزه في صباهُ عن الفساد الذي يخامر العساكر وعن اسباب الحظ عندهم وكان الجنود يسمونهُ الاب المتنكر . ولم يكن متحققاً ان مصدر الديانة المسيحية الهي ومع ذلك كان يعتبر جداً التوراة والانجيل وكانت اوربا غائصة في لجج الكفر ولا سيما فرنسا وكان يقول ان الدين من الزم الامور للهيئة الاجتماعية مراعاة للامور السياسية وللحقوق الانسانية . ولما بلغ ٢٤ سنة حرض اخاهُ لويس وكان عمرهُ ١٥ سنة على تناول القربان . وقال لويس كنت فتى فتناولت القربان المرة الاولى بعنايتهِ ومشورتهِ وانتخب كاهناً من اهل التقوى ليعلمنا الامور الدينية . ولما رفع اليهِ نظام مدرسة مادام كامبان لتعليم الاناث وجد فيهِ ان الفتيات يحضرن الصلاة مرتين في الاسبوع فمحا بقلمهِ هذه العبارة وهي مرتين في الاسبوع وكتب عوضاً عنها كل يوم . وقال الجنرال برتران لنابوليون يا مولاي انك انت تومن بالله وانا كذلك

لكن اسالك من هو الله وماذا تعرف عنهُ هل رايتهُ . اجابهُ نابوليون انني اجيبك على ذلك فاجبني من اين تعلم ان الانسان ذو عقل هل رايت العقل وهل يُرى فكيف نعتقد بوجوده . الانرى نتائجهُ فنحكم بها بوجوده . اما هذا هو الصواب . وفي القتال لانرى في بداءتهِ رسم الهجوم ولكننا نسر بسرعة الحركة وباصابتها ونقول ان مديرها رجل عاقل . وحين يشتد القتال ويميل النصر من جهة الى جهة تنظرون اليَّ ثم تدهوني شفاه الجيش فتسمع الجميع يصرخون ابن الامبراطور وماهي اوامرهُ . فعلى ماذا يدل ذلك الصراخ اما هو صراخ طبيعي ناتج عن الركون اليَّ بل الركون الى عقلي واصبح انا ايضاً صياحاً طبيعياً ناشئاً عن المعرفة والركون وانقاد الى ذلك بالفطرة لانني اتامل في الدنيا وعجائبها فاصرخ قائلاً يا الله ثم اظهر اندهاشي باعمالهِ واشهد قائلاً ان الله موجود . وانت تعتقد بوجود العقل فارجوك ان تقول لي من يعطي الرجل العاقل قوة الاختراع والمعرفة الطبيعية وغير ذلك مما يختص بالانسان . اجبني من هو ينبوع ذلك . لانقدر ان نجيب ولا انا . ومع ذلك في البعض تلك الخواص وهذا موكد . ولا بد من علة لتلك الاختلافات ولست انا بعلتها ولا انت والعقل كلمة لايظهر بها شيء من اصلها . فاذا قيل هو الاعضاء يكون العاقل جاهلاً وهذا القول يناسب طالب طب لايناسبني . هل فهمت

وقيل ان الذي منع نابوليون عن تسليم تعليم الاولاد والفتيان الى خدم الدين في ذلك الزمان ما رآهُ من تقصيراتهم وشدة المحافظة على الامور الماضية ومضادة جميع اسباب التقدم الجديد فحكم بانهم غير اهل لان يعلموا الصغار ووجه عنايتهُ الى تعليم العامة فعاد مدرسة عمومية لتعليم معلمين حاذقين لهم رتب ممتازة في الحكومة ورواتب كافية . وعين لكل المدارس كهنة يعلمون الامور الدينية فيها . وهذه هي الامور التي اهتم نابوليون بها وهو في باريس من كانون الثاني (جانفيه) الى تموز (جوليه) سنة ١٨٠٦ حال كونهِ ملتزماً بان يدفع تعديات انكلترا عنهُ فانها كانت تتعدى على فرنسا على الدوام ببوارجها الكثيرة وبالقيام باهم المخابرات الجارية بينهُ وبين دول اوربا

اما ولاية جنوا فواقعة عند حضيض الابنين الجنوبي وكان اهلها خمسمائة الف نفس عاداتهم كعادات اهل فرنسا الجمهوريين . وفي الحروب التي اشتبكت اوربا بها لم تقدر ان تحفظ مركزها بدون الاستناد الى دولة قوية فقربها من فرنسا جعل اهلها يرومون الانضمام اليها فاتى نابوليون وفد من مجلس الشيوخ وطلب اليهِ ان يسمح بانضمامها الى فرنسا وقال لهُ انك باصلاح اهالي هذه البلاد ضمنت ان تجعلها تفوز بالسعادة ولا يتم لها ذلك ما لم تدار بحكمة جلالتك وشجاعتك . فان التغيرات التي احاطت بنا جعلت موقفنا المنفرد سبب قلق دائم ويحملنا على طلب الانضمام الى فرنسا التي حصلت بك على شهرة لاتفنى . فهذا هو ما فوض الينا بان نلتمسهُ من جلالتك . واسبابهُ تثبت انهُ ليس نتيجة امور خارجة ولكنهُ ناتج عن مقتضيات احوالنا



ولما دخل نابوليون جنوا للقيام بذلك الاتحاد قابلهُ الاهالي بفرح وقاموا باحتفالات فاقت التي جرت في ايطاليا في الزمان المتاخر اما الحكام فلاقوا نابوليون وسلموهُ مفاتيح المدينة عند ابوابها وقالوا لهُ ان جنوا قد سميت بالعالية بالنظر الى مركزها اما الان فتستحق ذلك الاسم بالنظر الى نصيبها فانها قد طرحت نفسها بين ذراعي بطل ولذلك تضع مفاتيحها في يد من يفوق الجميع في الاقتدار على المحافظة على ذلك المجد وازديادهِ . وكثرت التنويرات واطلقت المدافع واقيمت اعمال نارية تفوق تصورات الذين يصفون اعمال الجان وهذا كلهُ نتيجة فرح جنوا بانضمامها الى فرنسا

اما مدينة نابلي فكان فيها ثمانية ملايين من السكان . وكانت حكومتها كالحكومة المطلقة في يد ملك من العائلة البوربونية . وكان بلاطها مفسداً وكثيراً ما بعثت بالمراكب والجنود للهجوم على نابوليون ومع ذلك كان نابوليون في ساعة النصر يعامل تلك الحكومة بالحلم . فلما كان بعيداً الف ميل عن قاعدة امبراطوريتهِ في شمال المانيا يجاهد ويقاوم الاعداء الكثيرين في سهول اوسترلتس استحسن ملك نابلي ان ينتهز تلك الفرصة ليحمل على موخرتهِ وبدون سبب دعا البوارج الانكليزية الى ثغورهِ واضاف خمسين الف مقاتل الى جيش انكلترا وروسيا والنمسا وحمل على فرنسا . وسمع نابوليون بخيانتهِ العظيمة بعد انتهاء معركة اوسترلتس فغضب جداً لان ملوك اوربا كانت تعاملهُ كلص وتحمل عليهِ بدون مخابرة ولم يكونوا يعتبرون اهم المعاهدات ويفرغون جهدهم في حمل شعبهِ على الخيانة ليضرموا في فرنسا نيران الحروب الاهلية . وكانوا ينهزمون امام حذقهِ وتدبيرهِ وبراهينهِ عند مقابلتهِ في ميادين الحروب او في مجالس التدبير حال كونهم يطعنونهُ ويغتالونهُ حين يميل وجههُ عنهم مع ان امة عددها اربعون مليوناً انتخبتهُ امبراطوراً عليها . ومع ذلك كان ملوك اوربا يقولون انهُ لاحق لهُ بالملك ولم يلقبهُ بعضهم بالامبراطور وكان بعضهم يقول لهُ تحقيراً ياموسيو بونابرت وكانوا يستخدمون وسائل دنية جداً ليتجنبوا ذكر لقب امبراطور في كتاباتهم العمومية ونشروا في العالم اخباراً كاذبة تثلم الصيت مع انهُ كان ذا صفات حسنة جداً واتهموهُ بالسكر والفسق والقتل وحب اراقة الدماء . وكانوا يسمعون الذين يخترعون الات قتالة ليقتلوهُ بها والذين يحاولون تسميمهُ او قتلهُ بالخناجر . ومن اعظم اعمالهِ احتمال تلك المقاومة والاضطهاد والمضادات غير مبالٍ بها . وكان ملك نابلي قد تخلص بحلم نابوليون ثلث مرات من الخراب فصمم على ان لايخدع مرة اخرى بنفاقهم . فنشر الاعلان الاتي على جيشهِ

يا ايها الجنود . انني في السنين العشر الماضية افرغت جهدي في تخليص ملك نابلي ولكنهُ افرغ جهدهُ في فعل ما يضرهِ بعد معارك ديجو وموندو في ولودي ولا يقدر ان يدافعني . وكنت قد ركنت الى وعدهِ وعاملتهُ بالحلم . وعند نقض الاتحاد الثاني في مارنجو بات وحدهُ بلا معين

لان محالفيهِ تركوهُ في تلك الحرب فامسى بدون وسائط الدفاع فتوسل الىَّ بان اعفو عنهُ . فعفوت مرة ثانية . ومنذ اشهر قليلة كنتم عند ابواب نابلي وكنت عارفًا بما يشف عن خيانتهِ ومع ذلك عاملتهُ بالحلم واعترفت بجيادة نابلي وامرتكم بالخروج من مملكتهِ . وهذه هي المرة الثالثة التي خلصت فيها ملك نابلي من السقوط . فهل نعفو مرة رابعة . هل نركن الى بلاط بدون ناموس ولا صدق ولا تعقل . لالا . فحكم بان عائلة نابلي قد انقطعت عن الملك فان وجودها لا يناسب ناموس اوربا وراحة تاجي . انتهى

وفليلون هم الذين يلومون نابوليون على هذا الفعل ومع ذلك قد لامهُ السار ارشيبلد اليسون وكان اعداء نابوليون يقولون ان مدافعتهُ عن نفسهِ ذنب عظيم وان كانت غايتهُ التخلص من خيانة الظالمين وخناجر القتلة . وهذا ما قالهُ ذلك السار الانكليزي

أن معاملة ملك لم يخطر لهُ الا مقاومة امبراطور فرنسا معاملة شديدة حال كونهِ لم يضربهِ قدر غيره من ملوك اوربا هو من اجراات ذلك المنتصر العاتي التي لا مسوغ لها . وذلك لا يدل على اجتماع الحكمة واليقظة فيهِ عند القيام بالاعمال التي كان يساق بمطامعهِ اليها . وكفانا برهانًا على صحة ما اوردناهُ كلام الفرنسويين الذين قالوا ان سفير نابلي ورجال بلاطها قبلوا في ٢١ ايلول (سبتمبر) بعقد معاهدة حيادة لما كانت جنود فرنسا تتهددهم والسيف عند اعناقهم . وبعد ستة اسابيع دخلت البوارج الانكليزية والروسية خليج نابلي ودفعت الخوف عن قلوبهم فصممت دولة نابلي على نقض المعاهدة والاتحاد مع الدول المتعاهدة على مقاومة فرنسا . فنقض العهد مجلبة للعار ويسوغ لفرنسا فتح الحرب على نابلي وطلب امور كثيرة خطيرة ولكنهُ لا يسوغ قلب دولة . فاذا سوغ قلب دولة فاية دولة لم تفعل ما يستوجب قلبها خمسين مرة . انتهى

اما نابوليون فكتب الى شقيقهِ جوزف بانني ارغب في ان تدخل نابلي في اوائل شهر شباط (فبريه) وان تخبرني اثناء ذلك الشهر بان راياتي تخفق فوقها . ولا توقف القتال ولا تعقد هدنة . لانني اروم ابطال ملك البوربون من نابلي وضع برنس من عائلتي على عرشها فانت مفضل على الجميع وان ابيت املك غيرك

وقال موسيو تيرس في تاريخهِ ان غاية ايطاليا مع صقلية او سيسيليا مملكة نابلي وكانت اعظم ممالك ايطاليا حال كونها كمملكة رومية في الجهل والبربرية . وكانت حكومتها اردا . وكان عليها ملك بوربوني وديع جاهل عاكف على صيد السمك والحيوانات والطيور للصيد استغرق كل زمان حياتهِ . فترك ادارة مملكتهِ الى امرائهِ وكانت برنسس نمسوية شقيقة ملكة فرنسا السابقة طماعة ذات شهوات عنيفة وكان محبها الوزير اكتون فرشاهُ الانكليز وجذبوهُ اليهم فادار المملكة بلا حكمة وتمييز . وكانت انكلترا تجتهد بترقي صوالحها في اواسط اوربا بانفاذ سطوتها في الممالك



الصغيرة في السواحل وهي التي جعلت الملكة تبغض فرنسا وبغضها لها حرك مطامع نابوليون وجعلتهُ يملك ايطاليا . انتهى

فسار جوزف شقيق نابوليون في جيش الى نابلي . ولما دنا منها هرب الانكليز بخوف واضطراب واخذوا معهم العائلة المالكة . فسقوط دولة نابلي واقامة جوزف ملكًا عليها عظم بغض ملوك اوربا لنابوليون ووفر اتعابهُ . ولو ترك البوربون في ملكهم بعد تعديهم ونقض عهودهم لعرض نفسهُ الى هجوم اخر حين تنشب حرب بينهُ وبين اوربا فاختار من الشرين اصغرها . وثبت عندهُ ان ملوك اوربا متحالفون بالباطن عليهِ يترقبون سنوح الفرص ليهجموا عليهِ ويوقعوا بهِ فمن مصلحتهِ ان يثبت سلطانهُ بانشاء ممالك وعضد دول روساؤها من اصدقائهِ . ولم يكن اجتهادهُ في ذلك السبيل محصورًا في نفع نفسهِ ولكنهُ كان ينفع فرنسا ويرفع شانها ويصون استقلالها

اما هولاندة المعروفة بالبلاد الواطية فكان فيها مليونان ونصف مليون من الاهالي يزرعون اراضيها ويشتغلون في معاملها والحواجز تحميهم من طغيان مياه البحار عليهم . وكانوا يفتدون بفرنسا بمحاولة التخلص من ظلم الامراء . فحملت انكلترا وحلفاؤها عليهم كما حملت على فرنسا وبحملة واحدة استولت على مهاجرها وقطعت تجارتها المتسعة من البحار وحصرت ثغورها . وكانت الجيوش المضادة لها تدخل اراضيها وتضربها ولم تكن وحدها قادرة على دفع قوات كتلك القوات فطلبت الى فرنسا بان تساعدها فاسعفتها وطردت الاعداء . ولما وضعت فرنسا النظام الامبراطوري صممت هولاندة على ان تقيم نظامًا ملكيًا ايضًا وكان كل من الملكتين تعضد الاخرى وتشترك معها في الحاسيات فاختارت هولاندة لويس بونابرت شقيق نابوليون ليتولى امرها . وكان رجلاً مستقيمًا فهيمًا عاقلاً . حتى ان اهل التعدي لم يفوهوا بما يثلم صيتهُ فاكتسب حب رعاياهُ الشديد

وسميت جمهورية السبساليين مملكة ايطاليا وكانت ارضًا ضيقة فيها ثلثة ملايين ونصف مليون من الاهالي وكان نابوليون علة وجودها ولولا يدهُ العاضدة لها لما قدرت ان تثبت ساعة واحدة في مقاومة النمسا . وفي فصل الشتاء سار الى فرنسا اربعمائة وخمسون نائبًا من نوابها ليطلبوا اليهِ ان يسعفهم في تنظيم حكومتهم وان يحميهم من التعديات التي كانت تتهددهم بخراب بلادهم

فقالوا لهُ ان الجمهورية السبساليبة تحتاج الى عضد يجعل الدول التي لم تعترف بها تحترمها والى رجل قادر بشهرتهِ وقوتهِ ان يجعل لها مركزًا واعتبارًا فتطلب الى الجنرال بونابرت بان يشرف تلك الجمهورية بعنايتهِ ويضم ادارتها الى ادارة فرنسا ما دامت في احتياج الى ضم كل اراضيها الى نظام واحد سياسي وان يجعل دول اوربا تعترف بها . انتهى

فاجابهم نابوليون بقبول تاج الملك وقال ان وريثهُ اوجين وعند ذلك قال لمجلس الشيوخ

الفرنسوي ان الامبراطورية الفرنسوية عظيمة ذات نفوذ عظيم واعتدال اعمالنا اعظم . فاننا فتحنا هولاندة وسويسرا وايطاليا والمانيا وفزنا بنجاح لا مثيل له ومع ذلك لم نصغ لمشورات الاعتدال فان من الولايات الكثيرة التي فتحناها لم نستول الا على التي رايناها لازمة لتثبيت فرنسا في المركز الذي طالما تمتعت به بين دول الدنيا . اما تقسيم بولونيا والولايات التي اخذت من الدولة العثمانية وفتح الهند واكثر مهاجر انكلترا فقد جعلت الميزانية في يد مضادة لنا . ولا بد من الحصول على شيء لمقابلة ذلك . ولكن لا ينبغي ان نحفظ الا ما كان نافعاً لازماً . ولو اضفنا الى بلادنا جمهورية ايطاليا لوفر دخلنا . واعطيناها الاستقلال في ليون والان نجاوز تلك الحدود ونعترف بانها منفصلة عن تاج فرنسا ولكن نؤخر انفاذ ذلك الى ان نتمكن من انفاذه بدون ان نلقي الاستقلال الايطالي في خطر . انتهى

اما حكومة اوجين في ايطاليا فارضت الشعب جداً . فان الايطاليان لا يزالون يقرون بان ايام تلك المملكة اعظم ايام تاريخهم الحديث واكثرها تقدماً . ولا يذكرون سياسة نابوليون الا بالاستحسان والتعجب وكان اوجين يتبع الارشادات التي كانت ترسل اليه من حكمة نابوليون واختباره

وقال اليسون المؤرخ ان اهالي لومبردبا من ايطاليا لم يكونوا كاهل سائر البلدان التي خضعت لحكومة اجنبية فلم يشعروا بتغيير احوالهم بسرعة انتشار الثروة وتقدم الصناعة واتساع دوائر الاعمال . وكانت كل اسباب التقدم والارتقاء وجميع المناصب محفوظة للايطاليان انفسهم حتى انه لم يكن في تلك البلاد قاض او مامور من الاجانب والنادر لا يعتد به . وشرع في كل مكان باعمال مفيدة عظيمة فشيدت الابنية الفاخرة لتزيين المدن والترع النافعة لسقي الاراضي . انتهى

اما بيامونت وكانت من ولايات سردانيا فكان فيها نحو مليون ونصف مليون من الانفس وسر سكانها جداً بالتخلص من مظالم النمسا . وكانوا يشاركون الفرنسويين في قواعدهم السياسية فاتحدوا معهم واقاموا تزيينات واحتفالات بهجة في كل البلاد لما عرفوا انهم الحقوا بفرنسا ونابوليون ايطالي الاصل وكان يحافظ على امور متعلقة باصله وكانت اللغة الايطالية لغته فكان يهتم جداً بصوالح ايطاليا

وكانت ايطاليا في ذلك الزمان منسومة الى ممالك ودوقيات وامارات كثيرة صغيرة ولم تكن قادرة على الاستقلال ولا على صيانة نفسها الا بالحصول على حماية فرنسا او النمسا . وكان نابوليون يروم ان يعيد الى ايطاليا استقلالها ويجعل رومية عاصمتها . وعلق امله بجعل تلك الحكومات الضعيفة حكومة واحدة فتصير البلاد مملكة عظيمة فيها عشرون مليوناً من السكان . وصمم على تخليص رومية من الخراب الذي احدق بها وصيانة اثارها القديمة من الخراب المتصل وترجيع



ما يمكنه ان يرجعه اليها من عظمتها السابقة . ولولا امور سياسية حالت دون مرامه لتمكن من بلوغ غايته فان الايطاليان تعودوا الركون اليه والانقياد الى ارائه وارادته . وكان يرغب في توطيد السلام في اوربا ومحو اسباب الاكدار الجارية بين فرنسا والملوك ليرضوا بنظامها . وان يجهد غيظ النمسا ويرضيها بترك البندقية القديمة التي كانت قد فتحتها الى الادرج وبالسماح للبابا بان يملك املاك الكنيسة الزمنية وجعل اوربا تميل دينياً الى فرنسا . واحب ان يترك البوربون مالكين في نابلي بعد ان خانوه مرات كثيرة . لان ذلك يدل انه غير قاصد ادخال الثورات والاضطراب الى بلدان اخرى وكان قادراً على ذلك وعلى قطع النظر عن جميع تلك الصعوبات والموانع . فان اكثر الايطاليان كانوا قد تبعوا قواعد فرنسا السياسية الناشئة عن الثورة وكانوا يلتمسون من نابوليون ان يسمح لهم باسقاط حكوماتهم ويترحبون بالجنود الفرنسوية اينما حلوا ويحسبونهم مخلصين واخوة . ولكن نابوليون ظن ان نشر الثورات في اوربا ليس من الحكمة وانه ليس من المفروض عليه تمكين ملوك اوربا من اجبار فرنسا على قبول دولة ساقطة مبغضة . فالاماكن المار ذكرها التي ضمتها فرنسا اليها والتي اتحدت معها تم انضمامها واتحادها بين سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٠٦

وهذا هو المركز الذي ادركته فرنسا في ذلك الزمان وقال اليسون ان انكلترا كانت تمد ذراعيها التوبتين الى الغرب والشرق وفرنسا كانت تضم اليها اغنى ولايات اوربا واعظمها . فلم يكن سبيل الى اتفاق الدولتين . اما اسباب الخلاف فهي ان انكلترا كانت تفتح بلداناً وقارات وجزائر وتضمها الى مملكتها المتسعة في جميع اقطار العالم في الهند الشرقية والغربية وفي امركا الشمالية والجنوبية وفي اوربا وافريقية واسيا وفي الاوقيانس الاتلنتيك والمحيط والاوقيانس الهندي والبحر المتوسط وسواحل البحر الاحمر وبحر قزبين وكانت تفتخر بان الشمس لا تغيب عن املاكها وعدلت جريدة التيمس الذين استولت انكلترا عليهم بالحروب في الهند بمائة وخمسين مليوناً من الانفس ولم تكتف انكلترا بذلك فعاهدت على مقاومة فرنسا روسيا والنمسا والدولة العلية وبروسيا ونابلي واسوج واسبانيا والبرتوغال وممالك ودوقيات اخرى كثيرة صغيرة . وكانت تملأ الارض بتشكياتها من مطامع نابوليون قائلة انه لا حد لمطامعه مع انها كانت سيدة البحر وسلطانته واعظم في البر من رومية وهي في اوج عظمتها . ولم يضم نابوليون الى فرنسا غير جنوا ووادي البيامونت وبعض اراض في شاطىء نهر الرين اليساري ليجعل ذلك النهر من الاسوار التي تعوق هجمات الاعداء . وقوى امبراطوريته ليتمكن من دفع اعدائها الكثيرين بعقد محالفات قوية بينه وبين مملكة ايطاليا وبافاريا وسويسرا وهولاندة ودول اخرى صغيرة . ومن يعدل اذا قال ان اعمال نابوليون تعديات فانه لم يفعل ذلك الا ليقوي بابه ليحجز اللصوص عن كسره وبلية نابوليون من اسباب

اخرى فان الملوك الذين يعندون الامتيازات الموروثة لم يكونوا يقبلون بان يصافوا الامبراطور الذي كان يعضد الامتيازات المكتسبة . ولو اهمل تقوية مركزهِ لمنع مفعول الحملات بتوسيع حدود فرنسا لسخر بهِ ملوك اوربا المتحدون وهم يرفعون التاج عن راسهِ ولكن ذلك لم يخلصهُ من عواقب رديئة . فبنشر قواعد المساواة وجعل اصدقائهِ حواجز تحجز عنهُ تعديات اعدائهِ اوقع الخوف في قلوب ملوك اوربا فنهضوا بعزم قوي جدًّا قاصدين اسقاط دولتهِ . ولا نقول ان حكومة انكلترا حكومة ظالمة فانها احرّ حكومات الدنيا ولكن امراء الانكليز كانوا يخافون قواعد المساواة التي امست خطيرة جدًّا في فرنسا . وكان الوف من اهلها وفي مقدمتهم قوم من احذق اعضاء المجلس العالي يضجون طالبين اصلاح الامور العمومية . وكانت ايرلاندة قريبة من العصيان ولو تمكن نابوليون من الفرصة الكافية لبذل همهِ العالية وحذقهِ العجيب في تقدم فرنسا في البحر لامست سيادة انكلترا عليهِ في خطر . فارتضت انكلترا المحبة للحرية بان تجعل نفسها رئيسة اتحاد مولف من دول لا يراعون الحقوق العمومية لمضادة حقوق عامة

وقال نابوليون يقال ان الانكليز يتاجرون بكل شيء فلماذا لا يبيعون الحرية فتجد سعرًا عاليًا بدون ان تفرغ بضاعتها . مثلاً لماذا يمتنع الاسبانيول المنكودو الحظ عن بذلهِ للحصول على الحرية التي تخلصهم من النير الذي باتوا خاضعين لهُ بعد ان نجوا منهُ . فانا هو الذي حركت تلك الحاسيات فيهم وربما كانت حكومة اخرى تقدر ان تنتفع من الخطا الذي ارتكبتهُ اما الايطاليان فقد غرست في افئدتهم قواعد لا تخرج منها الى الابد . فما هو اوثق لانكلترا من ان تكون مساعدة لعناصر الاصلاح في هذا العصر ولا بد من ذلك الاصلاح بعد زمان قريب او بعيد وربما كانت الدول والملوك تجتهد ان تحوها ولكن اجتهادها لا يجديها نفعًا . وتجلب على نفسها قصاص سيسيفوس . فالاوفق التسليم الى مجاري الاحوال عن طيب خاطر وكان هذا من مقاصدي فلماذا تمتنع انكلترا عن ان تغتنم الفرص عند سنوحها للحصول على ذلك المجد والنفع اللذين ينتجان عن سياسة مؤسسة على تلك الاساسات . انتهى

وكان نابوليون يعلم ان مركزهُ صعب فكتب الى اخيهِ جوزف بان يشيد في ساحل البحر قلعة قوية وقال لهُ ينبغي ان تخصص خمسة او ستة ملايين فرنك في كل سنة مدة عشر سنوات لعمارة تلك القلعة وكلما صرفت ستة ملايين من الفرنكات تزداد القوة فتكون قادرًا في السنة الثانية او الثالثة ان تحصر نفسك في تلك القلعة العظيمة فلا اعلم انا ولا انت ماذا يحل لنا بعد سنتين او ثلث سنوات . فان الزمان ليس لنا . فان كنت مقدامًا تقدر ان تثبت في مكان كهذا المكان الى ان تتغير الاحوال ويرجع السعد اليك بعد ان يكون قد هجرك . انتهى . وقال في يوم اخر لبعض اصدقائهِ الذين اجتمعوا حولهُ في قصر التويلري وهو في اوج عزهِ ان تقلبات الحياة عظيمة



جدًّا فربما عدَّ ابقي نفسهُ سعيدًا بعد مدة اذا حصل على ستة الاف فرنك سنويًا . انتهى . وثبت عند نابوليون ان اكثر اهالي انكلترا مضادون للحرب واثارتها نتيجة مراعاة صوالح الامراء . فقال لاومرا لم اكن قاصدًا اخضاع انكلترا لفرنسا فلا اقدر على جعل امتين كالامتين المذكورتين المتباينة طباعهما امة واحدة ولو نجحت في الحمل عليها لقلبت الملكية وانشات فيها جمهورية لتكون عوضًا عن السطوة الاميرية التي تحكمكم . وكنت قاصدًا ان افصل ايرلاندة عن انكلترا واتركها وشانها بعد ان ازرع بين اهاليها الاراء الجمهورية . وكنت قاصدًا ان ابقي مجلس العموم بعد ان اصلحهُ اصلاحًا عظيمًا . وقال اليمون هل كانت انكلترا قادرة ان تثبت على الامتناع عن الخروج عن سبيلها بعد ان يعرض لها نابوليون تلك الامور . ومنذ سنين ليست بكثيرة لم يخطر للانكليز ببال انهم يقبلون بان يقادوا الى شيء مثل ذلك ولكن التغييرات التي طرات على افكار العموم منذ سنة ١٨٠٢ وميل الامة الى الاتحاد مع فرنسا والى التغيير يحملنا نحن الانكليز على القول انهُ ربما كان نابوليون عالمًا باحوالنا اكثر مما كنا نحن عالمين بها وربما لا يتيسر لنا الابتعاد عن طغيان قاد امامًا كثيرة واخرجها عن دائرة حبها لوطنها ومعرفة هذه الامور تكدرنا . وكان روح الامة الانكليزية في تلك الايام مضادًّا جدًّا للخضوع لحملة فرنسوية ولكن ربما كان اغراء الجمهورية بالهبات لجذب القلوب قادرًا على التغيير . ولو كان ميلهم الى مضادة فرنسا شديدًا . وظن البعض انهُ يمكن تغيير ذلك الميل عند كثيرين بما هو اشد منهُ بتعليق الامل بالمكافاة . ومن الموكد ان ذلك يغير ميل اكثرية اهالي ايرلاندة . انتهى

وكان في وادي الرين ١٦ اميرًا حاكمين بلدانًا فاتحدوا جميعًا . اما علة اتحادهم فتحريضات نابوليون ودعوا انفسهم اتحاد الرين . اما مجموع اهالي بلدانهم فكان ١٤ مليون نفس . وانتخبوا الامبراطور نابوليون ليكون المحامي عن ذلك الاتحاد . وتقرر فيها كلها حرية الاديان التامة فاتحدوا هم وفرنسا اتحاد دفاع واتحاد هجوم . وتقرر في العهود انهُ عند حدوث حرب تقدم فرنسا للقيام بالقتال مائتي الف جندي وهم يقدمون لهُ ٦٢ الف جندي . اما الخلاف الذي يقع بينهما فيفض بواسطة مجلس . وبعد ان اثبت نابوليون تلك المحالفة للمحافظة على السلام الداخلي بلغ ملك بروسيا بانهُ لا يتكدر بل يسر اذا وضعت بروسيا تحت سطوتها كل الدول الواقعة في شمال المانيا بعقد اتحاد كاتحاد الرين

وقبل هذه الحوادث باثنتي عشرة سنة عاهدت اسبانيا فرنسا على اسعافها عند انتشاب الحرب بجيش من جنودها وباتفاق الدولتين تغيرت تلك المعاهدة وتعهدت اسبانيا بدفع ٧٥ مليون فرنك لفرنسا عوضًا عن تقديم الجيش . فتكدرت انكلترا لما رات ان اسبانيا تسعف عدوتها بهذا المبلغ العظيم حال كونها تدعي الحيادة . فبانت اسبانيا في صعوبة فاذا امتنعت عن دفع المبلغ

تفتح فرنسا الحرب عليها واذا داومت دفع المال تعرض ثغورها لمدافع البوارج الانكليزية . فطلبت انكلترا اليها الامتناع عن ذلك واخذت اسبانيا تنكر وتعتذر وتقيم الحجة . فامرت انكلترا بوارجها سرًّا باسر المراكب الاسبانية التجارية اينما وجدتها بدون شهر الحرب عليها وكانت اربعة مراكب اسبانية مشحونة بضائع ثمينة وفيها ركاب تدنو من قادس احد الثغور الاسبانية فهجمت عليها اربع بوارج انكليزية فشبت نار في مركب اسباني بالبارود وهلك فيهِ مائتان وخمسون نفسًا . وبعد ان غطت الدماء المراكب الثلثة الاخرى اسرت وكان فيها من البضائع ما يساوي اكثر من خمسين مليون فرنك . ومن يحكم بعدالة هذا الفعل

ولما سمعت الامة الانكليزية بذلك هاجت وماجت واضطربت واظهرت من الكدر والغيظ شيئًا كثيرًا فوقعت الحكومة في ارتباك عظيم واخذت تحامي عن تعديها باظهارها لزومهُ وسواغيتهُ . اما مستر فوكس واللورد غرانفيل وكثيرون غيرهم فقالوا ان الحكومة جلبت عارًا على الامة لا يرفع عنها . ولما سمعت اسبانيا بذلك شهرت الحرب على انكلترا . واتحدت البوارج الفرنسوية والبوارج الاسبانية وعددها نحو ثلثين بارجة فلاقتها بوارج انكليزية قدرها بالعدد قبالة راس طرف الغار في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٠٥ بعد تسليم ألم بيوم واحد وقام قتال بحري على قدم وساق وانكسرت بوارج فرنسا واسبانيا واسر الانكليز ١٩ بارجة ونجت تسع بوارج ودخلت قادس بعد ان فعلت الكرات فيها فعلاً ذريعًا . وهربت اربع بوارج الى محلات اخرى واسرت بعد ذلك ببضعة ايام فبادت قوة فرنسا واسبانيا البحرية واصبحت انكلترا سلطانة البحار ولا منازع فانقطع امل نابوليون من الهجوم عليها وانحصر املهُ في دفع حملاتها واضرارها المتواصلة وثبت عندهُ لزوم توسيع دائرة املاكهِ في اواسط اوربا لان كل البحار المتسعة امست في يد عدوهِ . اما نلسون الامير البحري المشهور فقتل في هذه المعركة فاقامت انكلترا لهُ ذكرًا عظيمًا وجعلت شقيقهُ ارلاً وعينت لهُ راتبًا سنويًا مائة وخمسين الف فرنك ومنحت كلاً من شقيقتيهِ ٢٥٠ الف فرنك هبة وقدرها لكل منها لتشتري بها عقارًا . واقامت لهُ نصبًا . وقال المؤرخ اليسون ان انكلترا حاربت في واترلو للفوز بالنصر اما في طرف الغار فقاتلت للفوز بالبقاء

وتسليم جيش المتحدين في ألم وانتصار نابوليون في اوسترلتس جعل الناس ينسون انتصار الانكليز البحري في طرف الغار فان صدى تلك المعركة البحرية غاص في الاوقيانوس المضطرب المتسع حال كون صدى مسير جيوش نابوليون المنتصرة زلزل كل عاصمة في اواسط اوربا . اما وليم بت وزير انكلترا الاول فمات بعد ان ادرك السبع والاربعين سنة . ودعي مستر فوكس بغلبة الراي العام الى منصب الوزارة الانكليزية الاول . فالتزم ملك انكلترا بان يسلم امرهُ الى راي وزيرهِ الجديد الذي كان صديق نابوليون وكان كل منهما يدهش بحذق الاخر وكانت عامة



الانكليز تميل الى المصالحة . والامراء المقتدرون كانوا جميعًا يميلون الى الحرب . وسر نابوليون سرورًا عظيمًا بهذا التغيير وعلق امالهُ بتوطيد السلم . وبعد ان تقلد فوكس الوزارة الانكليزية بزمان قصير اتاهُ احد الاشرار وقال انهُ يقتل نابوليون . فغضب جدًّا وامر بالقبض عليهِ وبسجنهِ وكتب الى الحكومة رسالة ناتجة عن كرامة الاخلاق وبين فيها غيظهُ من ذلك الرجل وعرض على حكومة فرنسا بان تجعلهُ تحت امرها . فلما عرف نابوليون بذلك حال كونهِ لم يكن متعودًا هذه المعاملة الجيدة تحركت عواطف الشهامة في فوادهِ وقال هذا ما اعهدهُ من مبادىء الناموس والشهامة والفضل التي طالما اختلجت بصدر مستر فوكس فاشكروهُ عني وقولوا لهُ انني قد سررت بالسبيل الجديد الذي مالت الحروب اليهِ اذا ساقتهُ سياسة ملكهِ الى اطالة الحرب او اذا تمكنت الامتان من ان تجعلا لها نهاية سريعة حال كونها غير موافقة لحقوق الانسانية . وهذا ما يحق لنا ان ننتظرهُ من وزارة اسر بان احكم بما هي عليهِ قواعدها بمعرفة قواعد مستر فوكس . وهو اقدر الرجال على الشعور بما هو صالح وعظيم . فبلغ موسيو تاليرند هذه العبارات الى وزير انكلترا فاجاب بالحال طالبًا عقد الصلح بصريح العبارة فسر نابوليون جدًّا لانهُ كان يحب ان يصافي انكلترا من صميم فوادهِ فقبل بذلك بملاطفة ووداد

وكانت الاحوال قد بلغت مبلغًا صعبًا . وكان سلطان نابوليون نافذًا جدًّا ففرنسا لم تكن تتردد عن قبول ما يستحسنهُ امبراطورها ولكن مستر فوكس وزير انكلترا الاول كان محاطًا بمجلس عال فيهِ كثيرون مضادون لهُ . فان حزب التوريز الانكليزي كانوا يطلبون الحرب . وكانت انكلترا قد فتحت مهاجر كثيرة من مهاجر فرنسا ورامت المحافظة عليها وكانت فرنسا قد ضمت اليها اماكن كثيرة في اواسط اوربا ورفعت قوتها الى درجة عالية والحكومة الانكليزية تطلب باصرار تركها كلها . وكانت انكلترا تود ان تكون معمل كل العالم وكل اسواقهِ لمصنوعاتها وان تكون بوارجها سائدة . وكان نابوليون راغبًا جدًّا في عقد الصلح على انهُ لم يكن يرتضي بان تبيت فرنسا خاضعة لانكلترا واراد ان تفوز المصنوعات الفرنسوية بالصيانة اللازمة . فبلغ مستر فوكس الكلام الاتي بواسطة موسيو تاليرند . وهو ان فرنسا لا تنازع انكلترا الفتوحات التي فتحتها ولا تطلب ان يكون لها في اواسط اوربا اكثر مما لها الان . فيسهل وضع اساس للصلح ما لم تطلب انكلترا ما لا يمكن التسليم بهِ مما يتعلق بصوالحها التجارية . وثبت عند نابوليون ان السبب الحقيقي للحرب بعد صلح اميان هو تمنع انكلترا عن انفاذ شروط المصالحة فالامبراطور لا يمتنع عن قبول بعض امتياز تجاري اذا كان ذلك ممكنًا . ولكن لا يقبل بعقد معاهدة مضرة بالصناعة الفرنسوية لانهُ صمم على صيانتها بكل الرسومات والموانع التي من شانها ترقية اسباب تقدمها ويطلب ان لا يعارض فيما يجريهِ في بلادهِ وان يقوم بكل ما هو نافع بدون ان

يكون لامة مناظرة حق الانتقاد . انتهى

ويسر الاطلاع على المخابرات الناشئة عن كرامة الاخلاق التي كانت تجري بين ذينك الرجلين العظيمين وكان مستر فوكس يبعث مع كل رسالة رسمية كتاباً خصوصياً يدل على الصداقة والملاطفة وصفاء الباطن وكان موسيو تاليرند يقتدي بنابوليون . وكان الانكليز قد اسروا في بداية الحرب كل الفرنسويين الذين وجدوهم في البحار وفرنسا منعت كثيرين من اعظم العيال الامبراطورية عن الخروج منها فطلب مستر فوكس اطلاق سبيل كثيرين منهم بعد ان يتعهدوا بان لا يحاربوا فرنسا فارسل نابوليون اليه بجميع الذين طلبهم بموجب دفتر كتب اسماءهم فيه . فبادر مستر فوكس الى اطلاق كثيرين من الفرنسويين المشهورين الذين اسروا في معركة طرف الغار وكان عددهم قدر عدد الذين ارسلهم نابوليون اليه من الانكليز

ومن الاسباب المانعة لعقد الصلح استيلاء نابوليون على مملكة هانوفر عندما فتحت الدول الحرب الاخيرة على فرنسا وكان ملك انكلترا ملكاً لهانوفر وهي بلاد كان فيها مليون ونصف من الانفس . ولما عقد صلح برسبرج بعد معركة اوسترلتس سمح نابوليون لبروسيا بان تستولي على تلك البلاد . وكان الانكليز يطلبون ترجيعها مراعاة لناموسهم . وكانت بروسيا تمتنع ولم يكن سبيل الى عقد الصلح . ومع ذلك صمم نابوليون على ترجيعها الى انكلترا وعلى اعطاء بروسيا بلاداً اخرى عوضاً عنها . واثناء تلك المخابرات مرض مستر فوكس ومات فدفن سلام العالم معه فان قوماً راغبين في الحرب تقلدوا المناصب الانكليزية وانقطع الامل من عقد الصلح فاخذ الوزراء الانكليز يلقون الموانع في سبيله وفي برهة قصيرة خرج السفراء الانكليز الذين كانوا في باريس يقومون بالمخابرات . وقال مستر ايرلاند لا ريب في ان تعليق الوزراء الانكليز املهم بفتح حرب جديدة حملهم على ان يأتوا بالموانع التي اتوا بها . وسر رجال المالية في انكلترا بوقوع الخلاف سروراً شديداً

وعلم نابوليون ان موت مستر فوكس من اعظم المصائب التي حلت به وقال ان سنة رجال كفوكس وكورنوالس كافون ليقرروا عناصر الاداب في امة فانني اتفق على الدوام مع رجال كاولئك الرجال لنفي اسباب الخلاف بسرعة . ولو تم ذلك لتمكنت فرنسا من ان تسالم امة تستحق الاعتبار ولتمكنا من ان نقوم باعمال عظيمة بالتكاتف . وكانت شهرة مستر فوكس تشهد بحذقه وذكائه فوجدته ذا سجايا حسنة وباطن صاف ومبادىء حرة وكرامة اخلاق . فتقرر عندي انه زينة الجنس البشري فاحببته جداً . وقال ان موت فوكس من اعظم مصائبي فلو اطال الله حياته لجرت الامور في مجار اخرى فان صوالح الشعب تسود به وكان ذلك كافياً ليجعلنا نغير احوال اوربا



# الفصل الحادي والثلثون

## حروب وانقلابات

وعقدت انكلترا وبروسيا اتفاقاً لمحاربة نابوليون بدون مسوغ . وكان نابوليون يفرغ جهده في سبيل ترقية صوالح فرنسا وكان محتاجاً الى السلام ليتمكن من انفاذ مقاصده النافعة . ولما فاز بالنصر العظيم رفق بالمغلوبين . وكان ينبغي ان تخجل منه الدول التي كانت تجاهر بعدوانه . ونشر جملة في جريدة المونيتور قوتها تدل على انها من قلمه فالخمت الناس فلم ترد عليها الدول الا باصوات المدافع والبنادق . وهي لماذا تضرم نيران حروب بين فرنسا وروسيا وكل منهما مستقلة عن الاخرى وهما ضعيفتان في القيام بما يضر ولكنهما قادرتان على الخير ولامبراطور فرنسا سلطان نافذ في ايطاليا كما لامبراطور روسيا في ايران وفي الممالك العثمانية . واذا ادعت وزارة روسيا بحق وضع حد لسلطان فرنسا تكون راضية بجعل امبراطور فرنسا يضع حدوداً لا تتجاوزها روسيا . وقد ضمت روسيا بولونيا فكيف تتشكى لان فرنسا مالكة بلجيكا وشواطىء نهر الرين اليسارية . وقد استولت على القرم والقوقاس وولايات ايران الشمالية . فهل تقول انه لا يحق لفرنسا للمحافظة على نفسها ان تطلب في اوربا ما يوازي ذلك . فلتبادر كل دولة الى ترجيع البلدان التي فتحتها في السنين الخمسين الماضية مع ارجاع استقلال بولونيا وارجاع البندقية الى مجلسها وترينيدار الى اسبانيا وسيلون الى هولاندة والقرم الى الباب العالي والقوقاس وكرجستان الى ايران ومملكة ميسور لابناء تيبو صائب وبلاد المهراتة الى اصحابها وعند ذلك يحق للدول ان تطلب الى فرنسا ترجيع البلدان التي فتحتها والرجوع الى حدودها القديمة . ومن العادة التكلم على مطامع فرنسا فلو ارادت ان تحفظ فتوحاتها لنفسها لكان نصف النمسا لها وبلاد البندقية وهولاندة وسويسرا ومملكة نابلي . وحدود فرنسا الحقيقية هي الادياج والرين . فهل تجاوزت حدها ولو استولت على سويسرا ودرافا لما تجاوزت حدود فتوحاتها

ولما كان نابوليون يحاول ان يحيط بالجنرال ماكر في معركة ألم التزم بارسال بعض جيوشه الى مكان لا يقدرون ان يصلوا اليه الا بقطع ولاية صغيرة اسمها ولاية انسباخ وهي من املاك بروسيا فكتب نابوليون الى برنادوت الذي كان مسلماً قيادة الفرق التي قطعت تلك الولاية بانك ستقطع ولاية انسباخ فتجنب الاقامة فيها . وافعل كل ما تقدر ان تفعله لارضاء البروسيين واظهر اهتماماً

عظيماً بصوالحها . وداوم المسير معتقداً انك لاتقدر ان تستغني عن المرور فيها وهذا هو الواقع . انتهى

وعند ذلك بعث بالمارشال الاكبر دوروك الى برلين ليخبر ملك بروسيا بالمركز الصعب الذي بات فيهِ من هجوم عدد غفير عليهِ بواسطة اتحاد دول عظيمة بدون ان تشهر الحرب ويبين لهُ كدرهُ من مسير بعض جنودهِ في بلاد بروسية وان يعتذر بان ذلك ضروري . اما ملك بروسيا فلم يقبل اعتذاره قبولاً يدل على انهُ لم يبقَ كدر في قلبهِ وكانت الامة مائلة الى الحرب وفي مقدمتها الملكة . فقالت بصريح العبارة ان ذلك اهانة لاتتخلص بروسيا من نتائجها الا بالسيف . وجعلت بروسيا ذلك واسطة للتشكي من فرنسا

وكان في اوربا قوتان متضادتان وهي قوة الحكام وقوة المحكومين اي الامراء والشعب . وكان فوز نابوليون فوز حقوق الشعب . اما امبراطور روسيا فكان في عنفوان الشباب شديد المطامع كثير الافتخار بالملايين التي لاتحصى الخاضعة لهُ فاحب ان يفعل ما ينسي الناس انكسارهُ العظيم في اوسترلتس . وكانت بروسيا مفتخرة بمجدها الحربي الماضي مهيجة تحريضات ملكة شجاعة فصممت على محاربة ذلك المنتصر العظيم لترى ايهما اقوى . وكانت انكلترا مشتغلة بسياسة اسكرتين ومع ذلك كانت تصرخ قائلة لاحد لمطامع نابوليون

وكان عدد جيوش بروسيا نحو مائتي الف جندي فسارت قاصدة الهجوم على فرنسا ودخلت قلب سكسونيا . وكان فردريك وليم قائد تلك الجيوش والزم ملك سكسونيا بان يتحد معهُ . وقال لهُ انا نحامي عن حقوق الملوك القانونيين فعلى كل الملوك ان يتحدوا معنا . اما امبراطور روسيا فجمع جيوشهُ وسار مسرعاً قاصداً قطع فيا في بولونيا في مائتي الف رجل لينضموا الى الجيوش التي كانت حاملة على باريس . وكانت انكلترا وبوارجها التي لاتغلب تنزل الويل والهوان على كل مكان معرض لها وهي تجتهد بسلطانها السياسي وذهبها بان تجعل الدول متحالفة على فرنسا

ولما راى نابوليون هذه البلايا الجديدة تكدر جداً فانهُ كان قد تخلص من حرب عظيمة وعامل اعداءهُ بكرامة اخلاق وعلق املهُ بالتمتع بسلام دائم وراى انهُ لايكاد ينتهي من تشتيت شمل اتحاد حتى يعقد اخر . ولم يكن من الذين توثر الاكدار فيهم فتربط ايديهم وتشغل افكارهم عن التدابير فبعد ان ظهر كدرهُ نهض متاهباً للحرب الجديدة وكتب الى اخويهِ في هولاندة ونابلي قائلاً لا تضطربوا فان الحرب الحالية تنتهي بسرعة وسنبدد شمل بروسيا والمتحدين معها مهما كانوا وفي هذه المرة اقرر امري في اوربا نهائياً واجعل اعداءي غير قادرين على ان يتحركوا عشر سنوات . انتهى

ثم صرف ٤٨ ساعة برسم الهجوم وينظم الاحوال ثم صرف يومين في نص الرسالات فكتب



نحو مائتي رسالة لاتزال موجودة وستبقى الى الابد اجمل برهان على اصابة سياستهِ وحذق تدبيرهِ السياسي والحربي . وفي ستة ايام ارسل جيش الحرس الامبراطوري من باريس الى الرين وكان يقطع بالعجلات ٦٠ ميلاً في اليوم وعند منتصف الليل من ٢٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٠٦ ركب عجلة ومعهُ جوزفين وسار من قصر التويلري قاصداً الانضمام الى الجيش لينقلد قيادتهُ ولم يكن عالماً لماذا يحارب ولا ماذا تطلب الدول فقبل ان سافر كتب الى مجلس الشيوخ ان هذه حرب عادلة من جهتنا فاننا لم نأتِ بها بعمل ولا بادعاء ولا نعلم بعلتها ولا ننقلد السلاح الا لندافع عن انفسنا فاستنادنا في هذه الظروف انما هو الى القوانين والى الشعب الذي تدعوهُ الاحوال الى الاتيان ببراهين جديدة تثبت شجاعتهُ وحبهُ لوطنهِ . انتهى

وكتب ايضاً ان ملكة بروسيا هي مع الجيش لابسة ملابس الامازون وملابس فرقتها الدراغونية الرسمية وهي تكتب عشرين مكتوباً كل يوم لتجعل الويل ممتداً في كل جهة . فكاننا نرى ارميدا في جنونها تحرق قصرها بيدها ويتبعها البرنس لويس البروسي وهو شجاع قد بروح التحزب موملاً اكتساب شهرة عظيمة بالحرب وقد اقتدى البلاط البروسي بهما فاصبح يصرخ هلموا نقيم الحرب . ولكن حين تدركهم الحروب وبلاياها وهولها يحاولون ان يثبتوا انهم لم يكونوا سبب الاتيان بمدافعها الى سهول الشمال المستريحة . انتهى

وافترق نابوليون عن جوزفين في ما ينس وبكت حتى تغلبت دموعها عليهِ فظهرت فيوا ثار الشفقة التي يتشرف القلب بها . وقاد جيشهُ محيراً البروسيين بحركاتهِ وتدبيرهِ وفي ايام قليلة جمع كل قوتهِ في موخرتهم وقطع عنهم كل ذخائرهم وزادهم وسد عليهم خط الرجوع وتاكد الفوز وكان يرغب في حجب دماء العباد لانهُ كان شفوقاً فكتب الى ملك بروسيا بما ياتي

انني في قلب سكسونيا فتاكد ان قوتي لاتمكن جيشك من ان يثبت في القتال برهة طويلة فلماذا نريق دماء كثيرة ما هو المقصود . لماذا تجعل بعض رعايانا يقتل البعض الاخر . انني لاافرح بالنصر الذي ابذل دماء كثيرين من اولادي بالفوز بهِ . ولو كنت مبتدئاً في الحروب واري ما يحملني على الخوف من الانكسار لكان هذا الكلام في غير محلهِ . فيامولاي ان جلالتك ستغلب فتكون قد كدرت راحة حياتك ورعاياك بدون داعٍ . اما الان فانك لم تُغلب وتقدر ان تخابرني مخابرة موافقة لمقامك . وقبل مضي شهر ستخابرني على انك ستكون في غير ما انت عليهِ الان . واعلم انني ربما اهيج قبلك بهذه الكتابة الحاسيات التي تختلج في صدر كل ملك غير ان الاحوال تدعوني الى اظهار كل شيء . فاتوسل الى جلالتك بان لاترى في هذا الكتاب غير قصد واحد وهو رغبة شديدة في حجب دماء العباد ياسيدي ويا اخي اني اطلب الى الله ان يحفظك بعنايتهِ المقدسة (التوقيع)

اخو جلالتكم النصوح

نابوليون

ولم يرد جواب على هذه الرسالة التي اعطيت لقائد بروسي ويقال انها لم تصل الى يد الملك الا في صباح يوم معركة جينا

وبعد ان سار نابوليون في طليعة جيشهِ يومين اشرف على جيش البروسيين الجرار المحصن في حقول جيناواورستات وذلك في مساء اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الاول (اكتوبر) وكان الجو صافيًا ونور الشمس يبهر العيون بوقوعهِ على اسلحة مائة الف رجل وكان في السهل ١٨ الف فارس بالخوذ من اشد الفرسان وثلثمائة مدفع من المدافع الكبيرة في صفوف حربية تعجز عن تصور فعلها المهلك . وكانت طليعة البروسيين في اللاندكرافنبرج وهي اكمة مرتفعة ظن القوم ان المدافع لا تبلغ قمتها . فطردهم نابوليون حالاً منها واستولى عليها . وكانت ترى من اعلاها صفوف جيوش بروسيا ممتدة اميالاً كثيرة . ولم يشاهد منها سهل اورستات وبينهما ١٢ ميلاً ولم يكن نابوليون عالمًا بان جيشًا قويًا من البروسيين نازل فيها . وعندما خيم الظلام اضرم البروسيون نيرانهم مساحة في ٨ اميلاً فانارت الفضاء . فارسل بردًا فرنسوية لتعجيل مسير بقية الجيش الفرنسوي للابتداء بالحرب عند شروق الشمس . وكان نابوليون يهندس بنفسهِ طرق اصعاد المدافع الى قمة الاكمة . ويقوي الرجال على الاشغال الشاقة ويسعفهم بيديهِ في تكسير الصخور وتمهيد الطرق فاشتدت عزائمهم واشتغلوا بقوة واجتهاد حتى تغلبوا على الصعوبات التي حكم البروسيون ان التغلب عليها ضرب من المحال . وبعد تمهيد الطريق اسعف نابوليون الجنود في اصعاد مدفع الى القمة وتركهم يتمون العمل . واشتغلوا الليل بلا راحة وقبل طلوع الفجر تمموا وضع صفوف من المدافع في القمة المذكورة

وكانت فرق الجيش الفرنسوي تبلغ تلك المواقف بالتدريج وكل فرقة منها تحتل المكان الذي عينهُ ذلك القائد الحاذق العارف وتنام على الارض وامر نابوليون الجنرال سولت والجنرال نى بان يسهرا الليل بطولهِ ليمنعا البروسيين عن التهقر . وعند منتصف الليل بعد ان اتم الترتيب للقتال في الصباح دخل خيمتهُ وجلس مستكًا يكتب نظامًا لمدرسة البنات التي كانت تحت ادارة مادام كامبان . واعمال كهذه تدل ان قوى نابوليون العقلية والجسدية كانت فوق العادة وكان يقوم بها بلا تكلف ولا تصنع لاقتدارهِ في كل الاحوال على ان يحول افكارهُ من اعظم الاعمال الى اعمال اخرى خطيرة او غير خطيرة بدون اضطراب افكارهِ . وكل ما قام بهِ لاصلاح احوال فرنسا اجراهُ في اوقات قصيرة . لان اوربا لم تمكنهُ من خلع السيف عنهُ وقال ان فرنسا في احتياج الى شيء خطير ليتم اصلاحها وهو ان يكون فيها امهات فاضلات . وكان يهتم في ترقية راحة فرنسا وتقدمها ونجاحها وسعادتها ولم يذهب ليقوم بحروب جيناواورستات الا بتعدي اعدائهِ الذين ساقوهُ اليها على غير ارادتهِ بعد ان دعوهُ مختلسًا وحاولوا خلعهُ من عرش الملك



وعند نصف الليل نام على الارض ليستريح ساعة كجنودهِ وكان الدخان الكثيف كدائرة يصعد من نيران حراس الجيش البروسي الجرار المضرمة على مسافة طويلة وكادت تحيط بجيشهِ وكان الهواء يهب بعنف في قمة ذلك التل المرتفع . وكان بعيدًا عن بيتهِ وعلم ان بقاء امبراطوريتهِ متوقف على نتيجة القتال في الغد فان انكلترا وروسيا وبروسيا وهي اقوى ممالك الدنيا اتحدت ضدهُ . فاذا انكسر تبادر النمسا واسوج وسائر الممالك الصغيرة الى الهجوم على امبراطوريتهِ وقلب عرشهِ . وفي تلك الساعة وردت عليهِ رسالات خطيرة جدًا فنهض وقراها بنور النار المشبوبة ومؤداها ان الدولة البوربونية الاسبانية رات بانكسارها في معركة طرف الغار البحرية ان اتحادها مع انكلترا اسلم عاقبة من اتحادها مع فرنسا وانها ادعت بصداقة نابوليون وهي تعاهد انكلترا سرًا . ولما رات انهُ خرج من فرنسا علقت املها بفوز البروسيين عليهِ فاستعدت لاجتياز جبال البرانس بجيوشها لتهجم على مؤخرتهِ بالاتحاد مع انكلترا وهذه خيانة . ولم يكن نابوليون من المغفلين فهذه الاخبار بينت لهُ انهُ لا يستامن على نفسهِ ما دامت الدولة البوربونية سائدة في اسبانيا فانها تستغنم الفرص لتهجم عليهِ وهو في غفلة ولما طوى الرسالات المذكورة قال بسكينة وهدو سابدل البوربون في اسبانيا بامراء من عائلتي . ثم لف نفسهُ بثوبهِ ونام على الارض جاعلاً رجليهِ قرب النار ونام براحة كانهُ في سرير الامبراطورية في قصر سان كلو

وفي الساعة الرابعة بعد نصف الليل ركب فرسهُ . وكان ضباب كثيف مغطيًا السهول حاجبًا الجيش البروسي عن الفرنسويين . ففي ظلام الليل تحت الضباب الكثيف رتب جيشهُ للقتال وكان كلما مر بصفوف الجنود يضجون بفرح قائلين فليعش نابوليون . وكانت العساكر ترتجف من شدة البرد ومع ذلك صبرت ساعتين واقفة بالصف الى ان صدر الامر بالهجوم في الساعة السادسة فحملوا صفوفًا كانها بنيان مرصوص ينتقل في الصباح قبل ان تغلب النور على الظلام وخرقوا صفوف البروسيين من كل جانب وحدثت امور تقشعر منها الابدان ولا تقدر الاقلام ان تقوم بوصفها فانها حوادث ويل وهوان وعذاب وشرور واستمر القتال ٨ ساعات والجنود كانها شياطين تلتقي ثم تنفصل فانها جنود علها القتال نابوليون وفردريك الكبير البروسي فغطت جثث القتلى الارض وصراخ الجرحى الذين كانت تدوسهم حوافر الخيول وحملات الفرسان وضجيجهم وهم يدوسون اعداءهم كانت اصوات مهيجة محزنة تغلب اصوات المدافع والبنادق وحوافر الخيل غير المنقطعة . وكان الانتصار يميل تارة الى جهة وطورًا الى الاخرى . وعند الظهر راى القائد البروسي ان الفوز لهُ فبعث بالامر الاتي الى احد قواده وهو ارسل كل الجنود الذين معك الى اهم المواقف فاننا كسرنا العدو في كل جهة وقد اخذت فرساني بعض مدافعهِ . انتهى . وبعد ذلك بساعات قليلة بعث بالرسالة الاتية الدالة على اضطرابهِ الى قائد جيشهِ الاحتياطي

قائلاً لا تضع دقيقة واحدة بل تقدم بجيشك الذي لا يزال غير مكسور ورتب صفوفك لتتمكن فرق الحرب المكسورة من المرور فيها فكن مستعداً الان تثبت عند هجوم فرسان الاعداء عليك فانهم يحملون حملات اسود ضارية ويوقعون الاضطراب في الجنود المكسورين وقد جعلوا المشاة والفرسان وجنود المدافع جيشاً واحداً مضطرباً مرتبكاً هارباً . انتهى

وفي وسط تلك الحوادث خرج الجيش الاحتياطي وقدرهُ عشرون الف جندي وتقدم بثبات واظهر نفسهُ في وسط الجيش الجرار المنكسر قاصداً ترجيع الترتيب وظهر في اثناء ذلك انهُ منع الجيش عن الفرار . وكان نابوليون واقفاً على تلك القمة ولوائح الهدو والسكينة والثاني تلوح على وجههِ وهو يناظر على ميدان الحرب ويدبر بحذقهِ القتال . وكان قد اوقف جيش الحرس الامبراطوري احتياطاً ليستعملهُ اذا مال النصر الى جهة العدو وكانت جنودهُ واقفة تنظر الى القتال ونار الحماسة الفرنسوية والحمية تتاجج في احشائها فانها كانت تود الاشتراك في القتال . وبعد ان طال وقوفهم وفرغ صبرهم سكر احدهم وهو جندي شاب بشدة الهيجان الذي استحوذ عليهِ من النظر الى القتال بدون ان يشترك فيهِ فصرخ على غير انتباه هلموا نهجم . فنظر نابوليون اليهِ نظرة موبخ وقال من هو هذا الفتى الذي لم ينبت الشعر بوجههِ ومع ذلك يشير على امبراطورهِ فليصبر الى ان يقود الجيوش في ثلثين معركة كبيرة قبل ان يبدي مشورات حربية

وجرى ذلك عند الساعة الرابعة بعد الظهر وراى نابوليون انهُ قد حلت الساعة المودية الى النصر او الى الكسر . فامر مورات بان يهجم على الاعداء الذين كلت ايديهم من القتال وتعبت اجسامهم وكثرت جراحهم باثني عشر الفاً من الفرسان الذين كانوا مستريحين لانهم لم يقاتلوا قبل ذلك وكل منهم بطل صنديد . وعند هجومهم ارتجت الارض من ركض الخيل وصهيلها وصوت حوافرها كهزيم الرعد فخال الناس ان الارض تزلزلت بهم او كادت تمور تحت ارجلهم فحملوا بسيوفهم وحرابهم الويل والهلاك الى جيش الاعداء فتبدد شمل الجيش البروسي وبالحقيقة ان الانسانية تستر عينيها لئلا ترى ما يجري في احوال كتلك الاحوال لان القتال تحول الى مذابح والجيش المنكسر خسر كل نظام وترتيب وركن الى الفرار حال كون مدافع نابوليون كانت تدفع كلها المهلكة الى وسط جماهيرهم المزدحمة الاقدام وبنادقهم كانت تفني صفوفاً بانت بدون نظام . هذا واثنا عشر الف فارس كلاسود الكاسرة راكبين خيولاً غير متعبة يدوسون الرجال وسيوفهم تقطر دماً بل كان الدم يجري غزيراً منها . وكان اولئك المنكودو الحظ يحاولون النجاة بالهرب ولكنهم وجدوا كل الطرق مسدودة دونهم بحذق ذلك المنتصر المخيف وتدبيرهِ حتى انهم كانوا يسيرون فارين برهة الى ان يصدوا فيعودون من حيث اتوا بفرائص مرتعدة وبعضهم يدفع البعض الاخر صابغين الارض بدمائهم



وكانت هذه الحوادث تجري في جينا وحوادث مثلها تجري في اورستات بين الفرنسويين والبروسيين وهو مكان يبعد عن جينا ١٢ ميلاً فقط . وكان الفارون من البروسيين في المكانين يتلافون ويسد بعضهم المهارب دون البعض الاخر والرصاص والكلل المحشوة وغيرها تقع بينهم كانها برد قاتل او صواعق مهلكة . فاشتد الخوف في قلوبهم وكثر الاضطراب بينهم حتى استحوذ اليأس عليهم فاخذوا يطرحون اسلحتهم ويتركون مدافعهم وخيولهم وذخائرهم وعجلاتهم ويطلبون الفرار في كل الجهات غير مراعين الطرق ولا طالبين جهة وطنهم بل محاولين الخلاص من ذلك الهلاك العظيم . على ان مورات كان في وسطهم ومعهُ ١٢ الف فارس حتى انهُ فرش الارض بجثث قتلاهم . وهجم الظلام على نور النهار ولم يات المكسورين بفرج فان نابوليون لم ينفك عن مطاردة الجيش المنكسر ولم يمكنهُ من الراحة دقيقة واحدة فان الهاربين وجدوا كل الطرق مسدودة وكاد ملك بروسيا يبيت ماسوراً في اضطراب ذلك الكسر العظيم فانهُ هرب من ميدان الحرب في اورستات ومعهُ بعض رفاقهِ فالتزم ان يثب بفرسهِ فوق حواجز حقول ومجاري مياه ويقطع في ظلام الليل غابات وحقولاً فانهُ كثيراً ما سار خارج الطرق ولم يتمكن من الوصول الى مكان امين الا بعد نصف الليل بساعة بعد ان احتمل مشقات كثيرة من المسير خارج الطرق

وخسر البروسيون في ذلك اليوم المخيف عشرين الف قتيل وجرح واسر عشرون الفاً منهم وقام نابوليون بما طالما قام بهِ في احوال كهذه اي انهُ بعث بقوادهِ ليطاردوا الجيش المنكسر وصرف هو الليل في ميدان القتال بنقل الجرحى وبخفف ويلاتهم بالاعتناء بهم حتى انهُ كان يسقيهم بيدهِ ويخفف ضيقاتهم بتعزياتهِ فكان ثباتهُ كالجبال الراسخة وقلبهُ كقلب الوالدة فيفرغ جهدهُ في كل حال في سبيل الاعتناء بهم وتخفيف مصائبهم . وفي الصباح بعث دوروك الى مستشفيات جينا المملوءة بالجرحى ليبلغ كل جريح كلام تعزية من قبلهِ وليوزع مالاً على المحتاجين وان يوكد للجميع انهم ينالون مكافاة عظيمة . وبعد ان قرا مكتوب الامبراطور لاولئك المنكودي الحظ نسوا اوجاعهم وضجوا قائلين فليعش الامبراطور . ومع ان الدم كان لا يزال يجري من جراحهم الملتهبة واوجاع عظامهم المكسرة يكل القلم عن وصفها قالوا اننا نتمنى ان نشفى لنبذل انفسنا مرة اخرى في سبيل خدمتهِ . وكان نابوليون كريم الاخلاق يعطي كل ذي حق حقهُ من المدح بدون ان يحاول ان ينسب اعمال غيرهِ الى نفسهِ لا بل كان يعطي الاخرين من حقهِ ولذلك كافى المارشال دافوست قائد الجيش في اورستات مكافاة تستحق كل مدح وذكرهُ في تقريرهِ الرسمي المتعلق بتلك المعركة وقال ان جيش المارشال دافوست كان في يمننا وقام باعمال عجيبة فانهُ لم يكتف بصد العدو ولكنهُ طارد اكثر جيشهِ اكثر من ٧ اميال واظهر ما لا يوصف من الشجاعة والثبات

وهما من اهم الصفات اللازمة للجندي . انتهى

وجعلهُ دوقًا لاورستات . وجعل لهُ مكافاة اخرى خطيرة وهي منح حق الدخول قبل الجميع الى قاعدة بروسيا وهي برلين ففاز بالاسبقية على مراى من كل الجيش . و بعد ذلك باسبوعين جمع قوادهُ وكلمهم بما يدل على اعتبارهِ الشديد لهم واستحسانهِ العظيم لاعمالهم . فتقدم المارشال دافوست وقال لهُ يامولاي ان جنود الجيش الثالث تكون لك في كل حال كما كان الجيش العاشر لقيصر الرومان . انتهى

وبعد تلك المعركة بادر الى اتخاذ الوسائل اللازمة ليتم انتصارهُ بحذق ونشاط وهمة لم يسبقهُ احد الى مثلها وفي اقل من ١٤ يومًا فاز على بقايا الجيش البروسي واستولى على كل قلعهم . اما الملك الهارب فسار الى حدود روسيا منتظرًا دنو جيوش اسكندر امبراطور روسيا . وهكذا وقعت المصائب على بروسيا فتحيرت الدنيا ودهشت . ولم تسقط دولة الا في النادر بالسرعة التي سقطت بها الدولة البروسية فان نابوليون قام بذلك اجمع في مدة شهر منذ خروجهِ من باريس وكانت تلك الحوادث غريبة فانهُ افنى جيشًا عددهُ مائتا الف جندي بالقتل او الاسر وتبديد الشمل واستولى على حصون كثيرة كان يظن انهُ لايتيسر لاحد ان يدخلها بعد ان حصنت ببذل اموال في قرون كثيرة وفي نهاية تلك المدة تمكن نابوليون من ان يستريح في عاصمة بروسيا في قصر ملكها . فلما سمعت اوربا بهذه الاخبار تعجبت ووقعت في الياس فان تلك الحوادث تشابه الحكايات الكاذبة . وقال الامبراطور اسكندر اننا بالهجوم على ذلك الرجل (اي نابوليون) كاولاد يهجمون على جبار

والزمت بروسيا ملك سكسونيا بان يتحد معها في محاربة فرنسا . وكانت حالة الدول الصغيرة في تلك الحروب ردية جدًّا لالتزامها بالاتحاد مع دولة دون اخرى وتمكن نابوليون من ان ياسر كثيرين من السكسونيين . وفي اليوم الثاني بعد معركة جينا جمع الضباط الماسورين منهم في قاعة من المدرسة في جينا وعزاهم وسلاهم وقال لا اعلم لماذا تضرم نيران الحرب بيني وبين ملككم وهو رجل حكيم محب السلام ومستحق للاعتبار وانا احب ان ارى بلادكم مخلصة من استنادها الى بروسيا فان ذلك دل عليها . فلماذا يحارب السكسون الفرنسويين بدون داعٍ ولا مسوغ . اما انا فساظهر برهان ميلي الحبي باطلاق سبيلكم جميعًا وبالعفو عن البلاد السكسونية ولا اطلب الا ان تتعهدوا بانكم لاتنقلون السلاح في ما ياتي لمضادة فرنسا . انتهى

فدهشت الضابطة السكسون باستماع ذلك الكلام الناشيء عن كرامة الاخلاق من ذلك الرجل العجيب فتعهدوا بفرح بان لاينقلدوا السلاح في مضادتهِ وساروا الى درسدن بعد ان قالوا انهم في ثلثة ايام يعودون اليهِ بتاكيدات حبية من ملكهم



اما منتخب هس اي صاحبها فكان من ادنى الناس واظلم الملوك وكان عدد جيشهِ ٢٢ الف رجل فافرغ جهدهُ في فتح الحرب وكان يخدم الانكليز مع انهم كانوا يحتقرونهُ . وكان امبراطور روسيا يسير بسرعة في سهول بولونيا ليجرب نفسهُ مرة اخرى في محاربة الفرنسويين . فصمم نابوليون على ان يلاقيهُ في منتصف الطريق . ولم يكن يستامن على نفسهِ اذا ترك وراءهُ جيشًا كجيش منتخب هس الخائن الذي لايقوم بعهودهِ . ولذلك فوض الى المارشال مورتيه القول ان منتخب هس فصل عن الملك وان يستولي على املاكهِ باسم فرنسا وان يصرف جيشهُ

وكان الغراندوق دوويمار قائد بعض الجيش البروسي وكانت امرأتهُ شقيقة الامبراطور اسكندر الروسي فافرغت جهدها في سبيل ايقاد نيران الحرب فدخل نابوليون ويمار وهي مدينة مرتبة فيها علوم ومعارف وملاهٍ وما هي الا اثينا الالمان المتاخرين وكان يسكنها كونت وشيلار وويلاند . وكانت الجيوش الطاردة والمطرودة قد ساكت شوارعها والدماء تجري والضجيج يعلو وهذا من نتائج الانكسار في جينا واورستات والحنت الكرات والرصاص ضررًا بحيطان بيوتها وكان بلاطها مصبوغًا بالدماء فاضطربت جدًّا الدوقة المذكورة فاتت نابوليون متوسلة اليهِ ان يعاملها بالحلم . فاجابها بتانٍ ولطف ياسيدتي ارايتِ ما هي الحروب . انتهى

ولم ينتقم منها باكثر من هذه العبارة بل لاطفها واعتبرها بدون ان يظهر غيظهُ من اعمال زوجها وامر بالاعتناء بالجرحى منهم فانهم ملاوا المدينة . واجاز كاهنًا كاثوليكيًا بمبلغ وافر لانهُ افرغ جهدهُ في الاعتناء بالجرحى البروسيين

وفي ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) دخل نابوليون مدينة برلين عاصمة بروسيا بالاحتفال واقام في قصر الملك وبروسيا هي التي فتحت الحرب فباتت ملكًا لهُ بحق الفتح ولم يسمح لاحد بان ينزل غرف الملكة لانها هربت بسرعة تاركة رسالاتها فيها . وكان ينشر الجرائد ويطعن في الملكة طعنًا شديدًا لانها كانت قد افرغت جهدها في تهييج الامة الى الحرب فركبت وسارت في طليعة الجيش مهيجة نار الحمية والشجاعة بجمالها وحذقها ومجدها . وقبل ان طعنهُ في ملكة كتلك الملكة بعد ذلك السقوط كان خاليًا من كرامة الاخلاق ولكنهُ كان يطعن في كل الملكات اللواتي كن يتداخلن في اعمال الدولة ويقدن بجهلهن رجالهن الى خراب مبين ويعرضن بلادهن الى بلايا الحروب المخيفة . فانهُ شاهد مصائب الحروب التي تبكي الحجارة فاوسعها طعنًا وقذفًا في احدى الجرائد . وكانت جوزفين ذات قلب سليم فكتبت اليهِ بعدم موافقة ذلك الطاعن فاجابها بما ياتي

في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٦

وردت اليَّ رسالتكِ والظاهر انك توبخيني من جرى طعني في النساء والحق يقال انني

لا اكره شيئاً اكثر من مداخلات النساء المبنية على الخداع فانني تعودت معاشرة نساء من ذوات الحنو واللطف اللواتي يحببن السلام والاتفاق . فهذه هي الصفات التي احبها بالنساء واذا كان ذلك نقصاً فانت علمهُ . وقد رايت انني عاملت بكرامة الاخلاق امراة ذات لطف وعواطف لينة وهي مادام هاتسفيلد فانني لما اريتها رسالة زوجها هطلت الدموع من عينيها وقالت بحزن عظيم هذا حقاً خطهُ فلم احتمل استماع هذا الكلام فانهُ دخل قلبي واثر فيهِ . فقلت لها ياسيدتي اطرحيها في النار فلا اقدر بعد ذلك ان اثبت الخيانة عليهِ فحرقتها وفازت بالسعادت واصبح زوجها في امان ولو تاخرت ساعتين لهلك . وهذا دليل على انني احب النساء اللواتي لايخرجن عن صفات الاناث ولا يستخدمن التصنع والتكلف في اعمالهن واقوالهن فنيهن وحدهن ما يشابهك . فاستودعك الله يامحبوبتي . ان صحتي جيدة

نابوليون

اما حادثة مادام هاتسفيلد المذكورة في هذه الرسالة فهذا تفصيلها . ان البرنس دوهاتسفيلد كان حاكم برلين وكان قد سلم المدينة الى نابوليون ووعدهُ بالخضوع لهُ فوقعت رسالة في يد نابوليون ظهر منها انهُ كان يدعي الصداقة مع انهُ كان جاسوساً يبلغ ملك بروسيا كل شيء خطير يجري في برلين بعد ان حلف بانهُ لايحاول مقاومة الجيش الفرنسوي بشيء وانهُ يفرغ جهدهُ في المحافظة على راحة العاصمة وسعادتها فالقي القبض عليهِ وصدر الامر بمحاكمتهِ في مجلس حربي . ولولا مداخلة امراتهِ لقتل في ساعتين . فاتت امراتهُ وانتظرت نابوليون عند باب القصر فلما نزل نابوليون عن فرسهِ توسلت اليهِ باكية بان لايضر زوجها فانهُ لادخل لهُ بالخيانة ونابوليون قال عن نفسهِ انهُ لايقدر ان يمنع نفسهُ عن اجابة طلب امراة باكية . فلما وصل الى باب القصر طرحت نفسها باكية عند قدميهِ . فاثر حزنها فيهِ اي تاثير وادخلها الى احدى الغرف وكانت فيها نار مشبوبة . فاخذ نابوليون الرسالة التي اظهرت خيانة زوجها واعطاها اياها وقال لها ياسيدتي اما هذا هو خط زوجك . فارتعدت فرائصها وخفق فوادها وتحيرت في امرها واعترفت قائلة انهُ خطهُ فقال لها انهُ في يدكِ فاطرحيهِ في النار فلا تبقى لي شهادة عليهِ . فلما سمعت هذا الكلام اشتد خوفها وتحيرت في امرها حتى انها لم تكن تعلم ماذا تفعل فاخذ نابوليون الرسالة والقاها في النار وبعد ان احترقت قال لها ان زوجك في امان فانهُ لابرهان يثبت الخيانة عليهِ . انتهى . وهذا العمل دليل كرامة اخلاق نابوليون وحنوهِ وشفقتهِ . وكان من صالح جيشهِ منع حكام المدن عن تبليغ اعدائهِ حركاتهِ

وسار نابوليون الى بوتسدام ليزور قبر الملك فردريك الكبير وهو المكان الذي تحالف فيهِ ملك بروسيا وروسيا قبل ذلك بسنة . فاثر فيهِ الوقوف عند قبر ذلك الرجل البطل الشجاع الثابت العزم . فصمت برهة . وكان سيف ذلك الملك معلقاً عند قبرهِ فانزلهُ نابوليون ودقق



النظر فيهِ ثم التفت الى الجنرال راب وقال لهُ هل عرفت ان سفير اسبانيا اهداني سيف فرنسيس الاول وسفير ايران اهداني سيف جنكزخان ولا ابيع سيف فردريك ولو دفع لي عشرون مليون فرنك وسار بهِ الى محل المعوهين المسمى بالانفاليد في باريس فان الجنود الشيوخ هناك يعتبرون باحترام ديني ما كان مختصاً باشهر القواد المذكورين في التاريخ . فقال الجنرال راب لنابوليون لو كنت انا انت لما ارتضيت بان اترك هذا السيف لغيري واخذتهُ لنفسي . فنظر اليهِ نابوليون نظرة موبخ وممازح وامسك اذنهُ بلطف وقال لهُ ياموسيو صاحب المشورات اليس لي سيف

وكانت الجنود الفرنسوية قد انكسرت في سهول روسباخ سنة ١٧٧٥ في قتال البروسيين فاقامت الحكومة البروسية تذكاراً لذلك الانتصار فلما مر نابوليون بذلك المكان ذهب اليهِ فتعجب لما راى انهُ غير متقن وكانت الكتابة قد محيت عنهُ بالهواء والشمس ولم يكن التذكار الا حجراً من حجارة المطاحن الفرنسوية فتامل فيهِ برهة صامتاً وهو يمشي حولهُ وقال لا يليق هذا لا يليق . وعند ذلك دنت منهُ فرقة من الجنود فقال لقوم خذوا هذا الحجر وضعوهُ في عجلة وابعثوهُ الى باريس . ثم ركب فرسهُ وسار مسرعاً . ولام القوم نابوليون لانهُ اخذ ذلك التذكار وسيف الملك فردريك . ولكن هل غنائم الحرب معينة وهل لها حد

ولما خرج نابوليون من فينا قاعدة النمسا بعد معركة اوسترلتس ودع اهلها باعلان هذا ترجمتهُ اني اودعكم مقدماً اليكم هدية اظهاراً لاعتباري لكم وهو معمل اسلحتكم مع ان اصول الحرب جعلتهُ ملكاً لي فاستخدموهُ لصيانة السلام . ولا بد من ان تنسوا كل المصائب التي حلت بكم الى الشرور التي لاتنفصل عن الحروب . اما الاصلاحات التي قامت بها جنودي فحصلت عليها بالاستحقاق انتهى

ومرَّ بك ان نابوليون شهر سقوط الدولة البروسية بعد ان شتت شمل جيوشها واستولى بحق الفتح على املاكها . فباتت دول اوربا وامراوها في خوف شديد واضطراب . لانهم راوا ان نابوليون ابن الثورات عاضد اصول المساواة بين الامير والفلاح . داس بقدميهِ اعظم الدول واصبح كل جندي فرنسوي يرى ابواب التقدم والمجد مفتوحة امامهُ ليدخلها بالاهلية فقوى ذلك عزمهُ وشجعهُ . وتحقق الناس ان نابوليون صديق العامة المحامي عن حقوقها وبعد معركة جينا اصدر نابوليون اعلاناً جميلاً بليغاً باسم الجنود ومدح بهِ شجاعتهم وبطشهم وثباتهم وبسالتهم وحذقهم وصبرهم على الضيقات والاتعاب وقال في ختامهِ يا ايها الجنود اني احبكم حباً شديداً قلبياً كحبكم الذي طالما اظهرتموهُ لي

وكتب اليهِ لينس عن هذا الاعلان قائلاً قرات امس اعلان جلالتكم على مسمع من الجنود فاثرت كلماتكم الختامية جداً في قلوبهم ولست قادراً على وصف حب اولئك الابطال الشديد لجلالتكم وبالحقيقة انهُ لم يحب عاشق معشوقتهُ كما يحبونكم . انتهى

وكان البروسيون يعلمون ان قواعد المساواة كانت تقوي الجنود الفرنسويين . وكتب ضابط الماني الى عائلتهِ من اسر الفرنسويين بانهُ عند شبوب نيران الحروب يصيح الفرنسويون كانهم اصحاب قوة غير بشرية و يهجمون بحمية لا اقدران اصفها ولا جنود اشد منهم . فماذا فعل الجنود اذا كانوا فلاحين وقوادهم امراء فيلاقون المخاطر بدون ان يوملوا بمجازاة مادية ولا ادبية

وتحقق ملك بروسيا وهو هارب في براري بولونيا التي اقتسمها بدون حق هو وروسيا والنمسا انهُ لا يقدر على مناظرة فرنسا بالقوة ما لم يجعل المساواة سائدة في جيوشهِ فكانت اصول الحرية والمساواة تنتشر كيفما توجه نابوليون بجيشهِ . وكانت كل دول اوربا تحسب امبراطور فرنسا صديق العامة وعضدها

وخطر لنابوليون اثناء تلك الاضطرابات وهو في قلب بروسيا ان يبني هيكل مادلين الفاخر ليكون تذكار الشكر الامبراطوري وان يكتب عليهِ من الامبراطور نابوليون الى جنود الجيش العظيم وان يقيم الواحًا من البلاط ويكتب عليها اسماء كل القواد والجنود الذين حضروا معارك ألم واسترلتس وجينا وان يكتب على الواح ذهبية اسماء جميع الذين قتلوا في تلك المعارك

وكتب الى ناظر الداخلية من بوزن في ٦ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٦ بان المعارف محتاجة الى الترويج فاعرض لي طريقة لترقيتها مع فروعها لانها طالما البست الامة حلى المجد والفخار انتهى . ولم تكن اشغالهُ الوافرة واعمالهُ العظيمة تشغلهُ عن الكتابة الى جوزفين فكان يكتب اليها يوميًا الا نادرًا

وكتب اليها من بامبرج في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٠٦

يامحبوبتي في هذا المساء سرت قاصدًا كروناخ وجيشي كلهُ يسير وكل شيء ناجح . صحتي جيدة ولم ترد الي غير رسالة واحدة منك ورسالة من اوجين وهورتنس . استودعك الله واقبلك الف قبلة

نابوليون

من جيرا في ١٢ منهُ

ياصديقتي العزيزة انني في جيرا . اشغالي ناجحة النجاح الذي اتمناهُ . وسناخذ الامور بعون الله سبيلاً مضرًا بملك بروسيا المسكين اني اشفق عليهِ شخصيًا لانهُ من اهل الفضل . والملكة زوجتهُ هي معهُ في اورفورت فاذا ودت ان تشاهد معركة تفوز بلذة ناشئة عن القساوة . انني متمتع بصحة جيدة جدًا وقد سمنت منذ فارقتك ومع ذلك اسافر في كل يوم من ٦٠ الى ٧٥ ميلاً راكبًا فرسًا او عجلة وانام قبل نصف الليل باربع ساعات وانهض نصف الليل . و يخطر دائمًا ببالي انك



في تلك الساعة تكونين ساهرة . انني لك (نابوليون)

من جينا في ٥ تشرين الاول (اكتوبر)

يامحبوبتي حاربت البروسيين وانتصرت انتصارًا عظيمًا وكان العدو ١٥٠ الف رجل فاسرت منهُ عشرين الفًا وغنمت مائة مدفع ورايات كثيرة ودنوت من الملك والملكة وكدت آسرهما . اقمت في ميدان الحرب يومين وليلتين وصحتي جيدة جدًا . اودعك يامحبوبتي فاعتني بنفسك واحبيني . فاذا كانت هورتنس معك قبليها وكذلك قبلي نابوليون الصغير (نابوليون)

من ويمار في ١٦ منهُ

ياصديقتي العزيزة ان موسيو تاليرند سيريك تقرير الحرب فتربن فيهِ نجاحي . وقد حدث كل شيء حسب تخميناتي ولم يلاق جيش انكسارًا اعظم من هذا ولا تبدد شمل كتفرق الجيش البروسي . والزمان قصير فلا اقول الا انني صحيح الجسم واني اسمن بالاتعاب مع السهر والنوم في الفضاء . اودعك ياصديقتي . والف كلمة حب لهورتنس وللموسيو العظيم نابوليون انني بكليتي لك (نابوليون)

ومنها في اول تشرين الثاني (نوفمبر)

يامحبوبتي ان تاليرند قد وصل واخبرني بانك لا تفعلين شيئًا غير النوح . فماذا ياترى تطلبين ان اولادك عندك وحندتك والاخبار جيدة وهذا كافٍ ليجعل الانسان راضيًا سعيدًا . ان الهواء جيد جدًا ولم تسقط قطرة ماء في كل المعركة . انني صحيح الجسم وكل شيء ناجح . يامحبوبتي اودعك . ورد عليَّ تحرير من موسيو نابوليون واظن ان هورتنس كتبتهُ فالف سلام للجميع (نابوليون)

ان نابوليون الذي يذكرهُ الامبراطور هو بكر لويس اخيهِ وهورتنس بنت جوزفين وهو شقيق امبراطور فرنسا الثالث وكانت لوائح الذكاء تلوح على وجههِ فاحبهُ نابوليون جدًا وصمم ان يجعلهُ وريثًا لهُ ونفى الطلاق من ذهنهِ

## الفصل الثاني والثلاثون

### مخابرات وحروب

مرَّ بك ان نابوليون اسقط الدولة البروسية في معركة جينا واورستات ولم يبق لملك بروسيا غير ولاية واحدة بعيدة عن مملكتهِ فذهب اليها هاربًا تاركًا العظمة والمجد بعد ان جمع حولهُ بعض الوف من بقايا جيشهِ الجرار . وكان نابوليون مكدرًا جدًا لالتزامهِ بان يفارق الراحة والسعادة واسباب التقدم والنجاح في باريس ليدفع هجمات جيوش ذلك الملك ولو بقي في فرنسا الى ما بعد

اجتماع جيوش روسيا وبروسيا وانكلترا لسقطت دولتهُ وباتت فرنسا في يد اعدائها . فسار بنشاطهِ المعلوم وهاجم بروسيا قبل ان تمكن امبراطور روسيا من قطع السهول المتسعة الواقعة بين بطرسبرج وبرلين بمائة الف جندي من نخبة جنودهِ . وتمكن بمشقات كثيرة واتعاب عظيمة وسرعة يعدها الناس غير طبيعية من مهاجمة موخرة البروسيين وسد طريق برلين دونهم قاطعًا عنهم ذخائرهم ومونتهم ولما فاز رغب في حجب دماء العباد وطلب بالحاح الى ملك بروسيا ان يمتنع عن اراقة الدماء فلم يجب طلبهُ فابتدات الحروب وبدد شمل الجيش البروسي وعند انتهاء تلك المعارك المخيفة نزل في قصور ملك بروسيا وباتت المملكة كلها في قبضة يده ثم بعث بدوروك الى الملك يطلب المصالحة . فوجدهُ في مكان يبعد خمسمائة ميل عن قاعدة مملكتهِ وراء الفستولا في فينا من بولونيا البروسية . وكان قد جمع نحو خمسة وعشرين الف جندي وهم بقايا العساكر الباسلة التي عودها فردريك الكبير احتمال المشقات والصبر على البلايا والحروب . ولما عرفت الجيوش الروسية بما حل بملك بروسيا دهشت وضمنهُ بحب وحمية اليها فقوى ذلك عزمهُ ووسع دائرة املهِ لانها كانت متعهدة بعضدهِ ومساعدتهِ فاصبح يومل بالرجوع الى ما كان عليهِ فلم يرض بالصلح وترك الامر الى حكم السيف

فالتزم نابوليون بمصادمة الجيوش المجتمعة التي كانت حاملة عليهِ . وكان ملك بروسيا البعيد عن قاعدة مملكتهِ يحاول جمع الجيوش . اما امبراطور روسيا فدهش بما جرى فافرغ جهدهُ ليأتي بكل القوات التي تسنى لهُ جمعها في مملكتهِ التي لا حد لقوتها وعلق املهُ بجمع جيش قادر على كسر نابوليون بسهولة وكانت انكلترا ببوارجها التي لا تغلب تسود على البحار وتفعل ما تشاء وتاتي بالجيوش والذخائر الى دنتسيك وكونكزبرج . وكانت عواصف الشتاء قد ابتدات ونابوليون بعيد الف ميل عن حدود فرنسا واعدائهُ في مكان يبعد عنهُ مئتين من الاميال في الجهة الشمالية في اجام بولونيا وقممها التي كانت لابسة حللها البيضاء الثلجية . ولو تركهم وشانهم في الشتاء لتمكنوا من جمع جيوش جرارة قادرة على الحمل في الربيع عليهِ وغلبة فرنسا

ولما سمعت انكلترا بفوز نابوليون العجيب وسقوط المملكة البروسية اندهشت وتكدرت وخافت وقامت باعمال لامتها عليها جميع الامم وقالت ان ذلك تعدٍّ على حقوق الشعب فمن اصول الدول انهُ عند حدوث حرب بين دولتين يحق لكل دولة متحايدة ان تسافر من ثغور بلاد دولة متحاربة الى ثغور الدولة الثانية المتحاربة وان تنقل كل البضائع خلا الاسلحة والذخائر الحربية ويسوغ لكل من الدول المتحاربة ان تحصر ثغرًا واحدًا او ثغورًا كثيرة من بلاد الدولة التي تحاربها اذا اقامت بوارج كافية لحصرها قادرة على منع دخول المراكب اليها . وكانت انكلترا سائدة في البحار بدون منازع فقامت بحصر سموهُ حصر الورق فمنعت كل الدول عن ان تقوم



تجارة مع فرنسا ومع حلفائها وقررت ان كل البضائع الخصوصية التي تجدها في البحار يحق لها ان تغتنمها ولو كانت غير اسلحة ولا ذخائر حربية وان المسافرين الذين لا علاقة لهم بالحرب هم من الذين يسوغ اسرهم . فكتب وزير خارجية فرنسا لنابوليون تقريرًا خطيرًا جدًّا بهذا الشان وقال في نهايتهِ

ان حقوق الدفاع تسوغ مقاومة العدو بالامور التي يتعدى بها علينا ليعود غيظهُ وحمقهُ عليهِ فانكلترا اعلنت ان فرنسا محصورة فعلينا ان نقول ان كل انكلترا محصورة وانكلترا تعامل كل فرنسوي معاملة عدو لها فمن المفروض علينا اسر كل انكليزي في البلدان التي امتلكها جنودنا . وانكلترا تغنم بضائع الفرنسويين فعلينا ان نرصد بضائع الانكليز ومقتنياتهم . وانكلترا ترغب في قطع تلك التجارة فيلزم ان نمنع المراكب الانكليزية عن دخول الثغور الفرنسوية . وحين تخضع انكلترا للقوانين الدولية المقبولة عند كل الدول وتعترف بان قوانين الحرب واحدة برًّا وبحرًا وان الغنائم لا تكون الا الاشياء المختصة بالاشخاص لا بالدولة وان الحصر لا يكون الا في الاماكن الحصينة بادر جلالتك الى ابطال هذه الاوامر القاسية والعادلة لان العدل بين الامم انما يقوم بمعاملة الغير بما يعاملهم بهِ الغير . انتهى

فاستحسن نابوليون هذا التقرير واصدر امرًا من مدينة برلين وسماهُ باسمها اي امر برلين وهو من معسكرنا الامبراطوري في برلين في ٢٦ تشرين الثاني ( نوفمبر ) سنة ١٨٠٦

لما راى نابوليون امبراطور الفرنسويين وملك ايطاليا

اولاً . ان انكلترا لا تراعي القوانين الدولية التي تراعيها سائر الدول

ثانيًا . انها تعامل كعدو كل نفس من الامة المحاربة لها وتاسر ملاحي المراكب الحربية وملاحي المراكب التجارية كانهم متساوون حتى انها تاسر التجار الذين يسافرون في تجارة

ثالثًا . انها تجعل التجار ومقتنيات الاشخاص غنيمة مع ان ذلك يتعلق بما هو للدولة المحاربة فقط

رابعًا . انها تعامل المدن التجارية والثغور غير المحصنة والفرض ومصبات الانهر كالاماكن الحصينة بحصرها مع انهُ تقرر عند الدول المتمدنة ان تلك المعاملة لا تكون الا في الاماكن المحصنة

خامسًا . انها تامر بحصر المكان كتابة قبل ان ترسل اليهِ بارجة واحدة . وفي الاصول ان الحصر لا يتم الا بعد ارسال بوارج كافية بحيث لا يتيسر الدنو من المكان المحصور بالتعرض لاخطار عظيمة

سادسًا . انها تامر بحصر اماكن لا تقدر ان تقوم بحصرها كل بوارجها المجتمعة فانها امرت بحصر سواحل امبراطورية تامة

سابعًا . ان ذلك تعدٍّ عظيم على اصول الحصر والمقصود منهُ انما هو منع سيري المواصلات

بين البلدان لنفع تجارة انكلترا وترويج اسواق مصنوعاتها بكساد اسواق بضائع امم اواسط اوربا

ثامنًا . ان كل من يتاجر بالبضائع الانكليزية في اواسط اوربا يساعد انكلترا على تنفيذ مآربها ويصير شريكًا لها في مقاصدها الظاهرة

تاسعًا . ان اعمال انكلترا المتعلقة بذلك مما لا يليق الا بالقرون البربرية . وقد انتفعت بذلك بالحاق الضرر بغيرها

عاشرًا . ان من النواميس الطبيعية ان يضاد الانسان اعداءهُ بالوسائط التي يقاومونهُ بها بعد ان يرى انهم مبتعدون عن العدالة والحاسيات الناتجة عن تمدن الهيئة الاجتماعية . لذلك صمم على ان ينفذ في انكلترا الامور التي قررتها في نظامها البحري . وسيبقى ذلك نافذًا بموجب هذا الاعلان كسائر قوانين الامبراطورية الى ان تعترف انكلترا بان القوانين الحربية هي واحدة بحرًا وبرًا وانها لا يسوغ لها الحاق الضرر بما هو من املاك الافراد مهما كان ولا بالذين ليسوا من العساكر وان قانون الحصر بحرًا لا ينفذ الا عند حصر مكان حصين بقوة قادرة على ضبط ذلك الحصر . وبالنظر الى ما قد تقدم نامر بما ياتي

١ . ان الجزائر الانكليزية هي في حالة الحصر

٢ . لا يسوغ جري تجارة ولا صلات بين انكلترا وفرنسا . ولذلك لا تنقل البرد رسالات ولا غيرها الى انكلترا او الى احد الانكليز او مكتوبة بالانكليزية . فهذه يصير حجزها

٣ . يجب ان يوسر كل انكليزي مهما كانت رتبتهُ اذا وجد في البلدان النازلة جنودنا فيها وفي بلدان حلفائنا

٤ . من الغنائم الحربية التي يجوز استغنامها كل مخزن انكليزي وكل البضائع الانكليزية المختصة بالرعايا الانكليز والتي هي من غلال المهاجر الانكليزية

٥ . لا يسوغ الاتجار بالبضائع الانكليزية . وكل البضائع المختصة بانكلترا والتي هي من مصنوعاتها او مستغلات مهاجرها هي مما يسوغ ان يكون غنيمة حرب

٦ . ان نصف الغنائم التي تغنم تدفع للتجار الذين لحقت الخسائر بهم بسبب تعديات المراكب الانكليزية على بضائعهم في البحر

٧ . لا يسمح بدخول مركب الى الثغور الفرنسوية اذا كان آتيًا من الثغور الانكليزية او مارًا باحداها

٨ . ان المراكب التي تخالف هذه النصوص بالتزوير تحجز مع البضاعة المشحونة فيها وتغنم معها كانها انكليزية

٩ . ان مجلس الغنائم في باريس يحكم نهائيًا بما يتعلق بهذا الاعلان اذا وقع الخلاف على شيء



في امبراطوريتنا او في البلدان الحالة بها الجنود الفرنسوية . ومجلس الغنائم في ميلان سيحكم بما يتعلق بمملكتنا الايطالية

١٠ . على وزير خارجيتنا ان يبلغ هذا الاعلان الى ملك اسبانيا وملك نابلي وملك هولاندة وملك اترورية وغيرهم من حلفائنا الذين قد لحقت برعاياهم التعديات التي لحقت برعايانا بواسطة بربرية قانون انكلترا البحري وظلمهِ

١١ . على كل من وزراء الخارجية والحرب والبحرية والمالية والضابطة والبرد ان ينفذوا ما تقدم (نابوليون)

وقد اثنى قوم على نابوليون ومدحوا اصابة سياستهِ بنشر ذلك الاعلان ولامهُ اخرون وقالوا ان ذلك ظلم وعدوان . مع انهُ لم يعامل الانكليز الا بما عاملوهُ هم بهِ وكان قد علق املهُ بجعل اهالي اواسط اوربا يستغنون عن مصنوعات انكلترا وبضائعها بمنع ادخالها اليها وقال نابوليون بهذا الخصوص وجدت نفسي وحدي في اواسط اوربا متمسكًا بما تقرر عندي انهُ يعود بالنفع على اوربا بمضادة الانكليز . فالتزمت في بادىء الامر بان انفذ اوامري بالقوة الجبرية وبعد برهة اخذ القوم في ادراك مقاصدي . واخذت المنافع في الظهور ولو ثبتُّ على عزمي لغيرت حالة التجارة اي تغيير وفتحت للصناعة ابوابًا جديدة . فانني جعلت السكر والنيل من الغلال المحلية وكنت قادرًا ان الحق بهما القطن وامورًا اخرى كثيرة

وبعد نشر الاعلان المذكور اعلاه بيومين كتب نابوليون الى جونو بما ترجمتهُ اعتن بجعل النساء في دوائرك يشربن الشاي السويسري فانهُ جيد كشاي الصين والقهوة المستنبتة ليست دون قهوة العرب . فاجعلهن يستخدمن هذه الامور في قاعات الاستقبال عوضًا عن ان يشغلن انفسهن بالبحث عن السياسة كمادام دو ستايل . وان لا يجعلن شيئًا من ملابسهن من المصنوعات الانكليز ولا انتظر ان تسبق نساء نساء متوظفي حكومتي في ذلك فان النساء تقتدي بهن فالمضادات الجارية بيننا وبين الانكليز انما تاتي بالحياة او بالموت . ولا بد لي من ان انتظر الحصول على مساعدات قلبية صادرة من كل الذين هم حولي . انتهى

وكانت حياة نابوليون محاطة بالمخاطر والتعديات فكان يقول لا اقدر ان افعل كل ما اروم فان فعلي محصور بما اقدر عليهِ والانكليز يلزمونني بان اعيش كمن لا يومل ان حياتهُ تجاوز يومهُ

وكان قد صدر امر الحكومة الادارية الفرنسوية في ١٨ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٧٩٨ بان تغنم كل المراكب التي فيها بضائع انكليزية يسوغ غنمها وان يقتل الملاحون ولو كانوا من رعايا دول متحابة اذا اسروا وهم في مراكب انكليزية . وهذا ظلم . فلما تقلد نابوليون رئاسة الحكومة الفرنسوية امر بابطال ذلك الامر . وقال اليسون الانكليزي بعد ان تبوأ نابوليون

تحت القنصلية بزمان قصير امر بابطال ما كانت الحكومة الادارية قد امرت به وعاد الى انفاذ قوانين الملكية العادلة

وفي ١٦ ايار ( مايس ) سنة ١٨٠٦ اعلنت حكومة انكلترا ان الثغور والسواحل والانهر والمرافئ الواقعة بين الالب وبرست محصورة فعلاً فاذاع نابوليون الاعلان البرليني المار ذكره فامرت انكلترا بمنع كل المراكب ان تسير من ثغر الى ثغر فرنسوي او من بلاد مخالفة مع فرنسا وانه يسوغ غنم المراكب التي تخالف ذلك الامر . فلم يرد نابوليون عليها

وفي ١١ تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٧٠٧ زادت انكلترا اسباب التعدي على فرنسا واهانتها اذ امرت بان كل ثغور فرنسا وثغور حلفائها التي اخرجت منها الراية الانكليزية وان كانت غير محاربة لها خاضعة لقوانين الثغور المحصورة فعلاً بقوة قادرة على ضبط الحصر وانه لا يسوغ الاتجار بالبضائع والمصنوعات الفرنسوية والمرسلة من البلدان المحالفة لفرنسا ومن مهاجرها ويسوغ استغنامها . فاجاب نابوليون على هذا الامر الجديد باعلانه المشهور المسمى باعلان ميلان المؤرخ في ١٧ كانون الاول ( دسمبر ) سنة ١٨٠٧ وكانت اعلانات نابوليون سبباً لمفاوضات غير عادية في مجلس انكلترا العالي بدون ان يذكر احد الاحزاب ان انكلترا هي التي ابتدات بالتعدي

وقال المؤرخ البسون الانكليزي ان ما فعله نابوليون انما هو للقيام بمضادة اوامر انكلترا المتعلقة بتعطيل التجارة الفرنسوية ومع ذلك طالما قال بعض المؤرخين الانكليز ان نابوليون قام باعمال بربرية عدوانية باعلان برلين حال كون انكلترا كانت محافظة على الحق والسلام والحلم . والصحيح ان انكلترا قيدت الى تعدياتها بقوتها البحرية ومطامعها التجارية حتى ان اطالة زمان الحروب الاوربية كانت من مصلحتها لامتداد تجارتها في الدنيا باشتغال الدول العظيمة بالحروب والمنازعات

وامر نابوليون بنقل الجيش . فقيل له ان الجنود الذين كانوا قاطنين براحة وسكينة في البيوت البروسية في المدن والقرى يمتنعون عن مفارقة الراحة المتمتعين بها لينتقلوا الى البقاع الفستولية الكثيرة الثلوج والشديدة البرد . فقال لمن اخبره بذلك هل خسر جنودي حميتهم على مراى العدو . فاجاب لا يا ايها المولى . قال انني متيقن ذلك فجنودي لا تتغير فاضرم الحمية في قلوبهم . فاخذ يمشي في الغرفة يملي على الكاتب الاعلان الاتي

ايها الجنود . منذ سنة كنتم في ميدان معركة اوسترلتس ففرت الجيوش الروسية امامكم بياس او احطتم بها فسلمت اليكم . وفي اليوم الثاني التمسوا عقد الصلح . غير انهم خدعونا فبعد ان نجوا من نتائج المحالفة الثالثة قاموا بمحالفة رابعة . ولكن الحليف الذي استندوا الى مساعدته باتت قوته في خبر كان فاننا استولينا على قاعدة مملكته وقلاعه ومخازن ذخائره ومعامل اسلحته وغنمنا ٢٨٠



راية وسبعمائة مدفع وخمس مدن حصينة . ولم يمنع مسيركم وانتصاراتكم شيء من نهر اودر ووارثا ومن صحاري بولونيا وبرد الشتاء فتغلبتم على ذلك اجمع فركن اعداؤكم الى الفرار عند دنوكم منهم وتعب الروسيون باطلاً في الدفاع عن عاصمة بولونيا القديمة المشهورة . فاصبح نسر فرنسا مرتفعاً فوق الفستولا . فالبولوني الشجاع الباسل المنكود الحظ يراكم فيحلم بانه يرى جنود سوبيسكي راجعة من حملتها المشهورة . يا ايها الجنود قد صممنا على ان لا نغمد سيوفنا الا بعد توطيد سلام عام والحصول على حقوق حلفائنا وترجيع التجارة الى حريتها واماكنها . فمن حكم للروسيين بان يجعلوا في ايديهم ميزان الاجرآت ويتداخلوا في اعمالنا العادلة السنا نحن وهم الجنود الذين قاموا بالحرب في معركة اوسترلتس . انتهى

وقال بورين لما املى نابوليون ذلك الاعلان لاحت على وجهه لوائح تدل على انه موثر بما يفعل في الطبع الايطالي . وكان يتكلم بسرعة فكاد الكاتب يعجز عن الكتابة . وكان يتبسم احياناً تبسم فائز حين قرأ له الكاتب ما كتب ويسمع عبارات يعلم انها ذات تاثير عظيم في الجنود . انتهى

ولما اذاع ذلك الاعلان على الجيش فعل فيه فعلاً غريباً فانه اضرم الحمية فيه وانهض الهمم وشوق القلوب الى مجد النصر والفوز فانقطعت التذمرات واخذت فرق الموخرة تسير بسرعة عجيبة لتدرك فرق الطليعة . ونسي الجنود الذين كانوا قريبين من الامبراطور اتعابهم ومشقاتهم واوجاعهم واشتد شوقهم الى محاربة العدو . وكان حبهم لامبراطورهم غريباً وركونهم الى حكمته واصابة ادارته واقتداره الحربي يفوق ركون الناس الى البشر فلم يبالوا بالجوع ولا بالتعب ولا بالم المسير حفاة وعواصف اول الشتاء تهب حولهم ودواليب مدافعهم الثقيلة تعاق بالوحول غير ان نشاطهم وحميتهم واقدامهم كانت تتغلب على ذلك وعلى الاتعاب والمخاطر التي يلاقونها وكانوا يسيرون منتظرين بفروغ صبر لقاء العدو في ميدان الحرب لشفاء غليل القلوب بالقتال

وقبل خروج نابوليون من برلين كتب الى وزير الحرب الفرنسوي انني مصمم ان اقوم في هذه المرة باعمال حربية اعظم من جميع الاعمال التي قمت بها . وينبغي ان اكون قادراً على التغلب على جميع الصعوبات . انتهى

وكتب ايضاً الى مجلس الشيوخ بخطاب لم يرَ العالم ابلغ منه ولا تضمن خطاب من الحماسة والحمية ما تضمنه وهذا بعضه بان ملوك اوربا استخفوا بكرامة اخلاق فرنسا بعد الانتصار على قوات اتحادهم يجمعون قوات اخرى فلم نبدد شمل محالفة سنة ١٨٠٥ حتى التزمنا ان نحارب قوات سنة ١٨٠٦ فعلى فرنسا ان لا تعاملهم في الاستقبال برفق ولين كما عاملتهم في الماضي . فينبغي ان نستولي على البلدان التي تفتح الى ان يسود السلام بحراً وبراً فان انكلترا قد خالفت نصوص القوانين الدولية وقامت بتعديات تجارية في ربع الكرة الارضية فلا بد من ان نكون غرضاً للتعدي التجاري مقابلة

لتعدياتها ويعظم ذلك بحسب الاحوال . ولما كان لابد من الحرب كان من الصواب ان نقوم بها بكل قوتنا ووسائطنا لا ببعضها . لان ذلك يمكننا من نهيها في زمان قصير فلا يبقى محل لاستئنافها . انتهى

وقام نابوليون باستعدادات عجيبة مدهشة تاهبًا لتلك الحرب الشتوية . وكان بين برلين ووارسو اربعمائة ميل على الجيش الفرنسوي قطعها حال كونها كثيرة الفيافي والثلوج شديدة البرد يصعب جدًّا على الجيش قطع مسافة كهذه في تلك الاحوال . وكان البروسيون والروسيون قادرين على اقامة مائة وعشرين الفًا من الجنود على شواطئ نهر فستولا لمقاومة الجيش الفرنسوي اثناء مسيره

وكانت روسيا والنمسا وبروسيا قد حاربت بولونيا واستولت عليها وقسمتها وضمت كل منها قسمًا منها الى املاكها . وغاظ ذلك المتمدنين لانهُ تعدٍ على حرية الامم واستقلالها . فلما دخل نابوليون البلاد البولونية البروسية اجتمع البولونيون حولهُ بحمية وسرور وازدحمت امراء المملكة البولونية الساقطة المنقسمة في معسكرهِ وترحبوا بهِ كانهُ مخلص بلادهم ووعدوهُ ببذل ثروتهم ودمائهم في سبيل خدمتهِ اذا خلص بولونيا من يد ظالميها . وكانت العامة تصيح مترحبة بهِ في كل مكان وكثر الطلب على الاسلحة لتهييج ثورة طلبًا للاستقلال بمساعدة الفرنسويين . فبات نابوليون في ارتباك عظيم . خصوصًا حين اجتمع بهِ وفد من وارسو متوسلاً اليهِ ان يقرر استقلال بولونيا ويجعل احد اعضاء عائلتهِ ملكًا عليها وقال لهُ ان البولونيين يجتمعون تحت رايتهِ كانهم رجل واحد فقال نابوليون ان فرنسا لم تعترف بعد بانقسام بولونيا ولكن لا اقدر ان اقرر استقلالكم الا بعد تاكدي انكم مستعدون للمدافعة عن حقوقكم بالسلاح وباحتمال كل الاثقال والمصائب وببذل النفائس والنفوس . وقد بلغني انكم بانشقاقكم الداخلي قطعتم النظر عن صوالح بلادكم الصحيحة . وعليكم ان تستفيدوا بالمصائب فتتحدون وتبينون للدنيا بان روحًا واحدة تختلج في صدر الامة البولونية . انتهى

وبعد ان خرج الوفد قال انني احب البولونيين لحماستهم وحميتهم واود ان اجعلهم امة مستقلة ولكن دون ذلك اهوال فان الغنيمة باتت منقسمة بين كثيرين وكل من روسيا والنمسا وبروسيا فازت بقسم منها . واذا اضرمنا النار فمن يخمدها . ففروضي الاولى خدمة صوالح فرنسا فلا اتركها لارقي صوالح بولونيا فالحكم بهذا الامر للملك العام وهو الزمان فهو يبين لنا سواء السبيل . انتهى

وامسى نابوليون في حالة ردية محفوفة بالمخاطر لابتعاده عن الحدود الفرنسوية وتوغلهِ في وسط ثلوج الشتاء الكثيرة . وكانت روسيا بجيوشها الجرارة وقواتها المجهولة تتهددهُ من الشمال



وبروسيا تنتظر سنوح الفرص الموافقة لتقوم بالثار وتعود الى ما كانت عليهِ فانها باتت ذليلة مغلوبة وجمعت النمسا ثمانين الف جندي وصممت ان تهجم على موخرتهِ . وكانت تدعي ان جيشها انما هو للمناظرة ولكن نابوليون كان عالمًا محققًا انهُ اذا أُصيب بالحرب تهاجم النمسا موخرتهُ مساعدة لروسيا وبروسيا . اما انكلترا سلطانة البحار فكانت روح هذه المضادة كلها ومركز حركاتها واجراآتها ولو قرر نابوليون استقلال بولونيا لاكتسب حليفة امينة قادرة وهي امة عددها عشرون مليونًا ولم يمتنع الا خوفًا من غيظ الدول الثلث المذكورة فبهت امل مصالحتها بعيدًا جدًّا وكان يروم الصلح للتخلص من الحرب . فقال للبولونيين ليس من مصلحة فرنسا ايجاد اسباب جديدة للمنازعات ولم آتِ هذا المكان طالبًا عرش ملك لاحد اعضاء عائلتي فانني لست بمحتاج الى عروش لاهبها . انتهى

وسار نابوليون في شهر كانون الاول (دسمبر) قاطعًا بلادًا ذات قفار متسعة واجام كثيرة وسهول فسيحة حتى وصل بجيشهِ الى شواطئ نهر فستولا مبددًا شمل اعدائهِ في كل مكان كانهم هباء منثور . وكان يلتزم احيانًا ان يقاتل في ميدان حرب عرضهُ ٧٥ ميلاً ليفتح طريقًا للمرور والاعدا يطلقون عليهِ رصاصهم كانهُ برد . ولم يقدروا ان يمنعوا تقدمهُ ولحق ضرر عظيم بجيوشهِ وفي اوائل كانون الثاني (جانفيه) دخل بجيشهِ الاجام المتسعة الملتفة المظلمة في شواطئ النهر المذكور . وعسكر في مكان طولهُ مائة وخمسون ميلاً في الضفة اليسرى منهُ . واقام حراسًا في كل المسالك فاصبح في امان من كبسات الاعداء . وكانت جنودهُ تقطع الاشجار وتعمل اكواخًا جيدة لتتخلص بها من البرد . ونظم المعسكر بقسمتهِ الى احياء بينها شوارع مستقيمة نظيفة جدًّا . وكان يشغل الجنود بالعرض والاشغال والالعاب الحربية فينفع اجسادهم وكانت ذخائر وافرة ترد على الدوام ونصان في الطريق بجيوش وحصون وفي ايام قليلة استراح الجيش في منازلهِ الجديدة الكثيرة الزاد والانتظام . ولم يكن نابوليون يهتم بنفسهِ ولكنهُ صرف جهدهُ في الاعتناء بعسكرهِ فكان يزور كل الاماكن ويناظر على كل شيء ويتاهب لكل امر ويستعد لملاقاة جميع المصاعب . وكان جيشهُ يسر جدًّا بما يراهُ من اهتمامهِ بامرهِ ويثني عليهِ . وكان يشاهدهُ راكبًا من مكان الى مكان نهارًا وليلا غير مبال بالمطر وملطخًا بالوحل مبيضًا بالثلج كانهُ لا يشعر بالاتعاب والبرد ولا بالاحتياج الى الطعام والنوم . وقال ان جنودي هم اولادي . ولم يكن الجيش يرتاب بصدق قولهِ بعد ان راى من نشاطهِ واهتمامهِ وعنايتهِ ما راى فاحبهُ جنوده محبة لم يفز بمثلها بشر قبلهُ . ودهش الجنود لما راوا ان عناية نابوليون كانت قد اعدت لهم ملايين كثيرة من قناني الخمر . واقام مخازن كثيرة متسعة لسد احتياجات الجنود بايجاد الطعام اللازم والملابس الجيدة والمناسبة للبلاد التي كانوا فيها . وكان يعتني جدًّا بالمرضى والجرحى فهيأ ستة الاف فراش في وارسو وكذلك في ثورن وفي بوزن

وفي اماكن اخرى على ضفات فستولا واودر . وعمل فرشاً كثيرة صوفية للمستشفيات وكان قد غنم ثلثين الف خيمة من البروسيين فجعلها كلها فرشاً ورباطات . وعين لكل مستشفى مناظراً وجعل في يده نقوداً كافية ليشتري للجرحى ما يلزم لهم من المآكل واسباب الراحة . وجعل لكل مستشفى كاهناً فوض اليه الاعتناء بالمرضى والجرحى والتشكي اليه اذا قصر المتوظفون في خدمتهم فاحتمل من المشقات ما جعل نصيبه من اتعاب الحرب وضيقاتها اعظم من اتعاب الجنود . وكان قصره حقيراً اذ كان يأكل وينام ويقابل الناس في مخدع واحد . ومن عادته اصدار الامر ثم تأكد جريانه . وكان يدبر بنفسه الاعمال الحربية في مساحة فسيحة كان جيشه فيها . ومضى شهر كانون الثاني (جانفيه) بعواصفه وبرده . وكان البرد قارساً في سهول بولونيا فاصبحت كقطعة واحدة عظيمة من الثلج . وكانت اوربا تنظر بتحير ودهشة الى جيش فرنسوي جرار مقيم في وسط اجام النستولا المظلمة في فصل الشتاء . اما الامبراطور اسكندر الروسي فكان يقود جيشاً متعوداً احتمال صبارة برد الشمال فعزم ان يكبس نابوليون . فسار بجيشه سراً وكان نابوليون متيقظاً مستعداً لملاقاته . فخرج من معسكره وكبس الذين كانوا اتين ليكبسوه وتوالى القتال . وكان الروسيون يحاربون بثبات عظيم والفرنسويون بحمية مدهشة . وكان الروسيون يقيمون مدافعهم في كل غابة وفي كل مرقب وفي جميع ضفات الانهار ومجاري المياه تحت سطوح من الجليد ويطلقون كراتهم على صدور مطارديهم الاشداء . على ان حمية نابوليون كانت تختلج في صدر كل فرنسوي فطاردوا الروسيين غير مبالين بالمشقات والهلاك . فصبغ الثلج بالدماء وكان الجرحى يسقطون على الثلج ويئنون انيناً يفتت الاكباد ثم يموتون افواجاً افواجاً وكانت جثث القتلى تسير فوق الثلج بمجاري المياه سوداً قاصدة مدافن مجهولة وكثيراً ما كانت الجنود المتحاربة تداوم القتال الى ان يدركها الليل وتقاتل في ظلام حالك وبرد قارس . وكانت نيران الحراسة تضرم في بلاد متسعة في وسط الثلج والعواصف وكان جنود الجيشين يلقون بانفسهم على الثلج بعد ان يطول زمان القتال ليستريحوا من مشقاته بدون ان يكون لهم ما يستظلون به غير السماء التي كان هواؤها مجمد الماء . وفي ذات ليلة نزل نابوليون في كوخ دني . فاقيم سرير السفر الصغير في وسط المطبخ وفي خمس دقائق نعشي وكان طعامه لوناً واحداً . ثم اخذ المنديل الذي غطى طعامه بوولفه ككرة ورمى به راس خادمه كونستان الذي كان محبوباً كثيراً عنده وقال له اسرع بنقل بقايا وليمتي . ثم فتح رسم المملكة البروسية وبسطه على الارض وقال لكولانكور اتبعني . فاخذ يخطط الطريق التي كان مصمماً ان يجعل جيشه يمر بها بوضع دبابيس وقال انني ساغلب الروسيين هنا وهناك وهنالك وسانهي هذا الحرب في ثلثة اشهر . فلا بد من معاملة الروسيين معاملة مفيدة لهم . فابين لملكة بروسيا الجميلة انه كثيراً ما يحمل المشير اثقالاً عظيمة بسبب مشوراته



ولا احب النساء اللواتي يحدن عن سبل اللطف والجودة واعظم العار هو الذي يلحق بامراة مهيجة للحرب محرضة للرجال على ان يذبح بعضهم بعضاً . فربما خسرت مملكتها بمشوراتها واعمالها . انتهى

ثم دخل عليه خادم برسالة وقراها بسرعة وقطب وجهه قائلاً لاريب ان هذه الرسالة عبثت في الطريق فما هو السبب فادعوا الرسول اليّ فاتاه فنظر اليه نظرة موبخ وقال له في اية ساعة استلمت هذه الرسالة . قال يامولاي الساعة الثامنة بعد الظهر . قال كم قطعت من الفراسخ . قال لا اعرف بالضبط . قال ينبغي انك تعرف فانك ضابط . فانا اعلم المسافة فهي ٢٧ ميلاً . فانظر الى ساعتك واخبرني فانك خرجت الساعة الثامنة . قال قد فات نصف الليل نصف ساعة . والطرق في حالة ردية والثلج منعني عن المسير في بعض الاماكن . فقال له نابوليون ان اعتذارك ضعيف فاذهب وانتظر اوامري فاضطرب المامور جداً وخرج واغلق الباب فقال نابوليون ان هذا البارد المثاني محتاج الى الحمية وهذا التوبيخ يجعله يسرع بالمسير بعد الان ولا بد من ان اجاوب في ساعتين . وبعد برهة قصيرة كتب الجواب فدعا اليه ذلك المامور وقال له اذهب حالاً فلا بد من وصول هذه الرسالة بعد برهة قصيرة فانه لا بد من وصول اوامري الى الجنرال لاسال الساعة الثالثة بعد نصف الليل هل فهمت . قال يامولاي ستصل اليه بعد نصف الليل بساعتين ونصف . قال احسنت فاركب جوادك ثم قال قف . واخذ يلاطفه بكلام طالما جذب القلوب اليه وقال قل للجنرال لاسال ارغب ان تكون انت المبشر بنجاح الحركات التي امرته بها . انتهى وكان شان نابوليون التوبيخ وبواسطته يجذب قلوب الموبخ والحصول على ركونه بحسن المعاملة

وتمكن نابوليون من دفع مهاجميه في وسط برد بولونيا وثلجها مسافة ٢٤٠ ميلاً عن ضفاف النستولا . ثم جمع الروسيون المتقهقرون كل قوتهم في سهل ايلو في ٧ شباط (فبريه) سنة ١٨٠٧ وكان الليل حالك الظلام شديد البرد وبات الروسيون متعبين جداً من تقهقرهم النهار بطوله فحلوا في مواقف موافقة مستعدين لقتال شديد نهاري في الصباح فباتوا على هضبة محيطة بسهل صغير كانت الرياح الباردة تقذف الثلج المتساقط اليه والغيوم الاخذة في الارتفاع تبين قرب اشتداد العواصف وهطل امطار غزيرة . وصفوا خمسمائة مدفع للقتال ثم القوا بانفسهم على الارض المغطاة بالثلج . واشتدت الريح في الليل وكانت اصواتها كانها تنوح على حالة ذلك الجيش المنود الى الويل والمشقات والثلج يغطي الجنود الذين ناموا على تلك الحال ليستريحوا من مشقات النهار . اما نابوليون فسار في ظلام الليل المظلم الشديد النوء والبرد بجيشه الباسل الصابر الى ان نزل السهل ورتب جنوده ترتيباً موافقاً للمعركة التي صمم المتحاربون على القيام بها في الصباح . ورتب مائتي مدفع في مراكز حسنة . وهكذا بات في الهضبة ثمانون الف جندي من

الروسيين وقبالتهم في السهل ستون الف جندي من الفرنسويين نائمين على الثلج وبين الجيشين نصف مسافة اندفاع كرة مدفع وكان جنود الجيشين وقوادهما ينتظرون بفروغ صبر ابتداء القتال . وكان الليل مخيفًا مبشرًا بنهار ويل وهوان

ولم يكن احد يقدر ان ينظر الى الجيشين في تلك الحال بدون ان يبيت متحيرًا ومؤثرًا تاثيرًا يصعب وصفهُ فكان يرى ارضًا متجمدة وسماء مظلمة وغيومًا ماطرة وثلجًا منحدرًا ورياحًا شديدة ونيران حراسة مشبوبة في وسط ظلام حالك وحركات الوف من الفرسان والمشاة الذين كانوا ينتقلون من مكان الى مكان ليحلوا في المراكز الموافقة للقتال وضجات الوف وضوضا كانها مياه كثيرة هائجة مختلطة برياح نصف الليل . وكاد حراس الجيشين يمس بعضهم بعضًا ببنادقهم . وجرى حديث لطف وتعزية بين الذين اشتغلوا بعد ذلك ببرهة قصيرة بالقتال . وفي نصف الليل نام نابوليون ساعة في كرسي ثم ركب جوادهُ واخذ يرتب جيشهُ المرتجف من البرد وابتدأ اطلاق المدافع قبل طلوع الفجر . وكان صوتها مخيفًا وخال الناس ان اساسات الارض تتزلزل فان احذق المدفعين كانوا يطلقون سبعمائة مدفع فشعر الرجال بانهم اصيبوا بالصمم من الاصوات التي تحاكي هزيم الرعود القاصفة وكان الجيشان يتبادلان الرصاص والكرات وقطع الحديد والفولاذ المنقذفة من الوف من فوهات الاسلحة النارية المهلكة باجسادهم بلا استتار بشيء . وكانت فرق صفوف بل جيوش تذوب امام ذلك الوبل العظيم والثلج الكثير يندفع بعنف على اوجه المهاجمين والمهجوم عليهم وصفوف الجنود تحمل وتنقهقر وتعود الى الحمل في احوال لم يرَ الانسان اردا منها ولا يقدر اللسان ان يقوم بوصفها ولم يرَ المتقاتلون نور الشمس لان دخان البارود ملا الجو وجعل النهار مظلمًا كالليل . وكانت الجنود تحمل وتقتل وتُقتل وتجرح وتُجرح تحت ذلك الخيمة الدخانية الكبريتية وباتوا لا يرون نيران المدافع والبنادق وكانت الفرسان تغير بدون ان تميز بين الصديق والعدو . واستمر ذلك القتال المهلك بين مائة واربعين الفًا من الجنود حتى غابت الشمس . وكان نابوليون يسير ركضًا من مكان الى مكان اثناء القتال محرضًا ومرتبًا الاماكن التي كان يشتد الخطر فيها فتقهقر عسكره امام جنود اكثر منها . ورأى فرقة متقهقرة فصرخ قائلاً ما هذا هل قليل من الجنود الروسية تكسر الجيش العظيم . اهجموا يافتياني الباسلين . لابد من الاستيلاء على الكنيسة لابد منهُ ولو هلكنا . فلما سمعت الفرقة ذلك تقوت وصرخت قائلة فليعش الامبراطور فغلب دعاؤها ضوضا الحرب وانضم بعضها الى بعض حتى صارت كبنيان مرصوص وحملت في وسط رصاص وكرات تنحدر كالبرد وهجموا قهرًا على العدو ورأى الامبراطور نابوليون بالقرب منهُ بطلاً من الذين شاخوا في الحرب وقد صبغ وجههُ بالبارود وثيابهُ بالدم فان كرة محشوة كانت قد اصابت يدهُ اليسرى وقطعتها بالقرب من الكتف وتركت الدم يجري من ذلك الجرح وكان



ذلك البطل يسير مسرعًا ليتخرط في الصف . فقال لهُ نابوليون قف قف ياصديقي الباسل واذهب الى المستشفى وضمد جرحك . قال افعل ذلك حينما نستولي على الكنيسة . ثم توارى عن بصرهِ في الدخان وخاض عباب الموت . ورأى الدوق دوفيسنزا نابوليون وهو يكلم الرجل المذكور وقال ان الدموع ملات عيني الامبراطور لما رأى ما راهُ من ذلك البطل وسمع منهُ ما سمعهُ . وكان القتال قد انتشب ١٨ ساعة وصبغ الثلج احمر بدماء الابطال . وكان السهل مغطًى بجثث القتلى والجرحى . وكان الوف من الذين جرحوا مطروحين على الثلج بين الصفوف يئنون ويصرخون ويغلب انينهم ضوضا الحرب واصوات المدافع والبنادق وهلك كثيرون منهم تحت ارجل الحاملين وحوافر الخيل لانهم لم يكونوا قادرين ان يحيدوا ليخلصوا انفسهم من ذلك الهلاك المخيف وامست مدينة ايلو في وسط لهيب مضطرم واحترقت قرى اخرى كثيرة . وكان احتراقها علة لازدياد بلاء ذلك اليوم فان نساء واولادًا هربوا من منازلهم ليتجنبوا الكرات الساقطة فيها والنيران المنتشبة وكان القتال لا يزال قائمًا على قدم وساق . وبعد غسق ذلك اليوم وقف نابوليون مستكنًا في الكنيسة التي استولى عليها بعد ان فتحها الروسيون . والكلل حولهُ ولوائح الكدر تلوح على اوجه جميع اركان حربهِ الذين كانوا يتوسلون اليهِ بخوف بان ينتقل من ذلك المكان لمجانبة المخاطر الكثيرة التي كانت تحدق بهِ فلم يجب التماسهم بل ثبت غير مبالٍ وكانت شجاعتهُ وثباتهُ علة لتشجيع الذين كانوا يحيطون بهِ لانهم راوا انهُ لا ينفك عن جعل صفوف جيشهِ المتعبة تحمل على العدو . حتى امسى اكثر من ثلثين الفًا من الروسيين قتلى . ومن الفرنسويين بات نحو عشرة الاف بين قتيل وجريح في حالة النزع مطروحين على الارض . وقتل من الخيل عشرة الاف فرس منها ما قطع اربًا ومنها ما جرح بليغًا وارتفع صهيلها الناشيء عن التالم وهي تعدو دائسة الجرحى بحوافرها الحديدية لا تبالي بسوء حالهم ولا ترق لاوجاعهم . وقبل نصف الليل بساعتين بات اكثر من نصف الجيش الروسي هالكًا ودخل ميدان الحرب جيش جديد فرنسوي بعد ان سار اكثر النهار طالبًا جهة صوت المدافع ولم يقدر الروسيون ان يحملوا حر ذلك القتال . وافتخروا بالثبات مدة طويلة في قتال نابوليون العظيم ثم ركنوا الى الفرار يصرخون قائلين النصر لنا . فاصبح نابوليون المنتصر مستوليًا على ذلك الميدان الحربي الذي اشتراهُ باعز دم . وكان قد فعل التعب بالمنتصرين ايضًا فضلاً عن فعل البرد والثلج فطلبوا الراحة التي يطلبها من لا يرى لهُ فراشًا غير الثلج المرتفع تحت سماء لا ينقطع ثلجها . فاشتد حزن نابوليون لانهُ لم يشاهد قبل ذلك ما شاهدهُ حينئذٍ . وكان متعبًا جدًا ولكن لم يغير عادتهُ فجال في ميدان القتال لاسعاف الجرحى وتعزية الذين في حالة النزع وابتدا بذلك عند نصف الليل والرياح شديدة . ولما رآهُ قومهُ يعتني بالجرحى اجهدوا انفسهم في سبيل الاقتداء بهِ ونفعوا كثيرين ولم يحصر اهتمامهُ بجيشهِ ولكنهُ اهتم بالجرحى الروسيين

كما كان يهتم بجراحاتهُ . وراى احد قوادهِ انهُ حزين جدًّا فذكرهُ بالمجد الذي نالهُ بذلك النصر . فاجاب ان النصر لا يفرح قلب الاب الذي يقتل اولادهُ في الحرب فالمجد نفسهُ باطل حين يتكلم القلب . انتهى . ومر بعجلة جرحى فيها كثير من الايدي والارجل المقطوعة فاقشعر بدنهُ . وراى ايضًا جنديًا يقاوم جراحًا بقطع رجلهِ لانها اصيبت بكلة وامسى قطعها ضروريًا لتخليصهِ من الموت . فقال نابوليون ما بالكم . ثم قال للجندي انك بطل ولا تخاف جرحًا . اجاب يامولاي اني لا اخافهُ ولكن جرحي مهلك فماذا يحل بكاترين امراتي المنكودة الحظ واولادها الصغار الاربعة واخذ يبكي . فقال لهُ نابوليون لا ضرر على عائلتك الا تعلم اني اعولها . فتفرس المجروح برهة في وجههِ وقال بصوت مرتجف لقد اصبت يامولاي اني احمق فاقطع باجراح رجلي اللهم بارك الامبراطور . ورفع جندي راسهُ من بين الثلج المصبوغ بالدم وقال بصوت ضعيف يامولاي ارجوك ان تلتفت اليّ . ثم قال لهُ اظن ان جرحي جرح الموت فساكون في العالم الاتي بعد زمان قصير ولا ابالي بذلك فليعش الامبراطور . فلما سمع نابوليون ذلك نزل عن جوادهِ وامسك يد المجروح بلطف وامر اعوانهُ بان يحملوهُ الى المستشفى وان يوصوا الجراح بامرهِ . ولما راى الجندي شفقة نابوليون تساقطت دموع غزيرة على خديهِ وهو ينظر الى وجههِ المحبوب عندهُ نظرة رجل قريب من الموت ثم قال لا اتمنى الا ان يكون لي الف حياة لابذلها في خدمة جلالتك

وقال كولانكور راينا بالقرب من صف من المدافع تركهُ العدو نحو مائة وخمسين او مائتي جندي من الفرنسويين كانوا مطروحين قتلى وحولهم من القتلى البروسيين اربعة اضعاف عددهم وجميعهم غائصون في بحر من الدماء بين قطع من المدافع والبنادق والسيوف . والظاهر انهم قاتلوا قتالاً شديدًا جدًّا اذ كان في كل جثة جراح كثيرة بليغة . فسمعنا صوتًا مرتفعًا من بين اولئك القتلى يقول فليعش الامبراطور فكان كانهُ صادر من جبل من القتلى . فسار الامبراطور وسرنا جميعًا الى جهتهِ فراينا ضابطًا شابًا نصفهُ تحت راية ممزقة وفي صدرهِ نيشان وقد اصيب بجراح كثيرة ومع ذلك تمكن من رفع راسهِ قليلاً مستندًا الى يديهِ ولوائح قرب حلول الاجل تلوح على وجههِ الجميل . فعرف الامبراطور وقال بصوت ضعيف مرتجف فليبارك الله جلالتك استودعك الله استودعك الله . اه يا امي المنكودة الحظ . ثم نظر الى الامبراطور نظرة متوسل وقال لفرنسا العزيزة تهدي الاخير وسقط ميتًا . وهو ارنست اوزوني المنكود الحظ وكان من اشجع الرجال وابسلهم وقبل ذلك بساعات قليلة فاز بشكر الامبراطور وصار مونهُ علة وقوع فتاة جميلة مهذبة في التعاسة وكانت من صديقاتي . وبات نابوليون كانهُ مسمر عند ذلك المكان الذي شرب دم اولئك الابطال فقال يا ايها الرجال الباسلون يا اوزوني الباسل . انهُ افضل الفتيان . وا اسفاه ما هذا المنظر المخيف ان معاشهُ سيدفع الى امهِ . وكان الدكتور ايفان الطبيب معهُ فالتفت اليهِ وقال لهُ افحص جراح اوزوني المنكود الحظ



لعلك تقدر ان تنفعهُ . ان هذا مخيف حقًّا . واشتد كدر الامبراطور وسار من هناك ليعين الجرحى . انتهى

وكان نابوليون في ذلك الميدان الذي راجت سوق المنايا فيهِ واريقت الدما مشتغلاً بهام كثيرة ومع ذلك لم ينسَ جوزفين امراتهُ الامينة التي كانت تنتظر اخبارهُ بفروغ صبر . وكانت مقيمة في باريس فكتب اليها بما ياتي

من ايلو بعد نصف الليل بثلث ساعات في ٩ شباط (فنريه) سنة ١٨٠٧

يامحبوبتي جرت معركة عظيمة نهار امس ولا ازال المنتصر على انهُ هلك كثيرون من جيشي ولا اتعزى بهلاك عدد كثير من جيش العدو ولو كان يفوق عدد الذين هلكوا من جنودي . اني اكتب اليك هذين السطرين بيدي وان كنت متعبًا جدًّا لاخبرك باني متمتع بصحة جيدة واني احبك . كلي لك

نابوليون

ولما اصبح الصباح ظهر في ساحة القتال ما ربما كان افجع منظر شاهدهُ الانسان فان نحو اربعين الف رجل باتوا ممزقين بالكلل والرصاص مطروحين على ثلج مصبوغ بالدم . وكان يرتفع منهم انين الم يذوب قلب سامعهِ شفقة ويقشعر بدنهُ وتضطرب احشاؤهُ . فكان هناك مدافع وبنادق وسيوف وعجلات مكسرة وابدان بلا رؤوس ورؤوس بلا ابدان وايدٍ بدون اجساد واجساد بدون ايدٍ وجثث بدون احشا واحشا بدون جثث وافراس كثيرة مقتولة مهشمة او مجروحة تئن وتحاول الهرب من الالم الشديد الذي بليت بهِ بدون ان تكون مشاركة للانسان في مجدهِ . فذاب حزنًا قلب نابوليون بما راى في ذلك المكان حتى انهُ ذكر ما يدل على حاسياتهِ في احدى كتاباتهِ الرسمية قال ان ذلك المنظر مما يحمل الملوك على حب السلام وكره الحرب . وفي الحال بعث ببعض فرق لتطارد جيش العدو المنتهزم وافرغ كل جهدهِ في تخفيف البلا والمصائب التي كان يراها حولهُ . وفي مساء ذلك اليوم كتب الى جوزفين زوجتهِ ما ترجمتهُ

من ايلو في ٩ شباط (فنريه) بعد الظهر بست ساعات سنة ١٨٠٧

يامحبوبتي جوزفين اني اكتب اليك بكلمة ليرتاح بالك . قد انكسر العدو وخسر ٤٠ مدفعًا وعشر رايات و١٢ الف اسير وهلك كثيرون من جيشهِ . وقتل كثيرون من جيشي وعدد القتلى ١٦٠٠٠ والجرحى ثلثة او اربعة الاف . وقد قتل كوربينو بكلة محشوة وكنت احبهُ حبًّا شديدًا وكان ذا اهلية عظيمة . وقد تكدرت جدًّا من فقدهِ . اما حرس الفرسان الامبراطوري فقد اكتسب مجدًا عظيماً وفخرًا عميماً . جرح المان جرحًا خطرًا . استودعك الله يامحبوبتي كلي لكِ

نابوليون

واما مونهُ فكان هكذا كان واقفًا قريبًا من نابوليون يسمع اوامرهُ الشفاهية فاصابتهُ كلة

محشوة سحقت جسدهُ . فمات على مراى منهُ . وفي ليل اليوم الثاني كتب الى زوجتهِ الكريمة رسالة اخرى وهذه ترجمتها

من ايلو في ١١ شباط (فبريه) الساعة ٢ بعد نصف الليل

يامحبوبتي ابعث اليك بسطر لابد ان يكون بالك مشغلاً جدًّا . كسرت العدو كسرة لاتنسى على انهُ قتل كثيرون من جيشي الباسل . اما اشتداد البرد فيلزمني بالرجوع الى منازل الجيش فاتوسل اليك بان لاتحزني حزنًا شديدًا . فلابد من ان ينتهي هذا كلهُ . وسعادة الاجتماع بك تحملني على ان انسى كل اتعابي . انى لم اتمتع قبل الان بصحة احسن من صحتي الحاضرة . وعمل ناشر الصغير اعمال الكرام وقد جرب تجربة صعبة فجعلتهُ مقربًا مني مامور الاوامر وانتهت اتعابهُ . انني اهتم بهذا الفتى . استودعك الله يا اعز الناس واقبلك الف قبلة

نابوليون

وكتب اليها رسالة اخرى مورخة في ١٤ الشهر المذكور وهذه ترجمتها

يامحبوبتي . لا ازال في ايلو . البلاد مغطاة بالقتلى والجرحى . وهذا ليس مما يسر في الحروب فانهُ يولم الانسان و يعذب قلبهُ بمشاهدة الذين يضحون في الحرب وكثرتهم . صحتي جيدة . وقد نلت مطالبي بقهر العدو والزامهِ بالعدول عن غاياتهِ . لابد ان يكون بالك في اشتغال وهذا هو الذي يكدرني . ومع ذلك استكني بامحبوبتي . وسري انا لكِ نابوليون

## الفصل الثالث والثلاثون

### الذهاب الى فردلاند

واقام نابوليون ثمانية ايام في ايلو يضمد جراح جيشهِ ويجمع الذخائر والزاد ليمنع جنودهُ بالراحة . وكان يعلق املهُ بانقطاع امبراطور روسيا وملك بروسيا عن اراقة الدماء و يطلب المصالحة . واجمع الناس ان نابوليون لم يفتح حروبًا الى تلك السنة الا للدفاع ولم يسل السيف الا بعد الجميع وكان يسعى الجميع الى طلب المصالحة فقبل فتح هذه الحرب وقبل معركة جينا كتب الى ملك بروسيا متوسلاً اليهِ بان يجنب دماء العباد فلم يجبهُ . وبعد ان غابت الشمس عن ميدان الوبال المذكور ببرهة وجيزة كتب مرة ثانية طالبًا المصالحة فصدهُ فجمع الملوك المتحدون جيوشهم سرًّا وحملوا عليهِ فطاردهم ٢٤٠ ميلاً واهلك نصف جيشهم في سهل ايلو . وانتظر خمسة ايام بفروغ صبر واشتغال بال طلب عقد الصلح ولكن اعداءهُ صمموا فتغلب على الفخر وحب الذات



وعرض نفسهُ للاهانة بطلب عقد الصلح فكتب الى ملك بروسيا الرسالة الاتية

ارغب في تقصير زمان بنكد عائلتك وان ارجع الانتظام الى المملكة البروسية بالسرعة الممكنة فان قوتها المتوسطة لازمة لراحة اوربا . واروم مصالحة روسيا ولا صعوبة في ذلك اذا لم يكن لروسيا نوايا ردية متعلقة بالدولة العثمانية . ومصالحة انكلترا ذات شان عند كل الامم . ولا امتنع عن ارسال سفير الى ميل ليكون عضوًا في موتمر تعقدهُ فرنسا واسوج وانكلترا و روسيا و بروسيا والدولة العثمانية . وربما استمرت هذه الجمعية سنين كثيرة وذلك لايوافق حالة بروسيا . فاخترت ابسط الوسائل التي تروج نجاح رعاياك . واتوسل الى جلالتك بان تتاكد رغبتي القلبية في تمكين الصلات الحبية بيني وبين دولة صادقة كبروسيا وبيني وبين روسيا وانكلترا . انتهى

ولما بلغت الرسالة الدول المتحدة على فرنسا حسبوها نتيجة ضعف فاشتد عزمهم وجددوا التاهب للحمل فصمموا على جمع جيوش جديدة من القزق وبرابرة الشمال وتجديد الحرب بعزم شديد وطلب نابوليون الى اسوج مصالحتها فابت . فكتب ملك اسوج الى ملك بروسيا بانهُ من الموافق اذاعة غايتنا وهي اسعاف البوربون في الحصول على حقهم القانوني فان صالحهم هو فعلاً صالح كل الدول وتقرر ذلك عندي تقريرًا لايتغير . انتهى

وادعى انهُ ليس من حق فرنسا انتخاب ملك لنفسها وهذا يجعل عقد الصلح غير ممكن ولو خان نابوليون فرنسا وافرغ جهدهُ في ترجيع البوربون لفتح ابواب الحرب الاهلية فيها . وفرنسا من اعظم دول اوربا واشدهم افتخارًا فلا ترتضي بالخضوع لقواعد كالتي قررها ملك اسوج . واصاب نابوليون بقولهِ ان البوربون لايقدرون ان يعودوا الى تخت ملك فرنسا مالم يدوسوا جثث مائة الف قتيل من الفرنسويين . ولم تفز دول اوربا المتحدة بترجيعهم بعد ذلك الا بعد قتل نحو مليون من الفرنسويين ولم يثبتوا في العرش بل خسروهُ

وقبل معركة جينا كتب نابوليون الى المجلس القضاءي في باريس بما ترجمتهُ . يا ايها البرنس والقضاة والجنود والاهالي لجميعنا غاية واحدة وهي صالح بلادنا . وضعف الحكومة الاجرائية من اعظم مصائب الاهالي . فاذا كنت امبراطورًا او القنصل الاول او جنديًا فغايتي واحدة وهي نجاح فرنسا . ولست بطالب توسيع ارضها ولكني مصمم على صيانة استقلالها . ولا اطلب ازدياد سطوتنا في اوربا ولكن لا اسمح باضعاف نفوذها الحالي ولا اضم دولة الى امبراطوريتنا ولا اضحي حقوقًا ولا الروابط التي تربطنا بدول اخرى . انتهى

ولما راى نابوليون انهُ لا امل بعقد الصلح صمم على العود الى شواطىء النستولا بعد ان طرد العدو الى النيامن فخاطب جيشهُ بما ترجمتهُ

ايها الجنود حين ابتدانا نذوق حلاوة الراحة في منازلنا الشتوية هجم العدو على الفرقة

الاولى في النستولا الاسفل فسرنا لندفعهُ وطاردناهُ بالسيف ٨٠ فرسخًا فطرد الى ان التجا تحت مدافع قلاعهِ وورا البريجل . وقد غنمنا ٦٠ مدفعًا و١٦ راية وقتلنا وجرحنا واسرنا اكثر من ٤٠ الف جندي من الروسيين . والذين قتلوا منا قد هلكوا كالابطال مكرمين وستفوز عيالهم بحمايتنا وبعد تخريب كل غابات العدو نعود الى النستولا ونسكن منازلنا الشتوية ومن يكدر راحتنا يندم . وعلى النستولا كما على الطونه نكون على الدوام جنود الجيش العظيم . انتهى

واقام نابوليون في ايلو الى ان اخرج كل شيء منها وناظر على خروج كل فرق الجيش والمرضى والجرحى والاسرى والمدافع التي غنمها وانشا عجلات ثلج كثيرة وجعل فيها كل ما يلزم من اسباب الراحة لنقل المرضى والجرحى ونقل فيها اكثر من ستة الاف مسافة مائتي ميل ووضعوا في مستشفياتهم الدفئة عند ضفاف النستولا . وكانت النمسا ترغب ان تجد وسيلة للانضمام الى الدول المتحدة على فرنسا ولكن كانت قد تعهدت بمواثيق جدية قاطعة بان لاتسل السيف لمحاربتها واعتنى نابوليون جدًّا بمنع ما يكدرها ولكنها لم تنسَ الاهانة التي لحقت بها في ألم واوسترلتس . فتداخلت وعرضت توسطها فعرف نابوليون مقاصدها ومع ذلك اجابها بان الامبراطور قبل مداخلة فرنسيس الثاني لترجيع السلام اللازم جدًّا لكل الامم . ولكن يخاف ان تكون الدولة التي طالما انتفعت بانقسام اواسط اوربا مصممة على فتح ابواب جديدة للعدوان وللشقاق . وكل الوسائل التي تجنب دما العباد لاتهملها فرنسا التي قد تقرر عند اوربا انها جرت الى هذه الحرب على رغمها . انتهى

واثناء ذلك طلب نابوليون جمع جيش جديد عددهُ ٨٠ الف مقاتل بعد ان جمع جيشًا مثلهُ منذ خمسة اشهر وكان يروم ان يبين للدول المتحدة ان عساكرهُ كثيرة فلا يتيسر لهم ان يتغلبوا عليهِ ويرتضون بان يصالحوهُ بدون ان يحاربوا فكتب الى كامبسز لابد من القيام بذلك بسرعة ونشاط واذا اعترض احد من مجلس الشيوخ او مجلس النواب يكون اعتراضهُ سببًا لضعفي في اوربا ويحمل النمسا على الاتحاد مع محاربينا فنلتزم ان نجمع ثلاثة او اربعة جيوش عوضًا عن جيش واحد . وما ادرانا ان يكون الفوز لنا . واذا اعلنا جمع جيش بلا تردد تعدل النمسا عن قتالنا ولا اضم الجيش الجديد الى الجيش العامل لاني لا احارب بفتيان واذا رات النمسا منا ترددًا تنضم الى اضدادنا فاقول ثانية لاينبغي ان يعترض بكلمة على جمع هذا الجيش فنفوز بصلح سريع موافق . انتهى

وبعد ان ارسل هذا الامر الى باريس بعث بصورة منهُ الى تاليرند سفيرهِ في النمسا وطلب اليهِ ان يقول لحكومة النمسا بصراحة بلا مواربة ان الامبراطور نابوليون عرف المقصود من التوسط الذي عرضتهُ النمسا وقبل بهِ عارفًا ما تضمنهُ فالتوسط بالصلح نعم العمل ولكن لايكون



صحيحًا ما لم يكن في يد المتوسط الراية البيضا والنمسا بعيدة عنها وتجهيزها حربي لاينطبق على مداخلتها لعقد الصلح وقد ابنت الواقع بايضاح لمنع المصائب ولتخليص النمسا من غوائل الحرب . واذا ارسلت قوادًا ليقفوا على حقيقة قوتنا نريهم ذخائرنا ومعسكراتنا الاحتياطية والفرق السائرة فيرون ان في فرنسا مائة الف جندي وفضلاً عن ذلك شرعنا في جمع جيش جديد عددهُ مائة الف ليعبر نهر الرين ويمنع النمسا عن القيام بمقاومتنا . انتهى . فهذه الاعمال الناشئة عن حكمة نابوليون واصابتهِ منعت النمسا عن الاتحاد مع اعدائهِ وابعدت بلايا الحروب العمومية . انتهى

اما الدولة البوربونية في اسبانيا فكانت تترقب سنوح الفرص لتهجم على نابوليون لاعتقادها انهُ لايقدر على التخلص من الشراك التي وقع فيها في بولونيا لانهُ بات محاطًا باعداء كثيرين فدعت الامة الاسبانية الى الحرب . وكان نابوليون بعيدًا عن الرين الف ميل وانكلترا هي التي جعلت اسبانيا على موخرتهِ . فشهرت الحرب قبل معركة جينا بيوم واحد . فلما سمع ملك اسبانيا بذلك النصر العظيم تحير فارسل الى نابوليون يقول لهُ انهُ جمع ذلك الجيش ليسعفهُ اذا مست الحاجة . فتبسم واظهر لاسبانيا انهُ صدق قولها وشكرها على غيرتها وطلب اليها ان تعطيهُ خمسة الاف جندي . فالتزم الملك بان يجيب طلبهُ . فكتب نابوليون الى فرنسا بان يقابلوا تلك الجنود الاسبانية بحب ووداد واكرام وان يقدموا لها زادًا كثيرًا وملابس ونقودًا كافية . فاقيمت في حصون فرنسا واخرجت جنود فرنسوية منها وارسلت الى بولونيا . اما خيانات البوربون في اسبانيا فكانت نتيجتها سقوط دولتهم هناك

وكانت تمضي اشهر الشتاء المكدرة في الشمال وفرنسا واعداؤها يتاهبون لتجديد القتال وكان نابوليون مشاركًا لعساكرهِ في كل شيء ويعلمهم الصبر على صعاب الامور . وكتب اخوهُ جوزف اليهِ متشكيًا من الصعوبات التي يلاقيها في نابلي فاجابهُ ان ضباط اركان حربنا لم يخلعوا ثيابهم منذ شهرين ومنهم من لايزال لابسًا ثيابهُ منذ اربعة اشهر ولم اخلع حذاءي منذ خمسة عشر يومًا فاننا في وسط الوحول والثلوج بلا نبيذ ولا خبز ناكل البطاطة واللحم ونقطع مسافات طويلة ثم نرجع بدون اسباب الراحة والتعزية وفي الغالب نقاتل بالحراب والمدافع تدفع الرصاص وقطع الحديد علينا والتزمنا بان ننقل الجرحى بعجلات ثلجية مائتي ميل معرضين للهواء

وسكن نابوليون مذودًا قديمًا وسخًا في مكان اسمهُ اوستريدو وقال سافاري لو اقام نابوليون في احدى المدن الكبيرة عوضًا عن ذلك المكان حيث كان كل شيء تحت نظرهِ وهو قادر على تحريك جيشهِ حالاً لما تسنى لهُ القيام بما قام بهِ في شهر في اقل من ثلثة اشهر . ولم يحصر اعمالهُ في الاعمال الحربية والفتوحات ولكنهُ خصص قسمًا عظيمًا من وقتهِ لادارة امبراطوريتهِ البعيدة وكانت اوراق كل الوزراء ترسل اليهِ من باريس كل اسبوع وكان يصرف يوم وصولها في فحصها وارسال

اوامر دقيقة مفصلة . فكان يهتم باعظم الامور واصغرها . ونظمت ابيات كانوا يترنمون بها في قاعات التشخيص مدحاً له فحكم بعدم موافقتها وطلب نظم غيرها يكون فيها مدحة قليلاً وضمنها اراء مفيدة وقال اوفق المدح لي هو الذي يحرك في الامة الاميال الجيدة . وكان يعتني جداً في ملاحظة اعمال مجلس المعارف . وفي بعض الاجتماعات طعن هذا المجلس في ميرابو المتوفى . فكتب نابوليون الى فوشي اطلب اليك ان لا تسمح بحصول رد فعل في الراي العام و ينبغي ذكر ميرابو بالجميل . وتجري امور كثيرة في مجلس المعارف لا اسر بها . فمتى تزداد حكمتنا وتغلب علينا كرامة الاخلاق المسيحية فنبتعد عن الطعن في الجميع ومتى نمتنع عن ذكر امور مضت تحزن قلوب كثيرين . انتهى

وكان شديد الاعتناء بالمعارف وكتب الى لاسبيد عن مدرسة البنات في اكون : المقصود ان نربي النساء في تلك المدرسة فيصبحن زوجات وامهات عائلات قادرات على القيام بفروضهن فعلمهن الايمان لا البحث عن الامور العقلية فان ضعف دماغ المراة وتقلبات ارائها ومركزها في الهيئة الاجتماعية وضرورة تعليمها الانقياد وصفاء الباطن مما يجعل سطوة الدين لازمة لها واحب ان تخرج النساء من المدرسة فاضلات غير منقادات الى الزي والدلال صفاتهن الجاذبة صفاء القلب وكرامة الاخلاق . وآمر بتعليمهن التاريخ والمعاني والبيان ومن العلوم الطبيعية ما يخرجهن من ظلام الجهل وبعض اصول طبية ونباتية والرقص لا رقص قاعات الغناء والحساب والتطريز والخياطة . وعليهن ان يزرن بيوتهن بايديهن و يخطن قمصانهن وجواربهن واثوابهن وملابس رؤوسهن وان يتعلمن صنع الاثواب للاطفال لينتفعن بذلك عند ما تمس الحاجة اليه . فانني راغب في جعل اولئك البنات نساء نافعات

وقيل له ان مادام دوستايل رجعت الى باريس وانها تحاول مقاومة حكومته فامر باخراجها من فرنسا . وطلب اليه بعض اصدقائه بالحاح ان لا يطردها . فقال لهم لا بد من ذلك لئلا تجر بعض الاهالي الطائعين الى مضادة الحكومة فالتزم بان اقاصيهم بصرامة . وكتب عنها ما ياتي . انها امراة حاذقة جداً ذات مطامع كثيرة وعلى جانب عظيم من الخداع وحب التداخل وقيل انها لا تمتنع عن طرح اصدقائها في البحر لتتمكن من تخليصهم من الغرق . فالتزمت بان انفيها من البلاد لكونها ذات اميال غير معتدلة واقوال غير مرتبة . وهي التي جمعت كل قواها لتجعل لها تاثيراً في قائد جيش فرنسا في ايطاليا . وكتبت اليه وهي بعيدة عنه بدون ان تكون قد عرفته وكانت تعذبه وهو قريب منها . ولسوء حظها لم يجب ذلك القائد الا بعدم الاعتناء بها وهذا ذنب لا تصفح النساء عنه . و بعد ان عدت من ايطاليا لازمتني في وليمة عظيمة قام بها موسيو تاليرند فطلبت اليّ وانا محاط بكثيرين بان اقول لها من هي اعظم النساء في الدنيا فنظرت اليها واجبت بتانٍ ياسيدتي ان اعظمهن التي ولدت اولاداً كثيرين . فاضطربت في بادىء الامر وارادت ان تخلص نفسها من



الخزي بقولها سمعت انك لست من محبي النساء . فقلت لها اعذريني ياسيدتي اذا قلت انني احب امراتي حباً شديداً . ولا اقول انها كانت شريرة ولكنني اقول انها كانت ذات حيل لا تنفك عن العمل وعلى جانب عظيم من الحذق والنفوذ . انتهى . وكتب عنها ايضاً ان بينها امسى مكاناً لمضادتي وكان الناس يذهبون اليها ليتسلحوا بها لمقاومتي وحاولت جعل الناس يجاهرون بعداوتي . ومع ذلك لا انكر انها امراة حاذقة فهيمة تشتهر بين اهل القرون القادمة . واشير اليّ تكراراً بان اميل اليها لانها عدو قادر على الحاق الضرر وان اتحادها معي ينفعني وكانت قادرة على نفعي لو مدحتني عوضاً عن الطعن فيّ وكان مركزها وحذقها يجعلانها ذات نفوذ تام في الاجتماعات وهذا معلوم في باريس . وقد اوسعتني قذفاً ولا تنفك عن التنديد بي ومع ذلك لا اقول ان قلبها ردي فجرت حرب صغيرة بيني و بينها . انتهى

وقال عن الكتاب الذين طعنوا فيه أعددت لان اكون طعاماً لهم فلا اخاف الا قليلاً ان ابيت ضحية لهم فيعضون صخراً فان تاريخي حوادث والكلام وحدهُ لا يمحوها . ولا ينجح من يضادني ما لم يات بسلاح حوادث لسان حالها يطعن فيّ . فعند ذلك ابرز للقتال . اما الكتاب الذين لا يقدرون على ذلك فينعبون باطلاً ولو كانوا من احذق الناس فان شهرتي تغلب اكاذيبهم

قلنا انهُ كان يدبر امبراطوريتهُ وهو في اوستيرود ولم يغفل عن اصغر الامور وما ياتي هو بعض ما كتبهُ من هناك الى ناظر الداخلية . من الاسباب الفعالة التي تروج المعارف انشاء جريدة للتفنيد العادل المؤسس على نور المعرفة وعلى النوايا الحسنة بعيدة عن خشونة الطعن التي يليت بها الجرائد الموجودة وامست غير موافقة لصالح الامة الحقيقي . فالجرائد لا تفند الان لاجراء الاعتدال ونور الاختبار وتقوية اصحاب الاهلية فانها تفرغ جهدها في القلب والخراب . و ينبغي ان تنشر في الجرائد جمل مؤسسة على براهين ممزوجة بالفصاحة فتذيع مدح اصحاب الاهلية ولوم المقصرين فالاهلية ولو كانت قليلة ينبغي ان تحصل على المكافاة

وكتب ايضاً اليه ينبغي ان تعتني بانشاء مدرسة عامة عالية للمعارف وليس المقصود المعارف البديعية والمعانية ولكن الجغرافية والتاريخية يكون فيها على الاقل ٢٠ مدرساً يتصل بعضهم ببعض اتصالاً يجعلهم ينبوع المعارف المذكورة فيقدر كل من اراد ان يدرس زماناً من الازمنة التاريخية ان يدرسها بمراجعة الكتب والاثار والاخبار . والذي يرغب في السفر يتمكن من تعلم اصول حكومة البلاد التي يذهب اليها وعلومها ومحصولاتها وناسف اذ نرى الشبان الذين يطلبون اتقان فن او علم جاهرين في الظلام زماناً طويلاً فتذهب سنين من حياتهم سدى قبل ان يقفوا على الينابيع الحقيقية التي يوافقهم الاستقاء منها . وتاملت طويلاً في حالتهم وقد اختبرت احوالهم وشعرت باحتياجهم اثناء اشغالي الكثيرة الطويلة . انتهى

وكان يروم ان يشيد معبداً يسمى معبد مادلين فاتاهُ المهندسون برسوم كثيرة فبعد فحصها كتب ما ياتي . بعد ان فحصت بالتدقيق الرسوم الكثيرة التي طرحت امامي رايت الموافق منها رسم الموسيو فينون وهو وحدهُ يرضيني . فمرادي انشاء هيكل لا كنيسة فهل نقدر ان نبني كنيسة تشبه البانثيون او كنيسة نوتردام او كنيسة القديس بطرس في رومية . وينبغي ان يكون كل شيء فيهِ متيناً ثابتاً موافقاً للاحتفالات في كل زمان وساعة وان يكون العرش الامبراطوري فيهِ من رخام وان يكون فيهِ مقاعد رخامية للذين يدعون ومكان على شكل نصف دائرة للذين يقومون بالاشغال . ولا يكون فيهِ اثاث الا فرش المجالس . ويلزم ان يكون كل شيء من مرمر ورخام وحديد فينبغي ان يبحث في كل الولايات عن المرمر والرخام . فيستخدمان لانشاء ذلك الهيكل ولانشاآت اخرى صممت على انشائها . ولا يتم ذلك في اقل من ثلثين او اربعين او خمسين سنة ولا ينبغي ان ينفق عليهِ اكثر من ثلثة ملايين فرنك فان هيكل اثينا لم ينفق عليهِ الا نصف المبلغ المذكور تقريباً وانفق على البانثيون ١٥ مليون فرنك ولا اعلم كيف انفقت كلها ولا اعترض اذا انفق خمسة ملايين فرنك لبناء الهيكل المذكور . انتهى . فبني هيكل المادلين اكراماً للجيش العظيم . والصحيح انهُ كان مصماً على جعلهِ كفارة عن قتل لويس السادس عشر وماريا انطوانت امرأتهِ وغيرها من الذين هلكوا بتعديات الثورة ولكنهُ اخر اظهار ذلك الى ان يخمد هيجانها

وعرف نابوليون ان موسيو بارتوله الذي كان يعتبرهُ بسبب معارفهِ بات في ضيق مالي فكتب اليهِ يقول بلغني انك محتاج الى مائة وخمسين الف فرنك فقد امرت صرافي ان يجعل المبلغ المذكور تحت امرك . وقد سررت جداً بسنوح هذه الفرصة لاتمكن من نفعك ومن ان ابين لك بانني اعتبرك . انتهى

وكان معيناً رجالاً يخبرونهُ بالامور وكانوا من اهل المعارف والادراك وكان يدفع لهم اجرة كثيرة ويقرا كتاباتهم بتانٍ فبلغهُ بها انهُ وقع خلاف في قاعة التشخيص بالغنا وان القوم يميلون الى ان يضايقوا رجلاً صناعياً مسكيناً لانهُ لم ينجح في صنع تزيينات كان مشتغلاً بها . فكتب نابوليون الى ناظر الضابطة لا اسمح بان يبيت موسيو — ضحية الصدفة ومن عادني حماية المنكودي الحظ . فان صعدت المشخصات الى الغيم او لم يصعدن لا اسمح بان يكون ذلك واسطة للخادعات . انتهى

وطعنت جريدتان طعناً شديداً في اهل الحكمة وقال نابوليون ان طعنهم كان مضراً فكتب ينبغي ان تكون رئاسة ادارة الجريدتين المذكورتين في ايدي قوم متيقظين مدركين فانهما تؤثران في الامور الدينية حتى تصير تعصباً فعوضاً عن ان تطعنا في اراء بعض الحكماء غير المعتدلة تطعنان في الحكمة البشرية والمعارف وعوضاً عن ان تجعلا حدوداً لكتابات هذا العصر بالتفنيد



الصحيح تكتبان ما يقرر في عقول الناس بانهما بلا فائدة . انتهى

وكان قد اتى الجيش باسباب الراحة التي يتيسر الحصول عليها في معسكر كذلك المعسكر بحذقهِ وسابق اهتمامهِ . وكان الجيش الروسي يكاد يموت جوعاً فكان يجول افواجاً من قرية الى قرية يسلبون ويتعدون على اهلها وكان الجوع يحمل بعضهم على المجيء الى المعسكر الفرنسوي وطلب الخبز منهُ . وكانوا يفهمونهم بالاشارات بانهم منذ ايام لم ياكلوا شيئاً . فكان الجنود الفرنسويون يقابلونهم كانهم اخوتهم ويطعمونهم كفاءتهم

وكان نابوليون بود ترويج الصناعة في باريس فامر بصنع مقدار وافر من الاحذية ورباطات العجلات وعجلات المدافع . وكان ينقلها كلها مع الذخائر والزاد من فرنسا الى قلب بولونيا في وسط فصل الشتاء في بلدان مضادة لهُ فيها فرق كثيرة تقوم بالتعدي والسلب فاخترع واسطة بسيطة موثرة تدل على حذقهِ ودرايتهِ . فانهُ كان قد راى اثناء مروره بالوحول الى الاماكن الصعبة ان سائقي العجلات يهملون اعمالهم ويخافون المخاطر ويتجنبون الاتعاب فكانوا كسائقي المدافع قبل ان اصلح احوالهم فصمم على اصلاحهم ورفع درجتهم بعد ان كانوا كنعلة من رتبة دنية فجعلهم جيشاً مفتخراً جداً وسماهم جيش الارتال والبسهم ملابس عسكرية فحرك فيهم الحمية والشجاعة . فكانوا يقطعون مسافة شهرين بين باريس والفستولا بنشاط وهمة ومعهم خزائن ثمينة وكانوا يدافعون عن عجلاتهم كما كان يدافع جنود المدافع عن مدافعهم وجيش المشاة والفرسان عن راياتهم وبلغوا من الحمية مبلغاً عظيماً جداً لانهُ كان قد نخها في صدورهم بتدابيرهِ المصيبة فاصبحوا لا يبالون بالتعب ولا بالمخاطر

فهذه من الامور الكثيرة التي كان يعتني نابوليون بها حال كونهِ مع جيشهِ في وسط ثلوج بولونيا وعيون كل اوربا تنظر اليهِ واعداؤهُ ترتعد فرائصهم بمشاهدة نتائج اعمالهِ وانشاآتهِ وامبراطوريتهُ البعيدة تداريهِ كانهُ في قصر التويلري في باريس وكان حاملاً من اثقال الاعمال والادارة شيئاً كثيراً لم يحتمل قدرهُ عقل بشري فان مسئولية سقوط دول وانهاض دول ملقى على عاتقهِ ومع ذلك لك لم يمض يوم تقريباً بدون ان يكتب الى زوجتهِ جوزفين . وفي بعض الايام كان يبعث اليها برسالتين . وهذه بعض رسالاتهِ

من بوزن في ٢ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٦

هذا يوم التذكار السنوي لمعركة اوسترلتس وقد حضرت اجتماعاً في المدينة . السماء تمطر . انا متمتع بالصحة . انني احبك واتمنى قربك . ان النساء البولونيات جميعهن فرنسويات غير انهُ ليس لي غير امراة واحدة فهل ترغبين ان تعرفيها . انني قادر على ان اصفها لك غير انني التزم بان امدحها كثيراً قبل ان تقدري ان تعرفي انك انت هي . ان الليالي هنا طويلة وانا وحدي انني بامانة لك

(نابوليون)

من بوزن في ٢ منهُ الظهر

وردت عليَّ رسالتك المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) رايت فيها شيئين . اولاً قلت انني لا اقرأ رسالاتك . فهذه تهمة لا تليق بحنوك فلا اشكرك على هذه التهمة الملومة . ثانياً قلت ان اهمالي الكتابة اليك ناشئ عن اهتمامي بغيرك . ومع ذلك تقولين ان الغيرة لم تحرك فيك . ورايت منذ زمان طويل ان المغتاظين يقولون انهم غير مغتاظين وان الخائفين يقولون انهم لا يخافون وهذا يثبت تحرك عنصر الغيرة فيك . وقد سرني ذلك واقول انك قد اخطات فانني اهتم بكل شيء خلا ما انهمتني بهِ والانسان قلما يتمكن من الاهتمام بالجمال في قفار بولونيا . عندت امس مادبة رقص لاكابر الولاية . وحضرها نساء كثيرات جميلات ورايت عدداً وافراً بعضهن غنيات واكثرهن يلبسن ملابس غير منتظمة . استودعك الله يامحبوبتي . انني متمتع بالصحة وانا بجملتي لك

(نابوليون

من بوزن في ٣ منهُ بعد الغروب

وردت عليَّ رسالتك المؤرخة في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ورايت بها ان راسك الصغير بات متقلباً وتذكرت ما قيل من ان شوق المراة نار آكلة . فمن الواجب ان تصبري نفسك وقد كتبت اليك بانني في بولونيا وانك تقدرين ان تاتي الى هنا بعد ان نقيم معسكرنا الشتوي ولا بد من ان ننتظر بضعة ايام . وكلما عظم الانسان يقل اقتدارهُ على ان يفعل ما يشاء وعرفت من حدة رسالتك انكن جميعاً ايتها النساء الجميلات لا تعترفن بالموانع . فانهُ لا بد من حصولك على ما ترغبين . اما انا فاقر بانني عبد رق في ضيق فان مولاي لا يشفق ومولاي هو طبيعة الاشياء . يامحبوبتي انني استودعك الله . فكوني سعيدة . اما التي ارغب ان اكلمك بخصوصها فهي مادام فان الجميع يطعنون فيها . ويقال لي بتاكيد انها امراة بروسية اكثر ماهي فرنسوية . ولا اصدق ذلك . واظن انها سخيفة العقل كثيرة المزح . انني بجملتي لك (نابوليون)

من جوليمين في ٢٩ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٦ بعد نصف الليل بخمس ساعات

لا اقدر ان اكتب اليك الا رسالة قصيرة يامحبوبتي انني في مذود دني . وكسرت الروسيين واخذت منهم ٣٠ مدفعاً وذخائرهم وستة الاف اسير ان الرياح شديدة والمطر غزير فنغرق في الوحل حتى ركابنا . بعد يومين نكون في وارسو فاكتب اليك منها . بكليتي لك

(نابوليون

من وارسو في ١٨ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨٠٧

اخاف ان تكوني تكدرت جداً من اطالة زمان الفراق اسابيع كثيرة . فعليك ان تصبري وسمعت انك تنوحين على الدوام . فهذا لا يليق بك . وقد تكدرت جداً من رسالتك المؤرخة



في ٧ الجاري . فتجلدي لتبيني انك تستحقينني وتظاهري في باريس بما يوافق وينبغي ان تعتصمي بالقناعة . انني متمتع بصحة جيدة جداً واحبك حباً شديداً . ولكن اذا داومت البكاء احكم بانك بلا شجاعة وبلا جلد . ولا احب الذين بلا حمية فعلى الامبراطورة ان تكون ثابتة العزم

(نابوليون)

ومنها في ٢٢ من ذلك الشهر

وردت علي رسالتك المورخة في ١٥ الجاري . ولا اسمح للنساء باحتمال مشقات سفر كهذا السفر فان الطرق متعبة كثيرة الوحول والخطر فارجعي الى باريس واقيمي فيها بسرور وقناعة ولم اقدر ان امنع نفسي عن الضحك لما قرات ما قلت من انك اقترنت برجل لتعيشي معهُ . وكنت اظن بجهلي ان المراة خلقت للرجل والرجل لبلادهِ وعائلتهِ ولمجدهِ فاعذريني لانني كنت جاهلاً فالانسان يستفيد دائماً من معاشرة نسائنا . استودعك الله يامحبوبتي وتصوري شدة كدري من عدم اقتداري على ان ادعوك الى هنا فقولي في نفسك هذا دليل على انني محبوبة جداً منهُ

(نابوليون)

بدون تاريخ

يامحبوبتي تكدرت جداً من رسالتك المؤرخة في ٢٠ كانون الثاني (جانفيه) وهذا شر ينقض الاختصاص بالغير . اما قلت ان سعادتي تاتي بمجدي . فهذا لا ينطبق على كرامة الاخلاق والصحيح ان مجدي يقوم بسعادة الاخرين . فكلامك لا يوافق فروض الزواج . فقولي سعادة زوجي تاتي بمجدي وهذا لا يوافق الفروض الوالدية . فقولي ان مجدي يقوم بسعادة اولادي . ولما كان زوجك واولادك لا يقدرون ان يكونوا سعداء بدون قليل من المجد لا يلزم ان تستخفي بالمجد يا جوزفين ان قلبك صاف جداً على ان ادراكك ضعيف . قوة التمييز فيك ولكن حكمة مفاوضاتك اقل من قوة تمييزك . اكتفينا باظهار العيوب . فارغب ان تكوني سعيدة متمتعة بنصيبك وان تطيعي بدون تذمر وبكاء مع فرح القلب والارتضا من الجميع . استودعك الله يامحبوبتي انني ذاهب في هذه الليلة لاجول في مراكز الطليعة

(نابوليون)

وفي ٢٧ اذار (مارس) كتب اليها من معسكرهِ في اوستيرود ارغب ان اراك واعيش مستكناً اكثر مما ترغبين انت . فان اشغالي غير منحصرة بالحرب ولكن فروضي . نفضلة عندي على كل شيء . وقد ابعدت نفسي حياتي بطولها عن راحتي وصوالحي وسعادتي لاجابة دواعي ما قدر عليَّ . انتهى

وكان نابوليون يحب سميهُ الصغير جداً وذكرهُ مرات كثيرة في رسالاتهِ وهو ابن لويس اخيهِ وهورتنس بنت جوزفين . وكان قد ادرك سن الخمس سنوات وكان جميلاً جداً ذا صفات حسنة

ونشاط ونباهة منصتًا بما كان يحمل نابوليون عمهُ على حبهِ فصمم على جعلهِ ولي عهدهِ وعدل عن طلاق زوجتهِ جوزفين . ففي اول الربيع من السنة المذكورة اصيب بالخناق ومات . فسمع نابوليون بهذا الخبر المكدر وهو في المذود المظلم الذي كان نازلاً فيهِ في اوستيرود فحزن جدًّا وانقطع املهُ فجلس ساكتًا وغطى وجههُ بيديهِ حتى ظهر للقوم انهُ كان مولعًا جدًّا فلم يدن احد منهُ بل تركوهُ على حالهِ

وكان نابوليون حينئذٍ اعظم امبراطور في اوربا على انهُ لم يكن لهُ وريث فلو مات لامست فرنسا في اسوإ حال لان القواد اهل المطامع كانوا كثيرين فاذا بات تخت الملك فارغًا ياخذون يتقاتلون عليهِ . فقال في نفسهِ بحزن في صوت منخفض لمن اترك هذا كلهُ . وكان نابوليون من اهل المطامع يرغب في تخليد اسمهِ فيقال انهُ اعظم مخلص فازت بهِ فرنسا . وكان مستعدًّا ان يضحي راحتهُ وصحتهُ وحبهُ وحياتهُ القليلة القيمة عندهُ لنوال مرادهِ . ولم يكن يحب مخلوقًا كما يحب جوزفين وخدع نفسهُ بتوهمهِ ان اعظم ضحية لخدمة فرنسا تكون تضحية حبهِ لها على مذبح وطنهِ اذ تيقن انهُ لا بد من الرجوع الى طلاق جوزفين . فاخذ حب جوزفين ورغبتهُ في تاسيس دولة ثابتة يتنازعان في قلبهِ اي نزاع . وكان على جانب عظيم من التجلد والصبر وثبات العزم ومع ذلك ظهر اشتغال افكارهِ باصفرار خديهِ وفقدان شهوة الاكل وتسلط السهاد عليهِ . اما جوزفين فعرفت نتيجة موت ذلك الولد فحزنت جدًّا وكانت تطوي الليل والنهار بالبكاء . وكان اسم ذلك الولد شارل نابوليون برنس هولاندة الملكي فمات في هاغ في ٥ ايار (مايس) سنة ١٨٠٧ وهو شقيق لويس نابوليون الذي صار امبراطور فرنسا الثالث . فلما سمع نابوليون بموتهِ كتب الى جوزفين بما ياتي

في ١٤ ايار (مايس) سنة ١٨٠٧

شعرت بالحزن الشديد الذي خامر فوادك بسبب موت نابوليون المسكين وانت تقدرين على ادراك شدة حزني . وياحبذا لو كنت معك لاعزيك واجعل حزنك معتدلاً موافقًا للتعقل فقد فزت بسعادة ناتجة عن عدم البلوى بفقدان اولادك . غير ان ذلك ملازم للحالة البشرية الكثيرة الاوجاع فمكنيني من ان اسمع بانك قد سلكت سبل الرشاد والتعقل وحصلت على السكينة . فهل تريدين ان تعظمي حزني . استودعك الله يامحبوبتي (نابوليون)

وكتب الى هورتنس ام الولد وهي بنت جوزفين

يابنتي ان اخبار هاغ تودن بانك حدت عن الصواب ويحق لك ان تحزني لكن ينبغي ان يكون لحزنك حد فلا تضعفي جسمك واطلبي التعزية واعلمي ان الحياة محاطة بمخاطر كثيرة وربما كانت بنبوع مصائب عديدة فالموت ليس هو اعظم شرورها

والدك الحنون نابوليون



وبعد ذلك باربعة ايام كتب الى جوزفين زوجتهِ ما ياتي

في ٢٥ ايار (مايس) سنة ١٨٠٧

وردت عليَّ رسالتك من لاكن وتكدرت فان حزنك لم يزل عظيماً وهورتنس لم تاتك بعد وقد حادت عن الصواب ولا تستحق ان تحب لانها لا تحب غير اولادها . فاجهدي نفسك في سبيل التعزية ولا تكدريني فلا بد من ان نجد تعزية عن كل مصاب لا سبيل الى ردهِ . استودعك الله يامحبوبتي . بكليتي لك (نابوليون)

وفي ٢ حزيران (جون) كتب الى هورتنس بما ياتي

يابنتي منذ بليت بحزنك العادل العظيم لم تكتبي اليَّ كلمة واحدة . وقد نسيت كل شيء كانهُ ليس لك خسارة اخرى وقد بلغني انك امسيت لا تحبين شيئًا ولا تبالين بشيء . وقد تاكدت ذلك بانقطاعك عن مكاتبتي . فهذا خطا وهو مخالف لما وعدتني بهِ . وقد ظهر بذلك انني انا وامك كالعدم عندك . فلو كنت في ما لميزون لشاركتك في حزنك وارغب ان ترجعي بنفسك الى احسن اصدقائك . استودعك الله يابنتي فلا بد من ان نعتصم بالصبر الجميل . فراعي حقوق صحتك لتتمكني من القيام بفروضك كلها . وزوجتي حزينة جدًّا من حالتك فلا تزيدي حزنها والدك الحنون

نابوليون

وكتب اليها ايضًا

يابنتي وردت عليَّ رسالتك من اورليان واحزانك احزنت فوادي وارغب ان تعتصمي بالصبر . فان الحياة هي احتمال الاوجاع وصاحب الباطن الصافي يجهد نفسهُ على الدوام ليتغلب على حاسياتهِ . ولا احب ان اراك لا تعدلين في معاملة لويس نابوليون الصغير ومعاملة اصدقائك وانا وامك نعلق الامل بان ننوز من قلبك بحب اعظم من حبك الحالي وفي ١٤ حزيران (جون) فزت بانتصار عظيم وانا متمتع بصحة جيدة واحبك حبًّا شديدًا استودعك الله يابنتي انني اقبلك من كل قلبي (نابوليون)

وكان نابوليون حينئذٍ في معسكرهِ في وسط ثلوج بولونيا منتظرًا فصل الربيع وكل قواهُ الجسدية والعقلية في شغل دائم وكان يجول في معسكراتهِ قاطعًا تسعين ميلاً في يوم واحد غائصًا في الثلوج والوحول محاطًا بالعواصف . وكان يخابر ارباب الخطط والقواد يوميًا بتنوية جيوشهِ وجلب الذخائر الكثيرة التي كان يحتاج اليها وكان ينظر بعين الاهتمام الى ما يجري في باريس ويدير جميع اعمال الحكومة فيها . وكان يصرف ليالي الشتاء الطويلة في تدبير وسائط للقيام بسياستهِ العامة المتعلقة بحمل الاعداء على ترك المحاربة ومجازاة الاصدقاء وعقد المحالفات وصيانة

فرنسا من وقوع الاهانات عليها

اما انكلترا فحاولت حمل الدولة العلية على الاتحاد معها في محاربة فرنسا ولم ينجح مساعيها بالمخابرات السياسية فاتخذت وسائل لا بد من ان تلام جدًّا عليها فارسلت بوارج انكليزية فدخلت بوغاز الدردنيل عنوة غير مبالية بمدافع العثمانيين ووقفت قبالة الاستانة العليه ومدافعها موجهة الى مساكنها الكثيرة وطلب الانكليز الى الباب العالي ان يطرد سفير فرنسا من العاصمة ويسلم الانكليز بوارجهُ وان يتحد معهم في محاربة فرنسا والا ففي نصف ساعة يجعل قاعدتهم رمادًا

وكان نابوليون قد اقام سفيرًا في الاستانة العلية قادرًا على ادارة الامور عند حلول المشاكل بحذقهِ وحسن تدبيرهِ واصابة ارائهِ وهو الجنرال سيبستياني فحرك الدولة العلية واضرم نار الحمية في فوادها وجعلها تخابر الانكليز لاكتساب الزمان وكل سكان المدينة كبارًا وصغارًا رجالاً ونساء مسلمين ونصارى كانوا يشتغلون في انشاء اسباب الدفاع. وكان المهندسون الفرنسويون يديرون الاعمال وفي اقل من اسبوع اقاموا على الحواجز ٩١٧ مدفعًا و٢٠٠ مدفع من المدافع الكبيرة جدًّا فالتزمت البوارج الانكليزية بان تعود قاطعة المضيق والمدافع العثمانية تطلق عليها وقتل من الانكليز في هذه الحملة الناتجة عن فحة لا مزيد عليها ٢٥٠ رجلاً وقرب الاتحاد بين العثمانيين والفرنسويين بعد هذا الفوز وسر نابوليون بهِ سرورًا عظيماً

وقال المورخ اليسون الانكليزي ان سفير انكلترا كان غائبًا بسبب الحمى التي اعترتهُ فناب عنهُ مستر ولسلي بول وجاء الباب العالي لابسًا ثياب الركوب وعصاهُ في يدهِ وقال انهُ اذا لم تحصل روسيا على مطاليبها تدخل البوارج الانكليزية الدردنيل وتجعل الاستانة رمادًا. انتهى. وجرى بعد ذلك ما تقدم ذكرهُ

وحل ٢٥ الفًا من جنود دول اوربا المتحدة في دنتسيك وكان نابوليون مهتمًا جدًّا بفتح المدينة المذكورة وسلم حصرها الى المارشال لوففر وضباطهِ. ومن مطالعة الرسالة الاتية يظهر تعقل نابوليون وحكمتهُ وحسن تدبيرهِ وهي باسم المارشال المذكور بشان حصر المدينة

لا تقدر على شي الا كشف اغلاط الاخرين واهانة حلفائنا وتغيير رايك عند بلوغ المشورة الاولى اليك. انك طلبت جنودًا فارسلتهم اليك ولا ازال اجهز غيرهم ولكنك كالكنود لا تزال تشكي بدون ان يخطر ببالك ان تشكرني وتعامل حلفاءنا ولا سيما البولونيين وجنود بادن معاملة خشنة مع انهم غير متعودين الثبات امام نيران الاسلحة وسيتعودون فهل تظن ان شجاعتنا سنة ١٧٩٢ كانت كشجاعتنا الان بعد ان حاربنا ١٥ سنة فينبغي ان نعذرهم فانك من الجنود القدماء فاعذر الصغار الذين ابتدأوا بالقتال وليس لهم ما لك من الثبات بدون مبالاة عند حلول المخاطر فبرنس بادن رفيقك اختار ترك لذات البلاط ليقود جنودهُ الى النار. فاحترمهُ واشكرهُ على غيرة



قلما تكون عند الذين هم مثلهُ. وصدور ابطالك الذين تحسبان تقتحم بهم كل جهة لا يهدم اسوارًا فينبغي ان تمكن المهندسين من القيام باعمالهم وان تصغي لمشورات الجنرال شاسلو فانهُ من اهل المعارف ولا ينبغي ان تمتنع عن الركون اليهِ بوشاية اصغر الفرسان مدعيًا بانك قادر ان تعلم ما لا يقدر ان يدركهُ فاحفظ شجاعة ابطالك الى ان تعلم بالتجربة متى تسنح الفرصة المناسبة لاستخدامهم وتعلم الاعتصام بالصبر الجميل. ولا ينبغي ان تريق دم الف رجل لانك تقدر ان تستغني عنهم لتعجل العمل بضعة ايام فكن متانيًا ثابتًا كما يليق بك اما مجدك فهو بفتح دنتسيك فافتحها وسترى مني ما يرضيك. انتهى

وفي ٢٦ ايار (مايس) سلمت دنتسيك بعد حصر شديد استمر ٥١ يومًا وكانت الدول المتحدة قد جمعت فيها ذخائر وزادًا كثيرًا فارسل نابوليون من مخازنها الى جيوشهِ في معسكرهِ مليون قنينة من النبيذ. وكان الثلج يذوب فلم يتيسر للجيوش المتحاربة ان ترجع الى القتال. فان المدافع الثقيلة لا تجر في الوحول العميقة وكان نابوليون بعيدًا عن باريس الف وخمسمائة ميل في بلاد واعداؤهُ فيها كثيرون اقوياء وهم روسيا وبروسيا واسوج وانكلترا ومع ذلك كان يقظهُ ونشاطهُ وحذقهُ تمكن جيشهُ من الحصول على جميع اسباب الراحة حال كون جيوش الدول المتحدة بتضايق جدًّا من الاحتياج الى امور كثيرة ولا سيما الطعام فنهبوا بلادًا واسعة للحصول على القوت وكانوا مائة واربعين الف جندي ومنهم مائة الف كانوا متاهبين للاجتماع في ميدان القتال. وكان مع نابوليون اربعمائة الف منتشرة في البلاد المتسعة التي فتحها مقيمة في قلاع التخوم الكبيرة. وكان قادرًا على جمع مائة وستين الفًا في ايام قليلة حيثما اراد بين نيامن والفستولا وبحسب جاري عادتهِ الناتجة عن اليقظة امر في اوائل ايار (مايس) كل فرق جيشهِ بان تتمرن يوميًا استعدادًا لتجديد الحرب. وفي اوائل حزيران (جون) حملت جنود الدول المتحدة بغتة خارجة من خنادقها قاصدة الاحاطة بجيش المارشال ناي الفرنسوي وتفريقهُ. وكان ذلك اشارة الى اجتماع جيوش نابوليون بعد ان كانت منتشرة في مكان طولهُ مائة وخمسون ميلاً فتقدموا ولاقوا الحاملين في كل جهة حتى ان اصوات المدافع وحمل الجنود وصليل السيوف كانت تسمع ليلاً ونهارًا من هنا ومن هناك الى ان دفعهم بنشاطهِ واقدامهِ فكان يكد ويجد كانهُ من حديد لا من دم ولحم. وكانت تدابيرهُ الحربية تاتي بالنتائج المطلوبة في كل مكان وتمكن من ان يجمع حيثما قامت الحرب عددًا اعظم من عدد اعدائهِ ثم طاردهم وهم منتشرون في الجبل وفي ضفاف الانهر وفي الغابات فصبغ الدم حقولاً بعد حقول وكانت الامهات يحملن اطفالهن ويتركن بيوتهن امام الويل المقبل. وكان الروسيون يقفون للقتال كلما وصلوا الى قرية فتروج سوق المنايا وتطلق المدافع عليها والبنادق هادمة البيوت محدرة الويل والهوان

الى ان تحترق وتتلاقى الرجال في الاسواق الملتهبة ويتقاتلون بالسيوف والحراب فامسى عشرة الاف بيت بدون سكان وكانت الكلل والرصاص تصيب النساء والاولاد ووطئوا الحقول المزروعة بارجلهم ومع ذلك كان ويل الحرب لاينقطع ولم تكن شفقة ولا التفات الى الدموع والتوسلات

ولا يحب صناعة الحرب الا كل شرير ولا سبيل الى تنقية الجيوش من الاشرار ولا تدفع تعدياتهم عن القرى والمدن . وترتعد فرائص الانسان اذا تامل بمصائب الحروب وبلاياها واضرارها والقتل في المعارك من اخفها . وكان نابوليون يشتغل بلا ملل حتى قال الناس ان اقتدارهُ يفوق اقتدار البشر فلم يكن يبالي بالتعاس ولا الجوع ولا التعب ولا المطر والوحل ولا بالظلام ولا بالعواصف فهلكت تحتهُ افراس كثيرة وكان هو واركان حربهِ كالبرق يتنقلون من مكان الى مكان محرضين الجنود ومدبرين امورهم مسافة خمسين فرسخًا

وابتدأت الحرب في ٥ حزيران (جون) واضرمت نهارًا وليلاً بدون انقطاع لان الروسيين كانوا يقاتلون بجد وشجاعة فكانوا يتقهقرون بالتدريج بغيظ وكرهٍ . وفي ١٠ من الشهر المذكور تمكنت جيوش الدول المتحدة من الاجتماع في حقول هانسبرغ عند ضفات نهر آر وهم تسعون الف رجل فاقاموا الحواجز وحفروا الخنادق وجعلوا مواقفهم منيعة حصينة واقاموا مائة مدفع ليدافعوا بها عن انفسهم وحشوها بالرصاص وقطع الحديد حتى افواهها ليطلقوها على الفرنسويين حين يدنون منهم في السهل فيهلكون صفوفهم . وهجم الفرنسويون على تلك المدافع غير مبالين بالمخاطر وهم يضجون ضجات الحمية والظفر وكانوا ثلثين الف جندي تحت قيادة مورات وناي ولم يكن نابوليون معهم ليشاهد الكثيرين الذين هلكوا من جيشهِ بتلك الحملة بدون داعٍ . فاطلق عليهم الروسيون تلك المدافع حال كونهم غير مستترين بشيء فهلكت كل الصفوف الاولية . ولم يرتدوا ولكنهم تقدموا كانهم ذاهبون الى فرح او وليمة وهم يدوسون تلالاً من القتلى ويخوضون في انهر من الدماء حتى بلغوا الحواجز وقتلوا جنود المدافع هتفوا قائلين النصر النصر . وسمعوا على غير انتظار صوت الحوافر وطبول الهجوم فرفعوا اعينهم واذا بجيش من فرسان الاعداء عددهُ عشرة الاف فارس هاجم عليهم فانقطع ضجيج النصر وتبعهُ ضوضا الهلاك والذين كانوا قد وصلوا الى الحواجز من الفرنسويين هلك اكثرهم ومع ذلك ثبتوا واستمر القتال الى ان خيم الظلام وغطى الدخان الكثيف ميدان الحرب بستار الويل والهوان وجرت الحرب بانوار المدافع . واخذ المطر يهطل كان السماء تبكي على شر الانسان الى نصف الليل ثم اخذ اطلاق المدافع يقل لان الجنود كادت تهلك من التعب بعد قتال لاقتال اشد منهُ استمر ١٢ ساعة فطاب لهم النوم بين القتلى والذين في حالة النزع والجرحى كانوا يئنون على ارض قد صبغتها دماء القلوب



البشرية . وفي اواخر الليل حضر نابوليون مسرعًا واغتاظ جدًا لما راى ان القائدين المذكورين قادا جيوشهما الى هلاك لم تمس الضرورة اليهِ . وفي الصباح اشتد البرد وكثر المطر وظهر بنور الشمس للجيشين منظر تقشعر منهُ الابدان وتتفتت القلوب حزنًا وليس بينهما الا نصف مسافة اطلاق مدفع وفي هذه المسافة الضيقة ١٨ الفًا من القتلى والجرحى من الجيشين . وسلب الاشرار من الذكور والاناث الذين لاينفكون عن مرافقة الجيوش ثياب كل القتلى وثياب كثيرين من الجرحى . وكانت تلك الاجساد العريانة المصبوغة بالدم مهشمة مكسرة بالكلل والرصاص مقطعة بالسيوف تشهد ببربرية الحرب وقساوة الذين يقومون بها . واتفق الفريقان في الصباح على ان ينفكا عن القتال لدفن القتلى والاعتناء بالجرحى فاخذ جنود الجيشين يختلطون كان لاعداوة بينهم ويشتركون في عمل الخير ومساعدة المصابين وبعد اتمام ذلك رجع كل منهم الى موقفهِ لتجديد القتال فوقف الروسيون وراء حواجزهم وفي خنادقهم والفرنسويون في السهل وكان نابوليون يرغب في حجب دما الناس فدبر بحذق لامزيد عليهِ امورًا حربية مكنتهُ من الهجوم على العدو من موخرتهِ فلما راى ذلك الروسيون التزموا بان يتقهقروا بدون ان يطلقوا بندقية واحدة وصرفوا كل ليل ١٢ حزيران (جون) في التقهقر حتى تعبوا جدًا ومع ذلك استمروا يتقهقرون النهار بطولهِ . على انهم التزموا بان يقفوا في سهول فردلند وعند ذلك راى نابوليون انهم قد وقعوا في يدهِ فانهُ كان قد حصرهم في زاوية نهر فامسوا لايقدرون على الهرب . وفي صباح اليوم الرابع عشر من ذلك الشهر ابتدات معركة فردلند فهجم الجيش الروسي على فرقة الجنرال لانز الفرنسوي هجوم الاسود معلقًا الامل باهلاكها قبل ان تتمكن الفرق الاخرى الفرنسوية من نجدتهِ وكان نابوليون بعيدًا عنهُ عشرة اميال ولما سمع اطلاق المدفع الاول بعث الى فرق جيشهِ في كل جهة بان تسرع الى نجدتها وعند الظهر صعد نابوليون على التلال ليرى القتال منها . فلما راى مركز الروسيين المحصورين في زاوية النهر وجنودهُ متقدمة من كل الجوانب ظهرت لوائح السرور على وجههِ وقال هذا هو الرابع عشر من شهر حزيران (جون) وهو كاليوم الذي انتصرنا فيهِ في مارنجو وهو يوم سعد . وكان لانز قد قاتل ثمانين الفًا من الروسيين بستة وعشرين الفًا من الفرنسويين . ولما وصل نابوليون الى تلك التلال اتاهُ الجنرال اودينو مسرعًا وقال يامولاي اسرع فان ابطالي قد باتوا في تعب ما بعدهُ الا الهلاك ولكن اذا اعطيتني نجدة ادفع الروسيين كلهم الى النهر . وكان الرصاص قد خرق ثياب ذلك القائد العنيد والبطل الصنديد في اماكن كثيرة والدم قد صبغ جوادهُ . فنظر اليهِ نابوليون بافتخار ثم اخذ ينظر الى ميدان الحرب بسكون وصمت وتانٍ . فقال لهُ احد ضباط جيشهِ الاوفق ان نوخر الهجوم برهة الى ان يصل كل الجيش ويستريح قليلاً . فقال نابوليون لافان الانسان لايلاقي عدوهُ مرتين في ضيق كهذا . فجمع القواد اليهِ وبين لهم الحملة التي رتبها بوضوح

ودقة لم يسبقهُ احد اليها. ثم امسك ذراع المارشال ناي واشار الى بلدة فردلند الصغيرة والجيوش الجرارة الروسية المجتمعة امامها وقال هاك العرين فاذهب اليهِ بدون ان تنظر الى ما حولك وادخلها واستول على الجسور بدون ان تبالي بما عن يمينك او يسارك او موخرتك فانني انا والجيش ساهتم بذلك. فسر ناي بهذا الهجوم العظيم الصعب فسار مسرعًا مفتخرًا فنظر اليهِ نابوليون وكان اشجع الشجعان ولما راى من منظرهِ الجميل ما راى قال ان هذا اسد. وكانت فرقتهُ ١٤ الف جندي فحمل بها على العدو حملة زلزلت السهول وباشارة واحدة حملت كل الصفوف الفرنسوية وكان منظر هجومها جميلاً جدًّا. فارتفعت اصوات كهزيم رعود متواصلة ووقف نابوليون في وسط الفرق التي حفظها احتياطيًا. فمرت فوق رؤوسهم كلة كبيرة على قرب من البنادق فاجفل جندي فتى فنظر اليهِ نابوليون باسمًا وقال لهُ ياصديقي لو كانت تلك الكلة لك لاصابتك ولو تخبات تحت الارض على عمق مائة قدم

وفي برهة قصيرة احترقت فردلند واستولى ناي عليها وحل في شوارعها التي كانت الدماء تجري فيها انهارًا. ولما خيم الظلام اشتد البلاء. وكان منظر ميدان القتال مخيفًا فانهُ قتل وجرح من الروسيين ٢٥ الفًا فتقهقروا الى جهة النهر والفرنسويون المنتصرون يطاردونهم وهم يهلكون صفوفهم باطلاق مدافع محشوة بقطع من الرصاص والفولاذ والحديد والكلل وبرصاص البنادق. وهدمت كل الجسور والانسان يعجز عن وصف ما جرى. فان الجسور كلها باتت مهدومة والجيش الروسي المتقهقر طرح نفسهُ في النهر فمنهم من وجد مخاضات فعبر النهر والمياه الى صدرهِ. ولما وصلوا الى البر اقاموا الحواجز على ان الوفًا غرقوا والشواطىء باتت مغطاة بجثث القتلى اميالاً وكان الرصاص يصبُّ على النهر والاقدام مزدحمة فيهِ كانهُ برد كثير ساقط من السماء فاحمر ماؤهُ بدم المصابين فتبدد شمل الدول المتحدة وباتت لاتقدر ان تمنع نابوليون عن التقدم واخذت بقايا الجيش المكسور تعبر النيامن وتلتجي الى براري روسيا والقواد الروسيون والجيش الروسي يتذمرون طالبين عقد الصلح فبعث الامبراطور اسكندر الروسي برسول الى نابوليون طالبًا عقد هدنة. فاجاب نابوليون في الحال انهُ لايطلب بعد تكبد ماتكبد من الاتعاب والمشقات والخسائر غير عقد صلح موافق لناموس الفرنسويين وانهُ يرتضي بعقد هدنة بامل ادراك المطلوب بعدها وهكذا انتهت تلك الحرب في عشرة ايام فنشر نابوليون الخطاب الاتي على جيوشهِ

يا ايها الجنود. ان الجيش الروسي حمل علينا ونحن في معسكرنا في ٥ حزيران (جون). والعدو لم يدرك سبب امتناعنا عن القتال قبل ذلك وراى بعد فوات الفرص ان سكوننا هو سكون الاسود. وقد ندم لانهُ كدرنا. وفي عشرة ايام غنمنا ١٢٠ مدفعًا وسبع رايات وقتلنا وجرحنا واسرنا ستين الفًا من الروسيين وغنمنا كل مخازن العدو ومستشفياتهِ النقالة وقلعة كونكسبرج



وثلثمائة سفينة وجدناها في المينا فيها ذخائر كثيرة من كل الانواع و١٦٠ الف بندقية ارسلتها انكلترا ليتسلح بها اعداؤنا وقد سرنا من شواطىء الفستولا الى شواطىء النيامن بسرعة النسور. وفي اوسترلتس قمتم بتذكار التتويج. وفي فردلند قمتم بتذكار معركة مارنجو باستحقاق لاننا انهينا حرب المحالفة الثانية

يا ايها الفرنسويون. انكم اهل لان تنتسبوا الى حسبكم واليَّ وستعودون الى فرنسا حاملين اكاليل النصر والمجد لانكم فزتم بالحصول على صلح مجيد فيهِ ضمانة الثبوت. وقد حان زمان تمتع بلادنا بالراحة مصونة من سطوة انكلترا الناتجة عن الحسد وسابين لكم شكري وهباتي الوافية بشدة حبي

## الفصل الرابع والثلاثون

### مخابرات وتقريرات

ولما وصل نابوليون الى شواطىء النيامن الفاصل بين اوربا وفيافي روسيا المتسعة اوقف جيوشهُ وذلك بعد خروجه من معسكر بولون بعشرين شهرًا وداس بها اواسط اوربا وانتصر على كل جيوش الدول المتحالفة وبلغ ذلك المكان بعد مضي الشتاء وابتدا جمال الصيف في تلك الاقطار الشديدة البرد. وكانت جنودهُ راقلة في اثواب النصر وافراحهِ راكنة اليهِ كل الركون محبة لهُ من صميم الفواد تتبعهُ اينما سار. وبات اعداؤهُ لايقدرون ان يدافعوا عن انفسهم. وكان اسكندر امبراطور روسيا وفردريك غليوم ملك بروسيا في الشاطىء الشمالي من ذلك النهر في حزن وكدر لامزيد عليهما ومعهما سبعون الفًا من بقايا جيوشهما الجرارة التي خسرت اكثر مدافعها وذخائرها وفي الجهة الثانية منهُ نابوليون في مائة وسبعين الفًا ورايات الفوز والنصر تخفق فوقهم

وفي الضفة اليسرى بلدة تلسيت الصغيرة واهلها نحو عشرة الاف نفس. ولما بلغها نابوليون وردت اليهِ رسالة الامبراطور اسكندر طالبًا المهادنة. وكان نابوليون قد غاب عن باريس نحو سنة محتملاً مشقات واتعابًا لايقدر القلم ان يصفها فاجاب طلبهُ. وجاءهُ المارشال كالكرون من قبل البروسيين طالبًا حلم المنتصر. فلاطفهُ وقال لهُ انك انت وحدك من كل القواد البروسيين عاملت الاسرى الفرنسويين معاملة موافقة للانسانية فلذلك واظهارًا لاعتباري وشكري اقبل بان اقطع القتال بدون الاصرار على استلام القلاع البروسية الباقية

هذا ولم يكن بين الفئتين غير النهر المذكور وكان نابوليون على حذر دائم فجمع جيشهُ وانشأ

حواجز وجمع ذخائر كثيرة واقام معسكر كانَّ الحرب لم تنقطع . وكان الملكان المكسوران يرغبان في سرعة التخابر فعين اليوم الخامس والعشرون من شهر حزيران (جون) للمقابلة الاولى . وقلما يجتمع في واحد حب الرياضيات والاداب وقد اجتمعا في نابوليون فانهُ كان يحب كل الفنون العالية والفنون الجميلة وكان يشعر بتاثيرات العظمة الادبية و يعلم كيف يجعلها توثر في الاخرين فان اثنين من اقوى ملوك الدنيا كانا مزمعين على الالتقاء ليقطعا القتال او يبقياهُ . فان جيوشهما القوية الجرارة صرفت سنة في حرب لم تر اوربا مثلها وسببت خرابًا عظيمًا . وامست تلك الجحافل وعددها كلها نحو مائتي الف على ضفتي ذلك النهر الضيق يقابل بعضها بعضًا . وكانت اوربا تنظر اليهم وكان نابوليون عارفًا بذلك فاستغنم سنوح الفرصة ليجعل تاثيرًا لا ينسى الى الابد . فامر بصنع فلك عظيم فاخر يقام في وسط النهر وجعل فيهِ من الاثاث افخرهُ وزينهُ باجمل زينة وابهاها وبذل مبلغًا وافرًا ليجعل الاتقان تامًا . واستمر الجيشان على الجانبين واجتمعت الوف من اهالي الاماكن المجاورة ليشاهدوا ذلك المنظر البهج وكانت الطبيعة تتبسم لهذا الاتفاق فان الشمس ظهرت بعظمتها غير العادية و بعد الظهر بساعة اطلقت المدافع من الجانبين عند نزول كل من الامبراطورين الى قاربهِ لياتي الفلك ومعهُ قليلون من القواد الكبار وتبعهُ الحشم والخدم في قوارب اخرى وجعل الفلك الجميل الكبير لاجتماع نابوليون واسكندر دون غيرهما واقام فلكين اخرين في مكان يبعد قليلاً عنهُ للقواد والحشم . فوصل نابوليون الى الفلك قبل اسكندر وسار حالاً الى الجانب الاخر منهُ ليستقبلهُ فلما اجتمعا قبل احدهما الاخر بلطف . وكان كل رجل من الجيشين ومن المجتمعين ينظر اليهما . فلما تلاقيا ضج مائتا الف رجل داعين لهما فخال القوم ان الجو قد تمزق . ولو اطلق الف مدفع لما سمع صوتها . فدخلا الفلك معًا واول ما قال الامبراطور اسكندر اني ابغض الانكليز بغضك لهم وانا مستعد لان اسير في سبيلك في كل ما تفعلهُ لمقاومتهم . قال نابوليون اذا كان هذا هو الواقع ينتهي كل شيء بسهولة و يتم الصلح . فاجتمعا ساعتين . وكان نابوليون قادرًا على جذب القلوب بعقلهِ ولطفهِ وقوة برهانهِ وفصاحة لسانهِ فجذب اسكندر اليهِ فقال لم احب رجلاً كما احببت نابوليون . وقال لهُ نابوليون الاوفق ان نتخابر بدون واسطة وزرائنا فان ذلك يمنع وقوع سوء المفهومية . وننهي في ساعة ما لا ينهى بواسطتهم في ايام ولا ينبغي ان يكون ثالث بيني وبينك

وكان عمر اسكندر ثلثين سنة وكان طماعًا ولما سمع ذلك من امبراطور فتح اوربا كلها وطار صيتهُ الى اقاصي الارض سرَّ وانشرح . فقال لهُ نابوليون الاوفق ان نجعل تلسيت متحايدة فتدخلها انت ونتفاوض بالاشغال . فقبل اسكندر بذلك بسرور واتفقا على نزول اسكندر وحراسهِ في شطر من المدينة ونابوليون في الشطر الاخر . فامر نابوليون في الحال باقامة اعظم



الاستعدادت اكرامًا للامبراطور فارسل اثاثًا من افخر الاثاث الى المكان الذي أُعد لهُ وهيأ لهُ كل اسباب الراحة

وفي غد ذلك اليوم اجتمع الامبراطوران ثانية في الفلك وكان ملك بروسيا المنكود الحظ مرافقًا لامبراطور روسيا . وكان ذا فكر خامل ومنظر غير مرضي وعقل قليل الادراك ففتح الحرب بدون مسوغ فامست مملكتهُ بيد ذلك الفاتح العظيم ولا يحق لهُ ان يسترد الا ما ارتضى نابوليون ان يعيدهُ اليهِ . اما اسكندر فكان يخابرهُ كمساوٍ لهُ لانهُ لم يفتح مملكتهُ وكانت هي وكل ما فيها في يدهِ فاجتمعا نصف ساعة فقط و بات ملك بروسيا في اضطراب شديد واراد ان يعتذر عن محاربة فرنسا وكان نابوليون كريم الاخلاق فلم يعظم ضيق عدوهِ المذل بالتوبيخ واللوم . واكتفى بالقول ان من اعظم المصائب ارتضاء بلاط برلين بطرح اوربا في نيران الحرب بالانقياد الى حيل انكلترا واتفق الامبراطوران على اتيان ملك بروسيا الى تلك البلدة ونزولهِ مع حليفهِ الروسي . و بعد انتهاء هذه المقابلة رجع الفريقان الى مكانيهما في ضفتي النهر

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر من ذلك اليوم عبر اسكندر النهر ليذهب الى منزلهِ . فسار نابوليون الى الشاطىء ليلاقيهُ فتقابلا كانهما صديقان قديمان و بالغ نابوليون في ملاطفتهِ وموانستهِ وقام الجيش الفرنسوي باكرامهِ احسن قيام وسير بهِ الى منزلهِ والمدافع تطلق والجيش الجرار يضج فتناول الطعام مع نابوليون . واتفقا على المواكلة كل يوم عند الامبراطور نابوليون وكان الامبراطور الروسي لطيفًا مهذبًا ودهش بعظمة نابوليون واقتداره على جذب القلوب . فبات باختيارهِ اسير الذي كان ينتصر على القلوب كما ينتصر على الجيوش وكان الامبراطوران يركبان كل يوم و يسيران على شاطىء النهر للتنزه و يتكلمان بحرية . وتقوت رباطات الصداقة والحب بينهما ولم يكتفيا بان ياكلا معًا كل يوم ولكنهما كانان يصرفان معظم اوقاتهما بالمفاوضة لوضع المعاهدة الصعبة . ولما راى قواد الجيشين وضباطهما الحب الجاري بين الامبراطورين توادوا وتحابوا وتصافوا وكانت الولائم في الجيشين متتابعة والافراح متواصلة واصبح المعسكران كمعسكر واحد . وكان الامبراطوران كلما مرَّا بالقرب من الصفوف تضج بسرور فليعش اسكندر فليعش نابوليون وفي ذات يوم قال نابوليون لاسكندر قد بلغ جنودي من الشجاعة غايتها غير انهم يميلون الى البحث عن احوالهم ميلاً متجاوزًا حدود الاعتدال فلو كان عندهم من الثبات والانقياد الاعمى ما عند الروسيين لضاقت الدنيا دون فتوحاتهم

وفي ذات يوم كان نابوليون واسكندر يمشيان معًا فمرا بحارس فرنسوي فسلم عليهما بالسلاح بكل اعتبار . وكان في وجههِ اثر جرح عظيم من سيف طويل ترك اثرًا من جبهتهِ الى ذقنهِ فنظر نابوليون اليهِ بشفقة ثم قال لاسكندر يا مولاي الاخ ماذا تقول في الجنود الذين يشفون من جراح

كهذا الجرح . فنظر اسكندر الى الجرح وقال وانت يامولاي الاخ ماذا تقول في الجنود الذين يقدرون ان يجرحوا جراحاً كهذا الجرح . فتذمر الحارس بدون ان يتغير منظر وجهه . فارتبك اسكندر برهة ثم نظر الى نابوليون وقال بلطف انك انتصرت في هذا المكان كما في سائر المواقع فقال نابوليون بدون تردد انني مدين لجنودي بالنصر

وكان الامبراطوران يصرفان ساعات كثيرة مجتمعين باسطين رسم العالم امامهما فدهش اسكندر بالاراء الجديدة التي اظهرها له نابوليون . وكان نابوليون قاصداً ان يبعده عن انكلترا ويجعله حليفاً لفرنسا . وفي ذات يوم قال له ما هي مقاصد انكلترا . اما هي راغبة في التسلط على التجار مع ان جميع الدول لها الحق فيها وقاصدة تنكيس رايات الدول المخابدة وحصر التجارة في نفسها والزام الامم الاخرى بدفع ثمن غلال المستعمرات مهما كانت اسعارها ووضع يدها على اواسط اوربا اينما ارادت كما وضعتها في البورتوغال والدانمرك واسوج والاستيلا على اعظم مراكز الدنيا كاستيلائها على راس الرجاء الصالح وجبل طارق ومالطة ومدخل البلطيك لتنفذ قوانينها في كل الدنيا التجارية . وهي الان تحاول فتح مصر ولو تمكنت من الاستيلاء على الدردنيل لساءت النتيجة انني اتهم بحب الحرب وهذا غير صحيح وانا مستعد لان اثبت ذلك فكن انت وسيطاً بيني وبين وزارة انكلترا وهذا يناسب مركزك لانك حليف انكلترا السابق وحليف فرنسا المستقبل . انني ارتضي بان اسلم مالطة فلتحافظ انكلترا عليها مقابلة لما حصلت عليه بعد نقضها معاهدة اميان ولا بد لها من رد المهاجر التي اخذتها من حليفتي وهما اسبانيا وهولاندة فارد هانوفر . اما هذه شروط عادلة هل اقدر ان اقبل غيرها . هل يسوغ ان اترك حلفاءي . ومن يعترض على اعتدال مطالبي ما دمت مستعداً الان اترك ما فتحته في اواسط اوربا لا يمكن حلفاءي من استرجاع ما خسروه فاذا رفضت انكلترا هذه الشروط ينبغي ان تجبر على قبولها . فلا يجوز ان تبقي العالم مبتلى بالحرب فاننا قادرون على اجبارها فاذا رفضت هذه الشروط العادلة فاتحد مع فرنسا واخبر الناس بانك تجعل قوتك متحدة مع قوتها للحصول على سلام يجري فتبيت انكلترا محاربة لكل اواسط اوربا اي لروسيا وبروسيا والدانمرك واسوج والبرتوغال لانه مفروض على هذه الدول بان تنقاد الى ارادتنا وتوافقنا التماسا متى رات انه لا بد من موافقتنا او محاربتنا فتعرض نفسها لحرب عمومية وهذا يجعلها تقبل بالصلح فتكون انت وسيطاً بيني وبين انكلترا واكون انا وسيطاً بينك وبين الباب العالي فاذا تمنع عن قبول شروط معتدلة اتحد معك عليه . انتهى

فلما سمع الامبراطور اسكندر هذا الكلام سرّ جداً وسلم اليه الامر بدون تردد لان عقل نابوليون تسلط على عقله بقوته وسمو مداركه . ولم ينتك عن اظهار الدهشة بما راه من نابوليون فقال ما اعظم ذلك الرجل وما اعقله وما اوسع اطلاعه وما احذقه في فن الحرب وفن السياسة



ولو عرفته قبل الان لخلصني من مصائب كثيرة وقمنا بامور عظيمة جداً

اما ملك بروسيا المنكود الحظ فكان الناس يشفقون عليه لانه بات بدون مملكة ولا جيش يطالب الى نابوليون ان يتصدق عليه بما تحمله كرامة اخلاقه على ان يهبه اياه . وكان منفرداً ذليلاً وكان يثقل على رفيقيه الامبراطورين . وكان نابوليون يكرمه ويلاطفه ويعتبره . وكان الامبراطوران وملك بروسيا يركبون افراساً ويخرجون للتنزه في اكثر الايام ونابوليون يسير بينهما . وملك بروسيا لا يقدر ان يساويهما على الدوام في المسير ولعله عدّ نفسه مثقلاً عليهما مانعاً لحديثهما فكان يتاخر في المسير عنهما . قال نابوليون وطالما تذمر اسكندر من صحبة رفيقه لان ظهور حزنه يكدر سرورنا . فكنا نخرج من الولائم في اول السهرة مدعين بالشغل في البيت وكنت انا واسكندر لنشرب الشاي معاً وكنا غالباً نتسامر الى ما بعد نصف الليل

ولم يختلفا الا على امور شرقية ولم يكن اختلافهما عظيماً . اما ملكة بروسيا فانت تلسيت مع زوجها معلقة املها بالحصول على شروط اوفق من الشروط التي حصل زوجها عليها بواسطة جمالها ولطفها وحسن معاشرتها . وكانت من اجمل نساء ذلك الزمان مزينة وهي في سن الثلثين برقة ودلال ولطف جعلتها مشهورة في اوربا . وقال نابوليون عنها كانت ملكة بروسيا ذات حذق ومعارف كثيرة وادراك لامور غير عادي . وكانت مدبرة اشغال المملكة . وبالحقيقة انني كنت افرغ جهدي في اتقان الحديث ومع ذلك كانت صاحبة الكلام تتكلم عما يخطر لها بلطف وحذق يمنعان جليسها عن ان يتكدر منها ولو وصلت في اول الامر لاثرت في نتائج مخابرتنا على ان حسن الحظ جعلها تتاخر الى ان قررنا كل شيء . ولما وصلت زرتها . فرايت جمالها ولكن كانت قد فقدت قليلاً من رونق النضوة . ولا تجعل للجمال واللطف دخلاً في امور الدولة . وكتب الى جوزفين ان ملكة بروسيا هي بالفعل امراة لطيفة تحب ان تلاطفني فلا تغاري فانني كالصمغ المانع لدخول الماء فهذه الامور تقع عليّ بدون ان تدخل فاذا سلمت نفسي الى امور كهذه التزم بان احمل اثقالاً كثيرة . انتهى . ولما رات تلك الملكة ان اجنحة دانها ذهبت سدى وان كل شيء قد اصبح مقرراً تكدرت جداً . وفي نهاية الوليمة الاخيرة نزل معها نابوليون الى اخر درجة من السلم فلما وصلا الى هناك وقفت وتفرست في عينيه وشدت يدها على يده وقالت من يصدق انني حظيت بمواجهة بطل هذا الزمان ولم يمكني من ان اثبت له اني مختصة به . فقال نابوليون ياسيدتي انني متاسف من ذلك وهو من نحسي ولما وصلت الى عجلتها طرحت نفسها فيها وغطت وجهها بيديها وسارت وهي تبكي بكاء مراً . واشتد عليها الحزن فماتت بعد ذلك ببرهة ليست بطويلة . فان تحريضاتها جعلت بروسيا تشهر الحرب ونفسها المفتخرة لم تقدر ان تحتمل الخراب الذي اوقعت فيه عائلتها وبلادها

اما المعاهدة التي عقدت فاشتهرت بمعاهدة تلسيت ومن شروطها ان يرد على ملك بروسيا نحو نصف مملكتهِ وما اخذهُ من بولونيا لما اقتسم هو وروسيا والنمسا تلك البلاد واقيمت دولة مستقلة اسمها دوقية وارسو وجعلت تحت حماية ملك سكسونيا . وحرر نابوليون كل الفلاحين الذين كانوا في العبودية وابطلها واطلق للاديان الحرية وخلص الاسرائيليين من الظلم الذي باتوا فيهِ فسر الاهالي بالتخلص من جور بروسيا والحصول على حرية عظيمة بالنسبة الى حريتهم . وكان نابوليون يود ان يرجع بولونيا كلها الى الاستقلال ولكن لم يقدر ان يحمل اسكندر على القبول بذلك . اما الولايات البروسية في الجهة الغربية من نهر الالب فجعلت مملكة وستفاليا وملك عليها احد اخوة نابوليون فبعد ان كانت بروسيا تسعة ملايين من الانفس امست خمسة ملايين وبعد ان كان دخلها ١٢٠ مليون فرنك امسى ٧٠ مليونًا . واعترف اسكندر باتحاد الرين وبملك نابلي وهولاندة ووستفاليا . وقبلت روسيا بان تتوسط الصلح عند انكلترا وفرنسا تعهدت بان تتوسط امور روسيا لدى الباب العالي وذلك لرجوع السلام الى الدنيا . وعقد اسكندر ونابوليون معاهدة دفاعية وهجومية . وهكذا عزم نابوليون ان يقوي مركزهُ ويصون نفسهُ من هجوم ربما قام بهِ اتحاد جديد من جهة الشمال

وقال قوم ان نابوليون اخطا وحاد عن سبيل الحكمة بترك ما ترك من القوة لبروسيا حال كونها كانت في قبضة يدهِ . ومنهم من قال انهُ سلك سبيل المطامع لانهُ اخذ منها ما اخذ . والتاريخ المعتدل يحكم انهُ بالنظر الى الاحوال التي بات فيها سلك مسالك الحكمة والاعتدال وكرامة الاخلاق ولم يفعل ما يدل على الانتقام مع انهُ وقعت عليهِ اضرار عظيمة ولكنهُ رغب ان يصون نفسهُ من هجمات مستقبلة

وبعد عقد هذه المعاهدة التي ادهشت عقول المؤرخين لانهُ لا يظهر فيها ميل نابوليون الى تكبير فرنسا دعا اليهِ سافاري وقال لهُ عقدت الصلح وقيل انني اخطأت وساري انني بت مخدوعًا . وبالحقيقة قد ضجرنا من الحرب وينبغي ان نستريح الدنيا فارسلك الان الى بطرسبرج الى ان اختار سفيرًا وساكتب الى اسكندر بخصوصك فتكون نائبًا عني لديهِ

فتذكر انني لا اريد ان احارب احدًا فاسلك المسلك الذي يوافق هذه القاعدة وساسر جدًا اذا لم توقعني في صعوبات جديدة وتجنب ما يكدر بكلامك . مثلاً لا تذكر الحرب مطلقًا . ولا تطعن في عادة ولا في نقص . فان لكل امة خصوصيات . ومن خطا الفرنسويين مقابلة كل العادات بعاداتهم بحيث يكونون هم المثال . وانت تعلم كيف ان النمسويين والبروسيين خدعوني . ولكنني اركن الى امبراطور روسيا

واقام نابوليون ١٥ شهرًا في ضفاف النيامن على بعد الف وخمسمائة ميل من باريس .



وبعد عقد تلك المعاهدة رتعت اواسط اوربا في سلام واصبح نابوليون في اعلى درجات النفوذ والاقتدار والتزمت اوربا بالاعتراف بامبراطوريتهِ بحذقهِ وانتصار جنودهِ الا انكلترا التي كانت بوارجها القاهرة تصونها وتمكنها من التسلط على البحار . ولم تنقطع عن العدوان ولا عن بذل الذهب والوسائل السياسية للحصول على اتحاد جديد مضاد لفرنسا ومع ذلك تمكن نابوليون بحذقهِ من مضايقتها . وكرهت الدول انكلترا من تعظمها وافتخارها . وقال المورخ هازلت ان تشكيات امبراطور الفرنسويين من تعديات انكلترا واهانتها كانت عادلة جدًا . انتهى . ورغبت دول اوربا في الزام انكلترا باعتبار حقوقها وغمد سيفها المغموس بالدم . على انها جمعت بوارجها التي لا تغلب حولها ووقفت غير مبالية بتهديدات الدنيا

وعاد نابوليون الى فرنسا ولما بلغ درسدن عاصمة سكسونيا كتب الى امرأتهِ جوزفين بما ياتي

امس بعد الظهر بخمس ساعات بلغت هذه المدينة صحيح الجسم بعد ان سافرت اكثر من مائة ساعة وانا الان مع ملك سكسونيا واحبهُ جدًا . وقد قطعت نصف المسافة التي تفصلنا . وربما كنت في ليلة من الليالي القادمة اهجم بغتة على سان كلو كالزوج الغيور فاحذري . انني اسر جدًا بمشاهدتك بكليتي لك

نابوليون

وفي صباح اليوم السابع والعشرين من شهر تموز ( جوليه ) الساعة السادسة قبل الظهر اخذ القوم يقرعون جرس الاثاليد مبشرين الباريسيين برجوع امبراطورهم . ولم يكن من الذين يبالون بالتعب وكان يحتقر الافتخار الفارغ فسافر ليلاً ودخل عاصمتهُ بدون ان يعلم احد بدخولهِ وفي الصباح ذاع خبر رجوعهِ في المدينة بسرعة البرق فقام الاهالي بافراح وقتية فانهُ كان قد خلص فرنسا من الظلم والتعديات والاحتياج ورفعها الى قمة التقدم واقر بفضلهِ العميم الاصدقاء والاعداء . وفي السهرة ظهرت انوار في كل طاقة وشرفة فان الاهالي زينوا اختياريًا ولم يبق في المدينة ليتمتع بهذا الاكرام العظيم ولكنهُ سار الى سان كلو بدون الحصول على راحة ساعة وجمع وزراءهُ واخذ يشتغل كانهُ عاد من مكان قريب سار اليهِ للتنزه . اما ركون الناس الى ثبوت امبراطورية نابوليون فدلت عليهِ اسعار قراطيس الدولة المالية . فانهُ لما تبوأ الرياسة كان سعر المائة ١٢ فلما عاد من فردلند بلغ ٩٢ وقبل خروجهِ من باريس للحرب التي ذكرناها خاطب الوزراء قائلاً انني بريء من هذه الحرب ولم افعل ما ياتي بها ولم تكن لي في حساب فلو طلبتها كنت كمن يطلب الانكسار . والاسباب الاولى التي تحملني على انتظار سقوط اعدائي ما اراهُ من وجود العناية الالهية في اعمالهم فانها تقاص المذنب فابعدت الحكمة عن اعمالهم فلما ارادوا ان يهاجموني لظنهم انني ضعيف اظلمت ابصارهم فهاجموني وانا في قوة عظيمة . انتهى

وقبل معركة جينا قام بحركات عسكرية بينت لهُ ان النصر يكون لجنوده . بدون ريب فاراد ان

بحجب دماء العباد فكتب الى ملك بروسيا ما ترجمتهُ ان فوزي اصبح من الامور التي لا ارتاب فيها وجنودك ستنكسر . ولكن باراقة دم اولادي . فاذا امكن حجبهُ بقبول ما لا يمس كرامة تاجي اقوم بما يتوقف عليَّ القيام بهِ . فان اعز الاشياء عندي بعد الناموس دم جنودي . انتهى

وبعد انكسار البروسيين وتفرقهم في جينا وورسنات نشر اخباراً ضمنها الكلام الاتي : الظاهر ان في قضاء الله ان الذين اضرموا نار هذه الحرب يبيتون مقطوعين بالضربة الاولى . انتهى

وعاد نابوليون الى باريس بعد انتصار لا مثيل لهُ في تواريخ العالم . وكانت لوائح السرور تلوح على وجههِ ولم يكن كذلك قبل هذا الوقت . وقال نا كدنا التمتع بسلام في اواسط اوربا والسلام البحري لا بد من الحصول عليهِ بعد برهة باتحاد الدول بارادتهم وبضرورة الاحوال فلنتمتع بعظمتنا ونحول انفسنا لنصير اهل صناعة وتجارة وقد اكتفيت من تجارة قيادة الجنود وساجعل تجاري تجارة وزير اول واشرع في عرض الاشغال العظيمة فانهُ قد حان زمان بدل عرض الجيوش بها . انتهى . وسار ومعهُ الامبراطورة وجميع وكلاء الدولة الى كنيسة نوتردام فاقيمت صلوات وترنيمات شكراً لله على سلام تلسيت

## الفصل الخامس والثلثون

### تدبيرات

واخذ نابوليون في معاطاة الاشغال باجتهاد وجد بدون ان يستريح يوماً واحداً قاصداً انماء فرنسا ونفوذها . وانتخب سفراء ووكلاء حاذقين وارسلهم الى بلدان اجنبية وصدرت اليهم اوامر منصلة بوضوح ليحملوا الدول على الاتحاد مع فرنسا لالزام انكلترا بعقد الصلح اذا امتنعت عن قبول الشروط التي كانت روسيا مزمعة ان تطلب تقريرها . وهذا امر لم يتيسر للدول ان تحافظ فيهِ على الحيادة . فان دول اواسط اوربا التي كانت لا تزال فاتحة مرافئها للمراكب الانكليزية كانت تسعف الانكليز حال كونهم محاربين والتي منعت مراكبها عن دخول فرضهم اتحدت مع الدول على تركهم الحرب والعدوان وبعد ان تخلص نابوليون من حروب اواسط اوربا العظيمة حول كل حذقهِ واقتدارهِ الى ذلك العدو العظيم القوي . اما حقوق المتحايدين فداسها الفريقان فان انكلترا تعدت على حقوقهم بمنعهم عن الاتجار مع فرنسا ومع حليفاتها . فبادر نابوليون الى منع كل المتحايدين وكل رعاياهُ عن ان يشتروا البضائع الانكليزية . وكانت هولاندة بلاد تجارية وكان لويس بونابرت شقيق نابوليون حنوناً لطيفاً صادقاً محباً لرعاياه الهولانديين منضلاً صالحهم على صالح اوربا عموماً فتردد عن انفاذ ما طلب اليهِ انفاذهُ فتكاثر تهريب البضائع في مملكتهِ فكتب اليهِ نابوليون بما ياتي



لا ينبغي ان تكون سياسة الملوك مشتغلة في الحال فقط لان الاستقبال يستحق اهتمامهم . فما هي احوال اوربا الان . هي انكلترا من جهة واحدة حاصلة باجتهادها وحدها على سطوة التزم العالم كلهُ قبل الان بان يخضع لها ومن جهة اخرى الامبراطورية الفرنسوية ودول اواسط اوربا التي مع اتحادها لا تقدر ان تبقى خاضعة لتسلط انكلترا عليها في البحار وكانت لتلك الدول تجارة بحرية ومهاجر وسواحلها اوسع من سواحل كل الممالك الانكليزية غير انها انشقت فضادت انكلترا كلاً منها على حدة فسادت في البحار وكسرت بوارجها . وامست روسيا واسوج وفرنسا واسبانيا لا تقدر ان تخرج بوارجها من ثغورها مع ان لها مراكب كثيرة وملاحين قادرين . احب السلام واحب الحصول عليهِ بكل الوسائط التي لا تمس كرامة فرنسا وببذل ما تمكننا كرامتنا الوطنية من بذلهِ وكل يوم ارى ما يعظم عندي الاحتياج الى السلام وكذلك دول اواسط اوربا ترغب فيهِ كما ارغب انا ولا اميل الى ضرر انكلترا حباً بالانتقام ولا ابغضها بغضاً قلبياً وقد اطالت مقاومتي واطلت مقاومتها في اواسط اوربا لا من حسد وطمع كما يتوهم البعض لكن لالزمها بان تساوي الخلاف الجاري فلا اعارضها اذا نجحت في اعمالها وجمعت ثروة عظيمة فان ذلك لا يعنيني اذا تمتعت فرنسا وحليفاتها بالامتياز الذي تتمتع هي بهِ فالتدبير الذي قمنا بهِ في اواسط اوربا غايتهُ الوحيدة تقريب الزمان الذي تثبت في حقوق اوربا وفرنسا العمومية . فدول الشمال انفذت الاتفاق المتعلق بمنع البضائع الانكليزية عن دخول بلادها فانتفعت تجارتها فالنسج البروسي اصبح يناظر نسجنا . وفرنسا مع جميع سواحل الامبراطورية الفرنسوية من جون ليون الى اقصى الادرياتيك تمنع دخول البضائع الاجنبية اليها . وقد صممت ان اقوم باعمال في اسبانيا ينشأ عنها اخذ البرتوغال من انكلترا وجعل كل السواحل الاسبانية في الشاطئين تابعة لسياسة فرنسا وعند ذلك تمنع كل سواحل اوربا دخول البضائع الانكليزية اليها خلا سواحل الدولة العثمانية وهي لا تهمني اذ ليس لها تجارة اوربية . فهذه الامور نبين النتائج المضرة التي تنشأ عن تسهيل هولاندة اسباب دخول البضائع الانكليزية الى اواسط اوربا . فانهُ يمكنها من جمع المال الذي تعطيهِ بعد ان تجمعهُ للدول لتحاربنا ولجلالتك من الصوالح ما لي في التحفظ من سياسة انكلترا الناتجة عن الاحتيال وبعد سنين قليلة ترغب انكلترا في السلام كما نرغب نحن فيهِ فلاحظ احوال مملكتك تنظر ان تلك التدابير تنفعها اكثر مما تنفع فرنسا فان هولاندة مملكة بحرية تجارية لها ثغور جميلة ومراكب وملاحون ورؤساء حاذقون ومهاجر لا تخسر عليها . واهاليها يعرفون احوال التجارة كالانكليز . فهذا مما يجعل الدفاع عن ذلك الامتياز من اعظم صوالحها . وربما كان السلام يرجع بها الى المركز الذي كانت فيهِ . واذا سلمنا ان مركزها يكون متعباً بضع سنين نقول التعب افضل من ان يمسي ملك هولاندة كوال عند ملك الانكليز ونبيت هي ومهاجرها خاضعة لسطوتها كانها تابعة لها . فصيانتك للتجارة

الانكليزية تاتي بتلك النتائج . وكفاك برهانًا ما امست فيهِ صقلية والبرتوغال فانتظر نتائج اعمال الزمان . وانت ترغب في بيع المسكرات الهولاندية للانكليز فعين المكان الذي يتمكن الانكليز الذين يهربون البضائع من ان ياتوه ليشتروها ولا تسمح لهم ان يبدلوها ببضائعهم بل الزمهم بان يدفعوا ثمنها نقودًا . فنحصل على السلام بعد هذا فتعاهد انكلترا تجاريًا وربما عاهدتها انا ايضًا فاجعلها ضمانة لصوالحنا ولصوالحكم . فاذا التزمنا بان نسمح لانكلترا بسيادة بحرية لانها اشترتها بدمها ومالها وهي نتيجة طبيعية لمركزها الجغرافي ولاملاكها في قارات العالم الثالث الاخر نصرُ على صيانة راياتنا في البحار من الاهانات وتنقطع المخاطر العظيمة عن تجارتنا البحرية . فعلينا ان نوجه اجتهادنا الى منع انكلترا عن المداخلة في امور اواسط اوربا . انتهى

واقام نابوليون برنسين اسبانيين على تخت اتروريا وكان الملك ضعيف العزم والعقل فمات في برهة قصيرة فقامت ملكة اتروريا بنت ملك اسبانيا بالوكالة عن ابنها . وكانت امراة ضعيفة الراي وعلى جانب عظيم من الطيش . ولم تدرك منافع التدابير التي شرع نابوليون فيها في اواسط اوربا فكانت البضائع الانكليزية تدخل ليغورنا كما لو كانت ثغرًا انكليزيًا وتنتشر في جميع اواسط اوربا فامر بونابرت اوجين بان يسير بجيش قدرهُ اربعة الاف و يقطع جبال الابنين بسرعة وينزل على ليغورنا ويحجز كل البضائع المختصة بالعدو وان يقوي ليغورنا بالتحصين ليحميها من الانكليز وان ينفذ الاعلان الذي نشرهُ بونابرت وهو في برلين . وهذا ظلم . ودافع نابوليون عن نفسهِ بقولهِ ان الدنيا كانت تطلب السلام وانكلترا صاحبة البحار لم يتيسر غلبها بقوة السلاح ولا شيء يحملها على طلب السلام الا مضادة تجارتها . واتحدت اوربا للوصول الى تلك النتيجة فلا يلزم ان تكون امراة ضعيفة العقل مالكة بالاسم في اتروريا واسطة لمنع نجاح مشروع عظيم كذلك المشروع

وكان لنابوليون شقيق اسمهُ جيروم وهو اصغر اخوتهِ وكان على جانب عظيم من الطيش ومن حب التنزه واللهو وكان قد ادرك من العمر ٢١ سنة وكان نابوليون مكدرًا جدًا من تبذيرهِ وسوء اعمالهِ . وسلمهُ رئاسة سفينة حربية صغيرة وكان يدعوهُ الشقي الصغير وفي ذات يوم كتب طالبًا نقودًا فاجابهُ نابوليون رايت رسالتك وفرغ صبري لانك خارج سفينتك فاريد ان اسمع انك فيها تمارس عملاً يكون علة مجدك . فاذا مت صغيرًا اتعزى ولكن اذا ادركت الستين بدون ان تخدم بلادك وبدون ان تترك ذكرًا ممدوحًا اقول بالبتهُ لم يولد . انتهى

وسار جيروم المذكور الى ان بلغ نيويورك من امركا فراى بنت تاجر متمول اسمها مس اليزابت باترسون وكانت جميلة فتزوجها . وكان نابوليون مهتمًا بتاسيس دولة جديدة وفي قوانين فرنسا ان زواجًا كهذا بدون رضى الحكومة حال كون المتزوج برنسًا ربما كان يحصل



تخت الملك اليهِ بالارث هو غير صحيح اي انهُ يعد كانهُ لم يعقد . وتقرر عند رجال الدولة الفرنسوية ان الامرا الامبراطوريين الذين ربما كان العرش يصل اليهم يجب ان يتزوجوا نساء تتقوى بهن مراكزهم فامتنع نابوليون عن ان يعترف بهذا الزواج وان يسمح لعروس اخيهِ الفتية بان تاتي فرنسا . فرجعت امهُ معهُ حزينة الى بلتيمور . ثم تزوج جيروم بنت ملك ورتمبرغ وجعلهُ اخوهُ نابوليون ملكًا على وستفاليا وابنهُ هو البرنس نابوليون المشهور الذي كان ولي عهد امبراطور فرنسا الثالث لو مات بدون ولد او لو مات ابنهُ بدون عقب

والحكومة الفرنسوية كانت ذات ثلثة مجالس وهي مجلس الشيوخ ومجلس الاحكام والمجلس القضاءي فصمم نابوليون على جعل الاخرين مجلسًا واحدًا . وقال ان اولها بلا نفع مع اننا كنا ننفق عليهِ نحو نصف مليون في السنة ولذلك الغينهُ . وكنت عالمًا بان الناس يتذمرون لانني تعديت النظام بابطالهِ ولكن كنت قويًا حاصلاً على ركون الناس وحسبت نفسي مصلحًا . وقمت بذلك مراعةً لما هو احسن . ولو كنت مرائيًا اوردي النية لانشات مجلسًا كذلك المجلس لانهُ كان يقرر ما ارغب في تقريرهِ . وهذا هو الذي كنت ابتعد عنهُ في الاحكام فانني لم اشترِ تحزبًا بالوعد باعطاء مال او توجيه خطة

واعتنى نابوليون جدًا بانتخاب اعضاء مجلسهِ المخصوص فجمع فيهِ احذق رجال الدولة من العارفين بالامور فكان ياتي بهم من اقطار بعيدة وقسمهُ الى اقسام بين قضائية ومدنية وحربية ودينية . وكان كلما فتح ولاية يختار احذق رجالها ليستعينوه في ادارة الامور . فاتى برجال من جنوا وفلورنسا وتورين وهولاندة وكانوا مشتهرين جدًا بالحذق والمعارف وحافظوا على مراكزهم بعده وكانوا عند رجوعهم الى بلدانهم يتقلدون اعظم المناصب

وكان مجلس الشورى يجتمع غالبًا في قصر التويلري وفي قصر سان كلو عندما كان يقيم نابوليون فيهِ . وكان غالبًا يترأس عليهِ ويجلس على كرسي بسيط مرفوع قدمًا عن الارض ويجلس الاعضاء حول موائد كثيرة طويلة . وكان نابوليون احيانًا يحني راسهُ على صدره كانهُ غائص في بحر من الهواجس لا يسمع المفاوضات وكان احيانًا يشغل جميع المجتمعين بخطبهِ وارائهِ المصيبة وحذقهِ وكان يخبرهم تارةً بتصميمهِ على حضور المفاوضات وطورًا يدخل القاعة بغتة . وكان الاعضاء يعلمون بحضورهِ بواسطة قرع الطبول عند وصولهِ الى سلم قصر التويلري . اما كرسيهُ فكان مهيأً على الدوام وفي غيابهِ كان الوزير الاول يجلس في كرسي بالقرب منهُ وعند الشروع في المفاوضات كان يغلق الباب فلا يدخل احد غير الاعضاء لئلا يلتهوا عن اشغالهم . ولم تكن تلوح على وجههِ لوائح الضجر ولا التعب ولو طال الاجتماع . وكثيرًا ما كان المجلس يبقى مجتمعًا في سان كلو من قبل الظهر بثلث ساعات الى ما بعدهُ بخمس ساعات بدون فرصة الاربع ساعة . وكان يترأس على جمعيات

اللجن في التويلري من قبل نصف الليل بساعتين الى ما بعده بخمس ساعات . وكان يستحم بعد ذلك فيجدد نشاطهُ و يشرع في الشغل بدون راحة الى المساء . وقال بهذا الشان ان الاستحمام ربع ساعة ينفعني قدر النوم اربع ساعات . وكان احيانًا يظن ان لغيره من القوة الجسدية والعقلية ما لهُ فيامر بتهيئة تقرير بين المساء والصباح اي في الليل . وكثيرًا ما طلب الى القانونيين تقرير قانون ليعرض للمجلس في ساعتين مع الاستعداد للكلام عليهِ وكان يخطب بسرعة عظيمة حتى ان الكتاب كانوا يقصرون فيلتزمون بان يكتبوا اوجهًا كثيرة بعد ان ينتهي من التكلم . ولم يكن اعضاء ذلك المجلس يعتنون بالفصاحة في الخطب فكانوا يخطبون خطبة بسيطة متقنة وسبب ذلك قصر الزمان وسرعة جري الاشغال . وانتظم في سلك عضويتهِ رجل بعد ان اشتهر في الظاهر بالفصاحة فلما خطب سخر الاعضاء بهِ لاعتنائهِ بالبديع فالتزم ان يقلع عن ذلك وان يخطب خطبًا بسيطة خالية من التكلف والتصنع . وكان كثيرون من اعضائهِ عارفين بالعلوم ومن احزاب سياسة مختلفة فان نابوليون كان يود ان يتخذ الوسائط التي تجعل الناس مع اختلاف ارائهم من حزب واحد وطني . اما الكلام فيهِ فلم يكن مقيدًا بشيء . وكان كثيرًا ما يلح على البعض بالتكلم بامل الوقوف على ارائهم والانتفاع بها . وفي ذات يوم دخل المجلس مضطربًا جدًّا لانهُ سمع بان الجيش الفرنسوي تحت قيادة الجنرال روبون سلم الى النمسويين وهذه هي المرة الاولى التي باتت جنود فرنسوية فيها في ذل في ذلك الزمان وكان يخبر الاعضاء بتلك المصيبة وصوتهُ يرتجف واظهر غيظًا شديدًا من الجنرال روبون واخذ يبين الوسائل التي كان يقدر ان ينجو الجنرال بها ولو بات في ارداء الاحوال فقال قد اصاب هوراس الاكبر المذكور في رواية كورنيل لما سالوه ماذا ينبغي ان يفعل ابنك قال كان اولى لهُ ان يموت او يستنجد باسًا شديدًا ليخلصهُ . فالذين يفندون كورنيل لا يعرفون احوال الطمع البشري لانهم لم يعرفوا انهُ اضعف تاثير الكلام الاول بما تبعهُ

وفي ذات يوم اخذ الجنرال كاسندي وكان رفيق نابوليون في جيش المدافع يحاول اثبات اراء اقتصادية وهمية . فقال لهُ نابوليون مستهزئًا يا جنرالي المحبوب من اين اكتسبت كل هذه المعارف . فاضطرب ثم اجابهُ يا مولاي لقد تعلمت القواعد منك فاجاب نابوليون بحدة كيف تعلمتها مني وقد طالما تقرر في عقلي لو اقمت مملكة اساسها الصخر لسحقتها اوهام اصحاب الاقتصاد السياسي . فالارجح يا ايها الجنرال انك قد نمت اثناء العمل فحلمت بذلك كلهِ . فقال ذلك الجنرال هل ننام اثناء القيام بفروضنا لا يا مولاي انني اراهن من يدعي انهُ يقدر على ذلك حال كون حضرتك تعذبنا جدًّا بالمشقات والاتعاب فمن يقدر ان ينام . فلما سمع القوم ذلك ضحكوا وضحك نابوليون معهم حتى استلقى على ظهره

وحوكمت امراة ثلث مرات على قتل وحكم ببرآءتها . ووقعت تقصيرات في المحاكمة الاخيرة



فطلب المدعون محاكمة رابعة . فسال نابوليون المحكمة ان لا تجيب طلبهم لان المراة تستحق التبرئة فضاد وحدهُ جميع اعضاء مجلس مشورة الدولة فقيل لهُ لك حق العفو ولكن لابد من انفاذ القوانين التي لا تغير وبعد ذلك اعفُ اذا شئت . فقال لهم يا سادتي ان حكمكم هو بالاكثرية فقد امسيت وحدي ولابد من ان انقاد الى ارادتكم على ان ضميري يقول لي انك انقدت مراعاة للاصول فقد اسكتموني ولم تقنعوني

وفي مفاوضة عنيفة عارضهُ احد الاعضاء ثلث مرات فالتفت الى المعارض وقال موبخًا يا موسيو ان كلامي لم ينتهِ بعد فارجوك ان تسمح بان اتممهُ فانهُ يحق لكل انسان هنا بان يبدي رايهُ . فلما سمع الاعضا هذا الجواب ضحكوا فضحك هو ايضًا معهم

وكان نابوليون يهتم جدًّا بالجرحى من جنوده و يعتني باولاد الذين يقتلون في الحرب كانهم اولادهُ و يتامل على الدوام في احوالهم و يتفكر في القيام بما يرضيهم لانهم خدموهُ بامانة واحتملوا مشقات واتعابًا عظيمة . وفي ذات يوم قال لمجلس مشورة الدولة ينبغي ان تعطى كل المراكز في الرسوم وادارات الاموال الاميرية للجرحى من الجنود الذين يقدرون ان يقوموا بخدمتها من الجندي الى صاحب ارفع خطة في الجيش فلم يرضَ الاعضاء بذلك فطلب اليهم ان يبدوا اراءهم بحرية . فقال موسيو مالو يا مولاي اخاف ان تتكدر الامة اذا رات الجيش مفضلاً . اجاب نابوليون يا موسيو انك ميزت الجيش عن الامة حيث لا امتياز فان الجيش من الامة فاننا في احوال لا تخلص فيها لاحد من الخدمة العسكرية . فالانتظام في سلك العسكرية ليس بالاختيار ولكنهُ ضروري واكثر الذين انخرطوا في سلكها التزموا بان يتركوا مصالحهم ومن العدل ان ينالوا مكافاة . فقال مالو الا يظن الناس انك مصمم على توجيه اكثر الخطط الفارغة الى الجنود . فقال نابوليون هذا هو قصدي فهل يحق لي ان افعل ذلك فان توجيه المناصب نظاميًّا بيدي . وعندي ان التعويض يلزم ان يحصل على من وقعت عليهِ الخسائر العظيمة . ثم قال الحرب ليست مهنة راحة وسكينة . فانكم تجلسون براحة في مجالسكم ولا تعرفونها الا بقراءة اخبارنا او بالاستماع بانتصارنا فلا تعرفون حراستنا الليلية ومسيرنا السريع والاتعاب والالام والاحتياجات التي نصاب بها وانا اعرفها فانني اراها وقد شاركت الجنود فيها . وكان مجتهدًا جدًّا في الحصول على مرادهِ واوضحهُ باجلى بيان والح على القوم بهِ ومع ذلك انقاد الى مضاديهِ وعدل عنهُ

وتبنى نابوليون اولاد جميع الجنود الذين قتلوا في معركة اوسترلتس وفوض اليهم اضافة اسم نابوليون الى اسمائهم . وفي ذات يوم اجتمع باحدهم وكان قد بلغ سن الفتوة وسالهُ عن المهنة التي يختارها لنفسهِ واشار الى منهة قبل ان يجيبهُ . فاجاب ان ما صادفهُ ابوهُ في المهنة العسكرية حملهُ على الابتعاد عنها . فاجاب نابوليون اما انا ابوك ايضًا . وكان نابوليون رحب الصدر والقلب كما كان عظيم

العقل شديد الادراك

وكان راغبًا في تنظيم امبراطوريته كلها عسكريًا للدفاع عن الوطن وقال الصنف الاول يكون من الشبان وعليهم في الحرب المسير الى القتال والثاني يكون مولفًا من المتزوجين الذين بلغوا السن المتوسط وتحصر اعمالهم في ولاياتهم . والثالث من الذين فاتوا السن المتوسط وتنحصر اعمالهم في بلدتهم او مدينتهم . وفي مفاوضة متعلقة بذلك بيّن ضرورة هذا النظام فان حذقهُ فتح ابواب الاستقبال امامهم فراى الخاطر تحدق بالامة فاراد ان يحتاط . وضاد احد اعضاء مجلس الوزراء هذا الراي بكلام مبهم . فقال لهُ ياموسيو تكلم بوضوح وجسارة وابن راءك بحرية فاننا وحدنا . فقال ان هذا النظام يوقع الرعب في قلوب الاهالي فان كل رجل يخاف ان يرى نفسهُ من الجنود الدفاعية لظنهِ انهُ عند ما تمس الحاجة يخرج الجيش الدفاعي من البلاد . فقال الامبراطور احسنت بتوضيح رايك . ثم نظر الى اعضاء المجلس وقال ياسادتي انكم جميعًا اباء عيال وعندكم ثروة عظيمة وفي ايديكم مناصب خطيرة ولا بد من ان يكون لكل منكم قوم كثير واذا كنتم غير قادرين على انفاذ ارادتكم فيهم تكونون من المقصرين ولا بد ان يكون لكم نفوذ في الناس فكيف يجهل الناس مقاصدي حال كونكم تعلمونها . فمتى رايتم الخداع مسندًا لسياستي فلست جبانًا انفذ غايتي بالمخادعة . وربما اخطأت بالاقتصار على اصدار الامر وترك التوضيح والتفسير لوكلاءي الذين ينفذون مقاصدي فهل يحق لي ان ارجع بالي من هذا القبيل . فلو كنت محتاجًا الى الجنود لطلبت الى مجلس الشيوخ بجسارة ان يجمعها فلا يمتنع عن انفاذ مطلوبي . واذا لم يجب اطلب الى الاهالي ان يقوموا بذلك فيتقاطرون الى جيوشي . والصحيح ان الامة الفرنسوية تحبني وتحترمني واذا سمعت ما ينقض ذلك يكون غير صحيح . وهي تدرك فلا تنقاد انقياد اعمى الى قول اعداءي . والامة الفرنسوية لاتعرف غيري مخلصًا لها فانها بواسطتي تتمتع بدون خوف بكل ما فازت بالحصول عليهِ فانني رفعت شان اولادها واخوتها وابائهم وامتهم الثروة والمجد والفخر . وبواسطتي لاتنثك عن الشغل وشغلها ياتي بالنتائج المطلوبة ولم افعل ما يمكنها من اتهامي بالظلم والامة رات ذلك اجمع وادركتهُ فتاكدوا انها تحافظ على ما تقرر لترقية اسباب رفاهيتها . فلا تخدعوا انفسكم بما سمعتموهُ عن المضادة فلا وجود لها الا بقاعات باريس ولا اثر لها في الامة . ولست بمصمم على اخراج جيش الدفاع او الحرس الوطني من البلاد فان افكاري في الحال مشغولة في توطيد اسباب الامنية والراحة والرفاهية . فهيا بنا لننظم الحرس الوطني . فيعلم كل رجل موقفهُ في ساعة الاحتياج وينبغي ان يحمل موسيو كامبسر الجالس هناك بندقية اذا مست الحاجة الى ذلك فتصبح الامة مبنية من حجارة وطين قادرة على دفع حملات الزمان والرجال

وشرع نابوليون بامور عظيمة نافعة جدًا يضيق المقام دون وصفها كلها . فانهُ مهد طرقًا طولها



اكثر من اربعين الف ميل وشرع في اكمال طريق سمبلون ومون سنس ومون جنفر وانشا اربعين جسرًا لايزال بعضها يحسب من اعظم اعمال اوربا وحفر ترعتين عظيمتين حتى صارت فرنسا كلها متصلة بعضها ببعض بالماء . وما انشا في انتورب لايزال يدهش العالم وفحص كل التلاع ورمم ما يحتاج منها الى الترميم وزين باريس بثلثين ينبوعًا من الماء وتكاثف الوف من النعلة على انشاء قنطرتي نصر فبنيتا كبناء الجن بالسرعة وهما قبة كاروسيل وقبة الانوال . ومن انشاآتهِ عمود فندوم وهيكل مادلين المشهور وواجهة قاعة المجلس القضاءي وقصر القطع الجديد . ولم تر فرنسا زمان نجاح وراحة كذلك الزمان فاشتهر امرهُ اي اشتهار وطار صيتهُ وعظم شانهُ . وكانت انكلترا تمنع تجارة البحار ففتح بحذقهِ اسبابًا برية جديدة لرواج التجارة فكانت العجلات متواصلة في الطرق والسفن تغطي الترع حاملة البضائع الثمينة . اما السار ارشيبلد اليسون الانكليزي فلم يكن من محبي نابوليون وكانت حكومتهُ مضادة لهُ . فقال هذا الكلام خالٍ من المبالغة فهذه الاشغال التي قامت بها الحكومة الامبراطورية تستحق ما اظهرتهُ الامة الفرنسوية ولو كانت اقل ميلاً الى الدهشة لاظهرت ما اظهرتهُ خصوصًا لانها تحب المجد والفخر . وذكرها وزير الداخلية في لائحتهِ المورخة في اب (اوغسطوس) سنة ١٨٠٧ حين قابل نابوليون المجلس العالي بعد رجوعهِ من تلسيت . واذا خففنا ما ذكرهُ خوفًا من المبالغة يبقى ما يحير عقول اهل القرون القادمة ويبين الاعمال العظيمة التي قام بها الامبراطور في انشاآتهِ الداخلية . وقال انهُ اصلح ١٢ الف فرسخ من الطرق العمومية او حفظت في حالة جيدة بالترميمات وغيرها . وفي ست سنوات تمت اعظم الاعمال التي قام الناس بها منذ قرون وهي الطريق بين جبل سنس والسمبلون والطريق بين اسبانيا وايطاليا ولاتزال الاشغال جارية فيها باجتهاد وجبال الابنين امست مركزًا لاعمال كثيرة تجعل اتحادًا بين بيامونت وشواطئ البحر المتوسط ويتمم اتحاد ليكوبرا وفرنسا . ومنها تطهير ١٨ نهرًا وازالة موانع كانت تعوق سفر السفن فيها فطالت المسافة التي تسير فيها بحواجز واخاديد وغير ذلك . واثناء الحرب الاخيرة انشئت اربعة جسور وشرع في تشييد عشرة جسور اخرى وحفر عشر ترع وتم حفرها وجرت الاشغال فيها . والفرض ليست اقل من ذلك فان انتورب اصبحت مركزًا لاعظم اعمالنا البحرية واهتم بما يحسن احوال القطن ومعامل الكتان وشيدت مدارس لتعليم فن الحرب ووضعت قوانين تجارية وبنيت مدرسة الصنائع والالات في كوبن ونقلت الى شالون واخذت الحكومة في انشاء مدارس اخرى مثلها وفتحت ابواب واسعة لمصنوعاتنا في ايطاليا وكل فتوحاتنا غلقت الابواب دون التجارة الانكليزية وفتحت بابًا لدخول تجارتنا . ولم تهمل عاصمة هذه الامبراطورية العظيمة لان الامبراطور اراد ان تصبح هذه المدينة المشهورة اعظم مدينة في العالم لتكون عظمتها موافقة لعظمة دولتهِ . فشيد في جهة واحدة منها جسر وسمي باوسترلتس اشارة الى نصر عظيم فازت بهِ الجنود الفرنسوية

وشرع في بناء جسر اخر في جهة اخرى وسيسمى باسم جينا اشارة الى انتصار فيها . واللوفر يكاد يتم بناؤهُ وفيهِ ما يدل على قرون ودول كدولة فرنسوا الاول وهنري الرابع ولويس الرابع عشر وهي الدول التي قد احياها نابوليون باجتهاداتهِ . واقيمت فيها قبتا نصر . وبني قبر دليزي في قمة جبال الالب التي لم ترَ من عجائب افعالنا شيئاً كجمال الصناعة التي شيد بها القبر المذكور وصعوبات قطعها بنقل ذخائرنا ومدافعنا ببسالتنا ونشاطنا . وجعل الامبراطور الجهل من اضدادهِ فوضع اساساً لمحاربتهِ بانشاء ١٢ مدرسة عالية لدرس النظام والقوانين ومدارس مجانية لدرس الطب وما ذلك غير اساس لانشاء فروع للدرس في الامبراطورية كلها . انتهى . فلما رات الامة الامبراطورية اخبار هذه المشروعات العظيمة والاصلاحات المفيدة معاصرة لنشر معاهدة تلسيت وفتح بروسيا وارجاع دوقية وارسو وانشا مملكة وستفاليا تحيرت عقولها ولا عجب من ذلك

فاي امبراطور كنابوليون يقطع النظر عن كل تنعماتهِ الشخصية ويوجه كل قواهُ الى نجاح بلادهِ ورفاهها . وكان الفرنسويون الذين يعرفون احوالهُ وصفاتهِ يحبونهُ والعالم سيصيح محباً لهُ بعد ان يعرف ما عرفوهُ عنهُ

## الفصل السادس والثلثون

### اجراآت واصلاحات

ان ما ظهر من قوة عقل نابوليون وحسن التدابير حمل الناس على القول ان قواهُ العقلية غير عادية بل كادت تفوق درجة العقل البشري ولم نرَ من رجل اخر في الدنيا ما يقارب ما رايناهُ منهُ فان الرسالات التي كتبها وهي محفوظة في قيود الحكومة في باريس مئات من المجلدات . وكان تعقلهُ وحذقهُ يودعان اراء جديدة في كل ما يكتب وتبين للناس انهُ عالم بكل الفنون فكان يبحث في فن الحرب والادارة والسياسة والنظام والقوانين والتعليم والمالية وادارة التوفير واللاهوت والحكمة والهندسة وبالجملة نقول انهُ كان ذا المام عظيم في كل ما يصبو اليهِ العقل البشري من المعارف المفيدة . وكان مشغولاً على الدوام في حروب عظيمة جداً بتعديات اعدائهِ المتحدين ومهتماً بادارة امبراطورية عظيمة ومع ذلك كثيراً ما كانت تدار اوربا كلها في مدة ٢٠ سنة من ملكهِ وتمكن فيها من ان يكتب او يملي اكثر مما كتبهُ لوب دي فيغا وفولتير والسار والترسكوت اذا جمعنا كتاباتهم مع انهُ لم يكتب احد قدرهم في اسبانيا وفرنسا وانكلترا . اما الكتابات السرية التي بعث بها الى الحكومة الادارية في سنة ١٧٩٦ و ١٧٩٨ فنشرت في باريس سنة ١٨١٩ في ٧ مجلدات كبيرة احرفها صغيرة . والذين يطالعون تاريخهُ يحبون قراءة ما يظهر لهم المخابرات التي كانت تجري بينهُ وبين وزرائهِ فيرون سمو افكارهِ وصفاء بواطنهِ وخلوهِ من كل تصنع وتكلف



وهذه ترجمة رسالة من تلك الرسالات

من فونتنبلو في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٧

الى موسيو كرتيه وزير الداخلية . ورد اليك الامر الامبراطوري الذي فوضت بهِ دائرة الاستهلاك المالي بان تقرض مدينة باريس ٨ ملايين فرنك واظن انك شارع في اتخاذ الوسائل اللازمة التي من شانها انهاء تلك الاشغال بسرعة لازدياد دخل المدينة . وبعضها لا ياتي بمنافع كثيرة بل يكون للتزيين وبعضها ينفع كثيراً كالمجازر وغيرها اذا افرغ الجهد في جعلها مفيدة . اما الدكاكين التي خصصت مالاً لانشائها فلم تشرع بها . واظن انك انفقت المال المعين للينابيع في انشاء الالة في مارلي فقم بذلك اجمع بنشاط واقدام . اما اقراض المال لباريس لزيادة مداخيلها فهو لتزيينها وتحسينها ومن مقاصدي القيام بذلك في ولايات اخرى وانشاء ترع كثيرة منها ترعة بين دجون وباريس وترعة بين الرين والسون وترعة من الرين الى شلدات ويمكن ان يقام بهذه الترع الثلث بسرعة واروم ان احصل على مال لانشاء هذه الترع فضلاً عن المال الذي عين لها من خزينة الحكومة . فارغب في بيع ترعة سان كنتين وان انفق ثمنها في حفر ترعة برغندي ولا اتاخر عن بيع ترعة لنغدوك لانفق ثمنها في انشاء ترعة بين الرين والسون . واظن انهُ يتيسر بيع ترعة سان كانتين بثمانية ملايين فرنك وكذلك ترعة لوان وترعة لنغدوك باكثر فنحصل على ثلثين مليون فرنك في الحال فانفقها في حفر الترع الثلث المذكورة بسرعة . فالمال عندي فلا يضيع شيء على الحكومة بل يكون الربح لها فان خسرت مداخيل ترعة لوان وسان كنتين تربح مداخيل ترع شلدات ونابوليون وبرغندي . واذا ساعدتني الاحوال اتمم هذه الترع لاقوم بحفر ترع اخرى فان مقاصدي هي في افراغ الجهد في سبيل القيام بعكس ما نقوم بهِ انكلترا فانهُ لو ارادت ان تحفر ترعة سان كنتين لاصدرت رخصة بحفرها وتركت العمل لارباب الاموال . وقد قمت بعكس ما نقوم بهِ فانني ابتدات بانشاء ترعة سان كنتين واظن انني انفقت ثمانية ملايين فرنك في سبيل انشائها ودخلها خمسمائة الف فرنك في السنة فلا اخسر شيئاً ببيعها لشركة بما انفقت عليها وبثمنها احفر ترعاً اخرى . فارجوك ان تبعث اليَّ بتقرير عن ذلك والا فنموت بدون ان نتم تلك الترع . ومنذ ست سنوات صار الشروع في حفر ترعة سان كنتين ولم نتم بعد . فهذه الترع اهم منها وقد عدلت نفقة ترعة برغندي بثلثين مليوناً ولا نقدر ان ننفق من مال الخزينة غير مليون ونصف مليون في السنة ولا يرد من الولايات اكثر من نصف مليون فرنك فلا نتم تلك الترعة بمال الحكومة الا في عشرين سنة . وما ادرانا ماذا يجري في المدة المذكورة . فانهُ ربما انتشبت حروب وتقلد زمام الاحكام رجال ليسوا بكفوٍ لاعمال كهذه فلا نتم الترع . ولا بد من انفاق مبلغ كبير لانشاء الترعة بين الرين وشلدات فمال الحكومة ليس بكافٍ لانشائها بالسرعة التي نرغب

فيها وكذلك ترعة نابوليون . فاخبرني بالمبلغ الذي يمكن انفاقهُ سنوياً لانشاء تلك الترع . ولعلنا نقدر ان ننفق في سبيل انشا كل منها خمسة او ستة ملايين بدون ان نضر بانشاآت اخرى ففي خمس او ست سنين نرى السفن تسير فيها . فاخبرني عن المبالغ التي يمكن جمعها والتي خصصتها لسنة ١٨٠٨ والزيادة التي عينتها سنة ١٨٠٦ للشغل في ذلك بالسرعة . واطلب اليَّ بيع الترع الثلث المذكورة واخبرني عن الثمن الموافق وانا اجد من يشتري فنحصل على نقود كافية . واخبرني ايضاً عن النفقات اللازمة لانشاء الترع الثلث وارغب ان تتم بسرعة واظهر النسبة بين نفقاتها والاموال التي بذلت لحفر الترع التي اروم بيعها . وهذا كافٍ لاظهار المقصود وهو القيام باكثر مما ذكر في تقريرك وربما نشأ عن ذلك تعيين مبلغ مخصوص للنافعة فتضم اليهِ مداخيل الترع وربما تيسرت اضافة ثمن الترع التي نبيعها وثمن ترع اخر يمكن بيعها الى المبلغ المذكور فنغير وجه البلاد . وقد صممت على جعل مجد دولتي في تغيير سطح امبراطوريتي . والقيام بهذه الاعمال العظيمة نافع لشعبي ولازم لارضاءي . ومن الامور الخطيرة عندي ابطال التسول والمال وافر لكن ارى الايام تمضي بسرعة والاعمال تجرى ببطء . فلا ينبغي ان نقطع سبل الحياة بدون ترك اثار تجعل ذكرنا طيباً عند الاجيال الاتية وساغيب شهراً فاستعد للجاوبة على جميع هذه السوالات في ١٥ كانون الاول (دسمبر) بعد ان تبحث في تفصيلاتها لاتمكن من ابطال التسول بامر واحد . ولا بد من ان تجد قبل الزمان المذكور بالمال المحفوظ ومال الدوائر الوسائل اللازمة لمعاش ستين الف بيت او مائة الف لمنع التسول وعلينا ان نعين اماكن لانشاء ابنية وان نضع لها نظاماً ولا تطلب اليَّ ثلثة او اربعة اشهر للحصول على اوامر جديدة فالشبان يقومون بالمحاسبات والولاة عارفون حاذقون والمهندسون والعلماء يعاونونك فاشغلهم جميعاً ولا تهتم في اشغال الوزارة العادية وينبغي اتمام كل ما يتعلق بادارة الاعمال العمومية حتى تصبح فرنسا في بداية الفصل الجميل خالية من المتسولين فيشتغل الاهالي جميعاً بتزيين بلادنا المتسعة وجعلها ذات محاصيل عمومية وينبغي ان نهيء اسباب الحصول على نقود لنزح الماء من مستنقعات كونتن وروشنيفور لتضاف الى الاموال المخصصة للاعمال النافعة ولاكمال النزح والشروع في غيره . فسهرات الشتاء طويلة فاملأ اكياس الاوراق لتشغل السهرات في البحث عن اسباب الحصول على نتائج عظيمة

نابوليون

واثناء اجتماع مجلس الشورى الخاص اظهر نابوليون غيظاً شديداً لانهُ غضب على احد القواد فاوسعهُ طعناً وقال ان قواعدهُ واراءهُ تاول الى خراب الدولة . فاخذ احد اعضاء المجلس وهو صديق القائد الغائب يدافع عنهُ وقال انهُ كان يعيش مستكناً في املاكهِ ولا يلزم الاخرين باتباع ارائهِ فلم تكن مضرة فرد عليهِ ثم انقطع عن الكلام بغتة ونظر الى العضو المار ذكرهُ وقال لهُ ياسيدي انهُ صديقك وقد احببت بالدفاع عنهُ وقد برح ذلك من بالي فلنتكلم عن امر اخر



وكان موسيو دارو وزير خارجية فرنسا واشتهر بالثبات في الاشغال فقال نابوليون انهُ يشتغل كالثور حال كونهِ شجاعاً كالاسد . ولم يظهر منهُ ضعف غير مرة واحدة لما دعاهُ الامبراطور في نصف الليل ليكتب من املائهِ وكان قد تغلب عليهِ التعب فامسى لا يقدر ان يمسك قلمهُ فنام والورق تحت يدهِ وبعد ان نام برهة واستراح استيقظ متعجباً من نابوليون لانهُ كان جالساً بجانبهِ فجلس لحظة مخجولاً فراهُ الامبراطور مضطرباً فتبسم وقال لهُ اما ترى انني اقمت بشغلك لانك لم تنم انت بهِ . واظن انك اكثرت من الاكل وصرفت سهرت بالحظ ومع ذلك لا ينبغي ان نهمل الاشغال . فقال لهُ دارو انني صرفت سهرة جميلة وقضيت ليالي كثيرة مشتغلاً بدون ان يتغلب عليَّ النعاس وما رايتهُ الان هو نتيجة ذلك . فقال نابوليون لماذا لم تخبرني بذلك فلا ارضى بقتلك بالشغل فاذهب الى فراشك . استودعك الله

وكان نابوليون مدركاً لنفوذ اهل المعارف فكان يلاحظ الجمعية العلمية ومن قوانينها ان يخطب العضو الجديد مادحاً سلفهُ في العضوية ولما خلف موسيو شانوبريان المتحزب للبوربون موسيو شانيه احد الذين حاكموا لويس السادس عشر لم يراعِ الاصول فطعن في قواعد سلفهِ السياسية وقال انهُ من قتلة الملوك فاضطرب الاعضاء وجرى حديث عنيف وامتد النزاع الى باريس وتهيجت الرجال واشتعلت نيران العدوان الشديد فامر نابوليون بان ياتوهُ بالخطاب وقال انهُ غير معتدل ومنع نشرهُ وكان احد اعضاء تلك الجمعية من مشاهير المولفين في البلاط فعضد اراء موسيو شانوبريان . ثم اجتمع الى حول الامبراطور اشهر رجال فرنسا ومعهم ذلك الرجل فنظر اليهِ وقال موبخاً ياسيدي متى صارت الجمعية ذات اعمال سياسية فمن متعلقاتها النظم وتحقيق الاغلاط اللغوية فقط فحذار من الخروج عن دائرة المعارف وان خرجت عنها اتخذ الوسائل لترجيعها الى حدودها . فكيف قبلت بالكلام غير المعتدل الذي سمعتهُ فاذا كان موسيو شانوبريان مجنوناً او محباً للشر يعالج بالمارستان او بالنصاص . ولعل الاراء التي بسطها مقبولة عندهُ فعلاً فلا يطالب بالعدول عنها مراعاة سياستي المجهولة عندهُ اما انت فقريب مني عالم باعمالي وارادتي فربما عذرناهُ وعذلناك فيا موسيو انك مذنب وعملك يرجع بنا الى ايام الاضطراب والارتباك واراقة الدماء . فهل نحن لصوص وهل انا مختلس حال كوني لم اتبوا التخت بخلع غيري ولكني وجدت التاج ساقطاً فامسكتهُ فوضعتهُ الامة على راسي فاعتبر ما فعلتهُ الامة . وجعل ما حدث موضوعاً لمناوضات الجمهور في هذه الاحوال عبارة عن احداث اضطرابات جديدة تشوش الراحة العمومية فرجوع الملكية غير متيسر فلا بد من ثبوت الحال فماذا يفيد الطعن بالاعضاء والكلام على قتل الملوك لماذا نرجع الى امور ذات خطر . فالله وحدهُ يدين الذين باتوا خارج سطوة البشر فهل اضعت جميع اثمار اعتنائي هل ذهب اجتهادي سدى فاذا غبت عنكم

وبعدت سطوتي المانعة تظهرون ان بعضكم يروم ان يستحم في دماء البعض الاخر (ثم صيحت برحة وقال) واحسرتاه بافرنسا المنكودة الحظ انك في احتياج الى عناية وصي زماناً طويلاً فقد افرغت كل الجهد في سبيل اخماد انشقاقاتكم وطالما اعتنيت بترويج اسباب الاتحاد . وجعلت الجميع يجتمعون تحت سقف واحد ويجلسون على مجلس واحد ويأكلون ويشربون معاً فيحق لي ان انتظر منكم الاسعاف والمعونة ومنذ قبضت على ازمة الامور لم ابحث عن الاحوال والاعمال والكتابات الخصوصية فاقتدوا بي وما لي غير مقصد واحد ولا اسال غير سؤال واحد وهو هل تساعدوني فعلاً في ترقية صوالح فرنسا الحقيقية فكل الذين قبلوا بذلك انحازوا اليّ ولم يترددوا وقد الححت عليهم بنهج سبيل واحد لاعلا كرامة فرنسا وتمجيدها . انتهى

وكان الرجل الموبخ من اهل الكرامة واللطف فصمم على طلب مقابلة الامبراطور في اليوم الثاني ليستقيل من عضويته فادخل اليه فقال له ياسيدي انك آتٍ اليّ بسبب حديث جرى في الامس لانك استثقلته وكذلك انا غير انني قصدت به ان انفع اكثر من رجل واحد فاذا اتى بالنتيجة المطلوبة المفيدة فلا ينبغي ان نغتاظ فاقطع النظر عما جرى

وفي هذه السنة وضع نابوليون نظاماً جديداً وهو التقييد المزدوج ولا يزال جارياً في فرنسا فاصبحت الحسابات اصح محاسبات اوربا واوضحها . وطلب نابوليون انشا شوارع طويلة مغطاة بالزجاج للمشاة فقط لصيانة المشترين والباعة من الهواء والبرد وهذا اصل تلك الشوارع العظيمة البهجة التي يتنزه فيها كل غريب ساعات كثيرة . وكان في باريس ٤٠ مجزراً تفسد الهواء ويرى الناس ما تقشعر منه الابدان فنقلها كلها وانشا خارج المدينة اربعة مجازر كبيرة لذبح الحيوانات قريبة من ابوابها . لاربعة الكبيرة

اما القواد والجنود الذين احتملوا المشقات العظيمة وقاموا بما تقوم به الزوابع والصواعق لو كانت جنود الترقية صوالح فرنسا فنالوا احسن مكافاة فكانت رواتبهم تدفع بانتظام وانعم على المستحقين بنحو عشرين مليون فرنك وعين راتباً كافياً لكل جريح ولم يهمل من الاعتناء بمكافاة الذين خاضوا بحار المنايا ليدافعوا عن استقلال فرنسا وكرامتها . وكان يبذل المال بسخاء لنفع الناس منفضلاً العيشة البسيطة مجتهداً بالاقتصاد مانعاً لانفاق الاموال للقيام بما لا يفيد وكانت جوزفين قد اتخذت لنفسها اماً ماتت في مرتنيك فامر بتحرير العبيد الذين كانوا في خدمتها وعين لهم راتباً يكفيهم حياتهم بطولها . وامر بزيادة الكنائس المسيحية في امبراطوريته الى ان تصير ٣٠ الف كنيسة لتتمكن كل قرية من الانتفاع بها . وخصص اموالاً كثيرة لتعليم الرجال ليصيروا اهلاً للانخراط في سلك خدم الدين . واثناء ذلك اصرت الامة الفرنسوية على تسمية النظام والقوانين التي اصبحت مجد فرنسا بسنن نابوليون . وقال موسيو تيرس في تاريخه اذا حكم الناس بان واحداً



منهم استحق ان ينسب شيء اليه ينبغي ان يحكموا بنسبة تلك السنن الى نابوليون فانها له كالنصر في اوسترلتس وجينا لانه استند الى جنوده في المعارك والى معارف العلماء في التاليف على ان العلة التي اخرجت العمل من القوة الى الفعل هي اقدامه وحكمته واصابة رايه . انتهى

وستبقى تلك السنن الى ما شاء الله شاهدة بحذق نابوليون ومعارفه وحبه لخير الناس . وكتب الى جميع الملوك الذين كانت سطوته نافذة فيهم طالباً ان تكون تلك السنن جارية في بلدانهم فجرت في اماكن كثيرة من اوربا وقطعت تعديات اصحاب الامتيازات . وكان يرغب جداً في تعظيم فرنسا ويعلم قدر المعارف والعلوم فكان يروجها بكل الوسائط المتيسرة وهو القائد الاول الذي جعل في جيشه جمعية علمية لتوسيع دائرة المعارف فبعنايته كتب لاكرنج ما كتب وفاق لابلاس العالم غاليليو وكبلر ونيوتون وجعل اسمه خالداً كاسماء الاجرام السموية التي عرف حركاتها بدقة وضبط وبحث كوبفار عن تاريخ العالم ووصف حالة الارض لما كانت بلا هيئة خالية خاوية والظلام يغطي وجه الغمر

وكتابات نابوليون مدهشة كاجرآته ولم يعدل البوربون ولا الاورليان في الحكم باعمالهم مع ان في كتاباته من الفصاحة والحذق وكرامة الاخلاق ما يكاد يعد معجزة وتظهر قريباً وتنتشر في العالم وتكون واسطة لازالة اوهام كثيرة تقررت في عقول الناس بطعن اعدائه تنفيذاً لغاياتهم ومصالحهم فلا يقراها احد الا يتحير بما يراه من حذقه وسمو مداركه واصابة ارائه وصحة مشوراته واقدامه وحميته وغيرته والبسالة الناشئة عن صفاء الباطن وخلو الغرض والغايات فيحق له ان يكون بين اصحاب الرتبة الاولى من اهل المعارف والفصاحة والعلوم وقال موسيو تيرس في تاريخه بعد ان قرأ مجلدات من الكتابات التي كتبها ما اعجب افعال الدهر فانه جعل ذلك الرجل العظيم اعظم كتاب زمانه واعظم قواده واعظم مشترعيه واعظم اهل الادارة فيه انتهى

والذين عرفوا شيئاً من المعارف يلتذون بكتابات تلامذة اليونان والرومان وكان نابوليون يحبها بالطبع فحاول حمل الطلبة على درسها في المدارس العالية . وكان يشغل اهل المعارف والتدقيق بما يلهيهم عما لا يوافقهم فنظم صفوفاً من الجمعية العلمية لكتابة رسالة خالية من الغرض عن تقدم العلوم والفنون والمعارف . وكانت تقرأ على الامبراطور وهو في مجلس الشورى وكان يجيز بسخاء اصحاب الاهلية . وبعد قراءة الرسالة الاولى قال لنواب الجمعية ياسادتي ان اللغة الفرنسوية اصبحت لغة عمومية والسبب اهل الحذق الذين جلسوا بينكم ولا يزالون يجلسون معكم وعندي ان نجاح اجتهاداتكم ذو قيمة فانها تنور عقول الناس وهي ضرورية لمجد تاجي وقد سمعت قراءة ما كتبتم بسرور وانشراح فاتكلوا على مساعدتي . وكان يحب ترويج الفنون الظريفة فسار هو وجوزفين وقوم من رجال بلاطه الى بيت المصور دافيد وكان قد اكمل صورة تتويج نابوليون

والصورة كانت تمثل وضع الامبراطور التاج على راس الامبراطورة فلاحظ عليهِ بان الصورة هي تتويج جوزفين لا نابوليون كما هو المقصود . ثم نظر صامتاً برهة الى الصورة وقال للمصور ياموسيو دافيد هذه صورة متقنة جداً وقد اصبت بالوضع الذي جعلتهُ للامبراطورة ولامي وللامبراطور وسررت بصورة تبين لاهل القرون القادمة حبي للامبراطورة . ثم تقدم اليهِ خطوتين وكشف راسهُ وانحنى جسمهُ كثيراً وقال ياموسيو دافيد انني اسلم عليك . فلما سمع المصور ذلك قال يامولاي اقبل مدح حضرتك بالنيابة عن كل اهل الصناعة في الامبراطورية وسررت بتنازلك وتشريفك اياي بان اكون الواسطة لتبليغ ذلك اليهم . انتهى . وبعد ذلك علقت هذه الصورة في معرض اللوفر وزارهُ ثانية واجتمع بكل تلاميذهِ ومنح الذين امتازوا نيشان اللجيون دونور وجعل موسيو دافيد من حاملي النيشان المذكور من رتبة كومندور

والفتنة الفرنسوية قلبت تخت البوربون المبني على اساسات الامتيازات وانشات سريراً عمومياً اعظم ولا بد للملكية او الامبراطورية من ان تكون محاطة بقوم من اهل الامتياز . وكان نابوليون امبراطوراً عاماً لان الامة انتخبتهُ فاشتغل في ترقية صوالحها ثم وضع امتيازات عامة غير موروثة وكان يرغب في احاطة عرشهِ بعيال كريمة جليلة لتعظيم الهيئة الاجتماعية الفرنسوية بدون الحاق ضرر بقواعد المساواة الجمهورية . وظن انهُ يفوز بمرامهِ بايصال اهل الحذق والنشاط والدراية والمعارف الى امتياز مكافاة لهم على خدمتهم ونفعهم بدون ان يكون لهم امتياز موروث وكان قادراً على تلقيب الذين قاموا باعمال ثابتة الذكر بالقاب يرثها منهم اولادهم . وكان الذين نالوا بواسطتهِ الامتياز يفتخرون بالقاب منسوبة الى اعمال عظيمة في ميادين الحرب في ريفولي وكستلونا وفونتنبلو واروستات وايلو ولكن القدماء من اصحاب الامتياز كانوا يحتقرونهم لانهم كانوا من نسل امراء قدماء . وكان كثيرون من العامة يكدون ويجتهدون في سبل المعارف والعلوم ويسهرون الليالي ويفوزون بالنجاح والشهرة ويبلغون اعلى المناصب ويحصلون على ثروة عظيمة ومع ذلك كان الامراء يحتقرونهم ويضادونهم ولو كانوا دونهم بدرجات كثيرة . وقال نابوليون عن ذلك ان الامتيازات هي فعلاً عضد للملكية وهي بدونها كمركب بلا سكان اما الامتيازات القديمة فهي اصح عضد لان قوتها بقدمتها ولا اقدر ان اقوم بذلك وهو وحدهُ ما عجزت عن انشائهِ . فالمساواة المعتدلة لا تطلب اكثر من تقرير سلطان واحد للجميع ومن اصابة هذه الازمان استخدام بقايا اهل الامتيازات القديمة وهي المساواة ومن الاصابة استخدام الاسما القديمة التاريخية فنلبس جسمنا الجديد ثياب اسلافنا . ورسخت هذه الامور في عقلي ولكن لم تسح الفرص باخراجها من القوة الى الفعل وكنت اروم ان يتمكن ابن المارشال القديم والشيخ من ان يلقب دوقاً بقرار الحكومة اذا اثبت حصولهُ على ثروة كافية وان يلقب بكونت ابن القائد او الوالي . فهذا يرفع درجة البعض



ويحرك الغيرة في افئدة البعض الاخر بدون ان يضر باحد . فهذه الامور لازمة لسياسة الناس . فالامم القديمة المفسدة لا تساس كالامم البسيطة الفاضلة . فاذا وجدنا في هذه الايام رجلاً واحداً يضحي صوالحهُ في سبيل الخير العام نجد الوفا بل ملايين لا يهتمون الا بصوالحهم وكبريائهم ولذائذهم فالذي يحاول اصلاح امة كتلك الامة في يوم هو مجنون . والصانع الحاذق يستعمل حتلاً لاستعمال المواد التي يشتغل بها وينتفع بالمواد التي يظهر لهُ في بادىء الامر انها اعظم ضد لها . فهذا هو سر الرتب والنياشين والالقاب ولا يرافقها غير تعب قليل مع ان صعوباتها كثيرة . ففي ايامنا تصلح للحصول على اعتبار الناس وتنفع حامليها فانها ربما ابعدتهم عما يرونهُ لا يليق بهم ورضي بها المتكبرون الضعفا العقول بدون ان تكدر اصحاب المدارك . انتهى

ولا سبيل الى اتحاد المساواة الجمهورية والعظمة الامبراطورية ولكن نابوليون بات في احوال لا تقدر حكمة بشرية ان تبعدهُ عنها وتاكد ان فرنسا لا تخضع لحكومة جمهورية صحيحة والشاهد الاضطراب والمظالم التي جرت فيها في عشر سنين . فجمع كل السلطان بيدهِ وجعل عرشهُ محاطاً باصحاب امتياز موروث وكان يفرغ كل جهدهِ في سبيل تقرير راحة الاهالي وسعادتهم ومع ذلك شرع في وضع اساس لحكومة مطلقة وثبت في عقلهِ انهُ لا يوافق انشاء امتياز موروث . وفي ذات يوم قال اوميارا لنابوليون ان الناس متعجبون لانك لم تقم دوقاً في فرنسا مع انك اقمت كثيرين في الخارج . فاجاب لو فعلت ذلك لتذمر الفرنسويون جداً فلو جعلت مارشالاً دوق برغونيا لاضطرب اهلها وتذمروا لتوهمهم ان صاحب هذا اللقب فاز بحقوق امتيازية وحصل على قطعية في وطنهم والامة تكره الامراء ولم اتجاسر على ذلك وان كنت قوياً جداً . اما اصحاب الامتياز الجديد فاقمتهم لاهدم بهم اركان الامتياز الفعلي القديم . وكان اكثرهم من عامة الناس وراى الجنود انهم يقدرون ان يحصلوا على لقب الدوق واخطأت في ذلك لانهُ اضعف مباني المساواة التي كان الاهالي يسرون جداً بها ولو اقمت امراء ادواقاً باسماء فرنسوية اي جعلتهم مضافين الى اسماء اماكن لظن القوم انني راغب في ارجاع الامتياز الفعلي القديم فيصبح اصحاب الامتياز سادة والاهالي عبيداً مع ان ذلك سخط طالما وقع على الامة . انتهى

وكانت سطوة نابوليون مطلقة على غير قصد منهُ مراعاة للضرورة . وكان محتاجاً الى سطوة مطلقة ليتمكن من دفع اعدائهِ الكثيرين الذين كانوا يحيطون بفرنسا ليسلبوا استقلالها وكان اهل المدارك في فرنسا يعرفون ذلك ولم يستخدم تلك القوة المطلقة الا لتجيد فرنسا وسعادتها لا لنفع صوالحهِ الخصوصية وقال بهذا الصدد

انشات حكومة متحدة تقوم باشغالها بسرعة حال كونها قادرة على القيام باعمال عظيمة . وكان ذلك لازماً للتغلب على الصعوبات المحدقة بنا وللاتيان بما يكاد يكون معجزة . وكان انتظام

اعمال الولاة واجراآتهم ونشاطهم من الامور المدهشة وسرى نشاطهم وحميتهم الى اكثر من ٤٠ مليونًا من الناس . وبمساعدة تلك المراكز اصبحت حركة الاشغال سريعة في جميع انحاء الامبراطورية كما في مركزها . وكان الغرباء الذين يزورونا يتعجبون من نظامنا و يقولون ان سبب النتائج العظيمة وحدة الاجراآت الجارية في مكان متسع جدًا . وكان كل والٍ مع سلطاته ومتعلقاته المحلية كامبراطور صغير . وكانت كل قوته من الحكومة المركزية وكل عظمته من مركزه السياسي لانهُ لم يكن لهُ علاقة طبيعية ولا ارثية في المكان الذي كان يحكمهُ ولذلك كان لنظامنا كل المنافع التي تكون في حكومة امتيازية بدون ان يكون فيها شيء من مخالفتها . وكان حصولهم على تلك السطوة بانني وجدت نفسي حاكمًا مطلقًا لضرورة الاحوال لتستند الينابيع الصغيرة الى القوة العظيمة المركزية المحركة لتكون اعمالها موافقة لها . انتهى

ولا ينكر على حكومة فرنسا في ايام نابوليون الضبط والاهلية وتقرر عند الجميع ان فرنسا التزمت ان تقوم بها بواسطة هجمات الاعداء غير المنقطعة . وهذا هو الذي مكن نابوليون من الفوز على اعدائهِ المتحدين عشرين سنة . فلما رات فرنسا المخاطر المحدقة بها سلمت نفسها الى حاكم مطلق تركن اليهِ ووضعت في يده سطوة غير محدودة

فقام نابوليون بذلك بنشاط وصدق وافرغ جهدهُ في ترقية صوالح فرنسا وكان خطاؤهُ احيانًا ناشئًا عن الطمع في الحصول على ما يعود عليها بالنفع والمجد . وكانت سطوتهُ مطلقة كسطوة امبراطور روسيا وهو ملك الامراء واما نابوليون فكان ملك العامة المنتخب بارائهم . وحصر في نفسهِ كل سلطان فانهُ انتخب اعضاء مجلس الشورى ومجلس النواب والمجلس القضائي وعين كل القواد والضباط في الجيش والبوارج وكان يعين اما راسًا واما بواسطة مامورييهِ جميع الضابطين والقضاة ومامووري الرسومات والاموال الاميرية وخدم الدين والاساتيذ في المدارس الابتدائية والعالية والعمومية ومامووري البرد والطرق والابنية والترع والفلاح وغيرها . وفي ذات يوم قرا طعن غولد سمث فيهِ فوجد انهُ اتهمهُ بالشر والارتكاب فوضع الكتاب بجانبهِ وقال بتانٍ وهدو فليجدفوا وليلتفوا فانهم سيجدون صعوبة عظيمة في حمل الدنيا على قطع النظر عن اعمالي فان المورخين الفرنسويين لايقدرون ان يقطعوا النظر عن الامبراطورية فاذا صدقوا ولو قليلاً يظهر عدل اعمالي فان لسان حال الحوادث يتكلم عني وهي ظاهرة كالشمس فانني اغلقت ابواب الظلم والاضطراب والتعدي وقطعت الارتباك والاختلال وابنت الثروة ورفعت شان الامم وانشات ممالك ورقيت اسباب الفضل واجزت المستحق ووسعت دوائر المجد فهذا مما يستحق الذكر . فماذا فعلت حتى لايقدر المورخ ان يدافع عني هل يعجز عن المدافعة عن نواياي حال كوني ابين لها مسوغات مع انها لم تخرج من القوة الى الفعل . هل يطعن في ظلمي حال كوني اثبت ان الحكومة المطلقة لازمة جدًا



هل يقال انني قيدت الحرية ولسان حال الامة يشهد بان الفساد والظلم والاضطراب كانت لاتزال تفعل في ميادين الحرية . هل اتهم بمحبة الحرب ومن الموكد ان العدو كان يشرع فيها في كل زمان . او هل اتهم بمحاولة بلوغ الملك العام والحوادث تشهد بان الاحوال سهلت لي السبل الى ذلك فان الاعداء قادوني اليهِ . وهل الام على طمعي وانا اقول ينبغي ان يسمح لي اذا كان يفتخر الانسان بهِ . اما طمعت في وضع انشاء قواعد الادراك والتمييز والتمتع بكل القوة البشرية . فان المورخ يتاسف حين يرى انني لم اتمكن من الحصول على كل ما طمعت فيهِ لان طمعي نافع للعالم . فهذا هو تاريخي بالاختصار . انتهى

واجمع اكثر المورخين على ان من معجزات نابوليون قيامهُ بالحروب التي قام بها بدون استقراض مالٍ ولا بيع حوالة وفي نهاية دولتهِ ترك في خزينة الدولة في قصرهِ مبلغًا وافرًا جمعهُ ينفقهُ في سبيل الخدمة العمومية من المعين لعائلتهِ مع ان انكلترا استقرضت ٨٠٠ مليون ليرة وانفقت نصفها في مضادتهِ لقلب دولتهِ . وكانت نفقات حكومة فرنسا في دولتهِ حال كونهِ كان يملك على خمسين مليون نفس تزيد قليلاً عن نصف نفقات حكومة الملك لويس فيليب لما كان ملكًا على ٣٦ مليون نفس . وكانت فرنسا مديونة في ايام الجمهورية فانها ورثت الدين من الملوك الذين سبقوهُ فقام بوفائهِ . وكان ياتي فرنسا مال غزير بالفتوحات التي كانت انكلترا تسوقهُ اليها على انهُ سن الاقتصاد في ضبط الادارة المالية ونظامها قبل وضع فن الاقتصاد السياسي و بلا نقود ورقية وبدون دين فهذه معجزات ليست معجزة تقرير النظام المنسوب اليهِ اعظم منها

## الفصل السابع والثلثون

### حوادث في باريس

وفي ١٥ اب (اوغسطوس) سنة ١٨٠٧ بلغ نابوليون سن ٣٨ فاجتمع جمهور لطيف فاخر في قصر التويلري وصرف اهالي باريس سهرة جميلة جدًا في سرور عظيم فانوا جنات القصر اجوافًا وملاوها واخذوا يضجون باصوات مرتفعة طالبين حضور امبراطورهم فخرج الى شرفة القصر مرات كثيرة وهو ماسك الامبراطورة بيده وحولهُ قوم لطفا . وكان اكثر من مائة الف نفس يضجون داعين لهُ كلما خرج اليهم فوضع يده في يد صديقهِ دوروك الامين بعد ان غير ملابسهُ وسارا الى وسط الجماهير التي كانت مجتمعة في الجنة وكان يسمع القوم يذكرون اسمهُ في كل مكان بحب وثناء فصادف ولدًا صغيرًا يصرخ بفرح شديد فليعش الامبراطور . فامسكهُ نابوليون وقال لهُ لماذا تصيح هكذا قال ان ابي وامي علماني ان احب الامبراطور واطلب الى الله ان يباركهُ

فشرع نابوليون يكلم والديه فوجد انهما كانا قد هربا من الحروب الاهلية في بريتانية ووجدا شغلاً يقوم بمعاشهما في باريس واخبراهُ على غير معرفة بالنجاح الذي فازت فرنسا بهِ في ايام نابوليون وبسعادتهما . وفي الغد بعث اليهما بهدية وبين لهما انهما اظهرا شكرهما لنفس الامبراطور بدون ان يعرفاهُ وفي ذلك اليوم سار نابوليون ومعهُ المارشالية وجمهور غفير من الاهالي للاجتماع بمجلس الشورى والنواب والقضاء وخطب الخطاب الاتي

يا سادتي . منذ اجتماعكم الاخير جرت حروب ومعاهدات وانتصارات جديدة جاءت بتغيير اوربا سياسياً وقد اجمعت الامم على السرور بما رأتهُ من سقوط سطوة انكلترا في اواسط اوربا الى الابد وكنت ارى في اجراآتي كلها نجاح امتي فانهُ مفضل عندي على مجدي وانا راغب في السلام فلا اسمح لشيء ان يؤخر انفاذ هذه الرغبة ومهما كانت النتائج التي خصصتها العناية للحرب البحرية لا اتغير وامتي تبقى على حالها من جهتي واعمالكم عند ما كان امبراطوركم بعيداً عنكم مسافة الف وخمسمائة ميل عظمت شانكم عندي وما رايت من حبكم هاج عواطف قلبي . وقد لاحت لي امور جديدة تحسن احوالنا ووضعت القاباً كثيرة لتكون مكافاة للذين يمتازون بالاعمال ولمنع رجوع القاب امتيازية لا توافق نظامنا وناظر الداخلية يخبركم بالاعمال النافعة التي تمت والتي صار الشروع فيها . وما لا نزال نرغب في انشائهِ هو اعظم فانني مصمم على ترقية سعادة اهالي امبراطوريتي ورفع اثمان الاراضي في كل مكان بالاصلاحات التي تصورتها فيحق لي ان اتكل كل الاتكال عليكم

وسمع الناس هذا الخطاب فرحين وضجوا متهللين . وبعد خروج نابوليون فاه رئيس المجلس القضاءي بالخطاب الاتي

ان الوصف الذي سمعناهُ هو وصف ملك سلام لم يعتنِ الا في الادارة الداخلية مع ان هذه الاعمال النافعة والمشروعات العظيمة امر بها بعد ان تصورها الامبراطور وهو في وسط ضوضاء الحرب في ابعد التخوم البروسية والروسية . فاذا كان ذلك البطل قد قام بهذه الانشاءات والمنافع وهو بعيد عنا الف وخمسمائة ميل يدير حروباً عظيمة ويحمل مشاقها ومخاطرها فماذا يفعل وهو بيننا متمتعاً بالسلام انهُ يفرغ الجهد في سبيل ترقية المنافع العمومية فينال مجداً اعظم وانفع . فهذا هو الرجل الذي فاق سائر الرجال وقلب وانشا ووسع حدود الممالك وفاز بمجد عظيم ووعدنا بما يزيد عما قام بهِ فبالسلام والاستراحة من حمل السلاح يبين ان قوتهُ التي لا تغلب بل تتقدم وهي تغلب الدول ناشئة عن حكمة صحيحة تصون الدول بالسلام وتغني الامم بالزراعة والصناعة وتزينها بالفنون وتشيد بناءها على اساس متين وهو اساس الاداب والنظام والقوانين . انتهى

وانشأ مدرسة للبنات في اوكن وجه اليها عنايتهُ فكثيراً ما اهدى التنيات اللواتي امتزن



هدايا تقوي العزم وتزيد الاجتهاد . وفي ذات يوم جاءها فوجد التلميذات يشتغلن بالخياطة فحرضهن على الجد ثم سال فتاة كانت تلوح على وجهها لوائح حب المزاح بكم خيط يتيسر لك خياطة قميص . اجابت على الفور بخيط واحد اذا كان طولهُ كافياً فاستحسن الجواب ووهب الفتاة سلسلة ذهبية . وكان جميع تلاميذ المدارس يحبونهُ جداً

وبعد رجوع الدولة البوربونية أمر بان يخرج من المدرسة كل ما يذكر تلامذتها بنابوليون فاخذت الحكومة من التلامذة الهبات التي منهُ . اما ما دام وازل بروار فحفظت السلسلة المذكورة وقالت لا اسلمها الى الحكومة ولو قتلتني وفي ذات يوم راها خادم بيدها فاخبر رئيس المدرسة فطلبها منها فابت ان تعطيهُ اياها فرفع الامر الى اولياء الامور فطلبوها منها فامتنعت وقالت انها هبة الامبراطور فلا ارضى بخسارتها ولو جاءت بارداً العواقب اي ولو قتلت . فسجنت وحدها اياماً كثيرة ولم تغير عزمها . فجمعوا التلميذات وطردوها على مراى منهن وكانت محبوبة من الجميع . وبعد ذلك ببرهة قصيرة زارت الدوقة دي انغولم البوربونية تلك المدرسة . فامرت البنات ان يغنن عند دخولها فليعش الملك اي البوربوني فدخلت واقشعر بدنها لما سمعتهن يغنن فليعش الامبراطور

وكان الكونت دي ليل الذي صار لويس الثامن عشر منفياً في روسيا فعقد مؤامرة لارجاع البوربون الى فرنسا واحب الامبراطور اسكندر الروسي ان يثبت براءتهُ فاخبر سفير فرنسا بالواقع وطلب اليهِ ابلاغهُ الى الامبراطور فاجاب نابوليون اشكر الامبراطور اسكندر على الخبر الذي طلب اليك ان تبلغني اياهُ واذا ظن انني اهتم بما يقدر الكونت دي ليل ان يفعلهُ يرتكب غلطاً عظيماً فاذا كان قد ضجر من السكنى في روسيا فليات الى فرسايا فاعطيهِ ما يحتاج اليهِ

وكانت تاتي نابوليون اخبار منفصلة عما كان يجري في بلاط امبراطور روسيا وكان الامبراطور اسكندر قد تعلق بحب امراة جميلة بات اسير غرامها وانفق اكثر زمانهِ في الاعتناء بها ومجالستها فكتب نابوليون الى سفيرهِ في بطرسبرج في نهاية رسالة سياسية اهتم بملاحظة صفات ذلك الرجل الذي ولد امبراطوراً فكيف تقدر امراة ان تؤثر في عقل امبراطور كل الروسيين فكل نساء الدنيا لا يحملنني على تضييع ساعة في سبيل هواهن . فاخبرني عن كل ما يحدث بالتفصيل فاعمال الانسان الخصوصية مرآة تظهر بها امور كثيرة مفيدة

وبعد ان تزوج جيروم شقيق نابوليون بنت ملك ورتمبرغ كتب نابوليون الى اخيهِ وهو خارج من باريس بما ياتي

يا اخي . اظن انهُ ينبغي ان تذهب الى ستتغار لان ملك ورتمبرغ دعاك اليها واذهب منها الى كاسل محفوفاً بالاكرام الذي تقوم امتك بهِ واجمع نواب المدن وخدم كل الاديان ونواب الولايات

واعتن بان يكون نصف المدعوين من الامراء والنصف الاخر من الاهالي و بعد عقد هذا المجلس احلف امامهُ بالمحافظة على النظام الاساسي . وعين في بادئ الامر نصف المشيرين فان ذلك كافٍ في البداية بالاشغال . واعتن بان تكون الاكثرية من غير الامراء بدون ان تظهر انك متعمد ذلك . ووجه بعض الخبط في البلاط الى اعظم الاهالي غير مراعٍ لما تقدم واجعل اكثر الوزراء اعضاء في مجالس الادارة والمحاكم من غير الامراء فينتشر هذا الامر في المانيا و يخجل الاصناف الاخرى . واحذر من المفاوضات ومن ظهور اهتمامك في رفع شان الاهالي واختر اصحاب الاهلية للاعمال . ولا توخر ادخال نظام نابوليون وقوانينهُ الى بلادك . فسعادة امتك تهمني من جهة تاثير ذلك في مجدك ومجدي ومن جهة السياسة العمومية في اوربا . فلا تسمع للذين يقولون ان امتك متعودة العبودية فلا تشكرك على منحك . فعرشك لا يكون ثابتًا ما لم يؤسس على ركون الاهالي اليك وحبهم لك . واهالي المانيا ينتظرون بفروغ صبر ان يفوز اصحاب الصيت الحسن والعارف بعنايتك وبالمناصب . واهالي وستفاليا احذق مما يوافق البعض ان يبينوا لك . وابطل جميع انواع العبودية واسباب احتجاب الملك عن الاهالي . فنظام نابوليون وفتح المجالس وانشاء العضويات الموقتة (جوري) هي الامور التي تمتاز بها دولتك عن الدول التي سبقتها واتكل عليها لتوطيد اركان تلك الملكية واتساع دائرتها اكثر من اتكالي على اعمال اعظم القوات ومتع اهالي مملكتك بحرية ومساواة ونجاح لا يتمتع بها سائر شعوب المانيا . فهذه الحكومة الحرة تؤثر تاثيرًا حسنًا في نظام الاتحاد وقوة المملكة وهي اعظم حاجز ينفصلك عن بروسيا فهو امنع من الالب والفلاع وحماية فرنسا . فاية امة ترغب في الرجوع الى الخضوع لحكومة بروسيا المطلقة بعد الحصول على ادارة حكيمة حرة تفوز بمنافعها . فاهالي المانيا وفرنسا وايطاليا واسبانيا يرغبون في المساواة ويحتاجون الى اراء حرة . وقد ادرت امور اوربا سنين كثيرة ورايت ما اثبت ان تذمرات اهل الامتياز مضادة للراي العام . فكن ملكًا نظاميًا . فاذا لم يكف التعقل والادراك والمعرفة لمركزك فالسياسة الحسنة تسد الخلل . انتهى

وقال نابوليون طالما وجهت اهتمامي الى جعل باريس قاعدة اوربا وتمنيت ان يصير عدد اهلها مليونين او ثلثة او اربعة ملايين اي ان تصير اعظم الحواضر ولو منحني الله عشرين سنة مع راحة البال لطلب الناس باريس القديمة ولم يجدوها ولغيرت وجه فرنسا . والحكيم ارخيميدس وعد بكل شيء يطلب اليهِ القيام بهِ بشرط وجود مكان لوضع عتلتهِ فيهِ . والمال ربما مكن الانسان من ايجاد عالم جديد ولو استرحت لاظهرت الفرق بين امبراطور نظامي وملك فرنسوي ولم يكن لملوك فرنسا انشاآت ادارية وبلدية

وصفات الامم تتغير فكل شيء يقام بهِ مراعاة لمقتضيات الحال لا للثبات فهذه قاعدتنا .



وهي تحاكي عاداتنا الفرنسوية . فكل منا ينفق حياتهُ في الانشاء والهدم . اما هو عار على باريس ان لا يكون فيها قاعة تشخيص تستحق ان تنسب اليها . وطالما قاومت المحافل التي كانت باريس ترغب في اكرامي بها . لانها كانت ولائم ومآدب رقص والعابًا نارية لا تقام الا بانفاق مليون او مليون ونصف فرنك فضلاً عن العوائق التي تضر الناس . وتنفقات نقلها حين منتهاها بقدر تنفقات انشائها فكنت اقول الاوفق بذلها في امور مفيدة . ولا يدرك انسان ما ادركت من المصاعب التي تحول دون الامور النافعة الا بعد ان يلاقي ما لاقينا فالاشغال سهلة اذا كانت انشاء حواجز في بيت احد ماموري البلاط او صنع اثاث لهُ ولكن توسيع حدائق القصر لتحسين حالة الهواء وتنظيف الاماكن القذرة وغير ذلك من الامور العامة النافعة التي ليس لفرد صالح فيها كانت تسير على قدم بطيئة بالاهمال فكنت اكتب ٦ او ١٠ رسالات في يوم واحد للقيام بعمل واحد نافع وانفقت في سبيل التنظيم ٢ مليون فرنك بدون ان انتظر الشكر عليها و ٣٠ مليونًا لهدم بيوت قريبة من التويلري لانشاء النسحة وفتح اللوفر فانشات امورًا عظيمة وكنت عاقدًا النية على القيام باعظم منها وربما توهم البعض ان ما ورد في هذا التاريخ عن اعمال نابوليون مبالغة فدونك ما كتبهُ المؤرخ الانكليزي لوكهرت . وفي كل صفحة من تاريخهِ ما يدل على بغضهِ للامبراطور الذي اقامت انكلترا عليهِ حربًا عظيمة ولكنهُ التزم بان يشهد باعمالهِ بقولهِ . حينما توجه الامبراطور كان يفحص الامور الادارية ولو كان في ساحة القتال وربما دقق اكثر من سائر الملوك وان كانت ممالكهم قدر نصف مملكتهِ وكانوا في سلام واطمئنان . وكان من احب الملاهي عندهُ في اوقات الفراغ حل المسائل الهندسية والجبرية . وكان يبث هذا الميل في كل دوائر الادارة وتمكن من كشف غلط خطير في حسابات الدولة بفحصها بنفسهِ بعد شروعهِ في الادارة بزمن قصير فاصبحت حساباتها جلية مضبوطة اكثر من حسابات اهل الثروة . ولم يكن يهمل فحص الامور ولو كانت غير خطيرة . وكان يجد فرصة كافية للقيام بكل شيء . وكان اصغر خدم الحكومة يقوم باعمالهِ وهو متحقق ان الامبراطور يلاحظ اعمالهُ بنفسهِ . وكان تيقظهُ بجملة كائنهِ في كل مكان ويغني عن حرية الجرائد وحرية مجلس النواب وقوة الراي العام ومكن كل فرنسوي من الانتفاع بالمحاكمة في محكمة مخصوصة بدعواهُ ما لم تكن التهمة سياسية . اما كتاب القوانين المنسوبة الى نابوليون فمن اعظم الكتب القانونية فاشتغل بهِ بنفسهِ مع اشهر الفقهاء في عصرهِ فاتى فرنسا بمنافع عظيمة . واصاب بقولهِ بخلد ذكري مادام هذا الكتاب في يدي . وهو الدستور الاول المنظم الذي فازت فرنسا بالحصول عليهِ وقد جعلتهُ امم كثيرة دستورًا لها . وكانت المحاكمات الخصوصية تجرى بضبط في محاكم صادقة عادلة . وعوضت الامة الفرنسوية بانتصاراتهِ العظيمة وما انشأ من الطرق والجسور والترع وغيرها مع ارتفاع شانها بتعقلهِ وسيفهِ وحذقهِ وتدبيرهِ الخسائر المالية والمصائب

العائلية والحرية التي تمكن ذلك البطل من توطيد مجده الاول بتضييق دائرتها . واعظم ما يذكر له توجيه الخطط الى ذوي الحذق والاهلية ليشرفوا خدمته بمعارفهم ودرايتهم . وارضى الامة الفرنسوية بتزيين العاصمة وانشاء بلاط في قصر التويلري فاخر عظيم كبلاط الملك لويس الرابع عشر وكان الامراء القدماء يرجعون من المنفى ويدخلون تلك القاعات المفتخرة بابطال الفتنة وجوزفين تسود على تلك الاجتماعات بلطف وجلال واتقان تقصر عنها الا التي ولدت لتكون ملكة . وكان في عظمة ذلك البلاط وشانه الرفيع وقاعاته الفاخرة التي كانت تزدحم فيها اقدام الملوك محافظاً على بساطة الملابس وسذاجة العادات وكان يشتغل باجتهاد وجد يفوق كد اصغر الضباط فتمنعه المهام عن التمتع بالمآدب والولائم . اما اصدقاؤه الشخصيون فكانوا قليلين لانه كان يشتغل في النهار ويطالع في الليل . وكان اوان السلم يجول في الولايات ويفحص بنفسه اعظم الامور واحقرها ولا ينقطع ولو في معسكره عن انفاذ اوامر شاهدة بصحة ارائه ورغبته الشديدة في بذل الوسائل الموافقة لمقاصده العظيمة لنفع كل ولاية فرنسوية بل كل بلدة وكل قرية . انتهى

فهذا كلام اعداء نابوليون وكان قد افرغ الجهد في سبيل حمل انكلترا على مصالحته . ومن اعظم الاغلاط التاريخية الحكم بان نابوليون سبب الحروب العظيمة التي انتشبت نيرانها بعد الفتنة الفرنسوية وقد احسن مستر تراشارد كوبدن بقوله ثبت عند اكثر الناس ان سبب الحرب الهجوم علينا بدون سبب حال كوننا نرغب في عقد الصلح فالتزمنا ان نحارب خصوصاً بعد ان شرع الفرنسويون يهددون سواحلنا . فهذا غير الواقع واقول باسف انه عكس الصحيح لانه ثبت باوراق تاريخية واعمال رسمية ان انكلترا هي المتعدية في الحرب الاخيرة الفرنسوية . وفرنسا لم تحمل انكلترا على المجاهرة بالحرب فانها فعلت كل شيء خلا الجثو على ركبتيها (ربما لا يسوغ ان اتكلم هكذا عن امة رامت منع وقوع الحرب بينها وبين هذه البلاد اي انكلترا) والذين قاموا بالحرب لم يدعوا بانهم يحامون عن حرية امة ولكنهم ادعوا بانهم يقاتلون للمحافظة على حكومات اوربا القديمة ولم يكونوا اصدقا الحرية العمومية . فحزب الحرية رام الصلح ومن رؤسائه في مجلس الامراء لاندسون وبدفورد ولودرديل وفي مجلس المبعوثين فوكس وشربدن وكري فكلهم ضادوا الحرب بكل قوتهم وعضدهم قليلون من اهل المعارف لانهم علموا ان المخادعة جعلت الامة تطلب الحرب وحزنت القلوب من الطعن بهم والتعدي على اشخاصهم واموالهم واهانة صالحهم . ولا مندوحة عن الاقرار بالواقع لمجانبة ارتكاب الخطا من اخرى . وكانت عامة جاهلة فهيجت فصرخت طالبة محاربة فرنسا مع بعد انتهاء الحرب بسنتين فقط شعر بها الناس بارتفاع اسعار المآكل وقلة الاشغال وضيق الغلة فاجتمع جمهور غفير حول عجلة الملك وهو ذاهب الى المجلس العالي واخذ يصرخ قائلاً الخبز الخبز الصلح الصلح





ومن الاكاذيب الادعاء باننا نحن الانكليز كنا نقوم بحرب دفاعية والبراهين قاطعة تظهر بفحص القيود الرسمية التي لا تتغير وينبغي ان لا ننسى ان تاريخنا سيحال الى مجلس الراي العام للحكم به فلا يكون لنا نفوذ في اعضائه ولا يحكم لنا الا بالعدل والانصاف ويتم ذلك بحكمة اهالي الازمان المستقبلة ولا يكتفى باقرارنا بالقيام بحرب هجوم عدوانية لان الثابت ان الذين قاموا بها منا ارادوا ان يتغلبوا على اراء الناس بالقوة المادية من ضعف مسوغات الحرب

## الفصل الثامن والثلاثون

### حرب ومخابرات

كثر الكلام على بنود سرية كتبت في معاهدة تلسيت . ومن المعلوم ان نابوليون واسكندر اتفقا على محاربة الانكليز اذا رفضت حكومتهم الاصغا لتوسط روسيا واصرت على ان تبقي اواسط اوربا في حرب الفت البلدان التي شبت فيها في ويل ودمار . واتفقا ايضاً على ان يطلبا الى اسوج والدانمرك والبرتوغال والنمسا منع دخول المراكب الانكليزية الى ثغورها اذا امتنعت عن ذلك . فهذه كلها من الشروط التي حوتها المعاهدة المذكورة . وكان نابوليون قد وجه كل اجتهاداته الى تجيج فرنسا فاعتصم بالصبر الجميل منتظراً الوقوف على نتيجة مخابرات روسيا وتوسطها وارسل سفيراً مخصوصاً الى الباب العالي ليعقد الصلح بينه وبين روسيا فنجح لان الباب العالي قبل توسطه واغمد السيف . فلما رات انكلترا ان حلفاءها قاطبة تركوها اتخذت التدبيرات اللازمة لمخالفة الباب العالي وحاولت مضادة سياسة فرنسا السلمية بقولها انه الامبراطور اسكندر الروسي يتمنى ان يتملك بلادة فحملته على الرجوع الى المحاربة بعد عقد الصلح بزمان قصير . ولم تنجح روسيا في توسطها لان الحكومة الانكليزية لم تقبل بالصلح فحاولت في اول الامر ثم رفضت المداخلات بافتخار واستخفاف حيرا الناس وشرعت في عدوان جديد فان حكومة الدانمرك كانت قد حافظت على الحيادة التامة فخافت من امتداد سطوة فرنسا واقامت جيشها عند الحدود غير مبالية بسواحلها لانها كانت مستامنة من جهة الانكليز . وكان نابوليون قد بلغ الدانمرك بلطف انه اذا رفضت انكلترا توسط روسيا فلا بد لكل الدول من ان تميل الى جهة دون اخرى وكانت الصلات التجارية بين الدانمرك وانكلترا ودادية فرجحت انكلترا ان نابوليون قادر على جذب الدانمرك الى مضادة سلطانة البحار فصممت ان تستولي على البوارج الدانمركية غدراً وكانت في مدينة كوبنهاغن مستامنة فانها كانت مسالمة للدنيا كلها ولم يكن لها غير خمسة الاف جندي في القلاع بالقرب من العاصمة المذكورة

فجهزت انكلترا اسرة ٢٥١ بارجة كبيرة و٤٠ بارجة من نوع الفرقاطة و٢٧٧ مركب نقل

واركبتها ٢٠ الف رجل . فظهرت هذه القوة العظيمة بغتة في فرضة قاعدة الدانمرك ونزل منها الى البر ٢٠ الف رجل تحت قيادة الدوق اوف ولنغتون وكان اسمهُ السار ارثور ولسلي فهاجم المدينة برًا وبحرًا وارسل رسولاً حالاً الى برنس دالمرن نائب الملك يطلب اليهِ تسليم البوارج والقلاع وكان الرسول مستر جاكسون على جانب عظيم من القحة . فقال للبرنس ان الضرورة الجأت الى هذا العمل اذ تقرر عند وزارة انكلترا لزوم الاستيلاء على الثغر والبوارج لئلا تستولي فرنسا عليها . وطلب في الحال تسليم القلعة وفرضة المدينة والبوارج الى الانكليز والا فتطلق المدافع على القاعدة ووعدهُ بارجاع كل شيء عند زوال الخطر وان الانكليز يعاملونهُ معاملة الاصدقاء ويدفعون ثمن كل ما ياخذون . فقال البرنس بغيظ بماذا تعوضون كرامتنا اذا قبلنا بهذه الشروط المهينة المذلة . فقال الرسول الحرب حرب فلا بد من الخضوع للامور الضرورية فالضعيف يخضع للقوي . واجتمعا قليلاً وافترقا بعد ان تشاجرا . ولم يكن البرنس قادرًا على مقاومة فرنسا فوقع باليأس . فرجع الرسول الى البوارج الانكليزية فاشار القائد بالحرب وكان معهُ مدافع كبيرة والكولونل كونكريف مخترع اسهم نارية شديدة الفعل فرافقهُ ليجرب سهامهُ . ولم يرتض الانكليز ان يهجموا على المدينة لان الدانمرك كانت قد وضعت بضعة الوف من الرجال وراء الحواجز فنزلوا في مكان بعيد عن الخطر وانشاوا حواجزهم وحفروا خنادقهم واحموا كلهم وقاموا بكل الاستعدادات الحربية المهلكة المدمرة بنان وتيقظ بدون شفقة . وامتنعوا عن اطلاق المدافع قبل اضرام النيران اللازمة لاحماء الكلل ومن الاعمال البربرية اطلاق المدافع على مدينة وافرة السكان فان الكلل القاتلة لا ترحم ولا تسمع صراخ الامهات ولا نوح النتيات ولا تميل عن سرير الطفل ولا عن فراش العاجز وكان في تلك العاصمة مائة الف نفس متمتعين بالراحة والهدو والسلام والنجاح . وفي مساء اليوم الثاني من ايلول (سبتمبر) ابتدات الحرب والويل فان مئين من المدافع كانت تطلق القنابر المحشوة والمشتعلة والرصاص والسهام النارية على تلك المدينة فتزلزلت الارض في ذلك الليل الطويل حتى الظهر من اليوم الثاني بدون انقطاع اسباب الهلاك والخراب . فاضرت النيران في جهات كثيرة من المدينة وهدمت بيوتًا كثيرة وصبغت الشوارع بدم الرجال والنساء والاولاد وكان دخان كثيف يرتفع من اماكن مختلفة . ثم انتظر الانكليز ساعات ظانين ان ذلك كاف لحمل اهلها على التسليم . وكان الجنرال بيمان يدافع عنها فنظر الى الويل الذي كان يحيط بهِ بكدر وكاد قلبهُ ينشق من الحزن والغيظ . ومع ذلك صمت صمت الثبات والحزن واشتد الخصام في صدرهِ بين حب مراعاة الانسانية والكرامة . وفي المساء استانف الانكليز اطلاق المدافع واطلقوها الليل بطولهِ واليوم الثاني فقتل الفان من الاهالي واحترق ثلاثمائة بيت حتى الارض وهدم الفا منزل وامسى نصف المدينة مكتنفًا بالنار . واحترقت



كنائس كثيرة جميلة ومعمل الاسلحة . وكانت الوف من الكلل تندفع عليها قاتلة الكبار والصغار الاصحاء والمرضى والعاجزين وكثيرًا ما كانت تسقط على بيوت تحت الارض وتدفن عيالاً ملتجئين اليها . وحسد الذين قتلوا حالاً الجرحى الذين كانوا يئنون ويصرخون ويتوجعون تحت الخراب وكان كثيرون منهم يحترقون بالتدريج بالنيران المجاورة لهم . وكانت قطع الكلل المحشوة تنزل الويل في البيوت والاجسام فكانت الامهات الخائفات المرتجفات تراها تقطع اجساد اطفالهن واولادهن . وكانت اصوات المدافع وسقوط القنابر وانفجارها واشتعال النار وانهدام البيوت وصراخ الجرحى والمصابين تشهد بشر الذين امروا بذلك . ففرغ صبر الجنرال بيمان ووهى جلدهُ فسلم المدينة الى الانكليز . فهجم المنتصرون عليها فوجدوا ان الضرر لحق بكل منزل وان ثمن المدينة بات رمادًا ولم يتمكن الناس من اطفاء النيران الا باجتهاد الاصدقاء والاعداء الذين وجدوا نحو ٥٠ بارجة ومركبًا فاحرقوا بارجتين عظيمتين وكسروا بارجتين من نوع الفرقاطة وغنموا كل الاخشاب والمواد التي وجدوها في مكان بناء المراكب واخذوا من الحصون وغيرها ثلاثة الاف وخمسمائة مدفع . والغنيمة المالية التي اقتسمها الملاحون كانت ٢٤ مليون فرنك وانتقل نصف ملاحي البوارج الانكليزية الى البوارج الدانمركية ثم سارت البوارج كلها والجنود بالغنائم تاركين عاصمة الدانمركيين المنكودة الحظ مخضبة بالدماء في خراب عظيم . ودخلت البوارج نهر التمز رافعة علامات الانتصار واطلقت مدافع التبشير ومعها تلك الغنيمة العظيمة فهذا هو الجواب الصريح الذي سمعهُ نابوليون من الانكليز لما توسطت روسيا عند الصلح بينها وبينهُ

وكان الدوق اوف ولنغتون قد عاد من الهند بعد ان فتح فتوحات عظيمة ثم انتصر على كوبنهاغن عاصمة الدانمرك ثم ابتدأ في اعمالهِ في اوربا التي تكللت بالنصر العظيم . وعند رجوع الحملة الى لندن قرر مجلس انكلترا العالي شكر ذلك الدوق على ما اظهرهُ من الحذق والنشاط عند اطلاق المدافع على العاصمة المذكورة . وانكلترا الان تحب ان تتناسى كوبنهاغن ووترلو . فهذا العمل غاظ اوربا والانكليز الذين لاموا مَن امروا بهِ فكثيرون من مشاهير رجال مجلس الامراء ومجلس العموم والاهالي صرخوا بغيظ لا تمين الحكومة . واخذ اللورد غرانفيل وودنغتون وشريدان وكري وغيرهم في الطعن والتنديد وابعد الناس عن افكارهم عند الصلح . وشرعت انكلترا ونابوليون في الاستعداد لتجديد حرب شديدة جدًا وكانت روسيا ترغب في الحصول على الفلاخ والبغدان وكان العثمانيون يودون ان يحصلوا على مساعدة لدفعها عنها لبعدها عن قاعدة السلطنة ولم يكن نابوليون يروم ان يمكن روسيا من الحصول على ذلك والشروع في انشاء امبراطورية شرقية . ولكن كان يميل احيانًا الى السماح بهِ لتوطيد الاتحاد بينهُ وبين اسكندر امبراطور روسيا . فارسلت الوزارة الانكليزية رسولاً في الحال الى امبراطور روسيا وقالت لهُ انها مستعدة لان

تساعده على الحصول على الولايتين المار ذكرهما وارسلت رسولاً مخصوصاً الى النمسا لارضائها باستيلاء روسيا على الفلاخ والبغدان . وحاول سفير انكلترا في بطرسبرج ان يعتذر عما جرى في الدانمرك وقال ان وزارة انكلترا حاولت ان تبعد عن عدو اوربا العام اسباب الضرر بالاخرين فينبغي ان تسر روسيا بذلك لا ان تضطرب وان انكلترا ترجو روسيا ان تبين للدانمرك حقيقة الحال وان الانكليز يرجعون اليها البوارج اذا ارتضت بان تحارب نابوليون وكان اسكندر مغتاظاً فاجاب بافتخار وغيظ فانقطعت المخابرات السياسية في الحال بين الدولتين

فدعا اسكندر امبراطور روسيا الجنرال سافاري سفير فرنسا وقال له انك عالم ان اجتهادنا المصروف في سبيل تقرير السلام قد انتهى بالحرب . ولم اكن منتظراً حملة كوبنهاغن ولا تعظم الوزارة الانكليزية فقد صممت على القيام بتعهداتي الموافقة لمولاك . وانا قابلت نابوليون وافتخر بانني ادخلت في قلبه بعض العواطف التي ادخلها في قلبي . ولا ارتاب في اخلاصه المودة لي فياليتني اقدر ان اراهُ يومياً كما كنت اراهُ في تلسيت فانه فصيح الكلام مدرك جداً كبير العقل فاستفدت جداً بقربه وكم امر تعلمتهُ منهُ في ايام قليلة . غير ان احدنا بعيد جداً عن الاخر ولكنني اعلق الامل بزيارته قريباً . انتهى . واستاذن اسكندر نابوليون بابتياع بنادق فرنسوية وقال انني راغب ان يكون سلاح الجيشين اللذين يقومان بامر واحد واحداً وطلب اليه ان يقبل الذين ينهاون للخدمة في البوارج الروسية في المدارس الحربية الفرنسوية وعندما طلب ذلك ارسل هدية فاخرة من الفرو لنابوليون وقال انني راغب ان اكون فراءه له

فوقع نابوليون في ارتباك عظيم بملاطفات اسكندر وصداقته وعرف ان ذلك الامبراطور العظيم يطمع كثيراً في انشاء امبراطورية عظيمة جداً في الشرق تحصل على اخطر المراكز واقواها واخصها فتنمو روسيا جداً فتصير دول اوربا صغيرة جداً بالنسبة اليها ويمسي العالم في خطر من فتوحاتها فتجمع الشمال والجنوب وتطلب السيادة العامة . وكان يعلم انهُ لا يرتضي الا بالحمل على الشرق وكان نابوليون يحب جداً ان يصادقهُ ولكن كان يخشى ان يمكنهُ من اجراء ما يعود على اوربا بالضرر وسلب الراحة . فارسل كاولنكور الى بطرسبرج سفيراً مخصوصاً وامرهُ بان يفرغ جهدهُ في سبيل المحافظة على الاتحاد بدون ان ينوي الامبراطور اسكندر على انفاذ مقاصده في الشرق وعين له نابوليون ثمانماية الف فرنك سنوياً ليتمكن من ان ينوب عن بلاده بما يليق بها وجعل من اعوانهِ كثيرين من شبان عيال فرنسا الكريمة وكتب الى الامبراطور اسكندر وشكرهُ على هداياهُ واهداهُ ما هو اثمن منها . وجعلت الدانمرك نفسها في يد فرنسا في الحال فارسلت جيشاً فرنسوياً لصيانتها اجابة لطلب بلاطها . وبات اسكندر مسحوراً بتعقل نابوليون وحذقهِ وما راهُ منهُ في تلسيت فاخذ يثني عليهِ ويمدحهُ ولكن الامراء الروسيون لم يسحروا بهِ لانهم لم يشاهدوهُ فكانت



ترتعد فرائصهم خوفاً من امتداد قواعد المساواة والحرية فان مساواة فرنسا تحوائر الامارة الروسية وترفع شان الاهالي المستبدين اما الامبراطور الروسي فكان يحب ان يخسر الامراء المفتخرون في بلاده شيئاً من عظمتهم ونفوذهم وان يرفع شان الاهالي فنجم عن ذلك حزبان احدهما تحت رياسة ام الامبراطور المفتخرة وكان منهُ اكثر الامراء وسياسته محاربة فرنسا وكان الامبراطور رئيس الحزب الاقل والاضعف الذي كان يرغب في تقرير اسباب السلام . وكان كاولنكور المذكور يعلم بمضادة امراء روسيا لفرنسا . فارسل احد المستخدمين الى دوائر الامراء في موسكو ليقرر له عما يقال فيها عن نابوليون . فاظهروا له بوضوح وحرية انهم يخطئون الامبراطور الشاب بما عملهُ في تلسيت وبانحيازهِ الى سياسة فرنسا . وان محاربة انكلترا تضر تجارة روسيا كثيراً ولا يعوض ذلك الا باستيلائها على الفلاخ والبغدان ولكن نابوليون لا يسمح قط لروسيا بان تستولي على الولايتين المذكورتين الجميلتين

فبلغ السفير هذه الامور الى نابوليون وقال له بتاكيد ان الامبراطور صديق صادق ولكن بلاط روسيا في ذل مما جرى فلا سبيل الى الركون الى صداقة روسيا . فتامل نابوليون طويلاً بذلك ورأى ان اتحادهُ مع روسيا من الامور الضرورية على ان شدة ميلها الى الاستيلاء على البلدان الشرقية وادارتها المطلقة تضر جداً بفرنسا . اما العثمانيون فخلعوا السلطان سليماً ثم سجنوهُ ثم قتلوهُ وكان صديق الامبراطور نابوليون واخذوا في مضادة كل الذين كانوا يميلون الى الاتحاد مع فرنسا وكانت سفرا انكلترا تفرغ جهدها في كل ساعة في تهييج الدولة العلية الى محاربة فرنسا ولم يكن نابوليون يرضى باستيلاء روسيا على الفلاخ والبغدان . وشرع العثمانيون في محاربة نابوليون بالاتحاد مع انكلترا الد اعدائهِ واثبتهم وقطع الباب العالي النظر عن توسط فرنسا وجدد الحرب على روسيا فالتزمت فرنسا انفاذاً لمعاهدة تلسيت ان تضم جيوشها الى جيوش روسيا . وعند ذلك طلب نابوليون الاجتماع بامبراطور روسيا وامبراطور النمسا ليتفاوضوا في امور الشرق واشار بامر عظيم جداً وهو اتحاد الدول الثلث اي روسيا والنمسا وفرنسا على ارسال جنودهم براً الى الهند للحمل على الانكليز فيها وطردهم من الاراضي التي فتحوها . وكانت هذه الامور خطيرة جداً عند النمسا لان امبراطورية روسيا كانت قد قللت اهميتها وكانت تود ان تخرج مصب نهر الدانوب وهو الطونة من يد العثمانيين وترغب في مضادة انتقال ملكية ذلك المصب الى يد دولة روسية قوية حال كونها مناظرة لها . وسر الامبراطور اسكندر جداً بالاجتماع بنابوليون لعلمهِ ان ضم الولايتين المذكورتين يزيد مجدهُ ويعظم روسيا كثيراً ويلزم الامراء بان يقبلوا باتحادهِ مع فرنسا . واشتد اضطرابهُ حتى انهُ قرا رسالة نابوليون المتعلقة بذلك مرتجفاً مبهوراً على مرأى من السفير . فقال الامبراطور ما احسن ذلك ثم قرا عبارات اخرى وقال ما اعظم ذلك

الرجل ما اعظمهُ قل لهُ اني خصصت نفسي لهُ حياتي بطولها فامبراطوريتي وجيوشي هي لهُ . واذا طلبت اليهِ ان يمنح شيئاً ارضاء للامة الروسية فلا اطلب ذلك طمعاً بهِ ولكن احب ان اجعل امتي ميالة لهُ ومولاك يبيّن موافقة ارضاء النمسا باخذ بعض البلاد المجاورة لها . وقد اصاب وهذه هي الحكمة بعينها فاشترك معهُ عن طيب نفس . وقد ذكر الحمل على الهند فاقبل بهِ ايضاً وبينت لهُ في تلميت الصعوبات التي تحول دون المطلوب ولكنهُ تعود عدم المبالاة بالصعوبات ومع ذلك فالهواء هناك والمسافات عوائق عظيمة على اني اناهب ناهباً يتغلب عليها . ولا بد من الاتفاق على بلادٍ ناخذها من العثمانيين ولا تكون المفاوضة نافعة لهذه الامور الا بالاجتماع بنابوليون . وساخرج من بطرسبرج لالاقي امبراطوركم حيث يريد ولا امتنع عن ان اذهب الى نفس باريس مع انها بعيدة جداً . ولا اقدر على ذلك واجتماعنا للاشغال لا للانبساط والحظ وربما كنا نختار وبارجيث نكون مع اعضاء عائلتنا على ان الف شيء يكدرنا هناك ففي ارفور نتمتع بحرية لا نتمتع بها هناك فاخبر مولاك بذلك وعند وصول جوابهِ اخرج حالاً قاصداً المكان المعين وانا اسير كخيل البريد

فهذا هو اصل الاجتماع في ارفور وبعد مفاوضات كثيرة طويلة بين سفير فرنسا ووزير روسيا قر القرار على تبليغ نابوليون امرين احدهما متعلق بالاستيلاء على بعض الاراضي وترك البوسفور والدردنيل وكل اسيا وضم الفلاخ والبغدان والبلغار الى روسيا والتعويض على النمسا بمحلات مجاورة لها وفصل بلاد اليونان عن السلطنة وجعلها تحت حماية فرنسا والوجه الاخر عظيم جداً وينشأ عنهُ تغيير عظيم في ممالك اوربا . فهذه هي الاوهام التي خطر للمطامع الروسية انها تفوز بالحصول عليها وكان نابوليون لا يسلم بها الا رغبة في اتحاد روسيا لمقابلة عدوان الانكليز ولولا ذلك لما قبل بان يسمع كلمة بهذا الشان ولم يكتفِ الوزير الروسي في ذلك الزمان بهذه الامور ولكنهُ طلب انقلاب الشرق وحصول روسيا على البلاد العثمانية الاروبية وكل ما هو مجاور لها وان تعطى النمسا قسماً عظيماً من تلك البلاد وكل اليونان وجزائر الارخبيل وبوغاز الدردنيل وتعطى قبرص وسورية ومصر لفرنسا فهذه هي قسمة خالية من كل حق وكل عدل عارية عن مراعاة مشارب الاهالي مستندةً الى مجرد الطمع وقيام صالح بدوس صوالح لم يمكن الله تلك الدول من الحصول عليها فانهُ القى الشقاق بين اولئك الاعدا الذين اصبحوا اصدق الاحباء واشد المحافظين على الحالة الجارية . فهذه هي الاراء التي ارسلت من روسيا الى فرنسا ليتامل نابوليون بها . غير ان روسيا كانت تعلم ان هذا الطلب يجلب اللوم عليها والتنديد وكذلك سفير فرنسا فتقرر كتابة تلك الاراء العدوانية في ورقة بلا توقيع . واشتدت عناصر الطمع في احشاء الامبراطور اسكندر ونظر بافتخار وسرور الى ذلك المجد فسلم اللائحة



الى سفير فرنسا ليبلغها الى الامبراطور نابوليون وهو يقول قل لنابوليون اني مرتضٍ كل الارتضاء بهذه الورقة وهي ناتجة عن اراء الوزارة الروسية الصحيحة . فلما وصلت اللائحة الى نابوليون وقراها امتنع حالاً عن القبول بانقلاب تام فانهُ لم يكن يرتضي بان يعظم روسيا بالحصول على احسن مراكز الدنيا وكان يفضل انقطاع الاتحاد الذي كان جارياً بينهُ وبين روسيا والرجوع الى محاربتها على ان يجعل اوربا في عبوديتها . قال الامبراطور اسكندر ان القسطنطينية مفتاح بيتي وقال نابوليون انما هي سلطنة العالم . ومن المعلوم ان انضمام الاملاك الاوربية الشرقية الى روسيا يمكنها من الاستخفاف بكل عدو ويصبح البحر الاسود خليجاً روسياً لا يقدر احد ان يدخلهُ

واصبحت النمسا في اضطراب عظيم لانها كانت تخاف الاراء الحرة التي كانت فرنسا تذيعها في كل مكان وكانت لا تتعزى بعد ان خسرت ايطاليا بسيف فرنسا وامست في خجل من جرى انكسارها في ألم واوسترلتس وكانت تخاف جداً تعديات الامبراطور اسكندر مناظرها العظيم حال كونها لم تكن قادرة ان تحارب فرنسا ولو كانت روسيا معها فكيف تقدر ان تصد روسيا وفرنسا وكانت دول اوربا تكره انكلترا بعداءها المار ذكرها ولم يكن للنمسا امل بارجاع ايطاليا وتاخير نمو روسيا الا بمساعدات انكلترا . وخابر نابوليون النمسا بوضوح لانهُ لم يكن سبيل الى الحيلة . وكان يحب فعلاً ان يعقد اتحاداً بين النمسا وفرنسا وروسيا بالمساواة التامة ليلزم انكلترا بان تصالحهُ . فانهُ كان يرغب ان يتمكن من الزمان اللازم ليرقي اسباب التقدم في فرنسا ليجعل امبراطوريتهُ العظيمة جنة الدنيا . وكان قد ضجر من المحاربة فكان يريد ان يبذل اعز الامور لاستمرار السلام . وقال ان انكلترا الدُّعدوة للسلام فالعالم يطلب الراحة ولا تقدر تلك الدولة ان تثبت في مضادة اجماع اواسط اوربا . ولم تكن حكومة النمسا حينئذٍ سليمة الباطن فاتحدت معها بعد تردد عظيم . وبعثت الى انكلترا رسولاً وفوضت اليهِ امرين احدهما لتسمعهُ لاوربا والاخر سري . فالاول ان فرنسا قد قررت شروطاً موافقة للسلام بتوسط روسيا واذا امتنعت عن قبول السلام فلابد لكل الدول من ان تضادها . والآخر ان النمسا امست وحدها في اواسط اوربا فلا تقدر ان تضاد روسيا وفرنسا فاذا اصرت على الحرب فلابد من ان تخسر اعظم اصدقائها وفوض الى ذلك الرسول بان يقول ان ما جرى في عاصمة الدانمرك هو تعدٍ كدر جداً كل دولة محايدة

## الفصل الثامن والثلثون

### ايطاليا واسبانيا

وفي تلك الاثناء خرج نابوليون من باريس قاصداً ايطاليا وكان يسير من مدينة الى مدينة

بسرعة بدون تمتع بالراحة . وكان يقرر اعظم الامور النافعة للحظة وخرج من باريس في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٧ وسارت زوجتهُ جوزفين معهُ وفي نصف الليل من ١٥ من الشهر المذكور قال نابوليون لاحد اعوانهِ في نهاية مادبة جميلة اقيمت في القصر أعدّ العجلات الساعة السادسة صباحًا لنذهب بها الى ايطاليا . ولم يخبر احدًا بسفرهِ قبل ذلك حتى جوزفين امرأتهُ لم تسمع بهِ قبل صدور الامر . وفي صباح ٢١ من ذلك الشهر دخلت عجلتهُ اسواق ميلان من ايطاليا فتعجب اوجين لما راهُ وبحال وصولهِ دخل كنيسة ميلان واقيمت صلوات شكر . وكان يسر بقرع الاجراس وانغام الارغن وغير ذلك من الاحتفالات الدينية التي كانت تقام في اعظم الكنائس واشدها تاثيرًا في الذين يحضرون فيها وكان رزينًا لا يسر بالملاهي واسباب الطرب وكان تبسمهُ قليلاً جدًّا واوائح الحزن كانت تلوح على الدوام على وجههِ واعمالهُ كلها خالية من التصنع والتكلف . وبعد الظهر زار نائبة الملكة وهي عروس اوجين الجميلة الكريمة وفي المساء سار الى قاعة التشخيص ليراهُ الايطاليان ولم يكن يلذ بالتشخيصات المضحكة ولكنهُ كان يسر جدًّا بالتشخيص الجدي المؤثر وجمع اعضاء المجلس القضائي وخاطبهم قائلاً

يا سادتي . انني اراكم بسرور حول عرشي . وقد فرحت جدًّا بما رايت من تقدم شعبي بعد ان غبت عنهُ ثلث سنوات . ولا بد من القيام بامور كثيرة قبل ان نمحو اغلاط اسلافنا فتصبح ايطاليا اهلاً للمستقبل العظيم المحفوظ لها . فانشقاقات اجدادنا الكثيرة الناشئة عن مضاداتهم الدينية وحبهم للخصوصيات المحلية ساقتهم الى خسارة كل حقوقهم . فسلب مركز البلاد الموروث منها مع انهُ اتصل اليها من الذين عاشوا في القرون البعيدة واذاعوا شهرتهم الحربية وفضائلهم فمجد ملكي ارجاع ذلك المجد وتلك الشهرة . انتهى . ولم يسمع الايطاليان كلامًا جميلاً كهذا الكلام منذ قرون كثيرة

وصرف الايام الثلثة التابعة في معاطاة الاشغال واصدار اوامر لا تحصى . ولما قطع جبل سنس بالطريق الجديد التي انشاها راى انهُ ليس في تلك الجبال الثلجية الجرداء اسباب الراحة للمسافرين فامر ببناء ثلثة مراكز . احدها على قمة الجبل والاخر في حضيضهِ وامر ببناء كنيسة في القمة وخان ومستشفى ومحل لنزول الجنود . وامر باعفاء كل فلاح ينزل في تلك المراكز من الاخرجة وشرع في انشاء قرى فيها بوضع جنود في كل منها وسلم اليهم ترميم تلك الطرق الصعبة والاجتماع لمساعدة العجلات عند احتياجها الى المعاونة وفي ايام قليلة قام باعمال لا تقدر اكبر العقول ان تقوم بها الا في اشهر . ففي ١٠ كانون الاول (دسمبر) خرج قاصدًا البندقية وكان الاهالي يكرمونهُ ويفرحون مترحبين بهِ في كل مكان . وقابل في الطريق ملك باقاريا وزوجتهُ وهو حموا وجين ابن جوزفين وصادف شقيقتهُ اليزا واخاهُ جوزف وكان نابوليون يحبهما جدًّا فساروا معًا بعظمتهم واحتفالاتهم قاطعين جبال ايطاليا العظيمة الجميلة واوديتها . ولما وصل الى



البندقية راى ان الحكومة والاهالي قد قاموا باستعدادات عظيمة لاستقبالهِ ونشروا الرايات وهيأوا اسباب الزينة فسار الجمهور بهِ في شوارعها وهم يصيحون متهللين والموسيقات الجميلة تصدح بانغام ايطالية مطربة وكان مع الامبراطور نابوليون نائب ملك ايطاليا وعروسهُ الكريمة وملك باقاريا وزوجتهُ وملك نابولي واليزا برنس لوكا وامراة غراندوق برج وبرثيه غراندوق نوفشاتل . وكانت البندقية تفخر بخلاصها من قوانين ظالمة وتتمنى ان يضمها نابوليون الى مملكة ايطاليا المحبوبة عندهُ وفي وسط تلك الاسفار والولائم العظيمة كان نابوليون موجهًا كل قواهُ الى الانشاءات العظيمة النافعة وزار اماكن بناء المراكب وصنع الاسلحة والترع ومعهُ مهندسون مشهورون . وشرع في الحال بانشاء عظيم وهو ان تصير مياه البندقية كافية لعوم المراكب فيها ولو كانت كبيرة جدًّا واقام عمدة للمحافظة على الترع وترميمها واقام مكانًا لاربع وسبعين بارجة صغيرة وحفر ترعة كبيرة وعمل اعمالاً مائية عظيمة . وانشأ فرضة حرة لادخال البضائع اليها قبل دفع الاجرة وامر بنقل المقابر من الكنائس الى جزيرة ولم يغفل عن اسباب انشاء متنزه للاهالي وانشراحهم فرمم قصر سان ماركو الجميل وزينهُ ونورهُ لتنزه الناس وانشا مستشفيات فهذه من الاعمال العمومية التي منحها نابوليون للبندقية مع انهُ لم يقم فيها غير ايام قليلة فاقام فيها من المشروعات النافعة اكثر مما اقامت النمسا في قرون وكان يطمع في مجد هذه الاعمال فكانت الامم العظيمة تكافئهُ بالشكر والثناء . وكانت البندقية وغيرها من اراضي ايطاليا المتسعة قد اخذت من املاك النمسا فكانت وزارتها تترقب بتيقظ سنوح الفرص لتنتقم من ذلك الامبراطور الذي كان يسعى نفسهُ امبراطور الاهالي وتسترد املاكها وبعد ان خرج منها فحص قلاع المملكة الاولى وكان قد كتب الى اخيهِ لوسيان بان يوافيهُ الى مانتوا عقيب خلاف وقع بينهما وكان نابوليون يحب ان يصالحهُ . وكان لوسيان قد تزوج امراة ثانية وهي ارملة احد صيارفة باريس وكان حاذقًا مهيبًا ثابت العزم ولم يكن ينقاد الى اخيهِ . وكان نابوليون يعلم قوتهُ ويركن الى اصابة ارائهِ ويرغب في الحصول على رجال قادرين على انفاذها فاجتمع باخيهِ الى ما بعد نصف الليل فخرج لوسيان باكيًا فانهما لم يتفقا وان كان كل منهما يعتبر الاخر ولا نعلم الحديث الذي جرى الا ما ذكرهُ البارون منيفال كاتب نابوليون قال سرت نحو الساعة التاسعة انفاذًا لامر الامبراطور في طلب لوسيان بونابرت الى الفندق الذي كان فيهِ . فسرت بهِ الى غرفة الامبراطور فاجتمعا الى ما بعد نصف الليل وخرج لوسيان مضطربًا جدًّا والدموع قد ملأت عينيهِ فرجعت بهِ الى الفندق وعرفت هناك ان الامبراطور الح عليهِ بان يرجع الى فرنسا ليتبوا عرش ملك في احد البلدان شارطًا عليهِ ماس عواطفهُ واستقلالهُ السياسي . وطلب اليَّ بان اودع اخاهُ عنهُ وقال ربما كان هذا الوداع الاخير . ولما راى الامبراطور انهُ لم يقدر ان يقودهُ الى ارائهِ

بقبول شروطهِ طلب اليهِ اعادة التامل في الامر وامر اخوتهُ ووزيريهِ تاليرند وفوشه بان يلحوا عليهِ بقبول شروطهِ فلم ينجحوا . فتاسف نابوليون لانهُ خسر مساعدات رجل كان يحترم صفاتهِ الجيدة وحذقهُ وثباتهُ ومن اعظم الادلة على كرامة اخلاقهِ اتيانهُ الى اخيهِ في ساعة الضيق . انتهى

وبعد ذلك خرج نابوليون من مانتوا قاصداً ميلان قاعدة مملكتهِ الايطالية فوجد رسالات لاتحصى من كل اقطار اوربا وشعرت انكلترا بالاضرار التي لحقت بها بسبب الامر البرليني لانها باتت لاتقدر ان تبيع بضائعها وامسى اصحاب الثروة فيها في خطر الافلاس ومعاملها في تاخر وفعلتها في جوع حال كون اواسط اوربا لم تشعر بجزء من الاضرار التي كانت تشعر بها . لان نابوليون فتح ابواباً جديدة للتجارة فاصبحت اكثر الصنائع والمعامل في نجاح وتقدم . فاصدرت اوامر جديدة اشد من الاوامر السابقة تثبت بها حصر فرنسا وكل دول اواسط اوربا التي اتحدت معها وقررت انهُ من الجائز ان تغنم كل المراكب التجارية التي تخص فرنسا او احدى حليفاتها ما لم تكن قد جاءت سواحل انكلترا او ثغراً انكليزياً وبان تدفع تلك المراكب المتحايلة رسماً ٢٥ في المائة على قيمة كل البضائع المشحونة فيها اذا كانت بلادها او بلدان حلفائها خلا انكلترا فرغبت انكلترا في تعويض الخسارة الناشئة عن امتناع نابوليون عن ابتياع بضائعها بوضع رسم على غلال الدنيا ومصنوعاتها . فلما راى نابوليون ذلك وهو في ميلان كتب امرهُ المشهور المعروف بامر ميلان . وكان قد امر وهو في برلين بمنع دخول المراكب الانكليزية الى كل ثغور فرنسا وثغور حلفائها او المراكب التي جاءت ثغراً انكليزياً ويظن ان فيها بضائع انكليزية وقطع جميع الصلات التجارية بينهُ وبين جارتهِ الانكليزية المحاربة حتى يظهر منها ميل الى المصالحة وحجزت انكلترا ما هو للفرنسويين في البحار وحجز نابوليون ما هو للانكليز في البر . وامر من ميلان بما هو خارج عن دائرة العدل اقتداء بانكلترا ودفعاً للاضرار التي وقعت على وطنهِ . قال ان كل مركب يدفع ذلك الرسم يخسر جنسيتهُ ويسوغ غنمهُ وان ذلك لا يبطل ما لم تحترم انكلترا القوانين الدولية واسس العدل والناموس . فهذه الاعمال العظيمة التي قامت بها دول قادرة جعلت الامم الصغيرة في ويل وهوان لعجزها عن المحاماة عن نفسها

وورد في امر ميلان ان كل ملوك اوربا موقنة على استقلال راياتها ونفوذها . فاذا جعلها الضعف تقبل بظلم كذلك الظلم حتى يصير عرفاً مقرراً ينتفع بهِ الانكليز يجعلون حق الحصر بحراً مضراً باستقلال كل امة . انتهى . وقال لحكومة الولايات المتحدة انهُ لا يقصد انفاذ قرارهِ في بلادها . وقال بعد ذلك للمجلس القضائي الفرنسوي ان دولة امركا فضلت ترك التجارة بحراً على الاعتراف بانها عبدة للانكليز

وعرف نابوليون وهو في ميلان ان انكلترا امرت جنودها التي انتصرت في كوبنهاغن قاعدة



الدانمرك بالمسير الى البرتوغال وجمعت في مرافىء تلك البلاد الضعيفة التي امست كمهجر انكليزي وفي قلعتها المنيعة في جبل طارق الذي اخذتهُ قهراً من اسبانيا جيشاً جراراً قوياً جداً . فاخبر نابوليون اسبانيا حليفتهُ التي لا يركن اليها بانها باتت في خطر وبعث بجنود لاسعافها . وعند خروجهِ من ميلان بادر الايطاليان الذين يقرون لهُ بالجميل الى انشاء اثر لهُ تذكاراً للمنافع التي حصلوا عليها باجتهاد مخلصهم المشهور . ثم صار مسرعاً الى بيامونت وناظر على القلعة العظيمة التي كان يبنيها في الاسكندرية من ذلك الاقليم . ومن ثم ذهب الى تورين وكان يحرض الاهالي في كل مكان على التقدم بكرم وحب وامر بتعميق ترعة نهر بو لتسير بها السفن الى الاسكندرية في اوربا . وخطط بحذقهِ الهندسي العظيم ترعة لتصل مياه بو بمياه البحر المتوسط ومهد طريقاً عامة في جبل جنفر وهذه طريق جديدة بين فرنسا وبيامونت وشاد سبعة جسور جميلة متينة فوق سبعة انهر . وهيأ المال اللازم لذلك جميعهِ ولا عجب من خوف الملوك الشرهين الذين كانوا ينفقون اوقاتهم بالملذات والملاهي من سطوة ذلك الملك الادبية الذي لم يكن يطلب الراحة والملذات والملاهي بل كان يفرغ الجهد في تقدم البشر

وخرج من تورين والاهالي يهتفون بالثناء عليهِ باستحقاق وكانت جوزفين جالسة بجانبهِ والسرور والكدر يتدافعان في صدرها فانها كانت تحب زوجها جداً وكان تبسمهُ وملاطفاتهُ واعتناؤهُ الشديد بها وكلامهُ الحبي الناشىء عن شدة الغرام تشهد بانهُ كان يحبها كما كانت تحبهُ . وكانت موكنة بان ذلك الرجل العظيم الجاذب القلوب بطلاسم حذقهِ ولطفهِ لا يتردد عن ان ينفي من قلبهِ كل اثر للغرام مراعاة لما تقتضيهِ الاحوال لادراك غاياتهِ واتمام مشروعاتهِ وفي مساء اول كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨٠٨ عاد الى باريس فتقاطر مامورو البلاط والمدينة اليهِ للقيام بالمفروض عليهم وسر الباريسيون بعوده وازدحمت اقدامهم في الجنات وقرعوا الاجراس واشعلوا المصابيح . وكان مئات منهم يظهرون ما اثبت لنابوليون ان عرشهُ موسس على قلوبهم . ووجه عنايتهُ الى البرتوغال واسبانيا لحل المشاكل المتعلقة بهما . ومملكة البرتوغال ارض ضيقة ممتدة على سواحل اسبانيا الغربية وكان فيها نحو ثلثة ملايين من السكان وكان كثيرون منهم في حالة الجهل متعودين الذل بظلم الحكام وكانت سطوة انكلترا نافذة فيها حتى قيل انها مهجر انكليزي . وكانت المراكب الانكليزية تملا فرضها ومخازنهم تملا اسواقها . فبعث نابوليون برسالة الى حكومة البرتوغال وقال لها من الواجب ان تميل الى احد الفريقين المتضادين فاذا كانت راغبة ان تنضم الى محالفة اواسط اوربا ينبغي ان تفعل كسائر الدول وتمنع المراكب الانكليزية الموجودة في بلادها عن الدخول الى فرضها وتحجر كل البضائع الانكليزية . وجرت بعد ذلك مخابرات سياسية . وكانت الحكومة البرتوغالية تبعث بكل رسالات نابوليون الى وزارة انكلترا قال مستر كانش في مجلس انكلترا ان الوزارة الانكليزية تكتب

الاجوبة . فعرف نابوليون المقصود من اجوبتها غير الصريحة . فارسل في الحال جيشاً مع جيش اسبانيا لتخليص البرتوغال من سلطة الانكليز . وكان البرتوغاليون يعلمون انهم لا يقدرون على الدفاع فدخل البلاد جيش فرنسوي صغير تحت قيادة الجنرال جونو وسار بسرعة قاصداً العاصمة . وكان الاهالي ينظرون الى تلك العساكر غير مبالين فان الظلم حملهم على كره حكامهم وكان الذل قد نفى من صدورهم حب الحرية والشهامة وانقسم مجلس المشورة في لسبون قاعدة البرتوغال فبعضهُ رغب في المحافظة على محالفة الانكليز والبعض الاخر في الاتحاد مع دول اواسط اوربا . وقال قوم الاصوب ذهاب البلاط الملكي كلهِ بجواهرهِ وامتعتهِ واموالهِ الى املاكهِ البعيدة في البرازيل وكانت حينئذٍ ولاية برتوغالية طول سواحلها اربعة الاف ميل ومساحتها خمسين ضعف مساحة البرتوغال . فأُنفذ الراي الاخير لما بلغهُ ان القائد جونو يبلغ بجيشهِ الفرنسوي لسبون بعد ذلك بيومين اما ملكة البرتوغال فكانت مختبلة العقل وكان البرنس وكيلها يسوس المملكة بالنيابة عنها وكان في مينا لسبون ٣٦ مركباً حربياً وتجارياً لحمل اهل البلاط وامتعتهم وتم ذلك في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٨

وكان المطر يهطل غزيراً والهواء يهب بارداً ومع ذلك لم يمتنع البلاط عن السفر وامست والدة الملكة مجنونة فنزلت الى الشارع هي والبرنس والبرنسات واكثر اعضاء البلاط والعيال الكريمة وعجلات بضائع لا تحصى تجر في الازقة حاملة الفضة والحلى والاثاث الفاخر والصور الجميلة وشحنت النقود التي تيسر للحكومة والامراء ان يجمعوها في المراكب . وكانت الامتعة الثمينة ملقاة على الشاطئ تحت المطر ملطخة بالوحل والعجلات تذهب وتاوب وفيها عيال امراء واصحاب مناصب وركب المراكب بسرعة نحو ثمانية الاف من الرجال والنساء واشتد الخوف فاقلع كثير منها بلا المونة اللازمة وكان الزوج يركب مركباً وزوجتهُ اخر وانفصل الاخوة عن الاخوات والبنون عن الاباء ولم ينقطع حزنهم الا حين ادركوا البلاد البرازيلية . وكانت بوارج انكليزية تسير عند مصب تاجه لتصون العائلة الملكية ومأموري البلاط الهاربين . وافلعت البوارج والمراكب عند هبوب ريح قوية فاطلقت البوارج الانكليزية المدافع للسلام على العائلة المالكة . وكان السارسدتي سمث رئيس البوارج الانكليزية فارسل سفناً قوية صيانهم وقبل ان توارت سفن العائلة المالكة واعوانها الهاربين في الافق وصل الجنرال جونو الى ظاهر لسبون ودخل بالف وخمسمائة جندي من ابطال الجيش الفرنسوي بدون ان يمانعهُ سكانها مع ان عددهم كان ثلثمائة الف نفس . وهكذا انتهت البرتوغال من ايدي الانكليز الى ايدي الفرنسويين بسرعة تحير العقول

وكان فرع من العائلة البوربونية مالكاً في اسبانيا واسم الملك كارلوس الرابع وكان شرهاً تيهاً خامد العقل جباناً كسلاناً مزدرى بهِ وكانت زوجتهُ لويزا ماريا من برنسات نابولي



فاجرة واشد فسقاً من افجر نساء اسبانيا . وكان نوبل كودوا من ضباط حرس الملك طويل القامة جميلاً جاهلاً متفنناً للغناء والموسيقى محباً للملذات والملاهي وكانت الملكة المذكورة من بنات ايطاليا ومن بلاط نابولي الفاسد عارية من الحياء شديدة الميل الى الشهوات بعيدة عن التقوى والتهذيب الصحيح فسمعت صوتهُ فدعتهُ الى القصر ورفعت مقامهُ واجزلت عطاءهُ وسلمت نفسها وزوجها وحكومتها الى يدهِ . فسر الملك الجاهل بل الناقص العقل بالتخلص من اتعاب ادارة المملكة فارتضى بتدبيراتها ولم يكن ذا ناموس ولا كرامة فكان يرى ما يدل على افعال زوجتهِ متجاهلاً فكان في اوطإ درجة من الذل الادبي وكان يحب كودوا المذكور ويتكئ على كتفهِ ويقول هوذا صديقي يصونني . ولما عقد معاهدة باسيل لتنبوهُ ببرنس السلام . وقال الملك لنابوليون عند اجتماعهِ بهِ اني اخرج كل يوم من الصيف والشتاء للصيد حتى الظهر فاتناول الطعام ثم اعود الى الصيد حتى غروب الشمس . وعند ذلك يخبرني كودوا بما جرى بالاختصار فانام لاعود في الصباح الى ما كنت عليهِ . انتهى . فهذا ما كان يفعلهُ ملك اسبانيا والحروب تزلزل اوربا من اساساتها . وكان لهُ ثلثة اولاد وهم فرديند وكارلوس وفرانسسكو . فالاول ولي العهد وكان قد بلغ سن ٢٥ وكان جاهلاً خامل الفكر كابيهِ فاسداً كامهِ وقالت عنهُ ان ابنا فرديند ذو راس كراس البغل وقلب كقلب النمر وكان بوده ركوب التخت واكثر الامة تميل اليهِ فانها سئمت من فساد البلاط وظنت ان التغيير ينفعها . فكانت امبراطورية كارلوس العظيمة تسقط بسرعة الى دركات الظلم والفقر والخراب . وكان الناس يكرهون جداً كودوا محبوب الملكة النجسة فتتابعت المؤامرات وامست اسبانيا ميداناً لحدوث ما كان يعيب اوربا . ولم يكن للملك ولا للملكة من التعقل ما يجعلهما يدركان حركات نابوليون . وكان كودوا يكرههُ ويخافهُ لانهُ راهُ يقلب الممالك القديمة العهد الظالمة ويشيد ممالك تراعي حقوق الناس وتعتني بامورهم

واتهم فرديند ولي العهد بمحاولة قتلهِ وقتل ابيهِ وامهِ وربما كان ذلك صحيحاً . فالقي القبض عليهِ وسجن . فلما سمع الناس بذلك تحزبوا لهُ بغضاً بكودوا واجتمع الوف كثيرون حاملين السكاكين والحراب . واحاطوا بقصر كودوا ولم يجسر جنود الملك ان يحملوا عليهم فاختبأت سلف الآخر ملتئماً بحصر قديمة وراء المدخنة فكسر الناس ابواب قصرهِ وهجموا على القاعات الجميلة واخذوا يطرحون المرايا والمقاعد والصور الفاخرة الى الشوارع فتتكسر اربا اربا . وكان في القصر فتاتان كان يحبهما فذهبوا بهما الى عجلة ووضعوهما في مكان امين . وبعد ذلك ببرهة قصيرة سمع صوت مشيهم حيث كان فارتعدت فرائصهُ خوفاً من الموت قتلاً وكان لا يزال مستتراً بالحصر القديمة واحيي الليل على تلك الحال ولم يجسر على الخروج من مخبأهُ ونالم من العطش والجوع وقضى ليلة اخرى على تلك الحال وقد خفقت القلوب خوفاً من القوم . ونجا بعد ان صرف ٤٦ ساعة

بدون تحرك ولاراحة . وفي الصباح الثالث الزمة العطش الى الخروج فراهُ رقيب وصاح بقومهِ فصاحوا في الشوارع وهجموا على القصر والقوا القبض عليهِ وجروهُ الى الشارع ومزقوا ثيابهُ فانكشف راسهُ واصفر وجههُ وتهشم جسمهُ فشق بعض الفرسان الجمهور المجتمع مجردين سيوفهم وامسكوهُ بذراعيهِ وحملوهُ وهو معلق بسروجهم والناس كالذئاب الكاسرة تهتج وراءهم فزجوهُ في السجن ليصونوهُ من غضب القوم واقفلوا الباب عليهِ

وفرغ صبر الاهالي الذين كانوا يحلفون بالثار فدخلوا بيوت اصدقاء ذلك الوزير ونهبوها ثم صاحوا هيا بنا الى قصر الملك . وحدث ما كان يحدث ايام الفتنة في فرنسا واشتد خوف الملك والملكة بل كادا يموتان خوفًا واخذا يتصوران السجون والقتل بالة القتل ويشتد خوفهما بضعف العزم ومعرفة الخطا . فامر بعزل كودوا والتخلي عن العرش لبخلفهِ ابنهُ فرديننذ . ولم يكن مصممًا على انفاذهِ فطلب الى نابوليون بان يسعفهُ وكتب اليهِ ما ياتي

تنحيت لبخلفني ابني فان صليل السيوف وضجات شعبي العاصي الزمتني بان انتحي او اموت قتلاً ولم يبقَ لي امل الا بمساعدة حليفي الكريم الاخلاق الامبراطور نابوليون . انتهى

وكتب فرديننذ ايضًا طالبًا مساعدة ذلك الامبراطور العظيم وعظمهُ اي تعظيم فقال ان العالم في كل يوم يزداد دهشة بما يراهُ من جودة نابوليون وعظمتهِ فتاكد ان الامبراطور يرى ان فرديننذ يكون لهُ ابنًا امينًا طائعًا جدًّا ولذلك يتوسل اليهِ ان يحميهُ حماية والدية ويشرفهُ بالاقتران باحدى كريمات عائلتهِ . انتهى

ولما كان نابوليون على قمة لاند كرافتبرغ مساء يوم معركة جينا وردت اخبار ان اسبانيا التي كانت حليفة لهُ بالاسم شرعت تخونهُ بالاتحاد مع انكلترا وجمع جيش لمحاربتهِ . وكان بعيدًا عن وطنهِ في قلب بروسيا يحارب جيوشًا جرارة من جنود روسيا وبروسيا وانكلترا . وكان بوربون اسبانيا قد استغنموا سنوح الفرصة ليهيجوا اسبانيا عليهِ لتحمل على موخرتهِ مع انهُ لم يضرها بشيء ولا سعى لها بشر . فلو انكسر نابوليون في معركة جينا لنهض فلاحو اسبانيا المتعصبون تحت قيادة ضباط انكلترا وحملوا كامواج بحر مزبد على فرنسا التي امست بدون مدافع عند حدودهم وقلبوا الدولة النابوليونية وارجعوا البوربون الى فرنسا على غير ارادتها

وعند نصف الليل كان نابوليون جالسًا بالقرب من النار المشبوبة يقرا اخبار تلك الخيانة العظيمة . وتغلبت شهامتهُ وجسارتهُ وعزمهُ على الصعوبات التي كان يراها فطوى الرسالات وتبسم وقال سابدل بوربون اسبانيا بملوك من عائلتي . وفي اليوم الثاني سحق المملكة البروسية في معركة جينا ومعركة اورستات . فخاف بوربون اسبانيا واضطربوا واغمدوا السيف وجثوا امام ذلك المنتصر العظيم . غير ان نابوليون وكل اهالي اوربا كانوا يعرفون ان اولئك البوربون



كانوا ينتظرون سنوح الفرصة ليوقعوا بهم

فالتزم بوربون اسبانيا ان يتجئوا الى نابوليون للتخلص من سوء عواقب فسادهم فاضطرب وارتبك جدًّا . وظهر في عملهِ تردد لم يظهر في عمل اخر من اعمالهِ الكثيرة ورأى انهُ لابد من احد امرين دون كل منهما مخاطر كثيرة . احدهما اسقاط ملك اسبانيا بقوتهِ العجيبة واقامة ملك اخر ليصلح احوالها . فيحصل على حليف صادق يحمي موخرتهُ اذا اتحدت الدول العظيمة الشمالية عليهِ فانها كانت لاتزال تحاول الغدر بهِ ولكن راى ان ذلك يجعل الملوك يتذمرون من فوز فرنسا على قواعد الملكية في اسبانيا فيشتد بغضهم لهُ ولامبراطوريتهِ الجمهورية التي كانت كل الممالك تحاول حطها . والوجه الثاني عضد فرديننذ وتثبيتهُ في الملكية لتعذر عضد كارلوس وكودوا وتزويجهِ امراة عاقلة ذات قواعد نابوليونية تجعلهُ يسير في السبل المستقيمة وتبعدهُ عن الخيانة والفساد . فتامل طويلاً في ذلك وتردد وصمم على اجراء الوجه الثاني واجابة فرديننذ وقال ينبغي ان تفحص التهمات التي اتهم بها اذ لا يصح تزويج كريمة من عائلتي بمن اتهم بمحاولة قتل ابيهِ وامهِ . وشرع في البحث عن فتاة تليق بان تكون زوجة لهُ . وقلما يجد الانسان فتاة فاضلة متعقلة جدًّا ذات صفات جميلة وسجايا حسنة قادرة على الاعمال العظيمة . وكان في باريس فتيات كثيرات جميلات ولكنهُ لم يجد بينهن من كانت مزينة بالصفات المطلوبة . وكان لاخيهِ لوسيان القاطن في ايطاليا في منفى اختياري بنت من زوجتهِ الاولى جميلة جدًّا ولكنها لم تكن مشهورة بسبب الخلاف الذي كان جاريًا بين والدها وعمها الامبراطور . فدعاها الى باريس وراقب سلوكها واحوالها قبل ان جعلها ملكة اسبانيا . فامر بان تلاحظ رسالاتها في البريد . غير ان سوء الحظ جعلها تحسد اعمامها وعماتها الذين كانوا مالكين في ممالك مختلفة من اوربا حال كونها كانت متفقة مع ابيها ولم تكن نفسها العالية تميل الى المصالحة فلم تحاول استجلاب خواطر اقاربها فكتبت مفندة تفنيدًا ناتجًا عن حذق بعض اعمال عمها نابوليون وسائر اعضاء عائلتهِ . فبلغتهُ الرسالات فتبسم وهو يقراها ودعا اليهِ امهُ واخوتهُ واخواتهِ وعقد جمعية عائلية وقرأ عليها الرسالات وكان متعودًا سمع الطعن فيهِ فلم يبالِ بهِ واستغرب ما راهُ من كدر اعضاء عائلتهِ . فحكم بانها لا تليق بان تكون ملكة اسبانيا لتدبر اعمالها وفي الغد سارت راجعة الى ايطاليا . وما ذلك الا من توفيقها لان ما جرى بعد ذلك اثبت ان فرديننذ كان كوحش لا يراعي حقوق الانسانية . ولو تم اقترانهُ بها لحدث ما جاء بتغييرات عظيمة

فتكدر نابوليون لكونهِ يجب ان يستغني عن اسقاط الدولة البوربونية في اسبانيا ولكن الاحوال كانت تسهل ذلك وتعسر غيرهُ . وكان قد ارسل مورات في جيش فرنسوي الى اسبانيا لمنع الفتن الجديدة في البرتوغال ولاسعاف اسبانيا على دفع حملة انكليزية كانت تترقبها فامسى الملك

فيها في يد نابوليون . ومع ذلك بات في حيرة عظيمة ولا يعلم احد الافكار التي كانت تخطر ببالهِ لانهُ لم يكن يظهرها لاحد والذين كان يركن اليهم كل الركون ويمكنهم من الوقوف على اسراره لم يقدروا ان يعرفوا مقاصدهُ . والظاهر انهُ لم يعقد النية على شيء قطعي

وسمع بتنحي الملك كارلوس الرابع الاسباني وهو في قصره في سان بلو يوم السبت مساء . وفي الصباح حضر الصلاة وراى الناس على وجهو من اللوائح ما دل على اضطرابهِ وغوصهِ في بحر من الهواجس . وعند نهاية الصلاة دعا اليهِ الجنرال سافاري وهو الدوق دي روفيغو وسار معهُ الى البستان واخذ يتمشى في ظل الاشجار وتكلما ساعتين وهذا بعض كلامهِ

قد تنحى كارلوس الرابع وخلفهُ ابنهُ . وهذا التغيير نشأ عن فتنة سقط بها برنس السلام . والظاهر ان التنحي لم يكن اختياريًا . وكنت منتظرًا حدوث امور عظيمة في اسبانيا فحدث ما لم اكن انتظرهُ . فاذهب الى مدريد واجتمع بسفيرنا واسالهُ لماذا لم يمنع فتنة لامندوحة لي عن المداخلة فيها فيقال انني سببها . ولا بد من معرفة ارادة الاب قبل الاعتراف بابنهِ فانهُ حليفي وقد حالفتهُ فان طلب اليَّ ان اعضدهُ فلا اتاخر . ولا شيء يجعلني اعترف بفرديننذ قبل ثبوت تنحي ابيهِ لانهُ ربما تمكن قوم من الخائنين من الدخول الى قصري والزامي بالتنحي وقلب دولتي . ومن شروط صلح نيامن انهُ اذا امتنعت انكلترا عن المصالحة بواسطة روسيا بادر امبراطورها الى جعل جيوشهِ متحدة مع جيوشي لتلزمها بان تعقدهُ ومن الضعف ان امكن الاسبانيول من الثاني في اضطراب في الجهة الضعيفة بعد ان اكون قد حصلت على ذلك النفع المفرد من الذين فزت عليهم بالحرب . واذا مكنت اسبانيا من الاتحاد مع انكلترا انفعها نفعًا يفوق الخسائر التي وقعت عليها بابتعاد روسيا عنها واخاف جدًا من فتنة لا اعلم اسبابها ولا مقاصدها فارغب في مجانبة محاربة اسبانيا فان محاربتها تكون محاربة عدوانية ولا اعرض نفسي لمخاطرها اذا عول البرنس السائد فيها على تلك السياسة . فلو بقي كارلوس الرابع مالكًا واستمر برنس السلام في منصبهِ لثبت السلم . اما الان فقد تغير كل شيء . فاذا ملك تلك البلاد ملك محب للحرب يميل الى مقاومتنا بكل قوات امتهِ وربما نجح في جعل عائلتهِ مالكة عوضًا عن عائلتي في فرنسا . وهذا يبين ما ينبغي ان اتوقع حدوثهُ اذا لم ابادر الى منعهِ فمن فروضي ان احسب لتلك المخاطر حسابًا وان اتخذ الوسائل اللازمة لاسلب من يد العدو القوة التي يحصل عليها فاذا لم اتفق مع الاب او ابنهِ اخلعهما جميعًا فاجمع المجلس العالي وانفذ مقاصد لويس الرابع عشر . فابيت في المركز الذي كان فيهِ ذلك الملك لما قام بحرب الارث عاضدًا حفيدهُ . فان الضرورة السياسية واحدة في الحالتين . فتراني مستعدًا وساذهب الى بايون ومن ثم الى مدريد اذا لم يكن الى مجانبة ذلك سبيل . انتهى .

وفي ذلك اليوم خرج الدوق روفيغو الى مدريد . وفي صباح اليوم الثاني كتب نابوليون



الى اخيهِ لويس ملك هولاندة بما ياتي

تنحى ملك اسبانيا وسجن برنس السلام وظهرت فتنة في مدريد . والناس يطلبونني بالحاح لاقرر احوالهم . وعندي انني لا اقدر على عقد صلح ثابت مع انكلترا الا بعد انقلاب عظيم في اواسط اوربا فقد صممت على وضع برنس فرنسوي على عرش اسبانيا واخترتك ملكًا لها . فابن لي بالحال اراءك . وهذا فكر ابتدائي مني . وعندي مئة الف مقاتل في اسبانيا غير انهُ ربما كانت الاحوال تسوقني الى انفاذ ذلك في الحال فاتم الامر في خمسة عشر يومًا او اوخرهُ شهرًا . انتهى

وبعد يومين كتب الى مورات وكان في مدريد قاعدة اسبانيا والظاهر انهُ كان لا يزال مضطرب الافكار وهذا ما كتبهُ اليهِ

يا سيدي غراندوق دي لبرغ . اخاف ان تخدعني من جهة احوال اسبانيا وان تخدع نفسك ايضًا . وقد اشتد اضطراب الاحوال بحوادث ٢٠ اذار (مارس) المرتبكة . وبت في حيرة عظيمة . فلا تظن انك تهاجم شعبًا لا سلاح لهُ وانك تقدر ان تفتح اسبانيا بمجرد ظهور جنودك . وثورة ٢٠ اذار (مارس) تظهر ان الاسبانيول لا يزالون على جانب عظيم من القوة . فانت تعامل شعبًا جديدًا على جانب عظيم من الجسارة والحمية . فالامراء وخدم الذين هم اصحاب السيادة في اسبانيا . فاذا خافوا على مراكزهم وامتيازهم ياتون ميدان الحرب بجيوش جرارة لمضادتها وربما كان ذلك واسطة لدوام الحرب . ولست بدون احزاب . غير انني اخسرهم اذا دخلت كفاتح . والقوم يبغضون برنس السلام مدعين انهُ خان اسبانيا فسلمها الى فرنسا . فهذا هو الذي ساعد فرديننذ على اختلاس الملك . فالعامة اضعف الاحزاب . وليس لفرديننذ الصفات اللازمة لمن يسوس امة . وهذا لا يمنع القوم عن ان يجعلوهُ من الابطال ليحملوهُ على مضادتنا فلا احب ان تهان بالقوة اعضاء تلك العائلة . وقد اظهرت لك كل الموانع المنتظرة فلا بد من وجود موانع اخرى انت تعلمها فان انكلترا لا تسمح بفوات هذه الفرصة التي تمكنها من تكثير اتعابنا . وفي كل يوم ترسل اخبارًا الى القوات التي لها في سواحل البرتوغال وفي البحر المتوسط وتدخل في خدمتها كثيرون من اهل صقلية والبرتوغال ولم تخرج العائلة المالكة لتقيم في الجزائر الهندية فلا تغير حالة البلاد الا بفتنة وهي اقل بلدان اوربا استعدادًا لذلك فان الاقلية ترى فساد الحكومة العظيم والظلم الذي قام مقام العدل والاكثرية تنتفع بذلك الفساد والظلم واقدر ان انفع اسبانيا كثيرًا مع المحافظة على صوالح امبراطوريتي فما هي اوفق الوسائل للوصول الى ذلك . هل اذهب الى مدريد هل اجعل نفسي المحامي العظيم بالحكم بين الوالد وولدهِ . والظاهر ان ابقاء كارلوس في العرش صعب فان حكومتهُ وزوجتهُ مكروهتان فلا تقدران على المحافظة على مركزها ثلاثة اشهر . وفرديننذ عدو فرنسا وقد جعل ملكًا لانهُ عدوها . فان استواءهُ على العرش هو مساعدة الاحزاب التي تمنت

خراب فرنسا مدة عشرين سنة . وربطهُ بالزواج يكون ربطاً ضعيفاً . وعندي انهُ من الموافق ان لا نسرع في الحكم ونستشير الحوادث عند جريها . فينبغي ان نقوي الجنود عند حدود البرتوغال وان ننتظر . ولست بمرتضٍ بما اجراهُ سموك الامبراطوري وهو الدخول الى مدريد والاستيلاء عليها والصواب ان يبقى الجيش في مكان يبعد عشر مراحل عن القاعدة

وساقرر الاجراءات اللازمة فيما بعد واظن موفق ان نتعهد عني بمقابلة فرديننذ في اسبانيا ما لم ترَ ما يدعوني الى الاعتراف بانهُ ملك اسبانيا . وان تحترم الملك والملكة والبرنس كودوا واحترمهم كالعادة واجعلهم يحترمونك ايضاً كما في الماضي . ودبر الامور بحيث لا يعرف الاسبنيول شيئاً من مقاصدي وهذا سهل لان النية لم تعقد على شيء بعد . وابن للامرا وخدم الدين انهُ اذا التزمت فرنسا بان تتداخل في امور اسبانيا تصون امتيازهم وحقوقهم . واكد لهم ان الامبراطور يرغب في تحسين احوال اسبانيا السياسية لتكون مساوية للدول الاوربية المتقدمة في التمدن وان يخلصها من جور المحب ومحبوبتهِ واخبر القضاة واهل المدن والذين يدركون الامور من الاهالي ان اسبانيا محتاجة الى تنظيم حكومتها وان توضع لها قوانين لصيانة الاهالي من ظلم اهل الامتياز وتعدياتهم بحيث تترقى الصناعة والزراعة والفنون . وصف لهم راحة فرنسا والثروة التي تتمتع بها مع انها لم تنقطع عن الحروب العظيمة . وكلمهم عن عظمة الدين الناشئة عن الاتفاق الذي عقدتهُ بيني وبين البابا واوضح لهم المنافع التي ينالونها من الاصلاح السياسي بحيث يسود النظام والسلام في الداخل والاعتبار والنفوذ في الخارج . فاجعل كلامك وكتاباتك بهذا الموضوع ولا تخاطر بشيء بسرعة الاجراء . انني قادر ان انتظر في بايون او اقطع جبال البرنات واقوي نفسي في جهة البرتوغال وان اذهب الى تلك الجهة واقيم الحرب فيها

واوصيك بالمحافظة على النظام التام وينبغي معاقبة اصغر الذنوب وان يحترم الاهالي الكنائس والاديرة ويتجنب الجيش الفرنسوي مخاصمة الجيش الاسباني وخطط بنفسك سبل جيشي لتبقى بعيدة مراحل كثيرة عن الجيش الاسباني لئلا تنشب الحرب فتخسر كل شيء . انتهى

وبعد ان كتب ذلك باربعة ايام سار الى الحدود الاسبانية في ٢ نيسان (افريل) وسار الى هناك بسبب الاخبار المتناقضة التي كانت ترد اليهِ كل يوم من اسبانيا . فصرف اسبوعاً في بوردو بالاشتغال بالجد في ترقية مشروعات خطيرة ثم رحل الى بايون الواقعة على حضيض جبال البرنات . فرافقتهُ جوزفين فبلغاها في ١٥ من الشهر المذكور . وفي اليوم الثاني كتب نابوليون الى فرديننذ الرسالة الاتية

بالنظر الى الاحوال الجارية اسمح لي بان اكلمك بالصدق والصراحة فاقول انني لا احكم بشيء على اعمال برنس السلام ولا اعتبهِ من شيء ولكنني اعلم ان تعليم الملوك اراقة الدما يكون محفوفاً



بالخطر . فكيف نلوم برنس السلام (هو الوزير الاول) بدون ان نشاركهُ فيوامك الملكة وابوك الملك . وليس لسموك الملكي حق في العرش الا من امك . فان انحط شانها بهذا العمل ينحط شانك ايضاً فاذا ثبت ذنب كودوا يبطل حقك الملكي . فاقول لسموك الملكي وللاسبانيول وللعالم انهُ اذا كان تنحي كارلوس الرابع غير جبري لا اتردد عن الاعتراف بهِ والاعتراف بان سموك الملكي ملك اسبانيا . انتهى

وكان فرديننذ المذكور يجهد ان يظهر تناقض امهِ وان يحاكم كودوا على انهُ محبها فيبين لهُ نابوليون بلطف انهُ اذا اثبت فسقها يثبت انهُ ليس بذي حق بالولادة فيخسر حقهُ في ملك اسبانيا . ولكنهُ كان دنياً مفسداً جاهلاً فلم يخجل من ذلك . وكانت امهُ فاجرة سليطة دنية لا تستحي من الفضيحة . فردت عليهِ رداً لم تسبقها والدة اليهِ اذ قالت لهُ بحضور كثيرين ان والدهُ مجهول لان زوجها لم يكن اباهُ . وظن فرديننذ انهُ ينجو بمساعدة نابوليون بالاجتماع بهِ فخرج من مدريد وقطع الجبال وجاء بايون في حشم كثير فاخر واستصحب صديقاً ومشيراً معلمهُ اسكوا كيز المشهور . فلما سمع كارلوس وامهُ وكودوا بذهابهِ اضطربوا جداً لانهم كانوا يخافون تاثيرات اخبارهِ فصمموا على الذهاب الى بايون ليخاكموا عند ذلك الرجل العاقل الذي باتت مراكزهم في قبضة يدهِ . فقابل نابوليون فرديننذ عند وصولهِ بكل احترام واحتفال غير انهُ قيدهُ بقيود ذهبية من اللطف والاكرام فاقام لهُ الولائم وجعل حشماً فاخراً في خدمتهِ . وبعد ذلك ببرهة قصيرة وصل اليهِ ابوهُ وامهُ وكودوا المذنب محب الملكة ومعهم شقيقها فرديننذ فاحتفل نابوليون بهم كل الاحتفال غير انهُ لم يعترف لفريق دون اخر بحق الملك . وباتت عائلة اسبانيا في يدهِ على غير انتظار . وكان متحيراً في بادي الامر من جهة السياسة الموافقة ولم يدرك الصواب الا بعد ان اجتمع باعضاء العائلة المذكورة فاجتمع بكارلوس الرابع وكان يعلم انهُ لا يقدر ان يحافظ على عرش الملك ولا ان يسوس البلاد وكان يفضل ان يسلم مملكتهُ الى نابوليون على ان يسلمها الى ابنهِ المكروه عندهُ فقال انهُ مستعد ان يتنحى للبرنس الذي يعينهُ نابوليون وعند ذلك دعا نابوليون اليهِ معلم فرديننذ ووزيرهُ وقال لهُ لا اقدر على منع نفسي عن المداخلة لمساعدة ذلك الملك المنكود الحظ الذي اتاني طالباً الصيانة . وكان تنحيهِ جبراً وكانت جنودي في اسبانيا وكان بعضها بالقرب من البلاط حتى ان الناس الذين ينظرون الى ظواهر الامور يقولون انني اشتركت باهانتهِ واجبارهِ على التنحي فناموسي يدعوني الى ان اقوم بما يزيل هذه التهمة وصوالح امبراطوريتي تدعوني الى اخراج البوربون من اسبانيا فانهم اعداءي وصوالح امتكم تدعوني الى التغيير ايضاً فان الدولة الجديدة التي اقيمها فيها تجعل نظامها جيداً مرتباً وتكون متحدة كل الاتحاد مع فرنسا فتصان من كل المخاطر التي تحل بها من تعديات تلك الدولة الوحيدة التي تقدر وحدها ان تتهدد استقلالها . وقد ارتضى كارلوس

الرابع ان يهبني حقوقهُ وحقوق عائلتهِ فانهُ عالم ان اولادهُ لايقدرون ان يسوسوا البلاد في الازمان الصعبة التي نرى ما يدلنا على قدومها . فهذه هي الاسباب التي تحملنا على منع الدولة البربونية عن سياسة اسبانيا بعد الان ولكنني اعتبر فردينند واحب ان اعوض عليهِ ما يخسرهُ فاطلب اليهِ ان يترك عرش اسبانيا هو ونسلهُ فاجعلهُ ملك اترايا وازوجهُ بنت اخي فاذا رفض ذلك اتفق مع ابيهِ فيبيت هو واخواهُ بدون تعويض . واذا قام بما طلبت اليهِ ان يقوم بهِ تبقى اسبانيا مستقلة بنواميسها وعاداتها ودينها فانني لا ارغب في الحصول على قرية منها . انتهى

اما كارلوس الرابع وزوجتهُ لويزا وكودوا فكانوا قد صرفوا سنين غائصين في بحر الفساد والملذات فكانوا يحبون الملكية لانها كانت تسهل لهم اسباب التنعمات والتلذذ والفساد فاسلموا تاج اسبانيا المتعب الى نابوليون بالرضى التام والسرور فاعطاهم عوضاً عنهُ قلعةً جميلة واراضي متسعة للصيد ومالاً كافياً لحصولهم على كل ما يشتهون . اما فردينند واخواهُ فترددوا عن اسقاط حقهم من الملكية فاجتمع نابوليون بالعائلة كلها دفعة واحدة . وكان الملك والملكة يبغضان ابنهما فصمما على ان يجعلاهُ يسقط حقهُ . وكان ذلك الاجتماع غير عادي . فرفع ذلك الملك الشيخ الجاهل عصاهُ على راس ابنهِ واخذ يوبخهُ ويعيرهُ . ثم اخذت امهُ تهينهُ بلسانها البذي السليط فاوسعتهُ شتماً وقذفاً فتعجب نابوليون بل ارتبك مما راى وسمع فصمت بضع دقائق . ثم خرج بعد ان قال لفردينند بتأنٍ انهُ اذا لم يسقط حقهُ المذكور في ذلك المساء لابيهِ يلقي القبض عليهِ كانهُ خائن هاج ثورةً على والديهِ ليقتلهما ويستولي على عرشهما وعند خروجهِ من القاعة قال للذين كانوا يحيطون بهِ ما هذه الامّ وما هذا الوالد . وبرنس السلام هو بدون ريب من ادنياء الناس غير انهُ ربما كان اعرف اهل ذلك البلاط . ثم قال ان ما افعلهُ الان ليس بموافق لاسباب معلومة ولكن السياسة تدعوني الى ذلك فانها لاتسلم بان اترك في مؤخرتي بالقرب من باريس دولة مبغضة لدولتي

وادرك فردينند خطأهُ فخاف ان يحاكم على خيانةٍ بعدالة نابوليون النافذة فلم يعرض نفسهُ لذلك الخطر لعلمهِ ان والديهِ لايرحمانهِ فصمم على قبول المكافاة الغزيرة التي عرضها عليهِ ولكنهُ رفض مملكة اترايا وقبل قصر نوارة مع مرتب قدرهُ مليون فرنك له واربعمائة الف فرنك لكل من اخويهِ . اما كارلوس ولويزا وكودوا فسروا بالانتقام بخلع فردينند وفرحوا ببدل ملكية متعبة ذات خطر بمكان جميل فيهِ راحة وسائر اسباب التنعم والسرور فقضوا ايامهم بالرخاء ومجاوزة حدود الاعتدال بالملذات . وعين نابوليون لاولادها قصر بلنسية ليسكناهُ الى ان يهيأ لهما قصر نوارة فكتب الى البرنس دي تاليرند صاحب القصر الحاذق المهذب المحب لاسباب السرور ان يحتفل بهم كل الاحتفال . وقال في رسالتهِ ارغب ان تقابلهم بدون احتفال ظاهري ولكن



بالترحاب القلبي والحب وان تفرغ جهدك في تسليتهم واذا كان عندك قاعة للتشخيص فمن الموافق ان تاتي بمشخصين والاوفق ان تاخذ الى القصر مادام تاليرند ومعها ٤ او خمس خواتين . فاذا احب فردينند فتاة جميلة فمن الموافق ان تزوجهُ اياها ولاسيما اذا كنا نحق الركون اليها . ولا ينبغي ان يقوم البرنس فردينند بعمل ردي فاحب ان يتسلى ويسر ويشتغل بالملاهي . اما السياسة الصحيحة فتدعوني الى سجنهِ في قلعة منيعة ولكنهُ قد اتاني مسلماً نفسهُ ووعد بانهُ لايبدي عملاً بدون اذني وانني افعل في اسبانيا كما اريد وقد صممت على ارسالهِ الى مكان خارج المدن واحيطهُ باسباب الملذات وبالملاحظات وربما استمر ذلك في شهر ايار (مايس) وبعض حزيران (جون) عند تنظيم احوال اسبانيا وحينئذٍ اعلم ماذا ينبغي ان نفعل . اما انت فعملك شريف جداً وهو ان تضيف في قصرك ثلثة رجال عظماء لتسليهم وهذا يناسب صفات الامة ومركزك

اما فردينند واخواهُ فارتضوا بالنصيب الذي حط شانهم ولكنهُ جعلهم في بحر من الملذات . ومن الامور الغريبة اقتدار نابوليون على ان يفوز بحبهم ومدحهم وثناهم مع انهُ سلب مملكتهم فكانوا يسرون بانتصارهِ ويزينون قصرهم بالانوار والالعاب النارية احتفالاً بها وهذا من اغرب افعال نابوليون التي يتبين منها اقتدارهُ على التسلط على القلوب والعقول ففوزهُ في اسبانيا كفوز ملوك الحكايات فانهُ قلب دولة قديمة مفتخرة بدون ان يطلق بندقية واحدة ونفى العائلة المالكة وجعل اخاهُ خلفاً لها ومع ذلك كانت العائلة المنفية تشكرهُ على صنيعهِ ولاتنقطع عن مدحهِ والثناء عليهِ . ونشر الاعلان الاتي على الامة الاسبانية

يا ايها الاسبانيول . بعد ضيقات كثيرة باتت بلادكم على شفير الهلاك . فرايت ويلاتكم وبادرت الى مداواة امراضكم فان عظمتكم وسطوتكم هما بعد عظمتي وسطوتي فملوككم قد اسقطوا لي حقوقهم في ملكية اسبانيا فانا لاارغب ان املككم ولكني ارغب الفوز بشكر نسلكم وحبهم الى الابد . ان مملكتكم قد شاخت فعليَّ ان اصب في عروقها دم الصباء . فساحسن كل شيء عندكم واذا وافقتموني امكنكم من التمتع ببركات الاصلاح بدون معالجاتهِ واضطرابهِ وهيجانهِ . وقد جمعت مجلساً عاماً من مدنكم وولاياتكم فانني راغب ان اعلم احتياجاتكم بمخابراتكم شخصياً وسابعد عني كل الاتعاب التي حصلت لي واضع تاجكم المجيد على راس من هو عندي بعد نفسي بعد ان اقيم لكم نظاماً يثبت سطوة الملك النافعة مع تقرير حرية الاهالي وامتيازهم . يا ايها الاسبانيول تاملوا في ما كان اباؤكم عليهِ وفي ما اصبتم فيهِ فالذنب ليس ذنبكم بل ذنب النظام الذي كنتم تساسون بهِ . فتاكدوا تحقيق امالكم بنتائج حالتكم الجارية فانني احب ان نسلكم يباركني الى ما شاء الله وان يقول انهُ كان مصلح بلادنا . انتهى

اما لويس بونابرت شقيق نابوليون فكان ملك هولاندة كما مرَّ فامتنع عن قبول عرش

اسبانيا لمرض كان به واتعابه العائلية فكتب نابوليون الى شقيقه جوزف ملك نابولي يقول

ان كارلوس الرابع قد اسقط لي كل حقوقه في مملكة اسبانيا وجعلت تلك المملكة لك فان مملكة نابولي لا تقابل بها فان فيها ١١ مليون نفس ودخلها مائة وخمسون مليون فرنك خلا دخل مهاجرها في امركا فهي مملكة تجعلك في مدريد التي تبعد ثلاثة ايام عن باريس فان كنت في مدريد تكون فعلاً في فرنسا . مع ان نابولي في جهة اخرى من الدنيا فاطلب اليك ان توكل من تشاء عند وصول هذه الرسالة اليك وتجعل قيادة الجيش بيد المارشال جوردان وان تاتي بايون باقصر الطرق واكتم هذا الامر عن كل الناس . انتهى

ولم يكن في اسبانيا نظام مخصوص فان الملك كان مطلقاً ظالماً وكانت عامة الاهالي في جهل وذل وربما كانت حكومتها اشد حكومات العالم المتمدن فساداً وتغرضاً واهمالاً فمحاولة تخليصهم من تلك الحال لا تغيظ محبي الانسانية . فلو فاز نابوليون بانفاذ ارائه لانشأ له الاسبانيول ابنية كثيرة تذكاراً لفضله . ومن اشد العبودية ان يجهل المستعبد نفع الحرية واذل العبيد الذين يسلمون انفسهم الى قيود التعصبات الدينية . وتقرر في عقول الناس كلهم ان جوزف بونابرت شقيق نابوليون عاقل مدرك صادق بعيد عن كل فساد محب للجنس البشري مجتهد في تحسين احواله وكان قد اوصل مملكة نابولي الى حالة مجيدة بعد ان كانت في تاخر عظيم وذلك باعتدال سياسته ونشاطه

وقبل وصول جوزف بعث نابوليون برجال من اصحاب الاهلية ليقرروا له عن حالة جيشها وبوارجها وماليتها واعمالها النافعة . وقال نابوليون بهذا الشان انني محتاج الى ذلك التقرير قبل كل شيء لاتخاذ الوسائل اللازمة واكون محتاجاً اليها بعد الان ليعلم اهل الازمان القادمة الحالة التي وجدت اسبانيا عليها . وقام بمشروعات عظيمة جداً لترقية اسبانيا حتى اثنى عليه الد اعدائه . فجمع مجلساً عالياً في الحال في بايون واعضاؤه ١٥٠ من اشهر رجال اسبانيا . وكانوا محبين لوطنهم فسروا بما كانوا يرون من نجاحه . ووضعوا نظاماً حراً موافقاً لاحوالهم ولروح العصر

ووصل جوزف الى بايون في ٧ حزيران (جون) سنة ١٨٠٨ وزار المجلس المذكور الذي ينوب عن الامة في الخضوع له ثم ساروا جميعاً الى نابوليون وشكروه على تخليصهم من اتعابهم من صميم قلوبهم ولانه جعل لاسبانيا استقبالاً مجيداً

وفي ٩ تموز (جوليه) سار جوزف شقيق نابوليون قاصداً اسبانيا ومعه ابطال كثيرون واكثر من مائة عجلة فيها اعضا المجلس . وبلغ هذا الخبر حالاً جميع الدول الاجنبية فبادرت دول اواسط اوربا خلا القليل الى الاعتراف به وهناه امبراطور روسيا بالنوز لانه كان يعلم ما لجوزف المذكور من الصيت الحسن واستقامة الراي . وكذلك فرديند ابن الملك السابق



كتب الى جوزف مهنئاً وطلب اليه التوسط له عند اخيه بان يزوجه احدى بنات اخوته . والذي يتامل في هذه الحوادث برتبك فلا يعلم ايمدح فعل نابوليون ام يذمه . ولو امكن الذم لزال الارتباك . وقد فعل افعالاً عظيمة جداً تشفع بخطائه الذي لا يحكم خالي الغرض به عليه في تلك الاحوال . ولا يتامل انسان في صعوبات نابوليون كلها بدون الحكم بانه ينبغي ان يتساهل المورخ عند الكلام على بعض اعماله . وقد قلنا ان الملك كارلوس الرابع الاسباني كان مالكاً بالاسم وان المالك فعلاً كودوا محب الملكة وانه تمنى لفرديند ابنه وقال لم اسر بعمل كما سررت بهذا العمل حياتي بطولها . ويوم كان ذلك كتب سراً بان اعلان التمني لابني هو من الاعمال التي التزمت بان اقوم بها منعاً لاراقة الدماء ولا يعتبر الا كالعدم . وهل تحكم بالعرش له او لابنه الذي كان استولى عليه بعد ان اضرم فتنة بخيانة والزم اباه بان يتنحى . فما هو حق فرديند . اما نابوليون فبين للاب وابنه والمحب بانهم اذا حصلوا على الخمر الكافية واسباب الصيد والملاهي يصرفون وقتهم بسرور لا يفوزون به وهم مالكون فتنحوا له . فهل كان حق الملك له

ولو عضد نابوليون فرديند بعد ان بلغ العرش بالخيانة والعصيان لحكم الناس بظلمه وقوي الحزب المضاد له وابتعد عن قواعده وبعضد سياسة ظالمة متعصبة مضادة للحرية . ولو روج اسباب الحرية والمساواة في فرنسا والعبودية السياسية في اسبانيا لاوسعوه طعناً يعجز عن الرد عليه بسبب تضحية قواعده لصوالحه . ولم تكن انكلترا تمتنع عن فعل مثل ذلك . فكان نابوليون يشمئز منها فانها قيدت امة متاخرة بقيود ظلم شديد بجيشها وبوارجها والحقت ضرراً باسبانيا واوربا والدنيا اجمع فلا نجد الى الاعتذار سبيلاً

وكان ملوك اوربا قد اجتمعوا لاسقاط دولة نابوليون بالتآمر والخيانة وغير ذلك ولم تر الارض اعمالاً عظيمة كتلك الاعمال المبذولة لنوال تلك الغاية . ولم يكن لملك في الارض حق اثبت من حق نابوليون بامبراطوريته فان الامة اجمعت على تمليكه . فالتزم بان يدافع عن نفسه ويسلب البوربون في اسبانيا القوة التي كانوا يستعملونها لاهلاكه . وانقاد بكرامة الاخلاق الى فعل ما يخفف كدرهم وتاثير سطوتهم فيهم حتى حملهم على محبته . وقال نابوليون عن اسبانيا لو ثبتت الحكومة التي انشاتها فيها لكانت انفع الامور لها فانها تمكنني من اصلاح حالها وقطع فسادها وجعلها امة عظيمة حاصلة على دولة جديدة لا تدعي حق الملك الا لمقابلة الخير الذي تقوم به عوضاً عن دولتها البربونية الضعيفة الجاهلة الحمقاء . وكنت قاصداً ابطال الخرافات وسطوة خدم الدين ومجلس التفحص الديني والاديرة . وقال للاكازا مرات كثيرة ان ما نشأ عن سياستي في اسبانيا شاهد على انها لم تكن صحيحة . فكان ينبغي ان اجعل لها نظاماً حراً واسلمه الى فرديند لينفذه . فلو صدق وقام به لفازت اسبانيا وتقدمت ونلنا الغاية العظمى بحصول فرنسا على حليفة جديدة وقوة

خطيرة ولو قصر بالقيام بتعهداتهِ لاسقاطهِ الاسبانيول وطلبوا اليَّ ان اقيم لهم ملكًا . والصحيح ان حرب اسبانيا من المصائب وعلة ضرر فرنسا الاول . ونسبت اليَّ امور لم اقم بها والتاريخ سيعدل في الحكم . وقد اتهمت بسبب سياستي الاسبانية بالخداع ونصب الشراك والنكث بالعهود مع انني بريء من ذلك كلهِ ولم انقض وعدًا ولا حنثت بعهد لا في اسبانيا ولا غيرها . وسيرى الناس اني في الاجراءات الخطيرة الاسبانية كنت قريبًا من بلاطها ولم انكث بعهد معقود بيني وبين الملك وابنهِ وانني لم آت بهما الى بايون بالمخادعة ولكن كل منهما اجتهد في بلوغها قبل الاخر . فلما باتا عند قدمي ورايت من جهلهما وقصورهما ما رايت شفقت على امة عظيمة واغتنمت سنوح هذه الفرصة لاصلاح اسبانيا وتخليصها من جور انكلترا وجعلها متحدة معنا وثبت عندي ان ذلك اساس راحة اوربا . وابتعدت عن استعمال وسائل دنية والخداع لادراك المرام ولم اخطىء الا باظهار البواطن اظهارًا ناشئًا عن جسارة عظيمة واجتهاد شديد . ولم تكن بايون محل مؤامرة ولكنها كانت مركز القيام بعمل سياسي عظيم . ولو عولت على الرياء ولو قليلاً لخلصت نفسي من هذه التهمات وكذلك لو سلمت امير السلام ( وهو محب الملكة ) الى الاهالي ليوقعوا بهِ غير ان بدني اقشعر من مجرد ذلك ورايت انني ساقبض ثمن دم . واقول ان مورات الحق بي ضررًا عظيمًا باعمالهِ . فما لنا ولذلك ولم اكن اقوم بوسائط معوجة فانني وجدت نفسي قويًا وكنت اتجرأ ان اقوم بالاعمال من مركز مرتفع . وكنت ارغب ان انقاد القوة غير المنظورة التي تؤثر في الناس فانها تصلح تعاستهم بوسائط كثيرًا ما تكون غير معتدلة غير انها ليست بظاهرة للحكم البشري . فهذا تاريخ احوال فرنسا كلها بالاختصار فليكتب الناس وليقولوا ما يشاؤون فان النتيجة تكون كما قررت . وقد رايت انهُ لم يكن لزوم للقيام باجراءات مؤسسة على الكذب والخداع او نكث الوعود ولا اذنب ما لم افعل ما يضر بناموسي ولم اظهر شيئًا يدل على انني راغب في ذلك . انتهى

وقال المؤرخ اليسون الانكليزي ربما كنا لا نجد في تاريخ العالم اجمع ولو كانت مسودة بذكر شرور الناس ما يشابه اعمال نابوليون التي اكسبتهُ مملكة اسبانيا بالخداع والكذب . انتهى . وقال السار ولتر سكوت ينبغي ان نعدل بالحكم على نابوليون فنقول انهُ لم يحاول قط اثناء تلك المفاوضات غير العادية سترسياستهِ المبنية على حب الذات . انتهى . والسار ولتر المؤرخ الانكليزي اصاب فان الامر واضح وهو انهُ وقع نزاع شديد خطير في العائلة البربونية فسار اعضاؤها الى نابوليون ليحصلوا على مساعدتهِ وطلب كل منهم ما يوافقهُ . وكان قد خطر لنابوليون اسقاط دولتهم بسبب خداعهم فانتهز هذه الفرصة غير المنتظرة وقال انهُ لا يأمن ان يبقي واحد منهم على عرش الملك ووعدهم بان يعطيهم كل ما يحتاجون اليهِ من العظمة والثروة اذا تنحوا عنهُ . واشتد البغض بين الولد ووالدهِ حتى ان كلاً منهما كان يفضل ان يرى نابوليون في العرش على ان يرى فيهِ خصمهُ فقبلا .



فمنحهما نابوليون كل ما يحتاجان اليهِ من اسباب العظمة والملاهي والاماكن للصيد والقنص ووضع في عرش اسبانيا رجلاً من اكرم رجال فرنسا واصدقهم وصار الشروع في اصلاح احوالها . وامن نابوليون من ان يكبس في مؤخرتهِ

## الفصل الثالث والاربعون

### اجتماع المخاطر

وعاد نابوليون من بايون الى باريس وزار في طريقهِ ولايات فرنسوية كثيرة جنوبية فكان الناس يقابلونهُ في كل مكان بفرح عظيم . وكانت فرنسا في نجاح وتقدم . وكان الناس يعلمون ان تدبيراتهِ علة ذلك التقدم . وكان رعاياهُ يحبونهُ محبة لم يفز بمثلها ملك من ملوك اوربا . وقال موسيو تيرس في تاريخهِ ان الناس كانوا يحبونهُ في كل مكان بجميع علامات الاعتبار باجتماع جماهير غفيرة فان الرجل الكريم الذي خلصها من الحروب الاهلية واعاد اليها الامنية والنجاح والدين كان يعد عندهم اعظم من رجل بل كان كانهُ معبود . انتهى . فشهادة كهذه الشهادة مستغربة عند الذين لم يكونوا يسمعون غير الاخبار التي كانت تذيعها عنهُ انكلترا المنتصرة وبوربون فرنسا . فمن الواجب ان يتامل الانسان المتعقل دقيقة واحدة في الاحوال ليرى انهُ من مصلحة كل مضادي نابوليون في زمانهِ وبعدهُ ان يذيعوا اخبارًا كاذبة عن خصمهم العظيم فان ثبات كراسيهم كان متوقفًا على كره الناس لهُ ولعائلتهِ . فبذلت اوربا غناها وجهدها في سبيل الطعن والتنديد حتى انهُ لم يمس رجل عرضة لما امسى نابوليون عرضة لهُ في الزمان المذكور . ومن المعلوم ان الاهالي في كل بلاد يعظمون اسم نابوليون فانهُ كان صديقهم وحاميهم . فمن يقول ان الدوق اوف ولنكتون القائد الانكليزي كان متحدًا هو وملوك اوربا على المدافعة عن الحقوق العامة وان نابوليون المستند الى حب الاهالي لهُ كان يحامي عن الامتيازات الاميرية . ومع ذلك تجاسرت انكلترا ان تقول بتاكيد انها كانت تدافع عن حرية اوربا وفازت بالحصول على مآربها فاين تلك الحرية التي افتخرت بالمحاماة عنها . هل حصلت عليها اسبانيا بفرديننت او هل كانت خلاص نابولي من مظالم البوربون او حصول المجر على حرية طالما تمنت الحصول عليها . وقد امعنت انكلترا تخاف حكومة روسيا المطلقة كما كانت تخاف حرية فرنسا فبانقلاب الدولة الامبراطورية الاولى انقلبت دولة الحقوق العامة وقال نابوليون لابد من ان تصير اوربا اما جمهورية واما قزقية

ومن الصعب تحقيق الاخبار المتعلقة بصيت الذين يكونون في مراكز عالية . وكان نابوليون يتهم باعظم الذنوب التي يمكن ان يتهم انسان بها . وكانت تلقى التهمات على كل اعضاء العائلة الامبراطورية . اما الان فالد اعداءها يقولون انها كانت باطلة . وقالت الانسكلوبيديا البريطانية

الانكليزية كانت هذه البلاد تصدق كل الاخبار المعيبة التي كانت تنسب الى نابوليون . وكان الناس يصدقون الاخبار العظيمة جداً فان اعظمها كان عندهم اقربها للتصديق والعدوان حملهم على ان يصدقوا اخباراً لا يمكن حدوثها . وكان يتوهم الناس ان جوزفين زوجتهُ لم تكن مصونة العرض وذلك بدون برهان فهل يسمح بذلك نابوليون الذي راى انهُ لابد من قطع كل فساد وطرد من خدمتهِ وحضرتهِ كل النساء اللواتي كان يرتاب في حسن صيتهن فهل يفعل ذلك اذا كان عالماً بانهُ قد تزوج امراة ذات عرض غير مصون . انتهى . وقال انجارسول في خريف سنة ١٨٠٢ اجتمعت بنابوليون ورايت ان المطامع الشديدة والاعمال العظيمة جعلتهُ غرضاً للطعن الشديد الذي بات هدفاً لهُ . ولا تنجلي الحقيقة الا بعد زمان طويل وقد اخذت في الزوال . وسيتقرر عند الناس في الازمنة القادمة انهُ رجل عظيم مفيد من اوجه كثيرة صاحب فضائل . وكان عفيفاً جداً خصوصاً بالنسبة الى معاصريهِ من الملوك . انتهى

اما شقيقهُ لويس بونابرت فكان ذا صفات حسنة وطهارة لم تدنس وقال عنهُ انهُ معتدل الاعمال واميالهُ محصورة بالامور الفاضلة . ومن الموكد انهُ عاش مع زوجتهِ جوزفين حال كونها اكبر منهُ سناً بالامانة التامة والحب الى النهاية ولم يكن مفسداً بحب الغواني . وعندما تزوج المرة الثانية ولهُ من العمر ٤٣ سنة كان يعامل امرأتهُ بلطف وحب وعناية

ومن التهمات الردية التي القيت عليهِ جري علاقات غير جائزة بينهُ وبين هورتنس بنت زوجتهِ جوزفين . وكان بورين كاتب سر نابوليون فاتهم بالتصرف بمال غيرهِ فنصل عن وظيفتهِ . وعند رجوع البوربون دخل دولتهم وفي اثناء خدمتهم كتب كتاباً طعن فيهِ طعناً شديداً في سيدهِ وقال ان هذه التهمة (اي تهمة نابوليون وهورتنس) من التهم التي يفرح الحسد عند القائها على الذين يشتهرون فلا ينبغي ان ينهمهُ المورخ العادل بذلك فان قواعده المتعلقة بالعرض كانت مضبوطة جداً فانهُ لم يخطر لهُ ببال ان يرتكب ذلك الاثم الذي لا يوافق ذوقهُ ولا ادابهُ

وقالت الدوقة دي ابرانت ما ياتي عن هورتنس انها كانت بنتاً لطيفة جميلة سنة ١٨٠٠ وصارت بعد ذلك من الطف برنسات اوربا . وقد رايت كثيرين منهن في بلاطهن وفي باريس على انني لم ارَ ذات اهلية مثلها . وكان القنصل الاول (نابوليون) يعتبرها كابنتهِ وفي بلاد غير تلك البلاد التي تسوقها الحماقة الى اختراع الاخبار والتهمات لا تخترع خبر كهذا الخبر لانهُ لا يتصور احد انهُ كان يحبها غير حب ابوي . وهذه التهمة الدنية صادفت الاحتقار الواجب ولا تذكرها الا لتكذبها . والصحيح انهُ لم يكن لنابوليون غير ميل واحد استغرق كل اميالهِ وكانت جوزفين تفتخر افتخاراً لا يقدر بامانة زوجها

وكتبت الى بنتها هورتنس عن تلك التهمة بان الذين توهموا ان حب زوجي لك هو غير



حب ابوي لا يعرفون صفاتهِ . فان عقلهُ مرتفع عن عقول الادنياء فلا يفسد بالشهوات الدنية

وكان اهل ذلك الزمان كثيري الفساد ومع ذلك كان نابوليون بعيداً عنهُ ولكن لم يسلم من تهمات الاعداء الالداء فاتهمهُ بعضهم بفساد عظيم والبعض الاخر بالظلم والتعدي والقساوة وغير ذلك . وجاءوا على شرهِ ببرهان وهو انهُ حرم الاولاد . وكانت الدوقة دوالكليون صديقة لجوزفين واسمعتها قبل ان صارت زوجة نابوليون غير انها سيئت باحوال تلك الايام الى فعل ما يثلم العرض ولما صارت جوزفين امبراطورة رغبت ان تدخل البلاط الامبراطوري لتصير من اعضائهِ فارادت جوزفين ان تكافيها على خدمات سابقة فطلبت الى نابوليون ان يسمح لها بذلك فلم يجب طلبها بل رفضهُ بدون تردد . فكتبت اليها انني مكدرة جداً . فان اصدقاءي القدماء يظنون انني قادرة على الحصول على كل المرام فاذا لم انفذ غايتهم يظنون انني قد نسيت الماضي اما الامبراطور فيغتاظ من اهمال قواعد العفة ويخاف من امتداد ذلك فقد صمم على ان تكون العفة وقواعد الدين مرعية في القصر الذي يملك فيهِ . انتهى . وفي ذات يوم قرأ نابوليون تاريخ كولدسميت الانكليزي المسمى تاريخ نابوليون السري . وفيهِ طعن شديد في عرضهِ وكان كثيراً ما يهز كتفيهِ او يضحك عند قراءة بعض اخبارهِ وفي نهايتهِ قال بهدوء بدون ان يظهر للغيظ اقل اثر فيهِ قد اخطاوا في الطعن في صيتي فان الناس يعلمون انني حسنت الاداب العمومية ولا يجهلون عدم ميلي الطبيعي الى الفساد واشغالي الكثيرة مانعة لاشتغالي بهِ . وعند ما قرأ التهمات الملفاة على عرض امهِ قال بكدرٍ وغيظ يا منكودة الحظ لو قرات هذا الكلام مع عفتها لاغتاظت جداً

فهذه الامور برهان كافٍ على ان نابوليون لا يعد من الملوك المفسدين الذين طالما حطوا شان عروش اوربا ولا يذكر اسمهُ مع ملوك كهنري الثامن وشارل الثاني وجورج الرابع فانهم من الذين لا يرتضي بان يرافقهم . والخبر الاتي دليل على تيقظهِ وانتباههِ . كان في الولايات الجنوبية من امبراطوريتهِ فامر بانشاء صعب جداً في جسر ترعة لنغدوك فقام المهندس بالعمل باتقان عظيم فرغب ان يراهُ ويكافي المهندس في محل الانشاء فامر الوالي والمهندس الاول بان يوافياهُ اليهِ فكان يحافظ على الضبط من جهة موعده فوصل اليهِ قبل وصول الوالي ولم يرَ غير المهندس الاول فاخذ يكلمهُ وسالهُ عن كل عمل صعب من ذلك الانشا فارتبك المهندس واجاب بتردد . ثم جاء الوالي فقال لهُ نابوليون ان التبليغات التي وردت اليَّ ليست صحيحة فان هذا المهندس لم يقم بذلك العمل فانهُ لا يقدر على ذلك . فاقر الوالي بان ذلك المهندس لم يرسم الانشاء ولا قام بهِ وان الذي فعل ذلك هو مهندس متضع غير مشهور فدعاهُ الامبراطور في الحال وسالهُ عن كل امر كان بودان يقف عليهِ وارتضى بجواباتهِ وقال لقد سررت لاني اتيت بنفسي لافحص عن هذه الامور ولولا ذلك لما عرفت انك انت الذي قمت بها ولا نلت انت المكافاة التي تستحقها فجعلهُ مهندساً

اول واخذه معهُ الى باريس

وفي اب (اوغسطوس) سنة ١٨٠٨ عاد الى باريس وكانت النمسا لا تزال ذات ضغائن لان انكسارها غاظها جدًّا . فاخذت تنتظر سنوح فرصة موافقة لتحمل على عدو الامتياز وصديق المساواة فلما رات عدوان اسبانيا تقوت وقالت ان نابوليون يلتزم بان يوجه كل قوتهِ اليها فاخذت تضادهُ وادعت بانهُ مصمم على اسقاط كل الدول القديمة المالكة وقالت عن سقوط دولة البوربون في اسبانيا سيكون نصيب كل ملوك اواسط اوربا . فقال الارشيدوق شارل سنموت وسلاحنا في ايدينا اذا كان لا بد من ان يقوم بذلك ولكنهُ لا يقدر ان يتصرف بتاج النمسا بالسهولة التي تصرف بها بتاج اسبانيا . فاخذت تتجهز فسلحت سبع مئة الف رجل واخذت تمرنهم كل يوم . واشترت ١٤ الف فرس للمدافع ومليون بندقية . واستخدمت في قلاع المجر عشرين الف فاعل لتكون ملجا للعسكر اذا انكسر فيتحصن فيها ويدافع زمنًا طويلاً . واخذت جيوش جرارة تدنو من حدود فرنسا وهيجت الامة وكانت تهين الفرنسويين اينما وجدتهم من فينا وتريسته واماكن المياه المعدنية من المانيا . فخاف نابوليون من حدوث حرب اخرى فانهُ كان يعلم انهُ لا يربح شيئًا بها وانها تمنعهُ عن القيام بالمشروعات العظيمة التي عقد النية على القيام بها لتحسين حال امبراطوريتهِ العظيمة . فكان يرغب جدًّا في السلام . واجتمع اوانئذٍ بموسيو مترنيخ سفير النمسا . فلاطفهُ جدًّا غير انهُ كان ثابت العزم . وجرى الحديث بحضور وزراء كثيرين فخاطبهُ بصوت منخفض لطيف سمعهُ كثيرون من الحاضرين وقال يا موسيو مترنيخ ان مقصودكم اما محاربتنا واما تخويفنا . فاجاب السفير يا مولاي اننا لا نرغب في الاول ولا الثاني . قال نابوليون ماذا يحملكم على التجهيز والتاهب حال كون ذلك يوقعكم انتم ويوقع اوربا في قلق واضطراب وتعرضون السلم لخطر وتستغرق اموالكم اجاب انها تجهيزات دفاعية . فقال نابوليون بهدو وثبات عزم لو كانت دفاعية لما اسرعتم بالقيام بها لانهُ عند وضع نظام جديد لا تنفذ الامور بالسرعة بل بالتاني . فان احسن الامور هي التي يقام بها بالتاني ولا تنشا المخازن في هذه الاحوال ولا تجمع الجنود وتشتري الافراس ولا سيما افراس المدافع . فجيشكم هو نحو اربعمائة الف رجل وحرسكم الوطني يكاد يكون قدرهُ فاذا اقتديت بكم يلزم ان اضيف اربعمائة الف رجل الى جيشي . وهذا يكون في غير محلهِ . فلا اقتدي بكم فانهُ لا يتبع ذلك غير الافتقار الى تسليح النساء والاولاد فنبيت في حالة بربرية . فما المقصود من جميع هذه الاستعدادات الحربية . هل طلبت شيئًا منكم . هل ادعيت احدى ولاياتكم . فان معاهدة برسبورغ قد قررت كل المشاكل التي كانت جارية بين الامبراطوريتين . وكان من الواجب ان يكون كلام مولاك واسطة لتقرير كل شيء بين الامبراطورين . انني لا اطلب شيئًا منكم غير الهدو والامان . هل توجد مشاكل بيننا بل هل بيننا مشكل واحد فاظهروهُ لنقررهُ في الحال .



فاجاب سفير النمسا قائلاً يا سيدي ان الحكومة النمساوية لا تقصد ان تحمل على فرنسا ولم تامر بجمع جيوش . فقال نابوليون لقد اخطات فان الجنود قد اجتمعت في غاليسيا وبوهيميا قبالة الجيش الفرنسوي وهذا مما لا ينكر . وينشا عن ذلك اجتماع جيوش فرنسوية في الجهة الفرنسوية ولذلك لا بد لي عوضًا عن ان اهدم قلعة سيليزيا من ان ارممها واصلح الزاد فيها واجهز كل شيء للحرب فانك تعلم انهُ لا يُغدر بي . وربما كنتم تستندون الى مساعدة امبراطور روسيا فهذا خطاء تخدعون بهِ انفسكم . انني متاكد انهُ معي وانهُ غير مرتض من تجهيزاتكم فلا تتصوروا ان الاحوال موافقة للحمل على فرنسا فان تصورتم ذلك تخطئون جدًّا . انكم لا ترغبون في الحرب . وانا اصدق عدم رغبتك فيها وكذلك امبراطوركم والمتنورون من امتكم غير ان الامراء الالمان غير مرتضين بالتغيير الذي حدث فقد ملاوا المانيا بتذمراتهم وقد مكنتم الغير ان يميلوا بكم الى جهتهم ويبلغوا ميلكم الى الناس ويهيجوهم الى الحرب وبعد برهة قصيرة تتمنون التغيير لتخلصوا من حالة لا تقدرون ان تثبتوا فيها . فهذه التغييرات هي الحرب . فالاديبات كالماديات عند الاضطراب قبل النوء لا بد لها من الانفجار لتنقي الهواء وترجع الصفا . فهذا هو ما اخافهُ من تصرفاتكم الحالية . اني اعيد ما قلتهُ من اني لا اطلب شيئًا غير السلام ولكن اذا تجهزتم اتجهز تجهزًا يجعل فوز جيوشي كالفوز السابق وهكذا ناتي بالحرب للمحافظة على السلام . انتهى

فكتب سفير النمسا هذا الكلام حالاً وبعث بهِ الى فينا . ورغب نابوليون ان يقف على نوايا النمسا فامر سفيرهُ في فينا بان يقول للحكومة النمسوية انهُ لا بد من الانقطاع عن هذه التاهبات غير العادية او ان تشهر الحرب وطلب الى النمسا ان تعترف بان اخاهُ جوزف ملك اسبانيا . وكتب ايضًا الى امراء الاتحاد الريني بان يتاهبوا لمنع حربهِ بدون داعٍ ولا مقصد باظهار استعدادهم للقيام بها وكتب ايضًا في جريدة المونيتور ويقال بقلم نابوليون نفسهِ ان النمسا تحاول تهييج اهل اوربا الى تجديد الحرب

وفي اثناء ذلك باتت احوال اسبانيا في اضطراب عظيم فان خدم الدين باتوا في غيظ شديد وكان لهم نفوذ تام في عامة الاسبانيول الشديدي التعصب فهاجوهم في البلاد كلها الى ثورة عظيمة ورات الامة انهُ وقع تعدٍ عليها وذبح الفرنسويون واصدقاوهم بدون شفقة فيها . ونهبت شانو وأُحرقت وجددت كل ويلات الفتنة الفرنسوية في اسبانيا وتعدياتها واخذ الاسبانيول يدافعون عن حق ملكهم ودينهم بالحمية التي تعدى عليهم بها الفرنسويون ولم يكن نابوليون يتجاسر ان يبعد عن ضفة الرين الابطال الفرنسويين الذين كانوا مجتمعين هناك حال كون النمسا كانت تقوم بالتجهيزات المذكورة فالتزم بان يرسل جنودًا جديدة الى اسبانيا . وبعث ثمانين الف جندي اليها فبات ١٧ الفًا منهم في المستشفيات فبقي ٦٣ الف جندي . اما المامورون الاسبانيول فكانوا

بجيوش الملك جوزف غير انهم لم يكونوا يحقون الركون الى جيشهم فان جنودهُ كانوا ينقادون الى الاهالي . وكانت الاجراس تقرع لتهيج الناس واضرمت نيران في كل تلة علامة للحرب ، وكان الفلاحون قد ضجروا من معاطاة الزراعة فسرّوا بفتح الحرب وعلقوا الامل بالنهب والسلب ، وكان نابوليون قد اقام في اسبانيا ملكاً عادلاً موافقاً وقرر لها نظامات حسنة . فاسقطة الاسبانيول وارجعوا انفسهم الى القيود التي كانوا قد تخلصوا منها وتبسم نابوليون لما قيل لهُ انك كالرجل الصالح الذي خلص الزوجة العانية من بربرية زوجها فحملت على مخلصها وقلعت عينيهِ

وكانت البوارج الانكليزية في البحار الاسبانية مخربة للعصاة قبل ان وردت اليها الاوامر وهاجت الحكومة الانكليزية عند بلوغ خبر اقامة ملك جديد لاسبانيا فقال ملك انكلترا في مجلسهِ العالي ان الامة الاسبانيولية التي تجاهد للتخلص من تعديات فرنسا ومظالمها لا احسبها بعد الان عدوة ولكنها صديقة طبيعية وحليفة صادقة . انتهى . وعند ذلك اطلق سبيل كل الاسرى الاسبانيول بعد ان البسوا الملابس وقلدوا السلاح لينضموا الى العصاة . واخذت البوارج الانكليزية تجهد نفسها في نقل الذخائر والمال للعصاة وبذلت الدراهم في مساعدتهم حتى انهم انشوا عجباً وارسلت انكلترا فضلاً عن ذلك ثلثين الف رجل ليتحدوا مع الاسبانيول تحت قيادة الدوق اوف ولنكتون وكان اسمهُ السار ارثر ولسلي . فان ما اظهرهُ في فتح كوبنهاغن بين انهُ اهل لتقلد القيادة العامة

وكان جوزف شقيق نابوليون لطيفاً وديعاً محباً للسلام مراعياً لحقوق الانسانية فبات في وسط تلك الحروب والاضطرابات فتلفت افكارهُ وسلبت راحتهُ فكتب الى نابوليون ليس عندي من يقوم بالاعمال ونحن في احتياج الى خمسين الفاً من الابطال وخمسين مليون فرنك فاذا تاخرت نمسي في احتياج الى مئة الف رجل ومئة مليون فرنك . انتهى . واصبح يحب رعاياهُ الاسبانيول فتشكى كثيراً من الفرنسويين الذين كانوا يقومون بحق الثار عند تعدي الاسبانيول عليهم . فاجابهُ نابوليون تصبر وتشجع فانني لا اتركك في احتياج الى شيء فارسل اليك ما يلزمك من الجنود فلا تكن المتشكي من جنودي فانني انا وانت على ما نحن عليهِ بحبهم لنا فانهم يلتزمون ان يعاملوا لصوصاً يذبحونهم فلا يقدرون ان يدفعوهم الا بخوفهم منهم . فاجتهد في امالة الاسبانيول الى ان تضعف عزم الجيش فان ذلك خطا لا يصلح

وكانت النمسا قد شرعت في التاهب العظيم في الشمال فلم يكن يوافقهُ ان ينقل بطلاً واحداً من ابطالهِ الذين كانوا عند الطونة . فالتزم بان يرسل اليهِ جنوداً جديدة وذخائر كثيرة من جميع الانواع . وكانت الامور تزداد اضطراباً كل يوم فان اسبانيا والبرتوغال باتتا في ثورة عظيمة واحاط جيش اسباني جرار بفرقة فرنسوية عددها ٢٠ الفاً وهي تحت قيادة الجنرال دوبون



وذلك في يلين فنعل المرض فيهم والتعب والجوع فالتزموا بان يسلموا . وهذه هي الاهانة الاولى التي وقعت على الجنود الفرنسوية . فلما سمع نابوليون بذلك ارتجف اضطراباً فانهُ كان يركن جداً الى الجنرال دوبون ورأى انهُ كان الاوفق ان يموت في تلك الاحوال وسمع بذلك وهو في بوردو فقرأ الخبر بكدر صامتاً . وكان ذلك بحضور وزير الخارجية فاضطرب لما رأى ما دل على كدر الامبراطور فقال لهُ ياصاحب الجلالة هل رضيت قال لا . قال هل شهرت النمسا الحرب قال ياحبذا . قال ماذا جرى اذاً . فاخبرهُ عن ذلك التسليم بكدر وقلق واضطراب وقال اذا انكسر جيش لا باس فان هذا من ضروريات الحرب ويعوّض . ولكن كيف يقبل جيش بان يسلم تسليماً معيباً فهذا يعيب مجد سلاحنا عيباً لا يعوض . فان الجرح الذي يثلم الناموس لا يشفى . فتاثير هذه المصيبة عظيم جداً . وحملهم ذلك على القبول بان تفتش اخراج جنودنا كانهم لصوص . انني لم انتظر ذلك من الجنرال دوبون لانني كنت احبهُ واربيهِ لاجعلهُ مارشالاً ويقال انهُ لم يرَ بداً من التسليم ليمنع هلاك الجيش وكان الاولى بهِ ان يهلك وهو يحارب ولو لم ينجُ واحد منهُ فان موتهم على تلك الحال مجد فانك تقدر على الدوام ان تعوض الجنود الهالكة ولكن خسارة الناموس لا تعوض . انتهى

وقال عند ظهور كدرهِ في بادىء الامر عن الذين امضوا عهد التسليم لقد نجسوا مجدنا فيطهر بدمهم . غير انهُ بالتامل قليلاً عدل عن ذلك وتغلبت كرامة الاخلاق عليهِ والشفقة على ذلك القائد فقال ما اتعس حظهُ فما اعظم سقوطهُ بعد الفوز بمجد المواقع السابقة . فما اعجب الحروب فان يوماً واحداً يكفي لضياع مجد لم يفز بهِ الا في كد سني الحياة كلها

وبعد ذلك اشار الجنرال سافاري على جوزف بان يخرج من مدريد ويتحصن في الابرو . فقال ما يقول عني نابوليون اذا فعلت ذلك اجابهُ انهُ يلومك فان غيظهُ شديد ولكنهُ لا يقتلك ولو كان هنا لاقام في مدريد لكن لا يقدر غيرهُ على ما يقدر هو عليهِ . فخرج جوزف من مدريد وكتب الى اخيهِ بونابرت من معسكرهِ المحصن في ابرو بانهُ لم يبق اسباني من حزبي فلو كنت قائداً لثبت في مركزي بل لاستسهلت ذلك لانهُ بفرقة من جنودك الابطال اقدر ان اتغلب على الاسبانيول . غير انني ملك ولا اقدر ان احتمل الثبات على هذه الحال لانهُ لا بد لي من ان اذبح قسماً من رعاياي لاحمل القسم الاخر على الخضوع لي فلا املك شعباً لا يرتضي بي ولا ارضى بالعود مكسوراً امامهُ فارسل اليَّ جيشاً من جيوشك القديمة فاعود بهِ الى مدريد واقاوم الاسبانيول وساطلب اليك ان ترجع اليَّ عرش نابولي فاذهب واقوم براحة توافقني بما يأول الى سعادة امة ترتضي بان تنجح في دولتي . انتهى . فتكدر نابوليون جداً من هذه الكتابة . ولكنهُ كان يحب جوزف ويعتبر رايهُ واتحادهُ معهُ اكثر من اعتبارهِ لاراء سائر

اخوتهِ واتحادهم . واراد ان ينشطهُ بقوة برهانهِ فكتب اليهِ

افعل ما يجعلك اهلاً لتكون شقيقي واثبت الثبات الذي يليق بمركزك فلا اهتم بقوم قليلين من العصاة وسادبرهم بابطالي فلا يخال لي انهم يقدرون ان يكسروا جيوشاً لم تقدر النمسا ولا روسيا ولا بروسيا ان تثبت على قتالها . وساجد اعمدة هرقليس في اسبانيا ولا اجد حدود سطوتي فيها . انتهى . ووعدهُ بارسال نجدة كافية في الحال وبعث اليهِ بمشورات مدققة جداً متعلقة بالحرب وارسلت اليهِ اخباراً بالغوا فيها بقوة العصاة فاجاب نابوليون في الحروب يعسر الوقوف على الحقائق في كل مكان وزمان غير انهُ يتيسر الوقوف عليها بالجد والكد . وعندك جيش جرار من الفرسان لا ينشل فارسل فرسانك ليدوسوا البلاد مسافة ٣٠ او ٤٠ ميلاً والقِ القبض على الكهنة والاعيان واحفظهم الى ان يتكلموا واستنطقهم بالعدل والحق فتقف على الصحيح الذي لا تقدر ان تقف عليهِ وانت نائم ضمن حدودك . انتهى

وكان جوزف شفوقاً فكان يحب حجب دماء الاسبانيول فلم يقم بالحرب بنشاط وهمة ففي بادي الامر تبسم نابوليون لما راى من ضعفهِ . ثم كتب اليهِ بان يقيم وراء حواجزهِ في الابرو الى ان يحضر وبسعفهُ . وعظمت اهمية الحرب في اسبانيا حتى انهُ نقل مائة الف مقاتل من الرين الى اسبانيا مع ان النمسا كانت تتهددهُ في كل يوم بفتح الحرب عليهِ . فقطعوا اراضي فرنسا المتسعة بسرعة وصعدوا الى جبال البرنات وانتظروا وصولهُ اليهم . وجمع مئة الف جندي من رجال فرنسا وارسلهم ليقوموا مقام الابطال المجرمين الذين ذهبوا الى اسبانيا وازدحمت اقدامهم في المدن الفرنسوية عند اجتماعهم فيها ليذهبوا منها الى الاماكن التي كانوا يقصدونها . اما الجندي المجرب في الحروب فلا يبالي بالموت ويستخف بحياتهِ فانهُ يمشي كحيوان غير ناطق يموت ضميره ويقسو قلبهُ فيتوغل في كل ملذة يتيسر لهُ ان يتوغل فيها . وكان نابوليون حاذقاً جداً في تهييج الرجال فجعل لاولئك الرجال الذين كانوا يجتمعون في مدن فرنسا اسباب الحظ والسرور في كل مكان . فكانوا يصادفون التزيينات والتنويرات والولائم والمآدب ونظمت اغاني حربية لتغنى في ولائمهم وفيها ذكر الانتصارات الفرنسوية العظيمة والمهيجات البشرية . وفي اثناء ذلك اقام مخازن ذخائر كثيرة في حضيض جبال البرنات . ولما سمع الامبراطور اسكندر الروسي بما كان يجري في اسبانيا قال لموسيو كولنكور سفير نابوليون في عاصمتهِ من الواجب ان تقوموا بهذا العمل غير الموافق لكم احسن قيام لئلا ترجعوا خائبين . وقد ارسل مولاك جنودكم الى اسبانيا ولكنهُ لم يرسل عدداً كافياً ولم يكن هناك وقد ارتكب القواد الخطا . ويصلح ذلك كلهُ في برهة قصيرة ولا يسلم بابقاء بوربون في اسبانيا المجاورة لهُ وقد اصاب بهذه السياسة ولا احسدهُ على عظمهِ لانني اعلم ان السبب المذكور هو الذي حملهُ على ذلك فلا ينبغي ان يغار اذا اتسعت امبراطوريتي



باضافة ما هو لازم لها وسابثت على عزمي . وساكتب الى النمسا بما يحملها على ان تتامل بجد في خطا اعمالها . وساين لمولاك انني امين في نعيمهِ وبوسهِ . وينبغي ان تقول لهُ انهُ يلزم ان نجتمع قريباً

وقال كولنكور السفير المذكور سنة ١٨٠٧ ارسلت سفيراً الى روسيا وكان نابوليون قد ادرك غاية مجدهِ وعظمتهِ وكان يعتبر العظمة الحقيقية الاعمال الناشئة عن المحافظة على الناموس وكان يحب الاقتصاد ويضاد الاسراف وكان يبذل لحفاء المال اللازم لقيام ناموس فرنسا . وكان اعلم الملوك بما يلزم لمركزهِ العالي . وكان يرغب ان يكن سفيراً عظم امة في الدنيا من ان ينوب عن امتهِ بالعظمة التي تليق بها . وقال لي انني اعطيك تحويلاً ابيض لتنفق ما يلزم ان تنفقهُ في سفارتك فانهُ لا ينبغي ان تكون كالاهالي الذين يجمعون الثروة ولا ينفقون منها ما يكون مناسباً لها فلا ينبغي ان يظهر ان بلاط فرنسا دني حقير واخونا امبراطور روسيا يحب الملاهي والتنعمات فاقم ولائم ومآدب عظيمة . اما بلاط امبراطور روسيا فكان فاخراً زاهياً فرايت فيهِ كل ما نسمعهُ عما كان في بلاط الملك لويس الرابع عشر الفرنسوي في صغرهِ . وظهر لي ان مفاخر ذلك الملك الفرنسوي العظيم كانت تشبه مفاخر بلاط روسيا دون غيرهِ ولم يرَ في بلاط ما رايناهُ فيهِ من اسباب الحظ والملاذ والملاهي فكان جامعاً للفتوة والجمال والعظمة والسرور . وفي ايام مثول ارباب الخطط وعظام الرجال لدى حضرة الامبراطور للتبريك والتهاني كنا نرى في قاعات القصر غرائب كالتي قرانا عنها في كتاب الف ليلة وليلة . فان نساء من اجمل نساء العالم كنَّ يدخلنها لابسات افخر ملابس ومزينات باثمن الحلى واجملها فتظهر عليهنَّ فعلاً عظمة الشرقيين ومنهنَّ من كنَّ حاذقات عارفات ومنهنَّ من كنَّ جاهلات مدعيات غير انهنَّ جميعاً كنَّ جميلات جداً مولعات بالموسيقى والرقص . اما الفتيان فكانوا بتصرفاتهم الحسنة وبلاغة حديثهم وملابسهم الفاخرة المنتظمة يفوقون فتيان باريس

وفي كل يوم كانت تقام ولائم واسباب تنزه واقراني لم استسهل القيام بما يوافق ما كان جارياً في روسيا . فان الليالي كانت تحيا بالمآدب والاغاني والالعاب والولائم . وفي النهار كانت العاب الزحف على الثلج من العاب العامة وساذكر خبراً واحداً لا يبين المال الذي كان يبذل في هذه الولائم والمآدب والافراح واظهر اسراف الروسيين . انهُ كان بين الاثمار التي بسطت على مائدة في نهاية مادبة رقص في سفارة فرنسا صحن فيهِ خمس اجاصات ثمنها الفان وسبعمائة وخمسون فرنكاً . وفي مرة اخرى ابتيعت الكرزة باربعة فرنكات مع ان ثمن نصف اقة عادة فرنك واحد . ولم يكن هذا نادراً ولو حاولنا الاقتصاد في ذلك لرفع اللوم . وكنت ابعث الى امبراطور فرنسا برسائل خصوصية منفصلة جداً فيها ذكر كلما يجري في روسيا وطلب اليَّ ان اكتب

اليه عن الاحاديث التي تجري في الدوائر ولو كانت غير معلقة بالشخصيات فكان يسر بها وعندما اخبرته بانني اشتريت الاجاصة بخمسمائة فرنك قال انني لما كنت قائداً صغيراً كنت اسر جداً بان احصل على معاش سنوي قيمته قدر ثمن الاجاصة فهذا الاسراف لا يقوم به الا المجانين او الحمقى ولا ريب عندي ان الامبراطور تكدر من هذا التبذير المخل

ووقعت الامبراطورية في ما جعل اوراق مالينها في تاخر فان انكلترا واسبانيا والبرتوغال جمعت جنودها في الجنوب لمضادتها والنمسا في الشمال جمعت سبعمائة الف جندي وكانت بروسيا قد باتت في ذل شديد فرغبت في استغنام الفرصة عند سنوحها للقيام بالثار ورفع العار وعرف الناس ان الامراء في روسيا كانوا يبغضون الامبراطور نابوليون فتحزبوا عليه وفي رئاستهم امّ الامبراطور . وكان مقرراً عند الناس ان الامبراطور اسكندر لا يقدر ان يثبت طويلاً في مضادتهم . وكان الذين يشترون الاوراق المالية الدولية يحاولون ايقاع الخوف في قلوب الناس لينتفعوا بنزول اسعار الاوراق فهبطت اسعارها الى ما دون السبعين بعد ما كانت باربعة وتسعين . فنهض نابوليون لمضادة ذلك العدو المالي بنشاط يحاكي همته عند مقاومة العدو في ميدان الحرب . وقال انني قاصد محاربة هولاء القوم . وغلبهم متمكناً من حفظ الاسعار في درجة الاعتدال بتدبيرات مصيبة اساسها ابتياع اوراق في الاوقات المناسبة مدة شهر او شهرين فاخذت الاوراق المالية الفرنسوية في الصعود وثبتت على سعر وافق الحكومة وناموسها فسر جداً بهذا النجاح وقال لقد غلبناهم فلا يعودون الى حيلهم وقد ابقينا لاصحاب دين الحكومة المركز الذي يحق لهم ان يكونوا فيه وقد اشترينا بمال العسكرية ما عاد عليها بالنفع وجاءت هذه المضادة بخراب كثيرين من الذين يحاولون خرب غيرهم بتنزيل الاسعار المالية ليربحوا هم . اما نابوليون فكان كريم الاخلاق فاسعف بعضهم بماله الخاص

## الفصل الرابع والاربعون

### الامبراطوران في ارفورث

وعين يوم السابع والعشرين من سنة ١٨٠٨ لاجتماع الامبراطورين في ارفورث وعند اقترابه تحولت ابصار اوربا كلها اليه لترى ماذا ينشا عن اجتماع امبراطور الروسيين وامبراطور الفرنسويين . وتقرر في عقول الناس ان نصيب العالم متعلق به واخذ الملوك والامراء ورجال السياسة وكثيرون من الاعيان يذهبون الى المكان المذكور ليشاهدوا الامر . وكان امبراطور فرنسا صاحب الضيافة فتهيا ليقوم بحقها ويكرمهم جميعاً بما يليق بمقامهم . فخرج من باريس ومعه حشم عظيم لم يسر في خدمة ملك اعظم منه ولا ابهى ولا اجمل . وكانت الامة الفرنسوية



تسر بمجد امبراطورها وارتفاعه عن مجد امبراطوري الامراء . وكان قد بعث الى المكان المذكور جميع اسباب الملاهي والسرور والتنعمات الفاخرة المتقنة ليرضي الذين يعيشون بمجد التمتع بالملذات والملاهي

ووصل الى المكان المذكور بعد الظهر بعشر ساعات وكانت اقدام الملوك والامراء والادواق واعيان رجال السياسة والقواد واكابر خدم الدين قد ازدحمت في السواقي . وبعد ان حياه هولاء القوم بالانضاع والاحترام ركب فرسه وذلك عند الظهر وسار معه ملك سكسونيا وحشم واعوان كثيرون وسار والملاقوا امبراطور روسيا وكان قادماً في عجلة منتوحة . فالتقوا به على بعد ستة اميال فلما راى عجلة الامبراطور اسكندر سار اليها ركضاً بشوق وحب . فنزل عن جواده وخرج الامبراطور الروسي من عجلته واعتنقا بسرور وحب . وكانت قد تهيات افراس لركوب امبراطور روسيا واعوانه وحشمه فسار الامبراطوران راكبين ودخلا المدينة وكل منهما يسير بجانب الاخر وهما يتحدثان بصداقة وسرور

وفي المدينة عرّف نابوليون صديقه بكل عظماء الرجال الذين كانوا يحضرون الاجتماعات ثم سار به الى القصر الذي اعده له واتفقا بان يتناول الامبراطور اسكندر الطعام كل يوم مع الامبراطور نابوليون . وفي المساء اقيمت مادبة فاخرة جداً حضرها اعظم رجال اوربا وزينت المدينة بالانوار وقام احذق مشخصي فرنسا بتشخيص رواية محزنة تظهر الصفات الحسنة والسجايا الممدوحة . وكان اسكندر جالساً بجانب نابوليون . فقال احد المشخصين ان صداقة رجل عظيم منحة من المعبودات . فلما سمع اسكندر ذلك وقف بجلال وامسك يد نابوليون بلطف وانحنى راسه قائلاً انني اشعر بحقيقة هذا الكلام كل يوم . فلما سمع الحاضرون ذلك ضجوا جميعاً حتى تزلزلت جدران قاعة التشخيص . وكانوا ملوكاً وادواقاً وامراء وعظماء السياسة

ولم يكن نابوليون يسر بالملاهي والملذات فان سروره كان بالقيام بالاشغال . فعين مكاناً واوقاتاً للاجتماع ملياً على انفراد . اما اسكندر فكان يطمع جداً بالحصول على القسطنطينية اما نابوليون فقرر في عقله ان روسيا قوية جداً بدون ضمها اليها مع توابعها فلا سبيل الى السماح لها بها . غير انه كان راغباً جداً في ارضاء اسكندر . واستمر الاجتماع نحو عشرين يوماً . اما امبراطور النمسا فلم يدعَ الى هذا الاجتماع لانه كان قد تظاهر بالعدوان غير انه بعث بسفير بالنيابة عنه ليترحب بالامبراطورين لانهما اجتمعا بالقرب من بلاده . وكان ذلك ظاهر مامور ريته اما باطنها فكان محاولة الوقوف على اسرار اجتماعهما فاكرمه نابوليون ولم يطلعه على شيء وقال له لم ندع مولاك الى هذا الاجتماع لانه لا ينفك عن جمع جيوش جرارة للتهديد فاذا رغبت النمسا في محالفة روسيا وفرنسا ينبغي ان تخلص الود والصداقة . واذا فضلت محالفة انكلترا

فعليها ان تكاشفها بامورها . ولم يعلم بما جرى من الحديث غير اربعة اشخاص وهم الامبراطوران ووزيراهما

وجاء مدينة ارفورث الصغيرة كل ما هو جميل عظيم في المانيا وكان نابوليون قد هيأ كل ما يسر الخاطر . فكان يشغل الناس بالولائم والمادب وانفق زمانهُ بالتدابير العظيمة والمصالح المسلمة اليهِ وجاءت المدينة المذكورة امراة مشهورة جدًّا وهي البرنسس دو تور شقيقة ملكة بروسيا . وكانت ذات مركز عال وجمال بديع ولطف عظيم وجلال وتعقل وفصاحة فكان يجتمع اليها اعظم الرجال واتى بدعوة نابوليون اكابر اهل العلوم والمعارف ودخلوا جمعيات الملوك والامراء ومنهم فيلاند وكوث فكان نابوليون يترك عظماء الحسب والنسب ليجتمع بعظماء العقول والمعارف ويبين لهم اعتبارهُ . وكتب فيلاند العالم واصفًا اجتماعهُ بنابوليون في قاعة البرنسس المذكورة . قال بعد ان دخلتها بدقائق قليلة مشى نابوليون من الجهة المقابلة لنا لياتي الجهة التي كنا فيها فعرفتني بهِ دوقة فيمار فمدحني بلطف وهو ينظر اليَّ نظرة متامل . ولم ارَ غير قليلين ممن لهم اقتدار على معرفة افكار الناس بالنظر اليهم كما كان لنابوليون . ولم ارَ رجلاً اكثر اختبارًا منهُ ولا اقل تكلفًا وتصنعًا ولا اشد لطفًا واتضاعًا . ولم يظهر فيهِ شيء يدل على الادعاء والكبرياء ودهشت انا وجميع المجتمعين بتكلمهِ معي اكثر من ساعة بدون انقطاع وتبين لي انهُ لم يكن يحفل بالملاهي . فتوهمت انهُ من حديد ولو كان لطيف المعشر منخفض الجانب وعند نصف الليل اردت مفارقتهُ خوفًا من ان اتعبهُ باطالة الحديث فخرقت الاصول واستاذنتهُ بالذهاب . فقال ان اعتذارك يجعلني اقبل بذهابك فاستودعك الله

وفي اثناء تلك الاجتماعات اجتمع بولار المورخ السويسري المشهور . فكتب مولار عنهُ ما ياتي اقول امام الله بخلو غرض وبحق انني متعجب مما رايت منهُ من المعارف المختلفة واصابة الاراء وشدة الادراك . وكيفية احاديثهِ ادخلت حبهُ في فوادي ويوم اجتماعي بهِ من اعظم ايام حياتي . وقد تسلط على قلبي بحذقهِ وجودهِ المنزه عن الغرض . انتهى

وكان الامبراطور اسكندر ذا مطامع عظيمة ومع ذلك كان يحب اللهو والانبساط وكان على جانب عظيم من الجلال واللطف . وفي ذات ليلة عقدت مادبة رقص فاخذ الامبراطور اسكندر يرقص مع ملكة وستفاليا حال كون نابوليون كان يكلم كوث العالم مولف ورتار . وفي نهاية السهرة كتب الى جوزفين اني حضرت مادبة رقص في فيمار ورقص فيها الامبراطور اسكندر اما انا فلم ارقص لاني قاربت الكهولة

وكان اسكندر من محبي معاشرة النساء فجاء ارفورث مخصصة مشهورة بالجمال والقد فراها واستحسنها فقال لنابوليون هل من مانع يمنع تعرفي بها . فقال نابوليون بتان لا غير ان ذلك يكون واسطة لتعرفك



بكل باريس فان تفصيل زيارتك لها ترسل الى الجرائد مع البريد الاول . وكان يخاف هذه الشهرة فبرد كلام نابوليون ما كان عندهُ من الوجد

واقام نابوليون مادبة في ميدان الحرب في جينا حيث بدد شمل الجيش البروسي واقام بها ايضًا الذين كانوا يرغبون ان ينسوا انكسارهم اكرامًا لهُ . وضربت خيمة فاخرة جدًّا في المكان الذي بات فيهِ نابوليون في ١٩ تشرين الاول ( اكتوبر ) قبل ذلك بسنتين . وركب ومعهُ اعوان كثيرون وجال في ساحة تلك المعركة العظيمة واجتمع بهِ جمهور غفير من جميع الانحاء المجاورة فبهرت اعينهم بعظمة ذلك الفاتح الكبير وضجوا داعين لهُ تكرارًا . اما بلدة جينا الصغيرة فلحق بها ضرر عظيم في ذلك اليوم فبعث اليها بثلاث مئة الف ريال منهُ اسعافًا للذين وقع الضرر عليهم

وبعد مفاوضات كثيرة حل الامبراطوران كل المشاكل ووقعا على شروط هذا ملخصها ان فرنسا وروسيا جددتا محالفتهما وتعهدتا بالمحاربة والمصالحة معًا . واتفقتا على ان تطلبا الى انكلترا عقد الصلح بشروط موافقة جدًّا لانكلترا . وارتضت روسيا بان يبقى جوزف ملكًا على اسبانيا وارتضت فرنسا بان تستولي روسيا على فنلاند والفلاخ والبغدان . فكتب نابوليون بيدهِ الى ملك انكلترا طالبًا عقد الصلح ووقع عليهِ الامبراطوران . واضطربت النمسا كثيرًا لانهُ لم يسمح لها بالاشتراك بهذه المخابرة . وقال نابوليون لسفيرها عند الوداع على بلاط فينا ان ينتظر الاخراج من اشغال اوربا ما دام يميل الى تكدير راحتها . واعطاهُ نابوليون رسالة ليقدمها الى مولاهُ واودع فيها افكارًا حرة مبنية على كرامة الاخلاق وهذه ترجمتها

يا سيدي واخي . انني لم ارتب قط في نوايا جلالتكم الصادقة . غير انني خفت ان ارى الحرب متشبة بيننا . وفي فينا حزب يذيع الفلاقل ليحمل وزارتك على القيام بالحروب . وكنت قادرًا على تقوية امبراطورية جلالتكم او اضعافها ولكني لا ارغب في ذلك فما هي عليهِ الان هو ناشيء عن ارادتي . وهذا برهان قاطع على انني لا اطلب شيئًا من جلالتكم وتراني على استعداد دائم لان اضمن استقلالكم ولا اقوم بشيء يضر ماديًا بصوالح امبراطوريتكم . ولكن لا ينبغي ان تغير امور تقررت في حروب استمرت ١٥ سنة . وعلى جلالتكم منع ما يأول الى تهييج الحرب فيعود ذلك بالسعادة على امتكم فتتمتعون براحة انتم في احتياج اليها بعد صعوباتكم الكثيرة . فاجعلوا اجراءاتكم مما يدعو الى الركون اليكم . فاحسن السياسة في هذه الايام البساطة والصدق . فاظهروا لي مخاوفكم لابددها في الحال . انتهى

وفي المفاوضات السرية التي جرت بين الامبراطورين تحدثا عن طلاق جوزفين زوجة نابوليون وتزوجهِ بفتاة من عائلة روسيا الامبراطورية . ولا نذكر ذلك الا باسف عظيم فانهُ جلب عليهِ لومًا شديدًا ولا يزال الناس يلومونهُ عليهِ . اما جوزفين اللطيفة المحبة الكريمة الاخلاق

فسامحته على ان الناس لا يسامحونه . فانها شاركته في مشقات حياته واسعفته على بلوغ ما ادرك من المجد والعظمة واحبته محبة شديدة امينة . وكان ينبغي ان لا يسمح لمقاصد عالية ان تبعده عنها . والظاهر ان الله تعالى اغاظ من ذلك . والتزم نابوليون بالاقرار بان طلاقها من اعظم مصائب حياته . ولا يعتذر بانه أُطغي بما لم يطغَ به بشر وان الغايات التي ساقته الى العمل من اعظم الغايات واشرفها

ولا ينبغي ان نقتصر على اللوم فان الانصاف فخر واظهار الواقع يمكن كل مطالع من ان يحكم بحسب رايه وميله . وجوزفين نفسها طلبت السماح من زوجها ودموعها تذرف وقلبها يخفق حبًا به حال كونها عالمة بان حبه لها يفوق حبه لكل الناس واعتذرت على مسمع من اهل الارض الذين يلومون نابوليون او يعذرونه . فاسمعوا ماقاله نابوليون لجوزفين انني احبك وحدك وحبك جعلني مديونًا لك بساعات السرور الصحيح القليلة التي تمتعت بها في الدنيا . وملوك اوربا تسلحوا ليتكوا بي لانني امبراطور الاهالي وكل ملوك الامبرية لا تزال مبطنة العداوة ولا ارى واسطة لانقطاع الحروب والبلايا التي تدمر الوفًا من البيوت وتجعل في الدنيا طوفانًا من الدم الا اذا تزوجت بفتاة من عائلة روسيا او النمسا الامبراطورية فاصبح من عائلة الملوك فيعترف الناس بان ابني من اصل ملكي واحصل على محالفة دولة من مصلحتها عضد امبراطوريتي ويرجع السلام الى اوربا وتجو الوف من المنازل من خراب الحروب وبلاياها والطلاق لا يقطع حبال الحب فيبقى قلبانا قلبًا واحدًا ولا تنقطع مخابراتنا ولا اجتماعنا بركون فنقطع الرباط الوحيد الذي يجعلنا زوجًا وزجة لنتمم امورًا عظيمة خطيرة جدًا كهذه الامور وحبنا الثاني يجعلنا نحمل انفسنا اعظم الاثقال للقيام بذلك . فياجوزفين اذا مت فمن يخلفني على عرش فرنسا . الا تعلمين ان مائة مدع من اهل المطامع يجردون السيف ويتنازعون الملك ويلقون الامة في وبال وهلاك فتخلف لفرنسا النار والدم والخراب . فاذا وهبني الله ورثًا تنقطع كل اسباب هذه البلايا . فتبقى الامة متمتعة بالسلام والنجاح . الا نقوم بعمل عظيم اذا ضحينا على مذبح حب الوطن ميل قلوبنا الشديد . وفرنسا تعرف عظمة هذه التضحية ولكن بركات الذين لم يولدوا بعد سترجع الينا . انتهى

ولا يقدر الانسان ان يقف على هذه الاراء بدون التامل فيها . ولا سيما اذا عرف ان نابوليون لم يتربَّ تربية دينية ولم يكن يقدر ان يعتبرها كمسيحي حقيقي . ولم يراعِ الا الامور الدنيوية العادلة فاذا راعينا الجهة العالمية نرى انه قام بتضحية عظيمة ناشئة عن كرامة اخلاق تدل على ان نتائجها مفيدة جدًا ولما ذكر موسيو تاليرند هذا الامر اجاب اسكندر مادحًا نابوليون وقال له ان النهار الذي يتآخيان فيه بالمصاهرة فيربطهما برباطات جديدة فضلاً عن رباطات الصداقة معدود من اسعد الايام ولاحت على وجه لوائح السرور الشديد لما قال فاذهب الى باريس بعد ذلك واقبل



فيها شقيقتي وهي امبراطورة فرنسا . ثم ذكر تعصب امو واكثر الامراء على امور كهذه . وانهم كانوا يضادون اشد المضادة ذلك الامبراطور الذي كان قد زلزل في كل مكان اساسات السطوة الامتيازية . اما نابوليون فاطال التامل في هذه الامور وامتنع باطنًا عن الطلاق حبًا بتلك المراة التي كانت محبوبته في ايام شبابه . اما جوزفين فسمعت اشاعات بهذا الخصوص من الف لسان دابها نقل الاخبار غير ان نابوليون لم يكلمها بهذا الشان

اما اسكندر فلم يكن يمل من تمديد مناقب امبراطور الفرنسويين فكان يمدح تعقله وجلالة وقوة عقله التي كانت تتسلط على القلوب وتحوقلبه . وقال انه اعظم رجل بل هو احسن اهل الدنيا والناس يظنون انه طماع محب للحرب . وليس هو كذلك فلا يحارب الا للضرورات السياسية والزام الاحوال . انتهى

وكان الناس يتعجبون مما كانوا يرونه فيه من معرفة كل امر معرفة حقيقية . فكان يكم اللاهوتيين والمورخين ومولفي الروايات وكان كل الناس يقرون له بالامتياز في العقل . وفي ذات مرة وقع جدال على احد الاوامر البابوية المسماة بالبولا الذهبية وكان ذلك في وليمة . فقال احد الحاضرين ان تاريخه سنة ١٤٠٩ . قال نابوليون اخطات فان تاريخه سنة ١٣٣٦ في ايام الامبراطور كارلوس الرابع فقال احد الحاضرين احب ان اعلم كيف يقدر الامبراطور ان يعلم هذه التفاصيل العلمية فقال وقد تبسم من تعجب سامعيه العظام اقمت ثلث سنوات في حرس بلنسية ولم اكن احب الاختلاط بالناس وكنت نازلاً في بيت بائع كتب وسمح لي بان اقرا في كتبه ففرات الكتب التي كانت فيه اكثر من مرة ولم انسَ غير قليل من محتوياتها العسكرية وغير العسكرية

وكان حاذقًا ذا ذاكرة قوية عالمًا بانفاذ الامور وتوفيقها . وقيل انه كان يعرف كل من كان مشهورًا من فرنسا ولو كانت شهرته غير عظيمة ويعرف تاريخ حياته وصفاته . وكان وزراؤه يكتبون دفاتر فيها اسماء وكانوا يسمونها دفاتر الامبراطورية الادبية . وكان يصلح ما يحتاج الى الاصلاح فيها بافادات وزرائه والكتابات الخصوصية وكان يقرا الرسالات التي ترد عليه بدون ان ينسى ما تضمنته . وكان ينام قليلاً ويشتغل كل ساعة من زمان يقظته . وكانت قوة ذاكرته تمكنه من تذكر ارقام بالنظر اليها مرة واحدة بسرعة وكان يعلم مجموع محصول كل خراج ويعرف الحسابات حق المعرفة فيظهر الغلط بقوة كان الناس يقولون انها تفوق القوة الطبيعية . وفي ذات مرة كان يطالع حساب نفقات فراى انه قيد فيه ثمن ماكولات لفرقة معلومة في يوم معين في بيزنسون فقال ان الفرقة المذكورة لم تكن في بيزنسون . فتذكر الوزير ان نابوليون كان خارج فرنسا فقال ان الحساب صحيح . وظهر بالفحص ان ذلك تزوير فعزل المزور وشاع الخبر في كل الامبراطورية فبات كل كاتب على حذر . وسنة ١٨٠١ دهش نواب سويسرا

لما راوا ما روا من معرفتهِ لتاريخ بلادهم وعاداتها . وكذلك نواب جمهورية سان مارينو الصغيرة غير المهمة دهشوا لما راوا ان نابوليون كان يعرف عيالهم وعاداتهم وسياستهم المحلية

وكان سائرًا مرة الى جزيرة البا في بارجة اسمها الاندونتي فاخذ يتكلم عن امور بحرية وفي ذات يوم كان جالسًا يتناول الطعام فقال انهُ خطر لهُ يومًا ان يبني بوارج كثيرة كبيرة فقيل الصعوبة في ايجاد ملاحين حاذقين جدًّا لان الانكليز كانوا قد استولوا على كل بحر . فاجاب نابوليون انهُ قد رتب للملاحين في الفرض وفي السفن الصغيرة عند الشواطي وسائط يتعودون بها اعمال البحر في النو وكان عارفًا بالامور البحرية قادرًا ان يحل مشاكل لا يقدر ان يحلها الا الذين درسوا فن سلك الابحر واتقنوهُ . وفي تلك السفرة اراد رئيس المركب الدخول الى مينا باستيا من جزيرة كورسيكا . فوصفها نابوليون في الحال وبين عمق الماء والمحلات غير العميقة ومجاري المياه ومحلات رسي المراكب باصابات وتفصيل كانهُ صرف حياتهُ بادخال المراكب اليها فراجع الرئيس الرسم ووجد الوصف صحيحًا من كل وجه . وذكر الرئيس انهُ خطر لهُ مرةً ادخال المركب الى فرضة بالقرب من جنوا لكنهُ لم يفعل . فقال نابوليون لقد اصبت فانها اردا مكان في البحر المتوسط وبعد الدخول لا تقدر ان تخرج بالمراكب في اقل من شهر او ستة اسابيع ثم اخذ يصفها بتدقيق واخبر بذلك الرئيس دونداس بعد ان عاد منها فقال ان نابوليون اصاب بكل ما قال عنها . ثم قال لقد تعجبت من معرفتهِ لاحوالها وكنت اظن انني انا مكتشف هذه الاحوال فتحققت كل ما قال بالفحص والاختبار

وكان ذا ثبات عجيب فعند المفاوضات لوضع القوانين المدنية كان كثيرًا ما يشتغل ١٢ او ١٥ ساعة بدون ملل . وانشا دائرة فيها ١٢ كاتبًا وجعل مونيه رئيسًا لها وحصر اعمالها في قراءة الجرائد الانكليزية وترجمتها وامر رئيس الدائرة المذكورة بان لا يترك طعنًا فيهِ ولو كان فوق الحد لكنهُ كان كثيرًا ما يلطف العبارات واحيانًا يقطع النظر عنها بالكلية اذا كانت متعلقة بالامبراطورة جوزفين . وكان نابوليون يسال غيرهُ عن محتوياتها حينًا بعد حين فوجد ان مونيه كان يلطف بعضها ويحذف بعضها حبًّا بهِ فامرهُ بان لا يترك شيئًا . وكان مع كثرة اشغالهِ الخطيرة يجد فرصة كافية ليقرا الكتب والجرائد بسرعة عظيمة . وكان مدير مكتبتهِ يرتب كل يوم رسومًا وكتبًا وجرائد على مائدتهِ وكان نشاطهُ العجيب يحملهُ على المطالعة فيها قبل تناول الطعام صباحًا

وفي ذات مرة دخل امبراطور روسيا قاعة الاكل وهما في ارفورث فاراد ان يخلع سيفهُ عنهُ قبل الجلوس لمناولة الطعام فراى انهُ قد نسيهُ . فبادر نابوليون الى تقديم سيفهِ اليهِ . فقبلهُ واظهر من السرور والشكر مالا مزيد عليهِ وقال قد قبلت هدية جلالتك ضمانة على صداقتك فتاكد انني لا اجردهُ عليك ابدًا . فقال نابوليون اننا اظهرنا ادلة الحب وقد صرفنا بضعة ايام



معًا بالصداقة التامة والمواصلات الحسنة التي تجري في المعيشة الخصوصية . فكانا كشابين سعيدين لذتهما واحدة لا يخفي احدهما شيئًا عن الاخر . وكتب نابوليون الى امراتهِ جوزفين انني مرتضٍ من اسكندر وينبغي ان يكون مرتضيًا مني ولو كان امراة لبت مغرمًا بهِ

وفي صباح ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ركب الامبراطوران وخرجا من ارفورث والجنود مسلحة واجتمع في الشوارع جمهور غفير جدًّا من كل الجهات ليتفرج على خروجهما . وبعد ان ركبا بضعة اميال نزلا عن جواديهما وسارا برهة وهما يتكلمان سرًّا باجتهاد . ثم قبل احدهما الاخر بحب وكانا متحدين برباط الصداقة الصحيحة والسياسة والمطامع فدخل اسكندر عجلتهُ وركب نابوليون فرسهُ ثم اخذ كل منهما يد صاحبهِ للوداع الاخير وافترقا . فسار اسكندر قاصدًا بطرسبرج ورجع نابوليون صامتًا متاملاً الى ارفورث . ولم يلتقيا بعد ذلك غير ان جيش كل منهما التقى بجيش الاخر في طيب موسكو وفي ميدان حرب واترلو

ولما عاد نابوليون الى ارفورث استاذن الامراء وغيرهم من العظماء الذين كانوا لا يزالون فيها وبعد الظهر من ذلك اليوم ركب عجلة وسار الى باريس ورجعت تلك المدينة التي امست ميدانًا لاعظم الحفل والفخر المادب الى ما كانت عليهِ من السكون والهدوء وكان لا يبالي بالتعب ولا يحب النوم فسار ليلاً ونهارًا بدون راحة وفي صباح اليوم الثامن عشر من ذلك الشهر وصل الى سان كلو

وارسل الامبراطوران مامورين احدهما روسي والاخر فرنسوي يحملا الى ملك انكلترا الرسالة التي كتباها اليهِ طالبين عقد الصلح وهذه ترجمتها

ياسيدنا ان احوال اوربا الحالية قد جمعتنا في ارفورث ومطلبنا الاول انفاذ ارادة كل الامم وبمصالحة جلالتك فنتخذ اعظم الاسباب لتخليص اوربا من بلاياها . فالحرب الطويلة الدموية التي بليت بها اواسط اوربا قد بلغت النهاية ولا يمكن تجديدها . وقد حدثت تغييرات كثيرة في اوربا وهدمت حكومات كثيرة . والسبب القلق والاضرار الناشئة عن وقوف دولاب التجارة البحرية . وربما حدثت تغييرات اعظم وتكون كلها غير موافقة لسياسة انكلترا فالسلام هو مرغوب امم اواسط اوربا وانكلترا . وقد اتحدنا لنطلب الى جلالتكم بان تصغوا الى صوت الانسانية وان تبطلوا المطامع وتجعلوا تسوية بين المصالح المختلفة وتقرروا صالح اوربا والناس الذين جعلنا الله في رئاستهم . انتهى

ووضعت هذه الرسالة في مغلف باسم مستر كانن وزير انكلترا الاول وكتب على المغلف ما بين انهُ من امبراطور روسيا وفرنسا الى ملك انكلترا . وامر المامورين بان يقولا في كل مكان انهما اتيا ليطلبا عقد الصلح . وكان نابوليون يرغب ان يبين للامة الانكليزية انهُ اذا استمرت

الحرب تكون مسئوليتها على وزارة انكلترا . وسار المأموران من بولون ولم يصلا الى انكلترا الا بعد معاناة مشقات كثيرة . لان وزارة انكلترا كانت مضادة لعقد السلم حتى انها امرت البوارج بان لا تسمح لسفينة حاملة راية سلام بان تمر . على ان الرئيس الفرنسوي الحاذق الذي كان يدبر البارجة الفرنسوية تمكن من ان يمر بدون ان تراهُ البوارج الانكليزية والقى مرساة مركبهِ في الدوفر . ولم يسمح لهما بان يخرجا الى البر الا بعد برهة وسمح للمأمور الروسي بان يذهب الى لندن اما الفرنسوي فابقي في المركب . غير انهُ ورد امر من وزير انكلترا الاول فسمح لهُ بالذهاب ايضاً اليها ولاطفهما الانكليز غير انهما كانا تحت مناظرة ضابط انكليزي لم يكن يتركهما وحدهما دقيقة واحدة . وبعد وصولهما بثماني واربعين ساعة ارجعا رسالات باسم وزيري فرنسا وروسيا وفيهما ذكر وصول الرسالتين والوعد بارسال جواب . فهذا الجواب البارد بين ان وزارة انكلترا كانت لا تزال مصرة على القيام بالحرب . وبعد ذلك بايام قليلة كتب الوزير الانكليزي رسالة مبهمة ذات فحوى مودتها انهُ ورد الى انكلترا مرات كثيرة طلب عقد الصلح ولكن لم تصدق ان هذا الطلب قلبي وطلبت باصرار ان يشترك كل حلفاء انكلترا في المخابرة للمصالحة حتى عصاة اسبانيا . وان انكلترا لا تقدر ان تجيب على رسالة الامبراطورين لانها لم تعترف باحدهما . وهذا الجواب غائظ ومع ذلك لم يظهر نابوليون غيظاً ولا عتاباً على الطعن فيهِ وعدم تصديقهِ فاجاب بلطف ورقة انهُ كان راغباً جداً في عقد الصلح فارتضى بدون تردد بان يجعل جميع حلفا انكلترا شركا في المفاوضة خلا عصاة اسبانيا . فلما وردت هذه الرسالة على انكلترا اجابت حالاً ان لا سبيل الى عقد صلح مع دولتين احداهما تختلس حق الملوك بالملك وتخلعهم عن ملكهم والاخرى ترتضي بذلك مراعاة لصوالحها .

وقال الكولونل نابيه ان رسالات وزير انكلترا الاول مهينة ومن الامور الصعبة ان تعرف افكار نابوليون المتعلقة بطلب عقد الصلح حال كونهِ كان عالماً بان انكلترا لا يمكن ان تترك لهُ اسبانيا فلا بد لهُ من الاستعداد ليقرر اتفاقاً بهذا الشان وربما كان ذلك كلهُ حيلاً لالقاء الشقاق بين اعدائهِ . وقال الوزراء الانكليز ان ذلك هو الواقع . فمن هم الاعدا الذين يقدرون ان يلقوا الشقاق بينهم . هل هم اسوج وصقلية والبرتوغال حال كونهم يسخرون بذلك . فالارجح انهُ كان راغباً في عقد الصلح . وقال انهُ كان راغباً في عقدهِ من كل قلبهِ . والاحوال التي كانت جارية عند اجتماع الامبراطورين في ارفورث تبين انهُ كان راغباً فعلاً في عقد الصلح وانقطع وزير انكلترا عن المخابرات فانقطع امل الصلح . واخذت انكلترا تبذل الذهب وتحابر حتى غاظت النمسا وقوت تعصب فلاحي اسبانيا . ولام الكولونل نابيه الحكومة الانكليزية لانها امتنعت عن عقد المخابرات . وقال يحق لنابوليون الامتناع عن قبول عصاة اسبانيا شركاء في المخابرات . فان ذلك عبارة عن خلع سلاحهِ قبل الانخراط في الصفوف . اما عجز انكلترا عن ترك



الاسبانيول فيما يرتابهم فيهِ وذلك لا يتعلق في مداومة المخابرات . ومنع ادخال وكيل سياسي من اسبانيا للمخابرات لا يمنع مفاوضة الدول بشان اسبانيا . ومخابرات وزير انكلترا الانمس صوالح الاسبانيول واستقلالهم . غير ان سياسة ذلك الزمان لم تكن موافقة لهذه الحال فان الناس كانوا يظنون انهُ من الحكمة عاقة المخابرات بسلب القاب نابوليون سلباً مضحكاً . ولان من الاصابة اهانة المخاطب وكتابة ما يدل على الدناءة في ورقة رسمية فيها كلام مهم جداً بالطعن والاهانة التي تظهر كبريا كاتبها لا رزانة رجال سياسة . ويظن ان امل وزير انكلترا ببلوغ مناهُ بمؤامرة مضحكة تعلقت بها البرنسس دو تور وتاكس مع تاليرند وغيرهِ من الذين كانوا مستعدين لان يسلموا نابوليون الى اعدائهِ انما هو السبب الذي حملهُ على قطع المخابرات . انتهى

وقال نابوليون لاوميارا فليقل وزراؤكم الانكليز ما يشاءون فاني عالم استعدادي لعقد الصلح في كل حين . وعند موت فوكس اشتد الامل بالمصالحة ولو اخلص اللورد لودردل نيتهُ في بادي الامر لتقرر الصلح بيننا . وقبل حرب بروسيا كتبت لهُ ان الاوفق ان يحمي ابناء وطنهِ لانني سأستولي على بروسيا في شهرين وانهُ اذا كان البروسيون والروسيون معاً فانهم يقدرون ان يغلبوني وان بروسيا لا تقدر على ذلك فان الروسيين يبعدون عني مسافة ثلثة اشهر وكنت قد عرفت ان البروسيين صمموا على المدافعة عن برلين عوضاً عن ان يرجعوا الى الوراء للحصول على اسعاف الروسيين وهذا يمكنني من ان ابدد شمل جيشهم وافتح برلين قبل وصول الروسيين . وبعد كسر البروسيين يسهل عليَّ الانتصار على الروسيين وحدهم بعد ذلك واشرت عليهِ بان يستغنم فرصة عرضي السلام قبل غلب بروسيا التي كانت صديقتكم في اواسط اوربا واظن ان اللورد لودردل اخلص باطنهُ بعد هذه الكتابة وكتب الى وزرائكم مشيراً بالسلام . غير انهم لم يقبلوا بهِ ظانين ان ملك بروسيا جمع مائة الف رجل فينتصر عليَّ . وهذا ممكن فانهُ كثيراً ما تكون معركة واحدة علة تقرير امور كثيرة وقلب امور . وكثيراً ما يكون النصر او الكسر ناشئاً عن شيء قليل . غير ان الحوادث بينت اصابة رايي فان معركة جينا مكنتني من الاستيلا على بروسيا وبعد معركة تلسيت كنت وانا في ارفورث ارسلت الى وزرائكم كتاباً مني ومن الامبراطور اسكندر الروسي يتضمن المصالحة ولكن لم يقبلوا بهِ . انتهى

وقال نابيه ان قاعدة حكومتهِ الصحيحة وشهرتهُ جعلتاهُ امبراطور الاهالي لا امبراطور الامراء فساءهُ مستربت ابن العامة والمدافع عنها وهذا صحيح كما ان مستربت وخلفاءهُ كانوا اولاد الامراء والمحامين عنهم . وكذلك اهل الامتياز من الاوربيين جعلوا بغضهم للثورة الفرنسوية بغضاً لهُ لانهم راوا انهُ حامي قواعدها وانهُ وحدهُ رقى اسباب نظام مكروه عندهم وانهُ بالفعل الدولة وكان يدعو نفسهُ كذلك فمعاهدة تلسيت جعلت نابوليون في مركز نافذ بالنظر الى ملوك اوربا

ولكنها اظهرت حقيقة الحرب وشددت المقاومات بينهُ وبين انكلترا حال كونه المدافع عن المساواة وفي المدافعة عن الامتياز. ولا سبيل الى عقد الصلح بينهما مادامتا قويتين ولم يربح امبراطور فرنسا غير حق اختيار ميدان الحرب في الاستقبال

## الفصل الخامس والاربعون

### الحرب الاسبانية وما يليها

وتشجعت انكلترا بالفتنة الاسبانية وبتهديدات النمسا فضاعفت اجتهادها وصرفت كل جهدها في سبيل تهييج فلاحي اسبانيا المعتصبين. وبوارجها التي لاتغلب سارت على سواحلها وسواحل البرتوغال وكانت تُدخل الى البلاد من كل مكان موافق نقوداً واسلحة وذخائر حربية. ولما راى نابوليون انهُ لم ينجح في المصالحة تهيأ للحرب. وقبل خروجهِ من باريس قاصداً اسبانيا جمع المجلس القضائي وخاطب اعضاءهُ قائلاً

سافرت هذه السنة اكثر من ثلاثة الاف ميل في داخلية امبراطوريتي وقد اثر فيَّ جداً ما رايتهُ وهو ان هذه الامة الفرنسوية العظيمة التي كانت مجرحة بالشقاق عظيم اصبحت متحدة سعيدة. ولا اقدر ان اكون سعيداً ما لم ارها سعيدة. وقد سار بعض جيشي ليلاً في الجيش الذي انزلتهُ انكلترا في اسبانيا. ومن عناية الله وبركاتهِ اعماه الانكليز حتى انهم تركوا البحار واتوا اليابسة بجيش وهي العناية التي طالما صانت سلاحنا. وبعد ايام قليلة اذهب لاقود جنودي ولاكلل في مدريد بعون الله ملك اسبانيا وانشر راياتي فوق قلاع لسبون (عاصمة البرتوغال) اجتمعت بامبراطور روسيا في ارفورت وافرغنا جهدنا في سبيل المحافظة على السلام حتى اننا صممنا على تضحية امور كثيرة لنجعل بركات التجارة البحرية متصلة الى مائة المليون من الانفس الكائنة تحت ادارتنا واراؤنا واحدة واتحادنا متين في السلم والحرب.

وقال نابيه في تاريخ حرب اسبانيا في ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) رجع نابوليون الى باريس متاكداً بان روسيا متحدة معهُ غير انهُ لم يكن يعلم متى تهب نار عدوان النمسا بتحريض انكلترا. وكانت المخاطر المحدقة بهِ عظيمة ولكن همتهُ كانت اعظم منها. فجمع جنوداً جرارة دفعتين فالدفعة الاولى جنود ١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٨ و١٨٠٩ ومجموعهم ثمانون الف جندي وجملهم عوضاً عن الجنود القدماء الذين كانوا قد ذاهبوا للذهاب الى اسبانيا. والثانية جنود سنة ١٨١٠ ومجموعهم ايضاً ٨٠ الف رجل وجعلوا جنوداً احتياطية في ثكن الجنود في فرنسا. وجمع الجنود الفرنسوية التي كان قد تركها في المانيا عند حدود النمسا واخرج جنودهُ من دانمرك



واخرج مائة الف جندي من بروسيا وارسل نجدة عظيمة الى جيش ايطاليا وجعلهُ تحت قيادة البرنس اوجين وعين لهُ المارشال سينا معيناً وامر مورات الذي خلف جوزف اخا الامبراطور في مملكة نابولي بان يجمع جيشاً نابولياً على شواطي فلابريا ليتهدد صقلية وبالجملة نقول ان ذلك الرجل العجيب لم يهمل شيئاً من اسباب الاحتياط وتحقق انهُ قبل ان تتمكن دولة النمسا من التاهب لمحاربتهِ يقدر ان يستولي على اسبانيا ويخمد ثورتها. ثم خرج من باريس وسار الى بايون. غير ان وزراءهُ لم ينقطعوا عن الاشتغال بما يأول الى خير الامة وكانت كتابتهم وخطبهم متقنة جداً تبين ما لفرنسا من الثروة والاقتدار فامسى الناس متحققين ان عدوانها رديء العواقب. وظهر ان نفقات الدولة الفرنسوية السنوية كانت اقل من ثلاثين مليون ليرة انكليزية مع فائدة الدين وكانت المداخيل تقوم بها كلها. وامتنع عن ان يثقل على الامة باعباء مالية جديدة وكانت الاعمال النافعة كثيرة والتجارة الداخلية والخارجية والبرية في تقدم ونجاح مع ان نحو مليون من الرجال كانوا متقلدين السلاح

وعند ذلك جمع نابوليون في جبال البرنات مائتي الف رجل من الابطال المتعودين القتال ونشر عليهم خطاباً مهيجاً وهو

يا ايها الجنود. بعد فوزكم على شواطيء النمسولا والطونة قطعتم المانيا بسرعة وامرتكم اليوم بان تقطعوا فرنسا بلا راحة يوماً واحداً. يا ايها الجنود انني في احتياج اليكم. فان حضور الذئب القبيح يضر باسبانيا والبرتوغال فلا بد من ان يفر امامكم خائفاً. فلنحمل راياتنا المنتصرة الى اعمدة هرقليس. نلاقي فيها اسبانيا للقيام بالثار. يا ايها الجنود قد فقتم بالشهرة الجيوش الحديثة ولكنكم لم تبلغوا ما بلغهُ الرومان الذين فازوا بالنصر في حرب واحدة في الرين وفي الفرات وفي ايليريا وفي تاجه. وستكافي اتعابكم بسلام وطيد ونجاح ثابت. غير انهُ لاينبغي ان يرتضي الفرنسوي ذو الحمية مالم يرَ الجميع احراراً ويرى كل شيء مفتوحاً للجميع ولا يقدر على الاكتفاء بامل من ذلك. يا ايها الجنود ان ما قمتم بهِ لسعادة الامة الفرنسوية ومجدي وما تقومون بهِ يكون ذكرهُ موبداً في قلبي. انتهى

وقال نابيه المورخ ان المخاطر التي احدقت بهِ كانت كثيرة والصعوبات عظيمة فانهُ بات محاطاً باعداء كان قد اذلهم بدون ان يسلب منهم وسائط التعدي وكان يخشى ان يذهب بجنوده الى اسبانيا فتهيج انكلترا اواسط اوربا الى الهجوم عليهِ وكان يخاف رجوع روسيا والنمسا الى الاتحاد وانضمام بروسيا اليهما. وكانت مقاصد النمسا مستترة بتصنعها ولكن كانت تظهر حيناً بعد حين حتى ان الناس باتوا ينتظرون تجديد الحرب ويعلمون ان اهل بروسيا لايحافظون على السلام بعد ان أُخضعوا وظلموا. انتهى

وفي ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) سار نابوليون قاصداً بايون . وقال السار ولترسكوت المورخ الانكليزي انهُ كان يطوف الدنيا مغيراً فيها كل مكان اناهُ كما تغير الانجم ذوات الاذناب الافلاك . وكانت مدريد عاصمة اسبانيا تبعد عن باريس نحو سبعمائة ميل وكانت امطار اول فصل الشتاء غزيرة فكثرت الوحول في الطرقات وكثرت المخاوف فيها وكان يتقدم غير مبالٍ بالانواء ولا بالظلام ولا بالمخاطر والمشقات وكانت عجلتهُ تجر في الوحول وفي طرق حفرت بدواليب عجلات المهمات والمدافع الثقيلة . ولما راى ان ذلك يعوقهُ ترك عجلتهُ وركب فرساً ولم يكن يظهر فيهِ اثر للتعب بل كان يسير في اعوانهِ القليلين كانهُ زوبعة وبعد نصف الليل بساعتين من اليوم الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) وصل الى بايون

فدعا اليهِ في الحال الجنرال برتيه ليسالهُ عن الاحوال وكان قد امر القواد الفرنسويين بان لا يقوموا بما يمنع العصاة عن انفاذ تدبيراتهم فانهُ كان يرغب ان يضع جنودهُ الباسلين في وسط الجنود الاسبانيين ليتمكن من ان يدفعهم بشدة وسرعة وتاثير وهم مجتمعون فامر قوادهُ بان يسمحوا للاسبانيول بان يدنوا من اجنحة جيشهِ بدون معارضة . وقال عن الجنود الذين ارسلهم في بادي الامر الى اسبانيا انني ارسلت اليهم خرافاً فانهم لم يكونوا مجربين في الحروب فابتلعوهم فارسل اليهم الان ذئاباً

ولما بلغ اسبانيا تكدر جداً الان قوادهُ لم ينفذوا اوامرهُ حتى التنفيذ ولم يشتروا ملابس ولا بغالاً ولا افراساً ولا زاداً كافياً . وكان جوزف يخشى القيام بما امر بهِ اخوهُ وهو ان يسمح للاعداء بان يحيطوا بالجيش فان هذا التدبير لا يقوم بهِ الا من كان ذا حذق حربي غير عادي وجسارة عظيمة ولذلك فرق الجيش لصيانة موخرتهِ وجناحيهِ فتكدر نابوليون من ذلك ولم يضع الزمان بالتوبيخ واللوم . وظهر نشاطهُ العظيم وقوة عقلهِ العجيبة بما قام بهِ يوم وصولهِ بعد ان قطع تلك المسافة البعيدة الواقعة بين باريس وبايون اذ امر بابطال كل عقود البيوع التي لم تنفذ وبعث وكلا ليشتروا الثياب التي يمكن ابتياعها من الجهات الجنوبية . واقام اماكن متسعة جداً للاشغال وجمع فيها كثيرين واشغلهم بخياطة الثياب وبعث باوامر بالاقتصار عن ابتياع كل الحنطة والمواشي لدفع المال لمشتري الثياب وامر حالاً بانشاء منازل للعسكر في بايون والجنود التي كانت تصل اليها . وبعث بمامورين ليعجلوا مسير العساكر الى المحلات المعينة . وعرضت لهُ الجنود التي كانت قد وصلت الى بايون وكتب رسالات كثيرة خطيرة الى مديري المراكز والجمهور والطرق . وعند غياب الشمس لم يسترح ولكنهُ ركب فرسهُ وسار قاطعاً ستين ميلاً حتى بلغ جبال لولوزا وصرف فيها ليل ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) وهو يستعد لقتال سريع قاطع وفي اليوم الثاني سار ثلاثين ميلاً قاصداً فتوريا وحل بجيشهِ الخاص الذي كان معهُ في مكان يبعد قليلاً عن المدينة . ولم يرض ان يكون



في اسبانيا غير قائد تاركاً الملك لاخيهِ جوزف ليرى الاسبانيول ان لهُ المحل الاول واذا راى انهُ لا بد من القيام باعمال تجلب اللوم كان يعملها ليخلص اخاهُ من لوم الامة . ولم يبلغ فتوريا الا بعد مضي قسم طويل من الليل فنزل عن جوادهِ ودخل الخان الاول الذي راهُ وامر باحضار رسم البلاد وفي ساعتين عين الحركات الحربية كلها وامر حالاً بمسير ما ثتي الف جندي وفي الصباح كلم جوزف بسرعة ثم شرع في اعمال تقرر في عقول الناس انها من اعظم اعمالهِ الحربية . اما الاسبانيول والانكليز ففازوا فوزاً عظيماً مدهشاً في بعض المحلات فاسكرهم النجاح وافتخروا لانهم انتصروا على جنود نابوليون العظيمة فانهم شرعوا يحيطون بها وعلقوا الامل بابتلاع الجنود بعد ذلك بايام قليلة مع ان روسيا والنمسا وبروسيا لم تقدر ان تفوز عليها في معركة واحدة . وعقدوا النية على سوق خمسمائة الف من فلاحي اسبانيا تحت قيادة كهنة ورهبان على باريس بعد اجتياز الجبال . وضجر القواد الفرنسويون من افتخار الاسبانيول فحملوا عليهم مرات كثيرة وكسروهم وصمم نابوليون على ترك جيش باسل صغير لصد جناح العدو الايمن وجيش اخر لصد الايسر وعلى الحمل بثمانين الف بطل على قلب الجيش الاسباني فيشتتهُ في الوسط ثم يهجم على الجناح الواحد ثم الاخر ليبدد شملهُ ولا يقدران يقوم بتدبير حربي كهذا التدبير غير من كان حاذقاً جداً في قيادة الجيش وشجاعاً ولا ريب ان نابوليون كان قادراً على ان يفوز بهِ . ولكن التاخر عن اجراء اوامرهِ جعلهُ يعدل عن ذلك لتفرق الجيش الفرنسوي مع الاسبانيول وعن ان يحيطوا بهِ ومع ذلك صمم على القيام بذلك بنفسهِ . وفي دقيقة وصول نابوليون الى فتوريا اصبح الجيش كلهُ في نشاط واقدام وارسلت الاوامر الى كل جهة وشيدت المستشفيات والمخازن والحواجز احتياطاً لان نابوليون كان اشجع القواد واشدهم انتباهاً وتيقظاً . واقام جيشين كبيرين ليحرسا جناحيهِ وجمع خمسين الفاً من نخبة جيشهِ وحمل على قلب اعدائهِ فلم يقدروا ان يصدوا الحملة ولم يقتل كثيرون . فان الجنود الفلاحين كانوا متعودين سلوك الجبال فرموا اسلحتهم وهربوا بسرعة الى الوعور تاركين راياتهم ومدافعهم وذخائرهم . وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) بلغ في طليعة جنودهِ بورغوس واجتمع عدد غفير من الجنود الاسبانية على القمم المحصنة المحيطة بالمدينة فاستمر الفرنسويون يسيرون غير مبالين بالكلل والرصاص التي كانت تهلك الصفوف الاولية مغطية الارض بالقتلى ودفعوا امامهم كل ما كان يعرض في طريقهم فهرب الاسبانيول بسرعة عجيبة بدون انتظام بل تفرقت صفوفهم وتبددت جيوشهم . وطاردهم وهو يجمع ما كانوا يرمونهُ من البنادق والمدافع والذخائر واستمر على هذه الحال الى ان وصل الى مدينة اسبنوزا الصغيرة وكان فيها ثلثون الف رجل فهجم ستة الاف من الفرنسويين على الحواجز وقاتلوا النهار بطولهِ بدون ان ينتصروا ولم يرجعوا مع ان ايديهم كلت الا بعد ان خيم الظلام ففرح الاسبانيول كثيراً بدفاعهم واضرموا النيران وضجوا ضجيج الاستخفاف

بالعدو وفي المساء وصلت فرقة اخرى من الجنود الفرنسوية فصار مجموعهم ١٨ الفاً وكان في الحواجز والخنادق ٢٠ الفاً من الاسبانيول . وعند الفجر تجدد القتال الدموي وحدثت معركة من اشد المعارك وكثرت الويلات فيها ولم يتيسر دفع المهاجمين فنهض الاسبانيول باضطراب وانحدروا بارتباك قاطعين الصخور العظيمة والتجاوا الى شوارع مدينة اسبينوز الضيقة فهجم وراءهم ١٨ الف رجل هجوماً بربرياً وقد سكروا بالقتال فراجت سوق المنايا وغمست السيوف والحراب بالدم وكانت الكرات والرصاص تخرق صفوف الهاربين الخائفين . وارتفعت ضوضاء مخيفة من صراخ الجيش المنكسر واصوات المنتصر والطبول والدفوف وهزيم المدافع والبنادق وانين الجرحى . وكان النهر المسمى تروباد يخرج من الجبال ويجري في وسط المدينة وله جسر واحد ضيق فازدحمت اقدام المكسورين المنكودي الحظ عليه واجتمع جمهور غفير جداً عند مدخله وهو يموج كانه امواج بحر زاخر من الاحياء واخذ الرصاص ينحدر على هذا الجمع بدون شفقة كانه برد ساقط من الجو فكثيرون القوا بانفسهم الى النهر الذي كان طاغياً بمياه المطر فماتوا به وبعد هذا التبدد العظيم لم يقدر الجنرال بليك على جمع ستة الاف رجل الا بعد عناء عظيم لينتهزها بترتيب اما الباقون فهلكوا او تشتتوا وافرغ الاسبانيول جهدهم مرة اخرى في سبيل دفع المنتصر عند مضيق سوموسيارا الحصين

واما الهجوم على ذلك المضيق فمن اعظم الاعمال الحربية . وفي الصباح صدت طليعة جيش نابوليون عن المسير فانه كان في الجبال مضيق طويل مرتفع وعلى جانبيه صخور ملساء سماقية لا تسلك مرتفعة حتى السحاب وكان فيه ١٦ مدفعاً و ١٢ الفاً من الاسبانيول وراء حواجز وفي خنادق ليطلقوا بنادقهم ومدافعهم على الفرنسويين الذين ازدحمت اقدامهم في مدخل ذلك المضيق وعند دخول الطليعة اطلقت النيران عليهم . وكانت هذه الفرق متعودة الحرب ومع ذلك لم تقدر ان تثبت فارتدت لان الكتل صبت عليها غزيرة . فسار نابوليون الى باب المضيق ودقق النظر في ما امامه فارسل فرقتين من الصيادين وامرهما ان تصعدا على الصخور فوق المضيق على الجانبين فصعد الجنود عليها بهمة واخذوا يطلقون الرصاص على المدفعين الذين كانوا يصدونهم بثبات . وعند ذلك خيم دخان البارود مع ضباب كثيف فوق المتحاربين فاظلم ميدان الحرب فامر فرقة من فرسان بولونيا بالحمل بسرعة وكانت راكبة افراساً سريعة العدو فحملت ركضاً في ذلك الظلام . فاطلق الاعداء عليها المدافع فقتل الصف الاول منها واجتمع القتلى منهم ومن خيولهم ككوم صغيرة مخيفة . ولكن الصفوف التابعة لم تبال بهلاكهم بل استمرت حاملة دائسة جثثهم واجساد الجرحى بدون شفقة فبلغت جنود المدافع قبل ان تمكنوا من حشو مدافعهم . وقاوموهم بحد السيف عند مدافعهم . وعند ذلك هجم الجيش الفرنسوي بعزم وثبات قاطعاً المضيق . فلما راى الاسبانيول



ذلك رموا بسلاحهم وركنوا الى الفرار متشتتين في كل الجهات تاركين للمنتصرين مدافعهم وبنادقهم ومهماتهم وزادهم

وقال المورخ نابيه من الامور التي يصعب تصديقها ولو كان الانسان عالماً باحوال الجنود الاسبانية ترك ١٢ الف اسباني مركزهم المنيعة جداً بدون حدوث ما يوقعهم في ارتباك وخوف فانهم فروا خشية القتل عند هجوم فرقة صغيرة من الفرسان مع انه لو ثبت فرقتان من المشاة الباسلين لصدوا المهاجمين . اما حمل نابوليون في تلك الاحوال فهو من باب القاء الفرنسويين في مهلكة وعذره معرفته لاحوال الجنود الاسبانيول واستغنامه سنوح الفرصة باجتماع الدخان والضباب على جانبي المضيق . وما ذلك الا من التوفيقات الناشئة عن حذق نابوليون السريع الخاطر في استغنام سنوح الفرص . انتهى

وكان الجيش الانكليزي القادم لنجدة اسبانيا يسير قاطعاً البرتوغال بسرعة تحت قيادة السارجون مور . ولم يعرف نابوليون حقيقة عدده ولكنه صمم على ان يتخلص من مقاومات الاسبانيول ليحمل على الانكليز . فسار قاصداً مدريد بسرعة وثبات ولم يصادف مقاومة لانه فرق جنود العصاة كانهم هباء منثور امام رياح عاصفة . وفي صباح اليوم الثاني من كانون الاول (دسمبر) وصل الى ظاهر المدينة المذكورة وهي عاصمة المملكة الاسبانية . وكان ذلك اليوم تذكار نتوبجو ومعركة اوسترلتس وكان الجنود يعتبرون ذلك اليوم جداً بل كانوا يتفاءلون به . وكان الجو صافياً فركب وسار قبالة الصفوف فضجت كلها بصوت واحد فلهش الامبراطور . فلما سمع اهالي المدينة صوتهم وهم على الاسوار ووراء الحواجز اغتاظوا فضجوا ضجات العدوان والاستخفاف وكان واقفاً امام اسوار المدينة في وسط ثلثين الفاً من الابطال المظفرين وكانت المدينة في يد العصاة وضمن اسوارها ستون الف جندي اكثرهم من الفلاحين الذين هاجهم الكهنة بعناصر التعصب . اما مجموع عدد الانفس فيها فكان ١٨٠ الف نفس . ولدى تامله بحال المدينة اضطرب جداً لانه كان يحب ان يتجنب اطلاق كراته المهلكة على النساء والاولاد والعاجزين ولكن لم يقدر ان يرجع عنها مخذولاً ويسلمها مع سائر البلاد الى الانكليز . وقال موسيو شوفي ان حذقه العجيب مكنه من ايجاد وسيلة للتخلص من ذلك المشكل فجمع بين الحصول على المجد ومراعاة حقوق الانسانية . وكان السعد لا يزال يخدمه . انتهى

فركب فرسه ووقف يتفرس في المدينة متاملاً . اما الجنود فكان النصر قد هاجهم فكانوا ينتظرون ساعة الحمل بفروغ صبر فانه كان قد تقرر عندهم ان قائدهم يتغلب على كل صعوبة . فسار حول المدينة راكباً وكلل مدافع العدو تفلح الارض بين جبل فرسه . فجعل جنوده ومدافعه في مراكز تمكنه من ان يفتح المدينة بتخويف اهلها لتجنب دماء العباد . وكان ذلك بعد غياب الشمس فطلع

القمر وانار ميدان الحرب وكان الهواء ساكناً معتدلاً والجنود الفرنسوية منتظرة صامتة . ولكن الضجيج كان يسمع من سائر جهات المدينة واجراس مائتي دير تقرع قرع الحزن . وفي الليل طلب الى المدينة ان تسلم اليه وقال لحاكمها ان المدينة لاتقدر ان تثبت عند حمل الجنود الفرنسويين وطلب اليه ان يتامل في ما ينشأ عن اطلاق المدافع عليها من الخراب والهلاك فاجاب حاكمها بانهُ لا يسلم فحمل نابوليون حالاً على الطلائع واستولى على مراكزها واقام حاجزاً لبنغ بابا في السور . ثم ارسل كتاباً اخر لطيفاً يدل على ثباته وطلب اليه التسليم . وكان ذلك في اليوم الثاني عند الظهر . ولكن الحكومة امتنعت عن التسليم وطلبت عند هدنة بضع ساعات لتشاور الاهالي فاجابهم نابوليون الى ذلك بعد ان عانى صعوبة في منع جنوده عن الحمل فصبر الى صباح اليوم الثاني . وامست المدينة ميداناً لحوادث تقشعر الابدان منها فان الفلاحين المتعصبين كانوا لابسين اثواب اللصوص ويسيرون في الشوارع قائلين كل من كانوا يتوهمون انهُ يميل الى الفرنسويين وكانت اجراس الكنائس والاديرة تقرع على الدوام . وكان الرهبان يقودون الفلاحين لينتقلوا البلاط ويشيدوا الحواجز في كل زاوية . اما البيوت الحجرية فحصنت . وكان اصحاب الارزاق والعيال من الاهالي يودون التسليم . على ان الفلاحين المتعصبين كانوا يرومون القتال خصوصاً بعد ان وعدهم بعض الرهبان بان كل من يقتل ٣ من الفرنسويين يخلص راساً بدون مطهر

ولما زال ضباب الصباح وطلعت الشمس امر نابوليون صفاً من المدافع فيهِ ثلثون مدفعاً باطلاق الكرات على اسوار المدينة فانهُ كان لا يزال يمتنع عن اطلاقها الى وسط مدينة سكانها فيها . ففتحت المدافع مدخلاً فيها فهجم الفرنسويون وحملوا ركضاً قاطعين خربات السور ودخلوا المدينة حتى بلغوا الشوارع المحصنة . غير ان نابوليون اوقف ذلك الجيش الباسل عن القتال وابطل الهجوم . وكانت مدافعهُ على التلال المجاورة لها قادرة على تدميرها في برهة قصيرة . فبعث الى الحكومة مرة ثالثة طالباً اليها التسليم وقال في رسالتهِ انني افعل في مدريد مايوقع الرعب في قلوب اهالي المدن الاسبانية التي تقفل ابوابها لمنع دخول جنودي ولكن افضل ان يكون فتح مدريد بتعقل الذين جعلوا انفسهم حكومتها ومراعاتهم لحقوق الاسبانية . وعرفت العامة انهُ لا نفع في الدفاع . فارسلت الحكومة رجلين الى نابوليون ليخابراهُ بالتسليم وكان احدهما توماس دي مورلا حاكم الاندلس وكان قد اشتهر بالتعدي على شروط بايلان وعامل الاسرى الفرنسويين بشر المعاملة . فقابلهما نابوليون وهو مع اعوانهِ بعبوسة وتفرس في مورلا المذكور فارتجف خوفاً من عاقبة اعمالهِ فاطرق وقال كل مدرك في مدريد يرى ان التسليم ضروري ولكن لابد من رجوع الجنود الفرنسوية لتتمكن الحكومة من تسكين خواطر الاهالي وتحملهم على ان يتركوا السلاح . فاجابهُ نابوليون بغيظ وذاع جوابهُ في كل اوربا لانهُ نشرهُ في جريدة المونيتور الفرنسوية المطبوعة في باريس وهذا هو الجواب المذكور



قد استخدمت اسم الاهالي بالباطل . فاذا كنت لاتقدر ان تسكن خواطرهم يكون السبب تهييجكم لهم وخداعكم اياهم بالاكاذيب . فاخرج خدم الدين وروسا الاديرة والاعيان واذا لم تسلم المدينة غداً قبل الظهر بست ساعات تبيت في خير كان ولا ارتضي ان ارجع جنودي وقد ذبحهم الفرنسويين المساكين الذين وقعوا في ايديكم . ومنذ ايام قليلة سحقهم باهانة خادمين من خدام سفير روسيا وبذبحها في الشوارع لانهما فرنسويان . وضعف القائد وعدم اهليتهِ وضعا في ايديكم جنوداً سلمت اليكم في معركة بايلان وقد تعديتم اصول التسليم وانت يا دوسيو دي مورلا ما هي الرسالة التي بعثت الى ذلك القائد هل تشكو السلب حال كونك انت دخلت روسيلون سنة ١٧٩٥ وسبيت كل نسائها وفرقتهن غنيمة على جنودك . وهل يحق لك ان تكتب ما كتبت . اليس من شروط تسليم بايلان الامتناع عن ذلك . فتامل في اعمال الانكليز حال كونهم بعيدين عن الافتخار بالمحافظة على قوانين الدول . فانهم تشكوا من معاهدة سنترا ولكنهم قاموا بها . والتعدي على عهود حربية هو عبارة عن الابتعاد عن كل تمدن . فهل انت كبدو البادية . فكيف تجاسر ان تطلب شروطاً حال كونك قد تعديت على شروط بايلان . الا ترى كيف الظلم والخيانة يعودان بالشر على الذين يقومون بهما . وكانت لي بوارج في قادس . وكانت قد اتت مرفاها كما تاتي مرفأ حليفة فوجهت اليها مدافع المدينة التي كنت قائداً فيها . وكان في صفوف جنودي جيش اسباني (هو الجيش الذي كانت اسبانيا قد جمعتهُ لتحمل على فرنسا عند اتحاد الدول على نابوليون فلما رات انهُ فاز في الحرب ادعت بانها جمعتهُ لاسعافهِ فتغاضى نابوليون وتظاهر بتصديق كلامها) فنضلت ان اراهُ هارباً في مراكب انكليزية وان يطرح بنفسهِ من الصخور في اسينوز على اخذ ملاحهِ وفضلت ان يزداد عدد اعدائي ؟ الاف على ان انكث بعهودي واثلم ناموسي فارجع الى مدريد وقد امهلتك الى ما بعد الظهر بست ساعات ولا اسمع شيئاً عن الاهالي الا ما يدل على خضوعهم والا فاعمل حد السيف فيك وفي جنودك . انتهى

فهذه توبيخات شديدة بسخنها مورلا فارتعدت فرائصهُ خوفاً واشتد اضطرابهُ عند رجوعهِ الى معسكرهِ حتى انهُ لم يكن يقدر ان يخبر القوم بما سمعهُ فاخبرهم رفيقهُ عنهُ فارسل ثانية يخبر نابوليون بالتصميم على التسليم . فكرامة اخلاق نابوليون وثبات عزمهِ مكناهُ من فتح مدريد عاصمة اسبانيا باراقة دم قليل جداً ووقوع اضرار لا تستحق الذكر . فاستولى جيشهُ الباسل عليها وارجعت الامنية والراحة بقوة تكاد تكون سحرية . واستمرت الدكاكين مفتوحة واقدام الناس مزدحمة في الشوارع والاعمال والملاهي جارية على حالها . وقال اليسون بهذا الشان في برهة قصيرة ظهر كل شيء في حلل السلام ففتحت قاعات التشخيص واظهر اصحاب الدكاكين الفاخر من بضائعهم لانهم استامنوا بانتظام حال الفاتحين . وازدحمت اقدام المتفرجين في الساحات والمماشي العمومية . وجاء

وفود كثيرة منها من اعرف الاهالي واغتاهم وثبتوا له محافظتهم بامانة على الصداقة لاخيه جوزف . انتهى

ونشر نابوليون اعلانًا عفا فيهِ عن كل الذنوب السياسية وابطل مجلس التفتيش والغى ثلث الاديرة . وعين نصف مداخيلها لزيادة رواتب الكهنة الذين يخدمون الرعية والنصف الاخر لدفع دين الدولة والغى الرسومات الداخلية التي كانت مقامة بين الولايات ومكدرة جدًا للاهالي ومضرة بالتجارة وحصر اماكن جمع الاخرجة في الحدود . وابطل كل الحقوق الامتيازية . ونظم مجالس استئنافية عامة بعد الظلم الناشيء عن فساد المجالس الابتدائية . وكان نابوليون عاقدًا النية على تاجيل هذه الاعمال قبل الفتنة محافظة على حقوق خدم الدين والامراء . غير انهُ راى بعد ان غاظهُ انهُ لا فائدة من معاملتهم بالحلم . فهذه منافع عامة عظيمة ووعد اسبانيا بنفع لاحد لهُ . ومن الامور المكدرة ان نرى دولة متمدنة كانكلترا تجعل الدم كطوفان في تلك البلاد لمنع حدوث هذه الاصلاحات ولترجيع اسبانيا الى مظالم القرون المتوسطة وظلامها الحالك

وفي تاريخ نابيه الانكليزي براهين قاطعة على ان الحرب في اسبانيا انتشبت بين اصدقاء تعميم الحقوق والظلمة . فادركت الناس ذلك . وشحن ولنكتون القائد الانكليزي رسالاتهِ بقولهِ ينبغي دوس روح الحقوق العمومية في اسبانيا والبرتوغال . اما جوزف بونابرت فكان حكيمًا عاقلاً كريمًا محبًا للاصلاح وقوانين المساواة . قال الدوق اوف ولنكتون المذكور ان البرنسس كارونا البرتوغالية من شر نساء العالم واشدهن فسادًا . ومع ذلك هي احد الملكين اللذين كانت انكلترا تحارب لبقائها في اسبانيا

ولم يرجع جوزف الى مدريد ولكنهُ جاء القصر الملكي في برادو وهو يبعد نحو ستة اميال عن العاصمة وقال نابوليون للوفود التي كانت تاتيهِ انهُ لا يمنح اسبانيا جوزف الا بعد ان يرى انها تستحق ان تحصل على ملك عادل حكيم . وانهُ لا يرجعهُ الى قصر ملوك اسبانيا ليراهُ مطرودًا منهُ مرة اخر وانهُ ليس بقاصد الزام اسبانيا بالخضوع لملك لا تحب ان تخضع لهُ ولكنهُ فتح البلاد وينفذ فيها حقوق الفتح ويعاملها المعاملة الموافقة . ونشر اعلانًا قال فيهِ

قلت في اعلان مورخ في ٢ حزيران ( جون ) ارغب ان اكون مصلح اسبانيا . ولكنكم رغبتم ان تضيفوا الى الحقوق التي نلتها من ملكها القديم حقوق الفتح . الا ان ذلك لم يغير ميلي الى خدمتكم . واحب ان ارقي اسباب كل ما هو نافع عنكم وان اضاد ما يمس رفاهيتكم ونجاحكم . وقد كسرت القيود التي جعلت الامة في عبودية منحتكم نظامًا حرًا وبدلت ملكيتكم المطلقة بملكية مقيدة معتدلة فتمتعكم بها متعلق بكم . انتهى



واصبح نابوليون صاحب اكثر من نصف اسبانيا في اقل من خمسة اسابيع بعد ان بدد شمل الجيوش الاسبانية كانها هباء منثور . ولما راى الانكليز ذلك تحيروا وقلقوا حال كونهم كانوا اتين لمساعدة حلفائهم . فامسوا لا يعلمون الى اين يتوجهون وراوا ان دون التقدم هلاكًا مبينًا . وان التقهقر بدون قتال عار عظيم وكان السارجون مور القائد الانكليزي يسير مسرعًا في ٢٠ الف جندي انكليزي لينضم الى جيش السار ديفد بابرد الذي كان يتقدم من كورونا في عشرة الاف جندي من الانكليز . وكان المقصود جعل هذه الجنود الانكليزية المنظمة احسن نظام مركز اجراءات مئات الوف من الجنود الاسبانية وكان الانكليز قد علقوا املهم بالفوز ولكن الاخبار التي بلغتهم جعلتهم يرون انهُ لا نجاة الا بالتقهقر . ولم يفعل نابوليون شيئًا يمنعهم عن التقدم . وكان يرغب ان يبعدهم عن مراكبهم وبقاتلهم في السهول . فجعل مركز جيشهِ في مكان يبعد نحو اربعة اميال عن مدريد واخذ يهيم في ما يعود بالنفع على البلاد . وانشا حواجز حصينة مشرفة على العاصمة وجعل وراءها المدافع وقواها بالجنود وجعل في وسطها مستشفيات للجرحى واماكن لذخائرهِ واسلحتهِ ليستأمن عليها ويصونها

وجاءهُ وفد مولف من الف ومائتي عين من اعيان اسبانيا فاخبرهم بما نفع اسبانيا بهِ وقال لهم في ختام حديثهِ ان الجيل الحالي يختلف في اعمالي والاضداد قد خسروا امورًا كثيرة غير ان اولادكم يشكرونني ويدعونني مخلصهم . ويجعلون يوم دخولي بينكم من الايام العظيمة التي يقيمون لها تذكارًا . فتبتدىء اسبانيا حينئذٍ بالتقدم وفاوضوا ابناء وطنكم واختاروا نصيبكم بوضوح ولا تدعوا غير الواقع . انتهى . ونرى في كل خطاب من خطبهِ ما يدل على حذقهِ وتعقلهِ وفي كل سطر من اسطرهِ ما يدل على سلطانهِ النافذ . وكان لامرتين من الكتاب الذين اوسعوهُ طعنًا فكتب عنهُ ما مودَاهُ ربما كان اعظم مقرر للحوادث العالمية بعد ان شاخ وقد فاق قيصر كثيرًا في اخبار معاركهِ وانشاءهِ ولم ينحصر في اظهار الواقع ولكنهُ جاء بالاجراء . ولم يضع حرفًا ولا وصفًا بين الواقع والكلام وهو نافذ الكلمة وجملهُ الخالية من التصنع تذكرنا بالايام التي لم يكن بابزيد وشارلمان يعرفان فيها الكتابة والقراءة ليمضيا اوامرهما فكانا يغمسان ايديهما في حبر اودم ويمسان بها الاوراق فيقوم لسان الحال وصف تام . انتهى

ولما كان في اسبانيا بعد ذلك الانتصار امر بمحافظة الجيش على الانتظام التام وتوعد المخالفين باشد القصاص . فتعدى جنديان فرنسويان على امراة اسبانية تعديًا فظيعًا فحاكمهما امام مجلس حربي وحكم عليهما بالقتل . فسالهُ كثيرون العفو عنهما فامتنع فقتلا باطلاق الرصاص فجاء ذلك باحسن تاثير في الجيش وقطع التعدي . وكان الماركيز دي سان سيمون من المتحزبين للملكية الفرنسوية المهاجرين فدخل خدمة الملك جوزف شقيق نابوليون وحلف بان يطيعهُ

فالقي القبض عليهِ وهو يحارب جنود بلاده بقوم من العصاة الاسبانيول فحكم عليهِ في مجلس حربي بالقتل . وكان لهُ بنت فاستعانها بعض القواد الفرنسويين الشنوقين على الوصول الى نابوليون وهو راكب في مقدمة اركان حربهِ فخرجت من عجلتها وخرقت صفاً من الجنود وجثت امام فرسهِ وصرخت قائلة يامولاي العفو العفو دموعها تذرف ويداها منضمتان مرفوعتان الى جهتهِ . فدهش نابوليون عندما راها على غير انتظار فاوقف فرسهُ وقال من هي هذه الفتاة ماذا تطلب قالت يامولاي انني بنت سان سيمون المحكوم عليهِ بالقتل في هذا المساء . ولم تتم الكلام حتى اصفر وجهها اصفرار الموت وسقطت على الارض وقد اغمي عليها . فنظر نابوليون اليها وهي على تلك الحال شفقة وقال اعتنوا بها جداً واخبروها بانني قد عفوت عن ابيها . ثم حرك لجام فرسهِ وسار محاولاً سترما تحرك في احشائهِ من الشفقة ثم التفت ليرى هل انفذت اوامرهُ . وكان شامل العفو عن الذين كانوا يتعدون عليهِ ولو كان تعديهم عظيماً غير انهُ لم يكن يعفو عن الذين كانوا يتعدون على حقوق الاخرين

واخذ الجنرال جون مور الانكليزي يتقهقر بجيشهِ الى جهة كورونا وامر المراكب الانكليزية بان تاتي ذلك الثغر لنقل جيشهِ . وفي صباح ٢٣ كانون الاول (دسمبر) خرج نابوليون من مدريد في اربعين الف جندي ليكبس الانكليز قبل ان يخرجوا من البلاد . وكان متحققاً ان ثبات الانكليز في القتال اعظم من ثبات الاسبانيول فاخذ معهُ كل جيش الحرس الامبراطوري فرساناً ومشاة ومدافع كثيرة . وكان الاسبانيول جميعاً قد ركنوا الى الفرار وامسى الانكليز وحدهم يجبن حلفائهم . وكان نابوليون يسوق عليهم قوة لا يقدرون على صدها فكان خلاصهم بسرعة فرارهم . فاسرع نابوليون جداً بالمسير الى ان بلغوا مضيق وادي الرامة والتزم بان يسرع ليتمكن من مطاردة الانكليز . وكان الصحو عاماً ولكن بوصولهِ الى تلك الجبال هبت الرياح بغتة وتكاثفت الغيوم وسقط الثلج بشدة حتى اعمى ابصار الجنود السائرة وسد الطريق مالئاً دواليب عجلات المدافع والذخائر عن الدوران فالتزم الجيش بان يقف وبات بفرسانهِ وافراسهِ وعجلاتهِ ومشاتهِ ومدافعهِ في ذلك الثلج مرتبكاً جداً . فسار نابوليون الى ان بلغ طليعة الجيش فوجدها لا تقدر ان تتقدم من الرياح والثلج . فامر فرسانهُ بان ينزلوا عن افراسهم ويسيروا صفاً بعضهم قريب من البعض ليكون عرضهُ عرض الطريق وكان كل فارس يقود فرسهُ وهكذا كان في كل صف ٨ او ١٠ رجال ومعهم افراسهم

فكان مسير هولاء الابطال واسطة لتمهيد الطريق لمسير الجيش عليهِ بسهولة . وكان نابوليون في وسط هذه الجنود المجدة يصعد على الجبال ماشياً . وسار وراء الفرقة الاولى واتكأ على كتف سافاري وسار مشاركاً ابطالهُ في مشقاتهم في الثلج . فلما راهُ الجيش تشدد وتبعهُ بسرور



وحمية . وتعب جداً . ولم يقدر قلب الجيش ان يرافق الطليعة من كثرة المدافع والعجلات . وصرف الامبراطور تلك الليلة في منزل بريد في وسط الجبال . اما الذين كانوا في خدمتهِ فكانوا لا يكلون ولا يفترون عن ان يقوموا بما كان يحتاج اليهِ . وكان يقطع النظر عن نفسهِ وينهم بالاخرين . وقال سافاري انهُ حصل على نار كافية وطعام متوسط وفراش ولم يكن يفضل نفسهُ على الاخرين في هذه الاحوال ولا يهتم بما يحتاج اليهِ في الغد فدعا الى الاصطلاء بناره والمناولة من طعامهِ كل الذين تمكنوا من ان يرافقوهُ والزم بالاكل الذين تمنعوا نادباً عن اجابة دعوتهِ . وعند اجتماعهِ باصدقائهِ حول النار حدثهم ببشاشة غير عادية وحرية عن حوادث حياتهِ الغريبة وقال ابتدات في برن ولا اعلم اين تنتهي

وبعد ان قطعوا الجبال تبع المطر الثلج وطغت المياه على الطرق حتى غاص الجنود فيها الى ركابهم وغرقت عجلات المدافع والذخائر الى محاورها . وكان الامبراطور برغب جداً في التمكن من جعل فرقة من جيشهِ تسبق الانكليز لتصدهم عن المسير حال كون فرقة اخرى تسد عليهم سبل التقهقر . ودبر امورهُ بدقة ولولا الثلج وشدة المطر والرياح لفاز باسر اكثر جنود الانكليز . وكتب الى المارشال سولت الفرنسوي اذا تقهقر الانكليز فاحمل على ظهورهم بالسيف واذا حملوا عليك تقهقر لان توغلهم في البلاد موافق لنا لانهم اذا استمروا يوماً واحداً في مراكزهم الحالية يحل بهم الويل والهوان لانني ساحمل على جناحيهم . وكان الجنرال مور الانكليزي حينئذٍ في ساهاغون وطليعة نابوليون في مكان يبعد يوماً عنهم . فراى القائد الانكليزي انهُ لابد لهُ من ان يسير بسرعة لئلا يقع في الفخ الذي نصبهُ نابوليون فسار مسرعاً هادماً الجسور بعد اجتيازها . وكان المطر يهطل غزيراً وطغت السواقي وقطعت الطرق بتقهقر الجيش الانكليزي حتى ان الفرنسويين تعبوا جداً

ولا يقدر القلم ان يصف تعديات الجنود الانكليزية الفظيعة وكان قائدهم يفرغ جهدهُ في سبيل ضبطهم ومنعهم . ولكن اتعابهُ ذهبت سدى لانهم كانوا يسكرون لكثرة وجود الخمر في كل مكان يصلون اليهِ فاخذوا ينهبون الفلاحين المساكين بلا شفقة ويحرقون بيوتهم . وكان بعضهم يهلك في النار التي كانت تضرمها ايديهم من شدة السكر واحتدم البغض بين الاسبانيول والانكليز الذين كانوا يسمونهم اوباشاً كودين . اما الاسبانيول فكانوا يقولون لسنا بكنودين فانكم اتيتم مراعاة لصوالحكم والان ركنتم الى الفرار بدون ان تدافعوا عنا . فكاد الاسبانيول يحسبون الفرنسويين مخلصيهم لانهم كانوا منظمين . وكانت اثار الجيش الانكليزي في الطريق على مسافة اميال كثيرة فكان يترك عجلات الذخائر ودواليب المدافع بعد ان تكسر وفي جوانب الطريق جمهور غفير من المرضى والجرحى الذين باتوا في حالة النزع وكثيرون من المتاخرين السكارى . وكان نابوليون يسير بسرعة نهاراً وليلاً ليدرك اعداءهُ الهاربين وفي ٣ كانون الثاني (جانفيه)

بلغ بطليعتهِ استورغا وكان قد قطع في عشرة ايام بخمسين الف رجل مائتي ميل في قلب الشتاء متغلبًا على موانع الشتاء والثلج وفيضان الانهار وغير ذلك والرجال يغوصون في الوحول والمياه الى ركابهم وهم يجرون المدافع الثقيلة . وخرج من استورغا في صباح شديد الرياح كثيف الغيوم وقد كثر الثلج والرياح تدفعهُ الى اوجه الجنود الذين امسوا ملسوعين بشدة البرد . وكان نابوليون يعرض نفسهُ للاتعاب والمشقات والامور التي كان جيشهُ معرضًا لها . وبعد ان سار اميالاً قليلة ادركهُ رسول معهُ رسالات واردة من فرنسا ولم يكن بالقرب منهُ منزل فنزل عن فرسهِ وامر باضرام نارٍ بجانب الطريق . واجتمع القواد حولهُ وهم ينظرون باهتمام في وجههِ ليروا فيهِ ما يدل على تلك الرسالات . فوقف بجانب النار في الهواء البارد والثلج يسقط عليهِ وجنودهُ الثابتون يمرون بجانبهِ واخذ يقرأها ومودّاها ان النمسا استغنمت فرصة غيابهِ عن اسبانيا وارجاع مائة الف جندي من جيش الرين وشرعت في معاهدة الانكليز على الحمل عليهِ من الشمال . وان العثمانيين اغتاظوا من اتحادهِ مع روسيا فاخذوا يتهددونهُ في الشرق . وان امّ امبراطور روسيا واكثر الامراء غضبوا جدًّا من امتناعهِ عن الارتضاء بانفاذ غايات روسيا وان الامبراطور اسكندر الروسي كان لا يزال ثابتًا على صداقتهِ غير انهُ كان ملتزمًا بان يضاد حزبًا قويًا يزداد كل يوم . وفي لحظة تصور نابوليون بلايا حرب اخرى في اواسط اوربا حتى ان قواهُ التي هي قوى جبارٍ باتت مرتبكة في تلك اللحظة . وندم لانهُ تداخل في حرب اسبانيا ولكن بات لا يقدر على الرجوع لئلا يتحد الانكليز والاسبانيول ويقطعوا جبال البرنات ويحملوا على فرنسا . وكان لا يقدر على منع هجوم الشمال لانهُ كان سند القواعد العامة التي كانت اوربا مصممة على ان تدوسها بارجلها وكان يعلم مخاطر محاربة انكلترا والنمسا في شواطي الطونة وانكلترا واسبانيا والبرتوغال في الجهة الجنوبية من جبال البرنات حال كون نصف اوربا الاخر كان ينتظر انكسارهُ الاول ليهجم عليهِ وكانت فرنسا قد ضجرت من الحرب وهو ضجر منها ايضًا على انهُ لم يرَ بدًّا من امرين وهما اما ترك الحرب بالياس وتسليم فرنسا الى اعدائها المتحدين واما المدافعة الى النهاية . فادار راس فرسهِ تاركًا تلك النار التي كانت تضرم بالرياح وسار بطيئًا راجعًا الى استورغا بدون ان يتفوه بكلمة وحزن كل الذين كانوا حولهُ بما راوا من اشتغال بالهِ . غير ان هواجسهُ انقضت في ساعة وعاد الى نفسهِ وكان قد قرر في عقلهِ ماذا ينبغي ان يفعل وصمم على استخدام قوتهِ بثبات لمصادمة المخاطر الكثيرة التي كانت تحدق بهِ . ورأى انهُ لا بد من ان يوجه اعتناءهُ الى الرين . فانقطع عن مطاردة الانكليز بنفسهِ وامر المارشال سولت بان يطاردهم باجتهاد وثبات ثم عاد الى بلد الوليد واقام فيها بضعة ايام يصدر الاوامر المدققة جدًّا بشان تدبير اسبانيا وارسل اوامر لا تحصى لاستعداد جيوشهِ في فرنسا وايطاليا والمانيا



## الفصل السادس والاربعون

وكان المارشال سولت يطارد الانكليز شديدًا فوقعوا في بلايا عظيمة بتقهقرهم لم يقع جيش في مثلها في الزمان الحديث . وكان يرى اثار الاعداء في كل مكان في السبل . واشتد خوف الانكليز واسرعوا في هربهم حتى ان صناديق نقود الجيش المحتوية على مبلغ وافر من النقود طرحت من مكان مرتفع فانتشر الذهب بين الصخور وكان الجنود الفرنسويون يسيرون بسرعة وهم يلتقطون من ذهب الاعداء حتى ملأوا جيوبهم . وكان المرضى والجرحى يجتمعون اقوامًا صغيرة ويلقون انفسهم على جوانب الطريق وهم في آلام الموت على الاراضي المبلولة . وقام الجنود الانكليز السكارى بكل التعديات الفظيعة في القرى فكانوا يطردون النساء والاولاد من منازلهم المنهوبة المحترقة ليموتوا من شدة البرد والفاقة . وكان منظر الموتى والذين في حالة النزع في جوانب الطرق مما تقشعر منهُ الابدان . وكان الفرسان الانكليز يقتلون افراسهم المتعبة لئلا تقع في يد الفرنسويين . قال المورخ سوتي بهذا الشان كانت نساء واولاد مرافقين الجيش الانكليزي المتقهقر . فمات بعضهم بردًا في عجلات الذخائر التي كسرت وتركت في الطريق او تركت فيها لعدم وجود افراس لجرها ومات بعض النساء بردًا واولادهن يرضعون وهن ميتات . واخذت امراة وهي تلد في الجبال وكانت ملقاة مينة وطفلان بجانبها ولدتهما في وسط الثلج فسترت بمنسوج كان كفنًا لها والتوامان اعطيا لامراة كانت في عجلة يجرها ثوران لتعتني بهما اذا عاشا بعد ان يتكبدا مشقات الطريق واتعابها

وافرغ الجنرال مور الانكليزي جهدهُ في المحافظة على جيشهِ وهو على تلك الحال وكثيرًا ما كان يتشب القتال بين طليعة الجيش الفرنسوي وموخرة الجيش الانكليزي وكان الانكليز يحاربون بشجاعة لا مزيد عليها كلما وقفوا لصد الاعداء . وبعد بلوغهم كورونا حل الجيش الانكليزي في مراكز جيدة واقعة في نصف دائرة من التلال كانت تكاد تحيط بالمدينة وثبت لدفع الجيش الفرنسوي المطارد وكانوا قد جمعوا في مخزن يبعد نحو ثلثة اميال عن بيوت الاهالي اربعة الاف صندوق من البارود فاحرقوها خوفًا من ان تقع في يد العدو . وانفجرت انفجارًا ارتجت لهُ الارض وقال الكولونل نابيه الانكليزي الذي كان مع الجيش ورأى ما جرى انهُ عند وصول الرتل الى مخزن البارود العظيم سمع صوت شديد كصوت اندفاع مواد من جبل نار مضطرم وتزلزلت الارض على اميال وتمزقت صخور من اساساتها واضطربت المياه ومالت المراكب كانها في نوء وارتفع عمود عظيم من الدخان والغبار والشرار يخرج من محيطهِ واستمر يرتفع ببطء برهةً ثم اندفع منهُ حجارة وحصى وقطع اخرى كثيرة وسقطت وقتلت كثيرين من الذين لم يبعدوا عن ذلك المكان ثم سكن الصوت واخذ

الجنود في القتال . انتهى . وتبع ذلك معركة دموية . وكان الجنرال مور القائد الباسل يدير الجيش بحذق فاصابته كرة قطعت جسده ولم يفترق المحاربون الا بالظلام . فلفه جيشه بعباءته ودفن في حواجز كورونا بسرعة سرًّا وكانت احوال المحاربين مما تفتت له الاكباد فان الجيشين المتعبين باتا في ذلك البرد مثخنين جراحًا . وعند دفن ذلك القائد لم يتفوه احد بكلمة ولكنه حفر القبر غير العميق بنور المصباح وافتخر القواد الفرنسويون بشجاعة عدوهم المقتول فانشاوا له ضريحًا عظيمًا وفي الليل ترك الانكليز نيرانهم مشبوبة وركبوا بدون ان يفقد كثيرون منهم ونحصن الاسبانيول في الحصون واخذوا يصدون الفرنسويين . وفقد من الانكليز في هذا التقهقر الكثير المشقات نحو ستة الاف رجل قتيلاً وجريحًا واسيرًا . والفرسان قتلوا ثلاثة الاف فرس . واحرقوا ذخائر كثيرة فضلاً عما غنمه الفرنسويون

وقال المورخ اليسون الانليزي واصفًا تاثيرات رجوع هذه الجنود الانكليزية بعد ان تكبدت ما تكبدت من المشقات والاتعاب والمخاطر ان سكان المدن على شاطى البحر راوا الجنود التي كانت تخرج من انكلترا لتولف في اسبانيا جيش الجنرال مور وهي سائرة بافتخار حربي برايات وموسيقات والناس يضجون وبعضهم يبكون . فلما راوا الفرق نفسها تعود بعد نقص نحو نصفها وقد غيرت الاتعاب مناظرها ومزقت الحروب والحركات اثوابها حزنوا واقشعرت ابدانهم وازداد كدرهم بالحمى الحبشية التي جاءوا بها بسبب التعب والانحصار في البوارج وازداد كدر الاهالي وغيظهم باخبار الجنود الذين لم يكونوا يكتفون بوصف الواقع بل كانوا يبالغون بالاخبار التي لم تكن تحتاج الى المبالغة . انتهى

اما السرقات والقتل والتعديات فملات اسبانيا وكانت العامة المتعصبة ترتكب كل التعديات مدعية بان ذلك ناشيء عن حبها لملكها القديم . ولم يستامن الناس على انفسهم واموالهم الا في الاماكن التي كانت الجنود الفرنسوية فيها . واغتاظ بعض الجنود الاسبانيول من قائدهم فجروهُ الى شجرة بعد ان اخرجوهُ من فراشه وعلقوه بها واخذوا يتسلون باطلاق الرصاص على جثته وكان من اشجع قواد اسبانيا واشهرهم واسمه الدون جوان بنيتو . وكان نابوليون يقطع اسباب هذه الفظائع بنشاط اذا حدثت في الاماكن التي كان له تنفوذ فيها . والقى القبض مرة على ١٢ من القتلة المشهورين وقتلهم بالرصاص حالاً

وكتب الى شقيقه جوزف بما ياتي من الواجب ان تلقي هيبتك في قلوب الاهالي ثم تقوم بما يحملهم على حبك والناس يطلبون اليّ ان اعتذر عن بعض الذين ارتكبوا السرقات والقتل غير انهم فرحوا بعدم العفو عنهم وبعد تاديبهم اخذت الامور تجري في مجاريها . فكن ثابت العزم قويًا عادلاً واذا شئت ان تحكم فلا تجعل تفاوتًا بين قوتك وعدالتك . انتهى . وامر بقتل مائة من



القتلة في مدريد وكانوا قد حملوا على المستشفيات وقتلوا الجرحى فيها من الجنود الفرنسوية بعذابات شديدة وكانوا قد احرقوا بيوت كثيرين من الاسبانيول وقتلوا كثيرين منهم مدعين بانهم اصدقا الفرنسويين وانهم خانوا بلادهم . وصمم نابوليون ان يلقي الرعب في قلوب المذنبين وحماية كرامة الاخلاق على ان يحمل لوم الذين شانهم الطعن في من ينفذ اجراءات صارمة . وكان ينسب الى اخيه كل الاجراءات التي تعود بالنفع على البلاد وتنشا عن الحلم والشفقة . وفي اول السنة الجديدة كتب اليه جوزف رسالة تهنئة يقول فيها ارجوك ان تسمح لي باظهار مرغوباتي وهي ان تتمكن في اثناء هذه السنة من ان تجعل السلام سائدًا في اوربا باجتهاداتك لتتمكن من انفاذ نواياك الخيرية انتهى . فاجاب نابوليون انني اشكرك على ما قلته بشان السنة الجديدة ليس لي امل بسيادة السلام في اوربا هذه السنة . ولذلك امرت بجمع مائة الف جندي لان غيظ انكلترا وحوادث الاستانة واشياء كثيرة تبين انا لم ندرك بعد ساعة الراحة . انتهى

وانكسر الاسبانيول في كل محاربة بانهم غير ان اقوامًا كثيرين منهم كانوا قد تحصنوا في مدن حصينة ودافعوا بنشاط لا مزيد عليه . غير ان احصنها لم يثبت لدى حذق المهندسين الفرنسويين وبسالة الجنود وكان حصر سرقسطة اشد ويلاً من غيره واشتهر جدًا في التاريخ القديم والحديث . فان الانكليز كانوا قد ملاوا المدينة بالمهمات الحربية وتحصن اربعون الف اسباني تحت قيادة رهبان حركوا فيهم التعصبات الدينية فالزموهم الثبات في الدفاع في البيوت الحجرية وراء اسوارها وحصونها فحصرها الفرنسويون بثمانية عشر الف جندي فقط . واستمر القتال شهرين متواصلاً عنيفًا فتهدمت الاسوار بالكرات والات الهدم والادبرة بفعل البارود ومع ذلك استمر المحصورون يقاتلون وهم ينتقلون من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع اخيرًا فاز الفرنسويون بالبسالة والنظام على شجاعة الاسبانيول الناشئة عن التعصب وعندما شاهد المارشال «لان» خربات المدينة الصاعد دخانها وكان قد فتحها باحد عشر الف جندي فقط راى فيها اثار الاضرار الشديدة فان جثث القتلى المنتنة كانت قد ملاتها وكان قد قتل فيها ٥٤٥٤ من الاهالي . وكان صراخ الرجال والنسا والاولاد الذين التهبت جراحاتهم يصعد من كل مكان وبات تلك المدينة خرابًا والحقت اضرار كثيرة بتلتيها وصبغ الدم شوارعها وانتشرت فيها الروائح الردية المميتة . ولم ينج من اربعين الف اسباني قاتلوا ببسالة لا مزيد عليها غير عشرة الاف جندي والقي فارس فاسروا وخرجوا امام المنتصر وقد ظهر من اصفرار وجوههم وحالة اجسادهم ما قاسوهُ من الاتعاب والمشقات وكانت الابطال الفرنسوية متعودة ويلات الحرب وتاثيرات مناظرها التي تقشعر منها الابدان ومع ذلك حزنوا عندما راوا حالة تلك المدينة

وبعد ذلك عاد الملك جوزف الى مدريد ودخلها والاجراس تقرع والمدافع تطلق غير ان

الاهالي قابلوهُ مقابلة فاترة لانهم كانوا يحسبون انفسهم مخلوعين من الملك . غير ان اعيانهم الذين كانوا يدركون الامور وقد راوا سوء حالهم الماضية قابلوهُ بسرور . وكان قد دخل بلادهم محاميًا اي انهُ تقرر في عقولهم انهُ سبب اعتدال اجراءات شقيقهِ المنتصر . ومع ذلك انجذبوا الى نابوليون بما راوهُ من حبهِ للعدل وثبات عزمهِ . مع انهُ كان قد حاول ان يبرر اخاهُ باحتمال مسئولية كل الاعمال الصارمة التي التزم بان يقوم بها ومال الاسبانيول الى ما راوهُ من عظمتهِ اكثر مما مالوا الى ما راوهُ من حلم اخيهِ وانضاعهِ واقام نابوليون خمسة ايام في بلد الوليد وهو يبعث بالرسائل الى جميع انحاء اوربا . في الايام الخمسة المذكورة عمل اعمالاً تشغل عقل سواهُ سنة كاملة . كانت جيوشهُ في فرنسا واسبانيا وايطاليا والمانيا مبسوطة امامهُ كانها رسم ارض واضح وكان يدرك كل الامور التي كانت تطرا عليها . وبعد ان انتهى من كتابة تلك الرسائل ركب فرسهُ وسار مسرعًا الى باريس وقطع ٨٥ ميلاً اي انهُ كان يقطع ١٧ ميلاً في الساعة فادهش الناس بجلدهِ وعلو همتهِ . ولم تنسَ المدن التي مر فيها مسيرهُ السريع فانها كانت تراهُ يقطع المسافات الطويلة ركضًا وكان كلما بلغ مركزًا يركب فرسًا جديدًا وينتهب الطريق . وكانت لوائح السكوت تظهر على وجههِ المصفر غير انهُ كان مطبقًا شفتيهِ وجبهتهُ كانها من حديد وعينهُ اللامعة تنظر الى ما امامهُ وهو منحنٍ قليلاً . ولم يكن احد من اعوانهِ يتلفظ بكلمة بل كانوا جميعًا يتبعونهُ صامتين . وكان يقيم في كل عشرة اميال تسعة افراس يعتني بها جدًا . وكانت افراس الخدم تحمل اخراجًا فيها ثيابهُ واوراقهُ وحبر واقلام ورسوم ونظارات . وكان غالبًا يرتب هذه الامور بنفسهِ سرًّا . ولما بلغ بابون ركب مركبة وامر جيش الحرس الامبراطوري بان يسير بالسرعة الممكنة الى الرين كما سار قاصدًا باريس . وفي ليل ٢٢ كانون الثاني (جانفيه) وصل الى قصر التويلري فتعجب الناس بوصولهِ غير المنتظر . وكان يسوس الناس بقوة عقلهِ فلم يظهر لهم غير شيء قليل من المؤامرات التي كانت دول اوربا تعقدها لمضادتهِ . ولم يكونوا يعلمون بفساد بلاط اسبانيا السابق وخيانتهِ ولذلك لاموهُ على فتح حرب اسبانيا وقالوا انهُ التزم بان يهرق دمًا ويصرف مالاً للقيام بهِ بدون داعٍ حتى التزم ان يظلم العائلة التي كانت مالكة فيها . وبالنظر الى الامور التي كانت جارية تاسف من اشتغالهِ بالحرب فيها . وكان يرجو نفع الامة الاسبانية وارضاءها بخلع ملكها الظالم الناصر . ولولا مداخلات انكلترا لتمكن من اصلاحها ويقال انهُ لولا اشتغالهُ بهذه الحرب لما تجاسرت النمسا ان تحمل عليهِ ومن المؤكد ان حكومة اسبانيا السابقة كانت تترقب سنوح فرصة فشلهِ لتوقع بهِ بالحمل على ولايات فرنسا الجنوبية . وطالما قال انهُ تاسف من خلع بوربون اسبانيا غير ان الظروف اضطرتهُ ليخلو من مخاطرهم . ولو ترك اسبانيا على حالها لانشبت فيها حرب اهلية واخرتها بالمناظرات التي كانت جارية بين البنون كارلوس الاب وفرديناند ابنهِ . ولا ريب



في ان انكلترا كانت تترقب سنوح الفرصة للتحزب لفرديناند فتمسي البلاد مستعمرة انكليزية . ولو سار بجيشهِ وفتح البلاد عنوة لخالف قواعدهُ وكان قاصدًا تخليص امة جاهلة من مظالم حكامها . وكانت اجتهاداتهُ الشديدة المصروفة في سبيل الدفاع عن نفسهِ مقرونة بالاجتهاد باقامة ملك عادل حاذق لا يبعد عن تقرير انظام حر . فانكلترا جعلت الدم كالطوفان في تلك البلاد لمنع انشا نظامات حرة فيها ولارجاع الامة الى قيود حديدية وصيودية

وكانت قد وردت اليهِ اخبار من كل جهة مآلها ان النمسا كانت تتاهب بجد لا مزيد عليهِ للقيام بحرب جديدة . ووردت اليهِ تفصيلات بهذا الشان من فينا ومونيخ ودرسدن وميلان فتحقق حلول مخاطر عظيمة . وان اجتهاداتهِ في سبيل المحافظة على السلام ذهبت سدى فان انكلترا امتنعت من مخابرتهِ ولم تسمح لراية المدنية الفرنسوية ان تصل الى سواحلها . وكانت تقول انهُ مختلس جالس على سرير البوربون مع انهم خلعوا وهو صبي وبلغ السرير بانتخاب الامة . وكانت النمسا تصرخ قائلة اخلعوا الامبراطور الشعبي وكذلك كانت تقول ام الامبراطور اسكندر الروسي والامراء في بلادهِ . وقالت اوربا وهي متحدة اننا لا نحارب فرنسا ولكن نحارب نابوليون الذي اختلس تاج فرنسا . ومن عاداتهِ في ساعة النصر ان يتساهل كثيرًا مع اعدائهِ غير انهُ عند اجتماع المخاطر وتكاثر اعدائهِ كان يثبت ونفسهُ المفخرة لا تبالي بهم . وفي شهرين تمكن من ان يبدد شمل الجيوش الاسبانية وطرد الانكليز من اسبانيا وارجع اخاهُ الى مدريد منتصرًا . ومع ذلك لم تبلغ تلك الحرب النهاية . لامكان تجدد الفتن في كل ولاية . وكانت بوارج انكلترا لا تزال كثيرة في ثغورها وثغور البرتوغال محاولة تهييج الشعب وهي تقدم رجالاً ومالاً ومهمات حربية

كان نابوليون قد اوضح الحال لسفير النمسا وابان لهُ رغبتهُ الشديدة في المحافظة على السلام وقال لهُ تشكت النمسا من امر يسمع تشكيها فيفرغ جهدهُ في راحتها . وكانت اوربا كلها عالمة بتجهيزات النمسا وكانت تعلم المقصود منها غير انها لم تكن قد استعدت للقتال وكان سفيرها لا يزال في باريس . وكان املهُ ضعيفًا جدًا في مجانبة حرب جديدة فطلب الى روسيا ان تشارك فرنسا بان تضمن لها بقاء املاكها الحالية . فلو كانت خائفة فعلاً من تعدي نابوليون على املاكها لارتضت بهذه الضمانة وامتنعت عن الحرب . على انها كانت تريد ان تسترجع ما اخذهُ من املاكها في ايطاليا وتمنع امتداد اراء الحرية وان تزيل من اوربا مخاطر وجود امبراطور منتخب حر على سرير عائلة ملكية قديمة مخلوعة وبعد ذلك راى نابوليون ان مقامهُ لا يسمح لهُ بان يحاول اكتساب النمسا وكان يعامل سفيرها باحترام ولكن لم يكن يقربهُ منهُ ولا يطلعهُ على ارائهِ مع انهُ كان يبين اراءهُ بوضوح لسفراء الدول الاخرى وقال لهم بصراحة ان تجهيزات النمسا حملتهُ على الرجوع الى باريس ليقابل تجهيزاتها بتاهبات ليست باقل منها . وفي ذات يوم قال لقوم اجتمعوا حولهُ الظاهر

ان مياه ليث لا الطونه كانت تمر بفينا فانهم قد نسوا ما تعلموه بالاختبار ويحتاجون الى تعليم جديد فساعلمهم وستكون تعاليمي هذه المرة مخيفة . وانا لا اريد الحرب وليس لي صالح بها . ورات اوربا قاطبة ان كل اجتهاداتي صرفت في حرب اسبانيا التي اختارتها انكلترا . فالنمسا التي خلصت الانكليز عندما كنت مصمماً على قطع المضيق للحمل عليهم قد خلصتهم مرة اخرى فانني كنت مصمماً ان احمل عليهم في كورونا ولو لم أُدعَ الى هنا بحذاقتها لما نجا واحد من الانكليز ولا بد من ان تحتمل ويلات كثيرة لانها اسعفتهم فلا بد لها من امرين وهما اما صرف جنودها حالاً واما ملاقاة حرب هلاك فاذا صرفت جنودها بحيث يظهر لي فعلاً انها مصممة على المحافظة على السلام اغمد سيفي لانني لا احب ان اجردهُ الا في اسبانيا لمقاومة الانكليز واذا استمرت تتاهب اشهر عليها حرباً قصيرة قاطعة فلا يبقى للانكليز حلفاء في اواسط اوربا وقال موسيو تيرس في تاريخهِ ان كلام الامبراطور اثر في السامعين التاثيرات المطلوبة لانهُ بين الصحيح ولم يكن يرغب في فتح الحرب ولكن اذا التزم ان يفتحها تكون شديدة جدًّا

وقال لسافاري لابد ان تكون النمسا قامت بامور لا ازال اجهلها لان فتح الحرب عليَّ جنون وقد توهم الاعداء انني مت ويسرون بموتي ويقال انني لا اقدر ان استكن وانني ذو مطامع والواقع ان حماقتهم تحملني على المحاربة جبرًا ولا اظن انهُ يخطر لهم ببال ان يحاربوني وحدهم . وانتظر رسولاً من روسيا فاذا جاءني بخبر يبين ان الاحوال فيها بحسب رغبتي اقوم بما يلقيهم في ويل . انتهى . وكانت الحرب مما لم يكن نابوليون يستغني عنه فان قبولهُ لعرش فرنسا جعل دول اوربا تتحد على مقاومتهِ وكان لابد لهُ من ان يقبل بالخضوع المذل لدول ظالمة او القيام بحروب شديدة لصيانة حقوق امتهِ

وقال لسفير روسيا لو سمع امبراطوركم مشوراتي في ارفورث لبتنا في احوال اخرى . لاننا بدلاً من النصائح كنا استعملنا التهديد الشديد فتلتزم النمسا ترك السلاح لكننا عمدنا الى مجرد الكلام بدلاً من العمل وربما صرنا الان الى الحرب الا انني في كل حال متكل على قول امبراطوركم فانهُ وعد بان ينجدني بجيش من عساكره اذا اقضى الامر بحكومة النمسا الى التعدي اما انا فساحشر عند الطونه وبو ٢٠٠,٠٠٠ جندي فرنسوي ١٠٠,٠٠٠ من الالمان وربما كان وجودهم هناك كافياً لاكراه النمسا على تركنا وشاننا وانني لافضل ذلك رغبة في خيركم وخيري فاذا لم يغن ذلك عن الحرب والتزمنا باعمال القوة نبيد الى الابد القوة التي تصدت لمقاومة مقاصدنا المشتركة . ثم كتب في الحال الى حلفائهِ ملوك بافاريا وسكسونيا وورتمبرغ ووستفاليا وامراء بادن وهس وورتزبرغ بانني لم اكن راغباً ان احملكم نفقات في غير محلها ولكن لما كنت قد انذرت بالحرب انذاراً شديداً اردت ان تتاهبوا للحمل وقد عزمت على جمع قوات من شانها منع الحرب او جعلها



فاصلة . ولقلة ركوني الى بروسيا اعلمها انها اذا زادت قوتها الحربية عن العدد المقرر في المعاهدة المبرمة بينها وبين فرنسا وقدرهُ ٤٢ الف جندي يشهر عليها الحرب فباتت فرنسا والحالة هذه في اضطراب . وكان نابوليون يصرف افكارهُ العظيمة الى كل الولايات واضرم نار الحمية في عشرة الاف رجل استخدمهم لقضاء مآربهِ وكان يوزع . وامر على كل الجهات واضعف قوى كتابهِ لانهُ كان يشغلهم ليلاً ونهاراً بكتابة مراسلات شتى الى الجنرالية والسفراء والمهندسين والملوك والامراء وحشد عساكر جديدة واقام مخازن كبيرة واشغل المعامل بصب المدافع وكانت الترسخانات تدوي لما تراكم فيها من الالات الحربية وكتائب من الرجال المسلحين تسير في الطرقات على اختلافها وظواهرهم تدل على عدم نظامهم واضطرابهم الا انهم كانوا مرتبين احسن ترتيب بافكار رئيسهم الثاقبة وصدر امر نابوليون بمشترى ١٢ الف حصان لجر المدافع وتعبيتها حالاً ولما كان عالماً بوقائع الحرب مدركاً لدقائقها واسرارها جهز ٥٦ الف الة للحفر وتقرر ارسالها بارتال المدافع بعد مسير العساكر وقد كانت هذه الآلات مما ساعدهُ مساعدة عظيمة على النجاح الذي فاز بهِ بعد ذلك . واضاف الى جيشهِ الخاص ١٢٠٠ نوتي من بولونيا لعلمهِ ان مجرى نهر الطونة العريض سيكون لهُ دخل عظيم في الحرب ومع انهُ كان يتجنب الخصام كل التجنب اظهر للنمسا جلياً تاهباتهِ العظيمة وجعل جيوشهُ في مركز يتضح منهُ استعدادهُ لمصادمة كل قوة تجردها عليهِ ولم يكن لنابوليون صالح في الحرب لكنهُ يرجو ان ما اجتمع عندهُ من القوات يحمل النمسا على التروي . قال تيرس في تاريخهِ ان هذه التجهيزات العظيمة السريعة دلالة على ان نابوليون كان يعتني في منع الحرب قدر اعتنائهِ في اثارتها وتلك التجهيزات تستغرق مبالغ وافرة من النقود ولكن نابوليون كان عالماً الامور المالية قدر علمهِ ابواب الحرب فاضطر والحالة هذه ان يضيف الى نفقات سنة ١٨٠٩ مبلغاً قدره ١٧٨ مليون ريال وعلى اهل الانسانية ان يندبوا تلك المبالغ الجسيمة التي انفقت في سبيل الخراب والويل لانها لو صرفت في تحسين اودية اوربا وجبالها لباتت من الراس الشمالي الى البحر المتوسط نظير جنة عدن . وكانت النمسا قد تظاهرت بالعدوان فامتنع عليها العدول عنهُ وبذلت جل مقدرتها في تحريك حماسة الامة النمسوية واخذت تشيع ان انكلترا واسبانيا قد اوقعتا بنابوليون في شبه الجزيرة الاسبانية واضعفتا قواهُ فلم يبقَ في وسعهِ ان يسترجع العساكر التي اجتازت جبال البرنات وانهُ ينبغي مهاجمة مراكزه غير المنيعة وان حلفاءهُ الالمان ينفصلون عنهُ حالما يحل بهِ اول رزء وان بروسيا ستنهض عن اخرها بحماسة تامة لتاخذ ثارها وان الامبراطور اسكندر الروسي قد نهج سياسة تضادها امهُ والامراء ولذلك سيضطر الى العدول عن مواطأة تتهددهُ بالخطر والثبور وان في عزم نابوليون ان يعامل النمسا كما عامل اسبانيا وان يخلع كل العيال الملكية القديمة ويقيم مكانها عيالاً جديدة وشاهد ذلك ما قالهُ في خطاب نشرهُ على الاسبانيول داخل اسوار مدريد وهو انكم اذا كنتم

غير قابلين بان يكون جوزف ملكًا عليكم فلا اكرهكم على ذلك فان عندي تختًا ملكيًا اخر انصبهُ فهو اما انتم فاعاملكم معاملة امة مغلوبة . انتهى . فالتخت الذي اشار اليهِ هو تخت النمسا وكان لانكلترا مامورون في فينا يعملون على تحريك الامة النمسوية الى نقل السلاح وعرضوا على النمسا اتحاد الاساطيل الانكليزية واساطيلها ووعدوها بان يمدوها بالرجال والسلاح فاثر ذلك في الامة وبلغت منها الحماسة مبلغًا عظيمًا وكانت فرق من جيوش المدافع والمشاة تجتاز كل يوم اسواق فينا مصحوبة بالربابات والثيران والشعب يتلقاهم باصوات الفرح اما عدد العساكر التي كانت تتمرن في النمسا في ابواب الحرب فكان ٥٠٠ الف مقاتل ونادت حكومة المجر طالبة جمع كل العساكر وارسل مامور الى الدولة العلية ليظهر للباب العالي ان فرنسا وروسيا عاملتان على الضرر بالسلطنة العثمانية وطلبت النمسا الى الباب العالي ان يغض النظر عن الاساءة التي نالتهُ بسبب مرور اسطول انكليزي في الدردنيل وان يتحد معها ومع انكلترا على مقاومة العدو فتحركت في الاهالي النخوة ومع انهم كانوا منذ سنة يميلون كل الميل الى فرنسا ويطردون الانكليز من اسواقهم ويهينونهم تغيرت افكارهم وانشرحت صدورهم للانكليز وكان كل من ظهر من الفرنسويين في اسواق الاستانة يعرض نفسهُ للاهانة . وارسلت انكلترا في الحال بارجة حربية الى القسطنطينية وانضم الباب العالي الى الاتحاد الجديد . اما الامبراطور اسكندر الروسي فاظهر في اعمالهِ وحركاتهِ ما دل على فتور همتهِ وتقاعدهِ فان رباطات الالفة بينهُ وبين نابوليون كانت وطيدة لكنهُ خاف كثيرًا من نتائج اتحادهما لان نابوليون لم يسمح لهُ باكثر من الولايات الواقعة عند نهر الطونة الا ان الولايات المذكورة لم تكن في حوزة الامبراطور اسكندر ولم يكن الحصول عليها ممكنًا الا بالسلاح وكان فتح الحرب على النمسا مما ينشا عنهُ اتحاد بينها وبين انكلترا والباب العالي وذلك من اكبر الصعوبات التي تحول دون الحاق ولايات الطونة فاثرت هذه الاسباب في افكار الامبراطور الروسي وكانت مع ما نالهُ من اللوم من اهل بيتهِ داعيًا الى فتور صداقتهِ ومحبتهِ لنابوليون وعلمت النمسا بالارتباك الذي يقع فيهِ القيصر الروسي فطمعت في استمالتهِ اليها فارسلت موسيو شوارتزنبرغ الى بلاط روسيا في بطرسبرج فتلقاهُ اعيانها وامراؤها بالترحاب وعلق املهُ بالحصول على المرام ووجد كل الناس في العاصمة اضدادًا لفرنسا حتى رجال العائلة الملكية كانوا مخالفين لها ولما مثل لدى الامبراطور قال لهُ بحرية ان النمسا سائرة في سبيل الخداع والخاتلة لما اعلنت ميلها الى السلام لانها ما فترت عن التاهب للحرب اما انا فاني مرتبط بفرنسا برباط يصعب حلهُ واني عازم قيامًا بقولي ان احافظ عليهِ فاذا افضى الجنون بالنمسا الى تخديش السلام ينقض عليها نابوليون ويوقع بها وتحمل روسيا على ضم عساكرها الى عساكر فرنسا وتمكن انكلترا من تاخير وقت السلام مع ان اوربا في شديد احتياج اليهِ وكل من جد في تاخير السلام واثارة الفتن يحسب عندي عدوًا . لاجرم ان هذا كلام لا يعاب ولكن من



امعن بهِ النظر يرى ان ظاهرهُ مخالف لباطنهِ لان فتحة الحرب على النمسا يضر بنواياهُ وكان دائم الرغبة في تجريد السيف لالحاق بعض ولايات عثمانية ببلاده فحل الياس بسفير النمسا لما سمع هذا الكلام وارسل الى دولتهِ كتابات تؤذن بذلك وخاطب امبراطور روسيا موسيو كولنكور سفير نابوليون بالحرية نفسها فقال من اصعب الامور ان يحارب حليفهُ اشترك معها بالقتال في اوسترليتز واكد لهُ ان انهزام النمسا يوقعهُ في اشد الارتباك والحيرة لانهُ ينظر بعين الاسف الى انحطاطها والى ازدياد قوة فرنسا الذي يتلو ذلك لامحالة ولذلك كان يرغب في بذل كل ما في وسعهِ لمنع الحرب ولم يكن الامبراطور راغبًا في الاتكال على وزيري فرنسا والنمسا في هذا الامر الخطير الا انهُ عزم على ان يحقق بنفسهِ للنمسا عدم حصول مواطاة عليها وان ينذرها بالاهوال والبلايا التي تجرها على نفسها بفتح حرب جديدة وقال مرة ان وزراءنا لا يحلون هذا المشكل فاتركوني وشاني اقوم بالكلام والعمل فان امكن اتجنب الحرب فعلت والا فتمت باعمال حرة مستقيمة وكان ميل اسكندر السلمي موافقًا لميل نابوليون لان امبراطور الفرنسويين كان يحب الابتعاد عن الحرب جدًا ويخاف شبوبها حتى انهُ فوض الى الامبراطور اسكندر ان يعد النمسا بضمانة روسيا وفرنسا لاستقلال املاكها واخراج العساكر الفرنسوية من الاراضي المعروفة باتحاد الرين ولا يبقى منهم في المانيا نفر البتة . لكن تجدد النشاط في اعداء نابوليون المتحدين وحسبوا جدهُ في حفظ السلام ضعفًا واخذوا ينظمون جيوشهم بقوة جديدة فجمعوا الكتائب وساروا بها الى القتال اما نابوليون فلبث في باريس قرير الخاطر ينتظر المهاجمة ولم يكن يعلم الجهة التي كان العدو مزمعًا على الخروج منها لكن افكارهُ كانت مصروفة الى الوف من المصالح وتاهب لكل الحوادث واستظهرت قواهُ العقلية على النفقات الباهظة التي كان ينفقها في اسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا ولم يقم انسان قبل نابوليون بما قام بهِ من الاجراءات الخطيرة لما انقطع الامل من الصلح والمسالمة . واراد ملك بافاريا ان يجعل جيشهُ تحت قيادة ابنهِ وهو فتى باسل لكنهُ لم يختبر الحرب فلم يوافق نابوليون على ذلك وكتب الى الملك المشار اليهِ ان جيشكم سيقاتل في هذه الحرب قتالاً شديدًا لصيانة ما حصلت عليهِ بافاريا وزيادتهِ وربما صلح ولدكم للقيادة بعد الاشتراك معنا في ست او سبع مواقع ومع ذلك دعهُ ياتي اليَّ فينال من الاعتبار ما يستحقهُ ويتعلم مهارتنا في الحروب وسلم نابوليون الى ذلك البرنس الشاب قيادة فرقة من الجيش البافاري وجرد ملك ورتمبرغ ١٢ الف مقاتل لمساعدة نابوليون ففوض قيادتها الى الجنرال فندام لكن ملك ورتمبرغ عارضهُ في ذلك فكتب اليهِ نابوليون ما ياتي . انني اعلم بنقائص الجنرال فندام لكنهُ صادق النية ثابت العزم وفي احوال صعبة كهذه الاحوال ينبغي غض النظر عن تقصير الانسان واقام نابوليون فرقًا من عساكره في جوار راتسبون فكانت ١ الف مقاتل ومُد سلك برقي من اقاصي حدود بافاريا الى قصر التويلري وعينت خيول مخصوصة لركوب الامبراطور اذا شاء ان

ياتي بسرعة من باريس الى ضفاف الطونة . ولما انتهت التاهبات على هذا المنوال اخذ نابوليون يراقب حركات النمسويين وكان يود البقاء في باريس ليدير بنفسه اعمال امبراطوريته المتسعة والحد الفاصل بين النمسا وبافاريا من جهة الشرق هو نهر ان وكان النمسويون قد جمعوا عند ضفته ٢٠ الف مقاتل وكان فتح الحرب موقوفاً على اجتيازهم النهر المذكور وعبورهم حدود بافاريا الا ان نابوليون كان قد تعلم بالاختبار ان لا ينتظر فتح الحرب فتهيأ لها قبل ان صرحت بها النمسا وفي صباح العاشر من شهر نيسان (افريل) سنة ١٨٠٩ اجتاز الارشدوق شارل نهر ان بقواته الكثيرة وسار صاقداً مونيخ عاصمة بافاريا وفي الوقت نفسه بعث رسالة الى ملكها مآلها صدور الاوامر اليه بان يتقدم وينقذ المانيا من ظالمها وان العساكر التي تصد مسيره يحسبها عدوة فهذه هي الرسالة الفريدة التي شهرت بها الحرب على فرنسا وحليفاتها . وكان كثيرون من امراء النمسا يضادون الهجوم على نابوليون وكتب الكونت لوبس فون وهو على فراش الموت رسالة الى الامبراطور فرنسيس مودها ان معاهدة الصلح التي ابرمت في بورسبورج ينبغي ان تحمل جلالتكم على ان تحسبوا نفسكم في توفيق بالنظر الى المركز الذي جعلتكم فيه نعم انكم في المحل الثاني بين دول اوربا لكنه هو نفس المحل الذي كان لاسلافكم فعليكم ان تجتنبوا حرباً لا شيء يدعوكم اليها فانها ستكون سبباً لخرابكم وسيفتح نابوليون بلادكم ويحق له حينئذ ان يشدد في قصاصكم . وتمكن منفرديني من مقابلة الامبراطور فرنسيس فقال له بحرارة ان الحرب ستجلب الخراب على النمسا فقال الامبراطور ما ابعد هذا الكلام عن الصواب فان نابوليون لا يقدر ان يقوم بعمل الان لان جنوده كلها في اسبانيا . ولما سار الامبراطور المشار اليه للاجتماع بالعساكر النمسوية قال الكونت والسيس هذا هو داريوس ذاهب لمقابلة الاسكندر وسيلقى ما لقي ذاك لا محالة اما نهر (ان) فهو على مسافة نحو ٦٠٠ ميل من باريس وعند الساعة العاشرة من الليل تناول نابوليون رسالة برقية موذنة بابتداء القتال فقال وهو يقرأها حسن هو وسندخل فينا مرة ثانية ولكن ماذا يريدون منا الان وماذا اصاب امبراطور النمسا هل لدغه العقرب وقد اكرهوني على الحرب فسأثيرها عليهم عواناً وانيلهم ما يستحقون وفي منتصف الليل ركب عجلته هو وجوزفين وسار قاصداً ستراسبرج وارسلت انكلترا اسطولها وعساكرها لمساعدة النمسويين واسرع المتحالفون في المسير وقد اوغرت صدورهم اكثر من الاول على بونابرت الذي كانوا ينسبونه الى شدة الطمع وحب اراقة الدما اما نابوليون فلم يحفل بذلك وعهد الى التاريخ ان يحكم باعماله وتاهب للقتال لانه كان متحققاً ان جيوش الظلم عاجزة عن ان تشوه وجه الحوادث التي سيبنى عليها حكم الناس بعده



## الفصل السابع والاربعون

وكانت النمسا قد جهزت ٥٠٠ الف مقاتل للفتك بمن كان يدافع ويناضل عن الحقوق العمومية واجتاز الارشيدوق شارل نهر «ان» بمائتي الف مقاتل واذ كان نابوليون مشتبكاً بحرب اسبانيا لم يتمكن من مقابلة هذه القوات بمثلها الا انه بحسن التدبير الناشيء عن الحذق كان شديد الثقة بقدرته على مقاومة العدو ولما كان في سان كلو وصلته الاخبار بحلول العساكر النمسوية اراضي حلفائه البافاريين بعد انتصاف الليل فتاهب للمسير وفي اقل من ساعة ركب عجلته هو وجوزفين وسار ليلاً ونهاراً حتى بلغ ستراسبرج فابقاها هناك ثم عبر نهر الرين واخذ في السير الى معسكره وفي سفره هذا تناول الطعام مساء عند رجل اقامه ملك ورتمبرغ لمراقبة حرش يصطاد فيه وكان من عادة نابوليون اذا نزل بيتاً ان يسأل صاحبه عن اموره فسأل الرجل المذكور سوالات شتى عن عائلته فعلم منه ان له ابنة وحيدة قد بلغت سن الزواج الا انه لم يكن له ما ينفقه في جهازها فتكرم عليها الامبراطور بما يلزمها لذلك ثم ركب حصانه وسار في طريقه تاركاً حسب عادته سلواناً في البيت الذي نزل فيه وبلغ ريجن بدون حراس واعوان وامتعة بعد مضي قسم من الليل وكان ملك بافاريا مقيماً في قصره هناك لانه هرب من مونيخ عاصمة مملكته عند قدوم العدو ولم يكن ينتظر حضور الامبراطور فدخل غرفته ونام ولما علم بوصول نابوليون نهض لملاقاته ولبثا ساعة في حديث متواصل فقال الامبراطور للملك بافاريا في ١٥ يوماً اخرج العدو من بلادك وارجعك الى كرسي ملكك . ومن امعن النظر في ذلك الوعد يرى ركون نابوليون الى قوته لانه لم يكن في وسعه جمع اكثر من ٢٠٠ الف جندي لدفع ٥٠٠ الف رجل حشدت لمقاتلته وبعد تلك المقابلة القصيرة رجع ملك بافاريا الى فراشه وعلا نابوليون ظهر حصانه واطلق له العنان فاجتاز ٤٠ ميلاً الى ان بلغ دوفورث فجمع ضباطه في الحال والقى عليهم سوالات علم منها في الحال مركز كل من الجيشين المتحاربين وتعجب كل العجب من الخطر الذي احدق بعساكره . وكان عارفاً بزيادة عساكر العدو فعلم ان رجاله اذا قسموا يوقع النمسويون لا محالة نظراً لكثرة عددهم فاوعز الى برتيه ان يجمع كل القوات في راتسبون او في دوفورث عند اول حركة هجومية تبدو من العدو لكنه تعجب لما راى ان برتيه وزع العساكر في كل الجهات لتوقيف النمسويين عن التقدم ولو كان للارشيدوق شارل من النشاط والهمة عشر ما كان لنابوليون لتمكن من الفتك بالفرنسويين دفعة واحدة . فساد نابوليون باهماله وفي الحال انفذ ضباطاً الى كل الاماكن واركبهم اسرع خيولهم ونقض كل الاوامر الصادرة من برتيه وامر كل الفرق ان تبدل ما في وسعها للانضمام بعضها الى بعض وكان كل من دافوست وماسينا مبتعداً عن الاخر مسافة مائة ميل . ثم كتب الى برتيه يقول

له . قد ظهر لي من الغرابة في ما فعلته ما كدت احسبهُ خيانة منك لولا ثقتي بحبتك وصداقتك وقد بات دافوست في حوزة الارشيدوق اكثر مما هو في حوزتي . وقال عن ذلك لاتقدر ان تتصور الحالة التي وجدت الجيش عليها عند وصولي وما هي المصائب التي كانت مزمعة ان تحل بنا لو كان عدونا ذا اقدام . وكان الجنرال مسينا في اوكسبورج فكتب اليهِ اترك كل المرضى مع فرقتين وانزل الى جهة الطونة بكل سرعة فانني لم احتج قبل الان الى حميتك وغيرتك وهمتك كاحتياجي اليها الان . وكتب الى دافوست اخرج من راتسبون حالاً واترك فرقة للدفاع عن المدينة واصعد على الطونه بجيشك واهدم الجسر في راتسبون بحيث لا يمكن ترميمهُ وتقدم بيقظة وثبات الى ما بين النهر والنمسويين واحذر من ان تعرض جنودك لخاطر محاربة العدو قبل ان تنضم اليَّ في ظواهر السبرج

وفي برهة قصيرة اصبح جيش فرنسا كلهُ في حركة وحدثت مقاتله دموية فكان نابوليون يدير الامور كانهُ في كل مكان وانتصر في كل جهة . فهذه الحركات التي تمكن نابوليون من ان يجمع جيشهُ بها في وسط جيوش جرارة من الاعداء مواقفها اوفق من مواقفهِ لاتزال معتبرة من اهم اخبار الحرب وحوادثها وفي ثلثة ايام جمع تسعين الفًا من الرجال . وفي اثناء تلك الايام الثلثة حدثت مقاتلات شديدة فخسر النمسويون عشرين الفًا من القتلى والجرحى والاسرى . فالارشيدوق شارل تكدر جدًّا من هذا الانكسار وتمكن من جمع مائة الف جندي في اكموهل للقيام بقتال عنيف . وخطب نابوليون على جنوده قائلاً

يا ايها الجنود وقع تعدٍ على اراضي اتحاد الرين وظن القائد النمسوي اننا نركن الى الفرار عند ما نرى رايتهِ تاركين حلفاءنا في يدهِ وقد وصلت اليكم بسرعة البرق . يا ايها الجنود انني كنت محاطًا ببنادقكم عند ما وصل امبراطور النمسا الى مكان نزولي في موراقيا وسمعتموهُ يلتمس صلحي ويحلف بانهُ يكون صديقي الى الابد . يا ايها المنتصرون في ثلثة حروب ان كل ما هي النمسا عليهِ ناشئ عن كرامة اخلاقنا . وقد حنثت يمينها ثلث مرات ونجاحنا السابق ضمانة فوزنا المستقبل فلنسر وليعرف العدو المنتصرين عليهِ عندما يرانا

وفي ليل ١٩ نيسان (افريل) اخبر سافاري نابوليون بان دافوست وصل مع جيشهِ سالمًا فوجد الامبراطور في غرفة غير منظمة وقد مد رجليهِ على مجلس من خشب وادناهما من نار مشبوبة واخذ يفحص بتدقيق خارطة البلاد فسرهُ خبر قدوم دافوست سرورًا عظيماً حتى انهُ نهض بسرعة وركب فرسهُ واخذ يطوف بسرعة حول الجنود وكان برفقتهِ ولي عهد ملك بافاريا والبعض من جنرالاتهِ . فسر نابوليون بالنشاط والاقدام اللذين اظهرها ولي عهد ملك بافاريا فضربهُ بلطافة على كتفهِ قائلاً احسنت ايها الامير واذا كنت تداوم السلوك على هذا المنوال يكون لك عندما تدعى



للحكم على هولاء القوم هيبة وجلال ملك بافاريا ولا يفارقانك كل مدة حكمك ولكنك اذا كنت تبقى داخل قصرك وبلادك يقتدون جميعًا بك فتكون حينئذٍ قد اتت الساعة التي فيها يجب عليك ان تودع الملك والمجد

وفي ١٨ نيسان (افريل) كتب نابوليون الى مسينا يقول من الامور الضرورية جدًّا ان يسير اودينو بجيشهِ وفرقك الثلث الاخرى وجنودك المدرعة وفرسانك بسرعة طلبًا للقيام غدًا في بنافنهوفن والجنود الذين في موخرة الجيش ينبغي ان يبذلوا جهدهم ليصلوا الى استخا او على الاقل ليتقدموا على قدر الامكان في الطريق بين اكسبرغ واستخا فان البرنس شارل قد سار من الاندشت في ٨٠ الف جندي ودخل البارح راتسبون واشتغل الباقاريون النهار بطولهِ بمقاتلة مقدمة جيشهِ . وارسلت الاوامر الى دافوست ليسير في ٦٠ الف جندي نحو نيوستات حيث يمكنهُ الانضمام الى الباقاريين . وينبغي ان تكون كل الجنود التي يمكن جمعها في بنافنهوفن مع الورتمبرغيين وفرقة من المدرعين وكل جندي يمكنهُ ضمهُ اليهم مستعدة للهجوم على موخرة جيش البرنس شارل واعلم اننا لم نبت في احوال تستدعي السرعة والهمة كهذه الاحوال ويقدر دافوست ان يقاتل البرنس شارل بجيش مولف من ٦٠ الف جندي فاني عالم ان جيش البرنس شارل سينشل ويتبدد بدون ان يكون لهُ رجاء بالحصول على امداد ومساعدة اذا تمكنت انت واودينو من الهجوم على موخرتهِ في ١٩ من شهر المذكور قبل بزوغ الفجر فتنتهي امور كل جرمانيا في ١٨ و١٩ و ٢٠ منهُ انتهى . ثم كتب الى مسينا في النهار التالي عند الظهر بان البرنس شارل كان في هذا الصباح مع كل جيشهِ على مسيرة نهار من راتسبون . وقد اخلى دانوست راتسبون وسار نحو نيوستات . ولذلك بت منتظرًا في كل دقيقة حدوث معركة . سينهي اليوم كل شيء ان الدقائق ثمينة . ويجب ان تعد الساعات ولا يلزم لتبديد ١٢ او ١٥ الفًا من الصعاليك الذين انتصرت عليهم في هذا الصباح اكثر من ٦ الاف من رجالنا

ثم نام نابوليون بضع ساعات في كرسيهِ وقبل بزوغ الفجر ركب جوادهُ واخذ ينظم جنودهُ لاجل القتال والسهول التي كانت مغطاة حينئذٍ بضباب كثيف كانت مزمعة ان تغطى بدماء مئات من اولئك الجنود الابطال الذين صرفوا الليل فيها . وكان مئة الف من جنود النمسا نيامًا في سهل اكموهل بطمانينة غير عارفين بالخطر الذي حاق بهم فان حذاقة نابوليون ومعرفتهُ الغريبة في التدبيرات العسكرية مكنتاهُ من ان يحمل ٩٠ الف جندي لملين بخبرة الانتصار يسيرون نحوهم من جهات مختلفة فاشرقت شمس لطيفة حارة على تلك الهضاب الجميلة وبددت الابخرة التي كانت مظللة لها وكان ذلك الوادي الاخضر من ابهج المناظر الطبيعية بمروجهِ الخضرا والينابيع المعدنية والجنات والقرى والمزارع وبيوت الفلاحين المحاطة بالاشجار وكانت الاعلام تخفق في النسيم

اللطيف بدون ان تكدر السكينة السائدة في ذلك المكان وكان السهل مغطى بمضارب النمسويين البيضاء وكان لمعان الاسلحة ينكسر على مياه الينابيع الجميلة والغياض اللطيفة محيطة بمجاري المياه لتحفظها من المكدرات الخارجية والافراس الكثيرة العدد ترعى الاعشاب الخضراء الطرية وتستقي بالندى اللطيف الذي كان يملوها فكان كل ذلك من المناظر السلمية المبهجة لكن شيطان الحرب كان سائداً فيها مزمعاً ان يحولها الى افجع المناظر ويحول سكينتها الفردوسية الى حركة جهنمية ومياهها الباردة الى دماء حارة ومروجها الخضراء الى بقاع حمراء ملطخة بالدماء

ولما كانت تبلغ فرق الجنود الفرنسوية الهضاب المطلة على ذلك السهل كانت تتوقف عن المسير لتنزه ابصارها بتلك المناظر العجيبة . فعلا في الجو صليل الاسلحة وحركات الجنود الدالة على قرب انتشاب القتال فكانت الطبول تضرب والالات العسكرية تصدح بانغامها المهيجة واخذ جنود المدافع والفرسان والمشاة في الانتظام لمقابلة العدو وامتلات التلال بجماهير الفرسان لكنهُ لم يطلق مدفع ولا بندقية قبل الظهر بل كان الفريقان يشتغلان في اتخاذ مراكزهم بهدو كانهم كانوا يقومون معاً بافراح عيد عمومي وكانت الشمس في الهاجرة عند خروج اول طلق من تلك الصفوف الكثيفة وكان ذلك الطلق دلالة على قرب اشتباك حرب دموية نادرة المثال في الحروب القديمة والحديثة . وكانت تلك المناظر تؤثر في قلوب اكثر اولئك الجنود الذين تعودوا خوض المنايا واظهر نابوليون في ذلك النهار من الحذاقة العسكرية مالم يظهرهُ في غيرهِ وكانت فرق جيوشهِ المختلفة تسير لمقابلة العدو بنظام وترتيب وكان يعلم انها عارفة بحركات العسكرية وتانيها في الامور وعدم مبالاتها بالمخاطر التي كانت تتهددها واعتبارها الحرب كاحد الالعاب العادية فاستمر القتال مدة ٥ ساعات ولما مالت الشمس الى الافول اخذ العدو في التاخر الى الوراء . وابقى نابوليون فرسان الحرس الامبراطوري خارج ساحة القتال الى حين الحاجة وكانوا ينتظرون بفروغ صبر ان ينفذ امرهُ بحملهم لينصبوا على العدو انصباب الاسود . وكان اولئك الابطال مدرعين بالفولاذ اللامع راكبين افراساً قوية وكانت قلوبهم اصلب من الجلمود فكانت كل هجماتهم مكللة بالفوز والانتصار . فرقوا الهضاب ثم انصبوا على السهل حيث كان اخوانهم مشتغلين بمقاتلة العدو وكانوا يسيرون الهوينا الى ان صاروا على مراى من العدو وكان الفرنسويون الذين يعدون الحرس الامبراطوري يد نابوليون اليمنى منتظرين هجومهم على العدو لينهوا بذلك تلك المعركة المهولة . فصرخ فرسان الحرس عند دنوهم من العدو صراخاً ارتجت لهُ الجبال وعلا على رعود جلبة القتال . اما الفرسان المدرعون النمسويون فكانوا كثيري العدد مسلحين باسلحة ثقيلة كاعدائهم مهيجين بشجاعة تحاكي شجاعتهم مستعدين لصد العدو بذراع قوية وكانت دروعهم واسلحتهم تلمع في اشعة الشمس الافلة فانصبوا على صفوف اعدائهم الكثيفة في ميدان



الحرب الواسع . فوكز الفرنسويون افراسهم واندفعوا على النمسويين بشجاعة عجيبة فضربت الطبول انغام الهجوم فهجموا وكان السهل يرتج تحت اقدام افراسهم القوية . وكان صليل الاسلحة واصطكاك السيوف مما يزيدهم باساً واقداماً فالتقى الفريقان في ميدان الحرب صارخين صراخ الجن مقتحمين الموت كالاسود الكاسرة وابتنت الجيوش المحاربة بحدوث مذبحة هائلة بعد ذلك الصدام الهائل حتى ان الجميع وضعوا اسلحتهم واخذوا يراقبون تلك الفرسان الجهنمية منتظرين نتيجة تلك الحرب الدموية . فكمت المدافع والبنادق طلقاتها واتكا الجنود على بنادقهم والطوبجية الذين كانوا قد اعيوا من التعب اتكاوا على مدافعهم وحولوا انظارهم جميعاً نحو ذلك المنظر المبهج المحزن . فكانت نتيجة تلك المعركة مريعة جداً . فان مئات من الفرسان والافراس كانت تتساقط الى الارض فتدوسها الخيل بارجلها ثم هب نسيم بارد فبدد دخان نيران المدافع والبنادق فانكشف عن شمس لامعة بزغت اشعتها المحرقة على ميدان حرب متسع الدائرة وكان الجيشان محافظين على هدو تام تاركين الحكم بالفوز والغلبة لفرسان الحرس الفرنسوي والنمسوي ولم يكن يسمع الا صوت ضرب الطبول وقعقعة الاسلحة وجلبة الفرسان وتهداب الجرحى وصهيل الخيل فغابت الشمس قبل انتهاء تلك المعركة واخذ ظلام الليل في الهجوم وكانت النجوم تظهر واحدة فواحدة في الفلك الصافي وطلع القمر والقى نورهُ الساطع على تلك المعركة الهائلة وسواعد تلك الفرسان لم تكل من الطعن والضرب . فكنت ترى الفرسان تتساقط مع افراسها امام حد السيف كسقوط السنابل امام مناجل الحصادين والصفوف ترجع الى الوراء ثم تتقدم الى قدام حتى غطت جثث القتلى ساحة القتال فضعف عزم حرس النمسويين بعد ان خسروا نحو ثلثي رجالهم وحاولوا الثبات امام العدو فلم يقدروا فتقهقروا الى الوراء وركنوا الى الفرار فصاح الفرسان الفرنسويون باصوات مرتفعة فلبى الامبراطور وتتبعوا اثرهم واخذوا يوقعون بهم حتى غطت قتلاهم وجرحاهم تلك السهول فلما راى الجيش النمسوي انكسار حرسهِ الامبراطوري اخذ حالاً في التقهقر الى الوراء واما الفرنسويون فضجوا باصوات الفرح عند ما سمعوا اصوات اخوانهم المنتصرين وساروا بحمية جديدة متتبعين اثر اعدائهم المنكسرين فتجدد شبوب نيران الحرب وملات المدافع تلك السهول باصواتها المرعبة وكانت ترمي العدو بكراتها حتى ملا الدخان الفلك وحجب نور القمر والنجوم فكان ذلك من المناظر التي يقصر عن وصفها القلم ويكل عن تعداد بلاغاتها اللسان . فامر نابوليون الجيوش حالاً ان تتوقف عن تتبع العدو رغماً عن الحاح (لان) . فالقى الجنود انفسهم على الارض الملطخة بالدماء لشدة التعب واستغرقوا حالاً في نوم ثقيل واما النمسويون فجدوا المسير نحو راتسبون ليعبروا الطونه ويتخلصوا من باس اعدائهم وفتكهم

ولما امر نابوليون بهجوم فرسان حرسهِ كان الجنرال سرفوني حاملاً رسم البلاد مشغولاً بالتامل

فيها فاصابتهُ كرة مدفع كبير وهو على مراى من الامبراطور فلم يجد الجنود الا قطعًا من جسده . ثم اتاهُ احد اركان حربهِ ليخبرهُ عن استيلاء العدو على موقف وبينما كان مشغولاً بتوضيح الكيفية اشار بيمينهِ الى احدى الجهات فمرت رصاصة بالقرب من راس الامبراطور واصابت يدهُ فقطعتها . فاعتنى نابوليون بهِ اعتناء الوالد بولده ولكنهُ لم يغير موقفهُ المحفوف بالخطر فلامهُ الضباط والقواد على تعريضهِ نفسهُ للخطر فاجابهم بلطف ماذا افعل لابد من ان ارى حركات القتال

ونام نابوليون بضع ساعات بعد ٤ ايام وليال صرفها بلا نوم وقبل بزوغ الفجر نهض وحرض جنودهُ على مطاردة العدو الهارب . وكان الارشيدوق ( البرنس شارل ) في موقف خطر فان الفرنسوية ضايقوهُ بالمطاردة وكان نهر الطونه الواسع امامهُ لا يتسنى لهُ اجتيازهُ الا بجسر راتسبون واصبح جيشهُ في بوس وضيق عظيم . وخسر البرنس شارل في معركة اكمول ٦ الاف نفر بين قتيل وجريح ونحو ٣٠ الف اسير وراية ومقدارًا وافرًا من الذخائر . وذهب البعض الى ان خسائر الفرنسويين كانت اكثر من ذلك او اقل منها ولا تعرف الخسارة الحقيقية في معارك عظيمة كهذه

وعزم البرنس شارل على اجتياز الطونة بالسرعة والالتجاء بجيوشهِ الى براري بوهيميا مومِلاً الانضمام الى النجدة المنفذة اليهِ . فترك نيرانًا عظيمة في المعسكر لاخفاء قصده عن الفرنسويين وسار بسرعة نحو الطونة واشاح حالاً جسرًا من القوارب على النهر واخذ الجيش يقطعهُ ليلاً على جسر القوارب وجسر راتسبون . فسار نابوليون باكرًا بفرسانهِ للهجوم على موخرة النمسويين المصطفة امام راتسبون لوقاية الجنود عند اجتياز النهر وبعد مناوشة انكسرت الموخرة ولجأت الى داخل اسوار المدينة واُقفلت الابواب وصفت المشاة في الحصون . فنظم نابوليون مدافعهُ بسرعة عظيمة واطلق على الجماهير التي كانت قد ملات اسواق المدينة والجنود التي كانت لا تزال تجتاز النهر مقدارًا وافرًا من الكلل والرصاص وقطع الحديد والنحاس وتمكن من ثقب اسوارها فدخلها الفرنسويون والتقوا بالنمسويين واخذوا يتطاعنون ويتضاربون فقتل كثير داخل الاسوار

وفيما كان نابوليون مشغلاً بتدبير الجنود اصابت رجلهُ رصاصة جرحتها جرحًا بليغًا بدون ان تعطلهُ فتالم جدًا . وقال اصبتم الغرض . انتهى . ونزل عن جوادهِ وضمد جرحهُ حالاً فشاع الخبر بين الجنود . فاسرع اليهِ القريبون منهُ واجتمع حولهُ نحو ١٥ الف رجل ولوائح الكدر الشديد تلوح على وجوههم . وكان نابوليون ينظر اليهم بحنو متبسماً ويمازح كل الذين تمكن من مخاطبتهم واكد لهم ان جرحهُ غير بليغ ولراحة بالهم ركب جوادهُ وطاف بين الصفوف مع ان الم جرحهِ كان شديدًا جدًا فقابلوهُ بالضجيج والتهليل الناشيء عن محبة خالصة لم يكتسبها بشر قبلهُ فاشتد عليهِ الالم حتى الجاه الى الذهاب الى كوخ احد الفلاحين ولما وصل اليهِ اغمي عليهِ ثم استفاق



وركب جوادهُ واخذ يدبر الحركات في تلك المعركة الهائلة وكان الاصفرار يعلو وجههُ وقد اعياهُ التعب

ولما دخل الفرنسويون المدينة من ثقب السور كان اكثر النمسويين قد عبروا النهر . وتوارت الجنود الهاربة عن اعين الفرنسويين في هضاب بهومير والد المكسوة بالاشجار . وبعد ان اخرج نابوليون العدو من اراضي حليفهِ ملك بافاريا تركهُ بين جبال بوهيميا وعسكر في راتسبون فاعمال كهذه تحاكي الاعمال المنسوبة الى الجن فان نابوليون خرج من باريس منذ ١٢ يومًا فقط . فقطع في ٦ ايام المسافة الطويلة بين السين الذي يجري في باريس ونهر الطونه وفي ٤٨ ساعة جمع جنوده المتفرقة في محلات بعيدة مختلفة مع انهُ كان مشتغلاً بمحاربة متواصلة وكان طالع النصر يرافقهُ على الدوام . وتمكن من مهاجمة عدو اكثر منهُ عددًا في سهل اكمول واجبارهِ اياه على اجتياز الطونه وعلى الفرار ومنذ ١٥ يومًا كان ٢٠٠ الف من الاعداء الذين كانوا قد تمولوا بكاس الانتصار وايقنوا بالفوز قد احتلوا اراضي بافاريا وفي ايام قليلة باتوا منشولين وهربوا مقهورين من ضربات العدو الشديدة الى هضاب بوهيميا المنفرة وبلغت خسارة النمسويين في الستة الايام الاخيرة ٦٠ الفًا من قتلى وجرحى واسرى وسقط ٤٠ الفًا منهم تحت سيوف الفرسان ونيران المشاة وتركوا ايضًا ٦٠٠ عجلة من الذخائر و ٤٠ راية واكثر من ١٠٠٠ مدفع ومقدارًا عظيمًا جدًا من الامتعة والادوات

واظهر الامبراطور نابوليون في هذه الحرب غير العادية من القوة العقلية والنشاط ما لا يمكن تصديقهُ لو لم يكن مثبتًا ببراهين راهنة . وكانت المسافة بين باريس ومعسكر الطونه نحو ٦٠٠ ميل فقطع هذه المسافة في عجلة ولم يكن يرتاح خارجها وكان يلتزم ان يقف في محلات كثيرة لفحص الحصون ولكتابة الاوامر لالوف من الوكلاء في فرنسا واسبانيا وايطاليا والمانيا . ولما وصل الى جيشهِ اشتغل ٥ ايام بلياليها . وكان عند نصف الليل يتكي على كرسيهِ بدون ان يرفع برنيطتهُ او يخلع حذاءهُ وينام ساعة ثم يستيقظ وياخذ في تكميل كتابتهِ بنشاط جديد ويركب جوادهُ وياخذ في التطواف غير مبالٍ بالظلام والعواصف والوحل . وكتب الى ضباطهِ في تلك الايام الخمسة ما يملا مجلدًا عظيمًا . وكان بعد ان يطوف راكبًا مدة ١٥ ساعة يبتدىء نصف الليل في املاء الرسالات كانهُ لم يتكبد مشقة ولا تعبًا

## الفصل الثامن والاربعون

## حروب واعمال اخرى

ان الانكليز اخذوا العجلة التي كان نابوليون يسافر فيها في معركة واترلو وهي الان في

معرض لندن . وهي مصنوعة بحيث توافق احتياجات الامبراطور واشغاله المستمرة . فانها بسيطة الصنعة قليلة الزخرف غير ان فيها اسباب الاشتغال بالراحة . ففيها لوح مسطح قليلاً ليكون مائدة للكتابة وكيس في جانبها فيه اوراق ومغلفات واقلام وغير ذلك وفي جدرانها صناديق كثيرة مختلفة الاشكال فيها كتب ورسوم ومراسلات وجرائد . وفيها مصباح في الجهة الخلفية ليتمكن من القراءة والكتابة في الليل ومقعد يمكنهُ ان يتكئ قليلاً عليهِ وهو يقرا وفيهِ وسادات لمنع الاهتزاز الشديد الذي ينشا عن مسيرا العجلة وكان يسير وهو يفحص اعمال المهندسين الحربيين والمدنيين ورجال السياسة والقواد الاولين والثانويين حتى قواد الفرق الصغيرة . وكان يمزّق الكتابة بعد قراءتها ويرميها من نافذة العجلة ويحفظ ما لها في ذاكرتهِ العجيبة . وامر ان ترسل اليهِ تآليف باريس العلمية والدينية واللغوية وكان يطالع شيئاً قليلاً من الكتاب فان وجده حسناً يطالعهُ كلهُ والا فيرميهِ من النافذة وكانت قطع الاوراق والجرائد والكتب ملقاة على جوانب الطرق التي كان يمرُّ بها . وكان على الدوام يعلق امامهُ رسم البلاد التي يسافر فيها . وكان كلما وقف في مكان في الطريق يرتب لهُ فيهِ بيت يختار احسن غرفة فيه مكتبة فتوضع رسوم البلدان التي فيها جيشهُ على مائدة في وسطها ويعين مركز كل جيش وفرقة وكل طريق وجسر واسباب الاتصال وكان يعين مراكز العدو وانواع الجنود بدبابيس سترت رووسها بشمع مختلف الالوان . وكان يقوم بذلك بسرعة وانتظام فلم يكن يذهب الزمان سدى بالانتظار اينما حل . وكان يقام في كل زاوية من زوايا تلك الغرفة مائدة للكتابة . فكان يملي على الكتاب وهم يكتبون . وكان قادراً على امر غريب وهو ان يحكم بامور كثيرة ويقررها في عقلهِ في وقت واحد . فكان في الغالب يتمشى في المخدع لابساً برنيطتهُ ويداهُ وراء ظهرهِ ويصدر اوامرهُ ويوضح اراءهُ بعبارات مختصرة كثيرة الفائدة . فكان يملي على كاتب اوامر متعلقة بحركات الجيش . ثم يلتفت الى كاتب اخر ويبدي رأياً على امر مالي مهم او على امر سياسي . والى ثالث ويبلغهُ اجوبة على كتابة سفير وكثيراً ما كان يسلم الرابع الرسالات الخصوصية وكان بعد ان يصرف بضع ساعات على هذه الحال يمسك القلم ويكتب اسطراً قليلة مختصرة بليغة لزوجتهِ جوزفين الامينة ثم يركب عجلتهُ او فرسهُ ويسير مسرعاً . ولما كان في وسط تلك الاعمال العظيمة كتب الى جوزفين ما ترجمتهُ

من دوفورث في ١٨ نيسان (افريل) سنة ١٨٠٩

امس وصلت الى هنا الساعة الرابعة صباحاً وساذهب حالاً . وكل شيء في حركة والاعمال الحربية في اقدام عظيم . لم يحدث شيء جديد . صحتي جيدة . كلي لك نابوليون

ولم يكن يتجنب المشقات التي كان يعرض جيشهُ اليها . ولم يكن احد نظيرهُ يعرض نفسهُ لمشقات كالتي كان يصادفها . وخطب على الجيش في راتسبون قائلاً



ايها الجنود لقد فهتم بما كنت انتظر منكم . وجعلتم الشجاعة تقوم مقام العدد وابتم الفرق بين جيوش قيصر ورجال كسرى المسلحين غير المنتظمين . وفي ايام قليلة فزنا في معركة ناون وانسبرغ واكموهل ويستك واندشت وراتسبون . ومن ثمرة سرعة مسيركم وبسالتكم اغتنم مائة مدفع واربعين راية وثلثة الاف عجلة ذخائر مع افراسها وخزائن كل الفرق واسر خمسين الف اسير . والظاهر ان العدو المخدوع باكاذيب الوزارة نسي افعالكم فذكرتموهُ بها بسرعة عظيمة وبينتم لهُ انكم افتك مما كنتم قبلاً . ومنذ برهة قصيرة عبر نهر (ان) وحمل على ارض حلفائنا ولم يذكر شيئاً الا الدخول بالحروب الى قلب بلادنا . اما الان فقد انكسر وتبدد شمله ففر خائفاً مذعوراً وطليعة جيشي قد عبرت (ان) وفي شهر نصبح في فينا . انتهى

قال نابوليون عن هذه الحروب ان اعظم الحروب التي قمت بها واثني على نفسي بسببها حروب اكموهل فانها اعظم جداً من معارك مارنجو ومن سائر اعمالي . انتهى . وفي اليوم الثاني عرض قسم من الجيش للامبراطور في راتسبون وجرى دفن كل الموتى وغسلت الدما التي كانت جافة في الشوارع وكان الجرحى الذين قطعت بعض اعضاء اجسادهم وكسرت عظامهم او سحقت مطروحين ضمن المستشفيات يئنون من الالم فلم يظهر غير احتفال النصر وعظمتهِ وافراحهِ . وكانت كل فرقة تمر امام نابوليون وحدها فيسال قائدها عن الذين يستحقون المكافاة من جنودها . وكان كثيراً ما يكافي جندياً مكافاة ينتظرها قائدهُ . وفي ذات مرة كان مشغولاً بتعليق نيشان اللجيون دونور بصدر احد الابطال فسالهُ ذلك البطل هل عرفتني قال لا كيف اقدر على معرفتك . قال الجندي انا الذي اعطيتك في بادية الشام قسماً من زادي . قال هذا الصحيح وقد عرفتك ورقيتك درجة اخرى وعينت لك معاشاً سنوياً الف فرنك . فاعتناه نابوليون بمكافاة كل بطل امتاز وكل من عمل عملاً اجابة لدواعي الانسانية والمروة كان يجعل الجنود الفرنسوية تحبهُ حباً غير عادي

اما راتسبون فاحرق قسم عظيم منها وكانت الملك بافاريا حليف نابوليون فكان النمسويون يفرون من الشوارع المحترقة وينظرون اليها بسرور اما نابوليون فبادر الى ترميمها من مالهِ . وقال اليمون المورخ الانكليزي ان نابوليون صرف من صباح ١٩ الشهر عند ابتداء معركة انسبرغ الى ليل ٢٢ منهُ عند نهاية معركة راتسبون وهو يركب او يملي الرسالات حال كون الذين حولهُ يكادون يسقطون من التعب ثم يشرع في قراءة الرسالات واملاء اجوبة ويجلس الى نصف الليل يسمع تقريرات القواد ويصدر الاوامر الى الصباح

وكان نهر الطونة بين نابوليون واعدائهِ الكثيرين وكان قد فاز بفتح الطريق المودية الى فينا قاعدة النمسا وكانت مبنية على الجهة التي كان جيش فرنسا مقيماً فيها وبينها وبين راتسبون نحو مائتا ميل . وكان ملتزماً باجتياز انهر كثيرة وفتح مضيقات عديدة حصرها النمسويون لبلوغ تلك

العاصمة . ومع ذلك صمم على الحمل عليها لتسوية امور صعبة كثيرة نشأت عن خيانة وزارة هجمت عليهِ وهي تدّعي صداقتهُ . فزحفت الجنود الفرنسوية عبر مبالية بالموانع قاطعة اودية الطونه وكان النمسويون يتقهقرون ويقيمون صفوف مدافعهم في كل ضفة نهر مقابلة للضفة التي كان الفرنسويون يحلون بها بعد ان يهدموا الجسور ويكسروا القوارب . وكانوا يقفون في كل مضيق مدافعين عنهُ بثبات وبسالة . وكان نابوليون قد افرغ جهده في تجنب انتشاب هذه الحروب ولما عز عليهِ ذلك وجه قواهُ العقلية العظيمة وهممهُ العلية بثبات واقدام الى انهائها . وكان يشيد جسوراً جديدة تحت نيران النمسويين مذكراً ابطالهُ بمعركتي لودي واركولا فكانوا يثبتون قبالة آلات الهلاك والويل . اما النمسويون فباتوا يخجلون ان يطلبوا عقد الصلح بعد فتح تلك الحرب بلا مسوغ . وكان الارشيدوق شارل من الذين قاوموا فتحها منذ البداية فكتب الى اخيهِ الامبراطور فرنسيس واخبرهُ بتفاصيل كسراتهم وبلاياهم . فارتعدت فرائصهُ خوفاً واضطرب هو ورجال دولتهِ ففوض اليهِ الكتابة الى نابوليون فكتب اليهِ ان جلالتكم اظهرتم وصولكم باطلاق المدافع فلم اتمكن من الفرصة اللازمة لاجيب عليها . ولم اكن متاكداً وصولكم ولكنني عرفتهُ بالخسائر التي لحقت بجيشي وقد اسرت كثيرين منهُ واسرت بعض جنودك في المحلات التي لم تكن فيها فاطلب الى حضرتك ان تبدلهم رجلاً برجل بحسب مامورياتهم . فاذا قبلت بذلك فعين مكان المبادلة فياسيدي انني افتخر بمحاربة اعظم قائد في هذا العصر واكون اسعد اذا وفقني الله الى نفع وطني بمصالحة ثانية . وارجوك ان تتاكد مهما كانت حوادث الحرب ان مرادي يفوق مرادك وانني أُشرّف بملاقاة جلالتك وبيدك السيف او غصن الزيتون علامة للسلام . انتهى

ولم يبلغ هذا الاعتذار الى نابوليون الا بعد ان تقدم كثيراً في وادي الطونه ولم يبق مانع يمنع وصولهُ بالفوز الى فينا العاصمة . فصمم على المجاوبة وهو بفينا في قصر اسخونبرون الامبراطوري . ودنت الجيوش الفرنسوية من نهر تروان وهو من فروع نهر الطونه فصمم على اجتيازه من محلات كثيرة يبعد بعضها عن البعض الاخر بضعة اميال . فدنا القائد مسينا بسبعة الاف رجل من المكان المقابل لامبرسبرغ وتم هناك عمل من اعظم اعمال الشجعان وقتل عدد غفير جداً . وكان النهر عريضاً جداً وفوقهُ جسر ضيق طولهُ ١٢٠٠ قدم وكان في احدى جهتيهِ تلٌّ عليهِ مدينة امبرسبورغ وفيها قلعة حصينة كثيرة المدافع وامام الجسر جيش عددهُ اربعون الفاً . وكان في جهتهِ الغربية بيوت كثيرة دخلها جنود كثيرون ببنادقهم وصفت مدافع عديدة في التلال المقابلة امام الجسر وكان من خشب يسهل خرقهُ . وثبت عند النمسويين انهُ لا يقوى عن اجتيازهِ وان الفرنسويين لا يحاولون عبوره . على ان البطل مسينا لم يتردد دقيقة عن العبور فامر جيشهُ بالهجوم الاَّ خوفاً من ان التاخر يمكن النمسويين من هدمهِ . وكان الجنرال كوهورن الفرنسوي معتدل القامة ومن اشجع



الابطال واقلهم خوفاً من الموت فسار في مقدمة فرقتهِ واقتحم الجسر بسرعة فحدث عند ذلك ما لم يسمع مثلهُ في الاخبار التاريخية . فان الدخان غطى اولئك الجنود في لحظة وصبت عليهم الكرات والرصاص والحديد كانها برد غزير ساقط من السماء فانزل بهم الهلاك الاحمر وويلاً تقشعر منهُ الابدان . واحترقت عجلتان او ثلاث عجلات بها ذخائر في وسطهم واهلكت جميع الذين كانوا حولها . فلما راى مسينا ان القتلى والجرحى يكادون يسدون الجسر تقدم بالجنود التي كانت لا تزال معهُ لتطرح القتلى والجرحى المنكودي الحظ في النهر الكثير المياه فالذين قاموا بذلك ذاقوا كاس الموت ايضاً ببرهة قصيرة فطرحهم في النهر الذين كانوا يتبعونهم لتبقى طريق النهر مفتوحة . والتزم بان يقوم بذلك خوفاً من ان يكون الهلاك اعظم اذا باتت الجنود غير قادرة على المرور من جثث القتلى والجرحى . وكان اولئك الابطال يفعلون افعالاً لا مثيل لها فيسيرون غير مبالين بالدخان وكلل الموت ورصاص الويل والهلاك الاحمر . وكانوا يدوسون جثثاً واعضاء اجسادٍ قد انفصلت وهم يطرحون الى النهر الجرحى الذين كانوا يتوسلون اليهم بان يبقوا عليهم . وقد اصاب الدوق اوف ولكتون بما قال وهو ان الرجل الملطفة عواطفهُ بالتعاليم المسيحية لا يصلح ان يكون جندياً . انتهى . واستمر الفرنسويون حاملين في وسط ذلك الموت مستميتين الى ان وصلوا الى الجهة الاخرى من الجسر وقد هلك الصف الاول كلهُ على ان الذين كانوا وراءهم هجموا دائسين رفاقهم وكسروا الابواب وكسروا اعداءهم فتقهقروا في المدينة وهم يحرقونها ويدافعون بثبات عن كل فترٍ من الارض . على ان الفرنسويين استمروا حاملين دائسين القتلى والجرحى من الجيشين فاشتد القتال في الشوارع الملتهبة . وفي النهاية استولى الفرنسويون على امبرسبورغ بعد ان تركها النمسويون خراباً يتصاعد منها لهيب ودخان حتى انهُ لم يكن يتيسر اخراج الجرحى من الاماكن المحترقة فكانت الاخشاب المحترقة تسقط على اولئك المنكودي الحظ وهم يئنون الماً فان النار كانت تحرق بالتدريج اعضاء اجسادهم المثخنة جراحاً فكان صراخهم المفتت للاكباد يمزج بضوضاء القتال المخيف . فانتشرت روائح احتراق الاجساد بدخان ذلك الخراب . ومع ذلك لم يتوقف الفرنسويون بل كانوا يحملون في الشوارع المحترقة دائسين قطع الاجساد البشرية المسودة بالنار بارجلهم وحوافر خيولهم . ودواليب عجلات مدافعهم وذخائرهم كانت تسحق بقايا اللحوم البشرية والعظام والوحول المختلطة بالدماء تجعلها كلها كمادة واحدة لا يقدر القلم ان يقوم بحق وصفها . فاندهش النمسويون من شجاعة اعدائهم غير العادية فركنوا الى الفرار برعدة تاركين ستة الاف من قتلاهم . وكان نابوليون بعيداً عن ذلك المكان فسمع اصوات المدافع فسار ركضاً الى ميدان القتال واقشعر بدنهُ لما راى تلك الحال مع انهُ كان متعوداً الحروب وراى من ويلاتها ما لم يرهُ احد . فاثنى على شجاعة مسينا على انهُ لم يكن يقدر ان يمتنع عن اظهار كدرهِ من الهلاك الذي راهُ وقال انهُ ربما كانت تتيسر مجانبتهُ بانتظار هجوم

فرقة لانزي على جناح العدو فانهُ كان قد عبر النهر في مكن يبعد بضعة اميال عن الجسر المذكور

وقال نابوليون لاوبارا عن القائد مسينا ان مسينا من اصحاب الحذق والاقتدار . ولكنهُ كان يقوم غالبًا بتدبيرات غير مصيبة قبل انتشاب القتال . وبعد انتشاب الحرب عند سقوط القتلى يقوم بتدابير مصيبة ففي وسط القتلى والجرحى وانصاب الكتل على الذين يحيطون بهِ كان يفعل ما يليق بهِ فيصدر اوامرهُ ويدبر حركات القتال باصابة عظيمة وتانٍ مدهش . فهذا يدل على حذق عظيم . واصاب الذين قالوا انهُ لم يكن يدبر تدبيرًا حسنًا الا بعد ان يظهر ان الدائرة ستدور عليهِ . ولكنهُ كان لصًا يشارك الذين يقدمون الزاد والذخائر للجيش لاكتساب المال . وقلت لهُ تكرارا اذا امتنع عن ذلك اهبهُ ثمانماية الف فرنك او مليون فرنك . وكان قد تعود السرقة فبات لا يقدر ان يغير عادتهُ . فكان الجنود يكرهونهُ فعصوا عليهِ تلث مرات او اربع مرات وكان نافعًا جدًا ولو لم يكن منجسًا بذلك الاثم لكان من عظماء الرجال . انتهى

ودخل نابوليون ومعهُ سافاري المدينة المحترقة فوجد اثنين او ثلثة من الجرحى في قيد الحياة كانوا قد زحفوا الى فسحة لم تدركها النيران . وقال سافاري لا شيء تقشعر منهُ الابدان كمشاهدة رجال ماتوا حرقًا ثم سحقوا بحوافر الخيل ثم بدواليب العجلات . ولم يكن سبيل الى دخول المدينة الا بالمسير في وسط تل من اللحوم البشرية التي كانت قد شويت بالنار وتصاعد منها نتن لا يقدر الناس ان يحتملوها فالتزم الفرنسويون ان يجمعوهُ بجارف لدفنها كانها وحول مجتمعة في الشوارع . فجاء الامبراطور ذلك المكان وقال وهو مار فيهِ ياحبذا لو راى كل الذين يهيجون الحروب منظرًا كهذا المنظر المحزن فيشاهدون الويلات التي تحل بالبشر باعمالهم . ثم لاطف الجنرال كوهورن ومدحهُ على ما اظهر من الشجاعة والبسالة . ثم قال لهُ لولا شجاعتك وسرعة انفاذ الاوامر لانتظرت الجنود التي كانت اتية لتخلص الجيش من تلك الخسائر العظيمة

وبعد ذلك اخذ نابوليون يسير بسرعة قاصدًا فينا ولم يكن هناك مانع عظيم يمنعهُ . وكان شديد الرغبة في جمع المعارف فجاء برجل واركبهُ بجانبهِ ليدلهُ على كل ما كان يراهُ وهو سائر ما بين التامل وفي ذات يوم راى عن بعد تل ابراج دارستين القوطية وهو المكان الذي اسر فيهِ الملك رنشرد الملقب بقلب الاسد . فاوقف فرسهُ برهة وصرف بضع دقائق في التامل في تلك الابراج ثم قال لبرتيه ولانزي ان رنشرد كان من الابطال الذين حاربوا في سورية وفلسطين وصادف حظًا في عكا لم تصادفهُ نحن . غير انهُ لم يكن اشجع منك يا لانزي . فانهُ فاز على صلاح الدين العظيم ولكن بعد ان عاد الى اوربا ببرهة قصيرة وقع في ايدي قوم ليسوا من قومهِ . فان دوق اوستريا باعهُ لامبراطور المانيا الذي لولا ذلك لما كان لهُ ذكر في التاريخ وخانهُ جميع ابناء وطنهِ الا بلونول ولم تبذل الامة شيئًا لتخليصهِ . ثم صمت برهة وهو ينظر الى الابراج ثم قال



ان تلك الازمان كانت ازمان بربرية ومع ذلك يقول الناس بحماقة انها ازمان اعمال عظيمة جدًا مع ان الاب كان يضحي اولاده والمراة زوجها والرعية ملكها والجندي قائدهُ بلا خجل وبدون استتار . فما اعظم الفرق بين تلك الايام وايامنا وقد راينا ملوكًا وامبراطورين في قبضة يدي ودخائم عواصمهم ومع ذلك لم اجبرهم على دفع فدية ولا مسست ناموسهم . وراى الناس ملاطيني لامبراطور النمسا مع اني كنت قادرًا على سجنهِ . وخلف ليوبولد وهنري الذي يكاد يبيت في يدنا لا يعامل معاملة اردا من تلك مع انهُ جاء بافتراء عظيم

وفي ١٠ ايار ( مايس ) اصبح نابوليون بجيشهِ امام اسوار فينا بعد ان عبر النمسويون نهر (ان) بشهر واحد فقط . وكان الارشيدوق شارل قد اتاهُ لنجدتهِ جيش جرار فسار بهِ بسرعة في الضفة المقابلة ليخلص العاصمة . اما المدينة فمبنية على فرع صغير من الطونه تبعد نحو ميلين عنهُ والمدينة المتوسطة مستديرة محيطها نحو ثلثة اميال وكان فيها مائة الف نفس وهي محاطة بسور قديم من الاجر . وحولها فسحة جميلة عرضها نحو ربع ميل وفيها اشجار وطرق جميلة عمومية وخارج هذه الفسحة المدينة العظيمة وفيها مائتا الف نفس . اما محيط ضواحيها فكان نحو عشرة اميال وكان نابوليون راغبًا جدًا في تخليص المدينة من اطلاق المدافع فبعث اليها في الحال براية سلام فهجم خادم جزار على حاملها وجرحهُ فاركبوهُ على فرس وطافوا بهِ الاسواق فرحين . فبادر نابوليون الى حصر المدينة من كل جهاتها وطلب الى الاهالي ان يسلموا . وجمع عدة من اهل الضواحي ليطلبوا الى المدينة ان تسلم

وكتب برتيه الفرنسوي بامر نابوليون الى الارشيدوق مكسيمليان الذي كان يدير المدافعة عن المدينة بما ياتي

سيدي . ان الدوق دي مونتيبلو ارسل في هذا الصباح الى سموكم ضابطًا ومعهُ راية سلام وبوق . ولم يرجع بعد . فاطلب اليك ان تخبرني متى ترجعونهُ . فالاجراءات غير العادية التي جرت هذه المرة حملتني على مخابرتك بواسطة اهالي هذه المدينة . اما جلالة مولاي الامبراطور نابوليون فقد بلغ فينا بالحرب وهو راغب ان يخلص الاهالي الكثيري العدد المستحقين الشفقة من المصائب التي تتهددهم وقد امرني بان اخبر سموكم بانكم باصراركم على الدفاع عن المدينة تسببون خرابها حال كونها من اجمل مدن اوربا وتعرضون لبلايا الحرب جمهورًا من الناس الذين يستحقون الحماية مراعاة لاحوالهم واسنانهم وجنسهم . وقد طالما اظهر مولاي الامبراطور في كل بلاد سيق اليها بحوادث الحرب رغبة شديدة في تخليص الاهالي غير المتسلحين من افات القتال . ولا بد ان تتاكدوا انهُ مكدر جدًا لانهُ يرى قرب خراب تلك المدينة العظيمة حال كونهِ يفتخر بانهُ خلصها مرة سابقة . ومع ذلك قد خالفتم سموكم العادة الجارية في كل مدينة محصنة واطلقتم المدافع

على ضواحيها وربما كانت كلها قد قتلت نساء آمن رعايا امبراطوركم واولادهم . واشرف نفسي بالعرض لسموكم بان الامبراطور منع الجنود عن الدخول الى الضواحي النهار بطوله واكتفى باقامة جنود عند الابواب وارسال اقوام للتطواف وحفظ الراحة . غير انكم اذا اصررتم على الدفاع يلتزم بان يستعد للهجوم وفي ٢٦ ساعة تخرب العاصمة بمدافعنا ولا بد من تخريب المدينة الخارجية بمدافعكم والمحقق عند جلالتو ان هذه الامور لابد ان توثر فيكم وتحملكم على العدول عما لا يوخر فتح المدينة غير دقائق قليلة . فارجوكم ان تخبرونا بما عزمتم عليه برتيه

ولما بلغ الوفد القائد النمسوي ضاعف اطلاق المدافع فقتل كثيرون منهم بكرات ابناء وطنهم ففرغ صبر نابوليون ومع ذلك صمم على تقليل بلايا المدينة على قدر الامكان وقليلون من الفاتحين لا يستغنمون سنوح فرصة كهذه لاغتنام ما في بيوت اعدائهم . فسار راكبًا ومعهُ مسينا وسار احول حصون المدينة الجنوبية واختار لوضع صنوف مدافعهِ اماكن لا تقع كلها الا في اماكن بيوتها غير كثيرة . وانشا حواجز واخاديد وخنادق كثيرة و بعد الظهر بتسع ساعات ثم انشاء الات الخراب والهلاك لنصب نار الويل والدمار على تلك المدينة المنكودة الحظ وقبل اطلاق المدافع عليها كرر طلب التسليم فاجيب بالمدافع . فاطلق مدافعهُ اطلاقًا مخيفًا وكانت ريح الخراب تهب على المدينة بلا انقطاع لحظة واحدة واستمر ذلك عشر ساعات واطلق عليها ثلثة الاف كرة . وكانت الكلل تمر في ظلام نصف الليل كانها شهب ذات بروق ورعود . واخذ اللهيب يرتفع من جهات شتى من المدينة والدخان يتصاعد كانهُ دخان جبال نار مضطرمة . واثناء تلك الحوادث المخيفة حال كون كبد السماء يكاد ينشق من اصوات المدافع واصوات الابنية الساقطة وصراخ الجرحى وضوضا مائتي الف مقاتل واللهيب ينير الفلك كانهُ منقذف من مائة جهنم بدخانهِ وازرقاقهِ فتحت ابواب المدينة وخرج من السهل رجل براية سلام فسير بحاملها الى اركان حرب الامبراطور . فاخبرهُ ان في القصر الامبراطوري قبالة صنوف مدافع الفرنسويين ابنة الامبراطور فرنسيس الفتية مطروحة على فراش المرض . فانهُ لما دنا نابوليون من العاصمة ركبت العائلة المالكة الى الفرار فالتزمت بان تترك بنتها المريضة في المدينة . فلما سمع نابوليون بذلك امر حالاً بان يتغير توجيه المدافع التي ربما تضر بها . فهذه البرنسس الفتية تخلصت بحنو نابوليون واسمها الارشيدوقة ماريالويزا فينبغي ان لا ننساها لان نار بخوها خطير . فاقامت مستامنة في القصر ورسل الموت والخراب تمر حولها

فخاف الارشيدوق مكسيمليان من اللهيب الذي كان يحيط بالمدينة ومن الاسر فهرب بجيشهِ قاطعًا جسر طبور العظيم وهدمهُ بعد ان عبرهُ . وابقى في المدينة رجالاً من اتباعهِ فطلب حالاً الى نابوليون المهادنة ولم يطلب نابوليون شروطًا صعبة وغنم كل مخازن الذخائر ومحل صنع الاسلحة وفيهِ اربعمائة مدفع من اشد المدافع اتقانًا وامن الاهالي وصان املاكهم ومقتنياتهم . وبعد خروج



نابوليون من قصر التويلري في باريس بشهر دخل فينا منتصرًا . وكتب وهو في قصر امبراطور النمسا هذا الاعلان

بعد ان عبر العدو نهر (ان) بشهر دخلنا فينا . وسقط امامكم في الحال جيشهم وجنود حرسهم وحصونهم التي انشاها غيظ عائلة لوربن . وخرج برنس تلك العائلة بجيشهِ من عاصمتهِ ليس كجنود شرف يخضعون للاهوال ولمصائب الحرب ولكن كمذنبين يعذبون بتوبيخات ضميرهم . فبهربهم من فينا ودَّعوا الاهالي بالنقل واللهيب . وقد فعلوا فعلاً معيبًا وقتلوا اولادهم بايديهم . يا ايها الجنود ان اهالي فينا الذين قال الوفد انهم تركوا نساءهم يكونون موضوع التفاتكم وقد جعلت اهاليها الجياد تحت حمايتي المخصوصة اما اهل التعدي والتلاقل فيعاملون باصرم العدل . فيا ايها الجنود عاملوا الفلاحين المساكين بالحق واولئك الاهالي الجياد الذين يحق لهم اعتباركم فعاملوهم كذلك فلا ينبغي ان نفتخر بنجاحنا . ولنا فيهِ برهان العدل الالهي الذي يقاص الكنود والكاذب . انتهى

وصار الجنرال اندربوسي حاكم فينا وكان سفير فرنسا في النمسا وكان اهلها يحترمونهُ جدًّا . واراد نابوليون ان يبين لهم بذلك صداقتهُ وحبهُ لهم وافرغ جهدهُ في تخفيف اثقال ذلهم . فعوضًا عن استخدام جيشهِ ليحافظ على الراحة في المدينة جمع ستة الاف من النمسويين منهم الف وخمسمائة فارس للقيام بالضبط والحراسة . واخذت المآكل تنقل كل يوم من كثرة الناس فامر بالاتيان بقطعان من الماشية من المجر مع مقادير وافرة من الغلال لئلا يلتزم الاهالي بان يدفعوا اثمانًا باهظة واما الادنياء فعين لهم اشغالاً وكان يدفع لهم اجرة عادلة و يستخدمهم في تزيين عاصمة عدوهِ وقال موسيو تيرس ان ذلك لئلا يكون خبزهم مرًّا جدًّا . وكان نابوليون ظافرًا غير انهُ كان في احوال صعبة فان جيوش النمسا كانت لا تزال ثلثة اضعاف جيشهِ وكانت كل قوات انكلترا والنمسا واسبانيا مجتمعة عليهِ . فليتامل المطالع في الصعوبات والمشاكل المتسعة التي حنت بهِ . وكان قد خلص قسمًا من بولونيا من رق بروسيا وجعلها تحت حماية مملكة سكسونيا وجعل وارسو عاصمتها . وكان الارشيدوق فرديند شقيق الامبراطور فرنسيس ومعهُ اربعون الف مقاتل يخرب اراضي حليف فرنسا المذكور . وارسل امبراطور روسيا جيشًا الى سكسونيا بعد فوات الفرصة مدعيًا بانهُ لمساعدة نابوليون . و بعد انكسار جيش سكسونيا بهجمات جيش النمسا اسر رسول نمسوي فوجد معهُ رسالة من القائد الروسي باسم الارشيدوق فرديند يهنئهُ بانتصارهِ ويقول فيهِ المامول ان جيش روسيا يفوز بالاذن اللازم ليتحد مع جيش النمسا لمحاربة فرنسا بعد برهة قصيرة . فبعث بها نابوليون الى امبراطور اسكندر الروسي بدون ملاحظات ولا عتاب . فارتبك اذ عرف ارادة لعهِ والامراء فقرأ الرسالة صامتًا واكتفى بعزل القائد

ولم يضع نابوليون زماناً في التاسف الذي لا يجدي نفعاً ولكنهُ تكدر جداً بالوقوف على الصعوبات التي كان امبراطور روسيا يلاقيها . وكان عالماً ان محالفتهُ غير الوطيدة ربما تحولت الى عدوان في زمان قصير . ولما راى امبراطور روسيا ان كل اوربا كانت تناوم الامبراطور الجمهوري الفرنسوي وان توبيخات امهِ وامرائهِ متواصلة تاسف من اتحاده مع نابوليون حصن الحقوق العامة وروسيا حصن الحكومة المطلقة . ولم يحمل الامبراطور الروسي على ان يبتعد عن حلفائهِ الطبيعيين المضادين لفرنسا الا بحذق نابوليون وصفاتهِ التي ميزتهُ عن جميع اهل زمانهِ

وفي ذات يوم كان نابوليون راكباً ومعهُ سافاري فصمتا برهة وهو غائص في بحر من التاملات ثم قال نابوليون الظاهر ان امبراطور روسيا ارسل خمسين الف مقاتل الى بولونيا ليسعفني وهذا اسعاف وان كنت مستعداً الان ارى منهُ مساعدة اعظم من هذه

فقال سافاري ان روسيا لا تفعل غير شيء قليل فان النمسويين ربما كانوا لا ينقطعون عن التاهب والحرب عند حمل خمسين الفاً عليهم . وعندي انهُ اذا لم تزد روسيا عدد جيشها لا تحمل بالجيش المذكور على النمسويين ولا اعجب اذا ظهر ان ذلك من التدبيرات التي صار الاتفاق عليها فان هذه المساعدة نعجب منها لان روسيا اسعفت النمسا بمائتي الف لمحاربتنا في القتال الماضي

فقال نابوليون بهدو وتامل ينبغي ان اتكل على قوتي لا على مساعدتها . واثناء ذلك امر قائد بوارج روسيا في الادرياتيك بان يذهب ببوارجهِ الى انكونا لينقل جيوش مارمون الفرنسوية الى ايطاليا فامتنع مدعياً ان بوارجهُ لا توافق للسير . وقال لحاكم تريستهِ النمسوي انها تصلح لنقل الجيوش اذا كانت نمسوية لمقاتلة الفرنسويين . ثم قال نابوليون لسافاري اصبت بعدم الركون الى حلفاء مثل هولاء فلو لم احالف روسيا لما حدث ما هو اردا مما قد جرى . فما ذا ربحت بمحالفتها . ولولا مراعاة بعض المعاهدة المعقودة لشهرت عليَّ الحرب . فلا ينبغي ان نخدع انفسنا . فالدول كلها تعاهدت بان تلتقي عند قبري ولكنها تخاف ان تذهب اليهِ جهاراً . وربما ظن امبراطور روسيا انهُ يغمرني بجميلهِ بالامتناع عن فتح الحرب عليَّ ولو اشتبهت في صدق محالفتهِ قبل فتحي الحرب الاسبانية لما سالت عنهُ . ومع ذلك ربما قالوا انني لا اقوم بتعهداتي ولا اقدر ان احافظ على السلام

وكانت بروسيا قد تعهدت بميثاق تلسيت بان لا تحارب نابوليون . ولكن الوزارة البروسية امست في ذل عظيم تشتاق جداً الى تجديد الحرب . وكانت روسيا والنمسا وبروسيا قد اشتركت في تقسيم بلاد بولونيا فكان بعضها مرتبطاً بالبعض الاخر برباط الاشتراك بهذا التعدي السياسي العظيم . فعقدت مؤامرات كثيرة لتهيج بروسيا الى الحرب . فخرج الكولونل شيل البروسي من برلين في جيش لمحاربة فرنسا وكان من القواد الباسلين الشديدي الحمية . وكان يعلن في كل مكان



ان ملك بروسيا صمم على الاتحاد مع الدول المحاربة لفرنسا بكل جيشهِ . فهيجت الامة وجاء كثيرون من رجالها اليهِ

ودون في معاهدة برسبورغ ضم التيرول من املاك النمسا القديمة الى بافاريا . وكان لخدم الدين فيها نفوذ عظيم ليس مثلهُ في كل اوربا . وجعل نابوليون ملك بافاريا يقطع النظر عن الاختلاف الديني . وكان الدين الكاثوليكي الدين السياسي فيها غير ان البروتستانت كانوا يقومون بفروض مذهبهم بدون معارضة وكانوا يدخلون المناصب كالكاثوليك . وفي بروسيا البروتستانتية اجهد نابوليون نفسهُ في سبيل منح نفس تلك الحقوق للكاثوليك فيها . ومع ان التعصب كان سائداً في ذلك الزمان كان يفرغ جهده حيث كان لكلمتهِ نفوذ في سبيل تخليص الاسرائيليين من ضيقاتهم وكان لا ينفك عن ترقية اسباب قواعده المحبوبة الموجهة الى ابطال جميع الامتيازات الدينية في اوربا ومنح حرية الاديان . وكان ذلك سبباً لمضادة خدم الدين الكاثوليك لهُ فاتسعت دائرة الفتنة التي هاجها وكلاء النمسا في التيرول . فعينت علامة لحمل الثائرين فيها عند عبر النمسويين نهر (ان) باضرام نيران فاضرمت في كل مركز في تلك البلاد وقرعت اجراس جميع الاديرة وكان الاهالي في ظلمة من الجهل فلم يمتنعوا عن محاربة تخلصهم ودوس حقوقهم بارجلهم . وكانت حكومة بافاريا قد قصرت في انفاذ سياسة نابوليون الموسسة على المساواة في البلاد المذكورة وكان نابوليون يقول ان البافاريين لم يكونوا يعلمون ان يسوسوا التيرول فلا يستحقون ان يحكموا تلك البلاد الكريمة . وحدثت حرب فيها بربرية تقشعر الابدان منها حتى انهُ في اربعة ايام طردت كل الجنود الفرنسوية والنمسوية

وفي اثناء ذلك كانت انكلترا تناهب سراً لتهجم على انتورب معمل فرنسا الحربي البحري العظيم وكان حراسها الف جندي فقط من المصابين بالجراح ولم يكونوا كفواً للدفاع عنها . ولم يقدر نابوليون على ارسال جيش للدفاع عنها لاشتغالهِ في حرب النمسا وحرب اسبانيا . وكانت حملة الانكليز مولفة من ١٧٥ مركباً حربياً خلا مراكب النقل الكثيرة . وكان فيها من الجنود والملاحين مائة الف جندي من انظم الجيوش . وكان لتلك الحملة اهمية عظيمة لان نجاحها يخرب اكبر قوة فرنسوية بحرية ويقوي شمال المانيا بدخول جيش جرار قوي الى بلادهم لمساعدتهم واشغال قسم عظيم من الجيش الفرنسوي العام وسلمت قيادة تلك الحملة الى اللورد تشاتام

اما في ايطاليا فكان الارشيدوق جون في ثمانين الفاً من النمسويين يطارد البرنس اوجين الفرنسوي الذي لم يكن يقدر ان يحاربهُ الا بخمسين الفاً . وفضلاً عن ذلك عرض نفسهُ لقتال غير موافق فانكسر اي انكسار وخاف ان يظهر الواقع لنابوليون فكتب اليهِ قائلاً يا ابي انني منتظر الى عفوك فانني خشيت لومك اذا تقهقرت فحاربت وانكسرت . انتهى . فاضطرب نابوليون جداً فانهُ لم يكن يعلم مقدار خسارة جيش اوجين ابن زوجتهِ جوزفين في ايطاليا ولا المخاطر التي امست تهدد

جناح جيشهِ الايمن . فتكدر من اوجين ليس لانهُ انكسر ولكن لانهُ لم يخبرهُ بالتفاصيل فكتب اليهِ قد انكسرت فلاباس فينبغي ان اعلم ماذا ينشا عن تعيين شاب غير مختبر الحروب لقيادة جيش وساعوض خسائرك فانني اعلم كيف اساب من العدو ما ربحهُ منك . ولكن لا اقدر ان اقوم بذلك بدون ان اقف على التفاصيل جميعها . اما الان فلا اعلم شيئاً . فارى نفسي مجبوراً بان اطلب من الاخبار الاجنبية الامور التي كان ينبغي ان تخبرني بها . وشرعت ان افعل ما لم افعلهُ قبلاً وهو المسير بجيشي بدون ان اكون عالماً بما قد طرأ على جناحيهِ . ولكن حسن الحظ يمكنني من ان لا ابالي بالخاطر فقد الحقت بالعدو خسارة كبيرة . على انني بت في قلق شديد لجهلي الواقع . فالحرب عمل مهم جداً ذو خطر عظيم فانها تعرض للخطر المبين صيت الانسان وجنودهُ وبلادهُ فعلى الانسان ان يتامل في حالهِ ويبحث عن اقتدارهِ ليعلم هل هو اهل بالطبع لادارة الحرب . وانا عالم بانكم في ايطاليا تتظاهرون باحتقار مسينا فلو ارسلتهُ اليكم لما جرى ما جرى . فانهُ ذو معارف حربية ينبغي ان تخضعوا لها جميعكم واذا كان ذا نقائص فلا بد من غض النظر عنها لان لكل انسان نقائص . وقد اخطات بتسليمك قيادة جيشي الايطالي فكان ينبغي ان ارسل مسينا واجعلك قائد الفرسان تحت امرهِ . وبرنس بافاريا ابن الملك يقود بحذق عظيم جيشاً تحت امرة دوق دانزغ . اذا مست الحاجة اكتب الى ملك نابولي بالحاح بان ينضم الى الجيش ومن اللازم ان تسلمهُ القيادة وتخضع لاوامرهِ . فاختبارك للحرب اقل من اختبار رجل قد تعاطاها ١٨ سنة . انتهى . فهذه هي المشاكل التي كانت تحدق بهِ والمخاطر التي امسى محاطاً بها وهو في وسط نصر عظيم فان الاعداء الذين كانوا يضادونهُ كانوا اقوياء جداً

ولما كان في فينا حدث امرٌ ظهرت بهِ كرامة اخلاقهِ المشهورة فان احد الضباط كان حالاً في ضواحي المدينة في بيت امراة شبحة كريمة الاصل . ففي ذات يوم تجاوز حدود الاعتدال في شرب الخمر فكتب اليها بما لا يليق . فشكتهُ الى الجنرال اندريوسي وطلبت حمايتهُ وبعثت اليهِ الرسالة . فبعث برسالتها وكتابة الضابط المذكور الى نابوليون . فامر حالاً بان يحضر عند فحص الجنود في الصباح . وفي الساعة المعينة انحدر نابوليون من قصره صامتاً ولوائح الغيظ الشديد تلوح على وجههِ ودنا من الصفوف وفي يدهِ الرسالة . فقال فليدنُ الضابط الفلاني مني . فدنا فمد الامبراطور يدهُ اليهِ بالرسالة وقال لهُ هل كتبت هذه الكتابة المعيبة . قال العفو يامولاي فانني كنت سكران ولم اعلم ماذا فعلت . قال اهٍ يا تعيس كيف تهين خاتوناً تستحق الاعتبار وقد انحطت بمصائب الحرب انني لا اقبل عذرك وقد خفضت درجتك واخذت نيشانك فانك لا تستحق ان تحمل تلك العلامة المعتبرة . فياجنرال درزون انفذ هذه الاوامر . كيف تهين امراة طاعنة في السن اني اعتبر العجوز كامي



وانتشرت اخبار انتصار نابوليون العجيب في اكموهل وحملوا على فينا بسرعة عجيبة فسمعت بها اوربا كلها ففرح اصدقاؤهُ ووقع اعداؤهُ في ياس . ثم طارد شيل وبدد جيشهُ . فالتزم الارشيدوق فرديننذ الذي كان يعيث في سكسونيا بعد فتح وارسو بان يتقهقر بسرعة ليتجد الارشيدوق شارل . ولم يكن النمسويون يقدرون ان يبعثوا بامداد الى التيرول فاخمدت الثورة الدموية حالاً . اما في ايطاليا فكان اوجين الفرنسوي يتقهقر امام الارشيدوق جون النمسوي الفائز . وفي نهاية الامر صمم على ان يقاتلهُ مرة اخرى وهو في ياس . فجمع جيشهُ بالقرب من فيرونا . وكان النمسويون منتصرين ويزيدون كثيراً عن اعدائهم فحملوا راكضين فوق الجبال متاكدين الفوز . على ان الجيشين سمعوا بغتة عن بعد اطلاق مدافع شديدة لم يعرفوا مصدرها . وتقرر في عقول النمسويين انهُ صوت مدافع فرقة نمسوية شرعة في الهجوم . فخاف الايطاليان الذين تحت قيادة اوجين وبعد ذلك ببرهة قصيرة بشر اوجين بان المدافع هي من فيرونا وانها احتفال بانتصار عظيم فازهُ نابوليون وبدد شمل الجيش النمسوي في اكموهل وانهُ يسير على فينا . وفي تلك الدقيقة جاء رسول الى الارشيدوق جون واخبره بالبلايا التي حلت بالجيش النمسوي في الطونه . وامر بان يعود بالسرعة الى فينا ليدافع عنها . فبات النمسويون في قلق عظيم . وضج الايطاليان فرحاً . فركب اوجين مع احد ضباطهِ الى مكان مرتفع ليرى منهُ الجنود المتحاربة . فرايا في مكان بعيد جداً خطاً طويلاً من العجلات الحربية تسير الى جهة الشمال فامسك اوجين يد الضابط مسروراً وقال لهُ ان النمسويين يرجعون فامر جيشهُ بان يحمل على العدو المتقهقر

وهكذا كانت جنود نابوليون الفائزة تسير في وادي الطونه تدفع امامها كل الموانع وكان الارشيدوق شارل يجمع جيشهُ في بوهيميا ويسير سريعاً الى ضفة النهر اليسارية . وخرج الارشيدوق فرديننذ من بولونيا واخذ يسير سريعاً من الشمال بجيش منتصر ليدافع عن العاصمة . وكذلك الجيوش النمساوية في التيرول وجيش الارشيدوق جون الفائز كانت تسير مسرعة لتلاقي ذلك العدو الفاتك الذي تجاسر ان يلقي بنفسهِ بدون مبالاة في وسط اعدائهِ الكثيرين . فتقرر عند اوربا ان نابوليون المنتصر بات في هوان لان اعداءهُ احاطوا بهِ . وكان يسير بجسارة قاصداً فينا وخمسمائة الف جندي تتناظر من كل الجهات لتهجم عليهِ . ولم يخطر لاحد انهُ يقدر على تخليص نفسهِ من حملات تلك الجيوش الجرارة . وامست باريس في قلق لما رات البلايا المحدقة بهِ واخذ الملكيون في عقد مؤامرات جديدة لارجاع البوربون

وكان نابوليون يحارب الاتحاد السابع الذي انشأتهُ دول اوربا لمضادة الجمهورية الفرنسوية . فالاتحاد الاول عقد بين النمسا وبروسيا لمنع امتداد الجمهورية الفرنسوية في ٧ شباط (فنريه) سنة ١٧٩٢ . والاتحاد الثاني كان سنة ١٧٩٣ عندما شهرت المانيا عليها الحرب وحالفتها

البرتوغال ونابولي وتسكانا واملاك حضرة البابا . وعقد الاتحاد الثالث في بطرسبرج بين انكلترا وروسيا والنمسا في ٢٨ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٥ . وكان نابوليون اذ ذاك في سن الصباه فطرد الانكليز من طولون ودفع النمسويين الحاملين وقلقل الاتحاد بالانتصار العظيم الذي فاز بهِ في ايطاليا في حروبهِ الاولى فيها . اما انكلترا فاستمرت تحارب وهي في جزيرتها التي لا سبيل الى الوصول اليها وعقدت اتحاداً رابعاً لمضادة فرنسا في ٢٨ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٧٩٨ فاتحدت روسيا والنمسا ونابولي والدولة العلية . فقطع رباط هذا الاتحاد بسينهِ في معركة مارنجو وتقرر السلام المحبوب في اوربا فحيت نابوليون كانهُ مخلصها . وبعد سنة فتحت انكلترا الحرب ثانيةً وعقد الاتحاد الخامس في ١٨ نيسان (افريل) سنة ١٨٠٢ بين انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا . فكسر اعداءهُ في معركة اُلم واوسترليس وغيرها والزم المتعدين بان يغمدوا السيف . وقبل ان يجف دمهُ سلّ للقتال بعقد اتحادٍ سادس بين انكلترا وروسيا وبروسيا وسكسونيا وغيرها من الدول الصغيرة فسارت جيوشها حاملة على فرنسا فلاقاهم في جينا واورستات وايلو وفرولاند والزمهم بان ينكفوا . وفي ٩ تموز (جوليه) سنة ١٨٠٧ عقد صلح تلسيت . ولم يمضِ عليهِ سنتان حتى عقدت انكلترا اتحاداً سابعاً مع عصاة اسبانيا والبرتوغال والنمسا . فاخرجها نابوليون من ذلك الاتحاد بمعركة واترلو

## الفصل التاسع والاربعون

### حروب

وكان مع نابوليون في ذلك الوقت في فينا نحو تسعين الف رجل . وكان الارشيدوق شارل قد جمع جيشهُ في بوهيميا وسار في ضفة الطونه اليسارية وحل قبالة فينا بمائة الف رجل . وكانت النمسا تجمع من سائر جهاتها المتسعة جنوداً لتضمها الى ذلك الجيش . والطونه قبالة فينا نهر عظيم عرضهُ هناك اكثر من الف وثلثماية ذراع . وكان طاغياً بذوبان ثلوج الجبال . فكيف يقطع هذا النهر بجيش عظيم وقبالتهُ جيش جرار معهُ كل آلات الهلاك المخيفة ليمنعهُ عن المرور وكان ذلك من المشاكل التي التزم نابوليون ان يحلها . وكان النهر تحت فينا بمسافة قصيرة متسعاً كخليج فيهِ جزائر صغيرة كثيرة ولم يكن الماء عميقاً ولا جريهُ عنيفاً وكان في وسط جزيرة اسمها لوبو تبعد عن فينا ستة اميال طولها اربعة اميال ونصف ميل وعرضها ثلثة اميال . وكان بينها وبين الضفتين مجريان احدهما اوسع من الاخر وكان يجري فيهما ماء قليل في مكانين عند طغيان الماء . وكانت جيوش نابوليون في الضفة اليمنى ولم يكن سبيل الى وصولها اليها الا بعبر نهر عرضهُ نحو ١٢٠٠ ذراع وباجتياز نهر صغير بعد الوصول اليها عرضهُ نحو ١٨٠ قدماً يتصل بالضفة المقابلة . وكان



جري الماء شديداً ولكن لا يمنع انشاء جسر من الضفة اليمنى الى الجزيرة وكانت الجزيرة مع اتساعها ذات اشجار كثيرة تستر الجيش من كل العدو وتحجبهُ عن انظارهم . وكان لا بد من انشاء جسر في الجهة اليسرى والجنود معرضة لنيران النمسويين وكان نابوليون محتاجاً الى قوارب كثيرة وذخائر وافرة للقيام بذلك وكان النمسويون قد كسروا اكثرها . وكانت الاخشاب كثيرة ولكن الحبال كانت قليلة . ولم يكن سبيل للحصول على مراسٍ . فبعد الاجتهاد تمكن من الحصول على تسعين قارباً باخراج بعضها من قاع النهر فان النمسويين كانوا قد اغرقوها فيهِ وبالاتيان بقوارب من محلات بعيدة . واستعاض عن المراسي بالمدافع الثقيلة وصناديق الكلل . فتهيا ذلك باعتناء عظيم خارج النهر بحيث تيسر انزالهُ اليهِ ببرهة وجيزة

وقبل نصف الليل بساعتين في ١٩ ايار (مايس) شرع في عبور النهر قاصداً جزيرة لوبو . وكان الاستعداد يجري بالسر والضبط حتى ان النمسويين لم ينتظروا خطراً في تلك الجهة . وسار القارب الاول في الظلام في مكان يبعد قليلاً عن المكان الذي قصد انشاء الجسر فيهِ . وكان الملاحون الذين جاء نابوليون بهم من بولون يقومون بخدمة نافعة جداً واتى بسبعين قارباً كبيراً لتوضع عليها اطراف الجسر وصادف الفرنسويون صعوبات كبيرة في ذلك لان الماء الجاري كان يدفع القوارب ويخرجها من اماكنها . وبعد افراغ الجهد انشئ الجسر . واخذ الجيش الفرنسوي يقطعهُ . وكان في الجزيرة جنود قليلة نمسوية ففرق شملهم بلحظة . فالفرق التي وصلت الى الجزيرة اولاً شرعت حالاً في انشاء جسر للوصول الى الضفة المقابلة فالمهندسون الحاذقون انشاوهُ ببرهة قصيرة وحذق في العمل فتم الجسر في اليوم الثاني الظهر ومهدت طريق في وسط الجزيرة وبعد الظهر اخذت الجنود تسير واستمرت الى الليل الثاني . وكان الامبراطور يعتني بالامور بنفسهِ حتى انهُ وقف عند الطريق ليرى كل شيء بنفسهِ ويناظر على جميع الاعمال وسمع اكثر الجنود المارة كلاماً مشجعاً . ولا يتيسر لجيش جرار اجتياز النهر بجسر واحد ضيق بمدافعهِ وعجلاتهِ وافراسهِ الا في زمان طويل . ومع ذلك اصبح في فجر ٢ من الشهر المذكور عشرون الف من الفرنسويين في ضفة الطونة الشمالية واقفين للحرب . وكان قد عبر النهر اقل من نصف الجيش فبات نابوليون في مركز ذي خطر مبين . وكان الارشيدوق شارل في مائة الف جندي قريباً منهُ . وكان اعظم الخطر من حمل الجيش المذكور على تلك الفرق القليلة واهلاكها قبل ان يسهل انجادها وكانت الامطار المتاخرة تزيد ارتفاع ماء النهر حتى ان الماء حمل بعد الظهر بعض قوارب الجسر الكبير اثناء سير فرقة من الفرسان فامسي نصفها في جهة البر والنصف الاخر يندفع الى الجزيرة . فاصلح في الليل ورجع الجيش الى العبور

واستولت الجنود التي عبرتهُ على قرية اسبرن وقرية اسان وكل منهما تبعد ميلاً عن الاخرى وهما في

طرف سهل مارشفلد المتسع وحل نابوليون بجنود الحرس قبالة الاجمة وفي الليل ارسل ضباطاً ليتجسسوا الاحوال . وكانت نيران جيش النمسويين ظاهرة في الافق في قمم بيسامبرغ . وفي اليوم الثاني الظهر راى نابوليون بنظارتهِ من مكان مرتفع غباراً كثيفاً . وكان الهواء بزيلهُ حيناً بعد حين فيظهر لمعان البنادق والخوذ في اشعة الشمس . وكان ذلك جيش الارشيدوق زاحفاً الى السهل المذكور . فلم يخف بل سرَّ قائلاً اننا سنفوز بالفرصة الموافقة لكسر الجيش النمسوي والتخلص منهُ . وعند ذلك أُخبر بان الجسر الكبير انقطع مرة ثانية بسبب ازدياد المياه كل ساعة وان جميع رباطات القوارب آخذة في الوهن . وكان ذلك من الامور المخيفة لانهُ لم يكن عندهُ في العبر غير ٢٢ الف جندي وليس معهم غير قليل من المدافع والذخائر ومائة الف رجل من الاعداء حاملون عليهم في خمسة صفوف . واخذ نابوليون يتامل في ما ينبغي ان يفعل فكان يقول تارة الاوفق الرجوع الى الجزيرة وطوراً الاوفق ان اقاتل الجيش وجنودي وراء بيوت الفريتين المذكورتين المبنيتين بحجارة . وقبل ان صمم على احد الامرين وردت اليهِ افادة بانهُ صار اصلاح الجسر وان عجلات الذخائر اخذت في العبور بسرعة وبعد الظهر بثلث ساعات انتشب القتال واندفعت الكل على ذلك الجيش الصغير من ثلثمائة مدفع نمسوي وحمل ٣٦ الف رجل على قرية اسبرن وليس فيها للدفاع الا سبعة الاف فرنسوي . واستمر القتال شديداً خمس ساعات وكان يتوجه النصر تارة للفرنسويين واخرى للنمسويين والجيشان يتقدمان ويتاخران في شوارع القرية في اضطراب عظيم . ومات اكثر من نصف الفرنسويين فيها قتلى او جرحى . وعند ذلك جاءها مسينا في فرقة جديدة كانت عبرت النهر وطرد النمسويين منها . وفي اثناء هذه المقاتلة كانت مقاتلة اخرى مثلها من جهة كثرة النمسويين وقلة الفرنسويين جارية في قرية اسلن . وكان الجنرال لان يدافع عنها بسالتهِ المشهورة وثباتهِ العظيم . وامست القريتان خراباً والمتقاتلون في وسط خرباتهما ولهيبهما ودخانهما . وكان فرسان الجيش يتقاتلون في سهل مارشفلد وعدد النمسويين يفوق كثيراً عدد الفرنسويين

وكان نابوليون متاكداً بان الفوز يكون لهُ اذا ثبت الى ان يعبر النهر عشرون الفاً من جنودهِ فضلاً عن الذين كانوا قد عبروهُ . وكان يعلم ان العاقبة متوقفة على اعمال تلك الساعات المخيفة فكان يجول بين المتحاربين معرضاً نفسهُ لنيران المدافع والبنادق التي كانت قد غطت الارض بالقتلى والجرحى . وكانت مياه النهر لا تزال ترتفع وتصدم الجسر بعنف فبات في خطر دائم من الانقطاع وكان النمسويون يحاولون قطعهُ فارسلوا قوارب كثيرة فيها حجارة ضخمة ورحى وكانوا يتركونها لتجري بمجرى المياه لتصدم الجسر واضرموا النار في بعضها بعد ان ملأوها بمواد سريعة الاحتراق وكانت كثيراً ما تكسرهُ في بعض جهاتهِ . وكانت اثقال المدافع تجعل بعض قوارب الجسر تغوص في



المياه . وكان الملاحون الفرنسويون يركبون القوارب ليبعدوا قوارب الاعداء معرضين انفسهم لكلل العدو التي كانت تسقط عليهم وهم في المياه كانها برد وبالظلام انقطع القتال . وكانت نيران الجيوش الكثيرة والقوارب المشتعلة في النهر تضيء البلاد وبقي القتلى بدون دفن . واشتغل الجراحون بقطع اعضاء الجرحى وضمد الجراحات . وكان صراخ المتالمين يملأ الفضاء غير ان ذلك لم يكدر الابطال النائمين على الاراضي المحاطة بالنار والمغطاة بالدم . اما نابوليون فلم ينم ولا استراح بل صرف الليل في حمل الجيش على العبور بسرعة . وكانت العناصر تضادهُ فان ماء النهر ارتفع سبع اقدام في ذلك اليوم حتى ارتفع اربع عشرة قدماً اكثر من عادتهِ . وكان الملاحون يفرغون جهدهم ويعرضون انفسهم للمخاطر لحفظ الجسر وكان ذلك على مرأى من امبراطورهم على انهُ كثيراً ما كان يدفع بعضهُ بقوة جري الماء ويمنع مرور الجيوش . ومع ذلك تمكن نحو ثلثين الفاً من الجنود من المرور في الليل . فلما اصبح الصباح كان تحت قيادة الامبراطور في العبر نحو ستين الفاً من الرجال فلم يخش حملات مئة الف ازمع الارشيدوق شارل ان يسوقهم عليهِ ولا سيما لان كل ساعة كانت تاتيهِ بعسكر جديد من العابرين على انهُ لم يتمكن من نقل غير ١٤٤ مدفعاً لمقاومة ثلثمائة مدفع مع النمسويين . والمهمات التي عبر النهر بها كانت لا تزال قليلة . وفي الصباح تجدد القتال وقاتل الفريقان ببسالة وثبات وامر مسينا بان يدافع عن اسبرن وسلم الدفاع عن اسلن الى الجنرال بودي اما الجنرال لان فكان شديد التعلق بجنب الامبراطور فركب في عشرين الفاً من المشاة وستة الاف فارس وحمل على قلب جيش العدو حملات لا تدفع . وكان نابوليون واقفاً على تل ينظر الى ذلك المنظر المخيف . وكانت تدبيراتهُ مكللة بالنجاح فان جناحي جيشهِ ثبتا في مواقفهما والحملة الثانية جعلت العدو يتقهقر بدون ترتيب . ولما راى الارشيدوق شارل النمسوي ما حل بجيشهِ امسك راية وسار في مقدمة صف في وسط النيران وحاول منع الانكسار . على ان بسالتهُ لم تجده نفعاً . فان النمسويين انكسروا وتبددوا في السهل فعند ذلك صاح الجيش الفرنسوي قائلاً فليعش الامبراطور

وفي هذه الساعة الكثيرة الاهمية بلغ الامبراطور ان ماء النهر دفع الجسر الكبير وحملهُ وعليهِ صف من الجنود المدرعة فحملوا ايضاً يميناً ويساراً . وكانت مهمات الجيش في العبر تكاد تفرغ وهمَّ النوم بارسال مركبات كثيرة فيها مهمات وافرة غير ان تخريب الجسر منع نقلها الى الضفة الاخرى ولم يسمع نابوليون باخبار مخيفة اكثر من هذه الاخبار بالنظر الى مركزهِ فان مياه الطونه قسمت جيشهُ الى شطرين وهو يقاتل جيشاً اكثر من جيشهِ عدداً بنصف الجيش ونصف مهماتهِ فبات في خطر مبين . ومع ذلك لم يظهر فيهِ ما يدل على خوفهِ واضطرابهِ فان طوارق الحدثان كانت قد حنكتهُ فسمع بالخبر كانهُ من الامور العادية في الحرب . فارسل معاوناً الى الجنرال لان

وامره بان ينف عن القتال ليبقي على مهاتو وان يرجع رجوعًا لا يشجع العدو . فلما بلغهُ ذلك حزن جدًّا واضطرب لانهُ كان من القواد الباسلين وكان في وسط نصر عظيم . وسمع النمسويون بانقطاع الجسر وراوا لذلك اثرًا في تردد المنتصرين وضعف قوة نيرانهم فعلموا انهم باتوا في مركز خطر فضجوا فرحين وبعد ان كانوا مكسورين اصبحوا مطاردين . وكان جيش لان يرجع الى السهل بنان وثبات الاسود ومائتا مدفع تصب نيرانها على صفوفهِ وكانت هجمات الفرسان المتواصلة تلقي الاضطراب في صفوفهِ المربعة . وكانت الصفوف تنقص بآلات الهلاك . ولم يكونوا يطلقون سلاحهم مالم يتاكدوا الاصابة ومع ذلك رجعوا بترتيب كانهم جيوش تتعلم في ميدان التمرين . وفي تلك الساعة حلت بنابوليون مصيبة جديدة اعمت بصرهُ دقيقة فان كرة مدفع اصابت الجنرال لان فقطعت ساقيهِ . وبعد ان سمع بهذا الخبر المحزن ببرهة قصيرة قدموا عليهِ بالمارشال محمولاً وهو في آلام الموت . فنسي كل شيء وسار مسرعًا اليهِ وجثا على ركبتيهِ وتساقطت الدموع من عينيهِ وامسك يدي المارشال بيديهِ وقال لهُ بالان هل تعرفني انا الامبراطور بونابرت صديقك وستبقى سالمًا لنا . فنظر اليهِ نظرة من بات في حالة النزع وشد على يديهِ وقال اتمنى ان ابقى حيًّا لاخدمك واخدم وطني لكن بعد ساعة تخسر اشد ابطالك امانةً واصدق اصدقائك فاتمنى لك طول البقاء وتخليص جيشك . فاشتد الحزن على نابوليون وتغلب عليهِ وقال لمسينا لا شيء يمنعني دقيقة عن الاعتناء بالجيش غير مصيبة كهذه . انتهى . ولم يكن يقدر ان يجعل الحزن دابهُ في وسط رعود قتال كذلك القتال وحملات مهلكة وموت احمر . فشد على يد صديقهِ صامتًا ورجع الى اعمالهِ . وكتب الى زوجتهِ جوزفين عن قتل لان المسمى الدوق دومونتيبلو ما ترجمتهُ ان خسارة الدوق دومونتيبلو الذي مات في هذا الصباح قد احزنتني جدًّا . وهذه نهاية كل الاشياء اودعك يا محبوبتي . فاذا كنت تقدرين ان تعزي زوجتهُ فلا تتاخري . انتهى . وبعد ذلك عوض على زوجة الدوق بتعيينها في اعلى منصب للنساء وهو ان تكون من معاونات الامبراطورة

وبعد ان قطعت ساقاهُ بايام قليلة مات . وقال نابوليون بعد ذلك انهُ لم يكن يرتضي ان يسمع الاخباري ولا ريب انهُ كان يحب زوجتهُ واولادهُ اكثر ما كان يحبني ولكنهُ لم يكن يذكرهم كما كان يذكرني فانهُ كان يحبهم وكنت انا احبهُ . وكنت عندهُ في منزلة فوق منزلة البشر فكانني عناية كان يتوسل اليها . وكان رجلاً يحق الركون اليهِ وكان ينقاد احيانًا بحدتهِ الى لومي غير انهُ كان لا يتردد عن شج راس من مكان بعيد ما قالهُ . وكانت شجاعتهُ الطبيعية في بادي الامر تتغلب على قوة الحكم فيهِ غير انهُ كان يتقدم كل يوم في سبيل الحكمة . وعندما مات كان قد بلغ الدرجة العليا من معرفة فنون الحرب وكان من احذق القواد فوجدتهُ صعلوكًا وخسرتهُ جبارًا . فلو عاش الى ان حلت نوائبنا لما حاد عن طرق الامانة والناموس وكان من القادرين على تغيير كل ماجرى



بسطوتهِ ونفوذهِ

اما مسينا فكان لا يزال يدافع عن اسبرن وقد احاط بهِ الموت الاحمر . وامر الارشيدوق النمسوي جيشًا جرارًا بان يحمل على اسلن وكان خلاص الجيش الفرنسوي متوقفًا على المحافظة عليها فارسل نابوليون اصحاب البنادق من حراسهِ لينجدوا الفرقة التي كانت تجتهد بالمحافظة عليها في نهر من الدماء ووسط دخان ولهيب وكانوا انظم جنود الدنيا واشجعهم وقال لقائدهم باموتون الباسل اجهد نفسك مرة اخرى في تخليص الجيش . فاجعل حملاتك قاطعة لانهُ لم يبق الا جنود الحرس القديم ولا استخدمهم الا عند حلول النوائب . وحمل النمسويون خمس حملات على اسلن فدفعهم عنها المدافعون الباسلون وكان كل من الفرنسويين يقاتل اربعة من النمسويين فكثرت قتلاهم وضعف عزمهم واذا بالجنرال راب والجنرال موتون قد حضرا لنجدتهم بفرقتين من اصحاب البنادق المذكورين . فرايا سوء الحال فامسك كل منهم يد رفيقهِ لحظة علامة للتعاون على دفع العدو ولو هلكا وهجما بجيشهما في وسط انواء من الرصاص وكرات المدافع وتمكنا من دفع العدو من ذلك المكان . وكان في جزيرة لوبو صف من المدافع الفرنسوية فكانت تصب الويل والهوان على الصفوف المدفوعة وهكذا فاز الفرنسويون بتخليص اسلن . واستمر القتال ستًا وثلثين ساعة حتى بات ٥٠ الف قتيل ومجروح في حالة النزع في ذلك السهل . وعرض نابوليون نفسهُ النهار بطولهِ لاعظم المخاطر ولم يحب طلب الذين كانوا يتوسلون اليهِ ان يتجنبها السلامة حياتهِ التي كانت سلامة الجميع متوقفة عليها . وكان الجنرال ولتر بالقرب منهُ في ميدان القتال عند ما اشتد الخطر فراى الرصاص يصيب الضباط والجنود حولهُ فاضطرب خوفًا عليهِ وقال لهُ يا مولاي حدُّ والآمر جنودي بان يبعدوك جبرًا من هنا

وعند الغسق هم نابوليون ان يرجع الى جزيرة لوبو في وسط النهر لانهُ مادامت مراكز اسبرن واسلن في يد الفرنسويين لا خطر في رجوع الجيش وكان النمسويون لا ينقطعون عن اطلاق المدافع بدون ان يكون الفرنسويون قادرين على ان يطلقوا مدافعهم عليهم فبعث نابوليون الى مسينا يسالهُ هل يقدر ان يثبت في المحافظة على اسبرن . فراهُ الرسول كالاسد التعبان وقد سودهُ الدخان وعيناهُ كالدم جالسًا على خربات بتصاعد الدخان منها وجثث القتلى تحيط بهِ . فاجاب الرسول بكلام يدل على ثبات عزمهِ في الحرب قائلاً اذهب وقل للامبراطور انني ثبت ساعتين بل ست ساعات بل ٢٤ بل مادام ثبوتي لازمًا لصيانة الجيش . فارتاح بال نابوليون وسار الى الجزيرة ليختار مكانًا لحلول الجيش فيها . وراى على ضفتي النهر ما تنفتت الاكباد لهُ فسار مسرعًا في وسط الجرحى والذين كانوا في النزع وقد ذاب قلبهُ حزنًا باستماع انينهم وتنهداتهم وصراخهم وبعد ان جال في الجزيرة راكبًا تقرر عندهُ انهُ يتيسر لهُ ان يجد مركزًا للجيش يصعب الاستيلاء عليهِ

وان ذلك يمكنهُ من ان يبقى مستورًا بضعة ايام الى ان يتيسر وصل الجسر الطويل . وعند ما خيم الظلام اجتمعت غيوم كثيفة وهطلت امطار غزيرة على الجيشين اللذين كان قد اعياهما التعب . فسار نابوليون الى الجهة الاخرى من الجزيرة ونظر الى المياه المزبدة التي كانت قد قطعت جسرهُ وفصلتهُ عن نصف جيشهِ فصلاً اوهمهُ الخيبة من الوصول اليهِ فجمع القواد الاولين وعقد مجلسًا حربيًا ليضرم في قلوبهم الحمية والثبات فجلس في الظلام تحت المطر تحت شجرة على ضفة ذلك النهر الشديد الجري واخذ ينتظر مسينا ودافوست و بسيار وبرتيه وامر باضرام النار وكان سافاري موجودًا حينئذٍ فقال بعد ذلك فليتامل المطالع و يتصور الامبراطور جالسًا بين مسينا وبرتية على ضفة الطونة وامامهم الجسر الذي لم يبق غير اثر قليل منهُ وجيش المارشال دافوست في الجهة الاخرى من ذلك النهر العريض ووراء ذلك في جزيرة لوبو الجيش كلهُ مفصولاً عن العدو بقسم من النهر فيحكم بان عقل نابوليون العظيم القوي كان وحدهُ قادرًا على ان يتغلب على الياس في تلك الاحوال وكان الامبراطور رزينًا مستكنًا مومِلاً بسلامة العاقبة مظهرًا من التجلد عند حلول المصائب ما يوازي ما اظهرهُ من الشجاعة عند ملاقاة الموت . ووقع بعض القواد في ياس تام واشاروا بالرجوع حالاً قاطعين الجزيرة الى الضفة الاخرى بالقوارب لينضموا الى القسم الاخر من الجيش و يدافعوا عن انفسهم . فاصغى نابوليون الى كل ما قالوا ثم قال ان يومنا يوم شديد النوائب غير ان ما بتنا فيهِ لا يدعى انكسارًا لاننا لا نزال مستولين على ميدان الحرب . فرجوعنا بعد هذه المعركة من المعجزات ولا سيما لان وراءنا نهر كبير وجسورنا خربة . وقد خسرنا كثيرين بالقتل والجرح غير ان خسائر العدو لابد من ان تزيد عن خسائرنا بالثلث . ولذلك نقول ان النمسويين يستكنون برهة فننتظر ورود جيش ايطاليا الذي يتقدم الينا منتصرًا مارًا في اسيترا ونرجع ثلثة ارباع الجرحى الى الصفوف ونرد نجدات كثيرة واردة الينا من فرنسا ونبني جسورًا متينة فوق الطونة بحيث يصير قطع النهر من الامور الهينة ومتى عاد الجرحى الى الصفوف تكون خسارة جيشنا عشرة الاف وخسارة عدونا ١٥ الفًا . ويكون ذلك سبب اطالة الحرب شهرين . ولا ينبغي ان نعجب اذا وقعنا في مشاكل حربية حال كوننا نحارب العدو في بلادهِ المفتوحة وفي عاصمتهِ بعيدين عن باريس مسافة الف وخمسمائة ميل . ومن الواجب ان نحسب لانفسنا بما جرى حظًا سعيدًا اذا حسبنا صعوبات عملنا العظيمة لاننا لم نرتض باقل من عبور اكبر انهر اوربا على مرأى من جيش محارب لنحاربهُ في عبرهِ فلا نرى ما يضعف املنا ومن اللازم ان نقطع الفرع الصغير من النهر لناتي جزيرة لوبو وننتظر فيها هبوط الماء وانشاء الجسر فوق الفرع الكبير . ونقدر ان نرجع الى هنا ليلاً بدون ان يقتل رجل واحد منا و بدون ان نخسر مدفعًا والاهم اننا لا نخسر شيئًا من ناموسنا . ومن الممكن ان نرجع رجوعًا اخر يمس ناموسنا و يلقينا في هوان بعبور الفرع الصغير والكبير من النهر بركوب قوارب واطواف لعبور الكبير ولا يتيسر العبور الا للاصحاء



بدون مدافع ولا افراس ولا جرحى تاركين جزيرة لوبو مع انها مركز مهم قد فتحناهُ وهو المركز الصحيح الذي يمكننا اخيرًا من الرجوع الى الشاطي فاذا فعلنا ذلك نلتزم ان نرجع باربعين الف رجل عوضًا عن ان نرجع بستين و بدون مدافع وخيل تاركين عشرة الاف جريح يقدرون ان يرجعوا الى القتال في شهر . ومن الاصابة في هذه الظروف ان لا نرى انفسنا لاهالي فينا فانهم يغلبون على فاتحي بلادهم بالاحتقار ويدعون الارشيدوق شارل ليخرجنا من عاصمة نبيت غير مستحقين ان نبقى فيها . فيكون رجوعنا لا الى فينا بل الى ستراسبورج . فالبرنس اوجين السائر بالجيش الى فينا يرى فيها العدو عوضًا عن الفرنسويين فيهلك في الشرك الذي ينصب لهُ . فالمتحدون معنا يبيتون في ياس و يساقون بالضعف الى الخيانة فيلتزمون ان يقاومونا . فنبيت الامبراطورية في ضياع وعظمة فرنسا في خراب . ثم التفت الى مسينا ودافوست وقال لهما انكما حيان ولا ريب في انكما تخلصان الجيش فاظهرا انكما اهل لما فعلتماه . انتهى

فلما سمع القواد هذا الكلام اشتدت حميتهم ولا سيما حمية مسينا فامسك يد الامبراطور وقال يا مولاي انك ابو الشجاعة وانت تستحق ان تكون قائدنا فلا نهرب كالمكسورين فالسعد لم يخدمنا ومع ذلك قد انتصرنا فان العدو الذي كان ينبغي ان يدفعنا الى الطونة قد تعفر بالتراب امام مراكزنا . فلنقطع الفرع الصغير منهُ واضمن انني اغرق كل عدو يحاول ان يتبعنا . اما دافوست فوعد بالدفاع عن فينا الى ان تجدد الجسور

فعاد مسينا في الحال الى اسلن واسبرن . وكانت مدافع النمسويين تطلق مع ان جنودها كانوا قد سقطوا بالقرب منها من شدة التعب . وقبل نصف الليل باقل من ساعة عبر نابوليون وسافاري في قارب صغير الى الضفة اليمنى وكان الظلام حالكًا والمطر يسقط غزيرًا والنهر يحمل مواد ضخمة ولذلك كان عبورهُ ذا خطر عظيم . و بعد ان وصل الى تلك الضفة جاء مدينة ابارسدورف الصغيرة وجمع كل قواربها وامر بان ترسل مشحونة بالمآكل والخمر وكل ما ياول الى راحة الجرحى والجيش وارسل ايضًا مهمات كثيرة واستخدم القوارب التي تالف منها الجسر الكبير لنقل مثل ذلك وانتفع بفرقة من الملاحين التي حملهُ التيقظ على الاتيان بها انتفاعًا لا مزيد عليهِ في تلك الظروف الصعبة

وفي نصف الليل شرع مسينا في التقهقر مستترًا بظلام الليل والعواصف . واخذت الفرق تعبر حاملة كل الجرحى والمهمات الحربية . وقبل الصباح لم يعلم النمسويون بتقهقر الفرنسويين فشرعوا في مطاردتهم واطلقوا الكرات والرصاص على ذلك الجسر وبقي مسينا في الشاطي اليساري والكرات والرصاص تتساقط حولهُ فانهُ صمم على ان لا يعبر الجسر الا بعد ان يعبرهُ الجميع . فنظر الى كل الجهات غير مبال بنار الموت ليتاكد بان الجميع قد امسوا في امان وان المدافع كلها قد نقلت .

وجعل الجنود يدفعون الخيل التي امست وحدها الى النهر فسبحت الى الجزيرة . وبعد ان تم ما اراد داس الجسر المقطوع والرصاص يمر حولهُ فحملتهُ المياه الى شاطي الجزيرة لانهُ كان مربوطا بها بطرفهِ الاخر . وهكذا انتهت هذه المعركة المخيفة التي استمرت يومين . وعدد القلى غير معلوم بالضبط . على اننا نعلم ان الفرنسويين كانوا يحاربون غالبًا مستترين وراء بيوت اسلن واسبرن الحجرية ووراء التلال واعداؤهم حاربوا اكثر الوقت في العراء فالذين قتلوا منهم اكثر من قتلى الفرنسويين . وقال اكثر المورخين انهُ قتل ٢٦ الف نمسوي و١٥ الف فرنسوي . وكثيرون من الجرحى صرفوا بقية حياتهم بالتعاسة في مستشفيات النمسا وفرنسا . واما الذين ينتقدون اعمال القواد الحربية وهم جالسون في كراسيهم مستدفئين ومستامنين فقد قالوا ان الجنون الشديد هو الذي جعل نابوليون يحاول عبر النهر في تلك الظروف وقوة النمسويين منصرفةً الى صدهِ فاجاب نابوليون والجنون الاشد من هذا ان ابقى في فينا وخمسمائة الف جندي هاجمون من كل الجهات ليقطعوا اسباب مواصلتي مع فرنسا ويحيطوا جيشي القليل بالنسبة الى جيشهم فيحل بهِ الوبال والهلاك

وبعد ان وصل نابوليون الى الجزيرة القى بنفسهِ على عشب يابس ونام مستغرقًا مدة قصيرة ثم استيقظ وركب فرسهُ قبل الفجر واخذ يناظر على اعمال جيشهِ . وراى انهُ لابد من الانتظار شهرًا لترجع مياه النهر الطاغية الى حدها والاستعداد لعبر النهر بدون خوف من صد الاعداء فشرع في الحال بانشاءات عظيمة جدًّا لا تزال موجودة تشهد لاقدامهِ وهممهِ العلية وحذق مهندسيهِ . واستخدم قوة الجيش كلها في ذلك . وفي ثلثة اسابيع انشا جسرًا عظيمًا جدًّا ارفع من اعلى مكان بلغتهُ المياه . طولهُ ١٢٠٠ قدم ومولف من ستين قنطرة ويحتمل عرضهُ سير ٣ مركبات معًا حتى ان نقل المدافع ومركبات البضائع عليهِ كان سهلاً جدًّا . وفي مكان يبعد عن هذا نحو مائة قدم انشا جسرًا اخر لمرور المشاة وبنيت جدران عظيمة فوقهما لمنع تاثير قوة جري الماء فيهما . واقام جسرًا ثالثًا من القوارب لتعبر الجنود في ثلثة صفوف فاصبحت جزيرة لوبو حصنًا عظيمًا منيعًا . فانهُ بنى فيها حواجز وحصونًا وحفر اخاديد واقام مدافع عظيمة تدفع كراتها الى مسافة بعيدة وكان يحاول خدع الارشيدوق القائد النمسوي بان يجعلهُ يظن انهُ سيعبر النهر من المكان الذي عبرهُ اولاً فانشا ابنية عظيمة جدًّا قبالة الجهة الاخرى ليجعلها مراكز للمدافع غير انهُ قام باهم الاستعدادات سرًّا في مكان يبعد قليلاً عن ذلك المكان . واتقن التدبير حتى تمكن من ان يجعل الوفًا من جنودهِ يعبرون النهر بسرعة من المكان الضيق ويستولون على مراكز طليعة النمسويين . وفي ساعتين يمكن العبور لخمسين الفًا منهم وفي اربع او خمس ساعات يعبر ١٥٠٠٠٠ جندي من المشاة واربعون الف فارس وستمائة مدفع

ولا يخفى انهُ يلزم لعبر نهر كهذا النهر في مثل تلك الظروف ارسال بعض الابطال الباسلين



في قوارب الى العبر وهم معرضون لنار المدافعين . فيقتلون حراس الطليعة او ياخذون سلاحهم منهم ويربطون الجسر بالبر . ثم تبسط على القوارب المولف الجسر منها الواح سميكة بسرعة ثم يسير الجنود بالسرعة الممكنة . فلتسهيل ذلك انشا نابوليون قوارب متسعة ذات قعر عظيم كل منها يسع ثلثمائة جندي ولها ستارات خشبية سميكة تصون الجنود من الرصاص وعند الوصول الى البر تنزل بلولب فيسهل نزول الجنود الى البر . وكان لكل جيش خمسة قوارب . وهكذا تمكن من ان يرسل الى كل مكان الف وخمسمائة رجل بلحظة . وبعد كل التدبيرات والانشاءات المذكورة تقرر عند نابوليون انهُ في ساعتين يقدر ان ينشىء اربعة جسور يعبر بها خمسون او ستون الف جندي . وكان في مرادهِ تعبير فرقة من جيشهِ حال وصول الطليعة في القوارب المذكورة . ولا يخفى ان انشا الجسر لقطع نهر على مراى من العدو يكون بقوارب متصلة ثم بسط الالواح الخشبية عليها . فخطر لنابوليون ان يبني جسرًا بربط القوارب قبل تنزيلها في الماء وان تكون كافية للاتصال من ضفة الى ضفة . ثم ربط الطرف بالشاطي المقابل وترك الطرف الاخر بدون ربط بعد ان يركب الجنود الجسر فيحمل بجري الماء الى الضفة المربوط طرفهُ فيها . ونجح بذلك كل النجاح في دقائق قليلة . وللاحتياط انشا اربعة جسور من هذا النوع . وكان نابوليون يسير من جهة الى جهة راكبًا يراقب الامور فكان حذقهُ يفيد المهندسين وتحريضاتهُ تقويهم . واتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع اثارة اهالي فينا على جنودهِ فشدد الضبط ولم يسمح بالتفوه بما يهين ويكدر . وكان يقاص كل من تعدى من جنوده على النظام في الحال . وكان الارشيدوق شارل مشتغلاً بانشاء ما يمنع الفرنسويين عن عبر النهر ويجمع الجنود من جميع الجوانب . وكان نابوليون قد جمع بظل اشجار تلك الجزيرة التي محيطها لا يزيد عن ثلثة اميال مائة وخمسين الف رجل و ٥٥٠ مدفعًا واربعين الف فارس

وقال في صدد ذلك ان رجعت بجيشي الى جزيرة لوبو اصطلح الجنود في الجانبين (اي جنود فرنسا وجنود النمسا) بدون امري ولا امر القواد على الانقطاع عن اطلاق المدافع لانها لم تكن تجدي نفعًا بل قتلت قليلين من الحرس المنكودي الحظ . وكنت كل يوم اجول في الجزيرة في كل الجوانب بدون معارضة . وفي ذات يوم كنت راكبًا انا واودينو واتيت الضفة فرآنا النمسويون وعرفوني ببرنيطتي الصغيرة ولون ثوبي فاطلقوا علينا مدفعًا فمرت الكرة بيني وبين اودينو على قرب منا فاركضنا فرسينا الى ان توارينا عن ابصارهم . ولو اطلقوا ١٢ مدفعًا دفعةً واحدة لقتلونا . انتهى

وكان يفرغ جهدهُ لاراحة جنوده . ففي ذات يوم كان ماشيًا مع احد القواد الاولين على الشاطي فراى قومًا من الابطال جالسين ياكلون فقال لهم يا اصحابي عسى ان تكون خمرتكم جيدة . فقال احدهم لا تسكرنا فانها من هذا الدن واشار الى النهر . فتعجب الامبراطور لانهُ كان قد امر بان تعطى

قنينة من النبيذ لكل رجل ثم فحص عن الامر . فوجد ان ماموري الزاد كانوا قد سرقوا اربعين الف قنينة بعث بها الامبراطور قبل الجيش بايام قليلة وباعوها فحاكمهم حالاً وحكم عليهم بالقتل

## الفصل الخمسون

### معركة وكرام

وكان اليوم الرابع من تموز (جوليه) سنة ١٨٠٩ يوم ظلام . وفي الليل هبت العواصف واجتمعت غيوم كثيفة في السماء واخذ المطر يسقط غزيرًا وتواصل البرق والرعد . فكانت تلك الليلة موافقة لذلك العمل العظيم فانتهزها نابوليون وبصوته تحرك جيشهُ كلهُ . ولالقاء النمسويين في اضطراب هجم عليهم في جهات مختلفة . وكانت تسع مئة مدفع من اعظم المدافع تطلق في وقت واحد . وكان وميض الكرات يختلط بوميض البرق ورعود مدافع نابوليون ترافق رعود السماء ولم تأتِ الحروب بمنظر مخيف وعظيم كذلك المنظر وكان راكبًا مستكنًا يسير على الضفة . والظاهر ان رجالهُ وضباطهُ اكتسبوا منهُ روح السكينة فعملوا اعمالهم بدون اضطراب غير مبالين بالمطر ولا الرصاص ولا الكرات المحشوة المنفجرة ولا دمدمة الرعود والمدافع . واستيقظت فينا كلها من النوم عند استماع تلك الاصوات المخيفة فنجح نابوليون نجاحًا تامًا في مشروعهِ الحربي وعند طلوع الفجر راى الجيشان ما بدهش . فان العواصف كانت قد انقطعت وكذلك المطر واقشع الغيم وطلعت الشمس كما تطلع في ايام الصيف الجميلة . وارسلت اشعتها الى الوف من البنادق اللامعة والخوذ والريش والرايات المذهبة والخيل الكريمة التي كانت تتراكض في ذلك السهل وكان سبعون الف رجل من الفرنسويين قد عبروا النهر واصطفوا للحرب وكانت اقدام الرجال وحوافر الخيل لا تزال مزدحمة على الجسور ودهش الجنود الفرنسوية بحذق قائدهم واصابة رايهِ التي مكنتهم من ان يعبروا النهر بامان فلما راوا ذلك صرخوا فليعش الامبراطور

ولم يكن الارشيدوق قائد الجيوش النمسوية عارفًا بالمخاطر المحدقة بهِ لانهُ ظن ان الفرنسويين لا يقدرون ان يعبروا النهر في اقل من اربع وعشرين ساعة فيقدر ان يهلك نصف الجيش قبل ان يعبرهُ النصف الاخر فوقف على تلال وكرام بجانب اخيهِ الامبراطور فرنسيس وكان يسالهُ عن الاحوال . فقال لهُ ان الفرنسويين عبروا النهر وصممت ان امكن بعضهم من الوصول الى العبر . فقال الامبراطور احسنت لكن لا ينبغي ان تمكن كثيرين منهم من العبور فذهبت هذه العبارة مثلاً في الجيش . وانشا نابوليون سبعة جسور وعبر النهر بحيث اصبح في جناح النمسويين وحرمهم من الانتفاع بحواجزهم واخاديدهم . وفي اثناء النهار جرت مناوشات كثيرة بين الجيشين العظيمين في اثناء حلول كل منهما في المراكز التي اختارها في سهل وكرام . وبعد ذلك خيم الظلام وامست



الجنود مغطاة بضباب كثيف بارد . ولم يكن في ذلك المكان حطب للوقود فالتزم كل منهم بان ينام في موقفهِ على الارض الرطبة وهو يرتجف من شدة البرد فذاق من النوم ما تيسر لهُ ان يذوقهُ وهو على تلك الحال . اما نابوليون فلم ينم بل كان يجول في الظلام من مكان الى مكان ليرى بعينهِ جميع مراكز جيشهِ . وفي نصف الليل دعا اليهِ جميع القواد الاولين وابلغهم الاوامر المتصلة بشان اجراءاتهم الحربية في الغد . وكان يصدر اوامرهُ بصرامة لا يمكن ان يعقبها خطا من سوء الفهم . وصرف ثلاثة ايام وثلث ليال بدون راحة . وعند الفجر انشب القتال . وكان ثمانمائة الف رجل مصطفين صفوفًا طويلة مشاة وفرسانًا مسافة تسعة اميال تطلق الرصاص والكرات والقطع الحديدية وانتشب بين بعض الفرق القتال بالسيوف والحراب . وهلكت فرق برمتها بكثرة الرصاص وكرات المدافع . حتى ان جميع الرجال لم يكونوا يبالون برسل الموت اكثر من مبالاة الناس عادةً بالثلج المنحدر . وكان نابوليون ياتي جميع المراكز ويحرض جنودهُ ويشجعهم مشاركًا اياهم بجميع المخاطر المحدقة بهم . وتغطت الارض بجثث القتلى والجرحى وغيرت الكرات هيئاتها . وكانت حوافر الخيل تدوس اوجه الجرحى واعضاءهم المهشمة وهم يئنون ويصيحون . حتى ان الوفًا من رجال الجيشين الذين كانوا يطلبون المجد لم يصادفوا غير عذاب طويل او موت مخيف وباتوا نسيًا منسيًا . وسقط مسينا عن فرسهِ وجرح جرحًا بليغًا على انهُ لم ينفك عن القتال بل جلس في مركبة مكشوفة يصدر الاوامر . وفي اشد القتال سار نابوليون راكبًا على فرسهِ الازرق الى حيث كان مسينا في مركبتهِ يحرض جنودهُ على القتال فسقطت حولهُ كرات كثيرة كرش البرد . فلما راى نابوليون ذلك القائد الشجاع في وسط ميدان القتال على تلك الحال وقد تغلبت نفسهُ العزيزة وحميتهُ على اوجاع جسدهِ قال من مخاف الموت عند ما يرى استعدادات الشجعان للاقاتهِ ثم ترجل وجلس بجانبهِ واخبرهُ بحركة حربية كانت جارية وان المامول اتيانها بالنصر القاطع . واشار الى ابراج نيوسيدل البعيدة وقال لهُ ان دافوست سيحمل بفرقتهِ الباسلة على جناح النمسويين الايسر حال كون جيش جرار من المشاة والفرسان يحمل على قلب جيشهم ليخرقهُ . وعند ذلك هجم صف من الجنود الفرنسوية بمائة مدفع حتى تزلزلت الارض من جرها بسرعة وسار وراء هذا الصف العظيم في صف كالبنيان المرصوص جيش ماكدونال من المشاة ثم ١٤ فرقة من جيوش الحرس المدرعة بسيوفها التي طالما تعودت ان تغمس في الدم . وفي لحظة اطلقت المدافع على قلب العدو والجيش يتقدم وراءها ثبات وكان النمسويون يتقهقرون ببطء امامهم غير ان بعضهم كان يقترب من البعض الاخر على الجانبين واطلقوا طلقًا على الجيش الفرنسوي الحامل وراء المدافع المذكورة . فبادر الارشيدوق بنفسهِ الى ملاقاة هذا الويل لدفعهِ . وكانت المدافع تفتح خلايا في الصفوف الحاملة كلما خطت خطوة واحدة وقال هدلي لا شيء ينوق ذلك المنظر بالعظمة فان اهم اعمال

الجيشين انحصرت في ذلك المكان واصوات المدافع المتواصلة الكثيرة تظهر اهمية القتال وشدته . ومع ذلك كان القائد ماكدونال متقدمًا بجيشهِ وقد قتل كثيرون منهُ فقل عددهُ والمدافع في مقدمتهِ كانت تصمت شيئًا فشيئًا بهلاك جنودها وامست محاطة بنيران عدوها فعطلها كلها وبعد ان قطع ميلاً ونصف ميل للقيام بهذه المامورية المخيفة المهلكة بات بدون مدافع يستند الى حمايتها وامامهُ قلب جيش لم يخرقهُ . فسار قاطعًا صف مدافعهِ الذي بات خرابًا ودفع راس صف جيشهِ المجرد من الستار الى ميدان الحرب تحت نيران مدافع النمسويين المهلكة فاستمر حاملاً . فعند ذلك كثر القتل ففي كل طلق كان يفنى راس الصف كلهُ كانهُ قد غاص في الارض والصفوف الخارجية في الجانبين كانت تذوب كانها ثلج مرت عليهِ المياه الجارية ومع ذلك كان سائرًا في قلب حراسهِ وهم يقلون بدون ان يصاب بضر روعينهُ ناظرة الى قلب العدو . وكان هذا الجيش يقف ثم يرتد تليلاً كانهُ مركب قد صدمتهُ موجة هائلة عند اطلاق المدافع الكثيرة عليهِ من صفوف النمسويين على قرب . ثم كانت تضرب الطبول ويرتفع صوت ماكدونال الرائق الشديد محرضًا جنودهُ على مداومة الحمل بالاستناد الى تلك البسالة غير البشرية التي كانت تسوقهُ الى تلك الافعال العجيبة ولم تحمل حملة كهذه الحملة قبل ذلك الوقت . وكان القوم ينتظرون في كل ساعة ان تلك الصفوف الممزقة المخضبة لابد من ان تركن الى الفرار واخذ النمسويون يحيطون بهم بمدافعهم حتى امس اولئك الابطال في وسط نار لاتوصف فانها كانت تدفع الرصاص والحديد والكرات عليهم كانها برد غزير جدًا وكانت حدودهم وجوانبهم كانها حيطان لاتشعر بما تصدم بهِ . على انهم كانوا يسدون الخلايا التي كانت تنشا عن هلاك رفاقهم بسرعة ويتقدمون بثبات . وكان قائدهم الشجاع قد اخبرهم بانهُ مصمم على الفوز او على الموت . على انهُ وقف بعد اشتداد الوبال ونظر الى بقايا جيشهِ المنكود الحظ ثم نظر الى ما وراءهُ وراى الى منتهى النظر اثار جيشهِ التي كانت ملقاة على الارض وكانوا ستة عشر الف رجل فلم يبق معهُ غير الف وخمسمائة . اي انهُ هلك عشرة رجال من كل ١١ رجلاً منهم . فوقف ونظر بقلق الى بقايا اتباعهِ ثم نظر الى حيث كان امبراطورهُ جالسًا فراى جيش الحرس القديم متحركًا وخوذ الفرسان تلمع فانهم كانوا قد امروا بان ينجدوهُ فصاح قائلاً تقدموا ورد على الطلق الذي اطلقهُ النمسويون عليهِ بضرب الطبول ونفخ الابواق بعد ذلك بلحظة خرق قلب الجيش النمسوي . فنازوخلص فرنسا وامسى الجيش النمسوي كلهُ منقهقرًا

قال سافاري انهُ عند اشتداد الخطر كان نابوليون راكبًا على فرس لونهُ كالثلج واخذ يسير في المقدمة من اول الصف الى اخره ويرجع رجوعًا بطيئًا . وكان الرصاص يرحولهُ ويفيت وراءهُ وعيني تنظر اليهِ كيفما توجه منتظرًا ان اراهُ ساقطًا عن فرسهِ في كل لحظة . وكان قد امر انهُ عند خرق قلب الجيش النمسوي ينبغي ان يحمل الفرسان جميعًا وبدور وابحيث يهجمون على جناح



النمسويين الايمن . انتهى . وكان نابوليون واقفًا ويده نظارة ينظر بها الى حملات ماكدونال والكرات والمدافع تهلك الوفًا من جيشهِ وقال تكرارًا ما اشجعهُ . وقطع ماكدونال ثلثة اميال في بحر من الدماء وهو يدخل قلب الجيش النمسوي . وكان نابوليون ينظر بقلق الى برج نيوسيدل حيث كان الجنرال دافوست بجيش جرار مصممًا ان يحمل على جناح الجيش النمسوي الذي شطره ماكدونال . وبعد برهة قصيرة راى ان مدافع دافوست قد قطعت البرج فقال لقد انتصرنا وامر الجنرال بسيار بان يحمل حالاً بفرسان الحرس الامبراطوري . فحمل في وسط الكرات والرصاص في مقدمة رجالهِ وقد وكز فرسهُ ليركضهُ فاصابت الفرس كرة عظيمة ودفعتهُ ممزقًا من تحتهِ فسقط على الارض امام الفرس على راسهِ وقد صبغت ثيابهُ بالدم وغطاه الغبار وبات ملقى كانهُ ميت فنظر نابوليون اليهِ بكدر شديد ثم امال راس فرسهِ وقال هلمَّ نحمل ليس لي فرصة للنوح . فعند ذلك صرخ جيش الفرسان المذكور صراخ الاسف والحزن . فارسل نابوليون سافاري ليرى هل هو في قيد الحياة فوجدهُ متالمًا لكن الجرح خفيف . وراهُ نابوليون بعد هذه المعركة وقال لهُ يا ايها المارشال ان الكرة التي اصابتك ابكت جيش حراسي كلهُ فاشكرهُ وينبغي ان يكون عزيزًا جدًا عندك

وبعد الظهر بثلث ساعات امر الارشيدوق شارل بان ينتهز جيشهُ كلهُ بترتيب بعد ان جرح وقتل منهُ عشرون الفًا واسر ١٢ الفًا . وكان الامبراطور فرنسيس في برج من ابراج قصره ينظر الى القتال الذي اوقع جيشهُ في ذلك الوبال فلما راى ما حل بهِ تكدر كدرًا لامزيد عليهِ وركب فرسهُ وسار ملتجيًا الى جيشهِ المنتهز . وعمل نابوليون اعمالاً ادهشت العقول والتفت العالم في حيرة . فانهُ عبر اعرض نهر في اوربا على مراى من مائة وخمسين الفًا من الاعداء وهم يصدونهُ باعظم الالات الحربية . واظهر في ذلك اعظم دقة وسرعة وحذق حتى لقي الاعدا في ارضهم بجيش عدده قدر عددهم . فتصرت النمسا عن الثبات في قتالهِ وامست في قبضة يدهِ

وبعد نهاية القتال اخذ نابوليون يجول في ميدان القتال على عادتهِ . وكان السهل مفروشًا بالجرحى والقتلى وكان ٢٤ الف نمسوي و١٨ الفًا من الفرنسويين غائصين في انهار من الدماء . وظهرت الطريق التي قطعها ماكدونال بجيشهِ الباسل بخط من القتلى . وكان عددهم كثيرًا جدًا حتى انهُ بعد المعركة باربعة ايام كان الباحثون يجدون جرحى في الكهوف وتحت الصخور . اما سهل وكرام فطولهُ نحو تسعة اميال وعرضهُ ثلثة او اربعة اميال . وكان الهواء حارًا جدًا وحرارة الشمس شديدة وكان الذباب كثيرًا فاخذ يمتص من جراحاتهم الملتهبة وبولهم كثيرًا وهكذا باتت ضحايا الحرب تقضي ساعات طويلة وايامًا كثيرة في عذاب شديد وكثيرًا ما كان الامبراطور يترجل ويسعف الجرحى بيديهِ . وكان اولئك المنكودو الحظ يحبون امبراطورهم محبة شديدة .

حتى ان دموع الشكر كانت تملا عيونهم وهو يخاطبهم بما يعزيهم ويظهر شفقته لهم . وراى ضابطاً شاباً قد اصيب راسهُ برصاصة فركع بجانبهِ وجس نبضهُ ومسح التراب والدم عن شفتيهِ بمنديلهِ . فانتعش قليلاً وعرف الامبراطور وهو راكع بالقرب منهُ يخدمهُ كانهُ خادمهُ فملات الدموع عينيهِ غير انهُ لم يكن يقدر ان يتكلم ومات بعد ذلك ببرهة قصيرة

وبعد ان جال نابوليون في ميدان الحرب فحص احوال الجنود الذين عينوا لمطاردة العدو فراى الجنرال ماكدونال . وكان قد وقع خلاف قليل بينهما ناشيء عن وشاية وسوء مفهومية فوقف نابوليون ومد اليهِ يدهُ قائلاً يامكدونال فلننزع الطغائن من قلوبنا ولنكن صدقين من الان فصاعداً وسابرهن لك على خلوص الباطن بمنحك رتبة المارشالية . وهي لك حق شجاعتك وبسالتك فامسك يدهُ بانتضاع ولطف وقال وقد ملأت الدموع عينيهِ وانقطع صوتهُ اه يامولاي قد اتحدنا الان في الحيوة والموت . انتهى . وراى نابوليون بين القتلى نائباً كان قد فعل ما غاظهُ . فوقف برهة وتفرس بكدر في جثتهِ المنطعة الملقاة على التراب المجبول بالدم وقال بتاثر يفهمهُ كل ذي قلب كريم قد تاسفت لانني لم اتمكن من ان اكلمهُ قبل القتال لاقول لهُ انني نسيت كل شيء منذ مدة طويلة

وبعد ان اعتنى كل الاعتناء بالجرحى بلي بحمى شديدة من جرى التعرض للهواء طويلاً والتعب الشديد على انهُ لم يستريح غير ساعات قليلة ثم ركب فرسهُ ليلحق بالجنود التي اخذت في مطاردة العدو ليدبرها . فهبت عواصف شديدة وهطلت امطار غزيرة ومع انهُ كان مريضاً متعباً لم يحاول مجانبتها بل سار الى ان لحق بالجيش فوجد ان النمسويين كانوا قد طلبوا الى الثائر مارمون عقد هدنة . ولا يخفى انهُ كان قد التزم بان يقوم بهذه الحرب وانهُ لم يشرع فيها الا بعد تردد عظيم ولم يكن منتظراً ان يربح شيئاً مع انهُ كان يخاف سوء عواقبها . فقبل بالحال بها . وقال سافاري ان اعداء نابوليون كانوا يقولون انهُ لا يقدر ان يعيش بدون حرب ومع ذلك كان يسبق العدو على الدوام في طلب الصلح وطالما رايت ما يدل على كدرهِ لالتزامهِ بان يشرع في الحرب . انتهى . فجمع كل القواد الاولين في خيمتهِ واخذوا يتفاوضون في امر الهدنة . فقال احدهم ان النمسا عدوة حكومة فرنسا العمومية ولا سبيل الى ارضائها . ولا تنقطع عن التعدي على عهودها ما لم تبت غير قادرة ان تضرنا . ومن الضرورة ان تنهي هذه المحالفات المضادة لنا بقسم النمسا الى قسمين فانها مركزها كلها . فقال من خالفهُ في الراي اذا تقهقر البرنس شارل الى جبال بوهيميا نخشى ان تجاهر بروسيا بالحرب وان تتحد روسيا معها فانتظار المحاربة العظيمة الاخيرة التي نرى ما يدل على وقوعها قريباً بين الشمال والجنوب يحملنا على ان نرضي النمسا وننهي الحرب في اسبانيا لنصون موخرة فرنسا ونخلص مائتي الف بطل يقومون بحرب غير مجدية فيها . وكان نابوليون يسمع براهين الفريقين صامتاً وفي النهاية انهى الاجتماع بقولهِ ياسادتي قد اهرق من الدماء ما يكفي



فقد قبل الهدنة

وبعد ان جرت المفاوضات الصداقية بين نابوليون والارشيدوق شارل سار نابوليون الى شونبرون لتقرير الصلح فافرغ جهدهُ حتى تمكن من جعل جيشهِ ثلثمائة الف نفس وانزلهُ بانتظام عجيب في قلب البلاد النمسوية . وبدل افراس الفرسان الضعيفة وزاد مدافعهُ حتى صارت سبعمائة مدفع . وهكذا كان يفرغ جهدهُ في تقرير السلم وهو يتاهب لملاقاة صروف الزمان . والتقى معتمد فرنسا ومعتمد النمسا ليقررا شروط الصلح فحاولت النمسا اطالة زمان المخابرات مومِلة بان حملة الانكليز على انتورب تفوز فيلتزم نابوليون بان يرجع قسماً من جنودهِ فتعود النمسا الى الهجوم . فصرف شهر آب اوغسطوس بدون ثمرة

وفي ٢١ تموز جوليه دخل الانكليز جزيرة والشرن عند مصب شلدت . وكانت الجنود الانكليزية تحت قيادة اللورد تشاتام فسار في الحال ثمانون الفاً من الحرس الفرنسوي الوطني ليخرجوا المهاجمين من البلاد الفرنسوية . وكان نابوليون يكره كبريا برنادوت وحسدهُ غير انهُ كان يعلم ما لهُ من الاهلية العسكرية ففوض اليهِ قيادة ذلك الجيش . ولم يكن غير منتظر حلول الانكليز في ذلك المكان ولا خافهُ بل كتب لانحاولوا ابرام نيران الحرب بينكم وبين الانكليز . فليس كل رجل بجندي وجيشكم مولف من الحرس الوطني المختلط وليس لهم قواد كافين ومدافعهم غير منظمة فاذا قاتل جنود مور ينكسر . فمضادة الانكليز ينبغي ان تكون بالحمى التي تنشا عن الآجام وفيض المياه والجنود الجالسة وراء المتاريس ففي شهر تفعل الحمى فيهم فيرجعون باضطراب . وامرهم بان يدفعوا عن فلتش وهو حصن عند مصب النهر ليبقى الانكليز في المحلات الردية الهواء . وان يهدموا حواجز الماء حتى يغرق الجزيرة وينقلوا البوارج الفرنسوية الى ما فوق انتورب وفي عشرة ايام هجم خمسة عشر الفاً من العساكر الانكليزية ومات منهم الوف . وصرفوا ١٧ يوماً حتى تمكنوا من جر مراكبهم الكثيرة مسافة قصيرة في الترعة . فضعف عزم القائد لانهُ توفي من جيشهِ ٤ الاف بالحمى وبعث الى انكلترا بالمراكب ١٢ الفاً ومات كثيرون منهم في الطريق . وكان عدد المرضى يزداد يوماً فيوماً فعقد مجلساً حربياً وتقرر الرجوع عن هذه الحملة فتقهقروا باضطراب . فسر نابوليون كل السرور بذلك وقال ظننت طالع سعدي قد اظلم لكن رجع اليهِ نورهُ وكتب بهذا الشان من السعد الذي صحب هذه الحروب ان الاحوال التي جعلت الحملة الانكليزية تذهب سدى قد اكسبتنا جيشاً عددهُ ثمانون الف رجل ولم يكن سبيل الى الحصول عليهِ بدون هذه الواسطة

وبعد ذلك راى النمسويون انهُ لابد لهم من ان يصالحوه فبات امبراطورهم المتعدي تحت ارادة نابوليون وجيش لاسبيل لصدهِ بعد ان استولى على جميع الحصون النمسوية . ومع ذلك عاملهُ بكرامة اخلاق ولطف واحترام كان من الواجب ان يثنى عليهِ بسببهما باقلام اعدائهِ المورخين . ولما راى

امبراطور النمسا انه لا سبيل الى اطالة زمان المخابرات صمم على ارسال موسيو بونا معاونه ليكون معتمداً سرّاً لدى الامبراطور نابوليون . وقال موسيو تيرس انه ارسله ليتوسل الى عواطف نابوليون وسلامة طبعه وحنوه فانه عند الدنو منه بالطريقة الموافقة كانت هذه الصفات تظهر فيه وتوثر بسهولة فلاطفه وابعد نفسه عن كل اخفاء الباطن وقال له بصفاء الباطن اذا عاملتني بامانة تنهي كل الامور في ٤٨ ساعة انني لا اطلب شيئاً من النمسا وليس لي صالح عظيم في اضافة مليون من الاهالي الى سكسونيا وبافاريا . وانتم عارفون حق المعرفة ان من صالحي الصحيح ان اهدم الامبراطورية النمسوية لتقسيمها واجعل النمسا الالمانية مملكة و بوهيميا مملكة ثانية والمجر ثالثة او ان اقربها مني باتحاد . فتقسيمها لا يتم الا بسفك دماء كثيرة . وربما كان من الواجب ان اساوي الامر بالتقسيم ومع ذلك اقول لك انني لست طالبه . والموادة توافقني ولكن كيف نقدر ان ننتظر من امبراطوركم اتحاد صداقة فصفاته جيدة ولكن بعض الذين حوله وعدوانهم يوثران فيه . وللوصول الى محالفة قلبية صحيحة طريقة واحدة . فقد بلغني ان امبراطوركم ضجر من الملك فلينزل عن العرش ليتبوأه اخوه غراندوق وزبورغ فانه يحبني وانا احبه وهو برنس مثقف لا يبغض فرنسا ولا ينقاد الى وزيره ولا الى انكلترا . فليجرَ ذلك فاخرج بجيشي من النمسا ولا اطلب ارضاً ولا مالاً مع انني قد تكبدت كثيراً بالحرب وعندي ان العالم ينال الراحة بهذه الواسطة . وربما كنت ازيد على ذلك وامنح النمسا التيرول لان الباڤاريين لا يعرفون ان يسوسوها

ثمّ نظر نابوليون الى موسيو بونا نظرة من يحاول الاطلاع على الباطن بالعلامات الظاهرة فاجابه بتردد لو راى امبراطور النمسا ان ذلك ممكن لارتضى به في الحال فانه يفضل ضمانة استقلال الامبراطورية لخلفه على حفظ التاج لنفسه . فاجاب نابوليون اذا كان صحيحاً افوض اليك بان تقول انني ارد اليه كل امبراطورية النمسا في لحظة مع شيء اخر اذا سلمها الى اخيه وقد قال انه مكدر من جراها . فالاحترام الواجب يمنعني عن ان اطلب شيئاً فاعلم انني قد تعهدت بذلك اذا تم ما عرضته . على انني لا اظن ان ذلك يتم . فاذا لم يرتضِ به حال كوني لست براغب في تقسيم الامبراطورية باطالة القتال وغير قادر على ان افوز باتحاد مع النمسا بجعل التاج للغراندوق المذكور فالتزم بان ابحث عن صوالح فرنسا في هذا الامر . فالاراضي في غاليسيا لا تهمني كثيراً وكذلك في بوهيميا . واظن ان الاوفق اخذ ارض من بلادكم الالمانية فانها تبعد حدودكم عنا ولفرنسا صالح عظيم في فتح طريق عظيمة الى جهة الدولة العثمانية عند سواحل الادرياتيك فان التسلط في البحر المتوسط متوقف على النفوذ في الباب العالي . فسيدك الامبراطور قد عاقني مرات عن سحق الانكليز والزمني بان احول قوتي من الاوقيانوس الى اواسط اوربا وقد اجبرني بان اطلب طريق البر عوضاً عن طريق البحر لنفوذ الكلمة في الاستانة . فلنلتق في نصف الطريق وانا راضٍ



بان احمل اثقالاً اخرى واترك حتى في الاستيلاء على البلاد التي فتحتها الى ان تصير تسوية الامر وادعيت بثلث ولايات في بوهيميا فاتركها وطلبت النمسا العليا الى إمس فاترك امس وترون واردلنز واترك قسماً من كارنثيا في ايطاليا . واحافظ على التلاخ وارد اليكم كل ديفوث واحافظ على كارنيولا وضفة نهر الساف اليمنى حتى بوسنه . وطلبت اليكم ان تعطوني مليونين وستمائة الف نفس من رعاياكم فارتضي الان بمليون وست مئة الف نفس . فاذا عدت في يومين تقرر ذلك اجمع في ساعات قليلة . مع اننا اذا تركنا رجال سياستنا وشانهم لا يتبعون الامر ويفعلون ما يجعل بعضنا يذبح البعض الآخر

وقال موسيو تيرس انه بعد هذه المفاوضات الحبية الطويلة التي عامل نابوليون بها ذلك المعتمد النمسوي لاطفه بان امسك شاربيه ملاعباً واهداه هدية فاخرة وصرفه مجذوباً بحبه وشاكراً احسانه

وفي ٢١ ايلول (سبتمبر) عاد موسيو بونا معتمد النمسا الى شونبرون ومعه رسالة من امبراطور النمسا وفيه ان المنح التي منحها نابوليون ليست بشيء وانه من اللازم ان يمنح اعظم منها لعقد الصلح . ولما قرا نابوليون ذلك لم يقدر ان يضبط نفسه عن اظهار غيظه فقال له ان وزراءكم لا يعرفون جغرافية بلادهم فانني قد تركت اكثر من مليون من الانفس وحفظت ما هو لازم لمنع العدو من البارسو والآن وما هو لازم لوصل ايطاليا بدلماسيا . ومع ذلك قيل له انني لم اعدل عن شيء من مطالبي . فهذه هي الطريقة التي تتخذونها في اظهار الامور لامبراطوركم وتخدعه يسوقونه الى الحرب وسيسوقونه الى الخراب ثم شرع في كتابة رسالة توبخ الى ذلك الامبراطور . ولكن بعد ان سكن غيظه عدل عن ارسالها وقال للمعتمد انه لا يليق بامبراطور ان يقول بالكتابة لامبراطور اخر انك لا تعلم ماذا تقول

وتبين لنابوليون بهذه المماطلات ان النمسا لا تزال عاملة على عدوانه مع انه افرغ جهده في استجلابها واخماد نيران غيظها فامر في الحال بان يتاهب الجيش للقتال . وكان يرغب جداً في السلم غير انه لم يكن يخشى عواقب الحرب . فانقطعت المخابرات اياماً فدعا نابوليون سفيره موسيو شامباني وقال له انني راغب في الرجوع الى المخابرات حالاً وفي عقد الصلح ولا تتردد بسبب بضعة ملايين من الغرامة التي تطلب الى النمسا دفعها . فسلم بذلك فانني احب ان انهي الامر وقد سلمت اليك المفاوضات والتدبير . وطال الامر الى اواسط تشرين الاول (اوكتوبر) ورجال السياسة يتنازعون بسبب اختلافات الرسوم . وفي النهاية أُمضيت المعاهدة في ١٤ من الشهر المذكور . وهذه هي المعاهدة الرابعة التي عقدتها النمسا مع فرنسا في ١٦ سنة

فسر نابوليون بذلك جداً وابان فرحه بكل لطف واحتفل بالصلح بقرع اجراس العاصمة واطلاق المدافع في جميع المعسكرات . وفي ٢٤ ساعة قام بالتدبيرات اللازمة للخروج من النمسا .

وقبل ذلك بايام قليلة اي في ١٢ من الشهر المذكور عرض الجيش لهُ في شونبرون. فدنا منهُ شاب عمره نحو تسع عشرة سنة اسمهُ استابس وقال انهُ يود ان يقدم رسائل الى الامبراطور. فصدهُ الضابط فعاد بعناد حتى ساء الظن بهِ فالقي القبض عليهِ وفتش فوجدت سكين حادة مخبأة في ثيابهِ والظاهر انهُ كان قاصدًا ان يفتك بهِ. فسالوهُ فقال بدون اضطراب انهُ كان قاصدًا قتل الامبراطور فاخبر بذلك فدعاه اليهِ فدخل مخدعهُ الخصوصي فسر نابوليون بما راهُ من شجاعتهِ وعدم اضطرابهِ ونور عينيهِ ولوائح الذكاء التي كانت تلوح على وجههِ فقال لهُ بحنوٍ لماذا تحاول قتلي هل اسات اليك. قال لا ولكنك عدوّ بلادنا وقد اخربتها بالحرب. فاجاب ان الامبراطور فرنسيس هو المتعدي. قال انني اسلم بانك لست بعلة الحرب ولو قتلنا الامبراطور فرنسيس لخلفهُ من هو مثلهُ ولكن اذا قتلناك لا يسهل وجود من هو مثلك. فاحب نابوليون ان يخلصهُ من القتل. وقال اليسون ان الحلم الذي كان من صفات نابوليون حملهُ على ان يقول اذا عفوت عنك فهل تعدل عن قتلي. فقال لهُ نعم اذا عقد الصلح لا اذا انتهبت الحرب. فطلب نابوليون الى الطبيب كورفيسار ان يفحصهُ ليرى هل هو سليم العقل ففحصهُ وقرر انهُ صحيحهُ. فقيد الى السجن. وكان نابوليون مصممًا ان يعفو عنهُ غير ان الاشغال المهمة جعلتهُ ينساهُ وبعد ان رجع الامبراطور الى باريس حُوكم في مجلس عسكري وحكم عليهِ بالقتل وقتل بدون ان يرجع عن غيهِ

قال اليسون وفي اثناء اعمال الامبراطور في شونبرون صادفهُ امر اخر بعكس هذا فان فتاة نمسوية جميلة من عائلة كريمة عشقتهُ بشهرتهِ حتى انها ارادت ان تسلم اليهِ نفسها واجابة لطلبها ادخلت ليلاً الى مخدعهِ فادهشتهُ بساطتها وشدة عشقها لهُ الخالي من كل تكلف وتصنع فحدثها برهة وردها الى بيتها كما جاءت اليهِ. وفي ذات يوم كان الجنرال راب يتوسل اليهِ ان يرقي قائدين فقال لهُ انني لا اقدر ان ارقي كثيرين وقد حملني القائد برتيه على مجاوزة حدود الاعتدال في ذلك ثم نظر الى لاروستون وقال لهُ هل ترقينا بسرعة في زماننا كما يترقى الضباط اليوم فانني بقيت سنين كثيرة نائبًا. فاجاب الجنرال راب ربما كان ذلك الواقع غير انك في المدة الاخيرة عوضت ما خسرت اي تعويض. فضحك واجاب طلبهُ

وعند خروجهِ من فينا امر بان تهدم حصون المدينة بالبارود الذي كان قد وضع تحتها فانهُ كان عالمًا بان النمسا تنتهز سنوح الفرصة. ولي لعقد محالفة جديدة لمضادتهِ. فتوسل مامور وفينا اليهِ بان يعدل عن ذلك فلم يجب سوالهم وقال لهم انني افعل ذلك لنفعكم فانهُ يمنع كل انسان عن ان يعرض مدينتكم لبلايا اطلاق المدافع ارضاء لمطامع خصوصية وكنت مصممًا على هدمها سنة ١٨٠٥. وفي هذه المرة التزمت بان احمل نفسي الاكدار الناشئة عن اطلاق المدافع على المدينة ولو لم يفتح العدو ابوابها لا لتزمت بان اهدمها كلها او ان اعرض نفسي لمخاطر عظيمة ولا اقدر ان



اعرض نفسي لامور كهذه مرة اخرى

قال اليسون بهذا الشان في تاريخهِ المشهور ان الفرنسويين وضعوا بارودًا تحت اهم الحصون حول المدينة وكان انهدام حصن بعد حصن من اهم الامور التي جرت واعظمها. فكان البارود يرفعها ببطء في الهواء ثم يحطها فتنفجر كانها جبال نارية كثيرة قد نشرت اللهيب والدخان في الهواء. وكانت الحجارة وغيرها تسقط من كل الجهات. وكانت النيران تحت الارض تمتد بدوي شديد كانت ترتعد منهُ الفرائص. فهدمت كل الحصون والابراج حتى احيطت العاصمة بالخراب وسقوط المواد المندفعة كان يكدر سكون المدينة. فهذا التخريب الخالي من النفع كدر اهالي فينا كل التكدير وغاظهم اكثر مما لو خسروا نصف الامبراطورية. فان هذه الحصون كانت مجد الاهالي وكانت الاشجار تظلل ما حولها وتجعلها متنزهًا عظيمًا. وكان فيها اثار اهم التواريخ وكانت قد ثبتت عند ما هجم العثمانيون وشاهدت بسالة ماريا تريزا. فتخريب هذه الابنية الدالة على مجد قديم بدون ان يحمل على ذلك هيجان القتال ولا مراعاة ضرورة الاحوال وذلك بعد عقد الصلح ورواق الافكار عند ذاهب الفاتحين للرجوع هو من المظالم العسكرية الغير النافعة فجاء بمرارة كل صور وادخل حربة الغيظ في صدور كل الامة. ولم يظهر لذلك لزوم بعد ان تمكن نابوليون من ان يفتح المدينة مرتين بوجودها ولا ريب في ان القيام بذلك حال كونهِ كان راغبًا في تقرير الاتفاق بينهُ وبين النمسا من اساءة السياسة

وتقرر في هذه المعاهدة توسيع حدود بافاريا وتحصينها لئلا يبيت ملكها حليفهُ عرضة لهجوم جنود النمسا بدون ان يكون قادرًا على الدفاع عن نفسهِ واضاف الى مملكة سكسونيا الفًا وخمسمائة نفس وهكذا امكن القسم الخاص المصلح من بولونيا الذي اخذ من بروسيا من ان يدافع عن نفسهِ مدافعة شديدة عند هجوم النمسا عليهِ. وكان قد جعل ذلك القسم دوقية المستقلة تحت حماية سكسونيا وسماها بدوقية وارسو. وكانت ارجل النمسا قد داست مملكة ايطاليا في طنوليتها فوسع اراضيها لتتمكن من صيانة حدودها من تعديات جارتها النمسوية. وكانت غايتهُ تقوية حلفائهِ ليصونهم ويحمي فرنسا من العدوان. ولو ارتضى باقل من ذلك لحكم الناس بانهُ مجنون ضعيف. وبالاكتفاء بهِ اثبت كرامة اخلاقهِ. فتعجب اعداؤهُ من تساهلهِ ولكنهم لم يرتضوا بالاقرار بفضلهِ وحلمهِ فاتهموهُ بمقاصد لا تليق بهِ. وقال المورخ لوكهارت اذا قابلنا الشروط التي وضعها نابوليون بعد معركة وكرام بالفوز الذي حصل عليهِ نحكم بانهُ تساهل جدًا. وبعد المصالحة بمدة قصيرة جاء باغرب التعاليم وبين الاسباب السامية التي حملتهُ على القبول بتلك الشروط. اما المورخ اليسون فلم يجارِ هذا المورخ بل نهج منهج بوربن وقال ان سكين الفتى الذي حاول قتلهُ اوقعت الخوف في قلبهِ فعقد الصلح. وعلى المورخ ان يدون ما قالهُ نابوليون وما فعلهُ فعلى ذلك يبنى حكم الناس

واجمع الاصدقاء والاعداء على انهُ سبق الى هذه الحرب على غير ارادتهِ وعقد الصلح متساهلاً جدًّا . فتكدر اسكندر امبراطور روسيا من تقوية نابوليون لمملكة سكسونيا البولونية ومهد السبيل لارجاع بولونيا الى استقلالها . غير انهُ كان عالمًا ان محاولة تخليص بولونيا المنقسمة من قبضة روسيا والنمسا يوسع دائرة الحرب فصمم على العدول عن ذلك وتعاظمت شكوى امبراطور روسيا من تقوية سكسونيا خوفًا من ان تكون تمهيدًا لارجاع مملكة بولونيا الى ما كانت عليهِ . فكدرهُ مع اشتداد عدوان امهِ المتكبرة المتحزبة للامراء بيَّن للناس ان فرنسا تبيت بعد برهة قصيرة في مشكلات ناشئة عن استبداد شديد بات الشمال مكتنفًا بهِ

قال البارون متيفال ان نابوليون وقع على المعاهدة وهو لا يركن الى قيام النمسا بتعهدها لانهُ لم ينسَ انها توسلت الى فرنسا ان تصالحها قبل ذلك باثني عشرة سنة لما كان الفرنسويون في ليسبون ولكن حين كان نابوليون في مصر شهرت الحرب . وانها عقدت معاهدة تونيفيل بعد ان انكسرت في هوهنلندن ونقضتها لما رات اننا حملنا بجد على انكلترا . وصالحتنا ثانية بعد معركة اوسترلتس وفتحت الحرب عندما رات نابوليون مشتغلاً بدفع الانكليز من اسبانيا وعلقت املها بكسبهِ والايقاع بهِ ولم تعهد سيفها هذه المرة الا لان قاعدتها باتت في يدهِ

اما اسكندر امبراطور روسيا فاهتم بالمعاهدة الاخيرة وكتب الى نابوليون ان صوالحي امست كلها في يد جلالتك . وربما كنت تفعل ما يضمن الوعد الذي وعدتني بهِ في تلسيت وارفورث بالنظر الى مملكة بولونيا . فاجابهُ نابوليون ان بولونيا ربما اوقعت بعض الارتباك بيننا غير ان الدنيا متسعة كافية لنتوافق عليها . فاجاب اسكندر حالاً اذا فتحت مسالة بولونيا تضيق بنا الدنيا لانني لا ارغب في شيء منها . واشتد هيجان القوم في بطرسبرج وخافا الناس من فتنة وطنية وذكروا جهارًا قتل الامبراطور اذا انقاد الى نابوليون . ولم يكن نابوليون جاهلاً لاحوال الروسيين وبالغ بعض المورخين في لومهِ لانهُ طمع في ترجيع بولونيا البروسية الى الاستقلال بانشاء دوقية وارسو حال كونهم لاموهُ لانهُ لم يخلص ما كان مع روسيا والنمسا من بولونيا مع علمهم انهُ لا يقدر على ذلك الا بطرح اوربا في حرب مهلكة

ولام المورخ الهسون نابوليون على اعتدال اعمالهِ وتمنعهِ عن تخليص بولونيا من روسيا والنمسا مع انهُ مس اكثر من مرة وتر الاستقلال البولوني المرنح وكان بكلمة قادرًا ان يضيف مائتي الف مقاتل من بولونيا الى جيوشهِ ولكن لم يرض ان يقحم ارجاع المملكة البولونية وبارجاع بعضها بانشاء دوقية وارسو كدر روسيا بدون حصولهِ على مساعدة بولونيا . انتهى . فهذا هو العدل الذي لاقاهُ نابوليون في التواريخ وقالوا ان اجتهادهُ في الدفاع عن فرنسا يدل على شدة طمعهِ وحبهِ لسفك الدماء وتساهلهُ مع اعدائهِ يدل على خوفهِ



وقبل عقد معاهدة الصلح جاءهُ وفد من ولاية نمسوية طالبًا اليهِ رفع الاثقال التي القيت على عاتقها بوجود الجيش الفرنسوي فيها . فقال لهم ايها السادة انني عالم باتعابكم واوافقكم على التاسف من الاثقال التي حملتموها باعمال حكومتكم غير انني لست بقادر على تخليصكم منها فانهُ منذ اقل من اربع سنوات تعهد امبراطوركم بعد معركة اوسترلتس بان لا يحاربني ابدًا . فظننت انهُ صالحنا صلحًا ثابتًا ولا ابكت نفسي على التعدي على شروطهِ فانني لم اتعدَّها . ولو لم اركن الى التاكيدات القلبية التي اسمعتني اياها حكومتكم لما خرجت من البلاد النمسوية كما خرجت . والملوك يخسرون حقوقهم الناشئة عن ركون الامة اليهم عند مجاوزتهم حدود تلك الحقوق وايقاعهم المصائب الكثيرة بالامم . واخذ احد اعضاء ذلك الوفد يدافع عن امبراطور النمسويين وختم كلامهُ بقولهِ لا شيء يبعدنا عن فرنسيسنا الصالح . فقال لهم لم تفهموا المقصود من كلامي او قد اسأتم تفسير ما جعلتهُ قاعدة عمومية هل طلبت اليكم ان تنقطعوا عن محبة امبراطوركم لا . فكونوا امناء في السراء والضراء . ولكن ينبغي ان تحملوا الاثقال بلا تذمر فان التذمر عبارة عن اتهامكم اياهُ بايقاع المصائب عليكم . انتهى

وفي اثناء المخابرات وردت اليهِ افادة من اسبانيا مؤداها ان الجنرال ولنكتون الانكليزي كسر الفرنسويين في معركة تالافرا . فتكدر جدًّا من قواد جيشهِ في اسبانيا وقال ان اولئك الرجال قد تجاوزوا حدود الاعتدال في الركون الى انفسهم . وعندي مواهب تفوق المواهب العادية ومع ذلك لا يخطر لي ابدًا ان عدد جيشي كافٍ لمحاربة عدو من عادتي كسرهُ ولذلك اجمع كل الجنود التي يتيسر لي جمعها وكان قواد جيش فرنسا في اسبانيا يحملون بجسارة على عدو لا يعرفون غير شيء قليل من احوالهِ ولا ياتون ميدان الحرب الا بنصف الجنود الكائنة تحت امرتهم فما اردا ذلك . هل اقدر ان اكون في كل مكان في وقت واحد

وجاءهُ وفد من المجريين طالبًا اليهِ صون بلادهم واسعافهم على التخلص من نير النمسويين فتامل في كلامهِ وخطر لهُ ان يجلس على عرش المجر الارشيدوق ورزبورغ شقيق الامبراطور فرنسيس النمسوي . وكان شابًا يحب نابوليون ويتعجب من عظيم اعمالهِ وقواعدهِ العالية . ولما اخذت النمسا تفعل ما يلقي بغضهُ في قلب الامة المجرية اذاع هذا الاعلان

يا ايها المجريون . حلت ساعة رجوعكم الى استقلالكم فامنحكم السلام واستقلال بلادكم وصيانة نظامكم الاساسي الموضوع او الذي يوضع منطبقًا على روح الزمان . فلا اطلب اليكم شيئًا ولا اروم الا ان اراكم احرارًا مستقلين . فاتحادكم مع النمسا جاءكم بالويل . وقد اريق دمكم لاجلها في اقطار بعيدة . واعظم صوالحكم امست ضحية لصوالح النمسا الموروثة وبلادكم اجمل بلاد نمسوية ومع ذلك تعاملون كاهل ولاية . ولكم عادات وطنية ولغة مخصوصة وتفتخرون باصل قديم عزيز .

فارجعوا الى وجودكم كامة مستقلة وانتخبوا ملكًا لانفسكم ليسكن بينكم ويملك مراعيًا صوالحكم دون غيرها . انتهى

ولما خرج نابوليون من فينا كتب اعلانًا باسم اهلها ضمنهُ الشكر على اعتنائهم بجرحى جيشهِ وبين كدرهُ من عجزهِ عن تخفيف الاثقال الملقاة على عواتقهم . وقال سافاري كان الامبراطور مصممًا على تبليط ضواحي العاصمة المحتاجة جدًا الى ذلك . وقال كان يود ان يترك اثرًا للاهالي ولكن قصر الوقت حال دون مرادهِ . وقال نابوليون لو لم افز في اوسترلتس وجينا لهجمت النمسا واسبانيا على موخرتي . وبعد اوسترلتس تحمل بروسيا عليَّ . ولولا الفوز في وكرام لخشيت ان تتركني روسيا وان تهاجمني بروسيا . وكان الانكليز حينئذٍ امام انتورب . فماذا فعلت بعد النصر . الم اطلق سبيل اسكندر امبراطور روسيا في اوسترليتس مع انني كنت قادرًا ان اجعلهُ اسيري وبعد نصر جينا تركت العائلة البروسية مالكة مملكة كنت قادرًا ان استولي عليها . وبعد فوز وكرام اهملت تقسيم النمسا . فاذا ظن الناس ان ذلك ناشئ عن كرامة الاخلاق يلومني رجال السياسة الذين شانهم مراعاة الصوالح . فلا انكر انني لم اكن بعيدًا عن كرامة الاخلاق وانما كانت مقاصدي السياسية اعلى واعظم . وكنت راغبًا في تثبيت وحدة الصوالح العمومية في اوربا لاجمعها كما جمعت الاحزاب في فرنسا وجعلتهم حزبًا واحدًا وكنت اطمع ان اصير حكمًا بين الامم والملوك ولا يتيسر بلوغ هذا المرام الا بفعل ما يحملهم على الشكر والثناء ويجعلني محبوبًا عندهم . ولم افز بذلك بدون خسارة بعض اعتباري وكنت عالمًا بهِ ولكني كنت قادرًا بعيدًا عن الخوف فلم اهتم بالتذمرات العامة المتغيرة لتاكدي ان الناس يميلون اليَّ في النهاية . واخطات كثيرًا لانني لم اضعف قوة النمسا بعد معركة وكرام . فانها بقيت قوية قادرة على الاضرار بنا وهي علة خرابنا ولو اعلنت بعد النصر بيوم انني لا اخابرها بالصلح الا بشرط تقسيمها الى ثلثة ممالك وهي النمسا والمجر وبوهيميا لاصبت . انتهى

وكانت هذه الامور تجري في النمسا والحرب قائمة على قدم وساق في اسبانيا . لان الانكليز والاسبانيول علقوا املهم بالفوز في غياب الامبراطور ظانين انهُ يلتزم بان يخرج جنودهُ من اسبانيا لملاقاة الاعداء في الطونه فعادوا الى القتال باقدام وثبات . وكان جوزف بونابرت شقيق نابوليون من اجود الرجال واشدهم حبًا للناس غير انهُ لم يكن جنديًا . وكان قواد نابوليون عالمين بذلك فلم يكونوا يركنون الى تدبيراتهِ الحربية ولم يكن لهم قائد نافذ السطوة فيهم فتخاصموا . وكان يعز على نابوليون وهو مشتغل في معارك اسلن ولوبو ووكرام ان يدير حربًا بعيدة عنهُ ستمائة مرحلة عند ضفات تاجه ودورو

وفي ذلك الزمان حل الدوق اوف ولنكتون . وكان لا يزال انسار ارثر ولسلي في ثلثين الفًا من الجنود الانكليزية في البرتوغال وجمع سبعين الفًا من الجنود البرتوغالية المتعصبة اشد



التعصب دينيًا . وكان مع المارشال سولت في البرتوغال ٢٦ الف رجل من الفرنسويين لمضادتهم . وجرت امور حربية شيطانية تقشعر منها الابدان . وكان التعدي يقابل بمثلهِ ويعجز القلم عن وصف القتل والويل والبلايا والتعديات التي بليت بها تلك البلاد . حتى ان النساء البرتوغاليات كنَّ يمسكنَ الجرحى الفرنسويين ويقطعنهم اربًا اربًا ويعذبنهم اشد العذاب وكانت بقايا اجسادهم تترك في الطرق . واحرقت قرى ووقعت تعديات على اعراض نساء امسين تائهات صارخات وكانت الخيل تدوس الاولاد والرصاص يصيبهم فيئنون ويموتون والامطار الهاطلة تفرقهم والعواصف الهابة تزيد ويلهم . ولم يكن الانسان يخاصم انسانًا مثلهُ فان اولئك الرجال كانوا كشياطين ينازعون الشياطين . واجهد القواد الفرنسويون والانكليز انفسهم في قطع التعديات غير انهم راوا ان تهييج الاوباش في القتال سهل غير ان اخماد هيجانهم وارجاعهم الى دائرة الانسانية لم يكن من الامور السهلة . وكتب الدوق اوف ولنكتون متشكيًا من عصيان جنودهِ لاوامرهِ . وقال انني طالما ظننت ان جيشًا انكليزيًا لا يقدر على احتمال النجاح ولا الفشل وشاهدت ما اثبت صحة ذلك في النجاح . فان عساكري نهبوا البلاد وعاثوا فيها وشغل ذلك بالي . وفي ٣٠ ايار (مايس) سنة ١٨٠٩ كتب الى اللورد كاستلاريا ان اعمال العساكر ردية جدًا فانهم ادنيا لا يقدرون ان يتحملوا النجاح كما ان جيش السارجون مور لم يتحمل الكسر . وشرعت في محاولة تنظيم احوالهِ واذا لم افز فلا بد من ان اتشكى رسميًا منهُ وارسل فرقة او فرقتين الى بلادنا مذلولتين . وفي ١٧ حزيران كتب الى اللورد المذكور وكان ناظر الخارجية لا بد من ان اكتب اليك ثانية عن الجيش فان اعمالهُ شغلت بالي جدًا وتستحق اهتمام الوزراء ولا اقدر على وصف تعديات الجنود واخلالهم بالنظام . وقد بذلت الجهد في منع ذلك غير انهُ لا ياتي رسول ولا ضابط من الموخرة بدون ان يخبرني بتعديات الجنود الذين تركوا وراء الجيش والتعديات وقعت على شعب تبعنا كاصدقا والمتعدون هم جنود لم يشعروا بالاحتياج الى اقل الاشياء . انتهى

وقد اجمع الناس على ان الجيش الفرنسوي كان انظم من الانكليزي . فان الجنود الانكليزية كانت من ادنى الاهالي . والجيش الفرنسوي كان يجمع بالقرعة وكان فيهِ رجال اعقل واحذق . اما اهل التعديات البرتوغاليون فراوا انهُ لا ضابط لاعمال الجيش فجعلوا الذين يحبون الراحة من الاهالي غير قادرين ان يعيشوا وكان ابناء وطنهم الموسرون يخافونهم جدًا . وقالوا ان انكلترا اطلقت على بلادهم المنكودة الحظ جميع اوباش انكلترا والبرتوغال . وعرفوا ان غيرتها المتعلقة بوطنهم انما هي لترقية اسباب التجارة الانكليزية . وقال موسيو تيرس انهم لم يكونوا يحبون الفرنسويين ولكنهم كانوا يفضلونهم على الانكليز لان شرهم اقل وهم واسطة انهاء الحرب وسياستهم اقرب الى الحرية من السياسة التي كانوا خاضعين لها . اما عائلة براغانز التي كانت مالكة فكانت عندهم

اسمًا بدون مسمى بعد فرار الوكالة الى برازيل وكان الانكليز يستخدمون ذلك الاسم ليتسلطوا على البلاد . انتهى .

ولم تشكر اسبانيا ولا البرتوغال انكلترا على ما قامت بهِ . وقد كتب اللورد ولنكتون بهذا الشان ان الجيش الانكليزي الذي تشرفت بقيادتهِ لم يلاق غير الكمود عند حكومة البرتوغال واهلها . والحكام افرغوا جهدهم في ظلم الضباط والجنود . والمامول اننا بلغنا النهاية في البرتوغال . وقال الكولونل بايه ان علة اتحاد حكومة اسبانيا والبرتوغال بغضهما للانكليز الذين خلصوهما . انتهى . اما انكلترا ففي الواقع ارجعت الى عرش الظلم اشد الناس ظلمًا وهم الذين كانت مكافاتهم لخدامتها بئس المكافاة

وفاز نابوليون فوزًا جديدًا على اعدائهِ ومع ذلك كانت اشد المخاطر محدقة بهِ . وكان اعرف الناس بمركزهِ وحالهِ . فان انكلترا سدت اذنيها عن الصلح ولم تنقطع عن عدوانها . فافرغت جهدها بعد حصول ما حصل في عقد محالفات جديدة لمضادة ذلك الذي كان يصون الحقوق العمومية . وكانت تقول جهارًا ان فوز القواعد العامة تهدد بالسقوط كل الملوك في اوربا

وقالت الانسكلوبيديا الامركية ان انكلترا شرعت في جميع حروب اوربا المضادة للثورة الفرنسوية والامبراطورية وروجتها بذهبها حتى فازت بالمطلوب وانهكت قوة فرنسا البحرية وتجارتها . وهذا الفوز جاءها باثقال عظيمة فان دينها العام سنة ١٧٦٣ كان مليارًا ومائتي مليون ريال امركي ( الريال ٥ فرنكات ) اما الان فهو ٤ مليارات من تلك الريالات واكثر هذه الزيادة ناشئة عن الحروب المضادة لنابوليون

وكان نابوليون مهتمًا بترتيب جنودهِ في لوبو للقيام بمعركة وكرام والبوارج الانكليزة امام سواحل ايطاليا تنتظر سنوح الفرصة لمساعدة النمسويين فيها . والظاهر ان ميل حضرة البابا كان الى اعداء فرنسا . فخدم الذين هاجوا فلاحي اسبانيا والتيرول المتعصبين . وكان يخاف نابوليون حلول انكلترا في ايطاليا لاتحادها مع النمسا وجميع احزاب الدول السابقة في تلك البلاد فتدوس مملكة ايطاليا ونابولي الصغيرتين . ففي هذه الاحوال كتب الى حضرة البابا

ان الامبراطور ينتظر اتحاد ايطاليا ورومية ونابولي وميلان على الدفاع والهجوم لتصون البلاد الايطاليانية من مصائب الحرب . فاذا ارتضى الاب الاقدس بذلك تنتهي جميع مصاعبنا . واذا رفضهُ يثبت انهُ لا يرغب في تسوية ولا في مصالحة الامبراطور وقد شهر الحرب عليهِ . فالنتيجة الاولى في الحرب الفتح وينشاعنهُ تغيير الحكومة . لانهُ اذا التزم الامبراطور بان يحارب رومية يكون قاصدًا فتح رومية واقامة حكومة اخرى تحالف هي وايطاليا ونابولي على مضادة اعدائهم . فما هي



الضمانة التي يحصل عليها لصيانة راحة ايطاليا وامنيتها اذا باتت الدولتان متصلتين بدولة يلتجيء اعداؤهما اليها . واذا اصر الاب الاقدس على رفض ذلك واتينا بهذه التغييرات لا نخسرهُ حقوقهُ الروحية . فيبقى اسقف رومية كما كان اسلافهُ في القرون الثمانية الماضية . انتهى

فلم يجب حضرة البابا فامر نابوليون بضم املاك البابا الى الامبراطورية الفرنسوية . ولا يعتذر عن هذا العمل الا بضرورة الاحوال . فان حكومة حضرة البابا كانت تدعي الحيادة حال كونها تساعد اعداء فرنسا . وبات نابوليون محاطًا بمخاطر لا تبد ولا تحصى بضادهُ دول اوربا المتحدة عليهِ وكان يلتزم ان يعامل بالقساوة الذين كانوا يساعدون اعداءهُ سرًّا . وكان يرغب في صيانة صيته من الثلم فاعلن ان صاحب رومية طالما تمنع عن محاربة انكلترا وعن الاتحاد مع ملك ايطاليا وملك نابولي ليدافع عن البلاد الايطالية . فسعادة المملكتين وراحة جنود ايطاليا ونابولي لابد لها من ان لا يتكدر اتصالها بقوة مقاومة لها

وجرى حديث بين رجل فرنسوي وانكليزي في نابولي وهو . قال الفرنسوي لصديقهِ الانكليزي هل تطلب شيئًا من فرنسا لاقوم بهِ فانني اكون فيها بعد يومين . فقال الانكليزي قلت انك ذاهب الى رومية . قال نعم الم تعلم ان الامبراطور قد اعلن بان رومية صارت من فرنسا . قال الانكليزي لا اثقل عليك بشيء لكن هل اقدر ان اخدمك في انكلترا وبعد نصف ساعة اكون فيها . قال الفرنسوي كيف ذلك اجاب انني بعد نصف ساعة انحدر الى البحر وقد ضم الى انكلترا . انتهى . فالمفروض على الدولة التي استولت على عالم المياه المتسع التساهل بمعاملة الذي كان يدافع عن نفسهِ واوربا تقاومهُ فراى انهُ لا بد من ابعاد الخراب عن نفسهِ بضم املاك الكنيسة الى فرنسا . انتهى

فدخلت الجنود الفرنسوية وطردت منها وكلاء انكلترا والنمسا الذين كانوا في بلاط البابا ينفذون حيلهم سرًّا . فاجاب البابا نابوليون بحرمهِ . وكان ملك نابولي احيانًا لا يتاتى فالقى القبض على حضرة البابا واخرجهُ من ايطاليا . وكان نابوليون حينئذٍ في لوبو فلما سمع بذلك تاسف جدًّا ولام الملك مرات على ذلك غير انهُ كان يسلم نفسهُ الى العناية الالهية لانهُ تقرر في عقلهِ انهُ ابن النصيب وان ما جرى انما هو ليمكنهُ من جعل ايطاليا مملكة واحدة فتجتمع قوة اهاليها وعددهم عشرون مليونًا ويمتعهم بالحرية ويصلح رومية العظمى ويجعلها عاصمتهم . ولا ريب في ان ذلك عمل عظيم جدًّا ثم بعد نابوليون باكثر من نصف قرن . وأُرسل حضرة البابا الى سافونا عند خليج جنوا وأُعد لهُ مكانًا فيها . ثم نقل الى فونتينبلو للاستئمان وكان نابوليون يحترمهُ كل الاحترام وكثيرًا ما صرح باحترامهِ واعتبار صفاتهِ فامر بان يعامل بكل اعتبار وعين لهُ معاشًا سنويًا مليوني فرنك وبعث الى القصر الملكي فيها اثاثًا فاخرًا وحشمًا كثيرًا وحفظ حضرة البابا فيها باعتبار ولكن لم يكن قادرًا على الفرار . وامر بان

يمكن من فعل ما يشاء وان يقوم بكل فروضهِ الدينية وان يقابل الكثيرين الذين كانوا باتونهُ . وهكذا نرى انهُ تاسف من القبض عليهِ ولكنهُ حمل مسئولية اسرهِ . وشرع في اصلاح شوارع رومية وسر كثيرون بما جرى لبغضهم لخدم الدين . غير ان العامة المتمسكة بعراهُ تكدرت جدًّا واغتاظت . اما في رومية فكثيرون من الاهالي كانوا يودون ان يفوزوا بالحرية السياسية فجاء وفد من اعيان رومية الى نابوليون وهناهُ وبين ركونهُ اليهِ فقال اتذكرون على الدوام اعمال اسلافكم . وحينما اقطع جبال الالب اقيم بينكم برهة ولا بد من ان تكون سياسة فرنسا وايطاليا واحدة . وانتم في احتياج الى يد قوية لتدبركم واسربان اكون مخلصكم . واستفتكم رئيس الكنيسة الروحي وانا امبراطوركم فانني اعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر . انتهى

وانشا اصلاحات كثيرة في تلك المدينة القديمة العهد واخذت اجتهادات اهل الصناعة تظهر في شوارعها . وكان يراعي النفع وجمال الاعمال . وكم اظهر من الاثار العظيمة التي كانت مدفونة تحت خربات قرون كثيرة . منها هيكل جوبيتر تونانز واعمدة هيكل جوبيتر استاتور الفاخرة الجميلة وامورًا اخرى كثيرة خطيرة . وانفق مبالغ وافرة في سبيل ترميم قصر الكويرينال . ونظمت ضابطة حسنة قطعت التعديات الكثيرة التي طالما كدرت الاهالي . وزرع صفين من الاشجار لتزيين الطريق من قنطرة قسطنطين الى طريق ايبان ومنها الى الفورم . واتخذ وسائل فعالة لاصلاح اجام بونتين التي كانت تبلي الناس بالامراض والموت . وتهيأ لتغيير مجرى نهر التيبر لاخراج كنوز الصنائع والفنون التي دفنت فيهِ بفتوحات القوطيين . فهذه بعض اعمال نابوليون لترقية الامور النافعة العامة وملوك اوربا تحالفت على دوسها وسحقها

## الفصل الحادي والخمسون

### جوزفين

على من يكتب تاريخ نابوليون ان يدون بامانة اقوالهُ وافعالهُ فانها مشهورة تستحق الاعتبار والتامل وتشهد بحذقهِ العجيب ومن حسن الحظ انهُ لم يقع خلاف على اعمالهِ فان الجميع يسلمون بحدوثها فالدنيا كانت متفرسة فيهِ . وقد اختلف الناس على عدالة افعالهِ والاسباب الداعية اليها ومقاصدهِ ولم يدون في هذا التاريخ عمل لم يسلم بوقوعهِ اشد المورخين تنديدًا بهِ . ومن الامور الثابتة ايضًا اقوالهُ المؤثرة المتعلقة باعمالهِ ودونها كثيرون من اكابر الرجال وافاضلهم الذين سمعوا احاديثهُ . وعند كتابة اخبارهِ المتعلقة بزوجتهِ جوزفين نقرر حوادث تاريخية . وكان سافاري وهو الدوق دي روفيكو من اعرف الناس باراء نابوليون وافكارهِ الخصوصية . وهو الذي قال خلق الناس الف خبر اظهارًا للاسباب التي حملت الامبراطور نابوليون على طلاق امراة



تزوجها منذ ١٥ سنة وشاركتهُ في اعظم حوادث حياتهِ المضطربة . وقال قوم ان السبب طمعهُ في مصاهرة عائلة ملوكية . وسر المندون بنشر هذا الخبر والقول انهُ راعى الطمع دون جميع الامور . وهذا خطر مبين واساء المندون بما نسبوهُ اليهِ . والصحيح انهُ لم يتكدر من شيء كما تكدر من مفارقة امراة كان يحبها . وكان يفضل القيام باصعب الاعمال على عمل سيئ اليهِ بالاسباب التي ساذكرها . ولم يعدل الراي العام في ما قالهُ عنهُ لما لبس تاج الامبراطورية لظنهِ ان السبب انما هو الطمع في المراتب الرفيعة . وقد بينت ترددهُ الطويل عن احداث ذلك التغيير في نظام الحكومة ولم يكن راغبًا في تغيير ما ظهر للناس انهُ من اثبت عواقب الفتنة الفرنسوية . ولم يهمل شيئًا مما باول الى تثبيت النظام الذي يصون تلك القواعد . ومع ذلك جعل الاراء العصرية الحديثة سائرة على العادات القديمة . واختلاف الاراء لم يكن قادرًا على الاتيان باضطراب بسبب نظام الحكومة عند نهاية دولتهِ ولم يكن ذلك كافيًا . فراى لزومًا لتعيين الوريث للمحافظة على ما كان قد انشاه ولمنع انتشاب الحروب الاهلية بعد موتهِ من التنازع على الملك . لان اقل نزاع داخلي كافٍ لارجاع الشقاق الى بلادنا . وكان طمعهُ في ذلك ناشئًا عن رغبتهِ في تسليم اعمالهِ الى وريثهِ وترك دولة لوريث موسسة على اثارهِ الكثيرة . وكان يعلم ان الحروب التي امسى محاطًا بها ناشئة عن غيرة الملوك من قوتهِ وان المقصود الوحيد منها سقوطهُ شخصيًا لان بسقوطهِ تسقط تلك القوة العظيمة التي امست مستندة الى الفتنة التي ابطلها بنفسهِ ولم يكن لهُ اولاد وكان للامبراطورة ولدان لكن لم يكن قادرًا على تعيين احدهما وريثًا بدون تعريض نفسهِ لمشاكل كثيرة . ومع ذلك اظن انهُ لو كان ولداها وحيدين في عائلتهِ لجعل ابنها اوجين وريثهُ على انهُ صرف النظر عن ذلك لان اخوتهُ اقرب اليهِ منهُ . ولو جعلهُ وليًا لعهدهِ لالقى شقاقًا يتمنى التخلص منهُ . وراى ايضًا انهُ في مركز يحتاج الى سند قوي ليكون للنظام الذي انشاهُ عضد يخلصهُ من السقوط . وظن ايضًا ان المصاهرة واسطة لقطع الحروب التي كان يتمنى التخلص منها . فهذا هو الذي حملهُ على طلاق زوجتهِ . وكان ميلهُ الى الحصول على حليف قوي يحفظ الحالة التي انشاها في فرنسا لخيرها اعظم من ميلهِ الى مراعاة صالحهِ الخصوصية وطالما تامل في كيفية تبيين ذلك للامبراطورة زوجتهِ ومع ذلك تردد عن كشف افكارهِ لها لعلمهِ انها رقيقة القلب . وكان شفوقًا لا يستخف بذرف الدموع . انتهى

وكانت الاديان في فرنسا قد تزعزعت اساساتها بالفتنة ولم يبق غير اثر ضعيف فيها لسر الزواج المسيحي . وقال نيرس ان الفرنسويين كانوا يحبون جوزفين جدًّا فانها كانت جامعة بين الجودة والانضاع والعظمة ومع ذلك كانوا يتمنون ان يتزوج الامبراطور امراة اخرى ولودًا للحصول على وريث يملك بعدهُ . واظهروا رغبتهم في ذلك . انتهى . فعرف نابوليون بميل امة فدعا

اليه كامبزز الوزير واخبره بما صمم عليه . وبين له الاسباب ووصف الكدر الذي يشعر به اذا بات ملتزماً بان يراعي ضرورات الاحوال ويفعل ما يضاد ميله . وقال انه مصمم على ان يتمم ذلك بطريقة موافقة جداً لجوزفين . ولا يروم القيام بما يحتقرها ويذلها ولكنه يروم ان يطلقها باختياره واختيارها مراعاة لصوالح الامبراطورية . وان يعين لها قصراً في باريس واخر خارجها وراتباً ثلثة ملايين فرنك وان يكون لها المركز الاول بين اعضاء العائلة المالكة خلا الامبراطورة وقال احب ان تبقى قريبة مني لتكون كاصدق اصدقائي واحبهم عندي

وجاء اليوم الذي عين لتبليغ هذا الخبر المكدر الثقيل الى جوزفين . وكان اخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٩ . وكانت قد سمعت باخبار متعلقة بذلك ملات قلبها بالحزن والكآبة وكانت مع نابوليون في فونتينبلو . وانتظار الطلاق جعل كل شيء في القصر مكدراً . وكان الضيوف قد خرجوا منه . وكانت رياح الشتاء غير المنعشة تهب وتميل باشجار الغابة الساقطة اوراقها . وصرفت جوزفين الصباح في خدرها تذرف دموعها . وكانت شفقة نابوليون وحنو قلبه تمنعانه عن ان ياتي غرفة زوجته الحزينة المظلومة . فصرف الصباح ايضاً في مكتبه . والتقيا عند مناولة الطعام الظهر . فجلسا صامتين واكلا بدون ان ينظر احدهما الى الاخر وكان الخدم ياتون بطعام بعد طعام بدون ان ياكلا شيئاً منه . وكان اصفرار وجه كل منهما يعرب عن كدر قلبيهما وجلست جوزفين بدون ان تتحرك كانها صنم . فارتبك نابوليون وضرب القدح بالسكين علامة لانتهاء مناولة الطعام على غير انتباه فخرج الخدم فاقفل الباب واعتزل بها ودنا منها وهو اصفر كالميت وفرائصه مرتعدة وامسك يدها ووضعها فوق قلبه وقال بصوت مرتجف يا جوزفين الصالحة انت تعلمين شدة حبي لك . والدقائق القليلة التي شعرت بالسعادة بها قائمة بك . يا جوزفين ان نصيبي متغلب على ارادتي واشد عواطفي لابد ان تضحي لما فيه خير فرنسا . انتهى . وكانت منتظرة استماع هذا الخبر المكدر القاسي ومع ذلك جرح قلبها الصالح المحب فسقطت على الارض غائبة عن الصواب . فخاف وفتح الباب بسرعة ودعا من يسعفه فجاء الكونت دي بومون وحملها هو والامبراطور الى الطبقة العليا ودخلا بها غرفتها فكانت تقول وهي محمولة على غير انتباه . اه لا لا انك لا تقدر على ذلك . انك لا ترغب في قتلي . فاضطرب نابوليون جداً فالقاها على فراشها وقرع الجرس لتاتي خادمتها ووقف قبالتها مكدراً مشغل البال وعندما رآها ترجع الى نفسها ذهب الى غرفته واخذ يتمشى فيها بكدر وحزن الى ان اصبح الصباح وكان يصف همه وحزنه بحرية غير مبالٍ بمن كان في الغرفة . فقال وهو يرتجف والدموع قد ملات عينيه وهو يتمشى بقلق ويقف بين جملة وجملة ان صوالح فرنسا ونصيبي قد سلبت قلبي . والطلاق امسى مفروضاً عليّ فلا ينبغي ان ارجع عنه على ان ما رايته جرح قلبي وفتت كبدي . وكان ينبغي ان نبلغ هذا الخبر الى



جوزفين بلسان هورتنس . وقد اخبرتها بالطلاق المحزن . وتكدر قلبي . وكنت ظاناً انها اشد تجلداً . ولم اكن انتظر ان ارى من ويلها ما رايت

وكان في كل ساعة من ساعات الليل ياتي باب غرفتها ليسال عن حالها . وكانت هورتنس مع امها وقالت لنابوليون بكلام احترامي لا يخلو من التبكيت ان امها تنزل عن العرش كما استوت عليه اطاعة لارادته . وان اولادها يرتضون ان يبعدوا عن انفسهم عظمة لم تجعلهم سعداء ليذهبوا بسرور ويخصصوا حياتهم لتعزية اشد الامهات حنواً وشفقة . انتهى . ولما سمع ذلك بكى بكاء شديداً ووصف حزنه واخذ يردد في افكاره الضرورات السياسية الداعية الى الطلاق . فقال لهورتنس لا تتركيني بل ابقي معي انت واوجين واسعفاني في تعزية امكما وتسليتها وارضائها بان تبقى صديقتي بعد الطلاق . ودعي اوجين من ايطاليا فالقت هورتنس شقيقته نفسها بين ذراعيه واخبرته بنصيب امها المحزن فسار في الحال الى غرفتها وبعد ان تحدثا برهة قصيرة ذهب الى غرفة نابوليون وساله هل هو باقٍ مصمماً على طلاق امه الامبراطورة . وكان نابوليون يحب اوجين جداً فمنعته عواطفه عن الجواب ولكنه شد يده على يد ابن زوجته الكريم فابتعد عنه وقال بغيظ يا مولاي اذا كنت مصمماً على ذلك فاسمح لي بالاستقالة . فنظر اليه بحزن وقال له كيف يكون هذا وقد تبنيتك فهل تتركني . قال اوجين نعم ان ابن التي تخلع عن الامبراطورية لا يقدر ان يبقى نائب امبراطور فانني مصمم على ان اتبع امي الى مكان عزلتها فينبغي ان يكون اولادها علة تعزيتها . فملات الدموع عيني الامبراطور وقال بصوت محزن يا اوجين انت عالم بالاحوال التي تدعوني الى القيام بذلك فلا تتركني فمن يكون ابني بعدك ويكون موضوع التفاتي وحافظ صوالحي . ومن يعتني بالولد بغيابي . واذا مت من يكون اباً له ومن يربيه ومن يجعله رجلاً . فاثر هذا الكلام في اوجين وامسك ذراع نابوليون وذهبا الى الجنينة وتحدثا ملياً . اما جوزفين الكريمة الاخلاق ففعلت ما لم يسبقها الى فعله احد والحت على ابنها بان يبقى صديق نابوليون . فقالت الامبراطور عاضدك وقد اسعفك اكثر مما يسعف الوالد ولده وهو مصدر مجدك وعلو شانك فعليك ان تطيعه . وبعد ذلك ببرهة قصيرة حل اليوم المعين للطلاق وكان اليوم الخامس عشر من شهر كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٩ . فاجتمع اعضاء كل العائلة الامبراطورية في قاعة قصر التويلري الكبيرة واجتمع معهم اكابر ارباب الخطط . وكانت لوائح الحزن تلوح على اوجه الجميع فكلمهم نابوليون بصوت ثابت وقد اشتد اصفرار وجهه قائلاً

ان صوالح امبراطوريتي السياسية وارادة شعبي التي طالما كانت ضابطاً لاعمالي تدعوني الى ان اترك العرش الذي اجلستني عليه يد العناية لوريث برث حب الامة مني . ومنذ سنين كثيرة

قطعت الامل من اولاد من زوجتي المحبوبة الامبراطورة جوزفين . فهذا هو الذي يحملني على تضحية اشد عواطفي بالطلاق في سبيل ترقية رعاياي . وقد بلغت الاربعين فاعلق الامل بان اعيش وارى الاولاد الذين يمن الله عليّ بهم تربية موافقة لاراءي وميلي . والله اعلم بالضيقات التي احتملتها من التصميم على ذلك . على ان شجاعتي تسهل عليّ احتمال الضيقات ولو عظيمة حباً بصوالح فرنسا . ولا اشكو من زوجتي المحبوبة ولكنني اثني عليها واقدر حبها لي قدره . وقد سعدت بها ١٥ سنة من حياتي وسيبقى لها تذكار في قلبي الى الابد . وقد توجتها بيدي وسيبقى لها الى الابد لقب امبراطورة . ولا ينبغي ان ترتاب في حبي لها بل ان تعلم انني اصدق الاصدقا . انتهى

وبعد ان انتهى كلام نابوليون كان في يد جوزفين ورقة فحاولت قراءة ما فيها غير ان الحزن والبكاء الشديد منعاها عن ذلك فاعطتها لموسيو رينو وغطت وجهها بيديها وجلست على كرسيها فقرا ما ياتي . اقول باذن زوجي المعظم المحبوب انه لا امل لي بالحصول على اولاد لسد احتياجات سياسته وصوالح فرنسا فاسرّ بان ابين له اعظم براهين الحب والغيرة التي ظهرت في الارض . وكل ما عندي هو من جوده فان يده هي التي توجتني وبجلوسه على عرشه لم ارَ من الامة الفرنسوية غير علامات الحب . واشارك الامبراطور بالعواطف بقبول الطلاق لازالة ما يحول دون سعادة فرنسا بحرمها من الحصول على سياسة نسل ذلك الرجل العظيم الذي اقامته العناية ليمحو شرور فتنة مخيفة وليرجع المذبح والعرش والانتظام المدني . على ان قطع رباطات الزواج لا يغير عواطف قلبي وسيرى الامبراطور انني اصدق اصدقائه وانا عالمة ان هذا العمل الذي سيق اليه بالسياسة ومراعاة الصوالح العظيمة مزق قلبه على ان كلاً منا يتمجد بالضحايا التي يقوم بها في سبيل صوالح البلاد . انتهى

وقال موسيو نبرس لم يتفوه احد بكلام يدل على كرامة الاخلاق كهذا الكلام في احوال كهذه ونقول انه لم يكن للميل الدني اقل دخل . وبعد ذلك قبلها نابوليون وسار بها الى دائرتها وتركها هناك وهي تكاد تغيب عن الصواب بين ايدي ولديها

وفي اليوم الثاني جمع مجلس الاعيان في القاعة العظيمة ليشاهد اجراء الطلاق رسمياً . وكان اوجين في كرسي الرياسة فصرح ان امه والامبراطور راغبان في الطلاق . وقال ان دموع جلالة الامبراطور الناشئة عن هذا الطلاق كافية لتمجيد امي . وكان الامبراطور لابساً الملابس الرسمية متكئاً على عمود ولوائح الهم والنكد تلوح على وجهه . وكان ينظر الى الفضاء صامتاً . فكان القوم كانهم في جنازة . ولم يسمع غير اصوات الحزن المنخفضة . وكان في وسط القاعة مائدة مستديرة عليها دواة واقلام ذهبية وامامها كرسي فارغ . واخذ القوم ينظرون اليها كنظرهم الى آلة تفعل ما يفتت الاكباد . ثم فتح باب في جانب القاعة ودخلت جوزفين وقد اشتد اصفرار وجهها حتى كاد



يصير ابيض كالثوب البسيط اللطيف الذي كانت لابسته . وكانت متكئة على ذراع هورتنس التي لم تكن قادرة ان تتجلد امامها فكانت تبكي بكاء شديداً . ووقف الناس عند دخولها وملأت الدموع اعينهم جميعاً . وتقدمت بالجلال المخصوص بها الى الكرسي وجلست والقت جبهتها على يدها واصغت بهدو الى قراءة كتاب الطلاق . وكان بكاء هورتنس المسموع وصوت الذي قرأ الكتاب المحزن يزيد حزن الناس وكآبتهم . وكان اوجين واقفاً بجانب امه المحبوبة جداً عنده اصفر مرتجفاً . وعند نهاية كتاب الطلاق اشتد حزنها دفينه وغطت عينيها بمنديل لحظة ثم نهضت وحلفت بصوت صافٍ مضطرب مرتجف بانها تقبل الطلاق . ثم جلست وامسكت القلم ووقعت على الكتاب الذي قطع الرباطات القلبية المتعلقة بها اعظم الامال واحبها عندها . ولم يقدر اوجين ان يتحمل ذلك فاصيب بدوار ووقفت ضربات قلبه وسقط على الارض بدون ان يبقى فيه ما يدل على الحياة . فخرجت جوزفين وهورتنس مع الخدم الذين حملوه وهو غائب عن الصواب . وكان ذلك نهاية موافقة لهذه الرواية المحزنة العظيمة

ودخلت جوزفين غرفتها وقد تغلب الحزن عليها واسكتها . وخيم الظلام ولسان حاله يبين اشتراكه بالحزن مع الذين حلت عليهم تلك المصيبة . وعند حلول الساعة التي كان نابوليون ينام فيها دخل الفراش الذي كان قد اخرج منه زوجته المحبة الامينة وقد ثقلت عليه الهموم والاحزان واذا بالباب قد فتح بتأنٍ ودخلت جوزفين الغرفة مرتجفة وقد ورمت عيناها بالبكاء وشعرها غير مرتب وكان منظرها يدل على انها امست في حزن وكدر لا مزيد عليهما . وكانت كانها غير عالمة بما كانت تفعل من شدة الويل والبلبلة فسارت مضطربة الى وسط الغرفة ودنت من الفراش الذي كان زوجها فيه . ثم وقفت وغطت وجهها بيديها واستغرقت في البكاء . والظاهر ان حاسيات لطيفة منعتها عن التقدم برهة لانها علمت انه لم يكن يحق لها ان تدخل الغرفة التي ينام فيها نابوليون . وبعد لحظة تحركت عواطفها كلها ونسيت كل شيء في شدة حزنها وطرحت بنفسها على فراشه واعتنقته وصرخت قائلة وازوجاه وازوجاه وبكت بكاء يدل على ان قلبها يكاد يتفتت . فتغلبت على جلده فبكى ايضاً بكاء شديداً واكد لها انه يحبها حباً شديداً لا يزول . وبذل جهده في تعزيتها وتسليتها واستمرا برهة على هذه الحال . وكان الخادم لا يزال موجوداً فاخرجه واستمرا ساعة في هذا الاجتماع الخصوصي الاخير . وبعد ذلك ودعته وداعاً لم يشعر قلب بشري بمثله من شدة الحزن والويل وفارقته فراقاً ابدياً منفصلة عن ذلك الزوج الذي احبته حباً ليس اعظم منه . ثم دخل خادم الغرفة ليخرج الانوار فراى الامبراطور مغطى كله فلم يكلمه بكلمة فاخرجها وامسى ذلك الامبراطور الحزين وحده في الظلام ليس له رفيق غير افكاره . وفي اليوم الثاني ظهر اثر الضعف في وجهه وعينيه وشهد بانه لم يذق طعم النوم . وكان قد زين قصر مالميزون

وفرشهُ بالفخر اثاث وهو الذي صرف فيهِ مع جوزفين ساعات سعادة كثيرة. فجعلهُ لها واستمر مركزها مركز امبراطورة وكذلك لقبها واجرى لها نحو ثلثة ملايين فرنك في السنة. ولا ريب في انهُ حزن حزنًا قلبيًا. ولم يكن يقدر ان يكون غير حزين فانهُ لم يحب غيرها. وكان منزهًا عن الميل الدني. وكان يحبها فعلاً حبًا شديدًا فصمم على الاعتزال برهة في ترياتون. وظهر انهُ يجب ان يجعل هذا العمل المحزن المهم محسوبًا بما يبين الاكدار التي رافقتهُ

وقال البارون مينفال كاتبهُ الخصوص انهُ امر بالاستعداد للذهاب الى ترياتون قبل يوم ذهابهِ وفي الصباح أُخبر ان العجلات مهيأة فلبس بربطتهُ وقال لي يا مينفال اتبعني. فتبعتهُ وانحدرنا بالسلم الصغير الذي كان بين غرفتهِ وغرفة الامبراطورة. وكانت جوزفين وحدها في حزن شديد غائصة في بحر من التامل. ولما سمعت صوت مشينا نهضت واعتنقتهُ باكية فضمها اليهِ وقبلها بكل حنو وحب فلم تقدر ان تثبت على تلك الحال من شدة الكآبة فاغمي عليها ففزعت الجرس طلبًا للاعانة وكان يرغب في تقليل هذه الحوادث المكدرة فعندما اخذت في الرجوع الى نفسها تركها بين يديَّ وامرني ان لا اتركها وسار مسرعًا الى العجلة التي كانت تنتظرهُ عند الباب. ولما عرفت بذهابهِ اشتد بكاؤها وتنهداتها. فاجلستها نساؤها على المقعد فامسكت يدي والحت عليَّ بان اتوسل الى نابوليون بالاَّ يتركها واقول لهُ ان حبها لهُ يتغلب على كل الحوادث التي تطرا عليها. وجعلتني اعدها بالكتابة اليها حالاً عند وصولي الى الترياتون واجعل الامبراطور يكتب اليها ايضًا. ولم اخرج الا بصعوبة لانها كانت تمنعني كان ذهابي بقطع الرباط الاخير الذي كان يربطها بهِ. فخرجت وقد اثر فيَّ حزنها وافلقني جدًا شدة حبها لهُ. وركبت العجلة مكدرًا جدًا ولم اقدر ان امتنع عن اظهار الكدر من مقتضيات السياسة التي قطعت بعنف علاقات حب طويل مجرب لعقد زواج اخر لا تعرف عواقبهُ ولما بلغت المكان المذكور قصصت على الامبراطور ما جرى. وكان لا يزال مكدرًا من الامور المحزنة التي بات فيها. واطال وصف صفات جوزفين الكريمة الحسنة وحبها الشديد الصادق لهُ وحفظ حبها في فوادهِ الى الابد وفي مساء ذلك اليوم كتب اليها يعزيها. انتهى

وقبل الظهر بساعة اجتمع جميع الاعوان والنساء والحشم والخدم في راس سلم قصر التويلري العظيم ليشاهدوا ذهاب مولاتهم التي كانت محبوبة جدًا عندهم ومبارحتها لاماكن طالما زينتها بوجودها. وانحدرت من غرفتها وقد لبست ستارًا من راسها حتى قدميها. وكان كدرها شديدًا فامالت يدها صامتة مودعة الاصدقاء الكثيرين الناحين الذين كانوا محيطين بها. وكان امام الباب عجلة متنقلة تجرها ستة افراس فدخلتها ومالت الى خلف وغطت وجهها بيديها وبكت بكاء شديدًا وهي خارجة من ذلك القصر بدون امل العود اليهِ. وصرف نابوليون ثمانية ايام متنحيًا في ترياتون. وزار جوزفين في قصرها وجاءت هي وهورتنس وتناولت الطعام معهُ حيث كان. وكتب اليها



اثناء ذلك الرسالة الاتية المعربة عن عواطفهِ

الساعة الثامنة ليلاً في كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٠٩

يا محبوبتي. رايتك اليوم ضعيفة ولا ينبغي ان تكوني كذلك وقد اظهرت تجلدًا عظيمًا ومن الواجب ان تداومي التجلد. ولا ينبغي ان تمكني الاحزان من التغلب عليكِ. فافرغي جهدك في سبيل الحصول على الراحة والسكون وحافظي على صحة جسمك فاذا كنت تحبيني فمن الواجب ان تتقوي وان تكوني في حظ وبشاشة. ولا يمكنك ان ترتابي بثباتي وحبي اللطيف. وانت تعلمين عواطفي فلا تفرضي انني اقدر ان اكون سعيدًا اذا كنت انت غير سعيدة وانني اكون مستكنًا اذا كنت مضطربة اودعك يا محبوبتي. فنامي براحة وثقي بانني راغب في ذلك نابوليون

وبعد ذلك ببرهة قصيرة رجع الامبراطور الى باريس واقام فيها ثلاثة اشهر غائصًا في الاشغال المتراكمة. وكان مستكنًا غير مسرور وعلامات الكدر تظهر عليهِ. وقال ان خلو القصر قد اثر فيهِ جدًا بعد ان كانت جوزفين زهرتهُ وحياتهُ وكتب اليها من التويلري بما ياتي

يوم الاربعاء الظهر

اخبرني اوجين انكِ كنت امس مكدرة جدًا. فيا محبوبتي هذا خطأ وهو مخالف لوعدك. وقد بت في كدر من الانفراد بعد ان رجعت الى التويلري وظهر لي ان هذا القصر العظيم فارغ ووجدت نفسي وحدي استودعك الله يا محبوبتي اعتني بصحتك نابوليون

ثم فتحت المخابرات لعقد زواج جديد ومضت برهة بدون ان يقرر هل ينبغي ان يتزوج من عائلة روسيا او النمسا او سكسونيا. اما جوزفين فكانت لا تزال محاطة بكل عظمة الامبراطورية. وكان نابوليون يكثر من زيارتها غير انهُ لم يكن يراها وحدها مراعاةً للاحوال. وكان يشاورها في كل امورهِ ويرغب جدًا في توطيد اركان الصداقة بينهُ وبينها. وتبين للناس في وقت قصير ان آمن الطرق للفوز برضى الامبراطور المبالغة في احترامها والاعتناء بها. وصار قصرها المكان الذي كان ياتيهِ اهل البلاط وبعد ان طلقها ببرهة طلبت مادام دولار وشفوكول التي كانت قيمة ملابس الامبراطورة ان تنال شرف هذه الوظيفة الجديدة وتركت مولاتها الاصلية فقال نابوليون لا يمكن السماح لها ان تبقى في مركزها ولا بالحصول على الوظيفة الجديدة التي طلبتها. وقال الناس انني لم انصف بمعاملة جوزفين فلا اسمح لاحد بان يقتدي بي ولا سيما الذين رفعت شانهم وبالغت في نفعهم. واقامت جوزفين برهة ليست بقصيرة في قصر مالميزون تحن الى الفقراء وتقرا وتقابل اعضاء البلاط الامبراطوري باكرام واعتناء وكانت اقدامهم تزدحم في غرفها ورجعت بالتدريج الى البشاشة وسلمت نفسها الى نصيبها بالسكينة والهدو. وكان نابوليون حينما يزورها يمسك ذراعها ويمشي معها ساعات في طرق ذلك القصر المزينة وهو يبين لها نواياهُ. وكان يرغب في

تخفيف الاكدار التي ملأ بها قلبها . وكان لايزال يحبها وكانت صفاتها الحسنة تجعلهُ طوعًا لها

ووصفت اجتماعها بهِ مرة في ذلك القصر قائلة كنت ذات يوم اصور زهرة بنفسج وهي الزهرة التي كانت تذكرني باسعد ايامي فجاءتني احدى نساءي واشارت اليَّ بوضع اصبعها على شفتيها . وبعد ذلك بلحظة بت في دهشة فانني رايت نابوليون طارحًا نفسهُ بسرور شديد بين يدي انا رفيقتهُ القديمة . وعند ذلك تقرر عندي انهُ لايزال قادرًا على محبتي فعلاً . وكان كانهُ عاجز عن الانقطاع عن التعزي بي وكان في عينيهِ ما يدل على شدة حبهِ . وبعد برهة قال بصوت لطيف يدل على حبهِ القلبي وحنوهِ ياجوزفين عزيزتي احببتكِ ولا ازال احبكِ . ياجوزفين الصالحة المحسنة هل تحبيني وان كنت عندت زواجًا قد ابعدني عنك غير انهُ لم يخرجك عن بالي . فاجبت يامولاي . فقال ادعيني يابونابرت وكلميني بالحرية التي كنت تكلميني بها قبلاً . وبعد برهة قصيرة ذهب ولم اسمع غير صوت مشيتهِ فما اسرع ذهاب كل الامور في هذه الدنيا . فشعرت مرة اخرى باللذة التي يشعر بها من كان محبوبًا

اما طلاقها فكان لاسباب سياسية خطيرة جدًّا ومع ذلك كان مضادًّا للناموس الدين الذي كان متدينًا بهِ . على انهُ كان قد تربى في وسط اضطراب كثير زلزل الاداب فلم يكن يظن انهُ اخطا لان صوالح فرنسا دعتهُ الى ذلك وقال ليس لطلاقي جوزفين شبيهٌ في تواريخ العالم فلم يقطع الرباطات التي كانت تربط عائلتنا وحبنا لم يتغير . فانفصالنا كان من الامور التي دعينا اليها بصوالح تاجي ودولتي . وكانت جوزفين تحبني جدًّا ولم يكن لاحدٍ في قلبها تفضيل عليَّ . فكان لي المحل الاول فيهِ ولولديها المحل الثاني . وقد اصابت بهذا الحب وذكرها لايزال يوثر في عقلي . وقال ايضًا ان جوزفين امراة لطيفة حنونة وكانت افضل نساء فرنسا . وقال لو ولدت لي جوزفين ابنًا لتمت سعادتي بالنظر الى الامور السياسية والعائلية . فان ذلك مما يصون لي العرش ولو كان لها ولد لاحبتهُ الامة الفرنسوية كما احبت ابني ملك رومية . وكنت تخلصت من وضع رجلي فوق هوة مغطاة بالزهور . فما اشد بطلان اعمال البشر . فمن يقدر على الحكم بما يؤول الى السعادة او الى الشقاء في هذه الدنيا

## الفصل الثاني والخمسون

### ماريا لويزا

ولم يظهر من تكون امبراطورة بعد جوزفين في برهة قصيرة . واختلفت الاراء وبات نابوليون في ارتياب . وفي ٢١ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨١٠ اجتمع مجلس مخصوص في قصر



التويلري ليتفاوض بامرٍ مهم جدًّا لفرنسا . وكان نابوليون جالسًا في كرسي الامبراطورية مستكنًا ولوائح الكدر تلوح على وجههِ . وحضر هذه الجمعية جميع اكابر رجال الامبراطورية ففتح الجلسة بقولهِ قد جمعتكم لاقف على رايكم بشان اهم الامور الدولية وهو اختيار زوجة تلد ورثاء للامبراطورية فاصغوا لتقرير موسيو دي شامباني ثم يبدي كل منكم رايهُ . فقرا التقرير وكان مسنوفيًا متعلقًا باقتران بنتاة من عائلة روسيا او النمسا او سكسونيا . وبعد قراءتهِ صمت الجميع فانهُ لم يجسر احد من الحاضرين ان يتكلم فاخذ يسال الجالسين عن يساره واحدًا فواحدًا . وقالت الاكثرية اننا نفضل امبراطورة من العائلة النمسوية . وكان نابوليون يسمع وهو صامت مستكن لا يظهر شيئًا من ارائهِ وميلهِ . وفي نهاية الكلام شكر الاعضاء على مشوراتهم الجيدة وقال سانامل بارائكم وقد تقرر عندي ان الاختلاف في ارائكم ناشئ عما راى كل منكم انهُ ياول الى خير البلاد مسوقين الى ذلك بالغيرة وبحبي . ففي بادىء الامر بعث خابر البلاط الروسي . وكان الامبراطور اسكندر يرغب ان يزوجهُ شقيقتهُ . وتكدر جدًّا من مضادة امهِ والامراء . وكان قد علق املهُ بوضع شرط يحمل نابوليون على التعهد بعدم ارجاع مملكة بولونيا ولاتوسيع دوقية وارسو . وقال نابوليون جوابًا ان التعهد بان لاترجع مملكة بولونيا الى الابد لا يليق وهو خروج عن سبل الحكمة . فاذا سنحت الفرصة للبولونيين بان ينهضوا ويطلبوا استقلالهم ويدفعوا عنهم روسيا وهم وحدهم فهل ينبغي ان احاربهم . واذا وجدوا حلفاء فهل ينبغي ان احارب حلفاءهم . فهذا طلب لايمكن التسليم بهِ وهو مخلٌّ بالناموس . فاقول انني لا اعقد اتحادًا راسًا او بواسطة احد لترجيع المملكة البولونية ولا اقدر على اكثر من ذلك . اما توسيع دوقية وارسو فلا اقدر على التعهد بانهُ لا يتم ما لم تتعهد روسيا بان لا تضيف الى املاكها قسمًا من الاقسام التي فصلت عن بولونيا القديمة

وكان كولانكور سفير فرنسا في روسيا راغبًا في تسهيل المخابرات لاتمام المصاهرة فوقع على اتفاق في ٥ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨١٠ مآلهُ ان لاترجع ابدًا المملكة البولونية وان يصير الانقطاع عن استعمال كلمة بولونيا والبولونيين في جميع الاعمال العمومية وان لا يضاف الى دوقية وارسو شيء من الاراضي المختصة ببولونيا القديمة . غير ان نابوليون رفض التصديق على هذه الشروط . فرغب اسكندر في القيام بالثار فابطل بعض الموانع التي كان قد القاها في سبيل التجارة الانكليزية

اما ام امبراطور روسيا المتكبرة فلم ترغب في اضاعة ذلك الصهر المشهور وطلبت فرصة للتامل وقالت ان ابنة امبراطور روسيا لاينبغي ان يصير الحصول عليها بمجرد الطلب كانها فلاحة . ولم يقدر نابوليون ان يحتمل محاولات كهذه . فاخبر اسكندر انهُ اتم المفروض عليهِ بتفضيل شقيقة امبراطور كان حليفهُ وصديقهُ . وفي ذلك اليوم خابر بلاط النمسا فقبل حالاً . وسر الامبراطور

فرنسيس جدًّا بذلك فانهُ قطع الصلات الجارية بين روسيا وفرنسا وجعل ابنتهُ في ارفع مركز . وكان عمرها ١٨ سنة وكانت ذات جسم صحيح وقوام جميل ولون الماني لطيف . وقال موسيو تيرس انها قبلت بهذا النصيب بادب يليق بها وبسرور شديد . اما امبراطور روسيا فتكدر جدًّا من ذلك . وقيل انهُ لما سمع بهِ قال حكم عليَّ بان ابقى في غابات بلادي . وكان اتحاد فرنسا والنمسا سبب انقطاع املهِ من الحصول على ماريه واما رومانزوف وزير روسيا الاول فقال لسفير فرنسا لا نحسد النمسا فانها لم تفعل شيئًا موجبًا للتشكي فكل ما ياول الى راحتها وراحة اوربا يكون مقبولاً عندنا . وقال الامبراطور اسكندر لذلك السفير هنيء الامبراطور على هذا الانتخاب فانهُ راغب في الاولاد وكل فرنسا راغبة في ذلك . وهذه المعاهدة ضمانة سلام للنمسا ولفرنسا واسرُّ بها . وربما كان يحق لي ان اتشكى شخصيًّا غير انني لا اتذمر واسر بكل ما ياول الى خير فرنسا . غير انهُ تذمر كثيرًا في نفس ذلك الاجتماع . وصار الشروع في الحال في الاستعداد اللازم وارسل نابوليون برتيه كسفير فوق العادة ليطلب تزويجهُ بماريا لويزا . واختار نابوليون خصمهُ المشهور في الحرب وهو الارشيدوق شارل لينوب عنهُ عند اقامة احتفال عقد الزواج . فما اعظم ذلك التغيير فانهُ قبل ذلك باشهر قليلة تقاتلا في معارك اكموهل واسلنغ ووكرام وبعد برهة قصيرة وقف الارشيدوق كصديق لهُ ليستلم عروسهُ

وفي ١١ اذار (مارس) سنة ١٨١٠ عقد الزواج باحتفال لم تر فينا مثلهُ واظهر الاهالي جميعًا من السرور ما لا مزيد عليهِ ونقلت العروس الى فرنسا بعظمة . وكانت كلما خطت خطوة ترى ما يدل على شدة فرح الناس بزواجها . وتقرر انها تقابل نابوليون المرة الاولى في قصر كومبان ومعهُ كل رجال بلاطهِ . واراد نابوليون ان يخلصها من الارتباك فسار مع مورات من القصر ليقابلها مقابلة خصوصية فيسكن روعها قبل ان تراهُ محاطًا بجمهور غفير من اكابر الرجال . ولم يرَ احدهما الاخر قبل ذلك وعند اقتراب العجلة خرج نابوليون بسرعة من عجلتهِ ودخل عجلتها وترحب بها بقبلة ملاطفة . وسرَّت هذه العروس المولودة في احضان الملوك بما رات من حمية نابوليون ومنظرهِ الذي كان كمنظر الشبان . فجلس بجانبها وظهر منهُ الارتضاء من جمالها المعتدل وحذقها ورزانتها . وكان نابوليون عند زواجهِ هذا جميلاً ولم يكن وجههُ جعدًا مطلقًا وكان لونهُ اسمر يضرب الى لون الزيتون . وتعجبت ماريا لويزا لما رات ان زوجها المشهور قوي الجذب بشخصهِ وتصرفاتهِ . وقالت لهُ يامولاي ان صورتك لا تظهر ما فيك . وبعد ذلك اقرت لهُ انها عندما طلب اليها ان تتزوج بهِ تمنعت لانها كانت قد سمعت عنهُ اخبارًا مخيفة . فسالت اعمامها عن ذلك فقالوا ان ذلك كلهُ كان صحيحًا لما كان عدونا اما الان فقد تغيرت الاحوال . وجرى احتفال عقد الزواج في فينا بحسب عادة البلاط النمسوي وتم بها العقد بحيث بات لا يتيسر ابطالهُ . وسال نابوليون مجلس فرنسا القضائي العالي عن هذا



الشان واعادة العقد في باريس مراعاة للظواهر فقط احترامًا للامة التي جاءت تلك الامبراطورة لتملك عليها . ومن الاحسانات التي قام بها يوم زواجهِ انهُ عين سبعمائة فرنك لكل من ستة الاف فتاة ترتضي بان تتزوج يوم زواجهِ جنديًّا من جيشهِ ثبتت شجاعتهُ وحسن تصرفاتهِ

وبقي نابوليون مع اهل العرس جميعًا في كومبان ثلثة ايام وعقد الزواج مدنيًّا في سان كلو في اول نيسان (افريل) وفي اليوم الثاني ركب نابوليون وماريا لويزا الامبراطورة عجلة ومعهما مائة عجلة فيها المارشالية واعضاء العائلة الامبراطورية ورجال البلاط ودخلا باريس احتفاليًّا من باب قنطرة الانوال . وجلس الامبراطور والامبراطورة في عجلة التتويج وكان زجاجها المخصوص يظهرهما لثلثمائة الف نفس اجتمعت في ذلك المكان الجميل . وكانا يسيران بطيئًا وضجيج الناس فرحًا بهما متصل كانهُ رعد غير منقطع . وقطعا الشان الينزي في وسط تزيينات مبهجة جميلة ودخلا قصر التويلري من باب الجنة . واقيم مذبح عقد الزواج في القاعة العظيمة فامسكها بيدها وسار بها في وسط تلك الصور الجميلة الموجودة في المكان الذي يجعل اتصالاً بين اللوفر والتويلري . واصطف اعظم رجال الامبراطورية على الجانبين واخذوا ينظرون بدهشة الى ذلك الرجل الذي رفع عقلهُ فرنسا من حضيض الاضطراب الى اعلى قمم السطوة والشرف

وفي المساء دخل كنيسة تبهر العيون بلمعان ذهبها وقد انيرت بمصابيح جعلت نورها اشد من نور النهار واقتبل فيها بركة الزواج . وامست باريس كلها سكرى بخمرة الفرح وانقطع الناس عن تذمراتهم كلها وتبين ان جميع المخاوف قد زالت . واغمد السيف الذي كان يقطر دمًا وتبسم السلام في اواسط اوربا التي طالما اخربتها الحروب . ولما سمعت جوزفين قرع الاجراس واطلاق المدافع احتفالاً بزواج نابوليون اذرفت دموع الحزن والكابة وهي جالسة في غرفتها صامتة ومع ذلك اجهدت نفسها كانها اعظم الابطال واشد الاشدا حتى جعلت حاسياتها تخضع لاحوالها . اما قصر مالميزون الجميل فكان قريبًا من باريس فاراد نابوليون ان يخلص جوزفين من ضيقات استماع احتفال زواجهِ فعين لها قصر نافار فانهُ ابعد من القصر المذكور عن باريس وبعد ان وصلت اليهِ كتبت الى الامبراطور

يامولاي . في هذا الصباح اخذت رسالتك بسرور وهي التي كتبتها عند ذهابك الى سان كلو واجيب على ما تضمنتهُ من علامات الحب واللطف ولا اتعجب من ذلك لانني كنت متاكدة بان حبك يجد الوسائل اللازمة لتعزيتي اثناء انفصال لازم لراحتنا جميعًا . واكاد اسر بالتمني الذي التزمت بان ابيت فيهِ لان عنايتك تتبعني اليهِ . فماذا بقي لي بعد ان ذقت حلاوة حب عادل وكل مرارة حب غير عادل وبعد التمتع بكل الملذات التي تقدر القوة العليا ان تاتي بها والسرور بان ارى الرجل الذي احبهُ جدًّا محبوبًا عند الجميع ابقى غير الراحة . فما هي الامال الباقية انها كلها زالت

عندما التزمت بان اتركك ، فالرباطات الوحيدة التي تربطني بهذه الحياة هي عواطفي المتعلقة بك وحبي لولديّ ونفعي للناس وخصوصاً تاكدي سعادتك . ولا اقدر على الوفاء بحق الشكر على سماحك لي باتخاب الذين يكونون معي ولا انكدر الا من شيء واحد وهو المحافظة على الزي حال كون ذلك من المستصعب خارج المدينة . وانت تخاف ان يقع نقص في احترام الرتبة الامبراطورية التي لا تزال لي اذا سمحت للاعوان بان يهملوا قسماً صغيراً من الملابس الرسمية . على انهُ مقرر عندي انك تخطي اذا ظننت انهم ينسون الاحترام الواجب للامراة التي كانت رفيقتك . فاعتبارهم لك مع حبهم القلبي لي يصونني من خطر الالتزام بان اذكرهم بما ترغب ان يتذكروهُ . ولقبي العالي ليس من حصولي على التاج ولكن من وقوع انتخابك عليّ . وليس لغير ذلك مركز . وهذا كافٍ لان يخلد ذكري بين الناس . وانا منتظرة قدوم اوجين واحب ان اراهُ لانهُ ياتيني بدون ريب بضمانة جديدة تضمن تذكرك اياي واسالهُ براحة بال عن الف شيء احب الوقوف عليهِ ولا اقدر ان اسالك انت عن امور من الواجب ان لا تذكرها لي . فلا تنسَ صديقتك . وقل لها احياناً انك حافظ لها حبهُ وسعادة حياتها . وقل لها تكراراً انك سعيد وتاكد ان ذلك يريح مستقبلها فان الماضي كان مضطرباً وكثيراً ما اوقعها في حزن . انتهى

وبعد ان دخل نابوليون باريس بعرسهِ باقل من ثلثة اسابيع كتبت اليهِ جوزفين بما ياتي

نافار في ١٩ نيسان ( افريل ) سنة ١٨١٠

مولاي . قد اخبرني ابني بتاكيد بان جلالتك مرتضٍ بان اعود الى قصر ماليزون . فهذه المنحة تخفف كثيراً من قلقي وخوفي اللذين نشآ عن سكوتك الطويل . فانني خفت من ان اكون قد اُخرجت من ذهنك . غير انني رايت انك لا تزال تتذكرني . ولذلك قد قل حزني اليوم بل تراني في غاية من السرور الذي يمكنني ان اتمتع بهِ بعد الان . وفي نهاية الشهر اعود الى ماليزون . لان جلالتك لا ترى ما يمنع ذلك . لكن لم يكن يصح ان اقول يامولاي انهُ من الواجب ان اسرع لاستغنام ما سمحت لي بهِ لو لم يكن البيت في نافار محتاجاً حفظاً لصحة جسمي واجسام الذين معي الى ترميمات كثيرة . وانا قاصدة ان ابقى في ماليزون برهة قصيرة . واذهب بعدها الى اماكن الاستحمام . وتاكد انني سابقى في ماليزون كانني بعيدة عن باريس الف فرسخ . فاعلم يامولاي انني بذلت ضحية عظيمة كل يوم يزداد شعوري بعظمتها . ومع ذلك ساحتمل هذه الضحية وحدي وهذا هو الواجب . ولا اكدر سعادة جلالتك باظهار حزني . ولا تمرر ذلك عند جلالتك ساحترم في كل حال مركزك الجديد صامتة . واستغني بالركون الى الحب الذي تحبني اياهُ فلا اطلب اليك ان تاتيني ببرهان جديد . وسانتظر نتائج عدلك ونبلك . واقتصر على طلب منحة واحدة . وهي ان تتنازل جلالتك حيناً بعد حين وتزورني ليتقرر عندي وعند الذين هم حولي انهُ لا يزال لي مكان



صغير في ذهنك وفسيح في اعتبارك وصداقتك . فهذه الوسائط مهما كانت تزيل احزاني بدون ان تمس ما هو عندي اعظم كل الامور وهو سعادة جلالتك

جوزفين

فاجابها نابوليون بما حملها على رد الجواب الاتي الذي يعرب عن شدة حبها وسرورها

اشكرك الف الف مرة شكراً جميلاً لانك لم تنسي . وقد اتاني ابني برسالتك . ففرايتها بشوق شديد ومع ذلك صرفت زماناً طويلاً في تلاوتها لانني لم اقرأ كلمة بدون ان تهيجني الى البكاء . غير ان هذه الدموع معزية جداً . وقد رجعت تنسي اليّ وستبقى كذلك الى الابد . فان بعض الحاسيات هي الحياة ولا تمضي الا بزوالها . وقد وقعت في يأس خوفاً من ان يكون قد جرحك كتابي المورخ في ١٩ الجاري ولا اتذكر ما كتبت فيهِ غير انني لا ازال متذكرة الحاسيات المولمة التي حملتني على كتابتهِ . وكانت حاسيات الكدر من عدم استماع شيء عنك . وكتبت اليك عند خروجي من ماليزون وبعد ذلك تمنيت ان اكتب تكراراً اليك . وقد رايت سبب صمتك وخشيت من ان اثقل عليك بكتاب واحد فكتابك يلمم لي . فكن سعيداً كما تستحق . فقلبي كله بكلمك . وقد اعطيتني حظي من سعادتك وشعرت باهمية ذلك . وما من شيء خطير عندي كملامة اهتمامك بي . استودعك الله يا صديقي واشكرك بحنوٍ كما احبك

جوزفين

وبعد ان تزوج نابوليون بمدة قصيرة سار مع عروسهِ الفتية وزار ولايات امبراطوريتهِ الشمالية . فقابلها الاهالي في كل مكان باعظم علامات الاعتبار والحب . على ان انكلترا كانت لا تزال تحارب بدون انقطاع . والتزم نابوليون فضلاً عن اهتمامهِ بادارة امبراطوريتهِ المدنية ان يقاوم مهاجمات شديدة قامت بها الدرامة في الارض واغناها . وكانت بوارجها الحاملة تتعدى في فرنسا حيثما كانت تقدر ان تدفع كلة . وبذلت جهدها في الحيل وصرف المال في سبيل تهييج الملكيين والجاكوبيين في فرنسا مع قطع النظر عن قواعدهم فان مقصودها انما كان تنكيس نابوليون . وكانت تزيد عدوان العصاة في البرتوغال واسبانيا . وافرغت كل جهدها في منع خمود نيران الحرب في اوربا . وثبتت ثبوتاً يستحق المدح لو كان مبذولاً في سبيل الفضل ولكنهُ كان حسداً من نابوليون على اعمالهِ العجيبة لتعقد محالفات جديدة لمضادة عدو الحقوق الموروثة وعاضد الحقوق العمومية المشهور . ونجحت في هذا العمل نجاحاً يزيد عن درجة الاعتدال . فان نيران الحرب انتشبت بشدة في اواسط اوربا بعد ذلك ببرهة قصيرة

وكان نابوليون يظن ان اتحادهُ مع احدى عيال اوربا المالكة بالمصاهرة يجعلهُ من دائرة الملوك القانونيين بحسب راي اصحاب الحقوق الموروثة فعلق املهُ بان ذلك يجعل انكلترا ترتضي بان تعقد الصلح فافرغ جهدهُ مرة اخرى في حمل جيرانهِ المحاربين على اغماد السيف . ولكنهُ لم ينجح . وتجاوز نابوليون حدود الاعتدال في واجباتهِ بتكرار طلب عقد الصلح وقد اصاب مستر

كوبدن بما قال وهو كفانا ان نقول ان فرنسا لم تفتح الحرب وافرغت جهدها في منع وقوعها بينها وبين انكلترا ولم يبقَ عليها الا ان تجنح ومتوسلة اليها

وقال سافاري بعد مصاهرة عائلة النمسا ظن نابوليون انهُ نجح في تحقيق امالهِ وهي ان يربط دولة اولية بنظام مقرر في فرنسا ليجعل اوربا تحصل على السلام . وظن انهُ لا ينبغي ان يخاف عند محالفة جديدة لمضادتهِ . وانهُ لم يبقَ عليهِ غير ان يعقد الصلح مع انكلترا فحوَّل كل اهتماماتهِ الى عقدهِ معها . وتقرر عندهُ انهُ بدون مصالحة انكلترا لا تنتهي الحرب . وطلب الى روسيا مرتين ان تشرع في فتح المخابرات بين فرنسا وانكلترا فرفضت مداخلتها رفضاً لم يمكنها من ان تطلب اظهار اسبابهِ . ومع ذلك لم يقطع الامبراطور نابوليون الامل من ان تصغي انكلترا لهُ بعدالة عندما يطلب اليها القيام بما يقتضيهِ الانصاف . وطلب وسائل سبر آراء الحكومة الانكليزية ليرى هل يحق لهُ ان يقطع الامل من الوصول الى الموافقة . ومست الحاجة الى استخدام وسائط سرية للوقوف على ذلك لئلا تظهر نواياهُ . وكانت هولاندة محتاجة الى سلام بحري اكثر من فرنسا نفسها . وكان الملك لويس الهولاندي محبوباً عند رعاياهُ واخبر الامبراطور نابوليون بصراحة انهُ يرى نفسهُ في مركز ردي شخصياً ما دام ملزوماً ان يبقى في عرش بلاد قد خسرت مداخيلها . فسبق الجميع الى مخابرات انكلترا بشان الصلح برضى الامبراطور نابوليون . وجرت المخابرات مستترة بستار مخابرات تجارية . وكان في محل تجاري اسمهُ محل هوب في قاعدة هولاندة اوسع الاشغال التجارية الجارية بين هولاندة وانكلترا . وكان ذا اعتبار عظيم قادراً على ان يداوم اشغالهُ التجارية ويفوض بالقيام بالمخابرات الدولية اللازمة . وكان موسيو دي لابوشار من شركاء . ذلك المحل مرتبطاً بالمصاهرة باعظم رجال التجارة في انكلترا . وكان يرسل تقريراتهِ الى محل هوب فيسلمها الى ملك هولاندة وهو يرسلها الى الامبراطور نابوليون

اما ناظر الضابطة الفرنسوية الكثير المداخلة فتجرا في اثناء ذلك ان يرسل وكيلاً سرياً لسبر افكار الوزارة الانكليزية وذلك بدون معرفة نابوليون . وارسل موسيو اوفرار للقيام بهذه المامورية الغريبة . وقال السار ولتر سكوت ان اوفرار المذكور وكيل الامبراطور شرعاً في مخابرة المركيز اوف ولسلي وزير انكلترا بدون ان يعلم احدهما بالاخر . فتعجب وزير انكلترا من هذه المداخلة المزدوجة وخاف من ان يخدع وانقطع عن مخابرة الاثنين . فاجتهادات نابوليون المتكررة في سبيل المحافظة على السلم مع انهُ صادف صداً واهانة تشهد بانهُ لم يكن يميل الى الحرب . فخاب املهُ وتكدر جداً من فوشي وزير الضابطة لانهُ تداخل مداخلة خطالا يعذر عليها . وعند ما فحصهُ نابوليون في المجلس قال لهُ ماذا امر موسيو اوفرار ان يفعل في انكلترا . فاجاب بان يقف على ميل وزير خارجية انكلترا الجديد بحسب الاراء التي تشرفت بالقائها امام جلالتكم . فقال لهُ نابوليون



قد اتخذت على نفسك فتح حرب او عقد صلح بدون ان تعرفني . فكان من الواجب ان يقطع راسك . ثم عزلهُ من نظارة الضابطة . ومع ذلك عاملهُ بكرامة الاخلاق ونفاهُ نفياً شريفاً بجعلهِ حاكم رومية . وبعد ذلك قال نابوليون ان فوشي لا ينفك عن وضع رجلهِ القبيحة في احذية الجميع

وقال اليسون ان المركيز ولسلي بين بثبات نجاح انكلترا المادي واقتدارها على فتح حروب كثيرة في الاستقبال بالمداخيل التي فازت بالحصول عليها بحصر تجارة العالم في نفسها . انتهى . وكانت البوارج الانكليزية تسود بقوتها على جميع البحار وبات البحر تحت سيادتها . وفي اثناء ذلك ارسلت بوارج كثيرة واخذت جزيرة جاوة من فرنسا . قال اليسون ان هذه الجزيرة الجميلة كانت اخر الاملاك الفرنسوية وراء البحار وطالما طمعت الحكومة الانكليزية بالاستيلاء عليها . فجهزت بوارجها وجنودها في مدراس للحملة عليها وفازت بالمرغوب . فامست تلك الجزيرة بجملتها انكليزية . وهذه كانت عواقب الحرب البحرية بين نابوليون وانكلترا فانها اخذت منهُ كل مستعمراتهِ . ومن العجب استيلاء انكلترا على العالم حال كونها تتهم نابوليون بالمطامع

وقال اليسون ان استيلاء انكلترا على جميع مستعمرات نظيرتها جعلها سيدة ينابيع العالم . غير ان الحرب لم تنتهِ بنهاية ذلك . فان القوتين المتناظرتين تمتا بالمضادة فسادت احداهما في البحر والاخرى في البر فباتتا متلاقيتين للقيام بالحرب الاخيرة

وكانت انكلترا مصممة على ان تسوق جنودها على فرنسا لتقاتل مناظرتها القديمة للحصول على الاسبقية في اوربا وكانت الحروب في روسيا للحكم بالسيادة في اوربا لاحد الفريقين المتحاربين . انتهى

اما فرنسا فكسرت بوارجها وبانت تجارتها البحرية في ضياع وخسرت املاكها الخارجية وامست ثغورها عرضة لمدافع اقوى دولة بحرية حيث تقدر تلك المدافع ان تدركها . وكانت تطلب الصلح بالحاح وتكرار بدون ان تصادف غير الصد والاهانة فلم تر سبيلاً للدفاع عن نفسها الا بمنع البضائع الانكليزية عن الدخول الى اواسط اوربا

وكان لويس بونابرت شقيق نابوليون ملك هولاندة فكانت مصالح رعاياهُ وتقدمهم اهم عندهُ من اراء شقيقهِ نابوليون السياسية فاهمل اجراء الامر الامبراطوري بمنع البضائع الانكليزية عن الدخول الى هولاندة . فبادر الانكليز الى ارسال كميات وافرة جداً من بضائعهم الى ثغور هولاندة فصمم نابوليون على ان يمنع ذلك فانهُ مضر جداً بالوسائل التي كان يتخذها لنوال مرادهِ من الانكليز . وكان قد تقرر عندهُ انهُ يحق لهُ طلب اتحاد جميع الحكومات العمومية التي انشاتها قوتهُ حال كونها كانت مستندة الى فرنسا لصد الاعداء الذين كانوا يحيطون بها . وكان من الموكد ان سقوط النظام العمومي في فرنسا ياتي بسقوط جميع تلك الدول والواقع ان سقوط

نابوليون كان سبباً لدفن الحقوق النظامية والحرية العمومية في اوربا قاطبة . ولذلك لم يكن يظن انهُ كان يظلم تلك الدول اذا طلب اليها ان توافقهُ وتحد معهُ حال كونها حرة مثلهُ ومستندة اليهِ وكانت كانها قد تعهدت بالقيام بذلك . وتمنعهم عن القيام بتعهدهم بين لهُ انهُ يسوق الجميع الى الخراب . وكانت بروسيا وروسيا من الدول التي تعهدت لهُ بالمعاهدات بمساعدتهِ في اقواه المدافع الانكليزية . وكتب الى شقيقهِ المذكور واظهر لهُ اسباب تشكيهِ من هولاندة بما ياتي

يا مولاي واخي . قد تناولت رسالة جلالتك . طلبت اليَّ ان ابين لك نوايايَ من جهة هولاندة . فابينها بخلوص قائلاً انهُ عند استوائك على سريرها رغبت بعض الامة الهولاندية في الانضمام الى فرنسا . على ان اعتباري لها الناشيء عن معرفة تاريخها جعلني اميل بها الى المحافظة على استقلالها واسمها . فقررت بيدي نظامها الاساسي لتكون قاعدة لعرش جلالتك واجلستك عليهِ وعلقت املي بان تربيتك تحت انظاري تجعلك محباً لفرنسا محبة يسوغ لها ان تنتظرها من اولادها ولا سيما من اولاد عائلتها المالكة . وعلقت املي بان تعلمك لسياستي يبين لك ان هولاندة تكون ضعيفة بدون حليفة وبدون جيش فتقع في الدقيقة التي تجعل نفسها فيها مضادة لفرنسا . وانهُ لا ينبغي ان تجعل سياستها مضادة لسياستي وبالجملة اقول انها مرتبطة معي بالمعاهدات ولذلك تصورت ان وضع امير من عائلتي على عرش هولاندة يمكنني من جمع صوالح البلدين وان اجعلها حليفتين لمضادة انكلترا . وانا عالم ان البعض تعودوا مدحي والاستهزاء بفرنسا . غير ان الذين لا يحبون فرنسا لا يحبونني . واعظم اعدائي الذين يطعنون في شعبي . واكون شقيق جلالتك اذا كنت فرنسوياً ولكن اذا استخففت بالعلاقات التي تربطك بوطننا فلا اخطي اذا اهملت الرباطات الطبيعية التي تربطك بي . انتهى

فقاوم لويس معارضة التجارة بين هولاندة وانكلترا وتكدر حتى تنزل عن عرشهِ متكدراً وخرج سراً من هولاندة . وبانحراف صحتهِ كثر التذمر في عائلتهِ وجعل ايامهُ مرة

وقال نابوليون عنهُ ان قراءة تاليفات روسو اضرت بلويس . ولم يتفق مع زوجتهِ غير اشهر قليلة وكان كلٌّ منهما ذا نقائص . فلويس كان حد الطبع متعنتاً وهورتنس كانت ذات حدة مثلهُ قاسية . وكان كل منهما يحب الاخر عند الاقتران . وجوزفين هي التي سهلت سبل زواجهما . اما انا فكنت ارغب في توسيع علاقات عائلتي بمصاهرة عيال اخرى وفي ذات يوم خطر لي ان ازوج لويس باحدى نسيبات تاريلند وهي التي صارت زوجة جوست دي نوايل . وهورتنس الفاضلة الكريمة المحبة كانت تقصر احياناً في معاملة زوجها . فاقر بذلك وان كنت احبها حباً شديداً واعلم انها كانت مخلصة الودادلي . وربما كانت طباع لويس علة الضجر ولكنهُ كان يحبها وعلى المرأة



في احوال كهذه ان تخضع لزوجها وتعامله بما يقابل محبتهُ . فلو جعلت اعمالها موافقة لصوالحها لتخلصت من المحاكمة الاخيرة ومتعت نفسها بالسعادة وتبعت زوجها الى هولاندة ولو تم ذلك لما هرب لويس من عاصمتها ولا التزمت بان اضم مملكتهُ الى امبراطوريتي حال كون ذلك ثلم صيتي في اوربا . انتهى

وكتب لويس الى نابوليون بانهُ لا سبيل الى الحمل على انكلترا حملاً موثراً الا بثلث طرق وهي فصل ايرلاندة عنها او الاستيلاء على املاكها في الهند او سوق الجيش الى مواجهها . ولا يتيسر القيام بالامرين الاخيرين بلا بوارج وقد عجبت من اهمال الطريقة الاولى وهي افضل لصيانة السلام مما يضر بنفسك وبحلفائك بمحاولة ايقاع ضرر اعظم باعدائك . انتهى

وكانت هورتنس حينئذٍ مع ولديها في باريس مفارقة لزوجها . فاجلس نابوليون ولدها الصغير على حضنهِ وكان اسمهُ نابوليون وهو شقيق الامبراطور نابوليون الثالث وقال لهُ تعال يابني اكون انا والدك فلا تخسر شيئاً . وتصرف ابيك كدر قلبي وربما نشأ عن ضعف جسمهِ وعندما تعظم تضيف دينك على دينهِ ولا ينبغي ان تنسى مطلقاً اينما كنت ان سياستي وصوالح امبراطوريتي هي من الفروض الاولى المتعلقة بي والثانية بفرنسا . والفروض الاخرى حتى التي اسلمك اياها المتعلقة بالامة هي بعد تلك . انتهى

وقال سافاري لا ننكر ان تنحي لويس وهربهُ اثرا جداً في صوالح الامبراطور عند الراي العام وقد اخبرني احد المقربين اليهِ انهُ لما سمع بذلك تعجب جداً وصمت برهة وبات في هجس ولم يكن عالماً بما يكون لذلك من التاثير في الراي العام . فانهُ اشتغل عن كل امر بما راهُ من كمود اخيهِ وكان قلبهُ يضطرب لما قال من ظن ان شقيقي المديون لي اكثر من الجميع يفعل امراً مضراً كهذا . فلما كنت قائماً في خدمة المدافع ربيتهُ بالوسائط القليلة التي تمكنت من الحصول عليها بمرتبي القليل . فكنت اقسم خبزي بيني وبينهُ . وهذه مكافاة الحنو والجميل . ويقال ان الكدر تغلب عليهِ حتى بكى . انتهى

وقال نابوليون ظن اخي ان ما فعلهُ يجدهُ مع انهُ فعل دني وقد هرب من عرشهِ واخذ يطعن بي وبمطامعي ويقول ان ظلمي لا يحتمل فماذا افعل . فهل اترك هولاندة للاعداء او اعطيها لملك اخر . فهل انتظر من غريب اكثر مما انتظر من اخي . الم يفعل اكثر الملوك الذين اقمتهم افعالاً متشابهة . ان عائلتي لم تمنعني غير قليل واضرت كثيراً بالمشروع العظيم الذي كنت احارب في سبيلهِ . وربما عذرنا لويس لان ما فعلهُ ربما نشأ عن انحراف صحتهِ وضعف جسمهِ . فان احد جانبيهِ كان يختلج على غير ارادتهِ . غير ان ضم هولاندة الى امبراطوريتي اثر في اوربا تاثيراً غير جيد وعظم مصائبنا . انتهى

وكانت اسباب الارتباك تحيط بنابوليون وانكلترا تشدد المحاربة في اسبانيا . ومن ادلة اهتمام انكلترا الشديد بتلك الحرب تفويض مجلسها العالي الى الحكومة في تلك السنة ان تنفق على البوارج خمسمائة مليون فرنك . وعلى الجيش ١٢٠ مليون فرنك . وكانت البوارج الانكليزية حينئذٍ ١٠١٩ بارجة . وانفقت فيها ٤٧٠ مليون ريال اسبانيولي . فبهذا الاجتهاد نجحت حكومة انكلترا في نهاية الامر بمنع المساواة ومن الامور التي تستحق الذكر ان نابوليون نظم كل دائرة من دوائر حكومتهِ ورتبها بنشر حساباتها ومراقبتها بتدقيق وقام بحروب عظيمة غير منقطعة بدون ان ينفق اكثر مما كانت تنفق مملكة فرنسا قبل الجمهورية وهي ضمن حدودها الضيقة في وقت السلام . ومات بدون ان يترك لوطنهِ حملاً ثقيلاً من الدين

اما روسيا فتكدرت وكان عدوانها يزيد يومياً وبانت قوارب الصيد الفرنسوية غير قادرة على الخروج الى الاوقيانوس بدون ان تستولي عليها سيدة البحار . وانقطعت تجارة فرنسا البحرية . ولم يرَ نابوليون سبيلاً لدفع شر عدوهِ الا بمنع تجارتها في اواسط اوربا . وكان ذلك سبباً لخراب تجارة اوربا والقاء الخصومات على الدوام . ولم يرَ وسيلة للمحاربة الا ترك المضادات والخضوع لانكلترا وتسليم فرنسا للبوربون او انفاذ ذلك بالقوة المطلقة وبحق الفتح ضم الى امبراطوريتهِ مقاطعة قالوا التي تمر فيها الطريق الحديدية المودية الى ايطاليا واقام جنوداً للمحافظة من مصب شلدت الى الالب ليصون سواحل الاوقيانوس الالماني من الذين كانوا يهربون البضائع . وقد شهد الامبراطور نابوليون بانهُ زار انكلترا ودقق النظر في اعمالها ومعاملها وتجارتها وتحقق انهُ لو استمر منع تجارتها من اواسط اوربا سنة اخرى لالتزمت بان تخضع . فما راهُ الامبراطور اسكندر سنة ١٨١٤ راهُ نابوليون بتعقلهِ وحذقهِ قبل ذلك بسنين

والقي القبض على رجل سكسوني شاب عمرهُ عشرون سنة في باريس فاقر بانهُ كان مصمماً على قتل الامبراطور ليخلد اسمهُ بجعلهِ متعلقاً باسم نابوليون . وقال انهُ عالم ان ذلك يأتي بهلاكهِ اذا نجح اولم ينجح . قال سافاري قررت خطاً للامبراطور عما سبق القاء القبض على ذلك الشاب وما تبعهُ . فكتب على حاشية التقرير ينبغي كتم الامر لمجانبة الادعاء عليهِ جهاراً . وسنهُ يعذرهُ . فلا يحسب الانسان مذنباً في ذلك السن ما لم يكن مربي لارتكاب الذنوب . وبعد سنين قليلة تتغير افكارهُ . وماذا ينفعنا اهلاك رجل مجنون شاب طرح عائلة مستحقة الاعتبار في الحزن وفي مركز يجلب العار على الدوام . فاسجنوهُ في قلعة فنسن . وعاملوهُ بكل العناية التي قد ظهر من حالتهِ انهُ في احتياج اليها وسلموهُ كتباً ليطالعها . واكتبوا الى عائلتهِ وابنوا اجراء ما يزيد عن ذلك لي . واخبروا بهِ الوزير الاول فان رايهُ يفيد . فسجن في تلك القلعة وبقي في السجن الى ان دخلت الجنود المتحدة باريس



ومضت عليهِ تلك السنة بسرعة فانهُ كان مشغلاً على الدوام بمهام عظيمة مرقياً اسباب الصناعة مقدماً امبراطوريتهُ العظيمة دافعاً ضربات انكلترا محاولاً ارضاء الاعداء في اواسط اوربا مناظراً على الحرب المهلكة التي كانت جارية في اسبانيا واخذة في الاتساع . وغاب عن فرنسا مدة طويلة لادارة الحرب في الطونة فالتزم بان يسلم ادارة القتال في اسبانيا الى قوادهِ

وفي مساء ١٩ اذار ( مارس ) سنة ١٨١١ امست الامبراطورة ماريا لويزا على فراش التوجع الذي لا تنجو منهُ زوجة بعلو المركز ولا بالتخفاضهِ فاشتد المخاض عليها وطالت مدتهُ وتالمت جداً . فقال الاطباء انها في حال صعب وتوجع اليم واظهروا من الاضطراب ما لا مزيد عليهِ . ثم قالوا لابد من تضحية حياة الام او الولد . وجلس نابوليون بجانب الام المتوجعة ١٢ ساعة محاولاً تعزيتها وتسليتها وازالة مخاوفها وتقوية عزمها . ورأى نابوليون ان موسيو دونوا الجراح مرتبك لا يعلم ماذا ينبغي ان يفعل فقال لهُ هل هي في خطر . قال لهُ قد شاهدت حوادث كهذه غير انها نادرة الحدوث . فقال لهُ الامبراطور لقد احسنت فتجلد ولا تضطرب ولا تخف ولا تقل انني اعالج الامبراطورة وعالجها كانها احقر النساء في شارع سان دنيس . فجاءت هذه المشورة بعواقب حسنة فانها ولدت وجاء الولد قوياً صحيحاً

واعلنت الحكومة ان اطلاق مدافع الانفاليد يكون علامة ولادة وريث نابوليون . وانهُ اذا كان انثى يطلق ٢١ مدفعاً وان ذكراً يطلق مائة مدفع ومدفع . فبعد نصف الليل بست ساعات في صباح ٢٠ اذار مارس المذكور استيقظت باريس باصوات اطلاق مدافع عظيمة تبشر بولادة وريث الامبراطورية ففتح الاهالي جميعاً نوافذ بيوتهم واخذوا يصغون الى اطلاقها ويعدون دفعاتها وكان الناس كلهم صامتين مشغلي البال حتى ان بعضهم كاد ينقطع عن التنفس . وبعد اطلاق ٢١ دفعة اشتد اشتغال بال الناس لان الذين كانوا يطلقونها تاخروا لحظة فوقفت باريس مضطربة جداً ثم اطلق المدفع بشدة وفرج كرب الناس . وعندها ضجت المدينة كلها بصوت واحد واختلط الضجيج بدمدمة المدافع . ولم يفز ملك ارضي بما فاز بهِ نابوليون من علامات حب الامة لهُ واهتمامها بامورهِ فما اهم ولادة ذلك الولد الذي لقب بملك رومية

وانتشر هذا الخبر بسرعة في فرنسا قاطبة بقرع الاجراس واطلاق المدافع . وكانت جوزفين حينئذٍ في نافار وفرح قلبها الكريم وهي في حزن شديد وعرفت بولادتهِ في مساء اليوم الذي ولد فيهِ ولم يرَ احد الدموع التي اذرفتها وهي في خدرها وحدها وفي نصف الليل كتبت الى نابوليون بالرسالة الاتية

يامولاي . هل يبلغ اذنيك صوت ضعيف صادر من امراة وهما ملتهبتان باستماع التهاني الواردة من اقطار فرنسا كلها ومن كل فرقة من جيشك هل تتنازل للتي طالما سلتك عن احزانك

وخننت الامك . وبعد ان انفصلت عنك هل اتجاسر ان اهنئك اذ صرت والدًا . نعم يامولاي اهنئك بدون تردد لان نفسي تعدل بما يتعلق بك كما انك تعدل في معاملتي . واقدر ان اشعر بكل ما يوثر بك وانت تامل في كل ما اشعر به الان . ونحن منفصلان غير اننا متحدان باشتراك الحاسيات اشتراكًا يتغلب على جميع الحوادث وكنت احب ان اسمع بولادة ملك رومية منك لا من صوت مدفع ولا من الرسول المرسل الى الوالي . على اني عالمة بانهُ من الواجب ان توجه اعتناءك الاول الى ماموري الحكومة والسفراء وعائلتك ولا سيما للامبراطورة السعيدة التي بلغت بها اهم امالك . ولا يمكن ان يكون حبها لك اشد من حبي ولكنها قدرت ان تزيد سعادتك اكثر مني بتقرير سعادة فرنسا . فيحق لها ان تتمتع باعتنائك الاول وانا التي كنت رفيقتك في زمان صعوباتك لا اقدر ان اطلب اليك الا ان تجعل مكاني في حبك بعيدًا عن مكان حب الامبراطورة ماريا لويزا . ولا تمسك قلمك لتكتب الى اصدق صديقاتك الا بعد تحيك عن فراشها للاعتناء بها وبعد ان تشبع من تقبيل ابنك . ولكن لا اقدر ان اوخر اخباري بانني سررت بسرورك اكثر من جميع الناس . ولا تشتبه في صحة قولي انني لست بمكدرة اذ انني قمت بتضحية لازمة لا راحة الجميع واهنيء نفسي بذلك لانني امسيت وحدي متحملة الاكدار . لقد اخطأت فانني لا اتكدر ما دمت انت سعيدًا واتاسف من جرى امر واحد وهو انني لم افعل ما يكفي لابين شدة حبي لك . انهُ لم ياتني خبر عن صحة الامبراطورة . واتجاسر ان اسالك يامولاي تفصيل الحادث العظيم الذي يخلد الاسم الذي رفعت درجتهُ وسيكتب اليَّ اوجين وهورتنس مظهرين ارتضاءهما ولكن احب ان ترد عليَّ منك الاخبار المتعلقة بحالة ابنك ومشابهتهِ لك وان تصبح لي يومًا بان اراهُ . وانتظر منك ركونًا غير محدود يحق لي ان انتظرهُ لانني اشد الناس حبًا لك حياتي بطولها . انتهى

وبعد ان ارسلت جوزفين هذه الرسالة ببرهة قصيرة اخبرت بوصول رسول آتٍ من الامبراطور وتناولت من ذلك الرسول رسالة باضطراب ودخلت واقامت تتامل فيهِ نصف ساعة ثم عادت وقد ورمت عيناها بالبكاء وبل الكتاب بدموعها . فاعطت الرسول جوابًا باسم الامبراطور وهدية مقابلة للبشارة التي حملها اليها علبة صغيرة فيها دبوس صدري من الماس وخمسة الاف فرنك ذهبًا . وبعد ذلك قرأت الرسالة على اصدقائها وكان مختامها ما ياتي ان هذا الطفل واوجين يكونان علة سعادتي وسعادة فرنسا . وقرات جوزفين هذه الكلمات بصراحة وقالت هل يمكن ان تكون اخلاق احد الناس اكرم من ذلك الرجل . هل يكون شيء اشد تاثيرًا فيَّ لتعزيتي في ساعة كهذه الساعة الم احب الامبراطور من قلبي . فان ذكرهُ لابني مع ابنهِ دليل كرامة الاخلاق فيجب ان يكون نابوليون اكرم الناس عندي واعلم انهُ يتمنى ذلك . فهذا هو الذي اثر فيَّ جدًا



وكانت الامبراطورة ماريا لويزا تغار جدًا من جوزفين ومع ذلك دبر نابوليون ما مكنهُ من ان يريها ابنهُ المحبوب في مكان اسمهُ رويال بافيلون بالقرب من باريس . وبعد ان رأتهُ ببرهة قصيرة كتبت اليهِ ما ياتي

ياسيدي . من المحقق انني لم ارغب في مشاهدة ملك رومية (هو لقب ابن نابوليون) لمجرد التفرج عليهِ ولكني رغبت ان اتفحص هيئتهُ واسمع صوتهُ المشابه لصوتك وان اراك تلاعب ولدًا تعلقت بهِ امال عظيمة وان اقوم بوفاء حبك لابني اوجين . واذا تذكرت شدة محبتك لابني لا اتعجب من شدة حبي لابن غيري لانهُ لك ايضًا ولا ترتاب في حاسيات شعرت بمثلها ولا تتهمني بالمبالغة والدقيقة التي رايتك فيها داخلاً حاملاً نابوليون الصغير من اسعد دقائق حياتي . ومحت برهة ذكر كل ما سبق لانني لم ارَ منك دليلاً اعظم من حملهِ اليَّ يبين شدة حبك لي بل شدة اعتبارك وصداقتك . ومع ذلك اعلم ان الاجتماعات التي اسر جدًا بها لا يمكن ان تكون كثيرة ولا يلزم ان اجعل حلمك ولطفك سببًا لتعجيزك . واجعل هذه التضحية التي اقوم بها لاراحتك برهانًا جديدًا على رغبتي في ان اراك سعيدًا . انتهى

وكان نابوليون يجتمع حينًا بعد حين بجوزفين غير انهُ لم يكن يجتمع بها جهارًا حذرًا من كلام الناس . واجتمع بها قبل ان ذهب للحرب الروسية . وكانت قد وقعت في خوف من ذلك فطلبت اليهِ ان يجتمع بها تكرارًا فجاء مالميزون بعجلة فاستقبلتهُ في الجنة فجلسا على مقعد مستدير امام نوافذ قاعة الجلوس غير ان الذين كانوا فيها لم يكونوا يقدرون ان يسمعوا كلامهما فصرفا نحو ساعتين يتكلمان بحمية . وكان اعوانهما واقفين وراء ستر النوافذ يحاولون ان يقفوا على مآل الحديث من حركات المتكلمين . فابتدات جوزفين بالكلام بخوف وقلق فاجاب الامبراطور بركون وظهر لهم انهُ اراح افكارها بالتدريج . والمظنون ان الحديث كان عن حملهِ على روسيا . وفي نهايتهِ نهض وقبل يدها ومشى معها الى العجلة وكانت لوائح السكينة والراحة تلوح على وجهها في ذلك النهار وقالت اكثر من مرة لمعينتها انها لم تر الامبراطور مسرورًا كما كان مسرورًا في ذلك اليوم . وقالت انني متكدرة لانني لا اقدر ان اخدم بشيء ذلك الذي فاز بالسعادة الارضية

وقال نابوليون عنها نعدل اذا قلنا ان جوزفين ارتضت الطلاق لما رات ان الامبراطور مصمم عليهِ . ولا ريب في انها كابدت مشقات كثيرة من ثقلهِ ولكنها خضعت لنصيبها بلا تذمر بدون القاء الموانع التي كانت قادرة على استعمالها وان كانت عالمة بانها تذهب سدى . وتصرفت تصرفًا لطيفًا موافقًا وطلبت ان يقوم وكيل الملك بالمخابرات اللازمة وعرضت ان تقوم بما يلزم عند العائلة النمسوية وكانت ترغب في مشاهدة ماريا لويزا وكثيرًا ما كانت تتكلم بلطف عنها وعن ملك رومية . وكذلك ماريا لويزا تصرفت تصرفًا حسنًا جدًا بالنظر الى اوجين وهورتنس ولدي

جوزفين . غير انها اظهرت ما يدل على كرهها لها بل كادت تكاد تظهر غيرة . وفي ذات يوم رغبت ان اذهب بها الى مالميزون لتزور جوزفين ولكنها بكت لما اخبرتها بذلك . وقالت انها لا تعترض عليَّ اذا زرت جوزفين ولكن لا تريد ان تعرف بزيارتي لها . وكانت عند ما تعلم بانني مصمم على الذهاب اليها تفرغ جهدها في سبيل تكديري وتستخدم كل الحيل التي تظن انها تاول الى منعي عن الذهاب . ولم تكن تتركني وحدي ولما رايت ان تلك الزيارات تكدرها خالفت ميلي وقللتها ومع ذلك كانت تقابلني بالبكاء الشديد والحيل الكثيرة لما كانت تعلم انني مصمم على زيارة جوزفين

وكان البارون منيفال كاتب نابوليون المخصوص ثم صار كاتب الامبراطورة ماريا لويزا وكتب ما ياتي

وثقلت الهموم والاشغال على الامبراطور وراى نفسهُ قريبًا من مخاصمة روسيا فصرف وقتهُ في معاطاة اشغالهِ الكثيرة ومراجعاتهِ واشغال وزرائهِ . ولم يكن يطلب الراحة والتنزه الا بالاجتماع بامراتهِ وولدهِ فزمان الراحة القصير الذي كان لهُ بعد نهاية اشغالهِ كان يصرفهُ بالاعتناء بابنهِ كاعتناء النساء فانهُ كان يحب ان يراقبهُ

وكان عندما يعثر ابنهُ ويسقط قبل ان يعينهُ لمنع وقوعهِ ينهضهُ ملاطفًا ضاحكًا ضحك فرحٍ وكانت الامبراطورة ترى ذلك ولكنها لم تكن تلاعب الولد قدر ملاعبة الامبراطور لهُ . وكان اجتماعهم جميعًا اي الامبراطور وزوجتهُ وولده بسيطًا جدًّا حتى ان الناظر اليهم كان ينسى ما لهم من عظم الشان ورفعة القدر فكانوا كانهم اعضاء عائلة عادية يتمتع بعضها بالبعض الاخر فان كلاً منهم كان يحب الآخرين محبةً شديدةً . فمن كان يعلم بما حجبهُ الاستقبال عنهم . وكان ذلك الرجل الذي قال اعداؤهُ انهُ بدون حاسيات ولا عواطف زوجًا شفوقًا وابًا حنونًا

وقال اليسون المورخ الانكليزي ان الامبراطورة ماريا لويزا كانت كانها غير موجودة ولكنها كانت محبة وفي النهاية ظهر انها لم تكن تستحق ان تكون زوجةً لهُ ومع ذلك كان يعاملها بالحنو واللطف في السنين القليلة التي شاركتهُ فيها بحوادثهِ . وكان يحب ملك رومية ابنهُ حبًا شديدًا . والعواطف الابوية شديدة التاثير في الجميع الاَّ في الذين تجاوزوا حدود الاعتدال في حب انفسهم وكانت شديدة في صدرهِ . فان تربية ابنهِ وتعليمهُ كان يستغرق قسمًا عظيمًا من عنايتهِ في ارداء احوالهِ واعظمها . وكان فراقهُ وهو في جزيرة سانتا هيلانه من اعظم المصائب التي كان يشعر بها فانهُ علق قلبهُ بهِ وجعل مجدهُ المنتظر متوقفًا على مجدهِ

والخبر الآتي الصحيح يبين بعض اعمال نابوليون وهو في العائلة ودونهُ البارون منيفال وهو ان الامبراطورة رغبت يومًا ان تطبخ الطعام المعروف بالعجة فانها تذكرتها بتذكر ايام فتوتها



واخذت تشتغل في صنعها بيدها واذا بالامبراطور قد دخل بدون ان تعلم بدخولهِ فاضطربت قليلاً وارادت ان تخبيء ذلك عنهُ فقال باسمًا ماذا يجري هنا اظن انني اشمُّ رائحة قلي طعامٍ فمرَّ بجانبها الى الجهة الثانية وراى الآنية الفضية والمقلاة وفيها السمن والبيض وغير ذلك . فقال لها انك تقلين عجةً حال كونكِ لا تعرفين الطبخ . فانا اعلمكِ كيف تصنع فجلس حالاً امام المائدة واخذ يشتغل والامبراطورة تخدمهُ كانها معينة الطباخ . فصنعها وقلا جهة واحدة منها وعند لزوم قلبها بسرعة وهي في المقلاة لقلي الجهة الاخرى اندفعت من يدهِ الى الارض فضحك وقال انني لمغرور بمعارفي واقرَّ للامبراطورة بانها سيدة المطبخ

وعين مادام دي مونتسكيو لتربية ابنهِ . وكانت من النساء الفاضلات جدًّا العاقلات وقامت بواجباتها بضبطٍ وامانةٍ وقال نابوليون عنها ان تلك المادام ذات اهلية غير عادية ثقية فعلاً وذات قواعد صحيحة جدًّا . فكنت اعتبرها بالنظر الى صفاتها اعظم اعتبار . وكنت في احتياج الى ست نساء مثلها ولو حصلت عليهنَّ لجعلت لهنَّ خدمات بحسب اهليتهنَّ . والقصة الاتية تبين كيفية تربيتها لابنهِ . ان غرف ابن نابوليون فيها كانت في الطبقة السفلى فيها نوافذ تفتح الى جهة فسحة القصر . وكان كثيرون من الناس ياتون النوافذ لمشاهدتهِ منها . وفي ذات يوم اشتدَّ غيظهُ وصياحهُ وعصا امر مربيتهِ فامرت في الحال بان تقفل النوافذ فاظلم المكان بغتةً فاندهش الولد وكان يدعوها مامان كيو لانهُ لم يكن يقدر ان يحسن لفظ اسمها فقال لها مامان كيو ما هذا . قالت انني احبك محبة شديدة فلا بد من ان استر غيظك من الناس المجتمعين في الفسحة لانك ربما كنت يومًا من الايام تحكم عليهم . فماذا يقولون عنك اذا راوك مغتاظًا كما كنت هل تظن انهم يطيعون لك امرًا اذا عرفوا انك على هذه الحال فاعتذر اليها طالبًا العفو ووعدها بان لا يغتاظ بعد ذلك . فما اعظم الفرق بين هذا الكلام والكلام الذي اسمعهُ فيلروا للملك لويس الخامس عشر اذ قال لهُ يا مولاي هوذا هذا الشعب كلهُ لك فكل الرجال الذين تراهم هناك هم لك

وكان نابوليون يحب ابنهُ محبة شديدة ليس اعظم منها . وفي ذات يوم قال للكونتس مونتوكون وهو في جزيرة سانته هيلانه هل اخدع نفسي بتصوري ان هذا الصخر يصير جنة اذا جاءهُ ابني واعتنقت ولدًا طالما طلبت الى السماء ان تهبني اياهُ ومن ظن انهُ يكون يومًا علة كدري . نعم يا سيدتي في كل يوم اذرف دمعًا كالدم من فراقهِ والخوف عليهِ فاني اتصوَّر اردأ الحوادث ولا اقدر ان انفي تصوراتي ويخال لي انني ارى الجرعة او الثمرة التي يسم بها لنهي ايامهِ مع براءتهِ باشد الاوجاع فاشفقي على ضعفي وعزيني

وبعد ولادة ابنهِ بمدة قصيرة اراد ان يبني لهُ قصرًا على شاطيء نهر السين في مكان يقابل جسر جينا . فارادت الحكومة ان تشتري البيوت المبنية هناك مع الاراضي . فاشترتها كلها خلا كوخ

احد الفقراء الذي كانت قيمتهُ نحو الف وخمسمائة ريال . فلما راى ذلك الرجل ان ارضهُ لازمة لاتقان هندسة القصر طلب عشرة الاف ريال فاخبر الامبراطور بذلك . فقال هذا طمع غير معتدل لابد من اخراج الرجل المسكين من بيتهِ فادفعوا لهُ الثمن فلما راى انهُ نال ماطلبهُ بسهولة قال بعد التامل انهُ لايبيع البيت باقل من ستة عشر الف ريال فاخذ المامورون في محاولة تغيير عزمهِ ولكنهم لم ينجحوا فاحتار المهندس وخاف ان يتعب الامبراطور بهذا الامر . فقال نابوليون ان هذا الرجل يسخرنا ولكن لاسبيل الى نوال المطلوب الا بدفع المال . فامتنع صاحب البيت ثانية وطلب خمسين الف ريال . فعرض الامر للامبراطور فقال بغيظ ان هذا الرجل منافق فلا اشتري بيتهُ وسابنيهِ في مكانهِ شاهداً على احترامي للقوانين . فغير المهندس هندسة القصر وصار الشروع في البناء ولم يتم بناؤهُ قبل سقوط نابوليون . ولما راى الرجل المار ذكرهُ انهُ بات في وسط مواد البناء والغبار لام نفسهُ . وعند رجوع البوربون الى الملك هدموا حيطان القصر ودرسوهُ

وقال الدوق دي راثيا انهُ كان ذات يوم في كومبيان يتمشى مع الامبراطور في مكان التنزه واذا بالمرضعة اتية حاملة ابنهُ ومعها الكونتس دي مونتسكيو فلاعبهُ برهة ثم اخذ يمشي وهو يقول لي ان هذا الولد لو وُلد ولهُ دخل معتدل لعاش بسعادة تزيد عن السعادة التي يعيش بها الان فانهُ معد لان يحمل ثقلاً عظيماً

وقص الدوق دي دوفيغو ناظر الضابطة في ذلك الزمان خبراً يبين حالة تلك الايام وهو سنة ١٨١ ظهرت بارجة من بوارج صقلية امام احد ثغور المانيا . وانحدر الى البر مامور من البوارج الصقلية كانت ملكة صقلية ونابولي تستخدمهُ بركون . وارسلتهُ رسمياً الى القائد في ذلك المكان للقيام بامر غريب جداً . فارسلهُ المارشال مارمون اليَّ فاستنطقتهُ فكتب تقريرهُ ووقع عليهِ . ومآلهُ ان الملكة عيل صبرها من احتمال نير الانكليز فتروم التخلص منهُ باجراء ما يعرف بصلاة العصر الصقلية ( في وسط القرن الثالث عشر اقام شارل دي انجو مؤامرة عظيمة على الفرنسويين بعد ان شيد سلطانهُ في نابولي وصقلية . وفي ٣٠ اذار ( مارس ) سنة ١٢٨٢ عند صلاة العصر نهض المتوامرون على الفرنسويين وقتلوهم ذكوراً واناثاً صغاراً وكباراً فسميت هذه المذبحة بصلاة العصر ) وانها مصممة على القيام بذلك حين تتاكد اقتدارها على الالتجاء الى بعض جهات ايطاليا من املاك فرنسا وان كل شيء قد تهيأ لهُ . وانهُ يجري حالاً بعد رجوعهِ الى صقلية . وبيَّن جميع الاسباب التي تمكن الملكة من النجاح . وبعد الحصول على هذا الاستنطاق رايت انهُ من فروضي عرضهُ للامبراطور . ففراهُ كلهُ واغتاظ جداً لان تلك الملكة فرضت امكانية مساعدتها بالقيام بمذبحة كهذه ناشئة عن خيانة . فامرني بان اسجن المامور المذكور محبوساً في قلعة فنش وبقي فيها الى ان دخلت الدول المتحدة باريس ومات بعد ذلك واسمهُ اميليا ولا بد



من ان يكون اسمهُ مكتوباً في دفاتر الذين سجنوا في القلعة المذكورة . وبعد هذه الحادثة باشهر قليلة ذكرت الجرائد الاجنبية ان الانكليز اكتشفوا مؤامرة في صقلية المقصود منها قتلهم فالقي القبض على كثيرين وحوكموا وعوقبوا بالقتل . ولا ريب في انني لو لم اسجن المامور الصقلي لتمكن من الرجوع الى الملكة وترويج العمل قبل ان تمكن الانكليز من الوقوف عليهِ . وكان قد تقرر عند كثيرين ان الوسائط التي تهلك الانكليز يسلم بها نابوليون . ولتكذيب ذلك قررت هذه الحادثة المخصوصة بهِ وهي غير معلومة في فرنسا لانهُ امرني بان لا ابينها

## الفصل الثالث والخمسون

### الحروب الروسية

ان التاريخ الذي كتبهُ الكولونل نابيه الانكليزي عن حرب اسبانيا من الكتب المشهورة في انكلترا يشهد بحكمة الدوق ولنكتون القائد الانكليزي وحذقهِ . والكولونل المذكور من الذين حاولوا تنكيس نابوليون بسيفهم فلا يكون من مادحيهِ المملقين وقد كتب ما ياتي عن سجاياهُ وصفاتهِ والامور التي كان يقوم بها

ان سياسة حزب التوري الانكليزي كرهت القواعد الحرة كرهاً لامزيد عليهِ . وكان ذلك الحزب يحارب نابوليون لا لانهُ ظالم مختلس كما زعموا اذ لم يكن كذلك . ولا لان حملهُ على اسبانيا كان تعدياً بل لانهُ كان عدو الامتياز الموروث وضدهُ الفائز . وكانت سعادة اسبانيا ورفاهيتها من الكلمات التي تذكر في خطب رجال ذلك الحزب واوراقهِ بدون ان يكون لها معنى . واشتد غيظهم جداً وخجلوا عندما راوا ان نجاحهم في مضادة الامبراطور نابوليون كان سبباً لانتشار الحرية التي كانوا قاصدين ملاشاتها . وكان نابوليون في مركز راى منهُ وهو يلاحظ علامات الزمان ان الحذق العسكري وغيظ الفلاحين من تعديات العدو من اسباب خروجهِ من صعوباتهِ بل اخراج بلادهِ منها لانهُ لم يكن لصالحهِ الشخصي دخل سياسي مالم يكن مجدهُ الخصوصي مرتبطاً بمجد فرنسا ونجاحها . ولم يرَ العالم قط رجلاً مرتفعاً ذلك الارتفاع حال كونهِ خالياً من كل طمع خصوصي . فالذين يرغبون في الوقوف على الحقائق بامانة فليبحثوا عن احوال نابوليون بدقة . وليقراوا قيود تحجهِ المرة الثانية وهي التي نشرها اخوهُ لوسيان الجمهوري الثابت الذي لم يرتضِ ان يبيع قواعدهُ بالممالك بل رفضها فيزول كل الريب من عقولهم . وكانت سطوتهُ مستندة في فرنسا الى ما تقرر في عقول الناس من صلاحهِ وفي عقول الفقراء والمتوسطين من حذقهِ وادراكهِ والحب الذي كانوا يحبونهُ بهِ لا يزال مغروساً في قلوبهم الى هذا اليوم لانهُ كان عضداً لقواعد العدل والمساواة . وكانوا يحبونهُ ايضاً لانهُ لم يكن ينفك عن الاشغال في الخدمة العمومية ولا تلطخ بالرذائل ولان

مشروعاتهِ النافعة كانت عندهُ كالعجائب بالنظر الى كثرتها ونفعها وعظمتها واتصالها . وفي ايامهِ لم يكن الفقير محتاجًا الى شغل . وانشأ في فرنسا انشاءات عظيمة وقرر لها قانونًا عادلاً بالنسبة الى القوانين التي كانت جارية واوصلها الى مجد لم تصل اليهِ دولة بعد الدولة الرومانية

وكانت الجنود تحبهُ محبة تكاد تكون عبادة . وقد اصابت بذلك . واحبهم لهُ عند انتظامهم في سلك العسكرية يدل على ان صفاتهِ الحسنة جدًا وقوة عقلهِ كانت تحول البغض الى حب عند اقتراب الناس منهُ . ولم يبغض اهالي فرنسا نابوليون فانهم هم جعلوهُ امبراطورًا ولم تحب امة ملكًا كما احبتهُ تلك الامة . وذهابهُ الى باريس وهو محاط بمئات الوف من الرجال الفقراء الذين لم يكونوا جنودًا مما لا يمحوهُ الزمان ولا يغيرهُ . واستمر ستة اسابيع مسافرًا مع انهُ لو تيسر لواحد قتلهُ لاشتهر جدًا او نال مكافاة عظيمة من الملوك والامراء الذين كانوا يرتجفون عند ذكر اسمهِ ولذلك كانوا يحرضون الناس على الفتك بهِ . فكان كثيرون من الادنياء يتعهدون بذلك غير انهُ لم يكن من ينفذهُ فسار والامة الفرنسوية دليلهُ الى ان وصل سالمًا الى عرش لم يتيسر انزالهُ عنهُ الا بمليون من الجنود الاجنبية فانزلوهُ عنهُ ولكنهم لم يكونوا يقدرون ان ينزلوهُ عن العرش الذي بناهُ لنفسهِ في قلوب الاهالي وافكارهم . وما قلتهُ هو الصحيح وهو انهُ كان يطمع في تعظيم فرنسا وتمجيدها واصلاح حال اوربا واثبات النظام الذي انشاهُ لا لنفسهِ بل لتعظيم بلادهِ . وهذا هو الذي يحمل جماهير كثيرة من امم اخرى على ان تعظم شانهُ . حتى ان الملوك والامراء باتوا لا يستامنون على مراكزهم العالية الا بفوزهم عليهِ

وسنة ١٨١٤ اعضدت قوات اجنبية الراية البيضا وهي البوربونية وحلت المصائب على ذات الامبراطور العاضد لحقوق الاهالي حتى طرحتهُ على الارض . ولكن عندما رجع الى العليا بقوتهِ العجيبة رجع وحدهُ من البا فبادر الذين لبسوا من اهل الثروة من الاهالي الى ملاقاتهِ وحبوهُ كاب لان فخرهم مكن فيهم حب الوطن فلم يفسدوا الا لانهُ كان منزهًا عن كل نقص فمن من بني ادم خالٍ من النقائص . ولكنهم طلبوا النجاة من الظلم لانهم كانوا يتمسكون بهِ كانهُ علة خلاصهم وصونهم من مظالم الحقوق الموروثة

واعظم اللوم الذي وقع عليهِ نشا عن الاعمال الاتية وهي قتل الاسرى في يافا وسم المرضى في المستشفى فيها وقتل الدوق دانجن والحمل على اسبانيا وطلاق جوزفين والحرب التي فتحها على روسيا . ومن الناس من كان يتهمهُ باغراق اوربا بطوفان من الدماء حبًا بالحرب قيامًا بتحريضات مطامعهِ التي لا حد لها . وقد ذكرنا جميع هذه الحوادث مع توضيحات نابوليون المتعلقة بها وانتقاد اعدائهِ . وقبل ذكر حوادث الحرب الروسية من الواجب افراغ الجهد في توضيح اسبابها المرتبكة فنقول



ان المورخ وليم هازلت ذكر سطوة انكلترا المسببة لحرب روسيا بالكلام الاتي اذا امست بلاد في مركز يمكنها من نكاية الدول الاخر بدون ان يتيسر الهجوم عليها حال كونها تحت ادارة رئيس مفيد بارادتهِ وميلهِ غير قادر على ان يميز الامور او لا يريد ان يميزها وقد فتحت حربًا مع دولة مجاورة بدون حق او لسبب ضعيف جدًا قاصدة سلب استقلال امة وحرية العالم وقد كسرت في بادي الامر المضادة والضعف الناشيء عن هجوم بدون مسوغ وعن الخجل ووقعت في عدم ثبات من جرى بضعف الغايات التي تدعيها ودناءة الغايات الصحيحة وقد اصرت على ذلك وصممت على ان تضرم نيران الحرب الى النهاية ولا تصغي الا لافتخار وانتقام وقد خاب املها متكلة على استمالتها في مركزها واتحدت مع امم اخر نقضت فيها مشورات كمشوراتها غير ان مركزها لا يصونها من عواقب العدوان واحتمال اثقال الاهانة والفشل والخسائر من محاولة الحاق الضرر بالحق والحرية وقد عاندت مترقبة سنوح الفرص لتهيج الاغراض والمطامع في بلدان لا تزال تتوجع من جراح قديمة بامل قيامها بحرب جديدة غير مستعدة لان تقوم بها فانها تحصد عواقب العدوان . ويجري ذلك وتلك الدولة المنفردة تتبسم اذ ترى اللهيب الذي يحرق قوة ممالك اخرى وتمر بالدم الذي يهرق وتقول مفتخرة أبذل المال وتزيد ثروتي . وبعد ان افرغت قوتها في مضادة الاضطراب والحرية غير المعتدلة حتى جعلت اقامة رئيس عسكري من الامور اللازمة لابطال المضار التي نشات عن تعدياتها صاحت متشكية من الظلم والحكم المطلق غير مكتفية بان تستخدم المضادات السياسية والبغض الوطني فتفرغ الجهد في ثلم صيت الرجل الوحيد الذي يقدر ان يدفع المشروعات المحبوبة عندها حتى يتوهم الناس ان اسمهُ يفسد الهواء ووجودهُ يظلم الامم بدون ان يكون لذلك اقل صحة متخذة الجرائد الحرة وادعاء امة كاملة بالادب والفضل فتنشا عن ذلك خلق الكذب والتعويل على النفاق واختلاف ونزاع وتعدٍ على المعاهدات ياتي الملوك بشروط اشد لان الملوك لم ينفذوا كلامهم والامم ليس لها موادة وعدم مراعاة اصول الحرب العادية ياتي بالقيام بالثار بعدم مراعاتها ايضًا وبالتذمر . وقد جاء عدم نفع كل ما استمع لتقرير الصلح وقطع عدوان ثابت شديد بمحاولة امور صعبة ذات مخاطر فينشا عن هذه الامور كلها ان نهاية الخطا تظهر كانها نهاية الصواب . فان الامم التي تتنهد تحت رق المنتصر الشديد حال كونها لا تتذكر انها اصل العدوان تتوهم ان التعدي وقع عليها فتحاول ان ترفع العار عن نفسها مهما ترتب على ذلك من الاثقال وبتحزب الرعايا لحكامهم ليدفعوا المضار التي اوقعهم اولئك الحكام تحتها . وينشا عن ذلك اضطراب وعدم انتظام فالهجوم على دول لم تفعل ما يستحق الهجوم من اسباب الثورات العمومية . والتصميم على عدم الخضوع الى ان يخسر الانسان كل شي يوسع دوائر الحرب وبوقوع الشبهة في الفوز بالنجاح يعظم الخراب والخسائر . وهكذا بدون تغير في اسباب الحرب التي تكون الاصرار على انفاذ الشر وعدم المبالاة بالعواقب يعظم العدوان

الاصلي الف ضعف ويحول حتى يصير ظاهرهُ حقًا ويصير المتعدي يوهم الناس ان عدوانهُ فضيلة وواسطة نجاة البشر فتقام الصلاة شكرًا فهذه كلها نشأت عن حماقة رجل واحد وبلاد واحدة (اي انكلترا)

وقال الدوق دي روفيكو عن حرب روسيا ما ترجمتهُ قبل الابتدا بتقرير حوادث الحرب من الواجب ان ابين كيف اجبرنا على القيام بها . اما نحن فلم نكن نرغب فيها ولا مهدنا السبل لها وعندي براهين قاطعة تبين انهُ ما من شيء كان ابعد منها عن ميل الامبراطور وراويو حال كون اقل الادراك كافيًا لان يحجو من عقول الناس الظن بان الامبراطور نابوليون اوقع نفسهُ فيها وهو محاط بصعوبات لا تحصى . وكانت دول اوربا تضرم نيران حرب فناء على فرنسا وهي لا تحارب الا للدفاع عن نفسها . وكان امبراطورها راغبًا جدًا في صيانة السلام في اوربا ولم يكن وحدهُ يقدر على ذلك بدون ان يبقي الامة الفرنسوية مسالمة وان يثقل كثيرًا على مالينها . وكان قد ظهر بالاختبار ان ذلك لم يكن واسطة لمجانبة الحرب لانهُ كان يلقي الرعب في قلوب دول اجنبية ويجعلها تشهر السلاح عند سنوح الفرص ولم يكن المقصود من اتحاد تلسيت غير اذلال انكلترا اي القاء السلام في اوربا لان انكلترا كانت المانع الوحيد لتقريره . وكان الامبراطور نابوليون لا ينفك عن طلب السلام وكان عاقلاً قادرًا على ان يدرك ان ثبات سلطانهِ وصيانة نفسهِ متوقفان على السلام . وكانت انكلترا قد اعلنت تصميمها على القيام بحرب دائمة واقامت بذلك وافرغ نابوليون جهدهُ في جعل روسيا تعود الى ما يوافق فعلاً صوالح اوربا على انهُ لم ينجح لان انكلترا كانت تجذبها الى عكس ذلك فغلبتهُ حال كونهِ كان يدافع عن وجوده وهي كانت تجمع المداخيل الوافرة التي كانت ترد اليها من كنوز الارض وتجارتها واقتدار رجالها على ادارة الاشغال . انتهى

وكانت روسيا في كل يوم تظهر مما يدل على العدوان ما يزيد عما كان يظهر منها في امسهِ . ولم ينل الامبراطور اسكندر بالاتحاد مع نابوليون ما كان يعلق املهُ بنوالهِ فعاد الى سياسة الامراء . اما اهالي اسوج فتكدروا من تصرفات ملكهم كوستافوس الرابع المجنون فخلعوه بامل الحصول على حقوق عمومية وعلى مساعدة فرنسا لهم لصيانتهم من تعديات روسيا وانتخبوا بعد مفاوضات كثيرة برنادوت ليكون ملكًا عليهم وهو برنس دي بونت كورفورد من ماريشالية فرنسا من اقدر قواد نابوليون وكان قد تزوج الخاتون كلادي شقيقة زوجة جوزف بونابرت شقيق نابوليون . وظن المنتخبون الاسوجيون ان ذلك يرضي نابوليون فاخطأوا . لان نابوليون كان يعاملهُ بكل حنو وصبر بدون ان يكون بينهما اشتراك في الحاسيات فلما سمع بذلك اجاب انهُ لا يليق بي حال كوني امبراطور الشعب المنتخب ان اضاد اصول الانتخاب عند امم اخرى . وبعد ذلك قال انني شعرت داخليًا عند استماعي بهذا الخبر ان برنادوت افعى شرعت اغذيها في صدري



وبعد الانتخاب جاء البرنس المذكور الامبراطور فقبلهُ بدون تكلف وقال لهُ ان تاج اسوج قد عرض عليك فاسمح لك بقبولهِ . وكنت راغبًا في غير ذلك وانت عالم برغبتي . غير انني اقول بالاختصار انك صرت ملكًا بسيفك وانت تعلم انهُ لا يليق بي ان اعارضك في نوال حظك . ثم اخذ يخبرهُ عن جميع متعلقات سياستهِ وظهر انهُ كان يوافقهُ عليها كلها

وكان كل يوم يحضر مع ابيهِ في بلاط نابوليون ويختلط مع رجالهِ . وكان ذلك واسطة لجذب قلب نابوليون اليهِ وكان على همة الذهاب فقيرًا على ان نابوليون لم يكن يرتضي بان يذهب قائد من قواده الى اسوج لينبوا تحت الملك فيها وهو في احتياج فوهبهُ مليوني فرنك من خزينتهِ الخاصة . وابقى لعائلتهِ المعينات المالية التي كان من الواجب ان تنقطع بعد ان صار ملكًا في بلاد اجنبية فقطعها عنهُ وجعلها لعائلتهِ وافترقا بعد اتمام هذه الامور والظواهر تدل ان كلاً منهما مرتضٍ من الاخر

وكان الامبراطور اسكندر الروسي قد الح على نابوليون بان يتعهد بملاشاة مملكة بولونيا وان دوقية وارسو التي نالفت من حصة بروسيا من بولونيا لا تكبر . فامتنع نابوليون عن اجابة طلبهِ فاجابهُ بحدة وتهديد . فقال نابوليون لسفير ما هو مقصود دولتكم من هذا الكلام هل ترغب في فتح الحرب . فلو كنت راغبًا ان ارجع المملكة البولونية لكفاني بان اصرح بذلك ولابقيت جنودي في المانيا على انني لا افعل ما يمس كرامتي بقولي ان المملكة البولونية لا ترجع الى الابد ولا اجعل نفسي عرضة لاستهزاء الناس بالتفوه بكلام هو من خصائص الله . فوضع خصمي على عهد يثبت تقسيم بولونيا يجعل ذكري مهانًا ولا سيما اذا قلت ان المملكة لا ترجع ابدًا . انني لا اقدر ان اعقد عهدًا مضادًا لاولئك القوم الباسلين الذين خدموني حق الخدمة برغبة وامانة

وبعد ذلك طلب اسكندر اليهِ ان يضمن لهُ الاستيلاء على ضفة الطونة اليمنى وعلى مصباتهِ وعلى الفلاخ والبغدان . غير ان نابوليون امتنع عن ذلك مراعاةً للدولة العثمانية وللنمسا وقال انهُ يرتضي بترك تلك الامم وشانها لتسوية الصعوبات بدون مداخلتهِ . فعرفت الحكومة الانكليزية بهذه الارتباكات الجديدة التي بات فيها فاستغنمت سنوح الفرصة وارسلت وكلاء الى قاعدة روسيا لعقد محالفة جديدة لمضادة نابوليون . فتحالفت انكلترا النظامية وروسيا المطلقة على قلب امبراطور الجمهورية . وفتحت انكلترا خزائنها الذهبية لامبراطور روسيا وبينت لهُ استعدادها لان تسعفهُ بيوارجها السائلة وجيوشها القوية . وعلق الروسيون املهم بالنجاح بما قيل لهم بتاكيد وهو ان نابوليون متلبك في حرب اسبانيا فيصعب عليهِ جمع جيش قادر على دفع الجنود الروسية

وقال كولانكور سفير فرنسا الذي كان في روسيا انهُ في الاشهر القليلة التي اقمت فيها في بطرسبرج كثيرًا ما كان الامبراطور اسكندر يخبرني بافكاره السرية . وكانت انكلترا عدوة فرنسا

الشديدة قد ارسلت وكلاء سريين الى البلاط الروسي لتحمل رجال البلاط على التذمر من فرنسا وكانت انكلترا عالمة انهُ لا سبيل الى فتح حرب عمومية على فرنسا ما دامت محالفة لروسيا . وقد اجمعت الدول على ذلك فافسدت ضمائرها كلها من جهة فرنسا الا دولة واحدة . فاتفقت على ابعادها عنها او الحكم عليها بالخراب . وفي ذلك الزمان لم يكن اسكندر شابًا محبًا للملاهي غير مفتكر بعواقب الامور . والاحوال التي بات محاطًا بها جعلتهُ شديد التامل في امور مهمة واتضح لديهِ جليًا انهُ بات شخصيًا في مركب مخصوص . وكان كثيرًا ما يخبرني بامور كان يكتمها عن اخوتهِ وربما كان لا يقدران يخبرها وزراءهُ بدون ان يعرض نفسهُ للخطر . وكان يتظاهر بالطمانينة ويكتم اشد الخوف ويعلم ان الناس يلومونهُ على شدة الميل الى سفير فرنسا . وكنا نجتمع مرًا كاننا عاشق ومعشوق يخشيان الرقيب . وفي ذات ليلة قال لي ونحن في احدى غرف الامبراطورة ياصديقي كولانكور من الواجب ان تخبر نابوليون بالمؤامرة التي تعقد ضدهُ هنا . انني لم اكتم شيئًا عنك لعل في ذلك تجاوز الحدود فاخبر امبراطورك بكل ما اظهرتهُ لك وبكل ما رايت وقرات وان الارض هنا تتزلزل تحت اقدامي وانهُ قد جعلني في مركز لا اقدر ان اثبت فيهِ وان كنت في نفس امبراطوري وذلك بنقض المعاهدات فبلغهُ مني هذا الكلام الاخير وهو اذا فتحت الحرب فلا بد من ان يخسر احدنا تاج ملكهِ . انتهى . فالتعدي على المعاهدات مما اشار اليهِ اسكندر هو استيلاء نابوليون على اراضي اولنبرغ لمنع تهريب البضائع

وكان نابوليون قد ضجر من القتال فكان مترددًا عن سل السيف تثبيتًا لامبراطوريتهِ ولقيام الراحة في فرنسا بعد ان حاربت اوربا عشرين سنة . فاجتهد في تاييد السلم . وبعث بوكيل الى الامبراطور اسكندر ليبين لهُ بانهُ يحبهُ محبة اخوية ويتعهد بانهُ لا يفعل شيئًا مما يادي الى ترجيع مملكة بولونيا ووعد باعطائهِ تضمينات معتدلة مقابلة لتكديرات ماضية ويسمح لروسيا بان تمنع البضائع الانكليزية من الدخول الى بلادها خلافًا لما كان جاريًا في اواسط اوربا . على ان روسيا صارت تحت ارادة انكلترا والانكليز علموا انهم لا يثبتون في اسبانيا مالم يهيجوا دولة اخرى على فرنسا من الشمال . وكان النفوذ في روسيا لحزب الحرب . ورأى امبراطور روسيا علامات الضعف في ارتضاء نابوليون بالقيام بتلك الامور . وكان للامراء فيهِ سطوة نافذة فاجاب بمشوراتهم انهُ قابل بما يرضي نابوليون بشرط ان يتعهد بمقاومة البولونيين اذا حاولوا ان يعودوا الى استقلالهم وان يسمح لروسيا بالاستيلاء على قسم من دوقية وارسو وان يخرج كل جنودهِ من المانيا ويرجع الى ما وراء الرين . فسار كوراكين سفير روسيا في فرنسا الى قصر التويلري وطرح هذه المطالب امام الوزارة الفرنسوية وقال انهُ قاصد ان يخرج من باريس بعد ثمانية ايام اذا لم تقبل فرنسا بتلك الشروط فاغتاظ نابوليون جدًا . وقال وهو في سانته هيلانه انهُ كان قد مضى زمان طويل ولم



اسمع كلامًا كهذا الكلام فلم اكن متعودًا استماع مثلهِ . وكنت قادرًا ان احمل على روسيا ومعي اوربا كلها فان الهجوم عليها كان من المشروعات المقبولة عند الجمهور وكان ذلك خدمة اوربية وهذا هو الاجتهاد الاخير الذي كان من واجبات فرنسا ان تقوم بهِ وكان نصيبها ونصيب انتظام اوربا متوقفين على ذلك . وكانت روسيا بعد انكلترا الاخير . ومع ذلك كنت انا واسكندر كاثنين يفتخران بالباطل وكلٌ منهما يحاول ان يخوف الاخر بدون ان يكون راغبًا في محاربتهِ . وكنت راغبًا جدًا في المحافظة على السلام لان احوالاً غير موافقة كانت تحدق بي وتتعبني وكل ما بلغني بعد ذلك اظهر لي ان اسكندر كان مثلي لا يرغب في الحرب بل كان ابعد مني عنها

وكان نابوليون يلقي على خصمهِ مسئولية الحروب ولم يكن يسير الا باسف الى ميادين القتال التي كانت تزيد مجدهُ فلم يرتضِ ان يعادي صديقهُ الروسي بدون ان يحاول تقرير الاتفاق بين الدولتين فان راحة اوربا كانت متوقفة على ذلك وكتب اليهِ تكرارًا بهذا الشان وقال في احدى رسالاتهِ ما ترجمتهُ ان هذا تكرار ما رايت في بروسيا سنة ١٨٠٦ وفي فينا سنة ١٨٠٩ . اما انا فسابقى صديق جلالتكم الشخصي وان امسى السلاح في يد الامتين بضلال من طالما ضلت بهِ اوربا . وساكون موافقًا لجلالتك ولا ابتدي بالهجوم ولا تتقدم جنودي الا بعد ان تتعدى جلالتكم على معاهدة تلسيت . وساسبق الى صرف الجنود اذا رجعت الى ما كان بيننا . فهل ندمت على ذلك . انتهى . فهذا الكلام المعتدل قرر في عقل امبراطور روسيا ان نابوليون يخاف العدوان وانهُ ليس بمستعد للحرب . وثبت ذلك عندهُ بالتقريرات التي كانت ترد اليهِ من موسيو رومانزوف من باريس فانهُ ذكر فيها ان نابوليون يميل الى تضحية كل ما يقدر ان يضحيهِ لمجانبة انتشاب حرب جديدة في اواسط اوربا

وقال اكثر الناس ان الخلاف بين فرنسا وروسيا كان ناشئًا عن ضم نابوليون اراضي كثيرة من اتحاد الرين الى فرنسا ومنها اراضي الدوق دي اولدنبورغ الذي رفض ان ياخذ ارفورت مع اراضيها عوضًا عن دوقيتهِ مفضلاً الذهاب الى بلاط امبراطور روسيا قريبهِ . والصحيح ان السبب عدم اقتدار اسكندر ان يحافظ على نظام اواسط روسيا كما وعد في ارفورت وهو النظام الذي يمنع البضائع الانكليزية عن الدخول الى اوربا . وتقرر في عقل نابوليون ان الانكليز لا يحملون على عقد الصلح الا بانفاذ ذلك . وكان قد احتمل مشقات كثيرة في سبيل انفاذهِ فلم يكن يرتضي بان يعدل عنهُ . ورأى فضلاً عن ذلك انهُ لابد من ان تنشب الحرب بين فرنسا وروسيا عند محاولة روسيا انفاذ مآربها في الشرق حال كون اوربا الغربية لم تكن تسمح بها . وكان نابوليون في قيادة جيش عظيم ربما كان لا يتيسر لهُ ان يحصل على مثلهِ في وقت اخر ورأى ان منعهُ روسيا العظيمة عن انفاذ مآربها من الامور المهمة . والان قد اظهرت قوة روسيا

لاوربا ضرورة قطع مطامعها

وقال المورخ نايه ان قوة نابوليون العقلية التي لا مثيل لها اخذت تظهر ظهوراً عجيباً . فان صوالحهُ وميلهُ وانتظاراتهِ كانت تجعلهُ يضاد الحرب الروسية على ان كلاً منهما ظن ان اظهار القوة اظهاراً تهديدياً يجعل احدهما يرجع الى المخابرات فاخذا في التقدم حتى باتا لا يقدران على الرجوع فتصادما . وكان نابوليون من الذين يخلصون الصداقة والوداد فاطال الاستناد الى خلوص امبراطور روسيا . وخُدع بما يعلمهُ عن حذقهِ واقدامهِ فلم يحسب حساباً كافياً لتاثير حيل بلاط جسور تقوم قوتهُ الحاكمة فعلاً باتفاقيات الامراء السرية . فهذه المخابرات هي التي اوجبت الحرب خصوصاً لان الوزارة الروسية كانت قد صممت على الحرب بدون ان تقرر زمانها ولكن كانت عالمة بنوايا النمسا السرية المتعلقة بايطاليا واجراءاتها فيها وعدم ارتضاء مورات . وعرف الناس ان اهالي هولاندة يرومون الاستقلال وان البروسيين يبغضون الفرنسويين بغضاً شديداً وكان برنادوت ملك سوج يحاول سراً مضادة نابوليون في ايطاليا ويخابر الاسبانيول وهكذا كان نابوليون ملزوماً بان يجعل في اسبانيا ثلثمائة الف رجل للقيام بالحروب فيها وفي اثناء ذلك اضطر الى الحرب في الشمال البعيد عنهُ حال كون كل اوربا كانت مستعدة لقطع اتصالياتهِ وكانت سواحل بلادهِ معرضة لقوة انكلترا البحرية النافذة

واخذت فرنسا وروسيا تتجهزان لهذه الحرب الاضطرارية وكان حرب انكلترا سبب جميع تلك الاتعاب فلو صالحت لفاز العالم بالراحة العامة . وكان مركز نابوليون عرضة لاضرار بوارج انكلترا المخيفة من جميع الجوانب بدون ان يكون قادراً ان يقابلها بالمثل . ولم تكن ملزومة بانشاء حواجز عظيمة عند البحر لان مدافع فرنسا لم تكن قادرة ان تطلق كراتها على ساحل انكلترا في المضيق مع ان بوارج الانكليز كانت قادرة ان تطلق المدافع على ثغور فرنسا وثغور الدول المتحدة معها وان تخرب مستعمراتها وتجارتها . فبالنظر الى هذه الاحوال ابعد نابوليون الكبرياء عنهُ وحاول حمل عدوهِ الالد على مسالمتهِ . وقال اليسون انهُ نهج منهجهُ المالوف عند قرب وقوع حرب عظيمة فانهُ قبل فتحها ياخذ في المخابرة بامل تقرير السلام وخابر الحكومة الانكليزية بتقرير الشروط الاتية وهي ضمانة استقلال اسبانيا . وان ترفض فرنسا توسيع دائرة املاكها في جهة البرنات . وان يعلن ان الدولة المالكة في اسبانيا مستقلة وان تساس البلاد بواسطة مجلس المبعوثين . وان يضمن استقلال البرتوغال وامنيتها وان تملك فيها عائلة براغانزا وان تبقى مملكة نابولي في يد ملكها الحالي وصقلية كذلك . وان تخرج الجنود الفرنسوية والانكليزية من اسبانيا وايطاليا والبرتوغال بحراً وبراً . فاجاب وزير انكلترا انهُ لا سبيل الى فتح المخابرات بشان السلام اذا كان المقصود ان تبقى اسبانيا في يد جوزف بونابرت وتحت ادارة المجلس العالي المنتخب في ايامهِ



لكن نابوليون ارتضى لشدة رغبتهِ في السلم بان يطيل مخابرة عدوهِ الالد فصدَّ وأُهين واُحتقر ومع ذلك كان لا يتردد عن ان يعرض عند الصلح مراعاة لحقوق الانسانية . اما السار ولترسكوت المورخ فلم يقدر ان ينكر المخابرات السلمية التي قام بها فاراد ان ينسبها الى مقاصد ردية فقال ربما كان نجاح اللورد ولنكتون هو الذي حملهُ على ان يامر وزيرهُ بان يكتب الى وزير انكلترا طالباً عقد السلام او رغبتهُ في مجانبة حرب فيها قوات كثيرة كروسيا او انهُ كان يروم ان يبين للجمهورية الفرنسوية انهُ كان يميل على الدوام الى السلم فهذه الوسيلة الضعيفة التي اتخذها في الحصول على السلام لم تنجح فاخذ يتامل في ما يقدر ان يقوم بهِ لمنع انتشاب الحرب بين امبراطوريتهِ وامبراطورية روسيا . انتهى

وقال لوكهرت بالنظر الى اجتهادات نابوليون المذكورة انهُ اخذ يتامل في احوال امبراطوريتهِ الحالية ومتعلقاتها الاستقبالية والظاهر انهُ راى بوضوح انهُ لا يقدر ان يحافظ عليها في الحالين الا بمصالحة انكلترا فخابرها عندما بلغهُ فتح بطليوس ولكن قبل ان تقدمت المخابرات رجع الى كبريائهِ المؤسسة على العناد وتجديد طلب الاعتراف بان جوزف ملك اسبانيا فقطع تلك المخابرات . فبالنظر الى حالة اسبانيا وانقطاع امل مصالحة انكلترا ظن القوم انهُ مجتهد في تسوية الخلاف بينهُ وبين روسيا . انتهى

وقال المورخ نايه ان طلبهُ الى انكلترا بان تصالحهُ قبل ان ذهب الى نيامن من الامور التي لم يعرف كنهها . فانهُ ارتضى بان يعترف بملكية عائلة براغانزا في البرتوغال وعائلة البوربون في صقلية وان يخرج جيشهُ من اسبانيا اذا وافقتهُ انكلترا على ضمانة مملكة اسبانيا لاخيهِ جوزف مع نظامات اساسية يقررها مجلس وطني . وكان ذلك عبارة عن عدولهِ عن حصر البضائع الانكليزية للحصول على مصالحة الانكليز وعن اعلانهِ بانهُ لا صحة لما قيل من انهُ طالب تسلطاً عاماً . فان ذلك يجعل النمسا واسبانيا والبرتوغال وانكلترا حاصلة على قوتها كلها ويجدد امبراطوريتهُ . ولا ريب في انهُ طلب تقرير تلك الشروط في زمان كانت قوتهُ فيهِ في اعلى درجاتها . فان ولنكتون نفسهُ اقر ان البرتوغال لم تكن مصونة واسبانيا في كل فلو صالحهُ لسهل عليهِ ترجيع استقلال الامة البولونية ودفع روسيا . اما الان فبولونيا قد سقطت وروسيا متعظمة بالتسود عليها

ووصف نايه حالة انكلترا السياسية في ذلك الزمان بما ياتي . ان الادارة الانكليزية كانت محتقرة عند الاهالي ومع ذلك لم تكن اقل نفوذاً في المجلس العمومي العالي . ولذلك كانت اعمالها الداخلية محاطة بكل الفساد والمظالم التي كانت ناشئة عن نظام مستربت ولكن لم يكن للحكومة حينئذٍ من تعقلهِ ما يشفع برداءة النظام الذي جعلتهُ الحكومة ضابطاً لاعمالها . وكانت الجرائد تضاد بشدة وتضطهد بتوحش وحاولت الحكومة ان ترشو كل الذين لم تكن تقدر ان تغلبهم . وكان

جميع المتعقلين الذين لم يفسدوا بالتحزبات ولا اوهموا بالعظمة العسكرية يرون في نفقات الحرب الخيرات المبذولة في سبيل الدوس على قواعد الحرية وما نشأ عن ذلك من بيع الاملاك اساساً مؤكداً للثورات الاستقبالية الناشئة عن رد الفعل . وكان الفعلة قد باتوا في ضيق حملهم على القيام بما يكاد يكون ثورة ورات الامة ان الذين يقومون بالادارة من النواب واصحاب الاجراء يخلطون حقوق الشعب . انتهى

فالتزم نابوليون بجمع قوته لمضاد انكلترا في البحر وروسيا العظيمة في الشمال وعصاة اسبانيا والبرتوغال في الجنوب وكانت جنود انكلترا تهيجهم وتقويهم . فنهض نابوليون لملاقاة هذه الخطوب بهمم عالية واجتمع حلفاؤه حوله بحمية فان الحرية كانت تدفع هجمات الظلم وكان الذين يرغبون في الحكومات المصلحة والحقوق العمومية في اوربا يدفعون تعديات الذين كانوا يؤيدون الحقوق القديمة الموروثة . وكان في كل بلاد اوربية حزبان حزب الامراء اي اصحاب الحقوق الموروثة وحزب الشعب . وفي الغالب لم يكن انقسامهما غير مستوٍ . وكان نابوليون قد انهض حزب الشعب العظيم الجبار وكان روح حميته واقدامه يجري في عروق اوربا كلها . اما الامراء فكان حزبهم في انكلترا وكان الحزب العام مدوساً تحت الارجل فاتحدت انكلترا ذات الحقوق الموروثة وروسيا المستبدة

وقال بعض الذين كانت لهم علاقة بالامراء في فرنسا ان خروج نابوليون منها لا يخلو من الخطر لانهُ اذا ابتعد عنها فربما كانت تعقد مؤامرات عظيمة على حكومته . فقال نابوليون كيف تتهددونني وانا غائب بالاحزاب المختلفة التي تقولون انها في داخلية امبراطوريتي . فاين هذه الاحزاب اني لا ارى غير حزب واحد يقاومني وهو حزب قليلين من الملكيين واكثرهم من الامراء القدماء الذين طعنوا في السن وليسوا بذوي اختبار ويخافون سقوطي اكثر مما يرغبون فيه . ومن انفع ما قمت به قطع فتنة اسبانيا . ولولا قطعها لاغرقت كل شيء اي اغرقتكم واغرقت اوربا معكم . وقد جعلت اتحاداً بين اشد الاحزاب تضاداً وجمعت اقواماً متناظرين . ومع ذلك لا يزال بينكم من الامراء مَن يرفض تقلد المناصب التي اوجهها اليه . وهذا ليس بذي بال عندي فانني لا اوجهها اليكم الا لصيانتكم ونفعكم . فماذا تقدرون ان تفعلوا بلا مساعدتي . فانكم قليلون جداً ومضادون لي . اما ترون انهُ ينبغي ان تنهوا النزاع الجاري بين الامراء والعامة بالتاليف بين الذين يستحقون الاعتناء من الحزبين . فامدوا اليكم يد الصداقة فترفضونها وانا لا احتاج اليكم فان عضدي لكم يضر الاهالي . اما انا ملك العامة الا يكفيني ذلك انتهى

وطلب نابوليون مساعدة حلفائه فبادرت بروسيا والنمسا وايطاليا وبافاريا وسكسونيا ووستفاليا وسائر بلدان المحالفة الرينية الى اجابة طلبه بكرامة اخلاق وكانت جميع هذه الدول



خلا بروسيا والنمسا قد تبعت قواعد فرنسا . وكانت النمسا قد اتحدت معهُ بالزواج . وكانت بروسيا تميل تارة الى الحرية وطوراً الى الاستبداد فانتظمت تحت رايته بتردد وفي برهة قصيرة وجد نابوليون خمسمائة الف رجل مستعدين لان ينقادوا اليه بحمية وغيرة

وذكر الكولونل نايه ما جرى في بلاط النمسا وروسيا اثناء هذه الحرب قال ظهر سنة ١٨١٢ ان النمسا تخابر فرنسا لعقد معاهدة دفاع وهجوم مع علمها الشروع بفتنة عظيمة وكانت تضعف الذين كانوا يقومون بها وكانت ممتدة من التيرول الى كالبريا وغيرها وسلمت الوزارة الانكليزية ادارة هذا المشروع الى اللورد نوجن ومستركن وكانا في فينا وذهب وكلاؤهما الى ايطاليا واحل ابليرية واشترك كثيرون من الضباط النمسويين معهم ودخل ايطاليان من عيال عظيمة بيوتاً تجارية ليتمكنوا من انفاذ هذه المآرب بسهولة وفضلاً عن ذلك وقعت النمسا على تلك المعاهدة وهي تلح على بروسيا بالانضمام الى الروسيين . وقالت الوزارة النمسوية بافتخار ان طلبها التوسط بعد معركة بوتزن انما كان لمجرد اكتساب الزمان لتنظيم الجيش الذي كان مزمعاً ان ينضم الى الروسيين والبروسيين . ثم صار الرجوع الى الحرب قبل نهاية الهدنة لتتمكن الجنود النمسوية من الانضمام الى الروسيين بامان في بوهيميا . انتهى

ولما سمعت بولونيا بهذه الاخبار فرحت جداً فانها قالت ان ساعة نجاتي قد حلت . وكانت الامة كلها مستعدة لان تسير تحت راية نابوليون كانها رجل واحد على ان ١٦ مليوناً من الانفس محاطين بروسيا وبروسيا والنمسا المضادة لهم لا يقدرون ان يفعلوا شيئاً . وبات نابوليون في اضطراب شديد وحيرة فانهُ كان يميل كثيراً الى البولونيين ولكن فرنسيس امبراطور النمسا كان حماهُ وحليفهُ . وكانت الامور السياسية عندهُ افضل كثيراً من القرابة فلو اخذ نابوليون بولونيا من النمسا لاتحدت مع روسيا . وكان لا يزال معلقاً امله بعقد صلح سريع مع روسيا ولم يكن يرغب ان يزيد بغض امبراطورها

وجمع الامبراطور اسكندر جيشاً جراراً بالقرب من ضفة النيامن وفي اواسط نيسان (افريل) سار في مقدمة جيشه . اما نابوليون فدبر احوال امبراطوريته وحكومتها اثناء غيابه وسار في ٩ ايار (مايس) الى درسدن قاصداً قيادة جيشه العظيم . وذهبت الامبراطورة ماريالويزا معهُ وكانا يسيران في وسط احتفالات متواصلة فان الاهالي كانوا يلاقونهما في الطريق ويرفعون لهما قناطر النصر وينشرون رايات الفرح ويقرعون الاجراس ويضجون ويضربون الآلات الموسيقية والفتيات يجتمعن اجواقاً اجواقاً . وكان الاحتفال بهما في المانيا كما في فرنسا . وكانت جماهير كثيرة تملأ الطرق لترى ذلك الرجل العظيم الذي ملأت شهرته الارض . وكان نابوليون قد عين درسدن قاعدة سكسونيا لاجتماع الملوك والامراء الذين كانوا متحدين معهُ . وكان فيها ينتظر

قدومهما امبراطور النمسا وزوجتهُ وملك بروسيا الذي جاء بدون دعوة وملك سكسونيا ونابولي وبافاريا وورتمبرغ ووستفاليا وكثيرون غيرهم من الملوك الذين هم دونهم . ونزل الامبراطور نابوليون في المحلات العظيمة من القصر وكانت ابصار كل الناس تشخص فيهِ . واجتمع كثيرون امام ابواب القصر ليروا صاحب ذلك السلطان العظيم الذي بكلمتهِ اجتمعت ملوك اوربا واصبحت اكثر شعوبها مستعدة لان تسير في فيافي الشمال . والتزم نابوليون بان يفرغ جهدهُ سرًّا في سبيل حمل القوم على ان يعظموا شان امبراطور النمسا فانهم كانوا يطرحونهُ في زوايا النسيان . وكان يجعل لهُ التقدم في كل حال لانهُ حموهُ . اما الامبراطور فردريك غليوم البروسي فكان في وسط تلك الحوادث كانهُ في هواجس وقد استولى عليهِ الكدر ولاحت لوائح الحزن على وجههِ . ومن الامور التي تستحق الذكر انهُ لم يكن للمحافظة على شخص نابوليون رجل فرنسوي في تلك المدينة وكان تحت حماية حلفائهِ الالمان . وقال بعد ذلك كنت في عائلة كريمة مع قوم يستحقون الاحترام والركون كاولئك القوم حتى انني لم اكن معرضًا نفسي للخطر . وكان الجميع يحبونني ومن الموكد ان ملك سكسونيا يصلي لاجلي كل يوم

اما غايتهُ من جمع اولئك الملوك والامراء فهي ان يبين لروسيا اتحادهم معهُ وليقوي الرباطات التي تربطهم بهِ وان يكون ذلك مع ظهور هذه القوة العظيمة وسيلة لحمل روسيا على الرجوع الى الصداقة . ومن الموكد ان نابوليون فتح هذه الحرب بتردد عظيم وعلق املهُ بالتخلص منها ولكن عناد امبراطور روسيا ومطالبتهُ بينت انهُ عاهد انكلترا فلا يقدر على العدول عن الحرب

واقام نابوليون في درسدن نحو خمسة عشر يومًا يشتغل بلا انقطاع في املاء رسالات متعلقة بالحرب التي كان مزمعًا ان يفتحها وبالقتال في اسبانيا . وكانت جيوش جرارة وافراس كثيرة وزاد وذخائر وافرة تنقل من جميع جهات اوربا الى ضفة نهر النيامن . وجمع جيشًا لم ترَ اوربا مثلهُ وبعد ان ناهب ناهبًا دل ظاهرهُ على ان النجاح يكون لهُ عاد الى مخابرة امبراطور روسيا بامل مجانبة الحرب . وارسل الكونت ناربون الى ويلنا مركز معسكرهِ ليبين لهُ الشروط الموافقة ولم يرض اسكندر ووزراؤهُ بمقابلة سفيرهِ . فلما سمع بهذه الاهانة قال بتانٍ اخذ المكسورون يتصرفون كالمنتصرين وقد سيقول الى ذلك بامر القضاء المحتوم فامر حالاً بسير الجيش وعبورهِ النيامن ونشر على جنودهِ هذا الاعلان

يا ايها الجنود . ابتدات حرب بولونيا الثانية فالحرب الاولى انتهت في فردلاند وتلسيت . وحلفت روسيا حينئذٍ بان تتحد الى الابد مع فرنسا وتحارب انكلترا . فقد حنثت بيمينها جهارًا ورفضت تبيين اسباب اعمالها الغريبة الى ان يعبر نهر فرنسا الربن . فيترك حلفاءها وشانهم . فالقضاء المهلك قد ساق روسيا الى التقدم . وبعد برهة قصيرة يقضى عليها . فهل تظن روسيا اننا فسدنا



ولسنا بجنود اوسترلتس . وقد خيرتنا بين الحرب والارتضاء بالاهانة فنختار القتال بلا تردد فلنتقدم الى عبر نيامن حاملي السلاح الى بلادها . وحرب بولونيا الثانية تكون لمجد فرنسا كالاولى ولا بد ان يكون صلحنا القادم ضامنًا لانهاء تلك السطوة الناشئة عن القحة التي اتخذتها روسيا في اوربا منذ خمسين سنة . انتهى

والظاهر ان نابوليون لم يخشَ عاقبة الحرب . وقال ان نجاحي موكد فلا ارى الا ما يدل على الفوز . فاتقدم في جيوش جرارة فرنسوية وايطالية والمانية وجنود محالفة الربن وبولونيا والمملكتان اللتان كانتا اقوى حلفاء روسيا انضمتا اليَّ . وهما تحزبان لي كانهما من اقدم الاصدقاء ومن المحقق ان برنادوت يتردد ولكنهُ فرنسوي لا بد ان يعود الى حالهِ القديمة عند اطلاق المدفع الاول ولا يجرم اسوج هذه الفرصة الموافقة لتقوم بثار كارلوس الثاني عشر . ولا انتظر الحصول على احوال موافقة كهذه في الاستقبال . وهي تسوقني الى التقدم واذا اصرَّ اسكندر على رفض مطالبي اعبر النيامن

وقال لويس بونابرت شقيق نابوليون ان الهجوم على روسيا كان محفوفًا بخطر عظيم فلا ادري كيف سيق نابوليون الى الحرب . فانا بعيد عن استحسانها . والذي لا يعترف بان مقاومة تعديات الامبراطورية الروسية العظيمة النفوذ المتهددة اوربا كلها هي من اصوب الاعمال السياسية يكون قد اعماهُ عدوانهُ لفرنسا . واجتمعت بضابط روسي في حمامات مارنيباد في بوهيميا فقال بحسب عادة الروسيين بافتخار وقحة وحمية وصحة اننا نحن الان الرومان . فمن يتصور روسيا وقد حصلت على بغيتها بحكم بانها تصبح سيدة اوربا كلها بعد زمان قصير بالنفوذ برًّا وبحرًا . وعند ذلك تخضع سطوة الانكليز في البحر لسيادة روسيا فالحمل على روسيا جسارة وعمل عظيم خالٍ من الحكمة ما لم يصحبهُ ارجاع بولونيا واسعافها

وقال نابوليون هل تخافون الحرب لئلا اهلك فيها . فهذه هي الوسائط التي استخدمت في زمان المؤامرات لتخويفي بجورج فقيل انهُ كان يتاثر في كل مكان مصممًا على اطلاق الرصاص عليَّ فلو اطلقهُ لما فاز باكثر من قتل احد اعواني لان قتلي غير ممكن . لانهُ لم يقضَ عليَّ بالموت حينئذٍ واري انني اساق الى ما اجهلهُ . فعند وصولي اليهِ تكون ذرة واحدة كافية لقتلي . لان خدمتي تكون قد انتهت . ولكن قبل ذلك لا تضرني اجتهادات البشر . فسواء كنت في باريس او في جيشي لا تتغير الاحوال . فعند انقضاء اجلي يكون المرض بالحمى او السقوط عن ظهر جوادي في الصيد كرصاصة قاتلة . ان ايامنا معدودة

وكان موسيو فري وهو الدوق دوبروفيكو ناظر الضابطة . قد قال ان نابوليون قبل خروجهِ من باريس انهى جميع الاشغال التي كانت محتاجة الى عنايتهِ . وكان ذلك شانهُ دائمًا قبل السفر

وكان من عاداتهِ حين يرغب في ابرام امر بلا مخابرات الاجماع بكل وزير على حدتهِ واصدار اوامرهِ الخصوصية . ولم يكن يقطع النظر عن اصغر الامور فانهُ كان يعتني بجميع الاشياء . وفي الاسبوع الاخير من اقامتهِ في باريس اجاب على جميع الامور التي كانت تحال اليهِ من الوزارات قائلاً انني انظف خزائني . وعند ذهابهِ كلمني عما يرغب ان اعتني بهِ . وكان ذلك واسطة لظهور تعليماتهِ العمومية واخطأ الذين توهموا انها كانت صارمة قاسية ووصفوهُ بالظلم والابتعاد عن العدل والشفقة . وكان يسر بمن يهدلهُ السبيل للقيام بامر عادل ولم يكن يملُّ من الانعام فلم يكن الناس يترددون عن طلب انعاماتهِ وقال لي قبل ذهابهِ ينبغي ان اعامل الجميع بالاحترام والحلم . وانهُ لا خير بالعدوان فعلى نظارة الضابطة ان تفوق لطفاً سائر النظارات . وحذَّرني من الاستبداد واوصاني بان لا اخرج عن العدل والصواب وكلمني عن الحرب التي كان ملزوماً بان يقوم بها وتشكى من رجالهِ لانهم لم يخدموهُ بامانة وقال انهُ سبق الى محاربة روسيا وحدها هذه السنة لئلا يلتزم ان يحارب النمسا وبروسيا في السنة القادمة وان عندهُ الان جيشاً جراراً قادراً فاذا حارب في السنة القادمة يكون عدد جيشهِ اقل من اعدائهِ اذا حاربت امم اخرى بعدوانهِ وتاسف جداً من ركونهِ الى الكلام الذي حملهُ على عقد صلح تلسيت وكان يقول تكراراً ان الذي يخلصني من هذه الحرب ينفعني جداً . وقد شرعنا بها فلا بد من الاتمام . انتهى

وقال للجنرال بيليار اذا اصر اسكندر على نقض المعاهدات التي عقدناها ولم يقبل بالمطالب الاخيرة اعبر النيامن واكسر جيشهُ واستولي على بولونيا الروسية واضمها الى دوقية وارسو واجعلها مملكة واجعل فيها خمسين الف رجل لا بد من القيام بنفقاتهم والاهالي يرغبون في ذلك وهم امة حربية وفي برهة قصيرة تصير عندهم قوة عظيمة منظمة فبولونيا محتاجة الى السلاح فاسدُّ احتياجها وتكون حاجزاً لدفع روسيا وصد القوزاق . غير انني مرتبك من جهة واحدة فانني لا اعلم ماذا ينبغي ان افعل بغاليسيا (هي بولونيا التي استولت النمسا عليها) فامبراطور النمسا بل مشيروهُ يمتنعون عن تركها وقد عرضت عليهم اموراً شتى فرفضوها فننتظر جري الحوادث فانها وحدها تبين ماذا ينبغي ان نفعل . انتهى

وفي ٢٩ ايار «مايس» سنة ١٨١٢ خرج نابوليون من درسدن ورافقتهُ الامبراطورة الى براغ ثم فارقها وسار الى دنتسيك حيث كان قد جمع مخازن كثيرة من الزاد والذخائر . وكان الجنرال بلانت الشجاع المحبوب عند الامبراطور حاكم المدينة . وفي مساء وصولهِ تناول الطعام في منزلهِ هو وموراث ملك نابولي وبرنيه برنس نوف شاتل . ولما مر في القاعة راى تمثال ملكة بروسيا فنظر الى الحاكم وقال باسماً يا موسيو راب سا اخبر ماريا لويزا بانك غير امين . اجاب اخبرتني بان ملك بروسيا صار من حلفائك فماذا يمنعني عن ان اجعل في مخدعي تمثال امراة جميلة هي زوجة



صديقك . وكان القوم عند مناولة الطعام في ارتباك لان قواد نابوليون جمعوا ثروة عظيمة ونالوا مجداً عالياً وتقلبوا على فرش التنعم والرفاه فلم يكونوا يميلون الى معاناة مشقات القتال واخطاره . فبعد ان صمتوا برهة سال نابوليون عن المسافة بين قادس ودنتسيك فاجاب الجنرال راب قائلاً يا مولاي انها طويلة جداً . فقال فهمت مقصودك وبعد اشهر قليلة نقويها فاجاب الجنرال راب يا مولاي هذا امر رديء . فصمتوا ولم يتكلم موراث ولا برنيه وتامل نابوليون دقائق قليلة في اللوائح التي كانت تلوح على اوجههم ثم قال بصوت منخفض ايها السادة رايت انكم لا ترغبون في هذه الحرب وملك نابولي بارح هواء مملكتهِ المعتدل يتردد وبرنيه لا يروم الا الصيد في اراضيهِ في كروبوا وراب يتمنى ان يكون في بيتهِ في باريس . فصمت الملك والامير وقال الجنرال راب قد اصاب حضرة الامبراطور

وكان نابوليون موملاً بالزام روسيا بالشروط التي تقرر عندهُ انها لازمة لراحة اوربا ولخلاص جميع الحكومات العمومية التي كانت تستند الى مساعدتهِ . وان امبراطورها يلتزم بالاعتراف ببولونيا . فهذه المملكة التي اهلها عشرون مليوناً اذا رد اليها استقلالها ونشرت فيها قواعد فرنسا الحرة تكون حاجزاً حصيناً يصون اوربا من استبداد الشمال وباتحادها مع حكومات عمومية تمنع اتحاد روسيا والنمسا وبروسيا . فتلزم روسيا بمنع دخول بضائع انكلترا فتجوع فتغمد السيف . فمقاصد نابوليون عظيمة مجيدة . فمن من اهالي اوربا وامركا لا يتمنى الان ان تحصل بولونيا على الحرية

وقال نابوليون ينبغي ان تكون تلك الحرب احب الحروب عند العامة فانها كانت موسمة على التمييز والامنية وكانت سلمية اوربية وتتوازن بها القوة وتاتي باتحاد جديد يعوض مخاطر الحال براحة الاستقبال ولم تكن لي مطامع . وبولونيا هي مفتاح كل العمل فاسمح لملك بروسيا او ارشيدوق نمسوي او غيرهما بالجلوس على عرشها . ولم اكن راغباً في الحصول على امور جديدة . وحفظت لنفسي مجد الخير وبركة الاجيال القادمة . غير ان هذا المشروع لم يجمع ولم اقم بمشروع يخلو الغرض كما قمت بهِ فكنت استحق كل النجاح . ولكن شيء كالعدوى سرى في لحظة واثر في الراي العام وصرخ العالم قاطبة مضاداً اعمالي . وشاع انني مهلك الملوك مع انني كنت اقيمهم . واتهموني بالتعدي على حقوق الامم مع انني عرضت للخطر كل شيء لي حباً بصيانتها . والشعوب والملوك هم الاعداء الذين لا يرتضون ان يصالحوا اتفقوا على مضادتي ونسوا جميع اعمالي . وقلت في نفسي ان الميل العام يعود اليَّ بانتصار غير انني لم افز بهِ فتنكست فيهِ احوال الشر وهذا هو تاريخي . ولا بد ان يتاسف الشعوب والملوك من فقدي وذكري وينادي بانصافي من ظالمي . هذا موكد . انتهى

وكان نابوليون راغباً جداً في الصلح والدليل الكتابة التي بعثها الى سفيره دو برات الذي

ارسلهُ الى وارسو في ١٨ نيسان (افريل) سنة ١٨١٢ قبل ان دخلت جيوشهُ روسيا بشهرين وهي

سيدي . ان الامبراطور يركن الى اقتدارك وامانتك فسلم اليك عملاً سياسياً من اعظم الاعمال ولا يقام بهِ الا بالاستناد الى الهمة والحكمة والدقة . ولا بد من ذهابك الى درسدن متظاهراً بانك ذاهب اليها لتسليم ملك سكسونيا كتاباً يرسلهُ الامبراطور اليك غداً بعد عرض الجنود . وقد بعث اليك باوامرهِ وسيبلغك شفاهاً ما يرغب في تبليغهِ الى ملك سكسونيا . ومن نوايا الامبراطور اعتبار ملك سكسونيا بحسب استحقاقهِ ومنزلتهِ الخصوصية الشخصية عندهُ . ووضح اراءك بحرية للملك ولوزرائهِ واركن الى راي الكونت دي سنبلزاك . ولا تطلب الى سكسونيا تضحية شيء بلا تعويض . وليس لوارسو عندها شان خطير مادامت على حالها لانها ثقل تعب بجعلها في مركز غير صحيح بالنظر الى بروسيا والنمسا وروسيا فوسع هذه الاراء وابحث عنها كما بحثت في المفاوضة التي جرت في ١٧ الجاري في مجلس الوكلاء بحضور جلالتهِ . ولا نرى وزارة درسدن ماثلة الى مضادتك وقد ظهر لنا ذلك من سياستها مرات كثيرة . ولا تطلب تقسيم املاك ملك سكسونيا . وبعد ان تقيم في درسدن برهة قصيرة اعلن انك ذاهب الى وارسو لانتظار اوامر الامبراطور الجديدة . وقد طلب حضرتهُ الى ملك سكسونيا ان يجعلك وكيلاً لهُ عند وزرائهِ البولونيين . وينبغي ان تجعل وسائلك في وارسو موافقة لوسائل سرقرنا الامبراطور والجنرال فر . فهذان الرجلان من اشهر عيال بولونيا وقد وعدا بان ينفذا سطوتهما في ابناء وطنهما ليحملاهم على اجهاد انفسهم في سبيل سعادة البلاد واستقلالها . وينبغي ان تحرض حكومة دوقية وارسو على ان تتهيا لملاقاة التغييرات العظيمة التي نوى الامبراطور ان يقوم بها لنفع الامة البولونية

ولا بد للبولونيين من اسعاف الامبراطور في نواياهُ لنوال الاصلاح فعليهم ان يعاملوا الفرنسويين كمساعدين اقوياء . والامبراطور ليس بغاضٍ الطرف عن الصعوبات التي سيلاقيها تخليص بولونيا . وهذا غير منطبق على صوالح حلفائهِ الفعلية الظاهرة . وارجاع المملكة البولونية بسلاح الامبراطورية الفرنسوية عمل محفوف بخطر عظيم تجتهد فرنسا مضادةً اصدقاءها واعداءها . فلنبحث عن التفاصيل

ان الامبراطور طالب ارجاع المملكة البولونية بجمع بعض اراضيها القديمة وكلها اذا امكن . ولذلك جعل سفيرهُ في بطرسبرج مطلق التصرف وخابر فينا عارضاً اعطاء ارض كثيرة من ارض الامبراطورية الفرنسوية ليجعلها تعويضاً لما يوخذ لجمع تلك المملكة . واوربا منقسمة الى ثلثة اقسام كبرى وهي الامبراطورية الفرنسوية غرباً والممالك الالمانية في الوسط وامبراطورية روسيا في الشرق . ولا يكون لانكلترا من النفوذ في اشغال اواسط اوربا الا ما ترتضي الدول بان تعطيها اياهُ ومن المقاصد العمومية ان تقوي القسم الاوسط لمنع فرنسا وروسيا عن الحصول على اتساع غير معتدل في اوربا



والامبراطورية الفرنسوية في الحال في ارفع درجات قوتها فاذا لم تقرر نظام اوربا السياسي فربما كانت تخسر بعد برهة قصيرة منافع مركزها فتلتزم بان تعدل عن اعمالها

فانشاء حكومة عسكرية في بروسيا وفتوحات فردريك الكبير والاراء العصرية مع اراء الفتنة الفرنسوية انتشرت واضرت بالاتحاد الالماني . فاتحاد الرين نظام موقت . فربما كانت الدول الراسخة ترغب في تثبيت النظام على ان الذين خسروا وتكبدوا مشقات الحرب والدول التي تخاف سطوة فرنسا تضادهُ عند سنوح الفرصة والدول التي عظمت بهذا النظام ربما مالت الى الخروج منهُ اذا رات انها لا تبقى مستولية على ما حصلت عليهِ . فربما خسرت فرنسا في النهاية الصيانة التي اشترتها بثمن عظيم وقد خطر للامبراطور انهُ بعد زمان ربما كان بعيداً ينبغي ارجاع اتحاد دول اوربا الى استقلالها كلهُ والعائلة المالكة في الانحاء المستولية على ثلث ممالك متسعة ينبغي ان تكون روح هذا الاستقلال بسبب مركز اراضيها . ولكن لا ينبغي ان يتم ذلك اذا وقع خلاف بين روسيا وفرنسا لانهُ اذا تحرك اتحاد الدول المتوسطة بالاسباب المحركة تخرب احدى الدولتين المختلفتين . وتصير الامبراطورية الفرنسوية هدفاً للخطر اكثر من الامبراطورية الروسية . وينبغي تاليف اواسط اوربا من دول ليست بذات قوة متساوية ويكون لكل منها سياسة غير سياسة الاخرى . فمركزها واحوالها السياسية تجعلها تطلب العضد والصيانة من الدول العظيمة ويكون صالح هذه الدول المحافظة على الصلح لانها تخسر على الدوام بالحرب . وبعد انشاء ممالك انفاذاً لهذا الراي وضم اراضٍ الى الاخرى لتقوي اتحادنا في الاستقبال يكون من المهم عند الامبراطور واوربا ارجاع المملكة البولونية . وبدون ارجاعها تكون اوربا بلا حدود في تلك الجهة . فتصبح النمسا والمانيا متقابلتين ومعهما اعظم امبراطورية في العالم وقد راى الامبراطور ان بولونيا كبروسيا ينتهي امرها بالاتحاد مع روسيا . غير انهُ اذا كان رجوعها بواسطتهِ يكون زمان اتحادها بعيداً بحيث يثبت النظام الجديد . وبعد ان تنظم اوربا على هذا النسق تنقطع اسباب المناظرة بين فرنسا وروسيا . وتكون لهاتين الامبراطوريتين صوالح تجارية واحدة فتقومان بالاجراء بالاستناد الى قواعد واحدة

وبعد وقوع الخلاف بين الامبراطور وروسيا خطر لهُ ان يتحد مع روسيا اتحاداً ثابتاً وان يجعل ملكها صاحب تاج بولونيا وكان ذلك اسهل من اعطائهِ لغيرهِ لانهُ مالك ثلثها وكان من الممكن ان تترك لروسيا ما كانت مصممة على ابقائهِ لنفسها في كل حال وان تعطى النمسا ما يعوض عليها ولكن الحوادث حملتهُ على تغيير ارائهِ اثناء مخابرة تلسيت فراى لزوماً لانشاء ممالك اخرى في البلدان التي كانت تخاف قوة فرنسا اكثر من سائر البلدان وكان الزمان موافقاً والعمل عدواناً وقوة ثانيان باستمرار الحرب . وكانت الجيوش الفرنسوية متضايقة من البرد ومن الاحتياج

الى الزاد وكانت روسيا مجهزة جيشاً . واثرت في الامبراطور الاراء الناشئة عن كرامة الاخلاق وهي التي اظهرها امبراطور روسيا حينئذٍ . وكان عالماً بان النمسا تضاد ذلك وجعل ميله الى عقد الصلح يتغلب على سياسته . وكان معلقاً الامل بان يجعله ثابتاً اذا ارتضت انكلترا بمداخلة روسيا والنمسا بان تقرر تسوية تامة

وبعد ان انكسرت بروسيا اشتد بغضها لنا حتى راينا انه من الاصابة ان نضعفها فانشانا دوقية وارسو وانتخب ملك سكسونيا ليكون صاحبها فانه صرف حياته في ترقية اسباب سعادة رعاياهُ وصارت محاولة ارضاء البولونيين بانشاءات مرضية لهم ومطابقة لعاداتهم وصفاتهم . غير ان ذلك كان خطاً من كل وجه . فان سكسونيا منفصلة عن املاكها الجديدة ببروسيا فلا يتيسر لها الانضمام الى بولونيا فتصير دولةً قوية . واغتاظ الروسيون من طلب فتح طريق حربية في بروسيا لتتمكن سكسونيا من مواصلة بولونيا وتشكوا قائلين بان املهم كان مبنياً على الخداع وقرر الامبراطور ان تحل العساكر في قلع بروسيا ليتاكد بانها لا تضرم نيران الحرب حالاً . وقتال سنة ١٨٠٩ برهان اصابته وثبت عزمه على الاشتغال بمهمة وجد في سبيل تنظيم اوربا فانهى الحروب المهلكة . وخطر له ان يتظاهر بقوة عظيمة بالتقدم بالجيوش الى ضفة الفستولا وبالحلول في قلع بروسيا ليصون امانة حلفائه وليحمل بالمخابرات على ما ربما كان لا يتيسر له ان يحصل عليه بالقتال وحده وكثرت الخاطر وقربت في هذه الاحوال . فان الجنود لا تبتعد خمسمائة فرسخ عن بلادها بلا خطر . وينبغي ان تتكل بولونيا على قوتها قدر اتكالها على الامبراطور فاذا انتشبت الحرب يرى البولونيون ان الفرنسويين مسعفون يستدون قوتهم فيتذكرون الزمان الذي مكنتهم فيه شجاعتهم وحبهم للوطن من دفع الجيوش الجرارة التي كانت تهاجم لسلب استقلالهم

واهالي دوقية وارسو يرغبون في استقلال بولونيا فعليهم ان يهيئوا الطريق لتتمكن الولايات المختلفة من تبيين افكارها . وعلى الحكومة عند سنوح الفرصة الاولى ان تجمع تحت راية الاستقلال ولايات بلادها المنكودة الحظ فاذا رام بعض البولونيين ان يبقوا خاضعين لروسيا والنمسا فلا يجبرون على الخروج عن طاعتها وينبغي ان تكون قوة فرنسا في ميلها العام وحبها للوطن والنظام الذي يكون اساساً لحالتها الجديدة . ومن المفروض عليكم ان تبينوا الواقع للبولونيين محبي وطنهم وان تقووهم وتقرروا عن مخابراتكم لوزير الخارجية فيخبر الامبراطور بنجاحكم وان تبعثوا الي بملخص تقريراتكم

وقد نشأ ضعف الجمهورية البولونية ومصائبها عن خضوعها لاولي امتياز ليس لهم قوانين ولا قيود . وكان الامراء فيها كما في الحال اصحاب قوة والطبقة الوسطى شديدة الانقياد اليهم والعامة كالعدم . غير ان جميع هذه الامور والاضطراب لم تسلب من هذه الامة حب الحرية والاستقلال



فطال زمان وجودها مع ضعفها . وحب الوطن طبيعي في البولونيين حتى عند اعضاء العيال الممتازة . والامبراطور مصمم على ان يفي بوعده المدون في البند التاسع والعشرين من المعاهدة المعقودة في ٩ تموز «جوليه» سنة ١٨٠٧ . وان يجعل للدوقية نظاماً يضمن حريتها وامتياز الاهالي بما يوافق راحة البلدان المجاورة ونفوذ بولونيا بالحصول على استقلالها وحريتها . اما الملك الذي يقام لها فيكون بحسب المعاهدة التي تقرر بين الامبراطور والدول الاخرى وهو لا يدعي عرش بولونيا لا لنفسه ولا لعائلته . وغايته في ترجيع المملكة البولونية سعادة البولونيين وراحة اوربا . وقد فوض اليكم ان تعلنوا هذه الاراء رسمياً لنفع صوالح فرنسا وبولونيا . انتهى

وقال الدوق دي كاتيا في اواخر سنة ١٨١١ شاع ان الحرب تنتشب قريباً في الشمال . وسنح لي الامبراطور بعرض افكاري في مفاوضاتنا الخصوصية فقلت له ان احوال جلالتك الان انجح الاحوال الاوربية . ففتح حرب جديدة في مكان يبعد عنا ثمانمائة فرسخ يلقي على عواتقنا اثقالاً مالية متعبة وتلك البلاد البعيدة لا تقدر ان تدفع منها غير قسم قليل لانها فقيرة . فماذا يطرأ على مقدرتنا المالية الان خصوصاً اذا لم ننجح في الحرب . فقال ان كلامك من عدم ادراكك حالتنا السياسية ومن الموكد عندي ان روسيا تناهب لمحاربتنا ولا تؤخر القتال الا بامل ظهور ضعفنا قبل المحاربة باجراءات انكلترا . وعندي ان النمسا المتحدة معنا لا تلبث ان تقاومنا . فلا بد من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع ذلك . فلا نقدر ان نتكل على مساعدات النمسا الصحيحة القلبية فلا يوافق ان نحاربنا حال كون جنودنا مشتغلة في جهات اخرى . فلا اقدر ان امتنع عن التاهب للحرب بدون اهمال وسائل تجعل مضارها بعيدة . فلا مندوحة عن اجابة دواعٍ دعيت بمركزي وبسوء الحظ اليها فاكون تارةً الثعلب وطوراً الاسد واذا ذهبت اجتهاداتي المصروفة في سبيل المحافظة على السلم سدى والتزمنا ان نحارب ابيت غير مقيد بالوعد الذي وعدت روسيا به وهو ان لا اساعد كل مشروع يأول الى ترجيع المملكة البولونية . والفوز في المعركة الاولى يمكنني من ان اشتري من النمسا حصتها من تلك البلاد التعيسة فاعطيها بدلاً عنها ولايات البيرا . فانشاء تلك المملكة لتكون حاجزاً يجعل فرنسا وكل جنوب اوربا في امان تام فان تلك البلاد طالما حفظتنا من هيجان شعوب الشمال . وهل تتاخر الدول التي جعلناها مستامنة على نفسها عن مساعدتنا مالياً . وهل تظن انها تتجرا على مقاومتنا بعد فوز فرنسا بالنصر . انتهى

وكتب لاكازا الحديث الذي جرى بينه وبين الامبراطور نابولون في سانتا هيلانه عن الحرب الروسية . قال قلت له يا مولاي هل تسمح بان اسالك التوضيح عما كنت مصمماً عليه لو لم تحترق موسكو هل كنت عازماً على احتلالها . اجاب كيف لا كنت مصمماً ان اري الناس امراً غريباً وهو حالة جيش نازل في قلب امة مضادة تهجم عليه من جميع الجوانب كالمركب الذي يوقفه الثلج

فتنقطع اخباري عن فرنسا اشهرًا . ولا يؤثر ذلك فيكم بل تمتكنون وتتصرفون بحكمة وكاميسر يدير الاحكام باسمي بانتظام كانني موجود . والشتاء في روسيا يضايق الجميع . ولكن الربيع ياتي بفرج فيرجع الجيش الى المسير والفرنسويون سريعون كسائر الناس . وكنت عاقد النية على الحمل عند زوال صبارة البرد فاكسر العدو واستولي على امبراطوريته . والامبراطور اسكندر لا يرضى بان اتقدم بل يجيب مطالبي وكان نجاحي متوقفًا على امر غير خطير لانني حملت لاحارب رجالاً مسلحين لا الطبيعة القضى فكسرت جيوشًا ولكن لم استظهر على اللهيب والجليد والدنس والموت فاضر ذلك فرنسا بل اوربا كلها . فلو عقدت الصلح في موسكو لانقطعت حملاتي الحربية وادركت نهاية اسبابها وبداية الامنية . وتعقب ذلك امور جديدة ومشروعات عظيمة تاول الى ترقية منافع الناس قاطبة فامنع البضائع الانكليزية عن الدخول الى اوربا . وبعد الفوز بهذه الامور الخطيرة وادراك السلم العام اعقد الجمعية والاتحاد المتقدمين . فلم ادرك المنى . ولو تم لي الامر لاصبح اجتماع الملوك عبارة عن مؤتمر تجري فيه المفاوضات كانما اعضاء عائلة واحدة وتحاسب الاهالي كانما كتابهم وكانهم اصحاب المصلحة . وكان روح العصر قد فاز وقواعد الفتنة الفرنسوية قد تمت ويا حبذا لو جعلنا اتفاقًا بينها وبين امور اخرى وتهيأت لذلك معرضًا نفسي للوم والتنديد واطلت زمان الاستعداد فاصبحت صلة الاتحاد الجديد والقديم اي المتوسط الطبيعي بين الامور الجديدة والقديمة ففزت بركون قسم بصيانة صوالحه وجعلت نفسي في القسم الاخر وصممت على الاستقامة بمعاملة القسمين فيتم لي المجد بالانصاف ثم ذكر ما يشير به على الشعوب او على الملوك لقطع اسباب الاختلاف وقال كنا قادرين فيستعظم ما نخسره في سبيل الاتفاق ويشكرنا الناس على ذلك . اما الان فان حصلوا على الكثير لا يكتفون ولا ينفكون عن التذمر ثم ذكر ما كان مصممًا على ان يشير به لترقية صوالح البلدان الاوربية المتحالفة ونقدمها . وكان يريد ان تكون الاصول النافذة في كل مكان واحدة كقانون عام اوربي يحكم بها مجلس استئناف يفوض اليه اصلاح المضابط غير الصحيحة كما تصلح المضابط الخصوصية في المجالس الاستئنافية العادية وان توخذ النقود والموازين والمكاييل والقوانين وغيرها فتصبح اوربا فعلاً كبلد واحد ويجعل ثغور جميع الدول مفتوحة لمراكب جميع الامم وكذلك التجار وتصرف الجيوش الجرارة فلا يبقى منها غير حرس الممالك . وبين اراء كثيرة عادية وغير عادية متعلقة بالامور السياسية والمدنية والقضائية والدينية والصنائع والتجارة وقال في ختام كلامه بعد ان اعود الى بلادي عظيماً نوبًا مجددًا بالسلام احتم بان تكون الحروب الاستقبالية دفاعية . وان توسيع الممالك ينافي الصالح الوطني واقيم ابني في الامبراطورية وينتهي حكمي المطلق ويبتدىء حكمي النظامي . فتصير عند ذلك باريس قاعدة الدنيا والفرنسويون موضوع حسد الامم ومتى بلغت الشيخوخة اصرف الزمان مع الامبراطورة وزمان تعليم ابني الادارة اركب جوادي واتي كل زاوية من الامبراطورية كانني انا والامبراطورة



اثنان من اهل القرى الموسرين نسمع الشكايات وننصف المظلومين وننشىء الانشاءات ونصرف الزمان في الاحسان فهذه هي الامور التي لا ازال احدث نفسي بها ولكنها غير معتدلة ولا تدل على طمع مخل ولا عدم مبالاة بنفع الناس . ومع ذلك كنت افوز بها

وقال لاوميارا ذات يوم بعد سنين قليلة تستولي روسيا على قسم من البلاد المجاورة لها وكان اسكندر يتملقني ويصافيني ويوادني لاجارية على مرامه ولكنني امتنعت خوفًا من اختلال ميزانية القوة في اوربا وربما حاولت نوال بغيتها بعد سنين ولكنها تضر بانكلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا وهي قادرة على مضادتها ومنعها ويسهل على روسيا ارضاء النمسا . ولا تحد انكلترا وفرنسا بخلوص الباطن الا بقصد منع ذلك . وهذا لا ينفع فان انكلترا وفرنسا وبروسيا لا تقدر ان تمنعه لان روسيا والنمسا قادرتان على الفوز به (كتب هذا قبل ان صارت المانيا على ما هي عليه الان واخرجت النمسا من مركزها) . واذا حصلت روسيا على مرامها تسود على تجارة البحر المتوسط وتصير دولة بحرية عظيمة ولا يعلم الا الله ماذا يتبع ذلك فتخاصمكم وترسل الى الهند سبعين الف جندي من الجنود الباسلة وهذا سهل عليها وترسل معهم مائة الف جندي من القوزاق وغيرهم فتخسر انكلترا الهند وينبغي ان تخافوها اكثر من جميع الدول . فان جنودها اشجع من النمسويين وهي قادرة على جمع العدد الذي تحتاج اليه وليس مثلهم في الشجاعة غير الجنود الانكليزية والفرنسوية . وقد نظرت الى الاستقبال اكثر من سائر الناس فرغبت في انشاء حاجز يحول دون روسيا بانشاء مملكة بولونيا وجعل بونيا توفسكي ملكًا فيها . غير ان وزراءكم «الانكليز» السذج لم يقبلوا بذلك وبعد مئة سنة تشكرني اوربا كثيرًا وانكلترا تتاسف لانني لم افز بمرادي

## الفصل الرابع والخمسون

### موسكو

لم نر لزومًا للاكثار من النقل عن المورخين لاثبات وقائع سلموا جميعهم بصحتها . وما تقدم كاف لاثبات صفات نابوليون واعظم حوادث حياته فحروب ايطاليا وفتح مصر ومعارك اوسترليتس وفردلاند ووكرام وحرب اسبانيا والحمل على روسيا وقائع ثابتة . واختلف المورخون على امور قليلة . منها هل اختلس نابوليون السلطان . وهل داس حقوق الشعب . وهل هو مسئول بالحروب التي قام بها . وماذا يقال تاريخيًا عن قتل الاسرى في يافا . وقتل الدوق دو انجين وطلاق جوزفين . واختلفت الاراء في اوربا على ذلك . وانكلترا لا تجاسر ان تعدل بالحكم لئلا يغضب الاهالي على الامراء الذين لهم نفوذ عظيم فيها والبوربون وحزبهم طالما اجتهدوا بالاضرار بالامبراطور نابوليون الثالث بالطعن في صيت عمه المشهور وبعد التامل وتدقيق البحث ثبت ان

نابوليون من اكرم الناس وهو الذي قال لما راى عجلة جرحى لا نقدر على منع انفسنا عن ان نتمنى مشاركة هولاء الابطال بجراحهم

وفي ١١ تموز «جوليه» خرج الامبراطور من دنتسيك وفي ١٢ منهُ وصل الى كونغسبرغ . وكان قد جمع فيها ذخائر وزاداً كثيراً . وهو يسير في نيافي روسيا . وكان عقل الامبراطور الذي لا يكل يعتني باصغر الامور . وقال سيجور انهُ كان يصرف النهار في املاء الاوامر المتعلقة بالجيش ويراجعها في الليل . وكتب الى قائد واحد في يوم واحد ٦ اوامر تدل على شدة اعتنائهِ واهتمامهِ . وكتب في احدها ان جيشنا لا تكفيهِ حنطة بلاد لكثرتهِ ما لم تتخذ الاحتياطات اللازمة وسينشا عن حركاتي العسكرية اجتماع اربعمائة الف رجل في جهة واحدة فلا ينبغي ان ننتظر من البلاد التي ندخلها غير شيء قليل فيجب ان نحمل معنا كل شيء

وقال ذلك المورخ ان الحرب الروسية نشات عن غيظ روسيا من ضم اراضٍ كثيرة الى الامبراطورية الفرنسوية وعن الخوف من ارجاع المملكة البولونية . والواقع انهُ لو اجاب نابوليون طلب روسيا بان لا ترجع المملكة البولونية الى الابد ويمحى اسمها من الكتابات الرسمية لما انتشبت هذه الحرب . ووقعت امور اخرى اغضبت الفريقين ولم تكن خطيرة . فقبل نابوليون بالامتناع عن ترويج ارجاع تلك المملكة . ومما روج العدوان كدر الامبراطور من انقطاع نابوليون بغتةً عن المخابرة بشان التزوج بشقيقتهِ والاستيلاء على املاك غراندوق اولدنبورغ صهرهِ . وكان يتقدم الى الحرب وجلاً لئلا يستولي عدوهُ على بولونيا . والراجح ان نابوليون لم يفعل ما يسوغ لروسيا نقض الاتحاد الدفاعي والهجومي الناشيء عن صلح تلسيت واقل الامور يسوغ لفرنسا الهجوم على دولة كررت فتح حروب غير عادلة عليها وكانت بعيدة عن طائلة الحروب قادرة على الاضرار بفرنسا التي لم تكن قادرة الا على كسر عساكرها

واخذت عساكر نابوليون تتحرك في كل جهة وعددها نحو اربعمائة وعشرين الف رجل وكانت منقسمة الى ١٢ فرقة خلا الحرس الوطني وكان الجيش الاول تحت قيادة دافوست والثاني تحت قيادة اودينو والثالث ناي والرابع البرنس اوجين نائب الملك في ايطاليا والخامس بونياتوفسكي والسادس جوفيون سان سير والسابع رنيه . والثامن جيروم ملك وستفاليا . والتاسع فيكتور . والعاشر ماكدونال . والحادي عشر اوجيريو . والثاني عشر مورات والثالث عشر البرنس شفارتسن النمسوي . اما جيش الحرس الوطني فكان نحو ٧٥ الفاً فسار في ثلثة صفوف تحت قيادة المارشالية لوففر ومورتيه وبسيار . وكان هذا الجيش الجرار نحو نصف مليون من الرجال منهم نحو ثمانين الف فارس مناهبون ومعهم الات لانشاء ستة جسور وصف للحصر والوف من عجلات الزاد وثيران لا تحصى و١٣٦٢ مدفعاً وعشرون الف عجلة من انواع مختلفة و١٨٧ الف فرس ولم



يكن في جيش من الخيول ما كان فيهِ . وكان المدافع والفرسان ونقل الذخائر والزاد . واخذ يدنو من الغابة على ضفة نيامن في وسط الصيف . وكان الهواء معتدلاً جداً والاراضي خضراء والجوُّ صافياً . وكانت الحمية تختلج في صدر كل رجل من الجيش المذكور . ولم تر الارض منظراً اعظم من ذلك المنظر وكانت علامات الجيش مرفوعة والرايات خافقة والخوذ والدروع لامعة والسيوف صليل والخيول صهيل والابواق والآلات الموسيقى والطبول المرافقة لالوف من الفرق الصغيرة اصوات تصم الاذان . وانقسم الجيش الى ثلثة اقسام واخذ كل منها يدنو من النهر ليعبرهُ في مكان يبعد نحو مائة ميل عن مكان عبور القسم الاخر . ولم يكن يتيسر لها المسير في طريق واحدة بدون ارتباك . وامرت كلها بالاجتماع في مدينة وبلنا على نحو مائة ميل من نيامن وكان مع الامبراطور نحو مائتي الف رجل

وفي ٢٢ حزيران (جون) سنة ١٨١٢ مسيحية بعد ان خيم الظلام على ذلك الجيش الجرار وهو في الغابة التي جعلت ضفة النهر الموحش حالكة الظلام ابتدأ يدنو من شاطئهِ . وبعد نصف الليل بساعتين بلغ نابوليون الطليعة في جوار كونو . فسار مسرعاً الى الضفة ومعهُ معاون واحد ليختار المكان الموافق لعبور الجيش . ولم ير احداً مطلقاً في الضفة المقابلة ولا راى ناراً مشبوبة تدل على جيش العدو . لان الروسيين كانوا عالمين بعجزهم عن مدافعة جيش كهذا الجيش فعوّلوا على ما لا يقوم بهِ الا شعب غير متمدن حتى التمدن خاضع لحكومة مستبدة . وصمم امبراطور روسيا على ان لا يخضع بلادهُ لفاتح اوربا . فامر بان يرجع جيشهُ وكان ثلثمائة الف رجل امام العدو ويهدم كل جسر وكل القرى والمدن وينقل جميع اسباب المعيشة ولا يبقي وراءهُ لعدوهِ الجائع غير فيافٍ خربة

فانشأ نابوليون حالاً ثلثة جسور فوق النهر وقبل طلوع الفجر اخذ جنودهُ يعبرونهُ ووقف بالقرب من جسر يهيج الرجال . فمزق الجوَّ بضجات الدعاء لهُ من الذين كانوا يمرون بالقرب منهُ . واستمر الجيش يومين يعبر النهر . وكان يروم مطاردة الروسيين المتقهقرين فحرض جيشهُ على المسير بسرعة . ثم بلغ نهراً قد فاض بالامطار التي هطلت وامسى الجيش غير قادر على العبور . ومع ذلك ولجت فيهِ فرقة صغيرة من الفرسان البولونيين المتقلدين السلاح الخفيف غير مبالية بالماء فغرق اكثرهم . وكانوا يلتفتون الى الامبراطور الواقف وراءهم ويصيحون فليعش الامبراطور وهو في الضفة الاخرى ينظر اليهم بكدر وحزن . واقام هناك ثلثة ايام منتظراً اجتماع جيشهِ وانشأ اماكن للحراسة ومستشفيات ثم سار الى وبلنا التي تبعد نحو مائة ميل عن كونو ودخلها مع طليعة حرسهِ في ٢٧ من الشهر المذكور مساء بعد ان قطع بلاداً موحشة فيها اجام كثيرة بدون ان يرى عدواً . وكانت وبلنا عاصمة الولايات التي اخذتها روسيا من بولونيا المنقسمة وجعلها نابوليون مركز اركان حربهِ

وكان اسكندر امبراطور روسيا يرقص في مادبة اقامها احد امرائهِ لما بلغهُ عبور الفرنسويين نهر نيامن . فخرج من المادبة حالاً وامر الجيش بالرجوع بعد ان احرق الذخائر والزاد لئلا يستولي الفرنسويون عليها . وفي ٢٨ من الشهر دخل رسمياً مدينة ويلنا وحولهُ حراسهُ من البولونيين المعتقلي الرماح . وكان اهالي بولونيا يدعونهُ مخلصاً لهم ورفعت رايتهم الوطنية في وسط التهليل وكان بعض الشبان يعتنق البعض الاخر في الشوارع ويبكون فرحاً . واخذ الشيوخ من الاهالي يلبسون ملابس بلادهم القديمة . واجتمع المجلس الوطني وقرر رجوع بولونيا الى استقلالها ودعا جميع البولونيين الى ان ينضموا الى الجيش الفاتح . واشتدت حمية البولونيين حتى اجتمع لديهِ منهم ٨٥ الف مقاتل . وارسل وفد اليهِ طالباً استرجاع المملكة المنقسمة المسلوبة وقال في لائحتهِ ماذا جعل بلادنا تمحى من رسم اوربا . باي حق حمل علينا وصار الاستيلاء على بلادنا وتقسيمها . من حكم بذلك علينا . فروسيا ينبوع ويلاتنا فهل نذكر يوم البلايا الذي سمعت فيهِ وارسو تنهدات اهالي براغ الاخيرة الذين هلكوا بالنار والسيف . فهذه حقوق روسيا في بولونيا . فهي القوة ولا نتخلص من قيودها الا بالقوة . فنتوسل الى البطل الذي تاريخ العصر يختص بهِ وفي يدهِ قوة العناية الالهية بان يعضدنا ويساعدنا فليقل نابوليون العظيم قد ارجعت بولونيا فترجع

فلو فاه بكلمة واحدة لنهضت امة عددها عشرون مليوناً واجتمعت اليهِ غير ان تلك الكلمة كافية لان تبعد عنهُ بروسيا والنمسا فتنضم جيوشهما الى جيوش روسيا فجواب نابوليون يشف عن ارتباكهِ وتحيرهِ لارتضائهِ بان يهيج بولونيا الروسية الى القتال ولكنهُ تعهد بان لا يفعل شيئاً يحمل رعايا حليفتيهِ على العصيان . فاجاب الوفد لو كنت مالكاً عند تقسيم بولونيا المرة الاولى او الثانية او الثالثة لقاتلت في سبيل تخليصكم ولما فتحت وارسو ارجعت اليها حريتها فاوافق على اجتهاداتكم وافرغ كل جهدي في سبيل اسعافكم فاذا كنتم متحدين فربما كنتم تقدرون ان تلزموا العدو بالاعتراف بحقوقكم . وفي هذه البلاد المتسعة جداً البعيدة عن فرنسا اجتهادكم اعظم اسباب نجاحكم . واخبركم انني ضمنت املاك النمسا ولا اسلم بحدوث ما يلقي ولاياتها البولونية في خطر . انتهى . وفاه نابوليون بهذه الكلمات الاخيرة بحزن واسف وجعلت في قلوب البولونيين كدراً شديداً . لانهُ كان يرغب في الحصول على محالفة بولونيا بعد نهوضها فانها من الامم التي تبادر الى خلع نير الظلم والى اتخاذ قواعد فرنسا المصلحة قواعد لها غير انهُ كان مقيداً بالمعاهدة المعقودة بينهُ وبين النمسا وبروسيا . وكان عالماً ان زاد جيشهِ وتقدمهُ واتصالهُ بفرنسا وتقهقرهُ اذا لم يفز متوقف عليهما

وكان قد ابتعد عن قاعدة امبراطوريتهِ الفاً واربعمائة ميل وبات في بلاد كادت تكون قاعاً صفصفاً . وكانت روسيا قد كدرتهُ ولم يقم بالحرب الا لاسباب جوهرية ومع ذلك يحتار المنصف في



الحكم باصابتهِ او خطائهِ . ومن المحقق ان الامبراطور اسكندر امر بما يضر بفرنسا وانهُ عاون الد اعدائها واقواهم حال كون نابوليون لم يكن قادراً على جعل انكلترا تصالحهُ الا بمنع بضائعها ومصنوعاتها عن الدخول الى اواسط اوربا وامتناع روسيا عن انفاذ معاهدتها المتعلقة بمنع دخول البضائع الانكليزية جعل نابوليون عرضة لتعديات انكلترا بدون ان يكون قادراً على صدها . ومع ذلك قيل ان تلك الامور لا تسوغ لهُ فتح الحرب على روسيا . وروسيا امبراطورية مستقلة يحق لها ان تمنع دخول البضائع الفرنسوية الى بلادها وان تسمح بدخول البضائع الانكليزية مع قطع النظر عن صالح فرنسا وكثيرون يلومون نابوليون على مقاتلة روسيا ويشاركونهُ بالحاسيات لانهُ سيق الى الحرب باسباب جوهرية تتوقف عليها سعادة بلادهِ وصيانتها . ولا يحق للامبراطور اسكندر ان يتشكى لانهُ خرج من بلادهِ مرتين حاملاً على نابوليون بدون مسوغ وبدون داعٍ وتعدى على معاهدة عقدها هذه المرة وعاد الى محالفة الد اعداء نابوليون لنكايتهِ والاضرار بهِ . واللوم يقع على وزارة انكلترا لانها لم تنقطع عن محاربة الامبراطور الذي اختارتهُ فرنسا وعقدت محالفة بعد محالفة في اواسط اوربا وجعلتها مغمورة بطوفان من الدماء لتسحق نابوليون وترجع البوربون وتحفظ سيادتها في البحار . وافرغ نابوليون جهدهُ لمصالحتها وذهب تعبهُ سدى . فالذنب ذنب امراء انكلترا لانهم اثاروا تلك الحروب الدموية وجعلتهم القحة يلقون اللوم على عاتق نابوليون حال كونهم هم سببها مكتفين باهلاك الناس وصيانة انفسهم وبلادهم

واقام نابوليون ١٨ يوماً في ويلنا يهتم بسد احتياجات جيشهِ التي لا تحصى ينظم حكومة البلاد التي خلصها من مخالب الظالم وينتظر وصول الزاد الى جيشهِ الجرار . وقبل نصف تموز «جوليه» مات عشرة الاف فرس من الجوع والتعب وبات ٢٥ الف مريض في المستشفيات قبل القتال . فخاف الامبراطور اسكندر لما راى كثرة هذا الجيش فاراد ان يطاول في الاعمال ليتمكن من الرجوع بجيشهِ فبعث بسفير الى ويلنا مدعياً بان مرادهُ فتح المخابرات . وكان اسمهُ الكونت بالاشوف فقابلهُ نابوليون ملاطفاً متاسفاً من حدوث ما جعلهُ يحمل على بلاد صديقهِ الامبراطور اسكندر . فقال السفير اذا رجعت الجيوش الفرنسوية الى الضفة الاخرى من نهر نيامن يرتضي الامبراطور اسكندر بان يخابر بالصلح فامتنع نابوليون حالاً عن قبول ذلك وقال انني اخابرهُ وانا هنا في اراضي ويلنا . فان رجال السياسة لا يقررون شيئاً مهماً بعد زوال ضرورة الاحوال فليمض الامبراطور اسكندر شروطاً ابتدائية مقبولة فاعود حالاً موكداً الصلح . وكان اسكندر مربوطاً بمعاهدة انكليزية فلم يقبل . وشرع في جمع جنودهِ في معسكر دريسا في محل يبعد نحو ١٥٠ ميلاً في الداخلية وكانت الفرق الفرنسوية تتاثر جيوش روسيا المتقهقرة . وانتشب القتال مرتين او ثلث مرات بين طليعة الفرنسويين وموخرة الروسيين . وكانت اثار الخراب في السبل التي كان

الروسيون يسلكونها فانهم كانوا يهدمون المدن والقرى ويحرقون المزروعات ويتركون وراءهم جثث البولونيين الذين كانوا يقتلونهم ولما تقدم نابوليون الى دريسا اخلاها جيش روسيا وسار الى ويتبسك التي تبعد عن المكان المذكور مائة ميل الى جهة الداخلية

وكان الروسيون يخافون عصيان عبيدهم وهم الفلاحون الروسيون وكان اصحاب الاملاك يعاملونهم كارقا فارادوا ان يقطعوا جميع اسباب المواصلات بينهم وبين الفرنسويين فخلقوا اخبارًا مضحكة اذاعوها لالقاء الخوف من الفرنسويين في قلوبهم وحملهم على مجانبتهم

وفي ١٦ تموز (جوليه) خرج نابوليون من ويلنا وزار مواقف جيشه الممتد مسافة طويلة . وفي صباح اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور قبل طلوع الشمس اوقف فرسه على اكمة مشرفة على سهل متسع خصب فيه مدينة ويتبسك الجميلة . وراى الجيش الروسي معسكرًا في السهل في مكان بعيد عنه . وكان في عبر نهر دوينا المتسع العميق فكان كانه حصن يقي الروسيين من حملات اعدائهم . وكانت طرق المدينة محصنة . فلما راى نابوليون من تحصينهم واستعدادهم ما راى ظن انهم مصممون على منازلته . وكانت فرق جيشه تصل الى هناك بالسرعة . لانه رتب المسير بضبط عظيم يحير العقول وقام قواده به بضبط ودقة وسار من نيامن فرقًا فرقًا قاطعًا مسافة ثلثمائة ميل في بلاد عدو مجهولة سالكًا سبلاً مختلفة . والتقى في ساعة واحدة ومكان واحد بالقرب من اسوار ويتبسك واخذ هذا الجيش يخدر الى السهل بذخائره وزاده ومدافعه وافراسه وخيل الناس انه فاقد الانتظام ومع ذلك كان تدبير رجل واحد كافيًا لان يجعله بعد الغروب ببرهة قصيرة معسكرًا منتظمًا في السهل بدل الفوضاء الشديدة بسكون تام . وفي يوم واحد تمكن من ان يجمع ١٨٠ الف رجل بعد ان كانوا متفرقين في جهات كثيرة . وكان باقي جيشه وراءه وفي المستشفيات وفي الصباح انتشب قتال شديد . وكان الفرنسويون يدفعون اعداءهم من موقف الى موقف ويدنون من المدينة . ولم ينفصل المتقاتلون الا بظلام الليل . وصرف الروسيون النهار بالتجمع وكانوا كثيرين جدًا ومواقفهم منيعة فتاكد نابوليون ان الصباح يكون ابتدا معركة قاطعة . فقال لمورات غدًا ترى شمس اوسترلتس . وقبل طلوع الفجر ركب فرسه واخذ يستعد للقتال وتكدر جدًا لما تيقن ان عساكر العدو تقهقروا . فانهم رجعوا في الليل بسكون وحذق وانتظام وكاد لا يرى لمسيرهم اثرًا . فدخل المدينة بلا ممانعة ولم يرَ فيها شيئًا فانه نقل كل الزاد منها واحرق ما لم يتيسر نقله . وكان اهلها من البولونيين ففروا منها وخرجوا بقوة الجيش المتقهقر . فاضطرب وتحير جدًا فانه بات في وسط بلاد مقفرة بدون اهال حال كونه كان بعيدًا عن العمران محتاجًا الى الزاد فان خيله وجنوده كانت تموت جوعًا حال كونه امعن في تلك الاراضي المتسعة وامسى بعيدًا عن تلسيت نحو خمسمائة ميل بدون ان يعلم اين يقدر ان يجد عدوه . ومضى اكثر الصيف



بدون ان يتمم شيئًا . فعقد مجلسًا حربيًا فاشار اكثر القواد بان يقف الجيش الى الربيع ولم يسمع تلك المشورة لانه راى لزومًا لفعل ما يجهد الجيش ويرجع بركونه اليه واثناء ذلك عرف ان الروسيين اجتمعوا في سولنسك وهي مدينة حصينة تبعد مائة ميل عن المكان الذي كان فيه . ففي ١٢ اب (اوغسطوس) سار في جيشه وارسل فرقًا منه ليهجم على الروسيين من جهات مختلفة ويقطع خط رجوعهم . وكانت جماهير غفيرة من القوزاق تغير امامه وتحرق الزاد والشعير وغيره من ماكل الخيل . وكان الحر شديدًا جدًا ومشقات الفرنسويين والامهم مما يكل اللسان عن وصفه وكانوا يتركون في السبل الموتى والذين كانوا في حالة النزع . وفي مساء اليوم السادس عشر من الشهر المذكور وصل الى ظاهر المدينة وصعد على مكان مرتفع مشرف عليها فراى جيوشًا جرارة فيها وحولها فقال بسرور قد ادركتهم . وكانت اسوارها سميكة مرتفعة محصنة باخاديد وخنادق . فقاتلهم يومًا كاملاً قتالاً شديدًا وارسل القائد الروسي فرقة الى خارج المدينة لتحمي الاهالي وهم يفرون منها وخيم الظلام والمتقاتلون المتعبون جدًا لم ينفكوا عن النزال . وبعد نصف الليل ارتفع دخان كثيف جدًا من جهات مختلفة من المدينة ولهيب نار غشيها في برهة قصيرة . وكان الحر شديدًا في النهار والهواء معتدلاً جميلاً ليلاً فجلس نابوليون امام خيمته متفرسًا صامتًا وقال رايت ما براه اهالي نابولي عند ما يهيج فيسوفس وهو جبل نار . وفي صباح اليوم الثامن عشر تمكنت فرقتان فرنسويتان من الدخول الى المدينة فوجدتا ان الروسيين اخلوها بعد ان احرقوها تاركين قتلاهم وجرحاهم في خرابها . ودخل نابوليون وراى تلالاً من الجثث المسودة بالحريق واللهيب وبينها رجال لا يزالون احياء فاغتاظ الفرنسويون لما راوا هذا المنظر المخيف القبيح الذي تنفتت منه الاكباد . فاخذ بالاعتناء باولئك المنكودي الحظ الذين تركهم رفاقهم في ويلهم والامهم . وارسل مرتبه القائد الفرنسوي كتابًا الى القائد الروسي طالبًا فيه التسوية وقال في ختامه قد امرني الامبراطور بان اتوسل اليك ان تسلم على الامبراطور اسكندر وتقول له ان حوادث الحرب وسائر الحوادث لا تغير الصداقة . وفي الصباح صعد نابوليون على محل مرتفع وراى عن بعد الروسيين المتقهقرين . وكانوا قد انقسموا الى قسمين فقسم منهم سار الى جهة بطرسبرج والقسم الاخر سار الى جهة موسكو تحت قيادة باغراتيان . فامر نابوليون بان يطاردوا بسرعة وفوض مطاردة القسم الذاهب الى موسكو الى المارشال ناي

وكان احد الكهنة الروسيين في تلك المدينة المحترقة بقي فيها للاعتناء بالجرحى ناهجًا منهج اصحاب الغيرة والحمية . وكان قد تقرر عنده ان نابوليون شيطان قاسٍ محب لاراقة الدماء وتخريب البلدان فاتي به اليه فقال له بجسارة موبخًا انك علة خراب المدينة . فاصغى نابوليون اليه باحترام وقال له هل احترقت كنيستكم . فاجاب لا فان الله اقوى منك وقد فتحتها للمنكودي

الحظ الذين باتوا بدون منازل باحتراق المدينة . فقال له لقد اصبت فان الله يحرس اصحاب الحرب الابرياء وسيكافيك على شجاعتك فاذهب يا ايها الكاهن الفاضل الى مركزك ولو افتدى كل الكهنة بك لما خانوا المأمورية السامية الموجهة اليهم من السماء . ولو لم يتركوا معابدهم التي لا تكون مقدسة الا بوجودهم لما اخرب جنودي ابيتكم المقدسة فانا جميعاً مسيحيون فالهكم الهنا . ثم ارسله مع حراس وبعض مساعدات فلما راى الذين كانوا في الكنيسة الجنود الفرنسوية صرخوا خوفاً فسكن الكاهن خوفهم وقال لهم لا تخافوا فانني قد رايت نابوليون وكلمته فيا اولادي قد انخدعنا جداً فان امبراطور فرنسا ليس كما سمعنا عنه فانه هو وجنوده يعبدون الاله الذي نعبده نحن وحربه ليست بدينية ولكنها ناشئة عن اختلاف سياسي واقع بينه وبين امبراطورنا وجنوده لا يحاربون غير جنودنا ولا يذبحون النساء والاولاد كما قيل لنا . ثم شرع في ترتيل ترنيمة شكر قرنلوها معه وهم يذرفون الدموع

وادرك الفرنسويون الروسيين في برهة قصيرة وقتلوا منهم كثيرين واستمروا يطاردونهم بهمة وثبات . وكان نابوليون منتصراً في كل مكان ومع ذلك كان يعاني ضيقات الكسر ومشقاته . فانه كان في وسط بلاد قد امست خربة لا يحصل على الزاد اللازم الا بصعوبات عظيمة واخذ التعب والجوع يفعل في جيشه كثيراً . وكان قد خلص ١٥ بناية كبيرة في مدينة سمولنسك من الحريق فملاها بالجرحى والمرضى فضلاً عن الكثيرين الذين كان قد تركهم في ويلنا وويتبسك . والتزم الجراحون بان يمزقوا اثوابهم ليربطوا جراحات الجنود بها ثم استعملوا الورق ثم اوراق الاشجار ومات كثيرون من الجنود بالجوع . فاشتد حزن الامبراطور وبات الجيش في ضيق شديد وخوف وراى ان الرجوع بهيج اوربا عليه والاقامة حيث كان تهلك جيشه والتقدم لا ينشأ الا عن الياس

اما الامبراطور اسكندر فترك جيشه وسار بسرعة الى موسكو وكان بينها وبين المدينة المذكورة خمسمائة ميل فصمم نابوليون على ان يتقدم بجيشه التعب المبلى بكل الضيقات والكلل ظاناً انه يجد في موسكو التي كانت قاعدة روسيا راحة وزاداً . ولم يخطر له ان اسكندر يحرق مدينة فيها ثلثمائة الف نفس . ولم يقم فيها اسكندر غير ايام قليلة ورتب ما يلزم لحرقها اذا فاز نابوليون بفتحها . ثم سار الى بطرسبرج واقام في الكنائس شكراً لله تعالى على النصر الذي فاز به فلما سمع نابوليون بذلك قال انهم لا يكتفون بالكذب على الناس بل يجاسرون بالكذب على الله ايضاً

وفي ٢٨ اب (اوغسطوس) رجع نابوليون الى المطاردة وسار بعد معاناة مشقات وآلام كثيرة وكان الجيش يسير نهاراً وليلاً مع ما كان عليه من العناء والتعب وكان يتغلب على كل الموانع وكثيراً ما يقاتل قتالاً شديداً . واستمر ذلك الى ٤ ايلول . (سبتمبر) مساء فوجدوا فيه مائة وعشرين الفاً من الروسيين متحصنين على ضفات نهر موسكو الكثيرة الصخور بالقرب من قرية بورودينو . وكان



الجنرال كوتوسوف قد جمع هناك كل جنوده واوقفهم في امنع المواقف مصمماً على ان يدافع عن قاعدة البلاد وجعل في صف سنماية مدفع وانشا حواجز مرتفعة في تلال تشرف على السهل وجعل صفوفاً من المدافع في الجوانب لاهلاك الجيش الحامل وكان وراء تلك الاخاديد والحواجز والخنادق مائة وسبعون الف روسي ليدفعوا المهاجمين وكان عدد الفرنسويين مائة وعشرين الف رجل فدنوا من العدو في ثلثة صفوف طويلة فسار نابوليون الى تل في مقدمة حرس الطليعة وفحص مركز عدوه وبالحال راى الحركات التي تبلغه النصر وصمم على الحمل فانفذ الاوامر اللازمة الى القواد ثم دخل خيمته وكتب الاعلان الاتي ونشره على جنوده

يا ايها الجنود . قرب القتال الذي طالما تمنيتموه فنصركم متوقف عليكم وهو لازم لكم ويأتيكم بالرخاء فقاتلوا كما قاتلتم في اوسترلتس وفردلندو وبتبسك وسمولنسك . واجعلوا اهل القرون الاتية تعدد اعمالكم . ومكنوا كل ابناء وطنكم من ان يقولوا عن كل منكم هذا كان في المعركة العظيمة تحت اسوار موسكو . انتهى . فلما اطلع الجيش على هذا الاعلان تحركت فيه الحمية الفرنسوية وضج قائلاً عاش الامبراطور

وكان الليل بارداً شديد الظلام واخذت الامطار تهطل على الجيش التعب وهو على تلال بورودينو الجرداء . وكانت نيران الروسيين الكثيرة مشبوبة كنصف دائرة في مسافة طويلة . وكان الفرنسويون يضرمون نيرانهم عند وصولهم وحلولهم في مراكزهم . وضربت خيمة نابوليون في وسط صفوف الحرس القديم . وبات مشغول البال مضطرباً خوفاً من ان يتهفر العدو في الليل بدون قتال حتى انه لم يقدر ان يذوق طعم النوم . وصرف نصف الليل في كتابة الاوامر وفي ارسال رسل لتحقيق ثبوت الروسيين في مراكزهم . وكان متكدراً جداً يخشى سوء العواقب وكانت اخبار ضيقات جيشه وويلاته تبلغه بدون انقطاع . وجاءه رسول واخبره بانكسار جيشه في معركة سلمنكة في اسبانيا وحلول اللورد ولنكتون الانكليزي في مدريد قاعدتها . وبلغه ايضاً ان روسيا كانت قد عقدت الصلح مع الدولة العثمانية وان جيشاً روسياً قوياً تخلص من محاربتهم واخذ في الزحف ليحمل عليه في الطونه . وسمع ايضاً بان برنادوت كان قد ارتكب خيانة جلبت عليه العار بضم جيش اسوج الى جيش روسيا وقرأ بعض الاعلانات التي نشرها الامبراطور اسكندر على شعبه وراى فيها ما يدل على شدة كرهه له وعلى الخراب العظيم الذي كان يبلي بلاده ويدفعه ويهلكه وراى علامات شدة البغض مع انه كان صديقه الاخص فحيره ذلك وقال لا اعلم سبب هذا الانقلاب . فامر بان تكرر تلاوتها عليه وقال ماذا احدث هذا التغيير العظيم في الامبراطور اسكندر ومن اين دخل هذا السم العظيم في عروق قلبه فما من شيء ينهي الخلاف الا قوة السلاح . ولم امتنع عن ان احرض البولونيين على ان ينتفضوا على روسيا الا لمجانبة الوصول

الى ما قد وصلنا اليهِ فقد تيقنت بان اعدل تصرفاتي كان خطأً عظيمًا وفي اثناء خوضهِ في بحر من الافكار من جرى هذه الحوادث جاءهُ رسول معهُ كتاب من زوجتهِ ماريا لويزا وصورة نجلهِ الذي كان يحبهُ محبة كادت تكون كالعبادة . وكان قد قرب الفجر الذي عين لانتشاب نيران قتال دموي مهلك . وظن الذين كانوا حاضرين بانهُ يوخر فتح الصندوق الذي فيهِ صورة ابنهِ غير انهُ لم يقدر ان يصطبر فامر ان يوتى بهِ حالاً الى خيمتهِ فلما راى صورتهُ بكى بكاء شديدًا وكان مصورًا جالسًا في سرير يلعب بلعبة صغيرة ورغب نابوليون ان يجعل القواد والجنود يشاركونهُ في السرور بولدهِ فاخرج الصورة بيدهِ الى خارج الخيمة ووضعها على كرسي ليتمكن جميع القريبين منها ان يروها فاجتمع حولها كثيرون من الابطال الذين كانوا قد صرفوا حياتهم بالحروب واخذوا ينظرون صامتين الى الصورة الجميلة التي تدل على الحياة الطاهرة السلمية . وبعد ذلك قال نابوليون بحزن لكاتبهِ خذ هذه الصورة واحفظها باعتناء فان ابني قد راى ميدان القتال وهو صغير . فدخل خيمتهُ وذهب الى النوم الذي كان ينام فيهِ المنصول بمنسوج عن المكان الذي كان اعوانهُ ينامون فيهِ . وكان قد اصيب بالحمى وبظماء شديد من جرى شدة التعب والقلق . فاخذ يشرب الماء بدون ان يروى . وفضلاً عن ذلك بلي بالسهاد واظهر من الاهتمام بجنودهِ المتعبين الجياع ما لا مزيد عليهِ وكان يخاف ان يصبحوا غير قادرين ان يثبتوا في القتال الشديد الذي كان مصممًا ان يقوم بهِ في الصباح وتقرر عندهُ ان جيش الحرس المجرب الباسل ينفعهُ اكثر من سائر الجيوش . فدعا بسيار قائدهُ وسالهُ عن احتياجات ذلك الجيش وزادهِ وامر بان يوزع عليهم من الارز والخبز ما يكفي ثلثة ايام من الزاد الاحتياطي . وخاف من ان تهمل اوامرهُ فنهض وسال بعض الحراس فوجدانهم حصلوا على الزاد . ثم عاد الى خيمتهِ ونام نومًا متقطعًا . وبعد ذلك ببرهة قصيرة حدث ما جعل احد المعاونين يكلمهُ فوجدهُ جالسًا في فراشهِ وقد القى راسهُ المحموم على يديهِ وهو غائص في بحر من الافكار المقلقة . وقال ما هي الحرب اما هي تجارة البرابرة . فننها محصور في ان يكون الانسان اقوى من عدوهِ في محل وقد قربنا من يوم مهول فان القتال سيكون فيهِ مهلكًا فلابد ان يقتل من جيشي عشرون الف رجل . وكان قد تالم جدًا في اليوم السابق وراهُ قومهُ ينزل عن ظهر فرسهِ مرات ويلقي براسهِ على مدفع برهة ولوائح التالم الشديد تلوح على وجههِ . فانهُ اصيب موقتًا بمرض اسر البول الناشيء عن الحمى والتعب والقلق وهو من الامراض المضعفة المتعبة جدًا . ثم اصيب بسعال شديد جعل التنفس صعبًا . ومع ذلك ركب فرسهُ عند طلوع الفجر وحولهُ قوادهُ فان قوة عقلهِ تغلبت على الام جسمهِ واخذت غيوم الليل الممطرة في الزوال وطلعت الشمس فاشار نابوليون اليها وقال هوذا شمس اوسترليتس فسمع البعض هذه الكلمة واخبروا بها الجيش فانتشرت بسرعة البرق وكانت الصفوف تصيح فرحًا



متعالية بها . فوقف نابوليون على تل من تلال بوروديتو واخذ ينظر الى ميدان القتال والى صفوف الجيوش الروسية الجرارة السوداء المتجولة في ميدان القتال ولم يكن معهُ غير بعض اعوانهِ خوفًا من ان يعرفهُ الروسيون ومع ذلك راوهُ واطلقوا عليهِ صفًا من المدافع فمرت الكلة الاولى في ذلك النهار في وسط القوم الذين كان معهم . وعند ذلك امر بحمل الجيش فارتفع من ذلك السهل صوت مخيف جدًا وابتدات مذابح الحرب المكروهة واشتبك ثلثمائة الف رجل ومعهم اعظم الات الموت الاحمر . واستمر النزال من قبل الظهر بسبع ساعات الى العصر والدما تجري انهارًا . فاصابت كلة فرس الجنرال دافوست ومزقتهُ فوقع على راسهِ . فظن القوم انهُ قد قتل فبعثوا بالخبر الى نابوليون فحزن ولكنهُ لم يفه بكلمة . وبعد لحظة اخبر بانهُ نهض سالمًا وركب فرسهُ ورجع الى قيادة جيشهِ . فقال بفرح فليتبارك الله . اما الجنرال راب فجرح اربع جراحات واصابتهُ رصاصة في اعلى فخذهِ فوقع عن فرسهِ فنقلوهُ من ميدان الحرب ودمهُ يسيل . وكان قد جرح ٢٢ جرحًا فسار نابوليون حالاً ليعودهُ وامسك يدهُ قائلاً بحنو ان الجراح لك في كل حال . وكان مع نابوليون قائد شاب محبهُ جدًا واسمهُ الكونت اوغسطوس شفيق كولنكور الدوق دي فيسنزا ولم ينم في الليل السابق ليوم القتال ولكنهُ لبس عباءتهُ وطرح نفسهُ على ارض خيمتهِ واخذ يتفرس في صورة عروسهِ الفتية فانهُ كان قد تزوجها قبل ان سافر للحرب بايام قليلة . فاخبر نابوليون بان الجنرال مونتبرون الذي امر بالحمل على حاجز قد قتل فامر الكونت المذكور بان يخلفهُ فسار مسرعًا وهو يقول لابد من ان استولي على الحاجز ولو بلغتهُ مقتولاً . وسبق كل جنودهِ الى الوصول اليهِ غير انهُ حالما وضع رجلهُ فيهِ قتل برصاصة . فبلغ نابوليون قتلهُ بعد ان فارقهُ ببرهة قصيرة وكان اخوهُ واقفًا بالقرب من نابوليون فحزن جدًا واشتد كدر نابوليون ودنا منهُ وقال بلغني الخبر فاذا شئت اخرج من ميدان القتال . فلم يجب وكان الحزن ظاهرًا فيهِ فرفع برنيطتهُ وانحنى رافضًا الخروج . وصرف نابوليون النهار بطولهِ واخبار القتل تبلغهُ بدون انقطاع . وكان يسمع اخبار رسول بعد رسول بالاعتصام بالصبر الجميل ولوائح الحزن تلوح على وجههِ حال كونهِ لم ينقطع لحظة عن مراقبة القتال المهلك . وقرر الهجوم قبل الحرب ولم يكن مرتابًا بالفوز

وحفظ جنود الحرس الامبراطوري احتياطيًا النهار بطولهِ . وكان عددهُ عشرين الف رجل وفي ساعة اشتد خطرها الح برنيه عليهِ بان يجد جيشهُ بالحرس فاجاب بهدوء لا لزوم لذلك فيقدر ان نفوز بدون ان نستخدمهم فاذا حاربوا اليوم فماذا نفعل اذا تجدد القتال غدًا . وبعد ذلك راى القواد في حر القتال ان النصر يميل تارةً الى الفرنسويين وطورًا الى الروسيين وقد كثر القتل والويل وجرت الدماء انهارًا فالحوا عليهِ بان يامر جيش الحرس بالحمل فقال لا فان ساعة هذه المعركة لم تبتدىء بعد ويكون ابتداؤها بعد ساعتين . واخذت صفوف الجيش الفرنسوي المدارة بحذق

غريب تضايق الروسيين وكان كل ساعة يفتح صف جديد من المدافع فوهاتو ليرسل الهلاك الاحمر الى صفوفهم المرتبكة . وشرعوا يحاربون وهم وراء متاريسهم . اما الفرنسويون فكانوا اشد انتظاماً وحمية فهجموا على صفوف مدافع الروسيين وداسوا موتاهم وجرحاهم بارجلهم وصعدوا على الحواجز كانهم طوفان ماء لا يرد . واخذت امواج القتال تقترب تدريجاً من الاخدود العظيم ثم انحصرت شدتهُ فيهِ وكان مائة الف رجل يتقاتلون وراء تلك الحواجز ودخان البارود الكثيف يغطيهم وكان نار السلاح كانهُ وميض برق من غيم كثيف اسود ومعهُ رعود قاصفة تبلي الاذان بالصم وفي وسط ظلامهِ الحالك كان الجندي والفارس وجنود المدافع يهجمون على العدو وكانهم قد بلوا بداء الجنون فحجبوا عن الاعين . وكان نابوليون ينظر صامتاً الى ذلك الانون المخيف الذي باتت جنودهُ في لهيبهِ الحار يقاتلون قتال الاسود غير مبالين بالموت الاحمر المحدق بهم . ولم يبطل النزال والدم الجاري غزيراً اطفأ نيران الوغى وانقطعت دمدمة رعود الهلاك وافشع غيم البارود الكثيف بالرياح الهابة ولمعت خوذ الجنود الفرنسويين المدرعين وخفقت راياتهم المفخرة فوق الحواجز والاخاديد والاستحكامات الدموية . وكانت الشمس قد مالت الى المغروب واخذت الجيوش الروسية في التقهقر بكدر غير انها كانت تدافع بثبات عن كل متركات تتركهُ للعدو . ولو اطلق نابوليون العنان لجيش الحرس الامبراطوري لهلك منهُ نحو ضعف العدد الذي بات مقتولاً في تلك المعركة . ومراعاة حقوق الانسانية والحكمة حملتهُ على الامتناع عن ذلك . اما العارفون بفن الحرب فقد انتقدوا عليهِ فلاموهُ جداً لتقصيرهِ في الحمل عليهم بذلك الجيش . وقال وقتئذٍ للجنرال دوما والكونت داروريما كان يبيت الناس في تعجب لانني لم احمل بجنودي الاحتياطية للفوز بنجاح اعظم . ولكنني رايت انني اصبح محتاجاً اليهم في القتال العظيم الذي اظن ان العدو يقاتلنا بهِ في السهول في ظاهر موسكو . وقد نلنا النصر في هذه الحرب . ومن فروضي ان لا اقطع النظر عن الاستقبال للوصول الى الفوز العام فلم اقاتل بجنود الاحتياط . انتهى . وقال السار ارشيبلد اليسون لو لحق ضرر بجيش الحرس الامبراطوري في معركة بورودينو لارتبنا في تمكن الجيش من عبور نيامن لان الحرس كان نخبة الفرنسويين وسند بسالتهم في كل الصعوبات والانسان قد يعرض نفسهُ لخطر الخسارة حيث يقدر ان يعوضها بسهولة ويحتملها ولكنهُ لا يعرض نفسهُ لهُ في وسط بلاد العدو في مكان يبعد عن النجدات فيلقي الجيش كلهُ في خطر الهلاك . انتهى

ولا يخفى ان نابوليون كان كريم الاخلاق بعيداً عن الادعاء فلم يدَّع بان تدبيراتهِ هي التي جاءت بذلك النصر ولكنهُ قال ان جنودهُ وقوادهُ علة الانتصار . وقال بهذا الشان في سانتا هيلانه ان الجنود الروسية باسلة وكان جيشهم كلهُ مجتمعاً في موسكو وكان عددهم مع الذين كانوا في موسكو مائة وسبعين الفاً . وكان كوتوسوف في احسن المواقع وامتاز عني بكل شيء فان جيش



الزحف والفرسان والمدافع كان يزيد عن جيشي وكانت مواقفهُ احصن من مواقفي واستحكاماتهُ اكثر ومع ذلك بات مكسوراً . فانتم يا ايها الابطال الشجعان مورات وناي وبونيا توفسكي انتم اصحاب المجد فما اعظم الاعمال التي تتقرر في التاريخ لتظهر ان جنودنا المدرعة التي لا تبالي بالموت حملت على الاستحكامات واستولت عليها بعد ان قتلت جنود المدافع بالسيوف عند مدافعهم وتبين بسالة مفر نبرون وكولنكور وحميتهما فانهما ماتا في ساحة القتال . وتظهر اعمال جنود مدافعنا الذين كانوا معرضين في السهل لمدافع تزيد عن مدافعهم مستترة بحواجز منيعة وتمدح اولئك المشاة اصحاب الشجاعة الذين عوضاً عن ان ينتظروا تحريضات قائدهم وتشجيعاتهِ عند ما باتوا في ضيق وخطر مبين قالوا لهُ لا تخف قد حلف جنودك جميعاً بانهم ينتصرون اليوم ولا بد من ان ينتصروا . فهل نقدر القرون الاتية ان تاتي بما يحاكي هذه الافعال او يكون الفوز للكذب والطعن

ولم يكن مساء يوم النصر زمان فرح لان نابوليون كان ساكتاً غائصاً في بحر من الافكار المكدرة وكان جميع الذين حواليهِ في حزن لفقد شقيق او قريب او صديق . وقتل وجرح ٤٣ جنرالاً من قوادهِ وتجدل ٣٠ الفاً من جنودهِ بكلل العدو او سيوفهِ فهذه اخبار مخيفة تقشعر الابدان عند تصور تاثيرها عند وصولها الى فرنسا فان نصرة بورودينو البست فرنسا اثواب الحداد . اما خسائر الروسيين فكانت اعظم فان خمسين الفاً منهم باتوا غائصين بدمائهم في ميدان الحرب . وكانت الشمس لا تزال تنير وضوضاء القتال تسمع عن بعد عندما ركب نابوليون فرسهُ ليجول في ساحة القتال المملوءة بالجرحى والقتلى الا ينصر القلم عن القيام بوصف ذلك المنظر المخيف . وكان وقت الخريف قد ابتدأ والغيوم الكثيفة المظلمة قريبة من الارض والمطر البارد يغسل الارض المحمرة بالدم حال كون الجرحى يتمرغون بالم عظيم على فراش من وحل ودم والرياح العاصفة تهب باردة في غابات الشمال . والقرى التي امست رماداً كانت ترى في السهل فلم يكن في تلك الجهات غير آثار الخراب والويل والبلايا والموت وكان جنود قد سودهم البارود ولطخهم الدم يجولون في ميدان القتال والظلام اخذ يخيم ليقتلوا الجرحى المنكودي الحظ حال كونهم كانوا يفتشون على طعام في اكياس القتلى ولم تسمع اغاني النصر ولا ضجيج الفوز . ووجد كثيرون من المجروحين في المغائر والشقوق فانهم دخلوها بعناء ليحتموا من الرصاص الذي كان كالبرد الكثير ومن دوس حوافر الخيل ودواليب المدافع . وكانت الخيل المجروحة تبيت في جنون من الالم وتقف وتسقط متوجعة فكان الويل في كل الجهات يملأ الاذان ويفتت القلوب . وكان ميدان تلك المعركة متسعاً ممتداً اميالاً فوق تلال واجام واودية . وكان كثيرون من الجرحى الذين بلوا بالويل يصرفون اياماً غائصين في الماء البارد تحت الامطار متوجعين قبل ان صار نقلهم فلا بد ان يكون قد هلك كثيرون منهم باطالة زمان الالم وبالجوع . ونظر بعض الجرحى يجرون عظماً مكسوراً من

عظامهم بربط غصن شجرة اليهِ ثم يقفون و يسيرون وصوت حفيف بعض العظام على البعض الاخر يبلغ اذانهم طالبين الاسعاف عرجًا يمشون قليلاً ثم يسقطون ووجد جندي منكود الحظ بدون رجلين وذراع وهو غير غائب عن الصواب وعاش جريح روسي اياماً كثيرة في جثة فرس جوّفت بكرة مدفع وكان طعامهُ الوحيد ما كان ياكلهُ من داخل الجثة . ونذكر هذه الاخبار التي تقشعر الابدان منها وتحزن القلوب ليرى الناس الحرب مع كل تاثيراتها . وقال الكونت سيجور التزمنا بان نسير فوق قتلى كثيرين تابعين نابوليون فداس فرس من خيلنا جريحًا فتحرك حركة دلت على نهاية توجعاتهِ بنهاية حياتهِ . وكان الامبراطور صامتًا وقلبهُ يكاد ينفطر من كثرة الجرحى فصاح عند ما راى ذلك والظاهر انهُ انفرج باللوم واظهار الغيظ واخذ يفحص عن احوال ذلك الجريح . فاراد احد الموجودين ان يعزيهُ فقال لهُ انهُ روسي فاجاب بغيظ بعد الحرب لا عداوة في ميدانها فيتساوى الجميع . وارسل اعوانهُ ليعتنوا بالجرحى الذين كان يسمع انينهم من كل الجوانب وكان يعتني بالروسيين كاعتنائهِ بجنودهِ وقيل لهُ وهو في وسط هذه الويلات ان موخرة كوتوسف مزمعة ان تحمل على مدينة موجايسك الخطيرة . فقال نابوليون هذا حسن و يمكننا من صرف ساعة مع جرحانا المنكودي الحظ

واخذ الروسيون يتقهقرون ببطء الى جهة موسكو و يقيمون صفوف مدافعهم في كل مكان يقدرون ان يقيموها فيهِ وان رأوا انهُ لا سبيل الى الدفاع غير ساعات قليلة وكانوا يسوقون امامهم الفلاحين المستعبدين الاذلاء المساكين و يهدمون الجسور و يحرقون المدن و ينقلون كل الزاد والعليق او يحرقونهما . واستمر الفرنسويون سبعة ايام يتاثرون اعداءهم بانتصار في تلك الفيافي بدون ان يجنوا نفعًا من فوزهم وكان روستوبشين يستعد لان يحرق موسكو التي كانت قاعدة روسيا وافرغ جهدهُ في حمل الاهالي على الخروج منها

وفي ١٤ ايلول ( سبتمبر ) عند الظهر كان نابوليون يتقدم بتانٍ في بلاد ثقيلة الهواء ضعيفة النور فراى من قمة تل قباب موسكو فاوقف فرسهُ وقال هوذا موسكو قاعدة امبراطورية روسيا المشهورة . فنظر اليها بضع دقائق بنظارتهِ صامتًا ثم قال قد دنا الوقت . اما الجنود فترآى لهم ان الدنو من موسكو ينهي آلامهم واتعابهم واوجاعهم فسروا جدًا وضجوا قائلين موسكو موسكو واخذت هذه الكلمات تنتشر من صف الى صف حتى بلغت الجيش جميعهُ فاسرع ليراها . فدنوا من المدينة ودهشوا جدًا اذ لم يلاقوا غير السكون فبلغ نابوليون اذ ذاك ان الروسيين اخلوا مدينتهم ولم يبقَ فيها غير بعض الاشرار الذين كانوا في السجون واطلق سبيلهم ليحرقوا المدينة عند دخول الفرنسويين اليها وكان اكثرهم سكارى مناظرهم قبيحة . فتعجب نابوليون من اخلاء القاعدة وتركها وسمع ان اولئك الاشرار كانوا مصممين على احراقها . ولم يخطر بباله ان امة ترضى بتكبد خسارة



عظيمة كهذه ولا يقام بعمل مثل ذلك العمل الا بامر حكومة مستبدة . وفضلاً عن ذلك هلك من اهلها كبارًا وصغارًا اكثر من مائة الف نفس من الذين ساقهم الجنود بالبنادق ليخرجوا منها ويموتوا جوعًا وبردًا في الآجام . وهلكت الوف بالتعب والتعرض للبرد والهواء بمرافقة جيش كوتوسوف . ولم يدخل نابوليون المدينة فانهُ اراد ان يتخلص من نظر شوارعها الفارغة . فنزل في بيت في ضواحيها وجعل مورتيه حاكم القاعدة . وقال لهُ لا تسمح بالنهب فصن المدينة من الاعداء والاصدقاء . فانتشر الجنود فيها طالبين زادًا ومحلات للنزول . وكان كثيرون من الاهالي قد فروا بسرعة حتى ان حلي بعض النساء الثمينة كانت لا تزال على موائد اللبس ومكاتيب اصحاب الاشغال وذهبهم على موائد الشغل واصبح نابوليون في مكان يبعد ٢٥٠ ميل عن باريس ويخاف وقوع داهية دهماء على جيشهِ فالقى بنفسهِ على سرير لينام ولم يقدر ان يرقد . ودعا اعوانهُ تكرارًا في الليل ليسالهم هل حدث شيء وفي الصباح نقل اركان حربهِ الى قصر الكرملين العظيم وهو قصر امبراطوري روسيا القدماء وانتقل اليهِ هو ايضًا . فكتب بحسب عادتهِ الى الامبراطور اسكندر طالبًا عقد الصلح واعطى رسالة الى ضابط روسي وجد في المستشفى وكتب اليهِ مهما كانت نقلات الحرب فما من شيء يقلل احترامي لمن صافيتهُ في تلسيت وارفورت . والذي حمل نابوليون على ذكر هذه الصداقة ما كان يخطر بباله من ان الامبراطور اسكندر التزم ان يحارب ارضاء لاهلهِ وللامراء . وصرف ذلك النهار في انزال الجيش في منازلهِ الجديدة واخذ الجنود يجولون في الازقة و ينزلون في اعظم القصور وافخرها . واخذ عشرون الفًا من الرجال والنساء من ادنيا القوم يخرجون من الاماكن التي كانوا قد اختبأوا فيها و يختلطون بالفرنسويين . وكان روستوبشين قد اطلق سبيل عشرة الاف مسجون فاخذوا يهيئون اسباب احراق تلك المدينة العظيمة لتكون واسطة لاهلاك الجيش الفرنسوي كلهِ فوضعت مقادير وافرة جدًا من البارود تحت قصر الكرملين الذي نزل فيهِ نابوليون واركان حربهِ وتحت محلات اخرى كان قد صار التصميم على ان تحل الجنود فيها . ووضعت كتل محشوة قطعًا حديدية وغيرها من المواد التي تخرب الديار في خنادق وسراديب لئلا يتمكن القوم من اطفاء النار بعد اضرامها . وتعطلت العيون وقطعت قنوات المياه والات اطفا النار عطلت او نقلت . وبينت روسيا انها لا تهتم برعاياها . وجرت الاستعدادات سرًا ولم يرها الفرنسويون . ومع ذلك شاع بين الذين كانوا في المدينة انهُ سيصير احراقها وكان ذلك سببًا لاقلاق المنتصرين لانهم راوا ان اخلاءها يدل على التصميم على ذلك ولكنهُ صرف النهار براحة وفي الليل اجتمعت غيوم كثيفة فوق المدينة وهبت عواصف شديدة وكانت البيوت من خشب وكان الصحو الطويل قد هياها للاحتراق بسرعة وتقرر في العقول ان العناصر تسعف الروسيين وكان نابوليون المنتصر قد سار ظافرًا اكثر من الفي ميل وفتح اعظم مملكة في اوربا مع ان انكلترا واسبانيا والبرتوغال

واسوج كانت تسعنها فدهشت اوربا اذ رات هذه الاعمال العظيمة والانتصارات غير العادية فان نابوليون لم يتم بمثلها في الماضي ومع ذلك كان المنتصر حزينًا مكدرًا لانهُ كان يخشى الوقوع في مهلكة عظيمة

وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨١٢ عند نصف الليل دخل نابوليون فراشهُ بعد ان انهكهُ التعب وكانت عواصف الخريف تهب بعنف حول ابراج قصر الكرمين فسمع بغتة صراخًا في الشوارع فهم منهُ النار النار . وفي مكان يبعد عنهُ الى الشرق ارتفع عمود كثيف مظلم عظيم من الدخان واخذت الكتل المتفجرة والبارود المدفون تهدم الابنية وتضرم النيران وتهلك كل الذين امسوا حول ذلك المكان . ودفعت عشرات من الابنية الى الهواء واخذت المدفوعات المحترقة تقع في كل الجهات وارتفع عمود عظيم اخر من الدخان . فكان تزلزل يتبع تزلزلاً وانفجار المواد المحترقة يجر انفجارًا . وكانت العواصف تزيد الويل والهلاك . وكان اللهيب يندفع الى كل الجهات والسماء تمطر نارًا على كل الشوارع والمساكن . ففي ساعات قليلة امست المدينة كلها في لهيب وكانت الجنود الفرنسوية تطلق البنادق على الذين كانوا يضرمون النار ويطعنونهم ويطرحونهم في اللهيب ومع ذلك كانوا ثابتين في عملهم كانهم شياطين جهنم . واستيقظ نابوليون باكرًا ونظر الى اللهيب الذي كانت المدينة قد امست مغطاة بهِ وهذه هي المرة الاولى التي ظهر منهُ فيها اضطراب وقلق . فانهُ راى تاثيرات ذلك الاستقبالية بحذقهِ فاخذ يتمشى في القاعة بسرعة ويكتب اوامر مستعجلة واخذ ينظر الى امتداد النار بقلق من النافذة . اما القصر الذي كان فيهِ فكان محاطًا بالبساتين حتى تراءى لهُ انهُ ما من خطر من بلوغ النار اليهِ على ان بارودًا كثيرًا كان في سراديبهِ وكان الروسيون قد وضعوا مواد محترقة لتبليغ النار اليها واخذ نابوليون ينظر الى النار ويقول ما هذا المنظر المخيف كيف احرقوا هذه القصور الكثيرة ان الاهالي كالسكيثيين فعلاً . ثم قال ان المبالغات في اخبار احراق تروادة لاتقوم بحق وصف احتراق موسكو وان عظمتها اوصاف الشعراء وحدة تصوراتهم . واشتدت النيران في السابع عشر من الشهر المذكور والليل التابع لهُ وكانت تمتد بسرعة وقوة عجيبة حتى امست المدينة كانها اتون ليس فيهِ غير امواج اللهيب المزبدة . وكان لهيب كثير ملون يرتفع الى اعالي الجو ثم ينخفض واصوات احتراق البارود وملح البارود والمسكر المسمى برندي توقر الاذان صمًا . وكانت مدفوعات محترقة من الحديد والحجارة وغير مواد ملتهبة تدفع بعنف الى السهول المجاورة واهلكت كثيرين . واحاطت النيران في شوارع المدينة باقوام كثيرين فمنعتهم عن الفرار وامانتهم شر ميتة . ولم يرَ الناس من الاضطراب والوبال ما راى الذين كانوا في موسكو في ذلك اليوم وكان الجنود الفرنسويون يعلون بالدخان واللهيب وهم يجهرون في الشوارع هاربين من امام عدو لايقدرون ان يحملوا عليهِ . وكثيرًا ما كانوا يعاون المشفات



بحمل كنوز جمعوها على انهم كثيرًا ما التزموا ان يتركوها فريسة للنار ليتمكنوا من ان ينجوا بانفسهم . وكانت نساء تعيسات ترى حاملات اولادًا على اكتافهن ومسكات اياهم بايديهن محاولات التخلص من النار على ان عددًا وافرًا منهن هلكن معهم فيها . وكان الشيوخ العاجزون بلحى بيض قد مسها النار يسيرون بضعف وتجانف امام اللهيب الذي اهلك كثيرين منهم لعدم اقتدارهم على الفرار وافرغ نابوليون كل جهدهِ في سبيل تخليص جنودهِ والاهالي . وبعد برهة ليست بطويلة وصلت النار الى قصر الكرمين الذي كان فيهِ واحاطت بهِ بسرعة حتى بات لايرى سبيلاً للنجاة فان ابوابهُ امست ملتهبة . ولم يتمكن من وجود سبيل صغير ليمر بهِ هو واعوانهُ الا بعد عناء عظيم . وكانت المواد المحترقة تسقط حواليهم والدخان يعمي ابصارهم وحرارة النار تلسع اجسادهم وتجعل تنفسهم ضيقًا . وساروا على هذه الحال الى ان وصلوا الى بحر من اللهيب راوا انهُ لاسبيل الى قطعهِ . وبعد التفتيش وجدوا طريقًا ضيقًا معوجًا قد انتشبت النار في محلات كثيرة منهُ بل كانت قد احرقت محلات كثيرة من سقفهِ وكان سبيلاً لايمر بهِ الا من وقع في الياس ومع ذلك التزموا ان يسيروا فيهِ . فساروا والمواد المحترقة تتساقط حواليهم والدخان والحرارة يعميان ابصارهم . وبعد ان قطعوا بعضها اضاع الديديان الطريق ووقف محتارًا جدًا فقالوا جميعًا لقد هلكنا . وقال الذين كانوا مع نابوليون انهُ راى الهلاك بعينيهِ حينئذٍ بدون ان يبدو منهُ شيء يدل على خوف او اضطراب . وبينما هم على تلك الحال واذا بالمارشال دافوست قد ظهر لهم عن بعد فانهُ اخذ فرقة صغيرة من الجنود وخرج ينتش على الامبراطور وقال انهُ يخلص امل فرنسا او يهلك فقابلهُ نابوليون بشكر وساروا واذا بكمية وافرة من البارود المجموع امامهم في الطريق والمواد المحترقة تتساقط حولها فالتزموا ان يمروا عليها . ولم يظهر من نابوليون شيء يدل على الخوف وفي برهة قصيرة خرجوا من اسوار المدينة وسار نابوليون الى قلعة بنر وفسكوي الواقعة في مكان يبعد ١٣ ميال عن موسكو فنظر اليها وقال هذه مصيبة عظيمة ووصف ما راهُ فيها بعد ذلك بسنين قال رايت بحرًا من النار ذا امواج نارية مزبدة وجوًا من دخان كثيف وجبالاً من اللهيب الاحمر كانها امواج هائلة ترتفع الى السماء ثم تنحط الى البحر فكان منظرًا ليس اعظم منهُ ولم يرَ انسانٌ شيئًا مخيفًا يحاكيهِ

وفي ١٩ من الشهر المذكور اخذت النار تخمد بعد ان احرقت كل شيء . وقال كرامزن انهُ احترق في موسكو احسن المصنوعات وعجائب التنميات وآثار الدهور القديمة وانشاءات الامن ومدافن اقدم الاهالي واسرة الجيل الجديد فلم يبقَ من موسكو غير ذكر عظمتها الزائلة . وبعد احتراقها امسى الجيش الفرنسوي نازلاً في الحقل حول المدينة المحترقة وكانت النيران التي يضرمونها من اغرب نيران الدنيا فان حطبها كان بقايا الخير الاثاث واثمن الاخشاب . واستظل

الجنود تحت خيم انشأوها من منسوجات اعظم القصور . وكانت الكراسي الثمينة اللطيفة المريحة كافية للجنود حال كونها كانت مغطاة بالفخر منسوج ومصنوعة احسن صناعة وكانت المنسوجات الكشميرية والافرية السيبيرية ولولوه ايران والهند منثورة على الارض بدون انتظام . ومع ان هذه الاشياء الثمينة كانت محيطة بالجنود كانوا يكادون يهلكون جوعًا . وكانوا ياكلون في صحون فضية لحوم الخيل والخبز المطحون نصف طحن المخبوز بالرماد . وامسى الجيش الفرنسوي في خطر شديد لانهُ بات في مكان يبعد كثيرًا عن فرنسا في قلب بلاد عدو الدقاس محاط بجيوش باسلة منظمة حق التنظيم قادرة ان تحتمل اعظم المشقات وكان الشتاء قريبًا وهم في تلك البلاد الباردة المخيفة . وما تاملوا بوجوده من اسباب المعيشة والراحة بات رمادًا في موسكو وكان بينهم وبين ضفة نيامن اكثر من الف ميل من القفار ذات الهوا البارد والقوزاق فيها يتعدون على اطراف الجيش . ولم يحترق قصر الكرمين كلهُ ولذلك رجع نابوليون في ١٩ من الشهر المذكور اليهِ وعند دخولهِ المدينة مر بالقرب من مستشفى الاطفال الذين يوجدون بدون والدين فقال لكاتبهِ اذهب واسال عما اصاب اهل ذلك البيت الصغار المنكودي الحظ . وكان رئيسهُ موسيو نوتلمت وكان رجلاً روسيًا مسنًا فقال للكاتب ان البناية والذين فيها قد نجوا من الاحتراق باعتناء الحراس الفرنسويين الذين عينهم الامبراطور لصيانتهم وقد كان مولاكم علة حفظنا ولولا عنايتهُ لامسى بيتنا محترقًا . فعرّف الكاتب بالاولاد الموجودين في المستشفى المذكور فاجتمعوا حولهُ شاكرين فسر نابوليون جدًا عند ما سمع بما جرى ودعا الرئيس اليهِ . ففرح بمجابرة نابوليون واستاذنهُ بان يكتب عما جرى الى والدة امبراطور روسيا فانها سند المستشفى

وقبل انتهاء الحديث شبَّ بغتة لهيب من بعض البيوت الواقعة في الضفة المقابلة من النهر وكان هذا المنظر من اسباب تشديد غيظ الامبراطور من روستوبشين . فقال ان هذا الوبش الشقي قد اضاف الى بلايا الحرب وبلات نيران اضرمها تعمدًا بيديهِ فما هذا البربري لقد ترك الاطفال المنكودي الحظ والجرحى والذين هم في حالة النزع الذين سلمهم اليهِ الجيش الروسي مع انهُ كان من الواجب ان يصونهم فاهلك بدون شفقة النساء والاولاد والايتام والشيوخ والمرضى والعاجزين انهُ متوحش خالٍ من الشفقة . فانتظر نابوليون برهة مؤملاً بورود خطاب من الامبراطور اسكندر . واثناء ذلك شغل نفسهُ بهمتهِ العادية باصلاح حالة الجيش وتدبير اسباب جلب الزاد وانشا ضابطة في المدينة التي كان دخانها لايزال يرتفع واصدار اوامر متعلقة بحكومة فرنسا . وكان يروم ان يبين للروسيين انهُ مصمم على ان يصرف فصل الشتاء في موسكو لاستئناف الحرب في الربيع

ولما لم يرد جواب من الامبراطور اسكندر في اليوم الرابع من شهر تشرين الاول (اكتوبر) ارسل



الكونت لورستون الى كوتوسوف رئيس اركان حرب الروسيين حاملاً شروط صلح بعد ان قال لارباب مشورتهِ ان الامبراطور اسكندر صديقي فاذا ارتضى بان يجاري ميلهُ ويطلب الصلح يغتاظ الذين يحيطون بهِ وربما كانوا يحاولون خلعهُ . فلتخليصهِ من ثقل قمع المخابرة اباشر طلب الصلح

وقال نابوليون عن الاعمال التي قام بها في تلك المحاربة ان بين سمولنسك وموسكو نحو خمسمائة ميل من البلاد المضادة لنا وهي بلاد موسكو ففتحنا سمولنسك وجعلناها المدافعة وصارت المركز المتوسط للحملة . وانشانا مستشفيات ثمانية الاف رجل ونقلنا ذخائر وزادًا و٢٥ الف كلة لحشو المدافع مع بارودها وتوابعها واثوابًا كثيرة وتركنا ٢٤٠ الف رجل بين فستولا وبورشنس . ولم يجتز النهر بقصد الحمل على موسكو غير ١٦٠ الف رجل وابقينا منهم ٤٠ الفًا لصيانة المستشفيات والذخائر في دوروغوبوج وميازما وعجمات وموجايسك ودخلنا موسكو في مائة الف رجل وقتل وجرح عشرون الفًا في الحمل وفي الطريق وفي المعركة العظيمة في موسكو التي هلك فيها ٥٠ الفًا من الروسيين . ولم يتمكن الروسيون من الثاء القبض على جريح ولا على رسول ولا على عجلة زاد في الطريق ما بين مابنس وموسكو . ولم يمض يوم بدون ان ترد الينا اخبار من فرنسا ولا مضى يوم بدون ان نسمع باريس عن الجيش . وفي معركة سمولنسك اطلقنا ٦٠ الف طلق من المدافع و١٨٠ الف طلق في معركة موسكو وانفقنا ذخائر كثيرة ايضًا في المعارك غير الخطيرة ومع ذلك خرجنا من موسكو ولكل مدفع ٣٥٠ كلة مع بارودها وتوابعها وزاد الزاد والذخائر عن احتياجنا فاحرقنا في الكرملين خمسمائة عجلة زاد وستين الف بندقية وبارودًا كثيرًا . ولم تفرغ الذخائر مطلقًا فعلينا ان نثني على الجنرال لاريبو اسيار وابلا قائدي الطوبجية . ولم يظهر قبلاً من ضباطها من الحذق ما ظهر في تلك المعارك . اما المستعبدون في روسيا فكانوا يحبون الفرنسويين مؤملين نوال الحرية بواسطتهم . والعامة او الذين كانوا قد تحرروا وسكنوا المدن كانوا يميلون الى اثارة الفتن على الامراء والمشايخ وهذا هو الذي حمل الروسيين على ان يحرقوا كل المدن الواقعة في طريق الجيش الفرنسوي وتكبدت روسيا خسائر عظيمة باحراقها فضلاً عن خسائر احراق موسكو واحرقوا القرى ايضًا بايدي القوزاق غير مبالين بمضادة الاهالي لان القوزاق كانوا يرغبون في الحاق الضرر بهم

ووصل الكونت لورستون الى المعسكر الروسي ولم تعط لهُ تذكرة مرور وادعى القائد كوتوسوف انهُ ليس مفوض باعطائهِ التذكرة فطلب اليهِ ان يسمح لهُ بانفاذ رسالة الى بطرسبرج ولم يرسل جواب على رسالتي نابوليون . وكان اكثر الروسيين مستعبدين لاعيانهم والحكومة كانت تمنع امتداد كل اسباب المعارف والحرية . وافرغت الحكومة الروسية كل جهدها في منع اختلاط الروسيين المستعبدين بالفرنسويين الذين فتحوا بلادهم بطرد الاهالي المنكودي الحظ من قراهم المجاورة الطرق

واخبارهم بان نابوليون وجنوده ابالسة مفسدون شرهون ظالمون ومع ذلك اخذ اولئك الاهالي في الاختلاط بالمنتصرين وراوا شيئاً من اطراف الحرية . ففي بادىء الامر تحول خوفهم من الفرنسويين الى تعجب من اعمالهم . فانهم راوا النصر لهم في كل مكان وان جنود روسيا امست كالهباء المنثور امامهم وان هذا هو الوقت الموافق لطلب الحرية وكان بينهم قليلون من الذين كانوا عارفين بحقوقهم معرفة ناقصة فحركوا المطامع فيهم . واراد كثيرون منهم ان ياتوا نابوليون لينضموا اليه ويساعدوه بشرط ان يضمن تخليصهم ومنحهم حقوقهم . فلم يجبهم الى طلبهم وقال ان ذلك يفتح باباً لحرب اهلية تبعد عقد الصلح مع روسيا وتجري الدم انهاراً في البلاد وان اولئك الاهالي المستعبدين ليسوا باهل للتمتع بحريتهم فاذا اسعفت رعايا امبراطور روسيا على العصيان عليه ينقطع الامل من جهة الرجوع الى الصداقة . وبات نابوليون في ارتباك لا سبيل الى الخلاص منه فامتناعه عن اسعاف البولونيين حملهم على ان ينقطعوا عن مساعدته ولو حاول ارجاع المملكة البولونية لجعل حلفاءه البروسيين والنمسويين اعداء له . ولو اسعف رعايا روسيا باثارة العصيان لاوقع تلك الامبراطورية المتسعة في بلاء الحرب الاهلية واجرى فيها انهاراً من الدماء وشدد غيظ كل حكومات اوربا الملكية . وبالامتناع عن مساعدتهم للحصول على الحرية خسر مساعدات خطيرة جداً وجعل سيوف الوف من الرجال غير المتمدنين عاملة في جنوده الملسوعة بصبارة البرد وكان ذلك اجمع يدل على ان الله كان قد قدر سقوطه وجعل خلاصه فوق اقتدار البشر . وقال السار روبرت ولسون الذي حضر اكثر الحرب الروسية ان امتناع نابوليون عن اثارة الفتن الاهلية في روسيا نشا عن خوفه الشديد من حرب اهلية وشفقته التي منعته عن ان يرمي الناس ببلايا ناشئة عن جري انهر من الدم وتدمير البلاد

وبعد هذه الحوادث قال نابوليون لمجلس الاعيان الفرنسوي لو اعلنت عتق العبيد لتمكنت من استمالة اكثر الروسيين وحملتهم على محاربة دولتهم وطلب اليّ اهالي قرى كثيرة ان اقوم بذلك على انني فتحت حرباً سياسية على روسيا . وفضلاً عن ذلك ان اولئك العبيد الروسيين قساة جداً فلو سمحت لهم بالعصيان لالقيت عيالاً كثيرة في ويل وهوان . فهذا وحده كان كافياً لان يحملني على الامتناع عن استعمال الوسائل اللازمة التي طلب اليّ ان استعملها لتنكيل اعدائي . انتهى .

وقال روبرت ولسون انه كان من الممكن اثارة حرب اهلية في روسيا ونابوليون هو الذي امتنع عن ان يسمح بها وهو في موسكو . انتهى . فمن الواجب ان نقابل ما فعله نابوليون بما فعلته انكلترا عندما كانت تحارب الولايات المتحدة الامركية ابناء جنسها فانها دعت الهنود البرابرة القساة الذين لم يكونوا يراعون حقوق الانسانية ولا اصول الحرب ليسعفوها في تدمير البلاد وذبح طالبي الحرية . فنابوليون لم يرتض بان يسلح رجلاً غير متمدن لينتقم له من سيده مفضلاً ذل



الرجوع عن موسكو مع ما يترتب عليه من الخسائر والهلاك

وكان الشتاء قد اقترب بما يدل على انه يكون شديد البرد غزير المطر . وكان الجيش الفرنسوي العظيم ينقص على الدوام حال كون جيش العدو كان على ازدياد . وكانت مخاطر كثيرة نظراً على اسباب مواصلات نابوليون فان جيوشاً جرارة من فرسان القوزاق الاشداء كانت تجول في البلاد وتمنع وصول الزاد الى الفرنسويين . وكانت تحمل على الذين كانوا يجمعون العلف والزاد وتتعدى على الحراس والطلائع . فلما راى نابوليون هذه المخاطر عقد مجلساً حربياً . وبعد ان تفاوض طويلاً بكدر صار التصميم على الخروج من موسكو والرجوع الى بولونيا لصرف فصل الشتاء فيها . وكانت هذه الحرب من اعظم حروب الدنيا واشدها استهلاكاً للابدان والمال ومع ذلك كان نابوليون قادراً ان يدبر ماليتها ادارة تخلص الاهالي من اثقال زيادة الاخرجة . اما الكولونل نابيه فمع انه انكليزي وقد سل سيفه وقاتل نابوليون نهج منهج الكرام وشهد بعظمة ذلك الرجل الذي تمكن من ان يضع بقوته حداً لجميع المستبدين في اوربا المتحالفين فقال ان نفقات فرنسا السنوية كانت اقل من نصف نفقات انكلترا

وكان نابوليون يرتض الاستقراض وهو دم الفساد في الدول . فلم يخلف لفرنسا ديناً . وفي ايامه لم يتمكن احد من ان يسلب قسماً من الثروة العمومية لمجرد كونه من اصحاب الامتياز . وكان يدفع رواتب وافرة للمامورين ويلزمهم بخدمة الدولة خدمة نافعة . فلم يكونوا ياكلون خبزهم وينامون وكانت حساباته مضبوطة بسيطة واضحة وكان يقاوم التزوير والرشوة . والنظام الذي وضعه لضبط اخرجة الاملاك يدل على حكمته وعظمته وهو كاف لان يجعله محبوباً جداً عند امته وكان كل انسان يعرف ثمن املاكه وما هو مطلوب منها للدولة وكان شانه صيانة الاراضي والعقارات من الدعاوي الكاذبة ومنع التزوير وتقليل المخاصمات وتوزيع الخراج بالاسوة والعدل ومنع تعديات الجباة وارتكاباتهم بدون ان يلحق ضرراً بالدخل وتمكين الفقير من ان يكون حراً في بيته

وقال نابيه المار ذكره لم يكن اعظم من حملة فرنسا على روسيا ولا يحكم الناس عليها من الان فصاعداً بحسب فوز اعدائه ولا بتدبيرها العسكري بحسب الكلام الذي شاع عنها حال كونها عجيبة خالية من التوفيق فلا يركن الناس الى كتابات لابون ولاسيجور والذين اقتدوا بهما ولا كتابات الجنرال جوميني الجميلة حربياً وسياسياً المسماة بسيرة نابوليون فلا تكون هذه الكتابات كلها محتوية على التاريخ المتعلق باعمال قائد عبر نيامن باربعمائة الف رجل ووصل بمائة وستين الفاً الى موسكو بعناية وتيقظ غريبين فانه دبر جيشه الاحتياطي وحرس جناحه حتى ان طلائعه كانت منصورة دائماً بدون ان تخسر مركزاً واحداً في الموخرة ولا عجلة زاد ولا صد رسول ولا فقدت رسالة .

فكانت مخابراته مع قاعدة امبراطوريته مرتبة كانها جارية بينه وبين متنزهه الصيفي

وكان كثيرًا ما يكلم مجلس الشورى كلامًا يدهشه فقال يومًا بخصوص الاموال الاميرية ان الاتاوة التي توخذ عن اراضي فرنسا لا تجري على سبيل من الانصاف والانتظام بخلاف ما في سائر اوربا حتى لم يبقَ في البلاد ملك ولا حرية مدنية فلا معنى للحرية اذ لا تصان الاملاك. فالذي له ٣ الاف فرنك في السنة من ريع املاكه لا يتاكد انه يحصل في سنة تابعة على ما يكفيه. فيمكن المقدر ان يزيد خراج ارض الف فرنك فوق حد الاعتدال فالتقدير في لمبرديا وبيامونت معين مربوط وكل انسان يعلم الخراج الذي عليه ويدفعه ولا تجمع اخرجة غير عادية الا في اوقات غير عادية بحكم مجلس. واذا زيد خراج يعرف كل انسان قدر الزيادة. وفي فرنسا يلتزم كل انسان ان يراعي الجباة والمقدرين فاذا تكدروا منه يخربون بيته. ولم يجرَ شيء في فرنسا من شانه تامين الاملاك. فالرجل الذي يضع قانونًا لخراج الاراضي بحيث يصير مربوطًا متساويًا يستحق ان يقام له تمثال من ذهب. فهذا يدل على اهتمام نابوليون العظيم بصوالح الاهالي ومنافعهم

## الفصل الرابع والخمسون

### الحرب الروسية

واقام الجيش الفرنسوي بضعة اسابيع في موسكو وكان عدده مائة وعشرين الف رجل وصرف نابوليون شهرًا في الجد والكد لتنظيم جنوده المتعبة والحصول على الزاد وشفا المرضى. وكان محبوبًا عند كل رجل في الجيش لشدة اعتنائه بالجرحى. وفضل تعريض نفسه لمخاطر عظيمة على ترك المرضى والجرحى في المستشفيات يلاقون سوء معاملة من القوزاق وكان لا يزال معلقًا امله بمصالحة الامبراطور اسكندر وبعنايته لم يمض زمان طويل حتى اصبح منظر الجيش منظمًا مهيبًا وكان الجنود يركنون الى حكمة قائدهم واصابة تدبيراته فلم يكونوا يهتمون بشيء. على ان نابوليون كان يرى المخاطر المحدقة به فاشتد قلقه وهمه فضعف جسمه واصفر لونه وظهر الاضطراب فيه. وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) اخذت الاوراق تنتثر والرياح الباردة تهب من الشمال على خربات موسكو التي كان دخانها لا يزال يرتفع. وكان نابوليون عالمًا باحوال الهوا لاهتمامه به وفحص القيود المتعلقة به في السنين الاربعين المتاخرة فعرف زمان ابتدا الشتاء. وفي ١٢ من ذلك الشهر سقطت ثلوج كثيرة وبيضت الارض وكان ذلك قبل اول الشتاء بثلثة اسابيع. فشاهد ذلك بكدر وخوف فصمم على الرجوع حالاً ليصرف الشتاء في مدن بولونيا التي كانت صديقة له. وكان بينه وبينها الف ميل من الاراضي الكثيرة الثلج والرياح الشمالية والقوزاق الذين يتعدون على الجيش واسباب مواصلاته حال كونهم اقل شفقة من العناصر الطبيعية وراى انه لا بد من الرجوع بالتاني



لئلا يرى العدو فيه قلقًا فيستغنم سنوح الفرصة او يرى الجيش ما يلقي الخوف في قلبه وصمم على العود الى سمولنسك بقطع طريق جديدة فان السبيل الذي جاء به بات ما يجاوره خربًا بالحرب وانقطع امل الحصول على زاد منه. ووضع المرضى والجرحى في احسن العجلات التي تيسر له الحصول عليها وارسلوا الى جهة سمولنك مع حرس قوي. وكان الجنود يطيعون اوامر نابوليون بسرعة غريبة. وفي مساء اليوم ١٨ من الشهر المذكور اخذ الجيش في المسير. وقبل الفجر خرج من موسكو وسار في مقدمة جيشه ليتقدم الى كالوغة التي تبعد نحو مائة ميل عن موسكو. وكان القائد كوتوسوف الروسي فيها يراقب حركات الفرنسويين وعند خروج نابوليون من موسكو قال لمورتيه الذي جعله حاكمًا عليها وكان ناظرًا على اخلائها ابذل كل العناية في سبيل اراحة المرضى وابذل مهماتك وكل شيء لنفعهم واجعل العجلات لهم ولا تتاخر عن تخصيص فرسك لركوبهم. فانني فعلت كذلك في عكا. فينبغي ان يسبق الضباط الاولون الجميع الى اعطائهم خيلهم ثم الضباط الثانويون ثم الجنود. فاجمع القواد والضباط الذين هم تحت قيادتك وبين لزوم مراعاة حقوق الانسانية. فالرومان وهبوا اكاليل الفخر الذين صانوا رعاياهم ولا اكون ابعد عن المكافاة منهم. انتهى

وفي الشهر الذي اقامه في موسكو جمع الجيش ضمن اسوارها في بيوت رسمها وفي المنازل التي لم تحترق. وشفي كثيرون من المرضى والجرحى فتمكن من ان يخرج منها اكثر من خمسين الف مقاتل وخمسين الف فرس من جميع الانواع و٥٥٠ مدفعًا والفي عجلة مدفع وعجلات كثيرة للذخائر والامتعة

اما في موخرة جيشه فكان نحو اربعين الف نفس من الفلاحين الروسيين الذين كانوا يرغبون في التخلص من العبودية وجنود غير منظمة وخدام وسائقي عجلات وعدد غفير من النساء زوجات الجنود او من العواهر. وورا كل شيء عجلات كثيرة متنوعة مشحونة بافخر المصنوعات والمنسوجات والاثاث والافرية والملابس وغير ذلك مما غنم في فتح موسكو. وكان نابوليون لا يزال المنتصر فانه قد تقدم بثبات وسرعة الى قلب بلاد العدو وعاد برايات خافقة ليحمل على جيش الاعداء في كالوغا ليرجع منها الى بولونيا مصممًا على ان يصرف فصل الشتاء فيها ليعود الى الاعمال الحربية في الربيع. وكانت المخاطر العظيمة تحدق به على انه كان قد شاهد اعظم منها. وفي ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨١٢ قبل الفجر خرج من قصر الكرملين في موسكو وكان الجو خاليًا من الغيم والنجوم تضيء فيه والهواء باردًا. وعند خروجه من ابواب موسكو في مقدمة حرسه الامين طلعت الشمس فوق الجبال المبيضة بالثلج فاشار اليها قائلاً هوذا الكوكب الذي يحرسني فستتقدم الى كالوغا فالويل للذين يحاولون ان يعارضونا. واستمر ذلك الجيش الجرار اياما يخرج من الابواب وكان ممتدًا فراسخ كثيرة ولم تكن طليعة الجيش قادرة ان تصون قلبه ولا موخرته. والروسيون

جمعوا جيوشاً كثيرة ليمنعوا الجيش عن الرجوع . وكثيرون من القوزاق كانوا يجولون راكبين خيلاً سريعة الجري فيسير جيش كهذا تعرض دونهُ موانع كثيرة . وصارت المقدمة يومين بدون معارضة ووراءها تلك الجنود الجرارة . وامر مورتيه القائد بان يبقى وراء الجميع ليناظر على اخلاء المدينة . وكان قد اجتمع جيش جرار من الروسيين حتى ظن الناس انهُ يهلك جيشهُ القليل . وكان في موسكو كمية وافرة من البارود والذخائر التي لم يتيسر نقلها ولم يكن من الموافق بان تترك للعدو . فقبّل نابوليون الجنرال مورتيه عندما ودعهُ وقال لهُ بحزن اني اتكل على معدك في الحرب لابد من ان تتكبد خسائر . فاخذ هذا الجنرال يقوم باعماله بلا تذمر فودعهُ رفاقهُ وهم في يأس من الاجتماع بهِ ثانية . فاجتمع جيش جرار من القوزاق واحاط بهِ وصرف اربعة ايام ضمن قصر الكرملين يدافع عن نفسهِ ببسالة ونجاح حال كون العجلات والرجال كانت تخرج من المدينة . ووضع في السراديب التي كان القصر مبنياً عليها مقادير وافرة من البارود وكذلك في القاعات والتزم بان يفعل ذلك ونيران الحرب تشب حواليهِ لانهُ انتظر في كل ساعة التقهقر لكثرة عدد المهاجمين وحرق المكان المذكور . وكانت شرارة واحدة من نيران العدو كافية لان تحرق القصر بهِ . وبعد ان تم خروج الجيش والذخائر من المدينة اشعل ما يحترق بالتتابع الى ان يصل الى البارود وخرج بجنودهِ من القصر بسرعة . اما القوزاق فكانوا يطلبون النهب والسلب فدخلوا القصر بسرعة وبعد ذلك ارتفع بهم في الهواء باحتراق البارود فتزلزلت الارض تحت اقدام الجنرال مورتيه . فصوت احتراق البارود وانهدام ذلك القصر اجفل جيش نابوليون نصف الليل فاظلمت السماء من الدخان وانتشرت رائحة البارود واخذت الحجارة والاجر والادوات والاسلحة المكسرة والمدافع الضخمة تتساقط على الارض كانها برَدٌ كثير . وكان نابوليون بعيداً عن موسكو ٣٠ ميلاً فايقظهُ ذلك الصوت المخيف وعرف بهِ ان القصر قد انهدم وان موخرتهُ قد شرعت في المسير . اما مورتيه ففر مسرعاً وتمكن من الانضمام الى الجيش

وفي ٢٣ من الشهر المذكور كان نابوليون نائماً في بوروفسك التي تبعد نحو ستين ميلاً عن موسكو . وكان اوجين ومعهُ ١٨ الفاً من الفرنسويين والايطاليان في مكان يبعد نحو ١٢ ميلاً عن اركان الحرب وبعد نصف الليل باربع ساعات كان الجنود مستغرقين في النوم لان المعبر كان قد اتعبهم فهجم عليهم ٥٠ الفاً من الروسيين صارخين باعلى اصواتهم قاتلين لجميع الذين كانوا يصادفونهم . فجمع البرنس اوجين جنودهُ وقاتلهم قتالاً شديداً ساعات كثيرة فانكسر الروسيون مع انهم كانوا اضعاف المهجوم عليهم وفروا الى الغابات بعد ان قتل كثيرون منهم . وفي الصباح تقدم نابوليون الى ميدان هذه المعركة وكان السهل لايزال مغطى بالقتلى والجرحى فانهُ قتل من الروسيين اكثر من ضعف الذين قتلوا من الفرنسويين فلما قابل نابوليون اوجين قبّلهُ بافتخار



ابوي وقال لهُ هذا من امجد اعمالك الحربية . واُخبر حينئذ ان جيشاً جراراً من الروسيين نازل في اماكن لايتدرنابوليون ان يمرّ بها فارسل بسيار ليتجسس فقرر ان مائة وثلثين الفاً من الروسيين او اكثر في مواقف لا يهجم عليها . فظهرت لوائح التعجب والكدر على وجه نابوليون لحظة وسالهُ هل تاكدت ذلك هل حققت النظر هل تثبت ما قلت . فكرر قولهُ . فاحنى نابوليون راسهُ واخذ يتمشى في القاعة ببطء وهو غائص في بحر من الافكار المكدرة المقلقة ولم ينم في ذلك الليل بل كان يطلب الخارطات ويسال عن امور كثيرة وكان قلقهُ يدل على اشتغال بالهِ ولم يفه بكلمة تدل على قلقهِ والساعة الرابعة من النهار اُخبر بان القوزاق دخلوا بين الطليعة والجيش ومع ذلك ركب فرسهُ وسار متكشفاً

ووصل الى محل متسع مر بهِ فرسان من القوزاق كانهم ذئاب خاطفة يصرخون صراخ بلادهم المخيف . فلم يرتض بان يترفع سيفهُ وارجع جوادهُ الى جانب الطريق ومرّ اولئك الفرسان بهِ وباعوانهِ وما بين الفئتين الا طول رمح . فجرح القائد راب وفرسهُ برماحهم . وبعد ذلك بدقيقة جاءهم بسيار وفرسان الحرس الامبراطوري مطاردين لاولئك القوزاق الذين كانوا كهباء منثورا امام رياح عاصفة . ثم عقد مجلس حربي في مكان مظلم وتقرر انهُ لاسبيل الى التقدم الى كالوغا لان الروسيين كانوا كثيرين في مراكز حصينة فراى القواد الفرنسويون ان الحمل عليهم وهم في تلك المواقف الحصينة وحولهم المدافع ياول الى هلاك الجيش . فصمم نابوليون على ان يرجع القهقرى بكدر لامزيد عليهِ ليعود الى الطريق التي خرب الروسيون ما يجاورها لما سار فيها حاملاً على موسكو . وكان نابوليون قبل هذه الساعة منتصراً في كل مكان . وقد خرج من موسكو فائزاً بدون ان يتقهقر امام العدو قاصداً ان يبدد شملهُ ليقيم جيشهُ في فصل الشتا في بولونيا . غير انهُ عند الاقتراب من كالوغا وجد ان الروسيين اقدر منهُ وهذه هي المرة الاولى التي عجز فيها عن تبديد شمل الاعداء فالتزم بان يرجع عنهم . وهذه بداية البلايا المتتابعة التي ليس في التواريخ ما يحاكيها . وكان ملزوماً بان يسير سبعمائة وخمسين ميلاً بدون ان يجد مكاناً يستريح فيهِ الا في موقعين وهما سمولنسك ومنسك وكان قد انشا فيها مخازن للمونة واقام فيهما حرساً قوياً . ومع ذلك كان اسمهُ لايزال يلقي الرعب في قلوب الاعداء . ومن غرائب الاتفاق انهُ لما حكم بعدم اقتدار الفرنسويين على مداومة المسير اجتمع القواد الروسيون بعد ان اُلقي الرعب في قلوبهم بنصرة اوجين غير العادية وبتقدم طليعة الفرنسويين بثبات وشجاعة وحكموا بان يتركوا مراكزهم ويتقهقروا فكل من الجيشين ترك حرساً في الموخرة لتستر حركاتهِ وقفل راجعاً . ولو عرف نابوليون بتقهقر الروسيين لتقدم بسرعة وفاز بالخلاص من بلايا التقهقر وخسائرهِ . فما اعجب احوال الناس فان نهوض الامم وسقوطها ربما توقف على اسباب خفيفة

وفي صباح ٢٦ تشرين الاول (اوكتوبر) شرع الفرنسويون في التقهقر واشترك كل جندي منهم باكدار قائده واداروا وجوههم عن ذلك العدو الذي لم يلاقوهُ الا ليفتكوا بهِ بكدر وصمت شاخصين في الارض . وعند ماسمع الروسيون بان اعداءهم شرعوا في الرجوع اخذوا في مطاردتهم بفرح عظيم وتبع ذلك اعمال بربرية واجهد نابوليون نفسهُ في حمل المتحاربين على مراعاة حقوق الانسانية فاصدر اعلانًا قال فيهِ انهُ امتنع عن ان يامر بتخريب البلاد التي كان خارجًا منها وقال فيهِ انني امتنع عن ان ازيد بلايا الاهالي فلا ارتضي بان اخرب بيوت تسعة الاف ملاك وان اترك مائتي الف من المساكين بدون ماوى ولا اسباب المعاش حال كونهم ابرياء لاطارد رئيس الجيش واقاصهُ حال كونهِ يخرب البيوت هو واعوانهُ الاشرار الاغبيا الذين يحاربون كالتتر . وكتب الى كوتوسوف القائد الروسي بتوقيع برتيه لينظم القتال ليخلص الامبراطورية الروسية من شرور لا تنفك عن حالة الحرب لان الخراب كان مضرًا جدًا بروسيا ومكدرًا لهُ . فاجاب بقحة لا اقدر ان امنع الروسيين عن اظهار حبهم لوطنهم . وما كان ذلك الا من علامات استمرار حرب كحرب الشياطين وكان القوزاق البرابرة يرتكبون كل التعديات الفظيعة والفرنسويون يقومون بالثار بما يلقي البلاد في خراب مخيف

وفي ٢٨ الشهر المذكور مر الجيش المتقهقر بسهل بورودينو . وراوا فيهِ الوفًا من الجثث الملقاة بلا دفن وقد اكل الذياب بعضها . فالابطال الفرنسويون المتعودو القتال اصحاب القلوب القاسية اقشعرت ابدانهم من هذا المنظر فساروا مسرعين . وفي ٢٩ منهُ وصل نابوليون الى دير عظيم قديم مظلم كان قد جعلهُ مستشفًى . فتعجب من ترك كثيرين من الذين جرحوا جراحًا بليغة بدعوى عدم وجود عجلات كافية لنقلهم فامر بان تستخدم كل العجلات لنقلهم مهما كانت وان لم تنفع غير جريح واحد . اما الذين كانت جراحهم تمنع نقلهم فتركوهم عند الروسيين الذين نالوا الشفا من واليهم بعناية الفرنسويين واحسانهم . ووقف يشاهد نفوذ امرهِ . وكان واقفًا يستدفئ بنار اضرمت بكسر عجلاتهِ فسمع اصوات احتراق بارود متتابعة . فاخبروهُ بان الضرورة دعت الى احراق عجلات بارود ومهمات كثيرة لان الخيول كانت قد قلت وضعفت بالجوع وباتت غير قادرة على جرها

ومنذ شرع يتقهقر عند كالوغا لم ينفك عن المسير مع حرس الموخرة . وفي ٣١ من الشهر المذكور وصل نيازما واقام فيها يومين ليريح جيشهُ من التعب ويجمع قواتهِ . وجعل قيادة الموخرة المخطرة في يد المارشال ناي . وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) استانف التقهقر فحمل ستون الفًا من الروسيين على جيش الموخرة الذي لم يكن غير ثلثين الفًا وكان مع الروسيين ذخائر ومدافع وافرة فظنوا انهم يفوزون بالنصر بسهولة وكان كثيرون من الفرنسويين الى ذلك الوقت لم تفك رباطات جراحهم اولا



تزال ايديهم معلقة باعناقهم من جرى جراح معركة بورودينو ومع ذلك قاتلوا مستميتين سبع ساعات ودفعوا اعداءهم وبعد ان تركوا اربعة الاف من رفاقهم قتلى وقتلوا قدرهم من الروسيين اخذوا في المسير بترتيب واستمروا يتقهقرن ثلثة ايام بدون ان يصادفوا معارضة تستحق الذكر . وكان قد سار عشرة ايام وقطع نحو ثلثمائة ميل ومع ذلك كانت المسافة الباقية طويلة . وكان عدوهُ المطارد يقوي نفسهُ ويزيد ركونًا الى اقتدارهِ على منازلتهِ وفضلاً عن ذلك كان البرد شديدًا . وفي مساء اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) اخذت غيوم كثيفة في الاجتماع في الجو واشتدت الرياح التي كانت تهب وتبلي الجيش بالبرد المضني وعند نصف الليل اخذ الثلج يسقط بكثرة ويطفئ نيران الجيش ويغطي الرجال الذين كانوا بدون منازل بثوبهِ الابيض . وكان صباح ذلك اليوم مخيفًا فان الفرنسويين باتوا لا يرون الشمس ولا يعرفون الجهات وكان الثلج يعمي الابصار فان الرياح كانت تدفعهُ على اوجه الجنود وتجعلهُ يخرق ثيابهم الرقيقة الممزقة . وكان النفس يجمد وهو خارج من افواههم وباتوا غير قادرين على تحريك اعضاء اجسادهم فعجزوا عن ان يسيروا بنظام في صفوفهم فاخذوا يسيرون بعناء بدون انتظام . وكان ذلك اليوم يومًا مهولاً . وكثيرون كانوا يعثرون بحجر او يسقطون بحفر مستترة بالثلج بدون ان يقدروا على النهوض فكان الثلج يدفنهم بسرعة فيموتون تحتهُ . ولم يرَ فوق رؤوسهم ولا حولهم غير الرياح العاصفة والانواء والخراب وبعض الصنوبر فهلك كثيرون من الرجال والخيل في ذلك اليوم . وكانت بنادقهم تسقط من ايديهم من شدة البرد حال كون ايدي كثيرين كانت تجمد على بنادقهم . اما الغربان فكانت تخرج من الغابات وتخلط اصواتها باصوات العناصر وكثيرًا ما كانت تمزق بمخالبها الدموية جثث المطروحين قبل ان يفارقوا هذه الحياة . ولازدياد الويل والهوان كان اقوام من القوزاق البرابرة يتعدون على هذا الجيش المتجلد بهجمات متتابعة . وكانوا يسلبون الجرحى والذين في حالة النزع ويقطعونهم بسيوفهم ويطعنونهم بحرابهم ويضحكون بشماتة وهم يختبطون بدمائهم ويموتون عراة في الثلج . ثم خيم ظلام الليل وكانت ليلة هائلة مخيفة فان العواصف كانت لا تزال تهب والثلج يسقط وكانت الاراضي كلها مغطاة بهِ . وكان اولئك الجنود المتعبون المنكودو الحظ قد بلغوا النهاية من التجلد والصبر على الضيقات فالقوا بانفسهم في الثلج ليناموا ولكن الوف منهم لم ينهضوا بل دفنوا في مراقدهم . وفي تلك الليلة الدهماء كانوا يئنون ويموتون وينتقلون الى عالم الارواح . وكانت الخيل تهلك بسرعة كالرجال . والجنود يسلخون جلودها ويلبسونها لتقيهم من البرد . وذبحت خيل كثيرة لتخليص بعض الجنود بشرب دمائها الحارة . وشكر الروسيون الله تعالى لانهُ انجدهم بالرياح والثلج وطلبوا اليهِ ان يطيل تلك الاحوال وفي النهاية مضى ذلك الليل المخيف الطويل وخلفهُ صباح بارد فكشف النور عن منظر لتفتت لهُ الاكباد وتقشعر منهُ الابدان .

وكانت محلات نزول الجنود تظهر بارتفاع الثلج في دوائر فوق جثث الذين دنقوا . وظهرت الوف من المحلات التي ارتفع فيها الثلج قليلاً لاجتماعه فوق جثة رجل او فرس في ذلك السهل . وكان قد حل فصل الشتاء البارد جدًّا في الشمال وكان المارشال ناي يفعل فعال الابطال ويحتمل اوجاعًا لا مثيل لها وضيقات يقصر القلم عن وصفها ليصون هذا الجيش المتقهقر . وكان يرجع ببطء امام عدو كثيرًا ما كان يحيط به بجيش يزيد كثيرًا عن جيشه . وكان يدفعهم في كل ميل ويصدمهم . ويستغنم بحذقه سنوح كل فرصة ليحمل عليهم بهمم تكاد تفوق همم البشر حتى انه كان احيانًا يرتد اليهم . وتعجب الناس من افعال المارشال ناي في هذه المعارك . ورجع ذلك الجيش الى المسير وهو في ويل يعجز القلم عن وصفه . وكانت تترك المدافع والبنادق والعجلات كل خطوة . والجنود الفتية امتنعت عن الخضوع والانتظام فان الضباط والرجال كانوا يسيرون بارتباك وخلل . غير ان جيش الحرس الامبراطوري حافظ على نظامه وصفاته . وكان القوزاق القساة يتاثرون الجيش ويعذبون التعابى والذين في النزع عذاب المتوحشين . ولما راى المارشال ناي الويل والبلايا التي كانت تحيط به والخراب والارتباك الذي بات كل شيء فيه ارسل معاونًا الى نابوليون ليصف ضيقاته وهوانه . وكان نابوليون يعلم انه لا سبيل الى دفعها فقاطع المعاون بالحديث وقال له بحزن يا ايها الكولونل اني لم اطلب اليك ان تخبرني بهذه التفصيلات . واحتمل نابوليون ما احتمل بصمت وسكون كمن لا يعترض على قضاء الله او كمن لا يشعر بالام الجسد فلم يتذمر قط . ولكن تحقق الذين كانوا حوله ان احزانه عظيمة . وفي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) بلغ سمولنسك مومِلاً بان يجد ماوى وثيابًا وزادًا ولكنه لم يجد غير المطر والجوع ووجدوا من البرندي ما يكفي فاكثر الجنود من الشرب وفي الليل مات كثير منهم بعذاب اليم في الشوارع وفي الصباح امست مغطاة بجثث الذين دنقوا . وكان قد جمع في ذلك المكان من الزاد والذخائر ما يقصر الانسان عن وصفه غير ان حوادث الحرب افرغت اكثرها . وعند ذلك ورد زاد الى نابوليون فارسله في الحال الى المارشال ناي قائلاً لابد من ان نطعم الذين يقاتلون قبل الجميع . وطلب الى ناي ان يمنع تقدم الروسيين بضعة ايام ليتمكن من ان يريح جيشه في المدينة وينظمه . فبادر ذلك القائد الباسل الى ان يرتد على العدو ويحمل عليه حملات الاسود فالزمه بان يرجع . وكان الفرنسويون قد خسروا اكثر مدافعهم . على ان المارشال امسك بندقيته وعرض نفسه في الصفوف للخطر كانه نفر وقاتل بشجاعة جندي ليس اشجع منه حال كونه كان يدبر امور الحرب بحذق يحاكي حذق اعظم القواد واشجعهم . فهجماته الناشئة عن الشجاعة والحذق اوقعت العدو الكثير العدد في اضطراب وارتباك فتمكن الجيش من ان يرتاح ٢٤ ساعة . وقبل ان دخل نابوليون سمولنسك جاءه رسول في الطريق في يوم شديد البرد والهواء كثير الثلج . فاجتمع



حوله قوم كثير ليعرفوا الاخبار التي وصلت اليه من باريس فوجد فيها اخبار قلاقل باريسية فان قومًا استغنموا سنوح الفرصة الناشئة عن بلايا المحاربة في روسيا وعقدوا مؤامرة بقصد قلب الحكومة الامبراطورية وانشاء الجاكوبية المضرة . فان ضابطًا اسمه مالي زور اشاع موت الامبراطور نابوليون ونشأ عن ذلك اضطراب وهيجان فجمع ذلك الضابط حوله بعض الحرس الوطني وافرغ جهده بالقبض على زمام الامور . غير انه القي القبض عليه في الحال وقتل باطلاق الرصاص . وكان ذلك دليلاً على ان راحة فرنسا تتوقف على حياة نابوليون . وتبين ان الحكومة الامبراطورية لم تكن وطيدة الاركان وان موت الامبراطور يفتح بابًا لخصام الاحزاب

فاضطرب نابوليون بقراءة هذه الاخبار وراى ان خبر موته علامة قلب الامبراطورية وابتدا خصام الاحزاب المتناظرة . وان الحكومة التي انشاها باعتناء عظيم وعناء جسيم لتكون بركة دائمة لفرنسا ولنسله كانت معلقة بشخصه وبنفوذه ولا سبيل الى ثبوتها بعد موته . وكان يهتم جدًّا بانشاء حكومة تضمن راحة بلاده المحبوبة عنده فاحتمل الخطر والاتعاب وارتكب خطا طلاق جوزفين الكريمة فتكدر لما راى انه لم يخطر لاحد ببال ان له ولدًا ذكرًا . وراى بعد فوات الفرصة ان جوزفين كانت اقدر من بنت امبراطور شهير على نفعه وادارة فرنسا . فقال بعد قراءة تلك الاخبار على مسمع من قواده هل يتعلق سلطاني بشيء ضعيف كالخيط . وهل مركزي ضعيف حتى ان شخصًا واحدًا يقدر ان يعرضه للخطر . فتاجي لا يليق بي اذا كان اثنان او ثلثة من اهل الفتن يقدرون ان يجعلوه في خطر . وهل يكون موتي بعد ان حكمت ١٢ سنة وبعد زواجي وولادة ابني سببًا لسقوط البلاد في بلايا الفتن . فقد نسي الناس نابوليون الثاني . انتهى . وبعد ذلك صمم على العود الى باريس حين يرى انه يقدر على ترك الجيش دون ان يتهم بالجبن وحب نفسه اكثر من عساكره . فدخل غرفته وقال للجنرال راب ان المصائب لا تاتي مفردة فلا اقدر ان اكون في كل مكان ولكن لابد من عودي الى قاعدة امبراطوريتي . ووجودي هناك لازم لارجاع الراي العام اليّ ونحن في احتياج الى الرجال والمال . فالنجاح العظيم والنصر المبين يصلح كل شيء ولم يبلغ ذلك الا الى قليلين لئلا يزيد الاضطراب

وصرف نابوليون في سمولنسك خمسة ايام يجمع جنوده المتفرقة ويطالع تقريرات قواد الفرق التي كانت سائرة في طرق مختلفة ويقوم بما يقلل بلايا التقهقر . اما اوجين الذي كان يحاول التقهقر في طريق ويتبسك فكان قد تكبد خسائر عظيمة جدًّا من القتلى والجرحى والتزم بترك مدافعه وذخائره وكان القوزاق يتعدون على اطراف جيش دافوست وناي لانهم كانوا يخافون المجاهرة بالحمل عليهما وكانوا يهدمون الجسور ويحرقون القرى ويستترون في الآجام ووراء التلال وفي الاودية ليحملوا على مؤخرة الفرنسويين وجناحيهم . وكانوا يقتلون المقصرين من الجنود ويرجعون قبل

ان يتمكن الجيش من قتالهم

وفي صباح ١٤ تشرين الثاني ( نوفمبر ) رجع الفرنسويون الى التنفهر واخذ الجنود يخرجون من مدينة سمولنسك في الظلام والبرد الشديد ولم يبقَ من الجيش الا نحو اربعين الف رجل قادرين على القتال . فقسم الى اربعة اقسام تحت قيادة مورات واوجين ودافوست وناي . وسار نابوليون في مقدمة الفرقة الاولى تحت قيادة مورات . وتعين على المارشال ناي ان يبقى في المدينة الى ان يتم اخلاؤها وامرهُ نابوليون بان يجعل كل المتصرين يخرجون امامهُ وان يعطل المدافع التي لا يقدر على جرّها ويحرق الذخائر التي يعجز عن نقلها . وكانت الخيل تنفع تحت راكبيها من قناه حديد ارجلها او شدة تعبها فالتزم الرجال بان يعانوا مشقات عظيمة لجر المدافع والعجلات على تلال غطتها الثلوج وكثيرًا ما كانت الرجال والخيل تتدحرج من الاماكن العالية في الاودية في الظلام ومدافع العدو تطلق على صفوفهم . وكانت الايام قصيرة والليالي طويلة مخيفة اما آلام الجرحى فلا يقدر انسان ان يصفها . وفي اليوم الاول لم تتقدم مدافع جيش الحرس غير ١٥ ميلاً في ٢٢ ساعة . اما كوتوسوف فكان يسير محاذيًا للجيش الفرنسوي في ٩٠ الفًا من الجنود اللابسة الملابس الجيدة والمسلحة باجود سلاح . ففي برهة قصيرة سبقهم واقام في مركز حصين قاطعًا الطريق واقام مدافع في التلال المشرفة ليحاول منعهم عن المسير . على ان جيش الحرس الفرنسوي سار بثبات وافتخار مستميتًا ودفع العدو والتجا الروسيون الى استحكاماتهم في التلال واطلقوا المدافع والرصاص عليهم . وكان نابوليون يسير في وسط هذا الرصاص والحديد المهلك وجنودهُ تتقل حواليهِ فراهُ جنود الحرس في ذلك الخطر المبين فاقتربوا منهُ واحاطوا بهِ ليصونوهُ من الاذى باجسادهم واخذت الموسيقى تصدح بنغم اغنية ترجمة اولها اين يقدر الانسان ان يكون اسعد مما في حضن عائلتهِ . فراى نابوليون ان هذا هو مراعاة لهُ ومخصوص بهِ فطلب اليهم ان يضربوا نغم اغنية ترجمة اولها فلنحافظ على امنية الامبراطورية

وبعد ان مرت الفرقة الاولى من الجيش بالقوة حاول الروسيون ان يصدوا اوجين فانهُ كان بعيدًا عن الجيش بضعة اميال فتحصنوا بقوة عظيمة في الطريق امامهُ وطلبوا اليهِ ان يسلم فانتشب قتال شديد جدًا مخيف . وكانت طليعة اوجين مولفة من الف وخمسمائة رجل فدفعت هجمات اكثر من عشرين الفًا من الروسيين الذين كانوا قد احاطوا بها . ولم يريدوا بان يسلموا بل صمموا على ان يخرقوا صفوف الروسيين وراءهم ليضموا الى جيش اوجين . فاجتمعوا مربعًا كالبنيان المرصوص وحملوا على صفوف الاعداء فانفتحت لهم ومكنتهم من ان يتقدموا الى وسطهم حال كونهم كانوا ضعفاء يكادون يعجزون عن الدفاع عن انفسهم . ولما عرف الروسيون بمقصودهم حملتهم الشفقة اوجبهم للشجعان الباسلين على ان يتوسلوا اليهم بان يسلموا فانهم امسوا في وسطهم وصفوفهم



سادةً جميع المعابر . ولم يرتضوا بان يهلكوا شجعانًا كاولئك الشجعان . على انهم لم يجبوهم الا باسراع الخطوات والصمت المخيف وافواه البنادق فعند ذلك صب العدو كل نيرانهِ عليهم حال كونهِ لم يكن بعيدًا عنهم الا بضع اذرع ففي لحظة بات نصف اولئك الاسود مجندلين بين قتيل وجريح . فانضمَّ الذين بقوا احياء وانشأوا مربعًا اصغر بدون ان يميل احدهم عن صفهِ او ان يرجع الى الوراء او يميل ذات اليمين او ذات اليسار فاستمروا سائرين في وسط تلك النيران المهلكة الى ان قتلوا جميعًا خلا القليل . ولم يرَ طلائع جيش اوجين غير قليلين منهم فركضت تلك الطلائع ودخلت صفوفهم الضعيفة فامسى اوجين ملزومًا بان يحارب جيشًا اكثر من ضعف عسكرهِ حاملاً على صفوف مدافع تطلق طلقات رائعة وما يقضي بالعجب نجاة واحد منهم . وكان العدو في مواقف مشرفة على الطريق . ورأى انهُ لا امل لهُ بالنجاة الا بالاستيلاء على اجمة على تل صفت فيهِ مدافع كثيرة فاختار ثلثمائة رجل ليحملوا عليها ويلاقوا الهلاك المبرم . فصبت المدافع كلها عليهم وفي دقائق قليلة هلكوا جميعًا ولم ينجُ واحد منهم . ولم يبقَ مع اوجين غير اربعة الاف رجل فانجدهُ الليل البارد الطويل المظلم . فترك الفرنسويون نيرانهم مشبوبة ليخدعوا عدوهم وفي نصف الليل ساروا كانهم يدوسون لهاة طفل واستمروا سائرين الى ان داروا حول المواقف التي لا تؤخذ . وكادوا يهلكون جميعًا وهم سائرون والمخاطر تحدق بهم فان الغيم انكشف بغتة عن القمر فراهم احد الحراس الروسيين سائرين فناداهم فقالوا لقد هلكنا عن اخرنا فعند ذلك دنا احد البولونيين من ذلك الحارس الروسي وكلمهُ بلغتهِ قائلاً بسكينة وخفض صوت اصمت فاننا حاملون سرًا لنكبس العدو فانخدع الحارس وصمت . وهكذا نجا اوجين وفي الصباح انضم الى جيش الامبراطور . وكان نابوليون قد صرف النهار بطولهِ في انتظارهِ بقلق عظيم . ثم اشتد قلقهُ خوفًا على ناي ودافوست وكان في موقف شديد الخطر في وسط جيوش جرارة مجتمعة ومع ذلك صمم على انتظار قدومهما واستمر يوبخ في جيشهِ القليل في ذلك السهل دافعًا عنهُ جيوشًا جرارة كانت تحدق بهِ من جميع التلال المحيطة . وكان اسم نابوليون قد اوقع الرعب في قلوب الروسيين فلم يتجاسروا ان يحملوا عليهِ . وقال المارولتر سكوت المورخ الانكليزي ان القائد كوتوسوف الروسي تصرف بالنظر الى نابوليون وجيشهِ العظيم كما يتصرف صياد والاسماك الكبيرة جدًا في غرينلاندة فانهم يجتنبون ان يدنوا منها وهي في حالة النزع تقاسي اوجاع الموت فان الالم والغيظ وحب الانتقام تقويها في ضعفها وتكثر اضرارها . وابطات اخبار القائدين المذكورين فصمم نابوليون على العود ليخلصهما ويخلص جيشهما فاستغرب الجميع ذلك ولم يتقرر في التاريخ عمل ناشئ عن الشهامة والجسارة والحب كهذا العمل . فانهُ كان قد اجتاز اماكن المخاطر بفرقتهِ الصغيرة وكان قادرًا ان يتقهقر بدون معارضة في ليثوانيا . وكان تاخرهُ مما يمكن اقوى الاعداء من الاستيلاء على الانهر والمعابر وقطع خط رجوعهِ . فراى ذلك

اجمع ولم يغير عزمهُ بل عول على فتح طريق بالقتال ليرجع الى براري روسيا ليخلص قومهُ او يهلك معهم

وقد تعجبت انكلترا وامركا من تمكن حب نابوليون في قلوب الذين كانوا يعرفونهُ والسبب انهُ كان يستحق حبهم لانهُ كان اكرم الناس نفسًا وابعدهم عن حب الذات . فهل يقدر دافوست وناي ان ينسيا هذا الرجل الذي لم يبالِ بالجوع ولا بزمهرير الشتاء مسافة اكثر من الف ميل لابد لهُ من قطعها بل عاد وليس معهُ الا تسعة الاف جندي الى البراري المغطاة بالثلوج وقد اضعفهم الجوع والمشقات وامست اسلحتهم ناقصة كثيرًا وصمم على الحمل بهم على ثمانين الفًا من العدو غير مبالٍ بمدافعهم وصفوفهم وحواجزهم واخاديدهم مقابلاً طعناتهم وضربات سيوفهم وكللهم ورصاصهم موملاً بتبع الجيشين اللذين كانا مع القائدين المذكورين عالمًا ان ذلك ربما مكن احد اصدقائهِ من خرق الصفوف التي منعتهم عن النجاة من فيافي روسيا . فهذه الاعمال ناشئة عن صفات تدخل حب اصحابها في قلوب جميع كرام الاخلاق . وكاد يمسي محاطًا بالروسيين ولم يخف تلك المخاطر ولا ارتبك بل دبر وسائل ليخرق صفوف العدو . فقال لما خرج من المحل الذي كان فيهِ فعلت فعل الامبراطور مدة طويلة فينبغي ان افعل فعل القائد . وكانت فرقة قوية من العدو في موقف خطير في بساره فدعا اليهِ الجنرال راب وقال لهُ اذهب حالاً وفي الظلام احمل على تلك الفرقة بالحراب ولم يظهر قبل من ثبات العدو وعناده ما ظهر هذه المرة . وقال قد حولت على جعلهِ يندم فلا بد لهُ مرة اخرى من اركان حربي . ثم تامل برهة وارجعهُ اليهِ قائلاً لا تذهب انت بل ارسل روكي وفرقتهُ فابقَ حيث انت فاني لا ارتضي بان تقتل فاني احتاج اليك في دنتسيك . اما راب فذهب الى روكي حاملاً اليهِ امر الامبراطور منجحًا لان نابوليون كان محاطًا بثمانين الفًا من العدو فامر بالحمل عليهم بثمانية الاف فقط ومع ذلك كان متاكدًا النجاة عالمًا ماذا يفعل في دنتسيك وهي مدينة كان منفصلاً عنها بالمطر وبجيشين يدافعانهِ وبالجوع وبمائة وثمانين فرسخًا . وفي الظلام حمل الفرنسويون حملتين استعدادًا لحملات الصباح العظيمة ونجحوا فيهما كل النجاح فانهم حملوا بدون اطلاق بندقية على الروسيين حملات اودت بزعزع الجبال الرواسخ حيث كانت صفوفهُ اكثر عددًا من سائر الاماكن فتعجب الروسيون من هذه البسالة فتقهقروا . وعندما اصبح الصباح بات الفرنسويون محاطين من جهاتهم الثلث بمدافعهم ورجالهم وسار نابوليون في مقدمة الحرس الامبراطوري وعددهُ ستة الاف جندي وتقدم بخطوات ثابتة فيهم ليحمل على قلب تلك الدائرة المخيفة ومورتيه كان يصون ميمنتهُ بالوف قليلة . وجعل فرقة صغيرة من مشاة الحرس الامبراطوري القديم مربعًا كانهُ قلعة لحماية ميسرة الفرقة الهاجمة التي لا تؤخذ ولئن كانت قليلة فابتدا القتال وكان العدو كثيرًا حتى لو تقدم بدون اطلاق البنادق وحمل



لسحق فرقة نابوليون القليلة المتعبة على ان الروس لم يكونوا يجاسرون ان يخرجوا من متاريسهم واستحكاماتهم . وكانت مدافعهم تفتح خلايا عميقة في صفوف نابوليون ولكنهم لم يقدروا ان يوقفوهم عن التقدم . وكانت مدافع العدو تطلق من الشرق والغرب والجنوب ولم يبقَ مفتوحًا غير الشمال . واخذ صف عظيم من الروسيين يسير الى محل مرتفع ليكمل الاحاطة بالفرنسويين ويسد السبل دونهم فاخبر نابوليون بذلك فقال لا باس فلتذهب فرقة من الصيادة الى ذلك المكان ثم قطع النظر عن ذلك واخذ يخرق صفوف العدو . واستمر القتال الى ما بعد الظهر بساعتين وعند ذلك ظهرت جنود القائد دافوست لان هجمات نابوليون اسعفتهُ ومكنتهُ من خرق صفوف الروسيين وطرد جيوش جرارة من القوزاق والتقى جيش نابوليون بجيشهِ في وسط غيوم من الدخان وهم ينضمون بعد ان تفرقهم كل مدافع العدو المخيفة ولم يكن بعضهم يقدر ان يهتدي البعض الاخر في ميادين انهار الدم والهلاك الاحمر . فسال نابوليون عن ناي فقيل لهُ انهُ لم يرد خبر منهُ وربما كان قد هلك . ومع ذلك لم يرتض ان يعود ولم يطق ان يترك قائدهُ الباسل في يد العدو . وظهر لنابوليون ان الرجوع يخسرهُ كل الجيش فارتضى بالمسير فدعا مورتيه اليهِ وقال لهُ بكدر وقد شد على يدهِ لا تجعل دقيقة واحدة تذهب سدى فالعدو ينصب علينا من جميع الجهات وكوتوسوف القائد الروسي ربما بلغ بورنيستك قبلنا وسد علينا طرق الرجوع . فلا بد لي من ان اذهب بسرعة مع الحرس القديم ولا بد لك انت ولدافوست ان تحاولا منع العدو عن التقدم في الليل ثم ينبغي ان تتقدما وتنضما اليَّ . وكاد قلبهُ ينفطر حزنًا اذ راى انهُ لابد من ترك ناي وجيشهِ ومع ذلك التزم بان يرجع ببطء وبقي مورتيه ودافوست بثلثة الاف رجل ليمنعوا تقدم خمسين الف رجل وكانت الكرات والرصاص تنصب عليهم كانها برد كثير ساقط ولم يرتضوا بان يسرعوا بل ساروا بافتخار مسيرًا بطيئًا كانهم راجعون من تمرينات ربيعية . وكانت جثث القتلى تدل على سبلهم وكانوا يحملون بايديهم رفاقهم الجرحى . وقال لهم الجنرال لابورد يا ايها الجنود اسمعوا ان المارشال يامر بان تسيروا مسيرًا عاديًا . وكان نابوليون يسير ماشيًا محتملاً تعبًا عظيمًا وفي يدهِ عصاهُ وسار بطيئًا مترددًا كانهُ يروم ان يعود ليسعف المارشال ناي وكان يتقدم ويظهر من الحزن ما لا مزيد عليهِ لفقدانهِ . وكان يتكلم عنهُ بدون انقطاع ويذكر شجاعتهُ وحكمتهُ وتعقلهُ وكرامة اخلاقهِ . وزال النهار بسرعة لانهُ كان من ايام الشتاء وجاء الظلام ببردهِ وويلاتهِ وهلاكهِ . وسمع البعض نابوليون يقول في الليل لقد انفطر قلبي بما اراهُ من ويلات جيشي المسكين ولا اقدر ان افرج ضيقاتهِ ما لم اقم في احد المحلات ولكن كيف اقدر ان اقف بدون ذخائر وزاد ومدافع انني ضعيف فلا بد من ان اصل الى منسك بالسرعة الممكنة . وعند ذلك دخل ضابط عليهِ واخبرهُ بان العدو استولى على منسك وهي المكان الذي كان علق املهُ بنوال الفرج فيهِ واخبرهُ ان كل مخازنها امست في يدهِ .

فكاد يغيب عن الصواب على انهُ رجع الى نفسهِ بدقيقة وقال بثبات وحزن فلم يبقَ علينا الا ان نفتح طريقنا بالحراب . وبعد نصف الليل بساعة دعا اليهِ الجنرال راب وقال لهُ ان اموري ردية وهولاء الجنود المنكودو الحظ يفطرون قلبي بضيقاتهم واحزانهم على انني لا اقدر ان افرج كربهم . وعند ذلك ضج المعسكر ضجة مكبوس وسمع في الحال صوت اطلاق المدافع والبنادق فكثرت الضجة والارتباك . اما نابوليون فكان ساكتاً كانهُ جالس على مقعد في قصرهِ في باريس فقال للجنرال راب بلطف وتأنٍ اذهب وانظر ما جرى فانا متأكد بان اولئك القوزاق راغبون ان يحرمونا النوم . وانقطعت تلك الضجة حالاً فكان كانهُ عاصفة مارة فعاد الجنود المتعبون الى النوم على الثلج وكان الجليد اقل رحمة من رصاص العدو . واخبر نابوليون فرنسا بضيقات جيشهِ والامهِ واحزانهِ بصدق في نشرتهِ التاسعة والعشرين ولم يحاول ان يستر الويل الذي لحق الجيش بهِ وما ياتي هو منها

وبعد اليوم السابع من ذلك الشهر اشتد البرد بغتة وفي ١٤ و١٥ و١٦ انزل الميزان ١٦ و١٨ درجة تحت الصفر وتغطت الطرق بالثلوج . وفي كل ليلة كانت تموت خيل الفرسان والمدافع والعجلات ومات الالوف منها ولا سيما خيل المانيا وفرنسا فامسى الفرسان كلهم مشاة وباتت المدافع والذخائر بدون اسباب النقل . فالجيش الذي كان على اتم المراد في اليوم السادس من ذلك الشهر تغيرت احوالهُ في ١٤ منهُ فامسى بدون مدافع وفرسان واسباب الانتقال . ولم نكن قادرين ان نستكشف البلاد مسافة ربع فرسخ بدون فرسان وبدون مدافع ولم نقدر ان نعرّض انفسنا للقتال فالتزمنا بان نسير لئلا نلتزم بان نحارب . وكنا ملتزمين بان نحل في فسحة معلومة من الارض بدون فرسان تسير امامنا وتصل صفوفنا بعضها ببعض فهذه الصعوبات مع الجليد الكثير جعلتنا في حالة تعيسة . والذين لم يكونوا طبعاً كالفيلان قادرين ان يتغلبوا بالصبر على نصيبهم ونحسهم خسروا الثاني والبشاشة ولم يحلموا الا بالبلايا والويلات . اما الذين كانت اجسادهم تمكنهم من التغلب على ذلك فلم تتغير احوالهم وعاداتهم وراوا مجداً جديداً في الصعوبات التي اصبحوا ملزومين بان يتغلبوا عليها . ولما راى العدو في الطريق ما دل على العناء والخسائر حاول استغنام سنوح الفرصة الناشئة عن ضيقات الجيش وبلاياهُ فجعل القوزاق يحيطون بكل الصفوف فكانوا كالبدو يغنمون ما يتاخر من عجلات الزاد وغير ذلك . وهولاء الفرسان يستوجبون الاحتقار لانهم يحملون ضاجين ولكنهم غير قادرين على خرق صف صغير فتنووا بالاحوال ومع ذلك ندم العدو على كل حملاتهِ العظيمة . انتهى

وفي برهة قصيرة عبر الجيش الضعيف نهر الدنيبر ودخل مدينة اورشا ووجدوا فيها بيوتاً ونارًا وزادًا . وهذه هي المرة الاولى التي وجد الجنود فيها بيوتاً وراحة وزاداً كافياً منذ خرجوا من موسكو . وقال سيجور ان نابوليون دخل اورشا في ستة الاف من الحرس الامبراطوري وهم بقية ٢٥ الفاً



واوجين بالف وثمانمائة جندي وهم بقية ٤٨ الفاً ودافوست باربعة الاف جندي وهم ما بقي من سبعين الفاً . اما ما يظهر من اختلاف اعداد الجنود فهو ناشئ عن هلاك الوف يومياً وانضمام كثيرين من الجنود الذين كانوا قد اقيموا لحفظ المواصلات وصيانة خط الرجوع . اما دافوست البطل الصنديد فكان قد خسر كل شيء وكان قد كلّ من التعب وانهكهُ العطش والجوع وامست ثيابهُ خرقاً بالية ولم يبق لهُ قميص . واعطاهُ رجل منديلاً ليمسح بهِ وجههُ المبيض بالثلج فاخذ رغيفاً من الخبز وبلعهُ كالاسد المفترس الجائع وقال ان الرجال الذين اجسامهم ليست من حديد لا يقدرون ان يحتملوا المشقات والضيقات التي احتملناها . فان ذلك مما تعجز الطبيعة عنهُ وللقوة البشرية حدود فقد تجاوزنا ابعدها . انتهى . ومع ذلك لم يخر عزمهُ ولا تغلبت البلايا على ثباتهِ وشجاعتهِ فكان يقف في كل مضيق ويدفع العدو وهو يضاد في كل دقيقة عدم انتظام عظيم

وكان نابوليون لا يزال يسال عن ناي وكان الجيش كلهُ مكدراً فانهُ مضت اربعة ايام بدون ان يرد اليهِ خبر عنهُ وكاد الامل ينقطع من نجاتهِ ومع ذلك كان كل من الجنود ينظر الى عبر النهر لعلهُ يرى في الافق طلائع جيشهِ وكانوا يصغون ليسمعوا صوت محاربتهِ للعدو على انهم لم يسمعوا غير هزيز الرياح الشمالية الباردة وجيوش من القوزاق مزدحمة الاقدام في عبر النهر تحاول الاستيلاء على الجسر فقال بعض القواد لقد انقطع الامل من خلاص ناي فالاوفق ان نهدم الجسر لمنع تقدم الروسيين فامتنع الباقون قائلين ان ذلك يقطع امل خلاص رفاقنا . وخيم الظلام وكان الجنود المتعبون قد وجدوا انفسهم في منازل مريحة فنسوا موقفنا وبلاءهم وكان نابوليون يتناول الطعام البسيط هو والجنرال لوففر فسمع صوت مسرور يقول المارشال ناي في اجان . ثم دخل ضابط بولوني وقال ان المارشال ناي بعيد عنا بضعة فراسخ وقد طلب نجدة فان كثيرين من القوزاق ينقضون عليهِ فوثب نابوليون واقفاً وامسك المخبر بذراعهِ وقال لهُ بحدة هل هذا صحيح هل تاكدتهُ . ثم قال بسرور عندي مائتا مليون فرنك ذهباً في سراديب التصر في باريس وكنت مستعداً ان ابذلها لتخليص المارشال ناي . وكان ذلك الليل بارداً مظلماً وكان الجنود قد باتوا متعبين بتكبد مشقات لم يتكبدها البشر قبلهم ومع ذلك اجاب خمسة الاف منهم دعوة اوجين بدون تذمر البتة مستيقظين ومبتعدين عن النيران التي كانوا يستدفئون بها وساروا ليلاقوا الموت ويخلصوا المارشال ناي ومشوا في طرق مجهولة تغطيها الثلوج مسافة ٦ اميال وكثيراً ما كانوا يقفون ليسمعوا صوتاً يدل على ناي وجنودهِ بدون ان يسمعوا شيئاً وكان النهر المغطى بالثلج يجري بجانبهم ويزيد تاثير البرد فيهم . وباتوا في وسط سكون نصف الليل في ظلام مدلهم فامر اوجين باطلاق بعض المدافع فسمعوا جواب البنادق عن بعد فانهُ لم يكن معهُ مدافع ليجيبهم فاخذ الجيشان في المسير ليلتقيا . وكان اوجين من اكرم الرجال لا يضعف بالمخاطر ولا يخضع بالاوجاع فلما لقي

ناي اعتنقهُ واخذ القواد والضباط والجنود يتعانقون وساروا جميعاً بفرح الى اورشا واخذ المارشال ناي يخبر الامبراطور بالمخاطر التي امسى فيها فامسك بيديهِ وشرفهُ بلقب اشجع الشجعان . وكان ذلك المارشال الذي لا يكسر قد نشر روحهُ في صدر جنودهِ . وقال نابوليون بالنظر الى الاعمال العظيمة التي قام بها ذلك المارشال بحذقهِ وحدهُ ان جيشاً من الابل تحت قيادة اسد خير من جيش من الاسود تحت قيادة ابل . وكان ناي قد خرج من سمولنسك وهي تبعد نحو مائة ميل في ١٧ من ذلك الشهر في نحو ستة الاف رجل فبلغ اورشا ومعهُ الف وخمسمائة رجل فقط بدون مدفع واحد والتزم بان يترك جميع المرضى والجرحى تحت رحمة العدو وراى في الطريق التي سلكها اثاراً كثيرة تدل على بلايا الجنود التي تقدمتهُ . ففي كل مكان كان يشاهد بنادق وسيوفاً مكسورة وعجلات مقلوبة ومدافع بدون دواليب وجثث رجال وخيلاً قد تجمدت . ومر بكارسنور حيث كان قد وقف الامبراطور وحارب حرب الابطال ليخلصهُ ويخلص رفاقهُ فراها مغطاة بجثث القتلى المجمدة . وفي اليوم التابع غطاهُ ضباب شتاءي حتى انهُ لم يكن يقدر ان يرى امامهُ غير مسافة اقدام قليلة فسار بجنودهِ جاهزاً واذا بهِ قد صدم مدافع روسية وكان العدوّ واقفاً لهم بالمرصاد وهو يزيد كثيراً عنهم في العدد فدافعهم اي دفاع ودنا منهم ضابط روسي وطلب سيف المارشال ناي . وكان القائد الروسي قد تيقن ان ذلك المارشال من ابسل الناس فطلب اليهِ ان يسلم وهو يعتذر اذ الزمتهُ الجنود بان يقوم بذلك . فقال الرسول ان المارشال كوتوسوف ( روسي ) لم يخطر لهُ ان يطلب الى قائد عظيم كناي القيام بامر عظيم كهذا لو لم يرَ انهُ لم يبقَ سبيل الى نجاتهِ ونجاة جنودهِ فان ٨٠ الفاً من الروسيين يحيطون بهِ فاذا ارتاب المارشال ناي بذلك يسمح المارشال كوتوسوف لهُ بارسال رجل ليفحص حالة جنودهِ . فاجاب ناي بما يليق باعظم الابطال وهو ان مارشالاً فرنسوياً لا يسلم ابداً . وكان على الروسيين ان ينقطعوا عن القتال اثناء هذه المخابرة ولكنهم اطلقوا ٤٠ مدفعاً محشوة رصاصاً وقطعاً حديدية على الفرنسويين خطاء او عمداً فقتل خلق كثير . فوثب ضابط فرنسوي قاصداً قتل الرسول الروسي كخائن فمنعهُ المارشال ظاناً انهُ ربما كان بريئاً من هذا الخداع ولكنهُ سلب سلاحهُ واسرهُ . وعند ذلك صبت نيران الروسيين الويلات والموت الاحمر على الفرنسويين بلا انقطاع وقال من شاهد ذلك ان التلال التي كانت صامتة كانها تبشر بالسلام امست كانها جبال نار هائجة تقذف موتاً ودخاناً وويلاً ونارًا . وهذه المخاطر شددت عزم المارشال ناي واهاجت حميتهُ وعظمت شجاعتهُ واعمالهُ

وقال سيجور ان المارشال كوتوسوف الروسي لم يخدع المارشال ناي وكان مع كوتوسوف ٨٠ الفاً آكلين مستندفين معهم فرسان ومدافع كثيرة في مواقف منيعة موافقة جداً . اما نحن الفرنسويين فلم يكن معنا الا خمسة الاف جندي يكادون يهلكون جوعاً وقد انهكهم التعب واضعف



صفوفهم الموت واخر الضعف خطواتهم ولم يبقَ معهم من السلاح غير ما كان دنيًا او معطلاً في ايدٍ ضعيفة مرتجفة ومع ذلك لم يخطر ببال القائد الفرنسوي الهلاك ولا التسليم ولكنهُ هاجم بثبات مصمماً على خرق تلك الجيوش الجرارة . فسار في مقدمة صف وحمل على استحكامات العدو المهلكة محاولاً خرق ٨٠ الفاً بخمسة الاف وتقدم بمئة مدافع على مائتي مدفع واستمر هذا القتال العجيب الى ان خيم الظلام فراى انهُ لا سبيل الى المرور وكان قد هلك نصف جيشهِ الصغير فامر الجنود بان يرجعوا الى الفيافي الروسية المهلكة الى جهة سمولنسك فسمعوا اوامرهُ متعجبين ولكنهم اطاعوها بدون تردد فقفلوا راجعين تاركين وراءهم رفاقهم الذين كانوا قد سبقوهم وامبراطورهم وفرنسا وساروا الى البراري المتجمدة التي طالما رغبوا ان يخرجوا منها وساروا ساعة او ساعتين بسرعة في الظلام في طريق صعبة مجهولة الى ان بلغوا نهراً فكسر المارشال ناي الجليد المغطي المياه ليرى جهة جريها فقال ان هذا النهر يصب في الدنيبر فسيكون ديدبانا فسار بجنودهِ الجياع التعابى الملسوعين بالبرد الجرحى الضعناء على ضفتهِ المتجمدة الى ان بلغ نهر دنيبر . ولم يروا غير فلاح اعرج قدلهم على المكان الذي يقدرون ان يعبروا منهُ النهر سائرين على الجليد وهو مكان يميل فيهِ المجرى فان الجليد كان قد اجتمع فيهِ ثابتاً حال كون الجليد حواليهِ كان غير ثابت . ومع ذلك كان دون اجتيازهِ خطر عظيم وكان ناي قد اضناهُ التعاس فالتف بعباءتهِ والقى بنفسهِ على الثلج ونام وجنودهُ يمرون صفاً واحداً وكان الجليد رقيقاً فتكسر في بعض الاماكن تحت اقدامهم . وبعد ان مرَّ الجنود اخذت عجلات المرضى والجرحى تمر فانكسر الجليد تحت بعضها فكان يسمع صراخ قليل ضعيف لما كانت تغوص باولئك المنكودي الحظ لتجعل مدفنهم النهر المتجمد . وعرف القوزاق برجوعهم فتاثروهم بعيدين عنهم غير انهم كانوا يطلقون المدافع عليهم بلا انقطاع . وكان يسير بجد ليلاً ونهاراً بدون راحة وفي نصف الليل من اليوم العشرين من ذلك الشهر صارت بقايا الجيش الفرنسوي الذي كان يوصف بالعظيم في اورشا

وفي اثناء هذا التقهقر تركت امٌ قاسية ولدها في الثلج وسارت لتنجو بنفسها فرآهُ المارشال ناي وحملهُ وخفف اوجاعهُ بحنو وحملهُ الى امهِ . وكانت الاتعاب والبلايا قد قست قلب الام وجعلتها كالمجنونة فطرحت الولد فبادر المارشال الجامع بين البسالة والحنو الى تخليصهِ . ولما راى الجنود قساوتها اخرجوها من العجلة وطرحوها على الثلج لتهلك وغطوا ذلك الولد المسكين اليتيم بفرو ومنسوجات صوفية واعتنوا بهِ كل الاعتناء . ثم راوهُ في بريسينا ثم في ويلنا ثم في كونو ونجا من جميع بلايا التقهقر

ولم يقدر نابوليون ان يجمع اكثر من ١٢ الف رجل وكان عدد غفير من العاجزين والمرضى والجرحى يثقلون على جيشهِ واستمر سائراً بهم ثلثة ايام وهم منكبدون اشد الالام مانعين العدو عن

ان يمنع تقدمهم . وعند ما خرج نابوليون من موسكو ليحمل على كوتوسوف بجيشهِ المجتمع في كالوغا كان الجنرال وتجنستن بجيش عظيم في مكان يبعد ثلثمائة ميل وراء بورة نابوليون . وكان في محل يبعد ستمائة ميل الجنرال تشتشاغوف راجعاً بستين الف رجل من محاربة العثمانيين وكان الجيشان المذكوران العظيمان يسيران ليجتمعا في ضفة البريسينا . وهكذا كانت ثلثة جيوش تسير قاصدة الحمل على نابوليون . فامسى اجتياز النهر المذكور نقطة الخطر

وكانت قد عقدت معاهدة سرية في بخارست بين الروسيين والعثمانيين بمداخلة انكلترا وتوصلت اليها بالتزويرفان وزارة ماقدمت الى الصدر الاعظم ورقة مزورة بامضاء نابوليون وقالت ان هذا كتاب من نابوليون الى روسيا طالبًا اليها الايقاع بالسلطنة العثمانية . وكان جوزف فونتون مستاجرًا عند الانكليز سرًّا فشاوره غالب افندي بهذا الشان . فشهد بصحة ذلك الكتاب وعندما عرف الباب العالي ان نابوليون دخل روسيا امتنع عن قبول تلك المعاهدة ولولا تهديدات انكلترا لما قبل بها فيما بعد فتاخير تقريرها اخر الجيش الروسي في البغدان الى تشرين الثاني فلم يقدر ان يحمل على الفرنسويين في اثناء تقهقرهم الا عندما صادفهم عند نهر بريسينا . وهكذا نرى ان الروسيين عادوا نابوليون لانهُ لم يرتض بالايقاع بالسلطنة العثمانية وصار العثمانيون اعداءهُ لان انكلترا بينت لهم كتابات مزورة موءداها ان نابوليون متحد مع روسيا عليهم . وكان نابوليون قد ترك قوة عظيمة وذخائر وزادًا وافرًا في بوريسوف وهي مدينة خطيرة يتسلط بها على النهر . وكان معلقًا الامل بان يصادف فيها اكلاً وشربًا وجميع اسباب الراحة فضلاً عن جنود وذخائر حربية تزيد قوتهُ كثيرًا . وفي ٢٣ من ذلك الشهر في المساء وردت افادات الى نابوليون مآلها ان احد قواده اهمل فروضة جدًّا فسلمت بوريسوف الى العدو بكل مافيها . ولم يكن منتظرًا ان يسمع هذا الخبر المكدر جدًّا فصمت لحظة ثم رفع يدهُ الى السماء وتنهد قائلاً هل كتب هناك ان تكون الاغلاط ديدننا . قال المولف نابيه الانكليزي ان هذه هي الكلمات الاولى التي سمعت منهُ الدالة على فروغ صبره ولم يرَ احد اضطرابهُ غير خادمهِ الخاص الذي كان يقوم بخدمتهِ . اما القواد دورو ودارو وبرتيه فقالوا انهم لم يروا شيئًا دل على اضطرابهِ . فهذا بالنظر الى الظاهر فانهُ كان جلودًا متسلطًا على عواطفهِ فلم يظهر شيء من قلقهِ . فراى ان العدوَّ قد سد الطريق وانهُ لاسبيل الى النجاة وكان لايزال بعيدًا ستمائة ميل عن المكان الذي اجتاز فيهِ نيامن عند كونو . اما القواد الذين كانوا معهُ فقالوا انهم يرغبون جدًّا ان يترك الجيش ويذهب الى فرنسا وقال دارو اذهب اليها وان طرت في الهواء لان الظاهر ان طريق الارض قد سدت دوننا ولا ريب في ان جلالتك اقدر على خدمة الجيش في باريس . اما نابوليون فاخذ يدقق البحث ويتامل في الرسوم وفي مركز بوريسوف واشار الى طريقين او ثلث طرق على انهُ وجد ان الروسيين سدوا



تلك المعابر وحصنوها . ولم يكن جيشهُ الضعيف الجائع قادرًا ان يجتاز النهر عنوة وامامهُ جيش جرار كالجيش الروسي . وفي النهاية صمم على العبور عند ستودزيانكا وهي قرية تبعد قليلاً عن بوريسوف في الجهة اليمنى منها وعرض النهر هناك نحو اربعمائة وخمسين ذراعًا . وعمقهُ نحو ست اقدام . وكان ذلك من الاعمال المخيفة . فانهُ لم يكن جسر فوقهُ وكان الماء مغطى بالجليد المتقطع والضفة المقابلة اجمة محاطة بتلال فيها جيش قوي منظم . وانكل نابوليون على حذقهِ وبسالة قوادهِ وجنودهِ . فشرع يستعد لذلك بسرعة . وجمع كل علامات الجيش الباقية واحرقها وكسر العجلات غير اللازمة وانشا فرقتين صغيرتين من حرسهِ وعددهُ الف وستمائة جندي وجمع حولهُ كل القواد الذين قدروا ان يخلصوا خيلهم والف منهم فرقة عددها خمسمائة ضابط وسماها بالفرقة المقدسة وجعل القواد الاولين عوضًا عن القواد الصغار والاخرين تجميعهم حملوا البنادق برضى ووقفوا في الصفوف . وحمية نابوليون اشعلت نيران الحمية فيهم فكانوا كجيش جرار منصور . وبعد ان تمت هذه التاهبات اخذ الجنود يسيرون في الاجام السوداء التي تغطي البلاد هناك . وكان مجموع السائرين ٤٠ الفًا رجالاً ونساء واولادًا ولما دنوا من بوريسوف سمعوا ضجة عظيمة فظنوا انها ضجة الروسيين الفرحين فارسلوا فرقة للتجسس فعادوا حاملين بشارة عظيمة ما من بشارة اهم منها وهي ان المارشال فكتور والمارشال دودينو استرجعا بوريسوف واخذا ينتظران قدوم نابوليون

فاي قلم يقدر ان يصف فرح الفرنسويين بالاجتماع برفاقهم وكدرهم من المصائب التي كانت قد المت بهم . ولم يسمع جيش المارشالين المذكورين بالبلايا التي المت بالجيش العظيم منذ خرج من موسكو ولم يكونوا ينتظرون ان يروا من اثار البلايا والاوجاع ما كانوا يشاهدون فانهم ابصروا رفاقهم المتقهقرين لا يسترون خرقًا وقطعًا من الطنافس والبسط وجلود خيل غير مدبوغة وكانوا لا يسترون بارجلهم خرقًا وجلودًا بالية عوضًا عن الاحذية ضعيفي الاجسام مصفري الالوان مجرحي الارجل والابدان فكانت الابطال تبكي معًا عند ذكر البلايا التي صادفها ذلك الجيش ولم تسمع بمثلها اذن . وتحيروا جميعًا لما راوا ان اولئك كانوا بقية ذلك الجيش العظيم الذي دعتهُ اوربا بفاتح قاعدة الامبراطورية الروسية فبانضمام الجيشين اصبح مع نابوليون سبعة وعشرون الف مقاتل و ٤٠ الفًا بين مريض وضعيف وعاجز ومتصر وانثى وولد . والجنود تكبدوا من الالام والاوجاع واحتملوا من الضيقات والمشقات ما ينصر القلم عن وصفهِ ومع ذلك لم يضعف حبهم لنابوليون . وقال سيجور انهُ كان يمشي بين رجال كثيرين كانوا قادرين ان يوبخوهُ لاحتمالهم ما احتملوا ومع ذلك كان يسير بدون خوف مكلمًا اياهم بدون تصنع وتكلف موكدًا انهُ يفوز باعتبارهم ما دام المجد يقدر ان يحمل الناس على اعتبار صاحبهِ . وكان موكدًا انهُ لم كما انهم لهُ فان مجدهُ كان مشاعًا للجميع فكانوا يقولون لو انحرنا لما اخطانا الى انفسنا

كما لو قتلناه . وكان بعضهم يتجدلون ويموتون عند اقدامهِ ومع انهم كانوا يحملون اوجاعًا تودي بالجنون لم يكونوا يوبخونهُ بل كانوا يلتمسون اليهِ المساعدة . وكان يشاركهم في جميع المخاطر ولم يعرض احد نفسهُ للخطر الذي عرض نفسهُ لهُ . فمن لحقت بهِ الخسارة العظمى . ولم يتذمر احد على مسمع منهُ كأن غيظهُ عندهم من اعظم البلايا

اما نهر بريسينا فيجري بسرعة في مكان يبعد قليلاً عن بوريسوف فالروسيون المتقهقرون هدموا الجسر وانشاوا استحكامات كثيرة في الضفة المقابلة وصرف نابوليون يومين في بوريسوف لاراحة الجنود . وفي الخامس والعشرين من ذلك الشهر قام بحركات مختلفة ليستر عن العدو المكان الذي صمم على ان يعبر منهُ وقام بتدبيرات سرية لانشاء جسر في مكان كانت اجمة عظيمة تسترهُ . وكان جيش جرار روسي في التلال القريبة منها . فصرف الفرنسويون النهار بطولهِ مختبئين فيها ليشرعوا في انشا الجسر عند ما يخيم الظلام . وعند ما غابت الشمس اخذوا في الشغل ولم يسمح لهم بايقاد نار واشتغلوا الليل الطويل كلهُ وبعضهم غائص في الماء الى عنقهِ يقاومون دفعات قطع كبيرة من الجليد كانت قد حملتها المياه واستخدم حديد الدواليب وخشب الاكواخ لانشا الجسر . وكان يناظر بنفسهِ على انشائهِ ويشتغل بجنودهِ . وامسى محاطًا بثلثة جيوش مجموعها مائة وخمسون الف جندي . وقال المورخ بتورلن الروسي انهُ بات في هذا المركز المخوف بالخطر دون اظهار ما يخالف عادتهُ مع انهُ لم يبت في هذا الحال قبلاً . وكان يقيس الامور بعين التعقل ويجد بحذقهِ وسائل لخلاص نفسهِ من ضيقاتهِ مع انهُ لو امسى قائد اخر في ما امسى فيهِ لما خطر لهُ ببال امكانية النجاة . انتهى

اما القواد الفرنسويون فتقرر عندهم انهُ لا سبيل الى اجتياز النهر . فقال الجنرال رابه ومورتيه وباي اذا فاز الامبراطور بالنجاة يتقرر عندهم ان لهُ طالع سعد لا يفارقهُ ابدًا . وكان مورات الباسل الجسور يقول لا سبيل الى تخليص الجيش وانهُ ينبغي ان يصرف النظر عن تخليص الجميع خلا الامبراطور لان خلاص فرنسا وراحتها تتعلقان بنجاتهِ . ووافقهُ انظار العسكرية على ذلك . وجاء بعض الضباط البولونيين وقالوا انهم قادرون على تخليص الامبراطور بسلوك طرق مجهولة في وسط الآجام الى ان يصلوا بهِ الى حدود بروسيا . وقال بونياتو فسكي اذا لم انجُ بهِ فاقتلوني . على ان نابوليون رفض ذلك قائلاً ان الهرب شان الجبناء الذين لا يحافظون على سلامة ناموسهم وكرامتهم فلا اترك الجيش في ساعة الضيق والخطر

وقال سيجور ان نابوليون لم يتردد عن الامتناع عن الفرار قائلاً انهُ شان الجبناء الذين يعرضون صيتهم للثلم . واغتاظ من الذين توهموا انهُ يقبل بترك جيشهِ في ساعة الخطر . ولم يوبخ مورات فان هذا الراي مكنهُ من اظهار ثبات عزمهِ وشجاعتهِ وتصميمهِ على مشاركة جيشهِ في ضيقاتهِ ومخاطرهِ



وفضلاً عن ذلك تيقن ان الذي حملهُ على ان يشير بهِ عليهِ انما هو شدة حبهِ لهُ وعند الملوك صدق الخدمة والامانة لهما المحل الاول

وفي الصباح اخذت نيران الروسيين تخمد وكان قد خدعهم بحركات اليوم السابق فتحير القائد الروسي واخذ في اخلاء ستودزيانكا فشرع نابوليون يجمع جيشهُ فيها . وكان القواد الفرنسويون ينظرون بنظاراتهم في الصباح ولم يكونوا يصدقون ان الروسيين اخذوا في التقهقر بسرعة . فان القائد امر جيشهُ بالذهاب الى مكان يبعد ١٨ ميلاً عن المكان الذي كانوا فيهِ قائلاً لقد تيقنت بحركات الفرنسويين انهم مصممون على العبور من ذلك المكان فبادر الجنرال اوديننو ورابه الى تبشير الامبراطور بذلك فقال لقد عجزت القائد الروسي بحركاتي . فبادرت فرقة صغيرة من الفرسان الفرنسويين الى اجتياز النهر سابحةً قاطعة الثلوج واستولت على الضفة المقابلة . وفي برهة قصيرة انشى الجسر واخذ الجيش في العبور بسرعة . وفي ساعات قليلة تيسر للمهندسين ان ينشئوا جسرًا اخر لنقل الذخائر والمدافع . وصرف الفرنسويون ذلك النهار الشديد البرد بطولهِ والليل التابع في اجتياز تلك المعابر الضيقة . وفي اثناء ذلك ابتدا الروسيون يرجعون واقاموا مدافع في التلال المجاورة واخذوا يطلقون الكلل على الجسر . وفي صباح اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر اجتمع من الروس عدد كافٍ للحمل على الفرنسويين في ضفتي النهر . ولما اجتاز نابوليون بالطليعة قال لا يزال طالع سعدي سائدًا . وبعد ذلك انتشب قتال شديد مهلك وكان الروس يقاتلون قتال الفائزين والفرنسويون قتال اليائس . واثناء ذلك الويل والبلايا الشديدة والهلاك المبين هبت العواصف اي هبوب واشتدت الرياح فهدم الجسر تحت ثقل المدافع والذخائر والجنود الذين كانوا عليهِ . وكان في طريق الجسر جمهور غفير يحاول المرور والكلل تسقط بينهم . فكان بعضهم يدوس البعض الاخر فسقط جمهور غفير في النهر فصاحوا صياحًا فاق صوت المدافع والبنادق وضوضاء الحرب ثم غرقوا تحت الثلج . واظهر نابوليون من الحذق هذه المرة ما لم يظهر منهُ قبلاً . وقد اجمع اعداؤهُ واصدقاؤهُ على انهُ يعجز رجل اخر عن فعل ما فعلهُ عند عبور البريسينا . ولم يرتبك بالهلاك الذي كان يحيط بهِ ولا بالمخاطر بل كان منتبهًا متيقظًا يدبر الامور كانهُ جالس على كرسيهِ في قصرهِ حتى وهبهُ الله الفوز بجيشهِ القليل الضعيف على جيش عدوهِ الجرار . ولا تعلم الاعداد الصحيحة التي تقاتلت في ذلك المكان . وربما كان سيجور اعرف الناس بذلك وقال انهُ لم يكن مع نابوليون الا ٢٧ الف جندي قد اضناهم التعب واضعفهم الجوع والعري وكان معهُ اربعون الفًا من التعيين والجرحى الذين كانوا يوقعون ذلك الجيش الصغير في ارتباك فامسى محاطًا بستين الفًا من الروس المستدفئين الاقوياء الحاصلين على جميع اسباب الراحة . والجنرال ونجنستين حمل باربعين الف مقاتل على الذين لم يتيسر لهم عبور النهر من

الفرنسويين وكانوا ستة الاف جندي تحت قيادة المارشال فكتور فصدهم بهم وتمكن من ان يبعدهم ويجعل حملاتهم الشديدة تذهب سدًى . اما القائد الروسي تسنشاغوف فحمل بعشرين الفًا على الصفوف التي كانت قد عبرت . فحمل ناي عليهم بثمانية الاف وغاص بهم في صفوفهم وكسرهم واسر ٦ الاف منهم . وفي غضون هذه البلايا والمقاتلات المهلكة لم ينثن المهندسون عن محاولة ترميم الجسر بدون مبالاة بالمخاطر المحدقة بهم . ولم ينقطع القتال الا بظلام الليل فوجه الروس مدافعهم على الجماهير المرتبكة والخيل والذخائر التي كانت تجتاز النهر . وفي اثناء هذا الموت الاحمر والبلية الدهماء قلب الثلج قاربًا فيه امراة وولداها فراهم جندي فالقى بنفسهِ من الجسر الى النهر وغاص وراءهم وبعد عناء عظيم خلص الصغير الذي كان يبكي يباس طالبًا امهُ فرق لهُ الجندي واخذ يعزيهِ قائلاً لاتبكِ فانني لا اتركك ولا اعوزك الى شيء بل اكون ابًا لك . وامست نساء كثيرات في وسط الماء يحاولنَ التخلص من الثلج الطافي واولادهنَّ في ايديهنَّ . فكنَّ يغرقنَ في الماء حال كون ايديهنَّ الضعيفة من فعل البرد كانت ترفع الاولاد فوق الماء ثم كن يغرقن بهم وعبر الجنود ذاك الجسر حاملين الطفل اليتيم الذي كان المارشال ناي قد خلصهُ في سمولنسك . وقتل كثيرون وتحطمت عظامهم بمرور العجلات . وكان الجنود العابرون يفتحون لانفسهم سبيلاً للمرور على الجسر المزدحمة الاقدام عليهِ ببنادقهم وحرابهم وكانوا يدوسون الجرحى والقتلى بدون شفقة . وجاء الليل المظلم البارد ليزيد تلك البلايا المخيفة . وغطى الثلج كل شيء وكان الرجال لابسين ثيابًا سوداء يمرون فوقهُ فيظهرون للعدو الذي كان يطلق عليهم الكرات باصابة . وجاءت الحرب حينئذٍ بما لم تأت بهِ قبلاً باجتماع اصوات هبوب الرياح والعواصف وظلام الليل ووميض نيران المدافع ودمدمتها ووقوع كللها في صفوف كالبنيان المرصوص واصوات انفجار الكتل المهلكة واصوات رصاص البنادق واصوات الجنود وصراخهم وضجة الجرحى وانينهم واصوات القوزاق القساة . فكيف يطالع محبو القتال هذه الاخبار ولا ينفي حبهُ من قلوبهم . وبعد ان صان المارشال فكتور موخرة الجنود اجتاز الجسر بفرقتهِ الباسلة ثم احرقهُ . ولم يتحقق عدد قتلى هذه المعركة . على انهُ في الربيع التابع ذاب الثلج فاخرج من النهر ١٢ الف جثة

الا يطالع الذين يتحمسون بالحرب اخبارًا كالاتية كتبها من عاينها فائلاً يوم الاحد قبل الظهر ذهبت الى باب من ابواب مدينة برلين ووجدت كثيرين مجتمعين حول عجلة فيها جنود جرحى فرنسويون اتوا من روسيا . ورأينا فيهم من فعل البرد مالا يفعلهُ الرصاص وكان البرد قد اسقط جميع اصابع احدهم ورأينا اخر فاقد الانف والاذنين . ورأينا ثالثًا واقشعرت ابداننا من النظر اليهِ فان البرد كان قد جمد عينيهِ وقد بليت جفونهُ فتدلت فوق حدقتيهِ المتحجرتين البارزتين . ورأينا منظرًا افج فاننا رأينا شيئًا يتحرك في اسفل المركبة فوق العشب اليابس



الموضوع فيها فنظرنا اليهِ ولم نصدق انهُ انسان فان شفتيهِ كانتا قد بليتا واسنانهُ بارزة بدون ستر فازال الرفعة عن فمهِ ونظر الينا كانهُ راس ميت ثم اخذ يضحك ضحكًا شديدًا وتكلم كلمة بصوت كهرير الكلاب فوجدنا انهُ قد جن من جرى تجمد دماغهِ ثم سمعنا صوتًا يقول هنري يا هنري وانت فتاة العجلة فلما سمع الصوت حك جبهتهُ كمن يروم ان يجمع حواسهُ ليعرف ابن هو ثم مد يديهِ الى جهتها ونهض بكل قوتهِ فاتعبهُ ذلك نظرًا الى ضعفهِ ثم اصابتهُ حمى ارتجافية فسقط ميتًا

وفي ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) عاد الامبراطور الى المسير في الجيش وكل ساعة تجر ويلاً فوق ويل . وسار اربعة ايام على الثلوج تاركًا وراءهُ خطًا من جثث القتلى المتجمدة . وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) وصل الى مولوديسنو فوجد فيها زادًا وذخائر وعليقًا ارسلت اليهِ من ويلنا اما الجرحى من القواد والجنود وكل ما يعوق مسير الجيش فارسل مع حراس امام الجيش العامل الى ويلنا . وجاء بالوف من الخيل الجيدة وعاد الفرسان الى الركوب واصلح المدافع واطعم الجيش وكساهُ واراحهُ ورتبهُ للمسير . وفي تلك الاثناء وردت اليهِ اخبار مالها ان البروسيين عرفوا بانكسارهِ فاستغنموا سنوح الفرصة لان يهبوا لمقاومتهِ . وان الامراء النمسويين راوا ان تلك الفرصة موافقة لاذلال اصحاب الاراء العامة فاخذوا يفعلون ما يدل على عدوانهم فجمع كل قوادهِ واخبرهم بهذه المخاطر الجديدة وانهُ صمم على ان يعود سريعًا الى باريس فحكموا جميعًا باصابتهِ . وفي ٥ من الشهر المذكور وصل الجيش الى سيمورجوني ضمن حدود بولونيا القديمة . وكانوا لا يزالون في املاك روسيا ومع ذلك اصبحوا بين اصدقاء معاونين وتخلصوا من اعظم صعوبات التقهقر . فدعا نابوليون كل المارشالية ليتناولوا الطعام معهُ ولما فرغوا من الاكل اخبرهم بتصميمهِ على الذهاب في ذلك الليل الى قاعدة امبراطوريتهِ واخبرهم بتاكيد انهُ سيعود اليهم قريبًا بثلثمائة الف رجل ليرجع الى فتح روسيا فان الثلج والبرد كانا قد منعاهُ عن الثبات فيها . ثم قال انني اسلم قيادة الجيش الى ملك نابولي فالمامول ان تطيعوهُ كما تطيعوني فيكون ذلك سببًا لالقاء الاتفاق بينكم ثم قبلهم جميعًا وودعهم . وكان ذلك في الساعة العاشرة افرنجية ليلاً فجيء بعجلتي ثلج الى امام الباب . فاجتمع القواد حولهُ بحزن وكدر مظهرين حبهم لهُ فجلس في العجلة وجلس كولنكور بجانبهِ وجلس دوروك ولوبو في الثانية ولم يكن معهُ حراس الا بعض البولونيين من الحرس الامبراطوري

ولامهُ بعض المورخين على ترك الجيش على تلك الحال وقالوا انهُ فعل فعل الجبناء الخالين من الناموس . غير ان مورخًا روسيًا عدل بالحكم وهو الجنرال بوتولن معاون الامبراطور اسكندر . واختلفت الاراء على سفرهِ والاسباب الحوجة الظاهرة فانهُ لم يكن قائد الجيش الذي تركهُ فقط بل كان امبراطور فرنسا وراحتها متعلقة بهِ وعليهِ الاهتمام بالامبراطورية كلها قبل التربص

ليشاهد فناء بقايا جيشهِ . فكان ذلك متوقفًا على ذهابهِ الى باريس ليجمع بنفسهِ جيشًا جديدًا لتعويض الجيش الذي خسرهُ . حتى ان كاتبهُ بورين الذي خانهُ وكتب بدون ان يكون قادرًا على اخفاء كرههِ لهُ قال اغتظت لما سمعت الناس يقولون ان ذهابهُ نشأ عن جبن وخوف . فمن يقول ان نابوليون جبان . ان الذي يتهمهُ بذلك لا يعرفهُ . فانهُ كان يقف في وسط المخاطر مستكنًا واسعد اوقاتهِ زمان الوقوف في ساحة القتال . انتهى . وقال الكولونل نابيه عن هذا التنهفر العجيب ان مصادمة الصعوبات مع تعليق الامل بالنجاح لم يخطر ببال اعظم الناس واعظمهم ما لم يكونوا مثلهُ يجمعون بين المشروعات والهدو والتاني في وسط المخاطر فكان يستغنم كل فرصة عند سنوحها بكل سرعة ويحتمل كل بلية بثبات غريب ولم يكن الياس يحملهُ على الخروج عن سبل الحكمة بل كان في كل حال يظهر من عظم الاعمال والحكمة واصابة الراي والتدبير ما يبين استنادهُ الى قوة عقل غير عادية وعدل الذين قالوا ان نابوليون اقدر البشر ( خلا الانبيا ) في الازمان الماضية والمتاخرة

وقال كولنكور انني لم ارَ منهُ من كرامة الاخلاق والبسالة والتجلد والصبر على صعاب الامور ما رايت في اربعة عشر يومًا بعد بلايا موسكو فكان جالسًا بجانبي في عجلة ثلج ضيقة متالمًا جدًا من شدة البرد وكثيرًا ما كان يتالم من الجوع لانهُ لم يكن يتيسر لنا ان نقف في كل مكان . وفضلاً عن ذلك كان يرى بلايا جيشهِ ويشاهد ضيقاتهِ بدون ان يضعف عزمهُ او تتسلط الاوهام عليهِ . وادرك عظم البلية التي وقع فيها وراى بحذقهِ عواقبها وقال لي ذات يوم يا كولنكور هذه حالة مكدرة ضيقة فتاكد ان عزمي لا يخور وصبري لا يفرغ وقد اظلم طالع سعدي غير انهُ لم يسقط بعد . ففي ثلثة اشهر اجمع مليونًا من اهالي مع ثلثمائة الف جندي من الجنود الابطال العاملين . فانا الامبراطور لست الا رجلاً ولكنهُ معلوم عند جميع الفرنسويين ان مستقبلهم جميعًا متوقف على هذا الرجل وان في يدهِ امنية عيالهم وراحتهم وطمانينتهم . انتهى

وفي ذات يوم كاد يقع في اسر الروسيين على انهُ تملص وربح بسرعة في بولنا . وفي ١٠ كانون الاول ( دسمبر ) دخل وارسو وكان الخوري دي براد سفيرًا لفرنسا فيها وكتب بكتابهِ المعنون بسفارة وارسو سنة ١٨١٢ كتابة غريبة متعلقة بحديث جرى بينهُ وبين الامبراطور . وظن اصدقا نابوليون ان ذلك تعدٍّ عليهِ لضرره وانهُ غير صحيح . وفي جزيرة هيلانة قال نابوليون عنهُ انهُ لم يتم في وارسو شيئًا من الامور التي ارسل لاجلها بل اضر كثيرًا بصوالح فرنسا . وكانت التقريرات المضادة لهُ تتوارد من كل الجهات حتى ان الشبان الذين كانوا كتابًا في السفارة كانوا يستغربون تصرفاتهِ حتى اتهموه بالاتفاق مع اعدائي ولم اصدق تهمتهم . ومن المحقق انهُ حدثني طويلاً وقد كتب ذلك الحديث بدون مراعاة الحقيقة ولا استغرب ذلك منهُ ولم اكن ارى في كلامهِ المسهب



غير سفسطة ومحالاً وقحة فكتبت في حاشية لينفصل عن سفارتهِ ويرسل بسرعة الى فرنسا . فسر القوم حينئذٍ بذلك والظاهر انهُ يروم اخفاءهُ

وسترى في فصل قادم ان الخوري المذكور شهد بحسن احوال الامبراطور نابوليون بتكذيبهِ تهمات الدول المتحالفة التي اتفقت على الطعن بهِ والتنديد باعمالهِ وكان قريبًا من العفو والسماح فسر بشهادتهِ

وكان الامبراطور نابوليون متيقنًا ان بواطن بعض حلفائهِ غير ظواهرهم ولولا سرعة مسيرهِ لامسى اسيرًا في بافاريا . وكان يسير ليلاً ونهارًا . وبعد نصف الليل بساعة في ١٤ كانون الاول ( دسمبر ) دخل اسواق درسدن . وقبل ذلك باشهر قليلة كان خرج من تلك المدينة محاطًا بعظمة لم يفز بمثلها ملك ارضي . فاجتمع حالاً بملك سكسونيا طويلاً وفاوضهُ باموره فانهُ كان من اصدق حلفائهِ . ثم ركب عجلتهُ وسار بسرعة تفوق سرعة الرسل فدخل باريس بعد خروجهِ من درسدن باربعة ايام . وكان دخولهُ اليها نصف الليل من اليوم الثامن عشر من شهر كانون الاول ( دسمبر ) وكانت الامبراطورة منحرفة المزاج قلقلة مضطربة جدًا فجاءت قصر التويلري طالبة الراحة ظانة ان الامبراطور نابوليون زوجها كان لا يزال ينازل الروسيين في فيافي روسيا . فسمعت بغتةً اصوات رجال في القاعة الخارجية . ثم صاحت احدى معينات الامبراطورة صياحًا جعلها تتاكد حدوث شيء غير عادي فخافت وخرجت من الفراش . وعند ذلك فتح الباب ودخلهُ رجل مغطًى بالافرية واعتنقها فدهشت وتحيرت واذا بهِ الامبراطور

وانتشر خبر نابوليون بسرعة في باريس وكتب اعلانًا بين فيهِ المصائب التي صادفها الجيش بدون اخفاء شيء وارسل ذلك الاعلان قبل ان سار قاصدًا باريس ولكنهُ وصل اليها قبل وصول الاعلان بيوم ولم يكن اهلها ينتظرون استماع خبر بمصاب عظيم وخطب جسيم كذلك الخطب فتعجبوا واضطربوا . وقبل الظهر بثلث ساعات من اليوم التابع قابل الناس وكانت لوائح الغم والكدر تلوح على اوجههم جميعًا فتظاهر الامبراطور بالسكون ولم يحاول ان يتجنب المسائل التي احب الجميع ان يسالوهُ عنها . فكان يخبرهم بتنهفر جيشهِ وقال اننا استولينا على موسكو وتغلبنا على جميع الموانع واحتراقها لم يقلل نجاحنا ولكن شدة البرد اوقعت الجيش في تلك المصائب العظيمة وفي ليال قليلة تغيرت احوالنا وتكبدنا خسائر مخيفة ولو لم اكن مهتمًا بمصلحة شعبي دون غيرها لانكسر قلبي بالمصائب التي حلت بالجيش . انني اروم السلم فانهُ لازم . وفي اربع مرات منذ انقطع السلم الذي تقرر بمعاهدة اميان عرضت على اعدائي الصلح بجد . غير انني لا ارتضي بعقد صلح ما لم يكن موافقًا لعظمة امبراطوريتي وناموسها

وبعد ان فارق نابوليون جيشهُ اشتد البرد ونزل ميزان فهرنهيت بالقرب من ويلنا الى ما تحت

الصفر بست وثلاثين درجة . ويعجز القلم عن وصف البلايا التي حلت في الجيش . فان ستين الف رجل عبروا نهر البريسينا وانضم اليهم بعد اجتيازهم اياه عشرون الفاً . فمن الثمانين الفاً لم يبلغ وبلنا غير اربعين الفاً . وكان هذا الهلاك من البرد والروس الذين كانوا يطاردونهم هلكوا كما هلكوا هم ومما يقضي بالعجب العجاب ان الجنود الذين كانوا من بلدان اجنبية تحملوا صبارة البرد اكثر من الروسيين انفسهم . وفي ١٢ كانون الاول (دسمبر) وصل الفرنسويون الى ضفة نيامن وفي ١٣ منه اجتازوا الجسر ولم يكونوا غير ٢٠ الفاً . فجيش الحرس الامبراطوري بات ٢٠٠٠ رجل ومع ذلك كانت جنوده بافتخار محافظة حتى الموت على حركتهم الحربية ونظامهم العسكري . وكان ناي قد قام بعجائب مضاداً الخطوب والمشقات والضيقات وباعمال حربية تحسب من المعجزات ليحمي موخرة الجيش وهو يتقهقر ذلك التقهقر المهلك المخيف . وصرفوا ٢٧ نهاراً وليلاً في المسير من نيازما الى نيامن واثناء ذلك هلك تحت قيادته ٤ جيوش مدافعة عن الموخرة . فانه كان يدافع في اول الامر باربعة او خمسة الاف رجل فكانوا يبقون بمدة قصيرة الفين ثم الفاً ثم خمسمائة ثم خمسين او ٦٠ رجلاً . ثم كان يرسل اليه جيش جديد يهلك في الطريق كالسابق . والذين ماتوا من البرد والتعب اكثر من الذين ماتوا بكل العدو

وكان يدافع عن الموخرة كل يوم بعد الظهر بنحو ٥ ساعات يختار موقفاً حسناً ويصادم ليمنع تقدم الروس . ثم كان يعطي جنوده من الماكل ما يتيسر ويمكنهم من راحة قليلة . وبعد الظهر بعشر ساعات اي قبل نصف الليل بساعتين كان يعود الى التقهقر مستتراً بظلال الليل وقبل الظهر بخمس ساعات يعود الى اختيار موقف موافق ويرتاح فيه الى ما قبل الظهر بساعتين . وكان العدو يظهر له في تلك الساعة غالباً . وكان يرجع بثانٍ ويتنظ وهو يحاربهم مدافعاً النهار بطوله قاطعاً من الطريق ما يتيسر الى الساعة الخامسة بعد الظهر . اما القوزاق فكان يوخرهم عن التقدم بتخويفهم بوضع بارود وكرات ورصاص في العجلات التي كان يلتزم بان يتركها ويشعل فتيلاً طويلاً متصلاً بها . فكان القوزاق يرون الدخان عن بعد بدون ان يتجاسروا على التقدم الا بعد ان تحترق العجلة . فصرف ناي اكثر من شهر وهو يناضل العدو الذي كان يزيده بالعدد ويقاوم ثلوجاً تعمي البصر وتبلي بالدنق ورياحاً عاصفة مهلكة حال كون كل العدو ورصاصه تخرق صفوفه

وفي كوفنو جمع سبعمائة رجل وانشأ صفاً من المدافع ومنع الروس عن التقدم النهار بطوله . وكان ذلك الصف مولفاً من ٢٤ مدفعاً . وكان الجيش الفرنسوي يجتاز الجسر . فذابوا جميعاً كالثلج في الشمس بنيران الحاملين فامسك بندقيته ولم يقدر ان يجمع حوله ثلثين رجلاً الا بصعوبة وفي النهاية راى ان كل رجل من الجيش قطع الجسر بامن فرجع بهولاء الرجال متخفراً ببطء



ووجهه مقابل للعدو . وكان الرصاص يمر بجوانبه كلها كالبرد الساقط ومع ذلك راى انه لا يليق به ان يسير بسرعة ولا ان يرى العدو ظهره . وكان يسير الى جهة ظهره واطلق الرصاصة الاخيرة على الروسيين الحاملين ورمى ببندقيته الى النهر . وكان هو اخر الفرنسويين الذين خرجوا من البلاد الروسية

وكان الجنرال دوما جالساً في بيت طبيب فرنسوي في الجهة الالمانية من النهر فدخل عليه رجل ملتف بعباءة ذو لحية طويلة متلبدة من عدم الاعتناء وقد سود البارود وجهه واحترقت جوانب لحيته بالنار غير ان في عينيه ما يدل على انه ذو عقل غريب . فجلس في كرسي بسرعة وقال لقد بلغت هذا المكان في النهاية فيا جنرال دوما اما تعرفني . قال لا من انت . قال انا المارشال ناي حارس موخرة الجيش العظيم وقد اطلقت الطلق الاخير من جسر كوفنو وطرحت في نهر نيامن السلاح الاخير وجئت ماشياً الى هذا المكان قاطعاً الغابة . فما اشجع هذا الانسان اما هو بطل الابطال

هذا والمظنون ان فرنسا خسرت في هذه الحرب الروسية نحو ثلثمائة وخمسين الف رجل فقتل في التقدم والتقهقر مائة الف رجل ومات بالجوع وشدة البرد والتعب نحو مائة وخمسين الفاً وبقي بيد الروسيين اسرى نحو مائة الف رجل ولم يعد منهم الى فرنسا اكثر من نصفهم . وقد كثر عدد الهالكين في هذه الحملة باضافة الاسرائيليين والباعة والنساء والاولاد وغيرهم من الذين هلكوا بمرافقة الجيش مع الذين انضموا اليه وهو راجع من موسكو وعددهم نحو خمسين الفاً . وخسروا اكثر من ستين الف فرس والف مدفع ونحو عشرين الف عجلة . اما خسائر روسيا في تلك الحرب فلم تحقق غير اننا اذا حسبنا الذين هلكوا من المدن التي تركها اهلها واحرقت جوعاً او تعباً تكون خسائرها اكثر من خسائر فرنسا . وجعل امبراطور روسيا تذكاراً لهذا الخلاص نيشاناً كتب عليه ليس لنا ولا لي بل لاسمك

## الفصل الخامس والخمسون

### لوترن و بوترن

وكان نابوليون من احذق القواد واعرفهم بفنون الحرب وابوابها واشجعهم واشدهم ثباتاً حتى فاق كل القواد ولم يكن في الادارة اقل حذقاً ما في القيادة . ففي تلك الاثناء طرح ناظر الداخلية اللائحة الاتية في المجلس القضائي وهي

ياسادتي . ان اهالي فرنسا زادوا عدداً مع اننا في حرب برية وبحرية . وقد تقدمت ايضاً الصناعة الفرنسوية . وحراثة الاراضي لم تكن اجود من حراثتها الان ولا اعم منها . ولم تر مصنوعاتنا

رواجًا اعظم من رواجها الحالي . ولم ترَ بلادنا الثروة التي رأيناها في هذه المدة وقد توزعت على جميع الاهالي فالفلاح يتمتع بمنافع تزيد عن منافعهِ السابقة فهو يشتري الاراضي مع ان اثمانها ازدادت كثيرًا . وملابسهُ تحسنت وطعامهُ اجود ومساكنهُ اكثر اثمانًا . ولا نرى الاهالي يرفضون كما في الماضي الاصلاحات الزراعية والصناعية لمجرد كونها جديدة . وجرت تجارب في كل فرع من الاشغال وصار اتخاذ ما ظهر انهُ نافع موافق وزيدت الاعمال الصناعية وصار العدول عن ترك ما زرع من الارض سنة بدون زرع في السنة التابعة . واصلح جمع الغلال والزراعة تحسنت . وزيدت المواشي وتحسنت مواليدها . فهذا النجاح العظيم ناشئ عن القوانين الحرة النافذة في الامبراطورية وعن ابطال ما كان ينفذهُ اصحاب الاراضي بفلاحي اراضيهم وغير ذلك مما جعل اراضي كثيرة حرة فصارت ملك عيال كانت في ما يشابه العبودية . وتوزيع الثروة باسوة لم يكن موجودًا ونشأ عن فصل الدعاوى بسرعة حتى امست تقل يومًا فيومًا . انتهى

ولا يخفى ان نابوليون التزم بان يقوم بحروب عظيمة جدًا ومع ذلك وجه كل عنايتهِ الى الاعمال النافعة فصرف في سبيلها مبالغ وافرة كما يظهر من التعديل الاتي وهو لبناء قصور ومنازل للدولة ١٢ مليونًا وخمسمائة الف ريال ( الريال خمسة فرنكات ) ولتحصين الاماكن ٢٧ مليون ريال . وللاستفراض واصلاح الثغور والمراسي ٢٥ مليون ريال ولتمهيد الطرق ٢٥ مليون ريال . ولانشاء الجسور في باريس وفي الولايات الاخر ستة ملايين و ٢٥٠ الف ريال ولحفر ترع واصلاح ضفات انهر واخراج المياه من الاجام ٢٥ مليون ريال . ولانشاء امور نافعة عمومية في باريس ٢٠ مليون ريال ولبناء محلات عمومية في الولايات ٢٠ مليون ريال المجموع مائتا مليون ريال صرفت كلها في تسع سنوات في سبيل تحسين فرنسا وترويج الاعمال فيها . وقال احد المولفين الفرنسويين هذه معجزات اجراها بثبات وهي تدل على اجتماع الحذق والحكمة والاقتدار فيهِ . فمن يقف على هذه النفقات النافعة التي تكاد تكون ٢ ملايين ونصف مليون ليرة انكليزية في كل سنة من السنين التسع ولا ينثني متعجبًا متحيرًا اذ يرى انهُ كان مشغولاً بحروب عظيمة برًا وبحرًا فهذه الانشاءات كفتوحاتهِ تدل على عظمتهِ واقتداره وحكمتهِ

وقال الكونت موله ناظر مالية فرنسا في اللائحة التي بين فيها حسن حالة الامبراطورية بصدق وامانة لو جاء نا رجل من عصر مديتشي او زمان الملك لويس الرابع عشر راجعًا من الابدية ورأى هذه المعجزات لسال كم من سنة سلم ونجاح مضت على فرنسا لبلوغها ما بلغت بالنظر الى هذه الاعمال العظيمة لاجبناهُ ١٢ سنة تواصلت فيها الحروب ورجل واحد قام بها

وقال المورخ اليمون ان مداخيل فرنسا العمومية الظاهرة في هذه اللوائح والنافذة باجتهادات



عظيمة تسحق كل الالتفات لانها لم تظهر بعد ذلك للدنيا فهذه هي الشهادة الموافقة لنابوليون التي يسمعها اهل القرون الاتية . فان المصائب التي المت بامبراطوريتهِ بعد ذلك والصعوبات العظيمة التي التزم بان يلاقيها منعتهُ عن ان يحاول القيام باموركهنهِ . وعند رجوع الانتظام بعد ذلك الاضطراب برجوع الدولة البوربونية حرمت فرنسا كل ما نالتهُ اثناء الفتنة ورجعت حدودها الى ما كانت عليهِ سنة ١٧٨٩ فلم تكن اراضيها تزيد عن ثلثي الاراضي التي كانت لامبراطورية نابوليون غير زيادة قليلة ونفوذها كان قدر ربع نفوذهِ

وكان نابوليون يناظر بنفسهِ على ادارة الامور العسكرية والمدنية فكان يفحص كل مشروع ويحقق جميع الحسابات ومكاتبات الحكومة كانت تمر بهِ وتفح بقلمهِ . وكان جميع الذين يعرفونهُ ويشاغلونهُ يتعجبون من اقتداره العقلي وقوة جسدهِ وثبات عزمهِ . وبانت باريس في قلق شديد وخوف واضطراب من استماع اخبار المصائب التي المت بالجيش في حرب روسيا غير ان ما شاهدهُ الناس من لوائح السكون وراحة البال التي كانت تلوح على وجه الامبراطور مع اقرارهِ بالواقع بدون خوف ارجع الركون العام الى اهلها . وفي غد نشر ذلك الاعلان الموضح خسائر حرب روسيا نشرت الجريدة المسماة جورنال دي باريس الجملة الاتية

ان هذه التفصيلات تاول الى ازدياد المجد الذي تكلل الجيش بهِ وتعاظم الدهشة الناشئة عما شوهد من ثبات الامبراطور وحذقهِ . فانهُ كسر الروس في عشرين معركة وطردهم من قاعدة امبراطوريتهم القديمة وبعد ذلك اجمع التزمت جنودنا الباسلة بان تحتمل صبارة البرد في بلاد لم تتعود هواءها ولا بردها ملتزمة بان تسير اكثر من خمسين يومًا في قلب بلاد العدو بدون مدافع ولا خيل ولا اسباب النقل . ومع ذلك كانت همة العلية وفكرهُ الثاقب سببًا لاقدام الجميع وينبوعًا يمدهم بالقوة في اشد الصعوبات . وانكسر العدو في كل مكان مع ان العناصر كانت تحارب معهُ فاذا سار قائد كهذا القائد في جيش كذلك الجيش لا يكون النجاح غير موكد وسيسمى القرن التاسع عشر باسم نابوليون

واصغى الناس كل الاصغاء الى كلام نابوليون وصار نشرهُ بالامبراطورية كلها . ولما وقف الناس عليهِ وردت اليهِ كتابات لا تحصى تبينًا لحب الناس لهُ ومحافظتهم على الصداقة والامانة . وبادرت رومية وميلان وفلورنسا وتورين وهمبرغ وامستردام ومانيس الى اظهار صداقتها فاجتمع الاهالي حول رايتهِ في ساعة تاخره اجتماعًا يجعل العاقل على ان يفتخر بالجنس البشري . والكتابة التي وردت عليهِ من ميلان هي الاتية وقد نشرناها لانها تشبه سائر الكتابات الاخر المنفذة اليهِ بعد عودهِ من روسيا مذعورًا تاركًا جيشهُ وثروتهُ وذخائرهُ مدفونة تحت ثلوج تلك الامبراطورية المتسعة . وهي

يامولانا ان مملكتنا هي من اعمال يديك ومنك قوانينها ونظامها وطرقها ونجاحها وزراعاتها وفخرها بالصناعة والفنون والسلام الداخلي المتمتعة به . واهل ايطاليا يعلنون على مسمع من الدنيا قاطبة انهم لايابون ان يقوموا باعظم الضحايا ليمكنوا جلالتكم من اتمام الاشغال العظيمة التي سلمتها يد العناية اليكم . وفي الاحوال الخارقة للعادة يلزم القيام بضحايا عظيمة وستكون اجتهاداتنا بدون حدود . انك طالب اسلحة وجيوشاً وذهباً وامانة وثباتاً . فيا ايها المولى كل ما هو لنا ملقى عند قدميك وليس ذلك من نفوذ السلطة ولكنه من معرفة الفروض والشكر والصراخ العام الناشيء عن الميل الى صيانة وجودنا السياسي

واما جيش النمسا وبروسيا فلم ينضما الى جيش فرنسا الجمهورية الا بعد تردد طويل . فبعد ان طرأ على جيش نابوليون ما طرأ اخذتا تتظاهران بالعدوان . فان قائد القوات البروسية اعلن انه غير متصل باتحاد مع روسيا و بعد ذلك ببرهة قصيرة اتحدت بروسيا وانكلترا وروسيا على نابوليون وقال سافاري ان ملك بروسيا امتنع عن ان يصغي لتوسلات الذين سالوهُ في بروسيا الانضمام الى الروسيين . وكان سليم الباطن فاراد ان يثبت في محالفة فرنسا وان جلبت عليهِ عواقب مضرة . ومع ذلك سبق الى مضادتنا بجيل رجال لا يستكنون فقالوا لهُ بوضوح واحترام اننا ننفذ المرام اذا وافقت اولم توافق . فقال لهم انكم تجرُّونني الى ذلك فتذكروا انهُ لا بد من الفوز اوتمحى اسماؤنا من دفتر الامم . اما القائد النمسوي المسمى البرنس شوارتسبرغ فاقتدى بالبروسيين ولم يرتض ان يسعف الفرنسويين وهم ينتهزون ذلك التنهفر العظيم بل هادن روسيا وعاد بتأنٍّ الى اراضي مولاهُ . ولما سمع مورات هذه الاخبار اضطرب وخاف ولاسيما عند استماع اخبار واردة من نابلي فترك الجيش حالاً وسار الى ايطاليا فاغتاظ نابوليون من تركهِ لجيشهِ . فكتب الى شقيقتهِ كارولين وهي زوجة مورات ان زوجك باسل في ميدان القتال ولكن عندما يغيب العدوُّ عن نظرهِ يبيت اضعف من امرأةٍ فانهُ بدون شجاعة ادبية . وقبل ان ترك مورات الجيش عقد مجلساً حربياً وجاهر بالطعن في الامبراطور نابوليون لانهُ اخرجهُ من ايطاليا حيث كان مستدفئاً ليقوم بحرب مهلكة . وقال انهُ لا يمكن الثبات في خدمة رجل مجنون لم يبقَ قادراً على ان يصون تابعيهِ . ولم يبقَ برنس في اوربا ينفذ اوامرهُ ويحافظ على معاهداتهِ . ولو قبلت بما اشارت بهِ انكلترا لصرت ملكاً قوياً كامبراطور النمسا او ملك بروسيا . فاجابهُ دافوست بغيظ ان هذين الملكين هما مالكان بنعمة الله وقد تقررت سلطتهما بمرور الزمان وبتعود اعتبارهما وحقوقهما الموروثة . ولكنك ملك بنعمة نابوليون ودماء الجنود الفرنسويين ولا تقدر ان تبقى ملكاً الا بقوة نابوليون و بالاتحاد مع فرنسا وقد اظهرت الكنود المعيب فلا بد من ان اشكوك الى الامبراطور . انتهى . وكتب نابوليون الى مورات انهُ لايخطر ببالي انك من الذين يظنون ان الاسد قد مات فاذا توهمت ذلك ترى انك في خطا مبين . ومنذ ذهبت من



وبلما الحقت بي جميع الاضرار التي تقدر ان تلحقها بي فالظاهر ان تسميتك بملك قد ابتلتك بالدوار ووجهت القيادة العامة الى اوجين فكتب نابوليون عنهُ ان نائب الملك متعود ادارة الحركات الحربية العظيمة وهو حاصل على ركون الامبراطور . فتعاظم كدر مورات بهذا التوبيخ . ولما راى ملك بروسيا ان الجيش الفرنسوي هلك كلهُ عقد في اول اذار (مارس) معاهدة دفاع وهجوم مع روسيا وشهر الحرب على فرنسا . وسمع نابوليون بذلك وهو في قصر سان كلو فقال ان العدو الظاهر خير من الصديق المنافق . وبعد ذلك قال ان عدم خلعي لملك بروسيا من اعظم الخطا مع انهُ كان سهلاً عليَّ . وكان من الواجب عليَّ بعد خلعهِ ان افصل سيليسيا عن بروسيا وان الحق هذه الولاية بسكسونيا . فملك بروسيا ورعاياهُ باتوا في ذل شديد فلم يكن بد من محاولة اخذ الثار عند سنوح الفرصة الاولى . فلو قلبت المملكة ومنحت الفلاحين نظامات حرة وخلصتهم من عبودية اصحاب الامتياز لارتضت الامة

ورغب نابوليون في استجلاب خاطر عدوهِ بمعاهدة سهلة ورضي بان يترك حقوقاً كثيرة بامل نوال السلم . غير ان ملوك اوربا المتحدين العاتين اغتاظوا من كرامة اخلاقهِ . وقال هذا ان اعداء الفتنة الفرنسوية صمموا على المحاربة الى الفناء . وكانت مضادتهُ عظيمة جداً لان اعداءهُ ساقوا رعاياهم بوعود كاذبة متعلقة بمنحهم الحرية الى محاربتهِ وجعلوا اماماً كثيرة اعداءهُ . ففي المانيا وحدها تقلد السلاح اكثر من ٨٠٠ الف رجل . وعقدت جمعيات سرية كثيرة في اواسط اوربا وشرع قوم في التآمر اذ كانوا يفضلون ان يروا بلادهم فريسةً للاجانب محتقرة تحت ملك بوربوني على ان يروها عظيمة مجيدة فائزة تحت ادارة نابوليون

وبعد ان نقضت بروسيا محالفتها لفرنسا عقدت الدول المتحدة اتفاقاً في برسلو مآلهُ ان يدعى كل ملوك المانيا وامراؤها الى الاتحاد على مضادة نابوليون . وان الذين يمتنعون عن اجابة هذه الدعوة يخسرون املاكهم . وهكذا كانت الدول المتحدة تتعدى على استقلال الملوك وتحاول نقض اصرح الحقوق بالقوة الجبرية . اما ملك سكسونيا المتعقل الحكيم فامتنع عن خيانة صديقهِ فتهددهُ الملوك بسلب ملكهِ فالتزم بان يركن الى الفرار . فداست جنود الدول المتحدة بلادهُ وسارت بانتصار الى درسدن فترحب بهم الذين كانوا يخافون اراء فرنسا الحرة . وحاولت حكومة انكلترا ان تجعل دولة الدانمرك تنضم الى الدول المتحدة لاسقاط نابوليون وترجيع البوربون فارسلت بوارجها الى ميناء كوبنهاغن وطلبت اليها ان تجيب في ٤٨ ساعة قطعياً والا فتطلق المدافع على المدينة وكانت اثار دماء ضرب تلك المدينة المرة الاولى لاتزال في شوارعها . وما ذلك الا من التعديات المعيبة التي مست ناموس انكلترا اكثر من مرة اثناء تلك الحوادث . وقال اليسون المؤرخ الانكليزي ان هذه الوسائل لو عضدت بقوة كافية لجاءت باحسن العواقب ولكنها ذهبت سدى للاحتياج الى

قوة عسكرية او بحرية قادرة على انفاذها

اما حزب التوري في انكلترا فسر جدًّا اذ انهم راوا ما جعلهم يعلقون املهم بالنجاح بعد ان صادفوا من التاخر والفشل ما صادفوا . فضاعفوا اجتهادهم بضرر نابوليون وفرنسا ونشروا الوفًا من الكراريس في جميع سواحل فرنسا وضمنوها طعنًا فيهِ واتهموهُ بالطمع والظلم وحب سفك الدماء ومحاولة تهييج العامة الى العصيان . ولم يكتفوا بذلك ولكنهم سبقوا بالدناءة الى اتهامهِ بفتح الحروب العظيمة مقاومًا السلم حبًّا بالمذابح والخراب لتعظيم نفسهِ وانتشار صيتهِ بالانتصار والنفوذ واخذت الحكومة الانكليزية تبذل مبالغ وافرة جدًّا من المال في سبيل نفع كل الذين كانوا يقاومونهُ حتى القت على عاتق الامة دَينًا عظيمًا لا يزال يثقل عليها وما ذلك الا لخلع الذي جعل شانهُ اصلاح شؤون الحكومات

وفي ١١ شباط (فغريه) سنة ١٨١٢ قال مترنخ وزير النمسا لسفير فرنسا عن الرشوة التي دفعتها انكلترا للنمسا لتحملها على مقاومة نابوليون ان انكلترا دفعت ٢٥ مليون ريال (الريال خمسة فرنكات) للنمسا لحملها على مقاومة نابوليون ووعدتها بدفع خمسين مليونًا فضلاً عنها اذا غيرت سياستها فامتنعت عن قبول ذلك باحتقار مع ان مالينها كانت في حالة يرثى لها . وقال المورخ تايبه ان الدول المتحدة وعدوا رعاياهم بمنحهم حرية مكافاة لهم على بذل قوتهم في سبيل مضادة فرنسا مع ان دناءتهم جعلتهم ينوون نقض تلك الوعود فجمعوا جيوشًا جرارة يعجزون عن ادارتها وتاهبوا ليعبروا نهر الرين

وعاهدت النمسا وبروسيا نابوليون على جعل جنودهما تحت امرهِ ليحمل على روسيا غير انهما عندما شاهدتا اندثار جيشهِ انضمتا الى روسيا بدناءة لا مثيل لها في تواريخ الامم فحملتا لدوس عدو امست امورهُ في ضياع . واهل الناموس من الرجال لا يتركون الاصدقاء في حالة الضيق ومن الاعمال التي تجلب عارًا عظيمًا وتدل على الدناءة المحاربة مع حليف في يوم والمبادرة في غدهِ الى الانضمام الى عدوهِ لان ذلك الحليف بات متضعضع الاحوال غير قادر على المدافعة عن نفسهِ

ولما دخلت جنود الدول المتحدة سكسونيا نشرت فيها اعلانات عديدة داعية الاهالي الى محاربة نابوليون . وقال لهم الجنرال وتجنستن في اعلانهِ يا ايها الالمان اننا نفتح لكم صفوف بروسيا فتجدون فيها ابن الفاعل بجانب ابن الامير وقد صار محو كل امتياز في الرتب في سبيل خدمة الملك والحرية والناموس والوطن . فلا تجدون بيننا امتيازًا الا بالاهلية وبحمية الحمل في سبيل قيام الصالح العام . انتهى . وكان قواد جيوش الملوك المستبدة ينشرون هذه الاكاذيب ليخدعوا العامة الجاهلة ويقرروا في عقولهم انهم عضد لمساواة . فنشروا لواء الجمهور مخادعين فاجتمع تحت الفلاحون البسطاء ليضادوا صالحهُ ويدوسوهُ تحت انهار من الدم وخدعت هذه الوعود



كثيرين . فهذه هي المصائب والبلايا التي كانت تحدق بامبراطور فرنسا حتى خيل للناس ان الله قد تركهُ والبشر قد اهملوهُ مع انهُ صديقهم الفريد ومحب خيرهم الصادق

وكان نابوليون ينظر الى تلك المخاطر المحدقة بهِ بسكون وكان يعلم انهُ مامن فائدة في طلب تقرير شروط صلح حال كون اعدائهِ في ذلك الهيجان ولم يبق عليهِ الا ان يجمع كل قوتهِ ويضاعف اسباب دفاعهِ ليدفع شرورهم عن نفسهِ وعن بلادهِ . فدعا اهالي فرنسا للدفاع فاجابوهُ بحمية وغيرة وكان الوالدون يسلمون بتقديم اولادهم للدفاع بسرور وظهرت اسباب التاهب والاستعداد في كل مدينة وقرية فجمع جيشًا جديدًا بسرعة مدهشة وفي اواسط نيسان (افريل) سار في ثلثمائة الف رجل حاملاً على المانيا ليدفع هجمات الذين كانوا عاملين على اذلال بلادهِ واسقاط عرشهِ . اما الابطال من جنود فرنسا فكانوا قد هلكوا في ثلوج روسيا حال كون جيش جرار فرنسوي كان يقاتل بعناء جيوش انكلترا والبرتوغال واسبانيا المتحدة في البلاد الاسبانية فاكثر الجيش الذي جمعهُ كان من الفتيان وقال السار ولتر سكوت انهم كانوا صبيانًا

وفي ١٥ نيسان (افريل) بعد نصف الليل باربع ساعات خرج نابوليون من قصر سان كلو وسار الى اركان حربهِ . وكان كولنكور معهُ وقال عند مسير العجلة كان نابوليون متفرسًا في القلعة ثم القى بنفسهِ الى الوراء ووضع يدهُ على جبههِ وغاص برهة في بحر من التفكر وهو على تلك الحال . ثم عاد الى نفسهِ من هواجسهِ المكدرة واخذ يصف تدبيراتهِ ومشروعاتهِ معلقًا املهُ بالفوز اذ كان يومل بان النمسا تتحد معهُ . ثم عاد الى بساطة طبعهِ وكلمني بتاثير مظهرًا كدرهُ من مفارقة لويزا زوجتهِ الصالحة وولدهِ المحبوب وقال انني احسد اقل الفلاحين في امبراطوريتي فانهُ بعد ان يبلغ السن الذي بلغتهُ يكون قد خدم بلادهُ الخدمة المطلوبة فيبقى مستريحًا في بيتهِ متمتعًا بعاشرة زوجتهِ واولادهِ حال كوني ملزومًا بان اطير الى المعسكر واتعاطى اعمال الحرب المقلقة . فهذا هو نصيبي الغريب ثم غاص في بحر من التامل . فرغبت ان اخلصهُ من تاملاتهِ فكلمتهُ عما حدث في السهرة السابقة في الاليزي عند ما حلفت الامبراطورة بالقيام باعباء وكالة الامبراطورية بحضور الامراء واكابر الدولة والوزراء . فقال ان لويزا الصالحة لطيفة مطيعة فاقدر ان اتكل عليها فانها تحبني وتخدمني بامانة . وفي هذه الحوادث ربما جرى ما يغير حال امبراطوريتي فاذا وقع ذلك فالمامول ان تفعل بنت القياصرة ما فعلتهُ جدتها ماريا تريزا

وامر نابوليون باجتماع جيوشهِ في ارفورت . وفي ٢٥ نيسان (افريل) بلغ معسكر جيشهِ الفتيان الذي لم يكن مختبرًا للامور . اما الدول المتحدة فكانت قد تقوت بالنجاح باعدادها غير المحصاة وعلقت املها بنهوض كل الحزب الملكي في اوربا لمقاومة نابوليون . فكانوا مكللين بالنجاح في كل مكان وتبع ذلك مقاتلات كثيرة غير قاطعة وكان حذق نابوليون يفوز في اكثرها على كثرة اعدائهِ .

وفي مناوشة اصيب بسيار قائد فرسان الحرس الامبراطوري برصاصة في صدره فتجندل ميتاً . وكان قد تقلد قيادته سنة ١٧٩٦ في حروب ايطاليا . وكان كجميع الذين فازوا بصداقة نابوليون من اصحاب الاهلية . وكان شفوقاً حنوناً ومع ذلك لم يكن يخشى اعظم مخاطر القتال . وكان يحترم نابوليون كانه من المعبودات ويعتقد ان المبادىء التي كان يدافع عنها صحيحة صالحة تاتي بالمساواة والحرية وارتفع من اوطى الدرجات الى اعلاها بالدفاع عنها فكان يغصب نفسه على احتمال مشاهدة المذابح والبلايا التي كانت تجعله يذرف دموعاً حتى ان الذين كان يحاربهم مدحوه . فخسارة هذا الصديق الامين كدرت نابوليون جداً فكتب الى الامبراطورة بما ترجمته

ان بسيار يستحق ان يسمى شجاعاً صالحاً وقد امتاز بحذقه وشجاعته وحكمته وباقتداره العجيب على ادارة حركات الفرسان وعلى الامور المدنية وحبه للامبراطور . ويحسد على موته في ساحة الشرف . ومات حالاً فلم يتالم . وصيته طيب كالمسك وهذا اعظم ارث نافع لاولاده . وقل من يشعر بموتهم كما شعرنا بموته وكل الجيش الفرنسوي يشترك مع الامبراطور بالحزن من هذه الخسارة المكدرة

وكان نابوليون مشغولاً على الدوام بمهام عظيمة ومع ذلك لم ينس ارملة ذلك القائد المقتول فكتب اليها كتاباً هذه ترجمته

يابنت خالتي . قد مات زوجك في ساحة الشرف ولا ريب في انك انت واولادك خسرتم خسارة عظيمة غير ان خسارتي اعظم . مات الدوق دواستريا اشرف المينات بدون تالم . وقد خلف صيتاً حسناً جداً وهو احسن ميراث لاولاده وسينالون حمايتي ومساعدتي ويرثون كل حبي لوالدهم

وفي النهاية اجتمع الجيشان بقوة عظيمة في سهول لوتزن وكان ذلك في ٢ ايار ( مايس ) ولم يكن نابوليون منتظراً ملاقاة العدو فكان سائراً بجيشه الممتد ٣٠ ميلاً . واذا بجنود الدول المتحدة قد ظهرت امامه خارجة من وراء تلال كانت قد استترت بها . فحملت في اربعة صفوف طويلة سوداء عددها ثمانون الفاً وفي مقدمتها مدافع كثيرة و٢٥ الف فارس من احسن الفرسان عدة فضجوا ضجة قوية كادت تمزق الجو وحملوا حملات تزعزع الجبال الرواسخ على جنود فرنسا الذين لم يكونوا متعودين القتال . وفي لحظة احترقت قريتان . وكانت المدافع الكثيرة الضخمة تفتح فرجات عظيمة في صفوفهم . وكذلك نيران البنادق المتواصلة . فارسل قواد طلائع الجيش الفرنسوي رسولاً وراء نابوليون طالبين نجدات لئلا يحل الويل والهوان في الجيش وفي برهة قصيرة وصل الى ساحة القتال ولم يكن معه غير ٤ الاف فارس . فتفرس بسكون برهة في كثرة عدد الاعدا الذين كانوا يندفعون على جيشه القليل كامواج البحر المزبد . ثم قال بتانٍ ليس



عندنا فرسان فهذا لا يضر فان هذه المعركة تكون كمعارك مصر والمشاة الفرنسويون قادرون على على كل شيء وانا اتكل بدون خوف على شجاعة جنودنا الفتيان الذين لم يحضروا القتال الا هذه المرة . وسار مسرعاً قاطعاً السهل قاصداً مكان الدخان الكثيف والقتال المخيف حيث كانت طلقات المدافع والبنادق لا تنقطع . فراى هناك من الارتباك والويل والاضطراب ما يلين اقسى القلوب . واذ كان الجنود الفتيان الفرنسويون غير متعودين القتال اوقعتهم المدافع والبنادق الصابة الموت الاحمر عليهم في اضطراب وارتباك فاخذوا يركضون الى الفرار في السهل بفرائص مرتعدة ولم يحافظ على النظام غير قليل من الصفوف المجربة قليلاً . فكانوا يرجعون ببطء امام جيوش العدو الجرارة . وكانوا قد وضعوا جنوداً جرارة من الفرسان على تل مجاور وجعلوها متاهبة لتحمل البلايا والهلاك بسيوفها الى الجنود الفارة . وعندما وصل الامبراطور مع اعوانه الى تلك الساحة تنوى الفتيان بحضوره وساروا مسرعين اليه فارجع اليهم شجاعتهم بكلمات قليلة . وفي لحظة صارت الصفوف المنتشرة مربعات صغيرة وهكذا توقفت الكسرة . ولم ير نابوليون ما يدل على حب الجنود له وركونهم اليه كما راى في هذه المرة . وكان الجرحى وهم محمولون ينظرون اليه بحب ويصرخون فليعش الامبراطور وكثيراً ما كان ذلك الصراخ صراخ الموت . وكان وجوده في كل مكان في وسط الدخان والضوضا سبباً لتقوية الجنود وتشجيعهم ولو كانوا في حالة النزع . ولم يظهر من بسالة الجنود والقواد وحميتهم ما يزيد عما ظهر في هذه المعركة . وكان نابوليون يسير في وسط رصاص وكلل كالبرد كانه يسير في متنزه وتبين للناس انه يروم ان يعرض نفسه لجميع المخاطر التي كان جنوده الباسلون يعرضون انفسهم لها . فانه كان يعرف ان العساكر الذين لم يحضروا قبل هذه المرة في ميدان القتال يحتاجون الى قدوته لتشجيعهم . واستمر القتال ٨ ساعات وكثر عدد القتلى والجرحى وتغطت الارض باجسادهم المقطعة وكان الجنرال جيرار قد اصيب بعدة رصاصات وغطاه الدم السائل من جسده . ومع ذلك كان لا يزال في مقدمة جيشه صارخاً باليها الفرنسويون قد حلت الساعة التي ينبغي ان يموت فيها الانسان او ان ينتصر . وفي النهاية حلت الساعة الفاصلة فجاء نابوليون بجيش الحرس الامبراطوري الذي كان قد حفظه مستريحاً وكان مولفاً من ١٦ فرقة في صف كالبنيان المرصوص امامه ستون مدفعاً من المدافع التي لا مثيل لها فخرق هذا الصف جيش الدول المتحدة الذي كان يتردد . واطلقت هذه المدافع وبنادق هذا الصف طلقات كثيرة متصلة فكانت الطلقات كانها طلق واحد طويل وكان ذلك يجري والصف متقدم . وفي برهة قصيرة تغطى هذا الجيش عن اعين الامبراطور بالغبار والدخان . غير انه عرف بلمعان مدافعهم وبنادقهم انهم كانوا يدفعون العدو امامهم . وهكذا انتصر انتصاراً تاماً غير انه كان بدون فرسان فامر بكل الحاح بان لا يطارد العدو . فنام

في ميدان القتال الذي استولى عليهِ بدماء الوف فتقهقرت جنود الدول المتحدة الى ليبسيك ومن ثمَّ الى درسدن متعجبين مما اظهرهُ نابوليون من الاقدام والحمية والقوة اذ ظنوا ان الخسائر التي تكبدها في روسيا اضعفتهُ فبات لا يقدر ان يقاومهم الا بقوة ضعيفة . وبالحال بعث بخبر هذا النصر الى باريس والى كل دولة محالفة لفرنسا . فملأ قلوب اصدقائهِ بالفرح . وقال نابوليون انني وجدت في جنودي الفتيان كل شجاعة رفاقي الجنود القدماء . وقد قدت جيوش فرنسا عشرين سنة ولم ارَ من الحب والركون والشجاعة اكثر مما رايت هذه المرة . ولو كان جميع الملوك المتحدين لالحاق الضرر بفرنسا في ساحة القتال لراوا انهُ لا امل بكسف طالع سعدها . فكتب الى الامبراطورة وكان قد جعلها وكيلة لهُ بان تبعث الاعلان الاتي الى جميع الاساقفة وهو

باسم الامبراطور من الامبراطورة والملكة النائبة الى اسقف — ان الانتصار الذي فاز بهِ جلالة الامبراطور والملك زوجنا ومولانا المحبوب ليس الا من الحماية المخصوصة الصادرة من لدن العناية الالهية . فنومل ان تبادر عند وصول هذه الرسالة الى الترنم وتقديم الشكر لرب الجنود . وان تدعو بالتحسن لصيانة جيوشنا ولا سيما شخص الامبراطور والملك المقدس ليقيهُ الله من كل المخاطر لان حفظهُ لازم لسعادة الامبراطورية كما هو لازم للديانة التي ارجعها ومن فروضهِ ان يعضدها . وارسل اعلانًا كهذا الى جميع الاساقفة في ايطاليا

وفي غد يوم المعركة عند طلوع الفجر ركب نابوليون وسار جائلاً في ساحة القتال . ونظر بكدر لا مزيد عليهِ جثث ٦ الاف من فتيانهِ ملقاة على الارض ورأى في مناظرهم الدالة على صغر السن وضعف اجسادهم انهم ليسوا بموافقين لاحتمال مشقات الحرب . ونقل الى المستشفيات ١٢ الفًا من الجرحى حال كون كثيرين منهم من اعظم عيال فرنسا والمانيا . وكان يجول بكدر وتامل في ذلك السهل الدموي حتى وصل الى جثة رجلٍ بروسي مات وهو يضم الى صدرهِ شيئًا فدنا الامبراطور منهُ فوجد انهُ يضم اليهِ الراية البروسية فوقف وتفرس في هذا المنظر المؤثر بتامل ثم قال وقد ظهرت الدموع في عينيهِ ولم تجف صوتهُ يا ايها الفتى الشجاع ما ابسلك انك تستحق ان تكون وُلدت فرنسويًا ثم التفت الى قواده وقال بصوت مرتجف يا سادتي انظروا ان الجندي يحب رايتهُ حبًا يكاد يكون عبادة اصنام وفي موضوع اهتمامهِ وعبادتهِ كانها هدية من محبوبتهِ . فارغب ان يبادر بعضكم الى دفنهِ باحتفال وانني متاسف لانني لا اعرف اسمهُ لاكتب عنهُ الى عائلتهِ فلا تنسوهُ عن رايتهِ فان هذه الطيات الحريرية تكون لهُ كفنًا فاخرًا . وهكذا كان نابوليون يكافي الامانة والشجاعة في نفس اعدائهِ

وقد اجمع الناس على ان معركة لوتزن من اعظم الادلة التي تدل على حذق نابوليون ومعرفتهِ لابواب الحرب وعلى حب الجنود لهُ . فان جنود الدول المتحدة اختاروا لانفسهم المواقف



الموافقة لهم فاستتروا وراء سلسلة من التلال فاضجعوا كالكامنين وكبسوا الفرنسويين وهم متفرقون سائرون مستامنون في مسافة ثلثين ميلاً . وحملوا على قلب جيشهِ وميمنتهِ حال كونهِ مولفًا من فتيان . ومع ذلك تمكن من ان يدفعهم ويستظهر عليهم بعد ان قاتلهم ثماني ساعات . ولولا حذقهُ ونفوذ كلمتهِ في جنودهِ وركوبهم اليهِ لما فاز بذلك . وكان عارفًا بما يوثر في قلب البشر معرفة تكاد تكون غير بشرية . وكان يدعو العساكر اولادهُ ففي هذه المعركة افرغ جهدهُ في سبيل انهاض هممهم وتشجيعهم . وكان احد القايمقامية العسكريين قد حط شانهُ بارتكابهِ ذنبًا فانزل عن رتبتهِ وكان شجاعًا محبوبًا جدًّا عند الذين كانوا تحت قيادتهِ . وفي وسط القتال احتيج الى فرقة ذلك القائمقام لتقوم بعمل دونهُ هلاك مبرم . فظهر نابوليون في مقدمتها مع قائمقامها المحبوب عندها . فخاطبهُ ببعض كلمات بحضور جنودهِ وعفا عنهُ وصرفهُ وارجعهُ الى رتبتهِ ففرح الجنود فرحين وامتدت الضجة من صف الى صف وتغلبت على ضوضا القتال المخيف فتحركت بذلك حمية الفرقة وسارت في مقدمة صف ملاقية عواصف الموت في صدرها وتممت ما انتدبت الى تتميمهِ

ومن المستصعب ان تعرف اعداد الذين حاربوا في هذه المعركة . وقال اليسون انهُ من الضرورة ان يكون عدد الفرنسويين اكثر من عدد اعدائهم . مع ان هذا كان عكس الواقع الى قرب نهاية مدة القتال . وقال بوسي ان هذا الفوز يستحق التهاني القلبية فان جيشًا لا يزيد عن الثمانين الفًا منهُ ٤ الاف فارس فقط كسر جيشًا عددهُ مائة وثلثون الفًا معهُ اكثر من عشرين الف فارس

وخسرت الجنود المتحدة ١٢ الف قتيل وجريح فرجعوا باضطراب عظيم . فكادت تسد طريقهم بعشرة الاف عجلة تضمها ملأى بالجرحى وتبعهم الفرنسويون غير متعدين عن موخرتهم واوقعوا بهم . وفي ٧ ايار (مايس) مرَّ الجيش المكسور بدرسدن بدون ان يتجاسر على الوقوف فعبر نهر الي وهدم الجسور والذين تاخروا من التوزاق عبروا سابحين بخيولهم

وفي ابهج صباح من ايام شهر ايار (مايس) اقترب الجيش الفرنسوي من هذه المدينة الجميلة . واقل الجنود واجهلهم نظروا بسرور وابتهاج الى تلك البقعة المحاطة بالتلال المكللة بالحدائق والبساتين والمصيفات الجميلة . وكانت مياه النهر الصافية المغطاة بالازهار الربيعية تجري بجمال في تلك البقعة البهية وتعكس نور الشمس عن قصور المدينة وقبابها وكانت اسلحة العدو المتقهقر تلمع في الجبال البعيدة وصفوف المدافع مقامة فيها واصوات مدافع المطاردين والمطرودين تختلط باصوات قرع الاجراس التي كانت تترحب بمجيء نابوليون الى قاعدة مملكة حليفهِ الكريم الصادق صاحب سكسونيا . وكان ادبًا مستقيم الاطوار وكثيرًا ما كان نابوليون يسمع منهُ هذا الكلام ان الاستقامة والصدق من افعل الالات في السياسة

اما حزب الامراء فكان قد ترحب بسرور بدخول امبراطور روسيا وملك بروسيا . وعند مجيء نابوليون ابتهج الشعب برجوع الامبراطور الذي طالما انفذ حقوقهُ وعند دنو نابوليون من المدينة زارهُ الحاكم واعضا مجلس البلدية الذين خانوهُ وخانوا ملكهم وترحبوا بجنود الدول المتحالفة فقال لهم نابوليون عابساً من انتم . فاجابوا مرتجفين اننا اعضا المجلس البلدي . قال هل عندكم طعام لجنودي . قالوا ان الروس والبروسيين قد انفدوا كل مؤننا فاجاب هذا غير ممكن وكلمتكم لا اعرفها فهبوا الخبز واللحم والنبيذ وانتم تستحقون ان نعاملوا معاملة شعب قد فتحت بلادهم بالسيف ولكنني اعفو عنكم اكراماً لملككم فهو مخلص بلادكم وقد لحق بكم القصاص الكافي بحلول الروس والبروسيين بينكم

وبعد ذلك انحدر الامبراطور عن جواده وسار هو وكولنكور ماشيين على ضفة النهر . وكانت الكلل المدفوعة من المدافع تسقط حولهُ . وكان قد جال في تلك الاماكن واستكشفها بنفسهِ فكان يعرفها قاطفاً تاراً كانت مضطرمة في بقايا جسر وامر الجنرال دروبان بان يأتي بمائة مدفع . فجلس في محل مرتفع ليدبر وضعها . وفي برهة قصيرة اشتبك القتال بين هذه المدافع والمدافع الروسية المقابلة وامسى معرضاً لكل العدو ومس قليلاً براسهِ بقطعة خطب اندفعت من شجرة مجاورة اصابتها كرة . فقال بسكون لو اصابتني في صدري لقتلتني . وفي برهة قصيرة تعطلت المدافع الروسية . وكانت جنود الدول المتحدة قد افرغت جهدها في سبيل منعهِ عن اجتياز اللي فجمعت في موقف منيع محصن في بوتزن وصممت على ان تقاتل قتالاً فاصلاً . وباجتهادات المهندسين الفرنسويين الحاذقين صار انشا الجسر بسرعة وتهيأت قوارب لعبور النهر . وصرف نابوليون اليوم الحادي عشر في المناظرة على جنوده العابرين . فجلس على حجر عند الماء واخذ يشجع جنودهُ . ووعد كل قارب بجاز النهر بعشرين فرنكاً وكان يدفعها فبهج الجنود الفتيان وهم يتقدمون الى الضفة اليمنى من اللي بالمدافع الكثيرة وجميع الالات الحربية

وفي ١٢ من شهر ايار (مايس) سار نابوليون وماك سكسونيا راكبين كل منهما بجانب الاخر في شوارع درسدن الى ان بلغا القصر الملكي . وكانت المدافع تطلق والموسيقى تصدح والاجراس تقرع احتفالاً بهما . وكانت النساء يفرشن الازهار في طريقهما ويحركن المناديل ترحاباً متبسمة ابتهاجاً وهي في الشرف والنوافذ على جانب الطريق . فهذا اخر ما راهُ نابوليون من هذه الاحتفالات . وكان عالماً بالمخاطر العظيمة التي كانت تحدق بهِ وكان في ساعة الفوز يتامل بجد في الخراب الذي كان يتهدد سيلهُ . وقال بعد ذلك انني كنت ارى الساعة الفاصلة مقتربة وان طوالع السعد اخذت تظلم وان اعنة الامور كانت تفلت من يدي وكنت عالماً ان النمسا تستغنم سنوح الفرصة بصعوباتي لتحصل على المنافع ولكنني صممت على ان اقوم باعظم الضحايا والاعمال . واصعب



الامور اختيار الزمان الموافق للتصريح بذلك فبت في شاغل عظيم من هذا القبيل . فاذا حكمنا بان تاثير القوة المادية عظيم نحكم بان قوة الراي اعظم فان تاثيراتها كتاثيرات السحر . وكنت اروم المحافظة عليهِ . وكنت عالماً ان خطوة بخطا وكلمة غير مصيبة كافية لان تخسرني اياهُ . وفي اثناء الفوز يسهل عليَّ القيام بضحايا بدون ان يمس ناموسي

وعادة نابوليون مخابرة اعدائهِ بالصلح عند الفوز فخابرهم هذه المرة بعد استظهارهِ عليهم . وكان يرغب جداً في الصلح ولكن لم يرضَ بان يذل . وكانت الدول المتحدة تنتظر انضمام النمسا اليها قريباً فطلبت شروطاً لاسقاط قوة نابوليون . فلما رفضت شروطهُ بعث باوجين الى ايطاليا ليدافع عنها . وكانت النمسا تجمع جيشاً جراراً سراً فراى نابوليون ان حماهُ الذي نقض عهودهُ سيرسل جيشاً لاسترجاع ما خسرهُ من البلاد في سهول لمبرديا

وصرف نابوليون اسبوعاً في درسدن منتظراً نتائج المخابرات الصلحية . ثم سار في جيشهِ حاملاً على اعدائهِ الذين كانوا قد تحصنوا في استحكامات بوتزن ومرَّ بخربات بلدة صغيرة احترقت عند انتشاب القتال بين الروس والفرنسويين فراى من ضيق اهلها ومصائبهم ما فتت كبدهُ فوهبهم مائة الف فرنك لسد احتياجاتهم ووعدهم بترميمها وسار في ارض كان فيها جرحى متالمين فابدى الكدر والحزن وامر جرَّاحهُ بالاعتناء بجريح روسي مسكين راى انهُ في حالة النزع فقال الجرَّاح ان جرحهُ لا يشفى فقال لهُ افرغ جهدك في تطبيبهِ فان الاوفق تقليل الخسائر

وفي صباح اليوم الحادي والعشرين من الشهر المذكور قابل الفرنسويون عساكر الدول المتحدة المتحصنة وراء مدينة بوتزن المنيعة وكان نهر اسبري يجري امامها وسلسلة جبال كثيرة الاجام اصبحت مكللة بالمدافع الروسية التي كانت تصون ميمنتها . فراى نابوليون انهُ لا يقدر ان يستولي على المعسكر بالحمل فامر الجنرال ناي بان يدور حول اقصى الميمنة قاطعاً مسافة طويلة حال كون جيش الاعداء بات مشغلاً بحملة عنيفة حملها الجنرال اودينو على الميسرة والامبراطور ومعهُ الجنرال صو على القلب . فصرف الفرنسويون ٤ ساعات وهم يكررون حملاتهم على هذه المراكز المنيعة حتى سمع صوت بوق الجنرال ناي في مؤخرة جيش الاعداء ثم ضجوا قائلين فليعش الامبراطور وغاص جيشهُ في وسط معسكر العدو التعب ورعود المدافع والبنادق تبلي الاذان بالصم . فاضطرب جيش الدول المتحدة ووقع الرعب في قلبهِ والحاملون اصبحوا يهجمون على جميع جوانبهِ فركن الى الفرار وسار بدون انتظام الى جهة فياني بوهيميا فاصبح نابوليون الفائز . فتغطت الارض بجثث القتلى ومع ذلك لم يتيسر لهُ ان ياسر غير قليلين ولا ان يغنم ما يستحق الذكر . وكان جيشهُ بدون فرسان فلم يقدر ان يطارد العدو الفارّ بحسب العادة

وقال اليسون المورخ الانكليزي ان ما حدث في هذا الزمان يدل على ثبات عزم نابوليون

وتعقلهِ اكثر من حوادث الازمنة الاخرى لان الخسائر العظيمة التي تكبدها في روسيا ومجاهرة شمالي المانيا بعدوانهِ بعد ان اصابهُ ما اصابهُ يجعلنا عاجزين عن الحكم بالتفاوت بين شجاعتهِ الادبية التي لم تغلب بالبلايا العظيمة وبين اقدامهِ العجيب الذي مكنهُ من التغلب ومن جعل النصر معقودًا بالويتهِ . فتدبيراتهُ الدالة على حذقهِ في لوتزن لم يات بشرٌ باعظم منها وكان جيشهُ اكثر من جيش الاعداء ولكنهُ لم تكن لهُ قوة فرسان بمقاومة فرسان اعدائهِ وكان جيشهُ مولفًا من جنودٍ لم يتعودوا الحروب . اما معركة بوتزن فجاء فيها باعظم حذقٍ وضبط واصابة بادخال الفرق مبدأن القتال في الاوقات الموافقة فنستحق ان تدوّن اخبارها مع اخبار اوسترلتس وجينا . انتهى

وبات نابوليون متعبًا جدًا عدة ايام وليالي لم يذق بها طعم النوم ولا استراح لحظة فاثناء القتال طرح بنفسهِ على الارض بالقرب من صف المدافع واستغرق في النوم غير مبالٍ برعود المدافع وضوضا الحرب . وثبت ان خسائر المنتصرين الذين حملوا حتى بلغوا افواه بنادق اعدائهم زادة عن خسائر المنكسرين . فان الدول المتحدة خسرت خمسة عشر الف قتيل وجريح . اما الفرنسويون فقتل خمسة الاف رجل منهم حال كون عشرين الفًا منهم بانوا جرحى يئنون في مستشفيات بوتزن والقرى المجاورة لها . وضرب نابوليون خيمتهُ في وسط جيش الحرس الامبراطوري الامين بالقرب من فورشن حيث كان اركان حرب الجيوش المتحدة في اليوم السابق وفي الحال كتب اخبار الحرب والاعلان الاتي الصادر عن كرامة الاخلاق وهو

سيبقى على اعظم جهات جبال سنس ما يكون تذكارًا جليًا ما لهُ ان الامبراطور نابوليون امر وهو في ميدان معركة فورشن ببناء هذا التذكار شكرًا لاهالي فرنسا وايطاليا وشهادة لهم . وبجعل هذا البنا من قرن الى قرن تذكار الزمان العظيم وهو ثلثة اشهر تقلد فيها مليون ومائتا الف رجل السلاح لصيانة اراضي الامبراطورية الفرنسوية

ولم يتيسر لنابوليون ان ينفذ وعدهُ ببناء التذكار المذكور . فيتاسف من فوز الجيوش المتحدة كل محب لفضائل حب الوطن والفنون والحرية العمومية

واقام نابوليون اكثر ذلك الليل يكتب رسالات . وبعد نصف الليل بثلث ساعات سار مع الجنرال دروي وحدهُ الى قبر غستافوس ادولفوس . وكان حزينًا جدًا من موت الجنرال بسيار . فسار بدون ان يفوه بكلمة واحدة . ولما بلغ الاشجار المحيطة بالقبر قال لرفيقهِ اتركني ياجنرال فانني اروم الانفراد . فعرّف بنفسهِ الحارس الذي عارضهُ وسار الى ما بين الاشجار واشتد حزنهُ بسكون الليل ومنظر القبر المؤثر واشعة القمر تنيرهُ مع تذكار الاعمال التي كان يقوم بها فانهُ كان يعلم ان هذه المعركة ربما كانت فاصلة . ولم يكن من الذين يمكنون الامور الخارجية من ان تؤثر فيهم ومع ذلك



قال ان ذهابي الى قبر ذلك المشهور جعلني اشعر بامور غريبة بل كانهُ رفع الستار عن الاستقبال فبين لي استقبالي . واقام هناك ساعة صامتًا منفردًا ثم عاد الى الجنرال دروي وقال من المفيد زيارة القبور حينًا بعد حين لتكلم الاموات بالافكار . ثم صمت وعاد الى مضربهِ . وعند الفجر رجع الى قيادة جيشهِ وفي برهة قصيرة لحق حرس موخرة الاعداء الحال في مواقف حصينة ليصون الجيش المتقهقر . وانتشب قتال شديد وكان الرصاص يسقط كالبرد على حراس الامبراطور وتجدل احد اعوانهِ عند قدميهِ . فالتفت الى الجنرال دوروك وقال قضي النصيب باهلاك واحد منا اليوم . وبعد الظهر من ذلك اليوم فيما كان نابوليون راكبًا هو وحراسهُ الذين كانوا يسيرون اربعة فاربعة مسرعين وقد غشيهم الغبار والدخان وقعت كرة مدفع بينهم واصابة الجنرال كرجنر وقتلتهُ حالاً وجرحت دوروك جرحًا مميتًا اذ مزقت احشاءهُ ولم يرَ نابوليون ذلك حينئذٍ وأُخبر بهِ بعد فقال بتردد وقد اخذ الحزن منهُ كل ماخذ هل قتل دوروك الجنرال دوروك يا الهي المنعم ان افكاري لا تحدثني ابدًا هذا يوم محزن بل يوم مهلك . ثم نزل عن جوادهِ واخذ يتمشى صامتًا غائصًا في بحر التفكر ثم التفت الى كولنكور وقال واسفاه متى يلين الدهر واي متى تنتهي هذه الحال فلا بد لرابيتي من ان تفوز غير ان السعادة التي كانت ترافقها قد فرت . الى اين ذهبوا بهِ لا بد من ان اراهُ مسكين دوروك مسكين . فوجدهُ نابوليون في حالة النزع في كوخ ملقى على فراش جندي يتوجع جدًا وكان قد تغير منظرهُ حتى انهُ كاد لا يعرفهُ فدنا من فراشهِ واعتنقهُ وقال هل انقطع الامل . فاجاب الاطباء قد انقطع الامل . فامسك يدَ نابوليون وقبلها بانشغاف ونظر اليهِ بحب وقال لهُ يامولاي لقد بذلت حياتي بطولها في سبيل خدمتك ولا اتاسف الا انني بت لا اقدر على نفعك . فاجاب نابوليون مترددًا من الحزن يادوروك ان لنا حياة اخرى فانتظرني ولا بد من ان نلتقي يومًا من الايام . اجاب بصوت ضعيف نعم يامولاي ولكن هذا لا يكون الا بعد ثلثين سنة بعد ان تفوز على اعدائك وتمكن وطنك من بلوغ امالهِ وقد عشت بامانة فلا اوبخ نفسي ولي بنت جلالتك والدها . فاثر هذا الكلام فيهِ جدًا حتى انهُ صرف برهة بدون ان يقدر على التكلم حال كونهِ ماسكًا يد صديقهِ الذي كان لا يزال في حالة النزع . ثم قال دوروك يامولاي ان هذا المنظر يكدرك فاتركني . فرفع نابوليون يدهُ ووضعها على صدرهِ وقبلهُ ثانيةً وقال بكدر استودعك الله ياصديقي وخرج من الكوخ مسرعًا وقال هذا مكدر محزن جدًا واصدقاءه العظيم يادوروك المحبوب آه ما اعظم هذه الخسارة . ورأى الناس الدموع تذرف غزيرة من عينيهِ وهو داخل الى خيمتهِ لينفرد فيها . فراى رجال حرسهِ القديم حزنهُ فاشتركوا معهُ فيهِ ونزلوا حول خيمتهِ فجلس وحدهُ فيها ملتفًا بثوبهِ الكبير والقى جبهتهُ على يدهِ وغاص في بحار الحزن المولم والكدر الشديد ولم يرتض احد ان يدخل عليهِ ليشغلهُ عن حزنهِ الا بعد ان صرف برهة على تلك الحال . ثم دخل عليهِ اثنان من

القواد وسالاه عن تدبيرات الغد فهز راسهُ وقال لهما لا تسالاني عن شيء قبل الغد . ثم التفت جبهتهُ على يدهِ وعاد الى ما كان عليهِ . وخيم الظلام وكانت النجوم تظهر وطلع القمر لامعاً في فلك صافٍ وكان الجنود يتحركون صامتين ويتكلمون باصوات مخفضة وهم يهيئون طعامهم ولم يسمع صوت شيء الا صوت العجلات واطلاق مدفع بعيد وكان منظر قرى محترقة في جهات مختلفة يزيد المؤثرات

وقال المورخ مولي ان الحزن اوعب قلوب اولئك الجنود الباسلين اذ راوا الحزن متمكناً من امبراطورهم المحبوب فوقفوا برهة صامتين باكين . وبعد برهة سمع في وسط تلك الاهوال المحزنة صوت الموسيقى تصدح اكراماً لهُ . فسمعت نغماتها المحزنة في ذلك الميدان وبلغت مسامع البطل القريب من الموت بلوغاً ملطفاً لاوجاعهِ معزياً لهُ ومع ذلك لم يتحرك نابوليون . ثم غيرت نغمتها المحزنة بنغمة فوز مفرحة . وكان قد تعود استماع هذه النغمات بسرور شديد عندما كان يعود منتصراً . اما الان فكانت تبلغ اذنيهِ كانها اذنا صخر صلد . ثم انقطعت وسمعت النغمة المحزنة . ولم يكن شيء يزيل حزنهُ وكدرهُ فان صديقهُ كان ملقى يموت والقلب الذي كان يحبهُ اكثر من كل شيء كان يضرب ضرباتهُ الاخيرة . وقلبهُ الذي لم تغيرهُ عداوة الدنيا ولا مخاوف القتال تحرك تاركاً راحتهُ وسكونهُ وانكسر بهجمات الحب . فاي قائد حزن حزنهُ في ميدان الحرب واي جيش احب قائداً كما احبهُ جيشهُ

وبعد ان تنفس دوروك برهة بضعف مات عند الفجر . ولما بلغ نابوليون خبر موتهِ المنتظر قال بحزن قد انتهى وقد تخلص من الالم والبلوى وهو اسعد مني . ثم وضع في يد الجنرال برتيه ورقة بدون ان يتكلم وامر بها ان يبنى لهُ تذكار حيث اصابتهُ الكرة وان يكتب عليهِ ما ياتي . هنا تجندل تجندلاً مجيداً بكلة مدفع الجنرال دوروك دوق فريولي المارشال الاول في قصر الامبراطور نابوليون ومات وهو على ذراعي الامبراطور صديقهِ

ثم امر باحسان الى زوجة الجنرال المهذبة وبنيهِ ثم دعا اليهِ صاحب الحقل الذي مات فيهِ ودفع لهُ عشرين الف فرنك ليصرف اربعة الاف فرنك منها في انشاء حجرة موافقة والباقي ليعوض على صاحب الحقل الخسائر التي تكبدها بسبب القتال ودفع المبلغ بحضور حاكم ماكرسدم وقاضيها وتعهدوا ببناء الحجرة

ولم تنفذ اوامر الامبراطور الناشئة عن كرامة الاخلاق لان المتحدين على قتالهِ فعلوا فعل الادنيا وسلبوا المال المدفوع للفلاح وحسبوهُ غنيمة حربية ووضعوها في اكياسهم ومنعوا تذكار رجل من اكرم الرجال واعظمهم وحرموا نابوليون لذة اظهار حبهِ لاصدق اصدقائهِ على ان نابوليون لم ينسهُ قط فانهُ ذكر ابنتهُ في وصيتهِ وهو على فراش الموت . وكان دوروك يستحق التمتع بعناية نابوليون وحبهِ . وقد شهد بذلك الدوق دي فنزا اذ قال ان موت دوروك صديق الامبراطور



جرح قلبهُ . وكان من الذين لا تستحقهم الدنيا اذ حاز من الطهارة والكمال ما لا يعهد في اهلها وصفاتهُ تجعلنا نحق الركون الى الطبع البشري . وكان في المنصب العالي الذي رقي بحكمة الامبراطور اليهِ ومع ذلك كان لا يزال كالاهالي البسطاء فلم يسكر بعظمة منصبهِ ولا افسد بها بل حافظ على البسالة وجعل تصرفهُ مستقلاً خالياً من التصنع . وكان صادقاً محباً عادلاً شريف الاعمال وقد مدحتهُ هذا المدح بدون ان اخاف المناقضة

ثم عادت الجنود الفرنسوية الى مطاردة الاعدا المتقهقرين ودخل نابوليون قرية برنتزلو . وكان القائد كوتوزوف الروسي قد مات فيها قبل دخولهِ اليها باسابيع قليلة بالحمى الناشئة عن الاتعاب والمشقات التي عاناها بالمسير من موسكو ولم يبنَ فوق قبرهِ ما يحفظ ذكرهُ فامر نابوليون ببناء تذكار فوق قبر عدوهِ وما ذلك الا من كرامة اخلاقهِ التي لم يتصف بها البشر . ولكن المصائب التي وقعت عليهِ بعد ذلك منعتهُ عن اجراء هذا الامر . فشتان ما بين تصرفهِ وتصرف اعدائهِ المتحدين

ولم يكن يفارق طلائع جيشهِ بل كان يديرها ونفى عنهُ الاكدار وعاد الى البشاشة والسرور . فكان يسير احياناً راكباً مغنياً اغاني فرنسوية وايطالية بصوت مخفض . اما الملوك الذين اتحدوا عليهِ فباتوا في قلق شديد وشاغل عظيم . وارسلوا نجدات وافرة من روسيا وبروسيا غير ان الصف الاول من طلائعها لم يكن يقدر ان يصل الجيش قبل مضي بضعة اسابيع . فرغبت في اضاعة الزمان بالمخابرات حتى تنضم الى الجيش فانفذت رسولاً اليهِ طالبة المهادنة وقال لهُ ان الملوك المتحدين مستعدون ان يوافقوهُ على ارائهِ . فاجاب بالملاطفة والسرور وكتب طالباً الى امبراطور روسيا ان يقابلهُ بنفسهِ . فاجاب انهُ سيرسل مامورًا روسياً الى طليعة الجيش الفرنسوي ليخلص نفسهُ من احتمال مشقات السفر . وكان نابوليون راغباً في الصلح ولكن الدول المتحدة لم تكن تروم الا اكتساب الزمان لوصول نجداتها الى ميدان القتال وحمل النمسا على الاشتراك في محاربتهِ . فاطالوا المخابرة الصلحية وكانت النمسا تتوسط وفي النهاية صارت حكماً . وبعد وصول النجدات وبلوغ المرام ارسل مترنخ الى نابوليون طالباً الشروط الاتية المهينة وهي ان تعطي فرنسا للنمسا ولايات البريا والبندقية اللمبردية وان يعطي المتحدين هولاندة وبولونيا وجميع قلع اودر والبي وان تخرج الجنود الفرنسوية حالاً من اسبانيا والبرتوغال . وان يلغى اللقب المختص بهِ وهو حامي الحالفة الرينية ووسيط جمهورية هلفتيا . وقال نابوليون طالب الي قبول هذه الشروط وكانت الدول تعلم انني ارفضها فلو قبلت بها لما انتفعت فرنسا لانني لا اربح بها شيئاً واجعل في يد النمسا ما يمكنها من طلب امور اخرى ومضادتي بعد ان اعطيها ما يقويها وكانت الدول مصممة على طلب شيء بعد شيء الى ان تدخلني الى قصر التويلري . فيغتاظ الفرنسويون من جرى ضعفي وينفونني اذ يحق لهم ان يحكموا بانني سلمتهم الى الاجانب

فاجاب نابوليون الرسول بتبيان وصراحة على هذه الشروط بقوله تاجلت مداخلة النمسا لتروا هل يمكن اذلال فرنسا فتصير في حالة اردا من الحالة التي كانت عليها عند ابتداء المحاربات ولما راى امبراطوركم انني منتصر بادر الى المداخلة ليمنعني عن تتبع فوزي وقد اتخذ على نفسه امر التسوية فلا يحسب صديقي ولا حكماً عدلاً منزهاً عن الغرض ليحكم بيني وبين اعدائي . بل صار عدوي . وهمتم ان تعلنوا العدوان غير ان انتصاري في لوتزن بين لكم ان من الحكمة تكثير الجنود المحاربة وقد جمعتم الان وراء جبال بوهيميا اكثر من مائتي الف رجل تحت قيادة اسورتزمبرغ ولا تطلبون الا الانتفاع بارتباكي فهل يوافقكم ان تاخذوا ايبرا وتحافظوا على الحيادة فلا اطلب اليكم الا الحيادة فان جيشي كاف لملاقاة الروس والبروسيين . وكان المامور مترنخ يروم ان ينضم الى الفئة التي تتنفع النمسا منها اكثر من الفئة الثانية فقال لنابوليون مجيباً اه ياسيدي لماذا تحارب وحدك فانك قادر ان تجعل جنودنا تنضم الى جنودك فلابد من ان نكون معك او عليك . فعند ما سمع نابوليون منه ذلك انفرد به في غرفة بسطت فيها الرسوم وتحدثا طويلاً بدون ان يسمع احد حديثهما وفي نهاية الحديث اغتاظ نابوليون وسمع الذين كانوا في الغرفة المجاورة حديثه وهو . ماذا تروم الا تكتفي بالبريا هل تطلب نصف ايطاليا ورجوع البابا الى رومية وبولونيا وخروج جنودي من اسبانيا وهولاندة ومحالفة الرين وسويسرا وهل تقول ان هذا طلب معتدل . والظاهر انكم مصممون على الانتفاع كل ما سنحت لكم الفرصة وتنقلون محالفتكم من معسكر الى اخر لتكونوا شركا على الدوام في الغنيمة ومع ذلك تقول انكم تعتبرون الدول المستقلة وان ايطاليا وروسيا وبولونيا واسوج ونروج وبروسيا وسكسونيا وانكلترا وهولاندة وبلجكا تكون معكم وبالجملة اقول ان طلب الصلح محض ادعا اذ قد عولتم على تقسيم الامبراطورية الفرنسوية وقد خطر للنمسا ان مجرد اعلانها الحرب يمكنها من ذلك . وقد ادعيت ان سطراً واحداً يجعل حصن دانتسيك وكوسترن وكلوسو وماغديبورغ ووسل ومايتس والاسكندرية ومانتوا وسائر المواقف الحصينة في اوربا تفتح امامكم مع انني لم افز بالاستيلاء عليها الا بقوة الانتصار . وهل تروون ان اطيع سياستكم واخلي اوربا التي لا يزال نصفها في يدي وان ارجع جيوشي الى ما وراء الرين والالب والبرنات واقبل بمعاهدة لا تحتوي الا على تسليم شنيع واجعل نفسي تحت رحمة الذين انتصرت عليهم الان حال كون رايتي لا تزال تخفق عند مصب التستولا وضفة الاودر وجيشي المنتصر عند ابواب برلين وبرسلو وانا قائد ٣٠٠ الف جندي ومع ذلك تنتظر النمسا مني ان اقبل بشروط كهذه بدون ان تحمل حملة او تسل سيفاً وحمي هو الذي انقذك الي بهذا الطلب فماذا تقول الامة الفرنسوية فهل يظن ان عرشاً قد اضاع شرفه وقوته يكون ملجئاً امينا لصهره وحفيده آه يامترنخ ما هو المبلغ الذي دفعته انكلترا لكم لتحاربوني . وصار ارتباك الامبراطور نابوليون عبارة عن ضيق وشدة فان النجدات كانت قد انضمت الى الجيوش المحاربة



وكانت النمسا قد استعدت لان تحمل على موخرته اذا رفض هذه الشروط . فاشار نفس تاليرند وكامبسزبان يسلم بهذه الشروط المعيبة والمضرة جداً بصوالح فرنسا .

وتكلم عن تلك الضيقات بعد هذه الحوادث قائلاً تحيرت جداً لما رايت انني وحدي قادر على ادراك المخاطر المحدقة بنا فانني بت عرضة لقوات عظيمة جعلت وجودنا في خطر مبين حال كون رعاياي كانوا بعمى بصيرتهم يجارون العدو . وكان الاعداء يجتهدون في اهلاكنا وجهالة شعبي حتى نفس وزرائي تجعلهم يفرغون جهدهم في سبيل تسليم نفسي الى رحمة الاجانب . فرايت ان فرنسا ونصيبها وقواعدها متوقفة عليّ دون غيري فباتت البلاد في خطر مبين لم نر مثله فثبات البنا السياسي الذي كنت اساسه كان متوقفاً على انتصاراتي . فلو غلبت في مارنجو لوقعت فرنسا في جميع مصائب سنة ١٨١٤ و ١٨١٥ بدون التمتع بمجد الحوادث التابعة التي اصبحت مخلدة . وكذلك في معارك اوسترلتس وجينا وايلو ووغرام . فالعامة لامتني ناسبة تلك الحروب الى مطامعي مع انني لم افجها ولكنها حدثت بقوة الاحوال ونشأت عن منازعات الماضي والاستقبال ومحالفات اعدائنا التي الزمتنا بان نتغلب عليهم لئلا يتغلبوا علينا

وكان نابوليون يرغب في المصالحة ويرضى بان يضحي اموراً كثيرة للحصول عليه وارتضى بالشروط الاتية وهي ابطال غراندوقية وارسو وقسمة اراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا وتسليم مدن الهانز وارجاع بروسيا الى ما يجعل لها حداً عند نهر البي . واعطا ايلبريا وثغر تريستة للنمسا وترك هولاندة واسبانيا وتقرير الاستقلال الالماني والسويسري وكان ذلك قريباً مما طلبته الدول المتحدة في بادي الامر فانها كانت قادرة جداً ومع ذلك كانت لاتزال تخاف قوة ذلك العدو العظيم وكادت توقع على هذه الشروط واذا باخبار معركة فنورا المهلكة كادت تستاصل القوة الفرنسوية من اسبانيا . والتزم نابوليون باضعاف جنوده في اسبانيا ليلاقي اعداءه في المانيا . وكان الدوق اوف ولنكتون الانكليزي في مائة الف رجل مستعداً الان ينصب كالسيل على اودية فرنسا التي امست بدون مدافع فسمع المتحدون بهذه الاخبار بفرح عظيم وصمموا على الانقطاع عن التخابر والرجوع الى القتال وجدد وارشق نابوليون باسهم اللوم وقالوا انه لاحدود لمطامعه فجمع جيوشه للقتال . وكان في اسبانيا حزب محب للحرية يضاد ذلك الدوق فكتب في ٦ اتشرين الاول ( اكتوبر ) الى الوزارة الانكليزية قائلاً اذا لم نغلب اولئك القوم في قادس نصبح نجاحنا . وقال اليسون عن النصرة الانكليزية المذكورة في اسبانيا ان هذه المعركة العظيمة اثرت تاثيراً عظيماً مهماً جداً في موتمر براغ . وقال المورخ فين ان مترنخ سمع بتفصيلات هذا النصر من افواه الانكليز انفسهم في ساعة رجوعه الى بوهيميا وسنرى قريباً تاثيرها المضر بالمخابرات السلمية وقال اللورد لوند وندري ان فوز اللورد ولنكتون اثر تاثيراً عظيماً وجعلني لنرصد الرجوع الى

القتال . وقال نابوليون للدوق امي جانبه انا عالم اني الام بحب الحرب وبطلبها مراعاة لمطامعي غير انني لا اتهم بمجانبة اتعابها والفرار من مخاطرها . وهذا شيء ولكن من يقدر ان يعلق امله بعدل الناس ما دام في قيد الحياة . وبعد ان اموت يعلم الناس بان الحالة التي بت فيها متهددًا بحالفات قوية اقامتها انكلترا وعضدتها

ولم اقدر على مجانبة القتال الا بتعريض نفسي لامرين احدهما التربص الى ان يجتاز العدو حدودي والآخر ان امنعهُ عن ذلك بالحمل عليهِ وهو في بلادهِ . فاخترت الطريقة التي تصون بلادنا من افات الحرب وخرابها ونفقاتها . واذا اصر معاصريَّ على توبيخي ولومي ينصفني اهل القرون القادمة . ولا بد ان تحكم اننا قمنا بفروضنا بدفع الحملات التي لم تحمل العالم على القيام بها ولم تجار مطامعنا . اما الحرب في اسبانيا فلم تنشأ كغيرها من مجرد تهيجات الانكليز . وربما كان الذين يجهلون مركزنا بالنسبة الى حكومتها ينتقدونها . فان تصرفها لما كنت في المانيا بين ان فرنسا لا تركن اليها . واجمع الذين كانوا اعواني على صحة ذلك وحدث مالا مثيل لهُ في التاريخ وحملني على الحمل عليها . وحدث امر مكدر عظم الصعوبات وكثرت اهميتهُ بتسليم بيلن المعيب المضر جدًّا . وفضلاً عن ذلك كان من اخطر الامور ابعاد سطوة انكلترا عن اسبانيا لئلا تقع في بلايا مهلكة عند ابتعادنا عن بلادنا . وقد طالما علقت املي بحلول زمان اتمكن فيهِ من الاعتناء باعمال السلم لابين لفرنسا انني في مخادع السلم كما في المعسكرات لا عني بسعادتها

واصبحت الدول المتحدة كلها قادرة على المحاربة معلقة املها بفوز تام . وكانت قد وردت نجدات على امبراطور روسيا عددها خمسون الف رجل . ووصل جيش اسوج الى ميدان الحرب تحت قيادة برنادوت ليحارب رفاقهُ في الحرب ووطنهُ الفرنسوي . حتى ان الجنرال مورو الذي عنا نابوليون عنهُ بكرامة اخلاق جاء عاجلاً من امركا ودخل معسكر المتحدين ليحاربوا فرنسا ويسلبوا حريتها . والجنرال جوميني رئيس اركان حرب جيش فرنسوي اقتدى ببندكت ارنولد في هذه الساعة الكثيرة المصائب والبلايا وانضم الى الاعداء حاملاً كل الافادات التي قدر على جمعها عن نوايا الامبراطور . وهذا الجنرال كان من سويسرا في خدمة الفرنسويين والظاهر ان الامبراطور لا يقدر ان يثبت في قتال اعداء كثيرين كهولاء ففضل استغنام هذه الفرصة الجديدة بامل النجاح ظانًّا انهُ يستامن فيها كما استامن في بداية انتظامهِ في السلك العسكري

فرفضت الدول شروط نابوليون . وفي ليل ١٠ اب ( اغسطوس ) صعدت في النضاسهام نارية ذات اشكال عجيبة وكانت ترتفع فوق حدود بوهيميا وسيليسيا . وكانت اشارة الى ابتداء القتال . وفي الغد اعلنت النمسا الحرب . فسمع نابوليون هذا الخبر المنتظر بسكون تام . فقال بتان يليق بهِ ان الهلاك في ساحة القتال مفضل عندي الف مرة على الخضوع للاهانات التي ترغب



اوربا في ان تلحقها بي . فالكسر مع الصبر والثبات يحمل على الاعتبار فافضل الحرب . فاذا غلبت فللدول التي تحاربني صوالح كثيرة متباينة جدًّا فلا يسلم بعضها الى البعض الاخر بالانتفاع كثيرًا بالفوز واذا انتصرت اخاص الجميع . ولا ازال ارى بابًا للفرج . فلا اقع في ياس . وكان كولانكور اول من اخبر نابوليون بهذه الحوادث المكدرة ووصف ماجرى بينهما وذكر هذا الحديث ثم قال لهُ الامبراطور هل صرحت النمسا رسميًّا بانها ضدي . قال كولانكور اظن ياسيدي ان النمسا ستتحد مع بروسيا وروسيا على مقاومتنا . قال الامبراطور بحدة ان هذا هو رايك وليس الواقع . قال يامولاي هو الواقع ولا اسند قولي الى تخمينات في امور خطيرة كهذه قال على اي شيء بنيت رايك اجاب انهُ قبل الزمان المعين لانقضاء الهدنة بيومين سار بلدشار في مائة الف رجل حاملاً على سليسيا واستولى على برسلو . قال الامبراطور هذا مهمٌّ فيا كولانكور هل ذلك موكد عندك . قال يامولاي انني خابرت مترنخ باهتمام بهذا الشان قبل ان ذهبت الى براك . وفي يوم الاستيلاء على برسلو فر الجنرال جوميني من اركان حرب المارشال ناي وهو الان مع الامبراطور اسكندر . قال ماذا تقول اهو جوميني الذي افضت عليهِ انعاماتي كيف خانني وفر من موقعهِ عند انتشاب القتال . وكيف ذهب الى العدو مقررًا عن جيوشنا وقوتنا . انني لا اصدق هذا . وكان يتكلم ولوائح الكدر الشديد تلوح على وجههِ ممزوجة بلوائح انشغال البال . ثم مد يدهُ اليَّ ليودعني قائلاً اهذه كل اخبارك . تكلم يا كولانكور واطلعني على كل شيء . اجاب ياسيدي ان محالفة اعدائنا اتسعت دائرتها فان اسوج قد تسلحت لمقاومتنا . قال بفروغ صبر ماذا تقول هل تسلح برنادوت ليحارب فرنسا كمن شرب من بئر ورمى فيها حجرًا . ثم قال كولانكور ان برنادوت لم يكتف بان يتقلد سلاحهُ ليقاوم بلادهُ بل اخذ يحرض قوادنا على ان يتركونا كانهُ لا يقدر ان يحتمل لوم بلادهِ وحدهُ . قال وضح الكلام . اجاب ان الجنرال مورو انحاز الى معسكر الدول المتحدة على محاربتنا . قال هل مورو معهم . هذا غير ممكن فيا كولانكور انني لا اقدر ان اصدقهُ . فان برنادوت ملك اسوج ربما كان يحاول ستر خيانتهِ بدعوى فارغة . ولكن مورو كيف ينتقم من بلادهِ هذا محال . وانا عالم انهُ ضعيف العزم قليل الهم شديد الطمع غير ان بينهُ وبين جوميني بونًا عظيمًا فان هذا فراري خائن . ان هذا الخبر لا يصدق كيف بلغك

وكان كولانكور من الذين اشتركوا في المخابرات التي سبقت حرب الدول المتحدة وقد قال ان املي كان ضعيفًا بالنظر الى النمسا ولم ارَ شيئًا يعلق بهِ الامل لمصافاة بروسيا وروسيا . فجهدت نفسي لستر ما تقرر في عقلي من ان اجتهادات نابوليون لا تجدي نفعًا وتظاهرت بتيقن نفع التخابر وثبت عندي انهُ لا بد من الحرب واني اشهد بان الامبراطور كان يرغب جدًّا في عقد صلح بشروط عادلة . غير ان جميع ضحايانا واجتهاداتنا ذهبت سدًى لان انكلترا كانت تقاومنا

بجيلها وهي عدوتنا الابدية الشديدة . فاتحدت خمس دول على دولة واحدة وملبونا رجل ابطلوا حالاً تاثيرات انكارها وداسوا ثمرات انتصار فرنسا . وكان اولادفرنسا يفعلون فعالاً عجيبة بل كانوا ياتون ساحة القتال بمعجزات شجاعة ولم يجد ذلك نفعًا . فانهُ آل الى تضعيف قوة بلادهم التي كان قد قضي عليها بالسقوط بعد زمان طويل او قصير . وبعد ان انتصرنا في معركة لوتزنا عرضتُ الصلح على روسيا وبروسيا باسم الامبراطور فنقضناهُ . وبعد ذلك بايام قليلة انتصرنا ثانية في بوتزن ببذل دم انجع الفرنسويين . فانهُ قتل فيها بروبار وكرجني ودورو . واخبرني الامبراطور انهُ اجتمع بموسيو بودنا معتمد النمسا بدون ان يكون لاجتماعهِ بهِ نتيجة . وقال لي ياكولنكور ان الذين يولَدون ملوكًا لا يعتبرون رباطات القرابة الطبيعية . فان صوالح بنت امبراطور النمسا وابنهِ لا يحملانهِ على ان يبتعد قدر شعرة عن السبيل الذي تعينهُ وزارتهُ . فلا يجري دم في عروق هولاء الناس ولكن السياسة تجري فيها . فلو وافقنا امبراطور النمسا بصداقة لتمكن من تخليص الجميع . واتحاد النمسا مع فرنسا يجعلها قوية جدًّا . وتمسي روسيا وبروسيا غير قادرتين على الثبات في الحرب . على ان النمسا تحت ادارة خائن طامع فلا بد لي من مداهنتهِ قبل التمكن من اهلاكهِ . ان مترنخ يقدر ان يضر كثيرًا . وقال كولنكور لا اعلم كيف قدر الامبراطور ان يحمل الاثقال والاتعاب التي تحملها في تلك الحرب . فان الايام كانت تصرف بالقتال وفي المسير بسرعة من مكان الى مكان . وكان يصرف النهار بطولهِ راكبًا والليل كاتبًا . ومعركة بوتزن المشهورة استمرت ٢٤ ساعة ولم يرتح قط في اثنائها . وفي اليوم الثاني تغلب عليهِ التعب فنزل عن ظهر جوادهِ ونام في جانب وادٍ محاط بصفوف مدافع المارشال مارمون حال كون رعود المدافع كانت متواصلة . وايقظتهُ بعد ان نام بساعة وقلت لهُ لقد انتصرنا . فقال احسنت وربما اصاب من قال ان الخير ياتينا ونحن في النوم فركب فرسهُ في الحال لان النصر تم لنا حينئذٍ غير ان القتال استمر الى ما بعد الظهر بخمس ساعات

## الفصل السادس والخمسون

### مراجعات

يوافق ان نلتفت الى الماضي قبل كتابة الحوادث التي تدل على اجتهاد نابوليون الاخير لنبين للطالعين بعض ما اقرَّ بهِ الداعداء هذا الرجل الغريب الاحوال والاعمال . وقد ملأت الدنيا كتاباتهم المضادة وطعنهم فلا يلزم ان نعيد ما قالوهُ من هذا القبيل

قال السار اليسون لم يحصل بشر على حذق اعظم من حذقهِ ولا عقل اكبر من عقلهِ ولا قام باعمال اعظم من اعمالهِ في سبيل خير او شر . فانهُ كان ذا ذهن صافٍ وتصور قادر وتمييز عجيب



ورأي صائب وفكر ثاقب تتوقد بطبيعة اهل ايطاليا وتخيلاتهم حال كونها مصونة باسوار التقوى واضح التصور . وقد جمع بين المعارف الصحيحة المتقنة والعواطف اللطيفة الشفوقة والبلاغة المدهشة والفصاحة المحيرة وتوقد الذهن . وكان يعلم ان يخضع جميع هذه المواهب العظيمة لقيادة العقل والحكمة واتساع الملاحظة والاختبار . ولم يشتهر امرهُ ويرتفع شانهُ باعمالهِ الحربية العظيمة فقط ولكنهُ ارتفع قدرًا وشانًا باعمالهِ البلدية التي كثيرًا ما صادفت نجاحًا واتت بالنفع العميم . واهليتهُ الحربية واقتدارهُ على مراقبة الحركات وادارتها وملاحظتها حتى جاءت بالمعجزات المنسوبة اليهِ لم تكن الا بعض مواهبهِ الطبيعية الكثيرة واهليتهِ المدهشة التي اتت بغرائب الاعمال في كل نظارة وعمل اداري او ادبي . وقد تحير الذين راموا ان يفضلوا فيهِ مزية على مزية فلم يقدروا ان يقولوا انهُ اعرف بتخطيط حركات الجيوش للحرب او بادارة جيش حامل في ساحل النزال او انسب الاوقات لاستخدام قوتهِ الاحتياطية . اما الذين ادهشهم بمعارفهِ المتسعة المدققة وادراكهِ الشديد في دواوين المفاوضات والتشاور واقتداره المحير على القيام بالمشروعات العامة النافعة فلا يقدرون ان يدركوا حقيقة حالهِ ما لم يقفوا على الافكار الساطعة المصيبة العميقة التي ابرزها في فلسفة السياسة اثناء انفرادهِ في جزيرة سانته هيلانه . وتكل الاقلام عن استيفاء اوصاف رجل كهذا فانهُ ساوى اسكندر ذا القرنين في الاعمال الحربية وفاق بوستنيانوس في المعارف النظامية والقانونية وكثيرًا ما كان يفوق جميع رجال السياسة في الدنيا خلا باكون في الدقائق السياسية . وكان فضلاً عن ذلك حاصلاً على قوى انيبال التي لا تفرغ وعلى اقتدار قيصر الاداري فانهُ كان يحتمل الاتعاب الشاقة ويصبر على الصعوبات والضيقات ولا يكل في الاجراء . ولم تكن الصعوبات قادرة على منعهِ ولا الخاطر على تحويتهِ ولا الموانع على توقيفهِ فكان جسمهُ كالحديد وعقلهُ كبيرًا متوقدًا ذا حمية تجعلهُ لا يشعر بالاوجاع الجسدية فكان يلاقي حرارة شمس مصر وثلوج شمالي روسيا . ولم يكن يمل من التاهبات والاستعداد وكان يتاني ويستكن في ساعة الخطر . وكان كثيرًا ما يركب ١٨ ساعة ويصرف الليل في تلقين الاوامر ليكتبها كتابهُ وكان يستغنم فرصة قصيرة للراحة في وسط ضوضاء القتال وكتل الاعداء تتساقط حولهُ . ولم تكن ترتاح قواهُ العقلية في زمان الراحة والسلم ولا يجعل عظمة البلاط للتنعم والافتخار . فانهُ كان يحاط بعظمة ملك الملوك بدون ان ينقطع عن ادارة المخابرات الدائمة او عن الاعتناء بالمشروعات المفيدة . اما سر نجاحهِ فكان افراغهُ كل جهدهِ في سبيل ايجاد الاهلية والحذق والامانة في اناس لم تكن لهم شهرة عمومية او كانوا من العامة ليستخدمهم في ادارة الامور وملاحظة الاعمال وفي حكمتهِ واقتدارهِ بحذقهِ العجيب على ان يهيج حمية العساكر الفرنسوية باعلانات قصيرة موثرة . واذا كانت البلاغة في وضع الكلام في مواقعهِ فتكون بلاغتهُ فائقة كل بلاغة بشرية والكلام يقصر عن وصف اقدامهِ وعلو همهِ واقتدارهِ العجيب على احتمال الاتعاب العقلية

والجسدية . وجعل في وزارة دولته اقداماً عظيماً ونشاطاً وانتظاماً حيرت عقول الناس وروجت الاعمال . وكان المقربون اليه لا ينفكون عن ان يتفوهوا بما يبين دهشتهم من ضبطه للاعمال وابرامه للاشغال وارائه المصيبة التي كان يمتاز بها في ادارة الامور . وكان سر اقتداره على القيام باشغال عظيمة كثيرة متنوعة ، لسكينة والهدو واقتصاره على توجيه خاطره الى كل عمل في وقته وزمانه مع قطع النظر عن جميع الاعمال الاخرى فيصبح كانه يتعاطى عملاً واحداً . ولم يكن حدّ للمشقات التي كان يحتملها في القتال وكان كثيراً ما يقرأ رسالات او يلقن صفاً من الكتاب النهار بطوله ثم يدعو صفاً اخر منهم في بداية السهرة ويشغله الليل بطوله خلا ساعات قليلة يخصصها للنوم على مقعد في غرفة الاشغال . فكان توقد ذهنه وقوة ادراكه وهمته تجعله كالصخر الصلد لا يشعر باتعاب الاشغال حال كون اعوانه كانوا يشعرون بثقلها عليهم اذ لم تكن خواطرهم مشغولة بامور الاستقبال كخاطره

وكان اقدامه العجيب يظهر في الاكثر في ميادين القتال . على ان زمان السلم لم يكن زمان راحة وسكون . فكان يصرفه في ادارة المخابرات السياسية الكثيرة وفي المشروعات الداخلية الاصلاحية وفي المفاوضات في المجالس العليا . وكان يصرف ساعات قبل الظهر في الاشتغال بهذه الامور . وينهض باكراً في الصباح ويشتغل مع كاتبه الى ساعة تناول الطعام صباحاً وكان ياكل في نصف ساعة . ثم كانت تعرض عليه الجيوش ويقابل السفراء ويتعاطى اشغالاً اخرى رسمية الى ما بعد الظهر بثلث ساعات فكان يذهب الى المجلس العالي او يركب جواده متنزهاً الى السادسة بعد الظهر وهي ساعة تناول الطعام وكان يصرف نحو اربعين دقيقة في تناوله . ويتكلم كثيراً اثناء الاكل ما لم تكن افكاره مشغلة جداً . وكان بعيداً عن الشراهة وكل افراط . وكان يشرب القهوة قبل الساعة السابعة بثلث ساعة ما لم يلتزم ان يطيل الجلوس على مائدة الطعام مراعاة لضيف او بسبب وليمة . وكان يصرف باقي السهرة في التكلم مع قواد او سفراء او علماء او مشاهير اهل الصناعة او مامورين ملكيين . وكان ينام قبل نصف الليل بساعة ، ويسر جداً بمعاشرة اولئك ويجعل موضوع الحديث اموراً جدية مهمة لذيذة وكثيراً ما كانت الامور الادبية والحكمة العقلية والتاريخ موضوعاً لحديثه . وكان سامعوا كلامه يتعجبون على الدوام من اتساع دائرة معارفه والاراء المبتكرة التي كان يبرزها . ولا ريب في ان حذقاً قليلاً ومعرفة غير متسعة تعظمان في امبراطور بل ربما قيل ان اعوانه بالغوا في وصف معارفه وحكمته على انه كتب وهو في جزيرة سان هيلانه ما اثبت انه كان على جانب عظيم جداً من المعارف والحذق . وفضلاً عن ذلك ظهر فضله وبزغت شموس علومه في الخطب البليغة المدهشة التي فاه بها في المجلس العالي . فهذا كلام السار ولسون المورخ الانكليزي وقد التزم بان يكتب هذه الحوادث والاخبار لانها صحيحة وهي بدون



ريب تشهد بفضل الامبراطور نابوليون وبعظمته وحذقه ومعارفه وحكمته . ومع ذلك لم يخجل المورخ المار ذكره ان يكتب في نفس ذلك التاريخ ما يناقض كلامه كل المناقضة . وما ذلك الا للمحاماة عن اعمال الحكومة الانكليزية التي صرفت النظر عن كل عدل وانصاف وانبعث هوى نفسها وجاءت بالحروب التي قام بها . وهذا هو كلام ذلك المورخ فليقابل بكلامه السابق لظهور مناقضاته وهو اذا نظرنا اليه (اي الى الامبراطور نابوليون) اجمالياً نرى انه ليس لانسان غيره ذكر في التاريخ يحمل الناس على كرهه مثله ( الظاهر انه برح تيمورلنك من باله ) فاننا نرى شخصاً واحداً يبذل في سبيل مطامعه الذاتية اجيالاً كاملة من البشر ويلقيها في قبورها قبل اوانها . ويخرب كل بلد في اوربا بعواصف الفتوحات ويكتسب حب رعاياه ومساعدتهم باطلاق العنان لهم للسلب والظلم في الناس جميعاً وكان ينفذ هذه الغايات بدون ان يعاق بالصعوبات ولا بالمخاطر ولا بقيود المعاهدات ولا الشفقة . غير مبالٍ بالناموس الشخصي وغير مراعٍ الامانة والصدق في الاعمال يريق دماء شعبه ويبذل اموال اعدائه . وغير مهتم بخراب الامم ولا بما كان يضعف امته بالتدريج وقد راينا في ايامه وفي بلاده حكومة مبنية على القوة موسسة على حب الذات تعضد الدين لانتفاعها به وتذكر العدل لانه ممدوح . وفضلاً عن ذلك كانت سبباً لاطفاء مصابيح الحرية التي قدمت الحذق والمعارف واستاصلت الحاسيات الناشئة عن كرامة الاخلاق وحكمة البشر بارضائهم بما يرتضي به حب الذات بدون ان تجعل لذلك قيوداً . وكان ذا حذق واقتدار ودراية لا حدود لها وكان استبداده ياول الى التقدم الافرادي . فكان يضايق الثروة العمومية لترقية اسباب الفساد العام ويخرب امال الاجيال المستقبلة بالتوغل في شهوات الحال . فلا ينفك عن مدح فضائل خلو الغرض بدون ان يقوم بشيء الا وهو مفيد بالغرض ولا عن اهاجة كرامة الاخلاق في الناس حال كونه كان لا يفعل غير ما يساق الى فعله بحب الذات . وهو الذي ونب الناس على الكذب مع انه كان يذيع الاكاذيب كل يوم بين رعاياه كما كان يصب الرصاص والكرات على اعدائه . انتهى . فهذا كلام السون وما سبقه هو كلامه ايضاً فلقابلهما المطالع ويحكم

فمن طالع هذه الصفحات برّ ان الدول المتحدة مشغولة بالحروب التي تبعت الفتنة الفرنسوية . فمهما قال اصحاب الغرض الذين يقطعون النظر عن الحوادث الحقيقية لا يرى المنصفون في الاوراق التاريخية ما يثبت غير ذلك اي ان الدول المتحدة علة الحروب التي تبعت تلك الفتنة . ومن السهل ان يقال كان نابوليون وحشاً طماعاً فاتحاً محباً لاراقة الدماء ظالماً مختلساً ولكن من ينكر ان فرنسا كانت تحارب بعناء مدافعة عن نفسها وعن استقلالها لتتخلص من تعديات الاعداء الذين اتحدوا على مقاومتها . وكانت الحروب مضرة بصوالح نابوليون ومضادة لمقاصده . فان ملوك اوربا المستبدين عقدوا محالفة بعد محالفة لمقاومته وسلب استقلال امته وفي النهاية

سقطت فرنسا بكثرة عدد اعدائها بعد ان دافعت عن حقوقها دفاعاً طويلاً مجيداً وعادت اثقال اصحاب الحقوق الممتازة الى التثقيل على اوربا وتقييدها بقيودها المضرة

وسلم بصحة ذلك المستبدون انفسهم وقالوا انهم كانوا يهاجمون لصيانة انفسهم لان حكومة فرنسا الحرة جعلت راحة اوربا في خطر حتى ان الدول المجاورة رات انهُ لابد من اسقاطها لوقاية انفسها . وكانوا يعلمون ان نابوليون عبارة عن امبراطور جمهورية وعضد الحقوق الحرة القادر . وقال وليم بت وزير انكلترا ان نابوليون اصبح مستوياً على عرش ملك ومع ذلك كان لا يزال ابن الحرية وعضدها فلا بد من اذلاله . ولما طلب نابوليون الى انكلترا المصالحة قال وزراؤها من اسباب رفض الصلح ومداومة الحرب حرية فرنسا المؤسسة على تغيير الامور الجارية ومن شانهِ اسقاط الملوك الاصوليين . وقال اللورد كرانفيل ان فرنسا لا تزال متمسكة بالاراء التي ثبتتها في بداية الفتنة وهي ثابتة عليها

وكان ذلك سبباً لتعاظم مضادة دول اوربا المستبدة للامبراطورية الجمهورية . فالتزمت فرنسا بان تجرد السيف لتدفع مهاجميها . وقال نايار الانكليزي المورخ القائد ان مضادة اصحاب الامتياز الموروث في اوربا جعلت حمية فرنسا الجمهورية تنجد الى الجهة الحربية والزمت تلك الامة القوية بان تقوم بسياسة ظاهرها عدواني غير انها سياسة ساقت الضرورة اليها . انتهى . وكلم نابوليون اللورد وثورث الانكليزي معارضاً حكومتهُ لانها نقضت معاهدة اميان الصلحية بكرامة اخلاق وحرية وصدق فقال لهُ ستعلمون ان ما فعلتهُ هو لانفاذ المعاهدات ولتقرير السلام . فهل ترون دولة متهددة مني . فيا ايها اللورد اذا كنتم تحسدونني من جرى مقاصدي المتعلقة بمصر فساحاول ان ارضيكم . وقد اطلت التفكر في امر مصر وساطيل التفكر فيهِ اذا الزمتموني بان اجدد الحرب غير انني لا اجعل السلام الذي تمتعنا بهِ برهة قصيرة في خطر لاستولي ثانية على تلك البلاد . وقد راينا السلطنة العثمانية محفوفة بالخطر . فساسعها ما زلت قادراً على ذلك وتاكدوا انني لا افعل ما يروج هذه الامور . فهل تظنون انني اخدع نفسي بالقوة التي انفذها الان في فرنسا واوربا . فهذه القوة ليست كافية لان تجعلني القي بنفسي بدون تروٍّ في عدوان بلا سبب كافٍ . فان ذلك يجعل اراء اوربا تتحول حالاً الى مضادتي واخسر نفوذي السياسي الممتاز اما فرنسا فلا بد لي من ان ابين لها ان الدول هي التي تشهر الحرب عليَّ وانني لم اكن علة اضرام نيرانها لاهيج فيها الحمية التي ينبغي ان اهيجها لمضادتكم اذا الزمتموني بالقتال . فالذنب في كل شيء هو ذنبكم ومالي ذنب . فلا يخطر ببالي ان اتعدى على احد . انتهى

فهل كان نابوليون مختلساً . الجواب انهُ تحقق وثبت ان الامة الفرنسوية انتخبت نابوليون لمنصب القنصلية ولتخت الامبراطورية باكثر اراءها . فهي التي اختارت حكومة القنصلية واختارت نابوليون



ليكون القنصل الاول . فشجاعة نابوليون جعلتهُ يرجع لابناء وطنهِ الذين كانوا مستعبدين قوة الانتخاب فشكروهُ . وقررت فرنسا انها في حالة خارقة العادة وان كل دول اوربا المستبدة متسلحة لمضادة الجمهورية ومعها حزب ملكي قوي في الداخل والخارج يفرغ كل جهدهِ في انشاء المؤامرات لارجاع البوربون حال كون الحزب الجاكوبي غير المعتدل يرغب في السلب والنهب ولا تقدر الجمهورية ان تثبت وعضدها لا يحسب حكمة بالنظر الى تلك الاحوال . ولم يهتم السار اليسون المورخ الانكليزي المذكور بالاعتذار عن نابوليون ولا بمحاولة تبرئتهِ والتزم ان يقول عن حالة فرنسا في ذلك الزمان ان الجمهورية بعد ان صرفت عشر سنوات بالمضادات والخطاء اخذت تنحط الى حالة الاضطراب والضعف وهما نتيجتا تعديات الفتن وعقابها . وكان المجلس الجاكوبي ملآن باصوات الطعن في حكومة الديراكتوار اي المديرين وفي كل النظام الذي يعتبر في بلاد اساساً لاتحاد اعضا الهيئة الاجتماعية . وتوجهت خواطر اولئك القوم الى تقسيم الاملاك . وكان في ذلك المجلس اشد رجال الفتنة عدواناً وتعدياً واخذوا يمدحون جميع تعديات سنة ١٧٩٣ وشرورها واثامها وبربريانها ويحرضون الناس على الاقتداء بالذين قاموا بها . وقد حل الزمان الموافق لظهور قائد ذي حذق ودراية ليقبض على ازمة الامور ويخلص الجمهورية التي كادت تغرق . انتهى .

واثبت موسيو تيبرس هذا الكلام في تاريخهِ اذ قال عن فرنسا وهي على تلك الحال ان الاهلية كانت موضوعاً للاطهاد في الغالب وصار طرد جميع الصادقين الامناء من الخطط وكان اللصوص يجتمعون في كل مكان في مغائرهم الجهنمية . واصبح الاشرار في المناصب وكان يصعد على المنابر الذين كانوا يحامون عن الراغبين في الاشتراك في الاموال ويخطبون معتذرين عنهم وامسى اهل المطامع يسمون نهب الاموال استقراضاً جبرياً واصحاب الغايات يتآمرون على قتل اضدادهم . والقوا القبض على الوف من الذين جعلوهم ضحية لاغراضهم وسموهم رهائن . وكان الاشرار يترقبون اشارة النهب والقتل والحرق بفروغ صبر . وكانت هذه الاشارة قولهم ان البلاد في خطر . وكان يسمع في الجمعيات الصراخ والضجات التي كانت تسمع سنة ١٧٩٢ . وظهر الجلادون الذين كانوا يقتلون الناس فيها واراد وا ان يفتكوا بالذين كانوا مثل الذين فتكوا فيهم في تلك السنة . وسلبت الحرية وامنية التملك وامنية الانفس ومال خزينة الحكومة . وكانت اوربا كلها متقلدة السلاح لمقاومتنا حتى ان امركا صرحت بانها ليست بموافقة لنا على ظلمنا . وفي ذلك الزمان امست جيوشنا مبددة الشمل وفتوحاتنا في يد الاخرين واراضي الجمهورية معرضة لحملات الحاملين . انتهى

ومن يتامل في الحال التي بانت فيها فرنسا قبل قيام القنصلية ويعجب اذا سمع انها رغبت في ان تغير نظام حكومتها . ولا ينبغي ان نبحث عن ذلك لنرى هل اصابت او اخطأت فانها قامت بما يحق

لها ان تقوم بهِ فلا يسوغ ان تتهم نابوليون بالاختلاس لانهُ وافق ابناء وطنهِ على اجراء ما كانوا يرغبون في اجرائهِ . وقال فونتن ان نابوليون لم يدس غير عرش الظلم والعدوان والاضطراب . وقليلون من الاوباش يقدرون ان يوقعوا بمدينة كما ان قليلين من اصحاب الهمم العالية والاقدام وثبات العزم يقدرون ان يدوسوا امة بالقبض على اعنة الادارة . وكانت اكثرية واقرة من الامة الفرنسوية مضادة لذلك الظلم والعدوان وراغبة في انشاء الحكومة القنصلية . وقال المورخ اليسون المار ذكرهُ انهُ صار انشاؤها باجماع اراء الامة . فجلس نابوليون على كرسي القنصلية بانتخاب ثلثة ملايين راي والف واحد عشر رايًا . ولم يلق في صندوقة الانتخاب غير الف وخمسماية راي واثنين وستين رايًا مضادًا لهُ . ولم يذكر اجماع كهذا في تاريخ العالم . ومع ذلك قد صرفت اوربا نصف قرن وهي تصدق ما قيل من ان نابوليون اختلس كرسي القنصلية ووافقها البعض من امركا على ذلك اما انتقال الحكومة من النظام القنصلي الى الامبراطوري فكان مراعاة لميل اوربا المتعودة الملكية . فاذا فرضنا انها اخطأت بهذا الانتقال نقول ان هذا الامر من متعلقات فرنسا دون غيرها ومن حقوقها الوطنية التي لا ينبغي ان تشاور احدًا قبل تقريرها

ولم تجبر امة مترددة على هذا الانتقال بقوة ظالم شانهُ دوس حريتها . فان فرنسا حكمت بحريتها ان الانتقال من مصلحتها . ومن يقول انهُ لم يكن يحق للامة الفرنسوية ان تحكم بذلك . وربما ارتكبت خطأً عظيمًا وفعلت ما سرت بهِ مطامع نابوليون . على انها لم تفعل الا ما كان يحق لها ان تفعلهُ . فانهُ خطر للامة الفرنسوية ان النظام الملكي يمكنها من عضد قواعد المساواة العامة عضدًا يجعل الملوك المحيطين بها غير قادرين على مضادتها . وقال المورخ اليسون انهُ كانت ترد رسالات على القنصل الاول من كل جهة تلح عليهِ بالاستواء على تخت الامبراطورية وكانت من الجيش والبلديات والمدن ومجالس التجارة . ومجلس الاعيان قرر باجماع ان يسمي نابوليون بونابرت امبراطورًا وان يكون حاكمًا للجمهورية الفرنسوية بتلك الصفة . واحيل هذا القرار الى الامة لتقبل بهِ او ترفضهُ . وقال اليسون ان احالتهُ الى الامة بيّن حالاً ان القنصل الاول لم يرتقِ عرش الامبراطورية الا بارادة اكثرية عظيمة من الامة . ففتحت دفاتر الانتخاب في كل ادارة انتخابية في فرنسا وعند جمعها ظهر ان الذين قبلوا بالامبراطورية هم ثلثة ملايين وخمسمائة و٧٢ الفًا و٣٢٩ رجلاً ولم يضاد ذلك غير الفين وخمسمائة وتسعة وستين رجلاً . فهل نرى في التاريخ انهُ قد اسست دولة على اساس متين كهذا . ومع ذلك قال الناس خلا قليلين ان نابوليون كان مختلسًا حتى ان الذي ينفي عنهُ ذلك يخالف راي الذين كتبوا تاريخهُ مراعين ميل دولهم وعاضدين اعمالها . اما السار والتار اسكوت المورخ المشهور فقال! انهُ يعترض على هذا الانتخاب اعتراضًا اساسيًا وهو ان الامة الفرنسوية اعطتهُ ما لا يحق لها ان تتصرف بهِ وتناول منها ما لا يحق لهُ ان يتناولهُ . فان الاهالي هم كاصحاب



المعادن فان النظام يحكم بانها ملكهم بدون ان تفوضهم بالتصرف بها . فالحقوق الوطنية هي كارض مشغلة من جيل الى جيل فلا يحق للذين يتمتعون بها موقتًا ان يهبوها لغيرهم او يعطوها لهم . انتهى . فمن من اهل هذا الزمان يسلم بصحة هذا الكلام واذا قلنا ان البعض يسلمون بانهُ صحيح فاذا سالنا الناس الحكم بهِ تحكم الاكثرية بانهُ تمويه مضحك فان السلطة الاولى هي في يد الامة . فهذا هو الجاري والمعول عليهِ في العالم المتمدن ان خطأً وان صوابًا . وقد توصلت الحقوق الانتخابية الى الشرق . فلا يعني الامبراطور نابوليون مختلسًا بعد ان يكون قد صار امبراطورًا باختيار الشعب

واذا سلمنا بان نابوليون تبوأ عرش الملك بحق موسس على الاصول الانتخابية افلا يقال ان نفسهُ مالت الى الجور والظلم . الم يدس حرية شعبهِ بقدميهِ . الجواب ان المستبدين الذين كان يحاربهم قالوا انهُ داسها غير ان الامة الفرنسوية التي رفعتهُ الى العرش وعضدتهُ بحبها لا تزال تحترم ذكرهُ وقالت انهُ لم يتعدَّ حقوقها ولا جار عليها . ومن المؤكد انها تكاتفت معهُ وسارت اقدامها مع قدميهِ للقيام بالحرب الخيفة التي اضرم اعداؤها واعداؤهُ نيرانها . وكانت الامة تقبل باصعب النظامات التي كان يضعها مراعاة للاحوال الجارية وربما اخطا في وضع بعضها . ولكن الامة كانت توافقهُ وتساعدهُ على كل شيء محتملة الضحايا والصعوبات الكثيرة حتى تامت بامور قصر الاعداء عن التغلب عليها وقضت بالعجب العجاب . وكانت المخاطر المحدقة بها مخيفة جدًا فرات ان نظام القرعة الذي وضعهُ موافق وان تقييد الجرائد من الامور النافعة . فاذا سلمنا بانها اخطأت بذلك فخطاؤها يعود عليها دون غيرها بالتعب والضرر . وتقرر عندها ان نابوليون مخلص فرنسا واحبتهُ على ما فعلهُ حبًا لم يتمتع بمثلهِ ملك قبلهُ . وهذا لا ريب فيهِ وادلتهُ كثيرة فان الامة انضمت اليهِ كل الانضمام وتبعتهُ في كل شيء وسارت وراءهُ الى معارك مارنجو واوسترليتز وموسكو واراقت دمها كانهُ ماء في . بل الدفاع عنهُ وعن النظام والقوانين التي وضعها . ومن اقطع الادلة ترحيبها بهِ بقلب واحد عند ما عاد اليها من البا وطلبها كلها ارجاع عظامهِ لترتاح بين الامة التي احبها حبًا لا مزيد عليهِ وبانشائها تذكارًا فاخرًا عظيمًا لهُ وبما لا يزال في قلوب الفرنسويين من الحب والاحترام لذاتهِ . وكان ذلك بدون الاستناد الى شيء ديني فان فرنسا كانت لا تعتقد التعاليم الدينية وكانت تعلم انهُ بشر لا يطلب اليها ان تصونهُ الا قيامًا بفروض وطنية وحمية جسية . فالظلم لا ياتي بثمرات كهذه . فمن لا يسخر بالذين يقولون انهُ كان ظالمًا . فربما كره الذين يحبون الاستبداد والحرية المطلقة قواعد حكومتهِ . غير ان الذي يكتسب وهو في قيد الحياة حب امة لم تر الدنيا مثلهُ لا يدعى ظالمًا

وكان السار والتار اسكوت المورخ من الذين اوسعوهُ طعنًا ولومًا في كتاباتهم ومع ذلك قد كتب ما ياتي عنهُ . ان نابوليون عذر نفسهُ وكذلك الذين احبوهُ ونحن نروم ان نبين عذرهُ لنعتبرهُ

بحسب استحقاقهِ . وقالوا اذا نظرنا الى نابوليون الاول اجماليًا من جهة اعمالهِ نرى انهُ لم يكن مختلسًا محبًا لنفسهِ وان الطرق التي استخدمها لبلوغ مابلغهُ سُترت باعمالهِ الذهبية . فهذا حقيقي . ولا نحط بشانهِ ولا بما اكتسبهُ اذا قلنا ان العارفين بالاحوال السياسية قالوا ان الملوك الذين حق ملكيتهم ليس بمقرر يلتزمون مراعاة لصوالحهم ان يحكموا حكمًا يجعل البلاد تشعر برمح الخضوع لهم . ونسلم بان نابوليون بيّن باعمال كثيرة من ادارتهِ الداخلية انهُ لم يرغب في ان يكتسب شيئًا لاتربح بهِ فرنسا اي انهُ لم يرضَ ان يكون صالحهُ غير صالحها وثبت عندهُ ان صوالحها متعلقة بمجدهِ وصرف ثروتهُ في سبيل تزيين امبراطوريتهِ ليس في سبيل امور متعلقة شخصيًا بهِ وكان يسر بان يرى كنوز الصناعة مضافة الى المعرض اكثر ما كان يسر بتعليقها بحيطان قصرهِ وصدق لما قال انهُ عاتب زوجتهُ جوزفين لانها كانت تجمع من النباتات الثمينة في ما لميزون ما كان يضر قليلاً ببستان النباتات العمومي في باريس . فنابوليون جعل صالحهُ وصالح فرنسا واحدًا وجعلها صديقتهُ او ميراثهُ وكان يرغب في ان يزينها بعظمة خارجية ونجاح داخلي وان يكون ذلك قدر ما تقدر ان تاتي بهِ مشروعاتهُ العظيمة . واصاب الذين كانوا يقولون ان فرنسا ونابوليون اصبحا واحدًا ولم يكن فيها شيء لا يعد لهُ . فكان يحسنها كما يحسن الرجل اراضيهِ ولو اهملها لكان كرجل يهمل ارزاقهُ . ولا ينبغي ان نندد بالانسان الذي نرى في اعمالهِ الحسنة ما يدل على انهُ ذو صالح خاص في تحسينها لان الطبع البشري يجعل الاعمال موسسة على الصالح . فاذا آل الصالح العام الى تحسين حالة مملكة يكون ذلك الصالح ناشئًا عن حب الوطن . فمقاصد نابوليون بالنظر الى فرنسا كانت بلا ريب كمقاصد والد محب مستبد يرغب في ان يجمع ولدهُ ويجعلهُ سعيدًا فيشترط عليهِ ان يطيعهُ في كل شيء بدون اعتراض ولا مناوضة . انتهى ما آل الكلام مورخ مضاد لنابوليون . وظهر منهُ انهُ التزم بالاقرار بعظمتهِ وحكمتهِ وحبهِ لوطنهِ ومشروعاتهِ النافعة العظيمة

وفي سنة ١٨٢١ عقدت النمسا وروسيا وبروسيا موتمرًا في ليبخ حضرهُ ملوك هذه الدول المتحدون وفي ذات يوم خطب امبراطور النمسا خطابًا مشهورًا على اساتيذ المدرسة العالية في تلك السنة فقال ايا كم ان تعلموا تلاميذكم ما يزيد عن اللزوم فانني لا ارغب في الحصول على علماء واصحاب معارف ولكنني اروم ان احصل على رعايا طائعين . انتهى . وكانت ليبخ قاعدة ولاية من ولايات البرا التي اذاع نابوليون فيها الحرية المدنية والدينية . وفي نهاية الموتمر نشر الملوك اعلانًا اهانوا بهِ نابوليون بعد وفاتهِ . فلما طالعهُ الاب دي برادر رئيس اساقفة مالتين كتب الفقرة الاتية وكفّر بها عن ظلمهِ السابق . قال فات زمان اهانة نابوليون لانهُ بات لا يستطيع المدافعة عن نفسهِ وذلك بعد ان صرف الذين يهينونهُ سنين عند اقدامهِ حال كونهِ قادرًا على ان يعاقبهم . فالمسلحون ينبغي ان يعتبروا عدوهم غير المسلح ومجد المنتصر يظهر في معاملتهِ للاسير



خصوصًا اذا كسر بتغلب القوة المادية التي تفوق قوتهُ وليس بتغلب القوة العاقلة . وفات الزمان الموافق لان نقول ان نابوليون من اهل الفتنة بعد ان قلنا انهُ مرجع الانتظام الى فرنسا وبالتالي الى اوربا . ومن الامور المستقبحة ان نرى سهم الاهانة موجهًا اليهِ من يد طالما مدت اليهِ بصداقة حال كون صاحبها عاهدهُ بعد ان حاول عضد عرش مزعزع الاساسات باراقة الدماء . فهذا الرجل الذي اتهم بانهُ من اهل الثورة وبانهُ قاعدة الظلم والخلل حذا حذو الامبراطور بوستنيانوس وكتب في وسط ضوضاء الحرب ومشاكل السياسة الاجنبية قوانين هي اقل قوانين العالم نقصًا وانشأ اقوى الات الادارة في العالم . وقد اتهم بابطال كل نظام مع انهُ ارجع المدارس العالية وزاد المدارس العامة وملأ امبراطوريتهُ بالصنائع المتقنة وقام بمشروعات عظيمة يتشرف بها الحذق البشري . وقيل انهُ علة عظيمة للفناء والخراب مع انهُ اخضع جبال الالب لامرهِ ومهد فيها طريقًا وانشا المشروعات النافعة باخضاع الاوقيانوس لاوامرهِ في شربورغ وفلشن وهلدار وانتوارب وتغلب على الانهر بانشاء جسور فوق نهر جينا والسرو بوردو وتورن وانشأ ترعًا لوصل الابحر حيث عجز معبود البحر وغير حالة باريس بتحسيناتهِ وقالوا عن الذي اشاد كل شيء نافع وارجع ما بات مفقودًا انهُ خرّاب مهلك . فلمن من الجهلاء وجه ذلك الخطاب . انتهى

وقد اجمع المورخون على ان رئيس الاساقفة المذكور قد اختار بامانة الامور التي مدح نابوليون بها وانهُ عدل بحكمهِ . ولا عاقل ينكر ان نابوليون كان ذا صيت منتشر في اقاصي الارض وان اهالي فرنسا قلدوهُ السلطان بسرور لا مزيد عليهِ . وثم ذلك حال كون باريس فيها قواد ورجال سياسة مشهورون نافذو الكلمة مفتخرون جدًا براقبون الحوادث التي رفعتهُ بعين المناظرة ومع ذلك لم يقولوا ان اختيارهُ كان في غير محلهِ لا في ذلك الزمان ولا في الزمان التابع لهُ وقد فاه السار والتارسكوت المورخ المشهور بما شهد لهُ بذلك اذ قال ان الاغنياء كانوا يميلون الى نابوليون ليحصلوا على الصيانة والفقراء ليحصلوا على الفرج والمهاجرين ليرجعوا الى فرنسا ورجال الثورة لانهم كانوا يخافون ان ينفوا منها واجتمع حولهُ الباسلون والشجعان بامل الانتصار والجبناء اجتمعوا وراءهُ طالبين الامان . انتهى . وقال ان هذه هي الاسباب التي تجعلنا لا نستغرب انشاء الحكومة القنصلية برضى الامة كلها . واجمع الناس على ان نابوليون بلغ السلطان الاعلى بانتخاب عام . ولا ينكر عاقل انهُ اصبح صنم فرنسا اي انها كانت تعبدهُ كما يعبد الوثني صنمهُ . فاختيارهُ بالحرية التامة ليكون رئيسًا لفرنسا مما لا ريب فيهِ . فاي لسان لا يكذب بعد مطالعة هذه الحقائق من يقول لهُ انك مختلس الملك . وقال روبرت هال الذي كان من اشهر خدم الدين الانكليز والمغهم عندما سمع بعاقبة معركة واترلو ( هي التي جاءت بسقوط نابوليون ) رايت ان ساعة العالم رجعت ستة قرون الى الوراء

واجهد نابوليون نفسهُ بجد لامثيل لهُ ليوقف تقدم الاستبداد الروسي على ان انكلترا حالفت الروس واتحدت مع كل مستبد في اوربا بقصد اسقاط سلطتهِ . فدافع اي دفاع حاملاً راية الحقوق العامة والحرية المدنية والدينية وسقط في النهاية بكثرة العدد . واصبحت روسيا تسوق جيوشها الجرارة مقتربة من الاستانة

وامست انكلترا ملتزمة بان تطلب نابوليونًا اخر ليسعفها على منع تقدم الروس وان كان مالكًا بانتخاب لا بحق الارث . وتراها الان ملزومة بان تحاول بخوف وارتعاد فرائص القيام بما منعت نابوليون عن القيام بهِ حال كونها تكاد تقع في اليأس . فتراها تئن تحت ثقل من الدين الفتهُ حكومتها على عاتقها للمحافظة على الحقوق الموروثة في اوربا . وقد اصبحت ترى الاستبداد يدوس العدل والرحمة تحت اقدامهِ . ولم تصبح امة في مركز مكدر كالامة الانكليزية في هذه الاوقات . فانها جعلت اوربا غائصة في بحر من الدماء ربع قرن لتمنع انتشار المساواة والان ربما رات لزومًا لان تجعلها تغوص ثانية في الدم لتمنع تقدم الاستبداد الذي عضدتهُ . وقد شاهدنا ارتباكها من جرى ذلك بكدر ولا نعجب من ترددها . واثبت ذلك حسن حال نابوليون وامانتهُ وارتكبت الحكومة الانكليزية ذلك الخطأ على مرأى من العالم فالله عادل فانها تلتزم بان تعترف بهِ على مسمع من العالم كلهِ . وقد تم ما خمنهُ نابوليون اذ قال انني رغبت في انشاء حاجز يمنع تقدم الاستبداد بارجاع مملكة بولونيا وجعل بونيا توفسكي ملكًا عليها غير ان وزراءكم الحمقى لم يقبلوا بذلك وبعد مائة سنة سيضج الناس مادحين مقاصدي وستتاسف اوربا ولا سيما انكلترا لانني لم افز وذلك عندما يرون اجمل بلاد اوربا فريسة لاولئك الشماليين ويقولون ان نابوليون كان مصيبًا

## الفصل السابع والخمسون

## معارك درسدن

في ١٢ اب (اغوسطوس) انضمت النمسا ثانية الى المحالفة العظيمة الاوربية المعقودة لاسقاط الدولة النابوليونية ونفي اسباب الحرية العمومية . ولما سمع قواد الجيوش المتحدة بان الامبراطور فرانسز النمسوي ترك صهرهُ نابوليون واتحد مع الدول وارسل مائتي الف جندي لينضموا اليهم سروا جدًا وكان الخبر ينتقل من جيش الى جيش ويحمل الجنود على الضجج فرحًا . واقيمت تزيينات زاهية والعاب نارية . فاصبح جيش الدول المتحدة على مضادة نابوليون خمسمائة الف رجل حال كون نابوليون لم يكن قادرًا على مقاومتهم الا بمائتين وستين الف رجل . وكان الجنرال جوميني قد خان نابوليون وسار الى الاعداء وبلّغ الدول المتحالفة كلما كان يعرفهُ عن مواقف الجيش الفرنسوي واوامر الامبراطور . وكان مورو الفرنسوي وبرنادوت موضوعًا لتملقات الملوك المتحدين فدبرا القتال .



وقال المورخ اليسون عن هذين القائدين الفرنسويين اللذين انضما الى اعداء بلادهما انهُ بعد ان صارت محاكمة مورو بامر القنصل الاول سنة ١٨٠٤ وحكم عليهِ سار الى امركا وعاش متنحيًا فيها وهو ينظر الى المحاربات التي كانت لاتزال واقعة في اوربا . ولما سمع القوم بمجيء مورو قاصدًا الانضمام الى اعداء بلادهِ شعروا انهم قد فازوا بنجدة عددها مائة الف رجل . فقابلهُ برنادوت في استراسوند باعظم اكرام عسكري وساربهِ الى اركان حربهِ في وسط ضجة جمهور غفير واطلاق مدافع . (ان برنادوت هو القائد الفرنسوي الذي انتخبهُ اهالي اسوج ملكًا عليهم) . وتقابلا بحب وملاطفة غير انهما ارتبكا جدًا عندما تفاوضا بالامور التي ينبغي ان يقام بها في فرنسا بعد خلع الامبراطور نابوليون . وكان مورو ذا اراء جمهورية ولم تتغير اراؤهُ مدة اقامتهِ في امركا وكان يرغب في ارجاع نظام سنة ١٧٩٣ وربما كان يخطر ببالهِ ان ارجاعهِ ياول الى تقلده منصبًا مهمًا . اما برنادوت فكانت قد تغيرت اراؤهُ بما ذاقهُ من حلاوة الملكية فمال الى انشاء نظام ملكي فيها وظن ان الامة الفرنسوية والدول المتحالفة ربما كانت تختارهُ ليملك عليها . وهكذا نرى بزور الخلاف في مفاوضاتهما الابتدائية وانهُ لا سبيل الى اتفاقهما ومع ذلك كان كرههما لنابوليون يحملهما على الاتفاق

اما الدول المتحدة فسلمت اليهما ادارة القتال لانهما كانا اعرف القواد بكيفية قتال نابوليون عدوهم الذي كانوا يرتجفون عند ذكر اسمهِ . فاصدرا وامر بينًا بها انهما لم يكونا يركنان الى كثرة عدد جيوش الدول المتحدة . وامرا كل القواد بان لا يسمحوا بان يساقوا الى القتال بل ان يفرغ كل منهم جهدهُ في القاء الحيرة في جيش الفرنسويين بحركات خداعية . فاذا صحت هذه الحركات وجعلت الامبراطور يخرج من موقفهِ المتوسط تبادر جنود اخرى الى الحمل على قوادهِ حال كون الامبراطور الذي كان الجميع يخشونهُ غائبًا . وعلقا املهما بان يكون ذلك وسيلة لاستخدامهِ قوتهُ في تتبع حركاتهم الخداعية الى ان يتعب ويقل جيشهُ فيتمكنون من ان يحملوا عليهِ بجيوشهم الجرارة ويهلكوهُ او ياسروهُ

واصابوا في ذلك غير ان نابوليون عرف في الحال مقاصدهم وعوضًا عن ان ينتظر الى ان يهجم عليهِ انفاذًا للكيفية التي كان قد صمم عليها سار في جيش ناي وجيش ماكدونال وحمل على البطل الجنرال بلوشر وهو الشيخ البطل المفسد الذي كان امام برسلو في ثمانين الفًا من الروس والبروسيين فالجنرال بلوشار ركن الى الفرار انفاذًا للاوامر وتاثر الفرنسويون جيشًا من البروسيين عددهُ ٢٥ الف رجل واعملوا فيهم سيوفهم وبددوا شملهُ وعند ذلك اخذ الجيش العام وكان عددهُ مائتي الف رجل ينصب على الاودية قاصدًا الحمل على درسدن قاعدة سكسونيا التي لم يكن فيها غير سان سير ومعهُ ثلثون الفًا للدفاع عنها . وعرف نابوليون ان من اخص الامور

صيانتها لمنع الاعداء عن الاستيلاء عليها لانها كانت مركز حركاتهِ ومفتاح اتصالهِ بباريس. فترك مكدولند ليمنع تقدم الجنرال بلوشار وقفل الحرس الامبراطوري وجيش الجنرال ناي راجعاً عنها الى الب. وسار بسرعة حيرت العقول بل ادهشت نفس الذين تعودوا ان يسمعوا بحركاتهِ العجيبة

وفي مساء ٢٥ من ذلك الشهر ظهرت على التلال المحيطة بدرسدن اسلحة جيوش الدول المتحدة. وكان فيها نحو ستين الفاً من الاهالي مستامنين في منازلهم فشرع جيش عددهُ مائتا الف يقيم مدافعهُ في الاماكن المشرفة عليها لتصب على اولئك الاهالي الابرياء نيران البلايا والوبال. ولم تكن جنود سان سير كافية للدفاع عن الاسوار وعن حصون المدينة واستحكاماتها ومع ذلك صمم على المدافعة بامانة مادام قادراً على الدفاع. اما الاهالي كباراً وصغاراً فباتوا في خوف شديد واضطراب عظيم يرغبون في تسليم المدينة الى الجيوش الحاملة ليتخلصوا من بلايا الحصر. اما سان سير فلم يجب توسلهم لان ضرورة الحرب كانت تلجئهُ الى الامتناع. وعند نصف الليل بعث الى نابوليون بالرسالة الاتية وهي احاط بدرسدن جيش جرار مولف من الروس والبروسيين والنمسويين ومعهُ مدافع عظيمة جداً. والظاهر من كثرة الجيش المجموع ان الاعداء سيحملون حالاً على المدينة لانهم يظنون ان جلالتكم لستم بعيدين عنها ولكنهم لا يعلمون انكم قريبون جداً منها ونحن مصممون على افراغ الجهد في دفعهم ولا اتعهد باكثر من ذلك مادام جنودنا فتياناً. وفي صباح الغد حملوا عليها من ست جهات وهجم على كل جهة بصف عظيم امامهُ خمسون مدفعاً. وبذل الحاملون معظم جهدهم في المهاجمة على الاماكن الكثيرة السكان وكانت الكلل المحشوة والرصاص تتساقط غزيرة في الشوارع حتى صبغ بلاطها بالدم وامست الجثث الممزقة ملقاة في قاعات التنعم والرخاء. ولم يكن في المدينة ملجأ للامهات والاولاد والجواري. وكان فيها فرقتان صغيرتان من جنود وستفاليا فخيل لهم ان نابوليون سيعود مغلوباً مخذولاً فتركوا المدينة وانضموا الى جيش الاعدا. اما الاهالي فاشتد تذمرهم وطلبوا التسليم بالحاح. اما نابوليون فكان يتقدم في جيشهِ بسرعة وكانت الرسل تلاقيهِ في الطريق وتخبرهُ بان الجنود المدافعين لا يقدرون ان يثبتوا في الدفاع غير برهة قصيرة. وكان نابوليون امام جيشهِ فوصل في برهة قصيرة الى مكان مرتفع ونظر الى المدينة المحصورة البعيدة وراى بنظارتهِ الفرنسويين يقاتلون في الاستحكامات والاخاديد فتال المستميتين والجنود الحاملة ممتدة صفوفاً لا تعرف اواخرها. فامر فرسانهُ باطلاق العنان وسار معهم مسرعاً. وراى الاعداء الطريق التي كان قاصداً المرور فيها فوجهوا المدافع عليها واطلقوا الرصاص وقطع الحديد والكلل المحشوة وتكاثرت كلل المدافع الروسية من جهة وكلل استحكام مارسليني من جهة اخرى على تلك الطريق حتى التزم الامبراطور بان يخرج من عجلتهِ ويقطع



المكان المخوف بخطر عظيم ماشياً واسباب الموت مالئة الهواء حولهُ تشق الارض عند رجليهِ

وتم ذلك عند الظهر فسمع من عبر النهر ضجة عظيمة واصوات تقول فليعش الامبراطور. فظهر بين الجنود الذين اظهروا من علامات الفرح والسرور ما لا مزيد عليهِ. وسار حالاً الى قصر الملك الطاعن في السن وخلص العائلة المالكة من حزنها وكدرها اذ قال لها ان جيش الحرس مع ستين الفاً من الجنود سيبلغون المدينة بعد برهة قصيرة. وكان كولانكور مع الامبراطور فنال بقصر القلم عن وصف فرح الجنود لما راوا الامبراطور نابوليون في الجهة المقابلة لهم. وسار جيش الحرس القديم والجديد لملاقاتهِ ونقوت العساكر بهِ جداً وكان الانفار يقولون هذا هو هذا هو. اما الضباط فلم يقدروا ان يمنعوا الجنود عن ذلك فنال لهم الامبراطور لا تعارضوهم فانهم يمكنوني من الحمل على العدو. فكرر الجنود الدعاء وبعد ذلك ببرهة قصيرة قاتلوا لفتح طريق ليمر فيها ودخل نابوليون درسدن دخول قائد منتصر والذين راوا ما فعلهُ الجنود لا ينسونهُ ابداً وقال احد المعاينين لما جرى كنا ندنو من المدينة ولا نسمع صفق الايادي والتهاليل واختلاط الاهالي من رجال ونساء واولاد بالجنود وذهبوا معنا الى ان وصلنا الى القصر وتبدل خوف الناس واضطرابهم بالسرور والسكون

وخرج الامبراطور من المدينة ليفحص الاستحكامات الخارجية. ولم يكن معهُ غير خادم واحد لئلا يراهُ الاعداء اذا خرج في جمهور غفير فاصابت رصاصة الخادم وهو بجانب الامبراطور فقتلتهُ. واكتشف نابوليون بسرعتهِ الحيرة الوسائل الدفاعية التي تعود بالوبال على المهاجمين. وفي برهة قصيرة دخل جيش الحرس الامبراطوري وجيش المدرعين المدينة مجتازين جسر النهر وكانوا يكادون يهلكون من الجوع وحرارة الشمس التي اثرت اشعتها فيهم. وكانوا يعلمون ان المدينة في ضيق شديد وان الامبراطور في خطر مبين فلم يرتضوا ان يضيعوا دقيقة ليتناولوا المآكل والمشارب التي جاءهم الاهالي بها. وحل المشاة والفرسان وجنود المدافع في مراكزهم بدون اضطراب وقامت الحرب على قدم وساق. وجعلت جنود الدول المتحدة مدافعها وعددها ستمائة او سبعمائة مدفع على شكل نصف دائرة وكانت كلها في شوارع درسدن التي ازدحمت اقدام الاهالي والجنود فيها تفعل فيهم فعلاً ذريعاً تقشعر منهُ الابدان. واي قلم يقوم بوصف ما كان يجرى في تلك المدينة وفي ضواحيها فان اكثر من الف مدفع كانت ترعد وتبرق بدون انقطاع واصوات البنادق باتصال وصياح ثلثمائة الف مقاتل يبلي الاذان بالصمم فضلاً عن اصوات انفجار الكلل المحشوة المتتابع واحتراق عجلات الذخائر وجر المدافع الثقيلة وآلات الحرب الهائلة وصراخ الجرحى من رجال ونساء واولاد وانينهم وكان الرصاص والكلل كالبرد الكثير تصب الهلاك والبلايا عليهم. وانتشبت النيران في بعض المنازل وارتفع لهيبها ودخانها واختلط بدخان

البارود حتى حجب نور الشمس وكاد يجعل نور النهار كظلام نصف الليل الحالك وطالت هذه البلايا ولم تنقطع بانقطاع القتال ولم تزل بزوالها لان الوفا من اهل اليسر امسوا في فقر وتعاسة وويل . وكم من والدة باتت ثكلى ومن ولد امسى يتيماً وكم من زوجة سعيدة باتت ارملة حزينة في اول حياتها وصرفت عمرًا طويلاً في حزن وضيق وتعاسة لاسبيل الى التخلص منها الا بالموت . فهذه هي الوسائل التي مكنت ظلمة اوربا من ان يدوسوا هام الحرية العمومية التي كانت تهدد عروشهم

ولم يعلم قواد جنود الدول المتحدة ان نابوليون في المدينة وعند سنوح الفرصة الموافقة امر القائد مورات بان يخرج من الجهة اليمنى من المدينة ومورتيه من الجهة اليسرى وناي بان يشق قلب جيش الاعداء . فخرجت الجنود التي كانت تحت قيادة هولاء القواد بحسب عاداتها غير مبالية بالموت ولا بكثرة عدد الاعداء وحملت ببسالة تحير العقول وصدمت صفوف الاعداء صدمات خسرتها انتظامها وجعلت الجنود يركنون الى الفرار متوجهين الى جميع الجهات . فعند ذلك حمل فرسان الحرس الامبراطوري وقتلوا كل الذين كانوا يحاولون الصدام . وكان البرنس اشفارتزنبرغ واقفًا بجانب الامبراطور اسكندر الروسي والملك فريدريك وليم الالماني في مكان مرتفع يرون منهُ ميدان الوغى فلما راى الجيوش مكسورة بغتة على غير انتظار قال للامبراطورين لاريب في ان الامبراطور نابوليون في درسدن وقد اضعنا الفرصة الموافقة لفتح المدينة ولا نقدر الان الا على جمع شمل جنودنا

وفي اثناء هذه المحاربة المخيفة صار الاستيلاء على استحكامين من الاستحكامات الفرنسوية بكثرة العدد فراى ذلك نابوليون وعلم انهُ ياتي بعواقب ردية فسار امام فرقة من الجيوش مسرعًا في وسط الرصاص المنصب كالبرد الغزير قاصدًا استرجاعها . فقتل اكثر اعوانهِ بجانبهِ بذلك الرصاص واسترجع الاستحكامين بدون ان يجرح

وقال كولانكور من اغرب الامور مشاهدة ما كنا نشاهدهُ من حب ادنى الجنود مركزًا لاعظم امبراطور رائة الدنيا ولم يكن اصدقاؤه المقربون اليهِ يتجاسرون على مازحتهِ ومخاطبتهِ بحرية كاحد جنودهِ القدماء . ولم يكونوا يتجاسرون ان يكلموا اصغر الضباط كما كانوا يكلمون ذلك القائد العظيم . وكانوا يحسبونهُ من طينة ليست كطينة سائر القواد وانهُ جامع في نفسهِ صفات امبراطور ومحب لوطن ورئيس لعائلة . وكان يضرم فيهم نار الحمية بكلام لم يسمعوهُ الامنهُ وكان يفرح جدًا بحب جنودهِ لهُ ويجاوبهم على كلامهم كما يجيب والد اولادهُ

وكان يشتد القتال والمطر يهطل غزيرًا ولم يسمع غير ضوضاء متصلة تدل على الهلاك وركب نابوليون عند طلوع الفجر فرسهُ وبل المطر ثيابهُ وبلغ جسمهُ بعد ان اشتغل ليلاً ونهارًا اياماً



كثيرة حتى ظهر للتعب اثرين في جسمهِ وحركاتهِ وفازت فرقة من الحرس الامبراطوري القديم بدفع حملات فرسان العدو الاقوياء المتكررة . وكان يعلم ان صيانة مدافع تلك الفرقة ومواقفها مهم جدًا . ولما راى نيران العدو ضعفت سار مسرعًا بين المدافع وفرسان العدو ليشجع جنوده وكان يعاق مسيرهُ بتلال من القتلى والذين في حالة النزع . فقال بحزن اننا قد تكبدنا خسائر وافرة للمحافظة على الموقف ثم نظر الى المدافعين الباسلين وقال بفرح علمت ان حربي لا يسلمهُ الى الروس . فقال جندي مدفع جرح جرحًا بليغًا بسيف في راسهِ وربطهُ بمنديل قد صبغهُ دمهُ فليرجعوا ليهلكوا . ثم قال للامبراطور ان هذا المكان ليس بموافق لك فانك قد تعبت اكثر منا جميعًا فاذهب واسترح . فاجابهُ ياصديقي انني اطلب الراحة بعد النصر . فقال بطل اخر اصاب رفيقي فان المطر بلغ جسمك فارجوك ان تذهب وتغير ثيابك . وفاه بهذه الكلمة بحنو ولطف كانهُ كلام ولد يكلم بهِ والدًا محبوبًا عنده . فقال نابوليون ارتاح حين تقدرون جميعكم ان ترتاحوا فيا فتياني لا ارتاح الا بعد انتهاء القتال . فاجابهُ ذلك البطل انني عالم ان هذا الموقف خطير فلا نسمح للروس ان يستولوا عليهِ فيا رفاقي هل نسمح لهم بذلك . فاجابوه بضجة المصادقة والتهليل . فقال يامولاي اننا مسئولون بالمحافظة عليهِ فاذهب وارتح قليلاً . فنظر اليهم نظرة شاكر وتبسم وقال لهم يا احباءي الصادقين لقد احسنتم وانا اركن اليكم . ثم قفل راجعًا بسرعة في الدخان والموت . وكان يسير في وسط الرصاص المنصب قاصدًا كل مكان اشتدت فيهِ المخاطر ليشجع جنوده ويحرضهم على القتال بكلامهِ واقدامهِ

وقال كولانكور لا يعدل في الحكم بصفات نابوليون الا الذين كانوا مقربين اليهِ شاهدين اعمالهُ مثلي . وكانت الايام التي صرفتها بالقرب منهُ كحلم لذيذ . وهل تصدقون ان ما اتذكرهُ من جودتهِ وعظمتهِ ليس اعمال البسالة التي ذاع بها صيتهُ في جميع الاقطار بل اعمالهُ كاب عائلة وكرجل منفصل عن صفتهِ الرسمية

ولما خيم الظلام تكاثفت الغيوم وهطل السيل غزيرًا جدًا على الجنود المتعبة . واجتمعت جنود الدول المتحدة المنكسرة في الليل في قمم التلال التي انحدروا منها في الصباح متيقنين ان الفوز يكون لهم . اما نابوليون فلم يسترح لحظة ولكنهُ صرف الزمان بالكتابة . وكان مشغل الافكار مبلبل البلبال من الخاطر المحدقة التي كان يعز عليهِ التغلب عليها . وعند نصف الليل قضى بضع دقائق يتمشى بسرعة في غرفتهِ صامتًا . ثم وقف بغتة والتفت الى كولانكور وقال قد وصل مورات . ثم عاد الى التمشي غائصًا في بحر من التامل وبعد ان صمت برهة وقف ونظر الى كولانكور وقال لقد جعلتهُ قائد الحرس الامبراطوري . فتذكر كولانكور اعمال مورات غير المرضية في نهاية المتقهقر في روسيا فاظهر للامبراطور تعجبهُ من ركونهِ اليهِ وتسليمهِ اياهُ قيادة الحرس . فقال لهُ

نابوليون علمت انك تتعجب من ذلك . وفي اول الامر قابلتهُ مقابلة كدرتهُ ولكن اجبت توسلاتهِ متيقنًا انهُ لا يخونني . فيا كولانكور ينبغي ان نصرف النظر عن بعض الاغلاط وما دمت موفقًا لا ينقطع مورات عن ان يتبعني ولكن هموم الحال كافية لان تجعلني اقطع النظر عن الاستقبال وتحدثا الى ما بعد نصف الليل بساعة وكانت الرياح الباردة تهب بعنف والمطر الغزير يهطل بدون انقطاع على الجنود المرتجفين المطروحين على سهول غمرتها المياه . وكان نابوليون عالمًا ان الغد يأتيهِ بامور مهمة مخيفة فخرج ليناظر على حراس الجيش غير مبالٍ بالرياح والبرد والوحول والامطار وجال في الاماكن التي كان جيشهُ حالاً فيها وكان يكلم الجنود معزيًا مسليًا لانهُ ادرك ضيقهم فاراد ان يشاركهم فيهِ ليتيقنوا انهُ ليس يتوسد الراحة حال كونهم مطروحين على ارض طغت عليها المياه مرتجفين من البرد . وبعد ان عاين مواقف الاعداء بالنيران التي اضرموها صمم على الهجوم في الصباح وعاد الى اركان حربهِ في المدينة وكتب اوامر منفصلة مدققة الى جميع قواده وبعث برسل ليعجلوا مجيء الجنود القريبة من درسدن . فلبى القواد دعوتهُ بسرعة حتى اجتمع عندهُ قبل الصباح مائة وثلثون الف جندي . ووردت نجدات على الجيوش المتحدة فتأهبوا لتجديد الحمل باكثر من مائتي الف جندي

وكان المطر لا يزال يهطل غزيرًا على الجيوش المجتمعة وعند طلوع الفجر انشبت القتال واستمر الى ما بعد الظهر بتلك ساعات وانتصر نابوليون في كل جهة واخذت الجيوش المتحدة تنهزم في الطرق التي غمرتها المياه الى جهة بوهيميا . فشاهد اسكندر امبراطور روسيا وفردريك غليوم ملك بروسيا جيشيهما مكسورين امام حذق نابوليون العجيب . وغنم الفرنسويون بين عشرين وثلثين الف جندي واربعين راية وستين مدفعًا وخسرت الدول المتحدة اكثر من عشرة الاف رجل بين قتيل وجريح . وفي وسط القتال راى نابوليون ان نيزان صفي من مدافع الحرس الامبراطوري قد ضعفت فسأل عن السبب فقيل لهُ ان مراكز المدافع واطية فلا تبلغ العدو . فقال لا باس فليطلقوها لانهُ من الواجب علينا ان نشغل افكار العدو في هذه الجهة . فرجع جنوده الى اطلاقها . وعند ذلك ظهر فرسان في قمة تلة في مكان يبعد الفي ميل ليستكشفوا مراكز الفرنسويين وليروا حركاتهم حال كونهم مستترين بالضباب فصمم نابوليون على تفريقهم وبعث بالامر الاتي الى قائد صف المدافع وهو اطلق ١٢ كرة حالاً في وسط هولاء الفرسان لانهُ ربما كان بينهم احد القواد الصغار وكان بينهم القائد مورو الفرنسوي الذي كان منفيًا في امركا وانضم الى اعداء فرنسا وطنهِ والامبراطور اسكندر الروسي . وكل مورو يدلهُ على مراكز مدافع الملوك المستبدين الذين كانوا يحاربون ابناء وطنهِ فاصابتهُ كرة خرقت فرسهُ وكسرت ساقيهِ . فوقع الاضراب بين اولئك الفرسان فعرف من ذلك انهُ قد اصيب رجل ذو مقام عالٍ . وراى





الجراحون انهُ لا بد من قطع فخذيهِ . فحملوهُ على سرير وساقاهُ معلقتان بجسمهِ بالجلد فقط ووضعوهُ في كوخ يبعد قليلاً عن ميدان القتال . فبلَّ بالمطر حال كون اغطية قليلة كانت تصونهُ من البرد فالقي على مائدة وقطع الجراحون ساقًا وصبر على الالم صبرًا عجيبًا وكان يدخن ولا يئن والسكين تقطع اعصابهُ المختلجة . وبعد قطع ساق فحصت الاخرى وقال الجراحون بكدر لا بد من قطعها . فقال مورو لو اخبرتموني بلزوم قطع الثنتين قبل قطع الاولى لفضلت الموت فاقطعوها واخذ يدخن . وعند العصر اصبح هذا الكوخ معرضًا جدًّا لنيران الفرنسويين النائزين فصنع سرير اخر من اعواد وعمد ونقل الى مكان يبعد بضعة اميال عنهُ وتوجع توجعًا يقصر القلم عن وصفهِ . ثم التزموا ان ينقلوهُ ثانية في الصباح وكانت اوجاعهُ مشتدة فوضعوهُ في بيت خباز في قرية صغيرة عند حدود بوهيميا فكتب منها الرسالة الاتية الى زوجتهِ

يا اعز الناس عندي . منذ ثلثة ايام قطعت كلتا رجلي في موقعة درسدن . فالسعد لا يفارق نابوليون الخبيث . وعملوا عملية جراحية جيدة قدر الامكان . وقد رجع الجيش ولكن رجوعهُ لا يعد انكسارًا فان المقصود الاقتراب من الجنرال بلوشار . فاعذريني اذا كتبت بهذا الخط انني احبك من كل قلبي واقبلك بحب . انتهى

ومات بعد ذلك بيومين . ولم تتغير افكارهُ من جهة الدين ولم يكن يبالي بالاخرة ومات بدون اظهار احترام لله سبحانهُ وتعالى ولا خوف من الابدية . فهذا الموت ليس موت ابطال ولكنهُ موت حيواني . وقد حنطوا جسدهُ وحملوهُ الى بطرسبرج ودفن في مقبرة روسية باعظم اكرام العسكري فكتب الامبراطور اسكندر الى ارملتهِ رسالة لطيفة ووهبها خمسمائة الف فرنك في السنة . فمورو ثوى في وسط اعداء وطنهِ . ففرنسا طلبت بصوت واحد نقل جثة نابوليون من سانتا هيلانة لتدفن في وسط امتهِ التي احبتهُ حبًا لا مزيد عليهِ . اما مورو فربما لا تنقل جثتهُ الى وطنهِ

وفي اثناء القتال اصبح الامبراطور قائد جنود مدافع يطلقون كلهم على جنود نمسوية فاضطرب جدًّا لما راى انهُ يقاتل جيش حميهِ فالتفت الى كولانكور وقال لهُ ان مشيري الامبراطور فرنسيس الاشرار يستحقون الشنق فهذه حرب شريرة بعيدة عن التقوى فمن يعلم عاقبتها

وفي مساء هذا اليوم الدموي عاد نابوليون الى درسدن وقد بلَّ جسدهُ بالماء وانهكهُ التعب فقابلهُ الاهالي والعائلة المالكة بفرح عظيم فقال لهم انهُ اسف من الضرر اللاحق بعاصمة حليفهِ الامين . وتحركت فيهِ عواطف الشفقة وكرامة الاخلاق . فاعطى مبالغ وافرة لجميع الذين لحق ضرر باملاكهم ولاطف الذين كانوا يتتربون منهُ وكلمهم باتضاع وشفقة وصرف كل العناية في سبيل اراحة الجرحى من جيشهِ ومن جنود الاعداء وسد احتياجات الاسرى بشفقة ابوية ولم يحرم من ذلك الذين فروا من الجنود المتحدة من اسرهم ثم اسروا ثانية . وكان ذلك الرجل العظيم يحب

الناس وان قائلته لعلمهِ انها تجهل مقاصدهُ

ولم يرجع الامبراطور الى القصر الا بعد نصف الليل بعد ان صرف ٤٥ ساعة بالكد والجد بلا راحة لحظة وصرف ساعات كثيرة مبلول جسمهُ والرياح الباردة تهب عليهِ . ومع ذلك صرف الليل بالشغل . اما كولانكور فانهكهُ التعب وتغلب عليهِ النعاس تكراراً وهو راكب مع ان اصوات المدافع كانت غير منقطعة ورصاص البنادق يملأ الهواء حواليهِ . وقال ان جسماً من الحديد لا يقدر على احتمال المشقات التي احتملناها في الاشهر الخمسة الماضية ولكن كيف تهتم بانفسنا والامبراطور يعرض حياتهُ وصحتهُ لخاطر دائمة وبعد نصف الليل رقد نابوليون سريرهُ سفر واستغرق في النوم في لحظة وبعد ان نام ثلث ساعة استيقظ بغتة وخرج من الفراش قائلاً يا كولانكور أانت هنا فاذهب الى المعسكر وخذ معك رسم الحرب الذي رسمتهُ . وفي هذا الليل وصل جيش فكتور ومارمون فافحص عدد جيوشها لترى هل تقدر ان تحافظ على المواقف التي عينتها لها فهذا لازم فانظر بعينيك ولا تركن الاَّ الى نفسك ودنا نابوليون من نافذة ليرى حالة الهواء وكان المطر يهطل والعواصف تهب بعنف المياه في الشوارع كالانهر والمصابيح تكاد تنطفي وراى في المعسكر علامات التعب فان الامطار اطفأت جميع جميع النيران والجنود التي اضنكها المسير السريع تطلب الراحة على الاراضي الموحلة بدون ان تجدها . فانحدر الى ساحة القصر وكانت ابطال الحرس الامبراطوري القديم تقوم بالحراسة مع انهم كانوا يحرسون الامبراطور في اليوم السابق ورجعوا معهُ الى درسدن بعد ان بلت اجسادهم بالمطر وكانوا يرومون ان يرضوا امبراطورهم المحبوب وكانوا متعبين جداً ومع ذلك صرفوا زماناً طويلاً في تنظيف ثيابهم من الوحل والاستعداد لان يكون منظرهم جيداً في الصباح فعند الفجر اتموا تنظيفها ووقفوا منتظمين كانهم يفرحون في ساحة قصر التويلري في باريس فتعجب نابوليون لما رآهم على هذه الحال فان فعلهم كان كفعل السحر . فقال لهم بصوت شفوق طالما جذب اليهِ قلوب جنوده يا فتيان ما هذا انكم لم ترتاحوا وقد صرفتم الليل بطولهِ في تنظيف ثيابكم . فاجابهُ احدهم اننا لا نبالي بذلك وقد حصلنا من الراحة بقدر ما حصلت جلالتك . فقال لهُ نابوليون انني تعودت التعب . ثم نظر الى الصف فراى جندياً فقال انني اعرفهُ فسالهُ قائلاً اظن انك حاربت في مصر . اجاب انني افتخر بذلك وقد حضرت معركة ابي قير وراجت سوق المنايا فيها . فقال لهُ الظاهر انك بدون نيشان . فاجاب ساحصل عليهِ في وقت من الاوقات . قال نابوليون لقد حصلت عليهِ وهو نيشان الصليب . فلما راى هذا البطل القديم العهد من تواضع الامبراطور واعتنائهِ بهِ ما رآهُ كاد يطير فرحاً ونظر اليهِ وقد ملأت الدموع عينيهِ مما يعجز القلم عن وصفها وقال انني ابذل حياتي في سبيل خدمتك هذا اليوم بلا ريب . وساقهُ الفرح الى امساك ذيل عباءة الامبراطور المشهورة



وقطع شيئاً قليلاً منها باسنانهِ ووضعهُ في عروتهِ وقال ان هذا عوض علامة النيشان الحمرا الى ان ترد العلامة عليَّ . فسرت هذه الفرقة بما نالهُ ذلك الجندي المستحق المكافاة فضجت كلها قائلة فليعش الامبراطور . فاثرت هذه الاعمال الدالة على حب جيشهِ الشديد فيهِ تاثيراً عظيماً فخرج من الساحة بسرعة . وراى ملك سكسونيا ما جرى فبعث الى ذلك البطل اربعمائة فرنك وقال لهُ ان هذا المبلغ لابتياع علامة حمراء (هذا على سبيل المجابرة والمزح)

وسار نابوليون في الحال حسب عادتهِ الى ميدان القتال فراى ما تنفت لهُ الاكباد وتقشعر منهُ الابدان . فانهُ جاء مكاناً مساحتهُ بضعة فراسخ تقاتل فيهِ ثلثمائة الف رجل يومين بجميع الات السلاح وبالف مدفع قتال المستميتين وكانت الارض مغطاة بجثث القتلى الغائصة في الدماء . فراى ايادي ورؤوساً وارجلاً واصابع وابداناً بلا اعضاء وافراساً مقطعة . فاي عين ترى ذلك ولا تحزن ما لم تكن كاعين اولئك الابالسة الذكور والاناث الذين طالما يتبعون الجيوش الى ساحة القتال للسلب والنهب وكانوا قد سلبوا امتعة القتلى وتركوها عريانة . وكانت هذه الاجساد العريانة ملقاة بعضها فوق بعض في الاماكن التي اشتد فيها القتال ونقل الوف من الجرحى الى المستشفيات ومع ذلك كان لا يزال كثيرون منهم في ساحة القتال يئنون انين الموت وكثيراً ما كانوا يصرخون من الالام صراخاً يقصر القلم عن وصفهِ . وجمعت الدول المتحدة جنودها من جميع امم اوربا بل من امم اسيا البربرية فكان يتلاقى في ميدان القتال القوزاق البربري والامير الاوربي المتمدن ويحاول كل منهما اراقة دم الاخر . وكان القطلي يسمي مجندلاً تحت الايطالي والروسي يقع قابضاً على الفرنسوي الذي كان يصارعهُ وبالجملة نقول انهُ اجتمع في ذلك القتال جميع امم اوربا

وكانت هذه المذابح هي الوسائل التي اتخذتها الدول المتحالفة لبلوغ غاياتها ونفوذ مآربها . وكانت اعمالها سبباً لتاخر اصلاح اوربا اكثر من نصف قرن . وربما التزمت اوربا الى العود الى تلك المحاربة العظيمة المخيفة . ولكن هل ينوز العالم بنابوليون اخر يجعل حقوق الناس متساوية مع المحافظة على السنن الدينية حال كونهِ ينقذ اوربا من ثورة عمياء

فصرف الامبراطور برهة يتفرس في ذلك المنظر المخيف الذي ترتعد منهُ الفرائص ثم سار ليرى المواقف التي اتخذوها اعداؤهُ المتقهقرون ويامر بمطاردتهم بهمة . وكان قد عرض نفسهُ زماناً طويلاً الى الاتعاب والبرد بلا نوم غير منقطع عن الاشغال والتدابير العظيمة فلم يسر محتملاً صبارة البرد الا قليلاً حتى اصيب بحمى شديدة رافقها قيء مقلق فالتزم ان يركب عجلة ويعود الى درسدن . وكان ذلك سبباً لتسليم ادارة مطاردة الاعداء الى قواده ولولا هذا المرض لربما راوا بعد مطاردتهم ومضادتهم انهُ ليس لهم مندوحة عن المصالحة . اما الان فامست الجنود الفرنسوية

عرضة لمصائب عظيمة فكانت تتكبد خسارة بعد خسارة . وكانت روسيا وبروسيا والنمسا تجمع جيوشًا جرارة فضلاً عن التي كانت تقاتلهم في ميادين الحرب . فكانوا يخسرون كل يوم ومع ذلك كانت اعدادهم تزيد بالنجدات . اما فرنسا فلمست متعبة جدًّا . وكان نابوليون محفوفًا بالنصر ومع ذلك كان جيشهُ يقل يوميًا حتى كاد يعجز عن تعويض خسائرهِ . اما الممالك الحرة المحبة لفرنسا فباتت محاطة باعداء فائزين فضعف عزمها . وتقوت احزاب الملكيين فيها وكان الجنرال فاندم الفرنسوي من اصحاب الحمية والشهرة مقيمًا في جبال بوهيميا وقال نابوليون عنهُ لو خسرت هذا الجنرال لبذلت كل ما في وسعي لارجاعهِ ولكن لو كان عندي قائدان مثلهُ لالتزمت بان اجعل احدهما يقتل الاخر وكان مورات ومارمون وسان سير يطاردون الاعداء ونابوليون ينتظر من الجنرال فاندم المذكور الذي كان في ذلك المركز الموافق لتبديد شمل الجيوش المتفرقة . والحرب تاتي بما لا ينتظر فاحاط الاعداء بهِ برجال تزيد كثيرًا عن عدد جيشهِ وقام القتال على قدم وساق وجرى الدم انهارًا ولم يفز بالنجاة غير عشرين الفًا من جيشهِ تحت قيادة الجنرال كوربينو وتخلصوا بخرق صفوف الاعداء بالسلاح وامسى الجنرال فاندم اسيرًا مع سبعة الاف جندي . وكان قد امر الجنرال اودينو بان يحارب برنادوت . واذا بهِ قد بات مهجومًا عليهِ بثمانين الف جندي . فانكسر بعد ان خسر الف وخمسمائة رجل وثمانية مدافع . وخرج الجنرال جيرار من ماكدبورج بستة الاف رجل ليساعد الجنرال اودينو فحمل عليهِ العدو بجيش جرار فالتزم بان يركن الى الفرار تاركًا بيدهِ الف وخمسمائة اسير واكثر ذخائره . اما الجنرال ماكدونال فحمل على الجنرال بلوشار فانحصر في مضيق اجتمعت فيهِ مياه المطر فدارت عليهِ الدوائر . وكان الجنرال لورستن قائد ميمنة جيش الجنرال ماكدونال فاحاطت جنود الدول المتحدة بهِ فالتزم بان يسلم هو وحامية مولفة من الف رجل . فهذه هي الاخبار المكدرة التي بلغت نابوليون وهو ملقى على فراش المرض في درسدن فراى انهُ قد خسر بهذه المعارك اكثر من ثلثين الف رجل . فقال لمورات هذه احكام الحرب فانها ترفع الانسان في الصباح وتحطهُ في المساء وبين الفوز والخراب درجة واحدة فقط . وكان رسم البلاد الالمانية مبسوطًا على مائدة بجانبهِ فامسكهُ واخذ يتفرس فيهِ ويتلو بصوت منخفض ابياتًا للشاعر تورنل وترجمتها انني خدمت وقدت الجيوش وانتصرت على الاعداء اربع عشرة سنة ورايت نصيب الدنيا التي اصبحت بيدي . وقد طالما عرفت ان نصيب الدنيا يتوقف على دقيقة من زمان كل حادثة

ولم تنتهِ مصائبهُ بتلك الخسائر فان المرشال ناي كان بالقرب من جدران ورتمبرغ فحمل عليهِ جيش جرار من جيوش الدول المتحدة . وكان مع ذلك المرشال جيش من سكسونيا فلما راى ان عدد المحاربين لنابوليون كثيرًا جدًّا وقع في ياس وترك مركزهُ في اثناء القتال وركن الى الفرار



ويقال انهُ اتفق على ذلك قبل انتشاب القتال . فحمل فرسان الدول بعد فرار ذلك الجيش واستولوا على مراكزهِ فشطروا جيش ناي الى شطرين واسروا عشرة الاف رجل واربعين مدفعًا فالتزم كل من شطري جيشهِ ان يرجع الى جهة . وكان نابوليون لا يزال مريضًا ومع ذلك لم يكن يقدر ان يحتمل اخبارًا مكدرة كهذه . فخرج من فراشهِ متالمًا ضعيفًا وسار في مقدمة جيشهِ . وتبع ذلك ما اقرَّ الاصدقاء والاعداء انهُ ناشئ عن حذق ودراية وادراك وشجاعة وثبات ولم يتعود العالم ان يرى مثلها . فان نابوليون لم يسق الى الخراب الا بانتصارات عظيمة متتابعة . فان جيوشًا تزيد كثيرًا عن جيشهِ احاطت بهِ وحملت عليهِ من كل الجوانب فكان الانتصار يذهب سدى . فان العدو الذي كان ينكسر اليوم كان يحمل في الغد بجيش يزيد عن عدد جيشهِ

## الفصل الرابع والخمسون

### القتال في لبسك

في ٢ ايلول (سبتمبر) انضم نابوليون الى جيش ماكدونال بالقرب من بونزن وكانت جيوش الدول المتحدة معسكرة تحت قيادة الجنرال بلوشار في مواقف حصينة على تلال مجاورة وبعد ان وصل نابوليون الى الجيش المذكور بساعة فقط اخذ الجيش يسير وحمل بهِ على جيوش الدول وطردهم من مواقفهم وطاردهم وضايقهم اليوم التابع بطولهِ . وجاءهُ رسول وهو في وسط الانتصار العظيم وقال لهُ ان جيشًا جرارًا من جيوش الدول المتحدة يتقدم نازلاً من جبال بوهيميا قاصدًا الحمل على درسدن . فرجع الامبراطور في الحال وسار مسرعًا الى الب . وفي الغد بعد الظهر بسبع ساعات راى طليعة جيوش الاعداء في برنا في مكان يبعد ١٥ ميلاً عن درسدن ولم يكن ذلك الجيش يتجاسر على محاربتهِ فرجع في الحال الى المواقف المنيعة في الجبال . وقال السار والتار اسكوت انهم خافوا حملة من تلك الحملات العجيبة التي كادت تجعل الناس يتوهمون ان الفرنسويين كانوا يديرون الفضاء كما يشاؤون . فطاردهم نابوليون نحو عشرين ميلاً قاطعًا اودية ووعورًا وارجعهم الى بترز والد . اما الجنرال بلوشار فكان يحمل على درسدن بجيش اخر جرار من جهة اخرى . فرجع نابوليون ليصدمهُ فعندما دنا منهُ ادبر وركن الى الفرار على ان نابوليون لاقى النمسويين في ظاهر اسوار تزنبرغ بالقرب من تويلتز وحمل عليهم وبدد شملهم وارجعهم بدون ترتيب الى لونسدروف بعد ان قطعوا وادي كولم وهم في بلاء عظيم . وعند ذلك هطلت امطار غزيرة وهبت عواصف شديدة جعلتهُ غير قادر على سلك الطرق . اما النمسويون المكسورون فكانوا اعرف منهُ بالمسالك فنجوا . فعاد نابوليون ثانية منصورًا الى درسدن على ان انتصارهُ كان قليل الجدوى . وبعد ان بلغها عرف ان برنادوت يجتاز الالب بجيش يزيد كثيرًا عن جيشهِ قاصدًا قطع خط الاتصال بين الفرنسويين وباريس . فتقدم قاصدًا الحمل عليهِ فخاف برنادوت

ان يلاقيهُ في ميدان الوغى فتنهزم الى جهة درسدن وهكذا نرى ان جيوش الدول المتحدة صرفت نحو شهر في محاولة الاستيلاء على درسدن بدون ان تنوزلان تدبيرات نابوليون كانت تدفعهم ولكنهم لم يقاتلوا قتالاً فاصلاً

وكان جيش نابوليون يضعف يومياً وجيوش اعدائهِ تتقوى مع انها كانت تنكسر لان النجدات كانت ترد عليها بدون انقطاع . وكان في جيش نابوليون كثيرون من جيوش الدول الرينية المتحدة معهُ . وكان اكثرهم من الجيوش المستاجرة يرتضون بان يحاربوا حيث يربحون . فرات ان جميع دول اوربا اتحدت على نابوليون وانهُ لايقدر ان يثبت في محاربتها . وكانت انكلترا تبذل الذهب بسخاء عظيم لكل من انضم اليها لمقاومة ذلك العدو المخيف

وكان اللورد كونكارت والسار روبرت ولسون وغيرهما من رجال الانكليز في معسكر جيوش الدول المتحدة يستاجرون الذين يرتضون بالانخراط في الجيش لمقاتلة نابوليون . واذاع الاعداء الرسالات والكراريس المحتوية اشد الطعن فيهِ بكل مكان فانتشرت بين الناس كاوراق الاشجار في الغابات . وكان مولفوها يندّدون بهِ ويثلمون صيتهُ ويتهمونهُ بفتح هذه الحروب ويحرضون اهالي فرنسا واوربا على اذلال الظالم لترجيع السلام وحرية العالم . وكان كثيرون من البسطاء او غير الواقفين على حقيقة الامور يصدقون هذه الاكاذيب فانهم لم يكونوا عالمين بحيل السياسة وكانوا متيقنين ان نابوليون حارب اوربا سنين كثيرة طويلة وظنوا ان سقوطهُ يؤيد السلم الذي طالما تمنتهُ فرنسا والمانيا

اما المورخ نايبار فوصف حالة انكلترا واعمالها وقتئذٍ بغيظ واختصار مبيناً الفساد الذي قد خامر الحكومة الانكليزية وقال ان العدوان الناشيء عن اعمال اصحاب الامتياز الموروث دامس حرية الخطباء والجرائد وان حكومة انكلترا كانت تصب مليوناً من الليرات بعد مليون على اواسط اوربا لمكافاة كل امير الماني او لص متعدٍ او رجل متحزب جاهر بعدوان نابوليون بدون ان يقلل معاش او يصلح عدوان مامور او يوبخ غافلاً في انكلترا قاطبةً . ولم يكن كاتب يتجاسر على اظهار الاضرار الناشئة عن ذلك خوفاً من ان يسحق راسهُ بالاضطهاد

وقبل اواخر ايلول (سبتمبر) تناول نابوليون رسالة محزنة من مكسيميليان جوزف ملك بافاريا وكان قد زوج بنتهُ لاوجين بن جوزفين فوجد فيها ان بافاريا لاتقدر ان تثبت على محالفة فرنسا اكثر من ٧ اسابيع . لان جيوش الدول المتحدة الجرارة انتشرت في اكثر المانيا ولا ترضى بالحيادة . فامست بافاريا ملتزمة بان تتحد معهم على فرنسا وان تعرض نفسها لتصيب بلاد مفتوحة وانحياز هذه البلاد الى اعداء نابوليون يخسره ٢ او ٣ ملايين نفس ويكسبهم اياهم . فعرضوا على ملك بافاريا الاتحاد معهم على نابوليون والتمتع بالاستقلال التام وصيانة املاكهِ كلها . فامسى ملتزماً بان



يختار هذا او الخراب . اما جيروم شقيق نابوليون فكان ملك وستفاليا وكان في مملكتهِ نحو مليونين من الاهالي . فوقع الرعب في قلوب اهالي مملكتهِ فعصوهُ فالتزم بان يخرج من قاعدتها ويأتي الربن . اما مملكة سكسونيا فكان فيها نحو اربعة ملايين نفس وكان ملكها فردريك اوغسطس وخلد ذكره بالوفاء لنابوليون . على ان اهالي مملكتهِ كانوا يجهلون الواقع وراوا أن الدول المتحدة فائزة فرغبوا في ان يتخلصوا من محالفة نابوليون وان ينضموا الى الفائزين . اما الملك فردريك الاول ملك ورتمبرغ فكان مالكاً على مليون وثلثمائة الف من الرعايا . فتهددهُ الملوك بخرب بلاده بعاصفة الحرب فخاف رعاياهُ وتذمروا طالبين المصالحة وامسى نابوليون غير قادر على صيانتهم ومصالحة تلك الدول كانت عبارة عن محاربة حليفهم وصديقهم . فهذه هي المصاعب التي بات نابوليون محفوفاً بها والمخاطر التي كانت تحدق بامبراطوريتهِ . ولم تظهر فيهِ اثار الاضطراب ولا لاحت على وجههِ لوائح الحدة والخوف مع ان الخيانة كانت عاملة على ان تهدم اركان ملكهِ فلاقى الخطوب بصبر وتأنٍ وشجاعة وجلال حتى حير عقول اعدائهِ وحملهم على ان يتعجبوا منهُ ويثنوا عليهِ ودافع الى ان انقطعت حبال الامل

وقال المورخ نايبار انهُ تصور عملاً عظيماً لم تدركهُ عقول القواد المعاصرين لهُ حتى ان حذق والنكتون القائد الانكليزي المشهور عجز عن ادراكهِ فلام الامبراطور نابوليون لانهُ اطال الاقامة مع جيشهِ في الالب وقال ان ذلك ناشيء عن عناد ولا تسلم بهِ قواعد الحرب الصحيحة على ان نابوليون كان قد عرف ماذا يوافق مركزهُ معرفة لم يدركها اولئك القواد فهذا ما عول نابوليون عليهِ للقيام بمصادمة اعدائهِ وحير بهِ عقول القواد بعد ان حلوا بقوة عظيمة في ضفة النهر اليسارية وتهددوهُ بالانطباق بسرعة على موخرتهِ وقطع خط رجوعهِ . فعوضاً عن الرجوع الى الربن صمم على خرق صفوف الاعداء النازلة امامهُ وان يسير الى الشمال ويبتعد عن ضفات الالب مائتي ميل متجهاً الى ضفة نهر الاودر . ويحمل الحرب الى اراضي مناوئيهِ الاعداء . ولم يكن معهُ اكثر من الف رجل . وكان مع قواد المتحدين خمسمائة الف جندي . وعرف ان هذا العمل يجعلهم ملتزمين بان يعودوا بسرعة لمنع استيلائهِ على مدنهم . وقال نايبار لولا خيانة الملوك المحاربين لهُ حال كونهم كانوا يتهمونهُ بالخيانة والدناءة لنجح وفاز بهذا العمل . وكان نابوليون يقوم بذلك بنجاح وشرعت بعض الجيوش الفرنسوية تتقدم واذا بخبر انحياز ملك بافاريا بكل جيوشهِ الى الدول المتحدة عوضاً عن ان يصبر ستة اسابيع كما وعد نابوليون . وان ملك ورتمبرغ سبق بتلك الحوادث العظيمة الى الاقتداء بهِ فاصبح اصدقاؤهُ اعداء لهُ ونكاتنوا على موخرتهِ ليقطعوا خط اتصالهِ ومونتهِ وبلغهُ فضلاً عن ذلك انهُ وردت نجدة على الروس عددها ٨٠ الف رجل وان مائة الف رجل كانوا يسيرون على مايانس ليحاربوهُ في فرنسا وان الجيوش المتحدة كانت حاملة على درسدن

بخمسمائة الف رجل

ومن يسمع هذه الاخبار ولا يظن انها تضعف قلب اشجع الرجال واعظمهم ولكن نابوليون سمع بهدو وسكينة حسب عادتهِ وطلب الى فرنسا بان ترسل اليهِ جيوشاً كثيرة تجمع بالقرعة لصيانة الامبراطورية من هجوم الاعداء . وسارت زوجتهُ ماريا لويزا بنفسها الى المجلس العمومي وخطبت خطاباً كتبهُ نابوليون وسلمهُ اليها . فقرر مجلس الاعيان في الحال ان يجمع ١٨٠ الف رجل فجمعوا بسرعة وارسلوا الى الحدود لنجدة الجيوش الموجودة هناك . فالدول المتحدة لامت نابوليون على جمع هولاء الجنود ونددوا بهِ بلهجة تنضح بالعجب العجاب واضعفت تلك المصائب قلوب القواد الفرنسويين وكانوا يترددون على القيام بالمشروعات التي كان يامر بها فان الظواهر كانت تدل على انها بدون اساس وثبت عند العارفين بفنون الحرب ان تصميم نابوليون على الحمل على برلين كما تقدم كان من اعظم الاعمال والمشروعات الدالة على حذقهِ وتعقلهِ وكان قد تامل فيهِ ودقق البحث في اوجههِ الكثيرة . واما قواده فكانوا قد كلوا من التعب والمشقات وضعف عزمهم بتنحي اصدقائهم عنهم وبالجيوش الجرارة التي كانت تحيط بهم فعندما بلغهم ذلك تذمروا واظهروا انهم غير مستعدين للقيام بمشروع محفوف بالمخاطر كهذا فطلبوا ان يعودوا بهم الى الرين . فهذه هي المرة الاولى التي ضاد القواد بها نابوليون فتكدر جداً وراى ان ساعة المصائب اشتد ظلامها حتى ان اصدقاءهُ المجربين باتوا غير محافظين على صداقتهم . قال كولانكور ان هذا العصيان الناشيء عن المصائب التي لا يستحقها كان رديا جداً . وعند ما جاءهُ رجال اركان حربهِ طالبين اليهِ العدول عن الحمل على برلين والعود الى ليبسك كنت معهُ في غرفتهِ . فتكدرت جداً مما شاهدت والذين كانوا يعرفون الامبراطور كما كنت اعرفهُ لم يدركوا كدرهُ وهمهُ كما ادركتهما . وحدثهُ احد مرشالية فرنسا بهذا الشان ولا اسميهِ لان جسمهُ انحل بتاثير الندم . وبعد ان تكلم بادر كثيرون الى ابداء رايهم . فكان الامبراطور يسمع معارضتهم صامتاً . ولم يظهر شيء يدل على كدرهِ الشديد سوى احمرار وجههِ واشتداد لمعان عينيهِ فانهُ كان قادراً على ضبط نفسهِ . ولما انتهوا من كلامهم اجاب بهدو وجلال ولكن الناس راوا ان صوتهُ كان مرتجفاً فقال

انني تاملت في ما اشرتم اليهِ ودققت البحث فيهِ في انحياز بافاريا الى العدو وعند وقوع الحوادث غير الموافقة لصالحنا . وتقرر عندي ان الحمل على برلين موافق جداً لنا والرجوع في الاحوال الجارية ياتي بعواقب ردية توقع في خراب وهوان . فالذين يعترضون على ما قررتهُ يلقون على عواتقهم مسئولية مخيفة فساتامل في ما قلتموهُ . انتهى . ثم انفرض في غرفتهِ فمرت ساعة بعد ساعة بدون ان يسمح لاحد بان يدخل عليهِ . وفي النهاية بات كولانكور في شاغل واخذ يمشي في القاعة الملاصقة لمخدعهِ في حيرة في ليلة باردة حالكة الظلام شديدة الرياح . وكانت تلك الساعة ساعة



كدر فحزنت القلوب جداً . فمضى اكثر السهرة بدون ان يخرج ولم يكن يسمع غير اصوات الزوابع والرياح . وبعد ذلك مزق كولانكور ورقة من مذكرتهِ وكتب عليها انني هنا فهل ترضى جلالتكم بمقابلتي ثم دعا احد المعاونين وامره بان يدخل الغرفة بالورقة المذكورة فدخل بها وتقدم كولانكور من الباب فلما قراها تبسم قليلاً حال كون لوائح الكدر كانت تلوح على وجههِ وقال بصوت مرتفع يا كولانكور ادخل . وكان نائماً على مقعد بجانبهِ مائدة صغيرة مغطاة بالخارطات وكان منظرهُ يدل على تعاظم همهِ فامسك ما كان بجانبهِ من دون انتباه ورمى بهِ الى الارض . فدنا كولانكور منهُ وقال لهُ بلطف ان هذا القلق بتلك فلم يجب . وكان كولانكور يروم ان يعتذر عن معارضات القواد فقال لهُ يامولاي ان اراء القواد التي عرضت لك مطروحة لديك فتامل فيها . فعند ذلك نظر نابوليون اليهِ وقال لهُ هل خدعت ان هذا لا يوافق فينبغي ادراك هذه المعارضات وهي ردية جداً مخيفة فحين يصبح التدبير في يد العساكر تخرج القوة من يد الملك . فارى حولي معارضات اشد خطراً من المجاهرة بالعصيان عليَّ فانني لا ارتبك اذا شاهدت مائة قائد يجاهرون بالعصيان فان جنودي يخمدون نيران اشد العصيان لانهم لا يتاملون في الامور بل يطيعون ويرتضون بان يتبعوني الى اقاصي الارض . على ان المخاطر التي بتُّ فيها بينت ان حياة الامة وموتها يتوقفان على ان يكون الاتفاق بين قواد الجيش وبيني تاماً فان عدم الركون والتردد يطرحاننا في خراب وهلاك قبل سيوف الدول المتحدة . ثم نهض عن المقعد ومشى مرتين او ثلث مرات في الغرفة متاملاً ثم قال كانهُ يكلم نفسهُ خسرت كل شيء وارى انني اعاند القضاء باطلاً فان الفرنسويين لا يعرفون ان يحتملوا المصائب . ثم القى نفسهُ على المقعد وغاص في بحر من التامل . وجاءهُ الغد يوم اشتد فيهِ كدرهُ واضطرابهُ وارتباكهُ وراى انهُ لا يقدر ان يحمل على برلين بدون ان يوافقهُ قوادهُ على ذلك كل الموافقة . وكان متيقناً ان التقهقر الى الرين يضيع جيش فرنسا وبعد ان اطال التامل في الاحوال والمخاطر المحدقة بهِ تبين لهُ ماذا ينبغي ان يفعل فسكنت خواطرهُ وهدأ بالهُ وعزم على ان يعود الى ليبسك ويدافع بكل قوتهِ دفاع الابطال الفضلاء الى النهاية . وقال لكولانكور ما يشهد لهُ بحذقهِ وهو ان القضاء يقرر سقوط الامم . فقال لهُ يامولاي ان ارادة الامة قد تغير القضاء . قال لقد احسنت على ان الامة لم تبين ارادتها . فلا تنسَ ما قلتهُ لك ولا تمكن الفرنسويين من ان يطعنوا فيَّ فاسال الله ان لا يقضي بما يجعل الذين اشاروا بهذه الحركة والحوا باجرائها يندمون على ما اشاروا بهِ

وامر في الحال برجوع الجيش وفي مساء ١٥ تشرين الاول (اوكتوبر) جمع جيشهُ الصغير الباسل حول اسوار ليبسيك . وفي مساء ذلك اليوم انصبت جيوش الدول المتحدة من جميع الجوانب واحاطت بالمدينة بثلثمائة وخمسين الف رجل . وفي الليل وقف حراس الجيش في

مواقف لا يبعد بعضها عن البعض الاخر الا مسافة رمية رصاص بندقية . وكان المتحدون متيقنين ان الفوز يكون لهم لان جيشهم كان يزيد كثيرًا عن جيش نابوليون . اما الجنود الفرنسويون فكانوا عالمين ان جيش الاعداء ثلثة اضعافهم وان كلاً منهم ملتزم بان يقاتل ثلثة رجال حال كون مدافعهم ستمائة مدفع قبالة الف مدفع من مدافع الاعداء ومع ذلك لم يخافوا سوء العواقب لانهم تعودوا الانتصار بوجود امبراطورهم فتيقنوا ان الفوز يكون لهم . وصرف نابوليون الليل في استكشاف المراكز التي كانوا حالين فيها وفي انفاذ الاوامر الى القواد والذهاب بنفسهِ الى جميع مراكز جيشهِ واعطاء الاعلام للفرق التي لم تحصل عليها . فتحركت الحمية الفرنسوية فيهم بحضورهِ وبكلماتهِ المهيجة فقال لهم هوذا العدو فاحلفوا انكم تفضلون ملاقاة الموت على ان ترون ناموس فرنسا مهانًا . فهتفوا قائلين قد حلفنا وضجوا فليعش الامبراطور فسمعهم الاعداء بتعجب . وكان نابوليون عالمًا بان عدد الجيش المتحد يزيد كثيرًا عن عدد جيشهِ ولكن لم تر آثار لاضطرابهِ الا بسرعة انفاذ الاوامر . وقال كولنكور ان الامبراطور بين لي ما صمم عليهِ وقال لي ان ليس فيهِ شيء علي يقوم مقام قلة الجيش فكثرة عدد الاعداء ستتغلب علينا فان عدد جيشنا ١٥٠ الف رجل وعددهم ٣٥٠ الفًا وترانا ملتزمين بان نقاتلهم في ميدان الحرب فهذا ما طلبوهُ . فتأمل بهذه الكلمات تأملًا دلَّ على قطع الامل فسمعتهُ كانهُ صوت القضاء الحاكم علينا بالهلاك

وقبل الظهر بثلث ساعات في ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ابتدات معركة ليبسيك المخيفة . واضطرمت نيرانها المهلكة ساعة بعد ساعة الى ان غابت الشمس ولم يكن نابوليون قادرًا على قهر جيوش تفوقهُ كثيرًا في العدد قهرًا فاصلاً وقال اننا بدون اسلحة كالصواعق لا نقدر ان ننتصر على جيوش جرارة . اما الجيوش المتحدة فخسرت في ذلك اليوم عشرين الف رجل . اما الفرنسويون فكانوا مستترين باخاديدهم واستحكاماتهم فكانت خسارتهم اقل كثيرًا . ومن الذين اسرهم الفرنسويون الكونت مرفيلد الذي ارسل في السنين السابقة الى معسكر نابوليون يطلب اليهِ بلسان النمسا الانقطاع عن قتالها . فاجابهُ نابوليون حينئذٍ الى طلبهِ وعامل امبراطور النمسا بكرامة الاخلاق والملاطفة فدعا مرفيلد اليهِ واطلق سبيلهُ بعد ان تعهد لهُ بان يعود وارسلهُ الى الدول المتحدة طالبًا المهادنة . وكلمهُ بحرية وبين لهُ كدرهُ وحزنهُ من شهر حميهِ الحرب عليهِ . فقال لهُ ان اتحادنا السياسي بات منقطعًا على ان بيني وبين مولاك اصلاب لا تنقطع فهذا هو الذي اطلبهُ فانني ساركن على الدوام الى اعتباره كحمي ولا انقطع عن ان ارفع اليهِ دعاوي المتعلقة بكلما يحدث هنا . اما رايت كيف يحملون عليَّ وكيف انني ادافع عن نفسي . وقال نابوليون عن الخطر الذي وقعت اوربا فيهِ من استبداد روسيا ان ربح النمسا بخسارة فرنسا خسارة فتامل يا ايها القائد في ذلك فان النمسا وحدها لا تقدر ان تمنع تقدم شعب عاداتهُ شبيهة في امور كثيرة بعادات امم البادية حال



كونهِ منصبًا على شن الغارات واملاكهُ ممتدة الى الصين وكذلك فرنسا وبروسيا . وقال في ختام الكلام اذهب لانفاذ ماموريتك الشريفة وهي عقد الصلح . فاذا تكللت اجتهاداتك بالنجاح تحصل على شكر امة عظيمة وحبها فان الامة الفرنسوية ترغب في الصلح كما ارغب انا فيهِ وانا مستعد لان اضحي امورًا كثيرة لبلوغهِ فاذا لم يجب طلبي ندافع عن اراضينا الى ان نريق القطرة الاخيرة من دمنا . وقد بين الفرنسويون انهم يعلمون كيف يدفعون الفاتحين عن اراضيهم فاستودعك الله يا ايها الجنرال وذكرك الهدنة على مسمع من الامبراطورين لا اظن انهُ يوثر فيهما تاثيرًا يذكرهما بالامور الواجبة

ولا يخفى ان فرنسيس امبراطور النمسا واسكندر امبراطور روسيا وغليوم ملك بروسيا كانوا قد باتوا في قبضة نابوليون فعاملهم جميعًا وخصوصًا امبراطور النمسا بكرامة اخلاق ادهشت اوربا . ولما احدقت المصائب بهِ لم يرتضوا ان يعاملوهُ بالملاطفة العادية فانهم لم يتنازلوا بان يجاوبوا على توسلاتهِ بلسان ذلك القائد . وقال البعض ان الامبراطورين المتحدين عرفوا انهم فازوا ببلوغ مركز ممتاز فلم ينفعوا في شراك نابوليون التي نصبها بارسال مرفيلد اليهم طالبًا عقد هدنة ولا ان يعرضوهُ للمخاطر بالحمل قبل اجتماع جيوشهم كلها . فادعى اشوانزنبرغ انهُ احال عقد الهدنة الى النمسا ولذلك لم يرسل جوابًا الا بعد ان اجتاز الفرنسويون الرين

ولم يستانف القتال في ١٧ من الشهر المذكور . وكان جيش الدول المتحدة ثلثة اضعاف جيش فرنسا ومع ذلك رات من دفاع نابوليون ما القى الخوف في قلبها وجعلها تنتظر مجيء برنادوت بستين الف جندي وكان هذا الرجل فرنسويًا قادمًا ليسعف اعداء بلاده . ولم يجدد نابوليون القتال لانهُ علق الامل بان الدول تتفاوض بالمهادنة . وصرف النهار بطولهِ في الشاهب لملافاة اعظم المخاطر . وثبت عند الناس انهُ لا يشعر بالتعب فانهُ كان يناظر بنفسهِ على كل حركة غير مبال بالاحتياج الى الاكل والنوم . وفي الليل عاد الى خيمتهِ وهو في قلق شديد من بطء رجوع الجنرال مرفيلد الذي ارسلهُ ليطلب عقد هدنة . وعظمة الصوالح التي امست معرضة للخطر اقلقتهُ وكان ينتظر يوم هلاك اخر ويخاف ان يفوز الاعداء عليهِ بكثرة العدد فيمسي جيشهُ في ضياع وتخسر فرنسا استقلالها وتسقط كل حكومات اوربا الحرة فضلاً عن سقوط دولتهِ . وضعف بالسهاد والتعب والمرض والالم ولم يقدر ان يستر قلقًا اثارهُ طاجرة فيهِ فهزل واصفر لونهُ . فالقى نفسهُ على كرسي كبير في طرف خيمتهِ ووضع يدهُ على بطنهِ وربما كان المرض المميت بدا يفعل فيهِ وقال انني مريض جدًّا فعقلي لا يزال قادرًا ولكن جسمي ضعف وبات عاجزًا فخاف كولانكور وقال وهو يسير الى جهة الباب سادعو اليك طبيبك ايوان . فقال لا لا لا تدعهُ فان خيمة الامبراطور نمامة كالزجاج فلا بدلي من ان انهض لارى ان كل جندي في مركزه فامسك كولانكور

يديهِ فشعر كانهما كالنار بالحمى فقال لهُ يامولاي انوسل اليك ان تنام لترتاح قليلاً قال لا اقدر فالجندي المريض يوذن لهُ بدخول المستشفى اما انا فلا اتمتع بما يتمتع بهِ الجندي المسكين . ولما لفظ هذه الكلمة تنهد واحنى راسهُ . فهذه الحوادث لا تزول ابداً من ذهني وهي التي شجعتني في الساعات الاخيرة لما رايت اننا قد خسرنا كل شيء وعند وصولي الى الحوادث المحيفة التي كادت تفني عزمي وتهدم اركان ثباتي كنت اتذكر نابوليون في ١٧ ت الاول . وكنت ارى انها بدون اهمية بالنسبة الى الحوادث التي بات نابوليون ضحية لها . فامسك نابوليون يد ذلك الصديق الامين المشترك معهُ في الامهِ وحاسياتهِ وشد عليها وقال ان هذا يزول قريباً فلا تدع احداً يدخل . وقال كولانكور بت في بلاء من الخوف لما رايت الامبراطور على تلك الحالة . وكان الاعداء يضايقوننا من جميع الجوانب وكان نصيب الوف من رجال القتال متعلقاً بهِ فطلبت الى الله سبحانهُ وتعالى ان يشفيهُ طلباً قلبياً بقصر القلم عن وصفهِ . وبعد ذلك ببرهة قصيرة وكان لا يزال يتنفس بسهولة قال يا كولانكور المحبوب انني اشعر بتحسين حالتي . ثم وضع يدهُ في ذراعي ومشى في الخيمة مرتين او ثلث مرات بثبات . فاخذ رونق وجههِ يرجع الى ما كان عليهِ بالتدريج وبعد ان اصيب بهذا المرض الشديد بنصف ساعة اصبح محاطاً باركان حربهِ يبعث الاوامر ويرسل الرسل الى قواد جيوشهِ في المراكز المختلفة . وعند الفجر ركب فرسهُ وقال لحراسهِ في هذا اليوم يتصل امر عظيم فان نصيب فرنسا سيقرر في ميدان القتال في لبسك فاذا انتصرنا نعوض جميع خسائرنا واذا انكسرنا لا نعلم ماذا تكون العاقبة

ولما طلعت الشمس في الفلك الصافي تحركت جيش الدول المتحدة كلها . والذين شاهدوها تتحرك من قباب اجراس لبسك قالوا ان منظرها كان عظيماً مخيفاً . فان صفوف الحاملين كانت ممتدة الى الافق في كل الجوانب كانها بنيان مرصوص حامل على المدينة . وكان يسمع صوت الموسيقى الحربية وصهيل الخيل ويرى لمعان الاسلحة باشعة شمس الصباح وضوضاء كرات كثيرة . وكان مجموع تلك الجنود المسلحة المتاهبة نحو خمسمائة الف رجل . وبعد الحمل ببرهة قصيرة سمعت ضوضاء القتال وكانت اشد من دمدمة عشرة . ف رعدة قاصفة ولم يقدر الفرنسويون ان يلاقوا اعداءهم باكثر من مائة الف رجل . اما نابوليون فلم يكن يبالي بالمخاطر فاخذ يجول وسط دخان كالغيم الكثيف مارّاً فوق تلال من القتلى وكان ينتقل من مكان الى مكان بسرعة حتى ان حراسهُ لم يكونوا يقدرون ان يتبعوهُ الا بعناء عظيم . وكان كلابس الحجابات فان الرجال كانوا يقتلون بدون انقطاع حولهُ بدون ان يمسهُ ضرر . وقال السار والنار اسكوت انهُ صرف هذا اليوم بطولهِ يحارب طالباً دفع المخاطر لا النصر وهو ذو سكون وهدو وثبات بعضد فرقهِ المتعبة الناقصة في دفاعها الباسل بثبات وشجاعة كانهُ يدير جيشهُ ليطارد عدواً منكسراً وربما



كان التعجب من حذقهِ الحربي وهو يدافع النحس والجيوش التي تفوقهُ في العدد يزيد عن التعجب من حذقهِ لما كان السعد بخدمهِ ويمكنهُ من الانتصار على الاعداء

وبعد الظهر بثلث ساعات اشتد القتال جداً فتقدم برنادوت بجيش من الاسوجيين والروسيين والبروسيين ليهجم على المارشال ناي الفرنسوي الذي كان رفيقهُ . وكان يدافع عن موقف خطير بجيش فرنسوية وسكسونية وفرسان دانمبرغ . وفي معركة واغرم كان برنادوت قائد الساكسوني المتحد مع جيش فرنسا وويخهُ نابوليون لانهُ مدحهم توبيخ سائر الجيش فبادر كل الجيش السكسوني وفرسان وارنمبرغ وعددهُ ١٢ الف رجل الى ترك مراكزهم والانضمام الى جيش برنادوت على غير انتظار اخذين معهم اربعين مدفعاً وكل ذخائرهم وكانوا يبتعدون عن الجيش الفرنسوي ويوجهون بنادقهم الى الفرنسويين ويطلقونها على الذين كانوا رفاقهم في القتال . ولما رات جيوش الدول المتحدة ذلك سرت جداً وتيقنت الفوز وحملت على كل الجوانب تحيط بالفرنسويين . ولما وصل اولئك الجنود الى صفوف الجيوش المتحدة قابلوهم بالتهليل . اما الجنرال ناي فراى انهُ بات غير قادر على الدفاع فتقهقر وانفذ معاون حرب الى نابوليون يخبرهُ بهذا الحادث المضر . فلما سمع هذا الخبر اوقف فرسهُ وانقطع عن الكلام والتحرك برهة ثم رفع عينيهِ الى السماء كالمستغيث وقال ما هذا العار . ولم يضع دقيقة اخرى بالتاسف الذي لا يجدي نفعاً ولكنهُ سار سريعاً في مقدمة فرقة من جيش الحرس الامبراطوري الى المكان الذي خسر اسباب الدفاع . ولما راى الفرنسويون خيانة حلفائهم اغتاظوا جداً فحملوا على جيش برنادوت الذي كان قد انضم اليهِ اولئك الخائنون حملات تزعزع الجبال الرواسخ فتقهقروا بلا انتظام . فضجوا قائلين فليعش الامبراطور وليمت الساكسون وغاصوا في وسطهم . واستمرت المعركة النهار بطولهِ وتمكن الفرنسويون بجد يفوق جد البشر وبشجاعة لا مثيل لها من ارجاع الاعداء في كل الجهات

وبات ملك سكسونيا في حالة صعبة جداً معرضاً للوم ملوك لم يراعوا ناموسهم وخروج الجيش السكسوني من صفوف الفرنسويين وانضم الى اعدائهم بدون علمهِ وامرهِ . ونسب القواد ذلك اليهِ ليخدعوا الجنود . وقالوا لهم ان ملكهم حالف اعداء فرنسا وان الفرنسويين اسروهُ وذهبوا بهِ . واذاعت روسيا اخباراً غير صحيحة واخترعت اخباراً لتبطل نفوذ فرنسا في ملوك المانيا الصغار الذين كانوا متحدين معها وفاق برنادوت الجميع الوسائل الخداعية الدقيقة التي استعملها . واذ كان قائد السكسون قائداً فرنسوياً استعمل نفوذهُ فيهم لخدعهم

وفي النهاية سدل الليل ستارهُ على ميادين الدم والبلايا . وباتت الجيوش كلها متعبة بالقتال الطويل العنيف . وصمم نابوليون على استئنافهِ في الصباح فانفذ الاوامر اللازمة ثم دخل خيمتهُ ليضع رسم الحرب . وبعد الظهر بسبع ساعات سمع ان الذخائر الباقية لا تكفي الجيش في النزال

اكثر من ساعتين بعد ان اطلق في معركة ١٦ و١٧ من ذلك الشهر اكثر من ٢٢٠ الف طلق . فراى انهُ لا بد من التقهقر بمائة الف رجل بلا ذخائر امام ثلثمائة وخمسين الف رجل . فعقد مجلساً حربياً في الحال ومن يقدر ان يصف الكدر الذي استحوذ على قلوب القواد الفرنسويين بعد ان انقطعت رعود القتال المخيفة ولم يسمع في ذلك الليل غير انين الجرحى والذين في حالة النزع وصراخهم . وكانت نيران جيوش الاعداء تظهر في الافق محيطة بالفرنسويين دالة على انهم باتوا في مركز قد انقطعت حبال املهم من التخلص منهُ . ولم يكن عندهم ذخائر ولا جيوش احتياطية ولم يكونوا ينتظرون ورود نجدات ومخازن مؤنتهم وذخائرهم العظيمة كانت في تورغو التي تبعد عنهم اكثر من خمسين ميلاً . فاجتمع مريشالية نابوليون وقوادهُ بالحزن والكآبة حولهُ ولم يتجاسر احدهم ان يبدي رأياً قاطعاً في هذه الساعة المحفوفة بالمخاطر وكان التعب قد اضنى نابوليون وتغلب النعاس عليهِ فنام في وسط المفاوضة . فاحنى راسهُ على صدرهِ وارتاح برهة من الهموم والاحزان . وكان قواد جيوشهِ يدركون حقيقة احوالهِ فوقفوا حولهُ يتفرسون فيهِ بهمٍّ حزن . وبعد ان نام ربع ساعة استيقظ ونظر الى الذين كانوا يحيطون بهِ وقال هل انا في يقظة او في حلم . ولم يوبخ القواد الذين امتنعوا عن ان يحملوا على برلين واوقعوا الجيش في الضيقات التي بات فيها . ولكنهُ وجه كل قوتهِ الى تخليص جنودهِ من البلاء المبرم الذي امسوا فيهِ كأن وقوعهُ في ماكان واقعاً فيهِ تم بمشوراتهِ واجراآتهِ . ففي اي تاريخ نرى من كرامة الاخلاق ما يماثل كرامة اخلاقهِ وفي ساعة واحدة بات جنودهُ المتعبون الجياع يسيرون متقهقرين والمخاطر محيطة بهم

واما لبسك فواقعة في سهل مخصب وكان فيها نحو اربعين الفاً من السكان . ولم يكن لنهر الستر غير جسر واحد يقدر الفرنسويون ان يعبرهُ متقهقرين وازدحمت اقدام الجيش الراجع فيهِ ازدحاماً يقصر القلم عن القيام بحق وصفهِ فان المشاة والفرسان والمدافع اجتمعت فيهِ مع ضيقهِ وعاقت المسير . وصرف نابوليون الليل بطولهِ يناظر على رجوع جيشهِ . ولم تطفا نيران المعسكر بل زيد ضرامها ليخدع العدو بها وفوض الى مارمون وناي حماية جناحي الجيش وفوض الى ماكدونال . وفي قتال اليوم السابق رقي بونيا توفسكي البولوني الى رتبة قائد فدعاه اليهِ وقال لهُ يا ايها البرنس اني افوض اليك الدفاع عن الجهات الجنوبية . فقال لهُ يا مولاي اخاف ان يكون عدد جنودي اقل من العدد اللازم لذلك . فقال لهُ الامبراطور بحزن وثبات لا باس فدافع بالذين يتيسر ان تدافع بهم . فقال لا ترتب في ذلك فاننا جميعاً مستعدون لان نموت في سبيل خدمة جلالتك . وصرف الجيش الفرنسوي الليل بطولهِ في عمور الجسر وكادت تسد جميع شوارع المدينة المودية اليهِ بالفرسان والعجلات والخيل . وعند الفجر عرفت الجيوش المتحدة بتقهقر الفرنسويين فضربت الطبول وسفرت الابواق واطلقت المدافع فاستيقظ الجيش كلهُ فنهض واثباً وتقلد السلاح وحمل



بالتهليل على الجيش المتقهقر الذي كان بدون سلاح بالنسبة اليهِ على ان الاحتياطات المبنية على الحكمة التي قام نابوليون بها منعت تقدمهم . وكان يرغب في تخليص مدينة لبسك من بلايا انتشاب القتال في الشوارع حتى تنتفي موخرة الجيش الفرنسوي المتقهقر بطليعة جيش الدول المتحدة الحامل . لان انتشاب القتال في شوارع مدينة تراقبهُ تعديات بربرية واحتراق مساكن وقتل اهالي غير محاربين فصمم على ان يرجو الدول المتحدة بالعفو عنهم وتخليصهم من ذلك البلا الادهم فيبعث براية متاركة اليهم طالباً العفو عنهم . وقال السار والتاراسكوت المورخ الانكليزي المشهور بهذا الشان اني متى سبق القواد الفائزون الى الامتناع عن تتبع فورهم مراعاة لحقوق الانسانية والشفقة . فالح القوم على نابوليون باحراق ضواحي المدينة في جهتهِ ليمتنع تقدم الحاملين فامتنع شفقة على الناس . وقال نورغن المورخ ان الامبراطور رام ان يخلص المدينة المنكودة الحظ من البلايا المحدقة بها فبعث عدة نسال الدول بالعفو عنها . فاجاب الامبراطورون المتحدون لتخرب لبسك وشفق نابوليون الكريم الاخلاق في السراء والضراء على مدينة الالمانية اكثر من الذين كانوا يدعون انهم مخلصوها . وهذا هو الرجل الذي قالت الدول المتحدة انهُ وحش ظمآن لا يرويهِ غير الدم . فامر بان تصان المدينة حال كونهِ عالماً بان حمايتها تزيد المخاطر التي امسى محاطاً بها . وقام بذلك بعد ان تركهُ السكسون واخذ احزاب الملكية يطلقون الرصاص على جيوشهِ المتقهقرة من النوافذ

وكانت الكرات والرصاص تنصب غزيرة على شوارع درسدن . فدخلها نابوليون واجتمع بملك سكسونيا الذي كان قد جاء معهُ درسدن . وافترقا بكدر وحزن لانهما كانا صديقين قديمين ارتبط قلب كل منهما بقلب الاخر باجل رباطات الصداقة والموالاة . وبلغ ذلك الملك المسن ما فعلهُ جيشهُ فتكدر جداً . ولما راهُ نابوليون على تلك الحال نسي مصائبهُ وشرع يسليهِ ويعزيهِ . وكان الكدر مالئاً قلبهُ ولكنهُ كان غير مضطرب . وقال انهُ متاسف جداً من ترك حليفهِ في وسط اعدائهِ المنتصرين واطال زمان بث هذه العواطف الجليلة الناشئة عن الصداقة الصحيحة وكرامة الاخلاق ولم ينقطع عن التكلم الا حين سمع المدافع تطلق بكثرة امام ابواب المدينة فراى انهُ في خطر من ان يقطع خط رجوعهِ فخاف ملك سكسونيا على نابوليون فالح عليهِ بان يركب فرسهُ ويذهب وقال لهُ قد فعلت كلما يمكن ان يفعل وانت تبالغ في كرامة الاخلاق اذا عرضت نفسك للخطر لتعزي صديقاً . فاثر ذلك جداً في نابوليون . فان كثيرين خانوهُ فاشتد حبهُ للاصدقاء الذين حافظوا بامانة على ذمتهِ . فلم يذهب ولكنهُ سمع اصوات المدافع القريبة وتيقن ان الاعداء قريبون . فاخذت الملكة والبرنس اوغسطا يتوسلان اليهِ بالدموع بان يخرج ليخلص نفسهُ فاجاب طلبهما متردداً . فقال لهما انني لا اذهب واتركم الا لانني تيقنت ان وجودي يزيد رعبكم

فاودعكم وعند رجوع فرنسا الى قوتها تكافيكم على جميلكم المبذول في سبيل خدمتي . وبعد ذلك انحدر الى باب القصر ونزل الملك معهُ وتم الوداع بقبلات اخيرة . ولم يلتفتا بعد ذلك فركب نابوليون فرسهُ وخاطب حراس الملك الذين كانوا يخدمونهُ قائلاً لهم انكم غير مطالبين بعد الان بخدمتي وحرصهم على افراغ كل قوتهم في سبيل حماية ملكهم وعائلتهِ . ثم سار الى اقرب الابواب من الجسر على ان الشوارع كانت غاصة بالفرسان والعجلات والجنود فلم يقدر ان يسير سريعاً فالتزم بان يعود ويمرّ في وسط المدينة وخرج من باب في الجهة المقابلة ورصاص الاعداء يتساقط حولهُ . فدار حول المدينة الى ان وصل الى الجسر وصادف هناك عجلات ومدافع حالت دون تقدمهِ . فوجده احد الاهالي فذهب بهِ الى بستان بطريق ضيق طويل حتى بلغ بهِ اول جسر . وهكذا تمكن من النجاة بصعوبة عظيمة . ووضع الفرنسويون بارودًا في ذلك الجسر العظيم الحجري تحت قناطرهِ . وكان قد امر الكولونل مونفور باشعال البارود بعد عبور جميع الجنود الفرنسوية ليوقف مطاردة العدو . فعوضًا عن ان يقوم بذلك بنفسهِ سلم هذا الامر الى ضابط . وبعد اجتياز نابوليون الجسر ببرهة قصيرة دخلت جنود الدول المتحدة المدينة بضجة وتهليل . وكان جيش الموخرة الفرنسوي يرجع ببطء مدافعًا عن كل فتر مع ان الحاملين كانوا اكثر منهُ

وازدحمت اقدام الفرنسويين المتقهقرين مع عجلاتهم ومدافعهم في الجسور باتوا فيهِ بلا ترتيب وانتظام ورصاص المطاردين وكلل مدافعهم تتساقط عليهم كالبرد . اما الضابط الصغير الذي كان قد فوض اليهِ اشعال البارود الموضوع تحت الجسر لهدمهِ ومنع المطاردين عن ثائر الفرنسويين فارتبك لما راى انهُ وسط ذلك الازدحام الخالي من الانتظام فاشعل البارود قبل ان تم عبور الجيش الفرنسوي . فسمع صوت بتصر القلم عن وصفهِ واندفاع البرج الى الهواء وامسى ٢٥ الفًا من الفرنسويين ومعهم مدفعان منقطعين عن معظم الجيش الذي كان قد تم عبورهُ وباتوا غير قادرين على الدفاع ولا على التقهقر . فصاح الذين كانوا قادمين من المكان الذي هدمهُ البارود صياح الويل والهوان والذين كانوا وراءهم لم يقدروا ان ينقطعوا في الحال عن المسير فسقط الوف من الرجال والافراس مع مدافع وعجلات في النهر العميق . ولما راى الفرنسويون انهم انفصلوا عن جيوشهم وقعوا في ياس وفروا الى جهات مختلفة . اما القائد ماكدونال فالقى فرسهُ في النهر وخلص نفسهُ سابحًا . اما بونيا توفسكي الذي كان ابعد منهُ عن الجسر فلما راى ان العدو يكاد يحيط بهِ سل سيفهُ وقال للضباط الذين كانوا حولهُ ياسادتي يليق بنا الان ان نموت موتًا شريفًا . فحمل بفرقتهِ الصغيرة على العدو وخرق صفوفهم فاتحًا طريقًا في وسطهم . فكسرت ذراعهُ برصاصة وسال كثير من دمهِ فضعفت قوتهُ ومع ذلك وصل الى نهر بلابس الصغير والقى بنفسهِ في الماء ومطاردوهُ قريبون منهُ . فلم يقدر فرسهُ ان يسير بهِ فيهِ فسقط في الماء . ومع ذلك فتمكن



من الوصول الى الضفة المقابلة فاغمي عليهِ من فقدان الدم . ولما رجع الى نفسهِ ركب فرسًا اخر ورصاص الاعداء يمرّ حواليهِ وقطع بسرعة ارضًا ضيقة ودخل نهر السنار فعبر الفرس بهِ ولما حاول الصعود على الضفة المقابلة سقط الى الوراء على راكبهِ المتعب الضعيف فقتل . وهكذا لاقى حتفهُ ذلك القائد البولوني الصنديد . وبعد موتهِ بايام قليلة وجدت جثتهُ عائمة على ماء ذلك النهر فدفنها اعداؤها بجميع الاحتفالات الحربية . وقد بنيت فوق مدفنهِ حجرة بسيطة وقال نابوليون عنهُ وهو في سانتا هيلانه ان بونيانوفيسكي كان رجلاً ذا صفات شريفة شجاعًا ولو نجحت في روسيا لجعلتهُ ملك بولونيا . انتهى . واجمعت الامم قاطبة على مدح هذا الرجل حتى ان اعداءهُ يمدحون صفاتهِ ويثنون على سجاياهُ وكان يحب نابوليون حبًا لا مزيد عليهِ . وحارب معهُ بامانة لم يخامرها اقل تغير لعلمهِ انهُ كان يحارب في سبيل الدفاع عن الحقوق العمومية . وكان ذلك سببًا لتمكن نابوليون من ان يجمع حولهُ كثيرين من اعظم رجال اوربا . واذا حكم على نابوليون بما يثلم الصيت ويمس الناموس والكرامة فلا بد من ان يشاركهُ في ذلك عدد غفير من اكرم رجال اوربا واعظمهم بل من اعظم رجال الدنيا . فالذي يحكم على نابوليون حكمًا غير موافق لابد ان يحكم بمثلهِ على بونيا توفسكي وفسبار ودوروك وديزه واوجن وماكدونال وكولانكور وناي ولان وكثيرين غيرهم من الذين كانوا يلاقون الموت بدون خوف في سبيل ترقية اسباب القواعد التي كان يروجها ويعضدها . فهذا يجعلنا نستخف بطعن الناس فيهِ ونحكم بانهم حادوا عن الصواب

ثم اجتمعت الجنود المتحدة في نسحة لبسك بسرور وفرح والقلم يعجز عن وصف حالة المدينة فان شوارعها امست ملأى بالقتلى وبالذين في حالة النزع من الجنود والنساء والاطفال . وكانت بيوتها متهدمة بكرات مدافع المتقاتلين . وامست احياء كثيرة منها رمادًا يتصاعد الدخان منهُ . وكانت في كل جهة منها عجلات مكسرة ومدافع وسائر الات القتال وافراس متقطعة الاعضاء ودماء مجتمعة كماء المطر . اما امبراطور روسيا والنمسا وملك بروسيا ومعهم حشم عظيم زاهر تواصل التهليل فدخلوها من الجهة الجنوبية . واثناء دخولهم دخلها برنادوت محفوفًا بعظمة الحرب من الجهة الشرقية . اما الحزب الملكي في لبسك فراى انهُ سيعود الى نفوذهِ وسطوتهِ بسقوط حزب الجمهورية فسر جدًا بالدول المتحدة . اما الذين يحبون الاصلاح فرجعوا بكدر وسكون الى منازلهم او هجروا بيوتهم وساروا مع الجيش المتقهقر لينجوا من الاضطهاد والمحن والقتل وكانوا يسمعون اطلاق مدافع النوز وقرع الاجراس ونغمات الموسيقات . ويقولون هذه دلائل موت الحرية في المانيا . فان صديقهم العظيم الذي دفع بقوة غريبة وثبات عجيب تعديات اوربا المتحدة التزم في النهاية ان يسقط امام الكثرة واعتقلت وسلمت مقيدة مكبلة الى الاستبداد الروسي والبروسي والنمسوي . ومن يدرك احكام الله سبحانهُ وتعالى ويعرف اسباب سماحهِ بفوز الاستبداد والظلم

فالاستبداد يكشف اسباب ذلك . وقال المورخ اليسون الانكليزي ان الدول المتحدة غنمت في قتال استمر ثلاثة ايام ٣٥٠ مدفعاً و ٩٠٠٠ عجلة للذخائر واشياء اخرى لا تحصى واسروا ملك مملكة سكسونيا وقائدين عامين وقواد فرق كثيرين و ١٣ قائداً اصغر منهم و ٢٠ الف رجل اما الفرنسويون فخسروا فيها اكثر من ستين الف رجل . وخسارة الدولة المتحدة كانت وافرة ايضاً وكانت نحو الف و ٨٠٠ قائد وضابط و ٤١ الف رجل بين قتيل وجريح وهذه خسائر وافرة على ان البشر لا يقاسفون من وقوعها على البيبا لانها خلصت اوربا من عبودية فرنسا والعالم من تعديات الفتن . انتهى . فهذه هي العبارات التي استخدمتها الدول المتحدة تاييداً لنفوذها فيسمون عبودية روسيا والنمسا حرية والمساواة تعديات فتنا

وكان الملوك المتحدون يقولون ان حقهم في الملك هو من الشروع ذلك تنازلوا وصرفوا النظر عن اصل برنادوت ملك اسوج فانها كانت محتاجة الى الخدمة التي كان قادراً على ان يقوم بها ولكنه اقر بالتعب وامتنع عن ان يشاركهم في ذبح ابناء وطنه فسلموه قيادة بعيدة خطيرة وكان نابوليون يتقهقر بجيشه المضعضع الاحوال الى جهة ارفورت وهي تبعد نحو مائة ميل عن لبسك . ورغبت الدول المتحدة في ثلم صيته في اوربا فاشاعت انه عند اجتياز النهر امر بهدم الجسر لخلاص نفسه واهلك جنوده وقواده المتاخرين . فصدق الناس هذه الاشاعة لان الذين اذاعوها نشروها بلا تردد فتقرر في عقول الناس ان نابوليون وحش مهلك محب لنفسه غير مبال ببلايا الاخرين وظن كثيرون انه جذب اليه قلوب الجنود الفرنسوية بقوة سحرية لانهم احبوا رجلاً لا يستحق غير الكره والهلاك . وتاكدوا بعد ذلك ان هذه التهمة باطلة وقد امست في زوايا النسيان مع الف تهمة اخرى ولكن تاثيراتها لا تزال في الراي العام في بعض البلاد

وفي اليوم الثاني اجتازت الجنود الفرنسوية سهول لوتسن متضايقة منكسرة القلب ثابتة العزم ورات الاماكن التي فازت بها فوزاً عظيماً منذ اشهر قليلة . اما جنود الدول المتحدة فعبرت النهر وطاردت الفرنسويين بسرعة وهمة عالية . وفي خمسة ايام وصل الامبراطور نابوليون الى ارفورت فراى مورات ان الامبراطور بات في خطر مبين وان سقوط الامبراطورية الفرنسوية يسلب منه تاج نابولي فاخذ يخابر الدول المتحدة سراً ووعدها بان يترك الامبراطور نابوليون وينضم اليهم اذا وعدوه بصيانة حقوقه ولما راى سقوط سيده وولي نعمته اراد ان يصون نفسه فادعى انه ذاهب الى مملكته لجمع النجدات فترك الامبراطور في ساعة احتياجه اليه . وكان مورات بطلاً صنديداً لا يخاف الموت ولا يبالي بالمنايا ولكنه لم يكن على جانب عظيم من كرامة الاخلاق . وكان نابوليون عارفاً بكمالاته ونقائصه ولم ينس تركه لمركزه بدناءة عندما كان في النبولا . وعرف المقصود من ابتعاده عنه مدعياً ان مراده جمع النجدات . وكرامة اخلاقه منعته عن ان يطلب الى الاخرين



مشاركته في السقوط فلما جاءه مورات مودعاً قابله ملاطفاً . ولم يوبخه بكلمة ولكنه تجلد واخفى اكدار قلبه المجروح وقبله وهزيمة بحب وحزن وكل منهما عالم بانه لا يلتقي بالاخر . فذهب الى الدول المتحدة ومنع اوجن عن الخروج من ايطاليا ليسعف نابوليون . ولا نبالغ في لومه لانه كان حاد الطبع ذا عقل متوسط يعجز عن ان يضحي صالحه في سبيل صالح غيره مراعاة للمروة والشهامة وفي ١١ كانون الثاني (جانفيه) عاهد الدول المتحدة على ان يرسل اليها ثلاثين الف رجل لينضموا الى ستين الفاً من النمسويين وتقلد قيادة هذا الجيش وعدده تسعون الفاً وحمل على اوجن نائب الملك في ميلان ومنعه عن التقدم ليسعف الامبراطور . وتعهدت له الدول المتحدة مقابلة لهذا العمل الذي جلب به العار على نفسه بان تبقى له دور ثانية مملكة نابولي غير انها لم تف بوعدها وقال اعداء نابوليون انه اظهر من كرامة الاخلاق وهو يسقط بقوة المحاربين ما حير العقول وقضى بالعجب العجاب

ولم يكن مع نابوليون غير ثمانين الف رجل حال كون ٦٠٠ الف رجل كانوا يطاردونه اشد طراد ويضايقونه قاصدين الحمل على فرنسا . فامسى غير قادر على ان يحمي اصدقاءه ومحاولتهم الدفاع عنه لم تجد نفعاً فدعا الجنود الالمانية التي كانت لا تزال تحارب معه بامانة واطلق سبيلها واعطاها مالاً وزاداً اوسع لها بالعود الى بيوتها عالماً بانها تبادر الى حمل السلاح لمحاربته

اما ملك بافاريا فتقدم انه ترك نابوليون واتحد مع اعدائه وشهر الحرب على فرنسا . ولم يفعل ذلك الا لانه بات ملتزماً بان يفعله وتمه بسرعة لم يكن ينتظرها نابوليون فالقاه في ارتباك عظيم وهكذا اصبح جيش بافاريا يسير تحت امرة الجيوش المتحدة لتقطع خط رجوع الفرنسويين وكان مع نابوليون فرقة من البافاريين الذين حافظوا على ذمته بعد ان نقضها ملكهم فجمعهم وشكرهم على امانتهم وصرفهم ليعودوا الى ملكهم عالماً بانهم يلتزمون بان يوجهوا سلاحهم الى فرنسا التي امست ضعيفة . وكتب الى مكسيميليان الذي كان حليفه بان بافاريا حاربت فرنسا دون شهر الحرب فيحق لي ان اسر هولاء الجنود ولكن ذلك يخسرني الركون الذي احب ان يكون للجنود الذين يخدمونني فامتنعت عن القيام بالثار . انتهى . وكان اولئك الجنود يحبون نابوليون جداً ولكنهم خضعوا لضرورة الاحوال وخرجوا بحزن من الصفوف الفرنسوية . ثم جمع الجنود البولونية وقال لهم الخيركم بين مصالحة الدول بالشروط الموافقة لهم وبين مرافقتي بعد افول طالع السعد . فقالوا اننا لا نترك الامبراطور الذي تفرد بالاشتراك بالحاسيات معنا منذ سقطت بلادنا

والتزم نابوليون بان يقلل عساكره في اسبانيا . وقال الكولونل نابيار ان انتصار اللورد ولنكتون القائد الانكليزي قطع المخابرات التي كانت جارية بين جوزف شقيق نابوليون ملكها وبين الاهالي الذين كانوا يرومون استئصال الخلاف الواقع بينهم وبين الفرنسويين على ان

اولئك الاهالي لم يقعوا في ياس فالفوا حزبًا قويًا مضادًا للانكليز . وكان بعض الاهالي شديدي التعصب دينيًا وسياسيًا فاصبح كل خدم الدين متحزبين لهم . وكانوا يرومون الحصول على امرين وهما ملك مطلق وكنيسة لا تتساهل . اما حزب الحرية فكان بعضهُ اصحاب التجارة واهالي قادس وجعلوا اعمالهم مطابقة لكتابات الحكماء الفرنسويين . فكانوا يطلبون حكومة حرة عمومية غير مراعين العادات القديمة وبدون ان يكونوا قادرين على ان ينفذوا اراءهم . اما الاسبانيول جميعًا فكانوا يغارون من انكلترا ويحتقرونها . ومن يصدق انهُ لما فتح اللورد ولنكتون الحرب سنة ١٨١٢ لم يمنع مجلس مبعوثي اسبانيا عن الحكم لمنع الجنود الاجنبية عن دخول القلع الاسبانيولية الا بالتهديد والوعيد وصرفت انكلترا في هذه الحرب الاسبانيولية اكثر من مائة مليون ليرا انكليزية اودفعت لاسبانيا والبورتوغال ملايين كثيرة وكانت تقدم للجنود الانكليزية والاسبانيولية والبورتوغالية الطعام والسلاح والذخائر وجعلت في اسبانيا من ٣٠ الى ٧٠ الف جندي انكليزي وجمعت جيوشًا جرارة من الاسبانيول والبورتوغال وكانت بوارجها تسهر على الدوام بالفرنسويين الذين كانوا يأتون السواحل . وتركت عظام ٤٠ الفًا من الانكليز في سهول اسبانيا ووعورها . اما عدد الذين هلكوا من الاهالي فيها فلا يقدر لسان ان يصفهُ وخسر اضدادها مائتي الف بين قتيل وجريح واسير واثناء ذلك اشتغل نابوليون باضداد اقوى كثيرًا منها فلم يقدر ان يلتفت الى حروب اسبانيا ولم يترك للجنرال سولت الفرنسوي غير جيش قليل ليصادم بهِ جيوش الدوق ولنكتون

وكتب نابوليون وهو في جزيرة سانتاهيلانه معتذرًا عن نقائص حلفائهِ . فقال انني استانف تبيين الواقع مراعاة لحقوق الطبيعة وناموس الملوك فاقول ان العالم لم يرَ فضائل كالفضائل التي شاهدوها وسط الدناءة التي امتاز بها هذا الزمان . ولم الاق ما يحملني على الشكوى من الملوك الذين حالفوني . فان ملك سكسونيا الصالح ثبت على صداقتي الى النهاية . وملك بافاريا قال لي بصدق انهُ امسى غير متسلط على مملكتهِ . وملك وارتمبرغ تصرف بشهامة تستحق الثناء والمدح وملك بادن لم يسلم امرهُ الى المتحدين الا بعد ان افرغ جهدهُ فينبغي ان اعدل في الحكم واخبرني بالعواصف الحربية التي كانت تجتمع حولي للاحاطة والتيقظ . غير ان القواد وارباب الخطط تصرفوا كالخائنين الادنياء . فمن يرفع العار عن السكسونيين الذين عادوا الى صفوفنا ليهلكونا وخيانتهم ذهبت مثلاً بين الجنود فانهم كانوا يقولون هذا سكسوني اي انهُ جندي يقتل زميلهُ والعجب ان الذي عظم مصائبنا هو رجل فرنسوي اشترى ذمم فرنسا وصاغهُ تاجالهُ انتهى

واقام نابوليون في ارفورت يومين ينظم جيشهُ . ثم سار . وكانت جيوش جرارة من الفوزاق اللابسين الملابس البربرية شان المتوحشين تحمل على موخرتهِ ولا تتجرأ ان تهجم عليهِ هجومًا



اصوليًا فانتصرت على التعدي عليهِ بلا انقطاع . وكان القائد بلوشار يطاردهُ بجيش جرار مولف من الروسيين والنمسويين والبروسيين والروسيين مترقبًا سنوح الفرصة ليدوس بجملاتهِ عدوَّهُ المتقهقر فسار نابوليون خمسة ايام وبعدان قطع بامان مائتي ميل بلغ هانيو في ٢٠ تشرين الاول (اوكتوبر) وكانت الحكومة البافارية تفرغ جهدها في سبيل خدمة حلفائها الجدد وكان رجال سياستها يكرهون الفرنسويين فجمعت ستين الفًا من النمسويين والبافاريين والمتقلدين السلاح المتفن وجعلتهم في مولف منيع لقطع خط رجوع الامبراطور نابوليون . وكان الجنود الفرنسوية مغتاظين جدًا من خيانتهم متقوين باليأس فحملوا على استحكاماتهم . وبعد ان قاتلوهم طويلاً قتالاً دمويًا بددوا شملهم . وفي هذه المعركة حمل ثلثون الفًا من الفرنسويين على استحكامات ستين الفًا . وكان نابوليون يتمشى بقلق في طريق عمومية يتحدث هو وكولانكور فوقعت كرة محشوة في ارض موحلة قريبة جدًا منهما فبادر كولانكور الى ان يقف امام الامبراطور ليستره من تاثيرات انفجارها . ولم يبال نابوليون بها فلم ينقطع عن الكلام فوقعت الكرة في الوحل ولم تنفجر

وخسرت الدول المتحدة في هذه المعركة عشرة الاف رجل بين قتيل وجريح ثم سار الفرنسويون مسرعين وبلغوا فرانكفورت في يومين . وفي الغد بعد نصف الليل بخمس ساعات وصلوا الى مايانس . واقام نابوليون فيها ٣ ايام ينظم جيشهُ وعين عبر نهر الرين لصد جيوش الدول المتحدة وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) بعد الظهر بثماني ساعات سار الى باريس ووصل الى سان كلو في الغد بعد الظهر بخمس ساعات ويقال ان زوجتهُ ماريا لويزا امست في اضطراب عظيم وكادت تخاف ان تقابل نابوليون فان اباها خدع زوجها وحمل عليهِ وساق جيوشهُ لفتح فرنسا فلما دخل مخدعها التت بنفسها بين ذراعيهِ واحنت راسها على كتفهِ واستخرطت في البكاء بدون ان تفوه بكلمة واحدة فضمها اليهِ بحنو وعزاها بكلام لطيف وسالها عن ولدهِ المحبوب جدًا فاتى بذلك الولد الجميل وحدث عند ذلك ما يدل على الحزن والحب . وكان نابوليون معلقًا املهُ بالفوز فحاول ان ينفي حزن زوجتهِ وكدرها بالوعد بسعادة الاستقبال

اما جنود الدول المتحدة المظفرة ففتحت المانيا وانضمت كل دول الاتحاد الرينيّ اليها . وقال السار والتاراسكوت ان الدول الصغيرة رات انهُ لا خلاص لها الا بمساعدة الدول المتحدة وازدحمت اقدام وزرائها في اركان حرب الملوك المتحدين وسالموهم وحالفوهم بالشروط الاتية وهي ان كل دولة منهم تدفع في مدة معينة قدر دخلها في سنة لتجمع ضعف الجنود الذين كانت تجمعهم لمعاونة نابوليون لعضد الاتحاد ومساعدتهِ على انفاذ مقاصدهِ الصالحة

واصبح سان سير القائد الفرنسوي ومعهُ ثلثون الف رجل محصورًا في درسدن والتزم في برهة قصيرة بان يسلم خوفًا من الجوع . وعاهد الاعداء على العود الى فرنسا بشرط ان لا يحارب عسكرهُ

الدول المتحدة مالم يبدل بقدرو من الاسرى . فخرج هو وجنوده الجياع الضعفاء من المدينة فحلت الجنود المتحدة فيها . وبعد ذلك بلغة الملوك انهم لا يقبلون بالاتفاق الذي عقد بين قوادهم وبينة وانهم لا يقبلون بشروط ما لم تمكنهم من سوق جيشو كاسرى حرب الى البلاد النمساوية . وكانوا قد دخلوا درسدن وعرفوا عوراتها وانة ليس فيها زاد كاف للجيش سنة فاستهزأوا بهِ قائلين اذا كنت لا ترتضي بهذه الشروط فعد اليها . وكان هذا الخداع سبباً للقبض على ٢٠ الف اسير وزجهم في سجون النمسا وهذا خبر لا يصدق . ولكن اثبتهُ اشد المورخين تحزباً للدول المتحدة . وقال السار ارشيدالد اليسون ان الدول المتحدة لم يتصرفوا بكرامة وشهامة وامانة كما تصرف نابوليون حتى انفذ شروط التسليم في مانتوا سنة ١٧٩٦ وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) التزم الجنرال راب الذي كان في دانتزيك بالتسليم من الجوع وكان معهُ خمسة عشر الف جندي نصفهم فرنسويون والنصف الاخر من الالمان . وقال السار والثار اسكوت ان الملوك امتنعوا عن التصديق على السماح لاولئك الجنود بالعود الى فرنسا ولكنهم عرضوا عليهِ ما عرضوهُ على سان سير بعد ان استولوا على الحصن فامتنع عن العود اليهِ ولا بد من ان نحكم بان اسرهم خيانة ثانية قصدوا بها تقليل جيش العدو وقال الجنرال راب ان الجنرال هوديلي والكولونل رشمون ذهبا الى معسكر العدو ووافقاهُ على العدو الى فرنسا وبعد تسليم القلع وانفاذ بعض الشروط أُخبرت ان الامبراطور اسكندر الروسي امتنع عن قبول الاتفاق . فعرض عليَّ الدوق دي ورتمبرغ ارجاع كل شيء الى ما كان عليهِ . وما هذا الا من الاستهزاء ولكن ما الحيلة بعد نفوذ زادنا فالتزمنا بالارتضاء بنصيبنا فسرنا في طريق روسيا ومن لا يقر بكرامة اخلاق نابوليون وصدقهِ حين يقابل اعمالهُ باعمال اعدائهِ

وكانت مسالح القلع التي تركها نابوليون وراءهُ تسلم واحدة بعد الاخرى فامسى في ايدي الدول المتحدة ثمانون الف اسير منها وعادت المظالم الى المانيا فان الدول الثلث المسنبدة المسيحية انضمت الى حكومة انكلترا واطفأت بالدم لهيب الحرية الجمهورية . ولم يبق على تلك الدول الا الحمل بمليون جندي على فرنسا لاسقاط حكومة عمومية واجبار الشعب على الخضوع للبوربون الذين طردوهم ليرجعوا الى اسبانيا الجاهلة المتمسكة بالخرافات مظالم مدنية ودينية فترجع اوربا الى السكون في ظلام القرون المتوسطة . وقال نابوليون في سان هيلانة اضطربت جداً عند التكلم على هذا الامر لانني انفردت بالاقتدار على الحكم بالخطر العظيم المحدق بنا والوسائل اللازمة لمجانبتهِ . فان الدول المتحدة كانت تقترب مني من جهة جاعلة وجودنا في خطر رعاياي الذين كان عمى بصيرتهم يجعلهم كانهم متحزبون لها كان يضادني من الجهة الثانية وفي الجهة الثالثة الاعداء الذين كانوا عاملين على اهلاكي وفضلاً عن ذلك خطأ شعبي ووزراءي الذين الحوا عليَّ بالاتكال على مراحم الاجانب وكنت ملتزماً بالتظاهر بالامور الموافقة لهذه الاحوال وبان اجاوب البعض بتعظم والبعض الاخر



بتوبيخ لانهم كانوا يلقون الصعوبات في سبيلي باهاجة الامة التي كانت تطلب المصالحة . وكان عليها ان تلح في تلك الاحوال بالحرب لنول السلم فعقدت النية على امور واخذت انتظر الحوادث وعزمت على الامتناع عن قبول معاهدة تاتي باصلاح موقت تنشا عنهُ عواقب رديئة . ولم ارَ امامنا الا بالانتصار لحفظ سلطتي او بمصيبة اخرى تعيد عليَّ حلفاءي . واصبحت متيقناً ان فرنسا متوقفة عليَّ دون غيري . فقال لهُ لاكازا يامولاي ان الناس يعلمون ان هذا هو الواقع وكان بعضهم يلومك عليهِ قائلاً لماذا يجعل كل شيء معلقاً بنفسهِ . فاجاب ان هذا اعتراض ناشيء عن الجهل فانني لم اختر مركزاً لنفسي ولا اصبحت على ما اصبحت عليهِ بذنب جيشي ولكن الاحوال جعلتني فيهِ فهل رام لائي الرجوع الى الامور السابقة لزمان بر ومابر لما كان انفلابنا الداخلي تاماً واستيلاء الاجانب على بلادنا موكداً وهلاك فرنسا قريباً . ففي الساعة التي صممنا فيها على حصر القوة في مركز واحد وتوحيد التعاليم والمداخيل لتخلصنا وتجعلنا امة قادرة اصبح نصيب فرنسا متوقفاً على تصرفنا واجراآت الذي انحصرت القوة فيهِ وقواعدهُ فاصبحت انا الصالح العام والدولة

وكنت اخبر بذلك رجلاً قادرين على ادراكهِ غير ان اعداءي والذين عجزوا عن فهمهِ كانوا يلومونني . وكان العدو يعلم انهُ كلام يدل على التنديد بي فوجه كل قواهُ الى اسقاط امبراطوريتي . وحملتني سلامة القلب على التفوه بكلام اخر جعلني غرضاً للطعن والتنديد وهو ان فرنسا محتاجة اليَّ اكثر من احتياجي اليها . وقال قوم انني تجاوزت حدود الاعتدال بالافتخار اما انت يالاكازا المحبوب فقد رايت انني قادر على الاستغناء عن كل شيء وما اتحملهُ هنا لا يطول زمانهُ فان حياتي محدودة ولكن وجود فرنسا . . . وانقطع عن الكلام برهة ثم قال ان الاحوال التي اسسنا فيها كانت خارقة العادة لا مثيل لها فانني كنت حجر الزاوية في بناء جديد قد شيد على اساس غير متين فان ثباتهُ كان يتوقف على الحروب التي كنت اقوم بها فلو انكسرت في مارنجو لوقعت فرنسا وقتئذٍ في بلايا سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ وخسائرها بدون الحصول على مجد لا يضحل بالاعمال العظيمة التي تبعت تلك المعركة . وكذلك في اوسترليتز وجينا وفي ايلو وغيرها وكان الذين يجهلون الحقائق يتوهمون ان مطامعي ساقتني اليها . والصحيح ان الحوادث ساقتني اليها . فانها نشأت عن مقاومة الماضي للاستقبال ومحالفات اعدائنا التي جعلتنا نحارب لنفوز عليهم لئلا يفوزوا علينا

وقال المؤرخ نايبار الانكليزي ان نابوليون اعظم الرجال الذين ذكرهم التاريخ واعجب القواد واحذق رجال السياسة واعرفهم فخر بالسلاح بولونيا والمانيا وايطاليا وبورتوغال واسبانيا وفرنسا فالتوفيق وهو اسم اتحاد القوة غير المحدودة لم يكن مرافقاً لهُ وبدونهِ تكون اعمال الناس كالفقاقيع على وجه مياه البحر المزبدة

## الفصل الخامس والخمسون

### تجديد القتال

وكان المقصود من الحرب بعد تلك الامور اسقاط نابوليون ودفن القواعد التي انتشرت في اوربا بقوة الفتنة الفرنسوية وهي المساواة الجمهورية . ولم تقم حكومة في الدنيا بلا اضداد . وكان في كل مملكة متحدة مع فرنسا كثيرون من المتحزبين للملكية يرومون ان ينضموا الى الجيوش المحاربة لفرنسا . وكان في جميع الممالك القديمة جماهير عظيمة من اولي المدارك في شوق شديد الى الاصلاح . فكانوا يلاقون بالفرح جيوش فرنسا حين تقترب من بلدانهم . وهذا الحزب الجمهوري في انكلترا وايرلاندة اهاج الحكومة الانكليزية المعروفة بحكومة التوري وحملها على افراغ جهدها في سبيل دفن المساواة باسقاط نابوليون . وكانت الجريدة المسماة بالنور برس رفيو لسان حال الحكومة الانكليزية تشكو المساواة التي اسسها نابوليون في بلاده وقالت ان الذين امعنوا النظر في اعمال الهيئة الاجتماعية الفرنسوية الداخلية الطويلة الجارية في مكان مجاور لنا ينسبون اليها امورًا فارغة ويقولون ان التذمر ناشئ عن نظام التعليم العام في فرنسا فان الاولاد من جميع الرتب والاصناف يتعلمون معًا في مدارس واحدة علومًا واحدة ولا مثيل لذلك في انكلترا . فاذا تيسر للفلاح والخياط والنجار او غيرهم جمع مبلغ قليل من الدراهم يتمكن اولادهم من التعلم في المدارس التي يتعلم فيها ابن صاحب الاملاك الذي يشتغل الفلاح في ملكه ويخيط الخياط ثوبه والصبي الذي ينبغي ان يكون فاعلاً او صاحب حانوت يجلس على مجالس الصبي الذي يجعله مركزهُ يتعلم النظام والقوانين او الخطب او خدمة الدولة الملكية . وما ذلك الا من طمع الناس في المساواة وينشأ عنهُ احتياج كل انسان الى ما ينبغي ان يكون نصيبًا لهُ من الاعمال ويطمع في نوال ما ينبغي ان يكون نصيب رفيقهِ السابق لهُ في المركز فابن السمان لا يرى شيئًا يمنعهُ عن الطمع بان يصير محاميًا او كاتب جرائد او مامور حكومة مادام ابن من هو اغنى منهُ واشرف يقدر ان يتعاطى تلك الاعمال الشريفة خصوصًا بعد ان يرى انهُ يفوقهُ في الصف او في العلم ويتيسر لهُ احيانًا ان يضرَّ بهِ او يسعنهُ على تعلم دروسهِ . انتهى

ومن الامور التي يتشرف نابوليون بها مناوءة رجال كالدوق والنغتون الانكليزي . وهذا كاف ليثبت انهُ كان متمسكًا بالصواب ويندر وجود رجل يقاوم الاصلاح العمومي كما قاومهُ ذلك الدوق وكان صنم المتمسكين بالحقوق الموروثة وغرض كره الشعب وبغضهِ حتى ان الناس رموهُ بالوحل في شوارع لندن والتزم بان يسد نوافذ بيتهِ خوفًا من هجماتهِ ولم يحبهُ الجنود الذين كانوا تحت قيادتهِ في اسبانيا . وكانت الجرائد الانكليزية توسع نابوليون طعنًا وتنديدًا ومع ذلك كان الجنود الفرنسويون يحبون ان يجلسوا حول النيران التي كانوا يستدفئون بها



ويسمعوا الاخبار التي كان يسمعها الجنود في معسكراتهم عن كرامة اخلاق نابوليون وحبهِ للجنود وحب الجنود لهُ . وقاصت الحكومة الانكليزية كثيرين من اولئك الجنود بارسالهم الى كندا بعد معركة واترلو . وقال احد الحاذقين النافذي الكلمة لما كنت صغيرًا كنت اجلس ساعات اسمع مدح نابوليون بالاخبار التي سمعها الجنود الانكليز في المعسكرات . ومع ذلك كانوا يحافظون على النظام العسكري ويثبتون على قتالهِ . وكانوا يفخرون بثبات ذلك الدوق وتجلدهِ ولكن لم يكن محبوبًا منهم والانصاف يحملنا على القول ان ذلك الدوق كان يقول ان الحكومات الموسسة على الامتياز الموروث اكثر موافقة للامم والاصح ان مضاداتهِ كانت تضر جدًّا بالاصلاحات العمومية

وقال لاكازا ان اهل الازمان القادمة يحكمون بان نابوليون هو شخص الاراء الحرة وركنها وامبرها . فانها كانت محبوبة عندهُ ومن قواعدهِ وموافقة لارائهِ . ولم يخالف تلك القواعد الا حين سائقة الاحوال الى مخالفتها على رغم انفهِ . وفي ذات مرة اقام مادبة في قصر التويلري وكان يكلم كثيرين من رجال بلاطهِ فختم مفاوضة متعلقة بامر سياسي خطير بقولهِ

اني اميل الى حكومة معتدلة موسسة على قانون اداري طبيعي . فراى لوائح التعجب تلوح على وجه احد السامعين . فقال لهُ انك لا تصدقني لان ظواهر اعمالي تدل على انها غير موافقة لاقوالي . فياسيدي ما اقل معرفتك للرجال والامور الا تراعي ضرورة الحال فلو تساهلت دقيقة واحدة لما تيسر لك انت ولا لي ان ننام ليلة اخرى في هذا القصر . انتهى . وكان مليونًا من الرجال حاملين على فرنسا واحزاب الملكية والحرية غير المعتدلة في قلبها مستعدين للمعاونة على اسقاط الحكومة الامبراطورية . ولم يرَ نابوليون بدًّا من ان يسوس الناس بصرامة . فالتزمت الحرية بان تضحي قسمًا من حقوقها لتصون نفسها من السقوط . فحين يمسي المركب في خطر من الغرق يطرح اثمن الوسق في البحر لتخليصهِ

وكانت جنود الدول المتحدة تقترب من الرين بفوز عظيم فنهض نابوليون بكل عزمهِ ليدافع وقال بورني خسرهُ ربما التقدم في السن بعض همهِ العلية ومع ذلك رايتهُ يجد في سبيل دفع تلك المخاطر كانهُ لم يتجاوز الفتوة وكان عقلهُ المدرك العجيب لا يزال على ما كان عليهِ في يانع شبابهِ لما كان يفعل ما قرر في العقول انهُ يتغلب على الزمان والابعاد ولاشيء يقدر على ان يتغلب عليهِ . انتهى . فاصبحت فرنسا من الرين الى البيرني كمعمل اسلحة واحد عظيم . وقال مجلس الشورى لهُ الاوفق ان لا تخبر الامة بالحقيقة المذلة وهي ان الاعداء اصبحوا يحملون على حدود فرنسا فقال لاعضائهِ لماذا تستر الواقع فان والنغتون دخل الجنوب والروس يتهددون الشمال والنمسويون والبروسيون والبافاريون يتهددون الشرق الانجل ان يرى والنغتون في فرنسا بدون ان ننهض جميعًا لندفعهُ . فلا بد من اهاجة الامة ولا بد من ان يسير الجميع . وعليكم انتم ياايها

المشيرون واباء العيال وروساء الامة ان تكونوا قدوة صالحة . فالناس يذكرون الصلح وعليهم ان لا يذكروا غير الحرب

اما المهاجرون من احزاب الملكية الذين مكنتهم شفقة نابوليون من العود الى فرنسا واسترجاع املاكهم فنهضوا بدنائتهم ليضادوا مخلصهم وهو في ضيق فتآمروا عليهِ وخابروا الدول المتحدة المحاربة لفرنسا وسلحوا اتباعهم وبالغوا في مدح البوربون واوسعوا نابوليون طعنًا وذمًا . وعلق الكهنة املهم باسترداد الاملاك المتسعة جدًا التي خسروها بالثورة فانضموا الى المتآمرين وحاولوا ان يلسعوا الصدر الذي ضمهم اليهِ وهم في ضياع حتى عادت الحياة اليهم ونفذت سطوتهم في جهات كثيرة في الفلاحين . والكونت دي ارتوا الذي صار الملك شارل العاشر بادر الى الانضمام الى جيش النمسويين . وابنة الدوق دي انغولم الذي كان قد تزوج بنت الملك لويس السادس عشر المنكودة الحظ وهي التي تحركت حاسيات العالم بسجنها هي واخيها في اثناء الثورة فسار الى اركان حرب الدوق اوف والنغتون قائد الجيش الانكليزي . اما الكونت دي بروفنس الذي صار الملك لويس الثامن عشر فكان مقيمًا في منزل المسافرين المسمى هارتول في انكلترا وكان ضعيف الجسم مصابًا بداء النقرس وقد ادرك سن الستين . فكان عاجزًا عن العمل بنفسهِ فجلس في كرسيهِ براحة حال كون الدول المتحدة كانت تجري دماء الفرنسويين انهارًا في فرنسا وتهدمها بالنار لتجعلهُ يستوي على عرش الملكية . اما تاليرند المخادع فتيقن ان الامبراطورية قريبة من السقوط فخابر الدول المتحدة ليفوز باوفق الشروط لنفسهِ واجتهد بتضعيف قوى الامة ونابوليون فاشار بالخضوع في مجلس الشورى وقاعات باريس

وفي ٢٠ كانون الاول (دسمبر) جمع نابوليون مجلس الاعيان وفتح الجلسة بنفسهِ وخاطب اعضاءهُ قائلاً

ان جيش فرنسا فاز بانتصار عظيم في هذه الحروب . لكن راينا من تقدم الارتضاء ما جعل هذا الانتصار بدون نفع او جعلهُ يعود علينا بالخسارة . ولولا احتياج الفرنسويين الى عار الهم والاتحاد لما وقعت فرنسا في خطر . ففي هذه الساعة المخوفة الخطر لاح لي ان اجمعكم قبل كل شيء . وقلبي في احتياج الى عضد رعاياي وحبهم . ولم يخدعني النجاح والمصائب وجدتني اقدر من ضرباتها . وقد طالما منحت الامم سلامًا بعد ان خسرت كل شيء وبانتصاري اقمت ملكًا ولكنهم تركوني . وتصورت مشروعات عظيمة تعود على الناس بالنفع والسعادة . فانا ملك ووالد واعلم ان السلم يكسب عروش الملوك امنية ويزيد امنية العيال . فلا افعل ما يمنع عقد الصلح . فانتم لسان العرش الطبيعي وعليكم ان تكونوا قدوة لعلو الهمم التي تعظم جلال جيلنا في الاستقبال . فلا ينبغي ان يقال انهم ضحوا صالح وطنهم الاول وخضعوا لنظام حاولت انكلترا قرونًا ان تخضع



فرنسا لهُ . واني على يقين ان الفرنسويين يفعلون في هذه الضيقات ما يليق بهم وما يليق بي . انتهى

واثناء ذلك بلغ نابوليون مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين المخابرات التي جرت وبينهُ وبين الدول المتحدة قبل معارك لبسك وبعدها . وكان يروم ان يبين للامة انهُ لم يهمل شيئًا مما يقطع مصائب الحرب فعين مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين لجنتين لفحص تلك المخابرات . فحكم مجلس الاعيان كان موافقًا للامبراطور نابوليون على انهُ اضعف ميل العموم اليهِ . وكان يروم فعل ما يوافق الامور الماضية . فان سياسة حكومتهِ كانت موجهة خاطرها الى التوفيق بين القواعد المتباينة وتقرر الحقوق العمومية في النظام . وعلق املهُ بصيانة الحقوق العمومية بذلك وتقليل مضادات اوربا الملكية . فربما اخطأ ومن الموكد انهُ خال لهُ انها اصوب سياسة واوفقها للاحوال الجارية . وكان عالمًا بان فرنسا لا تخضع ثانية لسطوة اصحاب الامتياز القديم وبانهُ لا سبيل الى المحافظة على الاصول الجمهورية في فرنسا حال كون عامة جاكوبية غير معتدلة تجذب الهيئة الاجتماعية الى جهة والمتآمرين الملكيين تجذبها اليهم واوربا كلها متقلدة السلاح لمضادة الجمهورية . وكان معظم الامة الفرنسوية يميل الى سياسة نابوليون على ان الجاكوبيين المذكورين والملكيين الجامعين بين القلة والحمية كانوا يتعاونون على اسقاطهِ . وقال رئيس لجنة الاعيان في ختام لائحتهِ المتعلقة بحمل الدول المتحدة على فرنسا من هو غرض حملات الدول المتحدة . الجواب هو ذلك الرجل العظيم الذي استحق شكر كل الملوك معيد تخت فرنسا ومطفئهُ بارجاعهِ الاتون الذي كان يتهددهم اجمعين . انتهى . ولم يسر الشعب بالتصريح بان نابوليون اصبح محاميًا عن حقوق الملوك . فانهُ فاز وبلغ درجة السيادة كحامٍ عن حقوق الشعب . واضرهُ عند الفرنسويين ترك جوزفين زوجتهِ وتزوج فتاة من عائلة هابسبورغ المفتخرة . فلم يكسبهُ ذلك اصدقاء ملكيين واضعف حب الشعب لهُ . وكادت فرنسا تقع في ياس . فان جيشًا من جيوشها ضاع في ثلوج روسيا وضاع جيش اخر في سهول سكسونيا . وكانت القرعة العسكرية والاموال الاميرية تثقل على الامة كلها لان اوربا كلها اتحدت على محاربة فرنسا بلا انقطاع وتبين لها انهُ لا سبيل الى اطالة زمان الدفاع اما اكثرية مجلس المبعوثين فقبلت لائحة لجنتهِ المتضمن عبارة جرحت قلب الامبراطور وهي الظاهر ان رجال الدول المتحدة يخافون ان تكون املاك فرنسا متسعة جدًا فينبغي دفع ما انهمت فرنسا بهِ من المحافظة على اراضٍ متجاوزة حدود الاعتدال ينبغي عدم اتساعها ازالة لهذا الوهم من عقولهم باعلان رسمي ويكون ذلك عظمة حقيقية . وعلى الحكومة ان تشر بالوسائل التي تاول الى دفع العدو وعقد الصلح على اساس متين بسرعة وامان . وتكون هذه الوسائل موثرة اذا ثبت عند الفرنسويين ان دمهم لا يراق الا في سبيل الدفاع عن وطنهم وعن نظامهِ . فينبغي ان يرجى حضرة الامبراطور بالمحافظة على القوانين فانها تضمن للامة الحصول على حقوقها السياسية كلها . انتهى

وتقرر عند نابوليون ان في هذا الكلام تلميحًا مضادًا للمؤامر بمنع طبعهِ . ثم جمع مجلس الشورى وقال ياسادتي انكم تعرفون المخاطر المحدقة بالبلاد فرايت ان اشاور مجلس المبعوثين وان كنت غير ملتزم بان اشاوره فحول اعضاؤهُ ركوني اليهم الى سلاح يقاتلونني بهِ والقوا الموانع في سبيلي عوضًا عن ان يساعدوني . فعلينا ان نقوم بما يمنع تقدم الاعداء لانهم بقوي عزمهم فانهم كشفوا للاعداء عوراتنا عوضًا عن ان يلاقوهم بعزم ثابت جديد . وقد اقلقوني بطلب المصالحة ولا سبيل الى الحصول عليها الا بالتاهب للحرب وذكروا امورًا مكدرة وامور كهذه تتناوض الامم سرًّا لا على مسمع من العدو . فهل تجيبت او امتنعت عن المفاوضات العقلية . وقد حان زمان ابرام الامر . فالمجلس المذكور عجل خراب فرنسا عوضًا عن ان يعينها على الخلاص . ولم يقم بالمفروض عليهِ . واما انا فاقوم بهِ . فافض المجلس واطلب انتخاب مجلس جديد . واذا تيقنت ان هذا العمل يجعل اهالي باريس يحملون على قصر التويلري ليقتلوني فلا اتاخر عن القيام بفروضي . وهذا قرار نظامي واذا تصرف كل منا بامانة لا يغلبني العدو ولا النظام انتهى

وبعد ذلك بايام قليلة ارسلت البلاد لجنة من مجلس المبعوثين الذي فضهُ وهنائهُ في اول كانون الثاني (جانفيه) بالسنة الجديدة . فلما دخلت القاعة تقدم ليلاقيها وخطب بكلام صادر من القلب جامع بين الجد والحزن . قال

ياسادتي اعضاء مجلس المبعوثين . انكم ترجعون قريبًا الى ولاياتكم وقد جمعتكم متكلاً عليكم وموكدًا انكم تعاونوني على تزيين تاريخ زماننا . ولو عضدتموني في ما كنت احتاج اليهِ لخدمتموني خدمة عظيمة على انكم عوضًا عن ذلك حاولتم ان تحصروني ضمن حدود تبادرون الى توسيع دائرتها حين تعرفون تاثيرات انشقاقاتكم المهلكة . فما هي السلطة التي تخولكم تقييد اعمال الحكومة في زمان كهذا . هل انا مديون لكم بالسلطان المعطى لي اما هو من الله والشعب . هل نسيتم كيف تبوات التخت الذي امسيتم الان تقاومونهُ وكان وقتئذٍ مجلس مبعوثين كهذا المجلس . فلو ظننت انهُ قادر على انفاذ ماربي لما تاخرت عن الحصول على مصادقتهِ . ولم يخطر ببالي انهُ يمكن اختيار امبراطور على ذلك النمط . فارغب في استشارة الامة من جهة منحي السلطة الاولى فكل فرنسوي يبدي رايهُ . ولم ارضَ بان اتبوا العرش الا بهذه الوسائل فهل تظنون انني احسبهُ قطعة من مخمل تغطي كرسيًا فهو عبارة عن ارادة الامة المتعلقة بالملك . وقد حفت بنا الصعوبات فلو وافقتموني على اراءي لنفعتموني جدًّا . والمامول ان مساعدة الله والجيش تخلصني منها ما لم يكن قد قضي عليَّ بان اسقط بالخيانة . فاذا سقطت تنسب اليكم المضار التي يبلى بها وطننا . انتهى

وقال المؤرخ نايار ان حالة فرنسا الداخلية امست في اضطراب اعظم من المخابرات الاجنبية اما الذين كانوا يرغبون في صيانة الجمهورية فكانوا يضادونهُ طبعًا لانهُ ارجع الملكية وكان عليهم



ان يعاونوا الملك الذي يحاول الملوك اسقاط دولتهِ بمساعدة امراء اوربا لانهُ يكون مضادًا فعلاً للجمهورية وكان الملكيون يحسبونهُ مختلسًا وينفرون منهُ وكذلك جميع الذين ضجروا من الحرب وكانوا معظم الامة وثبت عندها بالنظر الى حذقهِ العظيم انهُ لو طلب السلم لتيسر لهُ الحصول عليهِ فلاموهُ واتهموهُ بتاخير المخابرات السلمية وكانت مقاومة مجلس المبعوثين لهُ غير منتظرة حاول البوربون عقد مؤامرة عظيمة لارجاع الملك وكان في البلاد كثيرون من الذين خانوها وخانوهُ لخلوهم من شعائر حب الوطن والناموس وكانوا يكرهونهُ فتآمروا ليمنعوهُ ما يأول دفاعًا عن الوطن فاهمل المدارك والاجراء تعاونوا على الاضرار بهِ ولا نعجب من ذلك لان نابوليون لم يخمد اضطراب الثورة وتعدياتها الا بعد ذلك بمدة قصيرة وجدد بناء الهيئة الاجتماعية والسياسة الفرنسوية انتهى

اما الدوق دي روفيغو فهو الذي كتب الخطاب الذي فاه بهِ نابوليون على مسمع من لجنة مجلس المبعوثين وقال انهُ عاد الى غرفتهِ بدون ان يظهر غيظًا من المجلس وسبق بكرامة اخلاقهِ الى القول ان علمهم ناشئ عن نوايا جيدة وقال انهُ لا يقدر ان يترك وراءهُ الامور على هذه الحال

اما الدول المتحدة واعوانها الملكيون في فرنسا فوجهوا كل قوتهم الى القاء الشقاء بين نابوليون والامة الافرنسية وان يزرعوا كره الامبراطور في قلبها فاذاعوا كتابات اوسعوهُ بها طعنًا وندّدوا بالامبراطورية . وكانت خزينة انكلترا وخزائن كل الدول المتحدة مفتوحة لكل من يريد ان يثير حربًا على الامبراطور الجمهوري المخيف . ونشرت الدول اعلانات على جيوشها الجرارة متضمنة كذبًا دنيًا صريحًا . فقالت انها تروم السلم وان نابوليون يقاتل في سبيل الجور والظلم ولا يرضى بان يغمد السيف . وانها لا تحارب فرنسا بل المختلس الذي ساقهُ طمعهُ الى جعل الدم انهارًا في اوربا . فهذه الاكاذيب الجلية رسخت في عقول كثيرين من اهالي انكلترا واواسط اوربا وامركا . وكان الكولونل نابيار من القواد في جيوش الدول المتحدة تحت قيادة الدوق والنغتون واقر ان ما صرحت بهِ الدول المتحدة كان غير صحيح وانها لم تكن ترغب في الصلح وان المقصود من منشوراتها تهييج اوربا على نابوليون وقال ان مخابرتها لنابوليون

اما نابوليون فارسل كولانكور الى اركان حرب الدول المتحدة ليفرغ جهدهُ في سبيل المصالحة وكانت قد قابلت بموقر لتكتسب فيهِ وقتًا يمكنها من جمع جيوشها الاحتياطية اما فرنسا فامست متعبة جدًّا لان الدول المتحدة قتلت كثيرين من الفرنسويين في هذه الحرب الشريرة فباتت حقول كثيرة فرنسوية بلا زراعة لهلاك اصحابها ومع ذلك اشاعت ان الحروب نشأت عن حب نابوليون لسفك الدم وكان يحمل حينئذٍ اكثر من مليون على الامبراطورية الفرنسوية فامست بلا وسائط الدفاع ومن المؤكد ان نابوليون كان راغبًا في نوال السلم وصمم على اختيار الهلاك على القبول بما يمس كرامتهُ ومن من اهل الكرامة لا يشاركهُ في الحاسيات

وقال كولانكور ان الامبراطور قال في ختام الاوامر التي انفذها الي انني راغب في المصالحة ولكنني لا ارضى بشروط تمس كرامتي والمقصود تاسيسهُ على استقلال كل الامم فليكن ذلك كذلك وهذا من الاوهام وسياستي مؤسسة على نور اشد سطوعًا من نور سياسة الذين ولدوا ملوكًا فانهم لم يخرجوا من افقاصهم المذهبة ولم يطالعوا التاريخ الا عند قراءتهِ على اساتيذهم فقل لهم انني الح عليهم بها بان يتحققوا ان السلام لا يكون ثابتًا ما لم يكن عادلاً منصفًا . اما طلب امور غير موافقة والزامنا بقبول ما لا يوافقنا لانهُ يمس كرامة فرنسا وجلالها فهما عبارة عن اشهار حرب مهلكة عليَّ . ولا اقبل ان اترك فرنسا اصغر مما وجدتها فاذا قبلت بذلك يحق للامة بان تحاسبني فاذهب يا كولانكور وانت تعلم صعوبات مركزي فاطلب الى الله ان يقرن اعمالك بالنجاح واخبرني عما يحدث كل ساعة فانني في قلق شديد انتهى

وقال كولانكور ان اعداءنا الحنبقيين الذين حلفوا بان يهلكونا هم انكلترا والنمسا واسوج فانها عقدت النية على اهلاك نابوليون فذهبت جميع المخابرات سدى وكانت تبدو صعوبات جديدة كل يوم فكنا نقبل بشروط اليوم فنطلب اخرى في الغد وكنا كلما ازلنا صعوبة نلاقي اخرى واعجب من نفسي فانني لم اخرج من دائرة التاني مع ان الحيل والاهانات كانت محدقة بي فكتبت الى الامبراطور بان هذه المفاوضات التي سميت بمؤتمر لم تكن الا لتستر تصميم الدول على الامتناع عن المصالحة وكانت تجمع قواتها لتحمل علينا من جميع الجهات دفعة واحدة

وقال الدوق دي روفيغو ان نابوليون قال في مفاوضة خصوصية جرت بينهُ وبين كولانكور لا بد لفرنسا من ان تحافظ على حدودها الطبيعية فكل الدول حتى انكلترا اعترفت بلزوم ذلك في فرانكفور واذا ارجعت الى حدودها القديمة يكون لها ثلثا القوة التي كانت لها منذ عشرين سنة وما حصلت عليهِ في جهات الالب والرين اقل مما حصلت عليهِ النمسا وروسيا وبروسيا بقسمة بولونيا وجميع هذه الدول وسعت حدودها فارجاع فرنسا الى ما كانت عليهِ هو عبارة عن اذلالها واحتقارها فالامبراطورية والجمهورية اذا نشأتا عن هذه الاحوال فلا يقبلان بذلك ولا يتغير ما عقدت النية عليهِ . فهل اترك فرنسا في حالة دون التي وجدتها فيها . فاذا صرحت الدول المتحدة بهذه الامور فلا بد للامبراطور من اختيار احد ثلثة امور الاول ان يحارب ويفوز والثاني ان يموت شريفًا في الدفاع والثالث ان يتنازل عن الملك فاذا كانت الامة لا تعضدني فليس في العرش ما يجذبني اليهِ ولا احاول ان اصونهُ بمس كرامتي

وفي هذه الايام احدقت المصائب بنابوليون وكان عرشهُ ينهدم تحتهُ ومع ذلك فعل البعض ما يدل على خلو غرضهم وشهامتهم وكرامة اخلاقهم ومنهم القائد كارنو المشهور الفاضل الذي حافظ على قواعد الجمهورية وامتنع عن قبول خطة في الامبراطورية وطلب اليهِ نابوليون بجد والحاح



تكرارًا بان يسعفهُ فامتنع وابتعد عن عظمة البلاط راضيًا بالانفراد والفقر وتعاظمت ضيقاتهُ المالية فبلغت اذان الامبراطور . وثبت عند نابوليون ان ذلك القائد مخطئ غير انهُ كان يعتبر مجاياهُ المشهورة فبعث اليهِ برسالة لطيفة وبمبلغ كافٍ من النقود لسد احتياجاتهِ . ومضت سنون كثيرة على ذلك ولما احدقت المصائب بالامبراطور واقتربت الجيوش الحاملة من فرنسا وامسى جميع الذين كانوا متحزبين للامبراطور نابوليون في خطر من الخراب بادر الى مساعدة نابوليون وقدم نفسهُ للدفاع عن الوطن . فقبل نابوليون منهُ ذلك بشكر جزيل وفوض اليهِ الدفاع عن انتوارب وكانت من مفاتيح فرنسا . فدافع عن تلك القلعة دفاع رجل عظيم حاذق . وقال في الرسالة التي بعث بها الى نابوليون طالبًا اليهِ ان يسمح لهُ بالانتظام في سلك القواد ان الحصول على مساعدة رجل قد ناهز الستين امر طفيف لا يعتدُّ بهِ . ولكنني تيقنت ان قدوة جندي مثلي اشتهر بحبهِ للوطن ربما حملت كثيرين على الانضمام اليك حال كونهم مترددين لا يعلمون هل ينبغي ان ينضموا الى جيشك او الى جيش الدول وربما توهموا ان خدمة بلادهم انما تكون بهجرها . انتهى

وكان كثيرون من اهالي الولايات الذين لم يصدقوا طعن الطاعنين ولوم اللائمين يطلبون السلاح بحمية ويتوسلون الى القواد ان يسيروا بهم لصدام الاعداء . اما روساء الجمعيات الجاكوبية في باريس فعرضوا خدماتهم على نابوليون ليهيجوا العامة غير المعتدلة الاراء كما اهاجوا في زمان الثورة القديمة واشترطوا ان يتحد نابوليون معهم ويسلم الى كتابتهم الجرائد ليكتبوا فيها ما شاءوا وان تمنابر الخطباء ليخطبوا عليها مع السماح لهم بان يغنوا في الشوارع وقاعات التشخيص اغانيهم المهيجة . فتردد عن اجابة طلبهم ثم قال اذا حاربت ربما افوز بالنجاة ولكن لا سبيل الى مجانبة مخاطر هولاء المشاغبين ولا الى جعل اتصال بينهم وبين الملكية ولا الى جري المخابرات بين جمعيات الفتن ووزارات منظمة ولا بين منابر المؤامرات والثورات ومنابر النظام والقوانين فاذا كان لا بد من سقوطي فلا اسلم فرنسا الى الفتنة التي خلصتها منها

وكان غوستفاوس ملك اسوج المخلوع من الذين قالوا ان نابوليون هو الوحش المذكور في سفر الرويا فعند ما تضعضعت امورهُ طلب الانضمام اليهِ وقال انهُ يجعل نفسهُ مركز اجتماع الملكيين في اسوج ويلقي برنادوت ملكها الخائن في ارتباك عظيم ربما فتح لهُ ابواب الرجوع الى مسكنهِ . ومن المستغرب ان يطلب براي امتهِ الى نابوليون المعونة على اسقاط ملك منتخب ليرجعهُ الى مملكة لهُ حق التسلط عليها بالارث . وكان نابوليون في احتياج الى مساعدة كهذه ومع ذلك لم يجب طلبهُ وقال تاملت في طلبهِ ووجدت ان اجابتهُ تجعلني افرغ جهدي في سبيل ترقية صوالحهِ . ولما كنت قد امسيت غير متسلط على الدنيا كان لا بد لاصحاب العقول من

التوهم ان اسعافي لهُ ناشيءٌ عن كرهي لبرنادوت . وفضلاً عن ذلك خلع براي الامة ولم استوِ على تخت الامبراطورية الا براي امتي . فمساعدتي لهُ نشف عن اختلال اعمالي وعن الجمع بين طرفي نقيض في افعالي . انتهى . فمن يقرأ هذا الكلام ولا يحكم بانهُ اصاب واحسن واجاد لانهُ تمنع عن ان يترك القواعد التي بنيت اعمالهُ عليها مع انهُ كان قادرًا ان يلقي اعداءهُ في ارتباك عظيم فنفضل السقوط على الظلم

اما الدوق والنغتون القائد الانكليزي فتمكن من اخراج الجنود الفرنسوية من اسبانيا بمائة واربعين الف جندي من الانكليز والبرتوغاليين والاسبانيول واخذ يهاجم ولايات فرنسا الجنوبية . وهكذا خسرت فرنسا اسبانيا فاطلق نابوليون سبيل فرديناند وارجعهُ الى عرشهِ وكان من ادنى الناس واجهلهم فلم يشكر الانكليز لانهم كانوا علة ارجاعهِ الى ملكهِ ولكنهُ عقد معاهدة مضادة لهم . وقال البسون ان الملك الذي فاز بالنجاة وارجع تاجهُ باراقة دم الانكليز بذل جهدهُ في ان يخرج من مملكة حلفائهِ الذين اعادوهُ بسيوفهم الى مملكتهِ وخلصوهُ من السجن . انتهى .

وقال الكولونل نابيار ان فرديناند رجع الى عرش اسبانيا وكان في قصر والدهِ ابنًا خائنًا متامرًا في ارانجوز جبانًا دنيًا في بايون عبدًا مونثًا مخنثًا في فالانسي . وبعد ان اسرست سنوات عاد الى وطنهِ ونهج منهج الظلمة القساة . ولولا اخوهُ الدون كارلوس المحبوب عندهُ لكان من الملوك المحتقرين جدًا . انتهى

فهذا من عواقب حرب الانكليز في اسبانيا وهي محنة لم تقع امة في محنة اعظم منها باجراءات امة اخرى . ومن طالع اخبار اسبانيا التابعة لهذه الحوادث يرى انها باتت في بلاء عظيم . فلو ثبتت فيها دولة الملك جوزف المحبوب شقيق نابوليون لادركت اوج المعالي وبلغت من العظمة والراحة ما يكل القلم عن وصفهِ . وكان هذا الملك الذي طرده الانكليز من اسبانيا سليم النوايا صادقًا امينًا منصبًا على الاعمال العمومية . ولما تبوأ تخت الملك بلغ ناظر خارجية اسبانيا الواقع الى جميع دول اوربا فاعترفت حالاً بهِ رسميًا خلا انكلترا . وكان امبراطور روسيا عالمًا بان جوزف من افاضل الرجال الجامعين احسن السجايا وانفع الخصال فاعترف بهِ وهنأه . وفرديناند الملك المخلوع ارتضى بالاتفاق الذي جرى بينهُ وبين نابوليون وكتب الى نابوليون مهنئًا . وقالت دوقة ابرانتش ان زوجة جوزف بونابرت ملاك جودة فعند ذكر اسمها يطلب جميع المساكين والمنكودي الحظ في باريس الى الله ان يبارك عليها . واكتسب حب الجميع بشفقتها واحساناتها المتواصلة . انتهى

وبعد سقوط نابوليون سار جوزف الى الولايات المتحدة وسكن بوردنتون في ضفة الدليوابر متمتعًا باعتبار الجميع سنين كثيرة . وجاءتهُ لجنة من مكسيكو طلبت اليهِ ان يملك عليها فقال لقد



لبست تاجين فلا البس تاجًا ثالثًا ولا اسر بشيءٍ كسروري بمجيء رجال لم يعترفوا بملكيتي الا وانا في منفاي ولكن اظن ان العرش الذي ترومون ان ترجعوهُ لا يقدران يجعلكم ترتعون في بحبوحة من الراحة والرفاهية والسعادة وكل يوم يمضي عليَّ في هذه الارض التي تكرم الضيف يبين لي بجلاء موافقة النظام الجمهوري فحافظوا عليهِ كهبة ثمينة من الله سبحانهُ وتعالى - وانبذوا شقاقاتكم الداخلية واقتدوا بالولايات المتحدة واختاروا من ابناء وطنكم رجلاً اقدر مني على القيام بما قام بهِ واشنطون - انتهى

ومات جوزف بونابرت في فلورانس في ٢٨ تموز (جوليه) سنة ١٨٤٤ وقد ناهز سن ٧٦ - وقال لويس نابوليون ان الملكة جولي اعتنت بهِ الى ان مات وكانت لهُ كملاك تعزية وحضر موتهُ شقيقاهُ لويس وجيروم وكان يحبهما جدًا - وتوفي بهدو وسكينة كرجل متمسك بعرى التقوى وكان ينظر الموت بدون اسف على ان اثقال النفي كانت تكدرهُ في ساعاتهِ الاخيرة وتحزن قلبهُ وتجعل وداعهُ الاخير مصحوبًا بالاسف

وفي اواخر كانون الثاني (جانفيه) اصبحت جيوش عددها مليون و٣٨ الف رجل تنصب على فرنسا من الشمال والشرق والجنوب قاصدة اسقاط الامبراطورية - ولم يرَ العالم قبلاً جيوشًا جرارة كهذه - وكان نابوليون قد خسر نحو خمسمائة الف رجل في حرب روسيا وثلثمائة الف رجل في سهول سكسونيا و - ٢٥ الفًا في اسبانيا وامسى من جيشهِ نحو مائة الف رجل محصورين في قلع الالب والاودر فلم يكن يقدر ان يجمع اكثر من مائتي الف رجل لملاقاة جيوش الدول المتحدة الجرارة - ولا ان يجمع اكثر من سبعين الفًا ليلاقي الجيوش الكثيرة الحاملة على الرين

## الفصل السادس والخمسون

### حوادث في باريس وخارجها

ويوم الاحد في ٢٤ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨١٤ اقام نابوليون الصلاة ثم جمع عظماء دولتهِ في قاعة التويلري العظيمة ودخلتها الامبراطورة ثم دخل هو وراءها آخذًا بيدهِ ولدهُ وكان جمالهُ مفرطًا ولهُ من العمر ثلث سنوات - وكان الولد لابسًا ثوب العسكر الملكي وشعرهُ الجعد الذهبي منسدلاً على كتفيهِ - وكان الامبراطور ساكنًا على ان لوائح الكدر الشديد كانت تلوح على وجههِ وكان المجتمعون في كدر عام - فوكل الامبراطورة وحلفت يمين الامانة - ثم نهض نابوليون ووقف في وسط النوم وخاطبهم بكلام اثر في القلوب قائلاً

يا سادتي - انني ذاهب في هذا الليل لانقلد قيادة الجيش - فاخرج من العاصمة تاركًا بركون زوجتي وابني الذي تتعلق بهِ امال كثيرة - واذهب بدون اضطراب وقلق اذ انني عالم ان هذه الضمانات هي تحت حراستكم الامينة واسلم اليكم ما هو عندي اعز كل شيء بعد فرنسا -

فانبذوا جميع الانشقاقات السياسية ـ وسيبذل الجهد في سبيل اخراجكم عن طريق الامانة فانكل عليكم لدفع كل هذه المخادعات الدنية ـ ولخلج في كل صدر مراعاة حقوق الملك وصيانة الراحة والانتظام ولا سيما حب فرنسا.. انتهى

وكان صوتهُ يرتجف واثر كلامهُ في السامعين فبكى بعضهم . وخرج بعد ذلك وقال للذين كانوا حواليهِ استودعكم الله ربما نلتقي وبعد نصف الليل بثلث ساعات في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني ( جانفيه ) خرج من القصر بعد ان احرق اوراقهُ الخصوصية وودع زوجتهُ وابنهُ الوداع الاخير فانهُ لم يرَهما بعد ذلك

وكانت جيوش الدول المتحدة قد عبرت نهر الرين متغلبة على جميع الموانع واصدرت ذلك الاعلان الغريب وهو ان يصير قتل كل فلاح فرنسوي اذا اسر متقلدًا السلاح ليدافع عن وطنهِ واحراق كل مدينة وقرية تدافع عن نفسها . وقد اجمع المورخون على لوم تلك الدول

وسار نابوليون بجيشهِ وقطع مائة ميل من الجهة الشرقية من باريس وسار الى فتري وسان ديزه . وصادم ببضعة الوف طليعة جيش الجنرال بلوشار المولفة من القوزاق فحمل عليهم في الحال وبدد شملهم . وعند ما عرف ان بلوشار كان بالقرب من التروبز ومعهُ جيش جرار سار في الغد النهار بطولهِ في الاجام والمطر يهطل غزيرًا ليكبس العدو الذي لم يكن ينتظر قدومهُ . وكانت الطرق مغطاة بالثلج ولم يكن الجنود يقدرون ان يجروا المدافع الا بصعوبة عظيمة . وكان جنودهُ لا يبالون بذلك فان الحمية كانت قد اخذت منهم كل ماخذ وكذلك اهالي الاماكن التي كان يمرُّ بها كانوا يبدون مايدل على صداقتهم وحبهم . وقال لامرتين ان افقر الاهالي كانوا يصرفون مونتهم القليلة بسرور ليدفعوا المدافعين عن الاراضي الفرنسوية . وكان نابوليون يسير احيانًا كثيرًا ماشيًا في وسط صف من الجنود ويدخل حينًا بعد حين كوخ فلاح لينظر الى الرسوم او يسترق لحظة نوم بالقرب من نار الخفر . وفي التاسع والعشرين من ذلك الشهر صادم ستين الف روسي بعشرين الفًا عند الظهر . وكان الروس تحت قيادة بلوشار المذكور محصنين امنع تحصين في القلعة والاماكن المرتفعة في بريان . فتفرس نابوليون لحظة في هذه الاماكن التي كان يعرفها منذ نعومة اظفارهِ وامر بالحمل حالاً بدون ان يمكن جيشهُ من الراحة لينشف اثوابهُ المبللة . وقبل ان توارت الشمس وراء التلال المبيضة بالثلج صبغ دم عشرة الاف من الجيوش المتحدة تلك الثلوج والتزم بلوشار بان يتقهقر ليجعل جيشهُ يتصل بجيش اشوارتزنبرغ في بارسوراوب التي تبعد بضعة اميال

وبعد القتال سار نابوليون مسيرًا بطيئًا قاصدًا مركزهُ وهو غائص في بحار من التاملات المكدرة فسمعت فرقة صغيرة من الروسيين صوت مشي حرسهِ الثقيل فحملت عليهِ بغتة في الظلام .



وحمل عليهِ في تلك اللحظة فارسان من الدارغون الروس وصدم الجنرال كوربنو احدهما واطلق الجنرال غرغو الرصاص على الاخر وقتلهُ . وفي الحال حمل الحراس الذين كانوا يسيرون وراءهم وخلصوهُ . وخسر نابوليون في معركة بريان خمسة اوستة الاف رجل بين قتيل وجريح

واتصل القائد بلوشار بالقائد اشوارتزنبرغ وفي الغد سارا بمائة وخمسين الفًا ليحملا على نابوليون في روثيار التي تبعد تسعة اميال عن بريان فبعث البرنس اشوارتزنبرغ بضابط من الذين يحق الركون اليهم ليسال الجنرال بلوشار عن كيفية الحمل فاجاب على الفور انَّا نسير الى باريس فان نابوليون دخل جميع عواصم اوربا فلا بد من ان نجعلهُ ينزل عن عرش كان الاوفق لنا جميعًا ان لا يتبوأه . فلا ينبغي ان نذوق الراحة الا بعد سقوطهِ . وكان نابوليون قد جمع في المحل المذكور اربعين الفًا بعد ملاقاة صعوبات جمة ودافع جيشًا عددهُ اربعة اضعاف وتمكن من المحافظة على مراكزهم . وفي الليل تكاثف غيم المطر في الجو فرجع نابوليون الى تروبز تاركًا ستة الاف رجل من جيشهِ الباسل مقتولين ومجرحين اشنع الجراحات مجندلين على الارض المغطاة بالثلج . وكان الامبراطور اسكندر الرومي والملك فردريك وليم البروسي يشاهدان من تلة مجاورة هذا الفوز بفرح عظيم . وكان القائد بلوشار عارفًا بفنون الحرب شجاعًا ولكنهُ كان من اشد اهل الارض فسادًا ومكرًا . وبعد تلك المعركة تناول الامبراطور والملك والسفراء والقواد الاولون الطعام معًا فهاج بلوشار واي هيجان وكان يكسر اقواه قناني المسكر المسمى شمبانيا بسكينة وجعل الحاضرون يضجون تكرارًا فرحًا بالسر الذي شربهُ وهو سر الذهاب الى باريس

اما نابوليون فبات في حيرة فان اعداءهُ كانوا يحملون على باريس بجيوش جرارة من جميع الجهات . ولم يكن عندهُ جيش قادر على دفعها . ورأى انهُ اذا صار شمالاً ليدافعهم يفتح طرقًا للاعداء من الجنوب والشرق . وكان يسمع بمصائب وخسائر بدون انقطاع . وكان لا يزال يفاوض الدول المتحدة بالصلح . فكتب نابوليون الى كولانكوربان يقبل بشروط عادلة تخلص باريس وتمكنهُ من مجانبة قتال آخر يفني الباقي من الجيش . على ان الدول المتحدة لم ترضَ بالمصالحة . ولكنها كانت تروم ان تقرر في عقول الناس ان نابوليون هو الذي رفضها فلم تعرض عليهِ شروطًا غير التي من شانها جلب العار على الامبراطورية . وفي ذات مرة وردت عليهِ رسالة مآلها انهُ ينبغي ان يسلم الى الدول جميع البلدان التي فتحها منذ استوى على العرش فارتبك اي ارتباك لان التسليم بذلك يعيبهُ عند اوربا وفرنسا التي يتركها ضعيفة بدون اسباب الدفاع الطبيعية معرضة للاهانة ولحملات الاعداء الاقوياء الذين كانوا يحيطون بالامبراطورية فانفرد ساعات وهو يتامل في هذه المشاكل والضيقات المخيفة . فراى الخراب ينقض عليهِ وعلى فرنسا كانهُ عاصفة . فالح القواد

عليهِ بان يقبل بذلك مراعيًا ضرورة الحال . وبعد تردد طويل بعث بتلك الشروط الى مجلس الشورى فقبل بها خلا عضو واحد فكتب اخوهُ جوزف اليهِ بانهُ ينبغي ان تخضع للحوادث واحفظ ما يتيسر لك ان تحفظهُ وخلص حياتك لانها ثمينة عند ملايين ولا يعاب من يخضع للكثرة فربما تعاب اذا تركت العرش لانك تترك رجالاً كثيرين قد خصصوا انفسهم بك . فصالح مهما كلفتك المصالحة . فهذا الالحاح المصحوب بالانكسار حمل نابوليون على ان يفوض كولانكور بان يمضي المعاهدة التي يرى انها لازمة لتخليص القاعدة . وقبل بذلك على الصورة الاتية وهي انهُ تناول بسكون مجلدًا من تأليف مونتسكيو وقرأ الفقرة الاتية بصوت مرتفع وهي انني لم اسمع بشيء يدل على كرامة الاخلاق كالشيء الذي سمعت بهِ عن ملك ملك في ايامنا واختار ان يدفن بخربات عرشهِ ورفض قبول شروط لا تليق بملك على الذل فان عقلهُ كان عاليًا فلم يرضَ بان يجعل سقوطهُ اعظم من السقوط الذي القاهُ فيهِ نصيبهُ وكان متيقنًا ان الشجاعة ربما قوَّت التاج على ان الاعمال التي تجلب العار لا تقويهِ انتهى ثم طبق الكتاب صامتًا ولم ينقطع القوم عن ان يلحوا عليهِ بقبول تلك الشروط مراعاة لحقوق الانسانية وحبًا للدماء وقالوا ان كرامة الاخلاق انما تكون بتضحية مجدهِ لصيانة الامة التي تسقط بسقوطهِ واجاب بعد ان تامل برهة فليكن ذلك كذلك وليقبل كولانكور بما يلزم للصلح وساحمل عارهُ غير انني لا اوقع بيدي ما يجلب العار عليَّ انتهى

ولم يخطر ببال الدول المتحدة ان تصالح فرنسا فلما رأت نابوليون قبل بالشروط التي اقترحتها عدلت عنها وطلبت شروطًا اخرى اصعب منها وكان قد قبل بان يسلمها كل الاراضي التي استولى عليها منذ استوى على عرش الامبراطورية اما مطالبها الجديدة فكانت ان ترجع فرنسا الى الحدود التي كانت بها قبل الفتنة وكان هذا الطلب اهانة عظيمة وكانت تقول ان هذه شروط معتدلة فصمم نابوليون على ان يختار الهلاك على القبول بها وقال بغيظ هل تطلب الدول اليَّ ان اصالح على ذلك واحنث باليمين التي حلفتها بان لا اضيع شيئًا من اراضي الامبراطورية . فالمصائب ربما الزمتني بالقبول بخسارة بلاد فتحتها غير انني لا اقبل بخسارة ارض فتحت قبل ان تبوأت عرش الملك وان اكافي فرنسا على الدم الذي اراقتهُ والخسائر التي تكبدتها بتركها بعد ان تخسر ما ربحتهُ في الايام السابقة لايامي فهذا لا ارضى بهِ واذا سلمت بهِ اتهم بالخيانة والجبن . فانتم تخشون الحرب غير انني اخاف مخاطر موكدة لا ترونها فاذا تركنا حدود الرين نتاخر فرنسا بل تتقدم النمسا وبروسيا . ففرنسا محتاجة الى السلم على ان السلم الذي ترغب الدول المتحدة في ان تلزمها بهِ يعرضها لمصائب اعظم من مصائب الحرب . فماذا يقول الفرنسويون عني اذا قبلت بما يعود عليها بالذل وماذا اقول لجمهوري مجلس الاعيان حين يطلب اليَّ اعطاء حدود الرين فاسال الله ان يجنبني من هذا الذل فاكتبوا الى كولانكور بانني ارفض المعاهدة متصلاً



مخاطر اعظم الحروب . انتهى . وقال اعداء نابوليون عن هذا الكلام انهُ دليل مطامعهِ غير المحدود وحبهِ الشديد للخداع

فتحققت الدول المتحدة اذ ذاك ان عدوها القادر قارب السقوط فامرت جنودها بان تحمل بسرعة على فرنسا لتتغلب على الجيوش القليلة التي كانت لا تزال تدافع عن استقلال وطنها ورجع نابوليون في اربعة الاف رجل ستين ميلاً الى ان بلغ نوجن فبادر اشوارتزنبرغ الى الاستيلاء على تروبز بمائتي الف من النمسويين وهي تبعد نحو ٧٥ ميلاً عن نوجن . وصمم على ان يزحف الى باريس بهذا الجيش

اما وادي نهر المارن فواقعة في مكان يبعد عن نهر السن خمسين ميلاً والنهران يلتقيان بالقرب من باريس واخذ بلوشار يسير بسرعة في نحو سبعين الفًا من الروسيين والبروسيين قاصدًا الحمل عليها بقطع ضفات المارن . ولم يكن فيها قوة لتصادمهُ . وامسى نابوليون في مركز حكم الناس بانهُ لا امل لهُ بالنجاة منهُ وكان والنغتون الانكليزي يسير بجيش كثير من الجنوب وكان برنادوت يتقدم بعساكر غزيرة من الشمال وكان بلوشار واشوارتزنبرغ يدنون من باريس من الشرق حال كون بوارج انكلترا قد قطعت التجارة الفرنسوية من البحار فبات مشيرو الامبراطور في ياس والحوا عليهِ ان يجاري ضرورة الاحوال ويقبل بشروط الدول مهما كانت اما ثباتهُ وهذه المصائب محدقة بهِ فيشهد بعظمتهِ فاجاب على الحاحهم بقولهِ لا لا . لابد من ان نتامل في امور اخرى الا فانني اكاد الاقي بلوشار فانهُ متقدم في طريق باريس وساصدمهُ واظهر عليهِ غدا واغلبهُ بعد ايضًا اذا نجحت الحركات الحربية النجاح المنتظر وتتغير الاحوال تغيرًا تامًا . وبعد ذلك نرى ماذا ينبغي ان نفعل . وقام نابوليون بتدبيرات حربية كالتدبيرات التي يتبدل بها سقوطهُ بالفوز والمجد . فترك عشرة الاف رجل في نوجوا ليمنعوا مائتي الف نمسوي طالما تقدم وسار بسرعة عجيبة بثلثين الفًا قاطعًا البلاد الى ان بلغ وادي المارن وكان مرادهُ ان يكبس جناح بلوشار حال كونهِ لم يكن يحسب حسابًا لهجمات الفرنسويين . وتعب جيشهُ بالمسير السريع تحت المطر وفي الوحول حتى انهُ لم يقدر ان يهجم على جيش بلوشار الا بخمسة وعشرين الفًا . وفي صباح العاشر من شهر شباط (فنريه) عند طلوع الشمس حمل الفرنسويون على الروسيين الذين كانوا يهيئون طعام الصباح بطمانينة وسكون . فانتشب القتال وفاز الفرنسويون فوزًا كاملاً وتمكن نابوليون من خرق صفوف جيش الاعداء ثم حمل على الجناح الواحد ثم على الاخر وبدد بافتخار بقايا الجيش . على انهُ لم يكن عندهُ جيش احتياطي ليستغنم سنوح الفرصة وينتفع بهذا الفوز العظيم فان جنوده التعبة لم تقدر ان تطارد الاعداء وفي اليوم الثاني جمع بلوشار بجدهِ نجدات حتى صار عدد جيشهِ ستين الفًا وحمل بعنف عظيم على جيش نابوليون الصغير وانتشب قتال

اعظم من القتال الاول وانتصر نابوليون انتصاراً اعظم . فتقوت العساكر الفرنسوية بهذا الفوز حتى ان نابوليون علق املهُ بطلوع طالع السعد بعد افولهِ . وكتب الى كولانكور ساعة القتال انني قد انتصرت على انهُ ينبغي ان يكون تصرفك واحداً من جهة السلم ولكن لا ترضى بشيء بدون امري فانني انا وحدي عالم بحقيقة حالي

وفي اثناء انتصار نابوليون على بلوشار جرت امور في ترويز فان حزب الملكية فيها راى ان نابوليون بات في حالة تدعو الى قطع الامل فصمموا على ان يقوموا بتدبيرات مهمة لارجاع البوربون فصارت لجنة الى امبراطور روسيا مولفة من الماركيزدي فدرانج والكافليه دي غوال ومعهما خمسة او ستة رجال من الاهالي وقالوا لهُ اننا نتوسل الى جلالتك باسم جميع اعيان الاهالي في ترويز ان توجه اهتمامك الى انفاذ ما نرغب فيهِ من جهة ارجاع العائلة البوربونية الى عرش فرنسا . انتهى وكان امبراطور روسيا لا يزال يخشى ان يتمكن نابوليون بخدعهِ من تعويض خسائرهِ . فقال لهم انني اقابلكم بسرور واتمنى التوفيق لمشروعكم غير انني اخاف ان تكونوا شرعتم بهِ قبل حلول الاجل الموافق . فان عواقب الحرب مجهولة ويكدرني ان ارى رجالاً باسلين مثلكم ساقطين في ويل فاننا لسنا اتين لتنظيم ملك لفرنسا ولكن نرغب في ان نتفق على ما ترومهُ هي وان نتركها تصرح بما ترغب فيهِ . فقال موسيو دي غوال انها لا تصرح بما تروم ما دامت تحت السيف وما دام بونابرت مالكها لا ترتاح اوربا . فقال الامبراطور هذا هو سبب الاجتهاد بالتغلب عليهِ . فرجعت عمدة الملكيين مرتضية اذ تقرر عندها ان الحكمة ساقت الامبراطور الى ان يؤجل اجابة طلبها مدة قصيرة . وفي تلك الاثناء سار الماركيز دي فترول وكان من اشد الناس تحزباً للبوربون الى اركان حرب الدول المتحدة من قبل الملكيين في باريس ونوسل اليها ان تتقدم بالسرعة الممكنة اليها . ولم تسود صفحات التاريخ باعمال ادنى من هذه الاعمال . فان نابوليون هو الذي خلص اولئك الرجال من الشقاء والفقر بكرامة اخلاقهِ فانهُ عفا عن مقاومتهم لفرنسا الجمهورية وحماهم من الاهانة ومنع وقوع الاضرار عليهم وصانهم بقوة الامبراطورية من ويلات لم يجلبها عليهم

وفي عشرة ايام انتصر نابوليون خمس مرات وكانت امواج الحملات لا تزال تنصب على باريس . اما اجتهاداتهُ واجراآتهُ فانت بما تعجز قوة البشر عن ان تاتي بهِ . ففي يوم وليل قطع ٣٠ ساعة وعاد الى ضفات السين وكان ثلثمائة الف من النمسويين يتقدمون من فونتابلو . وفي مكان يبعد ستين ميلاً عن باريس في الجهة الجنوبية عند ملتقى نهر السين واليون بلدة مونتير الظريفة في ارض جميلة جداً . وكان نابوليون قد جمع ٤٠ الفاً ليمنع بهم عساكر الدول المتحدة عن التقدم وانتشب هناك قتال مخيف جداً

وفي اثناء القتال كانت كلل النمسويين تتساقط حوالي نابوليون وتفلح الارض وكانت جنود



المدافع تجندل عند رجليهِ فهاجت الحمية فيهِ فنزل عن جوادهِ ووجه بيدهِ مدفعاً الى الاعداء وكانت كلل العدو تخرق صفوف الفرنسويين وتغطي الارض بالقتلى والجرحى فاخذ جنود مدافع الفرنسويين يتوسلون اليهِ بان يذهب الى مكان لا خطر فيهِ فنظر بعين البسالة الى الرصاص والكرات والحديد التي كانت تهطل من افواه المدافع كانها برد كثير وتبسم قائلاً تشجعوا يا اصدقاءي فان الكلة التي اقتل بها لم تسكب بعد وفي غضون احدى الحملات عند جسر مونتيرو دخلت كلة محشوة صدر فرس الجنرال باجولي الفرنسوي وانفجرت في بطن ذلك الجواد فاندفع الجنرال الى الهواء مسافة فوقع مجرحاً غير ان جراحهُ كانت غير بليغة ولما سمع نابوليون بهذه الحادثة الخارقة العادة قال انهُ لولا العناية الالهية لما نجا من هذه الحالة ولم ينتهِ القتال الا عندما خيم الظلام وكان الفوز لنابوليون ولما رات جيوش الدول المتحدة انها تتكبد خسائر غير منتظرة وقد دارت عليها الدوائر مرات كثيرة اضطربت وخافت واخذت تتقهقر بسرعة وخوف اذ انهُ كاد يتقرر عندها ان الكثرة لا تقدر ان تتغلب على نابوليون اما امبراطور روسيا والنمسا وملك بروسيا فاضطربوا جداً اذ انهم صادفوا ما لم يكونوا ينتظرون وتحيروا لانهم لم يكونوا يعرفون ماذا ينبغي ان يفعلوا وطارد نابوليون مائة الف من جيوش اعدائهِ باربعين الفاً في وادي السن الى ان التجاوا الى مكان بالقرب من شومن التي تبعد نحو مائة وستين ميلاً عن ساحة القتال ولما راى فرار اعدائهِ قال لقد زالت كل الاكدار عن قلبي فانني قد خلصت قاعدة امبراطوريتي ان هذه الانتصارات عجيبة على انها لم تنف المخاطر ولكنها اجلتها فان انكسار مائة الف او مائتين من مليون من الرجال وراءهم مليون اخر لسد النقص الناشي عن الحرب لا ياتي بنفع عظيم

ولم يكن نابوليون يغفل عن مخابرة جوزفين امراتهِ الاولى غالب الايام مع انهُ كان محاطاً ببلايا ومصائب ويقوم باعمال عظيمة وكان لا يزال يحبها جداً حباً يفوق حبهُ للجميع وفي ذات مرة قربت حركة القتال من منزلها فترك الجيش وسار قاصداً ان يخابر اشد صديقاتهِ امانة مخابرة قصيرة وهذا هو اجتماعهُ الاخير بها وفي نهاية تلك المقابلة القصيرة المكدرة امسك بيدها وتفرس فيها بحنو وقال يا جوزفين قد فزت بسعد لم يفز بمثلهِ رجل في الارض على ان المصائب قد اجتمعت عليَّ في هذه الساعة وليس لي في هذه الدنيا التعيسة احد سواك يزيل همي انتهى وكان يكتب اليها وهو في وسط ضوضاء الحرب برسالات حب وحنو مختصرة جداً ولم يكن يغفل عن الاعتناء وكتب اليها الرسالة الاخيرة من مكان قريب من بريان بعد ان قاتل جيوشاً تزيد كثيراً عن جنودهِ قتالاً عنيفاً جداً وقال لها في ختام تلك الرسالة لما ارى هذه المحلات التي صرفت فيها زمان الصفو واتابل الاهوال والاضطراب التي اصادفها بحالتي السلبية المحفوفة بالراحة اقول في نفسي انني طلبت الموت مرات كثيرة ولا اقدر ان اخشاه فالموت الان من البركات غير انني اتمنى

ان ارى جوزفين مرة اخرى انتهى

وكان القتال منتشباً بدون انقطاع من مسافة اميال كثيرة حول قاعدة فرنسا وغصت المستشفيات بالجرحى والذين في حالة النزع وكانت جوزفين ومعينانها يشتغلن في قصر مالميزون بصنع رباطات لضمض الجراح وفي النهاية قرب الخطر من ذلك القصر فان قوماً من الجنود البربرية كانوا يجولون في البلاد ويتعدون على العرض وفي صباح احد الايام كانت الامطار تهطل بدون انقطاع فركبت عجلتها وسارت الى نافار البعيدة وبعد ان سارت نحو ٢٠ ميلاً رات فرساناً في مكان بعيد عنها وسمعت الرجال يصيحون القوزاق القوزاق فخافت جداً ونزلت من العربة وركبت الى الفرار قاطعة الحقول تحت الامطار الغزيرة . وبعد برهة قصيرة عرف اعوانها انهم فرسان فرنسويون فارجعوها فركبتها وقطعت الطريق بدون مصادفة معارضة

والاقلام تقصر عن وصف البلايا والتعديات التي صاحبة مسير جنود برابرة وقد اخترنا ذكر حادثة واحدة ليستدل بها على مئات من التعديات وهي ان اللورد لوندوندري راى فتاة فرنسوية جميلة وهو في وسط مناوشة دموية وكانت زوجة كولونل قد سباها ثلثة من الجنود الروسيين وساروا بها قاصدين الغابة حال كونها تصرخ وتصيح . فبادر الى تخليصها بقوم من الجنود وفاز بذلك وكان القتال لا يزال منتشباً فامر جندياً من الدراغون بان يذهب بها الى مكان نزوله الى ان يتمكن من الاعتناء بها وصيانتها فسار الدراغون بها وهي تكاد تغيب عن الصواب من شدة الخوف واركبها وراءه فصادفها قوم اخر من القوزاق البرابرة وقتلوا الجندي الدراغوني وسبوها مرة اخرى ولم يقف احد بعد ذلك على خبرها ومن يعلم البلايا التي صادفتها وهذه هي ثمرات الحروب فما هي الا بلاء وهوان وويل يعم البلدان

ووقع الخوف في قلوب الدول المتحدة فعقدت مجلساً حربياً وقرر القواد النمسويون ان الجيش العظيم قد خسر نصف عدده بالسيف والمرض والامطار وخربت البلاد التي امسينا فيها ونشفت ينابيع مونتنا والاهالي الذين اصبحنا في وسطهم مستعدون لان يجاهروا بالعصيان فمن الواجب علينا ان نرجع الى المانيا وننتظر ورود النجدات فقبلت الاكثرية هذه الاراء واستمر الجيش يتقهقر باضطراب عظيم وارسلت الدول الكونت لخنستين الى اركان حرب نابوليون ليتوسل اليه عقد هدنة فقابله نابوليون في كوخ فلاح حيث كان قد نزل ليصرف الليل فطلب ذلك الكونت المهادنة وسلم نابوليون رسالة خصوصية من حميه امبراطور النمسا وكانت رسالة لطيفة تضمنت ما يكاد يكون اعتذاراً عما جرى واقراراً بان مشروعات الدول المتحدة الحربية ذهبت سدى وان سرعة حركات نابوليون وتاثيرات حملاته جعلته يعترف مجدداً بحذق صهره فتعجب اما نابوليون فاخذ يكلم الكونت بحسب عادته بوضوح تام وحرية وقال له هل تروم الدول



المتحدة ان ترجع البوربون الى عرش فرنسا هل هذه الحرب حرب لاسقاط عرش الامبراطورية فان الكونت داركواز البوربوني هو مع الجيش العظيم في سويسرا والدوق دانغولم في اركان حرب الدوق والنغتون يصدر الاعلانات الى الجهات الجنوبية من امبراطوريتي فهل اصدق ان حمي الامبراطور فرانسز النمسوي قد عمي وخالف الدواعي الطبيعية فيروم خلع ابنته وقطع ميراث حفيده . فقال الكونت ان ذلك لم يخطر ببال الدول المتحدة وان قيام البرنس البوربوني مع جيوشها انما هو سماح ناشئ عن التحمل وانها لا تروم الا الصلح ولا ترغب في هدم اركان الامبراطورية وعين مدينة لوزكني لعقد مؤتمر وارسل ثلثة قواد من الدول المتحدة مرخصين من قبل النمسا وروسيا وبروسيا وصار الاتفاق على مداومة القتال الى ان يصير الاتفاق على الهدنة

وفي صباح الرابع والعشرين من ذلك الشهر دخل نابوليون (التروبز) التي كان قد خرج منها فان العدو هجرها في الليل واجتمع الاهالي حوله بالتهاني والتهليل وازدحمت اقدامهم في الشوارع التي كان يمر بها وحاولوا تقبيل يده او مس جواده وكانوا يضجون قائلين هوذا مخلص وطنه وامر نابوليون في الحال بالقاء القبض على فدرانج وكوال وكان اولهما قد فر وانضم الى الدول المتحدة اما ثانيهما فالقي القبض عليه وحوكم في مجلس حربي وحكم عليه بالقتل وكان نابوليون يعلم ان احزاب الملكية عاكفة على الاضرار به في كل مكان بمؤامرتها فراى انه لا يقدر ان يعفو عن خيانة ذلك الرجل الدنية بدون ان يعرض لخطر مبين فسيق الى القتل قبل نصف الليل بساعة وعلق لوح على صدره كتب عليه باحرف كبيرة هذا خائن بلاده . فمات بشجاعة مثبتاً حبه للبوربون

وفي هذه المحاربات قام نابوليون باعمال لم يقم باعظم منها حياته بطولها . وقد شهد التاريخ بدون مناقضة ان اعمالاً كهذه لم تتقرر في صفحاته فارتبكت الدول المتحدة وتحيرت وكانت قد طلبت عقد هدنة لاكتساب زمان كاف لاحضار النجدات فعقدت مجلساً اخر حربياً لتدبير حملات جديدة وحضر ذلك المجلس امبراطور روسيا والنمسا وملك بروسيا ومرخصون انكليز من اصحاب العزم والثبات وكان اللورد كاسلريا المرخص الاول وكانت الدول قد صرحت انها لا تروم خلع نابوليون ومع ذلك كانت تقوم بما يروج ذلك . وقال اليصون المورخ ان ذلك اللورد لم يكن يمتنع عن ابراز رايه فانه كان يقول منذ بداية الحرب في المجلس الحالي وفي المحادثات الخصوصية ان اثبت ضمانة لسلام اوربا انما تكون بارجاع حدودها القديمة

ولما اختار الفرنسويون نابوليون باكثرية عظيمة ليكون قنصلاً اول طلب الى انكلترا ان تصالح فرنسا فاجاب اللورد كرانفل بالعدوان والاهانة وقال في جوابه ان الضمانة الثابتة الطبيعية التي تضمن عدول فرنسا عن مشروعاتها العظيمة الصادرة عن مطامعها غير المحدودة

وهي التي بهددت الهيئة الاجتماعية في البلدان المجاورة انما يحصل عليها بارجاع الملوك الذين مكنوا الامة الفرنسوية قرونًا كثيرة من الرفاهية والنجاح في الداخل والاحترام في الخارج فهذا دون غيره يزيل الموانع التي تعرض دون المخابرات الصلحية في الحال وفي الاستقبال ويثبت لفرنسا التمتع باملاكها القديمة بدون معارضة وتمكن جميع دول اوربا من الامنية التي امست ملتزمة بان تطلبها بوسائل اخرى وذلك بتقرير الراحة والسلم

وارسل الامبراطور اسكندر الروسي الجنرال بوتسودي بورغو الى الحكومة الانكليزية فالكونت دارتواز الذي صار الملك شالز العاشر الح عليه بان يحمل الدول المتحدة ان تصرّح بانها مصممة على ارجاع البوربون . فاجاب ذلك الجنرال قائلاً ياسيدي لكل شيء زمان فلا ينبغي ان نوقع الامور في ارتباك . ولا ينبغي ان تلقي امام الملوك امورًا غير جلية ولم تحد الدول على اسقاط نابوليون الا بعد معاناة صعوبات كثيرة فعند بلوغ هذا المقصد يصير البحث عن الدولة التي ينبغي ان تقام في فرنسا وعند ذلك تخطر عائلتكم المشهورة العظيمة ببال الجميع . وقال اللورد كاسلريا في خطاب فاه به في مجلس انكلترا العالي في ٢٩ حزيران (جون) سنة ١٨١٤ ان كل تسوية تكون غير تامة اذا لم ترجعوا الى عرش فرنسا العائلة البوربونية القديمة وكل صلح يعقد مع الرجل الذي جعل نفسهُ رئيس الامة الفرنسوية لا ينشأ عنهُ الا حدوث اسباب قلق جديدة فلا يكون صلحًا ثابتًا ومع ذلك لم يتيسر لنا ان نخابرهُ حال كونهِ متسلطًا بدون اهانة الراي العام في اوربا واحتمال مسئولية استمرار الحرب

فهولاء الملوك كانوا يقاومون كل عدل وكانوا يخجلون ان يصرحوا بنواياهم . فانهم كانوا شارعين في ان يلزموا امة بقوة مليوني جندي بعد ان يضعضعوها بان تقبل ملكًا مكروهًا عندها ومع ذلك تجاسروا على ان يصرحوا بانهم لا يرومون ان يتداخلوا بما يتعلق باستقلال فرنسا وعند ما طرد الشعب المغتاظ البوربون الى ما وراء الرين بادرت الجيوش الحاملة المتحدة لاجراء الظلم الى دوس بني فرنسا تحت دواليب مدافعها وسارت بالعائلة المكروهة الى العرش . وانكلترا المحبة للحرية التزمت بسطوة حكومتها بان تشترك بهذا العمل الشرير . وسار الملك لويس الثامن عشر على رغم انف الامة الفرنسوية محاطًا بسيوف رجالها الى ان دخل قصر التويلري . ولم تقدر اوربا ان ترتكب هذا الذنب العظيم الا بعد ان بليت ربع قرن بطوفان من الدماء وبلايا تعجز الاقلام عن وصفها . اما الرجال الذين تآمروا على دوس الحقوق العامة فلم يعدلوا في الحكم ولا راعوا حب نابوليون لوطنهِ وشجاعتهُ حال كونهِ صان استقلالهُ عشرين سنة مدافعًا حملات اوربا المتحدة ولكنهم حاولوا ثلم صيتهِ والقاء كرههِ في قلوب الناس باكاذيبهم على ان الدنيا قد تغيرت واصبح للاهالي راي في الاعمال وقد غيروا حكم الظلم واصبح ذكر نابوليون في قلوب اهالي جميع



البلدان اطيب من المسك وقد بنيت لهُ منازل فيها كلها

وصممت الدول المتحدة بعد ذلك على ان تلقي نابوليون في ارتباك بقسمة جيشها الى قسمين وتقلد بلوشار قيادة قسم وسار بسرعة قاطعًا البلاد الى المارن ليتحدر الى باريس بالمسير في ضفتي النهر . والقسم الثاني الجرار انضمت اليهِ نجدات وافرة وجعل تحت قيادة اشوارتزنبرغ وامر بان يسير ويجتاز وادي السين بتيقظ وكان لا يزال يرتجف عند ذكر نابوليون . فترك نابوليون عشرة الاف رجل في التروبز ليمنعوا اشوارتزمبرغ وسار في ٢٠ الفًا قاصدًا مطاردة بلوشار . فتعجب البروسيون من شدة المطاردة وتكبدوا خسائر وافرة بضربات نابوليون المستمرة الواقعة على موخرتهم فاخذوا يتقهقرون بسرعة وكان اسم نابوليون يلقي الرعب في القلوب حتى ان مائة الف بروسي فروا بقلق وعدم انتظام امام ثلثين الف جندي قد انهكهم التعب فعبر الجنرال بلوشار المارن وهدم الجسور بعد اجتياز النهر وسار الى مكان يبعد نحو خمسين ميلاً واقعًا بالقرب من لاون فبنى نابوليون الجسور وتبعهم . وبحذقهِ الغريب المدهش المحير جعل بلوشار في مركز يمكنهُ من ان يهلك جيشهُ كلهُ او ياسرهُ على ان برنادوت انجدهُ بجيش جرار ولم يكن مع نابوليون الا ٢٥ الفًا ليلاقي بها مائة الف . ومع ذلك انقض على اعدائهِ بقوة الباس فذاب جيشهُ القليل بنار الاعداء فطال القتال وراجت سوق المنايا ولم تنفع الشجاعة لان الفرق بالعدد عظيم ومع ذلك لم يتمكن العدو الا من الثبات في مركزه فجمع نابوليون حولهُ بقية جيشهِ المتعبة ورجع الى رمز ولم يتجاسر العدو ان يطاردهُ ولما سمع اشوارتزمبرغ ان نابوليون يطارد بلوشار اخذ يسير في وادي السن بمائتي الف رجل قاصدًا ان يحمل على باريس وكان الدوق والنغتون في بوردو بجيشهِ المولف من الانكليز والبورتوغاليين والاسبانيول يتقدم بدون مقاومة تستحق الذكر وكان الدوق دي انغولم مع الجيش الانكليزي يحرض حزب الملكية في فرنسا على الاجتماع تحت الراية البوربونية وصعد جيش اخر من جيوش الدول المتحدة على جبال من سويسرا وتقدم الى ان بلغ سيون ولم يكن ينظر نابوليون الى جهة بدون ان يرى جيوشًا وافرة حاملة على فرنسا . ولم تكن الرسالات تبلغهُ الا بعد معاناة اتعاب كثيرة وكثيرًا ما كان يلتزم بان يستند الى التخمينات اما قوادهُ فضعفت عزائمهم وباتت الان في خوف

واثناء هذه الحوادث المحفوفة بالمخاطر والمصاعب الح البعض على ماريا لويزا زوجة نابوليون بان تتوسط الامر عند والدها امبراطور النمسا فاجاب حالاً لا وهذا تعظم يستحق الاعتبار عليهِ ثم قال ان الارشيدوقة قد راتني وانا في اعلى درجات القوة الارضية فلا يتعلق بي ان اخبرها انني انحدرت منها فكيف اتوسل اليها ان تعضدني بمساعدتها انتهى . ومن الموكد انهُ كان معلقًا الامل بانها تعرف مرادهُ بدون ان يخبرها وتحاول ابطال عدوان ابيها بمخابرات سرية وكانت جالسة

معهُ لما بلغهُ ان النمسا ربما كانت تتحد مع الدول المجاهرة بعدوان فرنسا فنظر اليها بحنو وامسك يدها وقال بصوت دل على كدره ان اباك مصمم على ان يحمل عليَّ فامسيت وحدي ضد الجميع نعم وحدي وما من معين فبكت حالاً ونهضت وخرجت من القاعة

وصمم نابوليون على القيام بعمل لا يقوم بهِ الا اشجع الناس وهو الحمل على مؤخرة جيش اشوارتزمبرغ وان يقطع اسباب اتصالهِ بالمانيا وطريق ذخائرهِ ومونتهِ فسار بسرعة تحير العقول واجتاز ثانية البلاد الواقعة بين المارن والسن فسمع ذاك القائد بخوف ورعبة اصوات مدافعهِ المطلقة على عدوة وكان عدد هذا الجيش النمسوي مائتي الف نفس ومع ذلك لم يتجرأ ان يتقدم فانثنى وركن الى الفرار وتذكر امبراطور النمسا وروسيا وملك بروسيا اعمال نابوليون العظيمة وخافوا الوقوع في شرك ينصبهُ لهم فانثنوا راجعين من جهة باريس قاصدين الرين . فجيوش الدول المتحدة الجرارة لاقت نابوليون في ارسي على ضفة الاوب على غير انتظار وانتشب قتال شديد . وقال لامرتين ان نابوليون كان يحارب بياس مصماً على ان ينوز او يموت . وجدد في هذه المعركة اعمال لوري وريفولي بكل تان . وكان اصغر جنوده سناً يحمر خجلاً اذا خطر ببالهِ ان يترك امبراطوراً كان يعرض نفسهُ لخطر القتل بدون اقل مبالاة حال كونهِ كان يقاتل ببسالة محيرة للعقول ورآهُ جنوده تكراراً يسرع بجواده حاملاً مع الفرسان على مدافع ثم يظهر سالماً بعد ان ينقشع الدخان كأنَّ الموت لا يقدر ان يدركهُ وفي ذات مرة وقعت كرة محشوة امام احدى فرقهِ المولفة من جنود جمعوا حديثاً غير مختبرين الحروب فارتجت الفرقة وتمايلت خوفاً من انفجارها فاراد نابوليون أن يشجعها فجعل فرسهُ يدنو من تلك الكرة ويشم الكبريت المشتعل فيها وانتظر انفجارها بدون خوف ثم انفجرت فدفع الى فوق ثم سقط على الغبار هو وجوادهُ الذي بات مقطعاً ثم نهض بدون ان يتجرح فضج الجنود ثم ركب جواداً اخر واستمر يعرض نفسهُ للرصاص والحديد المنقذفين من افواه المدافع ويأتي اماكن اشتداد النزال وفي غضون القتال تمكن جيش روسي عددهُ ستة الاف رجل وامامهُ فرسان كثيرون من القوزاق من خرق صفوف الفرنسويين القليلة الضعيفة وضحوا ضجة النصر وتواروا عن الابصار بدخان مدافعهم وغبار حوافر افراسهم وكان نابوليون بعيداً عنهم الا ان عينهُ رات ان هذه العاصفة الحربية ستنقض على جيشهِ المتضعضع فسار ركضاً الى مكان القتال ولاقى في الطريق كثيرين من الجنود بعضهم جرحى هاربون بخوف عظيم شديد وتعاظم الاضطراب وعند ذلك جاء ضابط مكشوف الراس مغطى بالدم راكباً يتقدم بسرعة نحو الامبراطور ولما قرب منهُ قال يامولاي ان القوزاق قد خرقوا صفوفنا وارجعونا الى الوراء مستندين الى جيش جرار من الفرسان فسار الامبراطور بسرعة الى جنودهِ الفارة ووقف في الركاب وصاح بصوت تغلب على ضوضاء الحرب وقال ياايها الجنود ارجعوا هل تهربون



وانا بينكم فرتبوا صفوفكم وارجعوا الى التنظيم وتقدموا

ولما سمع الجنود ذلك الصوت المحبوب عندهم وقفوا ورتبوا صفوفهم فسار نابوليون في مقدمتهم وسل سيفهُ وحمل على القوزاق ودخل بينهم فضج الجنود فليعش الامبراطور وتبعوهُ وصدموا القوزاق صدمة تزعزع الجبال الرواسخ فركنوا الى الفرار بعد ان تكبدوا خسائر وافرة وهكذا تمكن ذلك الامبراطور بالف رجل تحت قيادتهِ من ان يصد ويكسر ٦ الاف من الاعداء ثم رجع الامبراطور الى مركزه بسكون واخذ يدبر ذلك القتال المخيف وكانت جيوش الاعداء تتكاثر كل ساعة ولما خيم الظلام رجع الفرنسويون المتعبون الى مدينة ارسس . ولما رات الدول المتحدة ان نابوليون سار بجسارة جمعوا جيوشهم غير المحصاة في سهول شالدن ولم يكتفوا بذلك بل ارجعوا جيش بلوشار وبرنادوت لينضموا اليهم

وبعد هذا القتال ببرهة قصيرة اسر النمسويون رسولاً فرنسوياً حاملاً رسالات منها رسالة خصوصية من نابوليون باسم زوجتهِ ماريا لويزا وهذه ترجمتها

يامحبوبتي قد صرفت بضعة ايام راكباً . وفي ٢٠ الجاري فتحت ارسس سور اوب فحمل علي العدو وانا فيها في الساعة الثامنة بعد الظهر فكسرتهُ في ذلك الليل وغنمت مدفعين واسترجعت مدفعين وفي اليوم الثاني اصطفت جيوش العدو للقتال لصون مسير جيوشهِ على بريان وبارسور اوب وقد صممت على ان ادنو من المارن ونواحيها لابعدهم عن باريس بالاقتراب من حصوني وفي هذا المساء اكون في سان دفيريه استودعك الله يامحبوبتي . قبلي ولدي

ثم عقدت الدول المتحدة مجلساً اخر حربياً واشتد خوفها من نابوليون حتى ان كثيرين قالوا انهُ من اللازم ان ترجع جيوش تلك الدول الى الرين لمنع جيوش نابوليون عن المانيا وتخليص حامية القلعة المحصورة واشار قوم بان تحمل الجنود على باريس وكان نابوليون في ارسس وكانت جيوش الدول المتحدة في شالون على ضفة المارن التي تبعد عنهُ ثلاثين ميلاً شمالاً وفي ٢٥ اذار ( مارس ) اجتمعت جيوشها وسارت قاصدة الحمل على باريس مالئة جميع طرق وادي المارن وكان نابوليون بعيداً عن باريس نحو مائتي ميل فعلق املهُ بان يخدر قاطعاً وادي السن ويبلغها بسرعة عند وصول جيوشها اليها وصمم على ان يصادمها هناك الصدام الاخير فعندما سمع بانها سائرة بسرعة في طريق باريس قال انني ساسعفها قبلها وما من شيء يخلصنا غير صاعقة منحدرة من السماء فامر في الحال بمسير الجيش وصرف الليل كلهُ في مخدعهِ يفحص الرسوم وقال كولانكور ان هذه ليلة اخرى صرفها بالعذاب والكدر فانهُ لم يفه بكلمة واحدة وكان يتنهد تنهداً شديداً حيناً بعد حين حتى تراى لنا انهُ امسى لا يتنفس ومن ياترى يدرك الالام التي قاساها وكان اخوهُ قائد باريس فارسل رسولاً بعد رسول متوسلاً اليهِ ان يهيج الاهالي ويسلح الطلبة وان يدافع

عن المدينة الى ان يبلغها وقال له لا ريب في انك اذا اوقفت الاعداء عن دخول باريس يومين على الاكثر ابلغ القاعدة والزم الدول بان تقبل شروطاً عادلة واذا بلغ العدو باريس بقوة تجعل كل دفاع غير نافع . ارسل الى جهة اللوار الامبراطورة وابني وعظماء الدولة والوزراء وارباب الخطط ولا تترك ابني واعلم انني افضل ان اراهُ مطروحاً في نهر السين على ان اراهُ عند اعداء فرنسا وقد تقرر في عقلي ان ما صادفهُ اسينا كس اسير البرنان هو اردأ شيء تقرر في التاريخ

وكان نابوليون ابعد عن باريس من جيوش الدول اربعة ايام وكانت جيوشها وعددها ثلثمائة الف منحدرة بسرعة لتقطع وادي المارن وجيش نابوليون المتعب بالحرب اللابس الثياب الممزقة والاحذية البالية يسير بسرعة منحدراً في وادي السن المقابلة لوادي المارن وعددهُ ٣٠ الفاً فقط وكان يلتزم ان يقطع الطرق الردية الكثيرة الوحول بارجل مجرحة . على ان الجنود كانوا لا يزالون يحبون نابوليون حباً غير معتدل فالقى الحمية والصبر فيهم بالمسير في وسطهم ماشياً يشاركهم في مخاطرهم واتعابهم ورموا بكل شيء كان يعيق مسيرهم وكانوا يقطعون نحو خمسين ميلاً كل يوم وقبل ان خرج من ارسس حركتهُ الشفقة الى ارسال الفي فرنك من مالهِ الى راهبات الاحسان ليطببن الجرحى والمرضى وفي ٢٩ من هذا الشهر عند نصف الليل وصل الجيش الفرنسوي الى تروينر وعند الفجر من الغد سار نابوليون في مقدمة حرسهِ وبعد ان قطع ١٥ ميلاً فرغ صبرهُ فوجد عجلة فركبها وسار بسرعة الى سن ودخلها في ليلة باردة مظلمة فجمع اعضاء الحكومة المحلية فيها وامرهم بان يهيئوا طعاماً وشراباً للجيش القادم ثم ركب فرساً وسار ركضاً في ليل طويل مظلم في طريق فونتينا بلو

وكان في اثناء ذلك تجرى امور مخيفة في باريس . فان جيش الدول المتحدة وصل الى مكان يبعد مسافة رمية كلة عنها وصادمهم موريه ومارمون صداماً ثابتاً قليل الجدوى . فلما فرغت ذخائرها وبات جيشها متعباً جداً وقد هلك كثيرون منهُ تقهقروا الى شوارع المدينة . اما الجنرال مارمون فكان سالاً سيفهُ المكسور ينازع الحاملين فتراً بعد فتر في ضواحي باريس وقد خرق الرصاص برنيطتهُ واثوابهُ وسود وجههُ بدخان البارود . وتمكن من ان يصد خمسة وخمسين الفاً من الاعداء ١٢ ساعة بثمانية الاف من المشاة وثمانمائة فارس . واشتد القتال جداً حتى ان جيوش الدول خسرت فيهِ ١٤ الف رجل بين قتيل وجريح واسير . اما الامبراطورة ورؤساء الدولة ونساؤها ففروا الى بلوا . اما ولدها الجميل فكان قد اخذ الحمية عن والده الكريم فتعلق بستارات نوافذ مخدعهِ ممتنعاً عن الخروج قائلاً انهم يخونون ابي فلا اذهب ولم يرَ والدهُ بعد ذلك . ثم قال انني لا اخرج من القصر فلا اتركهُ فاذا غاب ابي افلا يكون لي التسلط هنا . ولولا نفوذ كلمة مربيتهِ الحاذقة ما دام مونتسكيو لما قبل بان يخرج بعد ان وعدتهُ قطعياً بانهُ سيعود



بعد برهة قصيرة . وحمل الى العجلة والدموع ظاهرة في عينيهِ . اما ماريا لويز الامبراطورة فكانت مستكنة غير ان الخوف بدل احمرار وجهها بالاصفرار فخرجت وهي تسمع صوت المدافع البعيدة المعلنة اقتراب ابيها في سبيلهِ الدموي

فوضعت الدول المتحدة مدافعها على مونمارتر وعلى تلال اخرى مشرفة على باريس واطلقت المدافع فكانت تتساقط كلها بكثرة في شوارع باريس ولما راى جوزف شقيق نابوليون ان الدفاع لا يجدي نفعاً امر بتسليم المدينة . فبعث مورتيه وهو في مكان كثر اطلاق الرصاص عليهِ الى القائد اشوارتزمبرغ رسالة كتبها على طبل وهذه ترجمتها

يا ايها البرنس . فلنمتنع عن اراقة الدم سدى انني اطلب ان يصير الانقطاع عن القتال ٢٤ ساعة لنتخابر في اثنائها لتخلص باريس من ويلات الحصر والا فندافع عن انفسنا ونحن ضمن اسوارها الى ان نهلك انتهت

وقال الدوق دي روفيغو لوثبنت باريس في الصدام يومين لدخلها جيش نابوليون وكل انسان يعرف حذقهُ في ادارة الامور . ولو دخلها لما امتنع عن فتح مخازن الاسلحة والذخائر للاهالي ووجودهُ بين الاهالي يهيج فيهم الحمية ولا ريب في ان باريس بمناظرتهِ تفعل ما فعلت ساراغوسا

وكان المارشال مارمون يحارب بلوشار فبعث اليهِ برسالة كرسالة مورتيه طالباً عقد هدنة غير ان الكلل والرصاص كانت كالبرد والارتباك عظيماً حتى ان سبعة فرسان من الذين حملوا راية المهادنة وحاولوا بلوغ صفوف الاعداء بالرسالة قتلوا هم وافراسهم بالتتابع . وفي اثناء ذلك رجع مارمون رجوعاً بسيطاً وقد جرحت يدهُ جرحاً بليغاً وتكسرت ذراعهُ برصاصة بعد ان قتل خمسة افراس تحتهُ

وكان نابوليون يسير سريعاً في ظلام الليل وكان الملوك المتحدون يهنيء بعضهم البعض الاخر بهذا الفوز العظيم الغريب ولم يدخل نابوليون فونتينابلو لئلا يصادف اقواماً من الجيش فيها وكان البرد شديداً جداً فلم يلاق احداً في الطريق يخبرهُ عما جرى في باريس وكان يرى نيران اعدائهِ في الافق البعيد ودخل قرية لاكور نصف الليل وراى في الظلام على الطريق الواسعة اقواماً من الجنود الفرنسويين يسيرون الى جهة فونتينابلو فدخل بينهم وقال بتعجب ما هذا لماذا لا يسير هولاء الجنود الى باريس

وكان الجنرال بليارد من اصدق جنود نابوليون فعرف صوتهُ ففتح باباً وتقدم منهُ وقال لقد سلمت باريس وسيدخلها العدو غداً بعد طلوع الشمس بساعتين فهولاء العساكر هم بقايا جيش مارمون ومورتيه متقهقرين الى فونتينابلو لينضموا الى جيش الامبراطور في تروبز . فوقع هذا الخبر على الامبراطور كانهُ صاعقة وصمت الجميع برهة وانسكب عرق بارد من جبهتهِ من شدة المهِ

وتضايقو ثم اخذ يمشي بسرعة على بلاط مستوٍ امام المنزل وكان يقف برهة ثم يسير الى جهة ثم الى اخرى فان هذه المصيبة حيرتهُ ثم اخذ يسال سوالات بسرعة بدون ان ينتظر جوابًا قائلاً اين زوجتي اين ابني اين جيشي ماذا اصاب الحرس الوطني الباريسي كيف لم يحاربوا كما وعدوا تحت اسوارها الى ان ينقطعوا عن اخرهم واين المارشال مورتيه والمارشال مارمون ثم صمت لحظة وقال بفروغ صبر لا يزال الليل لي فالعدو لا يدخل الا في الصباح هاتوا عجلتي هاتوا عجلتي فلنذهب هذه الدقيقة فلنذهب قبل بلوشار واشوارتزنبرغ وليتعين بليارد للفرسان وللحارب في شوارع باريس فان وجودي واسمي وشجاعة جنودي ولزوم اتباعي وملاقاة الموت تنهض حمية باريس والجيش الذي يتبعني يصل في وسط القتال ويحمل على موخرة العدو حال كوننا نحاربهُ من امام فهيا بنا نذهب فان النجاح ربما كان ينتظرني في نهاية مصائبي

وعند ذلك قال لهُ الجنرال بليارد تقرر في شروط التسليم ان يرجع جيش باريس الى فونتينابلو ثم صمت برهة وقال كيف سلموا القاعدة الى العدو انهم جبناء وجوزف ركن ايضًا الى الفرار وهو شقيقي بعينهِ . وهكذا قد سلموا وخانوا شقيقهم ووطنهم وامبراطورهم واذلوا فرنسا عند اوربا كيف يدخلون قاعدة فيها ثمانمائة الف نفس بدون اطلاق بندقية . ان هذا مخيف ماذا صنعوا بالمدافع حال كونهِ ينبغي ان يكون عندهم مائتي مدفع وذخائر تكفيهم شهرًا ومع ذلك لم يكن عندهم غير صف من المدافع وامست مخازن الذخائر في مونمارتر فارغة فاذا كنت غائبًا فلا يفعلون الى ما يأول الى جر خطإٍ فوق خطإٍ

ثم جاء ضباط بالتتابع واحاطوا بهِ بكدر واخذ يسالهم فسكن روعهُ عندما سمع تفصيلات الخسائر التي لا تعوض ثم انفرد بكولانكور وقال لهُ اركب واذهب بسرعة الى اركان حرب الدول المتحدة لترى هل اقدر ان اتداخل في المعاهدة التي هي بدون توقيعي وربما كانت مضادة لي فافوضكم تفويضًا مطلقًا . لا تضع لحظة وانتظر رجوعك هنا . فركب وسار . ثم دخل الامبراطور المنزل ووراءهُ بليارد وبرتيه

فوصل كولانكور بسرعة الى طليعة جيش العدو وعرّف الحراس باسمهِ وطلب ان يسمح لهُ بالمرور غير ان الحراس منعوهُ وبعد ان غاب ساعتين عاد الى الامبراطور فتحدثا بضع دقائق وكان نابوليون مسنكًا غير انهُ كان غائصًا في بحر من التامل وكان كولانكور يبكي بكاء شديدًا فقال لهُ يا محبوبي كولانكور اذهب وقابل الامبراطور اسكندر فانت مطلق وليس لي امل الا بك ومدّ يدهُ يجب الى صديقهِ الامين فقبلها بحرارة وقال يا مولاي اني ذاهب وسادخل باريس حيًا او ميتًا لاكلم الامبراطور اسكندر الروسي . وبعد ذلك بسنين كثيرة ذكر كولانكور هذه الحوادث فقال لقد سخن راسي وامسيت كالمصاب بالحمى فاذا عشت مائة سنة لا انساها فانها لا تنفك عن ان تكون



نصب عيني في كل حين خاصة عندما يهجر النوم عيني فراحة القبر تحلو لي بعد احتمال عذابات كالتي احتملتها

وبعد نصف الليل ركب كولانكور وسار مسرعًا في ظلام الليل الحالك قاصدًا باريس سالكًا طريقًا غير الطريق التي سلكها في بادىء الامر . وركب نابوليون فرسهُ وسار صامتًا حزينًا الى فونتينابلو وسار معهُ ضباط مكدرون متعبون . وبعد نصف الليل باربع ساعات وصل الى ذلك المكان وكان قصر ملوك فرنسا القدماء وكان متيقنًا انهُ سقط فكان يكره كل ما يدل على عظمة الملكية فمرّ بالقاعات الملكية التي زينت بمجدهِ ولا يزال السياح ياتونها ليروا الاماكن التي كان فيها ولم يدخلها بل دخل حجرة صغيرة . وكانت ذات نافذة تطل على حديقة صغيرة فيها اشجار وكانت تشبه باشجارها ومنظرها مقابر وطنهِ الخصوصي فالقى نفسهُ على مقعد فيها واخذ قلمهُ يضرب ضربات ناشئة عن الم شديد ربما كان لم يشعر انسان باشد منهُ غير انهُ كان في ويلهِ صامتًا ساكتًا . فالجنود التي تبعتهُ من تروبزو والتي رجعت من باريس بلغت ذلك المكان ونزلت حولهُ وكان عددها نحو خمسين الفًا . وكانت تحب الامبراطور حبًا لا مزيد عليهِ خاصة عندما بانت في تلك البلايا حتى انها طلبت بالحاح ان يحمل بها على ثلثمائة الف جندي من جنود الدول المتحدة التي كانت تسير بافتخار الى باريس

## الفصل الثامن والخمسون

### دخول باريس وغير ذلك

وفي اول نيسان (افريل) سنة ١٨١٤ كان نابوليون يسير قبل الفجر الى جهة فونتينابلو بحزن وكدر وكولانكور صديقهُ الامين كان يسير مسرعًا الى باريس . وكان يرى في الظلام الحالك نيران جيوش الاعداء المضرمة على شكل نصف دائرة حول المدينة وكان يستنير بها . وسار في طريق ازدحمت فيها اقدام الضباط والجنود والمهاجرين الذين كانوا يهربون من امام وجه الجيش الفاتح وكثيرًا ما كان يعرف فيجتمع الرجال حولهُ ويسالونهُ عن الاحوال باضطراب وكدر وكانوا يقولون لهُ اين الامبراطور اننا قاتلنا عنهُ الى ان خيم الظلام فان كان في قيد الحياة فليظهر وليصدر اوامرهُ فليرجع بنا الى باريس اذ لا نسمح للعدو بان يدخلها ما لم يدس جثة الجندي الفرنسوي الاخير واذا كان قد مات فاخبرنا واذهب بنا الى قتال العدو لننتقم لهُ من اعدائهِ . وكانت الحمية الشديدة تختلج في صدور كل الجنود وكانوا هم الشعب فان حروب اعداء فرنسا المتتابعة اهلكت كل جيوشها فجمعت الرجال من جميع قرى الامبراطورية وكان الابطال الذين اصبح القتال مهنة لهم وانتصروا في معارك مارنجو واسترليتز وفردلاند قد هلكوا تحت ثلوج روسيا او في مذابح ليبسك المخيفة . فاصبح الفتيان الذين احاطوا بالامبراطور بعد تلك الحوادث من رجال الاعمال الذين

جمعوا من الدكاكين والحقول وقاعات فرنسا . وكانوا يحبون نابوليون لانهم تربوا على محبتهِ وهم في احضان والديهم . وكان اولئك الرجال الذين كانوا يتبعون نابوليون صديق الشعب متعبين منهكين مجرحين لابسين ثيابًا ممزقة واحذية بالية جالسين في جانب الطرقات او سالكين بضعف وتعب في الوحول يتمنون ان يلاقوا امبراطورهم المحبوب جدًّا عندهم وكانوا يسمعون من كولانكور ان الامبراطور لا يزال في قيد الحياة وانهُ ينتظرهم في فونتينابلو فيضجون قائلين فليعش الامبراطور ويسيرون مسرعين قاصدين الانضمام اليهِ . وقد صدق الكولونل نايبار المورخ بما قال من ان العساكر كانت تعبدهُ كما يعبد الوثني وثنهُ . واذا قلنا ان حبهم لهُ ابتدأ عند انتظامهم في سلك العسكرية نكون قد اعترفنا بان سجاياهُ وتعقلهُ العظيم كانت تحول الكره الى حب بمجرد الاقتراب منهُ ومن المقرر ان شعب فرنسا لم يكره نابوليون فان ذلك الشعب جعلهُ امبراطورًا واحبهُ حبًّا لم يتمتع ملك بمثلهِ

وحين اقترب كولانكور من المدينة وجدها محاطة بمعسكر الدول المتحدة وكان يصدُّ عن كل مكان اقترب منهُ . فانهُ أُمر بان لا يسمح لرسول من رسل نابوليون بالاقتراب من اركان حرب الدول . وفي النهاية اصبح الصباح وضجت عساكر الاعداء ضجة الفرح والسرور . وكانت مغطية كل التلال ودخل باريس ثلثمائة الف من الجنود . وهم طليعة مليون ومدافع الفوز تطلق ورايات النصر تخفق والموسيقات العسكرية تصدح فدخلوا شوارع باريس اللابسة اثواب الذل اما اهاليها فكانوا ينظرون اليهم بصمت وكدر وانكسار وراوا الامراء البوربون تحت حماية سلاح الاجانب راجعين الى الملك الذي كانوا قد طردوهم منهُ وافرغ حزب الملكية جهدهُ في سبيل القيام بما يستدل منهُ على فرحهم فكان اعوان الملوك القدماء يضجون قائلين فليعش الملك . وكانت زوجات المتحزبين للبوربون وبناتهم يجلسن في الشوارع في عجلات مفتوحة يتبسمن للناس ويلحن برايات بيضاء . وقال رشفوكور كان صمت الناس يدل على كدرهم فان الاهالي كانوا يشاهدون سقوط فرنسا واذلال نابوليون

وفي الليل انتشرت جنود الدول التي لا تحصى مجموعة من امم ولغات مختلفة في شوارع باريس وحدائقها . وكان القوزاق الذين كانت مناظرهم كمناظر الذئاب معسكرين في حقول اليزيا يضرمون النيران ويرقصون حولها بحسب عاداتهم البربرية

وكان اسكندر امبراطور روسيا منفردًا بين الملوك المتحدين باظهار الميل الى نابوليون لانهُ كان يعلم انهُ ذو صفات ليس لهُ مثيل وغايات يفتخر بها وكان جميع الملوك يرومون ان يدوسوا نابوليون وان يلزموا اهالي فرنسا بالخضوع للبوربون غير انهُ كان يتردد عن موافقتهم على ذلك فانهُ كان يقول انهم لا يخضعون طويلاً لدولة سادت عليهم بالقوة . ومنذ ايام قليلة رايت



جيشًا فرنسويًا مولفًا من ٥ او ٦ الاف جندي جمعوا مجددًا يمكن اعداءهُ من ان يقطعهُ اربًا اربًا مع انهُ كان قادرًا على النجاة بمجرد قولهِ فليعش الملك . فقال لابي دبيرات ان الاحوال تبقى كذلك الى ان يبعد نابوليون وما دام في فرنسا لا ينفك الاهالي عن تعلقهم بهِ وان وضعنا رسنًا في عنقهِ . وهذه العبارة اشارة الى ما فعلهُ البوربون فانهم دخلوا فرنسا محميين من غيظ الامة بسيوف الاجانب ومع ذلك ربطوا مثال نابوليون المقام على عمود فندوم لينزلوه عنهُ . فانزلوا ذلك المثال بايدي حزب صغير على ان الامة ارجعتهُ بعد ذلك وسيبقى في مكانهِ الى الابد

اما الاوباش من حزب الملكية فلم يقدروا حينئذ ان ينزلوا مثال الامبراطور فلما راوا انهم عجزوا عن ان ينزلوه بحبالهم غطوهُ بنسوج ابيض وحجبوهُ عن اعين الناس فسمع نابوليون بذلك فقال قد اصابوا اذانهم حجبوني لئلا ارى دناءتهم اما اسكندر امبراطور روسيا فرغب في ان يصون المثال وجميع الانشآت المقامة لتخليد ذكر نابوليون من التكسير والهدم اصدر امرًا قال فيهِ ان المثال في بلاس فندوم هو تحت حماية كرم اخلاق الامبراطور اسكندر المخصوصة وحماية حلفائهِ

وفي اثناء ذلك اليوم كانت الجيوش الجرارة تدخل باريس وتستولي عليها فالتجأ كولانكور الى بيت فلاح قريب منها وفي المساء انقطعت الضوضاء وخرج من مخباهُ وحاول دخول المدينة على انهُ منع في كل مكان فوقع في يأس وكاد يعود الى فونتينابلو على انهُ صادف في تلك الدقيقة الغراندوق قسطنطين في عجلتهِ فعرفهُ لانهُ كان قد سكن بطرسبرج زمانًا طويلاً سفيرًا فاركبهُ معهُ وقال لهُ بوضوح ان فاليران الذي كان قد هجر نابوليون عند سقوطهِ وانضم الى البوربون قفل ابواب الدول دون كل رسول يأتي من نابوليون فاثر كدر كولانكور وتوسلاتهُ في الغراندوق فاخفاهُ في ثوبهِ ووضع على راسهِ لباسًا روسيًا . وهذا تمكن من ان يجتاز الصفوف على تلك الحال مصحوبًا بحراس من القوزاق ومستترًا بظلام الليل وسارت بهِ العجلة الى قصر الاليزي فطلب الغراندوق اليهِ ان يبقى مستترًا بالثوب ولباس الراس . فانحدر من العجلة واغلق بابها بيدهِ وامر حشمهُ بان لا يسمحوا لاحد بان يقترب منها وحدث ذلك قبل نصف الليل بساعتين وكانت قاعات القصر منارة ببهاء وازدحمت الاقدام فيها وكانت العجلات تاتيهِ وتصدر عنهُ بدون انقطاع وكان صهيل الخيل وكلام سائقي العجلات وضجة الاعداء في الشوارع البعيدة والحدائق لا تشابه في شيء الكدر العظيم والحزن الشديد اللذين كانا يعذبان كولانكور الجالس في تلك العجلة يخدم بامانة مولاهُ الساقط . وكان امبراطور روسيا وملك بروسيا وبرنس اشوارتزنبرغ ونائب امبراطور روسيا مجتمعين في القصر يتفاوضون فمضت ساعة بعد ساعة من ذلك الليل بدون ان يعود الغراندوق الى كولانكور الجالس في المركبة يرى كثيرين من رجال سياسة كل الدول وقوادها ياتون القصر . ويصدرون عنهُ بدون انقطاع . وعند الصباح خرج الغراندوق الى

العجلة وقال لكولانكور انهُ تمكن من ان يحمل الامبراطور على مقابلتهِ خصوصيًا بعد معاناة صعوبات كثيرة فانحدر من العجلة وسار لابسًا الثوب ونبع الغراندوق مارًا بفاعات القصر الزاهية التي ازدحمت فيها اقدام اعداء مولاه وصديقهِ الفرجين . وكان ذا جلال وهيبة ووقار وكان جلالهُ الخالي من التصنع يحمل نفس الملوك الذين بلغوا نهاية القوة البشرية على ان يعتبروهُ فقابلهُ الامبراطور اسكندر بملاطفة في قاعة خصوصية . وكان امبراطور روسيا قد احب نابوليون غير ان امراء دولتهِ كانوا قد الزموهُ بان يجاهروا بعدوانهِ . وكانت قواعد نابوليون السياسية قد اعجبتهُ جدًا حتى انهم بانهُ مصمم على ادخال القواعد الحرة الى روسيا وكانوا يسمونهُ باحتقار الامبراطور الحر فوجد انهُ من اللازم ان ينقاد اليهم ليحافظ على مركزهِ فبادر الى الاتحاد مع الذين عملوا على مقاومة صديقهِ . وعندما خارت الدول لم يظهر احد الملوك شفقة على نابوليون الا ذلك الامبراطور ودخل كولانكور عليهِ وهو وحدهُ ووجدهُ مضطربًا لانهُ كان كريم الاخلاق طبعًا وكان يروم ان يثبت اصابة تصرفاتهِ . وكان كولانكور يحب اسكندر حبًا شديدًا حتى ان نابوليون اتهمهُ بها وكان نابوليون يمازح كولانكور احيانًا ويسميهِ الروسي على ان كولانكور كان يتكدر قليلاً من ذلك مع انهُ كان متيقنًا ان نابوليون لا يرتاب في صداقتهِ وامانتهِ

وعند ما اجتمع الامبراطور بهِ امسك يدي كولانكور بيديهِ بحب وقال لهُ يا كولانكور العزيز انني اشترك معك بالحاسيات كل الاشتراك فاتكل عليَّ كما اتكل على شقيق . فاذا اقدر ان افعل لاساعدك . فاجابهُ انني لا اطلب اليك ان تفعل شيئًا لاجلي على انني اطلب اليك ان تفعل كل شيء للامبراطور

فقال الامبراطور اسكندر هذا ما خشيتهُ فانهُ يدعوني الى التمنع عن اجراء ما طلب والى تكديرك لانني لا اقدر ان انفع نابوليون بشيء فانني مقيد بمعاهدة الدول المتحدة عليهِ . فقال كولانكور لا ريب في ان ارادة جلالتك تكون ذات نفوذ عظيم واذا تداخلت النمسا بتسوية الامر بعقد صلح ينشأ عنهُ راحة عظيمة . ومن المؤكد ان امبراطور النمسا لا يرغب في ان يخلع ابنتهُ وحفيدهُ عن العرش . فقال الامبراطور لهُ يا كولانكور العزيز ان النمسا لا ترضى بان نابوليون يبقى مالكًا . وامبراطور النمسا يرضى بان يضحي جميع ما يتعلق قلبهُ بهِ شخصيًا حبًا براحة اوربا . فالدول المتحدة قد صممت كل التصميم على ان تتخلص من الامبراطور نابوليون وما من نفع في محاولة تغيير هذا التصميم . فلما سمع كولانكور هذا الكلام شعر بان صاعقة سقطت على راسهِ فانهُ لم يخطر ببالهِ ان الدول المتحدة تتوصل الى خلع نابوليون . فتضايق جدًا وراى المصائب العظيمة التي كانت تحدق بالامبراطور . وراى انهُ لا ينبغي ان يضيع لحظة واحدة فان كل شيء يبلغ تسوية نهائية في ساعات قليلة فصمت لحظة وقال فليكن كذلك غير انهُ ليس من العدل ان تعامل



الامبراطورة وملك رومية ابن نابوليون هذه المعاملة . ولا ريب في ان الدول المتحدة لا تخاف ابن نابوليون فاقيموا لهُ وكالة . فعارضهُ الامبراطور اسكندر في الحديث وقال لهُ لقد خطر ذلك ببالنا ولكن ماذا ينبغي ان نعمل بالامبراطور نابوليون يا ترى فلا ريب ان الضرورة تحملهُ على الخضوع برهة غير ان المطامع التي لا تستكن تحرك همتهُ فتمني اوربا في لهيب . فقال كولانكور قد فهمت انهُ قد صار التصميم على اسقاط الامبراطور . فقال اسكندر بحمية من هو المسبب يا ترى الم اقم بكل ما يتيسر القيام بهِ لمنع وقوع هذه المصائب . فانني قلت للامبراطور بخلوص النية الذي لا تصادق عليهِ الحكمة ان الدول قد ضجرت من الاهانات التي لحقت بها ولذلك قد شرعت في عقد محالفات لمضادة سلطنتك وتلك المحالفة ليست بمفترقة الا الى امضاء واحد وهو امضاءي . فاجابني باشهار الحرب عليَّ . ومع ذلك ليس في قلبي اقل كره لهُ ويا حبذا لو كانت معاملتهُ متوقفة عليَّ دون غيري . فقال كولانكور يا افضل الملوك واعزهم كرامة لقد تيقنت انني لا اتوسل اليك باطلاً بان تساعد رجلاً عظيمًا كذلك الرجل وهو واقع في المصائب . فيا مولاي كن محاميًا عنهُ . ان هذا العمل الناشي عن الكرامة يليق بك . فاجاب الامبراطور اسكندر انني ارغب في ذلك فاقول لك حالفًا بشرفي انني ارغب فيهِ . على انني لا اقدر ان انجح . فان حزبًا قويًا جدًا يرغب في ارجاع البوربون . واذا ملكوا فرنسا فلا تتجدد الحرب . على اننا لا نروم ان نلزم فرنسا بقبولهم وما صرحت بهِ يمكن فرنسا من الحرية التامة لاختيار ملك . وقد قيل لي بتاكيد ان الامة الفرنسوية ترغب في ارجاع البوربون فالراي العام يدعوهم الى العود الى الملك . فاجاب كولانكور يا مولاي قد اخبروك بغير الواقع فانهُ ليس للبوربون حزب في فرنسا فالاهالي لا يحبونهم والزمان قد قرر قواعد الثورة والرجال الكثودون الذين يرومون ان يتخلصوا من الامبراطور ليسوا بالامة . فاذا كانت الدول المتحدة تروم ان تعتبر حقوق فرنسا فعليها ان تقوم بانتخاب لتقف على راي الاكثرية . فلتفتح دفاتر الانتخاب في جميع المجالس البلدية وعند ذلك ترى الدول هل تفضل الامة البوربون على الامبراطور . فاثر هذا الكلام في الامبراطور اسكندر فصرف نحو ربع ساعة يتمشى في المخدع غائصًا في بحر من التفكر ولم يفه كولانكور بكلمة اثناء ذلك . ثم التفت الى كولانكور وقال يا عزيزي ان كلامك قد اثر فيَّ فربما كان الاوفق اتباع رايك على ان ذلك لا يتم الا بزمان طويل والاحوال تلزمنا بان نسرع في العمل ويلح علينا بان نضع قرارًا لهذه الامور . انني معذب بالالحاح . وفضلاً عن ذلك قد انشانا حكومة موقتة وهي قوة صحيحة قد احاطت المطامع بها . والمشروعات التي اقيم بها للاتيان بالاحوال الجارية قد صار الابتداء بها منذ زمان طويل . فالملوك المتحدون يحاط بهم على الدوام ويسمعون توسلات والحاحات وتمليقات وما ذلك الا ليقرروا البوربون . وهم جميعًا يرومون ان ينتقموا لانهم احتملوا اضرارًا عظيمة شخصية . وغياب امبراطور النمسا مضر

جداً . فاذا حاولت القيام بما ينفع ابن نابوليون اسى منفرداً بذلك فانهُ ما من دولة تجاريني على ذلك . ثم امسك يدهُ بحنو وقال لهُ بلطف يا عزيزي كولانكور انهُ يحق لهم بان يحملوني على ان اعدهم بعدم مقابلتك . فان حرارة قلبك التي تجعلك في ضيق تسري كالمرض المعدي . لانك قد حركت كل عناصر الحب وكرامة الاخلاق فيَّ . سافرغ جهدي في اجراء ما تروم . ونهار غد اطلب ان تعين وكالة ليبقى الملك لابن نابوليون وغير هذا لا يمكن ان يجرى فلا تخدع نفسك ولا تعلق الامل

وجرى هذا الحديث بعد نصف الليل باربع ساعات وذلك في المخدع الذي كان نابوليون ينام فيهِ عند ما كان يسكن قصر الايزه وكانت تودي الى مخدع اخر صغير حيث مكتبة الامبراطور نابوليون . فدخل الامبراطور اسكندر بكولانكور الى هذا المخدع ليخلو بهِ فيهِ والقى كولانكور بنفسهِ على مقعد فيها من شدة التعب ونام بضع ساعات وحلم احلاماً مخيفة واستيقظ قبل الظهر باربع ساعات وسمع صوت قوم يدخلون مخدع الامبراطور ويخرجون منهُ فتقدم من نافذة ونظر الى الحديقة فراها ملآنة بجنود الاعداء وكذلك فسحات المدينة فكدرهُ هذا المنظر جداً فرجع الى المقعد وهو يكاد يجن من فرط الكدر . وكان هذا المخدع في الحالة التي تركها الامبراطور عليها . وكانت المائدة مغطاة برسوم روسيا وتدبيرات وكتابات غير تامة . فرتب الكتب والرسوم باعتناء ومزق الكتابات كلها وطرحها في رماد مكان النار . وقال في نفسهِ ربما كان الذين يسكنون هذا القصر يجدون ما يجعلونهُ موضوعاً للاستهزاء

وبعد الظهر بساعة دخل الكراندوق قسطنطين المخدع الذي كان كولانكور فيهِ وقال لهُ ان الامبراطور يسلم عليك ولم يقدر ان يراك قبل ان خرج من القصر على اننا سنتناول الطعام معاً وقد امرت الخدم بان يهيئوا الطعام في مخدع اسكندر وسنبقى منفردين هناك ونحاول صرف الزمان الى ان يعود . وبعد ان تناولا الطعام عاد كولانكور مع الكراندوق الى المخدع الذي كانا فيهِ وصرف النهار مختبياً . وبعد الظهر بست ساعات عاد الامبراطور وقال لهُ يا كولانكور العزيز انني جعلت نفسي كرجل سياسي متوسط اكراماً لك . وتحصنت في اراء مهمة منعتنا عن ان نقرر بدون تروٍّ كافٍ امراً مهماً كاختيار ملك لفرنسا . وبعد ان رايت انني قد استامنت من ذلك رجعت الى مسالة الوكالة . فارجع بسرعة الى الامبراطور نابوليون واخبرهُ عن كل ما جرى هنا وارجع حالاً بالسرعة الممكنة حاملاً تنحي نابوليون عن الملك بشرط تحويلهِ الى ابنهِ . فقال كولانكر ياسيدي ماذا تفعلون بالنظر الى شخص الامبراطور . فاجاب المامول انك تعرف قواعدي بحيث تتاكد انني لا اسمح بوقوع الاهانة عليهِ . فمهما كان القرار لابد من ان يصادف الامبراطور نابوليون معاملة حسنة . فارجع الى فونتينابول بالسرعة الممكنة وعندي ما يحملني على الالحاح بذلك



وكان الظلام قد خيم على الشوارع وانحدر الكراندوق قسطنطين على السلم ليهيء اسباب ذهاب كولانكور لانهُ كان لا بد لهُ من ان يخرج من المدينة متخفياً كما دخلها . ثم عاد الى كولانكور وذهب بهِ وهو ملتف بعباءتهِ مستتر بظلام الليل وسار امامهُ ماشياً في حديقة الايزه الملتفة الاشجار الى ان بلغ حول الايزه حيث وجد مركبة تنتظرهُ . فودعهُ بعد ان قال لهُ يا ايها الكراندوق انني قد رايت ما لا ينسيني اياه طول الزمان ولا تقلبات الدهر فالخدمة التي قمت بها هي خدمة تقيد الرجل الكريم الى الموت . فتصرف كما تشاء في كل مكان وحال بشخصي ومالي وحياتي . وقد قال كولانكور في كتاباتهِ ان الذين لم يقفوا على حقيقة الامور قد وقع كره امبراطور روسيا في قلبهم بدون عدل يتهموني بالتغرض لاسكندر وعائلتهِ . على انني انكلم الحق بخلوص ومن الواجب عليَّ ان اعدل في الكلام . فالادنياء هم الذين ينكرون فضل الذين يتفضلون عليهم وينفعونهم . وكنت بعيداً عن الامبراطور ١٨ فرسخاً غير انني قطعتها بخمس ساعات . وكنت كلما اقترب من فونتينابلو اشعر بضعف همتي فما من مامورية اصعب من المامورية التي كنت اقوم بها . وكنت قد اقمت بما ضايقني كل المضايقة واحزنني اشد الحزن واحتملت كل ما يقدر الانسان المحافظ على كرامتهِ وناموسهِ ان يحتملهُ . على ان المامورية التي تبعت تلك جعلت قلبي يقطر دماً لانني كنت عالماً بان خبري يضايق الامبراطور نابوليون الذي كان يشتد حبي لهُ بتعاظم المصائب المحدقة بهِ

وعند نصف الليل اقترب كولانكور من فونتينابلو وراى ضواحيها ملآنة جيوشاً يطلبون القتال بفروغ صبر وامتلأت غابة فونتينابلو وكل الاماكن المجاورة منارة بنيران خمسين الفاً من الجنود الذين كانوا في هياج شديد يطلبون القتال بتذمر . وعند اقتراب كولانكور من باب القصر عرفهُ الجنود وكانوا متيقنين انهُ صديق الامبراطور الثابت فحيوهُ صارخين فليعش الامبراطور وارتفعت هذه الضجة من صف الى صف الى ان عمت كل الصفوف . فدخل المخدع الصغير الذي قد ذكرنا دخول الامبراطور اليهِ . وكان الامبراطور وحدهُ جالساً عند مائدة يكتب . وقد قال كولانكور رايتهُ بعد ان فارقتهُ برهة قصيرة كانني فارقتهُ مذ عشر سنوات . ورايت في شفتيهِ ما دل على شدة الامهِ وعذابهِ . فقالوا لهُ ماذا فعلت هل رايت امبراطور روسيا ماذا قال . ثم تغلب الحزن على كولانكور برهة فلم يقدر ان يتكلم فامسك نابوليون بيدهِ وشد عليها قائلاً يا كولانكور تكلم . فانني مستعد لملاقاة كل شيء . فقال كولانكور يامولاي لقد قابلت الامبراطور اسكندر وصرفت ٢٤ ساعة مختلياً في مخدعهِ وهو ليس بعدوك ولا يعضدك الان . فهز نابوليون راسهُ علامة لارتيابهِ في ذلك على انهُ قال ماذا يروم يا ترى ما هي تصميمات الدول . فاجاب كولانكور بصوت جعلهُ لشدة كدرهِ ضعيفاً حتى كاد يكون كلامهُ غير مفهوم يا سيدي انهُ يطلب ان نقوم بضحايا عظيمة فانهُ يطلب

ان تسلم تاجك الى ابنك . فصمت برهة ثم قال الامبراطور بصوت موثر جدًا المقصود انها لا تروم ان تخابرني وترغب في ان تطردني من عرشي الذي نلتهُ بسيفي وفي ان تجعلني كهلوت موضوع تاديب وعبرة للذين يتسلطون على الرجال بمجرد الحذق والامتياز بالمعارف ويجعلون الملوك الذين يرثون تيجانهم يرتجفون وهم على عروشهم المؤسسة . وانت يا كولانكور اخترت لتحمل اليَّ هذا الخبر . ثم تمشى الامبراطور دقيقة في المخدع باضطراب عظيم ثم القى بنفسهِ على مقعد لان التعب كان قد انهكهُ وغطى وجههُ بيدهِ . وبعد ان صمتنا برهة قصيرة نهض والتفت الى كولانكور وقال لهُ الا تجاسر على ان تتمم الحديث فاسمعنا ماذا رغب اسكندرك في ان يجعلك واسطة لتبليغي اياه . فتكدر كولانكور جدًا من هذه العبارة التوبيخية الخالية من اللطف وقال يامولاي ان جلالتك بدون رحمة فان الضربة التي تشعر بها الان قد جرحت قلبي قبل ان وقعت عليك . وقد احتملت هذا العذاب ٤٨ ساعة فتغلب كولانكور على نابوليون بهذا الكلام فوضع يدهُ على جبههِ المتقدة وقال بصوت لطيف دل على حبهِ انني استحق الملام يا كولانكور يا صديقي انني استحق اللوم . وفي بعض الساعات اشعر بان دماغي يخفق في راسي فان مصائب كثيرة وقعت عليَّ وقعة واحدة . وجسمي ذو القوة العجيبة الذي كان يحتمل اعمالي في المعارك والمخاطر قد ضعف تحت ضربات البلايا الهاجمة عليَّ . فيا كولانكور انني لا ارتاب في صداقتك وامانتك . وربما كنت انت وحدك الذي احق الركون اليهِ من جميع الذين يحيطون بي . ولا ارى امانة الا عند جنودي المساكين ودليل امانتهم ما يظهر في اعينهم من لوائح الحزن . ولما كنت بعيدًا ظننت انني اختبرت الرجال غير انني لم اختبرهم الا في المصائب ثم صمت الامبراطور ونفرس في الارض وصمت متفكرًا . وكان الحزن والتعب والكدر قد تغلب على كولانكور فلم يقدر ان يجيب بشيء وبعد ان صمت برهة قال يامولاي اسالك ان تسمح لي بقليل من الراحة فتعبي لا اقدر ان اصفهُ . ولا بد من ان تقف على حقيقة صعوبات مركزك قبل ان تعول على عمل . وارى انني لا اقدر الان ان ابين لك تفصيلات تلك الصعوبات تبيينًا موافقًا لاهمية الامر . فقال الامبراطور لقد اصبت اذهب وارتح وقد خال لي شيء ما يكون موضوعًا لمفاوضتنا وينبغي ان استعد لملاقاة العواقب . فاذهب واسترح برهة وسادعوك اليَّ الساعة العاشرة

وفي تلك الساعة دخل كولانكور مخدع الامبراطور فقال لهُ الامبراطور بصوت ثابت منخفض وسكون يا كولانكور اجلس واخبرني بمطالب الدول وماذا تروم ان تاخذ منا فاخبرهُ كولانكور بكل ما جرى وهو عند الامبراطور . وعند ما ذكر مفاوضتهما بشان ارجاع البوربون الى ملكية فرنسا نهض من كرسيهِ باضطراب واخذ يمشي في المخدع بسرعة وقال ان الدول قد بليت بالجنون كيف يرجعون البوربون فانهم لا يقدرون ان يثبتوا في فرنسا سنة فانهم مكروهون جدًا عند الامة الفرنسوية



وماذا يفعلون بالجيش فان جيشي لا يرضى قط بان يكون جيشًا لهم . ومن الحماقة ان يدخل ببالهم ان يحولوا الامبراطورية الى ملكية . هل يبرح من بال الامة ان البوربون عاشوا عشرين سنة باحسانات اجانب يحاربون فرنسا وصوالحها وقواعدها . البوربون جنون محض بل يبين ان الدول تروم ان توقع البلاد في جميع انواع المصائب . ثم اخبرهُ كولانكور بالوسائل والحيل التي تستخدم لارجاعهم . فقال لهُ ان مجلس الاعيان لا يقدر ان يقبل بان يرى بوربونيًا مسوليًا على تخت فرنسا فاذا صرفنا النظر عن الدناءة التي تنشا عن القبول بذلك فاي مكان ياترى يكون لمجلس الاعيان في بلاط جدودهم ابائهم لويس السادس عشر منهُ وذهبوا بهِ الى المذبحة . اما انا فكنت رجلاً جديدًا غير ملطخ باثام الثورة الفرنسوية . ولم اكن عاملاً على الانتقام لعدم وجود اسباب تسوقني اليهِ . ولو لم اكن مكللاً باكاليل الفوز لما تجاسرت ان استوي على عرش فرنسا الفارغ والامة الفرنسوية رفعت درجتي لانني اقمت معها باعمال عظيمة مفيدة وكان قيامي بها لاجلها . فماذا ياترى فعل البوربون لنفع فرنسا . ماذا ينسب اليهم ياترى من انتصارات فرنسا ومجدها ونجاحها وماذا يقدرون ان يفعلوا ليرقوا اسباب صوالح الشعب واستقلالهِ . فاذا ارجعوا بسيوف الاجانب يبقون ملتزمين بان يسلموا لهم بجميع مطالبهم وان يجثوا امام ساداتهم . فربما كان يصير استغنام سنوح الفرصة الناشئة عن الحالة التي باتت القاعدة بها بالنظر الى حلول الاجانب فيها وتنفذ قوة القوي في سبيل الاضرار بي ويقابلني غير ان اراحة البوربون في باريس من المحال ولا تنس هذا الكلام المشابه للنبوة . وبعد ان سكت برهة قال بسكون فلنرجع الى موضوع المفاوضة . وقد صار الاصرار على اعتزالي عن الملك وبهذا الشرط تكون الوكالة بيد الامبراطورة ويتصل التاج بابني ولا اعلم هل يحق لي ان اعتزل عن السلطة ما لم ينقطع كل امل . وعندي خمسون الف رجل ولا يزال جنودي الباسلون يعترفون بانني امبراطورهم وقد شبت نيران الحمية فيهم فيلحون علي بان اقودهم الى باريس . وصوت مدفعي يهيج اهالي باريس ويحرك الحمية الفرنسوية فيهم بعد ان اهينوا بدخول الاجانب الى القاعدة وجولانهم في محلاتهم العمومية واهالي باريس باسلون فيعضدونني وبعد النصر تكون الخيرة للامة في اتباعي او اتباع الدول المتحدة ولا انزل عن العرش ما لم تطردني الامة الفرنسوية فيا كولانكور تعال معي ان الساعة هي الثانية عشرة وانا ذاهب لتعرض الجنود عليَّ . فتبعهُ كولانكور بحزن وكان يخاف جدًا من ان يبقى الامبراطور متمسكًا بتلك الاوهام وكان يعلم انهُ لا يقدر ان يتغلب على القوة الاجنبية

وسرت الجنود سرورًا لا مزيد عليهِ بمشاهدة الامبراطور . وقابلوهُ بضجات الفرح الشديد . واجتمع الضباط بجمية حولهُ واخذوا يصرخون قائلين هيا بنا الى باريس يامولانا اذهب بنا الى باريس فقال لهم نعم يا اصدقائي اننا سنركب اجنحة الرياح لنعاون باريس وغدًا سناخذ في الزحف .

وعندما سمع الجيش هذه الكلمات ضج فليعش الامبراطور وظهر من حميتهِ وثباتهِ ما جعل كولانكور يقول في نفسهِ ربما كان لم ينقطع الامل من نجاح الامبراطور ورجع نابوليون الى القصر ونزل عن جوادهِ في ساحتهِ وقال لكولانكور بسرور مستفهماً ماذا تقول الان . فقال لهُ يامولاي ان هذا الجراؤك الاخير ينبغي ان يسلم امر الحكم بما يلزم ان يجرى الى جلالتك دون غيرك فقال لهُ متبسماً انك تصادق على ما قد صممت عليهِ ثم سار صامتاً بين الضباط الذين كانوا مجتمعين في القاعات مشيراً اليهم بما دل على انشراحهِ منهم ثم دخل مخدعهُ اما القواد الصغار فكانت حميتهم شديدة لانهم كانوا يرغبون في التقدم فكانوا يرغبون في الحمل على الدول التي استولت على باريس اما القواد الذين كانوا قد فاز واباالشهرة والثروة وعلقوا املهم بالمحافظة على ذلك اذا خضعوا لقوة رأوا انهم لا يقدرون ان يقاوموها فكانوا صامتين

اما تاليراند رئيس مجلس الاعيان فرغب في ان يحصل على رضى الدول المتحدة فجعل الاعضاء يقررون خلع الامبراطور وانشاء حكومة موقتة تحت رياستهِ . فلم يبال نابوليون بذلك لانهُ فاز بالامبراطورية بحكم الامة وليس بحكم مجلس الاعيان ومع ذلك اثر عمل مجلس الاعيان في الشعب وحيرهُ لانهُ راى انهُ قد هجر الامبراطور فاضعف عزم الامة وقوى الملكيين والقى الارتباك العظيم في مشورات الجيش . وفي الساعة الثانية عشرة من الغد عرض الجيش ثانية على نابوليون وقد اصدر اوامرهُ بان تتهيأ كل الاشياء اللازمة للسير الى باريس . وبعد ان تم عرض الجيش باجتماع جميع عظماء المامورين العسكريين والملكيين الذين كانوا في فونتينابلو وعقدت مفاوضة قطعت حبال امل الامبراطور وكادت تكسر قلبهُ . فان اقوى قوادهِ القوا الصعوبات في سبيل الحمل على باريس وفي النهاية امتنعوا عن ذلك قائلين انهم قد خسروا كل شيء . وقد قال البارون ڤان لو خرج نابوليون في تلك الدقيقة من القاعة المذكورة ودخل القاعة التي كان قد اجتمع فيها الضباط الثانويون لوجد جمهوراً من الشبان لا يمتنعون عن ان يتبعوهُ اين شاء . فضعف املهُ بمقاومات قوادهِ الاولين وخاطبهم بالعبارات الاتية التي تدل على ان حذقهُ كان يكشف لهُ عن امور استقبالية قال انكم ترغبون في الراحة فلتكن لكم . ولكن لسوء الحظ لا تعرفون الاتعاب والمخاطر التي تنتظركم في فراش الراحة وسنون قليلة من الراحة التي تشترونها بثمن غال يهلك منكم اكثر مما يقدر اشد القتال ان يهلك

وبعد ذلك ذهب الى مخدعهِ مكدراً جداً . وبعد ان مضت عليهِ بضع ساعات وهو في عذاب والم وكدر لم يشعر بشر باشد منها دعا اليهِ كولانكور فعندما دخل المخدع وجد تغييراً مخيفاً في وجهِ الامبراطور على ان لوائح السكون وثبات العزم كانت تلوح على وجههِ . وكان قد كتب ورقة ووضعها على مائدتهِ فاعطاها الى كولانكور وقال لهُ هذه ورقة اعتزالي فاذهب بها الى



باريس . ولما راى الدموع تتلألأ في عينيهِ حزن جداً فقال لهُ بحزن لا مزيد عليهِ واضطراب يا ايها الصديق الباسل الشجاع اعلم ان اولئك الرجال الناكرين الجميل سيعيشون ليتاسفوا على فقدي . ثم طرح نفسهُ بين ذراعي كولانكور وضمهُ بحب الى صدرهِ المضطرب قائلاً يا كولانكور اذهب اذهب في الحال . وهذه ترجمة ورقة الاعتزال

لما كانت الدول المتحدة قد صرحت بان الامبراطور نابوليون هو المانع الفريد لتقرير السلم فالامبراطور نابوليون يروم ان يبرّ بيمينهِ ولذلك قد صرح بانهُ مستعد لان ينزل عن العرش ويخرج من فرنسا بل ان يبذل حياتهُ مراعاة لخير وطنهِ . غير انهُ لا يضر ذلك بحقوق ابنهِ ولا بوكالة الامبراطورة وبالمحافظة على نظامات الامبراطورية . وكتب في قصرنا في فونتينبلو في ٤ نيسان ( افريل ) سنة ١٨١٤

وطلب نابوليون الى ماكدونال وناي ان يرافقا كولانكور ليكونا مرخصين معهُ . فسلمهم هذه الورقة المهمة وقال لماكدونال الذي كان قد سلب ركونهُ اليهِ في سنين سابقة وعاد الى المودة والمصافاة في اثناء معركة واكرام . ياماكدونال انني اخطأت بمعاملتك هل تتذكر ذلك . اجاب يامولاي انني لا اتذكرهُ ولا اتذكر الا اركانك اليّ فامسك نابوليون يدهُ بحب وتلألأت الدموع في اعين هذين الرجلين الكريمين . فقال احد هولاء المرخصين ما هي الشروط التي ينبغي ان نصر على الحصول عليها بالنظر الى جلالتك . قال لا تشترطوا شيئاً بل حصلوا اوفق الشروط لفرنسا وانا لا اطلب شيئاً لنفسي . فركبوا مركبة حالاً وساروا الى باريس . وكانت حوادث النهار قد تغلبت على نابوليون فاعتزل في مخدعهِ وبعث برسول الى المارشال مارمون الذي كان في ١٢ الف مقاتل محافظاً على مركز مهم في اسون وهي قرية واقعة في منتصف الطريق بين فونتينابلو وباريس فعاد الرسول في الليل بسرعة لا مزيد عليها واخبر نابوليون بما جرى وهو ان ذلك المارشال ترك المركز وانضم الى الدول المتحدة . وانهُ ذهب الى باريس وادخل جنودهُ بدون ان يعلموا بخيانتهِ الى داخل صفوف الاعداء فامست فونتينبلو بدون اسباب المدافعة . وفي بادي الامر لم يصدق نابوليون الخبر وكان يقول في نفسهِ ان هذا غير ممكن فان مارمون لا يرتكب ما يمس ناموسهُ وهو اخي في السلاح لكن عندما تحقق الخبر القى نفسهُ في كرسيهِ ونفرس في الحائط ووضع يدهُ على جبهتهِ المحترقة وفاه بكلام ناشيء عن الاسف والكدر وكرامة الاخلاق فابكى جميع الحاضرين . فقال انهُ تلميذي وولدي وهو رجل كنود . ولا بد من ان يكون اشد تعاسة مني

اما مارمون فكان يعلم الضباط الثانويين جميعاً يحبون الامبراطور فجمعهم جميعاً نصف الليل وخدعهم اذ انهُ اخبرهم بان الامبراطور صمم على ان يحمل على باريس وانهُ يسيرهم ليكونوا جميعاً طليعة للجيش في طريق فرساليا . فبادروا جميعاً الى نقلد الاسلحة بحمية عظيمة ضاجين فليعش

الامبراطور . واكمل عواقب خيانتهِ المعيبة في ظلام الليل فسارت العساكر بفرح وحمية غير انهم تعجبوا لانهم لم يلاقوا عدواً وكانوا يسمعون اصواتاً غريبة في جميع الجهات كصوت جنود وحركة على ان ظلام الليل حجب كل الاشياء البعيدة عن اعينهم وعندما طلع النهار رأوا حواجز الاعداء وفرقهم وطوابيرهم و راوا انهم قد احاطوا بهم فامسوا لا يقدرون على النجاة . اما حراس جيشهِ فراوا ادلة الخيانة عند الفجر قبل ان عبر جسر اسون فوقفوا في الحال وحصنوا مكاناً لصيانة الامبراطور مصممين على الدفاع الى النهاية وعندما زالت دهشة الجنود الذين اقام مارمون في شرك الاعداء اجتمعوا اقواماً اقواماً وقد كادوا يبيتون في جنون من الغيظ والحنق واخذوا يضجون في وسط معسكرات الاعداء قائلين ليعش الامبراطور . اما الكولونل اوردينه فجمع سائر الكولونولية اي قايمقامية الجيش فابرزوا غيظهم من خيانة قايدهم وجعلوهُ قائدهم العام . فامر الفرسان بالركوب والذهاب الى رامبوليه ليرجعوا بطريقها الى فونتينبلو . وعند ذلك تقلد الجيش اجمع السلاح . واخذ يسير بيأس خارقاً صفوف الاعدا قاصداً العود الى نابوليون . وقد قال لامرتين ان الطرق والغابات كانت تردد بغيظ وغضب حبهم لامبراطورهم المغلوب . ولما سمع مارمون بما قام بهِ جيشهُ خاف واضطرب وركب اسرع افراسهِ ولحق بالراجعين من العساكر فصاح بالكولونل اوردينه بان قف والا احكم عليك باختلاس القيادة . فاجابهُ انني لا اطيعك فانهُ ما من قانون يلزم الجنود بان يطيعوا الخيانة واذا كان لذلك القانون وجود فما من جندي هنا دني حتى يطيعهُ . فهذا الصياح اوقف الجنود وكان الجنود قد تعودوا احترام مارمون والثناء على شجاعتهِ والانقياد اليهِ فكلهم متوسلاً اليهم بان يطيعوهُ واراهم جراحاتهِ القديمة التي لم تشف وقال لهم انهُ قد صارت المخابرات بالصلح وان الحركة التي كانوا قد قاموا بها لا تضرُّ بهم ولا بالامبراطور وتوسل اليهم بان يقبلوهُ قبل ان يهينوا انفسهم بترك قائدهم . وكان الجنود متعودين الانقياد فصدقوهُ وصاحوا فليعش مارمون وعادوا بدهشة الى منازلهم ضمن خطوط الاعداء

اما المرخصون الذين كان قد ارسلهم نابوليون حاملين ورقة اعتزالهِ فكانوا يتقدمون بسرعة من باريس في اثناء جري تلك الحوادث . ودخلوا المدينة عند انارة مصابيح الليل ـ فترك كولانكور رفيقهُ واجتمع بالامبراطور اسكندر فلاطفهُ فراى ان لوائح الارتباك تلوح على وجههِ ومع ذلك قال لهُ ان الحوادث قد غيرت الاحوال فقال كولانكور يامولاي انني حامل ورقة اعتزال الامبراطور نابوليون ليخلفهُ ابنهُ ملك رومية وقد جاء معي المرشال ناي والمرشال مكدونال كمرخصين من قبل الامبراطور وقد تهيات كل الامور ولم يبقَ الا عقد المعاهد فقال الامبراطور لهُ يا ايها الدوق العزيز عند ما ذهبت كنا نحسب حساباً لمركز الامبراطور نابوليون ـ فان اجتماع الجنود في فونتينابلو وحبهم للامبراطور وشجاعتهُ وحذقهُ كانت تلقي الرعب في القلوب . اما اليوم



فقد تغير مركز الامبراطور . فاجاب كولانكور ان جلالتك تخدع نفسك بهذا الظن فان الامبراطور قد جمع تحت امره في دائرة ضيقة ثمانين الف رجل يطلبون اليوان يدخل بهم الى باريس وهم يرتضون بان يدافعوا عن الامبراطور وان قطعوا اربا اربا ولا ريب في ان باريس تبادر الى الاقتداء بهم . فقال الامبراطور ياصديقي العزيز ان تكبرك يكدرني غير انك تجهل كلما يجري فمجلس الاعيان قد خلع نابوليون وقواد الجيش قد بعثوا بانقيادهم الى حكمهِ من كل الجهات . وهم يستترون رغبتهم في ترك امبراطور قد سقط بالتصريح بانهم ينقادون الى اوامر مجلس الاعيان . فهذه هي حالة البشر . وفي هذه الساعة قد فتحت طريق فونتينبلو وامسى نابوليون في يدنا . فقال كولانكور بتعجب يامولاي هل ظهر خيانات جديدة ـ فقال الامبراطور اسكندر ان معسكر اسون قد انتهى والمرشال مارمون قد خضع للمجلس هو وجيشهُ الذي اخذ يسير الى معسكر الدول المتحدة . فسمع هذه الاخبار كانها صواعق منحدرة عليهِ فسكت لحظة ثم احنى عنقهُ وقال بحزن ان كل املي متعلق بكرامة اخلاق جلالتكم ـ فقال الامبراطور انهُ عندما كان الامبراطور نابوليون مستنداً الى جيشهِ كان يمنع مشورات اعدائهِ عن النفوذ اما الان فقد تغيرت الحال بترك القواد والجيوش طاعتهُ . وقد امست فونتينابلو بدون مركز حربي مهم وقد خضع جميع المعروفين في فونتينابلو فماذا يا ترى اقدر ان افعل بعد هذا فاحكم ـ فوضع كولانكور يدهُ على جبههِ المتقدة ولم يقدر ان يجيب بكلمة ـ وفي اثناء غيابك جرت مفاوضة بشان وكالة الامبراطورة ـ فضادها تابراند وغيرهُ بكل قوتهم ـ وقد قال الرئيس جراو انهُ ليس لنابوليون ولا لعيالهِ احزاب وان فرنسا كلها ترغب جداً في ارجاع البوربون وقد اخذ المامورون العسكريون والملكيون يرسلون رسالات الخضوع ـ وقد قال كولانكور بغيظ ان الامبراطور نابوليون قد بات ضحية الخيانة وتركهُ رجالهُ بدناءة حال كونهِ من الواجب على كل منهم ان يجعل جسدهُ وسيفهُ حاجزاً لهُ فيامولاي هذا لا يحتمل ـ وعند ذلك وضع الامبراطور اسكندر يدهُ على ذراع كولانكور وقال لهُ ولوائح الكدر الشديد تلوح على وجههِ ان الذين يخافونهُ هم الذين قد نالوا نعمتهم من يدهِ وكذلك شهرتهم وثروتهم فلنعتبر نحن الملوك ـ وقد تحقق عندي اننا لو اردنا ان نجعل كوتوسوف يتبوا تخت فرنسا لضجوا فليعش كوتوسوف فتشجع اني اسبقك الى الجمعية وسارى ماذا اقدر ان افعل ثم تناول ورقة اعتزال الامبراطور نابوليون وقرأها وقال اني متعجب جداً لان الامبراطور نابوليون لم يضع شرطاً واحداً متعلقاً بشخصهِ ـ وكنت صديقاً لهُ وساكون محامياً عنهُ ـ وساصر على بقاء لقبهِ الامبراطوري ورتبتهِ وان يكون ملك جزيرة البا او جزيرة اخرى

ولما خرج كولانكور من ساحة القصر متكدراً جداً حزيناً لاقى الرئيس براد الذي كان قد نهج منهج الادنياء واخذ يقترب من الدول المتحدة ويجاريها . فلما راى كولانكور تبسم وفرك يديهِ

ودنا من كولانكور ذي الجلال المهيبة وقال لهُ سررت جدًّا بمقابلتك . فتفرس فيهِ كولانكور وامتنع عن ان يجاوبهُ واجتنب الاجتماع بهِ على ان الرئيس المذكور قال لهُ متبسمًا ان احوالك ليست بناجحة . فاشتد غيظ كولانكور ولم يقدر ان يضبط نفسهُ فامسك ذلك الرئيس الشائب المتعجب بعنف وقال لهُ ياسيدي انت دنيء ثم هزه حتى كادت تزهق روحهُ واداره بسرعة . فخجل كولانكور لانهُ سلم حالهُ الى الحدة وانفذ قوتهُ في رجل ضعيف فتركهُ باحتقار وسار في طريقهِ . ولم ينس الرئيس ذلك ولا غفر لكولانكور اما البوربون فضمدوا جراح افتخاره ببلسم شرف رفيع

وعاد كولانكور حالاً الى رفيقيهِ ماكدونال وناي وساروا جميعًا الى الموقر ولم يكن يقدر ان يخبرهم بخيانة مارمون . وراوا قاعة الجمعية ملأى بعظماء رجال الدول المتحالفة على مقاومة فرنسا وكان امبراطور روسيا يكلم ملك بروسيا باجتهاد بالقرب من نافذة وكان في جهات اخرى من القاعة رجال سياسة من الانكليز والروس والبروسيين والنمسويين والاسوجيين يتكلمون باجتهاد واعتناء فانقطعت هذه المحادثات بدخول مرخصي فرنسا فدنا امبراطور روسيا وملك بروسيا من مائدة طويلة مغطاة بمنسوج اخضر وجلسا . وعند ذلك جلس كل من الحاضرين في كرسيهِ . اما امبراطور النمسا فلم يحضر وربما امتنع مراعاة لعلاقة القرابة فان نابوليون كان صهرهُ . اما اللورد كاسلريا مرخص انكلترا فكان لا يزال غائبًا . ثم قدم كولانكور باسم نابوليون ورقة الاعتزال . فسكت الجميع لحظة ثم قال ملك بروسيا ان الحوادث لا تسمح للدول بان تخابر الامبراطور نابوليون فان رغبة فرنسا في رجوع ملوكها القدماء ظاهرة . فقال مكدونال احد مرخصي فرنسا ان الامبراطور قد اخذ التاج من يد الامة الفرنسوية وتركهُ للحصول على السلم العام . ولما كانت المتحدة قد صرحت بانهُ المانع الذي يحول دون المصالحة كان لا بد لهُ من ان يضحي نفسهُ مراعاةً لصالح ابناء وطنهِ . ولكن اذا لم تسمح الدول لهُ بالتنحي بشرط ان يخلفهُ ابنهُ تنشأ عن ذلك مصائب عظيمة . . فان الجيش يحبهُ جدًّا ويرضى بان يريق دمهُ كلهُ في سبيل المحافظة على حقوقهِ . فلما سمع المرخصون ذلك تبسموا تبسم احتقار واخذ كل منهم يكلم الاخر سرًّا وتحققوا ان ماكدونال لم يكن عالمًا بان خيانة مارمون سهلت التغلب على نابوليون . وفي تلك الدقيقة دخل مارمون القاعة رافعًا راسهُ متبسماً فقابلهُ المرخصون بهز الايدي والتهاني . ثم صار الرجوع الى المفاوضة واخذ بونسي دسيه بورغو مرخص برنادوت ملك اسوج يضاد توكيل الامبراطورة فان حماقتهُ قررت في عقلهِ انهُ يمكن مولاهُ برنادوت من تبوء عرش فرنسا وكان يعلم ان ذلك خدمة لملكهِ ولتاليراند رئيس الحكومة الفرنسوية الموقتة ولوزارة انكلترا والنمسا . وقال ما دام اسم نابوليون يوثر من العرش في تصورات اوربا لا تنال ما يرضيها ويخلصها . لانها ترى في حكومة الابن روح



الاب المتهددة . فاذا كانت الامبراطورة وكيلة فماذا يفيد قوة عقلهِ التي تطلب العمل والمشروعات بفروغ صبر وحين تعود جيوش الدول المتحدة تضرم نيران المطامع في صدرهِ فيدعو بلادهُ الى ميدان الحرب بعد ان يعوض خسائرها بسرعة فتلتزم اوربا ان تتغلب عليهِ ثانية باعادة انتصاراتها التي ابتاعتها بالكنوز ودماء الجنس البشري . واذا نفي الى مكان بعيد عن فرنسا تجتاز مشوراتهُ البحار ويبادر قوادهُ ووزراؤهُ الى القبض على زمام الوكالة فاذا بقيت الامبراطورية بعد سقوط الامبراطور يكون ذلك عبارة عن المحافظة على النيران المحرقة في اوربا تحت رماد تخرج من تحتهِ نيران جديدة فالانتصار اوصل نابوليون الى ما قد وصل اليهِ والانتصار جعلهُ يسقط فلتسقط الامبراطورية بسقوط الرجل الذي انشاها . انتهى . ان هذه الامور ظاهرة فان حكومة نابوليون كانت حكومة الحقوق العامة . والدول المتحدة كانت قد اغرقت اوربا بطوفان من الدماء للمحافظة على الحقوق الموروثة فلا تصان قواعد متناقضة . وافرغ نابوليون كل قوتهِ العقلية الممتازة للجمع بين هذه القواعد المتناقضة ولم يتيسر لهُ ان يجمعها

اما تاليرند فقال ليس في الدنيا الان غير قاعدتين قاعدة الحقوق القانونية الموروثة وقاعدة الصدفة (عنى الصدفة الحقوق العامة الانتخابية غير انهُ تحاشى هذا التوضيح) . فالحقوق القانونية الموروثة هي حقوق صار ردها بعد فقدانها فاذا رامت اوربا ان تتخلص من الفتن فعليها ان تحافظ على الحقوق النظامية . ولا بد من احد امرين وهما اما نابوليون واما لويس الثامن عشر فلا يقدر ان يخلف نابوليون غير ملك قانوني ذي حقوق موروثة فانهُ اعظم الجنود ولا رجل غير نابوليون يقدر ان يجعل عشرة رجال فرنسويين يقاتلون في سبيل صالحهِ . فكل تدبير لا ينشا عنهُ تمليك نابوليون او لويس الثامن عشر هو حيلة وخداع . انتهى وهكذا صرف النظر عن برنادوت باحتقار

ولا يخفى ان خيانة مارمون واخلاء مراكز اسون حال كونها مراكز طليعة الجيش في فونتينابلو جعلت نابوليون تحت رحمة الدول المتحدة باعتزالهِ اعتزالاً تامًّا غير مشروط . وتبين للناس ان نابوليون سقط حتى ان كثيرين كانوا يخضعون للدول المتحدة خوفًا من ان يبقوا منسوبين اليهِ عند سقوطهِ ولما سمع المرخصون الفرنسويون . ان الدول المتحدة طلبت اعتزالاً غير مشروط خرجوا باضطراب وخوف ليحافظوا على شخص الامبراطور فانهُ بات في خطر من الاسر

فقال كولانكور بكدر وحزن من يحمل هذا الخبر الردي الى الامبراطور فقال ناي وقد ظهرت الدموع في عينيهِ انت فانك صديق قلبهِ واقدر من الجميع على ان تخفض تاثيرات الخبر اما انا فلست بشجاع الا امام العدو فلا اقدر ان اذهب اليهِ واقول لهُ يا . . فانقطع كلامهُ من شدة التاثير والكدر وبعد ذلك صمتوا جميعًا دقيقة ثم امسك ماكدونال يد كولانكور وشد عليها

يحب وقال ان هذه الوفادة مكدرة جداً فلا يقوم بها الا انت فان الامبراطور يركن اليك فسار كولانكور وهو غائص في بحار من الافكار ولم ينتبه لمرور الزمان وتعجب جداً لما دخلت العجلة ساحة فونتينابلو واخذ منهُ اليأس والحزن كل ماخذ حتى انهُ لم يقدر على النهوض من محلهِ ثم قال هل اتيح لي دون غيري ان اقترب من الامبراطور لاعذبهُ باخبار مولمة مكدرة حال كوني اتمنى ان اخلصهُ من عذاباتهِ بدمي . ثم خرجت من عجلتي وبلغت غرفة الامبراطور . ففتحت باب غرفتهِ وقلت يامولاي انني كولانكور ثم دخلت . وكان جالساً عند نافذة ينظر الى البساتين . وظهر من اصفرار وجههِ وعدم انتظام ثيابهِ انهُ سهر الليل . وتردد كولانكور عن ان يبلغهُ ذلك الخبر المخيف . فقال لهُ الامبراطور محاولاً السكون ان خيانة اسون جعلت الدول تطلب اموراً جديدة بعد ان رأت انني امسيت متروكاً بخيانة رجالي فماذا يطلبون . فاخبرهُ كولانكور باسهاب عما لاقى وبلغهُ طلب الدول وهو ان يعتزل عن الملك بدون شروط فاستشاط غيظاً وامست قوتهُ العظيمة واقتدارهُ الغريب كأتون من شدة الغضب وكانت عيناهُ ترسلان سهاماً كانها نار ولاحت على وجههِ لوائح تدل على حذقهِ وثباتهِ وانهُ فائق البشر . وقال هل يظن هولاء المنتصرون الطامعون انهم قد سادوا على فرنسا لان الخيانة فتحت لهم ابواب باريس . فاذا تآمر قليلون من الادنيا عليَّ فالأمة لا تجيز اعمالهم فساجمع شعبي حواليَّ . وهم حمقاء ولا يعلمون ان رجلاً مثلي لا تزول قوتهُ الا بعد ان يدفن . ففي الغد اكسر السلاسل التي قيدوني بها في ساعة وانهض في مقدمة مائة وثلثين الف بطل . فيا كولانكور اسمع حسابي عندي ٢٥ الفاً من حرسي وهم جبابرة طالما القوا الرعب في قلوب الاعداء وتكون النقطة التي اجمع حولها جيش ليون وعددهُ ثلثون الفاً فاذا اضفنا اليهم جيش جرفيه وعددهُ ١٨ الفاً وقد وصل من ايطاليا وجيش سوشه وعددهُ ١٥ الفاً مع اربعين الفاً متفرقة تحت قيادة سولت يكون مجموعهم مائة وثلثين الفاً . ولا ازال مستولياً على جميع المحلات الحصينة في فرنسا وايطاليا ولكن لا اعلم هل خانوا اولا يزالون محافظين بامانة على مراكزهم . ثم رفع راسهُ بافتخار وقال هكذا قد نهضت ثانية باسعاف هذا السيف الذي فتحت بهِ جميع قواعد ممالك اوربا . ولا ازال قائد ابسل جيوش الدنيا المولف من فرق لم تعرف الانكسار وساحرضهم على الدفاع عن وطنهم بقواعد الحرية وباسمها وساكتب على راياتي الاستقلال والوطن فتصبح مخيفة . واذا كان قواد الجيش الذين فازوا بالمجد بانتصاراتي يرومون ان يرتاحوا فليعتزلوا . فانني اجد بين الجنود رجالاً لا يليقون بان يتقلدوا القيادة والطريق التي امسى الرسل لا يقدرون ان يسلكوها تفتح قريباً امام خمسين الف رجل . وفاه بهذه الكلمات وهو يتمشى بسرعة في الغرفة . ثم وقف بغتة والتفت الى كولانكور وقال لهُ اكتب الى ناي وماكدونال بان يرجعا حالاً فالدول المتحدة قد رفضت الضحية الشخصية التي رضيت بها للحصول على السلم



وراحة فرنسا . ورفضوا اعتزالي بقحة وقد عدلت عنهُ وسانادب للقتال ومركزي فوق ميدان القتال او تحتهُ . فليطالب الله الاشقياء الذين يرومون ان يخربوا فرنسا بكل قطرة تراق من دم الفرنسويين . وكان كولانكور يرى بكدر غضبهُ الشديد ورأى ان محاولة تسكينهِ والمفاوضة بتأنٍ ضرب من المحال في تلك الساعة فاحنى راسهُ وتوسل الى الامبراطور بان يسمح لهُ بالخروج فقال . مبراطور بلطف اننا واحد ومصائبنا عظيمة فاذهب وارتح اما انا فلا ارتاح بعد الان وربما كان الليل ينير افكاري ويهديني . فخرج كولانكور من الغرفة بحزن والقى بنفسهِ على فراشهِ . وكان يعلم بانقطاع حبال الامل وان اطال الامبراطور القتال . فان ستمائة الف جندي من الاجانب اصبحوا في اراضي فرنسا وعند الحدود قدرهم من الجنود الاحتياطية منتظرين اشارة ليحملوا عليها ويخربوا الامبراطورية المؤسسة على قواعد الجمهورية . وكانت الحكومة الفرنسوية الجديدة تترحب بجميع الذين كانوا يتركون نابوليون وينضمون اليها . وكان المتقلدون المناصب العالية يتقاطرون افواجاً افواجاً الى باريس ليحصلوا على مناصب في الدولة الجديدة . ومع ذلك كانت الدول المتحدة لا تزال تخشى بأس نابوليون . وكانت تعلم ان الاهالي جميعاً يميلون اليهِ فكانوا يخافون ان يقوم بحركة كالحركات التي ادهش بها اوربا اكثر من مرة فحلت جنود اجنبية في جميع المراكز المحيطة بفونتينابلو فامسى نابوليون محاطاً بالجنود من جميع الجوانب وهكذا اصبح مائتا الف قادرين على ان يحملوا بساعة على الجيش القليل الذي كان لا يزال يحرسهُ غير ان اسمهُ الرهيب كان يجعلهم مبتعدين عنهُ

وفي الغد قابل كولانكور الامبراطور ثانية واخبرهُ بالمخاطر العظيمة المحدقة بهِ . وافرغ جهدهُ في ان يجعلهُ يعدل عن محاولة تخليص نفسهِ بالقوة مبيناً لهُ ان ذلك يلقيهِ ويلقي البلاد والجيش في خطر مبين . فقال لهُ انني لا اخشى المخاطر وحياتي بدون نفع حمل ثقيل لا اطيقهُ غير انني اروم ان اسال الاخرين عن ارائهم قبل ان اجعلهم مشتبكين . فاذا وجدت ان صالحي وصالح عائلتي ليس بصالح فرنسا اصم على امر . فادع اليَّ القواد الباقين فانني ساعول على انفاذ ارائهم . فاجتمعوا بسرعة مرتبكين حزانى فقال لهم اني قد اعتزلت غير ان الدول المتحدة تطالب الي ان اجعل عائلتي تعتزل ايضاً وترغب في ان اعزل امراتي وابني وجميع اعضاء عائلتي فهل تسمحون بذلك فانا قادر على ان اخرق الصفوف التي تحيط بي وان اجول في فرنسا كلها واهيجها . فاقدر ان اذهب الى جبال الالب وانضم الى اوجيرو ورالوسولت وارجع سوشت وابلغ لومبارديا متصلاً باوجين وادخل ايطاليا واؤسس معكم عرشاً جديداً وامبراطورية جديدة وافتح لكم ابواب التقدم الى ان ترجع الى وطننا بدعوتهِ . فهل تتبعوني

وقال كولانكور انني كنت اصغى الى طلب الامبراطور الناشيء عن الجلال غير ان قلوب

ارفاقهِ في السلاح الذي كان يخاطبهم كانت كالصخر . وكانوا يضادون صوالح فرنسا وانتشاب حرب اهلية لا تنع فيها وتخريب البلاد بالفترحات غير انهم لم يقدروا ان يعزوا مخلصهم وملكهم الذي كان مجد فرنسا مدة عشرين سنة على المصائب العظيمة التي وقعت عليهِ اما كولانكور فلم يقدر ان يضبط نفسهُ عن اظهار حزنهِ الشديد فهمَّ ان يخرج فعرف نابوليون سبب ذلك فقال لهُ يا كولانكور قف ثم جلس عند مائدة وكتب بسرعة ما ترجمتهُ

في ٦ نيسان (افريل) سنة ١٨١٤

لما كانت الدول المتحدة قد صرحت بان الامبراطور نابوليون هو المانع الفريد لرجوع السلم العام الى اوربا فمحافظة على قسمهِ يصرح بانهُ يعتزل بالاصالة عن نفسهِ وبالوكالة عن ورثائهِ عن عرش فرنسا وايطاليا وانهُ لا يتاخر عن القيام باعظم الضحايا وان كانت بذل حياتهِ في سبيل مراعاة صوالح فرنسا انتهى

فسلم هذه الورقة الى كولانكور وجعلها قاعدة للمخابرة ثم نظر الى قوادهِ بسكون وافتخار قائلاً ياسادتي انني اروم ان انفرد . فخرجوا جميعاً خلا كولانكور . فقال لهُ ليس لهولاء الرجال قلب ولا ضمير . وقد غلبت بالكمود واعمال ارفاقي بالسلاح اكثر مما غلبت بالنحس . وهذا قبيح وقد تم كل شيء فاتركني ايها الصديق

وقال كولانكور انني لا انسى ابداً ما شاهدت في فونتينابلو ولا شيء يشابه اضطراب الامبراطورية الفرنسوية الاخير وعذاب رئيسها واكدار ساعاتها وايامها . ولم ارَ من عظمة الامبراطور ما رايت وقتئذ . انتهى . ولما انتهى قلق نابوليون الناشيء عن التردد ظهر انهُ تخلص من حمل ثقيل ولم يتطوح بلوم ولا بامر اخر غير نافع ولكنهُ خضع لنصيبهِ بجلال وتمكن من ضبط نفسهِ حتى انهُ كان يتكلم ببشاشة ويتظاهر بالارتضاء . ولم يتلفظ بملام ولا خاطب الذين حولهُ الا بكلمات لطف وشفقة فتعجب الجميع مما رأوهُ من صبره وتسليمهِ نفسهُ الى نصيبهِ بدون تذمر وثنوا عليهِ . وكان يتكلم كاحد الاهالي عن حوادث الفتنة والامبراطورية كانها حوادث قرن سابق لا تعلق لها بهِ والدول المتحدة طردتهُ من عرش الامبراطورية ولكنهُ كان لا يزال مستوياً في قلوب الاهالي . وكان من المهم عندها لنجاح سياستها نهائياً ان تثلم صيت نابوليون لتقرر في عقول الاهالي انهُ وحش دموي لا رحمة ولا شفقة في قلبهِ . وكانت جرائد اوربا في يد تلك الدول فملات اوربا بالطعن فيهِ ولم يقدر ان يرد عليها وكتب شاتوبريان بالسمّ والمرارة كتابات المقصود منها ثلم صيتهِ بالكذب والنفاق ونشر كراسة مشهورة عنوانها بونابرت والبوربون ملاها بالقدح والطعن بهِ . والمولف لامرتين هو من الذين طعنوا بالامبراطور نابوليون ومع ذلك لام ذلك الموسيو بقولهِ

موسيو شاتوبريان الكاتب الاول في ذلك الزمان لم يكتب بتعقل ولا راعي ضميرهُ فانهُ



صب الاهانات والتنديدات على اسم عظيم ساقط . وكتب كراسة عنيفة يضاد بها الامبراطور نابوليون ويشوق الى ارجاع البوربون . وجعل نفسهُ جلاد الدولة الامبراطورية . وكان قد مدحهُ وجعلهُ كالقديسين المذكورين في التوراة . وبعد قتل الدوق دنجين تبدل حبهُ بالاحتقار وصار مضاداً للامبراطور خفية وتحذراً . وكان يقول انهُ مضطهد مقاوم غير انهُ لم يقاوم الا بالهبات الامبراطورية ومع ذلك امسك تلك الكراسة كانها السيف الذي رام ان يضرب بهِ الظالم ضربة فاصلة . فطبعت في الليل واعطيت اقسام منها الى الجرائد فملات باريس في الصباح وفي برهة قصيرة ملئت فرنسا بالطعن في الامبراطور والامبراطورية ووصف بها نابوليون وصفاً يليق باطيلا كانهُ جلاد يذبح بيدهِ ويسر بالذبح . ووصفهُ وهو في فونتينابلو واتهمهُ بتعذيب ضمير البابا بيوس السابع وهو يجر الحبر الاعظم بشعره الابيض على ارض سبخة لانهُ لم يجاره على مرامهِ . واخذ يتكلم عن السجون ووصف الناس ما ادعاهُ من التعذيب والاضطهاد وقتل الابرياء وذكر كل القتلى من يشيكروا الى الذين سموا في مستشفى الطاعون في يافا وما ذلك الا ليكره الناس باكاذيبهِ . واتهمهُ بالمطامع الدنيوية والدناة والحرص غير المرتب وغير ذلك مما لا يقوم بهِ غير ادنى الناس فترى تلك الكراسة مشحونة بتهمات السرقة والجبن والقساوة والسم . وكان يطبع من هذا الكتاب ورقة كل يوم ويوزعها على الناس واشتد تاثيره لانهُ تبع صمت المقاومين زماناً طويلاً وقد ثلم هذا الموسيو صيت نابوليون لارضاء شر الناس وحزب الملكية وهذا خطاء لا يعذر فيهِ فهذا العمل الشرير الذي مدح في وقتهِ لان الزمان كان محتاجاً اليهِ رفضهُ بعد ذلك ضمير الدهر وان كان قد اضر جداً بالامبراطورية . ولما قابل مولف تلك الكراسة بالملك لويس الثامن عشر لينال منهُ المكافاة على كتابتها قال لهُ ان كتابك نفعني قدر جيش انتهى كلام لامرتين ملخصاً

ونشرت هذه التهمات في انكلترا في كراريس وجرائد ففاز حزب التوري في انكلترا والدول المتحدة في اواسط اوربا والبوربون في فرنسا . اما نابوليون فمنع عن الرد وسجن ولم يسمع صوت المحامين عنهُ في وسط ضوضاء اعدائهِ واما الان فشعوب الدنيا تحبهُ ولكن قوات سياسية قادرة جداً لا تزال تفرغ جهدها في سبيل ثلم صيتهِ

وقال مستر ابرلاند احد الكتاب الانكليز ان الامور الطفيفة جداً التي لا تستحق الذكر ذكرت ثلم صيت نابوليون وعظمت وبولغ فيها حتى صارت في اعين الناس كاعظم الاثام . وكل ما اتهم بهِ في انكلترا سنين كثيرة صدقتهُ الامة كانهُ حقائق . وكل اعمالهِ الحسنة صغرت ونسبت الى رغبتهِ في تمليق الامة الفرنسوية واغرائها واكثر الكتابات التي اذاعتها مطابع اوربا في سنين كثيرة حوت طعناً فيهِ وان كانت غير متعلقة بالسياسة الاوربية . والواعظون واعضاء مجلس الاعيان ومشخصو الروايات نهجوا منهج اولئك بغيرة عظيمة . ولم يكتف بذلك فان الناس كانوا يستخدمون

اسمهُ ليلقوا الرعب في قلوب الاولاد فكان يقال لهم انهم اذ اساؤا التصرف يأتيهم نابوليون حنيفي حتى وهذا ان كل رجل بالغ سن الثلثين في ايطاليا لا يزال يتذكرهُ . انتهى . ملخصًا

وتمكنت الدول المتحدة من اجراء ما ترومهُ . فكانت مدعية ومحامية ومحاكمة ومنفذة وكتبت المحاكمة وترجمة المحكوم عليهِ . ولكن بعد صمت ثلاثين سنة خرجت روح نابوليون من القبر خروجًا اذبيًا والتفتت الى ٢٥ مليونًا من الاحرار طالبة ان تجرب مرة ثانية واصروا على ان يمكنوها من مرامها

## الفصل الخمسون

### البا

وحدثت الامور التي ذكرت في اواخر الفصل السابق في المساء السادس من نيسان (افريل) وفي الغد عند طلوع الشمس سار كولانكور قاصدًا باريس حاملاً ورقة اعتزال الامبراطور بدون شروط . وفي اثناء النهار تقدمت تلك الورقة الخطيرة الى موتمر الدول المتحدة فتحركت فيها الشفقة لسقوط رجل عظيم ملات شهرتهُ الدنيا . وعدلت عن سوق جيوشها الى فونتينابلو وعقدت جمعية للمخابرة فيما ينبغي ان يجرى بالامبراطور الساقط وبعائلتهِ . اما احزاب البوربون فكانوا يرغبون في ان يبعد عن فرنسا وذكروا جزيرة سانت هيلانة وغيرهم ذكر كورفو وكورسيكا وذكرت البا ايضًا وطيب هوائها فانتهز كولانكور سنوح الفرصة والح على الدول بان تعوّل على ارسالهِ الى البا فخاف البوربون فانهم كانوا يعلمون ان الفرنسويين يحبونهُ جدًا وارتجفوا لما راوا انهُ يكون قريبًا منهم . فاعترضوا على ذلك بكل قوتهم . فبادر امبراطور روسيا الى عضد كولانكور وبعد مفاوضات عنيفة نفذ رايهُ وتقرر ان تعطى البا لهُ حياتهُ بطولها ليلقب ملكها وصاحبها . ولما راى نابوليون ان الدول المتحدة لا تخابرهُ ولكنها كانت تتصرف بهِ تصرف المالك بالمملوك تكدر جدًا فبعث رسولاً الى كولانكور يامرهُ بان يرد عليهِ ورقة اعتزالهِ وقال لهُ انني مغلوب واُسلم نفسي الى نصيب الحرب واكتفي بورقة مبادلة اسري . وبعث اليهِ برسالة اخرى في الليل قال فيها لماذا تكلمني عن اتفاق ومعاهدة فانني لا احتاج اليهما . فاذا كانت الدول لا تخابرني بل تتصرف بي كما تشا فما نفع المعاهدة فهذه المفاوضة السياسية تكدرني فاقطعها

وفي الساعة الخامسة من صباح الغد ايقظ رسول اخر كولانكور ودفع اليهِ الرسالة الاتية وهي

انني اطلب اليك ان ترجع اعتزالي فانني لا ارضى بتوقيع معاهدة مهما كانت وامنعك عن ان تتعهد بدراهم فان ذلك مكدر . انتهت . وفي ٢٤ ساعة ورد على كولانكور سبعة رسل فارتبك وتحير لانهُ كان قد سلم ورقة الاعتزال الى الدول التي شرعت تضع شروطها ليقبلها الامبراطور نابوليون واصبحت قادرة على اجراء ما تشا . واشتد كدرهُ وحزنهُ وكان يراقب اعمالها بتيقظ ويتوسط امور



الامبراطور في كل حال . ومضت بضعة ايام جرت فيها سياسة مضطربة وفي ١١ نيسان (افريل) تم عقد المعاهدة التي كانت الدول مشغلة بعقدها . وتقرر فيها ان يلقب نابوليون وزوجتهُ بامبراطور وامبراطورة حياتهما بطولها وان امهُ واخوتهُ واخواتهِ واولادهم يلقبون بلقب برنس . وتعينت جزيرة البا ملكًا لهُ وان يدفع لهُ من رقسا كل سنة خمسمائة الف ريال كل ريال خمسة فرنكات . وتعينت دوقية بارما وبلاستنيا وغوستا ملكًا لماريا لويزا زوجة نابوليون يرثها ابنها منها . ويدفع لها ستون الف ريال كل سنة ومائة الف ريال للملك جوزف وزوجتهِ و ٤٠ الف ريال للملك لويس وثمانون الفًا لهورتانس وابنها ومائة الف ريال للملك جيروم وزوجتهِ وستون الفًا للبرنسس ايليزا وستون الفًا للبرنسس بولين وان يدفع للامبراطورة جوزفين مائتي الف ريال عوضًا عن ستمائة الف ريال كان قد عينها نابوليون لها . وتقرر في تلك المعاهدة ان تبقى املاك كل من هذه العائلة الى مالكها . وعينت املاك في فرنسا لتجمع المبالغ المار ذكرها من ريعها . اما املاك نابوليون الخصوصية فحكم ان تصير املاك فرنسا . وان يذهب مع الامبراطور نابوليون الى محل ركوب البحر الف ومائتان او الف وخمسمائة رجل من الحرس الامبراطوري وان يسمح لهُ بان ياخذ معهُ الى جزيرة البا اربعمائة رجل من الذين يرغبون في ان يتطوعوا في خدمتهِ . وتعين يومان لامضاء المعاهدة نهائيًا

اما الحكومة الانكليزية فكانت لا تزال تقاوم الامبراطور الساقط مقاومة لا مثيل لها في صفحات التواريخ . ومما يقضي بالعجب العجاب ان جميع دول اوربا لم تتردد عن ان تعترف بانهُ يحق للامة ان تنتخب امبراطورها وان انتخابها يكون قانونيًا خلا انكلترا فانها تمنعت عن الاعتراف بذلك واصرت على ان تهين الامة الفرنسوية بقولها انها امة عصاة وان نابوليون مختلس الملك وتذمرت لانهُ اُعطي لذلك الامبراطور المشهور الفريد ملكية جزيرة البا ولو كان معتمدو انكلترا في الموتمر الذي قرر تلك المعاهدة لما تمكن الامبراطور اسكندر الروسي مع كرامة اخلاقهِ من ان يخلص نابوليون من السجن والاهانة . واعترض وزير انكلترا على تلك المعاهدة اعتراضين الاول انها تضمنت الاعتراف بان نابوليون امبراطور فرنسا مع ان انكلترا لم تعترف بذلك . ثانيًا انهُ تعين لهُ بها مسكن في مملكة مستقلة (اي في جزيرة البا) قريبة من سواحل ايطاليا ويمكن بلوغ فرنسا منها في ايام قليلة حال كون نيران الفتنة كانت لا تزال متنشبة في ايطاليا وفرنسا . وقال السار والتار اسكوت المورخ الانكليزي ان دولة واحدة راى وزراؤها الاضرار التي تنشا عن تلك المعاهدة واعترضوا عليها وكانت قد اُبرمت ولما راى وزير انكلترا ان امبراطور روسيا فعل ما راهُ موافقًا باسم سائر الدول المتحدة امتنع عن المقاومة وعن الاشتراك في المعاهدة بالنيابة عن حكومتهِ الا بما كان يتعلق بتقسيم البلاد وصرّح بانهُ لا يعترف بلقب الامبراطور المدون في المعاهدة والدول المتحدة اصابت بعقد تلك المعاهدة

مجانبة لتجديد الحرب بايقاع نابوليون في يأس وحمل قواد جيوشهِ على ان يرجعوا الى الانضمام اليهِ مراعاة لناموسهم . وفي ١١ نيسان (افريل) مساء سار كولانكور حزينًا حاملاً المعاهدة المذكورة المسماة بمعاهدة فونتينابلو . وكان قد خالف امر الامبراطور فانهُ لم يحاول استرجاع ورقة اعتزالهِ لالتزامهِ بفعل مايراهُ موافقًا وهو محاط بالامور الخطرة والمخاطر البينة . فلما دخل على نابوليون نظر اليهِ وقال لهُ هل رجعت اليَّ بورقة اعتزالي . فقال لهُ يامولاي ارجوك ان تسمع لي قبل ان توبخني توبيخًا لا استحقهُ . فامرك تناولتهُ بعد ان امسيت غير قادر على استرجاع تلك الورقة . اذ بدأت بالمخابرة الى باريس فسلمتها الى الدول المتحدة لقطع الحرب . وجعلتها اساسًا للمخابرات التي جاءت بالمعاهدة وقد نشرت في الجرائد . فقال نابوليون هذا امر لا يعنيني ولا يهمني نشرها في الجرائد فاقدر ان ارفض المعاهدة ولا اريد ان اعقد معاهدة . وطال الحديث المكدر بينهما وفي النهاية وضع كولانكور المعاهدة على مائدة واستاذن الامبراطور بالخروج . وقال لم اقدر ان اجعل الامبراطور يقرأها كلها فذهبت الى غرفتي لاحتاجي الى الراحة فان قوتي امست في كلل من هذه المخابرات وكدت ابيت في يأس وعادت افكاري الى تلك الضحية العظيمة الكريمة وتاملت في ضيقاتها والامها فرغبت في تخفيفها ورايت انني قادر على ذلك

وفي المساء عاد كولانكور الى غرفة الامبراطور فوجدهُ في حزن شديد وضيق عظيم وتغلب ويلهُ عليهِ . اذ وجد فرنسا المحبوبة جدًا عنده مسلمة الى البوربون وجميع حكومات اوربا الحرة ساقطة وجميع اصدقاء نابوليون الصادقين هابطين معهُ وحرية العالم ضائعة . فلما راه كولانكور على هذه الحال اشتد حزنهُ ولم يتحقق ان امتناع نابوليون عن قبول المعاهدة يلقيهِ في وبال عظيم فانهُ لم يقدر ان يحمل الدول على ان تعاملهُ تلك المعاملة الا بعد اتعاب جمة وكاد يمضي الزمان المعين للتوقيع عليها فان امتنع يبيت تحت رحمتهم فيعاملونهُ كيفما شاؤا بعد ان يأسروه . فقال لهُ كولانكور بحزن يامولاي اتوسل اليك مراعاة لمجدك ان تبرم الامر فان الاحوال لا تسمح بالتردد يامولاي انني لا اقدر ان ابث الحزن الذي يخامر فوادي . فاذا رايت كولانكور صديقك الامين جاثيًا على ركبتيهِ يتوسل اليك ان تتامل في الحالة التي بت فيها يكون ذلك ناشئًا عن ضرورة لا يمكن ان يصرف النظر عنها . فنظر الامبراطور اليهِ بكدر وتفرس فيهِ وبعد ان صمت برهة قال لهُ بحزن ماذا تريد ان افعل . ثم نهض ووضع يديهِ وراء ظهره واخذ يتمشى في الغرفة صامتًا . ثم نظر الى صديقهِ الامين وقال لا بد من تبيين هذه الحال وقد صممت على ما ينبغي ان افعل وستتم ذلك غدًا . وجرى هذا الحديث في اخر السهرة فشد كولانكور على يد الامبراطور وذهب الى غرفتهِ وفي نصف الليل دعي الى جانب فراش الامبراطور الذي مرض بغتةً مرضًا شديدًا . وكان قد مرض بغتة بعد معركة درسدن . والظاهر ان التعب والسهر والوبل جددت المرض .



وربما كان من الاعراض الاولى لمرض سرى سريعًا بالهم والاهانات فاسكتهُ رمسهُ في سنين قليلة . فوجدهُ كولانكور يتقلب على فراشهِ متالمًا جدًا وكانت قطرات عرق الاوجاع الكبيرة تسقط من جبهتهِ . وغطى شعرهُ جبهتهُ وزال ماء عينيهِ وكان يمتنع عن ان يصرخ صراخ الوجع بالعض على منديل وربما ظن انهُ في حالة النزع . وكان قد ضجر من العالم فسر بقرب خروجهِ منهُ . فالتفت الى كولانكور وقال يا كولانكور انني اموت فاوصيك بزوجتي وابني فدافع عن ذكري فانني امسيت لا اقدر ان احتمل الحياة . اما طبيبهُ فلم يسقهِ الا الشاي السخن . فاخذت الام البطن تزول بالتدريج وزال المرض . وقال كولانكور ان القلم يعجز عن وصف ماجرى في غرفة ذلك الامبراطور وهو على تلك الحال والمصابيح ذات نور قليل والسكون عام ولا يسمع صوت غير تنهدات الحاضرين ولم يكن واحد منهم يتردد عن بذل حياتهِ فداء عنهُ فانهُ كان لمعاشريهِ افضل الرجال وفي المعاملات احلم السادة . فسقط ماسوفًا عليهِ

وقيل ان نابوليون حاول حينئذٍ ان يقتل نفسهُ . على ان ظواهر المرض والعلاج الفريد الذي استخدم وهو الشاي المسخن وسرعة شفائهِ اعمالهُ السابقة واللاحقة حملت كثيرين على القول ان هذه تهمة باطلة . ولكن مونثولون قال في تاريخ نابوليون ان الامبراطور كلمني بما ياتي عن المرض المذكور ان حياتي امست غير مختصة ببلادي وحوادث الايام الاخيرة مكنتني من ان اسود على الحياة . فقلت في نفسي لماذا اتحمل هذه الاوجاع . فربما موتي يعيد التاج الى ابني . فهذا يخلص فرنسا . ولم اتردد بعد ذلك ولكني خرجت من فراشي وخلطت السم بقليل من الماء وشربتهُ بفرح . على ان مرور الزمان كان قد افسدهُ واوجاعي المخيفة حملتني على التنهد فسمعت تنهداتي فاتي بالطبيب . ولم يشأ الله ان اموت حينئذٍ فان جزيرة سانتا هيلانا من نصيبي . انتهى . فماذا نقول عن هذا الكلام وعن المناقضة الواقعة هل وقع سوء مفهومية بين الامبراطور ومونثولون

ولقد طالما لام نابوليون الذين قتلوا انفسهم وندد بعملهم فان صفاتهِ العجيبة لم تكن ترضى بقتل النفس فكان يحكم بانهُ فعل الانذال الجبناء . وقال من الناس من يقتل نفسهُ من عشق فهذا احمق . ومنهم من يقتل نفسهُ لخسارة ثروة وهذا جبن . ومنهم من لا يقدر ان يعيش بعد ان يهان وهذا ضعف عظيم . فالعيشة بعد خسارة الملك واحتمال اهانات المعاصرين شجاعة حقيقة

ونام الامبراطور نوم الذين يتالمون اشد الالم واستيقظ بعد برهة قصيرة . وكانت شمس الصباح تنير الغرفة باشعتها اللامعة . فرفع الستار عن التخت وخرج من الفراش وتفرس في مجد الصباح الزاهي صامتًا . وراى الاشجار الجميلة وسمع تغريد الوف من الطيور التي تراى لها انها خالية من الهم والكدر . وبعد ان غاص في التاملات دقائق قليلة التفت الى كولانكور وقال لهُ ان الله قد قدر عليَّ طول الحياة . فقال كولانكور ان الواجب عليك بالنظر الى ابنك وفرنسا التي لا

يموت اسمك فيها الى الابد ان تصطبر على المصائب والبلايا . قال بحزن وكدر بكل القلم عن وصفهما وا ابناه ما اقبح الميراث الذي اتركهُ لهُ فانهُ ولد ملكًا وقد بات بدون بلاد . لماذا لم لا اموت . ولا تثقل عليَّ الحياة لانني اضعت عرشي ولكنني احتمل ما هو اعظم من الخسائر . هل تعلم ماذا يجرح القلب بليغًا هو كنود الانسان فقد ضجرت من الحياة فالموت راحة . والذي احتملتهُ في الايام العشرين السابقة لا يدرك

وفي تلك اللحظة قرع جرس الساعة خمس قرعات فوضع نابوليون يدهُ على جبهتهِ المتسعة وقال يا كولانكور في الايام الاخيرة شعرت تكرارًا انني ابلى بجنون . واشعر بنار محرقة في جبهتي . فالجنون نهاية سلم السقوط البشري وهو مفارقة الانسانية فالموت افضل الف مرة . فبطول الحياة احتمل عذابات لا اقدر ان اصفها . ولا ابالي بها وقد عزمت على احتمالها . وبعد ان صمت لحظة تبين فيها انهُ غاص في بحر من التامل قال انني ابرم المعاهدة اليوم . فياصديقي لقد شفيت واسترحت فاذهب واسترح . فخرج كولانكور فنهض نابوليون في الحال ولبس ثيابهُ والساعة العاشرة دعا اليهِ كولانكور وفاوضهُ بشان المعاهدة كما كان يفاوضهُ بالامور العادية . فقال لهُ ان البنود المتعلقة بالمالية مذلة فلا بد من ابطالها فلست الا جندي فعشرون فرنكًا كل يوم تكفيني . وكان كولانكور يعرف حاسياتهِ اللطيفة فقال ان احتياجات اصدقائك واعوانك الذين يعيشون بمالك تدعوك الى القبول بذلك . فارتضى نابوليون بهِ وقال ينبغي ان تنهي كل شيء بسرعة وسلم المعاهدة الى الملوك المتحدين وقل لهم بلساني انني اخابر عدوًّا منتصرًا الا حكومة فرنسا الموقتة التي لا ارى فيها غير رجال فارغين خائنين . ثم دعا اليهِ المرخصين ماكدونال وناي فلما دخلا وضع يدهُ ببطء على جبهتهِ ثم امسك القلم ووقع على المعاهدة . ثم نهض من كرسيهِ ونظر الى المرشال ماكدونال الكريم وقال لهُ ان مالية في الحال قليلة فلا اقدر ان اكافيك على خدماتك الاخيرة الامينة على انني اروم ان اهبك تذكارًا يذكرك نفعك لي في زمان مصائبي . ثم قال يا كولانكور اطلب السيف الذي اعطاني اياه مراد بك في مصر وهو الذي لبستهُ في معركة جبل طابور . فاخذ نابوليون ذلك السيف وسلمهُ الى المرشال قائلاً هذه هي جائزة الامانة الفريدة التي اقدر ان اهبك اياها فانت صديقي . فقال ماكدونال وقد وضع السيف على قلبهِ سا حفظهُ ما دمت حيًا واذا ولدت ابنًا يكون هذا السيف اثمن ميراث لهُ . فعند ذلك امسك نابوليون يدي المرشال ثم اعتنقهُ مودعًا وملات الدموع اعينهما

وكان نابوليون يهتم بجنوده اكثر مما يهتم بنفسهِ فقال لمرخصيهِ وهم خارجون من مخدعهِ ان اعتزالي عن الملك ومصادقتي على المعاهدة لا يكونان نافذين ما لم تتم الدول المتحدة بما وعدت الجيش بهِ . فلا تسلما المعاهدة الا بعد ان يتم ذلك



فعاد المرخصون في الحال الى باريس . وكان الامبراطور واعضاء الحكومة الموقتة يائمرون . فطرحت امامهم المعاهدة التي وقع عليها الامبراطور نابوليون . وصرفت بضعة ايام في تقرير امور مختلفة كانت لا تزال غير مقررة وفي اثنائها استخدمت وسائل مختلفة وابرزت جوائز عظيمة لحمل كثيرين من اهل النفوذ على القبول بالحكومة الجديدة . فان عضدهم لها كان من الامور اللازمة لثبوتها . اما مركز اولئك الرجال فبات صعبًا لانهم اصبحوا غير قادرين على ان يعاونوا نابوليون . ورأوا انهم اذا امتنعوا عن ان يخدموا الحكومة الجديدة يبيتون عرضة للتهمات وفي فقر وتاخر . ومع ذلك سبق كثيرون منهم بحبهم لهُ الى الامتناع عن خدمة البوربون . على ان اكثرهم تمنوا ان يصالحوا الحكومة الجديدة . وهذه الامور جعلت الامبراطور نابوليون راغبًا في الخروج حالاً من فرنسا . فبعث رسولاً بعد رسول الى كولانكور طالبًا اليهِ ان يسرع . وكتب اليهِ في رسالة من رسالاتهِ القصيرة انني ارغب في الخروج فمن ظن ان هواء فرنسا مضرٌّ بي . وكنود الرجال اقدر على القتل من الفولاذ والسم . ان ذلك جعل حياتي ثقيلة فاسرع سفري

وعينت كل من روسيا وبروسيا وانكلترا والنمسا مامورًا ليذهب مع الامبراطور الى الجزيرة البا . ورأى الملوك انهُ من اللازم ان يرسلوا معهُ جيشًا قادرًا خوفًا من ان يجاهر اهالي اواسط فرنسا بالعصيان حين يرون الامبراطور مارًّا حال كونهم يحبونهُ حبًا شديدًا فتنشب في البلاد نيران حرب اهلية تعم المملكة . وكانت احزاب الملكيين في بعض الولايات الجنوبية اكثر من احزاب الامبراطورية فخاف الملوك عليهِ من القتل فيها . ولذلك قرروا ان يرسل معهُ مامورون معهم قوة كافية للتغلب على الاهالي اذا حاولوا العصيان او حاولوا قتلهُ . فان قتلهُ يجلب العار على الدول المتحدة وتجديد الحرب مصيبة دهماء

اما برنادوت فحملهُ الحمق على تعليق الامل بالفوز بتاج فرنسا فتكدر جدًّا مما لحق بهِ من العار وانثلام صيتهِ . ومع ان الدول المتحدة كانت في باريس لم يقدر ان يظهر نفسهُ في شوارعها بدون ان يهان . وكانت الجماهير كل يوم تصيح في اثره قائلة حطوا الخائن الخداع ثم حصروا منزلهُ وضايقوهُ وفي النهاية راى انهُ لا يقدر ان يحتمل هذه الاهانات فخرج من باريس وعاد الى اسوج . وقال صديقهُ الذي كان يركن اليهِ ويسارّهُ انهُ تعجب جدًّا من قبول الفرنسويين بدون تردد بان يخضعوا للبوربون وتعجبت انا ايضًا منك اذ رايت ان برنادوت مع اختبارهِ للاحوال كان يتوهم انهُ عند تغيير الحكومات تصير مراعاة ميل الشعب

وعاد كولانكور الى فونتينبلو في صباح السادس عشر من شهر نيسان (افريل) . وكان حول القصر فيها قليلون من الجنود المتكدرين الذين كانوا لا يزالون محافظين على صداقة الامبراطور بامانة . فلما راوا كولانكور اظهروا اعترافهم بخدمتهم النافعة بقولهم فليعش الامبراطور . اما قاعات

القصر فكانت مهجورة ورجال البلاط الباسلون الذين كانوا يجولون فيهِ تبددوا بعواصف المصائب وقلب نابوليون افعم حزنًا بابتعاد احد ارفاقهِ عنهُ وهو برتيه الذي رافقهُ في المعارك ونام في خيمتهِ وتناول الطعام معهُ وصرف سنين كثيرة متمتعًا بالركون اليهِ وحبهِ ومع ذلك هجرهُ سرًا ليلاً بدون ان يودعهُ . وقال لامرتين ان برتيه كم في قلبهِ خمس عشرة سنة ميلاً شديدًا طاهرًا كان يحسبهُ دليلهُ . فانهُ احب فتاة ايطالية بديعة الجمال سلبت لبهُ في ميلان . فامست نصب عينيهِ في القتال وفي كل حال ولم تبرح من بالهِ بالمطامع ولا بالمجد ولا بصداقة الامبراطور . وكان يعلق صورة هذه الفتاة التي اصبحت كمعبودة لهُ خيمتهِ في ليل ايام المعارك وكانت تخفف اوجاعهُ واتعابهُ بتوهم قربها منهُ . فخاف ان يدعوهُ الامبراطور الى مشاركتهِ في منفاه . وكان في قلق دائم منذ اعتزال الامبراطور خوفًا من ان يطلب اليهِ ان يتغلب على عواطفهِ تغلبًا لا طاقة لهُ عليهِ ويختار الذهاب معهُ على الاقتراب من محبوبتهِ . فتجنب ذلك بهجر رفيقهِ في القتال وتملصهِ ليلاً ـ وهكذا خان نابوليون في المنفى ليكون امينًا في الغرام فهرب كمن يروم ان يقرب نفسهُ منها بتقديم خيانتهِ هبةً للبوربون فتكدر الامبراطور من ذلك

ولما دخل كولانكور على الامبراطور وجدهُ يتمشى وحدهُ ببطء في جنينة تظللها كنيسة القلعة غائصًا في بحار من التامل فدنا منهُ بدون ان ينتبه اليهِ فكلمهُ كولانكور فالتفت بسرعة ولاحت على وجههِ لوائح السرور والشكر لما راى صديقهُ الامين ـ فامسك ذراعهُ وقال وهو يتمشى هل تهيا كل شيء لسفري ـ اجاب بحزن لم يقدر ان يخفيهُ نعم ـ قال هذا حسن وهذه هي المرة الاخيرة التي نقوم بها بعمل خطر عندي ـ ثم قال بحزن يا كولانكور هل تصدق ان برتيه هجرني وفارقني بدون ان يودعني وستراه يتوسل الى البوربون ان يستخدموهُ انني اخجل لما ارى رجالاً رفعتهم الى اعلى الدرجات يحطون قدرهم الى اوطاها ـ فماذا اصاب المجد الذي كان يحيط بهم ـ ماذا يقول الامبراطورون المتحدون عن رجال جعلتهم زينة ملكي ـ يا كولانكور ان فرنسا لي فكلما يشينها يشينني ـ لا بد من ان ادخل واجلس فانني متعب فاسرع اسرع اسباب ذهابي ـ ولما خرجا من الجنينة دنا منهما بطل من المدرعين من جنود الحرس كان يترقب فرصة ليكلم الامبراطور وقال لهُ باضطراب وبصوت مرتجف يامولاي انصفني من ظلم لا يطاق ـ فانني بلغت سن ٣٦ وقد خدمت في الجيش ٢٢ سنة ـ ثم ضرب صدره العريض بيدهِ قائلاً وقد حصلت على نياشين ومع ذلك لم يكتب اسمي في دفتر الذين يرافقون جلالتك ـ فاذا عوملت هذه المعاملة اريق دمًا بنتل احد الذين فازوا بهذا الامتياز ولا اصرف النظر عن الذهاب معك ـ فقال لهُ نابوليون وقد اثرت جدًا فيهِ صداقتهُ اروم ان تذهب معي هل تاملت في العواقب وادركت انهُ لا بد من الخروج من فرنسا ومفارقة عائلتك واسباب الترقي فانك ضابط ـ فاجاب ارغب في الذهاب وادعي انهُ حقي وشرف اطلبهُ



واصرف النظر عن الترقي فعندي نيشان الصليب وهذا كافٍ ـ وانت العائلة منذ ٢٢ سنة ـ فقال احسنت ستذهب معي ـ قال انني اشكر جلالتك من صميم الفؤاد وانثنى راجعًا فرحًا مفتخرًا فتحركت جميع عواطف نابوليون بامانة هذا الجندي وكادت تتغلب عليهِ فشد على ذراع كولانكور وقال لا اقدر ان اخذ معي غير اربعمائة جندي وجميع جنود الحرس يرومون ان يرافقوني . فيا ايها الرجال الشجعان الابطال لماذا لا اقدر ان اجعلكم جميعًا رفاقي

وجرت هذه الامور والامبراطورة مع ابنها في بلوا التي تبعد نحو مائة ميل الى الجهة الجنوبية الشرقية من باريس وسبعين ميلاً عن فونتينبلو ـ وكانت في كدر شديد وضيق عظيم تذرف دموعًا غزيرة بدون انقطاع . وكان لها من السن ٢٢ سنة فقط وكانت قليلة الاختبار لا تقدر ان تقوم بالاعمال من تلقاء نفسها لعدم تعودها ذلك فامست في ارتباك عظيم ولما سمعت بان الامبراطور التزم بالاعتزال عن الملك لم تصدق الخبر لانهُ لم يكن يخطر ببالها ان الدول المتحدة تصر على ذلك وقالت ان ابي لا يرضى بهِ . فقال لي تكرارًا لما جعلني امبراطورة الفرنسويين انهُ يحفظني في ذلك المركز وهو من الذين يبرون بوعدهم . وكان الامبراطور نابوليون يكتب اليها كل يوم وكثيرًا ما كان يكتب اليها في اليوم مرتين او ثلث مرات ويخبرها عن الحوادث . وكانت الرسل لا تقدر ان تذهب من فونتينبلو الى بلوا الى بصعوبة عظيمة لان القوزاق كانوا يجولون على الدوام في الاماكن الواقعة بينهما وكان نابوليون يخشى ان يطلب اليها ان تاتي اليهِ لتذهب معهُ الى البا لانهُ لم يكن قادرًا على صيانتها من الاهانة ولا من خطر الوقوع في الاسر

وفي ٧ نيسان افريل (كتب اليها مع الكولونل كالبوا الذي لم يقدر ان يصل اليها الا بعد معاناة صعوبات كثيرة فقرات الكتاب باضطراب عظيم وقالت ينبغي ان اكون قريبة من الامبراطور خاصة الان وهو في كدر عظيم فلا بد من ان اذهب اليهِ فارضى ان اعيش معهُ اينما كان فبين لها الكولونل مخاطر السفر الكثيرة وانهُ ينبغي ان تصرف النظر عن ذلك فلم تقبل الا بعد تردد عظيم وكتبت الى الامبراطور كتابًا سرّيًا جدًا فكتب اليها في الحال ان تتقدم الى اورليان في منتصف الطريق فونتينبلو وبلوا وبلغت اورليان بدون ان يقع تعدٍ عليها على ان حراسها سلبوا في الطريق واقامت فيها عدة ايام في كدر وخوف شديدين وتفرحت اجفانها من البكاء الدائم ورق لها الجميع لما شاهدوا من ويلها وحزنها وكدرها وكانت ضعيفة العزم قليلة الثبات على انها كانت امراة محبة جذبت عواطف نابوليون اليها بلطفها ورقتها ولم تمس امراة في ارتباك اعظم الارتباك الذي امست فيهِ فقالت للدوق دي روميغو ماذا افعل فانني اكتب الى الامبراطور مستشيرة فيجيب استشيري اباك . فماذا يقول ابي بعد ان الحق بي ضررًا عظيمًا . فهل اذهب الى الامبراطور بابني . ولكن اذا وقع بخطر والتزم بان يهرب ازيد ارتباكهُ وخطر وقوع الضرر عليهِ . انني في حيرة عظيمة

ولا اعيش الا لانوح وقد امسيت بدون نصير ولا معين . فارسل اليها حرس روسي من قبل الدول المتحدة وساربها الى رامبوليه وهي مركز جيد قديم لملوك فرنسا يبعد نحو ٣٠ ميلاً عن باريس فانضمت الى ابيها نيو وسارت هي وابنها الدول المتحدة وارسلت الى فينا قاعدة امبراطورية ابيها محروسة بالجنود الذين استطوا امبراطورية زوجها ولا نعلم هل قامت بعد ذلك بما جلب اللوم عليها بارادتها ام بقوة جبرية لم تقدر ان تتغلب عليها

وعين ٢٠ نيسان (افريل) لخروج الامبراطور نابوليون من فرنسا . واستكن خاطره في الايام التابعة لاعتزاله التي صرفها في فرنسا . وكان لا يزال يعلق امله بالسماح لزوجته وابنه بالذهاب الى جزيرة البا ليقيما فيها معه . وقال ان هواء الجزيرة طيب والاهالي يميلون جداً الي وسأتمتع براحة تكاد تكون تامة والمأمول ان تتمتع بها ايضاً ماريا لويزا . وقبل خروجه من فرنسا بايام قليلة اجتمع بموسيو وسي الذي كان وزير قصره فقال الوزير اننا متاسفون الان لاننا لم نعقد مجلساً في شاتيلون . فاجابه نابوليون بسكون انني لم اركن قط الى مخابرات اعدائنا فانهم في كل يوم كانوا يطلبون شروطاً جديدة ولم يكونوا يرغبون في المصالحة . وكنت قد صرحت بانني لا اقبل بشروط مذلة وان اصبح العدو في قلب مونمارتر . وقال في اثناء ذلك الحديث ما اغرب النصيب فانني في معركة ارسيس سور اوب افرغت جهدي في سبيل موت مجيد بالدفاع عن كل فتر من ارض فرنسا بيدي فعرضت نفسي للموت وكان الرصاص يتساقط حولي كانه برد كثير فتمزقت اثوابي به ومع ذلك لم اصب برصاصة . فلو مت موتاً ناشئاً عن الياس لفعلت فعل الادنياء . فقتل النفس لا يوافق قواعدي ولا المركز الذي كان لي في العالم فامسيت رجلاً محكوماً عليه بالعيشة

وكان الجنرال مونتولون في ضفات اللوار يستكشف البلاد فعاد الى الامبراطور واخبره بسرور عن ميل الاهالي والجنود اليه . وقال اذا جمعنا الجيوش الجنوبية نجمع قوة عظيمة . فقال له الامبراطور قد فاتت الفرصة وكنت قادراً على ذلك غير انهم (اي القواد) لم يقبلوا ولا ريب في انني قادر على القيام بحرب جديدة وان ادافع بنجاح على ان ذلك يكون عن اضرام حرب اهلية في فرنسا ولا ارضى باضرامها . وفضلاً عن ذلك قد امضيت ورقة الاعتزال ولا اعدل عما فعلت فليفعل النصيب ما يشاء

وفي صباح التاسع عشر من نيسان (افريل) كادت تتم تاهبات السفر . وعند اقتراب ساعة وداع كل ما كان يحبه استكن ومع ذلك لاحت على وجهه لوائح شفت عن افراغه الجهد في اخفاء اشد الحزن والكدر . وكان يحب ان يظهر الناس اشتراكهم بالحاسيات معه في ساعة بات فيها متروكاً . ومع ذلك كان كثيرون من ارفاقه في السلاح الذين كان يحبهم جداً يرقصون في المآدب التي اقامتها الدول المتحدة لابسين علامة البوربون البيضاء . ولا نعجب من ابتعادهم عن



وداعه . ومع ذلك علق الامل بحضور بعدهم لوداعه . ولم ينه بكلمة لوم على انه ذكر بكدر اسماء مولة وفونتان وبرتيه وناي . وكان كلما يسمع صوت قدوم عجلة الى القصر تلوح على وجهه لوائح الاضطراب ولم يات احد منهم . وفي النهار دعا كولانكور اليه وكان مستكناً غير ان تاثيرات المصائب كانت تلوح على وجهه فقال يا كولانكور اسير غداً الظهر . فصمتا فان الحزن تغلب على كولانكور فلم يقدر ان يجيب في الحال فتفرس الامبراطور في هذا الصديق الامين وامسك يده وقال ان قلبي حزين فلا ينبغي ان نفترق فاجاب كولانكور بياس يامولاي انني اذهب معك فانني امسيت اكره فرنسا فقال الامبراطور لا تخرج من فرنسا لانك ربما تنفعني فيها فمن يلاحظ احوال عائلتي واعواني الامناء ومن يدافع عن اولئك البولونيين الذين تقرر في المادة التاسعة عشرة من المعاهدة بان تضمن لهم الحقوق التي نالوها بالخدمة الامينة وهذه هي المادة المذكورة ان الجنود البولونيين اجمع يمكنون من الرجوع الى بلادهم بسلاحهم وامتعتهم ويكون ذلك بحسن خدمتهم الشريفة وسيحافظ الضباط والقواد والجنود على النياشين التي اعطيت لهم وتدفع لهم الرواتب المعينة بحسب اصول تلك النياشين انتهت ثم قال الامبراطور يا كولانكور ينبغي ان نعتني في ذلك فان هضم حقوق البولونيين يجلب العار على فرنسا وعلينا اجمع وكتبت تقريراً بناء على هذه المادة وعينت المبالغ التي اروم ان تدفع لحراسي ولاعواني ولرجال قصري العسكريين والمدنيين فالامانة لا تكافي بالمال غير انني لا اقدر ان اعطي غير مال فقل لهم ان هذا تذكار اتركه لكل فرد منهم شهادة بحسن خدماتهم فتيقظ يا كولانكور الى ان يتم اجراء ذلك وبعد ان صمت برهة قال انني بعد ايام اكون في مملكتي البا وارغب في ان ابلغها حالاً وقد حلت بامور عظيمة لفرنسا على ان الزمان خانني وقد قلت لك يا كولانكور وانت في دوبو ان الامة الفرنسوية لا تعرف ان تحتمل الرزايا وهي احذق الامم واشجعها على انه لا ثبات لها الا في الحرب فالكسر يخل نظامها وقد سارت الامة الفرنسوية معي ١٦ سنة من نصر الى نصر وقد تناست كل شيء في سنة انكسار واحدة فتنهد اشد تنهد ثم قال وقد عوملت معاملة معيبة فانهم قد ابعدوني بالقوة عن زوجتي وابني ففي اي كتاب وجدوا مادة تامر بحرم ملك من ان يعيش مع زوجته وابنه واي قانون بربري مكنهم من ان يفصلوا الذين جمعهم الله فالتاريخ سيقوم بثاري ويقول ان نابوليون الجندي الفاتح كان حليماً مطيعاً كريماً في الفوز وانه لما غلب عامله ملوك اوربا معاملة قاسية معيبة فصمت برهة ثم قال لقد توافقوا على ذلك الا ترى انهم لا يتجاسرون ان يقتلوني فتواطئوا على ان يقتلوني بالتدريج فالقتل يتم بالف وسيلة وكان يتكلم وقطرات العرق الكثيرة تقطر من جبهته وكان يتمشى باضطراب شديد ومن يقرا عن كدره يتذكر كدر جوزفين زوجته الاولى لما طلقها وربما كانت يد الله التي تحاسب الناس على خطاياهم وان نشات عن جهل قد حاسبته وادبته اما كولانكور فحاول ان يعزيه فقال له ان

كل صداقتي واجتهاداتي تبذل في سبيل انهاء هذا الفراق البعيد عن التقوى . فاتكل عليّ فساقابل الامبراطور التمساعند وصولهِ الى باريس والامبراطورة تساعدني فانها تروم ان تكون معك فيا مولاي لا تقطع حبال الامل فاجاب وقد سكن روعهُ بعض السكون يا كولانكور لقد اصبت فان زوجتي تحبني وهذا محقق عندي ولم افعل ما يحملها على التذمر . ولا ازال احبها وهي محبة بسيطة تنضل بيت زوجها على دوقية اعطيت لها احسانًا . وفي جزيرة البا اقدر ان اكون سعيدًا اذا كنت مع زوجتي وابني . وقال كولانكور لم اعلق الامل بما علق املهُ بهِ فانني خابرت الملوك والمحت عليهم بهِ وتوسلت اليهم ان يجيبوا طلبي . ولم يسعفني احد ولو بعثوا اليوبها ربما خلصت فرنسا من ويلات مائة يوم ستاتي اخبارها ونجا هو من عواقبها

وبعد برهة قصيرة رجع نابوليون الى سكونهِ وكان يتكلم بدون اضطراب عن رجوع البوربون الى الملك وعن الصعوبات التي تجعل ثبات الحكومة الجديدة ضربًا من المحال . وقال ان بين حاسيات البوربون والفرنسويين الحالية بونًا عظيمًا . فحوادث الاستقبال تكون عظيمة جدًا فيا كولانكور اكتب اليّ كثيرًا فان كتاباتك تعوض عليّ بعض التعويض الخسارة الناجمة عن بعدك . وتذكر تصرفاتك بلقي الصلح بيني وبين الجنس البشري فانت اصدق اصدقاءي . ثم امسك يدهُ بحب وقال لابد من الفراق وغدًا اتكل على تجلدي كلهِ وصبري في توديع جنودي وتوديع حرسي الباسل الامين الصادق في السراء والضراء . وفي الغد الوداع الاخير . وهذه هي الصعوبات الاخيرة التي لا مندوحة لي عن التغلب عليها وعند ذلك ارتجف صوتهُ وقال يا كولانكور صديقي لابد من ان نلتقي . فتغلبت عليهِ عواطفهُ وخرج من الغرفة . فهذا هو وداع الامبراطور الاخير للدوق دي فسنزا وهو كولانكور . فقال كولانكور خرجت من قصر فونتينبلو وقطعت ميلاً قبل ان رجعت الى نفسي وعرفت المكان الذي امسيت فيهِ . فاني خرجت من الغرفة والقيت بنفسي في العجلة بدون ان انتبه الى ما كنت افعل . وعندما تاملت في الحال رايت انني لم ادرك اهميتها قبل ومن المحقق انني لم اعرف سجايا نابوليون حق المعرفة قبل ذلك . ولم ارَ من عظمتهِ قط ما رايت عند ما همَّ ان يذهب الى المنفى . وكنت صاحب ثروة كافية لمعاشي وضجرت من الرجال واشياء الدنيا واصبحت راغبًا في الراحة . على انني رايت ان الراحة بدون الامبراطور عبارة عن خراب جميع التصورات التي كانت تجعل الحياة ذات قيمة . ولم ارَ انني اقدر ان اعيش عيشة خالية مما يصبو الانسان اليهِ فخيل لي ان اسافر الى بلاد اجنبية واطوف فيها وان اشتغل بامور عقلية لاشغل بها الايام الاتية الطويلة فتاملت في الاستقبال فرايت انهُ قد كتب على لوحهِ باحرف دموية معركة اولو

ونهج نابوليون بالنظر الى انفاذ المعاهدة التي تقررت منهج الكرماء الذين يبرُّون بوعودهم واظهر



ذلك بالكلام الذي حل بهِ قواد جيشهِ وضباطهِ من رباط خدمتهِ دون غيرهِ فانهُ حرَّضهم على خدمة وطنهم بامانة بمناظرة الحكومة الجديدة وجمع في غرفتهِ الضباط الذين كانوا لا يزالون محافظين على الصداقة والامانة ونظر اليهم بحب وودعهم قائلاً ياسادتي بعد ان ابتعد عنكم وتصير لكم حكومة اخرى من الواجب عليكم ان تخدموها بامانة كما خدمتموني وتنضموا اليها بخلوص . انني اطلب اليكم ان تقوموا بذلك بل امركم بهِ . فكل الذين يذهبون الى باريس اذنتهم بالذهاب اليها والذين يبقون هنا يصبون اذا خاطبوا حكومة البوربون طالبين الانضمام اليها

وكان نابوليون قد عين الظهر من عشرين ذلك الشهر ليذهب وانفرد قبلهُ في غرفتهِ . وعند الظهر صفت جنود الحرس الامبراطوري في ساحة القصر ليقدموا الاعتبار الاخير لامبراطورهم المنفي واجتمع جمهور غفير من الاماكن المجاورة للتفرج على ذهابهِ . واجتمع ماموروا الدول المتحدة وقواد الحرس الخاص وبعض ماموري القصر الامبراطوري يسكون في القاعة الواقعة امام غرفتهِ . وكان الجنرال برتران وزير القصر امينًا لنابوليون صادقًا صدوقًا فاخبر القوم بان الامبراطور قد حضر فمر بسكون وجلال واضطربت العواطف اضطرابًا تقصر الالسنة عن وصفهِ . ولما مر امام صف من اصدقائهِ امسكوا يدهُ وغسلوها بدموعهم . ولما بلغ السلم الكبير وقف لحظة ثم التفت ناظرًا الى الحرس الامبراطوري المصفوف في البلاط وعلى الجمهور الغفير المجتمع . وكان الجميع ينظرون اليهِ . وكان ذلك الاحتفال كأتم . وكاد الجنود يختنقون حزنًا . فلو ضجوا مادحين لكانت ضجتهم كالهزء . وكانت دموع اولئك الابطال تتساقط على خدودهم ورؤوسهم منحنية بحزن خالٍ عن التصنع . وكانوا يحسدون الفرقة الصغيرة التي سمح لها بان ترافق رئيسها المحبوب . ثم نظر نابوليون نظرة حنو وشكر الى الجيوش التي خدمتهُ بامانة . وتردد عن النزول الى الساحة فانهُ كاد يخسر تجلدهُ ثم جمع قوتهُ ودنا من الجنود فاخذت الطبول تدق مسلمة حسب العادة فاوقفها باشارة . فصمت الناس كان على رؤوسهم الطير فخطب بكلام بليغ جلي صريح سمعهُ ابعد الصفوف قال

يا قواد حرسي القديم وضباطهُ وجنودهُ اودعكم وقد رافقتكم في سبل الكرامة والمجد خمسًا وعشرين سنة . ففي هذه الايام الاخيرة كما في ايام النجاح لا تنقطعوا عن ان تكونوا امناء اصحاب شجاعة فاوربا تقلدت السلاح لمقاومتنا . ومع ذلك بوجود رجال مثلكم لا يمكن ان تدور الدوائر علينا ولو شئنا لاضرمنا نيران حرب اهلية سنين على ان ذلك يجعل بلادنا تعيسة ويضرّ بها . فجعلنا صوالحنا ضحية صوالح فرنسا . وسافارقكم فيا اصدقاءي اطلب اليكم ان تكونوا امناء للملك الجديد الذي قبلتهُ فرنسا وقد شغلت نفسي على الدوام بسعادة فرنسا وستكون على الدوام موضوع صلواتي الحارة جدًا فلا تحزنوا على نصيبي فانني اكون سعيدًا ما دمتم سعداء . ولم ارضَ بان ابقى في قيد الحياة الا بامل ترقية اسباب تمجيدكم . والمامول ان اتمكن من كتابة الاعمال التي اقمنا بها معًا .

اودعكم يا اولادي . فياحبذا لو تمكنت من ان اضمكم جميعًا الى قلبي فاسمحوا لي بان اقبل قائدكم وعلامة جيشكم

ولما سمع المجتمعون غسلت وجوههم بدموعهم وتصاعدت زفراتهم وعلت تنهداتهم فاشار نابوليون الى الجنرال بني قائد الحرس القديم الجامع بين البسالة والحنو ولطف الحاسيات فتقدم ووقف بين صفوف الجنود والامبراطور وكانت الدموع قد بدت في عيني نابوليون بدون ان تسقط فاعتنق القائد الذي كان يبكي بصوت مرتفع وكادت قلوب الحاضرين تذوب وسمع زفرة واحدة صاعدة من صفوف الجنود اجمع و بعد ذلك رجع الامبراطور الى نفسهِ وقال هات النسر ( علامة الجيش فتقدم بطل حامل تلك العلامة فقبل نابوليون منقارهُ الفضي ثم ضم النسر الى قلبهِ وقال بصوت مرتجف يا ايها النسر المحبوب فلتؤثر هذه القبلة الى الابد في قلوب جنودي الامناء . فاودعكم الله بارفاقي القدماء اودعكم . ولم يقدر احد ان يضبط نفسهُ عن البكاء فان الحزن تغلب على الجميع ثم ركب العجلة واحنى راسهُ الذي ابتلي بالحزن وغطى عينيهِ بيديهِ وسارت بهِ حاملة اكرم اولاد فرنسا الى المنفى

## الفصل الستون

### الامبراطور في البا

ونعين ثغر فريجوز الذي يبعد سبعمائة ميل عن باريس لينزل منهُ الى البحر وصرف ثمانية ايام في السفر الى الساحل . وكان نابوليون في القسم الاول من السفر موضوع تظاهرات حبية واعتبار فان كثيرين كانوا يجتمعون ليروهُ مارًّا وعند بدل افراس العجلة كان المجتمعون يضجون فليعش الامبراطور ولما دخل الولايات البعيدة عن باريس التي لم يكن الاهالي يعرفونهُ فيها كاهالي الولايات القريبة منها حال كون صوالج البوربون فيها كانت لا تزال مرعية ظن الناس انهُ يسي عرضة للاهانة وكان قليلون من اهالي بعض المدن التي كان يدخلها يضجون قائلين فليعش الملك اي البوربوني وربما قتل لولا احتياطات ماموري الدول ودرايتهم ورجع الى نفسهِ وبشاشتهِ وكان للاحتياط يركب فرسًا و يسير امام حرسهِ وكان كثيرًا ما يجيب على سوالات الناس ضاحكًا على ما كان يسمعهُ مما لا يوافقهُ وفي السابع والعشرين من ذلك الشهر بلغ الفريجوز وفي مساء ٢٨ منهُ ركب بارجة انكليزية بعد ان اطلقت اكرامًا لهُ ٢١ مدفعًا وكان قد هيء لهُ مركب فرنسوي ليسافر بهِ على انهُ امتنع ان يسافر تحت الراية البوربونية وسار معهُ ماموران من ماموري الدول وهما النمسوي والانكليزي ومع انهُ بات في شاغل عظيم فضلاً عن الهم والسفر لم ينس جوزفين الامينة وكانت في ماليزون في حزن عظيم وكتب اليها تكرارًا والظاهر من كتاباتهِ لها انهُ كان يعترف بجمايلها الكريمة وفطنتها و بعد ان خرج من فونتينابلو قاصدًا البا باربعة ايام كتب



اليها الرسالة الاتية

ياجوزفين المحبوبة كتبت اليك في الثامن من هذا الشهر غير انهُ ربما لم يصل كتابي اليك وكان القنال جاريًا وربما أُعيق الكتاب اما الان فلا بد ان تكون اسباب الاتصال ارجعت وقد عزمت على اجراء ما يوافق ولا ريب ان هذه الرسالة تتلقاك فلا اعيد ما قلتهُ لك فانني كنت مكدرًا مما اصابني اما الان فقد حررت نفسي من حمل ثقيل جدًّا وستوطي عظيم على انهُ قيل ربما نشات عنهُ منافع وباعتز الي ساجعل القلم يقوم مقام السيف وتاريخ ملكي غريب فان العالم لم يرني بعد بجلاء وسابرز لهُ نفسي كلها . فما اوفر الاشياء التي ابينها واكثر الذين يخدع الرجال بصفاتهم . وقد ثقلت بالجميل والمنافع ملايين من الكنودين . وقد خانوني جميعًا نعم كلهم على انني استثني اوجين الصالح الذي يستحق حبي وحبك . استودعك الله ياجوزفينتي المحبوبة فسلمي امرك الى الله كما سلمت امري اليهِ ولا تنسي الذي لم ينسك ولن ينساك . استودعك الله

نابوليون

حاشية . انني انتظر ان اسمع منك وانا في البا . ان صحتي ليست على ما يرام

فقرات هذه الرسالة وهي تنوح نوحًا شديدًا فانها حركت جميع عواطفها وجددت حزنها على رفيقها السابق وقالت في نفسها لا بد ان ابقى هنا فان اقامتي في هذا المكان نافعة للامبراطور والصحيح ان ذلك واجب على ماريا لويزا اكثر مما هو واجب عليَّ ولكن الامبراطور بات منفردًا متروكًا فلا اتركهُ وان هجرهُ غيري وربما استغنى عني وهو سعيد اما الان فلا ريب عندي بانهُ ينتظرني وامست في حيرة وارتباك لانها لم تكن تعلم ماذا تعول عليهِ ماريا لويزا زوجة نابوليون فكتبت اليهِ الرسالة الاتية

انني لم ادرك قبل الان عظمة المصيبة التي جعلتني اشاهد عقد الزواج الذي كان يربطني بك محلولاً بالقانون . والان بت اندب سوء حظي اذ انني لست الا صديقة لك تقدران تبكي من مصيبة عظيمة غير منتظرة . فيامولاي لماذا لا اقدر ان اطير اليك ولماذا لا اقدر ان ابين لك انهُ لا يخاف النفي الا العقل الضعيف . وان المصائب بعيدة عن ان تضعف حبًّا خالصًا بل انها تأول الى تجديد قوتهِ . وكدت اخرج من فرنسا لاتبعك ولاخصص بك الباقي من حياة طالما زينتها . على ان امرًا واحدًا منعني عن ذلك وانت تقدران تخمنهُ فاذا علمت انني دون غيري اقدر ان اقوم بالواجب علي فما من شيء يعوقني وساذهب الى المكان الذي لا اصادف فيهِ سعادة بعد الان لانني اقدر ان اعزيك وانت مصاب ومنفرد . فقف بكلمة واذهب يامولاي فانني استودعك الله . ومهما قلت يكون قليلاً فلا ابرز عواطفي المتعلقة بك بالكلام بعد الان اما الاعمال فلا يقام بها الا برضاك

وبعد ان كتبت هذه الرسالة بايام قليلة مرضت من شدة الهم والحزن . وفي برهة قصيرة تبين ان اجلها قريب وسمعت بذلك بدون اضطراب ولا خوف وتناولت القربان ثم قالت لولديها اوجين وهورتنس الذين كانا يبكيان عند فراشها انني طالما رغبت في سعادة فرنسا وافرغت جهدي في سبيل ترقية اسبابها واقول بصدق ساعة موتي ان زوجة نابوليون الاولى لم تكن سبب اذراف دمعة واحدة . ثم طلبت صورة الامبراطور وتفرست فيها بحب طويلاً وضمتها الى قلبها بحرارة وفاهت بالدعاء الاتي وهو . اللهم احرس نابوليون ما زال في قفر هذا العالم واسفاه انهُ قد ارتكب خطأ عظيماً ولكنهُ كفرعنهُ بضيقات عظيمة . فيا ايها الاله العادل انك قد نظرت الى قلبهِ ورايت انهُ مملوء بالرغبة في القيام باصلاحات نافعة ثابتة . فاسالك ان تجيب طلبي هذا الاخير وتشهد صورتهُ هذه ان توسلاتي الاخيرة ودعائي النهائي تعلقت بهِ وباولادي

وماتت في التاسع والعشرين من ايار (مايس) بعد ان وصل نابوليون الى البا باقل من اربعة اسابيع . وقضت نحبها ماسكة صورة نابوليون وناظرة اخر نظرة الى هيئتهِ المحبوبة جدًّا عندها وقائلة بصوت ضعيف جزيرة البا . نابوليون . وسلمت الروح براحة وابقيت جثتها اربعة ايام في احتفال ملكي وجاء قصر ماليزون الذي ماتت فيهِ اكثر من عشرين الفًا من الملوك والامراء ورجال السياسة والاهالي والفلاحين الذين كانوا يعبدونها ليروها المرة الاخيرة وجثتها مدفونة الان في كنيسة قرية رول القديمة وتبعد ميلين عن ماليزون وفوق القبر تمثالها من المرمر وهي جاثية لابسة ثياب التتويج وكتبت على القبر كتابة مختصرة وهي من اوجين وهورتنس الى جوزفين

وفي مساء الثالث من ايار (مايس) عند غروب الشمس ظهرت جبال البا السوداء في الافق وعندما اقتربت البارجة من الشاطىء اهدى نابوليون ملاحيها كيسًا فيهِ ٢٠٠ ليرا فرنسوية . فشكرهُ احد الملاحين بالنيابة عن ارفاقهِ داعيًا لهُ بطول البقاء وبتوفيق اعظم في المرة الثانية

وفي صباح الغد نزل الى البر واطلقت البارجة سلامًا ملكيًا واطلقت مئة مدفع من بورتو فيراجو قاعدة مملكتهِ الصغيرة . ولم يذهب توًّا الى القصر الذي اعدَّ لهُ ولكنهُ فعل كالسياح ووقف على الشاطىء عند تفريغ ما يختص بهِ وكان احيانًا يسعف الفعلة بيدهِ . وكان الحر شديدًا فتضايق القبطان اوشار الذي كان واقفًا بالقرب منهُ فراى نابوليون ضيقهُ فقال لهُ ممازحًا انني متعجب من ان ارى ضابطًا انكليزيًا في خدمة كثيرة المشاق والاتعاب مؤثرًا بحرارة الشمس وبقي على هذه الحال ساعتين يناظر على بضاعته . ثم ركب فرسًا ودعا القبطان الى مرافقتهِ قائلاً اروم ان ارى البلاد فصعدوا على مكان مرتفع كان يرى منهُ اكثر الجزيرة وطولها ستة عشر ميلاً ومعظم عرضها ١٢ ميلاً واقلهُ ميلان . وعدد سكانها ١٢ الفًا . وبعد ان نظر اليها برهة متفرسًا



فيها طولاً وعرضًا قال متبسمًا لا انكر ان امبراطوريتي صغيرة . وقابلهُ الاهالي بسرور عظيم . وكان الفلاحون عند ما يقابلونهُ يركعون ساجدين فتكدر نابوليون من ذلك لدلالتهِ على ذلهم ونسبهُ الى احتياجهم للتعليم والى نفوذ سطوة الآمرين فيهم . وكانت الجزيرة صغيرة ومع ذلك لم يهملها بل نهج منهجًا موافقًا لمفريهِ من جهة المشروعات النافعة . وفي يومين او ثلاثة ايام زار كل جهة من جهات امبراطوريتهِ الجديدة وفحص المعادن والملاحات والكروم والآجام والفرض والحصون فحصًا علميًا وراجت الاعمال في الجزيرة رواجًا عظيمًا في برهة قصيرة ومهدت طرق جديدة وحفرت ترع وحياض وشيد مستشفى وتسهلت اسباب صيد السمك واصلحت الملاحات وكان بالقرب منها جزيرة غير مأهولة اسمها ريانوزا وكانت قد هجرت بسبب تعديات لصوص البحر من الغرب . فارسل نابوليون اليها ٢٠٠ من حرسهِ كمستعمرة ليستولوا عليها ورسم حصونًا لصد اللصوص وقال متبسمًا ستقول اوربا انني فتحت بلادًا . وحوَّل كل قواهُ الى انماء ثروة اهل امبراطوريتهِ الصغيرة ورفاهيتهم وسعادتهم . وقال مستر ايرلاند المؤرخ . قيل ان الامبراطور كان لايزال يميل الى التمرينات الحربية . الا ان هذا القول ليس بصحيح فان جيشهُ لم يعرض عليهِ مطلقًا فيها . وفي اوائل حزيران (جون) جاءتهُ امهُ وشقيقتهُ بولين للاشتراك في منفاه . وعند ذلك استاذنهُ المامور النمسوي وخرج من الجزيرة وبقي مامور انكلترا وحدهُ فيها وكان مركزه مذلاً لهُ ومكدرًا لنابوليون . وكان حاذقًا وسرَّ نابوليون في بادي الامر بمعاشرتهِ غير ان مامورينهُ المكدرة لنابوليون جعلتهُ بعيدًا عنهُ . وانقطع نابوليون عن ان يعتني بهِ فراى انهُ ضيف لا يصادف ترحابًا ومع ذلك كان ملتزمًا بان يراقب كل ما كان يجري في البا وان يقرر عنهُ الى الوزارة الانكليزية . وفي النهاية لم يمكَّن من الاجتماع بالامبراطور الا حين كان يسترخصهُ بالغياب ثم السلام عليهِ عند الرجوع

واصبحت تلك الجزيرة اشهر مكان في اوربا بوجود الامبراطور فيها . فان كثيرين من السياح كانوا يتقاطرون اليها من جميع جهات اوربا . وكان القواد الفرنسويون والايطاليان والبولونيون يجتمعون ليحيوا ملكًا كان اشهر ملوك اوربا وان كانت مملكتهُ اصغر ممالكهم . وكان يمكَّن جميع الذين كانوا اصحاب تهذيب ومركز موافق من ان يجالسوهُ ويعاشروهُ ويتكلم بحرية غريبة وكان يسر الجميع بعلو ارائهِ ونواياه الخيرية وكان يذكر الماضي كمورخ ويذكر نفسهُ كمن قد مات سياسيًا . وكانت لوائح السكون تلوح على وجههِ ولم يكن ينوه بما يدل على اسف او ندم وكان يميل الى ستر عيوب الذين كانوا قد اخطأوا اليهِ واضروهُ ويسرُّ بملاهي الفلاحين البسيطة وكانوا يكلمونهُ بحرية وحب كانهُ ابوهم وفي ذات مرة كان بعضهم يتناظر بالسباق او ما اشبه ذلك فطلب اليهِ ان يكون الحكم فارتضى بسرور واهاج المتناظرين وكلل الفائز بيدهِ وكان لهُ بيت

زراعة قريب من قصره البسيط في بورنو فيراجو وكان يذهب اليهِ كل يوم مع امهِ وكثيرًا ما كان يتسلى باطعام الدجاج وكانت امهُ قد بلغت السبعين ومع ذلك كانت ذات منظر مهيب جليل لطيف ولم يكن ينام طويلاً وكثيرًا ما كان ينام على مقعد بدون ان يخلع ثيابهُ وكان ينهض باكرًا جدًّا ليقرأ ويكتب ويتناول الطعام قبل الظهر بساعة او بساعتين ثم ينام برهة قصيرة جدًّا وكان يسر جميع الذين كانوا يدنون منهُ ولم يكن يذكر مصائبهُ وبلاياهُ الماضية وكان يلبس ملابس بسيطة وكان التغلب فيهِ للمعقولات فالاميال الحيوانية كانت ضعيفة جدًّا فيه وهكذا صرف فصل الصيف بسرعة وحظ والدول المتحدة التي ارجعت اوربا الى قبضة يدها كانت لا تزال مجتمعة في فينا تخاصم على قسمة ما سلب من الاراضي بسقوط الامبراطور نابوليون واخذ البوربون يرجعون بسرعة الى ما كانوا عليهِ قبل قلب دولتهم من الجور والظلم والاستبداد . وكانت جميع الاحزاب تتضجر من حكمهم خلا المتطرفين من الاحزاب الملكية اما امبراطور روسيا فكان قد تعلم بعض امور متعلقة بحقوق الاهالي من نابوليون فحاول ان يجعل الملك لويس الثامن عشر الذي خلف نابوليون براعي الراي العام وقال لهُ ان الفرنسويين قد وقفوا على الحقيقة من جهة التملك بالحق الارثي ولا يرتضون بهِ فلا بد لك من ان تجعل مجلس الاعيان ينتخبك ملكًا ليرى الشعب انك مالك بارادتهم واختيارهم ومن الحكمة ان تعترف بان الحكومة التي ساست فرنسا عشرين سنة انما هي حكومة قانونية فاذا حسبت تاريخ ملكك من يوم موت الملك لويس السابع عشر تغيظ الفرنسويين وتكدرهم لان ذلك عبارة عن التصريح بان الامبراطورية اختلاس شيدت بدون قانون ولا نظام وحكومة روسيا مطلقة وامبراطورها يتصرف كيف يشاء ومع ذلك اشار على ملك فرنسا الجديد بمراعاة النظام لمصلحتهِ ومجاراة لاراء الفرنسويين . على ان الملك لويس اجاب بتعظم قائلاً . هل اجعل من حقوق مجلس الاعيان التصرف بتاج فرنسا حال كونهِ آلة المختلس ومساعدهِ على التعدي والجنون والاختلاس فالتاج ليس لهم وان كان لهم فهل يخطر ببالك انهم يعطونهُ لبوربوني . لا . ان موت اخي وابن عمي قد جعل العرش ينتقل اليَّ بالارث . فهذا هو الذي يجعلني ملك فرنسا . واوربا قد وضعتني على عرشها لا لقيام صالح رجل او عائلة ولكن مراعاة لقاعدة . فهذا هو حقي وليس لي حق سواهُ لابسطهُ امام فرنسا والعالم . فما هو الحق الذي يجعلك تامر الملايين الذين قدتهم الى هذا المكان ليرجعوني الى عرشي . فافحم امبراطور روسيا بهذا الكلام اما برنادور فاشار على ملك فرنسا بما يختلف قليلاً عن مشورة امبراطور روسيا وصادفت مشورتهُ قبولاً لم تصادفهُ تلك فانهُ قال يامولاي الق الخوف منك في قلوب الفرنسويين فتفوز بحبهم والبس المخمل فوق بد من حديد . وهكذا ارتكب البوربون خطا صرف النظر عن روح العصر وانواره وارتكبوا متن الحماقة بمحاولة اخضاع فرنسا لظلمات القرون المتوسطة ومظالمها وقال



نابوليون ان البوربون لم يتعلموا شيئًا اثناء نفيهم ولم ينسوا شيئًا

وكان الملك لويس الثامن عشر قد بلغ من السن نحو ستين سنة وكان ضعيفًا يتالم جدًّا بمرض النقرس وكاد يعجز عن المشي وكان يتكلم بسهولة وذا صفة جعلت اصدقاءهُ يقولون انهُ ثابت العزم واعداءهُ انهُ عنيد . وكان يلبس احذية من مخمل لئلا تتالم رجلاهُ بالجلد وكان لبسهُ من الزي القديم وشعرهُ مرتبًا بانتظام عظيم بجعلهُ الحلاق جعدًا فوق جبهتهِ وكان يربطهُ من خلف بمنسوج ضيق اسود ثم يسدل على كتفيهِ وكان يلبس برنيطة ذات ثلث زوايا مزينة بالريش وغير ذلك فلما راهُ اهالي باريس على تلك الحال المضحكة داخلاً مدينتهم بسيوف الانكليز والروس والنمسويين والبروسيان قاصدًا قصر التويلري ليملك عليهم عوضًا عن نابوليون ادهشوا وتحولت دهشتهم بالحال الى هزء واحتقار واخذوا يتذمرون طالبين الرجل الكريم المنفي في جزيرة البا . واهانوا ملكهم الجديد بتلقيبهِ لويس الخنزير ولقبوا البوربون بالخنازير ونقشوا مثالاً قبيحًا ونشروهُ في كل المملكة وصوروا فيهِ نسرًا جميلاً فارًّا من القصر المذكور وقطيعًا من الخنازير يعج عند ابوابهِ

وصرف البوربون جيش الحرس الامبراطوري لانهُ لم ينسَ قائدهُ العظيم واحاطوا انفسهم بحرس جمع من اسافل اهالي سويسرا وبدلوا الراية المثلثة الالوان براية البوربون القديمة وابطل الملك بافتخار جميع اعمال الحكومة الامبراطورية قائلاً انها حكومة اختلاس وارخ امرهُ الاول بالسنة التاسعة عشرة من ملكهِ اي انهُ حسب ملكهُ قبل ان ابتدا فعلاً بتسع عشرة سنة كانهُ لم يكن في فرنسا حكومة في تلك المدة . وضيق دائرة الحقوق الانتخابية وحصرها في قليلين من الاهالي فامسى مجموع الذين لهم حق الانتخاب في دولتهِ ثمانمائة الف رجل بعد ان كانوا نحو خمسة ملايين رجل في دولة نابوليون . واهان الامة بقولهِ انهُ مالك بحق الهي وليس بارادة الشعب . واذلَّ البوربون فرنسا بما اعطوهُ للدول المتحدة فانهم تنزلوا عن جميع الاراضي التي ربحتها فرنسا اثناء الثورة والامبراطورية . وهكذا خسرت فرنسا خمسة عشر مليونًا وستين الف نفس وسلموا الى المنتصرين ١٢ الف مدفع ومن الذخائر والمونة ما لا يعد ولا يحصى وهدموا قلعًا وسلموا الدول حصونًا فيها مائة الف رجل وحصروا عدد الجيش بثمانين الف رجل . وهكذا سلبت الدول المتحدة سلاح فرنسا وقيدت يديها قبل ان مكنوا البوربون من الاستيلاء عليها . فاشتد غيظ الاهالي وكثر تذمرهم من ذلك حتى التزمت الحكومة بان تقيد الجرائد باشد القيود

ولما أغري برنادوت ملك اسوج الى خيانة نابوليون ووطنهِ بمحاربتهما تعهدت الدول المتحدة سرًّا بان تضم مملكة نروج الى مملكة اسوج . ولما كانت قد تعهدت باعطاء بلاد ليست من املاكها التزمت بان تعول على السلب والنهب لتفي بعهدها . فوقع اهالي نروج في ياس ونهضوا

جميعاً كانهم رجل واحد وقالوا اننا مستعدون لان نموت في سبيل الدفاع عن حرية نروج القديمة وأُرسل وفد منها الى انكلترا ليتوسل اليها بكلام يحرك الشفقة بان تساعدهم وقال المورخ اليسون ان تعهدات الدول المتعلقة باسوج كانت صريحة قاطعة حتى انهُ لم يكن سبيل الى الاصغاء الى توسلات شعب باسل يحامي عن استقلاله وان كانت مما يحرك العواطف . فارسلت انكلترا بوارجها بدون مسوغ ولا داع الى نروج لتحمل عليها وبرنادوت صب اليها مع ضعف حالها جيشاً جراراً فحارب اهالي نروج محاربة الابطال والبأس جيوشاً تفوقهم كثيراً في العدد . غير انها لم تلبث ان سقطت مثخنة بالجراح فغسلتْ الدول المتحدة سيوفها من دم محبي وطنهم وسلمت الفريسة الى برنادوت . وكان ذلك داعياً الى غيظ الحزب المضاد للحكومة في مجلس انكلترا العمومي وصرح بان هذا العمل لطخ انكلترا بعار لم يلطخ بعد بمثلهِ . غير ان حزب الحكومة كان اقدر من مقاوميها . وجرت هذه الامور في ايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (اوكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٨١٤

ولم تكتفِ الدول بذلك ولكنها صرفت النظر عن جميع الحقوق العمومية والخصوصية واخذت تقاص جميع البلدان التي مالت الى خلع نير الاستبداد . والتزم الصكصون الكرماء ان يشربوا كاس الذل حتى ثمالتهِ وضم الى بروسيا قسم عظيم من مملكة صكصونيا وسلم الى استبدادها واسكت بلوشار بجيوشهِ الدموية جميع الذين كانوا يميلون الى الحرية . اما دوقية ولرسو وهي قسم من بولونيا المنقسمة فسبق نابوليون بكرامة الاخلاق الى منحها الحرية فقيدت يديها ورجليها وارجعت الى روسيا وانفذ فيها اشد الظلم فالتزم اهلها ان يستكينوا ويخضعوا . وداست جيوش النمسا ميلان بعد ان كانت قد تمتعت بحكومة حرة وفازت بنجاح لم تفزهِ قبل . وصدق من قال في مجلس انكلترا العام ان هذا السلب والنهب والعدوان فاق كل ما اتهم نابوليون بارتكابهِ . واعتذر السار اليسون المورخ المحامي عن الحقوق الموروثة في انكلترا بان جميع البلاد التي تصرفت بها الدول المتحدة ذلك التصرف بارادتها او بدون ارادتها بانفاذ قرار مؤتمر فينا كانت قد حاربت الدول وكانت قسماً من الامبراطورية او من ملحقاتها المتحدة معها وضمها الى بعض الدول المتحدة انما هو عاقبة الحروب المبنية على قانونها القاسي وهو الذي يحكم بنصيب المغلوب المكدر منذ بداية العالم

وكانت جميع هذه الدول مشيدة بعقل رجل واحد فسقوطهُ سبب سقوطها كلها . وعرفت الدول المتحدة حق القوة العظيمة الذي كانت تعضد النظام الحرّ في اوربا ولذلك تعاونت على خلع نابوليون بونابرت وحدهُ فليجب على هذا الذين يلومون نابوليون لانهُ لم يجعل الممالك التي انشاها جمهوريات فلماذا لم يبادر اهاليها الى انشاء الجمهوريات عند سقوط نابوليون . وشفق جميع كريمي الاخلاق على فردريك اوغسطس ملك صكصونيا فانهُ حافظ بامانة على الصوالح



العمومية فشدد قصاصهُ . فانهُ سجن مدة في قلعة فردريكسفليد لما كانت الدول تحكم بماذا ينبغي ان يجري وسلب منهُ ثلث مملكتهِ وضم الى بروسيا . فضعف بخسارة مليونين من رعاياه وبات بدون قوة في وسط الاستبداد والظلم وبعد ان امسى على تلك الحال سمح لهُ بالعود الى عرشهِ فغاظ ذلك اهالي اوربا فانهم راوا ان تصرفات الدول آلت الى اضعاف الحقوق العامة وتقوية الجور والظلم والاستبداد

وكان نابوليون في البا يقرأ الجرائد الاوربية بلذة ولم يكن يبالي بالاهانات التي كانت الدول المتحدة وحليفاتها تلحقها بهِ . وفي ذات يوم دخل عليهِ الجنرال برتران حاملاً الجرائد الفرنسوية فقال لهُ هل اكثر القوم من اهانتي اليوم فاجاب ياسيدي اليوم لم تلحق بجلالتكم اهانة . قال الظاهر انها اجلت الى الغد فانها حمى متقدة

وقال الدوق دي روفيغو ان اعمال نابوليون تدافع عنهُ مهما تعاظمت الاهانات اللاحقة بهِ واشتد الطعن والتنديد . وما هي الا اثار تعقلهِ وحذقهِ ومشروعاتهِ التي لا تفنى تشهد بفعلهِ ويصعب على من يروم ان يقتدي بهِ ان ياتي بمثلها والفرنسويون يقرون انها ادلة اشرف ازمانهم التاريخية . ولسان حالها يرد على المنددين والطاعنين المحبين الانتقام وعند ما يسلب الزمان اسلحة العدوان يتقرر في العقول ان نابوليون رجل الشعوب وبطل القوانين الحرة فيفتخر التاريخ بهِ وحينئذٍ يفوز بالثناء الذي يحق لهُ ان ينالهُ وتدرك المقاومات التي صادفها فيميز الناس بين حكومة مطلقة سمت اليها الحاجة وبين حكومة تدبر الامور قانونياً وبين مشاكل الحال والحالة السياسية المقررة التي كان مصمماً على ان يجعل الفرنسويين يبلغونها ويتضح للجميع انهُ كان اقدر الناس على جعل فرنسا سعيدة ولولا الحروب التي فتحها الاعداء عليهِ لفازت بكل الرفاه

وبعد مرور فصل الصيف بات الامبراطور في ارتباك من الاحتياج الى نقود فانهُ كان قد صرف ما كان قد جاء بهِ والبوربون لم يراعوا تعهداتهم واحتملوا لوم الدول المتحدة لانهم اهملوا دفع المبلغ الذي عين للامبراطور المنفي كمعاش سنوي في معاهدة فونتينابلو . واهملوا ذلك بدون مسوغ البتة . فان نابوليون كان قادراً على ان يطيل الحرب ويكبد الدول خسائر وافرة ويريق دماء الوف . والامتناع عن انفاذ تلك المعاهدة نقض ذمة فخجلت الحكومة الانكليزية من ذلك واللورد كاسليار وزير انكلترا اعترض على البوربون غير ان اعتراضهُ ذهب سدى . فلما راى نابوليون ذلك بادر الى قطع الاصلاحات واخذ يوفر . وفي اثناء الشتاء البارد كان يصرف الزمان في غرفتهِ يطالع التاليفات والجرائد ويحدث مشاهير الرجال الذين كانوا يتقاطرون اليهِ ليزوروهُ ويروهُ . وكان يصرح بارائهِ بحرية مع انهُ كان يعلم انهُ لا بد من ان تذاع في اوربا كلها وقد دوّن اللورد ابرنكتون الحديث الذي جرى بينهُ وبين نابوليون في ٦ كانون الاول

(دسمبر) فقال لهُ نابوليون اخبرني بحرية هل ارتضي الفرنسويون . اجاب بين بين . فقال نابوليون هذا محال فان الدول تجاوزت حدود الاعتدال في اذلالهم وقد اجبروا على قبول ملكهم وهذا الاجبار من انكلترا . ثم ذكر الكراريس التي طبعت في فرنسا لاحتوائها الطعن فيهِ وقال انهُ قيل في بعضها اني خائن جبان . فالانسان لا يتالم الا بذكر الحقيقة فان الفرنسويين يعرفون انني لست بخائن ولا بجبان . وكان الاولى بالبوربون ان يعاملوني كما عاملتهم اي ان لا يسمحوا لاحد ان يمدحني ولا ان يذمني فقال اللورد ابرنكثون ماذا تقول عن امبراطور روسيا . اجاب انهُ بوناني مطلق لا يتكل عليهِ . ومع ذلك هو معلم صاحب قواعد حرة اكتسبها من الحكيم لا هارب استاذهُ غير انهُ ستر حقيقة حالتهِ اما فرنسيس امبراطور النمسا فاقرب الى الامانة من امبراطور روسيا ولكنهُ اقل معرفة واهلية منهُ واركن اليهِ اكثر مما اركن الى سائر الملوك وعندما يتعهد بشيء يكون مصمماً على انفاذه غير انهُ ضعيف العزم قليل الثبات . اما ملك بروسيا فهو خال من الفكر لا يعرف اكثر من الجدي البسيط وهو اجهل الامبراطورين الثلثة ثم جرى الحديث بينهم عن الحرب الاخيرة فقال نابوليون كمن تذكر حوادث غير متعلقة بهِ ان سقوطنا ينسب الى مارمون فاني سلمتهُ اقوى جنودي ومركزاً مهماً جداً وكيف انتظر خيانة رجل غمرتهُ بالاحسان والجميل مذ كان عمرهُ خمس عشرة سنة فلو ثبت لتمكنت من اخراج الدول المتحدة من باريس فينهض الاهالي معي فيها وفي فرنسا قاطبة غير مبالين بارادة مجلس الاعيان وكان عدد الاعداء ثلثة اضعاف عددنا قبل انفصال مارمون عنا وبعد خيانتهِ انقطع الامل من الفوز ومع ذلك كنت قادراً على ان ابقي فرنسا وان اطيل الحرب سنين غير انني لم اعلق الامل بالفوز على رغم انف اوربا المتحدة فصممت على ان اخلص فرنسا من حرب اهلية وانا اعدُّ نفسي من الموتى فان الموت والعيشة في هذا المكان سيان فقال اللورد المذكور الم تتعجب من سبق برتيه الجميع الى الترحب بالبوربون . فقال متبسماً قد اخبروني انهُ ارتكب خطأً كهذا غير ان عقلهُ كان ضعيفاً وكنت قد رفعتهُ فوق الدرجة التي يستحقها لانهُ كان يسعفني بالكتابة ومع ذلك كان اميناً فاذا برزت الى ميدان الوجود يسبق الجميع الى الاعراب عن تاسفاتهِ بالدموع . ولا اتمنى غير امر واحد وهو ان ارى برتيه المسكين لابساً ملابس قائد حرس لويس الخصوصي وهذا الانتقام كافٍ لي ثم قال صادقاً انني لم انتقم من احد مطلقاً لعلة شخصية . فاذا ذهبت الى انكلترا ماذا اصادف هل ارجم . فقال اللورد اظن انك تكون في امان تام فان بغضك ضعف بابطال الحرب . قال اظن انني اعرض نفسي لخطر من تعديات العامة وذكر اللورد كورنوالس ومدحهُ قائلاً انهُ لم يكن ذا تعقل عظيم على انهُ شرف بلاده بالامانة وسلامة القلب وكان من اكابر الانكليز اسماً وفعلاً . وياحبذا لو كان عندي مثلهُ في فرنسا . وكنت اعرف مقاصد انكلترا من



جهة التصميم على المصالحة فعلاً او اضاعة الزمان بالمخابرات من الاشخاص الذين كانت الحكومة ترسلهم لمخابرتي ولولا موت مستر فوكس لعقدنا صلحاً فان فتح المخابرات لما خابرنا ليرند يدلُّ على انهُ كان راغباً في المصالحة . ولا ريب انك تتذكر الامور المتعلقة بالقائل غير ان الذين كانوا شركاء مستر فوكس في الادارة لم يكونوا يميلون مثلهُ الى السلم . فقال اللورد اننا حسبنا اعظم حساب لارائك المتعلقة بتوسيع املاك فرنسا حتى ان كثيرين من رجال سياستنا ومنهم اللورد غرانفيل كانوا يخافون ان يصالحوك . فقال نابوليون انكم اخطاتم فانني كنت اروم ان اجعلكم تعدلون وانا اعتبر الصفات الانكليزية غير انني ارغب في الحصول على تجارة بحرية حرة . فتحكم الحروب مكنني من توسيع ملكي ولم اكن اهمل الفرص عند سنوحها . غير انني كنت محتاجاً الى بضع سنين راحة لاكمل ما كنت اروم ان انفع فرنسا بهِ . قل للورد غرانفيل ان يزورني في البا . واظن انهُ تقرر عندكم في انكلترا انني ابليس وقد رايتموني ورايتم فرنسا فلا بد من ان تغيروا افكاركم من هذا القبيل

وقال ذلك اللورد ثم ندد بسجنهِ السياح الانكليز وادعائهِ ان ذلك قيام بحق الثار لاننا غنمنا الغنائم بحراً قبل اشهار الحرب . وقلت ان ذلك تقرر بالعادة . فقال نعم ان العادة جعلتهُ مقبولاً عندكم انتم لانكم تربحون وليس عند الذين يخسرون واذا صح لكم ان تضعوا قوانين دولية جديدة تصح لي ايضاً ان اضع نظيركم قوانين اخرى جديدة . ومن المقرر عندي انكم تقرون بقلوبكم باصابة اجراتي وقد اقمت بالعمل بهمة وسرعة وانا مثلكم لا اخلو من اميال لصوص البحر . وقال ذلك اللورد انهُ متعجب من عدم مبالاة نابوليون بالمصائب التي المت بهِ وقد قال ان العالم اجمع تعجب من ذلك اكثر مني ورأيي من جهة الرجال ليس باحسن راي وانا من الذين لا يركنون الى النصيب وكان اخواني اقرب الى الملوك مني فانهم تمتعوا بلذات الملكية مع انني لم احصل الا على اتعابها

وكان اهتمام الفرنسويين بالبا يزداد يومياً وكثرت التذمرات حول العرش البوربوني فخاف الملك لويس الثامن عشر واصدقاؤهُ ورأى حزب الملكية انهُ لا غنى لهُ عن ابعاد نابوليون لان شهرتهُ الشخصية كانت تجعل راحة اوربا في خطر وحاول كثيرون قتلهُ فكان اصدقاؤهُ يخبرونهُ بذلك . وكان نابوليون غير قادر على ان يحامي عن نفسهِ فبات عرضة للقتلة . اما حكومة انكلترا فكانت غير مرتضية من منفاه لانهُ كان قريباً من اوربا . فاخذت حكومة الانكليز تخابر شركة الهند الشرقية بشان استلام جزيرة سانتا هيلانة . ويقال ان اللورد والنغتون لما ذهب الى الهند وعاد منها قال انها سجن موافق لنفي نابوليون الذي كان يكرههُ كرهاً شديداً وشاع ان الدول المتحدة صممت على نقل الامبراطور نابوليون من البا الى جزيرة سانتا هيلانة

وقال اللورد هولاند بعد ان ذهب الامبراطور الى البا ارسلت اليهِ زوجتي جرائد انكليزية اذ قيل لها انهُ يرغب جدًّا في ان يطالعها وكان فيها فقرة تشير الى مخابرة جارية بين الدول المتحدة بشان ارسالهِ الى سانتا هيلانة . ومن المحقق ان هذا الامر وان كان مخالفًا للشرف والامانة فقد جرت المفاوضة بشانهِ بين الدول قبل ان خرج نابوليون من البا . وقد ابنت ذلك في مجلس امراء انكلترا اثناء الكلام عن معاملة الجنرال بونابرت ولم يكذب الخبر . واخبرني ثقة من الانكليز المستخدمين في موتمر فينا بعد ان خرج نابوليون وسار قاصدًا باريس وقبل معركة واترلو ان الدول تخابرت بنقلهِ الى سانتا هيلانة . فتحقيق خبر كهذا كافٍ لان يحل ارتباط نابوليون بمعاهدة فونتينابلو ويبطل صك اعتزالهِ ويسوّغ لهُ ايجاد الوسائل اللازمة لارجاع امبراطورية خسرها منذ برهة قصيرة

ولاشي يدلُّ على قوة نابوليون الغريبة كالاحوال المذكورة فانهُ امسى رجلاً بدون سلاح وبدون مال عائشًا بسكون في جزيرة صغيرة في البحر المتوسط يقرا كتبهُ ويكلم زوارهُ في غرفتهِ ويدبر صوالح عدد غير قليل من الفلاحين ومع ذلك كان اسمهُ ذا قوة كافية لازدياد عدد المشتركين معهُ في الحاسيات بعد سقوطهِ ولالقاء الخوف والرعبة في قلوب ملوك اوربا المستبدين المحاطين باسلحتهم اللامعة الفائزة هذا وكان قد نقض بعض معاهدة فونتينابلو نقضًا معيبًا فاصبح نابوليون غير مقيد بها . ودلت الاحوال على قرب الاضطراب في فرنسا فانها امست فريسة ثورة اخرى فان الامة كانت تروم من صميم الفواد رجوع امبراطورها المخلوع وكان نابوليون يراقب هذه العلامات والادلة باهتمام عظيم فكان يطالع الجرائد بدقة ويقرأ لوائح واردة عليهِ من اصدقائهِ عن ارتباك حالة فرنسا وعدم ارتضاء اهلها بالدولة البوربونية ومحاولة قتلهِ تكرارًا او اسره خفية وسجنهِ بكل ضبط واخبروهُ بحب الفرنسويين لهُ وشوقهم الشديد الى رجوعهِ

وفي اواخر شهر شباط (فنريه) مضى عليهِ وهو في جزيرة البا نحو عشرة اشهر وكان في خطر مبين فانهُ كان يخاف القتلة او ان يسرقهُ رجال البوربون فيزج في سجن لا يقدر على الخروج منهُ وكان يخاف ذلك الف مرة اكثر من الموت . فضايقتهُ هذه الاحوال فصمم ان يرجع الى فرنسا ويقدم نفسهُ للاهالي فيعيدونهُ الى العرش او يقتلونهُ . وسارت شقيقتهُ بولين الى اواسط اوربا واجتمع بها اصدق اصدقاء نابوليون ولما عادت اخبرتهُ بان رفاقهُ في السلاح قد ندموا جدًّا لانهم تركوه وانضموا الى البوربون وانهم يبسطون لديهِ الرجا بان يعود الى فرنسا واجمعوا على ان اهالي فرنسا يبادرون لاعادتهِ الى العرش الذي ازالتهُ قوة اجنبية عنهُ . وفي اوائل شباط (فنريه) جاء جزيرة البا سرًّا البارون شابولون احد اعضاء مجلس الشورى غير المتقدمين في السن وقابل الامبراطور خفيةً وقال انهُ جرى بينهما الحديث الاتي وهو . قال الامبراطور يا بارون بلغني انك وصلت



الان اتيًا من فرنسا فاخبرني عن باريس هل اتيت بكتابات من اصدقائي . اجاب يا مولاي لم آتِ بكتابات . قال نابوليون قاطعًا حديثهُ قد رايت انني قد برحت من بالهم كما برحت من بال الاخرين . قال يا مولاي انك لا تبرح ابدًا من بال فرنسا فانك تكون ابدًا محبوبًا عندها حبًّا شديدًا صحيحًا فهذا شان كل فرنسوي صادق . قال نابوليون قد اخطأت فان الفرنسويين قد حصلوا على ملك اخر فمن الواجب عليهم ان ينسوني مراعاة لسعادتهم وفروضهم . وقد نشرت اكاذيب كثيرة متعلقة بي في باريس ويقال فضلاً عن ذلك انني سانتقل الى مالطة او سانته هيلانه فليتاملوا في ذلك فان عندي زادًا لستة اشهر ومدافع وابطالاً ليدافعوا عني وساجعلهم يتكبدون خسائر وافرة قبل ان يتمكنوا من ذلك . غير انهُ لا يخطر في بالي ان اوربا تعبث نفسها بالتسلح لمقاومة رجل واحد لا يرغب في الاضرار بالاخرين ولا يميل الى ذلك . والامبراطور اسكندر يعتبر راي الاجيال الاتية فلا يرضى بارتكاب ذنب كهذا فان الدول ضمنت لي بمعاهدة مملكة البا فانا هنا في بيتي فما دمت لا اخرج ولا اخاصم جيراني لا يحق لاحد ان يكدرني في شيء . هل يحب اهل فرنسا البوربون . اجاب البارون ان البوربون لم ياتوا بما انتظرهُ الفرنسويون منهم فتذمر المتذمرين يزداد يوميًا . قال نابوليون ان هذا غير موافق لهم . لماذا لم يبعث فلان اليَّ بكتابات . اجاب انهُ خشي ان توخذ مني ومع ذلك بين امورًا كثيرة معلومة عند جلالتكم وعندهُ فقط ومعرفتها دليل الركون اليَّ . قال الامبراطور بينها لي . قال البارون اخذت ابين لهُ بعض تفاصيل . فقال لي هذا كافٍ لماذا لم تبينها في بادي الامر فاننا اضعنا نصف ساعة . فارتبكت . فراى ارتباكي فرجع الى التكلم بلطف وقال اجلس براحة واخبرني عن كل ما جرى بينك وبين فلان . فاخذت اقص عليهِ الاخبار ولكن لم يسمع ما هو موثر بدون ان يقطع حديثي بملاحظاتهِ فقال ذات مرة انني ظننت لما اعتزلت ان البوربون لا يرجعون الى الخطإ الذي آل الى اسقاط دولتهم سنة ١٧٨٩ بعد ان علمتهم الشدائد والضيقات ما علمتهم اياهُ وعلقت املي بان الملك يدبر اموركم ادارة رجل صالح فان ذلك وحدهُ يجعلكم تنسون ان الاجانب الزموكم بقبولهِ على ان البوربون قد ارتكبوا اغلاطًا كثيرة منذ عادوا الى فرنسا ومعاهدتهم المعقودة في ٢٣ نيسان (افريل) كدرتني جدًّا . فانهم سلبوا البلجيك من فرنسا واخذوا جميع الاراضي التي استولت عليها فرنسا منذ الفتنة وسلبوا اماكن بناء البوارج ومصانع المدافع والاسلحة ومدافعها وبوارجها والذخائر الوافرة التي جمعتها في المخازن وفي القلع والثغور وتاليراند هو الذي ساقهم الى هذا العمل المعيب فلا بد من ان يكون قد ارتكب الرشوة فالصلح بشروط كهذه سهل ولو قبلت مثلهم بخراب فرنسا لما كانوا جالسين على عرشي غير ان قطع يدي اليمنى اقرب من التوقيع على شروط كهذه . وفضلت ترك عرش على المحافظة عليهِ بمس مجدي وناموس فرنسا . فالعرش المهان ثقيل لا يحتمل واذاع اعدائي في كل مكان انني

اصررت على الامتناع عن المصالحة وقالوا انني مجنون تعيس ظمآن الى شرب الدماء . فهذا الطعن ساعدهم على بلوغ غاياتهم . وحين تروم شنق كلب تذيع انهُ جن . غيرانهُ لا بد من ان تقف اوربا على الحقائق وساخبرها بما جرى في شانبلون وابين حقيقة اعمال الانكليز والروسيين والنمسويين بيد قادرة وستكون اوربا الحكم وترى من يسوقهُ الظماء الى شرب الدماء ومن هو الموارب . وكان من السهل عليَّ ان ارجع بجيشي الى ما وراء اللوار . وامتنع بحرب جبلية غيرانني رفضت ذلك لانني ضجرت من الحروب . وكان اسمي والابطال الذين حافظوا على صداقتي بامانة علة ارتجاف الدول المتحدة وهم في نفس قاعدتي فعرضوا عليَّ ملك ايطاليا ثمن اعتزالي فرفضت ذلك لانهُ بعد ان يملك الانسان في فرنسا لا ينبغي ان يملك في محل اخر فاخترت جزيرة البا فسرت الدول باعطائها لي وهي موافقة لمقاصدي لاني اراقب منها فرنسا والبوربون . فكل ما فعلتهُ كان لفرنسا . ورغبت في ان اجعلها الامة الاولى في الدنيا مراعاة لصالحها وليس لصالحي . فانني فزت بكل المجد . فلو انحصر اهتمامي بنفسي لعدت الى حالة خصوصية وكان عليَّ ان احافظ على اللقب الامبراطوري مراعاة لعائلتي وابني وبعد فرنسا هو ابني لانهُ هو كل شيء في الدنيا اليَّ

وكان الامبراطور يتمشى بسرعة واضطراب اثناء هذا الحديث وصمت برهة ثم قال ان المهاجرين يعرفون انني في هذا المكان وفي كل يوم اكتشف مؤامرات جديدة وقد ارسلوا الى كورسكا احد القتلة المتحد مع جورج وهو من الاشرار الذي قالت الجرائد الانكليزية نفسها انهُ قاتل يحب سفك الدماء وسارسل حراسي ليناثروهُ وسيقتل باطلاق الرصاص ارهابًا للاخرين وبعد ذلك صمت الامبراطور ثم قال هل يذهب فؤادي الى البلاط الملكي في فرنسا فاذا كانوا من الذين يذهبون اليهِ فلا بد من ان يكونوا في ذل . فاجاب شابولون انهم يذهبون اليهِ ويغتاظون جدًا اذ انهم يرون انفسهم دون بعض المهاجرين الذين لم يسمعوا صوت اطلاق مدفع حرب . فقال نابوليون ان المهاجرين لا يغيرون تصرفاتهم واخطأت بارجاعهم الى فرنسا حال كونهم حزبًا مقاومًا لما فيهِ خير وطنهم ولولا ارجاعي لهم لماتوا جوعًا خارجها . ولم ارجعهم الا مراعاةً لامور خطيرة فانني كنت راغبًا في ارضاء اوربا وقفل ابواب الفتنة . وماذا يقول جنودي عني . اجاب يامولاي انهم لا يلفظون اسمك ابدًا الا باعتبار ومدح وحزن . فقال نابوليون باسمًا انهم لا يزالون يحبونني اجاب نعم يامولاي واظن ان حبهم لجلالتك الان اشد من حبهم السابق . وعندهم ان مصائبنا نشأت عن الخيانة ولا ينفكون عن القول انهم لو لم يباعوا للاعداء لما غلبوا . قال لقد اصابوا ويسرني ان اسمع ان جيشي لا يزال يعلم انهُ ممتاز وقد تبين لي انني اصبت لما خمنت بالنظر الى فرنسا . فالبوربون لا يستحقون ان يملكوا ولا يقدرون على القيام باعباء الملك . وربما كان الكهنة والامراء والاميرات من ذوي العقول القديمة يسرون بملكهم على ان الجهل الحالي لا يرضى



بهم . فان الفتنة علمت الاهالي ان يعرفوا مركزهم بالنسبة الى الحكومة فلا يرتضون ان يرجعوا الى ما كانوا عليهِ من عدم الاهمية . والجيش لا يقدر ان يصبح محبًا للبوربون فان انتصاراتنا وبلايانا وصلت الجيش بي بصلات لا تنقطع . فالبوربون لا يحبون ولا يخافهم الناس . والظاهر ان الحكومة تسير بسرعة الى السقوط . والذين يتحزبون لها هم الكهنة والمهاجرون دون غيرهم وكل محب لوطنهِ وصاحب حمية هو عدوٌّ لهم . فماذا تكون نهاية هذه الامور فهل يظن القوم اننا نضرم نيران ثورة جديدة . فقال شابولون يامولاي ان الناس في عدم ارتضاء واضطراب عظيم فاقل ارتباك يضرم نيران فتنة عمومية ولا يعجب الناس اذا شبت نيرانها غدًا . فقال الامبراطور ماذا تفعلون اذا طردتم البوربون هل ترجعون الجمهورية . قال ياسيدي انها لا تخطر لاحد ببال فربما كانت فرنسا تقيم وكالة قال بتعجب هل مت . قال اما انت غائب عن فرنسا فقاطعهُ نابوليون بالحديث وقال ان غيابي لا يغير الحال انني اقدر ان اعود الى فرنسا في يومين اذا دعتني الامة الى الرجوع هل تظن ان رجوعي من الاصابة . قال يامولاي انني لا اتجرأ ان اجيب على سوال كهذا السوال ولكن . فقاطعهُ في الحديث وقال انني لا اسالك الاتيان بتفصيل . اجبني بنعم او بلا . قال يامولاي اجيب بنعم بلا تردد . فقال نابوليون بلطف هل هذا رايك بدون ريب . قال نعم ان هذا هو رايي كما انهُ راي موسيو . . . وهو ان الاهالي والجيش يقابلونك مقابلة مخلص ويبادرون الى عضدك بحمية وسرور . وقد عرف ان جلالتك تسالني عن هذه الامور وقال لي قل للامبراطور انني لا اتجاسر ان احكم قطعيًا بامر خطير كهذا غير انهُ يقدر ان يتحقق ان الحكومة الحالية قد خسرت ركون الاهالي والجيش . وان الامة متذمرة جدًا ولا يخطر ببال احد ان الحكومة تقدر ان تثبت طويلاً حال كونها موضوعًا لكره الناس الشديد . وقل لهُ فضلاً عن ذلك انهُ موضوع تاسف الامة ومركز تعليق املها وحكمتهُ تسوقهُ الى القيام بما يراهُ موافقًا فظهرت على وجه نابوليون لوائح الاضطراب الشديد فان ذكاءهُ كشف لهُ عن عواقب الامور العظيمة فصرف زمانًا طويلاً في التمشي في القاعة ذهابًا وايابًا وهو غائص في بحر من التاملات ثم قال انني ساتامل في هذه الامور فارجع الى هنا غدًا قبل الظهر بساعة

وفي الساعة المعينة رجع اليهِ فبعد ان تفاوضا مليًا مفاوضة مشابهة للمفاوضة المار ذكرها قال لهُ نابوليون ساذهب قاصدًا فرنسا والمشروع عظيم محفوف بصعوبات ومخاطر كثيرة غير انهُ لا يفوق اقتداري فان السعد لم يتركني اذهب على انني لا اذهب وحدي فانني لا اعرض نفسي لخطر الوقوع في ايدي الضابطة فساذهب بسيفي وحراسي والبولونيين الذين هم في خدمتي وفرنسا كلها متحزبة لي فانني لها وساضحي راحتي واريق دمي وابذل حياتي بسرور عظيم في سبيل خدمتها ولم اعين يوم ذهابي . وناخيرهُ يمكنني من الانتفاع بنهاية اعمال المؤتمر غيرانني اعرض نفسي لان

ابيت اسير مراكب الانكليز والبوربون اذا حدث ما تدل الاحوال عليهِ من وقوع خلاف بين الدول . فاذهب وقل للموسيو . . انك قابلتني وصممت على ان اعرض نفسي الكل خطر لاجيب مطالب فرنسا واخلص الامة من البوربون وانني ساخرج من هذا المكان مع حرسي في اول نيسان ( افريل ) او قبل ذلك اليوم

وقال الدوق دي دوفيكو في تاريخهِ ان تاليراند وجه كل خاطرهِ وهو في فينا الى الاضرار بالامبراطور نابوليون وقال انهُ ثقل ملقى على عاتق فرنسا تنتوي بهِ امال جميع العقول المضطربة واصاب بذلك فان جميع الاحزاب كانت تهتم بالامبراطور وكانت الامة تزداد اهتمامًا بصالحهِ بازدياد تاملها في تفاصيل الحوادث العظيمة التي جاءت بسقوطهِ . وكان تاليراند يتذكر رجوع نابوليون من مصر ودخولهُ فرنسا وكان يخشى ان يعاد ذلك وكان يقال ان راحة اوربا تتوقف على سكون فرنسا وثبت ان ابعاد الامبراطور لازم مراعاة للراحة العمومية فنجح تاليراند في نوال ما يرومهُ ولم يمانعهُ الا امبراطور روسيا وارتضى بجاراتهِ في نهاية الامر . وكان تاليراند يفرغ جهدهُ في سبيل ترويج مطلوبهِ وانفاذهِ بالسرعة وقيل حينئذ ان ابعاد نابوليون مسلم الى السارسدني سمث الذي تظاهر بمامورية الحمل على الغرب . ولم اقف على هذه الاخبار الا بما تقرر جهاريًا في باريس بورود كتابات عليها من لندن متضمنة تفصيلات متعلقة باعمال المؤتمر الذي كانت الابصار اجمع شاخصة اليهِ . وتقرر وقتئذ في الجرائد الانكليزية انهُ سيصير ابعاد الامبراطور الى جزيرة سانت هيلانة . ونقلت الجرائد الالمانية هذا الخبر وكان الامبراطور يطالعها باطراد وهو في البا . ولم يبقَ ريب في انهُ سيصير انفاذ هذا الامر . ولما تحقق نابوليون هذه الامور صمم على العود الى فرنسا متحققًا انهُ لا سبيل الى التخلص من الابعاد الا بذلك بعد ان تحقق انعقاد النوايا على خرق حرمة منزلهِ حال كونهِ غير قادر على صيانتهِ ولا على البقاء فيهِ بدون دفع المبالغ المعينة لهُ

## الفصل الحادي والستون

وفي صباح السادس والعشرين من شباط ( فقريه ) ادبت البرنسس بولينا شقيقة نابوليون اكرامًا لضباط الجيش والاجانب الممتازين واعيان الجزيرة . وكان نابوليون يكتم ضيوفهُ بحريتهِ العادية ودعتهِ العجيبة . واطال الحديث مع سياح انكليز كانوا قد جاءوا البا ليتفرجوا عليهِ غير انهُ كان يكتم مقاصده ولم يعتقد مؤامرة ولكنهُ استند الى قوة عقلهِ بفتح مملكة . وفي اخر السهرة خرج من القاعات المزينة واخذ معهُ الجنرال برتران والجنرال دروبو ثم قال لهم على انفراد قد صممنا على الخروج من هذه الجزيرة غدًا فاحجزوا السفن الراسية واركبوا جيش الحرس صباحًا ولا ينبغي ان يسمح لمركب بالخروج من المينا الا بعد ان نخرج نحن ولا تبينوا مقاصدي لاحد



وصرف القائدان المذكوران باقي الليل في اجراء هذه الاوامر . وعند طلوع الشمس تم ركوب الضباط والجنود وعددهم اجمع الف رجل في سفينة نابوليون الصغيرة وفي ٣ سفن تجارية . وكان جنودهُ متعودين الطاعة العمياء فلم يسال احدهم سوالا بل ركبوا البحر بدون ان يعرفوا شيئًا من مقاصد الامبراطور . وعند الظهر جاء قارب سفينة الامبراطور البرفركية وساربهِ اليها واطلقت المدافع للتسليم عليهِ . وعند ذلك سارت السفينة المذكورة ومعها ٣ سفن وهبت ريح موافقة سارت بهم الى سواحل فرنسا وكان النهار جميلاً ولوائح السرور تلوح على وجه نابوليون . ومن لا يعجب من عملهِ فهو قد سار في الف رجل لا يقدرون ان يحبوهُ من الضابطة قاصدًا فتح مملكة تغلبت على اوربا سنين كثيرة حال كون كل ملوك اوربا تعضد البوربون الذين كان احدهم قد استوى على عرش تلك المملكة . ولم يقم احد بما قام بهِ نابوليون ولم يخرج عن دائرة الحكمة فان احوالاً غريبة ساقتهُ الى القاء نفسهِ في تهلكة كان يامل النجاة منها بعجائبية الوقوع في تهلكة اخرى لا يتم لهُ التخلص منها . ولم يخرج من البا الا بعد ان تحقق انهُ لا يقوى على البقاء فيها بأمان . فان الدول المتحدة لم تكن تبرُّ بعهودها ولا تقوم بوعودها بل كانت تحاول ابعادهُ عنها بالخداع والحيل . ولم يكن يقدر ان يهرب مختفيًا ليتبعهُ اهل الارض كمجرم هارب فلم يرَ بدًّا من القاء نفسهِ بين يدي فرنسا التي كانت لا تزال تحبهُ محبة عظيمة . فلا سبيل الى الطعن فيما فعل وبعد ان توارت الجزيرة عن ابصار القوم وقف الامبراطور على ظهر المركب وجمع حولهُ كل من فيهِ وكان عددهم اربعمائة نفس وقال لهم يا اصدقائي اننا ذاهبون الى فرنسا بل سنذهب الى باريس . ولم يكن الرجال يعلمون بذلك فلما سمعوا هذا الخبر ضجُّوا بفرح قائلين فليعش فرنسا فليعش الامبراطور . وسروا سرورًا لا مزيد عليهِ وكانوا يرومون ان يظهروا في وطنهم بانتظام وترتيب ففرقوا في الحال في المركب لينظفوا اسلحتهم ويصلحوا ملابسهم . وكان معهُ الاتباع المحبون المخلصون . وكان يخاطبهم باخلاص وصداقة كانهُ والد يخاطب اولادهُ . وفي السهرة دخل غرفتهُ ودعا عدة من الذين يعرفون الكتابة والقراءة ليكتبوا فجلسوا فتمشى برهة وفاه بسرعة بالاعلان الاتي البليغ الذي نشره على الجيش

يا ايها الجنود اننا لم نغلب . على ان رجلين من صفوفنا خانا اكاليلنا ووطنهما وامبراطورهما ومخلصهما فهل نسمح للرجال الذين صرفوا خمسًا وعشرين سنة في الجولان في اوربا ليهيجوا اعداءنا الى مقاومتنا حال كونهم قد صرفوا حياتهم في صفوف جيوش الدول الاجنبية يقاومون فرنسا وطننا الجميل ويحاولون تقييد نسورنا ( النسر من علامات فرنسا ) حال كونهم لم يقدروا ان يحتملوا نظراتها النارية . فهل نسمح لهم بان يتمتعوا بثمرات جدنا المجيد وان يحجزوا شرفنا واملاكنا ليطعنوا بمجدنا . فاذا استمرَّ ملكهم يضيع كل شيء حتى انتصاراتنا العظيمة . الا يصفون اعمالنا

بالغيظ كذبًا فانهم يحاولون ان يسمعوا العالم ما يستغربهُ ولم يبقَ من يدافع عن مجدنا الا بين الاعداء الذين كسرناهم في ميدان الحرب

ايها الجنود سمعت صوتكم وانا في المنفى واتيتكم مجتازًا كل المخاطر والصعوبات فقائدكم الذي استوى على العرش بانتخاب الامة مرفوعًا بمجانكم قد رُدَّ عليكم فهلموا الى الانضمام اليهِ . وهيوا اطرحوا تلك الرايات التي ابعدتها الامة عنها وقد كانت ٢٥ سنة محور اجتماع اعداء فرنسا وارفعوا الراية المثلثة الالوان التي خفقت فوق رؤوسكم في انتصاراتنا المجيدة ولا بد ان ننسى اننا سدنا على امم اخرى غير اننا لا نسمح لها بان تتداخل في امورنا فمن يدعي انهُ سيدنا . من يقدر على ذلك . فرجّعوا العلامات التي كانت لكم في معركة أُلم واوسترلتس وجينا وايلو ووغرام وفردلاند وتودلا واكسوهل واسلين وسمولنسك وموسكو ولوتزن وورنشن ومونمرايل . هل تظنون ان هذا القوم القليل من الفرنسويين المتعودين القحة يقدرون ان يحتملوا النظر الى تلك الاعلام . فليرجعوا الى المكان الذي جاءوا منهُ وليملكوا هناك كما ادعوا انهم ملكوا ١٩ سنة . واعظم خطر يلحق برتبكم ومجدكم واملاككم ورتب اولادكم ومجدهم انما يصدر من اولئك الملوك الذين الزمنا الاجانب بالخضوع لهم . فهم اعداء مجدنا . وذكر هذه الاعمال العظيمة التي جعلت الامة الفرنسوية ذات مجد وشهرة يسوق الى الحكم بلزوم محاربتهم الى ان يطرح نيرهم . ولقد بات ابطال جيش الساجر والموز والرين ومصر والجيش العظيم في ذلّ مبين . فالجراحات الشريفة قد حسبت من علامات الذل والفوز من الاثام فيكون اولئك الباسلون عصاة اذا صح ما يدعيهِ اعداء الامة المذكورون من ان الملوك القانونيين كانوا في صفوف الجيوش الاجنبية . فالملوك المذكورون يمنحون الرتب والمكافاة الذين خدموا في مقاومتنا ومقاومة وطننا

ايها الجنود اجتمعوا تحت راية رئيسكم فانهُ لا يكون بدونكم وحقوقهُ هي حقوق الشعب وحقوقكم وليس لصالحهِ وشرفهِ ومجدهِ غير مركز واحد وهو انتم . والنصر يتقدم بخطوات سريعة وتطير رايتنا مع النسر علامتنا من مكان الى مكان الى ان تخفق فوق كنيسة نوتردام . وحينئذٍ تظهرون جراحكم بشرف وتفتخرون باعمالكم وتكونون محرري بلادكم . وحين تطعنون في السن تجلسون محاطين بابناء وطنكم الذين يحترمونكم ويصغون باعتبار الى اخبار اعمالكم الكريمة . فيحق لكم حينئذٍ ان تقولوا بافتخار انني كنت من ذلك الجيش المفتخر الذي دخل مرتين اسوار فينا ورومية وبرلين ومدريد وموسكو الذي طهّر باريس من الاقذار التي نجستها والخيانة وحضور العدو . فالشرف هو شرف اولئك الجنود وهم محبو وطنهم الفرنسوي والعار يلازم الى الابد اولئك الفرنسويين المذنبين الذين حاربوا مع الجيوش الاجنبية ليمزقوا احشاء بلادهم

ثم كتبوا اعلانًا اخر باسم الاهالي وهاك نصهُ



ايها الفرنسويون . ان خيانة الدوق دي كاستيليون اوقعت ليون في حوزة اعدائنا بدون دفاع والجيش الذي وجهت قيادتهُ اليهِ كان قادرًا ببسالتهِ وحبهِ للوطن ان يظهر على النمسويين ويحمل على مؤخرة الجيش الذي كان يتهدد باريس وعلى جناحهِ . وكان جيش العدو في مركز مخوف بخطر لا سبيل الى خروجهِ منهُ سالمًا بانتصار شامبوبر ومونمرال وشتوثياري وفوشان ومورمان ومونز ووكربوم ولرم وارسيسور اوب وسان ديزيه وبفنتة فلاحي لورن الباسلين وفلاحي شمبانيا وألزاس وفرانش كونتي وبوكوندي وبالمركز الذي اصبحت فيهِ في مؤخرتهِ متمكنًا من قطعهِ عن مخازن ذخائره وعجلاتهِ ونجداتهِ . وكاد الفرنسويون يبلغون قوة لم يبلغوها قط فان نخبة جيش اعدائهم امست بدون اسباب المعاش ووسائل القتال . واشفت على الهلاك في الولايات المتسعة التي اخربتها بدون شفقة ولكن خيانة الدوق دي راغوز أسلمت القاعدة اليها وأخلّت بنظام الجيش . فاعمال القائدين المذكورين غير المنتظرة غيّرت عواقب الحرب فانهما خانا وطنهما وامبراطورهما ومخلصهما وبات العدو بعد الحوادث التي جرت في ظاهر باريس بدون ذخائر منفصلاً عن جميع امداداتهِ وذخائره . فهذه الحوادث غير المنتظرة مزقت قلبي لكنها لم تضعف عزمي فلم اراعِ غير صوالح بلادي ونفيت نفسي الى صخر في وسط البحر . وحياتي لا تزال نافعة لكم وتبقى كذلك . ولم اسمح للكثيرين من الاهالي الذين راموا ان يرافقوني بان يقاسموني النفي في البا لاني علمت ان بقاءهم في منازلهم ينفع فرنسا فلم يصحبني غير قليلين من الابطال اللازمين لحراستي

ولما كنت قد تبوأت العرش بانتخابكم كان كل ما يجري بدون اختياري غير قانوني . وفي الخمس والعشرين سنة الاخيرة اصبحت فرنسا ذات صوالح ونظام وعادات ومجد جديد لا تصونها غير حكومة وطنية ودولة جاءت بها الاحوال الجديدة . فالملك الذي يحاول ان يتسلط عليكم بالاستواء على العرش بقوة قد اخربت بلادنا لا يقدر ان يعضد نفسهُ بقواعد القوة الموروثة . فانهُ لا يرقى غير صوالح افراد قليلين من اعداء الشعب الذين قد قضت عليهم جميع مجالسنا الوطنية بالعقاب ٢٥ سنة . فهذا يجعل راحتكم الداخلية واعتباركم الخارجي في ضياع الى الابد

ايها الفرنسويون . سمعت وانا في المنفى تشكياتكم ومطالبكم فانكم تطلبون حكومة انتم تختارونها وهي وحدها الحكومة القانونية . وقد اتهمتموني بالغفلة عن الصوالح طويلاً ولمتموني قائلين . انني أثرت راحتي على صوالح الامة العظيمة . وقد جزتُ البحر محفوفًا بمخاطر متنوعة ورجعت اليكم لارجاع حقوقي وهي حقوقكم فكل ما جرى في باريس شفاهًا وكتابة منذ فتحها باطل ولا يؤثر مطلقًا في ما اتذكرهُ من الخدمات الخطيرة . ومن الحوادث ما لا تقدر تدبيرات الرجال ان تتغلب عليهِ

ايها الفرنسويون . من حقوق جميع الامم وان كانت صغيرة ان تخلص نفسها من ذل الخضوع لملك أُلزمت على الخضوع له . ولما دخل الملك كارلوس السابع باريس واسقط دولة هنري السادس اقرّ انه فاز بالتاج بشجاعة شعبه الباسل لا بارادة ملك يملك بالوكالة في انكلترا . وعلى ذلك لست بمديون لاحد الا لكم وحدكم ولجيشكم الباسل نابوليون

وبعد ان كتب نابوليون الاعلانين المذكورين دعا اليه جميع الذين يعرفون الكتابة من الملاحين والابطال واستخدم مائة قلم في نسخها لتوزع الوف منها عند وصوله الى فرنسا . وعند المساء ظهرت بارجة فرنسوية اسمها «الزفير» وسارت الى جهة سفينة نابوليون . فامر نابوليون جميع الحراس ان يختبئوا في قلب المركب لئلا تظهر حقيقة امرهم ونحو الساعة السادسة اقترب كل من المركبين من الاخر ووقف رئيس كل منهما على ظهر مركبه وفي يده بوق التكلم وبعد ان تكلما برهة سال رئيس البارجة الفرنسوية عن الامبراطور فاخذ نابوليون البوق من يد رئيس مركبه واجاب انه متمتع بصحة جيدة جدًّا

وفي صباح الغد راى نابوليون بارجة فيها ٧٤ مدفعًا تتقدم من مركبه فاضطرب هو وقومه جدًّا اذ راى انه لا سبيل الى مصادمة بارجة عظيمة ولكنها سارت بطريقها بدون ان تلتفت الى مركب نابوليون فانها لم تكن تعرف ان في قلب تلك السفينة الصغيرة رجلاً عظيمًا يعدُّ الناه القبض عليه فوزًا كبيرًا . ولما توارت البارجة عن اعينهم جمع نابوليون قوادهُ حوله وقال ياساتي اليوم حدثوا رفاقكم بالجد فتعال يابرتران واكتب دعوة لرفاقك الجنود . فاعتذر ذلك المارشال العظيم قائلاً انه لم يجد كلامًا موافقًا للحال لانها خطيرة جدًّا . فقال نابوليون لا باس اكتبوا وانا اتكلم عنكم اجمعين ثم كتب اعلانًا بدون ان يتردد وهو

ايها الجنود . ان الطبول تضرب لحمل السلاح وقد سرنا فهبوا بنا مجتمعين الينا منضمين الى امبراطوركم ورايانكم . فاذا تجاسر اولئك الرجال الذين باتوا على جانب عظيم من القحة ان يلاقونا بعد ان كانوا يركنون الى الفرار بمشاهدة سلاحنا نريق دمنا حبًّا بشرف اعظم من هذا الشرف ونترنم بالنصر

ياجنود الجيش السابع والثامن والتاسع عشر حامية انتيب وطولون ومرسيليا ويا ايها الضباط والابطال المعروفون انكم دعيتم لشرف جعل انفسكم قدوة هبوا بنا نسير لاسترجاع العرش اساس حقوقنا . ولتعلن ذريتنا ان الاجانب والخائنين الزموا فرنسا بنير الذل غير ان الباسلين نهضوا فاختفى اعداء الشعب والجيش

وكتب اعلانًا اخر بسرعة ليكون مع كل جندي عدة صور منه ليوزعها على الفرق الفرنسوية وعند المساء ظهرت جبال فرنسا لاعين الذين في المركب عند غياب الشمس ففرحوا جدًّا واخذوا



يلوحون ببرانيطهم ويضجون بسرور عظيم . فنال نابوليون فلنلبس البرانيط المثلثة الالوان لنعرف البلاد بنا فعند ذلك طرح كل جندي البرنيطة المختصة بجزيرة البا ولبس البرنيطة المثلثة الالوان فان كلاً منهم كان قد حفظها . واشتد فرح اولئك الرجال وسرورهم ففني النوم من اعين القوم وفي فجر الغد دخلت السفن التي خرجت بنابوليون وجنوده من مينا البا خليج جوان وهو المكان الذي دخله وهو راجع من مصر . وكان دخوله اليه في اول شهر اذار (مارس) سنة ١٨١٥ وقبل الظهر بسبع ساعات نزل الامبراطور في مكان منفرد بالقرب من كانز وعين معسكرًا لجيشه الصغير الحامل على فرنسا في بستان من الزيتون يبعد قليلاً عن الشاطئ فاشار الى ورق الزيتون وهو رمز السلام وقال هذا مما يتفاءل به وسننال المقصود . فدهش بعض الفلاحين لما راوا حلول الجنود بغتةً وكان بينهم فلاح خدم نابوليون فعرفهُ في الحال واصرّ على ان ينتظم في فرقته فالتفت الامبراطور الى برتران المارشال العظيم وقال له باسمًا هوذا نجدة قد فزنا بها . وفي ساعات قليلة نزل الى البر ستمائة رجل ومعهم ثلثة مدافع صغيرة واخذوا يستريحون في بستان الزيتون قبل المسير للقيام بحملاتهم الغريبة . فانهم كانوا مصممين على قطع سبعمائة ميل من مملكة فيها ثلاثون مليونًا من السكان ليفتحوا اعظم قاعدة في اوربا . وكان مع قواد البوربون نحو مائتي الف رجل في الحصون والقلاع المنيعة وكان ملوك اوربا المتحدون لا يزالون جامعين مليوني جندي وتعاهدوا على تعزيز الدولة البوربونية على رغم انف الفرنسويين . ولا ذكر لحوادث غريبة كهذه ناشئة عن الظلم والاعتساف في صفحات تاريخ العالم . وتأمل نابوليون في الاحوال وجعل اعماله موسسة على اساسات الحكمة . فان ملايين فرنسا كانوا يحونهُ محبة تكاد تكون عبادة . وكان عالمًا بذلك وانهُ يستحق التمتع بحبهم المفرط وان جميع اسباب النجاح سائرة في خدمته فلم يخش سوء العواقب . فكان يسير بين عساكره القليلين الذين كان يدعوهم اولادهُ ويكلمهم بحرية باسمًا قائلاً لهم انني اعلم ان مجيئي يلقي اشد الرعب في قلوب البوربون ويوقع جميع الذين تحزبوا لهم وقاوموني في اعظم ارتباك . ثم خطر ببالهِ اصدقاؤهُ فانصرفت افكارهُ عن نفسهِ وعن المخاطر المحدقة به فقال ماذا يطرأ على محبي وطنهم في باريس قبل ان ادخلها فانني ارتجف خوفًا من ان يذبحهم احزاب البوربون فالويل للذين يضرون بهم فانني لا ارحمهم

ولم يقدر هذا الجيش الصغير ان يسير الا قبل نصف الليل بساعة . وكان القمر يضيء بجلال في سماء خالية من الغيوم . وكان فرسان الحرس الذين جاءوا معهُ من البا بلا افراس لتعذر احضارها معهم فجاءوا بالسروج وساروا حاملها بسرور وفرح غير مبالين بثقلها . وكان الامبراطور يشتري كل فرس وجده في الطريق وهكذا اركب الفرسان بالتدريج . وكان يتجنب المرور في المدن الكبيرة لمجانبة مصادفة قوة البوربون وسار في سفح الجبال . وسار وا بسرعة الليل

بطوله واكثر النهار التابع فادركوا عند الغروب «كراس» التي تبعد خمسين ميلاً عن الشاطىء . وصرفوا الليل فيها . وانتشر خبر رجوع الامبراطور الى فرنسا بسرعة واوعب القلوب فرحًا وتعجبًا . وكان الفلاحون يتقاطرون اليهِ متوسلين ان يسمح لهم بالانضمام اليهِ . وقال نابوليون بهذا الشان انهُ من السهل ان احمل على باريس بمليونين من هولاء الفلاحين على انهُ لم يكن يرغب ان يفوز بالقوة المادية ولكنهُ اراد ان يكون حب الفرنسويين لهُ القوة الفريدة لاسترجاع امبراطوريتهِ . وفي اليومين التابعين وهما الثالث والرابع من الشهر المذكور قطعوا ستين ميلاً ونزلوا في دينا . وفي اليوم التاسع قطعوا ثلثين ميلاً ونزلوا في طاب . وكان الاهالي يقابلونهم بفرح عظيم وترحاب حتى انهُ اصبح غير محتاج الى ان يصان من الضابطة البوربونية . وامسى مامور والبوربون في الاماكن التي مروا بها في حيرة ودهشة من سرور الاهالي بهِ . وكان قد فرغ صبره من المسير مع المشاة فسار في ستة فرسان واربعين من الابطال امامهم فدخل بهم مدينة طاب المذكورة . فلما رآهُ اهلها رجالاً ونساء واولادًا فرحوا واجتمعوا اليهِ باكين سرورًا متهللين فالتزم المامورون البوربون ان يركنوا الى الفرار بدون ابداء مدافعة . فقال لهم نابوليون ايها الاهالي قد أثرت في عواطفكم وقد اصبتم بتسميتكم اياي أباكم لانني اعيش لارقي سعادة فرنسا وشرفها ورجوعي قد بدد قلقكم فانهُ يضمن صيانة كل الاملاك والمساواة بين الجميع . فهذه الحقوق التي تمتعتم بها ٢٥ سنة صبا اليها اباؤكم واصبحت قسماً من وجودكم . انتهى . وطبع في هذه المدينة الاعلانات التي كان قد كتبها في البحر فانتشرت بسرعة تحاكي سرعة وميض البرق فتهيج الاهالي جميعًا ونهضوا مساعدين وتمنت الوف لاتحصى بان تنخرط في سلك طليعتهِ . وبعد الظهر بساعتين اخذ في المسير متبوعًا من جمهور غفير يمزق الهواء بضجاتهِ والقلم يعجز عن وصف سرورهم وفرحهم . وامسى الاهالي في خوف من ان يبعث البوربون جيشًا يتغلب على جنوده القليلين فهموا ان يقرعوا الاجراس قرع الحزن ليجمعوا الرجال ليصونوا الامبراطور الذي اختاروه فلم يقبل بذلك مع انهُ كان عالمًا انهُ سيلاقي جيوشًا جرارة قوية من الجيوش البوربونية . وقال لهم ان عواطفكم قد اكدت لي انني لم اخدع وهي ضمانة تضمن ميل جنودي فالذين الاقيهم يتجاوزون اليّ وكثرتهم تحقق فوزي فاستكنوا في بيوتكم

ولما اقتربوا من كرينوبل خرج الجنرال مارشان منها في ستة الاف جندي لمقاومة نابوليون . وفي وصباح السابع من اذار (مارس) اقام جيشهُ في مضيق بين جبل وبحيرة وراى نابوليون ان قد حلت الساعة الفاصلة . وكان قادرًا على القيام بما تقتضيهِ الحال فطلب الى عساكره القليلة ان تقف ثم ركب وسار ذميلاً بدون عساكر الى جهة الجنود . اما الفلاحون الذين كانوا مجتمعين لينفرجوا على ما جرى من غريب الحوادث فضجوا قائلين فليعش الامبراطور . وتقدم نابوليون



بدون تردد بسرعة قليلة فلم يبقَ بينهُ وبين ذلك الجيش غير مائة خطوة واذا بصفوفهِ كالبنيان المرصوص امامهُ . ثم ترجل وسلم فرسهُ الى خادم بولوني كان سائرًا معهُ ووضع يديهِ على صدره وتقدم وحدهُ ووقف في مكان يبعد عشر خطوات عن ذلك الجيش غرضًا لرصاص ستة الاف بندقية . وكان لابسًا ملابسهُ المعروفة عند جميع الفرنسويين وهي برنيطة مفرّنة وعباءة كبيرة وحذاء عسكري طويل الساق فامر القائد الجنود بان يطلقوا الرصاص عليهِ . فاطاعوا ورفعوا جميعهم بنادقهم الى اكتافهم ووجهوها الى صدر نابوليون . ولو كان واحد من تلك الالوف راضيًا بان يطلق الرصاص عليهِ واطلقهُ لنال مكافاة عظيمة من البوربون . وكانت رصاصة واحدة كافية لان تقرر نصيب فرنسا . اما نابوليون فلم يتغير لونهُ ولا اضطرب بل استمر يسير والبنادق موجهة اليهِ . ثم وقف وكشف صدرهُ وقال بصوت موثر لا ينساه من سمعهُ يا ايها الجنود من يرضى بان يقتل امبراطورهُ فليفعل فانني هنا . انتهى . فصمت الجميع اي صمت ثم أُدبرت بندقية الى اسفل وتبعتها جميع البنادق وظهرت الدموع في اعين اولئك الابطال وضجوا جميعًا بصوت ظاهر التأثر فيهِ فليعش الامبراطور فضج عند ذلك جميع العساكر والفلاحين داعين لهُ بطول البقاء . فبادر جنود كرينوبل وابطال الحرس والجميع الى الاقتراب منهُ ففتح ذراعيهِ ليقبلهم . ولما راى القائد البوربوني ذلك وكر فرسهُ وركن الى الفرار وبعد ان سكنت الضوضاء قليلاً امسك نابوليون شارب بطل وقال لهُ ملاعبًا كيف يسمح لك قلبك ان توجه بندقيتك الى قائد المائة الصغير (اي عليهِ) فملأت الدموع عينيهِ في الحال وادخل مدك بندقيتهِ فيها ليبين لنابوليون انها كانت فارغة وقال انظر هل اقدر ان اضربك فكل بنادقنا فارغة ثم جمع نابوليون جميع العساكر والفلاحين في حلقة حولهُ وقال لهم

لقد اتيت برجال باسلين قليلين جدًا لانني متكل على الاهالي وعليكم . فملكية البوربون غير قانونية فانها لم تشيد بصوت الشعب وهي مضادة لارادة الامة لانها مقاومة لصوالح البلاد وليست الا لنفع عيال قليلة من الامراء . فاسالوا اباءكم وهولاء الفلاحين الباسلين يخبروكم بحقيقة الحال . فانهم قد هددوا بارجاع العشور والامتياز والحقوق الموروثة وجميع التعديات التي تخلصوا منها بانتصاركم

واستمر نابوليون سائرًا ومعهُ جمهور غفير من الاهالي يزداد كل ساعة مالئًا الطرق اما فرق كرينوبل فكانت كطليعة الجنود التي جاءت معهُ من البا . ولما دنا من المدينة لاقاهُ رسول قائلاً يا سيدي لا تلتزم ان تستخدم اسلحة فان سقوط فرسك كاف لان يبدد شمل المقاومين فانك مالك قلوب الجنود . ولما اقترب من المدينة وكانت من امنع حصون فرنسا اظهر الاهالي من الفرح ما يعجز القلم عن وصفهِ . ولبس الجميع علامات الامبراطورية المثلثة الالوان على رؤوسهم وكانت

الراية الامبراطورية المثلثة الالوان تلوح ايضاً في النوافذ وتخفق فوق الاماكن العمومية . وكان الناس يضجون في الاسواق قائلين فليعش الامبراطور واشترك الجنود مع الاهالي بهذا الفرح ووعدوا بانهم لا يطلقوا الرصاص على اخوانهم في العسكرية . ولم يقدر المامورون والقواد البوربون ان يمنعوا ذلك ولا ان يقاوموا فركبوا الى الفرار بعد ان قفلوا الابواب وخبأوا المفاتيح وعند نصف الليل بدت انوار الجمهور المحيط بالامبراطور الذين كانوا على حصون كرينوبل وكانوا يسمعونهم يضجون قائلين فليعش الامبراطور وكانوا يجاوبونهم بمثل ذلك . وهاج الاهالي وخلعوا الابواب المقفلة ودخل نابوليون المدينة في وسط انوار وافراح قلما شاهدت الارض مثلها وسار به جمهور غفير جداً بسرور الى مركزه وصرف الليل والناس يهللون تحت نوافذ منزله وتشارك الاهالي والعساكر بالولائم والحظ والسرور الى الصباح . فقال قد نلنا المرام وفتحت لنا ابواب باريس . وبعد ان دخل المنزل ببرهة قصيرة اصر جمهور مجتمع تحت غرفته بان يخرج اليها . وجاءه اهل كرينوبل ليسلموه ابواب المدينة لانهم كانوا غير قادرين على تسليمه مفاتيحها اما عسكره القليل الذي جاء معه من الجزيرة فبات متعباً جداً بالمسير بسرعة خمسة ايام في طرق صعبة وجبال وعرة كثيراً ما كان الثلج يزيد صعوباتها . فمكنهم من ان يرتاحوا ٢٤ ساعة في كرينوبل . وفي التاسع من اذار (مارس) عاد ذاهباً الى جهة تيونز . وقال لامرتين انه خرج من كرينوبل كما دخلها وفرقة البا المقدسة عنده تحيط به وحوله جمهور جرار يمهد الطريق له . وصرف الليل في بلدة في منتصف الطريق بين كرينوبل وليون . وتزينت تلك المدينة بالانوار والسهام النارية واظهر الاهالي جميعاً من الفرح والسرور ما شف عن حبهم له واجماعهم على الانضمام اليه

وعند ذلك بلغت باريس اخبار دخوله فرنسا ومقابلة الاهالي له بالسرور الشديد والحب فبات البوربون واصدقاؤهم في جاش عظيم . غير انهم كتموا الخبر خوفاً من فتنة في باريس . وكتبوا في الجريدة الرسمية كتابة اضحكت الباريسيين وهي ان بونابرت فرّ من جزيرة البا التي جعلتها كرامة اخلاق الملوك المتحدين البعيدة عن الحكمة مملكة له كانهم كافوه بذلك على الخراب الذي جلبه على ممالكهم . فهذا هو الرجل الذي تخلى عن سطوته مبطلاً جميع مطامعه وحدته وهو المغطى بدم اجيال وقد جاء في نهاية سنة الظاهر انه صرفها بالسكون لينازع بالاخلاص والمذابح سطوة ملك فرنسا اللطيفة القانونية . وتجاسر على وضع رجله هو وبعض مئات من الايطاليان واهالي بيامونت في الارض التي نفته الى الابد . وهو يروم ان ينفخ الجراح التي كان علتها قبل الشفاء وهي الجراح التي تضمدها يد الملك كل يوم فاعمال قليلة صادرة عن الخيانة وبعض الحركات الايطالية التي هاجها صهرة الجنون حركت كبرياء محارب فونتينبلو الجبان . وخيل له انه



يعرض نفسه لان يموت موت الابطال مع انه لا يموت غير موت الخائن . ففرنسا رفضته وقد عاد فلا بد من ان تبتلعه

واتخذت وسائل فعالة في باريس لالقاء القبض على العساكر الذين اتهموا بحب الامبراطور وجعلوا لوريان الذي كان كاتب نابوليون ناظراً للضابطة وبعد ان تركه وخدم البوربون كتب كتاباً ملأه طعناً به . وقال لامرتين انه كان كاتب بونابرت المتمتع بركونه عارفاً بصفاته واسراره فعزله الامبراطور لانه كان متحيلاً شريراً فرسخ بغضه في قلبه حتى صار اصدق الملكيين . وكان في مدينة ليون الفا نفس وهي تبعد ٢٥ ميلاً عن باريس فسمع الملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا في ٥ من الشهر بدخول نابوليون الى كريف بود فارسل الكونت دوارتوا الذي صار الملك كارلوس العاشر الى ليون ليجمع فيها كل عساكر المملكة ليسحق نابوليون بها . فدخل المدينة قبل ان راى نابوليون ابوابها بساعات قليلة وكان فيها فرقتان فرقة مشاة وفرقة فرسان وكانت فرقة اخرى تدنو منها بسرعة اما الحرس الوطني فيها فكان ذا سلاح جيد وانتظام عظيم وكان عدده عشرين الفاً . غير ان الجنود قابلت الكونت مقابلة غير حسنة وكذلك الاهالي وفرق نبيذاً وافراً على الجنود باسم الملك لويس الثامن عشر فكانوا يشربون النبيذ . ويضجون داعين لقائد المائة الصغير اي نابوليون فوقع الكونت في يأس فعرضت الجنود عليه وملتهم ومشى بينهم فراه جندي شيخ قد غطته الجراح فقال له لا ريب ان بطلاً مثلك يصيح قائلاً فليعش الملك فقال له لا فانك لا ترى هنا احداً يرضى بان يحارب اباه فليعش الامبراطور . وكان مع الكونت قوم من اصدقائه تعهدوا بصيانته . فلما راوا ميل الجنود والاهالي ما راوا قرر عندهم ان البوربون قد سقطوا فخانوا بدناءة البرنس المتعهدين بحمايته وانحازوا الى الامبراطور . والتزم الكونت ان يفرّ من المدينة مصحوباً بواحد من حراسه . فاستغنم نابوليون سنوح الفرصة ليبين كرامة اخلاقه وحبه للامة فارسل نيشان الليجيون دونور مكافاة لهذا الحارس على امانته وكتب معه كتابة فيها انني لا اترك مطلقاً عملاً كريماً بدون مكافاة . ولما جاء رفاقه الخائنون الامبراطور طالبين الانخراط في سلك خدمته طردهم باحتقار قائلاً ان تصرفكم المتعلق بالكونت دوارتوا كاف لان يبين ماذا تفعلون اذا دارت عليّ الدوائر . فاشكركم على ما عرضتم علي ارجعوا حالاً الى بيوتكم . اما الامة الفرنسوية فالزمت بقوة اسلحة الاجانب الخضوع للبوربون فلم تكن ملتزمة لا هي ولا الجيش بان تخلصا لهم الباطن غير ان اعوان البرنس المخرطين في خدمته ملتزمون بان يخدموه بامانة وهجروه اباه عندما دارت الدوائر عليه خيانة . اما المارشال لوففر فحافظ بامانة على خدمة نابوليون في فونتينبلو الى ما بعد اعتزاله . ثم سار الى باريس فقدم الى الامبراطور اسكندر الروسي . فقال الامبراطور له انك لم تكن تحت اسوار باريس لما بلغناها . قال يامولاي لم اكن تحتها فان سوء

الحظ منعنا عن ان نصل الى هذا المكان قبل فوات الفرصة . فاجابهُ الامبراطور باسماً قائلاً لهُ الظاهر انك مكدر اذ انك تراني هنا . فاجاب ذلك المارشال الامين الكريم يامولاي انني ارى بعظيم بطل تعلم منذ النتوة ان يكون معتدلاً عند الفوز غير انني ارى فاتحًا في بلادي بكدر عظيم . فقال الامبراطور ياسيدي المارشال انني احترم ذلك فيك فانهُ يعظم شانك عندي . وعند رجوع نابوليون بادر المارشال المذكور الى اللحوق وبذل جهدهُ في سبيل خدمتهِ

## الفصل الثاني والستون

وفي العاشر من الشهر المذكور بعد الظهر باربع ساعات وصل نابوليون الى جسر نهر الرون محاطًا بجنوده والفلاحين رجالاً ونساء واولادًا كانوا يسيرون ويلوّحون الاغصان في الهواء ويغنون اغاني الفرح والفوز . اما الجنرال ماكدونال الذي حلف بناموسهِ بان يخدم البوربون بصداقة بعد اعتزال نابوليون فسلم اليهِ الدفاع عن ذلك الجسر . ولما بلغهُ نابوليون خرج كل جنوده بدون استثناء عن طاعتهِ وعصوا اوامره وهدموا الاستحكامات وصاحوا فليعش الامبراطور وحملوا بدون انتظام على الحرس الامبراطوري ليقبلوا رجالهُ ويشاركوهم في ضجات الفرح والسرور اما ماكدونال فربما خاف من العجز عن التغلب على عواطفهِ والبقاء بعيدًا عن الامبراطور فاركن الى الفرار . وخرج جميع اهالي المدينة الى الاسواق والفسح ليترحبوا بامبراطورهم الكريم بضجات تحاكي الرعود القاصفة ولم تتنع مدينة بسياسة نابوليون المصيبة الحسنة كما انتنعت ليون وكان اهلها يحبونهُ محبة شديدة جدًّا . فعند ما خيم الظلام اضاءوا المدينة بانوار الزينة . وسير بنابوليون بفرح واحتفال عظيم الى قصر رئيس اساقفة ليون الباهي الزاهر وكان الاهالي يحرسونهُ بحب والد لولدهِ ونام تلك الليلة في نفس القاعة التي كان الكونت دوارتوا قد هرب منها بياس . ودخل الامبراطور القصر نحو الساعة التاسعة من الليل فدعا اليهِ في الحال البارون فلوري احد كتاب المجلس الخاص وجرى بينهما الحديث الاتي

قال لهُ نابوليون باسمًا انك لم تنتظر ان تراني هنا في برهة قصيرة . اجاب يامولاي انني لم انتظر ذلك وما من احد يقدر ان يقوم باعمال بحمية كهذه الاجلالتك . قال نابوليون ماذا يقولون عن هذا اجمع في باريس وما هو الراي العام اجاب ان الجميع فرحوا برجوعك فان النزاع الذي جرى بين الامة والبوربون قد اظهر حقوقنا والقى الاراء الحرة في خطر . قال الامبراطور قد عرفت ان المفاوضات التي جاء البوربون بها قد قللت اعتبار السلطة واضعفتها . ويسرُّ الانسان بجعل امة عظيمة حرة سعيدة ولم اقيد فرنسا في اثناء المجد فلا اقصر حبال حريتها ولا اروم ان يكون لي من السطوة الا ما يمكنني من القيام باعباء الادارة . فالسلطة لا تنافي الحرية . ولا



تستقيم امور الحرية الا عندما تتقرر السلطة فاذا كانت ضعيفة تكون ذات قلق ولكن اذا اصبحت قوية تنام مرتاحة وتطلق العنان على عنق الحرية وانا اعرف ما هي الاشياء التي يحتاج الفرنسويون اليها غير انهُ لا ينبغي ان ينقطع كل اضطراب او خلل . هل يظن القوم انهُ ينتشب القتال بيننا وبين البوربون . اجاب لا فان الحكومة ليست بحاصلة على اركان الجنود فان الضباط انفسهم يكرهونها فان الجنود الذين يرسلونهم لمحاربة جلالتك يكونون نجدات لك . قال نابوليون هذا لم يخطر ببالي وما هو شان المارشالية (القواد العموميين) ياترى . قال يامولاي لابد من ان يكونوا متيقنين انك تتذكر هجرهم لك في فونتينابلو فالاوفق ان تزيل خوفهم وان تصرح لهم بانك تنسى كل شيء قال الامبراطور لا انني لا اكتب اليهم فان ذلك يجعلهم يظنون بانني مطالب بشيء بالنظر اليهم ولا ارغب ان اكون مديونًا لاحد . فمبل الجنود حسن والضباط يميلون اليَّ واذا شاء القواد العموميون ان يمنعوهم يجبروهم على ان يعصوا اوامرهم . ومن المحقق عندي انهم مهما فعلوا لا يقدرون ان يبعدوا عني جيش الحرس الامبراطوري . ماذا يفعل المارشال ناي يا ترى ما هي الصلات الجارية بينهُ وبين الملك فقال فلوري ياسيدي اظن انهُ ليس بقائد واظن انهُ قد طرأ ما يجعلهُ يتشكى من بلاط الملك من جرى زوجتهِ . فقال نابوليون ان امراتهُ متصنعة متأنقة ولا ريب في انها حاولت ان تتصرف تصرف خاتون عظيمة فهزئت بها ارامل الامراء وقد نشرت اخبار كاذبة من جهة اعتزالي . وقد قيل ان ناي قد افتخر بسوء معاملتي وبوضعهِ غدارته على مائدتي . وقرأت وانا في البا ان اوجير واوسعني لومًا وتوبيخًا عند ما قابلتهُ . فهذا كذب . فانهُ ما من احد من قوادي ينسى وانا حاضر ما يحق لي عليهِ ولا يتجاسر احد منهم على ذلك . ولو عرفت بما قالهُ اوجير ولحرمتهُ مقابلتي فالجبناء هم الذين يهينون الانسان وهو في المصائب وما قيل من ان اعلانهُ المذكور كان في جيبي هو غير صحيح فانني لم اعرف بهِ الا بعد ان قابلتهُ . فلننسَ هذه الامور . ماذا جرى يا ترى في قصر التويلري . قال انهم لم يغيروا شيئًا حتى ان علامات الامبراطورية والنسور لا تزال فيهِ . فتبسم نابوليون وقال لابد من ان يكونوا قد راوا ان ترتيبها حسن جميل . وما هي هيئة الملك هل مسكوكاتهُ جميلة . قال انظر واحكم لنفسك فهذا دينار قيمتهُ ٢٥ فرنكًا . قال انهم لم يرجعوا لويس ان هذا عجيب ثم قلب الدينار وقال انظر قد ابطلوا عبارة يا الله أعن فرنسا ليرجعوا يارب احفظ الملك فهذا شانهم فكل شيء لهم ولا يتركون شيئًا لفرنسا . فيا فرنسا المنكودة الحظ ما هي الايدي التي وقعت فيها . هل في هذه الاماكن من كان قريبًا مني . افحص عنهم واجليهم اليَّ فانني اروم ان اقف على حقيقة روح هذا الزمان وحالة الامور الجارية . ماذا تفعل هورتانس قال ان بينها لا يزال مقصودًا من جميع الذين يعرفون قيمة الحذق والجلال وهي ملكة بدون عرش ومع ذلك هي موضوع احترام الباريسيين وخضوعهم . قال الامبراطور انها اخطأت بقبول لقب دوقة من البوربون وكان

من الواجب عليها ان تدعو نفسها مادام بونابرت . وهذا اسم شريف كغيره ولو كانت جوزيفين المسكينة في قيد الحياة لاشارت عليها بما هو اصوب . هل تاسف الناس على فقد زوجي المتوفاة . اجاب فاري نعم وجلالتكم تعلمون ان الامة الفرنسوية قاطبة كانت تحبها وتخدمها . قال نابوليون انها كانت تستحق ذلك فانها كانت امراة فاضلة جدًّا مهذبة مدركة وتاسفت انا جدًّا من جرى موتها ويوم استماعي بموتها كان من ارداء الايام هل لبس الحداد عموميًّا عليها قال لا يامولاي واظن انهُ لولا مداخلة الامبراطور اسكندر الروسي لما سلموا بان تدفن بالاحتفال اللائق بشانها فتظاهر اسكندر بكرامة اخلاق انهُ حامي الامبراطورة والملكة والبرنس اوجين والدوق دي فيسنزا وكثيرين غيرهم من الذين لولاه للحق الاضطهاد بهم . قال الامبراطور الظاهر انك تجهل ماذا يقال عن راي الدول المتحدة بشان عودي قال يظن ان النمسا تتحد مع جلالتكم وان روسيا تشاهد سقوط البوربون بدون تاسف . قال الامبراطور لماذا . اجاب يامولاي يقال ان الامبراطور اسكندر لم يرتضِ بالبرنس البوربوني وهو في باريس . ويقال ان ميل الملك لويس الى انكلترا ونسبة ترجيح عرشهِ الى وكيل ملكها اغاظاه . قال ان هذا خبر تلزم معرفتهُ هل راى ولدي . قال نعم وقيل لي بتاكيد انهُ قبلهُ بحنو والدي وقال انهُ ولد نجيب كيف خدعوني . قال نابوليون باهتمام ماذا عنى بذلك . اجاب يقال انهُ اخبر ان البرنس ابنك معتوه . قال الامبراطور انهم كاذبون اشقياء فانهُ ولد نبيه والظاهر انهُ يكون ممتازًا وسيشرف عصرهُ

وصرف نابوليون في ليون اربعة ايام وكان اهلها في اثنائها في فرح وسرور يقصر القلم عن القيام بحق وصفهما وكان يكلم الحاضرين بحرية يفتخر بها على اغلاط الماضي واضطراباتهِ وقال ذات مرة انني استحق ان الام على بعض البلايا التي لحقت بفرنسا فان احوالاً لا ترد الزمتني ان اسير في سبيل توسيع ملكي وقد صرفت النظر عن هذا الى الابد فان فرنسا تحتاج الى الراحة ولم ارجع طمعًا بالملك ولكن حبًّا بالوطن وكنت قادرًا ان افضل راحة البال على مهام العرش لو لم اتحقق ان فرنسا ليست بسعيدة وانها محتاجة اليَّ وقد عدت لاُحامي عن الصوالح التي ولدت بالثورة وادافع عنها وان اتفق انا ونواب الامة اتفاقًا عائليًّا من شانهِ صيانة حقوق الفرنسويين وحريتهم الى الابد . وجل مطامعي ومجدي ان اقوم باعباء سعادة الامة التي هي مصدر كل ما هو لي

ولم يصرف ساعاتهِ في ليون بالراحة فانهُ وجه كل عنايتهِ واجتهاده الذي لا يحد الى تشييد العرش الامبراطوري على قواعده العامة . وكانت اعلاناتهُ تتابع بسرعة حيرت الاعداء واضرمت الحمية في احشاء الاهالي . واشد المؤرخين كرهًا لنابوليون يسلمون جبرًا بموافقة تلك الاعلانات للصالح العام . وامر بها ان يصير ترجيع الحكام الامبراطوريين الى مراكزهم وان ترجَّع الراية المثلثة الالوان . فاستبدل علامة البوربون وهي الديك بالنسر الامبراطوري . وابطل جميع الحقوق



والالقاب الموروثة وأيد الذين كانوا قد ابتاعوا الاراضي الاميرية في ملكيتهم . ونص المجلسين العاليين اللذين كان قد انشأهما البوربون وطلب الى اهالي الامبراطورية ان يجتمعوا لينتخبوا مجلس مبعوثين فوق العادة ليتفاوض بشان الامور المهمة الجارية . فارتضى جميع الاهالي خلا قليلين بهذه الاوامر فانها كانت تعترف بحقوق العامة وتقاوم الامتيازات . ولذلك مال الناس في تلك الاثناء كما في كل حين الى نابوليون واحبوه . وهاك نص الاعلان الذي نشرهُ لنص مجلس البوربون العام «لما كان مجلس الامراء مؤلفًا بعضهُ من رجال تقلدوا السلاح لمحاربة فرنسا وكان صالحهم ارجاع الحقوق الموروثة وتقويض اركان المساواة وابطال بيع الاراضي الاميرية وحرمان الاهالي الحقوق التي فازوا بها بمحاربة اعداء الامة ٢٥ سنة متتالية وكان قد انتهى زمان سطوة المجلس القضائي ولم يبقَ لمجلس المبعوثين صفة وطنية وكان بعض المبعوثين لا يحق الاركان اليهم لانهم ارتضوا بارجاع الامتيازات الموروثة التي ابطلها القانون الاساسي العام وكان قد الزم فرنسا بدفع ديون استقرضت من دول اجنبية لعقد محالفات ومؤامرات لمقاومة الامة الفرنسوية ولقب العائلة البوربونية بالعائلة الملكية القانونية مصرحًا بان الامة الفرنسوية وجيوشها عصاة وان المهاجرين الفرنسويين الذين جرحوا قوى بلادهم الحيوية ٢٥ سنة هم الفرنسويون الصادقون متعديًا بذلك على حقوق الاهالي بتسليمهِ بان الامة لاجل العرش وليس العرش لاجل الامة كان لا بد لنا من ان نامر بما ياتي الخ

وهذه الاعلانات أظهرت حذق نابوليون العظيم واصابتهُ وجعلت الاهالي يركنون اليهِ وينفون المخاوف ويثبتون حبهم لهُ كذلك حركت في الاهالي والجيش حمية لا مزيد عليها . وشاهد البارون فلوري هذه الامور بعينيهِ وقال بشانها انني رايت اكثر من مرة تاثيرات الفرح وهياج عناصر الحمية في الناس على انني لم ارَ شيئًا يشابه ما رايتهُ في ليون مما يدل على شدة حب الاهالي للامبراطور وفرحهم برجوعهِ . فان الفسحات والشوارع بل ابعد الازقة كانت ميدانًا ترتفع منهُ ضجات الدعاء لهُ بدون انقطاع . وكان الفعلة ومستاجروهم والعامة يجولون في الاسواق متعاقدي الايدي يغنون ويرقصون ويظهرون من علامات الحبور ما لا مزيد عليهِ . حتى ان الغرباء كانوا يقفون في الشوارع يهنئ بعضهم البعض الاخر برجوع الامبراطور . اما الحرس الوطني وهو كالمستحفظ عندنا (العثمانيون) ففرح بما اظهرهُ نابوليون من الاركان اليهِ بتسليمهِ اياه حراسة شخصهِ فاشترك بالافراح العامة وكان يوم خروجهِ من المدينة يوم حزن وأسى كما ان يوم دخولهِ اليها كان يوم افراح لا مزيد عليها

وفي خلال هذه الحوادث أصدر البوربون اعلانًا لمضادة ذلك الرجل الذي كانوا يسمونهُ راكب الاخطار التعيس قالوا فيهِ ان نابوليون خارج عن حماية القانون وعينوا مبلغًا لمن يأتيهم

براسهِ وصرحوا بان جميع اتباعهِ عصاة . وكان نابوليون يدخل كرينوبل فائزًا واعداد جريدة المونيتور الرسمية تصرح بان الفوز للملكية في كل مكان وان المعتدي خسر اكثر اتباعهِ وبات مطرودًا تائهًا بين الجبال فلابد من ان يبيت في الاسر في ايام قليلة . وطلب البوربون الى المارشال ناي الذي كان مستكنًا في بيتهِ الواقع على عدة اميال عن باريس ان ينضم الى جيشهِ ويبادر الى منع تقدم نابوليون فسار بامانة وبدون تاخر الى بنزنسون وما لبث ان تقلد القيادة حتى قال لهُ الضباط انهُ لا سبيل الى حمل الجنود على محاربة الامبراطور . فامر بان يعرضوا عليهِ تعرضوا عليهِ وتحير في امرهِ عند ما راى انهم قابلوهُ صائحين فليحيَ الامبراطور . وهي الصيحة التي طالما سمعها في ميدان الحرب أوان كان يقود جيوش فرنسا الى الفوز والانتصار . وكان كل ساعة يسمع باخبار تدل على نجاح الامبراطور الخارق العادة . فان كل مدينة او قرية كان يدخلها كانت تنضم اليهِ . وان الامة كانت تصيح مترحبة بوصول كون الجيش في كل مكان كان متحزبًا لهُ . وهكذا راى انهُ قد انقطع الامل من نجاح البوربون . فبات المرشال ناي في قلق لا مزيد عليهِ وكدر شديد . وقال بعد ذلك انهُ حسب الموت في تلك الدقيقة فرحًا . وخطر ببالهِ « كراسنو » حيث هُزم نابوليون في عشرة الاف فقط على استحكامات ثمانين الفًا من الروسيين قصد العود الى فيانا في روسيا وانفاذ رفيقهُ ناي المحبوب ثم جمع ناي قوادهُ في مجلس حربي وهو معذب اشد العذاب وقال لهم ماذا اقدر ان افعل فانني لا اقوى ان اصدّ تقدم مياه البحر بكفيّ . فقال لهُ القواد بدون تردد ان محاولة صد نابوليون تذهب سدًى . ولما راى ناي ذلك لم يقدر ان يمنع نفسهُ عن الوقوع في المجرى العام والتاريخ يقرر بالاسف وقوع ناي في ما يثلم صيتهُ فانهُ لم يحافظ بامانة على امّة القوم عليهِ ووضع اسمهُ في اعلان يجلب العار عليهِ الى الابد . ومن يا ترى يشاهد سقوطهُ الابدي ولا يتاسف عليهِ . فهذا هو الاعلان الذي اصدرهُ خائنًا البوربون الذين كان حلف بان يتحد معهم بالصداقة والامانة

يا ايها الجنود . ان احوال البوربون قد باتت في ضياع ابدي . والدولة القانونية التي اختارتها الامة الفرنسوية ستتبوأ العرش قريبًا . وحق التملك على بلادنا الجميلة انما هو للامبراطور نابوليون ملكنا . وفي النهاية فازت الحرية . ونابوليون امبراطورنا المعظم يثبت اركانها بعد برهة قصيرة . يا ايها الجنود . كثيرًا ما قدتكم الى النصر . والان قد عزمت ان اقودكم الى ذلك الجيش الذي لا يفتي الا وهو الجيش السائر بنابوليون الى باريس وسيبلغها في ايام قليلة وعند ذلك تصح امالنا وتتقرر سعادتنا الى الابد . فليعش الامبراطور

وحدث خلال قراءة الاعلان ان الجنود هاجوا وتعدوا حدود الانتظام وجعلوا صيحاتهم متواصلة قائلين فليعش الامبراطور . ويوم قراءتهِ وهو الثالث عشر من شهر افار ( مارس )



خرج نابوليون من ليون قاصدًا باريس واجتمع جمهور غفير ليشاهد خروجهُ فخرج الى شرفة وخاطبهم بما معناهُ

يا اهالي ليون انني ارى نفسي ملتزمًا بان ابين لكم ما اشعرت بهِ من جراء تصرفكم . وذلك عند مبارحتي مدينتكم ذاهبًا الى قاعدة ملكي . فاقول انهُ طالما كان لكم المحل الاول في حبي وقد اظهرتم لي حبًا واحدًا اذ كنت مستويًا على العرش او منفيًا . فهذه الصفات العالية التي امتزجتم بها تستحق اعتباري الشديد . وساعود اليكم لابحث عما يأول الى ترقية نجاح معاملكم ومدينتكم في زمان راحة اكثر من راحة هذا الزمان . يا اهالي ليون انني احبكم . انتهى . فهذه الكلمات الصادرة من قلب خالص مست ينابيع حاسيات القوم وظهرت الدموع في الوف من الاعين وارتفعت اصوات الوف مرتجفة من تاثير كلامهِ قائلة اودعناك الله . وقطع نابوليون في ذلك الليل ٢٥ ميلاً ونام في فيلوانش وفي الغد سبق جيشهُ وتقدم نحو ستين ميلاً ومرَّ بماكون الى شالون . وكان يسير في بلاد من فرنسا كثيرة الاهالي وكان الناس واقفين على الجانبين ورفعت قبات نصر في ازقة القرى . وكانت ضجات السرور ترافقهُ الطريق بطولها . ودخل شالون والامطار الغزيرة تهطل والبرد شديد ومع ذلك خرج اكثر اهلها من ابوابها ليلاقوا امبراطورهم المحبوب ويترحبوا بهِ . وتعجب من مشاهدة عدة من المدافع ومركبات المهمات تتقدمهُ . فقال لهُ الاهالي ان البوربون قد ارسلوها لمقاومتك فغنمناها لنهديها اليك . وقال لمأموريها وهم يهنئونهُ بالعود قد اصاب من قال ان بلاطي كان فاخرًا فانني كنت اروّج اسباب الافتخار والجلال ولكنني لم اكن ارقبها لنفعي الخاص . فانني ارضى بثوب جندي بسيط وكنت احب الامور العظيمة الثمينة لانها كانت تروج اعمال معاملنا . وبدون ذلك لا تنجح الصناعة وابطلت في ليون الامتيازات الموروثة من بلاد قد تنورت فيها عقول الناس فلا يصدقون ان بعضهم يولد ممتازًا عن البعض الاخر . فما من امتياز غير امتياز الاهلية وخدمة البلاد . وقوانيننا لا تعترف بامتياز اخر

وفي الخامس عشر من الشهر المذكور قطع ثلثين ميلاً فبلغ اوتون وفي السادس عشر منهُ سار ستين ميلاً الى أفالون مصادفًا التهاني والشكر في كل خطوة . وكانت المقاومة التي يصادفها قليلة جدًا حتى انهُ لم يبن لها اثر . وفي السابع عشر منهُ سار ايضًا في مركبة مفتوحة بسيطة وقطع ٢٥ ميلاً فبلغ اوكرز . وراى من ميل الاهالي الشديد اليهِ ما جعلهُ يهمل اسباب صيانة نفسهِ من التعديات . فكان يسير امام جيشهِ ومعهُ بعض اصدقائهِ دون ان يكون مصحوبًا بحرس اصولي . وبعد ان دخل اوكرز ببضع ساعات اجتمع بالمرشال ناي . وكان قد ارسل اليهِ قبل ان جاهر بمقاومة البوربون الاعلانات التي اصدرها بليون . وقد قال نابوليون انهُ لم يخابرهُ الا بها لانهُ كان يظن انهُ من اصحاب الناموس فلم يرضَ ان يهينهُ بان يطلب اليهِ ان يخون ملكهُ الجديد البوربوني . فاضطرب

ناي جداً عندما قابل الامبراطور فانهُ تذكر كيف انهُ تركهُ تركاً لا يدل ظاهرهُ على مراعاة ذمتهِ عندما دارت عليهِ الدوائر في فونتينابلو. فبات في حيرة وقلق لا مزيد عليهما. فانهُ كان قد خان البوربون بعد ان حلف بان يخدمهم بامانة. ومع ذلك كان قد نقر رعدهُ ان يخدم وطنهُ بامانة وكان زمانهُ زمان ثورات وانقلابات مدهشة. وكان بطلاً شجاعاً غير انهُ لم يكن ذا اراء جلية ادبية ومع ذلك كان ضميرهُ يوبخهُ فبات في كدر عظيم بعيداً عن السعادة والراحة فلما قابل الامبراطور اعتذر لهُ عن خروجهِ من فونتينابلو بدون ان يودعهُ. غير ان كرامة اخلاق نابوليون حملتهُ على تناسي كل شيء فانهُ امسك يدهُ بحب قائلاً يا ناي المحبوب قبلني فانني قد سررت بمقابلتك ولا اطلب اليك ان توضح الامور فان ذراعيَّ مفتوحتان على الدوام لقبولك وعندي انك لا تزال الشجع الشجعان. فقال ناي يا مولاي ان الجرائد قد نشرت اموراً كثيرة غير صحيحة فانني لم اتصرف غير تصرف يليق بجندي صادق وفرنسوي امين. ونقدر جلالتك ان تتكل عليَّ بكل ما يتعلق بوطني فانني قد أرقت دمي في سبيل خدمتهِ فانا احبك يا مولاي ولكنني احب وطني اكثر من الجميع. فقال نابوليون انني لم يداخلني ريب بحبك لي ولبلادك وحب الوطن هو الذي حملني على العود الى فرنسا وقد جئتها قصد تخليصها من المهاجرين والبوربون. ولا ريب في انني ابلغ باريس في اليوم العشرين او الخامس والعشرين من هذا الشهر. فهل تظن ان الملكيين يحاولون المدافعة عن انفسهم. فاجاب ناي قائلاً يا مولاي اظن انهم لا يحاولون ذلك. فقال نابوليون في هذا الصباح وردت عليَّ تحريرات من باريس ومحبو الوطن ينتظرونني بفروغ صبر وقد صمموا على المجاهرة لمقاومة البوربون. واخاف ان يقع خصام بينهم وبين البوربون. فانني لا ارضى وان أُعطيت العالم ان يلطخ عودي بقطرة واحدة من الدم فاكتب الى اصدقائك وقل لهم انني ساصل باريس بدون ان اطلق بندقية واحدة. فليتكاتفوا جميعاً على منع اراقة الدم فينبغي ان يكون فوزنا ظاهراً كالسبب الذي يحملنا على القيام بما نقوم بهِ. وعقد الملكيون موامرات كثيرة لقتل الامبراطور وهو في الطريق غير ان تيقظ اصدقائهِ احبط اعمالهم. اما هو فلم يكن يبالي بالاخطار بل كان يدخل في وسط الجماهير التي كانت تحيط بهِ. وقال لفلوري بشان الموامرات المذكورة. لا ادرك كيف ان رجالاً ربما كانوا يقعون في يديَّ يقدرون ان يحرضوا الناس على قتلي ويعينون المبالغ لمن ياتيهم براسي. فلو رضيت ان اتخلص منهم بوسائل كهذه لذهبت ارواحهم منذ زمان طويل وكان يسهل عليَّ ان اجد قتلة كما وجدوا هم جورج وبرولار وموبرويل. ولو اردت لوجدت رجالاً ياتونني بالامراء البوربون مقيدي الارجل والايدي موتى او احياء عشرين مرة. على انني لم انفك عن احتقار موامراتهم الحقيرة. ولكن دمي يجري حاراً في عروقي عندما يخطر ببالي انهم جسروا ان يسقطوا بدون محاكمة على الوف من الفرنسويين بانهم من اهل الاعتداء



الذين لا يسوغ لهم ان يتمتعوا بصيانة القانون. فهل يعرف الجيش ذلك. قال فلوري نعم يا مولاي انني قد حملت بعض اهل القمة على اخبار الجنود ان قد حكم علينا جميعاً باننا من اهل الاعتداء وانهُ قد ارسل بعض حرس الملك وغيره من الملكيين ليعاونوك ولذلك حلف الجنود بانهم لا يعفون عن احد. قال نابوليون هذا مضر جداً جداً ولا اسمح بهِ فمن الامور التي ارغب فيها كل الرغبة ان لا تراق قطرة واحدة من دم الفرنسويين وان لا تطلق بندقية واحدة. فلا بد من منع الجنود عن ذلك فبادر الى ارسال الاعلان الاتية ترجمتهُ الى الجنرال جيرار قائد الطليعة.

قد بلغني ان جنودك عرفوا بالاعلانات التي صدرت من باريس فصمموا على الاخذ بثارهم وقتل جميع الملكيين الذين يصادفونهم. فانتم لا تلاقون غير فرنسويين فأُوصيكم بالامتناع عن اطلاق بندقية واحدة فسكن خواطر جيشك وقل لهم انني لا ادخل باريس فيهم اذا كانت اسلحتهم ملطخة بالدم. انتهى

وكتب الى الجنرال كابردن بما ترجمتهُ. انني اعهد اليك اهم اعمالي والفرنسويون اجمع ينتظرونني بفروغ صبر ولا بد من ان تجد اصدقاء في كل مكان فلا تطلق بندقية واحدة فانني لا ارضى بان اجعل الفرنسويين يريقون قطرة من دمهم في سبيل حصولي على تاجي. انتهى.

وفي التاسع عشر من ذلك الشهر سار الى جهة فونتينابلو التي كانت تبعد ٧٥ ميلاً عن اوكسير راكباً مركبة مفتوحة ومعهُ مركبة الجنرال دروبو التابعة لمركبتهِ ومركبة البارون فلوري التابعة لها وكان بضعة فرسان بولونيين حاملين حراباً يسيرون على جانبي المركبات اما جيشهُ فكان يسير وراءهُ مسافة عدة ساعات. فلاقى جيش فرقة الملك المسماة بالدراغون متقدمة متأهبة للقتال وكانت قد شغبت على ضباطها البوربون ولبست ملابس الامبراطورية ورفعت الراية المثلثة الالوان واخذت تسير بالموسيقى المفرحة ضاجة فليعش الامبراطور. فلما رآها نابوليون مقبلة عليهِ لتلاقيهِ ترجل وخاطبها بكلام لطيف ابوي خلوصي شدد حميتها. وسار في الليل بسرعة الى ان وصل فونتينابلو. وحذرهُ قوم من تعريض نفسهِ للمخاطر بدون احتياط فانهُ كان قد شاع ان الفين من جنود الملك كانوا قد حلوا الغابة. فاجاب بما ادهش السامعين اذ قال ان نصيبنا مكتوب في السماء واشار اليها باصبعهِ. وسار في الحال الى الجنة التي كان قد عانى فيها من الهم والكدر والعذاب عندما التزم ان يتنحى وخانهُ اهم رجالهِ ما ربما كان لم يعانهِ احدٌ من البشر واخذ يجول فيها صامتاً غائصاً في بحر من التامل ثم دخل المكتبة التي كان قد صرف فيها ساعات كثيرة مع زوجتهِ الاولى جوزفين متأملاً في مشروعات عظيمة تعود على فرنسا بالعظمة والنفع ثم دخل حجرة صغيرة وهي التي كان قد تحمل فيها عذابات السقوط والخيانة والمرض والتي بنفسهِ على المقعد

ونام ساعات قليلة . ولما راى الملك لويس الثامن عشر ترحب فرنسا بنابوليون وانحيازها اليهِ ركب مركبتهُ عندما ولج نابوليون غابة فونتينابلو واركن الى الفرار بغية ان يتوسل الى الملوك المتحدين الظالمين الذين اهرقوا دماء العباد واذهبوا ارواح كثيرين لاجلاسهِ على عرش الملك ان يرسلوا جيوشهم الى فرنسا ليخربوا عمرانها باراقة الدماء واضرام نيران الحروب والفتوحات . وكان ذلك منطبقًا على رغائب روسيا وبروسيا والنمسا فانها كانت قد تعودت دوس الحقوق العامة بحوافر حديدية واثارت على الجر وبولونيا عواصف الحرب ولا نعجب من تصرفها اكثر مما نعجب من تصرف انكلترا المحبة للحرية والحكومة المقيدة فان اصحاب الامتيازات الموروثة فيها البسوها عارًا عظيمًا باغرائها على الاشتراك في مقاومة حقوق الشعب

وعند الظهر ركب نابوليون مركبتهُ وسار قاصدًا باريس وحدثت وقتئذٍ حوادث عودهِ العجيب الى فرنسا اذ عقد البوربون نيتهم على مقاومة ذلك الرجل الفريد غير المسلح املاً بدفعهِ عن البلاد فجمعوا في مدينة «ميلون» الواقعة في منتصف الطريق بين فونتينابلو وباريس نحو مائة الف جندي من الحرس الوطني والمتطوعة وغيرهما . واوقفوا الجيش المذكور صفوفًا ثلثة بين كلٍ منها صف من المدافع وكذلك عند الجناحين والقلب فكاد يسد طريق باريس وعقدوا القيادة الى الدوق دي بري . وعند اقتراب الانسان من ميلون اذا كان اتيًا من فونتينابلو يشرف على البلاد حال كونهِ في مكان مرتفع يراهُ فيهِ الذين تحتهُ فركب نابوليون مركبتهُ كاحد الاهالي وسار ليلاً بلا خفارة ولا حرس مخترقًا منتصف هذا الجيش الجرار المتحصن . اما العساكر فكانت صامتة لا يسمع منها غير الحان الموسيقات الحربية التي كانت تحاول اضرام نار الحمية في الجيش بانغام الملكية القديمة . وعند الظهر سمع صوت مسير بعض فرسان وخرجت من بين الاشجار مركبة مفردة مفتوحة وراءها بعض فرسان ثم انحدرت من الجبل بسرعة . وبعد ذلك ببرهة قصيرة راى الجنود برنيطة امبراطورهم المعروفة عندهم وعباءتهُ المشهورة فارتفع من ذلك الجيش ضجيج كصوت هبوب ريح معتدلة ثم صمتوا اجمعين حال كون المركبة كانت تدنو منهم بسرعة . ثم راوا نابوليون واقفًا في مركبتهِ وذراعهُ ممدودة كانهُ والد يروم اعتناق اولاده . فتحركت في الجنود عواطف الحب والحمية اي تحرك وضجوا فليعش الامبراطور ضجات تحاكي الرعود القاصفة . وعند ذلك ظهر فرسان الحرس الامبراطوري في الجبل وحركوا راياتهم وارتفعت من الموسيقى نغمة المسير الامبراطورية . فأخلَّ الجنود انتظامهم فان العساكر التي كانت قد جمعت لمقاومتهِ خرجت من صفوفها وسارت بسرعة الى جهة امبراطورها فخرج من مركبتهِ وسار ليلاقيها . وكان بعض الجنود يقبل البعض الاخر كاخوة وضجات الفرح متصلة ودموع السرور تتساقط من الاعين . ولما راى قواد البوربون ذلك وقعوا في القنوط وركنوا الى الفرار هم وبضع مئات من فرسان قصر الملك . فسار



الامبراطور الى باريس ومن ورائهِ جيش جرار من الجنود وجمهور غفير من الاهالي . وما زال متابعًا المسير امام الجيش والناس الى ان دخل باريس بعد الظهر بتسع ساعات ومن حول مركبتهِ نفرٌ من الخيالة حاملون مشاعل وازدحمت اقدام الاهالي في الاسواق فانهم كانوا قد اجتمعوا فيها ليرحبوا بهِ . فعبر جسر الكونكورد ثم سار بسرعة ودخل ساحة قصر التويلري بطريق لوفر . فامسى محاطًا بجمهور غفير من الاصدقاء الذين كاد الفرح يذهب بعقولهم . وقد قال المؤرخ أليسون الانكليزي انهُ حالما وقفت المركبة امسكهُ الذين كانوا عند الباب وحملوهُ هاتفين فرحًا وحبورًا وساروا بهِ كانهم يسيرون على رؤوس الضباط والقواد الى قاعة الاستقبال حيث راى جمهورًا غفيرًا من الخواتين ذوات الجمال والجلال من اللواتي كنَّ من البلاط الامبراطوري مزينات بضمات النسج لابسات افخر الملابس فقابلنهُ بسرور يقصر القلم عن القيام بوصفهِ وبادرن الى تقبيل وجههِ ويديهِ حتى اثوابهِ . ولم تزين صفحات التاريخ بحوادث كهذه . فان نابوليون كان قد قطع في عشرين يومًا سبعمائة ميل في قلب فرنسا ودخل قصر التويلري فائزًا منتصرًا بعد ان كان قد نفي منهُ بقوة جيوش دول اوربا المتحدة . اما الجنود والاهالي فكانوا يقابلونهُ بفرح لا يوصف ففتح البلاد بدون اطلاق بندقية واحدة ولا سلَّ سيفًا بل دخلها وحدهُ بدون سلاح وفي المملكة ثلاثون مليونًا من الانفس . فاصبح فاتحًا بدون اراقة دم متغلبًا على جميع الجيوش التي كانت قد أُرسلت لمقاومتهِ متمكنًا من ان يطرد البوربون الذين كانوا قد استووا على ذلك العرش وكل ذلك بقوة الحب السحرية . فهل سبقهُ بشر الى فتوح كهذا الفتوح او هل يتم لبشر بعدهُ ان يقوم بما قام بهِ . فهذا انتخاب فوق كل انتخاب يجعلهُ صاحب الحق الاول في البلاد . ومع ذلك بادرت الدول المتحدة الى جمع قواتها وادخال مليون من الجنود الاجنبية ليطردوا من العرش امبراطورًا قد جعل اساسهُ في قلوب رعاياهُ ويلزموا الامة الفرنسوية بالخضوع لعبودية البوربون وكانوا يقومون بهذه الاعمال المعيبة مدعين فيها المحاماة عن حرية الاهالي واستخلاصهم من ظلم المخلص . فاللغة تقصر عن اظهار الغيظ الذي استحوذ على الناس من جراء اعمالهم

ولا يخفى ان دخول نابوليون الى فرنسا على النمط المذكور يدل باجلى بيان على ما لا يستدل بهِ بشيء اخر وهو اقتدار عقل واحد قوي على التسلط على قلوب البشر . وكان سلاح نابوليون المحاماة عن الحقوق العامة فانهُ عاد الى فرنسا ليهدم قلعة الظلم التي كان قد بوشر بترميمها وليخلص الاهالي من ظالميهم . وكان قلب فرنسا يميل الى ما كان قلبهُ يميل اليهِ . فالذي يطالع هذه الاخبار التي يصعب على العقل تصديقها فانها على صحتها قريبة من الحكايات الخرافية لا يتعجب مما قالهُ لامرتين المؤرخ ان الرجال بين الرجال اعظم مخلوقات الله

قلنا ان البوربون اعلنوا انهم يدفعون جائزة لمن يجيئهم برأس نابوليون ومع ذلك اصدر

هوا وامره بان لايعارضوا ولا يهانوا وان يسمح لهم بالخروج بدون ضرر ولا اهانة . وكان اسرهم من اسهل الامور عليهِ كما انهُ كان يقوى على ارغام الدول المتحدة بموافقتهِ على شروط معتدلة وهم في قبضة يده . غير ان كرامة اخلاقهِ الخارقة العادة منعتهُ عن القيام بذلك . اما لويس الثامن عشر الذي كان مالكاً في فرنسا فسار ومعهُ مركبات كثيرة فيها اعضاء عائلتهِ ووزراؤهُ والمهاجرون الذين عادوا مرتجفين وذهبوا الى (ليل) في حدود فرنسا الشمالية . وكان اهالي الاماكن التي مرَّ بها ينظرون اليهِ صامتين بشفقة لانهُ كان ضعيف الجسم ولم يفوهوا بكلمة لوم . ولكن كانوا كلما خرج من مكان ينزلون الراية البوربونية ويرفعون راية الحرية المثلثة الالوان ضاجين فليعش الامبراطور . وكانت الحكومة البوربونية قد وزَّعت فرقاً قوية من الجيش في القلع الشمالية . وحالما بلغها ان نابوليون دخل فرنسا غيرت بعض لبسها وطلبت بالحاح ان يصير الذهاب بها لاعانتهِ . وكان البوربون متحققين انهم لايقدرون ان يتكلوا على الاهالي وان املهم منحصر في الامراء وقوة العساكر . وكانوا قد صرفوا سنة محاولين ان يؤلفوا جيشاً يقدرون ان يركنوا اليهِ بصرف الجنود القدماء وتاليف طوابير جديدة وتسليم القيادة الى اصدقائهم . على ان حب الاهالي لنابوليون كان مغروساً في قلوبهم فامتنع عليهم استئصالهِ منها . فكانت العساكر تسد اذانها عن اوامر قوادها البوربون وتوسلاتهم وتحريضاتهم وتلح في طلب الانضمام الى ذلك الامبراطور المعروف بامبراطور الاهالي . اما ملك فرنسا البوربوني فلجأ الى هولاندة وعينت لهُ هانهِ الحكومة مكاناً للعزلة في « جنت » وهي مدينة قديمة هجرها اكثر اهلها حال كونها ذات شهرة بامرائها . اما الدوقة دي انغولم وهي بنت ماريا انتوانت فكانت في بوردو . وكانت قد سجنت مدة طويلة في سجن التمبل وعانت من العذاب ما جعل كل القلوب تشفق عليها وحين دخل نابوليون فرنسا كانت في مدينة فيها مائة الف من السكان محاطة بعشرة الاف جندي . فلما سمعت بدخولهِ الى فرنسا امرت الضباط ان يجمعوا الجيش لطرد المختلس الوقح . فعادوا اليها قائلين ان الجنود قد قالوا لنا انهم لايرفضون مقاومة نابوليون . وحفيدة ماريا تريزا نهجت منهجها وسارت الى منزل العساكر وجمعتهم في دائرة حولها واخذت تحرضهم على القتال بالبكاء والتنهد فحركت عواطف الجنود فصمتوا ولم يكن من دأبهم اهانة امراة كريمة منكودة الحظ . على انهم كانوا يحبون استقلال فرنسا وان يكون اختيار امبراطورهم من حقوقهم وان يعولوا على السياسة التي توافقهم . فلما رات تناقلهم عن إجابة داعيها حاولت حمل بعضهم على التطوع فقالت ان الذين يرومون ان يكونوا امناء بالنظر الى ناموسهم وملكهم فليخرجوا من صفوفهم ويصرحوا بذلك فلم يتحرك احد منهم . غير ان بعض الضباط رفعوا سيوفهم ليبينوا لها انهم يحامون عنها فعدتهم وقالت بحزن انكم قليلون ثم قالت بغضب يا الله ما اصعب الوقوع في الشقاء ثانية بعد عشرين



سنة صرفت بالمصائب . ولم انقطع عن ان اتوسل الى الله ان يوفق بلادي لانني امراة فرنسوية اما انتم فلستم بفرنسويين فتواروا عن بصري . فاجابها رجل واحد قائلاً اننا لانرد عليك فاننا نعلم كيف ينبغي ان نحترم الذين يقعون في المصائب . فبادرت الى اصدار الاوامر بالسفر وامرت باستحكامات القلعة والطبول تدق وركبت سفينة انكليزية حربية بقلب يكاد يتفطر حزناً وكآبة وسارت قاصدة لندن ثم ارسلت منها في سفينة اخرى لتنضم الى اصدقائها في « جنت » وحال خروجها رفعت الراية المثلثة الالوان واخذ الاهالي يضجون في الشوارع قائلين فليعش الامبراطور وعندما سمع نابوليون بما فعلت هذه الدوقة التي صرفت حياتها كلها من المهد الى القبر في البلايا والويل وهي من العائلة البوربونية قال انها رجل عائلتها الفريد . اما زوجها الدوق دوانغولم ابن الملك كارلوس العاشر فخرج في ١٠ اذار (مارس) من بوردو في ثلثة عشر الف جندي معلقاً املهُ باسترجاع ليون وغرينوبل . على ان الاهالي قرعوا اجراس الحزن واجتمعوا متطوعين من الجبال والاودية من الفلاحين واهل الصناعة وغيرهم . فلما رأهم الجنود الذين كانوا مع الدوق انضموا اليهم ضاجين فليعش الامبراطور وأسر الدوق وقتئذٍ

وفي ١٦ اذار (مارس) نشر البوربون امراً قالوا فيهِ ان نابوليون واصحابهُ اهل تعدٍ لايبالون بصيانة القانون فيحق لكل انسان ان يقتلهم وصدَّق على هذا الاعلان مؤتمر الدول المتحدة الذي كان مجتمعاً في فينا باعلان مثلهِ مؤرخ في ١٣ من الشهر المذكور . ولم يكن يرضى نابوليون بان يجلب على نفسهِ العار بالمداخلة في حرب قتلة فكتب الى الجنرال كروشي الذي كان قد اسر الدوق بما ترجمتهُ

يحق لي ان اعامل الدوق دوانغولم جرياً على منطوق المعاملة التي امر الملك في الاعلان المؤرخ في ١٦ اذار (مارس) واعلان فينا انني اعامل بها انا وعائلتي اذا وقعنا في الاسر . على انني ساحافظ على مراعاة ما حملني على ان امر بان يباح لاعضاء العائلة البوربونية ان يخرجوا من فرنسا بحرية . وارغب ان يؤخذ الدوق دوانغولم الى « مت » حيث ينزل الى البر ويصان من سوء المعاملة ومن كل تعدٍ . على انهُ ينبغي ان تحافظ على المال الذي اخذ من الخزينة العمومية وان تطالبهُ ان يعيد جواهر التاج لانها ملك الامة

وجاءت الملكة هورتنس وولداها واحدهما صار الامبراطور نابوليون الثالث في التويلري ليترجوا بنابوليون . وكان نابوليون ربيبها وربيب شقيقها اوجين يحبهما حباً شديداً . وصرف نابوليون دقائق قليلة بالفرح والسرور ومقابلة الناس ثم سار الى غرفة بحسب عادتهِ الناشئة عن اقدام وهم طالما ادهشت القريبين منهُ وصرف باقي الليل في اصدار الاوامر وتنظيم الحكومة واختيار الوزارة . وقال كولنكوران اشتغالهُ بالامور العقلية كان يجعلهُ لايشعر بالتعب والنعاس . وكان

يقول انهُ ينبغي ان يصرف الانسان ٢٢ ساعة من ٢٤ ساعة في امور نافعة

وقبل الظهر بثلث ساعات من الغد ازدحمت اقدام الناس المدهشين المتعجبين في جنينة النسحة والسلالم والقاعات . وكرر الناس طلب مقابلتهِ فكان يظهر لهم في نافذة من الدار فكانوا يضجون فرحًا ضجات غير معتدلة مصفقين بايديهم . اما ابطال البا الذين كانوا قد قطعوا في عشرين يومًا سبعمائة ميل فوصلوا في الليل ونزلوا في فسحة قصر التويلري وقبل ذلك باشهر قليلة كانت قد اجتمعت فيها فرق الاعداء تضج مهتفة وهي تحيط ببنادقها البوربون الذين استووا على العرش غصبًا عن الاهالي . وكانت فرق الجنود تدخل باريس كل دقيقة ناشرة راياتها وموسيقاتها تصدح بنغماتها المطربة الى ان اعضلت جميع الاماكن المجاورة للقصر بالعساكر . وكان كلما دخلت فرقة يقابلها الاهالي والجنود بضجات الفرح . وعند الظهر خرج نابوليون من القصر ومعهُ عدد غفير من قواد اركان الحرب وغيرهم لتعرض الجنود عليهِ . وعندما ركب امام الصفوف ضجت الجيوش ضجات يصعب وصفها فاجاب بتبسم وانحنى راسهُ لهم قليلاً وكان يحرك حمية الذين كان يخاطبهم . وكان حرس نابوليون القديم نازلاً في باريس يلوم جدًّا جيش الحرس الوطني الباريسي لانهُ اسرع في التسليم الى الدول المتحدة . فطلب نابوليون الى ابطال حرسهِ ان ينقطعوا عن ذكر ذلك . وامر الحرس الامبراطوري ان يدعو الحرس الوطني الى وليمة ليتناسوا ما كان يجري من الكلام المكدر فاجتمع في الفسحة المعروفة بشان دي مارس خمسة عشر الف جندي وفي نهاية الوليمة الزاهية سار هولاء الجنود اجمع ومعهم جمهور غفير من الاهالي حاملين تمثال نابوليون المكلل بالغار . وحيوا الامبراطور تحيات مكررة ثم ساروا الى «بلاس فندوم» ليرجعوا تمثالهُ الى ذلك المكان المفتخر الذي قلبهُ البوربون منهُ . فمنعهم نابوليون قائلاً لا يرجع تمثالي الى مكانهِ في نهاية وليمة فان امرًا كهذا مما يفوض الحكم بهِ الى الامة الفرنسوية فانها قد امرت بان يعاد التمثال المذكور الى مكانهِ وهو الان هناك . وطالما صدحت الموسيقات العسكرية كل مساء بالقرب منهُ بنغمات كانت تؤثر في نابوليون وهو في قيد الحياة . والان بعد اكثر من نصف قرن يجتمع حولهُ يوم ولادتهِ كثيرون من محبيهِ . ومع ذلك من الناس من يذكر اسمهُ باحتقار فهولاء يستحقون الشفقة لا اللوم فان من الناس من لا يقدر ان يحسن التمييز بين الحسن والقبيح ومنهم من لا يقدر ان يدرك فضل الفضلاء فلا ينبغي ان يلاموا لان ذلك نقص فيهم

ولا يخفى ان مورات خاف ان يخسر تاجهُ فاتحد مع الدول وجهر بالعدوان لنابوليون ولم يكن يخطر ببالهِ ان من الممكن ان يخلع الملوك نابوليون بعد ان عاملهم تكرارًا بالعفو وكرامة الاخلاق . وكان مورات ملكًا على نابولي فراى ان اتحادهُ مع ملوك اوربا غير طبيعي وراى ان همهُ لا تعاونهُ على سل سيفهِ لمقاومة نابوليون رفيقهِ العسكري وينبوع نعمتهِ . فلما راى ان كثرة عدد اعداء فرنسا



الحقت بنابوليون خسائر جمة متتابعة اخذت منهُ الشفقة كل ماخذ وعندما راى نابوليون واقعًا بين مليون من الاعداء عند باريس اخذ يتردد بين مراعاة صالحهِ الظاهر ومراعاة ناموسهِ والواجب عليهِ حميةً وشهامةً وفي مساء الثالث عشر من نيسان (افريل) اي بعد اعتزال نابوليون في فونتينابلو بيومين كان مورات يتمشى متاملاً حزينًا في جنة قصره في البرية ليبث اتعابهُ واحزانهُ للجنرال كولتا فدنا منهُ رسول وسلمهُ مكتوبًا فقرأه صامتًا واصفر لونهُ وامسى كمن قد اُصيب بصاعقة ثم تمشى دقيقة بسرعة ثم وقف وتفرّس في الارض ولوائح الارتباك والحزن الشديد تلوح على وجههِ . ولما راى الجنرال كولتا وحشم الملك ذلك دنوا منهُ متعجبين مشتغلي البال فلحظ انهم يرومون الوقوف على سبب اضطرابهِ فتفرس فيهم وقال لهم ياسادتي قد سلّمت باريس وخلع الامبراطور وبات اسيرًا . وكان مورات من الابطال الذين لا يخشون خوض بحار المنايا ولا مصادمة الالوف فغطى وجههُ بذراعيهِ واذرف دمعًا غزيرًا وتذكر كل الماضي فبكى بكاء الاطفال فاثر ذلك بجميع الحاضرين وبكوا لبكائهِ . ولم تراعِ الدول المتحدة حينئذٍ ذمتهُ وحرمة منافع انضمامهِ اليها وهجرهِ نابوليون . فان بوربون فرنسا صمموا في الحال على تقوية قواعد الملكية بخلع مورات وارجاع اقاربهم البوربون الى نابولي ولم يكونوا يراعون المعاهدات التي كانوا يعقدونها مع حزب الحرية ودولتهِ بل كانوا يمزقونها كل ممزق للقيام باعباء صوالحهم فادعوا ان مورات انضم اليهم مراعاة لصوالحهِ ولم يسعفهم كثيرًا فتوافقت انكلترا وفرنسا والنمسا في موتمر واتفقوا على اخراجهِ من نابولي وارجاع فرديناند الجاهل وزوجتهِ المعيبة وفي مساء السابع من شهر اذار (مارس) كان مورات محاطًا بقواد جيشهِ واصدقائهِ في قاعة الملكة زوجتهِ فدخل رسول عليهِ واخبرهُ بان الامبراطور وصل الى (كان) وانهُ سار الى باريس فائزًا ففرح جدًّا وانفتح لهُ باب امل جديد وصمم على الخروج عن دائرة الحكمة والحمل على الدول المتحدة قبل ان يستشير الامبراطور مؤملاً ان اظهار شدة الغيرة يكفر عن تقصيراتهِ الماضية فلم يصغ لمقاومات وزرائهِ بل قال لهم ان ايطاليا تنتظر اشارة وعندي ثمانون الف جندي قد تعودوا الحرب ومستحفظ قوي وكل بلاد «البو» تطلب مخلصًا وقد كتب اليَّ قواد جيش اوجين القدماء في ميلان والذين في بيامونت انهم مستعدون للمجاهرة بالعصيان لجمع ايطاليا مملكة واحدة فان موتمر فينا قد فعل ما لم يرضَ بهِ جميع الناس في جانبي الابنين وقد اغتاظت جنوا واُذلت البندقية واُرجعت بيامونت الى عبودية اهل الدين والامراء واهالي ميلان يتذمرون كثيرًا من اخضاعهم لعبودية رومية والنمسا القديمة فقيل لهُ انهُ لا يقدر ان يتغلب على مليون من الجنود الذين كانوا لا يزالون متقلدي السلاح حال كونهم من جنود الدول المتحدة وانهُ اذا صبر الى الساعة الموافقة فربما جاء بعواقب عظيمة مهمة على انهُ اكتفى بالشجاعة المدهشة المجردة عن الحكمة وحمل قبل اوان الحمل فتغلبت عليهِ

انكلترا فتبدد شمل جيشهِ وعندما وقع في اليأس طلب الموت في وسط الرصاص المتساقط كالمطر ولكنهُ لم يدركهُ فقال بغيظ ان الموت لايمسني فعاد الى قصرهِ هاربًا واعلق زوجتهُ قائلًا يا كارولين لقد خسرنا كل شيء فقالت بكلام يليق باخيها الامبراطور نابوليون اننا لم نخسر كل شيء فان شرفنا لايزال سالمًا وكذلك لايزال ثباتنا محفوظًا لنا في الشدائد

وفي ٢٠ ايار (مايس) كان نابوليون يدخل باريس فائزًا وموراتكان هاربًا من نابولي متخفيًا في قارب صيد سمك فوصل الى فرنسا وعندما ساد البوربون بعد ذلك بات هاربًا من وجه الظلم فتاه عدة اسابيع متخفيًا متحملًا من المشاق والضيقات ما لا مزيد عليهِ معرضًا لمخاطر جمة ثم قام باعمال خارجة عن دائرة الحكمة ناشئة عن جسارة غير معتدلة بامل الرجوع الى عرشهِ ولم ينجح بل أُلقي القبض عليهِ وحوكم في مجلس عسكري بدون تروٍّ وحكم عليهِ بالقتل وسمع الحكم بلا اضطراب ثم جلس وكتب الرسالة الاتية الى زوجتهِ

يا كارولين العزيزة . بلغت الساعة الاخيرة من حياتي وبعد دقائق قليلة لا اكون من الاحياء فتمسين ارملة . فلا تنسيني . ان حياتي لم تلطخ بالظلم . استودعك الله يا اشيلي ويا ليتيسيا ويا لوسيان ويا لويزا . اظهروا للناس انكم تستحقون ان اكون اباكم . انني اتركم بلا ملك ولا ثروة بين الاعداء . فاتحدوا واثبتوا انكم تقدرون ان تتغلبوا على المصائب وتذكروا اصلكم والله يباركم . ولا تنددوا بي وتيقنوا ان اشد آلامي في نهاية حياتي ناشئة عن موتي بعيدًا عن اولادي فاقبلوا بركتي ودموعي وقبلاتي وتذكروا على الدوام اباكم المنكود الحظ . كتب في بنسوفي ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨١٥ بواكيم

ولما اقترب من الموت شعر بالاحتياج الى تعزية الدين ومساعدتهِ . وزايلهُ الافتخار بالنصر على الحزن والاستخفاف والسرور وكل مجد اعمالهِ الماضية فراى ان هذه الامور عدم بالنسبة الى الموت فدعا كاهنًا وتناول القربان المقدس وكتب بيدهِ هكذا اصرح بانني اموت مؤمنًا بالايمان المسيحي ثم سار بثبات الى المكان المعد لقتلهِ حيث صف صفان من الجنود متقلدين بنادق محشوة ولم يرضَ بان تربط عيناهُ وكان ينظر الى الات قتلهِ متبسمًا ثم قبل صورة زوجتهِ واولاده وكان يحملها على الدوام وقال للجنود لاتطلقوا الرصاص على وجهي بل اطلقوهُ على قلبي . فاجابوا باطلاق بنادق كثيرة فسقط وقد خرق جثتهُ رصاص كثير وكان لهُ من العمر حينئذٍ تسع واربعون سنة

وكان على جانب عظيم من الشجاعة والبسالة لايبالي بالموت ولا يخاف كثرة العدو ومع ذلك كان ذا قلب شفوق قال ذات مرة لصديقهِ ووزيرهِ الحاذق الكونت ماربورغ ان احب الامور عندي ذكر امر خطير يعزيني جدًا عند التامل في اعمالي السابقة كجندي وقائد وملك وهو انني لم ارَ قط رجلًا مقتولًا بيدي . وربما جرحت عدوًّا او قتلتهُ بحملاتي الكثيرة حين كنت اكرّ امام



الجيش مطلقًا الغدارات ولكن لم ارَ احدًا مجندلًا بطلقاتي . ولو قتلت رجلًا بيدي ورايتهُ لما زالت صورتهُ من مخيلتي حتى الموت

اما اسم موراتفيبقى الى الابد وهو قد ارتكب اغلاطًا كثيرة الا انهُ كان ذا صفات تجتذب القلوب اليهِ

## الفصل الثالث والستون

ان عساكر الدوق دي ليري نكسوا راية البوربون ورفعوا بسرور وحمية علامة الامبراطورية ودخلوا باريس بفرح واحتفال طالبين ان يسمح لهم بان يحيوا امبراطورهم . فركب نابوليون فرسهُ وسار امام صفوفهم والعساكر تصيح باعلى الاصوات داعية لهُ بطول البقاء ثم جمع الجنود حولهُ واشار اليهم بيدهِ ان يسكتوا وقال . ايها الجنود دخلت فرنسا بستمائة رجل لانني اتكلت على حب الاهالي والعساكر القدماء ولم أُلاقِ الا ما كنت انتظرهُ فاشكركم فمجد ما قمنا بهِ منكم انتم ومن الاهالي . ومجدي منحصر في معرفة حبكم وادراك قدرهِ . اما ملك البوربون فغير قانوني لان ارادة الامة المبينة في مجالسنا الوطنية لم تثبتهُ ولانهُ رقى صوالح عدد قليل من الرجال اصحاب النخوة الذين كانت ادعاآتهم تضاد حقوقنا . ايها الجنود ان الامبراطورية دون غيرها تصون حقوق الشعب . تعالوا لنطرد من اراضينا الامراء الذين يساعدون الاجانب وارادة الامة تعضدنا وتتبع اثارنا ولا نروم ان نتداخل في امور الاجانب والويل للذين يتداخلون في اشغالنا

ودخل نابوليون قصر التويلري وجاء غرفة اشغالهِ والاهالي يضجون داعين لهُ اما الملك لويس فكان قد غادر القصر على عجل فترك امورًا كثيرة . وكان في زاوية تلك الغرفة كرسي كبير مريح جدًا كان يجلس فيهِ ليريح جسمهُ الضعيف . وترك على مائدته محفظة فيها اوراقهُ السرية والخصوصية الا انها كانت في يد نابوليون سالمة من الخطر لصدقهِ وكرمهِ فانهُ لم يرضَ ان يطالع ما يمكنهُ من الوقوف على احوال اعدائهِ الخصوصية فامر بختمها وارسالها الى صاحبها . وكان احد الذين يترددون الى القصر بروم ان يرضي الامبراطور فوضع على المائدة امورًا للاستهزاء بالبوربون فاغتاظ الامبراطور وامر ان تبعد . فان كرامة اخلاقهِ وشهامتهُ لم تسمحا لهُ بالتنازل الى درجات دنية كهذه . ووجد في القاعة صلبانًا ومسابح وغير ذلك يستدلُّ بهِ على تعبد الملك لويس فامر ان تجمع وتخرج من القاعة قائلًا لاينبغي ان تكون حجرة ملك فرنسا كصومعة راهب . وامر برسم فرنسا ان يبسط على المائدة ثم نظر اليهِ وقال بكدر «فرنسا مسكينة» . هذا بالنظر الى تصغيرها . ثم نظر الى كولنكور قائلًا انني اعلنت السلم عند حضوري فالاحوال لاتسمح باكثر من ذلك . وقد صممت على الاعتراف بمعاهدة باريس فانني اقدر الان ان اقبل بما لم اكن اقدر ان اقبلهُ وانا في شالون

بدون مسّ ناموسي . وقد التزمت فرنسا بالقيام بتلك الضحايا وقد تمّ ذلك ولكن لم يكن يليق بي ان اقبل بها للمحافظة على تاجي . اما الان فاستلم امور البلاد على ما وجدتها عليهِ واروم توطيد السلم . فمن الاصابة ان لاتجدد الدول المصيبة بالحرب . وقد كتبت الى الامبراطورة ولا بد من انها تقنع اباها فيسمح لها بالعود اليّ

وكان نابوليون يتمنى الصلح ويظن ان بلوغهُ ممكن وان الدول المتحدة ترضى بان تفوز فرنسا باستقلالها فانقطع عن التأهب للحرب مع ان جيوشًا جرارة من جيوش تلك الدول كانت لاتزال متأهبة لتحمل على فرنسا وكانت فرنسا قد صرفت جنودها ومخازن المؤونة والذخائر فيها فارغة . فلو تأهب لاعلنت الدول المتحدة عملهُ في اوربا مدعية انهُ يدل على ان نابوليون لايزاك عاملاً على اراقة الدماء مجاراة لمطامعهِ فالتزم بالانقطاع عن كل تأهب خوفًا من ثلم صيتهِ وكانت قوتهُ منصرفة الى اقناع الاوربيين بانهُ يكره القتال . وبات ينتظر جواب الدول على طلب المصالحة . وكان ذلك من الامور المضرة جدًّا بهِ

ونظّم الحكومة الجديدة بسرعة تحير العقول فارتضت الامة بها . وكان المشيرون جميعًا من الممتازين بالحذق واهل الخبرة العارفين باصول الادارة المحافظين على الحقوق العمومية . وبعث المشيرون اليهِ رسالة قصدوا بها مخاطبة الامة قالوا فيها . يا ايها المولى . ان رجوع الامبراطور الى العرش الذي كان قد استولى عليهِ بارادة الاهالي عبارة عن اعادة الاهالي الى اقوى حقوقهم . وقد رجع ليملك بقاعدة القانون الفريدة التي اعترفت فرنسا بها منذ ٢٥ سنة . اجاب نابوليون بما يأتي ان الملوك انما هم الاهالي الاولون في البلاد وليسوا اكثر من ذلك وتكون سطوتهم متسعة الدائرة او ضيقتها بحسب صالح الامم التي يدبرون امورها ولا تكون الملكية بالإرث الا لان صوالح الامم تدعوها الى ذلك وما من حق ممتاز قانوني غير هذا

وبنجمان كونستان في مقدمة الممتازين في فرنسا وكان اكتب الجمهوريين وافصحهم فاصبح رئيسهم . ولما راى نابوليون ان فرنسا لا تقدر ان تصون استقلالها مدافعةً دول اوربا المقاومة لها الا بادارة مطلقة قبض على زمام تلك الادارة غير المقيدة بارادة الامة . وجاهر بنجمان المذكور بمقاومتهِ وظهر لهُ بالاختبار انهُ غلطان فان الظلم ساد والاجانب الزموا فرنسا بقبول البوربون وبعد برهة قصيرة طردتهم . فانضم الى الامبراطور فقابلهُ كصديق قديم وقال لهُ نابوليون ان مراعاة الصوالح العامة الزمتهُ بالقبض على زمام الحكومة المطلقة . وقال عن ذلك ان الامة طرحت نفسها عند اقدامي لما قبضت على زمام الامور فينبغي ان تتذكروا ذلك انتم الذين حاولتم المقاومة فاين كانت قوتكم وسطوتكم انها لم تكن في مكان من الاماكن فلم اتخل من القوة ما عرض عليّ اتخاذهُ ولما عدت من البا اجتمعت الامة اليّ متقاطرة من السهل واعلى الجبال وادنى الاودية . ولم افتح البلاد



من (كان) الى باريس ولكنني ادرتها فلست كما يقال امبراطور الجنود فقط لكنني امبراطور الفلاحين وسائر الاهالي . وكلٌّ منا مشارك للاخر بالحاسيات . ولست بمشارك بذلك لاهل الامتياز فالامراء خدموني وازدحمت اقدامهم اليّ وطلبوا جميع الخطط وقبلوا كل وظيفة وجهت اليهم . وخدمتني عائلات مونمورنسي ونوايل وروان وبوفو ومونمار غير انها لم تشاركني بالحاسيات فكانهم فرس يلعب بحسن تربيتهِ وفارسهُ يشعر بتردده . اما الاهالي فحاسياتهم كحاسياتي فانني خرجت من صفوفهم ولصوتي تاثير فيهم وجميعنا من فطرة واحدة وعندهم انني عضدهم في مقاومة اصحاب الحقوق الموروثة فاذا امتنعنا عن حماية الامراء يقتلون جميعًا في كل مكان ولكن لا ارضى ان اكون ملك العامة غير المرتبة . واروم ان تتمتع البلاد بحرية المفاوضات والانتخابات والوزارة المسئولة وخصوصًا حرية الجرائد فان تقييدها ناشئ عن قلة الادراك فانني رجل الشعب ولم يخطر ببالي ان احرمهُ الحرية لمقاصدي . وسياستي انما هي إنهاض فرنسا وتمكينها من الحصول على اوفق الحكومات لها وأحب السلم غير انني لا افوز بهِ الا بالانتصار وارى انهُ لا بد من احتمال ضيقات عظيمة في حرب طويلة ولا بد للامة من ان تعضدني للقيام بها

وكان عمل الامبراطور الاول الاداري يدل على اتكالهِ على الاصول فانهُ امر بجمع المنتخبين في كل مكان ليكون عوده الى عرش الامبراطورية باقرارهم غير مكتف باعلان مجلس الشورى وهاك نصهُ

في ٢٥ اذار (مارس) سنة ١٨١٥ : ان مجلس الشورى رجع الى اعمالهِ وراى من اللازم ان يبين القواعد التي تبنى اراؤهُ عليها . فحقوق السيادة الاولى في يد الشعب وهو وحدهُ ينبوع السلطة القانونية . وسنة ١٧٨٩ استولت الامة الفرنسوية على حقوقها التي أُختلست منها او أُهملت . فمجلس المبعوثين أبطل الملكية المؤسسة على اهل الامتياز وعين امبراطورية ذات قانون اساسي وحكومة شوروية . فمقاومة البوربون لارادة الاهالي عقبها سقوطهم وطردهم من الاراضي الفرنسوية . والاهالي اثبتوا مرتين بارائهم الحكومة التي انشأها مبعوثوهم

اولاً . سنة ١٧٩٩ رفع بونابرت المكلل بالنصر الى رئاسة الحكومة وتقررت حكومة القنصلية الاولى بقانون اساسي . ثانيًا . في ٢ آب (اغسطوس) سنة ١٨٠٢ قرر مجلس الاعيان ان يصير بونابرت قنصلاً (اي رئيس الحكومة الفرنسوية) حياتهُ بطولها . ثالثًا في ١٨ اذار (مارس) سنة ١٨٠٤ قرر مجلس الاعيان ان يصير نابوليون امبراطورًا وجعل الامبراطورية موروثة في عائلتهِ

فهذه الاعمال الثلثة طرحت لموافقة الامة فاثبتتها بنحو اربعة ملايين راي . وانقطع البوربون ٢٢ سنة عن الملك في فرنسا حتى باتوا في زوايا النسيان لايعرفون قوانيننا ولا عاداتنا ولا اصولنا ولا مجدنا فالجيل الحالي لم يكن يعرفهم الا بتذكر الحروب الاجنبية التي هاجموها على بلادهم

والانشقاقات التي القوها فيها . فانشأ الاجانب ما ادعوا انها حكومة موقتة . وجمعوا اقلية من اعضاء مجلس الاعيان والزموهم بان يجنحوا عن دائرة فروضهم وارادتهم وان يصرفوا النظر عن النظام مقررين سقوط العرش الامبراطوري ورجوع العائلة البوربونية . ونشأ تخي الامبراطور نابوليون عن عواقب الحالة التي امست فيها فرنسا على اثر الحرب بالخيانة وباحتلال الاجانب القاعدة . ولم يتخ الا لمنع انتشاب الحروب الاهلية وحجب دماء العباد . فهذا العمل لم يثبته الشعب فلا يبطل الاتفاق الصحيح الذي عقد بين الامة والامبراطور . واذا فرضنا ان نابوليون تخى شخصياً عن الامبراطورية فلا يحق له ان يبطل حقوق ابنه المعين خلفاً له . فلويس جاء فرنسا واستولى على العرش فنزعت الامة من الاجانب ولم تقدر ان تبث ارادتها . وتم ذلك بحماية جيش اجنبي فبادر لويس الى التشكر من الملك الذي مكنه من ادراك العرش وجعل تاريخ عمله الاول الرسمي في السنة التاسعة عشرة من ملكه مصرحاً ان الامور التي صدرت من ارادة الشعب انما هي نتيجة عصيان طويل . فجميع هذه الاعمال غير اصولية جرت بحضور جيش اجنبي مقاوم لفرنسا فما هي الا نتيجة الاجبار . فهي باطلة وعبارة عن التعدي على ناموس الاهالي وحريتهم وحقوقهم . فرجوع الامبراطور الى العرش الذي استولى عليه بارادة الامة هو عبارة عن تثبيت حقوق الامة المقدسة . وعاد لهملك بالقاعدة القانونية الفريدة التي اعترفت بها فرنسا منذ ٢٥ سنة وجميع القوم تقيدوا بها بالقسم ولا يتخلصون من قيدها الا بارادة الامة . انتهى

وهذا الاعلان الرسمي كاف غير ان الامبراطور كان يروم ان يسد جميع ابواب الاعتراض وينفي ما يلقي عليه تهمة الاختلاس فالح على الامة ان تصرح بارادتها بالنظر الى عوده الى العرش وكان في فرنسا حينئذ اربعة احزاب متباينة وهي حزب البوربون الاصلي وحزب الأرليان وهو البوربون الفرعي وحزب الجمهورية وحزب الامبراطورية . فأبرزت الامة اراءها واكتسب نابوليون وحده اكثرية تزيد عن المليون اي ان الذين اختاروه من رجال فرنسا يزيدون عن الذين اختاروا الدول الاخرى الثلث معاً باكثر من مليون ومع ذلك كانت الدول المتحدة تقول ان عوده اختلاس

وكانت اقدام الزائرين مزدحمة على الدوام في غرف قصر التويلري وكان نابوليون يلاطف الجميع . اما اعضاء مجلس الاعيان الذين قرروا سقوط الامبراطورية فاتوه مهنئين مرتجفين فقابلهم ملاطفاً ولم يظهر ما دل على غيظه بل قال اني اترك هذا العمل للتاريخ . وقد نسيت جميع الحوادث الماضية . وانتهز نابوليون الفرصة الاولى ليزور المدرسة التي كان قد انشأها في ( اكون ) لتعليم اليتيمات بنات الذين نالوا نيشان اللجيون دونور فلما زارها نابوليون اجتمعن حوله باحترام وفرح وطرحن انفسهن عند قدميه وقبلن ركبتيه بدموع فامسك ملعقة ليذوق



طعامهن فصارت كانها مقدسة عندهن فبعد ان خرج قطعنها قطعاً صغيرة وعلقنها باعناقهن كالعود وكان اكثرهن لابساً خواتم من شعر مضفور فالبست احداهن نابوليون خاتماً شعرياً فتبسم فبادرن اجمع الى تلبيسه خواتمهن وملأن اصابعه بها فقال لهن ايتها الفتيات انها ثمينة عندي كجواهر تاجي ولما عاد الى عجلته قال هذه هي غاية السعادة وهذه الدقائق اسعد حياتي

اما الدول المتحدة التي كانت عاقدة المؤتمر في فينا فصرفت اشهراً في الخصام على ما ربحته من البلاد بمحاربة فرنسا والتغلب عليها وكان قد اجتمع في فينا مائة الف رجل من المشاهير الغرباء عنها لينفرجوا على ما كان يبذل من اسباب العظمة وكان فيها ثمانون الف جندي لابسين افخر الملابس ليكونوا حراساً للملوك والامراء الذين كانوا مجتمعين فيها وكان يشترك في المفاوضات الناشئة عن مقاتلة اولئك الملوك المفتخرين المنتصرين ثمانمائة سفير وكانوا قد وضعوا ارجلهم على اعناق الاهالي بالتغلب على قواعد المساواة والحرية اما اولئك الملوك والسفراء وسائر ارباب الخطط العظام المجتمعين في فينا فكانوا يخففون اتعاب الامور السياسية بالولائم وما دب الرقص والتنعمات وكانت نفقات الصيارفة تصرف من خزينة امبراطور النمسا . وبلغ مصروف المائدة الامبراطورية للطعام وحده مئة الف فرنك كل يوم

واشتد الخصام بين الدول المتحدة على قسمة ما استولوا عليه من بولونيا وصكسونيا وايطاليا ويكاد بعضهم يجاهر بقتال البعض الاخر اذ جاء رسول اللورد كاسلريا بخبر خروج نابوليون من البا وكان تاليراند حينئذٍ مشتغلاً بتصنيف شعره ليحضر مادبة رقص وكانت يداه مضمختين بالاطياب التي كان خادمه قد صبها عليه وكان مزينان مشتغلين بتصنيف شعره وفي خلال ذلك دخلت عليه البرنسس دي كولاند نسيبته الفتية البديعة الجمال وفي يدها رسالة من مترنخ كتب على غلافها سرية مستعجلة فنظر تاليراند اليها وهو في وسط الحديد الذي يجعد الشعر به والاطياب وطلب اليها ان تفض الرسالة وتقراها عليه ففعلت وقبل ان اكملت قراءتها اصفر لونها وقالت ياربي ما هذا ان نابوليون خرج من البا كيف تتم مادبة الرقص التي اعتنيت بها وكان تاليراند لا يعجب من شيء فصمت لحظة وقال بتأنٍ وصوت منخفض لا تخافي فان هذا الخبر لا يضر مأدبتك وكان من الذين حنكهم الزمان واختبروا العالم فلم يلح على وجهه اضطراب غير ان الذين كانوا مدعوين الى تلك المادبة لم يكونوا مثله فلم يقدروا ان يستروا خوفهم وقال اليسون لو انقضت صاعقة على الذين كانوا مدعوين الى تلك المادبة الفاخرة لما اثرت فيهم قدر تاثير هذا الخبر القصير ومع ذلك اجمعوا على اخفاء قلقهم بما يمكن واستمر تاليراند جالساً والمزين يجعد شعره ثم اختلى عدة ساعات بالموسيو فرغ واللورد كاسلريا وكتب الى لويس الثامن عشر مشيراً عليه بان لا يتكل على الامة

الفرنسوية مؤكداً له تصميم الدول المتحدة على عضده ولم يكونوا يعلمون وقتئذٍ المكان الذي صمم نابوليون على التوجه اليه فصرفوا خمسة ايام بالقلق والحيرة والارتياب متوقعين ورود الاخبار المتصلة فانقطع القوم عن الولائم وتوجهت خواطر اوربا كلها الى رجل واحد حال كونه منفياً لا سلاح عنده ولا مال ركب البحر خائضاً بحاراً من المخاطر لا سند له الا اسمه ومع ذلك اوقع دول اوربا وجيوشها الجرارة في خوف واضطراب وهكذا كانت القوة في اوربا قوتين احداهما قوة نابوليون المنفرد والثانية قوة جميع دول اوربا وجيوشها وبوارجها

وفي ١٥ اذار (مارس) ورد الخبر على المؤتمر في فينا بان نابوليون وصل الى فرنسا وان الاهالي قابلوهُ بسرور وترحاب وساروا به الى جهة باريس فحير هذا الخبر القوم وقضى عليهم بالعجب العجاب فعقدت الدول المتحدة مؤتمراً وبعد ان جهرت كل واحدة منها باللوم للاخرى صرفت النظر عن اختلافاتها وانشقاقاتها خوفاً من عدوها الذي كانت تخشى بأسهُ وصرحت الدول بانها مغتاظة جداً من شعب فرنسا لانهُ كان يحب نابوليون حباً غير معتدل . فخالفت اصول معاملة البشر والحق وصرحت بان نابوليون ظالم مختلس يدوس حرية الاهالي بارجل حديدية ويقطع قوتها بسيوف ماضية . على ان ما اظهرهُ الفرنسويون من الحب الشديد والركون الى امبراطورهم أبلى الشفاه الكاذبة بالخرس موقتاً . وقال لامرتين ان غيظ الملوك ووزرائهم من نابوليون حول قوة انتقامهم الى فرنسا لانها كانت معاونة له فان دوام سيادة الحرية يسلب امنية الامم والملوك . فصاح في بادىء الامر الملوك ومشيروهم انهُ لابد من محاربة فرنسا الى الفناء فانها قتلت الملك لويس السادس عشر وتوجت نابوليون مرتين . وقالوا ينبغي ان يحملوا عليها حالاً قبل ان يتمكن نابوليون من جمع الجنود وان يوقعوا بها لتصير غير قادرة على مقاومة العالم قاطبةً

ورات الدول بعد الروية والتأمل ان تعبها يذهب سدى اذا الزمت فرنسا بالخضوع للبوربون ولذلك مالت كلها الى صرف النظر عن اسعافهم والمبادرة الى تقسيم فرنسا كما قسمت بولونيا او جعلها ملكاً لملك حاذق ذي اقدام يختارونهُ للقيام بادارتها . وقال امبراطور روسيا ضجرت من الحرب فلا اقدر ان اصرف كل ايامي وقوة امبراطوريتي لاجعل فرنسا ملكاً لعائلة لا تعرف الحرب ولا اصول الملوك فلا اسل السيف للانتصار لها . وانفرد تاليراند بالمدافعة عن البوربون في المؤتمر فانهُ لم يكن ينتظر المكافاة الا منهم وكان حاذقاً فطناً قادراً ان يتغلب على الصعوبات . وصرف ثمانية ايام في مقاومة ارادة دول اوربا المتحدة وثبت مستخدماً حذقهُ السياسي وفطنتهُ وقوتهُ الاقناعية التي لم ينتهِ احد بها الى ان فاز بنوال مطلوبهِ . وكانت الرسل الحاملة خبر تقدم نابوليون وسرور الاهالي بهِ تدخل مدينة فينا . فاغتاظ قواد الدول المتحدة وطلبوا ان يسمح لهم بان يحملوا على فرنسا الى ان يخضعوا كل الخضوع امة اصرت على اختيار ملكها . اما ملوك اوربا فاغتاظوا



من تسلط الامبراطور نابوليون العجيب على قلوب الفرنسويين وعقدوا على الانتقام منهُ نيتهم صارفين النظر عن البوربون . ومع ذلك كان تاليراند وزيرهم الحاذق يقاوم تهييجهم ويفرّهم من مقاصده

وصممت الدول المتحدة على ابرام الامر في الثالث عشر من شهر اذار (مارس) سنة ١٨١٥ اي انها عولت على ان تقرر احد ثلثة امور الاول تقسيم فرنسا بين الدول كما قسمت بولونيا . الثاني اقامة ملك متحزب لها كبرنادوت اشد اقداماً من البوربون واقرب الى حب الفرنسويين منهم او ارجاع البوربون الى العرش . ولم يخطر ببالها استقلال فرنسا ولا انهُ من حقوق الفرنسويين ان يختاروا ملكهم . وصرف تاليراند ليل الثاني عشر من ذلك الشهر في كتابة قرار كان بروم ان يحمل الدول على توقيعهِ وعندما خرج من منزلهِ ليذهب الى المؤتمر قال لنسيبهِ وكاتبهِ انني افارقكما في يأس وقنوط فانني ذاهب لاستخدم الوسائل الاخيرة فاذا حبطت اعمالي تمسي فرنسا في ضياع وابيت انا والبوربون غير قادرين ان نجد بلاداً لنكون منفانا . وانا عالم بان صبرنا قد فرغ فلا اقدر ان ابعث اليكما برسول في اثناء النهار فانهُ لا يسمح لاحد ان ينقل خبراً الى خارج قاعة المؤتمر . فانتظرا في النافذة ساعة رجوع مركبتي وانا فيها منكسر او منتصر فاذا كنت منكسراً اجلس فيها ساكناً واذا كنت منتصراً الوّح بورقةٍ من نافذتها علامة الفوز

وعقدت جلسة المؤتمر في الصباح وطال انعقادها والخطاب الذي فاه بهِ تاليراند بتأنٍ وصوت منخفض مرتب مقنع من الخطب المقنعة جداً قال فيهِ اذا عاقبتم فرنسا بعد ان تتغلبوا عليها بتقسيمها فهل تقوون على الاتفاق عليها . واية قوة تقدر ان تتسلط متغلبة على اعضاء جسم حي قوي لا ينفك بعضهُ عن محاولة الانضمام الى البعض الاخر . ولم تروا ما تخافونهُ في فرنسا الا روح الثورة فاذا قسمتموها تلتزمون بان تقاوموا على الدوام قوتين اخضاعهما من اصعب الامور لانهما اقل قبولاً للخضوع من جميع القوات وهما قوة روح الاستقلال وهي كجبل نار لا تلبث فوهتهُ ان تنفتح وتقذف النيران وان كانت في املاككم الموروثة . فتاملوا في بولونيا اما تتغذى فيها روح الثورة على الدوام بروح الاستقلال فتقسيم فرنسا يضيع اواسط اوربا . على انهُ يقال ان المقصود ليس هو تقسيم فرنسا لكنهُ تضعيفها لمنع اضرارها عن سائر الامم ولذلك برام ان تسلب قوتها وان يحل فيها برهة لتسلم بعد ذلك الى ملوك اقدر من البوربون لا تكرههم كما تكره هولاء . فاقول ماذا يسند حقوقكم في اوربا اذا لم تحافظوا على حقوق ملوك فرنسا الموروثة . ماذا يطرأ على هذه القاعدة التي وجدناها تحت ضربات الثورة والانقلابات وفتوحات عشرين سنة . واذا لم تات عائلة البوربون في هذا الزمان الا بملوك ضعفاء ليتبوأوا عرش فرنسا تلتزم اوربا بان تمكنهم من الاستواء على عرش الملك او ان تسلم جيوشها الى الهلاك فان صالح اوربا انما هو صيانة

الحقوق الموروثة وهذه الحقوق والبوربون واحد فتقسيم فرنسا تعدٍ على الامم وخلع البوربون تعدٍ على الملوك . والاصابة والحكمة في منهج واحد وهو ان يفصل صالح فرنسا على صالح نابوليون وان نشهر حرب لمقاومته شخصياً و يعلن السلام لفرنسا . فتضعفونه باظهاركم ان شخصهُ هو المانع لمصالحة الدول وتخمدون هيجان فرنسا بفصل صالحها عن صالحهِ . وينبغي لهُ ان يعرف ان اوربا لا تعترف بحق الملكية في فرنسا الا للعائلة البوربونية في كل حال . انتهى .

فهذا كلام تاليراند الذي جذب الدول المتحدة الى ارائهِ فاصدرت الاعلان الاتية ترجمتهُ وهو اعلان مبني على اساسات الجور والاغراض وهو

لما كانت الدول المتحدة قد عرفت بفرار نابوليون بونابرت و بدخولهِ فرنسا بقوة السلاح كان لابد لها من ان تبث اراءها بالنظر الى ذلك مراعاة لكرامتها ولصالح الهيئة الاجتماعية . وهكذا قد أخلَّ نابوليون بشروط المعاهدة التي اسكنتهُ جزيرة البا وكان عملهُ هذا علة خسرانهِ حقهُ المفرد القانوني الذي بهِ وجوده . فبرجوعه الى فرنسا والقاء الاضطراب فيها واستمالتها اليهِ قد خسر صيانة القوانين وأبان للعالم انهُ لا سبيل الى مسالمتهِ ولا مهادنتهِ . ولذلك قد صرحت الدول ان نابوليون بونابرت قد اخرج نفسهُ من دائرة الاتصال بالهيئة الاجتماعية المتمدنة . وانهُ بات غرضاً لانتقام العالم كعدو العالم وسالب راحتهِ انتهى

وبعد ان وقَّعت الدول على هذا الاعلان تعاهدت على ان تقاوم بكل قواتها الى النهاية الامبراطور الذي اختاره الشعب والدول التي قررت هذه المعاهدة هي النمسا واسبانيا وفرنسا وانكلترا والبرتوغال وروسيا وبروسيا واسوج وعقدت معاهدة اخرى سرية في ذلك اليوم مآلها ان الدول المتعاهدة لا تنفك عن المحاربة الا بعد ان يسقط نابوليون سقوطاً تاماً

فمن يتامل في هذه الحال ولا يأخذهُ العجب منها فان دول اوربا اجمع اتحدت على مقاومة رجل واحد اما قوة نابوليون فكانت حب الشعب فانهُ كان يحامي عنهُ بكرامة اخلاق و بدافع عن حقوقهِ العامة اما قوة الدول المتحدة فكانت بنادقها وبارودها فبادرت الى جمع جيوشها الجرارة لتنكيل الذي كان يحامي عن الحقوق العمومية فارسلت النمسا ٢٥٠ الف رجل تحت قيادة اشوتزنبرغ وانكلترا وبروسيا ٢٥٠ الفاً تحت قيادة ولنكتون الانكليزي وبلوشار البروسياني وسار اسكندر امبراطور روسيا في مقدمة مائتي الف جندي . واذا جمعنا الى الاعداد المذكورة عدد جيوش الدول الاخرى المعاونة نرى ان اوربا حشدت مليوناً من العساكر لمقاومة نابوليون اما بوارج انكلترا فكانت تحيط بفرنسا وتمخر في البحار لتمنعهُ من الفرار فهذه هي القوات التي جمعت لاستئصال حب رجل واحد من قلب امتهِ . ولم يمس بشرٌ قط في مركز عظيم مرتفع كمركزه . وقال الكاتب شاتوبريان لو وضعت برنيطة نابوليون وعباءتهُ على عصا في شواطئ (برست) لبادرت



اوربا الى تقلد السلاح من شرقها الى غربها

اما الدوق اف ولنكتون واللورد كاسلريا سفير انكلترا فباتا في حيرة من جرى هذا الاعلان المتضمن التعدي على استقلال فرنسا . وربما كان بودهما ان يناوما كل اصلاح عام حال كونهما شديدي الميل الى ترقية اسباب صوالح اصحاب الحقوق الموروثة . على ان انكلترا لم تكن كروسيا و بروسيا والنمسا . فان هذه الدول كانت ذات قوة مطلقة وكانت قادرة على اخفاء كل شيء عن رعاياها وعلى سدّ افواه المعترفين من شعوبها التي كانت مستعبدة بقوة السلاح . وان نقول ما كان ملوك النمسا يقولونهُ وهو ان من المترتب على الملوك ان لا يبالوا بتشكايات رعاياهم كما ان النمر لا يبالي بهرير الكلاب . اما حالة انكلترا فلم تكن حينئذ كحالة الدول المذكورة . فانها كانت ذات قانون اساسي وجرائد حرة وشعب يحب الوقوف على حقائق الامور فلم يتجرأ امراؤها ان يعلنوا ما اعلنهُ حلفاؤهم المطلقو التصرف . فوافقوهم كل الموافقة على ان يحرموا الفرنسويين الامبراطور الذي كانوا اختاروه و يلزموهم بقبول الملك الذي خلعوه مرتين على انهم اعلنوا في انكلترا انهم حالفوا الدول لمقاومة عدو عام فقط في ذات حين كانوا يميالين الى المداخلة بحقوق الامة الفرنسوية المتعلقة باختيار حكامها . وقد قال لامرتين المؤرخ ان التصريح بذلك كان ضروري لحصولهم على موافقة المجلس الانكليزي ومع ان الحكومة الانكليزية صرحت بذلك وخصصت تسعين مليون ريال لمصاريف البوارج (الريال خمسة فرنكات) و ٢٩ مليون ريال لمصاريف الجيش ودفعت ٥٥ مليون ريال اعانة حربية لدول اخرى وسلحت ٦٥٠ الف رجل وجهزت ٥٨ بارجة فكان مجموع مصاريف الحرب في تلك السنة ٥٥٠ مليون ريال . فهذه هي القوة العظيمة التي صرفت في مقاومة رئيس الحقوق العامة وهذه هي المبالغ الوافرة التي جمعت من اهالي انكلترا لصيانة السطوة المطلقة في اوربا . وكان في مجلس مبعوثي انكلترا قوم من الامراء الجسورين الذين كانوا يبينون ضرورة صرف قوة انكلترا العظيمة في سبيل مقاومة نابوليون ومع ذلك كان كثيرون من الشعب الانكليزي يميلون بارائهم اليهِ . ومع ذلك كان حزب الحكومة يتهم الحزب المقاوم بانهُ يتوسل بمقاومة تدابير الحكومة للحصول على الشهرة المبتغاة

وكانت الدول المتحدة تتأهب للحرب بكل اجتهاد حال كون نابوليون كان يفرغ جهدهُ في ترقية اسباب السلم حتى انهُ صرف النظر عن الجيش الزاحف على فرنسا مارًّا بالمانيا وعن البوارج الانكليزية التي كانت تأسر المراكب الفرنسوية اينما وجدتها مؤملاً تخليص اوربا ووطنهُ من ويلات حرب جديدة بالاتفاق على شروط عادلة . وبعد ان وصل نابوليون باريس ببرهة قصيرة خرج منها سفير النمسا متمنعاً عن مخابرة الحكومة الامبراطورية رسمياً . ولم يتمكن نابوليون قبل ذلك من ان يخابر زوجتهُ ماريا لويزا فارتضى سفير النمسا ان يحمل اليها رسالة منهُ . غير انهُ

سلمها الى والدها الامبراطور فرنسيس الذي لم يسلمها اياها . وفزع امبراطور النمسا من نابوليون ان يتم له بوسيلة من الوسائل استرجاع زوجته وابنه فنقلهما الى قصره واقام عليهما الحراس . وكان الامبراطور النمسوي يرتاد القاء الوحشة بين ابنته و زوجها نابوليون فجاء الدوق رفيكو بشهادة زور قائلاً ان نابوليون جمع نساء جميلات حوله واخذ يتمتع بهن . ولا نعلم هل أعارت ماريا لويزا هذا الخبر جانب التصديق

ولم ينجح نابوليون بوسائله السلمية فان الدول المتحدة لم تكن تسمح لرسله بالاقتراب منها . اما الامبراطور اسكندر الروسي فادهشه حذق الملكة هورتنس بنت جوزفين وجلالها وفضائلها ولطفها فحاول نابوليون ان يستميله اليه بداخلاتها . الا ان الاسكندر كان قد تقيد بالاتحاد الدولي تقيداً لا يمكنه ان يتخلص منه فاجابها وقد رأى ان الحزن قد اخذ منها كل ماخذ قائلاً لا سبيل الى مصالحة نابوليون ولا الى مهادنته و بعد ذلك بعث الامبراطور نابوليون اخاه جوزف الذي كان كل ملك أوربي يحترم صفاته بمامورية سرية الى فينا قاعدة النمسا قصد استمالة الدول اليه غير انه لم يفز بالمطلوب . ولما أُقفلت دونه جميع الابواب بعث برسالة الى كل الدول المتحدة هذه ترجمتها

من باريس في ٤ نيسان افريل سنة ١٨١٤

يامولاي واخي . قد علمت في اثناء الشهر الماضي برجوعي الى سواحل فرنسا ودخولي باريس وخروج البوربون منها . ولا بد من ان تكون جلالتكم قد وقفت على حقيقة هذه الحوادث ومتعلقاتها وهي من عمل قوة لا سبيل الى مقاومتها ونتيجة ارادة امة عظيمة لا تصد . فانها تعرف فروضها وحقوقها فالحكومة التي أُرغمت الامة العظيمة بقبولها اضحت لا توافقها . فان البوربون لا يشتركون معها بالحاسيات ولا بالعادات فالتزمت فرنسا ان تبتعد عنهم . فالتجربة التي حملتني على تضحية امور عظيمة جداً ذهبت سدى فطلبت فرنسا مخلصاً فرجعت اليها . وقد حملني حب شعبي لي من النقطة التي دخلت بها ارض فرنسا الى قاعدة امبراطوريتي . فارغب جداً في ان اكافي حباً شديداً كهذا براحة شريفة فإرجاع العرش الامبراطوري اصبح لازماً لسعادة فرنسا وغاية رجائي ان اجعل ذلك من وسائل تقرير سلام اوربا وقد اكتسبت الدول المختلفة بادوارها مجداً كافياً . وتقلبات النصيب قد جاءت بتاخرات عظيمة وانتصارات مجيدة وقد فتح ميدان جديد للدول أنفع وأكثر موافقة للناموس وأكون انا اول من يدخله وبعد ان بسطت للعالم مقاتلات عظيمة من الواجب ان تكون المناظرات منحصرة في ترقية اسباب بركات السلم . وفرنسا تفتخر باعلان غايتها الكريمة فانها تغار على استقلالها ولذلك تجعل قاعدة سياستها احترام استقلال الامم . والمامول ان تكون هذه اراء جلالتكم الخصوصية فاذا كانت كذلك تتقرر الراحة زماناً طويلاً والعدالة القائمة عند تخوم الدول كافية لصيانة حدودها (الامضا) نابوليون



على ان الدول كانت قد حفرت الحدود بضبط لمنع جميع رسل نابوليون عن عبورها لان هذه الدول كانت مصممة على مجانبة مخابرته حتى ان وزير خارجية فرنسا عجز عن إيصال رسالة من هذه الرسالات الى دولة واحدة من دول اوربا . وبالنظر الى ذلك قرر كولنكور باسف وحزن بالواقع الى الامبراطور والامة وهذه ترجمة تقريره

يامولاي . ان علامات مخيفة تظهر في كل جهة والظاهر . اننا مهددون بان تتغلب على الدول المتحدة سياسة لا تدرك وهي التأهب للقتال بدون السماح بجري تفصيلات ابتدائية بينها وبين الدول التي صممت على الحمل عليها . وهذا هو الزمان الذي راى اهله دولاً متحدة تمتنع عن مخابرة دول عظيمة وتسد ابوابها دون التاكيدات الحبية . فان الرسل الذين بعثنا بهم من باريس الى الدول لم يتمكنوا من بلوغ مقصدهم . فان احدهم لم يتمكن من ان يجتاز ستراسبرغ واخراً رسل الى ايطاليا فصد في تورين والثالث المرسل الى برلين والشمال القي القبض عليه في مايانس وامتهنه قائد بروسيا وضبط الرسالات التي وجدها عليه . وبعد انشاء حاجز منيع كهذا بين الوزارة الفرنسوية ووكلائها في البلاد الاجنبية و بين وزارة جلالتكم ووزارات سائر الملوك لم يبق على وزارتك الا ان تحكم بنوايا الدول الاجنبية باعمالها

وقد صدرت الاوامر في انكلترا بزيادة القوة البرية والبحرية فلا بد للامة الفرنسوية من ان تكون على حذر خوفاً من جميع الجهات فان دول اواسط اوربا ربما حملت عليها ومع ذلك ينبغي ان تلاحظ سواحلها لئلا ينزل عليها عدو وهي في غفلة . وترى التأهب عاماً في النمسا وروسيا و بروسيا وسائر جهات المانيا . والجنود تتجهز وتتسلح وتسير في كل نقطة من اوربا في وقت واحد . انتهى .

فاضطربت فرنسا من هذه الاخبار لان الامبراطورية باتت في تعب شديد بعد الحروب التي اثارتها عليها الدول المتحدة . ولم تكن مستعدة لتجديد القتال المخيف فان مليون رجل كانوا يزحفون بدون شفقة ليخربوا اودية فرنسا وسهولها وجبالها بالنار و يغرقوها بالدم . فخفقت قلوب ابسل الابطال من جراء ذلك فان كثرة الاعداء كانت ترعبهم بل طرحت كثيرين في الياس والقنوط ونشأ عن تصريح الدول المتحدة انها تحارب نابوليون بدون ان تكون له علاقة بفرنسا وان المحاربة هي لمقاومته وحده جعلت الوفاً من الاهالي يعتقدوا ان لا بد لهم من ترك امبراطورهم المحبوب خاصة بعد ان راوا انهم لا يقدرون على المحافظة عليه الا بقتال مخيف ومذابح عظيمة وبلايا لم تبل امم باعظم منها . وكان الاباء والامهات يتخصون في بنيهم الاعزاء و بناتهم المحبوبات عندهم ويتصورون دنو الجيوش واصوات اطلاق المدافع وحملات الفرق المتوحشة وصعقة الهجوم وصراخ الالم والياس فتصفر منهم الالوان وترتعد الفرائص ومع ذلك لم يكن يخطر ببالهم انهم يسمحون

بسقوط امبراطورهم المحبوب . فكانت الامهات يهيئن اولادهن للقتال والدموع تذرف غزيرة من اعينهن والاباء الطاعنون في السن كانوا يجتمعون في الكنائس يتوسلون الى الله ان يوفقهم الى نوال مطلوبهم العادل . ومع ذلك لم تكن الدول المتحدة التي كانت متسلطة على جميع جرائد اوربا تخجل من ان تصرخ قائلة ان نابوليون ذو المطامع غير المعتدلة الظالم شرّاب الدماء لايرضى بمصالحة الامم وان راحة العالم تدعوها الى مضادته كأنه وحش متفرس . وكانت حكومة انكلترا ذات الثروة غير المحدودة تصيح كذلك بالكتب والكراريس والجرائد فملأت الارض بطعنها واصفة نابوليون وصفًا تغالي اذا وصفنا ابليس به . ولا يخفى ان القلم في هذا الامر خاصة في انكلترا كان لازمًا كالسيف . ومع ان ألسنة الاعداء واقلامهم اوسعته طعنًا واتهمته بامور تخجل الأبالسة اذا أتهمت بها لم يكن يرتاب بان الناس في منتهى الامر يبرؤون ساحته فيبدو طيب الصيت ويذهب جميع الطعن سدى

وبعد ان افرغ جعبة الوسائل السلمية نهض بهمته العجيبة لملاقاة قوات تزيد كثيرًا عن قواته وكان يحب طيب الصيت ويهتم بحكم التاريخ الاخير فاصدر تقريرًا صحيحًا كاملاً قاطعًا متضمنًا التشكي من اعتداء الدول على معاهدة فونتينابلو والاسباب التي حملته على الخروج من جزيرة البا وان يقبل ثانية بانتخاب الامة الفرنسوية تاج امبراطورية فرنسا . ولم تجب الدول على كلامه الا بالقوة الوحشية فتكدر نابوليون عندما تامل بالدم الذي لابد من ان يراق غزيرًا وبالبلايا التي امست اوربا معرضة لها . غير ان الظلمة المتحدين لم يكونوا يبالون باراقة الدماء ولا بخراب الديار وويلات الحرب ولكنهم كانوا يرومون ان يطعنوا الحرية التي كانت تنمو في فرنسا طعنة قتالة اخيرة

وقال نابوليون لو كانت النمسا تجاسرت ان تحالفني لتمكنت بمساعدتها من تخليص العالم من روسيا غير ان النمسا تخشى اسكندر امبراطور روسيا الذي اصبح امبراطور اوربا . فانا وحدي اقدر ان اقوم بما يؤذيه . ولا يعرف قدري الا بعد سقوط عرشي غير انني سابيع حياتي بثمن غال . والدول تتمنى ان تجعلني في قفص من حديد مقيدًا لتريني للعالم كوحش ضار . غير انها لم تفز بعد بالقاء القبض عليّ وسأبين لها عواقب وثوب الاسد وهي متيقنة انني ذو اقتدار عظيم فاذا لبست في الغد قبعة (برنيطة) سنة ١٧٩٣ الحمراء يبلون جميعًا بهلاك مبين . وهذا محقق لانه لو استنجد نابوليون نيران الثورة التي جعلت فرنسا في طوفان من الدم لتقطع راس كل مدعٍ بحقوق موروثة وكل متحزب له وامتد هيجان الفرنسويين في اوربا وعجزت قوات الدول عن اخماد نيران غضب العامة . غير ان نابوليون الرجل العظيم وقف كالمحامي عن حقوق العامة حال كونه محافظًا على النظامات والقوانين . فكان يمنع اختلاس اصحاب الحقوق الموروثة وهيجان العامة وتعدياتهم



ويقاوم ملكية الظالمين المطلقين كما يقاوم سيادة اهل الثورة الذين يخلّون بالانتظام ويعتدون على الحقوق ويسلبون الراحة . وكان يضاد قحة الامراء كما يضاد تعدي العامة وملكية البوربون وسيادة روساء الثورة فكان مقررًا عنده ان من الواجب عليه ان يصون الراحة والقانون والحقوق العامة . ولم تكن صوالحه قادرة على ان تجعله يميل عن فروضه هذه

ورغب نابوليون في العود الى العرش باحتفال بيّن الاحتفاء فعين لذلك غرّة حزيران (جون) وجعل ساحة مارس محل الاحتفال . فاجتمع فيها جمهور غفير من الجنود والاهالي وصارت قراءة نتيجة الانتخاب فوجد ان اراء الذين انتخبوه امبراطورًا تزيد على اراء الذين لم ينتخبوه بمليون . وكان لابسًا ملابس الامبراطورية الرسمية . ورقي محلاً مرتفعًا معدًّا له يراه فيه الجميع . وأنشئ مذبح على ذلك المحل المرتفع وكان رئيس اساقفة «رون» يقوم بالاعمال الدينية عليه ليقدس علامة فرنسا ويتوسل الى الله تعالى ان يبارك عليها ويمنحها الفوز في دفاعها العادل ثم صارت تلاوة خطاب من منتخبي باريس باسم الامبراطور . وما ياتي هو بعضه

يا مولانا . ان الامة الفرنسوية كانت قد منحتك اكليل الملك وانت تركته على غير رضى منها وقد أُلزمت الان بانتخابها ان تعود الى لبسه . فماذا يا ترى تطلب الدول المتحدة . ماذا فعلنا لتحملها على التعدي علينا فاننا لا نريد ان يكون ملكنا الرجل الذي تروم هي ان تسوّده علينا ولكننا نرغب في الحصول على رئاسة الذي لا ترغب هي فيه . وقد تهددتنا بالحمل على وطننا . فيا مولانا لا تمتنع عن بذل النفائس والنفوس في سبيل الدفاع عن ناموسنا واستقلالنا . وسنفرغ جهدنا في سبيل رفع هذا النير الثقيل . فيا ايها المولى ان العرش الذي بنته الجيوش الاجنبية قد سقط في لحظة امامك فانك قد اتيتنا بجميع اسباب مجدنا الصحيح وكل ما تعلق اولادنا به امالها . انتهى

فبعد قراءة هذا الخطاب نهض نابوليون واقفًا فضجّ ذلك الجمهور ضجّات كالرعود القاصفة وقد قال الذين سمعوها ان ضجات جمهور غفير كهذا تؤثر في القلوب وتحير العقول . وبعد ان صمت القوم خاطبهم نابوليون بخطاب موافق جدًّا مؤثر قال في بدايته ان كل ما فزت بالحصول عليه كامبراطور وقنصل وجندي هو من الشعب ولم تبرح فرنسا من ان تكون موضوع كل اهتمامي وغرض كل اعمالي في الرخاء والضيق والحرب والمجلس والعرش والمنفى

ثم خلع الثوب الامبراطوري وبدا للجمهور بتلك الملابس البسيطة الاعتيادية التي كانوا يرونه فيها فضج الجمهور ضجات قل ما سمع البشر مثلها . ثم التفت الى العساكر وقال

يا جنود البر ويا قوات البحر انني اجعل النسور (من علامات فرنسا) الامبراطورية والرايات الوطنية امانة في ايديكم . افلا تحلفوا بان تدافعوا عنها ببذل دمائكم لصد اعداء وطنكم . فاجابت صفوفهم بصوت واحد اننا نحلف اننا نحلف . وكان فوق ذلك المكان المرتفع مكان

اخر على شكل مخروط فصعد عليهِ فشخصت كل الابصار اليهِ . فنظر الى ذلك الجمهور المجتمع وموسيقات الجيوش تصدح بالطف النغمات ثم انحدر وسلَّم الرايات الى جميع الفرق وهي مارة امامهُ وكان يخاطب كل فرقة بكلمات مؤثرة في القلوب فكانت تضج قائلة فليعش الامبراطور . وابقى هذا الاحتفال في قلب جميع الذين حضروهُ تاثيرات لا تمحى بكرور الايام . وقد قال سافاري انني لم ارَ الامة الفرنسوية مستعدة لان تدافع عن استقلالها في زمان الثورة بطولهِ كاستعدادها هذه المرة للمدافعة عنهُ وعن حريتها . وخرج الامبراطور من تلك الساحة متيقنًا انهُ يقدر ان يتكل على ما اظهر الشعب والجيش من الميل اليهِ . ووجه خاطرهُ من تلك الدقيقة الى ملاقاة الجيوش التي كانت تجتمع في البلجيك . وكان الزمان قصيرًا وكان كل شيء محتاجًا الى التدبير والتهيئة وكانت عواصف حرب مخيفة قادمة على فرنسا ولم يمكنهُ الزمان من احداث تغيير في قانون الامبراطورية الاساسي يجعلهُ موافقًا لتلك الحال غير الاعتيادية . فالتزم نابوليون ان يضع قانونًا موقتًا هو ومجلس الشورى ليضاف الى القانون الاساسي . فصادقت الامة عليهِ كلهِ ولم يضادهُ غير قليلين . والذين ارتضوا بهِ هم مليون وخمسمائة الف رجل والذين ضادوهُ اقل من خمسمائة الف . وما دام دو استايل رضيت بهِ وكتبت الى صديق لها ان القانون المضاف هو كل ما تحتاج فرنسا اليهِ ولا يزيد على احتياجها ولا ينقص عنهُ ورجوع الامبراطور يقضي بالعجب العجاب ويفوق كل تصور

وكان موسيو سسموندي من المورخين المشهورين المتحزبين جدًّا للقواعد الجمهورية فشرحملة فصيحة متعلقة بالقانون الاضافي المذكور وطلب الى جميع الفرنسويين ان يجتمعوا الى الامبراطور ليدافعوا عن الاستقلال الوطني . وكان بنجمان كونستان عاضد حرية القانون الاساسي حال كونهِ ابلغ خطباء عصره من الذين عاونوا نابوليون على وضع هذا القانون وعضدهُ بخطهِ وقلمهِ . وقد قال مستر اليسون المؤرخ الانكليزي لاظهار اسباب هذه الامور

من الامور غير العادية التي امتاز نابوليون الرجل العجيب بها قوة اخضاع عقول الرجال لارادتهِ وقوة ادراك البواطن

ولا يخفى ان الدول المتحدة كانت قد اعلنت ان نابوليون غير متمتع بصيانة القوانين فاصدر نابوليون جوابًا عليها جميلاً لائقًا مفحمًا وكان بامضاء روساء دوائر مجلس الشورى وكان علة اظهار مركزهِ لاوربا . وهذه ترجمة ملخصهِ

ان الدول المتحدة نقضت معاهدة فونتينابلو من الاوجه الاتية وهي اولاً تقرر في المادة ١٤ ان يعطى للامبراطورة وابنها تذكرة مرور وحراسًا فلم تقم الدولة بذلك بل قامت بعكسهِ وفصلت الزوجة عن زوجها بالقوة وكذلك الابن عن والده وذلك في ظروف مكدرة تروم اقوى العقول في مثلها ان تطلب التعزية والعضد بالقرب من الحب العائلي . ثانيًا صارت ضمانة امنية العائلة



الامبراطورية ومع ذلك صار انشاء اقوام من القتلة تحت انظار الحكومة الفرنسوية لمحاولة قتل الامبراطور واخوانهِ وزوجاتهم . ثالثًا صار التعهد باعطاء دوقية بارما ودوقية بلاستينا لماريا لويزا وابنها ونسلها وبعد ان صار التردد طويلاً عن اجراء هذا العهد صار التصميم على ابطالهِ بسلبها حقوق مقررة لها . رابعًا واعدت الدول البرنس اوجين ان تعين لهُ مركزًا موافقًا خارج فرنسا على انهُ لم يحصل على شيء من ذلك . خامسًا صار التعاهد إجابة لطلب الامبراطور على حفظ معاشات جنودهِ الباسلين فلم يدفع شيء منها مع ان الحجة أُقيمت على هذا التمنع . سابعًا تقرر ان يدفع للامبراطور مليونا فرنك ولاعضاء عائلتهِ مليونان ونصف مليون . وقد امتنعت الحكومة الفرنسوية عن اجراء هذا القرار . ولولا تكرمات صيارفة جنوا وايطاليا الذين عرضوا عليهِ ان يقرضوهُ ١٢ مليون فرنك لالتزم ان يصرف حرسهُ الامين لعجزهِ عن دفع معاشاتهِ . ثامنًا تقرر ان تكون جزيرة البا ملكًا لنابوليون ومع ذلك تقرر في موتمر الدول ان تسلب منهُ ملكيتها . ولولا العناية الالهية لرات اوربا القوم يحاولون التعدي على شخص نابوليون وحريتهِ فانهُ صار التصميم على ابعادهِ عن عائلتهِ واصدقائهِ وجعلهِ تحت رحمة اعدائهِ في سجن سانتا هيلانة

فماذا يقدر نابوليون ان يفعل عندما يرى الدول المتحدة تحط شانها لنقض معاهدة مقررة وانهُ هو وسائر اعضاء عائلتهِ متهددون بالنظر الى شخصياتهم واملاكهم وعلاقاتهم الصداقية بعد ان سلبت منهم جميع الحقوق المقررة لهم كاعضاء عائلة تقلدت الملك والحقوق التي تمتع بها جميع الفرنسويين فهل ينبغي بعد احتمال اهانات كثيرة وتعديات ان يسلم بنقض جميع العهود التي تقررت بين الفريقين ويسلم نفسهُ الى ما اعدهُ اعداؤهُ لهُ مسلمًا لمظالمهم زوجتهُ وابنهُ واقاربهُ والذين خدموهُ بامانة . فالارتضاء بذلك مما تعجز عنهُ القوة البشرية . ومع ذلك كان نابوليون قادرًا على الارتضاء بهِ لو راى ان هذه التضحية ترقي اسباب السلام والسعادة في فرنسا . فانهُ يروم ان يجعل نفسهُ وقفًا في سبيل خدمتها وان يقول على مسمع من اوربا كلها ان مجدهُ في الحصول على كل شيء بارادتها وقرارها وانهُ مسئول لها دون غيرها . ولم يعتزل عن الامبراطورية الا حبًا بتخليص فرنسا من بلايا الحرب وترك لها الحقوق التي كانت منحتهُ اياها وان تختار سيدًا جديدًا وان تؤسس حريتها وسعادتها على أُسس من شانها صيانتها . وعلق املهُ بان تحافظ الامة على كل ما كانت قد فازت بهِ بخمس وعشرين سنة صرفتها بحروب مجيدة وتحفظ لنفسها حق السيادة بالنظر الى اختيار من يستوي على كرسي الملكية او الرياسة والى وضع الشروط التي ترضى بان تكون اساس تقلده المنصب الاول فيها . وكان يتوقع من الحكومة الجديدة ان تعتبر مجد الجيوش وحقوق الابطال وتحافظ على جميع الصوالح الجديدة التي برزت في ٢٥ سنة فصارت من عادات الامة واصولها ووسائل سد احتياجاتها . فصرفت الحكومة الجديدة النظر عن ذلك اجمع ووطئت سيادة الامة حال كونها

اساس القوانين المدنية وسنّت القضا منذ فازت قواعد الثورة . وقد عوملت فرنسا معاملة بلاد قد جهرت بالعصيان لجيوش ملوكها القدماء وأُرجعت الى الخضوع لاصحاب الامتيازات الموروثة . وقد وضع لها قانون اساسي بدون مشورة الامة وبدون الاصغاء لصوتها ولم يبق ذلك القانون من اصول النيابة عن الشعب الا خيالها . اما وزراء البوربون فلم يخدموا الامة الفرنسوية الا بما يعود عليها بالوبال كتفريق الجيش ونفي الضباط وخفض شان الجندي وابطال معيناتهم وقطع معاشاتهم وتفضيل رتب الملكية المبنية على الامتيازات الموروثة وتخيير الاهالي وسلب املاك الذين اشتروا املاك الحكومة وارجاع الامتيازات الموروثة بالقابها وحقوقها واعادة قواعد الملكية والغاء حرية الكنيسة الغاليسية والمعاهدة المنعقدة بين فرنسا والكرسي الحبري وارجاع الاعشار والتعصب وجعل السيادة في يد قليلين من الامراء حال كون الامة التي تسود عليها متعودة المساواة

فهذه هي الاحوال التي ساقت الامبراطور الى الخروج من جزيرة الباونواياه قد ظهرت بما تقدم فانهُ لم يحمل على ذلك مراعاة لصوالح شخصية لا اهمية لها عندهُ بالنسبة الى صوالح الامة التي جعل حياتهُ وقفًا لها . ولم يأتِ قلب فرنسا بالحروب بل اخمد نيران تلك الحرب التي رام اصحاب الاملاك المشتراة من الحكومة إضرامها للانتقام من سالبي املاكهم حال كونهم اربعة اخماس اصحاب الاراضي في فرنسا . وهي الحرب التي كانت تلجيء الضرورات الاهالي المظلومين المحتقرين المذلين بايدي الامراء الى اضرام نيرانها للتخلص من ظالميهم بل هي حرب يلتزم البروتستانت والاسرائيليون ان يضرموا نيرانها مع سائر اصحاب الاديان والمذاهب غير الكاثوليكية لدفع مضار مضطهديهم

اما الامبراطور فجاء ليخلص فرنسا فقبلتهُ قبول مخلص فاتاها منفردًا وسار ٧٠٠ ميل دون ان يلقى ممانعة او مقاتلة وعاد الى الاستواء على عرشهِ بلا مقاومة واصبح في عاصمة بادر اهلها وسائر اهل البلاد الى الترحب بهِ على تخت ملكهِ التزم البوربون ان ينزلوا عنهُ مع انهم كانوا في جيشهم ومنزلهم والحرس الوطني من حولهم ومع ذلك لم يقدروا ان يجعلوا رجلاً واحدًا ينهض بسلاحهِ للمدافعة عنهم فاصبح الامبراطور رئيس امة اختارتهُ ثلث مرات لرئاستها واختارتهُ مرة رابعة بما صادقهُ منها اثناء سفرهِ ورجوعهُ الى العرش بفوز عظيم . وقد أُرجع الى امة لا يملك عليها الا مراعاة لصوالحها

فما هي ارادة نابوليون وفرنسا . الجواب انهما لا يطلبان غير استقلال الامة والسلام في الداخل والخارج والمحافظة على المعاهدة الباريسية المنعقدة في ٣٠ ايار (مايس) سنة ١٨١٤ فاذا يطرأ من ذلك على راحة اوربا واعمالها . انهُ لا يطرا تغيير عليها اذا اعترفت الدول المتحدة بذلك بما جرى فتصبح فرنسا غير غالبة ولا مغلوبة ولا متسلطة على امم اخرى والامم لا تتسلط عليها فتكون كفة الموازنة بين الدول العظيمة وضمانة المحافظة على الدول الصغيرة ولا يتغير شيء اذا لم يجبر على الخضوع



لدولة لا ترضى بان تخضع لها ولا ان تنقيد بسلاسل الامتياز التي كسرتها ولا بالخضوع لادعاآت الامراء وخدم الدين بعد ان تكون قد تخلصت منها . ولا يتغير شيء ما لم تحاول الدول الزامها بالخضوع لقوانين تمس امورها الداخلية وتعين لها حكومة وتلزمها بالانقياد الى ملوك تأول سيادتهم الى ترقية اسباب صوالح جيرانها ومطامعهم . ولا يتغير شيء اذا لم تلتزم بمبارحة الاراء السلمية والنجاح الداخلي الذي تروم هي وامبراطورها ان يوجهها خواطرها اليهِ لتتهيأ للقتال عوضًا عن ان تفرغ جهدها في سبيل تهيئة الانتظام المدني الجديد الذي يضمن حرية شعبها ويأول الى فوز الاراء العمومية السائدة في اوربا سيادة لا سبيل الى التغلب عليها . وبالجملة نقول انهُ لا يطرأ تغيير شيء اذا لم يصر انشاء محالفة ظالمة تلزم الامة الفرنسوية التي لا ترغب الا في مسالمة اوربا بان تدافع عن حقوقها لاستقلالها وعن الامبراطور الذي اختارتهُ لنفسها كما دافعت سنة ١٧٩٢

## الفصل الرابع والستون

### حروب

لما استوى نابوليون على العرش راى ان الضرورة تدعوه الى التأهب للقتال . وتمكن باجتهاد يقصر الاقلام عن وصفهِ من جمع مائتين وثمانين الفًا . ولكن لم يكن يقدر ان يزحف الا بمائة وعشرين الفًا منهم لدفع حملات نحو مليون من الجنود التي كانت تدنو من الحدود الفرنسويه . وكانت جيوش الدول المتحدة الجرارة تسير من مكان الى مكان قاصدة الاجتماع في باريس وكان اشوارتزنبرغ في الربن العالي في مائتين وستين الف جندي . وولنغتون وبلوشار في جوار بروسل كل منهما في مائة الف جندي . والجيش الروسي المولف من نحو مائتي الف جندي غير متمدنين يسير بسرعة مجتازًا المانيا . واجتمع عند حضيض جبال الالب ستون الف رجل تحت قيادة النمسويين ليحملوا على فرنسا من تلك الجهة . وتمكنت الدول المتحدة من ان تحمل سويسرا على ارسال ثلثين الف جندي لمعاونتها . وكانت بوارج انكلترا اقوى قوات الدنيا تفرغ كل جهدها في سبيل نقل الجنود والسلب واطلاق المدافع على الثغور . وهكذا اجتمعت جميع هذه الدول العظيمة القوية بجيوشها الجرارة لمحاربة رجل واحد . فبات نابوليون في ضيق عظيم وخطر مبين ومع ذلك لاقى هذه المقاومات بصبر وثبات وتجلد حيرت عقول الناس . وكان كرجل منفرد . لان جوزفين كانت قد قضت نحبها وكانت زوجتهُ ماريا لويزا وابنهُ المحبوب جدًا عنده اسيرين في قصور الدول المتحدة . اما اوجين فامسى مخلوعًا محجوزًا في بلاط حميهِ ملك بافاريا . ومورات تائهًا في خطر دائم من ان يلقى القبض عليهِ او يقتل باطلاق الرصاص . اما القواد لان وبسيار ودوبروا فكانوا قد ماتوا . وامسى برتيه في خجل من سيده الاصلي فلحق بالبوربون . ومارمون

خائنًا في جنت واودينو وماكدونال كانا من اهل الناموس فحافظا على يمين الصداقة للبوربون . اما ناي فجارى ميل قلبهِ وحنث بيمينهِ فاثر فيهِ العار فخسر كل نفوذهِ

وراى نابوليون انهُ لابد لهُ من احد امرين وهما جمع جيشهِ الصغير حول باريس وتمكين الدول من ان تسير قاطعة فرنسا خربة الى ان تبلغ ظاهر باريس فيقاتلها فيهِ قتالاً فاصلاً . او ان يجتاز تخوم فرنسا ويكبس الاعداء وهم سائرون فيحمل على جيش منهم بعد جيش فيدفعهم ويلزمهم بان يخابروهُ وكان يرى ان الامرين محفوفان بمخاطر جمة ثم اختار الثاني . فصمم على المسير بسرعة الى البلجيك ليكبس جيش ولنكتون وبلوشار قبل ان يتمكنا من جمعهما وان يجعل تشتيت شملهما تمهيدًا للحمل على معظم الجيش فيلزمهُ ان يرتد

وصرف نابوليون ليل ١١ حزيران (جون) في غرفهِ يصدر اوامر لاتحصى وقال لوزرائهِ عندما ودعهم انني اذهب في هذا الليل فلا تهملوا فروضكم وانا والجيش لانهمل فروضنا فاطلب اليكم ان تجعلوا اجرآ آتكم مقرونة بالاتحاد والغيرة والحمية . وتيقظوا لئلا تفسد الحرية فتصير خللاً او ان يقوم الاضطراب مقام الانتظام . واعلموا ان نجاحنا متوقف على اتحادنا وبعد نصف الليل بثلث ساعات انحدر من سلم قصر التويلري قاصدًا الانضمام الى جيشهِ فمد يده الى كولانكور وقال بكدرٍ وثبات يا كولانكور استودعك الله انني اودعك فلا بد من الفوز او الموت . ولما بلغ نهاية السلم وقف دقيقة ونظر باسف الى ما حولهُ من ذلك القصر ثم ركب عجلتهُ . فسار بسرعة النهار بطولهِ والليل الثاني فبلغ «افن» في صباح ١٢ من حزيران (جون) وهي تبعد عن باريس مائة وخمسين ميلاً . وجمع نابوليون كل جنوده في تلك المدينة الواقعة على التخوم بالمسير السريع وكان نجاح الحرب متوقفًا على سرعة الحركات . فان التاخر ساعات قليلة ربما مكن اعداءهُ من ان يتغلبوا عليهِ . فلما لحق بالجيش ضج داعيًا لهُ ضجات لم يتمتع بمثلها بشرٌ . اما الجنود الباسلون الذين كانوا عارفين بالاحوال فكانوا يعلمون انهم مضطرون لئن يحاربوا جيوشًا عددها اضعاف عددهم . ومع ذلك كانوا يظهرون بافتخار عدم مبالاتهم بالكثرة ويقوون انفسهم باليأس . وكان في مكان يبعد عن نابوليون اقل من خمسين ميلاً جيشان قريبان من الانضمام وهما جيش ولنغتون في بروسل وكان اكثر من مائة الف جندي انكليزي وجيش بلوشار البعيد عنهُ بضعة فراسخ فقط ومعهُ مائة وثلثون الفًا . ولم يكن يخطر لهذين الجيشين ببال ان الفرنسويين مصممون على الحمل عليهم ولم يكن قوادهما عارفين ان نابوليون خرج من باريس فكانا ينتظران بلا احتياط وصول الجنود الروسية التي كانت تسير بسرعة وعددها مائتا الف . ولما بلغ نابوليون جيشهُ اجتمع جنودهُ حولهُ بفرح وسرور وخاطبهم بكلمات قليلة اضرمت في صدورهم نيران حمية تسوق الى افعال تكاد تفوق اقتدار البشر . فكانوا يرفعون قبعاتهم ويضجون داعين لهُ وكانوا جميعًا



يرومون ان يسوقهم الى القتال وان كان موتًا احمر

وبعد ان بلغ نابوليون افن بساعة واحدة اخذ جيشهُ في المسير . فانفذ اوامر منفصلة الى كل فرقة من الفرق التي سارت في طرق مختلفة لتجتمع كلها في ساعة معينة في شارلروا التي تبعد نحو ثلثين ميلاً عن افن . وكان الجنرال بورمون قائد احد الجيوش من المتحزبين للملكية لما عاد نابوليون من البا كان قائدًا في الجيش البوربوني ولكنهُ وافق الامة على الترحب بالامبراطور وطلب اليهِ ان يستخدمهُ في جيشهِ . ولم يكن يركن اليهِ ولكنهُ اجاب طلب ناي . وراى هذا الرجل ان نابوليون لا يقدر على الفوز فخانهُ وذهب الى الدول المتحدة بحركات نابوليون . فسمع بذلك بسكون حسب عادتهِ . اما بلوشار فترحب بهِ واكرمهُ والبوربون رفعوا رتبتهُ فالتزم نابوليون بان يغير بعض اوامره ليخدع العدو

اما المارشال سول فلما اعتزل نابوليون انتظم بسرور في خدمة البوربون ولما عاد رجع الى خدمتهِ بفرح . وكان هذا التقلب علة ابعاد قلب الجيش عنهُ . وكان دافو يضاد توجيه خطة مهمة اليهِ ومع ذلك جعلهُ الامبراطور القائد الثاني . على ان نابوليون لم يكن يرتاب في صداقتهِ . واتهمهُ البوربون بخيانتهم وتهددوه بالمحاكمة وقال نابوليون ان سول بري قد قال لي انهُ كان مرتضيًا من الملك فانهُ كان يتمتع بنفوذ في ايامهِ يزيد عن نفوذه في ايامي وكان يسر بذلك

وفي مساء ١٤ من ذلك الشهر وصل نابوليون الى القرب من شارلروا واقام البروسيون في استحكاماتهم فيها عشرة الاف جندي طليعة . وعند الفجر من اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر حمل الفرنسويون عليهم وطردوهم من المدينة بعد ان قتلوا كثيرين منهم . وفي الساعة السادسة عبر الفرنسويون فائزين جسر السامبر واستولوا على شارلروا وخسر البروسيون الفي رجل فتقهقروا لينضموا الى الجيش بين شارلروا وبروسل على بعد عشرة اميال من مربع كاتربرا فامر ناي بان يتقدم حالاً باربعين الف رجل ليستولي على هذا المركز الخطير . وقال لهُ نابوليون اجمع جنودك فيها وحصنها بالحواجز والخنادق واسرع بحيث يصير هذا المركز عند نصف الليل قادرًا على الثبات وان اشتدت عليهِ الحملات

اما بلوشار فكان مع جيشهِ في مدينة نامور الحصينة عند ملتقى نهري السامبر والموز . فبالحلول في كاتربرا ينفصل جيش ولنكتون وقدرهُ مائة الف جندي عن جيش بلوشار وقدرهُ ١٢٠ الفًا وكان نابوليون مصممًا على ترك جيش قليل في الاستحكامات لمنع تقدم بلوشار البروسي وعلى تفريق جيش ولنكتون الموجود في بروسل وعلى الرجوع الى الحمل على بلوشار وكسره بسرعة وهذا يمكن اهالي البلجيك اصدقاء نابوليون من التخلص من الدول المتحدة والانضمام اليهِ فتقوى آمال حزب الحرية في اوربا . فتبادر سكسونيا وايطاليا والمجر وبولونيا الى اللحوق بهِ فترتعد فرائص

ظلمة اوربا امام صدمات الامم المستعبدة الطالبة الحرية وفي مساء ١٥ حزيران (جون) راى نابوليون ان جميع تدبيراتهِ اصبحت في نجاح وان طالع السعد عاد الى الفلك وطالع الظلم اخذ يهبط واخبر ناي نابوليون بانهُ استولى على كاتربرا فسار في صباح ١٦ من ذلك الشهر بطريق اخرى في جهة ليني الواقعة في منتصف الطريق بين كاتربرا ونامور. فلاقى فيها على غير انتظار بلوشار الذي كان قد خرج من نامور بثمانين الف جندي لينضم الى والنكتون والذي حملهُ على ذلك خبر بارمون الخائن. وكان نابوليون في ستين الف بطل فانتشب قتال لم يتدون في صفحات التاريخ خبر قتال اشد منهُ. فانهُ استمر على قدم وساق النهار بطولهِ. وعند الغروب انتصر نابوليون في كل مكان وركن البروسيون الى الفرار كجاري عادتهم عندما كان يصدمهم حذق نابوليون تاركين عشرة الاف اسير وعشرين الفًا بين قتيل وجريح. فلو جاء ناي بجيشهِ ليقطع خط رجوع البروسيين لما نجا واحد منهم ولم يقم ناي بذلك مع ان نابوليون امرهُ بهِ. وهكذا انتصر نابوليون في سهول ليني اما ناي ففي ١٥ من الشهر المذكور مساء اخذ يتقدم من كاتربرا وخيم الظلام المصحوب بالرياح الشديدة والامطار الغزيرة قبل ان تمكن من بلوغ الطرق المتقاطعة. فراى ان مسير يومين في وحل ومطر اتعب الجيش جدًّا. فلما راى ان بينهُ وبين ذلك المكان بضعة اميال فقط ولا عدو فيهِ تيقن انهُ يتسنى لهُ الاستيلاء عليهِ في الصباح بدون مانع فتوهم انهُ قد انفذ امر الامبراطور فبعث اليهِ يقول انهُ استولى عليهِ وكانت عساكره تكاد تسقط على الارض من التعب فكانت تلقي نفسها على الارض المبللة وتستغرق في النوم. ولم يخطر لها ببال ان تلك الراحة القليلة هي علة سقوط عرش نابوليون والحرية في فرنسا. وكان اولئك الابطال المدافعون عن استقلال فرنسا نيامًا على الارض حال كون الدوق ولنغتون القائد الانكليزي في مادبة رقص زاهرة اقامتها دوقة رشموند في بروسل وفي اثنائها كان الدوق المذكور يكلم دوق برنسويك عند نافذة فدنا منهُ رسول وقال بصوت منخفض ان نابوليون اجتاز التخوم وهو في جيشهِ على بعد عشرة اميال عن بروسل. فتعجب واصفر لونهُ. اما دوق برنسويك فاثر فيهِ الخبر جدًّا فوثب واقفًا ناسيًا طفلاً نائمًا في حضنهِ فسقط الطفل على الارض. وانتشر الخبر في لحظة في قاعة الرقص فخرج والنكتون وجميع الضباط في الحال وبذل ذلك الدوق الثابت العزم جهده كلهُ فامر بضرب الطبول والنفخ في الأبواق وجمع جيشهُ كلهُ مشاة وفرسانًا ومدافع في ساعة وسار بهم في اسواق بروسل التي كانت المياه طاغية فيها. وكان ذلك الليل شديد الظلام والريح. وكان المطر يهطل منذ ثلثة ايام بلا انقطاع وكثرة الوحول في الطرق ولم يكن بين بروسل وكاتربرا غير ١٥ ميلاً وكان نابوليون كولنغتون يعلم فائدة ذلك المكان وكانت ضوضاء السائرين للحرب تختلط بصوت الريح والمطر فكانوا كامواج متدفقة الى جهات مختلفة. وفي الصباح اضطرب المرشال ناي الفرنسوي لما راى المطر هاطلاً وان ولنغتون القائد



الانكليزي قد استولى على كاتربرا وانهُ ربما عجز عن استرجاعها وان حمل عليها حملات تزعزع الجبال الرواسخ. واشتد اضطرابهُ وارتيابهُ لما ورد عليهِ رسول من الامبراطور الذي قال لهُ بالاستناد الى خبر استيلائهِ على كاتربرا اترك قوة كافية في الاستحكامات لمنع ولنغتون عن الاستيلاء عليها لئلا ينجد البروسيين واذهب بالباقي من جيشك لقطع خط رجوع بلوشار. وقال لهُ نابوليون في خطابهِ ان نصيب فرنسا اصبح بين يديك. ولولا تقصير ناي المذكور لتشتت شمل جيش بلوشار وصمم نابوليون على الانقياد بجيش بلوشار والهجوم في الغد بجيشهِ الفائز على جيش ولنغتون فينوز بدون ريب. وكانت جنود هانوفر والبلجيك يميلون الى نابوليون فكانوا يحاربونهُ على رغم انفهم. فلو فاز لانضموا اليهِ حالاً وتغير تاريخ العالم. فاسباب ضعيفة كهذه يتوقف عليها نصيب الانسان على ان ناي عوضًا عن ان يقطع خط رجوع بلوشار التزم بان يصرف النهار بطولهِ بالحمل واراقة دم جنوده بدون ان يتيسر لهُ الاستيلاء على كاتربرا وكان ولنغتون يعلم انهُ بات في خطر مبين فالح على جنوده بالمسير بسرعة وقال لهم لاينبغي ان ينتظر بعضكم البعض الاخر بل سيروا فرقًا كبيرة او صغيرة بل اقوامًا ولا ينبغي ان تمشوا بل اعدوا سريعًا كأنكم سائرون لاطفاء نار تحرق مدينة فلا بد من الثبات او الموت. وكانت النجدات ترد على الانكليز في كاتربرا كل ساعة وتزيد قوة المدافعين. والقلم يعجز عن وصف كدر ناي وحزنهِ لما راى عاقبة غلطهِ وقال للابدوبار وهو يشاهد رصاص الانكليز يمزق اجساد جنوده ياحبذا لو قدَّر الله مرور كل هذا الرصاص في قلبي ثم سار مسرعًا الى الجنرال كلرمان وقال بيأس يمزق الفؤاد ياجنرالي العزيز احمل مرة اخرى على قلب الجيش الانكليزي واكسره مهما كلف ذلك وانا اسندك والبلاد تطلب اليك ان تقوم بذلك فحمل كلرمان في مقدمة جيشهِ على وسط صفوف الاعداء التي كانت كالبنيان المرصوص فكان الرصاص والكرات والمدفوعات المختلفة كالبرد الكثير تجندل الافراس والفرسان ولم يبقَ غير قليل من الحاملين فعادوا كأن عاصفة قد دفعتهم والزمتهم بالتقهقر

ان الخيانة والخطأ جعلتا تدبيرات نابوليون الصادرة عن الحذق وشدة الادراك تذهب سدًى في معركة عظيمة. فلو خيانة بورمون خلصت اعداءهُ من كبسة كانت كافية لان تبدد شمل جيشهم. واهمال ناي الاستيلاء على كاتربرا وارسالهُ افادة الى نابوليون بانهُ استولى عليها خسرتا نابوليون فوزًا عظيمًا. ومع ذلك لم يكن من الذين يغضبون مما يطرأ عليهِ ولم يتذمر لعلمهِ ان ناي لم يقصد الاضرار بهِ ولم يضع الزمان بالتنديد الفارغ ولا بالكلام الذي يضعف العزم عوضًا عن ان يقويهِ. فبعث في الحال رسالة صداقية الى ناي وجمع قواتهِ بسكون ليرى ماذا ينبغي ان يفعل بعد هذه الطوارق. ثم جاء الليل بامطاره ورياحهِ وكان ذلك في السادس عشر من حزيران (جون). وبات عسكرهُ مبللاً متعبًا جائعًا مجرحًا لا يقدر ان يفوز بالراحة في تلك الربوع.

وكان نابوليون في (ليكني) التي لا تبعد عشرة اميال عن كاتربرا منتصرًا . اما ناي فدُفع من كل جهة فنام على سلاحهِ امام عدوّهِ القادر . واما بلوشار المنكسر فتقهقر بفرقهِ المتضعضعة بدون مقاوم الى جهة وافر . فلما سمع ولنغتون بهذا التقهقر عاد ليلاً الى جهة واترلو ليتصل بالجيش البروسي المنكسر فيها . فارسل نابوليون ثلاثين الف رجل مع المارشال كروشي ليطارد البروسيين المتقهقرين ويجعلهم على الدوام امام عينيهِ ويضايقهم ليمنعهم عن ان يسيروا لاسعاف ولنغتون

واصبح السابع عشر من حزيران والعساكر في تعب وويل والامطار تهطل والرياح تهب . وكانت عساكر كروشي متعبة بمشقات لا يحملها بشر فلم يقدروا ان يلحقوا بالبروسيين المتقهقرين ومع ذلك كانوا يسيرون بعناء في الطرق الموحلة بصبر عجيب . وترك نابوليون كروشي ليطارد البروسيين وسار بجيشهِ حالاً الى كاتربرا ليتصل بجيش ناي وليطارد ولنغتون . وكان عدد جيشهما نحو سبعين الفًا فسار نابوليون بهما باجتهاد مطاردًا ولنغتون الذي كان قد تقهقر في النهار الى جهة بروسل ووقف في حنول واترلو المشهورة التي تبعد عن العاصمة تسعة اميال . فاختار مراكزه بحذق واقام عساكرهُ فيها واخذ ينتظر وصول بلوشار بفروغ صبر فانهُ بعث اليهِ برسالات يستنجده . وكان بلوشار في وافر التي تبعد ساعات قليلة عن واترلو في سبعين الف رجل فاتحادهما يجعل تحت قيادة ولنغتون اكثرية عظيمة اي نحو ١٥٠ الفًا للحمل على اقل من سبعين الفًا

وعند الغروب وصلت جنود نابوليون المتعبة المتضايقة الى ذلك السهل . ووصول اكثر الفرق الفرنسوية بعد ان خيم الظلام الحالك مع المطر والهواء جعل نابوليون في اضطراب عظيم وعند الغروب نظر الى الشمس الغاربة وقال الا ابذل كل شيء اليوم لاحصل على قوة يشوع فاوقف غيابك ساعتين . وعرف من نيران العدو انهُ متحصن في استحكاماتهِ وانهُ مصمم على القتال فاستكشف الارض بالمسير ماشيًا . وكان يعين مراكز فرقهِ عند وصولها بالتتابع . وبعث برسالة الى المارشال كروشي امره بها ان يضايق البروسيين ويجعل نفسهُ قادرًا على ان يتصل بجيشهِ وكان قد صرف ١٨ ساعة بدون نوم ولا راحة ولا اكل وكان الوحل قد غطى اثوابهُ وبلهُ الماء الى العظم ولم يبالِ بذلك ولا بالتعب ولم يحاول ان يستدفئ بالنيران التي امست جنوده ترتجف حولها وهطل المطر الليل بطولهِ والامبراطور يجدّ بلا راحة متهيئًا للقتال في الغد

واختلفت الاقوال من جهة عدد جيش ولنغتون فمن المولفين من قال انهُ كان ٧٢ الفًا ومنهم من قال ٩٠ الفًا وكان نازلاً في محالّ حسنة جدًا على مرتفع طولهُ ميل ونصف ميل . وكان وراءهُ غابة كثيفة في أُحدور يصون الجميع من رصاص الفرنسويين خلا الذين كانوا واقفين عند المطل . واقام نابوليون جنوده في مكان يبعد مسافة طلقة كرة مدفع وكان عددهم من ٦٥ الى ٧٠ الفًا وكان ذلك المكان تلاً يقابل تل الانكليز . ومضت تلك الليلة المخيفة وكان صباح الثامن



عشر من شهر حزيران (جون) صباحًا كثيف الغيم شديد البرد . وامست سهول واترلو المتسعة المزروعة وحلة بحوافر الخيل وارجل الرجال ودواليب المدافع والعجلات حتى الافراس كانت تغرق فيها الى ركبها وكانت تعيق المدافع . فهذه هي الاحوال الصعبة جدًا التي التزم الفرنسويون ان يحملوا فيها على الانكليز بالانحدار من تل واجتياز وادٍ صغير والصعود على تل اخر مقابل وهم معرّضون على الدوام لرصاص الانكليز المتحصنين وكراتهم . اما ولنغتون فكان مقتصرًا على الدفاع محاولاً ان يحافظ على مركزه الى ان يتصل بلوشار بهِ وبسعنهُ وقبل الظهر باربع ساعات قشعت الغيوم وظهرت الشمس بمجدها فاصبح احد واترلو من اجمل ايام السنة . وكان لسان حال تصورات الناس يقول ان الله سبحانهُ وتعالى ازال الستر عن الدنيا ليمكن الملائكة من مشاهدة قبيح اعمال البشر في ذلك السهل . وجمع نابوليون اكثر قواده حولهِ ليعطيهم اوامرهُ الاخيرة . فقال لهم ان جيش العدو يزيد جيشنا نحو النصف ومع ذلك لنا تسعون سببًا لتعليق الامل بالنجاح وعشرة اسباب تجعلنا نخاف الكسر . فدخل المارشال ناي وقال لهُ لا ريب في صحة ما قلتهُ لو كان الدوق اف ولنغتون غير عارف باصول الحرب ينتظر هجومنا عليهِ على انني آتٍ لاعرض لجلالتكم ان جنوده اخذوا يتقهقرون ويتوارون بسرعة في غابة سوان . فاجاب نابوليون بسكون اخطات لان ذلك يعرضهُ للنشل بدون ريب . وقبل الظهر بساعة ونصف ساعة تم ترتيب الجيوش في مواقعها وكان السهل ساكنًا فان الفرق كانت تتحرك ساكنة لتقيم في المواقف المعينة لها وصار انشاء المستشفيات في موخرة الجيش وبسط الجراحون رباطاتهم وسكاكينهم ومناشرهم وشمروا عن سواعدهم متهيئين لعمل رحمة تنتنت منهُ الاكباد . وكان الامبراطور يسير امام صفوف ذلك الجيش المحب لهُ فشخصت كل الاعين بهِ وكان كل لسان يدعو الى الله بان يوفقهُ . وقال لامرتين ان قلب نابوليون وقلوب جيوشهِ كانت واحدة تضرب ضربة واحدة لان جميعها كانت تبتغي شيئًا واحدًا . وكان نابوليون الجيش . فلا بد من ان يكون قد شعر انهُ اعظم من انسان بل اعظم من ملك . وكان جيشهُ يخضع للماضي والحال والاستقبال راضيًا بالنصر والكسر وبمشاركة رئيسهِ بالعرس او بالموت . وصمم على احتمال كل شيء وعلى الموت في ميادين القتال ليرجع عرش الامبراطورية الى رئيسهِ او ان يجعل سقوطهُ محفوفًا بالعظمة . فمن ادلة عظمة نابوليون اقتداره على ان يحمل جيشهُ على خدمتهِ بصداقة في تلك الاعمال ومن ادلة عظمة جيشهِ ان يقوم باعمال لم تقم بمثلها جيوش

وكانت عساكر بلجيكا وهانوفر الملتزمة بان تحارب على رغم انها تحت رايات الدول المتحدة تحب نابوليون حبًا غير معتدل حتى ان الدوق اف ولنغتون قائد الجيش الانكليزي كان يخشى ان تتركهُ في وسط القتال لتنضم الى نابوليون رئيس الشعب الذي كان يشاركهُ في حسياتهِ ويحبهُ

حبًا عظيماً . وقال السار والفارسكوت المؤرخ الانكليزي عنهم انهم انهموا احيانًا بعدم الميل الى المحاربة في سبيل الامور التي كانوا يحاربون عنها فتقرر ان من الخطإ الاتكال عليهم فيما لا سبيل الى الاستغناء عنهُ

وابتدأ القتال المخيف قبل الظهر باربع ساعات وكانت عساكر الفريقين يقاتلون قتال الابطال وقاموا باعمال لا يقدر البشر ان يقوموا باعظم منها . وصرف الجنود الفرنسوية ساعة بعد ساعة وهم يضجون فليعش الامبراطور ويحملون حملة بعد حملة على بنادق الجنود الانكليزية فكانوا يقطعون كما تقطع السنابل بمناجل الحصادين . وكان ابليس الموت الاحمر والويل بولم في وسط تلك الاعمال القبيحة فان كل طلق من طلقات الجنود كان يبلي مئات باليتم والترمل فكم من ام باتت ثكلى وابنة اذرفت دموعًا حارة . واستمر الرصاص والحديد يتساقط في ذلك السهل ساعات كثيرة كانهُ برَد كثير تدفعهُ رياح عاصفة حال كون حوافر الافراس كانت تدوس وتغرق في وحل القتلى والجرحى والذين هم في حالة النزع فان اربعين الفًا من المقاتلين كانوا يخوضون بحار المنايا وتغطي ذلك السهل المتسع بجثث القتلى الممزقة واعضاء اجساد مقطعة مكسرة تقشعر الابدان من النظر اليها . فان وميض المدافع والبنادق التي كانت تبلي الاذان بالصمم بصوتها وانين الموتى والجرحى وصراخهم المؤثر في القلوب والدخان الكثيف الذي جعل النهار ليلاً وصياح المقاتلين المخيف وهم يحملون لملاقاة الموت وصوت اندفاع الرصاص والكرات وهرب المكسورين المخيف فانهم كانوا يخلّون بالانتظام ويهربون امام الفرسان الذين كانوا يقطّعونهم بسيوفهم كانت تصيح بان الحرب من اعمال ابليس وهي بربرية وتوحش وشر لا شر اعظم منهُ فمن هو المسئول عند الله سبحانهُ وتعالى بما جرى في ذلك اليوم الدموي

وفي وسط هذه الحوادث التي تفتتت بها الاكباد اخذت صفوف الجيش الانكليزي تنثني وتهرب باضطراب وخوف الى جهة بروسل حاملة اخبار الانكسار . فعند ذلك تيقن نابوليون انهُ فاز فلاحت منهُ التفاتة الى الجهة اليمنى فراى جيشًا جرارًا يزيد على الثلثين الف رجل خارجين من الغابة ومنتشرين في ميدان الحرب ففي بادىء الامر ظن ان اولئك الرجال هم جيش المارشال كروشي الفرنسوي فقال في نفسهِ ان فوزنا عظيم . على انهُ راى بعد ذلك ببرهة قصيرة ان كرات مدافعهم اخذت تخرق صفوفهُ فعرف حينئذٍ انهُ جيش الجنرال لولد البروسي وطليعة جيش بلوشار متقدمين لنجدة ولنغتون وتخليصهِ من الانكسار . وكان ذلك سببًا لازدياد قوة اعداء الامبراطور ازديادًا غير معتدل فان جيش نابوليون بات اقل من ستين الف رجل حال كون جيش ولنغتون مع نجداتهِ اكثر من مئة الف رجل فالتفت الامبراطور بدون اضطراب الى المارشال سولت وقال لهُ في هذا الصباح كان النجاح اقرب الينا من الفشل نحو سبعين ضعفًا اما الان فقد قل



قربهُ وامسى لا يزيد عن الستين ضعفًا . واذا بعث المارشال كروشي جيشهُ بسرعة تفوز فوزًا وتوسع جيش بولو قتلاً وشتاتًا واضطر نابوليون الى ارسال عشرة الاف من جيشهِ لمعارضة الثلثين الفًا المذكورة بما اضعف قوة الجيش الحامل على صفوف ولنغتون المتزعزعة فحملوا بالاستناد الى عدانة القواعد التي كانوا يدافعون عنها وانقضوا عليهم كالصواعق وارجعوهم الى الغابة التي كانوا قد خرجوا منها . واستمر الامبراطور يحمل بجيشهِ القليل حملات مخيفة تزعزع الجبال الرواسخ . وكان يلتفت كل هنيهة الى الافق منتظرًا ظهور رايات جيش كروشي فيهِ . اما المرشال المومأ اليهِ فكان المدافع عن واترلو ومع ذلك امتنع عن الذهاب لنجدة نابوليون صارفًا النظر عن توسلات ضباط جيشهِ . فاتهم بالخيانة . اما نابوليون فقال ان ذلك ناشي عن تقصير في الحكم . وكان يبعث اليهِ برسل فلم يكونوا يتمكنون من الوصول اليهِ بسبب معارضة العدو او الخيانة . فلم يرد امر على كروشي على ان الطريق التي كان ينبغي ان يسلكها كانت واضحة جدًا انما ادعى بانهُ لم يرَها وفي اثناء ذلك تقدم الجنرال اكسلزمان من المرشال كروشي ماشيًا وقال لهُ ان الامبراطور يقاتل الجيش الانكليزي ولا ريب في ذلك واصوات الاسلحة تدل عليهِ فمن الواجب علينا ان نسير الى ميدان الحرب وانا من جنود جيش ايطاليا القدماء وطالما سمعت الامبراطور يقول انهُ من الواجب على القائد ان يبادر الى نجدة قائد اخر عندما يعلم انهُ يقاتل العدو واذا سرنا الى الجهة اليسرى ندرك ميدان القتال في ساعتين . ثم جاء الجنرال جيرار والح على المرشال بذلك . فلو انقاد المرشال كروشي اليهما وجاء ميدان القتال بثلثين الفًا لربما هلك الانكليز والبروسيانيون عن اخرهم . اما كروشي فكان بلوشار قد توارى عن بصرهِ ومع ذلك ادعى انهُ مامور بان يطارده فلم يرضَ بان يذهب الى ميدان الحرب . ولما راى الجنود الفرنسويون تقهقر نجدات بولو السريعة وراوا ان الامبراطور همَّ ان يحمل بجيش الحرس الامبراطوري القديم الذي لم يكن يحمل باطلاً تيقنوا انهم قد فازوا فضجوا فليعش الامبراطور وارتفع ضجيجهم فوق صوت القتال وبلغ آذان جيوش الدول المتحدة فوقع الرعب الشديد في قلوب جيش ولنغتون حتى ان بعض فرقهِ كادت تفنى والبعض الاخر كان هاربًا بدون انتظام . وامست موخرة الجيش الانكليزي في اضطراب لا مزيد عليهِ والمسافة الواقعة بين واترلو وبروسل ملأى بالهاربين وبكل ما يستدل بهِ على ان الجيش بات مشتت الشمل وكان ولنغتون القائد الانكليزي واقفًا على محل مرتفع قليلاً ينتظر باضطراب مجيء بلوشار فانهُ كان يعلم انهُ لا يقدر ان يثبت في القتال غير برهة قصيرة . وكان يرى صفوفهُ تفلُّ كانها تذوب بنيران الاعداء وينظر الى ساعتهِ ثم ينظر الى الجبال البعيدة ويمسح عرق العناء والشدة عن جبهتهِ ويقول يا الهي ارسل كروشي بنجداتهِ او ظلام الليل . وعند حلول الساعة الفاصلة عندما همَّ الامبراطور ان يامر جيوشهُ كلها بان تحمل على العدو من سائر الجهات نزل عليهِ من التلال صفان طويلان عدد

كل منهما ثلثون الف جندي وهم جنود بلوشار وبلو المجتمعة وعطفا على جناحي جيش نابوليون المتعب . وهكذا اضيف الى جيش العدو ستون الف جندي مستريحين وهم قدر جيش نابوليون كلهِ فالقلم لا يقدر ان يصف هذه الساعة . وكان الجنرال جوميني من القواد الذين انحازوا الى الدول المتحدة وصار معاون حرب الامبراطور الروسي وقد قال انهُ لولا حمل ٦٥ الف بروسياني على موخرتهِ لفاز بنصر عظيم . وكان جيش الامبراطور في تعب وعناء لا مزيد عليهما فانهُ كان قد اشتغل ٨ ساعات في قتال لم يرَ العالم اشد منهُ فبات عشرون الفًا منهُ جثثًا بدون ارواح او جرحى لا يقدرون على القتال والدفاع . وامسى ملتزمًا ان يقاتل مائة وخمسين الفًا باقل من خمسين الفًا من العساكر التي اعياها التعب . وكان العساكر الفرنسويون يعرفون ابواب الحرب فراوا في الحال انهم باتوا في خطر لا مفر منهُ . ومع ذلك لم يفعلوا في يأس بل وقفوا ببسالة منتظرين اوامر الامبراطور اما الجيش المتحد فراى ايضًا انهُ قد ربح فضج اجمع متهللاً . وكان الامبراطور لا يقع في حدة وارتباك عند وقوعهِ في الشدائد والضيقات وهذا من اعظم صفاتهِ واعجبها فامر حالاً بالعدول عن الهجمة العمومية وبحركات سريعة جدًّا ناشئة عن حذق يعجز البشر عن الاتيان بمثلهِ فغير مركز جيشهِ حتى جعل البروسيانيين والانكليز امامهُ بعد ان كان البروسيانيون على جناحهِ . وتوقف كل شيء بعد ذلك على حملة عظيمة واحدة يقوم بها جيش الحرس الامبراطوري قبل ان يتمكن البروسيانيون من دوس اضدادهم القلائل المتعبين ويتصلوا بجيش ولنغتون الانكليزي . فسار نابوليون في مقدمة هذا الجيش الباسل الذي لا يغلب وتقدم الى جهة الانكليز متظاهرًا بانهُ يروم ان يقود الابطال الى هذه الحملة . فبادر الضباط في اركان حربهِ الى ان يذكروه بان امنية فرنسا متوقفة على شخصهِ وتوسلوا اليهِ بان يعود . فاجابهم وامر المرشال ناي بان يحمل في ذلك الجيش

وحدث بعد ذلك اعظم حوادث الحرب فان الحرس الامبراطوري لم يحمل الا منتصرًا . ولما سار هذا الجيش المشهور في صنين عظيمين منحدرًا من تل ليصعد على تل اخر معرضًا صدره بدون ستر الى مدافع قد ملأت حتى افواهها بالرصاص وقطع الحديد وقف نوء الحرب دقيقة فان الجيشين شخصوا الى ما كان يجري بخوف فان نصيب فرنسا ونابوليون كان متوقفًا على نتيجة قتال برهة قصيرة ولم تضرب الطبول تنبيهًا للحمل ولا بوّق ببوق ولا ضج اولئك الابطال حسب عادتهم لكنهم هجموا بافتخار وسكون وثبات الى ان بلغوا محلاً لا يبعد غير بضع اذرع عن المحل الذي كان قد اقام ولنغتون فيهِ بجذقهِ رجالهُ ومدافعهُ لصدهم . وكانت صفوف الانكليز كانها في برق متصل واصوات مدافع متصلة كالرعود القاصفة والرصاص الصغير والكبير والكرات المحشوة وجميع مدفوعات الحرب المخيفة تنصب على ذينك الجبلين العاليين المركبين من ابطال بشرية كبرد غزير جدًّا حتى ان فرقًا صغيرة كانت تسقط وتداس بالابطال الاتية وراءها . وكان اولئك الباسلون



يسدون باجسادهم خلايا صفوفهم الناشئة عن قتل اخوانهم ويتقدمون الى ان خرقوا الجيش الانكليزي . وجاء الانكليز بكل مدفع تيسر لهم ان ياتوا بهِ وكل بندقية ووجهت الى هذا الجيش الثاقب الثابت المخيف . وفي دقائق قليلة قتلت خمسة افراس تحت المرشال ناي ثم اخذ يقاتل ماشيًا سالاً سيفهُ . وكان نابوليون ينظر بانشغال بال الى اعمال هذا الجيش العظيم على انهُ حجب عنهُ في برهة قصيرة بالدخان

وفي تلك الدقيقة حمل البروسيانيون راكضين مشاة وفرسانًا بمدافعهم وتغلبوا على الفرق القليلة الضعيفة المتعبة التي كانت معينة لمصادمتهم . وهبت ريح فكشفت ستار الدخان عن ميدان الوغى فنظر نابوليون نظرة مشغل البال ليرى ماذا جرى لجيش الحرس الامبراطوري فلم يرَ لهُ اثرًا بل راه في بحر من الدم . فاصفر وجههُ . وراى الجيش الفرنسوي ان جيش الحرس الامبراطوري قد هلك عن اخرهِ فوقع الرعب في كل قلب وهجم جيش بلوشار وولنغتون ضاجين ضجات الفرح والسرور . وجرى حينئذٍ ما تقشعر منهُ الابدان ولا ترضى بهِ الانسانية . وفي ذلك اليوم خفقت رايات بروسيا المطلقة الحكومة وانكلترا ذات القانون الاساسي فائزة بالاتحاد فوق ذلك السهل الذي جرى فيهِ الدم وهو ميدان هدم اركان الحرية الاوربية . والتقى القائد بلوشار والقائد ولنغتون في سهل الموت الاحمر وسيفاهما يقطران دمًا وهنأ كل منهما الاخر . وكان كل يدعي ان فخر النصر هو لهُ . والصحيح انهما تعاونا عليهِ وامست جنود ولنغتون متعبة جدًّا حتى انها لم تقدر ان تطارد الفرنسويين المنكسرين . فقال لهُ بلوشار اترك المطاردة لي فارسل كل رجل وكل فارس في اثر العدو . وقام بذلك قيامًا دل على انهُ كالتنين المفترس المفسد الاخلاق . ولم يعف عن احد فكانت جنوده تقتل الذين بدون سلاح بل تقطع الاسرى بالسيوف . اما الجنود الانكليزية فكانت كجاري عادتها كريمة الاخلاق شفوقة في ساعة الفوز . فانتشروا في ميدان القتال حاملين المنعشات للجميع معتنين بجرحى اعدائهم كاعتنائهم بجرحاهم . فدخل نابوليون وسط مربع صغير من جنوده كانت قد حفظتهُ فرقة احتياطية وساربها قاصدًا صفوف العدو فانهُ صمم على ان يهلك مع جيش حرسهِ . وكان كابرون قائدها الباسل معهُ فامسك لجام فرس الامبراطور وقال لهُ متوسلاً يامولاي ان الموت يخافك وهذا يلتيك اسيرًا في يد العدو . فهز نابوليون راسهُ وامتنع عن العود ثم تامل لحظة فراى ان الفناء نفسهِ في مهلكة هو عبارة عن قتلها اياها فملأت الدموع عينيهِ واستولى الكدر عليهِ وانحنى لهولاء الابطال الذين كانوا يرتضون ان يجعلوا انفسهم ضحية وكانوا امناء لهُ وهم في الموت وضجوا فليعش الامبراطور وكانت هذه كلماتهم الاخيرة ووداعهم حال موتهم . فوكز الامبراطور فرسهُ بحزن وصمت وخرج من ذاك الميدان بعد ان سمع ضجة جنوده الذين ودعوهُ بها فانهم هلكوا في سبيل خدمتهِ . وهذا المربع كان مولفًا من فرقتين

صغيرتين اي اقل من الفي رجل منهما اللتان رافقتا موخرة الجيش الهارب . وكان البروسيانيون والانكليز يضايقونهما من جوانبهما الثلثة دافعين عليهما الات الهلاك والموت الاحمر وكان الفرسان ينقضون عليهما ومع ذلك لم تخرق صفوفهما فجيء بالمدافع المتنقلة واطلقت عليهما بدون شفقة حال كون كراتها كانت كالبرد . هذا مربع لا يغلب وهو البقية الاخيرة من جيش الحرس الامبراطوري في صدرها روح قائدها العظيم وحميته فكانت جنودها تسد خلاياها الناشئة عن فعل الكرات والرصاص مانعة الجيوش المنتصرة عن ان تقترب من الجيش المنتهر . وامسى قائدها الجنرال كامبرون مجروحًا في ستة اماكن من جسده ولم يبقَ حولهُ غير قليل من رجالهِ المجرحين المتعبين ولما راى الانكليز والبروسيانيون ما راوا من شجاعتهم تحيروا واثنوا عليهم بعد ان ضجروا من اهلاكهم فانقطعوا عن القتال ونصبوا راية هدنة طالبين تسليم ذلك الجنرال والباقين من جنوده . فاجاب الجنرال كامبرون ان جيش الحرس الامبراطوري يموت ولا يسلم ابدًا . فهذا جواب يحيا في بطون التواريخ الى الابد . فاطلق مشاة الاعداء بضع طلقات والمدافع دفعت رصاصها وحديدها عليهم فهلكوا عن اخرهم لكن ذكرهم لا يفنى . وهكذا فني جيش الحرس الامبراطوري كلهُ في سهل واترلو . فحذق نابوليون هو الذي انشأ ذلك الجيش ونفخ في صدره من روحهِ الكريمة العالية فلم يرضَ بان يعيش بعد سقوط منشئهِ

وبعد ذلك خيم الظلام وكانت ضوضاء الحرب وصوت اطلاق البنادق ورعود المدافع وضجات البروسيانيين المطاردين المهيجين وصراخ المتبوعين الذين كانوا يطعنون بالحراب او يقطعون بالسيوف تبين حالة الحرب الابليسية الوحشية التي تقشعر الابدان من مجرد التامل فيها وتغطت سهول واترلو بجثث اربعين الف رجل . اما الدوق اف ولنغتون فاكتفى بما كان قد قام بهِ فمكن جنوده من الراحة وترك المطاردة للبروسيانيين . اما بلوشار البربري فلم ينقطع هو وجيشهُ المهيج عن القتال والفتك الوحشي الليل بطولهِ . فتبدد شمل الجيش الفرنسوي وركن الى الفرار ولم يبقَ على نابوليون الا ان يعود الى باريس بالسرعة الممكنة ويحاول ان يدفع هجمات العدو الحامل على فرنسا . فهذه هي الاعمال الدموية التي فازت الدول المتحدة بها باطفاء نيران الحرية في اوربا وتشييد الحكومة المطلقة الروسية والبروسيانية والنمسوية في اوربا ومن العجب ان تكون انكلترا مسعفة لها على ذلك

وسار نابوليون في الحال الى جهة باريس وبعد نصف الليل بساعة وصل الى كاتريرا ووقف فيها ساعة ليصدر اوامره بشان تقهقر الجيش ويعين نقطة اجتماع عساكره المتبددة ليسوق النجدات اليها من باريس ثم يسير بسرعة الى شارلروا . وسار الامبراطور المتعب الليل بطولهِ سامعًا اصوات المدافع المخيفة التي كانت تطلق على جيشهِ المنتهر . وقد قال البارون جوسيني انهُ ابان



في اركولا وايلو ورانسبون وارسس وواترلو انهُ لا يخشى الرصاص ولو لم يكن عالمًا ان فرنسا ذات اقتدار لمات مع بقايا جيشهِ

ووصل الى شارلروا عند الفجر متعبًا والقى بنفسهِ على مقعد غير ان بلواه كانت عظيمة فلم يقدر ان يرقد ودخل كثيرون من اتباعهِ وقد ورمت اعينهم من البكاء وساء منظرهم من الكدر وتضرجت ملابسهم بالدماء . فتامل نابوليون في هذا المنظر المحزن وفي عظم المصيبة التي كانت تتهدد فرنسا فتغلب الحزن عليهِ فامسك يد صديقهِ البارون فلوري صامتًا وشد عليها والدمع ينسكب غزيرًا من عينيهِ مظهرًا شدة الحزن الذي بلي بهِ ثم ركب فرسهُ وسار بسرعة الى لاون فبلغها بعد الظهر باربع ساعات فاصدر اوامر كثيرة وبعث بهِ بخبر صحيح الى باريس لم يخفِ بهِ شيئًا من الويل الذي بلي بهِ . وقال للجنرال دلرو بو هذا خبر واترلو فاسمعهُ فاذا كنت قد تركت خبرًا مهمًا فذكرني بهِ لاضيفهُ اليهِ فانني لا اروم ان اخفي شيئًا بل ارغب الان كما رغبت بعد حرب روسيا ان امكن فرنسا من الوقوف على الحقائق . وكان من الممكن ان الحق بالمرشال ناي مسئولية بعض ما جرى في واترلو غير ان الضرر قد وقع فالاوفق ان نقتصر عن ان نصرح باكثر مما قد صرحنا بهِ

وبعد ان رقد نابوليون ساعات قليلة رقادًا متعبًا دخل مركبة وسار هو وبعض اصدقائهِ وحرس ضعيف النهار بطولهِ وبعد نصف الليل من ٢١ الشهر المذكور دخل باريس في ساعة مظلمة مكدرة . وكانت مصابيح الشوارع تكاد تنطفي . وعوضًا عن ان يدخل قصر التويلري دخل قصر الاليزي وهو اقل عظمة منهُ ووجد امام الباب بضعة خدم في ايديهم مصابيح ولاقاه في نهاية السلم صديقهُ كولنكور الامين . وكان الكدر والتعب قد اضعفاه جدًا وامسى وجههُ مصفرًا جدًا ضعيفًا واخلت الاسفار بانتظام اثوابهِ . وكان يكاد يسقط من التعب فسار منحني الراس الى ان اقترب من مقعد فالقى بنفسهِ عليهِ ووضع يدهُ على قلبهِ قائلاً انني موءلم بوجع في القلب . والجيش قد قام باعمال تدهش العقول ليس لها مثيل ومما يكدرنا ان نغلب بعد ان صرفنا من الاجتهادات ما صرفنا وامجد انتصاراتي لا تجلب مجدًا للجيش الفرنسوي اكثر من انكسارنا في واترلو . فجيوشنا لم تغلب ولكنها ذبحت باكثرية عظيمة وجيش الحرس الامبراطوري مكن العدو من ان يقطعهُ اربًا اربًا بدون ان يستأ من غير ان جنوده كانوا يقولون لي ارجع ارجع فانك ترى ان الموت مصمم على ان يبقيك حيًا ثم فتحوا صفوفهم وحاقوني بسور من اجسادهم . فجيشي الباسل قد هلك وانا لم اهلك معهُ . ثم صمت لان الحزن كان قد غلب عليهِ ثم تنهد شديدًا وقال اروم ان ابقى وحدي ثم سار الى حجرتهِ صامتًا وانفرد فيها

## الفصل الخامس والستون

### عواقب الحوادث السابقة

وبعد ان انفرد الامبراطور برهة قصيرة في حجرتهِ متاملاً فيما جرى استحم ثم طرح نفسهُ على فراشهِ طالبًا النوم على ان اهمية الوقائع وعظمة المخاطر وشدة البلايا كانت تنفي الرقاد من عينيهِ فنهض حالاً ودعا اليهِ كولنكور واخبرهُ بكل حزن وسكون بالمصائب التي كانت قد المت بفرنسا وكانت آلامهُ الباطنة يشف عنها كمد وجههِ وحالة عينيهِ . ثم قال بصوت دل على انهُ يكاد يسقط من الهم والغم انني اشعر ان هذا الجرح هو جرح الموت فان ضربة واترلو لا يعيش من يقع عليهِ مثلها وكان عدد العدو اربعة اضعاف عددنا . على انني كنت قد هيأت حملة ذات جسارة لمنع اتصال الجيشين المقاومين لنا وخيانة بورمون المعيبة الزمتني ان اغير كل تدبيراتي . فكيف ذهب الى العدو مساء يوم القتال ان هذا عارٌ عظيم ودم ابناء وطنهِ يطلب منهُ وشتائم فرنسا تتساقط عليهِ . فقال لهُ كولنكور يا سيدي انك رفضت هذا الرجل في بادىء الامر فتغيير عزمك كان من سوء الحظ فقال الامبراطور بمرارة ان دناءتهُ لا تصدق وليس في اخبار جيش فرنسا ذكر ذنب كذنبهِ فجومينيي ليس بفرنسوي وقد نشأ عن خيانتهِ مضار عظيمة . وتاخر كروشي عن الوصول في الزمان الموافق وحمية ناي حملتهُ على تجاوز حدود الاعتدال . وقاتل جيشنا قتالاً يقضي بالعجب العجاب ومع ذلك دارت الدوائر علينا . والقواد اجمع حاربوا محاربة استحقوا عليها اكاليل المجد . ثم صمت لحظة وقال لا بد من جمع مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين في جلسة غير اعتيادية فاصف للاعضاء مصائب الجيش بامانة واطلب اليهم ان يدبروا الوسائل اللازمة لتخليص البلاد ثم اعود الى مركز القتال

اما باريس فامست في هيجان مخيف فان جيشًا مولفًا من مليون من الرجال اصبح حاملاً على امبراطورية غير متاهبة لدفعهِ . وكان جيش بلوشار القائد البروسي وجيش ولنغتون القائد الانكليزي قادرين على بلوغ باريس في ثمانية ايام . فاغتنم اضداد نابوليون السياسيون سنوح هذه الفرصة وكانوا يقولون لا بد لفرنسا من الخوض في بحار من الدماء لتتمكن من دفع جيوش تحاكي بكثرتها جيوش الجراد اما الدول المتحدة فلا تحارب فرنسا لكنها تقاوم نابوليون وحدهُ فاذا سلمناهُ اليها تخمد نيران غضبها وتخلص فرنسا من بلايا الحمل عليها ثم تنشىء جمهورية او تختار امبراطورًا اخر . انتهى

وكان كلامهم شديد التاثير في الفرنسويين . وكان رجاء البوربون معقودًا بمعاونة الدول



المتحدة انهم سيتمكنون بواسطتها من ارجاع لويس استانسلاس اكزافيه الى العرش بعد سقوط الامبراطور نابوليون . اما الجمهوريون فاصبحوا يعلقون املهم بارجاع الامبراطورية . وتقرر في عقول اصحاب الاراء المعتدلة منهم كالموسيو لافايت ان فرنسا تقدر ان تقوم بامبراطورية صحيحة القواعد محافظة على القوانين والنظامات . اما حزب الجاكوبية الجمهوري غير المعتدل فكان يجب ان تحدث تغييرات مهما كانت بامل انشاء جمهورية غير معتدلة . فاتحدت هذه الاحزاب في المجلسين المذكورين على مقاومة الامبراطور وباتت البلاد في خطر مبين ولم يصر التمكن من المفاوضات لان الجيوش الحاملة على فرنسا كانت تقترب كل ساعة من باريس وامسى الناس في اضطراب شديد وهيجان عظيم . اما فوشي الخائن فكان قد فتح المخابرات بينهُ وبين الاعداء وعقد مؤامرة برياء لامزيد عليهِ لارجاع البوربون فانهُ كان يعلم انهُ اذا نجحت مؤامرتهُ ينال مكافاة عظيمة . واجتمع مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين وكان عدد المبعوثين خمسمائة منهم كثيرون من الذين ليس في اراثهم اعتدال ومنهم من كان لا يزال في سن الشبوبية غير مختبر الامور ولا الاعمال المجلسية . وكان المتغلبون في الاعمال اصحاب الاختبار التام العارفون بفنون التدريبات المحلية يخدعونهم وينفذون غاياتهم . وقد قلَّت اهمية مجلس الاعيان اثناء ذلك الاضطراب واصبح النفوذ كلهُ في يد مجلس المبعوثين

وعرف لوسيان وجوزف برجوع شقيقهما الامبراطور نابوليون الى فرنسا فبادرا الى الذهاب الى الاليزي وفي برهة قصيرة ازدحمت اقدام عظماء الامبراطورية في قاعات ذلك القصر واختلفت مشوراتهم واضطربت اراؤهم . وقبل الظهر بخمس ساعات جمع الامبراطور مجلس الشورى . فانهُ رأى ان المخاطر المحدقة بهِ لا تمكنهُ من ان يتكل على مشورة مجلس المبعوثين التي لا سبيل الى الحصول عليها الا بعد مفاوضات ومجادلات كثيرة لتباين اراء اعضائهِ واختلافهم . وتيقن ان خلاص فرنسا لا يتم الا بتسلمهِ السلطة المطلقة ليتمكن من اتخاذ وسائل فعالة بالسرعة . ومع ذلك صمم على الامتناع عن القبض على زمام السلطة المطلقة ما لم يفوضهُ بذلك المجلسان اي مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين . فتليت اخبار معركة واترلو المخيفة على مجلس الشورى ثم خطب نابوليون عليهِ بتأنٍ وصفو خاطر قائلاً ان الجيش متسربل باثواب المجد . وقد ذهبت اجتهادات عساكرنا الابطال سدى بالخيانة وسوء المفهومية وقضاء يصعب علينا توضيحهُ . فخسائرنا عظيمة جدًا على انهُ من الممكن اصلاحها اذا فزت بالمساعدة التي اروم ان احصل عليها . وقد عدت الى باريس لأُحرك في الناس حمية تدعو اليها دواعي الناموس . فاذا نهضت الامة الفرنسوية بيت العدو مخذولاً . لكن اذا اضعنا الزمان بالمفاوضات والمجادلات عوضًا عن القيام بوسائل سريعة نبذل ضحايا غير اعتيادية ونبيت في ضياع . فالعدو امسى في فرنسا وفي ثمانية ايام يكون عند

ابواب باريس . فينبغي ان افوض بانفاذ سطوة مطلقة اذا كنتم راغبين في تخليص البلاد ويكون ذلك موقتاً . والاوفق ان يصدر التفويض المذكور من مجلس المبعوثين ومجلس الاعيان . فنهض كارنو وقال بصوت دل على شدة انفعاله عندي انهُ لا مندوحة لنا من ان نسلم الامبراطور سلطة تامة اثناء المشاكل الجارية ووافقهُ على ذلك كثيرون . حتى ان الخائن فوشي الذي كان وكيل الدوق اف ولنغتون بخابره سرًّا لم يتجاسر على الجهور بمقاومة هذا الراي على انهُ قيل انهُ قد تمت مضادة قوية للامبراطور في مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين ولا سبيل الى حملها على ان يقرروا تسليم الامبراطور سلطة مطلقة . فقال نابوليون ماذا يطلب المضادون يا ترى هل يطلبون اعتزالي . فاجابهُ دينول باسف قائلاً يامولاي اظن ان هذا هو مقصودهم وتراني في ضيق شديد من جرى التزامي بان اخبر جلالتك بامر يكدرني على انهُ قد تقرر عندي ان مجلس المبعوثين مصمم على ان يطلب الى جلالتك الاعتزال اذا لم تعتزل من تلقاء نفسك . فسمع الجميع هذا الخبر متاكدين صحتهُ فقال بعض اعضاء مجلس الشورى اذا لم يعاون مجلس المبعوثين الامبراطور على تخليص فرنسا فلا بد لهُ من ان يخلصها باجتهاداتهِ اذ يصرح انهُ قابض على عنان السلطة المطلقة ويخضع فرنسا كلها تحت الحكومة العرفية اي العسكرية ويدعو جميع الفرنسويين محبي وطنهم الى الدفاع عن ذمارهم . فقال الامبراطور بصوت أثَّر في كل قلب ان الامة لم تختر المبعوثين ليقبلوني لكنها اختارتهم ليعاونوني فالويل لهم اذا لم تضرم نار الحمية في احشائهم بدخول العدو الى الاراضي الفرنسوية فمهما كانت اعمالهم لابد من ان يعاونني الشعب والجيش . فبقاء المجلس يتوقف على ارادتي فاذا فهت بمقاومتهم يموت ضحية . وكانوا قد جعلوا المواربات شانهم فلا بأس فانني لست بمحتاج الى التصنع في الاعمال فانني مستند الى الحق . وقوتي تقوم بعناصر عظيمة وهي حب الاهالي لوطنهم وكرههم للبوربون وحبهم لي فهذه قوات عظيمة تعيننا على نوال المطلوب اذا عزمنا ان ننتفع بها . ثم اخذ الامبراطور يحذق العجيب يبين كيفية تعويض خسائر معارك واترلو وكان قد قد رسم في ذهنهِ المتوقد تفاصيل الاعمال اللازمة والحركات الحربية التي ينبغي ان يقام بها وكانت لوائح الادراك تلوح على وجههِ وكان يتكلم بصوت قوي بالامل وكانت ابصار الجميع شاخصة فيهِ وافكارهم غائصة في بحر التامل في مشروعاتهِ العظيمة الناشئة عن حذق لا مزيد عليهِ التي كانت حميتهُ قد ساقتهُ الى ان يقوم بها بامل تعويض الخسائر العظيمة التي لحقت بهِ وهو في واترلو . ورأى الاعضاء جميعًا من ارائهِ حذقًا لا مزيد عليهِ وتفصيلات جلية ووسائل نافعة ما جعلهم ينبذون اختلاف الاراء واصبح رايهم واحدًا وهو الموافقة على راي الامبراطور

وفي خلال هذه المفاوضات والتوضيحات دخل رسول من مجلس المبعوثين مجلس الشورى وسلم الامبراطور قرارات لا ريب في انها ناشئة عن الميل الى مقاومتهِ . فالذي طلب تقريرها وساق



المجلس الى ذلك انما هو لافايت الذي كان قد اخرجهُ نابوليون من سجن اولموتز ومكنهُ من العود الى وطنهِ وعائلتهِ . ولا ريب في حسن نواياهُ على انهُ ارتكب خطاء مبينًا ثم عرف فيما بعد خطأهُ وندم اشد الندم . وكان لافايت المذكور محبًا لوطنهِ فعلاً كريم الاخلاق فلاح لهُ ان اعتزال نابوليون بعد ان تكون الدول قد رات ان فرنسا قد رفضت البوربون يكون وسيلة لغمد سيفها وتمكين الامة الفرنسوية من انشاء جمهورية . وكان رئيس الحزب الجمهوري . وكانت آمالهُ مبنية على أساس ضعيف . فاتحدت جميع الاحزاب المتناظرة في فرنسا على اسقاط دولة نابوليون وعلق كل منها املهُ بان سقوطهُ يمكنها من نوال غاياتها . فارتجف اصدقاء الامبراطور لما راوا هذا الاتحاد وضعفت امالهم وخصوصًا ان مليون رجل من الاعداء الحاملين على باريس كانوا يقاومونهُ

وفي ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٨٢٤ سار لافايت المذكور بعد فوزه في الولايات المتحدة وزار جوزيف بونابرت في منزلهِ في بوان بريز وكان الامبراطور نابوليون وقتئذٍ في سانته هيلانة . وكان البوربون قد داسوا جميع الحقوق العمومية وقال لجوزيف بونابرت شقيق الامبراطور نابوليون في حديث جرى بينهما سرًّا انهُ متاسف من عملهِ المتعلق باسقاط الامبراطور وقال ان الدولة البوربونية لا تقدر ان تثبت فانها مضادة لاميال الفرنسويين الوطنية على خط مستقيم وثبت عندنا ان ابن الامبراطور هو اوفق الرجال لانفاذ اصلاحات الفتنة فاذا استعملت الوسائل الموافقة ربما تيسر لنابوليون الثاني بلوغ عرش الامبراطورية في سنتين

ومن لا يستغرب وقوع احذق الرجال في اضطراب وارتباك اثناء حوادث خطيرة مخطرة فلما قرأ نابوليون قرار مجلس المبعوثين تبدل احمرار وجههِ بالاصفرار وقال كان من الواجب عليَّ ان اصرف اولئك الرجال قبل الخروج من باريس . وخطرت هذه الامور ببالي واني قادر على ادراك الاضرار التي تنشأ عن تصرفهم فلا بد من التامل فيما ينبغي ان افعل فاذا وجدت ان الضرورة تدعو الى الاعتزال فلا امتنع عنهُ . وبعد ذلك فضَّ الجلسة

ولم يرضَ بان يسرع بالاجراءات ولا ان يقوم بشيء بدون الوقوف على الاحوال فصمم على انفاذ رسالة مختصرة الى مجلس الاعيان ورسالة اخرى الى مجلس المبعوثين . فبعث بموسيو رينول الى المبعوثين وبموسيو كارنو الى الاعيان بعد ان قال لهما اخبراهم بانني هنا افاوض قواد الجيش وان عساكري آخذة في الاجتماع وقد امرت بالانقطاع عن التقهقر وانني اتيت باريس لأتبصر في الامور مع حكومتي والمجلس العام . وانني اصبحت في هذه الساعة مشتغلاً في الامور المتعلقة بالراحة العمومية وبصيانة الامنية

فدخل رينول مجلس المبعوثين فوجدهُ في اضطراب عظيم حتى انهُ لم يتمكن من حمل الاعضاء على الاصغاء الى كلامهِ . اما الاعيان فكانوا في اضطراب ايضًا ومع ذلك أصغوا الى بلاغ

الامبراطور باحترام . فمرت ساعات النهار على مجلس المبعوثين وهو في اضطراب وشقاق وخيم الظلام على باريس المهيجة . اما اهاليها واهالي الاماكن المجاورة لها فاجتمع عدد غفير منهم حول الاليزي وهم يضجون قائلين فليعش الامبراطور . وصعدوا على الاشجار وجدران القصر وسطوح البيوت المجاورة فغطوها لكثرتهم ليشاهدوا امبراطورهم المحبوب . اما لوسيان شقيق الامبراطور فكان جمهوريًا فامتنع عن قبول ممالك فجاء باريس في ظلام ذلك الليل وقابل الامبراطور واخذ يتمشى معهُ تحت اشجار الجنينة ويحاول حمل الامبراطور على ان يصرف النظر عن المجلسين وينفذ قوة مطلقة فانهُ تقرر عنده ان فرنسا لا تنجو الا بذلك . فقال للامبراطور انظر هولاء الناس المجتمعين حولك من تلقاء انفسهم بدون مراعاة صوالح خصوصية . فانهم قد تيقنوا انك دون غيرك قادر على صيانة استقلالهم وحماية وطنهم فاصغ الى ضجاتهم فانهم يطلبون اليك ان تمكنهم تقلد السلاح وان تقيم عليهم رئيسًا . وهذه حالة الامة في الامبراطورية كلها فهل تترك فرنسا للاجانب والعرش للاحزاب . على انهُ لم يكن شيء يحمل نابوليون على فتح ابواب حرب اهلية فانهُ لم يكن يدافع عن نفسهِ بل عن فرنسا . فقال اما انا بشر فهل اقدر ان اجعل خمسمائة مبعوث قد ضلوا متحدين متفقين . وهل انا من اهل التجربات الادنياء لاضرم نيران حرب اهلية بدون ثمرة . انني لا اقوم بذلك ولا اطلب غير اقناع المبعوثين بان ينهجوا منهج الحكمة فاقدر ان اقوم بكل شيء بالاتحاد معهُ . وبدونهم افعل امورًا كثيرة مراعاة لصالحي الخاص . ولكن لا اقدر ان اخاص البلاد بدون معاونتهم . فاذهب وافرغ جهدك في سبيل حملهم على الاتفاق معي فانني قابل بذلك . وامنعك عن اهاجة هولاء الرجال الذين يطلبون اليَّ ان اقلدهم السلاح فتراني لا اتأخر عن ان اجرب كل الامور مراعاة لفرنسا غير انني لا افشل شيئًا مراعاة لصالحي

وقال كولنكور ان مركز الامبراطور في قصر الاليزي لم يكن لهُ مثيل في التواريخ فلو اراد لأهلك الخائنين بكلمة واحدة . فان الجماهير التي احاطت بهِ كانت قادرة على إزالة جميع الموانع التي تحول بينهُ وبين الامة باشارة واحدة . على ان الامبراطور لم يكن يرضى بان يهيج الناس الى القتال فانهُ كان يعلم ان قضاء العامة مهلك مخيف

وكان وكلاء فوشي في مجلس المبعوثين ذوي قحة وتعدٍّ فحاولوا التغلب على لوسيان بالاهانات والذمر ليمنعوا المجلس عن قبول مطالب الامبراطور . وسار كولنكور الى المجلس وراء لوسيان فلما راى ما جرى فيهِ بادر الى الرجوع الى الامبراطور ليخبره . وازدحمت اقدام الناس حول الاليزي حتى انهُ لم يبلغ القصر الا بعد صعوبات كثيرة . ولما دخلهُ اخذ الناس المحيطون بهِ يضجون بلا انقطاع . فقال نابوليون ان هذا امر مخيف فان العامة ربما سيقت الى العدوان فأتهمُ بتهييجها . وهولاء الناس يرومون خدمتي ولكنهم اخطأوا وعملهم ياوُل



الى الاضرار بي . وكان نابوليون من ذوي العدل والكرامة فلم يرضَ بان يسلح العامة لمقاومة المجالس . وكان رئيس الامة الفرنسوية فلم يرض ان يخفض نفسهُ ويذلها ساعة بتقلد رئاسة حزب وكان حذقهُ يكشف لهُ عن الامور الاستقبالية فراى ما لم يرهُ الناس . فتحقق ان الاحوال محفوفة بمخاطر عظيمة وان فرنسا لا تتخلص الا باتحاد الامة قاطبة . وكان يعلم ان مقاومة المجلسين لهُ تغلُّ يديهِ وتجعل اجراآتهِ منحصرة في تحصيل شروط من الدول المتحدة اكثر موافقة لهُ من الشروط التي يرتضون بمنحها لهُ من تلقاء انفسهم . على انهُ يبيت غير قادر على تخليص فرنسا وربما تمكن من اطالة زمان حرب اهلية ومن اراقة انهار من الدماء . وتحقق انهُ لا امل بتخليص فرنسا ومليون من الاعداء يحملون عليها فائزين بعد ان افرغت جعبة قوتها . واسى الملكيون والجاكوبيون متحدين على مقاومتهِ والمجلسان يقرران بانهُ مختلس . والدول المتحدة تقول لفرنسا اننا نمنحك الحرية والسلام اذا خذلت نابوليون . وخطر لكثيرين من الذين كانوا يرتضون بان يتركوا نابوليون ان الدول المتحدة تحترم استقلال فرنسا وتسمح لها بانشاء الجمهورية مع ان هذا خطا مبين . وحملتهم بساطة قلوبهم وسلامة ضمائرهم على تصديق ما اعلنتهُ الدول من انها تحارب نابوليون شخصيًا لا فرنسا

ولما اخبر كولنكور نابوليون باضطراب مجلس المبعوثين وانهُ طالب اعتزالهُ . قال لقد اضعنا كل شيء والظاهر ان الاعضاء لا يعلمون ان تصريحهم بفراغ العرش هو عبارة عن تسليمهِ الى من يدعي بهِ . فالدول المتحدة لا ترضى الان بعقد المخابرة لكنها تضع الشروط التي توافقها ولا بد من قبولها . واكثرية المجلس العام مضادة للبوربون ومع ذلك لا ريب في ان الدول تلزم فرنسا بالخضوع لهم . وباتت الامة تحت رحمة اعدائها وستقع في اسوء العواقب باغلاط الذين ينوبون عنها . وانقطع حد يثها بدخول بنجمان كونستان الذي كان قد الح على الامبراطور بتسليح الامة وقطع التشكيات المحلية ودفع العدو الاجنبي فجاء الامبراطور بكدر ليخبرهُ ان المجلس العام مصمم على طلب اعتزالهِ . ولم يستوِ على عرش الامبراطورية بقرار مجلس المبعوثين بل بانتخاب الشعب . فقال نابوليون مجيبًا بسكون باي حق يطلب المبعوثون اعتزالي وباية سلطة . ثم اشار الى الجماهير التي كانت لا تزال تضج بهيجان وقال ان هولاء الرجال المساكين الذين جاوا ليعزوني على مصائبي لم اثقل عواتقهم بالرتب والمناصب والمال لكنني اتركهم فقراء كما وجدتهم على ان صوت الامة صادر منهم وبكلمة واحدة يمسي مجلس المبعوثين في خبر كان . على انني لا ارضى بان اضحي حياة واحدة لاجلي فانني لم ارجع من البا لسفك الدماء واشد الناس كرهًا وعدوانًا لنابوليون اعترفوا بكتاباتهم بانهُ تصرف بحكمة وكرامة اثنا المصائب العظيمة التي وقع فيها . فانهُ في اجراآتهِ صرف النظر عن نفسهِ ووجه كل خاطره الى صوالح بلاده

وقال لامرتين الذ اعدائهِ في تاريخهِ ان التاريخ ملتزم بان يعدل في الحكم بقولهِ انهُ امتنع عن ان يجمع جيشاً من العامة ولهُ الفضل العظيم ان كان الداعي الى امتناعهِ الكره الطبيعي لتعديات العامة او ما راه في ١٠ آب (اوغسطوس) من المذابح والتعديات او مذابح ايلول (سبتمبر) وآلة قطع الرؤوس او كره كل قوة غير منظمة مراعاة لما انطبع عليهِ من حب الانتظام العسكري او مراعاة لصيتهِ . وهكذا أثر السقوط بناموس وكرامة على النهوض بمعاونة العامة . ولما خرج من جزيرتهِ غير مبالٍ بالبوربون ولا باوربا امتنع عن اراقة الدم وعن الاعمال المخالفة لاصول التمدن فكان في كل شيء كنيصر لكنهُ لم يقتدِ قط بفراكوس فانهُ ولد ليسود بانتظام وليس ليتراس على الاحزاب المهيجة

ومضى اليوم الرابع والعشرون من حزيران (جون) ومجلس المبعوثين باضطراب وهيجان الليل بطولهِ . اما نابوليون فانبسط على فراشهِ في اخر الليل مريضاً متعباً مكدراً بسبب البلايا المنقضة على بلاده . وفي تلك الليلة المخيفة لم ينم اكثر اهالي باريس غير قليل . فان جموعاً غفيرة من الرجال كانت تطوف الشوارع طالبة اسلحة لصيانة فرنسا وامبراطورها . اما جيوش الدول المتحدة فاقتربت من المدينة بالمسير يوماً . وامست المجالس في شقاق واضطراب والاعمال في تناقض . ولو فاه مجلس المبعوثين بكلمة واحدة لنهض حذق نابوليون القادر وتدبيره المدهش وهمتهُ العالية وحوّل الخلل انتظاماً . فانهُ كان قادراً على إثارة الامة كلها من انحاء فرنسا لدفع الحاملين وربما كان ذلك كافياً لتخليص فرنسا على ان المبعوثين صرفوا النظر في الليل عن اقوى العقول في العالم وقرروا ان يطلب اعتزال الامبراطور وهكذا سلموا فرنسا مغلولة الايدي والارجل الى اهانة اعدائها ومقاوميها

واصبح يوم ٢٢ من الشهر المذكور وجرت فيهِ حوادث اعظم من التي جرت في الليل فان الامبراطور كان جالساً في غرفتهِ غائصاً في بحر من التاملات المكدرة واضعاً يديهِ على عينيهِ فدخل عليهِ وهو على تلك الحال خادم معهُ قهوة وغير اشياء منعشة . وفي بادي الامر لم ينتبه نابوليون اليهِ فقال لهُ يامولاي كل فان ذلك ينفعك . فنظر الامبراطور اليهِ بشفقة وقال لهُ انك آتٍ من قرية جونس . قال لا انني من بيارفت . قال ان لوالديك فيها بيتاً وبضعة فدادين من الارض . اجاب نعم . قال الامبراطور ان سعادتهم حقيقية

وقبل الظهر باربع ساعات عاد المجلسان الى الاجتماع بتهيج عظيم واخذ اعداء نابوليون يطلبون اعتزالهُ بالحاح واصبحوا اكثرية . وفي ذلك الصباح جمع الامبراطور مجلس الوزراء في قصر الاليزي . فانهُ كانت قد وردت عليهِ اخبار في الليل زادت ارتباكهُ فان المرشال كروشي تخلص من ولنكتون وبلوشار وعاد الى فرنسا باربعين الف جندي . وكان ناي وجيروم قد اجتمعا



عند الحدود بعد انكسارهما في واترلو في اربعين الفاً . وفي الليل جاء المدينة من المحلات المجاورة لها عشرة الاف جندي من المتروضين وقالوا انهم يبذلون انفسهم في سبيل الدفاع عن الامبراطورية . وكان قادراً على ان يجمع من الجماهير المجتمعة حول الاليزي خمسين الفاً في ساعات قليلة قادرين على حمل السلاح فالح اصدقاء فرنسا عليهِ بان يسير في هذه الجيوش لتخليصها . فبات في حيرة مقلقة اذ راى ان امتناعهُ عن الاستئثار بالسلطة المطلقة انما هو عبارة عن تسليم فرنسا الى الاعداء وان ذلك لا يتم الا بفض المجلسين بالقوة وبسجن الذين تخشى مقاومتهم وتعريض فرنسا الى جميع مصائب الحرب حال كونهِ لابد من حصر مدن وتخريب انحاء كاملة وقتل الوف من الفرنسويين

وكانت افكار الامبراطور في سكون ومع ذلك ظهرت عليهِ لوائح الكدر والاهتمام . وكان يزن الامور في ميزان الحكمة ومراعاة حقوق الانسانية . وثبت عندهُ ان المجلسان اذا عضداهُ يترجح فوز فرنسا بدفع الحاملين . وراى انهُ اذا لم يتحد المجلس معهُ لا يحق لهُ ان يسل السيف لدفع الاعداء . فبعث الى المجلسين لائحة متضمنةً تعداد القوات التي يقدر ان يجمعها قال فيها انهُ يفرغ جهده في سبيل صيانة استقلال فرنسا . وكان مجلس المبعوثين في اضطراب وحيرة وهيجان بعيداً عن مراعاة الامور المعقولة عالماً بالقوة التي كانت لا تزال في يد الامبراطور فاجاب بما حسبهُ شروطاً مبنية على الاحترام . فقال لوفد الامبراطور ان الحرب التي وقعت فيها فرنسا بعد ان تخلصت منها تؤثر في الامة اكثر من تاثيرها في الامبراطور . فان الدول المتحدة اعلنت انها مسالمة لفرنسا محاربة لشخص الامبراطور نابوليون . وعلى ذلك تنجو فرنسا حالاً من بلاياها اذا اراد الامبراطور ان يضحي نفسهُ مرة اخرى ليخلص بلاده . فهذا الجواب الذي تضمن تحريك حب الوطن في الامبراطور فصل المسالة . فقابل الامبراطور وفد المجلس باحترام ووعد بان يجيب في الحال . وبعد ان خرج الوفد قال لاصدقائهِ لا اقدر على شيء وحدي . وقد جمعت المجلس العام بامل تقوية وسائلي باتحاده معي على ان انشقاقهُ سلب مني القوة القليلة التي لا تزال في يدي وقد قيل للامة انني علة ابعاد الصلح . والزمان قصير فلا اقدر ان اجعلها تقف على الحقيقة وقد طلب اليّ ان اضحي نفسي . فارضى بذلك فانني لم ادخل فرنسا لاهيج الانشقاق المحلي . ثم طلب الى لوسيان ان ياخذ قلمهُ واخذ يتمشى وكتب ما ياتي

ايها الفرنسويون . لما ابتدأت بالحرب لصيانة استقلال الامة اتكلت على الاتحاد في الاجتهاد والارادة وعلى موافقة جميع الذين في يدهم ازمة امور البلاد . ورأيت جميع الامور التي تعود بالفوز فلم أبالِ بما اعلنتهُ الدول ضدي . ولكن الظاهر ان الاحوال قد تغيرت فاجعل نفسي ضحية لاخماد غضب اعداء فرنسا . فياحبذا اذا صحت اعلاناتهم بالنظر اليها ولم يبدُ منهم كرهٌ لي . وقد

انتهت حياتي السياسية فأُعلن ان ابني هو امبراطور فرنسا ولقبهُ نابوليون الثاني . والوزراء الحاليون يكونون مجلس الحكومة الموقت . واهتمامي بابني يحملني على ان اطلب الى المجلسين بان يضعا نظام الوكالة التي تدير الامبراطورية عنهُ بدون تاخر . فلتتحد الجميع مراعاة للامنية العمومية ولاستقلال الامة

كتب في قصر الاليزي في ٢٢ حزيران ( جون ) سنة ١٨١٥ نابوليون

ولما سمع كارنو الشيخ الصادق قراءة هذه الورقة عرف انها تجعل فرنسا في يد اعدائها فتغلب الحزن عليهِ فغطى وجههُ بيدهِ واستخرط بالبكاء فاثر ذلك في نابوليون اشد تاثير فسار حالاً الى كارنو الذي كان من رجال السياسة ووضع يده على كتفهِ معزيًا وقال ياصديقي انني لم اعرفك حق المعرفة الا بعد فوات الفرصة

وقال الدوق دي كاتيا انني كنت من الذين ساقهم سوء حظهم الى الحضور عند اعتزال نابوليون المرة الثانية . وكتبهُ في وسط مجلس مشورتهِ بسكون كما كان يكتب على مرأى منا وهو في ارفع درجات قوتهِ . وكان اكثر اعتنائهِ باختيار عباراتهِ وتركيب جملهِ . وتليت الكتابة عليهِ عدة مرات وكان كل مرة يصلح شيئًا غير خطير . وبعد ذلك بعث بتلك الكتابة الى مجلس المبعوثين ثم دخل حجرتهُ . ورايتهُ انا والكونت موسن ثانية في المساء وكان ساكنًا كما في الصباح . وكان وداعهُ الاخير مؤثرًا يدل على حبهِ

واثرت قراءة هذه الورقة التي تدل على كرامتهِ تاثيرًا شديدًا في مجلس المبعوثين فتحركت الحمية في احشاء رينول لما عاين من عظمة الحال ما عاين وصعد على كرسي الخطاب ووصف المنافع التي جنتها فرنسا من اعمال نابوليون وصفًا موثرًا جدًا واتبع ذلك بوصف كرامة اخلاقهِ التي نشأ عنها اعتزالهُ فانهُ بذل نفسهُ بدون شرط وبدون المحافظة على حق في سبيل سعادة وطنهِ حال كونهِ عالمًا انهُ يلتزم ان يبيت منفيًا ولا يعلم في اي مكان يستقر ولا المتاعب التي يقع فيها . فبكا الاعضاء بكاء شديدًا كثيرًا والداعداء الامبراطور فابوا خجلاً وبعد ظهور هذه الاحزان صمت الجميع برهة بدون ان يسمع احد الا البكاء . فقرر المجلس باجماع بان يذهب وفد منهُ الى نابوليون ويبث بالنيابة عن الامة الفرنسوية قبولها بالشكر والثناء الضحية الكريمة التي بذلها في سبيل صيانة استقلال فرنسا وسعادتها . واشترك مجلس الاعيان مع مجلس المبعوثين بذلك

ولما خيم الظلام دخل الامبراطور المعتزل غرفتهُ وانفرد فيها فدخل عليهِ وفد المجلس وهو فيها فقابلهُ بكل اكرام وكان يسمع بكدر تهانيهم واجاب عليها قائلاً انني اشكركم على ما اعربتم عنهُ من الحاسيات المتعلقة بي . والمامول ان يأول اعتزالي الى سعادة فرنسا غير انني لا انتظر ذلك فانهُ ترك الدولة بدون راس وبدون رجل سياسي . والزمان الذي صرف في اسقاط الامبراطورية



ربما كان يستخدم في حالة تجعل فرنسا قادرة على سحق العدو . واشور على المجلس ان يبادر الى جمع الجيش فكل من يرغب في الصلح لابد من ان يتأهب للحرب . فلا تتركوا هذه الامة العظيمة عرضة لاغراض الاجانب واحذروا من ان تخدعكم امانتكم . ومهما كانت حالتي اكون مسرورًا اذا كانت فرنسا سعيدة . واُوصيها بابني والمامول ان لا تنسى بانني اعتزلت لهُ وقد اقمت بهذه التضحية مراعاة لخير الامة ولا تفوز فرنسا بالحرية والسعادة والاستقلال الا بدولتي

واصبح اليوم الثالث والعشرون وجيوش الدول المتحدة تزحف على باريس وفرنسا بدون رئيس ولا حكومة . ومجلس المبعوثين مولف من رجال لا اختبار لهم وتبع ذلك اضطراب يقصر القلم عن وصفهِ . واشير بكل شيء بدون ان يجري شيء . وكان نابوليون في قصر الاليزي كاحد الاهالي العائشين بسكينة يشعر بان القضاء قد طرحهُ فيما بات مطروحًا فيهِ بدون ان يكون قادرًا على التغلب عليهِ ولا ان يجعل لهُ ضابطًا وبات البوربون والاورليان والجمهوريون وحزب نابوليون في حيرة عظيمة واضطراب شديد . وهذا ما طالما رغب فيهِ البوربون الذين كان فوشه يدير امورهم . وكانوا يعلمون انهُ اذا استمر ذلك الاضطراب عدة ايام تتمكن الدول المتحدة من تسوية الامر بمنادقها . وقال نابوليون بكدر بالنظر الى ذلك ان هذا التصرف يمكن المبعوثين البوربون من ان يعودوا بسرعة فلا بد من ان يبكوا دمًا فانهم قد علقوا املهم بجعل الدوق دورليان ملكًا غير ان الانكليز لا يسمحون بذلك

وصارت المبادرة الى انشاء حكومة موقتة تحت رئاسة فوشه لادارة الامور . وكان خائنًا متعمدًا قلب الحكومة الامبراطورية وارجاع الحكومة البوربونية فكان يخابر الدوق ولنكتون قائد الجيوش الانكليزية ليسهل اسباب عودهم الى الملك وصار ارسال وفود الى معسكر الدول المتحدة لتبشرهم باعتزال نابوليون ورفع مضاره عن البلاد . وكان قد تمكن فوشه باغراء معاونهِ من التسود على جميع المبعوثين الذين لم يكونوا مختبرين الامور . اما الامبراطور فكان في قصر الاليزي محبوبًا من الشعب فكانوا يطوفون في شوارع القاعدة ضاجين فليعش الامبراطور . وكانت اقدام جمهور غفير جدًا مزدحمة في جوار القصر طالبين اليهِ ان يعدل عن الاعتزال ويسير في مقدمتهم لدفع جنود الدول المتحدة . وسار من ناحية سان اسطفان فرقتان من المتطوعة ومعهما جمهور لا يعد ولا يحصى الى ابواب الاليزي ودخل وفد على الامبراطور بالنيابة عن المتطوعين وقال مجلس المبعوثين الخائن صمم على بيع فرنسا الى البوربون وتوسل اليهِ ان يقبض على ازمة الامور كما صنع قبلاً . فقال انكم تذكرونني بما جرى قبلاً والظاهر انكم تنسون ان الاحوال متغيرة جدًا . الا تعلمون ان الامة كانت حينئذٍ راغبة كلها في تغيير حكومتها فكان من السهل اجراء ما نروم . اما الان فلا تنالون مرامكم الا باراقة انهار من دماء الفرنسويين وانا لا اُريق قطرة واحدة في سبيل

نفع شخصي . وكان الكونت مونثولون مع الامبراطور فكان يظهر اسفهُ من جرى تمنع الامبراطور عن اجابة طلب الاهالي والمبادرة الى تخليص فرنسا من الاعداء فسمع الامبراطور كلامهُ ثم قال اذا استخدمنا قوة العامة غير المرتبة تخلص باريس بدون ريب ويسلم التاج لي بدون الوقوع في بلايا حرب اهلية غير ان ذلك لايتم الا باهلاك الفرنسويين . فاية قوة نقدر ان نضبط رجالاً قد اختلفت اغراضهم وتحزباتهم وتباغضوا وتناظروا ورغب كل فريق منهم بان ينتقم من الفريق الاخر . فابين امرًا واحدًا وهو ان الامة جاءت بي من (كان) الى باريس وهي تصيح قائلة فليهلك الكهنة والامراء . انني افضل ان ارى فرنسا متاسفة على ان اكون لابسًا تاج امبراطوريتها

ولما راى فوشه واعوانهُ في مجلس المبعوثين ان الشعب يميل ذلك الميل الى الامبراطور ارتجفوا وباتوا يخافون ان يجيب طلب الشعب ويقاوم اعمالهم ويتغلب عليهم . وبات اصدقاء الامبراطور في وجل فانهم كانوا يسمعون انهُ قتل . وكان الجمهور المحيط بالقصر يزداد عددهُ وتشتد ضجاتهُ وتذمراتهُ . وفي مساء الخامس والعشرين من ذلك الشهر غيَّر نابوليون ملابسهُ وخرج خوفًا من نتائج حب الاهالي وليس بغضهم . وكان راكبًا عجلة لاكازا وسار بها الى قصر ماليزون . وقال لكولنكور قبل ان اخرج ابقَ في مكانك وافرغ جهدك في سبيل منع الضرر ويعاونك كارنو فانهُ رجل امين . وقد انتهت اموري فافرغا جهدكما في سبيل تخليص فرنسا فان ذلك خدمة لي فتشجع يا كولنكور فاذا امتنعت انت وغيرك من الرجال الامناء عن الاشتراك في سياسة البلاد يسلمها الخائن فوشه الى الاجانب

وكانت بنت زوجهِ جوزيفين الملكة هورتنس قد سبقتهُ الى ماليزون واخذت تنتظره فيهِ وكانت تمنع نفسها عن البكاء . وقال البارون فلوري عن ذلك انها كانت تبين لنا بحكمة الفلاسفة ووداعة الملائكة انهُ من الواجب علينا ان نتغلب على احزاننا ومصائبنا ونخضع انفسنا لقضاء الله . ودخل الامبراطور القصر واخذ يطوف في غرفهِ بحزن وسار في المحلات التي كانت محبوبة عنده لانها كانت تذكره بحب جوزفين زوجتهِ الاولى المتوفاة . وكان ساكتًا يعامل الجميع بحب ولطف . وقال ان كل شيء في هذا المكان يذكرني بامور مؤثرة فماليزون هو المكان الذي تملكتهُ قبل كل مكان واشتريتهُ بمال جمعتهُ بتعبي وكان مسكن السعادة لي . اما التي كانت افخر زينة فيهِ قد ماتت وكانت مصائبي علة وفاتها . ولم يخطر ببالي منذ عشر سنوات انني ابيت ملتزمًا بالالتجاء الى هذا المكان لاتخلص من مضطهديَّ . واخذ الامبراطور يتاهب ليخرج من فرنسا ويسير الى امركا . وكانت الحكومة الموقتة قد جمعت في باريس نحو ثمانين الف رجل وعلقت امالها بان هذه القوة المجموعة فيها تلزم الدول المتحدة بان تراعي ارادة فرنسا . اما نابوليون فلم يكن يصرف النظر



عن صالح فرنسا فنشر اعلان وداع محرضًا فيهِ الجنود على طاعة الحكومة الجديدة وصيانة ناموس الامة وهذا هو

ايها الجنود انني اطيع ضرورة الاحوال التي تبعدني عن الجيش الفرنسوي متحققًا بسرور انهُ يقوم بخدمة يحق للبلاد ان تنتظرها منهُ فيكتسب مدح نفس الاعداء . يا ايها الجنود انني اراقب اعمالكم وان كنت بعيدًا عنكم . وانا اعلم جميع الجيوش والفرق واذا فاز احدها على العدو ولو فوزًا واحدًا لانثنأ خر عن مدحهِ على الشجاعة التي ياتي بها المدح الذي يستحقهُ . وقد بتُّ انا واياكم موضوعًا للطعن والتنديد . فان رجالاً من الذين ليسوا باهل لادراك قدر اعمالكم كان حبكم لي علة حسدهم . فليظهر لكم نجاحكم الاستقبالي بان طاعتكم لي انما كانت عبارة عن خدمة البلاد وان علة حبكم لي انما هي محبتي الشديدة لفرنسا امنا اجمعين . ايها الجنود اجتهدوا مرات اخرى فينقض الاتحاد فيعرفكم نابوليون بجميلاتكم وفوزكم . فخلصوا ناموس فرنسا واستقلالها . وكونوا الى النهاية على ما عرفتكم عليهِ منذ عشرين سنة فلا تغلبون (الامضا) نابوليون

وعينت الحكومة الموقتة مرخصين وامرتهم بان يذهبوا الى اركان حرب الدول المتحدة ليخابروها بالصلح عند ولنكتون وبلوشار وان يجعلوا اساس مخابرتهم استقلال الاراضي الفرنسوية واخراج البوربون والاعتراف بنابوليون الثاني . ولم تكن هذه الاوامر الا ظاهرية لخدع الامة الفرنسوية . ولما ذهب المرخصون بعثت الحكومة المذكورة اكرامًا لنابوليون بوفد اليهِ ليخبره باوامر الحكومة الموقتة . فقال لهُ ان الدول المتحدة تهتم جدًا بالبوربون فلا تقبل بان تجعل ابني امبراطور فرنسا وسيملك فرنسا في الاستقبال . وقد تم قولهُ فان نابوليون الثالث ملك فرنسا

اما فوشه فلم يكن غير وكيل الملك لويس الثامن عشر والدوق ولنكتون لارجاع الدولة البوربونية . ويوم ارسال هولاء المرخصين بعث فوشه موسيو دي فيترول ليدعو لويس البوربوني الى العود الى فرنسا بسرعة . وقال لهُ انك ترى مركزي المحفوف بالصعوبة فانني قد صرفت الاشهر الثلثة الماضية معرضًا نفسي لخطر القتل كل يوم في سبيل صالح فرنسا ولويس . فالمجلس جعل نابوليون الثاني ملكًا وذلك تمهيدًا لرجوع البوربون . فان اسمهُ يسكن خواطر البسطاء الذين يتوهمون مثل كارنو رفيقي في المنصب ان امنية فرنسا وحريتها تتومان بهذه الالعوبة التي قال انها امبراطورية جمهورية تحت رئاسة ولد امسى اسيرا وربا . ولا بد ان تسمح لهم بان يعلقوا املهم بهذا الوهم عدة ايام . وان تحافظ عليهِ الى ان تتخلص من الامبراطور . وعند ذلك يسهل علينا ان نصرف النظر عن نابوليون الثاني والدوق اورليان

وكان بنجمان كونستان من المرخصين الذين مكنوا فوشه من خداعهم وقبل ان ذهب الى اركان حرب الدول المتحدة ذهب الى ماليزون ليودع الامبراطور . وقال لهُ في اثناء

الكلام الى اين تروم جلالتك ان تذهب ملتجئًا . قال بدون مبالاة ولا اهتمام انني لم اصمم بعد على الذهاب الى مكان دون اخر فلا ابغي الحرب وماذا يمنعني عن البقاء في هذا المكان ماذا تقدر الدول المتحدة ان تفعل برجل لاسلاح معهُ . فربما بقيت عائشًا في هذا المكان المنفرد مع بعض رجال من الذين يبقون صادقين حبًا بي وليس بسطوتي . فاذا كانت لاتروم ان ابقى هنا فالى اي مكان تروم ان اذهب هل الى انكلترا . الا تكون اقامتي فيها علة تعب دائم هل يصدق الناس انني اكون ساكنًا وانا فيها . ألا يكون ذلك علة وقوع الشبهة على جميع اصدقائي فكل ما لاح شراع يقال هوذا نابوليون راجع الى فرنسا . وربما اغراني قولهم بالعود اليها . فالاوفق ان اذهب الى امركا فانني اعيش فيها مكرمًا . غير انني لا ارى شيئًا يجعلني في خوف من البقاء هنا فاي ملك يقدر ان يضطهدني بدون ان تمس كرامتهُ . وقد ارجعت لاحد الملوك الذين حاربوني نصف الاملاك التي استوليت عليها بالسيف وطالما هنأ احدهم نفسهُ شادًا على يدي بانهُ صديق رجل عظيم . وسأتامل في هذه الامور ولست من الذين يحبون مقاومة القوة القاهرة . فجئت باريس لاجمع قواتنا الاخيرة فتركتُ بسهولة كما قبلتُ حين دخلت فرنسا . فاليوم تركوني ليخلصوا فرنسا وغدًا يتركونها ليخلصوا انفسهم . وقال يا هورتنس انني لا ارضى ابدًا بان أُسلم نفسي الى النمسافانها قد القت القبض على زوجتي وابني . واذا سلمت نفسي الى روسيا اسلم الى شخص واحد . لكن اذا سلمت الى انكلترا اسلم الى امة

وقال احد المرخصين أُهنيء جلالتك فان المرخصين قد أُمروا بعضد امبراطورية ابنك فقال ان الدول تهتم بالبوربون فلا ترضى بان تملك ابني . واكثر المرخصين اعداءي فاعداء الاب لايقدرون ان يكونوا اصدقاء الابن . ومع ذلك نرى المبعوثين يطيعون فوشه فلو فوضوني بما فوضوه لخلصت فرنسا فقيادتي للجيش تنفع اكثر من جميع مخابراتكم . وكان يفاوض اصدقاءهُ الامناء عن مكان سكنهِ ويقول انهُ متيقن بان يصبح معتبرًا عند الشعب الانكليزي . غير ان اصدقاءهُ كانوا يقولون لهُ انك لا تقدر ان تستأمن على نفسك اذا سلمت الى الحكومة الانكليزية قال انني اذهب الى الولايات المتحدة الامركية . وبعث اليهِ عدة من اعيان الامركان المقيمين في باريس بانهُ يفوز باحسن مقابلة عند الامة الامركية وحكومتها . وكان مجلس المبعوثين يلح عليهِ بالخروج من فرنسا بدعوى ان ذلك لازم لنجاح المخابرات الصلحية فاجاب انهُ على وشك الخروج بآل بيتهِ الى الولايات المتحدة الامركية اذا اعطى لهُ المجلس بارجتين . فامر ناظر الخارجية بتاهبهما . ولما كانت البوارج الانكليزية محدقة بثغور فرنسا من كل جهة طلب ذلك الوزير الى الدوق القائد الانكليزي بان يمنحهُ تذكرة مرور لعدم معارضة البارجتين المذكورتين . وكانت الحكومة الفرنسوية الموقتة تخاف ان ينهض الشعب طالبًا ارجاع امبراطوره المحبوب الى عرش الملك فبعثت بالجنرال



بكار الى مالميزون بقوة عسكرية مدعية انها حرس اكرام حال كونها حرسًا لمنع الامبراطور عن التصرف بحرية وجعلوا اسيرًا . فعرف نابوليون المقصود من ذلك على انهُ تجاهل واحتفل بالحراس المذكورين وقابلهم مقابلة اصدقاء . والقى ذلك الخوف والرعب في قلوب الذين كانوا في قصر مالميزون فانهم كانوا يعلمون انهُ ربما بات ماسورًا ثم يهان ويقتل . وكانت هورتنس تبكي والجنرال غورغود بات في هيجان عظيم وحلف بان يقتل كل من يتجرأ ان يلقي يده على سيده الامبراطور وكان الجنرال بكار زوج شقيقة الجنرال دسي الذي قتل في مارنغو يحب الامبراطور ويحترمهُ فمثل لديهِ باكيًا وانحنى احترامًا امام تلك القوة الادبية التي كانت لنابوليون ولم تكن تسقط بسقوطهِ وقال لهُ بتاكيد انهُ هو وجنوده خاضعون لاوامر سيده السابق فاخذ نابوليون يده وساريهِ الى جنات النصر وكان يتمشى معهُ فيها . وكان يروم ان يذهب بفروغ صبر فكتب الى الحكومة ان تسرع بتهيئة البارجتين . فاجاب فوشه ناظر الخارجية انهما متهيئتان غير ان تذاكر المرور المطلوبة من القائد الانكليزي كانت لاتزال ممنوعة وقال في كتابهِ انني لا اقدر ان اجلب اللوم على نفسي بالخروج عن سبل الحكمة خروجًا لابد من ان يدعى خيانة اذا أُسرت البارجتان حال كون الامبراطور فيهما . انتهى . اما الدوق ولنكتون الانكليزي فامتنع عن اعطاء تذكرة مرور وكثّرت الحكومة الانكليزية بوارجها لمنع خروج نابوليون من فرنسا . وفي مساء ٢٧ من الشهر المذكور بات فوشه ورفقاؤهُ في الوزارة في شاغل عظيم خوفًا من ان يساق نابوليون باليأس الى تقلد قيادة الاهالي المهيجين فيحارب بهم اعداءهُ فبعثوا اليهِ بان البارجتين قد تهيأتا وطلبوا اليهِ بان يركبهما ويخرج من فرنسا بدون تذكرة مرور . وبعد ذلك بساعة راوا ان جيوش الدول المتحدة اقتربت من مالميزون وان البوارج الانكليزية حرست الساحل بضبط فاتخذوا امرًا اخر مبطلاً للاول وضاعفوا عدد الجنود والحراس وامروا الجنرال بكار ان يذهب الى روشفور ليبقى فيها الى ان يتيسر الحصول على تذكرة مرور . وكانت البلاد التي كان ملتزمًا ان يمر فيها بلاد اصدقائهِ واحزابهِ غير انهُ لم يكن يرضى بان يهيجهم الى قتال لايكون سليم العاقبة . وكانت الحكومة الفرنسوية الموقتة عالمة انهُ قادر على تهييج الاهالي تهييجًا تعجز عن اخماد نيرانهِ فاتفقت الحكومة ونابوليون على ان يسافر متخفيًا وارسلت تذكرة مرور الى الجنرال بكار سمي نابوليون بها كاتب الجنرال فقال نابوليون لما راه الجنرال اياها انني كاتبك . قال الجنرال نعم ياسيدي غير انك في الحقيقة سيدي ومولاي وتبقى كذلك الى الممات . وكان الجنرال يتكلم بحزن وكدر عظيم

وكان جيش فرنسا مؤلفًا حينئذٍ من بقايا الجيش الذي قاتل في واترلو ومن جيش كروشي وكان يتقهقر ببطيء امام جيش ولنكتون الانكليزي وبلوشار البروسي وكان بينهما وبين قصر مالميزون يوم واحد . وكان كثيرون من القواد يرومون ان يتقلد نابوليون قيادة الجيش الفرنسوي

وان كان قليلاً ليصدم بهِ العدو . فبعث الجنرال اكسمان الكولونل سنسيار الى ماليزون ليلح على الامبراطور بالقيام بهذا المشروع المحفوف بالخطر العظيم وقال لهُ قل للامبراطور ان الجيش الشمالي لم يبدد شملهُ وهو كافٍ لان يكون نقطة اجتماع ما لا يزال باقياً من الحمية الفرنسوية والقوة العسكرية وان جيشاً كهذا الجيش تحت قيادة رجل كنابوليون يجعلنا نعلق الامل بالحصول على كل شيء .

وصرف نابوليون برهة قصيرة بعد ان سمع هذا الكلام يتمشى في مكتبهِ صامتاً غائصاً في بحر من التأمل ثم قال بسكون وثبات اشكر الجنرال بالنيابة عني وقل لهُ انني لا اقبل ما عرضهُ عليَّ فانهُ لا امل بالنجاح ما لم تتفق فرنسا قاطبة على عضدي وكل شيء بات بدون قرار وامسى الجميع لا يهتمون بهذه الامور فماذا افعل بجيش قليل واوربا كلها قد اتحدت عليَّ

وكانت الجيوش المتحدة قد بلغت كومبين التي تبعد يومين عن باريس وتقدم بعضها الى سنلي . وكان نابوليون وهو في جنينة ماليزون يسمع اصوات مدافعها فاهاج فيهِ ذلك نيران الحمية وظهرت فيهِ ادلة التهيج فدعا الجنرال بكار الى حجرتهِ وقال بكدر قد بلغ العدو كومبين وسنلي وغداً يكون عند ابواب باريس فلا اقدر ان ادرك اسباب عمى الحكومة والذي يرتاب في نوايا الدول المتحدة غير الجيدة جاهل او خائن . فاعضاء الحكومة لا يعرفون ماذا يفعلون وقد اضاعوا كل شيء ومن مقاصدي ان اطلب الى الحكومة الموقتة ان توجه اليَّ قيادة الجيش تحت ادارتها فاذا جعلتني قائداً تحت امرها فلا امتنع عن القيام بالقيادة فبلغها ذلك وقل لها بانني لست بناوٍ ان اعود الى عرش الامبراطورية على انني اروم ان احارب العدو وانتصر عليهِ فيقبل بشروط اوفق من الشروط التي يقبل بها الان وانعهد حالفاً بناموسي انني اخرج من فرنسا بعد الفوز بذلك .

فبلغ الجنرال بكار هذا الى الحكومة فسر كارنو وكان محباً لوطنهِ . اما فوشه الذي كاد يتحقق الناس انهُ خائن فقال ان نابوليون علة الحرب وان تقلده قيادة الجيش يغيظ الدول المتحدة فتصعب شروطها ثم انهُ اذا فاز يكون فوزهُ علة رجوعهِ الى العرش . وعلق نابوليون املهُ بان الحكومة تقبل ما عرضهُ . فهاجت حميتهُ عندما راى وطنهُ مذلولاً . اما بلوشار وولنكتون فكانا يسيران بلا تحفظ مفرقين جيوشهما لانهما لم يكونا يخشيان عدواً وكان نابوليون متيقناً انهُ اذا تقلد قيادة الجيش يلقي في قلبهِ الحمية فينتصر عليهما ويحوعار وانزلو . فتهيأ للقتال وامر بسرج افراسهِ وجمع معاوني حربهِ . وقبل هورتنس قبلة ابوية وداعية . وعند ذلك عاد الجنرال بكار وبلغهُ جواب الحكومة بلطف وثبات فراى انها قد امتنعت قطعياً عن قبول مساعدتهِ . فسمع نابوليون جوابها بدون اظهار كدر ثم قال لا بد من ان تندم على ذلك فاصدر امرهُ بالذهاب الى الساحل . وقال لموسيو بابانوسرًا ان هولاء القوم قد اعماهم حب التسلط فانهم يظنون انني اذا عدت الى العرش لا يكونون بالنسبة اليَّ الا كظلٍّ بالنسبة الى الحقيقة فجعلوا البلاد وجعلوني ضحية كبريائهم . فتقلدي القيادة



يلقي الحمية في قلوب العساكر ويلقي الخوف في قلوب الدول المتحدة فانها تتيقن انني اعود الى ميدان الحرب لانتصر او لاموت . واذا امتنعتم عن قبول مساعدتي تتسلط الدول عليكم وتلتزمون بان تخضعوا للملك لويس الثامن عشر . وتحقق اصابة ارائهِ فاشتدت حميتهُ فقال اوفق ما اقوم بهِ في سبيل خدمتكم وخدمة ابني ونفسي ان القي نفسي في احضان عساكري . وقال عن لجنة الحكومة الموقتة المؤلفة من خمسة اعضاء اذا لم يمكنني امبراطور وكم الخمسة من تخليص فرنسا فلا بد من الاستغناء عن رضاهم فمالي الا ان اظهر في باريس فيبادر الجيش الى قبولي ثانية كمخلص لهُ . فاجاب موسيو باسانو لا ريب عندي في ذلك غير ان مجلس المبعوثين يقاومك بل ربما كان يقرر انك اصبحت غير متمتع بحماية القوانين فاذا قام الجيش بعد ذلك باعمال الاسود وبات مغلوباً بالكثرة فماذا يطرأ على فرنسا وعلى جلالتك . فربما اساء العدو التصرف بعد النصر فيحدث ما يجعلك في ندم اذ انك تحسب نفسك علة خراب وطنك الابدي . فتامل الامبراطور بهذا الكلام برهة صامتاً مشتغلاً بالتفكر في الصوالح العظيمة التي تمسي عرضة للمخاطر ثم قال لقد اصبت فلا ينبغي ان احمل مسئولية امور عظيمة كهذه فلا بد من الانتظار الى ان يدعوني صوت الشعب والجيش ومجلس المبعوثين

وانقطع حديثهما بدخول البارون فلوري الذي اخبره بان جيوش الدول المتحدة تقترب بسرعة من باريس وانهُ بات في خطرٍ شخصي عظيم . فقال انني لا اخافها فاذهب في هذا الليل وقد ضجرت نفسي من باريس وفرنسا فتهيأ للذهاب حالاً . فقال لهُ البارون بتردد يا مولاي انني وعدت امس بالذهاب معك وكان ذلك ناشئاً عن حبي الشديد لجلالتك . فلما اخبرت والدتي بذلك توسلت اليَّ مشيرة الى شيبها ان لا اتركها وحدها ولها من السن الان ٧٤ سنة وقد عميت ومات جميع اخوتي وليس لها سند غيري فلم اقدر ان امتنع عن اجابة طلبها . فاجاب نابوليون بلا تردد لقد احسنت واصبت فان امك علة وجودك فابقَ معها واذا تمكنت في الاستقبال من ان تتبعني فلا تتأخر عن ذلك فانني اقابلك احسن مقابلة . فقال البارون الى اين تذهب جلالتك . فاجاب ان الطريق صعبة بدون ريب على ان الرياح وحسن الحظ ربما كانت تعاونني على النجاة . واذا فزت بذلك اذهب الى الولايات المتحدة فحكومتها تهبني ارضاً او اشتري ما يلزمني منها ونزرعها . فقال البارون هل يمكنك الانكليز من زرع اراضيك براحة وسلام الا تعلم انك ارعدت على انكلترا وابرقت فارتعدت فرائصها منك . ولا ريب في انها تخاف اقتدارك وتدابير عقلك مادمت في قيد الحياة . اما اهالي الولايات المتحدة الامركية فيحسبون ذلك عظيم نفوذ لهم وربما كنت تهيجهم الى ما يضر بانكلترا . قال نابوليون الى ماذا اهيجهم يا ترى الا يعلم الانكليز ان اهالي الولايات المتحدة يريقون اخر نقطة من دمهم في سبيل الدفاع عن وطنهم واراضيهم غير انهم لا يميلون الى القيام باعباء

الحروب الاجنبية ولم يدركوا الدرجة التي يبيت الانكليز في قلق من جرى بلوغهم اياها وربما اصبحوا المنتقمين منهم بحرًا بعد زمان ليس بيسير وكنت قادرًا على ان اجعل ذلك الزمان يسرع في التقدم غير انهُ لايزال في الحال بعيدًا فان الامركان يدنون من العظمة ببطء . فقال البارون اذا سلمنا انهم لايقدرون ان يلقوا الرعب في قلوب الانكليز في الحال فذهابك الى بلادهم ربما كان يجعل انكلترا تهيج اوربا الى مقاومتهم فانهُ مقرر ان الدول المتحدة لاتحسب اعمالها تامة ما لم تفز بالقاء القبض على جلالتك فلا بد من ان يلزموا الامركان بتسليمك لهم او اخراجك من بلادهم فقال نابوليون اذا حصل ذلك اذهب الى المكسيك ثم الى كاراكاس ثم الى بوينوس ايرس ثم الى كاليفورنيا وبالجملة اقول انني اذهب من ساحل الى ساحل الى ان اتمكن من ملجإ يحميني انتقام البشر فقال البارون هل تظن انك تقوى على التخلص من بوارج الانكليز وشراكهم . فقال اذا لم يتم لي ذلك ابيت في يدهم . فالحكومة الانكليزية خالية من كرامة الاخلاق الا ان الامة عظيمة كريمة الاخلاق فتعاملني المعاملة التي استحقها . فاذا لم اقم بذلك ماذا افعل فهل من الصواب ان يلقى عليَّ القبض كانني ولد بتدابير ولنكتون فيعظم شانهُ بي وفوزه في لندن وليس لي غير سبيل واحد وهو ان اخرج من ميدان العمل والنصيب ياتي بما يشاء . ومن المحقق انني اقدر ان اموت فاقول كانيبال دعني اخلصهم من الخوف الذي القيتهُ في قلوبهم . غير ان قتل النفس هو شأن اصحاب العقول الضعيفة والطباع السيئة . اما انا فمهما كان نصيبي لا افعل ما يعجل انقضاء اجلي طبيعيًا دقيقة واحدة

وكان بلوشار البربري يعيث في كل مكان اتاه ويقسم انهُ اذا تمكن من نابوليون يشنقهُ على مرأى من الجيشين . اما ولنكتون فكان يخجل من منال حليفهِ المذكور . واقام الجنرال بكار تدبيرات دفاعية في الطريق المؤدية الى مالميزون لوقاية الامبراطور من غائلة الكبسة وحدث بعد نصف الليل ببرهة قصيرة ان جاء بعض اصدقاء الامبراطور من باريس وقالوا ان الدول المتحدة امتنعت عن اعطاء حكومة فرنسا تذكرة المرور التي طلبتها لتمكن نابوليون من مزايلة البلاد وانهُ قد بات في خطر مبين فعليهِ بالهربة . ولم يتسنَّ لنابوليون وجود ملجإ في اوربا فانها كلها كانت مسلحة لمقاومتهِ وكانت انكلترا سادة طرق البحر باجمعها فلم يكن سبيل الى وصول البلدان في الجهة الاخرى من الاوقيانوس . والمظنون ان فوشه هو علة جميع هذه الارتباكات لانهُ كان ينوي تسليم نابوليون الى الدول المتحدة ضحية للانتقام . وتحقق نابوليون ان لا مفرَّ لهُ من مراقبات الانكليز بحرًا ولا تخلص لهُ من جيوش الدول المتحدة برًّا . فبات منحصرًا . وكان يعلق املهُ بانفتاح باب للنجاة على انهُ لم يكن يرى ما يدل على ذلك . واجاب الدوق اف ولنكتون القائد الانكليزي على طلب الحكومة الفرنسوية لجهة اعطاء تذكرة مرور لنابوليون بالايجاز حسب عادتهِ فقال ان حكومتهُ لم تفوضهُ بان يجيب بشيء على الطلب المتعلق باعطاء التذكرة المومأ اليها لبونابرت .



فسمع الامبراطور هذا الجواب بدون ان يبدو في وجههِ ما يدل على تاثيرهِ فيهِ وبدون ان يتلفظ بكلمة

## الفصل السادس والستون

وفي صباح التاسع والعشرون من شهر حزيران (جون) طلعت الشمس في فلك صاف وكانت البساتين واشجارها وازهارها مكسوة باجمل اثواب الطبيعة وكان نابوليون جالسًا في مكتبتهِ وقد انهكهُ التعب والحزن . وكانت هورتنس تظهر من الحب والحزن ما يحاكي ما كانت والدتها جوزفين الكريمة تظهره فكانت تقوم بكلما تقدر بنت صادقة محبة شفوقة ان تقوم بهِ وكان ورد خديها قد بدل بالاصفرار وفرح البكاء اجفانها . وكان في قصر مالميزون عدة من اتباع نابوليون الامنا وقد ظهرت اثار الكدر الشديد في وجوههم وكانوا قد صمموا على ان يشاركوا ذلك الصديق الذي كانوا يحبونهُ محبة والدية في مخاطره وضيقاتهِ . وكانت لوائح الكدر تلوح ايضًا على وجههِ وكان جالسًا عند مائدة يكتب باجتهاد وسرعة . وفي اثناء ذلك قيل لهُ جاء كولنكور وكان نابوليون يحب هذا الصديق الصادق اشد الحب ويتذكر من خداماتهِ الف خدمة يستدل بها على صداقتهِ وعدم مبالاتهِ بالمخاطر وهو يقوم بها . فلما دخل الحجرة التي كان فيها رفع نابوليون راسهُ وترك القلم وقال متبسمًا يا كولنكور ان هذا هو شرب كاس المصائب حتى ثمالتها . ولم ارغب في تاخير سفري الا بامل التمكن من المدافعة عن الوطن . وقد سئمت التملك وكرهتهُ فانني لست بملك لكنني لا ازال جنديًا . فعندما سمعت صوت المدافع وتاملت ان جنودي قد باتوا بدون قائد يحملون ذلَّ الانكسار بدون ان يحاربوا جرى الدم حارًّا في عروقي من الغيظ ولم اتمن الا ان افوز بموت مجيد بينهم . غير ان انضمامي اليهم يجعل مشروعات الخائنين تذهب سدًى فانهم قد باعوا فرنسا وقد سلمت الى العدو بدون ان تضرب ضربة واحدة للمدافعة عن ذمارها وقد الزم ٢٣ مليونًا من الرجال ان يحنوا رؤوسهم للمنتصرين المتعظمين بدون ان يدافعوهم . ولم نرَ في تواريخ الامم ما نراه في الحالة الحاضرة في فرنسا . وكان الامبراطور يتكلم ولوائح الغيظ تلوح على وجههِ فنهض متهيجًا واخذ يتمشى في الحجرة وظهرت حدتهُ وغيظهُ بسرعة كلماتهِ وحركاتهِ . وبعد ان صمت برهة قال لقد ضاع الشرف والكرامة وفوشه الدني يظن انني اعود الى الاستواء على عرش الامبراطورية بعد ان صرت الى هذا المصير الشنيع انني لا ارضى بذلك فان الجلوس على التخت بات غير ممكن . وقد ضجرت من الرجال والاحوال واستقبالي لا يهمني قط واعيش بدون ان اكون متعلقًا بالحياة . واتذكر من فرنسا ما يكون علة سعادة ايامي الباقية وشقائها . ولا انسى تاسفي المر مهما جرى في نهاية اعمالي الغريبة . فماذا يطرأ على جيشي الباسل العديم المثال الا يلزم بان

يحمل عواقب مدافعته عني مدافعة الاسود في واترلو . ويتذكر الانسان امورًا تتشعر منها الابدان حين التفظ كلمة واترلو . فيالينك رايت اولئك الابطال القليلين بعضهم ملاصق للبعض الاخر يدافعون جيوشًا جرارة من الاعداء ليس للمدافعة عن انفسهم لكن ليلاقوا الموت في ميادين حرب لم يقدروا ان يفوزوا فيها . فوقف الانكليز متعجبين عندما راوا من بسالتهم ما راوا ولما ضجروا من الفتك بهم طلبوا اليهم التسليم عالمين انهم ضحايا . فاجابوا على هذا الطلب بكلام عالٍ قائلين ان جيش الحرس الامبراطوري لا يسلم ابدًا لكنهُ يموت . فهذا الجيش قد خلد ذكر الامة الفرنسوية والامبراطورية

وعندما تذكر هذه الامور تغلبت عليهِ عواطفهُ فنصت ثم رفع عينيهِ وتفرس في كولنكور بحزن وقال انتم جميع الذين هنا ستمسون مضطهدين لانكم قد جاهرتم بصداقتي وخدمتموني بامانة فماذا يا ترى يحل بكم . يا كولنكور لقد انتهى كل شيء فلا بد من الفراق وبعد ايام قليلة اخرج من فرنسا الى الابد وسأُقيم في الولايات المتحدة الامركانية . وبعد برهة قصيرة يتهيأ المكان الذي اذهب اليهِ ببقايا الجيش المجيد فيكون ملجاءي ملجأً لجميع ارفاقي وربما انشأت فيها مستشفى لبقايا جيش الحرس الباسل

وعند ذلك سمع صوت افراس راكضة في فسحة القصر فتقدم الامبراطور من النافذة فراى مركبات قد حضرت لتذهب بهِ فتنهد واي تنهد وظهرت على وجههِ لوائح الاضطراب الشديد لحظة فدنا من كولنكور وامسك يدهُ وتفرس فيهِ صامتًا تفرس محب شفوق ولم يلبث على هذه الحال لحظة حتى تغلبت عواطفهُ عليهِ فملأت الدموع عينيهِ فمنعهُ الحزن عن التكلم فشدَّ على يد ذلك الصديق الامين وسار مكتفيًا بوداع خالٍ من الكلام . وقد قال كولنكور بهذا الشان انني لا احاول ان اصف حالياتي عندما ودعت الامبراطور الوداع الاخير فانني عرفت انهُ قد بات في منفى مؤبد فخرجت مسرعًا من الحجرة كمن قد امسى في نهج اليأس . ولم يبق لحياتي بعد ذلك اهمية ولا لذة فبت لا ابالي بالاضطهاد والانتقام وقابلت اضرار الاعدا باحتقار عدم المبالاة بها . ولا اتاسف الا من امر واحد وهو انني لا اعيش لاكمل العمل الذي يدعو اليهِ الضمير والعدل وهو العمل الذي ارغب في ان اصنعهُ لفرنسا . واستخدام الساعات القليلة التي سلبتها من يد الموت بوصف البطل الذي انزلهُ حزب ذو غرض عن العرش هو عندي من الفروض المقدسة التي يطلب اليَّ الوطن ان اقوم بها

ولا يقدر ان يصف صفات نابوليون العجيبة وصفًا صحيحًا الا الذين تمكنوا من ان يراقبوا اعمالهُ الخصوصية . وهم وحدهم يقدرون ان يذكروا الف شيء امتاز بهِ ذلك الرجل غير العادي فانهُ كان اعظم من بطل واعظم من امبراطور . ولا يقابل بملك اخر ولا برجل . وموتهُ ترك فراغًا في الطبع



البشري ربما كان لا يملاه ابدًا . والاجيال المستقبلة تنحني باحترام للزمان الذي تمتع بمجد نابوليون وستفتخر الامة الفرنسوية بعد قرون بذكر اعمالهِ العظيمة واسمهُ وحدهُ يكون مصحوبًا بالاستحسان الدائم والذكر الذي لا يموت

وكانت الملكة هورتنس غائصة في بحر من الحزن فقبلها مودعًا ثم ودع باقي الاصدقاء الوداع الاخير . وكانت جميع القلوب في حزن يفوق حزن البشر . وسار في طريق تلك الجنة الجميلة المزينة بالزهور والخضرة والاشجار وكان يسمع تغريدات الطيور وتذكر ساعات حظ كثيرة صرفها فيها مع محبوبتهِ الكريمة جوزفين فالتفت تكرارًا وهو سائر ليشاهد مرة اخيرة تلك المناظر الجميلة التي كانت تذكرهُ بالف امر . ولم يكن يخطر لهُ ببال ان كوخًا صغيرًا في جزيرة سانته هيلانة يكون سجنهُ وقبرهُ بجانبهِ . وعندما بلغ باب الجنة دخل مركبة بسيطة وجلس معهُ فيها الجنرال بكار والكونت برتران وسافاري . وسارت وراءها مركبات اخرى كثيرة كان فيها مادام برتران واولادها والكونت مونثولون وزوجتهُ وابنهُ ولاكازا وولدهُ وعدة من القواد الامناء الذين كانوا يرومون ان يشاركوا امبراطورهم المحبوب جدًا بنصيبهِ . وكان قد تقرر ان تسير هذه المركبات الى روشفور في طريق اخرى . واما الامبراطور وارفاقهُ فكانوا لابسين ملابس مسافرين اعتياديين والمسافة بين باريس وروشفور ثلاث مئة ميل . وكان اصدقاؤهُ يعلمون انهُ ربما حاول البعض قتلهُ في الطريق ولذلك تسلحوا بسلاح تام غير ظاهر للمدافعة الى النهاية . والقلم يعجز عن وصف كدر الجميع . وكان الامبراطور يسير بجلال وسكون فسارت المركبة بهم عدة ساعات بدون ان يفوه احد بكلمة واحدة . وبعد الظهر بعشر ساعات وصلوا رامبوليه وهي قلعة قديمة على ثلثين ميلاً من ماليزون . وصرف الامبراطور الليل فيها . وفي الغد وهو ٢٠ حزيران (جون) ساروا باكرًا وبعد ساعتين او ثلث ساعات بلغوا شاتورون . فبادر مامورو البوسطة الى الوقوف عند باب المركبة وسالوا هل قتل الامبراطور . وقبل ان اتموا سوالهم رأوهُ وعرفوهُ فتحيروا وارتبكوا ثم رفعوا اعينهم الى السماء وصفقوا بايديهم واذرفوا دمعًا غزيرًا ثم رجعوا وهم يبكون اشد البكاء . فتحركت عواطف الجميع بما راوا من حبهم . ثم ساروا ليلاً ونهارًا بسرعة دون ان يصادفوا معارضة فبلغوا طور عند الفجر في غرة تموز (جوليه) . ثم ساروا خمسين ميلاً فبلغوا بواتيه عند الظهيرة . وكانت الطرق كثيرة الغبار والحر شديدًا فدخل في مركز بوسطة صغير طلبًا للاستراحة وصرف فيهِ ساعتين وبعد الظهر بساعتين ركب المركبة هو وارفاقهُ وساروا الى نيور فبلغوها عندما اسدل الظلام استارهُ وصرفوا فيها يومًا فعرفهُ بعض اهلها وانتشر خبر وصولهِ اليها بسرعة . واخذ الاهالي يضجون في شوارعها فليعش الامبراطور واجتمع حالاً حول المنزل الذي كان فيهِ جمهور غفير ضاجين ضجات الصداقة والحب . وعرف نابوليون فيها ان البوارج الانكليزية كانت حاجزة

الطريق دون البارجتين اللتين هيأ تهما لهُ الحكومة . فبات في ارتباك عظيم وحيرة . فطلب اليهِ ضباط الجيش ان يتقلد قيادتهم قائلين لهُ ان جميع الجنود والاهالي يجتمعون اليك بصداقة لاتنقطع روابطها الا بالموت . وكان يعلم ان في إجابة طلبهم امل النجاة . فانهُ كان يسهل عليهِ ان يحرك نيران الحمية في قلوب الفرنسويين ويجمع جيشًا جرارًا لمقاومة الدول المتحدة لا يقدرون ان يتغلبوا عليهِ الا بعد اراقة دماء كثيرة ومرور زمان طويل وبذل ملايين من الليرات وخسارة عشرات الوف من الرجال . فهذا مع خوفهم من اقتداره العقلي وتدبيره يحملهم على مصالحتهِ بشروط تجعلهُ يستأمن على نفسهِ ويخرج من فرنسا خروجًا يليق بهِ . على انهُ كان يعلم ان امرًا كهذا يجعل انهارًا من الدم تجري في فرنسا . وكان قد قال تكرارًا انهُ لا يرضى بان يراق دم واحد في سبيل خدمتهِ الخصوصية . ولا نجد في التاريخ ما يدل على كرامة اخلاق كهذا العمل وكان لا يزال متحققًا انهُ اذا اتحد مجلس المبعوثين معهُ ومع فرنسا وبرزوا جميعًا بقوة عظيمة لمقاومة الدول المتحدة يفوزون بدفع جيوشهم وان كانت جرارة . فاخبر الجنرال بيكار الحكومة بان البوارج الانكليزية سدت طريق روشنور والجنود تطلب بالحاح الى الامبراطور ان يتقلد قيادتها لدفع الحاملين عن البلاد الفرنسوية وان البوارج الانكليزية اذا منعت البارجتين الفرنسويتين عن ولوج البحر ربما جُعل الامبراطور قائدًا ينتصر لوطنهِ . فاجاب فوشه ينبغي ان يخرج نابوليون من فرنسا بدون تاخير وعليك ان تجري جميع الوسائل الاجبارية لاخراجه بدون ان تقصر في اعتبارهِ ولا تقبل خدمتهُ مراعاةً للواجب علينا من جهة فرنسا والعهود المنعقدة بيننا وبين الدول الاجنبية . انتهى

وهذا يثبت ان فوشه حاول تسليم نابوليون الى الدول المتحدة لعلمهِ ان اوربا وان كانت متحدة لاتقوى على ابقاء البوربون على العرش ما دام شعب فرنسا يعتقد ان ارجاع نابوليون من الممكنات فصمم على تسليمهِ الى اعدائهِ . وكان يخشى ان ينفذ امره بالقاء القبض عليهِ قبل احاطة الجيوش المتحدة بباريس . فان الشعب المغتاظ لا يتأخر عن النهوض لتخليصهِ . وكان يدعي في اول الامر انهُ ينتظر ورود تذكرة المرور قائلاً ان إسر نابوليون يمس ناموس فرنسا فمنع سفر البارجتين قبل ان تحقق ان انكلترا بعثت قوة كافية لمنع مسيرهما . وكان يروم ان يجعل نابوليون يركب احداهما ليبعدهُ عن شعب فرنسا الذي يحبهُ محبة عظيمة ثم يمنع سير البارجة الى ان تتم احاطة البوارج الانكليزية بها . فالح على الجنرال بيكار بالزام الامبراطور بالسفر وكتب سرًّا الى القائد البحري في روشنور بان يمنع البوارج عن ذلك وقال في امره السري لا يمكن لبارجتانا السفر ما دامت بوارج العدو في موقفها الحالي . فالاوفق انتظار سنوح الفرصة الموافقة

وقال الدوق دي روفيجو ان الحكومة الموقتة الفرنسوية بعثت وكلاء الى الساحل واستعملت



الوسائل اللازمة لاسر الامبراطور او لاجراء ما يجعلهُ غير قادر على التخلص من يد الانكليز ليلقوا القبض عليهِ حين دخول الجنود الاجنبية باريس وتمنع كل المقاومة فيها حين يسمع اهلها بالقاء القبض عليهِ . وفي صباح الثالث من تموز (جوليه) دخل الامبراطور روشوفور . وكان في اثناء ملكهِ الاخير القصير قد فعل ما رقى راحة هذه المدينة وحسّن الامور الصحية فيها اكثر مما فعل سلفهُ من ملوك فرنسا مع انهُ كان محفوفًا بمخاطر جمة . فان اوامره جعلت جميع الاجام التي كانت حولها حقولاً خصبة مزروعة وصار انشاء اعمال خطيرة للمدافعة والتحسينات الداخلية . ولما مر بالقرب من الاجام اراها لارفاقهِ مصلحة وقال ان الاهالي يسرون باسباب الترقي التي منحتها لبلادهم فاينما سرت يباركني شعب شاكر

وكان لوصولهُ الى روشنور تاثير حسن في اهلها ونزل في دار الولاية فامتلأت فسحاتها بالاهالي المترحبين بهِ . وكانوا يضجون ويتهللون كل ما مثل لهم . وقال الدوق دي روفيجو الذي كان مع الامبراطور لقد ثبت عندي ان الاهالي جميعًا مشتركون معنا بالحاسيات . وكان في تلك الجهات الوف من الجنود وكانوا جميعًا يظهرون للامبراطور حاسيات الحب والاختصاص ورغبوا في ان يخدموه وبادر جميع القواد والضباط الذين كانوا في المحلات المجاورة لهُ على مسافة ثلاثين ميلاً الى المجيء اليهِ اظهارًا لاحترامهم لهُ . وكان نابوليون يرغب في ركوب البحر حالاً مركبًا في نجاتهِ من يد الانكليز الى حسن حظهِ ومدافع بارجتهِ . ولكن عرضت موانع كثيرة دونهُ ولم يعلم ان البارجتين تهيأتا في اليوم الثامن من ذلك الشهر . وكانتا من نوع الفرقاطة واسمهما «السال والمدوزة» وكانتا راسيتين في الجون واخبر فوشه الانكليز بان نابوليون مصمم على الخروج من تلك الجهات فضاعفوا عدد بوارجهم امام ذلك الساحل . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ودع الامبراطور اصدقاءهُ وداعًا موثرًا وركب قاربًا من قوارب «السال» وجمهور غفير من الاهالي يودعهُ بالدموع ويضج فليعش الامبراطور وكانت البارجتان بعيدتين عن الشاطي والرياح شديدة والامواج مرتفعة فسار نابوليون مودعًا شاطىء فرنسا المحبوبة عنده جدًّا بصمت وحزن . ولم تبلغ القوارب البارجة الا بعد الظهر بثماني ساعات ونام الامبراطور تلك الليلة في البارجة ووجدانهُ لم يسمح لهما بالخروج من الجون . فان فوشه قال ان الحكومة الانكليزية ترسل قريبًا تذاكر المرور ببارجة كانت قبالة روشنور . وكان الامبراطور معلقًا املهُ بالخروج من فرنسا بلا معارضة وظن ان اعداءهُ يرتضون بالضحايا التي قام بها وبذهابهِ متنحيًا الى العالم الجديد

وفي صباح التاسع من ذلك الشهر وصل الامبراطور جزيرة اكس ورست البارجتان قبالتها . فخرج جميع اهلها والملاحون والجنود للاحتفال بهِ ومزقوا اكباد الجو بضجاتهم . وكان نفيهُ كنوز غيره . فان الفرنسويين اظهروا لهُ حبهم الشديد وخضوعهم التام في الساعة الاخيرة من مكثهِ

في فرنسا وجاءهُ امير البحر لما عاد الى البارجة . وكانت الدول المتحدة قد دخلت باريس وكان فوشه يستعد لان يسلم سطوتهُ الى البوربون . واخبر رئيس البارجة ان ارجاع نابوليون الى اراضي فرنسا بحسب خيانة نقاص بالقتل وصرف الامبراطور اليوم العاشر من ذلك الشهر في البارجة متحيرًا لانهُ لم يكن يعلم اي راي ينبغي ان يتبع ليفوز بالنجاة . وقال لاكوزا انهُ كان مشغل البال والخاطر محدقة بهِ ومع ذلك كان ساكتًا لا يظهر ما يدل على اضطراب او خوف . وفي اليوم الحادي عشر من تموز (جوليه) ذهب الدوق دي روفيجو ولوكازا برابة متاركة الى قائد الاسطول الانكليزي ليسألاه هل يسمح للبارجتين المذكورتين اولمراكب غيرهما من المراكب الفرنسوية او المتحالفة ان تمر وهي حاملة الامبراطور وذاهبة الى الولايات المتحدة الامركانية وفي الساعة السابعة من الصباح وصلا الى البارجة بلروفون الانكليزية وكانت تحت قيادة الرئيس متلاند الذي كان يجول قبالة الجون . فقال ذلك الرئيس انهُ مامور بان يمسك كل مركب يحاول الخروج من الجون . وكان معهُ مركب اخر انكليزي يعاونهُ . ثم سالاه هل اذا عول الامبراطور على الذهاب الى انكلترا يقبلهُ في بارجتهِ هو والذين معهُ . فاجاب الرئيس بامانة انني اكتب حالاً الى امير البحر بهذا الشان فاذا جاء الامبراطور قبل ان يرد عليَّ الجواب وهذا يكون على مسئوليتي ولا اعاهده بشيء . ووعد بان يرسو بعد ذلك يومين عند ورود جواب من امير البحر . فلما سمع نابوليون هذا الجواب تامل فيهِ برهة ثم صمم على قطع النظر عن قوة الانكليز الغالبة وان يلاقي المخاطر بدون مبالاة محاولاً النجاة . فقال للدوق دي روفيجو اذهب الى رئيس البارجة واطلب اليهِ باسمي ان يقلع حالاً فاجاب الرئيس ان الحكومة منعتهُ عن ان يسافر اذا كانت البارجتان معرضتين لخطر ولو قليلاً . فقال الدوق دي روفيجو ان هذا خداع والحكومة تحاول ان تسلم الامبراطور الى العدو . فاجاب القبطان لا اعلم غير انني مامور بان لا اسافر . فلما سمع الامبراطور ذلك قال بسكون هذا خطر ببالي منذ البداية غير انني لم ارضَ بان اصدقهُ ولم يخل لي ان هذا الرئيس الذي تدل ظواهره على انهُ صالح يقدر ان يجعل نفسهُ آلة للقيام بخيانة كهذه

وعند وقوع نابوليون في هذا المشكل العظيم جاءهُ رئيس البارجة مدوزا بمشورة تدل على شجاعتهِ وحبهِ للامبراطور فانهُ صرف النظر عن صوالحهِ ووجه كل خاطرهِ الى جهة خدمة الامبراطور وتخليصهِ فقال لهُ ارجوك ان تسمح لي بان اسير مستترًا بظلام الليل ببارجتي واكبس البارجة بلروفون الانكليزية وهي راسية واحاربها عن قرب والصق بارجتي بها حال كونها حاملة ٦٠ مدفعًا فتقدر ان تحارب البارجة الانكليزية الحاملة ٧٤ مدفعًا ساعتين قبل ان تعطلها فالبارجة سال الفرنسوية تستغنم سنوح الفرصة وتسير بجلالتك والبارجة الانكليزية مشغلة بمحاربة البارجة مدوزا والسفينة الثانية الانكليزية لا تقدر ان تمنع مسير السال . وراى الامبراطور ان هذا يمكنهُ من



من الهرب ولو فاه بكلمة لطرح رئيس بارجة السال في البحر واصبحت بارجتهُ تحت رئاسة احد اصدقائهِ . على ان نابوليون كان بعيدًا عن ان يرضى بان يخلص حياتهُ بتضحية حياة غيره فشكر الرئيس على ما اظهر وامتنع عن تخليص نفسهُ باهلاك الاخرين

وكان في الجون مركب دانمركي اسمهُ البيادر سريع المسير فعرض على الامبراطور ان يحميهُ برايتهِ وقال لهُ لا ريب في اقتداري على النجاة من البوارج الانكليزية . وكان قد هيأ مكانًا سريًا ليختبي بهِ الامبراطور اذا فتش الانكليز المركب . وشرع عدة من الضباط البحريين الشبان في تهيئة مركبين صغيرين كسفن الصيادين يقدرون ان يسيروا بهما ليلاً بقرب الشاطي ليصير قطع محلات الخطر في البحر المحيط

وبعد التشاور والمفاوضة امتنع نابوليون عن قبول الرايين فانهُ لم يكن يرضى ان يفضل نفسهُ على اصدقائهِ وان يتمكن من النجاة ويتركهم لوقوع انتقام البوربون عليهم وكان يقول انهُ لا يليق بمن كان مثلهُ ان يحاول النجاة مختبئًا او متخفيًا . واجمع اكثر اصدقائهِ على انهُ اذا سلم نفسهُ الى الانكليز تقابلهُ الامة مقابلة حسنة جدًا . اما اخوهُ جوزف بونابرت فكان قد دبَّر ما حقق لهُ بلوغ الولايات المتحدة من بوردو وكان يشابه الامبراطور كل المشابهة فطلب اليهِ ان يسافر عوضًا عنهُ حال كونهِ يبقى في فرنسا . ولم يرضَ نابوليون ان يعرض اخاهُ لمخاطر من الواجب عليهِ ان يلاقيها بنفسهِ . وقال قوم ان من الصواب تجديد الحرب فان الجميع كانوا يعلمون انهُ اذا نزل الى الشاطىء يبادر الجيش والاهالي الى الانضمام اليهِ . فاجاب الامبراطور لا يكون للحرب الاهلية غير نتيجة واحدة وهي ان تجعلني كامبراطور في مركز اوفق من المركز الذي امسيت فيهِ فاحصل على شروط اكثر موافقة لشخصي فلا ارضى ان اعرض اصدقاءي وتابعي للهلاك لقيام صالحي الشخصي ولا ان اكون علة خراب الولايات فاحرم الحزب الوطني عضدهُ الحقيقي الذي يكون علة توطيد اركان الشرف الفرنسوي بعد برهة قصيرة او طويلة . فقد اعتزلت عن الامبراطورية فلا اطلب غير ملجإ ذي سكون

وفي الرابع عشر من شهر تموز (جوليه) بعث الامبراطور لوكازا وسافاري الى البارجة الانكليزية المذكورة فعادا وقالا للامبراطور ان رئيسها طلب اليهما ان يقولا لهُ انهُ قد فوض اليهِ قبولهُ في البارجة اذا كان قد صمم على الذهاب الى انكلترا ولذلك وضعها تحت امره . ولما بلغهُ هذا الخبر جمع اصحابهُ ليستشيرهم فقالوا جميعًا خلا قليلين انهُ من الصواب ان يركن الى ناموس انكلترا وكرامتها . وتفرد في الاعتراض على ذلك الجنرال غورغود والكونت مونشولون قائلين ان كرامة اخلاق الامة الانكليزية لا تؤثر غير قليل في الوزارة المولفة من الامراء وان حب اهالي انكلترا وايرلاندة لنابوليون من اعظم اسباب خوف حكومة انكلترا منهُ فاجاب الامبراطور لو رأيت بابًا لتخليص فرنسا لصرفت

النظر عن سلامتي الشخصية وحاولت اجراء ما يشابه رجوعي من جزيرة البا الى فرنسا . اما الان فلا اطلب غير سلامتي الشخصية فاذا كنت علة اطلاق رصاصة واحدة يستخدم ذلك لثلم صيني وقد عرض عليّ ان اسكن بسلام في انكلترا وانا لا اعرف وكيل الملك فيها غير ان ما اسمعهُ يحملني على الركون اليهِ فقد عولت على الذهاب الى انكلترا وساكتب اليهِ وغدًا عند الصباح نذهب الى البارجة الانكليزية . فاخذ يكتب بسرعة بدون ان يتاخر لحظة ليتامل في العبارات ولا للاتيان بالافكار فكتب رسالة باسم وكيل الملك الذي صار الملك جورج الرابع وهي بليغة موافقة للحال وهذه ترجمتها

ياصاحب السمو الملكي . قد بت عرضة للاحزاب الشاقة بلادي ولعدوان اعظم دول اوربا فانهيت اعمالي السياسية واتيت كتيموستوكل لاجلس بجانب نار الامة الانكليزية وقد وضعت نفسي تحت حماية قوانينها ونظاماتها واطلب تلك الحماية من سموكم اذ انكم اقوى اعدائي واثبتهم واكرمهم اخلاقًا . انتهى

وجرى ذلك في الساعة الرابعة من الرابع عشر من شهر تموز (جوليه) وارسل لوكازا وغورغود الى البارجة الانكليزية ليخبرا الرئيس بان الامبراطور ياتيها في الصباح وسلم الكتاب الذي باسم نائب ملك انكلترا الى الجنرال غورغود وبلغهُ الامبراطور التعليمات الاتية وهي ان معاوني غورغود يذهب مع الكونت دي لاكازا الى الاسطول الانكليزي ويذهب في المركب الذي يرسلهُ رئيس الاسطول الى امير البحر او الى لندن ويحاول ان يقابل وكيل ملك انكلترا وان يسلمهُ رسالتي فاذا كان لا سبيل الى الحصول على تذكرة مرور لاذهب الى امركا اروم ان اذهب الى انكلترا ولا اقبل تذاكر لمستعمرة انكليزية فاذا لم احصل على وسائط الذهاب الى امركا أُوثر انكلترا على كل مكان وسامي نفسي الكولونل مورون او ذوروك . فاذا كان لابد من ذهابي الى انكلترا اروم ان اسكن في بيت خارج المدينة يبعد ١٠ او ١٢ فرسخًا عن لندن وان اصل اليهِ بصورة شخصية واروم ان احصل على بيت كاف لي ولجميع اتباعي وان اتخلص من الذهاب الى لندن ولا بد من ان هذا الراي يوافق الحكومة الانكليزية . واذا ارادت الحكومة ان تقيم مأمورًا قريبًا مني ينبغي ان يرى غورغود ان هذا لا يكون عبارة عن وضعي تحت الحفظ وان يصير اختيار شخص من رتبة وصفات تزيل كل تصور غير موافق

وارسل الجنرال غورغود الى انكلترا غير انهُ لم يسمح لهُ بان ينزل الى البر فارسل الرسالة التي بيدهِ الى بلاط الملك . وفي الليل جاء نابوليون عدة من ضباط البحر الفرنسويين وتوسلوا اليهِ بان لا يركن الى الحكومة الانكليزية وقالوا لهُ انهم يكادون يكونون متيقنين انهم يقدرون ان يفوزوا بالنجاة بهِ بالمسير بقرب الشاطئ وقالوا بتوسل لا ينبغي بان تجعل نفسك في قبضة يد العدو فانهُ ما



من نفع في الاتكال على ناموسه وكرامة اخلاقهِ . وفي اثناء هذا الحديث جاء الجنرال بيكار بسرعة واخبرهم بان البوربون بعثوا بضباط الى روشفور ليلقوا القبض على الامبراطور . فلبس نابوليون ثيابهُ في الحال وعند الفجر ركب سفينة صغيرة لتذهب بهِ الى البارجة الانكليزية وكان معهُ من الضباط والخوانين والاولاد والحشم ٥٩ شخصًا . فقال لهُ الجنرال بيكار باسف لا مزيد عليهِ يامولاي هل ارافقك الى البارجة بلروفون . فاجاب نابوليون بما دل على كرامة اخلاقهِ ومراعاتهِ لحقوق الناموس فانهُ اجاب بسرعة لا . لانهُ ينبغي ان ننسى دواعي ناموس فرنسا . فاذا رافقتني اليها يظن انك سلمتني الى الانكليز . فانا اذهب الى بوارجهم من تلقاء نفسي فلا اروم ان اعرض فرنسا للاهتمام بخيانة كهذه الخيانة وكان هذا الجنرال كسائر الذين عرفوا الامبراطور معرفة حقيقية قريبة واصبحوا مقيدين بجواذبهِ الخارقة العادة التي تؤثر في جميع المقربين اليهِ . وكانت الحكومة الموقتة الفرنسوية قد ارسلت الجنرال ليكون جاسوسًا وسجانًا للامبراطور فحاول ان يجاوب غير ان الحزن والكدر كانا قد تغلبا عليهِ فلم يقدر ان يفوه بكلمة بل استخرط في البكاء . فامسك الامبراطور يده بلطف وقال قبلني ياجنرال فانني اشكرك على كل العناية التي بذلتها في سبيل خدمتي وانني متاسف لانني لم اعرفك قبل الان فلو عرفت حقيقة امرك وباطنك لجعلتك من المقربين اليّ فاستودعك الله . وكان البكاء متغلبًا على الجنرال بيكار فلم يقدر ان يجاوب الا جوابًا وجيزًا فقال يا مولاي استودعك الله واتمنى ان تكون اسعد منا

وعندما دنت السفينة الحاملة نابوليون وحشمهُ من البارجة الانكليزية وقف ملاحوها صفوفًا على ظهرها اعتبارًا لهُ ووقف القبطان متلان رئيسها والضباط عند مدخلها وقابلوه بالاحترام والاعتبار اللائقين بمركزه وعندما وضع رجلهُ في تلك البارجة قال ايها القبطان انني آتٍ بارجلك لاجعل نفسي تحت حماية القوانين الانكليزية فلم يجب القبطان الا بانحناء الراس ثم سار بالامبراطور الى حجرتهِ في البارجة وخصصها بهِ وقدم لهُ جميع ضباط البارجة . وفي اثناء ذلك رفعت مرساتها ونشرت شراعاتها وسارت قاصدة انكلترا . وقبل الغروب بدت البارجة الانكليزية المسماة سوبارب الحاملة ٧٤ مدفعًا واشارت الى البارجة الحاملة الامبراطور بان تلقي مرساتها لتقف عن المسير فجاء امير البحر الذي كان في السوبارب بارجة الامبراطور ليسلم عليهِ وكان قد دخل حجرتهُ . وبعد ان تقابلا طويلاً وتحدثا بصداقة وحب دعاه ليتناول الطعام صباحًا في البارجة سوبارب . ففي الصباح ذهب اليها وقوبل بالاعتبار اللائق بالملوك وكان امير البحر وجميع الضباط يبالغون في اكرامهِ ثم دعاهُ امير البحر ليذهب الى انكلترا على بارجتهِ لانها اكبر وفيها من اسباب الراحة ما ليس في البارجة التي كان فيها . فاجاب الامبراطور بلطفهِ الاعتيادي ان المسافة قصيرة وفضلاً عن ذلك لا احب ان اكدر القبطان متلان خاصة اذا كانت الظروف الحالية مما يأول

الى ترفيع درجتهِ . وعندما همَّ الامبراطور ان يخرج من البارجة التي كان فيها الى البارجة سوبارب ليتناول الطعام فيها صعدت المساكر على ظهر المركب احتفالاً بهِ . فوقف وطلب اليهم القيام بعدة حركات عسكرية باوامر صادرة منهُ . فراى ان حركاتهم تختلف بعض الاختلاف عن حركات الجنود الفرنسوية فدخل بينهم واماله بنادقهم وتناول بندقية احد الجنود وقام بتلك الحركات بنفسهِ وكان الضباط والملاحون ينظرون بتعجب لامزيد عليهِ الى ما كان يفعلهُ ذلك الامبراطور الجمهوري

وكانت الرياح خفيفة مضادة فصرفت البارجة بلروفون تسعة ايام قبل ان تمكنت من رمي مرساها في فرضة انكليزية . وكان الامبراطور يهتم بكل ما كان في البارجة ويبحث عنهُ فاكتسب حب جميع من فيها . وكان قد تخلص من احمال الادارة والحرب والامور السياسية فاصبح مسروراً مرتاحاً محباً للتكلم والضحك . وسرَّ جداً بما كان يرى في البارجة من ضبط الانتظام ولم يكن ينفك عن اظهار سروره بذلك . وقال ذات يوم انهُ لا يعجبني شيء قدر صمت الرجال وانتظامهم العظيم ففي البوارج الفرنسوية ترى الجميع يصدرون الاوامر بضجة كانهم من الأوز . وقد كتب احد ضباط تلك البارجة عن الامبراطور انهُ ترك في قلب كل رجل منا التاثيرات التي كان تركها في عقول الرجال وقلوبهم . ومن شانهِ ملاحظة كل شيء فهذا دليل على انهُ رجل خارق العادة . فترى عينيهِ في كل مكان تلاحظ الامور المهمة وغير المهمة فلاحظ جميع قوانين الخدمة العمومية من التي تتعلق بامير البحر الى اقل الملاحين ولاحظ الواجب عليهم واراءهم ومنتظراتهم ومعاشاتهم ورتبهم واسباب راحتهم . ودقق البحث عن الات البارجة وصواريها ومحلاتها وحبالها وكل شيء فيها ثم ان ما صادفهُ من حسن المعاملة في البارجة نفى كل شبهة وكان يسير الى انكلترا مرتاح البال معلقاً املهُ بامور حسنة غير منتظراً معاملة عدوانية . وكانت لوائح سكون البال تلوح على وجههِ فعزى بذلك ارفاقهُ الذين كانت الاكدار مالئة قلوبهم . وابان للقبطان متلان صور زوجتهِ وابنهِ وملأت الدموع عينيهِ . عندما قال بشفقة انهُ بات مفصولاً عنهما . وكان ضباط البارجة يخاطبون الامبراطور كما كان يخاطبهُ ارفاقهُ بقولهم لهُ يامولانا وجلالتك وكان كلما خرج الى ظهر المركب يرفع جميع الذين عليهِ برانيطهم . وفي ٢٥ من الشهر المذكور قبل الظهر بثلث ساعات رست البارجة في فرضة توربايي . وعندما عرف ان الامبراطور فيها اصبح الجون مغطى بقوارب فيها رجال ونساء من جميع الرتب خرجوا ليروا الرجل الذي كان قد ملأ العالم بشهرتهِ وباخبار عظيم فعالهِ . وخرج الامبراطور عدة مرات الى ظهر المركب ليرضيهم بتمكينهم من ان يروهُ . وكانت كل القلوب تميل اليهِ . وارسل صاحب مصيف جميل اليهِ هدية من اثمار مختلفة . وكانت النساء تلوّح بمناديلها علامة للميل اليهِ . وكان امير البحر كيش في بليموث



التي تبعد بضعة اميال عن توربي فكتب الى القبطان متلان ما معناهُ قل للامبراطور انني اعد نفسي سعيداً اذا عرفت انني اقدر ان اخدمهُ بشيء وانني افرغ جهدي في سبيل ارضائهِ واشكرهُ عن لساني على ما اظهر من كرم الاخلاق لقريبي الذي أُسر بعد ان جرح في معركة واترلو . وفي ليل ٢٥ رجعت البارجة الى المسير قاصدة بليموث وبلغتها الظهر من اليوم التابع وفي الحال راى نابوليون واعوانهُ ان معاملتهم تغيرت . وكانت لوائح الهمّ والحزن تلوح على وجه القبطان متلان . وجاءت عدة من البوارج المسلحة واحاطت ببارجتهِ كحراس ولم يكن يسمح لاحد بان يدنو منها بدون تذكرة من امير البحر واقيمت بارجتان بالقرب من بلروفون . ولو خافت الحكومة الانكليزية من ان يعصى الشعب الانكليزي ويجعل نابوليون ملكاً عليهِ لما اتخذت وسائل اشد من التي اتخذتها وكانت تنشر اشاعات في الجرائد وتدخل البارجة مآلها ان مجلس الوزراء كان يتذاكر بشأن تسليم نابوليون الى الملك لويس الثامن عشر لينتقم منهُ او ان تصير محاكمتهُ في مجلس حربي وقتلهُ باطلاق الرصاص او ان يرسل الى جزيرة سانته هيلانة المنفرة ليصرف حياتهُ فيها منفياً وكان الدوق ولنكتون اشد امراء انكلترا تعظماً وفعل فعل الادنياء لكرههِ نابوليون شخصياً . وقد قال الكونت مونثولون في كتاباتهِ ان ذلك الدوق كان يلح بان يحاكم الامبراطور ويقتل بالرصاص غير ان تظاهرات الدوق اف سوسكس اللطيفة القلبية حملت الحكومة على العدول عن قتلهِ الى الاهانة والنفي والحرمان تدريجاً عوضاً عن قتلهِ حالاً بالرصاص

وكان خروج القوارب الى مينا بليموث اكثر منهُ الى مينا توربي وكان فيها اناس من جميع الاماكن المجاورة ركبوها وخرجوا الى القرب من البارجة التي كان فيها نابوليون ليتفرجوا على ذلك الاسير المشهور . وكانوا يحبونهُ لعظمتهِ وشهرتهِ عالمين بانهُ محب للشعب فاحاطوا بالبارجة بقواربهم وكانت ضجاتهم متواصلة . ولم يصادف من الترحاب والتأمل في نفس بلاده وهو في ارفع درجات عزه ما صادفهُ في انكلترا فان وصولهُ اليها القى الهياج والحمية في قلوب الانكليز وصرفت الامة النظر عما كانت الوزارة تذيعهُ بشانهِ فان الجنود الانكليز الذين كانوا في حربهِ عادوا حاملين اوصاف كرامة اخلاقهِ وحبهُ للفقراء والمساكين والمظلومين وشفقتهِ على المصابين . واخبروا ابناء بلادهم ان نابوليون رجل الاهالي فمالوا طبعاً اليهِ وعظموهُ واحبوهُ . وكان الناس يتقاطرون الى بليموث من كل انحاء انكلترا . وكثيراً ما كان يحيط بالبارجة الف قارب في وقت واحد حال كون القوارب المسلحة للحراسة لم تكن تنقطع عن ان تسير حولها وكانت تطلق البنادق فقلبت قاربين غرق عدة من الذين كانوا فيهما ومع ذلك لم تكن تقدر ان تجعل قوارب المتفرجين تبقى بعيدة ٢٠٠ يرد عن البارجة وهذه هي المسافة التي عينتها الحكومة . واشتد هياج الانكليز وتعاظمت علامات الحمية فيهم حتى امست الحكومة في خوف من ان

يخلصوا نابوليون بالقوة الجبرية وان كان مسجونًا في بارجة عظيمة في نفس فرضة الانكليز . وقد قال السار ولترسكوت المؤرخ الانكليزي المبغض لنابوليون انهُ ارسلت بارجتان لتحرسا البارجة التي كان فيها وضوعف عدد الحراس ليلاً ونهارًا . اما نابوليون فكان ثابت العزم كثير التأمل صامتًا . اما اصدقاؤه فباتوا في خوف لامزيد عليهِ . وفي مساء ٢٠ من شهر تموز (جوليه) سنة ١٨١٥ جاء البارجة السار هنري نيبوري مستشار الخارجية مع امير البحر كيت وقرأ على الامبراطور القرار الظالم الاتية ترجمتهُ من ورقة بدون امضاء وهاكَ الترجمة

ربما كان موافقًا للجنرال بونابرت (اي الامبراطور نابوليون) ان يعلم في الحال نوايا الحكومة الانكليزية فعلى حضرتكم ان تبلغوه القرار الاتي

انهُ لايوافق الواجب علينا من جهة وطننا وحلفاء جلالة الملك ان يمكن الجنرال بونابرت من ان يجدد تكدير الراحة في اوربا . ولذلك من اللازم ان يمتنع عن التمتع بحريتهِ الشخصية على قدر ما يلزم لنوال الغاية المذكورة اعلاه . وقد عينت جزيرة سانته هيلانة مسكنًا لهُ فان هواءها طيب ومركزها يمكن من التساهل في معاملتهِ الشخصية اكثر من سائر المراكز لانهُ لابد من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لصيانة شخصهِ . انتهى .

ثم اخبراه بانهُ قد ترك لهُ اختيار طبيب وثلثة قواد خلا سافاري ولالبمند ليرافقاهُ وان يستصحب معهُ ١٢ خادمًا وهولاء يعاملون معاملة اسرى حرب . وان السار جورج كوكبورن يسافر بعد ايام قليلة ليذهب بهولاء الاسرى الى منفاهم . وصدرت الاوامر الى السار جورج المذكور بان لايعامل نابوليون معاملة امبراطور بل معاملة جنرال وامر بان يفحص كل شيء مع الامبراطور من الامتعة والخمر والمؤونة والفضة والنقود والجواهر والحوالات وان يحجزها اجمع ويسلمها الى الوزراء وان تكون فائدتها للقيام بمصاريفهِ في المنفى واخبرت الحكومة حشمهُ بانهم اذا شاءوا ان يرافقوه ينبغي ان يكونوا عرضة لما يرى لازمًا لصيانة شخصهِ من الهرب . وقال مستر بوسي ان هذه التدابير توسلت بها انكلترا لمنع اصدقائهِ عن مرافقتهِ الى منفاه خوفًا من المضايقة والمقاصة من جرى ذنوب غير ثابتة ومن مشقات حياة خاضعة لاصول المراقبة . فاذا كان هذا هو مقصود الحكومة فمن المحقق انها لم تفز بما ترغب فيهِ فان هذه المضايقات جعلت اعوان الامبراطور اشد تمسكًا بهِ ورغبة في مصاحبتهِ وخدمتهِ

وهكذا قد تبين ان الحكومة الانكليزية داست القانون الاساسي وصرفت النظر عن العدل والانصاف بحكمها على رجل اجنبي بالسجن حياتهُ بطولها بدون محاكمة بل بدون اقامة دعوى عليهِ . وكانت وزارة انكلترا عالمة بان هذا العمل مخالف للقوانين حتى انها لم تتجاسر على توقيع القرار



وسمع نابوليون هذا القرار الظالم البربري صامتًا بدون ان تظهر عليهِ ادلة القلق والاضطراب فانهُ كان قد تعود التسلط على عواطفهِ وحاسياتهِ حتى انهُ اجاب بلطف وجلال وسكون ورواق بما ترجمتهُ

انني ضيف انكلترا ولست اسيرها وقد جئتها من تلقاء نفسي لاكون تحت حماية قوانينها . وبالنظر الى معاملتي قد تعدت الحكومة الانكليزية قوانينها وقوانين الدول وفروض الضيافة فاقيم الحجة على عملها وارفع دعواي الى شرف الامة الانكليزية

وبعد ان ذهب مستشار الخارجية وامير البحر قال نابوليون لاصدقائهِ بكدر لامزيد عليهِ ان السجن في جزيرة سانته هيلانة تقشعر منهُ الابدان فان تقييد الانسان في جزيرة في المنطقة الحارة حياتهُ بطولها بعيدًا عن كل ارض منقطعًا عن مخابرات العالم وكل ما هو عزيز عندهُ منها اردأ من قنص تيمورلنك الحديدي . وافضل ان اسلم الى البوربون . والانكليز يدعونني جنرالاً وكان الاولى بهم ان يدعونني رئيس اساقفة فانني كنت رئيس الكنيسة كما كنت رئيس الجيش ولو سجنوني في قلعة لندن او في حصن اخر من حصونها لما تشكيت كما اتشكى الان وان كان هذا مما لم اكن انتظره من كرامة اخلاق الامة الانكليزية . لكن النفي الى جزيرة في المنطقة الحارة هو عبارة عن اصدار الحكم بقتلي في الحال ولا يقدر رجل تعوَّد ما تعودتهُ ان يعيش طويلاً في هواء كهذا الهواء

والظاهر ان تجلده وصبره ضعفا قليلاً على غير عادتهِ بعد ان سمع بحكم الحكومة الانكليزية فانهُ بات في يأس مخيف متحققًا انفصالهُ عن جميع اصدقائهِ وعن كل سعادة عالمية وانهُ سيلتزم بان يعيش طويلاً في جزيرة كصخرة قفرة في وسط الاوقيانوس حال كونهِ معذبًا مما يلحق بالذين تبعوه لصداقتهم . فاخذ يتمشى وظواهره تدل على انهُ في سكون غير ان اهتمامهُ موجه الى الذين معهُ توجهًا جعلهُ في ويل وبلاء . وكان يقول وهو يتمشى كمن لايشعر بنفسهِ هل من الموكد بانني ساذهب الى ذلك المنفى وهل يلتزم الانسان ان يبقى خاضعًا لغيره عندما يروم ان ينهي خضوعهُ . ثم نظر الى لاكازا وقال ياصديقي يخطر لي حينًا بعد حين ان اترككم وهذا ليس بصعب ويلزم لهُ اهاجة الحمية فاتخلص من هذا البلاء فتتمكنون انتم من العود الى عيالكم . فاعترض لاكازا على هذه الاشارة الى قتل النفس بحرارة وقال يامولاي اننا نعيش على ماضينا فان عندنا ما يكفينا لان يرضينا فنتمتع بحياة كحياة قيصر واسكندر وسيكون لنا اكثر منهما . فازال هذا الكلام كدر الامبراطور بالحال وقال فليكن كذلك اننا نشتغل بكتابة تاريخنا فلا بد من ان نشغل انفسنا فالشغل منجل الوقت فعلى الانسان ان يتمم ما اعدَّ لهُ فهذا هو التعليم العظيم المعول عليهِ عندي فلنتممهُ لانهُ حسن . وبعد ذلك عاد الى سكونهِ الطبيعي وبشاشتهِ المشهورة وانتقل الى حديث اخر

واصبح رجال البارجة الانكليزية جميعاً محبين لهُ من رئيسها الى اصغر الملاحين . فلما راوا المعاملة التي امسى ضيفهم العظيم عرضة لها تكدروا وخجلوا . ورغب كثيرون من وجوه لندن ان يقوموا بما يجعلهُ تحت حماية قانون انكلترا الاساسي ليخلصوه من الظلم الذي وقع فيهِ . اما رفاق الامبراطور الفرنسويون فباتوا في خوف عظيم عليهِ وكدر شديد لانهُ لم يكن يسمح الا لاربعة منهم بان يرافقوهُ الى جزيرة سانته هيلانة . وكان حبهم لهُ شديداً جداً حتى انهم كانوا جميعاً يرغبون الذهاب معهُ ليشاركوهُ في السجن الابدي . وقال لاكازا ان هذا الحكم كان مخيفاً ومع ذلك كل منا يتمنى ان يقع اختيار الامبراطور عليهِ ولم نكن نخشى غير امر واحد وهو ان لا نكون من المختارين لمصاحبتهِ

اما حكومة الانكليز فبانت في ارتباك عظيم عليهِ لعلمها انها قد ارتكبت ذنباً وجعلت مجلس المبعوثين يسنّ قانوناً مسوغاً لما فعلت بعد ان فعلتهُ بسنة واحدة . وقال المؤرخ ماكونتش الانكليزي مقابلاً ما حلّ بنابوليون وماري ملكة سكوتلاندة انهما لم يكونا من رعايا انكلترا ولا ارتكبا ذنباً في البلاد الانكليزية فلم يكن للقوانين الانكليزية نفوذ فيهما . فسجنهما لم يكن موافقاً لنصّ القوانين الدولية على انهُ اعتذر عن هذا الظلم بقولهِ ان الضرورة دعت اليهِ . ثم قال ان مجلس المبعوثين سنّ قانوناً جعل معاملة نابوليون قانونية . على ان وضع ذلك القانون بعد ان عومل نابوليون تلك المعاملة بسنة دليل صريح على ان معاملتهُ المذكورة كانت غير قانونية . وذكر في قرار المجلس ما ترجمتهُ ان من اللازم مراعاة لراحة اوربا والامنية العمومية ان يبقى نابوليون بونابرت مسجوناً وان يعامل معاملة اسير حرب . وهذا يدل بصراحة على انهُ لم يحق للحكومة ان تعاملهُ كذلك الا بعد ذلك القرار

وساقت كرامة الاخلاق جريدتين انكليزيتين مطبوعتين في لندن الى الانتصار لنابوليون بحمية وغيرة . وكانتا علة تذمر الاهالي من معاملة الحكومة لهُ . وكان عدد النوارب التي يركبها الناس ليدنوا من البارجة التي كان فيها يزداد يومياً حتى انها كانت تبعدها عنها باطلاق البنادق وكان كلما يبدو للمتفرجين فيها على ظهر المركب يضجون ضجّات التحية والاكرام . واخذ نابوليون يعلق املهُ بان راي الامة العام يتغلب على ظلم الحكومة ويجعلها تعدل عن انفاذ امرها

وعينت الحكومة البارجة المسماة نرثمبرلند الكائنة تحت قيادة امير البحر كوكبورن لتذهب بالامبراطور الى سانته هيلانة . وكانت في بورتسموث غير متأهبة لسفرة طويلة . وبات الوزراء في قلق من اشتداد ميل الاهالي الى نابوليون فافرغوا جهدهم في تعجيل سفره . وفي اثناء ذلك كتب الامبراطور مقيماً الحجة على الحكومة الانكليزية تابعاً راي احد الفقهاء الانكليز . قال

انني اقيم الحجة بهذه الكتابة على مشهد من الله والناس على التعدي الواقع عليّ والتعدي



على اقدس حقوقي بالتصرف بشخصي وحريتي . فانني اتيت البارجة بلروفون بارادتي فلست اسير انكلترا لكنني ضيفها واتيت مجيباً تشويقات رئيسها الذي قال لي انهُ حاصل على اوامر من حكومتهِ بان يقبلني في البارجة ويذهب بي وباعواني الى انكلترا اذا كان ذلك يوافقني . فاتيت لاجعل نفسي تحت حماية القوانين الانكليزية واصبح من حقوقي التمتع بضيافة الشعب الانكليزي منذ ركبت البارجة المذكورة . فاذا كانت الحكومة قد امرت رئيس تلك البارجة ان يقبلني فيها لايقاعي في حبائل دهائها تكون قد فعلت ما يشين ناموسها ويجلب عليها العار فاذا نفذ امرها يكون تكلم الانكليز عن خلوصهم وقوانين حريتهم باطلاً

انني ارفع دعواي الى التاريخ فيقول ان العدو الذي حارب انكلترا عشرين سنة اتى من تلقاء نفسهِ في ساعة الضيق ملتجئاً الى قوانينها . فاي شيء يدل على اعتباره وركونهِ اكثر من ذلك . فماذا اجابت انكلترا على هذا العمل . الجواب انها ادعت قبول العدو بكرامة فعندما سلم نفسهُ اليها بركون سجنتهُ

كتب في بلروفون في البحر في ٤ آب (اوغسطس) سنة ١٨١٥ (نابوليون)

وفي مساء الغد كان الامبراطور يتمشى ببطء على ظهر المركب ليحدّث لاكازا فاخرج من تحت ثوبهِ العقد الثمين الذي اعطتهُ اياه الملكة هورتنس واعطاه اياه بدون ان يقف وقال لهُ اعتنِ بهذا عني . ثم اخذ يتكلم عن امر اخر كانهُ لم ينقطع عن الحديث بشيء اخر

وعول بعض فقهاء انكلترا على القيام باحد امرين لتخليص نابوليون من يد الوزارة الظالمة وجعلهِ تحت حماية القوانين الانكليزية وارادوا ان يطلبوا نابوليون بناء على قانون الحرية الشخصية الانكليزية . وحاولوا ان يطلبوهُ ليشهد محاكمة خطيرة لاثبات حالة البوارج الفرنسوية . ولما حضر مامور المحكمة ليبلغ اللورد كيث الامر فعل ما جعل قارب المامور بعيداً عنهُ الى ان ركب قاربهُ ذا الاثني عشر مجذافاً وابتعد بهِ فطارده قارب المامور غير ان قاربهُ سبق وكان هذا سبب غيظ الانكليز

فلما رأت الحكومة من الاهالي انهم مصممون على تخليص اسيرهم من سجن مؤبد وموت يكاد يكون كالقتل امرت البارجة بان تبتعد حالاً وان تجول في البحر قبالة «ثوري» الى ان تنضم اليها البوارج التي امرت بمرافقتها الى الجزيرة . ومما يعظم الامة الانكليزية ان حكومتها الظالمة لم تكن تجسر ان تجعل المركب الحامل نابوليون يدخل مينا انكليزية اثناء ارتكابها ذلك الذنب العظيم وكان البحر في هيجان والريح شديدة ومع ذلك نشرت تلك البارجة شراعاتها وسارت في البحر بدون ان ترسو عدة ايام تتلاعب بها الامواج وتلقي في اضطراب جميع الذين فيها

واختار الامبراطور لمرافقتهِ المارشال برتران والكونت مونثولون والكونت لاكازا اما الجنرال

غورغود فوقع في يأس لان الامبراطور لم ياخذهُ معهُ وتوسل اليهِ ان يسمح لهُ بالذهاب وصرف النظر عن حصر عدد رفاقهِ في ثلثة ضباط وقالوا ان لاكازا كاتبهُ الخاص فتمكن غورغود من ان يشاركهُ في منفاهُ

وفي مساء السابع من الشهر المذكور بلغت البارجة نرثمبرلند مينا توريي ومعها بارجتان فجاء الاميرال كيث والاميرال كوكبورن البارجة بلروفون وكانت دلائل الخجل والارتباك تلوح على وجهيهما من جرى المامورية المعيبة التي فوض اليهما القيام بها . وكان الاميرال كيث من اهل التهذيب واللطف فاخبر الامبراطور بصوت مرتجف انهُ مامور بان يفتش الامتعة المختصة بهِ والذين معهُ وان يحجز كل المال الذي يجده . ثم قال ان الحكومة الانكليزية لا تروم ان تنهب ما للجنرال بونابرت لكنها تكون كوصي لصيانة مالهِ لئلا يبذره بمحاولة الهرب . وقد فوضتني بان اقول انهُ عند موت الجنرال بونابرت يصير التصرف بمالهِ بحسب وصيتهِ وستنفذ حرفيًا ثم امر الامبراطور واعوانهُ بان يسلموا سيوفهم واخبرهُ بانهُ اذا حاول الهرب يعرض نفسهُ للسجن . وبعد ذلك ببضعة اشهر قرر مجلس انكلترا العالي بان من يحاول تسهيل اسباب هربهِ من اعوانهِ يقاص بالقتل

وقام امير البحر كوكبورن بتفتيش امتعتهِ فامتنع الفرنسويون اعوان نابوليون عن ان يكونوا حاضرين عند اجراء امر معيب مهين كهذا الامر . وكان مارشان خادم الامبراطور الخصوصي يفتح الصناديق التي كانت معهُ فنتشت كلها حتى الكتان واخذ منها من النقود ما قيمتهُ نحو خمسة الاف ليرة ودفع منها نحو سبعمائة وخمسين ليرة الى الخادم المذكور ليكون تحت امر الامبراطور لمكافاة خدامهِ ولم يكن امير البحر يرضى ان يفتش جيوب الامبراطور وهكذا نجا بنحو اربعة ملايين فرنك جواهر واوراق مالية . ثم جاء امير البحر الحجرة التي كان الامبراطور فيها واقفًا عند نافذة ولوائح الكدر والسكون تلوح على وجههِ . وكان بجانبهِ لاكازا والكونت مونثولون والجنرال برتران والجنرال غورغود وقد اخذ الغيظ منهم كل مأخذ . فقال لهم اللورد كيث امير البحر بصوت مرتجف وحركات تدل على انهُ يقوم بما تشمئز منهُ نفسهُ ان انكلترا تطلب اليكم ان تسلموها سيوفكم . فهذا الطلب الغريب هاج الامبراطور فنظر الى امير البحر نظر الغضوب ووضع يده على قبضة سيفهِ وتترس فيهِ تترسًا لم يقدر يثبت امامهُ غير قليلين . فلم يقدر ان يثبت اللورد كيث على عملهِ الممقوت فانحنى راسهُ المكلل بشعر ابيض كالفضة وامتنع عن إهانة ذلك المنكود الحظ الرجل العظيم الساقط الذي كان واقفًا امامهُ . فانحنى كثيرًا وخرج متأثرًا جدًا بدون ان يفوه بكلمة واحدة . فجاء كاتبهُ وقال لهُ ان الوزارة امرت بصراحة بان يوخذ سيف نابوليون فنظر اليهِ امير البحر شذرًا وقال لهُ انتبه الى ما يطلب اليك ان تنتبه اليهِ . ثم دعا الامبراطور اليهِ رئيس البارجة متلان وقال لهُ لقد دعوتك اليَّ لاشكرك على عنايتك وحنوك لما كنت في البارجة بلروفون ولكي اطلب اليك ان تبلغ



تشكراتي الى ضباطها وملاحيها وقد قوبلت في انكلترا مقابلة لم اكن انتظرها وتيقنت انهُ لا ينبغي ان يحكم على صفات شعب بتصرفات حكومتهِ . واسرُّ بان اقول لك بتاكيد ان تصرفك بالنظر اليَّ انما هو تصرف رجل مهذب شريف

وودع نابوليون اصحابهُ الذين لم يسمح لهم بان يرافقوه بكدر عظيم . وكانوا حزانى وبكى كثيرون منهم بكاء شديدًا . وكان لاكازا قد هجر زوجتهُ واولادهُ ليذهب مع الامبراطور الى المنفى . فقال اللورد كيث امير البحر رأيت ان الذين يبكون هم الذين يبقون في فرنسا وقبَّل الامبراطور الجنرال لاليمان والدوق دي روفيجو بحسب العادة الفرنسوية اي باعتناقهما ووضع خده على خد كل منهما . وكان الامبراطور قد تجلد ومنع نفسهُ عن البكاء . غير ان الدموع كانت تتساقط غزيرة من اعينهما

اما الحكومة الفرنسوية فحرمت سافاري ولاليمان العفو الذي منح للامة كلها والحكومة الانكليزية منعتهما عن مرافقة نابوليون الى منفاه وهكذا بات هذان الرجلان الممتازان اللذان لم يكن لهما ذنب الا صداقتهما وامانتهما عرضة للقتل وامسيا بعد فراقهِ في مخاطر وضيقات محتملين الفقر والاضطهاد والنفي . اما بيونتوسكي البولوني الذي كان قد رقاه نابوليون فاخذ يتوسل الى اللورد كيث بالبكاء بان يسمح لهُ بان يتبع امبراطوره المحبوب جدًا

وكان مستر اوميارا طبيب البلروفون فاحب نابوليون جدًا وقبل ان يكون طبيبهُ . وقبل الظهر بساعة جاء قارب لينقل الامبراطور الى البارجة نرثمبرلند . ولما خرج الى ظهر البارجة سلم عليهِ العساكر بالسلاح وضرب الطبل ثلث دفعات وهذا سلام لقائد لا لامبراطور فكشف نابوليون راسهُ وقال يا ايها القبطان متلان انني استغنم سنوح هذه الفرصة الاخيرة لاكرر شكري على المعاملة التي عاملتني اياها وانا في البلروفون ثم التفت الى الضباط الذين كانوا واقفين بجانبهِ وقال باسادتي انني طلبت الى رئيسكم بان يشكركم عني على اعتنائكم بي و بالذين شاركوني في احوالي ثم تقدم الى باب المركب وقبل ان ينحدر انحنى مرتين او ثلث مرات مودعًا الملاحين المجتمعين . وتبعهُ الفواد الفرنسويون وزوجاتهم واللورد كيث . و بعد ان ابتعد القارب بضع اذرع عن المركب وقف ورفع برنيطتهُ وانحنى للضباط ثم للملاحين ثم جلس واخذ يحدث اللورد كيث بسكون تام ولطف واحترام

وكان مع الامبراطور الكونت مونثولون وزوجتهُ وولدهُ والكونت برتران وزوجتهُ واولاده الثلثة والبارون فورفد والكونت لاكازا والطبيب باري اوميارا وثلثة خدامين فمجموع الذين كانوا معهُ ٢٤ نفسًا

وامرت الحكومة الانكليزية السار جورج كوكبورن بجلاء بان لا يعامل نابوليون معاملة

امبراطور بل معاملة جنرال اي قائد فانها اصرّت على رأيها من جهة اختلاسهِ الملك وقالت ان الامة الفرنسوية التي جعلتهُ امبراطورًا عليها انما هي عاصية . فلما أُخبر قال فليدعوني باللقب الذي يوافقهم

وكان في البارجة نرثمبرلند اكثر من الف ملاح وعند اقتراب القارب الذي كان فيهِ منها شخصت ابصار جميع الذين فيها من ضباط ورجال في ذلك الرجل الذي اجمع اهل الدنيا على انهُ اعظم رجل واغرب مخلوق . وصمتوا جميعًا لما صعد على سلم البارجة ووقف على ظهرها . واجتمع ضباطها مكشوفي الرؤوس فرفع الامبراطور برنيطتهُ حين سلم عليهِ الجنود بالسلاح وضربت الطبول . وبعد ان كلم الذين كانوا قريبين منهُ بعض كلمات دخل غرفتهُ في البارجة

واعتناء الوزارة الانكليزية بمنع مخاطبتهِ كامبراطور من الامور المستغربة مع انهُ حكم قسمًا عظيمًا من اوربا واقام ملوكًا واعترفت جميع ملوك اواسط اوربا بانهُ امبراطور . وكان منزهًا عن امور طفيفة كهذه فعزم على ان يدعو نفسهُ الكولونل دوروك او الكولونل مورون على انهُ اغتاظ لما سمع ان الوزارة الانكليزية قالت ان الامة الفرنسوية عاصية ولا يحق لها ان تختار امبراطورها

ومن الامور التي تدعو الى التأسف الشديد ان الوزارة الانكليزية اضاعت سنوح فرصة حسنة لتزين التاريخ بذكر جميل ناشئ عن كرامة الاخلاق والشهامة . فلو اجابت رجاء نابوليون بعمل كريم لجعلت الناس ينسون اعمالاً كثيرة ارتكبتها ظلمًا . اما الان فما من صديق من اصدقاء انكلترا الذين تختلج شعائر الناموس في صدورهم يسمع الكلمات التي فاه بها نابوليون في جزيرة سانته هيلانة بدون ان يخجل

وهيأت الحكومة الانكليزية بارجتين كبيرتين وسبع سفن حربية فيها كلها جنود للذهاب مع نابوليون . وفي التاسع من آب (اوغسطوس) ذهبت جميع تلك المراكب حارسة رجلاً واحدًا الى سانته هيلانة . فما اعظم هذا الرجل واشد تسلطه على قلوب الناس في اوربا حتى انهُ ظهر لحكومة انكلترا ان الضرورة دعت الى ارسالهِ الى صخرة منفردة تبعد الفي ميل عن فرنسا ووضع جيش حول الكوخ الذي كان يسكنهُ وجعل البوارج تحيط بالجزيرة التي كان منفيًا فيها . ولا ريب في ان نابوليون تفرد بذروة المجد التي ادركها

وكانت هذه الامور تجري وبلوشار القائد البروسي وولنكتون القائد الانكليزي يتقدمان باجتهاد وسرعة الى باريس . وكان بلوشار كالبرابرة ينهب البلاد التي كان يمر بها ويخربها . والجنود الفرنسوية ضعفت عزائمها بخسارة امبراطورها فلم تكن ترضى ان تحارب عن الحكومة الفرنسوية الموقتة . وجرت مواقع قليلة دموية تبعها استسلام باريس وعسكر الانكليز والبروسيون



بفوز في المدينة وقصر التويلري وبستان الاليزي فأُذلت فرنسا فان الدول لم ترض بان تعفو عن ذنب حسبتهُ عظيمًا وهو اختيارها امبراطورها وامسى بلوشار سكران بخمرة الفوز وبخمر العنب فلم يمتنع عن ان يهدم بالبارود جسر جينا الجميل الا بعد عناء عظيم

وحدث بعد ذلك ببرهة قصيرة ان الامبراطورين والملوك المتحدين دخلوا باريس بجيوشهم الجرارة وقسموا املاك فرنسا دون شفقة وسلمت قلعها القديمة اليهم وسلبت من اللوفر جميع كنوز الصناعة التي كانت قد اخذتها من الامم التي تغلبت عليها بعد ان استفزتها الى محاربتها بعدوانها . والقت ضريبة عظيمة على عاتق الامة الفرنسوية ثلثمائة وسبعة ملايين وخمسمائة الف ريال فرنسوي وكل ريال خمسة فرنكات مقابلة للنفقات التي تكبدتها لسلب استقلالها ونزل مائة وخمسون الف رجل من عساكرها في القلع الفرنسوية عند الحدود والزمت الامة الفرنسوية بنفقاتها لابقائها ضمن ربقة الخضوع . وتبع هذه الامور الافتخارية عرض الجيش الروسي اجمع في حقل واحد . وكان هذا الجيش القادر مؤلفًا من مائة وستين الف جندي ومنهُ ٢٨ الف فارس ومعهُ خمسمائة واربعون مدفعًا . واجتمع كلهُ في سهل واحد متسع يبعد قليلاً عن شالون . وعند اطلاق مدفع واحد علامة ضجَّ كلهُ ثلث ضجات . فهذه الضجة العظيمة التي لم ينسها الذين سمعوها وقعت على اذان الفرنسويين المستعبدين ضجة موت وهلاك . وما كانت الا ضجة الظلم والاستبداد . وعند ذلك بات الجميع خلا قليلين من اتباع البوربون القلائل في اسف وندم لانهم لم يبقوا منضمين الى الامبراطور ويتبعوا مشوراتهُ المؤسسة على الحكمة ولم يكن سبيل الى النجاة من ذلك الويل الا باتباعها . وتبين حينئذٍ للجميع ان الحكومة الفريدة التي تقوى على دفع تعديات الدول والبوربون هي الحكومة المنظمة الحاذقة الحكيمة التي كان قد انشأها نابوليون على انهُ كان قد فات وقت الندم فان نابوليون بات ماسورًا في مركب انكليزي ذاهبًا الى سجن قاسٍ ظالم وامست فرنسا مقيدة الايدي والارجل متعبة منهكة لا تقدر ان تدافع عن حقوقها

وكتب في المعاهدة الباريسية ان لا يهان احد بسبب ارائهِ السياسية اثناء مائة يوم . وقرر ولنكتون وبلوشار المعاهدة المذكورة ونالت توقيع ملك انكلترا وملك بروسيا على ان الظاهر ان الدول المتحدة لم تكن تقوم بعهودها فانها نفت ٥٨ شخصًا وحكمت على ثلثة رجال بالقتل . ومن هولاء الثلثة المرشال ناي الذي تشيع للامبراطور مجذوبًا اليهِ بقوة ما وراء الطبيعة . ولو كان نابوليون صاحب السلطة لعفا عنهُ بكرامة اخلاقهِ فهذا المارشال الكريم الذي قاتل مائة مرة في سبيل خدمة فرنسا دون ان يحاربها مرة واحدة سيق الى حديقة الكزمبرغ ليطلق عليهِ الرصاص فيها كانهُ كلب . وكان ناي في تلك الايام المظلمة يعتبر الدين المسيحي كل الاعتبار . فدعا اليهِ كاهنًا وتناول القربان المقدس قائلاً انني ارغب في ان اموت موتًا يليق بمسيحي . ووقف منتصبًا في مكان يبعد

ة اقدام عن الجنود الذين امروا بقتلهِ ماسكًا برنيطتهُ في يدهِ اليسرى وواضعًا يمينهُ على قلبهِ . وتفرس دقيقة في البنادق اللامعة الموجهة اليهِ ثم قال بتأنٍ وسكون يا رفاقي اطلقوا الرصاص عليَّ فخرق قلبهُ بعشر رصاصات فوقع ميتًا . وكان من اشد البشر شفقة واكرمهم اخلاقًا واصدقهم واشدهم حبًا لوطنهِ . وكانت زوجتهُ قد جثت امام الملك لويس الثامن عشر متوسلة اليهِ ان يعفو عنهُ غير انهُ لم يجب التماسها . فلما سمعت بانهُ قتل اضطربت وبليت بعوارض عصبية فماتت بعد سني اوجاع وحزن عظيم ولا يعذر ولنكتون بل لابد من لومهِ لانهُ سمح بالتعدي على ناموس الامة . لان المعاهدة التي وضعتها الدول منحت لهُ العفو ولو كان مذنبًا سياسيًا . وقد لحق لوم الناس بولنكتون اكثر من لحوقهِ ببلوشار لانهُ لم يكن احد ينتظر غير اعمال بربرية من ذلك القائد البروسي ولسوء الحظ سمح دوق انكلترا المفتخر بان يظلم فكره بالبغض الناشيء عن الكره

وكتب الجنرال بارون دي جوسيني الذي ترك نابوليون وصار معاون الامبراطور اسكندر الروسي ما يطالع باللذة والرغبة فانهُ كلام عدو سياسي لم تنفَ من صدره كرامة الاخلاق قال قد خيل للناس انهُ لو سلم نابوليون نفسهُ الى امبراطور روسيا بمجيئهِ الى معسكره مركنًا الى كرامة اخلاقهِ لما عاملهُ كما عاملهُ الانكليز . والاجيال القادمة تحكم بالمعاملة التي وقعت عليهِ . وبعد ان بات ماسورًا في النصف الثاني من الكرة لم يبقَ عليهِ الا ان يدافع عن الصيت الذي كان التاريخ يعده لهُ وكان لايزال متوقفًا على التحزبات والاغراض . على ان الموت دهمهُ قبل ان اتم كتابة تاريخهِ فبقي ناقصًا ولا ريب في انهُ تاسف كثيرًا من جرى ذلك ولكنهُ يرتاح في قبره لان الكتّاب الذين هم كيكي لايقدرون ان يكسفوا شمس مجده فانهُ جمع بنصراتهِ في مونتينونت وكاستيلون واركولا وريفولي والاهرام ومارنغو وألم واوسترلتس وجينا وفردلند وابسنبورغ وراتسبون ووغرام وبوردينو وبوتزن ودرسدن وشان اوسبر ومونمرال ولبني من اكاليل المجد ما هو كافٍ لان ينسينا انكساره الفريد في واترلو . والقوانين المشهورة التي وضعها تزيد شرفهُ وفضله عند اهل القرون الآتية وما أنشاه في فرنسا وايطاليا يشهد بعظمتهِ لاهل القرون الاتية وان كانت بعيدة عنهُ . وقال اعداؤه منددين بهِ انهُ يميل الى الاستبداد كالشرقيين وقد وافقتهم على ذلك طويلاً . ولا ينبغي ان يحكم عليهِ من هذا الوجه غير رجال سياسة حقيقيين وما حسبهُ غير العارفين باسرار الامور ذنبًا ربما كان بحسبهُ العارفون بها من اعظم اعمالهِ الدالة على حكمتهِ العجيبة . ونرى بالاختبار ان الذي ادرك حقيقة صوالح فرنسا هو نابوليون لا الذين ضادوهُ . اما العارفون بالاحوال فلا ينفكون عن ان يقروا بفضلهِ



# الفصل السابع والستون

## وداع فرنسا

وفي ٩ آب (اوغسطوس) سنة ١٨١٥ سارت البارجة نرثمبرلند والبوارج المرافقة لها قاصدة سانته هيلانة . وكان هذا الاسطول مولفًا من عشرة مراكب . وعندما كانت هذه المراكب تخرج من المضيق وقف الامبراطور على ظهر النرثمبرلند واخذ ينظر الى جهة فرنسا المحبوبة باشتياق ليتزود منها نظرة اخيرة . ثم انقشع الغيم بغتة فبدت لديهِ فضج جميع الفرنسويين الذين في البارجة هوذا فرنسا . فتفرس صامتًا في الارض التي ملك عليها مدة طويلة بمجد عظيم ثم كشف راسهُ وانحنى امام جبالها الظاهرة وقال بتأثر عظيم يا ارض الشجعان انني احييك واودعك يا فرنسا استودعك الله . واثر هذا الكلام في جميع الحاضرين تاثيرًا عظيمًا حتى ان ضباط الانكليز تحركت عواطفهم بهذ الوداع الطبيعي المهم فكشفوا رؤوسهم محترمين كدر اسيرهم العالي الشان

وسلم الامبراطور نفسهُ الى نصيبهِ بصبر عظيم على ان اعتباره لنفسهِ كان يمنعهُ عن ان يقبل بان يدعوه وزراءه انكلترا مخلصًا وان يدعو الامة الفرنسوية عاصية . وكان يقاوم التعليمات المبنية على ذلك بتصرفهِ المحفوف بجلال دون ان يفوه بكلمة حتى حمل الجميع على الخضوع لهُ واعتباره وكان لتعقلهِ واعمالهِ تاثير عظيم يزيد كل يوم درجات احترامهِ . وكان ياكل وحده في الصباح في غرفتهِ ويصرف النهار الى الساعة الرابعة في القراءة او التكلم مع الذين كان يدعوهم اليهِ من رفاقهِ

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كان يلبس ثيابهُ منهيئًا لتناول الطعام ثم ياتي القاعة العمومية وكان غالبًا يلعب نصف ساعة بالشطرنج وكان امير البحر ياتي الساعة الخامسة ويدعوه ليتناول الطعام وكان الامبراطور متعودًا ان يتناول الطعام في ربع ساعة من جرى كثرة اشغالهِ . اما في البارجة فكان امير البحر يصرف اكثر من ساعة ثم يصرف ساعة او اكثر في شرب الخمر بعد الاكل وكان نابوليون يجلس الى النهاية اعتبارًا للذين معهُ وكان خادماه يقفان وراء كرسيهِ فيقومان بخدمتهِ ولم يكن ياكل غير قليل من ابسط الاطعمة دون ان يفوه بما يدل على استحسانهِ الطعام ولا عدم استحسانهِ لهُ وكان يخرج من قاعة الاكل في الساعة التي من عادة نساء انكلترا ان يخرجن منها اي عند نهاية تناول الطعام وعند خروجهِ كان جميع الحاضرين يقفون ويستمرون وقوفًا الى ما بعد خروجهِ فان اعتبارهم لهُ كان طبيعيًا لانهُ كان اعظم البشر وقد سلم نفسهُ بصبر جميل لامثيل لهُ لاعظم المصائب

وكان كل يوم يخرج معهُ احد اعوانهِ الى ظهر المركب فيتمشى عليهِ ساعة او ساعتين متكلمًا ببشاشة ولطف مع اصحابهِ وغيرهم من الذين كان يصادفهم . وكان يتكلم بحرية دون اخفاء شيء من اعمالهِ السابقة ويذكر حروبهُ وانتصاراتهُ وبلاياه . وكان يذكر ذلك دون ان يظهر اسفًا ولا غيظًا من الذين قاوموهُ . واستمرَّ على هذه الحال اثناء السفر بطولهِ اي عشرة اسابيع وقال لامرتين انهُ اكتسب حب الملاحين الانكليز بشهرة اسمهِ وبمقابلة اعمالهِ السالفة بامره بينهم وبسكونهِ وحرية خطابهِ ولطفهِ . فان الملاحين رأوا انهم قادرون ان يقتربوا من انوار المجد والعظمة المنبعثة من ذلك الاسير العظيم وهو بينهم . وهكذا كان المغلوب متسلطًا على غالبيهِ

وكان في تلك البارجة عدة من الايطاليان وبعض الانكليز الذين كانوا يتكلمون الفرنسوية بسهولة وكان يسر بان يدعوهم اليهِ ليترجموا كلامهُ . وفي ذات يوم راى ان ديدبان البارجة غير حاصل على الرتبة التي تسوغ لهُ ان يعاشر امير البحر كوكبورن واعوانهُ . فدعاه اليهِ وحدثهُ طويلاً وسر بحذقهِ وقال في ختام الكلام انني ادعوك لمناولة الطعام معي غدًا فتعجب واندهش وقال ان امير البحر ورئيس البارجة لا يسران بان يريا ديدبان المركب متناولاً الطعام معهما . فقال الامبراطور اذا كان ذلك لا يرضيهما افعل ما هو اعظم فتتناول الطعام معي في غرفتي . ولما قابل امير البحر الامبراطور وأُخبر بما جرى اجاب بكرامة اخلاق ان كل من يدعوه الجنرال بونابرت ليتشرف بمناولة الطعام معهُ يصبح بمجرد هذه الدعوة معفًى من محافظة جميع القوانين والعادات ثم دعا اليهِ ديدبان المركب وقال لهُ بتاكيد انهُ يترحب بهِ غدًا عند مناولة الطعام . فهذا العمل الذي كان من الامور العادية عند الامبراطور كان من غرائب الحوادث عند الانكليز فانتشر الخبر في البارجة بسرعة البرق وهكذا اصبح كل ملاح يعتقد ان بينهُ وبين الامبراطور علاقة . واضحى عساكر الفرقة الثالثة والخمسين الذين كانوا ذاهبين الى الجزيرة ليحرسوه فيها وكذا ملاحو البارجة محبين كانهم فرنسويون

وكان بعد ان يتمشى برهة على ظهر البارجة يجلس على مدفع سي بعد ذلك مدفع الامبراطور وكان كثيرًا ما يتحدث ببشاشة وهو جالس عليهِ ساعات . وكان يجتمع حولهُ على الدوام قوم يسمعون حديثهُ . وكان لاكازا يكتب هذه الاحاديث في كتاب . فعرف نابوليون بذلك فطلب اليهِ ان يريهُ الكتاب فقرأ بعضهُ ثم صمم على ان يجعل سلوانهُ اثناء السفر باخباره تاريخ حروبهِ

وفي ٧ تشرين الاول (اوكتوبر) لاقت البوارج الانكليزية بارجة فرنسوية . فسار اليها ضابط من ضباط البارجة نرثمبرلند وقال لرئيسها ان الامبراطور فيها وانهم ذاهبون بهِ الى سانته هيلانة فأُدهش الرئيس وقال بكدر انكم سرقتم كنزنا وابعدتم عنا الذي كان يعلم ان يسوسنا



بحسب ذوقنا وعاداتنا

وكان الامبراطور يصرف الاوقات بكتابة تاريخ حروبهِ . وقال لاكازا انهُ عندما كان يبتدي بالتلقين كان يتأمل بضع دقائق ثم ينهض ويتمشى ثم يشرع فيهِ . وكان يتكلم كانهُ موحى اليهِ فانهُ كان يذكر المحلات والتواريخ والعبارات التي كان يفوه بها دون تردد

وفي ١٥ تشرين الاول (اوكتوبر) عند نهاية الغسق صاح رجل كان واقفًا في اعلى الصاري هوذا اليابسة . ورأى عن بعد شيئًا كغيمة مظلمة معلقة كانها ستار موت في الافق البعيد فوق سجن الامبراطور القفر ومكان قبرهِ . وعند الظهر من الغد طرحت البارجة نرثمبرلند مرساتها في مرفإ جزيرة سانته هيلانة . وكان الامبراطور ينظر بنظارة الى تلك الصخرة التي كان المطر ينهمل عليها دون ان يتغير لون وجههِ . وكان يرى قممًا جرداء سوداء خالية من الخضرة تماس الغيم ورأى قرية في وادٍ . ورأى على كل صخرة مواقفة وعلى كل تل مدافع . وكان وصولهُ الى الجزيرة بعد خروجهِ من فرنسا بنحو مائة يوم وبعد خروجهِ من انكلترا بنحو سبعين يومًا . وكانت الوزارة الانكليزية قد امرت بان لا يسمح للامبراطور بدخول الجزيرة قبل ان تتم اسباب التحفظ على ان امير البحر كوكبورن امتنع عن ان يقوم بانفاذ امر بربري كهذا وقال للفرنسويين بسرور انهُ يحمل على عاتقهِ مسئولية ارسالهم جميعًا الى البرّ في الغد

اما جزيرة سانته هيلانة فهي صخور عديدة ملتحمة والظاهر انها دفعت من قاع البحر بنيران قلب الارض وتبعد عن اوربا ستة الاف ميل و ١٢٠٠ ميل عن افريقية . وهي عبارة عن صخرة مظلمة طولها عشرة اميال وعرضها ستة اميال في موقع حار بارزة من البحار كقلعة كبيرة ذات سور عظيم طبيعي وهو جبالها علوهُ من ستمائة الى الف ومائتي قدم وليس لهذه الجبال الشاهقة الا ثلثة ابواب منيعة تدنو المراكب بها من الجزيرة . وكان عدد سكانها حينئذٍ خمسمائة ونحو مائتي جندي وثلثمائة عبد . اما هواؤها فردئ ويكثر فيها مرض الكبد والاسهال . وقال متولون انهُ لم يبلغ فيها بشر سن الخمسين

وفي ١٥ تشرين الاول (اوكتوبر) بعد الظهر ركب نابوليون قاربًا هو وبعض ارفاقهِ وسير بهم الى الشاطئ . وقبل ان خرج من البارجة دعا اليهِ رئيسها وودعهُ باكرام وطلب اليهِ ان يشكر الضباط والملاحين عن لسانهِ . واجتمع كل الذين في المركب على ظهره وعند بابهِ ليشاهدوه مبارحًا لهُ . وبدت دموع الشفقة في اعين كثيرة لم تتعود البكا . وكان خروجهُ من المركب محزنًا لان القوم كانوا صامتين كالذين يشاهدون دفن ميت . وبعد غياب الشمس ببرهة قصيرة وصل الامبراطور قرية جيمستون في الجزيرة وسار في ازقتها المعوجة . واعدت لهُ فيها غرفة صغيرة لا اثاث فيها فاقام لهُ اصحابهُ سريرًا حديديًا وبسطوا عليهِ فراشًا

ووضعوا فيها اشياء قليلة احضروها من المركب . ووقف حراس ببنادقهم امام بابها ونوافذها . واجتمع كل اهالي القرية حول البيت ليروا ذلك الرجل الذي كان اسمهُ يلقي الرعب في قلوب دول اوربا الظالمة . وكن نابوليون صامتاً مستكناً حزيناً . وبعد برهة قصيرة صرف اعوانهُ واطفأ المصباح والقى بنفسهِ على الفراش للحصول على الراحة التي يقدر ان يحصل عليها من بات على ما بات فيهِ . فهذه هي الليلة الاول التي صرفها الامبراطور نابوليون الاول في جزيرة سانته هيلانة

وفي مكان يبعد ثلثة اميال عن قرية جيمستون شق متسع في الصخور مرتفع عن سطح البحر الف وخمسمائة قدم التي ليس فيها من الخضرة غير شيء قليل جداً واشجار قليلة من الصبغ وكان في هذا الشق كوخ كان مذوداً للبقر ثم اصلح قليلاً واستخدم للالتجاء من حر القرية المحرق . وتعين هذا المكان لسكن الامبراطور وكان منفصلاً عن منازل القرية وعن الاماكن التي تاتيها القوارب من الشاطىء . وقال امير البحر كوكبورن ان حاكم الجزيرة الانكليزي قال لهُ من المهم ان تبقى القوارب محجوبة عن نظره وكان امام ذلك البيت قطعة من الارض موافقة للرياضة

وفي ١٧ تشرين الاول ( اوكتوبر ) قبل الظهر بست ساعات ركب الامبراطور فرساً وسار معهُ امير البحر كوكبورن والجنرال برتران ليروا ذلك الشق المقفر . ولما تفرس بما أُعد لهُ انكسر قلبهُ غير انهُ تغلب على حزنهِ بصمت يليق بهِ . وكان ذلك البيت صغيراً متهدماً لا يصلح لسكن الامبراطور وارفاقهِ الا بعد ان يرمم شهراً او شهرين . وكتب امير البحر الى الحكومة الانكليزية ما ياتي

اقول بحزن انهُ بعد وصول الجنرال بونابرت الى هذا المكان تبين انهُ ضجر من نصيبهِ وقال انهُ غير مرتض بما اعد لهُ ولم يظهر منهُ ذلك من قبل كظهوره الان . وعندي ان السبب في ذلك تاثيرات اولية ناشئة عن منظر هذه الجزيرة القفرة وخلوها من اسباب اللهو التي تعودها هو ورفاقهُ . وكتب فضلاً عن ذلك ان القوة التي في يده من الرجال والبوارج غير كافية لصيانة الامير فطلب ارسال بارجتين

ولما رجع نابوليون بحزن شديد من لونغود متردداً عن سكن الحجرة الضيقة التي اعدت لهُ في جيمستون محاطاً بالحراس والذين كانوا يحيطون بهِ ليتفرجوا عليهِ راى منزلاً في مكان يسمى البرايرز فطلب ان يسمح لهُ بسكناه الى ان تهيأ لونغود . وكان في ذلك المنزل رجل صالح كريم اسمهُ مستر بالكوم ومعهُ عائلتهُ . وكان ذلك المنزل ذا طبقة واحدة فيهِ خمس غرف فقط ، فعرض ذلك المستر بلطف غرفة لسكناه . وكان في محل يبعد قليلاً عن هذا المنزل مصيف فيهِ غرفة واحدة سفلية وعليتان . ولم يرضَ نابوليون ان يضايق تلك العائلة . فاختار المصيف لسكناه . فارتضى امير البحر بان يسمح لهُ بالقيام بهِ فوضع سريره في الطبقة السفلى وسكنهُ شهرين



وكان ياكل وينام ويقرأ ويكتب فيهِ . اما لاكازا وابنهُ فسكنا احدى العليتين وسكن مارشان احد الخدم العلية الثانية . اما عائلة مستر بالكوم فكانت مؤلفة من زوجتهِ واربعة اولاد ذكرين وانثيين . وكتبت احداها وهي التي اقترنت بمستر ابل تاريخاً لذيذاً محتوياً على الحديث الذي كان يجري بينها وبين الامبراطور . قالت توهمت في بادي الامر وانا صغيرة السن ان نابوليون جبار ضخم الجثة عات ذو عين واحدة نارية في وسط جبههِ واسنان طويلة بارزة من فمهِ يمزق بهن البنات اللواتي يسئن التصرف ويبتلعهن ولما كبرت ضعف هذا الوهم على ان خوفي منهُ لم يضعف فانني كنت لا ازال اتصوره مخيفاً عاتياً ظالماً سفاكاً للدماء . فانني سمعت الناس ينسبون اليهِ اعظم الاثام فاعتبرتهُ بشراً وتوهمتهُ اشر الناس وارداهم . وكان كثيرون من الذين كانوا اكبر مني سناً واحكم مثلي من هذا القبيل ولا ابالغ اذا قلت ان اكثرية الامة الانكليزية كانت مثلي لان الجرائد كانت تصفهُ كابليس وكان جميع ابناء وطنهِ الذين كانوا في انكلترا من الداعدائهِ ولم نكن نسمع عنهُ شيئاً الا منهم ومن الجرائد المذكورة وبنينا اراءنا من جهتهِ على اقوالهم . ولا ازال اتذكر خوفي منهُ كانني لا ازال خائفة اما الان فهذه الذكرى مختلطة باعتباري لهُ واحترامي واذا تصورتهُ راكباً وحسبتهُ اطول قليلاً مما هو انصور منظراً ذا جلال ليس منهُ في الدنيا . وكان اصفرار ونهِ كاصفرار الموتى وحكمت بانهُ جميل جداً وان كانت لوائح ثبات العزم والجد وعدم المبالاة تلوح على وجههِ وجلس على كرسي من كراسي بيتنا وبعد ان نظر الى ما حولهُ بعين ثابتة كعين النسر هنأ امي على مركزيتها الجميل ولما تكلم ازال تبسمهُ الجاذب ولطفهُ العظيم خوفاً كان قد ملأ قلبي وكان خالياً من التكلف والتصنع شفوقاً لطيفاً اصبحت بعد مجيئهِ بعدة ايام في راحة واطمئنان في عشرتهِ وصرت احسبهُ رفيقاً لي كأنهُ من سني لا بطلاً عظيماً قادراً كان العالم يهتز عند ذكر اسمهِ . ولم اجتمع بانسان يحتمل اثقال الاولاد مثلهُ وكان كأنهُ يشارك الولد قلبياً بفرحهِ وسروره ولعبهِ وكثيراً ما كنت اضايقهُ ومع ذلك لا اتذكر انهُ فرغ صبره مرة فابدى ضجراً او غيظاً او تحكماً بل كان يلاعبني كولد صغير . وكنت احبهُ فعلاً كاخ او رفيق من سني وكنت وانا بعيدة عنهُ اصمم على ان اعاملهُ باعتبار واحترام غير ان هذا التصميم كان يزول دفعة واحدة حين اقترب منهُ واري تبسمهُ واسمع ضحكهُ

وكان الامبراطور يسر جداً بملاعبة اولاد ذلك المستر وكان يريهم الامور التي كان يحفظها كذكرى محبوبة عندهُ . ومنها صورة ابنهِ المحبوب جداً عندهُ مشخصة وهو راكع يصلي وكتب تحتها اني اصلي الى الله ليحفظ ابي وامي ووطني

وفي اول السهرة كان نابوليون يذهب الى غرفتهِ التي كادت تكون خالية من الاثاث وكان لها بابان احدهما مقابل للاخر ونافذتان احداهما مقابلة للاخرى . ولم يكن لها اقفال ولا

ستارات . وادخل اليها كرسيًا او كرسيين ووضع سريره فيها . وبعد ذلك خيم الظلام عليهِ في ذلك المحل المنفرد وهواء الليل الرطب يدخل من النافذة القريبة من سريره . وحاول لاكازا ان يسد شقوقها لمنع دخول الهواء وبعد ان اتم ذلك صعد هو وابنهُ الى العلية وكانت مساحتها سبع اقدام مربعة فقط . اما الخادمان فالتفا بعباءتيهما وناما على الارض امام البابين . ونام ضابط انكليزي في بيت مستر بالكوم واقيم جنود حراس حول ذلك المكان لمنع هرب الامبراطور فصرف نابوليون الليلة الاولى على هذه الحال في برايرز

وفي ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) تناول الامبراطور الطعام على مائدة بلا غطا وصحون وكان من بقايا طعام اليوم السابق . ورتب معيشتهُ كما في البارجة وكان في كل ساعة يقوم بعمل مخصوص فكان يقرأ ويكتب ويكلم ارفاقهُ الفرنسويين الذين كان يسمح لهم جميعًا بان يقابلوهُ كل يوم واعتصم بالصبر محتملاً اسرهُ كانهُ متسلط على نفسهِ فكان بشوشًا يحتمل الاهانات التي لحقت بهِ والمضايقات الشديدة

وفي ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) دعا ابن لاكازا الى مناولة الطعام معهُ وكان عمرهُ نحو اربع عشرة سنة . وكان يجيب على سؤالاتهِ المتعلقة بدروسهِ وتعليمهِ بحذق فالتفت نابوليون الى والدهِ وقال ما احذق هذا الجيل القائم بعدي ان هذا من عملي واهلية الفتيان الفرنسويين انتقام كاف لاعدائي . فالذين يرون العمل يقرون بفضل العامل ويسقط تنديد المندد بن باعمالي . فلو لم اهتم الا بنفسي ووجهت خاطري الى صيانة سلطتي لخبأت العلم على انني وجهت كل قوتي الى نشر المعارف واذاعتها لكن لم يتمتع فتيان فرنسا بكل المنافع التي كنت مصممًا على ان اجعلهم يتمتعون بها

اما المدرسة العالية التي عقدت النية على انشائها فكانت ذات ترتيب وانتظام لامثيل لها ولو تمت لجاءت بفوائد عظيمة

وفي ٢٤ تشرين الاول (اوكتوبر) اجتمع اصحاب الامبراطور حولهُ واخذ كل منهم يعزي الاخر بذكر المضايقات العنيفة التي كان يصادفها . وقال لاكازا ان الامبراطور نابوليون الذي كان قبل وصولهِ الى الجزيرة بايام قليلة ذا سلطة لاحدود لها يتصرف بالممالك والملوك امسى ساكنًا في كوخ وعلى مساحة بضع اقدام مربعة مبني على صخر لا اساس كاف فيهِ ونوافذهُ بدون اقفال ولا ستائر . وكان ذلك الكوخ المنامة وللبس اثوابهِ والاكل والقراءة والكتابة والجلوس وكان يخرج منهُ حين كان الخدم يشتغلون بتنظيفهِ . وكان اكلهُ غير المتقن بل الدني يرسل اليهِ من محل بعيد كانهُ مذنب في سجن . وامسى في احتياج كلي الى الامور الضرورية للمعيشة . ولم يكن الخبز والخمر مما تعودنا اكلهُ وشربهُ وكانا دنيئين قذرين فلم ناكل ونشرب منهما الا في النادر اما الماء والقهوة والسمن



والزيت فقلما كنا نحصل عليها وعند الحصول عليها كانت دنية لا تصلح للشرب ولا للاكل . ولم يحصل على اناء للاستحمام مع انهُ كان محتاجًا اليهِ . وحرم منافع التنزه راكبًا وبات واصدقاؤهُ وخدمهُ في مكان يبعد عنهُ ميلين لا يسمح لهم بان يقتربوا منهُ دون ان يرافقهم جندي . وكانوا يلتزمون ان يصرفوا الليل في مركز الضابطة اذا عادوا بعد الساعة المعينة او اذا وقع غلط في كلمة المرور وكان يقع ذلك في اكثر الايام . وهكذا امسينا في قمة هذا الصخر المخيف العالي عرضة لقساوة الهواء والبشر

وامتنع الامبراطور عن التذمر من هذه المعاملة القاسية ولكن لما سمع تشكيات اعوانهِ واصحابهِ تحرك فيهِ الغيظ وقال ما هذه المعاملة المعيبة ليست الا عذاب كعذاب النزع . وقد اضافوا الى الظلم العذاب المستطيل والاهانة . فاذا كنت مكروهًا عندهم فماذا منعهم عن ان يتخلصوا ببضع رصاصات في القلب او الراس تقوم بالعمل وقتلي اقدام اكثر من هذا وان كان اثمًا مثلهُ ولولا مراعاة احوالكم بل احوال زوجاتكم لما قبلت منهم غير معاش جندي . وكيف تسمح ملوك اوربا بان تهان الملكية باهانتي . الا يرون انهم يشتغلون بما هو هلاك لهم بما يجرى في هذه الجزيرة . انني دخلت قواعد ممالكهم منتصرًا ولو عاملتهم كهذه المعاملة لامسوا في اسوء حال . وكانوا يدعونني اخًا لهم . وقد صرت كذلك باختيار الشعب وحق النصر وصفة الدين والاشتراك معهم بالسياسة والدم . وهل يظنون ان ابصار الامم قد عميت عن اعمالهم وماذا ينتظرون من هذه المعاملة . فعلى كل حال اقوال تشكوا فلتسمع اوربا المغتاظة تشكياتكم فاذا تشكيت انا اقول ما هو دون رتبتي وصفاتي فلا بد لي ان اكون آمرًا او صامتًا

وفي صباح الغد جاء الامبراطور رئيس احدى البوارج الراجعة الى اوربا فجدد نابوليون بكلام بليغ سريع اقامة الحجة على المعاملة القاسية التي لاقاها وطلب اليهِ ان يبلغ ذلك الى الوزارة الانكليزية . فبادر لاكازا الى كتابة مذكرة محتوية على ملاحظاتهِ وسلمها الى الرئيس فوعد بان يقدمها الى الوزارة وهي . ان الامبراطور يروم ان يسمع اخبارًا عن زوجتهِ وابنهِ برجوع المركب الاول . واستغنم سنوح هذه الفرصة ليكرر اقامة الحجة على المعاملة الغريبة التي يلاقيها

اولاً . ان الحكومة صرحت بانهُ اسير حرب وهذا غير الواقع . فان الرسالة التي بعث بها الى البرنس وكيل ملك انكلترا التي كتبها وبلغها الى القبطان متلان قبل ان ركب البارجة بلروفون تبرهن بجلاء للعالم قاطبة ما حملهُ على ان يجعل نفسهُ من تلقاء ارادتهِ تحت حماية الراية الانكليزية . ولو شاء لقدر ان يمتنع عن الخروج من فرنسا بدون ان يقرر شروطًا متعلقة بنفسهِ . غير انهُ لم يرَ ان من الكرامة خلط اموره الشخصية بالصوالح العظيمة التي كان مهتمًا بها . وكان قادرًا ان يجعل نفسهُ تحت حماية الامبراطور اسكندر الذي كان صديقهُ او الامبراطور فرنسيس النمسوي حميهِ . غير انهُ

ركن الى عدالة الامة الانكليزية فلم يطلب غير حماية قوانينها والاعتزال عن الامور العمومية فلم يطلب الدخول الى بلاد خلا التي تدار بقوانين ثابتة لايوثر فيها الاستبداد

ثانيًا . لوكان الامبراطور اسير حرب لكان لحقوق الحكومات المتمدنة بالنظر اليهِ حدود مبينة بالقوانين الدولية وتنتهي بانتهاء الحرب

ثالثًا . اذا حسبت الحكومة الانكليزية الامبراطور بالاستبداد اسير حرب فحقوقها مبينة في القانون الدولي وكان في امكانها اثناء الحرب عند انقطاع المخابرات بين الامتين ان تعامله معاملة البرابرة الذين يقتلون اسراهم . وهذا اقرب الى الشفقة والعدل من ارساله الى هذه الصخرة المكروهة فان الموت في البارجة بلروفون في بليمونزرودز نعمة بالنسبة الى المعاملة التي يلاقيها . وقد سافرنا في اقفر بلدان اوربا غير اننا لم نرَ بلدًا كهذه الجزيرة القفرة . وهي خالية من كل شيء يجعل الانسان يحتمل الحياة وما هي الا لتجدد عذابات النزع . فالقاعدة الاولى في الاداب المسيحية وما يجعل الانسان راضيًا بنصيبهِ منعاه عن ان ينهي بيده حياته التعيسة . وعند الامبراطور ان من مجده المعيشة بحسب هذه القاعدة . غير انهُ اذا اصرت الوزارة الانكليزية على ظلمها واهانتها له يكون من سعادتهِ ان تامر بقتلهِ

ومضت ايام كثيرة كايام الحبس على الامبراطور وهو في البرايرز حال كون كثيرين من الفعلة يشتغلون في ترميم وتوسيع لونغود لسكناه وسكن ارفاقهِ . وكانت جميع مواد البناء تنقل على اكتاف رجال كانوا يصعدون بها على صخور مشرفة وكان امير البحر يفرغ جهدهُ في ترويج العمل ومع ذلك كان يجري ببطء . وكان الامبراطور يسلم نفسهُ الى نصيبهِ المخيف وبشاشتهِ ولذة معاشرتهِ للاولاد سببًا لاكتساب حب عائلة بالكوم

وقد قالت مادام ابل انهُ كان في نهاية الكرم قنطرة مظللة بالنباتات وكان الهواء فيها باردًا وان كان شديد الحر خارجها فكان نابوليون يحب الجلوس تحتها . وكان كثيرًا ما يذهب باوراقهِ الى ذلك المكان باكرًا قبل الظهر بثماني ساعات ويشتغل الى وقت تناول الطعام صباحًا بالكتابة وكان عندما يضجر يفوض الكتابة الى لاكازا من املائهِ . ولم يكن يسمح لاحد بان ياتيهُ وهو في ذلك المكان غير انهُ كان قد صرح بانني لست ممنوعة من الاتيان اليهِ وهو هناك فتفردت بهذا الامتياز . وكان ينقطع عن املاء عبارة وان ابتدأ بها ليجيبني وياتي باب الجنينة ويفتحهُ مترحبًا بي متبسمًا

وفي ذات ليلة اطال التامل في مكتبة صغيرة للسفر كانت معهُ فقدمها الى لاكازا قائلاً لابد من ان تعطى لابنك عمانوئيل وقد ملكتها طويلاً واستخدمتها في صباح يوم معركة اوسترلتس وعندما يدرك الثلثين او الاربعين نكون قد زلنا من هذا العالم وهذا يزيد قيمة العطية فيبرزها لدى



اصحابهِ قائلاً ان الامبراطور نابوليون اعطى والدي هذه المكتبة في سانته هيلانة . ثم اخذ يتكلم عن التغييرات الغريبة التي شاهدها بعد عوده من جزيرة البا وذكر تصرف الذين كان قد غمرهم بانعامهِ وابان انهم ناكروا الجميل . فانهُ تناول رسالات كثيرة ارسلوها الى اعوان البوربون وقال بهذا الشان انهُ خطر ببالي في بادي الامر بان امتنع عن حماية هولاء الاشخاص وان اصدر امري بطبع رسالاتهم على انني بالتامل امتنعت عن ذلك . فاننا ضعفاء قليلو الثبات نجذب باسهل الامور فرايت ان الاوفق ان اتجاهل الامر فامرت باحراق تلك الرسالات

وفي ٢١ تشرين الاول ( اوكتوبر ) كان الامبراطور قد صرف اسبوعين دون ان ياتي البرايرز وكان اصدقاؤهُ قد زادوا مركزه راحة واضافوا الى حجرتهِ الفريدة خيمة فتوسعت وجاء طباخهُ البرايرز وكان يطبخ فيها فلم يبق لزوم لنقل طعامهِ مسافة ميل ونصف ميل بعد طبخهِ واخرجت من صناديقهِ المنسوجات التي كانت تبسط على الموائد والاحضان اثناء تناول الطعام ومع ذلك كانت الساعات تمرُّ عليهِ ثقيلة وكان يصرف اكثر اوقاتهِ داخل حجرتهِ يقرأ ويكتب ويحدث رفقاءه وكان ينام بعد مضي اكثر الليل وكان اذا نام في اواخر السهرة يبلى بقلق في الليل ويلتزم ان ينهض من فراشهِ ويقرا ويكتب لينفي الافكار المكدرة ولذلك كان يصرف اكثر الليل سهران . على ان المكدرات كثرت عليهِ وزادت عن حدود الاعتدال فان الحكومة الانكليزية كانت كل يوم تصدر اوامر جديدة تضايقهُ بالمناظرة عليهِ والظاهر ان المامورين الانكليز كانوا في خوف دائم من ان يهرب وتجاوز خوفهم حدود الاعتدال حتى امسوا كمن قد جن من الخوف لانهُ كان مسجونًا في تلك الجزيرة التي تبعد الف ميل عن الارض ومع ذلك كان الحراس يقيمون ليلاً ونهارًا حول خيمتهِ والبوارج تجول حول الجزيرة دون انقطاع وكانت هذه الاحتياطات دليل عظمتهِ فان دول اوربا كلها باتت في خوف عظيم من اسير واحد لانها كانت تعلم ان قلوب الاهالي المظلومين تخفق فرحًا عند استماع صوتهِ فكانت تراقب جميع حركاتهِ وصار انشاء اشارة برقية لتخبر المدينة في تلك الجزيرة بكلما كان يجرى في البرايرز مكان اقامتهِ . ولم يكن يسمح للفرنسويين ان يخابروه وهو في حجرتهِ دون ان يرافقهم مامور انكليزي . وهذه المضايقات حملت الامبراطور نابوليون على ان يطلب الى لاكازا ان يكتب الى كوكبورن امير البحر متشكيًا منها حال كونها دون نفع وامر الجنرال برتران بان يبلغ الشكوى الى امير البحر غير ان هذا الجنرال علم ان هذا التشكي لايجدي نفعًا بل من شانهِ ان يزيد المضايقات فحمل مسئولية عدم اتمام ما امر بهِ . وبعد برهة عرف نابوليون انهُ لم يقم بمامورية فتكدر وقال لهُ ان عدم ابلاغك الشكوى اذا كان ناشئًا عن عدم ارتضائك بمآلها او عن اعتقادك بانها متجاوزة حدود الاعتدال في القوة يدل على حبكَ لي وصداقتك غير انهُ كان ينبغي ان لايتاخر ذلك اكثر من بضع ساعات وكان من

الواجب عليك بعد ذلك ان تخابرني بهذا الشان فانك عالم بانني اصغى لكلامك واوافقك على ارادتك اذا ابنت لي انك مصيب. على ان تاخيرك التبليغ اسبوعين دون ان تخابرني ما لا اقدر ان افهمهُ فماذا تقول . فاجاب انهُ تقرر في عقلي ان ما فعلتهُ هو الصواب لانهُ كان يكره خطاب الشكي لقوة عبارتهِ فقال نابوليون يا برتران ربما كنت مصيبًا وبعد ان تامل برهة قال نعم انك مصيب فلينشك اصحابهُ غير ان صفاتي ومركزي يحملاني على ان اصمت وبعد ذلك كتب الجنرال برتران رسالة من امضائهِ ذكر فيها تلك الشكيات وقال في نهايتها اننا نرغب جدًّا في ان يتصرف المامورون بالنظر الى نابوليون تصرف يزيل من بالهِ كل ما يذكره بحالهِ المكدرة واقول دون تردد ان ذلك مما يلاحظهُ البرابرة ولا خوف من الهرب من هذه الصخرة التي تكاد تكون من كل جهاتها مانعة للاقتراب منها فلماذا لا يزيدون حراس السواحل اذا راوا لزومًا لذلك ويمكنوننا من ان نجول في الجزيرة دون مانع ونرغب جدًّا ان نقيم بالقرب من الامبراطور لتسليتهِ

وتنازل امير البحر بارسال جواب ضمنهُ اهانة لاولئك المنكودي الحظ وما ياتي هو ترجمة جوابهِ

من البارجة نرثمبرلند في طرق سانته هيلانة في ٦ تشرين الثاني سنة ١٨١٥

سيدي . قد تشرفت برسالتك رقم امس وقد الزمتني ان ابين لك رسميًا انني لست بعالم بوجود امبراطور في الجزيرة ولا بان رجلاً ذا مركز كهذا اتى معي في البارجة نرثمبرلند . واشرف نفسي بان اجاوبك على بعض رسالتك ان تعليماتي لا تسمح لي بان اسمح لكم بان تتجاوزوا حدود الحراس المقررة بدون ان تكونوا مصحوبين بمامور انكليزي . انتهى

ولا ريب ان امتناع الانكليز عن ان يدعوا نابوليون امبراطورًا كان قصد اهانتهِ فانهم اشاروا بذلك الى انهُ مختلس واثبتوا ان اصدقاءهُ ورعاياه الذين اعترفوا بانهُ كان في سنين كثيرة اقوى ملوك النصارى فكيف يهينونهُ ويقرون بانهم كانوا مولّين مختلسًا . ولا سبيل الى الرد على ما كان يقولهُ نابوليون لاثبات مركزه الامبراطوري فانهُ كان قد نصب امبراطورًا لفرنسا بحسب القانون وبمصادقة الامة الفرنسوية واصرارهم على تلقيبهِ جنرالاً عوضًا عن امبراطور انما هو كالاصرار على ان يلقب اوغسطوس قيصرًا والامبراطور شارلمان جنرالين . وقد ابطلت الدنيا هذه الاهانة باحتقار فانهُ لا يخطر لاحد ببال الان ان يلقبهُ بالجنرال بونابرت . ومع ذلك تجاوز حدود الاعتدال في التصنع حتى انهُ ادعى في كتاباتهِ الرسمية المبعوثة الى الوزارة الانكليزية انهُ لا يعلم من هو الملقب بالامبراطور نابوليون في سانته هيلانة . وقد كتب بهذا الشان الى الارل بانودست ما ترجمتهُ

انني ارجو حضرتكم ان تسمحوا لي بان اقرر لحضرتكم بشان هذه الرسالة الغريبة ان ما آلمها منعني



عن ان ابحث عن كلما تضمنتهُ رسالة موسيو دي برتران ومع ذلك اقول ان الجنرال بونابرت اذا كان الشخص الملقب برسالة امبراطورًا هو نفس هذا الجنرال فهو قاطن في مسكنهِ الحالي الموقت اجابة لطلبهِ والحاحهِ واقول فضلاً عن ذلك انني منذ اتيت هذه الجزيرة لم انفك عن ان افرغ جهدي في سبيل تمكين اولئك القوم من الراحة التي يقدر ان يحصل عليها من كان في حالتهم وفي ظروفهم

وعين القبطان بوبلتيون ليكون حارسًا وجاسوسًا مرافقًا على الدوام للامبراطور وما ياتي هو من الاوامر المتعلقة بمامورتهِ

ان المامور الذي ينوض اليهِ ذلك لا ينبغي ان يغيب عن المكان الذي يكون فيهِ الجنرال بونابرت اكثر من ساعة كل مرة . ومن الواجب عليهِ ان يفرغ جهده في سبيل منع العبيد في الجزيرة من الدنو من الجنرال بونابرت ويمنع تكلمهُ معهم . وكلما مشى الجنرال او ركب وتجاوز حدود الحراس ينبغي ان يكون معهُ ضابطة على الدوام . واذا دنا من الساحل فمن الواجب على المامور ان يجعلهُ بغير طريقهِ . ومن الواجب عليهِ ايضًا ان يخبر امير البحر بما يراه من الحركات غير الاعتيادية بين الفرنسويين وينبغي ان يكون دائمًا بالقرب منهُ فارس ليرسلهُ بالخبر . ومن الواجب عليهِ ايضًا ان يرى ان الجنرال وكل حشمهِ يدخلون البيت عند الساعة التاسعة بعد الظهر وذلك بعد ان ينزلوا في لونغود . انتهى

هذا ولا يخفى ان الامبراطور كان مجتهدًا في تقرير قاعدة مهمة باصراره على ان من حقهِ ان يلقب بامبراطور وانهُ لم يكن يطلب ذلك مراعاة للفخر والمجد الباطل فانهُ ارتضى بان يغير اسمهُ ويجعلهُ الجنرال دوروك او الكولونل مودرون . غير ان الوزارة الانكليزية لم ترضَ بذلك . وقد شجب بعض الكتاب الانكليز حكومتهم على هذا وقالوا انها فعلت ما لا يحق لها ان تفعلهُ وقد ذكر في جريدة السار هودسون لو انهُ يصعب ان يرد على ما ذكرهُ نابوليون لاثبات حقهِ بان يلقب بالامبراطور ومن المعلوم اننا نحن الانكليز لم نعترف بانهُ امبراطور على ان ذلك لم يغير الجوهر فانهُ كان امبراطور فرنسا فعلاً . وكان الاولى ان يسمى الامبراطور السابق فان ذلك هو الواقع . وكان من الممكن ان ترتضي الحكومة ان يغير اسمهُ ويبدلهُ باسم البارون دوروك او الكولونل مورون على ان اللورد باثورست لم يرضَ بذلك

وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) امسى الامبراطور متعبًا منحرف المزاج فاشار عليهِ لاكازا بان يتنزه راكبًا فاجاب نابوليون انني لا اقدر ان اقبل ابدًا بان ارى بجانبي على الدوام ضابطًا انكليزيًا الا على رغم انفي ولذلك امتنع عن الركوب لمجانبة ذلك . وانا اعلم ان الضرر الذي يطرأ عليَّ من اكدار مشاهدة ضابط انكليزي يرافقني اعظم من النفع الذي احصل عليهِ من التنزه فمن الصواب

ان امتنع عن الركوب

وفي ٩ من هذا الشهر بات لاكازا في خوف مما رآه من كدر الامبراطور وانحراف صحتهِ من الافتقار الى المشي والركوب فسال الضابط المعين لحراستهِ بكل اعتبار واحترام هل من الواجب عليهِ ان ينفذ الاوامر المعطاة لهُ حرفيًا اذا ركب الامبراطور وسار حول البيت . فتحركت الشفقة في قلب هذا الضابط وقال بكرامة اخلاق ان اوامري تلزمني بان اتبع الجنرال بونابرت غير انني اسمح بان يركب وحدهُ في الاماكن المجاورة للبيت واحمل المسئولية فاخبر لاكازا الامبراطور بذلك بفرح وقال لهُ انهُ ليس من عادتي ان اقع بما ربما كان يضر الضابط . وهذا حكمة وكرامة اخلاق وبعد ذلك ببرهة جاء الضابط لاكازا وقال لهُ انني اخبرت امير البحر كوكبورن بما جرى بيننا من الحديث فامرني باصرار ان لا امكنهُ من الركوب وحدهُ . فلما سمع الامبراطور بهذا لم تلح لوائح التعجب على وجههِ وقال بسكون الاوفق ان تردوا الافراس لاننا لانحتاج اليها . فتكدر لاكازا من قساوة امير البحر واخذت منهُ الحدة كل ماخذ فقال انني اذهب في الحال وارجع الافراس الى امير البحر . فقال لهُ الامبراطور بسكون لاتنفعل فانك في حدة وقلما يجرى شيء موافق حال كون الانسان منفعلاً والاوفق ان يمر الليل على اهانات النهار

وفي العاشر من ذلك الشهر خرج الامبراطور ومعهُ لاكازا ومشيا طويلاً وفي عودهِ لاقى مادام بالكوم ومادام استوارت وهي خاتون كانت راجعة من بمباي في الهند الى انكلترا . واخذ يكلمهما وفي اثناء الحديث مرَّ بعض العبيد حاملين احمالاً ثقيلة صاعدين في الطريق الضيق بعناء فامرتهم مادام بالكوم بغضب ان لايتقدموا على ان الامبراطور ابتعد وقال لها بسكون ياسيدتي اعتبري الحمل . اما ما دام استوارت فكانت تعتبر نابوليون كوحش ضار قاس فتعجبت كثيرًا عندما رات هذه الشفقة فقالت لرفيقتها بصوت مخفض ما هذه الهيئة الحسنة والصفات البديعة فقد رايت ما لم اكن انتظر ان اراهُ

وكان نابوليون يعيش بانتظام لا مزيد عليهِ في البرابرز فكان كل يوم يكتب الى لاكازا وكان ينحدر الى الجنينة بين الساعة الثالثة والرابعة ويتمشى فيها وهو يملي على احد اعوانهِ الذين كانوا ياتون من المدينة لذلك . وكان يخرج من الجنينة بعد الظهر بخمس ساعات ونصف ويتمشى في الطريق الواقعة امام بيت مستر بالكوم . ويصرف الوقت بالتحدث مع اصدقائهِ . وبعد تناول الطعام مساء يعود الى الجنينة ويشرب القهوة وهو فيها . وكان احيانًا يزور مستر بالكوم فانهُ اصبح محبًا لهُ ولعائلتهِ وكان يستمر متمشيًا متحدثًا في الجنينة وفي ايام ضوء القمر كان يستمر على تلك الحال الى اخر الليل . وقد قال لاكازا ان الامبراطور كان يتكلم كثيرًا في ليالي ضوء القمر وهو يتمشى وينسى كل همومهِ ومصائبهِ وكنت اتمتع بحديثهِ واخباره بما جرى لهُ في صغرهِ ووصف



مالهُ في الصبوة واحوال عيشتهِ الخصوصية

وقال الامبراطور ذات سهرة كنت مصممًا على انشاء مدرسة مورون العالية لتكون وسيلة لحصول ابني ملك رومية على التعاليم الموافقة وعقدت النية على ان اجمع فيها امراء العائلة الامبراطورية ولاسيما اولاد الذين استووا على عروش الممالك الاجنبية منهم ليحصلوا فيها على العناية التعليمية الخصوصية مع منافع التعليم العام . فيفوز هولاء الاولاد الذين كانوا معدين للاستواء على عروش مختلفة وادارة امم متعددة بتعلم قواعد واداب واراء واحدة . وعولت على ان اجعل كل ولد منهم ياتي من البلاد التي كان ابوهُ مالكًا عليها بعشرة او اثني عشر ولدًا من ابناء اكابر البلاد من سنهِ ليتعلموا معهُ العلوم والمعارف ويقتبسوا القواعد الموافقة ليكون واسطة انتشارها في البلدان فلو تم ذلك وعادوا الى بلدانهم متعلمين لاثروا فيها جدًا . ومن المحقق عندي انهُ لو فزنا بهذا العمل لبادر الملوك الذين ليسوا من عائلتنا الى الاستئذان بادخال اولادهم الى مدرسة مورون المذكورة ولا يخفى ما في ذلك من النفع لامم اوربا قاطبة لان تربيتهم وتعليمهم على هذا النمط يؤولان الى ارتباط بعضهم بالبعض الاخر برباط الصداقة منذ الصبوة وهي رباط متين ويفترقون قبل ان تنمو فيهم عناصر الحسد والطمع والغرض

وكتب لاكازا في ١٤ تشرين الثاني ( نوفمبر ) ان القهوة التي اتي بها الينا في هذا الصباح هي اجود من القهوة التي كان يوتى بها قبلاً والراجح انها من القهوة الجيدة . وقال الامبراطور انهُ سرَّ بها . وبعد ان شربها ببرهة وجيزة وضع يديهِ على بطنهِ وقال انهُ شعر بنفعها . واعجز عن وصف ما شعرت بهِ عندما سمعت ذلك منهُ . وعلمت من ذكره للذة التي شعر بها بشرب تلك القهوة على غير عادتهِ انهُ كان يتالم من سلب راحتهِ بتغيير عادتهِ ولم يكن يتشكى من جرى ذلك

وفي السادس عشر من الشهر المذكور . تكلم الامبراطور بحرية عن الذين كانت لهم علاقة باعمالهِ العظيمة وقال لاكازا انهُ كان يتكلم بتأن وسكون دون حدة وغرض وميل ولا اظهار كره للذين اضروا بهِ . وكان يذكر احوالهُ والحوادث المتعلقة بهِ كانها حوادث جرت قبل زمانهِ بثلثة قرون . وكان عند ذكر نفسهِ يتكلم كانهُ شخص غائب ويذكر الخطأ الذي كان يعلم ان التاريخ يوبخهُ عليهِ ويبين اسبابها وغاياتهِ منها . وكان عند التكلم عن سقوطهِ واحوالهِ المرتبكة يعتبر الامور اعتبارًا عامًا مراعيًا الاحوال غير مكترث بالافراد . ولم يهن الذين كان يحق لهُ ان يتشكى من اعمالهم وراينهُ مرات عديدة يصمت عند ذكر اسمائهم على مسمع منهُ

وفي التاسع عشر من الشهر المذكور دعا جميع الفرنسويين في الجزيرة وهم الذين جاءوا مع نابوليون ليتناولوا الطعام معهُ وكانت لوائح السرور تلوح على وجههِ وبعد ان اكلوا قال لهم ياسادتي هل تحبون ان تحضروا تشخيص رواية مضحكة او رواية غناء او رواية محزنة . فقالوا الاوفق

ان نرى رواية مضحكة فتناول كتاب موليار وقرأ لهم من رواية البخيل . وبعد ان فارقه المدعوون ذهب الى الحديقة يتمشى وحده

وكتب في ٢٥ من ذلك الشهر ان الامبراطور صرف عدة ايام منحرف الصحة وكان اسره وسجنه يثقلان عليه جداً فكانت تلوح عليه لوائح الكآبة والكدر . وفي صباح هذا اليوم وجده لاكازا جالساً على مقعد حولهُ كتب كثيرة كان يطالعها وهو على انفراد . وقال لاكازا ان الناس طالما توهموا ان الامبراطور يتمتع بصحة جيدة لما راوا من قوة جسمه وهذا هو غير الواقع فانهُ كان يتألم على الدوام من تاثيرات الحر وكانت اقل المؤثرات تؤثر في جسمه وكانت رائحة صباغ الخشب كافية لانحراف مزاجه . وكانت بعض الاطعمة والرطوبة وان كانت قليلة تؤثران فيه جداً ولم يكن جسمهُ حديدياً كما كان يقال فان كل قوته كانت في عقله . وكده وجده في بلاده وخارجها معلومان عند الجميع ولم يتحمل ملك ما تحملهُ من الاتعاب الجسدية وكان يصرف في مجلس الشورى ٨ او ٩ ساعات متتابعة في الشغل ثم ينهض وافكاره صافية كانهُ في بداية الجلسة ورايتهُ في سانتا هيلانة يقرا كتباً ١٠ او ١٢ ساعة متتابعة دون ان تلوح لوائح التعب على وجهه وقد احتمل اعظم المصائب والشدائد التي تقع على البشر دون ان يظهر فيه ما يدل على كدر . وكان طعامهُ في الغالب قليلاً وكان يصرف ٢٤ ساعة دون اكل ليكون قادراً على ان ياكل بقابلية في الغد . وكان شربهُ للخمر قليلاً جداً فان كاساً واحدة منها كافية لان ترجع اليه قوتهُ وتجعلهُ باشاً مسروراً . اما نومهُ فكان قليلاً جداً بلا انتظام وكان ينهض غالباً من فراشهِ عند الفجر ويشرع في القراءة والكتابة ثم يرجع الى النوم . ولم يكن يركن الى نفع الدواء فلم يكن يشربهُ واصطلح على علاج تحقق نفعهُ وهو عكس عاداتهِ وكان يسمي ذلك ارجاع ميزانية الطبيعة . اي اذا انحرفت صحتهُ بعد الراحة في البيت يسير ستين ميلاً راكباً او يصطاد النهار بطولهِ . واذا انحرفت صحتهُ بعد التعب يرتاح يوماً كاملاً . وكان يقول ان الطبيعة منحتهُ امتيازين خطيرين وهما الاقتدار على الفرح حين يحتاج الى الراحة في كل مكان وساعة وعدم الاقتدار على ضرر نفسهِ بالافراط بالاكل وبالشرب وقال اذا تجاوزت الحدود ولو قليلاً يقاومني بطني

وفي ذات يوم قال لمستر بانكوم انني لا اركن الى نفع الادوية . ومع ذلك اعتبر صناعة الطب ولا سيما الجراحة اكثر من كل الناس . اما المحاماة في الدعاوي فيصعب على الطبع البشري الضعيف ان يتحمل طغيانها فان الانسان الذي يعود نفسهُ اخفاء الحقيقة والسرور بفوز الظلم يمسي في نهاية الامر لا يميز بين الصواب والخطاء والامور السياسية تدعو الانسان الى النفاق وخدمة الدين يصيرون مرائين لان الناس ينتظرون منهم ما يعجز الطبع البشري عنهُ . اما العساكر فهم قتلة ولصوص . اما الجراحون فهم لنفع البشر وليس لاهلاكهم ولا لاهاجة بعضهم على البعض الاخر



وحبس الامبراطور نفسهُ في منزلهِ في البرابرز كانهُ في البارجة . وكانت الفعلة تشتغل باصلاح منزل لهُ في لونغود . اما الجنود الانكليزية فكانت معسكرة في البرابرز . وكان في حديقة مستر بالكوم عبد زنجي ذو منظر محزن طاعن في السن مسكين يشتغل فيها فاهتم الامبراطور جداً بامر تاريخه وتحسين حالهِ وكان ملاحو مركب انكليزي قد سرقوه من بلاده فشنق الامبراطور عليه حين اخبره بما جرى لهُ . وكان اسمهُ قوبي فاحب الامبراطور جداً وكان كثيراً ما يزوره في كوخهِ ليحدثهُ وكانا اسيرين وكان قوبي يدعو الامبراطور الموسيو الصالح . وقال ذات يوم ان قوبي منكود الحظ فانهُ أُبعد عن عائلتهِ ووطنهِ وسيق الى العبودية فهل من مصيبة اعظم من مصيبتهِ واي شر اعظم من شر الذين جاءوا بهِ الى هذا المكان . فان كان رئيس المركب الانكليزي قد اسره وحده فلا ريب انهُ شر الناس واذا كان الملاحون اسروهُ يكونون من ادنى البشر . اما الشر فيكون في الغالب افرادياً وقلما يكون عمل جمهور فما هو هذا الانسان المنكود الحظ فلو كان كبروتوس لقتل نفسهُ ولو كان كايسوبس لاصبح مشير الحاكم ولو كان مسيحياً نقياً لاحتمل عبوديتهُ بصبر جميل لوجه الله خالقهِ . وقد رايناهُ يحتمل مصائبهُ بصبر وسكون فانهُ يشتغل . ثم صمت الامبراطور برهة متأملاً في ذلك الرجل المنكود الحظ ثم سار وقال ان الفرق عظيم بين قوبي المنكود الحظ والملك رتشارد المأسور ومع ذلك ذنب آسريهِ كذنب الذين اسروا ذلك الملك فانهُ ذو عائلة وكان متمتعاً بسعادة وحرية . فمن اعظم الذنوب ان يؤتى بهِ الى هذا المكان ليموت كمداً بقيود العبودية ثم التفت الى لاكازا وقال ارى في عينيك ما يدل على انك تقول في نفسك انهُ ليس وحده على هذه الحالة في جزيرة سانته هيلانة فياصديقي لاكازا الفرق عظيم بيني وبينهُ فان كان ظلمي اعظم فبين اقتداري واقتداره بونٌ عظيم فاننا لسنا بمعرضين لقصاص جدي ولو حاول ظالمونا ان يقاصونا جسدياً لقدرنا بعزمنا ان نوقعهم في خيبة أمل . فربما وجدنا في حالنا ما يسلينا فاعين العالم موجهة الينا وانما أُلقي القبض علينا بوجه مخل بالادب فان ملايين من البشر ينوحون على سوء حظنا وبلادنا تتنهد والمجد يندب سوء طالعنا والامم تصلي لاجلنا ولو حصرت اهتمامي بنفسي لربما وجدت ما يسرني فان المصائب تجلب المجد والثناء وكانت حياتي محتاجة الى المصائب فلو مت وانا مستوٍ على العرش متمتع بكل القوة والمجد والنفوذ لاستمر كثيرون يجهلون حقيقة احوالي اما المصائب فتمكن الجميع من ان يحكموا بالعدل

وبعد ذلك ببرهة حاول الامبراطور ان يشتري قوبي ويرده حراً الى وطنهِ وفوض الى الدكتور اومبارا ان يقرر هذا الامر هو والسار هدسون لو الذي كان صاحب الامر حينئذٍ وقال ذلك الدوكتور ان السار المذكور اجاب انك لا تعلم غاية الجنرال بونابرت فهو يروم ان يحصل على ثناء الزنوج في الجزيرة وان يفعل هنا ما فعل في سان رومنجو فانا لا اجيب طلبك .

فتأسف نابوليون وبقي العبد المنكود الحظ في قيد العبودية الى ان مات

## الفصل الثامن والستون

### الانتقال الى البيت الجديد في لونغود

وفي العاشر من شهر كانون الاول (دسمبر) نقل الامبراطور الى لونغود . فركب فرسهُ ولوائح الجلال والسكون تلوح على وجههِ وسار في الطرق الوعرة بين الصخور النارية مسافة ميلين الى ان بلغ البيت الجديد الذي بني لهُ . فوجد بين الصخور المؤثرة فيها المياه بيتاً طويلاً ذا طبقة واحدة مبنياً بناء غير متقن صغيرًا بالنسبة الى عدد اعوانهِ ورفاقهِ الذين جاءوا الجزيرة معهُ ليشاركوه في منفاه فتأمل في هذا السجن بسكون مهتماً براحة الذين معهُ اكثر من اهتمامهِ براحة نفسهِ . وكان في مكان يبعد نحو ميل عن لونغود في طريق البرايرز كوخ صغير اسمهُ هتس كيت فسمح للجنرال برتران وزوجتهِ بسكناه . اما الجنرال غورغود والكونت لاكازا فالحّا بان يسمح لهما ان يسكنا خيماً تضرب بالقرب من منزل الامبراطور مفضلين ذلك على البقاء في جيمستون بعيدين عنهُ . فاثر هذا الطلب الدال على الحب في الامبراطور فضربت خيمة للجنرال غورغود عند نوافذ غرفتهِ واعدت غرفة بسرعة للكونت لاكازا . اما الدكتور اومبارا طبيب الامبراطور الانكليزي فالتزم بان يسكن خيمة . وبعد ذلك ببرهة اعدت غرفة لكل منهما . وكانت الحكومة الانكليزية قد خصصت للقيام بنفقات الامبراطور والذين معهُ في المنفى ثلثمائة الف فرنك في السنة . اما رفاقهُ فكانوا مصرين على معاملتهِ المعاملة التي يستحقها رجل عظيم مشهور قادر عاقل مثلهُ

اما رفاق الامبراطور فكانوا الجنرال برتران وزوجتهُ واولاده الثلثة والكونت مونثولون وزوجتهُ وولداه والكونت لاكازا وابنهُ والجنرال غورغود والطبيب اومبارا واربعة خدامين وثلثة لخيل واربعة لموائد الاكل والطبخ . وهولاء اجمع تبعوا الامبراطور الى منفاه المقفر من حبهم لهُ . اما الطبيب اومبارا فكان من اهالي ايرلاندة وكان طبيب البارجة بلروفون فان طبيب الامبراطور كان مريضاً فلم يأت الجزيرة فطلب الدكتور اومبارا بالحاح ان يسمح لهُ بان يرافقهُ . وكانت معيشة هولاء الاسرى اصعب عيشة في تلك الجزيرة المقفرة المرتفعة عن سطح البحر الف وثمانمائة قدم وكانت اكثر الاوقات مغطاة بالغيوم والضباب وفيها بعض اشجار الصبغ التي تدل ظواهرها على انها تعيش في تلك الصخور وتتكدر العين بالنظر اليها عوضاً عن ان تلتذ

وكان هولاء الاسرى يصادفون كل يوم ما يكدرهم فان الاماكن التي كانوا يتمشون فيها كان الحراس واقفين على جوانبها ببنادق محشوة بالرصاص ولم يكن يسمح لهم بان يخرجوا من منزلهم بعد مضي ساعة معلومة ومنعوا عن محادثة اهالي الجزيرة وعن الاقتراب من شاطىء



البحر واقيم حراس عند نوافذ حجرة الامبراطور وكان التضييق عليهم من جميع الجهات وكان رفاق الامبراطور يتذمرون جداً من هذه المضايقات على ان الامبراطور كان يحتمل كل اهانة ومضايقة بالصبر الجميل بلا تذمر وذكر ذلك مما يعود عليهِ بالفخر كاعظم اعمالهِ وعلو شانهِ وصفاتهُ الممتازة لم تظهر في مكان كما ظهرت في تلك الجزيرة . وعين لكل من رفاقهِ عملاً مخصوصاً ولكل ساعة شغلاً وكان كل يوم من ايام المنفى كباقي الايام . وكانت الاهانات والقحة تضافان دون انقطاع الى ضيق المنفى والسجن فلم يكن يلاقيها الا بعظمة الصمت . ومع ذلك كان رفاقهُ يجعلون منزلهُ محفوفاً باعتبار الملكية وكانوا كثيرًا ما يصونونهُ بذلك من اهانات مكدرة

وفي ذات يوم جاءهُ رجل انكليزي بعد ان زاره تكرارًا واحبهُ جداً فاقر لهُ بخجل انهُ صدق جميع الاخبار التي كان يسمعها عنهُ . وقال لهُ كيف لا اصدقها فان جرائدنا الانكليزية كانت مشحونة بها والالسن تتناقلها ولم يرتفع صوت واحد لتكذيبها . فتبسم نابوليون وقال ان وزراءكم احسنوا اليَّ بهذه النعم فانهم ملاوا اوربا بالكراريس ومنشورات متضمنة الطعن بي . والح عليَّ قومي بان اتخذ الوسائل اللازمة لنقض هذه الاخبار الكاذبة فامتنعت لعلمي ان هذه المدافعة لا تجديني نفعاً فانها تحمل الناس على القول انني حصلت عليها بالمال وهذا يزيد الطعن بي . وتقرر عندي ان اوفق الردود الفوز بنصر جديد او بانشاء اثر مجيد فان الكذب يزول والحق يثبت . فاهل المدارك من ابناء هذا الجيل واهالي القرون الاتية لا يحكمون الا بالاستناد الى الوقائع . وقد بدا الغيم ينقشع ويظهر النور من خلاياه وفي كل يوم تزداد حقيقة امري ظهورًا وبعد برهة قصيرة تبحث اوربا عن الحقيقة لتحكم بالعدل . والذين خلفوني عندهم اوراق ادارتي واوراق مجالسي ولا يزال الذين يدّعي انهم عاونوني على تعدياتي واعمالي البربرية وظلمي في خدمتهم يقبضون رواتبهم منهم فما هي البراهين التي جاءوا بها اثباتاً لشر اعمالي . وبعد مضي ايام الاضطراب الاولى والتهيج يبادر جميع الرجال الامنا العادلين الى الحكم بالعدل ولا يعاديني غير الحمقى والجهلا . فانا في راحة فان الحوادث المتتابعة ومضادات الاحزاب المقاومة وكتاباتهم تزيل كل يوم ما يحجب المواد التي يتالف منها تاريخي الصحيح المجيد . وماذا ربح الناس من المبالغ الوافرة التي صرفوها لترويج الطعن بي وبعد برهة قصيرة يزول كل اثر من اثارها حال كون اثاري واعمالي تشهد لي قرناً بعد قرون وقد مضى الزمان لاهانتي فان سم العدو ان اصبح نافذاً

وفي اول شهر كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨١٥ اجتمع رفاق الامبراطور قبل الظهر بساعتين ليقوموا بفروض التهاني بدخول سنة جديدة بحسب عادة ذلك الزمان . فقابلهم الامبراطور بحب ودعاهم ليتناولوا الطعام معهُ ويصرفوا النهار عنده وقال لهم اننا قليلون في زاوية من العالم وليس لنا تعزية غير حب بعضنا بعضاً . وفي النهار بعث الاميرال كوكبورن الى الامبراطور آلة

صيد الطيور . وكان قصده بذلك اظهار اعتباره له غير انه امسى كاستهزاء لانه لم يكن في صخور لونغود الجرداء طيور للصيد . وسلم ايضاً سلاح صيد من سلاح رجلين من اتباع الامبراطور بشرط ان يرسل كل يوم مساء الى خيمة الضابط الذي يقوم بحراسة الامبراطور . وكان اولئك المنفيون عرضة لامور كهذه مكدرة واصابوا بالامتناع عن استلام البنادق بهذه الشروط وفي النهاية ارتضى امير البحر ان يترك السلاح المذكور معهم لانه راى ان في لونغود مسكن الامبراطور فرقة كاملة من الجنود . وفي يوم كان الامبراطور يتمشى بعد الظهر في الحديقة ومعه لاكازا قدنا منهما ملاح انكليزي شاب ولوائح الفرح والسرور مع الخوف من ان يظهر امره تلوح على وجهه فتفرس في الامبراطور برهة وقال للاكازا انني اموت قرير العين فاسال الله ان يمن على الامبراطور بالسعادة وكانت كثيراً ما تجري امور كهذه . وكان جميع ملاحي البارجة نرثمبرلند يحبون الامبراطور ويعتبرونه صديقاً لهم وكان حراس نابوليون يقلون في البرابرز ولا يضايقونه كما في لونغود فكان الملاحون كثيراً ما يجتمعون حوله يوم الاحد ليشاهدوه . وفي ذات مرة وقف امامه ملاح من ملاحي احدى البوارج الانكليزية بغتة وقال للاكازا ودموع الحب والابتهاج تذرف من عينيه قل لذلك الرجل العزيز انني لا اروم ان اضر به بل اتمنى له التمتع بكل السعادة كذلك اكثر رفاقي الملاحين ونتمنى له طول البقاء والتمتع بالصحة . وكان في يد ذلك الملاح ضميمة من الزهر للامبراطور ولم يكن يقدر ان يقدم له شيئاً اخر يدل على حبه . وكان قلب نابوليون الشفوق الكريم يتاثر جداً بهذه الامور . فقال انظروا تاثير التصور فما اشده فانهم لم يسمعوا الا بخبري وقد جاء ذلك بهذه التاثيرات الا يرتضون بان يفعلوا كل شيء يقدرون عليه في سبيل خدمتي وهذا هو حال الناس في كل بلاد وجيل وجنس نعم ان التصور متسلط على العالم

اما الاراضي في لونغود التي كان يسمح للامبراطور ان يسير بها بلا حراس فلم تكن تمكنه من الركوب اكثر من نصف ساعة ولم يكن يسمح له بان يجول في اراضي تلك الجزيرة الصغيرة كلها ما لم يرافقه ضابط انكليزي وكان ذلك يكدره جداً فلم يرضَ بان يتنزه راكباً وافرغ اعوانه جهدهم في سبيل حمل امير البحر على ان يعدل عن ذلك الامر المهين المكدر بوضع حراس في اماكن عالية يقدرون ان يروا الامبراطور منها وهو يتنزه راكباً اينما يتوجه على انه لم يجب طلبهم فتكدر نابوليون وحزن جداً وعزم على ان لا يتجاوز الحدود المعينة وهذه المعاملة اثرت فيه واضرت بصحته

وفي ١٥ كانون الثاني (جانفيه) استعار لاكازا من الدكتور اومبارا تاريخ اعمال وزارة بونابرت السرية تاليف كولد سمث الانكليزي وقرا نابوليون ذلك التاريخ المهين الكاذب بتعجب



وكان كثيراً ما يضحك من حماقة المولف وكان احياناً يهز كتفيه متعجباً من طعنه المعيب . ولما قرا الطعن في عرض والدته قال انها خاتون مسكينة فلو قرأت هذا الكلام حال كون صفاتها اجمل صفات النسا لقالت . . . يا الهي العظيم

ولما قرأ ما نسب اليه من الزنا قال الظاهر ان المولف رغب في ان يجعلني عظيماً من كل وجه . على انهم قد اخطاوا بالطعن بي من الجهة الادبية لان العالم اجمع يعلم انني رقيت الاداب ولا بد ان يعلموا اني لست من الذين يميلون الى الفساد وكثرة اشغالي لم تكن تسمح لي بان اغوص في لججه . وعند ذلك دخل عليه الدكتور اومبارا فقال له نابوليون باسماً يا ايها الطبيب قرأت كتاباً من الكتب الجميلة التي الفت في لندن للطعن بي وقد صدق من قال ان الانسان لا يكدره غير الحق اذا كان غير موافق له فانني قرات ذلك الكتاب دون ان اغتاظ لحظة وضحكت تكراراً

وقال ذات مرة احد الحاضرين هذا هو اليوم الحادي عشر من شهر اذار (مارس) فقال نابوليون قد مرت سنة على يوم كهذا اليوم كنت فيه في ليون راجعاً من البا وكان مجيداً فانني حزت فيه قوة عظيمة ولست اعظم امبراطورية في الدنيا . فما اعظم خطا الذين لم يقبلوا بما تم بعد رجوعي من جزيرة البا فتصرفوا كانهم لم يكونوا عالمين ان تثبيت ملكي لازم لحفظ ميزانية اوربا وراحتها . وفضلاً عن ذلك لم انتصر ولا تغلبت على الدول الا في سبيل المدافعة عن نفسي . فهذه حقيقة تزداد ظهوراً بمرور الزمان . ولم تنقطع اوربا عن محاربة فرنسا ومقاومة قواعدها ومضادتي والتزمنا ان نهلك الاخرين لنخلص انفسنا من الهلاك وكانت الدول في محالفة دائمة ضدنا جهارية او سرية وكان على الدول المتحدة ان تمكننا من الحصول على السلم اما نحن فبتنا في ضجر من الحرب فهل يظن انني لا اشعر بسعادة الراحة والامنية عندما لا ندعى بدواعي الشرف الى الحرب . فهل خافت ان اتغلب عليها بقواعد تخل بالانتظام انها كانت تعلم ما جمعنا من الاختبار وكم من مرة الح عليّ القوم باضرام نيران الفتن في مدنها ومنحها حقوقاً بلدية . وقد سموني اتيلا العصر وروبسبير راكباً وكانت تعلم انني لست كذلك وربما كنت لا ازال مالكاً لو كنت مثلها . ورايت نفسي في العمل العظيم الذي اصبحت رئيسه والحكم فيه انه لابد من احد امرين وهما ان يصغي الملوك لمطالب رعاياهم العادلة او ابلاغ الاهالي السعادة بواسطة ملوكهم . ولكن تحقق انه لا يسهل ضبط الاهالي بعد اهاجتهم وكان من الاصابة ان يتكلوا على حكمة رعاياهم وظننت ان تعلتهم كان يظهر لهم هذه الامور على ان ظني اخطا فانهم لم يكونوا يحسبون للامور حساباً فاعماهم الغيظ وهاجوا عليّ ما كنت امتنع عن ان اهيجه عليهم لما كنت مقاوماً لهم . فسيرون العواقب واقول اخيراً هل تكدر الملوك لما راوا جندياً على عرش الملك هل خافوا ان يكون ذلك قدوة لسواه . الم يراعوا الاحوال التي

صحبت ارتقاءي درجات العرش واجتهادي في موافقتهم على عاداتهم وجعل اموري كامورهم والاتصال بهم بالدم والسياسة . فهذا سد الابواب دون الذين تحدثهم نفوسهم بارتقاء درجات العرش . ومن المحقق ان الاوفق لهم ان اكون انا خلفًا للملكية التي لم يبق سبيل للاستغناء عنها فان وصول رجل من الجنود الى تخت الملك اولى من ان يبلغهُ احد العائلة الملكية . لانهُ ربما مرت الوف قرون قبل ان تجتمع الاحوال التي خدمتني وتمكن احد العامة من الاتيان بما اتيت بهِ . ولكل امبراطور ابناء عم واخوة واقارب يسهل عليهم ان يقتدوا بمن يكون خلفًا لملكية فرنسا من عائلتها المالكة . وماذا القى الرعب في قلوب الاهالي هل خافوا ان امسي متذمرًا وان اقيدهم الم اكفل عنصر السلام وصيانة حقوقهم . فكل قوتي كانت في هذين الامرين . فالتعدي عليهما يهدم ملكي فاكرر ما قلت من ان الملوك والاهالي باتوا في خطا . فانني ارجعت البلاد الى الخضوع للملكيات وانشات امارات لانضر وربما بات الملوك والامرا في خطر جديد وفضلاً عن ذلك جعلت حدودًا لحقوق الاهالي الذين ربما استانفوا طلب حقوق مبهمة مضرة . ولو ارتضى الملوك بعودي الى الملك لتقررت حقوق الملوك وحقوق الاهالي ولربح الفريقان . اما الان فلا بد لهم من ان يعودوا الى التجارب التي تخلصوا منها وربما خسر الفريقان وكان في امكانهم ان يبرموا الامور فربما التزموا ان يعودوا الى اجراء ما اجروهُ . وكان من الممكن ان يحصلوا على راحة طويلة اما الان فشرارة واحدة كافية لاضرام نيران ثورة عامة . فما اضعف الطبع البشري

ولا ريب ان هذه ارائه صحيحة ثبتت اصابتها فاوربا امست بعده كجبل نار مضطرب وروسيا بليت بثورة مشهورة الاحوال

وفي ٢ اذار ( مارس ) كتب الجنرال برنران برضى الامبراطور الى امير البحر كوكبورن الانكليزي بان الامبراطور يروم ان يبعث برسالة الى نائب الملك في انكلترا فهل يرسلها اليهِ فاجاب لا اعلم ان في الجزيرة امبراطورًا ولا اسمح بارسال كتاب الى انكلترا دون ان اطالعهُ

وفي ١٦ اذار ( مارس ) قابل الامبراطور رئيس البارجة سيسلون الذي كان على اهبة السفر الى انكلترا وكان الامبراطور ساكتًا غير انهُ انتبه لما سالهُ رئيس البارجة هل يروم ان يبعث بكتابات الى اوربا . فسالهُ الامبراطور هل تقابل نائب الملك قال نعم . فقال لهُ قل لهُ ان الامبراطور كان راغبًا ان يكتب اليهِ غير انهُ امتنع لما قال امير البحر انهُ يفتح الرسالة لان ذلك يمس شانهُ وشان نائب الملك . وانهُ طالما سمع مدح قوانين انكلترا ولكن لم يشعر بمنافعها وبات ينتظر الحصول على جلاد بل امسى يتمنى ذلك . فان العذاب الذي يحتملهُ بربري فالاولى بهِ ان يقتل

وفي ٢ نيسان ( افريل ) اخذ يتكلم عن الحيرة التي بات فيها بعد معركة واترلو عند اعتزالهِ



قال هل تعدل الامة الفرنسوية في الكلام عني هل تعذرني بعد ان رات انني وكلت الحكم بذلك الى التاريخ فلا اخاف حكمها لكنني اطلب اليها اصدارهُ . وقد طالما سالت نفسي هل فعلت كل ما يحق للامة الفرنسوية ان تنتظرهُ مني هل علمت بعذابي الشديد في الليل الذي سبق اعتزالي . فانني بت ملتزمًا في تلك الليلة الكثيرة الضيقات والشدة ان اختار بين امرين عظيمين احدهما ان احاول تخليص فرنسا بالقوة . والثاني ان اخضع للميل العام واظن ما فعلت هو الاصوب . وكان الاصدقاء والاعدا والمحبون والكارهون ضدي فامسيت منفردًا فسلمت نفسي الى ارادتهم ولا سبيل الى رد ما فات . ولست من الذين لا يكملون اعمالهم والملكية لا تخلع ولا تلبس كانها عباءة . اما الامر الثاني فلم يكن سبيل الى اتمامهِ الا بقساوة عظيمة وباستجلاب مجرمين واجراء قصاص عظيم واراقة دم . ولو قمت بهِ لجعلت ذكري مغمورًا بانهار من الدماء وبجرائم واثام متنوعة اتهمني بها المتهمون . ولو تيسر لي تخليص فرنسا لبقي عندي من الهم ما هو كافٍ لتغلبي على جميع الصعوبات ولكن لم اكن متحققًا النجاح فترددت طويلاً ووزنت الامور ورايت انني عاجز عن التغلب على الملوك المتحالفين في الخارج وحزب الملكية في الداخل ولا اقدر ان اتغلب على الاحزاب المتعددة التي تقاومني بانفاذ القوة في مجلس الاعيان ولا ان اضبط الاهالي الذين لا يساقون الاَّ بالقوة ولا ان اتغلب على اللوم الذي يلحق بالذي لا ينجح حال كون جميع العواقب الردية تنسب اليهِ . ورايت انني قد اضعت كل شيء على رغم انني واظهرت هذه الامور قبل حدوثها ومع ذلك رايت انهُ لا بد من الاعتزال

وسالهُ لاكازا قائلاً هل كنت قادرًا على تخليص فرنسا بمعاونة مجلس الاعيان . فاجاب لو ساعدني لما ترددت عن محاولة تخليصها وكنت قادرًا على اتمام تحصين باريس قبل ان تتمكن الدول المتحدة من ان تجمع جيشًا عظيمًا حولها وان اجمع في ظاهرها في الاستحكامات اكثر من ثمانين الف جندي من المجربين وثلاث مئة مدفع من المدافع التي تحملها الافراس . وبعد قتال بضعة ايام يكون الحرس الوطني واهالي باريس كامنين للدفاع عن الاستحكامات فيصبح عندي ثمانون الف جندي من الجنود الباسلة . وتصير باريس في ايام قليلة من الحصون التي لا تفتح عنوة وتدخلها جموع جرارة بدعوة الامة وعظم الخطر وتهيج الافكار وجسامة الحوادث . فاجمع اربع مئة الف رجل . وجنود الدول المتحدة لم تكن اكثر من خمس مئة الف رجل وهكذا يبيت الامر متوقفًا على معركة واحدة يشعر العدو فيها باقتدارنا . واثناء ذلك استند الى مجلس اعيان وطني ممتاز باسماء مشهورة مستحق الركون فاقوي اعمالي المطلقة العسكرية بجميع قوات الراي العام وارقى منبرًا انشر منهُ طلاسم قواعدي في اوربا فيرتجف الملوك حين يرون ان العدوى سارية بين رعاياهم فيلتزمون بان يخابروني او ان يسلموا اليَّ

فقال لاكازا يا مولاي لماذا لم تقم بذلك مع ان نجاحهُ محقق ولماذا امسينا في هذا المكان . فاجاب الامبراطور انك تلومني وتحكم عليَّ بالخطإ فلو فعلت ما اشرت اليهِ لغيرت كلامك وقد نسيت ان الاتكال على مجلس الاعيان خطأ وانت تعلم ماذا فعل . وكنت قادرًا على فضهِ . وربما لامتني فرنسا واوربا على عدم فضهِ والاجيال القادمة تلومني على ذلك وتقول انهُ ضعف وانهُ لم يكن من الصواب ان اجعل نفسي منفصولة عن نصيب امة فعلت كل شيء لاجلي . على انني لو فضضتهُ لما حصلت من العدو على اكثر من شروط تسليم . وهذا يسوقني الى اراقة الدم وهو فعل الظلمة

وفي ١٠ نيسان (افريل) جاء مركب اوربي حامل جرائد اوربية . واخذ نابوليون يقرأ عن ازدياد الاضطراب في فرنسا والمضار الكثيرة التي طرأت على كل نظارة فيها فتهيج جدًّا واخذ يتمشى ويقول ان سوء الحظ منعني عن الذهاب الى امركا فلو كنت فيها لقدرت ان اصون فرنسا مع بعدي عنها من تاثيرات رد الفعل . فان الخوف من رجوعي اليها كاف لان يمنع حكومتها عن التعدي وعن القيام باعمال الحمقى . فان اسمي لجام يرد جماحها ويلقي الخوف في قلبها ويمنعها عن تجاوز حدود الاعتدال فلو سمح للفتنة المضادة ان تنمو لضاعت في الفتنة العمومية والاراء الحديثة كافية لمحو الاراء القديمة فانهُ ما من شيء قادر على هدم قواعد الفتنة العظيمة . فهذه حقائق كلية موافقة ان تبطل فانها متعلقة بشهرتنا وعاداتنا وقد غسلنا اكدارها الاولى بطغيان بحار المجد فلا سبيل الى محوها من الدنيا فانها ولدت في منابر الخطب الفرنسوية وختمت بدماء اريقت في ميادين القتال وزينت باكاليل النصر وحييت باصوات الامة وتقررت بمعاهدات الدول ومحالفاتها وفضلاً عن ذلك اصبحت مألوفة عند الملوك فالاراء الحرة نامية في انكلترا وقد انارت امركا وصارت وطنية في فرنسا . فهذه هي المصابيح التي تنبعث منها انوار العالم . فلا بد من ان تسود الاراء الحرة فيهِ وستصبح ايمان كل الامم وادابها وقاعدة اديانها . ومهما قال المقاومون يكون هذا العصر المجيد متصلاً باسمي لانني اضرمت النار وعضدت القاعدة واصبحت بالاضطهاد موضوع ميل الجميع . وسيعترف باعمالي الاصدقاء والاعداء ويسلمون بانني الجندي الاول مشخص العصر العظيم فسابقى الى الابد الكوكب الدليل

وفي ١٧ نيسان (افريل) وصل السار هدسون لو والي جزيرة سانته هيلانة الجديد وجاء لونغود وقابل الامبراطور وكان غير لطيف وبعد ان خرج قال الامبراطور انهُ منظر قبيح يدل على شر ولكن لاينبغي ان نصدر حكمًا عن صفاتهِ بالسرعة فان اعمالهُ ربما اثبتت ان منظره لايدل على صفاتهِ

وفي ٨ نيسان افريل بعث السار هدسون لو الوالي الجديد ورقة باسم جميع رفاق



الامبراطور وخدمهِ ما كلها ان من يشا ان يرجع منهم الى اوربا لا يلاقي ممانعة ولكن اذا شاءوا ان يبقوا في الجزيرة فعليهم ان يصرحوا بذلك كتابة وان يخضعوا لجميع المعاملات التي يعامل الامبراطور بها وفهم الجميع المقصود من ذلك وهو ان الذي يروم ان يبقى في الجزيرة يلتزم ان يبقى فيها ما دام الامبراطور حيًّا ومع ذلك وقع عليها جميع رفاق الامبراطور وخدمهِ خلا الجنرال برتران فتكدر الامبراطور من تردده على انهُ لم ينه الا بعبارة واحدة وهي ان الجنرال برتران لايتغير ويقول على الدوام انهُ يعود الى اوربا ولكنهُ لايعود الا عند حلول الوقت الذي يدعى فيهِ للرجوع فعلينا ان نحب اصدقاءنا على نقائصهم

وفي ٢٠ نيسان (افريل) جاء الكولونل ولكس الانكليزي الامبراطور ليودعهُ وكان قد استعفى من ماموريتهِ في الجزيرة وصمم على العود الى اوربا مع ابنتهِ . فقدمتها زوجة الجنرال برتران للامبراطور فتكلم الامبراطور برهة مع الخواتين ببشاشة ولطف . اما الكولونل المذكور فكان من اهل المعارف والاختبار فجرى حديث بينهُ وبين الامبراطور من جهة حالة فرنسا السياسية فقال الامبراطور ان نصيب العالم خاصة نصيب التمدن الاوربي اصبح في يد فرنسا وانكلترا ومع ذلك ما هو الضرر الذي لم يلحقهُ بعضنا ببعض . فما اعظم النفع الذي كنا قادرين ان نمكن العالم من الحصول عليهِ . وبسياسة «بت» اخربنا العالم فما هي النتيجة . وقد وضعتم على فرنسا خمسمائة مليون ريال من الرسوم وجمعتموه بواسطة القوزاق ووضعت عليكم رسمًا الفاوار بمائة مليون ريال وجعلتكم تجمعونهُ بايديكم بواسطة مجالسكم . وما ادراكم انكم لاتسقطون تحت اثقال هذا الحمل وان كنتم قد فزتم . ولو تبعنا سياسة فكس لاتفقنا واكملنا تخليص الامم من عبوديتها وجعلنا النفوذ للقواعد فلا يكون لاوربا غير قوة واحدة وجيش واحد يمكننا من التسوُّد على العالم وجعل الغلبة للسلام والتقدم في كل مكان بالقوة او بالاقناع . واعيد ما قلتهُ من اننا لم نرَ ضررًا الاَّ الحقناهُ ببعضنا البعض فما اعظم الخير الذي كنا قادرين ان نأتي العالم بهِ

وفي ٢٧ من الشهر المذكور علم الامبراطور ان النفرة محتدمة بين اثنين من اتباعهِ فكانا يتنازعان بلا انقطاع . وكان الامبراطور يلاحظ احوال بنتهِ بحب والدي فتكدر من تصرفها فاتفق انهُ راها في قاعة الجلوس قبل ساعة الاكل ببرهة قصيرة فقال لها انكما تبعثانني لتخفيف اكدار اسري فاتحدا والا فتكدراني . فاذا كنتما تروما ان تجعلاني سعيدًا اتفقا . وقد قلتما على مسمع مني انكما تروما ان تتبارزا أما انا موضوع عنايتكما الا تتعزى اعين اعدائنا بنا . وقد تركتما عيالكما وضحيتما كل شيء حبًّا بي وشاركتماني بمصائبي ومع ذلك تفعلان ما يزيدها ويجعلها غير محتملة فكونا اخوين واطلب اليكما ذلك كوالد فلنتمتع بالملذات القليلة الباقية لنا . وانقطع الحديث بحلول ساعة تناول الطعام

ومضت على الامبراطور عدة ايام وهو منحرف الصحة مكدرًا فان السار هدسون لو الوالي الجديد قام بامور صغيرة مكدرة لهُ وكان يروم ان يجعلهُ يشعر بضيقات الاسر فاختلى الامبراطور في غرفتهِ وانقطع عن مقابلة الناس . وكان هذا اليوم رطب الهواء شديد البرد . وفي الليل المظلم البارد اضرمت النار للاستدفاء وكان الامبراطور محمومًا مكدرًا لابسًا ثوب البيت متكئًا على مقعد ينظر الى النار ولم يسمح بادخال مصابيح . وكان الجنرال برتران والكونت لاكازا جالسين بجانبهِ فجرى حديث عن فتنتي انكلترا وفرنسا العظيمتين فقال الامبراطور عنهما ما ياتي بسكون وتأنٍّ

اجتمعت في انكلترا وفرنسا غيوم الاضطراب الكثيفة اثناء ملك جيمس الاول ولويس الخامس عشر الكسلانين وانفجرت منهما المصائب ساقطة على شارلز الاول ولويس السادس عشر المنكودي الحظ فقتلا ونفيت عائلتاهما وصارت المملكتان جمهوريتين . وفي ايام الجمهورية توغلت الامتان في ما يجلب العار على الانسان . فان البلدين بانا ميدان اعمال كاعمال المجانين واراقة الدماء والاعتداء على الحقوق فانقطعت جميع روابط الانسانية وهدمت جميع القواعد الصحيحة . فظهر في كل من البلدين المذكورين اي فرنسا وانكلترا رجلان قويان حكيمان فاوقفا التعديات وملكا بجدٍ وتوفيق وبعدهما ارجعت العائلتان اللتان كانتا مالكتين بحق الارث الى عرشيهما على انهما سلكا سبيلاً معوجًا وارتكبا اغلاطًا ذريعة فتجددت الفتنة في المملكتين ونشأ عنها نفي العائلتين المذكورتين دون ان تقدرا ان تقاوما اضدادهما باقل الاشياء . وظهر من هذه المقابلة ان نابوليون كان في فرنسا ككرومل ووليم الثالث في انكلترا . ولكنهُ لا يشابه كرومل بكل شيء بل يتشابهان ببعض الامور ويتباينان ببعضها

وفي ١١ ايار (مايس) تبين ان التباعد بين الفرنسويين في الجزيرة والسار هدسون لو كان يزداد يوميًا . اما الامبراطور فقلما قابلهُ . وفي هذا اليوم سلم الكراند وشال رسالة الى الجنرال بونابرت متضمنة دعوتهُ الى وليمة حافلة في بلانتشون هوس . فنظر الى الرسالة وقال انها غير موافقة فلا جواب لها . وبعد ان استحم ساعتين تناول الطعام هو ولاكازا بعد الظهر بتسع ساعات وكان يتكلم باجتهاد وصرف ساعتين بالحديث وتعجب حين اخبرانهُ لم يبقَ لنصف الليل غير ساعة وقال كيف مضى الزمان فماذا يمنعني عن ان اصرف كل اوقاتي بلذة كما صرفت هذين اليومين فيا لاكازا العزيز لقد جعلتني سعيدًا

وفي ١٤ (مايس) جاء الجزيرة كثيرون من الذوات الانكليز ذكورًا واناثًا بمراكب شركة الهند الغربية وجاءوا الامبراطور في حديقة لونغود . وقال احدهم لرفيقهِ في نهاية المقابلة ما هذا الجلال واللطف اني لا ادرك قوة العقل والجلد التي تمكنهُ من احتمال مصيبتهِ . وخجلوا جميعًا عندما راوا



المنزل الدني الذي بني لهُ . وبعد برهة اخبره اومبارا بما كانوا يتوهمون من جهتهِ قبل مقابلتهِ . فقال لهُ اظن انهُ خيل لهم انني حيوان مفترس ذو قرون

وفي ١٦ ايار (مايس) ذهب السار هدسون لو حاكم الجزيرة الى لونغود وطلب مقابلة الجنرال بونابرت . فقابلهُ في قاعة الجلوس وطال الحديث بينهما واغتاظ احدهما من الاخر . وفي نهايتهِ قال نابوليون للاكازا اننا تخاصمنا وقد فرغ صبر «بت» فبعثوا السار هدسون لو وهو راغب في قتلي فقابلتهُ اليوم مغتاظًا وكان كل منا ينظر الى الاخر بغضب ولا ريب في ان الغيظ بلغ النهاية فانني شعرت باختلاج في عضلة ساقي اليسرى . وهذا من العلامات التي تظهر ان الغيظ اخذ مني كل مأخذ ولم اشعر بهِ منذ زمان طويل فيا لاكازا المحبوب انهم عاملون على قتلي في هذا المكان ثم جلس يتناول الطعام بكدر فلم يقدر ان ياكل وحاول تناسي همّهُ بالحديث فلم يتمكن من ذلك فسلم نفسهُ الى الحزن وذهب الى فراشهِ

وفي ٢٠ ايار (مايس) خرج راكبًا ولما عاد دخل حجرتهُ وقال للاكازا انني مكدر متعب منحرف الصحة فاجلس على تلك الكرسي الكبيرة لتتحدث . وقال لاكازا انهُ القى بنفسهِ على فراشهِ ونام وانا جالس بجانبهِ وكان وجههُ مكشوفًا فتفرست في جبينهِ المكتوب عليهِ مارنجو واوسترلتس ومائة نصر اخر لا يموت ذكره ومن يدرك حساباتي وافكاري التي عاجز عن وصفها . واستيقظ بعد ان رقد نحو ثلثة ارباع الساعة فخيل لهُ حينئذٍ ان يزور جميع غرف اتباعهِ وبعد ان وصف ما احتاج اليهِ من اسباب الراحة في غرفتي قال متبسمًا تبسم الغيظ لا اظن ان في الدنيا مسجنًا اخر في منزل اردأ من منزلك

وبعد ان تناول الطعام مساء في ٢١ من الشهر المذكور تناول التوراة وقرأ على جميع الحاضرين سفر يشوع وكان عند قراءة اسماء اماكن في سورية يذكر ما كان قد رآه فيها حين ذهابهِ اليها

وفي ٢٨ منهُ خرج راكبًا ورجع مارًّا بالقرب من المعسكر الانكليزي فترك الجنود اشغالهم ووقفوا صفًّا ليسلموا عليهِ عند مروره فقال اي جندي انكليزي لا يشعر باحترام عند اقترابي منهُ . وكان يعلم اعتبار الفرقة الانكليزية لهُ ولذلك تجنب الاقتراب منها لئلا يتهم بانهُ راغب في اهاجة حميتها

وفي ٣٠ منهُ جاء حاكم الجزيرة جوار مسكن الامبراطور ومشى حولهُ بسرعة دون ان يقابلهُ وبعد ان تناول الامبراطور الطعام ذكر ما جرى بينهُ وبين ذلك الحاكم في المقابلة الاخيرة وقال لا ريب في انني اسأت معاملتهُ ولا اعتذر الا بسوء حالي غير ان صبري فرغ ولم اقدر ان اضبط نفسي ولو تصرفت هذا التصرف وانا في حالتي السابقة لاحمر وجهي خجلاً ولو فرط مني ذلك

وانا في قصر التويلري لرأيت انهُ من الواجب عليَّ ان اعتذر . وفي اثناء ملكي لم اكلم احدًا بغيظ دون ان اردف كلامي بما يجبر كسره اما هنا فلم افه بكلمة اعتذار لانني لم اكن راغبًا فيهِ اما الحاكم فاظهر عدم المبالاة بكلامي القاسي وظهر لي انهُ لم يتجرح بهِ وكنت اود ان يظهر غيظًا او ان يغلق الباب بعنف عند خروجهِ من القاعة فان ذلك يظهر ان فيهِ حمية غير انني لم ارَ شيئًا من ذلك

وفي ١٢ حزيران (جون) قرأ عدة اعداد من جريدة المونيتور وقال ان هذه الجريدة التي تضر بصيت كثيرين وصوالحهم توافقني على الدوام . واهل القتل والخوف يبنون كتاباتهم التاريخية بالاستناد الى الكتابات الرسمية . فهذه الكتابات المنشورة في الجرائد مملوءة بروح سياسي فاستند اليها

وفي ١٨ حزيران (جون) كان يوم تذكار معركة واترلو فذكر الامبراطور بذلك فلاحت لوائح الكدر والاسف على وجههِ وقال بصوت مخفض حزين انهُ يوم لا ادرك حوادثهُ فانهُ اجتمعت فيهِ مصائب لم نسمع بمثلها . وكان كروشي وناي علة نكباتهِ فيا فرنسا المنكودة الحظ . وعندما فاه بهذا الكلام غطى عينيهِ بيدهِ وصمت برهة . ثم قال ومع ذلك قمنا بكل ما يقدر الحذق البشري ان يقوم بهِ ولم يضع كل شيء الا في الدقيقة الاخيرة من المعركة . ورايت في تلك المعركة التي استمرت نحو اسبوع ثلث مرات فوز فرنسا ونجاحها يذهبان من يدي . ولولا خيانة خائن لبددت شمل العدو في بداية المعركة . وكنت قادرًا على اهلاكهِ في لنجي لو قامت ميسرتي بالواجب عليها وكنت قادرًا على ان ابدد شملهُ في واترلو لو لم تنصر ميمنتي . فهي غلبة غريبة تبدد شملنا فيها ومع ذلك لم ينقص مجد المغلوب ولا زاد مجد الغالب فذكرى اعمال المغلوب تحيا بعدهُ وربما دفنت ذكرى الغالب بفوزه

وفي ٢٢ حزيران (جون) ورد على الامبراطور رزمة من الكتب والجرائد الاوربية فقال ان هذا كنز . ومن شدة شوقهِ الى مطالعتها فتحها بيدهِ معاونًا الخادم وصرف الليل بطولهِ في المطالعة وقرأ في كتاب بارك وهورمان وهو اخبار اسفارهما في افريقية مدحًا بالمعاونات التي كان يعاون بها المسافرين في مصر في مشروعاتهم وسر الامبراطور بذكر اسمهِ مقرونًا بالمدح في كتاب من تآليف الانكليز دون ان يكون مصحوبًا بالقدح والطعن

وفي ٢٧ من الشهر المذكور قرا الامبراطور في جريدة انكليزية ان اللورد كاسترنيا قال بتاكيد في اجتماع عام ان نابوليون لم يتردد عن ان يقول منذ سقوطهِ لو بقي على تخت الامبراطورية لما انقطع عن محاربة انكلترا مدة ملكهِ بطولها لانهُ لم تكن لهُ غير غاية واحدة وهي قرض الامة الانكليزية فقال الامبراطور ان ذلك اللورد من المتعودين الكذب والنفاق و يستخف بقوة سامعيهِ المميزة .



فهل يصدقون انني افوه بمثل هذا الكلام الذي يدل على الحماقة وان كنت مصممًا عليهِ . وثبت ايضًا ان ذلك اللورد قال في مجلس انكلترا العام ان سبب حب الجيش الفرنسوي المفرط للامبراطور نابوليون اخضاعهُ الفتيات ذوات الغنى لما هو كالقرعة وتوزيعها بها على قواد الجيش . فقال الامبراطور لما طالع ذلك ان هذا كذب محض وقد تعمدهُ فانهُ جاء بلادنا في ايام دولتي وشاهد اعمالنا وعاداتنا ووقف على الحقيقة . وهو عالم ان القيام بامر كهذا محال في فرنسا فماذا يظن عن الامة الفرنسوية الا يعلم انها لا تقوم بظلم كهذا الظلم . ومن صالحهِ السياسي ان يجعلني مكروهًا فيستخدم الوسائل لثلم صيتي دون ان يراعي الحق والعدل والواقع فانا مقيد وقد اتخذ جميع الوسائل اللازمة لمنعي عن التكلم للدفاع عن نفسي وقد ابعدوني الف فرسخ عن ميدان العمل وهو في وسطهِ ولا شيء يمنعهُ عن ان يفوه بما يشا وتصرفهُ تصرف الجبناء الادنياء

وفي ٢٥ تموز (جوليه) ارسل مستر هوبهوس من انكلترا كتابًا ألفهُ عنوانهُ تاريخ الامبراطور نابوليون وكان بواسطة السار هدسون لو وطلب اليهِ ان يسلمهُ الى الامبراطور فامتنع ذلك السار وهو حاكم الجزيرة عن تسليمهِ لهُ لانهُ كان قد طبع على ظهره هذا للامبراطور نابوليون . واراد الامبراطور ان يزيل الصعوبات الناشئة عن تلقيبهِ امبراطورًا او جنرالاً فطلب الى الجنرال برتران ان يخابر حاكم الجزيرة بشان تلقيبهِ في الاستقبال الكولونل دوروك او الكولونل مورون وقال انني رغبت في ان آتي هذا المكان مبدلاً لقبي وطلبت الى امير البحر ان يسمح لي بذلك فامتنع واصر الانكليز على ان يلقبوني الجنرال بونابرت . فانا لا استحي بهذا الاسم غير انني لا احب ان تلقبني بهِ الحكومة الانكليزية . فتصرف حاكم الجزيرة وحكومتهُ بهذا الشان مضحك ولا يدركون المقصود . فانا لا ادعو نفسي نابوليون امبراطور الفرنسويين بل الامبراطور نابوليون . وهذا من عادات الامبراطورين الذين اعتزلوا عن الملك . وهكذا كان الملك جيمس الثاني يلقب نفسهُ ملكًا وينادى بصاحب الجلالة بعد ان خسر ملكهُ . والملك كارلوس الاسبانيولي حفظ لنفسهِ لقب الملكية بعد ان اغتنم ملكيتهُ فرديننت . فادعاء الانكليز مبني على انهُ لا يحق للفرنسويين ان يجعلوني ملكًا عليهم دون اذن ملك انكلترا فانا لا اسلم بذلك مطلقًا

وفي ٦ اتموز (جوليه) جاء حاكم الجزيرة الامبراطور واجتمع بهِ نحو ساعتين فقال الامبراطور للاكازا عن الاجتماع انني ذكرت جميع تشكياتنا دون ان اغتاظ وفهمت بكلام بوثر بادراكهِ وحاسياتهِ وقلبهِ وتصوره وابنت لهُ انهُ قادر على إصلاح كل الضرر الذي اوقعهُ علينا وان يتصرف تصرفًا جيدًا على ان تعبي ذهب سدًى فانهُ دون احساس فلا ينبغي ان ننتظر منهُ شيئًا

وكان ٢٢ من الشهر المذكور يومًا جميلاً جدًا وخرج جميع سكان لونغود وتناولوا الطعام تحت شجرة صمغ وقال لاكازا ان الامبراطور بحث عن حالتنا واحتياجاتنا الطبيعية . وقال عندما

ترجعون الى العالم من الواجب عليكم ان يعتبر بعضكم بعضاً كاخوة بسببي فذكري يجعلكم تتصرفون كذلك ثم بيّن اننا قادرون على نفع بعضنا بعضاً وعدد الضيقات التي بلينا بها وكيف اننا قادرون على تخفيفها وعلمنا مثالة عائلية ادبية مزينة بمحاسيات حسنة وقواعد يتيسر ان يقام بها . وكان ينبغي ان تكتب باحرف ذهبية . واستمر يتكلم نحو ساعة وربع ساعة واظن اننا لا ننسى كلامهُ . فلا انساهُ ولا انسى ما بث فينا من الحب

وفي ٢٨ آب ( اوغسطوس ) اجتمع السارهدسون لوحاكم الجزيرة بالامبراطور وفي برهة قصيرة اغتاظ كل منهما من الاخر ووقع الامبراطور بالحدة من جرى الظلم والاهانة . وطلب اليهِ الحاكم ان يدفع ستين الف ريال سنوياً للقيام بمصاريف لونغود وان يقلل نفقاتهُ فاجاب الامبراطور بحدة وويخهُ على القوانين المكدرة غير اللازمة التي كان يضعها فتخاصما وافترقا على خلاف عظيم

وفي الغد قال السارهدسون لُو للطبيب اوميارا اخبر الجنرال بونابرت انهُ متوقف عليَّ من جميع الوجوه ان اخفف ضيقات مركزه لكن اذا استمر يعاملني بعدم الاعتبار اجعلهُ يشعر بقوتي فانهُ اسيري ويحق لي ان اعاملهُ بحسب تصرفهِ . فلا بد من ان اجعلهُ يرجع الى الصواب فانهُ كان علة اراقة دماء ملايين من الرجال واذا فاز بالهرب ربما قتل ملايين اخرى وعلي باشا احق بالاعتبار منهُ

وبعد ذلك قال الامبراطور للاكازا انهُ لا بد لي من ان الوم نفسي على ما جرى فلا ينبغي ان ارى ذلك السار بعد الان فانهُ يعرضني الى حدة غير معتدلة وهذا لا يليق بي ان افوه بهِ وانا في قصر التويلري وعذري الفريد انما هو كوني في يده وتحت تسلطهِ . وكان الاولى بي والاقرب للجلال والحكمة ان ابلغهُ كل ما بلغتهُ اياه بسكون وتأنٍ فلو فعلت ذلك لاثر فيهِ كلامي اكثر من تاثير الحدة

وفي ٢٧ اب ( اغسطوس ) جرى حديث جعل الامبراطور يراجع حوادث امبراطوريتهِ بالاختصار فقال ان الفرنسويين والايطاليان متأسفون جداً من ابتعادي وقد حصلت على شكر البولونيين واسف الاسبانيول . وبعد برهة قصيرة تاسف اوربا من ضياع الموازنة التي لم يكن غنى عن الامبراطورية الفرنسوية للمحافظة عليها . وقد امست اواسط اوربا في مركز ذي خطر عظيم فانها عرضة لغارات التوزاق والتتر . اما الانكليز فلا بد من ان يتأسفوا لانهم فازوا في واترلو وستجرى امور تجعل الاجيال القادمة وجميع العارفين بحقيقة الامور من معاصريَّ يتاسفون لان مشروعاتي لم تنز بالنجاح

وفي ٢ ايلول ( سبتمبر ) هطل مطر غزير وهبت رياح شديدة فجلس الامبراطور في حجرتهِ



امام نار وقال اليوم تذكار حادث نقشعر منهُ الابدان وهو مذابح ايلول ( سبتمبر ) المعروفة بسان بارثولومو وهو نقطة دموية قام بها ( كمون ) باريس المناظر للقوة القضائية المبني على شهوات او باشها ولا يحدث تغيير مصحوب بهيجان الجمهور فالعامة لا تدخل ميدان عمل دون ارتكاب الخطا واراقة الدماء . وكان بين جيش بروسيا وباريس نحو اربعين فرسخاً وعلق اعلان الدوق دي برنسويك على جميع حيطان المدينة وكان قد تقرر عند العامة ان صيانة الفتنة هي قتل الملكيين فساروا مسرعين الى السجون وسكروا بالدماء صارخين فلتعش الفتنة وكان لهيجانهم تاثير البرق فانهُ القى الخوف في قلب فيئة وقوى فيئة اخرى فانضم الى الجيش حينئذ مائة الف متطوع وتخلصت الفتنة . وكنت قادراً على تخليص تاجي باهاجة الاهالي على الذين كانوا يرغبون في ارجاع الملكية وانتم تتذكرون مونثولون حين كنتم في رئاسة جيوشكم راغبين في مجازاة فوشي على خيانتهِ وان تصرحوا باعطاءي السلطة المطلقة ولكنني لم ارضَ في ذلك فانني كرهت ان اكون ملك عامة مضطربة . ومهما قال الناس عن الفتنة ليست الا من اعظم البلايا التي يقاص بها الغضب الالهي امة وهي بلية الجيل الذي يقوم بها وتكون عمومية مدة طويلة . فالسعادة الحقيقية في الانتظام السلمي وانفاق اسباب الرفاه وكنت اُهب الفقراء كل سنة ملايين وانفقت مبالغ وافرة لترقية الصناعة ومع ذلك في فرنسا الان من الفقراء اكثر مما كان فيها سنة ١٧٨٧ والسبب ان الفتن مهما انتظمت ادارتها تخرب كل شيء في الحال ولا تعيد العمران الا بعد زمان طويل . وكانت الفتنة الفرنسوية اضطراباً وهيجاناً وطنياً لا تغلب كانها هيجان فوزفوس جبل النار . وحين ينضج عدم ارتضاء امة تشب نيران الفتن واذا توهم البوربون انهم في مركز ثابت في عرش الملك يخدعون انفسهم . ولعلي لا ارى باريس على انني عالم ان اهاليها لا بد من ان يكسروا صولجان الملك الذي سلمهُ اعداء فرنسا للملك لويس الثامن عشر

اما ابني فيملك اذا سمح للاهالي ان ينفذوا ارادتهم دون ممانعة . واذا فاز الذين يدعون انفسهم حزب الحرية يكون تاج الملك للدوق اورليان . على انهُ لا بد للاهالي من ان يروا بعد زمان طويل او قصير انهم قد خدعوا وان الابيض لا يكون غير ابيض والازرق ازرق وانهُ لا ضمانة لصوالحهم الحقيقية الا بدولتي لانهم هم انشأوها . ولم اختلس تاج الامبراطورية ولكن الاهالي وضعوه على راسي بعد ان سئمتهُ ورغبت في ان يكون اسم الفرنسويين اشرف اسم في العالم . وكنت امبراطور الاهالي والبوربون ملوك الامراء وان ستروا راية اسلافهم بالوان . ولما كنت متحققاً ان الاهالي يميلون اليَّ رجعت الى فرنسا من جزيرة البا وقال اصحاب الفتنة انهُ لا بد من مراعاة بعض روساء حزب الملكية . فامتنعت وقلت للذين كانوا يشورون عليَّ انني اذا كنت محبوباً عند الاهالي فلا دخل لي عند الملكيين واذا كنت غير محبوب عندهم فلا يقللون العدد ولا يكثرونهُ .

وكان السار هدسون لو حاكم الجزيرة قد اخبر الامبراطور بلسان الكونت مونثولون انهُ لابد من تقليل نفقات بيتهِ كثيرًا وتخفيض عدد اصحابهِ وان النفقة لاينبغي ان تزيد عن الف ريال في الشهر . واذا لم يرضَ الجنرال بونابرت بهذا التخفيض ينبغي ان يدفع الزيادة من مالهِ . فاجاب الامبراطور انهُ يرضَ بسرور ان يدفع من مالهِ جميع نفقاتهِ اذا سمح وزراء انكلترا لصراف في الجزيرة او في لندن او باريس تختاره هي بان يكون وسيطًا يقدر الامبراطور ان يرسل بواسطتهِ كتابات مختومة ويتناول منهُ اجوبتها . وانهُ يعد بشرفهِ ان هذه الكتابات لا تتعلق الا بامور مالية وان الصرّاف يتعهد بذلك ايضًا وان تكون الكتابات مصونة من الفتح . فلم يرضَ حاكم الجزيرة بذلك وقال انهُ لايسمح بارسال كتابات مختومة من الامبراطور واعوانهِ ومع ذلك اصرَّ على تخفيض النفقات او ان الامبراطور يدفع الزيادة وطال الجدال واشتد فتكدر الامبراطور جدًّا . ولم يصغَ الحاكم لهُ فقال لهُ الكونت مونثولون لما كانت الحكومة الانكليزية لا تسمح للامبراطور بان يتناول مالهُ كان لاغنى لهُ عن بيع آنية الفضة فيكسر منها كمية كل شهر ويرسلها الى البلدة للبيع لسد النفقات الضرورية لحفظ حياتهِ . وخطر للامبراطور ان يصرف ستة خدامين للتوفير ويقدر ان يجعل مصاريف بيتهِ واصحابهِ نحو الف وخمسمائة ريال في الشهر يدفع منها حاكم الجزيرة الفًا فالتزم الامبراطور بان يدفع خمسمائة ريال في الشهر من مالهِ او ان يصرف اصحابهُ

وكان اليوم السابع من ايلول مظلمًا وكان الامبراطور منحرف الصحة فلم يخرج من حجرتهِ وجاء الليل برياحهِ وامطارهِ فدعا نابوليون اليهِ الطبيب اومبارا . وقال هذا الطبيب جئت نابوليون وهو جالس في غرفة النوم وليس فيها غير نور النار المشبوبة وكان لهيبها يرتفع تارة ويسقط اخرى ويكشف عن لوائح الكدر التي كانت تلوح على وجههِ وهو جالس قبالتها واضع يديهِ على ركبتيهِ متاملاً في سوء حالتهِ . وبعد ان دخل ذلك الطبيب صمت الامبراطور برهة ثم قال ايها الطبيب ان هذا مما تعجز صناعتك عنهُ وقد حاولت باطلاً نوال راحة قليلة ولا اقدر ان ادرك سبب تصرف وزرائكم فانهم قد صرفوا مائتين واربعين الف ريال ( الريال ٥ فرنكات ) لارسال اثاث وحطب ومواد بناء لمنزلي حال كونهم يرسلون اوامر لتقليل مأكلي والزامي بصرف خدمي وتنزيل نفقاتي تنزيلاً يسلب الراحة . وقد عينوا لنا معاونين يقع جدال بينهم وبين خدمنا من جهة قنينة من نبيذ او اقة من اللحم بجدٍّ واهتمام كانهم يفاوضوننا بشان تقسيم ممالك . فاري في تصرفهم مناقضات تحيرني فمن جهة تراهم ينفقون مبالغ وافرة لا لزوم لها حال كونهم يبخلون بمبالغ قليلة دنيئة فلماذا لا يمكنوني من صرف كل شيء عوضًا عن ان يهينوا الامة الانكليزية . فانهم لا يقدمون لاتباعي ما تعودوهُ ولا يمكنوني من ذلك بارسال رسالات مختومة بواسطة محل تجاري هم يختارونهُ ولا رجل في فرنسا يرضى بان يجاوب رسالة من رسالاتي حال كونهِ يعلم ان وزارة انكلترا



تطالع جوابهُ وتخبر بهِ البوربون فيعرض املاكهُ للضياع ونفسهُ للهلاك التام . وفضلاً عن ذلك ان وزارتكم لم تظهر الامانة بحجز المبلغ القليل من الدراهم التي كانت معي في البارجة بلروفون وهذا يحملني على ان اظن انها تحجز كل مبلغ علمت بهِ . والظاهر ان المقصود من ذلك انما هو خدع الامة الانكليزية فانها ترى هذا الاثاث صادرًا واستعدادات كثيرة فتقول ان معاملتي حسنة فلو عرفت الواقع وانهُ يمس ناموسها لما رضيت بهِ

وكتب لاكازا في السادس عشر من شهر ايلول ( سبتمبر ) في صباح هذا اليوم جاء خادمي ليخبرني انهُ لا قهوة ولا سكر ولا حليب ولا خبز للاكل صباحًا . وامس شعرت بجوع قبل تناول الطعام مساء فطلبت قطعة من الخبز فقيل لي انهُ لا خبز لي . وهكذا بتنا في الاحتياج الى الاشياء الضرورية . ومن يصدق ذلك . وفي ثلثة اشهر كسر الامبراطور جميع آنيتهِ الفضية خلا الكاس الفضية المذهبة وباعها وكان يظن السار هدسون لو حاكم الجزيرة ان عند الامبراطور دراهم مخبأة يقدر ان يجبرهُ على اظهارها بالامتناع عن انفاق ما يلزم لقيام الحياة فالتزم الامبراطور بان ياكل اكلاً دنيًا لم يتعودهُ فامتنع عن الاكل . وفي ذات يوم قال لي ونحن خارجون من غرفة الاكل يا بنيَّ لا بد من ان نسلم اننا جميعًا كالاولاد فهل تصدق انني لم اقدر ان اتغلب على كرهي لهذا الاكل والآنيتهِ مع انني كنت آكل في صغري في آنية سوداء فبالحقيقة انني اخجل من نفسي

وبعد هذه المضايقات رجع السار هدسون لو حاكم الجزيرة عن عنادهِ وقال انهُ متاسف لتجاوزهِ حدود الاعتدال بمضايقة الفرنسويين وانهُ لم يقم بما قام بهِ الا بعد ان تقرر في عقلهِ ان عند الاسرى مقادير وافرة من الذهب . وانهُ لو عرف ان تلك المضايقات تجعل الجنرال بونابرت ياكل طعامًا كالذي ياكلهُ افقراء اهل الجزيرة لما كسر اناء واحدًا من الانية الفضية لبيعهِ . ولما عرف اصدقاء الامبراطور انهُ بات في ذلك الاحتياج جعلوا اموالهم تحت امرهِ ووردت عليهِ كتابات من امهِ ومن جوزيف وهورتنس وبولين والبزا وجيروم ولويس وفوضوهُ جميعًا بان يحول عليهم ما يشاء من النقود

وفي ٢٠ من الشهر المذكور قرأ الامبراطور في جريدة انكليزية ان اللورد كاسلريا حكى لجمهور في ايرلندة ان نابوليون قال في الجزيرة التي نفي اليها انهُ لم يكن يصالح انكلترا الا ليخدعها ليتمكن من ان يحمل عليها بغتةً ويدمرها . وان سبب حب الجيش الفرنسوي للامبراطور انما هو لانهُ كان يزوج جنوده بنات اغنى الاهالي . فلما قرأ العبارة غضب جدًّا وكتب الجواب الآتي

ان هذه التنديدات برجل ظُلم ظلمًا بربريًا ولا يسمح لهُ برفع صوتهِ ليرد عليها لا يصدقها جميع

المتعلمين الذين يدركون حقيقة الاحوال . ولما كان نابوليون جالساً على اعظم عرش في الدنيا كان يحق لاعدائهِ ان يطعنوا بهِ كما يشاءون فان اعمالهُ كانت جهارية كافية للرد عليهم . ومن المعلوم ان تصرفهُ صار من متعلقات التاريخ على ان التفوه بتنديد جديد دني في الحال لا ينشأ الاَّ عن الدناءة والجبن ولا ياتي بالنتائج المطلوبة ففي كل يوم تنشر ملايين من التنكيتات لكنها دون تأثير . فان ستين مليوناً من رجال اكثر الامم تهذيباً وتمدناً يرفعون اصواتهم للرد عليها . وخمسين الفاً من الانكليز الذين يجولون في اواسط اوربا للسياحة يرجعون الى وطنهم ويذيعون الحقيقة على اهالي ممالك انكلترا فتحمر وجوههم اذ يرون انهم قد خدعوا

وهكذا انتهت السنة الاولى من اسر نابوليون في جزيرة سنته هيلانة . وان ذكر جميع المضايقات والتكديرات والاهانات التي طرأت عليهِ يوجع قلوب مطالعي هذا التاريخ فالذين تحتمل قلوبهم قراءة تفصيلات هذه الاخبار المكدرة يجدونها في اخبار اسر نابوليون الكثيرة المثبتة بالكتابات الرسمية الصادرة من السار هدسون لو حاكم الجزيرة

## الفصل التاسع والستون
## السنة الثانية والثالثة

وكان الامبراطور يضعف بسرعة فاخذ الكدر كل مأخذ من رفاقهِ . ولم يكن يسمح لهُ بان يركب او يمشي دون ان يكون مصحوباً بضابط انكليزي . وكان حراس حاملون بنادق محشوة واقفين على الدوام امام نوافذ مسكنهِ وبابهِ وكان ممنوعاً من ان يكلم اهالي الجزيرة الا على مسمع من ضابط انكليزي . وطلب الحاكم الى جميع رفاق الامبراطور ان يمضوا الاعلان الاتية ترجمتهُ

انني انا الواضع اسمي في ذيل هذه الورقة اصرّح بانني راضٍ بالبقاء في الجزيرة وان اشارك بونابرت بجميع القوانين التي توضع عليهِ شخصياً . انتهى

ولم يكن رفاقهُ يرضون ان يوقعوا ورقة فيها ذكر اسمهِ دون اعتبار . فوقعوا عليها بعد ان حذفوا اسم بونابرت وبدلوه بالامبراطور . فارجع الحاكم الورقة وطلب اليهم ان يمضوا الورقة التي كان قد بعث بها اليهم . فقال لهُ الطبيب اومبارا انهُ لا يظن ان الفرنسويين يوقعون تلك الورقة فقال الحاكم اظن انهم قد سرّوا بذلك لانهُ يجعلهم يحصلون على مسوغ لترك الامبراطور وسآمرهم بتركهِ

ولما سمع رفقاء نابوليون هذا الكلام تحيروا واجتمعوا في غرفتهِ فقال الامبراطور ان الاهانات التي تلحق كل يوم بالذين وقفوا انفسهم في سبيل خدمتي حال كون الراجح انها تزداد كثيراً



هي مما لا اقدر ان احتملهُ ولا ينبغي ان ارضى بهِ . فيا سادتي لابد من ان تتركوني . فانني لا اقدر ان اراكم خاضعين للمضايقات التي تلقى عليَّ ولا ريب في انها تزداد قريباً . فابقى هنا وحدي . فارجعوا الى اوربا واعلنوا المضايقات التي بثَّ فيها والمعاملة المخيفة الواقعة عليَّ . واشهدوا بانهم ساقوني الى القبر قبل يومي . فانا لا اسمح لاحد منكم ان يوقع هذه الورقة على ما هي عليهِ ولا اسمح بان تكتب اهانتي بالايادي التي اقدر ان انفذ امري فيها . فاذا كانت الموانع قد أُلغيت بسبب امر خالٍ من الاهمية ففي الغد تلقى موانع اخرى لاسباب غير مهمة مثلها . وقد صار التصميم على اخراجكم من الجزيرة بالتتابع على انني افضل ان تخرجوا منها دفعة واحدة لانهُ ربما نشأ عن هذه التضحية نتيجة حسنة

وفي ذلك الليل قبل نصفهِ بساعة ورد على الكونت بتران رسالة من السار هدسون لو ما كلها ان امتناع الفرنسويين عن التوقيع على الورقة التي بعث بها اليهم يحملهُ على ان يلزمهم بالذهاب الى راس الرجاء الصالح في الحال على مركب تهيأ لنقلهم اليهِ . فهذه الرسالة حملتهم على توقيع الورقة فذهبوا جميعاً بكدر وخوف الى القبطان بويليتون بعد نصف ساعة ووقعوا على الورقة المكروهة عندهم فارسلت في الحال الى حاكم الجزيرة

وفي ١٦ تشرين الاول (اوكتوبر) دعا الامبراطور اليهِ الطبيب اومبارا وطلب اليهِ ان يقابل السار هدسون لو حاكم الجزيرة وان يطلب اليهِ مجانبة للمشاكل ان يسمي الامبراطور نفسهُ الكولونل موليرون او البارون دوروك وقال لهُ اذا قبل الحاكم بذلك فليخبر برتران بقبولهِ ويختر منهما الاسم الذي يوافقهُ . وهذا يزيل صعوبات كثيرة ويمهد طرق الاتفاق . فقابل الطبيب الحاكم فقال لهُ ان هذا امرٌ مهمٌ جداً لابد من التأمل فيهِ وسابلغهُ الى الحكومة الانكليزية فعاد الطبيب الى الامبراطور واخبره بما كان فقال لهُ انني اعتزلت امبراطورية فرنسا دون ان اترك لقب امبراطور . فالملوك في الغالب يحافظون على القابهم بعد اعتزالهم . وهكذا كارلوس ملك اسبانيا لا يزال يلقب ملكاً ويدعى بصاحب الجلالة مع انهُ اعتزل الامبراطورية على ان الانكليز يرومون ان يبينوا انهُ لا يحق للامة الفرنسوية ان تجعلني ملكاً عليها فاذا كان لا يحق لها ان تجعلني امبراطوراً فلا يحق لها ان تجعلني جنرالاً . وامتكم دعت واشنطون رئيس عصاة مدة طويلة وامتنعت عن ان تعترف بهِ ولا بقانون بلاده الاساسي غير ان نجاحهُ الزمها بان تعترف بهِ فالنجاح يجعل الانسان عظيماً . ولولا ممانعة وزرائكم لرايت تلقيبي بامبراطور وانا في الحالة التي امسيت فيها ضرباً من الاستهزاء

ثم ذكر حب اصحابهِ لهُ المتجاوز حدود الاعتدال المستحق كل الثناء ببقائهم معهُ في تلك الجزيرة على غير ارادتهِ وكانوا قادرين على ان يتخلصوا من البقاء هنا دون ان يعرضوا انفسهم للعقاب

والملامة بالامتناع عن التوقيع على تلك الورقة خصوصاً بعد ان امرتهم بان لا يوقعوا عليها . ولم يرتضوا بذلك وكان يسهل عليهم ان يصفوني بالظالم بونابرت او بوصف اخر ليتمكنوا من البقاء معي ومشاركتي في شقائي مفضلين ذلك على العود الى اوربا حيث يقدرون ان يعيشوا براحة وعظمة . وكلما اجتهدت حكومتهم باذلالي يبالغون في احترامي ويفتخرون باعتباري الان اكثر مما كانوا يعتبرونني لما كنت في ذروة مجدي وغاية اقتداري

وفي ٢٨ تشرين الاول (اوكتوبر) كتب لاكازا ما ياتي انني لم اقابل الامبراطور اليوم الاّ عند الساعة الخامسة بعد الظهر فانهُ دعاني اليهِ فيها وقابلني في قاعة الجلوس وكان لا يزال منحرف المزاج ومع ذلك كان قد صرف نصف النهار في الكتابة بواسطة المارشال ودعا اليهِ اصحابهُ بالتتابع وكان في كدر وحزن . فان الهواء كان يؤثر في اعصابهِ والاضطهاد الذي وقع علينا كان يكدره جداً . وكانت كل كلمة يفوه حاكم الجزيرة بها تزيد شقاءنا وفي هذا اليوم اخبرنا انهُ مصمم على ان ينقل اربعة اشخاص من رفاقنا فاحزننا ذلك جداً . فالذين عينوا للنقل باتوا في كدر من جراء مفارقة رفاقهم والباقون باتوا في قلق خوفاً من ان ينقلوا ايضاً . وفي غد هذا اليوم اخرجوا من لونغود واركبوا مركباً ذاهباً الى راس الرجاء الصالح

وفي ٣ تشرين الثاني ( نوفمبر ) سال الطبيب اوميارا الامبراطور عن سبب مساعدتهِ للاسرائيليين مساعدة عظيمة فاجاب انني كنت راغباً في حملهم على ترك الربا غير القانوني والقيام بالاعمال كسائر الرجال وكان في البلاد التي ملكت عليها كثيرون منهم وعلقت الامل بان اجعلهم محبين لوطنهم كسائر الاهالي بابطال الموانع السياسية التي كانت تحول دون حقوقهم وتمكنهم من ان يتمتعوا بمساواة الكاثوليك والبروتستنت . وكنت قادراً على ان افوز بما ارغب فيهِ . وفضلاً عن ذلك عقدت النية على ان اجعل الحرية المدنية عمومية وان ابقي للدين امتيازاً وامكّن الجميع من التمتع بحرية الضمير والافكار واجعل الرجال جميعاً في مساواة اذا كانوا من البروتستنت او الكاثوليك او المسلمين او الموحدين او غيرهم بحيث لا يكون لدينهم دخل في بلوغ المناصب . فقال الطبيب هل كنت مصمماً ان تسمح للرهبنة اليسوعية بالرجوع الى فرنسا . اجاب لا ان ذلك لم يخطر ببالي فانها رهبنة اعمالها ذات خطر واضرت اكثر من جميع الرهبنات ومن تعاليمها ان رئيسها هو ملك الملوك ورئيس العالم وعليها ان تطيع جميع اوامره ولو كانت مضادة للقوانين وكل تعدٍ تقوم بهِ انفاذاً لامر رئيسها المقيم في رومية يصير فضيلة . فلا ارضى ان تقام جمعية في امبراطوريتي تحت رئاسة اجنبي في رومية . فقال الطبيب اننا نخشى ان يصبح للكهنة واليسوعيين نفوذ عظيم في فرنسا بعد برهة قصيرة . فاجاب الامبراطور ان هذا ليس ببعيد فان البوربون من اهل التعصب ويرتضون بان يرجعوا مجالس التفتيش الديني واليسوعيين . وقبل ان ملكت كان



البروتستنت يعاملون معاملة رديئة كالاسرائيليين ولم يكن يسمح لهم في ابتياع الاراضي فقررت المساواة بينهم وبين الكاثوليك . اما الان فسيعيدهم البوربون الى ما كانوا عليهِ فانهم يخشونهم ويخشون جميع القواعد الحرة

وفي ١٦ تشرين الاول ( اكتوبر ) اشتد انحراف صحة الامبراطور وكان الهواء بارداً رطباً فجلس في غرفتهِ يصطلي وربط صدغيهِ الخافقين بمنديل وكان مؤلماً من وجع ضرس والبرد فقال ان الانسان مخلوق شقي فان مرض اقل انسجتهِ يوقع الخلل في انتظام جميع جسمهِ . ومع ذلك كثيراً ما تمس الحاجة الى استخدام الجلاّد لنهي حياتهِ وان كان معرضاً لامراض كثيرة . فما اغرب هذا الثوب وهو آلة ارضية ربما حبست فيها ثلثين سنة

وصرف الامبراطور اليوم الاول من تشرين الثاني ( نوفمبر ) في قلق شديد وذكر ابطال صلح اليانز قائلاً ان ابطالهُ بغتة بادعاآت كاذبة بتصرف الوزارة الانكليزية تصرفاً يخل بالامانة وحجزها مراكب تجارية كثيرة قبل اشهار الحرب غاظني جداً . فاعترضت عليها بالحاح فاجابت دون مبالاة ان ذلك من عاداتها القديمة . وهذا صحيح . وكان قد فات الزمان الذي ترضى فيهِ فرنسا بان تخضع لذلّ كهذا وظلم عظيم بجبن . وجعلت نفسي المحامي عن حقوقها ومجدها وصممت على ان اجعل اعداءنا يعرفون من يعاملون ولسوء الحظ لم اقدر ان اقابل تعديها الاّ بتعدٍ اعظم منهُ . وكنت انكد جداً من الايقاع برجال ابرياء لمقابلة تعدي حكومتهم . على انني لم اقدر ان اتجنب ذلك

وقال الامبراطور في ٢ تشرين الثاني ( نوفمبر ) عن شروط الصلح التي طلبتها الدول المتحدة في شاتيلون انني اصبت بالامتناع عن امضاء البلاغ الاخير واوضحت الاسباب التي حملتني على الامتناع فلم اندم على ما فعلت ولو كنت في هذه الصخرة في شقاء عظيم . وانا عالم ان قليلين يفهمون مقاصدي على ان الوقوع في البلايا ودوران دولاب الدنيا علينا لا يمنعان الناس حتى العامة منهم عن ان يدركوا ان الذي ساقني الى ذلك هو مراعاة جانب العرض والناموس . فلو فازت الدول باذلالي بنوال مطالبها لما اكتفت بما فازت بهِ بل كانت تجري طلباً مذلاً بعد طلب وكانت تستغنم سنوح الفرصة بمعاهدة كتلك المعاهدة . وتتم بالحيل ما شرعت فيهِ بالقوة . وبعد ذلك اين تمسي امنية فرنسا واستقلالها ورفاهها . واين بيت ناموسي وشرفي . الا تتمكن بعد ذلك الدول المتحدة من ان تجعلني ساقطاً عند الامة كما جعلتني ساقطاً في ميدان الحرب . وذلك يهيء الراي العام لقبول ما تروم في ان تجعلهُ تقبلهُ . الا تلومني فرنسا على السماح للاجانب بان يستولوا على ارض أمنتني عليها . وهل تقدر الامة الفرنسوية مع تذكرها مجدها ان تحتمل بصبر جميل الاحمال التي تلقى على عاتقها . فهذا ياتي باضطراب جديد ومخاصمات واختلال فتفضلت ان اخاطر بقتال

اخر على هذه الحال مصمماً على الاعتزال اذا مست الحاجة اليهِ . وربما استصعب المؤرخون ان يعدلوا عند الكلام عني لان الاكاذيب ملأت العالم ونسبوا الى اعمالي ما لا ينسب اليها وثلموا صيتي بالطعن بما لا يحق لهم ان يطعنوا بي من جراه

وقال احد السامعين لهذا الكلام انهُ لا بد من ان تنقشع الغيوم عن الحقيقة مع مرور الزمان . فقال ان هذا هو الواقع وربما قيل ان نصيبي هو عكس نصيب الاخرين فان السقوط يحط شان الانسان غالبًا الا ان سقوطي رفعني جدًّا . وفي كل يوم تنقص اوهام الناس من جهة مظالمي وتعدياتي

وفي السادس من الشهر المذكور ذكر الامبراطور روسيا وقال من لا ترتعد فرائصهُ خوفًا عند التامل في امة عظيمة كهذه لا يحمل عليها من كل الجوانب ولا من المؤخرة منحدرة علينا بعنف فاذا فازت تدفع كل شيء امامها واذا انكسرت تتنهفر في البرد والخراب وهما قوتاها الاحتياطيتان حال كونها حاصلة على اسباب البروز ثانية مجددة القوة . فاذا قام في روسيا امبراطور حاذق ممتاز تبيت اوربا كلها لهُ

وفي ١٤ من ذلك الشهر قام السار هدسون لو حاكم الجزيرة بمضايقات جديدة . فقال لاكازا للامبراطور يا مولاي ان هذه المعاملة لا بد من ان تزيد كرهك للانكليز . فهز كتفيهِ وقال ضاحكًا ان الكره العام لا يليق وهو من طبع الادنياء في العالم فالاصوب ان تقول ان هذه المعاملة تجعلني اكره زيدًا او عمرًا من الانكليز الذين يسيئون معاملتي على انني اقول ان الرجل الذي يستحق ان يوصف بصفات الرجال لا يكره كرهًا دائمًا فان غضبهُ ينحصر في ساعة الحدّة . والرجل المعد للاعمال العظيمة والتسلط لا يهتم ابدًا بالاشخاص لكنهُ يرى الاشياء وتاثيراتها وعواقبها . ثم ذكر رجلاً ذا عقل قوي وعادات غير مثقفة وقال السبب هو نقصان تهذيبهِ الاول وثيابهُ الاصلية لم تكن جميلة ولا نظيفة

وكتب لاكازا في ١٦ تشرين الثاني ( نوفمبر ) قال بعد الظهر بنحو ثلث ساعات دعاني الامبراطور اليهِ وكان راغبًا في الخروج . وتكدرنا لما رايناه من اصفرار لونهِ وضعف جسمهِ ما رايناه ولما مررنا في الاجام راى الحصون التي كانت الحكومة الانكليزية تبنيها لتكون محيطة بنا فلم يقدر ان يمنع نفسهُ عن التبسم استخفافًا بهذه الاحتياطات الخالية من النفع واللزوم وقال ان محاسن الاراضي التي تجاور منزلنا زالت بقطع اشجارها لرفع الضفات بها . والواقع ان الحاكم قد صرف شهرين في حفر خنادق وانشاء حواجز وغير ذلك لحصرنا في لونغود فقد امسينا كاننا في استحكام . وقيل لنا بتاكيد ان السار هدسون لو الحاكم كثيرًا ما ينهض من فراشهِ ليلاً لانشاء تحصين جديد . وقال الامبراطور ان هذه الاعمال تشابه اعمال المجانين . فماذا يمنع ذلك الحاكم عن ان ينام براحة ويتركنا وشاننا



الا يرى اننا في مركز لا نقدر ان نخرج منهُ فما من شيء يدعو الى القلق والخوف من تمكننا من الهرب

وفي ٢٥ تشرين الثاني ( نوفمبر ) طرات مصيبة جديدة على الامبراطور . فان صديقهُ الامين ورفيقهُ الذي لم يكن يفارقهُ أُبعد عنهُ دون ان ينبه بكلمة بعد ان سجن شهرًا وارسل معهُ ابنهُ الى راس الرجاء الصالح ومنهُ الى انكلترا . اما سبب ذلك فهو ان الحاكم ادعى ان لاكازا كتب رسالة وصف بها حالة الامبراطور وكانت باسم الاميرة كلافرن وسلمها الى خادم لترسل الى اوربا دون ان يعرف بها السار هدسون لو الحاكم . فكدر ذلك العمل الامبراطور جدًّا لانهُ خسر الذي كان يسليهِ في منفاهُ المقفر وساعات مرضهِ . ولم يسمح للاكازا ان يرى الامبراطور ولا ان يودعهُ بكلمة على ان الامبراطور كتب الرسالة الاتية الى ذلك الكونت المكدر جدًّا

ايها الكونت لاكازا المحبوب . لقد اثر جدًّا ما طرأ عليك في قلبي . فانك ابعدت عني قهرًا منذ خمسة عشر يومًا ثم اودعت السجن وامسيت غير قادر على ان اخابرك ولا ان اتناول منك رسالة . وتصرفك في سانته هيلانة كان كتصرفك حيالك بطولها شريفًا خاليًا من اللوم . واحب ان ابين لك ذلك . وقد صار ايجاد سبب غير صحيح لحجز اوراقك . على ان رسالتك باسم صديقتك في لندن ليست مما يجعل للضابطة حق تفتيش حجرتك لانها ليست متضمنة مؤامرة ولا شيئًا سريًا فما هي الا تشكيات قلب كريم خالص الوداد . وقد صار حجز اوراقك حال كونهِ معلومًا ان منها ما يختص بي دون مراعاة القوانين بفرح عظيم وذلك من حجرة مجاورة لحجرتي . واخبرت بذلك بعد ان تم بدقائق قليلة فنظرت من النافذة فرايتهم ذاهبين بك وحولك رجال كثيرون . فتصورت بعض اهالي جزائر البحار الجنوبية يرقصون حول اسير صمموا على اكلهِ . اما معاشرتك فكانت من الامور التي احتاج اليها فانك وحدك كنت قادرًا على قراءة الانكليزية والتكلم والكتابة بها . وكم من ليلة سهرت معتنيًا بي اثناء مرضي . ومع ذلك اطلب اليك بل امرك ان تطلب الى الحاكم ان يرسلك الى اوربا . ولا يقدر ان يمتنع عن ذلك فانهُ ليس يتسلط عليك الا بواسطة الورقة التي امضيتها باختيارك واسر جدًّا اذا عرفت انك ذاهب الى بلاد فيها سعادة اكثر من هذه الجزيرة فاذا ذهبت الى انكلترا او الى فرنسا افرغ جهدك في تناسي المشقات والمضرة التي وقعت عليك وافرح بتذكر امانتك بالنظر اليَّ وبحبي لك . واذا اجتمعت بزوجتي وابني فقبلهما . وقد مضت عليَّ سنتان دون ان اسمع منهما شيئًا او عنهما . وقد جاء هذه الجزيرة رجل الماني من علماء النبات ورآهما في حديقة اسخبرون قبل سفره ببضعة اشهر وهولاء البرابرة قد منعوه عن ان يقابلني ويخبرني عنهما

وارجوك ان تتعزى وان تعزي اصدقاءي ومن المحقق ان جسدي عرضة لغضب اعداءي فلا يتركون شيئًا من اسباب الانتقام فيجعلوني احمل العذابات التي تاتي بموتٍ تدريجي على ان

الله عادل فلا يسمح بان تطول مدتها . فان رداءة هواء الجزيرة والاحتياج الى كل ما يأول الى قيام الحياة لا يلبثان ان ينهيا حياتي ودقائقها الاخيرة ويكون اللوم واقعاً على الصفات الانكليزية . وسياتي يوم تنكر فيه اوربا بغضب ذلك الرجل الشرير وان جميع الانكليز الحقيقيين يقولون انه ليس بانكليزي . ولما كنت عالماً انه لا يسمح لك بان تقابلني قبل سفرك اقبلك عن بعد موكداً لك احترامي وصداقتي فكن سعيداً انا لك محب

نابوليون

كتب في لونغود في ١١ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨١٦

فختم هذا الكتاب وعنون باسم لاكازا وارسل الى السار هدسون لو الحاكم فرده في الحال قائلاً انه لا يسلمه الى صاحبه ما لم يقرأه ويصادق عليه . ولما ارجع الى نابوليون كان متكئاً على مقعد فلم ينه بكلمة بل رفع يده الى فوق راسه وتناوله وفض ختمه ورده دون ان ينظر الى الرسول ولم يسمح للاكازا ان يرى الامبراطور وخرج من الجزيرة في ٣٠ كانون الاول (دسمبر) بقلب خفوق لانه التزم ان يترك ذلك الاسير المنكود الحظ وحده ليلاقي نصيبه المخيف

وقال نابوليون لاومياره الطبيب ان الذي يبعد عني بعد لاكازا هو مونثولون لانهم يرون انه صديق نافع يعزيني فحظي اقل نحساً من حظهم فانني لا ارى احداً . اما هم فلا يقدرون ان يجولوا دون ان يخضعوا لحراسة مذلة وقد تكدرت لانهم لم يخرجوا جميعاً من الجزيرة منذ شهرين فان عندي من الجلد ما هو كاف لان الاقي جميع هذه المظالم وحدي . وبقاؤهم هنا بضعة اشهر ليس الا اطالة زمان ظلمهم . وبعدان يبعدوا جميعاً تبعدانت ايضاً وهكذا ينم الاثم . اما انا فلو لم اكن عالماً انه اذا سالت الامة الحكومة عن حالي تقول انني لم اشك لها امري . وتقول ان عدم التشكي دليل حسن معاملتي ولولا ذلك لكان التفوه بشكوى غير لائقة لي وان كنت في كدر من تصرف الحاكم حتى انني اسر جداً اذا بلغني انه وردت الاوامر بقتلي ويكون ذلك سعادة لي

وكان الامبراطور يقيم في غرفته محاولاً ان ينسى وبله بمداومة الاشغال العقلية ولم يكن يقابل الناس ولا ان يخرج معرضاً نفسه لاهانة المراقبة وسير الحراس في اثره اينما توجه

وقال الكونت مونثولون كنت يوماً اكتب اصلاح الامبراطور واذا بالخادم داخل ليخبره بان الحاكم صرف نصف ساعة مصراً على دخول غرفة الامبراطور ليراه بعينيه ويتحقق انه لم يضر . وقال انه يكسر الابواب اذا اصر الخدم على عدم فتحها . فسمع الامبراطور كلامه باحتقار وعدم مبالاة ثم التفت وقال قل لسجاني انه قادر ان يبدل مفاتيحه بفاس القاتل وانه اذا دخل يلتزم ان يمر على جثة مقتول . فسمع السار هدسون لو هذا الجواب ورجع باضطراب

وجاء الجزيرة السار توماس استرانج القاضي الاول في المحكمة العالية في كالكوتا وطلب الحاكم الى الامبراطور ان يقابله . فقال الامبراطور قولوا ان الذين انحدروا الى القبور لا يقابلون



احداً وبلغ جوابي الى القاضي . وقال الكونت مونثولون لما بلغ الجنرال برتران الحاكم الجواب لم يقدر ان يمنع نفسه عن اظهار الغيظ واظهر من البغض والكره ما لا مزيد عليهما ويقال ان قاضي الجزيرة تجاوز حدود الاعتدال اكثر من الحاكم وقال لو كنت حاكماً لارجعت ذلك الكلب الفرنسوي الى الصواب ولحرمته مقابلة اصحابه الذين لا يمتازون عنه ولحرمته كتبه . وما هو الا متعد شقي تعيس ولو كنت حاكماً لعاملته كما يستحق من كان كذلك . ثم حلف بان تخليص مملكة فرنسا من رجل كهذا دفعة واحدة خدمة عظيمة وقد فعلت الحكومة فعل الجبناء بارساله الى هنا عوضاً عن محاكمته بمحكمة عسكرية . فهذه صفات الرجال الذين كانوا من اعوان السار هدسون لو الحاكم

وفي مرة اخرى جاء الجنرال ميد الجزيرة فدعي لزيارة لونغود فدفعت الرسالة الصادرة من المرشال الفرنسوي المتضمنة الدعوة مفتوحة الى السار هدسون لو فسلمها الى الجنرال ميد المذكور فاجاب انه عرف ان زيارة الامبراطور لا تتم بسهولة نظراً للموانع الموضوعة وانه لا بد من ان يستأذن الوالي بمقابلته . وفضلاً عن ذلك قد رفعت البارجة المرساة ولا يقدر ان يعوقها بسهولة ولذلك لا بد من ان يحرم نفسه لذة الاجتماع به . وقال الدكتور اومارا بعد ذلك سالني ماذا قال الجنرال بونابرت عن عدم قبول الجنرال ميد دعوته . فاجبت انه قال من الثابت عندي ان السار هدسون لو الحاكم منع الجنرال ميد عن قبول دعوتي وطلب اليّ ان اخبرك ان هذا هو رايه وحالما اكملت الحديث تغير لون سعادة الحاكم ولعن الامبراطور بصوت جهير وقال انه وبش شرير ذو قلب اسود فانني طلبت الى الجنرال ميد ان يقبل الدعوة ولم اكن ذا ظنون وقلب اسود كما اتهمني . فقل للجنرال بونابرت ان ما قاله من انني منعت الجنرال ميد عن قبول دعوته كذب معيب والذي قال ذلك كذاب عظيم . فاخبره بكلامي حرفياً . فامتنع الدكتور اومارا عن نقل ذلك الى الامبراطور . وفي ٢١ كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨١٧ قال السار هدسون لو للدكتور المذكور لو لم يكن حول الجنرال بونابرت كذابون كمونثولون وكابن برتران نفسه لكان احسن مما هو الان

وفي ١٢ كانون الثاني (جانفيه) نهض الامبراطور عن كرسيه بعد تناول الطعام وتناول برنيطته الموضوعة على لوح الى جانبه ليلبسها فوثب منها جرذ كبير وركض بين رجليه . فتكدر اصدقاء الامبراطور جداً من جرى ذلك وقالوا اين هذا المنزل وهو كالكوخ من قصر التويلري وقصر سان كلود

وقال الدوكتور اومارا انه في ١٨ من الشهر المذكور رأى الحاكم في محل مشغلاً بفحص جرائد قبل ارسالها الى لونغود . فان توماس ريد كان قد اطال الحديث لاظهار عدم موافقة

تمكين نابوليون من الحصول على الجرائد قبل ان يطالعها ليرى ما فيها . وافرز الحاكم عدة اعداد من الجرائد قال انهُ لايوافق ان يطالعها نابوليون وانهُ ينبغي ان يشكره نابوليون على ذلك لان قراءة اخر جملة موافقة لهُ ربما حركت فيهِ اماليَ لاسبيل الى ان تصح فيتكدر وفضلاً عن ذلك قد رات الحكومة الانكليزية انهُ لايوافق ان تمكنهُ من مطالعة كلما تكتبهُ الجرائد . وفي ساعة غضب ارسل هذا الحاكم الخشن الناقص التربية كتابًا متضمنًا طعنًا غير صحيح ولا مرتبًا عنوانهُ غرام نابوليون السريّ . وكتابًا عنوانهُ الخداعون المشهورون او تاريخ تعساء كثيرين من الادنيا من جميع الامم اختلسوا منصب امبراطورية او ملك او امير او حاكم الجزيرة خذوا هذا الكتاب للجنرال بونابرت لعلهُ يرى في اوصاف المذكورين فيهِ ما يشابه اوصافهُ

وفي ٢٨ شباط (فغريه) صرف الامبراطور ليلاً بالتوجع واصبح مكدرًا جدًّا لان العالم النباتي الذي جاء الجزيرة بعد ان راى زوجة الامبراطور وابنهُ كان في المدينة على اهبة الرجوع الى اوربا دون ان يسمح لهُ بمقابلة الامبراطور . فقال نابوليون للدوكتور اوميارا بكدر شديد ان في اشد البلدان البربرية لايمنع اسير وان كان قد حكم عليهِ بالقتل من ان يتعزّى بمقابلة رجل شاهد زوجتهُ وولده منذ برهة قصيرة . ولم يحكم بشيء مثل هذا في اشدّ المجالس البربرية وامتكم التي صاحت في طلب الحرية كثيرًا لاتسمح بمعاملة كهذه . والذي يمنع زوجًا عن السؤال عن زوجتهِ ووالدًا عن ولده حال كونهِ فصل عنهما الى الابد بسياسة القلائل القاسية هو بربري لامحالة فالذين ياكلون البشر من اهالي البحار الجنوبية لايسمحون بذلك فانهم قبل ان ياكلوا اسراهم يمكنونهم من ان يتعزوا بمقابلة بعضهم بعضًا . فالقساوة التي يلاقيها هنا لايسلم بها الذين ياكلون البشر . وكان الامبراطور يتكلم بصوت مرتجف وحاول ان يخفي الم قلبهِ

وفي ١٢ اذار (مارس) كان الامبراطور ملقىً بضعف على المقعد فقال للدكتور اوميارا ان وزراءكم يستخدمون اسمي في الجرائد كما يشاءون ترويجًا لسياستهم ولا يأبون الكذب فمن الدناءة نسبة امور كاذبة الى منكودي الحظ خاصة اذا كانوا في قبضة يدهم يقدرون ان يسدوا افواههم فلا يقدروا ان يجاوبوا

وفي ٣ من الشهر المذكور اصبح الامبراطور ضاحكًا باشًا وكان يتمشى في غرفتهِ فالتفت الى اوميارا وقال قبل ان صرت طبيبي ماذا كنت تتصورني فاظهر لي حقيقة الامر . فاجاب الدكتور اوميارا انني كنت اتصورك رجلاً ذا اقتدار عقلي عظيم لايشابههُ الا مطامعك غير المحدودة . ولم اصدق عشر الامور التي كانت تنسب اليك من جهة ارتكاب الاثام ومع ذلك كنت اظن انك لاتمتنع عن ارتكاب اثم لما كنت ترى لزومًا لارتكابهِ او ترى انهُ نافع لك . فقال الامبراطور هذا هو الجواب الذي انتظرتهُ منك وربما كان رأي اللورد هولاند وكثيرين من الفرنسويين والصحيح



انني لم ارتكب الاثام ولم يخطر ببالي ارتكابها فكنت اسير سيرًا موافقًا لراي الشعوب ولما تقتضيهِ الاحوال . ولم احتل باراء الافراد ولكنني وجهت كل اهتمامي الى اراء الجماهير . فماذا ينفعني ارتكاب الاثم . وقد شحن العالم بالتنديد بي ومع ذلك لا اخشى ان يثلم صيتي . فان الاجيال القادمة تعدل بالحكم وتقابل الخير الذي صنعتهُ بالخطإ الذي ارتكبتهُ . وقد وضعت كتاب قوانين يحمل اسمي الى القرون المستقبلة ورفعت نفسي من مركز حقير الى اقوى ملك في العالم وكانت مطامعي عظيمة ناشئة عن الحوادث واراء جماهير غفيرة . وقد طالما قلت ان السلطان الاول هو في يد الامة . وحكومتي الامبراطورية كانت جمهورية . فانني دعيت الى رئاستها براي الشعب وجعلت التقدم لاصحاب الاهلية دون امتياز ناشيء عن الولادة او الثروة وهذه المساواة علة كره امرائكم لي

وفي ١٠ اذار (مارس) جاء الجزيرة مركب من انكلترا باشياء منها كتاب كتبهُ مستر واردن وحافظ فيهِ على صداقة الامبراطور وفيهِ وصف ركوبهُ البارجة نرثمبرلند الانكليزية فقراهُ وقال ان اساس هذا الكتاب صحيح على انهُ لم يحسن فهم ما قيل لهُ فمستر واردن لاينهم اللغة الفرنسوية وقد اخطأ بالكلام الذي نسبهُ اليّ . ولم يقل ان كلامي بلغ بلسان الترجمان وذكره كانهُ سمعهُ مني وفهمهُ فنسب اليّ كلامًا لايليق بي وليس من عادتي ان افوه بمثلهِ فالذين يعرفونني يدركون ذلك

وقال الدوكتور اوميارا في ١٩ من الشهر المذكور رايت نابوليون يستحم ويقرأ الانجيل فقلت لهُ ان كثيرين لايصدقون انك تقرأ كتابًا كهذا وقال البعض انك لاتومن بالتعاليم الدينية فتبسم وقال ان هذا غير صحيح فانني بعيد عن الكفر بالله سبحانهُ وتعالى ومعلمو الدين ارتكبوا تزويرات واثامًا كثيرة ومع ذلك افرغت جهدي في سبيل ارجاع الدين الى فرنسا ورغبت في ان اجعلهُ اساس الاداب والقواعد الحسنة ومحركها ومساعد النظام البشري . فالانسان لا يحتاج الى شيء كالدين وفضلاً عن ذلك هو تعزية عظيمة لاصحابهِ وسند خطير

وقال في ٤ نيسان « افريل » ان ملوك فرنسا كانوا يحلفون من قبل ان ملكت بان يفنوا جميع الارانثة ولما لبست التاج حلفت بان احمي جميع الاديان

وقال الدكتور اوميارا في ٤ نيسان (افريل) عن مسكن الامبراطور ان الجرذان كثرت فيهِ فمن الغريب ان يجتمع منها عدد وافر كهذا في مسكن واحد وكثيرًا ما كنت اراها تجتمع حول الاقذار التي تطرح خارجًا من المطبخ كانها سرب من الدجاج . وقد ثقبت اراضي المنزل الخشبية والقواطع الواقعة بين الحجر ثقوبًا عديدة . وكانت تسير عند القواطع وفي السقف جماهير كثيرة وفي الليل تهجم عليّ كانها جيش باسل وتسلب راحتي بالركض على فراشي وحولي فكنت ارميها بحذائي وبغيره دون ان تهرب فالتزم ان اخرج من الفراش لاتمكن من طردها . وكان البناء في اسوء حال وكانت اسقفتهُ من خشب مغطًّى بورق مطلي بالقطران والزفت فكان ذلك يسهل

دخولها وفضلاً عن ذلك كانت حرارة الشمس تذيبها فتبدو شقوق في الخشب تنهمل منها ميازيب غزيرة في ايام الشتاء . وكثيرًا ما كانت الكونتس مونثولون تلتزم ان تخرج من فراشها في الليل لتنقل سريرها واسرة اولادها من تحت الماء . ولم يكن ذلك قابلاً للاصلاح لان حرارة الشمس كانت تفتح في السقف ثقوبًا جديدة في ساعات قليلة

وفي ٢٢ ايار «مايس» ذكر احد الانكليز الملك لويس الثامن عشر باحتقار . فقال له الامبراطور انك لاتعرف الحوادث وقد ظلمت ذلك الملك بالحكم فانهُ لم يكن لا هو ولا غيره من امراء عائلتهِ جبناء اثناء حوادث مائة اليوم ولكن الامة كلها كانت تكرههم واعتبرتهم ملوك المهاجرين فقط . وقد عجز البوربون عن توقيف رد الفعل الذي نشأ عن جنون بعض المهاجرين الذين لا تصلح احوالهم واغاظ الامة كلها واهاجها . فاعدل بالحكم على البوربون فهم عائلة رجالها باسلون وخطاهم في محافظتهم على صوالح اصحاب الامتياز فلم تقبلهم فرنسا الجديدة

وقال الامبراطور مرة اخرى انهُ لم يتمتع شعب بحرية كالحرية التي كانت الامة الفرنسوية تتمتع بها في ايامي في الامور المدنية . والفت جميع الحكومات الاوربية في السجن اشخاصًا اكثر مني لاسباب متنوعة . واذا قابلت قوانين فرنسا الجزائية بقوانين انكلترا ترى ان الفرنسوية تمتاز كثيرًا عن الانكليزية . اما في النمسا وروسيا وبروسيا وغيرها من اوربا فهي محرومة وسائل الاشهار ومقابلة الشهادات . اما الايطاليان فيحبون القوانين التي سنتها وكل بلاد أُدخلت اليها طلب اهاليها بان يمن عليهم بابقائها جارية عندهم واقول انهُ لاملك اهتم مثلي بالعدالة ولا راعى صالح الاهالي كما راعيتها ومن الحقق عندي انني صرفت كل مدة ملكي موجهًا كل اهتمامي الى ترقية اسباب قاعدتي وهي ان افعل كل شيء في سبيل خدمة الامة الفرنسوية

وفي ٢ تموز (جوليه) مر بالجزيرة اللورد امهرست وهو راجع الى انكلترا وقابل الامبراطور وفي نهاية الحديث قال لهُ انني ارضى بان ابلغ وكيل الملك كل ما تشاء ان ابلغهُ اياه . فقال نابوليون بجلال وصوت دل على شدة ضيقهِ انهُ ليس لملككم ولا لامتكم حق التسلط عليَّ . فهي تنفق ما بين ان عشرين مليونًا من الرجال يظلمون رجلاً واحدًا . والقرار الذي صدر في ١١ نيسان «افريل» ليس الا لخدمة الكره الشخصي وبعد برهة قصيرة او طويلة يجلب العار على انكلترا . والمجلس الذي اصدرهُ أُنسي صفتهُ المقدسة فلا يسمح بخروجي من هذا الكوخ الردي الهواء دون ان يرافقني حارس . ولا يتناول كتابات من زوجتي وامي وعائلتي ما لم يطالعها سجاني ويبدي ملاحظاتهِ بشانها . فما هو نفع هذه المضايقات في هذا المكان . واي عاقل يسلم بامكانية فراري حال كون بوارج كثيرة تجول حول الجزيرة والحراس واقفين في كل جهة ولهم علامات يتخاطبون بها . ولا يخرج مركب من سانته هيلانة ولا يبتعد عنها الا بعد ان يدخلهُ الحاكم ووكلاؤهُ . وفي



هذا المكان مئات من الحراس وقوف من قبل الظهر بست ساعات الى ما بعده بست ساعات . ولا يكتفون بذلك فانهم يرومون ان يحملوني على نكران امر مجيد وعلى الاعتراف بما يجلب العار على وطني . فيصرون على القول انهُ لم يحق لفرنسا ان تضع تاج الملك على راسي ويغسلون بامر السار هدسون لو الزيت المقدس الذي مسحني بهِ نائب المسيح على الارض . وكنت أدعى الجنرال بونابرت في كامبو فورميو وفي لونفيل لما كتبت شروط مصالحة النمسا وفي امياز لما امضيت معاهدة مصالحة انكلترا وافتخر بهِ على ان شرف فرنسا يمنعني عن ان اعترف بانهُ يحق لملك انكلترا ان يمحو اعمال الامة الفرنسوية . وكنت قاصدًا ان ادعو نفسي دوروك على ان وزراءكم والقاتل الذي استأجروه السار هدسون لو الزموني بجهلهم الممقوتة بان احافظ على لقب الامبراطور نابوليون فاذا كانت حكومتكم تنكر حقي بان القب بامبراطور لتعترف بصراحة ان لويس الثامن عشر كان مالكًا حين وقعت على معاهدة صلح امياز لما خابر اللورد لودردنيل واللورد كاسلري ومرخصي . وقد طالما رغبت في مصالحة انكلترا . وفي املاء الفراغ الذي تسبب فيهِ نيران الفتن وان اجدد البناء دون ان ازعزع الابنية الاوربية لنفع الجميع بجعل الملوك على مخ اواسط اوربا بركات القوانين الاساسية وهي بركات لم تفز بنوالها بلادكم وبلادي الا بثمن مخيف واضطراب عظيم . فاكرر قولي بانني طالما رغبت في السلم ولم احارب الا للحصول عليهِ وقد توهم مؤتمر فينا انهُ يجعل اوربا تفوز بهذه البركة . وقد بات مخدوعًا فان حربًا مخيفة تنفذ نيرانها تحت رماد الامبراطورية وبعد زمان طويل او قصير تنتقم الشعوب لي انتقامًا قاسيًا من الملوك الذين عفوت عنهم فقل لوكيل الملك وقل للمجلس العالي الذي انت من اعضائهِ الاوان انني اطلب فاس الجلاد فاتخلص من اهانات سجاني

وقال مونثولون ان اللورد امهرست سمع تشكيات قلب عظيم مجروح بتاثير ولم يرغب ان يخفي اهتمامهُ بها فوعده بان يخبر نائب الملك بكل شيء وعرض عليهِ ان يتوسط امره عند السار هدسون لو حاكم الجزيرة . فقاطعهُ الامبراطور بالحديث وقال ان ذلك لايجدي نفعًا فان من طبع هذا الرجل ارتكاب الاثم وكرهي فمن اسباب لذتهِ تعذيبي كانهُ نمر يمزق فريستهُ باظافره ويلتذ باطالة عذابها

وفي ٧ تشرين الاول «اكتوبر» توسل اليهِ الدوكتور اومبارا ان يخرج من المنزل للتنزه فانهُ كان قد امتنع عن الخروج منهُ اشهرًا من المضايقات القاسية التي احوط بها والاهانات التي وقعت عليهِ . فضعف جسمهُ وانهكت قواه . فقال للدكتور ما دامت الاوامر المهينة نافذة لا اخرج من منزلي فهل تروم ان اعرض نفسي للتوقيف والاهانة بامر الحارس كما دام برتران منذ ايام قليلة . وقد حبست نفسي في منزلي لمجانبة وقوع الاهانة عليَّ ومنعني عن التكلم مع الذين الاقيهم

في الطريق وهذا من اعظم الاهانات التي تقع على رجل . وقد نقض هذا الامر على ان اقتداره على نقضهِ يدل على انهُ يُعيده حين يشاء فأبيت ان اكون عرضة لاهانة يومية ملتزمًا بان اقرر عن نفسي لكل حارس يروم ان يتمم فروضهُ فقال الدكتور اوميارا قال الحاكم انك تروم ان تقتل نفسك ولذلك قد حبستها في هذا المنزل . فاجاب لوكنت راغبًا في ذلك لا لقيت نفسي على شيفي منذ برهة طويلة ومتُّ موت الابطال ولست احمق لاقتل نفسي بعذابات مرض طويل ولم اكن من الذين يحبون الحروب المملة . ولكن الموت ولو كان بطيئًا مولمًا مفضل على مس ناموسي واذا خرجت واهنت مرة بامر حارس يؤثر في ذلك اكثر من حبس ستة اشهر على ان ذلك الحاكم ليس بذي احساسات ادبية

وفي ١٤ تشرين الاول (اوكتوبر) اخبر الامبراطور بالتصادف ان الحاكم طلب الى الدكتور اوميارا ان يبعث اليهِ يوميًا عن صحتهِ فطلب الى الدكتور ان يريهُ تقريرًا منها فاراه اياه فوجد انهُ ملقب بها بالجنرال . فقال الامبراطور لا اقبل بان القب كذلك بيد طبيبي فلا بد ان يكون حاصلاً على ركوني واطلب ان ارى هذه التقريرات قبل ان ترسل الى الحاكم ثم قال ان الطبيب للجسد هو كالمعرف للنفس ومن الواجب عليهِ ان يكتم حالة المريض ما لم يسمح لهُ باظهارها فاذا ارسلت تقريرات طبية بعد الان دون ان تريني اياها تكون كجاسوس وهذا ما برومة سجان سانته هيلانة . ولا ارضى بان تلقبني جنرالاً بتقريرات ربما ارسلت الى فرنسا حيث كنت امبراطورًا فان ذلك يدل على انني راض بهذا اللقب مع انني اختار الموت على الارتضاء بهِ فاذا كنت لا ترضى بذلك لا اقابلك بعد الان كطبيبي

فاخبر الدكتور اوميارا حاكم الجزيرة بما قالهُ نابوليون فرفض بان يلقبهُ بالامبراطور لكنهُ قبل ان يكتب اسمهُ نابوليون بونابرت . وقال الامبراطور في السهرة لما بلغهُ جواب الحاكم اسلم بان اهان بقلم طبيبي . ومن اعظم الاهانات ان يصر الانكليز على ان يلقبوني كما يشاءوا بعد ان طلبت ان القب بلقب جديد بدلاً عن لقبي الامبراطوري . واصرارهم على اذلالي يجعلني اصر على صيانة حقوقي . فانني اضعت عرش الامبراطورية للمحافظة على ناموسي وابذل نفسي مائة مرة قبل ان اسمح بان ادعى كما يشاء ظالمي

وبعد المفاوضة طلب الامبراطور ان يشير اليهِ بتقريراتهِ بقولهِ المريض . فبلغ ذلك الى السار هدسون لو الحاكم فرفض باصرار قائلاً ان اسيره ينبغي ان يلقب بالتقريرات الطبية الجنرال بونابرت او ان يكتب فيها اسمهُ وهو نابوليون بونابرت . فلما سمع الامبراطور بذلك قال ان الحاكم يروم ان ينزع الركون الجاري بيني وبين طبيبي فالاوفق ان لا يكون للانسان طبيب لا يركن اليهِ . فعاملني كاحد الانكليز ولو لم استخدمك لكان عندي طبيب فرنسوي لا يكتب تقريرات دون



اذني . فان كنت طبيب اللورد باثورست فهل تكتب تقريرًا عن تشكياتهِ دون اذنهِ للطبع او للارسال الى اعضاء عائلتهِ . فاطلب اليك باصرار ان تعاملني كما اعاملهُ

ومضت ايامٌ كثيرة والامبراطور يقابل الدكتور اوميارا كصديق دون ان يخبره بتشكياتهِ الصحية وكان مريضًا جدًّا مولمًا . وفي النهاية ارتضى السار هدسون لو الحاكم بان يصير الانقطاع عن كتابة تقريرات طبية عن حالة الامبراطور فرجع الى استخدام طبيبهِ . وقال الدكتور اوميارا انهُ لم يكن ينقطع عنهُ الم في جنبهِ الايمن وقلت قابلية الاكل وورمت رجلاه خاصة عند المساء وبلي بالسهاد . وهكذا مضت السنة الثانية من سني الاسر والاهانة

وفي ٢٨ تشرين الاول (اوكتوبر) جرى حديث بغضب بين الحاكم والطبيب اوميارا وقال هذا الطبيب ان الحاكم قال لهُ انهُ كثعلب يجري طالبًا اخبارًا ليبلغها للجنرال بونابرت . وقال وقد اخذ الغضب منهُ كل ماخذ انني ممنوع عن مخابرة نابوليون بونابرت بشيء غير امور طبية

وفي ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) مرَّ الحاكم بالقرب من نوافذ منزل الامبراطور الذي كان امتنع عن مقابلتهِ مدة طويلة فقال الامبراطور لا ارى هذا الحاكم دون ان اتذكر قاتل الملك ادورد الثاني في قلعة بركلي وهو يحمي قضيبًا من الحديد ليقتلهُ بهِ . فلا اقدر ان احتملهُ كأن فطرتي قد جعلتهُ في عيني حاملاً علامة قابين قاتل اخيهِ وهذا ليس من كرهي لامتكم لانني لم اكره امير البحر كوكورن بل كنت اركن اليهِ وكنت لا امتنع عن ان اتخذ طبيبًا بعينهِ او شيئًا اخر

ومضت اشهر كثيرة والسار هدسون لو الحاكم الذي خلد اسمهُ بالعار يزيد عذابات اسيره المنكود الحظ . وامتناع الدكتور اوميارا عن اعانتهِ في اعمالهِ المعيبة جعلهُ غرضًا لاهانات الحاكم وفي النهاية حجر عليهِ مع انهُ انكليزي ومنعهُ عن الخروج من حدود منزل الامبراطور فكان هذا الاستبداد علة استعفائهِ من تطبيب الامبراطور ثم جاء هذا الطبيب الامبراطور المريض القريب من الموت ليودعهُ فقال لهُ يا ايها الطبيب انك تفارقنا قريبًا فالادنياء انحطوا باعمال الدناءة حتى اهانوا طبيبي فاشكرك على عنايتك فاخرج بالسرعة الممكنة من هذا المكان وهو مكان الظلام والاثم وسأموت على هذا السرير بالمرض دون معين غير ان موتي يمس كرامة بلادكم الى الابد

وكان السار هدسون لو يضطهد كل من يتظاهر بصداقة الامبراطور . اما مستر بالكوم الذي قبل الامبراطور في البرابر زشفقة عليهِ فسار الى اوربا فسلمهُ الامبراطور حوالة على اصدقائهِ فيها بسبعين الف فرنك وعين لهُ معاشًا من مالهِ ١٢ الف فرنك في السنة وكتب اليهِ كتابًا لطيفًا وقال اخاف ان يكون استعفاءك من مامورينك في هذه الجزيرة ناشئًا عن الاكدار والمخاصمات التي بليت بها بسبب الصلات الحسنة التي كانت جارية بينك وبين لونغود والضيافة التي قمت بها عند

وصولي الى هذه الجزيرة . فلا ارضى بان تتاسف حياتك بطولها لانك تعرفت بي

اما معتمدو الدول في الجزيرة فاعترضوا على اضطهاد طبيب الامبراطور حتى التزم السار هدسون لو ان يامر بابطال المضايقات التي امر بها . وبعد ان سجنهُ ٢٧ يومًا مكنهُ من العود الى خدمة الامبراطور

وفي ٢٧ ايار (مايس) امر ذلك الحاكم بمنع جميع الضباط والاهالي وغيرهم من ان يخابروا او يواصلوا بشيء من الاجانب المسجونين في الجزيرة . وفي ٢٧ تموز (جوليه) كان الدكتور اومبارا راجعًا من غرفة الامبراطور المريض فوضع الاعلان الاتية ترجمتهُ في يدهِ

من بيت الزراعة في ٢٥ تموز (جوليه) سنة ١٨١٨

سيدي . امرني الحاكم السار هدسون لو ان اخبرك بورود اوامر من الارل باثورست رقم ١٦ ايار (مايس) سنة ١٨١٨ ما آلها ان اخرج من خدمة الجنرال بونابرت الطبية وان امنعك عن مواصلة اهالي لونغود . وامرت نظارة الحربية نائب امير البحر بلامين بتعيين المكان الذي ينبغي ان تذهب اليهِ عند خروجك من هذه الجزيرة . فلا بد من خروجك منها حالاً بعد وصول هذا الكتاب اليك دون ان تخابر ساكني لونغود بشيء

ادوار وينارد
قايمقام عسكرية وكاتب عسكرية

وقال الدكتور اومبارا ان حقوق الانسانية وفروض صناعتي الطبية وحالة نابوليون منعتني عن طاعة هذا الامر ففي لحظة تقرر عندي ماذا ينبغي ان افعل فصممت على مخالفة هذا الامر مهما نشأ عن مخالفتي لهُ . فان الامبراطور كان يمتنع عن شرب علاج ما لم اصفهُ لهُ وكنت محققًا انهُ لا يقبل دواء من طبيب يرسلهُ اليهِ السار هدسون

وبعد ان تحدث هو والامبراطور حديث اشجان قال لهُ الامبراطور حين تصل الى اوربا اسال عن عائلتي واخبر جميع اعضائها انني لا ارغب ان ياتي احد هم هذه الجزيرة ليشاهد ضيقي وبلاياي وسلم على لويزا الصالحة ووالدتي الكريمة وبولين واذا رايت ابني قبّلهُ ولا ينبغي ان ينسى انهُ ولد برنس امبراطوري . وأبن للخاتون هولاند شعوري بالامتنان العظيم لها وانني احترمها كل الاحترام وحاول ان ترسل اليَّ اخبارًا حقيقية عن كيفية تعليم ابني . فاستودعك الله يا اومبارا اننا لا نلتقي بعد فاسال الله ان يمتعك بالسعادة

وصرف السار هدسون لو جهدهُ ان يلزم الامبراطور بان يقبل طبيبًا انكليزيًا خاضعًا للمضايقات التي كان قد اخضع الدكتور اومبارا لها . وفي ٢٧ ايلول (سبتمبر) خاف لما راى ان المرض قد اشتد على الامبراطور وبلي بضعف سريع فابطل بعض مضايقاتهِ وسمح لهُ بالتنزه كل يوم في حديقة صغيرة وصرف الامبراطور ستة اشهر دون ان يرى طبيبًا حال كون صحتهِ كانت



تتاخر يوميًا ومضت عليهِ سنة اسرهِ الثالثة وهو في ضيق عظيم

## الفصل السبعون

(سنة الاسر الرابعة والسنة الخامسة)

ان اخبار شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الاول (دسمبر) من سنة ١٨١٨ لم تكن غير اخبار تصبر الامبراطور الصبر الجميل واحتمالهِ الاهانات والاوجاع . ودخل سنة ١٨١٩ بضيق وهمّ وتوجع . وبات في اسواء حال حتى انهُ ارتضى في ١٠ كانون الثاني (جانفيه) بان يجيب طلب اعوانهِ بدعوة الدكتور استوكو طبيب البارجة الانكليزية المسماة كونكورار

فجاء ذلك الطبيب ووجده في الم شديد وضعف عظيم فزاره مرتين غير ان حكومة الجزيرة كانت عازمة على اذلال نابوليون فالزمت هذا الطبيب ان ينقطع عن زيارتهِ فكتب في ١٩ كانون الثاني (جانفيه) ان ما صادفتهُ اليوم بين لي انني التزم ان اقطع الذهاب الى لونغود انفاذًا لامر من روسائي . وكتب ذلك الدكتور الى السار هدسون لو بالحاح غير انهُ لم يقدر ان يحرك الشفقة فيهِ . وفي ٢١ كانون الثاني (جانفيه) ودع الامبراطور متردداً وتركهُ يتوجع ويموت دون معين وطبيب يخفف الامهُ . ومن يطالع هذه الاخبار البربرية يقشعر بدنهُ منها ولا يصدق ان رجلاً متمدنًا يقوم بها وقد شهد بصحتها لاكازا واومبارا ومونثولون وكتاب قيود السار هدسون لو نفسهُ

ومضت على الامبراطور تسعة اشهر وهو في انفراد وويل وعذاب تسوقهُ بسرعة الى القبر ، ومع ذلك لم يخفف السار هدسون لو واعوانهُ عذاباتهم وفي آب (اوغسطوس) من هذه السنة مرض الكونت مونثولون والسار هدسون لو امتنع عن ان يخابر الكونت برتران واصر على ان تجرى المخابرة راسًا مع الامبراطور بان يذهب كل يوم احد اعوانهِ الى نابوليون مرة ليخابره وكان نابوليون مريضًا في فراشهِ فامر بقفل باب حجرتهِ لمنع وقوع هذه الاهانة عليهِ وتكدر جدًا من محاولة ادخال ضباط الى غرفتهِ وهو مريض . فهذه الاهانات حملتهُ على نشر الاعلان الاتي

في ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٧ اب (اغسطس) سنة ١٨١٩ بدئ بمحاولة الدخول باهانة الى منزل الامبراطور وكان قومهُ يحافظ على حرمتهِ واعتباره قبل هذه المرة . فقاوم هذه الاهانة بقفل الابواب وجدد اقامة الحجة التي قام بها عدة مرات بنفسهِ او بلسان غيره قائلاً انهُ لا يسمح بان يصير التعدي على حرمة باب منزلهِ ما لم يدس المعتدي عليها جثتهُ المقتولة . وقد ترك كل شيء وعاش ست سنوات مسجونًا داخل ست حجر صغيرة ليتخلص من الاهانات والمعتدين .

فاذا كانت الدناءة قد توصلت الى ان تحسده على هذا الملجإ فقد صممت على ان لا تترك لهُ غير القبر وقد احتمل سنتين اوجاع مرض من الامراض التي يبلى بها الانسان في هذه الجزيرة وحرم منافع طبيبهِ بابعاد الدكتور اوميارا عنهُ بالقوة في تموز (جوليه) سنة ١٨١٨ ومنافع الطبيب استوكو في كانون الثاني (جانفيه) سنة ١٨١٩ مع انهُ اشتد المرض عليهِ تكرارًا والتزم بان يصرف من جراه خمسة عشر او عشرين يومًا متتابعة في فراشهِ . وبلي باشد نوبات مرضهِ منذ تسعة ايام وليس لهُ من يقاوم مناعيلها غير الصبر والاكل والاستحمام وقد سلبت راحتهُ منذ ستة ايام بالتهديد بالحمل على منزلهِ وبوقوع اهانات عليهِ من المحقق عند وكيل الملك ولورد لفربول واوربا قاطبة انهُ لا يخضع لها

وسنة ١٨١٩ ارتضت الحكومة الانكليزية بان يبعث اليهِ اصدقاؤهُ طبيبًا من اوربا وفي ١٩ ايلول (سبتمبر) من تلك السنة وصل الى الجزيرة الطبيب انطومارشي الذي اختير ليكون طبيبًا لهُ وجاء معهُ كاهنان فان نابوليون كان قد طلب تكرارًا ان يرسل اليهِ خدم الدين ليخدموهُ ويخدموا الذين معهُ دينيًا . وكان احدهما الاب بونافينا شيخًا وكان قد خدم والدة نابوليون في البا والبرنس بولين في رومية . اما الثاني فكان شابًا واسمهُ الاب فينالي

وفي ٢٢ ايلول (سبتمبر) اجتمع الطبيب انطومارشي الاجتماع الاول بنابوليون فوجدهُ على فراش في غرفة صغيرة مظلمة ذات اثاث دني جدًا وكان دخولهُ اليها بعد الظهر بساعتين وربع ساعة . وفي بادي الامر حجبهُ عنهُ ظلام الغرفة فعلم الامبراطور انهُ لم يرهُ فطلب اليهِ بلطف ان يدنو منهُ . فسالهُ عن والديهِ وتاريخ حياتهِ والذي حملهُ على ان ياتي تلك الجزيرة المقفرة وعن المدرسة التي درس الطب فيها . فاجابهُ بما ارضاه فاخذ يسالهُ عن حالة اصدقائهِ واقاربهِ في اوربا ثم قابل الكاهنين وفي نهاية الحديث السري الذي جرى بينهم فاه الامبراطور بكلام جدي كالذي يفوه بهِ من امسى على حافة قبرهِ وهو اننا قد حرمنا طويلاً التمتع بالخدمة الدينية فنتمنى ان نحصل عليها الان . ومن الان فصاعدًا يقام لنا قداس كل احد ونقوم بالاعياد المعينة في الاتفاق الديني المنعقد بين رومية وفرنسا . وارغب في ان يقام في هذه الجزيرة بالاحتفالات الدينية التي يقام بها في فرنسا . وسننشىء مذبحًا متنقلاً في حجرة الاكل . وانت ايها الاب قد بلغت سن الشيخوخة وضعف الجسم وساعين لذلك اوفق الساعات لك فتقدر ان تقوم بالقداس قبل الظهر بساعتين او ثلث ساعات . وفي السهرة انفرد نابوليون بالكونت مونثولون الذي لم يكن من المتدينين وقال مرة انني نسيت الدين في وسط المعسكرات واخبر نابوليون الكونت بفرح انهُ مصمم على ان يحضر القداس في الغد ثم قال لما كنت على عرش الملك محاطًا بقواد بعيدين عن التقوى تجاوزت حدود الاعتدال بمراعاة الراي العام وتغلب الجبن عليَّ ولم اتجاسر ان اقر بالايمان بل كنت اقول ان الدين



قوة وهو الة سياسية . ولو سئلت حينئذٍ عن اعتقادي لاجبت انني مسيحي ولو رايت انني اذا صرحت باعتقادي اقتل شهيدًا لما خشيت العاقبة . نعم انني كنت افضل الاستشهاد على نكران ديني . اما الان في هذه الجزيرة فماذا يا ترى يحملني على ان اخفي ما اعتقده من صميم القلب . فانا اعيش هنا لنفسي وارغب في الحصول على كاهن وان اتناول القربان المقدس واحب ان اقر بما اعتقدهُ وساحضر القداس ولا الزم احدًا بان يحضرهُ معي على ان الذي يحبني يرافقني

اما الجنرال برتران فكان يصرح بانهُ غير مؤمن وكثيرًا ما كان يكدر نابوليون بالاستخفاف بالامور الدينية . وفي ذات يوم حدثهُ نابوليون بشان نكران الخالق سبحانهُ وتعالى فقال لهُ هل روحك كروح الراعي اما الفرق بينك وبينهُ كالفرق بينك وبين الفرس . فكيف تدرك ذلك انك لم ترَ قط روحهُ . وروح الحيوان لا ترى فهي من هذا القبيل كروح اعظم العقلاء . على انك عرفت الراعي وتفرست في وجههِ وسالتهُ سوالات فعرفت حالهُ من اجوبتهِ وعلى ذلك تعرف السبب من التاثير ومعرفتك حقيقية . ومن المحقق ان القوة المميزة فيك وذكاءك وقواك العقلية تفوق كثيرًا قوى الراعي . وانا اعرف الامور بالطريقة نفسها . فالتاثيرات الالهية تجبرني على ان اؤمن بعلة الهية . نعم لا بد من وجود علة الهية وتمييز فائق وكائن غير محدود . فهذه العلة هي علة العلل وذلك التمييز هو خالق الادراك . والكائن غير المحدود انت يا جنرال برتران بالنسبة اليهِ لست غير بعوضة . وانا بالنسبة اليهِ مع كل اقتداري العقلي كالعدم . هل فهمت انا اعرفهُ وهو الله واراهُ واحتاج اليهِ واومن بهِ . فاذا كنت لا تراهُ ولا تؤمن بهِ يكون ذلك من من سوء حظك على انك لا بد من تؤمن بالله في الاستقبال . وانا اقدر ان اعفو عن كل شيء غير انني اخشى جاحد الخالق الطبيعي . فهل تظن انني اقدر ان اشترك بالحاسيات مع رجل لا يؤمن بوجود الروح بل يؤمن بانهُ كتلة من تراب ويرغب بان اكون مثلهُ كتلة من تراب

وبعد ان عاد الجنرال مونثولون الى اوربا قال للموسيو دي برتران ان الامبراطور كان مسيحيًا وكان الايمان فيهِ طبيعيًا ومن القواعد الاساسية . فكانت الشعائر الدينية تنتبه فيهِ لما كان يتحرك بمؤثر خارجي او فكر . وكان حين يشاهد شيئًا قاسيًا او مخالفًا للدين يتكدر جدًا وكان يعجز عن ضبط نفسهِ عن اظهار الكدر والمقاومة وكان ذلك من طبعهِ وقد شاهدتهُ على هذه الحال واقر انني رجل عاش في المعسكرات وانسي دينهُ ولم يقم بفروضهِ . ففي بادي الامر عجبت من تصرفهِ ثم اثر فيَّ ذلك تاثيرًا يحملني على التامل والافتكار . وقد رايت الامبراطور متمسكًا بدينهِ وقلت في نفسي لقد مات مسيحيًا خائفًا الله . ولا اقدر ان اصرف النظر عن بلوغ الشيخوخة ولا بد ان اموت وارغب في ان اموت كما مات الامبراطور . ولا ريب عندي ان الجنرال برتران يتذكر الاحاديث الدينية التي جرت بينهُ وبين الامبراطور وربما انهى حياتهُ كما انتهت حياة الامبراطور

مولاه وصديقه

وكان يكثر الامبراطور في سانته هيلانة من الكلام على الامور الدينية وفي ذات يوم تكلم على الوهية المسيح فقال له الجنرال برتران

يا مولاي اني لا ادرك كيف ان رجلاً عظيماً مثلك يؤمن بان الكائن الاعظم اظهر نفسه للبشر في جسد انسان وله جسد وفم وعينان . فليكن المسيح مهما شئت اي قل انه احذق الناس وقلبه اطهر القلوب واعرف واضعي النواميس واعظم رجل خلق على الارض من كل جهة فلا اعارض . ولكنه لم يكن غير بشر علم تلاميذه واضل البسطاء كما فعل اورقوس وكونفوشيوس وبرما . وقد جعل نفسه معبوداً لان سلفاءه اليسيس واوزيريس وجوبيتار وجينو جعلوا انفسهم بكبرياء معبودات . وامتيازه في زمانه كامتياز المعبودات الوثنية وابطال القدماء وما فعله من جر الناس وراء عجلة وتغيير حالة الدنيا انما هو ناشئ عن قوة العقل وتاثير نفس قادرة على التسلط كما تسلط كثيرون من الناس في الدنيا بفتوحاتهم كالاسكندر وقيصر ومثلك انت

فاجاب نابوليون في الحال على هذا الكلام قائلاً اني اعرف الرجال فاقول لك ان يسوع المسيح ليس برجل . فاصحاب العقول غير القادرة على ادراك كنه الحقيقة يرون مشابهة بينه وبين مؤسسي الممالك ومعبودات القدماء . والواقع انه لا وجود لتلك المشابهة . والبون بين النصرانية وسائر اديان المعبودات القديمة غير محدود فاننا نقدر ان نقول لجميع واضعيها انكم لستم بمعبودات ولا وكلاء الاله بل انتم رسل الاكاذيب وانتم كسائر البشر وقد خلقتم مصحوبين بالشهوات والرذائل التي تصاحب سائر الناس . وهياكلكم وكهنتكم تدل على اصلكم . فهذا ما يقوله كل انسان فحص بخلو غرض حالة معبودات الوثنيين وهياكلهم . وحكماء اليونان لم يقبلوا البتة الدين الوثني كدين حقيقي ومنهم سقراط وفيثاغورس وافلاطون وانكساغورس وبركلس . على ان احكم الناس بعد انتشار النصرانية آمنوا بصحة تعاليمها فان بوسوي وفنيلون آمنا بها ولم يقتصر الايمان بها عليهما حال كونهما واعظين ولكنه اتصل الى ديكات ونيوتون وبنتر وبسكال وكورنل وراسين وشارلمان ولويس الرابع عشر . فالوثنية صفة الانسان ولا نسمع منها ونقرأ عنها الا ما يدل على غباوتنا وجهلنا فماذا يعرف تلك المعبودات المفتخرة اكثر من الانسان وماذا يعرف واضعو تلك السنن الرومانية واليونانية ونوما ولوكرغوس وكهنة الهند وممفن وكونفوشيوس وغيرهم . انهم لا يعرفون شيئاً . فانهم اضاعوا الاداب ولم يبين احدهم من جهتنا شيئاً من جهة حالتنا في الاستقبال والنفس وجوهر الخالق والخليقة واذا دخلت هياكل الوثنية لا ترى غير الوف من المناقضات وحروب اشعلت نارها بين المعبودات وتفريق الوحدة الالهية وسفسطة الجهل والاجحاف بالصفات الالهية او انكارها والرجس والفساد في المستظلات الكثيفة مع الاخشاب المخونة وهي الصنم وكاهنه فهل



يمجد الله بذلك او يغضب وهل نقيم المقابلة بين هذه الاديان والمعبودات والنصرانية اما انا فلا اقابلها . بل اجلب كل معبودات الوثنيين الى محكمة واحاكمها غير اني بعيد عن ان اذل نفسي بعبادة اصنامها . فليس عندها ولا عند واضعي ناموس الهند والصين ورومية واثينا ما يلقي الخشية في قلبي . ولا اعاملهم بالظلم وانا اعتبرهم الاعتبار اللائق بهم لاني اعلم اهميتهم فان الملوك الذين ذكراهم يصحبها تذكر انتظامهم وتسلطهم وقوتهم فمن كان منهم كذلك لا يكون انساناً اعتيادياً وارى في لوكركوس ونوما وغيرهما واضعي سنن فكان لهم المركز الاول فوضعوا اوفق نظام يمكن وضعه للهيئة الاجتماعية في وقتهم . على اني لا ارى في اعمالهم ما يدل على ان الله قد الهمهم الصواب او امرهم بفعلها . فهم لم يدعوا ذلك . وقد قاموا باعمال عالية في ايامهم مثلي . غير انه ما من شيء يدل على ان اعمالهم تجري من ينبوع الهي . وبيني وبينهم مشابهة عظيمة وقد ارتكبوا اغلاطاً ومغايرات تجعلهم مثلي من العائلة البشرية . اما المسيح فليس كذلك وكل شيء فيه يقضي بالعجب العجاب فروحه تلقي الخوف في قلبي وثبات ارادته تضيع تمييزي . ولا يقابل باحد البشر ولا توضح الانتظامات البشرية ولا طبيعة الانسان واراءه وحاساته والحقائق التي اعلنها ولا كينية اقناعه . فاذا تأملت بولادته وتاريخ حياته وعمق حكمته التي تتغلب على اعظم الصعوبات وتحلها اوفق حل وانجيله وظهوره ومملكته الروحية وتغلب تعاليمه على الدهور والامم اقول ان هذه اسرار لا اقدر ان اقف على حقيقتها فانها تلقيني في حيرة لا اقدر ان اتملص منها فهي سر لا اقدر ان انكره ولا ان اوضحه . ولا ارى بذلك شيئاً بشرياً وكلما اقتربت منه واطلت البحث عنه يزداد ارتفاع هذه الامور عني وتبقى عظيمة وعظمتها غالبة . ودينه التام حذق لا ريب في انه غير بشري فترى فيه شيئاً اساسياً عميقاً جاء بتعاليم وكلام لم تكن معلومة . ولم يستعر يسوع شيئاً من معارفنا وعلومنا ولا ترى ما يشابه تصرفه وحياته . ولم يكن فيلسوفاً لانه تقدم بالمعجزات وتلاميذه عبدوه منذ البداية والقى الايمان به في قلوبهم بما يؤثر فيها وليس بالتظاهر بما يؤيده او يقنعهم ولم يلزمهم ان يقوموا بدروس ابتدائية ولا ان يتعلموا العلوم فدينه كله مبني على الايمان . والواقع ان العلوم والفلسفة لا تجديان نفعاً للخلاص . وجاء الارض لاظهار اسرار اسماء الروح ونواميسها ولم يكن لتعاليمه علاقة الا بالروح وقد جاءها بانجيله والروح تكفيه كما انها تكفيه . ولم يكن للروح اهمية قبله فان السيادة في الدنيا كانت للعادة والزمان . وقد رجع كل شيء الى الانتظام بصوته وصار المحل الثاني للعلم والفلسفة وقد فازت الروح بالحصول على سيادتها وسقط كل العلم كبناء تهدم امام كلمة واحدة وهي الايمان . فما اعظم السيد الذي يقدر ان ياتي بانقلاب عظيم كهذا وما انفذ كلمته . فما هو يا ترى السلطان الذي الزمني به ان اصلي وقد الزم الناس الايمان به . ولم يتمكن انسان من ان ينقض كلامه اولاً لان في الانجيل اصفى الاداب ولان التعاليم الموضوعة فيه كاسرار انما هي

اعلان الحق المتعلق بما هو موجود حيث لا تقدر العين ان ترى ولا العقل ان يدرك فمن يا ترى هو الخالي من الاحساس الذي يكذب اخبار السائح الجسور الذي لم يتجاسر غيرهُ الصعود الى القمم الثلجية ويخبر بعجائبها . فالمسيح هو السائح الجسور . والانسان يقدر ان يبقى خاليًا من الايمان غيرانهُ ما من احد يتجرأ ان يقول لهذا ليس هو كذلك . وفضلاً عما تقدم شاور الفلاسفة بهذه التعاليم السرية المتعلقة بالانسان والدين فماذا يقولون ياترى . فاين هو العاقل الذي تعلم شيئًا من الطبيعة القديمة او الحديثة حال كونها ليست فعلاً الا اراء باطلة فخرية دون ان تكون لها علاقة بمعيشتنا واميالنا . ولا ريب في انهُ بقوة التفكر يرى الانسان مفتاح فلسفة سقراط وافلاطون . على انهُ لا يدرك ذلك دون ان يكون الانسان طبيعيًا وبالدرس سنين لا بد من ان يحصلَ الانسان على قوى مخصوصة على ان ادراك النصرانية يتم بالقلب والايمان . فالدين النصراني ليس باوهام ولا بتعليم طبيعي ولكنهُ قوانين تجري وتنتظم بها اعمال الانسان وتصلحهُ وتعاونهُ على جميع تصرفاتهِ وفي التوراة اخبار وقائع ورجال تاريخيين توضح لهم احوال الزمان والابدية وليس في كتاب دين اخر ما هو كذلك فاذا كان ليس بالدين الحقيقي يعذر الانسان اذا خدع بهِ فان كل شيء فيهِ فيهِ عظيم يستحق ان ينسب الى الله سبحانهُ وتعالى . وقد فتشت التواريخ دون ان اجد فيها شبيهًا ليسوع المسيح و بالانجيل . فلا ارى في التاريخ ولا الانسانية ولا القرون ولا الطبيعة شيئًا اقدر ان اقابلهُ او ان افسرهُ بهِ . فان كل شيء فيهِ خارق للعادة . وكلما تاملت في الانجيل يزيد تاكيدي ان كل شيء فيهِ يفوق الحوادث والعقل البشري . والذي خلت النقوى من قلوبهم لم يتجاسروا ان ينكروا علو الانجيل الذي يلقي في قلوبهم اعتبارًا اجباريًا . وما اعظم السعادة التي يحصل عليها الذين يعتقدون بصحتهِ وما اعظم العجائب المسطورة فيهِ . فهو كتاب منفرد يجد العقل فيهِ جمالاً ادبيًا لم يكن معروفًا ومعرفتهُ بالخالق تدل الخليقة عليها فمن ياترى غير الله سبحانهُ وتعالى يقدر ان ياتي بمثل ذلك بكمال اصلي خالص ولم يكن للمسيح غير تلاميذ قليلين فحكم عليهِ بالقتل فمات بغضب الكهنة الاسرائيليين واحتقار الامة حتى ان تلاميذهُ تركوهُ وانكروهُ . وقال انهم ياخذونني قريبًا ويصلبونني واترك للعالم وانهم تلاميذي ينكرني في بداية قصاصي فاترك للاشرار . وبعد ذلك يحصل العدل الالهي على كنائسهِ وتمحى الاثام الاصلية بالامي ويرجع اتصال الانسان بالله ويكون موتي حياة تلاميذي و يصبحون دوني اقوى مما هم وانا معهم لانهم يشاهدونني مرتفعًا ثانيًا وساصعد الى السماء وارسل اليهم من السماء روحًا يعلمهم و روح الصليب يمكنهم من ان يفهموا انجيلي فيعتقدوا بهِ و يعظموا بهِ و يجلبوا العالم الى الايمان . فهذا الوعد الغريب الذي سماه بولس حماقة الصليب هو نبوة رجل صلب بتعاسة ثم حرقيًا وكيفية اتمامهِ ربما كانت اوسع دائرة من الوعد نفسهِ . ولم يفصل ذلك في يوم ولا بمعركة . فهل هذه حياة رجل . الجواب



لانها حرب استمرت ثلثمائة سنة بدأ الرسل بها وقام بها بعدهم خلفاؤهم واجيال نصرانية متتابعة وفي هذه الحرب اصطف جميع الملوك وكل قوات الارض في جهة . ولا ارى جيشًا في الجهة المقابلة ولكنني ارى اجتهادًا سريًا وافرادًا متفرقين في جميع اقطار الدنيا وليس لهم عصبة غير وحدة ايمان باسرار الصليب . فما اعظم سر جعل الانسان الالهي الة لوقوع القصاص عليها . و تسلح تلاميذهُ بها وقالوا قد مات الهنا لخلاص العالم . فهذه كلمات بسيطة غيرانها هاجت عواصف الاجتهادات حول راية الام الرجل الالهي . ونرى في جهة غضبًا وجميع مهيجات البغض والتعدي وفي الجهة الاخرى اللطف والشجاعة الادبية والتسليم غير المحدود . واستمرت الروح تنازل وحشية الاحساس ثلثمائة سنة والضمير الظلم والروح الجسد والفضيلة الفساد . وجرى دم المسيحيين انهارًا وكانوا يموتون وهم يقبلون اليد التي كانت تقتلهم مكتفين بالحجة التي كانت الروح تقيمها حال كون الجسد كان يسلم نفسهُ الى جميع العذابات . وكانوا يقتلون في كل مكان وفي كل مكان كان الفوز لهم . وقد ذكرت قيصر واسكندر وفتوحاتهما والحمية التي كانا يضرمانها في قلوب عساكرهما . ولكن هل تصدق ان رجلا ميتًا يقدر ان يقوم بفتوحات بواسطة جيش صادق وقف نفسهُ على سبيل خدمة ذكره . فجيوشي قد نسيتني مع انني لا ازال في قيد الحياة فهذه هي قوتنا والانغلاب في معركة واحدة كاف لسحقنا والضيقات تبدد شمل اصدقائنا . فهل تصدق ان قيصر امبراطور مجلس اعيان رومية الذي لا يموت ذكره يقدر وهو في اعماق قبره ان يسوس امبراطوريتهُ ويحرس رومية . فهذا هو تاريخ تغلب النصرانية على الارض وفتوحاتها فيها وهذه هي قوة اله المسيحيين وهذه هي المعجزة الدائمة التي جاءت بتقديم الايمان وادارة الكنيسة . فالامم تنقرض والعروش تسقط على ان الكنيسة باقية . فما هي القوة التي صانت هذه الكنيسة التي لقيت صدمات الغضب الشديدة وعدوان قرون . فاين اين الجيش الذي حمى الكنيسة ١٨٠٠ سنة من عواصف التعديات التي تهددها بالتدمير . وكم من نقصان ترى في حياة الجميع خلا حياة المسيح . فاي رجل لم تخضعهُ الموانع واي رجل لم تكن الحوادث والامكنة ضابطًا لاعمالهِ ولم يخضع لسطوة الازمنة ولا جارى عادة وميلاً . فانهُ لم يتغير من اليوم الاول الى اخر ايامهِ بل كان على الدوام جليلاً بسيطًا ثابتًا ولطيفًا جدًا . و ينبغي ان تعم الدنيا بالحق . فالنصرانية هي الدين الفريد الذي يهدم اركان التعصبات الدينية و يعلن ان الجنس البشري واحد و بعضهُ اخوة البعض الاخر . وقد تفرد بمراعاة الروحيات فقط و بتعيين الاحضان الالهية في السماء ميعادًا للجميع دون امتياز . وقد برهن المسيح انهُ ابن الازلي بعدم اهتمامهِ بالوقت فان تعاليمهُ كلها تتعلق بامر واحد وهو الابدية . ومن المحقق ان المسيح جعل في ايماننا اسرارًا كثيرة فانهُ يامر كذي سلطان يامرنا بان نؤمن بها دون ان يبين سببًا غير واحد وهو كلام مخيف ونصهُ انا هو الله . وقد صرح بذلك وجعل بينهُ و بين واضعي

الاديان بونًا عظيمًا . فاذا كان غير صحيح فيكون تحة عظيمة وكفرًا . واقول ان فوز ادعاء كهذا اذا كان غير صحيح يكون عذرًا للذين ينكرون الله

وفضلاً عن ذلك قد راينا ان تعاليم المسيح المحفوفة بالاسرار مشابهة للطبيعة فانها ذات اسرار عظيمة . فان الانسان يقول في نفسهِ من اين اتيت يا ترى والى اين اذهب ومن انا . فالحياة البشرية سرٌّ في اصلها ونظامها ونهايتها . ففي الطبيعة كل شيء متعلق بالانسان وبغيره سرٌّ فهل يمكن ان يكون الدين غير سري . فالخليقة والدنيا سرٌّ لا قرار لهُ وكذلك الخليقة ونصيب كل فرد . فالنصرانية لا تصرف النظر عن هذه المسائل المهمة جدًّا ولكنها تلاقيها بشجاعة وتعاليمها تحلها عند كل مؤمن . وفي الانجيل فضيلة سرية واقتدار سري وتاثيرها يدخل القلب ويعزيهِ . والانسان يشعر بالتامل بهِ بما يشعر بهِ عند التفرس بالسماوات فالانجيل ليس ككتاب ولكنهُ ككائن حي ذي اجراء وقوى تمكنهُ من التكلم على كل ما يحول دون امتداده . فانظرهُ على هذه المائدة وهو يفوق كل كتاب (ووضع الامبراطور يدهُ عليهِ باعتبار) وكل يوم اقراهُ وكلما قرأتهُ التذ بهِ . ولا ارى في غيره اراء حسنة كالتي فيهِ ولا تعاليم ادبية خارقة العادة تنتشر بجيش سماوي منتشر وتوثر فينا كتاثير السماء عند التفرس في ليلة صيف ذات صفاء منجمة . فتشغل افكارنا وتضبط اعمالنا والنفس لا تضل ما دام هذا الكتاب دليلها واذا تسلط الانجيل الامين على انفسنا يصير المسيح محبًا لنا ويصبح الله سبحانهُ وتعالى صديقًا لنا ووالدًا وبالحقيقة الهنا فالأمُّ لا تعتني اكثر منهُ سبحانهُ برضيعها . وما اعظم الدليل الذي نستدل بهِ على الوهية المسيح فانهُ اسس سلطنة دينية عظيمة مطلقة ومع ذلك لم تكن لهُ الاَّ غاية واحدة وهي تحسين حالة الافراد الروحية وطهارة الضمير والاتحاد على ما هو حقيقي وقداسة النفس . وقد تكلم فصارت الامم في كل الاجيال لهُ بروابط امتن من روابط ادم وهي اقدس الرباطات وابعدها عن الانحلال فانهُ يضرم لهيب حب يحرق بهِ حب الذات ويتسلط الحب المحرق على كل حب اخر . وواضعو سائر الاديان لم يخطر لهم وضع اساس ذلك الحب العجيب وهو جوهر النصرانية وقد سمي باسم جميل وهو الاحسان فمحاولة القيام بذلك اي قيام الانسان بما يجعل نفسهُ محبوبًا بجعلهُ يشعر بعجزه . فاعظم معجزات المسيح هي دون ريب جعل السيادة للاحسان

اما انا فالقيت في قلوب الجماهير حمية جعلتهم يرتضون بان يبذلوا انفسهم في سبيل خدمتي وحاشا لي ان اقابل حمية الجندي بالاحسان المسيحي فانهما متباينان بالذات والعلة . على ان وجودي كان لازمًا لالقاء الحمية في قلوب العساكر بمشاهدتهم نور عيني واسماعهم صوتي وكلمة مهيجة من فمي فهذه هي الوسائل التي كانت تضرم نيران الحمية في قلوبهم . وانا حاصل فعلاً على تلك القوة السرية التي تشبه قوة السحر وهي التي ترفع النفس غير انني لم اكن قادرًا ان اجعلها متصلة



بالاخرين ولم يقتبسها عني احد فوادي ولا اقتدار لي على تخليد اسمي وحبي في القلوب دون وسائل طبيعية . فقد بتُّ الان في جزيرة سانته هيلانة منفردًا مقيدًا فمن يحارب عني ويفتح لي الممالك ومن هم الذين يخدمونني في ضيقي ومن يذكرني ويخدمني في اوربا فابن اصدقاءي . انهم اثنان او ثلاثة رجال قد خلدت الامانة والصداقة اسماءهم وانتم قد شاركتموني بالنفي والضيق ومنكم تعزيتي ولما فاه الامبراطور بهذه الكلمات ارتجف صوتهُ من الكدر ثم قال ان حياتنا لمعت مرة بعظمة التاج والعرش وحياتك يا برتران كسَّرت النور اللامع كما تتكسر اشعة الشمس على صورة قصر الاناليد المعلقة بالقرب منا . على ان المصائب دهمتنا واخذ لمعاننا يزول وسوء الحظ الذي وقعت فيهِ مع الاهانات التي تلحق بي كل يوم جعلت ذلك اللمعان ظلامًا حالكًا فامسينا رصاصًا بعد ان كنا ذهبًا وحجارة ثمينة وبعد برهة قصيرة ابيت انا والجنرال برتران في القبر . فهذا هو نصيب الرجال العظماء وهكذا كان نصيب اسكندر ذي القرنين وقيصر وكذلك انا وقد بتنا جميعًا في زوايا النسيان . ويصبح اسم الناتح واسم الامبراطورين من المواضيع التي تشتغل الطلبة فيها بالمدارس . وتكون اعمالنا مواضيع يجعلها الاساتيذ وسيلة لتعليم تلامذتهم فيشغلون انفسهم بمدحنا او التنديد بنا . فتامل بما يطرأ عليَّ . انني اموت قبل اواني الطبيعي قتلاً بظلم المامورين الانكليز وجثتي لابد لها ان تعود الى التراب وتصير ماكلاً للديدان فهذا هو نصيب الرجل المعروف بنابوليون العظيم . فما اعظم الفرق بين شقاءي العظيم وملك المسيح الابدي الذي لا يزال اسمهُ معلنًا ومحبوبًا ومعظمًا وهو ملك لا يزال ينتشر في اربع جهات العالم . اهذا هو الموت اما هو الحياة فموت المسيح موت معبود . ثم صمت الامبراطور دقيقة . فلم يجب الجنرال برتران على كلامهِ فقال اذا كنت لا تدرك ان المسيح اله اكون قد اخطأت بجعلك قائدًا من قواد جيشي

وفي ٢٢ ايلول (سبتمبر) جاء الطبيب منزل الامبراطور قبل الظهر بساعتين ووجده في فراشهِ فانهُ كان قد صرف الليل سهران متوجعًا . فسالهُ الامبراطور في اثناء الحديث قائلاً ألم تأتني بكتب فقال لهُ عندنا بعضها غير انني لا اعلم ما هي فانني لم اشترها . فقال اروم ان اراها كلها . فقال لهُ الطبيب لابد من ان تكون قد ضمنت بعض الطعن بك . فقال لهُ الامبراطور لا ابالي بذلك فليس في الشمس كدر اكثر مني وقد افرغ جميع الطاعنين بي جعبتهم فمكني من مطالعة كل شيء وفي تلك الساعة اقتربت عجلة من منزل الامبراطور حاملة صناديق الكتب فادخلت المنزل وفتحت واخرجت منها وسلمت الى الامبراطور . فقال ليس هذا ما اروم ان احصل عليهِ فنتشوا في الصناديق باعتناء فان فيها رزمة مرسلة من اوربا متضمنة شيئًا اخر فان الكتب ليست الامر الاول الذي يسال الوالد عنهُ . وبعد برهة وجد في صندوق صورة ابنهِ المحبوب جدًّا عنده وضعت بيد اوجين . فملأت الدموع حالاً عينيهِ واخذ يتفرس فيها طويلاً

باهتمام وحب وقبلها بحرارة . فتحركت الشفقة في قلوب اعوانهِ الحاضرين فانقطعوا عن الشغل ووقفوا ولوائح الاشتراك الشديد بالحاسيات تلوح على وجوههم فقال الامبراطور انهُ ولد محبوب عندي واذا لم يقع ضحية نظام سياسي يصبح اهلاً لان ينسب الى والده

وفي ٢٣ ايلول (سبتمبر) صرف الامبراطور الليل وهو يقرأ الجرائد قلقًا متعبًا وفي يده صورة ولده وعيناهُ شاخصتين اليها . فقال للطبيب خذ هذه الصورة وضع صورة الولد بالقرب من صورة امهِ فهذه هي صورة ماريا تريزا حاملة ابنها بذراعيها اما هاتان الصورتان فهما صورتا جوزفين وقد احبتها بحرارة . وهكذا ترى ان زينة مائدة مخدعي ليست كبيرة وما هي الا مثال القسم الاعلى من جسم ابني وكاسان مذهبان وقنينتان من ماء كولونيا العطرية ومقص وزجاجة صغيرة . فشتان بين هذا وعظمة قصر التويلري فلا باس فان كنت قد سقطت قوة لم اسقط مجدًا فانني محافظ على جميع تذكراتي . وقليلون من الملوك هم الذين ضحوا انفسهم في سبيل نفع رعاياهم . وضحية عظيمة كهذه ليست دون اسباب التسلية ووصف الطبيب المذكور غرفة نابوليون فقال كان في احدى جهاتها سرير سفر صغير من حديد بسيط جدًا عليهِ امثلة اربعة نسور من ذهب واستار حريرية وكان للغرفة نافذتان صغيرتان غير منقوشتين وبينهما كتابة عليها صندوق ليس بكبير وامامها كرسي كبير كان يجلس عليها وهو يطالع وفي يسارها كرسي اخرى وفي بينها السيف الذي لبسهُ في معركة اوسترلتس . وكان لها باب يؤدي الى حجرة الاستحمام بالقرب من مقعد قديم من منسوج قطني وكان يتكئ غالبًا على هذا المقعد اجتنابًا للرطوبة والهوام اللذّاع ورجلاه في كيس من الفلانلا والى جانبهِ مائدة قديمة عليها كتبهُ وكان يضع طعامهُ في الصباح عليها . اما الغرفة الثانية فكانت كالاولى مبنية من تراب علوها سبع اقدام وطولها ١٥ قدمًا وعرضها ١٢ ولم يكن لها غير نافذة واحدة . وكان فيها سرير سفر واحد وعدة بنادق وخزانة ذات جرارات ومائدتان صغيرتان على احداهما كتب وعلى الاخرى قناني وكان في هذه الغرفة كرسي ومائدة غسيل فاخرة جلبت من الاليزي . فهذا هو المنزل الدني الذي سجن الامبراطور فيهِ . وهو يدل على كرم الانكليز واحسانهم

وفي ٢٧ من الشهر المذكور صرف الامبراطور الليل قلقًا ودخل عليهِ الطبيب قبل الظهر بساعتين ووجدانهُ يحاول ان يصرف ساعات شقائهِ بالقراءة . وكانت الستائر خرقًا بالية . فأنزلناها وحاولنا وضع شيء اخر تتلذذ بهِ عين الامبراطور فعلقنا عوضًا عنها استارًا من منسوج رقيق اشتريناه وزيناها بصور طيور جميلة فجمعنا الصور التي كانت عندنا ووضعنا في وسطها مثال نسر . فتبسم الامبراطور لما رأى مثال النسر فانهُ رمز الى النصر فقال يا ايها النسر العزيز لولم يمنعهُ الذين كان يسترهم بجناحيهِ عن الطيران لكان لايزال يطير في قبة الفلك



وفي ٤ تشرين الاول (اكتوبر) شعر بضعف عظيم وكدر شديد فخرج متمشيًا مع الطبيب وجلس على العشب تحت شجرة وبعد ان صمت بضع دقائق قال اه ايها الطبيب اين هواء كورسيكا الطيب فالنصيب لم يمكني من ان ارى مرة اخرى تلك المناظر التي اصبحت محبوبة عندي بتذكرات السفر ولو رجعت الى كورسيكا لربما لم يخطر لي ببال ان اتولى زمام الامور ولا نقضت الوعود ولا رايت هذا المكان . فما اجمل تذكرات كورسيكا فبالتصور لا ازال التذ ببقاعها وجبالها حتى انهُ يخيل لي انني لا ازال اسير في ارضها واتنسم اطياب نفحاتها . ثم اخذ يذكر الامور التي كان قد خطر ببالهِ ان يقوم بها لاصلاحها . فهذا ما كان يخطر ببالي من جهة تحسينها غير ان اعداءي اضطروني الى صرف حياتي في ميدان الحرب وجعلوا الذي لم يكن يرغب الا في بركات السلم شيطان الحرب فخدعت الامم بجيلهم فنهضت جميعها وغلبتني بالقوة . فاثر هذا الكلام جدًا في الطبيب فملأت الدموع عينيهِ فراى ذلك نابوليون فقال لهُ اه ايها الطبيب وطننا وطننا فلو كانت جزيرة سانته هيلانة فرنسا لاحببتها ولو كانت صخرًا مخيفًا

وفي ٨ من الشهر المذكور تحسنت صحة الامبراطور ونهض بسرور ودعا اولاد الجنرال برتران الى غرفتهِ وكانوا يسرون دائمًا بالفوز بذلك فجاوهوهُ راكضين حاملين العابهم ضاجين ضاحكين طالبين اليهِ ان يقضي بينهم فشاركهم بفرح بجميع العابهم وجعلهم يبقون عنده لمناولة الطعام وصرفهم مواعدًا بانهُ لا يتاخر عليهم بالدعوة ثانية . وقال بعد ان خرجوا انهم يسرون جدًا عندما ادعوهم اليَّ والعب معهم فان ذلك عبارة عن حصولهم على جميع ما يرغبون فيهِ فالشهوات لم تدخل بعد قلوبهم وهم يسرون جدًا بوجودهم فدعهم يسرون ولما كنت في سنهم كنت مثلهم . ولكن ما اعظم الانواء التي طرأت عليَّ بعد ذلك وبنتهُ هورتنسيا اخذت في النمو السريع والتحسين العظيم فاذا عاشت تسلب راحة شبان كثيرين ويكون ذلك بعد ان أبارح هذه الدنيا

وفي ١٥ من الشهر المذكور صرف الامبراطور الليل بتعب فانهُ شعر بالم شديد في الكبد وبات مشغل البال من جهة زوجة الجنرال برتران فانها كانت مريضة . وقال اننا نحن الرجال تعودنا احتمال الاوجاع والمضايقات فنقدر ان نحتملها . اما المرأة التي بانت محرومة دفعة واحدة من كل ما يجعل الحياة ذات سرور وقبول منقولة الى صخرة مخيفة لا تقدر ان تحتمل ذلك الا بالاعتصام باعظم الصبر فيجب ان نشفق عليها . وقد امست مادام برتران من جرى مرضها غير قادرة على مبارحة الفراش باكرًا ولا ان تسمع القداس ومع ذلك ربما سرت باستماعهِ ولم يخطر ببالي انها مريضة لما عينت ساعة القداس ولكنني راعيت شيخوخة الكاهن فقل لها انني امرتهُ بان يقيم القداس في بيتها فلتعين لهُ الساعة التي توافقها واخبره بان يبني مذبحًا غير هذا المذبح في بيتها .

وكل من يشا ان يسمع القداس يذهب الى بيتهما حين ترضى بان يدخل الناس اليهِ . ثم قال اروم ان يعتني الكاهن بتعليم اولادها وتكدر لما راى ان الكاهنين المار ذكرهما كانا من اصحاب الصفات الحسنة ولكنهما قليلي الادراك والمعارف . واما الكاهن المسن بونافينا فلم يقم في الجزيرة غير مدة قصيرة . وكان نابوليون يحب الكاهن الصغير الاب فينالي واشار عليهِ بمطالعة بعض الكتب وكان يناظر على درسهِ ويفحصهُ ليتحقق تقدمهُ . ومن اغرب الامور جلوس الامبراطور نابوليون في كرسي معلم لاهوت في سانته هيلانة ليعلم ذلك الكاهن وفي ذات يوم قال الاب بونا فينا لنابوليون انهُ كاعظم قواد الرومان وهو اسكندر ذو القرنين ولم يكن اسكندر ذا القرنين رومانيًا بل مكدونيًا او يونانيًا فحكم الامبراطور على ذلك الاب ان يقاص بمطالعة اربعة اوجه من تاريخ روسن كل يوم صباحًا وان يخبره بملخص ما طالعهُ منهُ

وهكذا انتهت السنة الرابعة من سني اسرهِ في جزيرة سانته هيلانة

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ظهرت في الامبراطور علامات اشتداد المرض فان الامة كانت تزداد كل يوم . واصبح في ذلك اليوم ضعيفًا جدًّا ولم يقدر ان يسير الى الحديقة الا بعناء عظيم فجلس ونظر الى ما حواليهِ بحزن وقال اه ايها الطبيب ابن فرنسا وهواها الطيب ياحبذا لو تمكنت من ان اراها مرة وان اتنفس النسيم المنعش الذي يمر بتلك البلاد السعيدة . فما اجمل ارض مولدنا . وعزم انتيوس تجدد بوقوفهِ على الارض وانا اشعر ان قوتي تعود اليَّ بمشاهدة سواحل فرنسا . ياسواحلنا اه لقد نسيت ان الجبن نال النصر بغتة ولا نجاة من حكمهِ

وفي ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) اصبح الامبراطور مرتاحًا جدًّا وكان ضعيف القوة ومع ذلك لم يشعر بالم وسار مع الطبيب الى الحديقة وتعجب من خور العزم فقال للطبيب ماذا افعل . فاجاب لابد من ان تشتغل في الارض فتتخلص من اضرار المعيشة دون اتعاب الجسم ومن الاهانة . فقال الامبراطور انشور بحفر الارض لقد اصبت فاشتغل بها . وقال الطبيب اننا رجعنا الى المنزل وامر الامبراطور بما يلزم للشغل وفي صباح الغد شرع يشتغل . فدعاني اليهِ ورفع مجرفة في يدهِ وقال وهو يضحك هل ارتضيت من مريضك أليس هذا الشغل انفع من دوائك . فلا امكنك من ان تسقيني دواء بعد الان . ثم اخذ يشتغل بهمة وبعد دقائق قليلة انقطع عن الشغل وقال ان هذا العمل متعب جدًّا فان قوتي قد فرغت وبداي تجاريان منفعتي فانت تضحك وانا عالم بسبب سرورك وقد شققت على يدي اللطيفتين فلا باس فانني طالما عودت جسمي ان يخضع لارادتي وساخضعهُ الان بالاعمال الشاقة . وقال الطبيب انهُ اخضع جسمهُ لارادتهِ في برهة قصيرة واصبح يحب هذا الشغل . وكان يجعل الذين في لونغود يشاركونهُ فيهِ ولم تنجُ الخوانين من مشاركتهِ الا بصعوبة . وكان يضحك عليهن ويلح عليهن بان يشتغلن معهُ ويرجوهن . وفي برهة قصيرة تغيرت



مناظر الاماكن المجاورة لمنزلهِ فانهُ انشأ حفرة في مكان وطريق في اخر وبركة في غيره . وقال الطبيب كنا ننشيء سبلاً ومجالس ونزرع اشجارًا مختلفة لتزيد الظل حول البيت وكنا نهتم احيانًا بما هو نافع بعد الاهتمام بما هو نافع من اسباب الزينة كزرع اللوبيا والبازلا . وسمع الحاكم باشغالنا وكان يراقبها بعين الخوف فسار الينا وكنت خرجت لامشي حسب عادتي فقال لي هل اشرت انت على الجنرال بونابرت بان يشتغل هذه الاشغال الشاقة . فقلت لهُ نعم . فهز كتفيهِ قائلاً انني لااعرف ماذا تصنعون فهذا التعب يذهب سدىً ولا تلبث هذه الاشجار ان تيبس . فاخبرت الامبراطور باجتماعي بالحاكم وبما قالهُ لي . فقال لهُ انهُ يحسدني لعدم اقتداره على تكديري وهو يروم ان يقتلني ولكن الموت بطيء فقد فرغت جعبة صبره وقد فوض قتلي الى هذا الهواء الردي وسيقوم بما فوض اليهِ بزمان اقصر من الزمان الذي ننتظره

وقال الطبيب كنت احرث الارض فيزرع الامبراطور البزر ويغطيهِ بالتراب . وفي ذات يوم كان يزرع لوبيا فرنسوية فراى اصولاً صغيرة واخذ يبحث عن النبات واصولهِ بحذق وحكمة وبرهن بهِ على وجود الخالق المتسلط على غرائب الطبيعة ومعجزاتها . ثم قال لي انك لاتومن بجميع ذلك فانكم انتم الاطباء تحسبون هذا الايمان ضعيفًا . فقل لقد فحصتم كل الجسم البشري فهل صادف مشراطكم النفس ففي اي عضو مقرها فلماذا لايومن الاطباء بالله فالرياضيون مومنون بهِ غالبًا

وفي ٢٠ كانون الاول (دسمبر) كان قد مر شهر على الامبراطور نابوليون وهو متمتع بصحة تامة وراحة على ان سكان منزلهِ باتوا عرضة لمكدرات كثيرة ناشئة عن احتياطات السارهدسون لو . والتى الحراس القبض على الطبيب مرات وهو يتمشى حسب عادتهِ . اما نابوليون فتخلص من هذه الاهانة بسجن نفسهِ في بيتهِ . وفي النهاية كتب الطبيب معترضًا على ذلك الى حاكم الجزيرة والى الوزارة . وقال اصبحت في جزيرة تكاد تكون دون سكان محرومًا الحرية وكانت النظارات موجهة الى منزلنا وتمكن الناس بها من ان يروا داخلهُ واسلاك برقية يتقرر بها عن كل ما يجري فيها واذا شئت ان اخرج عن الدوائر المعينة لنا يرافقني وكيل الحاكم الذي يومر بان يقرر عني كل شيء اقولهُ او افعلهُ بحضورهِ وللتخلص من مخاطر تبليغاتهِ التزم ان استغني عن كل تنزه ومعاشرة . ولا يسمح لي بان اتمشى بعد الساعة السادسة ونصف بعد الظهر ولو رغبت في ان اتمشى في الحديقة قرب المنزل . ومن ارداء الامور ان اهل منزل الامبراطور الذين يصبحون بالصدفة خارج البيت بعد تلك الساعة لايسمح لهم بالرجوع اليهِ وقد التزمت بان ابقى خارجهُ ثلث مرات . فاي ظلم اعظم من هذا واقل نفعًا منهُ خاصة في هواء مضر كهواء هذه الجزيرة المحرق

وكان من عادة حاكم الجزيرة في كل يوم بعد الظهر بست ساعات ونصف ان يحيط بجدار

منزل الامبراطور وهو نحو مائتي قدم بحراس كثيرين فوض اليهم ان يمنعوا كل البنات عن الخروج منهُ او الدخول اليهِ . والساعة التاسعة بعد الظهر كان يضيق الحراس المذكورون حلقتهم حتى يمسوا في وسط المنزل فلا اقدر ان اخرج من غرفة الى غرفة ولا الى غرفة الكونت برتران ولا الى اماكن الخيل دون ان اعرض نفسي لضربة من طرف بندقية من جرى ما اجيب بهسوا لانهم التي اسمعها بلغة مجهولة عندي

ومنح السار هدسون لو الطبيب حرية تزيد عن حرية الفرنسويين قليلاً . ولكنهُ قال ان نابوليون مختلس وانهُ يصبح ملتزماً بان لايقبل كتابات من الطبيب اذا اصر على ان يدعونا بوليون امبراطوراً وبعد ذلك بايام قليلة حدث في لونغود ما اضحك القوم . فانهُ كان قد صار التصميم على حفر بركة فلبس الامبراطور بنطلوناً كبيراً جداً وثوباً علوياً صغيراً و برنيطة كبيرة من العشب اليابس . وراى ذلك بعض النعلة الصينيون فضحكوا فقال الامبراطور ماذا يقولون اظن ان ملابسي تضحكهم فهذا امر غريب ومع انهم قد ضحكوا لاينبغي ان نتركهم يحترقون بحرارة الشمس فلا بد من ان اهدي الى كل احدٍ منهم برنيطة من القش كبرنيطتي فركب فرساً وسار مسرعاً برهة ثم صار يغنة الى «ودود» فلما بلغ قمة الجبل نظر الى ما حولهُ بنظارة وعاد بسرعة فاصبحت الجزيرة كلها في اضطراب من جرى ذلك واخبر الحاكم بهِ فانشغل بالهُ لان عقلهُ الضعيف جعلهُ يتوهم ان ذلك اشارة الى مؤامرة خفية وكان من عادة نابوليون ان يفعل ما يزيد خوفهُ و يسخر بهِ فامر الاب فينالي بان يلبس كملابسهِ وان يركب فرسهُ و يذهب بنظارتهِ بسرعة كانهُ ينظر الى امر منتظر . فاخذت الرسالات البرقية تبلغ هذه الاخبار المخيفة الى الحاكم فاضطربت الجزيرة وجاء السار هدسون لو باعوانهِ بسرعة الى منزل الامبراطور فوجد ان هذا الاضطراب كلهُ نشا عن ركوب كاهن ضمن دائرة السجن فخجل ورجع . وقال الطبيب انني لاقيتهُ وهو راجع فدنا مني وقال بغضب ان الذي فعل ما فعل ليسخر بهِ انما هو مختلس ثم اخذ يسب و يحلف و يقول انهُ مختلس وانني لااقدر ان انكر ذلك . فاجاب الطبيب بغضب واستهزاء ان الامبراطور مختلس فعلاً فانهُ سلب النصر من يد الحاملين في طولون وقد اختلس تعجب الناس بكثرة انتصاراتهِ واهميتها . ولما عاد الطبيب قال لهُ الامبراطور ماذا قال لك الحاكم هل يخاف ان احصل على اجنحة واطير متخلصاً من القبر فقال الطبيب يامولاي انني لااعلم غير انني اخبرتهُ باختلاسك النصر وتعجب الناس فتكدر من كلامي وسار في طريقهِ فقال الامبراطور انني اشفق على هذا الرجل المسكين فاننا قد اقلقناه كثيراً في يوم واحد . ثم اخذ يتكلم عن امور اخرى

واستمر القوم يشتغلون بحفر البركة بضعة اسابيع وفي ذات يوم كانوا يشتغلون بوضع القنوات الحديدية فتغير الهواء وقرب المطر . وكان نابوليون يهتم بجميع الذين كانوا تحت انظاره فلم



يرضَ بان يمسي النعلة الصينيون عرضةً للمطر . فقال للطبيب لايلزم ان يبل النعلة بالمطر فان انشاء هذه البركة ليس من الامور المستعجلة فمكنهم من الراحة وسنرجع الى الشغل بها . ثم سار الامبراطور بالطبيب الى غرفتهِ واراه نملاً كان قد صرف برهة في ملاحظة عادتهِ فان النمل كان قد بدا بكثرة في حجرتهِ واخذ يصعد على مائدتهِ لانهُ وضع عليها قليلاً من السكر فاكتشفهُ النمل واقام خط اتصال بين السكر ومخزنهِ . فلم يرضَ نابوليون ان يوقف اعمال النمل بامل الوقوف على عاداتهِ فكان يضع حيناً بعد حين حاجزاً بين النمل والسكر و يسر بما كان يراه من حكمة النمل ومثابرتهِ على التفتيش على السكر الى ان يجدهُ . فقال هذا ليس من الغريزيات فقط فانهُ يدل على حكمة وذكاء وادراك وانتظام الهيئة الاجتماعية المدنية . غير ان هذه المخلوقات الصغيرة خالية من شهواتنا وشرنا . فان بعضها يعاون البعض الاخر ولا يقتلهُ . وقد حاولت منعها عن ادراك غايتها ولم انجح وقد نقلت السكر الى جميع جهات الحجرة فصرف النمل احياناً يوماً او يومين او ثلثة ايام في البحث عنهُ وخطر لي ان احيط اناء السكر بالماء لارى هل تمتنع بهِ عن اتباع غرضها . فطلب ماء . فاتى بالماء ووضع حول اناء السكر فاخذ النمل يرفوقهُ دون ان يلحق بهِ ضرر فقال الامبراطور فلنضع حولهُ خلاً فاتى بالخل فانقطع النمل عن الدنو منهُ فقال انظر ان هذا النمل لايساق الى فعل ما يفعلهُ بالغريزيات . فان امراً اخر يضبط اعمالهُ ولا اعلم ما هو . فمهما كانت علة اعمالهِ هو قدوة حسنة للناس . فان الغايات لاتنال الا بالثبات والتعاون فلو كانت لنا وحدة مقاصد كهذه لفزنا بما نتمناهُ غير ان الامم تقع في النسيان والكسل الا ان الجميع لم يخضعوا للنوم فان بعضهم لايزال حاصلاً على الحمية والهمة اللتين تدلان على بداية الاعمال . فربما غابت اوربا والملوك الذين اصبحوا يفتخرون لانهُ ليس في الشعب من رجل مساوٍ لهم و يكتفون بوجودي . ثم اخذ الامبراطور يبحث عن القواعد المسماة قواعد الحقوق الملكية الموروثة فقال انها ادعاآت مضحكة ومناقضات بينة فلا توافق لنصوص الكتاب المقدس ونواميس الدين وتعاليمهِ فهل تصدق الامم انها ملك عائلة . فهل كان داود الذي خلع شاوول ملكاً بحق اولا . وهل كانت لهُ حقوق غير ناشئة عن ارتضاء الامة بهِ . وفي فرنسا قد تبوأ عمال كثيرة تخت الملك فانشات دولاً كثيرة بارادة الامة المبنية على قرار المجالس التي تنوب عنها او بقرار المجالس المولفة من الامراء والاساقفة الذين كانوا حينئذٍ ينوبون عن الامم . وكم من عائلة تبوات تخت ملك انكلترا . فالملك اليوم في يد عائلة هانوفر التي خلعت الملك الذي سلفها لان سلفاء اعضاء الامة الحاليين ارتضوا بذلك وراوا ان تغيير الدولة لازم لصيانة حقوقهم السياسية والدينية . و بعض الذين لايزالون في قيد الحياة قد شاهدوا اجتهاد الفرع الاخير من عائلة استوارت المصروف في سبيل الدخول الى سكوتلاندة وكان يعاونهم الذين كانوا يوافقونهم على اراءهم وحاسياتهم . فقاومهم مضادوهم واخرجت عائلة استوارت باكثرية عظيمة

من الشعب الذي كانت اراؤهُ وصوالحهُ غير منطبقة على اراء تلك العائلة المنسدة وصوالحها

واخذت صحة الامبراطور تتاخر بسرعة وصرف اشهرًا كثيرة بالوجع والكدر والحزن . وفي ٢٦ تموز (جوليه) سنة ١٨٢٠ كان متكئًا على مقعد في غرفتهِ المظلمة الرطبة فذهبت بهِ افكاره الى رومية حيث كانت والدتهُ المحترمة جدًّا عنده وذكر بتاثر اعتناءها بهِ وحبها لهُ وهو صغير السن . فقال للطبيب انك تحبني حبًا شديدًا ولا تبالي بالالم والمقاومات والتعب حين ترى انك باهتمامك تخفف اوجاعي . ومع ذلك هذا لا يوازي حب الالم اه يا اماه وكان المرض قد اضعفهُ فتغلبت عليهِ عواطف الحب الوالدي فغطى وجههُ بكفيهِ واستمر برهة طويلة غائصًا في بحار من التاملات المحزنة

وكان الحادي والعشرون من شهر تموز (جوليه) يومًا جميلاً فاكملت البركة وملئت بالماء وأُتي بالسمك وكان الامبراطور يروم ان يضعهُ فيهِ بيده وان يذهب معهُ اليها جميع الاولاد الذين كانوا في لونغود وكانت قد مضت عليهِ ايام دون ان يراهم ليلتذ بسرورهم فاجتمعوا حولهُ في برهة قصيرة بسرور وكانوا يحبونهُ حبًا شديدًا . وزالت الاكدار من لونغود لما سار الامبراطور في ذلك الجمهور اللطيف الفرح واخذوا يراقبون الاسماك السابحة في مائها الفضي وقبل ان رجع الى بيتهِ حمل هورتنس بنت المرشال برتران الجميلة الصغيرة واخرج من جيبهِ زوجًا من الحلق المرجاني الفاخر وقال ابن الطبيب ليثقب هاتين الاذنين الجميلتين فجلسوا تحت سنديانة وامسك الكونت مونثولون البنت ونابوليون ينظر اليها . اما شقيقها ارثور فخاف من الاستعدادات العظيمة فرفع قبضة يده بغضب وقال لا اسمح بلحوق ضرر بشقيقتي . فقال لهُ نابوليون ايها المخاصم الصغير اذا لم تستكن اجعل الطبيب يثقب لك اذنيك ايضًا فتعال وكن مطيعًا . ففي لحظة تم ثقب اذنيها وعلقت الحلقات فيها فحملها نابوليون وقبلها بتبسم قائلاً اذهبي واري اذنيك لامك واذا لم تسربها جرى قولي لها ان الطبيب ثقبهما وليس انا فقالت يامولاي انني افعل كذلك وسارت بسرور الى امها . وسر الامبراطور بحمية شقيقها ارثور وشجاعتهِ وقال انظروا ثبات هذا الصغير انني كنت ثابت العزم مثلهُ لما كنت صغيرًا وكنت كثير المشاكل والمخاصمات ولم اكن اخشى احدًا غير ان صرامة والدتي عدلت حبها فانها لم تكن تصرف النظر عما كنا نفعلهُ ان حسنًا او قبيحًا وكانت تعاقب وتثيب بلا غرض وتعتني باولادها ولم تسمح بان يوثر في عقولنا الصغيرة الا ما هو حسن ناشئ عن كرامة الاخلاق . وكانت تكره الكذب وتقاص على العصيان ولا تسمح بمخالفة بلا معاقبة

وفي اواسط ايلول (سبتمبر) ظهر ضعف الامبراطور فرآه الطبيب ذات يوم نائمًا في فراشهِ فاراد ان يوقظهُ فقال ايها الطبيب امتنع فاننا نصبح سعداء بالنوم لاننا نتخلص من الاحتياجات والهموم والقلق ثم نام



والتزم الامبراطور ان يصرف اياماً كثيرة داخل حجرتهِ المظلمة يشعر كل يوم بالتعب والالم والضجر . وكان اصفرار الموت قد بدأ في وجههِ وكان يشعر حينًا بعد حين بالبرد واشتد ضعفهُ حتى انهُ لم يكن يقدر ان يخرج من فراشهِ الا بصعوبة . وفي اليوم الخامس عشر من تشرين الاول (اوكتوبر) انتهت السنة الخامسة من سني سجنهِ بالظلم والقساوة بلا مراعاة قانون ولا نظام

## الفصل الحادي والسبعون
## ايام نابوليون الاخيرة

ودخل الامبراطور السنة السادسة من اسره غير ان الله سبحانهُ وتعالى كان قد قضى بتغيير زمان عذابهِ وكانت تمر الايام والاسابيع المظلمة والضباب يكتنف تلك الجزيرة السوداء والمطر يهمل عليها والعواصف تصدمها . وفي ٢٢ من تشرين الاول (اكتوبر) سكن مرضهُ ورجع الى بعض قوتهِ . فقال للطبيب حين تعود الي صحتي امكنك من العود الى دروسك فتذهب الى اوربا وتطبع تاليفك فلا اسمح بان تصرف حياتك بالباطل في هذه الصخرة المظلمة . وقلت لي انك لا تعرف فرنسا وهذا يمكنك من مشاهدتها وترى الترع والمشروعات التي انشأتها فيها اثناء امبراطوريتي التي كانت مدتها كوميض برق غير انها ملئت باعمال نافعة . وقد قدست الفتنة بادخالها ضمن دائرة قوانيننا والقانون الذي وضعتهُ هو المرساة التي تنجو فرنسا بها ويمكنني من الحصول على امتنان اهل القرون الاتية . وفي اول الامر خطر ببالي ان امهد جبال الالب . ودخلت ايطاليا ووجدت ان المخابرات بينها وبين باريس لا تتم الا في زمان طويل وانها محفوفة بصعوبات كثيرة فصممت على جعلها اسرع وعلى فتحها في وادي الرين فيصير ذلك النهر صالحًا لسير المراكب وان اكسر بالبارود الصخر الذي كان يختفي تحتهُ فارسلت مهندسين اليهِ ولم تكن النفقات كثيرة فطرحت الامر امام حكومة فرنسا المسماة ديراكتوار على ان الحوادث تغلبت علينا فذهبت الى مصر ولم يخطر لاحد ببال ان يصلح النهر المذكور . ولما عدت الى فرنسا رجعت الى اصلاحهِ وكنت قد عزلت المجلسين ولم تبق موانع في سبيلي فشرعت في تمهيد طريق الالب وقمنا بما لم يتجاسر الرومان على القيام بهِ ومهدنا في وسط الصخور طريقًا متينة تتغلب على الزمان

وفي ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) شعر الامبراطور ببرد اهتز بهِ جسمهُ كلهُ حال كونهِ يشعر بعطش شديد وكان الهواء باردًا رطبًا جدًّا فاضرم نارًا عظيمة ومع ذلك لم يستدفئ وشعر بان قواهُ خارت وقال ان هذه ليست بحياة ولكنها وجود ولا يلبث ان ينهي الموت اوجاعي فياطبيب

ما هذه الحال فانني اشعر بان كل شيء انما هو لانعابي واكاد اعجز عن الوقوف الا نقدر ان تجد لي ما يرجع الة الجسم الى انتظامها . وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) شعر الامبراطور بضعف شديد حتى كاد يعجز عن الوقوف وكان يذهب الى البركة التي انشاها ويجلس ساعات بجانب الماء يتسلى بمراقبة حركات الاسماك التي كانت فيها وكان يلقي فيها قطعًا من الخبز ويلاحظ عاداتها . واصيبت تلك الاسماك بمرض غريب فكانت سمكة تموت بعد الاخرى وتعوم على وجه المياه . فتكدر نابوليون من موتها فانهُ كان يحبها واخذ يتفرس في اثنتين منها امست عائمتين على وجه المياه مائتين وقال بكدر الا ترى ان الموت بات يفتك في كل ما يخصني فان ما احبهُ وما يخصني يهلك . وقال الطبيب كان الامبراطور يخرج كل يوم الى البركة ليقف على حالة الاسماك وان كان مريضًا والهواء غير موافق والح علي بان افرغ جهدي في سبيل ايجاد دواء لها لمنع موتها . ولم اعلم سبب موتها فاخذت ابحث لارى هل ذلك من الماء فابطأت ففرغ صبر الامبراطور فكان يدعوني اليهِ كل يوم ويرسلني لارى هل مات سمك . وفي النهاية اكتشفت على سبب ذلك الموت وهو اننا وضعنا في قعر البركة مادة فيها نحاس كثير فسممت المياه فمات السمك فاخرجنا ما كان لا يزال حيًا ووضعناه في الماء

ودخل التاسع عشر من الشهر المذكور وكان الامبراطور قد صرف ليالي قليلة دون ان يذوق نومًا مريحًا وكان يعذب بالم دائم في الكبد انهك قوتهُ . فقال للطبيب ايها الطبيب ما احلى الراحة وقد اصبح الفراش عندي من اسباب التنعم فلا ابدلهُ بعروش الدنيا فما هذا التغير العظيم وما اعظم سقوطي بعد ان كانت همتي دون حدود . وافكاري لم تكن تنام فقد امسيت في خوار عزم حتى انني اكاد اعجز عن فتح اجفاني وكنت احيانًا اكتب اربعة او خمسة كتب في وقت واحد امورًا مختلفة غير انني كنت حينئذ نابوليون اما الان فلست بشيء فان قوتي قد هجرتني فلا اعيش عيشة حقيقية ولكنني موجود فقط

وصرف الامبراطور اسبوعين وهو في ضعف عظيم وكدر شديد ولم يكن يخرج من غرفتهِ وكان كلامهُ قليلاً . وكان الطبيب يرجوه ان يشرب دواء فكان يقول ما هي الاشياء اعلق املي بها وما هي المنافع التي انتظرها من العلاج فيا طبيب انني لا افعل شيئًا خاليًا من النفع

وفي ٢٦ كانون الاول (دسمبر) كان الامبراطور لا يزال ضعيفًا عاجزًا وبعد ان صرف ليلة بلا نوم حاول الذهاب الى غرفة الجلوس غير ان رجليهِ عجزتا عن حمله فالتزم بان يجلس . وقال بكدر لقد عجزتا فانظر انهُ لم يبق منهما غير العظم والجلد ولا بد لكل شيء من نهاية وانا ادنو من نهايتي بسرعة ولا اتأسف فانني غير بحاصل على شيء يجعل طول الحياة محبوبًا عندي

وفي ٢٦ من الشهر المذكور وردت جرائد من اوربا فاخذ الامبراطور يطالعها باجتهاد



عظيم وقرأ فيها عن موت شقيقتهِ اليزا . وقال الطبيب ان هذا الخبر كدره جدًا وكان جالسًا في كرسي متسع وراسهُ منحنٍ على صدره لا يتحرك فان الحزن اخذ منهُ كل مأخذ وكان يتنهد حينًا بعد حين اشد تنهد ويرفع عينيهِ ثم يتنفس في ثم في الارض دون ان يفوه بكلمة ثم مد يدهُ الي فجسست نبضهُ فوجدتهُ ضعيفًا غير منتظم فطلبت اليهِ ان يشرب قليلاً من ماء البردقان والظاهر انهُ لم يسمع كلامي فتوسلت اليهِ ان يخرج من الغرفة الى الهواء الصافي . فقال اتظن ان ذلك يخلصني من ضيقي واوجاعي فقلت لهُ نعم ارجوك ان تشرب جرعة من ماء البردقان فشرب وقال تروم ان اخرج الى الحديقة فلا امتنع فنهض بصعوبة واتكأ على ذراع الطبيب وقال ان رجلي المرتجفتين تكادان تعجزان عن حملي . وكان النهار جميلاً وسار متكئًا على كتف الطبيب الى ان بلغ المصيف فخار عزمهُ والتزم ان يجلس على مقعد وصمت برهة ثم قال ذكر في الجرائد ان البرنسس اليزا ماتت من حمى عصبية وعينت جيروم وصيًا على اولادها ثم وصف صفاتها وصفًا مؤثرًا ثم قال انني لا اعلم هل اركن الى خبر موتها كما وصف في الجرائد ام لا ولكنني اظن انها لا تعين جيروم وصيًا على اولادها فاذا صح ذلك يكون زوجها باسيوشي غائبًا او متوفى والا فهو الوصي بالحق والقانون الطبيعي ثم نهض الامبراطور واتكا على ذراع الطبيب وتفرس في وجههِ قائلاً ايها الطبيب ان اليزا دلتنا على الطريق فالموت الذي صرف النظر عن عائلتنا ابتدأ يفعل فيها ونصيبي ليس بعيدًا وقد خار عزمي وقوتي فلست بنابوليون . وانت تحاول انهاض الامل . وهذا باطل فان القضاء بات مبرمًا لا يرد فالشخص الاول الذي يتبع اليزا الى القبر هو نابوليون الذي كان عظيمًا وبات يعيش عيشة دنية متعبة عجز عن احتمالها ومع ذلك لا تزال اوربا ترتجف منهُ اما انا فقد انقضت اموري وتنتهي ايامي قريبًا في هذه الجزيرة التعيسة . فرجعا الى المنزل وشعر الامبراطور بضعف شديد وكدر عظيم فالقى بنفسهِ على الفراش وذكر ابنهُ الذي انقطع املهُ من الاجتماع بهِ وذكر ايضًا ماريا لويزا . وحاول الطبيب ان يصرف افكاره عن هذه الامور المكدرة . فقال الامبراطور بحزن انني فهمت مقصودك فليكن ذلك كذلك فلننس هذه الامور اذا كان قلب الاب ينساها

وفي ٢٦ كانون الثاني (جانفيه) وردت افادات عن الفتنة في اسبانيا ونابولي . فقال الامبراطور ان فرديننذ ملك اسبانيا غير قادر على ضبط نفسهِ فكيف يضبط اسبانيا واقر انني لم انتظر ان اسمع بفتنة في نابولي . فمن ظن ان قومًا منهم يتبع الاسبانيول ويعول على قواعدهم ويناظرهم واحد الفرديننديين ليس بافضل من الاخر غير ان الامر لم يتوقف عليهما ولكنهُ توقف على امتهما . وبينهما بون عظيم من جهة علو الهمة والحاسيات ولذلك نقول ان اهالي نابولي قد جهلوا وان اعمالهم تدل على فتنة عمومية . فماذا يقدرون ان يفعلوا اذا لم تعضدهم امة عظيمة . فاذا كانوا حاصلين على عضد كهذا امدح حبهم لوطنهم والا فانني اشفق على الايطليان الذين اختصوا

بي وهم اهل جودة ومحبوبون مني فانهم يذبحون . واراقة دمهم الكريم لا يفيد البلاد التي ولدوا فيها انني اشفق عليهم فانهم امة منكودة الحظ . وانهم منشقون وقد تقاسمهم الملوك الذين يضرونهم بترقية اسباب الشقاق وقطع العلاقات التي تربط بعضهم بالبعض الاخر وتمنعهم عن الاتفاق وعن الاتحاد لنوال الحرية العامة . وحاولت استئصال روح الانقسام من بينهم فضممت بعض ايطاليا الى فرنسا وجعلت القسم الاخر مملكة . فانني رغبت في استئصال بعد عاداتهم و تغيير اراثهم الضيقة الدائرة وان اعلم الاهالي ما يجعلهم مثلنا واعدهم بالخضوع لقوانيننا ثم القي الاتحاد بينهم واردُّ الى ايطاليا مجدها القديم . وكنت راغباً في تشكيل دولة واحدة من هذه الممالك مستقلة متحدة لأجعل ابني الثاني (ولم يكن له ابن ثان لكن هذا الراي بني على الامل) ملكاً عليها ورومية العظمى قاعدة لها . وكنت مصمماً على ان انقل مورات من ملكية نابولي فلا يعترف الا بسلطة واحدة من البحر الى الالب . وشرعت في هذه الامور مراعياً صوالح ايطاليا وشرع الفعلة في تنظيف رومية من اوساخها وفي ازالة مياه مستنقعات مونتين . غير ان الحروب والاحوال التي امسيت فيها والخسائر التي التزمت بان اطلب الى الاهالي ان يحتملوها منعتني عن ان افعل ما كنت مصمماً على ان افعله مراعاة لصوالحهم . فياطبيبي المحبوب هذه هي الامور التي منعتني . اه ايها الطبيب ما هذه التذكرات لاعظم الحوادث التي اتذكرها بذكر ايطاليا الجميلة وكنت مثلك شاباً لما تقلدت قيادة الجيش الذي فتحها ومع ذلك ارى ان بين ذلك الزمان والزمان الحالي ساعة فقط وكنت مثلك من جهة الحمية وعلو الهمم وكنت اشعر بقوتي ورغبت جداً في الانتظام في سلك العسكرية وكنت قد ابنت الامور التي اقدر ان اقوم بها . ولم يعترض احد على اقتداري غير ان صغر سني كدر اولئك القواد الذين كانوا قد شاخوا في ميادين القتال فرايت ذلك ووجدت ان مقابلة هذا الضرر ينبغي ان تكون بقواعد حسنة لا ابتعد عنها ورايت من اللازم ان اقوم باعمال عظيمة للحصول على حب العسكرية وركونها فقمت باعمال حربية عظيمة . فكنا نسير وكان كل شيء يزول امامنا . وفي برهة قصيرة اصبح اسمي محبوباً عند الاهالي وعند العساكر . ولم اقدر الا ان اشعر بهذا الخضوع فاصبحت غير مبالٍ بكل شيء ما لم يكن مجداً . وملأ مدحي الافاق واصبح كل شيء تحت امري غير انني لم اكن اشغل افكاري الا بعساكري الباسلين وبفرنسا وبما ياتي بعدي

وفي شهري كانون الثاني (جانفيه) وشباط (ففريه) سنة ١٨٢١ امست صحة الامبراطور في حالة ردية واوجاعه متجاوزة حدود الاعتدال . وكان يصرف الاسابيع مريضاً واصبح ملتزماً بان يبقى في حجرته مدفوناً بالضباب حال كون العواصف والامطار دون انقطاع

وفي ٤ اذار (مارس) جرى الحديث في غرفة الامبراطور المريض عن الصنائع اللطيفة وكان احد الحاضرين يحتقر الموسيقى ولم يكن رايه بهذا الشان . فقال له الامبراطور اخطأت ان



للموسيقى اشد تاثير في الاميال والحاسيات ومن الواجب على الحاكم ان يرقي اسبابها فان الاغنية المتقنة الجميلة تؤثر في العقل وتلطفه وتاثيرها اشد من تاثير عمل ادبي يقنع العقل غير انه لا يوثر في حاسياتنا ولا يحدث تغييراً في عاداتنا

وفي ١٧ اذار (مارس) اصبح الكاهن بونافيتا مريضاً من هواء الجزيرة المضر . فارسله نابوليون الى اوربا ليخلصه من الموت وعين له معاشاً سنوياً ستمائة ريال (كل ريال خمسة فرنكات) فقال الامبراطور اذهب مع هذا الرجل الصالح الشيخ الى جيمستون وابذل الجهد في مساعدته واعطه كل ما يحتاج اليه في سفر طويل كهذا واحب ان اسمع بان هذا الكاهن الصالح بلغ رومية سالماً من مخاطر الطريق فهل تظن انه يلاقي في رومية قبولاً . ينبغي ان يعامل معاملة حسنة فانه لولاي لامست الكنيسة في دمار

وفي ٢٠ اذار (مارس) جاءت زوجة برتران لترى الامبراطور وكان ضعفها شديد غير انها حاولت ان تكلمه ببشاشة فقال لها الامبراطور لا بد من ان نتهيأ للقضاء . وقد قضي عليك انت وعلى هورتنس وعليَّ انا بان نموت في هذه الصخرة التعيسة فاموت انا قبل الجميع ثم انت ثم هورتنس ونلتقي جميعنا بعد ذلك في الفردوس ثم انشد اشعاراً من نظر فولتار

وفي ٢٩ اذار (مارس) تبين ان مرض الامبراطور يتقدم بسرعة . وكان يرضى بان يستعمل جميع العلاجات الخارجية وقال للطبيب بصوت دلَّ على كرهه للدواء ربما كنت غير قادر على شرب الادوية فانني اكرهها كرهاً شديداً وكنت اعرض نفسي للمخاطر دون مبالاة واشاهد الموت دون تاثير ومع ذلك لا اقدر ان اشرب دواء وان كان بسيطاً ولو افرغت جهدي في حمل نفسي على شربه . فكولو اضرة التدلل ولم يتعود شرب العلاجات . ثم التفت الى مادام برتران وقال لها كيف تشربين الادوية وتبلعين الحبوب الكثيرة التي يعطيك اياها الطبيب . قالت انني اشربها دون اتامل فيها واشير على جلالتك ان تفعل مثلي . فهزَّ راسه وسال الجنرال مونثولون السوال نفسه فجاوبه مثلها . فقال لقد تفردت في العصيان على الادوية وقد هممت ان امتنع عن العصيان فهات الدواء فامسك الكاس بلهفة كانه في خوف من ان يضعف عزمه وشرب الدواء

وفي ٣٠ اذار (مارس) امر السارهدسون لوحاكم الجزيرة الضابط الذي يراقب الامبراطور ان يقرر له كل يوم بانه شاهد الجنرال بونابرت وكان الامبراطور قد بات في فراشه منذ ١٧ اذار (مارس) . وكان الضابط المذكور ذا حاسيات لطيفة بعيداً عن التوحش فلم يرضَ بان يدخل قهراً كل يوم لحجرة الامبراطور القريب من الموت ليتحقق انه فيها . ولم يكن نابوليون يطلبه حباً بان يموت براحة دون ان يعذب بمشاهدة سجانيه . فغضب الحاكم جداً فجاء لونفود منزل الامبراطور مع اعوانه ومشى حوله وتهدد الضابط باشد القصاص اذا لم ينفذ امره فبات الضابط في ارتباك

عظيم فاخبر الجنرال مونثولون ومارشاند بامره فتكدرا لكدره ودبرا ما مكنهُ من ان يشاهد الامبراطور كل يوم دون ان يعلم بذلك . ولما كان الامبراطور ينهض من فراشهِ في غرفتهِ المظلمة ومونثولون والطبيب واقفان بالقرب منهُ كان مارشاند يزيح ستار نافذة قليلاً كانهُ ينظر الى الحديقة فكان ذلك الضابط يقف خارجًا فيرى الامبراطور ويقرر انهُ شاهدهُ بعينيهِ . غير ان الحاكم لم يرض بذلك وقال انهُ اذا لم يمكن الضابط من ان يرى الجنرال بونابرت كل يوم يأتي لونغود مع اعوانهِ ويدخل البيت عنوة غير مبالٍ بالعواقب . فحاول مونثولون ان يحملهُ على العدول عن هذه الاهانة والقساوة وقال لهُ ينبغي ان نحترم الذين يكونون منكودي الحظ وان دخولهُ على الامبراطور القريب من الموت بهيجهُ ويضر جدًّا بهِ . غير ان ذلك الحاكم لم يكن يدرك هذه الامور اللطيفة فسد اذنيهِ دون استماع كلام مونثولون . وعند انتهاء حديثهما جاء الطبيب وهو يكاد يختنق من هذه المعاملة الردية التي كان يعامل المريض المعظم بها . فقال الحاكم بتكبر اين الجنرال بونابرت فاجاب الطبيب بتكبر ايضًا انهُ لا وجود لرجل اسمهُ الجنرال بونابرت فقال الحاكم اي متى اختفى فقال الطبيب انني لا اعلم غير انني اعرف ان المعركة الاخيرة التي قاد الجنرال بونابرت العساكر فيها كانت معركة ابي قير . فانهُ كان يحارب في سبيل التمدن وكنتم انتم تحمون البربرية وقد كسر حلفاءكم والتاهم في البحر . وكان فوزه تامًا وبعد ذلك لم اسمع بالجنرال بونابرت . فانهض واملأ كاس غضبك بسلبك الزمان القصير الباقي من حياتهِ . فقال الحاكم باستهزاء اي امبراطور . فقال الطبيب هو الذي جعل فرائص انكلترا ترتعد وجعل في يد اوربا السلاح الذي يهدم اسس امتيازاتكم الموروثة بعد زمان قصير او طويل . فالذي يقدر ان يراقب رجلاً في نهاية حياتهِ يكون مجبولاً من وحل نهر النمس . على ان هذا الكلام لم يوثر في ذلك الحاكم البربري الخالي من كل لطف . فحاول الجنرال مونثولون والكونت برتران ان يجدا وسائل اخرى لصرف المشكل وتمكنا من اقناع الامبراطور بان يدعو طبيبًا اخر ليعتقد مشورة مع طبيبهِ فاختار الدكتور ارنوت وجعلهُ الحاكم مسؤولاً بوجود الامبراطور وكان ملتزمًا بان يكتب تقريرًا كل يوم يرسل اليهِ

وفي ٢ نيسان (افريل) اكملت الحكومة الانكليزية بناء منزل للامبراطور اكثر موافقة من المنزل الحقير المظلم الكثير الجرذان الذي كان قد حبس فيها برهة طويلة . والح الطبيب ارنوت طبيب حاكم الجزيرة بان ينقل الامبراطور اليهِ حالاً فاصغى الامبراطور الى كلامهِ دون ان يجيب بكلمة ثم نظر الى صديقهِ الطبيب انطومارخي وقال لهُ هل توافق على ذلك فقال يامولاي انني لا اوافق عليهِ فان الحمى شديدة والانتقال من مكان الى مكان ربما جاء بارداء العواقب . فقال الامبراطور للدكتور ارنوت لقد سمعت فلا ينبغي ان نهتم بالانتقال . ولم ينقطع الدكتور ارنوت



عن طلب نقل الامبراطور الى المنزل الجديد غير انهُ لم يجبهُ بكلمة

وفي ٥ نيسان (افريل) صرف الامبراطور الليل بتالم شديد وسمع يقول وهو يتوجع اه لماذا لم تصبني كرات المدافع حال كوني قد قضي عليَّ بان اضيع حياتي في حالة شقاء وعناء كهذه

وفي ٦ نيسان (افريل) كان قد مضى على الامبراطور عشرون يومًا دون ان يتمكن من ان يحلق . وحاول ان يحملهُ على الارتضاء بان يحلق لهُ احد خدمهِ كان يصرف النظر عن ذلك . وفي النهاية اشتد تعبهُ من طول الشعر فقال احب ان احلق فقال الطبيب لهُ فلنطلب حلاقًا فتامل برهة ثم قال انني كنت احلق لنفسي على الدوام ولم يضع انسان يده على وجهي اما الان فقد خار عزمي فاسلم بما طالما كرههُ طبعي . ومع ذلك لا ارضى بان يقال انني سمحت بان امس فلا اسمح لاحد سواك ان يحلق لي . فقال الطبيب انني غير متمرن على ذلك فالاوفق ان تستخدم من هو اعرف مني . فقال الامبراطور لا مانع اني لا اسمح لاحد غيرك بان يفتخر بوضع يديهِ على وجهي

وفي السابع من الشهر المذكور شعر الامبراطور براحة قليلة فاجهد نفسهُ ونهض وحلق وجلس في كرسيهِ الكبير واخذ يطالع جرائد اوربية فقرأ فقرة متضمنة طعنًا في اثنين من قواده فقال انهما ارتكبا اغلاطًا . ومن لا يغلط . فالانسان الذي يعيش براحة في بيتهِ يشعر احيانًا بضعف واحيانًا بقوة ومع ذلك ننظر في الناس رجالاً شاخوا في وسط مخاطر الحروب والتزموا بان يلاقوا صعوبات كثيرة عظيمة ولم يسلموا من الخطاء في اعمالهم

وصرف الامبراطور صباح اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر في كتابة وصيتهِ وهذا ملخصها

اولاً . اموت متدينًا بالدين الرسولي الكاثوليكي الذي ولدت فيهِ منذ اكثر من خمسين سنة

ثانيًا . ارغب في ان ترتاح عظامي في ضفة نهر السين في وسط الامة الفرنسوية التي احببتها حبًا شديدًا . ثالثًا طالما صادفت ما يسرني من زوجتي المحبوبة جدًّا الامبراطورة ماريا لويزا ولذلك تكون حاسياتي من جهتها الى اخر دقيقة من حياتي حاميات حب . واتوسل اليها ان تلاحظ احوال ابني لتصونهُ من الشراك المحيطة بطفوليتهِ . رابعًا اشير على ابني بان لا يبرح من بالهِ انهُ ولد برنس فرنسوي وان لا يسمح بان يكون آلة في يد الذين يظلمون امم اوربا . وينبغي ان لا يحارب ابدًا فرنسا وان لا يضرَّ بها وان يعول على ما عولت انا عليهِ وهو ان كل شيء للامة الفرنسوية

ثم ذكر جميع اصدقائهِ القدماء الذين لا يزالون في قيد الحياة بعض مهمة وكذلك ارامل الذين ماتوا منهم واولادهم . ولم ينسَ احدًا

وفي ١٧ نيسان (افريل) بعد الظهر بثلث ساعات دعا اليهِ الكونت مونثولون وكان وجههُ

وعيناهُ لامعتان . ثم قال للجنرال برتران توجه اهتمامي الى ما يقول قائلي لابني حين يرونهُ . ولذلك ابين لك المشورات التي اروم ان ابلغهُ اياها وهذا يسهل عليك تبليغهُ ذلك فاكتب فجلس الجنرال يكتب والامبراطور يتكلم بسرعة

لا ينبغي ان يهتم ابني بالانتقام من الذين قتلوني بل ينبغي ان ينتفع من ذلك . ولينذكر الى الابد ما فعلت وعليهِ ان يكون مثلي اي فرنسويًا من كل وجه وان يفرغ كل جهدهِ في سبيل الملك بالسلام . فاذا جدد حروبي يجهد حسب التقاليد دون ان يساق اليها بالضرورة يكون فردًا لا انسانًا واذا رجع الى فعل ما فعلت يكون عبارة عن فرض عدم قيامي بشيء . ولكن الشروع باكمالهِ هو تبيين متانة الاساس وايجاد فروع البناية التي رسمتها دون اتقان ولا يجري شيء واحد مرتين في قرن واحد التزمت بان ابلي اوربا بسلاحي . اما في الحال فالطريقة الحسنة هي اقناعها . وقد خدمت قواعد الفتنة التي كادت تفنى وانهضتها من الخراب واظهرتها للعالم محفوفة بالمجد وقد زرعت افكارًا جديدة في فرنسا واوربا فلا تستأصل فليجعل ما زرعتهُ نباتًا مزهرًا وليرق جميع عناصر التقدم في اراضي فرنسا وبهذه الوسائل ربما اصبح ملكًا عظيمًا

ولا يبقى البوربون في ملكهم بعد موتي وسترجع الافكار العامة في كل مكان حتى في انكلترا اليَّ بقوة رد الفعل . وهذه القوة ارث عظيم لابني . ومن الممكن ان يميل الانكليز الى ارجاع ابني الى فرنسا ليمحو بذلك ذكر الاضطهاد الذي وقع عليَّ بايديهم . ولكن لا سبيل الى الاتفاق مع انكلترا الا بترقية اسباب صوالحها التجارية فيلزم ان ترقى مهما نشأ عن ذلك من الخسائر . وهذه الضرورة تسوق الى احد امرين وهما اما محاربة انكلترا او مشاركتها في تجارة الدنيا . وفي الحال لا يمكن الا الامر الثاني . وفرنسا تقوم بالامر الاول قبل الثاني بالتغفل . وانا اترك لابني قوة كافية واشتراكًا بالحاسيات يمكناه من مداومة عملي بمجرد معاونة سياسية عالية سلمية . اما مركزه في فينا فتعيس فهل تطلق النمسا سبيلهُ دون شرط . ومن المعلوم ان فرنسيس الاول بات في حالة اردأ من حالتهِ ومع ذلك لم تمس جنسيتهُ الفرنسوية . ولا ينبغي ان يرقى ابني تخت الملك بمساعدة اجنبية . ومن الواجب عليهِ ان لا يجعل قصده الفوز بالملك ولكن فعل ما يمكنهُ من الحصول على مدح اهالي القرون الاتية وليجعل الصلات الحسنة الصداقية تجري بينهُ وبين عائلتين عندما تسمح لهُ الفرصة . فامي من النساء القديمات وجوزف واوجن يقدران ان يمنحاه مشورات حسنة وهورتنس وكاثرين من النساء الممتازات جدًا فان بقي في المنفى فليقترن باحدى بنات اخوتي واذا دعتهُ فرنسا الى العرش فليقترن باحدى بنات امبراطور روسيا . فان بلاط روسيا قد تفرد بجعل الروابط العائلية تسود على سياستهِ . وينبغي ان يكون اقترانهُ وسيلة لازدياد سطوة فرنسا في الخارج وليس لادخال سطوة اجنبية الى مشوراتها . والامة الفرنسوية اذا لم تعامل



معاملة غير موافقة لها تكون ادارتها اسهل من ادارة جميع الامم ولا تشابهها امة بسرعة الادراك فهي تدرك في الحال من يجدُّ في سبيل خدمتها ومن يضادها . على انهُ ينبغي ان تخاطب مخاطبة تؤثر في حاسياتها على الدوام والا فروحها القلقة تنفعل فتشتعل وتنفجر

وسيصل ابني بعد زمان الى انعاب اهلية ولا ينبغي ان يخاف غير حزب واحد وهو حزب الدوق دورليان . فان هذا الحزب اخذ ينمو منذ زمان طويل . فعليهِ ان لا يهتم بحزب وان يراعي جميع الناس الا الذين خانوا وطنهم وان لا ينسى تصرف الرجال السابق وان يكافي اهل الاستحقاق والحذق والخدمات الصادقة اينما كانوا . وشالوبريان هو فرنسوي حاذق وان كان قد ارتكب الطعن

وفي فرنسا تنفوذ روساء الاحزاب قليل فالاستناد اليهم هو عبارة عن البناء على الرمل . ولا يقام بالاعمال العظيمة في فرنسا الا بعضد عامة الشعب . وفضلاً عن ذلك ينبغي ان تطلب الحكومة العضد ممن يقدر عليهِ . وفي الدنيا نواميس ادبية لا تتغير ولا تدفع كالنواميس الطبيعة ولا يقدر البوربون ان ينالوا مساعدة الا من الامراء والكهنة مهما كانت القوانين الاساسية التي يعولون عليها . ولا بد من ان يرجع الماء الى ما كان عليهِ متغلبًا على الامة التي رفعتهُ . اما انا فاتكلت على جميع الاهالي دون فرق ووضعت حكومة تصون صوالح الجميع . ولم احكم بمعاونة البعض دون البعض الاخر ولكنني حكمت الامة بمعاونتها كلها اي انني حكمت لاجل العائلة الفرنساوية كلها . ولا ينال ابني عضدًا من شرف موروث مني لان جيلاً واحدًا لا يكفي لان تصير المحافظة على فتوحاتي الادبية المقدسة . وبعد سنة ١٨١٥ انضم جميع الامراء الى الحزب المضاد . ولم اكن اتكل على قوادي ولا على الامراء الذين نشأت امارتهم مني ولا على الضباط غير ان الامة كلها والجيش كلهُ الى درجة قائد الف من حزبي . ولم اخدع نفسي بالركون اليهم . فانهم حصلوا على ما حصلوا عليهِ بواسطتي فانني كنت اشخصهم فعلاً . اما الحكومة المطلقة فكانت لازمة والدليل على ذلك انهم طاعوني وسلموني من القوة اكثر مما كنت ارغب في استلامهِ وفي هذه الايام لا شيء ممكن في فرنسا ما لم يكن لازمًا . ولا تكون الاحوال كذلك بالنظر الى ابني . ولا بد من ان ينازع السطوة وينبغي ان يسبق الناس الى منحهم الحرية قبل ان يطلبوها . والاسهل في الايام الاعتيادية ان تدار الحكومة بمساعدة مجلس المبعوثين ومجلس الاعيان فانهما يحملان قسمًا مهمًا من المسؤولية ومن السهل جدًا ان تجعل اكثريتهما منحزبة لهُ في كل وقت غير انهُ ينبغي ان يعتني بمجانبة افساد اخلاق البلاد فان سطوة الحكومة في فرنسا عظيمة جدًا . واذا لزم الطريقة الموافقة فلا يلزم ان يستخدم الفساد للحصول على العضد من كل جهة . فان غاية الملك لا تنتصر على ان يملك ولكنها اذاعة المعارف وتشييد الاداب وتمكن الناس من الحصول على الرفاهية . وكل شيء مكذوب انما هو معاونة ردية .

وفي صغري تمكنت مني بعض اوهام غير انها زالت في زمان قريب والخطباء العظماء الذين ينطقون في مجالس المبعوثين والاعيان بفصاحتهم وبلاغتهم هم في الغالب رجال اصحاب اقتدار سياسي معتدل . ولا ينبغي ان يضادوا فانهم اقدر منهُ على استخدام الكلام الذي يلقي في اضطراب . فلا بد من مضادة فصاحتهم بادلة وبراهين ظاهرة وقوتهم متوقفة على الايهام . فينبغي ان يرجعوا الى حقائق الوقائع ويصير التغلب عليهم بالبراهين الظاهرة ولقد كنت اتغلب عليهم مع انهم كانوا افصح مني بكلام جلي كائنين واثنين اربعة

وفي فرنسا رجال كثيرون حاذقون يعرفون الاجراء فيلزم ان يقدموا وان يمكنوا من الوصول الى المراكز الموافقة . فالان اصبح في الفلاحة من ينبغي ان يكون في المشورة . وفي الوزارة من ينبغي ان يكون في الفلاحة . ولا ينبغي ان يتعجب ابني ان راى رجالاً تدل ظواهرهم على حذق يشيرون عليهِ بامور غريبة . فترى في فرنسا اراء تعذر اظلم الحكومات واسوأها . فليسمع كلام الفرنسويين اجمع وليحكم بما هو اولى ويجعل نفسهُ محاطًا بكل قوة البلاد الحقيقية . والفرنسويون يوثر فيهم شيئان قويان حب الحرية وحب الامتياز . والظاهر يدل على ان احدهما يقاوم الاخر والصحيح انهما ناشئان عن امر واحد . ولا تقدر حكومة ان تصد هذين الامرين الا بالعدل التام . فلا بد من ان يكون النظام واجراآت الحكومة واحدة بالنظر الى الجميع . ومن اللازم ان يكافئ بالشرف والجوائز الرجال الذين يتحقق الناس انهم اكثر استحقاقًا من الجميع . ويعذر المستحق اذا اخطأ ولكن الحيل لا تعذر اصحابها فنيشان اللجيون دونور هو ذو قوة عظيمة تسوق الى الفضائل واحراز المعارف والبسالة . ولكن اذا أُسيء استخدامهُ يأول الى ضرر عظيم بابعاد الجيش كلهِ اذا نفذ في توجيههِ التحيل في البلاط ويلتزم ابني بان يسمح بحرية الجرائد وهذا لازم في الايام الحالية او لا نقوم السياسة باتباع اراء اقل من غيرها او اضعف منها ولكنها تقوم بالبناء بالمواد التي تكون تحت يد الانسان وبالخضوع للضروريات والانتفاع بها . وينبغي ان تكون حرية الجرائد في يد الحكومة معاونًا قويًا ينشر في جميع الامبراطورية تعاليم صحيحة وقواعد حسنة فان تركها وشانها عبارة عن النوم عند حافة الخطر . وكنت قاصدًا ان اقيم ادارة للجرائد عند عقد الصلح مؤلفة من احذق الرجال وهكذا ابلغ الى ابعد الاكواخ ارائي ونواياي . وفي الحال لا يمكن ان تبقى على ما كان يوافق ان يصير البقاء عليهِ منذ ثلثمائة سنة اي ان نشاهد انقلابات الهيئة الاجتماعية بسكون واما الان فلا بد للانسان من ان يدبر كل شيء او يعيقهُ والا فيقع تحت عقاب الموت

وينبغي ان يكون ابني من اصحاب الاراء الجديدة والاعمال التي مكنتها من الفوز في كل مكان وان يقيمها بمنع الامتيازات ويضمن كرامة الانسان ويخدم بزور التقدم المزروعة منذ قرون وان يذيع في جميع البلدان التي لا تزال في حالة بربرية منافع الدين المسيحي والتمدن . ومن الواجب



على ابني ان يوجه كل عنايتهِ الى هذه الامور وهي التي بذلت لاجلها نفسي من جرى بغض اصحاب الامتياز الموروث فليتامل في قداسة الامر الذي ارجوهُ بهِ فانظر المقاومين فانهم كانوا في مجالس مشورة البوربون وسيرجعون الى بلادهم وابيت انا ومن هو لي مكثرًا بالعذاب عن البركات التي كنت اروم ان امنحها للبشر . فاعدائي اعداء الانسانية . لانهم يرومون ان يحسبوا المقربين اليهم كقطيع من غنم . ويحاولون ان يظلموا فرنسا وان يردوا الماء الجاري الى ينبوعهِ فليتداركوا فيضهُ

وفي ايام ابني يقدر جميع اصحاب الصوالح المتباينة ان يعيشوا بسلام فتذاع الاراء الجديدة وتقوى دون احداث تاثير عظيم ودون تضحية رجال وتخلص الانسانية من مصائب عظيمة ولكن اذا استمر بغض الملوك الاعمى ينتقم من اهل امي بعد الموت ثم يقوم من ينتقم لي انتقامًا قاسيًا ويمس التمدن من كل وجه اذا تجاوزت الامم حدودها وتراق انهار من الدماء في اوربا كلها وتطفأ انوار المعارف والعلوم في وسط حروب مدنية واجنبية . ولا تهدم الا في اكثر من ٢٠٠ سنة القاب السطوة الملكية في اوربا التي شخصت صوالح جميع اصناف الاهالي غير انها اجتهدت قرونًا كثيرة قبل ان تمكنت من فك قيود القرون المتوسطة . ولكن اذا تقدم الشمال في مضمار التمدن تقصر مدة الكد والتعب غير ان الضربات تكون اشد تاثيرًا . فرفاهية الامم التي لم يصر الحصول عليها الا في سنين كثيرة تستأصل وليس من احد يقدر ان يخمن عواقبها المضرة . فمن صوالح الامم والملوك ان يعود ابني الى الملك . ولا ارى وراءهُ الا الاراء والقواعد التي حاربنا في سبيلها وجعلتها ان تفوز على جميع الصعوبات الا العبودية والاضطراب في فرنسا وفي اوربا كلها

فاطلب اليك ان تنشر كل ما كتبت او املبت وتطلع عليهِ ابني وليتاملهُ وقل لهُ ان يحبني جميع الذين خدموني بصداقة وهم كثيرون . فعساكري السائرون الذين هم على جانب عظيم من كرامة الاخلاق والصداقة ربما باتوا الان في احتياج الى الخبز . فما اشجع الامة الفرنسوية وما احذقها او ما اعظم ثروتها المدفونة التي ربما لا ترى نور النهار بعد الان . فاوربا مستعدة للانقلاب تسعى الى محاولة منع هذا التقدم وهو عبارة عن اضاعة القوة بمنازعة لا لزوم لها وترويجها هو لتقوية امال الجميع وترويج ما يرغبون فيهِ

ومن الامم ما ترغب في ضمها حسب القواعد الجنسية ولا بد من ان يقام بذلك بعد زمان قصير او طويل فينبغي ان يصير ترويج هذا الامر على الدوام . ولا يكون مركز ابني خاليًا من صعوبات عظيمة . فليجر بالرضى العام ما الزمتني الاحوال ان انفذهُ بقوة السلاح . وعندما انتصرت على روسيا سنة ١٨١٢ قررت السلم مائة السنة . وينبغي ان يسعى من الاذهان ذكر الممالك التي انشأتها عندما كان من صوالح سوامتي ان يقام بذلك . وسنة ١٨١٥ حملت اخوتي على ان ينسوا ملكيتهم وان يقتصروا على القاب امراء فرنسويين . ومن الواجب على ابني ان يقتدي بهم فان

القيام بغير ذلك يهيج الخوف ويكون في محلو . والمسائل العظيمة لا تحل في الشمال بعد الان بل في البحر المتوسط فان فيو ما يكفي لسد مطامع جميع الدول . ويصير الحصول على سعادة الامم المتمدنة بقطع من اراضي بربرية . فليصغ الملوك الى ما يوافق العدل فانهُ لا يبقى مكان في اوربا لمحافظة بعض الامم على البعض الاخر فتسقط العواصم وقد زادت طرق التجارة . فلا تقدر امة واحدة بعد الان ان تحصرها في يدها اما الوسائل التي يقدر ابني ان يعرفها هل هي ادارية موافقة اولا وهل قوانينها موافقة لحالة البلاد اولا فهي ان يحصل على تقرير سنوي ليبين لهُ الاحكام الصادرة من المحاكم فاذا زادت الجرائم والجنح تكون التعاسة في البلاد على ازدياد وان ادارة الهيئة الاجتماعية ليست بحسنة . واذا قلّت تكون الاحوال في تحسين

وللاراء الدينية سطوة تزيد على السطوة التي يرضى بعض الفلاسفة الضيقي العقول ان ينسبوها اليها وهي قادرة ان تنفع الانسانية نفعاً عظيماً فبالاتفاق مع البابا نصان سطوة نافذة في ضمائر مائة مليون من الرجال ويبوس السابع لا ينفك عن ان يكون حسن الميل الى ابني . فانهُ رجل مسن متنور غير متقلب . ووقع الخصام بين وزارتي ووزارتو باحوال قاتلة وانا متاسف جداً من جرى ذلك فالكاردينال «فسم» لم يكن يفهم مقاصدي وكان يعاون حزب الملكية وهم اعداء الدين الصحيح في فرنسا . واذا سمح لك بان تعود الى فرنسا ترى ان كثيرين لا يزالون يتذكرونني بامانة . واوفق تذكار يقدرون ان يقيموهُ لي هو ان يجمعوا جميع الاراء التي ابرزتها في مجلس المشورة لادارة الامبراطورية وجميع التعليمات التي بعثت بها الى وزرائي وان يقرروا في دفتر جميع المشروعات النافعة التي قمت بها وجميع الاثار التي انشاتها في فرنسا وايطاليا . وينبغي ان يفرقوا بين الكلام الذي فهت بهِ في مجلس المشورة للقام باعمال موافقة للحال فقط والكلام الذي هو لاعمال موافقة الى الابد

فليقرأ ابني على الدوام التاريخ ويتامل فيهِ فانهُ هو وحدهُ الحكمة الحقيقية . ويطالع اخبار حروب اعظم القواد ويتامل فيها فان هذه هي الوسيلة الفريدة لتعلم علم الحرب . ولكن كل ما نقولهُ لهُ وما نقيمهُ لا يكون نافعاً لهُ اذا لم يكن في اعماق قلبهِ الحمية المقدسة وحب الخير وهما وحدهما قادران على ان ياتيا بالاعمال العظيمة . على انني امل ان ينال نصيبهُ

وفي ١٩ نيسان (افريل) شعر بتحسين صحتهِ بعد ان صرف اياماً كثيرة يعاني اوجاعاً شديدة فذكر القواد الحربيين المشهورين . فقال ان مالبورو لم يكن يحصر فكرهُ في ضيق ميدان الحرب فانهُ كان يحارب ويخابر وكان جامعاً بين صفات القواد ورجال السياسة وسأل هل في يد الفرقة العشرين اخبار حروبهِ . فاجاب الدكتور ارنوت اظن انها ليست حاصلة عليها . قال ان عندي صورة منها واسر بتقديمها لتلك الفرقة الباسلة . فخذها ايها الطبيب وضعها في مكتبتها من قبلي فلام



السار هدسون لو حاكم الجزيرة الطبيب على قبول ذلك الكتاب ولم يسمح بتقديمهِ الى الفرقة خوفاً من ان يكون ذلك واسطة لازدياد حبها للامبراطور وان كانت فرقة انكليزية وقال اللورد هولاند ان الدكتور ارنوت امر بان يرد الكتاب لانهُ لم يرسل بواسطة الحكومة ولانهُ كان باسم الامبراطور نابوليون ولا باسم الجنرال بونابرت . فهذا يدل على ضيق العقل ويجلب العار على الحكومة وعمالها

وفي ٢٠ نيسان (افريل) تمتع الامبراطور براحة موقتة من اوجاعهِ فسر وسمع بعض اصدقائهِ يقولون المامول ان الراحة تكون غير موقتة فنظر اليهم باسماً وقال يا اصدقائي لقد اخطاتم ان حالتي اليوم احسن منها في الامس غير اني اشعر بانني قريب من النهاية وبعد موتي يتعزى كل منكم بالرجوع الى اوربا . وبعضكم يرى اقاربهُ واصدقاءهُ وانا انضم الى رفاقي الباسلين في دار السعادة . فيبرز للاقاتي كليبر ووليزي وبسيار ودورو وناي وموراث وماسينا وبرفنيه ويحدثونني عما فعلناهُ معاً واخبرهم عن حوادث حياتي الاخيرة . وعندما يقابلونني تتحرك بهم الحمية والمجد وتحدث بحروبنا وحروب انيبال وقيصر وفردريك . وهذه هي اللذة . ثم قال باسماً لكن ما لم يقع الرعب في عالم الارواح بمشاهدة مقاتلين كثيرين مجتمعين معاً

وعند ذلك دخل الطبيب ارنوت فقابلهُ الامبراطور بلطف لا مزيد عليهِ . وبعد ان حدثهُ برهة قال لهُ قد انتهى كل شيء وقد ضربت الضربة القاتلة فقد اقتربت من نهايتي وبعد زمان قصير اسلم جسمي الى الارض . فيا برتران تقدم وترجم لهذا الطبيب ما سمعتهُ مني وهو ذكر اهانات متتابعة تليق باليد التي قامت بها فترجم كل كلامي ولا تترك كلمة واحدة

انني ذهبت طالباً ضيافة الامة الانكليزية وطلبت حماية ناشئة عن كرامة الاخلاق . فقطعت النظر عن جميع الحقوق المقدسة في الارض وكان الجواب القيود ولو ذهبت الى اسكندر امبراطور الروسيين لصادفت غير ما صادفت من الانكليز ولو جئت الامبراطور فرنسيس امبراطور النمسا لعاملني باعتبار وشفقة حتى ملك بروسيا لو ذهبت اليهِ لعاملني معاملة اوفق من معاملة الانكليز وقد حفظ لانكلترا خدع ملوك اوربا وتهييجهم علي وتمكين العالم من ان يشاهد ما لم يشاهدهُ قط وهو اتحاد دول اربع عظيمة لمضادة رجل واحد . وقد اختار وزراؤكم هذه الصخرة الملعونة التي تفنى فيها حياة الاوروبيين في اقل من ٣ سنوات لينهوا حياتي بالقتل فما هي المعاملة التي صادفتها منذ حضوري الى هذا المكان . فان جعبة الاهانات والاحتقار افرغت معاملتي . وقد حرمت ابسط العلاقات العائلية التي لا يمنع احد عنها . ولم يسمح بورود كتابات وجرائد عليّ من عائلتي وقد بانت زوجتي وابني كانهما غير موجودين بالنسبة الي وقد حجزت ست سنوات محتملاً عذابات السجن وقد عين لسكني ابعد مكان من هذه الجزيرة المقفرة عن الناس

حيث يشعر بتاثيرات هواء المنطقة الحارة القتال . ومع انني تعودت ان اركب جائلاً في اوربا كلها التزمت بان احبس نفسي ضمن اربع حيطان في هواء مضر . فخسرت حياتي قبل اوان خسارتها . وهدسون لو صاحب الصيت الردي انفذ تعديات وزرائكم المذكورة . وستكون نهايتكم كنهاية جمهورية البندقية المفتخرة . وانا الذي اموت في هذا الصخر المقفر بعيداً عن الذين احبهم محروماً كل شي اترك عذاب موتي الى العائلة المالكة في انكلترا

وبعد نصف الليل بساعة قال الامبراطور انهُ يرغب في ان يكلم الكاهن فينالي . وبقي منفرداً معهُ ساعة وعند ما خرج رجع مونثولون الى حجرة الامبراطور فوجد الامبراطور ساكتاً متاملاً وبعد ان كلمهُ بضع دقائق كلاماً دينياً ادار وجههُ الى وسادتهِ واستغرق في النوم

وفي ٢١ نيسان (افريل) بات الامبراطور ضعيفاً جداً ومع ذلك صرف النهار بالاملاء والكتابة . وبعد الظهر دعا اليهِ الاب فينالي وقال لهُ يا ابي انني ارغب اليك ان تقيم القداس في حجرتي بعد موتي ثم اخبر بالتفصيل عما كان يرغب ان يقام لهُ من الاحتفالات الدينية . وكان الطبيب انتومارخي كافراً وكان كثيراً ما يكدر نابوليون بكلامهِ الذي يدل على استخفافهِ بالدين فراى لوائح الاستخفاف تلوح على وجههِ عندما كان يكلم الكاهن فنظر اليهِ نظرة توبيخ وقال لهُ ياسيدي انك كافر بالله فانت طبيب والاطباء لا يومنون بشيء لانهم لا يتعاطون الا بما يتعلق بالمادة فانت فوق الضعف الديني على انني لست طبيباً ولا فيلسوفاً فاومن بالله وديني دين ابائي فياسيدي كن كافراً ان شئت . اما انا فولدت كاثوليكياً فاقوم بكل فروض الدين واطلب كل تعزية تحصل عليها بهِ فلا يقدر الجميع ان يكفروا بالله . ثم نظر الى الكاهن وقال لهُ ياسيدي الكاهن ارغب اليك ان تقيم القداس في الكنيسة كل يوم وان تستمر كذلك بعد موتي ولا تنقطع الا بعد دفني فعندما اموت ضع صليباً على صدري واجعل المذبح عند راسي ولا تنقطع عن القداس والصلاة الا بعد ان ادفن

وبعد ان خرج الكاهن قال للطبيب كيف تقدر ان تتوغل في الكفر هذا التوغل الا تومن بالله الذي يعلن كل شيء بوجوده وقد امن بهِ اعقل العقلاء

وكتب الطبيب بعد ذلك ما ياتي . ذكر نابوليون الاعيان المختلفة والانقسامات الدينية وما كان قد صمم عليهِ لجمع جميع المذاهب . على ان المصائب المت بهِ قبل ان اخرج اراءهُ من القوة الى الفعل على انهُ كان قد تمكن من ارجاع الدين وهذه خدمة عواقبها لا تحصى فانهُ لو كان الناس دون دين لقتل بعضهم البعض متخاصمين على اجمل تفاحة وابدع فتاة ولا يخفى ان هذا استهزاء من الطبيب

وقال مونثولون في ٢٤ نيسان (افريل) بعد نصف الليل باربع ساعات قال الامبراطور



وهو في حلم رايت هذه الدقيقة جوزفين الصالحة غير انها لم تقدر ان تعانقني . وغابت عني في اللحظة التي كدت اضمها اليّ وكانت جالسة هناك . فكانني رايتها امس في بيلاد لم تتغير ولا تزال ما هي عليهِ محبة جداً لي . وقالت اننا نتلاقى قريباً ولا بخامر اللقاء هذه المرة فراق الى الابد فهل رايتها . ثم نام مستكناً

وفي الصباح قرأ لهُ الجنرال برتران من جريدة انكليزية حصل عليها طعناً عظيماً بكولنكور وسافاري فانها اتهمتهما بما كان الانكليز يسمونهُ قتل الدوق دوانغين . فتذكر الامبراطور اذ راى ان احد الاعمال المذمومة التي جرت في ايامهِ قد نسبت الى اصحابهِ فقال ان هذا معيب ثم نظر الى مونثولون وقال هات وصيتي . ففتحها وكتب فيها ما ياتي

انني امرت بالقاء القبض على الدوق دوانغين وبمحاكمتهِ لان ذلك كان لازماً مراعاة لامنية فرنسا وصالحها وشرفها وذلك عندما كان للدوق دوارتوا بحسب اقراره ستون رجلاً يحاولون القتل في باريس . واذا تكررت الاحوال التي ساقت الى القاء القبض على الدوق دوانغين لا اتردد عن ان اتصرف كما تصرفت

وبعد ان كتب ذلك سلم الوصية الى مونثولون . ولا يخفى ان هذه الفقرة مهمة جداً فان نابوليون حمل على عاتقهِ مسئولية هذا العمل والقى على نفسهِ ما يستحق اللوم منهُ . وقد قرر الواقع بضبط فانهُ قال انني امرت بالقاء القبض على الدوق دوانغين وبمحاكمتهِ . وهذا يدل على انهُ كان مصمماً على ان يعفو عنهُ وان كان قد حكم عليهِ بالقتل في المجلس العسكري وتاسف جداً من قتلهِ ومع ذلك لم يعتذر بل جعل نفسهُ مسئولاً بكلما جرى في كل ايام ملكهِ

وبعد ذلك ببرهة قصيرة دعا اليهِ خادمهُ مرشند ليكتب ما في بعض الصناديق في دفتر فاخرج من احدها عقداً من الجوهر فاعطاهُ الى مرشند قائلاً خذ هذا . فانا اجهل حالة اشغالي في اوربا . فهورتنس الصالحة اعطتني هذا ظانة انني احتاج اليهِ . وعندي ان ثمنهُ اربعون الف ريال (الريال خمسة فرنكات) فاخناهُ في ثيابك وعندما تبلغ فرنسا يمكنك من انتظار المبلغ الذي اعينهُ لك في وصيتي . فلا تتزوج الا بكريمة من بنات قواد جيش الحرس الامبراطوري او بنات احد عساكره فان كثيرين من رجال ذلك الجيش في راحة وسعادة . ولولا المصائب التي المت بفرنسا لفازوا باكثر مما فازوا بهِ . ولو اختلفت الاحوال لاعترف الناس بما افعل اكراماً لهم

وكان الامبراطور قد كتب الكتاب الاتي ليمضيهُ الكونت مونثولون ويرسلهُ الى السار هدسون لو معلناً موتهُ وهو

ياسيدي الحاكم . ان الامبراطور نابوليون قضى نحبهُ في بعد مرض طويل

موجع وقد تشرفت بابلاغك هذا الخبر . وقد فوضني الامبراطور بان ابلغك الامور التي رغب فيها الخبرًا اذا كنت تشاء ان تبلغ اليك . فارجوك ان تخبرني ما هي التدبيرات التي عينتها حكومتك لنقل جثتهِ الى فرنسا ولنقل حشمهِ . فلي الشرف ان اكون الخ (الامضا)

الكونت مونثولون

وفي ٢٨ نيسان (افريل) اشتد مرض الامبراطور وكان يذكر موتهُ بسكون عظيم دون تاثر . وقال ارغب ان تفتح بطني بعد موتي ووفاتي تكون بعد برهة قصيرة . واصرُّ بانكم تعدون بان لا يمسني طبيب انكليزي . على انكم اذا رايتم انكم لا تستغنون عن معاونة طبيب فلا بوذن لكم باستخدام غير الطبيب ارنوت . واطلب اليكم ايضًا ان تاخذوا قلبي و تضعوهُ في كحول وتذهبوا بهِ الى بارما الى ماريا لويزا المحبوبة مني وقولوا لها انني كنت احبها من صميم الفواد واني لم انقطع قط عن محبتها . وقصوا عليها كل ما رايتموهُ وكل تفصيل متعلق بموتي وحالتي . واطلب اليكم ان تعتنوا كل الاعتناء بوصف حالة احشائي وسلموا ابني تقريرًا بهذا الشان . فالقيء المتتابع يجعلني اتحقق ان بطني مصاب باشد الامراض التي تقتلني . واظن انهُ مصاب بالمرض الذي مات بهِ والدي . وخطر ذلك ببالي حالما رايت ان القيء متكرر . وارجوكم ان تعتنوا كل الاعتناء بذلك الفحص حتى تتمكنوا من معرفة المرض وانك عندما ترى ابني تتمكن من ان تبلغهُ ملاحظاتي وتبين لهُ انفع العلاجات لهُ . وبعد موتي اذهب الى رومية فترى امي واعضاء عائلتي وتخبرهم بكل ما شاهدت من جهتي ومرضي وموتي في هذه الصخرة المقفرة وبعد ان اتم هذا الحديث الذي اتعبهُ تغلب عليهِ الضعف والمرض فغاب عن الصواب واخذ يهزي على غير هدى

وفي ٢٩ نيسان (افريل اخذ ضعف الامبراطور يزداد بسرعة وكانت اوجاعهُ تحرمهُ النوم وبعد نصف الليل باربع ساعات طلب الى مونثولون ان يقرب مائدة من فراشهِ وصرف ساعتين في كتابة اصول المشروعين احدهما عين لهُ قصر فرساليا والاخر تعلق بتنظيم الحرس الوطني للدفاع عن باريس وفي الصباح وجد الطبيب الامبراطور في ضعف عظيم غير انهُ كان ساكنًا قادرًا على ادراك كل شيء فاشار بوضع حرارة على بطنهِ . فقال لهُ الامبراطور اني ارضى بذلك لانك انت قد اشرت بهِ فاني لا انتظر نفعًا منها على انني اعلم ان موتي قريب وارغب ان ابين انني مسلم امري اليك وشكري لعنايتك واهتمامك

وكان يشرب كثيرًا من الماء البارد لاطفاء حرارة الحمى المضرمة باحشائهِ فقال بشكر لا مزيد عليهِ لو من الله عليَّ بالشفاء لانشأت اثرًا في مكان جري الماء مكللاً الينبوع كذكرى الراحة التي نلتها بهِ . فاذا متُّ وصادفت جثتي معاملة كالتي صادفتها وانا في قيد الحياة ولم يسمح لي بالحصول على ارض فرنسوية صغيرة لادفن فيها اروم ان يصير وضع جسدي في كنيسة اجاشيو



في كورسكا . واذا لم يسمح بان ادفن في مسقط راسي فادفنوني بالقرب من ينبوع هذا الماء الزلال

وصرف الامبراطور ليل ٢ ايار (مايس) محمومًا جدًّا . واخذ يذكر الامور الماضية وهو غائب عن الصواب فتذكر فرنسا المحبوبة وابنهُ المحبوب حبًّا يكاد يكون عبادة واخذ يكلم رفاقهُ بالمجد والتعب وخيل لهُ انهُ في حروب يدافع اعداءهُ الذين كانوا قد عملوا على اذلالهِ . فكان يصيح وهو في بحران الحمى يا سنانجل ويا دبزي ويا مسينا انظروا قد فتحت ابواب النصر لنا اركضوا اسرعوا شددوا الحمل فاننا قد فزنا عليهم وبعد ان فاه بهذا الكلام جمع بقية قوتهِ وخرج واثبًا من الفراش غير انهُ لم يقدر ان يقف بل سقط على الارض

وقبل الظهر بثلث ساعات خمدت الحمى فرجع الى نفسهِ . فدعا الطبيب اليهِ وقال لهُ تذكر ما طلبت اليك ان تفعلهُ بعد موتي فافتح بطني وافحصهُ بكل تدقيق وانا ارغب في ذلك لاخلص ابني من هذا المرض القاسي . فقابلهُ واخبرهُ بما يوافقهُ ليخلصهُ من الالام الشديدة التي بثَّ اعانيها . فهذه هي الخدمة الاخيرة التي اطلب اليك ان تقوم بها

وفي الظهر عاد المرض بحدتهِ فتفرس في الطبيب برقة وقال لهُ انني مريض جدًّا واشعر اني قريب من الموت . وبعد ذلك غاب عن الصواب . وكان جميع اهل المنزل في لونغود يعتنون كل الاعتناء بالمريض المحبوب منهم . وكان كاب لهم جميعًا يعتبرونهُ اعتبارًا قريبًا من اعتبار المعبود . واثر في الامبراطور جدًّا ما كان يشاهد من حبهم وغيرتهم فكان يسمعهم كلام شكر وذكرهم جميعًا في وصيتهِ ليكافيهم . وعندما رجع الى نفسهِ اخذ يكلم رفاقهُ بضعف ويحرضهم على الاهتمام بالذين معهُ وقال ارجوكم ان لا تنسوا الصينيين المساكين بل اعطوهم مالاً ولا بد لي من ان اودعهم . فمن يقرا كلامًا كهذا يستدل بهِ على الاخاءة البشرية ولا يسر ويفرح

وفي ١٢ ايار (مايس) بعد الظهر بساعتين انتعش الامبراطور قليلاً وقال للذين كان قد عينهم لينفذوا وصيتهُ والذين كانوا واقفين بالقرب من فراشهِ انني اموت قريبًا فتعودون الى اوربا وقد شاركتموني في المنفى ولا بد من ان تكونوا امناء بالنظر الى اسمي . وقد روجت جميع القواعد الحسنة وادخلتها في القوانين التي سننتها وفي اعمالي . ولم اترك قاعدة واحدة . غير ان الاحوال التي بثَّ فيها كانت لسوء الحظ محفوفة بالصعوبات والتزمت بان اتصرف بصرامة وان امتنع عن انفاذ مقاصدي فبلينا بما بلينا بهِ ولم اقدر ان امنع حدوث ما حدث فخسرت فرنسا النظامات الحرة التي كنت قد صممت على ان امنحها اياها . ولا بد من ان تحكم على اعمالي بالرفق وان تشكرني على نواياي وان تتذكر اسمي وانتصاراتي . فاقتدوا بها فكن امينًا بالمدافعة عن الاراء التي طالما دافعنا عنها وعن المجد الذي فزنا بالحصول عليهِ . فاذا نهجتم منهجًا غير هذا تجلبون على انفسكم العار والارتباك

ثم دعا اليهِ الاب فينالي واقيم مذبح متنقل بالقرب من سرير الامبراطور . وخرج الجميع من الغرفة خلا هذا الكاهن . وعند ذلك تناول الامبراطور القربان وهو صامت منفرد متكئ على فراش الموت . وبعد ان اتم ذلك رجع اليهِ الكونت مونثولون . وكان الامبراطور يتكلم بسكون وهدوّ ولوائح الراحة تلوح على وجههِ . فتكلم بضع دقائق على الامور الدينية ثم نام

واستيقظ في الصباح وقال لمرشد خادمهِ افتح النافذة لاتمكن من ان اتنفس الهواء الطيب الذي خلقهُ الله سبحانهُ وتعالى

وكان ليل الخامس من ايار (مايس) مظلماً شديد الهواء غزير المطر فاظلم فلك سانته هيلانة وكانت العواصف شديدة جدًّا فاستاصلت جميع الاشجار التي كان يحبها نابوليون والقتها في الوحول وكان الامبراطور في حالة النزع لايعلم ما كان يجري وكان يتقلب متعبًا على فراشهِ . وعند ذلك جرى ما اثر اشد تاثير في الحاضرين فان الاولاد الذين كانوا مع رفاق الامبراطور ادخلوا الغرفة لينظروا اليهِ نظرة اخيرة حال كونهِ كان صديقهم شديد الاعتناء بهم . وكان قد انحجب عنهم نحو شهر فلما رأوهُ وقد تغير منظره جدًّا خافوا واضطربوا جدًّا في بادي الامر . ثم اخذوا ينوحون نوحًا شديدًا واقتربوا من فراشهِ وامسكوا يديهِ واخذوا يقبلونها ويذرفون دموعهم على وجههِ فاثر هذا العمل في جميع الذين كانوا في الغرفة خاصة لان صوت بكائهم تغلب على صوت تنفس الامبراطور الثقيل . اما نابوليون ابن المارشال برتران فوقع على الارض مغشيًا عليهِ . وكان احد الخدم مريضًا منذ ٤٨ يومًا فنهض من فراشهِ ودخل الغرفة وهو محموم مصفر بلا ثياب . وكان قد توهم وهو محموم ان الامبراطور بات في ضيق وانهُ دعاه اليهِ ليعاونهُ فوقف مترجرجًا بالقرب من فراشهِ واخذ يقول انني افديهِ بنفسي وكان ذلك الخادم في حالة النزع

ومضت ساعات الليل والامبراطور في حالة السكون يتنفس بصعوبة وكان حينًا بعد حين يسمع منهُ صوت غير مفهوم . ولقد قال الكونت مونثولون اظن انني سمعتهُ مرتين يقول فرنسا والجيش وطليعة الجيش وجوزفين . وجرى ذلك في الصباح قبل الظهر بست ساعات واستمر من هذه الساعة الى ما بعد الظهر بست ساعات ملقى على ظهرهِ ويمينهُ خارجة من الفراش وعيناهُ شاخصتان كانهُ غرق في بحار من التامل دون ان يظهر ما يدل على انهُ متوجع . وكانت تلوح على وجههِ لوائح السكون والانبساط . ولما توارت الشمس في الافق في ذلك اليوم الشديد العواصف خرجت روح نابوليون من حجاب الدنيا ودخلت العالم العظيم المجهول . ولا يخفى ان جوزفين اللطيفة المحبوبة تفظت قبل موتها في جزيرة البا اسم نابوليون وهذا نهاية كلامها . اما نابوليون فاخر كلامهِ كان فرنسا . الجيش . جوزفين

وكان نابوليون قد قال انهُ يروم ان يدفن عند ضفة نهر السان في باريس في وسط الامة



الفرنسوية التي احبها حبًا غير معتدل . وقال انهُ اذا لم يسمح بذلك ارجو ان ادفن في الجزيرة التي فيها مدفن اباءي اجاشيو . واذا امتنعت الحكومة الفرنسوية عن السماح بذلك ايضًا فارجو ان ادفن في مكان منفرد تحت شجرة تحتها ينبوع الماء الذي طالما التذذت بهِ فانهُ كان يحب ذلك الينبوع كانهُ صديق صادق

وبعد موتهِ طلب اعوانهُ الى السار هدسون لو حاكم الجزيرة بان يسمح لهم بان ينقلوا جثتهُ الى اوربا . فقال ان الحكومة الانكليزية قد امرت قطعيًا بان تبقى الجثة في الجزيرة غير انهُ يسمح لهم بان يدفنوهُ ايما ارادوا . فاخذوا يتوسلون اليهِ باكين بان يسمح لهم بنقلها الى اوربا ليسلموها الى اقاربهِ واصدقائهِ غير انهُ لم يجب طلبهم لان اوامر حكومتهِ كانت قاطعة . والسبب ان اصحاب الامتياز الموروث في اوربا كانوا يخشون الامبراطور نابوليون وان كان ميتًا . والحت مادام برتران على الحاكم المذكور بان يسمح لها بان تنقل بطن الامبراطور وقلبهُ الى اوربا فلم يجب طلبها مع انها توسلت اليهِ بكل تذلل والحاح

وبعد ان فحص داخل الجثة بكل تدقيق هيئت الجثة للدفن فالبسها خادمهُ الثياب التي كان يلبسها في قيد الحياة اي انهُ البسهُ صدرية بيضاء وربطة رقبة سوداء وحذاء طويل الساق وبرنيطة مقرنة . ووضع بعد ذلك على فراشهِ في غرفة النوم الصغيرة التي سترت بمنسوجات سوداء وبسط على رجليهِ العباءة التي كان قد لبسها وهو في معركة مارنجو ووضع على صدرهِ صليبًا من فضة وكان وراء راسهِ مذبح وقف عندهُ الكاهن فينالي يصلي

واكتسب نابوليون حب جميع اهالي تلك الجزيرة فانتشر خبر موتهِ فيها بسرعة فاجتمع جمهور غفير في لونغود . وكان الناس يدخلون الحجرة التي كان ملقىً فيها في السادس من الشهر الجاري بعد الظهر وفي السابع منهُ وكانوا جميعًا يتفرسون بخوف وتاثر في الجثة وجاء السار هدسون لو حاكم الجزيرة وقال في تلك الساعة المرعبة المحزنة انهُ كان الد اعداء انكلترا والد اعدائي غير انني اغفر لهُ

وكان صباح الثامن من شهر ايار (مايس) صافي الفلك فان سكون الهواء تبع العواصف ولم يبقَ في الجو غيمة واحدة . وكان نسيم لطيف منعش يهب بلطف . واجتمع جميع الاهالي في لونغود ليقوموا بفروض الاحترام لذلك الميت الذي كان ماسورًا في جزيرتهم وخلد ذكرها . وبعد الظهر بنصف ساعة وضع التابوت المصنوع من تنك ورصاص وخشب فاخر على عجلة دفن يجرها اربعة افراس . ومشي ١٢ رجلاً بالقرب من التابوت ليحملوهُ على اكتافهم حين يتعسر جر العجلة من رداءة الطريق . ومشي وراء التابوت رفاق الامبراطور واعوانهُ وحشمهُ لابسين ملابس الحداد ولوائح الحزن الحقيقي الشديد تلوح على وجوههم جميعًا . اما الحاكم وامير البحر مع اركان الحرب فساروا

راكبين وراء الميت باعتبار وسار وراءهم جميع اهالي الجزيرة رجالاً ونساء واولادًا وكانت الحكومة الانكليزية قد وضعت في الجزيرة الفين وخمسمائة جندي لحراسة الامبراطور وهو في قيد الحياة فاصطفوا جميعًا في الجهة اليسرى من الطريق . وكانت الموسيقات العسكرية واقفة في نقط متقابلة في الطرية تصدح بنغماتها الحزنية . وكان الجنود عند مرور الميت يتبعونهُ صفًا

وبعد ان ساروا برهة وقفت العجلة فحمل الرجال التابوت وساروا في طريق ضيقة فتحت في سفح الجبل ليصير التوصل بها الى مكان الدفن القفر . فوضع التابوت على حفر القبر . واخذ الكاهن يقوم بصلاة الدفن واثر ذلك المنظر في قلوب جميع الحاضرين اشد تاثير وكانت بارجة امير البحر اثناء مسير القوم في الجنازة تطلق مدافع الحزن مدفعًا كل دقيقة ولما انزل التابوت الى القبر المصنوع من الحجارة المنحوتة العميقة اطلقت البنادق ثلث دفعات كل مرة ١٥ بندقية دفعة واحدة فوق القبر . واخذ الناس يقطعون اغصانًا صغيرة واوراقًا من الاشجار الكائنة فوق القبر لتذكر مدفن اعظم رجل رأتهُ الارض

وحفر اعوان نابوليون على حجر كبير منحوت الكتابة الاتية على الترتيب الاتي

نابوليون

ولد في اجاشيو

في ١٥ اب (اوغسطوس) سنة ١٧٦٩

توفي في سانته هيلانة في ١٥ ايار (مايس) سنة ١٨٢١

وكان الذي نحت الحجرة قد فرغ من كتابة ما تقدم ما قال السار هدسون لوحاكم الجزيرة لاعوان نابوليون ان الحكومة الانكليزية امرت بان لا يكتب على القبر الا الجنرال بونابرت . ولولا قساوة الحكومة الانكليزية لما تبعت اسيرها المظلوم الى القبر . فاعترض اعوانهُ غير ان اعتراضهم ذهب سدى . وبعد المفاوضة سمح بان يصير وضع حجر فوق القبر دون ان يكتب شيء عليهِ

وفي ٢٧ ايار (مايس) سار اعوان الامبراطور ورفاقهُ وخدمهُ كاسفي البال الى المركب الذي عين لرجوعهم الى اوربا . وفي اليوم السابق لسفرهم ذهبوا جميعًا الى القبر وغطوه بالزهور واذرفوا دموعًا غزيرة . ثم ركبوا مركبًا انكليزيًا مودعين الوداع الاخير لتلك الصخرة المقفرة التي صرفوا فيها خمس سنين ونصف سنة في المنفى والويل والضيق . على انهم اكتسبوا اعتبار العالم ومدحهُ لانهم خدموا بامانة سيدهم وهو في الويل والضيق

غير ان احدهم وهو الضابط هوبارشا امتنع عن ان يترك قبر سيده فان صداقتهُ لم تكن تموت فبقي في الجزيرة ١٩ سنة يحرس ذلك القبر . ولما طلب صوت فرنسا المتحد بقايا الامبراطور وارجعت



الى فرنسا سار وراءها ذلك الرجل الامين الى مكان راحتها الاخير في فرنسا

## الفصل الثاني والسبعون

### فرنسا والامبراطور نابوليون

ان تاريخ اكثر الرجال ينتهي بالموت . على ان تاريخ نابوليون الاول لا ينتهي كذلك . فان اخباره الغريبة العجيبة لم يبلغ نهايتها بموتهِ ولا بدفنهِ . فانهُ بعد وفاتهِ بتسع سنوات اهتم العالم اشد الاهتمام بالمضايقات المعيبة التي وقعت على الامبراطور بامر الحكومة الانكليزية . وازداد بحث الناس عن اخبار الضيق الذي وقع فيهِ في تلك الجزيرة ووقفوا على الحقائق فمالوا الى الامبراطور ورثوا لهُ

وفي ثلثة ايام من شهر تموز (جوليه) سنة ١٨٣٠ نهضت الامة الفرنسوية كرجل واحد وطردت العائلة المالكة البوربونية من فرنسا . وصح ما قالهُ الامبراطور نابوليون وهو ان الامة الفرنسوية تطرد الملك وتجعل ملكًا عليها لويس فيليب دوق دورليان . وبعد هذا الانقلاب باقل من شهرين قدم عرض الى مجلس مبعوثي فرنسا مآلهُ ان يطلب الى الحكومة الانكليزية ان تسلم فرنسا جثة نابوليون ليصير جلبها الى فرنسا وكان البوربون يضطهدون جميع الذين كانوا يتظاهرون بالميل الى الامبراطور وان كان ميتًا غير ان اسقاط حكومتهم مكن الامة الفرنسوية من ان تتظاهر بحبها للامبراطور نابوليون . فقال الموسيو دومتيني ان نابوليون ارجع الانتظام والراحة الى بلادنا وقاد جيوشنا الى النصر وحذقهُ الذي يكاد يفوق حذق البشر قطع اسباب الظلم والاضطراب . ومجدهُ الحربي جعل الاسم الفرنسوي محترمًا في كل مكان فاسمهُ لا يلفظ في كل جيل الا بالاحترام والتأثر

وقدم اهالي فرنسا عدة عرائض طالبين جلب جثة نابوليون الى فرنسا وهاجت حمية في قلوب الاهالي شديدة لم يكن سبيل الى اخمادها . والمظنون ان حكومة لويس فيليب كانت تشاهد هذا الميل الى الامبراطور نابوليون بخوف . على انها تحققت ان المضادة لا تجدي نفعًا وان الاوفق لها ان تكون في مقدمة الذين يطلبون ارجاع جثة الامبراطور

وقرر مجلس المبعوثين في ٢٨ تموز (جوليه) سنة ١٨٣١ بان يرجع مثال الامبراطور نابوليون الى مكانهِ في بلاس فندوم . اما الدول المتحدة التي كان قد اذلها نابوليون ادبيًا فلم تحاول ان تضاد ارجاع ذلك المثال الى المكان الذي كان فيهِ بعد ان كانت هي الآمرة بتنزلهِ منهُ

وفي ٢٩ تموز (جوليه) سنة ١٨٣٢ مات ابن نابوليون الاول الذي كان قد سماه ابوه ملك رومية وسماه جدهُ امبراطور النمسا دوق دي رجستياد . وكان لهُ من العمر ٢١ سنة . وتوفي كانهُ

اسير في قصر اقارب امهِ . وهكذا بات الامبراطور نابوليون الاول دون عقب

وارجع مثال الامبراطور المشار اليهِ باحتفالٍ عظيم الى المكان الذى كان عليهِ بقرار مجلس المبعوثين في اول حزيران (جون) سنة ١٨٢٢ . وفرح الفرنسويون جدًّا بذلك . وكتب تحت ذلك المثال

ان هذا اثر اقامهُ نابوليون الكبير لمجد الجيش العظيم . أُبتدي بهِ في ١٥ اب سنة ١٨٠٦ وتم في ١٥ اب (اغوسطوس) سنة ١٨١٠

وفي ١٨ تموز (جوليه) سنة ١٨٢٢ اي يوم تذكار فتنة تموز وفي السنة الثالثة من ملك لويس فيليب الاول ارجع تمثال نابوليون الى راس عمود الجيش العظيم . انتهى

واقيم احتفال اخر في اول اب (اغوسطوس) سنة ١٧٢٤ على رحبة منزل الانفاليد الملكي وفي ١٤ تشرين الثاني من هذه السنة اعترف مجلس الاستئناف الاعلى بفضل نابوليون لانهُ اشهر واضعي القوانين فعلق صورتهُ في قاعة المجلس وهو يشير الى كتاب القوانين الذي وضعهُ . فهذه الاعمال لم تكن غير تمهيد لاعمال اخرى تدل على اعتراف الفرنسويين بفضل الامبراطور وجعلت العالم يتفرس بدهشة في اعمالهِ التي لاتزال دون مثيل في تواريخ العالم ولن تزال كذلك

وكتب الامبراطور نابوليون في وصيتهِ بيدهِ ان ارادتي هي ان يرتاح دماري (اي جثتهُ) في ضفة نهر السين في وسط الامة الفرنسوية التي احببتها حبًّا شديدًا . انتهى

وبعد ان تخلصت الامة الفرنسوية من عبودية الدول المتحدة صاحت بصوت واحد ممتد من نهر الرين الى جبال البيرني طالبة الى الحكومة الانكليزية ان تسلمها جثة الامبراطور نابوليون

وفي ١٥ ايار (مايس) ١٨٤٠ كان يوم تذكار وفاة الامبراطور فكتب موسيو كيزو الى الحكومة الانكليزية كتابًا طلب فيهِ رسميًّا استلام رفات الامبراطور نابوليون . وكان موسيو تيبرس حينئذٍ رئيس الوزارة الفرنسوية . وهذه ترجمة الرسالة المذكورة

انا الواضع اسمي ادناه سفير ملك الفرنسويين يتشرف انفاذًا لاوامر حكومتهِ بافادة ناظر خارجية جلالة ملكة انكلترا بان جلالة الملك يرغب جدًّا في ان يصير وضع بقايا نابوليون في قبر في فرنسا وهي البلاد التي دافع عنها وجعلها ذات شهرة حال كونها محتوية على عظام الوف من رفاقهِ ضباطًا وجنودًا وقتلوا انفسهم معهُ في سبيل خدمة بلاده . وقد تقرر عند الواضع اسمهُ ادناه ان الحكومة الانكليزية لاترى في هذا الطلب المبني على رغبة جلالة الملك غير عواطف عادلة نقية فتصدر الاوامر اللازمة لازالة جميع الموانع التي تحول دون نقل عظام الامبراطور نابوليون الى فرنسا . انتهى

وعندما ارسلت هذه الرسالة الى الحكومة الانكليزية كانت قد تغيرت الاوقات فلم تقدر



ان تمتنع عن اجابتهِ . فاجابت بسرعة وملاطفة . وكان ذلك في ٩ ايار (مايس) فارسل اللورد بارلمستون جوابًا يتبين منهُ ان الحكومة الانكليزية لم تصف نابوليون وصفًا يدل على انهُ قائد مختلس الملك فانها اعترفت دون تاخير بانهُ امبراطور وهذا نصُّ جوابها

ان حكومة جلالة ملكة انكلترا تومل ان تعتبر فرنسا سرعة جوابها دليل على انها راغبة ان تمحو اثار العدوان الوطني الذى جعل فرنسا وانكلترا عدوتين في ايام الامبراطور . والمامول عند حكومة جلالة الملكة انهُ اذا كان لايزال اثر لذلك العدوان في محل ينبغي ان يدفن في القبر الذي تلقى فيهِ قريبًا عظام نابوليون فهذه هي الترضية التي قررت الحكومة الانكليزية ان تاتي بها مقابلة لتعديها على استقلال الامم . فالعدل يهتز طربًا عندما تبادر حكومة انكلترا الى الاعتراف بان نابوليون الاول كان امبراطورًا حال كونهِ رقي عرش الامبراطور بالانتخاب العام . وهكذا يكون نابوليون قد انتصر على مقاومة اعدائهِ وهو في القبر

وفي ١٢ ايار (مايس) بلغت الوزارة الفرنسوية مجلس المبعوثين الفرنسوي ما ياتي

ايها المبعوثون . ان الملك قد امر سمو البرنس جوانفيل بان يذهب ببارجتهِ الى جزيرة سانته هيلانة ليأتي برفات الامبراطور نابوليون . فنرجو منكم ان تفوضونا بصرف المبالغ اللازمة للقيام باحتفال ادخالها الى فرنسا وانشاء قبر لهُ . ولما كانت الحكومة الفرنسوية ترغب في القيام بفريضة خطيرة وطنية خابرت الحكومة الانكليزية وطلبت اليها تسليم تلك الجثة الثمينة التي امست في يدها بحسن حظها . والبارجة التي ترجع الينا بها تقف في مصب نهر السن وستنقل بمركب اخر الى باريس ويصير وضعها في المكان المسمى الانفاليد . وسيقام عند القبر الذي تلقى فيهِ احتفالات عظيمة دينية وعسكرية . ومن المهم مراعاة للعظمة ان لايكون قبر ذلك الرجل العظيم في مكان عام في وسط جمهور ذي ضوضاء قليل الانتباه . ولكن يقام في موضع منفرد محفوف بالسكون يقدر الذين يعتبرون المجد والحذق والعظمة والمصائب ان يزوروها بخوف واعتبار . وكان نابوليون الاول امبراطورًا وملكًا ومالك بلادنا بالحق والعدل . فيحق لهُ ان يدفن في سان داني غير انهُ لاينبغي ان يدفن نابوليون كما يدفن الملوك فلا بدلهُ من ان يبقى مالكًا آمرًا في المكان الذي ترتاح بهِ عساكر هذه البلاد وهو المكان الذي يذهب اليهِ لايقاد نيران الحمية في نفوس جميع الذين يدعون الى الدفاع عن الوطن . سيصير وضع سيفهِ على قبرهِ تحت القبة في وسط الهيكل المكرس لرب الجيوش . وسيقام بالصناعة قبر يليق بالاسم الذي يكتب عليهِ اذا امكن انشاء قبر يليق بهِ . وينبغي ان يكون هذا القبر ذا جمال بسيط وشكل ذي جلال ومتانة تتغلب على تاثيرات الزمان . فالقبر الذي يقام تذكارًا لنابوليون ينبغي ان يكون متينًا ليخلد كصيتهِ . وبعد الان لايملك نابوليون وما يختص بهِ الا فرنسا وحدها . فقبرهُ كمجدهِ وصيتهِ لايكون الا لوطنهِ . انتهى

فسمعت فرنسا ومجلس المبعوثين هذا البلاغ الجميل بسرور . فارسل البرنس دي جوننفيل ببارجتين حالاً الى جزيرة سانته هيلانة . وسار فيهما الجنرال غورغو والجنرال برتران والكونت لاكازا الذين شاركوا الامبراطور في سجنهِ وصنع تابوت من الخشب الفاخر كالتوابيت القديمة على افخر صنعة وكان متسعاً بحيث يسع التوابيت الثلثة التي كانت وضعت رمتهُ فيها في الجزيرة لمجانبة فتحها وتحريكها . وكتبت كلمة واحدة وهي نابوليون على هذا التابوت الفاخر المزيّن وصنع ستار ثمين من المخمل المزين بصور نحل ذهبية وبنقوش اخرى جميلة . وصور في كل زاوية من زواياهُ نسر من ذهب عليهِ التاج الامبراطوري

وفي ٨ تشرين الاول (اوكتوبر) رست البارجتان المذكورتان في ميناجزيرة سانته هيلانة واطلقت المدافع تسليماً عليهما من القلع ومن البوارج الانكليزية التي كانت تنتظر وصول البارجتين الانكليزيتين . وكان الخامس عشر من هذا الشهر تذكار وصول ذلك الاسير العظيم الى تلك الجزيرة المقفرة منذ ٢٧ سنة . وعين ذلك النهار لاخراج رمتهِ من مدفنها وفي نصف الليل طفق المهندسون الانكليز تحت ادارة حاكم الجزيرة في حفر القبر بحضور ارباب الخطط الفرنسويين والانكليز . وبعد ان اشتغلوا تسع ساعات ثم حفر الارض ورفعت الحجارة الكبيرة التي كان قد سدّ اللحد بها . فاقيمت صلاة عند ذلك ورفع التابوت وروؤس الحاضرين مكشوفة ونقل الى خيمة ضربت لذلك . وفتحت التوابيت الثلثة وهي تابوت من خشب واخر من رصاص وثالث من تنك باحترام ديني ورفع ستار رقيق فظهرت جثة الامبراطور نابوليون وكانت قد صينت من الرطوبة والهواء حتى ان هيئتهُ كادت تكون دون تغيير فعرفهُ الذين كانوا يعرفونهُ وهو في قيد الحياة وكانت ثيابهُ العسكرية على ما كانت عليهِ دون تغيير كانهُ نائم فاثر هذا المنظر في الجميع اشد تاثير واذرف كثيرون منهم دموعاً غزيرة . وبعد ان عرضت الجثة للهواء نحو دقيقتين فقط قفلت التوابيت بكل اعتناء ووضعت في التابوت الجديد ووضعت كلها في تابوت عظيم من خشب السنديان

وفي اثناء ذلك اظلمت السماء باجتماع غيوم كثيفة وهطل المطر غزيراً وتكاثف الضباب فامسى الغيوم في ظلمة تكاد تكون كظلمة نصف الليل . واخذت مدافع البوارج والقلع تطلق تحزيناً موثرة في تلك الحال اشد تاثير في سامعيها . ومع ذلك بقي اكثر اهالي الجزيرة عند القبر غير مبالين بالعواصف ولا بالمطر وساروا وراء التابوت الى البارجة . وجرت اربعة افراس العجلة التي وضع عليها التابوت وكان رجل يقود كل منها ومشي ثمانية ضباط حولها . وسار وراءها جميع الضباط وارباب الخطط وعلى يسار كل منهم منسوج اسود علامة للحداد . ودعا حاكم الجزيرة خلف السار هدسون او جميع رجالها الى ان يحضروا لابسين اثواب الحداد وخرجت القوة العسكرية الموجودة



في الجزيرة بامر الحكومة لتعظيم هذا الاحتفال . وكانت الموسيقات العسكرية تضرب . والبست شوارع جيمسون منسوجاً لطيفاً اسود ونكست البوارج راياتها وخفضت صواريها وهكذا ترى ان نابوليون دفن والانكليز يقولون انهُ مختلس الملك وخرج من قبره بعد عشرين سنة وقد اعترفوا بانهُ امبراطور قانوني

وكان عند شاطىء البحر عند انتهاء الصفوف الانكليزية البرنس دي جوننفيل وقد جمع حولهُ الضباط الفرنسويين لابسين جميعاً ملابس الحداد فعند اقتراب العجلة الحاملة الجثة منهم وقفوا صامتين وكشفوا روؤسهم فوقفت العجلة في مكان يبعد بضع خطوات عنهم ثم تقدم والي الجزيرة وسلمهم جثة نابوليون بالنيابة عن الحكومة الانكليزية . فلفَّ التابوت حينئذٍ بالراية الفرنسوية واثر ذلك في جميع الحاضرين تاثيراً شديداً . وعند ذلك اكرمت جثتهُ كما كان يكرم وهو في قيد الحياة . فرفعت الرايات واطلقت المدافع لما نقل التابوت في قارب مصحوب بعدة قوارب الى المركب . فاستقبلهُ في المركب صفان من الضباط المسلحين ثم وضع في كنيسة أُنشئت في البارجة لوضعهِ فيها وأُنيرت بالشموع . واقام بالاكرام العسكري ستون رجلاً تحت قيادة اقدم الضباط في البارجتين وكانت نساء سانته هيلانة قد أهدت الى الامبراطور الميت راية عليها طراز من شغل ايديهنَّ فنشرت في الكنيسة المذكورة . وختمت هذه الاحتفالات المحزنة في ذلك اليوم بالصلوات التي طالما اعتبرها نابوليون

وسافرت البارجتان من جزيرة القديسة هيلانة في ١٨ تشرين الاول ( اكتوبر ) اي بعد وصول نابوليون اليها بخمس وعشرين سنة وثلثة ايام ولم يأْتيها الاَّ لصرف سنين بالعذاب والمرض وهو متضايق من الاسر . وفي ٢ تشرين الثاني بلغتا خط الاستواء فلاقتهما بارجة اخرى فرنسوية واخبرتهما انهُ ربما كان قد صار اشهار العدوان بين فرنسا وانكلترا بسبب المعاهدة المصرية الانكليزية . فخاف البرنس دي جوننفيل من ان يأْسرها الانكليز فصمم على ان يقاتل البوارج الانكليزية اذا كانت اقدر منهُ الى ان تغرق بارجتاهُ بمن فيهما موثراً شرف مرافقة جثة نابوليون الى مدفن في قعر البحر على تمكين الانكليز من الاستيلاء عليها . فبلغ هذا التصميم الناشىء عن بسالة وحمية الى جميع من في البارجتين فاجابوه اليهِ باجماع وسرور . غير انهُ لحسن الحظ لم تنشب حرب حينئذٍ بين الانكليز والفرنسويين بل زالت العوارض

وكان ٢ كانون الاول (دسمبر) تذكار معركة اوسترلتس المشهورة فدخلت البارجتان مينا شربورغ . فبادرت ثلث بوارج اخرى فرنسوية وهي اوسترلتس وفردلند وتلسيت الى احاطة البارجة الحاملة الجثة واطلق كلٌّ من الحصون والقلع ٢١ مدفعاً . ثم نقل التابوت الى مركب بخاري اسمهُ نورماندي هيأتهُ الحكومة الفرنسوية لنقل الجثة بنفقات وافرة . وفي التاسع من ذلك

الشهر دخل ذلك المركب نهر السان . وكان قد بني على ظهر المركب كنيسة فاخرة ثمينة وضع التابوت فيها في مكان مرتفع ليكون ظاهرًا لجميع الذين اجتمعوا في ضفات النهر . وكانت الانوار كثيرة ومنظرها جميلاً جدًا والثوب الامبراطوري ملقىً على التابوت حتى الارض . ووضع التاج الامبراطوري على وسادة موضوعة على راس التابوت ملفوفًا بمنسوج رقيق اسود . وكان في كل زاوية من زوايا تلك الكنيسة حارس مسلح وعند راس التابوت كاهن واقف لابس ملابس الكهنوت يصلي . وكان بالقرب منهُ عدة من النواد الاولين وكان البرنس دي جونفيل واقفًا وحدهُ عند مؤخر التابوت . وهكذا تقدم القوم بالتابوت من مدينة هافر . وكان كثيرون ينتظرون وصولهم فراوا المركب عن بعد كنقطةٍ سوداء في الافق . فبادر اهالي المدينة الى التاهب واطلقت مدافع الحرب وقرعت الاجراس واخذت الموسيقات العسكرية تصدح في اماكن كثيرة . وانقطع الناس اجمع عن الاشغال وانقطعت جميع الاصوات الا اصوات الحزن . ولما اقترب المركب من الجمهور صمتوا اجمعين فسار الى ان رسى في المكان المعين لهُ . اما الحكومة الفرنسوية فكانت قد هيأت في هذا المكان مركبًا صغيرًا بخاريًا ليحمل جثة الامبراطور الى باريس في النهر مسافة مائة ميل . وبذلت فرنسا من تدبيرها ومالها وحسن ذوقها كلما يلزم لهذا الاحتفال العظيم . وسار المركب البخاري الصغير المسمى باريسيان في المقدمة وفيهِ عظماء المملكة وسار وراءهُ مركب اخر فيهِ الذين جاءوا بالجثة من الجزيرة ووراء هذا المركب المركب الفاخر الجميل الحامل جثة الامبراطور . وكان مجللاً باثواب حداد فاخرة ثمينة وكان التابوت مرفوعًا في الكنيسة حتى تستطيع كل عين ان تراهُ وهو في المركب وسار وراء هذا المركب عشرة مراكب بخارية

وفي ١٠ كانون الاول (دسمبر) صباحاً عند بزوغ الشمس سارت المراكب الثلثة عشرة المذكورة في النهر قاصدة باريس والاجراس تقرع قرع الحزن والمدافع تطلق . واجتمع في ضفتي النهر اكثر اهالي البلاد المجاورة الى مسافة ٣٠ ميلاً على الجانبين فان الرجال والنساء والاولاد اجتمعوا فيهما احتفالاً برمة ذلك الرجل العظيم الذي كان لا يزل مالكًا قلوب الناس . وكان والي ولاية السان قد اصدر هذا الاعلان

يا رفاقي ابناء الوطن . ان ولاية السان السفلى تكون الولاية الاولى التي تدخلها الجنازة تحت ادارة صاحب السمو الملكي البرنس دي جونفيل قاصدة قاعدة المملكة حيث يقام باحتفالات عظيمة بحضور اعضاء الحكومة وتزين باعمال صناعية عديدة . ولا حادثة تاريخية تصحبها عظمة كحادثة نقل جثة الامبراطور نابوليون . وعندما يسير المركب ببطء في النهر قابلوهُ بحماسيات دينية عميقة تنشأ على الدوام عن تذكر مصائب الوطن وانتصاراتهِ ومجده . وتقومون بالاحتفال الاخير اكرامًا لذلك الرجل العظيم بسكون وجلال يليقان بقوم طالما انتفعوا بقوتهِ الحامية



واهتمامهِ المخصوص

ومرت المراكب وجمهور غفير ينظر اليها والجميع صامتون والدموع في اعينهم . وكانت جميع القلع والحصون تطلق المدافع وجميع الاجراس تقرع قرع الحزن ولم يكن بيت ولا كوخ في الطريق لم يكن فيهِ ما يدل على حب واعتبار . اما مدينة رون فهي واقعة في منتصف الطريق بين هافر وباريس وعدد اهاليها مائة الف نفس . وكان الامبراطور نابوليون قد قدمها كثيرًا بعنايتهِ وجعلها من المدن التجارية والصناعية الاولى في المملكة . وقد قال ذات مرة ان باريس ورون وهافر تكون مدينة واحدة والسان شارعها العظيم . فهذه هي المطامع الكريمة التي كان يطمع بمثلها نابوليون . على ان الدول المتحدة ابطلت مشروعاتهِ النافعة بسلاح جيوشها وطاردتهُ كانهُ وحش ضارٍ . وكتب حاكم رون اعلانًا نشرهُ على الاهالي استعدادًا لاستقبال الجنازة وهو

يا رفاقي ابناء الوطن المحبوبين . قد أرجع نابوليون الينا بعد ان غاب عنا منفيًا ٢٥ سنة . وجاء امير فرنسوي وهو ابن رفيقنا في الوطن ملكنا الكريم ببقايا ذلك الامبراطور العظيم . وبعد ايام قليلة ترتاح جثتهُ الصالحة بسلام تحت صيانة مجدهِ الوطني وبقايا اثارهِ العظيمة . وليس لنا غير دقائق قليلة للسلام على نعش ذلك البطل الذي جعل الاسم الفرنسوي معتبرًا في العالم قاطبة . فلنقربها بسكون مظهرين الحاسيات الكائنة في قلوب الاهالي الذين كانوا تحت ادارة يدهِ القادرة وحمايتها . فلنتحد بالحاسيات الدينية على القيام باحتفال جنازة ذات فوز اقيمت لهُ في المدينة التي فيها اثار عظيمة لا تفنى تدل على مجدهِ وحذقهِ العظيم . انتهى

واجتمع في رون من الاماكن المجاورة لها اكثر من مائة وخمسين الف نفس . وزينت ضفتا النهر بالفخر زينة واعدت اماكن مزينة بالحرير والرايات لتدخلها جماهير لا تحصى . واقيمت انشاآت مخروطة مغطاة بالحرير الفاخر الاحمر وعليها ذهب على شكل دموع وكتبت عليها اسماء اهم المعارك التي قام بها الامبراطور . وصار بناء قنطرة نصر عظيمة جدًا فوق النهر مغطاة بالحرير الثمين المزين بصور نحل ذهبية . واقيم مركبان مزينان بالفخر زينة غطيا برايات الدول ومرت المراكب البخارية بينهما . وزينت جسور رون بالفخر اعمال الصناعة وعلقت رايات في كل النوافذ

وقبل الظهر اجتمع جميع اهالي المدينة والاماكن المجاورة لها وكل المامورين وخدم الدين والعساكر والابطال الذين عطلت اجسامهم بالجراح وعدد هولاء الف وخمسمائة رجل . فلما ساروا ثارت عواطف الحروب في اجسامهم وبعضهم قد شاخ جدًا وفي يد كل منهم اكاليل من الخضرة وقد تقلدوا سلاحهم مقلوبًا وكانت الدموع تظهر في اعينهم ولوائح الحزن الشديد تلوح على وجوههم فقابلهم الناس بحمية قلبية وعواطف صادرة عن حمية فانهم بقايا جيوش الامبراطور بل هم من الذين كان يدعوهم اولادًا لهُ ولم يكن احدهم يمتنع عن ان يفديهُ بنفسهِ

وعند ظهيرة ذلك اليوم البهج ظهرت المراكب سائرة بجلال دون اصوات تخر في المياه النهر اللامعة . فاطلقت المدافع دفعة واحدة من المراكب والقلع والحصون وكانت اصواتها اشد من هزيم الرعود و يعجز القلم عن وصف كدر الناس . وكان الامبراطور ميتًا ومع ذلك ارجع بفوز وحب وخضوع الى امبراطوريتهِ . وردَّ شرف فرنسا بعد ان مس فان اشهر ملوكها واعظمهم لم يكن باقيًا مدفونًا اسيرًا في ارض اعدائهِ

ولما اقتربت المراكب من الناس ابطئ سيرها ليتمكن الناظرون من مشاهدة التابوت والمراكب لما وصلت تحت قنطرة النصر العظيمة وقف المركب الذي فيهِ الجثة برهة وسار اولئك الابطال في صف واخذوا يلقون اكاليلهم عند اسفل التابوت ثم ضجوا بصوت مرتجف حزين . ليعش الامبراطور . فهذه الضجة التي طالما اثرت في قلب الامبراطور وقعت على اذن الميت الباردة التي لا تسمع . فهل راى نابوليون من عالم الارواح ما جرى وسر بعظم صيتهِ . ان معرفة حقيقة ذلك محال

ثم صار المركب تحت قبة النصر ووقف في وسط دائرة حولها المراكب . وكانت الاجراس تقرع والمدافع تطلق اطلاق الحزن وقرأ رئيس الاساقفة صلاة الجناز والموسيقات العسكرية تصدح نغمات تراتيل الحزن . وبعد ان تم ذلك اطلقت المدافع من الشاطئ معلنة ان هذا الاحتفال يكون بعد ذلك احتفال فوز . فان الامبراطور عاد الى شعبهِ الحافظ الوداد فصم الشعب على ان يقبلهُ كانهُ لا يزال في قيد الحياة . فاخذت الاجراس تقرع قرع الفرح والموسيقات تصدح نغمات سرور وسلمت الجنود بسلاحها . واطلق جنود مدافع الحرس الوطني مائة مدفع ومدفعًا . ومع ان كل الاعين كانت غريقة بالدموع وكل الاصوات ترتجف من التاثير ضج الناس باشد الاصوات فليعش الامبراطور فغطت ضجتهم اصوات الاجراس والموسيقات والمدافع . وكانت تلك الضجة ضجة امة مخلصة تعلن للظلمة المستبدين المتعجبين ان الفوز في النهاية كان للانتخابات العمومية باجلاس الامبراطور الذي انتخبوه على عرش الملك

وفي مساء ذلك اليوم سارت المراكب الى جهة باريس التي كان اهاليها ينتظرون وصولها اليها باضطراب وقلوب خافقة . وضفتا نهر السان من هافر الى باريس فيها مدن وقرى كثيرة . وكانت المراكب تسير والاهالي يظهرون حبًا عظيمًا للامبراطور وسرورًا شديدًا بارجاعهِ الى وطنهِ لدفنهِ فيهِ . فكانت الوف واقفة فيها وافرغ اهالي كل مكان جهدهم في ان يزيدوا الاحتفال رونقًا وعظمة وجاء الوف من باريس ليشاهدوا هذه المناظر الجميلة العجيبة

وكان في انبار المركب العظيم الذي بني لحمل تابوت الامبراطور وصنع على ظهر المركب محل على شكل هيكل مصري قديم مفتوح الجانبين مسطح السطح لوضع التابوت فيهِ . وفي كل



زاوية من زواياهُ شخص عظيم يحملهُ . وكان يدخل اليهِ بسلم وراس المركب نسرٌ عظيم مذهب ووضع حول التابوت مصابيح عديدة . غير انهُ ظهر ان هذا المركب ثقيل فلا يقدر ان يصل باريس في الوقت المعين للاحتفال وهو ١٥ من ذلك الشهر

وفي الرابع عشر من الشهر المذكور بعد الظهر باربع ساعات وصلت المراكب الى كوربفوا وهي قرية صغيرة تعلى اربعة اميال من باريس . وكان قد تعين ان ينقل التابوت فيها من النهر الى البر . واجتمع فيها الوف من الباريسيين ليشاهدوا ذلك الاحتفال . واقيم فيها عند البحر تمثال عظيم لجوزيفين المحبوبة عند الامة فكان كانهُ يترحب بزوجها الراجع فشخصت الابصار في ذلك التمثال الجميل . وكانت ماريا لويزا بنت امبراطور النمسا زوجة نابوليون الثانية عائشة في بارما عيشة بعيدة عن معيشة ذوات الكرامة والمجد . فلم تخطر لاحد ببال واقيم عند راس الفرضة عمود علوهُ خمسون قدمًا وعليهِ كرة محورها ست اقدام وفي اعلاها تمثال عظيم كنسر ذهبي . وقد كتب على قاعدة العمود ما ياتي انني ارغب في ان ارتاح بالدفن على ضفة نهر السين في وسط الشعب الفرنسوي الذي احببتهُ جدًا . انتهى . وبني هيكل يوناني علوهُ مائة قدم في نهاية المكان الذي اعد لوضع الجثة فيهِ الى ان تنقل الى العجلة . وكانت المصابيح العظيمة المرتفعة عشرين قدمًا تبعث انوارًا جميلة ونزل الى البر في هذا المكان السارجون هوبارت الذي صرف تسع عشرة سنة يحرس قبر نابوليون في الجزيرة . فاجتمع حولهُ جميع القواد وقبلوهُ بلطف وقابلهُ الاهالي اجمل مقابلة

وفي الليل زُينت جميع المراكب ابهى زينة وفي صباح الغد طلعت الشمس في فلك صاف فصاح كثيرون قائلين هذه شمس اوسترلتس وكان قد اخذ الجماهير يتقاطرون قبل ذلك باسبوع من جميع اقطار فرنسا بل من جميع اقطار اوربا ليشاهدوا رجوع الامبراطور وذلك الاحتفال الذي لا مثيل لهُ . واجتمعت تلك الالوف في مسافة مساحتها نحو اربعة اميال . اما فرح الابطال الذين كانوا في المكان المسمى الانفاليد وهو محل المتقاعدين من العسكرية فكان شديدًا جدًا حتى ان هيجانهم فاق درجة الاعتدال . وخرج جميع الحرس الوطني الباريسي ليسير في الجنازة . والمهاجرون البولونيون وكان بعضهم من عظماء الرجال طلبوا الى الحكومة الفرنسوية ان تسمح لهم بحضور جنازة الامبراطور الذي تفرد باظهار ميلهِ اليهم وشفقتهِ عليهم . وكان الملك لويس فيليب ملك الفرنسويين وجميع اعضاء العائلة المالكة واعضاء مجلس المبعوثين ومجلس الاعيان في قاعة الانفاليد ينتظرون الامبراطور الراجع ليترحبوا بهِ و يعظموا ذكرهُ . وزينت باريس في الطريق التي مرت بها الجنازة زينة لم يسبق لها مثيل . وزينت قبة النصر زينة لم يرَ مثلها واقيم للامبراطور على قبة ذلك المكان مثال فكان كانهُ ينظر الى فوزهِ العجيب وقد احيط

بالرايات والعلامات التي جعلتها انتصاراته مخلدة الذكر

وكان منظر حقول الاليزي جميلاً جداً فان جانبيه زينا باعمدة مرتفعة عليها تماثيل نسور مذهبة ورايات مثلثة الالوان

وكان الناس يرون من التماثيل العظيمة وقبات النصر المزينة والانوار العظيمة ما لم ترَ عين مثله

وكانت العجلة التي وضع فيها التابوت عظيمة فاخرة مصنوعة من ذهب وفضة وخشب فاخر منقوشة بالمخمل والحرير الثمين فيها تماثيل كبيرة قدر جسد الانسان مغطاة بالذهب وعلى رؤوسها وايديها مجن عظيم من الذهب الخالص طولهُ ١٨ قدماً وهو مزين بالفخر زينة . ووضع فوق ذلك لمجن مثال تابوت نابوليون وقد ستر بمنسوج رقيق احمر عليهِ طراز ذهبي على شكل النحل . ووضع على هذا المثال التاج الامبراطوري المزين بالحجارة الكريمة فهذا وصف علم مختصر للعجلة الكبيرة المذكورة التي لم تصنع يد الانسان عجلة افخر منها ولا اجمل ولا اثمن وكان يجرها ستة عشر فرساً ادهم كل اربعة افراس في صف وجميعها مستورة بمنسوجات ذهبية حتى لم يكن يظهر منها الا ارجلها وايديها وزينت معارفها ونواصيها بريش ابيض جميل ثمين . وكان يقودها ١٦ رجلاً لابسين ملابس خدم الامبراطور

وقبل الظهر بساعتين ونصف ساعة اي بعد الصلاة على التابوت حمل اربعة وعشرون ملاحاً التابوت على اكتافهم وساروا بهِ وراء الكهنة الى الهيكل الذي صنع على هيئة هياكل اليونان ووضع فيهِ برهة والكهنة يقيمون الصلاة . ثم حملة الملاحون المذكورون وذهبوا بهِ الى العجلة التي وصفناها ووضع داخلها . واخذت تسير والفلك صاف وفيهِ الشمس والقمر . والقلم ينصر عن فرح القوم وحميتهم لما كانت العجلة تسير ببطء وحولها خمسمائة ملاح وهم الذين ذهبوا الى الجزيرة واتوا بالجثة وكان يسير امامها ووراءها صفوف من العساكر بابهى الملابس وانظم ترتيب . واجتمع اكثر من مليون من الانفس عند الطريق ليترحبوا بالامبراطور الراجع الى وطنهِ وان كان ميتاً . وكانت اجراس باريس تقرع ومئات من الموسيقات العسكرية تصدح والمدافع تطلق من حصون كثيرة . وكان الجمهور المجتمع يضج ويغني ويبكي . وكان عشرة الاف صوت يغنون اغنية المارسلياز وكان صوتهم كالرعد القاصف

اما كنيسة الانفاليد فزينت بابهى زينة وافخرها فكانت كانها مصنوعة بايدي غير بشرية وسترت جدرانها بمخمل بنفسجي فاخر زين بطراز ذهبي ونجوم . وسترت الاعمدة الثمانية فيها بمخمل ثمين مزين بصور نحل ذهبية . ولو وصفنا حالة تلك الكنيسة لملأنا مجلداً عظيماً . وبني تحت قبتها العظيمة حيث يكون قبر نابوليون الذي صرفت ملايين من الفرنكات في سبيل انشائهِ



في سنين عديدة هيكل فاخر مزين . وقال جميع العارفين بفن البناء انهُ من اجمل الانشاآت . وتعين هذا المكان لوضع جثة الامبراطور فيهِ برهة . ودخلهُ ٢٦ الف متفرج وجلسوا في مقاعد معدة لهم وجلس في الرواق ستة الاف متفرج . واجتمع داخل الكنيسة الروساء الدينيون والكهنة واعضاء مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين وجميع اعضاء العائلة المالكة وغيرهم من عظماء فرنسا واوربا . وسار البرنس دي جوننفيل امام التابوت المحمول على اكتاف ٢٢ جندياً من الحرس الامبراطوري القديم ودخلوا بهِ بناية الانفاليد فوقف جميع الناس وانحنوا اكراماً للميت العظيم . ثم تقدم الملك لويس فيليب وحولهُ عظماء المملكة ليتقبل الميت . فقال لهُ البرنس دي جوننفيل يامولاي انني اقدم لك جثة الامبراطور نابوليون فقال الملك انني اقبلها باسم فرنسا . ثم تناول سيف نابوليون من يد المارشال سولت واعطاه للجنرال برتران وقال يا ايها الجنرال افوض اليك وضع هذا السيف المجيد المختص بالامبراطور على تابوتهِ . ثم عاد الملك الى عرشهِ ووضع التابوت في المكان المعد لهُ وهكذا نال نابوليون ما تمناه في نهاية حياتهِ . ثم أُقيمت صلاة الجناز وكان ملك فرنسا جالساً بجانب المذبح ومعهُ الملكة وكل اعضاء العائلة المالكة . واجتمع حول المكان جميع القواد ورئيس اساقفة باريس والاساقفة والمامورون وتحركت جميع القلوب لما صدحت الموسيقى الكنائسية المولفة من ثلثمائة آلة . وهكذا انتهى احتفال عظيم لم يكن لهُ مثيل

وسنة ١٨٤٧ دفنت فرنسا بجانب الامبراطور اثنين من اصدق اصحابهِ وهما الجنرال برتران والجنرال دوروك فكانها رامت ان تجعل بقربهِ من يسليهِ في انفراده من الذين كانوا احباءه . وقال الجنرال غورغود في مجلس الاعيان انهُ صار اختيار هذين الشخصين ليدفنا بالقرب من الامبراطور لانهما كانا متعلقين بشخصهِ وخدماهُ بامانة وصداقة . فبوضعهما بالقرب من قبره لا نكون قد خصمنا بانهما اشهر اصدقائهِ ولا اصدقهم واشدهم امانة فان ايام ملكهِ جاءت بكثيرين من العظماء الصادقين الذين ضحوا كل شيء في سبيل خدمتهِ ولكنهما يستحقان معرفة الجميل والصداقة فانهما خدماه ذاتياً وبقيا معهُ في السراء والضراء مدة اطول من مدة جميع رجالهِ

وقال الجنرال فاقيه عند وضعهما بالقرب من قبر الامبراطور ايها البطلان المحبوبان المحترمان عندما تقابلان رئيسنا قولا لهُ ان مجده في ازدياد وامتداد يومي وان هذا الاحتفال نقوم بهِ اكراماً لقلبهِ المحب بتمكينهِ من مرافقة اثنين من رفاقهِ الذين احبهم حباً شديداً

وقررت فرنسا اكراماً للامبراطور نابوليون وتذكاراً لفضائلهِ احتفالاً دينياً سنوياً لتذكر عوده في ١٥ كانون الاول (دسمبر) من كل سنة وذلك عند قبره في الانفاليد

فهذه هي الاحتفالات والتكريمات التي ارجعت بها فرنسا امبراطورها الذي ابعد عنها باتحاد الظلمة فبالموت فاز على جميع اعدائهِ . والان كل قلب كريم يعظم صفاتهِ . وقد تمت متمنياتهِ

الاخيرة . فاصبح مدفونًا في وسط الامة الفرنسوية المحبوبة عنده جدًّا وفي وسط مشروعاته العظيمة
التي لا تنتهي . وقد انشأت فرنسا له مكان مجد وله في قلب اهلها عرش لم يفز ملك بمثله
وفي كل الاجيال القادمة كما في الماضي لا ينقطع المسافرون عن التفرج
على قبره . وصيته الحسن يزيد انتشاره كل يوم واصوات
المنددين اخذت تضعف ولا تلبث ان تنقطع
الى الابد

وقع الفراغ من طبعه بمطبعة المعارف في السادس من تشرين الثاني سنة ١٨٨٤

Paul Agar